سلسلة
التراث السلفي
-١-

دقائق التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية

جمع وتقديم وتحقيق
دكتور
محمد السيد الجليند
أستاذ الثقافة الإسلامية
جامعة الملك عبد العزيز - كلية الآداب
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - ص ب ٤٦٢٠
بيروت - ص ب ١١٣/٥٢٨١

الطبعة الثانية

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

الفهرس

الجزء الاول :

فهرست الجزء الثالث من دقائق التفسير

فهرست الجزء الرابع من دقائق التفسير

الموضوع	الصفحة

فهرس الجزء الخامس
مـن دقـائق التفسـير

سلسلة
التراث السلفي
-١-

دقائق التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية

جمع وتقديم وتحقيق
دكتور
محمد السيد الجليند
أستاذ الثقافة الإسلامية
جامعة الملك عبد العزيز - كلية الآداب
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - ص.ب ٤٦٢٠
بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

فهرس الجزء السادس
مـن دقـائق التفـسـير

مَا يَصْنَعُ أَعْـدَائِي بِي ...؟

أَنَا جَنَّـتِي وَبُسْـتَانِي فِـي صَدْرِي

أَيْنَمَا رحْتُ فَهِيَ مَعِي

إِنْ حَبَسُونِي فَحَبْسِي خَلْوَة

وَإِنْ أَخْرَجُونِي مِنْ بَلَدِي فَخُرُوجِي سِيَاحَة

وَإِنْ قَتَلُونِي فَقَتْلِي شَهَادَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

« إِنَّ فِـي صَدْرِي كِتَابُ الله وَسُنَّة رَسُوله »

الإمام ابن تيميّة

الرُّمُوزُ وَالإشَارَاتُ المُسْتَعْمَلَةُ في التَّحِقيق

د : ويرمز بها إلى نسخة تيمور .

ك : ويرمز بها إلى نسخة (الكواكب الدراري) :

س : ويرمز بها إلى طبعة السعوديه .

[ ] رمز للزيادة من المحقق .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . إنه من يهدِه الله فلا مضل له . ومن يضلل الله فلا هاديَ له، ونصلي ونسلّم على خير خلقه وخاتم رُسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله ودعا الى سُنته الى يوم الدين .

وبعد . . .

أقدم إلى القارىء الكريم الطبعة الثانية من تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن كثر إقبال الطالبين له والمُشتغلين به درساً وتمحيصاً . وبدأت ثمار الطبعة الأولى تؤتي أكلها في شحذ همم المثقفين وخاصة المهتمين منهم بالتراث السلفي ـ نحو الإقبال عليه والأخذ منه بما يتناسب مع حاجة العصر ومقتضياته ، فكراً وعملاً .

ولقد أشرت في مقدمة الطبعة الأولى إلى أن شيخ الاسلام ابن تيمية لم يكتب تفسيراً كاملاً للقرآن كما فعل الطبري وابن كثير وغيرهما . وإنما كانت له نظراته في قضايا مجتمعه بمشاكلها الثقافية والاجتماعية والدينية وحاول أن يجد لهذه المشكلات حلولاً ناجحة على ضوء من الكتاب والسنّة . فكان تفسيره للقرآن مرآة لمشكلات عصره وقضايا مجتمعه وهي كثيرة ومتنوعة . لذلك قد يجد القارىء الكريم بين ثنايا هذا التفسير ما لم يجده في التفاسير الأخرى ، وخاصة التي تعنى بالأسلوب ، وإعجازه ، أو بالإعراب وبيانه . ومما يدعو الى العجب أن معظم ما كتبه شيخ الاسلام حول تفسير القرآن تم له وهو حبيس سجنه الظالم . سواء في مصر ، أو في الإسكندرية ، أو في قلعة دمشق . فكان معظم وقته في سجنه يشغله بتدبر معاني القرآن وتفسيره .

ولقد دعاني إلى الإسراع بإخراج الطبعة الثانية لهذا التفسير أسباب كثيرة ، من أهمها أن الطبعة الأولى منه ظهرت منقوصة بسبب خطأ وقع من المطبعة التي تولت طباعته في المرة الأولى . فظهر منه أربعة أجزاء فقط انتهت إلى تفسير سورة المجادلة . وكان من المفروض أن تنتهي الى

نهاية تفسير المعوذتين . ولكن بسبب هذا الخطأ لم يظهر الجزء الخامس الذي شمل تفسير ابن تيمية من أول سورة المجادلة إلى نهاية المعوذتين . وهذا ما تداركناه في هذه الطبعة . وبذلك يظهر التفسير كاملاً في شكله الجديد (من الفاتحة الى المعوذتين) ، ولأول مرة بين يدي القارىء حرصاً منّا على إكمال الفائدة ، وإبراز آراء ابن تيمية في كثير من القضايا المتعلقة بحياة الناس والتي تستمد أصولها من الكتاب والسنّة .

ومن المفيد أن أنبّه هنا إلى أن عنوان هذا التفسير (دقائق التفسير) ليس من وضع ابن تيمية وليس من بين مؤلفاته على كثرتها كتاب يحمل هذا العنوان . وإنما كان ذلك إختياراً مني وليس وضعاً من ابن تيمية . فبعد أن إكتمل لدي تفسيراً كاملاً للشيخ جمعاً وترتيباً وتحقيقاً رأيت ان إختيار (دقائق التفسير) اكثر مناسبة من غيره لمطابقته للحال . ذلك أن ابن تيمية لم يقف أمام كل آية ليفسرها ؛ لأنه كان يرى أن في القرآن ما هو بيّن بنفسه ، ولو أراد أحد أن يفسره لأعماه على السامع . وفي القرآن ما هو دقيق على بعض الأفهام والعقول،وحاجة الناس في كل عصر الى بيان هذا النوع الدقيق أشد وأكثر . من هنا كان تفسير ابن تيمية عبارة عن بيان لدقائق المعاني القرآنية التي عزّ مطلبها على الكثيرين . ولذلك نجده في كثير من الآيات يصرّح بهذه العبارة : هذه آيات أشكل معناها حتى لا تجد عند الناس إلا ما هو خطأ في فهمها . وهذه العبارة تتردد كثيراً في تفسيره . ولذلك فقد آثرت إطلاق هذا الاسم (دقائق التفسير) على كثير مما كان يتردد في ذهني آنذاك .

ويعتبر هذا التفسير حلقة في سلسلة بدأناها منذ عشر سنوات . وهي سلسلة التراث السلفي . وهي تنقسم الى قسمين :

القسم الأول : نعنى فيه بتحقيق النصوص السلفية ونشرها .

القسم الثاني : ونعنى فيه بالبحوث والدراسات التي توضح معالم منهج السلف في قضايا الأصول والفروع . وكان اهتمامنا في هذه السلسلة موجهاً إلى البحث عن النصوص التي تربط المسلم المعاصر بأصول دينه النقية البعيدة عن مثارات الخلاف التي فرقت كلمة المسلمين وجعلتهم لقمة سائغة المذاق في فم الأعداء . كما عنينا في سلسلة البحوث والدراسات ، بإبراز الجوانب التي تعتبر محل اتفاق بين جماهير العلماء وأقطاب المذاهب ، لنحبك ركيزة لبناء وحدة فكرية نحرص عليها ونقدمها للمسلم المعاصر لتربطه بأصول دينه (الكتاب والسنّة) داعين له بترك مسائل الخلاف والتعصب للمذهب والهوى ، وليكن رائده في نظرته البحث عن الحق إنصافاً لدينه وللمسلمين . ولقد صدر عن هذه السلسلة إلى الآن .

من القسم الأول (المخطوطات) :

١ ـ دقائق التفسير (ستة أجزاء) .

٢ ـ كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعمل لله .
٣ ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كما طبع من القسم الثاني (بحوث ودراسات) :

١ ـ الامام ابن تيمية وقضية التأويل (ثلاث طبعات) .
٢ ـ أسس اليقين عند المدرسة السلفية .

ونحن نرحب بكل جهد مخلص، ورأي صادق في معاونتنا بالنهوض بهذه المهمة الضخمة التي نود من خلالها بعث وحدة فكرية تجمع المسلمين على كلمة سواء .

وإني لأتوجه بالشكر الصادق للأخ الفاضل محمد أديب كاتبه مدير مؤسسة علوم القرآن لاهتمامه بهذه القضية وحرصه الشديد على أن يتولى طبعها بنفسه مساهمة منه في حمل هذه الأمانة فجزاه الله خير الجزاء .

وفي النهاية أتضرع إلى الله تعالى أن يقبل مني عملي هذا . وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحقق به النفع والخير للمسلمين ، وأن يعيننا على إكمال ما بدأنا إنه نعم المعين .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنّا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله إلى يوم الدين .

لقد طالت معايشتي لتراث ابن تيمية ، بفكره الواضح وعقليته الفذة ، دارساً وباحثاً في آرائه واجتهاداته في شتى نواحي الثقافة الإسلامية أصولها وفروعها ، ووجدت في تراث هذا الرجل مثالاً فريداً في نضج التفكير ، ووضوح الرؤية ، وبُعد النظر ، وسعة المعرفة التي لا يملك قارئه إزاءها إلا العجب والدهشة ، فلقد منَّ الله على هذا الرجل بسعة في العلم وبسطة في رحابة الصدر لمجادلة خصومه لم تؤت لمفكر مثله ، شهد بذلك أعداؤه قبل أصدقائه .

وبعد طول الصحبة لابن تيمية والوقوف على سر عظمته وخلود فكره ، وددت كثيراً لو أنه ترك لنا ضمن تراثه ـ وهو كثير ـ تفسيراً للقرآن الكريم ، ولست وحدي منفرداً بهذه الرغبة ، فإن من يقرأ تراث الرجل ويعرف هذه العاطفة الدينية الملتهبة التي يتمتع بها في كل جزئية من مؤلفاته ، وينبض بها كل رأي من آرائه ، لا يجد مفراً من التساؤل : ألم يكتب هذا الرجل تفسيراً للقرآن . ؟

ولقد ترجم لابن تيمية كثيرون ، وكل من ترجم له لم يفته أن يشير إلى علو قدره في التفسير وعلومه ، فالذهبي في معجمه يشير إلى أن ابن تيمية « . . قد شرّع في تفسير القرآن فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراستين أو أكثر ، وبقي يفسر سورة نوح عدة سنين أيام الجُمَعِ بالمسجد » .

وفي موضع آخر يحدّثنا بأنه « . . . قد برع في التفسير ، وغاص في دقيق معانيه بطبعٍ سيّال ، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميّال ، وإستنبط منه أشياء لم يسبق إليها »[١] .

وفي الترجمة المطولة التي أفردها الذهبي لابن تيمية في كتابه الكبير « التاريخ الكبير »[٢] قال عنه : وأما التفسير فمسلّم إليه ، وله من إستحضار الآيات من القرآن ـ وقت إقامة الدليل بها على المسألة ـ قوة عجيبة ، وإذا رآه المقرىء تحير فيه ، ولفرط إمامته في التفسير وعظم إطّلاعه ، يبيّن خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويوهي أقوالاً عديدة ، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث ، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير . . نحواً من أربعة كراريس أو أزيد » .

أما أبو الفتح اليعمري فقد قال عنه « . . . إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته . . » .

والذي يقرأ هذه النصوص يجد الرغبة قوية لديه في الوقوف على تفسير ابن تيمية لا سيما إذا كانت لديه معرفة سابقة بابن تيمية وبتراثه ، وبالمفتاح الحقيقي لشخصيته العلمية ، لكن سرعان ما تتحول هذه الرغبة إلى سراب عندما يحدّثنا أحد أصفياء الشيخ المقربين إليه وهو أبو عبد الله بن رشيق إذ يخبرنا بأنه سأل ابن تيمية أن يكتب تفسيراً للقرآن . فأجابه ابن تيمية قائلا : إن القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه ، وفيه ما قد بينه المفسرون ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ، ويفسّر غيرها بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره ، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها[٣] . . .

فهذا النص من ابن تيمية يوضح لنا أنه لم يضع تفسيراً كاملاً للقرآن وإنما اهتم ببعض الآيات التي أشكلت على غيره من المفسرين ، والتي لم يجد لها تفسيراً يروي ظمأه وتعطشه نحو ما فيها من معانٍ سامية ودقيقة غابت عن كثير من العلماء .

يتحدث ابن تيمية في مقام آخر عن نهمه بالتفسير وعلومه فيقول « ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وابراهيم علمني »[٤] ، ويكتب إلى تلمذة ابن رشيق فيبين له مدى ما فتح الله عليه به من معاني القرآن وهو في سجنه فيقول : « قد فتح الله علي في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان أكثر العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن » .

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لأبي الفرج الحنبلي ٣٨٨/٢ ـ

(٢) طبع الجزء الأول منه بتحقيق المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة سنة ١٩٧٥ طبعة دار الكتب المصرية .

(٣) العقود الدرية لابن عبد الهادي ص ٢٧ .

(٤) العقود الدرية ص ٢٩ .

هذه النصوص حين يتأملها الباحث يجدها تشير الى حقيقتين مهمتين في موقف ابن تيمية من تفسير القرآن :

الحقيقة الأولى : أن هذا الرجل قد شغل نفسه بتفسير القرآن وفهم وإفهام معانيه ، وإستنباط الدقيق من المعاني من أحكامه في مسائل الأصول والفروع . وأنه قد بهر عقول معاصريه في ذلك الشأن .

الحقيقة الثانية : أنه لا يوجد بين أيدينا نص صريح يشير إلى أن ابن تيمية قد وضع تفسيراً كاملاً للقرآن على نمط غيره من المفسرين ، ومما يؤكد هذه الحقيقة أن ابن تيمية نفسه لم يُشِر في أي من كتبه إلى أنه قد وضع تفسيراً للقرآن كعادته المطّردة في الإشارة إلى كتبه المختلفة وإحالته القارىء إليها من حين لآخر . وإذا أضفنا إلى ذلك ما كتبه ابن تيمية إلى تلميذه ابن رشيق من أن القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه فلا يحتاج إلى تفسير تحقق لدينا أنه لم يضع تفسيراً كاملاً للقرآن على منوال ابن كثير والطبري وغيرهما ، وإنما شغل الرجل نفسه بما رآه مشكلاً أمام نظر العلماء ، وإذا صح لنا ذلك فكيف نفسّر أقوال الذهبي واليعمري وغيرهما مما يفيد أنه فسّر القرآن وأنه ظل يفسّر سورة نوح عدة سنين . . ؟ وكيف نفسّر قول ابن تيمية بأنه ربما قرأ حول الآية الواحدة نحو مائة تفسير . . ؟

الأمر في ذلك يحتاج إلى مزيد من التأمل في حياة الرجل اليومية وسلوكه مع معاصريه ، فإن حياة ابن تيمية كانت سلسلة من الكفاح المستمر ضد مخالفيه من أهل الكلام والفلسفة والتصوف والمشتغلين بالسياسة واتباعهم . والفترة التي جلس فيها للفتيا كانت عقب وفاة أبيه ، وهي نفس الفترة التي أخبر عنها الذهبي بأن ابن تيمية ظل يفسر سورة نوح عدة سنين بالجامع ، ومما ينبغي أن يعلم أن الرجل كان يشغل درسه بتفسير القرآن إلقاءً ومشافهةً وليس تسجيلاً وكتابةً . وهذه الفترة كانت في سن مبكرة من حياة ابن تيمية ، فإذا علمنا أنه ولد سنة ٦٦١ هـ ، وأنه جلس للفتيا وله من العمر إحدى وعشرون سنة كانت هذه الفترة تبدأ من حوالي سنة ٦٨٢ هـ وبعدها ، وحياة ابن تيمية لم تظل هادئة ولم تطل فترة جلوسه للإفتاء وإنما أبعد عنها بمرسوم سلطاني قرىء في المساجد والطرقات بمنع الشيخ من الجلوس في المسجد والإفتاء،وكان ذلك عام ٦٨٠ هـ ، ومن هذه الفترة دخلت حياة ابن تيمية في سلسلة طويلة من الصراعات العنيفة مع خصومه ولم تترك له هذه الصراعات وقتاً هادئاً يخلو فيه إلى نفسه ليكتب فيه تفسيراً نمطياً للقرآن مع رغبته الشديدة في ذلك ، ولم يكن أمام الرجل من فرصة يغتنمها لتحقيق رغبته في تفسير القرآن . إلا وقت خلوته مع ربه في غياهب السجون وفي ظلمة المعتقلات .

وتفسير القرآن ليس عملاً عادياً في نظر ابن تيمية ، بل يحتاج إلى حظ وافر من الصفاء الروحي ، والشفافية الملهمة ، التي تصل الإنسان بربه فيعلمه ما لم يكن يعلم ، ولعل في هذا سراً

لاستحضار العجيب لكل الآيات والأحاديث التي كان يحشدها ابن تيمية حول الموضوع الواحد مؤيداً أو مبطلاً ومعارضاً له . ولذلك فقد كان الشيخ يعتبر سجنه خلوة مع الله ، وناهيك برجل يقطع صلته بالخلق ليمدها مع الخالق . ولقد أشار ابن تيمية إلى ذلك بقوله : قد فتح الله علي في السجن في هذه المرة من معاني القرآن بأشياء كان أكثر العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن ، ولو بذل لي ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة . يقول ابن رشيق [1] : وأرسل لنا الشيخ مع هذه الرسالة شيئاً يسيراً مما كتبه في الحبس ، وبقي لديه شيء كثير في سلة الحكم عند الحكام ، حيث أمر السلطان بإخراج كل ما كان عنده من كتب وأوراق وأقلام ومنع من الكتابة إلى أن فاضت روحه الطاهرة ، وأخذ الحكام ما كان عنده من أوراق وكتب بلغت ستين مجلداً وأربع عشرة رزمة .

وتسلسل الأحداث في حياة ابن تيمية يجعلنا نقول بأن مجموعة الأوراق التي بلغت أربع عشرة رزمة والمجموعة اليسيرة التي أرسلها إلى ابن رشيق ، منهما معاً يتشكل أمامنا ما قام به ابن تيمية بصدد تفسير القرآن . وإذا أضفنا إلى ذلك تفسيره المستقل لسورة الإخلاص والنور والمعوذتين نكون بذلك قد وضعنا أمام القارىء التفسير الكامل الذي كتبه ابن تيمية للقرآن .

وبهذا التحليل يمكن لنا أن نفسّر كلام الذهبي واليعمري بأنه كان منصرفاً إلى تلك الفترة التي جلس فيها الشيخ مفتياً ومفسراً بالمسجد . ولم يكن يسجل شيئاً من ذلك بل كان يلقي درسه بالمسجد مشافهةً لا كتابة كعادة المفتين بالمساجد . وربما كان بعض الحاضرين يسجل شيئاً من ذلك إلا أن هذا لم يكن عادة مطردة للحاضرين . بدليل أن ما جمع من إنتاج تلك الفترة كان أشبه بالآيات المختارة من السورة ؛ فكان كل واحد يسجل ما يروق له وما يعنى هو به . بخلاف السور التي عني بها ابن تيمية نفسه ووقف نفسه على تفسيرها مثل سورة الاخلاص ، والعلق ، فكان يغلب عليها طابع التنظيم والترتيب في تناول الآيات .

وشاءت إرادة الله تعالى أن يقوم ابن عروة الحنبلي (أحد تلامذة ابن تيمية) بجمع تفسير الشيخ في كتابه الموسوعي (الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري) الذي يزيد حجمه على الثمانين جزءاً ، يوجد من هذه المجموعة ستة أجزاء بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤٥ تفسير ، ويشتمل الجزء السادس منها على جزء كبير من تفسير ابن تيمية .

ويتضح أمام القارىء الآن مدى صعوبة الحصول على تفسير كامل لابن تيمية ، إذ لم تشتمل هذه المجموعة السابقة إلا على بعض سور القرآن وما زال البعض الآخر مفتقداً .

ويتضح أمام القارىء مدى الصعوبة التي يلقاها الباحث حين يريد جمع وتصنيف تفسير

---

(١) هو عبد الله بن رشيق المغربي ناسخ من أهل دمشق ، قال ابن كثير : « كاتب مصنفات شيخنا العلاّمة ابن تيمية توفي سنة (٧٤٩ هـ - ١٣٤٩ م) .

كامل لابن تيمية ، فلقد قمت بصدد ذلك بإستقراء تراثه المطبوع منه والمخطوط ، وجمعت منه تفسيره للآيات المتفرقة المبثوثة في كتبه المختلفة ، ووضعت كل آية في ترتيبها الطبيعي من سورتها ، وعثرت خلال فترة البحث هذه على تفسيره لسورة الفاتحة مبثوثاً في إحدى المجاميع الخطية بدار الكتب المصرية أيضاً . هذا بالاضافة إلى أنه قد كتب تفسيراً منفرداً لكل من سورة النور ، والصمد ، والمعوذتين . ثم نشرت المملكة العربية السعودية أخيراً مجموع فتاوى ابن تيمية في ستة وثلاثين مجلداً إشتملت هي الأخرى على قسط كبير من التفسير .

وبعثوري على كل هذه المصنفات المتفرقة استطعت أن أشكّل منها تفسيراً شبه كامل للقرآن باعتبار سوره كلها وليس باعتبار آياته ، حيث إن الرجل كان مؤمناً بأن هناك من الآيات ما لا يحتاج إلى تفسير ومنها ما إذا حاولت تفسيره أعميته على القارىء . ويبدأ هذا التفسير من أول سورة الفاتحة وينتهي بالمعوذتين مروراً بجميع سور القرآن غالباً .

وهناك بعض الملاحظات التي أود أن ألفت إليها نظر الباحثين في تراث ابن تيمية ـ خاصة ـ إذا كان بحثهم يتعلق بموقف ابن تيمية من القرآن وعلومه .

الملاحظة الأولى :

إن ابن عروة الحنبلي صاحب (مجموعة الكواكب الدراري) قد وضع تفسيراً للقرآن ضمن هذه المجموعة المُشار إليها سابقاً بدأت من الجزء التاسع منها . وشغلت حوالي أربعة مجلدات . وجاء تسجيله لتفسير ابن تيمية متداخلاً مع تفسير ابن مرعي الحنبلي من هذه المجموعة . والذي درس ابن تيمية وعرف روحه في الكتابة ، والحوار ، والجدل ، وطريقته في إيراد النصوص للإستدلال بها لا يجد صعوبة في تلمُّس منهج ابن تيمية وروحه في كثير من تفسير ابن مرعي المبثوث في مجموعة الكواكب الدراري ، مما يدعو الى التساؤ ل : هل كتب ابن مرعي هذا التفسير المنسوب إليه كله ؟. أم أنه كتب البعض وأضاف إلى نفسه بعض ما كتبه ابن تيمية في كثير من ذلك أم إن صاحب مجموعة الكواكب الدراري قد إختلط عليه الأمر ؟. هذه قضية تحتاج إلى دراسة مستقلة ألفت النظر إليها . غير أني أشك الشك كله في نسبة كثير من هذا لتفسير إلى ابن مرعي وخاصة تفسير سورة الأحزاب ، وسبأ ؛ فإن روح ابن تيمية تكاد تسري بين سطور هذا الجزء من التفسير . ولا يتسع المقام هنا لعرض النصوص ومقارنتها ليتبين لنا ما نريد ، لكن ذلك لا يعفينا من لفت نظر الدارسين إلى هذه المشكلة .

الملاحظة الثانية :

وتتعلق بمنهج ابن تيمية في التفسير ، فإن الرجل لم يتناول آيات السورة الواحدة بنفس

الترتيب الموجود في المصحف ، ولم يعن نفسه بمشكلات الإعراب والبيان ولا بمشكلات اللغة عموماً إلا إذا عرضت له تأكيداً لمعنى ، أو ترجيحاً لدلالة معينة للكلمة على دلالة أخرى قد تراد منها ، وإنما صرف وكده إلى البحث عن حلول ناجحة تلمسها في القرآن لمشكلات عصره وقضايا مجتمعه التي عاشها واكتوى المجتمع الاسلامي بنارها ، فكان يعرض للآية خلال بحثه عن حل للمشكلة المعينة فتجده حين يعرض لمشكلة ما يجمع كل الآيات التي تتعلق بها في القرآن ، ثم يورد ما شاء من الأحاديث الموضحة والشارحة ، ثم يأتي بنصوص السلف من الصحابة والتابعين ، فيجمع في علاجه للمشكلة الواحدة بين نصوص الكتاب والسنّة وأقوال السلف ، وكان تفسيره بذلك أقرب ما يكون إلى التفسير الموضوعي للقرآن إن لم يكن هو كذلك .

وسوف يتأكد للقارىء صدق هذه الملاحظة فيما بعد .

منهج التحقيق :

لقد فرضت ظروف هذا العمل منهجاً معيناً في إخراجه بصورة علمية أدعو الله أن يرعاني فيها بتوفيقه وسداده . ذلك أن النسخ التي تحت يدي من هذا التفسير كانت كل واحدة منها ـ سواء في ذلك المطبوع والمخطوط ـ تبدأ حيث تنتهي الأخرى ، ولم يتوافر لدي نسختان على تفسير سورة واحدة إلا في القليل . غير أن هذه النسخ مجتمعة تشكل التفسير الكامل لابن تيمية .

ولقد قمت بالخطوات التالية لإخراج هذا التفسير :

١ ـ تتبع تراث ابن تيمية وجمع تفسيره للآيات المختلفة المبثوثة في كتبه ووضعها في مكانها من سورتها مشيراً بالهامش إلى مصدرها وقد كلفتني هذه الخطوة جهداً ووقتاً احتسبهما عند الله تعالى .

وكان لها فضل تزويد هذا العمل بالكثير من التفاسير المتفرقة ، ولولا هذه الخطوة لما أصبحت هذه الآيات ـ على كثرتها ـ ضمن تفسير ابن تيمية . ولبدا التفسير بدونها ناقصاً نقصاً شديداً ، وإذا علم القارىء أن هذه هي المرة الأولى التي يطبع فيها تفسير ابن تيمية كاملاً ومستقلاً أدرك ما لهذه الخطوة من أهمية قصوى في إخراج هذا العمل في شكله الكامل .

٢ ـ المقابلة بين النسخ إذا توافرت على موضع واحد واختيار القراءة التي نراها موافقة لروح ابن تيمية مع الإشارة بالهامش إلى ما في النسخ الأخرى .

٣ ـ ظهر في طبعة السعودية لبعض أجزاء التفسير نقص في بعض المواضع وخطأ في قراءة النص في مواضع أخرى وهي كثيرة فأكملت النقص في ذلك من النسخ المقابلة مشيراً إلى كل ذلك في موضعه .

٤ ـ ترجمة الأعلام الواردة حسب أهميتها في السياق والموقف .

٥ ـ تخريج الآيات مع الإشارة إلى رقم الآية واسم السورة . وكذلك الأحاديث الواردة مشيراً إلى موضعها من الكتب الصحيحة .

٦ ـ تصحيح بعض الكلمات لغوياً مع الإشارة بالهامش إلى ما في المخطوط .

٧ ـ إضافة بعض الكلمات التي كان لا بد منها لتوضيح الجملة وحاجة السياق إليها مع وضعها بين معقوفتين [ ] إشارة إلى أنها ليست بالنص .

ولقد رأيت إكمالاً للفائدة المرجوة أن يشتمل الجزء الأول من هذا التفسير على بعض المقدمات التي كتبها ابن تيمية توضيحاً لمنهجه في فهم القرآن وتفسيره فأوردت ضمن هذا الجزء المقدمات التالية :

١ ـ مقدمة في التفسير .
٢ ـ مقدمة في الفرق بين التفسير والتأويل (المسمّاة برسالة الإكليل) .
٣ ـ مقدمة في شرح حديث : أنزل القرآن على سبعة أحرف .
٤ ـ مقدمة في رأي ابن تيمية في ترجمة القرآن .
٥ ـ مقدمة في كون القرآن آية صدق الرسول في دعوى الرسالة .

وكل هذه المقدمات كما يرى القارىء أمور لا بد منها لتوضيح منهج ابن تيمية واتجاهه في التفسير .

وفي أثناء ذلك كان لا بد من وضع بعض العناوين المناسبة للموقف توجيهاً للقارىء إلى الفكرة التي يدور حولها الحديث وتنظيماً للعمل مع وضع هذه العناوين بين معقوفتين ، أو قوسين تنبيهاً إلى أنها زائدة من المحقق للتوضيح .

وَصْفُ المَخْطُوطَات

مخطوطة « ك » :

وهي عبارة عن الجزء السادس من مجموعة الكواكب الدراري برقم ٦٤٥ دار الكتب المصرية جمع وتأليف الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن عروة الحنبلي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ .

وهي مجموعة كبيرة من الآثار السلفية لابن حنبل وابن تيمية وغيرهما من علماء السلف جمعها وأضاف إليها ابن عروة الحنبلي ، ويوجد من هذه المجموعة ستة أجزاء بدار الكتب المصرية غير منتظمة في ترتيب الأجزاء ، وبقية أجزائها بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

ويقع الجزء السادس في ١٨٥ ورقة قطع كبير ، عدد أسطر الصفحة يتراوح بين ٢٨ - ٣٠ سطراً ، ويشتمل السطر على ١٣ - ١٥ كلمة وكتبت النسخة بخط نسخ غير واضح في كثير من المواضع بسبب عوامل الزمَن ، وهوامش المخطوطة خالية غالباً من التعليقات ، وفي بعض الصفحات يوجد بعض المقابلات والسماعات التي تدل على نسبة النسخة إلى مؤلفها وجامعها وهو ابن عروة الحنبلي . كما يوجد في بعض الأماكن ما يدل على ناسخ المخطوطة بذكر اسمه ولقبه .

وكتب على الورقة الأولى إلى جهة اليمين من أعلى بقلم كوبيا أحمر رقم ٦ وكتب في منتصف الصفحة إلى أسفل ما يلي :

> فيه تفسير سورة سبح وكلام الشيخ عليها مبسوطاً وتمام التفسير إلى آخر القرآن وكلام ابن القيم على كثير من السورة والشيخ لسورة إقرأ ولم يكن والكافرون والمعوذتان وغير ذلك من أقسام القرآن .

وفوق ذلك قليلاً إلى جهة اليسار كتب بقلم كوبيا وبشكل مائل من أسفل إلى أعلى ما يلي :

في أثناء سورة الغاشية مسائل فقهية للشيخ .

وكتب تحت ذلك بحبر أخضر عبارة :

كلام الشيخ في تفسير ﴿ ان علينا للهدى ﴾ في ٣ ورقات ،

وتحت ذلك بقليل كتب بنفس الخط :

في سورة التكاثر بيان الفرق بين علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين للشيخ . هـ ثم كتب إلى أسفل بحبر أسمر : سر التكرار في الكافرون للنفي .

وفي الصفحة التالية كتب ما يلي في منتصف الصفحة : وقف شيخنا الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن عروة الحنبلي رضي الله تعالى عنه ونفعنا ببركات منه .

وفي ظهر هذه الصفحة يبدأ التفسير بسورة الأعلى .

والأجزاء الستة الموجودة في دار الكتب من مجموعة الكواكب الدراري تشتمل - فيما تشتمل - على تفسير ابن مرعي للقرآن ، وهو تفسير سلفي على منهج المحدّثين ، ويشتمل أيضاً على بعض الرسائل لابن تيمية متداخلة في تفسيره ضمن محتويات الجزء السادس من هذه المجموعة . بحيث تحتاج الى مزيد من النظر للتفرقة بينها وبين تفسير ابن مرعي .

وقد اشتملت هذه المجموعة على تفسير بعض السور القصيرة من تفسير ابن تيمية . مثل « سورة الأعلى ، الشمس ، الليل ، العلق ، البينة ، الكافرون » وكتب في آخر سورة البينة ص ١٢٢ ظ وبخط مخالف العبارة الآتية :

آخر كلام شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

وصف المخطوط (د) :

هذه النسخة عبارة عن رسالة ضمن مجموعة رسائل خطية لابن تيمية ولغيره موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٤ مجاميع تيمور ، تبدأ هذه الرسالة من الصفحة رقم (٢٩ - ٨٤) من المجموعة .

كتب في الصفحة الأولى منها (٢٩) عنوان الرسالة بخط نسخ كبير ، وفي وسط الصفحة « قاعدة جامعة في توحيد الله عزّ وجلّ وإخلاص العمل والوجه له » ، ثم كتب تحتها بحبر أحمر عبارة :

الحمد لله وحده

وكتب تحتها بخط صغير ما يلي :

« تصنيف شيخ الإسلام علم الأعلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رضي الله عنه وأرضاه » .

ثم كتب تحتها بخط مخالف وإلى جهة اليسار ما يلي :

المانوية هم الثنوية القائلة بأصلين قديمين وهما النور والظلمة ، والمجوس القائلون بخالقين .

ويوجد في أسفل الصفحة إلى جهة اليسار ما يلي :

« لو فرض اثنان فلا يخلوان إما قادران على الاستبداد ، أو أحدهما ، أو التعاون ، فالأول يوجب الإستغناء عنه ، والثاني يوجب عجز أحدهما ، والثالث عجزهما ، وكله محال لمنافاته الآلهية ولزوم العجز لزوال القدرة عن مقدوره وأصل دلالتها مع لو كان فيهما .

وإلى جهة اليمين توجد عبارة :

طالع في هذا أبو صالح .

الشجري الشافعي .

رضي الله عنه .

وفي أسفل الصفحة كتب ما يلي :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما	يا عالماً بدبيب النمل في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم	قد قام وفدك حول البيت وانتبهوا

وأنت يا حي يا قيوم لم تنم .

وفي ركن الصفحة العلوى إلى جهة اليسار كتب عبارة : نصر بن محمد بن عثمان البرهمي ، وفي مقابلتها إلى المنتصف توجد كلمة « يعمرية » .

وتحتها كتب عبارة « من مجاميع محمد بن طولون » .

والمخطوط كتب بخطه نسخ واضح إلا في بعض الكلمات القليلة ؛ ويوجد في هوامش بعض الصفحات تعليقات بخط الناسخ كما في صفحات ٦١ ، ٦٣ ، مسطرة الصفحة ١٧ سطراً ، في كل سطر من ٧ ـ ٩ كلمات تقريباً ، ومساحة الصفحة ١٢ × ١٨ سم ، وتشغل الكتابة منها مساحة ٩ × ١٥ سم .

- ١ -

الإمام ابن تيمية

سيرة وتاريخ

(آ) نشأته :

هو الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني . ولد بحرّان في يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ ، الموافق ٢٢ يناير ١٢٦٣ م . هاجر به والده إلى دمشق عندما أغار التتار على بلاد الإسلام ٦٦٧ هـ الموافق ١٢٦٨ م (١) .

وفي دمشق استقر المقام به وبأسرته وهو ما زال غلاماً يافعاً في باكورة الصبا . نشأ محباً للعلم والعلماء ، لا يلوي على شيء غير الاشتغال بالعلم ، وكان والده عالماً مقدماً في الحديث مما جعل ابن تيمية شغوفاً بالإشتغال بالحديث ورجاله ، ولما نزل دمشق ذاع فضله واشتهر أمره ، وكانت له حلقات للدرس بمسجد دمشق . وتولى مشيخة الحديث بدار السكرية التي كان مقيماً بها والتي كانت أولى مدارس العلم التي احتضنت ابن تيمية وهو ما زال في سن الصبا (٢) .

حفظ القرآن الكريم وهو ما زال في سن الصبا ثم اتجه إلى تحصيل العلوم في الحديث والفقه والأصول وعلم الكلام . سمع كثيراً من الفقهاء والمحدثين وقرأ عليهم وأخذ عنهم وناظرهم جميعاً وهو ما زال في حداثة سنه ، وانبهر بذكائه أهل دمشق لقوة حافظته وسرعة إدراكه . قال عنه الذهبي : كان يحضر المدارس والمحافل في صغره ويناظر ويفحم الكبار . ويأتي بما يتحير منه أعيان

---

(١) ابن عبد الهادي ، العقود الدرية ، ط أنصار السنة المحمدية .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣٠٨/١٣ .

البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت [1] . وأثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاث مائة مجلد [2] .

يقول الذهبي في معجمه : جلس ابن تيمية مكان والده بالجامع أيام الجُمَع لتفسير القرآن العظيم ، وشرع من أول القرآن . فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر ، وبقي يفسر في سورة نوح عدة سنين أيام الجُمَع .

ولقد غاص ابن تيمية في دقيق معاني القرآن بطبع سيال ونظر ثاقب وعمد إلى مواطن الإشكال فأزال ما فيها من غموض ، وأستنبط من معاني القرآن أموراً لم يسبق إليها في ذلك . وبلغ شأواً كبيراً في حفظ الحديث باسانيده ، والفقه وأصوله . وبرع في معرفة المذاهب واختلاف الفقهاء وفتاوى الصحابة والتابعين مع شدة استحضاره لرأي الصحابي أو التابعي وقت إقامة الدليل بشكل يبهر القارىء .

وكان إذا أفتى لم يلتزم بمذهب معين بل يفتي بما يقوم عنده دليله ، فنصر طريقة السلف وانتصر لها من المتكلمين والفلاسفة والصوفية ، ورد على هؤلاء جميعاً ، وبيّن خطأهم في كثير من المسائل ، ونصر السنة بأوضح برهان وأقوى دليل . يقول كمال الدين بن الزملكاني :

كان إذا سئل ابن تيمية عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أن الرجل لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء إذا جالسوه استفادوا منه في مذاهبهم ، ولا يعرف أن الرجل ناظر أحد فانقطع عنه ، ولا تكلم في علم من العلوم إلا برع فيه . كان فارغاً عن شهوات الدنيا ، لا لذة له في غير طلب العلم ونشره والعمل به .

وكان علمه بالحديث ورجاله وعلومه لا يجاريه فيه أحد من أهل زمانه ، حتى قال فيه معاصروه : كل حديث لم يحفظه ابن تيمية فليس بصحيح . وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم ، وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث والعالي منه والنازل ، والصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه وأسانيده ، كان مرجع علماء عصره في عزو الحديث إلى الكتب الستة والمسند ، يقول عماد الدين الواسطي : كان ابن تيمية أصدق أهل زمانه عقداً وأصحهم علماً ، وأعلاهم في الحق انتصاراً له ، وأسخاهم كفاً ، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ ، ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع الحق .

وكانت دمشق في عصر ابن تيمية مهد العلماء من أمثال النووي وابن دقيق العيد والمزي

---

(١) العقود الدرية ، ص ٤ .

(٢) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١٤٧٦/٤ ط : حيدر آباد ١٩٥٨ م .

وابن جماعة ، وكانوا جميعاً يتوافرون على دراسة الحديث وأسانيدها لبيان الضعيف منها والحسن وغير ذلك من علومه . وكان بجوار مدارس الحديث مدارس الفقه والكلام التي جذبت إليها ابن تيمية وصرف إليها كثيراً من وقته وجهده ناقداً وشارحاً مفصلاً .

ومن أبرز الحركات التي ظهرت في عصر ابن تيمية ما كان بين الحنابلة والأشاعرة من منازلات ومناظرات ؛ فلقد لجأ الحنابلة في دراستهم للعقائد إلى المنهج الذي سلكوه في دراسة الفقه والمسائل الفرعية ، فكانوا يستخرجون العقائد من النصوص كما يستخرجون منها الأحكام الفرعية ، لأن الدين قد أتى بصريح ما يحتاج إليه الناس في كلا الأمرين ، بينما سلك الأشاعرة وغيرهم في ذلك مسلك الفلاسفة والمعتزلة حيث كانوا يستدلون على أصول العقائد بالأدلة العقلية والبرهان المنطقي . وفي دائرة الخلاف بين منهج الأشاعرة والحنابلة في أصول العقائد كانت مواقف ابن تيمية ومنازلاته . وكانت محنه وأيامه . فلقد أراد الرجل أن يعود بدراسة العقائد الإسلامية إلى مصدرها الأول خالية مما علق بها من فلسفات جدلية وآراء تقليدية في الوقت الذي انتصرت فيه الدولة لخصوم ابن تيمية من رجال الفقه وعلماء الكلام ، ومن هنا كانت حياة ابن تيمية سلسلة متصلة الحلقات مع الفقهاء والمتكلمين والصوفية ورجال الدولة ، فما كان يخرج من محنة إلا ليزج به في أتون أخرى . ولقد ذكر ابن كثير في تاريخه كثيراً مما وقع له من ذلك [١] .

ولن أحاول الخوض في تفاصيل ذلك ، فلقد كتب فيه الكثير ، ووضع كثير من الكتب في ترجمة ابن تيمية وحياته ومناقبه ، ومناظراته ومحنه ، ولكن يعنيني هنا أن أعرض بالحديث لجانبين هامين من حياة ابن تيمية أرى أنهما كانا أكبر عاملين في توجيه حياته وسبباً في كثرة ما حل به .

(ب) الأول ـ شجاعته في الحق :

لقد حرص ابن تيمية على سلامة المجتمع الذي فتح عليه عينيه فوجده صريعاً بين أعدائه من الخارج والداخل ، فهناك على حدود البلاد الإسلامية تقف جيوش التتار الذين أخذوا يهددون الدولة الإسلامية وحضارتها بزحفهم المتكرر على البلاد . ولا شك أن ابن تيمية ما زال يتردد في ذهنه بين الحين والآخر ما حل به وبأسرته من أثر غارات التتار على البلاد ، وما لاقته من مشقة وعناء حينما هاجرت إلى دمشق من جور التتار . ومن هنا لم يدخر جهداً في محاربة هذا العدو الذي جثم على صدور البلاد ، فأخذ يحرض المسلمين على ضرورة محاربته وتطهير البلاد منه [٢] .

ويحدثنا التاريخ عن كثير من مواقف ابن تيمية ضد غارات التتار وتحريضه المسلمين على القتال ، فلقد تقدم الصفوف في واقعة قشحب سنة ٧٠٢ هـ وأفتى الجنود بضرورة الفطر في

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٤ حوادث سنة ٧٠٥ ـ ٨٢٨ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٤ حوادث ٧٠٥ ـ ٨٢٨ .

رمضان حتى يقووا على ملاقاة الأعداء ، وأفطر هو أمامهم ، وكان يبيت لياليه على الأسوار حارساً أميناً على أمن بلاده .

ولما عرف عنه الشجاعة والجرأة ، كان يقصده الناس عند المهمات ويلجؤون إليه عند الشدائد . فعندما هاجم التتار بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ ، وأصبحوا على مشارف دمشق ، اجتمع الناس بابن تيمية وطلبوا إليه أن يذهب على رأس وفد كسفير لهم لمخاطبة ملك التتار في الامتناع عن دخول دمشق ، ولما دخل على (قازان) ملك التتار كلّمه كلاماً أثار دهشة الحاضرين لجرأته وشجاعته ، حتى أن قازان نفسه تعجب منه وتساءل : من يكون هذا الشيخ ؟ إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه . ولا أوقع من حديثه في قلبي . ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه [1] .

ومما قاله لملك التتار في ذلك : « أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت » وكان في كلامه هذا خير عظيم حيث أخذ عهداً من قازان بعدم دخول البلاد .

وفي يوم مرج الصفر في هذه السنة وقد أوشك اليأس أن يتسرب إلى قلوب الناس من أثر التتار ، فلقد ارتفعت الأسعار وكثر العبث في البلاد وأراد التتار أن يستولوا على قلعة دمشق . فكتب قبجق إلى النائب بالقلعة أن يسلمها لهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور ، ولكن ما إن تسرب الخبر إلى ابن تيمية حتى نهض إلى النائب وكتب إليه « لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمها لهم إن استطعت » . فنزل أرجواش على أمر ابن تيمية وأرسل إلى قبجق يقول له « لن اسلمها لكم وبها عين تطرف » ، فكانت القلعة بذلك حصناً حصيناً للمسلمين من أعدائهم .

وفي سنة ٧٠٠ هـ شاع بين الناس أن التتار على مشارف دمشق لمهاجمتها ، فأخذ الناس يتركون البلاد نهباً للأعداء وطلباً للنجاة من جيوش التتار ، ففزع ابن تيمية إلى سلاطين مصر وحكامها يطلب منهم النصرة ومساعدة البلاد وأخذ يهدد سلطان مصر قائلاً : « إن كنتم أعرضتم عن البلاد وحمايتها أقمنا لها من يحميها ويستغلها في زمن الأمن . . ولو قدر أنكم لستم حكام البلاد ولا ملوكها ثم استنصركم على عدوه لوجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكام البلاد وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنها »[2] .

وأكثر ما يكون ابن تيمية شجاعة عندما تواجهه المصائب والمحن ، ففي سنة ٧٠٧ هـ صدر مرسوم السلطان بحبس ابن تيمية لنيله من الصوفية وكلامه في شأنهم ، وطلب من القضاة

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة . ابن تيمية طبعة دار الفكر العربي ١٩٥٢ م ص ٣٧ ، وانظر تاريخ ابن الوردي ٢/٢٨٧

(٢) البداية والنهاية ١٤/١٥ .

والفقهاء الإفتاء في شأنه بالحبس ، ولكن لم يجد الفقهاء للشريعة مأخذاً عند الرجل حتى يفتوا في أمره بالحبس ، وتحير أمرهم في ذلك ، ولما وجد ابن تيمية الحيرة بادية على وجوههم تقدم بنفسه إلى الحبس قائلاً : « أنا أمضي في الحبس بنفسي وأتبع ما فيه مصلحة المسلمين »[1] .

(ج) الثاني : محاربة البدع والمبتدعين :

لم تكن شجاعة ابن تيمية قاصرة على الجانب الوطني من حياته ، فإن حبه لدينه وتمسكه به قد أخذ عليه تفكيره فأخذ يعمل على تنقيته مما علق به من الشوائب وما دخل فيه من البدع والمنكرات التي استفحل أمرها ، واستشرى خطرها على المجتمع .

ولقد أخذ هذا الجانب من حياته شطراً كبيراً من وقته وجهده ، وتسبب في إلحاق كثير من المحن والاتهامات به ، لأنه اعتبر ظهور البدع والمنكرات في البلاد الإسلامية مرضاً اجتماعياً حرص على سلامة المجتمع منه ، لأن انتشار الخرافات والبدع في مجتمع ما نذير فنائه ومقدمة انهياره وكسر شوكته في أعين أعدائه .

وطالما وقف ابن تيمية من مجتمعه موقف الطبيب الماهر بمأتى المرض وكيفية علاجه ، ولكن العلة قد استفحلت والداء قد استشرى ، فالبدع أصبحت عرفاً والمنكر عادة ، ومن العسير على المصلح تغيير العرف واستئصال العادة .

لهذا فقد بدا ابن تيمية في أعين مجتمعه وكأنه خارج عن العرف متمرد على العادة ، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المحن والابتلاءات ، ومن المواقف الصعبة التي كان سلاحه فيها السنان حيناً واللسان أحياناً . وكانت طبيعة الرجل الشجاعة وراء كل مواقفه ، فلم يعبأ بذي سلطان فيتملقه ، أو ذي جاه فيواريه ، لأنه كان يملك من الحجج أقواها ، ومن الأسلحة أحدها .

ومن هنا فقد ناصب العداء لكل ذي بدعة على اختلاف مشاربها ، فتعرض بالنقد والتمحيص لمذاهب الفلاسفة والباطنية والشيعة والصوفية والقرامطة والإسماعيلية ، وكشف أستار هؤلاء وأولئك ، وانتصر للحق ولدينه منهم جميعاً .

ولقد اشتدت عداوة ابن تيمية للمتصوفة والباطنية ، وحرص على تخليص مجتمعه من خرافاتهم التي ملكوا بها عقول السذج من الناس ، معلناً لهم أنه لا يوجد طريق إلى الله غير طريق محمد ﷺ ، وليس هناك من هدى سوى هدى القرآن .

وقد اجتمع به الصوفية في حضرة السلطان ليكف عنهم ويترك لهم أحوالهم ، ثم أرادوا أن

---

(١) المرجع السابق ١٤/١٣٥ وما بعدها .

يظهروا أمامه نوعاً من حيلهم ودجلهم ، فقال لهم ابن تيمية : « أنه لا يسع أحد الخروج عن الشريعة بقول ولا بفعل ، وأن من أراد أن يدخل النار منهم فليغسل جسده في الحمام ثم يدلكه بالخل ثم يدخل النار ، ولو دخل النار لا يلتفت إليه ، لأن هذا نوع من الدجل » . ولما أعياهم الحديث معه انصرفوا قائلين للسلطان : نحن لا تتفق أحوالنا إلا عند التتار ولا تتفق أمام الشريعة [1] .

ومع شجاعة ابن تيمية في الحق فقد كان حليماً حيث يكون الحلم عزاً يشرّف صاحبه ، عفواً حيث يكون العفو من شيم العلماء ، فقد استحثه قلاوون على ان يستصدر فتوى بقتل العلماء الذين تكرر منهم الإفتاء بحبسه ، وكان الفقهاء والقضاة قد ناصروا أعداءه عليه ، فأراد أن يستغل الموقف ويستفتي ابن تيمية في قتلهم ، ولكن حلم الرجل وعفوه قد منعاه من ذلك ، وأبت عليه نفسه الشجاعة أن يقتنصها فرصة لقتل العلماء . فقد قال للسلطان : من آذاني فهو في حل مني . ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه . وأنت إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم » [2] .

د ـ محنته ووفاته :

جرت الطبيعة البشرية على أن كل من علا نجمه واشتهر فضله كثر حساده وكثر الناقمون عليه . وما أكثر حساد ابن تيمية وما أكثر الناقمين عليه ، فإن لسان الرجل وقلمه لم يجعلا له من صديق ، لأنه لم يدار أحداً ولم يعرف النفاق إلى قلبه سبيلا .

وكان خصوم ابن تيمية هم قضاته من الفقهاء ، الذين كبر عليهم مخالفته لهم في فتاواهم وآرائهم . وفي أول محنة له عام ٧٠٥ هـ جيء به إلى مصر تنفيذاً لمرسوم السلطان بحبسه ، ولما حضر ابن تيمية أمام القضاة والفقهاء حاول أن يدافع عن نفسه فلم يمكنوه ، وادعى عليه ابن مخلوف بأنه يقول :

« أن الله فوق العرش حقيقة ، وأنه يتكلم بحرف وصوت » . فقال له ابن تيمية : من الذي سيقضي فيّ ؟ فقال ابن مخلوف : أنا .

فقال ابن تيمية : وكيف تقضي فيّ وأنت خصمي ؟

فغضب ابن مخلوف وأودعه السجن . وكان ذلك في يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٧٠٥ هـ ، وفي ليلة العيد نقل من حبسه إلى مكان آخر بالجب . وظل ابن تيمية حبيس هذا الجب عاماً كاملاً . وفي ليلة عيد الفطر من العام التالي سنة ٧٠٦ هـ ذهب بعض علماء مصر إلى نائب

---

(١) العقود الدرية ، ص ١٩٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/٥٤ حوادث ٧٠٥ هـ .

الخليفة (سيف الدين سلار) وتكلموا معه في اخراج ابن تيمية من سجنه ، واشترط بعض الحاضرين ان يرجع الشيخ عن بعض معتقداته . ثم أرسلوا إليه ليحدثوه في ذلك ، فامتنع من الحضور أمامهم وتكررت الرسل إليه ست مرات لكي يحضر أمامهم ولكنه لم يلتفت إليهم وانقطع أملهم في الحضور ، فانصرفوا من عنده .

وفي يوم الجمعة ١٤ من صفر سنة ٧٠٧ هـ ذهب قاضي القضاة ابن جماعة إلى ابن تيمية واجتمع به (في دار الأوحدي) بالقلعة ، وتحدث معه بشأن خروجه من السجن ، ولكن ابن تيمية رفض الخروج من سجنه إلا برفع القيود والشروط التي اشترطوها معه ، وفي يوم ٢٣ ربيع أول سنة ٧٠٧ هـ حضر إليه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بنفسه واجتمع به في سجنه وأقسم عليه بالخروج من السجن وهو حر فيما يقول ويعتقد . . ولم يخرج ابن تيمية إلا بعد رفع القيود وإلغاء الشروط التي وضعوها من أجله . وخرج مع الأمير وبات ليلتها بدار الأمير سلار وحضر إليه وفود العلماء والفقهاء وأمر (سلار) بإقامة الشيخ بمصر عنده ليرى الناس فضله وعلمه .

وفي شوال ٧٠٧ هـ شكى الصوفية منه أموراً إلى الدولة . وادعى ابن عطاء عليه أموراً لم يثبت منها شيء . غير ان الدولة فوّضت أمر ابن تيمية إلى الفقهاء ليروا فيه رأيهم حول ما يدعيه الصوفية ، فبعض الفقهاء قال : ليس على ابن تيمية شيء فيما قال .

ورأى ابن جماعة أن ذلك فيه سوء أدب .

ثم خيرته الدولة بين أمور : أن يسير إلى الاسكندرية أو إلى دمشق بشروط . وإما أن يودع السجن . ففضل ابن تيمية حياة السجن على البقاء خارجه مكمم الأفواه . ولكن بعض أصفياء الشيخ ألحوا عليه طلباً في السفر إلى دمشق ، فأجابهم إلى ما طلبوا تطييباً لخاطرهم .

وفي ٢٨ شوال ركب البريد إلى دمشق . ولم تمض عليه إلا ليلة واحدة ، وفي الغد أرسلوا خلفه بريداً آخر فردوه إلى مصر ثانية . فحضر عند ابن جماعة وكان عنده جمع من الفقهاء . فقال بعضهم أن الدولة لا ترضى إلا بحبس ابن تيمية ، وطلب ابن جماعة من القاضي المالكي أن يحكم بحبس الشيخ فامتنع القاضي وقال : ما ثبت ضده شيء ، فكيف أحكم عليه بالحبس ؟

فطلب من نور الدين الزواوي (قاضي المالكية) فتوقف القاضي أيضاً .

ولما رأى ابن تيمية حيرة العلماء بادية على الوجوه في شأن حبسه ، تقدم هو إلى السجن بنفسه قائلاً : أنا أمضي الى السجن بنفسي واتبع ما فيه المصلحة .

فقال القاضي : يجب أن يكون الشيخ في مكان يصلح لمثله .

فقيل له : إن الدولة لا ترضى إلا بمسمى الحبس . وأرسل الشيخ إلى الحبس . وكان كل ذلك بإشارة من نصر الدين المنبجي ، وظل الشيخ في سجنه يستفتيه الناس ويكتب لهم بما يجير

العقول من المسائل التي عجز غيره عن الإفتاء فيها .

ثم خرج الشيخ من سجنه . وأرسل إلى الاسكندرية وأقام بها فترة رأى خلالها الكثير من ألوان الاضطهاد والإرهاب الفكري ووشى به الصوفية لدى السلطان ، وحاولوا اغتياله والتخلص منه . غير ان الله قد قيض له ولغيره من حفظة كتابه من دافع عنه وخلصه منهم . ولكنهم نجحوا في إيداعه السجن مرة أخرى بالإسكندرية وسجن معه تلامذته والمنتمون إلى فكره ، وظل الاضطهاد يلاحقه داخل السجن إلى ان تولى السلطان محمد بن قلاوون ، فكان أول ما حرص عليه أن يخرج ابن تيمية من سجنه ، فطلبه من الاسكندرية يوم عيد الفطر عام ٧٠٩ هـ فجاء الشيخ معززا مكرماً . ودخل على السلطان في ٨ شوال . واجتمع به السلطان وحاول أن يصلح بينه وبين الفقهاء الذين أفتوا بسجنه .

وكان هذا أول عهد ابن تيمية بحياة السجون التي طاب له المقام فيها عن حياة يجبر المرء فيها على النفاق أو السكوت على الباطل ، وهذا نموذج من محاكمة الشيخ ومواقف الفقهاء والقضاة منه . واستمرت حياة ابن تيمية على هذا النحو . فما كان يخرج من سجن الا ليودع في غيره ، وما كانت تنتهي محاكمة إلا لتبدأ أخرى ، وكأن القضاة والفقهاء يتقربون إلى السلطان بالحكم على ابن تيمية والإفتاء ضده . ولم يضجر ابن تيمية من كل ما نزل به ، ولم ييأس من نشر دعوته في تصحيح المفاهيم الإسلامية في قلوب الناس . وكان يطمئن أصحابه بقوله : ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما رحت فهي معي . إن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن أخرجوني من بلدي فخروجي سياحة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة في سبيل الله ، إن في صدري كتاب الله وسنّة رسوله .

وكان آخر ما وقع للشيخ ما جرى سنة ٧٢٦ هـ بسبب بعض آرائه .

ففي يوم الجمعة ١٠ شعبان سنة ٧٢٦ هـ قرىء بجامع دمشق مرسوم سلطاني يمنع الشيخ من الإفتاء واعتقاله . وحضر إليه ابن الخطيري بدمشق وأخبره بأمر السلطان ، فقال ابن تيمية : وأنا كنت منتظراً لذلك وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة ، ودخل الشيخ إلى باب القلعة معتقلاً . وفي يوم الأربعاء منتصف الشهر المذكور أمر قاضي القضاة باعتقال أصحاب ابن تيمية وتلامذته وغدر جماعة منهم ونودي بهم في الأسواق والطرقات تشهيراً بهم وتنكيلاً فيهم .

وظل ابن تيمية في سجنه سنتين وأشهراً . وقد أفتى بحبسه هذه المرة طائفة من أهل الأهواء على رأسهم القاضي المالكي الاخنائي .

وسبب سجنه في هذه المرة أنه أراد أن يصحح عقائد المسلمين في مسألة الزيارة وشد الرحال إلى المساجد وقبور الأولياء . فدبر اعداؤه الحيلة في فتواه وحرفوا كلمه وألفاظه وشنّعوا عليه بما لم

يقل به . وهذا أمر غير بعيد ولا مستبعد ، فإن هـذه الحيلة هي وسيلة السلطة في كل عصـر ، تتخلص بها ممن تريد من العلماء العاقلين الذين لم ينافقوا ولم يركنوا الى وسيلة الرياء او المداهنـة طلباً للنجاة ، مع ان ابن تيمية لم يمنع زيارة القبور ، ولم يقل بذلك ولم يمنع زيارة قبر الرسول ، وفتاواه في ذلك موجودة لمن أراد وإنما الذي منعه من ذلك هو شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة التي ذكرها الرسول في حديثه « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الخ .

ويملك من الأدلة على ذلك ما يفحم خصومه . . ولكن ما كان يرضى هؤلاء إلا حبس الرجل وإسكات لسانه وقلمه .

وفي يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيـخ من الكتب والأوراق والدواة والقلم ، ومنع من الكتب والمطالعة ، وحملت كتبـه في مستهل رجب الى خـزانة الكتب بالعادلية الكبيرة ، وكانت نحـو ستين مجلداً وأربـع عشرة رابـطة كراريس ، فنـظر إليها الفقهـاء والقضاة وتوزعوها فيما بينهم .

ولما منع عن ابن تيمية الزاد الروحي الذي كان أنيسه في سجنه اشتدت به علته ، وازداد به الضيق من تلك المعاملة السيئة . غير ان تلك الحال لم تدم طويلاً ، اذ فاضت روحه الطاهرة الى بارئها وكان ذلك ليلة الاثنين . لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ ، ومات الرجل في سجنه كما يقضي عظماء الرجال من أصحاب العقائد الثابتة والإيمان الراسخ الذي يجعل من صاحبه غصة في حلوق أعدائه فلا يتنفسون الا في غيبته ، ولا ينعمون بالحياة الا بعد رحيله .

وقد كانت جنازة الشيخ مثلاً واضحاً لقول أحمد بن حنبل : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم شهود الجنائز .

فقد شهد جنازة ابن تيمية من الخلائق ما لا يحصره عد ، يقول ابن البرزاني لقـد اجتمع أهل دمشق لجنازة الشيخ اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاضر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته ، وانتهوا إليها . ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : مع أن الرجل قـد مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان وكثير من الفقهاء والصوفية يذكرون عنه للناس أموراً منفرة لأهل الأديان . فهذا كلامهم فيه وهذه جنازته .

وهذه الجنائز هي الحد بين أهل البدعة وأهل السنة .

والتاريخ لا يغيب عنه شيء مما يدور في أيامه ولياليه ، فإن ابن تيمية قد قيل فيه الكثير مما يعاب عليه . كما قيل ويقال على غيره من أصحاب العقائد ، غير أن ذاكرة التاريخ لا تنسى شيئاً فهذا تراث ابن تيمية وهذه آراؤه . مأدبة شهية لمن سلمت منه النـوايا وصـدقت العزيمـة . وما حـدث لابن تيمية قـد حدث ويحـدث لغيره ، لكثير من اصحاب المـواقف التي قد تغير وجه

التاريخ ، وما شنع به البعض على ابن تيمية قد يشنع به على غيره ، ولكن الزبد سوف يذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . وهذه سنة الله في خلقه .

فما جرى بالأمس قد يجري اليوم . وقد يجري مثله للكثيرين غداً . وعلى المرء ان يعي دروس التاريخ ليكون للدعاة فيها عبرة .

رحم الله ابن تيمية ، وجزاه عن الإسلام خير الجزاء

- ٢ -

مَنهجُ ابن تيميَّة في الإلهيَّاتِ

الذات - الصفات

لا شك أن البحث في قضية الألوهية بجوانبها الثلاثة (الذات ـ الصفات ـ الأفعال) من أصعب الأمور وأكثرها احتياجاً إلى اختيار الألفاظ الدقيقة المعبّرة عن المعاني المرادة نصاً لا تأويلاً . ذلك أن قضية الألوهية ذاتها من القضايا الشائكة التي قد يكثر فيها الزلل ويسهل الخطأ ما لم يكن هناك حرص مسبق على اختيار الألفاظ ، ولو كانت هذه القضية كغيرها من القضايا المحسوسة التي قد يعبر عنها المرء بما يراه من ألفاظ مناسبة لما شاهده منها ومن أحوالها ، لكان الأمر سهلاً ميسوراً ، فما أسهل على الباحث أن يعبّر عن الأمور المحسوسة له بالالفاظ المناسبة لأحوالها المعبّرة عن صفاتها سواء بالاشتقاق أو بالدلالة المباشرة ، اما بالنسبة لقضية الألوهية فإنه يختلف تماماً عن هذه القضايا الحسية ، ذلك أن البحث في قضية الألوهية يتعلق بأمور غيبية لا يمكن التعبير عنها إلا بالألفاظ المناسبة المعبّرة عن أحوالها وصفاتها ، ونحن لم نشاهد هذه الأمور الغيبية حتى نطلق عليها الألفاظ التي قد نراها أكثر مناسبة من غيرها أو قد نراها أكثر دلالة على المعنى المراد . وهذا هو سر الخطورة الكامنة في بحث قضايا الألوهية عموماً ، ومن هنا تأتي صعوبة اختيار الألفاظ ، ولشدة حرصنا على توضيح موقف ابن تيمية من هذه القضية من جانب ولصعوبة الخوض فيها من جانب آخر رأيت من الأفضل الالتجاء الى نصوص القرآن والسنة في تصويرها لقضايا الألوهية ، وفي نفس الوقت سوف أركز على نصوص السلف في تصويرهم هم لهذه القضية حتى نكون أمناء في التعبير عما نريد .

ولقد احتلت قضية الألوهية أهم جوانب البحوث الفلسفية في جميع الفلسفات القديمة والحديثة معاً ، ذلك أنها ـ كانت ولا زالت ـ أهم مشكلة واجهت العقل البشري في مراحل تطوره وفي مختلف المجتمعات والأجيال ، كما أنها احتلت في الوقت نفسه جزءاً هاماً من تراث الأديان السماوية (اليهودية ـ المسحية ـ الإسلام) ومن هنا اختلفت الحلول وتباينت التصورات العقلية

لهذه القضية من فلسفة الى أخرى ، وإذا كان هناك ـ ولا شك ـ وحدة متماسكة بين النصوص الدينية الصحيحة في الأديان الثلاثة حول هذه القضية وتصويرها ، إلا أن الاختلاف بدا عميقاً وواضحاً بفعل الشراح والمفسرين بين تصوير النصوص وتصور المتأولين لها ، فمالت نصوص وشروح اليهودية إلى التجسيم وبالغت في ذلك ، بينما مالت نصوص المسيحية الى التجريد حتى صار إلهها غير معقول فاخترعت له فكرة (الثالوث) حتى يقدر البشر على تصوره ، بينما وقف الإسلام وسطاً بين هؤلاء وأولئك فنزه الله عن تجسيد اليهودية وعن تجريد المسيحية معاً واخبر عن ذلك بأنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [١] .

ونجد في الإسلام أن القرآن يمثل همزة الوصل بين السماء والأرض ، وبين تصوير المعاني الغيبية وتصور المسلمين لها ، وبين الإخبار عن الذات الإلهية ، وما يجب لها من صفات الكمال وحكمة الأفعال ، وإيمان المسلمين بها وإذعانهم لها .

ولذلك فقد خص القرآن هذه القضية بكثير من النصوص التي تدل على المعنى المراد مباشرة وبدون تأويل ولا تحريف لمعناها .

فهناك آيات تتحدث عن الذات الإلهية وتصويرها للمسلم تصويراً مناسباً لمقدار تعقّل الإنسان لها وتصوره لكمالها .

وهناك آيات تتحدث عن الصفات الإلهية وما يجب لله من صفات الكمال التي ينبغي أن ينزه فيها عن مشابهة المخلوقين او مشاركتهم .

وهناك آيات أخرى تتحدث عن مظاهر الحكمة الواضحة في أفعاله والتي تلفت نظر المسلم ليستنبط منها الدلالة على حكمة الصانع في كل ما يفعل .

حديث القرآن عن الذات :

فإذا استقرأنا آيات القرآن التي تحدثت عن الذات الإلهية نجدها تخبر بأن ﴿ الله أحدٌ ، الله الصمدُ ، لَمْ يَلِدْ ، ولم يُولَدْ ، ولَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحدٌ ﴾ [٢] وبأنه تعالى ﴿ ليسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصِيرُ ﴾ [٣] ﴿ وَلَهُ المَثَلُ الأَعلىٰ في السَّمَوَاتِ والأَرضِ ﴾ [٤] ، ﴿ هلْ تعلمُ لهُ

---

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

(٢) سورة الاخلاص .

(٣) سورة الشورى الآية ١١ .

(٤) سورة الروم الآية ٢٧ .

سمياً ﴾ [1] ، ﴿ ولِلهِ الأَسماءُ الحسنىٰ فادعُوهُ بِهَا ﴾ [2] .

ففي هذه الآيات تجد القرآن يحرص على نفي قانون الوالدية ، والمولودية والمماثلة . والمكافأة ، فهو سبحانه لم يلد ، لم يولد وليس كمثله شيء ، ولا سمي له ، ولا كفواً له .

كما حرص أيضاً على إثبات أن له المثل الأعلى في السموات والأرض ، وأن له الأسماء الحسنى .

ولم تتعرض هذه الآيات لبيان كيفية الرب سبحانه ولم يوضح لنا ما كنه ذاته وما حقيقتها . بل نجد في القرآن ما يفهم منه ان السؤال عن كنه هذه الذات أو عن حقيقتها غير مرغوب فيه ، فحين سأل فرعون نبي الله موسى قائلاً : ﴿ ومَا رَبُّ العَالَمينَ ﴾ قال له موسى ﴿ رَبُّ السَّموَاتِ والأرْضِ ومَا بَينهُمَا ﴾ وصيغة السؤال « بما » تعنى السؤال عن الكنه والحقيقة فإذا قيل مثلاً : ما الإنسان بمعنى ما حده وما كنهه . فيقال في الجواب : إنه حيوان ناطق ، فيؤخذ في بيان كنه الإنسان وتوضيح حقيقته أمران :

الأمر الأول : اعتبار الجنس الذي ينتمي إليه الإنسان وهو الحيوان .

الأمر الثاني : اعتبار صفة يختص بها الانسان دون سائر أنواع الجنس الذي ينتمي اليه وهي صفة الناطقية : وبدون هذين الأمرين لا يكون هناك بيان لحقيقة الإنسان ولا كنهه ، وإنما صح بيان حقيقة الإنسان هنا لأن له جنساً ينتمي إليه وهو الحيوان ، والأمر بالنسبة لله يختلف تماماً ، فهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ، ليس كمثله شيء ، فكيف يكون له جنس ينتمي إليه حتى يصح أن يقال ﴿ مَا رَبُّ العالمينَ ﴾ [3] ورسل الله هم أعلم الخلق بالله وبصفاته ، ولقد أدرك نبي الله موسى ما في سؤال فرعون من لبس وخطأ ، فاعرض عن الإجابة عن السؤال المطلوب وأخذ يوضح لفرعون صفات الرب بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما ، ولم يستطع موسى أن يبيّن له كيف هو ، أو ما كنه الرب ، وإنما عدل عن جواب ما هو إلى التعريف به بذكر صفاته المحسوسة للخلق ليستطيع أن يترقى المرء من المحسوس إلى تعقل الموصوف بهذه الصفات . أما كيف هو؛ أماكنه ذاته ، أما حقيقتها ، فلا يعلم ذلك إلا هو ، ومن هنا نستطيع القول بأن كل آية وردت في القرآن الكريم تتحدث عن الذات الإلهية كان هدفها إثبات وجود الرب وإثبات ذاته وليس إثبات كيف هذه الذات ولا بيان حقيقتها او كنهها.

وإذا تساءلنا عن السبب الذي من أجله حرص القرآن على إثبات وجود الذات دون بيان

---

(١) سورة مريم الآية ٦٥ .

(٢) سورة الاعراف الآية ١٨٠ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٣ .

كيف هذه الذات او بيان حقيقتها نجد القرآن نفسه قد أجاب صراحة على هـذا السؤال بقولـه تعالى ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (١) وعدم إحاطة العقل علماً به سبحانه راجـع إلى قصور العقـل وحدود إمكانه لتقبل المعرفة ، ذلك ان المعرفة العقلية قد تكون تصديقية وقـد تكون تصـورية ، فالمعرفة التصديقية هي تلك التي يستطيع العقل أن يتحقق من صدقها بالتجربة والمشاهدة ، مثال ذلك ، إذا اردنا أن نتحقق من صدق القضية القائلة بأن الماء يتركب من ايدروجين وأوكسجـين بنسبة ٢ : ١ فإن ذلك يكون سهلاً إذا أخذنا العناصر المكونة للماء وأجرينا عليها التجربة لتثبت أن هذه القضية صادقة أو كاذبة .

أما المعرفة التصورية فلا تصبح يقيناً ما لم نتحقق من صدقها بالتجربة ، وإنما تظل هكـذا خيالاً عقلياً ما لم يثبت الواقع صدقها ، كتصور العقل لما يمكن أن يحدث في المستقبل ، وكتصوره أيضاً للأمور الميتافيزيقية ، فإن معرفة العقل للهيئة المخصوصة التي قد يكـون عليها المستقبـل ، وتصور الهيئة التي تكون عليها الأمـور الغيبية يعتبـر من هذا النـوع فنحن لم نر مـا أخبرت عنـه الشرائع من أمور البعث والحساب ، ولم نشاهد كيفية مأكل أهل الجنة وإنما كانت معرفتنا بها عن طريق الإخبار عنها بالآيات والأحاديث .

وما دام الانسان لم يشاهد هذه الأمور ولم يحس بها فلا يجوز عقلاً أن يجزم فيها برأي قاطع يعتمد فيه على مجرد التصور العقلي لما يمكن أن يكون ، وإنما ينبغي أن يلجأ إلى النصوص التي تخبر عن هذه الأحوال وعن كيفيتها ، لأن المطلوب في الإيمان بهذه الأمور هو الاعتقاد الجازم اليقيني ، ولا يكفي فيه مجرد التصور العقلي .

ومن المعروف أن العقول تتعامل مع الأمور المحسوسة على سبيل التحقق والتيقن ، أما مع الأمور التجريدية فتتعامل فيها العقول على سبيل التصور والتخيل ، من هنا كانت حاجة العقل إلى الدليل القاطع في الأمور الغيبية التي لا تخضع لتجربته الحسية ، والدليل هنا ليس إلا النص الصحيح من كتاب أو سنّة .

ومن ناحية اخرى فإن العقل البشري قـد يدرك نفسـه ، ويدرك مـا دونه من أشيـاء هذا العالم ، ولكنه يعجز عن إدراك حقيقة ما فوقه من الموجودات ، كالملائكة مثلاً ، وكمعرفة الذات الإلهية على سبيل الحقيقة ، فإن معرفته بهذه الموجودات تظل قاصرة على مجرد التصور والتخيل ما لم يلجأ الى دليل يقيني من كتاب أو سنّة فيؤمن به ويعتقد صدقه .

ويبدو أن السلف كانوا أكثر فطنة وذكاء من المتأخرين ، لأنهم قد أدركـوا هذه الحقيقـة ، فعرفوا للعقل حدوده التي ينبغي الا يتجاوزها ، وأطلقوا له العنان في المعرفة الحسية المرتبطة بحياة

(١) سورة طه الاية ١١٠ .

الناس وشؤونهم اليومية فأثبت العقل فيها جدارته وكفاءته ، فأنتج لنا علم أصول الفقه والأحكام الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنة ، وإلى جانب ذلك فقد بـرز دور العقل في كثير من أنواع المعرفة الإنسانية المرتبطة بالواقع ، فكان لهم دورهم البارز في علوم النحو والرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب .

أما فيما يتصل بالأمور الغيبية فكان موقفهم العقلي منها يدل على أنهم كانوا أكثر احتراماً للعقل وأكثر خبرة بطاقته وحدوده ، فاعتصموا بالنص الصادق الذي جاء على لسان الرسول الصادق مخبراً عن الغيبيات وأحوالها ، فآمنوا باثبات ما أخبر به النص وصدقوا بوجوده ، ولم يتعرضوا للبحث في كيفيته لأن ذلك مما يعز على العقل الوصول إليه .

فلم يتخيلوا بعقولهم كيفيات محددة لما أخبرت عنه الآيات من الأمور الغيبية ، ولم يقولوا بتصورات عقلية مجردة لكيفية الذات الإلهية ، ولا كيفية الملائكة او العرش ، ولم يكن ذلك إهمالاً منهم للنظر العقلي كما يقول بعض الباحثين ، وإنما كان اعترافاً منهم بأن العقل وسيلة محدودة من وسائل المعرفة فلا يدرك غير الأمور المحسوسة على سبيل التيقن ، ويدرك الأمور الغيبية على سبيل التصور فقط وليس التيقن ، كما أن العقل ليس الوسيلة الوحيدة بل هناك وسائل اخرى للمعرفة ، والوسيلة اليقينية لمعرفة الأمور الغيبية على سبيل التيقن هي النص الصحيح وليس العقل منفرداً .

ولقد عبر السلف عن موقفهم هذا بعبارات تدل على صدق الإيمان القائم على الاعتقاد بصحة النص ، واحترام العقل معاً ، وتدل عباراتهم في ذلك على ذكاء وفطنة بحقيقة الموقف وبوسيلة الإدراك المناسبة له .

فلقد روى عنه ﷺ : « تفَكَّروا في آلَاءِ الله وَلَا تُفكِّروا في ذاتِه » ذلـك ان التفكير في الآلاء والنعم يمكن للعقل أن يستنبط منها عظمة الصانع وحكمته وما يليق به من صفات الكمال والجلال ، فيعرفه حق معرفته ، والآلاء مبثوثة في أجزاءِ الكونِ من السماء الى الأرضِ ، وحث القرآن على التفكر فيها في كثير من الآيات مثل ﴿ قلْ انظرُوا ماذَا في السَّمواتِ والأَرضِ ﴾ [1] ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأَرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ ﴾ [2] الخ .

ولم نجد في القرآن آية واحدة تطلب من المؤمن ان يتفكر أو ينظر في « ذات الله » أو يبحث عن كيفيته ، ولقد شبّه الرسول التأمل في ذات الله بالتأمل في جرم الشمس ، فكلما ازداد الإنسان نظراً إلى جرم الشمس ازداد بصره غشاوة وكذلك كلما إزداد الإنسان تأملاً في ذات الله إزداد حيرة .

(١) سورة يونس الآية ١٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٠

ومن هنا لفت الرسول نظرنا إلى التأمل في الآلاء والمخلوقين وصرف نظرنا عن التأمل في ذات الخالق .

وقال أبو بكر رضي الله عنه « العجز عن درك الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك » وقال أيضاً « سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته » .

كما روي عن علي بن أبي طالب في نهج البلاغة قوله إنه سبحانه « لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحيط به السواتر ، الدال على قدمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده ، وباشتباههم على ألا شبه له ، . . تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة ، وتشهد له المرائي لا بمحاصرة ، ولم تحط به الأوهام »[1] ، فهذه النصوص في جملتها تدل على أن موقف السلف من البحث في هذه القضية كان معتصماً بما ورد في القرآن عنها ، فآمنوا بالله رباً خالقاً واصرفوا أنفسهم عن البحث في كيفية هذا الرب أو حقيقته وكفاهم في ذلك أن يؤمنوا بأنه تعالى ليس كمثله شيء ، وأنه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحدٌ ﴾ وأنه لا سمي له ، وله الأسماء الحسنى ، وله المثل الأعلى في كل كمال . فليس لك ان تتصور الكيفية التي يكون عليها لأنك لا تعرف كيفية أحواله ، وليس هناك شبه ما بينك وبينه ، بل ﴿ ليسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾[2] من هنا كان الكيف عنه مرفوع فلا يقال كيف يأتي ولا كيف يسمع . . بل آمن السلف بما ورد به القرآن في ذلك بدون تأويل ولا تحريف ، ولم يتساءلوا هل استواؤه على العرش بملامسة أو من غير ملامسة ، وإذا نزل إلى سماء الدنيا هل يخلو منه العرش أم لا ، وحين يأتي يوم القيامة هل يكون ذلك بنقلة أو بغير نقلة لأن كل هذه الأمور لم يتعرض لها القرآن في حديثه عن الذات وصفاتها ، بل كان منهجه في ذكر الصفة هو إثبات الوجود لها وليس إثبات الكيف ، لأن إثبات الصفات فرع عن إثبات الذات يحتذى فيها حذوه ، يقول ابن القيم في كتابه « أعلام الموقعين » موضحاً موقف السلف من هذه القضية :

انقضى عصر الصحابة والتابعين من السلف والأئمة على التسليم المطلق خاصاً بما جاء في الكتاب والسنّة عن الذات الآلهية وصفاتها ولم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال « بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب العزيز والسنة النبوية » كلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا . ولم يبدوا لشيء منها أبطالاً ولا ضربوا لها أمثالاً ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها . ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها . بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإجلال والتعظيم[3] ولم

(١) نهج البلاغة ١/٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) سورة الشورى الآية ١١ .

(٣) أعلام الموقعين عن رسول رب العالمين لابن القيم الجوزيه ١/٤٩ ط الثانية سنة ١٩٥٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

نشهد لديهم هذا الجدل العقيم في أمور العقائد الذي وجدناه فيما بعد لدى متكلمي الإسلام من معتزلة وأشاعرة . ومن ثم لم تكن مسألة الصفات الآلهية موضع خلاف أو نزاع لدى كبار الأئمة من أمثال مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد والأوزاعي والثوري وغيرهم . ولم نقرأ عن النبي ﷺ أو عن أحد من صحابته أنه توقف أمام آية من آيات الكتاب العزيز أو وصف من أوصاف الباري تعالى الواردة في الكتاب والسنّة ليستخرج من هذه الآية أو تلك مذهباً معيناً في فهم العقيدة كما حاول المتكلمون بعده . وبعد ان تفرقوا وتحزبوا ولم يثر عليه السلام جدلاً أو نقاشاً حول آية من الآيات التي تتحدث عن أفعال العباد كما أثاره حولها القدرية والجبرية . ولم ير عليه السلام نوعاً من التضاد أو التناقض بين آيات النوعين حاول أن يرفعه كما صنعت بعض الفرق الإسلامية فيما بعد .

وعندما يتحدث القرآن بقوله ﴿ يدُ الله فَوقَ أَيدِيهِمْ ﴾ أو عن استوائه على عرشه أو عن قبضته للأرض بيمينه وعن مجيئة يوم القيامة والملك صفاً صفاً ، أو عن اتيانه في ظلل من الغمام . لم يقصد الرسول من كل ذلك إلى نوع من التشبيه أو التجسيم كما صنع المجسمة والمشبهة . كما لم يشأ الرسول أن يتخذ من قوله تعالى ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ مذهباً في الحلول او الاتحاد كما فعل المتصوفة . بل كان يدرك تماماً ما في هذه الآية الكريمة من معنى قوة الثقة بالخالق وتأييده لعبده المؤمن بما يملأ قلبه بالإيمان واليقين .

وإذا تحدث القرآن عن عظمة الله سبحانه ومباينته لسائر خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله في آيات كثيرة من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ وَيَبقىٰ وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجلالِ والإكرام﴾ و ﴿ ليسَ كَمثلِهِ شَيءٌ﴾ و ﴿ هل تعلمُ له سمّياً﴾و﴿ لَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ لم يحاول الرسول أن يحمل هذه الآيات او غيرها على إرادة مذهب معين في التنزيه كما فعلت المعتزلة ، لأن الغرض من مثل هذا القول إقناع الناس بأحقيته وحده سبحانه بالربوبية والألوهية ، وعلى هذا النحو كان موقف الصحابة والتابعين حيث كانت قوة الإيمان راسخة في القلوب ومهيمنة على النفوس ، ثم أخذت حرارة الإيمان تضعف في القلوب شيئاً فشيئاً . وكلما ضعفت قوة الإحسان بالإيمان برزت وتعددت نواحي الاختلاف ودواعي الفرقة .

ويقول المقريزي في كتابه العظيم « الخطط » مؤرخاً لهذه الحركة الفكرية « إن القرآن الكريم تضمن أوصافاً لله تعالى . فلم تثر التساؤ ل عند واحد من العرب عامة قرويهم وبدويهم . ولم يستفسروا عن شيء بصددها كما كانوا يفعلون في شأن الزكاة والصيام والحج وما اليه . ولم يرد في دواوين الحديث وأثار السلف أن صحابياً سأل الرسول عن صفات الله . أو اعتبرها صفات ذات أوصفات فعل . وإنما اتفقت كلمة الجميع على إثبات صفات أزلية لله من علم وقدرة وحياة وإرادة وسمع وبصر وكلام ، والمشتغلون بدراسة علم الكلام يعلمون تماماً أن مشكلة الصفات

الإلهية احتلت مكان الصدارة والأولية في تراث المتكلمين لأن منها نشأ البحث حول مشكلة التنزيه والتشبيه ، ومنها نشأ البحث في القضاء والقدر ، والعدل الالهي ، وعلاقة الله بالإنسان ، وخلق القرآن فهي تمثل روح علم الكلام ولبابه ..

ويقول ابن الماجشون فيما رواه أبو عبد الله بن بطة في كتابه العظيم « الابانة » مصوراً موقف السلف من قضية الألوهية ذاتاً وصفاتٍ : .. إنما أمرو بالنظر والتفكير فيما خلق بالتقدير ، وإنما يقال كيف لمن لم يكن مرة ثم كان ، فاما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل ، وليس له مثل ، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو . وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ولا يموت به ولا يبلى . . إعلم رحمك الله أن العصمة في الدين أن تنتهي حيث انتهى به، ولا تجاوز ما قد حد لك ، فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر ، فما بسطت عليه المعرفة ، وسكنت إليه الأفئدة ، وذكر أصله في الكتاب والسنة ، وتوترات عليه الأمة ، فلا تخافن في ذكره وصفته . . ولا تخافن لما وصف لك من ذلك قدساً ـ وما انكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك في الحديث عن نبيك فلا تتكلفن علمه بعقلك ، ولا تصفه بلسانك واسكت عنه كما سكت عنه الرب ، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل إنكارك ما وصف منها .

وواضح في موقف السلف من هذه الصفات أنهم لم يقولوا أن هذه الصفات تشبه صفات المخلوقين بل نزهوا الله ـ ذاتاً وصفات ـ عن المشابهة وفي نفس الوقت لم ينفوا الصفات بدعوى أنها تقتضي التشبيه أو التجسيم ، فكان منهجهم إثبات الصفة لله ولكن بلا تشبيه ، وتنزيه الله عن المماثلة ولكن بلا تعطيل .

ولما قرأ المتأخرون أقوال السلف حول قضية الذات والصفات وعرفوا أنهم قد التزموا النص واعتصموا به خيل لبعض الباحثين أن عصر السلف قد انقضى دون أن يتحدث واحد منهم عن هذه القضية ، وقالوا أن السلف كان مذهبهم هو السكوت والتفويض لأنهم لم يشتغلوا بالبحث في هذه القضية لانشغالهم بأمور الجهاد ونشر الدعوة ، ولأنهم من جانب آخر لم تكن لديهم الدربة العقلية اللازمة لبحث هذه الأمور .

وهذا القول فيه اجحاف ومغالطة وجهل بموقف السلف ، وهنا شبهة لا بد من بيانها :

فإن للمتأخرين من علماء الكلام قد اعتبروا أن آيات القرآن التي تتحدث عن الصفات الإلهية من المتشابه الذي كف السلف أنفسهم عن الخوض فيه وفوّضوا علمه إلى الله ، ولذلك شاع في كتبهم أن مذهب السلف هو الكف والتفويض ، وهذا القول ليس صحيحاً على اطلاقه ، ذلك أن السلف لم يقل واحد منهم أن آيات الصفات متشابهة لا يعلم معناها إلا الله . ولم ينقل إلينا عن واحد أن قوله تعالى ، وهو الغفور الودود من المتشابه الذي لا يعلمه إلا هو ، او أن معناها يشتبه بمعنى آية أخرى ، بل معنى آيات الصفات قد تكلم فيه السلف وأدلى كل منهم

بقوله . ولهذا لم يكفوا أنفسهم عن البحث في معنى الاية لأن القرآن نزل بلغة العرب وبألفاظهم والذي كف السلف أنفسهم عن الخوض فيه هو تحديد كيفية الصفة التي تحدثت عنها الآيـة ، ولذلك يجب التنبيه إلى الفرق بين الموقعين .

(ب) حديث القرآن عن الصفات :

وإذا انتقلنا الى بحث موقفهم من الصفات الإلهية فسوف تجد انهم قد طبقوا نفس المنهج الذي سلكوه في موقفهم من قضية الذات على موقفهم من الصفات الإلهية ، فأثبتوا وجود الصفة التي ورد بها القرآن وآمنوا بها ولم يبحثوا عن كيفية الصفة ولا عن كنهها .

وإذا استقرأنا آيـات القرآن الكـريم التي تتحدث عن الصفـات الإلهية لم تجـد آية واحـدة فصلت القول في كيفية هذه الصفة بالنسبة لله ، وإنما وصف الله نفسه بها دون بيان لكيفية النسبة بين الصفة وموصوفها ، فالله تعالى وصف نفسه بأنه سميع عليم ، على كل شيء قدير ، عزيـز حكيم ، يخلق ما يشاء يحيي ويميت ، يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً ، الرحمن عـلى العرش استوى .

وصف نفسه بأن المؤمنين سوف يرونه يوم القيامة : وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة .

وأخبرت الأحاديث النبوية بأنه تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا . . الخ . الحديث وإذا تأملنا هذه الصفات في جملتها نجد أن منها صفات قد أطلق عليها المتكلمون اليها صفات المعاني ، أو صفات الذات مثل : العلم الحياة ، المسمع والبصر القدرة والإرادة ، الكلام .

قواعد المنهج السلفي في الصفات
كما يراها ابن تيمية

لا بد قبل الانتهاء من هذه المقدمة أن نشير في إيجاز ألى أهم القواعد التي استنبطها ابن تيمية وأشار إليها في العديد من كتبه باعتبار أنها تشكل ركائز لمنهـج محدد المعـالم سار عليـه السلف في موقفهم من الصفات الإلهية . واهتمام ابن تيمية بهذه القضية يرجع إلى أن هذه المشكلة ذاتها هي لب علم الكلام ـ كما سبق ـ ومحور الخلاف بين علمائه وحين يستنبط ابن تيمية هذه القواعد ويشير إليها فإنـه يقصد بـذلك أن يقـول لهؤلاء المختلفين هـذا هو منهـج السلف المستنبط من الكتاب والسنة . فلينظر كل منكم أن يضع قدمه من الصواب والخطأ .

١ ـ إثبات الوجود ونفي العلم بالكيف :

أيقن السلف أنه لا سبيل لنا إلى اليقين في المطالب الإلهية إلا اذا تلقيناها من جهة السمع .

وخاصة فيما يتعلق بمعرفة الذات الإلهية وصفاتها . فإن معرفة هذه الأمور على سبيل الكنه والحقيقة أمر فوق مستوى العقل البشري ، والله تعالى قد حجب جميع خلقه عن معرفة ما هو ، ولم يجعل لهم سبيلاً إلى معرفة ما إنيته أو كيفيته لأنه سبحانه أجل من أن يدرك أو يحاط به علماً . إذ ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فنفى عن نفسه الأشباه والأمثال . ومنع من الاستدلال عليه بالمثلية . ثم فتح لهم أبواب معرفة من هو . ليتعرفوا بذلك على معبودهم . ونصب ذلك على الدليل الواضح وهو آياته وآثار صفاته من الخلق والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر وغير ذلك من آياته في كونه [1] لذلك كان مطلوب السمع هو إثبات وجوده تعالى وليس إثبات كيفه .

٢ ـ القول في الصفات تابع للقول في الذات :

وإذا كانت معرفة الله على سبيل الكنه والحقيقة لا سبيل إليها فيجب أن تكون صفاته كذلك . لأن القول في الصفة كالقول في الموصوف يحتذى فيه حذوه . فإذا كانت ذاته لا علم لنا بحقيقتها فصفاته كذلك لا سبيل لنا إلى معرفتها على سبيل الكنه والحقيقة . والقرآن جرى في حديثه عن وجود الله على أن المقصود هو إثبات وجوده تعالى لا إثبات كيفيته . وإذا كانت كل صفة تتبع موصوفها فيكون الكلام في الصفات مقصوداً به إثبات وجود الصفة وليس إثبات كيفها [2] . وهذا القول يجب طرده في الحديث عن الصفات عموماً ولا فرق في ذلك بين صفة وأخرى .

وإذا كانت ذاته لا تماثل الذوات فكذلك صفاته لا تماثل الصفات [3] لأنه سبحانه لا تضرب له الأمثال بخلقه لا في ذاته ولا في صفاته .

٣ ـ الكتاب والسنة مصدر الإثبات والنفي :

بعد هذه المقدمات التي تعتبر أسساً لمذهب السلف في الصفات ، نرى أن القول في الصفات نفياً وإثباتاً يجب أن يتلقى من السمع . ودلالة القرآن على ذلك نوعان :

الأول : دلالته من جهة تلقيه عن المخبر به الصادق في كل ما أخبر به عن ربه . فما أخبر به الرسول نفياً أو إثباتاً فهو حق لأنه ما ينطق عن الهوى .

الثاني : من جهة دلالة القرآن بضرب الأمثال المتضمنة للأدلة العقلية الدالة على المطلوب . والأدلة العقلية التي تنبهنا اليها هذه الأمثلة تكون شرعية وعقلية معاً . أما شرعيتها فلأن الشارع قد نبهنا إليها . وأما عقليتها فلأنها تعلم بالعقل الصريح الواضح . ولا يقال حينئذ أنها لم تعلم

---

(١) العقل والنقل : ١٢٧/٤ ، مجموع الفتاوى : ٥ : ٣٠ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٩٥/٥ .

(٣) الرسالة التدمرية : ٢٦ ، العقيدة الحموية : ٤٧ .

إلا بمجرد خبر الصادق لأن الله إذا أخبر بالشيء ودل عليه بالدلالات العقلية صار مدلولاً عليه بخبر الصادق من جهة ، ومن جهة أخرى صار مدلولاً عليه بالأدلة العقلية التي نبه الشارع عليها ، وكلتا الجهتين داخل في دلالة القرآن التي تسمى شرعية (١) .

٤ ـ الأخذ بقياس الأولى في الإثبات والنفي :

والقرآن في عامة موارد الصفات على إثبات ما يستحقه الله تعالى من صفات الكمال . وليس في آية واحدة منها على النفي . بل عامة النصوص جاءت في ذلك على الإثبات . لكنه إثبات بلا تمثيل له بخلقه ؛ لأنه سبحانه لا كفواً له ولا سمى له ، وليس كمثله شيء . فهو سبحانه سميع بصير ، حي مريد يجيء يوم القيامة وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا (٢) .

ووصف الله بالكمال لا بد فيه من اعتبارين :

الأول : أن يكون هذا الكمال ممكناً في نفسه وليس ممتنعاً .

الثاني : ألا يكون مشوباً بنقص بوجه من الوجوه . وأن غيره لا يساويه في شيء من ذلك في مثل قوله ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ (٣) .

فقياس الأولى هو طريق إثبات الكمال لله . فما كان كمالاً لغيره فهو أحق به منه لأنه له المثل الأعلى في كل كمال لا نقص فيه .

والكمال والنقص هما قطب الرحى في موقف السلف من الصفات نفياً وإثباتاً . فكل ما تضمن كمالاً لا نقص فيه فالله أحق به ، وكل ما كان نقصاً من صفات المخلوقين أو كان كمال متضمناً لنقص بوجه من الوجوه ، فالله أولى بأن ينزه عنه .

ومعنى الكمال والنقص يجب أن يؤخذ من الشرع حتى لا نصفه سبحانه بما قد يظن أنه كمال في حقه بالمقايسة على المخلوقين ، وهو ليس كمالاً بالنسبة له سبحانه .

وهذه طريقة شديدة في التنزيه . أخذ بها السلف في الصفات ، ثم لا يكفي في الإثبات مجرد نفي التشبيه ، لأنه لو كان ذلك كافياً لجاز أن يوصف سبحانه بما لا يكاد يحصى من صفات المحدثين مع نفي التشبيه . كما وصفه بعضهم بالحزن والبكاء .

فالاقتصار على ما قد يظن كمالاً مع نفي المماثلة ليس كافياً في التنزيه ، بل لا بد من الاعتماد في ذلك على ضابط مانع . فما سكت عنه الشرع نفياً وإثباتاً ولم يكن في العقل ما يثبته ولا

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : ٥/ ٤٠ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم : ٤٦٥ ط أنصار السنة ، سنة ١٩٥٠ م .

(٣) سورة النحل الآية ١٧ .

ينفيه سكتنا عنه . ونثبت ما علمنا ثبوته من ذلك وننفي ما علمنا نفيه [١] .

والقرآن قد راعى في الإثبات والنفي معنى الكمال والنقص . ولم يراع معاني الجسمية والتركيب والحركة والحيز والجهة . التي تحدث عنها المتكلمون .

فهو موصوف بكل صفات الكمال الواردة في القرآن وليس في وصفه بشيء منها ما يوجب الجسمية ولا الحيز والجهة ولا التركيب . بل هذه المعاني والألفاظ مأخوذة من اعتبار عالم الغيب على عالم الشهادة وهذا خطأ كبير .

ومن المعلوم بالفطرة أن من يسمع ويبصر أكمل من الأعمى والأصم . كما نبه على ذلك القرآن بقوله ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبَصيرِ ﴾ [٢] .

ومن يفعل بمشيئته أكمل من ذلك الذي يفعل اضطراراً .

وقد ضرب القرآن الأمثلة التي تبين أن إثبات هذه الصفات كمال ، ونفيها نقص .

فابراهيم الخليل في موقفه من أبيه ودعوته له يقول : ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنك شيئاً﴾ فدل ذلك على أن من يسمع ويبصر أكمل من فاقد السمع والبصر ، وفي وصف القرآن للأصنام التي عبدها المشركون من دون الله نجده يسلبها هذه الكمالات كما هي في نفسها كذلك . وذلك يدل على أن سلب هذه الصفات أو نفيها نقص [٣] .

٥ - طريقة التنزيه ينبغي أن تؤخذ من السمع :

لقد كان موقف السلف واضحاً في ذلك لأنهم رأوا أن تلقى معنى الكمال والنقص بالنسبة لله لا يؤخذ إلا من السمع ، لأنه سبحانه أعلم بنفسه وما يجب له . أما المتكلمون فتلقوا ذلك عن عقولهم وعن الفلاسفة . والعقل في ذلك لا يوصل إلى يقين إذا عزل نفسه عن السمع . فما بالك إذا تدخل بتأويل السمع إلى ما يوافق معقوله .

ومن هنا كان منهج المتكلمين في الصفات ليس بسديد .

ولو سألنا المتكلمين عن السبب الذي من أجله تأولوا آيات الصفات بما يؤدي إلى نفيها . نجد إجابة كل منهم تختلف عن الآخر . فالمعتزلة تابعوا الفلاسفة في أن الصفات تستلزم التعدد والتركيب والافتقار أو مشابهة الحوادث .

---

(١) الرسالة التدمرية : ٨٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٠ .

(٣) الرسائل والمسائل : ٤٨/٥ ، شرح العقيدة الاصفهانية : ٨٧ .

والأشاعرة تأولوا المجيء والاستواء والنزول لأنها تستلزم الحركة والانتقال والمشابهة للحوادث .

وهذا يدل على الاضطراب لدى جميع المتكلمين . لأنهم متفقون على أن الذات الإلهية لا سبيل إلى معرفتها بالكنه والحقيقة . وعامة أساطين الفلسفة يعترفون بأنه لا سبيل للعقل إلى اليقين في الإلهيات [١] .

وإذا كان هذا شأنهم في الحديث عن الذات فلماذا لا يجعلون الحديث عن الصفات كذلك ؟ فيجرون على الصفات ما قالوا به في حديثهم عن الذات .

وهل المعنى الذي فروا منه بالتأويل مسلم لهم فيما ذهبوا إليه ؟

بمعنى : هل المعنى الذي تؤولت إليه الآية قد سلم من المحذور الذي فروا منه ، سواء كان ذلك المحذور هو الجسمية أو الحركة ، أو المشابهة للحوادث ؟

لقد تأول المتكلمون صفة المحبة على معنى الإرادة ، وقالوا ان المحبة تستلزم ميل القلب وهذا من صفات النقص . ولذلك يجب تأويلها بالارادة ، ولو خاطبناهم بلغتهم لقلنا لهم « إن الإرادة تستلزم العزم والهم بفعل الشيء بعد ان لم يكن ، وهذا من صفات المحدثين أيضاً [٢] فما فروا منه وقعوا فيه .

٦ ـ الجمع بين الإثبات والتنزيه :

والحديث عن الصفات ليس كافياً فيه مجرد نفي التشبيه أو مطلق الإثبات من غير تشبيه . وذلك لأنه ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر مميز ، فالنافي إن اعتمد فيما ينفيه على أن هذا تشبيه ، قيل له : إن التشابه في الأسماء لا يعني التشابه في حقيقة المسميات . والقدر المشترك بين الموجودين لا يستلزم تماثلهما من جميع الوجوه [٣] ونحن لا نعلم ما غاب عنا إلا بذلك القدر المشترك الذي لا بد منه بين كل موجودين . وبمقدار المناسبة بين ما عندنا وبين ما غاب عنا تكون المعرفة ممكنة لنا . ولولا ذلك لما استطعنا أن نعرف شيئاً مما غاب عنا ، ونحن نعرف الأشياء بحسّنا ثم نقيس الغائب على المشاهد فيتكون عندنا قضايا كلية عامة يشترك فيها ما غاب عنا وما هو تحت حواسنا . وهذه القضايا العامة هي القدر المشترك . وهي وجه الاعتبار والمناسبة بين الغائب والمشاهد . ولولا ذلك لما صح لنا قياس عقلي .

---

(١) مجموع الفتاوى : ٥/٣٠ .

(٢) الرسالة التدمرية : ١٩ .

(٣) نفس المصدر: ٧٢ .

وإذا خوطبنا بوصف ما غاب لم نفهم معنى ما خوطبنا به إلا بمعرفة المحسوس لنا والمشاهد أمامنا من ذلك ، ونوع مناسبته لما عندنا . ولو لم نعرف ما في المشاهد من علم وسمع وبصر وقدرة لم نفهم معنى ما خوطبنا به من الصفات الإلهية عن هذه المعاني فلا بد من هذا القدر المشترك بين ما غاب عنا وبين ما شوهد ليحصل لنا نوع معرفة بذلك . وهذا القدر المشترك هو مسمى اللفظ المتواطىء والمشترك . وبهذه المواطأة والمشاركة نفهم معنى الخطاب وهذه هي خاصية العقل بذلك .

والأمر في هذا كما في أخبار الجنة وما فيها من ألوان النعيم والنار ، وما فيها من ألوان العذاب . ولولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا لم نفهم معنى ما خوطبنا به من تلك المعاني . ونحن نعلم أن حقيقة هذه الأمور غير حقيقة ما نشاهده في الدنيا من ذلك . كما قال ابن عباس : « ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فقط » فإذا كانت صفات هذه الأشياء وهي مخلوقة ليست كصفات ما يشبهها في الدنيا وهي مخلوقة أيضاً ، بل بينهما من التفاضل ما لا يعلمه إلا الله ، فصفات الخالق سبحانه أولى أن يكون بينها وبين صفات المخلوق من التباين والتفاضل ما لا يعلمه إلا الله . فيثبت له المثل الأعلى من كل كمال لا نقص فيه ، مع نفي مماثلته لخلقه في ذلك [1] .

والقرآن قد جمع في حديثه عن الصفات بين الاثبات والتنزيه في آية واحدة حين قال ﴿ ليس كمثله شيء . وهو السميع البصير ﴾ فالله سميع بصير ولا يشبهه أحد من خلقه مع أنهم يسمعون ويبصرون . وكذا في بقية الصفات لأن التماثل في الصفات فرع من التماثل في الذوات . والذاتان هنا مختلفتان تماماً فكذا صفاتها .

ومن الإنصاف هنا أن نشير إلى أن كلًا من الغزالي وابن رشد وابن عربي وابن تيمية قد جمعوا في منهجهم بين الإثبات والتنزيه كما جمع القرآن بينهما في الآية السابقة . فابن عربي يذهب إلى أن الله يتجلى في صورة التنزيه في قوله تعالى ﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ ويتجلى في صورة التنزيل للخيال في قوله ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ ﴾ يقول ابن عربي « وجميع المشاهدين للحق لا يخرجون عن هاتين النسبتين . وهما نسبة التنزيه لله تعالى ونسبة التنزيل للخيال بضروب التشبيه » .

كما أن الغزالي في « المقصد الأسنى » وابن رشد في « مناهج الأدلة » قد جمعا بين التشبيه والتنزيه كما يتضح ذلك من تتبع منهجهما ، وكذلك ابن تيمية في رسائله الكثيرة .

٧ ـ الإثبات ليس تشبيهاً :

لقد تحدث القرآن عن الصفات بالإثبات . والله قد سمى بعض عباده بما سمى به نفسه

(١) الرسالة التدمرية : ٧٢ .

كالعلم والسمع والبصر . والله موجود . والعبد موجود . وليس إثبات هذه الصفات لله يقتضي مشابهته لشيء من خلقه في أي منها . لأنه لا يلزم من اتفاقهما في مسمى الصفة اتفاقهما في حقيقة الصفة .

والأسماء والصفات قد تستعمل خاصة مضافة إلى موصوفها . وقد تستعمل مطلقة عن الاضافة والتخصيص . فإذا استعملت الصفة مضافة كقولنا علم الله ، ووجود الله ، وقدرة الله . فإنها حينئذ تكون خاصة به لا يشركه فيها غيره .

أما إذا استعملت مطلقة عن الإضافة فينبغي أن يعرف أن المعنى المطلق معنى كلي لا وجود له إلا في الأذهان . ولا تحقق له في الخارج . وهذا موضع الشبهة عند المتكلمين حيث اختلط عليهم ما في الأذهان بما في الأعيان ، وظنوا أن هذه المعاني المطلقة تكون موجودة ومتحققة في الخارج . وأننا لو قلنا الله موجود ومحمد موجود لزم من ذلك أن يكون وجود هذا كوجود هذا . وبنوا على ذلك قضية أخرى فقالوا :

« لا بد أن يكون في الرب ما يميزه عن غيره . فيكون فيه جزءان :

١ ـ جزء مشترك بينه وبين عباده .

٢ ـ جزء خاص به يميزه عن غيره .

وما به الاشتراك غير ما به الافتراق . فيلزم أن يكون الرب مركباً مما به الاشتراك وما به الافتراق . وترجع هذه الشبهة إلى تفرقتهم بين الماهية والوجود حيث ظنوا أن للماهية وجوداً مستقلاً خارج الأذهان . وهذا خطأ . لأنهم لم يفرقوا في ذلك بين الإمكان الذهني والإمكان الخارجي ، وظنوا أن كل ما يقدره الذهن ممكناً ، يمكن تحققه في الخارج بمجرد هذا الإمكان الذهني ، والإمام ابن تيمية من علماء القرن الثامن الهجري يؤكد خطأ التفرقة بين الماهية والوجود . ويبين أن ماهية الشيء لا تتحقق إلا بوجود عينه . وما لم توجد عينه فإن ماهيته لا توجد إلا في الأذهان . وفرق كبير بين الوجود الذهني وبين الوجود العيني . لأن شأن جميع المعاني الكلية أنها لا توجد إلا في الذهن فقط ولا وجود لها في الخارج منفصلة عن أعيانها . وإذا وقع الاشتراك في هذه المعاني الكلية فهو اشتراك في معنى ذهني مطلق لا وجود له في الخارج . فإذا قلنا علم زيد ووجود زيد لم يدل هذا إلا على ما يختص به زيد من العلم والوجود . لكن لما علمنا أن زيداً نظير عمرو علمنا أن علمه نظير علمه ووجوده نظير وجوده . وعلمنا ذلك من جهة القياس لا من جهة دلالة اللفظ . فإذا كان هذا في صفات المخلوقين فهي في صفات الخالق أولى .

فإذا قيل علم الله ووجود الله لم يدل ذلك على ما يشركه فيه غيره من مخلوقاته بطريق الأولى . ولم يدل ذلك على مماثلته لخلقه لا في وجوده ولا في علمه كما دل في زيد وعمرو . لأن

هناك علمنا التماثل بين الصفات تبعاً لعلمنا بتماثل الـذوات من جهة القيـاس لكون زيـد مثل عمرو . وهنا نعلم أن الله ليس كمثله شيء في ذاته ، وبالتالي فليس كمثله شيء في صفاته . كما سبق . .

ولهذا كان مذهب السلف أصح المذاهب في ذلك . إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل [1] .

---

(١) انظر في ذلك : الرسالة التدمرية ١٠ - ١٤ مجموع الفتاوى : ١٢٢/٥ - ١٣٢ - ٢١٠ ، ٢٢٢ - ٢٣٢ ، العقل والنقل ٦٦/١ ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام للدكتور علي سامي النشار ٢٠٠ - ٢٢٦ ط دار المعارف سنة ١٩٦٧ م . الصواعق المرسلة لابن القيم : ٤٦٤/٢ ط الإمام ، سنة ١٣٨٠ هـ .

منهج ابن تيمية في إثبات وجود الله

لقد وجد ابن تيمية في القرآن الكريم ومنهجه في الالهيات ما أغناه عن أدلة المتكلمين ومناهجهم . ووجد في أدلته من البراهين العقلية الصريحة ما يناسب جميع الناس . وفي نفس الوقت وجدها أكثر دلالة على مطلوب الشرع أكثر من أدلة المتكلمين والفلاسفة التي لا تدل على مطلوب الشرع بقدر ما تدل على مطلوبهم . وأول ما نعرض له في ذلك أدلته على وجود الله .

وفي استدلال ابن تيمية على وجود الله نجده يسلك اتجاهين كلاهما يمكن الاستدلال به على وجود الصانع .

الاتجاه الداخلي :

الاتجاه الأول : يمكن تسميته بالاتجاه الداخلي وهو لجوؤه إلى الفطرة السليمة التي هي مضطرة بطبعها إلى الإقرار بوجود الرب الخالق . وذلك لما تحتاج إليه النفوس من لجوئها إلى قوة عليا تستنقذ بها عند حلول المصائب . أيا كانت هذه النفوس . مؤمنة أو كافرة . فإن النفس البشرية مضطرة عند حلول المصائب بها الى الركون إلى تلك القوة العليا التي تتوجه اليها بالدعاء والإستغاثة بكشف الضر . ولقد لفت القرآن أنظارنا إلى هذا الاعتراف الفطري حيث قال في صيغة الاستفهام التقريري [1] ﴿ أَمَّنْ يُجيبُ المضْطَّرَّ إذا دعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [2] .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية : ١٤/١٤ ، ١٦/١٦٥ وانظر أيضاً : العقل والنقل ٤/٩٦ ـ ١٠٤ ، ١١١ ـ ١٢٤ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور .

(٢) سورة النمل الآية ٦٢ .

والنفوس بطبعها أسبق إلى الاعتراف بالرب الخالق من الاعتراف بالإله المعبود وذلك لعلم النفوس بحاجتها وفقرها إلى من يحميها وتلوذ إليه عند نزول المصائب قبل علمهم بحاجتهم إلى الإله المعبود الذي تتوجه إليه بالعبادة دون غيره .

وهذه المعرفة الفطرية طبيعة مركوزة في كل نفس مؤمنة أو كافرة ، والنفوس تحسها بطبعها وتشعر بها وإن غابت عنها في بعض الأحيان لسبب طارىء فسرعان ما تجد نفسها مضطرة إلى اللجوء إليها عند الشدائد . ولو لم تكن النفوس مفطورة على هذه المعرفة لما تطلعت إليها بل لم تكن مطلوبة لها .

وهذه الفطرة هي التي أخبر عنها الرسول بقوله « كُل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ويقدم ابن تيمية أدلته الكثيرة على صدق دلالة الفطرة على خالقها كما أخبر بذلك الرسول ويبين ذلك من وجوه كثيرة .

الأول : أن الإنسان قد يجد نفسه في بعض الأحيان يحصل لديه كثير من المعتقدات والارادات التي منها الحق والباطل والضار والنافع وفي مجال ترجيح رأي أو معتقد على آخر تجده مدفوعاً بفطرته إلى ترجيح ما فيه منفعته ودفع ما فيه مضرته ، فيرجح الصدق على الكذب والحق على الباطل كما يميل بطبعه إلى طلب الأكل عند الجوع والماء عند العطش . وفي هذا دليل كافٍ على أن في فطرة كل إنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وارادة النافع . ومن هنا كانت كل نفس مفطورة على الاعتراف بالصانع والإقرار به استجابة لما هي مركوزة عليه من طلب كل ما هو حق والاعتراف به [1] .

الثاني : قد يطرأ على بعض الناس ما يفسد فطرتهم فيحتاجون في ذلك إلى ما ينير لهم السبيل ، ويوضّح لهم الطريق كالتعليم مثلا . ولذلك بعث الله الرسل ، وأنزل الكتب ليكمل بها الفطرة ويذكرها إذا فسدت بما هي مركوزة عليه من طلب الحق . والطفل حين ولادته لا يكون لديه تعقّل لمثل هذه الأمور ، لأن الله يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ ولكنه يولد وفي فطرته قوة تقتضي ذلك الحق وتطلبه ، وتزداد هذه القوة الفطرية لدى الطفل بحسب ما يستطيع تحصيله من العلوم النافعة . وكلما ازداد الطفل علماً وإرادة ، إزداد معرفة بخالقه ومحبة له . وهذا دليل على أن النفوس مفطورة على الاعتراف بها [2] .

الثالث : لا شك أن النفوس يحصل لها من العلوم بحسب ما تكتسبه من الخارج الحسي ، وإذا لم يكن في كل نفس قوة تقتضي معرفة هذه العلوم لما استطاعت أن تعلم شيئاً منها ، ولعل

---

(١) العقل والنقل ٤/٨٣ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور .

(٢) العقل والنقل ٤/٨٣ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور .

أكبر دليل على ذلك أننا لو قمنا بمحاولة لتعليم الحيوانات لما حصل لها من العلوم ما يحصل لبني آدم مع أن السبب في الموضعين واحد . وفي هذا دليل واضح على أن في النفوس قوة لطلب الحق وترجيحه على غيره . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في أن أسلوب القرآن في الاستدلال على وجود الله جاء في صورة التذكير والتنبيه وفي كل هذا دليل على أن الفطرة السليمة كافية في وجوب الإقرار بالصانع (١) .

الرابع : إذا لم تكن الفطرة كافية في ذلك وكان لا بد من معلم ومرشد من خارج ذاتها فإننا نجد في كل نفس ما يدفعها إلى قبول الحق ورفض الباطل مما يعرض لها من خارج ذاتها . وفي هذا دليل على أن فطرة كل إنسان مركوزة على الاعتراف بالحق (٢) .

الخامس : أن كل نفس إذا لم يعرض لها مصلح ولا مفسد من خارج ذاتها فاننا نجدها تطلب ما ينفعها وتحاول أن تدفع عنها ما يضرها . والدليل على ذلك أننا نجد الطفل مدفوعاً إلى لبن أمه بفطرته . ما لم يحصل له مرض يمنعه من ذلك . ومعنى هذا أن حب الإنسان لما ينفعه مركوز فيه ، ولا شك أن حب العبد لربه مفطور فيه أعظم مما فطر فيه من حبه للبن أمه . وفي هذا دليل على أن النفس مركوزة على طلب الحق النافع (٣) .

السادس : أنه لا يمكن للنفس أن تكون خالية عن الشعور بخالقها وعن الإحساس بوجوده ، وذلك لأن كل نفس لا بد أن تكون مريدة وشاعرة . وما دامت النفوس لا تكون إلا مريدة فلا بد لها من مراد تحسه وتطلبه وتحاول الوقوف عليه . وكل نفس لها مرادات كثيرة ومتنوعة ، غير أنها على كثرتها وتنوعها لا بد أن تنتهي إلى مراد واحد تكون إرادتها له لذاته لا لغيره . وهذا لا يكون إلا الله . فهو الذي تريده القلوب وتطلبه النفوس . يقول ابن تيمية : « وبذلك يعلم أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وأن كل مولود ولد على محبة الإله . ومحبته تستلزم معرفته . فعلم أن كل مولود ولد على محبة الله ومعرفته وهو المطلوب (٤) .

ويربط ابن تيمية في تناسق عجيب بين هذه المعرفة الفطرية وبين الميثاق الذي أخذه الله على عباده أزلا حين ﴿ أَشْهَدَهُمْ علىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَستُ بِربِّكُمْ قالُوا : بلىٰ شَهِدنَا ، أَنْ تقُولُوا يومَ القيامةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أو تقُولُوا إِنَّما أَشرَكَ ءَابآؤُنَا من قبل وكُنَّا ذُرِّيَّةً من بعدِهم أَفتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ المبطِلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) نفس المصدر : ٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر : ٨٥ .

(٤) العقل والنقل : ٨٦/٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٢ ـ ١٧٣ .

فالله قد أشهد المرء على نفسه أزلا بهذه المعرفة الفطرية . ولا شك أن شهادة المرء على نفسه من أقوى أنواع الإقرار . لأن من شهد على نفسه بحق فقد أقر به .

وقول الخليقة : ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾هو إقرارهم بربوبيته وأنه خالقهم ، فهم حين خلقوا على الفطرة خلقوا مقرين بالخالق معترفين بوجوده شاهدين على أنفسهم بذلك . وهذا الاقرار هو حجة الله على الخليقة يوم القيامة . فهو يذكر لهم أخذه الميثاق عليهم . وإشهادهم على انفسهم . وإقرارهم على أنفسهم بهذه المعرفة لا يمكن جحده . ولهذا قال سبحانه مذكراً لهم بذلك الإقرار ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَومَ القيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلينَ ﴾ [1] أي كراهة أن تحتجوا يوم القيامة بغفلتكم عن ذلك الإقرار . لأن هذا لم يغفل عنه بشر بل هو من الأمور الضرورية التي لم تخلُ منها نفس فطرها الله . بخلاف غيرها من العلوم الضرورية التي قد يغفل الإنسان عنها أحياناً كالحساب والرياضة . فانها لو تصورت لوجدها الإنسان ضرورية ولكن قد يغفل عنها في كثير من الأحيان لشبه قد تطرأ على عقله أو لبس في الدليل . بخلاف الاعتراف الفطري بربوبية الخالق . فإنه علم ضروري لازم لكل نفس .

ولهذا كان أسلوب القرآن في آيات المعرفة الفطرية على سبيل التذكير والتذكر ﴿ لعلَّهُم يَتذكَّرُونَ ﴾ [2] ، ﴿ إِنَّ في ذلكَ لذِكرىٰ ﴾ [3] ، ﴿ إِنَّما أنتَ مُذكّر ﴾ [4] ، ﴿ إِنْ هذِهِ تَذكرةٌ ﴾ [5] ، ﴿ فَهلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[6] .

فالقرآن في جميع هذه الآيات ، وغيرها كثير ، يذكر الانسان بأمور ضرورية فطرية قد ينساها المرء لعارض طارىء . أو لشبهة فاسدة . أو لطريان ما يفسد فطرته التي خلق عليها . كما قال عليه السلام فيما يرويه عن ربه « خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين » .

وكل ما في القرآن من ذلك إنما هو تذكير للإنسان بفطرته الأولى ومحاولة للعودة به إلى حالته الصحيحة قبل طريان الشبهات عليه . وآية الميثاق قد ذكرت حجتين قد يحتج بأحدهما من فسدت فطرته . وهذا الإقرار الفطري يدفع كلا منها .

الحجة الأولى : احتجاجهم بالغفلة عن هذا الاقرار بقولهم « إِنَّا كنَّا عَنْ هذا غَافلينَ »

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢١ .
(٣) سورة الزمر الآية ٢١ .
(٤) سورة الغاشية الآية ٢١ .
(٥) سورة الانسان الآية ٢٩ .
(٦) سورة القمر الآية ٢٢ .

والآية بينت أن إقرارهم بربوبيته أزلا حجة عليهم في ذلـك . وهذا يتضمن حجـة الله في إبطال التعطيل . تعطيل الخالق عن خلقه والرب عن مربوبه .

الحجة الثانية : إحتجاجهم بشرك آبائهم ومتابعتهم في ذلك بقولهم « إنما أشرك آباؤ نا وكنا ذرية من بعدهم » فالمشركون هم آباؤ نا فكيف تعاقبنا بفعلهم ؟

وذلك أن العادة جرت على أن الرجل يحذو حذو أبيه حتى في الصناعات والحرف فلو لم تكن نفوس هؤلاء مجبولة على الإقرار بالصانع لكانت متابعة الأبناء لآبائهم في شركهم نوع عذر . لأن هذا هو مقتضى العادة والطبيعة والأمر في ذلك كما قال عليه السلام « كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

فالفطرة السليمة هي التي تبين لمن يحتج بما سبق من العادة والمتابعة للآباء خطأ هذا الاعتقاد وبطلان الاحتجاج به .

وهذه الفطرة سابقة على جميع ألوان التربية التي يتلقاها المرء عن بيئتـه في شتى المجتمعات « وهذا يقتضي بالطبع أن العقل الذي يعرفون به التوحيد حجة مـع كل أحـد في بطلان ألـوان الشرك . ولا يحتاج الأمر في ذلك إلى واسطة » .

ولو لم يكن في الفطرة أساس يعتمد عليه في الأدلة العقلية التي يعلم بها إثبات الصانـع لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم . لأن الرسالة جاءت للتذكير بالربوبية . والدعوة إلى توحيـد الألوهية . وهذا من أقوى حجج الله على عباده يوم القيامة .

والشرك الذي وقع في جميع الأمم يناقض تماماً الإقرار بالربوبية كما سجل القرآن ذلك في كثيـر من آياتـه التي تتحدث عن المشـركين ﴿ وَلَئِن سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [1] ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [2] . كما سجل القرآن اعترافهم بذلك في أسلوب الاستفهام التقريري الذي يتضمن وقوع المستفهم عنه سابقاً . كما في قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وأَنـزلَ لكُم مِنَ السَّماءِ مَـاءً فأَنْبَتنَـا بـهِ حَدائقَ ذَاتَ بَهجةٍ ﴾ . ﴿ أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ﴾ [3] ؟ ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرضَ قَراراً . وَجَعَلَ خِلالَها أَنهاراً . وَجَعَلَ لها رَواسيَ . وَجَعَلَ بينَ البَحْرَينِ حَـاجزاً . أَإلـهٌ معَ اللهِ ﴾ [4] ، ﴿ أَمَّن يُجيبُ المضـطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

(١) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

(٣) سورة النمل الآية ٦٠ .

(٤) سورة النمل الآية ٦١ .

وَيَكْشِفُ السُّوءَ ويجعلكُمْ خُلفاءَ الأَرضِ . أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ﴾[1]، ﴿ أَمَّنْ يَبدؤُا الخلقَ ثمَّ يُعيدهُ . وَمَن يَرزقكُمْ مِنَ السَّماءِ والأَرضِ . أَإِله مَعَ اللهِ ﴾[2] ؟

وفي مقام الإجابة عن كل هذه التساؤلات المعجزة نجد أن القرآن يجيب على نفسه في أسلوب التحدي والإعجاز ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فجميع هذه الآيات تضع الإنسان مباشرة أمام هذه التساؤلات التي لا مناص له إزاءها من الإقرار والتسليم بمقصودها وهو الاعتراف بالخالق .

وهي أدلة سمعية وفي نفس الوقت عقلية وشعورية ونفسانية . لا يسع العقل السليم إلا أن يسلّم بها . ولا الاحساس إلا الشعور بمضمونها . ولا النفس إلا الرضى والتسليم بها .

ثم إن القضايا التي تطرحها هذه الآيات أمام الانسان هي قضايا عقلية لا بد أن يطرحها كل إنسان على نفسه من حين لآخر كما أنه لا بد له من الاجابة عليها بصورة أو بأخرى . وفي معرض إجابته على كل هذه التساؤلات يجد نفسه مضطرا إلى الاعتراف بوجود الله . ومن هنا فلا يجد ابن تيمية في استدلاله على وجود الخالق ضرورة إلى اللجوء إلى أدلة المتكلمين والفلاسفة ما دامت فطرة الانسان ووجوده كافيين في ذلك « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » .

الاتجاه الخارجي :

الاتجاه الثاني : ويمكن أن نسميه بالاتجاه الخارجي وهو التأمل في الآفاق ، أعني بذلك الاستدلال على وجود الله من خارج نفس الانسان ، ويلجأ ابن تيمية في ذلك إلى هذا الكون الفسيح وما فيه من الآيات الظاهرة في دلالتها على وجود الله . والاستدلال بالآيات أدل على المقصود من الاستدلال بالأقيسة والبراهين . ولهذا كانت أدلة القرآن تتجه كلها إلى الاستدلال بآياته الكونية على وجوده .

ويقسم ابن تيمية هذه الأدلة الى نوعين : أقيسة . وآيات .

الأقيسة :

فالأقيسة لا تدل إلا على معنى كلي غير متعين . فإذا قيل هذا محدث وكل محدث فلا بد له من محدث . أو كل ممكن فلا بد له من واجب . فإن النتيجة التي تؤدي إليها مقدمات هذا

---

(١) سورة النمل الآية ٦٢ .

(٢) سورة النمل الآية ٦٤ .

القياس هي إثبات واجب قديم . لكنها لا تدل على عينه . وهذا التصور العقلي لا يمنع من وقوع الشركة فيه . بل ما زال الأمر في معرفته يحتاج إلى دليل آخر لا يمكن معرفته عن هذا الطريق .

وهنا فلا بد من اللجوء إلى دليل الآيات التي أودعها الله هذا الكون وأخذ يذكر الإنسان بها من حين لآخر . فهي التي تدل على عينه .

ويربط ابن تيمية بين الاتجاهين السائدين في مذهبه برباط عجيب حين يجعل الاتجاه الثاني « الخارجي » محتاجاً في صحته إلى الاتجاه الأول « الداخلي » وذلك لأن الاستدلال بالآيات مشروط بالمعرفة السابقة . والإقرار السابق بربوبية الخالق . لأنه لو لم تعرف عينه لما عرف أن هذه الآية تستلزم هذا الصانع .

وهنا نجد أن المعرفة الفطرية السابقة شرط في صحة الاستدلال بالآيات ، وأنها هي التي تهدي المستدل على ذات الخالق بحيث يميز بينه وبين غيره .

يقول ابن تيمية : « وهذا شأن الحق الذي يطلب معرفته بالدليل . فلا بد أن يكون مشعوراً به في النفس حتى يطلب الدليل عليه أو على بعض أحواله . وأما ما تشعر به النفس أصلا فليس مطلوباً لها البتة »(١) .

الآيات :

وفي معرض الاستدلال بالآيات على وجود الله نجد القرآن يضع أمام الإنسان أكثر هذه الآيات دلالة وأظهرها وضوحاً في الاستدلال وهي آية الخلق من العدم . وأول سورة نزلت من القرآن ذكرت نعمة الخلق قالت ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ﴾ فذكرت الخلق مطلقاً ومقيداً لتذكر الإنسان في جميع أحواله أن هذا الخلق لا بد له من خالق . ثم ذكرت خلق الإنسان من علقة ليكون الإنسان نفسه هو الدليل الذي يستدل به على خالقه . وهذا أيضا دليل فطري يعلمه كل انسان من نفسه ويذكره كلما تذكر بني جنسه (٢) . ولكون آية الخلق أقوى أنواع الآيات دلالة على الخالق كان القرآن في كثير من آياته يضع أمام العقل الإنساني هذه التساؤلات في صورة الاستفهام التقريري .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَيءٍ . أَمْ هُمُ الخالِقُونَ ﴾ (٣) ؟

﴿ أَوَ لاَ يذكُرُ الإنسانُ أَنَّا خَلقناهُ مِنْ قبلُ ولَمْ يَكُ شَيئاً ﴾ (٤) ؟ .

---

(١) العقل والنقل : ٨٦/٤ .

(٢) مجموع الفتاوي ١٦٢/١٦ .

(٣) سورة الطور الآية ٣٥ .

(٤) سورة مريم الآية ٦٧ .

﴿هَلْ أَتىٰ علىٰ الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لَمْ يَكنْ شَيئاً مَذكُوراً ﴾ [1] ؟

فآية الخلق فطرية وظاهرة للعقول يمكن أن يستدل بها على الخالق . وفي نفسها من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى دليل .

ويرى ابن تيمية أن آية الخلق وحدها كافية في الاستدلال على وجود الله وليست هناك حاجة إلى القول بأن الخلق أو الحدوث لا يعرف إلا بالاستدلال على حدوث الأعراض أولا ، ثم ملازمتها للجواهر ثانياً . ثم القول بأن الجواهر لما لازمت الأعراض وهي حادثة كانت حادثة أيضاً . وهذا مسلك المتكلمين . فإنهم لجأوا إلى طريقة الأعراض وملازمتها للجواهر والتزموا في ذلك مقدمات طويلة ومعقدة أوقعتهم في الاضطراب والحيرة . وآية الخلق أو الإحداث أو الاختراع كما أسماها ابن رشد صفة بيِّنة بنفسها بحيث يستدل بها على غيرها ولا يستدل بغيرها عليها .

فأيها أظهر للعقول . الاستدلال بالخلق على الخالق . أو اللجوء إلى طريقة المتكلمين في ذلك .

إن أدلة ابن تيمية على وجود الله تمتاز بوضوحها وبداهتها مع نفسها ومع ذلك فهي أدلة عقلية برهانية لا يمكن معارضتها بدليل عقلي برهاني قاطع . وهي أكثر ملاءمة للنفوس والعقول ولجميع الناس عامتهم وخاصتهم .

---

(١) سورة الانسان الآية ١ .

مَذْهَبُهُ فِي التَّوْحِيدِ

يرى عامة المتكلمين أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أنواع فيقولون :

١ ـ هو واحد في ذاته لا قسيم له .
٢ ـ واحد في صفاته لا شبيه له .
٣ ـ واحد في أفعاله لا شريك له .

وأشهر هذه الأنواع الثلاثة هو النوع الأخير المسمى عندهم « توحيد الأفعال » بمعنى أن خالق العالم واحد ، ويحتجون على ذلك بما يذكرونه من دليل التمانع وغيره . وأدلة المتكلمين على التوحيد مطلوبها إثبات هذا النوع [١] .

أما ابن تيمية فيذهب في اثبات التوحيد إلى منهج آخر حيث يقسم التوحيد إلى نوعين :

الأول : توحيد الربوبية بمعنى أن رب العالم وخالقه واحد . وليس اثنين . وهو الرب سبحانه الذي جبلت الفطر على الاعتراف به والخضوع له .

الثاني : توحيد الألوهية بمعنى أن يعبد الله وحده لا يشرك بعبادته أحد من خلقه ، وفي هذا النوع يتحقق معنى قولنا لا إله إلا الله .

أما النوع الأول (توحيد الربوبية) فقد اعترف به المشركون وجبلت على الإقرار به جميع الفطر كما سجل القرآن اعتراف مشركي العرب بذلك ، وأقرارهم به ﴿ ولئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

---

(١) الرسالة التدمرية : ١٠١ .

السَّمواتِ وَالأَرضَ لَيقُولُنَّ الله﴾ ، [الزمر ٣٨] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ليقولُنَّ الله ﴾ . [الزخرف ٨٧] .

فجميع المشركين كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه . ومع إقرارهم بربوبيته لم يخرجوا عن مسمى الشرك لأنهم لم يحققوا معنى قول المسلم : لا إله إلا الله الذي يتضمنه النوع الثاني « توحيد الألوهية » الذي هو قطب رحى القرآن ، والذي لأجله جاءت الرسل وأنزلت الكتب وعليه يكون الثواب والعقاب ، وبه يتحقق إخلاص الدين لله [١] .

فتوحيد الألوهية هو دعوة كل رسول إلى قومه من لدن آدم إلى محمد عليه السلام . فقد كان كل رسول يقول لقومه : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وبه أمر الرسول أن يقول « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين » .

وبه خوطب الرسول بقوله تعالى ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وبقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وبقوله : ﴿ واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا . أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ والذي يتدبر آيات التوحيد في القرآن الكريم يجدها كلها تدور حول تقرير هذا النوع من التوحيد لأنه مناط الإيمان ولا يتحقق إيمان المرء إلا بالإقرار به قولاً وعملاً . ولهذا كان ﷺ يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » .

ولما كان توحيد الألوهية هو مناط الإيمان بالله ورسوله كان لا بد أن يعني القرآن بتقريره والبرهنة عليه بالأدلة العقلية والبراهين الصحيحة . لأن الشرك الذي وقع في جميع الأمم كان في هذا النوع . فإن عامة مشركي الأمم كانوا مقرين بالصانع ويعترفون بتوحيد الربوبية . ولكنهم مع إقرارهم بربوبيته قد أشركوا بعبادته غيره . وكان ما عابه مشركو العرب على محمد ﴿ اجْعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً ﴾ [٢] وقالوا له : ﴿ إنَّ هذا لَشيء عُجَابٌ ﴾ [٢] .

ولا شك في وجوب الايمان بتوحيد الربوبية إلا أنه ليس كل الواجب وليس هو مناط الإيمان والكفر ولا مناط التوحيد والشرك . وليس بمجرد الإقرار به يكون المرء موحداً .

وتوحيد الربوبية هو ما سماه المتكلمون بتوحيد الأفعال ، بمعنى أن لا شريك له فيها ، وهو الذي انهى المتكلمون عقولهم في تقريره والاستدلال عليه ، وظنوا ـ خطأً ـ أنه التوحيد الذي بعثت

---

(١) منهاج السنة ٢/٦٢ ط بولاق ، رسالة الحسنة والسيئة لابن تيمية : ٢٦٠ ضمن مجموعة شذرات البلاتين ط . أنصار السنة المحمدية .

(٢) سورة ص الآية ٥ .

به الرسل وأنزلت الكتب وأنه الذي يتعلق به حد التوحيد والشرك ، وخلطوا في ذلك بين معنى الربوبية ، ومعنى الألوهية ، فجعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع ، واعتقدوا أن الإله هو القادر على الاختراع ، وجعلوا هذا أخص صفات الإله [١] .

ولقد أخطأ المتكلمون في معرفة حقيقة التوحيد وبالطرق التي سلكوها في تقرير هذا التوحيد ، ولم يقدروا أدلة القرآن حق قدرها . ولما ظنوا أن مجرد الاعتقاد في توحيد الربوبية كاف في حقيقة التوحيد أخذوا يستدلون على ذلك بأدلة لا ترقى إلى تقرير التوحيد كما جاءت به الرسل ، وكما أراده الله من عباده ، وحملوا الآية الكريمة « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » على أن هذا دليل التمانع الذي يستدلون به على اثبات التوحيد .

ويرى ابن تيمية ـ موافقاً في ذلك ابن رشد ـ ان الآية ليست مشتملة على دليل التمانع ، لأن دليل التمانع الذي يتحدثون عنه هو امتناع صدور العالم عن ربين خالقين له ، فظنوا أن الآية مسوقة لنفي الشركة في الربوبية ، وصار كل منهم يذكر في ذلك طريقاً غير طريق صاحبه . والآية ليست مسوقة لنفي التعدد في الربوبية لأن هذا لم يذهب إليه أهل الشرك ، بل هي مسوقة لنفي التعدد في الألوهية ، ونفى أن يكون هناك من يستحق العبادة من دون الله ، لأن توحيد الربوبية كان معترفاً به من جميعهم ، فليسوا في حاجة إلى تقريره ، وإنما هم في حاجة إلى بيان أن من أقروا بربوبيته وحده يجب أن يعبد وحده .

ومقصود القرآن هو توحيد الألوهية ، وهو متضمن لتوحيد الربوبية من غير عكس ، ولهذا قالت الآية ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ .

ولم تقل لو كان فيهما إلهان ، لأن الفرض المقدر هو آلهة كثيرة تعبد مع الله [٢] .

وابن رشد في مناقشته للمتكلمين لا يفرق بين نوعي التوحيد كما فرق بينهما ابن تيمية ، وخاصة في مناقشة هذه الآية .

ولهذا بنى كل مناقشته معهم على أن الآية مسوقة لنفي التعدد في الربوبية ، وإن كان يختلف عنهم في جهة الدلالة على ذلك كما هو موضح في مناهج الأدلة ، وهذا عكس ما ذهب إليه ابن تيمية .

ولهذا كان الفساد الذي نفته الآية عند ابن رشد هو عدم وجود العالم على حالة الفساد ، أما عند ابن تيمية فهو الفساد المترتب على وجود آلهة كثيرة تعبد من دون الله ، فهو يفسر الفساد بأنه ضد الصلاح الذي فيه سعادة البشر ، وهذا لا يكون إلا بتوجه جميع القلوب إلى إله واحد تألهه

---

(١) العقل والنقل : ٣٢١/٤ مخطوط .

(٢) العقل والنقل : ٣١٤/٤ مخطوط .

فتخضع له ، وتنهى إليه محبتهم وغايتهم ، ومن هنا كان كل عمل لا يقصد به وجه الله غير نافع ، وكانت أعمال المشركين كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وكسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً .

وما دامت الفطرة مركوزة على الإقرار بالصانع فليس هناك إله سواه ، لأنه ليس هناك من يستقل بالإبداع والاختراع غيره .

وابن تيمية يوافق ابن رشد على أن الآية لا تشتمل على دليل التمانع ، ولكنه ينكر نقد ابن رشد لدليل التمانع ، ويرى أنه دليل صحيح دال على مطلوب المتكلمين في نفي أن يكون هناك ربان خالقان للعالم ، إلا أنه ليس دليل الآية .

وفي الاستدلال على نفي التعدد في الألوهية تجد ابن تيمية يستدل بالآية الكريمة ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ ولدٍ وَمَا كانَ معهُ مِنْ إلهٍ إذاً لذهَبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولَعَلاَ بعضُهمْ على بعضٍ ﴾ (١)، فالآية قد نفت أن يكون لله ولد يتقرب إليه بعبادة هذا الولد وفي هذا نفي لتأليه الوسائط بين الله وعباده ، ثم نفت أن يكون هناك آلهة أخرى تعبد على سبيل الشركة معه ، لأنه لو كان هناك من يستحق العبادة معه لكان الأمر لا يخلوا من أحد احتمالين .

الأول : أما أن يكون كل إله قادراً فيتحقق الفرض الأول وهو قوله ﴿ إذاً لَذَهبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ﴾ وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم (٢) .

الثاني : أن يكون أحدهم قادراً دون الآخرين وهنا يصدق الفرض الثاني وهو قوله ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ ومعلوم أن ذلك لم يقع ، فدل ذلك على امتناع أن يكون هناك إله قادر ، وآخر عاجز ، ولو فرض وقوع ذاك لكان القادر هو الإله دون بقية الالهة ، وعند ذلك يستحق العبادة وحده دون غيره .

فالآية تضمنت لازمين كلاهما منتف بالمشاهدة ، وانتفاء كل واحد منها يدل على أنه ليس هناك إلا إله واحد يعبد دون سواه .

وهذا هو مطلوب الآية ، والمقصود من التوحيد الذي بعثت لأجله الرسل . والقرآن قد استعمل في نفي الشركاء لله في العبادة الأمثال المشاهدة أمام الإنسان وعليه أن يستعمل في ذلك قياس الأولى بالنسبة لله .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أنفسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِن مَا مَلَكَت أيمانُكُمْ مِنْ شُرَكَاء في مَا

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٢) العقل والنقل : ٤/٣٢١ - ٣٢٧

رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [1] ومعلوم أن مملوك الرجل لا يكون شريكه بحال ما ، فإذا كان هذا شأن الإنسان مع عبده ـ ولله المثل الأعلى ـ فلماذا يجعلون عبيد الله ومخلوقاته شركاء معه في عبادته .

ثم يضع القرآن أمامنا دليلاً آخر في نفي التعدد في الألوهية ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

فالآية توجه إلى المشركين هذا السؤال :

هل الذين عبدتموهم من دون الله ، يملكون مثقال ذرة في السموات أو في الأرض على سبيل الاستقلال أو على سبيل الشركة ؟

وهل عاون أحد منهم في خلق السموات والأرض ؟

ولحصول العلم لديهم بنفي ذلك نجد القرآن يعمد إلى نفي قضية أخرى ، ربما كانت سبباً في وقع الشرك في هذا العالم ، فيقول لهم ، أن الشفاعة لا تقبل عنده إلا لمن أذن له في ذلك ، فينفي بذلك دعواهم في شركهم بأنهم قالوا ﴿ ما نَعبدُهُمْ إلَّا ليقربونَا إلىٰ اللهِ زُلفَىٰ ﴾ [2] .

فالذي لا يخلق لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الشركة لا يستحق العبادة ، وإذا كانوا هم مقرين بالرب الخالق ، فالآيات تبين لهم أن الرب القادر ، والضار النافع ، هو الذي يجب ان يعبد لا غيره .

وعلى هذا النحو من البساطة والهدوء يقدم ابن تيمية أدلة القرآن على توحيد الألوهية وهي أدلة عقلية وشرعية ، ومع ذلك هي فطرية مناسبة لجميع العقول ، فليس اثبات التوحيد محتاجاً إلى استعمال هذه الألفاظ المجملة التي أوقعت المتكلمين في الاضطراب ، والقرآن قد استغنى عن ألفاظ المتكلمين بأنه : أحدٌ صمدٌ ﴿لم يلدْ ولم يولدْ ، ولم يكنْ لهُ كفواً أحد ﴾ .

وعلى ذلك فإن جميع آيات القرآن تجري على ما هي عليه ، فليست هناك آية أو صفة يناقض ظاهرها وحدانية الله تعالى ، لأن منهج ابن تيمية في الوحدانية هو منهج القرآن وليس منهج المتكلمين المستلزم لنفي الصفات .

---

(1) سورة الروم الآية ٢٨ .

(2) سورة الزمر الآية ٣ .

ابن تيمية بين التشبيه والتنزيه

لقد وضع القرآن أمامنا آيات عديدة يدور الحديث فيها حول تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث مثل قوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ وأنه تعالى أحد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، ومع ذلك فقد ذكر القرآن جميع الصفات الإلهية التي وصف الله بها نفسه من العلم والقدرة والعلو والاستواء والمجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً والإتيان في ظلل الغمام وغير ذلك . وطلب من المؤمنين أن يؤمنوا بجميع صفاته تعالى وآيات كتابه الكريم ، ومنها آيات التنزيه . وعلى ذلك فليس من التشبيه في شيء أن يؤمن العبد بأن الله سبحانه عليم قدير ، وأنه استوى على عرشه ، ويجيء يوم القيامة ، ويأتي في ظلل من الغمام ، وأنه تعالى موصوف بهذه الصفات حقيقة لا مجازاً ما دام يعتقد أنه سبحانه ليس كمثله شيء في صفاته ، كما أنه لا يشبهه شيء في ذاته ولم يكن له كفواً أحد فيها ، لأن الله سبحانه أعلم منا بنفسه ، وبما يجب له من صفات الكمال ، وبما يجب أن ينزه عنه من صفات المحدثين ، وما على العبد في ذلك إلا أن يثبت وجود الصفة لله كما أثبتها له القرآن ولا يبحث في كيفها كما هو منهج القرآن في ذلك . إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل .

وإذا وضعنا أمام أعيننا تراث ابن تيمية لا نستطيع القول بأنه قد خالف منهج القرآن في ذلك . بل كل ما صرح به ابن تيمية هو ما نطق القرآن وجاءت به السنة الصحيحة . فهو يثبت لله صفات العلو والاستواء والمجيء والإتيان والنزول ، وأنه يحب المؤمن ويكره الكافر ويرضى عمن شاء ويفعل ما شاء كيف شاء ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وهذه الصفات يجب حملها على الحقيقة لا على المجاز لأنه لو وصف الله تعالى بها مجازاً لم يكن موصوفاً بها في الحقيقة ،

وفي هذا القول نفي للصفة وسلب لمعناها المراد إثباته لله ، وهذا ما يجب ان ينزه الله عنه ما دام وصف نفسه بذلك .

وهذا المنهج قد أخذ به أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر وفي كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » وكتاب « للتوحيد » فهو يرى أن الله موصوف بما وصف نفسه به حقيقة لا مجازاً لأن لغة المجاز نوع من الكذب وأخذ يرد تأويلات المحرفين لكتاب الله ، وصرح بأن يده تعالى الواردة في كتابه الكريم ليست نعمته ولا قدرته وأن استواءه على العرش ليس استيلاء كما قالت الجهمية . وأنه لو وصف بهذه الصفات مجازاً لا حقيقة لكان غير موصوف بها حقيقة كوصف الجدار بالارادة فانه نوع من الكذب .

ومع أن ابن تيمية يصرح بنفي التمثيل والتشبيه والتكييف لهذه الصفات ، إلا ان خصومه ـ وما أكثرهم ـ نسبوا إليه أقوالاً ما كان أبعده عنها ، وكثيراً ما نسبوا إليه القول بالتشبيه والتجسيم والجهة والحيز والاستواء الحسي والقول بقدم حروف القرآن وقراءة القارىء له ، وغير ذلك من الاتهامات التي برأ نفسه منها وهو ما زال على قيد الحياة .

وأحب أن أوضح هنا حقيقة هامة في فهم منهج ابن تيمية . فالرجل قد خاض غمار الفلسفة وعلم الكلام والتصوف وكشف الغامض من ذلك ووضح المبهم ، وكان إذا ناقش الفلاسفة أو المتكلمين تجده خبيراً بمصدر الرأي ومغزاه . وإذا تحدث عن التصوف تجده ذا بصر نفاذ إلى أسرار الصوفية وما يكمن في أقوالهم .

وهؤلاء وأولئك قد ذهبوا في تأويل القرآن إلى حد التحريف والتبديل لأن القرآن قد عارض ظاهره ما معهم من القضايا التي أدخلوها في جنس المعقول ، وهي ليست من المعقول في شيء ، فأراد ابن تيمية أن يكشف في نقاشه مع هؤلاء عن حقيقتين هامتين :

الأولى : أن العقل الصريح في دلالته على المراد لا يمكن أن يخالف المنقول الصحيح الثابت ، لأن العقل والنقل وسيلتان لغاية واحدة هي الوصول إلى الله . والوسائل التي تؤدي إلى غاية واحدة لا يمكن لها أن تتعارض وإنما تتعاضد وتتآزر في سبيل الوصول إلى الحقيقة المرادة . والحق المطلوب هنا للعقل والنقل هو الله سبحانه .

الثانية : بيان أن ما يدعيه الفلاسفة والمتكلمون والصوفية مما يقولون أنه قد خالفه ظاهر القرآن وخاصة في الأمور الإلهية ليس معهم من ذلك ما يصح أن يسمى دليلاً عقلياً حتى يقال أن المنقول الصحيح قد عارضه ولا بد فيه من التأويل منعاً للتعارض بينهما .

وفي سبيل تقرير هاتين الحقيقتين نجد ابن تيمية يلجأ إلى طريقة بارعة في إبطال حجج المخالفين للكتاب والسنة ، حيث يلجأ إلى مقارنة حجج الخصوم بعضها ببعض ليبين تهافتها كلها

عن أن تقنع ذوي العقول السليمة .

وقد يطول به المقام في ذلك إلى قدر كبير من الصفحات في كتبه التي يقرر فيها تهافت دعوى هؤلاء وهؤلاء ، وهو في كل ذلك لا يعبر عن رأيه هو . وإنما يحكي ما يجوز أن يعارض به الخصوم بعضهم بعضاً ليبين أن أدلة الطرفين لم تقنع أيا منهما فضلاً عن المخالف لهما جميعاً .

وفي نهاية الموقف نجده يعبر عن مقصوده من ذلك النقاش بقوله :

« والمقصود من ذلك بيان أن من خالف الكتاب والسنة ليس معه ما يسمى معقولات وإنما هي شبهات وسلبيات » وأن حجج أي من الطرفين لا تقنع الطرف الآخر .

أو بقوله « والمقصود هنا بيان أن من خرج عن الكتاب والسنة ضل سعيه وخاب أمله » [1] .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : إذا أراد الباحث أن يعثر على رأي ابن تيمية وعقيدته التي يدين بها . فهل من الصواب في ذلك أن نبحث عنها خلال نقاشة للخصوم ببيان تهافت حججهم ومناقضتهم بعضهم بعضاً . أم أن الصواب في ذلك أن نتلقاها عنه هو معبراً عما يعتقده ويدين به صراحة بلا لبس ولا التواء ؟

إن النظرة العلمية والمنهج السليم يقضي علينا أن نتلقى رأي ابن تيمية - في جميع المسائل التي تعرض لها - عنه كما صرح به بدون لبس أو غموض ، وليس من الصواب أن نذهب في متابعته لهؤلاء وهؤلاء وندّعي أن معارضته لهذا الرأي أو ذاك تدل على أنه يقبل نقيضه كما ألزمه بذلك خصومه ، وهو لم يترك موقفاً تعرض له إلا أدلى فيه برأيه صراحة مدعوماً بالأدلة العقلية الصريحة والنقلية الصحيحة .

وإذا كان هذا رأينا فإن ابن تيمية قد وضع رسائل عدة في بيان العقيدة الصحيحة التي أجمع عليها سلف الأمة . كالعقيدة الواسطية ، والعقيدة الحموية ، وتعرض لها كذلك في مواطن عدة من كتبه الأخرى . كالفرقان بين الحق والباطل ، ومذهب أهل السنّة وعرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات . وغير ذلك من كتبه .

وسأترك الحديث الآن لابن تيمية لكي يوضّح لنا موقفه السليم من المسائل التي إتهم فيها بالإلحاد ، والزندقة لكي يبرىء نفسه بنفسه مما نسب إليه زوراً وبهتاناً .

وسأعرض نصوصاً أراها قاطعة في مذهبه .

ففي العقيدة الواسطية يقول « ومن الإيمان بالله ، الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به

---

(1) انظر العقل والنقل : ١/٣٥ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٩٦ ، ٢/٩٤ ، ١١٣ ، ١٧٦ ، ٢٣٠ .

رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل . . فاتفق السلف على أن الكيف غير معلوم . . وكذلك التمثيل منفي بالنص والاجماع مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف . إذ كُنْه الباري غير معلوم للبشر [1] » ويقول في العقيدة الحموية « ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث . . وهو سبحانه ليس كمثله شيء في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله » [2] .

وفي مقام حديثه عن الاستواء يقول « القول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أنه مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير ولا يجوز أن تثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم . فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها » [3] .

وفي مقام الحديث عن علوه سبحانه على خلقه يقول « ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحويه وتحيط به فهو كاذب ، إن نقله عن غيره وضال إن اعتقده في ربه . . ولو سئل سائر المسلمين هل يفهمون من قول الله ورسوله إن الله في السماء ان السماء تحويه لبادر كل منهم إلى أن يقول هذا شيء لم يخطر ببالنا » [4] .

ولا أريد أن استرسل في ذكر النصوص التي تبين مذهب ابن تيمية في نفي المماثلة بين الله وبين مخلوقاته فيما وصف به . لأنه لا يخلو كتاب من كتبه عن ذكر ذلك صراحة .

ولكن من أين لأعداء ابن تيمية أن يتهموه بالتجسيم والتشبيه إذا كان هذا مذهبه ؟ .

ولقد حيك حول ابن تيمية كثير من المؤامرات ورمي بالكفر والإلحاد ووضعت الكتب للنيل منه ، وما كان لمثل ابن تيمية أن يسلم من حقد حاسديه ووشايتهم به ، فكما نيل منه في حياته فقد تعرض تراثه كذلك لأيدي العابثين بعد وفاته . وحملت ألفاظه أكثر مما تحمل ووضعت في غير موضعها الذي أراده لها ابن تيمية .

وجميع الاتهامات التي وجهت إلى الإمام ابن تيمية سواء في حياته أو بعد مماته لا تكاد تخرج عن نمطين من الحديث :

---

(١) العقيدة الواسطية : ٣٩٣ ـ ١٩٤ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى » .

(٢) العقيدة الحموية . ٤٣٨ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى .

(٣) العقيدة الحموية : ٤٣٩ ـ ٤٤٠ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى » .

(٤) العقيدة الحموية : ٤٦٨ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى » .

النمط الأول :

نمط من الحديث مكذوب ومحض إفتراء عليه بقصد التشنيع والتشويه . مثل ما يدعيه أبو بكر الحصني الدمشقي في كتابه « دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد » من أن ابن تيمية كان يجلس في صحن الجامع الأموي فذكر ووعظ ثم قال والله قد استوى على عرشه كإستوائي هذا . (والمشبه والمتمرد عند الحصني هو ابن تيمية) .

ومثل دعواه أيضاً . أن ابن تيمية يقول بأن الله ينزل إلى سماء الدنيا إلى مرجة خضراء وفي رجليه نعالان من ذهب [(١)]) .

النمط الثاني :

وهو اتهامه بالتشبيه والتجسيم نتيجة الخطأ في فهم مذهبه ، وهذه الدعوى قديمة أيضاً قدم تراث ابن تيمية نفسه ولا زلنا نقرؤ ها في كتب المعاصرين لنا إلى اليوم .

وسبب الخطأ عند هؤلاء أن ابن تيمية في نقاشه لخصومه كان ذا نفس طويل في إيراد حجج الخصوم وحكاياتها ، فظن بعض الباحثين ـ خطأ ـ بأن آراء ابن تيمية هي التي يعارض بها خصومه ، وهذا خطأ فاحش في فهم منهج ابن تيمية وأسلوبه في النقاش ومخاطبة مخالفيه وليس الأمر كذلك . بل أن حجج خصومه وآراءهم هي التي يقرع بعضها بعضا لتتساقط جميعها متهاوية امام أدلة الكتاب والسنة ثم يعلن ابن تيمية عن رأيه في نهاية المطاف مدعوماً بالكتاب والسنّة وهذا مصدر الخطأ عند كثير من الدراسين .

ويكفي لتنزيه موقف ابن تيمية عما نسب إليه أنه لا يستعمل الألفاظ المجملة لا في النفي ولا في الإثبات كالجسم والحيز والجهة . وعدم إستعماله لهذه لألفاظ لم يمنعه أن يناقش أصحابها ليبين لهم أنها ألفاظ مجملة لم ترد في الكتاب والسنّة ، ولا ينبغي أن يناط بها رأي أو مذهب في النفي أو الاثبات ، وأن من بنى مذهبه في التنزيه على ذلك فلا يسلم من الاضطرابات لما يلزمه من المحالات . ولا يترك لفظاً من هذه الألفاظ المجملة حتى يبين ما فيها من لَبْسٍ وإبهام . فهو إذا ناقش النفاة في علة نفي الصفات الإلهية لا يجد عندهم حجة سوى القول بأنَّ إثبات الصفات يؤدي إلى التجسيم والحيز والجهة .

فيقول لهم : ماذا تريدون بهذه الألفاظ المجملة التي لم يرد فيها عن السلف أثر صحيح لا بنفي ولا إثبات ، وكيف ساغ لكم الكلام بها نفياً وإثباتاً ولم يرد بها شرع ولا دين .

ويبين لهم أن الألفاظ نوعان :

---

(١) انظر : ٤١ ـ ٤٨ من الكتاب المذكور .

لفظ ورد في الكتاب والسنّة وأجمع عليه سلف الأمة وهذا يجب القول به والأخذ بموجبه لأن الرسول لا يقول إلا حقاً .

والثاني : لفظ لم يرد به دليل شرعي كهذه الألفاظ المجملة وتكون المعارضة بها معارضة غير شرعية وحينئذ يجب أن يستفصل القول في ذلك [1] . ويقال لهم : ماذا تريدون بالجهة ؟

أتريدون بالجهة أنها شيء مخلوق ؟ إذا أردتم هذا المعنى وافقناكم عليه ، فالله ليس في شيء من مخلوقاته ولكن نخالفكم في إستعمال اللفظ لأنه لم يرد به أثر نفياً ولا اثباتاً ، أم تريدون بها ما وراء العالم ؟. ولا ريب أن الله فوق خلقه عليٌّ على عرشه . وهذا اللفظ لم يرد به الشرع إنما ورد العلو والفوقية والاستواء ونفاة الجهة يريدون بذلك نفي أن يكون الله موصوفاً بالعلو والفوقية وهما ثابتان له في كتابه الكريم ، فهو سبحانه فوق عباده مستوٍ على عرشه . ونحن لا نترك هذا المعنى الحق الوارد في القرآن لمجرد هذه التسمية الباطلة المحدثة .

ومن اعتقد أن كون الله في السماء أنها تحويه وتحيط به فهو كاذب إن نقله عن غيره وضال إن اعتقده في ربه ، وما سمعنا أحدا يفهمه من اللفظ ، ولا رأينا أحدا نقله عن واحد ، ولو سئل سائر المسلمين هل يفهمون من قول الله ورسوله أن الله في السماء وأن السماء تحويه أو تحيط به لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول هذا شيء لم يخطر ببالنا[2] .

وابن تيمية يثبت هنا المعنى الحق الذي ورد به القرآن وينفي كل ما يتوهم في ذلك من الباطل . وكذا في الحيز والحد : يقول للنفاة ماذا تريدون بذلك ؟. إن أردتم أن الله لا تحده مخلوقاته ولا يحوزه عرشه ولا سماواته بهذا يصرّح به لأن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض . بل الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه . وإن أردتم بذلك نفى أن يكون الله قد استوى على عرشه فنحن لا نترك هذا المعنى الحق لمجرد هذه التسمية الباطلة وقولنا من غير تكييف ولا تمثيل ينفي عن ذلك كل باطل .

وهكذا فإن ابن تيمية يثبت الصفات التي ورد بها السمع على حقيقتها لا على مجازها ، وينفي عن ذلك كل معنى يوهم التشبيه والتجسيم . ولا يتردد في حمل الصفات على حقيقتها ونفى أن تكون مجازاً ، وليس معنى ذلك أن حقيقة هذه الصفات لله تشبه حقيقتها بالنسبة للمخلوق . لأن حقيقة كل صفة تتبع حقيقة الذات الموصوفة بها . وإذا كنا لا نعلم عن حقيقة الذات الالهية إلا جهلنا بها وبكنهها فإن معرفتنا بحقائق صفاته وكيفها هي أيضا كذلك . ولقد عبر أبو بكر عن ذلك أصدق تعبير حين قال « العجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث في ذات الله إشراك » .

---

(١) مجموع الفتاوي : ٥/٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٢) العقيدة الحموية : ٤٦٨ .

وقال أيضا « سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته » .

وكما أن الذات الالهية موجودة حقيقة لا مجازاً ، فكذلك الصفات الالهية موجودة أيضاً حقيقة لا مجازاً .

وكما أن كيف الذات الالهية مرفوع ، فكذلك كيف صفاته تعالى مرفوع . ومع وضوح التنزيه عند ابن تيمية فإن جماعة من الدارسين قد شنعوا على مذهبه في الصفات وقالوا أنه مشبه ومجسم . وذهبوا في التعلة لذلك كل مذهب ، ولو أنصفوا لقرأوا تراث ابن تيمية وما أخلدوا إلى الراحة واكتفوا بما كتبه عنه خصومه وأعداؤه . والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .

* * *

وبعد . .

فلقد أردت بهذه المقدمة توضيح منهج ابن تيمية من مسائل الخلاف بينه وبين خصومه ، وهي التي كانت مثار الاتهامات الموجهة إليه على كثرتها وإختلافها . وقد أفردنا بحثاً مستقلاً عن موقف ابن تيمية من هذه الأمور بالتفصيل أبنا فيها سبب الاشتباه عند المخالفين فليرجع إليه من أراد معرفة حقيقة الموقف . والله أسأل أن يجعل هذا العمل مقبولا لديه . وأن ينفعنا به ويعلمنا ما لم نكن نعلم . إنه نعم المولى ونعم النصير .

مقدّمات في فهم القرآن

لابن تيميّة

مقدّمة أولى

- أنزل القرآن على سبعة أحرف

سئل شيخ الإسلام :

عن قول النبي ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ما المراد بهذه السبعة ؟ وهل هذه القراءات المنسوبة إلى نافع [1] وعاصم [2] وغيرهما هي الأحرف السبعة ، أو واحد منها ؟ وما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القرّاء فيما احتمله خط المصحف ؟ وهل تجوز القراءة برواية الأعمش وابن محيصن وغيرهما من القراءات الشاذة أم لا ؟ وإذا جازت القراءة بها فهل تجوز الصلاة بها أم لا ؟ افتونا مأجورين .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

هذه « مسألة كبيرة » قد تكلم فيها أصناف العلماء من الفقهاء والقرّاء وأهل الحديث

---

(1) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (أبو رويم) مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب . أحد القرّاء السبعة المشهورين . إمام أهل المدينة وعالمها في القراءة . رجع إلى قراءته واختياره وقرأ عليه مالك . كان عارفاً بوجوه القراءات . وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة رضوان الله عليهم . قرأ القرآن على ابن قعقاع والزهري والأعرج . قال ابن إسحاق : لما حضرت نافعاً الوفاة قال له أولاده : أوصنا . قال : « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » توفي سنة ١٦٩ أو سنة ١٧٠ . وقيل غير ذلك .

انظر : غاية النهاية لابن الجزري ٢/٣٣٠ - ٣٣٤ ؛ مفتاح السعادة ٢/٢٩ .

(2) هو عاصم بن بهدلة بن النجود (بفتح النون وضم الجيم) أبو بكر الأسدي . شيخ الإقراء بالكوفة ، أحد القرّاء السبعة ، وبهدلة اسم أمه . جمع بين الفصاحة والاتقان والتحرير والتجويد . كان من أحسن أهل الكوفة صوتاً بالقرآن . كان من التابعين وروى عن رفاعة والحارث بن حسان . أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي . كان أحب القراءة إليه قراءة أهل المدينة .

انظر : غاية النهاية للجزري ١/٣٤٦ - ٣٤٩ ، مفتاح السعادة ٢/٣٧ .

والتفسير والكلام وشراح الغريب وغيرهم ، حتى صنف فيها التصنيف المفرد ، ومن آخر ما أفرد في ذلك ما صنفه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي ، المعروف بابن أبي شامة ، صاحب « شرح الشاطبية » (١) .

فأما ذكر أقاويل الناس وأدلتهم وتقرير الحق فيها مبسوطاً فيحتاج من ذكر الأحاديث الواردة في ذلك ، وذكر ألفاظها ، وسائر الأدلة ، إلى ما لا يتسع له هذا المكان ، ولا يليق بمثل هذا الجواب ، ولكن نذكر النكت الجامعة ، التي تنبه على المقصود بالجواب .

فنقول : لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن « الأحرف السبعة » التي ذكر النبي ﷺ أن القرآن أنزل عليها ليست هي « قراءات القرّاء السبعة المشهورة » ؛ بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر بن مجاهد (٢) ، وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد ، فانه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام ، إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره ، والحديث والفقه ، من الأعمال الباطنة والظاهرة ، وسائر العلوم الدينية ، فلما أراد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من أئمة قرّاء هذه الأمصار ، ليكون ذلك موافقاً لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن ، لا لإعتقاده او اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة ، او أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم .

ولهذا قال من قال من أئمة القرّاء : لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة (٣) لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي (٤) إمام جامع البصرة وإمام قرّاء البصرة في زمانه في رأس المائتين .

---

(١) نسبة إلى الإمام الشاطبي ، وهو القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي الضرير أحد أعلام القراءات المشهورين ، ولد سنة ٥٨٣ بشاطبية (قرية بجزيرة الأندلس) قرأ وأتقن القراءات على المنقرى . ثم رحل إلى بلنسية فعرض بها التيسير على أبي هذيل وأخذ عنه كتاب سيبويه ثم رحل للحج فسمع من أبي طاهر السلفي بالاسكندرية ، وأقام بمصر فترة وأكرمه القاضي الفاضل وعرف له قدره . توفي سنة ٥٩٠ بالقاهرة ودفن بها . انظر وفيات الأعيان ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ، طبقات الشافعية ٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، البداية والنهاية ١٣/ ١٠ ، نفح الطيب ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ؛ شذرات الذهب ٤/ ٣٠١ ـ ٣٠٣ ؛ حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ؛ مفتاح السعادة ٢/ ٤٩ .

(٢) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد التميمي الحافظ البغدادي شيخ القرّاء في عصره . أول من سبع السبعة . قرأ على ابن عبدوس وأخذ عنه . كما قرأ على قنبر المكي . ولد سنة ٢٤٥ وتوفي ٣٢٤ هـ . انظر طبقات القراء ١/ ١٣٩ .

(٣) حمزة بن حبيب بن عمار بن اسماعيل الزيات التيمي أحد القرّاء السبعة المشهورين . كان من موالي تيم فنسب إليهم ، كان يحضر الزيت من الكوفة الى حلوان . ولد سنة ٨٠ هـ ومات بحلوان مما يلي بلاد الجبل بالعراق سنة ١٥٦ هـ . انعقد الاجماع على تلقي قراءته بالقبول . قال الثوري : ما قرأ حمزة حرفا من كتاب الله إلا بأثر . انظر غاية النهاية في طبقات القرّاء للجزري ١/ ٢٦١ ـ ٢٦٣ ؛ الفهرست ص ٤٤ ؛ مفتاح السعادة ٢ / ٣٩ .

(٤) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله الحضرمي أحد القرّاء العشرة . إمام أهل البصرة ومقرئها ، سمع من الكسائي ، وسمع عن حمزة . إسناده في القراءة متصل الى الرسول ﷺ . قال عنه السجستاني : هو أعلم من رأيت بالحروف . انظر مفتاح السعادة ٢/ ٤٣ ـ ٤٥ .

ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده ؛ بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً كما قال عبد الله بن مسعود : إنما هو كقول أحدكم أقبل ، وهلم ، وتعال .

وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر ، لكن كلا المعنيين حق ، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض ، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ في هذا ؛ حديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، إن قلت : غفوراً رحيما ، أو قلت : عزيزاً حكيماً فالله كذلك ، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة » [1] . وهذا كما في القراءات المشهورة (ربنا باعد وباعَد) (إلا أن يخافا ألا يقيما) . و(إلا أن يُخافا إلا يقيما) و(إن كان مكرهم لتزول ، وليزول منه الجبال) و(بل عجبتَ . وبل عجبتُ) ونحو ذلك .

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقا من وجه متبايناً من وجه كقوله : (يخدعون ويخادعون) (ويكْذبون ويُكذبون) ولمستم ، ولا مستم) و(حتى يطهرُن ، ويطَّهرن) ونحو ذلك فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق ، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملا ، لا يجوز ترك موجب احداهما لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض ، بل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وأما ما اتحد لفظه ومعناه وإنما يتنوع صفة النطق به ، كالهمزات ، والمدات ، والامالات ، ونقل الحركات ، والإظهار ، والإدغام ، والاختلاس ، وترقيق اللامات والرآت : أو تغليظها ونحو ذلك مما يسمي القرّاء عامته الأصول فهذا أظهر وأبين في أنه ليس فيه تناقض ولا تضاد مما تنوع فيه اللفظ أو المعنى ؛ إذ هذه الصفات المتنوعة في أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً ، ولا يعد ذلك فيما اختلف لفظه واتحد معناه ، أو اختلف معناه من المترادف ونحوه ، ولهذا كان دخول هذا في حرف واحد من الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها من أول ما يتنوع

---

(١) ورد الحديث في البخاري بروايات مختلفة . ونصه كما في رواية عروة بن الزبير عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلبيته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : اقرأنيها رسول الله ﷺ . فقلت : كذبت . فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت . يقول عمر : فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله ﷺ : ارسله . اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت : ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه ! انظر البخاري (كتاب فضائل القرآن : باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ٦/٢٢٧ - ٢٢٨ ، وانظر كذلك كتاب التوحيد، بدء الخلق ، كما أورده أبو داود في (كتاب الوتر) ؛ الترمذي في (كتاب القرآن) النسائي ؛ (الافتتاح) ؛ ابن حنبل ١٦/٥ .

فيه اللفظ أو المعنى ، وإن وافق رسم المصحف وهو ما يختلف فيه النقط أو الشكل .

ولذلك لم يتنازع علماء الإسلام المتبوعون من السلف والأئمة في أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة في جميع أمصار المسلمين ، بل من ثبت عنده قراءة الأعمش [(١)] شيخ حمزة أو قراءة يعقوب بن إسحق الحضرمي ونحوهما ، كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائي [(٢)] ، فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الاجماع والخلاف ، بل أكثر العلماء الأئمة الذين أدركوا قراءة حمزة كسفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وغيرهم يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح المدنيين ، وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب بن اسحق وغيرهم على قراء حمزة والكسائي .

وللعلماء الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف عند العلماء ؛ ولهذا كان أئمة أهل العراق الذي تثبت عندهم قراءات العشرة أو الأحد عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون ذلك في الكتب ، ويقرؤونه في الصلاة وخارج الصلاة ، وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم .

وأما الذي ذكره القاضي عياض [(٣)] ومن نقل من كلامه من الإنكار على ابن شنبوذ الذي كان يقرأ بالشواذ في الصلاة في أثناء المائة الرابعة ، وجرت له قصة مشهورة فإنما كان ذلك في القراءات الشاذة الخارجة عن المصحف كما سنبينه .

ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة ، ولكن من لم يكن [(٤)] عالما بها أو لم تثبت عنده كمن يكون في بلد من بلاد الإسلام بالمغرب أو غيره ، ولم يتصل به بعض هذه القراءات فليس له أن يقرأ بما لا يعلمه ، فان القراءة كما قال زيد بن ثابت سنة يأخذها الآخر عن الأول ، كما أن ما ثبت

---

(١) هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي المشهور بالأعمش . تابعي مشهور أصله من بلاد الري ، ولد بالكوفة سنة ٦١ هـ . كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض . روى نحواً من ألف وثلاثمائة حديث . قال عنه الذهبي : كان الأعمش رأساً في العلم النافع والعمل الصالح .
انظر : الطبقات الكبرى ٢٣٨/٦ ؛ تذكرة الحفاظ ، الأعلام ٣٩٢/١ .

(٢) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز الأسدي . فارسي الأصل المعروف بالكسائي ، انتهت إليه رياسة الإقراء في عهده بالكوفة . أخذ عنه حمزة . روى عنه كثير من الأئمة كابن حنبل وغيره . قال عنه الشافعي : من أراد أن يتبحر في العلم فهو عيال على الكسائي . وقال يحيى بن معين : ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي . انظر : غاية النهاية للجزري ٥٣٥/١ - ٥٤٠ . الفهرست ص ٩٧ - ٩٨ . مفتاح السعادة ٢ / ٤١ .

(٣) القاضي عياض هو عالم المغرب أبو الفضل عياض بن موسى ولد سنة ٤٧٦ هـ . كان ثقة زاهداً ورعاً عابداً قوي العقيدة بعيداً عن البدع توفي سنة ٥٤٤ هـ . وله ثمانٍ وستون سنة ، ومن أهم مصنفاته (كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) محدّث عالم بالرواية . كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم ، تولى قضاء سبتة ثم غرناطة ، وكانت وفاته بمراكش . انظر مفتاح السعادة ١٤٩/٢ ، وفيات الأعيان ، الأعلام ٧٤٩/٢ .

(٤) في س : من يكن . وهو خطأ .

عن النبي ﷺ من أنوع صفة الأذان والإقامة وصفة صلاة الخوف وغير ذلك كله حسن يشرع العمل به لمن علمه ، وأما من علم نوعاً ولم يعلم غيره فليس له أن يعدل عما علمه إلى ما لم يعلمه ، وليس له أن ينكر على من علم ما لم يعلمه من ذلك ، ولا أن يخالفه ، كما قال النبي ﷺ : « لا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » [1] .

وأما القراءة الشاذة الخارجة عن رسم المصحف العثماني مثل قراءة ابن مسعود ، وأبي الدرداء رضي الله عنهما ﴿ والليلِ إذا يغشى ، والنهارِ إذا تجلّى ، والذكرَ والأنثىٰ ﴾ كما قد ثبت ذلك في الصحيحين . ومثل قراءة عبد الله ﴿ فصيامُ ثلاثة أيامٍ متتابعاتٍ ﴾ وكقراءته [2] : (إنْ كانت إلا زقية واحدة)ونحو ذلك. فهذه إذا ثبتت عن بعض الصحابة فهل يجوز أن يقرأ بها في الصلاة ؟ على قولين للعلماء ؛ هما روايتان مشهورتان عن الإمام أحمد ، وروايتان عن مالك .

« إحداهما » يجوز [3] ذلك لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرؤ ون بهذه الحروف في الصلاة .

« والثانية » لا يجوز ذلك ، وهو قول أكثر العلماء ؛ لأن هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الآخرة ، فإنه قد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه به مرتين ، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره ، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف ، وكتبها أبو بكر وعمر في خلافة أبي بكر في صحف ، أمر زيد بن ثابت بكتابتها ، ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار ، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة ، علي وغيره [4] .

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري (كتاب فضائل القرآن . باب اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم) ٢٤٥/٦ . وذكره البخاري في (كتاب الاعتصام) أيضاً ؛ وانظر : أبو داود (كتاب البيوع) ، الترمذي (كتاب العلم) .

(٢) في س : وكقواته :

(٣) في س : أحدا يجوزهما ذلك . وهو خطأ .

(٤) وانما اتفق الصحابة على جمع القرآن بقراءة زيد بن ثابت لما له من مكانة وعلو شأن في قراءة القرآن وإقرائه ، فلقد ثبت في البخاري من رواية أنس رضي الله عنه أن القرآن جمعه أربعة في عهد رسول الله ﷺ أحدهم زيد بن ثابت ، ولقد جمع زيد القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه بعد أن إستحّر القتل بالقراء يوم اليمامة . يقول زيد بن ثابت : أرسل إلي أبو بكر فقال إن عمر أتاني فقال ان القتل قد إستحّر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، واني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله الرسول ﷺ ؟. قال عمر : هذا والله خير . يقول ابو بكر : فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك . يقول زيد بن ثابت : قال لي أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن . . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللحاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع احد غيره . . . فكانت الصحف عند ابي بكر حتى توفاه الله =

وهذا النزاع لا بد أن يبنى على الأصل الذي سأل عنه السائل ، وهو أن القراءات السبع هل هي حرف من الحروف السبعة أم لا ؟ فالذي عليه جمهور العلماء من السلف والأئمة أنها حرف من الحروف السبعة ؛ بل يقولون : إن مصحف عثمان هو أحد الحروف السبعة ، وهو متضمن للعرضة الآخرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل ، والأحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول . وذهب طوائف من الفقهاء والقرّاء وأهل الكلام إلى أن هذا المصحف مشتمل على الأحرف السبعة ، وقرر ذلك طوائف من أهل الكلام ، كالقاضي أبي بكر الباقلاني وغيره ؛ بناء على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة ، وقد اتفقوا على نقل هذا المصحف الإمام العثماني وترك ما سواه ، حيث أمر عثمان بنقل القرآن من الصحف التي كان أبو بكر وعمر كتبا القرآن فيها ، ثم أرسل عثمان بمشاورة الصحابة إلى كل مصر من أمصار المسلمين بمصحف وأمر بترك ما سوى ذلك .

ترتيب السور اجتهادي

قال هؤلاء : ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة . ومن نصر قول الأولين يجيب تارة بما ذكر محمد بن جرير وغيره من أن القراءة على الأحرف السبعة ، لم يكن واجباً على الأمة ، وإنما كان جائزاً لهم مرخصاً لهم فيه ، وقد جعل إليهم الاختيار في أي حرف اختاروه ، كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً ؛ بل مفوضاً إلى اجتهادهم ، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد ، وكذلك مصحف غيره .

ترتيب الآيات توقيفي

وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم ، كما قدموا سورة على سورة ، لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً ، وأما ترتيب السور

= ثم عند عمر حياته . ثم عند حفصة . وفي عهد عثمان بن عفان قدم إليه حذيفة بن اليمان بعد أن أفزعه اختلاف أهل العراق في القراءة . فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك . فارسلت بها حفصة إلى عثمان . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان : إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا . . . ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . انظر في ذلك صحيح البخاري (كتاب فضائل القرآن . باب جمع القرآن) ٦/٢٢٥ ـ ٢٢٧ ، ابن كثير : فضائل القرآن ١/٤ ـ ٢٥ ، الاتقان للسيوطي .

فمفوض إلى اجتهادهم . قالوا : فكذلك الأحرف السبعة ، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعاً سائغاً ، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور .

ومن هؤلاء من يقول بأن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام ؛ لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً ، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة ، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم وهو أرفق بهم ، أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الآخرة . ويقولون : إنه نسخ ما سوى ذلك .

وهؤلاء يوافق قولهم قول من يقول : إن حروف أبي بن كعب ، وابن مسعود وغيرهما مما يخالف رسم هذا المصحف منسوخة .

وأما من قال عن ابن مسعود : أنه كان يُجوِّز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة وإنما هو كقول أحدكم : أقبل . وهلم ، وتعال ، فاقرؤ وا كما علمتم أو كما قال :

ثم من جوز القراءة بما يخرج عن المصحف مما ثبت عن الصحابة قال : يجوز ذلك ، لأنه من الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، ومن لم يجوزه فله ثلاثة مآخذ ، تارة يقول : ليس هو من الحروف السبعة وتارة يقول : هو من الحروف المنسوخة ، وتارة يقول : هو مما انعقد إجماع الصحابة على الإعراض عنه ، وتارة يقول : لم ينقل إلينا نقلاً يثبت بمثله القرآن . وهذا هو الفرق بين المتقدمين والمتأخرين .

ولهذا كان في المسألة « قول ثالث » ، وهو اختيار جدي أبو البركات [1] أنه إن قرأ بهذه القراءات في القراءة الواجبة ـ وهي الفاتحة عند القدرة عليها ـ لم تصح صلاته ؛ لأنه لم يتيقن أنه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك ، وإن قرأ بها فيما لا يجب لم تبطل صلاته : لأنه لم يتيقن أنه أتى في الصلاة بمبطل لجواز أن يكون ذلك من الحروف السبعة التي أنزل عليها .

وهذا القول ينبني على « أصل » وهو أن ما لم يثبت كونه من الحروف السبعة ، فهل يجب القطع بكونه ليس منها ؟ فالذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجب القطع بذلك ، إذ ليس ذلك مما أوجب علينا أن يكون العلم به في النفي والإثبات قطعياً .

---

(١) هو أبو البركات مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني المتوفي سنة ٦٥٢ هـ ، صاحب كتاب المحرر في أصول الفقه الحنبلي . والمسودة التي علق عليها حفيده شيخنا ابن تيمية . انظر فهرس المخطوطات جامعة الدول العربية ١/ ٢٢٧ .

هل البسملة آية ؟

وذهب فريق من أهل الكلام إلى وجوب القطع بنفيه ، حتى قطع بعض هؤلاء ـ كالقاضي أبي بكر ـ بخطأ الشافعي وغيره ممن أثبت البسملة آية من القرآن في غير ﴿ سورة النمل ﴾ لزعمهم أن ما كان من موارد الاجتهاد في القرآن فإنه يجب القطع بنفيه ، والصواب القطع بخطأ هؤلاء ، وأن البسملة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة في المصحف . إذ لم يكتبوا فيه إلا القرآن وجردوه مما ليس منه ، كالتخميس والتعشير وأسماء السور ؛ ولكن مع ذلك لا يقال هي من السورة التي بعدها . كما أنها ليست في السورة التي قبلها ؛ بل هي كما كتبت آية أنزلها الله في أول كل سورة ، وإن لم تكن من السورة ، وهذا أعدل الأقوال الثلاثة في هذه المسألة .

وسواء قيل بالقطع في النفي أو الإثبات ، فذلك لا يمنع كونها من موارد الاجتهاد التي لا تكفير ولا تفسيق فيها للنافي ، ولا للمثبت ، بل قد يقال ما قاله طائفة من العلماء : إن كل واحد من القولين حق ، وإنها آية من القرآن في بعض القراءات ، وهي قراءة الذين يفصلون بها بين السورتين ، وليست آية في بعض القراءات ، وهي قراءة الذين يصلون ولا يفصلون بها بين السورتين .

وأما قول السائل : ما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراءة فيما احتمله خط المصحف ؟ فهذا مرجعه إلى النقل واللغة العربية ، لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله ، إذ ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد رأيه : بل القراءة سنة متبعة ، وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الإمامي [1] وقد قرأ بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم يكن واحد منهما خارجاً عن المصحف .

ومما يوضح ذلك أنهم يتفقون في بعض المواضع على ياء أو تاء ، ويتنوعون في بعض ، كما اتفقوا في قوله تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما تعلمون ﴾ في موضع وتنوعوا في موضعين ، وقد بيّنا أن القراءتين كالآيتين ، فزيادة القراءات كزيادة الآيات ، لكن إذا كان الخط واحداً واللفظ محتملاً كان ذلك أخصر في الرسم .

والاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن ربي قال لي أن قم في قريش فأنذرهم . فقلت : أي رب ! إذاً يثلغوا رأسي ـ أي يشدخوا ـ فقال : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظاناً ، فابعث جنداً أبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق أنفق

---

(١) نسبة إلى الإمام عثمان بن عفان . وهذا المصحف إمام لكل ما يكتب بعده من المصاحف .

عليك »[1] فأخبر أن كتابه لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرؤه في كل حال كما جاء في نعت أمته : « أناجيلهم في صدورهم » بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ، ولا يقرأونه كله إلا نظراً عن ظهر قلب .

وقد ثبت في الصحيح أنه جمع القرآن كله على عهد النبي ﷺ جماعة من الصحابة ، كالأربعة الذين من الأنصار ، وكعبد الله بن عمرو[2] ، فتبين بما ذكرناه أن القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم ليست هي الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، وذلك باتفاق علماء السلف والخلف .

وكذلك ليست هذه القراءات السبعة هي مجموع حرف واحد من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتبرين ، بل القراءات الثابتة ، عن أئمة القراء ـ كالأعمش ويعقوب ، وخلف وأبي جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ونحوهم ـ هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤلاء السبعة عند من ثبت ذلك عنه ، كما ثبت ذلك .

وهذا أيضاً مما لم يتنازع فيه الأئمة المتبوعون من أئمة الفقهاء والقراء وغيرهم ، وإنما تنازع الناس من الخلف في المصحف العثماني الإمام الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، والتابعون لهم بإحسان ، والأمة بعدهم ، هل هو بما فيه من القراءات السبعة ، وتمام العشرة ، وغير ذلك ، هل هو حرف من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ؟ أو هو مجموع الأحرف السبعة ، على قولين مشهورين . والأول قول أئمة السلف والعلماء ، والثاني قول طوائف من أهل الكلام والقراء وغيرهم ، وهم متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافاً يتضاد فيه المعنى ويتناقض ، بل يصدق بضعها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً .

وسبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه ذلك لهم ؛ إذ مرجع ذلك إلى السنة والاتباع ، لا إلى الرأي والابتداع .

أما إذا قيل : أن ذلك هي الأحرف السبعة فظاهر . وكذلك بطريق الأولى إذا قيل : إن ذلك حرف من الأحرف السبعة ؛ فإنه إذا كان قد سوغ لهم أن يقرؤوه على سبعة أحرف كلها شاف كاف مع تنوع الأحرف في الرسم ؛ فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوعه في اللفظ أولى وأحرى ، وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة ولا منقوطة ، لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين ، كالتاء والياء ، والفتح والضم ، وهم يضبطون باللفظ كلا

---

(١) ورد في هذا الحديث في : ابن حنبل ٤/٦٢ ، مسلم (كتاب الجنة) .

(٢) أورد البخاري أن قتادة سأل أنس بن مالك فقال : من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أربعة كلهم من الأنصار . أبي بن كعب ، معاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، وأبو زيد . انظر البخاري ٦/٢٣٠ (باب القراء على عهد رسول الله) .

الأمرين ، ويكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المعقولين المفهومين ؛ فإن أصحاب رسول الله ﷺ تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعاً ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي [(١)] ـ وهو الذي روى عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » [(٢)] ، كما رواه البخاري في صحيحه ، وكان يقرىء القرآن أربعين سنة . قال ـ حدثنا الذين كانوا يقرئوننا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

ولهذا دخل في معنى قوله : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » تعليم حروفه ومعانيه جميعاً ؛ بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه ، وذلك هو الذي يزيد الإيمان ، كما قال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ، وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الإيمان .

وفي الصحيحين عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدّثنا « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن » [(٣)] وذكر الحديث بطوله ، ولا تتسع هذه الورقة لذكر ذلك . وإنما المقصود التنبيه على أن ذلك كله مما بلغه رسول الله ﷺ إلى الناس .

وبلغنا أصحابه عنه الإيمانَ والقرآن ، حروفه ومعانيه ، وذلك مما أوحاه الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلكَ أَوْحَيْنَا إليكَ روحاً من أمرِنَا مَا كُنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، وَلَكن جعلناهُ نوراً نهدي بهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [(٤)] ، وتجوز القراءة في الصلاة وخارجها بالقراءات

---

(١) عبد الله بن حبيب بن ربيعة (أبو عبد الرحمن السلمى) الضرير . مقرىء الكوفة . ولد في حياة النبي ﷺ وثبت لأبيه شرف الصحبة ، انتهت إليه القراءة تجويداً وضبطاً . أخذ عن عثمان بن عفان وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود وزيد بن ثابت . أخذ عنه عاصم والحسن والحسين رضي الله عنهما . توفي سنة ٧٣ أو ٧٤ . أنظر : غاية النهاية في طبقات القراء للجزري ٤١٣/١ ـ ٤١٤ ، مفتاح السعادة ٢١/٢ ـ ٢٢ .

(٢) « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أورده البخاري بروايات مختلفة وفي مواضع مختلفة ، أنظر (كتاب فضائل القرآن . باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ٢٣٦/٦ ؛ وأورده أبو داود (كتاب الوتر) والترمذي (كتاب ثواب القرآن) وابن ماجه (المقدمة) ، والدارمي (فضائل القرآن) ؛ ابن حنبل ٥٧/١ .

(٣) تمام الحديث كما سمعه زيد بن وهب عن حذيفة يقول : حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت من السماء في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن ؛ فقرأوا القرآن وعلموا السنة . انظر : البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . باب الاقتداء بسنن رسول الله) ١١٣/٩ ـ ١١٤ ، مسلم (كتاب الإيمان) ، ابن ماجة (كتاب الفتن) ، ابن حنبل ٣٨٣/٥ .

(٤) سورة الشورى الآية ٥٢ .

الثابتة الموافقة لرسم المصحف ، كما ثبتت هذه القراءات ، وليست شاذة حينئذ . والله أعلم .

وسئل أيضاً :

عن « جمع القراءات السبع » هل هو سنة أم بدعة ؟ وهل جمعت على عهد رسول الله ﷺ أم لا ؟ وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية أم لا ؟ .

فأجاب : الحمد لله . أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول ، فمعرفة القراءة التي كان النبي ﷺ يقرأ بها ، أو يقرهم على القراءة بها ، أو يأذن لهم وقد أقروا بها سُنَّة . والعارف في القراءات الحافظ لها له مزية على من لم يعرف ذلك ولا يعرف إلا قراءة واحدة .

وأما جمعها في الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة ، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة . وأما الصحابة [1] .

مقدّمة ثانية

تحزيب القرآن

قال شيخ الإسلام

فصل

في « تحزيب القرآن » وفي « كم يقرأ » وفي « مقدار الصيام والقيام المشروع »

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « أنكحني أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد ابنته فيسألها عن بعلها فتقول : نعم الرجل لم يطأ لنا فراشاً ، ولم يفتش لنا كنفاً مذ أتيناه ، فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : ألقني به فلقيته بعد ، فقال : كيف تصوم ؟ قلت : كل يوم . قال : متى ـ أو كيف ـ تختم ؟ قلت : كل ليلة . قال : صم من كل شهر ثلاثة أيام ، واقرأ القرآن في كل شهر . قلت : إني أطيق أكثر من ذلك . قال : صم ثلاثة أيام من كل جمعة . قلت : إني أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين وصم يوماً ، قال : قلت إني أطيق أكثر من ذلك . قال : صم أفضل الصوم صوم داود ، صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ القرآن في كل سبع ليال مرة . قال : فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ، وذلك أني كبرت وضعفت » فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، فإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصن وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ .

وقال بعضهم : في ثلاث وفي خمس ، وأكثرهم على سبع . وفي لفظ : « اقرأ القرآن في شهر ، قلت : إني أجد قوة . قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك » رواه بكماله البخاري وهذا لفظه [1] . وروى مسلم الحديث بنحوه واللفظ الآخر مثله . وفي رواية ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن في كل ليلة . فقلت : نعم يا نبي الله . وفيه قال : « اقرأ القرآن في كل شهر ، قال : قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقرأه كل عشر ، قال : قلت يا نبي الله

---

(١) انظر البخاري ٢٤٢/٦ (كتاب فضائل القرآن . باب في كم يقرأ القرآن) والحديث من رواية مجاهد عن عبد الله بن عمر . مع اختلاف في بعض الألفاظ .

إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك [1] قال : فشددت فشدد عليّ » وقال لي النبي ﷺ : « إنك لا تدري لعلك يطول بك عمرك ، قال : فصرت إلى الذي قال النبي ﷺ » ، وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « اقرأ القرآن في كل ثلاث » رواه أحمد وأبو داود .

قلت هذه الرواية نبه عليها البخاري . وقال بعضهم : في ثلاث ، وهو معنى ما روي عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال : يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث ؟ قال : « نعم » وكان يقرؤه حتى توفي . رواه أحمد من طريق ابن لهيعة . وذكر أن بعضهم قال : في خمس وأكثرهم على سبع ، فالصحيح عندهم في حديث عبد الله بن عمرو أنه انتهى به النبي ﷺ إلى سبع ، كما أنه أمره ابتداء بقراءته في الشهر ، فجعل الحد ما بين الشهر إلى الأسبوع ، وقد روي أنه أمره ابتداء أن يقرأه في أربعين ، وهذا في طرف السعة يناظر التثليث في طرف الاجتهاد .

وأما رواية من روي : « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه » [2] فلا تنافي رواية التسبيع فإن هذا ليس أمراً لعبد الله بن عمرو ، ولا فيه أنه جعل قراءته في ثلاث دائماً سنة مشروعة ، وإنما فيه الإخبار بأن من قرأه في أقل من ثلاث لم يفقه ، ومفهومه مفهوم العدد ، وهو مفهوم صحيح أن من قرأه في ثلاث فصاعداً فحكمه نقيض ذلك ، والتناقض يكون بالمخالفة ، ولو من بعض الوجوه .

فإذا كان من يقرؤه في ثلاث أحياناً قد يفقهه حصل مقصود الحديث ، ولا يلزم إذا شرع فعل ذلك أحياناً لبعض الناس أن تكون المداومة على ذلك مستحبة ، ولهذا لم يعلم في الصحابة على عهده من داوم على ذلك ، أعني على قراءته دائماً فيما دون السبع ، ولهذا كان الإمام أحمد - رحمه الله - يقرؤه في كل سبع .

والمقصود بهذا الفصل أنه إذا كان التحزيب المستحب ما بين أسبوع إلى شهر - وإن كان قد روي ما بين ثلاث إلى أربعين - فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سوراً تامة ، لا يحزبون السورة الواحدة ، كما روى أوس بن حذيفة ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال :

---

(١) ورد الحديث في البخاري ٦/٢٤٣ ولفظه : قال رسول الله ﷺ اقرأ القرآن في شهر . قلت اني أجد قوة . حتى قال : فأقرأه في سبع ولا تزد على ذلك ، ويقول ابن كثير معلقاً على هذا النص : فهذا السياق يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع . انظر : كتاب فضائل القرآن ٤/٤٩ من التفسير .

(٢) هي رواية قتادة عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « لا تفقه في قراءة في أقل من ثلاث » يقول ابن كثير أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة : وقال عنه الترمذي : حسن صحيح ، وبرواية عمرة بنت عبد الرحمن قالت : سمعت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ يختم القرآن في أقل من ثلاث . . ويعلق ابن كثير على هذا الحديث قائلاً : هذا حديث غريب جداً وفيه ضعف وضعفه الدارقطني .

أنظر تفسير ابن كثير ٤/٤٩ - ٥٠ (كتاب فضائل القرآن) .

فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة ، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له ، قال : وكان كل ليلة يأتينا بعد العشاء ، يحدثنا قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش . ثم يقول : لا سواء كنا مستضعفين مستذلين بمكة ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا ، فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت عنا الليلة ، قال : إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه [1] .

قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل واحد [2] . رواه أبو داود وهذا لفظه ، وأحمد وابن ماجة ، وفي رواية للإمام أحمد قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من (ق) حتى يختم . ورواه الطبراني في معجمه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ : كيف كان رسول الله ﷺ يحزب القرآن ؟ فقالوا : كان رسول الله ﷺ يحزبه ثلاثاً ، وخمساً ، فذكره .

وهذا الحديث يوافق معنى حديث عبد الله بن عمرو ، في أن المسنون كان عندهم قراءته في سبع ، ولهذا جعلوه سبعة أحزاب ، ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة ، وفيه أنهم حزبوه بالسور ، وهذا معلوم بالتواتر : فإنه قد علم أن أول ما جزىء القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين ، وثلاثين ، وستين . هذه التي تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب في أثناء السورة ، وأثناء القصة ونحو ذلك ، كان في زمن الحجاج وما بعده ، وروي أن الحجاج أمر بذلك . ومن العراق فشا ذلك ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك .

وإذا كانت التجزئة بالحروف محدثة من عهد الحجاج بالعراق ، فمعلوم أن الصحابة قبل ذلك على عهد النبي ﷺ وبعده كان لهم تحزيب آخر ، فإنهم كانوا يقدرون تارة بالآيات فيقولون :

---

(١) أورد ابن الأثير هذه القصة بأكملها في ترجمته لأوس ابن حذيفة فقال : قال حذيفة « قدمنا وفد ثقيف على رسول الله ﷺ فنزل الاحلافيون على المغيرة بن شعبة وأنزل المالكيين قبتة . وكان رسول الله يأتينا فيحدثنا بعد العشاء الأخير حتى يراوح بين قدميه من طول القيام . وكان أكثر ما يحدثنا اشتكاء قريش . يقول كنا بمكة مستذلين مستضعفين فلما قدمنا المدينة انتصفنا من القوم . فكانت (الحرب) سجال لنا وعلينا . يقول حذيفة : واحتبس عنا (الرسول) ليلة عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، ثم أتانا ، فقلنا يا رسول الله : احتبست عنا الليلة عن الوقت الذي كنت تأتينا فيه . فقال رسول الله ﷺ : إنه طرأ على حزبي من القرآن فأحببت ألا أخرج حتى أقضيه . قال حذيفة : فلما أصبحنا سألنا أصحاب رسول الله عن أحزاب القرآن كيف تحزبونه . . الخ » .

أنظر بالاضافة الى أبي داود وابن ماجة : ابن الأثير في أسد الغابة ١/١٦٧ - ١٦٩ .

(٢) حزب المفصل يبدأ من سورة محمد إلى آخر القرآن ، وانظر القاموس المحيط مادة « فصل » .

خمسون آية ، ستون آية ، وتارة بالسور ، لكن تسبيعه بالآيات لم يروه أحد ولا ذكره أحد فتعين التحزيب بالسور .

فإن قيل : فترتيب سور القرآن ليس هو أمراً واجباً منصوصاً عليه ، وإنما هو موكول إلى الناس ، ولهذا اختلف ترتيب مصاحف الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا في كراهة تنكيس السور روايتان عن الإمام أحمد . « إحداهما » يكره لأنه خلاف المصحف العثماني المتفق عليه . و « الثانية » لا يكره كما يلقنه الصبيان ، إذ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قرأ بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

قيل : لا ريب أن قراءة سورة بعد سورة لا بد أن يكون مرتباً ، أكثر ما في الباب أن الترتيب يكون أنواعاً ، كما أنزل القرآن على أحرف ، وعلى هذا ، فهذا التحزيب يكون تابعاً لهذا الترتيب . ويجوز أيضاً أن يكون هذا التحزيب مع كل ترتيب ، فإنه ليس في الحديث تعيين السور .

الأفضل ما كان عليه الصحابة

وهذا الذي كان عليه الصحابة هو الأحسن ، لوجوه :

« أحدها » أن هذه التحزيبات المحدثة تتضمن دائماً الوقوف على بعض الكلام المتصل بما بعده، حتى يتضمن الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه ، فيحصل القارىء في اليوم الثاني مبتدئاً بمعطوف ، كقوله تعالى : ﴿ والمحصناتُ مِنَ النِّساءِ إلاَّ مَا ملكَتْ أيمانُكُمْ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقنُتْ منكُنَّ لِلهِ ورسُولِهِ ﴾ (٢) وأمثال ذلك . يتضمن الوقف على بعض القصة دون بعض ـ حتى كلام المتخاطبين ـ حتى يحصل الابتداء في اليوم الثاني بكلام المجيب ، كقوله تعالى : ﴿ قال : أَلَمْ أَقُل لكَ إنَّكَ لَن تَستطيعَ معيَ صَبراً ﴾ (٣) .

ومثل هذه الوقوف لا يسوغ في المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما بأجنبي ، ولهذا لو ألحق بالكلام عطف أو استثناء أو شرط ونحو ذلك بعد طول الفصل بأجنبي لم يسغ باتفاق العلماء ، ولو تأخر القبول عن الإيجاب بمثل ذلك بين المتخاطبين لم يسغ ذلك بلا نزاع ، ومن حكى عن أحمد خلاف ذلك فقد أخطأ ، كما أخطأ من نقل عن ابن عباس في الأول خلاف ذلك ، وذلك أن المنقول عن أحمد أنه فيما إذا كان المتعاقدان غائبين ، أو أحدهما غائب والآخر حاضراً فينقل الإيجاب أحدهما إلى الآخر ، فيقبل في مجلس البلاغ وهذا جائز ، بخلاف ما إذا كانا

---

(١) سورة النساء الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣١ .

(٣) سورة الكهف الآية ٧٥ .

حاضرين ، والذي في القرآن نقل كلام حاضرين متجاورين ، فكيف يسوغ أن يفرق هذا التفريق لغير حاجة ؟ بخلاف ما إذا فرق في التلقين لعدم حفظ المتلقن ونحو ذلك .

« والثاني » أن النبي ﷺ كانت عادته الغالبة وعادة أصحابه أن يقرأ في الصلاة بسورة كـ (ق) ونحوها ، وكما كان عمر رضي الله عنه يقرأ « يونس » و « يوسف » و « النحل » ، ولما قرأ ﷺ بسورة « المؤمنين » في الفجر أدركته سعلة فركع في أثنائها . وقال : « إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي فأخفف لما أعلم من وجد أمه به » .

وأما « القراءة بأواخر السور وأوساطها » فلم يكن غالباً عليهم ، ولهذا يتورع في كراهة ذلك ، وفيه النزاع المشهور في مذهب أحمد وغيره ، ومن أعدل الأقوال قول من قال يكره اعتياد ذلك دون فعله أحياناً ، لئلا يخرج عما مضت به السنة ، وعادة السلف من الصحابة والتابعين .

وإذا كان كذلك فمعلوم أن هذا التحزيب والتجزئة فيه مخالفة السنة أعظم مما في قراءة آخر السورة ووسطها في الصلاة ، وبكل حال فلا ريب أن التجزئة والتحزيب الموافق لما كان هو الغالب على تلاوتهم أحسن .

و « المقصود » أن التحزيب بالسورة التامة أولى من التحزيب بالتجزئة .

« الثالث » أن التجزئة المحدثة لا سبيل (فيها) إلى التسوية بين حروف الأجزاء ، وذلك لأن الحروف في النطق تخالف الحروف في الخط في الزيادة والنقصان ، يزيد كل منهما على الآخر من وجه دون وجه ، وتختلف الحروف من وجه ، وبيان ذلك بأمور :

« **أحدها** » ان ألفات الوصل ثابتة في الخط ، وهي في اللفظ ، تثبت في القطع وتحذف في الوصل ، فالعادُّ إن حسبها انتقض عليه حال القارىء إذا وصل وهو الغالب فيها ، وإن أسقطها انتقض عليه بحال القارى القاطع ، وبالخط .

« **الثاني** » أن الحرف المشدد حرفان في اللفظ ، أولهما ساكن وهذا معروف بالحس واتفاق الناس ، وهما متماثلان في اللفظ ، وأما في الخط فقد يكونان حرفاً واحداً مثل ﴿إياك﴾ و ﴿إياك﴾ وقد يكونان حرفين مختلفين مثل : ﴿الرحمن الرحيم﴾ ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ و ﴿حينئذ﴾ .

و (قد سمع) ، فالعادُّ إن حسب اللفظ فالإدغام إنما يكون في حال الوصل دون حال القطع ، ويلزمه أن يجعل الأول من جنس الثاني ، وهذا مخالف لهذا الحرف المعاد بها . وإن حسب الخط كان الأمر أعظم اضطراباً . فإنه يلزمه أن يجعل ذلك تارة حرفاً وتارة حرفين مختلفين ، وهذا وإن كان هو الذي يتهجى فالنطق بخلافه .

« **الثالث** » أن تقطيع حروف النطق من جنس تقطيع العروضيين ، وأما حروف الخط

فيخالف هذا من وجوه كثيرة ، والناس في العادة إنما يتهجون الحروف مكتوبة لا منطوقة ، وبينهما فرق عظيم .

« **الرابع** » أن النطق بالحروف ينقسم إلى ترتيل وغير ترتيل ، ومقادير المدات والأصوات من القرّاء غير منضبطة ، وقد يكون في أحد الحزبين من حروف المد أكثر مما في الآخر فلا يمكن مراعاة التسوية في النطق ، ومراعاة مجرد الخط لا فائدة فيه ، فان ذلك لا يوجب تسوية زمان القراءة .

وإذا كان تحزيبه بالحروف إنما هو تقريب لا تحديد ، كان ذلك من جنس تجزئته بالسور هو أيضاً تقريب ، فان بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعض الحروف ، وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض ، والافتتاح بما فتح الله به السورة ، والاختتام بما ختم به ، وتكميل المقصود من كل سورة ما ليس في ذلك التحزيب . وفيه أيضاً من زوال المفاسد الذي في ذلك التحزيب ما تقدم التنبيه على بعضها ، فصار راجحاً بهذا الاعتبار .

ومن المعلوم أن طول العبادة وقصرها يتنوع بتنوع المصالح ، فتستحب إطالة القيام تارة وتخفيفه أخرى في الفرض والنفل بحسب الوجوه الشرعية ، من غير أن يكون المشروع هو التسوية بين مقادير ذلك في جميع الأيام . فعلم أن التسوية في مقادير العبادات البدنية في الظاهر لا اعتبار به إذا قارنه مصلحة معتبرة ، ولا يلزم من التساوي في القدر التساوي في الفضل ، بل قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أن ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن [١] ، وثبت في الصحيح أن فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في القرآن مثلها [٢] ، وثبت في الصحيح أن آية الكرسي أعظم آية في القرآن [٣] ، وأمثال ذلك .

فإذا قرأ القارىء في اليوم الأول البقرة ، وآل عمران ، والنساء بكاملها ، وفي اليوم الثاني إلى آخر براءة ، وفي اليوم الثالث إلى آخر النمل : كان ذلك أفضل من أن يقرأ في اليوم الأول إلى قوله : (بليغا) وفي اليوم الثاني إلى قوله ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المصلِحينَ ﴾ [٤] فعلى هذا إذا قرأه كل شهر كما أمر به النبي ﷺ عبد الله بن عمرو أولا عملا على قياس تحزيب الصحابة ، فالسورة التي تكون نحو جزء أو أكثر بنحو نصف أو أقل بيسير يجعلها حزباً كآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف .

---

(١) ورد الحديث في البخاري عن أبي سعيد الخدري ولفظه : . . . والذي نفسي بيده أنها ﴿ قل هو الله أحد ﴾ لتعدل ثلث القرآن . انظر البخاري ٢٣٣/٦ (كتاب فضائل القرآن . فضل قل هو الله أحد) .

(٢) ورد الحديث في البخاري ٢٠٠/٦ (كتاب التفسير . باب ما جاء في فاتحة الكتاب) ؛ الترمذي (ثواب القرآن) ؛ ابن حنبل ٣١١/٤ .

(٣) انظر (فضل آية الكرسي) في البخاري ٢٣١/٦ (فضل سورة البقرة) .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٠ ، ١٢٦ .

وأما البقرة فقد يقال : يجعلها حزبا وإن كانت بقدر حزبين وثلث ، لكن الأشبه أنه يقسمها حزبين للحاجة ، لأن التحزيب لا بد أن يكون متقاربا ؛ بحيث يكون الحزب مثل الأجزاء ومثله مرة دون النصف ، وأما إذا كان مرتين وشيئاً فهذا تضعيف وزيادة .

وعلى هذا فإلى الأعراف سبعة أجزاء ، والأنفال جزء ، وبراءة جزء ، فإن هذا أولى من جعلها جزءاً ، لأن ذلك يفضي إلى أن يكون نحو الثلث في ثمانية . والذي رجحناه يقتضي أن يكون نحو الثلث في تسعة ، وهذا أقرب إلى العدل . وتحزيب الصحابة أوجب أن يكون الحزب الأول أكثر ، ويكون إلى آخر العنكبوت العشر الثاني سورتين سورتين .

وأما يونس وهود فجزءان أيضاً أو جزء واحد ، لأنها أول ذوات (الر) ، ويكون على هذا الثلث الأول سورة سورة ، والثاني سورتين سورتين ، ولكن الأول أقرب إلى أن يكون قريب الثلث الأول في العشر الأول ، فان الزيادة على الثلث بسورة أقرب من الزيادة بسورتين . وأيضاً فيكون عشرة أحزاب سورة سورة ، وهذا أشبه بفعل الصحابة ، ويوسف والرعد جزء ، وكذلك إبراهيم والحجر ، وكذلك النحل وسبحان (الاسراء) ، وكذلك الكهف ومريم ، وكذلك طه والأنبياء ، وكذلك الحج والمؤمنون ، وكذلك النور والفرقان ، وكذلك ذات (طس) الشعراء والنمل والقصص ، وذات (الم) العنكبوت والروم ولقمان والسجدة جزء ، والأحزاب وسبأ وفاطر جزء ، و(يس) و(الصافات) و(ص) جزء ، والزمر وغافر و(حم) السجدة جزء ، والخمس البواقي من آل (حم) جزء .

والثلث الأول أشبه بتشابه أوائل السور ، والثاني أشبه بمقدار جزء من تجزئة الحروف وهو المرجح . ثم « القتال » و« الفتح » و« الحجرات » و« ق » و« الذاريات » جزء ، ثم الأربعة الأجزاء المعروفة ، وهذا تحزيب مناسب مشابه لتحزيب الحروف ، واحدى عشرة سورة حزب حزب ، إذ البقرة كسورتين ، فيكون إحدى عشر سورة ، وهي نصيب إحدى عشرة ليلة . والله أعلم .

مقدمة ثالثة
في
أصح كتب التفسير

سئل شيخ الإسلام :

عن جندي نسخ بيده صحيح مسلم والبخاري والقرآن ، وهو ناوٍ كتابة الحديث والقرآن العظيم ، وإن سمع بورق أو أقلام اشترى بألف درهم ، وقال : أنا إن شاء الله أكتب في جميع هذا الورق أحاديث الرسول والقرآن ، ويؤمل آملاً بعيدة ، فهل يأثم أولا ؟ وأي التفاسير أقرب الى الكتاب والسنّة ؟ الزمخشري ؟ أم القرطبي ؟ أم البغوي ؟ أو غير هؤلاء ؟

فأجاب : الحمد لله ، ليس عليه إثم فيما ينويه ويفعله من كتابة العلوم الشرعية ، فإن كتابة القرآن والأحاديث الصحيحة والتفاسير الموجودة الثابتة من أعظم القربات والطاعات .

وأما « التفاسير » التي في أيدي الناس فأصحها « تفسير محمد بن جرير الطبري » [1] فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن

---

(١) هو محمد بن جرير الطبري أحد أئمة السلف علماً وديناً ولد سنة ٢٢٤ أو سنة ٢٢٥ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ كان حافظا لكتاب الله بصيراً بمعانيه فقيهاً في أحكامه حجة في رواياته . تفرغ للعلم والاشتغال به حتى أنه قال : اضطررت لنفقة والدي ففتقت كمي قميصي فبعتهما لأنفق عليه من ثمنهما . له مؤلفات كثيرة قيل أنه ظل أربعين سنة من عمره يكتب في اليوم الواحد أربعين ورقة . ومن أهم كتبه على الإطلاق وأكثرها نفعاً تفسيره المشهور للقرآن ويقع في ثلاثين مجلداً . انظر : مفتاح السعادة ٣١٥/٢ ، تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ـ ١٦٩ ، وفيات الأعيان ٥٧٧/١ ، المنتظم لابن الجوزي ١٧٠/٦ ـ ١٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٠٦/٢ ـ ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٥١/٢ ـ ٢٥٥ .

بكير والكلبي ، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة ، كمقاتل بن بكير والكلبي ، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة ، كتفسير عبد الرزاق ، وعبد بن حميد . ووكيع وابن أبي قتيبة وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه .

وأما « التفاسير الثلاثة » المسؤول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة « البغوي » (١) لكنه مختصر من « تفسير الثعلبي » (٢) وحذف منه الأحاديث الموضوعة ، والبدع التي فيه ، وحذف أشياء غير ذلك :

أما « الواحدي » (٣) فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية ؛ لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره . وتفسيره و« تفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز » فيها فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها .

وأما « الزمخشري » (٤) فتفسيره محشو بالبدعة ، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن ، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد ، وغير ذلك من أصول المعتزلة .

و« أصولهم خمسة » يسمونها التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الفقيه الشافعي والمحدّث والمفسّر المشهور بالفراء . توفي سنة ٥١٦ هـ وهو من أقرب المفسرين وأجودهم رواية عن السلف ، تأثر بالثعلبي في تفسيره ونقل عنه بعد أن حذف منه الأحاديث الموضوعة ، ويعتبر البغوي من أئمة أهل السنّة في زمانه . انظر عنه : الوفيات ١/٤٠٢ ، طبقات الشافعية ٤/٢١٤ ـ ٢١٧ ؛ تذكرة الحفاظ ٤/٢٥٧ الاعلام ٢/٢٨٤ .

(٢) هو أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري صاحب التفسير . كان إماماً في اللغة والتفسير ، روى عن أبي طاهر بن خزيمة وأخذ عنه الواحدي . توفي سنة ٤٢٧ هـ . انظر عنه . وفيات الأعيان ١/٢٦ ؛ أنباء الرواة ١/١١٩ البداية والنهاية ١٢/٤٠ ؛ معجم الأدباء ٥/٣٦ ، طبقات المفسرين ٥ ؛ مرآة الجنان ٣/٤٦ ؛ شذرات الذهب ٣/٢٣٠ ؛ اللباب ١/١٩٤ ؛ مفتاح السعادة ٢/٦٧ .

(٣) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية المعروف بالواحدي . مفسر وعالم بفنون الأدب ، ولد بنيسابور . وتوفي بها سنة ٤٦٨ هـ من أهم مصنفاته في التفسير ؛ البسيط ؛ والوسيط والوجيز ؛ أسباب النزول . انظر عنه : وفيات الأعيان ١/٤١٩ ، طبقات الشافعية ٣/٣٨٩ ؛ الكامل ١٠/٣٥ ، البداية والنهاية ١٢/١١٤ ، طبقات القراء ١/٥٢٣ ؛ شذرات الذهب ٢/٣٢٠ ، بغية الرعاة ص ٣٢٧ مفتاح السعادة ٢/٦٦ .

(٤) هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر المعتزلي الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ صاحب (تفسير الكشاف) المعروف ، ويعده المعتزلة من كبار مفسريهم حيث فسر القرآن على طريقتهم ومذهبهم في الأصول الخمسة التي أخذوا أيها في أصول العقيدة . كان غاية في الذكاء والفضل واشتهر بفخر خوارزم . انظر : وفيات الأعيان ٢/١٠٧ ؛ النجوم الزاهرة ٥/٢٧٤ ؛ اللباب ١/٥٠٧ ؛ تذكرة الحفاظ ٤/٧٦ ؛ نزهة الألباء ٤٦٩ ـ ٤٧٢ ؛ طبقات المفسرين ص ٤١ .

لكن معنى « التوحيد » عندهم يتضمن نفي الصفات ، ولهذا سمى ابن التومرت أصحابه الموحدين ، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومعنى « العدل » عندهم يتضمن التكذيب بالقدر ، وهو خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات والقدرة على شيء . ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب ، لكن هذا قول أئمتهم ، وهؤلاء منصب الزمخشري ، فان مذهبه مذهب المغيرة بن علي وأبي هاشم وأتباعهم . ومذهب أبي الحسين والمعتزلة الذين على طريقته نوعان : مشايخية وخشبية .

وأما « المنزلة بين المنزلتين » فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافراً ، فنزلوه بين منزلتين .

و« انفاذ الوعيد » عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون في النار ، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقول الخوارج .

و« الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة ، وقتالهم بالسيف . وهذه الأصول حشا (بها) كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ، ولا لمقاصده فيها ، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين .

و« تفسير القرطبي » [1] خير منه بكثير ، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنّة ، وأبعد عن البدع ، وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد ، لكن يجب العدل بينها ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

و« تفسير ابن عطية » [2] خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير ، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها .

---

(١) هو عبد الله بن الحسن بن أحمد الأنصاري القرطبي المالقي من حفاظ الحديث ومن كبار أئمة التفسير . ولد سنة ٥٥٦ وتوفي سنة ٦٣١ هـ . ومن أهم كتبه تفسيره الكبير (الجامع لأحكام القرآن) وله تصانيف في القرءات . أنظر عنه : بغية الوعاة ص ٢٨٠ مفتاح السعادة ٨٦/٢ ؛ الإعلام ٥٥٢/٢ (ط ١٩٢٥) .

(٢) هو الإمام أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وينبغي أن نعرف أن هناك مفسراً آخر اشتهر بابن عطية توفي سنة ٣٨٣ هـ . وله تفسير يسمى « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » قال أبو حيّان : هو أجلّ من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير . وقيل في المقارنة بين الزمخشري وابن عطيّة : ان كتاب ابن عطية أقل وأجمع وأخلص ، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص . انظر كشف الظنون للهجويري ، بغية الوعاة ٢٩٥ ، فهرس الكتبخانة ٢٠٨/١ ؛ الأعلام ٤٧٨/٢ (ط ١٩٢٥) .

وثم تفاسير أُخر كثيرة جداً كتفسير ابن الجوزي [١] والماوردي [٢] .

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ابو الفرج) الإمام المحدّث والفقيه والمتكلّم والمفسّر . توفي سنة ٥٩٧ هـ . اشتهر بالوعظوسلاسة الأسلوب . من أهم كتبه : زاد المسير في علم التفسير ، تيسير البيان في علم القرآن . المغني في التفسير (قال ابن رجب أن هذا الكتاب أحد وثمانون جزءاً) أنظر ترجمته في : وفيّات الأعيان ٢/٣٢١ ـ ٣٢٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٨٨/٢ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٩٩/١ ـ ٤٣٣ ، الكامل لابن الأثير ٢٢٨/١ ، ٦٧/١٢ ؛ الاعلام ٨٩/٤ ـ ٩٠ . وانظر أيضا درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٧٠ هامش ٦ .

(٢) علي بن محمد بن حبيب الفقيه الشافعي المعروف بالماوردي ، درس بالبصرة وبغداد سنين كثيرة ، وتولى منصب القضاء مرات عدة ، وقيل أنه لم يظهر تصانيفه في حياته إلا الحاوي فقد قرىء عليه كما قال ابن السبكي . له مؤلفات كثيرة من أهمها . الحاوي ، الإقناع ، أدب الدنيا والدين ، دلائل النبوة ، الأحكام السلطانية ، قانون الوزارة ، سياسة الملك . توفي سنة ٤٥٠ هـ . أنظر عنه : تاريخ بغداد ١٠٢/١٢ ـ ١٠٣ ؛ وفيّات الأعيان ٤١٠/١ ـ ٤١١ ؛ معجم الأدباء ٥٢/١٥ ـ ٥٥ ، طبقات الشافعية ٣٠٣/٣ ـ ٣١٤ ، المنتظم لابن الجوزي ١٩٩/٨ ـ ٢٠٠ ، مفتاح السعادة ٣٣١/٢ .

مقدمة رابعة

قواعد كلية في التفسير

١ - السَّلَفُ فَهِمُوا القُرْآنَ وَبَيَّنُوا مَعْنَاهُ
٢ - اخْتِلَافُ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ قَلِيل
٣ - الاخْتِلَافُ فِي التَّفْسِيرِ وَأَسْبَابُهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن برحمتك

الحمد لله نستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً .

أما بعد : فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية ، تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه ، والتمييز ـ في منقول ذلك ومعقوله ـ بين الحق وأنواع الأباطيل ، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل . فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح والحق المبين . والعلم إما نقل مصدق عن معصوم ، وإما قول عليه دليل معلوم . وما سوى هذا فاما مزيف مردود ، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود . وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي « هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الترديد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط المستقيم . ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله » قال تعالى ﴿ فإمَّا يأْتيَنَّكُمْ مني هُدىً فمن اتَّبعَ هُدايَ فلا يضلُ ولا يشقىٰ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضَنكاً ، ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمى ، قالَ ربِّ لمَ حَشَرْتَني أعمىٰ وقد كُنْتُ بَصِيراً ؟ قالَ كَذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسيتَها وكَذلكَ اليومَ

تُنسىٰ ﴾ [١] ، وقال تعالى ﴿ قَدْ جاءَكُم مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدي بِهِ اللهُ مَنِ اتبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، ويخرجُهُمْ مِنَ الظُّلماتِ إلىٰ النّورِ بإذنهِ ، وَيَهديهِمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [٢] وقال تعالى ﴿ آلر . كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ بإذنِ ربهِمْ إلىٰ صِراطِ العزيزِ الحميد . اللهِ الَّذي لهُ ما في السَّماواتِ وَمَا في الأَرضِ ﴾ [٣] ، وقال تعالى ﴿ وكذلكَ أَوحينَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمرِنا ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإِيمانُ ، ولكن جَعلناهُ نوراً نهدي بهِ مَنْ نشاءُ مِنْ عِبادِنَا ، وإنَّكَ لَتَهدي إلى صِراطٍ مستقيمٍ ، صِراطَ اللهِ الَّذي لـهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ أَلا إلىٰ اللهِ تَصيرُ الأُمورُ ﴾ [٤] .

وقد كتبت هذه (المقدمة) مختصرة بحسب تيسير الله تعالى من املاء الفؤاد ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

فصل
السلف فهموا القرآن وبيّنوا معناه

يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى ﴿ لتُبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّل إليهِمْ ﴾ [٥] يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي [٦] : حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا . وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين ـ قيل ثمان سنين ـ ذكره مالك . وذلك أن الله تعالى قال ﴿ كِتابٌ أَنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدَّبَّرُوا آياته ﴾ [٧]

---

(١) سورة طه الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦) .

(٢) سورة المائدة الآية ١٥ .

(٣) أول سورة إبراهيم .

(٤) سورة الشورى الآيات ٥٢ ـ ٥٣ .

(٥) سورة النحل الآية ٤٤ ـ ١٤ .

(٦) هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة الشهير بأبي عبد الرحمن السلمي من مشاهير القراء الذين أخذوا عن عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب . لم يعلم تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته . انظر طبقات القراء لابن الجزري ٤١٣/١٠ وكثيراً ما يذكر ابن تيمية هذا النص عن السلمي ليستدل به على أن السلف تعلموا القرآن وتعلموا معه العمل به .

(٧) سورة ص الآية ٢٩ .

وقال ﴿ أَفَلَا يتدبَّرُونَ القرآنَ ﴾[1] وقال ﴿ أفلم يدَّبَّرُوا القَولَ ﴾[2] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وكذلك قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزلناهُ قرآناً عربيَّاً لعلَّكم تَعقِلونَ ﴾[3] ، وعقل الكلام متضمن لفهمه . ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، فالقرآن أولى بذلك .

وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً ؛ وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر . ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد[4] : عرضت المصحف على ابن عباس ، أفقه[5] عند كل آية منه وأسأله عنها[6] ، ولهذا قال الثوري[7] : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيره ، من أهل العلم ، وكذلك الامام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة ، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال .

فصل
اختلاف السلف في التفسير قليل

الخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير ،

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢ ؛ ومحمد الآية ٢٤ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي ، شيخ القراء والمفسرين ، قرأ على ابن عباس وأخذ عنه ، ولد سنة ٢١ وقيل أنه توفي سنة ١٠٣ أو ١٠٤ هـ انظر شذرات الذهب ١٢٥/١ ، تذكرة الحفاظ ١ /٨٠ ـ ٨١ ، ميزان الاعتدال ٩/٣ الاعلام ١٦١/٦ .

(٥) في طبعة محب الدين الخطيب ، أوقفه وهو خطأ .

(٦) ذكر ابن كثير هذا الأثير في (كتاب فضل القرآن) ذكره في فضائل ابن عباس ومجاهد انظر ٢٨/٤ ـ ٢٩ (فضائل القرآن) .

(٧) هو سفيان بن سعيد بن مسروق (الثوري) محدّث وإمام ثقة ولد سنة ٩٧ وتوفي سنة ١٦١ هـ . انظر ترجمته في : دول الإسلام ٧٨/١ ـ ٧٩ ، الوفيات ١٢٧/٢ ؛ طبقات ابن سعد ٣٧١/٦ ـ ٣٧٤ .

وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد . وذلك صنفان :

١ ـ تعدد اللفظ والمراد واحد :

أحدهما : أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة ، كما قيل في اسم السيف : الصارم والمهند وذلك مثل أسماء الله الحسنى وأسماء رسوله ﷺ وأسماء القرآن ، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد ، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر ، بل الأمر كما قال تعالى ﴿ قُلِ ادعُوا الله أو ادعُوا الرَّحمنَ أيّاماً تدعُوا فلهُ الأسماءُ الحُسنى ﴾ (١) ، وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الإسم ، كالعليم يدل على الذات والعلم ، والقدير يدل على الذات والقدرة ، والرحيم يدل على الذات والرحمة . ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون : لا يقال هو حي ولا ليس بحي ، بل ينفون عنه النقيضين فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسماً هو علم محض كالمضمرات ، وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات ، فمن وافقهم على مقصودهم كان ـ مع دعواه الغلو في الظاهر ـ موافقاً لغلاة الباطنية في ذلك ، وليس هذا موضع بسط ذلك ، وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الإسم من صفاته ، ويدل أيضاً على الصفة التي في الإسم الآخر بطريق اللزوم . وكذلك أسماء ﷺ مثل محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب ، وكذلك أسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب وأمثال ذلك ، فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبّرنا عنه بأي اسم كان ، إذا عرف مسمى هذا الإسم . وقد يكون الإسم علماً وقد يكون صفة كمن يسأل عن قوله ﴿ وَمَنْ أَعرَضَ عَنْ ذِكرِي ﴾ (٢) . ما ذكره ؟ فيقال له هو القرآن مثلاً ، أو ما أنزله من الكتب ، فإن الذكر مصدر ، والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول ، فإذا قيل ذكر الله بالمعنى الثاني كان ما يذكر به مثل قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه ، وهذا هو المراد في قوله ﴿ وَمَنْ أَعرَضَ عَنْ ذِكرِي ﴾ لأنه قال قبل ذلك ﴿ فإمَّا يأتِيَنَّكُمْ مني هُدىً فمن اتَّبعَ هُدايَ فَلَا يَضِلُّ ولا يشقى ﴾ (٣) وهداه هو ما أنزله من الذكر . وقال بعد ذلك ﴿ قالَ رَبِّ لمَ حشرتَني أعمىٰ وقد كُنتُ بصيراً ؟ قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا

(١) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

(٢) سورة طه الآية ـ ١٢٤ .

(٣) سورة طه الآية ١٢٣ .

فنسيتَهَا ﴾ [1] والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل ، أو هو ذكر العبد له ، فسواء قيل ذكرى كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك فإن المسمى واحد . وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمى ، مثل أن يسأل عن القدوس السلام المؤمن وقد علم أنه الله ، لكن مراده ما معنى كونه قدوساً سلاماً مؤمناً ونحو ذلك . إذا عرف هذا فالسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه ، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الإسم الآخر ، كمن يقول : أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب ، والقدوس هو الغفور والرحيم أي إن المسمى واحد ، لا أن هذه الصفة هي هذه ، ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس ، مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم ، فقال بعضهم : هو القرآن ـ أي اتباعه ـ لقول النبي ﷺ في حديث على الذي رواه الترمذي ورواه أبو نعيم من طرق متعددة « هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » [2] وقال بعضهم : هو الإسم لقوله ﷺ في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتوحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو من فوق الصراط ، وداع يدعو على رأس الصراط . قال : فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله ؛ والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن » [3] فهذان القولان متفقان ، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » يشعر بوصف ثالث . وكذلك قول من قال : هو السنة والجماعة . وقول من قال : هو طريق العبودية . وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ﷺ . . وأمثال ذلك . فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل بصفة من صفاتها .

٢ ـ ذكر العام وإرادة بعض أنواعه :

الصنف الثاني : أن يذكر كل منهم من الإسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل ،

---

(١) سورة طه الآية ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) هذا جزء من الحديث الذي رواه الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ (إنها ستكون فتنة ـ قلنا فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال كتاب الله) الخ الحديث . وقال عنه الترمذي : إسناده مجهول ؛ وأورده ابن كثير في كتاب فضائل القرآن الذي ألحقه بتفسيره ، وعلق على كلام الترمذي بقوله : ان الحديث قد روي من وجه آخر ، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام علي بن أبي طالب ، وهو كلام حسن صحيح ، انظر : الترمذي ١١/ ٣٠ ـ ٣١ ؛ مسند الإمام أحمد ٢/ ٨٨ ـ ٨٩ حديث رقم ٧٠٤ ط دار المعارف ؛ تفسير ابن كثير ٤/ ٥ (كتاب فضائل القرآن) : وقد اقتبس ابن تيمية هذا الحديث في مقدمته لهذه القاعدة .

(٣) ورد الحديث في : ابن حنبل ٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣ ؛ الترمذي (كتاب الآداب) .

وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه ، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ « الخبز » فأرى رغيفاً وقيل له : هذا . فالاشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده . مثال ذلك ما نقل في قوله ﴿ ثُمَّ أورثنَا الكِتَابَ الَّذينَ اصطفينَا مِنْ عِبادِنَا فمنهُمْ ظَالمٌ لنفسهِ ومنهُمْ مُقتصدٌ ومنهُمْ سَابقٌ بالخيراتِ ﴾ [١] ، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع الواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات . فالمقتصدون هم أصحاب اليمين ، والسابقون أولئك المقربون . ثم إن كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات ، كقول القائل : السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار . أو يقول : السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة ، فإنه ذكر المحسن بالصدقة ، والظالم بأكل الربا ، والعادل بالبيع .

والناس في الأموال إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم . فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات ، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا . وأمثال هذه الأقاويل . فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية وإنما ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره ، فان التعريف بالمثال قد يسهّل أكثر من التعريف بالحد المطابق ، والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف فقيل له هذا هو الخبز . وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا ، لاسيما إن كان المذكور شخصاً ، كأسباب النزول المذكورة في التفسير ، كقولهم إن آية الظهار [٢] نزلت في امرأة أوس بن الصامت ، وإن آية اللعان [٣] نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية ، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله وإن قوله ﴿ وأَنِ احكُمْ بينهُمْ بما أنزلَ اللهُ ﴾ [٤] نزلت في بني قريظة والنضير ، وإن قوله ﴿ وَمَنْ يولّهِمْ يومئذٍ دُبُرَهُ ﴾ [٥] نزلت في بدر ، وإن قوله ﴿ شَهادةُ بينكُمْ إِذَا حَضَرَ أحدكُمُ الموتُ ﴾ [٦] نزلت في قضية تميم الداري وعدي بن بداء ، وقول أبي أيوب إن قوله ﴿ وَلَا تُلقُوا بأَيديكُمْ إِلىٰ التَّهلُكَةِ ﴾ [٧] نزلت فينا معشر الأنصار : الحديث . ونظائر هذا

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٢ .

(٢) انظر الآيات الأولى (٢ ، ٣) من سورة المجادلة .

(٣) انظر الآية رقم ٥ من سورة النور .

(٤) سورة المائدة الآية ٤٩ .

(٥) سورة الأنفال الآية ١٦ .

(٦) سورة المائدة الآية ١٠٦ .

(٧) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق ، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا ، فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنّة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ .

والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن بمنزلته أيضاً . ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية ، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب ، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء إنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها . وقولهم « نزلت هذه الآية في كذا » يراد به تارة أنه سبب النزول ، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب ، كما تقول عني بهذه الآية كذا . وقد تنازع العلماء في قول الصاحب « نزلت هذه الآية في كذا » هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ، والبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله في المسند ، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فانهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند ، وإذا عرف هذا فقول أحدهم : نزلت في كذا ، لا ينافي قول الآخر : نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولها كما ذكرناه في التفسير بالمثال . وإذا ذكر أحدهم لها سبباً نزلت لأجله ، وذكر الآخر سبباً ، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب ، أو تكون نزلت مرتين : مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب .

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير - تارة لتنوع الأسماء والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه كالتمثيلات - هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف .

الصنف الثالث
إحتمال اللفظ للأمرين

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين ، إما لكونه مشتركاً في اللغة كلفظ «قسورة» الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد ، ولفظ « عسعس » الذي يراد به إقبال الليل وإدباره وإما لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين كالضمائر في

قوله : ﴿ ثمَّ دَنَا فتدلَّىٰ ، فَكَانَ قابَ قَوسينِ أو أَدْنىٰ ﴾ (١) وكلفظ ﴿ والفجرِ ، وَلَيـالٍ عَشرٍ ، والشَّفعِ وَالوِتْرِ ﴾ (٢) وما أشبه ذلك ، فمثل هذا قد يجوز أن يـراد به كـل المعاني التي قـالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك . فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة ، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه ، إذ قد جوّز ذلك أكثر الفقهاء المالكية والشافعية والحنبلية وكثير من أهل الكلام ، وإما لكون اللفظ متـواطئاً فيكـون عامـاً إذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني .

الرابع
إستعمال الألفاظ المتقاربة

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض النـاس اختلافـاً أن يعبروا عن المعـاني بألفـاظ متقاربة لا مترادفة ، فان الترادف في اللغة قليل ، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإمـا معدوم ، وقلّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه بل يكون فيه تقريب لمعناه ، وهذا من أسباب إعجاز القرآن ، فإذا قال القائل ﴿ يومَ تمورُ السَّماءُ مَوراً ﴾ (٣) إن المور هو الحركة كان تقريباً ، إذ المور حركة خفيفة سريعة . وكذلك إذا قال : الوحي الإعلام ، أو قيل : أوحينا إليك أنزلنا إليك ، أو قيل ﴿ وقَضَينا إلىٰ بني إسرَائِيلَ ﴾ (٤) أي علمنا وأمثال ذلك فهذا كله تقريب لا تحقيق ، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي والقضاء إليهم أخص من الإعلام ، فان فيه إنزالا إليهم وإيحاء إليهم . والعرب تضمن الفعـل وتعديـه تعديتـه ، ومن هنا غلط من جعـل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بسؤالِ نَعجتِكَ إلىٰ نِعاجِهِ ﴾ (٦) أي مع نعاجه و﴿ مَنْ أَنصَارِي إلىٰ اللهِ ﴾ (٥) أي مع الله ، ونحو ذلك ، والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين ، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه ، وكذلك قوله ﴿ وإنْ كَادُوا ليفتِنُونَكَ عن الَّذي أَوحينَا إليكَ ﴾ (٧) ضمن معنى يزيغونك ويصدونك ، وكذلـك قولـه

---

(١) سورة النجم الآيات (٧ ـ ٨) .

(٢) أول سورة الفجر .

(٣) سورة الطور الآية ٩ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٤ .

(٥) سورة ص الآية ٢٤ .

(٦) سورة الصف الآية ١٤ .

(٧) سورة الإسراء الآية ٧٣ .

﴿ وَنَصرناهُ مِنَ القومِ الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا ﴾ (١) ضمن معنى نجيناه وخلصناه ، وكذلك قوله ﴿ يشربُ بها عبادُ اللهِ ﴾ (٢) ضمن يروى بها . ونظائره كثيرة . ومن قال : لا ريب لا شك ، فهذا تقريب . وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة كما قال « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وفي الحديث : أنه مر بظبي حاقف (٣) فقال « لا يريبه أحد » فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة فالريب ضده (ضمن الاضطراب والحركة) ، ولفظ « الشك » وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه . وكذلك إذا قيل (ذلك الكتاب) هذا القرآن فهذا تقريب ، لأن المشار إليه وإن كان واحداً فالاشارة بجهة الحضور غير الاشارة بجهة البعد والغيبة ، ولفظ « الكتاب » يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً . فهذه الفروق موجودة في القرآن . فاذا قال أحدهم (أن تبسل) (٤) أي تحبس ، وقال الآخر : ترتهن ونحو ذلك ، لم يكن من اختلاف التضاد ، وإن كان المحبوس قد يكون مرتهناً وقد لا يكون ، إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم . وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جدا لأن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين ، ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم ، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام . ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاختلاف معلوم بل متواتر عند العامة أو الخاصة ، كما في عدد الصلوات ومقادير ركوعها ومواقيتها ، وفرائض الزكاة ونصبها ، وتعيين شهر رمضان ، والطواف والوقوف ورمي الجمار والمواقيت وغير ذلك . ثم اختلاف الصحابة في الجد والإخوة وفي المشركة ونحو ذلك لا يوجب ريباً في جمهور مسائل الفرائض ، بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء ، والكلالة من الإخوة والأخوات ، ومن نسائهم كالأزواج . فان الله أنزل في الفرائض ثلاث آيات مفصلة ذكر في الأولى (٥) الأصول والفروع وذكر في الثانية (٦) الحاشية التي ترث بالفرض كالزوجين وولد الأم ، وفي الثالثة (٧) الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الإخوة لأبوين أو لأب ، واجتماع الجد والإخوة نادر ، ولهذا لم يقع في الاسلام إلا بعد موت النبي ﷺ .

والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل ، أو الذهول عنه ، وقد يكون لعدم سماعه ، وقد يكون الغلط في فهم النص ، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح فالمقصود هنا التعريف بجمل الأمر دون تفاصيله .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٧ .

(٢) سورة الانسان الآية ٦ .

(٣) حاقف بمعنى نائم قد انحنى في نومه .

(٤) جزء من الآية رقم ٧٠ من سورة الأنعام وتمامها (أن تبسل نفس بما كسبت) . . الخ .

(٥) وهي قوله تعالى ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ﴾ الخ سورة النساء ١١ .

(٦) وهي قوله تعالى ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم أن لم يكن لهن ولد ﴾ . الخ الآية . النساء ، ١٢ .

(٧) وهي قوله تعالى ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة . . الخ الآية ﴾ النساء ، ١٧٦ .

فصل
الاختلاف في التفسير وأسبابه

(النوع الأول سببه النقل)

الاختلاف في التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك . إذ العلم إما نقل مصدق ، وإما إستدلال محقق . والمنقول إما عن المعصوم ، وإما عن غير المعصوم .

والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم ـ وهذا هو النوع الأول ـ فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه . وهذا القسم الثاني من المنقول ـ وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه ـ فالبحث عنه مما لا فائدة فيه من فضول الكلام . وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فان الله نصب على الحق فيه دليلا . فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منذ اختلافهم في أحوال أصحاب الكهف ، وفي « البعض » الذي ضرب به موسى من البقرة ، وفي مقدار « سفينة نوح » وما كان خشبها ، وفي اسم « الغلام » الذي قتله الخضر ونحو ذلك . فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ ـ كاسم صاحب موسى أنه الخضر ـ فهذا معلوم . وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن اسحق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب ـ فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فاما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » (١) . وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصاحب فيما يقوله كيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ والمقصود أن الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه (هو) كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك . وأما القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد ، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم

---

(١) أورد البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ـ الآية ـ انظر : البخاري ١٣٦/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة ، باب قول النبي لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء) .

وسلامه والنقل الصحيح يدفع ذلك ، بل هذا موجود فيما مستنده النقل وفيما قد يعرف بأمور أخرى غير النقل .

أهل المدينة هم أعلم الناس بالمغازي

فالمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ، ولهذا قال الامام أحمد « ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير والملاحم والمغازي » ويروى « ليس لها أصل » أي إسناد ، لأن الغالب عليها المراسيل مثل ما يذكره عروة بن الزبير والشعبي والزهري وموسى بن عقبة وابن إسحاق ، ومن بعدهم كيحيى بن سعيد الأموي والوليد بن مسلم والواقدي ونحوهم في المغازي ، فان أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق . فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم ، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ، ولهذا عظم الناس كتب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك ، وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار .

أهل مكة أعلم الناس بالتفسير

وأما التفسير فان أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس ـ كمجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ـ وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاوس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم . وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب .

رأي ابن تيمية في الأحاديث المرسلة

والمراسيل إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصدا أو (حصل) الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً ، فان النقل إما أن يكون صدقاً مطابقاً للخبر ، وإما أن يكون كذباً تعمد صاحبه الكذب ، أو أخطأ فيه ، فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقاً بلا ريب . فاذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات ـ وقد علم أن المخبرين لم يتواطأوا على اختلاقه ، وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقاً بلا قصد ـ علم أنه صحيح . مثل شخص يحدث عن واقعة جرت ويذكر تفاصيل ما فيها من الأقوال والأفعال ، ويأتي شخص آخر قد علم أنه لم يواطىء

الأول فيذكر مثل ما ذكره الأول من تفاصيل الأقوال والأفعال ، فيعلم قطعاً أن تلك الواقعة حق في الجملة ، فانه لو كان كل منهما كذب بها عمداً أو أخطأ لم يتفق في العادة أن يأتي كل منهما بتلك التفاصيل التي تمنع العادة اتفاق الاثنين عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه ، فان الرجل قد يتفق أن ينظم بيتاً وينظم الآخر مثله ، أو يكذب كذبة ويكذب الآخر مثلها ، أما إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية وروى فلم تجر العادة بأن غيره ينشىء مثلها لفظاً ومعنىً مع الطول المفرط ، بل يعلم بالعادة أنه أخذها منه . وكذلك إذا حدّث حديثاً طويلا فيه فنون وحدث آخر بمثله ، فانه إما أن يكون واطأه عليه ، أو أخذه منه ، أو يكون الحديث صدقاً ، وبهذه الطريق يعلم صدق عامة ما تتعدد جهاته المختلفة على هذا الوجه من المنقولات ، وإن لم يكن أحدها كافياً إما لإرساله وإما لضعف ناقله ، لكن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التي لا تعلم بهذه الطريق ، بل يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ والدقائق ، ولهذا ثبتت بالتواتر غزوة بدر وأنها قبل أحد ، بل يعلم قطعاً أن حمزة وعلياً وعبيدة برزوا إلى عتبة وشيبة والوليد [١] ، وأن علياً قتل الوليد ، وأن حمزة قتل قرنه ، ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أو شيبة [٢] .

وهذا الأصل ينبغي أن يعرف ، فإنه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث والتفسير والمغازي وما ينقل من أقوال الناس وأفعالهم وغير ذلك . ولهذا إذا روي الحديث الذي يتأتى فيه ذلك عن النبي ﷺ من وجهين ـ مع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر ـ جزم بأنه حق ، لا سيما إذا علم أن نقلته ليسوا ممن يتعمد الكذب ، وإنما يخاف على أحدهم النسيان والغلط ، فإن من عرف الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب وابن عمر وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم علم يقينا أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ فضلا عمن هو فوقهم ، كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبرة باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس ويقطع الطريق ويشهد بالزور ونحو ذلك .

وكذلك التابعون بالمدينة ومكة والشام والبصرة ، فإن من عرف مثل أبي صالح السمان والأعرج وسليمان بن يسار وزيد بن أسلم وأمثالهم علم قطعاً أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكذب في الحديث فضلاً عمن هو فوقهم مثل محمد بن سيرين والقاسم بن محمد أو سعيد بن المسيب أو عبيدة السلماني أو علقمة أو الأسود أو نحوهم ، وإنما يخاف على الواحد من الغلط ، فإن الغلط

---

(١) في طبعة الخطيب ، خطأ .

(٢) يشير بذلك ابن تيمية إلى الكيفية التي بدأ بها القتال في غزوة بدر ، حيث بدأ القتال بالمبارزة . فبرز ثلاثة من المسلمين هم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الجراح وبرز لهم ثلاثة من صناديد المشركين هم عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة . وقتل كل مبارز مسلم قرينه المشرك .

والنسيان كثيراً ما يعرض للإنسان ، ومن الحفاظ من قد عرف الناس بعده عن ذلك جداً كما عرفوا حال الشعبي والزهري وعروة وقتادة والثوري وأمثالهم لا سيما الزهري في زمانه والثوري في زمانه ، فإنه قد يقول القائل أن ابن شهاب الزهري لا يعرف له غلط مع كثرة حديثه وسعة حفظه .

والمقصود أن الحديث الطويل إذا روي مثلاً من وجهين مختلفين من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطاً كما امتنع أن يكون كذباً ، فإن الغلط لا يكون في قصة طويلة متنوعة وإنما يكون في بعضها ، فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة ، ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غير مواطأة ، امتنع الغلط في جميعها كما امتنع الكذب في جميعها من غير مواطأة . ولهذا انما يقع في مثل ذلك غلط في بعض ما جرى في القصة مثل حديث اشتراء النبي ﷺ البعير من جابر ، فإن من تأمل طرقه علم قطعاً أن الحديث صحيح ، وإن كانوا قد اختلفوا في مقدار الثمن . وقد بيّن ذلك البخاري في صحيحه ، فإن جمهور ما في البخاري ومسلم مما يقطع بأن النبي ﷺ قاله ، لأن غالبه من هذا النحو ، ولأنه قد تلقاه أهل العلم بالقبول والتصديق . والأمة لا تجتمع على خطأ ، فلو كان الحديث كذباً في نفس الأمر والأمة مصدقة له قابلة لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب ، وهذا إجماع على الخطأ وذلك ممتنع ، وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ او الكذب على الخبر فهو كتجويزنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظني أن يكون الحق في الباطن بخلاف ما اعتقدناه ، فإذا أجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطناً وظاهراً . ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقاً له أو عملاً به أنه يوجب العلم ، وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك ، ولكن كثيراً من أهل الكلام أو أكثرهم يوافقون الفقهاء وأهل الحديث والسلف على ذلك ، وهو قول أكثر الأشعرية كأبي إسحاق [1] وابن فورك [2] ، وأما ابن الباقلاني [3] فهو الذي أنكر ذلك وتبعه

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاسفراييني الملقب بركن الدين . من فقهاء الشافعية المعروفين بالاجتهاد والأصول . توفي بنيسابور سنة ٤١٨ هـ .
انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ١/٨ ـ ٩ ، شذرات الذهب ٣/٢٠٩ ، طبقات الشافعية ٣/١١١ ـ ١١٤ تبين كذب المفتري ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، العبر للذهبي ٣/١٢٨ ، الأعلام ١/٥٩ .

(٢) هو محمد بن الحسن الشهير بابن فورك المتوفي سنة ٤٠٦ هـ .

(٣) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني ويعرف بابن الباقلاني أيضاً ، أعظم رجال الأشاعرة بعد أبي الحسن الأشعري ويعد الباقلاني إمام المذهب بحق . إذ تطور المذهب على يديه وأحدث فيه آراء لم تظهر في زمن أبي الحسن ، ومن أهم كتبه التمهيد ، الإنصاف انظر : شذرات الذهب ٣/١٦٠ ـ ١٧٠ ، تبيين كذب المفتري ص ٢١٧ ، تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ ، وفيات الأعيان ٤/٤٠٠ ، الاعلام ٧/٤٦ .

مثل أبي المعالي [1] الجويني وأبي حامد [2] وابن عقيل [3] وابن الجوزي [4] وابن الخطيب [5] والآمدي [6] ، ونحو هؤلاء ، والأول هو الذي ذَكره الشيخ أبو حامد وأبو الطيب وأبو إسحاق وأمثاله من أئمة الشافعية ، وهو الذي ذَكره القاضي عبد الوهاب [7] ، وأمثاله من المالكية وهو

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشهير بإمام الحرمين (أبو المعالي) من أئمة الأشاعرة وهو شيخ الغزالي ومعلمه أصول المذهب .

أنظر : تبيين كذب المفتري ٢٧٨ - ٢٨٢ ، شذرات الذهب ٣٥٨/٣ ؛ وفيات الأعيان ٣٤١/٢ - ٣٤٣ ، الاعلام ٣٠٦/٤ .

(٢) هو أبو حامد الغزالي (حجة الإسلام) من كبار الشافعية والأشاعرة ولد سنة ٤٥٠ وتوفي سنة ٥٠٥ هـ مزج المنطق بعلوم المسلمين في كتابه (القسطاس المستقيم) ، كثيراً ما ينقده ابن تيمية في مؤلفاته العديدة وأحياناً يتهمه بميله الى القول بالباطن في موقفه من التأويل .

أنظر : وفيات الأعيان ٤٦٣/١ ، طبقات الشافعية ١٠١/٤ ، تبيين كذب المفتري ٢٩١ - ٣٠٦ .

(٣) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي من رجال الحنابلة الذين مالوا إلى التأويل . ولد سنة ٤٣١ وتوفي سنة ٥١٢ هـ .

أنظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١٤٢/١ - ١٦٣ . شذرات الذهب ٣٥/٤ - ٤٠ ، لسان الميزان ٢٤٣/٤ الاعلام ١٢٩/٥ .

(٤) هو عبد الرحمن بن علي الجوزي (أبو الفرج) توفي سنة ٥٩٧ هـ من أهم كتبه زاد المسير في علم التفسير ، تلبيس إبليس ، وتيسير البيان في علم القرآن ، أنظر : وفيات الأعيان ٣٢١/٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٨٨/٢ ، الذيل لابن رجب ٣٩٩/١ ، ابن الأثير ٢٢٨/١٠ ، الإعلام ٨٩/٤ - ٩ .

(٥) هو أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي المعروف بابن الخطيب أو ابن خطيب الري ، ويذكره ابن تيمية أحياناً بابن عمر وأحياناً بأبي عبد الله ولد سنة ٥٤٤ وتوفي سنة ٦٠٦هـ وهو من كبار الأشاعرة الذين مزجوا علم الكلام بالفلسفة وقد صنف ابن تيمية في الرد على الرازي أهم كتبه على الاطلاق وهو المسمى (درء تعارض العقل والنقل) وقد أخرجه أستاذي وصديقي الدكتور محمد رشاد سالم بتحقيق علمي ممتاز .

انظر : وفيات الأعيان ٣٨١/٣ ، شذرات الذهب ٢١/٥ ، طبقات الشافعية ٣٣/٥ ، لسان الميزان ٢٤٦/٤ ، الاعلام ٢٠٣/٧ .

(٦) أبو الحسين علي بن علي محمد بن سالم الثعلبي (سيف الدين الآمدي) الحنبلي ثم الشافعي . صنف في أصول الدين والفقه والمنطق وهو أهم مصنفاته أبكار الأفكار ، وقد طبع له « غاية المرام في علم الكلام » بتحقيق زميلي الدكتور حسن شافعي بكلية دار العلوم .

أنظر : طبقات الشافعية ١٢٩/٥ - ١٣٠ ؛ شذرات الذهب ٣٢٣/٣ ؛ لسان الميزان ١٣٤/٣ ، مفتاح السعادة ٤٩/٢ ؛ الاعلام ١٥٣/٥ .

(٧) عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي (قاضي القضاة) من كبار فقهاء المالكية ولد سنة ٣٦٢ وتوفي ٤٢٢ هـ رحل إلى الشام ومصر . من أهم كتبه « التلقين » و « عيون المسائل » شرح فصول الأحكام .

انظر : فوات الوفيات ٢١/٢ ؛ طبقات الشيرازي ١٤٣ ، البداية والنهاية ٢٢/١٢ ؛ الوفيات ٣٠٤/١ شذرات الذهب ٢٢٣/٣ ، الاعلام ٣٣٤/٤ - ٣٣٥ .

الذي ذكره شمس الدين السرخسي [١] ، وأمثاله من الحنفية ، وهو الذي ذكره أبو يعلى [٢] وأبو الخطاب وأبو الحسن بن الزاغوني [٣] ، وأمثالهم من الحنبلية . وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجباً للقطع به فالاعتبار في ذلك بإجماع أهل العلم بالحديث ، كما أن الاعتبار في الإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهي والإباحة ، والمقصود هنا أن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول ، لكن هذا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين .

وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيء الحفظ ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك ، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ويقولون : أنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره ، قال أحمد « قد أكتب حديث الرجل لأعتبره » ومثل ذلك بعبد الله بن لهيعة [٤] قاضي مصر فإنه كان من أكثر الناس حديثاً ومن خيار الناس ، لكن بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخر غلط فصار يعتبر بذلك ويستشهد به ، وكثيراً ما يقترن هو والليث بن سعد [٥] ، والليث حجة ثبت إمام .

وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ ، فإنهم أيضاً يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم غلطه فيها بأمور يستدلون بها ، ويسمون هذا « علم علل الحديث » وهو من أشرف علومهم بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه وغلطه فيه عرف ، إما بسبب ظاهر : كما عرفوا أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم ، وأنه صلى في

---

(١) هو محمد بن أحمد بن أبي سهل عبد الرحمن من كبار فقهاء المذهب الحقيقي . ومن أهم مصنفاته كتاب المبسوط في الفقه والأصول . توفي سنة ٤٨٣ هـ .

(٢) وهو أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء عالم عصره في أصول الحنابلة ولد سنة ٣٨٠ هـ وتوفي سنة ٤٥٨ هـ .

أنظر : طبقات الحنابلة ٢/١٩٣ - ٢٣٠ ؛ تاريخ بغداد ٢/٢٥٦ ؛ شذرات الذهب ٤/٢٠٣ - ٢٠٧ الاعلام ٦/٣٣١ .

(٣) علي بن عبد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني ، ولد سنة ٤٥٥ وتوفي سنة ٥٢٧ هـ . من كبار رجال الحنابلة وعلماء المذهب .

أنظر : شذرات الذهب ٤/٨١ - ٨٢ ؛ اللباب لابن الأثير ١/٤٨٩ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١/١٨٠ - ١٨٤ ، الاعلام ٥/١٢٤ .

(٤) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي المصري ، قاضي مصر وعالمها ومحدثها في عصره .

قال ابن حنبل : ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة . وقال النوري ابن لهيعة الأصول . والفروع عندنا . تولى قضاء مصر سنة ١٥٤ هـ وتوفي سنة ١٧٤ هـ .

انظر : الولاة والقضاة ص ٣٩٩٠ ، والنووي ١/٢٨٣ ، الإعلام ٢/٥٧٥ (ط سنة ١٩٢٠) .

(٥) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن مولى قيس بن رقام أصله من أصفهان ولد سنة ٩٢ أو ٩٤ هـ وتوفي يوم الخميس سنة ١٧٥ هـ أخذ عن ابن شهاب ، قال عنه الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به .

أنظر طبقات الفقهاء للشيرازي ٧٨ ، ٧٩ .

البيت ركعتين ، وجعلوا رواية ابن عباس لتزوجها حلالاً ولكـونه لم يصـل مما وقـع فيه الغلط ، وكذلك أنه اعتمر أربع عمر . وعلموا ان قول ابن عمر أنه اعتمر في رجب مما وقع فيه الغلط . وعلموا أنه تمتع وهو آمن في حجة الوداع ، وأن قول عثمان لعلي كنا يومئذ خائفين ممـا وقع فيـه الغلط . وأن مـا وقع في بعض طـرق البخاري « أن النـار لا تمتـلىء حتى ينشىء الله لهـا خلقـاً آخر »[1] مما وقع فيه الغلط ، وهو كثير .

والناس في هذا الباب طرفان : طرف من أهل الكلام ونحوهم ممن هو بعيـد عن معرفـة الحديث وأهله لا يميز بين الصحيح والضعيف ، فيشك في صحة أحاديث ، أو في القطع بها مع كونها معلومة مقطوعاً بها عند أهل العلم به ، وطرف ممن يدّعي اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظاً في حديث قد رواه ثقة أو رأى حديثاً بإسناد ظاهره الصحة يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته ، حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم ، مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق وقد يقطع بذلك ، فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك . مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل ، مثـل حديث يـوم عاشوراء ، وأمثاله مما فيه : أن من صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبياً[2] وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة ، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم . والثعلبي هو نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل مـا وجد في كتب التفسـير من صحيح وضعيف ومـوضوع . والـواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية ولكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف . والبغوي[3] تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة والموضوعات في كتب التفسير كثيرة (مثل)[4] الأحاديث الكثيـرة الصريحـة في الجهر بـالبسملة ، وحديث عـلي الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم ، ومثـل ما روي في قـوله

---

(١) ورد الحديث في : البخاري ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الأنعام ـ وكتاب التوحيد ٩/١٣٩ ـ ١٤٢ .

(٢) جاء في تذكرة الموضوعات للفتني « من صلى يوم عاشوراء أربعين ركعة بعد الظهـر في كل ركعـة آية الكـرسي عشر مـرات والإخلاص إحدى عشرة مرة والمعوذتين خمس مـرات » وقال عنـه انه مـوضوع ، وجـاء في اللآلئ المصنـوعة في الأحـاديث الموضوعة للسيوطي « فضل أربع ركعات بالفاتحة والاخلاص خمسين مرة يوم عاشوراء » وقال السيوطي أنه موضوع ، وكثيراً ما يصرح ابن تيمية أن مثل هذه الأحاديث « . . . عند أهل الحديث من الأحاديث الموضوعة » .
انظر تذكرة الموضوعات ص ٤٣ ؛ الفوائد المجمـوعة ص ٤٧ ؛ درء تعـارض العقل والنقـل ص ١٥٠ وانظر أيضـاً تعليق المحقق .

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود المعروف بالبغوي الفراء ، الفقيه الشافعي المحدث صاحب التفسير المعروف توفي سنة ٥١٠ هـ .
انظر : الوفيات ١/٤٠٢ ، طبقات الشافعية ٤/٢١٤ ـ ٢١٧ تذكرة الحفاظ ٤/١٢٥٧ ، الاعلام ٢/٢٨٤ .

(٤) في طبعة الخطيب : ومنها ويوجد بالهامش إشارة الى ان بالاصل فراغاً قدر كلمة والتصحيح من ط : س .

﴿ ولكلِّ قومٍ هاد ﴾ أنه علي ، ﴿ وتعيها أذنٌ واعية ﴾ أذنك يا علي .

النوع الثاني سببه اختلاف طرق الاستدلال

وأما النوع الثاني من سببي الاختلاف ، وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرازق ووكيع وعبد الرحمن بن حميد بن ابراهيم دحيم . ومثل تفسير الإمام أحمد وإسحاق بن راهوية وبقي بن مخلد وأبي بكر بن المنذر وسفيان بن عيينة وسنيد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي سعيد الأشج وأبي عبد الله بن ماجة وابن مردويه .

أحداهما : قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

والثانية : قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه والمخاطب به . فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، والآخرون راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام . ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم ، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن كما يغلط بذلك الآخرون ، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق .

الأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دلّ عليه وأريد به ، وتاره يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به . وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول ، وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم فيه في الدليل لا في المدلول . وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها . وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم : تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلِم عن مواضعه . ومن هؤلاء فرق الخوارج [١] والروافض [٢] والجهمية [٣] والمعتزلة والقدرية [٤] والمرجئة [٥]

---

(١) الخوارج يرجع تاريخهم إلى قضية التحكيم في الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية حيث خرجوا على التحكيم وكفروا مرتكب الكبيرة وقالوا بخلوده في النار وأجازوا أن تكون الإمامة في غير قريش . وتفرع عنهم فرق مختلفة كالحرورية ، والناصبية ، والشراة والبغاة ، ومن أشهرهم الأباضية والأزارقة . =

وغيرهم . وهذا كالمعتزلة مثلا فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبه مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ ابراهيم بن اسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي ، ومثل كتاب أبي علي الجبائي ، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني و(التفسير) لعلي بن عيسى الرماني ، والكشاف لابي القاسم الزمخشري ، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة .

وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . (وتوحيدهم) هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك ، قالوا : ان الله لا يُرى ، وأن القرآن مخلوق ، وأنه ليس فوق العالم ،

= انظر عنهم : مقالات الأشعري ٨٦/١ - ١٣١ (ط ريتر) ؛ الملل والنحل ١٩٥/١ - ٢٥٥ ؛ الفرق بين الفرق ص ٤٥ - ٦٦ ؛ التبصير في الدين ص ٤٦ - ٥٩ .

(٢) الرافضة أو الروافض : فرقة من فرق الشيعة الغلاة ، وهو يطلق بالتحديد - كما يرى الشهرستاني - على شيعة الكوفة حين تبرأو من زيد بن علي لأنه قال بامامة الشيخين (أبي بكر وعمر) يقول الشهرستاني « ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة من زيد وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه . . فسميت الرافضة . ومن كبار غلاتهم هشام بن الحكم الرافضي والجواليقي . ومذهبهم في الاله يميل إلى التجسيد الصريح ولا يقول بمقالاتهم مسلم وكثيرا ما يشير ابن تيمية وكذا الغزالي الى أن الرافضة هم سبب البلاء والاختلاف في هذه الأمة .

انظر : الملل والنحل للشهرستاني ٢٥١/١ ، ٣٠٧ ، بغية المرتاد في الرد على القرامطة أهل الإلحاد ، فضائح الباطنية للغزالي في أماكن متفرقة .

(٣) الجهمية ينتسبون إلى الجهم بن صفوان . كان معاصراً لواصل بن عطاء تتلمذ على الجعد بن درهم ، أخذ عنه القول بخلق القرآن ونفي الصفات . وابن تيمية يستعمل لفظ الجهمية أحياناً ويريد به المعتزلة لقولهم بآراء الجهم في نفي الصفات وخلق القرآن ويصفهم بقول الشاعر :

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها أعظم الأشياء

وأحياناً يستعمل لفظ الجهمية ويريد به الأشاعرة لقولهم بالجبر ويرى أنهم أخذوه عن الجهم . انظر عن الجهم والجهمية : مقالات الأشعري ١٣٢/١ ، ٢٧٩ الملل والنحل ١٣٥/١ - ١٣٧ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٨ - ١٣٩ ، خطط المقريزي ٣٤٩/٢ - ٣٥٠ ، لسان الميزان ١٤٢/٢ - ١٤٣ ، وانظر تاريخ الجهمية للقاسمي .

(٤) القدرية لا تطلق على فرقة بعينها . وإنما يطلق ابن تيمية هذا اللفظ على المعتزلة وعلى كل من يرى أن العبد خالق لفعله بقدرته المستقلة عن قدرة الله ، وأحياناً يرجع هذا الرأي إلى غيلان الدمشقي ويرى أن المعتزلة اخذوا عنه القول بنفي القدر ، ولفظ القدرية من الألفاظ التي يرمي بها علماء الكلام بعضهم بعضا وتحاول كل فرقة أن تبرىء نفسها من الإتصاف به وتتهم به غيرها . فالمعتزلة يصفون به الجبرية والمشبهة ، والأشاعرة يطلقونه على المعتزلة . انظر شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٢ - ٧٨٣ ، التعريفات للجرجاني .

(٥) هم القائلون بأن العمل ليس جزءاً من الإيمان . ويقصرون الايمان على التصديق القلبي والإقرار باللسان . ويرجئون أمر الفاسق الى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . وأكثرهم على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأنه لا يتبعض ، ويصرح بعضهم بأن المؤمن لن يدخل النار مهما ارتكب من المعاصي .

انظر عنهم : مقالات الاشعري ١٣٢/١ - ١٥٤ ؛ الملل والنحل ٢٥٧/١ - ٢٩٧ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٢ - ١٢٥ ، الفصل لابن حزم ٢٠٤/٤ - ٢٠٥ خطط المقريزي ٣٤٩/٢ - ٣٥٠ .

وأنه لا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا مشيئة ولا صفة من الصفات .

وأما (عدلهم) فمن مضمونه أن الله لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها كلها ولا هو قادر عليها كلها ، بل عندهم أفعال العباد لم يخلقها الله لا خيرها ولا شرها ، ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً ، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته . وقد وافقهم على ذلك متأخرو الشيعة كالمفيد وأبي جعفر الطوسي وأمثالهما . ولأبي جعفر هذا التفسير على هذه الطريقة لكن يضم الى ذلك قول الأمامية الاثني عشرية [1] ، فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك ولا من ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . ومن أصول المعتزلة مع الخوارج (انفاذ الوعيد في الآخرة) وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة ولا يخرج منهم أحداً من النار . ولا ريب أنه قد رد عليهم طوائف من المرجئة الكرامية [2] والكلابية [3] وأتباعهم فأحسنوا تارة وأساءوا أخرى حتى صاروا في طرفي نقيض كما بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا من أئمة المسلمين ، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم . وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين : تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلا على قولهم أو جواباً على المعارض لهم . ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى أنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه

---

(١) الاثنا عشرية فرقة من الشيعة الأمامية ، يقولون بأن الرسول ﷺ قد نص على علي بالامامة من بعده ، ثم ساقوا الامامة في ابنائه من بعده حتى محمد بن الحسن المهدي المنتظر وهو الامام الثاني عشر . والامامة عندهم أهم أركان الدين ، ويقولون بعصمة الامام ويلحقون الامام بالنبي في العصمة . وقد صنف ابن تيمية كتاباً عظيما في الرد على الشيعة وهو « منهاج السنّة النبوية » في الرد على منهاج الكرامة لابن المطهر الحلي . وقد نشر الجزء الأول منه بتحقيق الاستاذ الدكتور محمد رشاد سالم . انظر ، الملل والنحل ١/٢٧٧ ـ ٢٧٩ ؛ الفرق بين الفرق ص ٢١ ـ ٢٤ ؛ مقالات الاشعري ١/٥ ، ١٦ ـ ١٧ .

(٢) الكرامية هم اتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني المتوفي سنة ٢٥٥ وهم يقولون باثبات الصفات لله وبعضهم يبالغ في ذلك إلى حد التشبيه ويقولون بالحكمة وإثبات القدر ، ويوافقون المعتزلة في القول بالمعرفة العقلية والتحسين والتقبيح العقليين وهم يعتبرون من المرجئة . انظر عنهم : لسان الميزان ٥/٣٥٣ ـ ٣٥٦ ، ميزان الاعتدال ٤/٢١ ، الفصل لابن حزم ٤/٤٥ ، الملل والنحل ١/١٨٠ ـ ١٩٣ خطط ٢/٣٤٩ ، ٣٥٧ .

(٣) تنسب الكلابية الى ابن كلاب . وهو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) توفي بعد سنة ٢٤٠ هـ بقليل ، يقول عنه ابن حزم بأنه من شيوخ الأشعرية الذين أخذ عنهم أبو الحسن .

انظر عنهم : لسان الميزان ٣/٢٩٠ ـ ٢٩١ ؛ طبقات الشافعية ٢/٥١ الفهرست ، لابن النديم ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ؛ مقالات الاشعري ١/٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، خطط المقريزي ٢/٣٥٨ ، نهاية الإقدام ص ١٨١ ، الملل والنحل ١/١٤٨ ، الفصل لابن حزم ٢/١٢٣ ، ٤/٢٠٨ .

من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك .

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ثم القرامطة [١] وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك ، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة فانهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه ، فتفسير الرافضة كقولهم : ﴿ تبت يَدا أبي لَهبٍ ﴾ وهما أبو بكر وعمر ، و﴿ لئن أشركتَ لَيحبطنَّ عَملكَ ﴾ [٢] أي بين أبي بكر وعمر وعلي في الخلافة ، و﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾هي عائشة ، و﴿ قَاتِلُوا أئمةَ الكفرِ ﴾ طلحة والزبير ، و﴿مرج البحرين ﴾علي وفاطمة ، و﴿ اللؤلؤ والمرجان ﴾ الحسن والحسين ، ﴿ وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مُبينٍ ﴾ [٣] في علي بن أبي طالب ، و﴿ عمَّ يتساءلونَ عنِ النبأِ العظيم ﴾ علي بن أبي طالب ، و﴿ إنَّما وليكُم الله ورسولهُ والَّذينَ آمنوا الَّذينَ يقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ وهم رَاكعونَ ﴾ [٤] هو علي ، ويذكرون الحديث الموضوع باجماع أهل العلم وهو تصدقه بخاتمه في الصلاة وكذلك قوله ﴿ أولئكَ عليهم صلواتٌ مِنْ ربّهم وَرَحمة ﴾ نزلت في علي لما أصيب بحمزة . ومما يقارب هذا ـ من بعض الوجوه ـ ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله ﴿ الصَّابرينَ والصَّادقينَ والقَانتينَ والمنفقِينَ والمستغفرينَ بالأسحَارِ ﴾ [٥] أن الصابرين رسول الله والصادقين أبو بكر ، والقانتين عمر ، والمنفقين عثمان ، والمستغفرين علي ، وفي مثل قوله ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ أبو بكر﴿ أشداء على الكفار ﴾عمر « رحماء بينهم ﴾ عثمان ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ علي . وأعجب من ذلك قول بعضهم﴿ والتين ﴾ أبو بكر﴿ والزيتون﴾عمر ﴿ وطور سينين﴾ عثمان ﴿وهذا البلد الأمين﴾علي .

وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال ، فان هذه

---

(١) القرامطة فرقة تنسب إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ، تتلمذ على حسين الاهوازي رسول عبد الله بن ميمون القداح ، اتخذ لنفسه داراً للهجرة قريباً من الكوفة ، يشترك مع الباطنية في كثير من العقائد الباطلة ، وكثيراً ما شهر الغارات على المسلمين بقصد إضعاف دولتهم ، وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في إثارة الفتن في العالم الإسلامي ، ويكفي ان يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه في مكة ونقلوه إلى مكان آخر في البحرين في القرن الثالث الهجري ، ليبطلوا بذلك فريضة الحج إلى مكة . انظر عنهم : مقالات الأشعري ١/٢٦ ، الفرق بين الفرق ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ، دائرة المعارف الاسلامية (مقال هبوار) مادة حمدان قرمط ، مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ، ليحيى بن حمزة العلوي (المقدمة) ، بغية المرتاد في الرد على القرامطة أهل الالحاد لابن تيمية .

(٢) الزمر الآية ٦٥ .

(٣) يس الآية ١٢ .

(٤) المائدة الآية ٥٥ .

(٥) البقرة الآية ١٥٧ .

(٦) آل عمران الآية ١٧ .

الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص ، وقوله تعالى : ﴿ والَّذينَ معهُ أَشدَّاءُ علىٰ الكُفَّارِ رُحماءُ بينهُمْ تَراهُم رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ (١) كل ذلك نعت للذين معه وهي التي يسميها النحاة خبراً بعد خبر ، والمقصود هنا أنها كلها صفات لموصوف واحد ، وهم الذين معه ولا يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد ، وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد كقولهم : إن قوله ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ أريد بها علي وحده ، وقول بعضهم : إن قوله ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ أريد بها أبو بكر وحده ، وقوله ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أريد بها أبو بكر وحده ، ونحو ذلك ، وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنّة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ، فانه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري ، وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنّة من المعتزلة لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب ، فان الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه ـ وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم باحسان ـ صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا .

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه . فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب ، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً . ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها إما عقلية وإما سمعية كما هو مبسوط في موضعه ، والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير ، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرّفوا الكلِم عن مواضعه . وفسروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله . فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق ، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم ، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع ، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق .

وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما

---

(١) الفتح الآية ٢٩ .

صنفوه من شرح القرآن وتفسيره .

وأما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم ، يفسرون القرآن بمعانٍ صحيحة لكن القرآن لا يدل عليها ، مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير . وإن كان فيما ذكروه ما هو معانٍ باطلة فإن ذلك يدخل في القسم الأول وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً حيث يكون المعنى الذي قصدوه (فاسداً) .

فصل
(أحسن طرق التفسير)

فان قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ فالجواب :

(الأول) إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر .

(الثاني) فإن أعياك ذلك فعليك بالسنّة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الامام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزلنَا إِليكَ الكِتَابَ بالحقِّ لِتَحكُمَ بينَ النَّاسِ بما أَراكَ اللهُ ولاَ تكُنْ للخَائنينَ خَصِيماً ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ وأَنزلنَا إِليكَ الذِّكرَ لتبيِّنَ للناس مَا نُزِّلَ إليهمْ ولعلَّهُمْ يتفكَّرونَ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزلنَا عليكَ الكِتَابَ إِلَّا لتُبيِّنَ لهُمُ الَّذي اختلفُوا فيهِ وَهُدىً ورحمةً لقوم يؤمنونَ ﴾ [3] ولهذا قال رسول الله ﷺ « ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنّة . والسنّة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن لأنها تتلى كما يتلى ، وقد استدل الامام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك . والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فان لم تجده فمن السنّة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنّة رسول الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي : قال ، فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله » [4] وهذا الحديث في المسانيد والسنن باسناد جيد .

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٦٤ .

(٤) أورد ابن جرير الطبري هذه الروايات في تفسيره ١/٢٧ ـ ٢٩ ط بولاق كما أوردها ابن كثير في مقدمة تفسيره للقرآن بنفس الأسانيد المتصلة إلى ابن مسعود عن ابن عباس انظر ١/٣ ، كما أورد السيوطي بعضا منها في الاتقان .

(الثالث) وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فانهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين (منهم) عبد الله بن مسعود . قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثنا أبو كريب قال أنبأنا جابر بن نوح أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى (مسلم بن صبيح) عن مسروق قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته [1] وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل (شقيق بن سلمة) عن ابن مسعود قال : كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن [2] . ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ له حيث قال « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » [3] وقال ابن جرير : حدّثنا محمد بن بشار أنبأنا وكيع أنبأنا سفيان عن الأعمش عن مسلم (عن مسروق قال) قال عبد الله يعني ابن مسعود نعم ترجمان القرآن ابن عباس ، ثم رواه عن يحيى بن داود عن اسحاق الأزرق عن سفيان الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس ، ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك ، فهذا إسناد صحيح الى ابن مسعود أنه قال هذه العبارة ، وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح وعمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ، وقال الأعمش عن أبي وائل إستخلف علي عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة - وفي رواية سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

---

(١) ورد هذا الأثر في البخاري ٢٢٩/٤ (كتاب التفسير . باب القرّاء عن أصحاب رسول الله) عن مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت . ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت إليه ، وذكره ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٨/١ ، ط بولاق ، وابن كثير ٢٧/٤ ، كتاب فضائل القرآن .

(٢) ذكر ابن تيمية هذا الأثر مرويا عن عبد الرحمن السلمي « حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود . . الحديث » وقد ذكر البخاري مجموعة من الأحاديث في فضل ابن مسعود وعلو مرتبته في التفسير وفي الأخذ عن رسول الله حيث روى عن الأعمش . . حدّثنا شقيق بن سلمة قال خطبنا عبد الله بن مسعود فقال والله لقد أخذت من في رسول الله بضعا وسبعين سورة » كما روى البخاري عن مسروق قال « سمعت رسول الله ﷺ يقول -: خذوا القرآن عن أربعة عن عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب .

انظر البخاري ٣٤/٥ (فضائل الصحابة) ، ٢٢٩/٦ (كتاب التفسير) ، تفسير الطبري ٢٧/١ ط بولاق .

(٣) ورد هذا الدعاء في البخاري ٢٨١/١ (كتاب المناقب ، باب ذكر مناقب ابن عباس) ولفظه (. . اللهم علمه الحكمة) وباسناد آخر في (كتاب الوضوء) ولفظه (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)، مسلم (فضائل الصحابة) ؛ ابن حنبل ١ / ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨ .

ولهذا غالب ما يرويه اسماعيل بن عبد الرحمن السدي في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال « بلغوا عني ولو آية ، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . ومن كذب عليّ فليتبوء مقعده من النار »[1] رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ، ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من الحديث من الأذن في ذلك ، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثاني ما علمنا كذبة بما عندنا مما يخالفه .

والثالث ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ،وتعيين « البعض » الذي ضرب به المقتول من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى ﴿ سيقولونَ ثلاثةٌ رابعهُمْ كلبهُمْ ويقُولُونَ خمسةٌ سادسهُمْ كلبهُمْ رَجْماً بالغيبِ ، ويقُولُونَ سبعةٌ وَثَامِنُهُمْ كلبهُمْ قُلْ رَبِّي أعلمُ بِعدَّتِهِمْ ما يعلمهُمْ إلاَّ قليلٌ فَلاَ تُمارِ فيهم إلاَّ مِراءً ظَاهِراً ولا تستفتِ فيهم منهُمْ أَحَداً ﴾[2] فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت على الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال في مثل هذا ﴿ قُلْ ربِّي أعلمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال ﴿ فَلاَ تمارِ فيهم إلاَّ مراءً ظَاهراً ﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب ، فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف ، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا (يطولِ)[3] النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به

---

(١) ورد الحديث في البخاري (كتاب العلم . باب أثم من كذب على النبي ﷺ وكذا في كتاب الأنبياء والأدب ، وفي مسلم (كتاب الزهد) والدارمي (كتاب العلم) ، الترمذي (كتاب الفتن) ، ابن حنبل ٣ / ٤٧ ، ٨٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٢ . (٣) ليست بالأصل وأضيفت من : س .

عن الأهم . فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه ، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عمداً فقد تعمد الكذب ، أو جاهلاً فقد أخطأ . كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الأمانة ، وتكثر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور والله الموفق للصواب .

فصل
تفسير القرآن بأقوال التابعين

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ، فإنه كان آية في التفسير ، كما قال محمد بن إسحاق : حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وبه إلى الترمذي قال : حدّثنا الحسين بن مهدي البصري ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (قال مجاهد) : ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً . وبه إليه قال : حدّثنا ابن أبي عمر ، حدّثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال مجاهد : لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت . وقال ابن جرير حدّثنا أبو كريب ، قال حدّثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل (ابن عباس) عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، فيقول له ابن عباس « اكتب » حتى سأله عن التفسير كله . ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية والربيع وابن أنس وقتادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه ، أو نظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن . فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي . وقال شعبة بن الحجاج وغيره « أقوال التابعين في الفروع ليست حجة ، فكيف تكون حجة في التفسير » يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم . وهذا صحيح ، أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو عموم

لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك [١] .

تفسير القرآن بالرأي حرام

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام . حدّثنا مؤمل حدّثنا سفيان حدّثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » حدّثنا وكيع حدّثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » [٢] وبه إلى الترمذي قال : حدّثنا عبد بن حميد حدّثني حيان بن هلال قال : حدّثنا سهيل أخو حزام القطعي قال : حدّثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم . وهكذا روى بعض أهل العلم عن أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم ، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن ، فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم ، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم ، فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس عن جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم ، وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين فقال ﴿ فإذا لم يأتوا بالشهداءِ فأُولئكَ هم الكَاذِبُونَ ﴾ [٣] فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ، لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، وتكلف ما لا علم له به ، والله تعالى أعلم .

---

(١) لعل ابن تيمية قد أزال بقاعدته هذه في التفسير ما يحيك في صدور البعض من ان الخلاف قد وقع بين صحابة رسول الله ﷺ في تفسير القرآن ، وأن سبب هذا الظن يرجع الى عدم المعرفة الكاملة بطرق الحديث وفنون التعبير ، فإذا كان بين الصحابة خلاف في استعمال الألفاظ فإن هذا لا يعني أبداً اختلافهم في المراد . فإن المراد قد يكون واحداً ويعبر عنه بألفاظ متنوعة وليست متضادة وكلها تدل على عين المراد . فهو اختلاف تنوع في العبارة وليس اختلاف تناقض او تضاد ، كما رأى ابن تيمية ان رأي التابعين لا يكون حجة إلا اذا اجتمعوا على رأي واحد ، أما إذا اختلفوا فإن رأي الواحد منهم ليس حجة على الآخر منهم ولا على من بعدهم ، وينبغي أن يكون المرجع في مسائل الخلاف حينئذ هو الكتاب والسنة وعموم اللغة وأقوال الصحابة .

(٢) ورد الحديث في البخاري (كتاب العلم ، الجنائز ، المناقب) ، ابو داود (كتاب الإيمان) ، الترمذي (كتاب الفتن) ، ابن ماجة (المقدمة) .

(٣) سورة النور الآية ١٣ .

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر قال : قال أبو بكر الصديق « أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم » . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدّثنا محمود بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [١] فقال « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم (إسناده) منقطع [٢] .

وقال أبو عبيد أيضاً حدّثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما هو الأب ، ثم رجع إلى نفسه فقال « إن هذا لهو التكلف يا عمر » . وقال عبد بن حميد حدّثنا سليمان بن حرب قال : حدّثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر ابن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ ﴿ وَفَاكِهَةً وأباً ﴾ فقال : ما الأب . ثم قال « إن هذا لهو التكلف ، فما عليك أن لا تدريه » وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى ﴿ فأنبتنَا فيها حبًّا وعنباً وقَضباً ، وزَيتُوناً وَنخلاً ، وحَدَائِقَ غُلْبَاً ﴾ [٣] .

وقال ابن جرير : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا ابن علية عن أيوب عن [ابن أبي مليكة أن] [٤] ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها إسناده صحيح ، وقال أبو عبيد : حدّثنا إسماعيل بن ابراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عباس عن ﴿ يومٍ كانَ مِقدارهُ ألفَ سَنةٍ ﴾ [٥] فقال له ابن عباس فما ﴿ يومٍ كانَ مِقدَارُهُ خمسينَ ألفَ سَنةٍ ﴾ [٦] فقال الرجل : إنما سألتك لتحدثني ، فقال ابن عباس « هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما » . فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم .

وقال ابن جرير : حدّثني يعقوب يعني [ابن] إبراهيم حدّثنا ابن علية عن مهدي بن

---

(١) سورة عبس الآية ٣١ .

(٢) وإنما انقطع الإسناد لأن أبا بكر رضي الله عنه قد توفي سنة ١٣ هـ بينما ولد ابراهيم بن محمد سنة ٣٦ هـ فلم ير أبا بكر وبالتالي لم يرو عنه .

(٣) سورة عبس الآيات (٢٧ ـ ٣٠) .

(٤) ما بين المعقوفين من : س .

(٥) سورة السجدة الآية ٥ .

(٦) سورة المعارج الآية ٤ .

ميمون عن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال له « أخرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني » أو قال « أن تجالسني » .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : « إنا لا نقول في القرآن شيئاً » .

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن . وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن [آية من] القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه . يعني عكرمة . وقال [عبد الله] بن شوذب حدّثني يزيد بن أبي يزيد قال كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع .

وقال ابن جرير حدّثني أحمد (بن عيدة الضبي ، حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عبيد الله بن عمر) قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع .

وقال أبو عبيد : حدّثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط . وعن أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن ، فاتق الله وعليك بالسداد .

وقال أبو عبيد حدّثنا معاذ عن ابن عون عن عبيد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدّثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده . حدّثنا هشيم ، عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه .

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال : قال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سئلت عنها ، ولكنها الرواية عن الله . وقال أبو عبيد حدّثنا هشيم أنبأنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله [٢] .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة في : س .

(٢) جميع هذه الآثار التي رواها ابن تيمية عن تحرج السلف في موقفهم من التفسير بالرأي رواها ابن جرير الطبري في تفسيره بنفس الإسناد . انظر تفسير الطبري ١ / ٢٨ - ٢٩ (ط بولاق) .

جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له بـه ، فكذلـك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [1] ، ولما جاء في الحديث المروى من طرق : «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» [2] .

وقال ابن جرير : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا مؤمل ، حدّثنا سفيان عن أبي الزناد قال ابن عباس « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العـرب من كلامهـا ، وتفسير لا يعـذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله » والله سبحانه وتعالى أعلم .

أقرب التفاسير إلى الكتاب والسنة

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة : الزمخشري ، أم القرطبي ، أم البغوي ، أم غير هؤلاء ؟

فأجاب تغمده الله برحمته ورضوانه :

الحمد لله . أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها (تفسير محمد ابن جرير الطبري) فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيـه بدعـة ، ولا ينقل عن المتهمـين كمقاتـل بن بكير ، والكلبي .

والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة . كتفسير عبد الرازق ، وعبـد بن حميد ، ووكيـع ، وابن أبي قتيبة ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهوية .

وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفـة (البغوي) ، لكنه مختصر من (تفسير الثعلبي) وحذف منه الأحاديث الموضوعة ، والبدع التي فيـه ، وحذف أشياء غير ذلك .

وأما (الواحدي) فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية ، لكن الثعلبي فيه سلامـة من البدع ، وإن ذكرها تقليداً لغيره . وتفسيره وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيهـا فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها .

وأما (الزمخشري) فتفسيره محشو بالبدعة ، وعـلى طريقـة المعتزلـة من إنكار الصفـات ، والرؤية ، والقول بخلق القرآن ، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد ، وغير ذلك من أصوال المعتزلة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٧ .

(٢) الحديث ورد في الدارمي (كتاب العلم) الترمذي ، ابن ماجة في المقدمة وابن حنبل ٢ / ٢٦٣ .

وأصولهم خمسة يسمونها : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكن معنى (التوحيد) عندهم يتضمن نفي الصفات ، ولهذا سمي ابن التومرت أصحابه الموحدين ، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومعنى (العدل) عندهم يتضمن التكذيب بالقدر ، وهو خلق أفعال العباد ، وإرادة الكائنات ، والقدرة على شيء ، ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب ، لكن هذا قول أئمتهم ، وهؤلاء منصب الزمخشري ، فإن مذهبه مذهب المغيرة بن علي ، وأبي هاشم وأتباعهم . ومذهب أبي الحسين ـ والمعتزلة الذين على طريقته ـ نوعان : مشايخية وخشبية .

وأما (المنزلة بين المنزلتين) فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافراً ، فنزلوه بين منزلتين .

(وانفاذ الوعيد) عندهم معناه ان فساق الملة مخلدون في النار ، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقول الخوارج .

(والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة ، وقتالهم بالسيف .

وهذه الأصول حشا (بها الزمخشري) كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ، ولا لمقاصده فيها ، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين .

(وتفسير القرطبي) خير منه بكثير ، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة ، وأبعد عن البدع . وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد ، لكن يجب العدل بينها ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

و (تفسير ابن عطية) خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلاً وبحثاً ، وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير ، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها .

وثم تفاسير أخر كثيرة جداً ، كتفسير ابن الجوزي ، والماوردي .

جمع القراءات السبع

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن (جمع القراءات السبع) هل هو سنة أم بدعة ، وهل جمعت على عهد رسول الله ﷺ أم لا ، وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية (واحدة) أم لا ؟

فأجاب رحمه الله :

الحمد لله ، أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة متبعة ، يأخذها الآخر عن الأول . فمعرفة القراءة التي كان النبي ﷺ يقرأ بها ، أو يقرهم على القراءة بها ، أو يأذن لهم وقد قرأوا بها ، سنة . والعارف في القراءات الحافظ لها له مزية على من لم يعرف ذلك ولا يعرف إلا قراءة واحدة .

وأما جمعها في الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة ، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة خامسة

في المتشابه والتأويل

قال شيخ الاسلام علم الأعلام ، أبو العباس
أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

« فصل »

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلكَ مِنْ رسولٍ ولا نبيٍ إلَّا إذا تَمنَّىٰ ، أَلَقىٰ الشيطانُ في أُمنيتهِ ﴾ إلى قوله ﴿ ليجعلَ مَا يُلقِي الشَّيطانُ فتنةً للَّذينَ فِي قُلوبهمْ مَرضٌ والقاسِيَةِ قلوبُهُمْ وإنَّ الظَّالمينَ لفِي شقاقٍ بعيدٍ ، وليعلمَ الَّذينَ أُوتُوا العلمَ أَنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فيؤْمنُوا به فَتُخبِتَ لهُ قلوبُهُمْ ، وإنَّ الله لهادِ الَّذينَ آمنُوا إلىٰ صِراطٍ مستقيمٍ ﴾ (١) .

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام : قاسية وذات مرض ومؤمنة مخبتة ، وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً ، أو لا تكون يابسة جامدة .

فالأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الايمان ، ولا يرتسم فيه العلم ، لأن ذلك يستدعي محلاً ليناً قابلاً .

والثاني لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه ، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال . فالثاني هو الذي فيه مرض ، والأول هو القوي اللين . وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلاً ، فإما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوي ولا تبطش ، أو تبطش بعنف ، فذلك مثل القلب القاسي ، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها ، فذلك الذي فيه مرض ، أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثل القلب العليم الرحيم ، فبالرحمة خرج عن القسوة ، وبالعلم خرج عن المرض ، فان المرض من الشكوك والشبهات ، ولهذا وصف

---

(١) سورة الحج الآيات : (٥٢ ـ ٥٤) .

من عدى هؤلاء بالعلم والايمان والإخبات . وفي قوله : ﴿ وليعلم الَّـذينَ أُوتُوا العلمَ أَنَّـهُ الحقُّ مِنْ ربِّك فيؤمنُوا بِهِ فَتُخبِتَ لهُ قلوبهُمْ ﴾ دليـل على أن العلم يـدل على الايمـان ، ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الايمان كما يتوهمه طائفة من المتكلمة ، بل معهم العلم والايمان كما قال تعـالى : ﴿ لكن الرَّاسِخُـونَ في العلمِ مِنْهُمْ والمؤمنونَ يُؤمنُـونَ بمـا أُنـزِلَ إليـكَ وَمَـا أُنْـزِلَ مِنْ قبلكَ ﴾ [١] . وقال تعالى : ﴿ وقالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلم والايمانَ ﴾ [٢] .

وعلى هذا فقوله : ﴿ والرَّاسِخُونَ في العلمِ يقـولُونَ آمنـا بِهِ كـلٌ مِنْ عند ربِّنَا ﴾ [٣] . نظير هذه الآية ، فانه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنـه الحق من ربهم ، وأخبر هنـاك أنهم يقولون في المتشابه ﴿ آمنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنـا ﴾ وكلا المـوضعين مـوضع شبهـة لغيرهم ، وأن الكـلام هناك في المتشـابه ، وهنـا فيما يلقى الشيـطان مما ينسخـه الله ثم يحكم الله آيـاتـه ، وجعـل المحكم هنا ضـد الذي نسخـه الله مما ألقى الشيـطان ، ولهذا قـال طائفـة من المفسرين المتقدمين[٤] المحكم هو الناسخ ، والمتشابـه المنسوخ . أرادوا والله أعلم قـوله ﴿ فينسَخُ الله ما يُلقي الشَّيطانُ ثمَّ يُحكِمُ الله آياتِـهِ ﴾ [٥] والنسخ هنـا رفع مـا ألقاه الشيـطان لا رفع مـا شرعـه الله ، وقد أشرت إلى وجـه ذلك فيـما بعد ، وهـو أن الله جعل المحكم مقـابل المتشـابه تـارة ، ومقابل المنسوخ أخرى ، والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيـين ، ويدخـل فيه المجمل ، فإنه متشابه ، وإحكامه : رفع مـا يتوهم فيـه من المعنى الذي ليس بمـراده ، وكذلـك مارفع حكمـه ، فان في ذلـك جميعه نسخـاً لما يلقيـه الشيطان من معـاني القرآن ، ولهـذا كانـوا يقولون : هل عرفت الناسخ من المنسوخ ؟ فإذا عرفت الناسخ عرفت المحكم .

وعلى هذا فيصح أن يقال : المحكم والمنسوخ ، كما يقـال المحكم والمتشابـه . وقولـه بعد ذلك ﴿ ثم يُحكِمُ الله آياتِـهِ ﴾ جعل الآيات محكمـة ، محكمها ومتشـابهها ، كـما قال : ﴿ آلـر . كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُـهُ ثمَّ فُصِّلت ﴾ [٦] وقال : ﴿ تلك آيـاتُ الكِتابِ الحكيمِ ﴾ [٧] عـلى أحد

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٢ .

(٢) سورة الروم الآية : ٥٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٤) أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس قال : المحكمات ناسخة ، وحلاله وحرامه ، وفـرائضه ومـا يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات منسوخة ومقدمة ومؤخرة واقسامه وما يؤمن به ولا يعمـل به . انـظر الإتقان للسيـوطي ٢/٢ ، ٢٠ـ٢٧ .

(٥) سورة الحج الآية : ٥٢ .

(٦) أول سورة هود .

(٧) أول سورة يونس .

القولين . وهنالك جعل الآيات قسمين : محكماً ومتشابهاً ، كما قال : ﴿ مِنْهُ آياتٌ محكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ ﴾ [(١)] وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله . مما ألقاه الشيطان .

ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكماً وإن كان الله أنزله أولاً اتباعاً للظاهر من قوله « فينسخ الله » و« يحكم الله آياته » فهذه ثلاثة معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها .

(أنواع الإحكام والنسخ)

وجماع ذلك أن الأحكام تارة يكون في التنزيل ، فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان ، فالمحكم المنزل من عند الله ، أحكمه الله أي فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه ، فان الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه ، ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه لا جميع معناه .

وتارة يكون في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحي ، أو يقال وهو أشبه بقول السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة . وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون في مسمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه ، كما قال : ﴿ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسالَتْ أوديةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [(٢)] . الآية . ومعلوم أن من سمع النص الذي قد رفع حكمه أو دلالة له ، فانه يلقى الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذي به رفع الحكم وبان المراد . وعلى هذا التقدير فيصح ان يقال : المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتراة يكون الإحكام في التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها . وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين .

(قال أحمد بن حنبل : المحكم الذي ليس فيه اختلاف ، والمتشابه الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا [(٣)]) ولم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله ، وإنما قال ﴿ وَمَا يعلمُ تأويلهُ إلاّ الله ﴾ [(٤)] . وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع . فإن الله

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٧ والاشارة هنالك الى هذه السورة .

(٢) سورة الرعد الآية : ١٧ .

(٣) هذه زيادة من مجموع الرياض .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٧ .

أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة ، ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره ، بل قال ﴿ كتابٌ ، أنزلنَاهُ إليكَ مباركٌ ، ليدَّبَّرُوا آياتِهِ ﴾[1] وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات ، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر : وقال : ﴿ أَفَلا يتدَّبرُون القرآنَ ﴾[2] . ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه .

يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود ـ الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي ﷺ كحي بن أخطب وغيره ـ من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين .

موافقة للصابئة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً ، لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل بعد إسقاط المكرر ، وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر .

وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ في وفد نجران من تأويل إنا ونحن على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل في الإيمان بالله ، فأولئك تأولوا في اليوم الآخر وهؤلاء تأولوا في الله[3] ومعلوم أن إنا ونحن من المتشابه ، فانه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى ، فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد والمعنى متنوع .

والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه وبعض المتواطىء أيضاً من المتشابه ،

---

(١) سورة ص الآية ٢٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٢ ، محمد الآية : ٢٤ .

(٣) ذكر الطبري أن آية آل عمران « وما يعلم تأويله الا الله » نزلت في جماعة من اليهود كياسر بن أحطب وحي بن أخطب أرادوا أن يعرفوا الفترة التي يمكثها الإسلام على وجه الأرض من معرفتهم تأويل حروف المعجم التي بدئت بعض سور القرآن بها طبقا لنظامهم في حساب الحروف . فاكذب الله مقالتهم بقوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ . روى ذلك عن جابر بن رئاب . ومال الطبري إلى هذا الرأي .

وذكر الطبري سبباً آخر لنزول الآية . فقيل أنها نزلت في وفد نجران حينما ناظروا الرسول في أمر المسيح ودعاهم الرسول إلى المباهلة . وأرادوا أن يتأولوا قوله تعالى : ﴿ أنا . . ونحن ﴾ على أن الالهة ثلاثة لأن هذا ضمير للجمع وليس للمفرد . فاكذب الله مقالتهم أيضاً بقوله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ وعامة هذه السورة ﴿ آل عمران ﴾ في أمر المسيح وأهل الكتاب مما يجعلنا نميل الى الرأي الثاني في سبب النزول .

أنظر الطبري ٦/ ١٨٠ ـ ٢٠٩ . ٣/ ١٨٠ .

ويسميها أهل التفسير : الوجوه والنظائر ، وصنفوا كتب الوجوه النظائر فالوجوه في الأسماء المشتركة ، والنظائر في الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً من الأسماء المشتركة فهي نظائر باعتبار اللفظ ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ، بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله .

والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل ﴿ وإلهكُمْ إلَهٌ واحدٌ ﴾[1] ﴿ إني أنا الله لا إلَهَ إلاَّ أنَا فاعبُدْني ﴾[2] . ﴿ ما اتَّخذَ الله من ولدٍ وما كانَ مَعَهُ من إلهٍ ﴾[3] ﴿ لم يتَّخِذْ وَلداً ولم يكُنْ لهُ شريكٌ ﴾[4] ﴿ لم يلدْ ولمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾[5] ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وابتغاء تأويله ، وهو الحقيقة التي أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان ، إنشاء فيه الأمر ، وإخبار ، فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من السلف إن السنة هي تأويل الأمر . قالت عائشة رضي الله عنها : كان الرسول ﷺ يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم وبحمدك . اللهم اغفر لي يتأول القرآن » ، تعني قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا ﴾[6] .

وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به اذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع وهذا معناه . قال الله تعالى : ﴿ ولقَدْ جئْنَاهُمْ بكتابٍ فصَّلنَاهُ علىٰ علمٍ هُدىً ورحمةً لقومٍ يُؤْمِنُونَ : هَلْ ينظرونَ إلاَّ تأويلَهُ يومَ يأتي تأويلُهُ يقولُ الَّذينَ نَسُوهُ من قبلُ قد جاءت رسُلُ ربِّنا بالحقِّ ﴾[7] . فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه . ثم قال ﴿ هَلْ ينظرونَ ﴾ أي ينتظرون ﴿ إلاَّ تأويلَهُ يومَ يأتي ﴾ إلى آخر الآية . وانما ذلك مجيء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها ، كالدابة ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ومجيء ربك والملك صفاً صفاً ، وما في الآخرة من الصحف والموازين ، والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك ، فحينئذ يقولون ﴿ قد

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

(٢) سورة طه الآية ١٤ .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ١١١ .

(٥) سورة الصمد الآيات : (٣ ـ ٥).

(٦) ورد الحديث برواية عائشة عن الرسول ﷺ في البخاري ١٥٨/٢ ﴿ كتاب الصلاة . باب التسبح والدعاء في السجود ﴾ . مسلم ٥٠/٢ .

(٧) سورة الأعراف الآيات : (٥٢ ـ ٥٣) .

جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحقِ ، فهلْ لنا من شفعاءَ فيشفعُوا لنا أو نُردُّ فنعملَ غيرَ الَّذي كُنَّا نعملُ ﴾ [١] .

وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته الا الله فان الله يقول ﴿فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم مِنْ قرَّةِ أعينٍ ﴾[٢] . ويقول : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[٣] وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة الا الأسماء ، فان الله قد أخبر أن في الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله ﴿ وأُتوابه مُتشابِهاً ﴾ [٤] على أحد القولين أن يشبه ما في الدنيا وليس مثله . فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه . فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه . وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به . وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم ، فانه ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل في الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه امثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد [٥] وإن كان من منافقه الملتين المقرين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهيم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة . كل ضال يحرف الكلم عن مواضعه الى ما اعتقد ثبوته ، وكان في هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء ، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه الى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يعلمُ تأويلهُ إلاَّ الله ﴾ فان تلك الحقائق قال الله فيها

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٣ .

(٢) سورة السجدة الآية : ١٧ .

(٣) الحديث ورد في البخاري (كتاب التوحيد ، بدء الخلق) ، مسلم (كتاب الايمان)؛ الترمذي (كتاب الجنة) ، ابن حنبل ٣١٣/٣، ٣٨٠ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥ .

(٥) يريد ابن تيمية أن يلفت نظرنا الى موقف الفلاسفة وخاصة ابن سينا من قضية البعث وتأويلهم لآياتها بما يفيد صرفها عن ظاهرها . ودعواهم أن البعث روحاني فقط وليس جسماني . أنظر في ذلك : (الإشارات لابن سينا النمط الرابع) ، رسالة اضحوية في أمر المعاد ، وانظر تكفير الغزالي لهم في تهافت الفلاسفة ، ورد ابن تيمية على ابن سينا في العقل والنقل ، الجزء الرابع مخطوط رقم ٨٢ عقائد تيمور بدار الكتب المصرية .

﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرَّةِ أَعينٍ ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

وقوله ﴿ وما يعلم تأويله ﴾ إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على المتشابه ، فان كان عائداً على الكتاب قوله : منه ومنه ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهذا يصح ، فان جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله : ﴿ ولقد جِئْناهُمْ بكتاب فصَّلناهُ علىٰ علمٍ هدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ . هل ينظرونَ إلَّا تأويلَه يومَ يأتي تأويلُهُ ﴾ [1] فجعل التأويل الجائي للكتاب المفصل .

وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله ، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم (وجود) نظيره عندنا وكذلك قوله : ﴿ بَلْ كذَّبُوا بما لم يُحيطُوا بعلمه ولمَّا يَأتِهِمْ تَأويلُهُ ﴾ [2] .

وإذا كان التأويل للكتاب كله والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : ﴿يسأَلُونَك عنِ السَّاعة أَيَّانَ مَرساها. قل انَّما عِلْمِها عند ربيّ لا يُجليها لوقْتِهَا إلَّا هُوَ ، ثقلتِ في السَّمواتِ والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ إنما عِلْمُهَا عِند الله ﴾ [3] .

وكذلك قوله ﴿ يسألكَ النَّاسُ عنِ الساعةِ ، قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عند الله وما يدريكَ لعلَّ الساعة تكونُ قريباً ﴾ [4] . فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به . فعلم تأويله كعلم الساعة ، والساعة من تأويله . وهذا واضح بين ، ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها فهذا هذا .

وإن كان الضمير عائداً الى ما تشابه ، كما يقوله كثير من الناس فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا في الآثار « العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه » [5] لأن المقصود في الخبر الإيمان ، وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٥٢ ـ ٥٣) .

(٢) سورة يونس الآية : ٣٩ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٨٧ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٦٣ .

(٥) أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : . . . أنزل القرآن على سبعة أحرف زاجر وآمر ، وحلال وحرام . ومحكم ومتشابه . . . واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا كل من عند ربنا وفي الطبري . كان رسولهم في العلم أن عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابه . انظر : الاتقان ٢/ ٤، تفسير الطبري ٦/ ١٠٨ ـ ٣٩ .

بخلاف الأمر والنهي فانه متميز غير مشتبه بغيره ، فانه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع ، وأمور نتركها لا بد أن نتصورها .

(الفرق بين المعنى والتأويل)

ومما جاء من لفظ التأويل في القرآن قوله تعالى : ﴿ بل كذَّبوا بما لم يُحيطُوا بعلمهِ ولمَّا يأتِهِمْ تَأويلُهُ ﴾[1] والكناية عائدة على القرآن أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود الى القرآن . قال تعالى : ﴿ وَمَا كانَ هذَا القرآنُ أَنْ يُفترىٰ مِنْ دونِ الله ولكنْ تصديقَ الَّذي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيهِ مِنْ ربِّ العالمينَ أَمْ يَقُولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بسورةٍ مثلهِ وادعُوا مَنِ استطعتُمْ مِنْ دونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادقينَ . بَلْ كَذَّبوا بما لم يحيطُوا بعلمِهِ ولما يَأْتِهِمْ تأويلهُ ، كذلكَ كذَّبَ الَّذينَ من قبلِهِمْ فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الظَّالمينَ . ومنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يؤمِنُ به وَرَبُّكَ أعلمُ بالمفسدينَ ﴾[2] . فأخبرسبحانهأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله . وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله ﴿ وَمَا كانَ رَبُّكَ لِيُهلكَ القرىٰ بظلم ﴾[3] لأن الخلق عاجزون عن الاتيان بمثله كما تحداهم وطالبهم لما قال ﴿ أَمْ يقولونَ افتراهُ ؟ قُلْ فأتُوا بسورةٍ مثلهُ وادعُوا مَنْ استطَعْتُمْ من دون الله إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ فهذا تعجيز لجميع المخلوقين ، قال تعالى : ﴿ وَلكِن تصديقَ الَّذي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ ﴾ أي مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذي بين يديه ومفصل الكتاب ، والكتاب اسم جنس ، وتحدى القائلين افتراه ودل على أنهم هم المفترون . قال : ﴿ بَلْ كذَّبُوا بما لم يُحيطوا بعلمهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تأويلهُ ﴾ (أي كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله)[4] ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله ، فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به ، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله (ونكتة ذلك أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها في نفس العالم ، كذهن الإنسان مثلاً ، ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم ، واللفظ إنما يدل ابتداء على المعنى الذهني ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة

---

(١) سورة يونس الآية ٣٩ .

(٢) سورة يونس الآيات (٣٨ ـ ٤٠) .

(٣) سورة هود الآية : ١١٧ .

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة في ١٣/٢٨٣ مجموع الرياض .

الخارجة ، فالتأويل هو الحقيقة الخارجية وأما معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلمية)[1] وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه ، محكمه ومتشابهه وإن لم يعلم تأويله .

ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : ﴿ وإذا قَرَأْتَ القرآنَ جعلنَا بينكَ وبينَ الَّذينَ لا يؤمِنُونَ بالآخرةِ حِجَاباً مستوراً . وجعلنَا علىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يفقهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً ، وإذَا ذكرتَ ربَّكَ في القرآنِ وحدهُ ولَّوا علىٰ أدبارِهِمْ نُفُوراً ﴾[2] فقد أخبر ذماً للمشركين أنه إذا قرىء عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم في ذلك . وقوله : ﴿ أن يفقهوه ﴾ يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه . ولهذا قال الحسن البصري[3] ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت وماذا عني بها ، وما استثنى من ذلك لا متشابهاً ولا غيره .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلا آخره مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها : فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول : لا يعلم تأويله إلا الله ، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن .

وهذا هو الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ ، فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل ، لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه ، فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير الله .

(سبب هذا الخلاف)

وأصل ذلك أن لفظ التأويل فيه اشتراك[4] بين ما عناه في القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين ، فبسبب الإشتراك في لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن . ومجاهد إمام التفسير . قال

---

(١) ما بين المعوقين زيادة في مجموع الرياض ١٣/٢٨٣ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : (٤٥ ـ ٤٦) .

(٣) هو الحسن ابن أبي الحسن بن أبي سعيد البصري . تربى في حجر أم سلمة زوج رسول الله ﷺ حيث كانت أمه تعمل خادمة لها . وقيل أن أم سلمة كانت تلقم الحسن ثديها ليكف عن بكائه حين كانت تغيب أمه عنه . وكان لنشأته في بيت النبوة أثر في حكمته التي رزقها . سمعته عائشة وهو يحدث فقالت من هذا النبي يشبه كلامه كلام الأنبياء . ويعده المعتزلة من رجال الطبقة الثالثة فيهم توفى سنة ١١٠ هـ .

أنظر . طبقات المعتزلة ص ٣٣ ـ ٣٨ ؛ فضل الاعتزال ص ٢١٥ ـ ٢٢٦ طبقات الشعراني ١/٢٥ .

(٤) في طبعة أنصار السنة . وفيه أشير الى بيد . وهو كلام لا معنى له . والتصحيح من مجموع الرياض ١٣/٢٨٥ .

الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وأما التأويل فشأن آخر . ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ، ولا قال هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه ، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين : إن في القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله ﷺ ولا أهل العلم والإيمان جميعهم ، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه .

وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك ، فلقبوها : هل يجوز أن يشتمل القرآن على مالا يعلم معناه وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم ؟ فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية ، وبأن الله يمتحن عباده بما شاء ، ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه . والغالب على كلا الطائفتين الخطأ ، أولئك يقصرون في فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه ﴿ ومنهم أُمِّيونَ لا يعلمُونَ الكِتابَ إلَّا أمانِيِّ ﴾ [1] وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعني به شيئاً . خلافاً للحشوية . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له .

وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه ؟ وبين نفي المعنى عند المتكلم ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم .

ثم احتج بما لا يجري على أصله فقال : هذا عبث ، والعبث على الله محال . وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع في الحروف وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صحيح ولا عقل صريح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم : أن مدعي التأويل أخطأوا في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه . فإن الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف وكلام العرب علموا يقيناً أن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر ، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء ، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون آيات الصفات ، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء في بعض

---

(١) سورة البقرة الآية : ٧٨ .

الصفات ، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر ، وأخرون من أصناف الأمة ، وإن كان تغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلها من تحريف الكلم عن مواضعه .

والذين ادعو العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معاني القرآن ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرأونه ويتلونه وهم لا يفهمونه ، وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطأوا في معنى التأويل الذي نفاه الله وفي التأويل الذي أثبتوه وتسلق بذلك مبتدعتهم الى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب الى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ولكن بفرية على الله ، وقول عليه بمالا يعلمونه ، وإلحاد في أسمائه وأياته فهذا هذا :

(معاني التأويل ثلاثة)

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل .

فإن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج الى دليل والمتأول عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول ، وقال الآخر بل يجب تأويلها ، وقال الثالث بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم ، الى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا والله أعلم هو الذي عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله ، ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله كذا وكذا ، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

والمعنى الثاني في لفظ السلف ، وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً [١] هو نفس المراد بالكلام ، قال الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الشيء المخبر به . وبين هذا المعنى والذي قبله بون ، الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام ، كالتفسير والشرح والإيضاح ، ويكون وجود التأويل في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي ، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أو مستقبلة ، فإذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها .

[ويكون التأويل من باب الوجود العيني تأويل الكلام هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشئونها وأحوالها . وتلك الحقائق لا تعرف على ما هي عليه بمجرد الكلام والأخبار ، الا أن يكون المستمع قد تصورها أو تصور نظيرها بغير كلام وأخبار ، لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب ، إما بضرب المثل ، وإما بالتقريب ، وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها ، وإما بغير ذلك] [٢] .

وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها : وقد قدمنا التبيين في ذلك ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾[٣] وقوله ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ، وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ . قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ [٤] وقول الملأ ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ . وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [٥] وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر وآوى إليه أبويه ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ . وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾ [٦] .

فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام ، هي نفس مدلولها التي تؤول اليه كما قال يوسف

---

(١) المعنى الأول . صرف اللفظ عن ظاهره الراجح الى المعنى المرجوع لدليل يقترن به .
وهذا المعنى محدث لم يعرفه السلف في تخاطبهم . وانما ظهر بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة .
المعنى الثاني . التفسير والبيان ، المعنى الثالث هو نفس مراد المتكلم بكلامه . فيكون للتأويل ثلاثة معان .

(٢) ما بين المعوقين زيادة في س .

(٣) سورة يوسف الآية : ٦ .

(٤) سورة يوسف الآيات : (٣٦ ـ ٣٧).

(٥) سورة يوسف الآيات (٤٤ ـ ٤٥) .

(٦) سورة يوسف الآيات : (٩٩ ـ ١٠٠) .

﴿ هذَا تأويلُ رؤ يايَ مِنْ قبلُ ﴾ والعالم بتأويلها : الذي يخبر به كما قال يوسف (لا يأتيكما) أي قبل أن يأتيكما التأويل .

وقال الله تعالى ﴿ فإنْ تَنَازَعْتُمْ في شيءٍ فَرُدُّوهُ الىَ الله والرَّسُولِ إنْ كنْتُمْ تُؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ، ذلك خَيْرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ [1] قالوا . أحسن عاقبة ومصيراً . فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد الى الكتاب والسنة . والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤ يا . والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن ، وكذلك في سورة آل عمران .

وقال تعالى في قصة موسى والعالم ﴿ قالَ هذا فِراقُ بيني وبينِكِ سأنَبِّئكَ بتأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عليه صبراً ﴾ [2] الى قوله : ﴿ وَمَا فعلتُهُ عن امرى، ذلك تأويلُ ما لَمْ تَسْطِع عليهِ صبراً ﴾ [3] فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير اذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار ، فهو تأويل عمل لا تأويل قول . وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤ وله تأويلاً ، مثل حول تحويلاً ، وعول تعويلاً ، وأول يؤ ول تعدية آل يؤ ول أولاً مثل حال يحول حولاً . وقولهم : آل يؤ ول ، أي عاد الى كذا ورجع اليه ، ومنه المآل وهو ما يؤ ول إليه الشيء ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الموئل ، فإنه وأن وهذا من أول . والموئل المرجع قال تعالى : ﴿ لنْ يَجِدُوا من دُونه موئلاً ﴾ [4] .

ومما يوافقه في اشتقاقه الأصغر الآل ، فإن آل الشخص من يؤ ول إليه ، ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤ ول اليه الآل كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون ، بخلاف الأهل والأول أفعل لأنهم قالوا في تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى . وفي القصص ﴿ لهُ الحمدُ في الأولىٰ والآخرةِ ﴾ [5] ومن الناس من يقول فوعل ، ويقول أوله إلا أن هذا يحتاج الى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فان فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف ، سمى المتقدم أول - والله أعلم - لأن ما بعده يؤ ول اليه ويبني عليه ، فهو أسُّ لما بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى ، لا من باب أحمر وحمراء . ولهذا يقولون جئته من أمس وقال : (من أول يوم) وأنا أول المسلمين ﴿ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّل كافرٍ بهِ ﴾ ومثل هذا أول هؤلاء ، فهذا الذي فضل

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٧٨ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٨٢ .

(٤) سورة الكهف الآية : ٥٨ .

(٥) سورة القصص الآية ٧٠ .

عليهم في الأول ، لأن كل واحد يرجع إلى ما قبله فيعتمد عليه ، وهذا السابق كلهم يؤول إليه ، فإن من تقدم في فعل فاستبق به من بعده كان السابق الذي يؤول الكل إليه فالأول له وصف السؤدد والاتباع .

ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود ، والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدأ خلاف العائد ، لأنه إنما كان أولاً لما بعده ، فانه يقال أول المسلمين وأول يوم فما فيه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف إليه لا للمضاف .

وإذا قلنا : آل فلان ، فالعود الى المضاف ، لأن ذلك صيغة تفضيل في كونه مآلا ومرجعاً لغيره ، لأنه كونه مفضلاً دل على أنه مآل ومرجع لا آيل راجع ، إذ لا فضل في كون الشيء راجعاً إلى غيره آيلاً اليه ويؤال . فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل في كونه مآلاً ومرجعاً والتفضيل المطلق في ذلك يقتضي أن يكون هو السابق المبتدىء والله أعلم .

فتأويل الكلام ما أوله إليه المتكلم ، أو ما يؤول إليه الكلام ، أو ما تأوله المتكلم ، فإن التفعيل يجري على غير فعل ، كقوله ﴿ وتبَّتل إليه تبتيلاً ﴾ (١) فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلاً ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل ، كعدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير وهذا خلق الله .

فالتأويل . هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه . والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤوِّل الى حقيقته التي هي عين المقصود به كما قال بعض السلف في قوله ﴿ لِكُلِّ نبإٍ مستقرٌّ ﴾ (٢) قال حقيقة ، فإنه إن كان خيراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مال ولا مرجع ، بل كان كذباً . وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإن لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلاً . ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً فالى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول ، كما روى عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ القادرُ علىٰ أَن يبعثَ عليكُمْ عذاباً مِنْ فوقِكُمْ أو مِنْ تحتِ أرجِلُكُمْ أو يَلْبَسَكُمْ شِيعاً ﴾ (٣) قال إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد(٤) [وعن عبد الله قال : وخمسة قد مضين البطشة واللزام والدخان والقمر

---

(١) سورة المزمل الآية ٨.

(٢) سورة الأنعام الآية : ٦٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٦٥ .

(٤) سلك ابن تيمية في تبيانه لمعنى كلمة « تأويل » في القرآن الكريم منهجاً قويماً أخذ به ابن تيمية في علاجه لكثير من المشكلات التي عرض لها وموقفه في بيان معنى هذه الكلمة يعتبر تطبيقاً أميناً لمنهجه الذي يأخذ به . وهذا المنهج له ثلاث مراحل .

المرحلة الأولى : استقراء كامل للفظ في القرآن الكريم وبيان معناه خلال حكاية اقوال السلف له .

المرحلة الثانية : بيان معنى اللفظ في السنة النبوية وبأي معنى كان يستعمله الرسول ثم الصحابة .

والروم][1]

فصل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله . أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم . فانهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الوجه الأول

الأول . من قال إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه ، فيقول : أما الدليل على ذلك ، فإني ما اعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه . وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات تمر كما جاءت . ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها. التي مضمونها تعطيل النصوص على ما دلت عليه . ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت في أحاديث الوعد مثل قوله «من غشنا فليس منا» [2] وأحاديث الفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلاً بالعرف المتأخر .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل ، وكذلك نص أحمد في كتاب (الرد على الزنادقة والجهمية) أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من

= المرحلة الثالثة : بيان معنى اللفظ في اللغة التي نزو بها القرآن ولا ينتقل الى المرحلة الثانية الا بعد الانتهاء من المرحلة الأولى . وهكذا الثانية : فيكون ابن تيمية بذلك قد طبق منهجه الذي دعا اليه تطبيقاً أميناً . حيث فسر القرآن بالقرآن ثم بالسنة . ثم باللغة . وكل واحدة من هذه المراحل تؤكد الأخرى وتقويها .

(١) ما بين المعوفتين زيادة في : س .

(٢) ورد الحديث في مسلم (كتاب الايمان) ، الترمذي (كتاب البيوع) ، ابن ماجه (تجارات) ، الدارمي (بيوع) ابن حنبل ٢/٥ ، ٢٤٢ .

الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره. بل يبين ويفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه ، أو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب ، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين . والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل إن هذا هو التأويل المذكور في الآية وأنه لا يعلمه إلا الله لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلاً يخالف دلالتها لكن ذلك لا يعلمه إلا الله وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها لا التوقف عنها ، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها ، وتمر كما جاءت دالة على المعاني ، لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه في القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار والعليم والقدير والرءوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات ، مثل سورة الإخلاص ، وآية الكرسي ، وأول الحديد ، وآخر الحشر وقوله ﴿ إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ [1] وعلى كل شيءٍ قدير ، ﴿ إنَّ الله يُحِبُّ المتَّقِين ﴾ [2] والمقسطين والمحسنين ، وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فلماَ آسفونَا انتقمنَا مِنْهُمْ ﴾ [3] ﴿ ذلك بأنَّهُم اتَّبعُوا ما أسخطَ الله ﴾ [4] ﴿ ولَكن كَرِهَ الله انبعاثَهُمْ ﴾ [5] ﴿ الرَّحمنُ على العرش استوىٰ ﴾ ﴿ ثم استوىٰ علىٰ العرشِ ﴾ [7] . ﴿ يعلمُ ما يلِجُ في الأرضِ وما يخْرُجُ منْهَا ، وما ينزِلُ مِنَ السَّماءِ وما يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [8] . ﴿ وهُوَ مَعَكُمْ أينما كُنْتُمْ ﴾ [9] ﴿ وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ وهُوَ الحكيمُ العليمُ ﴾ [10] ﴿ إليهِ يصعدُ الكلمُ الطيِّبُ ، والعملُ الصالحُ يرفعه ﴾ ﴿ إنني معكما أسمَعُ وَأرىٰ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الله في السَّمواتِ والأرض ﴾ ، ﴿ ما منعَكَ أَنْ تسجدَ لما خلقْتُ بيدي ﴾ ، ﴿ بل يَداهُ مبسوطتانِ ، ينفقُ كيفَ يشاءُ ﴾ ، ﴿ ويبقىٰ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥ .

(٢) سورة التوبة الآية ٤ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٥٥ .

(٤) سورة محمد الآية ٢٨ .

(٥) سورة التوبة الآية ٤٦ .

(٦) سورة طه الآية ٥ .

(٧) سورة الرعد الآية ٢ .

(٨) سورة سبأ الآية ٢ .

(٩) سورة الحديد الآية ٤ .

(١٠) سورة الزخرف الآية ٨٤ .

وجـهُ ربّكَ ذُو الجـلالِ والإكرام ﴾ ، ﴿ يـريدونَ وَجْهَـهُ ﴾ ، ﴿ولتُصنَعَ على عيني ﴾ إلى أمثال ذلك .

فيقـال لمن ادعى في هذا أنـه متشابه لا يعلم معناه : أتقـول هـذا في جميـع مـا سمى الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟

فإن قلت : هذا في الجميع ، كان هذا عناداً ظاهراً وجحداً لمـا يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، بل كفر صريح ، فإنـا نفهم من قولـه ﴿ إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٍ ﴾ معنى ، ونفهم من قوله : ﴿ إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير ﴾ معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله : ﴿ إنَّ الله عزيزٌ ذو انتقام ﴾ معنى . وصبيان المسلمـين بل وكـل عاقـل يفهم هذا . وقـد رأيت بعض من ابتدع وجمد من أهل المغرب مع انتسابه الى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة من يقول : إنـا نسمي الله الرحمن العليم القـدير علماً مخصـوصاً من غـير أن نفهم منه معنى يـدل على شيء قط ، وكذلك في قوله : ﴿ ولا يحيطون بشيءٍ من عِلْمِهِ ﴾ يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم [1] .

وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة في الباطن ، لكن هذا أيبس وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند . فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود وعلى حق موجود أم لا ؟

فإن قال لا ، كان معطلاً محضاً ، وما أعلم مسلماً يقول هذا .

وإن قال نعم ، قيل له فهمت منها دلالتها على نفس الرب ولم تفهم دلالتها عـلى ما فيهـا من المعـاني من الرحمـة والعلم وكلاهمـا في الدلالـة سواء ؟ فـلا بد أن يقـول نعم ، لأن ثبـوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث بخلاف الذات . فيخاطب حينئـذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سنذكره ، وهو من أقر بفهم بعض معنى هـذه الأسماء والصفـات

---

(١) يوضح ابن تيمية هنا موقف علماء الكلام في قضية الصفات وخاصة المعتزلة والأشاعرة ويحاول أبطال مذهبهم .

ذلك ان المعتزلة ـ كما يرى ابن تيمية ـ ينفون الصفات ويثبتون الأسماء فقط كأعلام مجردة عن معناها ، ويبطل ابن تيمية هذا الرأي ، لأن اثبات الاسم دون معناه المتضمن فيه لا يقول به عاقل ، فان الله لم يسم نفسه بالرحمن الرحيم الا لملاحظة معنى الرحمة في أفعاله . فلو جعلناه الرحمن علماً مجرداً عن معنى الرحمة كان هذا تعطيلاً للصفقة المتضمنة في الإسم . أما الأشاعرة فان موقفهم مضطرب في هذه القضية ، فانهم ينفون بعض الصفات ويثبتون البعض الآخر ، فيقول ابن تيمية فما الفرق عندكم بين المثبت وا لمنفى ؟ وبمناقشتهم يتضح ان مقياس الإثبات والنفى عندهم غير معقول فليتأمل ذلك جيداً .

دون بعض فيقال له : ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته أو سكت عن إثباته ونفيه ، فان الفرق إما أن يكون من جهة السمع ، لأن أحد النصين دال على دلالة قطعية أو ظاهرة بخلاف الآخر ، أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع .

أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير علي عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص . وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته .

وأما الثاني فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر ، لم نفيت مثلاً حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه ، قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه ، وكذلك محبته ، وإن قال ـ وهو حقيقة قوله ـ لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع وإنما أثبت العلم والقدرة والإرادة بالعقل ، وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين ، لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على الإرادة . قيل له الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة ، كدلالة التخصيص على الإرادة . والتقريب والإدناء وأنواع التخصيص التي لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة : وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص . وما سلكه في مسلك الإرادة يسلك في مثل هذا .

الثاني : يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا فانه لا ينفيه إلا ـ بمثل ما ينفي به من الإرادة والسمع ـ دليل مستقل بنفسه ، بل الطمأنينة إليه في هذه المضايق أعظم ودلالته أتم ، فلأي شيء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها الى الإرادة مع أن النصوص تفرق؟ فلا يذكر حجة الا عورض بمثلها في إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث : يقال له إذا قال لك الجهمي الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضي محذوراً إن قال بقدمها ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة فانهم لا يقولون بارادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم ، ولا يقولون بتجدد صفة له لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم مع تناقضهم .

فصاروا حزبين : البغداديون وهم أشد غلواً في البدعة في الصفات ، وفي القدر نفوا

حقيقة الإرادة ، وقال الجاحظ[1] لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبي [2] لا معنى لها إلا نفس الفعل إذا تعلقت بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عبادة .

والبصريون كأبي علي [3] وأبي هاشم[4] قالوا : تحدث إرادة لا في محل فلا إرادة ، فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل ، وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبديهة .

كان جوابه أن ما أدعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها والعقل أيضاً ، فإذا أخذ الخصم ينازع في دلالة النص أو العقل جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود في الرحمة والمحبة ، فان خصومه ينازعونه في دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله في العليم والقدير ، وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعاني وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب ما قررناه في غير هذا الموضع ، فان ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفي به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية والضرورة العقلية والقواطع العقلية واتفاق الأمم وغير ذلك من الدلائل ، ثم يطالبون بوجود من جنس ما نعهده أو بوجود يعلمون كيفيته ، فلا بد أن

(١) عمرو بن بحر محبوب الكناني (أبو عثمان) الجاحظ ولد سنة ١٦٣ وتوفى سنة ٢٤٥ رئيس فرقة الجاحظية من المعتزلة ، مات بسبب وقوع كتبه على رأسه ، وتوفي والكتاب على صدره ، اشتهر بالأدب وله تصانيف كثيرة في الأدب وعلم الكلام والفلسفة .

أنظر : ارشاد الأريب ٥٦/٥ ـ ٨٠ ، والوفيات ٣٨٨/١ ، لسان الميزان ٥٥/٤ ، تاريخ بغداد ٢١٢/١٢ ، امالي المرتضى ١٢٨/١ الاعلام ، ٢٣٩/٥ ـ ٢٤٠ .

(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي البلخي صاحب « المقالات » واليه تنسب فرقة الكعبية من معتزلة بغداد . توفي سنة ٣١٧ .

انظر . وفيات الأعيان ٧٤٨/٢ ـ ٧٤٩ ، الفرق بين الفرق ص ١٠٨ ـ ١١٠ ؛ الملل والنحل ١١٦/١ ـ ١١٧ ، الخطط ٣٤٨/٢ ، لسان الميزان ٢٥٥/٣ .

(٣) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي من كبار أئمة معتزلة البصرة ، ولد سنة ١٣٥ هـ توفي سنة ٣٠٣ هـ واليه تنسب فرقة الجبائية .

انظر : المنية والأمل ص ٤٥ ـ ٤٨ ، شذرات الذهب ٢٤١/٢ ، الخطط ٣٤٨/٢ ، لسان الميزان ٥/ ٢٧١ ، وفيات الأعيان ٣٩٨/٣ ، الملل والنحل ١/ ١٨ ـ ١٢٩ .

(٤) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبي على الجبائي ، واليه تنسب فرقة الهشمية ، من كبار معتزلة البصرة ، توفي سنة ٣٢١ هـ .

انظر . وفيات الأعيان ٣٥٥/٢ ، تاريخ بغداد ٥٥/١١ ـ ٥٦ ، ميزان الاعتدال ٦١٨/٣ ، الخطط ٣٤٨/٢ ، الملل والنحل ١١٨/١ ، الأعلام ١٣٠/٤ ـ ١٣١ .

يفروا الى إثبات مالا تشبه حقيقته الحقائق ، فالقول في سائر ما سمى ووصف به نفسه كالقول في نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة لا بد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى وانتفاء المانع ، وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن له عنده مقتض ولا مانع ، فيبين له أن المقتضى فيما نفاه قائم ، كما أنه فيما أثبته قائم ، إما من كل وجه ، أو من وجه يجب به الإثبات . فان كان المقتضى هناك حقاً فكذلك هنا ، وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا.

وأما المانع فيبين أن المانع الذي تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذي تخيله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره باثبات أحدهما ونفى الآخر ، فانه إن كان حقاً نفاهما ، وإن كان باطلاً لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوي بين الأمرين في الاثبات والنفي ، ولا سبيل إلى النفي ، فتعين الاثبات .

فهذه نكتة الالزام لمن أثبت شيئاً وما من أحد إلا ولا بد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته . فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التي يدعي أنها موجبة النفي خيالات غير صحيحة وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غير مرة .

فإن قال ـ من أثبت هذه الصفات التي فينا أعراض ، كالحياة والعلم والقدرة ولم يثبت ما هو فينا أبعاض ، كاليد والقدم ـ: هذه[1] أجزاء وأبعاض تستلزم التركيب والتجسيم .

قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلي ، كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسي ، فان أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها ، قيل له . وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً ، أو تسميتها تركيباً وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فان قيل : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل إلا الأعراض ، فان قال . العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية .

قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك في حق الله محال ، فمفارقة الصفات القديمة مستحيلة في حق الله تعالى مطلقاً والمخلوق يجوز ان تفارقه اعراضه وأبعاضه .

فإن قال . ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل . وهذا تجسيم والتجسيم منتف .

---

(١) هذه : مفعول الفعل (قال) المذكور أول الفقرة .

فإن قال . أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز وان لم يكن له في الشاهد نظير ، قيل له . فاعقل صفة هي لنا بعض لغير متحيز وان لم يكن له في الشاهد نظير .

فان نفى عقل هذا نفى عقل ذاك ، وان كان بينهما نوع فرق لكنه فرق غير مؤثر في موضع النزاع ، ولهذا كانت المعطلة الجهمية تنفي الجميع ، لكن ذاك أيضاً مستلزم لنفي الذات ، ومن أثبت هذه الصفات الخبرية من نظير هؤلاء صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا ايضاً ليس هو معقول النص ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم الى هذه المضايق .

(اسباب هذه الشبهة)

وأصل ذلك : أنهم أتوا بألفاظ ليست في الكتاب ولا في السنة ، وهي ألفاظ مجملة مثل ، متحيز ، ومحدود ، وجسم ، ومركب ، ونحو ذلك . ونفوا مدلولها وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلمة ومدلولاً عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه في أثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعي لا يقبل الترك لمعارض راجح ، فرأوا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ومن جهة العقل من ناحية اخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة ، وتارة يغلبون القياس الثاني ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضي ، فإنه قد قيل أول ما تكلم في الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبي الهذيل العلاف[1] ، فان أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس ، وعارضهم هشام وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة الا ولا بد أن يتناقض ، فيحيل ما أوجب نظيره ويوجب ما أحال نظيره ، إذ كلامهم من عند غير الله ، وقد قال الله تعالى ﴿ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ الله لوجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً﴾ [2] .

---

(١) أبو الهذيل محمد بن عبد الله بن مكحول المشهور بالعلاف ، من كبار معتزلة البصرة . ولد سنة ١٣٥هـ . كف بصره في آخر عمره . توفى سنة ٢٢٦ أو سنة ٢٢٨ على خلاف ذلك .

انظر عنه : لسان الميزان ٤١٣/٥ ـ ٤١٤، وفيات الأعيان ٣٩٦/٣ ـ ٣٩٨، تاريخ بغداد ٦٦/٣ ـ ٢٨٠ أمالي المرتضى ١٢٤/١، الاعلام ٣٥٥/٧ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع في ذلك سبيل السلف الماضين أهل العلم والايمان . والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة ، لا ترد بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها فيكون من باب ﴿ الَّذينَ إذا ذُكرُوا بآياتِ ربهم لم يخرُّوا عليها صمّاً وعُمْيانَاً ﴾ ، ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين ﴿ لا يعلمونَ الكتابَ إلا أمانيَّ ﴾ . فهذا أحد الوجهين وهو منع أن تكون هذه[١] من المتشابه .

الوجه الثاني[٢] : أنه إذا قيل : هذه من المتشابه ، أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله الا الله إما المتشابه وإما الكتاب كله كما تقدم ، ونفى علم تأويله ليس نفى علم معناه ، كما قدمناه في القيامة وأمور القيامة ، وهذا الوجه قوي إن ثبت حديث ابن إسحاق في وفد نجران أنهم احتجوا على النبي ﷺ بقوله إنا ونحن ونحو ذلك[٣] ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن في القرآن متشابهاً وهو ما يحتمل معنيين ، وفي مسائل الصفات ما هو من هذا الباب كما أن ذلك في مسائل المعاد أولى ، فإن نفى التشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفي التشابه بين موجود الجنة وموجود الدنيا .

وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفى علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى ، ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : ﴿ ولقد ضَرَبْنَا للنَّاسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ مثلٍ لعلَّهم يتذكرونَ ، قرآناً عربيًّاً غير ذِي عوجٍ ﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿ الر . تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ . إنَّا أنزلْنَاهُ قرآناً عربياً لعلَّكم تعقلونَ ﴾[٥] . فأخبر أنه أنزل ليعقلوه وأنه طلب تذكرهم . وقال أيضاً ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضربها للنَّاسِ لعلَّهم يتفكرونَ ﴾[٦] . فحض على تدبره وفهمه وعقله والتذكر به والتفكير فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً ، بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله ﴿ أَفَلا يتدَّبَرُون القرآنَ أَمْ علىٰ قلوب أقفالُها ﴾ وقوله : ﴿ أَفَلا يتدَّبَرُون القرآن ولو كانَ مِنْ عِنْدِ غيرِ الله لوجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون الا بتدبره كله ، والا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر .

---

(١) اسم الاشارة راجع الى الصفات الإلهية .

(٢) سبق الوجه الأول ص ١١٥ .

(٣) أنظر سبب نزول آل عمران في الجزء الثاني من هذا التفسير .

(٤) سورة الزمر الآية ٢٨ .

(٥) سورة يوسف الآيات (١ ـ ٢) .

(٦) سورة الحشر الآية ٢١ .

وقال علي عليه السلام لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة . فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمانَ وكلاً آتينا حُكماً وعِلماً﴾ وقال النبي ﷺ « رب مبلغ أوعى من سامع » وقال « بلغوا عني ولو آية » .

وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن ، آيات الصفات وغيرها ، وفسروها بما يوافق دلالتها ، ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن ، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم ، مثل عبد الله بن مسعود الذي كان يقول (لو أعلم أعلم ـ بكتاب الله مني تبلغه اباط الإبل لأتيته) وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبي ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا . وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما في علية التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلالة أصحاب زيد بن ثابت ، ولكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس . ولو كان معنى هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه .

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية ، كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ، فقال : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) ، وكذلك ربيعة قبله ، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس [احد] من أهل السنة ينكره . وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال كيف استوى . ولم يقل مالك الكيف معدوم ، وإنما قال الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون لا تخطر كيفيته ببال ، ولا تجري ماهيته في مقال ، ومنهم من يقول ليس له كيفية ولا ماهية .

فإن قيل : معنى قوله الاستواء معلوم ، أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم قاله بعض

أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه .

قيل : هذا ضعيف . فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ، فان السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن وقد تلا الآية . وأيضاً فلم يقل ذكر الاستواء في القرآن ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال الإستواء معلوم . فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، ولم يخبر عن الجملة .

وأيضاً فانه قال والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول او تفسير الاستواء مجهول ، او بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء . وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه ، لو قال في قوله (إني معكُما أسمعُ وأَرَىٰ) كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا السمع والرؤيا معلوم والكيف مجهول ، ولو قال كيف كلم موسى تكليماً ، لقلنا التكليم معلوم والكيف غير معلوم .

وأيضاً فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة وأن ذاته فوق العرش، لا ينكرون معنى الاستواء ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية .

ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش ، علا على العرش . وقال بعضهم عبارات أخرى ، وهذه ثابتة عن السلف قد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخر في كتاب الرد على الجهمية .

وأما التأويلات المحرفة مثل استولى وغير ذلك فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية ، وأيضاً قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس في خصوص الصفات ، بل في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لعائشة : « يا عائشة اذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذريهم » وهذا عام . وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا ، فانه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن الذاريات ذرواً ، فقال ما اسمك ؟ قال عبد الله صبيغ ، فقال وأنا عبد الله عمر ، وضربه الضرب الشديد ، وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقول ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ . وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه» وكما قال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ﴾فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيات القرآن ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فان ذلك يوقع الشك في قلوبهم ، ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذي

لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ومطلوبهم متعذراً مثل أغلوطات المسائل التي نهى رسول الله ﷺ عنها .

ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات ، وقد تكلم الصحابة في تفسيرها ، مثل علي بن أبي طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها كره سؤاله لما رآه من قصده ، ولكن علياً كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس في اللفظ ذكر الموصوف ، والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ومتى تهب ، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر ، وكذلك في قوله ، إنا ونحن ونحوهما من أسماء الله التي فيها معنى الجمع كما اتبعه النصارى ، فان معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعاني بمنزلة الأسماء المتعددة مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فان المسمى واحد ومعاني الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذي لفظه الجمع .

وأما التأويل الذي اختص الله به ، فحقيقته ذاته وصفاته ، كما قال مالك : والكيف مجهول . فاذا قالوا ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره ، قيل هذا هو التأويل الذي لا يعلمه الا الله .

وما أحسن ما يعاد التأويل الى القرآن كله . فإن قيل : فقد قال النبي ﷺ لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل تأويل كل القرآن فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله ، وهذا كقوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله ﴾ وقوله ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم **تأويله** ﴾ فان المراد تأويل الخبر الذي فيه عن المستقبل ، فانه هو الذي ينتظر ويأتي ولما يأتهم ، وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر . وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل في التأويل لا ينتظر . والله سبحانه أعلم وبه التوفيق .

مقدّمة سادسة
في مُعجزاتِ القُرآنْ

فصـــل
القرآن آية صدق النبي

قال شيخ الاسلام ابن تيمية .

لما كان محمداً ﷺ رسولاً إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم ، عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده ـ كان من نعمة الله على عباده ، ومن تمام حجته على خلقه ، أن تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته ، معلومة لكل الخلق ، الذين بعث اليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء ..

وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ، ما يبين به أن القرآن حق كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إنْ كانَ من عندِ الله ثمَّ كفرتُمْ بِهِ مِنْ أضلُّ ممن هُوَ شقاقٍ بعيدٍ * سنريهم آياتنا في الآفاقِ وفِي أنفسهم حتىٰ يتبيَّنَ لهمْ أنَّهُ الحقُّ أَوَ لم يكفِ أَنَّهُ علىٰ كُلِّ شيءٍ شهيدٍ ﴾ [1] أخبر سبحانه أنه سيري العباد الآيات في أنفسهم ، وفي الآفاق ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، فإن الضمير عائد اليه ، إذ هو الذي تقدم ذكره كما قال : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ والضمير في « كان » عائد الى معلوم .

يقول أرأيتم إن كان القرآن من عند الله ، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو في شقاق بعيد .

فانه على هذا التقدير ، يكون الكافر في شقاق بعيد ، قد شاق الله ورسوله ولا أحد أضل

---

(١) سورة فصلت : ٥٢ ـ ٥٣ .

ممن هـو في مثل هـذا الشقاق ، حيث كـان في شق ، والله ورسولـه في شق ، كما قـال تعـالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وَمَا أُنْزِلَ إِلىٰ إبراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقـوبَ والأسباطَ ومـا أوتِيَ موسىٰ وعيسىٰ وما أوتِيَ النبيّونَ مِنْ ربِّهم لا نفرِّق بينَ أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمـونَ . فإنْ آمنـوا بمثلِ ما آمنتم بهِ فقد اهتدوا وإن تولوا فإنَّما هم في شقـاقٍ فسيكفيكهُمُ الله وهُوَ السَّميعُ العليمُ ﴾ (١) بين أن من تولى عن ذلك ، لم يكن متبعاً للحق قاصداً له ، فإن هذا الذي قلتموه لا يتولى عنه من أهل الكتاب ، من قصده الحق ، وإنما يتولى عنه من قصده المشاقة والمعاداة ، لهوى نفسه ، وهذا يكفيك الله أمره .

والقرآن إن كان من عند الله، ثم كفر به من كفر ، فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله ، إذ هو في شقاق بعيد .

وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق ، فهو ضال .

والشقاق قد يكون مع العناد ، وقد يكون مع الجهل .

فان الآيات إذا ظهرت ، فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقاً ، ولهذا قال عقيب ذلك « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فأخبر أنه سيرى عباده من الآيـات الأفقية والنفسيـة ، ما يبـين أنه حق ، ثم قـال ﴿ أو لم يكـف بربـك أنه عـلى كل شيء شهيد ﴾ فان شهـادته وحـده كافيـة بدون مـا ينتظر من الآيـات كما قـال تعالى ﴿ قـل كفىٰ بالله شهيداً بيني وبينكُمْ وَمَنْ عِندَهُ علمُ الكتابِ ﴾ (٢) وشهادته للقرآن ولمحمد ، تكون بـأقوالـه التي أنزلها قبل ذلك على انبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَمَنْ أظلمُ ممّن كَتَمَ شهـادةً عندهُ مِنَ اللهِ ﴾ (٣) . وتكـون بأقـواله التي أنـزلها عـلى محمد ﷺ ، فـإن القرآن نفسـه ، آيـة بينـة ، ومعجزة قاهرة .

وتكون بأفعاله ، وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون .

والقـرآن نفسه هـو قول الله ، وفيـه شهـادة الله بمـا أخبـر بـه الـرسـول ، وإنـزالـه عـلى محمد ﷺ ، وإتيان محمد به هو آية وبرهان ، وذلك من فعل الله ، إذ كان البشر لا يقدرون على مثله ، ولا يقدر عليه أحد من الأنبياء ، ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيـرهم ، كما قـال تعالى : ﴿ قل لئِنَ اجتمعت الانسُ والجنُّ علىٰ أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضُهُمْ

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٣٦ - ١٣٧) .

(٢) سورة الرعد الاية ٤٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٠ .

لبعض ظَهِيراً ﴾[1] . ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره ، إذ كانت هذه الآية في سورة « سبحان » وهي مكية ، صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس .

وقد أخبر خبراً وأكده بالقسم عن جميع الثقلين ، إنسهم وجهنم ، أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، بل يعجزون عن ذلك ، وهذا فيه آيات لنبوته .

ومنها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، بأنهم لا يفعلون هذا ، بل يعجزون عنه .

وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر ، فيفسد عليه ما قصده ، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم ، المؤمن بمحمد والكافر به ، على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم يسهم أحد بمثلها ، ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ الى يوم القيامة ، الذي يقرأ به في الصلوات ، وسمعه العام والخاص ، والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر ، وإلا لو كان شاكاً في ذلك ، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير ، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه ، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس ، فمن يصدقه الناس ، لا يقول مثل هذا ويظهره هذا الإظهار ، ويشيعه هذه الإشاعة ، وقصد أن يخلده هذا التخليد ، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه .

ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق ، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن الى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً وكونه آية على نبوته ، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام ، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه الى جميع الخلق وهو ـ وحده ـ كاف في العلم بأن القرآن معجز .

دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز ، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته .

وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة .

فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة ، تامة وانتفت المعارضة . علم عجز جميع الأمم عن معارضته ، هذا برهان بين يعلم به صدق هذا الخبر ، وصدق هذا الخبر آية لنبوته ، غير العلم بأن القرآن معجز ، فذلك آية مستقلة لنبوته ، وهي آية ظاهرة باقية الى آخر الدهر ، معلومة لكل أحد ، وهي من أعظم الآيات فإن كونه معجزاً يعلم بأدلة متعددة ، والإعجاز فيه من وجوه متعددة ، فتنوعت دلائل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه ، فهو

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

دليل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه ، فهو دليل اعجازه وهذه جمل ، لبسطها تفصيل طويل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقالوا لوْلاَ أُنْزل عليْهِ آيةٌ من ربهِ قل إنَّما الآياتُ عندَ الله وإنمَا أَنَا نذيرٌ مبينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنا عليكَ الكِتابَ يُتلى عليهْم إنَّ في ذلكَ لرحمةً وذكرىً لقومٍ يؤمنونَ ﴾ [1] فهو كافٍ في الدعوة والبيان ، وهو كافٍ في الحجج والبرهان .

فصـــــل
في إظهار معجزاته

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة ، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميها من يسميها من النظار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ، ونحو ذلك .

وهذه الألفاظ اذا سميت بها آيات الأنبياء ، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ « المعجزات » موجوداً في الكتاب والسنة ، وإنما فيه لفظ « الآية » و« البينة » و« البرهان » كما قال تعالى في قصة موسى ﴿ فذانكَ برْهانانِ منْ ربِّكَ ﴾ [2] ، في العصا واليد ، وقال الله تعالى في حق محمد : ﴿ يا أَيُّها الناسُ قدْ جاءكُمْ برهانٌ مِنْ ربكُمْ وأنزلنا اليكُمْ نوراً مُبيناً ﴾ [3] وقد قال في مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان : ﴿ وقالوا لنْ يدخل الجنَّة إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نصَارى تلكَ أمانِيُّهم قلْ هاتوا برْهانِكُمْ إنْ كنتمْ صادقِينَ ﴾ [4] وقال تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ يبدؤُ الخلقَ ثُمَّ يعيدهُ وَمَن يرزقكُمْ من السَّماء والأرض أَإلهٌ معَ الله ؟ قلْ هَاتوا برهانكُمْ إنْ كنتمْ صادقينَ ﴾ [5] وقال : ﴿ وَمَنْ يَدعُ مَعَ الله إلهاً آخر لاَ برهانَ لَهُ بِهِ فإنَّمَا حِسابُه عندَ ربِّهِ إنَّهُ لا يفلحُ الكافرُونَ ﴾ [6] وقال تعالى : ﴿ ويوْمَ يناديهمْ فيقولُ : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كنتمْ تزعُمُونَ * وَنَزعنا منْ كلِّ أمَّةٍ شهيداً فقلنَا هاتوا برهانكُمْ فعِلموا أنَّ الحقَّ لله وضلَّ عنهُمْ ما كانوا يفتَرُونَ ﴾ [7] .

---

(١) سورة العنكبوت الآيات (٥٠ ، ٥١).

(٢) سورة القصص الآية ٣٢ .

(٣) سورة النساء الآية ١٧٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١١١ .

(٥) سورة النمل الآية ٦٤ .

(٦) سورة المؤمنون الآية ١١٧ .

(٧) سورة القصص الآيات ٧٤ ـ ٧٥ .

وأما لفظ « الآيات » فكثير في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلكَ جعلنا في كلِّ قريةٍ أكابرَ مُجْرميهَا ليمكروا فيها وما يمكرون الَّا بأنفسهمْ وما يشعرون ، وإذا جاءَتْهُمْ آيةٌ قالوا لنْ نؤمنَ حتَّى نؤتَىٰ مثلَ ما أُوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [1] . وقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسىٰ تسعَ آياتٍ بيناتٍ فاسئل بني إسرائيل إذْ جاءَهُمْ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وادخلْ يدكَ في جيبكَ تخْرُجْ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ آيةٍ أخرىٰ ﴾ [3] وقول فرعون له : ﴿ فأت بآيةٍ إنْ كنتَ مِنَ الصَّادقين ﴾ [4] .

وقال قوم صالح : ﴿ فأتِ بآيةٍ إنْ كنتَ مِنَ الصَّادقينَ . قالَ : لها شربٌ ولكم شربُ يومٌ معلومٌ ﴾ [5] ﴿ وهذهِ ناقةُالله لكم آية ﴾ .

وقال المسيح : ﴿ قد جئتكم بآيةٍ مِنْ ربّكُمْ أني أخلقُ لكُمْ مِنَ الطِّينِ كهيئة الطيرِ فانفخُ فيهِ فيكونُ طيراً باذنِ الله ، وأُبرىءُ الأكمَةَ والأبرصَ وأحيي الموتىٰ باذنِ الله ، وأنبئكُمْ بما تأكلونَ وما تدَّخرونَ فِي بيوتِكُمْ ، إنَّ في ذلكَ لآيةً لكُمْ إن كنتُمْ مؤمنينَ ﴾ [6] .

وقال في حق محمد : ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ مِنْ آياتِ ربّهم إلَّا كانُوا عنها مُعرضينَ ، فقد كذَّبُوا بالحقِّ لما جاءَهُمْ فسوفَ يأتيهم أنباءُ ما كانُوا بِهِ يستهزؤ ونَ ﴾[7] وقال : ﴿ أو لم يكنْ لهم آيةً أن يعلمهُ علماءُ بنى إسرائيل ﴾[8]وقال: ﴿اقتربت السَّاعة وانشقَّ القمرُ، وإنْ يرُوا آيةً يعرضُوا ويقولُوا سحرٌ مستمرٌ ﴾[9] وقال : ﴿ ومنهُمْ مَنْ يستمِعُ اليكَ وجعلنَا علىٰ قلوبهمْ أكنَّةً أنْ يفقهوهُ وفي آذانِهِمْ وقراً وإنْ يرُوا كلَّ آيةٍ يؤمِنُوا بها حتىٰ إذا جاؤُك يجادلونَكَ يقولُ الَّذين كفرُوا : إنْ هذَا إلَّا أساطيرُ الأولين ﴾[10]وقال تعالى : ﴿ وقالُوا لولَا يأتينَا بآيةٍ مِنْ ربّهِ قلْ إنَّما الآيات عند الله وإنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ او لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليكَ الكِتَاب يُتلىٰ عليهم إنَّ في ذلكَ لرحمةً وذكرىٰ لقومٍ يُؤْمنون ﴾[11]وقال ﴿ سنريهم آياتِنَا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبينَّ لهم أنَّهُ

---

(١) سورة الأنعام الآيات (١٢٣ ـ ١٢٤) .

(٢) سورة الاسراء الآية ١٠١ .

(٣) سورة طه الآية ٢٢ .

(٤) سورة الشعراء الآيات (١٥٤ ـ ١٥٥) .

(٥) سورة الأعراف الآية ٧٣ .

(٦) سورة آل عمران الآية ٤٩ .

(٧) سورة الأنعام الآية ٤ .

(٨) سورة الشعراء الآية ١٩٧ .

(٩) سورة القمر الآيات (١ ـ ٢) .

(١٠) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

(١١) سورة العنكبوت الآية ٥ .

الحقُّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتَا فئةٌ تقاتلُ في سبيل الله وأُخرى كافرةٌ يرونَهُم مثليهُمْ رأي العين والله يؤيدُ بنصره مَنْ يشاءُ إنَّ في ذَلِكَ لعبرةٍ لأُولِي الأبصار ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بِيّنات قالَ الَّذينَ لا يرجونَ لقائَنَا إئتِ بقرآنٍ غيرَ هذا او بدِّلهُ قل ما يكـون لي أَنْ أُبَدِّلهُ مِنْ تلقاء نفسي ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قلْ انظُروا ماذا في السَّموات والأرض وما تغنى الآيات والنُّذرعن قوم لا يؤمنون ﴾[3] .

وقال لما ذكر قصص الأنبياء في سورة الشعراء ، قال في آخر كل قصة ﴿ إنَّ في ذلـكَ لآيةً وما كانَ اكثرهُمْ مؤمنينَ، وإنَّ ربّك لهُوَ العزيزُ الرَّحيمُ ﴾ وقال : ﴿ لقد كانَ في يوسفَ وإخوتـهِ آياتٍ للسائلين ﴾[4] إلى أن قال في آخرها ﴿ ذلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحِيـهِ إليكَ وَمَـا كُنْتَ لديهِمْ إذا أجمعُوا أمرهُمْ وهُمْ يمكرونَ ﴾إلى قوله: ﴿وكـأين من آية في السمـوات والأرض يمرون عليهـا وهم عنها معرضون ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وعدكُمْ الله مغـانمَ كثيرةً تـأخذونَها فعجَّـل لكم هذه وكفَّ أيـدي النَّاسِ عنكُمْ ولتكـونَ آيةً للمؤمنـينَ ﴾[6] وقال : ﴿ وَجَعَلْنـا ابنَ مريمَ وأُمَّـهُ آيـةً وآويناهُمَا الى ربوةٍ ذَاتَ قرارٍ وَمَعِينٍ ﴾[7] .

وأما لفظ المعجزة فانما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى : ﴿ ومـا هُمْ بمعجزينَ ﴾[8] وقال : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بمعجِزينَ في الأرضِ ولاَ في السَّماء ﴾[9] .

ومن لا يثبت فعلاً إلا لله ، يقول : المعجز هو الله ، وإنما سمى غيره معجزاً مجازاً .

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إذا فسر المـراد به ، وذكـر شرائـطه ، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط ، وما كان للأوليـاء إن اثبت لهم خرق عادة سماها كرامة .

والسلف ـ كأحمد وغيره ـ كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات ، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(٢) سورة يونس الآية : ١٥ .
(٣) سورة يونس الآية ١٠١ .
(٤) سورة يوسف الآية ٧.
(٥) سورة يوسف الآية ١٠٥ .
(٦) سورة الفتح الآية ٢٠ .
(٧) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .
(٨) سورة النمل الآية ٤٦ .
(٩) سورة العنكبوت الآية ٢٢ .

بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي ، فإن هذا يجب اختصاصه [1]

وقد يسمون الكرامات آيات ، لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي ، فإن الدليل مستلزم للمدلول ، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول ، فكذلك ما كان آية وبرهاناً وهو الدليل والعلم على نبوة النبي يمتنع أن يكون لغير النبي .

وقد يقال : إنهم سموها معجزات لأن كرامات الأولياء دليل على نبوة النبي الذي اتبعوه ، ولهذا سموها آيات أيضاً ، أو لأنها تعجز غيرهم ، وهي آية على صحة طريقهم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة ، كما قد تكلمنا على ذلك في غير هذا الكتاب ، وبينا أن من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط ، بل هي أنواع كثيرة ، لكن الآيات نوعان .

منها : ما مضى وصار معلوماً بالخبر ، كمعجزات موسى وعيسى .

ومنها : ما هو باق إلى اليوم ، كالقرآن الذي هو من أعلام نبوة محمد ﷺ وكالعلم والإيمان اللذين في أتباعه ، فإنه من أعلام نبوته ، وكشريعته التي أتى بها ، فإنها أيضاً من أعلام نبوته ، وكالآيات التي يظهرها الله وقتاً بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته ، ووقوع ما أخبر بوقوعه ، كقوله «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك » [2] وقوله « لا تقوم الساعة حتى

---

(١) يرى ابن تيمية أن استخدام كلمة «آية» برهان ، أكثر دلالة على صدق الرسول في دعوى النبوة بخلاف كلمة معجزة ، ذلك أن علامة صدق الرسول في دعوى رسالته هو ما يقدمه من آيات تشهد بصحة دعواه وما يحتج به من براهين تؤيد قوله ، وتسميته ما يقدمه الرسول من علامات على صدق قوله آية وبرهاناً ، تكون مطابقة لمسماها ومطردة في ذلك لا تتخلف عنه ، بخلاف استخدام كلمة معجزة أو خارق للعادة فان دلالتها على صدق المدعي قد تتخلف مع أنها تكون خارقة للعادة ومعجزة للغير ، كما في شأن الكهان والسحرة والشرط في الدليل ألا يتخلف عن مدلوله ، وهذا يوضح لنا سر تسمية القرآن لها بأنها اية أو برهاناً ولم يسمها أبداً معجزة .

ومن يقرأ قصص الأنبياء في القرآن الكريم يجد أن القرآن قد سمى ما يقدمه النبي دلالة على صدقه آية أو برهاناً . وكثيراً ما يتردد في القرآن أن في ذلك لآية . ولقد تركناها آية . فذالك برهاناً من ربك ، ولم ترد كلمة معجزة في القرآن مطلقاً ، وانما هي تسميه حادثة .

أنظر تفصيل رأي ابن تيمية في ذلك في كتاب النبوات ص ٢٠٦ ـ ٢٣٥ .

(٢) ورد هذا الحديث في صحيح البخاري ٤/٥١ ـ ٥٢ من رواية الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك . صغار الأعين . حمر الوجوه . ذلف الأنوف . كأن وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر» .

تخرج نار بأرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى [1] » .

وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستماية ، وشاهد الناس أعناق الإبل في ضوء النار ببصرى .

وظهور دينه وملته بالمحجة والبرهان ، واليد والسنان ، ومثل المثلات والعقوبات التي تحيق بأعدائه ، وغير ذلك ، وكنعته الموجود في كتب الأنبياء قبله ، وغير ذلك .

فصـــــل

في معجزات القرآن

القرآن كلام الله ، وفيه الدعوة والحجة ، فله به اختصاص على غيره ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة [2] .

والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً له ، من وجوه ، جملة وتفصيلاً .

أما الجملة ، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم ، علماً متواتراً أنه هو الذي أتى بهذا القرآن ، وتواترت بذلك الأخبار ، أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم .

(تحدي أهل مكة)

والقرآن نفسه ، فيه تحدي الأمم بالمعارضة ، والتحدي هو أن يحدوهم ، (أي يدعوهم ويبعثهم) الى أن يعارضوه .

فيقال فيه : حداني على هذا الأمر (أي بعثني عليه) ومنه سمى حادى العيس ، لأنه بحداه يبعثها على السير .

وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ، ولكن أصله الأول ، قال تعالى في سورة الطور ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [3] فهنا قال

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري ٩/٧٣ (كتاب ، الفتن ، باب خروج النار) من روايه سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الابل ببصرى .

(٢) ورد هذا الحديث في البخاري (كتاب فضائل القرآن . باب نزول الوحي) ولفظه كما في رواية أبي هريرة (قال النبي ﷺ : ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله الى . فأرجو أن اكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) . وأنظر أيضاً مسلم (كتاب الايمان حديث رقم ٣٢٩)، ابن جعفل ٢ /٢٢١ .

(٣) سورة الطور الآيات (٣٣ ـ ٣٤) .

« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » في أنه تقوله ، فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر ، كان هذا ممكناً للناس ، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله .

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى : ﴿ أَمْ يقولونَ افتراهُ قل فأتوا بعشرِ سُوَر مثله مفترياتٍ وادعوا مَنِ استطَعْتُمْ منْ دونِ الله إنْ كنتمْ صادقين ﴾ [1] ثم تحدَّاهم بسورة واحدة منه فقال تعالى : ﴿ وَمَا كان هٰذا القُرْآنُ أنْ يُفترى مِنْ دونِ الله ولكنْ تصديقَ الذِي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لا رَيبَ فيهِ مِنْ رب العالمينَ . أَمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأتوا بسورة مثلِه وادْعوا مَن استطعْتُمْ من دون الله إن كنتمْ صادقين ﴾[2] فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، هم وكل من استطاعوا من دون الله ثم تحداهم بسورة واحدة ، هم ومن استطاعوا قال : ﴿ فإنْ لمْ يستَجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلاَّ هو ﴾ [3] وهذا أصل دعوته ، وهو الشهادة بأن محمداً رسول الله .

وقال تعالى : ﴿ فإنْ لَمْ يستجيبوا لكُمْ فاعلموا أنما أُنْزِلَ بعِلْمِ الله ﴾ كما قال : ﴿ لكن الله يشهدُ بما أنزل إليكَ أنزلهُ بعلْمِهِ والملائكةُ يشهدونَ وكفى بالله شهيداً ﴾ [4] أي هو يعلم أنه منزل ، لا يعلم أنه مفترى كما قال : ﴿ وَمَا كانَ هٰذا القرآنُ أنْ يُفترى من دون الله ﴾ أي ما كان لأن يفتري ، يقول : ما كان ليفعل هذا ، فلم ينف مجرد فعله ، بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه ، فيكون المعنى : ما يمكن ، ولا يحتمل ، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله ، فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق ، والمخلوق لا يقدر على ذلك ، وهذا التحدي كان بمكة ، فإن هذه السور مكية ، سور يونس ، وهود ، والطور .

تحدي اهل المدينة

ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة ، فقال في « البقرة » وهي سورة مدنية ﴿ وإنْ كنتمْ في رَيْبٍ مما نزلنا عَلَى عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دونِ الله إنْ كنتُمْ صادقينَ ﴾[5] ثم قال : ﴿ فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتَّقوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحجارةُ أعدَّتْ للكَافرينَ ﴾[6] فذكر أمرين .

---

(١) سورة هود الآية ١٣ .

(٢) سورة يونس الآية (٣٧ ـ ٣٤) .

(٣) سورة هود الآية ١٤ .

(٤) سورة النساء الآية ١٦٦ .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٤) .

أحدهما : قوله﴿فإنْ لم تَفْعَلُوا ولَنْ تفعلُوا فاتَّقـوا النَّارَ﴾ يقـول : إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق ، فخافوا الله أن تكذبوه ، فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين ، هذا دعـاء الى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة ، وهو جدالهم بالتي هي أحسن .

والثاني : قوله « ولن تفعلوا » و«لن » لنفي المستقبل ، فثبت بالخبر أنهم فيـما يستقبل من الزمان ، لا يأتون بسورة من مثله ، كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول في سورة «سبحان » وهي سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبـر المتواتـر ، وذكر فيهـا من مخاطبة للكفار بمكة ، ما يبين ذلك بقوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أَنْ على أَنْ يأتُوا بمثـل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً ﴾[1] فعم بأمره له ان يخبر بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم ، قاطعا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم ، لاً يأتون بمثل هذا القرآن ، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك ، وهذا التحدي والدعاء ، هو لجميع الخلق ، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن . وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ، ومن حين بعث ، والى اليوم ، الأمر على ذلك ، مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث ، ولما بعث إنما تبعه قليل .

وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله ، مجتهدين بكل طريق يمكن .

تارة يذهبون الى أهل الكتـاب فيسألـونهم عن أمور من الغيب ، حتى يسـألوه عنهـا ، كما سألوه عن قصة يوسف ، وأهل الكهف ، وذي القرنين كما تقدم .

وتارة يجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولـونه فيـه ، وصاروا يضـربون لـه الأمثال ، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما ، مع ظهور الفرق .

فتارة يقولون : مجنون . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : شاعر . الى أمثال ذلك من الأقوال ، التي يعلمونها ، هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه .

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضـة ، مرة بعـد مرة . وهي تبـطل دعوتـه ، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها ، لفعلوها ، فانه ـ مع وجود هذا الداعي التام المؤكـد ـ إذا كانت القـدرة حاصلة ، وجب وجود المقدور ، ثم هكذا القول في سائر اهل الأرض .

فهذا القدر ، يوجب علماً بيناً لكل أحد يعجز عن جميع أهل الأرض ، عن أن يأتـوا بمثل هذا القرآن ، بحيلة وبغير حيلة ، وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كإحياء الموتى ، فـإن هذا لم يأت أحد بنظيره .

---

(١) سورة الأسراء الآية ٨٨.

وجه إعجاز القرآن

وكون القرآن أنه معجزة ، ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط .

بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أمر بها ، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته ، وغير ذلك .

ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي . وعن الغيب المستقبل .

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد صرَّفنا في هَذا القرآنَ للنَّاسِ مِنْ كلِّ مَثَلٍ وكَانَ الإنسانُ أكثَر شيءٍ جَدَلاً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ولقد صرَّفنا للنَّاسِ في هَذا القرآنَ مِنْ كلِّ مَثَلٍ فَأَبىٰ أكْثَرَ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً ﴾ (٢) وقال : ﴿ ولقد ضربَنا للنَّاسِ في هَذا القرآنَ مِنْ كلِّ مَثَلٍ لعلَّهُمْ يتذكَّرونَ . قرآناً عربياً غير ذي عوجٍ لعلَّهم يتَّقونَ ﴾ (٣) .

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن ، هو حجة على إعجازه ولا يناقض ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة ، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام ، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ، مثل قوله تعالى لزكريا : ﴿ آيتكَ ألاَّ تكلِمَ النَّاسَ ثلاثَ ليالٍ سوياً ﴾ (٤) فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل ، وهو أنه اذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم ـ جميعهم ـ عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة الى المعارضة ـ من أبلغ الآيات الخارقة للعادات ، بمنزلة من يقول : اني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم ، وأضربهم جميعهم ، وأجوعهم ، وهم قادرون على أن يشكوا الى الله ، أو الى ولي الأمر ، وليس فيهم ـ مع ذلك ـ من يشتكي ، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة .

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٤ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٩ .

(٣) سورة الزمر الآية (٢٧ ـ ٢٨) .

(٤) سورة مريم الآية ١٠ .

ولو قدر أن واحداً صنف كتاباً ، يقدر أمثاله على تصنيف مثله ، أو قال شعراً ، يقدر أن يقولوا مثله ، وتحداهم كلهم ، فقال : عارضوني ، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار ، مأواكم النار ، ودماؤكم لي حلال ، امتنع في العادة ان لا يعارضه أحد .

فإذا لم يعارضوه ، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة .

والذي جاء بالقرآن ، قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعاً ، ومن آمن بي ، دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بي ، دخل النار ، وقد أبيح لي قتل رجالهم وسبي ذراريهم ، وغنيمة أموالهم ، ووجب عليهم ـ كلهم ـ طاعتي ومن لم يطعني ، كان من أشقى الخلق ، ومن آياتي هذا القرآن ، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتي بمثله .

فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين .

فإن كانوا قادرين ، ولم يعارضوه ، بل صرف الله دواعي قلوبهم ، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم ، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه ، فان سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل : معجزتي أنكم كلكم لا يقدر احد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب ، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد . فهذا من أبلغ الخوارق .

وإن كانوا عاجزين ، ثبت أنه خارق للعادة ، فثبت كونه خارقاً للعادة على تقدير النقيضين ، النفي و الإثبات ، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر .

فهذا غاية التنزيل ، وإلا فالصواب المقطوع به ، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته ، لا يقدرون على ذلك ، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه ، على أن يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه ، لكل من له أدنى تدبر ، كما قد أخبر في قوله : ﴿ قل لئِنْ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يأتُوا بمثل هَـذَا القرآنَ لا يأْتُونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضهُمْ لبعضٍ ظَهيراً ﴾[1] .

وأيضاً فالناس يجدون دواعيهم الى المعارضة حاصلة ، ولكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ، ولو كانوا قادرين لعارضوه .

وقد انتدب غير واحد لمعارضته ، لكن جاء بكلام فضح به نفسه ، وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الاتيان بمثله ، مثل قرآن مسيلمة الكذاب ، كقوله « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء ، وذنبك في الطين » .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

وكذلك أيضاً يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه ، فلا يجدون انفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له ، أنه كان قصده أن يصدقه الناس لا يكذبوه ، وكان ـ مع ذلك ـ من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به ، ينال مقصوده ، سواء قيل : أنه صادق أو كاذب ، فإن من دعا الناس الى مثل هذا الأمر العظيم ، ولم يزل حتى استجابوا له طوعاً وكرهاً ، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار ، هو من عظماء الرجال على أي حال كان . فإقدامه ـ مع هذا القصد ـ في أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبراً، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، لا في ذلك العصر ، ولا في سائر الأعصار المتأخرة ، لا يكون إلا مع جزمه بذلك ، وتيقنه له ، وإلا ، فمع الشك والظن، لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح ، فيرجع الناس عن تصديقه .

وإذا كان جازماً بذلك ، متيقناً له ، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك .

وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الانسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه ، إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر .

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً ، فإنا نعلم ذلك ، وإن لم يكن علمنا بذلك خارقاً للعادة ، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم ، وإلا كان العلم جهلاً ، فثبت انه ـ على كل تقدير ـ يستلزم كونه خارقاً للعادة .

ولو قال مفتر : بل أنا أقول الذي أخبر بهذه الغيوب وأتى بهذه العجائب ، كان جاهلاً أخرق ، ولا يدري ما يقول .

وقيل له فهذا أبلغ في الإعجاز . وخرق العادة أن يكون مجنوناً ، قد أتى بهذه الغيوب والعجائب التي لا يقدر عليها أحد من العقلاء ولا المجانين .

(الدليل التفصيلي)[1]

وأما التفصيل ، فيقال : نفس نظم القرآن وأسلوبه ، عجيب بديع ، ليس من جنس اساليب الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب ، فإنه ليس من جنس الشعر ، ولا الرجز ، ولا الرسائل ، ولا الخطابة ، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس ، عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا ، عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام

(١) انظر الدليل الاجمالي أول هذه المقدمة .

جميع الخلق ، وبسط هذا وتفصيله طويل ، يعرفه من له نظر وتدبر .

ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ، أمر عجيب خارق للعادة ، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر ، لا نبي ولا غير نبي .

وكذلك ما أخبر به عن الملائكة ، والعرش ، والكرسي ، والجن ، وخلق آدم وغير ذلك ، ونفس ما أمر به القرآن ، من الدين ، والشرائع كذلك ، ونفس ما أخبر به من الأمثال ، وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك .

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية ، والخلقية ، والسياسية ، وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية ، التوارة ، والانجيل ، والزبور ، وصحف الأنبياء ، تفاوتاً عظيماً ، ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت ، أعظم مما بين لفظه ونظمه ، وبين سائر الفاظ العرب ونظمهم .

فالإعجاز في معناه ، أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه ، وجميع عقلاء - بني آدم - عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه ، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه .

وما في التوراة والانجيل ، لو قدر أنه مثل القرآن ، لا يقدح في المقصود ، فإن تلك كتب الله أيضاً ، ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي ، كما أتى المسيح بإحياء الموتى ، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره ، فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن ، لا في الحقيقة ، ولا في الكيفية ولا في الكمية ؟! بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن ، وتدبر الكتب .

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ، ظهر له إعجازه من هذا الوجه .

ومن لم يظهر له ذلك ، اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله ، كعجز جميع الخلق عن الاتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم ، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد .

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية ، فيها الظاهر البين لكل أحد ، كالحوادث المشهودة ، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر وغير ذلك . وفيها ما يختص به من عرفه ، مثل دقائق التشريح ، ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك ، فإن الخلق كلهم محتاجون الى الاقرار بالخالق ، والأقرار برسله ، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا ، فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً .

فلما كانت حاجتهم الى التنفس اكثر من حاجتهم الى الماء ، وحاجتهم الى الماء أكثر من حاجتهم الى الأكل ، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً في كل زمان ومكان ، لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر ، لأن الحاجة اليه أشد .

فكذلك دلائل الربوبية ، حاجة الخلق اليها في دينهم أشد الحاجات ، ثم دلائل النبوة .

فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج اليه العامة ، مثل تماثل الأجسام واختلافها ، وبقاء الأعراض أو فنائها ، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه ، ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده ، ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء .

فصل

وسيرة الرسول ﷺ ، من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله . وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حيث بعث الى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده ، وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً : من صميم سلالة ابراهيم ، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبي من بعد إبراهيم الا من ذريته ، وجعل له ابنين : أسماعيل واسحاق وذكر في التوراة هذا وهذا ، وبشر في التوراة بما يكون من ولد اسماعيل ، ولم يكن في ولد اسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره ، ودعا ابراهيم لذرية اسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم ، ثم من قريش صفوة بني ابراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة قريش ، ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذي بناه ابراهيم ؛ ودعا الناس الى حجه ، ولم يزل محجوجاً من عهد ابراهيم ، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف .

وكان من اكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ، ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ، وممن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شيء يعاب به ، لا في أقواله ، ولا في أفعاله ، ولا في أخلاقه ، ولا جرت عليه كذبة قط ، ولا ظلم ، ولا فاحشة ، وكان خلقه، وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمياً من قوم أميين ، لا يعرف ، لا هو ، ولا هم ، ما يعرفه أهل الكتاب ، التوراة والانجيل ، ولم يقرأ شيئاً عن علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدع نبوة الى أن أكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر ، لم يكن في بلده وقومه ، من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ، ولا في عصر من الأعصار ، من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ، ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ، ولا من دعا الى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره .

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء ، وهم ضعفاء الناس ، وكذبه أهل الرياسة وعادوه وسعوا في

هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق ، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم .

والذين اتبعوه ، لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة ، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ، ولا جهات يوليهم إياها ، ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه .

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى ، وهم صابرون محتسبون ، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم ، فتجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج اليهم يبلغهم الرسالة ، ويدعوهم الى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذب ، وجفاء الجافي وإعراض المعرض الى أن اجتمع بأهل يثرب ، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم ، وعرفوه ، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر ، الذي تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإن امره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة ، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه الى بلدهم ، وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه الى المدينة ، وبها المهاجرون والأنصار ، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة ، الا قليلاً من الأنصار اسلموا في الظاهر ، ثم حسن إسلام بعضهم ، ثم أذِنَ له في الجهاد ، ثم أمِرَ به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل ، والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد ، مع اختلاف الأحوال عليه ، من حرب ، وسلم وأمنٍ ، وخوف ، وغنى ، وفقر ، وقلة ، وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه ، وهو ـ على ذلك كله ـ ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهان ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم ، وأعدلهم ، وأفضلهم .

حتى إن النصارى لما رأوهم ـ حين قدموا الشام ـ قالوا : ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين .

وهو ﷺ ـ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال ـ مات ﷺ ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً لهَ إلا بغلته وسلاحه ، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير ، ابتاعها لأهله .

وكان بيده عقار ينفق منه على أهله ، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين ، فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك .

وهو ، في كل وقت ، يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء ، حتى أكمل الله دينه الذي بعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء فقيل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقيل : ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات ، فلم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع غيره ، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره . وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر في التوراة ، والانجيل ، والزبور ، نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر ، إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب .

فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب الى الفضائل وترغيب في الحسنات ، الا وقد جاء به وبما هو أحسن منه .

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها ، وعبادات غيره من الأمم ، ظهر فضلها ورجحاتها ، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع .

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ، ظهر أنهم أَدْيَنُ من غيرهم .

وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله ، وصبرهم على المكاره في ذات الله ، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً .

وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم ، وسماحة انفسهم بغيرهم ، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم .

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء بتكميله ، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة .

فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزبور ، وبعضها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم ، حتى أدخلوا - لما غيروا دين المسيح - في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ ، فلم يكونوا قبله يقرءون كتاباً ، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى

وداود ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل ، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به : ﴿ قُولُوا آمنَّا بالله وما أُنْزِلَ الينا وما أُنْزل الى إبراهيمَ وَإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النّبيونَ مِنْ ربّهم لا نفرّقُ بينَ أحدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مسلمونَ ﴿ فإنْ آمنُوا بمثلِ ما آمنتُمْ به فقدِ اهتدَوا وإنْ تَوَلَّوا فإنّما هُمْ في شقاقٍ فيسيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّميعُ العليمُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿آمن الرَّسولُ بما أُنْزِل إليهِ من ربّهِ والمؤمنُونُ كلٌّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسلِهِ لا نفرقُ بينَ أحدٍ من رُسلهِ وقالوا سَمِعْنا وأطعْنَا غُفرانكَ ربَّنَا واليك المصيرُ ﴿ لا يُكلِّف الله نفساً إلا وُسعهَا لها ما كسبتْ وَعَلَيها ما اكتسبتْ ربَّنَا لا تواخِذْنَا إن نسينَا أو أخطأنَا ربَّنا ولا تَحْمِل علينَا إصراً كما حملته علىٰ الّذينَ من قبلنَا ربَّنَا ولا تُحمِّلنا ما لا طَاقَة لنا بهِ واعفُ عَنَّا واغفِرْ لَنَا وارحمنَا أنتَ مولانَا فانصُرنَا علىٰ القَوْمِ الكافِرينَ ﴾[2] .

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به ، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله .

لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم واعتبروا به ، وما حدثهم به أهل الكتاب ، موافقاً لما عندهم ، صدقوه ، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه ، أمسكوا عنه ، وما عرفوا أنه باطل ، كذبوه ، ومن أدخل في الدين ما ليس منه ، من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم ، كان ـ عندهم ـ من أهل الإلحاد والابتداع ، وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون ، وهو الذي عليه أئمة المسلمين الذين لهم في الأمة لسان صدق ، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم ، ومن خرج عن ذلك ، كان مذموماً مدحوراً عند الجماعة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهم الظاهرون إلى قيام الساعة ، الذين قال فيهم النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

وقد تنازع بعض المسلمين ، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموماً ، ودين محمد خصوصاً .

ومن خالف هذا الأصل كان ـ عندهم ـ ملحداً مذموماً ، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٣٦ ـ ١٣٧) .

(٢) سورة البقرة الآيات (٢٨٥ ـ ٢٨٦) .

ديناً ، قام به أكابر علمائهم وعبادهم ، وقاتل عليه ملوكهم ، وكان به جمهورهم ، وهو دين مبتدع ، ليس هو دين المسيح ، ولا دين غيره من الأنبياء .

والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة .

وإنما دخل في البدع ، من قصر في اتباع الأنبياء ، علماً وعملاً .

ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، تلقى ذلك عنه المسلمون أمته .

فكل علم نافع وعمل صالح ، عليه أمة محمد ﷺ آخذوه عن نبيهم ، مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية .

ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم ، فهو من الأصل المعلم . وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً ، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقاً في قوله : «إني رسول الله إليكم جميعاً» لم يكن كاذباً مفترياً ، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم ، إن كان صادقاً ، أو هو من شر الناس وأخبثهم ، إن كان كاذباً .

وما ذكر من كمال علمه ودينه ، يناقض الشر والخبث والجهل ، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين ، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله : «إني رسول الله » لأن الذي لم يكن صادقاً ، إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئاً والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً . والثاني يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً ، وكمال علمه ينافي جهله ، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب ، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب ، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم ، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق ، ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى :

﴿ والنَّجمِ إذَا هَوىٰ * ما ضلَّ صاحبكُمْ وما غَوىٰ * وما ينطِقُ عَنِ الهَوىٰ * إنْ هُوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحىٰ ﴾[1] .

وقال تعالى عن الملك الذي جاء به :

﴿ إنَّه لقولُ رسُولٍ كريمٍ * ذي قُوَّةٍ عندَ ذي العرشِ مكينٍ * مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ ﴾ [2] .

---

(١) سورة النجم الآيات (١ ـ ٤) .

(٢) سورة التكوير الآيات (١٩ ـ ٢١) .

ثم قال عنه :

﴿ وَمَا صاحِبُكُمْ بمجنُونٍ * ولقد رَآهُ بالأُفُقِ المبينِ * وَمَـا هُوَ عَـلىٰ الغيبِ بضنينٍ ﴾[1] أي بمتهم ، أو بخيل ، كالذي لا يُعلِّم إلا بجعل أو لمن يكرمه : ﴿ وَمَا هُوَ بقولِ شيطانٍ رجيمٍ * فأينَ تذْهَبونَ * إنْ هُوَ إلا ذكرٌ للعالمين ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ * نزَلَ بهِ الرُّوحُ الأمـينُ * علىٰ قلبـكَ لتكُونَ من المنـذِرينَ * بلسانٍ عربيٍ مُبينٍ ﴾[3] إلى قوله : ﴿ هَلْ أنبئُكُمْ علىٰ مَنْ تنزَّلُ الشَّيـاطينُ تنـزَّل علىٰ كُـلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ يُلقُونَ السَّمعَ وأكثرهُمْ كاذِبونَ ﴾[4] . بين سبحانه ان الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصـل به غـرضه ، فـإن الشيطان يقصـد الشر (وهـو الكذب والفجـور) لا يقصـد الصـدق والعدل ، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب وفجور ، إما عمداً وإما خطأ ، فـإن الخطأ في الـدين من الشيطان أيضاً ، كما قال ابن مسعود ـ لما سئل عن مسألة ـ: « أقول فيها برأي فـإن يكن صوابـاً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » .

فالرسول بريء من تنزُّل الشيطان عليه في العمد والخطأ ، بخلاف غير الرسـول فإنـه قد يخطىء ويكون خطؤه من الشيطان ، وإن كان خطؤه مغفوراً له ، فـإذا لم يعرف لـه خبر أخبـر به ، كان فيه مخطئاً ، ولا أمر به ، كان فيه فاجراً . علم أن الشيطان لم ينزل عليه ، وإنمـا ينزل عليه ملكٌ كريم ، ولهـذا قال في الآيـة الاخرى عن النبي : ﴿ إنَّـه لقولُ رسـولٍ كريمٍ ﴾ إلى آخر الآية .

(١) سورة التكوير الآيات (٢٢ ـ ٢٤) .

(٢) سورة التكوير الآيات (٢٥ ـ ٢٧) .

(٣) سورة الشعراء الآيات (١٩١ ـ ١٩٥) .

(٤) سورة الشعراء الآيات (٢٢١ ـ ٢٢٣) .

مقدمة سابعة
في ترجمة القرآن

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

الترجمة والتفسير ثلاث طبقات :

أحدها : ترجمة مجرد اللفظ . مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء . فهذا علم نافع . إذ كثير من الناس يقيد المعنى باللفظ فلا يجرده عن اللفظين جميعاً .

والثاني : ترجمة المعنى وبيانه ، بأن يصور المعنى للمخاطب فتصوير المعنى له وتفهيمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ ، كما يشرح للعربي كتاباً عربياً قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها ، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركب صوَّر ذلك المعنى إما تحديداً وإما تقريباً .

الدرجة الثالثة : بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى إما بدليل مجرد ، وإما بدليل يبين علة وجوده .

وهنا قد يُحتاج الى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى ، كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور له ذلك المعنى ، وقد يكون نفس تصوره مفيداً للعلم بصدقه . وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتج الى قياس ومثل ودليل آخر .

فإذا عرف القرآن هذه المعرفة فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركين لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً ، وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل

---

(١) أنظر رأي ابن تيمية في جواز ترجمة القرآن في نقض المنطق ص ٩٧ ـ ٩٩ .

شيء كما قال تعالى ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفتَرَىٰ ولَكِنَ تصدِيقَ الَّذي بينَ يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ ﴾ [١] وقال : ﴿ ونزَّلنا عليكَ الكتابَ تِبياناً لكُلِّ شيءٍ ﴾ [٢] . ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول ، ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك . وأن تبليغه الى العجم قد يحتاج الى ترجمته لهم ، فيترجم لهم بحسب الإمكان ، والترجمة قد تحتاج الى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة .

﴿ هل يترجم القرآن في الصلاة ؟ ﴾

وقد اختلف الفقهاء في أذكار الصلاة : هل تقال بغير العربية .؟ وهي[٣] ثلاث درجات ، أعلاها القرآن [٤] . ثم الذكر الواجب غير القرآن . كالتحريمة بالإجماع . وكالتحليل . والتشهد عند من أوجبه [٥] .

ثم الذكر الواجب من دعاء وتسبيح أو تكبير وغير ذلك .

فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية (في الصلاة)[٦] سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور . وهو الصواب الذي لا ريب فيه . بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الاعجاز.

واختلف أبو حنيفة وأصحابه في القادر على العربية . وأما الأذكار الواجبة فاختلف في منع ترجمة القرآن ، هل تترجم للعاجز عن العربية وعن تعلمها .؟ وفيه لأصحاب أحمد وجهان . أشبههما بكلام أحمد أنه لا يترجم وهو قول مالك أو إسحق .

والثاني : يترجم ، وهو قول أبي يوسف ومحمد والشافعي .

وأما سائر الأذكار ، فالمنصوص من الوجهين أنه لا يترجمها . ومتى فعل بطلت صلاته . وهو قول مالك وإسحق وبعض أصحاب الشافعي . والمنصوص عن الشافعي أنه يكره ذلك بغير العربية ولا يبطل .

ومن أصحابنا من قال : له ذلك إذا لم يحسن العربية[٧] .

---

(١) سورة يوسف الآية ١١١.

(٢) سورة النحل الآية ٨٩.

(٣) الضمير يرجع الى اذكار الصلاة .

(٤) كقراءة الفاتحة والآية .

(٥) كما في المذهب الشافعي .

(٦) ما بين القوسين زيادة لتوضيح المعنى .

(٧) انظر رأي ابن تيمية في ترجمة القرآن في الصلاة بالتفصيل في : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٢٠٠ - ٢٠٧.

فصــــل (١)

في معنى الصراط المستقيم

الصراط في لغة العرب : هو الطريق . يقال : هو الطريق الواضح .

ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه . ومنه الصراط المنصوب على جهنم ، وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون الى الجنة ، وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم .

ويقال : فيه معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه . وفيه ثلاث لغات هي ثلاث قراءات : الصراط ، والسراط ، والزراط ، وهي لغة عربية عرباء ليست من المعرب ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا (٢) .

ويقال : أصله من سرطت الشيء أسرطه سرطاً إذا ابتلعته ، واسترطته ابتلعته ، فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود .

ومن أمثال العرب : لا تكن حلواً فتسترط ولا مراً فتعفى . من قولهم (عفت) الشيء إذا أزلته من فيك لمرارته .

ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين .

وحكى عن يعقوب بن السكيت . الأخذ سريط ، والقضاء صرايط ، والسرطاط الفالوذج ، لأنه يسترط استراطاً . وسيف سراطي أي قاطع فانه ماضٍ سريع المذهب في مضربه .

فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه الى مطلوبه بسرعة . وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع، ولم يسم الله سبيل الشيطان سراطاً بل سماها سبلاً ، وخص طريقه باسم الصراط ، كقوله تعالى ﴿ وأَنَّ هَذَا صِراطي مُستقيماً فاتَّبعُوهُ ولا تتَّبِعُوا السُّبُل فتفرَّق بكُمْ عَنْ سبيله ﴾ (٣) .

وفي السند عن عبد الله بن مسعود قال : « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ،

---

(١) هذا الفصل ناقص من نسخة : س .

(٢) الضمير في زعموا يعود الى النصارى : لزعمهم أنهم المعنيون بقوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم . انظر رأي ابن تيمية في ذلك في الجواب الصحيح ٢/٨٢ وبعدها .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٣ .

وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ، من أجابه قذفه في النار ، ثم قرأ﴿وأن صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. فسمى سبحانه طريقه صراطاً ، وسمى تلك سبلا ولم يسمها صراطاً . كما سماها سبيلاً ، وطريقه يسميه سبيلاً كما يسميه صراطاً .

وقال تعالى عن موسى وهارون ﴿ وآتيناهُمَا الكِتَابَ المستبينَ . وَهَدينَاهُمَا الصِّراطَ المستقيمَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إنَّا فتحنَا لَكَ فَتحاً مُبيناً . ليغفرَ لكَ الله ما تقدَّمَ من ذنبكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتمَّ نعمتهُ عليكَ ويهدِيَكَ صراطاً مُستقيماً . وينصُرَكَ الله نَصراً عَزيزاً ﴾[2] .

وهذه الهداية الخاصة التي أعطاه إياها[3] بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم ، فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ويزيده الله هدى بعد هدى . وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ .

كما قال تعالى : ﴿ إنَّ هَذَا القرآنَ يهدِي للَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[4] .

---

(١) سورة الصافات الآيات (١١٧ ـ ١١٨) .

(٢) سورة الفتح الآيات (١ ـ ٣) .

(٣) الضمير في : اعطاه يعود الى الرسول ﷺ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

قال شيخ ا لاسلام

قدس الله روحه ونور ضريحه

فصل

أسماء القرآن وصفاته

القرآن ، الفرقان ، الكتاب ، الهدى ، النور ، الشفاء ، البيان ، الموعظة ، الرحمة ، بصائر ، البلاغ ، الكريم ، المجيد ، العزيز ، المبارك ، التنزيل ، المنزل ، الصراط المستقيم ، حبل الله ، الذكر ، الذكرى ، تذكرة ﴿ وإنه لتذكرةٌ للمتقينَ ﴾ ، ﴿ إنه تذكرة فمن شاءَ ذكرهُ ﴾ و ﴿مصَّدِقٌ لما بينَ يديهَ ﴾ و ﴿تصديقُ الَّذي بينَ يديهِ ﴾ المهيمن عليه ، ﴿ تفصيلُ كلّ شيءٍ ﴾ ، ﴿ تبياناً لكلِّ شيءٍ ﴾ ، المتشابه ، المثاني ، الحكيم ﴿ تلكَ آياتُ الكتابِ الحكيمِ ﴾ محكم ، المفصل ﴿ وهو الَّذي أنزلَ إليكم الكتابَ مفَّصلاً ﴾ ، البرهان ، ﴿ قد جاءَكم برهانٌ من ربّكم وأنزلنا اليكم نُوراً مبيناً ﴾ على أحد القولين ، الحق ﴿ قد جاءَكم الحقّ من ربِكم ﴾ ، عربي مبين ، أحسن الحديث ، أحسن القصص على قول ، كلام الله ﴿ فاجرهْ حتى يسمعَ كلامَ الله ﴾ ، العلم ، ﴿ فمنْ حاجَّك فيه من بعدِ ما جاءَك من العلمِ ﴾ ، العلي الحكيم ﴿ وإنه في أم الكتابِ لدينَا لعلي حكيم ﴾ ، القيم ، ﴿ يتلُو صحفاً مطهرةً فيها كتبٌ قيمةٌ ﴾ ، ﴿ أنزل على عبدهِ الكتابَ ولم يجعلْ لهُ عِوجاً قيماً ﴾ ، وحي في قوله : ﴿ إن هُوَ إلا وحيٌ يوحىٰ ﴾ ، حكمة في قوله : ﴿ ولقد جاءَهُمْ مِنَ الانباء ما فيه مزدجرٌ حكمَةٌ بالَغةٌ ﴾ ، وحكماً في قوله : ﴿ أنزلناهُ حكماً عربياً ﴾ ونبأ على قول في قوله : ﴿ عن النبأ العظيمِ ﴾ ، ونذير على قول ﴿ هذا نذيرٌ من النُّذرِ الأولى ﴾ في حديث أبي موسى شافعاً مشفعاً وشاهداً مصدقاً ، وسماه النبي ﷺ « حجة لك أو عليك » وفي حديث الحارث عن علي « عصمة لمن استمسك به » .

وأما وصفه بأنه يقص وينطق ويحكم ويفتي ويبشر ويهدي فقال : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يقصُّ على بني إسرائيل ﴾ ، ﴿ هذَا كِتابنا ينطقُ عليكم ﴾ ، ﴿ قل الله يفتيكم فيهنَّ وما يتلىٰ عليكم في الكتابِ ﴾ أي يفتيكم ، أيضاً ﴿ إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقومُ ، ويبشر المؤمنين الَّذين يعملون ﴾ .

فصــــل

في الآيات الدالة على اتباع القرآن

قوله : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ فانه في التفسير المرفوع عن النبي ﷺ كتاب الله (١) .

وسئل رحمه الله

عن أحاديث هل هي صحيحة وهل رواها أحد من المعتبرين باسناد صحيح ؟ الخ .

فقال :

فصــــل

وأما حديث فاتحة الكتاب فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ما سأل ؛ فإذا قال العبد : ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ . قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرَّحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ . قال الله : مجدني عبدي . وإذا قال : ﴿ إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نستعينُ ﴾ قال : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ إهدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ ، صِرَاطَ الَّذينَ أنعمت عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالينَ ﴾ قال : « هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » (٢) .

وثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس قال : « بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، ولم ينزل قط الا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحه الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » وفي بعض الأحاديث : « إن فاتحة الكتاب أعطيها من كنز تحت العرش » .

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) سيأتي تحقيق الحديث في مكان آخر من سورة الفاتحة .

[تفسير سورة الفاتحة]

فصل

(في إياك نعبد وإياك نستعين)

قال الله تعالى في أم القرآن والسبع المثاني والقرآن العظيم ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وهذه السورة هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع من[1] المثاني والقرآن العظيم ، وهي الشافية ، وهي الواجبة في الصلوات لا صلاة إلا بها ، وهي الكافية تكفى من غيرها ، ولا يكفى غيرها عنها .

والصلاة أفضل الأعمال ، وهي مؤلفة من كلم طيب ، وعمل صالح[2] فأفضل[3] كلمها الطيب وأوجبه أم القرآن[4] ، وأفضل عملها الصالح وأوجبه السجود ، وكما جمع بين الأمرين في اول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها [بقوله تعالى][5] ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ الَّذي خلقَ ﴾[6] وختمها بقوله ﴿ واسجد واقترب ﴾ فوضعت الصلاة على ذلك ، أولها القراءة ، وآخرها السجود ، ولهذا قال سبحانه في صلاة الخوف ﴿ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ﴾[7] والمراد بالسجود الركعة التي يفعلونها وحدهم بعد مفارقتهم للإمام ، وما قبل القراءة من تكبير واستفتاح واستعاذة هي تحريم للصلاة ومقدمة لما بعده ، أول ما يبدأ به كالتقدمة ، وما يفعل بعد السجود من قعود وتشهد ، فيه التحية لله والسلام على عباده الصالحين ، والدعاء والسلام على الحاضرين[8] ، فهو تحليل للصلاة ومعقبة لما قبله ، قال النبي ﷺ « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم »[9] ولهذا لما تنازع الناس[10] أيما أفضل : كثرة الركوع والسجود أو طول القيام . أو هما سواء ؟ على ثلاثة أقوال عن أحمد وغيره ، كان الصحيح أنهما سواء ، القيام فيه أفضل الأذكار ، والسجود أفضل

---

(١) من : ناقصة من : س .

(٢) في الأصل : صالحاً . وهو خطأ واضح .

(٣) في س : أفضل .

(٤) أم القرآن : في س : القرآن .

(٥) بقوله تعالى : زيادة في . س .

(٦) سورة العلق الآية : ١ .

(٧) سورة النساء الآية : ١٠٢ .

(٨) في د: المخاطبين .

(٩) ورد الحديث في: أبي داود ١/١٦ (كتاب الطهارة . باب فرض الوضوء) حديث رقم ٦١ ، الدارمي ١ ـ ١٧٥ (كتاب الوضوء ، باب مفتاح الصلاة الطهور) ، ابن حنبل ١ ـ ١٢٣ .

(١٠) في س : العلماء .

الأعمال ، فاعتدلا ، ولهذا كانت صلاة رسول الله ﷺ معتدلة ، يجعل الأركان قريباً من السواء وإذا أطال القيام طولاً كثيراً كما كان يفعل في قيام الليل وصلاة الكسوف أطال معه الركوع والسجود ، وإذا اقتصد فيه اقتصد في الركوع والسجود .

(فضل فاتحة الكتاب)

وأم الكتاب كما أنها القراءة الواجبة فهي أفضل سورة في القرآن ، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لم ينزل في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »[1] وفضائلها كثيرة جداً ، وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري ، رواه ابن ماجه وغيره ، أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع علمها في الأربعة ، وجمع علم الأربعة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصَّل ، وجمع علم المفصَّل في أم القرآن ، وجمع علم أم القرآن في هاتين الكلمتين ، « إياك نعبد وإياك نستعين » . وأن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع في هاتين الكلمتين ﴿ الجامعتين ﴾[2] ولهذا ثبت في الحديث الصحيح ، حديث قسمة الصلاة[3] أن الله تعالى يقول : « قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين نصفها لي ، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال

---

(١) ورد هذ الحديث بروايات مختلفة ومن طرق عدة ، ونصه كما في رواية أبي هريرة كما أوردها المنذري في الترغيب والترهيب ٥٦/٣ (كتاب قراءة القرآن ، باب ما ورد في أن اعظم سورة في القرآن الفاتحة) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أُبي بن كعب ، فقال : يا أبي ـ وهو يصلي ـ فالتفت أبي فلم يجبه ، وصلى أبي فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . السلام عليك يا رسول .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ما منعك يا أبي أن تجيبني إذا دعوتك ؟ .

فقال : يا رسول الله إني كنت في الصلاة .

قال : فلم تجد فيما أوحي الله الى أن « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » ؟

قال : بلى . ولا أعود ان شاء الله .

قال : أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الفرقان مثلها ؟

قال : نعم يا رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تقرأ في الصلاة ؟

قال : فقرأ أم القرآن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي اوتيته » .

قال المنذري : رواه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح ، ورواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم باختصار عن أبي هريرة عن أبي . وقال الحاكم. صحيح على شرط مسلم .

(٢) الجامعتين : زيادة في : س .

(٣) قسمة الصلاةض: ناقصة من : س .

الله سبحانه وتعالى[1] : حمدني عبدي وإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله عز وجل : مجدني ، (وفي رواية فوض الى عبدي) وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، قال : فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل »[2] فقد ثبت بهذا النص أن السورة قسمة[3] بين الله وبين عبده وأن هاتين الكلمتين مقتسم[4] السورة فإياك نعبد مع ﴿ما﴾ قبله لله[5] وإياك نستعين مع ما بعده للعبد وله ما سأل . ولهذا قال من قال من السلف : نصفها ثناء ونصفها مسألة .

وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء ، وإذا كان قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في صلاة ، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ، إذ إيجاب القبول الذي هو إقرار[6] واعتراف ودعاء وسؤال هو إيجاب لمعناه ، ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له ، فإن هذا لا يجوز أن يقع بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة والاستعانة ، فإن ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب ، أو القلب والبدن ، بل أوجب دعاء الله عز وجل ومناجاته وتكليمه ومخاطبته بذلك ، ليكون الواجب من ذلك كاملاً صورة ومعنى . بالقلب وسائر الجسد .

وقد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً في مواضع ، كقوله في آخر سورة هود ﴿ فاعبدهُ وتوكّل عليهِ ﴾[7] وقول العبد الصالح شعيب ﴿وما توفيقى إلا باللهِ عليه توكلت وإليهِ أُنيب ﴾[8] ، وقول إبراهيم والذين[9] معه ﴿ ربَّنا عليكَ توكلنَا وإليكَ أَنبنَا وإليك المصير ﴾[10] وقوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه

---

(١) سبحانه وتعالى : ناقصة من . س .

(٢) ورد الحديث في مسلم ٢/٩ - ١٠ (كتاب الصلاة . باب وجوب قراءة الفاتحة) ، أبي داود ١/٢١٧ (كتاب الصلاة . باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب) حديث رقم ٨٢١ ، ابن ماجه ٢/١٢٤٣ (كتاب الأدب باب ثواب القرآن) حديث رقم ٣٧٨٤ . وجاء في الترغيب للمنذري ٣/٢٨ (كتاب قراءة القرآن . ما ورد أن اعظم سورة في القرآن الفاتحة) .

(٣) في س : منقسمة .

(٤) في د . مقسم .

(٥) في د : مع قبله له .

(٦) في د : اقرأ .

(٧) سورة هود : ١٢٣

(٨) سورة هود . ٨٨ .

(٩) في الأصل : الذي معه . وفي الآية الكريمة « والذين معه » الخ الآية .

(١٠) سورة الممتحنة : ٤ .

متاب﴾[1] فأمر نبيه بأن يقول على الرحمن توكلت وإليه متاب ، كما أمر بهما[2] في قوله : فاعبده وتوكل عليه . والأمر له أمر لأمته ، وأمره بذلك في أم القرآن وفي غيرها لأمته ليكون فعلهم[3] ذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره لا تقدماً[4] بين يدي الله ورسوله ، ولهذا كان عامة ما يفعله نبينا ﷺ والخالصون من أمته من الأدعية والعبادات وغيرها ، إنما هو بأمر من الله ، بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به وإن كان حسناً أو عفواً ، وهذا أحد الأسباب الموجبة لفضله وفضل أمته على من سواهم ، وفضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ما جاء به وبغيره ، كالمنحرفين عن الصراط المستقيم ، وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عبادته وأذكاره ومناجاته مثل قوله في الأضحية « اللهم هذا[5] منك ولك[6] وإليك[7] » ، فإن قوله منك هو معنى التوكل والاستعانة ، وقوله لك هو معنى العبادة . ومثل قوله في قيامه من الليل « لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أعوذ بعزتك لا إله إلاّ أنت ان تضلني ، انت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون[8] » إلى أمثال ذلك .

(الإنسان بين العبادة والاستعانة)

إذا تقرر هذا الأصل ، فالإنسان في هذين الواجبين لا يخلو من أحوال أربعة هي القسمة الممكنة .

إما أن يأتي بهما[9] .

وإما أن يأتي بالعبادة فقط .

وإما أن يأتي بالاستعانة فقط .

وإما أن يتركهما جميعاً .

---

(١) سورة الرعد ٣٠ .

(٢) في د : أمر بهما .

(٣) فعلهم . ناقصة من . د .

(٤) في س . ولا يتقدموا :

(٥) هذا : ناقصة من د .

(٦) في د . واليك .

(٧) ورد الحديث في أبي داود ١٢٦٣ برواية جابر رضي الله عنه وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين ، وان مما قاله عند ذلك « اللهم منك ولك عن محمد وأمته » : وانظر أيضاً جامع الأصول ١٤٨/٤ - ١٤٩ .

(٨) ورد الحديث في : البخاري ٤٨/٢ (كتاب الصلاة . باب التهجد) ، ابي داود ٢٠٥/١ (كتاب الصلاة . باب ما يستفتح بالدعاء في الصلاة) حديث رقم ٧٧١ ، مسلم ٥٣٢/١ - ٥٣٣ (كتاب صلاة المسافرين . باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه) حديث رقم ٧٦٩ .

(٩) بهما : في د : بها .

ولهذا كان الناس في هذه الأقسام الأربعة ، بل أهل الديانات هم أهل هذه الأقسام ، وهم المقصودون هنا بالكلام .

(قسم يغلب عليه التأله)

قسم يغلب عليه قصد التأله لله ، ومتابعة الأمر والنهي ، والإخلاص لله تعالى ، واتباع الشريعة في الخضوع[١] لأوامره وزواجره وكلماته الكونيات[٢] ولكن يكون منقوصاً من جانب الاستعانة والتوكل ، فيكون إما عاجزاً وإما مفرطاً ، وهو مغلوب إما مع عدوه الباطن وإما مع عدوه الظاهر ، وربما يكثر منه الجزع مما يصيبه والحزن لما يفوته[٣] ، وهذا حال كثير ممن يعرف شريعة الله وأمره ، ويرى انه متبع للشريعة والعبادة الشرعية ولا يعرف قضاءه وقدره وهو حسن القصد طالب للحق ، ولكنه غير عارف بالسبيل الموصلة والطريق المفضية .

(قسم يغلب عليه الاستعانة والتوكل)

وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل عليه ، وإظهار الفقر والفاقة بين يديه ، والخضوع لقضائه وقدره ، وكلماته الكونيات ، ولكن يكون منقوصاً من جانب العبادة وإخلاص الدين لله ، فلا يكون مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وإن كان مقصوده ذلك فلا يكون متبعاً لشريعة الله عز وجل ومنهاجه ، بل قصده نوع سلطان في العالم ، إما سلطان قدرة وتأثير ، وإما سلطان كشف وإخبار ، أو قصده طلب ما يريده ودفع ما يكرهه بأي طريق كان ، أو مقصوده نوع عبادة وتألة بأي وجه كان ، وهمته في الاستعانة والتوكل المعينة له على مقصوده ، فيكون إما جاهلاً وإما ظالماً تاركاً لبعض ما أمره الله ، راكباً لبعض ما نهى الله عنه ، وهذه حال كثير ممن يتأله ويتصوّف ويتفقر ويشهد قدر الله وقضاءه ، ولا يشهد أمر الله ونهيه ، ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها اليه وإقامته لها ، ولا يشهد ما أمر به وما نهى عنه ، وما الذي يحبه منه ويرضاه وما الذي يكرهه منه ويسخطه ، وما الذي نهاه الله عنه[٤] ، ولهذا يكثر في هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة ، مع انحلال عن بعض الشريعة ومخالفة لبعض الأمر ، وإذا أوغل الرجل منهم دخل في الإباحة[٥] والانحلال ، وربما صعد الى فساد التوحيد، فيخرج الى الاتحاد[٦] والحلول المقيد ، كما قد وقع[٧] لكثير من الشيوخ . ويوجد في كلام

---

(١) في د : والخضوع .

(٢) في د : الدينيات.

(٣) في د . يعوقه .

(٤) وما الذي نهاه الله عنه : ناقصة من س .

(٥) في س : الإباحية .

(٦) في د : الإباحة .

(٧) قد وقع : في د . وقع .

صاحب منازل السائرين[٥] وغيره ما يفضي الى ذلك ، وقد يدخل بعضهم في الاتحاد المطلق والقول بوحدة الوجود ، فيعتقد أن الله هو الوجود المطلق .

« كما يقول صاحب الفتوحات المكية في أولها »[١] :

الرب حق والعبد حق	يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت	أو قلت رب أنى يكلف [٢]

(قسم معرض عن الواجبين)

وقسم ثالث معرضون عن عبادة الله وعن الاستعانة به جميعاً . وهم فريقان : أهل دنيا . وأهل دين ، فأهل الدين منهم : هم[٣] أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله ، ويستعينون غير الله بظنهم وهواهم ﴿ إن يتَّبعُونَ إلا الظن وما تهوىٰ الأنفسُ ولقد جاءَهُم من رَبِهم الهدىٰ ﴾[٤] . وأهل الدنيا منهم الذين يطلبون ما يشتهونه من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب .

وأعلم أنه التفريق بين من قد يعرض عن عبادة الله والاستعانة به ، وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه .

« فصل »

(في معنى الحمد لله رب العالمين)

قال الله عزّ وجل في أول السورة ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ﴾ فبدأ بهذين الاسمين ، الله ، والرب . والله هو الاله المعبود ، فهذا الاسم أحق بالعبادة ، ولهذا يقال : الله أكبر ، الحمد لله ، سبحان الله ، لا إله إلا الله .

والرب هو المربى ، الخالق الرازق ، الناصر الهادي ، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة

---

(١) صاحب منازل السائرين هو : أبو ذر عبد أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري الهروي ، الحافظ الثقة المالكي ، أخذ الكلام عن الباقلاني ، صنف مستخرجاً على الصحيحين توفي ٤٣٤ هـ . انظر عنه : شذرات الذهب ٢٥٤/٣ ، تبيين كذب المفتري ، س ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، الاعلام ٤١/٤ .

(٢) كما . . . أولها ناقصة من د ، ويوجد مكانها كلمة ، ويقول فقط .

(٣) هذه الأبيات لمحي الدين بن عربي الصوفي والفيلسوف المعروف وهي معبرة عن مذهبه في وحدة الموجود ، انظر الفتوحات المكية ٢/١ . ط بولاق .

(٤) هم : ناقصة من : د .

(٥) سورة النجم : ٢٣ .

والمسألة ، ولهذا يقال : رب اغفر لي ولوالدي [١] . ﴿ ربَّنا ظلمنَا أَنْفُسَنَا وإن لم تغفِرْ لنَا وترحَمنا لنكوننَّ مِنَ الخاسـرينَ ﴾[٢] ، ﴿ ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفُـرْ لي﴾[٣] ﴿ ربَّنا اغفـر لنَا ذُنـوبنَا وإسرافِنَا في أَمْرِنَا ﴾[٤] ﴿ ربَّنا لا تؤاخذنَا إنْ نسينَا أو أخطأنَا ﴾[٥] ، فعامة المسـألة والاستعـانة المشروعة باسم الرب .

فـالاسم الأول يتضمن غايـة البعْد (العبـد) ومصيـره ومنتهـاه ومـا خلق لـه ، ومـا فيـه صـلاحـه وكماله ، وهو عبادة الله .

والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه ، وهو أنه يربه ويتولاه ، مـع أن الثاني يـدخل في الأول دخول الربوبية في الاهية ، والربوبية تستلزم الألوهية ايضاً .

والاسم الـرحمن يتضمن كمال التعلقـين وبوصف[٦] الحـالين فيـه تتم سعـادتـه في دنيـاه وأخراه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وهُمْ يكفرُونَ بالرَّحمنِ قلْ هُوَ ربي لا إلهَ إلاَّ هُوَ عليهِ توكَّلتُ وإليهِ متابِ ﴾[٧] ، فذكر هنا الأسماء الثلاثة ، الرحمن ، وربي ، والإله . وقال : ﴿عليه توكلت وإليه متاب﴾ ، كما ذكر الأسماء الثلاثة في أم القرآن . لكن بدأ هناك باسم الله ، ولهذا بدأ في السورة بـ﴿إياك نعبد﴾ فقدم الاسم ومـا يتعلق به من العبـادة ، لأن تلك السورة فـاتحـة الكتـاب وأم القرآن ، فقدم فيهـا المقصود الـذي هو العلة الغـائية ، فـإنها علة غائيـة للعلة الفاعليـة[٨] وقد بسطت هذا المعنى في مواضع في أول التفسير وفي « قاعدة المحبة[٩] والارادة » وفي غير ذلك .

فصـــل

(توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية)

ولما كان علم النفوس بحاجتهم ﴿ ومقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم ﴾[١٠]

---

(١) هذا من دعاء نوح عليه السلام ، ورد في سورة نوح : ٢٨ .

(٢) سورة الاعراف : ٢٣ .

(٣) سورة القصص : ١٦ .

(٤) سورة آل عمران . ١٤٧ .

(٥) دعاء آخر سورة البقرة . آية رقم ٢٨٦ .

(٦) في د : ووصف .

(٧) سورة الرعد ٣٠ .

(٨) فإنها علة غائية للعلة الفاعلية : في س فإنها علة فاعلية للعلة الغائية .

(٩) لابن تيمية قاعدة جليلة في معنى المحبة والارادة مصورة بمعهد المخطوطات العربية .

(١٠) ساقطة من د .

إلى الإله المعبود ، وقصدهم [إياه][1] لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة ، كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة [به][2] والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والانابة اليه ، ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية ، وقد أخبر عنهم أنه ﴿ لئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ليقُولُنَّ الله ﴾[3] . وأنهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه ، وقال : « إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين »[4] ، فأخبر أنهم مقرون بربوبيته وأنهم مخلصون له الدين[5] إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم ، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول اغراضهم .

وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية ، وأما الرسل فهم دعوا اليها من جهة الألوهية ، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة وأرباب الأحوال ، إنما توجههم الى الله من جهة ربوبيته ، لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون ، وهؤلاء من جنس الملوك . وقد ذم الله عز وجل في القرآن هذا الصنف كثيراً ، فتدبر هذا فإنه تنكشف به أحوال قوم يتكلمون في الحقائق ويعملون عليها[6] وهم لعمري في نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية لا في الحقائق الدينية الشرعية الإلهية ، وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة . وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به والله سبحانه أعلم[7] .

فصل[8] متصل بالذي قبله[9]

(الانسان ليس له في نفسه الا العدم)

وذلك أن الإنسان بل وجميع المخلوقات ، عباد الله تعالى فقراء ، مماليك له ، وهو ربهم

---

(١) اياه : ناقصة في الأصل ، وزيدت لحاجة السياق اليها .

(٢) به : زيادة في :س .

(٣) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

(٤) في د . واذا مسهم الضر دعواً الله مخلصين له الدين .

(٥) الجملة فأخبر . . . له الدين . ساقطة من: د .

(٦) في د . ويعلمون علها .

(٧) انظر مثلاً الرسالة التدمرية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

(٨) كتب بهامش هذه الصفحة في : د ما يلي:

« هذا الفصل الى آخره تكلم عليه الشيخ عماد الدين الواسطي رحمه الله وناقش الشيخ في مواضع أبهمت على الشيخ عماد الدين شرحها له الشيخ تقي الدين رحمة الله عليهما فاعلم هذا ، كما كتب في مقابل كلمة فصل بالهامش عبارة : بلغ مقابلة .

(٩) العبارة : متصل بالذي قبله ساقطة من: س .

ومليكهم وإلههم ، لا إله هو ، فالمخلوق[1] ليس له من نفسه شيء اصلا بل نفسه وصفاته ، وأفعاله وما ينتفع به أو يستحقه وغير ذلك ، إنما هو من خلق الله ، والله عز وجل رب ذلك كله ، ومليكه وبارئه ، وخالقه ومصوره ، وإذا قلنا ليس له من نفسه الا العدم ، فالعدم ليس هو شيئاً يفتقر الى فاعل موجود ، بل العدم ليس بشيء ، وبقاؤه مشروط بعدم فعل الفاعل ، لا أن عدم الفاعل يوجبه ويقتضيه ، ؛ كما يوجب الفاعل المفعول الموجود ، بل قد[2] يضاف عدم المعلول الى عدم العلة ، وبينهما فرق . وذلك المفعول الموجود إنما خلقه وأبدعه الفاعل ، وليس المعدوم أبدعه عدم الفاعل ، فإنه يفضي الى التسلسل والدور ، ولأنه ليس اقتضاء احد العدمين للآخر بأولى من العكس ، فإنه ليس أحد العدمين مميزاً بحقيقة[3] استوجب بها أن يكون فاعلاً ، وإن كان يعقل أن عدم المقتضى أولى بعدم الأثر من العكس ، فهذا لأنه لما كان وجود المقتضى هو المفيد لوجود المقتضى ، صار العقل يضيف عدمه الى عدمه إضافة لزومية ، لأن عدم الشيء إما يكون لعدم المقتضى ، أو لوجود المانع ، وبعد قيام المقتضى ، لا يتصور أن يكون العدم إلا لأجل هاتين الصورتين أو الحالتين ، فلما كان الذي انعقد سبب وجوده يعوقه المانع[4] المنافي ، وهو أمر موجود ، وتارة لا يكون سببه قد انعقد ، صار عدمه تارة ينسب الى عدم مقتضيه وتارة الى وجود مانعه ومنافيه ، وهذا معنى قول المسلمين « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن »[(5] فمشيئته موجبة للكائنات كلها ، وما لم يشأه لم يكن [5)] . إذ مشيئته هي الموجبة وحدها لا غيرها فيلزم من انتفائها انتفاؤه .

(لا يكون شيء حتى تكون مشيئته)[6]

لا يكون شيء بدونها بحال ، فليس لنا سبب يقتضي وجود شيء حتى تكون مشيئته مانعة من وجوده ، بل مشيئته هي السبب الكامل . فمع وجودها لا مانع ومع عدمها لا مقتضى ﴿ ما يفتحِ اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمسِكَ لها وَمَا يُمسِكْ فلا مرسلَ لـهُ من بعدِهِ ﴾[7] . ﴿ وإن يَمسَسْكَ الله بضرٍّ فلا كاشِفَ لـهُ إلاَّ هُـوَ وإنْ يُرِدكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضله ﴾[8] . ﴿ قُلْ أفرءيتم ما تدعون من دونِ الله إنْ أرادني الله بضُر هل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ

---

(١) في د . فالمخلوقات .

(٢) قد : ساقطة من : د .

(٣) في س: لحقيقة .

(٤) في س: ويمنعه المانع .

(٥ ـ ٥) ساقطة من : س .

(٦) ما بين المعقوفتين زيادة في : س .

(٧) سورة فاطر : ٢ .

(٨) سورة يونس الآية ١٠٧.

أو أَرَادني برحمةٍ هَلْ هُنَّ ممسكاتُ رحمتِهِ قُلْ حسبيَ الله عليهِ يتوكَّلُ المتوكِّلُونَ ﴾[1] .

(الانسان ليس له من نفسه خير أصلاً)

وإذا عرف ان العبد ليس له من نفسه خير أصلاً ، بل ما بنا من نعمة فمن الله وإذا مسَّنا الضر فإليه نجأر والخير كله بيديه[2] والشر ليس اليه ، نحن به وإليه[2] ، كما قال : ﴿ ما أصابكَ من حسنةٍ فمن الله وما أصابكَ من سيئةٍ فمنْ نفسك ﴾[3] وقال : ﴿ أَوَ لَمَّا أصابتكُمْ مصيبةٌ قد أصبتُمْ مثليها قلتُمْ أنَّى هذا قُلْ هُوَ من عندِ أنفُسكُمْ ﴾[4] وقال النبي ﷺ في سيد الاستغفار الذي في صحيح البخاري : «اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب الا انت »[5] وقال في دعاء الاستفتاح الذي في صحيح مسلم « لبيك وسعديك ، والخير بيدك والشر ليس اليك ، تباركت وتعاليت »[6] .

(الشر إما موجود وإما معدوم)

وذلك أن الشر إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، والمعدوم[7] سواء كان عدم ذات ، أو عدم صفة من صفات كمالها ، أو فعل من أفعالها ، مثل عدم الحياة أو العلم، أو السمع أو البصر أو الكلام ، أو العقل أو العمل الصالح على تنوع أصنافه ، مثل معرفة الله ومحبته وعبادته ، والتوكل عليه والإنابة اليه ، ورجائه[8] وخشيته ، وامتثال اوامره واجتناب نواهيه ، وغير ذلك من الأمور المحمودة الباطنة والظاهرة ، من الأقوال والأفعال . فإن هذه الأمور كلها خيرات وحسنات ، وعدمها شر وسيئات ، لكن هذا العدم ليس بشيء أصلا حتى يكون له باريء وفاعل فيضاف الى الله ، وإنما هو من لوازم النفس التي هي حقيقة الإنسان قبل أن تُخلق وبعد أن خُلقت ، فإنه قبل أن تخلق عدم مستلزم لهذا العدم ، وبعد أن خلقت ـ وقد خلقت ضعيفة ناقصة ـ، فيها النقص والضعف والعجز ، فإن هذه امور عدمية فأضيف الى النفس من

---

(٦) سورة الزمر الآية ٣٨.

(٢ ـ ٢) ساقط من : س.

(٣) سورة النساء ٧٩.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٥ .

(٥) ورد الحديث في: مسلم ٤٣٤/١ « كتاب صلاة المسافرين . باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه » ، وفي أبي داود : ٢٠١/١ « كتاب الصلاة . باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء » .

(٦) ورد الحديث في أبي داود ١٦٢/٢ « كتاب المناسك. باب التلبية » حديث رقم ١٨١٢ ، ابن ماجه ٩٧٤/٢ « كتاب المناسك . باب التلبية » ، ابن حنبل ٢/٣.

(٧) في س: فالمعدوم .

(٨) في د: ورجاؤه .

باب اضافة عدم المعلول الى عدم علته وعدم مقتضيه ، وقد تكون من باب إضافته الى وجود منافيه من وجه آخر سنبينه ان شاء الله تعالى .

(الشر لا ينسب الى الله)

ونكتة الأمر ان هذا الشر والسيئات العدمية ليست موجودة حتى يكون الله خالقها ، فإن الله [1] خالق كل شيء . والمعدومات تنسب تارة الى عدم فاعلها ، وتارة الى وجود مانعها ، فلا تنسب اليه هذه الشرور العدمية على الوجهين .

أما الأول : فلأنه الحق المبين ، فلا يقال عدمت لعدم فاعلها ومقتضيها .

وأما الثاني : وهو وجود المانع فلأن المانع إنما يحتاج اليه إذا وجد المقتضى . ولو شاء فعلها لما منعه مانع ، وهو سبحانه لا يمنع نفسه ما شاء فعله ، بل هو فعال لما يشاء ، ولكن الله [2] قد يخلق هنا[3] سبباً ومقتضياً ومانعاً[4] فان جعل السبب تاماً لم يمنعه شيء ، وإن لم يجعله تاماً منعه المانع لضعف السبب وعدم إعانة الله له ، فلا يعدم أمر الا لأنه لم يشأه ، كما لا يوجد أمر الا لأنه يشاؤه .

(السيئات العدمية تضاف الى العبد)

وإنما تضاف هذه السيئات العدمية الى العبد ، لعدم السبب منه تارة ، ولوجود المانع منه اخرى .

أما عدم السبب فظاهر ، فانه ليس منه قوة ولا حول ، ولا خير ولا سبب خير أصالة ، ولو كان شيء لكان سبباً ، فأضيف اليه لعدم السبب ، ولأنه قد صدرت منه أفعال كان سبباً لها باعانة الله له فما لم يصدر منه كان لعدم السبب .

وأما وجود المانع المضاد له المنافي ، فلأن نفسه قد[5] تضيق وتضعف وتعجز ان تجمع بين أفعال ممكنة في نفسها ، متنافية في حقه ، فاذا اشتغل بسمع شيء أو بصره ، أو الكلام في شيء أو النظر فيه ، أو إرادته ، أو اشتغلت[6] جوارحه بعمل كثير[7] ، اشتغلت عن عمل

---

(١) في د: فإنه .

(٢) لفظ الجلالة ساقط من : د.

(٣) هنا : في س : هذا ، في د . هو .

(٤) سبباً ومقتضياً ومانعاً: في د : سبباً مقتضاؤه . مانع .

(٥) قد : ساقطة من : د .

(٦) في د : اذا اشتغلت .

(٧) في د : كبير .

آخر ، وان كان ذلك خيراً لضيقه وعجزه[1] فصار قيام احدى الصفات والأفعال به مانعاً وصاداً عن آخر . والضيق والعجز يعود الى عدم قدرته ، فعاد الى العدم الذي هو منه ، والعدم المحض ليس بشيء حتى يضاف الى الله تعالى .

(الشر الوجودي)

وأما إن كان الشر[2] موجوداً ، كالألم وسبب الألم ، فينبغي ان يعرف أن الشر الموجود ليس شراً على الإطلاق ، ولا شراً محضاً ، وإنما هو شر في حق من تألم به ، وقد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ، ولهذا جاء في الحديث الذي رويناه مسلسلاً « آمنت بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره » وفي الحديث الذي رواه أبو داود « لو أنفقت ملء الأرض ذهباً لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك [3] » .

فالخير والشر هما بحسب العبد المضاف اليه كالحلو والمر سواء ، وذلك ان من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شراً ، ومن تنعم به فهو في حقه خير ، كما كان النبي ﷺ يعلم من قص عليه لأحد رؤيا أن يقول : « خيراً تلقاه وشراً توقاه خيراً لنا وشراً لأعدائنا » فانه اذا أصاب العبد شر يسر قلوب عدوه فهو خير لهذا وشر لهذا ، ومن لم يكن له ولياً ولا عدواً فليس في حقه لا خيراً ولا شراً وليس في مخلوقات الله ما يؤلم الخلق كلهم دائماً ، بل ولا ما يؤلم جمهورهم دائماً ، بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم في اغلب الأوقات ، كالشمس والعافية ، فلم يكن في الموجودات التي خلقها الله ما هو شر مطلقاً عاماً ، فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص ، وفيه وجه آخر هو به خير وحسن ، وهو أغلب وجهيه كما قال تعالى : ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شيءٍ خلقَهُ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ صُنْعَ الله الذي اتقنَ كلَّ شيءٍ ﴾[5] وقال تعالى ﴿ وما خَلَقْنَا السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاّ بالحقِّ ﴾[6] وقال : ﴿ ويتفكَّرونَ في خلقِ السَّموات والأرضِ ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً ﴾[7] .

---

(١) وان كان ذلك بصفة وعجزه : جاءت هذه الجملة في: د في عير وضعت بعد عبارة : وصادراً عن آخر في السطر التالي لها .

(٢) في س: الشيء .

(٣) ورد الحديث في أبي داود ٤/٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٤) سورة السجدة الآية ٧ .

(٥) سورة النمل الآية ٨٨ .

(٦) سورة الحجر الآية ٨٥ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٩١ .

(لم يخلق الله شيئاً الا لحكمة)

وقد علم المسلمون ان الله لم يخلق شيئاً ما إلا بحكمة ، فتلك الحكمة وجه حُسنه وخيره ، ولا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه [ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه] [(١)] ، وبهذا يظهر معنى قوله « والشر ليس اليك » .

وكون الشر لم يضف الى الله وحده ، بل إما بطريق العموم ، أو يضاف الى السبب ، أو يحذف فاعله ، فهذا الشر الموجود الخاص المقيد ، سببه إما عدم وإما وجود .

فالعدم مثل عدم شرط ، أو جزء سبب ، إذ لا يكون[(٢)] سببه عدماً محضاً ، فإن العدم المحض لا يكون سبباً تاماً لوجود ، ولكن يكون سبب الخير واللذة قد انعقد ولا يحصل الشرط فيقع الألم ، وذلك مثل عدم فعل الواجبات ، الذي هو سبب الذم والعقاب ، ومثل عدم العلم ، الذي هو سبب ألم الجهل ، وعدم السمع والبصر والنطق ، الذي هو سبب الألم بالعمى والصمم والبكم ، وعدم الصحة والقوة ، الذي هو سبب الألم بالمرض[(٣)] والضعف ، فهذه المواضع ونحوها يكون الشر أيضاً مضافاً الى العدم المضاف الى العبد ، حتى يتحقق قول الخليل : ﴿ وإذا مرضتُ فهُوَ يشفيني ﴾[(٤)] فإن المرض وإن كان ألماً موجوداً فسببه ضعف القوة وانتفاء الصحة الموجودة ، وذلك عدم هو من الإنسان المعدوم بنفسه ، ويتحقق[(٥)] قول الحق ﴿ وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسكَ ﴾[(٦)] وقوله ﴿ قلتُمْ أَنَّى هذا ؟ قل هُوَ من عندِ أنفسِكُمْ ﴾[(٧)] ونحو ذلك فيما كان سببه عدم فعل الواجب ، وكذلك أقوال الصحابي وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان .

يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر والفسوق والعصيان إنما يفعلها[(٨)] العبد لجهله أو لحاجته ، فإنه إذا كان عالماً بمضرتها وهو غني عنها ، امتنع ان يفعلها ، والجهل أصله عدم . والحاجة أصلها العدم ، فأصل وقوع السيئات منه هو عدم العلم والغنى ، ولهذا يقول في القرآن : ﴿ ما كانُوا يستطيعونَ السَّمعَ ﴾[(٩)] ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ ﴿ إنهُمْ أَلْفوا آباءَهُمْ

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة في : س .

(٢) في د : أو لا يكون .

(٣) في س : والمرض .

(٤) سورة الشعراء الآية ٨٠ .

(٥) في س : ولا يتحقق . وهو خطأ واضح .

(٦) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٦٥ والجزء الأول من الآية (قلتم انى هذا) ساقطة من : د .

(٨) في د : والعصيان لنا يفعلها .

(٩) سورة هود الآية ٢٠ .

ضالينَ * فهم على آثارِهِمْ يهرعُونَ ﴾[١] إلى نحو هذه المعاني .

(الشر الذي سببه الوجود)

وأما الوجود الذي هو[٢] سبب الشر الموجود ، الذي هو خاص ، كالآلام مثل الأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار، والفسوق الذي هو فعل المحرمات ، ونحو ذلك ، فان ذلك سبب الذم والعقاب ، وكذلك تناول الأغذية الضارة ، وكذلك الحركات الشديدة المورثة للألم ، فهذا الوجود لا يكون وجوداً تاماً محضاً ، إذ الوجود التام المحض لا يورث الا خيراً كما قلنا ان العدم المحض لا يقتضي وجوداً ، بل يكون وجوداً ناقصاً ، إما في السبب ، وإما في المحل ، كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق والإقرار به ، وسبب عدم هذا العلم والقول[٣] عدم أسبابه ، من النظر التام والاستماع التام لآيات الحق وإعلامه ، وسبب عدم النظر والاستماع ، إما عدم المقتضى فيكون عدماً محضاً ، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس ، والله لا يحب كل مختال فخور ، وهو تصور باطل ، وسببه عدم غنى النفس بالحق ، فتعتاض عنه بالخيال الباطل .

والحسد أيضاً سببه عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه ، فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحسود[٤] أو يتفضل عليه ، وكذلك الفسوق كالقتل والزنا وسائر القبائح ، إنما سببها حاجة النفس الى الاشتفاء بالقتل والالتذاذ بالزنا ، وإلا فمن حصل غرضه بلا قتل أو نال اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك .

(الشر مصدره العدم)

والحاجة مصدرها العدم ، وهذا يبين ـ اذا تدبره الإنسان ـ ان الشر الموجود إن أضيف[٥] الى عدم أو وجود ، فلا بد أن يكون وجوداً ناقصاً ، فتارة يضاف الى عدم كمال السبب ، أو فوات الشرط ، وتارة يضاف الى وجود ويعبر عنه تارة بالسبب الناقص والمحل الناقص ، وسبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع . والمانع لا يكون مانعاً الا لضعف المقتضى .

وكل ما ذكرته واضح بين الا هذا الموضع ففيه غموض يتبين عند التأمل وله طرفان :

---

(١) سورة الصافات الآيات (٧٠ ـ ٧١) .

(٢) هو : ساقطة من : د.

(٣) والقول: ساقطة من: د.

(٤) في الأصل : كتبت هذه العبارة في : د هكذا . لأن تكافيه المحسود. الخ .

(٥) في س : إذا أضيف .

أحدهما : أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

والثاني : أن الموجود لا يكون سبباً للعدم المحض . وهذا معلوم بالبديهة أن الكائنات الموجودة لا تصدر إلا عن حق موجود ، ولهذا كان معلوماً بالفطرة أنه لا بد لكل مصنوع من صانع [كما قال تعالى][1] ﴿ أم خُلِقُوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالِقُون ﴾[2] يقول أخلقوا من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا انفسهم ، ومن المتكلمين من استدل على هذا المطلوب بالقياس وضرب الأمثال[3] والاستدلال عليه ممكن ودلائله كثيرة ، والفطرة عند صحتها اشد اقراراً به ، وهو لها أبده ، وهي اليه أشد اضطراراً من المثال الذي يقاس به .

(اختلاف الأصوليين في العلة الشرعية)

وقد اختلف أهل الأصول في العلة الشرعية ، هل يجوز تعليل الحكم الوجودي بالوصف العدمي فيها[4] مع قولهم ان العدمى يعلل بالعدمى ؟ فمنهم من قال يعلل به ، ومنهم من أنكر ذلك ، ومنهم من فصل بين ما لا يجوز أن يكون علة للوجود في قياس العلة ويجوز أن تكون علة له في قياس الدلالة فلا يضاف اليه في قياس الدلالة وهذا فصل الخطاب ، وهو أن قياس الدلالة يجوز ان يكون العدم فيه علة وجزءاً من علة ، لأن عدم الوصف قد يكون دليلاً على وصف وجودي يقتضي الحكم .

وأما قياس العلة فلا يكون العدم فيه علة تامة ، لكن يكون جزءاً من العلة التامة ، وشرطاً للعلة المقتضية التي ليست بتامة [وقلنا : جزء من العلة التامة وهو معنى كونه شرطاً في اقتضاء العلة الوجودية . وهذا نزاع لفظي فإذا حققت المعاني ارتفع][5] ، فهذا في بيان أحد الطرفين ، وهو أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

وأما الطرف الثاني[6] ، وهو أن الموجود لا يكون سبباً لوجود يستلزم عدماً ، فلأن العدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود ، بل يكفي فيه عدم السبب الموجود ولأن السبب الوجود إذا أثر فلا بد أن يؤثر شيئاً ، والعدم المحض ليس بشيء ، فالأثر الذي هو عدم محض بمنزلة عدم الأثر ، بل إذا أثر الإعدام فالإعدام أمر وجودي فيه عدم ، فإن جعل الموجود معدوماً ،

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة في : س.

(٢) سورة الطور الآية ٣٥.

(٣) في س : المثال .

(٤) فيها : ساقطة من: د.

(٥) ما بين المعقوفين زيادة في : س .

(٦) في س: وجوها.

والمعدوم موجوداً أمر معقول ، أما جعل المعدوم معدوماً فلا يعقل الا بمعنى الإبقاء على العدم ، والابقاء على العدم يكفي فيه عدم الفاعل . والفرق معلوم بين عدم الفاعل وعدم الموجب في عدم العلة ، وبين فاعل العدم وموجب العدم وعلة العدم ، والعدم لا يفتقر الى الثاني بل يكفي فيه الأول ، فتبين بذلك الطرفان ، وهو أن العدم المحض الذي ليس فيه شوب وجود ، لا يكون لوجود[1] ما لا سبباً ولا مسبباً ، ولا فاعلاً ولا مفعولاً أصلاً، فالوجود المحض التام الذي ليس فيه شوب عدم[2] ، لا يكون سبباً لعدم أصلاً، ولا مسبباً عنه ، ولا فاعلاً له ولا مفعولاً .

أما كونه ليس مسبباً عنه ولا مفعولاً له فظاهر ، وأما كونه ليس سبباً له فإن كان سبباً لعدم محض، فالعدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود ، وان كان لعدم فيه وجود ، فذاك الوجود لا بد له من سبب ، ولو كان سببه تاماً وهو قابل لما دخل فيه عدم ، فإنه اذا كان السبب تاماً والمحل قابلاً وجب وجود المسبب ، فحيث كان فيه عدم فلعدم ما في السبب أو في المحل ، فلا يكون وجوداً محضاً ، فظهر أن السبب حسب[3] تخلف حكمه ، ان كان لفوات شرط فهو عدم ، وان كان لوجود مانع فانما صار مانعاً لضعف السبب ، وهو أيضاً عدم قوته وكماله ، فظهر ان الوجود ليس سبب العدم المحض ، وظهر بذلك القسمة الرباعية وهي[4] أن الوجود المحض لا يكون الا خيراً.

يبين ذلك أن كل شر في العالم لا يخرج عن قسمين . إما ألم ، وإما سبب الألم ، وسبب الألم مثل الأفعال السيئة المقتضية للعذاب ، والألم الموجود لا يكون إلا لنوع عدم ، كما[5] يكون سببه تفرق الاتصال ، وتفرق الاتصال هو عدم التأليف والاتصال الذي بينهما ، وهو الشر والفساد .

وأما سبب الألم فقد قررت في قاعدة كبيرة . أن أصل الذنوب هو عدم الواجبات لا فعل المحرمات[6] وأن فعل المحرمات إنما وقع لعدم الواجبات ، فصار أهل الذنوب عدم الواجبات ، وأصل الألم عدم الصحة ، ولهذا كان النبي ﷺ يعلمهم في خطبته الحاجة أن

---

(١) في د، الذي ليس شوب فيه عدم . والصحيح ما اثبتناه .

(٢) في س: حيث .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من : د .

(٤) في د . وهو .

(٥) في س : فكما .

(٦) انظر ما كتبه ابن تيمية في ذلك في رسالة الحسنة والسيئة ص ٩٢ ، وما بعدها .

يقولوا : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا »[١] . فيستعيذ[٢] من شر النفس الذي نشأ عنها من[٣] ذنوبها وخطاياها ، ويستعيذ[٤] من سيئات الأعمال التي هي عقوباتها وآلامها ، فإن قوله : « ومن سيئات أعمالنا » قد يراد به السيئات في الأعمال ، وقد يراد به العقوبات ، فإن لفظ السيئات في كتاب الله يراد به ما يسوء الإنسان من الشر ويراد به الأعمال السيئة ، قال الله تعالى ﴿ إنْ تمسسكُمْ حسنةٌ تسؤهُمْ وَإنْ تصِبْكُمْ سيئةٌ يفرحُوا بها ﴾[٥] ، وقال تعالى ﴿ وإنْ تصبهُمْ سيِّئَةٌ بما قدَّمتْ أيديهِمْ فإنَّ الانسانَ كفُورٌ ﴾[٦] ومعلوم أن شر النفس هو الأعمال السيئة فتكون سيئات الأعمال الشر والعقوبات الحاصلة بها ، فيكون مستعيذاً من نوعي السيئات ، الأعمال السيئة ، وعقوباتها. كما في الاستعاذة المأمور بها في الصلاة « أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال »[٥] فأمرنا بالاستعاذة من العذاب ، عذاب الآخرة ، وعذاب البرزخ ، ومن سبب العذاب ، ومن فتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، وذكر الفتنة الخاصة [بعد الفتنة العامة][٦] ، فتنة المسيح الدجال فإنها أعظم الفتن كما في الحديث الصحيح « ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة المسيح الدجال »[٧] .

فصـــــل

(العبد وكل مخلوق فقير الى الله)

إذا ظهر أن العبد وكل مخلوق فقير الى الله محتاج اليه ، ليس فقيراً الى سواه ، فليس هو

---

(١) هذا جزء من حديث قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته الحاجة وأورده الإمام أحمد بن حنبل في مسنده « ط دار المعارف » ٢٧١/٥ رقم ٣٧٢٠ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : علمنا خطبته الحاجة ، الحمد لله نستعيذه ونستهديه ونستغفره » الخ الخطبة ، وانظر الحديث رقم ٣٢٧٥ ، ٣٧٢١، ٤١١٥، ٤١١٦ . وقال الأستاذ المحقق رحمه الله إن الحديث قد قد ذكره الترمذي في سننه وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وانظر الأذكار للنووي ، ص ٢٥٠ ، ابن ماجه ٦٠٩/١ ـ ٦١٠، وانظر تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم للحديث المذكور في كتاب جامع الرسائل لابن تيمية ، ص ١١٧ ت ٣ .

(٢) في : د فنستعيذ . . . . ونستعيذ .

(٣) من ساقطة في: د.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٠ وفي الأصل « ان تصبكم حسنة » وصحة الآية ما أثبتناه .

(٥) سورة الشورى الآية ٤٨ .

(٦) ورد الحديث في: مسلم ٢٠٧٩/٤ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب التعوذ من العجز والكسل وغيره) حديث رقم ٢٧٠٦ . ، النسائي ٢٤٢/٨ (كتاب الاستعاذة . باب الاستعاذة من فتنة القبر) ابن ماجه ١٢٦٢/٢ (كتاب الدعاء. باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ) .

(٦) ما بين المعقوفين زياد في : س .

(٧) ورد الحديث في: ابن ماجه ١٣٥٩/٢ (كتاب الفتن. باب فتنة المسيح الدجال وخروج عيسى بن مريم وياجوج وماجوج) حديث رقم ٤٠٧٧ « . . . منذ ذرا الله ذرية آدم أعظم من فتنة المسيح الدجال » .

مستغنياً بنفسه ولا بغير ربه ، فإن ذلك الغير فقير ايضاً محتاج الى الله ، ومن المأثور عن أبي يزيد[1] رحمه الله أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق ، كاستغاثة الغريق بالغريق . وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم ، فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولاً وإلا فليس له من نفسه شيء ، قال سبحانه ﴿ من ذا الذي يشفعُ عندهُ إلاَّ باذنِهِ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَلَا يشفعُونَ إلاَّ لمن ارتَضَىٰ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وما هم بضارّينَ بهِ أحدٍ إلاَّ بإذن الله ﴾[4] .

واسم العبد يتناول معنيين : أحدهما : بمعنى العابد كرهاً كما قال : ﴿ إن كل مَنْ في السَّمواتِ والأرض إلاَّ آتى الرَّحمن عبداً ﴾[5] وقال ﴿ وله أسلمَ مَنْ في السَّمواتِ والأرض طوعَاً وكرهاً ﴾[6] وقال : ﴿ بديعِ السَّمواتِ والأرض كلٌ لهُ قانتونَ ﴾[7] وقال : ﴿ ولله يسجدُ مَنْ في السَّمواتِ والأرض طوعاً وكرهاً ﴾[8] .

والثاني : بمعنى العابد طوعاً وهو الذي يعبده ويستعينه ، وهذا هو المذكور في قوله ﴿ وعباد الرَّحمنِ الَّذينَ يمشونَ على الأرضِ هوناً ﴾[9] وقوله ﴿ عيناً يشربُ بها عبادُ الله يفجرونها تفجيراً ﴾[10] وقوله ﴿ إن عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان ﴾[11] وقوله ﴿ إلاَّ عبادكَ منهم المخلصينَ ﴾[12] وقوله ﴿يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزنونَ ﴾[13] وقوله

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي (أبو يزيد) نسبة الى بسطام، متصوف كبير، اشتهر بالزهد والورع والعزوف عن الدنيا، ويقال إنه أول من تكلم في الفناء بمعناه الصوفي . توفى سنة ٢٦١ هـ .
انظر عنه : طبقات الصوفية ، ص ٦٧ ـ ٧٤، وفيات الأعيان ١٠ ـ ٢٤٠، ميزان الاعتدال ، ١ ـ ٤٨١ ، حلية الأولياء ، ١٠ ـ ٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٨ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٠٢ .
(٥) سورة مريم الآية ٩٣.
(٦) سورة آل عمران الآية ٨٣.
(٧) سورة البقرة الآية ١١٧ .
(٨) سورة الرعد الآية ١٥ .
(٩) سورة الفرقان الآية ٦٣.
(١٠) سورة الانسان الآية ٦.
(١١) سورة الاسراء الآية ٦٥.
(١٢) سورة ص الآية ٨٣.
(١٣) سورة الزخرف الآية ٦٨.

﴿ واذكـر عبادَنـا ابراهيم واسحَق ويعقـوبَ ﴾[1] وقولـه : ﴿ فأوحىٰ الى عبـدهِ مـا أوحىٰ ﴾[2] قوله : ﴿ نعم العبدُ إنَّهُ أواب ﴾[3] وقوله : ﴿ سبحانَ الَّذي أسرىٰ بعبدهِ ليـلاً ﴾[4] وقولـه : ﴿ وإنَّـه لما قـامَ عبد الله يـدعوهُ ﴾[5] وهـذه العبوديـة قد يخلو الإنسـان منها تـارة . وأمـا الأولى فوصف لازم إذا أريد بها جريان القدر عليه وتصريف الخالق له ، قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغونَ وَلَهُ أسلَم من في السَّمواتِ والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعونَ ﴾[6] .

وعامة السلف على أن المراد بالإسلام استسلامهم له بالخضوع والذل ، لا مجرد تصـريف الـرب لهم ، كما في قـوله : ﴿ لله يسجـدُ منْ في السَّمواتِ والأرض طـوعاً وكـرهـاً ﴾[7] وهـذا الخضوع والذل هو أيضاً لازم لكـل عبد لا بـد له من ذلـك ، وإن كان قـد يعرض لـه أحيانـاً الإعراض عن ربه والاستكبار ، فلا بـد له عنـد التحقيق من الخضوع والـذل له ، لكن المؤمن يسلم له طوعاً فيحبه ويطيع أمره ، والكافر إنما يخضع له عند رغبة ورهبة ، فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه ، كما قال : ﴿ وإذا مسَّ الانسانَ الضُّرُّ دَعَانَا لجنبهِ أو قاعداً أو قائـماً فلما كشفنا عنه ضرّهِ مر كأن لم يـدعنا إلى ضـر مسه ﴾[8] وقـال : ﴿ وإذا مسكم الضُّر في البحرِ ضلَّ من تدعونَ إلَّا إياهُ فلما نجَّاكُمْ الىٰ البرّ أعرضتُمْ وكانَ الإنسان كفوراً ﴾[9] .

وفقر المخلوق وعبوديتـه أمر ذاتي لـه لا وجود لـه بدون ذلـك ، والحاجـة ضروريـة لكل المصنوعات المخلوقات ، وبذلك هي آية[10] لخالقها وفاطرها، إذ لا قيام لها بدونه ، وإنما يفترق الناس في شهود هذا الفقر والاضطرار وعزوبه عن قلوبهم ، وأيضاً : فـالعبد مفتقـر الى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب اجلال وتعظيم ، فهو غاية مطلوبه ومراده ، ومنتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا .

(المحبوب لذاته هو الله)

وأصل الحركات الحب ، والذي يستحق المحبة لذاته هو الله فكل من أحبَ مع الله شيئاً

---

(١) سورة ص الآية ٤٥ .

(٢) سورة النجم الآية ١٠ .

(٣) سورة ص الآية ٤٤ .

(٤) سورة الإسراء الآية ١ .

(٥) سورة الجن الآية ١٩ .

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

(٧) سورة الرعد الآية ١٥ .

(٨) سورة يونس الآية ١٢ .

(٩) سورة الإسراء الآية ٦٧ .

(١٠) في س : انها .

فهو مشرك ، وحبه فساد ، وانما الحب الصالح النافع حب الله ، والحب لله ، والإنسان فقير ألى الله من جهة عبادته له ، ومن جهة استعانته به ، بالاستسلام[1] والانقياد لمن أنت اليه فقير وهو ربك وإلهك ، وهذا العمل هو[2] أمر فطري ضروري ، فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها وتذل لمن افتقرت إليه ، وغناه من الصمدية التي انفرد بها ، فإنه يسأله من السموات والأرض ، وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والإنابة اليه فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه ، فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينيب اليه[3] وذلك قدر زائد على مسألته والافتقار إليه ، فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئة الله ، قائمة بقدرته وكلمته ، محتاجة اليه فقيرة إليه مسلمة له طوعاً وكرهاً ، فإذا شهد العبد ذلك وأسلم له وخضع ، فقد آمن بربوبيته ورأى حاجته وفقره اليه ، وصار سائلاً له متوكلاً عليه ، مستعيناً به إما بحاله وإما بقاله ، بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألته .

(أنواع مسألة العبد لربه)

ثم هذا المستعين به السائل له ، إما أن يسأل ما هو مأمور به ، أو ما هو منهى عنه ، أو ما هو مباح له .

فالأول حال المؤمنين السعداء الذين حالهم ﴿إياك نعبد واياك نستعين﴾ .

والثاني حال الكفار والفساق والعصاة ، الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفاراً كما قال : ﴿ وما يؤمنُ أكثرهُمْ بالله إلاَّ وهم مشركونَ ﴾[4] فهم مؤمنون بربوبيته ، مشركون في عبادته ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين الخزاعي : « يا حصين كم تعبد » ؟

قال : سبعة آلهة ، ستة في الأرض وواحداً في السماء .

قال : فمن الذي لرغبتك ورهبتك ؟

قال : الذي في السماء .

قال : أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك الله تعالى بها ، فأسلم فقال : قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي »[5] رواه أحمد وغيره . ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا سألكَ عبادي

---

(١) في س : للإستسلام .

(٢) هو : ساقطة من : س .

(٣) اليه : ساقطة من : د .

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

(٥) رواه الامام احمد بن حنبل في مسنده ٦/ ٣٥٤ .

عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنُوا بي لعلَّهُمْ يرشُدُونَ ﴾[1] أخبر سبحانه أنه قريب من عباده ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . فهذا إخبار عن ربوبيته لهم وإعطائه سؤلهم ، وإجابة دعائهم . فإنهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم ، وإن كانوا مع ذلك كفاراً من وجه آخر ، وفُسَّاقاً أو عصاة ، قال تعالىٰ : ﴿ وإذا مسَّكُمْ الضُرُّ في البحرِ ضلَّ مَنْ تدعوْن إلاَّ إيَّاهُ فلما نجَّاكُمْ إلىٰ البرِّ أعرضتُمْ وكانَ الإنسانُ كفوراً ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبهِ أو قاعِداً أو قائماً فلما كشفنَا عنهُ ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يدعُنَا الى ضرٍّ مسَّهُ كذلكَ زين للمسرفينَ ما كانوا يعملون[3] ونظائره في القرآن كثيرة .

ثم أمرهم بأمرين فقال : فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون .

فالأول : أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والاستعانة .

والثاني : الإيمان بربوبيته وألوهيته وأنه ربهم وإلههم ، ولهذا قيل : اجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد ، وعن كمال الطاعة ، لأنه عقب آية الدعاء بقوله « فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي » .

والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته ، وأما إجابة دعائه وإعطاؤه سؤله ، فقد يكون منفعة وقد يكون مضرة . قال : تعالى : ﴿ ويدعو الإنسان بالشّرِ دعاءَهُ بالخيرِ وكانَ الإنسانُ عجولاً ﴾[4] وقال تعالى : « ولو يعجل الله النَّاسِ الشرَّ استعجالهم بالخير لقضىَ اليهم أَجلهم ﴾[5] وقال تعالى عن المشركين : ﴿ وإذ قالوا اللهمَّ إنْ كانَ هذا هو الحقَّ من عندِكَ ، فأمطِرْ علينَا حِجارةً من السَّماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ ﴾[6] وقال : ﴿ إنْ تستفتحُوا فقد جاءَكُمْ الفتحُ وإن تنتهوا فهوَ خيرٌ لكم ﴾[7] وقال : ﴿ ادعوا ربَّكم تضرعاً وخفيةً إنَّهُ لا يُحبُّ المعتدينَ ﴾[8] وقال: ﴿ واتلِ عليهم نبأَ الَّذينَ آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشيطانُ فكَانَ من الغاوينَ * ولو شِئنَا لرفعناهُ بها ولكنهُ أخلَدَ إلىٰ الأرضِ واتَّبعَ هواهُ ﴾[9] الآية ، وقال « فمن حاجَّكَ فيهِ من بعد ما جاءكَ مِنَ العلمِ فقلْ تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءَكم ونساءَنا

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧.
(٣) سورة يونس الآية ١٢ .
(٤) سورة الاسراء الآية ١١ .
(٥) سورة يونس الآية ١١ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٣٢.
(٧) سورة الأنفال الآية ١٩ .
(٨) سورة الأعراف الآية ٥٥ .
(٩) سورة الأعراف الآية ١٧٥ .

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمَّ نبتهلْ فنجعل لعنةَ الله على الكاذبينَ ﴾[1] وقال النبي ﷺ لما دخل على أهل جابر فقال : (لا تدعوا على أنفسكم الا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)[2] .

فصــــل

فالعبد كما أنه فقير الى الله دائماً في إعانته وإجابة دعوته واعطاء سؤاله وقضاء حاجته فهو فقير اليه في أن يعلم ما يصلحه وما هو الذي يقصده ويريده ، وهذا هو الأمر والنهي والشريعة ، والا فاذا قضيت حاجته التي طلبها وأرادها ولم تكن مصلحة له ، كان ذلك ضرراً عليه . وإن كان في الحال له فيه لذة[3] ومنفعة ، فالاعتبار بالمنفعة الخالصة أو الراجحة ، وهذا قد عرَّفه الله عباده برسله وكتبه ، علموهم وزكوهم وأمروهم بما ينفعهم ونهوهم عما يضرهم . وبينوا لهم أن مطلوبهم ومقصودهم ومعبودهم يجب أن يكون هو وحده لا شريك له . كما أنه هو ربهم وخالقهم ، وأنهم ان تركوا عبادته أو أشركوا به غيره خسروا خسراناً مبيناً ، وضلوا ضلالاً بعيداً . وكان ما أوتوه من قوة ومعرفة وجاه ومال وغير ذلك . وان كانوا فيه فقراء الى الله مستعينين به عليه . مقرين بربوبيته ، فانه ضرر عليهم ولهم بئس المصير وسوء الدار .

وهذا هو الذي تعلق به الأمر الديني الشرعي [والإرادة الدينية الشرعية ، كما تعلق بالأولى الأمر الكوني القدري][4] والارادة الكونية القدرية والله سبحانه قد أنعم على المؤمنين بالإعانة والهداية فانه بين لهم هداهم بارسال الرسل وانزال الكتب ، واعانهم على اتباع ذلك، علماً وعملاً ، كما من عليهم وعلى سائر الخلق بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم ، ومن على أكثر الخلق بأن عرفهم ربوبيته لهم وحاجتهم اليه ، وأعطاهم سؤالهم وأجاب دعاءهم قال تعالى : ﴿ يسألهُ من في السَّمواتِ والأرض كل يومٍ هوَ في شأن ﴾[5] فكل أهل السموات والأرض يسألونه فصارت الدرجات أربعة .

قوم لم يعبدوه ولم يستعينوه ، وقد خلقهم ورزقهم وعافاهم .

وقوم استعانوه فأعانهم ولم يعبدوه .

وقوم طلبوا عبادته وطاعته ولم يستعينوه ولم يتوكلوا عليه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦١ .

(٢) ورد الحديث في مسلم ٦٣٤/٢ « كتاب الجنائز . باب إغماض الميت والدعاء له إذا حضر » حديث رقم ٢٩٠ .

(٣) في د : وإن كان في الحال له في لذة .

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة في : س .

(٥) سورة الرحمن الآية ٢٩ .

والصنف الرابع الذين عبدوه واستعانوه فأعانهم على عبادته وطاعته ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد بين سبحانه ، ما خص به المؤمنين في قوله : ﴿ حببَ إليكم الإيمانَ وزينةُ في قلوبكم وكرَّهَ إليكم الكفرَ والفسوق والعصيان أولئكَ هم الرَّاشدونَ ﴾[١] والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أفضل المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين [٢] .

قال شيخ الإسلام
ابو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى

فصـــل

والعبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم . فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء ، فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية ، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين ، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، وهذه الآية مما يبين فساد مذهب القدرية .

وأما سؤال من يقول فقد هداهم فلا حاجة بهم إلى السؤال ، وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها ، كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب ، وما أمر الله به ؛ فإن ﴿ الصراط المستقيم ﴾ أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا يفعل ما نهى عنه ، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور ، فهذا العلم المفصل والارادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد ، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والارادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم .

نعم ! حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق ، والرسول حق ، ودين الاسلام حق ، وذلك حق ؛ ولكن هذا المجمل لا يغنيه ان لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التي يحار فيها أكثر عقول الخلق ، ويغلب الهوى والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم .

والإنسان خلق ظلوماً جهولاً ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧ .

(٢) إلى هنا انتهت نسخة دار الكتب فيما يختص الفاتحة ، والتكملة من نسخة س .

جهله ، وعدل ينافي ظلمه ، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : ﴿ إنَّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً ﴾[1] إلى قوله تعالى : ﴿ ويهديك صِراطاً مستقيماً ﴾ فاذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره .

و ﴿ الصراط المستقيم ﴾ قد فسر بالقرآن ، وبالاسلام ، وطريق العبودية وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فـ « القرآن » مشتمل على مهمات وأمور دقيقة ، ونواهي وأخبار وقصص وغير ذلك إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضال عنها ، وكذلك « الاسلام » ، وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة ، وكذلك « العبادة وما اشتملت عليه » .

فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه ، بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه ، فإذا انقطع رزقه مات ، والموت لا بد منه ، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية .

وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيداً وكان القتل من تمام النعمة ، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق : بل لا نسبة بينهما ، لأنه إذا هدى كان من المتقين ﴿ وَمَنْ يتق الله يجعل لهُ مخرجاً ، ويرزقهُ من حيثُ لا يحتسبُ ﴾[2] وكان ممن ينصر الله ورسوله ومن نصر الله نصره الله ، وكان من جند الله ، وهم الغالبون ، ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض .

و «ايضاً»فإنه يتضمن الرزق والنصر،لأنه إذا هدى ،ثم أمر وهدى غيره بقوله وفعله ورؤيته فالهدى التام أعظم ما يحصل به الرزق والنصر ، فتبين ان هذا الدعاء جامع لكل مطلوب ، وهذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها ، وأما فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع ، فاذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى والله أعلم .

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) أول سورة الفتح .

(٢) سورة الطلاق الآيات (٢ ، ٣) .

[تفسير سورة البقرة]

أولاً ! (عرض مجمل لما تضمنته السورة من معاني)

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصــل

وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه « سورة البقرة » من تقرير أصول العلم وقواعد الدين : ان الله تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين ، فوصف حال أهل الهدى ، ثم الكافرين ، ثم المنافقين . فهذه « جمل خبرية »[1] ثم ذكر « الجمل الطلبية » فدعا الناس إلى عبادته وحده ، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقاً للعباد[2] ، ثم قرر « الرسالة »[3] وذكر « الوعد ، والوعيد »[4] ثم ذكر مبدأ « النبوة والهدى » وما بثه في العالم من الخلق والأمر[5] ، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء ، وإسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم[6] ، فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق ؛ ، فقص جنس دعوة الأنبياء .

ثم انتقل إلى خطاب بني اسرائيل وقصة موسى معهم[7] ، وضمن ذلك تقرير نبوته إذ

---

(١) اقرأ الآيات من ١ ـ ٢٠ من السورة .

(٢) اقرأ الآيات من ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) اقرأ الآية ٢٣ .

(٤) اقرأ الآية ٢٤ .

(٥) اقرأ الآيات من ٢٥ ـ ٢٩ .

(٦) اقرأ الآيات من ٣٠ ـ ٣٨ . فهي متضمنة لقصة آدم .

(٧) استغرقت قصة بني إسرائيل مع موسى عدداً كبيراً من الآيات الكريمة في هذه السورة . فشملت الآيات من ٤٠ ـ ١٠٥ . وبدأت بتذكير الله لبني إسرائيل بنعمه الكثيرة وبفضله عليهم ، ونجاتهم من فرعون وبطشه ، وفلق البحر لهم . ثم رجوعهم إلى عبادة العجل وتوبيخ موسى لهم على ذلك . ثم ذكرت الآيات إظلال الغمام لهم وعيشهم في رغد ونعيم وأكلهم الطيب ، ثم ذكرت استسقاء موسى لهم وانفلاق الحجر وخروج الماء منه معجزة لموسى . وأمر موسى لهم بذبح =

هو قرين محمد ، فذكر آدم الذي هو اول،وموسى الذي هو نظيره ، وهما اللذان احتجا[١] ، وموسى قتل نفساً فغفر له ، وآدم أكل من الشجرة فتاب عليه ، وكان في قصة موسى رد على الصابئة ونحوهم ممن يقر بجنس النبوات ولا يوجب اتباع ما جاءوا به ، وقد يتأولون أخبار الأنبياء ، وفيها رد على أهل الكتاب بما تضمنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، وتقرير نبوته ، وذكر حال من عدل عن النبوة الى السحر ، وذكر النسخ الذي ينكره بعضهم[٢] وذكر النصارى وأن الأمتين لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم [٣] كل هذا في تقرير اصول الدين من الوحدانية والرسالة .

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الاسلام التي على ملة إبراهيم ، فذكر ابراهيم الذي هو إمام ، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم ، وذكر استقباله[٤] ، وقرر ذلك ، فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم ؛ ولهذا يقال : أهل القبلة ، كما يقال : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم »[٥] .

وذكر من « المناسك » ما يختص بالمكان ، وذلك أن الحج له مكان وزمان ، و « العمرة »

= البقرة وسؤالهم عنها وعن لونها . ثم تحريفهم الكتاب عن مواضعه واشترائهم به ثمناً قليلاً وقولهم هو من عند الله وما هو من عند الله . ثم بدأت الآيات تصف نفوس بني اسرائيل وقلوبهم وأنهم لا عهد ولا أمان لهم ، ثم ختمت القصة بذكر الوعيد لهم جزاء موقفهم من الأنبياء وقتلهم العديد منهم . وذكر خلال هذه القصة من الآيات ما يقرر جنس النبوة التي يتشرف بها كل الأنبياء . ومنهم آدم الذي سبق ذكر قصته في أول السورة . ثم موسى الذي تحاج معه . ثم محمد الذي سبقت هذه الآيات بما اشتملت عليه من قصص الأنبياء لتقرير نبوته هو . وأنه فيما يأتي قومه به من آيات ومعجزات ودعوة إلى الله من نظير آدم وموسى السابقين عليه ، ودعوته من جنس دعوتهم .

(١) يشير بذلك ابن تيمية الى الحديث الذي احتج فيه موسى على آدم بسبب أكله من الشجرة والحديث ثابت في الصحيحين ، للبخاري ومسلم ، وفيه احتج آدم وموسى : فقال موسى يا آدم أنت أبو البشر ، الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ .

فقال آدم : انت موسى الذي كلمك الله تكليما ، وكتب لك التوراة . فبكم تجد فيها مكتوباً وعصى آدم ربه فغوى قبل أن أخلق ؟ .

قال : بأربعين سنة .

قال : فحج آدم موسى ، ولابن تيمية رسالة مستقلة من الاحتجاج بالقدر ، وانظر البخاري ١٥٧/٧ (كتاب القدر . باب تحاج آدم وموسى عند الله) .

(٢) اقرأ الآية رقم ١٠٦ .

(٣) اقرأ الآية رقم ١٢٠ .

(٤) استغرقت قصة إبراهيم وبناء البيت مع ابنه اسماعيل وتقرير دعوة الرسل ووصيتهم الآيات من ١٢٤ ـ ١٣٣ .

(٥) ورد الحديث في البخاري (كتاب الصلاة ، باب فضل استقبال القبلة) وهو من رواية أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، ولفظه « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته » .

وانظر أيضاً : الترمذي (كتاب الإيمان) ، النسائي (كتاب التحريم) ، ابن حنبل ١٩٩/٣ .

لها مكان فقط ، والعكوف والركوع والسجود شرع فيه ، ولا يتقيد به ؛ ولا بمكان ، ولا بزمان ، لكن الصلاة تتقيد باستقباله . فذكر سبحانه هذه الانواع الخمسة : من العكوف ، والصلاة ، والطواف ، والعمرة ، والحج ، والطواف يختص بالمكان فقط ، ثم أتبع ذلك ما يتعلق بالبيت من الطواف بالجبلين وأنه لا جناح فيه جواباً لما كان عليه الانصار في الجاهلية من كراهة الطواف بهما لاجل إهلالهم لمناة ، وجواباً لقوم توقفوا عن الطواف بهما[١] .

وجاء ذكر الطواف بعد العبادات المتعلقة بالبيت - بل وبالقلوب والابدان والأموال - بعدما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلاة اللذين لا يقوم الدين إلا بهما ، وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسس على الصبر ، لأن ذلك من تمام أمر البيت ، لأن أهل الملل لا يخالفون فيه ، فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه ، وذكر الصبر على المشروع والمقدور ، وبين ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين[٢] . فإنها أعطيت ما لم تعط الأمم قبلها ، فكان ذلك من خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلقة بالبيت ، ولهذا يقرن بين الحج والجهاد لدخول كل منهما في سبيل الله فأما الجهاد فهو أعظم سبيل الله بالنص والاجماع ، وكذلك الحج في الأصح كما قال : « الحج من سبيل الله »[٣] .

وبين أن هذا معروف عند أهل الكتاب بذمه لكاتم العلم ، ثم ذكر أنه لا يقبل ديناً غير ذلك . ففي أولها : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ . وفي أثنائها : ﴿ ومن النَّاسِ من يتخذ من دونِ الله أنداداً ﴾ فـ « الأول » نهي عام و« الثاني » نهي خاص ، وذكرها بعد البيت لينتهي عن قصد الأنداد المضاهية له ولبيته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك ، ووحد نفسه قبل ذلك ، وأنه ﴿ لا إله إلا هوَ الرحمن الرحيم ﴾ ، ثم ذكر ما يتعلق بتوحيده من الآيات[٤] .

ثم ذكر الحلال والحرام ، وأطلق الأمر في المطاعم ، لأن الرسول بعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت ، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة[٥] ، وفي الدماء بما شرعه من القصاص ، ومن

---

(١) ذكرت هذه العبادات الخمس وما يتعلق بها في الآيات من رقم ١٤٤ - ١٥٨ ، حيث يذكر الطواف بين الصفا والمروة وأن ذلك من شعائر الله .

(٢) اقرأ الآية ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٣) في البخاري ٢/١٦٤ (كتاب الحج . باب فصل الحج المبرور) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت يا رسول الله ، الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ، قال :لا ، لكُنَّ أفضل الجهاد حج مبرور »، وانظر أيضاً البخاري (كتاب الجهاد) .

(٤) جاء ذلك في الآيات من ١٦٣ - ١٦٧ .

(٥) جاء ذلك في الآية رقم : ١٧٢ ، ١٧٣ .

أخذ الدية[١] ، ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان ، فذكر الوصية المتعلقة بالموت[٢] ، ثم الصيام المتعلق برمضان ، وما يتصل به من الاعتكاف ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان فإنه يختص بالمسجد وبالزمان استحباباً أو وجوباً بوقت الصيام ، ووسطه أولاً بين الطواف والصلاة ، لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام ، والصلاة تشرع في جميع الأرض ، والعكوف بينهما[٣] .

ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الاموال بالباطل[٤] ، وأخبر أن المحرم « نوعان » : نوع لعينة كالميتة ، نوع لكسبه كالربا والمغصوب ، فاتبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت تحريمه لعينه ، وذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقل ، الحرام المنتقل ، ولهذا اتبعه بقوله : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ الآية ، وهي أعلام العبادات الزمنية ، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج لان البيت تحجه الملائكة والجن ، فكان هذا أيضاً في أن الحج موقت بالزمان كأنه موقت بالبيت المكاني ، ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحج ما يختص بالزمان مع أن المكان من تمام الحج والعمرة .

وذكر « المحصر » وذكر تقديم الإحلال المتعلق بالمال وهو الهدى على الإحلال المتعلق بالنفس وهو الحلق ، وأن المتحلل يخرج من إحرامه فيحل بالأسهل فالأسهل ، ولهذا كان آخر ما يحل عين الوطء فإنه أعظم المحظورات ولا يفسد النسك بمحظور سواه .

وذكر « التمتع بالعمرة إلى الحج » لتعلقه بالزمان مع المكان فإنه لا يكون متمتعاً حتى يحرم بالعمرة في أشهر الحج . وحتى لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام ـ وهو الأفقي ـ فإنه الذي يظهر التمتع في حقه لترفهه بسقوط أحد السفرين عنه ، أما الذي هو حاضر فسيان عنده تمتع أو اعتمر قبل أشهر الحج ، ثم ذكر وقت الحج ، وأنه أشهر معلومات ، وذكر الإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ، فإن هذا مختص بزمان ومكان ، ولهذا قال : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ ولم يقل : ﴿ والعمرة ﴾ لأنها تفرض في كل وقت ، ولا ريب أن السُّنة فرض الحج في أشهره ، ومن فرض قبله خالف السُّنة ، فأما أن يلزمه ما التزمه كالنذر ـ إذ ليس فيه نقض للمشروع وليس كمن صلى قبل الوقت ـ وإما أن يلزم الاحرام ويسقط الحج ويكون معتمراً وهذان قولان مشهوران .

ثم أمر عند قضاء المناسك بذكره وقضائها ـ والله أعلم ـ قضاء التفث والإحلال ، ولهذا

---

(١) جاء ذلك في الآية رقم ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) اقرأ الآية رقم : ١٨٠ .

(٣) استغرق الحديث عن فريضة الصيام الآيات من ١٨٣ ـ ١٨٧ .

(٤) جاء ذلك في الآية ١٨٩ .

قال بعد ذلك : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ وهذا أيضاً من العبادات الزمانية المكـانية . وهو ذكر الله تعالى مع رمي الجمار ومع الصلوات ، ودل على أنه مكـاني قولـه : ﴿ فمن تعجل في يومين ﴾ الآية ، وإنما يكـون التعجيل والتـأخير في الخـروج من المكان ، ولهـذا تضاف هـذه الأيام إلى مكانها فيقال : أيام منى ، وإلى عملها فيقال : أيام التشريق ، كما يقال : ليلة جمـع ، وليلة مـزدلفة ، ويـوم عرفـة ،ويوم الحج الأكبـر ، ويوم الجمعـة فتضاف إلى الأعمـال وأمـاكن الأعمال ، إذ الزمان تابع للحركة ، والحركة تابعة للمكان[1] .

فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض ، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في مـوضعين : مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه ، ومـوضع ذكـر فيه الأهلة فـذكر مـا يتعلق بزمـانه ، وذكـر أيضاً القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام لأن ذلك مما يتعلق بالـزمان المتعلق بـالمكان ، ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج .

وذكر أن « البر » ليس أنه يشقى الرجل نفسه ويفعل ما لا فائدة فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظل بسقف بيتـه حتى إذا أراد دخول بيتـه لا يأتيـه إلا من ظهره فـأخبر أن الهـلال الذي جعل ميقاتاً للحج شـرع مثل هـذا ، وإنما تضمن شـرع التقوى ، ثم ذكـر بعد ذلـك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات[2] ، وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والـديون وغـير ذلك[3] ، ثم ختمها بالـدعاء العـظيم المتضمن وضع الآصـار ، والأغلال ، والعفـو ، والمغفرة ، والـرحمة وطلب النصر على القوم الكافرين ، الذي هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين[4] .

والحمد لله رب العالمين ؟

---

(١) استغرق الحديث عن فريضة الحج والعمرة ، وشروطها وأركانها وأحوال الحج من إفراد أو قران وغير ذلك ، الآيات من : ١٩٦ ـ ٢٠٣ .

(٢) جاء ذلك في الآيات من ٢٢١ ـ ٢٤١ حيث ذكر فيها أحكام النكاح والخطبة والطلاق وما يتعلق بها من أحكام .

(٣) جاء ذلك في الآيات من ٢٦١ ـ ٢٨٣ .

(٤) وهـو قولـه عز شـأنه : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لهـا ما كسبت وعليهـا ما اكتسبت ربنـا لا تؤاخـذنـا إن نسينـا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

ثانياً ـ (دقائق تضمنتها السورة)

قال شيخ الإسلام

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب التفسير » إلا ما هو خطأ :

منها قوله : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ الآية ، ذكر أن المشهور أن ﴿ السيئة ﴾ الشرك ، وقيل الكبيرة يموت عليها . قاله عكرمة ، قال مجاهد : هي الذنوب تحيط بالقلب .

قلت : الصواب ذكر أقوال السلف وإن كان فيها [ما هو] ضعيف فالحجة تبين ضعفه ، فلا يعدل عن ذكر أقوالهم لموافقتها قول طائفة من المبتدعة ، وهم ينقلون عن بعض السلف أن هذه الآية أخطأ فيها الكاتب كما قيل في غيرها ، ومن أنكر شيئاً من القرآن بعد تواتره استتيب ، فإن تاب وإلا قتل ، وأما قبل تواتره عنده فلا يستتاب ، لكن يبين له ، وكذلك الأقوال التي جاءت الأحاديث بخلافها : فقهاً ، وتصوفاً واعتقاداً ، وغير ذلك .

وقول مجاهد صحيح ، كما في الحديث الصحيح : « إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء »[1] الخ .

والذي يغشى القلب يسمى « ريناً » و « طبعاً » و « ختماً » و « قفلاً » ونحو ذلك ، فهذا ما أصر عليه . و « إحاطة الخطيئة » إحداقها به فلا يمكنه الخروج [عنها] ، وهذا هو البسل بما كسبت نفسه ، أي : تحبس عما فيه نجاتها في الدارين ، فإن المعاصي قيد وحبس لصاحبها عن الجولان في فضاء التوحيد ، وعن جني ثمار الأعمال الصالحة .

ومن المنتسبين إلى السنة من يقول : إن صاحب الكبيرة يعذب مطلقاً والأكثرون على

---

(١) ورد الحديث في ابن حنبل ٢/٢٩٧ ، ابن ماجه (كتاب الزهد) ، وبلفظ مختلف في : مسلم (كتاب الإيمان) الترمذي (كتاب التفسير ـ تفسير سورة الانفطار) .

خلافه ، وان الله سبحانه يزن الحسنات والسيئات وعلى هذا دل الكتاب والسنة وهو معنى الوزن ، لكن تفسير السيئة بالشرك هو الأظهر لأنه سبحانه غاير بين المكسوب والمحيط ، فلو كان واحداً لم يغاير ، والمشرك له خطايا غير الشرك أحاطت به لأنه لم يتب منها .

و « أيضاً » قوله : ﴿ سيئة ﴾ نكرة ، وليس المراد جنس السيئات بالاتفاق .

و « أيضاً » لفظ ﴿ السيئة ﴾ قد جاء في غير موضع مراداً به الشرك ، وقوله : ﴿ سيئة ﴾ أي حال سيئة أو مكان سيئة ونحو ذلك ، كما في قوله : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ أي حالاً حسنه تعم الخير كله ، وهذا اللفظ يكون صفة ، وقد ينقل من الوصفية إلى الاسمية ، ويستعمل لازماً أو متعدياً يقال : ساء هذا الأمر أي قبح ، ويقال : ساءني هذا ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ عملوا الشرك ، لأنه وصفهم بهذه فقط ، ولو آمنوا لكان لهم حسنات ، وكذا لما قال : ﴿ كسب سيئة ﴾ لم يذكر حسنة كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ أي فعلوا الحسنى ، وهو ما أمروا به ، كذلك ﴿ السيئة ﴾ تتناول المحظور فيدخل فيها الشرك .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصــــل

﴿ في معنى لفظ الغيب والشهادة ﴾

قال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنَا فوقكم سبعَ طرائقَ ، وما كنَّا عن الخلقِ غافلينَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ، ولنسألنَّ المرسلينَ ، فلنقصنَّ عليهم بعلمٍ وما كنَّا غائبينَ ﴾ (٢) وقد قال تعالى : ﴿ الَّذينَ يؤمنُونَ بالغيبِ ﴾ (٣) قال طائفة من السلف : « الغيب » هو الله ، أو من الإيمان بالغيب الايمان بالله . ففي موضع نفى عن نفسه أن يكون غائباً ، وفي موضع جعل نفسه غيباً .

ولهذا اختلف الناس في هذه المسألة ، فطائفة من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم -

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٧ .

(٢) سورة الأعراف الآيات (٦ ـ ٧) .

(٣) سورة البقرة الآية ٣ .

كالقاضي وابن عقيل [1] وابن الزاغوني [2] - يقولون : بقياس الغائب على الشاهد ، ويريدون بالغائب الله ، ويقولون : قياس الغائب على الشاهد ثابت بالحد والعلة والدليل والشرط . كما يقولون في مسائل الصفات في إثبات العلم والقدرة والارادة وغير ذلك . وأنكر ذلك عليهم طائفة منهم الشيخ أبو محمد في رسالته إلى أهل رأس العين ، وقال : لا يسمى الله غائباً واستدل بما ذكر .

وفصل الخطاب بين الطائفتين أن اسم « الغيب ، والغائب » من الأمور الإضافية يراد به ما غاب عنا فلم ندركه ، ويراد به ما غاب عنا فلم يدركنا ، وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مغيباً مطلقاً لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا ، والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم مهيمن عليهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فليس هو غائباً وإنما [لما] لم يره العباد كان غيباً ، ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب ، فإن « الغائب » اسم فاعل من قولك غاب يغيب فهو غائب والله شاهد غير غائب ، وأما « الغيب » فهو مصدر غاب يغيب غيباً ، وكثيراً ما يوضع المصدر موضع الفاعل كالعدل والصوم والزور ، وموضع المفعول كالخلق والرزق ودرهم ضرب الأمير .

ولهذا يقرن الغيب بالشهادة ، وهي أيضاً مصدر ، فالشهادة هي المشهود أو الشاهد ، والغيب هو إما المغيب عنه فهو الذي لا يشهد نقيض الشهادة ؛ وإما بمعنى الغائب الذي غاب عنا فلم نشهده فتسميته باسم المصدر فيه تنبيه على النسبة إلى الغير أي ليس هو بنفسه غائباً ، وإنما غاب عن الغير أو غاب الغير عنه .

وقد يقال اسم « الشهادة ، والغيب » يجمع النسبتين ، فالشهادة ما شهدنا وشهدناه ، والغيب ما غاب عنا وغبنا عنه فلم نشهده ، وعلى كل تقدير فالمعنى في كونه غيباً هو انتفاء شهودنا له ، وهذه تسمية قرآنية صحيحة ، فلو قالوا : قياس الغيب على الشهادة لكانت العبارة موافقة ، وأما قياس الغائب ففيه مخالفة في ظاهر اللفظ ولكن موافقة في المعنى ، فلهذا حصل في إطلاقه التنازع .

---

(١) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي المعروف بأبي الوفاء ، من كبار الحنابلة المجتهدين الذين خالفوا المذهب ولجأوا إلى التأويل مثل ابن الجوزي ، كان محباً للحلاج فنفر منه الحنابلة وأرادوا قتله ، ولد سنة ٤٣١ ، وتوفي سنة ٥١٣ هـ . انظر عنه : الذيل لابن رجب ١/١٤٢ - ١٦٣ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤/٣٥ - ٤٠ ، لسان الميزان ٤/٢٤٣ - ٢٤٤ ؛ الاعلام ٥/١٢٩ ، وانظر بروكلمان GAL الملحق ٣ / ٥٠٢ .

(٢) هو علي بن عبد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني . ولد سنة ٤٥٥ وتوفي سنة ٥٢٧ - من كبار الحنابلة ، انظر ترجمة الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ١٨٠ - ١٨٤ ، شذرات الذهب ٤/ ٨٠ - ٨١ ، المنتظم لابن الجوزي ١٠ / ٣٢ ، اللباب لابن الأثير : ١ / ٤٨٩ ؛ الاعلام : ٥ / ١٢٤ - ١٢٥ .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصـــل

(في قياس التمثيل وقياس الشمول)

المثل في الأصل هو الشبيه وهو نوعـان : لأن القضية المعينـة إما أن تكـون شبهاً معينـاً أو عاماً كلياً ، فإن القضايا الكلية التي تعلم وتقال وهي مطابقة مماثلة لكل ما يندرج فيهـا ، وهذا يسمى قياس في لغة السلف واصطلاح المنطقيين، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين أيضاً يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح الفقهاء ، وهو الذي يسمى قياس التمثيل .

ثم من متـأخري العلماء ـ كالغزالي [١] وغيـره ـ من ادعى أن حقيقة القياس إنما يقـال عـلى هذا ، وما يسميه تأليف القضايا الكليـة قياسـاً فمجاز من جهـة أنه لم يشبـه فيه شيء بشيء ، وإنما يلزم من عموم الحكم تساوي أفراده فيه ، ومنهم من عكس كأبي محمد بن حزم [٢] ، فإنه زعم أن لفظ القياس إنما ينبغي أن يكون في تلك الأمور العامة وهو القياس الصحيح .

والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما في القرآن ، كـما سأذكـره إن كليهما قيـاس وتمثيل واعتبار ، وهو في قياس التمثيل ظاهر ، وأما قياس التكليل والشمـول فلأنـه يقاس كـل واحـد من الأفراد بـذلك المقيـاس العام الثـابت في العلم والقول ، وهـو الأصل ، كـما يقـاس الواحد بالأصل الـذي يشبهه ، فـالأصل فيهـا هو المثـل ، والقياس هـو ضرب المثـل ، وأصله ـ والله أعلم ـ تقديره ، فضرب المثل للشيء تقديره له ، كما أن القيـاس أصله تقديـر الشيء ، ومنه ضرب الدرهم وهو تقديره ، وضرب الجزيـة والخراج وهـو تقديـرهما ، والضـريبة المقـدرة والضرب في الأرض ، لأنه يقدر أثر الماشي بقدره ، وكذلك الضـرب بالعصى لأنـه تقديـر الألم بالآلة ، وهـو جمعه وتـأليفه وتقـديره ، كـما أن الضريبـة هي المال المجمـوع والضريبـة الخلق ، وضرب الدرهم جمع فضة مؤلفـة مقدرة ، وضـرب الجزيـة والخراج إذا فـرضه وقـدره على مـر السنين ، والضرب في الأرض الحركات المقدرة المجموعة الى غاية محددة ، ومنه تضريب الثـوب المحشو وهو تأليف خلله طرائق طرائق .

ولهذا يسمون الصورة القياسية الضرب ، كما يقال للنوع الواحد ضرب لتـألفه واتفـاقه ، وضرب المثل لما كان جمعاً بين علمـين يطلب منهـا علم ثالث كـان بمنزلـة ضراب الفحل الذي يتولد عنه الولد ، ولهذا يقسمون الضرب الى ناتج وعقيم كـما ينقسم ضرب الفحـل للأنثى الى

---

(١) أبو حامد الغزالي (حجة الاسلام) محمد بن محمد بن محمد من أشهر رجال الاشاعرة توفي سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد من كبار علماء الأندلس توفي سنة ٤٥٦ -٨ وهو غني عن التعريف به .

ناتج وعقيم ، وكل واحد من نوعي ضرب المثل ـ وهو القياس ـ تارة يراد به التصوير وتفهيم المعنى ، وتارة يراد به الدلالة على ثبوته والتصديق به ، فقياس تصور وقياس تصديق فتدبر هذا .

(نوعا قياس التمثيل)

وكثيراً ما يقصد كلاهما ، فان ضرب المثل يوضح صورة المقصود وحكمه . وضرب الأمثال في المعاني نوعان هما نوعا القياس :

(النوع الأول)

« أحدهما » : الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود أو مقدر ، وهي في القرآن بضع وأربعون مثلا ، كقوله : ﴿ مثلهُمْ كمثلِ الَّذي استوْقدَ ناراً ﴾ (1) إلى آخره وقوله : ﴿ مثلُ الَّذينَ ينفقونَ أموالهم في سبيلِ اللهِ كمثلِ حبةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ في كلِّ سنبلةٍ مائة حبةٍ ﴾ (2) . وقوله : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُبطِلُوا صدقاتكم بالمنِّ والأذىٰ كالَّذي يُنفِقُ مالهُ رئاءَ النّاسِ ، ولا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر ، فمثلهُ كمثلِ صفوانٍ عليه تراب ﴾ (3) الآية ﴿ ومثلُ الَّذين ينفقونَ أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ وتثبيتاً من أنفسهِمْ كمثلِ جنةٍ بربوةٍ أصابَها وابلٌ ، فآتت أكُلُهَا ضعفينِ ﴾ (4) .

فان التمثيل بين الموصوفين الذين يذكرهم من المنافقين ، والمنفقين والمخلصين منهم والمرائين ، وبين ما يذكره سبحانه من تلك الأمثال هو من جنس قياس التمثيل ، الذي يقال فيه : مثل الذي يقتل بكودين القصار كمثل الذي يقتل بالسيف ، ومثل الهرة تقع في الزيت كمثل الفأرة تقع في السمن ونحو ذلك ، ومبناه على الجمع بينهما ، والفرق في الصفات المعتبرة في الحكم المقصود إثباته أو نفيه ، وقوله : مثله كمثل كذا . تشبيه للمثل العلمي بالمثل العلمي لأنه هو الذي يتوسطه يحصل القياس ، فإن المعتبر ينظر في أحدهما فيتمثل في علمه ، وينظر في الآخر فيتمثل في علمه ثم يعتبر أحد المثلين بالآخر فيجدهما سواء ، فيعلم أنهما سواء في أنفسهما لاستوائهما في العلم ، ولا يمكن اعتبار أحدهما بالآخر في نفسه حتى يتمثل كل منهما في العلم ،

---

(1) سورة البقرة الآية : ١٧ .

(2) سورة البقرة الآية : ٢٦١ .

(3) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

(4) سورة البقرة الآية ٢٦٥ .

فان الحكم على الشيء فرع على تصوره ، ولهذا والله أعلم يقال مثل هذا كمثل . . [1] .

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع ، كقوله : ﴿ أيودُّ أحدكم أن تكونَ له جنة من نخيلٍ وأعناب تجري من تحتها الأنهارُ ، لهُ فيها من كلِّ الثمراتِ وأصابهُ الكبرُ ؟ ﴾ إلى قوله : ﴿ كذلكَ يبينُ الله لكم الآيات لعلّكم تتفكرونَ ﴾ [2] فإن هذا يحتاج الى تفكر ، ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي أرضاه .

ونظير ذلك ذكر القصص ، فانها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار ، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها ، لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب . فيقال فيها : ﴿ لقد كانَ في قصصهم عبرةً لأولي الألبابِ ﴾ [3] ويقال عقب حكايتها : ﴿ فاعتبرُوا يا أُولي الأَبصَارِ ﴾ [4] ويقال : ﴿ قد كان لكم آيةً في فئتينِ التقتا ﴾ [5] إلى قوله : ﴿ إن في ذلكَ لعبرةً لأولي الأبصار ﴾ [6] والاعتبار هو القياس بعينه ، كما قال ابن عباس لما سئل عن دية الأصابع فقال هي سواء واعتبروا ذلك بالأسنان أن قيسوها بها ، فان الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع ، فكذلك الأصابع ، ويقال : اعتبرت الدراهم بالصنجة إذا قدرتها بها .

(النوع الثاني)

« النوع الثاني » الأمثال الكلية ، وهذه التي أشكل تسميتها أمثالاً ، كما أشكل تسميتها قياساً ، حتى اعترض بعضهم قوله : ﴿ يا أيُّها الناس ضُربَ مثلٌ فاستمعُوا لهُ ﴾ [7] فقال : أين المثل المضروب ؟ وكذلك إذا سمعوا قوله : ﴿ ولقد ضربنَا للنَّاسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ ﴾ [8] يبقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال ، وقد رأوا عدد ما في تلك الأمثال المعينة بضعاً وأربعين مثلا .

وهذه « الأمثال » تارة تكون صفات ، وتارة تكون أقيسة ، فإذا كانت أقيسة فلا بد فيها

(١) بياض بالأصل .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٦ .
(٣) سورة يوسف الآية ١١١ .
(٤) سورة الحشر الآية ٢ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(٦) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(٧) سورة الحج الآية : ٧٣ .
(٨) سورة الروم الآية : ٥٨ .

من خبرين هما قضيتـان وحكمان ، وأنـه لا بد أن يكـون أحدهمـا كلياً ، لأن الأخبـار التي هي القضايا لما انقسمت إلى معينة ومطلقة وكلية وجزئية ، وكل من ذلك انقسم إلى خبر عن إثبات وخبر عن نفي ، فضرب المثل الذي هو القياس لا بد أن يشتمل على خبر عـام وقضية كليـة ، وذلك هو المثل الثابت في العقل الذي تقاس به الأعيان المقصود حكمها ، فلولا عمومه لما أمكن الاعتبـار ، لجواز أن يكـون المقصود حكمـه خارجـاً عن العموم ، ولهـذا يقال : لا قيـاس عن قضيتين جزئيتين ، بل لا بد أن تكون إحداهما كلية ، ولا قياس أيضاً عن سالبتـين ، بل لا بـد أن تكون إحداهما موجبة ، وإلا فالسلبان لا يدخل أحدهما في الآخر [بـل] لا بد فيـه من خبر يعم .

وجملة مـا يضرب من الأمثـال ستة عشـر ، لأن الأولى إما جـزئيـة وإمـا كليـة ، مثبتـة أو نافية ، فهذه أربعة إذا ضربتها في أربعة صارت ستة عشر ، تحذف منها الجـزئيتين سـواء كانتـا مـوجبتين أو سـالبتين ، أو إحـداهما سـالبـة والأخـرى مـوجبـة ، فهـذه ست من ستـة عشـر ، والسالبتين سواء كانتـا جزئيتـين أو كليتين أو إحـداهما دون الأخـرى ، لكن إذا كانتـا جزئيتـين سالبتين فقد دخلت في الأول يبقى ضربان محذوفين من ستة عشر . ويحذف منها السالبـة الكلية الصغرى مع الكبرى الموجبة الجزئية ، لأن الكبرى إذا كانت جزئية لم يجب أن يلاقيها السلب ، بخلاف الإيجاب ، فان الايجابين الجزئيين يلتقيان ، وكذلك الايجـاب الجزئي مـع السلب الكلي يلتقيان لاندراج ذلك الموجب تحت السلب العام .

يبقى من الستة عشر ستـة أضرب ، فـإذا كانت إحـداهما مـَوجبة كليـة جاز في الأخـرى الأقسام الأربعة ، وإذا كانت سالبة كلية جـاز أن تقارنها المـوجبتان ، لكن تقـدم مقارنـة الكلية لها ، ولا بد في الجزئية أن تكون صغرى ، وإذا كانت موجبة جزئيـة جاز أن تقـارنها الكليتان ، وقد تقدمتا ، وإذا كانت سالبة جـزئية لم يجـز أن يقارنها إلا مـوجبة كليـة ، وقد تقـدمت ، فيقر الناتج ستة ، والملغى عشرة وبالاعتبارين تصير ثمانية .

فهذه الضروب العشرة مدار ثمانية منها على الإيجاب العام ، ولا بد في جميع ضـروبه من أحـد أمرين ، إما إيجاب وعموم ، وإما سلب وخصوص ، فنقيضان لا يفيد اجتماعهما فائدة ، بـل إذا اجتمـع النقيضان من نـوعين كسـالبة كليـة وموجبـة جزئيـة فتفيد بشـرط كون الكبـرى هي العامة ، فظهر أنـه في كل قيـاس من ثبوت وعمـوم ، إما مجتمعـين في مقدمـة وإما مفتـرقين في المقدمتين .

وأيضـاً مما يجب أن يعلم أن غـالب الأمثال المضـروبة ، والأقيسـة إنما يكـون الخفي فيهـا احدى القضيتين ، وأما الأخرى فجلية معلومة ، فضـارب المثل ونـاصب القياس إنمـا يحتاج أن يبين تلك القضية الخفية ، فيعلم بذلك المقصود لَما قاربها في الفعل من القضنية السلبية ، والجلية هي الكبرى التي هي أعم .

فان الشيء كلما كان أهم كان أعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في العقل ، وخير الكلام ما قلّ ودلّ ، فلهذا كانت الأمثال المضروبة في القرآن تحذف منها القضية الجلية لأن في ذكرها تطويلاً وعيا ، وكذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين يعد تطويلاً .

واعتبر ذلك بقوله : ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ الله لفسدتَا ﴾ [1] ما أحسن هذا البرهان ! فلو قيل بعده : وما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله لكان هذا من الكلام الغث الذي لا يناسب بلاغة التنزيل ، وإنما ذلك من تأليف المعاني في العقل مثل تأليف الأسماء من الحروف في الهجاء والخط إذا علمنا الصبي الخط نقول: « با » « سين » « ميم » صارت (بسم) فاذا عقل لم يصلح له بعد ذلك أن يقرأه تهجياً فيذهب ببهجة الكلام ، بل قد صار التأليف مستقراً ، وكذلك النحوي إذا عرف أن « محمد رسول الله » مبتدأ وخبر لم يلف كلما رفع مثل ذلك أن يقول : لانه مبتدأ و خبر . فتأليف الأسماء من الحروف لفظاً ومعنى ، وتأليف الكلم من الأسماء ، وتأليف الأمثال من الكلم جنس واحد .

ولهذا كان المؤلفون للأقيسة يتكلمون أولا في مفردات الألفاظ والمعاني التي هي الأسماء ، ثم يتكلمون في تأليف الكلمات من الأسماء الذي هو الخبر والقصة والحكم ، ثم يتكلمون في تأليف الأمثال المضروبة الذي هو « القياس » « البرهان » و« الدليل » و« الآية » و« العلامة » . فهذا مما ينبغي أن يتفطن له ، فإن من أعظم كمال القرآن تركه في أمثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة ، ثم إتباع ذلك بالإخبار عن النتيجة التي قد علم من أول الكلام أنها هي المقصود ؛ بل إنما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره وينتفع بمعرفته ، فذلك هو البيان ، وهو البرهان ، وأما ما لا حاجة إلى ذكره فذكره عي .

وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانيين الجهال والمنطقيين الضلال حيث قال بعض أولئك : الطريقة الكلامية البرهانية في أساليب البيان ليست في القرآن إلا قليلاً ، وقال الثاني ، إنه ليس في القرآن برهان تام ، فهؤلاء من أجهل الخلق باللفظ والمعنى ، فإنه ليس في القرآن إلا الطريقة البرهانية المستقيمة لمن عقل وتدبر .

و« أيضاً » فينبغي أن يعرف أن مدار ضرب المثل ونصب القياس على العموم والخصوص والسلب والايجاب ، فإنه ما من خبر إلا وهو إما عام أو خاص : سالب أو موجب ، فالمعين خاص محصور ، والجزئي أيضاً خاص غير محصور ، والمطلق إما عام وإما في معنى الخاص .

فينبغي لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف « صيغ النفي والعموم » فإن ذلك يجيء في القرآن على أبلغ نظام .

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٢ .

مثال ذلك أن « صيغة الاستفهام » يحسب من أخذ ببادىء الرأي أنها لا تدخل في القياس المضروب ، لأنه لا يدخل فيه إلا القضايا الخبرية، وهذه طلبية ، فإذا تأمل وعلم أن أكثر استفهامات القرآن أو كثيراً منها إنما هي استفهام إنكار معناه الذم والنهي إن كان إنكاراً شرعياً ، أو معناه النفي والسلب إن كان إنكار وجود ووقوع ، كما في قوله : ﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقهُ ، قال : ﴿ من يحيى العظامَ وهي رميم ﴾[1] ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكُمْ من شركاء فيما رزقناكم ﴾[2] الآية ،كذلك قوله : ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾[3] وقوله في تعديد الآيات : ﴿أإله مع الله ﴾ أي أفعل هذه إله مع الله ؟! والمعنى ما فعلها إلا الله ، وقوله : ﴿ أم خلقوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالقونَ ﴾[4] وما معها ، وهذا الذي ذكرناه الذي جاء به القرآن هو ضرب الأمثال من جهة المعنى .

وقد يعبر في اللغة بضرب المثل أو بالمثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة ، لكن لا يستفاد منه الدليل على الحكم كأمثال القرآن ، وهو أن يكون الرجل قد قال كلمة منظومة أو منثورة لسبب اقتضاء فشاعت في الاستعمال ، حتى يصار يعبر بها عن كل ما أشبه ذلك المعنى الأول ، وان كان اللفظ في الأصل غير موضوع لها ، فكأن تلك الجملة المثلية نقلت بالعرف من المعنى الخاص الى العام كما تنقل الألفاظ المفردة فهذا نقل في الجملة مثل قولهم : « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » هو مواز لقولهم : « أنت جنيت هذا » لأن هذا المثل قيل ابتداء لمن كانت جنايته بالإيكاء والنفخ ، ثم صار مثلاً عاماً ، وكذلك قولهم : « الصيف ضيعت اللبن » مثل قولك « فرطت وتركت الحزم ، وتركت ما يحتاج اليه وقت القدرة عليه حتى فات » ، وأصل الكلمة قيلت للمعنى الخاص .

وكذلك « عسى العويدا بؤساً » أي أتخاف أن يكون لهذا الظاهر الحسن باطن رديء ؟ فهذا نوع من البيان يدخل في اللغة والخطاب ، فالمتكلم به حكمه حكم المبين بالعبارة الدالة ، سواء كان المعنى في نفسه حقاً أو باطلاً ، إذ قد يتمثل به في حق من ليس كذلك ، فهذا تطلبه في القرآن من جنس (ما) تطلب الألفاظ العرفية ، فهو نظر في دلالة اللفظ على المعنى لا نظر في صحة المعنى ودلالته على الحكم ، وليس هو المراد بقوله : ﴿ ولقد ضربنا للنَّاسِ في هذا القرآنِ من كل مثلٍ ﴾[5] فتدبر هذا فانه يجلو عنك شبهة لفظية ومعنوية .

وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجود في القرآن منها أجناسها ، وهي معلنة ببلاغة لفظه

---

(١) سورة يس الآية ٧٨ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٨ .
(٣) سورة النمل الآية ٥٩ .
(٤) سورة الطور الآية ٣٥ .
(٥) سورة الروم الآية ٥٨ .

ونظمه وبراعة بيانه اللفظي ، والذين يتكلمـون في علم البيان وإعجـاز القرآن يتكلمـون في مثل هذا .

ومن الناس من يكون أول ما يتكلم بالكلمـة صارت مثـلاً ، ومنهم من لا تصير الكلمـة مثلاً حتى يتمثل بها الضارب فيكون هذا أول من تمثل بها ، كقوله ﷺ : « الآن حمى الوطيس » وكقوله : « مسعر حرب » ونحو ذلك ، لكن النفي بصيغة الاستفهام المضمن معنى الإنكـار هو نفي مضمن دليل النفي ، فلا يمكن مقابلته بمنع ، وذلك أنـه لا ينفي باستفهـام الانكار إلا مـا ظهر بيانه أو ادعى ظهور بيانه ، فيكون ضاربه إما كاملاً في استدلاله وقياسه ، وإمـا جاهـلاً ، كالذي قال : ﴿ من يحيى العظامَ وهي رميم ﴾ .

إذا تبين ذلك فالامثال المضروبة في القـرآن منها مـا يصرح فيـه بتسميته مثـلاً ومنها مـا لا يسمى بذلك ﴿ مثلهم كمثلِ الَّذي استـوقدَ ﴾[1] والـذي يليه ﴿ إن الله لا يستحي أن يضـربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها ﴾[2] ﴿ ومثل الذين كفروا كمثـل الَّذي ينعقُ ﴾[3] ﴿ ولمـا يأتكم مثـلُ الَّـذين خلوا من قبلكُمْ ﴾[4] ﴿ مثل الـذين ينفقُـونَ أمـوالهم في سبيـلِ الله ﴾[5] ﴿ لا تُبـطِلُوا صدقاتكم بالمنِّ والأذىٰ كالذي ينفقُ مالهُ رئَاءَ النَّاسِ ﴾[6] الآية ﴿ ومثل الَّذينَ ينفقـونَ أموالهم ابتغاءَ مرضـاةِ الله ﴾[7] والذي بعـده ليس فيه لفظ مثـل ﴿ كدأبِ آلِ فـرعونَ ﴾[8] في الثـلاثة ﴿ قد كان لكم آية ﴾[9] ﴿ مثل ما ينفقون في هذهِ الحياةِ الدُّنيا ﴾[10]وقوله : ﴿ أرأيتم إنْ أخـذ الله سمعكم ﴾[11].

ومن هذا الباب قوله : ﴿ ولا أقـول لكم ﴾[12] الآية ، ويسمى جـدالاً ﴿ فمثله كمثل الكلب ـ الى قوله ـ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾[13] ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السـماء ﴾[14] الآيـة ﴿ مثـل الفـريقـين كـالأعمى والأصم ﴾[15] ﴿ إلاَّ كبـاسطٍ كفيـهِ الى الماءِ ﴾[16] وقول يوسف : ﴿ أأرباب متفرقونَ ﴾[17] ﴿ قل هل يستوى الأعمىٰ والبصير ﴾[18] الآية

(1) سورة البقرة الآية ١٧ .
(2) سورة البقرة الآية ٢٦ .
(3) سورة البقرة الآية ١٧١ .
(4) سورة البقرة الآية ٢١٤ .
(5) سورة البقرة الآية ٢١١ .
(6) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .
(7) سورة البقرة الآية ٢٦٥ .
(8) ذكرت الآية في سورة آل عمران آية رقم ١١ ، وفي سورة الأنفال ٥٢ ، ٥٤ .
(9) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(10) سورة آل عمران الآية ١١٧ .
(11) سورة الأنعام الآية ٤٦ .
(12) سورة الأنعام الآية ٥٠ .
(13) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .
(14) سورة يونس الآية ٢٤ .
(15) سورة هود الآية ٢٤ .
(16) سورة الرعد الآية ١٤ .
(17) سورة يوسف الآية ٣٩ .
(18) سورة الأنعام الآية ٥٠ ، سورة الرعد الآية ١٦ .

﴿ أنزل من السماء ماء ﴾[1] الى قوله : ﴿ كذلك يضربُ الله الأمثال ﴾ ، ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ﴾[2] ﴿ مثلُ الذين كفرُوا بربِّهم أعمالهم كرمادٍ اشتدَّت به الريحُ ﴾[3] ﴿ ألم تر كيفَ ضربَ الله مثلاً كلمةً طيبةً ﴾[4] إلى آخره ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثالَ ﴾[5] ﴿ للذين لا يؤمنونَ بالآخرة مثلِ السوءِ ، ولله المثلُ الأعلىٰ ﴾[6] ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾[7] ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾[8] والذي بعده ﴿ وضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً ﴾[9] ﴿ أنظر كيف ضربُوا لك الأمثالَ ﴾[10] في موضعين ﴿ ولقد ضربنا للنَّاسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ فأبىٰ أكثر النَّاسِ إلَّا كفوراً ﴾[11] بعد أدلة التوحيد والنبوة والتحدي بالقرآن ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾[12] القصة ﴿ واضرب لهم مثل الحياةِ الدُّنيا ﴾[13] ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناسِ من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾[14] ينبه على أنها براهين وحجج تفيد تصوراً أو تصديقاً ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السَّماءِ ﴾[15] ﴿ يا أيُّها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له ﴾[16] ﴿ ومثل من الَّذين خلوا من قبلكم ﴾[17] . ﴿ مثل نوره ـ إلى قوله ـ ويضرب الأمثال للنَّاسِ ﴾ ﴿ والذين كفرُوا أعمالهُمْ كسراب ﴾[18]المثلين ، مثل نور المؤمنين في المساجد وأولئك في الظلمات ﴿ ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيراً ﴾[19]ـ فـ « التفسير » يعم التصوير ، ويعم التحقيق بالدليل ، كما في تفسير الكلام المشروح ـ ﴿ مثل الذين اتَّخذُوا من دونِ الله أولياء ﴾[20]الآية ﴿ وتلك الامثال نضربهاللنَّاس)[21]﴿ وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السَّموات والأرض﴾ ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾[22] ﴿ولقدضربنا للنَّاس في هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جئتم بآية)[23]الآية﴿ واضرب لهم مثلاً اصحاب القرية﴾[24]﴿فإذا هوخصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾[25]وقوله : ﴿ ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ﴾[26]﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا

---

(١) سورة الرعد الآية ١٧ .
(٢) سورة الرعد الآية ٣٥ .
(٣) سورة ابراهيم الآية ١٨ .
(٤) سورة ابراهيم الآية ٢٤ .
(٥) سورة ابراهيم الآية ٤٥ .
(٦) سورة النحل الآية ٦٠ .
(٧) سورة النحل الآية ٧٤ .
(٨) سورة النحل الآية ٧٥ .
(٩) سورة النحل الآية ١١٢ .
(١٠) سورة الفرقان الآية ٩ .
(١١) سورة الروم الآية ٥٨ .
(١٢) سورة النحل الآية ٧٦ .
(١٣) سورة الكهف الآية ٤٥ .
(١٤) سورة الإسراء الآية ٨٩ .
(١٥) سورة الحج الآية ٣١ .
(١٦) سورة الحج الآية ٧٣ .
(١٧) سورة النور الآية ٣٥ .
(١٨) سورة النور الآيات (٣٥ ـ ٣٩) .
(١٩) سورة الفرقان الآية ٣٣ .
(٢٠) سورة العنكبوت الآية ٤١ .
(٢١) سورة العنكبوت الآية ٣٤ .
(٢٢) سورة الروم الآية ٢٨ .
(٢٣) سورة الروم الآية ٥٨ .
(٢٤) سورة يس الآية ١٣ .
(٢٥) سورة يس الآية ٧٨ .
(٢٦) سورة ص الآية ٢٣ .

القرآن من كل مثل ﴾ الى قوله ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً ﴾ ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾[1] الى إخره لما أوردوه نقضا على قوله : ﴿ إنَّكم وما تعبدون من دون الله ﴾ فهم الذين ضربوه جدلاً ﴿ الَّذين كفروا وصدُّوا ﴾ الى قوله : ﴿ كذلك يضرب الله للنَّاس امثالهم ﴾ [2] ﴿ كمثل الَّذين من قبلهم قريباً ﴾ . ﴿ كمثلِ الشيطان إذا قال للإنسان أكفر ﴾ ، ﴿ ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال ﴾[3] ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ﴾[4] الآية ﴿ ضربَ الله مثلاً للذين كفروا ﴾ و ﴿ للذين آمنوا ﴾[5] ﴿ وليقول الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلاً ؟ ﴾[6] كأنَّهم الى نُصُبٍ يوفضونَ ﴾[7] ﴿ كالفراش ﴾ و ﴿ كالعهن ﴾[8] .

(فصل)[*]

قال الله تعالى : ﴿ واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةَ ﴾ [سورة البقرة : ٥]

قال علي بن أبي طالب : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا انقطع الرأس بَارَ الجسد ، ألا لا إيمان لمن لا صبر له »[9] .

فالصبر على أداء الواجبات واجب ، ولهذا قرنه بالصلاة في أكثر من خمسين موضعاً ، فمن كان لا يصلي من جميع الناس ـ رجالهم ونسائهم ـ فإنه يؤمر ، فإن امتنع عوقب[10] بإجماع المسلمين . ثم أكثرهم يوجبون قتل تارك الصلاة ، وهل يقتل كافراً مرتدًّا أو فاسقاً ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره والمنقول عن أكثر السلف يقتضي كفره ، وهذا مع الاقرار بالوجوب ، فإنه [مع] حجود الوجوب[11] فهو كافر بالاتفاق .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٥٧.
(٢) سورة محمد الآيات (١ ـ ١٣) .
(٣) سورة الحشر الآيات : (١٥ ـ ٢١) .
(٤) سورة الجمعة الآية ٥.
(٥) سورة التحريم الآيات (١٠ ـ ١١) .
(٦) سورة المدثر الآية ٣١.
(٧) سورة المعارج الآية ٤٣ .
(٨) هذه اجزاء من ا لآيات ٣و٤ من سورة القارعة وبتتبع ابن تيمية في هذه القضية تجده قد استقرأ الآيات المتضمنة لأنواع قياس التمثيل في القرآن الكريم بنوعيه الجزئي والكلي ، ومما يلفت النظر حقاً هذا التتبع الدقيق من ابن تيمية لورود هذه القضية في آيات القرآن بنفس ترتيب السور وورودها في المصحف حيث بدأ بسورة البقرة وظل يتابع القضية حتى انتهى الى سورة القارعة ولم يفته خلال هذا الاستقراء الكامل أن ينبه الى الآيات الأخرى التي لم يذكر فيها لفظ مثل أو أداة التشبيه الأخرى لكنها تتضمن نوعاً ما من أنواع القياس .

(*) طبعت هذه الآية ضمن مجموع رسائل ابن تيمية تحقيق د . محمد رشاد سالم .

(٩) جاء في « شرح نهج البلاغة » لابن أبي الحديد ط . المعارف ٣٢٤/١٩ : كلام أمير المؤمنين عليه السلام : . . . «وعليكم بالصبر ، فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فكما لا خير في جسد لا رأس له ، لا خير في إيمان لا صبر معه » .

(١٠) في الأصل : عوقبوا .
(١١) في الأصل : فأما جحود الوجوب .

ومن ذلك تعاهد مساجد المسلمين وأئمتهم ، وامرهم بأن يصلوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « صلُّوا كما رأيتموني أصلي » رواه البخاري[1] ، وصلَّى مرة بأصحابه على طرف المنبر وقال : إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي .

فعلى إمام الصلاة أن يصلِّي بالناس صلاةً كاملة ، لا يقتصر على ما يجوز للمنفرد الاقتصار عليه إلا لعذر ، وكذلك على إمامهم في الحج وأميرهم في الحرب . ألا ترى الوكيل والولي في البيع والشراء عليه أن يتصرف لموكله ولموليِّه على الوجه الأصلح له في ماله ، وهو في مال نفسه يفوت [على] نفسه[2] ما شاء ، فأمر الدين أهم ، ومتى اهتمت[3] الولاة بإصلاح دين الناس صلح الدين للطائفتين والدنيا ، وإلا اضطربت الأمور عليهم جميعاً .

وملاك ذلك حسن النية للرعية ، وإخلاص الدين كله لله عز وجل ، والتوكل عليه ، فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة ، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . فهاتان الكلمتان[4] قد قيل إنهما تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان مرة في غزاة فقال : « يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين » فجعلت الرءوس تندر عن كواهلها[5] .

وقد ذكر ذلك في غير موضع من كتابه كقوله عز وجل : ﴿ فاعْبُدْه وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنيبُ ﴾ [سورة هود : ٨٨] ، [سورة الشورى : ١٠] وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته قال : « منك وإليك »[6] .

وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن ، والإحسان الى الناس بالنفع والمال

---

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه ١٢٤/١ (كتاب الصلاة ، الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة . . الخ) وأوله : « حدثنا مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببه متقاربون . . الخ » ورواه مرة أخرى ٦/٩ خبر الواحد ، باب ما جاء في اجازة خبر الواحد.. الخ) وروي عن مالك ورواه أحمد في مسنده (ط . الحلبي) ٥٣/٥ .

(٢) في الأصل : يفوت نفسه

(٣) في الأصل : اهمت .

(٤) في الأصل فهاتان الكلمتان.

(٥) ندر الشيء يندر ندوراً سقط وفي الدر المنثور ١٤/١ : « واخرج ابو القاسم البغوي والماوردي معاً في معرفة الصحابة ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك عن أبي طلحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فلقى العدو، فسمعته يقول : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : فلقد رأيت الرجال تصدع ، تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها .

(٦) أخرج أبو داود في سننه ١٢٦/٣ عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين وأن مما قاله عند ذلك: « اللهم منك ولك من محمد وأمته » . وانظر جامع الأصول ١٤٨/٤ ـ ١٤٩ .

الذي هو الزكاة ، والصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ، فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية ، وإذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة عرف [ما] يدخل في الصلاة[1] من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفي الزكاة [من][2] الإحسان الى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل معروف صدقة »[3] ، فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة .

ففي الصحيح عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ الا سيكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدَّمه ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قدَّمه ، وينظر أمامه فيستقبل النار ، فمن أستطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[4] .

وفي السنن « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق »[5] . وفي رواية : « ووجهك إليه منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقى » .

وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر ، كما قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية [سورة هود : ٩ ـ ١١] .

وروى الحسن البصري :« إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بطنان العلق[6] الا ليقم مَنْ

---

(١) في الأصل : إذا عرف الإنسان . . . عرف يدخل في الصلاة !!!

(٢) من : ليست في الأصل .

(٣) الحديث عن جابر في البخاري ١١/٨ (كتاب الأدب ، باب كل معروف صدقة): وعن حذيفة في : مسلم ٣/ ٨٢ (كتاب الزكاة ، باب بيان ان اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) .

(٤) الحديث في البخاري ١١٢/٨ (كتاب الرقاق ، باب عن يونس الحساب عذب) ، مسلم ٨٦/٣ (كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة او كلمة طيبة وأنها حجاب من النار) ، سنن ابن ماجه ٦٦/١ (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية)، ص ٥٩٠ (كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة).

(٥) روى عن ابي ذر رضي الله عنه في: مسلم ٣٧/٨(كتاب البر والصلة والأداب، باب الصدقة طلقة الوجه عند اللقاء)، وهو عن جابر رضي الله عنه في سنن الترمذي (بشرح ابن العربي) ١٤٦/٨ ـ ١٤٧ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر) وفيه : « وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » . وقال الترمذي : « وفي الباب عن أبي داود قال : « هذا حديث حسن » .

(٦) في لسان العرب (بطن) . « وفي الحديث : ينادي مناد من بطنان العرش ، أي من رسله ، وقيل : من أصله . وقيل : البطنان جمع بطن وهو الغامض من الأرض ، يريد : من هو مثل العرش » .

أَجْرُه على الله ، فلا يقوم الا من عفا وأصلح » .

وليس من حسن النية للرعية والإحسان اليهم أن يُفعل ما يهوونه ويُترك ما يَكرهـونه[٣] . قـال تعـالى : ﴿ وَلَـوْ اتَّبـعَ الحَقُّ أَهْـوَاءَهُـمْ لَفَسَـدَتْ السَّمـوَاتُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾[سـورة المؤمنون : ٧١] . وقال لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واعْلَمُوا أَنَّ فيكُمْ رَسُولَ الله لَـوْ يُطيعُكُمْ في كَثِيرٍ مِّنَ الْأمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [سورة الحجرات : ٧].

وقال شيخ الاسلام

رحمه الله تعالى

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب في التفسير » الا مـا هو خـطأ [فيها].

منها قوله : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ الآيتين ، فهو سبحانه وصف أهل السعادة من الأولين والآخرين ، وهو الذي يدل عليه اللفظ ويعرف به معناه من غير تناقض ، ومناسبـة لما قبلها ولمـا بعدهـا ، وهو المعـروف عند السلف ، ويـدل عليـه مـا ذكـروه من سبب نـزولهـا بالأسانيد الثابتـة عن سفيان عن ابن أبي نجيـح عن مجاهـد ، قال سلمـان : « سألتُ النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكر من عبادتهم ، فنزلت الآية ولم يـذكر فيـه أنهم من أهل النـار ، كما روى بأسانيد ضعيفة ، وهذا هو الصحيح كما في مسلم « إلا بقايا من أهل الكتاب » .

والنبي ﷺ لم يكن يجيب بما لا علم عنده ، وقـد ثبت أنه أثنى عـلى من مات في الفتـرة ، كزيد بن عمرو وغيره ، ولم يذكر ابن أبي حـاتم خلافـاً عن السلف ، لكن ذكر عن ابن عبـاس ثم أنـزل الله : ﴿ ومن يبتغ غـير الإسلام دينـاً ﴾ الآية، ومـراده أن الله يبـين أنـه لا يقبـل إلا الإسلام من الأولين والآخرين .

وكثير من السلف يريد بلفظ النسخ رفع ما يظن أن الآية دالة عليه ، فـإن من المعلوم ان من كذب رسولاً واحداً فهو كافر فلا يتناوله قوله : ﴿ من آمن بالله ﴾ الخ .

وظن بعض النـاس : ان الآية فيمن بعث إليهم محمـد ﷺ خاصـة فغلطوا ، ثم افترقـوا على أقوال متناقضة .

---

(١) في الأصل : أنه تفعل ما يهوونه ويتركون ما يكرهونه .

وقال شيخ الإسلام
قدس الله روحه
فصـــل

قسم الله أهل الكتاب الى محرفين وأميين ،حيث يقول : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلامَ الله ثمَّ يحرِّفُونهُ من بعد ما عقلوهُ وهم يعلمونَ؟وإذا لقُوا الذِّين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خَلاَ بعضهم إلى بعضٍ قالوا : أتحدثونَهُمْ بما فَتَحَ الله عليكم ليحاجُّوكم بِهِ عندَ ربِّكُمْ ؟ أفلا تعقلونَ ؟ أَوَلاَ يعلمونَ أنَّ الله يعلمُ ما يُسرُّون وما يعلنونَ ؟ ومنهم أميّون لا يعلمونَ الكتابَ إلا أماني ، وإنْ هم إلا يظنونَ ، فويلٌ للذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثم يقولونَ هذا من عندِ اللهِ ليشتروا بهِ ثمناً قليلاً ، فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهمْ وويلٌ لهم مما يكسبونَ ﴾ (١) .

وفي هذا عبرة لمن ركب سنتهم من أمتنا ، فإن المحرفين في نصوص الكتاب والسنّة كالصفات ونحوها من الأخبار والأوامر :

« قوم » يحرفونه إما لفظاً وإما معنى ، وهم النافون لما أثبته الرسول ﷺ جحوداً وتعطيلاً ، ويدعون أن هذا موجب العقل الصريح القاضي على السمع .

و« قوم » لا يزيدون على تلاوة النصوص لا يفقهون معناها ، ويدعون أن هذا موجب السمع الذي كان عليه السلف ، وأن الله لم يرد من عباده فهم هذه النصوص ، فهم ﴿ لا يعلمونَ الكتابَ إلاَّ أمانيّ ﴾ أي تلاوة ﴿ وإنْ هم إلاَّ يظنونَ ﴾ .

ثم يصنف أقوام علوماً يقولون : إنها دينية ، وإن النصوص دلت عليها والعقل ، وهي دين الله ، مع مخالفتها لكتاب الله ، فهؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله بوجه من الوجوه .

فتدبر كيف اشتملت هذه الآيات على الأصناف الثلاثة ، وقوله في صفة أولئك : ﴿ أتحدثونَهُمْ بما فتحَ الله عليكم ليحاجُّوكُمْ بِهِ عندَ ربِّكُمْ ﴾ حال من يكتم النصوص التي يحتج بها منازعه ، حتى أن منهم من يمنع من رواية الأحاديث المأثورة عن الرسول ﷺ ، ولو أمكنهم كتمان القرآن لكتموه ، لكنهم يكتمون منه وجوه دلالته من العلوم المستنبطة منه ، ويعرضون الناس عن ذلك بما يكتبون بأيديهم ويضيفونه : إلى أنه من عند الله .

---

(١) سورة البقرة الآيات (٧٥ ـ ٧٩) .

وسئل :

عن معنى قوله : ﴿ ما نَنسخْ من آيةً أو نُنسِها ﴾ [1] والله سبحانه لا يدخل عليه النسيان .

فأجاب :

أما قوله : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ ففيها قراءتان .

أشهرهما : (أو ننسها) أي ننسيكم إياها : أي إذا نسخنا ما أنزلناه ، أو اخترنا تنزيل ما نريد أن ننزله تأتكم بخير منه أو مثله .

والثانية : (أو ننسأها) بالهمز أي نؤخرها ، ولم يقرأ أحد ننساها ، فمن ظن أن معنى ننسأها بمعنى ننساها فهو جاهل بالعربية والتفسير ، قال موسى عليه السلام : ﴿ عِلمُهَا عندَ ربيّ في كتابٍ لا يضِلُّ ربي ولا ينسىٰ ﴾ [2] و« النسيان » مضاف إلى العبد كما في قوله : ﴿ سنقرئكَ فلا تنسىٰ إلاّ ما شاءَ الله ﴾ [3] ولهذا قرأها بعض الصحابة : (أو تنساها) أي تنساها يا محمد ، وهذا واضح لا يخفى إلا على جاهل لا يفرق بين ننسأها بالهمز وبين ننساها بلا همز والله أعلم .

قال أبو العباس أحمد بن تيمية
رحمه الله تعالى

في قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عليكم القصاصُ في القتلى ﴾ الآية وفيها قولان :

(أحدهما) أن القصاص هو القود ، وهو أخذ الدية [بدل] القتل كما جاء عن ابن عباس أنه كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية فجعل الله في هذه الأمة الدية فقال : ﴿ فمن عُفي لهُ من أخيهِ شيء ﴾ [4] والعفو هو أن يقبل الدية في العمد ﴿ ذلك تخفيفٌ من ربِّكم ورحمة ﴾ [5] مما كان على بني إسرائيل ، والمراد على هذا القول أن يقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . قال قتادة : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغي ، وكان الحي إذا

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٦ .

(٢) سورة طه الآية ٥٢ .

(٣) سورة الأعلى الآية ٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

كان فيهم عدد وعدة فقتل عبدهم عبد قوم آخرين قالوا لن نقتل به إلا حراً تعززاً على غيرهم ، وإن قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن نقتل بها إلا رجلاً فنزلت هذه الآية وهذا قول أكثر الفقهاء [1] ، وقد ذكر ذلك الشافعي وغيره .

ويحتج بها طائفة من اصحاب مالك والشافعي وأحمد على أن الحر لا يقتل بالعبد لقوله : ﴿والعبد بالعبد﴾ فينقض ذلك عليه بالمرأة ، فانه قال : ﴿والأنثى بالأنثى﴾ ، وطائفة من المفسرين لم يذكروا إلا هذا القول .

« القول الثاني » أن القصاص في القتلى يكون بين الطائفتين المقتتلتين قتال عصبية وجاهلية فيقتل من هؤلاء ومن هؤلاء أحرار وعبيد ونساء ، فأمر الله تعالى بالعدل بين الطائفتين بأن يقاص دية حر بدية حر ، ودية امرأة بدية امرأة ، وعبد بعبد . فان فضل لإحدى الطائفتين شيء بعد المقاصة فلتتبع الأخرى بمعروف ، ولتؤد الأخرى إليها بإحسان ، وهذا قول الشعبي وغيره ، وقد ذكره محمد بن جرير الطبري وغيره و[على] هذا القول فانه إذا جعل ظاهر الآية لزمته إشكالات ، لكن المعنى [الثاني] هو مدلول الآية ومقتضاه ولا إشكال عليه ، بخلاف القول الأول الذي يستفاد من دلالة الآية كما سننبه عليه إن شاء الله تعالى ، وما ذكرناه يظهر من وجوه .

(أحدها) أنه قال : ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ و« القصاص » مصدر قاصَّه يقاصُّه مقاصة وقصاصاً ، ومنه مقاصة الدينين أحدهما بالآخر و﴿القصاص في القتلى﴾ إنما يكون إذا كان الجميع قتلى ، كما ذكر الشعبي فيقاص هؤلاء القتلى بهؤلاء القتلى ، أما إذا قتل رجل رجلا فالمقتول ميت فهنا المقتول لا مقاصة فيه ، ولكن القصاص أن يمكن من قتل القاتل لا غيره .

وفي اعتبار المكافآت فيه قولان للفقهاء ، قيل : تعتبر المكافآت فلا يقتل مسلم بذمي ولا حر بعبد ، وهو قول الأكثرين ، مالك والشافعي وأحمد ، وقيل لا تعتبر المكافآت كقول أبي حنيفة ، والمكافآت لا تسمى قصاصاً .

وأيضاً فإنه قال : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ وإن أريد بالقصاص المكافآت فتلك لم تكتب ، وإن أريد به استيفاء القود فذلك مباح للولي . إن شاء اقتص وإن شاء لم يقتص فلم يكتب عليه الاقتصاص ، وقد أورد هذا السؤال بعضهم وقال : هو مكتوب على القاتل أن

---

(١) انظر رأي قتادة في تفسير الطبري ٦١/٢ (ط بولاق) .

يمكن من نفسه ، فيقال له : هو تعالى قال : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ ، وليس هذا خطاباً للقاتل وحده ، بل هو خطاب لأولياء المقتول بدليل قوله تعالى : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ﴾ ثم لا يقال للقاتل : كتب عليك القصاص في المقتول فإن المقتول لا قصاص فيه .

و« أيضاً » فنفس انقياد القاتل للولي ليس هو قصاصاً ، بل الولي له ان يقتص وله أن لا يقتص ، وإنما سمى هذا قوداً لأن الولي يقوده ، وهو بمنزلة تسليم السلعة الى المشتري ، ثم قال تعالى : ﴿ الحر بالحر ﴾ فكيف يقال مثل هذا قصده القاتل ، بل هذا خطاب للأمة بالمقاصة والمعادلة في القتل .

والنبي ﷺ إنما قال : « كتاب الله القصاص » لما كسر الربيع سن جارية وامتنعوا عن أخذ الأرش .

فقال أنس بن النضر : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع .

فقال النبي ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم بالأرش .

فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » [1] كقوله تعالى ﴿ والجروح قصاص ﴾ يعني « كتاب الله » أن يؤخذ العضو بنظيره ، فهذا قصاص لأنه مساواة ، ولهذا كانت المكافآت في الأعضاء والجروح معتبرة باتفاق العلماء .

وإن قيل القصاص هو أن يقتل قاتله لا غيره فهو خلاف الاعتداء ، قيل : نعم ! وهذا قصاص في الأحياء لا في القتلى .

(الثاني) أنه قال : ﴿ في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ ومعلوم باتفاق المسلمين أن العبد يقتل بالعبد وبالحر ، والأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر ، والحر يقتل بالحر وبالأنثى أيضاً عند عامة العلماء ، وقيل : يشترط أن تؤدى تمام ديته ، وإذا كان كذلك فقوله : ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ إنما يدل على مقاصة الحر بالحر ومعادلته به ومقابلته به ، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وهذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر : أيتعادلان أم يفضل لأحدهما على الآخر فضل ؟ أما في القتل فلا يختص هذا بهذا باتفاق المسلمين .

---

(١) ورد الحديث في : ابن حنبل ٢٠٦/٤ . ولفظه أن من عباد الله من لو يقسم على الله لابره .

(الثالث) أنه قال : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء ﴾ لفظ (عفى) هنا قد استعمل متعدياً ، فانه قال : (عفى) (شيء) ولم يقل : (عفا) (شيئاً) وهذا إنما يستعمل في الفعل كما قال تعالى : ﴿ ويسئلونك ماذا ينفقون قل : العفو ﴾ وأما العفو عن القتل فذاك يقال فيه عفوت عن القاتل ، فولى المقتول بين خيرتين : بين أن يعفو عن القتل ويأخذ الدية فلم يعف له شيء ، بل هو عفا عن القتل وإذا عفا فإما أن يستحق الدية بنفسه أو بغير رضا القاتل على قولين .

وقد قال بعضهم : (من أخيه) أي من دم أخيه أي ترك له القتل ورضي بالدية والمراد القاتل يعني إن القاتل عفى له من دم أخيه المقتول أي ترك له القتل ، فيكون التقدير أن الولي عفى للقاتل من دم المقتول شيئاً ، وهذا كلام لا يعرف . لا يقال : عفوت لك شيئاً ، ولا يقال : عفوت من دم القاتل ، وإنما الذي يقال : أنه عفا عن القاتل ، فأين هذا من هذا ؟

وأما على القول الأول فالمتقاصان إذا تفادى القتلى فمن عفى له أي فضل له من مقاصة أخيه مقاصلة أخرى أي هذا الذي فضل له فضل كما يقال : أبقى له من جهة أخيه بقية ﴿فاتباع بالمعروف﴾فهذا المستحق للفضل يتبع المقاص الآخر بالمعروف ، وذلك يؤدي إلى هذا بإحسان﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ من أن كل طائفة تؤدي قتلى الأخرى فان في هذا تثقيلا عظيما له ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ فإنهم إذا تفادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم يبق واحدة تطلب الأخرى بشيء فحي هؤلاء وحي هؤلاء ، بخلاف ما إذا لم يتقاصوا فإنهم يتقاتلون وتقوم بينهم الفتن التي يموت فيها خلائق ، كما هو معروف في فتن الجاهلية والاسلام ، إنما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطائفتين وإلا فمع التعادل والتناصف الذي يرضى به أولوا الألباب لا تبقى فتنة .

وقوله : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ فطلب من الطائفة الأخرى مالا أو قوما أو أذاهم بسب ما بينهم من الدم ﴿ فله عذاب أليم ﴾ وهذا كقوله : ﴿ وان طائفتانِ من المؤمنينَ اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا الَّتي تبغي حتى تفيء الى أمر اللهِ، فإنَّ فاءت فاصلِحُوا بينهما بالعدلِ ، وأقسِطُوا إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطينَ ، إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ فاصلِحُوا بين أخويكُمْ ﴾ [1] و« الأخوة » هنا كالأخوة هناك وهذا في قتلى الفتن .

وإما إذا قتل رجل رجلا من غير فتنة فهم كانوا يعرفون أن القاتل يقتل ، لكن كانت

(١) سورة الحجرات الآيات (٩ ، ١٠) .

الطائفة القوية تطلب أن تقتل غير القاتل ، أو من هو أكثر من القاتل ، أو اثنين بواحد ، وإذا كان القاتل منها لم تقتل به من هو دونه ، كما قيل : إنه كان بين قريظة والنضير ، لكن هذا لم تثر به الفتن بل فيه ظلم الطائفة القوية للضعيفة ، ولم يكن في الأمم من يقول أن القاتل الظالم المتعدي مطلقاً لا يقتل ، فهذا لم يكن عليه أحد من بني آدم ، بل كل بني آدم مطبقون على أن القاتل في الجملة يقتل ، ولكن الظلمة الأقوياء يفرقون بين قتيل وقتيل .

وقول من قال : إن قوله : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ معناه ان القاتل إذا عرف أنه يقتل كف فكان في ذلك حياة له وللمقتول يقال له : هذا معنى صحيح ولكن هذا مما يعرفه جميع الناس ، وهو مغروز في جبلتهم ، وليس في الآدميين من يبيح قتل أحد من غير أن يقتل قاتله ، بل كلهم مع التساوي يجوزون قتل القاتل ولا يتصور أن الناس [1] إذا كان كل من قدر على غيره قتله ، هو لا يقتل يرضى بمال ، وإذا كان هذا المعنى من أوائل ما يعرفه الآدميون ويعلمون أنهم لا يعيشون بدونه صار هذا مثل حاجتهم إلى الطعام والشراب والسكنى ، فالقرآن أجلّ من أن يكون مقصوده التعريف بهذه الأمور البديهية ، بل هذا مما يدخل في معناه ، وهو أنه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنه يسقط حر بحر ، وعبد بعبد ، وانثى بأنثى ، فجعل دية هذا كدية هذا ودم هذا كدم هذا متضمن لمساواتهم في الدماء والديات ، وكان بهذه المقاصة لهم حياة من الفتن التي توجب هلاكهم ، كما هو معروف ، وهذا المعنى مما يستفاد من هذه الآية ، فعلم أن دم الحر وديته كدم الحر ودينه فيقتل به ، وإذا علم أن التقاصّ يقع للتساوي في الديات علم أن للمقتول دية ، ولفظ القصاص يدل على المعادلة والمساواة فيدل على أن الله أوجب العدل والانصاف في أمر القتلى ، من قتل غير قاتله فهو ظالم والمقتول وأولياؤه إذا امتنعوا من إنصاف أولياء المقتول فهم ظالمون ، هؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل ، وهؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل .

وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في قوله : ﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنَا لوليهِ سُلطانَاً فلا يُسرِفُ في القتلِ إنَّهُ كانَ منصوراً ﴾ [2] وإذا دلت الآية على العدل في القوة بطريق اللزوم والتنبيه ذهب الإشكال ، ولم يقل : فلم لا قال : والعبد بالعبد والحر بالحر ؟ فإنه لم يكن المقصود أنه يقاص به في القتلى ، ومعلوم أنه إنما يقاص الحر بالحر لا بالمرأة ، والمرأة بالمرأة لا بالحر ، والعبد بالعبد . فظهرت فائدة التخصيص به والمقابلة في الآية .

ودلت الآية حينئذ على أن الحر يقتل بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالانثى إذا كانا متساويين في الدم ، وبدله هو الدية ، ولم ينتف أن يقتل عبد بحر وأنثى بذكر ولا لها مفهوم

---

(١) بياض بالأصل . .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٣ .

ينفي ذلك ، بل كما دلت على ذلك بطريق التبيية والفحوى والأولى كذلك تدل على هذا أيضاً ، فإنه إذا قتل العبد بالعبد فقتله بالحر أولى وإذا قتلت المرأة بالمرأة فقتلها بالرجل أولى .

وأما قتل الحر بالبعد والذكر بالانثى فالآية لم تتعرض له لا بنفي ولا إثبات ، ولا لها مفهوم يدل عليه ، لا مفهوم موافقة ولا مخالفة ، فإنه إذا كان في المقاصة يقاص الحر بالحر والعبدبالعبد والأنثى بالأنثى لتساوي الديات ، دل ذلك على قتل النظير والأدنى بالأعلى .

يبقى قتل الأعلى الكثير الدية بالأدنى القليل الدية ، ليس في الآية تعرض له ، فانه لم يقصد بها ابتداء القود ، وإنما قصد المقاصة في القتلى لتساوي دياتهم .

فإن قيل : دية الحر كدية الحر ، ودية الأنثى كدية الأنثى ، ويبقى العبيد قيمتهم متفاضلة ؟

قيل : عبيدهم كانوا متقاربين في القيمة ، وقوله : ﴿ العبد بالعبد ﴾ قد يراد به بالعبد المماثل به ، كما يقال : ثوب بثوب . وإن كان أحدهما أغلى قيمة فذاك مما عفى له ، وقد يعفى إذا لم تعرف قيمتهم وهو الغالب فان المقتولين في الفتن عبيدهم الذين يقاتلون معهم ، وهم يكونون تربيتهم عندهم لم يكتروهم ، فهذا يكون مع العلم بتساوي القيمة ومع الجهل بتفاضلها ، فإن المجهول كالمعدوم ، ولو أتلف كل من الرجلين ثوب الآخر ولا يعلم واحد منهما قيمة واحد من الثوبين قيل ثوب بثوب . وهذا لأن الزيادة محتملة من الطرفين : يحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ويحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ؛ وليس ترجيح أحدهما أولى من الآخر ، والأصل براءة ذمة كل واحد من الزيادة ، فلا تشتغل الذمة بأمر مشكوك فيه لو كان الشك في أحدهما . فكيف إذا كان من الطرفين ؟

(بيان ما دلت عليه الآية)

فظهر حكمة قوله : ﴿ والعبد بالعبد ﴾ وظهر بهذا أن القرآن دل على ما يحتاج الخلق إلى معرفته والعمل به ، ويحقن به دماؤهم ويحيون به ، ودخل في ذلك ما ذكره الآخرون من العدل في القود .

ودلت الآية على أن القتلى يؤخذ لهم ديات ، فدل على ثبوت الدية للقاتل ، وأنها مختلفة باختلاف المقتولين ، وهذا مما من الله به على أمه محمد ﷺ حيث أثبت القصاص والدية .

وأما كون العفو هو قبول الدين في العمد وأنه يستحق العافي بمجرد عفوه فالآية لم تتعرض لهذا .

ودلت هذه الآية على أن الطوائف الممتنعة تضمن كل منها ما أتلفته الأخرى من دم ومال

بطريق الظلم لقوله : ﴿ من أخيه ﴾ بخلاف ما أتلفه المسلمون للكفار والكفار للمسلمين .

وأما القتال بتأويل « كقتال أهل الجمل وصفين » فلا ضمان فيه أيضاً بطريق الأولى عند الجمهور ، فإنه اذا كان الكفار المتأولون لا يضمنون فالمسلمون المتأولون اولى أن لا يضمنوا .

ودلت الآية على أن هذا الضمان على مجموع الطائفة يستوي فيه الردء والمباشر لا يقال : انظروا من قتل صاحبكم هذا فطالبوه بديته بل يقال : ديته عليكم كلكم فانكم جميعاً قتلتموه ، لأن المباشر إنما تمكن بمعاونة الردء[1] له ، وعلى هذا دل قوله : ﴿ وإنْ فاتَكم شيءٌ من أزواجكم إلىٰ الكفَّارِ فعاقبتم فآتوا الَّذينَ ذهبت أزواجهُمْ مثلَ ما أنفقُوا ﴾[2] فإن أولئك الكفار كان عليهم مثل صداق هذه المرأة التي ذهبت إليهم ، فإذا لم يؤدوه أخذ من أموالهم التي يقدر المسلمون عليها ، مثل امرأة جاءت منهم يستحقون صداقها ، فيعطى المسلم زوج تلك المرتدة صداقها من صداق هذه المسلمة المهاجرة الذي يستحقه الكفار لكونها أسلمت وهاجرت وفوتت زوجها بضعها كما فوتت المرتدة بضعها لزوجها ، وان كان زوج المهاجرة ليس هو الذي تزوج بالمرتدة ، لأن الطائفة لما كانت ممتنعة يمنع بعضها بعضاً صارت كالشخص الواحد .

ولهذا لما قتل من قتل من بني خذيمة وداهم النبي ﷺ من عنده ، لأن خالداً نائبه ، وهو لا يمكنهم من مطالبته وحبسه لأنه متأول . وكذلك عمرو بن أمية وعاقلته خالد بن الوليد ، لأنه قتل هذا على سبيل الجهاد لا لعداوة تخصه .

وقد تنازع الفقهاء في خطأ ولي الامر هل هو في بيت المال أو على ذمته ؟ على قولين :

ولهذا كان ما غنمته السرية يشاركها فيه الجيش وما غنمه الجيش شاركته فيه السرية ، لانه إنما يغنم بعضهم بظهر بعض ، فإذا اشتركوا في المغرم اشتركوا في المغنم ، وكذلك في العقوبة يقتل الردء والمباشر من المحاربين عند جماهير الفقهاء كما قتل عمر رضي الله عنه ربيئة المحاربين ، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد ، وهو مذهب مالك في القتل قوداً ، وفي السراق ايضاً .

وبيان دلالة الآية على ذلك أن المقتولين إذا حبس حر بحر وعبد بعبد وانثى بانثى فالحر من هؤلاء ليس قاتله هو ولي الحر من هؤلاء ، بل قد يكون غيره ، وكذلك العبد من هؤلاء ليس

---

(١) الردء : هو الناصر والمعين ، وفي أساس البلاغة للزمخشري : هو ردء له ينصره ويشد عضده ، وقال موسى عن هارون : اجعله معي ردئاً يصدقني .

(٢) سورة الممتحنة الآية ١١ .

قاتله هو سيد العبد من هؤلاء ، بل قد يكون غيره لكن لما كانوا مجتمعين متناصرين على قتال أولئك ومحاربتهم كان من قتله بعضهم فكلهم قتله ، وكلهم يضمنونه ، ولهذا ما فضل لأحد الطائفتين يؤخذ من مال الاخرى .

فإن قيل : إذا كان مستقراً في فطر بني آدم أن القاتل الظالم لنظيره يستحق أن يقتل ، وليس في الآدميين من يقول إنه لا يقتل . فما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ وكتبنا عَليهم فيها ـ أي في التوراة ـ أن النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ ﴾[1] الآية . إذا كان مثل هذا الشرع يعرفه العقلاء كلهم ؟ .

قيل لهم : فائدته بيان تساوي دماء بني إسرائيل ، وأن دماءهم متكافئة ليس لشريفهم مزية على ضعيفهم ، وهذه الفائدة الجليلة التي جاءت بها شرائع الأنبياء . فأما الطوائف الخارجون عن شرائع الانبياء فلا يحكمون بذلك مطلقاً بل قد لا يقتلون الشريف ؛ وإذا كان الملك عادلاً فقد يفعل بعض ذلك ، فهذا الذي كتبه الله في التوراة من تكافؤ دمائهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، فحكم أيضاً في المؤمنين به من جميع الأجناس بتكافؤ دمائهم فالمسلم الحر يقتل المسلم الحر من جميع الأجناس باتفاق العلماء .

وبهذا ظهر الجواب عن احتجاج من احتج بآية التوراة على أن المسلم يقتل بالذمي لقوله : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ و « شرع من قبلنا شرع لنا » فإنه يقال : الذي كتب عليهم أن النفس منهم بالنفس منهم ، وهم كلهم كانوا مؤمنين ، لم يكن فيهم كافر ، ولم يكن في شريعتهم إبقاء كافر بينهم لا بجزية ولا غيرها ، وهذا مثل شرع محمد ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ، وليس في الشريعتين أن دم الكافر يكافىء دم المسلم ، بل جعل الايمان هو الواجب للمكافآت دليل على انتفاء ذلك في الكافر ـ سواء كان ذمياً أو مستأمناً ـ لانتفاء الايمان الواجب للمكافأة فيه .

نعم ؟ يحتج بعمومه على العبد . وليس في العبد نصوص صريحة صحيحة كما في الذمي ، بل ما روى « من قتل عبده قتلناه به »[2] وهذا لأنه إذا قتله ظالماً كان الإمام ولي دمه ، لأن القاتل كما لا يرث المقتول إذا كان حراً ،فكذلك لا يكون ولي دمه إذا كان عبداً ، بل هذا أولى . كيف يكون ولي دمه وهو القاتل ؟ بل لا يكون ولي دمه ، بل ورثة القاتل السيد ، لأنهم ورثته وهو بالحياة ولم يثبت له ولاية حتى تنتقل إليهم ، فيكون وليه الإمام . وحينئذ فللامام قتله ، فكل من قتل عبده كان للامام أن يقتله .

---

(١) سورة المائدة الآية٤٥ .

(٢) ورد الحديث في ابي داود في : (كتاب الديات) والترمذي في (كتاب الديات) ، النسائي في (كتاب القسامة) ، ابن ماجه (الديات) والدارمي في (كتاب الديات) ، وابن حنبل ٥/ ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

و « أيضاً » فقد ثبت بالسنة والآثار أنه إذا مثل بعبده عتق عليه ، وهذا مذهب مالك وأحمد وغيرهما ، وقتله [أشد] أنواع المثل فلا يموت إلا حراً ، لكن حريته لم تثبت في حال الحياة حتى يرثه عصبته ، بل حريته ثبتت حكماً ، وهو إذا كان عتق كان ولاؤه للمسلمين ، فيكون الإمام هو وليه ، فله قتل قاتل عبده .

وقد يحتج بهذا من يقول : ان قاتل عبد غيره لسيده قتله ، وإذا دل الحديث على هذا كان هذا القول هو الراجح ، والقول لآخر ليس معه نص صريح ، ولا قياس صحيح .

وقد قال الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : من قتل ولا ولي له كان الإمام ولي دمه ، فله أن يقتل ، وله أن يعفو عن الدية ، لا مجاناً .

يؤيد هذا أن من قال : لا يقتل حر بعبد يقول : إنه لا يقتل الذمي الحر بالعبد المسلم . قال الله تعالى في كتابه : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ﴾ فالعبد المؤمن خير من الذمي المشرك ، فكيف لا يقتل به ؟ ! والعبد المؤمن مثل الحرائر المؤمنات كما دلت عليه هذه الآية ، وهو قول جماهير السلف والخلف ، وهذا قوي على قول أحمد ، فإنه يجوز شهادة العبد كالحر ، بخلاف الذمي . فلماذا لا يقتل الحر بالعبد وكلهم مؤمنون . وقد قال النبي ﷺ : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم »[1] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

قوله تعالى : ﴿ يَسأَلونكَ عن الشهرِ الحرامِ قتالٌ فيهِ ﴾[2] من باب بدل الاشتمال ، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه فلم قدم الشهر وقد قلتم . إنهم يقدمون ما بيانه أهم وهم به أغنى ؟ .

قيل : السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر ، وتشنيع أعدائهم عليهم انتهاكه وانتهاك حرمته ، وكان اهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال ، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر ، فلذلك قدم في الذكر ، وكان تقديمه مطابقاً لما ذكرنا من القاعدة .

فإن قيل : فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر ، وهلا اكتفى بضميره فقال : هو كبير ؟ وأنت إذا قلت : سألته عن زيد هو في الدار كان أوجز من أن تقول أزيد في الدار ؟

قيل : في إعادته بلفظ الظاهر بلاغة بديعة ، وهو تعليق الحكم الخبري باسم القتال فيه

---

(١) ورد الحديث في سنن أبي داود (كتاب الجهاد) ، النسائي في (كتاب القسامة) ابن ماجه (كتاب الديات) ، ابن حنبل ١٩/١ ، ١٢٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

عموماً ، ولو أتى بالمضمر فقال : هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام .

ونظير هذه القاعدة قوله ﷺ ـ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال ـ : «هو الطهور ماؤه »[1] فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله : « نعم توضئوا به » لئلا يتوهم اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص ، فعدل عن قوله : « نعم توضئوا » إلى جواب عام يقتضي تعليق الحكم والطهور به بنفس مائه من حيث هو ، فأفاد استمرار الحكم على الدوام ، وتعلقه بعموم الأمة وبطل توهم قصره على السبب ، فتأمله فإنه بديع .

فكذلك في الآية لما قال : ﴿ قتال فيه كبير ﴾ فجعل الخبر : ﴿ كبير ﴾ واقعاً عن ﴿ قتال فيه ﴾ . فيتعلق الحكم به على العموم . ولفظ « المضمر » لا يقتضي ذلك .

وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ والَّذينَ يُمسِّكونَ بالكتابِ وأقامُوا الصَّلاةَ إنَّا لا نُضِيعُ أجرَ المصلحِينَ ﴾[2] ولم يقل أجرهم ، تعليقاً لهذا الحكم بالوصف وهو كونهم مصلحين ، وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور .

وقريب منه وهو ألطف معنى قوله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن المحيضِ قلْ هُوَ أذىً ، فاعتزلُوا النساءَ في المحيضِ ﴾[3] ولم يقل فيه تعليقاً بحكم الاعتزال بنفس الحيض ، وأنه هو سبب الاعتزال ، وقال : ﴿ قل هو أذى ﴾ ولم يقل : ﴿ المحيض أذى ﴾ لأنه جاء به على الأصل ، لأنه لو كرره لثقل اللفظ به لتكرره ثلاث مرات ، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمراً ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضاً ، بخلاف قوله : ﴿ قل هو أذى ﴾ فإنه إخبار بالواقع ، والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً بخلاف تعليق الحكم به فإنه يعلم بالشرع ، فتأمله .

(مسألة حول نكاح الكتابية)

قال شيخ الإسلام

عن قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركاتِ ﴾[4] وقد أباح العلماء التزويج بالنصرانية

---

(١) ورد الحديث في : ابن حنبل ١/ ٢٧٩ ولفظه : ماء البحر طهور .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

واليهودية ، فهل هما من المشركين أم لا ؟ .

فأجاب : الحمد الله نكاح الكتابية جائز بالآية التي في المائدة قال تعالى : ﴿ وطعامُ الَّذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌ لكم ، وطعامكُمْ حلٌّ لهم ، والمحصناتُ مِنَ المؤمناتِ ، والمحصناتُ من الَّذينَ أوتُوا الكتابَ من قبلكُمْ ﴾[1] وهذا مذهب جماهير السلف والخلف من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وقد روي عن ابن عمر : أنه كره نكاح النصرانية ، وقال : لا أعلم شركاً أعظم ممن تقول أن ربها عيسى ابن مريم .

وهو اليوم مذهب طائفة من أهل البدع ، وقد احتجوا بالآية التي في سورة البقرة وبقوله : ﴿ ولا تمسكوا بعصمِ الكوافرِ ﴾[2] .

والجواب من آية البقرة من ثلاثة أوجه .

(أحدها) أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين ، فجعل أهل الكتاب غير المشركين بدليل قوله : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمنُوا والَّذينَ هَادُوا والنَّصارى والصَّابئينَ مَنْ آمنَ بِالله واليومِ الآخِرِ ﴾[3] .

فإن قيل : فقد وصفهم بالشرك بقوله : ﴿ اتَّخذُوا أحبَارهُمْ ورهبانَهُم أرباباً مِنْ دونِ الله والمسيحَ ابن مريمَ ، وما أُمِرُوا إلَّا ليعبدُوا إلهاً واحداً ، لا إلهَ إلَّا هُوَ سبحانَه عَمَّا يُشركونَ ﴾[4] .

قيل أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك ، فإن الله إنما بعث الرسل بالتوحيد فكل ؛ من آمن بالرسل والكتب لم يكن في أصل دينهم شرك ، ولكن النصارى ابتدعوا الشرك ، كما قال : ﴿ سبحانهُ وتعالىٰ عمَّا يُشرِكُونَ ﴾ . فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلأجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لم يأمر الله به ، وحيث ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة التي جاءت بالتوحيد لا بالشرك .

فإذا قيل : أهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين ، فإن الكتاب الذي أضيفوا إليه لا شرك فيه ، كما إذا قيل : المسلمون وأمة محمد لم يكن فيهم من هذه الجهة لا اتحاد ، ولا رفض ، ولا تكذيب بالقدر ، ولا غير ذلك من البدع وإن كان بعض الداخلين في الأمة قد

---

(١) سورة المائدة الآية ٥ .

(٢) سورة الممتحنة الآية ١٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ٦٢ .

(٤) سورة التوبة الآية ٣١ .

ابتدع ، لكن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة ، فلا يزال فيها من هو متبع لشريعة التوحيد ، بخلاف أهل الكتاب ، ولم يخبر الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم مشركون بالأسم ، بل قال : ﴿ عما يشركون ﴾ بالفعل ، وآية البقرة قال فيها : ﴿ المشركين ﴾ و ﴿المشركات ﴾ بالاسم ، والاسم أوكد من الفعل .

(الوجه الثاني) أن يقال : ان شملهم لفظ ﴿ المشركين ﴾ في سورة البقرة كما وصفهم بالشرك فهذا متوجه بأن يفرق بين دلالة اللفظ مفرداً ومقروناً . فإذا أفردوا دخل فيهم أهل الكتاب ، وإذا قرنوا بأهل الكتاب لم يدخلوا فيهم ، كما قيل : مثل هذا في اسم الفقير والمسكين ونحو ذلك ، فعلى هذا يقال : آية البقرة عامة ، وتلك خاصة ، والخاص يقدم على العام .

(الوجه الثالث) أن يقال : آية المائدة ناسخة لآية البقرة لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء ، وقد جاء في الحديث المائدة من[1] . [آخر القرآن تنزيلاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها] .

(مسألة : الصدقة وما يقترن بها من أحوال)

فصل

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

لما ذكر سبحانه ما يبطل الصدقة من المن والأذى ومن الرياء ، ومثله بالتراب على الصنوان إذا أصابه المطر ، ولهذا قال : ﴿ ولا يؤمن باللهِ واليومِ الآخر ﴾ لأن الإيمان بأحدهما لا ينفع هنا ؟ بخلاف قوله في النساء : ﴿ ان اللهَ لا يحبُّ مَنْ كانَ مختالاً فخوراً ﴾ إلى قوله : ﴿ والَّذينَ ينفقونَ أموالهم رئاءَ النَّاسِ ، ولا يؤمنونَ بالله ولا باليومِ الآخر ﴾ [2] .

فإنه في معرض الذم ، فذكر غايته وذكر ما يقابله وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم .

فالأول الإخلاص .

و« التثبيت » هو التثبت كقوله : ﴿ ولو أَنَّهم فعلوا ما يُوعظونَ بهِ لكانَ خيراً لهم وأشد

---

(١) آخر ما وجد من الأصل ، وتكملة الحديث من : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، والحديث من رواية حبيب وعطية عن الرسول : انظر الدر المنثور ٢/٢٥٢ . تفسير سورة المائدة .

(٢) سورة النساء الآيات(٣٦ ـ ٣٨) .

تثبيتاً﴾ [1] كقوله : ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون هذا من باب قدم وتقدم كقوله : ﴿ لا تقدِّمُوا بين يدي اللهِ ورسولِهِ ﴾ فتبتل وتثبت لازم بمعنى ثبت [2] لأن التثبت هو القوة والمكنة ، وضده الزلزلة والرجفة ، فان الصدقة من جنس القتال ، فالجبان يرجف ، والشجاع يثبت ، ولهذا قال النبي ﷺ « وأما الخيلاء التي يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند الحرب ، واختياله بنفسه عند الصدقة » [3] لأنه مقام ثبات وقوة ، فالخيلاء تناسبه ، وإنما الذي لا يحبه الله المختال الفخور البخيل الآمر بالبخل . فأما المختال مع العطاء أو القتال فيحبه .

وقوله ﴿من أنفسهم﴾ أي ليس المقوى له من خارج كالذي يثبت وقت الحرب لإمساك أصحابه له ، وهذا كقوله : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ . بل تثبته ومغفرته من جهة نفسه .

وقد ذكر الله سبحانه في البقرة والنساء الأقسام الأربعة في العطاء .

إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم في النساء [4] .

أو يعطي مع الكراهية والمن والأذى ، فلا يكون بتثبيت وهو المذموم في البقرة [5] .

أو مع الرياء فهو المذموم في السورتين ، فبقي القسم الرابع : ابتغاء رضوان الله وتثبيتاً من أنفسهم [6] .

ونظيره « الصلاة » إما أن لا يصلي ، أو يصلي رياء أو كسلان ، أو يصلي مخلصاً ، والأقسام الثلاثة الأول مذمومة .

وكذلك « الزكاة » ونظير ذلك « الهجرة ، والجهاد » فإن الناس فيهما أربعة أقسام ، وكذلك ﴿ إذا لقيتُمْ فئةً فاثبتوا واذكروا اللهَ كثيراً ﴾ في الثبات والذكر ، وكذلك : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ . في الصبر والرحمة أربعة أقسام .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٦ .

(٢) هنا كلمات غير متضحة .

(٣) ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة في : النسائي (كتاب الزكاة) ، أبي داود في (كتاب الجهاد) ، ابن حنبل ٤٤٥/٥ ، ٤٤٦ .

(٤) وهو المشار إليه بالآية الكريمة ، « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » الآية رقم ٣٦ ، ٣٧ من سورة النساء .

(٥) وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية رقم ٢٦٤ من سورة البقرة .

(٦) وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ﴾ الآية رقم ٢٦٥ من سورة البقرة .

وكذلك ﴿ استعينوا بالصبرِ والصَّلاةِ ﴾ فهم في الصبر والصلاة [أربعة أقسام] فعامة هذه الأشفاع التي في القرآن : إما عملان ، وإما وصفان في عمل : انقسم الناس فيها قسمة رباعية ، ثم إن كانا عملين منفصلين كالصلاة والصبر ، والصلاة والزكاة ونحو ذلك نفع أحدهما ولو ترك الآخر .

وإن كانا شرطين في عمل كالاخلاص والتثبت لم ينفع أحدهما ، فان المن والأذى محبط ، كما أن الرياء محبط ، كما دل عليه القرآن ، ومن هذا تقوى الله وحسن الخلق ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والبر والتقوى والحق والصبر ، وأفضل الإيمان السماحة والصبر .

بخلاف الأشفاع في الذم كالإفك والإثم ، والاختيال ، والفخر ، والشح ، والجبن ، والإثم والعدوان ، فان الذم ينال أحدهما مفرداً ومقروناً ، لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته ، قد لا تحصل المنفعة إلا بتمامه ، والشر يطلب عدمه لمضرته وبعض المضار يضر في الجملة غالباً ، ولهذا فرق في الأسماء بين الأمر والنهي ، والإثبات والنفي ، فإذا أمر بالشيء اقتضى كماله ، وإذا نهى عنه اقتضى النهي عن جميع أجزائه ، ولهذا حيث أمر الله بالنكاح - كما في المطلقة ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره ، وكما في الإحصان - فلا بد من الكمال بالعقد والدخول ، وحيث نهى عنه كما في ذوات المحارم فالنهي عن كل منهما على انفراده ، وهذا مذهب مالك وأحمد المنصوص عنه إذا حلف ليتزوجن لم يبر إلا بالعقد والدخول ، بخلاف ما إذا حلف لا يتزوج فإنه يحنث بالعقد ، وكذلك إذا حلف لا يفعل شيئاً حنث بفعل بعضه ، بخلاف ما إذا حلف ليفعلنه فان دلالة الاسم على كل وبعض تختلف باختلاف النفي والإثبات .

ولهذا لما أمر الله بالطهارة والصلاة ، والزكاة والحج كان الواجب الإتمام ، كما قال تعالى : ﴿ بكلمات فأتمهن ﴾ وقال : ﴿وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

ولما نهى عن القتل والزنا والسرقة والشرب كان ناهياً عن أبعاض ذلك ، بل وعن مقدماته أيضاً ، وإن كان الاسم لا يتناوله في الإثبات ؛ ولهذا فرق في الأسماء النكرات بين النفي والإثبات ؛ والأفعال كلها نكرات ، وفرق بين الأمر والنهي بين التكرار وغيره ، وقال ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ؛ وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه »[1] .

---

(١) ورد في هذا الحديث في : البخاري ٩/٩٤ - ٩٥ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة - باب الاقتداء برسول الله ﷺ) ، وفي مسلم مع خلاف في اللفظ ٢ - ٩٧٥ (كتاب الحج . باب فرض الحج مرة في العمر) ، النسائي ٥/٨٣ (كتاب المناسك . باب وجوب الحج) ، ابن ماجة ١/٣ (المقدمة . اتباع سنة رسول الله ﷺ) .

وإنما اختلف في المعارف المنفية على روايتين ، كما في قوله : لا تأخذ الدراهم ولا تكلم الناس .

قال شيخ الإسلام
أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ وإنْ تُبدوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخْفُوه يحاسِبكُمْ بِهِ الله ، فيغفر لمنْ يشاءُ ويعذِّب من يشاءُ ، والله علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ﴾ قد ثبت في صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : لما أنزل الله : ﴿ إنْ تُبدوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخفُوه يحاسِبكُمْ بِهِ الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب ، وقالوا : أي رسول الله ! كلفنا من العمل ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها ﴿ آمنَ الرَّسولُ بما أُنزِلَ إليهِ من ربِّهِ والمؤمنونَ ، كلٌّ آمَن باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ ، لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؛ وقالوا : سمعنَا وأطعنَا غفرانكَ ربَّنَا وإليكَ المصير ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله ﴿ لا يكلِّفُ الله نفساً إلَّا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبتْ ، ربَّنا لا تؤاخذْنَا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : نعم ! ﴿ ربنا ولا تحمِلْ علينا إصراً كما حملتهُ على الَّذينَ من قبلنا ﴾ قال : نعم ! ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : نعم . ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : نعم [1] .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه وقال : قد فعلت ، قد فعلت ، بدل نعم [2] .

---

(١) ورد هذا الحديث من طرق عدة فرواه مسلم عن يزيد بن وكيع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ، ورواه الإمام أحمد بنفس الإسناد في مسنده ، كما رواه الإمام أحمد أيضاً عن وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي ذكر « قد فعلت » بدلا من « نعم » عقب كل دعاء . وذكره ابن جرير في تفسير الآية المذكورة . انظر البخاري ٥/٤٠ ـ (كتاب التفسير ، باب قوله تعالى وإن تبدوا ما في أنفسكم) ، مسلم (كتاب التفسير) ابن كثير ١/٣٣٨ ـ ٣٤٠ .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسير هذه الواقعة عن ابن عباس من طرق عدة وفيها « قد فعلت » بدلا من « نعم » انظر التفسير ٣٣٨/١٠ .

(أقوال السلف في الآية)

ولهذا قال كثير من السلف والخلف : إنها منسوخة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، كما نقل ذلك عن ابن مسعود ، وأبي هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس في رواية عنه ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين وسعيد بن جبير وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل ، والكلبي ، وابن زيد [(١)] ، ونقل عن آخرين أنها ليست منسوخة ، بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم ، فيأخذ من يشاء ويغفر لمن يشاء ، كما نقل ذلك عن ابن عمر ، والحسن واختاره أبو سليمان الدمشقي والقاضي أبو يعلى ، وقالوا : هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ [(٢)] .

(رأي ابن تيمية في نسخ الآية)

و« فصل الخطاب » : أن لفظ « النسخ » مجمل ، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه ، من عموم أو إطلاق أو غير ذلك ، كما قال من قال : إن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ﴿ وجاهِدُوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ ﴾ نسخ بقوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وليس بين الآيتين تناقض، لكن قد يفهم بعض الناس من قوله : ﴿ حق تقاته ﴾ ﴿ وحق جهاده ﴾ الأمر بما لا يستطيعه العبد فينسخ ما فهمه هذا ، كما ينسخ الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته . وإن لم يكن نسخ ما أنزله ، بل نسخ ما ألقاه الشيطان ، إما من الأنفس أو من الأسماع أو من اللسان .

وكذلك ينسخ الله ما يقع في النفوس من فهم معنى ، وإن كانت الآية لم تدل عليه لكنه

---

(١) ذكر البخاري في صحيحه : أخبرنا روح . أخبرنا شعبة عن خالد الحذّاء عن مروان الأصفر . عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ـ يقول البخاري أحسبه ابن عمر ـ وإن تبدو ما في انفسكم أو تخفوه قال : نسختها الآية بعدها » انظر البخاري ٤١/٥ (كتاب التفسير) ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : وهكذا روي عن علي وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ، ومحمد بن كعب القرظي ، وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة ، إنها منسوخة بالآية التي بعدها .
وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم السنّة من طريق قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تكلم أو تعمل » انظر ابن كثير ١/ ٣٣٩ .

(٢) ذكر ابن كثير عن ابن عباس أن هذه الآية لم تنسخ ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم وهو قوله : (يحاسبكم به الله) يقول يخبركم . وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب .
وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه .
وعن الحسن البصري أنها محكمة لم تنسخ . واختار ابن جرير هذا واحتج لرأيه بأنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر ، وقد يحاسب ويعاقب . انظر تفسير الطبري لهذه الآية وانظر كذلك ابن كثير ١/ ٣٤ .

محتمل ، وهذه الآية من هذا الباب ، فإن قوله : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم ﴾ الآية إنما تدل على أن الله يحاسب بما في النفوس لا على أنه يعاقب على كل ما في النفوس ، وقوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ يقتضي أن الأمر إليه في المغفرة والعذاب لا إلى غيره .

ولا يقتضي أنه يغفر ويعذب بلا حكمة ولا عدل ، كما قد يظنه من يظنه من الناس ، حتى يجوزوا أنه يعذب على الأمر اليسير من السيئات مع كثرة الحسنات وعظمها ، وأن الرجلين اللذين لهما حسنات وسيئات يغفر لأحدهما مع كثرة سيئاته وقلة حسناته ، ويعاقب الآخر على السيئة الواحدة مع كثرة حسناته ، ويجعل درجة ذاك في الجنة فوق درجة الثاني .

وهؤلاء يجوزون أن يعذب الله الناس بلا ذنب . وأن يكلفهم ما لا يطيقون ويعذبهم على تركه ، والصحابة إنما هربوا وخافوا أن يكون الأمر من هذا الجنس فقالوا : لا طاقة لنا بهذا ، فإنه إن كلفنا ما لا نطيق عذبنا . فنسخ الله هذا الظن وبين أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون أنه يكلف العبد ما لا يطيقه ، ويعذبه عليه ، وهذا القول لم يعرف عن أحد من السلف والأئمة ، بل أقوالهم تناقض ذلك حتى أن سفيان بن عيينة سئل عن قوله : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قال : إلا يسرها ، ولم يكلفها طاقتها . قال البغوي : وهذا قول حسن ، لأن الوسع ما دون الطاقة وإنما قاله طائفة من المتأخرين لما ناظروا المعتزلة في : « مسائل القدر » وسلك هؤلاء مسلك الجبر جهم واتباعه ، فقالوا هذا القول وصاروا فيه على مراتب ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

قالت ابن الأنباري في قوله : ﴿ولا تحملنا ما لا طاقةَ لنا به﴾ أي لا تحملنا ما يثقل علينا اداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه . قال : فخاطب العرب على حسب ما تعقل ، فان الرجل منهم يقول للرجل ما أطيق النظر إليك وهو مطيق لذلك ، لكنه ثقيل عليه النظر إليه ، قال : ومثله قوله : (ما كانوا يستطيعون السمع) .

قلت ليست هذه لغة العرب وحدهم ، بل هذا مما اتفق عليه العقلاء .

و« الاستطاعة في الشرع » هي ما لا يحصل معه للمكلف ضرر راجح كاستطاعة الصيام والقيام ، فمتى كان يزيد في المرض او يؤخر البرء لم يكن مستطيعاً لأن في ذلك مضرة راجحة ، بخلاف هؤلاء فانهم كانوا لا يستطيعون السمع لبغض الحق وثقله عليهم : إما حسداً لقائله ، وإما اتباعاً لهوى ورين الكفر والمعاصي على القلوب ، وليس هذا عذراً فلو لم يأمر العباد الا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن .

والمقصود أن السلف لم يكن فيهم من يقول : إن العبد لا يكون مستطيعاً إلا في حال فعله ، وأنه قبل الفعل لم يكن مستطيعاً ، فهذا لم يأت الشرع به قط ، ولا اللغة ، ولا دل عليه عقل ، بل العقل يدل على نقيضه كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والرب تعالى يعلم أن العبد لا يفعل مع أنه مستطيع له ، والمعلوم أنه لا يفعله ، ولا يريده لا أنه لا يقدر عليه ، والعلم يطابق المعلوم ، فالله يعلم ممن استطاع الحج والقيام والصيام أنه مستطيع ، ويعلم أن هذا مستطيع يفعل مستطاعه ؛ فالمعلوم هو عدم الفعل لعدم إرادة العبد ، لا لعدم استطاعته . كالمقدورات له التي يعلم أنه لا يفعلها لعدم إرادته لها لا لعدم قدرته عليها ، والعبد قادر على أن يفعل ، وقد علم أنه لا يفعل مع القدرة ، ولهذا يعذبه لأنه إنما أمره بما استطاع لا بما لا يستطيع ومن لم يستطع لم يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

وإذا قيل : فيلزم أن يكون قادراً على تغيير علم الله ، لأن الله علم أنه لا يفعل فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله .

قيل : هذه مغلطة ، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا يلزم فيها تغيير العلم وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه ، لا عدم وقوعه ، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعرف علم الله إلا بما يظهر ، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بشيء يغير العلم ، بل هو قادر على فعل ما لم يقع ، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا انه لا يقع .

وإذا قيل : فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم .

قيل ليس الأمر كذلك ، بل العبد يقدر على وقوعه ، وهو لم يوقعه ، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فمقدور العبد إذ وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فاذا وقع كان الله عالماً أنه سيقع ، وإذا لم يقع كان الله عالماً بأنه لا يقع البتة فاذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه ، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال .

ومما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شيء إلا الرب ، فإن الأمور نوعان :

« نوع » علم الله أنه سيكون .

و« نوع » علم الله أنه لا يكون .
فـ« الأول » لا بد من وقوعه .

و« الثاني » لا يقع البتة فما علم الله أنه سيقع يعلم أنه يقع بمشيئته وقدرته ، وما علم أنه لا يقع يعلم أنه لا يشاؤه ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما « المعتزلة » فعندهم أنه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، وأولئك «المجبرة» في جانب ، وهؤلاء في جانب ، وأهل السنة وسط .

وما يفعله العباد باختيارهم يعلم سبحانه أنهم فعلوه بقدرتهم ومشيئتهم ، وما لم يفعلوه مع قدرتهم عليه يعلم أنهم لم يفعلوه لعدم إرادتهم له ، لا لعدم قدرتهم عليه ، وهو سبحانه الخالق للعباد وقدرتهم وإرادتهم وأفعالهم ، وكل ذلك مقدور للرب ، وليس هذا مقدوراً بين قادرين بل القادر المخلوق هو وقدرته ومقدوره مقدور للخالق مخلوق له .

و« المقصود هنا » أن قوله تعالى : ﴿ وأن تُبدوا ما في أنفسكُمْ أو تخفوهُ يحاسِبْكُمْ به الله ﴾ حق ، والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه فمن فهم أن الله يكلف نفساً ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه .

ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه ، فقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ﴾ رد للأول ، وقوله : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ رد للثاني ، وقوله : ﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ كقوله في آل عمران : ﴿ ولله ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ يغفر لمن يشاءُ ويعذب من يشاءُ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ [1] وقوله : ﴿ ألم تعلم أنَّ الله لهُ ملكُ السَّمواتِ والأرضِ يُعذب مَنْ يشاءُ ويغفرُ لمن يشاءُ والله على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[2] ونحو ذلك .

وقد علمنا أنه لا يغفر أن يشرك به ، وأنه لا يعذب المؤمنين ، وأنه يغفر لمن تاب ، كذلك قوله : ﴿ وإن تُبدُوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخْفُوهُ ﴾ الآية .

ودلت هذه الآية على أنه سبحانه يحاسب بما في النفوس ، وقد قال عمر : زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . و« المحاسبة » تقتضي أن ذلك يحسب ويحصى .

وأما « المغفرة ، والعذاب » فقد دل الكتاب والسنة على أن من في قلبه الكفر وبغض الرسول وبغض ما جاء به إنه كافر بالله ورسوله وقد عفى الله لهذه الأمة ـ وهم المؤمنون حقاً ،

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٩ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٠ .

الذين لم يرتابوا ـ عما حدثت به أنفسها مالا تتكلم به أو تعمل ، كما هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس ، وروى عن النبي ﷺ « إن الذي يهم بالحسنة تكتب له ، والذي يهم بالسيئة لا تكتب عليه حتى يعملها »[1] إذا كان مؤمناً من عادته عمل الحسنات وترك السيئات إن ترك السيئة لله كتبت له حسنة ، فإذا أبدى العبد ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم والعقاب ، وان أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمناً لترك الإيمان بالله والرسول مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقباً على ما أخفاه في نفسه من ذلك ، لأنه ترك الإيمان الذي لا نجاة ولا سعادة إلا به ، وأما إن كان وسواساً والعبد يكرهه فهذا صريح الإيمان ، كما هو مصرح به في الصحيح[2] .

(معنى الوسوسة والوسع)

وهذه « الوسوسة » هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيمان ، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ﴾ .

و« الوسع » فعل بمعنى المفعول أي ما يسعه ، لا يكلفها ما تضيق عنه فلا تسعه ، وهو المقدور عليه المستطاع ، وقال بعض الناس : ان « الوسع » اسم لما يسع الانسان ولا يضيق عليه . وليس كذلك ، بل ما يسع الإنسان هو مباح له ، وما لم يسعه ليس مأموراً به ، فما يسعه قد يؤمر به وأما ما لا يسعه فهو المباح يقال : يسعني أن أفعل كذا ، ولا يسعني أن أفعل كذا ، والمباح هو الواسع ، ومنه باحة الدار ، فالمباح لك أن تفعله . هو يسعك ولا تخرج عنه ، ومنه يقال : رحم الله من وسعته السنة فلم يتعدها الى البدعة : أي فيما أمر الله به وما أباحه ما يكفي المؤمن المتبع في دينه ودنياه لا يحتاج ان يخرج عنه الى ما نهى عنه .

وأما ما كلفت به فهو ما أمرت بفعله ، وذلك يكون مما تسعه أنت لا مما يسعك هو . وقد

---

(١) أورد البخاري هذا الحديث في صحيحه ١٢٨/٨ (كتاب الرقائق باب من هم بحسنه أو سيئة)وهو من رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : ان الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة ، وانظر أيضاً مسلم (كتاب الإيمان)، الترمذي (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام) ، الدارمي (كتاب الرقاق) ، ابن حنبل ١ ـ ٢٢٧ .

(٢) روى مسلم في صحيحه من حديث مغيرة عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال « تلك محض الايمان » انظر : مسلم « كتاب الإيمان » حديث رقم ٢١١ .
وانظر ابن كثير ٣٤١/١ وفيه : تلك صريح الايمان .

يقال : لا يسعني تركه ، بل تركه محرم وقد قال تعالى: ﴿ تلكَ حدودُ الله فلا تقربوهَا ﴾[1] وهو أول الحرام وقال : ﴿ تلكَ حدودُ الله فلاَ تعتدُوها ﴾[2] وهي آخر الحلال ، وقال : ﴿ ذلكَ بأنَّ الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[3] وهذا التغيير نوعان :

(أحدهما) : أن يبدو ذلك فيبقى قولاً وعملاً يترتب عليه الذم والعقاب .

و(الثاني) أن يغيروا الإيمان الذي في قلوبهم بضده من الريب والشك والبغض، ويعزموا على ترك فعل ما أمر الله به ورسوله ، فيستحقون العذاب هنا على ترك المأمور ، وهناك على فعل المحظور .

وكذلك ما في النفس مما يناقض محبة الله ـ والتوكل عليه والإخلاص له والشكر له ـ يعاقب عليه ، لأن هذه الأمور كلها واجبة ، فإذا خلا القلب عنها واتصف بأضدادها استحق العذاب على ترك هذه الواجبات .

وبهذا التفصيل تزول شبه كثيرة ، ويحصل الجمع بين النصوص ، فانها كلها متفقة على ذلك ، فالمنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يعاقبون على أنهم لم تؤمن قلوبهم ، بل أضمرت الكفر ، قال تعالى : ﴿ يقولونَ بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾[4] وقال : ﴿ في قُلوبهم مرضٌ ﴾[5] وقال : ﴿ أُولئكَ الَّذينَ لم يُرِدِ الله أَنْ يُطَّهر قلوبهُمْ ﴾[6] فالمنافق لا بد أن يظهر في قوله وفعله ما يدل على نفاقه وما أضمره . كما قال عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وقد قال تعالى عن المنافقين : ﴿ ولوْ نَشاءُ لأريناكَهُمْ فلعرفتهم بسيماهُمْ ﴾[7] ثم قال : ﴿ ولتعرفنهم في لحنِ القولِ ﴾ وهو جواب قسم محذوف أي : والله لتعرفهم في لحن القول ! فمعرفة المنافق في لحن القول لا بد منها ، وأما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة .

ولما كانت هذه الآية : ﴿ إن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوهُ ﴾ خبراً من الله ، ليس فيها إثبات إيمان للعبد ، بخلاف الآيتين بعدها ، كما قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩ .

(٣) سورة الرعد الآية ١١ .

(٤) سورة الفتح الآية ١١ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٠ .

(٦) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٧) سورة محمد الآية ٣٠ .

من قرأهما في ليلة كفتاه »[1] متفق عليه ، وهما قوله : ﴿ آمَنَ الرَّسول بما أنزلَ اليهِ من ربّه والمؤمنونَ ﴾ إلى آخرها .

وكلام السلف يوافق ما ذكرناه ، قال ابن عباس : هذه الآية لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يقول : أني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم تطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله : ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ يقول : يخبركم به الله ، وأما أهل الشرك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب ، وهو قوله : ﴿ يغفر لمنْ يشاءُ ويعذِّبُ من يشاء ﴾[2] .

وقد روي عن ابن عباس : أنها نزلت في كتمان الشهادة ، وروى ذلك عن عكرمة والشعبي .

وكتمان الشهادة من باب ترك الواجب ، وذلك كأظهار العيب الذي يجب كتمانه[3] ، وكتمان العلم الذي يجب إظهاره .

وعن مجاهد أنه الشك واليقين ، وهذا أيضاً من باب ترك الواجب ، لأن اليقين واجب .

وروى عن عائشة : ما أعلنت فإن الله يحاسبك به ، وأما ما أخفيت فما عجلت لك به العقوبة في الدنيا . وهذا قد يكون مما يعاقب فيه العبد بالغم ، كما سئل سفيان بن عيينة عن غم لا يعرف سببه قال : هو ذنب هممت به في سرك ولم تفعله فجزيت هماً به ، فالذنوب لها عقوبات : السر بالسر : والعلانية بالعلانية .

وروى عنها مرفوعاً قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ إنْ تُبدُوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخْفوهُ يحاسِبُكُمْ به الله ﴾ فقال يا عائشة ! هذه مبايعة الله العبد مما يصيبه من النكبة والحمى ، حتى الشوكة والبضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيروع لها فيجدها في جيبه ، حتى إن

---

(١) ورد هذا الحديث في : البخاري ٢٣١/٩ ـ ٢٣٢ (كتاب التفسير . فضس سورة البقرة) ، وقد ذكر ابن كثير في فضل الآيتين من آخر سورة البقرة أحاديث كثيرة ، وأورده بينها هذا الحديث وعلق عليه بقوله « . . . وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش بإسناده مثله ، وهو في الصحيحين من طريق الثوري عن منصور عن ابراهيم عن عبد الرحمن ، ومن طريق الثوري عن منصور عن ابراهيم عن عبد الرحمن ، ومن طريق ابن مسعود أيضاً ، كما رواه بن حنبل في مسنده .
انظر ابن كثير ٣٤٠/١ ـ ٣٤٣ .

(٢) روى ابن كثير هذا الأثر في تفسيره عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . . . الخ . كما روى نحوه عن ابن جرير والضحاك ومجاهد ، والحسن البصري . وهؤلاء جميعاً على أن الآية لم تنسخ .

(٣) في س : ككتمان العيب الذي يجب اظهاره .

المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير »[1] .

قلت : هذا المرفوع هو ـ والله أعلم ـ بيان ما يعاقب به المؤمن في الدنيا : وليس فيه أن كل ما أخفاه يعاقب به . بل فيه أنه إذا عوقب على ما أخفاه عوقب بمثل ذلك ، وعلى هذا دلت الأحاديث الصحيحة .

وقد روى الروياني في مسنده من طريق الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر امسك عنه العقوبة بذنبه حتى يوافيه بها يوم القيامة »[2]، وقد قال تعالى : ﴿ فأثابكُمْ غما بغم لكيلا تحزنُوا على ما فاتكُمْ ولا ما أصابكُمْ والله خبيرٌ بما تعملون، ثم أَنْـزَلَ عليكُمْ مِنْ بعدِ الغمِّ أمنَةً نُعاساً يغشىٰ طائفةً منكُمْ وطائفةٌ قد أهمتهُمْ أَنُفُسُهم ، يظنُّونَ بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليةِ ، يقولُونَ هل لنا مِنَ الأمرِ شيءٌ﴾ ﴿يقولونَ لو كانَ لنا منَ الأمرِ شيءٌ ما قُتلنَا ههنا ، قُلْ : لو كنْتُمْ في بيوتكُمْ لبَرَزَ الَّذين كُتِبَ عليهِمُ القتلُ إلىٰ مضاجعهِم ، وليبتلى الله ما في صدورِكُمْ ، وليمحِّصَ ما في قلوبكُمْ والله عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ﴾[3] .

فهؤلاء كانوا في ظنهم ظن الجاهلية ظناً ينافي اليقين بالقدر ، وظناً ينافي ان الله ينصر رسوله ، فكان عقابهم على ترك اليقين ووجود الشك ، وظن الجاهلية ، ومثل هذا كثير .

(علاقة الجزاء بالنية)

ومما يدخل في ذلك نيات الأعمال ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى و« النية » هي مما يخفيه الإنسان في نفسه ، فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب ، وإن كان قصده رياء الناس استحق العقاب ، كما قال تعالى : ﴿ فويلٌ للمصلين الَّذينَ هم عن صلاتهم ساهونَ الَّذين هم يراؤ ون ﴾[4] . وقال : ﴿ وَإذا قامُوا الىٰ الصَّلاة

---

(١) أورد ابن كثير هذا الحديث في تفسيره عن علي بن زيد عن أبيه قال : سالت عائشة عن هذه الآية « وإن تبدوا ما أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فقالت : ما سالني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقالت : هذه مبايعة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها في يد كمه فيفقدها فيفزع لها ثم يجدها في خبته حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر ، يقول ابن كثير : كذا رواه الترمذي وابن جرير من طريق حماد بن سمحة ، وقال الترمذي : غريب لا نعرفه الا من حديثه .

كما ضعف ابن كثيرَ علي بن زيد وقال عنه ، ضعيف يغرب في رواياته وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبد الله عن عائشة . وليس لها عنها في الكتب سواه . أي سوى هذا الحديث .

انظر : ابن كثير ١/ ٣٤٠ ، ابن حنبل ٦/ ٢١٨ .

(٢) ورد الحديث بروايات مختلفة وبالفاظ متقاربة في : الترمذي (كتاب الزهد) ابو داود (كتاب الأدب)، ابن حنبل ٥/ ٢٦ .

(٣) سورة آل عمران الآيات (١٥٣ ـ ١٥٤) .

(٤) سورة الماعون (٤ ـ ٦) .

قامُوا كُسالىٰ يراؤ ونَ النَّاسَ ﴾[١] .

وفي حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار في الذي تعلم وعلم ليقال : عالم قارىء. والذي قاتل ليقال جرىء وشجاع . والذي تصدق ليقال جواد كريم [٢] فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم ، وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم ، لم يقصدوا بذلك وجه الله ، وإن كانت صور أعمالهم صوراً حسنة ، فهؤلاء اذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب ، كما في الحديث : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس اليه فله من عمله النار »[٣] وفي الحديث الآخر : « من طلب علماً مما لا يبتغي به وجه الله لا يطلبه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام »[٤] .

وفي « الجملة » القلب هو الأصل ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك الأعضاء والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده ، وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب »[٥] فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده ، فيكون هذا مما أبداه مما لا أخفاه .

وكل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب فانه الأصل وإن وجب على غيره تبعاً ، فالعبد المأمور المنهى إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه ، وإنما يقصد بالطاعة والامتثال القلب ، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به ، كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر ، وقصد الامتثال كان أول المعصية منه ، بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك ، ولهذا قال في حق الشقي : ﴿ فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ﴾[٦] الآيات ، وقال في حق السعداء : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ في غير موضع .

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٢ .

(٢) جاء هذا الحديث في سنن الترمذي (كتاب الزهد) .

(٣) ورد هذا الحديث في الترمذي (كتاب العلم) ، أبو داود (المقدمة) ، ابن ماجه (مقدمة) ، ابن حنبل ١/١٦٠ .

(٤) أورده ابن ماجه في المقدمة رقم ٣٣.

(٥) ورد هذا الحديث في البخاري ١/٢٠ (كتاب الايمان باب فضل من استبرأ لدينه) وهو برواية النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك ان يواقعه الا وان لكل ملك حمى . ألا أن حمى الله في أرضه محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » وانظر أيضاً : مسلم (كتاب المساقاة) ابن ماجه (كتاب الفتن)، الدارمي (كتاب البيوع) .

(٦) سورة القيامة الآية ٢٢.

والمأمور نوعان :

« نوع » هو عمل ظاهر على الجوارح ، وهذا لا يكون إلا بعلم القلب وإرادته ، فالقلب هو الأصل فيه ، كالوضوء والاغتسال . وكافعال الصلاة : من القيام ، والركوع ، والسجود ، وافعال الحج : من الوقوف ، والطواف ، وإن كانت أقوالاً فالقلب أخص بها ، فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقوله ، أو بما يقول ويقصده .

ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر الا من عاقل يعلم ما يقول ويقصده ، فأما المجنون والطفل الذي لا يميز فأقواله كلها لغو في الشرع لا يصح منه إيمان ولا كفر ، ولا عقد من العقود ، ولا شيء من الأقوال باتفاق المسلمين .

وكذلك النائم اذا تكلم في منامه فأقواله كلها لغو ، سواء تكلم المجنون والنائم بطلاق أو كفر أو غيره ، وهذا بخلاف الطفل فان المجنون والنائم إذا أتلف ما لا ضمنه ، ولو قتل نفساً وجبت ديتها كما تجب دية الخطأ .

(اقوال العلماء في حكم افعال السكران)

وتنازع العلماء في السكران مع اتفاقهم انه لا تصح صلاته لقوله ﷺ : « مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »[1] وهو معروف في السنن .

وتنازعوا في عقود السكران كطلاقه ، وفي أفعاله المحرمة ، كالقتل والزنا هل يجري مجرى العاقل ، أو مجرى المجنون ، أو يفرق بين أقواله وأفعاله وبين بعض ذلك وبعض ؟ على عدة أقوال معروفة .

والذي تدل عليه النصوص والأصول وأقوال الصحابة : أن أقواله هدر ـ كالمجنون ـ لا يقع بها طلاق ولا غيره ، فان الله تعالى قد قال : ﴿ حتى تعلمُوا ما تقولُونَ ﴾ فدل على أنه لا يعلم ما يقول .

والقلب هو الملك الذي تصدر الأقوال والأفعال عنه ، فإذا لم يعلم ما يقول لم يكن ذلك صادراً عن القلب ، بل يجري مجرى اللغو ، والشارع لم يرتب المؤاخذة الا على ما يكسبه القلب من الأقوال والأفعال الظاهرة ، كما قال : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾[2] ولم يؤاخذ على أقوال وأفعال لم يعلم بها القلب ولم يتعمدها ، وكذلك ما يحدث به المرء نفسه لم يؤاخذ منه الا بما قاله أو فعله .

---

(١) ذكره الترمذي في سننه في (كتاب المواقيت) بلفظ مختلف .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٥ .

وقال قوم : إن الله قد أثبت للقلب كسباً فقال : ﴿ بما كسبت قلوبكم ﴾ . فليس لله عبد أسر عملاً أو أعلنه من حركة في جوارحه ، أو هم في قلبه الا يخبره الله به ويحاسبه عليه ، ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إنَّ السَّمعَ والبصر والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسئولاً ﴾[1] وهذا القول ضعيف شاذ ، فان قوله : ﴿ يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ إنما ذكره لبيان أنه يؤاخذ في الأعمال بما كسب القلب لا يؤاخذ بلغو الأيمان ، كما قال : ﴿بما عقدتم الايمان ﴾ . فالمؤاخذة لم تقع إلا بما اجتمع فيه كسب القلب مع عمل الجوارح . فاما ما وقع في النفس ، فإن الله تجاوز عنه ما لم يتكلم به أو يعمل ، وما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب وعلمه فإنه لا يؤاخذ به .

و« ايضاً » فإذا كان السكران لا يصح طلاقه والصبي المميز تصح صلاته ثم الصبي لا يقع طلاقه فالسكران أولى،وقد قال النبي ﷺ « لماعز » لما اعترف بالحد:« أبك جنون؟قال: لا »[2] ثم أمر باستنكاهه لئلا يكون سكراناً ، فدل على أن إقرار السكران باطل ، وقضية ماعز متأخرة بعد تحريم الخمر ، فإن الخمر حرمت سنة ثلاث بعد أحد باتفاق الناس ، وقد ثبت عن عثمان وغيره من الصحابة كعبدالله بن عباس أن طلاق السكران لا يقع ، ولم يثبت عن صحابي خلافه .

والذين أوقعوا طلاقه لم يذكروا إلا مأخذاً ضعيفاً ، وعمدتهم أنه عاص بإزالة عقله ، وهذا صحيح يوجب عقوبته على المعصية التي هي الشرب فيحد على ذلك وأما الطلاق فلا يعاقب به مسلم على المعصية ؛ ولو كان كذلك لكان كل من شرب الخمر أو سكر طلقت امرأته ، وإنما قال من قال : إذا تكلم به طلقت ، فهم اعتبروا كلامه لا معصيته ، ثم إنه في حال سكره قد يعتق ، والعتق قربة ، فإن صححوا عتقه بطل الفرق ، وإن ألغوه فإلغاء الطلاق أولى ، فإن الله يحب العتق ولا يحب الطلاق .

ثم من علل ذلك بالمعصية لزمه طرد ذلك فيمن زال عقله بغير مسكر كالبنج ، وهو قول من يسوي بين البنج والسكران من أصحاب الشافعي وموافقيه كأبي الخطاب ، والأكثرون على الفرق ، وهو منصوص أحمد وأبي حنيفة وغيرهما ، لأن الخمر تشتهيها النفس وفيها الحد ،

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٢) جاء هذا الحديث في البخاري ٨٦/٩ (كتاب الأحكام. باب من حكم في المسجد) من رواية أبي هريرة قال : أتى رجل الى رسول الله ﷺ وهو في المسجد . . فقال يا رسول الله أني زنيت ، فاعرض عنه فلما شهد على نفسه أربعاً قال أبك جنون ؟ قال لا . قال : اذهبوا به فارجموه » وانظر مسلم (كتاب الحدود)، أبو داود (كتاب الحدود) الترمذي (حدود) النسائي (جنائز) ابن حنبل ٥٣/٢ .

بخلاف البنج فإنه لا حد فيه ، بل فيه التعزير ، لأنه لا يشتهي كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير فيها التعزير . وعامة العلماء على أنه لا حد فيها إلا قولاً نقل عن الحسن ، فهذا فيمن زال عقله .

وأما إذا كان يعلم ما يقوله ، فإن كان قاصداً لما يقوله فهذا هو الذي يعتبر قوله ، وإن كان مكرها فإن أكره على ذلك بغير حق فهذا عند جمهور العلماء أقواله كلها لغو ، مثل كفره ، وإيمانه ، وطلاقه وغيره ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

وأبو حنيفة وطائفة يفرقون بين ما يقبل الفسخ وما لا يقبله . قالوا فما يقبل الفسخ لا يلزم من المكره كالبيع ، بل يقف على إجازته له ، وما لا يقبل الفسخ كالنكاح والطلاق واليمين فإنه يلزم من المكره .

والجمهور ينازعون في هذا الفرق : في ثبوت الوصف ، وفي تعلق الحكم به فانهم يقولون : النكاح ونحوه يقبل الفسخ ، وكذلك العتق يقبل الفسخ عند الشافعي وأحد القولين في مذهب أحمد ، حتى إن المكاتب قد يحكمون بعتقه ثم يفسخون العتق ويعيدونه عبداً ، والأيمان المنعقدة تقبل التحلة ، كما قال تعالى : ﴿ قد فرضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾[1] .

وبسط الكلام على هذا له موضع آخر .

و« المقصود هنا » أن القلب هو الأصل في جميع الأفعال والأقوال ، فما أمر الله به من الأفعال الظاهرة فلا بد فيه من معرفة القلب وقصده وما أمر به من الأقوال وكل ما تقدم ، والمنهى عنه من الأقوال والأفعال إنما يعاقب عليه إذا كان بقصد القلب ، وأما ثبوت بعض الأحكام كضمان النفوس والأموال إذا أتلفها مجنون أو نائم مخطىء أو ناس ، فهذا من باب العدل في حقوق العباد ليس هو من باب العقوبة .

فالمأمور به كما ذكرنا « نوعان » نوع ظاهر على الجوارح ، ونوع باطن في القلب .

« النوع الثاني » ما يكون باطناً في القلب كالإخلاص ، وحب الله ورسوله والتوكل عليه ، والخوف منه ، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول ، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر فإنه محله ، وهذا النوع هو أصل النوع الأول ، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول ، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له لا يتم شيء من المأمور به ظاهراً إلا بها ، وإلا فلو عمل أعمالاً ظاهرة بدون هذه كان منافقاً ، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالاً ظاهرة توافقها ، وهي أشرف من فروعها ، كما قال

---

(١) سورة التحريم الآية ٢ .

تعالى : ﴿ لن يَنَالَ الله لحومها ولا دِماؤ ها ، ولكن ينالهُ التقوى منكم ﴾[1] .

وكذلك تكذيب الرسول بالقلب وبغضه وحسده والاستكبار عن متابعته أعظم إثماً من أعمال ظاهرة خالية عن هذا ، كالقتل والزنا والشرب والسرقة ، وما كان كفراً من الأعمال الظاهرة : كالسجود للأوثان ، وسب الرسول ونحو ذلك فإنما ذلك لكونه مستلزماً لكفر الباطن ، وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن ولم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفراً ، وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم في الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله ، كما ذكر أن بعض علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب فعل نحو ذلك مع قوم من المشركين حتى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا على يديه ، ولم يظهر منا قوتهم في أول الأمر .

وهنا « أصول » تنازع الناس فيها .

منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح ، وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟

فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح ، فمن قال : أنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف ، فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن ، وإنما هو كافر .

وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً في الباطن وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر ، وهذا باطل شرعاً وعقلاً كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وقد كفّر السلفُ كوكيع وأحمد وغيرهما من يقول بهذا القول ، وقد قال النبي ﷺ : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد ، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح ، والقلب المؤمن صالح ، فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمناً ، حتى أن المكره إذا كان في إظهار الإيمان فلا بد أن يتكلم مع نفسه وفي السر مع من يأمن إليه ، ولا بد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، كما قال عثمان . وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط ، فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان .

وذلك أن الجسد تابع للقلب فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن ولو بوجه من الوجوه ، وإن لم يظهر كل موجبه لمعارض فالمقتضى لظهور موجبه قائم ،

---

(١) سورة الحج الآية ٢٧ .

والمعارض لا يكون لازماً للانسان لزوم القلب له وإنما يكـون في بعض الأحوال متعـذراً إذا كتم ما في قلبه كمؤمن آل فرعون ، مع أنه قد دعا إلى الإيمان دعاء ظهر به من إيمان قلبه ما لا يظهر من إيمان من أعلن إيمانه بين موافقيه وهذا في معرفة القلب وتصديقه .

ومنها قصد القلب وعزمه إذا قصد الفعل وعزم عليه مع قدرته على ما قصد ، هـل يمكن أن لا يوجد شيء مما قصده وعزم عليه ؟ فيه قولان : أصحهما أنه إذا حصل القصد الجـازم مع القـدرة . وجب وجود المقـدور ، وحيث لم يفعل العبـد مقدوره دل عـلى أنه ليس هنـاك قصـد جازم ، وقد يحصل قصد جازم مع العجز عن المقدور لكن يحصل معه مقدمات المقدور .

وقيل : بل قد يمكن حصول العزم التام بدون أمر ظاهر . وهذا نظير قـول من قال ذلـك في المعرفة والتصديق ، وهما من أقوال اتباع جهم الذين نصروا قوله في الإيمـان ، كالقـاضي أبي بكر[1] وأمثاله ، فانهم نصروا قوله وخالفوا السلف والأئمة وعامة طوائف المسلمين .

وبهذا ينفصل النزاع في « مؤاخذة العبد بالهمة » فمن الناس : من قـال : يؤاخذ بهـا إذا كانت عزماً .

ومنهم من قال : لا يؤاخذ بها .

والتحقيق : إن الهمة إذا صارت عزماً فلا بد أن يقترن بها قول أو فعل ، فإن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور .

والذين قالوا : يؤاخذ بها احتجوا بقوله « إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فـالقاتـل والمقتول في النار »[2] الحديث ، وهذا لا حجة فيه ، فإنـه ذكر ذلـك في رجلين اقتتلا ، كـل منهما يـريد قتل الآخر ، وهـذا ليس عزمـاً مجرداً ، بـل هو عـزم من فعل المقدور ، لكنه عـاجز عن اتمام مراده ، وهذا يؤاخذ باتفـاق المسلمين ، فمن اجتهـد على شـرب الخمر وسعى في ذلـك بقولـه وعمله ثم عجز فإنه آثم باتفاق المسلمين ، وهو كالشارب وإن لم يقع منـه شرب ، وكـذلك من

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد المعروف بالباقلاني أو ابن الباقلاني لم تعرف سنة مولده بالتحديد ، توفي سنة ٤٠٣ هـ ، يعد إمام الأشاعرة بعد أبي الحسن مؤسس المذهب . له مؤلفات كثيرة في علم الكلام ونقد الفلسفة والمنطق . ومن أهمها كتاب الدقائق .

انظر ترجمته في : شذرات الذهب ٣/١٦٠ - ١٧٠ ، تبيين كذب المفتري ص ٢١٧ - ٢٢٦ ، وفيات الأعيان ٤/٤٠٠ - ٤٠١ ، تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٩ - ٣٨٣ ، الاعلام ٧/ ٤٦ .

(٢) جاء هذا الحديث في : البخاري ١/١٥ (كتاب الإيمان . باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ، رواه الأحنف بن قيس قال : ذهبت لأنصر هذا هذا الرجل فلقيني أبو بكر فقـال : أين تريـد ؟ . قلت أنصر هـذا الرجـل . قال : ارجـع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا إلتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار : فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ . قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبـه ، وانظر : النسـائي (كتاب الجنـائز ، ابن حنبـل ٢/٥٣) .

اجتهد على الزنا والسرقة ونحو ذلك بقوله وعمله ثم عجز فهو آثم كالفاعل ، ومثل ذلك في قتل النفس وغيره ، كما جعل الداعي إلى الخير له مثل أجر المدعو ووزره لأنه أرادة فعل المدعو ، وفعل ما قدر عليه ، فالارادة الجازمة ؛ مع فعل المقدور من ذلك ، فيحصل له مثل أجر الفاعل ووزره وقد قال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾[1] الآية .

وفصل الخطاب في الآية أن ﴿ أولى الضرر ﴾ نوعان .

نوع لهم عزم تام على الجهاد ولو تمكنوا لما قعدوا ولا تخلفوا وإنما أقعدهم العذر ، فهم كما قال النبي ﷺ : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر »[2] وهم أيضاً كما قال في حديث أبي كبشة الأنماري « هما في الأجر سواء » وكما في حديث أبي موسى « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً »[3] فأثبت له مثل ذلك العمل ، لأن عزمه تام وإنما منعه العذر .

و (النوع الثاني) من ﴿ أولى الضرر ﴾ الذين ليس لهم عزم على الخروج ، فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون وأولوا الضرر العازمون عزماً جازماً على الخروج ، وقوله تعالى : ﴿ غير أولى الضرر ﴾ سواء كان استثناء أو صفة دل على أنهم لا يدخلون مع القاعدين في نفي الاستواء ، فإذا فصل الأمر فيهم بين العازم وغير العازم بقيت الآية على ظاهرها ، ولو جعل قوله : ﴿ فضَّلَ الله المجاهدينَ بأموالهم وأَنفسهمْ على القاعدينَ درجةً ﴾[4] عاماً في أهل الضرر غيرهم لكان ذلك مناقضاً لقوله : ﴿ غير أولى الضرر ﴾ ، فإن قوله : ﴿ لا يستوي القاعدون ﴾ ﴿ والمجاهدون ﴾ إنما فيها نفي الاستواء ؛ فإن كان أهل الضرر كلهم كذلك لزم بطلان قوله : ﴿ غير أولى الضرر ﴾ ، ولزم أنه لا يساوي المجاهدين قاعد ولو كان من أولى الضرر ، وهذا خلاف مقصود الآية .

و « أيضاً » ، فالقاعدون إذا كانوا من غير أولى الضرر ، والجهاد ليس بفرض عين فقد حصلت الكفاية بغيرهم ، فإنه لا حرج عليهم في القعود ، بل هم موعدون بالحسنى كأولى

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٢) ورد الحديث في البخاري ٣١/٤ (كتاب الجهاد . باب من حبسه العذر عن الغزو) من رواية أنس رضي الله عنه ، وفي مسلم عن جابر رضي الله عنه ٤٩/٦ (كتاب الإمارة : باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر) .

(٣) ورد هذا الحديث في : البخاري ٧٠/٤ (كتاب الجهاد : باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة) وهو عن أبي موسى الأشعري . ولفظه : إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً ، وهو بسند أبي موسى (ط الحلبي ٤١٨/٤) مع اختلاف في اللفظ .

(٤) سورة النساء الآية ٩٥ .

الضرر وهذا مثل قوله : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾[1] الآية ، فالوعد بالحسنى شامل لأولى الضرر وغيرهم .

فإن قيل : قد قال في الأولى في فضلهم ﴿ درجة ﴾ ، ثم قال في فضلهم ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ كما قال : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾[2] .

فقوله : ﴿ أعظم درجة ﴾ كما قال في السابقين ﴿ أعظم درجة ﴾ وهذا نصب على التمييز : أي درجتهم أعظم درجة ، وهذا يقتضي تفضيلاً مجملاً يقال : منزلة هذا أعظم وأكبر ، كذلك قوله : ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ الآيات ، ليس المراد به أنهم لم يفضلوا عليهم إلا بدرجة ، فإن في الحديث الصحيح الذي يرويهابو سعيد وأبو هريرة : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض »[3] الحديث ، وفي حديث أبي سعيد : « من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة » فعجب لها أبو سعيد فقال رسول الله ﷺ : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » فقال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله »[4] فهذا الحديث الصحيح بين أن المجاهد يفضل على القاعد الموعود بالحسنى من غير أولى الضرر مائة درجة ، وهو يبطل قول : أن الوعد بالحسنى والتفضيل بالدرجة مختص بأولى الضرر ، فهذا القول مخالف للكتاب والسنة .

وقد يقال : إن ﴿ درجة ﴾ منصوب على التمييز كما قال أعظم درجة أي فضل درجتهم على درجتهم أفضل ، فضل هذا على هذا منزلاً ومقاماً ، وقد يراد ﴿ بالدرجة ﴾ جنس الدرج ، وهي المنزلة والمستقر ، لا يراد به درجة واحدة من العدد ، وقوله : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات ﴾ منصوب ﴿ بفضل ﴾ لأن التفضيل زيادة للمفضل ،

---

(١) سورة الحديد الآية ١٠ .

(٢) سورة التوبة الآيات (١٩ ـ ٢٠) .

(٣) ورد هذا الحديث في البخاري ١٩/٤ (كتاب الجهاد : باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال هذه سبيلي وهذه سبيلي) ، (كتاب التوجه) ، وانظر أيضاً : مسلم (كتاب الإمارة ، الفتن) ، الترمذي (كتاب الجنة) ، النسائي (كتاب الجهاد) ، ابن ماجه (كتاب الاداب) ، الدارمي (مقدمة) ، ابن حنبل ٢٦٥/٣ .

(٤) جاء هذا الحديث في : مسلم (كتاب الإمارة) حديث رقم ١١٦ ، أبو داود (كتاب الوتر) ، النسائي (كتاب الجهاد) .

فالتقدير زادهم عليهم أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة .

فهذا النزاع في العازم الجازم إذا فعل مقدوره هل يكون كالفاعل في الأجر والوزر أم لا ؟ وأما في استحقاق الأجر والوزر فلا نزاع في ذلك ، وقوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » فيه حرص كل واحد منهما على قتل صاحبه وفعل مقدورة ، فكلاهما مستحق للنار ، ويبقى الكلام في تساوي القعودين بشيء آخر .

وهكذا حال المقتتلين من المسلمين في الفتن الواقعة بينهم ، فلا تكون عاقبتهما إلا عاقبة سوء ، الغالب والمغلوب ، فإنه لم يحصل له دنيا ولا آخرة ، كما قال الشعبي : أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أشقياء ، وأما الغالب فإنه يحصل له حظ عاجل ثم ينتقم منه في الآخرة ، وقد يعجل الله له الانتقام في الدنيا ، كما جرى لعامة الغالبين في الفتن ، فإنهم أصيبوا في الدنيا ، كالغالبين في الحرة ، وفتنة أبي مسلم الخراساني ونحو ذلك .

وأما من قال : إنه لا يؤاخذ بالعزم القلبي فاحتجوا بقوله ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها »[1] وهذا ليس فيه أنه عاف لهم عن العزم ، بل فيه أنه عفى عن حديث النفس إلى أن يتكلم أو يعمل ، فدل على أنه ما لم يتكلم أو يعمل لا يؤاخذ ، ولكن ظن من ظن أن ذلك عزم وليس كذلك ، بل ما لم يتكلم أو يعمل لا يكون عزماً ، فإن العزم لا بد أن يقترن به المقدور وإن لم يصل العازم إلى المقصود ، فالذي يعزم على القتل أو الزنا أو نحوه عزماً جازماً لا بد أن يتحرك ولو برأسه ، أو يمشي ، أو يأخذ آلة ، أو يتكلم كلمة ، أو يقول أو يفعل شيئاً فهذا كله ما يؤاخذ به كزنا العين واللسان والرجل ، فإن هذا يؤاخذ به ، وهو من مقدمات الزنا التام بالفرج ، وإنما وقع العفو عما لم يبرز خارجاً بقول أو فعل ولم يقترن به أمر ظاهر قط ، فهذا يعفي عنه لمن قام بما يجب على القلب من فعل المأمور به ، سواء كان المأمور به في القلب وموجبه في الجسد أو كان المأمور ظاهراً في الجسد وفي القلب معرفته وقصده ، فهؤلاء إذا حدثوا أنفسهم بشيء كان عفواً مثل هم ثابت بلا فعل ، ومثل الوسواس الذي يكرهونه ، وهم يثابون على كراهته ، وعلى ترك ما هموا به وعزموا عليه لله تعالى وخوفاً منه .

(دقائق من خواتيم سورة البقرة)
وقال الشيخ رحمه الله

اعلم أن سبحانه وتعالى أعطى نبيه محمداً ﷺ وبارك ، خواتيم (سورة البقرة) من كنز

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري ٣/١٩٠ (كتاب العتق . باب الخطأ والنسيان) من رواية أبي هريرة ولفظه (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم) ، انظر سنن النسائي (كتاب الطلاق) ، ابن ماجه (كتاب الطلاق) ، ابن حنبل ٣/٢٥٥ .

تحت العرش لم يؤت منه نبي قبله (١) ، ومن تدبر هذه الآيات وفهم ما تضمنته من حقائق الدين ، وقواعد الإيمان الخمس ، والرد على كل مبطل ، وما تضمنته من كمال نعم الله تعالى على هذا النبي ﷺ وأمته ، ومحبة الله سبحانه لهم ، وتفضيله إياهم على من سواهم ، فاليهنه العلم ، ولو ذهبنا نستوعب الكلام فيها لخرجنا عن مقصود الكتاب ، ولكن لا بد من كليمات يسيرة تشير إلى بعض ذلك فنقول :

لما كانت (سورة البقرة) سنام القرآن ، وأكثر سوره أحكاماً ، وأجمعها لقواعد الدين : أصوله وفروعه ، وهي مشتملة على ذكر « أقسام الخلق » : المؤمنين ، والمنافقين ، وذكر أوصافهم وأعمالهم .

وذكر الأدلة الدالة على إثبات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى وحدانيته ، وذكر نعمه ، وإثبات نبوة رسوله ﷺ ، وتقرير المعاد ، وذكر الجنة والنار ، وما فيهما من النعيم والعذاب .

ثم ذكر تخليق العالم العلوي والسفلي .

ثم ذكر خلق آدم عليه السلام ، وإنعامه عليه بالتعليم وإسجاد ملائكته له . وإدخاله الجنة ، ثم ذكر محنته مع إبليس ، وذكر حسن عاقبة آدم عليه السلام .

ثم ذكر « المناظرة » مع اهل الكتاب من اليهود ، وتوبيخهم على كفرهم وعنادهم ، ثم ذكر النصارى والرد عليهم ، وتقرير عبودية المسيح ، ثم تقرير النسخ ، والحكمة في وقوعه .

ثم بناء البيت الحرام وتقرير تعظيمه ، وذكر بانيه والثناء عليه ، ثم تقرير الحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وتسفيه من رغب عنها ، ووصية بنيه بها ، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى آخر السورة ، فختمها الله تعالى بآيات جوامع مقررة لجميع مضمون السورة ، فقال تعالى : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير ﴾ .

فأخبر تعالى : أن ما في السموات وما في الأرض ملكه وحده لا يشاركه فيه مشارك ، وهذا يتضمن انفراده بالملك الحق ، والملك العام لكل موجود ، وذلك يتضمن توحيد ربوبيته وتوحيد إلهيته ، فتضمن نفي الولد والصاحبة والشريك ؛ لأن ما في السموات وما في الأرض إذا كان ملكه وخلقه لم يكن له فيهم ولد ولا صاحبة ولا شريك .

وقد استدل سبحانه بعين هذا الدليل في سورة الأنعام ، وسورة مريم ، فقال تعالى :

---

(١) أشار إلى ذلك الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث الصحيحة .

أنظر على سبيل المثال : مسلم (كتاب الايمان) ؛ الترمذي(كتاب التفسير) . تفسير سورة النجم ؛ النسائي (كتاب الصلاة) ؛ ابن حنبل ١ /٢٨٧ ، ٤ / ١٤٧ .

﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ﴾ [1] وقال تعالى في سورة مريم : ﴿ وما ينبغي للرَّحمنِ أن يتَّخِذَ ولداً ، إن كلُّ مَنْ في السَّمواتِ والأرض إلَّا آتىٰ الرَّحمنَ عبداً ﴾ [2] ويتضمن ذلك أن الرغبة والسؤال والطلب والافتقار لا يكون إلا إليه وحده ؛ إذ هو المالك لما في السموات والأرض .

ولما كان تصرفه سبحانه في خلقه لا يخرج عن العدل والإحسان ، وهو تصرف بخلقه وأمره ، وأخبر أن ما في السموات وما في الأرض ملكه ، فما تصرف خلقاً وأمراً إلا في ملكه الحقيقي ، وكانت سورة البقرة مشتملة من الأمر والخلق على ما لم يشتمل عليه سورة غيرها ـ أخبر تعالى أن ذلك صدر منه في ملكه قال تعالى : ﴿ وإن تُبدوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخفوه يحاسبكُمْ بِهِ الله ﴾ ، فهذا متضمن لكمال علمه سبحانه وتعالى بسرائر عباده وظواهرهم ، وإنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه ، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه ، فعلمه عام وملكه عام .

ثم أخبر تعالى عن محاسبته لهم بذلك ، وهي تعريفهم ما أبدوه أو أخفوه ، فتضمن ذلك علمه بهم وتعريفهم إياه ، ثم قال : ﴿ فيغفر لمن يشاءُ ويعذِّبُ من يشاء ﴾ فتضمن ذلك قيامه عليهم بالعدل والفضل ، فيغفر لمن يشاء فضلا ، ويعذب من يشاء عدلا ، وذلك يتضمن الثواب والعقاب المستلزم للأمر والنهي المستلزم للرسالة والنبوة .

ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ﴾ فتضمن ذلك أنه لا يخرج شيء عن قدرته البتة ، وإن كل مقدور واقع بقدره ، ففي ذلك رد على المجوس الثنوية ، والفلاسفة ، والقدرية المجوسية ، وعلى كل من أخرج شيئاً من المقدورات عن خلقه وقدرته ـ وهم طوائف كثيرون .

فتضمنت الآية إثبات التوحيد . وإثبات العلم بالجزئيات والكليات ، وإثبات الشرائع والنبوات ، وإثبات المعاد والثواب والعقاب ، وقيام الرب على خلقه بالعدل والفضل ، وإثبات كمال القدرة وعمومها ، وذلك يتضمن حدوث العالم بأسره ؛ لأن القديم لا يكون مقدوراً ولا مفعولا .

ثم إن إثبات كمال علمه وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلى ، وله من كل صفة اسم حسن ، فيتضمن إثبات أسمائه الحسنى ، وكمال القدرة يستلزم أن يكون فعالا لما يريد ، وذلك يتضمن تنزيهه عن كل ما يضاد كماله ، فيتضمن تنزيهه عن الظلم المنافي لكمال غناه وكمال علمه ؛ إذ الظلم إنما يصدر عن محتاج أو جاهل ، وأما الغنى عن كل شيء العالم بكل

---

(1) سورة الأنعام الآية ١٠١ .

(2) سورة مريم الآية ٩٣ .

شيء سبحانه ، فإنه يستحيل منه الظلم ، كما يستحيل عليه العجز المنافي لكمال قدرته ، والجهل المنافي لكمال علمه .

فتضمنت الآية هذه المعارف كلها بأوجز عبارة وأفصح لفظ وأوضح معنى .

وقد عرفت بهذا أن الآية لا تقتضي العقاب على خواطر النفوس المجردة ؛ بل إنما تقتضي محاسبة الرب عبده بها ، وهي أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الأخص ، وبعد محاسبته بها يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وعلى هذا فالآية محكمة لا نسخ فيها ، ومن قال من السلف : نسخها ما بعدها فمراده بيان معناها والمراد منها ، وذلك يسمى نسخاً في لسان السلف ، كما يسمون الاستثناء نسخاً .

ثم قال تعالى : ﴿ آمن الرَّسولُ بما أنزل إليهِ من ربِّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ﴾ [1] فهذه شهادة الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بإيمانه بما أنزل إليه من ربه ، وذلك يتضمن إعطاءه ثواب أكمل أهل الإيمان ـ زيادة على ثواب الرسالة والنبوة ـ لأنه شارك المؤمنين في الايمان ، ونال منها أعلى مراتبه ، وامتاز عنهم بالرسالة والنبوة ، وقوله : ﴿أنزل إليه من ربه﴾ يتضمن أنه كلامه الذي تكلم به ومنه نزل لا من غيره ، كما قال تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾ [2] وقال : ﴿ تنزيل من ربِّ العالمينَ ﴾ [3] .

وهذا أحد ما احتج به أهل السنّة على المعتزلة القائلين بأن الله لم يتكلم بالقرآن ، قالوا : فلو كان كلاماً لغير الله لكان منزلا من ذلك المحل لا من الله : فإن القرآن صفة لا تقوم بنفسها ؛ بخلاف قوله : ﴿ وسخَّرَ لكم ما في السَّمواتِ وما في الأرض جميعاً منهُ ﴾ [4] فإن تلك أعيان قائمة بنفسها ، فهي منه خلقاً ، وأما « الكلام » فوصف قائم بالمتكلم ، فلما كان منه فهو كلامه ؛ إذ يستحيل أن يكون منه ولم يتكلم به .

ثم شهد تعالى للمؤمنين بأنهم بما آمن به رسولهم، ثم شهد لهم جميعاً بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فتضمنت هذه الشهادة إيمانهم بقواعد الإيمان الخمسة التي لا يكون أحد مؤمناً إلا بها ، وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

وقد ذكر تعالى هذه الأصول الخمسة في أول السورة ووسطها وآخرها ، فقال في أولها : ﴿والَّذين يؤمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزل من قبلكَ وبالآخرةِ هم يُوقنونَ ﴾ فالايمان بما أنزل إليه وما أنزل

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١٠٢ .

(٣) سورة الواقعة الآية ٨٠ .

(٤) سورة الجاثية الآية ١٣ .

من قبله يتضمن الإيمان بالكتب والرسل والملائكة ، ثم قال : ﴿ وبالآخرةِ هم يُوقنونَ ﴾ . والإيمان بالله يدخل في الايمان بالغيب وفي الإيمان بالكتب والرسل ، فتضمنت الإيمان بالقواعد الخمس .

وقال في وسطها : ﴿ ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ ﴾ ثم حكى عن أهل الايمان أنهم قالوا : ﴿ لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ من رسلِهِ ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فلا ينفعنا إيماننا بمن آمنا به منهم كما لم ينفع أهل الكتاب ذلك ؛ بل نؤمن بجميعهم ونصدقهم ولا نفرق بينهم ، وقد جمعتهم رسالة ربهم فنفرق بين من جمع الله بينهم ، ونعادي رسله . ونكون معادين له . فباينوا بهذا الايمان جميع طوائف الكفار المكذبين لجنس الرسل ، والمصدقين لبعضهم المكذبين لبعضهم .

وتضمن إيمانهم بالله إيمانهم بربوبيته ، وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وأسمائه الحسنى ، وعموم قدرته ومشيئته ، وكمال علمه وحكمته ، فباينوا بذلك جميع طوائف أهل البدع والمنكرين لذلك أو لشيء منه ؛ فإن كمال الإيمان بالله يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه . وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ، فباينوا بهذين الأمرين جميع طوائف الكفر ، وفرق أهل الضلال الملحدين في أسماء الله وصفاته .

ثم قالوا : ﴿سمعنا وأطعنا﴾ فهذا إقرار منهم بركني الإيمان اللذين لا يقوم إلا بهما ، وهما السمع المتضمن للقبول : لا مجرد سمع الإدراك المشترك بين المؤمنين والكفار ، بل سمع الفهم والقبول . و« الثاني » الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر ، وهذا عكس قول الأمة الغضبية ﴿سمعنا وعصينا﴾ .

فتضمنت هذه الكلمات كمال إيمانهم ، وكمال قبولهم ، وكمال انقيادهم ، ثم قالوا : ﴿غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ لما علموا أنهم لم يوفوا مقام الإيمان حقه مع الطاعة والانقياد الذي يقتضيه منهم ، وأنهم لا بد أن تميل بهم غلبات الطباع ودواعي البشرية الى بعض التقصير في واجبات الإيمان ، وأنه لا يلم شعث ذلك إلا مغفرة الله تعالى لهم ، سألوه غفرانه الذي هو غاية سعادتهم ونهاية كمالهم فإن غاية كل مؤمن المغفرة من الله تعالى ، فقالوا : ﴿غفرانك ربنا﴾ .

ثم اعترفوا أن مصيرهم ومردهم إلى مولاهم الحق لا بد لهم من الرجوع إليه فقالوا : ﴿ وإليك المصير﴾ .

فتضمنت هذه الكلمات إيمانهم به ، ودخولهم تحت طاعته وعبوديته ، واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم الى مغفرته ، واعترافهم بالتقصير في حقه ، وإقرارهم برجوعهم إليه .

ثم قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ فنفى بذلك ما توهموه من أنه يعذبهم بالخطرات التي لا يملكون دفعها ، وأنها داخلة تحت تكليفه ، فأخبرهم أنه لا يكلفهم إلا وسعهم ، فهذا هو البيان الذي قال فيه ابن عباس وغيره فنسخها الله عنهم بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وقد تضمن ذلك أن جميع ما كلفهم به أمراً ونهياً فهم مطيقون له قادرون عليه ، وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون ، وفي ذلك رد صريح على من زعم خلاف ذلك .

والله تعالى أمرهم بعبادته ، وضمن أرزاقهم ، فكلفهم من الأعمال ما يسعونه وأعطاهم من الرزق ما يسعهم ، فتكليفهم يسعونه ، وأرزاقهم تسعهم ، فهم في الوسع في رزقه وأمره ، وسعوا أمره ، ووسعهم رزقه ، ففرق بين ما يسع العبد ؛ وما يسعه العبد ، وهذا هو اللائق برحمته وبره وإحسانه وحكمته وغناه ، لا قول من يقول أنه كلفهم ما لا قدرة لهم عليه البتة ولا يطيقونه ، ثم يعذبهم على ما لا يعلمونه .

وتأمل في قوله عزّ وجلّ : ﴿ إلا وسعها ﴾ كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه ، لا في ضيق وحرج ومشقة ، فإن الوسع يقتضي ذلك ، فاقتضت الآية أن ما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق وحرج ، بخلاف ما يقدر عليه الشخص فإنه قد يكون مقدوراً له ولكن فيه ضيق وحرج عليه ، وأما وسعه الذي هو منه في سعة فهو دون مدى الطاقة والمجهود ، بل لنفسه فيه مجال ومتسع ، وذلك مناف للضيق والحرج : ﴿ وما جعل عليكم في الدّين من حرجٍ ﴾[1] بل ﴿ يريدُ [الله] بكم اليسر ولا يريدُ بكم العسرَ ﴾[2] قال سفيان بن عيينة في قوله : ﴿ إلا وسعها ﴾ إلا يسرها لا عسرها ، ولم يكلفها طاقتها ، ولو كلفها طاقتها لبلغ المجهود .

فهذا فهم أئمة الإسلام وأين هذا من قول من قال أنه كلفهم ما لا يطيقونه البتة ولا قدرة لهم عليه [3] ؟

ثم أخبر تعالى أن ثمرة هذا التكليف وغايته عائدة عليهم ، وأنه تعالى يتعالى عن انتفاعه بكسبهم وتضرره باكتسابهم ، بل لهم كسبهم ونفعه . وعليهم اكتسابهم وضرره ، فلم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ، بل رحمة وإحساناً وتكرماً . ولم ينههم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم ، بل حمية ، وحفظاً ، وصيانة وعافية .

وفيه أيضاً أن نفساً لا تعذب باكتساب غيرها ، ولا تثاب بكسبه ، ففيه معنى قوله :

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٣) يشير بذلك ابن تيمية الى رأي بعض الأشاعرة في الاستطاعة والقول بتكليف ما لا يطاق .

﴿ وأنْ ليسَ للانسانِ إلاَّ ما سعَى ﴾ [1] ، ﴿ ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرىٰ ﴾ [2] .

وفيه أيضاً إثبات كسب النفس المنافي للجبر .

وفيه أيضاً اجتماع الحكمة فيه ، فاما كسب خيراً أو اكتسب شراً ، لم يبطل اكتسابه كسبه ، كما يقوله أهل الإحباط والتخليد [3] فإنهم يقولون : إن عليه ما اكتسب وليس له ما كسب ، فالآية رد على جميع هذه الطوائف ، فتأمل كيف أتى فيها لها بالكسب الدال على الاهتمام والحرص والعمل ، فان اكتسب أبلغ من كسب ، نفى ذلك تنبيه على غلبة الفضل للعدل ، والرحمة للغضب .

ثم لما كان ما كلفهم به عهوداً منه ووصايا ، وأوامر تجب مراعاتها والمحافظة عليها ، وأن لا يخل بشيء منها ، ولكن غلبات الطباع البشرية تأبى إلا النسيان والخطأ والضعف والتقصير أرشدهم الله تعالى إلى أن يسألوه مسامحته إياهم في ذلك كله ، ورفع موجبه عنهم بقولهم : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينَا أو أخطأنَا ، رَبَّنا ولا تَحمِلْ علينَا إصراً كما حملتهُ على الَّذينَ من قبلِنَا ﴾ أي لا تكلفنا من الآصار التي يثقل حملها ما كلفته من قبلنا : فإنا أضعف أجساداً وأقل احتمالا .

ثم لما علموا أنهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم ، كما أنهم غير منفكين عما يأمرهم به وينهاهم عنه ، سألوه التخفيف في قضائه وقدره ! كما سألوه التخفيف في أمره ونهيه فقالوا : ﴿ رَبَّنَا ولا تحمِّلنَا ما لا طاقةَ لنَا بِهِ ﴾ فهذا في القضاء والقدر والمصائب .

وقولهم : ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ في الأمر والنهي والتكليف فسألوه التخفيف في النوعين .

ثم سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء ، فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة ، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها ، وعليها مدار السعادة والفلاح ، فالعفو متضمن لإسقاط حقه قبلهم ومسامحتهم به ، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم .

بخلاف العفو المجرد ، فان العافي قد يعفو ولا يُقْبل على من عفا عنه ولا يرضى عنه ،

---

(١) سورة النجم الآية ٣٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٣) أهل الإحباط والتخليد ، هم القائلون بأن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار ، من الخوارج ومن تبعهم على هذا الرأي يقول الشهرستاني عنهم أنهم : يجمعون القول بتكفير مرتكب الكبيرة .
انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/١٧٢ .

فالعفو ترك محض ، والمغفرة إحسان وفضل وجود ، والرحمة متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر ، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر ، والفوز بالخير، والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته وإظهار دينه ، وإعلاء كلمته ، وقهر أعدائه ، وشفاء صدورهم منهم ، وإذهاب غيظ قلوبهم ، وحزازات نفوسهم ، وتوسلوا في خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذي لا مولى لهم سواه ، فهو ناصرهم ، وهاديهم ، وكافيهم ، ومعينهم ، ومجيب دعواتهم ، ومعبودهم .

فلما تحققت قلوبهم بهذه المعارف وانقادت ، وذلت لعزة ربها ومولاها واجابتها جوارحهم ، أعطوا كل ما سألوه من ذلك ، فلم يسألوا شيئاً منه إلا قال الله تعالى: قد فعلت، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ذلك .

فهذه كلمات قصيرة في معرفة مقدار هذه الآيات العظيمة الشأن ، الجليلة المقدار ، التي خص الله بها رسوله محمد ﷺ وأمته من كنز تحت العرش .

وبعد ففيها من المعارف وحقائق العلوم ما تعجز عقول البشر عن الإحاطة به .

والله المرغوب إليه أن لا يحرمنا الفهم في كتابه إنه رحيم ودود .

والحمد الله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وآله وصحبه أجمعين .

(فضل دعاء آخر السورة)

فصل

وقال رحمه الله :

في الدعاء المذكور في آخر (سورة البقرة) وهو قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ إلى آخرها . قد ثبت في صحيح مسلم : « أنه قال قد فعلت »[1] .

وكذلك في صحيحه في حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « أعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » .

وفي صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة

---

(١) أورد مسلم هذا الحديث بمعناه في صحيحه ١/٨٠ ـ ٨١ (كتاب الإيمان باب بيان قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ ، وذكره الإمام أحمد في مسنده (ط دار المعارف) ٣/٣٤١ ـ ٣٤٢ رقم ٢٠٧٠ ، ٥/٣٠ ـ ٣١ رقم ٣٠٧١ ، سنن الترمذي ١١/١١٢ ـ ١١٣ (كتاب التفسير . سورة البقرة .) .

المنتهى ، وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها ، قال : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » قال : فراش من ذهب قال : فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً .

أعطى الصلوات الخمس :

وأعطى خواتيم سورة البقرة .

وغفر لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً إلا المقحمات .

قال بعض الناس إذا كان هذا الدعاء قد أجيب ، فطلب ما فيه من باب تحصيل الحاصل ، وهذا لا فائدة فيه ، فيكون هذا الدعاء عبادة محضة ليس المقصود به السؤال ، وهذا القول قد قاله طائفة في جميع الدعاء أنه إن كان المطلوب مقدراً فلا حاجة إلى سؤاله وطلبه ، وإن كان غير مقدر لم ينفع الدعاء ـ دعوت أو لم تدع ـ فجعلوا الدعاء تعبداً محضاً ، كما قال ذلك طائفة أخرى في التوكل .

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع ، وذكرنا قول من جعل ذلك أمارة أو علامة بناء على أنه ليس في الوجود سبب يفعل به ، بل يقترن أحد الحادثين بالآخر ، قاله طائفة من القدرية النظار ، وأول من عرف عنه ذلك الجهم بن صفوان ومن وافقه ، وذكرنا أن « القول الثالث » هو الصواب ، وهو أن الدعاء والتوكل والعمل الصالح سبب في حصول المدعو به من خير الدنيا والآخرة ، والمعاصي سبب ، وأن الحكم المعلق بالسبب قد يحتاج إلى وجود الشرط وانتفاء الموانع ، فإذا حصل ذلك السبب بلا ريب .

والمقصود هنا الكلام في الدعاء قد علم أنه أجيب ، فقال بعض الناس : هذا تعبد محض لحصول المطلوب بدون دعائنا فلا يبقى سبباً ولا علامة وهذا ضعيف .

(الحكمة في الأمر بالدعاء)

أما أولاً فإن العمل الذي لا مصلحة للعبد فيه لا يأمر الله به ، وهذا بناء على قول السلف : ان الله لم يخلق ولم يأمر إلا لحكمة ، كما لم يخلق ولم يأمر إلا لسبب . والذين ينكرون الأسباب والحكم يقولون بل يأمر . بما لا منفعة فيه للعباد البتة ، وإن أطاعوه وفعلوا ما أمرهم به ، كما بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

والمقصود أن كل ما أمر الله أمر به لحكمة ، وما نهى عنه نهى عنه لحكمة وهذا مذهب أئمة الفقهاء قاطبة وسلف الأمة وأئمتها وعامتها ، فالتعبد المحض بحيث لا يكون فيه حكمة لم يقع .

نعم ! قد تكون الحكمة في المأمور به ، وقد تكون في الأمر ، وقد تكون في كليهما ، فمن المأمور به ما لو فعله العبد بدون الأمر حصل له منفعة : كالعدل ، والإحسان إلى الخلق وصلة الرحم ، وغير ذلك فهذا إذ أمر به صار فيه (حكمتان) حكمة في نفسه ، وحكمة في الأمر [به] فيبقى له حسن من جهة نفسه ، ومن جهة أمر الشارع ، وهذا هو الغالب على الشريعة ، وما أمر الشرع به بعد أن لم يكن إنما كانت حكمته لما أمر به .

وكذا ما نسخ ، زالت حكمته وصارت في بدله كالقبلة .

وإذا قدر أن الفعل ليست فيه حكمة أصلاً فهل يصير بنفس الأمر فيه حكمة الطاعة ؟ وهذا جائز عند من يقول بالتعبد المحض وإن لم يقل بجواز الأمر لكل شيء ، لكن يجعل من باب الابتلاء والامتحان ، فإذا فعل صار العبد به مطيعاً كنهيهم عن الشرب إلا من اغترف غرفة بيده .

والتحقيق أن الأمر الذي هو ابتلاء وامتحان يحض عليه من غير منفعة في الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود ، وإن لم يفعله ، كابراهيم لما أمر بذبح ابنه ، وكحديث أقرع وأبرص وأعمى لما طلب منهم إعطاء ابن السبيل فامتنع الأبرص والأقرع فسلبا النعمة ، وأما الأعمى فبذل المطلوب فقيل له أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك وسخط على صاحبيك[1] .

وهذا هو الحكمة الناشئة من نفس الأمر والنهي لا من نفس الفعل ، فقد يؤمر العبد وينهى وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له وبذل للمطلوب، كما كان المطلوب من إبراهيم تقديم حب الله على حبه لابنه حتى تتم خلته به قبل ذبح هذا المحبوب لله ، فلما أقدم عليه وقوى عزمه بإرادته لذلك تحقق بأن الله أحب إليه من الولد وغيره ، ولم يبق في قلبه محبوب يزاحم محبة الله .

وكذلك أصحاب طالوت ابتلوا بالامتناع من الشرب ليحصل من إيمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة ، والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر .

وأما رمى الجمار والسعي بين الصفا والمروة فالفعل في نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله .

وقد بين النبي ﷺ هذا بقوله في الحديث الذي في السنن « إنما جعل السعي بين الصفا

---

(١) حديث الأقرع والأبرص والأعمى . متفق عليه وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري ٤/١٧١ ـ ١٧٣ (كتاب الانبياء . حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل) ، وهو في مسلم ٨/٢١٣ ـ ٢١٤ (أول كتاب الزهد والرقائق) . وانظر تحقيق الحديث في جامع الرسائل لابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ص ١٧٩ ت ٢ .

والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله »[1] رواه أبو داود والترمذي وغيرهما . فبين النبي ﷺ ان هذا له حكمة ، فكيف يقال لا حكمة ؛ بل هو تعبد وابتلاء محض .

وأما فعل مأمور في الشرع ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا حكمة إلا مجرد الطاعة ، والمؤمنون يفعلونه فهذا لا أعرفه ، بل ما كان من هذا القبيل نسخ بعد العزم كما نسخ إيجاب الخمسين صلاة إلى خمس .

و « المعتزلة » تنكر الحكمة الناشئة من نفس الأمر ، ولهذا لم يجوزوا النسخ قبل التمكن ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم ، كأبي الحسن التميمي وبنوه على أصلهم ، وهو أن الأمر عندهم كاشف عن حسن الفعل الثابت في نفسه لا مثبت لحسن الفعل ، وأن الأمر لا يكون إلا بحسن .

وغلطوا في المقدمتين فإن الأمر وإن كان كاشفاً عن حسن الفعل فالفعل بالأمر يصير له حسن آخر غير الحسن الأول . وإذا كان مقصود الآمر الامتحان للطاعة فقد يأمر بما ليس بحسن في نفسه وينسخه قبل التمكن إذا حصل المقصود من طاعة المأمور وعزمه وانقياده ، وهذا موجود في أمر الله وأمر الناس بعضهم بعضاً .

والجهمية[2] تنكر أن يكون في الفعل حكمة أصلاً في نفسه . ولا في نفس الأمر بناء على أصلهم أنه لا يأمر لحكمة ، وعلى أن الأفعال بالنسبة إليه سواء ليس بعضها حسناً وبعضها قبيحاً ، وكلا الأصلين قد وافقتها عليه الأشعرية ومن أتبعهم من الفقهاء ، كأصحاب الشافعي ومالك وأحمد غيرهم ، وهما أصلان مبتدعان ، فإن مذهب السلف والأئمة أن الله يخلق لحكمة ويأمر لحكمة ، ومذهب السلف والأئمة أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ويرضى ذلك ، ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان ، وان كان قد شاء وجود ذلك ، وقد بسط هذا في موضع آخر .

وقد قال تعالى : ﴿ ادخلو البابَ سُجَّداً ، وقولُوا حِطَّةٌ ﴾[3] فإن نفس السجود خضوع

---

(١) ورد الحديث في الترمذي (كتاب الحج) ، الدارمي (كتاب الناسك) ابن حنبل ١٤١/٦ ، وانظر ما ذكره البخاري في صحيحه ١٩٣/٢ ـ ١٩٥ في فضل السعي بين الصفا والمروة .

(٢) الجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان بن أبي محرز مولى بني راسب . تتلمذ على الجعد بن درهم وأخذ عنه القول بخلق القرآن ، كان كاتباً للحارث بن سريح وخرج معه على بني أمية وقتل سنة ١٥٨ هـ بمرو . وابن تيمية يستعمل لفظ الجهمية ويريد به أحياناً نفاة الحكمة والتعليل في الأفعال الإلهية ويقصد بهم الأشاعرة ، كما في هذه القضية . وقد يريد به أحياناً أخرى نفاة الصفات والقائلين بخلق القرآن ، ويقصد بهم المعتزلة . فاللفظ يطلق أحياناً عند ابن تيمية على الاشاعرة ، وأحياناً أخرى على المعتزلة ولكن الجهة مختلفة عنده في الإستعمال . أنظر عن الجهمية مقالات الأشعري ١٣٣/١ ـ ١٧٩ ، الملل والنحل ١٣٥/١ الخطط للمقريزي ٣٤٩/٢ ـ ٣٥٠ ، الرسالة التسعينية لابن تيمية .

(٣) سورة البقرة الآية ٥٨ .

لله ولو فعله الإنسان لله مع عدم علمه أنه أمر به انتفع كالسحرة الذين سجدوا قبل الأمر بالسجود .

وكذلك قول العبد حط عنا خطايانا دعاء لله وخضوع ، وقد قال تعالى : ﴿ وإِذَا سَأَلَكَ عبادي عني فإن قَرِيبٌ أُجيبُ دَعوةَ الداعِ إِذَا دعانِ﴾[1] . وهذه الأفعال المدعو بها في آخر البقرة أمور مطلوبة للعباد .

(علاقة الدعاء بالإجابة)

وقد أجيب بجواب آخر وهو أن الله تعالى إذا قدر أمراً فإنه يقدر أسبابه والدعاء من جملة أسبابه ، كما أنه لما قدر النصر يوم بدر وأخبر النبي ﷺ - قبل وقوعه - أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك إستغاثة النبي ﷺ ودعاؤه ، وكذلك ما وعده به ربه من الوسيلة ، وقد قضى بها له ، وقد أمر أمته بطلبها له[2] ، وهو سبحانه قدرها بأسباب منها ما سيكون من الدعاء .

وعلى هذا فالداخل في السبب هو ما وقع من الدعاء المأمور به - والله أعلم بذلك - فيثيب هذا الداعي على ما فعله من الدعاء بجعله تمام السبب ، ولا يكون على هذا الدعاء سبباً في اختصاصه بشيء من ذلك، بل في حصوله لمجموع الأمة لكن هو يثاب على الدعاء لكونه من جملة الأسباب ، وهذا لأن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث :

إما أن يعجل له دعوته ،

وإما أن يدخر له من الخير مثلها ،

وإما أن يكفر عنه من الذنوب مثلها ، وإما أن يدفع عنه من البلاء مثلها ، قالوا يا رسول الله : إذا نكثر ، قال : الله أكثر »[3] فالداعي بهذا كالداعي بالوسيلة يحصل له من الأجر ما يخصه ، كالداعي للامة ولأخيه الغائب ، ودعاؤه من أسباب الخير التي بها رحمة الأمة ، كما يثاب على سؤاله الوسيلة للنبي ﷺ بأن تحل عليه الشفاعة يوم القيامة .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

(٢) جاء في كتب السنن أحاديث كثيرة حول الدعاء للرسول بالوسيلة والفضيلة وقضاء الله له بها ، وسؤال الرسول أمته أن يسألوا الله له الوسيلة .

انظر : مسلم (كتاب الصلاة) ، الترمذي (الصلاة) ، النسائي (كتاب الأذان) ، ابن ماجه (كتاب الأذان) ، ابن حنبل ١٦٨/٢ .

(٣) جاء هذا الحديث في سنن الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن حنبل ١٨/٣ ، ١٢٥/٦ .

وهنا « جواب ثالث » وهو أن كل من دعا بهذا الدعاء حصل له من المدعو المطلوب ما لا يحصل بدون المطلوب من الدعاء ، فيكون الدعاء به كدعائه بسائر مطالبه من المغفرة والرحمة ، وليس هو كدعاء الغائب للغائب ، فإن الملك يقول هناك : ولك بمثله ، فيدعو له الملك بمثل ما دعا به للغائب وهنا هو داع لنفسه وللمؤمنين .

وبيان هذا أن الشرع وإن كان قد استقر بموت النبي ﷺ ، وقد أخبر أن الله تجاوز لأمته عن الخطأ والنسيان[1] ، وقد أخبر أن الرسول يضع عن أمته إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، وسأل ربه لأمته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطاه ذلك ، لكن ثبوت هذا الحكم في حق آحاد الأمة قد لا يحصل إلا بطاعة الله ورسوله ، فإذا عصى الله ذلك الشخص العاصي عوقب عن ذلك بسلب هذه النعمة وان كانت الشريعة لم تنسخ .

يبين هذا ان في هذا الدعاء سؤال الله بالعفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكفار ، ومعلوم أن هذا ليس حاصلاً لكل واحد من أفراد الأمة ؛ بل منهم من يدخل النار، ومنهم من ينصر عليه الكفار ، ومنهم من يسلب الرزق لكونهم فرطوا في طاعة الله ورسوله فيسلبون ذلك بقدر ما فرطوا أو قصروا وقول الله : « قد فعلت » يقال فيه شيئان .

(احدهما) أنه قد فعل ذلك بالمؤمنين المذكورين في الآية . والإيمان المطلق يتضمن طاعة الله ورسوله . فمن لم يكن كذلك نقص إيمانه الواجب ، فيستحق من سلب هذه النعم بقدر النقص ، ويعوق الله عليه ملاذ ذلك ، ولم يستحق من الجزاء ما يستحقه من قام بالإيمان الواجب .

(الثاني) أن يقال : هذا الدعاء استجيب له في جملة الأمة ، ولا يلزم من ذلك ثبوته لكل فرد ، وكلا الأمرين صحيح ، فإن ثبوت هذا المطلوب لجملة الأمة حاصل ، ولولا ذلك لأهلكوا بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « سألت ربي لأمتي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فاعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[2] ، وقال : يا محمد : إني إذا قضيت قضاء لم يرد » .

وكذلك في الصحيحين : « لما نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال النبي ﷺ : أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ

---

(١) كما أخبر بذلك في الحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه (كتاب الطلاق) إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

(٢) ورد هذا الحديث في الترمذي (كتاب الفتن) .

بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : هاتان أهون »[1] .

وهذا لأنه لا بد أن تقع الذنوب من هذه الأمة ، ولا بد أن يختلفوا ، فإن هذا من لوازم الطبع البشري ، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك ، ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتال والذنوب دليلاً على نقصها ، بل هي أفضل الأمم ، وهذا الواقع بينهم من لوازم البشرية ، وهو في غيرها أكثر وأعظم ، وخير غيرها أقل ، والخير فيها أكثر ، والشر فيها أقل ، فكل خير في غيرها فهو فيها أعظم ، وكل شر فيها فهو في غيرها أعظم .

وأما حصول المطلوب للآحاد منها فلا يلزم حصوله لكل عاص لأنه لم يقم بالواجب ، ولكن قد يحصل للعاص من ذلك بحسب ما معه من طاعة الله تعالى . أما حصول المغفرة والعفو والرحمة بحسب الإيمان والطاعة فظاهر ، لأن هذا من الأحكام القدرية الخلقية من جنس الوعد والوعيد ،وهذا يتنوع بتنوع الإيمان والعمل الصالح .

واما دفع المؤاخذة بالخطأ والنسيان . ودفع الآصار ، فان هذا قد يشكل لأنه من باب الأحكام الشرعية أحكام الأمر والنهي .

فيقال : الخطأ والنسيان المرفوع عن الأمة مرفوع عن عصاة الأمة ، فان العاصي لا يأثم بالخطأ والنسيان ، فإنه اذا أكل ناسياً أتم صومه سواء كان مطيعاً في غير ذلك أو عاصياً ، فهذا هو الذي يشكل ، وعنه جوابان .

(أحدهما) ان الذنوب والمعاصي قد تكون سبباً لعدم العلم بالحنيفية السمحة فان الإنسان قد يفعل شيئاً ناسياً أو مخطئاً ، ويكون لتقصيره في طاعة الله علماً وعملاً ، لا يعلم أن ذلك مرفوع عنه ، إما لجهله ، وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنيفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان ، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به ، كمن يبطل الصوم بالنسيان ، وآخرون بالخطأ ، وكذلك الإحرام ، وكذلك الكلام في الصلاة ، وكذلك إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أو مخطئاً ، فإذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وخفى ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة الا هؤلاء فيفتونه بما يقتضي مؤاخذته بالخطأ والنسيان ، فلا يكون مقتضى هذا الدعاء حاصلاً في حقه لعدم العلم ، لا لنسخ الشريعة .

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع كقوله :

---

(1) جاء الحديث في صحيح البخاري ٦ ، ٧١ (كتاب التفسير . تفسير سورة الانعام) من رواية جابر رضي الله عنه . ولفظه « . . هذا أهون . أو هذا أيسر) وذكره البخاري أيضاً في (كتاب الاعتصام) ، الترمذي (كتاب التفسير ، وتفسير سورة الأنعام) ، ابن حنبل ٣/٢٠٩ .

﴿ وقولهم قلوبُنَا غلفٌ ، بل طبعَ الله عليها بكفرهم ﴾[1] وقـال : ﴿ وقالـوا قلوبنا غلف ، بـل لعنهم الله بكفـرهم ﴾[2] وقال : ﴿ ومـا يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنـون ، ونقلّبُ أفئـدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنُـوا به أولَ مـرة ﴾[3] وقال : ﴿ في قلوبهم مـرضٌ فزادهم الله مـرضاً ﴾[4] وقال : ﴿ فلما زاغُوا أزاغَ الله قلوبَهُمْ ﴾[5] .

وهذا كما أنـه حرم عـلى بني إسرائيـل طيبات أحلت لهم لأجـل ظلمهم وبغيهم فشريعـة محمد لا تُنسخ ولا تعاقب أمته كلها بهذا ، ولكن قد تعاقب ظلمتهم بهذا بان يحرموا الطيبات ، أو بتحريم الطيبات .

إما تحريماً كونياً بأن لا يوجد غيثهم ، وتهلك ثمارهم ، وتقطع الميرة عنهم .

أو أنهم لا يجدون لذة مأكل ولا مشرب ، ولا منكح ولا ملبس ونحـوه كما كـانوا يجـدونها قبل ذلك ، وتسلط عليهم الغصص وما ينغص ذلك ويعوقه . ويجـرعون غصص المـال والولـد والأهل ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنَّمـا يريـدُ الله ليعذِّبهُمْ بهـا في الحياةِ الدُّنيا ﴾[6] وقال : ﴿ أيحسبونَ أن ما نمدهم به من مالٍ وبنينَ. نُسارِعُ لهم في الخيراتِ ؟ بل لا يشعـرونَ ﴾[7] وقال : ﴿ إنَّمـا أموالكُمْ وأولادُكُمْ فتنـة ﴾[8] فيكون هـذا كابتـلاء أهـل السبت بالحيتان .

وإما أن يعاقبوا باعتقاد تحريم ما هو طيب حلال لخفاء تحليـل الله ورسولـه عندهم ، كـما قـد فعل ذلـك كثير من الأمـة اعتقدوا تحريم أشياء تـروج عليهم بما يقعـون فيه من الأيمـان والطلاق ، وإن كان الله ورسوله لم يحرم ذلك ، لكن لما ظنوا أنها محرمة عليهم عـوقبوا بحـرمان العلم الذي يعلمون به الحل ، فصارت محرمـة عليهم تحريمـاً كونيـاً ، وتحريمـاً شرعيـاً في ظاهـر الأمر ، فان المجتهد عليه أن يقول ما أدى إليه اجتهاده ، فإذا لم يؤد اجتهاده إلا إلى تحريم هذه الطيبات لعجزه عن معرفة الأدلة الدالة على الحل كان عجزه سبباً للتحريم في حق المقصرين في طاعة الله .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٨٨ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٠

(٤) سورة البقرة الآية ٤٠

(٥) سورة الصف الآية ٥ .

(٦) سورة التوبة الآية ٨٥.

(٧) سورة المؤمنون الآيات (٥٥ ـ ٥٦) .

(٨) سورة التغابن الآية ١٥ .

وكـذلك اعتقـدوا تحريم كثـير من المعامـلات التي يحتاجـون اليهـا كضمـان البسـاتـين ، والمشاركات وغيرها ، وذلك لخفاء أدلة الشرع ، فثبت التحريم في حقهم بما ظنـوه من الأدلة ، وهذا كما أن الإنسان يعاقب بأن يخفى عليه من الطعام الطيب والشراب الطيب ما هـو موجـود وهو مقدور عليه لو علمه ، لكن لا يعرف بذلك عقوبة لـه ، وأن العبد ليحـرم الرزق بـالذنب يصيبه ، وقد قال تعالى : ﴿ ومن يتقِ الله يجعلْ لهُ مخرجاً ، ويـرزقهُ من حيثُ لا يحتسب ﴾[1] فهو سبحانه إنما ضمن الأشياء على وجهها واستقامتها للمتقين . كما ضمن هذا للمتقين .

فتبين أن المقصرين في طاعته من الأمـة قد يؤاخـذون بالخطأ والنسيان ، ومن غـير نسخ بعد الرسول ، لعدم علمهم بما جاء به الرسول من التيسير ، ولعدم علم من عندهم من العلماء بذلك ، ولهذا يوجد كثير ممن لا يصلي [في السفر قصراً] يرى الفطر في السفـر حرامـاً فيصوم في السفر مع المشقة العظيمة عليه ، وهذا عقوبة له لتقصيره في الطاعة ، لكنه ممـا يكفر الله بـه من خطاياه ما يكفره ، كما يكفر خطايا المؤمنين بسائر مصائب الدنيا .

وكـذلك منهم من يعتقـد التربيـع في السفر واجبـاً فيـربـع ، فيبتـلى بـذلـك لتقصيـره في الطاعة .

ومنهم من يعتقد تحريم أمور كثيرة من المباحات التي بعضها مباح بالاتفاق وبعضها متنازع فيه ، لكن الرسـول لم يحرمـه ، فهؤلاء الذين اعتقـدوا وجـوب مـا لم يوجبـه الله ورسولـه ، وتحريم ما لم يحـرمه ، حمـل عليهم إصراً ، ولم تـوضع عنهم جميـع الآصار والأغـلال وإن كـان الرسول قد وضعها ، لكنهم لم يعلموها .

وقد يبتلون بمطاع يلزمهم ذلك ، فيكون آصاراً وأغلالاً من جهة مطاعهم : مثل حاكم ، ومفت ، وناظر وقف ، وأمير ينسب ذلك الى الشرع ، لاعتقاده الفـاسد أن ذلـك من الشرع ، ويكون عدم علم مطاعهم تيسير الله عليهم عقوبة في حقهم لذنوبهم ، كما لـو قدر أنـه سار بهم في طريق يضرهم ، وعـدل بهم عن طريق فيـه الماء والمـرعى لجهله ، لا لتعمده مضـرتهم ، أو أقام بهم في بلد غالي الأسعار مع إمكان المقام ببلد آخر .

وهذا لأن الناس كما قد يبتلون بمـطاع يظلمهم ويقصـد ظلمهم يبتلون أيضاً بمـطاع يجهل مصلحتهم الشرعية والكـونية ، فيكـون جهل هـذا من أسباب عقـوبتهم كما أن ظلم ذلـك من أسبـاب مضرتهم ، فهؤلاء لم تـرفع عنهم الآصـار والأغلال لـذنـوبهم ومعـاصيهم ، وإن كـان الرسول ليس في شرعه آصار وأغلال ، فلهذا تسلط عليهم حكام الجور والظلم ، وتساق إليهم الأعداء ، وتقاد بسلاسل القهر والقدر ، وذلـك من الآصار والأغـلال التي لم ترفـع عنهم ، مع

---

(١) سورة الطلاق الآيات (٢ ـ ٣) .

عقوبات لا تحصى ، وذلك لضعف الطاعة في قلوبهم ، وتمكن المعاصي ، وحب الشهوات فيها ، فإذا قالوا ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ دخل فيه هذا .

وأما قوله : ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ فعلى قولين :

قيل : هو من باب التحميل القدري ، لا من باب التكليف الشرعي أي : لا تبتلينا بمصائب لا نطيق حملها ، كما يبتلى الإنسان بفقر لا يطيقه ، أو مرض لا يطيقه ، أو حدث ، أو خوف ، أو حب أو عشق لا يطيقه ، ويكون سبب ذلك ذنوبه .

وهذا مما يبين أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقاً .

وقوله : ﴿ مَنْ يعمل سوءاً يجزَ بِهِ ﴾ [1] ، و﴿ من يعمل مثقال ذرة خيراً يرهُ ، ومَنْ يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يرهُ ﴾ [2] قول حق ، وقال تعالى في قصة قوم لوط : ﴿ وتركنَا فيها آية للذين يخافونَ العذابَ الأليم ﴾ [3] .

فما من أحد يبتلى بجنس عملهم إلا ناله شيء من العذاب الأليم ، حتى تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الإنسان ، وإن قويت حتى صارت غراماً وعشقاً زاد العذاب الأليم ، سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه ، فان كان عاجزاً فهو في عذاب أليم من الحزن والهم والغم ، وإن كان قادراً فهو في عذاب أليم من خوف فراقه ، ومن السعي في تأليفه وأسباب رضاه ، فان نزل به الموت أو افتقر تضاعف عليه العذاب ، وإن صار الى غيره استبدالاً به أو مشاركة قوى عذابه ، فان هذا الجنس يحصل فيه من العذاب ما لا يحصل في عشق البغايا وما يحصل مثله في الحلال ، وإن حصل في الحلال نوع عذاب كان أخف من نظيره وكان ذلك سبب ذنوب أخرى .

فإن دعا الإنسان بهذا الدعاء يخص نفسه ويعم المسلمين فله من ذلك أعظم نصيب ، كيف لا وقد قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة ما قرأ بهما أحد في ليلة إلا كفتاه » وكيف لا تكفيانه وما دعا به من ذلك لم يحصل له إلا ما حصل لسائر المؤمنين الذين لم يقرؤوهما فإن الداعي بهذا الدعاء له منه نصيب يخصه كسائر الأدعية .

ومما يبين ذلك أن الصحابة إنما استجيب لهم هذا الدعاء لما التزموا الطاعة لله مطلقاً بقولهم : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ثم أنزل هذا الدعاء فدعوا به فاستجيب لهم .

ولهذا كانوا في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله ﷺ ، وكانوا فيها على عهد أبي بكر

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة الآيات (٧ ـ ٨) .

(٣) سورة الذاريات الآية ٣٧.

خيراً مما كانوا فيها على عهد عمر ، فلما كانوا في زمن عمر حدث من بعضهم ذنوب أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم ، كمنعهم من متعة الحج ، وكايقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة ، وكتغليظ العقوبة في الخمر ، وكان أطوعهم لله وأزهدهم مثل أبي عبيدة ينقاد له عمر ما لا ينقاد لغيره ، وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها ، حتى تنازعوا فيها ، وهم مؤتلفون متحابون كل منهم يقر الآخر على اجتهاده .

فلما كان في آخر خلافة «عثمان» زاد التغير والتوسع في الدنيا ، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر ، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان ، فصاروا في فتنة عظيمة قد قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الَّذين ظلموا منكُمْ خاصةً ﴾[1] أي هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط ، بل تصيب الظالم والساكت عن نهيه عن الظلم ، كما قال النبي ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[2] وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات .

وصاروا يختصمون في متعة الحج ونحوها مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر . فطائفة تمنع المتعة مطلقاً كابن الزبير .

وطائفة تمنع الفسخ كبني أمية وأكثر الناس ، وصاروا يعاقبون من تمتع .

وطائفة أخرى توجب المتعة ، وكل منهم لا يقصد مخالفة الرسول ، بل خفي عليهم العلم ، وكان ذلك سببه ما حدث من الذنوب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحا رجلان فرجعت ، ولعل ذلك أن يكون خيراً لكم »[3] أي قد يكون إخفاؤها خيراً لكم لتجتهدوا في ليالي العشر كلها، فإنه قد يكون إخفاء بعض الأمور رحمة لبعض الناس .

والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض الى شر عظيم من خفاء الحكم ولهذا صنف رجل كتاباً سماه « كتاب الاختلاف » فقال أحمد : سمه « كتاب السعة » وأن الحق في نفس الأمر واحد، وقد يكون من رحمة الله ببعض الناس خفاؤه لما في ظهوره من الشدة عليه ، ويكون من باب قوله تعالى : ﴿ لا تسألُوا عن أشياءَ إنْ تُبدَ لكم تسُؤكم ﴾[4]

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

(٢) جاء هذا الحديث في : ابن ماجه (كتاب الفتن)، ابن حنبل ١/٢ .

(٣) ورد الحديث في البخاري ١/١٩ (كتاب الايمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) وذكره البخاري في (ليلة القدر)، الدارمي (كتاب الصوم)، ابن حنبل ١/٢٥٩ .

(٤) سورة المائدة الآية ١٠١ .

وهكذا ما يوجد في الأسواق من الطعام والثياب قد يكون في نفس الأمر مغصوباً ، فإذا لم يعلم الإنسان بذلك كان كله لـه حلالاً لا إثم عليـه فيه بحـال ، بخلاف مـا إذا علم ، فخفاء العلم بمـا يوجب الشـدة قد يكـون رحمة ، كـما أن خفاء العلم بمـا يوجب الـرخصة قـد يكـون عقوبة ، كما أن رفع الشك قد يكـون رحمة وقـد يكون عقـوبة . والـرخصة رحمـة ، وقد يكـون مكروه النفس أنفع كما في الجهاد : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خـيرٌ لكم ، وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم ﴾[1] .

والمقصود هنا أن من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه ، بل يكـون سبباً لنسيان ما علم ، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك .

والله سبحانه كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما : ﴿ وَكُلا مِنهـا رغداً حيثُ شئتـما ولا تقربَا هَذِه الشَّجرةَ فتكونَا من الـظَّالمينَ ، فـازلَّهما الشيـطان عنها ، فـأخرجهُـمَا ممَّا كـانا فيـهِ ، وقُلنَا : اهبِطُوا بعضُكُم لبعضٍ عدوٌ ﴾[2] فكل عـداوة كانت في ذريتهـا وبلاء ومكـروه وتكون الى قيام الساعة وفي النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى .

فالانسان اذا كان مقيماً على طاعة الله باطناً وظاهراً كان في نعيم الإيمـان والعلم وارد عليه من جهاته ، وهو في جنة الدنيا ، كما في الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فـارتعوا . قيـل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر »[3] . وقال : ﴿ ما بين بيتي ومنبري روضة من ريـاض الجنة ﴾[4] فانه كان يكون هنا في رياض العلم والإيمان .

وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعـلى ، فلا يـزال في علو ما دام كذلك ، فإذا أذنب هبط قلبه الى أسفل ، فلا يزال في هبوط مـا دام كذلـك ، ووقعت بينه وبين أمثاله عداوة ، فان أراد الله به خيراً ثاب وعمل في حال هبوط قلبه الى أن يستقيم فيصعد قلبه ، قال تعـالى : ﴿ لنْ ينالَ الله لُحـومهَا ولا دِمـاؤُها ، ولكن ينـالُهُ التَّقـوىٰمنكُمْ ﴾[5]فتقوى القلوب هي التي تنال الله كما قال : ﴿اليه يصعدُ الكلمُ الطيِّب والعمل الصَّالحُ يرفعهُ﴾[6] فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحوم والدماء فانها لا تنال الله .

و«الباطنية » المنكرون لخلق العالم في ستـة أيام ، ومعـاد الأبدان ، الـذين يجعلون للقرآن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٦.

(٣) ورد هذا الحديث في : الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن حنبل ٢/١٥٠.

(٤) جاء هذا الحديث في : ابن حنبل ٢/٦٤.

(٥) سورة الحج الآية ٣٧.

(٦) سورة فاطر الآية ١٠ .

تأويلا يوافق قولهم ، عندهم ما ثم « جنة » إلا لذة ما تتصف بها النفس من العلم والأخلاق الحميدة ، وما ثم «نار » إلا ألم ما تتصف به النفس من الجهل والأخلاق الذميمة السيئة ، فنار النفوس ألمها القائم بها كحسراتها لفوات العلم ، أو لفوات الدنيا المحبوبة لها ، وحجبها إنما هي ذنوبها .

وهذا الكلام مما يذكره أبو حامد (١) في « المضنون به على غير أهله » لكن قد يقول هذا : ليس هو عذاب القبر المذكور في الأجسام ، بل ذاك أمر آخر مما بينه اهل السنة . ولا نعيم عندهم إلا ما يقوم بالنفس من هذا ، ولهذا ، ليس عندهم نعيم منفصل عن النفس ولا عذاب .

وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً ، فان الناس في الدنيا يثابون ويعاقبون بأمور منفصلة عنهم ، فكيف في دار الجزاء ، ولكن الذي أثبتوه من هذا وهذا [منه] ما هو حق ، ولكن الباطل جحدهم ما جحدوه مما أخبر الله به ورسوله ، فهؤلاء عندهم أن آدم لم يكن الا في جنة العلم ، وهبوطه انخفاض درجته في العلم ، وهذا كذب ، ولكن ما أثبتوه من الحق حق ، وقصة آدم تدل عليه بطريق الاعتبار الذي تسميه الصوفية الاشارة، لا أنه هو المراد بالآية ، لكن قد دل عليه آيات أخر تدل على أن من كذب بالحق عوقب بأن يطبع على قلبه فلا يفهم العلم ، أو لا يفهم المراد منه ، وأنه يسلط عليه عدوه ويجد ذلاً ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ وضُربت عليهم الذِّلة والمسكَنَةُ ذلك بما عصُوا وكانُوا يعتدونَ ﴾(٢) .

ولا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات ، و « اللذة » التي تبقى بعد الموت وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له ، وهو الإيمان ، وهم يجعلون ذلك الوجود المطلق .

---

(١) هو الإمام أبو حامد الغزالي (حجة الاسلام) محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ولد سنة ٤٥٥ وتوفي سنة ٥٠٥ هـ . صاحب التصانيف الكثيرة في الأصول والفروع ، تلقى مبادىء علوم القرآن والحديث بمسقط رأسه (طوس) من مدن خراسان . ثم انتقل إلى جرجان حيث تلقى مبادىء علم أصول الدين تتلمذ على إمام الحرمين الجويني ولازمه حتى توفى سنة ٤٧٧ . إشتغل مدرساً بنظامية بغداد سنة ٤٨٤ ثم بمدرسة نيسابور ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفقه والفلسفة والتصوف ، ولعل أكثر مؤلفاته شهرة هو كتابه « إحياء علوم الدين » أما كتاب « المضنون به على غير أهله » الذي أشار إليه ابن تيمية . فان كثيراً من الباحثين يشكك في صحة نسبة هذا الكتاب الى الغزالي لما فيه من أفكار اسماعيلية باطنية يرى بعضهم أنها مدسوسة على الغزالي ، ولكن الغزالي قد أشار في بعض مؤلفاته الى أن له كتاباً بعنوان المضمون به على غير أهله وأنه قد أودع هذا الكتاب بعض الأسرار التي ينبغي صونها عمن لا يعيها . انظر مثلاً ، جواهر القرآن ص ٢٧ ـ ٢٨ ، مشكاة الأنوار .

وأنظر عن الغزالي : وفيات الأعيان ٤٦٣/١ ، طبقات الشافعية ١٠١/٤، شذرات الذهب ١٠/٤، الوافي بالوفيات ٢٧٧/١ ، مفتاح السعادة ١٩١/٢، تبيين كذب المفتري ص ٢٩١ ـ ٣٠٦ ، وفي اللباب ٢٧٠/٢ أن الغزالي بتخفيف الزاي خلاف المشهور ، الاعلام ٢٤٧/٧ ـ ٢٤٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦ .

وأيضاً فنفس العلم به إن لم يكن معه حب له وعبادته له بل كان مع حب لغيره كائناً من كان ، فإن عذاب هذا قد يكون من أعظم العذاب في الدنيا والآخرة وهم لا يجعلون كمال اللذة إلا في نفس العلم و « أيضاً » فاقتصارهم على اللذة العقلية خطأ .

والنصارى زادوا عليهم السمع والشم ، فقالوا : يتمتعون بالأرواح المتعشقة والنغمات المطربة ، ولم يثبتوا هم ولا اليهود الأكل والشرب ولا النكاح ـ وهي لذة اللمس ـ والمسلمون أثبتوا جميع أنواع اللذات: سمعاً ، وبصراً ؛ وشماً ، وذوقاً ، ولمساً ، للروح والبدن جميعاً ، وكان هذا هو الكمال ؛ لا ما يثبته أهل الكتاب ومن هو شر منهم من الفلاسفة الباطنية .

وأعظم لذات الآخرة لذة النظر إلى الله سبحانه ، كما في الحديث الصحيح : « فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه »[1] وهو ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا ، فأطيب ما في الدنيا معرفته ، وأطيب ما في الآخرة النظر إليه سبحانه ولهذا كان التجلي يوم الجمعة في الآخرة على مقدار صلاة الجمعة في الدنيا .

وأبو حامد يذكر في كتبه هو وأمثاله « الرؤية » وأنها أفضل أنواع النعيم ويذكر كشف الحجب ، وأنهم يرون وجه الله[2] ، ولكن هذا كله يريد به ما تقوله الجهمية والفلاسفة ، فإن « الرؤية » عندهم ليست إلا العلم ، لكن كما أن الإنسان قد يرى الشيء بعينيه ، وقد يمثل له خياله إذا غاب عنه فهكذا العلم ، ففي الدنيا ليس عندهم من العلم إلا مثال كالخيال في الحساب ، وفي الآخرة يعلمونه بلا مثال ، وهو[3] عندهم « وجود لا داخل العالم ولا خارجه » ، و « كشف الحجاب » عندهم رفع المانع الذي في الانسان من الرؤية ، وهو أمر عدمي فحقيقته جعل العبد عالماً ، وهذا كله مما تقول به الفلاسفة والباطنية .

وهؤلاء إنما يأمرون بالزهد في الدنيا لينقطع تعليق النفس بها وقت [فراق] النفس ، فلا تبقى النفس مفارقة لشيء تحبه ، لكن أبو حامد لا يبيح محظورات الشرع قط ، بل يقول قتل واحد من هؤلاء خير من قتل عدد كثير من الكفار .

وأما هؤلاء فالواصل عندهم إلى العلم المطلوب قد يبحون له محظورات الشرائع حتى الفواحش والخمر وغيرها إذا كانوا ممن يعتقد تحريم الخمر ، وإلا فغالب هؤلاء لا يوجبون

---

(١) هذا جزء من حديث ذكره مسلم في (كتاب الإيمان حديث رقم ٢٩٧ ، وانظر كذلك الترمذي (كتاب الجنة) ، ابن ماجه في المقدمة .

(٢) انظر شرح الغزالي للحديث : إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه نصره » (مشكاة الأنوار الفصل الثالث) ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧ ط الجندي . وانظر أيضاً ما قرره الغزالي حول هذه القضية في المضنون (الركن الأول . في علم الربوبية) ص ٣٠٣ ط الجندي (مجموعة القصور العوالي) .

(٣) الضمير هنا يعود إلى الله . والمعنى أن الله عندهم وجود مطلق ، لا يقال عليه أنه داخل العالم ولا خارجه .

شريعة الإسلام بل يجوزون التهود والتنصر ، وكل من كـان من هؤلاء واصلا إلى علمهم فهـو سعيد .

وهكذا تقول الاتحادية منهم : كابن سبعين[1] ، وابن هود[2] والتلمسـاني[3] ونحوهم ، ويـدخلون مـع النصـارى بيعهم ، ويصلون معهم إلى الشـرق ويشـربـون معهم ومعـه اليهـود الخمر ، ويميلون إلى دين النصارى أكثر من دين المسلمين لما فيه من إباحة المحظورات ، ولأنهم أقـرب إلى الاتحـاد والحلول ، ولأنهم أجهـل فيقبلون مـا يقـولـونـه أعـظم من قبـولهم لقـول المسليمن ، وعلماء النصارى جهال إذا كان فيهم متفلسف عظموه ، وهؤلاء يتفلسفون .

والـواحد من هؤلاء يفـرح إذا قيل لـه لست بمسلم ، ويحكي عن نفسه ـ كـما كان أحمـد المارديني وهو من أصحـاب ابن عربي يحكي عن نفسـه ـ أنه دخـل إلى بعض ديارات النصـارى ليأخذ منهم ما يأكله هو ورفيقه ، فأخذ بعضهم يتكلم في المسلمـين ، ويقول : يقـولون : كـذا وكذا ، قال له آخر : لا تتكلم في المسلمين فهذا واحد منهم . فقال ذلك المتكلم : هذا وجهـه وجـه مسلم ؟ أي ليس هذا بمسلم فصـار يحكيها المـارديني أن النصراني قـال عنـه ليس : هـذا بمسلم ، ويفرح بقول النصراني ويصدقه فيما يقول ، أي ليس هو بمسلم .

---

(١) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر المعروف بابن سبعين ، ولد سنة ٦١٣ هـ وتوفي سنة ٦٦٩ من أعـلام المتصوفة المتفلسفين ، به ميل إلى مذهب وحدة الوجود . وله مجموعة رسـائل في التصـوف والفلسفة والحكمـة طبعت أخيراً بتحقيق د . عبد الرحمن بدوي بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م .

انـظر ترجمته في : شذرات الـذهب ٥/٣٢٩ ـ ٣٣٠ ، طبقـات الشعـراني ١/١٧٧،لسـان الميـزان ٣/٣٩٢ ، فـوات الوفيات ١/٥١٦ ـ ٥١٨ ، نفح ٢/٣٩٥ ـ ٤٠٦ ، الإعلام ١/٥ .

(٢) هو الحسن بن عضد الدولة أخو المتوكـل على الله ملك الأنـدلس بن يوسف بن هـود الجذامي المـرسي أبو عـلي ، فيلسوف متصوف ، من بيت عرف بالمجد ، ولـد بمرسية سنة ٦٣٣ هـ وكـان أبوه نـائباً للسلطان فيهـا ، تصوف واشتغـل بالـطب والحكمة ، حج وأقام بالشام مدة حيث مات ودفن بدمشق سنة ٦٦٩ هـ ، كان يصيبه نوع من الذهول فيغيب عن وعيه ، وكان يقرىء اليهود كتاب دلالة الحائرين لموسى بن ميمـون . وله شعـر غريب عبـر فيه عن مذهبه الصوفي في قصيدة طويلة مطلعها :

عـلم	قـوم	بي	جـهـل	إن	شـاني	لاجـل	
أنـا	عـبـد	أنـا	رب	إنـا	عـز	أنـا	ذل
أنـا	دنـيـا	أنـا	أخـرى	أنـا	بـعض	أنـا	كـل
أنـا	مـعشـوق	لـذاتي		لست	عنه	الدهر	أسلو

وصفه الذهبي بالحلول والضلال .

أنظر عنه وعن مذهبه : شذرات الذهب ٥/٤٤٦ ، فـوات الوفيـات ١/١٢٧ وفيها أنـه توفي سنـة ٦٩٧ هـ ، الإعلام ٢/٢٢١ .

(٣) هو سليمان بن عبد الله بن علي الكوفي المعروف بعفيف الدين التلمساني نقل صاحب (فـوات الوفيـات) ١/٣٦٣ ـ ٣٦٦ أنـه كان يـدعى العرفـان ، وكان بـه ميل إلى النصيـرية . لم أقف عـلى تاريـخ مولـده أو وفاتـه . أنظر البـدايـة والنهـايـة ١٣/٣٢٦ ، النجوم الزاهرة ٨/٢٩ ـ ٣١ ، فوات الوفيات ١/٣٦٣ ـ ٣٦٦ الإعلام ٣/١٩٣ .

والمتفلسفة يصرحون بهذا . يقولون : قلنا : كذا وكذا ، وقال المسلمون : كذا وكذا ، وربما قالوا قلنا : كذا وقال المليون : أي أهل المال الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وكتبهم مشحونة بهذا ، ولا بد لأحدهم عند أهل الملل أن يكون على دينهم .

لكن دخولهم في هذا كدخولهم في سياسة الملوك ، كما كانوا مع الترك الكفار وكانوا مع « هولاكو » ملك المغول الكفار ، ومع « القان » الذي هو أكبر منه خليفة « جنكيز خان » ببلاد الخطا ، وانتساب الواحد منهم هناك إلى الإسلام انتساب إلى إسلام يرضاه ذلك الملك بحسب غرضه ، كما كان « النصير الطوسي »(1) وأمثاله مع « هولاكو » ملك الكفار ، وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها ، وأخذ كتب الناس : ملكها ووقفها ، وأخذ منها ما يتعلق بغرضه ، وأفسد الباقي ، وبنى الرصد ووضعها فيه ، وكان يعطي من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والطوينية ، ويعطي في رصده الفيلسوف والمنجم والطبيب أضعاف ما يعطي الفقيه ، ويشرب هو وأصحابه الخمر في شهر رمضان ، ولا يصلون .

وكذلك كان بالشام ومصر طائفة مع تصوفهم وتألههم وتزهدهم يشرب أحدهم الخمر نهار رمضان ، وتارة يصلون وتارة لا يصلون ، فإنهم لا يدينون بإيجاب واجبات الإسلام وتحريم محرماته عليهم ، بل يقولون : هذا للعامة والأنبياء ، وأما مثلنا فلا يحتاج إلى الأنبياء ، ويحكون عن بعض الفلاسفة أنه قيل له : قد بعث نبي : قال : لو كان الناس كلهم مثلي ما احتاجوا إلى نبي . ومثل هذه الحكاية يحكيها من يكون رئيس الأطباء ، ولا يعرف الزندقة ولا يدري مضمون هذه الكلمة ما هو لجهله بالنبوات ، وقيل لرئيسهم الأكبر في زمن موسى عليه السلام : ألا تأتيه فتأخذ عنه ؟ فقال : نحن قوم مهديون فلا نحتاج إلى من يهدينا .

وأما ما ذكروه من حصول اللذة في القلب والنعيم بالإيمان بالله والمعرفة به فهو حق ، وهو سبب دخول الجنة ، وقد قال ﷺ : « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين »(2) . وما ذاك إلا لأنه في شهر رمضان تنبعث القلوب إلى

---

(1) هو محمد بن محمد (نصير الدين الطوسي) الفيلسوف ، الشهير بخواجا نصير الدين توفي سنة ٦٠٢ هـ . ذاعت شهرته في العقليات كالفلسفة ، والفلك ، والرياضيات ، عرف له هولاكو قدره فكان ينزل على رأيه ويستشيره في مهام الأمور ، كانت لديه مكتبة كبيرة أعطاها له هولاكو من مكتبات بغداد التي نهبت على يد المغول، شرح إشارات ابن سينا ولخص محصل أفكار المتقدمين للرازي ، انظر عنه : فوات الوفيات ١٤٩/٢ ، والوافي بالوفيات ١٧٩/١ ، تاريخ ابن الواردي ٢٣٣/٢ ، شذرات الذهب ٣٣٩ ، مفتاح السعادة ٢٦١/١ البداية والنهاية ٢٦٧/١٣ الفهرس التمهيدي ٤٧٢ ، نشرة دار الكتب ٥١/١ ، الاعلام ٢٥٧/٧ ـ ٢٥٨ .

(2) ورد هذا الحديث في : النسائي (كتاب الصيام : باب فضل شهر رمضان) ١٢٦/٤ ، ١٢٨ ، وذكره مسلم في (كتاب الصيام) ، الترمذي (كتاب الصوم) ابن ماجه (كتاب الصيام) ، الدارمي (كتاب الصوم) ، الموطأ (كتاب الصوم) ابن حنبل ٢٦٢/٣ .

الخير والأعمال الصالحة التي بها وبسببها تفتح أبواب الجنة ، ويمتنع من الشرور التي بها تفتح أبواب النار ، وتصفد الشياطين فلا يتمكنون أن يعملوا ما يعملونه في الإفطار ، فإن المصفد هو المقيد لأنهم إنما يتمكنون من بني آدم بسبب الشهوات ، فإذا كفوا عن الشهوات صفدت الشياطين .

والجنة والنار التي تفتح وتغلق غير ما في القلوب ، ولكن ما في القلوب سبب له ، ودليل عليه ؛ وأثر من آثاره ، وقد قال تعالى : ﴿ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾[1] وقال ﷺ : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم »[2] فقيل : يأكلون ويشربون ما سيصير ناراً ، وقيل : هو سبب النار . والله سبحانه وتعالى أعلم .

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني إن شاء الله

---

(١) سورة النساء الآية ١٠ .

(٢) ذكر البخاري هذا الحديث ١٤٦/٧ ضمن مجموعة كبيرة من الأحاديث التي تنهى عن الشرب في آنية الذهب والفضة ، والحديث من رواية أبي بكر رضي الله عنه عن أم سلمة زوج الرسول ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه في نار جهنم » ، وانظر أيضاً : مسلم (كتاب الكباسي) ، ابن ماجه (كتاب الاشربة) ، الدارمي (كتاب الاشربة) ، الموطأ (صفة الزي) ، ابن حنبل ٩٨/٦ .

الجزء الثاني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الجزء الثاني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وصفيّه من خلقه وحبيبه سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين .

وبعد

فهذا هو الجزء الثاني من دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية اقتصرت فيه على جمع دقائق ابن تيمية من سورتي آل عمران والنساء فقط . وكان هدفي من وراء ذلك أن أضع أمام القارىء قضيتين أساسيتين عنى بهما ابن تيمية واحتلت كل منهما مكانة هامة في تراثه .

١ ـ القضية الأولى : موقف سورة آل عمران من أهل الكتاب وخاصة النصارى .

٢ ـ القضية الثانية : موقف ابن تيمية من النفس وطبيعتها ـ أحوالها ـ أمراضها ـ علاجها .

في القضية الأولى تناول ابن تيمية موقف النصارى من الإسلام ورسوله ، خلال تفسيره لآيات سورة آل عمران ، ولقد عني ابن تيمية في هذه القضية بجمع آراء فرق النصارى القديم منها والحديث ، وناقش دعاواهم في طبيعة المسيح ، وهل هي طبيعة لاهوتية أو ناسوتية أو هي مزيج بين اللاهوت والناسوت ، وتدل مناقشة ابن تيمية لآراء النصارى على خبرة ودراية بأقوالهم وأصول آرائهم ، فكان يتناول أقوالهم بالتحليل والمقارنة والنقد ، ويضع المقدمات ليخرج منها بنتائج ما كانت لتخطر على ذهن أحد لو لم ينبه اليها ابن تيمية .

كما ناقش دعاواهم في أن المسيحية هي آخر الأديان السماوية نزولاً ، وافتراءهم على

الحق بقولهم إن محمداً بعث إلى العرب خاصة ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه بقولهم المسيح ابن الله ، أو هو ثالث ثلاثة .

كما أوضح القول في بداية ظهور الفرق النصرانية من ملكانية ويعاقبه ونساطره وناقش مذاهب هذه الفرق وبين ما في أقوالهم من زيف وتضليل وكان دقة ابن تيمية وأمانته في نقل آراء النصارى وموضوعيته في مناقشة أقوالهم محل اهتمام الباحثين من المستشرقين في الجامعات الأمريكية ، فلقد تناول بعض أساتذة جامعة شيكاغو من الآباء اليسوعيين المهتمين بعلوم مقارنة الأديان ـ موقف ابن تيمية من المسيحية في مؤلفاته المختلفة وخاصة كتابه العظيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وكانت الدهشة واضحة على وجه هذا المستشرق بعد قراءة تراث ابن تيمية وحين وجد الحقيقة التي فرضت نفسها عليه بلا لبس ولا التواء فتقبلها هذا المستشرق بأمانة المنصف ونزاهة الباحث . لقد صرح لي هذا المستشرق الذي أعفى نفسي من ذكر اسمه الآن بأن ابن تيمية «قد أوضح له بعض المفاهيم التي ورثها عن سلفه غامضة بلا معنى ، وصحح له نقولاً ورثها عن السابقين خاطئة وكان ابن تيمية أصدق تعبيراً عن المسيحية من المسيحيين أنفسهم » . . . الخ ما قال لي هذا المستشرق الذي عمل معي ما يقرب من شهرين بكلية دار العلوم باحثاً ومتلمساً حقيقة موقف الفرق النصرانية من طبيعة المسيح ، وكاد الرجل أن يعلن براءته من تضليل النصارى وضلالهم .

لقد شملت مواقف أهل الكتاب في سورة آل عمران قرابة نصف هذا الجزء تقريباً . كما كانت محل اهتمام ابن تيمية وعنايته فصرف جهده إليها وأهمل ما عداها من بقية الموضوعات التي عرضت لها سورة آل عمران .

أما القضية الثانية التي شغلت بقية هذا الجزء ، فهي تلك الدراسة النفسية المتعمقة التي قدمها شيخ الإسلام في تفسيره للآية الكريمة﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ . وتتسم دراسة ابن تيمية وطبيعتها بعمق النظرة في أحوال النفس وأمراضها وعلاجها فكان يجمع في الموقف الواحد بين الآية والحديث والأثر الوارد في النفس .

كما كان يوضح النتائج السيئة التي تترتب على ابتعاد النفس عن المنهج القرآني في السلوك والتربية ـ إنني أوجه نظر الباحثين إلى أهمية تلك الآراء التي قدمها لنا ابن تيمية حول النفس وطبيعتها وأمراضها وعلاجها ، إن هذه الآراء تشكل في مجموعها ما يمكن أن يُسمى بعلم النفس القرآني . الذي تكشف لنا هذه الآراء عن أصوله وقواعده وتلفت نظرنا إلى منهج دراسته وطريقة تناوله وعرضه على الدارسين .

وإذ أقدم هذا السفر العظيم الى المهتمين بتراث السلف ورجاله فأود أن أنبه القارىء الكريم إلى أن هذا الجزء الثاني من دقائق التفسير يشكل الحلقة الثالثة من سلسلة التراث

السلفي التي بدأتها ـ بعون من الله تعالى وتوفيقه . بالجزء الأول . من هذا التفسير ، ثم كانت الحلقة الثانية من هذه السلسلة هي : «كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعمل لله » ولا يفوتني هنا أن أنوه بالشكر الجزيل للحاج أسعد سيد أحمد صاحب دار الأنصار على ما أولاه الله من توفيقه فتفضل مشكوراً بتولي مهام نشر وتوزيع هذا التفسير الكبير الذي يرى النور لأول مرة فجزاه الله خير الجزاء .

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم وأن يغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما هو أعلم به منا . إنه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة

٥ ذو القعدة سنة ١٣٩٨ هـ

٧ أكتوبر سنة ١٩٧٨ م

محمد الجليند

سورة آل عمران *

سبب النزول(*)

. . . .

(*) ذكر غير واحد من المفسرين سبب نزول هذه السورة ، ورغم اختلافهم في رواية وفد نجران على الرسول ﷺ إلا أنهم مجمعون على أن صدر هذه السورة نزل في وفد نجران بسبب مجادلتهم الرسول في أمر المسيح وألوهيته ، والرواية التي أخذ بها ابن تيمية في سبب النزول قد ذكرها ابن جرير الطبري في تفسيره ٣/١٠٧ ـ ١٠٨ غير أن ابن تيمية قد اختصر الرواية فلم يذكر مقدمتها التي حدد فيها ابن إسحاق عدد الوفد والذين يؤول إليهم أمر الوفد منهم . وقد ذكرها ابن إسحاق وأخذها عنه الطبري كاملة فقال : حدّثنا محمد بن حميد ، قال : حدّثنا سلمة بن الفضل ، قال حدّثني محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر قال :

قال قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ، ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، في الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول اليهم أمرهم ، العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو أبي بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه . قال ابن إسحاق : ثم ذكر الطبري بقية الرواية كما أوردها ابن تيمية .

وذكر النيسابوري في (أسباب النزول) نفس الرواية مع اختلاف في بعض الألفاظ ، وأشار اليها السيوطي في (لباب النقول في أسباب النزول) باختصار شديد فأخرج عن ابن أبي حاتم أن النصارى أتوا الى النبي ﷺ فخاصموه في عيسى ، فأنزل الله «آلم ، الله لا إلهَ الاَّ هُوَ الحيُّ القيوم » إلى بضع وثمانين آية منها . وذكر رواية ابن إسحاق وقال : أخرجه البيهقي في الدلائل : وسوف نقابل بين النص عند ابن تيمية وابن إسحاق ونشير الى الفروق بينهما .

أنظر : تفسير الطبري ٣/١٠٧ ـ ١٠٨ ، أسباب النزول للنيسابوري ص ٥٣ ، لباب النقول للسيوطي ص ٤٣ ، وانظر رواية ابن إسحاق التي اعتمدها ابن تيمية في تاريخ ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط صبيح ٢/٤١٢ ـ ٤١٥ .

رواية ابن اسحاق :

قال ابن إسحاق : حدثني[١] محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على[٢] رسول الله ﷺ فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات ، جبب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب[٣] قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ : ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ (يصلون)[٤] فقال رسول الله ﷺ[٥] : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق .

قال ابن إسحاق وكان[٦] تسمية الأربعة عشر الذين يؤول إليهم أمرهم : العاقب وهو عبد المسيح . والسيد وهو الأيهم . وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر[٧] بن وائل . وأوس . والحارث . وزيد . وقيس . ويزيد وبنية وخويلد وعمرو . وخالد . وعبد الله . ويحنس . في ستين راكباً . فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة . والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد . وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم في أمرهم[٨] يقولون ، هو الله ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول[٩] النصارى .

فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ، ويبرىء الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً[١٠]، وذلك كله بأمر الله (تبارك وتعالى)[١١] ، وليجعله آية للناس[١٢] .

ويحتجون في قولهم إنه ولد الله ، إنهم يقولون لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد وهذا شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم (قبله) .

---

(١) جاءت هذه القصة كاملة في تاريخ ابن إسحاق ٢/٤١١ - ٤١٣ . وسوف نقارن بينهاوبين رواية ابن تيمية ونشير الى الفرق بينهما .

(٢) قدموا على : في ابن إسحاق . لما قدموا على.

(٣) بني الحارث بن كعب . في الطبري بلحرث بن كعب .

(٤) زيادة من ابن إسحاق .

(٥) رسول . . وسلم : ناقصة بالأصل وزيدت من ابن اسحاق .

(٦) وكان : في ابن إسحاق ، فكانت .

(٧) أخو بكر : في ابن إسحاق ، أخو بني بكر ، الطبري : أخو أبي بكر . ولعلها الأصوب .

(٨) مع اختلافهم في أمرهم : في ابن إسحاق ، مع اختلاف من أمرهم .

(٩) قول : في ابن إسحاق : يقول .

(١٠) طيراً : في ابن إسحاق طائراً .

(١١) ما بين القوسين ليست بالأصل . وهي في ابن إسحاق .

(١٢) قبله : ليست بالأصل : وهي في ابن اسحاق .

ويحتجون في قولهم (إنه)[1] ثالث ثلاثة بقول الله فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت . ولكنه هو وعيسى ومريم ، ففي كل ذلك من أقوالهم[2] قد نزل القرآن[3] فلما كلمه الحبران قال لهما الرسول ﷺ : « أسلما » .

قالا : قد أسلمنا .

قال : «إنكما لم تسلما فأسلما » .

قالا : بلى[4] قد أسلمنا قبلك .

قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام كما دعوا لله ولداً ، وعبادتكما صليب ، وأكلكما الخنزير .

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما ، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلافهم في أمرهم[5] كله صدراً من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية .

رواية الطبري :

وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد ، مثلما ذكره محمد بن جرير الطبري في تفسيره[6] قال : حدّثنا[7] المثنى ، حدّثنا إسحاق ، حدّثنا ابن أبي جعفر - يعني عبد الله بن أبي جعفر الرازي - عن أبيه عن الربيع في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القيوم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١، ٢] قال : إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى بن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلاَّ هُوَ لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

فقال لهم النبي ﷺ : «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولداً إلا وهو يشبه أباه ؟

قالوا: نعم![8] .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟

قالوا : بلى .

---

(١) إنه : ليست بالأصل : وهي في ابن إسحاق .

(٢) أقوالهم : في ابن إسحاق : قولهم .

(٣) أضاف الطبري بعد قوله : قد نزل القرآن - العبارة الآتية : وذكر الله لنبيه ﷺ فيه قوله . . . وهي ليست في ابن إسحاق .

(٤) في الأصل : بل ، والصواب ما أثبتناه كما في ابن إسحاق ، والطبري .

(٥) في ابن إسحاق والطبري : واختلاف امرهم .

(٦) ذكرها الطبري في تفسيره لسورة آل عمران ١٠٨/٣ - ١٠٩ ط بولاق بالقاهرة سنة ١٣٣٥ هـ . وسوف نقابل بين الروايتين ونشير الى الفرق بينهما .

(٧) في الطبري : حدّثني .

(٨) في الطبري . بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون بأن الله لا يخفى[1] عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم ؟

قالوا : لا .

قال : فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء (فهل تعلمون ذلك ؟ قالوا : بلى)[2] .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث .

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذي كما يتغذى[3] الصبي ، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ .

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ .

قال : فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً » فأنزل الله[4] ﴿ آلم * الله لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحيُّ القيوم ﴾ .

وقد ثبت في الصحاح حديث وفد نجران ففي البخاري ومسلم عن حذيفة وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسَنا وأنفسكم ﴾[5] دعا رسول الله ﷺ عليّا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي .

وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران الى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعده ، قالا : إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً فلا تبعث معنا

---

(١) في الطبري . إن الله عز وجل لا يخفي .

(٢) ما بين القوسين ناقص بالأصل ، وأكملناها من الطبري .

(٣) في الطبري : يغذي .

(٤) في الطبري ، الله عز وجل .

(٥) سورة آل عمران الآية ٦١.

إلا أميناً ، قال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين . قال فاستشرق لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال الرسول ﷺ . «هذا أمين هذه الأمة »[1] .

وفي سنن أبي داود وغيره قال أبو داود أخبرنا مصرف بن عمرو اليامي حدّثنا يونس - يعني ابن بكير - حدّثنا أسباط بن نصير الهمداني عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي ، عن ابن عباس قال : صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة : النصف في صفر والنصف في رجب ، يؤدونها الى المسلمين وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد ذات غدر . على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا .

قال إسماعيل : فقد أكلوا الربا . قال أبو داود : إذاً نقضوا بعض ما شرط عليهم ، فقد أحدثوا[2] .

وما ذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم . وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الأموال» ذكره من طريقين .

قال أبو عبيد رحمه الله حدّثنا أبو أيوب الدمشقي قال حدثني سعدان بن يحيى عن عبد الله بن أبي حميد عن أبي المليح الهذلي : أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران[3] فكتب لهم كتاباً[4] : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران إذ كان حكمه عليهم أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة[5] ورقيق وأفضل[6] عليهم وترك ذلك لهم ، ألفي حلة : في كل صفر ألف حلة ، وفي كل رجب ألف حلة ، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب ، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع

---

(١) أورده البخاري مختصراً ٣٢/٤ (كتاب المناقب . باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح) ، وأخرجه مسلم أيضاً برواية زفر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ابعث إلينا رجلاً أميناً . . . الحديث . انظر مسلم ١٩٢/١٥ ط المصرية بالأزهر بشرح النووي ط ١ الأولى سنة ١٩٣٠ م .

(٢) ذكره ابو داود في كتاب الإمارة .

(٣) أورد أبو عبيد بن سلام هذه المعاهدة في كتابة «الأموال» ص ٢٧٢ - ٢٧٦ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٦٦ م بتحقيق محمد خليل هراس وسوف نقابل بين النصين فيما يلي .

(٤) في الأصل : فكتب له . والصواب ما أثبتناه . وهو ما ذكره أبو عبيد في الأموال .

(٥) صفراء وحمراء أو ثمرة : حمراء وصفراء وثمرة .

(٦) هي من الفضل والتفضل : والمعنى أنه يتفضل عليهم بترك أموالهم لهم بعد أن كان له الحكم عليهم في هذه الأموال .

أخذ منهم بالحساب[١] ، وعلى أهل نجران أن يقروا رسلي[٢] عشرين ليلة فما دونها، وعليهم عارية ثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين درعاً إذا كان كيد باليمن ذو مغدرة[٣] ، وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضامن على رسلي حتى يؤدوه إليهم ، ولنجران وحاشيتها[٤] ، ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملّتهم وبيعهم ورهبانهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه ، ولا واقهاً من وقيهاه[٥] ولا راهباً من رهبانيته وعلى أن لا يحشروا[٦] ولا يعشروا . ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل[٧] منهم حقاً فالنصف بينهم ، وهذا لنجران على أن لا يأكلوا الربا ، فمن أكل الربامن ذي قبل فذمتي منه بريئة ، وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معسوف[٨] عليهم . شهد (بذلك[٩] عثمان بن عفان ومعيقيب) .

قال أبو عبيد : الواقة ولي العهد في لغة بلحارث بن كعب يقول إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه .

قال أبو عبيد : قال أبو أيوب ، وحدّثني عيسى بن يونس ، عن عبد الله بن أبي حميد ، عن أبي المليح عن النبي ﷺ مثل ذلك وزاد في حديثه قال : فلما توفي رسول الله ﷺ، أتوا أبا بكر فوفى لهم بذلك وكتب كتاباً نحواً من كتاب رسول الله ﷺ ، فلما ولي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أصابوا الربا في زمانه فأجلاهم عمر وكتب لهم : أما بعد : فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من خراب الأرض ، وما اعتملوا من شيء فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم ، قال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية .

قال أبو عبيد : وهي قرية بالكوفة ، وكتب عثمان الى الوليد بن عقبة : أما بعد : فإن

---

(١) بالحساب : في (الأموال) بحساب .

(٢) أن يقروا : في (الأموال) مقرى . والمعنى أن على أهل نجران أن يقدموا للرسل الموفدين إليهم واجبات (القرى) من مأكل ومسكن خلال المدة التي نصبها الرسول لهم .

(٣) في الأصل : معذرة . والصواب ما أثبتناه . والمعنى : أنه اذا حصل غدر من أهل اليمن واحتاج المسلمون أن يستعيروا هذه الأشياء المذكورة في المعاهدة للحرب فعلى أهل نجران أن يعيروها للمسلمين . وعلى المسلمين أن يردوها اليهم بعد الحرب ، وما تلف منها فإن على المسلمين أن يضمنوه بقيمته .

(٤) المراد بالحاشية أتباعهم من كل ما يلزمهم الدفاع عنه ،

(٥) في النهاية لابن الأثير أن الواقة يروى هكذا بالقاف ، وإنما هو بالفاء «ولا وافه عفى وفهيته » والوافة هو القيم على البيت الذي فيه صليب النصارى بلغة أهل الجزيرة ، وتروى أيضاً: واهف .

(٦) في الأصل : يحسروا . والصواب ما أثبتناه . والمعنى ألايجلوا عن أرضهم . ولا يؤخذ منهم العاشر .

(٧) في الأصل : ملك والصواب ما أثبتناه .

(٨) معسوف : في «الأموال» معنوف .

(٩) ليست بالأصل . وزيدت من كتاب الأموال لتوضيح المعنى .

العاقب والأسقف وسراة أهل نجران أتوني بكتاب رسول الله ﷺ وأروني شرط عمر - رضي الله عنه - وقد سألت عثمان بن حنيف فأنبأني[١] (أنه كان قد بحث عن ذلك فوجده صار للدهاقين ، فنزعهم عن أرضهم) ، وإني قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتي حلّة لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

قال أبو عبيد : وحدثنا عثمان بن صالح عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ وسلم ، كتب لأهل نجران من محمد النبي رسول الله ﷺ ، ثم ذكر نحو هذه النسخة .

(إلا أنهما اختلفا في حروف في حديث ابن لهيعة فكان قوله : «وأفضل عليهم »، «قضى عليهم» وفي موضع قوله «كل حلّة أوقية » : «كل حلّة وافية». ولم يذكر سقيفاه ولا وقيهاه)[٢].

وليس في حديثه قصة أبي بكر وعمر (وعثمان)[٣] رضي الله عنهما ، وفي آخر حديث ابن لهيعة[٤]، شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بني نضر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة .

قال أبو عبيد حدّثني سعيد بن عفير ، عن يحيى بن أيوب ، عن يونس بن يزيد الأيلي ، عن ابن شهاب قال : أول من أعطى الجزية أهل نجران ، وكانوا نصارى[٥] .

فإن قيل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنَا وبينَكم ألاّ نعبدَ إلاَّ الله ولا نشركَ بِهِ شيئاً ﴾[٦] .

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل مع دحية الكلبي مدة هدنته للمشركين ، وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم ، وقد حضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبي ﷺ[٧] ، وأبو سفيان أسلم عام الفتح فدلّ ذلك أن على هذا الكتاب كان قبل الفتح ،

---

(١) وردت هذه الجملة في كتاب الأموال هكذا : فانبأني أنه كان قد بحث عن ذلك فوجده ضارا للدهاقين ليردعهم عن أرضهم . والرواية كما أثبتها ابن تيمية هي الصواب ، لأن عثمان بن حنيف إنما كان يبحث عن مصير الأشياء التي نص عليها في المعاهدة ، وأنه وجدها قد صارت الى الدهاقين . وليس المراد هل هي ضارة بهم أو ليست بضارة ، ويبدو أن الناسخ قد خلط بين كلمة صار ، ضار .

(٢) ما بين القوسين ساقط من الأصل .

(٣) ناقصة بالأصل .

(٤) في الأصل: وفي آخره . انظر في ذلك كتاب الأموال ٢٨٢ - ٢٧٦ .

(٥) أورده أبو عبيد ص ٣٩.

(٦) سورة آل عمران الآية ٦٤.

(٧) ذكره البخاري ٦/٤٣ - ٤٥ (كتاب التفسير . باب تفسير سورة آل عمران)، ٤/٥٤ - ٥٦ (كتاب الجهاد . باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة)، وأورد مسلم هذا الحديث مطولاً عن ابن عباس . وكان دحية الكلبي هو المرسل بالكتاب =

ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع ، فدّل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة ، وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة ـ قد علم يقيناً أنها نزلت في قصة قدوم وفد نجران ـ والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران ، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل .

ونقل أهل المغازي والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها ، فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية . وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة ، فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية .

قال الزهري : أهل نجران أول من أدى الجزية [1] ، وقوله تعالى ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ﴾ بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله ﴿ يا أهْلَ الكتابِ لِمَ تكفرونَ بآياتِ الله وأنتم تشهدون ؟﴾ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَلْبِسونَ الحقَّ بالباطِلِ وتكتمونَ الحقَّ وأنتم تعلمون ﴾[2] ، فيكون هذا مما تقدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله ، وجمع بينها للمناسبة كما في نظائره ، فإن الآيات كانت إذا نزلت بأمر النبي ﷺ أن يضعها في مواضع تناسبها ، وإن كان ذلك مما تقدم .

ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ﴾ لفظها يعم اليهود والنصارى ، كذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء للطائفتين ، وأن النبي ﷺ دعا بها اليهود فدل ذلك على أن نزولها متقدم ، فإن دعاء اليهود كان قبل نزول آية الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز ، ولكن لما بعث معاذاً لليمن ـ وكان كثير من أهلها يهوداً ـ أمر أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله مغافر وهذا كان متأخراً بعد غزوة تبوك ، وتوفي النبي ﷺ ومعاذ باليمن . قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدّثنا أبي ، حدّثنا هشام بن عمار ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا الضحاك بن عبد الرحمن بن حوشب وغيره ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى (إليون) طاغية الروم قال فيما أنزل الله على محمد ﷺ : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ ـ يعني اليهود والنصارى ـ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ﴾[3] .

وروى بإسناده عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿تعالَوْا إلىٰ كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم﴾ قال: بلغني أن النبي ﷺ دعا اليهود أهل المدينة فأبوا عليه فجاهدهم ، وكذلك سائر الآيات التي فيها

= الى هرقل ، فدفعه الى عظيم بصرى ثم دفعه عظيم بصرى الى هرقل . انظر مسلم (كتاب الجهاد والسير ـ باب كتاب النبي الى هرقل) ٥/١٦٣ ـ ١٦٥ ط . دار الطباعة العامة بمصر . سنة ١٣٢١ هـ .

(١) وأشار الى ذلك أيضاً أبو عبيد في كتابة (الأموال) انظر ص ٣٩.

(٢) سورة آل عمران الآيات (٧٠ ـ ٧١).

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤.

خطاب للطائفتين ، كقوله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تحاجّونَ في إبراهيمَ وما أُنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلّا من بعدِهِ أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاجَجْتم فيما لكم به علمٌ فلمَ تحاجّون فيما ليسَ لكم به علمٌ والله يعلمُ وأنتم لاَ تَعلمون * ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كانَ حنيفاً مسلماً وما كانَ مِنَ المشركين ﴾[1] .

ومما ينبغي أن يعلم ، أن أهل نجران المذكورة ، نجران اليمن لا نجران الشام ، وأهل نجران كان منهم نصارى أهل ذمة ، وكان منهم مسلمون ـ وهم الأكثرون ـ والنبي ﷺ بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء ، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء ، كما أخرجاه في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّ لكلِّ أمةٍ أميناً وإنَّ أمينَنا أيها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[2] .

وعن أنس أيضاً : أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلاً أميناً يعلمنا السنّة والإسلام ، فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح فقال : «هذا أمين هذه الأمة »[3] .

وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال : جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أيا رسول الله ابعث إلينا رجلاً أميناً فقال : «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين » قال : فاستشرف لها الناس ، قال : فبعث أبا عبيدة بن الجراح[4] .

وللبخاري عن حذيفة قال : جاء السيد والعاقب صاحبا نجران الى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما للآخر : لا تفعل فوالله لأن كان نبياً فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ، فقال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة ابن الجراح ، فلما قام قال رسول الله ﷺ «هذا أمين هذه الأمة » .

وكذلك استعمل النبي ﷺ عليهم عمرو بن حزم وكتب له الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن ، وقد رواه النسائي بطوله وروى الناس بعضه مفرقاً ، ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جيشان ، فدل على أن قدومهم كان متأخراً ، ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم في أوائل السيرة مع قصة اليهود ليجمع بين خبر اليهود والنصارى ، وذكر في سنة

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٦٥ ـ ٦٧) .

(٢) ذكره البخاري في (كتاب المناقب . . مناقب أبي عبيدة بن الجراح) انظر البخاري ٣٢/٥ .
ومسلم (الفضائل . فضائل أبي عبيدة) برواية أبي قلابة عن أنس م ١٩١/١٥ بشرح النواوي .

(٣) أورده مسلم في (كتاب الفضائل . فضل أبي عبيدة بن الجراح) ١٩١/١٥ .

(٤) أورده مسلم في كتاب (الفضائل . فضل أبي عبيدة) ١٩٢/١٩١/١٥ .

عشر فتح نجران وإرسال النبي ﷺ خالد بن الوليد ، وإرسال خالد ذكروا أنه كان متأخراً قبل وفاته ﷺ بأربعة أشهر ، وأنه قدم وفد منهم بالإسلام ، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارى فإنه قد ذكر ابن سعد أن العاقب والسيد أسلما بعد ذلك ، والعهد بالجزية إنما كان مع النصارى .

وقال شيخ الإسلام

أبو العباس تقي الدين بن تيمية قدس الله روحه ونوّر ضريحه .

فصل

في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللهُ أنّهُ لا إلَهَ إلاّ هُوَ ، والملائكةُ ، وأولوا العِلمِ ، قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلاّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ ، إنّ الدّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ ﴾[1] .

أقوال المفسرين في معنى : شهد

قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ (شهد) فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة : أي حكم وقضى[2] .

وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج : أي بينّ .

وقالت طائفة : أي أعلم .

وكذلك قالت طائفة معنى شهادة الله الإخبار والإعلام ، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار .

وعن ابن عباس أنه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ، ولم يكن سماء ولا أرض ، ولا بر ولا بحر ، فقال : ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو﴾.

وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة ، وذلك أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وقوله وخبره عما شهد به ، وهذا قد يكون مع ان الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره ، وإن لم يكن معلماً به لغيره ، ولا مخبراً به لسواه . فهذه أولى مراتب الشهادة .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١٧ ـ ١٨) .

(٢) علق الطبري على هذا الرأي فقال : فأما من قال أنه عنى بقوله شهد : قضى فمما لا يعرف في لغة العرب ولا العجم ، لأن الشهادة معنى والقضاء غيرها . أنظر ١٤١/٣ ط بولاق ، وروى الواحدي في سبب نزول الآية أن حبرين من الشام وفدا على رسول الله ﷺ فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم ، قالا : وأنت أحمد ؟ قال : نعم : قالا : إنا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك . فقال لهما : سلاني . فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله . فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿ الآية : شهد الله أنه لا إله إلا هو . . . ﴾ فأسلم الرجلان وصدقا . انظر أسباب النزول للواحدي ص ٥٤ ط الحلبي .

ثم قد يخبره ويعلمه بذلك ، فتكون الشهادة إعلاماً لغيره وإخباراً له ، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به . سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجَعَلوا الملائكةَ الَّذينَ هم عبادُ الرحمنِ إناثاً ، أشَهِدوا خَلْقَهُمْ سَتُكتبُ شهادتُهم ويُسألون ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وما شَهِدْنا إلاّ بما عَلِمْنَا ﴾[2] الآية . ففي كلا الموضعين إنما أخبروا خبراً مجرداً ، وقد قال : ﴿ واجْتَنِبوا قولَ الزورِ ، حُنفاءَ لله غيرَ مشركينَ بِهِ ﴾[3] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « عدلت شهادةُ الزور الإشراكَ بالله قالها مرتين أو ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية[4] وإنما في الآية :﴿ اجتنبوا قول الزور ﴾وهذا يعم كل قول زور بأي لفظ كان ، وعلى أي صفة وجد ، فلا يقوله العبد ولا يخطره ولا يسمعه من قول غيره ، و«الزور» هو الباطل الذي قد ازورّ عن الحق والاستقامة أي تحوّل ، وقد سماه النبي ﷺ شهادة الزور ، وقد قال في المظاهرين من نسائهم ﴿ وإنهم ليقولونَ منكراً مِنَ القولِ وزُوراً ﴾[5] .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس[6] وهؤلاء حدثوه أنه نهى عن ذلك ، ولم يقولوا : نشهد عندك ، فإن الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ في التحديث وإن كان أحدهم قد ينطق به ، ومنه قولهم في ماعز ، فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه النبي ﷺ[7] ولفظه كان إقراراً ولم يقل : أشهد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كُونوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ لله ، ولَوْ على أَنْفُسِكم[8] ﴾ وشهادة المرء على نفسه هي إقراره ، وهذا لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء وإنما تنازعوا في الشهادة عند الحكام ، هل يشترط فيها لفظ أشهد ؟ على قولين في مذهب أحمد ، وكلام أحمد يقتضي أنه لا يعتبر ذلك ، وكذلك مذهب مالك و«الثاني» يشترط ذلك كما يحكى عن مذهب أبي حنيفة والشافعي .

---

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(٢) سورة يوسف الآية ٨١ .

(٣) سورة الحج الآية ٣٠ .

(٤) ذكره الترمذي في (كتاب الشهادات) ولفظه : وعدلت شهادة الزور إشراكاً بالله . وأنظر أيضاً : أبو داود (كتاب الأقضية)، ابن ماجه (كتاب الأحكام)، ابن حنبل ١٧٨/٤ .

(٥) سورة المجادلة الآية ٢ .

(٦) ذكر البخاري هذا الحديث في ١٥٢/١ ط الشعب (كتاب الصلاة . باب الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس). وذكره ابن ماجه (كتاب الإقامة).

(٧) أورد مسلم هذه القصة بروايات مختلفة ومن طرق عدة: (أنظر: مسلم ٤٩/٢ ـ ٥٣ ط. الحلبي كتاب الحدود . باب من اعترف على نفسه بالزنى) ، ابن ماجه (كتاب الحدود)، الدارمي (الحدود)، ابن حنبل ٩٩/٥ .

(٨) سورة النساء الآية ١٣٥ .

و«المقصود هنا» الآية . فالشهادة تضمنت مرتبتين :

«أحداهما» تكلم الشاهد . وقوله . وذكره لما شهد في نفسه به .

و«الثانية» إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به ، فمن قال : حكم وقضى فهذا من باب اللازم ، فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر .

ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم ، فقال : ﴿ وَقَضَى ربُّك ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ ﴾[1] .

وقال: ﴿ أَنْ أَنْذِروا أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاّ أنا فاتّقُون ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمّةٍ رسولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ ﴾[3] الآية .

وقال تعالى ﴿ وقالَ الله : لا تَتّخذوا إلَهينِ اثْنَينِ ، إنما هُوَ إلَهٌ واحدٌ فإيّاي فارْهبون ﴾[4] .

وقال : ﴿ وما أُمِروا إلاّ ليعبُدوا إلَهاً واحداً لا إلَهَ إلاّ هُوَ سبحانَهُ عمّا يُشركون ﴾[5] ﴿ وما أُمِروا إلاّ ليعبُدوا الله مُخْلصين لَهُ ا لدّين حُنفاء ﴾[6] .

وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ، ويحرم عليهم عبادة ما سواه ، فقد حكم وقضى : أنه لا إله إلا هو .

ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ، وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد ، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة ، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه ، فان النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي ، كما إذا استفتى شخص شخصاً فقال له قائل : هذا ليس بمفتٍ ، هذا هو المفتي ، ففيه نهي عن استفتاء الأول ، وأمر وإرشاد الى استفتاء الثاني .

وكذلك إذا تحكم إلى غير حاكم ، أو طلب شيئاً من غير ولي الأمر ، فقيل له : ليس هذا حاكماً ولا هذا سلطاناً ، هذا هو الحاكم وهذا هو السلطان ، فهذا النفي والإثبات يتضمن الأمر والنهي ، وذلك أن الطالب إنما يطلب ممن عنده مراده ومقصوده ، فإذا ظنه شخصاً فقيل له :

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

(٢) سورة النحل الآية ٢ .

(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .

(٤) سورة النحل الآية ٥١ .

(٥) سورة التوبة الآية ٣١ .

(٦) سورة البينة الآية ٥ .

ليس مرادك عنده وإنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده (من) عند هذا دون ذاك .

والعابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة ، فإذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس بإله إنما الإله هو الله وحده كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمرا بعبادته .

و«أيضاً» فلو لم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الإله يقتضي أنه يستحق العبادة ، فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمراً بما يستحقه .

وليس المراد هنا «بالإله» من عبده عابد بلا استحقاق ، فإن هذه الآلهة كثيرة ، ولكنّ تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل، كما قال تعالى : ﴿ إنْ هي إلاّ أسماءٌ سميتُمُوها أنتم وآباؤكم ، ما أنزلَ الله بها مِنْ سُلطان ﴾[1] وقال : ﴿ ذلك بأنَّ الله هُوَ الحقُّ وأنّ ما يدعُون من دونِهِ الباطِلُ ﴾[2] .

فالآلهة التي جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ، لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لا يحسن شيئاً من ذلك .

ولا بد لكل إنسان من إله يُألّهه ويعبده «تعسَ عبدُ الدّينارِ وعبدُ الدّرهمِ »[3] فإن بعض الناس قد ألّه ذلك محبة وذلاً وتعظيماً ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يُعبد إلا إياه .

و«أيضاً» فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، فيقال : للجمل الخبرية قضية ، ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى وانتفاء هذا المعنى ، وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار قد حكم بثبوت ما أثبته ونفي ما نفاه حكماً خبرياً ، قد يتضمن حكماً طلبياً .

فصل

وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة .

فالقول هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأوحاه إلى عباده كما قال : ﴿ يُنَزِّلُ

---

(١) سورة النجم الآية ٢٣ .

(٢) سورة لقمان الآية ٣٠ .

(٣) هذا جزء من حديث شريف أورده ابن ماجه في ١٣٨٦/٢ (كتاب الترهيب) حديث رقم ٤١٣٥ ، ٤١٣١، وأورده البخاري في (كتاب الجهاد) ٤١/٤ وقال البخاري : لم يرفعه إسرائيل ومحمد بن جحادة عن أبي حصين .

الملائكةَ بالرُوح مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، أَنْ أَنْذِروا أَنَّهُ لا إِلَه إلاَّ أنا فـاتّقون ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبـروا عن الله أنه شهـد ويشهد أن لا إلـه إلا هو بقوله وكلامه : وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه ، ولهذا قـال تعالى : ﴿ أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دونِهِ آلِهَةً ، قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكم ، هَذا ذِكرُ مَنْ مَّعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلي ﴾[2] .

وأمـا شهادتـه بفعله فهو مـا نصبه من الأدلـة الـدالـة عـلى وحدانيته التي تعلم دلالتهـا بالعقل ، وإن لم يكن هناك خبر عن الله ، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشـاد ، فإن الدليل (يبين) المدلول عليـه ويظهـره ، فهو بمنـزلة المخبـر به الشـاهد بـه ، كما قيـل : سل الأرض من فجّر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج ثمارها ، وأحيا نباتها ، وأغطش ليلهـا ، وأوضح نهارها ، فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

وهو سبحانه شهد بمـا جعلها دالّـة عليه ، فـإن دلالتها إنمـا هي بخلقه لهـا ، فإذا كـانت المخلوقات دالّة على أنه لا إله إلا هو سبحانه الذي جعلها دالّة عليه ، فإن دلالتها إنما هي بخلقه ، وبيّن ذلك ، فهو الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو ، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة .

قال ابن كيسان : ﴿شهد الله﴾ بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمـة عند خلقـه أنه لا إلـه إلا هو .

فصـــــل

وقوله : ﴿ قائماً بالقِسْطِ ﴾ هو نصب على الحال ، وفيه وجهان :

قيل : هو حال من (شهد) : أي شهد قائماً بالقسط .

وقيل : (حال) من (هو) أي لا إله إلا هو قائماً بالقسط كما يقال : لا إله إلا هو وحـده ، وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿قائماً بالقسط﴾ يجوز أن يعمـل فيه كـلا العاملين عـلى مذهب الكـوفيين ، في أن المعمول الواحد يعمل فيه عاملان ، كما قالوا في قوله : ﴿هـاؤمُ اقْرَأُوا كتـابِيَّه﴾[3] ﴿وآتُـوني أُفْرِغْ قِطْراً﴾[4] و ﴿ عنِ اليمينِ وعَنِ الشِّمالِ قَعيدٌ﴾ ونحو ذلك .

---

(١) سورة النحل الآية : ٢ .

(٢) سورة الانبياء الآية ٢٤ .

(٣) سورة الحاقة الآية ١٩ . وكتابيه نصب على أنه معمول للعاملين : هاؤم ، اقرؤوا .

(٤) سورة الكهف الآية ٩٦ وقوله آتوني ، أفرغ قد عمل كل منهما في قطرا . على رأي الكوفيين . وابن تيمية يستشهد بالآيتين على أن «قائماً» قد عمل فيه كل من شهد ، هو ، على هذا الرأي .

وسيبويه وأصحابه يجعلون لكل عامل معمولاً ، ويقولون حذف معمول أحدهما لدلالة الآخر عليه .

وقول الكوفيين أرجح ، كما قد بسطته في غير هذا الموضع .

وعلى المذهبين فقوله :﴿بالقسط﴾ يخرج على هذا ، إما كونه يشهد قائماً بالقسط ، فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل ، كما في قوله ﴿كونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ﴾[1] فالقيام بالقسط يكون في القول ، وهو القول العدل ، ويكون في الفعل ، فإذا قيل : شهد (قائماً بالقسط): أي : متكلّماً بالعدل مخبراً به آمراً به: كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط ، وهي أعدل من كل شهادة ، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم ، وهذه الشهادة أعظم الشهادات .

(سبب نزول الآية)

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما يوافق ذلك .

فذكر ابن السائب : أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة ، فقالا : أنت محمد ؟

قال : نعم .

قالا : وأحمد ؟

قال : نعم .

قالا : نسألك عن شهادة فإن أخبرتنا بها آمنا بك .

فقال : سلاني .

فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله ، فنزلت هذه الآية[2] .

معنى قائماً بالقسط :

ولفظ «القيام بالقسط» كما يتناول القول يتناول العمل ، فيكون التقدير : يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم ، فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً ، فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد ، وأن غيره لا يستحق العبادة ، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء ، وأن المشركين به في النار ، فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة ، وكان قوله :﴿قائماً

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٢) ذكر ذلك النيسابوري في أسباب النزول ص ٥٤ ط الحلبي سنة ١٩٦٨ الطبعة الثالثة .

بالقسط﴾تنبيهاً على جزاء المخلصين والمشركين ، كما في قوله : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ؟﴾[1] .

قال طائفة من المفسرين منهم البغوي نظم الآية (شهد الله قائماً بالقسط) ومعنى قوله: ﴿قائماً بالقسط﴾أي بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم بأمر فلان أي يدبره ويتعاهد أسبابه ، وقائم بحق فلان أي مجاز له ، فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال .

وإذا اعتبر القسط في الإلهية كان المعنى : «لا إله إلا هو قائماً بالقسط» أي هو وحدة الإله قائماً بالقسط ، فيكون وحده مستحقاً للعبادة مع كونه قائماً بالقسط ، كما يقال : أشهد أن لاإله إلا الله إلهاً واحداً أحداً صمداً ، وهذا الوجه أرجح ، فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له ، مع أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط :

و«الوجه الأول» لا يدل على هذا ، ولأن كونه قائماً بالقسط كما شهد به أبلغ من كونه حال الشاهد ، وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ، ويعمل بالعدل ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كلمةُ ربِّك صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾[2] وقال هود: ﴿ إنَّ رَبِّي على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[3] فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه .

وقال: ﴿ هَلْ يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يأمرْ بالعدلِ وهُوَ على صِراطٍ مُستقيم ؟﴾[4] وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُركائِكم مَنْ يَهدي الى الحقِّ قلِ الله يُهدي للحقِّ ؟﴾[5] الآية ، وقال : ﴿ أَفمن يَخْلُقُ كمن لا يَخْلق ؟!﴾[6] الآيات . إلى قوله :﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾فأخبر أنه خالق منعم عالم ، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئاً ولا تنعم بشيء ، ولا تعلم شيئاً ، وأخبر أنها ميتة ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه ؟ ولهذا كان أعظم الظلم والإفك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمدُ لله ، وَسَلامٌ على عبادِهِ الذين اصْطَفَى آللهُ خير أمّا يُشركُون ؟﴾[7] فقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدِرُ على شيءٍ ،

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥ .

(٣) سورة هود الآية ٥٦ .

(٤) سورة النحل الآية ٧٦ .

(٥) سورة يونس الآية ٣٥ .

(٦) سورة النحل الآية ١٧ .

(٧) سورة النمل الآية ٥٩ .

وَمَنْ رزقناهُ منّا رِزقاً حسَناً فَهُوَ يُنفِقُ منهُ سرّاً وجهراً ، هـل يَستوونَ ؟ الحمـدُ لله بَلْ أكثـرُهم لا يَعلمونَ . وضَرَبَ الله مثلاً رجلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أبْكَمُ لا يَقدِرُ عـلى شيءٍ وهُوَ كَـلٌّ على مَـوْلاهُ أينما يُوَجِّهْهُ لا يأتِ بِخَيْرٍ ، هل يستوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعـدْلِ وَهُوَ عـلى صِراطٍ مستقيمٍ ﴾[1] كـلاهما مثل بيّن الله فيه أنه لا يستوي هو وما يشركون به ، كـما ذكر نـظير ذلك في غـير موضـع ، وإن كان هذا الفرق معلوماً بالضرورة لكـل أحد ، لكنّ المشـركون مـع اعترافهم بـأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه وبينها في المحبة والدعاء ، والعبادة ونحو ذلك .

و«المقصـود هنا » أن الـرب سبحانـه على صـراط مستقيم ، وذلك بمنـزلة قـولـه : ﴿قائماً بالقسط﴾فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط .

ولهـذا أمرنـا الله سبحانـه أن نسألـه أن يهدينـا الصـراط المستقيم ، صـراط الـذين أنعم عليهم : من النبيـين ، والصدّيقـين ، والشهداء والصـالحين ، صـراطهم هو العـدل والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بـطاعته وتـرك معاصيـه ؛ فالمعـاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل ، والله سبحانه أعلم .

فصـــل

ثم قال تعالى : ﴿لا إلَـه إلاّ هُوَ العـزيزُ الحكيمُ﴾ ، ذكـر عن جعفر بن محمـد أنه قـال : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم . أي قوله . ﴿ لا إلـه إلاّ هُوَ العـزيز الحكيم ﴾ . ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها ، فقال : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلَـهَ إلاّ هُوَ﴾ والتـالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هـو والملائكـة وأولوا العلم ، وليس في ذلـك شهادة من التـالي نفسه بها ، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي . فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو. فالأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه ، وهذه خبر عن الله بالتوحيد .

وختمهـا بقولـه : ﴿العزيـز الحكيم﴾ والعزة تتضمن القـدرة والشدة والامتنـاع والغلبة . تقول العرب : عَزَّ يَعَزُّ بفتح العين إذا صلب . وَعَزَّ يَعِزُّ بكسـرها إذا امتنـع . وَعَزَّ يَعُـزُّ بضمها إذا غلب . فهو سبحانه في نفسه قوي متين ، وهو منيع لا ينال . وهو غالب لا يغلب .

والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقـوله ويفعله ، فـإذا أمر بـأمر كـان حسناً ،

---

(١) سورة النحل الآيات (٧٥ ، ٧٦) .

وإذا أخبر بخبر كان صدقاً ، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً ، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله .

فصـــل

(الأصول التي تضمنتها الآية)

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول : شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنه قائم بالقسط ، وأنه العزيز الحكيم ، فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك ، وتضمنت عدله المنافي للظلم ، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه ، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ، ففيها إثبات التوحيد ، وإثبات العدل ، وإثبات الحكمة ، وإثبات القدرة .

والمعتزلة قد تحتج بها على ما يدعونه من التوحيد والعدل والحكمة ولا حجة فيها لهم : لكن فيها حجة عليهم ، وعلى خصومهم الجبرية أتباع الجهم بن صفوان[1] الذين يقولون : كل ما يمكن فعله فهو عدل ، وينفون الحكمة فيقولون : يفعل لا لحكمة ، فلا حجة فيها لهم ، فإنه أخبر أنه لا إله إلاّ هو ، وليس في ذلك نفي الصفات وهم يسمون نفي الصفات توحيداً ، بل الإله هو المستحق للعبادة ، والعبادة لا تكون إلا مع محبة المعبود .

والمشركون جعلوا لله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، فدلّ ذلك على أن المؤمنين يحبون الله أعظم من محبة المشركين لأندادهم فعلم أن الله محبوب لذاته ، ومن لم يقل بذلك لم يشهد في الحقيقة ان لا إله إلاّ هو .

والجهمية والمعتزلة يقولون : إن ذاته لا تحب ، فهم في الحقيقة منكرون إلهيته وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وقيامه بالقسط مقرون بأنه لا إله إلا هو ، فذكر ذلك على أنه لا يمثله أحد في شيء من أموره .

والمعتزلة تجعل القسط منه مثل القسط من المخلوقين ، فما كان عدلاً من المخلوفين كان عدلاً من الخالق ، وهذا تسوية منهم بين الخالق والمخلوق ، وذلك قدح في أنه لا إله إلا هو .

---

(١) الجهم بن صفوان : كان معاصراً لواصل بن عطاء ، ولد سنة ٨٠ هـ ، تتلمذ على الجعد بن درهم ، أخذ عنه القول بخلق القرآن ونفى الصفات ، وأتباع الجهم الذين يعنيهم ابن تيمية هم الأشاعرة الذين أخذوا عن الجهم القول بالجبر ، وأحياناً يستعمل ابن تيمية الجهمية ويريد بهم المعتزلة وذلك في مقام حديثه عن النقاة والمتأولة للقرآن انظر عن الجهم . مقالات الأشعري ١/١٣٢ ، ٢٢٩ ، الملل والنحل ١/١٣٥ . ١٣٧ الفرق بين الفرق ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، الخطط للمقريزي ٢/٣٤٩ ـ ٣٥١ ، لسان الميزان ٢/١٤٢ ـ ١٤٣ ، وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٥٧ ح (٢)

والجهمية عندهم أي شيء أمكن وقوعه كان قسطاً ، فيكون قوله :﴿قائماً بالقسط﴾ كلاماً لا فائدة فيه ولا مدح ، فإنه إذا كان كل مقدور قسطاً كان المعنى أنه قائم بما يفعله ، والمعنى أنه فاعل لما يفعله ، وليس في هذا مدح ، ولا هو المفهوم من كونه قائماً بالقسط ، بل المفهوم منه أنه يقوم بالقسط لا بالعلم مع قدرته عليه ، لكنه سبحانه مقدس منزه أن يظلم أحداً ، كما قال : ﴿ ولَا يَظْلِمُ ربُّكَ أَحَداً ﴾[1] وقد أمر عباده أن يكونوا قوامين بالقسط ، وقال : ﴿ أَفَمَنْ هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ﴾[2] فهو يقوم عليه بكسبها لا بكسب غيرها ، وهذا من قيامه بالقسط وقال : ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ﴾[3] الآية .

وأيضاً فمن قيامه بالقسط وقيامه على كل نفسٍ بما كسبت : أنه لا يظلم مثقال ذرة كما قال : ﴿ فمَنْ يَعْمَل مِثْقالَ ذرّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾[4] إلى آخرها .

والمعتزلة تحبط الحسنات العظيمة الكثيرة بكبيرة واحدة ، وتحبط إيمانه وتوحيده بما هو دون ذلك من الذنوب ، وهذا مما تفردوا به من الظلم الذي نزّه الله نفسه عنه ، فهم ينسبون الله الى الظلم لا إلى العدل، والله أعلم .

فصـــل

وقوله : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيمُ﴾ إثبات لعزته وحكمته ، وفيها رد على الطائفتين الجبرية والقدرية [5] ، فإن الجبرية ـ اتباع جهم ـ ليس له عندهم في الحقيقة حكمة ، ولهذا لما أرادت الأشعرية أن تفسر حكمته ففسروها إما بالقدرة ، وإما بالعلم ، وإما بالإرادة .

ومعلوم أنه ليس في شيء من ذلك إثبات لحكمته ، فإن القادر والعالم والمريد قد يكون حكيماً وقد لا يكون ، والحكمة أمر زائد على ذلك ، وهم يقولون إن الله لا يفعل لحكمة ، ويقولون أيضاً . العمل لغرض إنما يكون ممن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ، وذلك ، منفي عن الله .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٢) سورة الرعد الآية ٣٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .

(٤) سورة الزلزلة الآية ٧ .

(٥) لا توجد فرقة بعينها تسمى القدرية ، ويطلق ابن تيمية هذه الصفة على المعتزلة ومن شاركهم القول في أن العبد يفعل فعله بقدرته المستقلة عن قدرة الله ، وهذا اللفظ قد تبرأت منه جميع الفرق الكلامية مع أن كل هذه الفرق كانت ترمي غيرها به ، وتتهم غيرها بأنها قدرية وتبرىء نفسها من هذه الصفة ، فالمعتزلة يتهمون به الأشاعرة ، والأشاعرة يطلقونه على المعتزلة وتحاول كل فرقة أن تقدم الأدلة التي تراها لدفع التهمة عنها والصاقها بالفرقة الأخرى .

انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عن الجبار ص ٧٧٢ ـ ٧٨٣، التعريفات للجرجاني .

والمعتزلة أثبتوا أنه يفعل لحكمة ، وسموا ذلك غرضاً . هم وطائفة من المثبتة ، لكن قالوا : الحكمة أمر منفصل عنه لا يقوم به ، كما قالوا في كلامه وإرادته ، فاستطال عليهم المجبرة بذلك ، فقالوا : الحكيم من يفعل لحكمه تعود إلى نفسه ، فإن لم تعد إلى نفسه لم يكن حكيماً ، بل كان سفيهاً .

فيقال للمجبرة ما نفيتم به الحكمة هو بعينه حجة من نفي الإرادة من المتفلسفة ونحوهم ، قالوا : الإرادة لا تكون إلا لمن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ، وإثبات إرادة بدون هذا لا يعقل ، وأنتم تقولون : نحن موافقون للسلف وسائر أهل السنة على إثبات الإرادة ، فما كان جواباً لكم عن هذا السؤال فهو جواب سائر أهل السنة لكم حيث أثبتم إرادة بلا حكمة يراد الفعل لها ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين ما في لفظ هذه الحجة من الكلمات المجملة والله اعلم .

فصل

وإثبات شهادة أولي العلم يتضمن أن الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين ، الملائكة والبشر . وهذا متفق عليه ، يشهدون أن لا إله إلا الله . ويشهدون بما شهد به لنفسه .

وزعم طائفة من الاتحادية أنه لا يوجد أحد (إلا) الله وأنشدوا :

ما وحد الواحد من واحد ⁂ إذ كل من وحده جاحد

وهؤلاء حقيقة قولهم من جنس قول النصارى في المسيح ، يدعون أن حقيقة التوحيد أن يكون الموحد هو الموحد ، فيكون الحق هو الناطق على لسان العبد ، والله الموحد لنفسه لا العبد . وهذا في زعمهم هو السر الذي كان الحلاج[1] يعتقده ، وهو بزعمهم قول خواص العارفين ، لكن لا يصرحون به .

وحقيقة قولهم : أنهم اعتقدوا في عموم الصالحين ما اعتقدته النصارى في المسيح ، لكن لم يمكنهم إظهاره ، فإن دين الإسلام يناقض ذلك مناقضة ظاهرة . فصاروا يشيرون إليه ، ويقولون : إنه من السر المكتوم ، ومن علم الأسرار الغيبية فلا يمكن أن يباح به ، وإنما هو قول

---

(١) هو الحسين بن منصور (أبو مغيث) من كبار فلاسفة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ، يعتبره البعض من ملاحدة المتصوفة . نشأ بواسط وانتقل الى البصرة . توفي سنة ٣٠٩ هـ ، وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ . كان يتنقل بالبلاد لينشر مذهبه متخفياً . ادعى حلول الإله فيه . مال إلى التشيع . أمر الخليفة العباسي المقتدر بالقبض عليه وقتله صبراً . أنظر عنه : الفهرست ١٩٠/١ ، روضات الجنات ص ٢٣٦ . طبقات الصوفية ٣٠٧ ، البداية والنهاية ١٣٢/١١ تاريخ بغداد ١١٢/٨ ـ ١٤١ ، وقد نشر له نيكلسون كتاب الطواسين .

ملحد ، وهو شر من قولِ النصارى ، فإن النصارى إنما قالوا ذلك في المسيح . لم يقولوه في جميع الصالحين .

وقد بسط الكلام على ذلك في غير موضع ، إذ المقصود التنبيه على ما في هذه الآية من أصول الإيمان ، والتوحيد وإبطال قول المبتدعين .

فصل

وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، ودلالته لهم ، وتعريفهم بما شهد به لنفسه ، فلا بد أن يعرفهم أنه شهد ، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن من العلم بها لم ينتفع بذلك ، ولم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ، ولم تقم بها حجة .

ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ كَتَمَ شهادةً عندَهُ من الله ﴾[1] أي عنده شهادة من الله وكتمها ، وهو العلم الذي بيّنه الله ، فإنه خبر من الله وشهادة منه بما فيه .

وقد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لإبراهيم وأهل بيته ، وكتموا إسلامهم ، وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد ﷺ ، وبصفته وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿ إنّ الّذينَ يَكتمونَ ما أنزلْنا مِنَ البيناتِ والهُدى ، من بعدِ ما بيّناهُ للناسِ في الكتابِ ، أولئكَ يَلعنُهُمْ الله ويَلعَنُهُمُ اللاعنونَ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ الّذين آتيناهُمُ الكتابَ يَعرفونَهُ كما يَعرفونَ أبناءَهم ، وإنّ فريقاً منهم ليكتمونَ الحقَّ وهمْ يعلمونَ ﴾[3] .

والشهادة لا بد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه ، لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ، ولهذا ذم من يكتم ويحرف ، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامِينَ بالقِسْطِ شُهَداء لله ، ولَوْ على أنفسِكُمْ ، أو الوالدَيْن والأقربَيْنَ ، إنْ يَكُنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتّبِعوا الهوى أنْ تَعدِلوا . وإن تَلووا أو تُعرِضوا فإنّ الله كانَ بما تَعملونَ خبيراً ﴾[4] .

وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال : «البِّيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

(٤) سورة النساء : ١٣٥ .

صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذّبا وكتما مُحقت بركة بيعهما»[1] .

فصـــل

وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ، ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقين : بالسمع والبصر .

فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية ، وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك حاصل بآياته ، فإن آياته هي دلالاته وبراهينه التي بها يعرف العباد خيره وشهادته ، كما عرفهم بها أمره ونهيه ، وهو عليم حكيم ، فخبره يتضمن أمره ونهيه ، وفعله يبين حكمته .

فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية ، ولا بد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه ، وذلك قد عرفه بآياته التي أيدّ بها الأنبياء ودلّ بها على صدقهم ، فإنه لم يبعث نبياً إلا بآية تبين صدقه ، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز ، كما قال : ﴿ لقدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالْبيِّناتِ ﴾[2] أي بالآيات البينات .

وقال : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قبلِكَ إلاّ رجالاً نُوحي إليهم، فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكر إنْ كنتم لا تعلمون ، بالبيِّناتِ والزُّبرِ وأَنْزلْنا إليكَ الذكرَ لِتُبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّل اليهم ، ولَعَلَّهُم يَتفكّرون ﴾[3] .

وقال: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءكم رُسلٌ مِنْ قَبْلي بالبيِّنَاتِ وبالّذي قلتم ﴾[4] .

وقال : ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاءوا بالبَيِّناتِ ، والزُّبُرِ ، والكتابِ المنيرِ ﴾[5] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله

---

(١) ذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه ٧٦/٣ (كتاب البيوع . باب إذا بين البيعان ولم يكتما). وفيه : فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما .
كما أورده مسلم في ٦٦٤/١ (كتاب البيوع . باب الصدق في البيع) وانظر أيضاً أبو داود (البيوع) الترمذي (البيوع)، النسائي (البيوع)، ابن ماجه (تجارات). وابن حنبل ٤/٣ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٥ .

(٣) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٣ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٨٤ .

إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] .

فالآيات والبراهين التي أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دلّ بها العباد . وهي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه ، والذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به ، ولهذا قال بعض النظار ، أن المعجزة تصديق الرسول ، وهي تجري مجرى المرسل ، صدقت فهي تصديق بالفعل ، تجري مجرى التصديق بالقول ، إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه ، وتصديقه إخبار بصدقه ، وشهادة له بالصدق ، وشهادة له بأنه أرسله ، وشهادة له بأن كل ما يبلغه عنه كلامه .

وهو سبحانه اسمه المؤمن ، وهو في أحد التفسيرين المصدق ، الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دلّ بها على صدقة .

الطريق الثاني :

وأما الطريق العياني فهو أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق ، كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أَنْفُسِهِمْ ، حتى يتبينَ لهم أنّه الحقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بربِّك أنه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ ؟﴾[2] أي أو لم يكف بشهادته المخبرة بما علمه ، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول ، فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به ، فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً وإن لم ير المشهود به ، وشهادته قد علمت بالآيات التي دلّ بها على صدق الرسول ، فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج ان ينظر الآيات المشاهدة التي تدلّ على أن القرآن حق ، بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى ، وكلامه .

وكذلك ذكر الكتاب المنزل ، فقال : ﴿ ولا تُجَادِلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتّي هيَ أحسنُ ، إلّا الذينَ ظَلَمُوا منهم ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ إلّا الظالمون ﴾[3] فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فإنه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره ، فإنه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به .

وقوله : ﴿ في صدورِ الذينَ أُوتوا العِلْم ﴾[4] سواء أريد به أنه بين في صدورهم ، أو أنه

---

(١) جاء هذا الحديث في البخاري ٦/٢٢٤ (كتاب فضائل القرآن) برواية سعيد المقري عن أبي هريرة . وفيه : ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر » الحديث . وانظر كذلك مسلم (كتاب الإيمان) ابن ماجه (كتاب الزهد ، ابن حنبل ٣/٢٤١) .

(٢) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٣) سورة العنكبوت الآيات (٤٦ ـ ٤٩) .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٩ .

محفوظ في صدورهم ، أو أريد به الأمران وهو الصواب ، فإنه محفوظ في صدور العلماء ، بين في صدورهم ، يعلمون أنه حق ، كما قال : ﴿ وَيرى الّذين أوتوا العلمَ الّذي أُنْزِل إليكَ من ربكَ هوَ الحقُّ ﴾[1] وقال : ﴿ أفمن يَعلمُ أنّما أُنْزِلَ إليكَ من ربكَ هوَ الحقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ ﴾[2] ﴿ وليَعْلَم الذينَ أُوتوا العِلْمَ أَنهُ الحقُّ من ربكَ فيُؤمِنُوا بهِ ، فَتُخْبِتَ لهُ قلوبُهُم . وإنّ الله لهادِ الّذينَ آمنوا إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عليه آياتٌ من ربهِ ، قُلْ إنما الآياتُ عندَ الله ، وإنّما أنا نذيرٌ مبينٌ ، أوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أنّا أنزَلْنا عليكَ الكتابَ يُتْلى عليهم ، إنّ في ذلك لرحمةً وذِكرى لقومٍ يُؤْمنُونَ ، قلْ كفى بالله بيني وبينَكم شهيداً ، يَعلَمُ ما في السمواتِ والأرضِ ، والّذين آمنوا بالباطلِ وكفروا بالله أولئكَ هُمُ الخاسرون ﴾[4] . فيها بيان ما يوجب السعادة للمؤمنين وينجيهم من العذاب .

ثم قال : ﴿ قُلْ كفى بالله بيني وبينَكم شهيداً يَعْلَمُ ما في السمواتِ والأرضِ ﴾ فإنه إذا كان عالماً بالأشياء ، كانت شهادته بعلم ، وقد بين شهادته بالآيات الدالة على صدق الرسول ، ومنها القرآن والله أعلم .

فصل

وأما كونه سبحانه صادقاً فهذا معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد ، فإن الكذب من أبغض الصفات عند بني آدم ، فهو سبحانه منزه عن ذلك ، وكل إنسان محمود يتنزه عن ذلك ، فإن كل أحد يذم الكذب ، فهو وصف ذم على الإطلاق .

وأما عدم علم الإنسان ببعض الأشياء ، فهذا من لوازم المخلوق ، ولا يحيط علماً بكل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كالكذب ، فلهذا يبين الرب علمه بما يشهد به ، وأنه أصدق حديثاً من كل أحد . وأحسن حكماً ، وأصدق قيلاً ، لأنه سبحانه أحق بصفات الكمال من كل أحد ﴿ولهُ المَثَلُ الأعلى في السمواتِ والأرضِ﴾[5] وهو يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته .

و﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ﴾[6] وهم أهل الكتاب فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل

---

(١) سورة سبأ الآية ٦ .

(٢) سورة الرعد الآية ١٩ .

(٣) سورة الحج الآية ٥٤ .

(٤) سورة العنكبوت الآيات (٥٠ ـ ٥١) .

(٥) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٦) سورة الرعد الآية ٤٣ .

محمد ، فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أتى به ، كالأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن الشرك ، والإخبار بيوم القيامة ، والشرائع الكلية ، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته ، ورسالته ، وكتابه ، وهذان الطريقان بهما تثبت نبوة النبي ﷺ ، وهي الآيات والبراهين الدالة على صدقه أو شهادة نبي آخر قد علم صدقه بالنبوة .

فذكر هذين النوعين بقوله : ﴿ قلْ كَفَى باللهِ شهيداً بيني وبينَكم ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾ فتلك يعلم بها صدقه بالنظر العقلي في آياته وبراهينه ، وهذه يعلم بها صدقه بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله .

وكذلك قوله : ﴿ قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً ؟ قُلِ : الله شهيدٌ بيني وبينَكم ﴾[1] فقوله ﴿ قل الله ﴾ فيها وجهان :

قيل : هو جواب السائل ، وقوله ﴿ شهيدٌ ﴾ خبر مبتدأ : أي هو شهيد .

وقيل : هو مبتدأ ، وقوله: ﴿ شهيدٌ ﴾ خبره ، فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام .

و«الأول» على قراءة من يقف على قوله ﴿قل الله ﴾ .

و«الثاني» على قراءة من لا يقف ، وكلاهما صحيح : لكن الثاني أحسن وهو أتمّ .

وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة ، فلما قال : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾؟ علم أن الله أكبر شهادة من كل شيء ، فقيل له ﴿قل: الله شهيد بيني وبينكم ﴾ ولما قال : ﴿ الله شهيد بين وبينكم ﴾ كان في هذا ما يغني عن قوله : إنّ الله أكبر شهادة . وذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله ﴿أكبر شهادة﴾ بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم ، فإن هذا مما لا يعلم بالنص والاستدلال ، فينظر هل شهد الله بصدقه وكذبهم في تكذيبه ؟ أم شهد بكذبه وصدقهم في تكذيبه ؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ، وبما بين أنه رسول صادق .

ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ وَأُوْحِىَ إليَّ هذا القرآن لأنذِركُمْ بهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[2] فإن هذا القرآن فيه الإنذار ، وهو آية شهد بها أنه صادق ، وبالآيات التي يظهرها في الآفاق وفي الأنفس ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

وقوله في هذه الآية : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ وكذلك قوله : ﴿ قل كفى بالله

(١) سورة الأنعام الآية ١٩.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٩.

شهيداً بيني وبينكم ﴾[1] ، وكذلك قوله : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم ، شهيداً ﴾[2] ، وكذلك قوله : ﴿ هُوَ أعلمُ بما تُفيضونَ فيهِ ، كَفَى بِهِ شهيداً بيني وبينَكُمْ ﴾[3] . فذكر سبحانه أنه شهيد بينه وبينهم ، ولم يقل : شاهد علينا ، ولا شاهد لي ، لأنه ضمن الشهادة الحكم ، فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة ، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة ، وأما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه ، ويعامل المحق بما يستحقه ، والمبطل بما يستحقه .

وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه ، وبين مكذبيه ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة ، ويحكم له أيضاً بالنجاة والنصر ، والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وهوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ ، لِيظهَرهُ على الدّينِ كلِّهِ ﴾[4] فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التي تبين أنه حق ، ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفيه ، ويكون منصوراً ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أَرْسلنا رُسلنَا بالبيناتِ ، وأنزَلْنا معهمُ الكتابَ والميزانَ ، ليقومَ الناسُ بالقسطِ ، وأَنزلْنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ﴾[5] فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك في قوله : ﴿ شهد الله ﴾ .

قال مُجاهد والفراء وأبو عبيدة ﴿شهد الله﴾ أي حكم وقضى ، لكن الحكم في قوله ﴿ بيني وبينكم ﴾ أظهر ، وقد يقول الإنسان لآخر . فلان شاهد بيني وبينك ، أي يتحمل الشهادة لما بيننا ، فالله يشهد بما أنزله ويقوله ، وهذا مثل الشهادة على أعمال العباد ، ولكن المكذبون ما كانوا ينكرون التكذيب ، ولا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة ، فيكون الشهيد بتضمن الحكم أثبت وأشبه بالقرآن . والله أعلم .

فصل

وكذلك قوله : ﴿ لكن الله يشهدُ بما أُنزلَ إليكَ أنزلَهُ بعلمِهِ ، والملائكةُ يشهدونَ ، وكَفَى بالله شهيداً ﴾[6] فإن شهادته بما أنزل إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه ، وأنه أنزله بعلمه ، فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبراً عمن دونه ، وهذا كقوله : ﴿ فإن لَمْ يستجيبوا

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٣ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٢ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٨ .

(٤) سورة الفتح الآية ٢٨ .

(٥) سورة الحديد الآية ٢٥ .

(٦) سورة النساء الآية ١٦٦ .

لكُمْ فاعْلموا أنّما أُنْزِلَ بِعلمِ الله ﴾[1] وليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له ، فإن جميع الأشياء معلومة له ، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق ، لكن المعنى : ﴿ الذي ﴾ أنزله ، فيه علمه ، كما يقال فلان يتكلم بعلم ، ويقول بعلم ، فهو سبحانه أنزله بعلمه ، كما قال : ﴿ قلْ أنزَلَهُ الذّي يَعلمُ السِّرَّ في السمواتِ والأرضِ ﴾[2] ولم يقل تكلم به بعلمه ، لأن ذلك لا يتضمن نزوله الى الأرض .

فإذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ تضمن أن القرآن المنزل الى الأرض فيه علم الله ، كما قال : ﴿ فَمَنْ حاجَّكَ فيهِ مِنْ بعد ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾[3] وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه ، منه نزل ولم ينزل من عند غيره ، لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم - ونفسه هي ذاته المقدسة - إلا أن يعلمه الله بذلك ، كما قال المسيح عليه السلام : ﴿ تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسِكَ إنَّك أنتَ عَلاّمُ الغيوبِ ﴾[4] .

وقالت الملائكة : ﴿ لا علْمَ لنا إلاّ ما علَّمْتَنا ﴾[5] .

وقال : ﴿ ولا يحيطونَ بشيءٍ منْ عِلْمِهِ إلاّ بما شاءَ ﴾[6] .

وقال : ﴿ فلا يُظْهِر على غيبِهِ أحداً ، إلاّ مَنِ ارتضى من رسولٍ ﴾[7] فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به .

وأما ما أظهره لعباده فإنه يعلمه من شاء ، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه ، لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به ، بل هذا (مما) قد أظهر عليه من شاء من خلقه ، وهو سبحانه قال : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾[8] فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل على أنه كلامه ، وأن الرسول صادق .

وكذلك قال في هود : ﴿ فائْتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفترياتٍ ، وادْعوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ من دونِ

(١) سورة هود الآية ١٤ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٦ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٦١ .
(٤) سورة المائدة الآية ١١٦ .
(٥) سورة البقرة الآية ٣٢ .
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٧) سورة الجن الآية ٢٦ .
(٨) سورة النساء الآية ١٦٦ .

الله إنْ كنتُمْ صادقينَ ﴾[1] لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله : ﴿ فليأتوا بحديثٍ مثلِهِ ﴾[2] ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فعجزوا عن ذا وذاك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله ، وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله ، نزله بعلمه ، لم ينزله بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله .

وقوله : ﴿ قُلْ أنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السمواتِ والأرض ﴾[3] لأن فيه (من) الأسرار التي لا يعلمها الا الله ما يدل على أن الله أنزله ، فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله ، لكن تضمن من الإخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله فمن هنا تستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله .

وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم ، وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير جهته وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر ، وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم ، وإخباره بأمور هي سر عند أصحابها كما قال ﴿ وإذْ أسرَّ النبيُّ الى بعضِ أزواجِهِ حديثاً ﴾[4] إلى قوله : ﴿ نبَّأني العليمُ الخبيرُ ﴾ فقوله : ﴿ أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ استدلال بأخباره ، ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال : هو ﴿ إفكٌ افْتراهُ ، وأعانهُ عليهِ قومٌ آخرون ﴾[5] وقوله : ﴿ أنزله ﴾ استدلال على أنه حق ، وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ، ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي ، وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله .

فصـــل

ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم ، وما تنطق به الألسن من ذلك كما في الصحيح أن النبي ﷺ مُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال : «وجبت ، وجبت » ومُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً ، فقال : «وجبت ، وجبت » قالوا : يا رسول الله ؟ ما قولك : وجبت وجبت ؟ قال . «هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم

---

(١) سورة هود الآية ١٣ .

(٢) سورة الطور الآية ٣٤.

(٣) سورة الفرقان الآية ٦ .

(٥) سورة التحريم الآية ٣.

(٦) سورة الفرقان الآية ٤ .

عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله في الأرض »[1] قوله : «شهداء الله » أضافهم الى الله تعالى .

والشهادة تضاف تارة إلى من يشهد له . وإلى من يشهد عنده ، فتقبل شهادته كما يقال : شهود القاضي وشهود السلطان ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم ، وقد يدخل في ذلك من يشهد عليه بما تحمله من الشهادة ، ليؤديها عند غيره ، كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقاريرهم .

فشهداء الله الذين يشهدون له بما جعله وفعله ، ويؤدون الشهادة عنه ، فإنهم إذا رأوا من جعله الله براً تقياً يشهدون أن الله جعله كذلك ، ويؤدون عنه الشهادة ، فهم شهداء الله في الأرض ، وهو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به ، وينطقون به ، وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك ، فهذا أيضاً من شهادته .

وقد قال تعالى : ﴿ لهمُ البُشرى في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ﴾[2] وفسر النبي ﷺ البشرى بالرؤيا الصالحة ، وفسرها بثناء الناس وحمدهم ، والبشرى خبر بما يسر ، والخبر شهادة بالبشرى من شهادة الله تعالى . والله سبحانه أعلم .

وسئل رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ﴾[3] .

المراد به أمنه عند الموت من الكفر عند عرض الأديان ؟ أم المراد به إذا أحدث حدثاً لا يقتص منه ما دام في الحرم ؟

فأجاب : التفسير المعروف في أن الله جعل الحرم بلداً آمناً قدراً وشرعاً ، فكانوا في الجاهلية يسفك بعضهم دماء بعض خارج الحرم ، فإذا دخلوا الحرم ، أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجروا حرمته ، ففي الإسلام كذلك وأشد .

لكن لو أصاب الرجل حدّاً خارج الحرم ثم لجأ إليه فهل يكون آمناً لا يقام عليه الحد فيه أم لا ؟ فيه نزاع . وأكثر السلف على أنه يكون آمناً ، كما نقل عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما ، وهو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما .

---

(١) أورد البخاري هذا الحديث برواية أنس بن مالك ١٢١/٢ (كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت) ، كما أورده مسلم في «كتاب الجنائز . باب فيمن يثنى عليه خيراً أو شراً » ٣٧٩/١، وأنظر أيضاً : النسائي «كتاب الجنائز »، وأبو داود «جنائز »، الترمذي «جنائز» ابن حنبل ٢٦١/٣ .

(٢) سورة يونس الآية ٦٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٧.

وقد استدلوا بهذه الآية وبقول النبي ﷺ : « إن الله حرّم مكة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإنها لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، وإنما أُحِلَتّ لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها . فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إنما أحلّها الله لرسوله ولم يحلّها لك »[1] .

ومعلوم أن الرسول إنما أبيح له فيها دم من كان مباحاً في الحل ، وقد بين أن ذلك أبيح له دون غيره .

والمراد بقوله ﴿ ومن دخله ﴾ الحرم كله .

وأما عرض الأديان وقت الموت فيبتلى به بعض الناس دون بعض ، ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام ، كما جاء في الحديث «من ملك زاداً وراحلة تبلغه الى بيت الله ثم لم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً »[2] والله أعلم .

وللشيخ رحمه الله

في قوله تعالى : ﴿ إنما ذلكُمُ الشّيطانُ يُخوِّفُ أوْلياءَهُ فلا تَخافوهُمْ وخَافونِ إنْ كنتُمْ مؤمنينَ ﴾[3] هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين : كابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والنخعي ، وأهل اللغة كالفراء وابن قتيبة ، والزجاج ، وابن الأنباري ، وعبارة الفراء : يخوفكم بأوليائه ، كما قال . ﴿ لِينذرَ بأساً شديداً من لَدُنْهُ ﴾[4] ببأس شديد . وقوله : ﴿ لِينذرَ يومَ التْلاقِ ﴾[5] وعبارة الزجاج : يخوفكم من أوليائه .

[أقوال العلماء في الآية :]

قال ابن الأنباري : والذي نختاره في الآية يخوفكم أولياءه . تقول العرب : أعطيت الأموال : أي أعطيت القوم الأموال ، فيحذفون المفعول الأول ويقتصرون على ذكر الثاني . وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أولياءه تخويفاً مطلقاً ، ليس له في تخويف ناس بناس ضرورة ،

---

(١) ورد الحديث في : البخاري ١٨/٣ (كتاب الحج ، باب لا ينفر صيد الحرم) كما أورده البخارى جزءاً من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ١٨/٣ ، وأنظر ايضاً الترمذي (كتاب الحج)،

(٢) أورده الترمذي في (كتاب الحج) والدارمي في (المناسك).

(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٥ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢ .

(٥) سورة غافر الآية ١٥ .

فحذف الأول ليس مقصوداً ، وهذا يسمى حذف اختصار ، كما يقال : فلان يعطي الأموال والدراهم .

وقد قال بعض المفسرين : يخوف أولياءه المنافقين ، ونقل هذا عن الحسن والسدي وهذا له وجه سنذكره ، لكن الأول أظهره ، لأن الآية إنما نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ، كما قال قبلها (الذينَ قالَ لهمَ الناسُ إنَّ الناسَ قَدْ جَمَعوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ ، فَزادهُمْ إيماناً ﴾[1] الآيات . ثم قال : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[2] فهي إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس وقد قال : ﴿ يخوف أولياءه ﴾ ثم قال : ﴿ فلا تخافوهم ﴾ والضمير عائد الى أولياء الشيطان الذين قال فيهم : ﴿ فاخشوهم ﴾ قبلها .

وأما ذلك القول فالذي قاله فسرها من جهة المعنى ، وهو أن الشيطان إنما يخوف أولياءه بالمؤمنين ، لأن سلطانه على أوليائه بخوف يدخل عليهم المخاوف دائماً ، فالمخاوف منصبة إليهم محيطة بقولهم ، وإن كانوا ذوي هيئات وعدد وعُدد فلا تخافوهم .

وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار ، أو أنهم أرادوا المفعول الأول : أي يخوف المنافقين أولياءه ، وإلا فهو يخوف الكفار كما يخوف المنافقين ، ولو أنه أريد أنه يخوف أولياءه : أي يجعلهم خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ، وهو قوله : ﴿ فلا تخافوهم ﴾ .

وأيضاً فهذا فيه نظر . فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذْ زيّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ ، وَقالَ : لا غالب لكُمُ اليومَ مِنَ النّاسِ ، وإني جارٌ لكُمْ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ يعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ، وما يَعِدُهُمْ الشّيطانُ إلاّ غُروراً ﴾[4] .

ولكن الكفار يُلقي الله في قلوب الرعب من المؤمنين ، والشيطان لا يختار ذلك . قال تعالى : ﴿ لأنتم اشدُّ رهبةً في صدورِهِمْ منَ الله ﴾[5] وقال : ﴿إذ يُوحي ربُّكَ الى الملائكةِ أني مَعَكُمْ فثَبِّتوا الّذين آمنوا ، سأُلقي فيقلوبالذِّينَ كفَروا الرُّعْبَ ﴾[6] وقال : ﴿ سَنُلقي في قلوبِ الذِّين كفروا الرُّعْبَ بما أشرَكوا بالله ﴾[7] . وفي حديث قرطبة أن جبريل قال «إني ذاهب اليهم فمزلزل بهم الحصن » فتخويف الكفار والمنافقين وإرعابهم هو من الله نصرة للمؤمنين .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٤) سورة النساء الآية ١٢٠ .

(٥) سورة الحشر الآية ١٣ .

(٦) سورة الأنفال الآية ١٢ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٥١ .

ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام ، فهم يوالوا العدو ، فصاروا بذلك منافقين ، وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم كما قال تعالى : ﴿ ويَحْلِفون بالله إنَّهم لَمِنكم وما هم منكم ولكنهم قومٌ يفرقون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فإذا جاء الخوفُ رأيتَهُمْ ينظرونَ اليكَ تدورُ أعينُهم ، كالذي يُغشى عليهِ مِنَ المَوْتِ﴾ الآيات . إلى قوله : ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أنهم بادونَ في الأعْرابِ يسألون عنْ انبائكُمْ ﴾[2] فكلا القولين صحيح من حيث المعنى ، لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه سياق الآية ولفظها . والله أعلم .

وإذا جعلهم الشيطان مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم فجعله خائفاً .

فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم . ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخاف الناس . كما قال تعالى : ﴿ فلا تَخْشَوا الناسَ واخْشَوْنِ ﴾[3] بل يجب عليه أن يخاف الله ، فخوف الله أمر به ، وخوف الشيطان وأوليائه نهى عنه .

وقال تعالى: ﴿ لئِلّا يكونَ للناسِ عليكُمْ حجةٌ ، إلّا الذينَ ظَلَموا مِنْهُمْ فلا تَخْشوهُمْ واخْشوْنِ ﴾[4] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، والذين يبلغون رسالات الله يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله . وقال : ﴿فإيّايَ فارْهَبُون ﴾ .

وبعض الناس يقول : يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، وهذا كلام ساقط لا يجوز ، بل على العبد أن يخاف الله وحده ، ولا يخاف أحداً لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله ، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل أن يخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف منه قد نهى الله عنه ، والله أعلم .

فصل

قال شيخ الإسلام

فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح في هذه السورة المكية[5] التي أنزلها في أول الأمر بمكة في

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآيات (٩ ـ ٢٠) .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٥٠ .

(٥) الإشارة هنا إلى سورة مريم . حيث ذكر فيها قصة المسيح وأمه بالتفصيل .

السور التي ذكر فيها أصول الدين التي اتفق عليها الأنبياء ، ثم ذكرها في سورة آل عمران ، وهي من السور المدنية التي يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيمَ وآل عِمرانَ على العالمينَ * ذرية بعضُها مِنْ بعض والله سميعٌ عليمٌ * إذْ قالتِ امرأتُ عِمْرَانَ ربِّ إني نَذرتُ لكَ ما في بطني محرراً فتقبلْ مني إنَّكَ أنتَ السميعُ العليمَ * فلمّا وضعتهَا قالتْ ربِّ إني وضعتُها أنثى والله أعلمُ بما وضعتْ وليس الذكرُ كالأنثى وإني سميتُها مريمَ وإني أعيذُها بك وذريتَها مِنَ الشيطان الرجيم ﴾[1] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «ما من مولود إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخاً من الشيطان إلا مريم وابنها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿وإني أعيذُها بِكَ وذريتَها مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ فتقبَّلها ربُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتَها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا كلّما دخل عليها زكريا المحرابَ وجدَ عندهَا رزقاً قالَ يا مريمُ أنّى لكِ هذا ؟ قالت هُوَ مِنْ عندِ الله إنّ الله يرزقُ مَنْ يشاءُ بغير حسابٍ ﴾ .

ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال : ﴿ هنالكَ دعا زَكَرِيّا ربَّه قالَ ربِّ هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذريةً طيبةً إنّكَ سميعُ الدعاءِ * فنادَتْهُ الملائكةُ وهوَ قائمٌ يصلي في المحرابِ أنَّ الله يُبَشِّرُكِ بيَحْيَى مُصَدِّقاً بكلمةٍ مِنَ الله وَسَيِّداً وَحَصوراً ونبياً مِنَ الصالحينَ * قالَ ربِّ أنى يكونُ لي غلامٌ وقد بَلَغني الكبرُ وامرأتي عاقرٌ ؟ قالَ كذلكَ الله يفعلُ ما يَشاءُ * قالَ ربِّ اجعلْ لي آية قال آيَتكَ ألّا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثة أيامٍ إلّا رَمْزاً واذْكُرْ ربَّك كثيراً وسبِّحْ بالعَشِيِّ والإبكار * وإذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله اصطفاكِ وطَهّركِ واصْطَفاكِ على نساءِ العالمينَ * يا مريمُ اقنتي لربِّكِ واسْجُدي واركعي مَعَ الراكعين * ذلكَ من أنباء الغيبِ نُوحيهِ إليكَ وما كُنْتَ لديهم إذ يلقونَ أقلامَهُمَ أيُّهم يَكْفُلُ مريمَ وما كُنْتَ لديهمْ إذ يختصِمونَ * إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله يُبَشِّركِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ وجيهاً في الدنيا والآخرةِ وَمِنَ المقرّبينَ * ويُكَلِّمُ الناسَ في المهدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصالحينَ * قالَتْ ربِّ أنىّ يكونُ لي

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٣٣ - ٣٦) .

(٢) أورده مسلم ٢ - ٣٤١ «كتاب الفضائل . باب فضائل عيسى بن مريم » وفيه : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه .

وأنظر كذلك : ابن حنبل ٢ - ١٢ وفيه : كل بني ادم يطعنه الشيطان في جنبيه إلا ابن مريم . . الخ .

غلامٌ ولم يمْسَسْني بشرٌ قالَ كَذَلكَ الله يَخْلُق ما يشاءُ إذا قَضَى أمراً فإنما يقولُ لهُ كُنْ فيكونُ * ويُعلِّمهُ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جِئْتُكُمْ بآيةٍ مِنْ ربِّكم أني أخلقُ لكم مِنَ الطين كهيئةِ الطَّيْرِ فانْفخْ فيهِ فيكونُ طيراً بإذنِ الله ، وأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأبرَصَ وأُحْيي الموتى بإذنِ الله ، وأُنبِئُكم بما تأكلونَ وما تدَّخِرونَ في بيوتِكم إن في ذلك لآيةً لكم إنْ كنتم مُؤْمِنينَ * ومُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراةِ ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم وَجِئْتُكم بآيةٍ مِنْ ربِّكم فاتّقوا الله وأطيعون * إنَّ الله ربي وربُّكم فاعْبُدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ * فلما أحسَّ عيسى منهُم الكفر قالَ مَنْ أنصاري الى الله ؟ قالَ الحواريّونَ : نحنُ أنصارُ الله آمَنّا بالله واشْهَدْ بأنّا مُسْلِمونَ * ربّنا آمَنّا بما أنزلْتَ واتَّبعْنا الرسولَ فاكْتُبْنا مَعَ الشاهِدينْ * ومَكَروا وَمَكَر الله والله خيرُ الماكِرينَ * إذْ قالَ الله يا عيسى إني مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُك إليّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذينَ كفَروا وَجاعِلُ الذينَ اتّبعوكَ فوقَ الذين كفَروا إلى يومِ القيامَةِ ، ثم إليّ مَرْجِعُكم فأحْكُمُ بينكم فيما كنتم فيهِ تختلفونَ * فأمّا الذينَ كَفَروا فأُعذِّبُهُمْ عذاباً شديداً في الدنيا والآخرةِ وما لهم من ناصِرينَ * وأما الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ فيُوفيهِمْ أُجورهم والله لا يُحِبُّ الظالمينَ * ذلكَ نَتْلوهُ عليكَ مِنَ الآياتِ والذكر الحكيم * إنّ مثلَ عيسى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثمّ قال لهُ كُنْ فيكونُ * الحقُّ مِنْ ربِّكَ فلا تَكُنْ مِنَ الممترينَ * فَمَنْ حاجّكَ فيه مِنْ بعدِ ما جَاءكَ مِنَ العِلْمِ فقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسنَا وأنفسكم ثم نَبْتَهِلْ فنَجْعَل لعنت الله على الكاذبينَ * إنّ هذا لهوَ القصصُ الحقُّ وما مِنْ إلهٍ إلا الله وإنّ الله لهوَ العزيزُ الحكيمُ * فإنْ تَوَلَّوْا فإنّ الله عليمٌ بالمفسدين * قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بَيْنَنا وبينَكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نُشْرِك به شيئاً ولا يتّخِذَ بعضُنا بعضاً أرْباباً مِنْ دونِ الله ، فإنْ تولّوْا فقولوا اشْهَدوا بأنا مُسْلِمونَ * يا أهلَ الكتابِ لم تُحاجّوْنَ في إبراهيمِ وما أُنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلا مِنْ بعْدِهِ أفلا تعقِلونَ * ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُمْ فيما لكم به علمٌ فلمَ تُحاجّوْنَ فيما ليسَ لكُم به عِلْمٌ والله يَعلمُ وأنتم لا تَعلمونَ * ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نَصْرانيّاً ولكنْ كانَ حنيفاً مُسْلماً وما كانَ مِنَ المشركينَ * إنّ أوْلى الناسِ بإبراهيمَ للّذينَ اتّبعوهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمَنوا والله وليّ المؤمنين *[1] .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين .

إحداهما : مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ، وهي سورة كهيعص .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٣٨ ـ ٦٨).

والثانية : مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم ، كما نزلت في «براءة» مجاهدتهم ، فأخبر في السور المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً . فقالت : ﴿إني أعوذُ بالرحمن مِنْكَ إن كنتَ تقيًّا﴾[1] .

قال أبو وائل : علمت أن المتقي ذو نهيه ، أي : تقواه ينهاه عن الفاحشة ، وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة ، فقالت : ﴿ أعوذُ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقياً ﴾ ، أي : تتقي الله ، وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل ، ثم قال : ﴿ إنَّما أنا رسول ربِّكِ لأهَبَ لَكِ غُلاماً زكياً ﴾ .

وفي القراءة الأخرى : ﴿ ولأهب لك غلاماً ذكياً ﴾ فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً أنه رسول ربها ، فدّل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها ، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ، ولهذا قال جماهير العلماء : إنه جبريل عليه السلام ، فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد ، وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ، ولا سمى كلامه ، ولا شيئاً من صفاته ابناً ، وهذا أحد ما تبين به ضلال النصارى وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت به الأنبياء ، فإن أصل تثليثهم مبني على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم : (عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس). فيقال لهم : هذا إذا كان قد قاله المسيح ، وليس في لغة المسيح ولا لغة أحد الأنبياء ، أنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا ابناً ولا روح قدس ، ولا يسمون كلمته ابناً ، ولا يسمونه نفسه ابناً ، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يسمون المصطفى المكرم ابناً ، وهذا موجود في حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل : أنت إبني بكري . أي : بني إسرائيل . وروح القدس : يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره ، فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره ، وأن المسيح قال لهم : أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم فسماه أباً للجميع ، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الابن ، ولا يوجد عندهم لفظ الإبن إلا اسماً للمصطفى المكرم لا اسماً لشيء من صفات الله القديمة حتى يكون الابن صفة الله تولدت منه ، وإذا كان كذلك كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون

---

(١) سورة مريم الآية ١٨ .

أنها تـولدت من الله عنـدهم مع كـونها أزلية ، ولا بـروح القدس حيـاة الله . بل المـراد بالابن ناسوت المسيح وبروح القـدس ما أنـزل عليه من الـوحي والملك الذي أنـزل به ، فيكـون قد أمرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله والملك الذي نزل به وبهذا الذي نـزل به ، وبهـذا أمـرت الأنبيـاء كلهم ، وليس للمسيـح خـاصـة استحق بهـا أن يكـون فيـه شيء من الـلاهوت ، لكن ظهـر فيه نـور الله . وكـلام الله وروح الله . كـما ظهـر في غيـره من الأنبيـاء والرسل .

ومعلوله أن غيره أيضاً - فيما ينقلونه عن الأنبياء - يسمى ابنـا وروح القدس حلت فيـه . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على أن كلام الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضه بعضاً ، وأنـه ليس مع النصارى حجة سمعية ولا عقلية توافق ما ابتدعـوه ، ولكن فسروا كـلام الأنبياء بمـا لا يدل عليه . وعندهم في الإنجيـل أنه قـال : «إن الساعـة لا يعلمها المـلائكة ولا الابن وإنمـا يعلمها الأب وحده » فبين أن الابن لا يعلم الساعة . فعلم أن الابن ليس هـو القديم الأزلي وإنمـا هو المحدث الزماني .

فصـــــل

موقف الأمم من الرسل

وأما قوله تعالى : ﴿ يا عيسى إني متوفِّيك ورافعُك إليَّ ومطهرُكَ من الذين كفروا وجـاعلُ الذينَ اتَّبعوك فوقَ الذينَ كفروا إلى يوم القيامةِ ﴾(١) .

فهذا حق كما أخبر الله به ، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فـوق الذين كفـروا إلى يوم القيامة ، وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود ، وأيضاً فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به الى يوم القيامة .

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافـرين به ، بـل لما بـدل النصارى دينـه وبعث الله محمـداً ﷺ بدين الله الـذي بعث بـه المسيـح وغيـره من الأنبيـاء جعـل الله محمـداً وأمتـه فـوق النصارى إلى يوم القيامة ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «إنا معاشر

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٥ .

الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي »[1] .

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وصّى بهِ نوحاً والذي أوحَيْنا إليك وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدينَ ولاَ تتفرّقوا فيهِ كَبُرَ على المشركين ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الرسُلُ كُلوا من الطَّيِّبات واعملوا صالحاً إني بما تعمَلونَ عليمٌ ❀ وإنَّ هذِهِ أمتُكم أمةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتّقون ❀ فتَقَطَّعوا أمرَهُمْ بينَهُمْ زُبْراً كلُّ حِزبٍ بما لدَيهِمْ فرِحونَ ﴾[3] ، فكل من كان أتم إيماناً بالله ورسله ، كان أحق بنصر الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ إنّا لنَنْصرُ رُسُلنا والذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ ﴾[4] .

وقال في كتابه : ﴿ ولقدْ سبقَتْ كلمَتُنا لعبادِنا المرسلينَ ❀ إنّهم لَهُمُ المنصورون ❀ وإنّ جندنا لَهُمُ الغالبون ﴾[5] .

(اليهود كذبوا الرسل)

واليهود كذبوا المسيح ومحمداً ﷺ كما قال الله فيهم : ﴿ بئسَما اشتَرَوا بهِ انفسَهُمْ أنْ يكفروا بما أنزلَ الله بغياً أن ينزِّل الله مِنْ فضلِهِ على مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ فباءوا بغضبٍ على غضبٍ ﴾ .

فالغضب الأول : تكذيبهم المسيح ، والثاني : محمداً ﷺ . والنصارى لم يكذبوا المسيح وكانوا منصورين على اليهود ، والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحداً من رسله ، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال : ﴿ قولوا آمنّا بالله وما أُنزلَ إلَيْنا وما أُنْزِلَ الى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ مِنْ ربِّهِمْ لا نُفرِّق بينَ أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمونَ ﴾[7] .

وقال تعالى : ﴿ آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليهِ منْ ربِّه والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ

---

(١) ورد الحديث في : مسلم بلفظ مختلف من رواية أبي هريرة ، وفيه أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال الأنبياء إخوة من علات ، وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد . فليس بيننا نبي » أنظر مسلم ٢ ـ ٣٤١ «كتاب الفضائل باب عيسى ابن مريم » .

(٢) سورة الشورى الآية ١٣ .

(٣) سورة المؤمنون الآيا (٥١ ـ ٥٣) .

(٤) سورة غافر الآية ٥١ .

(٥) سورة الصافات (١٧١ ـ ١٧٣) .

(٦) سورة البقرة الآية ٩ .

(٧) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

ورُسُلِهِ لا نُفرِّق بين أحدٍ منْ رسلِهِ وقالوا سمِعْنا وأطعْنا غفرانكَ ربَّنا وإليك المصيرُ ﴾[1] .

المسلمون أتباع جميع الرسل

ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره ، وكان الله قد وعد الرسل وأتباعهم قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة »[2]. وقال أيضاً : «سألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها[3] . . . الحديث» فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ مِنْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتلونَ آياتِ الله آناءَ الليلِ وهُمْ يسجُدُونَ ❁ يُؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكرِ ويُسارعونَ في الخيرات وأولئكَ مِنَ الصالحينَ ﴾[4] ، فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى ، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ كنتُمْ خيرَ أمةٍ أُخْرجتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عن المنكرِ وتُؤمنونَ بالله ، ولَوْ آمنَ أهل الكتابِ لكانَ خيراً لهُمْ منهم المؤمنون وأكثرهُمُ الفاسقونَ ❁ لنْ يَضُروكُمْ إلّا أذىً وإنْ يقاتلوكُمْ يولُّوكُم الأدبارَ ثمّ لا يُنصرونَ ❁ ضُربتْ عليهُمْ الذِّلة أينما ثُقِفوا إلّا بحبلٍ مِنَ الله وحبل مِنَ الناسِ وباؤوا بغضبٍ منَ الله وضُربَتْ عليهُم المسكنةُ ذلك بأنهُمْ كانوا يكفرونَ بآياتِ الله وَيقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ذَلكَ بما عَصَوْا وكانوا يعتدونَ ﴾[5] ، ثم قال : ﴿ ليسوا سواءً من أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمَةٌ ﴾[6] . ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله : ﴿ ذلكَ بأنّهم كانوا يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ﴾ صفة لليهود ، وكذلك قوله :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٢) ورد هذا الحديث في البخاري ٩ ـ ١٦٧ «كتاب التوحيد » باب قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾ .

(٣) ورد هذا الحديث في مسلم بروايات مختلفة عن ثوبان . وفيه : (وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة ، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد . إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى انفسهم يستبيح بيضتهم حتى لو اجتمع عليهم من بأقطارها . . الحديث) . أنظر مسلم ٥٥٢/٢ (كتاب الفتن . باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) ، وانظر كذلك : أبو داود (كتاب القدر) .

(٤) سورة آل عمران الآيات (١١٣ـ ١١٤) .

(٥) سورة آل عمران الآيات (١١٠ ـ ١١٢).

(٦) سورة آل عمران الآية ١١٣ .

﴿ ضُربتْ عليهُم الذلةَ والمسكنةُ ﴾ .

فقوله : عقب ذلك (من أهل الكتاب أمة قائمة) لا بد أن يكون متناولاً لليهود ، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود كفروا بالمسيح ومحمد ﷺ ، ليس فيهم مؤمن ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ . والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود والله تعالى إنما أثنى على من آمن أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ وإنّ مِنْ أهلِ الكتابِ لَمَنْ يؤمنُ بالله وما أُنزِلَ إليكُمْ وما أُنزِلَ اليهم خاشعين لله لا يَشترونَ بآياتِ الله ثمناً قليلاً ، أولئكَ لهمْ أجرُهُمْ عندَ ربِّهم إنّ الله سريعُ الحسابِ ﴾[١] .

وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران ، نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي ﷺ لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ﷺ ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلدة نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام ، وقد قيل : إن النبي ﷺ إنما صلى عليه لما مات ، لأجل هذا. فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة ، كما يصلي المسلمون على جنائزهم .

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي ﷺ بمنزلة من يؤمن بالنبي ﷺ في بلاد الحرب ، ولا يتمكن من الهجرة الى دار الإسلام ، ولا يمكنه العمل بشرائع الاسلام الظاهرة ، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه ، كما قال تعالى : ﴿ فإنْ كانَ من قومٍ عدوٍ لكم وهوَ مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ﴾[٢] ، فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار ، وهو في الباطن مؤمن ، كما كان مؤمن آل فرعون .

قال تعالى : ﴿ وقالَ رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتُم إيمانَهُ أَتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربيَّ الله وقد جاءَكم بالبيناتِ مِنْ ربِّكم وإنْ يَكُ كاذباً فَعَلْيهِ كَذِبهُ وإنْ يكُ صادقاً يُصِبْكم بعضَ الذي يعِدُكُمْ إنّ الله لا يهْدِي مَنْ هو مُسْرِفٌ كذّابٌ * يا قومِ لكُمُ الملكُ اليومَ ظاهِرينَ في الأرضِ فمَنْ ينصُرنا مِنْ بأسِ الله إنْ جاءَنا ؟ قالَ فِرْعَوْنُ : ما أُريكم إلا ما أرى وما أهْدِيكم إلا سبيلَ الرشادِ * وقالَ الذي آمَنَ : يا قومِ إني أخافُ عليكم مثل يومِ الأحزاب * مِثْلَ دَأْبِ قومِ نُوحٍ وَعَادٍ وثمود والذينَ مِن بعدِهِم وما الله يريدُ ظُلماً للعبادِ * ويا قومِ إني أخافُ عَلَيْكم يومَ التّنادِ * يومَ تُوَلّونَ مُدبرينَ ما لكم مِنَ الله مِنْ عاصمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فما لَهُ مِنْ هادٍ * ولقدْ جاءَكم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبيناتِ فما زلتم في شكٍ مما جاءَكم بهِ حتى إذا هَلَكَ قُلْتُمْ لنْ يَبعثَ الله مِنْ بعدِهِ رسولاً كذلكَ يُضِلُّ الله مَنْ هُوَ مُسْرفٌ مُرْتابٌ * الذين يُجادِلون في آياتِ

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٢.

الله بغير سلطانٍ أتاهم كبُرَ مقتاً عندَ الله وعندَ الذينَ آمنوا كذلكَ يطْبَعُ الله على كلِّ قلبِ مُتكبّرٍ جبّارٍ * وقالَ فرعونُ يا هامانُ ابنِ لي صرْحاً لعلي أبلغ الأسبابَ * أسبابَ السمواتِ فاطّلِعُ الى إلهِ موسى وإني لأظُنُّهُ كاذباً وكذلك زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وصُدَّ عن السبيلِ وما كيدُ فرعون إلا في تبابٍ * وقالَ الذي آمن يا قومِ اتبِعوني أَهْدِكم سبيلَ الرشادِ * يا قومِ إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإنّ الآخرة هي دارُ القرارِ * مَنْ عَمِلَ سيئةً فلا يُجْزى إلا مثلهَا وَمَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذكرٍ أو أنثى وهوَ مؤمنٌ فأولئك يَدْخلون الجنةَ يرْزَقونَ فيها بغيرِ حسابٍ * ويا قوم مالي أدْعوكم الى النجاةِ وتَدْعونني الى النارِ * تَدْعونني لأكفر بالله وأُشرِكَ بهِ ما ليس لي به عِلْمٌ وأنا أدْعوكم الى العزيز الغفارِ * لا جَرَم أنّ ما تَدْعونني إليهِ ليسَ لَهُ دَعْوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة وأنّ مردَّنا إلى الله وأنّ المسرفينَ هم أصحابُ النارِ * فستَذْكرون ما أقولُ لكم وأُفَوِّضُ أمري الى الله إنّ الله بصيرٌ بالعبادِ * فوَقاهُ الله سيئاتِ ما مَكَروا وحاق بآلِ فرعَوْنَ سوءُ العذاب * النارُ يعْرضونَ عليها غُدُوّا وعَشِياً ويومَ تقومُ الساعةُ أدْخِلوا فِرْعَوْنَ أشدَّ العذابِ ﴾[1] ، فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب . وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره ، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر . وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب ، وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون . هؤلاء . قال تعالى : ﴿ وضَرَبَ الله مثلَ الذينَ آمنوا امرأةَ فرعَوْن إذْ قالتْ ربِّ ابن لي عِنْدَكَ بيتاً في الجنةِ ونَجِّني مِنْ فرْعونَ وعَمَلِهِ ونَجِّني مِنَ القومِ الظالمينَ ﴾[2] .

وامرأة الرجل من آله بدليل قوله : ﴿ إلاّ آل لوطٍ إنا لمنَجّوهم أجمعينَ * إلاّ امرأتَهُ قدّرنا إنها لَمِنْ الغابرين ﴾[3] .

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً ﴿ لا يكلِّفُ الله نفساً إلا وسعَها ﴾ وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام ، كعجز النجاشي ، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم في الظاهر مسلمون ، وفيهم من هو منافق كافر في الباطن : إما يهودي ، وإما مشرك وإما معطل .

كذلك في أهل الكتاب والمشركين ، من هو في الظاهر منهم ، وهو في الباطن أهل الإيمان

---

(١) سورة غافر الآيات (٢٨ ـ ٤٦) .

(٢) سورة التحريم الآية ١١ .

(٣) سورة الحجر الآيات (٥٩ ـ ٦٠) .

بمحمد ﷺ ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله ، ويسقط عنه ما يعجز عنه من ذلك .

وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشي قال النبي ﷺ : «استغفروا لأخيكم » ، فقال بعض القوم : تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج ، يموت بأرض الحبشة ؟ فنزلت : ﴿ وإنّ منْ أهلِ الكتابِ لمَنْ يؤْمِنُ بالله وما أُنزلَ إليكُمْ ﴾[1] ، ذكره ابن أبي حاتم وغيره باسانيدهم ، وذكر حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال : « استغفروا لأخيكم النجاشي » فذكر مثله .

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا : نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة ، واسمه أصحمة . وهو بالعربية : عطية . وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم . فقالوا : ومن هو؟ قال : النجاشي » فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع ، وزاد بعضهم : وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات ، واستغفر له ، وقال لأصحابه : « استغفروا له » . فقال المنافقون : أبصروا الى هذا يصلي على علج حبشي نصراني لم يره قط ، وليس على دينه ! فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾[2] .

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً ﷺ فآمن به ، كما نقل ذلك عن عطاء .

وذهبت طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم [3] .

والقول الأول أجود ، فإن من آمن بمحمد ﷺ وأظهر الإيمان به ، وهو من أهل دار الإسلام ، يعمل بما يعمله المسلمون ظاهراً وباطناً فهذا من المؤمنين ، وإن كان قبل ذلك مشركاً يعبد الأوثان ، فكيف إذا كان كتابياً ؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي

---

(1) سورة آل عمران الآية ١٩٩ .

(2) ذكر البخاري ٥/٦٤ ـ ٦٥ (كتاب الهجرة الى الحبشة . باب موت النجاشي) أحاديث كثيرة عن جابر وأبي هريرة أن الرسول ﷺ نعى للمسلمين النجاشي صاحب الحبشة يوم وفاته وقال لهم : استغفروا لأخيكم ، وعن جابر أيضاً بأنه صلى الله عليه وسلم : صلى على أصحمة النجاشي فكبر عليه أربعاً ، وفي رواية أخرى عن جابر أيضاً أن جابراً كان ممن صلى مع الرسول على النجاشي ، وأن جابراً كان في الصف الثاني أو الثالث . والرواية التي أخذ بها ابن تيمية قد اعتمدها الطبري قبله وأخذ بها في تفسير الآية المذكورة وأنها نزلت في النجاشي وقد مات بأرض غير أرض المسلمين ، وهي رواية جابر ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، انظر تفسير الطبري (سورة آل عمران) ١٤٦/٤ ط بولاق .

(3) وهذا رأي مجاهد ، ومال إليه الطبري في تفسيره ١٤٧/٤ ط بولاق .

وغيرهما ، وهؤلاء لا يقال : إنهم من أهل الكتاب ، كما لا يقال في المهاجرين والأنصار : إنهم من المشركين وعباد الأوثان ، ولا ينكر أحد من المنافقين ، ولا غيرهم ، أن يصلي على واحد منهم ، بخلاف من هو في الظاهر منهم ، وفي الباطن من المؤمنين . وفي بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير ، يكتمون إيمانهم . إما مطلقاً وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم ، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ الآية ـ فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه ، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله ، فيمنعونهم من الإيمان بمحمد ﷺ .

وأما قوله : ﴿ مِنْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتلونَ آياتِ الله آناءَ الليلِ وهُمْ يسجدونَ * يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنْهُونَ عنِ المنكرِ ويُسارعونَ في الخيراتِ وأولئكَ مِنَ الصالحينَ ﴾[1] فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قومِ موسى أمةٌ يهدون بالحقِّ وبِهِ يعدِلونَ ﴾[2] ، هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ، ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح ، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً ﷺ .

وهذا الكلام تفسير سياق الكلام ، فإنه قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عنِ المنكرِ وتُؤمنونَ بالله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولَوْ آمنَ أهلُ الكتابِ لكانَ خَيراً لَهُمْ منهمُ المؤمنونَ وأكثرهُمُ الفاسقون ﴾[3] فقد جعلهم نوعين : نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم لقوله تعالى : ﴿ منهم المؤمنون ﴾ يتناول من كان مؤمناً قبل مبعث محمد ﷺ كما يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنا في قلوب الذينَ اتّبعوهُ رأفةً ورحمةً ـ إلى قوله ـ وكثيرٌ منهُمْ فاسقُون ﴾[4] وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولقدْ أرسلنَا نوحاً وابراهيم وجعلْنا في ذريتهما النبوة والكتابَ فمنهُمْ مهتدٍ وكثيرٌ منهُمْ فاسقون ﴾[5] .

وقوله عن إبراهيم الخليل : ﴿ وباركنا عليهِ وعلى إسحاق ومَنْ ذريتهما مُحْسنٌ وظالمٌ لنفسِهِ مبينٌ ﴾[6] . ثم قال : ﴿ وأكثرُهُم الفاسِقونَ ﴾[7] قال : ﴿ لَنْ يَضروكُمْ إلا أذىً وإنْ يقاتلوكُمْ

(١) سورة آل عمران الآيات (١١٣ ـ ١١٤) .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١١٠ .
(٤) سورة الحديد الآية ٢٧ .
(٥) سورة الحديد الآية ٢٦ .
(٦) سورة الصافات الآية ١١٣ .
(٧) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

يولوكُمُ الأدبار ثمّ لا ينصرونَ * ضُرِبَتْ عليهُم الذلةُ أينَ ما ثُقفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناسِ وباؤ وا بغضبٍ من الله وضُربتْ عليهُم المسكنةُ ذلك بأنّهُمْ كانوا يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ذلك بما عصَوْا وكانوا يَعتدونَ ﴾(١) وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤ هم بغضب منَ الله ـ الآية ـ وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد ﷺ كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وإذْ قُلتم يا موسى لَنْ نصبر على طعامٍ واحدٍ فادْعُ لنا ربَّكَ يُخرجْ لنا مما تُنبتُ الأرضُ مِنْ بَقلِها وقثّائِها وفُومِها وعَدَسِهَا وبَصَلِها قال : أتستبدلونَ الذي هُوَ أدنى بالذيَ هُوَ خيرٌ اهْبِطوا مصراً فإنّ لكُمْ ما سألْتُمْ وضُرِبَتْ عليهُم الذلةُ والمسكنةُ وباؤ وا بغضبٍ من الله ذلكَ بأنّهم كانوا يكفرون بآياتِ الله وَيَقتلونَ النبيينَ بغيرِ الحقِّ ذلكَ بما عَصَوْا وكانوا يعتدونَ ﴾ ـ ثم قال بعد ذلك : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذينَ هادوا والنصارى والصابئينَ مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً فلهُمْ أجرُهُمْ عِنْدَ ربِّهمْ ولا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنونَ ﴾(٢) .

فتناولت هذه الآية من كان من أهل الملل الأربع متمسكاً بها قبل النسخ بغير تبديل ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم قبل محمد ﷺ من الكفر ، قال : ﴿ ليْسوا سواء منْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتلونَ آياتِ الله آناءَ الليلَ وهُمْ يسجدونَ * يُؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ويأْمرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْن عنِ المنكرِ ويسارعونَ في الخيْراتِ وأولئكَ مِنَ الصالحين ﴾(٣) .

وهذا يتناول من كان متصفاً منهم بهذا قبل النسخ ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ ، كما قال في الأعراف : ﴿ وَمِنْ قومِ موسى أمةٌ يهدونَ بالحقِّ وبهِ يعدلونَ * وقطَّعناهُمْ في الأرضِ أمماً منهُم الصالحونَ ومنهمْ دونَ ذلك وبلوْناهُمْ بالحسناتِ والسيئاتِ لعلَّهم يرجِعونَ * فخلفَ مِنْ بعدِهِمْ خلْفٌ ورثوا الكتابَ يأخذونَ عرَضَ هذا الأدنى ويقولونَ سَيُغْفر لنا وإن يأتِهم عرضٌ مثلُهُ يأخذوه ألم يُؤْخذْ عليهم ميثاقُ الكتابِ أَنْ لا يقولوا على الله إلاّ الحق ودَرَسوا ما فيهِ والدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتّقون أفلا تعقلونَ * والذينَ يمسِّكونَ بالكتابِ وأقاموا الصَّلاة إنا لا نُضيعُ أجر المصلحين ﴾(٤) .

وقد قال تعالى مطلقاً : ﴿ وممّنْ خلقْنا أمةٌ يهدونَ بالحقِّ وبهِ يعدلونَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١١١ ـ ١١٢) .

(٢) سورة البقرة الآيات (٦١ ـ ٦٢) .

(٣) سورة آل عمران الآيات (١١٣ ـ ١١٤) .

(٤) سورة الأعراف الآيات (١٦٨ ـ ١٧٠).

(٥) سورة الأعراف الآية ١٨١ .

فهذا خبر من الله عمن كان متصفاً بهذا الوصف قبل مبعث محمد ﷺ ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً ﷺ ، فآمن به كان له أجره مرتين .

فصـــــل

في ﴿إنّ مثلَ عيسى عندَ الله كمثلِ آدمَ﴾

(دعوى النصارى في المسيح)

قالوا : وقال أيضاً في موضع آخر : ﴿ إنّ مثلَ عيسى عندَ الله كمثلِ آدمَ خلقَهُ مِنْ ترابٍ ﴾[1] فأعنى بقوله : ﴿مثل عيسى﴾ إشارة إلى الناسوت المؤخوذ من مريم[2] الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح ، إنما ذكر عيسى فقط .

وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعة ، فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولا مباضعة .

وكما أن جسد آدم ذاق الموت ، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت .

وقد يبرهن بقوله أيضاً قائلاً إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل .

وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي ، إذ يقول : (أليس هذا الأب الذي خلقك وبرأك واقتناك) ، قيل : وعلى لسان داود النبي : (روحك القدس لا تنزع مني) ، وأيضاً على لسان داود النبي : (بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع أفواههن)، وليس يدل هذا القول على ثلاثة خالقين ، بل خالق واحد : الأب ، ونطقه ، أي كلمته ، وروحه ، أي حياته .

الرد عليهم

حقيقة القول في عيسى

والجواب من وجوه :

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩.

(٢) في نسخة أخرى : إشارة الى البشرية المأخوذة من مريم .

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إنّ مثلَ عيسى عندَ الله كَمَثلِ آدمَ خلقَهُ من ترابٍ ثمّ قالَ لَهُ كُنْ فيكونُ ﴾ كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته .

فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى .

وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى ، كما قال: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زوجَهَا ﴾ .

وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر .

وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى .

وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم .

وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء .

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح ، فإذا كان سبحانه قادراً أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان ؟

وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، لما نفخ فيه من روحه ، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له : كن فيكون ، ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتاً وناسوتاً ، بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت ، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى ، لما قدم على النبي ﷺ نصارى نجران وناظروه في المسيح ، وأنزل الله فيه ما أنزل ، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء في غلوهم فيه ، وهؤلاء في ذمهم له .

وقال عقب هذه الآية : ﴿ فمن حاجّكَ فيه مِنْ بعدِ ما جاءَكَ مِنَ العلمِ فقلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسنا وأنفسكُمْ ثمَّ نبتَهِلْ فنجعلْ لعنةَ الله على الكاذبين * إنّ هذا لهوَ القصصُ الحقُّ وما مِنْ إلهٍ إلا الله وإنّ الله لهوَ العزيزُ الحكيمُ * فإن تَوَلَّوا فإنّ الله عليمٌ بالمفسدينَ * قلْ يا أهلَ الكتاب تَعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ألّا نَعبدَ إلا الله ولا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً ولا يتّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِنْ دونِ الله فإن تَوَلَّوا فقولوا اشْهدوا بأنا مُسْلمونَ ﴾[1] .

وقد امتثل النبي ﷺ قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٦١ ـ ٦٤) .

لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ، ثم كتب النبي ﷺ الى هرقل ملك الروم بقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا﴾ إلى آخرها ، وكان أحياناً يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى بقوله : ﴿قولوا آمنّا بالله وما أُنزِلَ إلَيْنَا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ واسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ مِنْ ربِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهُمْ ونحنُ له مُسلمونَ ﴾[1] .

وهذا كله يبين أن المسيح عبد ليس بإله ، وأنه مخلوق كما خلق آدم ، وقد أمر أن يباهل من قال أنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ، ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، فإن كان النصارى كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذباً حقت اللعنة عليه ، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق[2] .

والنصارى لما لم يعلموا أنهم على حق نكلوا عن المباهلة : وقد قال عقب ذلك : ﴿ إنّ هذا لهو القصصُ الحقُّ ، وما مِنْ إلهٍ إلاّ الله ﴾ تكذيباً للنصارى الذين يقولون : هو إله حق من إله حق ، فكيف يقال أنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت ، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت ؟

وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال في موضع آخر : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله : عيسى أشار الى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة ، لأنه لم يذكر الناسوت ها هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط ، فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليل أنه قال : ﴿ ما المسيحُ ابن مريمَ إلا رسولٌ قدْ خلَتْ من قبلِهِ الرُّسُلُ ﴾[3] فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولاً ليس هو بإله ، وأنه ابن مريم والذي هو ابن من مريم هو الناسوت ، وقال : ﴿ إنما المسيحُ

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٦ .

(٢) المباهلة : الملاعنة ، نبتهل ندعو باللعنة على الكاذب منا ولقد ذكر كثير من المؤرخين والمفسرين قصة المباهلة بين الرسول والنصارى في أمر المسيح ولقد أمر الله رسوله أن يدعو النصارى الى المباهلة ليبين لهم حقيقة أمر المسيح وأن يتوجه الفريقان باللعنة على الكاذب في ذلك . يقول ابن اسحاق : فلما أتى رسول الله الخبرُ من الله عنه والفصل والقضاء بينه وبينهم . . . ودعاهم الى ذلك . فقالوا له يا أبا القاسم . دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا اليه . فانصرفوا عنه . وخلوا بالعاقب . فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ . فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم إن محمداً لنبي مرسل . ولقد جاء بالخبر الفصل من أمر صاحبكم . ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم . ولا نبت صغيرهم وأنه للاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا الى بلادكم . فأتوا الرسول . . وقالوا له «قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا » وامتنعوا عن الملاعنة . انظر تاريخ ابن اسحاق ٤٤٢/٢ ـ ٤٢٣ ط الحلبي وانظر أيضا : تفسير الطبري ٢١٠/٣ ـ ٢١١ ط بولاق .

(٣) سورة المائدة الآية ٧٥.

عيسى ابنُ مريمَ رسولُ الله وكلمَتُهُ ألقاها الى مريمَ ورُوحٌ مِنْـهُ فآمِنـوا بالله ورسـولِهِ ولا تقـولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنمـا الله إلهٌ واحـدٌ سبحانَـهُ أنْ يكونَ لـهُ ولدٌ لـهُ ما في السمـواتِ وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكفَ المسيـحُ أن يكونَ عبـداً لله ولا الملائكـةُ المقربـونَ ومَنْ يستنكف عن عبادتِهِ ويستكبْر فسيحشرُهُمْ إليه جميعاً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وقـالتِ النصارى المسيـحُ ابنُ الله ذلكَ قـولُهُمْ بأفـواهِهِمْ يُضاهئـونَ قولَ الذينَ كفروا من قبلُ قاتَلَهُمْ الله انى يُؤفكونَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لقدْ كفرَ الذينَ قالوا إنَّ الله هُوَ المسيـحُ ابن مريمَ قـلْ فَمَنْ يملكُ مِنَ الله شيئاً إنْ أرادَ أنْ يُهلكَ المسيحَ ابن مريمَ وأمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً ﴾[3] .

الوجه الثاني

أن ما ذكروه من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك ، وأن المسيح لم يمت بعد ، وما ذكـروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته بـاطل من وجهـين ، إن ناسـوته لم يصلب وليس فيـه لاهوت وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكفي في مقابلتها المنع .

الوجه الثالث

ولكن نقول في الوجه الثالث : إنهم في اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارة باتحـاد الماء باللبن ، وهـذا تشبيه اليعقـوبية ، وتـارة باتحـاد النار بـالحديـد أو النفس بالجسم ، وهـذا تشبيه الملكانية وغيرهم .

ومعلوم أنـه لا يصل إلى المـاء إلا وصل إلى اللبن ، فـإنه لا يتميـز أحدهمـا عن الآخر ، وكذلك النار التي في الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بـالنار التي فيـه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب للنفس ، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذي ادعوه .

وهذا لازم على القول بالاتحاد ، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد .

---

(١) سورة النساء الايات (١٧٠ ـ ١٧٢).

(٢) سورة التوبة الآية ٢٠ .

(٣) سورة المائدة الآية ٧٢.

الوجه الرابع

أن هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً يبشر في جوف امرأة ، وجعلوه له مسكناً ، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا في وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين ، وهو في ذلك يستغيث بالله ويقول : «إلهي إلهي لم تركتني » وهم يقولون الذي كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت ، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة ، ويقولون هما شخص واحد ، ويقول بعضهم : لهما مشيئة واحدة ، وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعي المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به ، وأيضاً فهم يقولون : إن اللاهوت والناسوت شخص واحد فمع القول بأنهما شخص واحد إما أن يكون مستغيثاً وإما أن يكون مستغاثاً به ، وإما أن يكون داعياً وإما أن يكون مدعواً ، فإذا قالوا : إن الداعي هو غير المدعو لزم أن يكون اثنين لا واحداً وإذا قالوا : هما واحد فالداعي هو المدعو .

الوجه الخامس

أن يقال لا يخلو الأمر ان يقولوا : إن اللاهوت كان قادراً على دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادراً لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، وأن يكون رب العالمين مقهوراً مأسوراً مع قوم من شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين وهذا أعظم من قولهم : إن لله ولداً ، وإنه بخيل وإنه فقير ، ونحو ذلك مما سبّ به الكفار رب العالمين .

وإن قالوا : كان قادراً ، فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك فسنة الله في مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به ، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت عندهم استغاث وقال : (إلهي إلهي لماذا تركتني) وإن كان هو قد فعل ذلك مكراً ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق ، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما في ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم : مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت ؟ بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين ، وقد اتفقا على المكر بالعدو ، لم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما

وافقه على أنه يجعل الصوامع في رحله ، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه ، لما ظهر الصوامع في رحلة ؟ كما جزع إخوته حيث لم يعلموا ، وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون ، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح ، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية .

الوجه السادس

قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم ، لأن عندهم أقنوم الكلمة فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع

قولهم : وقد برهن بقوله رأينا أيضاً في موضع آخر قائلاً : إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقةِ الأزلية حلت في مريم واتحدت بإنسان كامل .

فيقال لهم : أما قول الله في القرآن فهو حق ، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يُبَشِّرك بكلمةٍ مِنْهُ اسمهُ المسيحُ عيسى ابن مريمَ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومنَ المقربين * ويُكَلِّمُ الناسَ في المهدِ وكهلاً ومِنَ الصالحين * قالتْ ربِّ أنّى يكون لي ولدٌ ولَمْ يمسَسْني بشرٌ قالَ كذلك الله يخلقُ ما يشاءُ إذا قضى أمراً فإنما يقولُ لهُ كنْ فيكونُ ﴾[1] .

ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى . منها أنه قال : (بكلمة منه) وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات يقتضي أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقوله النصارى .

ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

وقال تعالى في سورة كهيعص : ﴿ ذلكَ عيسى ابنُ مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيهِ يمترونَ * ما كانَ لله أنْ يتَّخذ مِنْ ولدٍ سبحانَهُ إذا قضى أمراً فانما يقولُ لهُ كنْ فيكونُ ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٤٥ ـ ٤٧).

(٢) سورة مريم الآية ٣٤.

فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له : ﴿ كن فيكون ﴾ وهذا تفسير كونه كلمة منه ، وقال اسمه المسيح عيسى بن مريم ، أخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وهذه كلها صفة مخلوق ، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك ، وقالت مريم : ﴿ أنى يكون لي ولد ؟ ﴾ فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم . لا ولد الله سبحانه وتعالى .

وقال في سورة النساء : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينِكُمْ ولا تَقولوا على الله إلاّ الحقَّ إنما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منهُ فآمِنوا بالله وَرُسُلِهِ ولا تَقولوا ثلاثةٌ انتَهُوا خيراً لَكُمْ إنما الله إلهٌ واحدٌ سبحانَهُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ لَهُ ما في السمواتِ وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً * لنْ يستنكفَ المسيحُ أنْ يكونَ عبداً لله ولا الملائكة المقربون وَمَنْ يستنكفْ عن عبادتِهِ ويَستكبِرْ فسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ جميعاً * فأمّا الذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيوفيهِمْ أجورَهُمْ ويَزيدُهُمْ مِنْ فضلِهِ وأمّا الذينَ اسْتنكفوا واسْتكبَروا فيُعذِّبُهُمْ عذاباً أليماً ولا يجدون لهُمْ مِنْ دونِ الله ولياً ولا نصيراً ﴾[1] .

فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم ، وأن يقولوا على الله غيرَ الحق ، وبين أن ﴿ المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله ، فبين أنه رسوله ، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال : ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد ، كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ فأخبر أن ذلك ملك ليس له فيه شيء من ذاته ، ثم قال : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ﴾ أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله تبارك وتعالى ، فمع ذلك البيان الواضح الجلي ، هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به ، وأن قوله : ﴿ وروح منه ﴾ المراد به أنه حياته أو روح منفصلة من ذاته .

ثم نقول أيضاً : أما قوله وكلمته ، فقد بين مراده أنه خلقه بـ«كن» وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقاً لقوله : ﴿ هذا خلق الله ﴾ ويقال : درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمراً ، والمقدور قدرة وقدراً ، والمعلوم علماً ، والمرحوم به رحمة .

كقوله تعالى : ﴿ وكانَ أمرُ الله قدراً مقدوراً ﴾ وقوله : ﴿ أتى أمرُ الله فلا تستعجِلوه ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآيات (١٧١ ـ ١٧٢) .

وقـال النبي ﷺ : « يقـول الله للجنـة : أنت رحمتي أرحم بـك من أشـاء من عبـادي ، ويقول للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي »[1] وقال : إن الله خلق الرحمة يـوم خلقها مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة فيها تتـراحم الخلق ويتعاطفـون ، وأمسك عنـده تسعة وتسعين رحمة ، فإذا كان يـوم القيامـة جمع هذه الى تلك ، فـرحم بها الخلق »[2] ، ويقـال : للمطر والآيات هذه قدرة عظيمة ، ويقال : غفر الله لـك علمه فيـك ، أي معلومه ، فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الإمام أحمد في (كتاب الرد على الجهمية) ـ وذكـره غيره ـ أن النصـارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنـة ، فقالت النصـارى : القرآن كـلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهـو غير مخلوق ، وقـالت الجهمية : المسيـح كلمة الله وهـو مخلوق ، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقاً .

وأجاب أحمد وغيره : بأن المسيح نفسه ليس هو كلاماً ، فإن المسيح إنسان ، وبشر مولود من امـرأة ، وكـلام الله ليس بـإنسـان ولا بشـر ، ولا مـولـود من امـرأة ، ولكن المسيـح خلق بالكلام ، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟

وقد قيل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وما من عاقل إذا سمع قـوله تعالى في المسيح عليـه السلام إنـه كلمته ألقـاها الى مـريم إلا يعلم أن المراد: [لا] أن المسيـح نفسه كلام الله ، ولا أنـه صفة لله ولا خـالق ، ثم يقال للنصـارى : فلو قدر أن المسيـح نفس الكـلام ، فالكـلام ليس بخالق ، فـإن القرآن كـلام الله ، وليس بخالق ، والتـوراة كـلام الله وليست بخالقة ، وكلمات الله كثيرة، وليس منها شيء خالق ، فلو كان المسيح نفس الكـلام لم يجز أن يكون خالقاً ، فكيف وليس هو الكلام ، وإنما خلق بالكلمة ، وخص باسم الكلمة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره ، بل خـرج عن العادة فخلق بـالكلمة من غـير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله : ﴿ بروح منه ﴾ لا يوجب أن يكون منفصلاً من ذات الله كقوله تعالى : ﴿ وسخّرَ لكُمْ ما في السمواتِ وما في الأرض جميعاً منه ﴾[3] .

---

(١) ورد هذا الحديث في مسلم (كتـاب الجنة بـاب النار يـدخلها الجبـارون . والجنة يـدخلها الضعفـاء) ٢/٥٣٦ ، البخاري ٩/١٦٤ (كتاب التوحيد . باب إن رحمة الله قريب من المحسنين) ، ابن حنبل ٣/٢٧٦ .

(٢) ورد الحـديث في مسلم ٢/٤٩٣ (كتاب التـوبة ـ بـاب في سعة رحمـة الله تعـالى وأنها سبقت غضبـه)، البخـاري ٨/١٢٣ (كتاب الرقاق ـ باب الرجاء مع الخوف) ، ابن حنبل ٣/٤٢٢ .

(٣) سورة الجاثية الآية ١٣ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نعمةٍ فمنَ الله ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ما أصابكَ من حسنةٍ فمنَ الله و ما أصابكَ مِنْ سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ الذين كفروا من أهلِ الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيَهُمُ البينةُ * رسولٌ مِنَ الله يَتلو صحفاً مطهرةً فيها كتبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[3] .

فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة ، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم ، وهي مخلوقة .

فالمسيح الذي هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً ، قال تعالى : ﴿ فأرسَلْنا اليها رُوحنا فتمثّل لها بشراً سوِّياً * قالتْ إني أعوذُ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقيّاً * قالَ إنّما أنا رسولُ ربِّك لِأَهَبَ لكِ غلاماً زكيّاً ﴾[4] .

وقد قال تعالى : ﴿ ومريمَ ابنةَ عمرانَ التي أحصنَتْ فرْجَها فنفخْنا فيهِ مِنْ رُوحِنا ﴾[5] .

وقال : ﴿ والتّي أحصنَتْ فَرْجَها فنفخْنا فيها مِنْ روحِنا وجَعَلْناها وابنَها آيةً للعالمينَ ﴾[6] ، فأخبر أنه نفخ في مريم من روحه ، كما أخبر أنه نفخ في آدم من روحه ، وقد بين أنه أرسل إليها روحه .

﴿ فتمثّل لها بشراً سوياً ، قالتْ : إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقيّاً ، قال : إنما أنا رسولُ ربِّكِ لِأَهَبَ لكِ غُلاماً زكياً ، قالتْ : أنّى يكونُ لي غلامٌ ولم يمسَسْني بشرٌ ولم أكُ بَغِيّاً ، قالَ : كذلكَ ، قالَ ربُّكِ هو عليّ هَيِّنٌ ولنجعلَهُ آيةً للناسِ ورحمةً مِنّا وكانَ أمراً مَقْضِيّاً فحمَلْتْهُ ﴾[7] .

فهذا الروح الذي أرسله الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً مخلوق ، وهو روح القدس الذي خُلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقاً فكيف الفرع الذي حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح : ﴿ وروح منه ﴾ خص المسيح بذلك لأنه نفخ في أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأنها حبلت

---

(1) سورة النحل الآية ٥٣ .

(2) سورة النساء الآية ٧٩ .

(3) سورة البينة الآيات (١ ـ ٣) .

(4) سورة مريم الآيات (١٧ ـ ١٩) .

(5) سورة التحريم الآية ١٢ .

(6) سورة الأنبياء الآية ٩١ .

(7) سورة مريم الآيات (١٧ ـ ٢٢) .

به من نفخ الروح ، فلهذا سمي روحاً منه .

ولهذا قال طائفة من المفسرين : روح منه ، أي رسول منه فسماه باسم الروح (الذي هو) الرسول الذي نفخ فيها ، فكما يسمى «كلمة» يسمى «روحا» لأنه كون بالكلمة ، لا كما يُخلق الآدميون غيرهُ ، ويسمى روحاً ، لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذي نفخ فيها لم تحبل من ذكر كغيره من الآدميين ، وعلى هذا فيقال لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمى روحاً بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ، ثم ينفخ فيه من الروح بعد مضي أربعة أشهر .

والنصارى يقولون في أمانتهم[1] . (تجسد من مريم ، ومن روح القدس) ولو اقتصروا على هذا ، وفسروا روح القدس بالملك الذي نفخ فيها ، وهو روح الله لكان هذا موافقاً لما أخبر الله به ، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله ، وجعلوه ربا وتناقضوا في ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغي فيه أقنومان . أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

---

(١) يشير ابن تيمية بذلك إلى نص «الأمانة» التي وضعها أساقفة المجمع المسيحي بنيقية سنة ٣٢٥ م ، ذلك أن الخلاف كان قد احتدم بين أساقفة المسيحية حول شخص السيد المسيح ، أهو رسول من عند الله فقط ؟ أم أن له صلة خاصة بالله تجعله أكثر من رسول . بمنزلة الابن مثلاً ؟ لأنه خلق من غير أب . وهل هذه الصلة تنفي عنه أنه مخلوق محدث وتجعله قديماً كالأب .؟ وهكذا تباعدت الآراء واختلفت حول هذه القضية ، وكل يزعم أن رأيه هو المسيحية الصحيحة التي جاء بها السيد المسيح ، كان هذا الخلاف هو السبب العام في عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ثم كان هناك سبب مباشر وهو ظهور ما يسمى في المسيحية ببدعة «آريوس» الذي أنكر فكرة تأليه المسيح ونادى بأنه مخلوق مصنوع وأن المعبود يجب أن يكون واحداً ، فحارب المسيحيون هذه الدعوة واعتبروها بدعة يجب القضاء عليها ، وقام لمناهضته بطريرك الإسكندرية الذي ادعى أنه رأى المسيح يتبرأ من اريوس ويلعنه ولما تولى أمر الكنيسة البطريرك إسكندر أراد معالجة الخلاف بشيء من الحيلة والتعقل فتدخل قسطنطين إمبراطور الرومان الذي جمع من البطاركة والأساقفة ٢٠٤٨ أسقفاً ولم يجتمع هؤلاء على رأي واحد فيما بينهم . ورأى قسطنطين أن هناك ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً يقولون بألوهية المسيح . فمال قسطنطين الى هذا الرأي .

واجتمع أصحاب هذا الرأي ووضعوا نصاً أسموه «الأمانة» أوضحوا فيه عقيدتهم في المسيح ونص هذه الأمانة التي اعتقدوها ما يلي :

«أؤمن بإله واحد أب ماسك للكل ، خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور . إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب في الجوهر الذي فيه خلق كلا ، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب عنا على عهد بلاطس النبطي ، وتألم ودفن ، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب ، وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً يأتي بجسده ليدين الأحياء والأموات ، الذي ليس لملكه نهاية ، وبالروح القدس الرب المحيي الذي من الأب انبثق ، الذي مع الأب والابن يسجد له ويمجد ، الناطق بالأنبياء في كنيسة واحدة جامعة رسولية ، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وأترجى قيامه الموتى وحياة الدهر المؤتنف آمين .

أنظر في ذلك : رسالة بول الأنطاكي أسقف صيدا ضمن كتاب بولص الأنطاكي في أصول العقيدة المسيحية ص ٨٢ ط بيروت ، النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة دار الفكر العربي الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٧ ص ١٤٦ - ١٥٠ اقانيم النصارى . لأحمد حجازي السقا : ط دار الأنصار بالقاهرة ص ٤٩ - ٥٠ .

وهم يقولون ، ليس فيه ألا أقنوم الكلمة ، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالكلمة ، يسمى «روحاً» لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقد قال في القرآن ﴿ والذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَعلمونَ أنَّهُ مُنزلٌ مِنْ ربِّكَ ﴾ ، وقال : ﴿ تَنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيمِ ﴾ .

وقد قال أئمة المسلمين وجمهورهم : (القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ) وقال : في المسيح (وروح منه) قيل : هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقاً ، وإن كان صفة مضافة الى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة ، وكذلك ما منه إن كان عيناً قائمة أو صفة قائمة تعين بغيرها كما في السموات والأرض والنعم والروح الذي أرسلها الى مريم وقال : ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ كان مخلوقاً ، وإن كان صفة لا تقوم بنفسها ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقاً ، فإن ذلك قائم بالله ، وما يقوم بالله لا يكون مخلوقاً .

والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى ، وأنه ليس لهم في ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كما ليس لهم حجة في سائر كتب الله ، وإنما تمسكوا بآيات متشابهات وتركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ هُوَ الذي أنزَلَ عليكَ الكتابَ منهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ فأمّا الذينَ في قلوبِهِمْ زَيْغٌ فيَتّبِعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاءِ وابتغاءَ تأويلهِ ﴾ ، والآية نزلت في النصارى فهم مرادون من الآية قطعاً ، ثم قال : ﴿ وما يعلَمُ تأويلَهُ إلّا الله ، والراسخون في العلمِ يقولونَ آمنّا بهِ كلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا ﴾ ، وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله إلا الله ، ويقول : الراسخون في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، لا يعلمه إلا الله .

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى : ﴿ والراسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنّا بهِ كلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا ﴾[١] . ويقول : (الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه) وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف ، وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما في قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا مِنْ بعدِهِمْ يقولونَ ربَّنا أغْفر لنا ولإخواننا ﴾[٢] . أي قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ، ومعرفة معانيه .

والراسخون في العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصري : لم ينزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيماذا نزلت ، وما عني بها ؟ وقد يعني بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر ، وقت الساعة ، ونزول عيسى ، ونحو ذلك .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧ .

(٢) سورة الحشر الآية ١٠ .

فهذا التأويل لا يعلمه الا الله ، وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهرة الى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به ، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ، ولا هو معنى التأويل في كتاب الله عز وجل .

ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل في كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهرة كقوله تعالى : ﴿ هلْ ينظرونَ إلاّ تأويلَهُ يومَ يأْتي تأويلُهُ يقولُ الذينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق . ﴿ هذا تأويل رؤيايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وكقوله : ﴿ إلاّ نَبأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ ﴾[١] .

وقوله : ﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾[٢] وهذا مبسوط في موضع آخر[٣] .

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا في ظاهر النصوص ولا باطنها ، كما قال تعالى : ﴿ إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ الله وكلمتُهُ القاها إلى مريم ورُوحٌ مِنْهُ ﴾ .

والكلمة عندهم هي جوهر ، وهي رب لا يخلق بها الخالق ، بل هي الخالقة لكل شيء ، كما قالوا في كتابهم : [إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم] والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها الى مريم ، والرب سبحانه هو الخالق ، والكلمة التي ألقاها ليست خالقة ، إذ الخالق لا يلقيه شيء ، بل هو يلقي غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، ودينية .

فالكونية : كقوله للشيء كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه الذي جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم الى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول في غير هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تَقولوا لِمَنْ ألقى إلَيْكُمُ السّلامَ لستَ مؤمناً ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهُمْ قالوا ربَّنا هؤلاء شُركاؤنا الذينَ كنّا ندعوا من دونكَ فألْقوا إليهمُ القولَ إنّكم لكاذبونَ * وألْقَوْا إلى الله يومئذٍ السَّلم ﴾[٥] .

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٧ .

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٣) انظر في معاني التأويل : مقدمة في معنى التفسير والتأويل من الجزء الأول .

(٤) سورة النساء الآية ٩٤ .

(٥) سورة النحل الآيات (٨٦ ـ ٨٧) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتخِذوا عدّوي وعدوَّكُمْ أَوْلياءَ تُلقونَ إليهِمْ بالمَودَّةِ ﴾[1] .

وأما لقّيته القول فتلقّاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه ، فإن هذا بقوله فيما يخاطبه به ، وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام ، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها ، هي قول «كن» لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلّت في مريم كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلت في سائر من ألقى كلامه ، كما لا تحصل صفة كل منكم فيمن يلقي إليه كلامه .

فصـــل
[في الرد على أن في عيسى طبيعتين]

وأما قولهم : وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التي أخذها من مريم العذراء واتحدت به ، فيقال لهم كلام النصارى في هذا الباب مضطرب مختلف مناقض ، وليس لهم في ذلك قول اتفقوا عليه ، ولا قول معقول ولا قول دل عليه كتاب ، بل هم فيه فرق وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى ، كاليعقوبية والملكانية والنسطورية ، ونقل الأقوال عنهم في ذلك مضطربة ، كثيرة الاختلاف .

ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولاً ، وذلك أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد كما هو مذكور في أمانتهم لم ينطق به شيء من كتب الأنبياء ، ولا يوجد لا في كلام المسيح ولا الحواريين ولا أحد من الأنبياء ، ولكن عندهم في الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون في فهمها ، ثم القائلون منهم بالأمانة ، وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية والنسطورية واليعقوبية مختلفون في تفسيرها ، ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره على الوجه الصحيح .

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره ، فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم ، وإن صرح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحد كاليعقوبية ، ومنهم من يستر بعض ذلك كالنسطورية ، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء وهؤلاء ، ولما ابتدعوا ما ابتدعوه من التثليث والحلول كان فيهم من يخالفهم في ذلك .

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١ .

وقد يوجد نقل الناس لمقالاتهم مختلفاً ، وذلك بحسب قول الطائفة التي ينقل ذلك الناقل قولها ، والقول الذي يحكيه كثير من نظائر المسلمين يوجد كثير منهم على خلافه كما نقلوا عنهم ما ذكره أبو المعالي ، وصاحبه أبو القاسم الأنصاري وغيرهما أن القديم واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، وأنهم يعنون بالأقنوم . الوجود ، والحياة ، والعلم .

وثقلوا عنهم أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الذات موجودين ، بل هما صفتان نفسيتان للجوهر ، قالوا : ولو مثل مذهبهم بمثال لقيل : إن الأقانيم عندهم تنزل منزلة الأحوال والصفات النفسية عند مثبتيها من المسلمين ، فإن سوادية اللون ولونيته صفتان نفسيتان للعرض ، قال : وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود وبالابن المسيح والكلمة ، وربما سموا العلم كلمة ، والكلمة علماً ، ويعبرون عن الحياة بالروح ، قال : ولا يريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم من صفات الفعل ، ولا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح واتحاده به ابناً ، بل المسيح عندهم مع ما تدرع به ابن ، قالوا : ومن مذهبهم أن الكلمة اتحدت بالمسيح وتدرعت بالناسوت ثم اختلفوا في معنى الاتحاد .

فمنهم من فسره بالاختلاط والامتزاج ، وهذا مذهب طوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، قالوا : إن الكلمة خالطت جسد المسيح ، ومازجته كما مازج الخمر الماء أو اللبن ، قالوا : وهذا مذهب الروم ومعظمهم الملكانية ، قالوا : فمازجت الكلمة جسد المسيح فصارت شيئاً واحداً وصارت الكثرة قلة .

وذهبت طائفة من اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحماً ودماً ، قالوا : وصارت شرذمة من كل صنف الى أن المراد بالاتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت ، كظهور الصورة في المرآة ، والنقش في الخاتم .

ومنهم من قال : ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله على العرش عند المسلمين ، وذهب كثير من هذه الطوائف الى أن المراد بالاتحاد الحلول .

فصــــل

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبتغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ ﴾[1] يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لا غير ممن لم يأتهم بما جاء به .

فيقال لهم من فسر مراد متكلم ، أي متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥.

كاذب مفتر عليه ، وإن كان المكلم من آحاد العامة ، ولو كـان المتكلم من المتنبئين الكـذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليـه ، فيقال : أراد كـذا وكذا ، فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً ، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علماً ضرورياً أنه لم يـرد ذلك بـل يعلم علماً ضروريـاً أنه أراد العمـوم ؟ فإن قـوله تعـالى : ﴿ ومن يبتغ غـير الإسلام ديناً﴾ صيغة عـامة وصيغـة «من» الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمل مِثقـالَ ذَرَّةٍ خيراً يَـرهُ * وَمَنْ يَعملْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يرهُ ﴾[1] .

ثم إن سيـاق الكلام يـدل على أنـه أراد أهل الكتـاب وغيرهم . فـإن هذا في سـورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لما قدم على النبي ﷺ وفد نجـران النصـارى ، وروى أنهم كـانـوا ستـين راكبـاً ، وفيهم السيـد ، والأيهم ، والعـاقب ، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها .

وقـد قـال قبل هذا الكلام يـذم دين النصارى الـذين ابتدعـوه وغيروا بـه دين المسيح ولبسـوا الحق الذي بعث بـه المسيح بـالباطـل الذي ابتـدعوه حتى صـار دينهم مركباً من حق وباطل ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يـوجد معـه من يعرف مـا نسخه المسيـح من شريعـة التوراة مما أقره ، والمسيح قرر أكثر شرع التوراة ، وغـير المعنى ، وعامـة النصارى لا يميـزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح .

قال تعالى : ﴿ما كانَ لبشـرٍ أنْ يُؤتيَهُ الله الكتـابَ والحُكمَ والنبوةَ ثُمَّ يقول للناسِ كـونوا عباداً لي مِنْ دونِ الله ولكِنْ كونـوا رَبَّانيينَ بما كنتُمْ تُعَلِّمـونَ الكتابَ وبِمـا كنتمْ تَدرسـونَ * ولا يأمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذوا الملائكةَ والنبيينَ أرباباً أيأْمُرُكُمْ بِالكفرِ بعد إِذْ انتمْ مسلمونَ ﴾[2] .

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافـر ، فمن اتخذ من دونهم أربـابـاً كـان أولى بالكفر ، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى : ﴿ اتَّخذوا أحبارُهُمْ ورهبانَهُمْ أرباباً مِنْ دون الله والمسيح بنَ مريمَ وما أُمروا إلاّ ليعبُدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هوَ سبحانهُ عمّا يشركون ﴾[3] .

ثم قـال تعالى في سـورة آل عمران : ﴿ وإذْ أخـذَ الله ميثاقَ النبيـينَ لما آتَيْتُكُمْ مِنْ كتـاب

---

(١) سورة الزلزلة الآيات (٧ ، ٨).

(٢) سورة آل عمران الآيات (٧٩ ، ٨٠) .

(٣) سورة التوبة الآية ٣١.

وحكمةٍ ثم جاءَكُمْ رسولٌ مصدقٌ لما مَعَكُمْ لتؤْمِنُنَّ بهِ ولتنصُرُنَّهُ قالَ أأقْرَرْتُمْ وأخذتمْ على ذلِكُمْ إصري ؟ قالوا : أقْرَرْنا ، قال : فاشْهَدُوا وأنا معكُمْ مِنَ الشاهدينَ ﴾[1] .

قال ابن عباس وغيره من السلف : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه[2] . والآية تدل على ما قالوا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين ـ يتناول جميع النبيين ـ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ .

وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم ، واللام الثانية تسمى : لام جواب القسم ، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم ، كقوله تعالى : ﴿ لئِنْ أُخْرِجوا لا يَخرجونَ مَعَهُمْ ولَئِنْ قوتلوا لا ينصرونَهُمْ ولئِنْ نصروهُمْ ليُوَلُّنَّ الأدبار ثمَّ لا يُنصرونَ ﴾[3] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ومنهمْ مَنْ عاهدَ الله لَئِنْ آتانا مِنْ فضلِهِ لنَصَّدَّقنَّ ولَنَكونَنَّ مِنَ الصّالحينَ ﴾[4] . وقوله : ﴿ وأقسَموا بالله جَهْدَ أيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها ﴾[5] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيخرُجُنَّ قل لا تُقْسِمُوا طاعةٌ معروفةٌ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ وأَقْسَموا بالله جَهْدَ أيْمانِهِمْ لئن جاءَهُمْ نذيرٌ ليكونُنَّ أهدى مِنْ إحدى الأُمَمِ ﴾[7] ومنه قوله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خلقَ السمواتِ والأرضَ لَيقولُنَّ الله ﴾[8] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيقولُنَّ إنَّما كنّا نخوضُ ونلعبُ ﴾[9]، وقوله : ﴿ لئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا ربُّنا ويَغْفِرْ لنا لنَكونَنَّ من

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨١.

(٢) ذكر الطبري هذا الأثر على خلاف في اللفظ عن ابن عباس ، وهو مروي عن غيره من علماء السلف ، فعن ابن أبي أيوب عن علي بن أبي طالب قال في تفسير هذه الآية :
لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ، لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه . وكذلك قال قتادة والسدى والحسن . انظر تفسير الطبري ٣/٢٣٦ ـ ٢٣٧ ط بولاق .

(٣) سورة الحشر الآية ١٢ .

(٤) سورة التوبة الآية ٧٥ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٠٩ .

(٦) سورة النور الآية ٥٣ .

(٧) سورة فاطر الآية ٤٢ .

(٨) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٩) سورة التوبة الآية ٦٥ .

الخاسرين ﴾[1] ، وقوله : ﴿ لئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المنافقونَ والذينَ في قلوبهِمْ مَرَضٌ والمُرجِفونَ في المدينةِ لَنُغْرينَّكَ بهِمْ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ولَئِنْ شئْنا لَنَذْهبنَّ بالذي أَوْحَيْنا إليكَ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ وإنْ لَمْ يَنتهوا عمّا يقولونَ ليَمَسَّنَّ الذينَ كَفروا مِنْهُمْ عذابٌ أليمٌ ﴾[4] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمرُهُ لَيُسجنَنَّ وَلَيكوناً مِنَ الصّاغِرينَ ﴾[5] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بآيةٍ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إنْ أنتمْ إلاّ مُبطِلونَ ﴾[6] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ جاءَ نصرٌ مِنْ ربِّكَ ليقولُنَّ إنّا كنّا مَعَكُمْ ﴾[7] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرنا عنهُمْ العذاب إلى أُمَّةٍ معدودةٍ ليقولَنَّ ما يَحْبِسُهُ ﴾[8] .

ومثل هذا كثير ، وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام : (ـ والله ـ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ـ والله ـ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) .

ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً ، لا سيما فيما يكثر استعماله كالقسم ، وقوله : ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ هي ما الشرطية والتقدير : أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه ، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنوا بما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله .

فدل ذلك على أن من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال : ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ . وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى : ﴿ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[9] ثم قال تعالى : ﴿ أفَغَيْرَ دينِ الله يَبْغُوْن ولهُ أسلمَ مَنْ في السمواتِ والأرضِ طوعاً وكرهاً وإليهِ يُرجعُونَ ﴾[10]. ثم قال

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٠ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٦ .

(٤) سورة المائدة الآية ٧٣

(٥) سورة يوسف الآية ٣٢ .

(٦) سورة الروم الآية ٥٨ .

(٧) سورة العنكبوت الآية ١٠ .

(٨) سورة هود الآية ٨ .

(٩) سورة آل عمران الاية ٨٢ .

(١٠) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1] . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[2] .

قالت طائفة من السلف : لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى ، نحن مسلمون . فقال تعالى : ﴿ ولله على الناسِ حجُّ البيتِ مَنِ استطَاع اليهِ سبيلاً ﴾[3] . فقالوا لا نحج . فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ كفَر فإنَّ الله غنيٌّ عَنِ العالمينَ ﴾[4] .

فكل من لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دلّ عليه القرآن . واليهود ، والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار حتى أنه روي في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ : «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء الله يهودياً وإن شاء نصرانياً »[5]. وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب ، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس : الشهادتين ، والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت فإنه كافر .

وأيضاً فقد قال تعالى في أول سورة آل عمران : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إله إلاّ هُوَ والملائكة وأولو العلمِ قائماً بالقِسْطِ لا إلَهَ إلاّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ * إنَّ الدينَ عندَ الله الإسلامُ وما اختلف الذين أوتوا الكتابَ إلاّ مِنْ بعدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بغياً بينَهُمْ وَمَنْ يَكْفر بآياتِ الله فإنّ الله سريعُ الحسابِ * فإنْ حاجّوكَ فقلْ أسلمتُ وجهيَ لله وَمَنِ اتّبعنِ وقلْ للذين أوتوا الكتابَ والأميّين أأسلمتُمْ فإنْ أسلموا فقد اهتَدُوا وإنْ تَولَّوا فإنّما عليكَ البلاغُ والله بصيرٌ بالعبادِ ﴾[6] . فقد أمره تعالى بعد قوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . أن يقول أسلمت وجهي لله ، ومن

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٧.

(٤) سورة آل عمران الآية ٩٧.

وذكر كثير من المفسرين أن أهل مكة كانوا يدعون أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية . فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين لأن من سنة الإسلام الحج فامتنعوا ، فأدحض الله بذلك حجتهم ، وروي عن عكرمة قال : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً . . . الآية . قالت اليهود : نحن المسلمون . فانزل الله عز وجل لنبيه ﷺ إن لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً الآية . قالت اليهود نحن لا نحج وحج المسلمون وقعد الكفار .

انظر تفسير الطبري ٢٤١/٣ .

(٥) أورد الترمذي هذا الحديث في باب الحج .

(٦) سورة آل عمران الآيات (١٨ ـ ٢٠) .

اتبعن . وأن يقول للذين أوتوا الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، والأميين ، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أأسلمتم فالعرب الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس .

وأما من سواهم : فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس .

قال تعالى : ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ . فقد أمر اهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين ، وإن لم يسلموا فقد قال : إنما عليك البلاغ . أي : تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم ، فدلّ بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين ، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الى هرقل ملك النصارى : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية يالاسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [١] .

(الإسلام دين جميع الأنبياء)

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح ، وإبراهيم ، ويعقوب ، وأتباعهم إلى الحواريين ، وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلِ مِنْهُ ﴾ ، وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان .

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله الى الأرض : ﴿ واتلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نوحٍ إذْ قالَ لِقومِهِ يا قومِ إنْ كانَ كَبُرَ عليكُمْ مَقامي وَتَذكيري بآياتِ الله فعَلَى الله توكلتُ فأَجْمَعُوا أَمَرَكُمْ وشُركاءَكم ثم لا يكنْ أَمرُكم عليْكُمْ غُمَّةً ثمّ اقْضوا إليَّ ولا تُنظِرونَ * فإنْ تَوَلَّيْتُمْ فما سألْتُكُمْ مِنْ أجرٍ إنْ أجريَ إلاّ على الله وأُمِرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ المسلمينَ ﴾[٢] .

فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته ، وجعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

---

(١) انظر نص الخطاب الذي أرسله الرسول ﷺ إلى هرقل في البخاري ٦/٤٤ ـ ٤٥ (كتاب التفسير ، تفسير سورة آل عمران) ط الشعب .

(٢) سورة يونس الآيات (٧١ ـ ٧٢) .

وأما الخليل فقال تعالى : ﴿ وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربّنا تَقبَّل منّا إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ * ربّنا واجْعلْنامسلمَيْنِ لكَ وَمِنْ ذريّتِناأمةً مسلمةً لكَ وأرِنا مناسكنا وَتُبْ علَيْنا إنكَ أنتَ التوابُ الرّحيمُ ﴾[1] . ﴿ وَمَنْ يَرغبُ عَنْ ملّةِ إبراهيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نفسَهُ ولقدْ اصطفَيْناهُ في الدنيا وإنّهُ في الآخرةِ لِمَنَ الصّالحينَ * إذْ قالَ لَهُ ربُّهُ أسْلِمْ قالَ أسلمتُ لربِّ العالمينَ ، وَوَصّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبُ يا بَنِيَّ إنّ اللهَ اصطفى لكمُ الدينَ فلا تَموتُنَّ إلاّ وأنتمْ مُسلمونَ ﴾[2] .

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام ، وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ، ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتن إلا وهم مسلمون .

وقال تعالى : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ، ولَكِنْ كانَ حنيفاً مُسلماً وما كانَ مِنَ المُشْركينَ * إنّ أَوْلى الناسِ بإبراهيمَ للّذين اتّبعوهُ ، وهذا النبيُّ والذينَ آمنوا واللهُ وليُّ المؤمنينَ ﴾[3] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال : ﴿ ربِّ قدْ آتَيْتَني من المُلْكِ وعَلَّمْتَني مِنْ تأويل الأحاديثِ فاطرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وليِّي في الدنيا والآخرة تَوَفّني مُسْلِماً وأَلحِقْني بالصالحين ﴾[4] .

وقد قال تعالى عن موسى : ﴿ وقال موسى يا قومِ إنْ كنتمْ آمنتمْ باللهِ فعليهِ تَوَكّلوا إنْ كنتمْ مسلمِينَ ﴾[5] .

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿ قالوا لا ضَيْرَ إنّا إلى ربِّنا مُنقلبونَ * إنّا نطمعُ أَنْ يَغفِرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنّا أَوّلَ المؤمنِينَ ﴾[6] .

وقال تعالى :﴿وما تنقم منّا إلا أن آمنّا بآياتِ ربِّنا لّما جاءَتْنا ربَّنا افْرغْ علَينا صبراً وتوفّنا مُسلمينَ ﴾[7] .

قال تعالى في قصة سليمان : ﴿ إنّهُ مِنْ سُليمانَ وإنّهُ بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرحيم * ألاّ تَعْلُوا

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) سورة البقرة الآيات (١٣٠ ـ ١٣٢).

(٣) سورة آل عمران الآيات (٦٧ ـ ٦٨) .

(٤) سورة يوسف الآية ١٠١ .

(٥) سورة يونس الآية ٨٤.

(٦) سورة الشعراء الآيات (٥٠ ـ ٥١).

(٧) سورة الأعراف الآية ١٢٦ .

عليَّ وأْتوني مسليمينَ ﴾[1] .

و﴿قال يا أيُّها الملأُ أَيُّكُمْ يأتيني بعرشِها قبلَ أنْ يأتوني مُسلمِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَأُوتِينا العِلْمَ مِنْ قبلِها وكنّا مُسلمِينَ ﴾[5] .

وقال تعالى عن بلقيس التي آمنت بسليمان : ﴿ ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلَمْتُ مع سليمان لله ربِّ العالمينَ ﴾[4] .

وقال عن أنبياء بني إسرائيل : ﴿ إنّا أنزَلْنا التوراةَ فيها هُدىً ونورٌ يحكمُ بها النبيونَ الذين أسلموا للذينَ هادوا ﴾[5] .

وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وإذا أوحيتُ الى الحواريّين أنْ آمِنوا بي وبرسولي قالوا آمنّا واشْهَدْ بأنّنا مُسلمونَ ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ ربنا آمنّا بما أنزلَتْ واتبْعنا الرسول فاكْتُبْنا مع الشّاهدينَ ﴾[7] .

فهؤلاء الأنبياء كلهم وأتباعهم ، كلهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين ، وهذا مما يبين أن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[8] . وقوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، لا يختص بمن بعث إليه محمد ﷺ ، بل هو حكم عام في الأولين والآخرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ احسنُ ديناً مِمّنْ أسلمَ وجههُ لله وهُوَ مُحْسِنٌ واتّبَعَ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً واتّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾[9] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ يَدخلَ الجنّةَ إلاّ مَنْ كانَ هوداً أو نصارى تلكَ امانيُّهُمْ قلْ هاتوا برهانَكُمْ إنْ كنتمْ صادقينَ * بلَى مَنْ أسلمَ وجهَهُ لله وهُوَ مُحسنٌ فلهُ أجرُهُ عند ربهِ ولا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنونَ ﴾[10] .

---

(١) سورة النمل الآيات (٣٠ ـ ٣١).

(٢) سورة النمل الآية ٣٨ .

(٣) سورة النمل الآية ٤٢ .

(٤) سورة النمل الآية ٤٤ .

(٥) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٦) سورة المائدة الآية ١١١ .

(٧) سورة آل عمران الآية ٥٣ .

(٨) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

(٩) سورة النساء الآية ١٢٥ .

(١٠) سورة البقرة الآيات (١١١ ـ ١١٢).

سورة النساء

وقال شيخ الإسلام

فصـــــل

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ويريدُ الذينَ يتّبعونَ الشهواتِ أنْ تَميلوا مَيْلاً عظيـماً ﴾[1] فذكر مـا يتعلق بشهوات الآدميـين من سائـر ما تشتهيـه أنفسهم حتى النساء والمـردان . وقال : العبد يجب عليه إذا وقع في شيء من ذلك أن يجاهد نفسـه وهواه ، وتكـون مجاهـدته لله تعـالى وحده .

ثم قال : وميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم ، وقـد يبتلى كثـير منه بـالميل إلى الذكران كالمردان ، وإن لم يكن يفعل الفاحشة الكبرى كان بما هو دون ذلك من المبـاشرة ، وإن لم تكن كان بالنظر ، ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يـطول وصفه ، فـإذا ابتلي المسلم ببعض ذلـك كان عليه أن يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى ، وهو مأمور بهـذا الجهاد ، وليس هـو أمراً حـرمه عـلى نفسـه فيكون في طـاعة نفسـه وهواه . بـل هو أمـر حرمـه الله ورسولـه ولا حيلة فيه ، فتكـون المجاهدة للنفس في طاعة الله ورسوله .

وفي حديث أبي يحيى القتات عن مجـاهد عنـد ابن عباس مـرفوعـاً «مَنْ عشِقَ فعَفَّ وكتَمَ وصبَرَ ثم ماتَ فهوَ شهيدٌ » .

(في الحديث نظر)

وأبو يحيى في حديثه نظر ، لكن المعنى الذي ذكر فيه دل عليه الكتـاب والسنة ، فـإن الله أمـره بالتقـوى والصبر ، فمن التقـوى أن يعف عن كل مـا حرم الله من نـظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد ورجل ، والصبر أن يصبر عن شكوى مـا به الى غـير الله فإن هـذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيئان :

«أحـدهما» أن يكتم بثـه وألمه ، ولا يشكـو إلى غير الله ، فمـتى شكى الى غـير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانين ، لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد ، بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين :

---

(١) سورة النساء الآية ٢٧ .

فإن شكى ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفق ، وهذا حسن ، وإن شكى الى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكا الى غيره لما في الشكوى من الراحة كما أن المصاب يشكي مصيبته الى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ، ولا الاستعانة على معصية ، فهذا ينقص صبره ، لكن لا يأثم مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي ينسخط .

و«الثاني» أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس ، لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة ، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهت وتمنت وتتيمت ، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعياً إلى الفعل ، والنساء متى رأين البهائم تنزو الذكور منها على الإناث ملن الى الباءة ، والمجامعة ، والرجل إذا سمع من تفعل مع المردان والنساء أو رأى ذلك أو تخيله في نفسه دعاه ذلك الى الفعل ، وإذا ذكر الإنسان طعاماً اشتهاه ومال اليه ، وإن وصف له ما يشتهيه من لباس أو امرأة أو مسكن أو غير ذلك مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حن إليه .

فكلما كان في نفس الإنسان محبته إذا تصوره تحركت المحبة والطلب ، إلى ذلك المحبوب المطلوب ، إما الى وصفه ، وإما الى مشاهدته ، وكلاهما يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخيل بالسماع والرؤية ، أو التفكر في بعض الأمور المتعلقة به ، فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى تخيلة أخرى فتحركت داعية المحبة ، سواء كانت المحبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس الى الحج إذا ذكر الحجاز ، وتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلى ونحو ذلك ، لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهباً إلى المحبوب فصار ذكرها يذكر المحبوب وكذلك اذا ذكر رسول الله ﷺ تذكر به ، وتحركت محبته .

فالمبتلى بالفاحشة والعشق . إذا ذكر ما به لغيره تحركت النفوس إلى جنس ذلك ، لأن النفوس مجبلة على حب الصور الجميلة ، فإذا تصورت جنس ذلك تحركت الى المحبوب ، ولهذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة .

فصــــل

وسئل الشيخ رحمه الله :

عن قوله تعالى : ﴿واللاتي تَخافونَ نشوزَهُنَّ فعِظوهُنَّ ، واهْجُروهُنَّ في المضاجِعِ واضْرِبوهُنَّ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيلَ انشزوا فانْشُزوا ﴾[2] إلى قوله تعالى ﴿ والله بما

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤.

(٢) سورة المجادلة الآية ١١.

تعملون خبيرٌ﴾ يبين لنا شيخنا هذا النشوز من ذاك ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين « النشوز » في قوله تعالى : ﴿ تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع ﴾ هو أن تنشز عن زوجها فتنفر عنه بحيث لا تطيعه إذا دعاها للفراش ، أو تخرج من منزله بغير إذنه ، ونحو ذلك مما فيه امتناع عما يجب عليها من طاعته .

وأما النشوز في قوله : ﴿ إذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ فهو النهوض والقيام والارتفاع ، وأصل هذه المادة هو الارتفاع والغلظ ، ومنه النشز من الأرض وهو المكان المرتفع الغليظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وانظُرْ إلى العظامِ كيفَ نُنْشِزُها ﴾ أي نرفع بعضها الى بعض ، ومن قرأ ﴿ ننشرها ﴾ أراد نحييها ، فسمى المرأة العاصية ناشزاً لما فيها من الغلظ والارتفاع عن طاعة زوجها ، وسمى النهوض نشوزاً ، لأن القاعد يرتفع عن الأرض ، والله أعلم .

وقال :

فصـــــل

قوله تعالى :﴿ إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُختالاً فخوراً ، الذينَ يَبخلونَ ويَأمرونَ الناسَ بالبُخلِ ﴾[1] في النساء ، وفي الحديد إنه ﴿ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ ، الذينَ يبخلونَ وَيَأْمرون الناسَ بالبُخلِ ﴾[2] قد تؤولت في البخل بالمال والمنع ، والبخل بالعلم ونحوه ، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك ، كما تأولوا قوله : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ النفقة من المال والنفقة من العلم . وقال معاذ في العلم : تُعلمه لمن لا يعلمه صدقة . وقال أبو الدرداء : ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون وقد نفعهم الله بها . أو كما قال . وفي الأثر نعمت العطية ونعمت الهدية الكلمة من الخير يسمعها الرجل ثم يهديها الى أخ له ، أو كما قال .

وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء ولهذا كان الله ، وملائكته وحيتان البحر ، وطير الهواء ، يصلون على معلم الناس الخير ، كما أن كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون ، وبسط هذا كثير في فضل بيان العلم وذم ضده .

والغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به ، فالبخيل به الذي منعه ، والمختال إما أن يختال فلا يطلبه ولا يقبله ، وإما أن يختال على بعض الناس فلا يبذله ، وهذا كثيراً ما يقع عند بعض الناس أنه يبخل بما عنده من العلم ، ويختال به . وأنه يختال عن

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣.

أن يتغذى من غيره ، وضد ذلك التواضع في طلبه ، وبذله ، والتكرم بذلك .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل

(سر الجمع بين الخيلاء والبخل في موضع وبين العطاء والتقوى في موضع)

قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل ، كما في قوله : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ في النساء والحديد وضد ذلك الإعطاء والتقوى المتضمنة للتواضع ، كما قال : ﴿ فأمّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى ﴾[1] وقال : ﴿ إنَّ الله معَ الذينَ اتَّقَوْا والذينَ هُمْ مُحسنونَ ﴾[2] وهذان الأصلان هما جماع الدين العام ، كما يقال التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله .

فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع ، وذلك أصل التقوى ، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم ، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة ، فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له ، والتواضع له ، والذل له ، وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر ، والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم ، وذلك مضاد للبخل .

ولهذا وغيره كثر القران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاء له ، كما قال عبد الله بن مسعود : ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنت في السوق ، وهذا المعنى - وهو دعاء الله أي قصده والتوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع - هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة ، كصلاة القائم والقاعد والمضطجع . والقارىء ، والأمي ، والناطق والأخرس ، وإن تنوعت حركاتها وألفاظها ، فإن إطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطؤ المنافي للاشتراك والمجاز ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك ، ومنهم من ادعى المجاز ، بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي ، أو مزيدة ، أو على غير ذلك ، وليس الأمر كذلك ، بل اسم الجنس العام المتواطىء المطلق إذا دل على نوع أو عين ، كقولك هذا الإنسان وهذا الحيوان ، أو قولك :

---

(١) سورة الليل الآية ٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٨ .

هـات الحيوان الـذي عندك وهي غنم ، فهنـا اللفظ قد دل عـلى شيئـين : عـلى المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد ، وعلى ما يختص بـه هذا النـوع أو العين . فـاللفظ المشترك الـوجود في جميع التصاريف على القدر المشترك ، وما قرن باللفظ من لام التعـريف مثلاً أو غيـرها دل عـلى الخصوص والتعيين ، وكما أن المعنى الكلي المطلق لا وجود له في الخارج ، فكـذلك لا يـوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة .

فـإن الكلام إنمـا يفيد بعـد العقـد والتـركيب ، وذلـك تقييـد وتخصيص كقـولـك أكـرم الإنسان ، أو الإنسان خير من الفرس . ومثله قوله ﴿أقم الصلاة﴾ ونحو ذلـك ، ومن هنا غلط كثير من الناس في المعاني الكلية ، حيث ظنوا تجرده في الاستعمال عن القيود . والتحقيق : أنـه لا يـوجد المعنى الكـلي المطلق في الخـارج إلا معينـاً مقيـداً ، ولا يـوجـد اللفظ الـدال عليـه في الاستعمال الا مقيداً مخصصاً ، وإذا قدر المعنى مجـرداً كان محله الـذهن ، وحينئذ يقـدر له لفظ مجرد غير موجود في الاستعمال مجرداً .

و«المقصود هنا » أن اسم الصلاة فيه عموم وإطلاق ، ولكن لا يستعمـل إلا مقرونـاً بقيد إنما يختص ببعض موارده كصلواتنا ، وصلاة الملائكة ، والصلاة من الله سبحانـه وتعالى : وإنمـا يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا ، مـع علمهم بأن هذا ليس مثل هـذا ، فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكـون صلاتـه مثل صـلاته ، وأن بينهما قدر متشابه ، كما قد حققنا هذا في الرد على الاتحادية والجهمية والمتفلسفة ونحوهم .

ومن هـذا الباب أسماء الله وصفاتـه التي يسمى ويـوصف العبـاد بما يشبههـا ، كـالحي والعليم والقدير ونحو ذلك .

وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العـام ، كما في الصحيحـين عن النبي ﷺ أنه قـال : «كل معروف صدقة»[١] ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «على كـل مسلم صدقـة»[٢] وأما الزكاة المالية المفروضة فإنما تجب على بعض المسلمـين في بعض الأوقات ، والـزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة كما قـال النبي ﷺ ، قالـوا : فإن لم يجـد ؟ قال : « يعمـل بيده فينفـع نفسه ويتصـدق » قالـوا : فإن لم يستـطع ؟ قال : «يعـين صانعـاً أو يصنع

---

(١) ورد الحديث في البخاري (كتاب الأدب ، باب كل معروف صدقة) ١١/٨ بـرواية جـابر ، وفي مسلم عن حـذيفة ٨٢١٣ (كتاب الزكاة . . باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نـوع من المعروف)، وانـظر أيضاً : أبـو داود (كتاب الأدب)، الترمذي (كتاب البر)، ابن حنبل ٢٤٤/٣ .

(٢) ورد الحديث في البخاري ١٤٣/٢ (كتاب الزكاة . باب على كل مسلم صدقه فمن لم يجد فليعمل بـالمعروف)، وفي مسلم (كتاب الزكاة) والنسائي (كتاب الزكاة) والدارمي (كتاب الرقاق) وابن حنبل ٢٩٥/٤ .

لأخرق» قالوا فإن لم يستطع ؟ قال : «يكف نفسه عن الشر »[1] .

وأما قوله في الحديث الصحيح حديث أبي ذر وغيره : «على كل سلامي من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة »[2] فهذا ـ إن شاء الله ـ كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق ، فإنه بمثل هذا العامل يحصل الرزق والنصر والهدى ، فيكون ذلك من الصدقة على الخلق .

ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة وجنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة والصدقة ، ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة وصدقة ؟ وكذلك كل دعاء للغير واستغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضاً ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح . «ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكاً ، كلما دعا له بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل »[3] .

وقال

فصل

قول الناس : الآدمي جبار ضعيف ، أو فلان جبار ضعيف ، فإن ضعفه يعود إلى ضعف قواه ، من قوة العلم والقدرة ، وأما تجبره فإنه يعود إلى اعتقاده وإرادته . أما اعتقاده فإن يتوهم في نفسه أنه أمر عظيم فوق ما هو ولا يكون ذلك ، وهذا هو الاختيال والخيلاء . والمخيلة ، وهو أن يتخيل عن نفسه ما لا حقيقة له ، ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظماً ونثراً وطلبه للمدح الباطل ، فإنه يورث هذا الاختيال .

وأما الإرادة فإرادة أن يتعظم ويعظَم ، وهو إرادة العلو في الأرض والفخر على الناس ، وهو أن يريد من العلو ما لا يصلح له أن يريده ، وهو الرئاسة والسلطان ، حتى يبلغ به الأمر إلى مزاحمة الربوبية كفرعون ، ومزاحمة النبوة ، وهذا موجود في جنس العلماء والعباد والأمراء وغيرهم .

وكل واحد من الاعتقاد والإرادة يستلزم جنس الآخر ، فإن من تخيل أنه عظيم أراد ما

---

(١) ورد الحديث في البخاري عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وفيه . . . فإن لم يجد ؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف . . الخ الحديث انظر البخاري ١٤٣/٢ (كتاب الزكاة. باب على كل مسلم صدقة) .

(٢) ورد الحديث في البخاري بلفظ مختلف جاء فيه : كل سلامي من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الناس صدقة ، انظر البخاري ٢٤٥/٣ (كتاب الصلح بين الناس . باب فضل الاصلاح بين الناس والعدل بينهم) وانظر كذلك مسلم (كتاب الزكاة) ، أبو داود (كتاب التطوع) ، ابن حنبل ٢٣٦/٣ .

(٣) ورد الحديث في: أبو داود (كتاب الوتر . باب الدعاء بظهر الغيب) وانظر كذلك الترمذي (كتاب البر)، ابن ماجه (كتاب المناسك) .

يليق بذلك الاختيال ، ومن أراد العلو في الأرض فلا بد أن يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره ، حتى يطلب ذلك ، ففي الإرادة يتخيله مقصوداً ، وفي الاعتقاد يتخيله موجوداً ، ويطلب توابعه من الإرادات .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يُحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ ﴾[1] وقال ﷺ : «الكبر بطر الحق وغمط الناس »[2] فالفخر يشبه غمط الناس ، فإن كليهما تكبر على الناس . وأما بطر الحق ـ وهو جحده ودفعه ـ فيشبه الاختيال الباطل ، فإنه تخيل أن الحق باطل بجحده ودفعه .

ثم هنا وجهان :

«أحدهما» أن يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات وهو أن يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها ، فيجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها ، ويتخيل الباطل الذي يوافق هواها وعلوها ويجعل الفخر وغمط الناس من باب الإرادات ، فإن الفاخر يريد أن يرفع نفسه ويضع غيره ، وكذلك غامط الناس .

ويؤيد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال : «إنه أوحي إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »[3] فبين أن التواضع المأمور به ضد البغي والفخر ، وقال في الخيلاء التي يبغضها الله : «الاختيال في الفخر والبغي » فكان في ذلك ما دل على أن الاستطالة على الناس ، إن كانت بغير حق فهي بغي : إذ البغي مجاوز الحد . وإن كانت بحق فهي الفخر ، لكن يقال على هذا ، البغي يتعلق بالإرادة ، فلا يجوز أن يجعل هو من باب الاعتقاد وقسيمه من باب الإرادة ، بل البغي كأنه في الأعمال والفخر في الأقوال ، أو يقال : البغي بطر الحق والفخر غمط الناس .

«الوجه الثاني » أن يكونا جميعاً متعلقين بالاعتقاد والإرادة ، لكن الخيلاء غمط الحق يعود إلى الحق في نفسه ، الذي هو حق الله وإن لم يكن يتعلق به حق آدمي ، والفخر وغمط الناس يعود إلى حق الآدميين ، فيكون التنويع لتمييز حق الآدميين مما هو حق لله لا يتعلق (بحق)[4] الآدميين ، بخلاف الشهوة في حال الزنا وأكل مال الغير . فلما قال سبحانه : ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ والبخل منع النافع . قيد هذا

---

(١) سورة لقمان الآية ١٨ .

(٢) ورد الحديث في مسلم كتاب الإيمان .

(٣) أورده مسلم في كتاب الجنة ، وأبو داود في كتاب الأدب وابن ماجه في كتاب الزهد .

(٤) ليست بالأصل .

بهذا ، وقد كتبت فيما قبل هـذا من التعاليق . الكـلام في التواضـع والإحسان والكـلام التكبر والبخل [1] .

وقال شيخ الاسلام

قوله : ﴿ ما أصابَكَ مِنْ حسنةٍ فمنَ الله ﴾[2] الآية بعد قوله : ﴿ كـلٌ مِنْ عندِ الله ﴾[3] لـو اقتصر عـلى الجميع أعـرض العاصي عن ذم نفسـه ، والتوبـة من الذنب ، والاستعـاذة من شره ، وقام بقلبه حجة إبليس ، فلم تزده إلا طرداً ، كما زادت المشركين ضلالاً حين قـالوا : ﴿ لو شاءَ الله ما أشرَكْنَا ﴾ .

ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والإيمان بالقـدر ، واللجاء إلى الله في الهـداية ، كما في خطبته ﷺ : «الحمد لله نحمده ونستغفره » فيشكره ويستعينه على طاعته ، ويستغفره من معصيتـه ، ويحمده عـلى إحسانـه . ثم قال : «ونعـوذ بالله من شـرور أنفسنا » إلى آخـره . لمـا استغفر من المعاصي استعـاذه من الذنـوب التي لم تقع . ثم قـال : «ومن سيئات أعمـالنا » أي ومن عقوباتها . ثم قال «من يهد الله فلا مضل له » الخ . شهادة بأنه المتصرف في خلقه ، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد ، هذا كله مقدمة بـين يدي الشهـادتين ، فـإنما يتحققـان بحمـد الله وإعانتـه ، وإستغفاره واللجـاء إليه ، والإيمـان بأقـداره . فهذه الخـطبة عقـد نـظام الإسلام والإيمان[4] .

الحسنة من الله لوجوه

وقال : كون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه :

«الأول» أن النعم تقع بلا كسب .

«الثاني» أن عمل الحسنات من إحسان الله إلى عبده ، فخلق الحياة وأرسل الرسل وحبب

---

(1) لعل ابن تيمية يشير هنا إلى ما كتبه في: التحفة العراقية في الأعمال القلبية.

(2) سورة النساء الآية ٧٩.

(3) سورة النساء الآية ٧٨.

(4) روى هذه الخطبة الإمام أحمد في مسنده ٥/٢٧١ (ط دار المعارف) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: علمنا خطبة الحاجة : الحمد لله نحمده ونستعينه . . . الخ وقال الأستاذ المحقق الشيخ شاكر : إن هـذا الحديث رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن مـاجه والحـاكم . وانظر كـذلك الأذكـار للنووي ص ٢٥٠، سنن ابن مـاجه ١/٦٠٩-٦١٠ وانظر تحقيق الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم للحديث في جامع الرسائل ص ١١٧ تعليق ٣.

إليهم الإيمان . وإذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك ، وإذا علمت أن الشر لا يحصل إلا من نفسك تبت فزال .

«الثالث» أن الحسنة تضاعف .

«الرابع» أن الحسنة يحبها ويرضاها ، فيجبن أن ينعم ويجب أن يطاع ، ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم إليه والشر إلى محله ، كما قال إمام الحنفاء : ﴿الذي خَلَقَني فهو يَهْدِين﴾ إلى قوله : ﴿وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفين﴾ .

«الخامس» أن الحسنة مضافة إليه . لأنه أحسن بها بكل اعتبار ، وأما السيئة فما قدرها إلا لحكمة .

«السادس» أن الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة ، لأنها إما فعل مأمور أو ترك محظور ، والترك أمر وجودي . فتركه لما عرف أنه ذنب وكراهته له ومنع نفسه منه أمور وجودية ، وإنما يثاب على الترك على هذا الوجه .

وقد جعل النبي ﷺ البغض في الله من أوثق عرى الإيمان ، وهو أصل الترك . وجعل المنع لله من كمال الإيمان وهو أصل الترك . وكذلك براءة الخليل من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركاً محضاً ، بل صادراً عن بغض وعداوة . وأما السيئات فمنشؤها من الظلم والجهل . وفي الحقيقة كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو تم العلم بها لم يفعلها ، فإن هذا خاصة العقل ، وقد يغفل عن هذا كله بقوة وارد الشهوة والغفلة ، والشهوة أصل الشر ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تُطِع مَنْ أَغْفَلْنا قلبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواهُ ﴾ الآية .

«السابع» أن ابتلاءه له بالذنوب عقوبة له على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه .

«الثامن» أن ما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام الله عليه ، فيرجع في ذلك إلى الله ، ولا يرجو إلا هو ، فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره ، وإنما يستحق من الشكر جزاء على ما يسره الله على يديه ، ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله ، فإنه المنعم بما لا يقدر عليه مخلوق ، ونعم المخلوق منه أيضاً ، وجزاؤه على الشكر والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فإذا عرف أن ﴿مَا يفتحُ الله للناسِ مِنْ رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسَلَ لَهُ مِنْ بعْدِهِ﴾[1] صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده ، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له ، والشر انحصر سببه في النفس ، فعلم من أين يؤتى فتاب واستعان بالله ، كما قال

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

بعض السلف : لا يَرْجُونْ عبدُ إلّا ربَّهُ ، ولا يخافُ إلّا ذَنْبَهُ . وقد تقدم قول السلف ابن عباس وغيره : إن ما أصابهم يوم أحد مطلقاً كان بذنوبهم لم يستثن أحد ، وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

«التاسع» أن السيئة إذا كانت من النفس والسيئة خبيثة : كما قال تعالى﴿الخبثاتُ للخبيثين) الآية . قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثات للخبيثين وقال :﴿ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ﴾وقال :﴿إليه يصعدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾والأقوال والأفعال صفات للقائل الفاعل ، فإذا اتصفت النفس بالخبث فمحلها ما يناسبها ، فمن أراد أن يجعل الحيات يعاشرن الناس كالسنانير لم يصلح ، بل إذا كان في النفس خبث طهرت حتى تصلح للجنة ، كما في حديث أبي سعيد الذي في الصحيح ، وفيه : «حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة »[1] .

فإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمح في السعادة التامة مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله : ﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ ﴿ فَمَنْ يَعملْ مِثقالَ ذرةٍ خَيراً يَرَهُ ﴾ إلخ ، وعلم أن الرب عليم حكيم ، رحيم عدل ، وأفعاله على قانون العدل والإحسان ، كما في الصحيح «يمين الله ملآى » إلى قوله :«والقسط بيده الأخرى »[2] وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل .

إلى أن قال : ومن سلك مسلكهم غايته إذا عظم الأمر والنهي أن يقول - كما نقل - عن الشاذلي - يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية تستلزم تعطيل الأمر والنهي ، مما يوجب أن يجوز عنده أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما في حزب الشاذلي . وآخرون من عوامهم يجوزون أن يكرم الله بكرامات الأولياء لمن هو فاجر وكافر ، ويقولون : هذه موهبة ، ويظنونها من الكرامات وهي من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسحرة والكهان ، كما قال تعالى :﴿ولمّا جاءَهُمْ رسولٌ مِنْ عندِ الله مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ﴾إلى قوله : ﴿هاروتَ وماروتَ﴾[3] ، وصح قوله ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم »[4] .

---

(١) رواه البخاري (في كتاب الرقاق . باب القصاص يوم القيامة) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال . . . الحديث وفيه : يخلص المؤمنون من النار فيسحبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا إذن لهم في دخول الجنة . . الخ انظر البخاري ٨/١٣٨ - ١٣٩ ، ابن حنبل ٣/١٣ ، ٦٣ .

(٢) جزء من حديث صحيح أورده البخاري في تفسير سورة هود بلفظ مختلف وفيه «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سماء الليل والنهار . . . الخ لفظ البخاري ٦/٩٢ : (كتاب التغير . تغير سورة هود)، مسلم (كتاب الزكاة) ١/٣٩٩، والترمذي (كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة)، ابن ماجه المقدمة، ابن حنبل ٢/٣١٣ .

(٣) سورة البقرة الآيات (١٠٠ - ١٠٢).

(٤) جزء من حديث صحيح أورده البخاري ٩/١٠٣ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من =

فعدل كثير من المنتسبين إلى الإسلام إلى أن نبذ القرآن وراء ظهره ، واتبع ما تتلو الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ونهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ، بل يعظم من يأتي ببعض الخوارق .

ثم منهم من يعرف أنه من الشياطين ، لكن يعظمه لهواه ، ويفضله على طريقة القرآن ، وهؤلاء كفار ، قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصيباً من الكتابِ ، يُؤمنون بالجِبْتِ والطّاغوتِ ﴾ الخ .

قال : وفي قوله تعالى : ﴿ مِنْ نَفْسِكَ ﴾ من الفوائد : إن العبد لا يطمئن إلى نفسه ، ولا يشتغل بملام الناس وذمهم ، بل يسأل الله أن يعينه على طاعته ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه دعاء الفاتحة ، وهو محتاج الى الهدى كل لحظة ، ويدخل فيه من أنواع الحاجات ما لا يمكن حصره ، ويبينه أن الله سبحانه لم يقص علينا قصة في القرآن إلا لنعتبر ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، فلولا أن في النفوس ما في نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولكن الأمر كما قال تعالى : ﴿ما يُقالُ لكَ إلاّ ما قَدْ قِيلَ للرسل مِنْ قبلكَ ﴾ وقوله : ﴿أتواصوا به؟ ﴾ وقوله : ﴿تَشابهَتْ قلوبُهُمْ﴾ ، ولهذا في الحديث : « لتسلكن سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به ، وطلب أن يكون شريكاً له ، وكلا هذين وقع .

وقال بعضهم ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف أحوال الناس رأى ما يبغض نظيره وأتباعه حسداً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله من يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى ، ولهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله ألا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

= كان قبلكم) وانظر أيضاً : مسلم (كتاب العلم ـ باب اتباع سنن اليهود والنصارى)، ابن حنبل (المسند) ط الحلبي ٣٢٧/٢ ، ابن ماجه ١٣٢٢/٢ ط فؤاد عبد الباقي الترمذي ٢٦/٩ ـ ٢٨ (كتاب الفتن . باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم) .

فصـــــل

في قـولـه تعـالى : ﴿ مـا أصـابَـكَ من حسنـةٍ فمِنَ الله ، ومـا أصـابَـكَ مِنْ سيِّئَـةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[١] وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة .

(السياق العام للآية)

هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه . قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا خُذوا حِذرَكُمْ ، فانفِروا ثُبـاتٍ ، أو انْفِروا جميعاً ـ الآيات ﴾[٢] إلى أن ذكـر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الـرسول ، والتحـاكم إلى الله وإلى الرسـول ، وردّ ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فكانت تلك الآيات : تبيينا للإيمان والرسول ، ولهذا قال فيها : ﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حتى يُحَكِّمـوكَ فيما شجـرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسِهِمْ حـرجـاً ممـا قَضَيْتَ ، ويُسَلِّمـوا تَسليماً ﴾[٣] .

وهذا جهاد عـما جاء بـه الرسـول ، وقد قـال تعالى : ﴿ إنمـا المؤمنونَ الـذينَ آمنَوا بـالله ورسولِهِ ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ في سبيلِ الله ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كـانَ آباؤكُمْ وأبنـاؤكُمْ وإخوانُكُمْ وأزواجُكُمْ وعشيـرتُكُمْ وأموالٌ اقتـرفتموهـا ، وتجارةٌ تَخْشَـوْنَ كسادَهَا ، ومساكنُ تَرْضَوْنَهَا : أحبَّ إليْكُم مِنَ الله ورسولِهِ ، وجهادٍ في سبيلِهِ ، فتـربّصوا حتى يأتي الله بأمرهِ ، والله لا يَهدي القومَ الفاسِقينَ ﴾[٥] .

وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاجِ وعِمارةَ المسجدِ الحـرامِ كَمَنْ آمَنَ بالله واليـومِ الآخرِ ، وجـاهَدَ في سبيـلِ الله ؟ لا يَستوونَ عنـدَ الله ، والله لا يَهدي القـومَ الـظالمـينَ ، الـذينَ آمنـوا وهـاجَروا وجـاهَـدوا في سبيـلِ الله بـأمـوالِهِمْ وأنفسِهِمْ أعـظم درجـةً عنـد الله ، وأولئـك هُمُ الفائزونَ ، يبشرُهُمْ ربُّهم برحمةٍ منهُ ورضوانٍ وجناتٍ . . الآية ﴾[٦] .

---

(١) سورة النساء الآية ٧٤.

(٢) سورة النساء الآية ٧١.

(٣) النساء الآية ٦٥.

(٤) سورة الحجرات الآية ١٥ .

(٥) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٦) سورة التوبة الآيات (١٩ ـ ٢١).

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا هَلْ أدلُّكُم على تجارةٍ تُنْجيكُمْ مِنْ عذابٍ أليم ؟ تُؤمنونَ باللهِ ورسولِهِ ، وتُجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكُمْ وأنفسِكُمْ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمونَ ، يغفرْ لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ، ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ : ذلكَ الفوزُ العظيمُ ، وأخرى تُحبّونها : نصرٌ مِنَ اللهِ وفتحٌ قريبٌ . وبشّرِ المؤمنينَ ، يا أيُّها الذين آمنوا كونوا أنصارَ اللهِ ، كما قالَ عيسى ابن مريمَ للحواريينَ : مَنْ أنصاري إلى الله ؟ قالَ الحواريونَ : نحنُ أنصارُ اللهِ ، فآمنَتْ طائفةٌ مِنْ بني إسرائيلَ ، وكفرت طائفةٌ فأيّدنا الذين آمنَوا على عدوِّهِمْ فأصبحوا ظاهرينَ ﴾[1] .

وذكر بعد آيات الجهاد إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراده الله ، ونهيه عن ضد ذلك . وذكره فضل الله عليه ورحمته في حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له ، وتعليمه ما لم يكن يعلم . وذم من شاق الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء ـ إلى أن بين أن أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بعمل الحسنات التي شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم ، الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ واتّخذَ الله إبراهيمَ خليلاً ﴾[2] .

فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم . وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبدالله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة ، وبين أن ترك الجهاد لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا في بروج مشيدة . فلا ينالون بترك الجهاد منفعة ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ قيلَ لَهُمْ : كُفّوا أيديكُمْ ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاةَ فلما كُتِبَ عليهِمُ القتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشونَ الناسَ كخَشيةِ اللهِ ، أو أشدَّ خشيةً . وقالوا : ربَّنا ، لم كتبْتَ علينا القتال ؟ لولا أخَّرْتنا إلى أجلٍ قريبٍ ؟ قلْ : متاعُ الدنيا قليلٌ . والآخرةُ خيرٌ لمنْ اتّقى . ولا تُظلَمونَ فتيلاً ﴾[3] .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون . وقيل : نافقوا لما كتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جبن وفشل . فكان في قلوبهم مرض . كما قال تعالى : ﴿ فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ محكَمةٌ ، وذُكِرَ فيها القتالُ : رأيْتَ الذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ ينظرون إليك نَظَرَ المغشيِّ عليهِ مِنَ

---

(١) سورة الصف الآيات (١٠ ـ ١٤).

(٢) انظر في تفصيل ذلك : الآيات من ١٠٥ ـ ١٢٥ من سورة النساء .

(٣) سورة النساء الآية ٧٧.

الموتِ فأوْلى لهُمْ ، طاعةُ وقَوْلٌ معروفٌ الآية ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إذ يقول المنافقونَ والذين في قلوبِهِمْ مرضٌ : ما وَعَدَنا الله ورسولهُ إلا غُروراً ﴾[2] .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال: ﴿ أينما تكونوا يدركْكُمُ الموتُ ولَوْ كنتم في بروجٍ مشيَّدةٍ ، وإن تُصْبهُمْ حسنةٌ يقولوا : هذهِ مِنْ عندِ الله ، وإن تُصبهُمْ سيئةٌ يقولوا : هذهِ مِنْ عِنْدِكَ . قلْ : كلٌّ مِنْ عندِ الله . فما لهؤلاء القومِ لا يَكادون يفقهونَ حديثاً ؟ ﴾[3] .

فالضمير في قوله : ﴿وإن تصبهم﴾ يعود الى من ذكر ، وهم :الذين﴿ يخشون الناس﴾ أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما في مواضع كثيرة .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود وقيل : كانوا منافقين . وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعم كل من كان كذلك ، ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأمر بالجهاد أولى .

ثم إذا تناول الذم هؤلاء ، فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى .

(قد يراد بالحسنة والسيئة النعم والمصائب)

والذي عليه عامة المفسرين : أن «الحسنة» و«السيئة» يراد بهما النعم والمصائب ، ليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

ولفظ «الحسنات» و«السيئات» في كتاب الله يتناول هذا وهذا . قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وإنْ تُصِبْكُمْ سيئةٌ يفرحوا بها ، وإنْ تَصبروا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئاً ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ إن تصيبك حسنة يسؤهم ، وإن تصيبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وبَلَوْناهُمْ بالحسناتِ والسيئاتِ لعلّهم يرجعون ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وإنا إذا أذَقْنا الإنسانَ منّا رحمةً فرحَ بها ، وإنْ

---

(١) سورة محمد الآيات (٢٠ ـ ٢١).

(٢) سورة الأحزاب الآية ١٢ .

(٣) سورة النساء الآية ٧٨.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٠ .

(٥) سورة التوبة الآية ٥٠ .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

تُصِبْهُمْ سيئةٌ بما قدّمَتْ أيدِيهِمْ ، فإنّ الإنسانَ كفور ﴾[1] وقال تعـالى ـ في حق الكفار المتـطيرين بموسى ومن معه : ﴿ فإذا جاءَتْهُمْ الحسنةُ قالـوا : لنا هـذه . وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يـطَّيَّروا بمـوسى وَمَنْ مَعَهُ ﴾[2] ذكر هذا بعد قـوله : ﴿ ولقـد أخَذْنـا آلَ فِرعَـوْنَ بالسنـين ونقصٍ من الثمرات لعلّهم يذّكرون ﴾[3] .

(وقد يراد بها الطاعة والمعصية)

وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهي عنها ، ففي مثل قولـه تعالى : ﴿ مَنْ جـاءَ بالحسنـةِ فلهُ خيرٌ منها ، وَمَنْ جاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى الذين عَمِلوا السيئـاتِ إلاّ ما كـانوا يَعْمَلونَ ﴾[4] وقـوله تعالى : ﴿ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ ذلكَ ذكرى للذاكـرينَ ﴾[5] وقولـه تعالى : ﴿ فـأولئكَ يُبَدِّلُ الله سيئاتِهِمْ حسناتٍ ، وكانَ الله غفوراً رحيماً ﴾[6] .

وهنا قال : ﴿ ما أصابَكَ من حسنةٍ فمِنَ الله ، وما أصابَـكَ من سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِـكَ ﴾ ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت كما قال : ﴿ وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيدِيكم ﴾[7] . وقال تعالى : ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَـلْ تَـرَبَّصونَ بنـا إلاّ إحدَى الحسنيينِ ؟ ونحنُ نتربّصُ بكم ، أن يصيبَكُمْ الله بعـذابٍ من عندِهِ أو بأيدينا ﴾[9] . وقال تعالى : ﴿ ولَا يزالُ الذينَ كَفروا تُصيبُهم بما صَنَعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قرِيبـاً من دارِهِمَ ﴾[10]. وقـال تعـالى : ﴿ فـأصـابَتْكم مصيبـةُ المـوتِ ﴾[11]. وقـال تعـالى : ﴿ وبشِّـرِ الصّابِرينَ الذينَ إذا أصابَتْهُمْ مصيبةٌ قالوا : إنّا لله وإنّا إليهِ راجِعُونَ ﴾[12].

فلهـذا كان قـوله : ﴿وما أصابـك من حسنة﴾و﴿من سيئـة﴾متناولاً لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب التي تسوءه .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٢٩ .

(٤) سورة القصص الآية ٨٤ .

(٥) سورة هود الآية ١١٤ .

(٦) سورة الفرقان الآية ٧٠ .

(٧) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٨) سورة المائدة الآية ٥٢ .

(٩) سورة التوبة الآية ٥٢ .

(١٠)سورة الرعد الآية ٣١ .

(١١)سورة المائدة الآية ١٠٩ .

(١٢)سورة البقرة الآية ١٥٦ .

(أقوال السلف في هذه الآية)[1]

فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية :﴿إن تُصِبْهُمْ حسنةٌ يقولوا : هذه من عندِ الله﴾قال : هذه في السراء ﴿وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يقولوا : هذهِ من عندِكَ » قال : وهذه في الضراء .

وقال السدي :﴿إن تصبهم حسنة قالوا﴾والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان﴿قالوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة قالوا﴾ـ والسيئة : الضرر في أموالهم ، تشاؤماً بمحمد ـ «قالوا : هذه من عندك﴾ يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله﴿قلْ كلٌّ من عندِ الله﴾ الحسنة والسيئة﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟﴾قال : القرآن .

وقال الوالبي عن ابن عباس : «ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : ما فتح الله عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبي أيضاً عن ابن عباس : «من حسنة» قال ما أصاب من الغنيمة والفتح فمن الله ، قال : «والسيئة » : ما أصابه يوم أحد ، إذ شج في وجهه ، وكسرت رباعيته ، وقال : أما «الحسنة» فأنعم الله بها عليك : وأما «السيئة» فابتلاك الله بها .

وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس :﴿ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾قال : هذا يوم أحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح «فمن نفسك﴾قال : فبذنبك ، وأنا قدرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره .

وروى أيضاً عن مطرف بن عبد الله بن الشخير . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ ؟ أي من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر ، وقد أمروا به ، وإليه يصيرون .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس :﴿إن تصبهم حسنة﴾ الخصب والمطر﴿وإن تصبهم سيئة» الجدب والبلاء .

---

(١) انظر في هذه النصوص التي تحكي أقوال السلف في تفسير معنى الحسنة والسيئة : تفسير الطبري ١٠٣/٦ ـ ١٠٥ ط الميمنية بمصر ، ولقد ذكر الطبري هذه الأقوال باسنادها إلى السلف ، ابن عباس ، الوالبي ، السدى ، ابن عيينة .

وقال ابن قتيبة﴿ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قال : الحسنة : النعمة ، والسيئة : البلية .

وقد ذكر أبو الفرج في قوله : (ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن «الحسنة » : ما فتح الله عليهم يوم بدر ، و«السيئة» ما أصابهم يوم أحد . قال : رواه ابن أبي طلحة ـ وهو الوالبي : عن ابن عباس .

قال : والثاني : «الحسنة» الطاعة . و«السيئة»: المعصية ، قاله أبو العالية .

والثالث : «الحسنة » : النعمة ، و«السيئة»: البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن أبي العالية نحوه وهو أصح .

(رأي ابن تيمية)

قلت : هذا القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الداري عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثاني : فهو لم يذكر إسناده ، ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد ، وكثير منها ضعيف ، بل كذب ، لا يثبت عمن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهي تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثاني : فليس مراداً دون الأول قطعاً ، ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة في حقه من الله أصابته ، وما يقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التي عملت السيئة .

وإذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذي أوجب الجزاء ، أولى أن يكون من نفسه ، فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن الجميع مقدر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ «فمن نفسك، وأنا قدرتها عليك » .

فصـــــل

(قد تكون المعصية عقوبة على معصية سابقة)

والمعصية الثانية ، قد تكون عقوبة على المعصية الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي ﷺ - في الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : «عليكم بالصدق ، فإن الصدق ، يهدي إلى البر ، والبر يهدي الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدوقاً . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً »[1] .

(والحسنة ثواب على حسنة سابقة)

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية : قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً وإذاً لآتيناهُمْ من لدُنّا أجراً عظيماً ، ولَهَدَيناهم صراطاً مستقيماً ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سُبلنَا ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالَهُم ، سيهديهم ويُصلحُ بالَهُمْ ، ويدخلُهم الجنةَ عرَّفها لهم ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ ثم كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤوا : السُّوأى ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ وكتابٌ مبينٌ يهدي به الله من اتَّبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلامِ ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وآمِنوا برسولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ من رحمَتِهِ ، ويَجْعَلْ لكم نوراً تمشُون به ، ويَغْفِرْ لكم ﴾[7] . وقال تعالى : ﴿ وفي نُسختِها هدىً ورحمةٌ للذين هم لربِّهم يَرهبونَ ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿هذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظةٌ للمتّقينَ ﴾[9] .

---

(١) ورد الحديث في: مسلم ٤٣٨/٢ - ٤٣٩ (كتاب البر والآداب والصلة ، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله) ، وانظر كذلك : أبو داود (كتاب الأدب)، الترمذي [كتاب البر]. ابن ماجه (المقدمة) ابن حنبل ٢/١ .

(٢) سورة النساء الآيات (٦٦ - ٦٨).

(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

(٤) سورة محمد الآيات (٤ - ٦).

(٥) سورة الروم الآية ١٠ .

(٦) سورة المائدة الآية ١٦.

(٧) سورة الحديد الآية ٢٨ .

(٨) سورة الأعراف الآية ١٥٤ .

(٩) سورة آل عمران الآية ١٣٨ .

وقال تعالى : ﴿ قلْ هُوَ للذينَ آمنَوا هدىً وشفاءٌ والذينَ لا يؤْمِنُونَ في آذانِهم وَقْرٌ وهو عليهم عمىً ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذين اتَّقوْا إذا مسَّهمْ طائفٌ منَ الشيطان تذَكّروا فإذا هم مُبْصرونَ . وإخوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ في الغَيِّ ثم لا يقْصِرونَ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ كذلكَ لنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ ، إنهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلصينَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ولما بَلَغَ أَشُدَّهُ آتيناه حُكْماً وعِلْماً ، وكذلكَ نجزي المحسنين ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ولما بلَغَ أشُدَّهُ واسْتَوى آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً وكذلك نَجْزي المحسنينَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ الذينَ كفَروا وصَدُّوا عن سبيلِ الله أضلَّ أعمالَهُمْ . والذينَ آمنَوا وعَمِلوا الصالحاتِ وآمَنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ ـ وهوَ الحقُّ مِنْ ربِّهِمْ ـ كفَّرَ عنهم سيئاتِهِم واصْلَحَ بالَهُمَ ، ذلكَ بأنَّ الذينَ كفروا اتَّبَعُوا الباطل ، وأنَّ الذينَ آمنوا اتَّبَعُوا الحقَّ مِنْ ربِّهم ، كذلكَ يضرِبُ الله للناس أمثالهم ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا اتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً . يُصْلِحُ لكم أعمالَكُمْ ويَغْفِرِ لكم ذنوبَكُمْ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ، فإنْ توَلَّوا فإنما عليهِ ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلْتُمْ ، وإن تُطيعوهُ تَهْتَدوا ، وما على الرسول إلا البلاغُ المبِينُ ﴾[8] .

قال أبو عثمان النيسابوري : من أمّر السنة على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وإنْ تُطيعوهُ تَهْتَدوا ﴾ .

(استطراد في هذه القضية)

قلت : وقد قال في آخر السورة ﴿ فلْيَحْذَرِ الذينَ يُخالِفونَ عَنْ أمرِهِ ، أَنْ تُصيبهُمْ فتنةٌ أو يُصيبهم عذابٌ أليمٌ ﴾[9] . وقال تعالى : ﴿ وما يُشْعِرُكُمْ أنَّها إذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ، ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يُؤمِنُوا به أوّلَ مَرَّةٍ ﴾[10]وقال تعالى : ﴿ إن الّذِينَ تَوَلَّوْا منكم يومَ

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٤ .
(٢) سورة الأعراف الآيات (٢٠١ ـ ٢٠٢) .
(٣) سورة يوسف الآية ٢٤ .
(٤) سورة يوسف الآية ٢٢ .
(٥) سورة القصص الآية ١٤ .
(٦) سورة محمد الآيات (١ ـ ٣) .
(٧) سورة الأحزاب الآيات (٧٠ ـ ٧١) .
(٨) سورة النور الآية ٥٤ .
(٩) سورة النور الآية ٦٣ .
(١٠) سورة الأنعام الآيات (١٠٩ ـ ١١٠).

التقى الجمعان إنما اسْتَزَلَّهُمُ الشيطانُ ببعض ما كسَبوا ، ولقدْ عفَا الله عنهم ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وإذْ قالَ موسى لقومِهِ : يا قوم لِمَ تُؤْذونَني ؟ وقدْ تعلمونَ أني رسولُ الله إلَيْكُمْ ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبَهم والله لا يهدي القومَ الفاسقينَ ـ إلى قوله ـ وَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افْترى على الله الكَذِبَ وهوَ يُدعى الى الإسلام ؟ والله لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وقالوا : قلوبنا غُلْفٌ . بلْ لعَنَهُمْ الله بِكُفْرِهم . فقَّليلاً ما يُؤ مِنونَ ﴾[3] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وقولِهِمْ قلوبُنَا غُلْفٌ . بلْ طبعَ الله عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ . فلا يُؤْمِنونَ إلاّ قليلاً ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ فبُهِتَ الذي كَفَرَ . والله لا يَهدي القومَ الظالمينَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكم كَثْرَتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً . وضاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ . ثم وَلّيتُمْ مُدّبِرينَ ، ثم أنزل الله سكينَتَهُ على رسولِهِ وعلى المؤمنينَ وأنزلَ جُنوداً لم تَرَوْها . وَعذَّبَ الذينَ كفَروا ﴾[6] .

وقال تعالى في النوعين : ﴿ إذ يوحى ربُّك إلى الملائكةِ . أني معكم . فثَبِّتوا الذينَ آمنوا . سأُلقي في قلوبِ الذين كفَروا الرعبَ . فاضْرِبوا فوْقَ الأعناقِ ، واضْربوا منهم كلَّ بنان . ذلكَ بأنّهم شاقّوا الله ورسولَهُ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ سنُلقي في قلوب الذين كَفَروا الرعبَ بما أشرَكوا بالله ما لم يُنَزِّل به سُلْطاناً ، ومأواهُمُ النارُ . وبئس مثْوى الظالمين ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ هو الذي أخرجَ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ من ديارهم لأوَّلِ الحشرِ ، ما ظَنَنْتُمْ أنْ يخرجوا وظنّوا أنهم مانِعَتُهُمْ حصونهم مِنَ الله فأتاهُمُ الله مِنْ حيثُ لم يحتسِبوا وقذفَ في قلوبِهِمُ الرعبَ ، يُخْربونَ بيوتَهم بأيديهم ، وأيدي المؤمنينَ ، فاعْتَبِروا يا أولي الأبصار ، ولولا أن كتَبَ الله عليهِمُ الجلاء لَعَذّبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النارِ ، ذلكَ بأنّهم شاقّوا الله ورسولَهُ، ومَنْ يُشاقِّ الله فإن الله شديدُ العقابِ ﴾[9] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٥ .

(٢) سورة الصف ا لآيات (٥ ـ ٧) .

(٣) سورة البقرة الآية ٨٨.

(٤) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٦) سورة التوبة الآيات (٢٥ ، ٢٦) .

(٧) سورة الأنفال الآيات (١٢ ، ١٣).

(٨) سورة آل عمران الآية ١٥١ .

(٩) سورة الحشر الآيات (٢ ـ ٤).

وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرّوكم إلا أذىً، وإن يُقاتِلوكم يُوَلّوكم الأدبارَ ، ثمّ لا يُنْصَرونَ ، ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلّةُ أينما ثُقِفوا ، إلا بحبلٍ مِنَ الله وحبلٍ مِنَ الناسِ ، وباؤ وا بغضبٍ مِنَ الله وَضُرِبَتْ عليهِمُ المسكنةُ ، ذلكَ بأنهم كانوا يكفُرونَ بآياتٍ الله ، وَيَقْتُلون الأنبياءَ بغير حقٍّ ، ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعتدونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتَولّون الذينَ كفروا ، لِبِئْسَ ما قدَّمَتْ لَهُمْ أنفسهم : أنْ سَخِطَ اللهُ عليهِمْ ، وفي العذاب هُمْ خالِدونَ ، ولَوْ كانوا يُؤْمنون بالله والنبيِّ وما أُنْزِلَ إليهِ ما اتّخَذُوهُمْ أولياءَ ، ولكنّ كثيراً مِنْهُمْ فاسقون ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ولَتَجِدَّن أقْرَبَهُمْ مودّةً للذين آمَنوا الذينَ قالوا إنّا نصارى . ذلكَ بأنَّ مِنْهُمْ قِسّيسينَ وَرُهْباناً . وأنهم لا يَسْتَكْبِرونَ ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أن تُفْسدوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامكُمْ ؟ أولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ الله ! فأصَمَّهُمْ وأَعْمَى أبْصارهُمْ ، أفلا يَتدبّرونَ القرآن ! أمْ على قلوبٍ اقفالُها ؟ إن الذينَ ارْتَدّوا على أدبارِهِمْ ، مِنْ بعدِ ما تَبَيَّنَ لهمُ الهدى : الشيطانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، وأَمْلى لهم . ذلكَ بأنّهم قالوا للذينَ كَرِهوا ما نَزَّلَ الله : سَنُطيعُكم في بعضِ الأمرِ : والله يَعْلَمُ إسْرارَهُمْ ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ الله لئِنْ آتانا مِنْ فضلهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ، ولَنَكونَنَّ مِنَ الصالحينَ . فلما آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخلُوا بِهِ ، وَتَوَلّوْا وَهُمْ مُعْرِضونَ . فأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً في قلوبِهِمْ إلى يومِ يَلْقَوْنَهُ ، بما أَخْلَفوا الله ما وَعَدُوهُ وبما كانوا يَكذبونَ ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ فإنْ رجَعَكَ الله إلى طائفةٍ مِنْهُمْ فاسْتأْذَنوكَ للخروجِ ، فقُلْ : لنْ تخرجوا معي أبداً ، ولَنْ تُقاتلوا معي عَدُوّاً ، إنّكم رَضِيتُمْ بالقُعودِ أوّلَ مَرّةٍ ، فاقعدوا مَعَ الخالِفينَ ﴾[6]. وقال تعالى : في ضد هذا: ﴿وعدكُمُ الله مُغانِمَ كثيرةً تأخُذُونَهَا ، فعَجَّل لكم هذه ، وكفَّ أيديَ الناسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكونَ آيةً للمؤمِنينَ ، ويَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُستقيماً - إلى قوله - ولو قاتَلَكُمُ الذينَ كَفَرُوا لوَلَّوُا الأدبارَ ، ثمّ لا يَجِدون ولياً ولا نصيراً ، سُنَّةَ الله التي قدْ خلتْ مِنْ قبلُ ، ولَنْ تجِدَ لسُنَّةِ الله تبديلاً ﴾[7] .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١١١ ، ١١٢).

(٢) سورة المائدة الآيات (٨٠، ٨١).

(٣) سورة المائدة الآية ٨٢.

(٤) سورة محمد الآيات (٢٢ ـ ٢٦).

(٥) سورة التوبة الآيات (٧٥ ـ ٧٧).

(٦) سورة التوبة الآية ٨٣.

(٧) سورة الفتح الآيات (٢٠ ـ ٣٢) .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم وهذا باب واسع .

فصل

(ذنب الإنسان من نفسه وهو مقدر عليه)

وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت ـ وهي مضرة ـ جاز أن يقال : هي مما أصابه من السيئات ، وهي بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التي يعملها : هي من نفسه ، وإن كانت مقدرة عليه ، فإنه إذا كان الجزاء ـ الذي هو مسبب عنها من نفسه ـ فعمله الذي هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأولى . وكان النبي ﷺ يقول في خطبته : «نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » [1] .

وقال له أبو بكر رضي الله عنه : علمني دعاء فقال «قل : اللهم فاطر السمواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ، أشهد أن لا إله إلا أنتَ . أعوذُ بك من شرِّ نفسي ، وشرِّ الشيطان وشركِهِ ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجرَّه الى مسلم ـ قله إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك » .

فقد بين أن قوله «فمن نفسك» يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال ، مع أن الكل بقدر الله .

فصل

(في إبطال احتجاج المعتزلة بالآية)

وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه : [2]

منها : أنهم يقولون : فعل العبد ـ حسنة كان ، أو سيئة ـ هو منه ـ لا من الله ، بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات ، لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات ، وهذا أحدث إرادة بها السيئات ، وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم .

---

(١) جزء من حديث كان الرسول ﷺ يقوله في خطبة الحاجة وأوله : الحمد لله نستعينه ونستغفره . . الخ رواه الإمام أحمد في سنده انظر : ط دار المعارف ٢٧١/٥ حديث رقم ٣٧٢٠ ، وذكره ايضاً الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم .

(٢) يريد بالقدرية هنا المعتزلة وأسلافهم من القائلين بأن الانسان خالق أفعاله بقدرته المستقلة عن قدرة الله .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات . بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

ولكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاء كما يقوله أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله ، ولا كل السيئات بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثاني : أنه قال : « كلٌ من عندِ الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله ، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال . بل في الجزاء .

وقوله بعد هذا : ﴿ ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة ﴾ مثل قوله : ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ وقوله :﴿وإن تصبهم سيئة ﴾.

(ولا حجة فيها للمجبرة أيضاً)

الثالث : أن الآية اريد بها : النعم ، والمصائب ـ كما تقدم وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفي أعمالهم التي استحقوا بها العقاب ، فإن قوله :﴿كل من عند الله ﴾هو النعم والمصائب ، ولأن قوله :﴿ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ حجة عليهم وبيان أن الانسان هو فاعل السيئات ، وأنه يستحق عليها العقاب ، والله ينعم عليه بالحسنات ـ عملها وجزائها ـ فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله ـ فالنعم من الله ، سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء وإذا كانت جزاء ـ وهي من الله ـ: فالعمل الصالح الذي كان سببها : هو أيضاً من الله أنعم بها الله على العبد ، وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه ـ لكان كل ذلك من نفسه والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنة كما في الحديث الصحيح الإلهي ، عن الله ـ: «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أصابَتْكُمْ مصيبةٌ قَدْ أصبْتُمْ مِثْلَيْها . قلتم : أنّى هذا ؟ قلْ : هُوَ مِنْ عندِ أنفسِكم ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وإنْ تَصبهُمْ سيئةً بما قدّمَتْ أيديهِم إذا هم يَقنطونَ ﴾[3] . وقال

---

(١) هذا جزء من حديث قدسي أوله . يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي . . . الحديث ، والحديث برواية أبي ذر رضي الله عنه ، أورده مسلم ١٦/٨ ـ ١٨ (كتاب البر والصلة . باب تحريم الظلم)، سنن ابن ماجه ١٤٢٢/٢ (كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة) وانظر جامع الرسائل لابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم ص ١٤٨ تعليق ١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٥ . (٣) سورة الروم الآية ٣٦ .

تعالى : ﴿ ظهرَ الفسادُ في البر والبحر بما كسَبَتْ أيدي الناسِ ، ليُذيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا لعّلهم يَرجِعُونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظَلَمُوا أنفسهم ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ وما ظلمْنَاهُمْ ولكن كانوا هُمُ الظالمينَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ لأملأنَّ جهنَم منكَ وممن تَبِعكَ منهم أجمعين ﴾[4] وقال تعالى للمؤمنين : ﴿ ولكنّ الله حبّبَ إليكمُ الايمانَ وزيَّنهُ في قلوبِكم . وكرَّهَ اليكمُ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئكَ هُمُ الراشدون ﴾[5] وقد أمروا أن يقولوا في الصلاة : ﴿ اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ . صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ ، غيرِ المغضوبِ عليهِم ولا الضّالينَ ﴾.

فصل

(ليس في الآية تناقض)

وقد ظن طائفة : أن في الآية إشكالاً ، أو تناقضاً في الظاهر ، حيث قال﴿كل من عند الله﴾ ثم فرق بين الحسنات والسيئات ، فقال :﴿ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية .

وليس في الآية تناقض ، لا في ظاهرها ، ولا في باطنها ، لا في لفظها ولا معناها ، فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، الناكصين عن الجهاد ما ذكره بقوله : ﴿أينما تكونوا يدْرِكْكُمْ الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدةٍ ، وإن تصبْهم حسنةٌ يقولوا : هذه من عندِ الله ، وإن تصبْهم سيئةٌ يقولوا هذه من عندِك ﴾[6] هذا يقولونه لرسول الله ﷺ ، أي بسبب ما أمرتنا به من دينك والرجوع عما كنا عليه : أصابتنا هذه السيئات لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هي المصائب ، والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب : هو امرهم بها .

وقولهم﴿من عندك﴾تتناول مصائب الجهاد التي توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد .

وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطير ، أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه وكما قال أهل القرية للمرسلين . ﴿ إنا

---

(١) سورة الروم الآية ٤١ .

(٢) سورة هود الآية ١٠١ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٧٦.

(٤) سورة ص الآية ٨٥.

(٥) سورة الحجرات الآية ٧.

(٦) سورة النساء الآية ٧٨.

تطيَّرْنا بكم ﴾[1] وكما قال الكفار من ثمود لصالح ، ولقومه . ﴿ أطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾[2] فكانوا يقولون عما يصيبهم ـ من الحرب والزلزال والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو ـ: هو منك ، لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك ، ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السماوية : إنها منك ، أي بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك . أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى : ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يعبدُ الله على حَرْفٍ ، فإنْ أصابَهُ خيرٌ اطْمأَنَّ بِهِ وإنْ أصابَتْهُ فتنةٌ انْقلبَ على وجْهِهِ ، خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾[3] .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بعث به ، مسبباً لشر اصابه . إما من السماء ، وإما من آدمي . وهؤلاء كثيرون . لم يقولوا :﴿هذا من عندك﴾ بمعنى : أنك أنت الذي أحدثتها ، فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لم يحدث شيئاً من ذلك ، ولم يكن قولهم «من عندك﴾خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول ﷺ .

ومن فهم هذا تبين له أن قوله : «ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾لا يناقض قوله : «كل من عند الله » بل هو محقق له ، لأنهم ـ هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة ـ يجعلون ما جاء به الرسول ، والعمل : به سبباً لما قد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمر الله به ، ولو كان مما أمر الله به لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل ، لكن يقدحون في القضية المعينة . فيقولون هذا بسوء تدبير الرسول ، كما قال عبد الله بن ابي بن سلول يوم أحد ـ إذ كان رأيه مع رأي النبي ﷺ : أن لا يخرجوا من المدينة ـ فسأله ﷺ ناس ممن كان لهم رغبة في الجهاد : أن يخرج ، فوافقهم ، ودخل بيته ولبس لأمته ، فلما لبس لأمته ندموا . وقالوا للنبي ﷺ : «أنت أعلم . فإن شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه »[4] يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج . لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحج .

---

(١) سورة يس الآية ١٨ .

(٢) سورة النمل الآية ٤٧ .

(٣) سورة الحج الآية ١١ .

(٤) أنظر تصيل موقف عبد الله بن أبي بن سلول مع رسول الله ﷺ في واقعه أحد وموقف بعض الصحابة في : ابن إسحاق ٥٨٢/٣ ـ ٥٨٤ . ط الحلبي ، وقد ذكر ابن إسحاق موقف الصحابة بالتفصيل وجاء فيه : قالوا يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد . . . فقال لهم الرسول ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

فصـــل

والمفسرون ذكروا في قوله : ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدي ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا ، تشاؤماً بدينه . وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال : بسوء تدبيرك ـ يعني كما قاله عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد ـ وهم كالذين ﴿ قالوا لإخوانِهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾[1] .

فبكل حال : قولهم : ﴿من عندك﴾ هو طعن فيما أمر الله به ورسوله من الإيمان والجهاد ، وجعل ذلك هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين ، كما أصابتهم يوم أحد . وتارة تصيب عدوهم ، فيقول الكافرون . هذا بشؤم هؤلاء ، كما قال أصحاب القرية للمرسلين : ﴿إنا تطيرنا بكم﴾ وكما قال تعالى عن آل فرعون : ﴿ فإذا جاءَتْهم الحسنةُ ، قالوا . لنا هذه . وإن تصبْهم سيئةٌ يطَّيروا بموسى ومن معه ، ألا إنّما طائرهُم عندَ الله ، ولكنَّ أكثرهم لا يَعلمونَ ﴾[2] وقال تعالى عن قوم صالح : ﴿ قالوا اطَّيّرْنا بكَ وبِمَنْ مَعَكَ . قالَ : طائركم عندَ الله . بلْ أنتم قومٌ تُفْتَنونَ ﴾[3] .

ولما قال أهل القرية : ﴿ إنا تطَّيرْنا بكُمْ ، لئِنْ لم تَنْتَهُوا لنَرْجُمَنَّكُمْ ، ولَيَمَسَّنَّكم منا عذابٌ أليمٌ ، قالوا . طائركم معكم . أئن ذُكِّرتم ، بل أنتم قومٌ مُسرفونَ ﴾[4] .

قال الضحاك، في قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله﴾ يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابكم من أمر ، فمن الله ، بما كسبت أيديكم . وقال ابن أبي طلحة . عن ابن عباس «معايبكم» وقال قتادة . «عملهم عند الله » .

وفي رواية غير علي : عملكم عند الله «ولكنكم قوم تفتنون » أي تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبي حاتم وغيره .

وعن أبي إسحاق قال : قالت الرسل . «طائركم معكم » أي أعمالكم .

فقد فسروا «الطائر» بالأعمال وجزائها لأنهم كانوا يقولون . إنما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه : أن طائرهم ـ وهو الأعمال وجزاؤها ـ هو عند الله وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم . كما قال تعالى : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألْـزَمْنَاهُ طائرةُ في

---

(١) انظر أقوال السلف في تفسير الطبري ١٠٣٥ ـ ١٠٥ ط الميمنية .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣١ .

(٣) سورة النمل الآية ٤٧ .

(٤) سورة يس الآيات (١٨ ـ ١٩) .

عُنقِهِ﴾[1] وهو من الله . لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم ، فمن عنده تنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل واتباعهم .

وفي هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال في هذه الآية ـ لما كان المنافقون والكفار ومن في قلبه مرض يقول : هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا ـ بين سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول ﷺ لئلا تصيبه تلك المصائب ، وعلى من انتسب الى الإيمان بالرسول ، ونسبها الى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها الى ما جاء به الرسول .

فصل

والمقصود : أن قوله : ﴿إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله﴾ فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول . وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله . والمصيبة من عند محمد . أي بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله ، لا من عند محمد ، محمد لا يأتي لا بنعمة ولا بمصيبة ولهذا قال بعد هذا : ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟﴾ .

قال السدي وغيره : هو القرآن ، فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه تبين لهم أنه إنما أمَرَهم بالخير ، والعدل والصدق، والتوحيد ، لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب ، فإنهم إذا فهموا ما في القرآن علموا أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم بالأمر به حسنة ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه ، بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل وأتباعهم .

* * *

ومما يوضح ذلك أنه قال : ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله . وِما أصابك من سيئة فمن

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٣ .

نفسك ﴾ قال بعدها : ﴿وأرسلناك للناسِ رسولاً . وكفى بالله شهيدا ﴾ فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : «ما من غازية يغزون في سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، وإن أصيبوا وأخفقوا تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل صالح ، كما قال تعالى : ﴿ ذلكَ بأنه لا يُصيبهُم ظَمأٌ ، ولا نصبٌ ، ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ الله ولا يَطَؤُونَ مَوْطئاً يغيظُ الكفارَ ولا يَنالونَ من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، إنّ الله لا يُضيعُ أجرَ المحسنِينَ ﴾[1] .

وشواهد هذا كثيرة .

فصل

والمقصود : أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سبباً لشيء من المصائب ، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليتميز طيبه من خبيثه ، والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى : ﴿ وتلكَ الأيامُ نُداولُها بينَ الناسِ ، وليَعْلَمَ الله الذينَ آمَنوا ، ويتخذَ منكم شهداء ، والله لا يحبُ الظالمين . وليُمحِّصَ الله الذينَ آمنوا ، ويَمْحَقَ الكافرين ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وليُبْتَلِيَ الله ما في صدوركُمْ . وليُمَحِّصَ ما في قلوبكُمْ ﴾[3] ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿طائرُكم عندَ الله ، بل أنتم قومٌ تُفتنون﴾ .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم ، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه من الشبه التي هي عليهم لا لهم ، بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته والله تعالى قد شهد له :

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٠ .

(٢) سورة آل عمران الآيات (١٤٠ ـ ١٤١) .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .

أنه أرسله للناس رسولاً . فكان ختم الكلام بهذا إبطالاً لقولهم ، إن المصائب من عند الرسول ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿مَنْ يطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله . ومَنْ تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ .

فصل

وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم[1]، من يقول : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب ، وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم ، فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .

والقرآن لم يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .

فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهي حجة على الفريقين .

* * *

فإن قال نفاه القدر : إنما قال في الحسنة «هي من الله» وفي السيئة «هي من نفسك» لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .

قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاءه . وما لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضة على الطاعة دون المعصية ، فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا «الحسنة من عند الله ، والسيئة من عندك» أرادوا : من عندك يا محمد ، أي بسبب دينك ، فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب ، وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أُريد : أن الطاعة والمعصية ـ مما قد قيل ـ كان قوله﴿كل من عند الله﴾ حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾لا ينافي ذلك . بل «الحسنة» أنعم الله بها وبثوابها . و«السيئة» هي من نفس الإنسان ناشئة ، وإن

---

(١) يقصد ابن تيمية بالجهمية المجبرة هنا الأشاعرة : وخاصة من يقول منهم أن الله يفعل لا لحكمة ، وأنه قد يثيب العاصي ويعذب الطائع .

كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى ﴿ من شر ما خلق ﴾[1] فمن المخلوقات ما له شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وأنتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلاً وهذا فاعلاً ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها . وهذا مخالف للقرآن .

فصل

(الحسنة من الله)

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة فما الفرق بين الحسنات ، التي هي النعم ، والسيئات ، التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟

قيل : لفروق بينهما :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عبادة تقع ابتداء بلا سبب منهم أصلاً ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر . وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشيء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً ، ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل ، وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعلمه .

الفرق الثاني : أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة : ﴿ الحمدُ لله الذي هَدانا لِهَذا . وما كنّا لنهتدي لولا أنْ هَدانا الله ﴾[2] .

وفي الحديث الصحيح : «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[3] .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة ، هو من نعمته ، ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به ، هو من نعمته ، وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين ، هو من نعمته ، كما قال تعالى : ﴿ ولكنّ الله حَبَّبَ اليكمُ الايمانَ ، وزَيَّنَهُ في قلوبِكُمْ . وكَرَّه إليكمُ

---

(١) سورة الفلق الآية ٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٣) جزء من حديث قدسي أوله «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي». وسبق تحقيق الحديث .

الكفر والفُسوقَ والعِصيانَ أولئك همُ الراشدونَ. فضلاً مِنَ الله ونعمةً ﴾[1] .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله «ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما «السيئة» فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصـــل
(الاستعاذة من شر النفس)

فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله ، فشكر الله ، فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ونعماً يفيضها عليه ، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان ﷺ يقول في خطبته : «الحمد لله » فيشكر الله . ثم يقول : «نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول : «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستغيذ به من الشر الذي في النفس ، ومن عقوبة عمله ، فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه ، فيستعيذ بالله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله فاستعانة على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه : يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ؛ بعد أن جمع بينهما في قوله :﴿ قل كلٌّ مِنْ عندِ الله ﴾ .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها في ﴿ من عند الله ﴾ .

ثم بين الفرق الذي ينتفعون به . وهو أن هذا الخير من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم ،

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧.

وهذا الشر من ذنوبكم . فاستغفروه يدفعه عنكم .

قال الله تعالى : ﴿ وما كانَ الله ليُعَذِّبهُمْ وأنت فيهم . وما كان الله مُعذبهُمْ وهم يستغفِرون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ آلر كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ، ثمّ فصِّلت مِنْ لدُنْ حكيمٍ خبيرٍ أن لا تعبدوا إلا الله . إنّني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ ، وأن اسْتَغْفروا ربَّكُمْ ثم توبوا إليه ، يمتِّعْكُمْ متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى ، ويُؤْتِ كلَّ ذي فضلٍ فَضْلَهُ ﴾[2] .

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين كآدم وغيره ، وإذا أصر واحتج بالقدر: فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيهاً على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر ﷺ بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول : «اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو اجره الى مسلم » .

فيستغفر مما مضى ، ويستعيذ مما يستقبل ، فيكون من حزب السعداء .

وإذا علم أن الحسنة من الله ـ الجزاء والعمل ـ سأله أن يعينه على فعل الحسنات ، بقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وبقوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وقوله: ﴿ ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذْ هَدَيْتنا ﴾[3] ونحو ذلك :

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل من هذه التسوية ، إعراض العاصي والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه : أن يحتج على الله بالقدر ، وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه . بل تزيده عذاباً وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال : ﴿ فبما أغْوَيْتَني لأقْعُدَنَّ لهم صراطَكَ المستقيمَ ﴾[4] وقال : ﴿ ربِّ بما أَغْوَيْتَني لأُزيِّنَنَّ لهمْ في الأرضِ ولأغوِيَنَّهُمْ أجمعين ﴾[5] .

وكالذين يقولون يوم القيامة : ﴿ لو أن الله هداني لكنتُ من المتّقينَ ﴾[6] . وكالذين

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٣.
(٢) سورة هود الآيات (١ ـ ٣).
(٣) سورة آل عمران الآية ٨.
(٤) سورة الأعراف الآية ٦.
(٥) سورة الحجر الآية ٣٩.
(٦) سورة الزمر الآية ٥٧.

قالوا : ﴿ لَوْ شاء الله ما أشركنا ولا آباؤ نا ولا حرَّمْنا من شيءٍ ﴾[1] .

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع .

فصـــــل

(الله يضاعف الحسنة من كل وجه)

الفرق الثالث ـ أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويثيب على الهمّ بها والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهمّ بها ، فيعطي صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل . وصاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أمْثالها ، ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فلا يُجْزَى إلا مِثْلها ، وهُمْ لا يُظلمونَ ﴾[2] .

الفرق الرابع ـ أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة اليه . وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه . فإن الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح : «والخير بيديك ، والشر ليس إليك »[3] فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير ، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئي إضافي ، فإما شر كلي . أو شر مطلق ، فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس إليه .

وأما الشر الجزئي الإضافي : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر اليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله : ﴿ وخلقَ كلَّ شيءٍ ﴾[4] .

وإما أن يضاف الى السبب كقوله : ﴿ مِنْ شرِّ ما خَلَقَ ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٠ .

(٣) دعاء الاستفتاح رواه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب ٢/١٨٥ . (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه) : وفيه : لبيك وسعديك . الخير بيديك والشر ليس إليك » وأنظر كذلك : مسند ابن حنبل ١/١٣٤ (ط دار المعارف) حديث رقم ٨٠٢ ـ ٨٠٥.

(٤) سورة الفرقان الآية ٢ .

(٥) سورة الفلق الآية ٢ .

وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن : ﴿ وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمَنْ في الأرضِ ، أم أراد بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾[1] .

* * *

وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل :

فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون ، لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .

وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة ، بل قالت إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة وما ثم فعل تنزه عنه ، بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله وجوزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية . وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن يعذب الأنبياء ، وينعم [على] الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول. قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرحوا السيئاتِ : أنْ نَجعلهُمْ كالذينَ آمنَوا وعَمِلوا الصّالحاتِ سواءً مَحياهُمْ وَمَماتُهُمْ ؟ ساء ما يَحكمونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ أَفنَجْعَلُ المسلمينَ كالمجرِمينَ ؟ ما لكم كيفَ تحكمونَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ كالمفسدينَ في الأرض ، أَمْ نَجعَلُ المتَّقينَ كالفُجّار ﴾[4] ونحو ذلك ، يوجب أن يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء . وأن من جوز عليه التسوية بينهما ، فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة ، يكون شراً كلياً عاماً ، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خير ومصلحة للعباد ، كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضي : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها أنبياءه الصادقين ، فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

---

(١) سورة الجن الآية ١٠ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢١ .

(٣) سورة القلم الآيات (٣٥ ، ٣٦) .

(٤) سورة ص ا لآية ٢٨ .

وليس هذا كالملك الظالم ، والعدو . فإن الملك الظالم : لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم . خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه ، فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها الى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول ـ أي يدعي ـ أنه نبي : فلو أيده الله تأييد الصادق ، للزم ان يسوي بينه وبين الصادق ، فيستوي الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا ما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبي ﷺ بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبؤون الكاذبون : فلا يطيل تمكينهم . بل لا بد أن يهلكهم ، لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ ولَوْ تَقَوَّل علينا بعض الأقاويلِ ، لأخذْنا منهُ باليمين ، ثم لَقَطَعْنا منهُ الْوَتِينَ ﴾[1]. وقال تعالى : ﴿ أَمْ يقولونَ افْتَرَى على الله كَذِباً . فإنْ يَشإِ اللهَ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾[2] فأخبر أنه ـ بتقدير الإفتراء ـ لا بد أن يعاقب من افترى عليه .

فصل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس ، فاستدلت القدرية النفاة[3] والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس . وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة امره ، جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام . وبين الشر الإضافي والشر المطلق . ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

---

(١) سورة الحاقة الآيات (٤٤ ـ ٤٦).

(٢) سورة الشورى الآية ٢٤ .

(٣) يقصد بالنفاة المعتزلة وموقفهم من قضية العدل الإلهي والحكمة الإلهية .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال . فإنا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة[1] : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص ، وإنما يعلم أنه لا يفعل ما لا يفعل ، أو يفعل ما يفعل ، بالخبر ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فمهما قدر : جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله . ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضي التخصيص ببعض الأفعال دون بعض بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها الى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجزة فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فيلزم ـ مع الكفر بالأنبياء ـ أن لا يعلم الفرق ، لا يسمع ولا يعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها ، بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالإضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع وبين خطأ الطائفتين ، وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً في الخبر ـ ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التي بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها . هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول ، كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصل

(الشر لا يضاف الى الله إلا على وجوه)

والمقصود هنا : الكلام على قوله :﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾وأن هذه تقتضي : أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر : أن الشر لا يضاف الى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة الأقسام الثلاثة ، هو سبحانه : الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء . وفي الصحيح

---

(١) يقصد بهم الأشاعرة وموقفهم من قضية القدرة والإرادة الإلهية .

وعن النبي ﷺ «أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها»[1] وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[2] .

وقد قال سبحانه : ﴿ نبِّيءْ عِبادي : أنّي أنا الغفُور الرحيمُ ﴾[3] ثم قال : ﴿ وأنّ عذابي هُوَ العذابُ الأليمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أنّ الله شديدُ العقابِ وأنَّ الله غَفُورٌ رحيمٌ ﴾[4] فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهي من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذي خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة ، فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

* * *

وقوله﴿وما اصابك﴾إما أن تكون كاف الخطاب له ﷺ - كما قال ابن عباس وغيره - وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك ﴿ وأرسلناك للناس رسولاً ﴾ .

وإما أن تكون لكل واحد من الآدميين ، كقوله ﴿ يا أيُّها الإنسانُ ، ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريمِ ﴾[5] .

لكن هذا ضعيف ، فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه ، وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه ، فلو أريد ذكرهم لقيل : «ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم ، وإذا كان هذا حكمة كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى ، كما في مثل قوله : ﴿ اتّقِ الله ولا تُطِعَ الكافِرينَ والمنافقينَ ﴾[6]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٨/٨ (كتاب الأدب . باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته) وفيه : قدم على النبي ﷺ سبي ، فإذا أمرأة من السبى قد تحلب ثديها تسقى إذا وجدت صبياً في السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي ﷺ : أترون هذه طارحة ولدها في النار .؟ قلنا : لا . وهي تقدر على ألا تطرحه : فقال لله أرحم بعباده من هذه بولدها . وانظر أيضاً سنن ابن ماجه ١٤٣٦/٢ ، جامع الرسائل ص ١٢٧ تعليق ١ .

(٢) سورة النحل الآية ٥٣ .

(٣) سورة الحجر الآيات (٤٩ - ٥٠).

(٤) سورة المائدة الآية ٩٨ .

(٥) سورة الانفطار الآية ٦ .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٢ .

وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ اشركْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[1] وقوله : ﴿ فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أَنْزَلْنا إليك فأسألِ الذين يقرؤ ون الكتابَ مِنْ قبلِكَ ﴾[2] .

(خطاب القرآن نوعان)

ثم هـذا الخطاب نـوعان . نـوع يختص لفـظه بـه . لكن يتنـاول غيـره بـطريق الأولى ، كقوله : ﴿ يا أيُّها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمْ ما أحـلَّ اللهُ لكَ ، تبتغي مـرضاةَ أزواجِـكَ ﴾ ثم قال : ﴿ قـدْ فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانِكُمْ ﴾[3] .

ونوع : قد يكون خطابه به خطاباً لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين ، الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك ، بـل هو المقـدم . فالخـطاب له خـطاب لجميع الجنس البشري . وإن كان هو لا يقع منه ما نهي عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هـذا يقع من غيـره . كما يقول ولي الأمر للأمير : سافـر غداً الى المكـان الفلاني . أي أنت ومن معـك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شيء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله : ﴿ما أصابـك من حسنة فمن الله ومـا أصابـك من سيئة فمن نفسك ﴾ الخطاب لـه ﷺ وجميع الخلق داخلون في هـذا الخطاب بـالعمـوم ، وبـطريق الأولى . بخـلاف قـولـه : ﴿وأرسلناك للناسِ رسولاً﴾ فإن هذا له خـاصة . ولكن من يبلغ عنـه يدخـل في معنى الخطاب كما قال ﷺ : «بلِّغوا عني وَلَوْ آيةً »[4]. وقال : «نضّرَ اللهُ امرءاً سمِعَ منّا حديثاً فبلّغهُ إلى مَنْ لم يَسْمَعْهُ »[5]، وقال : «لِيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ »[6]، وقال: «إنّ العلماءَ ورثـةُ الأنبياءِ »[7]، وقـد قال تعالى في القرآن : ﴿ وأُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[8] .

* * *

والمقصود هنا : أن «الحسنة» مضافة إليه سبحـانه من كـل وجه . و«السيئـة» مضافـة إليه

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٥.

(٢) سورة يونس الآية ٩٤.

(٣) سورة التحريم الآيات (١، ٢).

(٤) ورد الحديث في البخاري (كتاب الأنبياء) باب الترمذي (كتاب العلم)، الدارمي في المقدمة ، ابن حنبل ١٠٤/٣ .

(٥) رواه ابن ماجه في المقدمة وفي (كتاب المناسك) .

(٦) ورد الحـديث في البخاري ٢٦/١، ٣٧ (كتـاب العلم . باب قـول النبي رب مبلغ أوعى من سـامـع)، مسلم (كتـاب الحج) ، ترمذي (كتاب الحج)، النسائي (الحج) ، ابن ماجه (مقدمة) . ابن حنبل ٥٢١/٤ .

(٧) ورد الحديث في البخاري ٢٦/١ ، ٢٧ (كتاب العلم . باب العلم قبل القول والعمل) .

(٨) سورة الأنعام الآية ١٩ .

لأنه خلقها كما خلق «الحسنة» فلهذا قال :﴿كل من عند الله﴾ . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً . لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل ، لأن المراد بقوله : ﴿ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة﴾ النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه ـ لأنه أذنب ـ فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب ، وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله :﴿كل من عند الله » كما تقدم ، لأنها لا تضاف الى الله مفردة ، بل إما في العموم ، كقوله :﴿كل من عند الله﴾

وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا «الضار النافع ، المعطي المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله : ﴿ إنّا مِنَ المجرمينَ منتقمون ﴾[1] .

وكل ما خلقه ـ مما فيه شر جزئي إضافي ـ ففيه من الخير العام الحكمة والرحمة أضعاف ذلك .

مثل : إرسال موسى إلى فرعون ، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه ، وذلك شر بالإضافة إليهم ، لكن حصل به ـ من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والإعتبار بقصة فرعون ـ ما هو إلا خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به . كما قال تعالى : ﴿ فلمّا آسفُونا انْتقَمْنا منهم فأغْرقْناهُمْ أجمعينَ . فجعلناهُم سلفاً ومَثلاً للآخِرينَ ﴾[2] وقال تعالى : بعد ذكر قصته : ﴿ إنّ في ذلك لعبرةً لِمَنْ يخشى ﴾[3] .

وكذلك محمد ﷺ . شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب ، وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه ، ولكن سعد بها أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقي به من أهل الكتاب كانوا مبدلين مجرمين قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ ، فأهلك الله بالجهاد طائفة ، واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم ، لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم .

---

(١) سورة السجدة الآية ٢٢ .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٥٥، ٥٦) .

(٣) سورة النازعات الآية ٢٦ .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدي منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافي ، لما في ذلك من الخير والحكمة أيضاً ، إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلاً ، بل هو شر بالأضافة .

فصـــل
(الثواب على فعل الحسنة حبّا لها)

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته الحسنة وقدرته وخلقه ، ليس في الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودي ، وكل موجود وحادث فالله هو الذي يحدثه .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به أو ترك منهي عنه والترك : أمر وجودي . فترك الإنسان لما نهي عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هوِيَته ، وأشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات ـ كالعدل والصدق ـ حسنة وفعله لها أمور وجودية .

(وعلى ترك السيئة كرهاً لها)

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبّاً لها بنية . وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها قال تعالى : ﴿ ولكنّ الله حبّب إليكُمُ الايمانَ ، وزَّينهُ في قلوبِكُمْ ، وكرَّهَ إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك همُ الراشدونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وأمّا منْ خافَ مقامَ ربِّه ونَهَى النّفس عنِ الهَوَى فإنّ الجنةَ هيَ المَأْوَى ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ إنّ الصلاةَ تَنْهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ ﴾[3] .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧٧.

(٢) سورة النازعات الآية ٤ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكرهُ أن يرجعَ في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكرهُ أن يُلقى في النار »(١) .

وفي السنن عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ : «أوثق عرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله »(٢) .

وفيها عن أبي أمامة عن النبي ﷺ : «من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان »(٣) .

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »(٤) .

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ـ لما ذكر الخلوف ـ قال : «من جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »(٥) .

وقد قال تعالى : ﴿ قدْ كانَتْ لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والذينَ معَهُ . إذا قالوا لقومِهِمْ : إنّا بُرآءُ منكم ومما تَعبدون مِنْ دونِ الله . كفَرْنا بكم . وبدا بَيْنَنا وَبَيْنَكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحدَهُ ، إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيهِ : لَأستغفرنَّ لكَ ، وما أَمْلكُ لكَ مِنَ الله مِنْ شيءٍ ﴾(٦) .

وقال على لسان الخليل : ﴿ إنني بَراءٌ ممّا تعبدونَ ، إلاّ الذي فَطَرني ، فإنه سَيَهدينِ ﴾(٧)
وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ما كنتم تعبدونَ أنتم وآباؤكم الأقدمونَ ؟ فإنهم عدوٌ لي، إلاّ ربَّ العالمينَ ﴾(٨)

---

(١) ورد الحديث في البخاري ١/١٠ (كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان) ، مسلم (كتاب الإيمان)، النسائي (كتاب الإيمان).

(٢) رواه ابو داود في (كتاب السنة) .

(٣) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب السنة) الترمذي (كتاب القيامة) ابن حنبل ٣/١٢٨ .

(٤) ورد الحديث في مسلم ١/٣٩ (كتاب الإيمان ، كون النهي عن المنكر من الإيمان) ، أبو داود (الملاحم) الترمذي (كتاب الرؤيا)، النسائي (الإيمان) ابن حنبل ٣/٤ .

(٥) ورد الحديث في : البخاري في مواضع مختلفة انظر مثلاً ١/٢٢ (كتاب العلم)، مسلم ١/٣٩ ـ ٤٠ (كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان) والترمذي (كتاب الرؤيا)، النسائي (كتاب الإيمان) ، الدرامي (كتاب الرؤيا) الموطأ (كتاب الرؤيا) ، ابن حنبل ٣/١٠٤ والحديث من رواية أبي رافع عن عبد الله بن مسعود عن الرسول ﷺ .

(٦) سورة الممتحنة الآية ٤ .

(٧) سورة الزخرف الآيات (٢٦ ، ٢٧).

(٨) سورة الشعراء الآية ٧٥ .

وقال : ﴿ فلمّا أَفَلَتْ ، قالَ : يا قوم إني بريءٌ مما تُشركونَ . إني وجَّهْتُ وَجْهي للذي فطَر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا مِنَ المشركينَ ﴾ [1] .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ، ومن عابديه : هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه : أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح . وهي تحقيق قول : «لا إله إلا الله » وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلاً صادقاً . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته ، فلا يعبد إلا الله . ويحب أن يعبده ويبغض عبادة غيره . ويحب التوكل عليه وخشيته ودعاءه ويبغض المتوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة في القلب وهي الحسنات التي يثيب الله عليها .

وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يحبها ولا يبغضها ـ فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات ، ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها ، فكأنه لم يفعلها ، فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون والبهيمة ، لا ثواب ولا عقاب .

لكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها ، فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصل

(تنازع العلماء في الترك)

وقد تنازع الناس في الترك . هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة ـ كأبي هاشم ابن الجبائي ـ إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه ويسمون «الذمية» لأنهم رتبوا الذم على العدم لمحض .

والأكثرون يقولون : الترك أمر وجودي ، فلا يثاب من ترك المحظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه ، وهو أن يأمره الرسول ﷺ بالفعل فيمتنع ، فهذا الامتناع أمر وجودي . ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل

---

(١) سورة الأنعام الآيات (٧٨ ، ٧٩) .

عـن عبادة الله وحده بعبادة غيره فيعاقب على ذلك .

(الانسان إما موحد وإما مشرك)

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أنه يكون عابداً لغيره ، يعبـد غيره فيكـون مشـركاً . وليس في بني آدم قسم ثالث ، بـل إما مـوحد ، أو مشـرك ، أو من خلط هذا بهـذا كالمبدلين من أهل الملل . النصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام . قـال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآنَ فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيمِ . إنهُ ليس لهُ سلطانٌ على الذين آمنوا ، وعلى ربِّهم يتوكلونَ إنما سلطانُهُ على الذينَ يَتولَّوْنَهُ والذينَ هُمْ بِهِ مُشـركونَ ﴾[١] . وقـد قـال تعالى : ﴿ إنَّ عبـادي ليسَ لكَ عليهِمْ سلطانٌ إلّا من اتّبَعَـكَ مِنَ الغاوينَ ﴾[٢] . لما قال إبليس ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لهُمْ في الأرضِ ، ولأُغْـوِيَنَّهُمْ أجمعـينَ . إلّا عبـادَكَ منهُم المخلَصـينَ ﴾ قـال تعالى : ﴿ إن عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ إلّا من اتّبعكَ منَ الغاوينَ ﴾[٣] .

فـإبليس لا يغوي المخلصـين . ولا سلطان له عليهم . إنمـا سلطانـه عـلى الغـاوين وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله : ﴿الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ صفتـان لموصـوف واحد فكـل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إليكُمْ يا بني آدمَ : أنْ لا تَعبدوا الشيطانَ ؟ إنَّهُ لكُمْ عدوٌ مبينٌ . وأَنْ أعْبُدوني . هذا صراطٌ مستقيمٌ ﴾[٤] .

وكل من عبد غير الله فأنما يعبد الشيـطان ، وإن كان يـظن أنه يعبـد الملائكـة والأنبياء . وقال تعالى : ﴿ ويومَ يحشرُهمْ جميعاً ، ثمّ يقولُ للملائكةِ: أهَؤُلاء إياكُمْ كانوا يَعْبدونَ ؟ قالوا : سُبحانَكَ أنتَ وَلِيُّنا من دونِهِمْ . بل كانوا يعبدونَ الجِنَّ ، أكثرهُم بهم مؤمنونَ ﴾[٥] .

ولهذا يتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ويخاطبونهم فيظنون أن الـذي خاطبهم ملك أو نبي ، أو ولي . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكاً من الملائكـة ، كما يصيب عباد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات يسمون أسماء ، يقولون : هي أسـماء الملائكـة ،

---

(١) سورة النحل الآيات (٩٨ ـ ١٠٠).

(٢) سورة الحجر : الآية ٤٢.

(٣) سورة الحجر الآيات (٣٩ ـ ٤٠) .

(٤) سورة يس الآيات (٦٠ ـ ٦١).

(٥) سورة سبأ الآيات (٤٠ ، ٤١).

مثل ميططرون وغيره . إنما هي أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء الأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظنه النبي . أو الصالح الذي دعاه . وإنما هو شيطان تصور في صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا الشر يجري لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم ، ويستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به في صورة آدمي راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المستغيث أنه ذلك النبي ، والصالح ، أو أنه سره أو روحانيته ، أو رقيقته تشكل ، أو يقول إنه ملك جاء على صورته . وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميت من دونه ، فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن انه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك . وأنه هو الذي شفع له ، أو هو الذي أجاب دعوته وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلواً في كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو في الحقيقة : عابد للشيطان .

فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن ، وإما عباد للشيطان . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكرِ الرحمنِ نُقَيِّضْ لهُ شيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ ، وإنهُم ليَصُدّونَهُمْ عن السبيلِ ويَحسبونَ أنَّهُمْ مُهتدون . حتى إذا جاءَنا قال : يا ليتَ بَيْني وبيْنَكَ بُعْدَ المشرقَينْ . فبئسَ القرينُ . ولنْ ينفعكُمْ اليومَ إذْ ظلمْتُمْ أنّكُمْ في العذاب مُشتركون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنُوا والذين هادوا والصابئينَ والنصارى والمجوسَ والذينَ أشرَكوا ، إنّ الله يفصِلُ بينهُمْ يومَ القيامَةِ إنّ الله على كلِّ شيءٍ شهيدٍ ﴾[2] .

فبنو آدم منحصرون في الأصناف الستة ، وبسط هذا له موضع آخر .

فصـــل

(الثواب أو العقاب يكون على أمر وجودي)

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات ؛ كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك ـ أمر وجودي .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٦ .

(٢) سورة الحج الآية ١٧ .

وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله - أمر وجودي .

قال تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنَةِ فَلَهُ خيرٌ منها ، وَمَنْ جاءَ بالسيئة فلا يُجزى الـذينَ عملوا السيئـاتِ إلّا ما كـانـوا يَعْملون ﴾[1] . وقـال تعـالى : ﴿ إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنفسكم . وإن أسأتُمْ فلَهَا ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ مَنْ عملَ صالحاً فلنفسِهِ وَمَنْ أسـاءَ فَعلَيْهَا ﴾[3] وقـال تعالى : ﴿ للذينَ أحسنوا الحسنى وزيادةٌ . ولا يَرْهَقُ وجوهَهُمْ قترٌ ولا ذِلّةٌ . أولئك أصحاب الجنـةِ هُمْ فيها خالدون . والذينَ كَسَبوا السيئـاتِ جزاءُ سيئـةٍ بمثلها . وَتَـرْهَقُهُمْ ذِلّةٌ - إلى قـوله - أولئـك أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ثمّ كانَ عاقبَةَ الذينَ أساؤوا : السُّوأى ، أن كذَّبوا بآياتِ الله . وكانوا بِهِ يستهزؤ ونَ ﴾[5] .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملاً ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمـات ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها . مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزيـر ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف - حرم على كل من الزوجين أصـول الآخر وفـروعه - فـإذا آمن ولم يفعل هـذه المحرمـات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع ذلك : فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم فاعتقده: أثيب على اعتقاده . وإذا ترك ذلـك - مع دعـاء النفس إليه - أثيب ثواباً آخر ، كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهـاها كـالصائم الـذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها . فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التي هي ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فـالحسنات التي يثـاب عليها كلهـا وجوديـة ، نعمة من الله تعـالى ، وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذي حبب الإيمان الى المؤمنين ، وزينة في قلوبهم . وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

---

(١) سورة القصص الآية ٨٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٧.

(٣) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٤) سورة يونس الآية ٢٦، ٢٧ .

(٥) سورة الروم الآية ١٠.

فصـــل
(منشأ السيئات عدم العلم النافع)

وأما السيئات : فمنشؤها الجهل والظلم ، فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه اليها .

ولا يترك حسنة واجبة الا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفي الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع الى الجهل ، وإلا فلو كان عـالماً علماً نـافعاً بـأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ، لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل ، ولهذا إذا كان من الحسنـات ما يعلم أنه يضره ضرراً راجحاً ، كالسقوط من مكـان عال ، أو في نهر يغـرقه ، أو المـرور بجنب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمي ماله في البحر ونحو ذلك : لم يفعله ، لعلمه بأن هـذا ضرر لا منفعـة فيه ، ومن لم يعلم أن هـذا يضره ، كـالصبي ، والمجنـون ، والسـاهي ، والغافل ـ فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره ـ مع علمه بما فيه من الضرر عليه ـ فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح . فلا بد من رجحان الخير ، إما في الظن وإما في المظنون ، كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح . فإنه لو جـزم بأنـه يغرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن .

كذلك الذنوب إذا جـزم السارق بـأنه يؤخـذ ويقطع ، لم يسـرق ، وكذلـك الزاني : إذا جزم بأنـه يرجم ، لم يـزن ، والشارب يختلف حـاله . فقـد يقدم عـلى جلد أربعين وثمـانين ، ويديم الشرب مع ذلك ، ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غـير محدودة ، بـل يجوز أن تنتهي الى القتل . إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك الأحـاديث . كما هـو مذكـور في غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضـرر الراجـح لم يفعله ، بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجـو العفو بحسنـات أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيـداً . فيبقى غـافـلاً غير مستحضر للتحريم ، والغفلة من أضداد العلم [1] .

---

(١) لعل في شرح ابن تيمية لمنشأ السيئات ، وارتكاب المعصية ما يلفت نظر القائمين على شؤون العـالم الإسلامي وحكـوماتـه إلى ما في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية من قيم اجتماعية هي عماد البنيـان الاجتماعي السليم . وإن كـان الشرع قـد صاغها في أسلوب ديني فإن ذلك يؤكد لنا مرة أخرى مـا ندعـو إليه وهـو أن الإسلام كـدين يحتضن في شموليتـه المجتمع ومصالحه فيسهر على أمره ويضع له من القوانين ما يكفل له المصلحة أفراداً وجماعات دنيا ودين . فلو أن السارق أو قـاطع الطريق أيقن أن الحد سوف يناله لا محالة لما أقدم أي منهم على جريمته .

فصـــــل

(مصدر الشر . . الجهل . . . واتباع الهوى)

فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قلبَهُ عَنْ ذكرنا واتَّبَعَ هواهُ . وكانَ أمرُهُ فُرُطاً ﴾[1] والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً . بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهى ، وذو حجى .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن ، التي هي منافع لا مضار . كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال : ﴿ يا آدمُ هلْ أدُلُّك على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى . فأكلا منها فَبَدَتْ لهما سَوْآتُهُما ﴾[2] ﴿ وقالَ : ما نَهاكُما ربُّكُما عَنْ هَـذِهِ الشجرةِ إلاّ أَنْ تَكونا مَلَكَيْنِ ، أَوْ تكونا مِنَ الخالدينَ ﴾[3] .

لهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذكرِ الرحمنِ نُقَيِّضْ لهُ شيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ ، وإنّهم لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيلِ ويَحسبونَ أنّهُمْ مُهتدونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فرآهُ حَسَناً ؟ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذين يَدْعَوْن مِنْ دَونِ الله ، فَيَسُبُّوا الله عَدْواً بغيرِ علمٍ . كذلكَ زيَّنّا لِكُلِّ أمةٍ عَمَلَهُمْ . ثم إلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ، فَيُنَبِّئُهُمْ بما كانوا يَعملونَ ﴾[6] .

وقوله : ﴿زينا لكل أمة عملهم﴾ هو بتوسيط تزيين الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير . وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وَكَذلك زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركينَ

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٢) سورة طه الآيات ١٢٠ ، ١٢١.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٣١.

(٥) سورة فاطر الآية ٨.

(٦) سورة الأنعام الآية ١٠٨ .

قَتْلَ أولادهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ . وَلِيَلْبِسوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾[1] .

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم : « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إنما التوبةُ على الله للذينَ يَعملونَ السوءَ بجهالةٍ . ثم يتوبونَ مِنْ قريبٍ ﴾[2] كقوله : ﴿ وإذا جاءَكَ الذينَ يؤمِنُونَ بآياتِنا فقُلْ : سلامٌ عَلَيْكُمْ . كَتَبَ ربُكُمْ على نفسِهِ الرحمةَ : أنهُ مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ . ثم تاب مِنْ بعدهِ وأصلحَ . فإنّهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾[3] . ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

(اقوال السلف)

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية ؟. ﴿ إنما التوبةُ على الله للذينَ يعملون السوء بجهالةٍ ثم يتوبونَ من قريبٍ ﴾ فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال «أجمع أصحاب محمد رسول الله ﷺ على أن : كل من عصى ربه فهو في جهالة ، عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً ـ من شيخ ، أو شاب ـ فهو بجهالة ، وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهل العمد .

وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأ ، أو إثماً عمداً : فهو جاهل حتى ينزع منه ، وراهن ابن أبي حاتم . ثم قال : روي عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك خطأ ، أو عمداً » .

وروي عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ، ولكن من جهالته : حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٣٧ .

(٢) سورة النساء الآية ١١ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٤ .

وعن الحسن البصري : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم ، قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منه ، فإنها جهالة .

قلت : ومما يبين ذلك : قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى اللهَ مِنْ عبادهِ العلماءُ ﴾[1] وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته . فهو عالم . كما قال تعالى : ﴿أمَّن هو قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً ؟ يحذرُ الآخرةَ ، ويرجو رحمةَ ربِّه . قُلْ هَلْ يَستوي الذين يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ ﴾[2] .

وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله .

وقوله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم . فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضي أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود : «كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلاً » .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين ، حصر الأول في الثاني . وهو مطرد ، وحصر الثاني في الأول نحو قوله : ﴿ إنما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِكرَ وخَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ ﴾[3] وقوله : ﴿ إنما أنتَ منذرُ مَنْ يخشاها ﴾[4] وقوله : ﴿ إنما يُؤْمِنُ بآياتنا الذينَ إذا ذكِّروا بها خرّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بحمد ربِّهِمْ وَهُمْ لا يَستكبِرونَ تَتَجافى جنوبُهُمْ عَنِ المضاجعِ ﴾[5] .

ومن ذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم ، وهذا كالاستثناء فإنه من النفي : إثبات عند جمهور العلماء . كقولنا﴿لا إله إلا الله﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولايشفعونَ إلاّ لِمَنْ ارْتَضى ﴾[6] وقوله : ﴿ ولا تنفعُ الشفاعةُ عندَهُ إلاّ لَمنْ أذِنَ لهُ ﴾ وقوله : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ .

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه ، لم يثبت له ما ذكر ، ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى : فيقولون : نفى الخشية عن العلماء ، ولم يثبتها لهم .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٢) سورة الزمر الآية ٩ .

(٣) سورة يس الآية ١١ .

٤) سورة النازعات الآية ٤٥ .

(٥) سورة السجدة الآيات ١٥، ١٦ .

(٦) سورة الأنبياء الآية ٢٨ .

والصواب : قول الجمهور : إن هذا كقوله : ﴿إنما حَرَّمَ ربيِّ الفواحش ما ظَهر منها وما بطنَ ، والإثمَ والبغي بغير الحقِّ ﴾[1] فإنه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتها للجنس . أو لكل واحد ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحج الا مسلم. وذلك أن المستثنى هل هو مقتضٍ أو شرط ؟

ففي هذه الآية وأمثالها : هو مقتض ، فهو عام ، فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف ، فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات . وكل عاص فهو جاهل . ليس بتام العلم . يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان كذلك . فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل مثل عدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

* * *

والعدم : لا فاعل له . وليس هو شيئاً . وإنما الشيء الموجود . والله تعالى خالق كل شيء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله . لكن قد يقترن به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه الى الحسنات وترك السيئات .

والنفس بطبعها متحولة ، فإنها حية . والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «أصدق الأسماء حارث وهمام » فكل آدمي حارث وهمام . أي عامل كاسب ، وهو همام . أي يهم ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء في الحديث : «مثل القلب: مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة ، وللقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً »[2] .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها ، فإذا هداها الله : علمها ما ينفعها وما يضرها فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

فصل

(نوعا الهداية : الفطرة ، الوحي)

والله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين . هما أصل السعادة .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣.

(٢) ورد الحديث في: ابن حنبل ٤/٤١٩.

أحدهما: أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟» ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدين حنيفاً . فطرةَ الله التي فطَرَ الناسَ عَلَيْها لا تبديلَ لخَلْقِ الله . ذلكَ الدينُ القيِّمُ ﴾[2] .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال : «يقول الله تعالى : خلقت عبادي حنفاء . فاجتالهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً »[3] .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له ، تعبده لا تشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى : ﴿ وإذْ أخذَ ربُّكَ من بني آدم مِنْ ظُهورهِمْ ذُرِّيتَهُمْ. وأشهدَهُمْ على أنفسِهِمْ ، ألستُ بربِّكم ؟ قالوا : بلى ، شَهِدْنا. أنْ تقولوا يومَ القيامة : إنا كنّا عَنْ هذا غافلينَ ، أو تقولوا . إنما أشركَ آباؤ نا من قبلُ ، وكنّا ذُرِّيَّةً مِنْ بعدِهِم . أَفَتُهْلِكُنَا بما فعل المبطلون ؟»[4] .

وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع .

الثاني : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى : ﴿ اقرأ

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري ٢/١٣٥. (كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين) كما ذكره البخاري أيضاً بروايات مختلفة طولاً وقصراً في (كتاب التفسير . تفسير سورة الروم) ، (كتاب القدر ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين) مسلم ٨/٥٢ - ٥٤ (كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة)، أبو داود ٤/٣١٦ - ٣١٨ (كتاب السنة ، باب في ذراري المشركين) ، الترمذي (كتاب القدر)، المسند (ط دار المعارف) ١٢/١٦٩ - ١٧٠ حديث رقم ٧٩٦٨.
وانظر منهاج السنة النبوية ٢/٢٣٥ هامش ١ . وفيه قال الأستاذ المحقق :
أما قوله ﷺ : كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ فأكثر أهل اللغة على أن الفعل «نتج» لا يكون إلا مبنياً للمجهول وقال النووي في شرح مسلم: ١٦/٢٠٩. (جمعاء) بالمد : أي مكتملة الأعضاء سليمة من نقص لا يوجد فيها : (جدعاء) بالمد : وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ، ومعناه : إن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها : وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) ورد الحديث في : مسلم ٢/٥٤٢ - ٤٣ ص (كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) ط الحلبي والحديث من رواية عياض المجاشعي عن الرسول ﷺ .

(٤) سورة الأعراف الآيات (١٧٢ ، ١٧٣).

باسمِ ربِّك الذي خلقَ . خلقَ الإنسانَ مِنْ علقٍ . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علّمَ بالقلمِ . علّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلمْ ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ الرحمنُ علّم القرآنَ . خلقَ الإنسانَ علّمَهُ البيانَ ﴾[2] قال تعالى : ﴿ سبِّحْ اسم ربِّكَ الأعلى . الذي خَلَقَ فسَوّى . والذي قدَّرَ فهَدى ﴾[3] .وقال تعالى : ﴿ وهَدَيْنَاهُ النَّجْدينِ ﴾[4] .

ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبته له . وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم ، يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل في فطرته محبة لذلك . لكن قد يعرض الإنسان ـ بجاهليته وغفلته ـ عن طلب علم ما ينفعه .

وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريده : أمر عدمي ، لا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

(النفس لا بدّ لها من مراد تطلبه)

لكن النفس ـ كما تقدم ـ الإرادة والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها . فلا هي حية متنعمة بالحياة ، ولا هي ميتة مستريحة من العذاب . قال تعالى : ﴿ فذكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكرى. سيَذَّكرُ مَنْ يخشى . ويَتَجَنَّبُها الأشقى . الذي يصلى النار الكُبرى . ثم لا يموتُ فيها ولا يحيى ﴾[5] فالجزاء من جنس العمل . لما كان في الدنيا : ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الإحساس : كان في الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينتفع به الحي ويستلذ به . والحي لا بد له من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة لم يحصل له مقصود الحياة . فإن الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حي في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس اللازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث همام . فإن

---

(١) سورة العلق الآيات (١ ، ٥).

(٢) سورة الرحمن الآيات (١ ، ٣).

(٣) سورة الأعلى الآيات (١ ، ٣).

(٤) سورة البلد الآية ١٠ .

(٥) سورة الأعلى الآيات (٩ ، ١٣).

عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته . فذلك من تمام إنعام الله عليها . وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده . وهذا عدم لا يضاف الى فاعل . ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود . فعبدت غيره ، وهذا هو الشر الذي تعذب عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

(السيئة لا تضاف الى الله لوجهين)

والقدرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريداً لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول . أي قابلاً لأن يريد هذا وهذا .

وأما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله . وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً . فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شيء وهو الذي ألهم النفس ـ التي سواها ـ فجورها وتقواها .

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه : «اللهم آت نفسي تقواها وزكها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره . وجعل فرعون وآله أئمة يدعون الى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً الى الله تعالى ، لوجهين .

من جهة علته الغائية .

ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحكمة هي باعتبارها خير ، لا شر ـ وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهم . أن الله يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه لأحد ، لا لحكمة ولا رحمة ، والأخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل ، محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون في الأرض . كان هذا ذماً لهم ، وكان باطلاً ، وإذا قيل . يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك . كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم ، أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، وهو أرحم الراحمين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والخير كله بيديه ، والشر ليس

إليه ، بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة . فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة ؛ كان هذا حقاً ، وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل . إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحد ، ولا له فيها حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب . لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولاثناء عليه ، بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول في بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينا بعض ما في خلق جهنم وإبليس من السيئات . من الحكمة والرحمة . وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين . ومالك يوم الدين . الأحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . الذي لا يحصي العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه يرجعون . الذي يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ، ولإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لما له في نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده ، هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

* * *

وقد ذكرنا ـ في غير هذا الموضع ـ ما قيل من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين. يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه،وهو من الآية. ولهذا قال في آخر سورة النجم ﴿ فبأيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى ؟ ﴾[1] وفي سورة الرحمن يذكر : ﴿ كلّ مَنْ عليها فانٍ ﴾[2] ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربكما تُكذِّبانِ ؟ ﴾ .

وقال آخرون : منهم الزجاج[3] وأبو الفرج بن الجوزي[4] : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

---

(١) سورة النجم الآية ٥٥ .

(٢) سورة الرحمن الآيات ٢٦ ، ٢٨ .

(٣) هو إبراهيم بن السوس بن سهل « أبو اسحاق الزجاج » النحوي اللغوي المعروف المتوفى سنة ٧١١ هـ له مؤلفات كثيرة في اللغة والنحو والتفسير . ومن أشهرها « معاني القرآن » ، أنظر ترجمته في : وفيان الأعيان ١ /٣١ ـ ٣٣ معجم الأدباء ١ / ١٣٠ ـ ١٥١ ، أنباء الرواة ١٥٩/١ ؛ الأعلام ١ /٣٣ .

(٤) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، الإمام العلامة صاحب المؤلفات الكثيرة في الفقه والكلام والتفسير ، توفي سنة ٥٩٧ هـ ومن كتبه الشهيرة « زاد المسير في علم التفسير » ويوجد منه نسخة خطية ، انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ٢ /٤٢١ ـ ٤٢٢ ؛ تاريخ ابن الوردي ٢ /١١٨ ، الذي على طبقات الحنابلة لابن رجب ١ /٣٣٩ ـ ٤٢٣ ، الكامل لابن الأثير (ط الحلبي) ١٠ /٢٢٨ ، الأعلام ٤ /٨٩ ـ ٩٠ .

أي من الأشياء المذكورة ؛ لأنها كلها ينعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته . وفي رزقه إياكم ما به قوامكم .

وهذا قالوه في سورة الرحمن .

وقالوا في قوله : ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى؟﴾ فبأي نعم ربك التي تدلّ على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب ؟ .

قلت : قد ضمن « تتمارى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التماري تفاعل من المراء . يقال : تمارينا في الهلال . والمراء في القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم قال « تتمارى » أين يتمارون ، ولم يقل : تميرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للإنسان . قيل للوليد بن المغيرة . فإنه قال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ الذي وفّى : أنْ لا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ﴾[1] ثم التفت إليه فقال﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ تكذبان . كما قال ﴿ خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصالٍ كالفخارِ . وخلقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ . فبأيِّ آلاءِ ربكما تُكَذِّبانِ ؟ ﴾[2] .

ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالثقلين المخاطبين بقوله﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟﴾ من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذي يسعدون به في الدنيا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التي بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوهم - كما ذكره في سورة النجم ﴿ وأَنَّهُ أهلكَ عاداً الأولى وثمودَ ، فما أبقى . وقومَ نوحٍ مِنْ قبلُ ، إنهم كانوا هُمْ أظلَم وأطغى . والمؤتفكةَ أهْوَى . فَغَشّاها ما غَشّى ﴾[3] يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ هذا نذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى ﴾ قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيرا . فقال في رسول الله ﴿ إنْ أنا إلّا نذيرٌ وبشيرٌ

---

(١) سورة النجم الآيات (٣٦ - ٣٨) .

(٢) سورة الرحمن الآيات (١٤ - ١٦) .

(٣) سورة النجم الآيات (٥٠ - ٥٣) .

لقوم يُؤمِنونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أرسلناكَ شاهِداً ومبشِّراً ونذيراً ﴾[2] وقال تعالى في القرآن ﴿ كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآناً عربياً لقومٍ يَعلمونَ . بشيراً ونذيراً ﴾[3] وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أي من جنسها . أي رسول من الرسل المرسلين .

ففي المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

فأفضل النعم : نعمة الإيمان ، وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى : ﴿ لقدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأولي الألبابِ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وذكرى لكل عبدٍ مُنيبٍ ﴾[5] .

(الصبر والشكر على السّراء والضّراء)

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينه . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه . ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿ وَعَسى أنْ تَكرهوا شيئاً وهوَ خيرٌ لكم . وَعَسَى أنْ تُحِبّوا شيئاً وهوَ شرٌ لكم . واللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تَعْلَمُونَ ﴾[6] .

وقد قال في الحديث : « والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً[7] له إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وإذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج إلى الصبر

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

(٢) سورة الفتح الآية ٤٨ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢ .

(٤) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٥) سورة ق الآية ٨ .

(٦) سورة البقرة الآية٢١٦ .

(٧) ذكره ابن حنبل : ٣ ـ ١١٧ .

على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفي الحديث « أعوذ بك من فتنة الفقر . وشر فتنة الغنى »[1] .

والفقر يصلح عليه خلق كثير . والغنى : لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ، لأن فتنة الفقر أهون . وكلاهما يحتاج الى الصبر والشكر ، لكن لما كان في السراء : اللذة . وفي الضراء الألم . اشتهر ذكر الشكر في السراء ، والصبر في الضراء ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنا الإنسانَ منّا رحمةً ثم نَزَعْناها مِنْهُ ، إنَّهُ لَيَؤوسٌ كَفورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نعماءَ بعدَ ضراءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذهبَ السيئاتُ عني ، إنهُ لَفَرِحٌ فخورٌ . إلا الذينَ صَبَروا وَعَمِلوا الصالحاتِ ، أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ ﴾[2] ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر . فإنّ صبْرَ هذا وشكْرَ هذا واجبٌ إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات ، وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر ـ الذي هو حسنات ـ يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء ، لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره في الشكر مما يغفر له ، لما يأتي به من الصبر ، فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

والمقصود هنا . أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الإبتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الانسان ، فهي من نفسه . ومع هذا فهي ـ مع حسن العاقبة ـ نعمة وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان أحسن الدعاء قوله : « اللهم لا تجعلني عبرة لغيري ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني » .

---

(١) جزء من حديث استعاذة الرسول من فتنة الغنى والفقر . ذكره البخاري في : ٨ ـ ١٠٠ (كتاب الدعوات . باب التعوذ من فتنة الغنى) والحديث من رواية هشام عن أبيه عن خالته عن الرسول ﷺ .

(٢) سورة هود الآيات (٩ ـ ١١) .

وفي دعاء القرآن : ﴿رَبَّنا لا تجعلنا فِتنَةً للقومِ الظالمينَ﴾[1] ﴿رَبَّنا لا تجعلنا فتنةً للذينَ كَفَرُوا﴾[2] كما فيه ﴿واجعلْنا للمتقينَ إماماً﴾[3] أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و« الآلاء » في اللغة : هي النعم ، وهي تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة ـ سورة الرحمن ـ نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « قرأ علينا رسول الله ﷺ الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالي أراكم سكوتا ؟ الجن كان أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ـ فبأي آلاء ربكما تكذبان ـ إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[4] .

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ، ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى ، وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس : ظاهرة لكل أحد ؛ فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل . وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول :

الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه ، فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة .

والشكر أعم من جهة أنواعه ، فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة ، والحمد لله على كل حال ، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا .

---

(١) سورة يونس الآية ٨٥ .

(٢) سورة الممتحنة الآية ٥ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٧٤ .

(٤) ورواه مسلم أيضاً في : كتاب ـ المسافرين ، الترمذي في (كتاب ثواب القرآن) ، الراوي في : (المناسك) وابن حنبل ٣ ـ ٣٢ .

وكذلك كل ما يخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ما تم إلا نفع الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذي يفعل ما لا ينتفع به أحد ، فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام إذ كان عندهم يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين ، وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأولو العلمِ قائماً بالقِسْطِ . لا إلـه إلا هوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾[1] فله الوحدانية في إلهيته ، وله العدل ، وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري لا يثبت عدلاً ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية . بل توحيد ربوبيته .

والمعتزلي أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلاً في الحسنات والسيئات ، ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر فهو أول الشكر .

والحمد ـ وإن كان على نعمته وعلى حكمته ـ فالشكر بالأعمال : هو على نعمته وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلاً في الشكر .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨ .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذا كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد ـ الذي هو الشكر المقول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد .

ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد ، والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد ، والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم . ولا إله إلا الله والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير .

وقد قال تعالى : ﴿ فادْعوه مخلصينَ لهُ الدينَ . الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ﴾[1] .

وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية . كما قيل في الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه .

(الحمد أحق ما قال العبد)

وفي الصحيح : أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[2] هذا لفظ الحديث « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق ما قال العبد » .

وهذا ليس لفظ الرسول ، وليس هو بقول سديد . فإن العبد يقول الحق والباطل . بل حق ما يقوله الرب . كما قال تعالى : ﴿ فالحقُّ والحقَّ أقولُ ﴾[3] .

ولكن لفظة « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ . أي أحق ما قال العبد ، أو هذا ـ وهو الحمد ـ أحق ما قال العبد .

ففيه بيان أن الحمد لله أحق ما قاله العباد . ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن تفتتح

---

(١) سورة غافر الآية ٦٥ .

(٢) ورد هذا الدعاء في : مسلم ١ /١٩٨ (كتاب الصلاة . باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع وفي إعتداله) ، وانظر الاذكار للنووي ص ٥٢ ـ ٥٣ (باب ما يقول في رفع رأسه من الركوع وفي اعتداله) ولفظ الحديث كما في صحيح مسلم ١ /١٩٨ (ط الحلبي) وكما في رواية أبي سعيد الخدري . كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال . ربنا لك الحمد . ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، وقد أورد مسلم روايات مختلفة للحديث تختلف فيما بينها طولاً وقصراً ، غير أنها تتفق كلها على أن اللفظ المذكور هو « أحق » وليس « حق ما قال العبد » كما قال المؤلف .

(٣) سورة ص الآية ٨٤ .

به الفاتحة ، وأوجب قوله في كل خطبة ، وفي كل أمر ذي بال .

والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ؛ أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .

وأما إذا قيل : بل يخلق ما هو شر محض ، لا نفع فيه ، ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلاً على مثل . لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان الى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده ؛ وهو ـ مع هذا ـ يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة ـ ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية ـ ؛ لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس .

ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن . ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر في كلامه ما يقتضي هذا ومن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجعلون الرب ظالماً لهم .

وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى : ﴿ وما ظَلَمْناهُمْ ولكن كانوا هُمُ الظالمينَ ﴾[1] وقوله : ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظَلموا أَنْفُسَهُمْ ﴾[2] وقوله : ﴿ وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبيد ﴾[3] .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم الى بعض ، أو قصر في حقه لكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك بدلاً إذا لم يعتد عليه .

ولو قال : إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه إحتجاجاً بالقدر فكيف

---

(١) سورة الزخرف الآية ٧٦ .

(٢) سورة هود الآية ١٠١ .

(٣) سورة فصلت الآية ٤٦ .

يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟

وهو سبحانه الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . وهذا مبسوط في غير هذا الوضع .

فقوله : «أحق ما قال العبد » يقتضي : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل الا الخير والإحسان ، الذي يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى وإن كان العباد لا يعلمون .

* * *

(طبيعة النفس الحركة)

وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فإذا قيل : فلم [لم] يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان . وكانت الحكمة التي خلقها بخلق الإنسان لا تحصل . وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا : ﴿ أتجعل فيها مَنْ يُفْسدُ فيها وَيَسْفِكُ الدماء ؟ ﴾[1] ما لم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس .

ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وإذا مَسَّه الخيرُ مَنُوعاً ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[3] .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ، ورحمة عميمة . فكان ذلك خيراً ورحمة ، وإن كان فيه شر إضافي ، كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثاني من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس ، فإنها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبته ، وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله وإحسانه ، لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات ـ من شياطين الإنس والجن ـ مالت إلى ذلك ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) سورة المعارج الآيات (١٩ ، ٢١).

(٣) سورة الأنبياء الآية ٣٧.

وفعلت السيئات . فكان فعلها للسيئات مركباً من عدم ما ينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خيروها . والعدم لا يضاف الى الله .

وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة .

فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذي لا خير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لا يضاف الى الله . فإنه ليس شيئاً . والله خالق كل شيء . كانت السيئات منها باعتبار ذاتها في نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التي تحصل منها ـ مع عدم ما يصلحها ـ تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقرّ بأن الله خالق أفعاله فهو على وجهين :

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله ، وأنه وإن لم يهده فهو ضال ، وإن لم يتب عليه فهو مُصِرّ ، وإن لم يغفر له فهو هالك ، خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهي عنه ، وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول ، وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيده ذلك إلا شراً . وقد ذكرنا أن الرب ـ سبحانه ـ محمود لنفسه ولإحسانه إلى خلقه ، ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولإحسانه الى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ، لأن حكمه عدل ، لا يفعل إلا خيراً وعدلاً . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : «إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه ـ من المجد والثناء ـ ولأنه محسن الى المؤمن .

(تفسير ابن تيمية للحديث)

وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه ﷺ قال : «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث ، إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما في قوله : ﴿ ما أصابَكَ مَنْ حسنةٍ فَمِنَ الله وما أصابكَ من سيئةٍ فمِنْ نَفْسِكَ ﴾[1] . ولهذا قال : «إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ،

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٩ .

فكان خيرا له » فجعل القضاء : ما يصيبه من سراء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث ، فلا اشكال عليه .

الوجه الثاني : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا ، فقد قال النبي ﷺ : «من سرته حسنته ، وساءته سيئته فهو مؤمن » .

فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره ، فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها ، فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها ، وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ، فيكون ذلك خيراً له ، والرسول ﷺ قال : «لا يقضي الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه ، فيكون حسنة ، كما قد جاء في عدة آيات : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفقره وحاجته اليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل للمؤمن ـ بسبب الذنب ـ من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو في ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه ، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفِّر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفِّر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى : «أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيارتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم » أي : محبهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين «وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأكفرِّ عنهم المعائب » .

(طلب الهداية من الله)

وفي قوله تعالى : ﴿ من نفسك ﴾ من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجيء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساؤوا إليه ، فإن ذلك من السيئات التي أصابته . وهي إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع الى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له

كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج الى الهدى في كل لحظة : وهو الى الهدى أحوج منه الى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟

وإن المراد بسؤال الهدى : الثبات أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج الى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .

فإنه لا يكفي مجرد علمه ، إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً الى الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه .

فليسوا الى شيء أحوج منهم الى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء ، ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة . فيعلم أن الله ـ بفضله ورحمته ـ جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

(وجوب مخالفة المكذبين للرسل)

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا اليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضى للحكم ، فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومن قبله ـ لم يكن بنا

حاجة الى الاعتبار بمن لا نشبهه قط، ولكن الأمر كما قال الله تعالى : ﴿ ما يُقال لـكَ إلاّ ما قَـدْ قيلَ للرُسُل مِنْ قَبْلِكَ ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ كذلكَ ما أتى الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رسُولٍ ، إلاّ قـالوا : سـاحرٌ أو مجنـونٌ ﴾[2] وقال تعـالى : ﴿ كذلـكَ قالَ الـذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، مِثْـلَ قَـوْلهِمْ، تَشَابَهَتْ قُلوبُهُمْ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ يضاهِئونَ قَوْلَ الذينَ كَفَروا مِنْ قَبْلُ ﴾[4] .

ولهـذا قال النبي ﷺ : «لتسلكن سنن من كـان قبلكم حذو القـذة بالقـذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟»[5] .

وقال : «لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يا رسـول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟» وكلا الحديثين في الصحيحين .

ولما كان في غزوة حنين كان للمشركـين شجرة ـ يقال لها : ذات أنـواط ، يعلقون عليهـا أسلحتهم ، وينوطونها بهـا ، ويستظلون بهـا متبركـين . فقال بعض النـاس : «يا رسـول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ! قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجْعَلْ لنا إلهاً كما لَهُمْ آلهة . إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

فأعظم السيئات : جحود الخـالق ، والشرك بـه ، وطلب النفس أن تكون شـريكه ونـداً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعـالى وقال : ﴿ مـا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيـري ﴾[6] و﴿قال أنـا ربُكُمُ الأعـلى ﴾[7] وقـال لـموسى : ﴿ لئِنِ اتَّخَـذْتُ إلهـاً غيـري لأجْعَلَنَّـكَ مِنَ المسجـونـينَ ﴾[8] . و﴿ اسْتَخَفَّ قَـوْمَـهُ فأطاعوهُ ﴾[9] .

---

(١) سورة فصلت الآية ٦٠.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٢.

(٣) سورة البقرة الآية ١١٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ٣٠.

(٥) ورد الحديث في البخاري ١٢٦/٩ (ط الشعب) كتـاب الاعتصام بـالكتاب والسنـة ، باب قـول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كـان قبلكم) ، مسلم ٤٦٢/٢ (ط الحلبي) (كتاب العلم ، بـاب اتباع اليهـودي والنصـارى) وفي المسند لابن حنبـل ٣٢٧/٢، ابن ماجه ١٣٢٢/٢ (كتـاب الفتن ، بال اقتـراف الفتن) الترمـذي ٢٦/٩ ـ ٢٨ (كتاب الفتن . بـاب ما جـاء لتركبن سنن من كان قبلكم) .

(٦) سورة القصص الآية ٣٨.

(٧) سورة النازعات الآية ٢٤ .

(٨) سورة الشعراء الآية ٢٩ .

(٩) سورة الزخرف الآية ٥٤.

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفي نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا ، إن لم يعن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر .

وذلك : أن الإنسان اذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم ، رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده ما يهواه ويريده ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ؟﴾[1]. والناس عنده في هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون «يا رباعي » أي صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً . ومن لم يوافق هواهم كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هي حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء ـ وإن كانوا يقرون بالصانع ـ لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده فإن كان مطاعاً مسلماً طلب أن يطاع في أغراضه ، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله ، ويكون من طاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون ، وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً ـ أو شيخاً ـ أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلين فيها ، كالصلوات الخمس ، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما

(١) سورة الفرقان الآية ٤٣ .

فعلت اليهود لما بعث الله محمدا ﷺ يدعو الى مثل ما دعا اليه موسى . قال تعالى : ﴿ وإذا قيلَ لهم : آمنوا بما أنزلَ الله . قالوا : نُؤْمِنُ بما أُنْزل عَلَيْنا ،ويكفرونَ بما وراءَهُ ، وهُوَ الحقُّ مُصدِّقاً لما مَعَهُمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما تفرَّق الذين أوتوا الكتابَ إلاّ مِنْ بعدِ ما جَاءَتْهُمُ البيِّنَةُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وما تفرَّقوا إلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[3] .

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون ، وسلط عليهم من انتقم به منهم ، فقال تعالى عن فرعون : ﴿ إن فِرْعَونَ علا في الأرض ، وَجَعَلَ أهلَها شِيَعاً . يَسْتَضْعِفُ طائفةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ ، وَيَسْتَحيِ نِساءَهُمْ ، إنَّهُ كانَ مِنَ المفسدين ﴾[4] وقال تعالى عنهم : ﴿ وقَضَيْنا إلى بني إسرائيلَ في الكتابِ : لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً ﴾[5] ولهذا قال تعالى : ﴿ تلكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُها للذينَ لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً ﴾[6] .

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ، ويشكروه ، ويعبدوه ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى : ﴿ وَما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلاّ نوحي إليه أنهُ لا إله إلا أنا فاعْبُدونِ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ واسْأَلْ مَنْ أَرْسلنا مِنْ قبلِكَ مِنْ رُسُلنا : أَجَعَلْنا مِنْ دونِ الرحمنِ آلهةً يعبدونَ ؟ ﴾[8] .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه . فقال : ﴿ إنّ هذه أُمَّتُكُمْ أمّةً واحدةً . وأنا ربُّكُمْ فاعبُدُون ﴾[9] وقال تعالى : ﴿ يا أيُها الرسلُ كُلُوا مِنَ الطيباتِ واعْمَلوا صالحاً ، إني بما تعْمَلونَ عليمٌ . وإنّ هذه أُمَّتُكم أمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتّقون . فتَقَطَّعوا أمرهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً ، كُلُّ حِزبٍ بما لَدَيْهِمْ فرحونَ ﴾[10].

---

(١) سورة البقرة الآية ٩١.

(٢) سورة البينة الآية ٤.

(٣) سورة الشورى الآية ١٤.

(٤) سورة القصص الآية ٨٣.

(٥) سورة الإسراء الآية ٤.

(٦) سورة القصص الآية ٨٣.

(٧) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

(٨) سورة الزخرف الآية ٤٥.

(٩) سورة الأنبياء الآية ٩٢.

(١٠)سورة المؤمنون الآيات (٥١ ـ ٥٣) . وانظر في هذا الآية : تفسير الطبري .

قال قتادة : أي دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشريعة مختلفة . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس «إنّ هذه أمّتكم أمّةً واحدةً » أي دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروي عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك ، وقال الحسن : بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

و«الأمة» الملة والطريقة ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ قالوا إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنّا على آثارِهِمْ مهتدونَ ﴾ ـ مُقتدون ـ[1] كما يسمى «الطريق» إماماً ، لأن السالك فيه يأتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و«الأمة» أيضاً معلم الخير ، يأتم به الناس . كما أن «الامام» هو الذي يأتم به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً ، وأخبر أنه : ﴿ كان أمة ﴾[2] .

(دين الأنبياء واحد)

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً ، لا يتفرقون فيه ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد »[3] . وقد قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لكُمْ منَ الدينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً ، والذي أَوْحَيْنا إليكَ ، وما وصَّيْنا به ابراهيم وموسى وعيسى : أنْ أقيموا الدين ، ولا تَتَفرّقوا فيه ﴾[4] . ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً . لا يختلفون مع تنوع شرائعهم .

فمن كان من المطاعين ـ من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك ـ متبعاً للرسل ، أمر بما أمروا به ، ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأحب من دعا الى مثل ما دعا إليه ، فإن الله يحب ذلك ، فيحب ما يحبه الله تعالى ، وهذا قصده نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله .

---

(١) سورة الزخرف الآيات (٢٢ ، ٢٣).

(٢) سورة النحل الآية ١٢٠.

(٣) هذا جزء من حديث صحيح ذكره ابن تيمية بتمامه في الجواب الصحيح ١/٥ (ط المدني)، والحديث من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ وتمامه : إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه ليس بيني وبينه نبي ، ولابن تيمية رسالة مستقلة في «إن دين الأنبياء واحد» حققها ونشرها الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم في جامع الرسائل لابن تيمية ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ . والحديث ورد بألفاظ متقاربة في البخاري ١٦٧/٤ (كتاب الأنبياء) باب «واذكر في الكتاب مريم » مسلم ١٦٧/٧ (كتاب الفضائل . باب فضل عيسى بن مريم)، أبو داود ٣٠٢/٤ (كتاب السنة . باب في التمييز بين الأنبياء). وانظر جامع الرسائل ص ٢٨٢ تعليق ١ .

(٤) سورة الشورى الآية ١٣ .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك ، فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله ، فهذا حال فرعون ، ومن طلب أن يطاع مع الله ، فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر أن لا يعبد الا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله لا له ، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه ، وسر بوجود مطلوبه .

وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويعلم أن الله قد منّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله ؟

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم الى أي شيء .

ولهذا فرضت عليه قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور ، ولم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، فإن فيها : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ .

فالمؤمن يرى : أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ، لأنه إياه يستعين ، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار : ﴿ إنّمَا نُطْعِمُكم لوجهِ الله ، لا نُريدُ منكم جزاء ولا شُكوراً ﴾[1] ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه إذ استعمله في الإحسان ، وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص ، فعليه هو أن يشكر الله ، إذ يسره لليسر ، وعلى ذلك أن يشكر الله ، إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق ، أو علم أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس من يحسن إلى غيره ليمنّ عليه ، أو يردّ الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمنّ عليه ، فيقول : أنا فعلت بك كذا ، فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ، ولا عمل لله ، ولا عمل بالله ، فهو المرائي .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائي . قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمَنِّ والأذى ، كالذي يُنْفق مالَهُ رئآءَ الناسِ ، ولا يُؤْمِنُ بالله واليومِ

---

(١) سورة الإنسان الآية ٩.

الآخر ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ ، فأصابَهُ وابلٌ فتركَـهُ صَلْداً ، لا يقدرونَ عـلى شيءٍ مِّمّا كسَبوا ، والله لا يهدي القومَ الكافرينَ ، وَمَثَلُ الذينَ يُنفقـونَ أموالَهم ابتغـاءَ مرضـاتِ الله ، وتثبيتاً مِنْ أنفسهِمْ : كَمَثَلِ جَنَّةٍ بربْوَةٍ أصابهَا وابلٌ ، فآتَتْ أُكُلهَا ضِعْفينِ ، فإنْ لَمْ يصبهَـا وابلٌ فطَلٌ ، والله بما تعلمونَ بصيرٌ ﴾[1] .

قال قتادة : « تثبيتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم ، وقال الشعبي : يقيناً ، وتصديقاً من أنفسهم ، وكـذلك قـال الكلبي ، قيل : يخـرجون الصـدقة طيبـة بها أنفسهم ، عـلى يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله ، يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطي محتسباً للأجر عند الله ، مصدقاً بـوعد الله لـه ، طلب من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمنّ عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الـطعام ، وأنـا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المماليك ، لا سيما إذا كان يعلم أن الله قد أنعم بالإعطاء .

فصـــــل

(الذنب عقوبة على ترك الطاعة)

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ـ وإن كانت خلقاً لله ـ فهو عقوبة له على عدم فعله مـا خلقه الله لـه ، وفطره عليـه . فإن الله إنمـا خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودلّه على الفـطرة ، كما قـال النبي ﷺ : «كل مـولود يـولد عـلى الفطرة » وقال تعالى : ﴿ فأَقِمْ وجْهكَ للدينِ حنيفاً ، فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهـا ، لا تبديـلَ لِخَلْق الله ، ذلكَ الدينُ القيِّم . ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون ﴾[2] .

فهو لمّا لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به ـ من معرفة الله وحده ، وعبـادته وحده ـ عوقب على ذلك ، بأن زين له ما يفعله من الشرك والمعاصي .

قال تعالى للشيطان : ﴿ اذْهَبْ ، فَمَنْ تَبِعكَ مِنْهُمْ فإنَّ جَهَنَّمَ جزاءُكم جزاءً موفـوراً ـ إلى قوله ـ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عَلَيْهِمْ سُلطانٌ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ إنـهُ ليسَ لَهُ سلطانٌ عـلى الذينَ آمنَوا وعلى ربِّهم يتوكّلونَ . إنَّما سلطانهُ على الـذينَ يتولَّـوْنَهُ ، والـذينَ هم بهِ مُشـركونَ ﴾[4]، وقال تعالى : ﴿ إنَّ الـذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طـائفٌ مِنَ الشَّيطانِ تَـذَكَّروا ، فـإذا هم مُبصرونَ .

---

(١) سورة البقرة الآيات (٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) سورة الإسراء الآيات (٦٣ ـ ٦٥) .

(٤) سورة النحل الآيات (٩٩ ـ ١٠٠) .

وإخوانُهم يَمُدُّونَهُمْ في الغَيِّ ثم لا يُقْصِرونَ ﴾[1] .

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب . كما قال تعالى : ﴿ كذلكَ لِنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاء ، إنه مِنْ عبادنا المُخْلصينَ ﴾[2] .

فإذا أخلص العبد لربه الدين ، كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك ، وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ما خلق له ، وفطر عليه ، عوقب على ذلك . وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمي ، لكن يعاقب عليه لكونه عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي ، لكن بفعل السيئات لا بالعقوبات التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .

والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك ، وهذا أمر وجودي .

وطائفة ـ منهم أبو هاشم ـ قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه ، كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

وما ذكر في هذا الوجه هو أمر وسط . وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله ، فإذا عصى الرسول استحق حينئذ العقوبة التامة ، وهو أولاً : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه ، أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه ، بل هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ ، فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعوده من فعل السيئات ، قد يكون سبباً لعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب إلا على ذنبه ، ولكن العقوبة المعروفة ، إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات ، فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٢٠١ ـ ٢٠٢) .

(٢) سورة يوسف الآية ٢٤ .

وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه ، فإنه - وإن كان الله خالق أفعال العباد - فخلقه للطاعات ، نعمة ورحمة ، وخلقة للسيئات ، له فيه حكمة ورحمة ، وهو - مع هذا - عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً . ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان :

عدم عملهم بالحسنات ، فهذا ليس مضافاً إليه .

وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأمرهم بها ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يهْدِيهُ يَشْرحْ صَدْرَهُ للإسلام ، وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّد في السماء . كذلكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْس على الذين لا يُؤمِنُون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبَهُمْ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وأما مَنْ بخِلَ واسْتَغْنى وكَذَّب بالحسنى ، فسنُيَسِّرُهُ للعُسرى ﴾[3].

وهذا وأمثاله . بذلوا فيه أعمالاً ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم ، لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له ، ولا بد لهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات ، حركوا بالسيئات ، عدلاً من الله . حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له - وهو القلب لا يكون إلا عاملاً - فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل : «نفسك إن لم تشغلها شغلتك» .

(الرد على القدرية والمجبرة)

وهذا الوجه - إذا حقق - يقطع مادة كلام القدرية المكذبة ، والمجبرة الذين يقولون إن أفعال العباد ليست مخلوقة الله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم في تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم ، عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٢) سورة الصف الآية ٥ .

(٣) سورة الليل الآيات (٨ - ١٠) .

يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى : ﴿ كِلتا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيئاً ﴾[1] .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العباد ، لكن يقولون : ما خلق شيئاً من الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم ما يكون جزاء على ذلك ، فالله محدثه . وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة . وهذا الذي ذكرناه يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلماً .

وما ذكرناه يوجب أن الله خالق كل شيء ، فما حدث شيء إلا بمشيئته وقدرته ، ولكن أول الذنوب الوجودية ، هو المخلوق . وذاك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

وهذا العدم لا يجوز إضافته الى الله . وليس بشيء ، حتى يدخل في قولنا : « الله خالق كل شيء » وما أحدثه من الذنوب الوجودية ، فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم ، وسائرها : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لا يخلص لله العمل ؛ فلا يزال مشركاً ولا يزال الشيطان مسلطاً عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه . بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله ـ هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله : ﴿ والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يشاءُ والله ذو الفضْلِ العظيمِ ﴾[2] ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية ، وغير ذلك من حكمته .

وبتحقق هذا يدفع شبهات هذا . والله أعلم بالصواب .

فصل

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان ، قوله تعالى : ﴿ ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارَهُمْ كما لم

---

(١) سورة الكهف الآية ٣٢.

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٥ .

يُؤْمِنوا بِهِ أوّل مَرَّةٍ ، ونَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعمهونَ ﴾[1] وهـذا من تمام قـوله : ﴿ ومـا يُشعرُكُمْ أنها إذا جاءَتْ لا يُؤمِنونَ ، ونُقَلِّبُ أفئدَتَهُمْ وأبصارَهُمْ ـ الآيـة ﴾ فذكـر : أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لمّا لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لكن يقـال : إنما كـان هذا بعـد دعوة الـرسول لهم ، وهم قـد تـركـوا الإيمـان وكـذبـوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن المـوجب للعذاب : هـو عدم الإيمـان ، وما ذكـر شرط في التعـذيب ، بمنزلـة إرسال الـرسول ، فـإنه قـد يشتغل عن الإيمـان بما جنسـه مبـاح ـ من أكـل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك ـ وهذا الجنس لا يستحق عليـه العقوبـة ، إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .

ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه ، وهو أمر وجودي لا ضد له إلا ذلك .

فصـــــل

(الحسنة من الله والسيئة من النفس)

الفرق السابع : بين الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء في كون هذه تضاف الى النفس ، وتلك تضـاف الى الله : ان السيئات التي تصيب الإنسـان ـ وهي مصائب الـدنيا والآخرة ـ ليس لها سبب الا ذنبه الذي هو من نفسه ، فانحصرت في نفسه .

وأمـا ما يصيبـه من الخير والنعم : فـإنـه لا تنحصـر أسبـابـه ، لأن ذلـك من فضـل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليـه وهو سبحـانه لا يجزي بقدر العمل ، بل يضاعفه له ، ولا يقـدر العبد عـلى ضبط أسبابهـا ، لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها الى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتـوكل إلا عليـه ، ويعلم أن النعم كلهـا من الله ، وأن كل مـا خلقه فهـو نعمة ، كـما تقدم ، فهـو يستحق الشكـر المـطلق العـام التام ، الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخـير ، كشكر الـوالدين وشكـر من أحسن اليـك من غيرهمـا ، فإنـه «من لا يشكر النـاس لا يشكر الله » لكن لا يبلغ من حق أحـد وإنعامـه ، أن يشكر بمعصيـة الله ، أو أن يطاع بمعصيـة الله ، فإن الله هـو المنعم بـالنعم العظيمة التي لا يقـدر عليها مخلوق ، ونعمـة المخلوق إنما هي منـه أيضاً . قـال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وسخَّرَ لكُمْ ما في السمواتِ وما في الأرض جميعاً

---

(١) سورة الأنعام الآيات (١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) سورة النحل الآية ٥٣.

منه ﴾[1] وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنا الإنسان بِوالديْهِ حُسْناً ، وإنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بي ما ليس لَكَ بِهِ عِلمٌ فلا تُطِعْهُما ﴾[2] وقال في الآية الأخرى : ﴿ وإنْ جاهداكَ على أنْ تُشْرِك بي ما ليسَ لكَ به عِلْمٌ فلا تُطِعْهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليَّ ﴾[3] .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «على المرء المسلم : السمع والطاعة في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[4] . وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : «إنما الطاعة في المعروف»[5] . وقال : «من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه »[6] وقال : «لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق »[7] .

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

(النعم كلها من الله)

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله . فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، وأنه ﴿ ما يَفْتَحُ الله للناس مِنْ رحمةٍ فلا مُمْسكَ لها ، وما يُمْسِكْ فلا مُرْسلَ لهُ مِنْ بعْدِهِ ﴾[8] . صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٣ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٨ .

(٣) سورة لقمان الآية ١٥ .

(٤) ورد الحديث بألفاظ متقاربة في البخاري ٩/٧٨ (كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية) . مسلم : ٢/١٣ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) . وانظر أيضاً الترمذي ٧/٢٠٢ (كتاب الجهاد . باب ما جاء في لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

(٥) ورد الحديث في البخاري ٩/٧٩ (كتاب الإمارة ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية) والعبارة جزء من حديث طويل من رواية علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال : بعث النبي ﷺ سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه . فغضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها ، فجمعوا حطباً فأوقدوا ، فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم الى بعض قال بعضهم : إنما تبعنا النبي ﷺ فرار من النار . أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذكر للنبي ﷺ فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة في المعروف . وانظر مسلم ٢/١٣٠ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) .

(٦) جزء من حديث ذكره ابن ماجه في كتاب الجهاد ، ابن حنبل ٢/٦٧ .

(٧) ذكره ابن حنبل في المسند (ط الحلبي) ٥ ـ ٦٦ ولفظه : لا طاعة لمخلوق في معصية الله تبارك وتعالى ، وذكره الحاكم في المستدرك ٣/٤٤٣ وقال عنه الحاكم «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يزجه» ورواه التبريزي في مشكاة المصابيح ٢/٣٢٣ .

(٨) سورة فاطر الآية ٢ .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر ـ الذي لا يستحقه غيره ـ صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق في شكر الله . والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً ، لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل ، وما كان لعمله فيه مدخل ، فإن الله هو المنعم به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس ، فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى ، فاستغفر ربه مما فعل وتاب ، واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف : «لا يرجون عبد إلا ربه . ولا يخافن عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ، ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب ، ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك الظاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سطوته ، بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدق العبد بقوله تعالى : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف ـ ابن عباس وغيره ـ أن ما أصابهم يوم أحد من الغم والفشل ، إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد.

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفر الله بها من خطاياه »

فصل

(الله يهدي كل نفس إلى ما يناسبها من الحسنة أو السيئة)

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث في مثل قوله : ﴿ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ ﴾[1] .

---

(١) سورة النور الآية ٢٦ .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين . ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مثلاً : كلمةً طيبةً ـ ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ ﴾[1] وقال الله : ﴿ إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يُرفَعُهُ ﴾[2] والأقوال والأفعال صفات القائل والفاعل .

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها .

فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يباشرون الناس كالسنانير : لم يصلح ومن أراد : أن يجعل الذي يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .

وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم ، أو يجعل العاجز الجبان مقاتلاً عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذي لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب ، فمثل هذا يوجب الفساد في العالم ، وقد يكون غير ممكن ، مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد الى السماء كالريح ، ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء ، فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .

كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «إن المؤمنين إذا نجوا من النار ـ أي عبروا الصراط ـ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، فإذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة[3] .

وهذا مما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم اهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »[4] .

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٦ .

(٢) سورة فاطر الآية ١٠ .

(٣) ورد الحديث في البخاري ١٦٧/٣ (كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم) وكذلك ورد الحديث في البخاري ١٣٨/٨ ـ ١٣٩ (كتاب الرقاق . باب القصاص يوم القيامة) والحديث من رواية أبي سعيد الخدري ولفظه : إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار . . . الحديث ، وانظر أيضاً : ابن حنبل ٣ ـ ١٣ .

(٤) ورد الحديث في البخاري ١٣٨/٨ ـ ١٣٩ (كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة)، ابن حنبل ١٣/٣ .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب . فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة ، فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي ، الأول الآخر ، فسببها دائم ، فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع في السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلَ سوءاً يُجْزَ بهِ ﴾[1]. وقوله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[2] .

وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «يمين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما في يمينه ، والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع »[3] .

وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء [في] مواضعها ، فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه ، وهو سبحانه قد شهد ﴿ أنه لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولوا العلمِ قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيمُ ﴾[4] .

ولهذا يقولون : لا ندري ما يفعل بمن فعل السيئات ، بل يجوز عندهم ، أن يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم ، أن يعذب الجميع ، ويجوز أن يعذب ويغفر بلا موازنة ، بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة الآيات (٧،٨) .

(٣) ورد الحديث في البخاري ٩٢/٦ (كتاب التفسير ، تفسير سورة هود) وفيه : أيد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار . وقال أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فانه لم يغض ما في يده وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع . . . وانظر مسلم ٣٩٩/١ (كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة) وهو من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة وفيه : يمين الله ملأى . . ومن رواية وهب بن منبه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله قال لي : أنفق أنفق عليك . وقال رسول الله ﷺ : يمين الله ملأى . . . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه قال : وكان عرشه على الماء . وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض . وانظر ابن حنبل ٣١٣/٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ، ولا حسنات ماحية ، ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر ، خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس في الكتاب والسنة ما يبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى : ﴿ إنْ تَجْتَنِبوا كبائرَ ما تُنْهَوْنَ عنْهُ نُكفِّرْ عنْكُمْ سيِّئاتِكُمْ ﴾[1] بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بهِ ﴾[2] .

وقد ذكر هذه الأمور القاضي أبو بكر بن الباقلاني[3] وغيره . ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان[4] في القدر وفي الوعيد ، وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة في القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : أن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وسلكوا مسلك نفاة القدر في هذا ، وقالوا في الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها ، بل يكون عذابه مؤبداً ، فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته ـ عندهم ـ لا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده في النار ، فخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه في القدر ، وناقضهم جهم في هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهم ، مع انتسابهم الى أهل السنة والحديث ، واتباع السلف ، وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ،كجهم وأتباعه .

---

(١) سورة النساء الآية ٣.

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٣) هو محمد بن الطيب (أبو بكر) الباقلاني أو ابن الباقلاني لم نعرف تاريخ مولده بالتحديد غير أنه ولد في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري وتوفي سنة ٤٠٣ هـ ، أعظم أئمة الأشاعرة بعد أبي الحسن ، ألف كثيراً في الكلام والفلسفة والمنطق ، ومن أهم كتبه (الدقائق) ويشير ابن تيمية الى أهمية هذا الكتاب في كثير من المواضع . انظر عن الباقلاني : شذرات الذهب ٣/١٦٠ ـ ١٧٠ ، تبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢١٧ ـ ٢٢٦ هـ وفيات الأعيان ٤/٤٠٠ ـ ٤٠١ تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ ـ ٣٨٢. الأعلام ٧/٤٦ .

(٤) هو أبو محرز (الجهم بن صفوان) مولى بني راسب ، من أهل خراسان ، تتلمذ على الجعد بن درهم ، اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة ، وكان الجهم كاتباً للحارث بن سريج ، من زعماء خراسان ،خرج معه على الأمويين فقتل بمرو سنه ١٢٨ هـ . واليه تنسب الجهمية التي يستعملها ابن تيمية أحياناً بمعنى عام ويقصد بهم نفاة الصفاة بعامة ، كما يطلقها أحياناً بمعنى خاص ويقصد بهم أتباع الجهم في الجبر وخلق القرآن .

انظر : مقالات الأشعري ١/١٣٢ ، ٢٧٩ ـ ٢٨٠ . الملل والنحل ١/١٣٥ ـ ١٣٧. الفرق بين الفرق ص ١٢٨ ، ١٢٩. التبصير في الدين ص ٦٣ ، ٦٤. وانظر ماذكره ابن تيمية عن الجهمية والجهم في الرسالة التسعينية ضمن الفتاوى الكبرى ٥/٣١ ـ ٣٥ (ط القاهرة) سنة ١٣٢٩ هـ . الخطط للمقريزي ٢/٣٤٩ ـ ٣٥٠. البدء والتاريخ ٥/١٤٦ ميزان الاعتدال ١/١٩٧ ، لسان الميزان ٢/١٤٢ ـ ١٤٣ ، الاعلام ٢/١٣٨ ـ ١٣٩ .

(اشتهر عن الجهم)

نفي الصفات ، نفي القدر

وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع في الأسماء والصفات ، فغلا في نفي الأسماء والصفات ، ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة ونحوهم ، ووافقه المعتزلة في نفي الصفات دون الأسماء .

(تأثر المتكلمين بالجهم)

والكلابية[1] ـ ومن وافقهم من السالمية[2] ، ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ـ وافقوه على نفى الصفات الاختيارية، دون نفي أصل الصفات .

والكرامية[3] ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام ما لا يتناهى ، وأنه

---

(١) الكلابية هم اتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد محمد بن كلاب (بضم الأولى وتشديد الثانية) القطان ، توفي بعد سنة ٢٤٠ بقليل ، تأثر به أبو الحسن الأشعري إمام المذهب قال عنه ابن حزم : إنه شيخ قديم للأشعرية .

انظر عنه وعن مذهبه : لسان الميزان ٢/٢٩٠ ـ ٢٩١ ، طبقات الشافعية ٢/٥١، الفهرست لابن النديم ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، مقالات الأشعري ١/٢٩٨ ـ ٢٩٩ . الخطط للمقريزي ٣/٣٥٨/٣٥٩ . نهاية الأقدام للشهرستاني ص ١٨١ ـ ٢٠٣ ، الملل والنحل ١/١٤٨ ، أصول الدين للبغدادي ص ٨٩، ٩٠، ٩٧، ١٠٤ ، الفصل لابن حزم ٢/١٢٣، ٤، ٢٠٨ . وانظر أيضاً درء تعارض العقل والنقل ١/١٣ .

(٢) السالمية هم أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة ٢٩٧ هـ وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى ٣٥٠ هـ ، وقد تتلمذ على سهل بن عبد الله التستري ، ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب ، ويجمع السالمية في مقالاتهم بين آراء أهل السنة والمعتزلة مع ميل الى التشبيه ونزعة صوفية فيها شيء من الاتحاد ، ولا يوجد عن هذه الفرقة دراسات كما لا يوجد لأحد منها كتب ولا مؤلفات إلا ما ينقل عنهم خلال كتب الفرق والطبقات .

أنظر عنهم : شذرات الذهب ٣/٣٦ ، اللمع للسراج ص ٤٧٢ ـ ٤٧٦ (ط القاهرة) طبقات الصوفية ص ٤١٤ ـ ٤١٦ . الطبقات الكبرى للشعراني ص ٩٩ ـ ١٠٠ الفرق بين الفرق ص ١٥٧ ، ٢٠٢ دائرة المعارف الإسلامية (مقالة السالمية) لماسينيون، وانظر درء تعارض العقل والنقل ١/١٣ .

(٣) الكرامية هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام (بتشديد الراء) بن عراق بن حزبة السجستاني توفي سنة ٢٥٥ هـ . وهم يجبون الصفات مع ميل الى التشبيه ويوافقون السلف في إثبات القدرة والقول بالحكمة ، ويوافقون المعتزلة في القول بوجوب معرفة الله بالعقل والقول بالحسن والقبح العقليين . وهم يعتبرون من المرجئة لقولهم أن الإيمان هو الإقرار باللسان دون التصديق بالقلب .

أنظر عنهم : لسان الميزان ٥/٣٥٣ ـ ٣٥٦ . ميزان الاعتدال ٤/٢١ ـ ٢٢ الفصل لابن حزم ٤ ، ٤٥/٢٠٤ ـ ٢٠٥ . الملل والنحل ١/١٨٠ ـ ١٩٣ . الفرق بين الفرق ص ١٢٠ ـ ١٢٧ التبصير في الدين للاسفراييني ص ٦٦ ـ ٧٠ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٦٧ . البدء والتاريخ ٥/١٤١ . الخطط للمقريزي ٢/٣٤٩ ـ ٣٥٧ . وانظر أيضاً درء تعارض العقل والنقل ١/١٣ .

يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلماً اذا شاء، وفعالاً لما يشاء إذا شاء، لامتناع حوادث لا أول لها، وهو ـ عن هذا الأصل، الذي هو نفي وجود ما لا يتناهى في المستقبل ـ قال بفناء الجنة والنار.

وقد وافقه أبو الهذيل[1] إمام المعتزلة على هذا، لكن قال بتناهي الحركات.

فالمعتزلة في الصفات: مخانيث الجهمية.

وأما الكلابية: فيثبتون الصفات في الجملة، وكذلك الأشعريون، ولكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري[2] ـ: الجهمية الإناث، وهم مخانيث المعتزلة.

ومن الناس من يقول: المعتزلة مخانيث الفلاسفة.

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا، لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء الى هذا الأصل، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه، وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً.

والشهرستاني[3] يذكر عن شيوخهم: أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة، لأن الشهرستاني إنما يرى مناظره أصحابه الأشعرية في الصفات ونحوها مع المعتزلة بخلاف أئمة السنة والحديث، فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية، وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفي الصفات.

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها، هم عند السلف، يقال لهم: الجهمية. وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف.

---

(١) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبد المشهور بالعلاف والمكنى بأبي الهذيل من كبار شيوخ المعتزلة البصرين. ولد سنة ١٣٥ هـ. كف بصره في آخر عمره. اختلف في تاريخ وفاته فقيل أنه توفي سنة ٢٢٦ أو سنة ٢٢٧ أو سنة ٢٣٥ هـ.

أنظر عنه: لسان الميزان ٤١٣/٥ ـ ٤١٤. وفيات الأعيان ٣٩٦/٣ ـ ٣٩٨. تاريخ بغداد ٣٦٩/٣ ـ ٣٧٠. نكت الهميان ص ٢٧٧. أمالي المرتضى ١٢٤/١ دائرة المعارف الإسلامية (مقال كارادي فو). الاعلام ٧، ٣٥٥.

(٢) هو شيخ الإسلام. إمام أهل السنة أبو اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري، كما يسمى خطيب العجم، لكثرة علمه وفصاحته، توفي سنة ٤٨١ هـ. انظر عنه: طبقات الحنابلة ٢٤٧/٢ ـ ٢٤٨. الذيل لابن رجب ٥٠/١ ـ ٦٨ الأعلام ٢٦٧/٤.

(٣) هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني من كبار أئمة المذهب الأشعري، ولد سنة ٤٧٩ وتوفي سنة ٥٤٨ هـ صاحب الملل والنحل، نهاية الأقدام في علم الكلام ومصارعات الفلاسفة، انظر عنه: طبقات الشافعية ٧٨/٤ ـ ٧٩، وفيات الأعيان ٤٠٣/١ ـ ٤٠٤ معجم البلدان لياقوت (شهرستان).

(نشأة القول بالقدر)

وأما المعتزلة ، فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد ، وكان وهو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة ، فيقول قتادة وغيره ، أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصري في اوائل المائة الثانية[1] .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته . وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره : كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة ـ بعد موت الحسن ، وتكلم في المنزلة بين المنزلتين وقالوا بإنفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب ـ ضموا الى ذلك القدر ، فإن به يتم التغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

(نشأة القول بنفس الصفات)

إلى أن ظهر الجعد بن درهم[2] ، وهو أولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري ، وقال : «أيها الناس ، ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

---

(١) المعروف أن الحسن البصري توفي سنة ١١٥ هـ.

(٢) الجعد بن درهم مولى من الموالي ، سكن جزيرة الفرات ، تأدب عليه مروان بن محمد ونسب إليه فقيل مروان الجعدي ، قيل عنه : مبتدع ضال له أخبار في الزندقة ، قال عنه الذهبي : إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، قال بخلق القرآن ونفي القدر ، قيل إنه كان زنديقاً شهد عليه ميمون بن مهران . قتل يوم النحر سنة ١١٨ هـ .

انظر عنه : ميزان الاعتدال ١/١٨٥. الكامل لابن الأثير ٥/١٦٠. التاج ١/٢٣١. لسان الميزان ٢/١٠٥ اللباب ١/٢٣٠. النجوم الزاهرة ١/١٢٢. الأعلام ٢/١١٤.

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأي جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلاماً في رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك[1] ، وأمثالهم - وقد تكلم في ذمهم - وابن الماجشون[2] وغيرهما ، وكذلك الأوزاعي وحماد بن زيد وغيرهم .

وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة ، فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا ، فإنه قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم ، ثم كتب بالمحنة من طرطوس سنة ثمان عشرة ومائتين ، وفيها مات ، وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، الى سنة عشرين ، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام ، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبين أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانهم إياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه ، فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة ، فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة ، وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

وكان أحمد بن أبي داود[3] قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث[4] ، ومن أكابر النجارية أصحاب

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي ، مولى بني حنظلة الحافظ شيخ الإسلام ومن كبار رجال السلف المأخوذ برأيهم في الأصول والفروع ، ولد سنة ١١٨ هـ . وتوفي سنة ١٨١ هـ له مؤلفات كثيرة في الزهد وآداب النفس ، ومن أهم مؤلفاته (الدقائق) .

أنظر عنه : تذكرة الحفاظ ٥٢٣/١، تاريخ بغداد ١٥٢/١٠. طبقات ابن سعد ٣٧٢/٧. وفيات الأعيان ٢٣٧/٢، حلية الأولياء ١٦٢/٨، شذارت الذهب ٢٩٥/١ BROCK, SI : 256، الأعلام ٢٥٦/٤ .

(٢) هو عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة ، أبو عبد الله الماجشون من أئمة المحدثين توفي ببغداد سنة ١٦٤ هـ . ومن أهم كتبه (الإبانة) ويقع في أربعة عشر جزءاً مخطوط بدار الكتب .

أنظر عنه تهذيب التهذيب ٣٤٣/٦ - ٣٤٤، تذكرة الحفاظ ٢٠٦/١ - ٢٠٧. شذرات الذهب ٢٥٩/١. تاريخ بغداد ٤٣٦/١٠ - ٤٣٩. طبقات ابن سعد ٤١٤/٥ . الأعلام ١٤٥/٤ - ١٤٦.

(٣) هو أحمد بن أبي داود بن جرير بن مالك الأيادي المكنى بأبي عبد الله من مشاهير القضاة في العصر العباسي ، وهو رأس فتنة القول بخلق القرآن ، ولد بالبصرة ١٦٠ هـ . وتوفي سنة ٢٤٠ هـ ببغداد ، قال عنه الذهبي : كان جهمياً بغيضاً حمل الخلفاء على امتحان الناس في خلق القرآن .

أنظر عنه : وفيات الأعيان ٦٢/١ - ٧٥. النجوم الزاهرة ٣٠٠/٢ - ٣٠٢ تاريخ بغداد ١٤١/٤ ، لسان الميزان ١٠١/١، البداية والنهاية ٣١٩/١٠، الأعلام ١٢٠/١. وانظر أيضاً مناظرته للإمام أحمد بن حنبل في كتاب «الحيدة» لعبد العزيز الكناني .

(٤) في الأصل : بن غوث ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه ، وهو أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث ، عاصر أحمد بن حنبل ، لم تذكر المراجع شيئاً عن تاريخ مولده أو وفاته ، وذكرت كتب الفرق والمقالات شيئاً عن آرائه ومذهبه ،=

حسين النجار[1] .

وأئمة السنة ـ كابن المبارك[2] ومحمد بن إسحاق[3] . والبخاري وغيرهم ـ يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين ـ من أصحاب أحمد وغيرهم ـ يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسي[4] ـ وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن ابي داود ونحوهما ـ كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق ، وكانت الجهمية أتباع جهم ،

= فالأشعري يذكر في مقالاته ١٠/٢٨٤ ـ ٢٨٥ أنه كان يزعم أن الفعل المتولد فعل الله بإيجاب الطبع ، وأخذ بقول المعتزلة في التوحيد وخالفهم في القدر وقال بالإرجاء.

أنظر عنه : الملل والنحل ١٤١/١، الفرق بين الفرق ص ١٢٦ ـ ١٢٧ . التبصير في الدين ص ٦٢. الفصل لابن حزم ٢٢/٢. الانتصار للخياط ص ٩٨. دائرة المعارف الإسلامية (مادة برغوثية). المنية والأمل لابن المرتضى ص ٤٦ .

(١) هو الحسين بن محمد بن عبد الله النجار . إليه تنسب فرقة النجارية ، لم تذكر المراجع شيئاً عن تاريخ مولده أو وفاته ، قيل أنه مات بسبب علة اصابته عندما أفحمه النظام في مناظرة جرت بينهما ، وإذا صح ذلك فيكون معاصراً للنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

انظر عنه وعن آرائه : مقالات الأشعري ١٢٥/١ ـ ١٢٦، الملل والنحل ١٣٨/١ ـ ١٤١ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ، اصول الدين ص ٢٣٤ اللباب لابن الأثير ٢١٥/٣. التبصير في الدين ص ٦١ ـ ٦٢ الأعلام ٢٧٦/٢ .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي تقدمت ترجمه ص ٢٢٣ ح (١).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة ، بن بكر السلمي النيسابوري وكنيته أبو بكر ، قال السبكي إنه إمام الأئمة ، حدث عنه البخاري ومسلم خارج الصحيحين ولد سنة ٢٢٣ وتوفي سنة ٣١١ هـ.

انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ٧٢٠/٢، طبقات الشافعية ١٣٠/٢، الأعلام ٥٢٣/٦. وطبع له أخيراً كتاب «التوحيد وإثبات صفات الرب » بتحقيق المرحوم محمد خليل هراس .

(٤) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث المريسي بن أبي كريمة ، كان جده مولى لزيد بن الخطاب رضي الله عنه . قيل إن اباه كان يهودياً قصارا صباغا بالكوفة قال عنه ابن حجر : تفقه على أبي يوسف (من أصحاب أبي حنيفة) فبرع واتقن علم الكلام . ثم جرد القول بخلق القرآن وناظر عليه . لم يعاصر الجهم ولكن أخذ بمقالته ودعا إليه ويقول ابن تيمية في كثير من كتبه أن مقالة الجهم انتقلت الى كتب التفسير بسبب بشر بن غياث هذا . وإليه تنسب طائفة المريسية من المرجئة . وكانت تقول إن الإيمان هو التصديق وإن التصديق بالقلب واللسان جميعاً . وقال الشهرستاني أن مذهب المريسي يقترب من مذهب النجارية وأبي عيسى برغوث ، توفي بشر سنة ٢١٨ هـ وقيل سنة ٢١٩ هـ وقيل أن نسبته الى قرية مريس بصعيد مصر .

أنظر عنه : لسان الميزان ٢٩/٢ ـ ٣١، مقالات الأشعري ١٤٠/١ ـ ١٤١. وفيات الأعيان ٢٥١/١ ـ ٢٥٢. تاريخ بغداد ٥٦/٧ ـ ٢٥٧ . الأعلام ٢٧/٢ الملل والنحل ١٤١/١. الفرق بين الفرق ص ١٢٤. الخطط للمقريزي ٢٥٠/٢ .

وانظر كتاب الحيدة لعبد العزيز الكناني ، الرد على بشر المريسي العنيد لعثمان بن سعيد الدارمي .

والنجارية أتباع حسن النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو[1] والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق : وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة أحدهما : نفي الصفات . والثاني : الغلو في القدر والإرجاء .فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذان مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

وأما الأشعري : فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية :

وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات ـ لا الإرادة ولا غيرها ـ فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي ، فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعري : فهو يثبت الصفات ـ كالإرادة ـ فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريدها .

وذكر أبو المعالي الجويني[2] أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم ، أشك في بعضهم .

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية مشايخ المعرفة والحقيقة ، فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له في مسائل الصفات ، كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي صاحب كتاب «ذم الكلام » فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لنفيهم الصفات وله كتاب «تكفير الجهمية » ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف الى السنة والحديث . وربما كان يلعنهم .

---

(١) هو ضرار بن عمرو القاضي ، إليه تنسب طائفة الضرارية ، وهم يشبهون النجارية الى حد كبير في قولهم بنفي الصفات وخلق الأفعال ، ويبطلون القول بالتولد ، وينكرون القول بوجوب المعرفة بالعقل قبل ورود الشرع ، ويقول ابن حجر : إن ضرار بن عمرو كان له مقالات خبيثة .

أنظر عنه : لسان الميزان ٢٠٢/٣ ، الملل والنحل ١٤٢/١ ـ ١٤٤ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، أصول الدين ص ٣٣٩ ، التبصير في الدين ص ٦٢ ، مقالات الأشعري ٢٨١/١ ، التنبيه والرد للملطي ص ٤٣ .

(٢) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ولد بنيسابور سنة ٤١٩ هـ وتوفي بها سنة ٤٧٨ هـ من كبار أئمة الأشاعرة تتلمذ عليه الغزالي ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفقه من أهمها «الشامل» و«الإرشاد» واللمع والعقيدة النظامية وطبعت هذه الكتب محققة : انظر عنه : تبيين كذب المفتري ص ٢٧٨ ـ ٢٨٥ ، طبقات الشافعية ٢٤٩/٤ ـ ٢٨٢ ، شذرات الذهب ٣٥٨/٣ ، وفيات الأعيان ٣٤١/٢ ، الأعلام ٢٠٦/٤ .

وقد قال له بعض الناس ـ بحضرة نظام الملك ـ أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر نبي ، وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية ، لا يثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقي له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هي المشيئة . لأن العارف المحقق ـ عنده ـ هو من يصل الى مقام الفناء ، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة له ، وهذا هو الحكم عنده و«الحسنة» و«السيئة» يفترقان في حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والالتفات الى هذا هو (من حظوظ النفس ، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق) .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد [1] ، كما ذكر ذلك في غير موضع .

وبين لهم الجنيد الفرق الثاني ، وهو أنهم ـ مع مشاهدة المشيئة العامة ـ لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه . وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه ، وبين ذلك لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة : كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ، وهذه الأعمال . ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث : هو يحبها كما يريدها ، كما قاله الأشعري ، وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا ـ بالنسبة الى المخلوق كان أعقل منهم فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل الى مقام الفناء لا يفرق بين هذا وهذا . وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

أما في حق العبد : فيلزمهم أن تستوي عنده جميع الحوادث ، وهذا محال قطعاً ، وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء ، أما الفناء عن جميعها : فممتنع ، فإنه لا بد أن

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد محمد بن الخراز (القواريري) من كبار شيوخ الصوفية يعتمد عليه ابن تيمية في تصحيح مواقف الصوفية في كثير من المسائل وخاصة مسألة الفناء والتوحيد والمشيئة الإلهية ، لزمه الحلاج فترة ونفر منه ، ؛ يلقب بسيد الطائفة انظر عنه : طبقات الصوفية للسلمي ص ١٥٥ ـ ١٦٣ ، الطبقات الكبرى للشعراني ١/٨٢ ـ ٧٤ ، تاريخ بغداد ٧/٢٤١ ص ٢٤٩ ، الأعلام ٢/١٣٧ ـ ١٣٨ .

يفرق كل حي بين ما يؤلمه وبين ما يلذه ، فيفرق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعي الإيماني الرحماني الذي به فرق الله بين أوليائه وأعدائه ، وظنوا أنهم مع الجمع القدري .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لا بد للعبد من أن يفرق ، فإن لم يفرق بالفرق الشرعي - فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه وبين ما يرضاه وما يسخطه - وإلا فرق بالفرق الطبعي بهواه وشيطانه ، فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير في المعاصي وآخرون في الفسوق ، وآخرون في الكفر ، حتى جوزوا عبادة الأصنام .

ثم كثير منهم من ينتقل الى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيد ، وأئمة الدين في التوحيد ، فلم يفرقوا بين القديم والمحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود ، كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربي الحاتمي [1] ، وابن سبعين [2] ، والقونوي [3] والتلمساني [4] ،

---

(١) هو أبو بكر محي الدين بن علي بن محمد الحاتمي الطائي المعروف بابن عربي واحياناً بابن العربي ، ولد بمرسيه ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ . وله مصنفات كثيرة أشهرها (الفتوحات المكية فصوص الحكم) بخلاف الرسائل العديدة في وحدة الوجود .

انظر ترجمته ومصنفاته في : نفخ الطيب ٢/٣٠١ - ٣٨٤ ، شذرات الذهب ٥/١٠٩ ، الطبقات الكبرى للشعراني ١/١٦٢ ، ميزان الاعتدال ٣/٦٥٩ - ٦٦٠ ، لسان الميزان ٥/٣١١ - ٣٥١ ، فوات الوفيات ٣/٤٧٨ - ٨٤٢ ، الأعلام ٧/١٧٠ - ١٧١ .

(٢) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين ويكنى بأبي محمد ، ولد سنة ٦١٣ وتوفي سنة ٦٦٩ هـ . له مجموعة رسائل في التصوف طبعت أخيراً بتحقيق عبد الرحمن بدوي (ط القاهرة) .

انظر ترجمته في شذرات الذهب ٥/٣٢٩ - ٣٣٠ ، الطبقات الكبرى للشعراني ١/١١٧ ، لسان الميزان ٣/٣٩٢ ، فوات الوفيات ١/٥١٦ - ٥١٨ ، نفح الطيب ٢/٣٩٥ - ٤٠١ ، الأعلام ٤/٥١ .

(٣) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي الملقب (بصدر الدين) صوفي من كبار تلامذة محي الدين بن عربي توفي سنة ٦٧٢ هـ . ولم يعرف تاريخ مولده ، تزوج ابن عربي بأم القونوي وقام بتربيته ، كان شافعي المذهب ، جرت مكاتبات بينه وبين نصير الدين الطوسي ، من أهم كتبه : النصوص في تحقيق الطور المخصوص ، ولد وتوفي بقونية .

أنظر عنه : مفتاح السعادة ١/٤٧١ ، طبقات السبكي ٦/١٩ ، جامع كرامات الأولياء ١/١٣٣ ، كشف الظنون ٢/١٩٦٥ ، معجم المطبوعات ٢/١٥٣ ، فهرس المؤلفين ٢٤٢ ، الضوء اللامع ٧/١٣٣ الأعلام ٦/٢٥٤ .

(٤) هو سليمان بن عبد الله بن علي الكوفي المعروف بعفيف الدين التلمساني كان كوفي الأصل ، ادعى شيئاً من العرفان ، نسب إليه جماعة رقة في الدين وميلاً الى مذهب النصيرية .

انظر ترجمته في : فوات الوفيات ١/٣٦٣ - ٣٦٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٣٢٦ ، النجوم الزاهرة ٨/٢٩ - ٣١ ، الأعلام ٣/١٩٣ .

والبلياني ، وابن الفارض[1] وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب في القدر بين أهل الكلام والمتصوفة ، الذين أوقعوا جهماً في هذا الأصل ، وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه[2] بخلاف الإرجاء ، فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ويمكن فعله ، من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته .

ولهذا تجد من اتبعهم : غير معظم للأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة الى الرب سواء ، وأن كل ما شاءه فقد أحبه . وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته : أنه يسوق المقادير الى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور ، بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله ـ كالأشعري ـ في أنه في نفس الأمر : لا حسن ولا سيء . وإنما الحسن والقبح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً ، وذلك فرق يعود الى حظ العبد ، وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ .

فتارة : يقولون في امتثال الأمر والنهي : إنه من مقام التلبيس ، أو ما يشبه هذا . كما يوجد في كلام أبي إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين .

وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أي العامة ، كما يقوله الشيخ المغربي ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

ومن يسلك مسلكهم : غايته ـ إذا عظم الأمر والنهي ـ أن يقول ، كما نقل عن الشاذلي : يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً .

ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي ، مثل أن يدعو : أن يعطيه الله أذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ، ونحو هذا ، مما يوجب أنه

---

(١) هو ابو حفص عمر بن مرشد بن علي شرف الدين بن الفارض الحموي الأصل ، مصري المولد والوفاة ، لقب بسلطان العاشقين ، ولد سنة ٥٧٦ هـ وتوفي ٦٣٢ هـ له قصيدة «التائية» ضمنها مذهبه في وحدة الوجود .

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ١٢٦/٣ ـ ١٢٧ ميزان الاعتدال ٢٢٦/٢ شذرات الذهب ١٤٩/٥ ـ ١٥٣، لسان الميزان ٣١٧/٤ ـ ٣١٩، الأعلام ٢١٦/٥ ـ ٢١٧. وانظر أيضاً : ابن الفارض والحب الإلهي ، محمد مصطفى حلمي (ط القاهرة) ١٩٤٥ م .

(٢) سبق حديث ابن تيمية عن بدعة جهم الأولى وهي نفي الأسماء والصفات انظر ص ٤٢٠ فيما سبق .

يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد في جواب الشاذلي . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

(بين الكرامة والشعوذة)

ـ وآخرون ـ من عوام هؤلاء ، يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً . ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء . ما هي متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء . وتكون كراماتهم : من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والكهان . قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءَهُمْ رسولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ ، نَبَذَ فَريقٌ مِنَ الذينَ أوتوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظهورِهِمْ ، كَأَنَّهم لا يَعلمونَ واتَّبَعُوا ما تَتْلوا الشياطينُ على مُلْكِ سُلَيْمان وما كَفَر سُلَيْمانُ ولكنّ الشياطينَ كَفَروا يُعَلِّمونَ الناسَ السحرَ . وما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هاروتَ وماروتَ ﴾[1] .

وقد قال النبي ﷺ : «لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »[2] .

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم ـ ممن أضله الشيطان من المنتسبين الى الإسلام ـ إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ما تتلوه الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ، بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان بإعانة الشياطين ، وهي تحصل بما تتلو الشياطين .

ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان ، ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار ، كالذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ألم تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصيباً مِنَ الكتابِ ؟ يُؤْمِنُونَ بالجِبْتِ والطاغوتِ ، ويَقولونَ للذينَ كفَروا : هَؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الذينَ آمنوا سبيلاً ، أولئك الذينَ لَعَنَهُمْ الله ، وَمَنْ يَلْعَنِ الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾[3] .

وهؤلاء ضاهؤوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٠١ ، ١٠٢).

(٢) سبق تخريج الحديث .

(٣) سورة النساء الآيات (٥١ ـ ٥٢).

مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ـ الآية ﴾ .

ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع في مثل هذه طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة ، والتصوف ، حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام ، لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة ، التي تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه ، إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس ، وتعظيمهم لهم ، لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك ، عملوه ، ودعوا اليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول ﷺ ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن ، لأجل مصلحة الجمهور ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهؤوا به فارس والروم ، وغيرهم ، فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار والروم كانوا ـ قبل النصرانية ـ مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ، فإن أولئك ضاهؤوا أهل الكتاب فيما بدل أو نسخ . وهؤلاء ضاهؤوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع الى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس :

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكين للرب ، وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقول ـ إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه ـ: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك . إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى : ﴿ ما أصابَكَ من حسنةٍ فَمِنَ الله وَمَا أصابَكَ مِنْ سيئةٍ

فمِنْ نَفْسِكَ ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ إنّ عبادي ليسَ لك عليهم سُلطانٌ إلاّ مَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ ﴾[1] وقوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جهنمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَك مِنْهُمْ أَجمعِينَ ﴾[2].

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية في فرعون ، ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله ، كالمسيح وغيره .

(أول شرك وقع في قوم نوح)

وأصل الشرك في بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم : ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان في بني آدم . وكان في قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، يدعوهم الى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وقَالوا لا تَذَرُنَّ آلهَتَكُمْ. ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سُواعاً . ولا يغوث ويَعُوقَ وَنَسْراً . وَقَدْ أَضَلّوا كثيراً ﴾[3]. وهذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت الى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه «لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه . وأنه يحب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب ـ فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة الى الله سواء ، لا يحب شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبده وحده ، لا يشرك به شيئاً وبين من يعبد معه آلهة أخرى ، وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ، ليس معها حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ولا فرق بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق . وجوزوا الخوارق مطلقاً ، وحكوا في ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالاً منكرة .

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٢.

(٢) سورة ص الآية ٨٥.

(٣) سورة نوح الآية ٢٣.

فقال بعضهم : أن الولي يعطى قول «كن» . وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الـولي فعل ممكن ، كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير ذلك ، وزاد ابن عربي : إن الـولي لا يعـزب عن قـدرتـه شيء من الممكنـات : والـذي لا يعـزب عن قـدرتـه شيء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله ، ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .

وادعـوا أن هـذا كـان للنبي ، ثم انتقـل الى الحسن بن عـلي ، ثم من الحسن إلى ذريتـه واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك الى أبي الحسن الشاذلي ، ثم الى ابنه .

خاطبني بذلك : من هو من أكابر اصحابهم .

وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحـدثني بعض الشيوخ ، الـذين لهم سلوك وخبرة : أنـه كان هـو وابن هـود في مكـة ، فدخلا الكعبة ، فقال له ابن هود[1] ـ وأشار الى وسط الكعبة ـ هـذا مهبط النور الأول . وقـال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : فوقف شعري من هذا الكلام وانخنست ـ أو كما قال .

(الدعاء ، آدابه ، حدوده)

من الناس من يحكي عن سهل بن عبد الله[2] . أنه لما دخل الزنج البصرة . قيل لـه في

---

(١) هـو الحسن بن علي شقيق المتوكل عـلى الله ملك الأندلس بن يـوسف بن هود ، فيلسـوف متصوف ولـد سنة ٦٣٣ هـ ، تصوف واشتغل بالطب والحكمة ، حج وسكن دمشق وتوفي بها سنة ٦٩٩ ، كان يصيبه ذهول ، أقرأ اليهود كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون . وصفه الذهبي بالاتحـاد والحلول والضلالـة ، قال عنه المناوي «فـاضل تفنن وزاهـد تسنن ، ومن شعره :

علـم قـوم بي جـهـل إنّ شـاني لأجلّ
أنـا عـبـد أنـا رب أنـا عـزّ أنـا دلّ
أنـا دنـيـا أنـا أخـرى أنـا بـعض أنـا كـلّ
أنـا مـعشـوق لـذاتي لـسـت عـنـه الـدهـر أسلو

أنظر عنه : شذرات الذهب ٤٤٦/٥ ، فوات الوفيات ١٢٧/١ ، الأعلام ٢٢١/٢ .

(٢) هو سهل بن عبد الله التستري بن يونس أبو محمد ولد سنـة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٣ . أحد أئمـة الصوفيـة الأعلام ، لـه رسائل في علم الإخلاص والرياضية وعيوب النفس وله تفسير القرآن الكريم طبع بعض رسائله د محمد كمال جعفر ، وله =

ذلك . فقال : هاه ، إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها . ولو سألوه : أن لا يقيم القيامة لما أقامها ، لكنهم يعلمون مواضع رضاه ، فلا يسألونه إلا ما يحب .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل وهو الذي نختار أن يكون حقاً ـ أو تكون غلطاً منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون . ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم يجبهم ، مثل اقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك . بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في أن لا يكون .

لكن الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضي بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى ـ من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير ـ ما هو دون هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه . وكما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه . فقيل له :﴿ يا نوحُ ، إنَّهُ ليسَ من أهلكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صالحٍ . فلا تَسْأَلْني ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[1] .

وأفضل الخلق محمد ﷺ ، قيل له في شأن عمه أبي طالب ، ﴿ ما كانَ للنبيِّ والذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِروا للمُشركِينَ وَلَوْ كانوا أولي قُرْبَى ﴾[2] وقيل له في المنافقين : ﴿ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِر لَهُمْ لَنْ يَغفِرَ الله لَهُمْ ﴾[3] وقد قال تعالى عموماً : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفعُ عِنْدَهُ إلّا بإذْنِهِ ؟﴾[4] وقال : ﴿ ولا تَنفعُ الشفاعةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لهُ ﴾[5]. فمن هذا الذي لو سأل الله ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟!

= أيضاً رقائق المحبين .

انظر عنه : طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، الوفيات ٢١٨/١ ، حلية الأولياء ١٨٩/١٠ طبقات الشعراني ٦٦/١ ، المناوي ٢٣٧/١ .

(١) سورة هود الآية ٤٦ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١٣ .

(٣) سورة المنافقون الآية ٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٥) سورة سبأ الآية ٧٢.

وسيد الشفعاء محمد ﷺ يوم القيامة أخبر : أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثني عليه . فيقال له : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع . وسل تعط . واشفع تشفع . قال : فيجد لي حداً . فأدخلهم الجنة »[1] وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكم تَضَرُّعاً وخِفْيَةً . إِنَّهُ لا يُحِبُّ المعتدينَ ﴾ .[2]

وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر : أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه : ﴿ وإِذَا سأَلَكَ عِبادي عني فإني قريبٌ . أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دَعَانِ ﴾[3] وقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكم : ادْعوني أَسْتَجِبْ لكم . إنّ الذينَ يَسْتَكْبِرونَ عن عبادتي سَيَدْخُلونَ جهنمَ داخِرينَ ﴾[4] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم ؛ إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يدخر له من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها »[5] .

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله . وهذا غاية الإجابة ، فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً . أو مفسداً للداعي أو لغيره . والداعي جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه . والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له ، فإنه يعطيه من ماله نظيره . ولله المثل الأعلى .

وكما فعل ﷺ - لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم - فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

---

(١) هذا جزء من حديث الشفاعة ، وهو حديث مطول أورده مسلم بتمامه ١/١٠٠ - ١٠١ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) وفيه :

« . . . ثم يقال يا محمد قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال : فلا أدري أوفي الرابعة قال يا رب . فأقول ما بقي في النار : إلا من حبسه القرآن ، أي وجب عليه الخلود ، وانظر أيضاً البخاري ٦/١٠٦ - (كتاب التفسير ، سورة الإسراء) مع اختلاف في اللفظ ، الترغيب والترهيب للمنذري ٥/٣٩٨ - ، تيسير الوصول ٤/١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) الأعراف : ٥٥ .

(٣) البقرة : ١٨٦ .

(٤) غافر : ٦٠ .

(٥) ورد هذا الحديث في كتب السنن والصحاح ، انظر : سنن الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن حنبل ٣/١٨ ، ٦/١٢٥ ، انظر تحقيق الحديث في الجزء الأول

وقد روي في الحديث : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء »[1] وهذا حق .

فصــل
(الحسنة من الله يجب الشكر عليها)

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات ـ والحسنات تدخل فيها كل نعمة ـ إلا من الله ، وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[2] .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال : ﴿ ثُمَّ إذا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار : يتضمن رفع الصوت .

والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر ، وأما في حال النعمة : فهو ساكن ، إما شاكراً وإما كفوراً ﴿ ثم إذا مسّكم الضرُّ فإليهِ تجأرونَ . ثم إذا كَشَفَ الضرَّ عَنْكم إذا فريقٌ مِنكم بربهم يُشرِكونَ ﴾[3] .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف العبد ـ بعد ذلك ـ الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إليهِ ثمّ إذا أذاقَهُمْ منهُ رحمةً إذا فريقٌ منهم بربِّهِمْ يُشرِكونَ ، لِيَكفروا بما آتَيْناهُمْ . فَتَمَتَّعوا فَسَوْفَ تَعلمونَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ قلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ ، تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخِفْيَةً لَئِنْ أنجانا من هذه لَنَكونَنَّ مِنَ الشاكِرينَ ؟ قل : اللهُ يُنْجيكُمْ منها ومِنْ كلِّ كَرْبٍ . ثم أنتم تُشرِكونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ ضرٌّ دعا رَبَّهُ مُنيباً إليهِ . ثمّ إذا خَوَّلَهُ نعمةً منهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إليهِ منْ قبلُ : وَجَعَلَ للهِ أنداداً لِيُضَلَّ عن سبيلِهِ . قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قليلاً . إنَّكَ مِنْ أصحابِ النارِ ﴾[5] .

وقوله : ﴿ نسي ما كان يدعو اليه ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله لدفعه ، إليه ،

---

(١) ورد الحديث في الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن ماجه (كتاب الدعاء) ، ابن حنبل ٢/٣٦٢ .

(٢) النحل : ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) الروم : ٣٣ ـ ٣٤ .

(٤) الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) الزمر : ٨ .

كما قال في سورة الأنعام : ﴿ قل أرأيتكم إنْ أتاكم عذابُ الله ، أو أتتكُم الساعةُ : أغيرَ الله تدْعُونَ ، إنْ كنتم صادقينَ ؟ بل إياهُ تدْعُونَ فيَكْشِفُ ما تدْعُونَ إليهِ إنْ شاءَ . وتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكونَ ﴾[1] .

فذم الله سبحانه حزبين : حزباً لا يدعونه في الضراء ، ولا يتوبون إليه . وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان ـ كالمعطلة ، والمشركة ـ حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعوا الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال : ﴿ ولقدْ أرْسَلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فأخَذْناهُمْ بالبأْساءِ والضّراءِ لَعَلَّهُمْ يَتضَرَّعُونَ . فلولا إذْ جاءَهُمْ بأسُنا تَضرّعوا ؟ ولكنْ قَسَتْ قُلوبُهُمْ ، وزَيَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أخَذْناهم بالعذابِ فما اسْتَكانوا لِرَبِّهِمْ وما يَتَضَرَّعُونَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ أوَلا يَرَوْنَ : أنّهم يُفْتَنونَ في كلِّ عامٍ مرةً أوْ مَرَّتَيْنِ ؟ ثم لا يَتوبونَ ولا هم يَذَّكَّرونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العذابِ الأدنى دونَ العذابِ الأكبرِ لعلّهم يَرْجِعونَ ﴾[5] وحزب يتضرعون إليه في حال الضراء ويتوبون اليه . فإذا كشفها عنهم أعرضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ ، أو قاعداً أوْ قائماً ، فلمّا كَشَفْنَا عنهُ ضُرَّهُ مَرَّ ، كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ . كذلكَ زُيِّنَ للمُسرِفينَ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وإذا أنْعَمْنا على الإنسانِ أعرضَ ونَأى بجانِبِهِ . وإذا مَسَّهُ الشرُّ فذو دُعاءٍ عَريضٍ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ وإذا مَسَّكم الضرُّ في البحرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلا إياهُ . فلمّا نَجّاكُمْ إلى البَرِّ أعْرَضْتُمْ . وكانَ الإنسانُ كَفُوراً ﴾[8] وقال في المشركين ما تقدم : ﴿ ثم إذا مَسَّكُمُ الضرُّ فإليهِ تجأرونَ . ثم إذا كَشَفَ الضرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكونَ ﴾ .

والممدوح : هو القسم الثالث . وهم الذين يدعونه ، ويتوبون اليه ويثبتون على عبادته ،

---

(١) الأنعام : ٤٠ ، ٤١ .
(٢) الأنعام : ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) المؤمنون ٧٦ .
(٤) التوبة : ١٢٦ .
(٥) السجدة : ٢١ .
(٦) يونس : ١٢ .
(٧) فصلت : ٥١ .
(٨) الإسراء : ٦٧ .

والتوبة إليه في حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء . وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام .فقال تعالى :﴿ وذا النونِ إذْ ذهَبَ مُغاضِباً فظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادَى في الظُّلُماتِ أنْ لا إلهَ إلَّا أنتَ ، سُبحانَكَ ! إني كنتُ مِنَ الظالمينَ . فاسْتَجَبْنا لهُ ونَجَّيْناه مِنَ الغَمِّ وكذلكَ نُنْجي المؤمنينَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ ، وأَلْقَيْنا على كُرْسيِّهِ جَسَداً ثمّ أنابَ . قال : ربِّ اغفرْ لي ، وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي . إنَّكَ أنتَ الوَهّابُ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أتاكَ نَبأُ الخَصْمِ ، إذْ تَسَوَّروا المِحْرابَ ؟ إذْ دَخَلوا على داودَ . فَفَزِعَ مِنْهُمْ . قالوا : لا تَخَفْ . خَصْمانِ بَغَى بَعْضُنا على بَعْضٍ . فاحْكُمْ بَيْنَنا بالحقِّ ولا تُشْطِطْ . واهْدِنا إلى سواءِ الصِّراطِ . إنّ هذا أخي لهُ تسعٌ وتِسْعونَ نَعْجَةً . ولي نعجةٌ واحدةٌ ، فقال : أَكْفِلْنيها . وَعَزَّني في الخِطابِ. قالَ : لقد ظَلَمَكَ بسؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ . وإنّ كثيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغي بعضُهم على بعضٍ . إلّا الذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصّالحاتِ ـ وقليلٌ ما هُمْ ـ وَظَنَّ داودُ أنّما فَتَنّاهُ . فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ . وَخَرَّ راكِعاً وأنابَ . فَغَفَرْنا لهُ ذلكَ . وإنّ لهُ عندنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[3] وقال تعالى عن آدم وحواء : ﴿ فَدَلّاهُما بغُرورٍ : فلمّا ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجَنّةِ . وناداهُما رَبُّهما : أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُما الشجرةِ ؟ وَأَقُلْ لَكُما : إنّ الشيطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبينٌ ؟ قال رَبَّنا، ظَلَمْنا أنْفُسَنا وإن لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ ﴾[4] وقال : ﴿ فَتَلَقّى آدمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ . فتابَ عَلَيْهِ . إنّه هو التوابُ الرحيمُ ﴾[5] .

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ . فَما وَهَنُوا لِما أصابَهُمْ في سبيلِ اللهِ . وَمَا ضَعفُوا وما اسْتَكانوا والله يُحِبُّ الصابِرينَ وما كانَ قَوْلَهُمْ ، إلّا أنْ قالوا : رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنوبَنا وإسْرافَنا في أَمْرِنا ، وَثَبِّتْ أقدامَنا ، وانْصُرْنا على القومِ الكافِرين . فآتاهُمُ اللهُ ثوابَ الدنيا وَحُسْنَ ثوابِ الآخِرةِ . واللهُ يُحِبُّ المحسنينَ ﴾[6] .

وقوله ﴿ قاتل ﴾ أي النبي قتل ، وهذا أصح القولين .

---

(١) الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) ص : ٣٤/٣٥ .

(٣) ص : ٢١ ـ ٢٥ .

(٤) الأعراف : ٢٢/٢٣ .

(٥) البقرة : ٣٧ .

(٦) آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٨ ، يلاحظ أن ابن تيمية يرجح قراءة (قُتِلَ) بالبناء للمجهول ويكون نائب الفاعل ضميراً يعود إلى النبي ، وقراءة حفص « قاتل » والفاعل « ربيون » .

وقوله ﴿ معه ربيون كثير ﴾ جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي ـ صفة بعد صفة ـ أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل ، ولم يقتلوا معه ، فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة وأولئك الربيون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

و« الربيون » الجموع الكثيرة ، وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى: هو الذي يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك ﴿ وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُسلُ . أفَإنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ : انْقَلَبْتُمْ على أعْقابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً . وَسَيَجْزي اللهُ الشاكِرينَ ﴾ وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي ﷺ . وقال : « من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت »(١) .

فإنه عند قتل النبي أو موته : تحصل فتنة عظيمة للناس ـ المؤمنين والكافرين ـ وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين : إنّ هذا قد انقضى أمره ، وما بقي يقوم دينه . وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟

فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء ، والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال ، بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير ، فما وهن المؤمنون لما اصابهم بقتله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب ـ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ـ وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا ، ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ إنما المؤمِنونَ الذينَ آمَنوا باللهِ ورسولِهِ ، ثمّ لم يرتابُوا . وَجَاهَدُوا بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ في سبيلِ الله . أولئكَ هُمُ الصادقونَ ﴾(٢) وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين ، سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبت ، وما يعطيهم من عنده من النصر ، فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله ، وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم ، قال تعالى لما أنزل الملائكة : ﴿ وما جعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرى ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قلوبُكُمْ . وما النصرُ إلاّ مِنْ عندِ الله . إنّ الله عزيزٌ حكيمٌ ﴾(٣) وقال

---

(١) أنظر ما قاله أبو بكر في ذلك اليوم في البخاري ٨/٦ (فضائل الصحابة ـ فضل أبو بكر) .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ١٠ .

تعالى : ﴿ فآتاهُمُ الله ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرةِ . والله يحبُ المحسنين ﴾[1]. وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان ـ وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لا يتوكل إلا عليه وحده ، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده . والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

وهذه الأمور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة . كما ثبت عنه في الصحيح : «أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد »[2] فهذا حمد ، وهو شكر الله تعالى : وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك : «اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية . خلقاً ، وقدراً ، وبداية ، وهداية ، هو المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولتوحيد الأهلية ـ شرعاً وأمراً ، ونهياً ـ وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختاً ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة «فلا ينفع ذا الجد منك » أي لا ينجيه من لا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال : «لا ينفعه منك » ولم يقل : «لا ينفعه عندك» فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء ، فقد يظن ذو الجد ـ الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده ـ أنه كذلك ، فقال «ولا ينفع ذا الجد منك » ضمن «ينفع » معنى «ينجي ويخلص» فبين أن جده لا ينجيه من العذاب ، بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك ، فلا ينجيه ولا يخلصه .

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله : ﴿ فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[3] وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليهِ أُنِيبُ ﴾[4] وقوله : ﴿ واذْكُرْ اسْمَ

---

(١) آل عمران : ١٤٨ .

(٢) ورد هذا الحديث في : مسلم ١٩٨/١ (ط الحلبي) بروايات مختلفة وسبق تحقيق الحديث .

(٣) سورة هود الآية ١٢٣ .

(٤) سورة هود الآية ٨٨ .

ربَّكَ وتَبَتَّلْ إليه تَبْتِيلاً . ربُّ المشرقِ والمغربِ ، لا إله إلاّ هو . فاتَّخِذْهُ وَكيلاً ﴾[1] .

فقوله : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت » توحيد الربوبية الذي يقضي أنه سبحانه : هو الذي يسأل ويدعى ، ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه . كما يحتج به في القرآن على المشركين .

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد ـ توحيد الربوبية ـ ومع هذا يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى : ﴿ ويَعْبُدونَ من دونِ الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ . ويقولون : هؤلاء شُفَعَاؤنا عِنْدَ الله ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ والذينَ اتَّخذوا من دونِ الله أولياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ القُرى ، وَصَرَّفْنا الآياتِ لعلّهم يَرْجِعُونَ . فَلَوْلاَ نَصَرَهُمْ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دونِ الله قُرْباناً آلهةً ؟ بَلْ ضَلّوا عَنْهُمْ . وَذَلِكَ إفكُهُمْ وَمَا كانوا يَفْتَرونَ ﴾[4] .

وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لا شريك له . وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله ـ صلوات الله عليهم ـ فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره ، بل يقضي أن يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول ـ لأجل أنه رسول الله ـ يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفي صحيح البخاري أن عمر قال : «يا رسول الله ، والله إنك لأحب إلي من كل شيء ، إلا من نفسي . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالذي بعثك بالحق ، إنك لأحب إلي من نفسي ، قال : الآن يا عمر »[5] .

---

(١) سورة المزمل الآيات (٨، ٩).

(٢) سورة يونس الآية ١٨ .

(٣) سورة الزمر الآية ٣ .

(٤) سورة الأحقاف الآيات (٢٧، ٢٨).

(٥) ورد الحديث أيضاً في : أبو داود (كتاب الوتر)، الترمذي (كتاب الزهد) ابن حنبل ١٤١/٣ .

وقد قال تعالى: ﴿ النبيُّ أولَى بالمؤمنينَ من أنفسِهِمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ قلْ إنْ كانَ آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانُكم ، وأزواجُكم ، وعشيرتُكم ، وأموالٌ اقترَفْتُمُوها ، وتجارةٌ تخْشَونَ كَسَادها ، ومساكِنَ تَرْضَوْنَها : أحبَّ إليكم مِنْ الله ورسولِهِ وجهادٍ في سبيلِهِ ، فتَرَبَّصوا حتى يأْتِيَ الله بأمرِهِ والله لا يهدي القومَ الفاسقينَ ﴾[2] .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد في سبيله : أحب إلى العبد من الأهل والمال ـ على اختلاف أنواعه ـ فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

فهذا التوحيد ـ توحيد الإلهية ـ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، إلا لله وحده . فيقضي : أن يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به كما قال تعالى في النوعين : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقال : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[3] .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ويحبونهم كما يحبونه ، فكان ذلك التوحيد ـ الذي هو توحيد الربوبية ـ حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

(الشفاعة لا تكون إلا لمن ارتضى)

فإن قالوا «ليشفع» فقد قال الله : ﴿ مَنْ ذا الذين يَشْفَعُ عِنْدَهُ الا بإذنه ؟ ﴾[4] فلا يشفع من له شفاعة ـ من الملائكة والنبيين ـ إلا بإذنه ، وأما قبورهم وما نصب عليها من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم ـ التي مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرموقة ـ فجعل الاستشفاع بها

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٣) سورة هود الآية ١٢٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

استشفاعاً بهم ، فهذا باطل عقلاً وشرعاً . فإنها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التي عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى فما بقي الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، فان المخلوق يشفع عنده نظيره ـ أو من هو أعلى منه ، أو دونه ـ بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولا بد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبته إياه ، وإما للمعارضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعة الشفيع هي التي حركت إرادة المشفوع إليه ، وجعلته مريداً للشفاعة ، بعد أن لم مريداً لها ، كأمر الآمر الذي يؤثر في المأمور ، فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً لفعله .

وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محركاً له الى فعل ما سأله .

فالشفيع : كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه . فبشفاعته صار المشفوع فاعلاً للمطلوب . فقد شفع الطالب والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فالأمر كله إليه وحده ، فلا شريك له بوجه ، ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك في آية الكرسي ، التي فيها تقرير التوحيد . فقال : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض. من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾[1] .

وسيد الشفعاء ﷺ يوم القيامة ، أذا سجد وحمد ربه ، يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فيحد له حداً . فيدخلهم الجنة »[2] فالأمر كله لله كما قال : ﴿ قلْ : إنّ الأمرَ كلّه لله ﴾[3] وقال لرسوله ﴿ ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ ﴾[4] وقال : ﴿ ألاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ﴾[5] .

فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٢) ورد الحديث في مسلم ١/١٠٠ ـ ١٠١ (كتاب الإيمان . باب أدنى أهل الجنة منزلة) . وفي البخاري ١٠٦/٦ (كتاب التفسير . سورة الإسراء) وسبق تخريج الحديث تفصيلاً .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

الشفاعة . كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء »[1] .

وإذا دعا الداعي ، وشفع عنده الشفيع ، فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة : لم يكن هذا مؤثراً فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق ، فإنه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه ، وهو الذي وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعل سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات . قال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ، فانهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له ، فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة ، وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه .

(الإذن بالشفاعة نوعان)

فإن الإذن نوعان :

(الأول)

إذن بمعنى المشيئة والخلق، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة ، فمن الأول : قوله في السحر : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلَّا بِإذْنِ اللهِ ﴾[2] فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر .

والقدرية تنكر هذا «الإذن» . وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله . وكذلك قوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعانِ فبإذنِ الله ﴾[3] فإن الذي أصابهم من القتل

---

(١) ورد الحديث في : البخاري ٢/١٤٠ (كتاب الزكاة ، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها) وأورده البخاري أيضاً في كتاب الأدب ، كتاب التوحيد . وجاء في مسلم ٢/٤٤٦ (كتاب البر، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام)، وأنظر أيضاً : أبو داود (كتاب الأدب).

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٦.

والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

(الثاني)

والنوع الثاني : قوله : ﴿ إنا أرسلناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً . وداعياً الى الله بـاذنهِ ﴾[1] وقوله : ﴿ ما قَطَعْتُمْ من لينةٍ أو تَرَكْتُمُوها قائمةً على أُصُولها فبإذنِ الله ﴾[2]. فـإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟﴾ هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعـه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر ، فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقـادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كـل شافـع وداع قد فعـل ما فعـل بدون خلق الله وقـدرته ، وإن كـان قد أبـاح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه ، لا هذا الإذن ، ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين ، وعندهم : أنه لم يشأه ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرون بالقدر ، يقولـون : إن الشفعاء يشفعـون بالإذن القـدري وإن لم يأذن لهم إباحة وجوازاً .

ومن كان مكذبـاً بالقـدر ـ مثل كثير من النصارى ـ يقـولون : إن شفـاعة الشفعـاء بغير اذن ، لا قدري ولا شرعي .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدري .

(الشفاعة بدون إذن شرعي غير مقبولة)

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعي : فقد شفع عنده بغير إذن قدري ولا شرعي .

فالداعي المأذون له في الدعاء : مؤثر في الله عندهم ، ولكن بإباحته .

والداعي غير المأذون له : إذا أجاب دعاه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهـذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كـدعاء بلعـام بن باعـوراء وغيره ، والله تعـالى يقول : ﴿من ذا الـذي يشفع عنـده الا بإذنه؟﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات (٤٥ ـ ٤٦) .

(٢) سورة الحشر الآية ٥ .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعي ، وإن كان خالقاً لفعله .

كشفاعة نوح لابنه .
وشفاعة إبراهيم لابيه .

وشفاعة النبي ﷺ لعبد الله بن أبي بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته وقوله :﴿من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه؟﴾ قد قلتم : إنه يعم النوعين ، فإنه لو أراد الإذن القدري : لكان كل شفاعة داخلة في ذلك ، كما يدخل في ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعي فقط لزم قول القدرية ، وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعي؟ .

قيل : المنفي من الشفاعة بلا إذن : هي الشفاهة التامة ، وهي المقبولة ، كما في قول المصلي «سمع الله لمن حمده » أي استجاب له . وكما في قوله تعالى : ﴿ هدىً للمتّقين ﴾[1] وقوله : ﴿ إنما أنتَ منذرُ مَنْ يخْشَاهَا ﴾[2] وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآنِ مَنْ يخافُ وعيدِ ﴾[3] . ونحو ذلك .

فإن الهدى ، والإنذار ، والتذكير ، والتعليم ، لا بد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود ، وإلا قيل : علمته فلم يتعلم . كما قيل : ﴿ وأما ثمودُ : فهَدَيْنَاهُمْ ، فاستَحَبّوا العَمَى على الهُدى ﴾[4] . فكذلك الشفاعة .

(مقصود الشفاعة)

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع اليه . وهي الشفاعة التامة . فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه ، وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته ، كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح : ﴿ ربِّ إني أعوذُ بكَ أنْ أسألَكَ ما ليسَ لي بِهِ عِلْمٌ ، وإلاّ تَغْفرْ لي وتَرْحمني أَكُنْ مِنَ الخاسِرينَ ﴾[5] وكما نهى الله النبيِ ﷺ عن الصلاة على المنافقين . وقال له : ﴿ ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً . ولا تَقُمْ على قَبْرِهِ . إنّهم كفَروا بالله ورسولِهِ . ومَاتوا وهُمْ فاسقونَ ﴾[6] وقال له : ﴿ سواءٌ عليهم أستغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفرْ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢ .

(٢) سورة النازعات الآية ٤٥ .

(٣) سورة ق الآية ٤٥ .

(٤) سورة فصلت الآية ١٧ .

(٥) سورة هود الآية ٤٧ .

(٦) سورة التوبة الآية ٨٤ .

لهم . لنْ يغفر الله لهم ﴾[1] ولهذا قال على لسان المشركين :﴿فما لنـا مِنْ شافعـين . ولا صدِيقٍ حميمٍ ﴾[2] .

(الشفاعة المطلوبة)

فالشفاعة المطلوبة هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بـإذنه ، قـدراً وشرعـاً ، فلا بـد أن يأذن فيهـا ، ولا بد أن يجعـل للعبد شـافعاً ، فهـو الخالق لفعله ، والمبيح له، كما في الداعي : هو الذي أمره بالدعاء ، وهو الذي يجعل الداعي داعيـاً ، فالأمر كله لله ، خلقاً وأمراً . كما قال : ﴿ألا له الخلق والأمر ﴾[3] وقد روي في حديث ـ ذكره ابن أبي حاتم وغيره ـ أنه قال : «فمن يثق به ، فليدعه » أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

(الشفاعة المنفية)

ولما كان المراد بالشفاعة المنفيـة : هي الشفاعـة المطلقـة ، وهي المقصود بـالشفاعـة وهي المقبولة ، بخلاف المردودة : فإن أحداً لا يـريدهـا ، لا الشافـع ولا المشفوع لـه ، ولا المشفوع اليه ، ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها ، والشفاعة المقبولة : هي النـافعة . بين ذلك في مثل قوله : ﴿ ولا تَنْفَعُ الشفاعَةُ عندَهُ إلّا لمَنْ أذِنَ له ﴾[4] وقوله : ﴿ يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلّا من أَذِنَ لهُ الرحمنُ ورضي لهُ قَوْلاً ﴾[5] فنفى الشفاعة المطلقة ، وبـين أن الشفاعـة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له ، وهو الإذن الشرعي ، بمعنى . أباح له ذلك ، وأجازه . كما قال تعالى : ﴿ أُذِنَ للذينَ يُقاتلَونَ بأنَّهم ظُلموا ﴾[6] وقوله : ﴿ لا تَدْخِلوا بيوتَ النبيِّ إلّا أنْ يُؤْذَنَ لكم ﴾[7] وقوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الذينَ مَلَكَتْ أيمانُكُمْ﴾[8] ونحو ذلك .

وقوله ﴿إلا لمن أذن له﴾ هو إذن للمشفوع له ، فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه ، قال تعالى : ﴿ يومئذٍ يتَّبِعُونَ الـداعي لا عِوجَ لهُ . وخَشَعَتِ الأصْواتُ للرحمن فلا تَسْمَعُ إلا هَمْسـاً ، يومئذٍ لا تنفعُ الشفـاعةُ إلا مَنْ أَذِنَ لـهُ

(١) سورة المنافقون الآية ٦ .

(٢) سورة الشعراء الآيات (١٠٠ ـ ١٠١).

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

(٤) سورة سبأ الآية ٢٣ .

(٥) سورة طه الآية ١٠٩ .

(٦) سورة الحج الآية ٣٩ .

(٧) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٨) سورة النور الآية ٥٨ .

الرحمنُ ورضيَ لهُ قَوْلاً ﴾[1] . وفيها قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ، فهو الذي تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين ، لا يذكرون غيره ، لأنه لم يقل «لا تنفع إلا من أذن له» ولا قال : «لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له» بل قال : «لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له» فهي لا تنفع ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[2] .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له ، بل لو أريد هذا ، لقيل لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال : ﴿لمن أذن له﴾ وهو المشفوع له ، الذي تنفعه الشفاعة .

وقوله ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ لم يعد إلى «الشفعاء» بل عاد إلى المذكورين في قوله ﴿وما لهم فيهما من شرك . وما له منهم من ظهير﴾ ثم قال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾ ثم بين أن هذا منتف ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق﴾ فلا يعلمون ماذا قال : حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط ، فأنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً .

(اقوال المفسرين في معنى الإذن)

وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا للمؤمنين ، وكذلك قال السلف في هذه الآية .

قال قتادة في قوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾[3] قال : كان أهل العلم يقولون: إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى عنه : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ ربُّك مقاماً محموداً ﴾[4] هو شفاعته يوم القيامة وقوله : ﴿ إلاّ مَنْ أَذِنَ لهُ الرحمنُ ورضيَ لهُ قولاً ﴾ إن الله

---

(١) سورة طه الآيات (١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) سورة سبأ الآية ٢٣.

(٣) سورة طه الآية ١٠٩.

(٤) سورة الإسراء الآية ٧٩.

يشفع المؤمنين بعضهم في بعض .

قال البغوي : « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله لـه أن يشفع لـه «ورضي له قـولاً » أي ورضي قوله . قال ابن عباس : يعني قال «لا إله إلا الله » قال البغوي . فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القـولين في قـوله تعـالى : ﴿ ولا تنفع الشفـاعة عنـده إلا لمن أذن له ﴾ وقـدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا .

منهم البغوي . فإنه لم يذكر هنا في الاستثناء إلا المشفوع لـه . وقال هنـاك : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ في الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ، حيث قالوا: ﴿ هؤلاء شفعاؤ نا عند الله ﴾[1] قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين في قوله : ﴿ ولا يملكُ الذين يَدْعُونَ مِنْ دونـهِ الشفاعـة ، إلا مَنْ شَهِـدَ بالحقِّ ﴾[2] وسنتكلم عـلى هذه الآيـة إن شاء الله تعـالى ، ونبين أن الاستثنـاء فيهـا يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحـانه قـال : ﴿يومئذ لا تنفع الشفـاعة إلا من أذن لـه الرحمن ورضي لـه قولاً﴾ .

و«الشفاعة» مصدر شفع شفاعة . والمصـدر يضاف الى الفـاعل تـارة ، وإلى محل الفعـل تـارة . ويماثله الـذي يسمى لفظه «المفعـول بـه » تـارة ، كـما يقـال : أعجبني دق الثـوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ «العلم» يضاف تارة الى العلم ، وتارة الى المعلوم . فـالأول كقولـه : ﴿ ولا يُحيطونَ بشيءٍ مِنْ علمِهِ ﴾[3] وقوله : ﴿ أنـزلهُ بِعِلْمِـهِ ﴾[4] وقولـه : ﴿ إنما أُنْـزِلَ بعلمِ الله ﴾[5] ونحو ذلك .

والثاني : كقوله : ﴿ إنّ الله عندَهُ عِلْمُ الساعةِ ﴾[6] فـالساعـة هنا معلومـة ، لا عالمـة . وقوله حين قال فرعون : ﴿ فما بال القرونِ الأولى ؟﴾ قال موسى : ﴿ عِلْمُها عندَ ربي في كتابٍ

---

(١) سورة يونس الآية ١٨ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٤) سورة النساء الآية ١٦٦ .

(٥) سورة هود الآية ١٤ .

(٦) سورة لقمان الآية ٣٤ .

لا يضِلُّ ربِّي ولا يَنْسَى ﴾[1] ومثل هذا كثير .

فالشفاعة مصدر لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء ، والشفاعة للمذنبين . فقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يتناول النوعين . من أذن له الرحمن ورضي له قولاً من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضي له قولاً من المشفوع له . وهي تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب ، وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له: ﴿ إلّا من أَذَنَ لَهُ الرحمنُ وقالَ صواباً ﴾[2] فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضي قولهم : هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة ، وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه : كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾ .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ ثم قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

(شرط الشفاعة المقبولة)
إذن الله ، أن تكون حقاً

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا في وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال :﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ والاستثناء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال : ﴿ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ﴾ فإذا لم يكن في الكلام حذف كان المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف ـ تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن ـ كان المصدر مضافاً الى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف الى بعضهم ، لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله : ﴿ ولكنّ البرّ مَنْ آمَنَ بالله ﴾[3] أي من

---

(١) سورة طه الآيات (٥١ ، ٥٢).

(٢) سورة النبأ الآية ٣٨.

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

يؤمن . و﴿ مثلُ الذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الذي يَنْعَقُ ﴾[1] أي مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أي الذي ينعق له . والمعنى في ذلك كله ظاهر معلوم . فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ إذا كان من هذا الباب ، لم يحتج : أن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفي الآية الأخرى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ من هؤلاء وهؤلاء .

لكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه ، فيكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو ولا تشفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين ، فالشافع ينتفع بالشفاعة وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمداً ﷺ : هو الشفاعة التي يختص بها ، وهي المقام المحمود ، الذي يحمده به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لا تحتاج الآية الى حذف ، بل يكون معناها : يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً .

ولذلك جاء في الصحيح : أن النبي ﷺ قال : «يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء . يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله من شيء يا عباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شيء » .

وفي الصحيح أيضاً : «لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاة أو شاة لها يعار ، أو رقاع تخفق . فيقول : أغثني ، أغثني . فأقول : قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء »[2] .

فيعلم من هذا : أن قوله : ﴿ ولا يملكون من دونه الشفاعة ﴾ و﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ على مقتضاه . وأن قوله في الآية : ﴿لا يملكون منه ﴾ كقوله ﷺ : «لا أملك لكم من الله من شيءٍ » وهو كقول إبراهيم لأبيه ﴿ وما أملك لك من الله من شيءٍ ﴾[3] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧١ .

(٢) ورد الحديث في البخاري ١٣٢/٢ (كتاب الزكاة ، باب البيعة على إيتاء الزكاة)، مسلم ١٢٦/٢ (كتاب الإمارة ، باب غلظ تحريم الغلول) والحديث برواية أبي زرعة عن أبي هريرة عن الرسول ، وانظر أيضاً : أبو داود (كتاب الإمارة)، النسائي (كتاب الزكاة).

(٣) سورة الممتحنة الآية ٤ .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ﴿ ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما الرحمن . لا يَمْلِكونَ منهُ خِطاباً : يَوْمَ يَقُومُ الروحُ والملائكةُ صفّاً . لا يتكلمون إلاّ مَنْ أَذِنَ لهُ الرحمنُ، وقال صوابا ﴾[1] . فأن هذا مثل قوله : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة﴾ألا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ ففي الموضعين : اشترط إذنه ، فهناك ذكر «القول الصواب» وهنا ذكر «أن يرضى قوله» ومن قال الصواب رضي الله قوله ، فإن الله إنما يرضى بالصواب .

(أقوال السلف في معنى : لا يملكون منه خطاباً)

وقد ذكروا في تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعة إلا بإذنه .

والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد «لا يملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم ـ أو أعلم ـ التابعين بالتفسير .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول «الشفاعة» أيضاً .

وفي قوله﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ لم يذكر استثناء . فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذا المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه في قوله﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾أن هذا عام مطلق . فإن أحداً ـ ممن يدعى من دونه ـ لا يملك الشفاعة بحال ، ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم: هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم .

قال ابن عطية : قوله «لا يملكون» الضمير للكفار . أي لا يملكون من إفضاله وإكماله ـ أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية أخرى ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرّحمنِ . فلا تَسْمَعُ إلا همساً ﴾[2] وفي حديث التجلي الذي في الصحيح ـ لما ذكر

---

(١) سورة النبأ الآيات (٣٧، ٣٨).

(٢) سورة طه الآية ١٠٨.

مرورهم على الصراط ـ قال ﷺ : «ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل : اللهم سلم سلم » فهذا في وقت المرور على الصراط ، وهو بعد الحساب والميزان[١] فكيف بما قبل ذلك ؟

وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولي العزم ، وكل يقول «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإني فعلت كذا وكذا ، نفسي ، نفسي » فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون الى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة ، فكيف بغيرهم ؟[٢] .

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين . فقال : ﴿ إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغْواً ولا كِذّاباً . جزاءً مِنْ ربِّكَ عطاءً حِساباً . ربِّ السمواتِ والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكونَ منهُ خطاباً ﴾[٣] .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يقومُ الرُّوحُ والملائكة صفّاً . لا يتكلمونَ إلا مَنْ أَذِنَ لهُ الرحمنُ ، وقالَ : صَوَاباً ﴾ فقد أخبر : أن «الروح والملائكة» يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله : ﴿لا يملكون منه خطاباً ﴾ والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً : أي لا أقدر من أمره على شيء . وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه، ولو بالسؤال .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً . ولا الخطاب فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً قال تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيمَ لأبيهِ : لأستغفرنَّ لكَ. وما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شيءٍ ﴾[٤] فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله شيئاً . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً «إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً في الدنيا وعمل به . رواه ـ والذي قبله ـ عبد بن حميد . وروي عن عكرمة : «وقال صواباً » قال : الصواب قول : لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

---

(١) انظر ما ذكره البخاري في هذا الشأن ١٥٦/٩ ـ ١٥٨ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) وانظر أيضاً : مسلم (كتاب الإيمان حديث الشفاعة) .

(٢) انظر في ذلك حديث الشفاعة الذي رواه مسلم (في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة) البخاري ١٠٦/٦ ـ ١٠٧ (كتاب التفسير ، سورة الإسراء) وانظر أيضاً الترغيب والترهيب للمنذري ٣٩٨/٥ ـ ٤٠٦ ، تيسير الوصول ١٠٣/٤ ـ ١٠٥ .

(٣) سورة النبأ الآيات (٣١ ـ ٣٨) .

(٤) سورة الممتحنة الآية ٤ .

وقوله في سورة طه : ﴿لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة . وهي الشفاعة في الحسنات وفي دخول الجنة ، كما في الصحيحين : «أن الناس يهتمون يوم القيامة . فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟»[1] فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم.

وفي حديث الشفاعة «أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » فهذهشفاعة أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد ﷺ . ويشفع غيره في العصاة .

فقوله : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموماً ، وفي أهل الجنة ، وفي المستحقين للعذاب . وهو سبحانه في هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال : ﴿ وقال صواباً﴾ وقال : ﴿ ورضي له قولاً﴾ لكن قد دل الدليل على أن «القول الصواب المرضي» لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ، لكن نفس القول مرضي فقد قال الله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾[2].

وذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما في قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ قولين . أحدهما : أن المستثنى هو الشافع . ومحل «من» الرفع .

والثاني : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : في معنى الآية قولان: أحدهما : أنه أراد بـ«الذين يدعون من دونه» آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال : ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ وهو شهادة أن لا إله إلا الله﴿وهم يعلمون﴾بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد بـ﴿الذين يدعون﴾عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد﴿إلا من شهد بالحق﴾ وهي كلمة الإخلاص﴿وهم يعلمون﴾أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي : ﴿لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق﴾هم عيسى

---

(١) انظر ما سبق . وقد ورد هذا الحديث في مسلم ١ / ١٠٠ - ١٠١ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) والحديث برواية قتادة عن أنس عن النبي ﷺ ، وفيه « . . . يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك) وقال ابن عبيد : فيهتمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيأتون آدم فيقولون . . .) الحديث .

(٢) سورة فاطر الآية ١٠ .

وعزير والملائكة . فإنهم عبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون «من» في محل رفع
وقيل «من» في محل خفض . وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعني أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم. روى بإسناده المعروف عن مجاهد ـ على شرط الصحيح ـ عن مجاهد قوله ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ عيسى وعزيراً والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة ﴿إلا من شهد بالحق﴾ يعلم الحق . هذا لفظه . جعل «شفع» متعدياً بنفسه وكذلك لفظ «شهد»[1] .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوي . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفعته ، وشفعت له ، كما يقال : نصحته ، ونصحت له . و«شفع» أي صار شفيعاً للطالب . أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ أن الله ربهم .

وروى بإسناده عن قتادة : ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ الملائكة وعيسى وعزير ، أي إنهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

(رأي ابن تيمية)

قلت : كلا القولين معناه صحيح . لكن التحقيق في تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً . لا يستثنى من ذلك أحد عند الله : فإنه لم يقل . ولا يشفع لأحد ، ولا قال ، لا يشفع لأحد ، بل قال :﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ وكل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة البتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفعاء ﷺ لم يعبد كما عبد المسيح ، وهو ـ مع هذا ـ له شفاعة ، ليست لغيره . فلا يحسن أن نثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلاً ، فإن معنى كلامه . أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق ، وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

---

(١) مابين المعقوفتين مكانة بياض ف (ط السعودية) و(مجموعة شذرات البلاتين) والسياق العام لرأي مجاهد وتفسير ابن تيمية له يدل على أن الكلمة الناقصة هي التي أضفناها لتوضيح المعنى .

وأيضاً فقوله : ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ يتناول كل معبود من دونه . ويدخل في ذلك الأصنام ، فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا . قال تعالى : ﴿ ويعْبُدونَ مِنْ دونِ الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ . ويَقولونَ : هَؤلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ الله ؟ قلْ : أَتُنَبِّئونَ الله بما لا يَعلمُ في السموات ولا في الأرض ؟﴾[1] .

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم ، وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا أثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالوا : اتَّخَذَ الرحمنُ ولداً . سُبحانَهُ ! بلْ عِبادٌ مُكْرمونَ ، لا يَسْبِقُونَهُ بالقولِ ، وَهُمْ بأَمْرِهِ يَعملونَ . يَعلم ما بينَ أيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ . ولا يَشْفَعُونَ لِمَنْ ارْتَضَى . وهم مِنْ خشيته مُشفقونَ ﴾[3] فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب ، فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً فإن في القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه ، نفاها مطلقاً ، فإن قوله: ﴿من دونه﴾ إما أن يكون متصلاً بقوله : ﴿يملكون﴾ أو بقوله : ﴿يدعون﴾ أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا . وهذا أظهر ، لأنه قال : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ فأخر﴿الشفاعة﴾ وقدم ﴿من دونه﴾ .

ومثل هذا كثير في القرآن ﴿يدعون من دون الله﴾ و﴿يعبدون من دون الله﴾ كقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾[4] وقوله : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾[5] .

بخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه فإن هذا لا نظير له في القرآن ، واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو

---

(١) سورة يونس الآية ١٨ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٦ .

(٣) سورة الأنبياء الآيات (٢٦ ـ ٢٨) .

(٤) سورة يونس الآية ١٨ .

(٥) سورة يونس الآية ١٠٦ .

لمن ارتضى ، ونحو ذلك . لا يقال في هذا المعنى ﴿من دونه﴾ فإن الشفاعة هي من عنده . فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً ، فإذا قيل ﴿الذين يدعون﴾ مطلقاً . دخل فيه الرب تعالى . فإنهم كانوا يدعون الله ، ويدعون معه غيره ، ولهذا قال : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾[(١)] .

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه ، وهذا أجود من الذي قبله ، ولكن يرد عليه ما يرد على الأول .

ومما يضعفها : أن ﴿الشفاعة﴾ لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال : ﴿لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب ، وأن كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة ، فإن المالك للشيء : هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال ، ولا يقال في هذا ﴿إلا بإذنه﴾ إنما يقال ذلك في الفعل ، فيقال : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾ .

وأما في الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها ، فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكاً لها ، بل هذا ممتنع ، كما يمتنع ان يكون خالقاً ورباً ، وهذا كما قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِ الله لا يَمْلِكون مِثْقَال ذَرَّةٍ في السموات ولا في الأرض ، وما لَهُمْ فيهما مِنْ شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ من ظهير ﴾[(٢)] فنفى الملك مطلقاً ، ثم قال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد . لا شريك له في الملك ، قال تعالى : ﴿ تباركَ الذي نَزَّل الفُرْقان على عبدِهِ ليكونَ للعالمينَ نذيراً . الذي لَهُ مُلْكُ السمواتِ والأرض . ولَمْ يتَّخِذْ وَلَداً . ولم يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في الملك . وخَلَق كُلَّ شيءٍ فقَدَّرَهُ تقديراً ﴾[(٣)] .

ولهذا لما نفى الشفعاء من دونه ـ نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء وإنما يقع الاستثناء : إذا لم يقيدهم من دونه . كما قال تعالى : ﴿ وانذِرْ بِهِ الذينَ يَخافونَ أَنْ يُحْشَروا الى ربهِمْ ، ليسَ لَهُمْ مِنْ دونِهِ وليٌّ ولا شفيعٌ ﴾[(٤)] وكما قال تعالى : ﴿ وذَكِّر بِهِ أَنْ تُبْسَل نَفْسٌ بما كَسَبَتْ . ليسَ لها

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٢ .

(٣) سورة الفرقان الآيات (١ ـ ٣) .

(٤) سورة الأنعام الآية ٥١ .

مِنْ دونِ الله وليٌّ ولا شفيعٌ ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ ما لَكُمْ مِنْ دونهِ مِنْ وليٍّ ولا شفيعٍ ﴾[2] فلما قال :﴿من دونه﴾ نفى الشفاعة مطلقاً . وإذا ذكر﴿بإذنه﴾لم يقل «من دونه» كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾ وقوله : ﴿ ما مِنْ شفيعٍ إلاّ مِنْ بعْدِ إذْنِهِ ﴾[3] .

فمن تدبر القرآن : تبين له كما قال تعالى : ﴿ الله نـزَّل احْسَنَ الحديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً ، مَثَانِي ﴾[4] يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً . ليس بمختلف ولا بمتناقض ﴿ ولَوْ كانَ مِنْ عندِ غيْرِ الله : لوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً ﴾[5].

وهو «مثاني » يثني الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة ، وهو «المتشابه» .

وإما مماثلة ، وهي : الأصناف والأقسام والأنواع ، وهي «المثاني » .

و«التثنية» يراد بها . جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط كما في قوله تعالى ﴿ أرْجِع البصَرَ كرّتَيْنِ ﴾[6] يراد به : مطلق العدد ، كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا : وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة ابن اليمان رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه : «جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لي . رب اغفر لي » لم يرد : أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثني هذا القول ، ويعدده ، ويكرره ، كما كان يثني لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : «إنه ركع نحواً من قيامه ، يقول في ركوعه : «سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم » وذكر : «أنه سجد نحواً من قيامه ، ويقول في سجوده : رب اغفر لي . رب اغفر لي » .

وقد صرح في الحديث الصحيح : «أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران »، فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر «أنه كان يقول : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم . سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي الأعلى ».

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاقتصار على مرتين فإن

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٠.

(٢) سورة السجدة الآية ٤ .

(٣) سورة يونس الآية ٣.

(٤) سورة الزمر الآية ٢٣ .

(٥) سورة النساء الآية ٨٢.

(٦) سورة الملك الآية ٤.

«الاثنين» أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعني أنه عدد هذا اللفظ ، لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد . والتعديد : يكون للأقسام المختلفة .

وليس في القرآن تكرار محض ، بل لا بد من فوائد في كل حساب .

و«بالمتشابه» في النظائر المتماثلة . و«المثاني» في الأنواع . وتكون التثنية في المتشابه ، أي هذا المعنى قد ثني في القرآن لفوائد أخر.

و«المثاني» تعم هذا وهذا . وفاتحة الكتاب: هي (السبع المثاني) لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

(الشفاعة لمن شهد بالحق)

والمقصود هنا : أن قوله: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة البتة . ثم استثنى ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون في المعنى المشترك بين المذكورين. فلما نفى ملكهم الشفاعة ، بقيت الشفاعة بلا مالك لها .

كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون في أحد ؟ فقال : نعم ﴿من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون ـ وإن كانوا لا يملكون الشفاعة ـ لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا . وهم لا يؤذن لهم في الشفاعة إلا للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله . فيشهدون بالحق وهم يعلمون أنه قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل يسأل في قبره ؟ « ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله ، جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[(١)] فلهذا قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ .

وقد تقدم قول ابن عباس : يعني من قال: «لا إله إلا الله» يعني : خالصاً من قلبه .

---

(١) ورد الحديث في البخاري ١٢٢/٢ (كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر).

الحديث برواية أنس عن الرسول ﷺ أنه قال : أن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيعقدانه فيقولون ما كنت تقول في هذا الرجل (لمحمد) ﷺ ، فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة . . . قال وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول : لا أدري : كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لادريت ولا تليت . .» وأنظر مسلم : كتاب الجنائز .

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون في أهل «لا إله إلا الله» .

وقد ثبت في صحيح البخاري : أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ : «من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة . من قال : «لا إله إلا الله» خالصاً من قبل نفسه» [1] .

فبين أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا أن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[2] .

فإذا شهدوا ـ وهم يعلمون ـ كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعاً لهم .

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ـ في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة : ﴿ حتى إذا خلص المؤمنون من النار : فوالذي نفسي بيده ، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ـ وذكر تمام الحديث» .

(سبب نزول الآية)

وسبب نزول الآية ـ على ما ذكروه ـ مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج بن الجوزي : سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا : «إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فنزلت هذه الآية » قاله مقاتل .

---

(١) ورد الحديث في البخاري ١٤٦/٨ (كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار) وكذا أورده البخاري في كتاب العلم ، ابن حنبل ٣٧٢/٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة . فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم ، بالذي يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحداً ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن : ﴿ من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فان الله يشفع فيه .

فالذي تنال به الشفاعة : هي الشهادة بالحق وهي شهادة أن لا إله إلا الله لا تنال بتولي غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

فمن والى أحداً من هؤلاء ودعاه، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له ، لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك .

فهذا القول والعبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة يحرم عليهم الشفاعة . فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ـ ليشفعوا لهم ـ كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم ، به حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم . لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وكثير من أهل الضلال يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظن ذلك المشركون الأولون ، وكما يظنه النصارى ، ومن ضل من المنتسبين إلى الإسلام ، الذي يدعون غير الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانه ، وينذرون له ، ويحلفون به . ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعاً لهم . قال تعالى : ﴿ قل ادْعوا الذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِ الله ، فلا يملكونَ كشْفَ الضُّرِّ عنكم ولا تحويلاً . أولئكَ الذينَ يدْعُونَ يَبْتَغونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة أيُّهم أقربُ ، ويرْجُونَ رَحْمَتَهُ ، ويخافونَ عذَابَهُ ، إنَّ عذاب ربِّكَ كانَ محْذوراً ﴾[1] .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة ، فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم ، ثم قال : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ فبين : أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، ويتقربون اليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين . وقد قال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ ﴾[2] .

---

(١) سورة الإسراء الآيات (٥٦ ـ ٥٧).

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٠.

وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت في غير هذا الموضع .

فكثير منهم : يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره . ويقولون : من كان أكثر صلاة على النبي ﷺ ، كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص ، وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط ، بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه كان ذلك سبباً لشفاعته له ، وليس الأمر كذلك .

(رأي ابن تيمية)

بل الشفاعة ، سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة ، فإن الشفاعة من الله مبدؤ ها وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه . وهو الذي يأذن للشافع ، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له .

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التي بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل في تحقيق أخلاص «لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملاً وبراءة ، وموالاة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون ـ الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فخفت موازينهم فاستحقوا النار ـ ، من كان منهم من أهل «لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه بذنوبه . ويميته الله في النار إماتة . فتحرقه النار إلا موضع السجود ، ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة . ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله ، على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهي «لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهليون .

(دعاء الرسول يجمع بين الحمد الشكر)

والمقصود هنا : أن النبي ﷺ كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر ، وبين « التوحيد والاستغفار » ، إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد . أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ : لا مانع لما أعطيت . ولا معطي لما منعت . ولا ينفع ذا

الجد منك الجد » ثم يقول : (اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد . طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس) كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ ـ إذا رفع رأسه من الركوع ، قال : اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[1] .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ ـ إذا رفع رأسه من الركوع ـ قال : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ)[2] .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي ﷺ : أنه كان يقول : (اللهم لك الحمد) وقال (ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما) .

ولم يذكر في بعض الروايات. لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما : العلو والسفل مطلقاً ، فيدخل في ذلك الهواء وغيره . فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه . فقد يجعل من السماء كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء . وكذا قال في القرآن : ﴿ هوَ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في سِتّةِ أيامٍ ثمّ اسْتَوَى على العرشِ ﴾[3] ولم يقل ﴿ وما بينهما ﴾ كما يقول : ﴿ اللّهُ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في ستةِ أيامٍ ، ثمْ اسْتَوَى على العرشِ ما لَكُمْ من دونِهِ مِنْ وليٍّ شفيعٍ ﴾[4] .

فتارة يذكر قوله : ﴿ وما بينهما ﴾ فيما خلقه في ستة أيام، وتارة لا يذكره . وهو مراد ، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل في لفظ ﴿ السموات والأرض ﴾ . ولهذا كان النبي ﷺ تارة يقول : (ملء السموات وملء الأرض) ولا يقول : (وما بينهما) وتارة يقول : (وما بينهما) وفيها كلها (وملء ما شئت من شيء بعد) وفي رواية أبي سعيد (أحق ما قال العبد) إلى آخره . وفي رواية ابن أبي أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . فالحمد بإزاء النعمة ، والاستغفار : بإزاء الذنوب .

---

(١) انظر هذا الحديث في مسلم ١/١٩٨ ـ ١٩٩ (كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع) .

(٢) نفس المرجع وانظر تخريج هذه الأحاديث تفصيلاً

(٣) سورة الحديد الآية ٤ .

(٤) سورة السجدة الآية ٤ .

وذلك تصديق قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾[1] .

ففي سيد الاستغفار : (أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي)[2] وفي حديث أبي سعيد : (الحمد رأس الشكر ، والتوحيد) كما جمع بينهما في أم القرآن[3] ، فأولها : تحميد وأوسطها : توحيد . وآخرها دعاء . وكما في قوله : ﴿هو الحيُّ لا إله إلا هوَ فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدينَ ، الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالمينَ﴾ [4] .

وفي حديث الموطأ : (أفضل ما قلت ، أنا والنبيون من قبلي : لا إلـه إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير . من قالها : كتب الله له ألف حسنة . وحط عنه ألف سيئة . وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك . ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه . ومن قال في يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حطت خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر) .

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة ؛ وفيها : التوحيد والتحميد .

فقوله : (لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له) توحيد . وقوله (له الملك وله الحمد) تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد، والتحميد ، والاستغفار ، في مواضع : مثل حديث كفارة المجلس : (سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك) فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها في مجلس ، إن كان مجلس لغط ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفي حديث أيضاً . (إن هذا يقال عقب الوضوء) .

ففي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول أشهد

---

(١) سورة النساء الآية ٨٩ .

(٢) حديث سيد الاستغفار رواه البخاري في (كتاب الدعوات . باب ما يقول إذا أصبح) وهو عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي . . . إلخ) .

(٣) انظر تفسير سورة الفاتحة في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وانظر كتاب التوحيد لابن تيمية تحقيق محمد السيد الجليند ط دار الفكر الحديث . سنة ١٩٧٣م ففيه تفصيل رأي ابن تيمية في الجمع بين الحمد والشكر ، وانظر رسالة « الشكر » لابن تيمية ضمن جامع الرسائل تحقيق د . محمد وشاد سالم .

(٤) سورة غافر الآية ٦٥ .

أن لا إلٓه إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت لـه أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء)[1] وفي حديث آخر أنه يقول : (سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إلٓه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) .

وقد روي عن طائفة من السلف ، في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي . إنك خير الغافرين » «اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، فأنت خير الراحمين » ﴿ لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب علي ، إنك انت التواب الرحيم ﴾ .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار.

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله ، فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو .

والإستغفار : من ذنوب النفس ، التي منها تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد ، والاستغفار في غير موضع كقوله : ﴿ فاعْلَمْ أنه لا إلَهَ إلا الله ، واسْتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ وللمؤْمِنِينَ والمؤمناتِ ﴾[2]، وفي قوله : ﴿ أَنْ لا تَعْبُدوا إلا الله . إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ . وأنُ اسْتغْفِروا ربَّكم ثمّ توبوا اليه ﴾[3] . وفي قوله : ﴿ قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحي إلى أنما إلٰهُكُمْ إلهٌ واحدٌ ، فاسْتَقِيموا إليه ، واسْتَغْفِرُوهُ ﴾[4] .

وفي حديث رواه ابن أبي عاصم وغيره : « يفول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بالاستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رايت ذلك بثثت فيهم الأهواء . فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[5] .

ولا «لا إله إلا الله » تقتضي الإخلاص والتوكل . والإخلاص الشكر ، فهي أفضل الكلام . وهي أعلى شعب الإيمان . كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الإيمان

---

(١) ورد هذا الحديث في مسلم ١١٨/١ (كتاب الطهارة ، باب ذكر المستحب عقب الوضوء) .

(٢) سورة محمد الآية ١٩ .

(٣) سورة هود الآية ٢ .

(٤) سورة فصلت الآية ٦ .

(٥) وانظر في فضل الجمع بين الحمد والاستغفار : صحيح مسلم ٤٤٦/٢ ـ ٤٨٧ (كتاب الذكر والدعاء ، أبواب فضل التهليل والتسبيح ، استحباب الاستغفار ، باب سبحان الله وبحمده) .

بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة ، أعلاها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[1] .

فـ«لا إله إلا الله » هي قطب رحى الإيمان ، واليها يرجع الأمر كله .

والكتب المنزلة : مجموعة في قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهي معنى : «لا إله إلا الله » و«لا حول ولا قوة إلا بالله » هي من معنى : «لا إله إلا الله » و«الحمد لله » في معناها ، و«سبحان الله ، والله اكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصــــل

(رأى ابن فورك)

وقد ظن بعض المتأخرين ان معنى قوله : «فمن نفسك» أي أفمن نفسك ؟ وأنه استفهام ، على سبيل الإنكار . ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية ، فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان أي بذنوبه ، وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك . فإنه قال : معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشارع :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

(الرد عليه)

قلت : وإضمار الاستفهام ـ إذا دل عليه الكلام ـ لا يقتضي جواز إضماره في الخبر المخصوص من غير دلالة ، فإن هذا يناقض المقصود ، ويستلزم أن كل من أراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر في خبره استفهاماً . ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ هذا

---

(١) انظر في هذا الحديث: البخاري ١/١٢ (كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان) وفيه «. . فإن الحياء من الإيمان» مسلم ١/٣٦ (كتاب الإيمان ، باب شعب الإيمان) والحديث من رواية أبي هريرة عن الرسول ﷺ قال : الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان ، وانظر أيضاً : أبو داود (السنة)، الترمذي (كتاب البر. والنسائي (الإيمان)، ابن حنبل ٣/٥٦ .

ربي ﴾[1] أهذا ربي ؟

قال ابن الأنباري : هذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالدون ؟﴾[2] .

وهذا لا حجة فيه ، لأنه قد تقدم الإستفهام في أول الجملة ، في الجملة الشرطية ﴿ وما جَعَلْنا لِبَشرٍ قَبْلَكَ الخُلْد﴾ فلم يحتج الى ذكره ثانية . بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُم على أعقابِكُمْ ؟ ﴾[3] وقوله : ﴿ أفكُلَّما جاءَكُمْ رسولٌ بما لا تَهْوَى أنْفُسَكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟﴾[4] وقوله : ﴿ أَوَ كُلَّما عاهَدوا عهْداً نَبَذَهُ فريقٌ مِنْهُمْ ؟﴾[5] وهذا من فصيح الكلام وبليغه . واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدري ، وإن كنت دارياً ... بسبع رمين الجمر ، أم بثمان ؟

وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالاً ؟

تقديره : أكذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه ، لأن قوله فيما بعد «أم بثمان» و«أم رأيت» يدل على الألف المحذوفة في البيت الأول . وأما الثاني : فإن كانت «أم» هي المتصلة فكذلك . وإن كانت المنفصلة فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها في وجود السيئات وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : أن المعاصي علامة محضة على العقوبة ، لاقترانها بها لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

(الله لا يهلك احداً ولا يعذبه إلا بذنب)

والقرآن يبين في غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب ، فقال هناك : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ وقال لهم في شأن أحد : ﴿ أو لما أصابَتْكُمْ مصيبةٌ قد

(١) سورة الأنعام الآية ٧٦.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٨٧.

(٥) سورة البقرة الآية ١٠٠ .

أصبتُم مِثْليها . قلتم : أنّى هذا ؟ قلْ : هُوَ مِنْ عندِ انْفُسكم ﴾[1] وقال : ﴿ ومـا أصابتْكم مِنْ مُصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيدْيكم . ويعفو عَنْ كثير ﴾[2] وقال تعالى في سورة الشـورى أيضاً : ﴿ وإنْ تُصِبهم سيئـةٌ بما قـدَّمتْ أيديهم فـإنّ الإنسانَ كفـورٌ ﴾[3] وقال تعـالى : ﴿قُلْ أرأَيْتُمْ إنْ أتـاكُمْ عَذابهُ بياتاً أو نهاراً ماذا يستَعْجِل مِنْهُ المجرمونَ ؟﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وما أَهْلَكْنـا من قريـةٍ إلا لها مُنذرونَ . ذِكْـرَى وما كُنّـا ظالمـينَ ﴾[5] وقال تعـالى : ﴿ وما كـانَ ربُّكَ مُهْلكَ القُـرى حتى يبعثَ في أُمِّها رسولاً يَتْلُوا عليهم آياتنا . وما كنا مُهْلكي القـرى إلا وأهلُها ظـالمونَ ﴾[6] وقـال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبَتْ أيدي الناس ، ليـذِيقهُمْ بعضَ الذي عَمِلوا . لعلهم يَـرْجِعونَ ﴾[7] وقـال تعالى : ﴿ ولنـذيقنهم مِنَ العـذابِ الأدنى دون العـذابِ الأكبـرِ . لعلهم يَرْجِعونَ ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بما كَسبوا . ويَعْفُ عَنْ كثـيرٍ ﴾[9] وقال تعـالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بـذلك العـذاب : ﴿ ولَعَذابُ الآخرة أكبُر لَوْ كانوا يعلمونَ ﴾[10]وقال تعالى : ﴿ مَثَـلُ ما يُنْفقـونَ في هذه الحيـاةِ الدنيـا كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قومٍ ظَلمـوا أنفُسهَم فأهلكَتْـهُ . وما ظلمَهُم الله . ولكنْ أَنْفسهم يظلمون ﴾[11] وقال تعالى : عن أهـلِ سبأ : ﴿ فـأعْرَضـوا فأرسلْنَـا عليهم سَيْل العـرِمِ - إلى قوله - ذلكَ جَزَيْناهم بما كفروا . وَهَلْ نُجازي إلا الكفورَ ؟﴾[12]وقال تعالى : ﴿ وكذلكَ أخـذُ ربِّكَ إذا أَخذ القرى وهي ظالمةٌ . إنّ أَخْذَهُ أليمٌ شديدٌ ﴾[13]. وقال تعالى : ﴿ وما كُنّا مُعَـذِّبينَ حتى نبعثَ رسولاً ﴾[14].

وفي الحـديث الصحيـحِ الإلهي : «يـا عبـادي ، إنمـا هي أعمـالكم أحصيهـا عليكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله ومن وجد غير ذلك : فلا يلومنّ إلا نفسه » .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٣) سورة الشورى الآية ٤٨ .

(٤) سورة يونس الآية ٥٠ .

(٥) سورة الشعراء الآيات (٢٠٨ ، ٢٠٩) .

(٦) سورة القصص الآية ٥٩ .

(٧) سورة الروم الآية ٤١ .

(٨) سورة السجدة الآية ٢١ .

(٩) سورة الشورى الآية ٣٤ .

(١٠) سورة القلم الآية ٣٣ .

(١١) سورة آل عمران الآية ١١٧ .

(١٢) سورة سبأ الآيات (١٦ ، ١٧) .

(١٣) سورة هود الآية ١٠٢ .

(١٤) سورة الإسراء الآية ١٥ .

وفي سيد الاستغفار : «أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى : ﴿ وإنّ للذينَ ظلموا عذاباً دونَ ذلكَ . ولكنّ أكثرهم لا يعلمونَ ﴾[1] .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبده ورسولـه محمد وآلـه وصحبه وسلم : ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصـــــل

قـال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أحسنُ دينـاً ممّن أسلم وجهَهُ لله وهـوَ محسنٌ واتَّبـعَ مِلّةَ إبـراهيمَ حنيفاً ، واتّخَذَ الله إبراهيم خليلاً ﴾ فنفى أن يكون دين أحسن من هذا الدين ، وأنكر على من أثبت ديناً أحسن منه ، لأن هذا استفهام إنكار ، وهو إنكار نهي وذم لمن جعل ديناً أحسن من هذا .

قال قتادة والضحاك وغيرهما : إن المسلمين وأهل الكتاب افتخـروا فقال أهـل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتـابنا قبـل كتابكم ، ونحن أولى بـالله منكم ، وقـال المسلمون : نحن أولى بالله تعالى منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فأنـزل الله تعالى : ﴿ ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب ﴾ الآية[2] .

وروى سفيان عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال . لما نزلت هـذه الآية : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب مَنْ يعملْ سوءاً يُجْزَ بـهِ ﴾[3] قال أهـل الكتاب : نحن وأنتم سـواء ، حتى نزلت ﴿ ومَنْ يعْمَـلْ من الصالحـات من ذكرٍ أو أنثى وهـو مؤمنٌ ﴾ الآية . ونزلت فيهم أيضاً ﴿ وَمَنْ أحسن ديناً ﴾ الآية .

---

(١) سورة الطور الآية ٤٧ .

(٢) ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره هذه الروايات التي أوردها ابن تيمية في سبب نزول الآية . فذكـر رواية أبي الضحى عن مسروق ، ورواية الأعمش عن مسروق أيضاً ثم ذكر رواية قتـادة والسدى والضحـاك وابن عباس . وهـذه الروايـات على اختلافها في اللفظ إلا أنها تجمع على أن الآية نزلت في حوار وقع بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود أو النصارى .

فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين ابراهيم ولن يـدخل الجنـة إلا من كان هـوداً ، وقالت النصـارى مثل ذلـك . فقال المسلمـون : كتابنـا بعد كتـابكم ، ونبينا بعـد نبيكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم ، نحن عـلى دين إبراهيم وإسمـاعيل وإسحـاق ولن يدخـل الجنة إلا من كان على ديننا ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ ليس بأمـانيكم . . ﴾الآية ثم فضـل الله المؤمنين عليهم بقـوله ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ .

انظر تفسير الطبري ٥/ ١٧٠ ـ ١٧٢ . ط الميمنية بالقاهرة .

(٣) سورة النساء الآية ١٢٢ .

وقد روي عن مجاهد قال قالت قريش : لا نبعث أو لا نحاسب ، وقال أهل الكتاب : ﴿ لن تمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودة ﴾ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ليسَ بأمانيكم ولا أماني أهل الكتابِ ﴾ وهذا يقتضي أنها خطاب للكفار من الأميين وأهل الكتاب ، لاعتقادهم أنهم لا يعذبون العذاب الدائم ، والأول أشهر في النقل وأظهر في الدليل ، لأن السورة مدنية بالاتفاق ، فالخطاب فيها مع المؤمنين كسائر السور المدنية .

وأيضاً : فإنه قد استفاض من وجوه متعددة أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءاً يُجْزَ بهِ ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، حتى يبين لهم النبي ﷺ أن مصائب الدنيا من الجزاء ، وبها يجزى المؤمن ، فعلم أنهم مخاطبون بهذه الآية لا مجرد الكفار .

وأيضاً قوله بعد هذا : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾[(١)] وقوله : ﴿ ومن أحسن دينا ﴾ يدل على أن هناك تنازعاً في تفضيل الأديان ، لا مجرد إنكار عقوبة بعد الموت .

وأيضاً فما قبلها وما بعدها خطاب مع المؤمنين وجواب لهم ، فكان المخاطب في هذه الآية هو المخاطب في بقية الآيات .

فإن قيل : الآية نص في نفي دين أحسن من دين هذا المسلم ، لكن من أين أنه ليس دين مثله ؟ فإن الأقسام ثلاثة : إما أن يكون ثم دين أحسن منه ، أو دونه أو مثله وقد ثبت أنه لا أحسن منه فمن أين في الآية أنه لا دين مثله ؟ ونظيرها قوله : ﴿ ومَنْ أحسنُ قولاً مِمَّن دَعَا الى الله ، وعَمِلَ صالحاً ، وقال إنني من المسلمين ﴾[(٢)] .

قيل : لو قلنا في هذا المقام : إن الآية لم تدل إلا على نفي الأحسن لم يضر هذا ، فإن الخطاب له مقامات .

وقد يكون الخطاب تارة بإثبات صلاح الدين ، إذا كان المخاطب يدعي أو يظن فساده .

ثم في مقام ، بأن يقع النزاع في التفاصيل ، فيبين أن غيره ليس أفضل منه .

ثم في مقام ثالث يبين أنه أفضل من غيره .

وهكذا إذا تكلمنا في أمر الرسول ، ففي مقام نبين صدقه وصحة رسالته وفي مقام بأن

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٤ .

(٢) سورة فصلت الآية ٣٣ .

نبين أن غيره ليس أفضل منه ، وفي مقام ثالث نبين أنه سيد ولد آدم ، وذلك أن الكلام يتنوع بحسب حال المخاطب .

ثم نقول : يدل على أن هذا الدين احسن وجوه :

« أحدها » أن هذه الصيغة وإن كانت في أصل اللغة لنفي الأفضل لدخول النفي على أفعل ، فإنه كثيراً ما يضمر بعرف الخطاب . يفضل المذكور المجرور بمن مفضلاً عليه في الإثبات ، فإنك إذا قلت : هذا الدين أحسن من هذا كان المجرور بمن مفضلاً عليه ، والأول مفضلاً ، فإذا قلت لا أحسن من هذا ، أو من أحسن من هذا ؟ أو ليس فيهم أفضل من هذا ، أو ما عندي أعلم من زيد. أو ما في القوم أصدق من عمرو ، أو مافيهم خير منه ، فإن هذا التأليف يدل على أنه أفضلهم وأعلمهم وخيرهم ، بل قد صارت حقيقة عرفية في نفي فضل الداخل في أفعل ، وتفضيل المجرور على الباقين ، وأنها تقتضي نفي فضلهم وإثبات فضله عليهم ، وضمنت معنى الاستثناء . كأنك قلت : ما فيهم أفضل إلا هذا ، أو ما فيهم المفضل إلا هذا ، كما أن [إن] إذا كفّت بما النافية صارت متضمنة للنفي والإثبات .

وكذلك الإستثناء ، وإن كان في الأصل للإخراج من الحكم ، فإنه صار حقيقة عرفية في مناقضة المستثنى منه ، فالاستثناء من النفي إثبات ، ومن الإثبات نفي ، واللفظ يصير بالاستعمال له معنى غير ما كان يقتضيه أصل الوضع .

وكذلك يكون في الأسماء المفردة تارة ، ويكون في تركيب الكلام أخرى ، ويكون في الجمل المنقولة كالأمثال السائرة جملة ، فيتغير الاسم المفرد بعرف الاستعمال عما كان عليه في الأصل ، إما بالتعميم وإما بالتخصيص وإما بالتحويل كلفظ الدابة والغائط والرأس . ويتغير التركيب بالاستعمال عما كان يقتضيه نظائره . كما في زيادة حرف النفي في الجمل المتمثل بها ، كما في قولهم : ﴿ يداك أوكتا وفوك نفخ ﴾ و«عسى الغوير بؤساً » .

«الوجه الثاني» إنه إذا كان لا دين أحسن من هذا فالغير إما أن يكون مثله أو دونه ، ولا يجوز أن يكون مثله ، لأن الدين إذا ماثل الدين وساواه في جميع الوجوه كان هو إياه ، وإن تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل والتساوي بين الدينين المختلفين ، فإن اختلافهما اختلاف ضد التماثل ، فكيف يكونان مختلفين متماثلين ؟ واختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع ، فإن أحد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق واجب ، والآخر يقول أنها باطل محرم فمن المحال استواء هذين الاعتقادين .

وكذلك الاقتصادان ، فإن هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد والأعمال والآخر يقصده بما يضاد ذلك وينافيه ، وليس كذلك تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم ، فإن دينهم واحد ، كل

منهم يعتقد ما يعتقده الآخر ، ويعبده بالدين الذي يعبده ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا بل نقول أبلغ من هذا أن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لا بد أن يكون أحدهما أحسن عند الله ، فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل ، فذاك الصواب هو أحسن عند الله ، وإن كان أحدهما يقر الآخرة فالإقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولاً مرجوحاً ، وإنما يمنع أن يكون محرماً .

وإذا كان هذا في دق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول ؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين ولا بين العقلاء أن المصيب في نفس الأمر واحد ، وإنما تنازعوا في المخطىء هل يغفر له أو لا يغفر ، وهل يكون مصيباً بمعنى أداء الواجب ؟ وسقوط اللوم لا بمعنى صحة الاعتقاد ؟ فإن هذا لا يقوله عاقل : إن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صواباً .

فتلخيص الأمر أن هذا المقام إنما فيه تفضيل قول وعمل على قول وعمل ، فالأقوال والأعمال المختلفة لا بد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة ، بل ومن قال بأن كل مجتهد مصيب قد لا ينازع أن أحدهما أحسن وأصوب ، ولا يدعي تماثلهما . وإن ادعاه فلم يدّعه الا في دق الفروع ، مع أن قوله ضعيف مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف .

وأما الحل فلم يدّع مدّع تساوي الأقسام فيه ، وهذا بخلاف التنوع المحض مثل قراءة سورة وقراءة سورة أخرى ، وصدقة بنوع وصدقة بنوع آخر . فإن هذا قد يتماثل ، لأن الدين واحد في ذلك من كل وجه ، وإنما كلامنا في الأديان المختلفة ، وليس هنا خلاف بحال .

وإذا ثبت أن الدينين المختلفين لا يمكن تماثلهما لم يحتج الى نفي هذا في اللفظ لانتفائه بالعقل . وكذلك لما سمعوا قوله : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ كان في هذا ما يخاف انتقاصهم إياه .

هذا مع أن نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة شاهدة بتفضيل النبيين على بعض ، الرسل على بعض ، قاضية لأولي العزم بالرجحان ، شاهدة بأن محمداً ﷺ سيد ولد آدم ، وأكرم الخلق على ربه ، لكن تفضيل الدين الحق امر لا بد من اعتقاده ، ولهذا ذكره الله في الآية .

وأما تفضيل الأشخاص فقد لا يحتاج إليه في كل وقت ، فالدين الواجب لا بد من تفضيله ، إذ الفضل يدخل في الوجوب ، وإذا وجب الدين به دون خلافه فلأن يجب اعتقاد فضله أولى .

وأما الدين المستحب : فقد لا يشرع اعتقاد فعله إلا في حق من شرع له فعل ذلك المستحب ، وإلا فمن الناس من يضره إذا سلك سبيلاً من سبل السلام الإسلامية أن يرى غيره

أفضل منها ، لأنه يتشوف الى الأفضل فلا يقدر عليه ، والمفضول يعرض عنه .

وكما أنه ليس من مصلحته أن يعرف أفضل من طريقته إذا كان يترك طريقته ، ولا يسلك تلك ، فليس أيضاً من الحق أن يعتقد أن طريقته أفضل من غيرها ، بل مصلحته أن يسلك تلك الطريقة المفضية به الى رحمة الله تعالى ، فإن بعض المتفقهة يدعون الرجل إلى ما هو أفضل من طريقته عندهم ، وقد يكونون مخطئين فلا سلك الأول ولا الثاني . وبعض المتصوفة المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض ، وطريقته أفضل الطرق . وكلاهما انحراف ، بل يؤمر كل رجل أن يأتي من طاعة الله ورسوله بما استطاعه ، ولا ينقل من طاعة الله ورسوله بطريقته ، وإن كان فيها نوع نقص أو خطأ ، ولا يبين له نقصها إلا إذا نقل الى ما هو أفضل منها ، وإلا فقد ينفر قلبه عن الأول بالكلية حتى يترك الحق الذي لا يجوز تركه ، ولا يتمسك بشيء آخر . وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استقصاءه ، وهو مبني على أربعة أصول :

« أحدها » : معرفة مراتب الحق والباطل ، والحسنات والسيئات ، والخير والشر ، ليعرف خير الخيرين وشر الشرين .

« الثاني » : معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب ، وما يستحب من ذلك وما لا يستحب .

« الثالث » : معرفة شروط الوجوب والاستحباب من الإمكان والعجز ، وأن الوجوب والاستحباب قد يكون شروطاً بإمكان العلم والقدرة .

« الرابع » : معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم ، ليؤمر كل شخص بما يصلحه ، أو بما هو الأصلح له من طاعة الله ورسوله ، وينهى عما ينفع نهيه عنه ولا يؤمر بخير يوقعه فيما هو شر من المنهي عنه مع الاستغناء عنه .

وهذا القدر الذي دلت عليه هذه الآية ـ من أن دين من أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم ، هو أحسن الأديان ، أمر متفق عليه بين المسلمين ـ معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، بل من يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه ، ومبين وجه الحكم ، فإنه بيّن بهذه الآية وجه التفضيل بقوله : ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ وبقوله : ﴿ وهو محسن ﴾ فإن الأول بيان نيته وقصده ، ومعبوده وإلهه ، وقوله : ﴿ وهو محسن ﴾ فانتفى بالنص نفي ما هو أحسن منه ، وبالعقل ما هو مثله ، فثبت أنه أحسن الأديان .

« الوجه الثالث » : أن النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل ؟ فلم يقل لهما : أن الدينين سواء ، ولا نهوا عن تفضيل أحدهما ، لكن حسمت مادة الفخر والخيلاء والغرور الذي يحصل من تفضيل أحد الدينين ، فإن الإنسان إذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك الى الكبر والخيلاء والفخر ، فقيل للجميع : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ سواء كان دينه فاضلاً أو مفضولاً ، فإن النهي عن السيئات والجزاء عليها واقع لا محالة (قال تعالى) : ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ إلى قوله : ﴿ لواقع ﴾ .

فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون على السيئات ولا يغني عنهم فضل دينهم وفسر لهم النبي ﷺ أن الجزاء قد يكون في الدنيا بالمصائب ، بين بعد ذلك فساد دين الكفار من المشركين وأهل الكتاب بقوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ﴾ الآية . فبيّن أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الإيمان ، وإن كان قد يجزى به صاحبه في الدنيا بلا إيمان ، فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات ، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة إلا مع الإيمان ، ثم بيّن بعد هذا فضل الدين الإسلامي الحنفي بقوله : ﴿ ومن أحسن ديناً ﴾ فجاء الكلام في غاية الإحكام .

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه نهي النبي ﷺ أن يفضل بين الأنبياء التفضيل الذي فيه انتقاص المفضول والغض منه ، كما قال ﷺ : «لا تفضلوا بين الأنبياء » وقال : « لا تفضلوني على موسى» بيان لفضله ، وبهذين يتم الدين .

فإذا كان الله هو المعبود وصاحبه قد أخلص له وانقاد ، وعمله فعل الحسنات فالعقل يعلم أنه لا يمكن أن يكون دين أحسن من هذا ، بخلاف دين من عند غير الله وأسلم وجهه له ، أو زعم أنه يعبد الله لا بإسلام وجهه ، بل يتكبر كاليهود ، ويشرك كالنصارى ، أو لم يكن محسناً بل فاعلاً للسيئات دون الحسنات ، وهذا الحكم عدل محض ، وقياس وقسط ، دل القرآن العقلاء على وجه البرهان فيه .

وهكذا غالب ما بيّنه القرآن فإنه يبيّن الحق والصدق ، ويذكر أدلته وبراهينه ، ليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر ، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة ، إن دلالته سمعية خبرية ، وأنها واجبة لصدق المخبر ، بل دلالته أيضاً عقلية برهانية ، وهو مشتمل من الأدلة والبراهين على أحسنها . وأتمها بأحسن بيان ، لمن كان له فهم وعقل ، بحيث إذا أخذ ما في القرآن من ذلك ، وبيّن لمن لم يعلم أنه كلام الله أو لم يعلم صدق الرسول ، و يظن فيه (ظناً) مجرداً عن ما يجب من قبول قول المخبر ، كان فيه ما يبيّن صدقه ، ويبرهن عن صحته .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

فصل

في قوله تعالى : ﴿ ولا تُجادِلْ عَنِ الـذينَ يَخْتانـونَ أَنْفُسَهم إنّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَـوّاناً أثيـماً [1] ﴾ فقولـه : ﴿ يختانـون أنفسهم ﴾ مثل قـولـه في سـورة البقـرة ﴿ عَلِم الله أنّكم كنتم تَخْتـانونَ أنْفُسَكم ﴾ [2] قـال ابن قتيبة وطـائفـة من المفسـرين : معنـاه تخـونـون أنفسكم ، زاد بعضهم : تظلمونها . فجعلوا الأنفس مفعـول (تخونـون) وجعلوا الإنسان قـد خان نفسـه أي ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أبيـرق ـ أو بجماع امـرأته ليلة الصيـام كما فعـل بعض الصحابـة ـ وهذا القول فيه نظر . فإن كل ذنب يـذنبه الإنسـان فقد ظلم فيـه نفسه ، سـواء فعله سراً أو علانية .

وإذا كـان اختيان النفس هـو ظلمها أو ارتكـاب ما حـرم عليها كـان كل مـذنب مختـانـاً لنفسه ، وإن جهر بالذنوب ، وكان كفر الكافرين وقتالهم للأنبياء وللمؤمنين اختياناً لأنفسهم ، وكذلك قطع الطريق والمحاربة ، وكذلك الظلم الظاهر ، وكان ما فعله قوم نوح وهود وصـالح وشعيب اختياناً لأنفسهم .

ومعلوم أن هـذا اللفظ لم يستعمل في هـذه المعاني كلهـا ، وإنمـا استعمـل في خـاص من الذنوب مما يفعل سراً ، وحتى قال ابن عباس في قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ عنى بذلـك فعل عمر ، فإنه روى أنه لما جاء الأنصـاري فشكى أنه بـات الليلة ولم يتعش لما نـام قبل العشـاء ، وكان من نام قبل الأكل حرم عليه الأكل ، فيستمر صـائماً ، فـأصبح يتقلب ظهـراً لبطن ، فلما شكا حالـه إلى النبي ﷺ قال عمـر : يا رسـول الله اني أردت أهلي الليلة فقـالت أنها قد نـامت فظننتها لم تنم فواقعتها . فأخبرتني أنها كانت قد نامت ، قالـوا : فأنـزل الله في عمر : ﴿ أُحِـلَّ لكم ليلةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكم ﴾ .

وقد قيل : إن الجماع ليلة الصيام كانوا منهيين عنه مطلقاً ، بخـلاف الأكل ، فـإنه كـان مباحاً قبل النوم . وقد روي أن عمر جامع امـرأته بعـد العشاء قبـل النوم ، وأنـه لما فعـل أخذ يلوم نفسـه . فأتى النبي ﷺ فقـال : يا رسـول الله : أعتذر الى الله ! أعتـذر إلى الله من نفسي هذه الخائنة ، إني رجعت إلى أهلي بعدما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبـة فسوّلت لي نفسي فجامعت أهلي . فقال النبي ﷺ : « ما كنت جديراً بذلك يا عمر » وجـاء طائفـة من الصحابـة فذكروا مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) انظر ما ذكره الطبري في تفسير هذه الآية في ٥/١٦٠ ـ ١٦١ ط الميمنية بالقاهرة .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

فهذا فيه أن نفسه الخاطئة سولت له ذلك ، ودعته إليه ، وأنه أخذ يلومها بعد الفعل ، فالنفس هنا هي الخائنة الظالمة ، والإنسان تدعوه نفسه في السر إذا لم يره أحد إلى أفعال لا تدعو إليها علانية ، وعقله ينهاه عن تلك الأفعال ، ونفسه تغلبه عليها .

ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل الا فيما خفي عن المخون ، كالذي يخون أمانته فيخون من إئتمنه إذا كان لا يشاهده ، ولو شاهده لما خانه .

قال تعالى : ﴿ يَا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تخونوا الله والرسولَ ، وتَخونوا أماناتِكم وأنتم تَعلمونَ ﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ ولا تزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم ﴾ [٢] وقالت امرأة العزيز : ﴿ ذلكَ لِيَعلَم أني لم أخُنْهُ بالغيبِ ، وأنَّ الله لا يهدي كيدَ الخائنينَ ﴾ [٣] وقال تعالى : ﴿ يَعلمُ خائنةَ الأعْينِ وما تُخفي الصدورُ ﴾ [٤] .

وقال النبي ﷺ لما قام : « أما فيكم رجل يقوم إلى هذا فيضرب عنقه ؟ » فقال له رجل : هلا أومضت إلي ؟ فقال : « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » قال تعالى : ﴿ ولا تُجادِلْ عَنِ الذينَ يَختانونَ أنفُسَهم إنّ الله لا يُحبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أثيماً ، يَسْتَخفونَ مِنَ الناسِ ولا يَسْتَخفونَ مِنَ الله وَهوَ مَعَهُمْ ؛ إذْ يُبَيِّتونَ ما لا يَرضى مِنَ القَوْلِ ﴾ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » [٥] وفي حديث آخر « على كل خلق يطبع المؤمن إلا الخيانة والكذب » ومثل هذا كثير .

وإذا كان كذلك فالإنسان كيف يخون نفسه . وهو لا يكتمها ما يقوله ويفعله سراً عنها ؟ كما يخون من لا يشهده من الناس ؟ كما يخون الله والرسول إذا لم يشاهده . فلا يكون ممن يخاف الله بالغيب . ولم خصت هذه الأفعال بأنها خيانة للنفس دون غيرها ؟ فالأشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون قوله : ﴿ أتختانون أنفسكم ﴾ مثل قوله : ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ .

والبصريون يقولون في مثل هذا : أنه منصوب على أنه مفعول له ، ويخرجون قوله : ﴿ سفه﴾ عن معناه في اللغة ، فإنه فعل لازم : فيحتاجون أن ينقلوه من اللزوم إلى التعدية بلا حجة .

وأما الكوفيون ـ كالفراء وغيره ومن تبعهم ـ فعندهم أن هذا منصوب على التمييز ، وعندهم أن المميز قد يكون معرفة كما يكون نكرة ، وذكروا لذلك شواهد كثيرة من كلام

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٣ .

(٣) سورة يوسف الآية ٣٦ .

(٤) سورة غافر الآية ١٩ .

(٥) ورد الحديث في مسلم ١/٤٤ ط الحلبي (كتاب الإيمان ، باب خصال المنافق) .

العرب ، مثل قولهم : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره . وكان الأصل سفهت نفسه ، ورشد أمره : ومنه قولهم : غبن رأيه ، وبطرت نفسه ، فقوله تعالى : ﴿ بطرت معيشتها ﴾[1] من هذا الباب ، فالمعيشة نفسها بطرت ، فلما كان الفعل نصبه على التمييز قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذينَ خَرَجوا مِنْ ديارِهِمْ بَطراً ورِئاءَ الناسِ ﴾[2] فقوله : ﴿ سفه نفسه ﴾ معناه إلا من سفهت نفسه أي كانت سفيهة ، فلما أضاف الفعل إليه نصبها على التمييز ما في قوله : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾[3] ونحو ذلك. وهذا اختيار ابن قتيبة وغيره ، لكن ذاك نكرة وهذا معرفة .

وهذا الذي قاله الكوفيون أصح في اللغة والمعنى ، فإن الانسان هو السفيه نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ سيقولُ السفهاءُ مِنَ الناسِ ﴾[4] ﴿ ولا تُؤتوا السفهاء ﴾[5] فكذلك قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ أي تختان أنفسكم ، فالأنفس هي التي اختانت ، كما أنها هي السفيهة ، وقال : اختانت ولم يقل خانت ، لأن الافتعال فيه زيادة فعل على ما في مجرد الخيانة ، قال عكرمة : والمراد بالذين يختانون أنفسهم ابن أبيرق الذي سرق الطعام والقماش، وجعل هو وقومه يقولون : إنما سرق فلان ، الرجل آخر .

فهؤلاء اجتهدوا في كتمان سرقة السارق ورمي غيره بالسرقة ، كما قال تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم : إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ فكانوا خائنين للصاحب والرسول وقد اكتسبوا الخيانة .

وكذلك الذين كانوا يجامعون بالليل وهم يجتهدون في أن ذلك لا يظهر عنهم حين يفعلونه ، وإن أظهروه فيما بعد عند التوبة ، أما عند الفعل فكانوا يحتاجون من ستر ذلك وإخفائه ما لا يحتاج إليه الخائن وحده أو يكون قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ أي يخون بعضكم بعضاً ، كقوله : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ وقوله : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ وقوله : ﴿ ولو لا إذ سمِعْتُمُوهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفُسِهُمْ خَيْراً ﴾[6] فإن السارق وأقواماً خانوا إخوانهم المؤمنين .

والمجامع إن كان جامع امرأته وهي لا تعلم أنه حرام فقد خانها ، والأول أشبه . والصيام مبناه على الأمانة ، فإن الصائم يمكنه الفطر ولا يدري به أحد ، فإذا أفطر سراً فقد خان أمانته ، والفطر بالجماع المستور خيانة ، كما أن أخذ المال سراً وإخبار الرسول والمظلوم ببراءة السقيم وسقم البريء خيانة ، فهذا كله خيانة ، والنفس هي التي خانت ، فإنها تحب الشهوة والمال والرئاسة ، وخان واختان مثل كسب واكتسب فجعل الإنسان مختاناً .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٨ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٧ .
(٣) سورة مريم الآية ٤ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٤٢ .
(٥) سورة النساء الآية ٥ .
(٦) سورة النور الآية ١٢ .

ثم بين أن نفسه هي التي تختان ، كما أنها هي التي تضر : لأن مبدأ ذلك من شهوتها ، ليس هو مما يأمر به العقل والرأي ، ومبدأ السفه منها لخفتها وطيشها والإنسان تأمره نفسه في السر بأمور ينهاها عنه العقل والدين فتكون نفسه اختانته وغلبته ، وهذا يوجد كثيراً في أمر الجماع والمال ولهذا لا يؤتمن على ذلك أكثر الناس ، ويقصد بالائتمان من لا تدعوه نفسه إلى الخيانة في ذلك . قال سعيد بن المسيب : لو ائتمنت على بيت مال لأديت الأمانة ، ولو ائتمنت على امرأة سوداء لخفت أن لا أؤدي الأمانة فيها . وكذلك المال لا يؤتمن عليه أصحاب الأنفس الحريصة على أخذه كيف اتفق .

وهذا كله مما يبين أن النفس تخون أمانتها ، وإن كان الرجل ابتداء لا يقصد الخيانة ، فتحمله على الخيانة بغير أمره ، وتغلبه على رأيه ، ولهذا يلوم المرء نفسه على ذلك ويذمها ، ويقول هذه النفس الفاعلة الصانعة ، فإنها هي التي أختانت .

فصل

ودل قوله : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أنه لا يجوز الجدال عن الخائن ، ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة ، لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس فلا يجوز المجادلة عنها ، قال تعالى : ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعْيُنِ وما تُخفِي الصدورُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وذَروا ظاهرَ الإثمِ وباطنهُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قلْ إنما حرَّمَ ربيَ الفواحشَ ما ظَهرَ منها وما بَطَنَ ﴾[3] وقد قال تعالى : ﴿ بلِ الإنسانُ على نفسِهِ بصيرةٌ ، ولو ألقى معاذيرَهُ ﴾[4] فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها ، وهو يبصرها بخلاف ذلك ، وقال تعالى : ﴿ كفى بنفسِكَ اليومَ علَيْكَ حسيباً ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يُعْجِبَك قَوْلَهُ في الحياةِ الدنيا ويُشْهِدُ الله على ما في قَلْبِهِ وهو الدُّ الخِصامِ ﴾[6] .

وقد قال النبي ﷺ : «أبغض الرجال الى الله الألدّ الخصّيم » فهو يجادل عن نفسه بالباطل، وفيه لدد : أي ميل واعوجاج عن الحق ، وهذا على نوعين :

أحدهما أن تكون مجادلته وذبة عن نفسه مع الناس .

«والثاني» فيما بينه و بين ربه ، بحيث يقيم أعذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسناً ، وهي خائنة ظالمة ولها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر ، قال شداد بن

---

(١) سورة غافر الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٢ .

(٤) سورة القيامة الآية ١٤ .

(٥) سورة الإسراء الآية ١٤ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٠٤ .

أوس : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية ، قال أبو داود : هي حب الرياسة .

• وهذا من شأن النفس حتى أنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جميعاً فَيَحْلِفونَ لهُ كما يَحْلِفونَ لكم ، ويَحْسبونَ أنهم على شيءٍ ، ألا إنهم هُمُ الكاذبونَ، اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ فأنساهُمْ ذكرَ الله ، أولئكَ حِزْبُ الشيطان ألا إنّ حِزْبَ الشيطانِ هُمُ الخاسرونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ويومَ نَحْشُرُهُم جميعاً ثمّ نقولُ للذينَ أشركوا أينَ شُركاؤكم الذينَ كنتم تَزْعمونَ ، ثم لم تكنِ فِتْنَتُهم إلا أن قالوا : والله ربِّنا ما كنّا مُشركينَ ، انْظُرْ كيف كَذَبوا على أنْفُسهِمْ وَضَلّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْترونَ ﴾[2] .

وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة ، حتى يشهد عليه سمعه وبصره وجوارحه . وقال تعالى : ﴿ وما كُنْتم تَسْتَتِرون أَنْ يشهَدَ عليكم سمعُكم ، ولا أبصارُكم ، ولا جلودُكم ، ولكنْ ظَنَنْتُمْ أنّ الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون ﴾[3] .

ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب والأيمان الفاجرة ، وصفهم الله بذلك في غير موضع . وفي قصة تبوك لما رجع النبي ﷺ ، وجاء المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله . فلما جاء كعب قال : والله يا رسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه ،إني أوتيت جدلاً، ولكن أخاف ان حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال النبي ﷺ : أما هذا فقد صدق ، يعني والباقي يكذبون ، ثم إنه هجره مدة ، ثم تاب الله عليه ببركة صدقه [4] .

فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز : بل إن أذنب سراً بينه و بين الله اعترف لربه بذنبه ، وخضع له بقلبه ، وسأله مغفرته وتاب إليه فإنه غفور رحيم تواب ، وإن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهراً ، وإن أظهر جميلاً وأبطن قبيحاً تاب في الباطن من القبيح ، فمن أساء سراً أحسن سراً ومن أساء علانية أحسن علانية ، ﴿ فإنّ الحسناتِ يُذْهبنَ السيئاتِ ذلك ذِكرى للذاكرين ﴾.

---

(١) سورة المجادلة الآيات (١٨، ١٩).

(٢) سورة الأنعام الآيات (٢٣ ، ٢٤).

(٣) سورة فصلت الآية ٢٢ .

(٤) ذكر ابن إسحاق في تاريخه هذه القصة كاملة خلال حديثه عن غزوة تبوك ، انظر تاريخ ابن اسحاق ٩٤٣/٤ - ٩٦٤ .
وانظر خاصة موقف كعب بن مالك في صفحات ٩٥٨ - ٩٦٠ . ط الحلبي بتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .

صور المخطوطات

والاستعانة به وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه ٥

فصل قال الله عز وجل

في اول السورة الحمد لله رب العالمين فبدا بهذين
الاسمين الاسمين الله والرب والله هو الاله المعبود فهذا
الاسم احق بالعباده ولهذا يقال الله اكبر الحمد
لله سبحان الله لا اله الا الله والرب هو المربي الخالق
الرازق الناصر الهادي وهذا الاسم احق باسم الاستعانه
والمسالة ولهذا يقال رب اغفر لي ولوالدي ربنا
ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن
من الخاسرين رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي
ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا ربنا لا
تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا فعامة المسالة ٥
والاستعانة المشروعة باسم الرب فالاسم الاول
يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له
والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبداه وهو انه يربه ويتولاه
مع ان الثاني يدخل في الاول دخول الربوبية في
الالهية والربوبية تستلزم الالوهية ايضا والاسم

الرحمن

اللوحة رقم ٥٨ من مجموع تيمور وبها أول تفسير الفاتحة .

الرحمن كما قال المتقين ووصف اتخاذهم فيه ثم سعادته
في دنياه واخراه ولهذا قال وهم يكفرون بالرحمن
قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب
فذكر هنا الاسما الثلثه الرحمن وربي والاله وقال عليه
توكلت واليه متاب كما ذكر الاسماء الثلثه في ام القرآن
لكن بدا هنا باسم الله لهذا بدا في السوره باياك
نعبد فقدم الاسم وما تعلق به من العباده لان تلك
السوره فاتحة الكتاب وام القرآن فقدم فيها المقصود
الذي هو الغاية العاليه فانها علة ... للعلة الفاعليه
وقد بسطت هذا المعنى في مواضع في اول التفسير
وفي قاعدة المحبه والاراده وفي غير ذلك ٥

فصل ولما كان علم النفوس
بحاجتهم وفقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم الى
الاله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجله
قبل الاجله كان اقرارهم بالله من جهة ربوبيته
اسبق من اقرارهم به من جهة الالهيه وكان
الدعا له والاستعانه والتوكل عليه فيهم اكثر من

تابع اللوحة رقم ٥٨ من مجموع تيمور وبها أول تفسير الفاتحة .

تحصيل مطلوبه كاستعانة المحب بذوي المحبوب
على وصله فاذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه
استعانه والا فلا فالاقسام قد يكون محبوبا لنفسه وقد يكون محبوبا لغيره
مستعانا وقد يكون شيئا واحدا محبوبا وقد يجتمع فيه
الامران فاذا علم ان العبد لابد له في كل وقت وحال
من منتهى يطلبه هو الهه ومنتهى يطلب منه هو مستعانه
وذلك هو صمده الذي يصمد اليه في استعانته وعبادته
تبين ان قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين كلام
جامع محيط اولا واخرا لا يخرج عنه شي فصارت الاقسام
اربعة اما ان يعبد غير الله ويستعينه وان كان مسلما
فالشرك في هذه الامة اخفى من دبيب النمل واما ان
يعبده ويستعين غيره مثل كثير من اهل الدين يقصدون
طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له
وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ورزقهم
وهدايتهم من جهته من الملوك والاغنيا والمشايخ
واما ان يستعينه وان عبد غيره مثل كثير من ذوي
الاحوال وذوي القدرة والسلطان الباطن او

اللوحة رقم ٤٨ من مجموع تيمور وبها تعليق ابن تيمية على سورة الفاتحة .



واهل الكشف والتاثير الذين يعصونه ويعملون
عليه ويسلونه ويلجون اليه لكن مقصودهم غير ما امر
الله به ورسوله وغير اتباع دينه وشريعته التي
بعث بها رسوله والقسم الرابع الذي لا يعبدون
الا اياه ولا يستعينون الا اياه وهذا القسم الرابعي
قد ذكرنا فيما بعد ايضا لكنه تارة يكون بحسب
العبادة والاستعانة به وتارة يكون بحسب المعبود المستعان
بحسب
وهنا هو المعبود المستعان لبيان انه لا بد لكل
عبد من معبود يستعان ونما بعد عشب عباده الله
والاستعانة فان الناس فيها على اربعة اقسام ٥

فصل قال الله تعالى في ام القران
والسبع المثاني والقران العظيم اياك نعبد واياك
نستعين وهذه السورة هي ام القران وهي
فاتحة الكتاب وهي السبع من المثاني والقران العظيم
وهي الشافية وهي الواجبة في الصلوات لا صلاة الا بها
وهي الكافية تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها
منها والصلاة افضل الاعمال وهي مؤلفة من كلم طيب

تابع اللوحة رقم ٤٨ من مجموع تيمور وبها تعليق ابن تيمية على سورة الفاتحة .



قال الامام ابو العباس شيخ الاسلام تقي الدين احمد ابن تيميه فصل في قوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها وضمير التانيث في جلاها ويغشاها المراد به ما يعود عليه الا الشمس فيقتضي ان النهار يجلي الشمس وان الليل يغشاها والتجليه الكشف والاظهار والغشيان التغطيه واللبس ومعلوم ان الليل والنهار ظرف الزمان والفعل اذا اضيف الى الزمان فقيل هو الزمان او هذا اليوم برد او حر او تنبت الارض ونحو ذلك فالمقصود ان ذلك يكون فيه كما يوصف الزمان بانه عصيب وشديد ونحس وبارد وحار وطيب ومكروه والمراد وصف ما فيه فيكون الشي فاعلا او موصوفا هو بحسب ما يكون فيه كل شي بحسبه فالنهار يجلي الشمس والليل يغشاها وان كان ظهور الشمس هو سبب النهار ومغيبها سبب الليل وقد ذكر ذلك بقوله والشمس وضحاها فاضاف الضحى اليها والضحى يعم النهار كله كما قال ام السما بناها رفع سمكها فسواها واغطش ليلها واخرج ضحاها وقال والضحى والليل اذا سجى وقوله والسما وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد قيل ان ما مصدريه والتقدير والسما وبنا الله اياها والارض وطحو الله اياها ونفس وتسويه الله اياها لانه ليس ذكر الفاعل فى لا يصلح ان يقدر المصدر هنا مضافا الى الفعل بعد فيقال وبناها الى الفاعل مذكور في الجمله في قوله وما بناها وما طحاها فان الفعل لا بد له من فاعل في الجمله ومفعول ايضا فلا بد ان يكون في التقدير الفاعل هو بناها والمفعول لكن اذا كانت مصدريه كانت ما حرفا ليس فيها ضمير فيكون ضمير الفاعل في بناها عايدا على غير مذكور بل الى معلوم والتقدير والسما وما بناها الله وهذا خلاف الاصل وخلاف الظاهر والقول الثاني انها موصوله والتقدير الذي بناها والذي طحاها وما فيها عموم واجمال يصلح لما لا يعلم والصفات من نعم العقول تعالى لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد وقوله فانكحوا ما طاب لكم من النسا وهذا المعنى يجي في قوله وما خلق الذكر والانثى وهذا المعنى كانه هو ظاهر الكلام واصله هو الحمل في المعنى ايضا فان القسم بالفاعل يتضمن الاقسام بفعله بخلاف الاقسام بمجرد الفعل وايضا فالاقسام التي في القران عامتها بالذوات الفاعله وغير الفاعله فيقسم بنفس الفعل كقوله والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا وكقوله

ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين
والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيمة
ان الله على كل شي شهيد واذا كان كذلك فالذي ذمه من
تفرق اهل الكتاب واختلافهم ذم فيه الجميع ونهى عن التشبه
بهم فقال ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم
البينات وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة
بغيا بينهم وذلك بان يؤمن طائفة ببعض حق وتكفر بما عند
الاخرى من الحق وتزيد في الحق بالباطل كما اختلفت اليهود والنصارى
في المسيح وغير ذلك وهذا يبين قول من قال ان اهل الكتاب ما تفرقوا
في محمد الا من بعد ما بعث اراد به ايمان بعضهم وكفر بعضهم كما قاله
طائفة فالمذموم هنا من كفر لا من امن فالايمان كل المختلفين وكيف
يذم من كان يعرف انه رسول وقد جا القرآن بمدحه حسنه او نعتا كما قال تعالى
ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون
على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وبعرفته اقر اكثرهم لكنه
فلتشبه الامر كذلك وقد بين القرآن في غير موضع انهم تفرقوا
واختلفوا قبل ارسال محمد فاختلاف هولاء وتفرقهم قبل محمد هو من
هو من جملة ما تفرقوا واختلفوا فيه والله اعلم

اخر كلام شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه

قوله تعالى وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما
جاءتهم البينة وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة
وذلك دين القيمة مخلصين حال من الضمير في يعبدوا وحنفاء حال اخرى او حال من
الضمير في مخلصين ودين القيمة اي الملة او الامة القيمة يقوله تعالى وما تفرق الذين اوتوا
الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة كقوله ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم
البينات واولئك لهم عذاب عظيم يعني بذلك اهل الكتب المنزلة على الامم قبلنا بعد ما اقام الله
عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي اراده الله من كتبهم واختلفوا اختلافا كثيرا كما جا
الحديث المروي من طرق ان اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة وان النصارى اختلفوا
على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة
قالوا من هم يا رسول الله قال ما انا عليه واصحابي وقوله وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين

ولعنة الله على الكافرين ... بالتفرق فيه انهم كلهم ... بلغ

الصفحة الأخيرة من تفسير سورة العلق .



لا ينطق في الله شيئا ثم قال في رواية أبي يوسف وهو أن لا ينطق في الله بشيء من رأيه ولكن يصفه بما وصف به نفسه فهذا ذم من
الأئمة للكلام ومن تكلم في صفات الرب بغير ما أخبر به الرسول لكن بالأدلة يكونون الكتاب والسنة لا يبتدعون علما ويذمون
رأيهم على ذلك مع ما ثبت من وجوب كسر ... ذكره هشام عن محمد عن أبي حنيفة وأبي يوسف وهو قول محدثي أهل السنة
التي عليها أمر الناس أن لا يكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ولا يخرج من الإسلام ولا يبدل في الذين يقول الرجل لا أدري
أمؤمن أنا أو كافر ولا يقول بالقدر ولا يخرج على المسلمين بالسيف ويقدم من يقدم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويفضل من فضل
وذكر عن أبي يوسف أنه قال مذهب أهل الجماعة عندنا وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه ممن لم يأخذ من البدع والأهواء الإثم
احترام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والانتهاء عما يذكر ما شجر بينهم ومعرفة الفضل عليهم وأن لا نشك بأنهم مؤمنون
وأن لا يكفر أحد من أهل القبلة ممن يقر بالإسلام ويؤمن بالقرآن ولا يخرجه من الإيمان بمعصية إن كانت فيه ولا نقول بقول أهل
القدر ولا نخاصم في الدين فإنها من أعظم البدع فهذا قول أهل السنة والجماعة ولا ينبغي لأحد أن يتكلم في هذا كيف ولم ولا ينبغي
أن يجادل في الدين هذا إلا أنه ينهى له عن التشكك ويرد إلى السنة والمتشكك معاند ولا ينبغي لأحد من أهل السنة والجماعة أن يخالط أحدا
من أهل الأهواء يصاحبه ويكون خاصته مخافة أن يستزله أو يستزل غيره بصحبة هذا. قال والخصومة في الدين بدعة
وما ينقض أهل الأهواء بعضهم على بعض بدعة محدثة لو كانت فضلا لسبق إليها أعاظم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعهم
فهم كانوا عليها أقوى ولها أبصر. وقال الله تعالى فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني ولم يأمر بالجدال ولو شاء
لأنزل الحجج وقال له قل كذا وكذا. وقال أبو يوسف دعوا قول أصحاب الخصومات وأهل البدع في الأهواء المرجئة والرافضة
والزيدية والمشبهة والشيعة والخوارج والقدرية والمعتزلة والجهمية ... [illegible]
فليتبع ... ما ذكر أبو يوسف في أهل الكلام يشبه كلام كثير من أئمة السنة يشبه كلام الإمام أحمد وغيره ... [illegible]
ليبين هذا ... [illegible] ... بشر بن الوليد صاحب أبي يوسف ... [illegible] ... أن أبا يوسف كان يميل إلى الحديث ... [illegible]
والله أعلم وأحكم. انتهى ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من الكلام على تفسير سورة الق[illegible] والحمد لله
رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة ليلة القدر وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى اسمه

إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن
ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر. الهاء في أنزلناه للقرآن ولم يجر له ذكر هنا والروح يجوز أن يكون
مبتدأ وفيها الخبر وأن يكون معطوفا على الفاعل وفيها ظرف أو حال وبإذن ربهم يجوز أن يتعلق بتنزل
وأن يكون حالا وفي سلام وجهان أحدهما هي بمعنى مسلمة أي تسلم الملائكة على المؤمنين أو يسلم بعضهم على بعض والثاني
هي بمعنى سلامة أو تسليم فعلى الأول هي مبتدأ وسلام خبره مقدم وحتى متعلقة بسلام أي الملائكة مسلمة إلى
مطلع الفجر ويجوز أن يرتفع هي بسلام على قول الأخفش وعلى القول الثاني ليلة القدر ذات تسليم أي ذات
سلامة إلى طلوع الفجر وفيه التقديران الأولان ويجوز أن يتعلق حتى بتنزل وأما مطلع فبكسر اللام وفتحها
لغتان وقيل الفتح أقيس. فقوله تعالى إنا أنزلناه في ليلة القدر يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة

الصفحة رقم ١٢٢ ظ من الكواكب الدراري وهي الصفحة الاخيرة من تفسير سورة البينة .

سلسلة
التراث السلفي
- ١ -

دقائق التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية

جمع وتقديم وتحقيق
دكتور
محمد السيد الجليند
أستاذ الثقافة الإسلامية
جامعة الملك عبدالعزيز - كلية الآداب
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الثالث

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - ص.ب ٤٦٢٠
بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثانية

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة(*)

(عرض مجمل للسورة)

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

فصـــل

سورة المائدة أجمع سور القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم ، والأمر والنهي ، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال : هي آخر القرآن نزولا فأحِلّوا حلالَها وحرِّموا حرامَها[1] . ولهذا افتتحت بقوله ﴿أوفوا بالعقود ﴾[2] والعقود هي العهود . وذكر فيها من التحليل والتحريم والإيجاب ما لم يذكر في غيرها .

والآيات فيها متناسبة مثل قوله : ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنوا لا تُحَرِّموا طَيِّباتِ ما أحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ

(*) فتاوى ابن تيمية جـ ١٤ ، ٤٨٧ ط السعودية .

(١) ورد الحديث من رواية حبيب وعطية في الدر المنثور للسيوطي ٢/٢٥٢ . وانظر ١/٢٦٠ هامش ١ من دقائق التفسير .

(٢) أجمع أهل التفسير على أن العقود التي أمر الله بالوفاء بها في هذه الآية هي العهود ، فقال بعضهم هي العقود التي كان أهل الجاهلية عاقد بعضهم بعضا على النصرة والمؤازرة والمظاهرة على من حاول ظلمه ، قال بذلك ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس والضحاك وغير هؤلاء .

وقال آخرون بل هي الحلف التي أخذ الله على عباده بالإيمان به وطاعته فيما أحل لهم وحرم عليهم . جاء ذلك في رواية عن ابن عباس ومجاهد وقال آخرون : بل هي العقود التي يتعاقدها الناس فيما بينهم ويعقدها المرء على نفسه ، قال بذلك محمد بن كعب القرظي وابن وهب وابن زيد .

وقيل إن هذه الآية أمر من الله لأهل الكتاب بالوفاء بما أخذ به ميثاقهم من العمل بما في التوراة والإنجيل في تصديق محمد ﷺ وما جاءهم به من عند الله . قال بذلك ابن جريج والليث ومحمد بن مسلم

انظر تفسير الطبري ٦/٣٨ ـ ٣٩ ط بولاق .

وَلا تَعْتَدُوا إنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] .

وقد اشتهر في التفسير أن هذه الآية نزلت بسبب الذين أرادوا التبتل من الصحابة ، مثل عثمان بن مظعون والذين اجتمعوا معه[2] . وفي الصحيحين حديث أنس في الأربعة الذين قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر . وقال الآخر أما أنا فأقوم لا أنام . وقال الآخر: أما انا فلا أتزوج النساء . وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبي ﷺ : « لكني أصوم وأفطر ، وأتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[3] فيشبه والله أعلم أن يكون قوله : ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ فيمن حرّم الحلال على نفسه بقول أو عزم على تركه ، مثل الذي قال : لا أتزوج النساء ولا آكل اللحم ، وهي الرهبانية المبتدعة[2] ، فإن الراهب لا ينكح ولا يذبح .

وقوله : ﴿لا تعتدوا﴾ فيمن قال : أقوم لا أنام ، وقال أصوم لا أفطر ؛ لأن الاعتداء مجاوزة الحد ، فهذا مجاوز للحد في العبادة المشروعة ، كالعدوان في الدعاء في قوله : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخِفْيَةً إنَّهُ لا يُحِبُّ المعتَدِينَ﴾[4] وقال النبي ﷺ : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور ، فالاعتداء في « العبادات ، وفي الورع » كالذين تحرجوا من أشياء ترخص فيها النبي ﷺ ، وفي « الزهد » كالذين حرموا الطيبات وهذان القسمان ترك ، فقوله : ﴿ولا تعتدوا﴾ إما أن يكون مختصا بجانب الأفعال العبادية ، وإما أن يكون العدوان يشمل العدوان

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٧ .

(٢) في أسباب النزول للواحدي عن ابن عباس أنه قال : إن رجلا اتى الى النبي ﷺ وقال : إني إذا أكلت اللحم انتشرت إلى النساء وإني حرمت اللحم علي فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾ . قال المفسرون : جلس رسول الله ﷺ يوما فذكّر الناس بأهوال القيامة فرقّ الناس لذلك وبكوا ، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون وكان فيهم أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ويترهبوا . . . فبلغ ذلك الرسول ﷺ فقال الم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا فقالوا بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير . فقال إني لم أؤمر بذلك . إنّ لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني اصوم وأفطر وأقوم وانام وهذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني . ثم خرج الى الناس وخطبهم فقال : ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا ، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتي الصوم ، ورهبانيتها الجهاد . . إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع ، فأنزل الله هذه الآية . ﴿ لا تُحرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم ﴾ .

انظر في ذلك ، أسباب النزول للواحدي (ت ٤٦٨ هـ) ص ١١٦ - ١١٨ ، لباب النقول للسيوطي ص ٩٤ - ٩٥ ، وانظر كذلك تفسير الطبري ٦/٧ - ٩ .

(٣) ورد الحديث في البخاري في كتاب النكاح ، النسائي في كتاب النكاح والدارمي في كتاب النكاح . وانظر ابن حنبل ١٥٨/٣ .

(٤) وسبب نزول الآية يرشح المعنى الذي مال إليه شيخ الإسلام لأن جميع الأشياء التي حاول بعض الصحابة أن يمنعوا انفسهم منها كانت حلالا لهم لكنهم تشددوا فيها فمنعهم الرسول ﷺ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٥٥ .

في العبادة والتحريم ، وهذان النوعان هما اللذان ذمّ الله المشركين بهما في غير موضع ، حيث عبدوا عبادة لم يأذن الله بها ، وحرّموا ما لم يأذن الله به ، فقوله : ﴿لا تُحَرِّموا﴾ ﴿ولا تَعْتَدوا﴾ يتناول القسمين .

والعدوان هنا كالعدوان في قوله : ﴿ولا تَعَاوَنوا على الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾ ، إما أن يكون (العدوان) أعم من الإثم ، وإما أن يكون نوعا آخر ، وإما أن يكون العدوان في مجاوزة حدود المأمورات ؛ واجبها ومستحبها ، ومجاوزة حد المباح ، وإما أن يكون في ذلك مجاوزة حد التحريم أيضا ، فإنها ثلاثة أمور : مأمور به ، ومنهيّ عنه ، ومباح .

ثم ذكر بعد هذا قوله : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمْ اللّهُ بِاللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ﴾[1] الآية ، ذكر هذا بعد النهي عن التحريم ، ليبين المخرج من تحريم الحلال إذا عقد عليه يمينا بالله أو يمينا أخرى وبهذا يستدل على أن تحريم الحلال يمين .

ثم ذكر بعد ذلك ما حرمه من الخمر والميسر ، والأنصاب والازلام فبين به ما حرمه ، فإن نفي التحريم الشرعي يقع فيه طائفة من الإباحية كما يقع في تحريم الحلال طائفة من هؤلاء ، يكونون في حال اجتهادهم ورياضتهم تحريمية ، ثم إذا وصلوا بزعمهم صاروا إباحية ، وهاتان آفتان تقع في المتعبدة والمتصوفة كثيرا ، وقرن بينهما حكم الأَيْمان ، فان كلاهما يتعلق بالفم داخلا وخارجا . كما يقرن الفقهاء بين كتاب الأَيْمان والأطعمة . وفيه رخصة في كفارة الأَيْمان مطلقا ، خلافا لما شدّد فيه طائفة من الفقهاء ، من جعل بعض الأَيْمان لا كفارة فيها ، فإن هذا التشديد مضاه للتحريم . فيكون الرجل ممنوعا من فعل الواجب أو المباح بذلك التشديد ، وهذا كله رحمة من الله بنا دون غيرنا من الأمم التي حرّم عليهم أشياء عقوبة لهم ولا كفارة في أيمانهم ، ولم يطهرهم من الرجس كما طهرنا . فتدبر هذا فإنه نافع .

فصل(*)

قال شيخ الإسلام :

الحمد لله رب العالمين . قال الله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ وَمَا

---

(١) سورة المائدة :٨٩ .الاية وسبب نزول الآية ان الذين اجتمعوا في منزل عثمان بن مظعون كانوا قد عقدوا أيمانهم على الامتناع عن أكل اللحم وإتيان النساء، فلما نهاهم الرسول عن ذلك قالوا يا رسول الله مابالنا وقد حلفنا وعقدنا الأيمان على ذلك. فنزلت الآية : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم .
انظر أسباب النزول للواحدي .

(*) الفتاوى الكبرى : ٣٤٦/١ ط القاهرة .

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالمنخنقةُ وَالْمَوْقوذَةُ والمتردّيَةُ وَالنطيحةُ وَما أكلَ السَّبُع إلاّ ما ذَكَّيْتُمْ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿إلا ما ذكيتم﴾ عائد إلى ما تقدم من المنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وأكلية السبع عند عامة العلماء كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم .

فما أصابه الموت قبل أن يموت أبيح ، لكن تنازع العلماء فيما يذكى من ذلك . فمنهم من قال : ما تيقن موته لا يذكى ، كقول مالك ورواية عن أحمد .

ومنهم من يقول : ما يعيش معظم اليوم ذكي .

ومنهم من يقول ما كانت فيه حياة مستقرة ذكي ، كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد .

ثم من هؤلاء من يقول : الحياة المستقرة ما يزيد على حركة المذبوح . ومنهم من يقول : ما يمكن أن يزيد على حياة المذبوح ، والصحيح أنه إذا كان حيّا فذكي حلّ أكله ، ولا يعتبر في ذلك حركة مذبوح ، فإن حركات المذبوح لا تنضبط بل فيها ما يطول زمانه ، وتعظم حركته ، وفيها ما يقل زمانه ، وتضعف حركته ، وقد قال النبي ﷺ « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا »[1] فمتى جرى الدم الذي يجري من المذبوح الذي ذبح وهو حي حلّ أكله .

والناس يفرقون بين دم ما كان حيا ، ودم ما كان ميتا ، فإن الميت يجمد دمه ويسود ، ولهذا حرم الله الميتة لاحتقان الرطوبات فيها ، فإذا جرى منه الدم الذي يخرج من المذبوح الذي ذبح وهو حيّ حلّ أكله ، وإن تيقن أنه يموت ، فإن المقصود ذبح ، وما فيه حياة فهو حي ، وإن تيقن أنه يموت بعد ساعة ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه تيقن أنه يموت ، وكان حيّا جازت وصيته وصلاته وعهوده ، وقد أفتى غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم بأنها إذا مصعت بذنبها أو طرفت بعينها أو ركضت برجلها بعد الذبح حلّت ، ولم يشترطوا أن تكون حركتها قبل ذلك أكثر من حركة المذبوح ، وهذا قاله الصحابة ، لأن الحركة دليل على الحياة ، والدليل لا ينعكس فلا يلزم إذا لم يوجد هذا منها أن تكون ميتة ، بل قد تكون حية وإن لم يوجد منها مثل ذلك ، والإنسان قد يكون نائماً فيذبح وهو نائم ولا يضطرب ، وكذلك المغمي عليه يذبح ولا يضطرب ، وكذلك الدابة قد تكون حية فتذبح ولا تضطرب لضعفها عن الحركة وإن كانت حية ، ولكن خروج الدم الذي لا يخرج إلا من مذبوح ، وليس هو دم الميت ، دليل على الحياة ، والله أعلم .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري في مواضع مختلفة . فجاء في (كتاب الشركة ، الجهاد ، الذبائح) وفي مسلم في (كتاب الأضاحي) أبو داود في (كتاب الأضاحي) ، الترمذي في (كتاب الصيد : النسائي (كتاب الأضاحي) وانظر ابن حنبل ٣/٤٦٤ .

(فصل) وتجوز ذكاة المرأة والرجل ، وتذبح المرأة وإن كانت حائضا ، فإن حيضتها ليست في يدها ، وذكاة المرأة جائزة باتفاق المسلمين ، وقد ذبحت امرأة شاة فأمر النبي ﷺ بأكلها .

(فصل) والتسمية على الذبيحة مشروعة ، لكن قيل هي مستحبة ، كقول الشافعي ، وقيل واجبة مع العمد ، وتسقط مع السهو ، كقول أبي حنيفة ومالك وأحمد في المشهور عنه ، وقيل تجب مطلقا فلا تؤكل الذبيحة بدونها ، سواء تركها عمدا أو سهوا كالرواية الأخرى عن أحمد ، اختارها أبو الخطاب وغيره ، وهو قول غير واحد من السلف ، وهذا أظهر الأقوال ، فإن الكتاب والسنة قد علّقا الحِلّ بذكر اسم الله في غير موضع ، كقوله : ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾[1] وقوله : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[2] ﴿وَمَا لَكُمْ أَنْ لا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[3] .

وفي الصحيحين أنه قال : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا » . وفي الصحيح أنه قال لعدي : « إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله فقتل فَكُلْ وإن خالط كلبك كلاب آخر ، فلا تأكل ، فإنك إنما سمّيت على كلبك ولم تسمِّ على غيره »[4] وثبت في الصحيح أنّ الجن سألوه الزاد لهم ولدوابهم فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم » ، قال النبي ﷺ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن »[5] .

فهو صلى عليه وسلم لم يبح للجن المؤمنين إلا ما ذكر اسم الله عليه ، فكيف بالإنس ، ولكن إذا وجد الإنسان لحماً قد ذبحه غيره جاز له أن يأكل منه ، ويذكر اسم الله عليه ، لحمل أمر الناس على الصحة والسلامة ، كما ثبت في الصحيح أن قوماً قالوا : يا رسول الله إن ناسا حديثي عهد بالإسلام يأتونا باللحم ولا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لم يذكروا ، فقال « سمّوا أنتم وكلوا »[6] .

فصل

أما عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك كالحافر ونحوه وشعرها وريشها ووبرها

---

(١) سورة المائدة الآية ٤ .

(٢) سورة الأنعام الآيات (١١٨ ـ ١١٩) .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢١ .

(٤) ورد الحديث في : البخاري (كتاب البيوع والذبائح : وأورده مسلم في كتاب الصيد، وأبو داود في كتاب الأضاحي ، النسائي في كتاب الصيد وابن ماجه في كتاب الصيد وانظر ابن حنبل ٣٢١/١ .

(٥) ورد الحديث في مسلم (كتاب الصلاة) وفي ابن حنبل ٣٥٦/٣ ، ٤٢٨/٥ .

(٦) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الأطعمة) وفي سنن أبي داود (كتاب الأطعمة) وفي ابن ماجه (كتاب الأطعمة) .

ففي هذين النوعين للعلماء ثلاثة أقوال :

أحدها : نجاسة الجميع كقول الشافعي في المشهور ، وذلك رواية عن أحمد .

والثاني : أن العظام ونحوها نجسة ، والشعور ونحوها طاهرة . وهذا هو المشهور من مذهب مالك وأحمد .

والثالث : أن الجميع طاهر كقول أبي حنيفة . وهو قول في مذهب مالك وأحمد . وهذا القول هو الصواب . لأن الأصل فيها الطهارة ولا دليل على النجاسة .

وأيضاً فإن هذه الأعيان هي من الطيبات ، ليست من الخبائث فتدخل في آية التحليل ، وذلك لأنها لم تدخل فيما حرمه الله من الخبائث لا لفظاً ولا معنى . أما اللفظ فكقوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ لا يدخل فيها الشعور وما أشبهها ، وذلك لأن الميت ضد الحي ، والحياة نوعان حياة الحيوان وحياة النبات ، فحياة الحيوان خاصتها الحس والحركة الإرادية ، وحياة النبات النمو والاغتذاء .

وقوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ إنما هو بما فارقته الحياة الحيوانية دون النباتية ، فإن الزرع والشجر إذا يبس لم ينجس باتفاق المسلمين ، وقد تموت الأرض ولا يوجب ذلك نجاستها باتفاق المسلمين ، وإنما الميتة المحرمة ما كان فيها الحسّ والحركة الإرادية ، وأما الشعر فإنه ينمو ويغتذي ويطول كالزرع ليس فيه حس ولا يتحرك بإرادة ، ولا تحله الحياة الحيوانية حتى يموت بمفارقتها ولا وجه لتنجيسه .

(وأيضا) فلو كان الشعر جزءاً من الحيوان لما أبيح أخذه في حال الحياة فإن النبي ﷺ سئل عن قوم يجبون أسنمة الإبل وأليات الغنم فقال : « ما أُبين من البهيمة وهي حية فهو ميت »[1] . رواه أبو داود وغيره ، وهذا متفق عليه بين العلماء ، فلو كان حكم الشعر حكم السنام والألية لما جاز قطعه في حال الحياة ، فلما اتفق العلماء على أن الشعر والصوف إذا جُزّ من الحيوان كان حلالا طاهراً علم أنه ليس مثل اللحم .

(وأيضا) فقد ثبت أن النبي ﷺ أعطى شعره لما حلق رأسه للمسلمين ، وكان النبي ﷺ يستنجي ويستجمر ، فمن سوى بين الشعر والبول والعذرة فقد أخطأ خطأ مبينا .

وأما العظام ونحوها فإذا قيل أنها داخلة في الميتة لأنها تنجس ، قيل لمن قال ذلك لم تأخذوا بعموم اللفظ ، فإن ما لانفس له سائلة كالذباب والعقرب والخنفساء لا ينجس عندكم

---

(١) ورد الحديث في : سنن أبي داود (كتاب الأضاحي) في ابن ماجه (كتاب الصيد) ، الدارمي (كتاب الصيد) ، وانظر ابن حنبل ٣٨١/٥ .

وعند جمهور العلماء مع أنها ميتة موتا حيوانيا .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليمقله فإن في أحد جناحية داء وفي الآخر شفاء »[1] . ومن نجس هذا قال في أحد القولين أنه لا ينجس المائعات الواقعة فيه لهذا الحديث ، وإذا كان كذلك علم أن علة نجاسة الميتة إنما هو احتباس الدم فيها ، فما لا نفس له سائلة ليس فيه دم سائل ، فإذا مات لم يحتبس فيه الدم فلا ينجس ، فالعظم ونحوه أولى بعدم التنجيس من هذا ، فان العظم ليس فيه دم سائل ولا كان متحركا بالإرادة إلا على وجه التبع .

فإذا كان الحيوان الكامل الحساس المتحرك بالإرادة لا ينجس لكونه ليس فيه دم سائل ، فكيف ينجس العظم الذي ليس فيه سائل .

ومما يبين صحة قول الجمهور أن الله إنما حرم علينا الدم المسفوح كما قال تعالى : ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَنْ يَكونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفوحاً﴾[2] فأذا عفي عن الدم غير المسفوح مع أنه من جنس الدم حيث علم أن الله سبحانه فرق بين الدم الذي يسيل وبين غيره ، فلهذا كان المسلمون يصنعون اللحم في المرق وخيوط الدم في القدر تبين ويأكلون ذلك على عهد رسول الله ﷺ كما أخبرت بذلك عائشة رضي الله عنها ، ولولا هذا لاستخرجوا الدم من العروق كما يفعل اليهود .

والله تعالى حرّم ما مات حتف أنفه أو لسبب غير جارح محدد كالموقودة والمتردية والنطيحة ، وحرم ﷺ ما صيد بغيره من المعراض . وقال : إنه وقيذ ، والفرق بينهما إنما هو سفح الدم ، فدلّ على أن سبب التنجيس هو احتقان الدم واحتباسه ، وإذا سفح بوجه خبيث بأن يذكر عليه غير اسم الله كان الخبث هنا من وجه آخر فإن التحريم تارة لوجود الدم ، وتارة لفساد التذكية كذكاة المجوسي والمرتد ، والذكاة في غير المحل .

فإذا كان كذلك فالعظم والظفر والقرن والظلف وغير ذلك ليس فيه دم مسفوح ، فلا وجه لتنجيسه ، وهذا قول جمهور السلف .

قال الزهري : كان خيار هذه الأمة يتمشطون بأمشاط من عظام الفيل ، وقد روي في العاج حديث معروف لكن فيه نظر ليس هذا موضعه ، فإنا لا نحتاج إلى الاستدلال بذلك .

وأيضا فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال في شاة ميمونة هلا أخذتم إهابها

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الطب ، بدء الخلق) وفي سنن الدارمي (كتاب الأطعمة) ، ابن ماجه (كتاب الطب) وفي ابن حنبل ٣٤٦/٣ ، ٦٧/٣ .

(٢) الأنعام : ١٤٥ .

فانتفعتم به قالوا : إنها ميتة ، قال : « إنّما حرّم أكلها »[1] وليس في البخاري ذكر الدباغ ولم يذكره عامة أصحاب الزهري عنه ، ولكن ذكره ابن عيينة ، ورواه مسلم في صحيحه ، وقد طعن الإمام أحمد في ذلك وأشار إلى غلط ابن عيينة فيه ، وذكر أن الزهري وغيره كانوا يبيحون الانتفاع بجلود الميتة بلا دباغ لأجل هذا الحديث .

وحينئذ فهذا النص يقتضي جواز الانتفاع بها بعد الدبغ بطريق الأولى ، لكن إذا قيل أن الله حرم بعد ذلك الانتفاع بالجلود حتى تدبغ أو قيل أنها لا تطهر بالدباغ ، لم يلزم تحريم العظام ونحوها ، لأن الجلد جزء من الميتة فيه الدم كما في سائر أجزائه ، والنبي ﷺ جعل ذكاته دباغه ، لأن الدبغ ينشف رطوبته ، فدلّ على أن سبب التنجيس هو الرطوبات ، والعظم ليس فيه نفس سائلة ، وما كان فيه منها فإنه يجف وييبس وهي تبقى وتحفظ أكثر من الجلد ، فهي أولى بالطهارة من الجلد .

والعلماء تنازعوا في الدباغ هل يطهر . فذهب مالك وأحمد في المشهور عنهما أنه لا يطهر ، ومذهب الشافعي وأبي حنيفة والجمهور أنه يطهر ، وإلى هذا القول رجع الإمام أحمد كما ذكر ذلك عنه الترمذي .

وحديث ابن حكيم يدل على أن النبي ﷺ نهاهم أن ينتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب بعد أن كان أذن لهم في ذلك ، لكن هذا قد يكون قبل الدباغ ، فيكون قد رخص ، فإن حديث الزهري بين أنه قد رخص في جلود الميتة قبل الدباغ ، فيكون قد رخص لهم في ذلك لما نهاهم عن الانتفاع بها قبل الدباغ نهاهم ﷺ عن ذلك ، ولهذا قال طائفة من أهل اللغة أن الإهاب اسم لما لا يدبغ ، ولهذا قرن معه العصب ، والعصب لا يدبغ .

(فصل) : وأما لبن الميتة وأنفحتها ففيه قولان مشهوران للعلماء :

(أحدهما) : أن ذلك طاهر . كقول أبي حنيفة وغيره وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد .

(والثاني) : أنه نجس كقول الشافعي والرواية الأخرى عن أحمد ، وعلى هذا النزاع انبنى نزاعهم في جبن المجوس ، فإن ذبائح المجوس حرام عند جمهور السلف والخلف ، وقد قيل أن ذلك مجمع عليه بين الصحابة ، فإذا صنعوا جبنا ، والجبن يصنع بالأنفحة ، كان فيه هذان القولان .

والأظهر أن أنفحة الميتة ولبنها طاهر ، لأن الصحابة لما فتحوا بلاد العراق أكلوا من جبن المجوس ، وكان هذا ظاهرا سائغاً بينهم ، وما ينقل عن بعضهم من كراهة ذلك ففيه نظر ،

---

(١) ورد الحديث في : مسلم (كتاب الحيض) ، ابو داود (كتاب اللباس) والنسائي ، ابن حنبل ٣٢٦/٤ .

فإنه من نقل بعض الحجازيين وفيه نظر ، وأهل العراق كانوا أعلم بهذا ، فإن المجوس كانوا ببلادهم ، ولم يكونوا بأرض الحجاز .

ويدل على ذلك أن سلمان الفارسي كان نائب عمر بن الخطاب على المدائن ، وكان يدعو الفرس إلى الإسلام ، وقد ثبت عنه أنه سئل عن شيء من السمن والجبن والفراء فقال : الحلال ما حلله الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه . وقد رواه أبو داود مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، ومعلوم أنه لم يكن السؤال عن جبن المسلمين وأهل الكتاب فإن هذا أمر بين . وإنما كان السؤال عن جبن المجوس ، فدل ذلك على أن سلمان كان يفتي بحلها ، وإذا كان ذلك روي عن النبي ﷺ انقطع النزاع بقول النبي ﷺ .

وأيضاً فاللبن والأنفحة لم يموتا، وإنما نجسها من نجسها لكونها في وعاء نجس ، فتكون مائعاً في وعاء نجس ، فالنجس مبني على مقدمتين على أن المائع لاقى وعاء نجساً ، وعلى أنه إذا كان كذلك صار نجسا ، فيقال أولاً لا نسلم أن المائع ينجس بملاقاة النجاسة . وقد تقدم أن السنة دلت على طهارته لا على نجاسته . ويقال ثانياً الملاقاة في الباطن لا حكم لها كما قال تعالى : ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنا خالِصاً سائِغاً للشّارِبينَ﴾[1] ، ولهذا يجوز حمل الصبي الصغير في الصلاة مع ما في باطنه والله أعلم .

فصل

في قوله تعالى : ﴿وَطَعَامُ الّذِينَ أُوتوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾[2] ، سئل شيخ الإسلام عن جماعة من المسلمين اشتد نكيرهم على من أكل من ذبيحة يهودي أو نصراني مطلقاً ، ولا يدري ما حالهم ، هل دخلوا في دينهم قبل نسخه وتحريفه وقبل مبعث النبي ﷺ أم بعد ذلك ، بل يتناكحون وتقر مناكحتهم عند جميع الناس ، وهم أهل ذمة يؤدون الجزية ولا يعرف من هم ولا من هم آباؤهم ، فهل للمنكرين عليهم منعهم من الذبح للمسلمين أم لهم الأكل من ذبائحهم كسائر بلاد المسلمين ؟

(أجاب) رضي الله عنه : ليس لأحد أن ينكر على أحد أكل من ذبيحة اليهود والنصارى في هذا الزمان ، ولا يحرم ذبحهم للمسلمين ، ومن أنكر ذلك فهو جاهل مخطىء مخالف لإجماع المسلمين ، فإن أصل هذه المسألة فيها نزاع مشهور بين علماء المسلمين ، ومسائل الاجتهاد لا يسوغ فيها الإنكار إلا ببيان الحجة ، وإيضاح المحجة ، لا الإنكار المجرد المستند إلى محض التقليد ، فإن هذا فعل أهل الجهل والأهواء . كيف والقول بتحريم ذلك

---

(١) سورة النحل الآية ٦٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥ . . انظر الفتاوى الكبرى ١/١٩٤ .

في هذا الزمان وقبله قول ضعيف جدا مخالف لما علم من سنة رسول الله ﷺ ، ولما علم من حال أصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وذلك لأن المنكر لهذا لا يخرج عن قولين :

إما أن يكون ممن يحرم ذبائح أهل الكتاب مطلقاً كما يقول ذلك من يقوله من الرافضة ، وهؤلاء يحرمون نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم ، وهذا ليس من أقوال أحد من أئمة المسلمين المشهورين بالفتيا ، ولا من أقوال أتباعهم ، وهو خطأ مخالف للكتاب والسنة والإجماع القديم ، فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿وَطَعامُ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، والمُحْصَناتُ مِنَ المؤمِناتِ والمُحْصَناتُ مِنَ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ .

(فإن قيل) هذه الآية معارضة بقوله : ﴿وَلا تَنْكِحوا المشركاتِ حتى يُؤمِن﴾ وبقوله تعالى : ﴿وَلا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكَوافِرِ﴾ (قيل) الجواب من ثلاثة أوجه :

(أحدها) : أن الشرك المطلق في القرآن لا يدخل فيه أهل الكتاب ، وإنما يدخلون في الشرك المقيد قال الله تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الّذِينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالمشرِكينَ﴾[1] فجعل المشركين قسما غير أهل الكتاب . وقال تعالى : ﴿إن الّذِينَ آمنوا والذينَ هَادُوا والصّابِئينَ والنّصارى والمجوسَ والذينَ أَشْرَكوا﴾[2] ، فجعلهم قسما غيرهم ، فأما دخولهم في المقيد ففي قوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أرباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ والمسيحَ بنَ مَرْيَم وَماأُمِروا إلا لِيَعْبُدوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلا هَوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشرِكونَ﴾[3] ، فوصفهم بأنهم مشركون .

وسبب هذا أن أصل دينهم الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل ليس فيه شرك كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلا نوحي إلَيْهِ أَنَّهُ لا إلهَ إلا أنا فاعْبُدونِ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أجَعَلْنا مِنْ دونِ الرحمنِ آلهةً يُعْبَدونَ﴾[5] ، وقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعْبُدوا اللَّهَ واجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾[6] ، ولكنهم بدلوا وغيروا فابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به الله سلطانا ، فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا لا باعتبار أصل الدين . وقوله تعالى : ﴿ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ

---

(١) اول سورة البينة .

(٢) سورة الحج الآية ١٧ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣١ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٥) سورة الزخرف الآية ٤٥ .

(٦) سورة النحل الآية ٣٦ .

الكَـوَافِرِ﴾[١] ، هـو تعريف للكـوافر المعـروفات الـلاتي كن في عصم المسلمين . وأولئك كن مشركات لا كتابيات من أهل مكة ونحوها .

(والوجه الثاني) : إذا قدر أن لفظ المشركات ولفظ الكوافر يعني الكتابيات ، فآية المائدة خاصة وهي متأخرة نزلت بعد سورة البقرة والممتحنة باتفـاق العلماء ، كما في الحـديث « المائـدة من آخر القرآن نزولاً فأحِلّوا حَلاَلَها وحَرِّموا حرامَها »[٢] ، والخـاص المتأخـر يقضي على العـام المتقدم باتفاق علماء المسلمين ، لكن الجمهور يقولون أنه مفسر له فتبين أن صورة التخصيص لم ترد باللفظ العام ، وطائفة يقولون أن ذلك نسخ بعد أن شرع .

(الوجه الثالث) : إذا فرضنا النصين خاصين فأحد النصـين حرم ذبـائحهم ونكاحهم ، والآخر أحلهما ، فالنص المحلل لهما هنا يجب تقديمه لوجهين :

(أحدهما) : أن سورة المائدة هي المتأخرة باتفاق العلماء فتكون نـاسخة للنص المتقـدم . ولا يقال أن هذا نسخ للحكم مرتين لأن فعل ذلك قبل التحـريم لم يكن بخطاب شـرعي حلل ذلك ، بل كان لعدم التحريم ، بمنزلة شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك ، والتحريم المبتدأ لا يكـون نسخا لاستصحـاب حكم الفعل ، ولهـذا لم يكن تحريم النبي ﷺلكـل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ناسخا لما دل عليه قوله تعالى : ﴿قُلْ لا أَجِدُ فيما أوحيَ إليَّ مُحَرّماً على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾[٣] ، الآية من أن الله عـز وجل لم يحـرم قبل نـزول الآية إلا هـذه الأصناف الثلاثة ، فإن هذه الآية نفت تحريم ما سـوى الثلاثـة إلى حين نـزول هذه الآيـة ، ولم يثبت تحليل ما سوى ذلك ، بل كان ما سوى ذلك عفوا لا تحليـل فيه ولا تحـريم كفعل الصبي والمجنون ، وكما في الحـديث المعروف « الحـلال ما حلله الله في كتـابه والحـرام ما حـرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهـو مما عفـا عنه »[٤] وهـذا محفوظ عن سلمـان الفارسي مـوقوفاً عليه أو مرفوعاً إلى النبي ﷺ .

ويدل على ذلك أنه قال في سورة المائدة: ﴿اليَـوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطيِّـباتُ﴾ فأخبـر أنه أحلهـا ذلك اليوم ، وسورة المائدة مدنية بالإجماع ، وسورة الأنعام مكية بالإجماع ، فعلم أن تحليل الطيبات كـان بالمـدينة لا بمكـة ، وقولـه تعالى : ﴿يَسْـألونَـكَ مَاذا أُحِـلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِـلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعـامُ الذينَ أُوتـوا الكتابَ حِـلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُم حِـلٌّ لَهُمْ﴾ [٥] إلى آخرهـا . فثبت

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١٠ .

(٢) سبق الإشارة إلى هذا الحديث .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤٥ .

(٤) ذكر الترمذي هذا الحديث في كتاب اللباس ، ابن ماجه (كتاب الأطعمة) ، ابو داود في (كتاب الأطعمة) .

(٥) سورة المائدة الآية ٤ .

نكاح الكتابيات ، وقبل ذلك كان إما عفوا على الصحيح ، وإما محرما ثم نسخ يدل عليه أن آية المائدة لم ينسخها شيء .

(الوجه الثاني) : أنه قد ثبت حل طعام أهل الكتاب بالكتاب والسنة والإجماع ، والكلام في نسائهم كالكلام في ذبائحهم ، فإذا ثبت حل أحدهما ، ثبت حل الآخر ، وحل أطعمتهم ليس له معارض أصلا . ويدل على ذلك أن حذيفة بن اليمان تزوج يهودية ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة فدل على أنهم كانوا مجتمعين على جواز ذلك .

(فإن قيل) قوله تعالى : ﴿وَطَعَامُ الذِينَ أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ محمول على الفواكه والحبوب (قيل) هذا خطأ لوجوه :

(أحدها) : أن هذه مباحة من أهل الكتاب والمشركين والمجوس فليس في تخصيصها بأهل الكتاب فائدة .

(الثاني) : أن إضافة الطعام إليهم يقتضى أنه صار طعاماً بفعلهم ، وهذا إنما يستحق في الذبائح التي صارت لحماً بذكاتهم ، فأما الفواكه فإن الله خلقها مطعومة لم تصر طعاما بفعل آدمي .

(الثالث) : أنه قرن حل الطعام بحل النساء ، وأباح طعامنا لهم كما أباح طعامهم لنا ، ومعلوم أن حكم النساء مختص بأهل الكتاب دون المشركين ، وكذلك حكم الطعام والفاكهة والحب لا يختص بأهل الكتاب .

(الرابع) : أن لفظ الطعام عام ، وتناوله اللحم ونحوه أقوى من تناوله للفاكهة ، فيجب إقرار اللفظ على عمومه لا سيما وقد قرن به قوله تعالى : ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ ونحن يجوز لنا أن نطعمهم كل أنواع طعامنا ، فكذلك يحل لنا أن نأكل أنواع طعامهم .

وأيضاً فقد ثبت في الصحاح بل بالنقل المستفيض أن النبي ﷺ أهدت له اليهودية عام خيبر شاة مشوية فأكل منها لقمة ثم قال « إن هذه تخبرني أن فيها سمّا » ولولا أن ذبائحهم حلال لما تناول من تلك الشاة . وثبت في الصحيح أنهم لما غزوا خيبر أخذ بعض الصحابة جرابا فيه شحم،قال: قلت لا أطعم اليوم من هذا أحدا فالتفت فإذا رسول الله ﷺ يضحك ولم ينكر عليه ، وهذا مما استدل به العلماء على جواز أكل جيش المسلمين من طعام أهل الحرب قبل القسمة .

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ أجاب دعوة يهودي إلى خبز شعير وإهالة سنخة ، رواه الإمام أحمد . والإهالة من الودك الذي يكون من الذبيحة ومن السمن ونحوه الذي يكون في أوعيتهم التي يطبخون فيها في العادة ولو كانت ذبائحهم محرمة لكانت أوانيهم كأواني المجوس ونحوهم ،

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن الأكل في أوعيتهم حتى رخص أن يغسل .

وأيضاً فقد استفاض أن أصحاب رسول الله ﷺ لما فتحوا الشام والعراق ومصر كانوا يأكلون من ذبائح أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وإنما امتنعوا من ذبائح المجوس ، ووقع في جبن المجوس من النزاع ما هو معروف بين المسلمين ، لأن الجبن يحتاج إلى الأنفحة وفي أنفحة الميتة نزاع معروف بين العلماء ، فأبو حنيفة يقول بطهارتها ، ومالك والشافعي يقولان بنجاستها وعن أحمد روايتان .

(فصل) المأخذ الثاني : الإنكار على من يأكل ذبائح أهل الكتاب هو كون هؤلاء الموجودين لا يعلم أنهم من ذرية من دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل ، وهو المأخذ الذي دل عليه كلام السائل ، وهو المأخذ الذي تنازع فيه علماء المسلمين أهل السنة والجماعة ، وهذا مبني على أصل ، وهو أن قوله تعالى : ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ هل المراد به من هو بعد نزول القرآن متدين بدين أهل الكتاب أو المراد به من كان آباؤه قد دخلوا في دين أهل الكتاب قبل النسخ والتبديل ؟ على قولين للعلماء .

(فالقول الأول) هو قول جمهور المسلمين من السلف والخلف ، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك ، وأحد القولين في مذهب أحمد ، بل هو المنصوص عنه صريحا .

(والثاني) : قول الشافعي وطائفة من أصحاب أحمد .

وأصل هذا القول أن علياً وابن عباس تنازعا في ذبائح بني تغلب فقال علي : لا تباح ذبائحهم ولا نساؤهم فإنهم لم يتمسكوا من النصرانية إلا بشرب الخمر ، وروي عنه تغزوهم لأنهم لم يقوموا بالشروط التي شرطها عليهم عثمان فإنه شرط عليهم أن لا[1] وغير ذلك من الشروط ، وقال ابن عباس بل تباح لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وعامة المسلمين من الصحابة وغيرهم لم يحرموا ذبائحهم ولا يعرف ذلك إلا عن علي وحده ، وقد روي معنى قول ابن عباس عن عمر بن الخطاب .

فمن العلماء من رجح قول عمر وابن عباس ، وهو قول الجمهور كأبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وصححها طائفة من أصحابه ، بل هي آخر قوليه ، بل عامة المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم على هذا القول وقال أبو بكر الأثرم : ما علمت أحدا من أصحاب النبي ﷺ كرهه إلا عليا ، وهذا قول جماهير فقهاء الحجاز والعراق وفقهاء الحديث والرأي كالحسن وإبراهيم النخعي والزهري وغيرهم ، وهو الذي نقله عن أحمد أكثر

---

(١) بياض بالأصلين .

أصحابه ، وقال إبراهيم بن الحارث كان آخر قولي أحمد على أنه لا يرى بذبائحهم بأسا .

ومن العلماء من رجح قول علي ، وهو قول الشافعي وأحمد في احدى الروايتين عنه ، وأحمد إنما اختلف اجتهاده في بني تغلب ، وهم الذين تنازع فيهم الصحابة ، فأما سائر اليهود والنصارى من العرب مثل تنوخ وبهراء وغيرهما من اليهود فلا أعرف عن أحمد في حل ذبائحهم نزاعاً ، ولا عن الصحابة ولا عن التابعين وغيرهم من السلف ، وإنما كان النزاع بينهم في بني تغلب خاصة ، ولكن من أصحاب أحمد من جعل فيهم روايتين كبني تغلب ، والحل مذهب الجمهور كأبي حنيفة ومالك ، وما أعلم للقول الآخر قدوة من السلف .

ثم هؤلاء المذكورون من أصحاب أحمد (قالوا) بأنه من كان أحد أبويه غير كتابي بل مجوسياً لم تحل ذبيحته ومناكحة نسائه . وهذا مذهب الشافعي فيما إذا كان الأب مجوسياً ، وأما الأم فله فيها قولان ، فإن كان الأبوان مجوسيين حرمت ذبيحته عند الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد . وحكي ذلك عن مالك ، وغالب ظني أن هذا غلط على مالك فإني لم أجده في كتب أصحابه . وهذا تفريع على الرواية المخرجة عن أحمد في سائر اليهود والنصارى من العرب .

وهذا مبني على احدى الروايتين عنه في نصارى بني تغلب ، وهي الرواية التي اختارها هؤلاء ، فأما إذا جعل الروايتين في بني تغلب دون غيرهم من العرب ، أو قيل أن النزاع عام ، وفرعنا على القول بحل ذبائح بني تغلب ونسائهم كما هو قول الأكثرين ، فإنه على هذه الرواية لا عبرة بالنسب ، بل لو كان الأبوان جميعا مجوسيين أو وثنيين والولد من أهل الكتاب ، فحكمه حكم أهل الكتاب على هذا القول بلا ريب كما صرح بذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وأبي حنيفة وغيرهم .

ومن ظن من أصحاب أحمد وغيرهم أن تحريم نكاح من أبواه مجوسيان أو أحدهما مجوسي قول واحد في مذهبه فهو مخطىء خطأ لا ريب فيه ، لأنه لم يعرف أصل النزاع في هذه المسألة ، ولهذا كان من هؤلاء من يتناقض فيجوز أن يقر بالجزية من دخل في دينهم بعد النسخ والتبديل ، ويقول مع هذا بتحريم نكاح نصراني العرب مطلقاً ، ومن كان أحد أبويه غير كتابي كما فعل ذلك طائفة من أصحاب أحمد ، وهذا تناقض .

والقاضي أبو يعلى وإن كان قد قال هذا القول هو وطائفة من أتباعه فقد رجع عن هذا القول في الجامع الكبير ، وهو آخر كتبه ، فذكر فيمن انتقل إلى دين أهل الكتاب من عبدة الأوثان كالروم وقبائل من العرب وهم تنوخ وبهراء ومن بني تغلب هل تجوز مناكحتهم وأكل ذبائحهم ، وذكر أن المنصوص عن أحمد أنه لا بأس بنكاح نصارى بني تغلب ، وأن الرواية الأخرى مخرجة على الروايتين عنه في ذبائحهم ، واختار أن المنتقل إلى دينهم حكمه حكمهم

سواء كان انتقاله بعد مجيء شريعتنا أو قبلها ، وسواء انتقل إلى دين المبدلين أو دين لم يبدل ، ويجوز مناكحته وأكل ذبيحته .

وإذا كان هذا فيمن أبواه مشركان من العرب والروم ، فمن كان أحد أبويه مشركاً فهو أولى بذلك ، هذا هو المنصوص عن أحمد ، فإنه قد نص على أنه من دخل في دينهم بعد النسخ والتبديل كمن دخل في دينهم في هذا الزمان ، فإنه يقر بالجزية ، قال أصحابه : وإذا أقررناه بالجزية ، حلت ذبائحهم ونساؤهم وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وغيرهما .

وأصل النزاع في هذه المسألة ما ذكرته من نزاع عليّ وغيره من الصحابة في بني تغلب والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه والجمهور أحلوها وهي الرواية الأخرى عن أحمد .

ثم الذين كرهوا ذبائح بني تغلب تنازعوا في مأخذ عليّ فظن بعضهم أن علياً إنما حرم ذبائحهم ونساءهم لكونه لم يعلم أن آباءهم دخلوا في دين أهل الكتاب قبل النسخ والتبديل ، وبنوا على هذا أن الاعتبار في أهل الكتاب بالنسب لا بنفس الرجل ، وأن من شككنا في أجداده هل كانوا من أهل الكتاب أم لا ، أخذنا بالاحتياط فحقنا دمه بالجزية احتياطاً وحرمنا ذبيحته ونساءه احتياطاً . وهذا مأخذ الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد .

وقال آخرون بل عليّ لم يكره ذبائح بني تغلب إلا لكونهم ما تدينوا بدين أهل الكتاب في واجباته ومحظوراته ، بل أخذوا منه حل المحرمات فقط ، ولهذا قال إنهم لم يتمسكوا من دين أهل الكتاب إلا بشرب الخمر ، وهذا المأخذ من قول عليّ هو المنصوص عن أحمد وغيره وهو الصواب .

وبالجملة فالقول بأن أهل الكتاب المذكورين في القرآن هم من كان دخل جده في ذلك قبل النسخ والتبديل قول ضعيف ، والقول بأن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أراد ذلك قول ضعيف ، بل الصواب المقطوع به أن كون الرجل كتابياً أو غير كتابي هو حكم مستقل بنفسه لا بنسبه ، وكل من تدين بدين أهل الكتاب فهو منهم ، سواء كان أبوه أو جده دخل في دينهم أو لم يدخل ، وسواء كان دخوله قبل النسخ والتبديل أو بعد ذلك ، وهذا مذهب جمهور العلماء كأبي حنيفة ومالك ،وهو المنصوص الصريح عن أحمد ، وإن كان بين أصحابه في ذلك نزاع معروف ، وهذا القول هو الثابت عن الصحابة رضي الله عنهم ، ولا أعلم بين الصحابة في ذلك نزاعا .

وقد ذكر الطحاوي أن هذا إجماع قديم ، واحتج بذلك في هذه المسألة على من لا يقر الرجل في دينهم بعد النسخ والتبديل كمن هو في زماننا إذا انتقل إلى دين أهل الكتاب ، فإنه تؤكل ذبيحته وتنكح نساؤه وهذا يبين خطأ من يناقض منهم .

وأصحاب هذا القول الذي هو قول الجمهور يقولون : من دخل هو أو أبواه أو جده في دينهم بعد النسخ والتبديل أقر بالجزية سواء دخل في زماننا هذا أو قبله . وأصحاب القول الآخر يقولون : متى علمنا أنه لم يدخل إلا بعد النسخ والتبديل لم تقبل منه الجزية كما يقوله بعض أصحاب أحمد مع أصحاب الشافعي والصواب قول الجمهور والدليل عليه من وجوه :

(أحدها) : أنه قد ثبت أنه كان من أولاد الأنصار جماعة تهودوا قبل مبعث النبي ﷺ بقليل كما قال ابن عباس أن المرأة كانت مقلاتا ، والمقلات التي لا يعيش لها ولد . كثيرة القلت ، والقلت الموت والهلاك ، كما ياقل امرأة مذكار وميناث إذا كانت كثيرة الولادة للذكور والإناث والسما(١) الكثيرة الموت . قال ابن عباس فكانت المرأة تنذر إن عاش لها ولدان تجعل أحدهما يهودياً لكون اليهود كانوا أهل علم وكتاب ، والعرب كانوا أهل شرك وأوثان ، فلما بعث الله محمداً كان جماعة من أولاد الانصار تهودوا فطلب آباؤهم أن يكرهوهم على الإسلام فأنزل الله تعالى : ﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ الآية .

فقد ثبت أن هؤلاء كان آباؤهم موجودين تهودوا ، ومعلوم أن هذا دخول بأنفسهم في اليهودية قبل الإسلام وبعد مبعث المسيح صلوات الله عليه ، وهذا بعد النسخ والتبديل ، ومع هذا نهى الله عز وجل عن إكراه هؤلاء الذين تهودوا بعد النسخ والتبديل على الإسلام وأقرهم بالجزية . وهذا صريح في جواز عقد الذمة لمن دخل بنفسه في دين أهل الكتاب بعد النسخ والتبديل . فعلم أن هذا القول هو الصواب دون الآخر .

ومتى ثبت أنه يعقد له الذمة ثبت أن العبرة بنفسه لا بنسبه ، وأنه تباح ذبيحته وطعامه باتفاق المسلمين ، فإن المانع لذلك لم يمنعه إلا بناء على أن هذا الصنف ليسوا من أهل الكتاب فلا يدخلون . فإذا ثبت بنص السنة أنهم من أهل الكتاب دخلوا في الخطاب بلا نزاع .

(الوجه الثاني) : أن جماعة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وحولها كانوا عربا ودخلوا في دين اليهود ، ومع هذا فلم يفصل النبي ﷺ في أكل طعامهم وحل نسائهم وإقرارهم بالذمة بين من دخل أبواه بعد مبعث عيسى عليه السلام ومن دخل قبل ذلك ، ولا بين المشكوك في نفسه ، بل حكم في الجميع حكماً واحداً عاماً . فعلم أن التفريق بين طائفة وطائفة ، وجعل طائفة لا تقر بالجزية . وطائفة تقر ولا تؤكل ذبائحهم ، وطائفة يقرون وتؤكل ذبائحهم ، تفريق ليس له أصل في سنة رسول الله ﷺ الثابتة عنه .

وقد علم بالنقل الصحيح المستفيض أن أهل المدينة كان فيهم يهود كثير من العرب وغيرهم من بني كنانة وحمير وغيرهما من العرب ، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن

---

(١) بياض بالأصلين .

« إنك تأتي قوماً أهل كتاب » وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً وعدله مغافر ، ولم يفرق بين من دخل أبوه قبل النسخ أو بعده وكذلك وفد نجران وغيرهم من النصارى الذين كان فيهم عرب كثيرون أقرهم بالجزية ، وكذلك سائر اليهود والنصارى من قبائل العرب لم يفرق رسول الله ﷺ ولا أحد من خلفائه وأصحابه بين بعضهم وبعض بل قبلوا منهم الجزية وأباحوا ذبائحهم ونساءهم ، وكذلك نصارى الروم وغيرهم لم يفرقوا بين صنف وصنف ، ومن تدبر السيرة النبوية علم كل هذا بالضرورة وعلم أن التفريق قول محدث لا أصل له في الشريعة .

(الوجه الثالث) : أن كون الرجل مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً ونحو ذلك من أسماء الدين هو حكم يتعلق بنفسه لا باعتقاده وإرادته وقوله وعمله ، لا يلحقه هذا الاسم بمجرد اتصاف آبائه بذلك ، لكن الصغير حكمه في أحكام الدنيا حكم أبويه لكونه لا يستقل بنفسه ، فإذا بلغ وتكلم بالإسلام أو بالكفر كان حكمه معتبراً بنفسه باتفاق المسلمين ، فلو كان أبواه يهوداً أو نصارى فأسلم كان من المسلمين باتفاق المسلمين ، ولو كانوا مسلمين فكفر كان كافرا باتفاق المسلمين فإن كفر بردّة لم يقر عليه لكونه مرتدّاً لأجل آبائه . وكل حكم علق بأسماء الدين من إسلام وإيمان وكفر ونفاق وردّة وتهود وتنصر إنما يثبت لمن اتصف بالصفات الموجبة لذلك . وكون الرجل من المشركين أو أهل الكتاب هو من هذا الباب فمن كان بنفسه مشركا فحكمه حكم أهل الشرك وإن كان أبواه غير مشركين ومن كان أبواه مشركين وهو مسلم فحكمه حكم المسلمين لا حكم المشركين ، فكذلك إذا كان يهودياً أو نصرانياً وآباؤه مشركين فحكمه حكم اليهود والنصارى . أما إذا تعلق عليه حكم المشركين مع كونه من اليهود والنصارى لأجل كونه آبائه قبل النسخ والتبديل كانوا مشركين فهذا خلاف الأصول .

(الوجه الرابع) : أن يقال قوله تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وقوله :﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ والأميينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ وأمثال ذلك إنما هو خطاب لهؤلاء الموجودين وإخبار عنهم ، المراد بالكتاب هو الكتاب الذي بأيديهم الذي جرى عليه من النسخ والتبديل ما جرى ، ليس المراد به من كان متمسكاً به قبل النسخ والتبديل ، فإن أولئك لم يكونوا كفارا ولا هم ممن خوطبوا بشرائع القرآن ، ولا قيل لهم في القرآن يا أهل الكتاب فإنهم قد ماتوا قبل نزول القرآن . وإذا كان كذلك فكل من تدين بهذا الكتاب الموجود عند أهل الكتاب فهو من أهل الكتاب وهم كفار تمسكوا بكتاب مبدل منسوخ وهم مخلدون في نار جهنم كما يخلد سائر أنواع الكفار . والله تعالى مع ذلك سوغ إقرارهم بالجزية وأحل طعامهم ونساءهم .

(الوجه الخامس) : أن يقال هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب بالقرآن هم كفار وإن كان أجدادهم كانوا مؤمنين وليس عذابهم في الآخرة بأخف من عذاب من كان أبوه من غير

أهل الكتاب ، بل وجود النسب الفاضل هو إلى تغليظ كفرهم أقرب منه إلى تخفيف كفرهم فمن كان أبوه مسلماً وارتد كان كفره أغلظ من كفر من أسلم هو ثم ارتدّ ، ولهذا تنازع الناس فيمن ولد على الفطرة إذا ارتدّ ثم عاد إلى الإسلام هل تقبل توبته ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . وإذا كان كذلك فمن كان أبوه من أهل الكتاب قبل النسخ والتبديل ثم إنه لما بعث الله عيسى ومحمداً صلى الله عليهما كفر بهما وبما جاءا به من عند الله واتبع الكتاب المبدل المنسوخ كان كفره من أغلظ الكفر ، ولم يكن كفره أخف من كفر من دخل بنفسه في هذا الدين المبدل ، ولاله بمجرد نسبه حرمة عند الله ولا عند رسوله ، ولا ينفعه دين آبائه إذا كان هو مخالفا لهم ، فإن آباءه كانوا إذ ذاك مسلمين ، فإن دين الله هو الإسلام في كل وقت ، فكل من آمن بكتب الله ورسله في كل زمان فهو مسلم ، ومن كفر بشيء من كتب الله فليس مسلماً في أي زمان كان .

وإذا لم يكن لأولاد بني إسرائيل إذا كفروا مزية على أمثالهم من الكفار الذين ماثلوهم في اتباع الدين المبدل المنسوخ، علم بذلك بطلان الفرق بين الطائفتين وإكرام هؤلاء بإقرارهم بالجزية وحل ذبائحهم ونسائهم دون هؤلاء وأنه فرق مخالف لأصول الإسلام وأنه لو كان الفرق بالعكس كان أولى ، ولهذا يوبخ الله بني اسرائيل على تكذيبهم بمحمد ﷺ ما لا يوبخه غيرهم من أهل الكتاب لأنه تعالى أنعم على أجدادهم نعماً عظيمة في الدين والدنيا فكفروا نعمته وكذبوا رسله وبدلوا كتابه وغيروا دينه فضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤ وا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

فهم مع شرف آبائهم وحق دين أجدادهم من أسوأ الكفار عند الله وهو أشد غضباً عليهم من غيرهم لأن في كفرهم من الاستكبار والحسد والمعاندة والقسوة وكتمان العلم ، وتحريف الكتاب وتبديل النص وغير ذلك ما ليس في كفر هؤلاء فكيف يجعل لهؤلاء الأرجاس الأنجاس الذين هم من أبغض الخلق إلى الله مزية على سائر إخوانهم الكفار ، مع أن كفرهم إما مماثل لكفر إخوانهم الكفار وإما أغلظ منه إذ لا يمكن أحدا أن يقول إن كفر الداخلين أغلظ من كفر هؤلاء مع تماثلهما في الدين بهذا الكتاب الموجود .

(الوجه السادس) : أن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب ؛ هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل ، فإن الله تعالى قال : ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾[1] وقال النبي ﷺ « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . الناس من آدم وآدم من تراب »[1] ، ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحدا بنسبه ولا يذم أحدا بنسبه ، وإنما يمدح الإيمان والتقوى ويذم بالكفر والفسوق والعصيان .

وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: «أربع من امر الجاهلية في أمتي لن يدعوهن ، الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم»[2] فجعل الفخر بالأحساب من أمول الجاهلية ، فإذا كان المسلم لا فخر له على المسلم بكون أجداده لهم حسب شريف ، فكيف يكون لكافر من أهل الكتاب فخر على كافر من أهل الكتاب بكون اجداده كانوا مؤمنين وإذا لم تكن مع التماثل في الدين [3] فضيلة لأجل النسب [3] ، علم أنه لأفضل لمن كان من اليهود والنصارى آباؤه مؤمنين متمسكين بالكتاب الأول قبل النسخ والتبديل على من كان أبوه داخلا فيه بعد النسخ والتبديل . وإذا تماثل دينهما تماثل حكمهما في الدين . والشريعة إنما علقت بالنسب أحكاما ، مثل كون الخلافة من قريش وكون ذوي القربى لهم الخمس ، وتحريم الصدقة على آل محمد ﷺ ونحو ذلك ، لأن النسب الفاضل مظنة أن يكون أهله أفضل من غيرهم ، كما قال النبي ﷺ « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »[4] والمظنة تعلق الحكم بما إذا خفيت الحقيقة أو انتشرت ، فأما إذا ظهر دين الرجل الذي به تتعلق الأحكام وعرف نوع دينه وقدره ، لم يتعلق بنسبه الأحكام الدينية ، ولهذا لم يكن لأبي لهب مزية على غيره . لما عرف كفره كان أحق بالذم من غيره ، ولهذا جعل لمن يأتي بفاحشة من أزواج النبي ﷺ ضعفين من العذاب ، كما جعل لمن يقنت منهن لله ورسوله أجرين من الثواب .

فذوو الأنساب الفاضلة إذا أساؤوا كانت إساءتهم أغلظ من إساءة غيرهم ، وعقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم فكفر من كفر من بني إسرائيل إن لم يكن أشد من كفر غيرهم وعقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم فلا أقل من المساواة بينهم ، ولهذا لم يقل أحد من العلماء أن من كفر وفسق من قريش والعرب تخفف عنه العقوبة في الدنيا أو في الآخرة بل إما أن تكون عقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم في أشهر القولين ، أو تكون عقوبتهم أغلظ في القول الآخر ، لأن من أكرمه بنعمته ورفع قدره إذا قابل حقوقه بالمعاصي وقابل نعمه بالكفر ، كان أحق بالعقوبة ممن لم ينعم عليه كما أنعم عليه .

---

(١) جزء من خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع وانظر ابن حنبل ٤١١/٥ .

(٢) ورد الحديث في مسلم (كتاب الجنائز) ، وذكره ابن حنبل في ٤١١/٥ .

(٣ - ٣) جاءت هذه الجملة في الأصل هكذا : فضيلة لأجل على الآخرين في الدين لأجل النسب .

(٤) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الأنبياء ، والمناقب) وفي مسلم (كتاب الفضائل) ، وفي ابن حنبل ١٠١/٤ .

(الوجه السابع) : أن يقال أصحاب رسول الله ﷺ لما فتحوا الشام والعراق ومصر وخراسان وغيرهم كانوا يأكلون ذبائحهم ، لا يميزون بين طائفة وطائفة ، ولم يعرف عن أحد من الصحابة الفرق بينهم بالأنساب ، وإنما تنازعوا في بني تغلب خاصة لأمر يختص بهم كما أن عمر ضعف عليهم الزكاة وجعل جزيتهم مخالفة لجزية غيرهم ولم يلحق بهم سائر العرب ، وإنما ألحق بهم من كان بمنزلتهم .

(الوجه الثامن) : أن يقال هذا القول مستلزم أن لا يحل لنا طعام جمهور من أهل الكتاب لأنا لا نعرف نسب كثير منهم ولا نعلم قبل أيام الإسلام أن أجداده كانوا يهودا أو نصارى قبل النسخ والتبديل ، ومن المعلوم أن حل ذبائحهم ونسائهم ثبت بالكتاب والسنة والإجماع ، فإذا كان هذا القول مستلزماً رفع ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع علم أنه باطل .

(الوجه التاسع) : أن يقال ما زال المسلمون في كل عصر ومصر يأكلون ذبائحهم فمن أنكر ذلك فقد خالف إجماع المسلمين وهذه الوجوه كلها لبيان رجحان القول بالتحليل وأنه مقتضى الدليل فأما أن مثل هذه المسألة أو نحوها من مسائل الاجتهاد يجوز لمن تمسك فيها بأحد القولين أن ينكر على الأخر بغير حجة ودليل فهذا خلاف إجماع المسلمين ، فقد تنازع المسلمون في جبن المجوس والمشركين وليس لمن رجح أحد القولين أن ينكر على صاحب القول الآخر إلا بحجة شرعية .

وكذلك تنازعوا في متروك التسمية وفي ذبائح أهل الكتاب إذا سموا عليها غير الله وفي شحم الثرب والكليتين وذبحهم لذوات الظفر كالإبل والبط ونحو ذلك مما حرمه الله عليهم ، وتنازعوا في ذبح الكتابي للضحايا ونحو ذلك من المسائل ، وقد قال بكل قول طائفة من أهل العلم المشهورين . فمن صار إلى قول مقلد لقائله لم يكن له أن ينكر على من صار إلى القول الآخر مقلداً لقائله، لكن إن كان مع أحدهما حجة شرعية وجب الانقياد للحجج الشرعية إذا ظهرت .

ولا يجوز لأحد أن يرجح قولاً على قول بغير دليل ، ولا يتعصب لقول على قول ولا لقائل على قائل بغير حجة ، بل من كان مقلداً لزم حل التقليد فلم يرجح ولم يزيف ولم يصوب ولم يخطىء ، ومن كان عنده من العلم والبيان ما يقوله سمع ذلك منه فقبل ما تبين أنه حق ، ورد ما تبين أنه باطل ووقف ما لم يتبين فيه أحد الأمرين . والله تعالى قد فاوت بين الناس في قوى الأذهان كما فاوت بينهم في قوى الأبدان .

وهذه المسألة ونحوها فيها من أغوار الفقه وحقائقه ما لا يعرفه إلا من عرف أقاويل العلماء ومآخذهم . فأما من لم يعرف إلا قول عالم واحد وحجته دون قول العالم الآخر وحجته فإنه من العوام المقلدين لا من العلماء الذين يرجحون ويزيفون . والله تعالى يهدينا وإخواننا لما

يحبه ويرضاه وبالله التوفيق والله أعلم .

فصـــل(*)

قوله تعالى : ﴿وامْسَحوا بِرؤ وسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَيْنِ﴾[1] .

فيه قراءتان مشهورتان : النصب والخفض .

فمن قرأ بالنصب فإنه معطوف على الوجه واليـدين ، والمعنى فاغسلوا وجـوهكم وأيديكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وامسحوا برؤ وسكم .

ومن قرأ بالخفض فليس معناه وامسحوا أرجلكم كما يظنه بعض الناس لأوجه :

(أحدها) : أن الذين قرؤ وا ذلك من السلف قالوا عاد الأمر إلى الغسل .

(الثاني) : أنه لو كان عطفا على الرؤ وس لكان المأمور به مسـح الأرجل لا المسـح بها ، والله إنمـا أمر في الـوضوء والتيمم بـالمسح بـالعضو لا مسـح العضو فقـال تعـالى : ﴿ وامسحوا بـرؤ وسكم﴾ وقال : ﴿فَتَيَمَّمُـوا صَعيداً طَيِّبـاً فامْسَحـوا بِوُجـوهِكُمْ وأَيْدِيكُمْ مِنْـهُ﴾[2] ولم يقرأ القراء المعروفون في آية التيمم وأيديكم بالنصب كما قرؤ وا في آية الوضوء . فلو كان عطفا لكان المـوضعان سـواء . وذلك أن قولـه ﴿ وامسحـوا برؤ وسكم ﴾ وقـولـه : ﴿ فامسحوا بـوجـوهكم وأيديكم﴾ يقتضى إلصاق الممسوح ، لأن الباء للإلصاق وهذا يقتضى إيصال الماء والصعيد إلى أعضاء الطهـارة ، وإذا قيل امسـح رأسك ورجلك ، لم يقتض إيصـال الماء إلى العضـو ، وهذا يبين أن الباء حرف جاء لمعنى ، لا زائدة كما يظنه بعض الناس ، وهذا خلاف قوله :

معاوى إننا بشر فأسجح[3] فلسنا بالجبال ولا الحديدا فإن الباء هنا مؤكدة ، فلو حـذفت لم يختل المعنى ، والباء في آية الطهارة إذا حذفت اختل المعنى فلم يجز أن يكون العطف على محل المجرور بها بل على لفظ المجرور بها أو (على) ما قبله .

(الثالث) : أنه لو كان عـطفا عـلى المحل لقـرىء في آية التيمم (فـامسحوا بـوجوهكم وامسحوا أيديكم) فكان في الآية ما يبين فساد مذهب الشارح بأنـه قد دلت عليـه ﴿فامسحـوا

(*) انظر الفتاوى الكبرى ٢ /٢٧٣ ط القاهرة .

(١) سورة المائدة الآية ٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦ .

(٣) في القاموس : الإسجاح (بالمعجمة ثم المهملة) حسن العفو .

بوجوهكم وأيديكم منه﴾ بالنصب لأن اللفظين سواء ، فلما اتفقوا على الجر في آية التيمم مع إمكان العطف على المحل لو كان صوابا علم أن العطف على اللفظ ، ولم يكن في آية التيمم منصوب معطوف على اللفظ كما في آية الوضوء .

(الرابع) : أنه قال ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ولم يقل إلى الكعاب ، فلو قدر أن العطف على المحل كالقول الآخر ، وأن التقدير أن في كل رجلين كعبين وفي كل رجل كعب واحد ، لقيل إلى الكعاب كما قيل إلى المرافق ، لما كان في كل يد مرفق ، وحينئذ فالكعبان هما العظمان الناتئان في جانبي الساق ، ليس هو معقد الشراك مجمع الساق والقدم ، كما يقوله من يرى المسح على الرجلين ، فإذا كان الله تبارك وتعالى إنما أمر بطهارة الرجلين إلى الكعبين الناتئين ، والماسح يمسح إلى مجمع القدم والساق علم أنه مخالف القرآن .

(الوجه الخامس) : أن القراءتين كالآيتين ، والترتيب في الوضوء إما واجب وإما مستحب مؤكد الاستحباب ، فإذا فصل ممسوح بين مغسولين ، وقطع النظير عن النظير ، دل ذلك على الترتيب المشروع في الوضوء .

(الوجه السادس) : أن السنة تفسر القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، وهي قد جاءت بالغسل .

(الوجه السابع) : أن التيمم جعل بدلا عن الوضوء عند الحاجة ، فحذف شطر أعضاء الوضوء ، وخف الشطر الثاني ، وذلك فإنه حذف ما كان ممسوحاً ومسح ما كان مغسولا .

وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ (وأرجلكم) بالخفض فهي لا تخالف السنة المتواترة ، إذ القراءتان كالآيتين ، والسنة الثابتة لا تخالف كتاب الله بل توافقه وتصدقه ، ولكن تفسره وتبينه لمن قصر فهمه عن فهم القرآن فإن القرآن فيه دلالات خفية تخفى على كثير من الناس ، وفيه مواضع ذكرت مجملة تفسرها السنة وتبينها .

والمسح اسم جنس يدل على إلصاق الممسوح به بالممسوح ، ولا يدل على لفظه وجريانه لا بنفي ولا إثبات ، قال أبو زيد الأنصاري وغيره : العرب تقول : تمسحت للصلاة ، فتسمى الوضوء كله مسحا ، ولكن من عادة العرب وغيرهم إذا كان الاسم عاما تحته نوعان ، خصوا أحد نوعيه باسم خاص ، وأبقوا الاسم العام للنوع الآخر ، كما في لفظة الدابة فإنه عام للإنسان وغيره من الدواب لكن للإنسان اسم يخصه فصاروا يطلقونه على غيره .

وكذلك لفظ الحيوان ولفظ ذوي الأرحام ، يتناول لكل ذي رحم . لكن للوارث بفرض أو تعصيب اسم يخصه .

وكذلك لفظ المؤمن يتناول من آمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله ، ومن آمن بالجبت

والطاغوت ، فصار لهذا النوع اسم يخصه وهـو الكافـر . وأبقي اسم الإيمان مختصاً بالأول ، وكذلك لفظ البشارة ونظائر ذلك كثيرة .

ثم إنه مع القرينة تارة ، ومع الإطلاق أخرى ، يستعمل اللفظ العام في معنيـين ، كما إذا أوصى لذوي رحمه ، فإنه يتناول أقاربه من مثل الرجال والنسـاء فقولـه تعالى في آيـة الوضـوء : ﴿وامسحوا برؤ وسكم وأرجلكم﴾ يقتضي إيجـاب مسمى المسح بينهـما ، وكل واحـد من المسح الخاص الخالي عن الإسـالة ، والمسـح الذي معـه إسالـة يسمى مسحاً ، فـاقتضت الآية القـدر المشترك في الموضعين ، ولم يكن في لفظ الآية مـا يمنع كـون الرجـل يكون المسـح بها هـو المسح الذي معه إسالة ، ودل على ذلك قوله : ﴿إلى الكعبين﴾ فأمر بمسحهما إلى الكعبين .

وأيضاً فإن المسح الخاص هو إسالة الماء مع الغسل ، فهما نوعان : المسح العام الذي هـو إيصـال الماء ، ومن لغتهم في مثـل ذلك أن يكتفى بـأحد اللفـظين كقولهم : علفتهـا تبنا ومـاء باردا ، ـ والماء سقي لا علف ـ وقوله :

ورأيـت زوجـكِ في الـوغـى متـقـلدا سـيـفـا ورمحـا

والرمح لا يتقلد ، ومنه قولـه تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِـأكوابٍ وأبـاريقَ وكـأسٍ﴾[1] إلى قولـه : ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ فكـذلك اكتفى بـذكر احـد اللفظين وإن كـان مراده الغسل ، ودل عليه قوله : ﴿إلى الكعبين﴾ والقراءة الأخرى مع السنة المتواترة .

ومن يقول يمسحان بلا إسالة يمسحهما إلى الكعـاب لا إلى الكعبين ، فهـو مخالف لكـل واحدة من القراءتين ، كما أنه مخالف للسنة المتواترة ، وليس معه لا ظـاهر ولا بـاطن ، ولا سنة معروفة ، وإنما هو غلط في فهم القرآن وجهل بمعناه وبالسنة المتواترة .

وذكر المسح بالرجل مما يشعر بأن الرجل يمسح بها بخلاف الوجه واليد فـإنه لا يمسـح بهما بحال ، ولهذا جاء في المسح على الخفين اللذين على الرجلين مـا لم يجيء مثله في الوجـه واليد ، ولكن دلت السنة مع دلالة القرآن على المسح بالرجلين .

ومن مسح على الرجلين فهو مبتـدع مخالف للسنـة المتواتـرة وللقرآن ، ولا يجـوز لأحد أن يعمل بذلك مع إمكان الغسل ، والرجل إذا كانت ظاهرة وجب غسلها وأذا كانت في الخف كان حكمها مما بينته السنة كما في آية الفرائض ، فإن السنة بينت حال الوارث إذا كان عبداً أو كافراً أو قاتلاً ونظائره متعددة والله سبحانه أعلم .

---

(١) سورة الواقعة الآيات (١٧ ـ ١٨) .

فصــل (*)
(في مجادلة أهل الكتاب في أمر المسيح)

قال شيخ الإسلام :

قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالوا إنّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ ، قُـلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْـاً إنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ المسيحَ بنَ مَـرْيَمَ وَأُمَّـهُ وَمَنَّ في الأرضِ جَمِيعـاً﴾[1] . وقـال تعالى أيضاً : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالوا إنّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ بنُ مَرْيَمَ وَقالَ المسيحُ يا بَنِي إسْرائيلَ اعْبُدوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُم إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ باللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجنَّةَ وَمَـأْواهُ النَّارُ وَمَـا لِلظالِمينَ مِنْ أَنْصارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالوا إنّ الله ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إله إلا إلهٌ واحدٌ، وإن لَمْ يَنْتَهُوا عَمّا يَقُولونَ لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفَروا مِنْهُمْ عَذابٌ أليمٌ * أَفَلا يَتوبونَ إلى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرونَهُ وَاللَّهُ غفـورٌ رَحيمٌ * ما المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلا رَسولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُـلُ وَأُمُّهُ صِـدِّيقَةٌ كـانا يَـأْكُلانِ الـطَّعامَ انْـظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ثُمَّ انْـظُرْ أَنّى يُؤْفَكُونَ * قُـلْ أَتَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللَّهِ مَـالا يَمْلِكُ لَكَمْ ضَرّا وَلا نَفْعاً واللَّهُ هُوَ السّمِيعُ العَلِيمُ * قُلْ يا أَهْلَ الكِتابَ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ولا تَتَّبِعُـوا أَهْواءَ قَـومٍ قَدْ ضَلّوا مِنْ قَبْـلُ وَأَضَلّوا كثيراً وَضَلّوا عَنْ سَـواءِ السَّبِيلِ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ وَلا تَقولوا على اللَّهِ إلا الحَقَّ إنّما المسيـحُ عيسى بنُ مَرْيَم رسولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُـهُ أَلقاهـا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـهُ فَآمِنـوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقـولوا ثَلاثَةٌ انْتَهوُا خيراً لَكُمْ ، إنّما اللَّهُ إلهٌ وَاحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما في السّمواتِ وما في الأرضِ وَكَفَى بـاللَّهِ وكِيـلاً * لَـنْ يَسْتَـنْكِـفَ الـمَسيـحُ أَنْ يَكـونَ عَـبْـداً لـلَّهِ ولا المـلائكَةُ المُقـرّبونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبـادَتِهِ وَيَسْتَكْبِـرْ فَسَيَحْشُـرُهُمْ إليـهِ جَميعـاً * فـأمّـا الذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصّالحاتِ فَيُـوفّيهِمْ أُجورَهُمْ وَيَـزيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وأَمّـا الذينَ اسْتَنْكَفـوا واسْتَكْبَروا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَليماً ، وَلا يَجِدونَ لَهُمْ مِنْ دونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً * يا أَيُّها النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُـرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْـزَلْنا إليكم نُـوراً مُبيناً * فـأمّا الـذينَ آمَنوا بـاللَّهِ واعْتَصَموا بِـهِ فَسَيُدْخُلُهُمْ في رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾[3] .

(*) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح الجزء الثاني .

(١) سورة المائدة الآية ١٧ .

(٢) سورة المائدة الآيات (٧٥ ـ ٧٧) .

(٣) سورة النساء الآيات (١٧١ ـ ١٧٥) .

وقال تعالى : ﴿وَقالَتِ الْيَهودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ، وَقالَتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ اللَّهِ ذلكَ قَوْلُهُمْ بأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤونَ قَوْلَ الذينَ كَفَروا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنّى يُؤْفَكونَ * اتَّخَذوا أَحبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دونِ اللَّهِ والمسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَما أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلاّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكونَ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذوني وَأُمّي إلهينِ مِنْ دونِ اللَّهِ ؟ قالَ : سُبْحانَكَ . ما يَكونُ لي أنْ أقولَ ما لَيْسَ لي بِحَقٍّ . إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ ، إنَّكَ أَنْتَ عَلاّمُ الغُيوبِ * ما قُلْتُ لَهُمْ إلاّ ما أَمَرْتَني بِهِ أنِ اعْبُدوا اللَّهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فلمّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2] ، فقد قال تعالى : ﴿لَقَدْ كفرَ الذينَ قالوا : إنَّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ بنُ مَرْيَمَ﴾ في موضعين .

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالوا : إنّ اللَّهَ ثالثُ ثلاثةٍ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ولا تَقولوا ثلاثةٌ انْتَهوا خَيْراً لَكُمْ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَقالَتِ النَّصارى : المسيحُ ابنُ اللَّهِ﴾ .

فذكر الله عنهم هذه الأقوال الثلاثة ، والنصارى قالت الأقوال الثلاثة ، لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة[3] منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وقولهم : ثالث ثلاثة قول النسطورية . وقولهم : أنه ابن الله قول الملكانية . ومنهم من يقول : قوله : أن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية ؛ وقولهم والابن وروح القدس .

وظن ابن جرير الطبري أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبية والنسطورية والملكية ، كما ذكره طائفة من المفسرين ، كابن جرير الطبري والثعلبي وغيرهما ثم تارة يحكون عن اليعقوبية : أن عيسى هو الله ، وعن النسطورية : أنه ابن الله ، وعن المريوسية : أنه ثالث ثلاثة ، وتارة يحكون عن النسطورية : أنه ثالث ثلاثة ، وعن الملكية : أنه الله ، ويفسرون قولهم : ثالث ثلاثة بالأب والأبن ، وروح القدس[4] .

---

(١) سورة التوبة الآيات (٣٠ ـ ٣١) .

(٢) سورة المائدة الآيات (١١٦ ـ ١١٧) .

(٣) انظر في موقف هذه الفرق بالتفصيل دقائق التفسير ٢/٩٤ ـ ٩٦ .

(٤) هذا جزء من نص الأمانة التي وضعها النصارى كأساس لاعتقادهم في أمر المسيح وحقيقته . انظر نص الامانة كاملة في : دقائق التفسير ٢

والصواب : أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة : الملكية ، واليعقوبية والنسطورية ، فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، فتقول : إن الله ثالث ثلاثة ، وتقول عن المسيح : إنه الله ، وتقول : إنه ابن الله ، وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة ، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك ، وهو قولهم : نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق من إله حق مولود غير مخلوق[1] .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ . وقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ .

فقد فسروه بالتثليث المشهور عنهم ، المذكور في أمانتهم ، ومن الناس من يقول : إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية ، وقولهم : ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالأب والابن ، وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة ، وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب ، وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من دون الله .

قال السدي في قوله تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قال : قالت النصارى : إن الله هو المسيح وأمه . فذلك قوله : ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ .

وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبي صخر . قال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) :

قال : هو قول اليهود عزير ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وهذا ضعيف ، وقد ذكر سعيد بن البطريق في أخبار النصارى أن منهم طائفة ـ يقال لهم المرسية ـ يقولون : إن مريم إله وإن عيسى إله ، فقد يقال : إن هذا قول هؤلاء ، كما أن القول : بأن عزيرا ابن الله ، قول طائفة من اليهود .

وأما الأول فمتوجه ، فإن النصارى المتفقين على الأمانة ، كلهم يقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك ، فقال تعالى : ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم﴾[1] .

---

(١) سورة النساء الآية ١٧١ .

فذكر سبحانه في هذه الآية التثليث والاتحاد ونهاهم عنهما ، وبين أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . وقال : ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ ثم قال : ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم﴾ ، ولم يذكر هنا أمه . وقوله تعالى : ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ قال معمر عن قتادة : وكلمته ألقاها إلى مريم وهو قوله : كن فكان ، وكذلك قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، وكذلك قال الإمام أحمد بن حنبل في مصنفه الذي صنفه في كتبه في الرد على الجهمية ، وذكره عنه الخلال والقاضي أبو يعلى . قال أحمد : ثم إن الجهم ادعى أمراً آخر فقال : إنا وجدنا في كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق . قلنا : أي آية ؟

قال : قول الله : ﴿إِنّما المسيحُ عيسى بنُ مَرْيَمَ رسولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ﴾(١) .

فقلنا : إن الله منعكم الفهم في القرآن ، عيسى عليه السلام تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن ؛ لأن عيسى يجري عليه نسمة ومولود وطفل وصبي وغلام يأكل ويشرب وهو يخاطب بالأمر والنهي ، يجري عليه الوعد الوعيد ، هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم ، ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى . هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قول عيسى ؟ ولكن المعنى في قوله جل ثناؤه : ﴿انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ ، فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له : كن . فكان عيسى بـ«كن»، وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان (عيسى) ، فالكن من الله قوله : وليس الكن مخلوقا ، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ؛ لأن الكلمة مخلوقة .

قالت النصارى : روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب . وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة .

قال أحمد : وأما قوله جل ثناءه ﴿وروح منه﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما في السّمواتِ وما في الأرضِ جَميعاً مِنْهُ﴾(٢) ، يقول من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقها الله ، كما يقول : عبد الله وسماء الله ، وفي نسخة روح يملكها الله خلقها الله .

وقال الشعبي في قوله تعالى : ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ الكلمة حين قال له : كن

---

(١) سورة النساء الآية ١٧١ .

(٢) سورة الجاثية الآية ١٣ .

فكان عيسى بـ « كن » وليس عيسى هو الكن ولكن بالكن كان . وقال الليث عن مجاهد : وروح منه . قال : رسول منه يريد مجاهد قوله : ﴿فَأَرْسَلْنا إلَيْها رُوحَنا فتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً * قالَتْ إني أعوذُ بالرحمنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً * قالَ إنّما أنا رسولُ رَبِّكِ﴾[1] .

والمعنى أن عيسى خلق من هذه الروح وهو جبريل روح القدس ـ سمي روحاً كما سمي كلمة ؛ لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون في أمانتهم : تجسد من مريم ومن روح القدس ؛ لأنه جاء كذلك في الكتب المتقدمة ، لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة الله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب ، وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئاً من صفاته روح القدس ، بل روح القدس في غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء ، كالوحي ، والهدى ، والتأييد ، ويراد بها الملك ، وهكذا في تفسير ابن السائب عن أبي صالح عن بن عباس : أن عيسى بن مريم استقبل رهطا من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع عيسى ذلك قال : (اللهم أنت ربي ، وأنا من روحك خرجت ، وبكلمتك خلقتني ، ولم أتهم من تلقاء نفسي) . وذكر تمام الحديث .

وقد قال تعالى : ﴿والّتي أحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وابْنَها آيَةً لِلعالمينَ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ بنةَ عِمْرانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيهِ مِنْ رُوحِنا﴾[3] .

فهذا يوافق قوله تعالى : ﴿فأَرْسَلْنا إليها رُوحَنا فتَمَثَّلَ لهَا بَشَراً سَوِيّاً * قالَتْ : إني أعوذُ بالرحمنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً * قالَ : إنما أنا رسولُ رَبِّكِ﴾[4] وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنهم سواء صدقوا محمداً أو كذبوه ، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين ، فإنه إن كان نبياً صادقاً ، فقد بلغ عن الله في هذا الكتاب كفر النصارى في غير موضع ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأمر بجهادهم ، فمن علم أنه نبي ولو إلى طائفة معينة ، فيجب تصديقه في كل ما أخبر به ، وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم ، فإذا ثبت هذا لم يغن

---

(١) سورة مريم الآيات (١٧ ـ ١٩) .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩١ .

(٣) سورة التحريم الآية ١٢ .

(٤) سورة مريم الآيات (١٧ ـ ١٩) .

عنهم الاحتجاج بشيء من الكتب (ولا الاحتجاج بشي من)[1] المعقول ، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل ، وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل ، لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقاً ، كما أن المسيح عليه السلام لما حكم بكفر من كذبه من اليهود ، كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلا ، فكل ما عارض قول النبي ﷺ المعصوم فهو باطل ، وإن كذبوا محمداً تكذيباً عاماً مطلقاً وقالوا : ليس هو نبي أصلا ، ولا أرسل إلى أحد لا إلى العرب ولا إلى غيرهم ، بل كان من الكذابين ، امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره ، فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأولى[2] ، فإذا قالوا : علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا . قيل لهم : معجزات محمد ﷺ أعظم ، وتواترها أبلغ ، والكتاب الذي جاء به محمد ﷺ أكمل ، وأمته أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل ، وهو ﷺ قد جمع في شريعته بين العدل والفضل ، فإن ساغ لقائل أن يقول : هو مع هذا كاذب مفتر ، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك ، فيبطل بتكذيبهم محمداً ﷺ جميع ما معهم من النبوات إذ حكم[3] أحد الشيئين حكم مثله ، فكيف بما هو أولى منه ؟ فلو قال قائل : إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبياً . أو أن داود وسليمان ويوشع ويحيى كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبياً . أو قال ما يقوله السامرة : إن يوشع كان نبياً ومن بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء . أو قال ما يقوله اليهود : إن داود وسليمان وشيعا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، والمسيح بن مريم لم يكن نبياً ، كان هذا قولا متناقضاً معلوم البطلان ، فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له . ودلائل نبوة الأكمل أفضل ، فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل ؟ وصار هذا كما لو قال قائل : إن زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء ، وأبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء ، أو قال : إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة ، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة . أو قال : إن صاحب الملكي والمسيحي ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء ، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء . أو قال : إن كوشيار والخرقى ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة ، وبطليموس ونحوه لم يكن له علم بالهيئة .

ومن قال : إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، ومحمد بن عبد الله لم يكن نبياً . فتناقضه أظهر ، وفساد قوله أبين من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال : إن

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس بالأصل .

(٢) في الأصل : بطريق الأرض وهو خطأ واضح .

(٣) في الأصل : إذا حكم .

موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ، ومحمداً ليس برسول ، والقرآن لم ينزل من الله . فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد ﷺ ، وما جاء به من قبله ، وتدبر كتابه والكتب التي قبله ، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء ، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء ، وهذه الجملة مفصلة مشروحة في غير هذا الموضع(١) ، لكن المقصود هنا : التنبيه على مجامع جوابهم ، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء ، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم ، ولا حجة لهم أيضا على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء ، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم . وأيضاً فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم ، فكذلك تعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى ، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد في كلمة مما جاء به .

فصل(*)
في عقوبة المحاربين ، وقطاع الطريق)

قال الله تعالى فيهم : ﴿إِنَّما جَزاءُ الَّذينَ يُحَارِبونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ، ذلكَ لَهُمْ خِزيٌ في الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾(٢) . وقد روى الشافعي رحمه الله في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه في قطاع الطريق :

إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا .

وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا .

وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف .

وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض . وهذا قول كثير من أهل العلم

(١) انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب : تفسير سورة آل عمران .

(*) انظر السياسة الشرعية .

(٢) سورة المائدة الآية ٣٣ .

كالشافعي وأحمد ، وهو قريب من قول أبي حنيفة رحمه الله .

ومنهم من قال : للإمام أن يجتهد فيهم فيقتل من رأى قتله مصلحة وإن كان لم يقتل ، مثل أن يكون رئيساً مطاعاً فيهم . ويقطع من رأى قطعه مصلحة وإن كان لم يأخذ المال ، مثل أن يكون ذا جلد وقوة في أخذ المال . كما أن منهم من يرى أنه إذا أخذوا المال قتلوا وقطعوا وصلبوا ، والأول قول الأكثر ، فمن كان من المحاربين قد قتل ، فإنه يقتله الإمام حدّا لا يجوز العفو عنه بحال بإجماع العلماء ذكره ابن المنذر ، ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول ، بخلاف ما لو قتل رجلا لعداوة بينهما أو خصومة أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة ، فإن هذا دمه لأولياء المقتول : إن أحبوا قتلوا ؛ وإن أحبوا عفوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية ، لأنه قتله لغرض خاص .

وأما المحاربون فإنما يقتلون لأخذ أموال الناس ، فضررهم عام بمنزلة السراق فكان قتلهم حدا لله . وهذا متفق عليه بين الفقهاء ، حتى لو كان المقتول غير مكافئ للقاتل ، مثل أن يكون القاتل حرّا والمقتول عبدا ، أو القاتل مسلماً والمقتول ذمّيّا أو مستأمنا ، فقد اختلف الفقهاء : هل يقتل في المحاربة ؟ والأقوى أنه يقتل ؛ لأنه قتل للفساد العام حدّا ، كما يقطع إذا أخذ أموالهم ، وكما يحبس بحقوقهم .

وإذ كان المحاربون الحرامية جماعة فالواحد منهم باشر القتل بنفسه والباقون له أعوان ورِدء[1] له فقد قيل : إنه يقتل المباشر فقط ، والجمهور على أن الجميع يقتلون ، ولو كانوا مائة . وأن الردء والمباشر سواء ، وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل ربيئة المحاربين . والربيئة هو الناظر ، الذي يجلس على مكان عال ينظر منه لهم من يجيء . ولأن المباشر إنما يمكن من قتله بقوة الردء ومعونته . والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض حتى صاروا ممتنعين فهم مشتركون في الثواب والعقاب كالمجاهدين فإن النبي ﷺ قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، ويرد متسريهم على قعدهم »[2] . يعني أن جيش المسلمين إذا تسرت منه سرية

---

(١) الردء : هو العون للفرد . قال تعالى : ﴿وأخي هرون هو افصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني﴾ أي معيناً ومساعداً .

(٢) انظر تحقيق هذا الحديث في الجزء الأول من (دقائق التفسير) .

فغنمت مالاً فإن الجيش يشاركها فيما غنمت ، لأنها بظهره وقوته تمكنت . ولكن تنفل عنه نفلا ، فإن النبي ﷺ كان ينفل السرية[1] إذا كانوا في بدايتهم الربع بعد الخمس ، فإذا رجعوا إلى أوطانهم وتسرت سرية نفلهم الثلث بعد الخمس ، وكذلك لو غنم الجيش غنيمة شاركته السرية ، لأنها في مصلحة الجيش ، كما قسم النبي ﷺ لطلحة والزبير يوم بدر ، لأنه كان قد بعثهما في مصلحة الجيش . فأعوان الطائفة الممتنعة وأنصارها منها فيما لهم وعليهم ، وهكذا المقتتلون على باطل لا تأويل فيه ، مثل المقتتلين على عصبية ودعوى جاهلية كقيس ويمن نحوهما ظالمتان ، كما قال النبي ﷺ « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : أراد قتل صاحبه » أخرجاه في الصحيحين[2] ، وتضمن كل طائفة ما أتلفته الأخرى من نفس ومال ، وإن لم يعرف عين القاتل ؛ لأن الطائفة الواحدة الممتنع بعضها ببعض كالشخص الواحد .

وأما اذا أخذوا المال فقط ولم يقتلوا ـ كما قد يفعله الأعراب كثيرا ـ فإنه يقطع من كل واحد يده اليمنى ورجله اليسرى عند أكثر العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم ، وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم﴾ تقطع اليد التي يبطش بها والرجل التي يمشي عليها ، وتحسم يده ورجله بالزيت المغلي ونحوه لينحسم الدم فلا يخرج فيفضي إلى تلفه . وكذلك تحسم يد السارق بالزيت . وهذا الفعل قد يكون أزجر من القتل ، فإن الأعراب وفسقة الجند وغيرهم إذا رأوا دائما من هو بينهم مقطوع اليد والرجل ذكروا بذلك جرمه فارتدعوا ، بخلاف القتل فإنه قد ينسى ، وقد يؤثر بعض النفوس الأبية قتله على قطع يده ورجله من خلاف ، فيكون هذا أشد تنكيلا له ولأمثاله .

وأما إذا شهروا السلاح ولم يقتلوا نفساً ، ولم يأخذوا مالا ثم أغمدوه ، أو هربوا ، أو تركوا الحراب فإنهم ينفون ، فقيل : نفيهم تشريدهم فلا يتركون يأوون في بلد . وقيل : هو حبسهم ، وقيل : هو ما يراه الإمام أصلح : من نفي أو حبس أو نحو ذلك .

والقتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه ، لأن ذلك أوحى[3] أنواع القتل .

---

(١) ينفل السرية بمعنى يعطيها من النافلة اي الغنيمة التي حصل عليها من الحرب .

(٢) انظر هذا الحديث في الجزء الأول

(٣) اوحى بمعنى اسرع انواع القتل .

وكذلك شرع الله قتل ما يباح قتله من الآدميين والبهائم إذا قدر عليه على هذا الوجه . وقال النبي ﷺ « إن الله كتب الإحسان على كل شيء : فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، وَلْيُرِحْ ذبيحته »[(1)] وقال « إن أعفّ الناس قتلة أهل الإيمان » .

وأما الصلب المذكور فهو رفعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشتهر أمرهم ، وهو بعد القتل عند جمهور العلماء ، ومنهم من قال : يصلبون ثم يقتلون ، وهم مصلبون . وقد جوز بعض العلماء قتلهم بغير السيف ، حتى قال : يتركون على المكان العالي ، حتى يموتوا حتف أنوفهم بلا قتل .

فأما التمثيل في القتل فلا يجوز إلا على وجه القصاص ، وقد قال عمران بن حصين رضي الله عنهما « ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة حتى الكفار إذا قتلناهم فإنا لا نمثل بهم بعد القتل ولا نجدع آذانهم وأنوفهم ، ولا نبقر بطونهم ، إلا أن يكونوا فعلوا ذلك بنا ، فنفعل بهم ما فعلوا . والترك أفضل كما قال الله تعالى : ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله﴾[(2)] قيل : إنها نزلت لما مثل المشركون بحمزة وغيره من شهداء أحد رضي الله عنهم ، فقال النبي ﷺ « لئن أظفرني الله بهم لامثلن بضعفي ما مثلوا بنا » فأنزل الله هذه الآية[(3)] ، وإن كانت قد نزلت قبل ذلك بمكة مثل قوله : ﴿وَيَسألونَكَ عَنِ الرُوحِ ، قُلِ الرُوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي﴾[(4)] وقوله : ﴿وَأَقِمِ الصّلاةَ طَرَفَيْ النّهارِ وَزُلَفاً مِنَ الليلِ ، إنّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السّيِّئاتِ﴾[(5)] . وغير ذلك من الآيات التي نزلت بمكة ثم جرى بالمدينة سبب يقتضي الخطاب ، فأنزلت مرة ثانية . فقال النبي ﷺ : « بل نصبر » .

وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الخصيب رضي الله عنه قال « كان النبي ﷺ إذا بعث

---

(١) ورد الحديث في سنن أبي داود (كتاب الأضاحي) وفي الترمذي (كتاب الديات) والنسائي (كتاب الضحايا) وابن ماجه (كتاب الذبائح) والدارمي (كتاب الأضاحي) وفي ابن حنبل ١/٣٣٤ .

(٢) سورة النحل الآيات (١٢٦ - ١٢٧) .

(٣) روى الواحدي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما أشرف على حمزة فرآه صريعا فلم ير شيئا أوجع لقلبه منه وقال : والله لأقتلنّ منهم سبعين رجلا فنزلت الآية الشريفة وانظر ما رواه ابن عباس في سبب نزول هذه الآية في أسباب النزول للنيسابوري ١٦٣ - ١٦٥ ، ولباب النقول للسيوطي : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٥) سورة هود الآية ١١٤ .

أميراً على سرية أو جيش ، أو في حاجة نفسه ، أوصاهم بتقوى الله تعالى ، وبمن معه من المسلمين خيرا . ثم يقول « اغزوا بسم الله وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » .

ولو شهروا السلاح في البنيان لا في الصحراء لأخذ المال فقد قيل : إنهم ليسوا محاربين ، بل هم بمنزلة المختلس والمنتهب ، لأن المطلوب يدركه الغوث إذا استغاث بالناس .

وقال أكثرهم : إن حكمهم في البنيان والصحراء واحد ، وهذا قول مالك في المشهور عنه والشافعي وأكثر أصحاب أحمد وبعض أصحاب أبي حنيفة ، بل هم في البنيان أحق بالعقوبة منهم في الصحراء ، لأن البنيان محل الأمن والطمأنينة ، ولأنه محل تناصر الناس وتعاونهم ، فإقدامهم عليه يقتضي شدة المحاربة والمغالبة ، ولأنهم يسلبون الرجل في داره جميع ماله ، والمسافر لا يكون معه غالبا إلا بعض ماله .وهذا الصواب لا سيما هؤلاء المحترفون(١) الذين تسميهم العامة في الشام ومصر المنسر ، وكانوا يسمون ببغداد « العيارين » .

ولو حاربوا بالعصي والحجارة والمقذوفة بالأيدي ، أو المقاليع ونحوها ، فهم محاربون أيضا . وقد حكي عن بعض الفقهاء « لا محاربة إلا بالمحدد » وحكى بعضهم الإجماع على أن المحاربة تكون بالمحدد والمثقل .

وسواء كان فيه خلاف أو لم يكن ، فالصواب الذي عليه جماهير المسلمين أن من قاتل على أخذ المال بأي نوع كان من أنواع القتال فهو محارب قاطع ، كما أن من قاتل المسلمين من الكفار ـ بأي نوع كان من أنواع القتال ـ فهو حربي ، ومن قاتل الكفار من المسلمين بسيف أو رمح أو سهم أو حجارة أو عصا ، فهو مجاهد في سبيل الله .

وأما إذا كان يقتل النفوس سراً لأخذ المال ، مثل الذي يجلس في خان يكريه لأبناء السبيل ، فإذا انفرد بقوم منهم قتلهم وأخذ أموالهم ، أو يدعو إلى منزله من يستأجره لخياطة أو طب أو نحو ذلك فيقتله ويأخذ ماله ، وهذا يسمى القتل غيلة ، ويسميهم بعض العامة المعرجين ، فإذا كان أخذ المال فهل هم كالمحاربين ، أو يجري عليهم حكم القود ؟ فيه قولان للفقهاء :

أحدهما : أنهم كالمحاربين ، لأن القتل بالحيلة كالقتل مكابرة ، كلاهما لا يمكن الاحتراز منه ، بل قد يكون ضرر هذا أشد لأنه لا يدري به .

والثاني : أن المحارب هو المجاهر بالقتال ، وأن هذا المغتال يكون أمره إلى ولي الدم . والأول أشبه بأصول الشريعة ، بل قد يكون ضرر هذا أشد لأنه لا يدري به .

---

(١) في الأصل المتحزبون .

واختلف الفقهاء أيضاً فيمن يقتل السلطان ، كقتلة عثمان وقاتل علي رضي الله عنهما : هل هم كالمحاربين فيقتلون حدا ، أو يكون أمرهم إلى أولياء الدم ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره ، لأن في قتله فسادا .

فصل

وهذا كله إذا قدر عليه ، فأما إذا طلبهم السلطان أو نوابه لإقامة الحدّ بلا عدوان فامتنعوا عليه فإنه يجب على المسلمين قتالهم باتفاق العلماء حتى يقدر عليهم كلهم . ومتى لم ينقادوا إلا بقتال يفضي إلى قتلهم كلهم قوتلوا ، وإن أفضى إلى ذلك سواء كانوا قد قتلوا أو لم يقتلوا . ويقتلون في القتال كيفما أمكن في العنق وغيره . ويقاتل من قاتل معهم ممن يحميهم ويعينهم . فهذا قتال ، وذاك إقامة حدّ ، وقتال هؤلاء أوكد من قتال الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسلام ، فإن هؤلاء قد تحزبوا لفساد النفوس والأموال ، وهلاك الحرث والنسل ، ليس مقصودهم إقامة دين ولا ملك ، وهؤلاء كالمحاربين الذين يأوون إلى حصن أو مغارة أو رأس جبل أو بطن واد ونحو ذلك ، يقطعون الطريق على من مرّ بهم ، وإذا جاءهم جند ولي الأمر يطلبهم للدخول في طاعة المسلمين والجماعة لإقامة الحدود قاتلوهم ودفعوهم ، مثل الأعراب الذين يقطعون الطريق على الحاج أو غيره من الطرقات ، أو الجبلية الذين يعتصمون برؤوس الجبال أو المغارات لقطع الطريق ، وكالأحلاف الذين تحالفوا لقطع الطريق بين الشام والعراق ، ويسمون ذلك النهيضة فإنهم يقاتلون كما ذكرناه ، ولكن قتالهم ليس بمنزلة قتال الكفار ، إذا لم يكونوا كفارا ، ولا تؤخذ أموالهم إلا أن يكونوا أخذوا أموال الناس بغير حق ، فإن عليهم ضمانها ، فيؤخذ منهم بقدر ما أخذوا ، وإن لم نعلم عين الآخذ . وكذلك لو علم عينه فإن الردء والمباشر سواء كما قلناه ، لكن إذا عرف عينه كان قرار الضمان عليه ، ويرد ما يؤخذ منه على أرباب الأموال ، فإن تعذر الرد عليهم كان لمصالح المسلمين ، من رزق الطائفة المقاتلة لهم وغير ذلك . بل المقصود من قتالهم التمكن منهم لإقامة الحدود ومنعهم من الفساد ، فإذا جرح الرجل منهم جرحاً مثخناً لم يجهز عليه حتى يموت ، إلا أن يكون قد وجب عليه القتل . وإذا هرب وكفانا شره لم نتبعه ، إلا أن يكون عليه حدّ ، أو نخاف عاقبته ، ومن أسر منهم أقيم عليه الحد الذي يقام على غيره . ومن الفقهاء من يشدد فيهم حتى يرى غنيمة أموالهم وتخميسها ، وأكثرهم يأبون ذلك ، فأما إذا تحيزوا إلى مملكة طائفة خارجة عن شريعة الإسلام ، وأعانوهم على المسلمين قوتلوا كقتالهم .

وأما من كان لا يقطع الطريق ولكنه يأخذ خفارة أو ضريبة من أبناء السبيل على الرؤوس

والدواب والأحمال ونحو ذلك ، فهذا مكاس ، عليه عقوبة المكاسين[1] وقد اختلف الفقهاء في جواز قتله وليس هو من قطاع الطريق ، فإن الطريق لا ينقطع به مع أنه أشد الناس عذابا يوم القيامة ، حتى قال النبي ﷺ في الغامدية « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » .

ويجوز للمظلومين الذين تراد أموالهم قتل المحاربين بإجماع المسلمين . ولا يجب أن يبذل لهم من المال لا قليل ولا كثير إذا أمكن قتالهم ، فإن النبي ﷺ قال « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون حرمته فهو شهيد »[2] وهذا الذي يسميه الفقهاء الصائل ، وهو الظالم بلا تأويل ولا ولاية . فإذا كان مطلوبه المال ، جاز منعه بما يمكن ، فإذا لم يندفع إلا بالقتال قوتل ، وإن ترك القتال وأعطاهم شيئاً من المال جاز . وأما اذا كان مطلوبه الحرمة ـ مثل أن يطلب الزنا بمحارم الإنسان ، أو يطلب من المرأة أو الصبي المملوك أو غيره الفجور به ـ فإنه يجب عليه أن يدفع نفسه بما يمكن ، ولو بالقتال . ولا يجوز التمكين منه بحال ، بخلاف المال فإنه يجوز التمكين منه . لأن بذل المال جائز. وبذل الفجور بالنفس أو بالحرمة غير جائز .

وأما إذا كان مقصوده قتل الإنسان جاز له الدفع عن نفسه ، وهل يجب عليه (قتله أم لا . ؟) على قولين للعلماء في مذهب أحمد وغيره . وهذا إذا كان للناس سلطان . فأما إذا كان والعياذ بالله فتنة : مثل أن يختلف سلطانان للمسلمين ويقتتلان على الملك ، فهل يجوز للإنسان إذا دخل أحدهما بلد الآخر ، وجرى السيف ، أن يدفع عن نفسه في الفتنة أو يستسلم فلا يقاتل فيها ؟ على قولين لأهل العلم في مذهب أحمد وغيره فإذا ظفر السلطان بالمحاربين الحرامية ـ وقد أخذوا الأموال التي للناس ـ فعليه أن يستخرج منهم الأموال التي للناس ، ويردها عليهم مع إقامة الحد على أبدانهم .

وكذلك السارق . فإن امتنعوا من إحضارهم المال ـ بعد ثبوته عليهم ـ عاقبهم بالحبس والضرب ، حتى يمكنوا من أخذه بإحضاره أو توكيل من يحضره والإخبار بمكانه ، كما يعاقب كل ممتنع من حق وجب عليه أداؤه ، فإن الله قد أباح للرجل في كتابه أن يضرب امرأته إذا نشزت فامتنعت من الحق الواجب عليها حتى تؤديه ، فهؤلاء أولى وأحرى . وهذه المطالبة والعقوبة حق لرب المال ، فإن أراد هبتهم المال أو المصالحة عليه أو العفو عن عقوبتهم فله ذلك ، بخلاف إقامة الحد عليهم ؛ فإنه لا سبيل إلى العفو عنه بحال .

---

(١) المكاسون : طائفة كانت تأخذ اموالا من البائع والمشتري في الأسواق في الجاهلية بدون وجه حق .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب المظالم) ، مسلم (كتاب الإيمان) ، الترمذي (كتاب الديات) ، النسائي (كتاب التحريم) ، ابن ماجه (كتاب الحدود) ، ابن حنبل ١٦٣/٢ .

وليس للإمام أن يلزم رب المال بترك شيء من حقه . وإن كانت الأموال قد تلفت بالأكل وغيره عندهم أو عند السارق فقيل يضمنونها لأربابها كما يضمن سائر الغارمين . وهو قول الشافعي وأحمد رضي الله عنهما . وتبقى مع الإعسار في ذمتهم إلى ميسرة ، وقيل : لا يجتمع الغرم والقطع ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله ، وقيل : يضمنونها مع اليسار فقط دون الإعسار وهو قول مالك رحمه الله .

ولا يحل للسلطان أن يأخذ من أرباب الأموال جعلا عن طلب المحاربين ، وإقامة الحد ، وارتجاع أموال الناس منهم ، ولا على طلب السارقين ، لا لنفسه ولا للجند الذين يرسلهم في طلبهم ، بل طلب هؤلاء من نوع الجهاد في سبيل الله : فيخرج فيه جند المسلمين ، كما يخرج في غيره من الغزوات التي تسمى البيكار ، وينفق على المجاهدين في هذا من المال الذي ينفق منه على سائر الغزاة ، فإن كان لهم أقطاع أو عطاء يكفيهم ، وإلا أعطاهم تمام كفاية غزوهم من مال المصالح من الصدقات ، فإن هذا من سبيل الله . فإن كان على أبناء السبيل المأخوذين زكاة مثل التجار الذين قد يؤخذون فأخذ الإمام زكاة أموالهم وأنفقها في سبيل الله كنفقة الذين يطلبون المحاربين جاز ، ولو كانت لهم شوكة قوية تحتاج إلى تأليف فأعطى الإمام من الفيء والمصالح أو الزكاة لبعض رؤسائهم يعينهم على احضار الباقين ، أو لترك شره فيضعف الباقون ونحو ذلك جاز ، وكان هؤلاء من المؤلفة قلوبهم . وقد ذكر مثل ذلك غير واحد من الأئمة كأحمد وغيره . وهو ظاهر بالكتاب والسنة وأصول الشريعة .

ولا يجوز أن يرسل الإمام من يضعف عن مقاومة الحرامية ، ولا من يأخذ مالا من المأخوذين التجار ونحوهم من أبناء السبيل ، بل يرسل من الجند الأقوياء الأمناء ، إلا أن يتعذر ذلك ، فيرسل الأمثل فالأمثل ، فإن كان بعض نواب السلطان أو رؤساء القرى ونحوهم يأمرون الحرامية بالأخذ في الباطن أو الظاهر ، حتى إذا أخذوا شيئاً قاسمهم ودافع عنهم وأرضى المأخوذين ببعض أموالهم ، أو لم يرضهم ، فهذا أعظم جرماً من مقدم الحرامية ، لأن ذلك يمكن دفعه بدون ما يندفع به هذا ، والواجب أن يقال فيه ما يقال في الردء والعون لهم .

(أ) فإن قَتلوا قُتِل هو على قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأكثر أهل العلم .

(ب) وإن أخذوا المال قطعت يده ورجله .

(ج) وان قتلوا وأخذوا المال قُتل وصُلب . وعلى قول طائفة من أهل العلم : يُقطع ويُقتل ويُصلب ، وقيل يخير بين هذين ، وإن كان لم يأذن لهم ، لكن لما قدر عليهم قاسمهم الأموال ، وعطل بعض الحقوق والحدود .

ومن آوى محاربا أو سارقا أو قاتلا ونحوهم ممن وجب عليه حد ، أو حق لله تعالى أو لآدمي ، ومنعه ممن يستوفي منه الواجب بلا عدوان ، فهو شريكه في الجرم وقد لعنه الله ورسوله ، روى مسلم في صحيحه عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال « قال رسول الله ﷺ : لعن الله من أحدث حدثا أو آوى محدثا »(١) . وإذا ظفر بهذا الذي آوى المحدث ، فإنه يطلب منه إحضاره أو الإعلام به ، فإن امتنع عوقب بالحبس والضرب مرة بعد مرة حتى يمكن من ذلك المحدث ، كما ذكرنا أنه يعاقب الممتنع من أداء المال الواجب ، فما وجب حضوره من النفوس والأموال يعاقب من منع حضورها . ولو كان رجلا يعرف مكان المال المطلوب بحق أو الرجل المطلوب بحق وهو الذي يمنعه ، فإنه يجب عليه الإعلام به والدلالة عليه ، ولا يجوز كتمانه فإن هذا من باب التعاون على البر والتقوى ، وذلك واجب ، بخلاف ما لو كان النفس أو المال مطلوبا بباطل ، فإنه لا يحل الإعلام به ، لأنه من التعاون على الاثم والعدوان ، بل يجب الدفع عنه لأن نصر المظلوم واجب ، ففي الصحيحين عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قلت : يا رسول الله ، أنصره مظلوماً ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه »(٢) . وروى مسلم نحوه عن جابر .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب ، رضي الله عنه ، قال « أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ، ونهانا عن سبع : أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، وإجابة الدعوة ، ونصر المظلوم . ونهانا عن خواتيم الذهب ، وعن الشرب بالفضة ، وعن المياثر ، وعن لبس الحرير ، والقسي ، والديباج ، والاستبرق »(٣) . فإن امتنع هذا العالم به من الإعلام بمكانه جاز عقوبته بالحبس وغيره حتى يخبر به ، لأنه امتنع من حق واجب عليه لا تدخله النيابة ، فعوقب كما تقدم . ولا تجوز عقوبته على ذلك إلا إذا عرف أنه عالم به . وهذا مطرد في ما تتولاه الولاة والقضاة وغيرهم في كل من امتنع من واجب من قول أو فعل ، وليس هذا مطالبة للرجل بحق وجب على غيره ، ولا عقوبة على جناية غيره ، حتى يدخل في قوله تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وزر اخرى﴾(٤) وفي قول النبي ﷺ « ألا لا يجني جان إلا على نفسه » وإنما ذلك مثل أن يطالب بمال قد وجب على غيره وهو ليس وكيلا ولا ضامنا ولا له عنده مال ،

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الجزية) ، مسلم (كتاب الحج) ، أبو داود (كتاب المناسك) ، الترمذي (كتاب الولاء) ، النسائي (كتاب الضحايا) ، ابن حنبل ٨١/١ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب المظالم) ، الترمذي (كتاب الفتن) ، الدارمي (كتاب الرقاق) ، ابن حنبل ٩٩/٣ .

(٣) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الجنائز) ، الترمذي (كتاب الأدب) ، النسائي (كتاب الجنائز) .

(٤) سورة فاطر الآية ١٨ ..

أو يعاقب الرجل بجريمة قريبه أو جاره من غير أن يكون قد أذنب لا بترك واجب ولا بفعل محرم ، فهذا الذي لا يحل ، فأما هذا فإنما يعاقب على ذنب نفسه ، وهو أن يكون قد علم مكان الظالم الذي يطلب حضوره لاستيفاء الحق ، أو مكان المال الذي قد تعلق به حقوق المستحقين ، فيمتنع من الإعانة والنصرة الواجبة عليه في الكتاب والسنة والإجماع ، إما محاباة وحمية لذلك الظالم ـ كما قد يفعل أهل المعصية بعضهم ببعض ـ وإما معاداة أو بغضا للمظلوم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَنْ لا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أقربُ للتقوى﴾[1] . وإما إعراضا عن القيام لله ، والقيام بالقسط الذي أوجبه الله ، وجبناً وفشلاً وخذلاناً لدينه كما يفعله التاركون لنصر الله ورسوله ودينه وكتابه الذين إذا قيل لهم انفروا في سبيل الله اثّاقلوا إلى الأرض . وعلى كل تقدير فهذا الضرب يستحق العقوبة باتفاق العلماء . ومن لم يسلك هذه السبل عطل الحدود ، وضيع الحقوق ، وأكل القوي الضعيف . وهو يشبه من عنده مال الظالم المماطل من عين أو دين ، وقد امتنع من تسليمه لحاكم عادل يوفي به دينه ، أو يؤدي منه النفقة الواجبة عليه لأهله أو أقاربه أو مماليكه أو بهائمه . وكثيراً ما يجب على الرجل حق بسبب غيره ، كما تجب عليه النفقة بسبب حاجة قريبة ، وكما تجب الدية على عاقلة القاتل .

وهذا الضرب من التعزير عقوبة لمن علم أن عنده مالا أو نفسا يجب إحضاره ، وهو لا يحضره ، كالقطاع والسراق وحماتهم ، أو علم أنه خبير به وهو لا يخبر بمكانه . فأما إن امتنع من الإخبار والإحضار لئلا يعتدي عليه الطالب أو يظلمه فهذا محسن . وكثيرا ما يشتبه أحدهما بالآخر ويجتمع شبهه وشهرته . والواجب تمييز الحق من الباطل . وهذا يقع كثيرا في الرؤساء من أهل البادية والحاضرة ، وإذا استجار بهم مستجير ، أو كان بينهما قرابة أو صداقة ، فإنهم يرون الحمية الجاهلية والعزة بالإثم والسمعة عند الأوباش أنهم ينصرونه وإن كان ظالما مبطلا على المحق المظلوم ، لا سيما إن كان المظلوم رئيساً يناوئهم ويناوؤنه ، فيرون في تسليم المستجير بهم إلى من يناوئهم ذلا أو عجزا ، وهذا على الإطلاق جاهلية محضة ، وهم من أكبر أسباب فساد الدين والدنيا . وقد ذكر أنه إنما كان سبب حروب من حروب الأعراب ، كحرب البسوس التي كانت بين بني بكر وتغلب ، إلى نحو هذا ، وكذا سبب دخول الترك المغول دار الإسلام ، واستيلاؤهم على ملوك ما وراء النهر وخراسان كان سببه نحو هذا ومن أذل نفسه لله أعزها ، ومن بذل الحق من نفسه فقد أكرم نفسه ، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، ومن اعتز بالظلم في منع وفعل الإثم فقد أذل نفسه وأهانها ، قال الله تعالى : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٥ .

فَلِلهِ العِزَّةُ جَميعاً﴾[1] وقال تعالى عن المنافقين : ﴿يَقولونَ لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ ، وَلِله العِزَّةُ ولِرَسولِهِ وَلِلمُؤمِنينَ ، وَلكنّ المنافقينَ لا يَعلمونَ﴾[2] وقال الله تعالى في صفة هذا الضرب : ﴿وَمِنَ الناسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدّنيا ، وَيُشْهِدُ اللَّهَ على ما في قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ . وإذا تَوَلّى سَعَى في الأرضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الفَساد . وإذا قِيلَ لَهُ اتّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المهادُ﴾[3] . وإنما الواجب على من استجار به مستجير إن كان مظلوماً ينصره ، ولا يثبت أنه مظلوم بمجرد دعواه ، فطالما اشتكى الرجل وهو ظالم ، بل يكشف خبره من خصمه وغيره ، فإن كان ظالما رده عن الظلم بالرفق إن أمكن أما من صلح أو حكم بالقسط ، وإلا فبالقوة . وإن كان كل منهما ظالما كأهل الأهواء ، من قيس ويمن ونحوهم ، وأكثر المتداعين من أهل الأمصار والبوادي ، أو كانا جميعا غير ظالمين ـ لشبهة أو تأويل أو غلط وقع فيما بينهما ـ سعى بينهما بالإصلاح أو الحكم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ طائفتان مِنَ الْمؤمنينَ اقْتَتَلُوا فأَصْلِحوا بَيْنَهُما ، فَإِنْ بَغَتْ إحداهُما على الأُخْرَى فَقَاتِلوا التي تَبْغِي حتى تَفيءَ إلى أمرِ اللَّهِ ، فإنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحوا بَيْنَهُما بالعَدْلِ وأَقْسِطوا ، إنّ اللَّهَ يُحِبُّ المقسطينَ . إنّما المؤمنونَ إخوةٌ فأَصْلِحوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، واتّقوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمونَ﴾[4] وقال تعالى : ﴿لا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْواهُم إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْروفٍ أَوْ إصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤتِيهِ أَجْراً عَظيماً﴾[5] . وقد روى أبو داود في السنن « عن النبي ﷺ ، أنه قيل له : أمن العصبية أن ينصر الرجل قومه في الحق ؟ قال : لا . قال : ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه في الباطل »[6] ، وقال « خيركم الدافع عن قومه ما لم يأثم »[7] وقال « مثل الذي ينصر قومه بالباطل كبعير تردّى في بئر فهو يجر بذنبه »[8] وقال « من سمعتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا »[9] .

---

(١) سورة فاطر الآية ١٠ .

(٢) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٣) سورة البقرة الآيات (٢٠٤ ـ ٢٠٦) .

(٤) سورة الحجرات الآيات (٩ ـ ١٠) .

(٥) سورة النساء الآية ١١٤ .

(٦) وانظر ايضا ابن حنبل ١٠٧/٤ .

(٧) ورد هذا الحديث بلفظ مختلف في سنن أبي داود (كتاب الأدب) ولفظه « خيركم الدافع عن عشيرته . . الخ » الحديث .

(٨) أورده ابو داود في (كتاب الأدب) .

(٩) ورد الحديث في : ابن حنبل ١٣٦/٥ .

وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن ـ من نسب ، أو بلد ، أو جنس ، أو مذهب ، أو طريقة ـ فهو من عزاء الجاهلية . بل لما اختصم رجلان من المهاجرين والأنصار فقال المهاجري : يا للمهاجرين ؟ وقال الأنصاري : يا للأنصار . قال النبي ﷺ « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُركم » ؟ وغضب لذلك غضبا شديدا .

(فصــل)

وأما السارق فيجب قطع يده اليمنى بالكتاب والسنة والإجماع . قال الله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فاقْطَعوا أيْدِيَهُما جَزاءً بما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللّهِ ، وَاللَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ . فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فَإنّ اللّهَ يَتوبُ عليهِ ، إنّ اللّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[1] ولا يجوز بعد ثبوت الحد بالبينة ـ أو بالإقرار ـ تأخيره لا بحبس ولا مال يفتدى به ولا غيره ، بل تقطع يده في الأوقات المعظمة وغيرها ، فإن إقامة الحد من العبادات ، كالجهاد في سبيل الله . فينبغي أن يعرف أن إقامة الحد لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطله ، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات لا شفاء غيظه وإرادة العلو على الخلق ، بمنزلة الوالد إذا أدب ولده ، فإنه لو كف عن تأيب ولده كما تشير به الأم رقة ورأفة لفسد الولد ، وإنما يؤدبه رحمة به ، وإصلاحا لحاله ، مع أنه يود ويؤثر أن لا يحوجه إلى تأديب ، وبمنزلة الطبيب الذي يسقي المريض الدواء الكريه ، وبمنزلة قطع العضو المتآكل والحجم[2] ، وقطع العروق بالفصاد[3] ونحو ذلك ، بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الكريه ، وما يدخله على نفسه من المشقة لينال به الراحة .

فهكذا شرعت الحدود ، وهكذا ينبغي أن تكون نية الوالي في إقامتها ، فإنه متى كان قصده صلاح الرعية والنهي عن المنكرات بجلب المنفعة لهم ، ودفع المضرة عنهم ، وابتغى بذلك وجه الله تعالى وطاعة أمره ، ألان الله له القلوب ، وتيسرت له أسباب الخير ، وكفاه العقوبة البشرية ، وقد يرضى المحدود إذا أقام عليه الحد . وأما اذا كان غرضه العلو عليهم ، وإقامة رياسته ليعظموه أو ليبذلوه له ما يريد من الأموال انعكس عليه مقصوده . ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قبل أن يلي الخلافة كان نائباً للوليد بن عبد الملك على مدينة النبي ﷺ ، وكان قد ساسهم سياسة صالحة ، فقدم الحجاج من العراق ، وقد سامهم سوء العذاب ، فسأل أهل المدينة عن عمر : كيف هيبته فيكم ؟ قالوا : ما نستطيع أن ننظر إليه . قال كيف محبتكم له ؟ قالوا هو أحب إلينا من أهلنا . قال : فكيف أدبه فيكم ؟ قالوا : ما بين

---

(١) سورة المائدة الآيات (٣٨ـ ٣٩) .

(٢) وهو مص الدم بالحجامة .

(٣) فصد الدم بمشرط .

الثلاثة الأسواط إلى العشرة . هذه هيبته ، وهذه محبته ، وهذا أدبه . هذا أمر من السماء .

وإذا قطعت يده حسمت[1] ، واستحب أن تعلق في عنقه . فإن سرق ثانيا قطعت رجله اليسرى . فإن سرق ثالثا ورابعا ففيه قولان للصحابة ومن بعدهم من العلماء ، أحدهما : تقطع أربعته في الثالثة والرابعة ، وهو قول أبي بكر رضي الله عنه . ومذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين . والثاني أنه يحبس وهو قول علي رضي الله عنه والكوفيين وأحمد في روايته الأخرى .

وإنما تقطع يده إذا سرق نصابا وهو ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم عند جمهور العلماء من أهل الحجاز وأهل الحديث وغيرهم كمالك والشافعي وأحمد ، ومنهم من يقول : دينار أو عشرة دراهم ، فمن سرق ذلك قطع بالاتفاق . وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم » وفي لفظ لمسلم : « قطع سارقا في مجن قيمته ثلاث دراهم »[2] والمجن الترس . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ « تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً » . وفي رواية للبخاري قال : «اقطعوا في ربع دينار ، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك » وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم ، والدينار اثنى عشر درهماً .

ولا يكون السارق سارقا حتى يأخذ المال من حرز فأما المال الضائع من صاحبه ، والثمر الذي يكون في الشجر في الصحراء بلا حائط ، والماشية التي لا راعي عندها ونحو ذلك ، فلا قطع فيه . لكن يعزر الاخذ ، ويضاعف عليه الغرم ، كما جاء به الحديث .

وقد اختلف أهل العلم في التضعيف ، وممن قال به أحمد وغيره ، قال رافع بن خديج : سمعت رسول الله ﷺ : « لا قطع في ثمر ولا كثر » . والكثر جمار النخل . رواه أهل السنن ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه ، قال « سمعت رجلا من مزينة يسأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله ، جئت أسألك عن الضالة من الإبل ، قال : « معها حذاؤ ها وسقاؤ ها : تأكل الشجر ، وترد الماء فدعها حتى يأتيها باغيها . قال : فالضالّة من الغنم ؟ قال : لك أو لأخيك أو للذئب ، تجمعها حتى يأتيها باغيها . قال « فالحريسة التي تؤخذ من مراتعها ؟ قال : فيها ثمنها مرتين ، وضرب نكال . وما أخذ من عطنه[4] ففيه القطع

---

(١) بأن توضع في زيت مغلي لينقطع منها الدم ، وهناك من الوسائل العلمية والطبية الحديثة ما يغني عن ذلك .

(٢) ورد هذا الحديث في النسائي (كتاب السارق) ، ابن ماجه (كتاب الحدود) ، وابن حنبل ١٦٩/١ .

(٣) ورد الحديث في البخاري (كتاب الحدود) ، مسلم (كتاب الحدود) ، ابو داود (كتاب الحدود) ، النسائي (كتاب السارق) ، ابن حنبل ٣٦/٢ .

(٤) العطن : مبرك الإبل حول الحوض .

إذا بلغ ما يؤخذ من ذلك ثمن المجن . قال يا رسول الله ، فالثمار وما أخذ منها من أكمامها[١] قال : من أخذ منها بفمه ولم يتخذ خبنة[٢] فليس عليه شيء ، ومن احتمل فعليه ثمنه مرتين وضرب نكال . وما أخذ من أجرانه ففيه القطع إذا بلغ ما يؤخذ من ذلك ثمن المجن ، وما لم يبلغ ثمن المجن ففيه غرامة مثليه ، وجلدات نكال » رواه أهل السنن . لكن هذا سياق النسائي ، ولذلك قال النبي ﷺ « ليس على المنتهب ولا على المختلس ولا الخائن قطع »[٣] ، فالمنتهب الذي ينهب الشيء والناس ينظرون ، والمختلس الذي يجتذب الشيء ، فيعلم به قبل أخذه . وأما الطرار وهو البطاط الذي يبط الجيوب والمناديل والأكمام ونحوها ، فإنه يقطع على الصحيح .

فصل [*]

﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتّقوا اللّهَ وابْتَغُوا إلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾[٤] قال عامة المفسرين كابن عباس ومجاهد وعطاء والفراء : الوسيلة القربة .

قال قتادة : تقربوا إلى الله بما يرضيه . قال أبو عبيدة : توسلت إليه أي تقربت . وقال عبد الرحمن بن زيد : تحببوا إلى الله . والتحبب والتقرب إليه إنما هو بطاعة رسوله . فالإيمان بالرسول وطاعته هو وسيلة الخلق إلى الله ، ليس لهم وسيلة يتوسلون بها البتة إلا الإيمان برسوله وطاعته . وليس لأحد من الخلق وسيلة إلى الله تبارك وتعالى إلاتوسله بالإيمان بهذاالرسول الكريم وطاعته . وهذه يؤمر بها الإنسان حيث كان من الأمكنة ، وفي كل وقت . وما خص من العبادات بمكان كالحج ، أو زمان كالصوم والجمعة ، فكل في مكانه وزمانه . وليس لنفس الحجرة من داخل فضلا عن جدارها من خارج اختصاص شيء في شرع العبادات ولا فعل شيء منها . فالقرب من الله أفضل منه بالبعد منه باتفاق المسلمين . والمسجد خص بالفضيلة في حياته ﷺ قبل وجود القبر ، فلم تكن فضيلة مسجده لذلك ، ولا استحب هو ﷺ ولا أحد من أصحابه ولا علماء أمته أن يجاور أحد عند قبر ، ولا يعكف عليه ، لا قبره المكرم ولا قبر غيره . ولا أن يقصد السكنى قريبا من قبر ، أي قبر كان . وسكنى المدينة النبوية هو أفضل في حق من تتكرر طاعته لله ورسوله فيها أكثر . كما كان الأمر لما كان الناس مأمورين بالهجرة إليها . فكانت الهجرة إليها والمقام بها أفضل من جميع البقاع ، مكة وغيرها . بل كان ذلك

---

(١) الأكمام : جمع كم وهو وعاء الطلع للنخل .

(٢) الخبنة : وضع الشيء المسروق خلسة في السراويل .

(٣) ورد الحديث في : ابو داود في (كتاب الحدود) ، الترمذي (كتاب الحدود) ، والنسائي (كتاب السارق) .

(*) انظر الجواب الباهر ص ٨١ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣٥ .

واجبا من أعظم الواجبات . فلما فتحت مكة قال النبي ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية »[1] . وكان من أتى من أهل مكة وغيرهم ليهاجر ويسكن المدينة يأمره أن يرجع إلى مدينته ، ولا يأمره بسكناها . كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر الناس عقب الحج أن يذهبوا إلى بلادهم لئلا يضيقوا على أهل مكة . وكان يأمر كثيرا من أصحابه وقت الهجرة أن يخرجوا إلى أماكن أخرى لولاية مكان وغيره ، وكانت طاعة الرسول بالسفر إلى غير المدينة أفضل من المقام عنده بالمدينة حين كانت دار الهجرة ، فكيف بها بعد ذلك ؟ إذ كان الذي ينفع الناس طاعة الله ورسوله . وأما ما سوى ذلك فإنه لا ينفعهم لا قرابة ولا مجاورة ولا غير ذلك . كما ثبت عنه في الحديث الصحيح أنه قال : « يا فاطمة بنت محمد ، لا أغني عنك من الله شيئا . يا صفية عمة رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا عباس عم رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً »[2] . وقال ﷺ : « إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين »[3] . وقال : « إن أوليائي المتقون حيث كانوا ومن كانوا » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل(*)

قوله : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾[4] .

قيل : اللام لام كي ، أي يسمعون ليكذبوا ويسمعون لينقلوا إلى قوم آخرين لم يأتوك ، فيكونون كذابين ونمامين جواسيس ، والصواب أنها لام التعدية ، مثل قوله : « سمع الله لمن حمده » فالسماع متضمن معنى القول أي قائلون للكذب ويسمعون من قوم آخرين لم يأتوك ويطيعونهم ، فيكون ذما لهم على قبول الخبر الكاذب ، وعلى طاعة غيره من الكفار والمنافقين ، مثل قوله : ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[5] أي هم يطلبون أن يفتنوكم وفيكم من يسمع منهم ، فيكون قد ذمهم على اتباع الباطل في نوعي الكلام خبره وإنشائه ، فإن باطل الخبر الكذب ، وباطل الإنشاء طاعة غير الرسل ، وهذا بعيد .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٢) سورة التوبة الآية ٤٧ .

(*) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ط السعودية ٤٥٢/١٤ .

(١) ورد في : صحيح البخاري أول كتاب الجهاد .

(٢) ورد الحديث في البخاري آخر تفسير سورة الشعراء ، صحيح مسلم (كتاب الإيمان . باب في قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين) .

(٣) انظر البخاري (كتاب الأدب ، باب تبل الرحم ببلالها) .

ثم قال : ﴿سَمّاعونَ لِلْكَذِبَ أَكّالونَ لِلسُّحْتِ﴾[1] ، فذكر أنهم في غذاءي الجسد والقلب يغتذون الحرام ، بخلاف من يأكل الحلال ولا يقبل إلا الصدق ، وفيه ذم لمن يروج عليه الكذب ويقبله ، أو يؤثره لموافقته هواه ويدخل فيه قبول المذاهب الفاسدة ؛ لأنها كذب لا سيما إذا اقترن بذلك قبولها لأجل العوض عليها ، سواء كان العوض من ذي سلطان أو وقف أو فتوح أو هدية أو أجرة أو غير ذلك ، وهو شبيه بقوله﴿إنّ كثيراً مِنَ الأحْبارِ والرُّهْبانِ لَيأْكُلونَ أَمْوالَ النّاسِ بالباطلِ وَيَصُدّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾[2] أهل البدع وأهل الفجور الذين يصدقون بما كذب به على الله ورسوله وأحكامه ، والذين يطيعون الخلق في معصية الخالق .

ومثله : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطينُ ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفّاكٍ أثيمٍ ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأكثرُهُمْ كاذِبونَ﴾[3] فإنما تنزلت بالسمع الذي يخلط فيه بكلمة الصدق ألف كلمة من الكذب على من هو كذاب فاجر ، فيكون سماعا للكذب من مسترقة السمع .

ثم قال في السورة : ﴿لَوْلا يَنْهاهُمُ الرَّبّانِيّونَ والأحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإثمَ وأكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾[4] فقول الإثم وسماع الكذب وأكل السحت أعمال متلازمة في العادة ، وللحكام منها خصوص ، فإن الحاكم إذا ارتشى سمع الشهادة المزورة ، والدعوى الفاجرة ، فصار سماعا للكذب أكالا للسحت قائلا للإثم .

ولهذا خير نبيه ﷺ بين الحكم بينهم وبين تركه ؛ لأنه ليس قصدهم قبول الحق وسماعه مطلقا ؛ بل يسمعون ما وافق أهواءهم وإن كان كذبا ، وكذلك العلماء الذين يتقولون الروايات المكذوبة .

فصل[*]

قال تعالى : ﴿يا أيها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الّذينَ يُسارِعونَ في الكُفْرِ مِنَ الذِينَ قالوا آمَنّا بأفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلوبُهُمْ وَمِنَ الذِينَ هَادُوا ، سَمّاعونَ لِلْكَذِبِ سَمّاعونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأتوكَ يُحَرِّفونَ الكَلِمَ﴾ . إلى قوله : ﴿وكيفَ يُحَكِّمونَكَ وَعِنْدَهُمُ التّوراةُ فيها حُكْمُ اللَّهِ ؟﴾[5] .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٤ .

(٣) سورة الشعراء الآيات (٢٢١ - ٢٢٣) .

(٤) سورة المائدة الآية ٦٣ .

(*) انظر الجواب الصحيح ٣٦٨/١ .

(٥) سورة المائدة الآيات (٤١ - ٤٣) .

يعلم من هـذا أن التوراة التي كـانت موجـودة بعـد خـراب بيت المقـدس ، وبعـد مجيء بختنصر ،وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد ﷺ ، فيها حكم الله .

والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله ﷺ ، وإن قيل : أنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثـل ذلك ، فـإن هذا غـير معلوم لنا ، وهو أيضا متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ ، وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثـير من الناس إلا مـا غير بعـد ذلك ، ومـع هذا فكثـير من نسخ التـوراة والإنجيل متفقـة في الغالب ، إنما يختلف في اليسير من ألفاظها ، فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن أحـدا أن يجزم بنفيـه ، ولا يقدر أحـد من اليهود والنصـارى أن يشهد بـأن كـل نسخة في العالم بالكتابين متفقة الألفاظ ، إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه والاختلاف اليسـير في ألفاظ هذه الكتب موجود في الكثير من النسخ ، كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث ؛ أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ ، وهذا بخلاف القرآن المجيد الذي حفظت ألفاظه في الصدور ، وبالنقل المتواتر لا يحتاج أن يحفظ في كتاب كما قال تعالى : ﴿إنّا نحنُ نزّلنا الذِّكْرَ وإنّا لهُ لحافِظونَ﴾[١] . وذلك أن اليهود قبل النبي ﷺ وعلى عهده وبعده ، منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة .

وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التـوراة ، ولم يتمكن أحد من جمـع هذه النسـخ وتبديلها ، ولو كان هذا ممكنا لكان ذلك من الوقائع العظيمـة التي تتوفـر الدواعي عـلى نقلها ، وكذلك في الانجيل قال تعالى : ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بِما أَنْزَلَ الله فيهِ﴾[٢] .

فعلم أن في هذا الإنجيل حكما أنزله الله تعالى، لكن الحكم هـو من باب الأمـر والنهي . وذلك لا يمنع أن يكون التغيير في باب الأخبار،وهو الذي وقع فيه التبديل لفظا . وأمـا الأحكام التي في التوراة ، فما يكاد أحد يدعي التبديل في ألفاظها . وقد ذكـر طائفـة من العلماء أن قولـه تعالى في الإنجيل : ﴿وليحكم أهل الإنجيل بمـا أنزل الله فيـه﴾ هو خـطاب لمن كان عـلى دين المسيح قبل النسخ والتبديل ، لا الموجودين بعد مبعث محمد ﷺ .

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقراءة من قرأ « وليحكم أهل الإنجيـل » بكسر الـلام كقـراءة حمزة فـإن هذه لام كي ، فـإنه تعـالى قال : ﴿وَقَفَّيْنـا على آثـارِهِمْ بعيسى بن مَـرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراةِ وآتَيْناهُ الانجيلَ فيهِ هدىً ونورٌ ومصدِّقاً لما بين يديهِ من التوراةِ وَهُدَىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتّقينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بِما أَنْزَلَ

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٧ .

اللَّهُ فيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فأولئكَ هُمُ الفاسِقونَ﴾[1] . فإذا قرأ « وَلِيحكمَ » ، كان المعنى وآتيناه الإنجيل لكذا وكذا ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله في الإنجيل الحق ، ولا يدل على أن الإنجيل الموجود في زمن الرسول هو ذلك الإنجيل .

وأما قراءة الجمهور ﴿وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ﴾ فهو أمر بذلك . فمن العلماء من قال : هو أمر لمن كان الإنجيلِ الحق موجودا عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ أمرا لهم قبل مبعث محمد ﷺ . وقال آخرون : لا حاجة إلى هذا التكليف ، فإن القول في الإنجيل كالقول في التوراة . وقد قال تعالى : ﴿يا أيُّها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسارِعونَ في الكُفْرِ مِنَ الذينَ قالوا آمَنّا بأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قلوبُهُمْ وَمِنَ الذينَ هَادُوا سَمّاعونَ لِلْكَذِبِ سَمّاعونَ لِقَوْمٍ آخرينَ لَمْ يَأتوكَ يُحَرِّفونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقولونَ إنّ أوتِيتُمْ هَذا فَخُذُوهُ وإنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِك لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أولئكَ الذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهُمْ لَهُمْ في الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ في الآخرةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمّاعونَ للكذبِ أكّالونَ للسُّحْتِ فَإنْ جاؤوكَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وإنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرّوكَ شَيْئاً وإنْ حَكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ إنّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التوراةُ فيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ وَما أولئكَ بالمؤمنينَ * إنا أَنْزَلْنا التوراةَ فيها هُدَىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الذِينَ أَسْلَموا للّذِينَ هَادُوا والرَّبّانِيّونَ والأحبارُ بما اسْتُحْفِظوا مِنْ كتابِ اللَّهِ وَكانوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فلا تَخْشَوُا الناسَ واخْشَوْنِ ولا تَشْتَروا بآياتي ثمناً قليلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنزلَ اللَّهُ فأولئكَ هُمُ الكافرونَ * وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فيها أَنّ النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأُذُنَ بالأُذُنِ وَالسنَّ بِالسنِّ وَالجروحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّارةٌ لهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أنزلَ اللَّهُ فأولئك هُمُ الظالمونَ * وَقَفَّيْنا على آثارِهِمْ بعيسى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بينَ يَدَيْهِ مِنَ التوراةِ وآتَيْناهُ الإنجيلُ﴾[1] ، فهذا قد صرح بأن أولئك الذين تحاكموا إلى النبي ﷺ من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم تولوا عن حكم الله وقال بعد ذلك : ﴿وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ بِما أنزلَ اللَّهُ فيهِ﴾ وهذه لام الأمر ، وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد . وأمر من مات قبل هذا الخطاب

(١) سورة المائدة الآيات (٤٦ ـ ٤٧) .

(١) سورة المائدة الآيات (٤١ ـ ٤٦) .

ممتنع ، وإنما يكون الأمر أمراً لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر ، فعلم أنه أمر لمن كان موجوداً حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل ، والله أنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمد ﷺ ، كما أمر به في التوراة ، فليحكموا بما أنزل الله في الإنجيل مما لم ينسخه محمد ﷺ ، كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح . وما نسخه فقد أمروا فيه باتباع المسيح ، وقد أمروا في الإنجيل باتباع محمد ﷺ لمن حكم من أهل الكتاب ـ بعد مبعث محمد ﷺ ـ بما أنزله الله في التوراة والإنجيل ولم يحكم بما يخالف حكم محمد ﷺ ، إذ كانوا مأمورين في التوراة والإنجيل باتباع محمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿الـذينَ يَتّبِعونَ الـرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يَجِدونَهُ مَكْتوباً عِنْدَهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وأَنْـزَلْنا اليـكَ الكتابَ بـالحقِّ مُصَدِّقـاً لِما بَيْنَ يَـدَيْهِ مِنَ الكتـابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْـهِ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾[2] .

فجعـل القرآن مهيمنا ، والمهيمن : الشاهـد الحاكم المؤتمن ، فهـو يحكم بما فيهـا ممـا لم ينسخـه الله ويشهد بتصـديق ما فيهـا ممـا لم يبـدل ولهـذا قـال : ﴿لِكُـلٍّ جَعَلْنـا مِنْكُمْ شِرْعَـةً وَمِنْهاجاً﴾[2] .

وقـد ثبت في الصحاح والسنن والمسـانيد هـذا . ففي الصحيحين عن عبـد الله بن عمـر رضي الله عنهمـا أنه قـال : إن اليهود جاؤ وا إلى رسول الله ﷺ ، فـذكـروا لـه أن امـرأة منهم ورجلا زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ : ما تجدون في التوراة في شأن الرجم . قالـوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سـلام : كذبتم . إن فيهـا الرجم . فـأتوا بـالتوراة ، فنشـروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبد الله : ارفع يـدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد . فأمر بهما النبي ﷺ ، فرجما[3] .

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال : أتي رسول الله ﷺ بيهودي ويهـودية قـد زنيا ، فانـطلق حتى جاء يهـودي . فقال : مـا تجدون في التـوراة على من زنى ؟ قـالوا : نسـود وجوههما ، ويطاف بهما . قال : « فَأْتُوا بالتوراةِ فاتْلُوهَـا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِـينَ » قال : فجـاؤ وا بها فقرؤ وها حتى إذا مرّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده فرفعها ، فإذا تحتها آية الرجم . قالوا : صدق فيها آية الـرجم ، ولكننا نتكـاتمه بيننـا ، وإن أحبارنـا أحدثـوا التحميم

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨ .

(٣) ورد الحديث بلفظ مختلف في البخاري : (كتاب المناقب) ،وفي سنن أبي داود (كتاب الاقضية) .

والتحبية . فأمر رسول الله وسلم برجمهما فرجما[1] .

وأخرج مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال : « مر على رسول الله ﷺ بيهودي محمم مجلود فدعاهم . فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعى رجلا من علمائهم ، فقال : أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم » . فأنزل الله تعالى : ﴿يا أيُّها الرَّسولُ لا يَحْزُنْكَ الذِينَ يُسَارِعونَ في الكُفْرِ مِنْ الذِينَ قالوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ - إلى قوله - فأولئكَ هُمُ الكافرونَ - إلى - الظالمونَ - إلى - الفَاسقونَ﴾[2] ، قال هي في الكفارة كلها .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال : « رجم النبي ﷺ رجلا من أسلم ، ورجلا من اليهود » . وأما السنن ففي سنن أبي داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف فأتاهم في بيت المدارس . فقالوا : يا أبا القاسم إن رجلا منا زنى بامرأة فاحكم بينهم ، فوضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ثم قال : ائتوني التوراة فأتي بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك. ثم قال : ائتوني بأعمالكم فأتي بشاب ، ثم ذكر قصة الرجم »[3] .

وأخرج أيضا أبو داود وغيره عن أبي هريرة أنه قال : « زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبي . فإنه نبي بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، فقلنا نبي من أنبيائك ، قالوا : فأتوا النبي ﷺ ، وهو جالس في المسجد في أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة - منهم - زنيا ، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم ، فقام على الباب فقال أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ .

قالوا : نحمم ونحبيه ، ونجلده - والتحبية : أن يحمل الزانيان على حمار ، ويقابل

---

(١) الحديث ذكره مسلم في (كتاب الحدود) ، الترمذي في (كتاب الحدود) ، ابن ماجه في (كتاب الحدود) ، ابن حنبل ٥٧/٣ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٣) ورد الحديث في أبي داود (كتاب الاقضية) ، مسلم (كتاب الحدود) .

أقفيتهما ، ويطاف بهما - قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبي ﷺ ساكتا ، أنشده . فقال : اللهم إذا نشدتنا فإنا نجد في التوراة الرجم . فقال النبي ﷺ : فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟ قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه . وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم . قال النبي ﷺ : فإني أحكم بما في التوراة ، فأمر بهما فرجما » .

قال الزهري : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إنا أنْزَلْنا التوراةَ فيها هُـدَىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِها النبيونَ الذِينَ أَسْلَمُوا ﴾[1] .

وكان النبي ﷺ منهم ، وأيضا فقد تحاكموا إليه في القود الذي كان بين بني قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل بعض إحدى القبيلتين قتيلا من الأخرى فيقتلونه ، ولم يضعفوا الدية ، وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به ، وأضعفوا الدية .

قال أبو داود سليمان بن الأشعث في سننه ، حدثنا محمد بن العلا ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن علي بن صالح ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « كان قريظة ، والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة ودي مائة وسق من تمر .

فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا : ادفعوه إلينا نقتله . فقالوا : بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت ﴿ وإنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ ﴾[2] .

والقسط : النفس بالنفس ، ثم نزلت ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهليةِ يَبْغُونَ ﴾ ؟[3] ، قال أبو داود : قريظة والنضير من ولد هارون .

وبسط هذا له موضع آخر ، وعلى كل قول ، فقد أخبر الله عز وجل أن في التوراة الموجودة بعد المسيح عليه السلام حكم الله ، وأن أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذي في التوراة مع كفرهم بالمسيح ، وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذي جاء به الكتاب الأول ، ولم ينسخه الرسول الثاني .

وهذا من التبديل الثاني الذي ذموا عليه ، ودل على أن في التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكما أنزله الله ، أمروا أن يحكموا به ، وهكذا يمكن أن يقال في الإنجيل . ومعلوم أن

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٢ .

(٣) سورة المائدة الآية ٥٠ .

الحكم الذي أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة ، لم ينسخه الإنجيل ، ولا القرآن ، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما لم ينسخه القرآن ، وذلك أن الدين الجامع أن يعبد الله وحده ، ويأمر بما أمر الله به ويحكم بما أنزله الله في أي كتاب أنزله ولم ينسخه فإنه يحكم به .

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة ، أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه . ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله ، كما أن الله أمر أمة محمد ﷺ أن يحكموا بما أنزل الله في القرآن ، وفيه الناسخ ، والمنسوخ . فهكذا القول في جنس الكتب المنزلة .

قال تعالى : ﴿ وأَنْزَلْنا إليكَ الكتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنهاجاً وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجعلَكُمْ أُمَّةً واحِدةً ولكنْ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتاكُمْ فاسْتَبِقوا الخَيْراتِ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جميعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فيهِ تَختلِفونَ * وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بما أَنزلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أنْ يَفْتِنوكَ عَنْ بعضِ ما أَنزلَ اللهُ إليكَ فإنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنما يُريدُ اللهُ أنْ يُصيبَهُمْ ببعضِ ذنوبِهِمْ وإنّ كثيراً مِنَ الناسِ لَفاسِقونَ * أَفَحُكْمَ الجاهليةِ يَبْغونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقومٍ يُوقِنونَ * يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا اليهودَ والنَّصارى أولياءَ بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإنَّهُ مِنْهُمْ إنّ اللهَ لا يَهدي القومَ الظالمينَ * فَتَرى الذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعونَ فِيهِم يَقولونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائرةٌ فَعَسى اللهُ أَنْ يأتيَ بالفتحِ أَوْ أمرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحوا على ما أَسَرّوا في أَنْفُسِهِمْ نادِمينَ * وَيقولُ الذينَ آمَنوا أهؤلاءِ الذينَ أَقْسَموا باللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحوا خاسِرينَ * يا أيُّها الذينَ آمَنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بقومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبّونَهُ أَذِلَّةٍ على المؤمنينَ أَعِزَّةٍ على الكافِرينَ يُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ وَلا يَخافونَ لومةَ لائمٍ ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسعٌ عليمٌ * إنما وَلِيُّكُمُ اللهُ ورسولُهُ والذينَ آمَنوا الذِينَ يُقِيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتونَ الزكاةَ وَهُمْ راكعونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ ورسولَهُ والذينَ آمَنوا فإن حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبونَ ﴾[1] .

فقد أمر نبيه محمداً ﷺ ، أن يحكم بما أنزل الله إليه ، وحذره اتباع أهوائهم ، وبين أن المخالف لحكمه وهو حكم الجاهلية ، حيث قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهليةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ

---

(١) سورة المائدة الآيات (٤٨ ـ ٥٦) .

أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقومٍ يُوقِنونَ ﴾ وأخبره تعالى أنه جعل لكل من أهل التوراة ، والإنجيل ، والقرآن شرعة ومنهاجا . وأمره تعالى بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس لأحد في وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله . والذي أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسل ، وهم متفقون في أصول الدين وقواعد الشريعة ، وإن تنوعوا في الشرعة والمنهاج ، بين ناسخ ومنسوخ ، فهو شبيه بتنوع حال الكتاب ، فإن المسلمين كانوا أولا مأمورين بالصلاة لبيت المقدس ، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، وفي كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله عز وجل .

وكذلك موسى عليه السلام ، كان مأموراً بالسبت محرما عليه ما حرمه الله في التوراة ، وهو متبع ما أنزله الله عز وجل ، والمسيح ﷺ أحل بعض ما حرمه الله ، في التوراة ، وهو متبع ما أنزل الله عز وجل . فليس في أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ، كما أنه ليس في أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، بل إذا كان ناسخ ومنسوخ فالذي[1] أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ . فمن حكم بالمنسوخ (فقد حكم) بغير[2] ما أنزل الله . ومما يوضح هذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لَسْتُمْ على شَيْءٍ حتى تُقيموا التَّوْراةَ والإنجيلَ وَمَا أُنِزلَ إليكم مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ طُغياناً وكُفراً فلا تَأْسَ على القومِ الكافِرينَ ﴾[3] . فإن هذا يبين أن هذا أمر لمحمد ﷺ أن يقول لأهل الكتاب الذي بعث إليهم : أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل اليهم من ربهم . فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله ، وأنهم مأمورون بإقامته إذ كان ذلك مما قرره محمد ﷺ ، ولم ينسخه . ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبي ، ولم ينسخه النبي الثاني بل أقره كان الله آمرا به على لسان نبي بعد نبي ، ولم يكن في بعثة الثاني ما يضاد وجوب اتباع ما أمر به النبي الأول ، وقرره النبي الثاني .

ولا يجوز أن يقال : إن الله ينسخ بالكتاب الثاني جميع ما شرعه بالكتاب الأول ، إنما المنسوخ قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب ، والشرائع .

وأيضا ففي التوراة والإنجيل ما دل على نبوة محمد ﷺ ، فإذا حكم أهل التوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما ، حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد ﷺ . وهذا يدل على أن في التوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله ، إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله ، ولا يعلمون

---

(١) جاءت هذه العبارة في الأصل هكذا : « بل إذا كان ناسخ فقد حكم ومنسوخ فالذي أنزل الله . . . الخ » وواضح ما في العبارة من ركة في التعبير لعلها حدثت من الناسخ . وصححتها ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) ما بين المعقوفتين ليس بالأصل وزيد ليستقيم المعنى .

(٣) سورة المائدة الآية ٦٨ .

ما أنزل الله ، والحكم إنما يكون في الأمر والنهي . والعلم ببعض معاني الكتب لا ينافي عدم العلم ببعضها . وهذا متفق عليه في المعاني . فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأنه أرسل إلى الخلق رسلا من البشر ، وأنه أوجب العدل وحرم الظلم والفواحش والشرك ،وأمثال ذلك من الشرائع الكلية وأن فيها الوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب ، بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر ، وقد تنازعوا في بعض معانيها ، واختلفوا في تفسير ذلك كما اختلفت اليهود والنصارى في المسيح المبشر به النبوات ، هل هو المسيح بن مريم عليه السلام أو مسيح آخر ينتظر ؟ والمسلمون يعلمون أن الصواب في هذا مع النصارى ، لكن لا يوافقهم على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك .

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخبرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل ، لا سيما إذا كان في نفس الكتاب ما يدل على المبدل . وقد يقال إن ما بدل من ألفاظ التوراة والإنجيل ففي نفس التوراة والإنجيل ما يدل على تبديله ، فبهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول : إنه لم يبدل شيء من ألفاظها ، فإنهم يقولون : إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التوراة والإنجيل قبل مبعث محمد ﷺ لم يعلم الحق من الباطل ، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب ، فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما . والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيها ، واستشهد بهما في مواضع . وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قليل والأكثر لم يبدل ، والذي لم يبدل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود تبين غلط ما خالفها ولها شواهد ونظائر متعددة ، يصدق بعضها بعضا ، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة ، وسائر نصوص الكتب يناقضها ، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي ﷺ ، فإنه إذا وقع في سنن أبي داود والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة ، كان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ما يبين ضعف تلك ، بل وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط ، وفي نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها ، مثل ما روي أن الله خلق التربة يوم السبت وجعل خلق المخلوقات في الأيام السبعة ، فإن هذا الحديث قد بين أئمة الحديث كيحيى بن معين ، وعبد الرحمن بن مهدي ، والبخاري وغيرهم أنه غلط ، وأنه ليس في كلام النبي ﷺ ، بل صرح البخاري في تاريخه الكبير أنه من كلام كعب الأحبار ، كما قد بسط في موضعه . والقرآن يدل على غلط هذا ، وبين أن الخلق في ستة أيام ، وثبت في الصحيح أن آخر الخلق كان يوم الجمعة ، فيكون أول الخلق يوم الأحد . وكذلك ما روي أنه ﷺ ، صلى الكسوف بركوعين أو ثلاثة ، فإن الثابت المتواتر عن النبي ﷺ ، في الصحيحين ، وغيرهما من حديث عائشة ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهم أنه « صلى كل ركعة بركوعين » ولهذا لم يخرج البخاري إلا ذلك . وضعف الشافعي ، والبخاري ، وأحمد ، فإن النبي ﷺ إنما

صلى الكسوف مرة في أخذ الروايتين عنه ، وغيرهم[1] حديث الثلاثة والأربع ، فإن النبي ﷺ إنما صلى مرة واحدة ، وفي حديث الثلاث والأربع ، أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه ، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان في نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط ، والبخاري إذا روى الحديث بطرق في بعضها غلط في بعض الألفاظ ، ذكر معه الطرق التي تبين ذلك الغلط ، كما قد بسطنا الكلام على ذلك في موضعه .

فكذلك إذا قيل : أنه وقع تبديل في بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان في الكتب ما يبين ذلك الغلط ، وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة في العالم من زمن محمد ﷺ بكل لسان من التوراة والإنجيل والزبور بدلت ألفاظها ، فإن هذا لا أعرف أحدا من السلف قاله . وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك ، كما في بعض المتأخرين من يجوز الاستنجاء بكل ما في العالم من نسخ التوراة والإنجيل . فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال : يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هي التوراة التي أنزلها الله ، على موسى بن عمران فاقرأها ، فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به ، ولم يجزم عمر رضي الله عنه بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها . والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين في زمن النبي ﷺ فيهما ما أنزله الله عز وجل ، والجزم بتبديل ذلك في جميع النسخ التي في العالم متعذر ، ولا حاجة بنا إلى ذكره ، ولا علم لنا بذلك ، ولا يمكن أحدا من أهل الكتاب أن يدعي أن كل نسخة في العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد ، فإن هذا مما لا يمكن أحداً من البشر أن يعرفه باختياره ، وامتحانه ، وإنما يعلم مثل هذا بالوحي وإلا فلا يمكن أحداً من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة في العالم بل نسخة من جميع الألسنة بالكتب الأربعة والعشرين ، وقد رأيناها مختلفة في الألفاظ اختلافا بينا . والتوراة هي أصح الكتب ، وأشهرها عند اليهود ، والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى ، حتى في نفس الكلمات العشر ، ذكر في نسخة السامرة منها ـ من أمر استقبال الطور ـ ما ليس في نسخة اليهود والنصارى ، وهذا مما يبين أن التبديل وقع في كثير من نسخ هذا الكتب ، فإن عند السامرة نسخا متعددة ، وكذلك رأينا في الزبور نسخا متعددة تخالف بعضها بعضا ، مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ والمعاني ، يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود عليه السلام . وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه في التوراة .

فإن قيل : فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة ، فلماذا ذم أهل الكتاب عن ترك الحكم بما أنزل الله منها ؟ قيل النسخ لم يقع إلا في قليل من الشرائع ، وإلا فالأخبار عن الله ، وعن

---

(١) أي ، وغيرهم ضعف حديث الثلاثة والأربع .

اليوم الآخر ، وغير ذلك فلم تنسخ .

وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها ، وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول ، لأن أهل الكتاب كفروا من جهتين ، من جهة تبديلهم الكتاب الأول ، وترك الإيمان ، والعمل ببعضه . ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثاني وهو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُمْ آمِنوا بما أَنْزَلَ اللهُ قالوا نُؤْمِنُ بما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرونَ بما وَراءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلونَ أنبياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ ﴾[1] .

فبين أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء كما كفروا حين مبعثه بما أنزل عليه ، قال تعالى : ﴿ الذينَ قالوا إنّ اللهَ عَهِدَ إلَيْنا ألاّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتى يَأْتِينا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلي بالبَيِّناتِ وَبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُموهُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقينَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ فَإنْ كَذَّبوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤوا بالبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتابِ المنيرِ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالوا لَوْلا أُوتيَ مثلَ ما أُوتيَ موسى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بما أُوتيَ موسى مِنْ قَبْلُ قالوا : سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالوا إنا بِكُلٍّ كافِرونَ * قُلْ فَأْتوا بِكتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إنْ كنتم صَادِقينَ ﴾[4] .

وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمهم على ترك اتباع ما أنزله في التوراة والإنجيل وعلى ترك اتباع ما أنزله في القرآن وبين كفرهم بالكتاب الأول وبالكتاب الثاني ، وليس في شيء من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول ، كما ليس فيه أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ في الكتاب الثاني .

فصل[*]

قوله في سورة المائدة : ﴿ وَقَفَّيْنا على آثارِهِمْ بعيسى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

---

(١) سورة البقرة الآية ٩١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٤ .

(٤) سورة القصص الآيات (٤٨ ـ ٤٩) .

(*) انظر الجواب الصحيح ١ / ٣٠٦ .

التَّوْرَاةِ وآتَيْنَاهُ الإِنجيـلَ فيهِ هُـدًى وَنُورٌ وَمُصَـدِّقاً لِمـا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ التَّـوْرَاةِ وَهُـدًى وَمَـوْعِـظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإِنجيلِ بِما أَنْزَلَ اللهُ فِيـهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْـزَلَ اللهُ فَأولئـكَ هُمُ الفاسقونَ ﴾[1] .

فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بمـا أنزل (الله)[2] فيـه ، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيـح والإنجيل فقـال تعالى : ﴿ يـا أَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسَارِعـونَ في الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قـالوا آمَنّـا بِأَفْـواهِهِمْ وَلَـمْ تُؤْمِنْ قُلوبُهُمْ وَمِنَ الذينَ هَادُوا سَمّاعونَ لِلكَذِبِ سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتوكَ ﴾[3] . أي قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوكَ فهم مصدقون للكذب مطيعون لما يخالفـك وأنت رسول الله .

فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله من أعظم الذنوب .

ولفظ « السميع » : يراد به الإحساس بالصوت ، ويراد به فهم المعنى ، ويراد به قبوله ، فيقـال : فـلان سمـع مـا يقـول فـلان . أي : يـصـدقـه أو يـطيعـه ويـقبـل منـه بقولـه : سماعـون للكذب . أي : مصـدقون بـه وإلا مجرد سمـاع صوت الكـاذب وفهم كلامه ليس مذموما على الإطلاق ، وكذلك سماعون لقوم آخـرين لم يأتـوك . أي : مستجيبون لهم مطيعون لهم كـما قال في حق المنـافقين وفيكم سمـاعون لهم . أي : مستجيبـون لهم مطيعـون لهم ، ومن قـال : إن المـراد بـه الجـاسـوس فهـو غـالط كغلط من قـال سمـاعـون لهم : هـم الجواسيس ، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه ، ومعلوم أن النبي ﷺ كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم ، ولم يكن يقصد أن يكتم يهود المدينة ما يقوله ويفعله ، خلاف من كان يأتيهم من اليهود وهم يصدقون الكذب ويطيعون لليهود الآخرين الـذين لم يأتـوه ، والله نهى نبيه ﷺ أن يحزنه المسارعون في الكفـر من هاتـين الـطائفتين المنـافقتين ، الـذين أظهروا الإيمـان به ولم تؤمن قلوبهم ، ومن أهـل الكتاب الـذين يـطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصـودهم أن يطيعـوه ويتبعوا حكمـه بل إن حكم بمـا يهـوونـه قبلوه . وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه .

قـال تعالى : ﴿ سمـاعـون للكـذب سماعـون لقوم آخـرين لم يأتـوك ﴾ . أي : لم يأتـك أولئـك القوم الآخـرون يقولـون ، أي : يقول السمـاعون : ﴿ إنْ أُوتِيتُمْ هَـذا فَخُذُوهُ وإنْ لَمْ

(١) سورة المائدة الآيات (٤٦ ـ ٤٧) .

(٢) لفظ الجلالة ليس بالأصل .

(٣) سورة المائدة الآية ٤١ .

تُؤْتَوْهُ فاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أولئكَ الذينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قلوبَهُمْ لَهُمْ في الدنيا خزي وَلَهُمْ في الآخرةِ عَذابٌ عَظيمٌ ﴾[1] .

والحكم يفتقر إلى الصدق والعدل ، فلا بد أن يكون الشاهد صادقا ، والحاكم عادلا ، وهؤلاء يصدقون الكاذبين من الشهود ويتبعون حكم المخالفين للرسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم ، بل إن شئت فاحكم بينهم ، وإن شئت فلا تحكم .

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك ، إذ هو العدل .

قال تعالى : ﴿ سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّالونَ للسّحْتِ فَإنْ جَاؤوكَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وإنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرّوكَ شَيْئاً وإنْ حَكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ إنّ اللهَ يُحِبُّ المقسِطينَ ﴾[2] . ثم قال : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التّوراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ثُمّ يَتَوَلّوْنَ مِنْ بَعدِ ذلكَ وَمَا أولئكَ بالمؤمنينَ * إنّا أَنْزَلْنا التّوْرَاةَ فِيها هُدَىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِها النّبِيّونَ الذينَ أسْلَمُوا لِلّذينَ هَادُوا والرّبّانِيُّونَ والأَحْبارُ بما اسْتُحْفِظوا مِنْ كتابِ اللهِ وَكانوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا الناسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَروا بآياتي ثَمَناً قليلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فأولئكَ هُمُ الكافرونَ * وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فيها أنّ النَّفْسَ بالنّفْسِ والعَيْنَ بالعَيْنِ والأَنفَ بالأنفِ والأذنَ بالأذنِ والسنَّ بالسنِّ والجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فأولئكَ هُمُ الظالمونَ ﴾[3] .

فهذا ثناؤه على التوراة ، وإخباره أن فيها حكم الله ، وأنه أنزل التوراة ، وفيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . وهذا أعظم مما ذكره في الإنجيل فإنه قال في الإنجيل : ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ . وقال فيه : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وقال في التوراة : ﴿ يحكم بها النبيون الذي أسلموا للذين هادوا ﴾ . وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فهو سبحانه مع إخباره بإنزال

---

(١) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٢ .

(٣) سورة المائدة الآيات (٤٣ ـ ٤٦) .

الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل .

كما قال تعالى : ﴿ انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الـذي أسلموا للذين هادوا ﴾ .

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمداً صلى الله عليهما وسلم تسليماً ، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى ، فكذلك ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً ﷺ وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل ، واتبعوا المبدل المنسوخ . واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيها ذكر مدح للنصارى ، والنصارى توافق المسلمين على انه ليس فيها ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل . فعلم اتفاق أهل الملل كلها المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيها ذكر في القرآن من ذكر التوراة والإنجيل ، وموسى ، وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً ﷺ ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه فليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل ، ولا بدين منسوخ ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ ؟ .

فصـــل(*)

﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبّونَهُ أَذِلَّةٍ على المؤمنينَ أعِزَّةٍ على الكافِرينَ يُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يَخافونَ لَوْمةَ لائِمٍ ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عليمٌ ﴾[1] .

وهذه حال من قـاتل المـرتدين وأوّلهم الصـديق ومن اتبعه إلى يـوم القيامـة ، فهم الذين جـاهدوا المـرتدين كـأصحاب مسيلمـة الكذاب ومـانعي الزكـاة وغيرهمـا ، وهم الذين فتحـوا الأمصار وغلبوا فارس والروم ، وكانوا أزهد الناس ، كـما قال عبـد الله بن مسعود لأصحـابه : أنتم أكـثر صـلاة وصيـامـا من أصحـاب محمـد وهم كـانـوا خيراً منكم . قـالـوا : لم يـا أبـا عبد الرحمن ؟ قال : لأنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة .

* فهؤلاء هم الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ؛ بخلاف الرافضة فـإنهم أشد النـاس خوفاً من لـوم اللائم ومن عـدوهم . وهم كما قـال تعالى : ﴿يَحْسَبـونَ كُلَّ صَيْحَـةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ

(*) انظر منهاج السنة النبوية ٢/٦٨ بتحقيق دكتور محمد رشاد سالم .

(١) سورة المائدة الآية ٥٤ .

العَدُوُّ فاحْـذَرْهُـمْ قاتَلَهُـمُ الله أنَّى يُؤْفَكُـونَ﴾[1] ولا يعيشون في أهـل القبلة إلا من جنس اليهود في أهل الملل .

ثم يقال : من هؤلاء الذين زهدوا في الدنيا ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، ممن لم يبايع أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وبايع عليّـاً ؟ فإنـه من المعلوم أن في زمن الثلاثـة لم يكن أحد منحازا عن الثلاثة ، مظهراً لمخالفتهم ومبايعة عليّ ، بـل كل النـاس كانـوا مبايعـين لهم ، فغاية مـا يقال أنهم كـانوا يكتمـون تقديم عـليّ ، وليست هذه حـال من لا تأخـذه في الله لومـة لائم .

وأما في حال ولاية عليّ ، فقد كان رضي الله عنه من أكثر النـاس لومـا لمن معه عـلى قلة جهـادهم ونكولهم عن القتـال ، فأين هؤلاء الـذين لا تـأخـذهم في الله لـومـة لائم من هؤلاء الشيعة ؟ .

وإن كـذبوا عـلى أبي ذر من الصحابـة وسلمان وعمـار وغيرهم ، فمن المتـواتر أن هؤلاء كانوا من أعظم الناس تعظيما لأبي بكر وعمر واتبـاعا لهـما ، وإنما ينقـل عن بعضهم التعنت على عثمان لا على أبي بكر وعمر ، وسيأتي الكلام على ما جرى لعثمان رضي الله عنه . ففي خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يكن أحد يسمى من الشيعـة ولا تضاف الشيعـة إلى أحد ، لا عثمـان ولا غيرهما ، فلما قتـل عثمان تفرق المسلمون ، فمـال قوم إلى عثمـان ، ومال قـوم إلى عليّ ، واقتتلت الطائفتان ، وقتل حينئذ شيعة عثمان شيعة عليّ .

وفي صحيح مسلم عن سعد بن هشام أنه أراد أن يغزو في سبيل الله وقدم المدينة ، فأراد أن يبيـع عقاراً (لـه) بها ، فيجعله في السـلاح والكراع ويجـاهد الـروم حتى يموت ، فلما قـدم المدينة لقي أناساً من أهل المدينـة فنهوه عن ذلك ، وأخبروه أن رهـطا ستة أرادوا ذلـك في حياة النبي ﷺ ، فنهاهم نبي الله ﷺ وقال : أليس لكم بي أسوة ؟ فلما حدثوه بذلك راجع امرأته ، وقد كان طلقها ، وأشهد على رجعتها ، فأتى ابن عباس وسأله عن وتـر رسول الله ﷺ ، فقـال لـه ابن عباس : ألا أدلـك على أعلم أهـل الأرض بوتـر رسول الله ﷺ ؟ قـال : من ؟ قال : عائشة رضي الله عنها ، فأتهـا ، فاسـألها ، ثم ائتني فـأخبرني بـردها عليـك . قال : فـانطلقت إليها ، فأتيت على حكيم بن أفلح ، فاستلحقته إليها ، فقـال : ما أنـا بقاربهـا ، لأني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئا فأبت فيهما إلا مضيا . قال : فأقسمت عليه ، فجاء فـانطلقنـا إلى عائشة رضي الله عنها ، وذكر الحديث[2] .

---

(1) سورة المنافقون الآية ٤ .

(2) هذا جزء من حديث طويل ورد في صحيح مسلم في : باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ، ٢/١٦٨ ـ ١٧٠ ، وقد قابلت ما في الأصل على ما في صحيح مسلم فوجدت خلافين : عقارا [له] بها ، إذ كانت «له» ساقطة من الأصل ، ورهطا ستة إذ كانت في الأصل « ستا » .
=

وقال معاوية لابن عباس : أنت على ملة عليّ ؟ فقال : لا على ملة عليّ ولا على ملة عثمان ، أنا على ملة رسول الله ﷺ .

وكانت الشيعة أصحاب عليّ يقدمون عليه أبا بكر وعمر ، وإنما كان النزاع في تقدمه على عثمان . ولم يكن حينئذ يسمى أحد لا إمامياً ولا رافضاً ، وإنما سموا رافضة وصاروا رافضة لما خرج زيد بن علي بن الحسين بالكوفة في خلافة هشام ، فسألته الشيعة عن أبي بكر وعمر ، فترحم عليهم . فرفضه قوم ، فقال : رفضتموني رفضتموني فسموا رافضة ، وتولاه قوم فسموا زيدية لانتسابهم إليه . ومن حينئذ انقسمت الشيعة إلى رافضة إمامية وزيدية ، وكلما زادوا في البدعة زادوا في الشر ، فالزيدية خير من الرافضة : أعلم وأصدق وأزهد وأشجع .

ثم بعد أبي بكر عمر بن الخطاب ، (و) هو الذي لم تكن تأخذه في الله لومة لائم ، وكان أزهد الناس باتفاق الخلق كما قيل فيه : رحم الله عمر لقد تركه الحق ماله من صديق .

فصل (*)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ .

منها قوله تعالى : ﴿وعبد الطاغوت﴾ : والصواب عطفه على قوله : ﴿من لعنه الله﴾ فعل ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية ، لكن المتقدمة الفاعل الله مظهرا أو مضمرا . وهذا الفعل اسم من عبد الطاغوت ، وهو الضمير في عبد ولم يعد حرف (من) لأن هذه الأفعال لصنف واحد وهم اليهود . والله أعلم .

فصل (*)

(في بطلان الاستدلال بالمتشابه)

قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً للذينَ آمَنوا اليهودَ والذينَ أشْرَكوا وَلَتَجِدَنَّ

= ويقصد ابن تيمية بإيراد الحديث قول حكيم بن أفلح : « لأني نهيتها ان تقول في هاتين الشيعتين شيئا » إذ أن هذا يبين تاريخ استعمال كلمة « الشيعتين » والمقصود بهما شيعة علي وشيعة اصحاب الجمل . وفي تهذيب التهذيب ٢/٤٤٤ : حكيم بن افلح حجازي ، روى عن ابن مسعود وعائشة . . وذكره ابن حبان في الثقات .

(*) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/٤٥٥ .

(*) انظر الجواب الصحيح ١/٥٥ ـ ٦٥ .

أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً للذينَ آمَنـوا الذينَ قـالوا إنّـا نَصارَى ذلـكَ بأنّ مِنْهُمْ قِسّيسينَ وَرُهْبَـانـاً وأنّهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[1] .

فذكر القسيسين والرهبـان ، لئلا يقـال : إن هذا قيـل عن غيرنـا فدل هـذا على أفعـالنا وحسن نياتنا[2] ، ونفى عنا اسم الشرك بقوله : اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة .

والجـواب أن يقال : تمـام الكلام : ﴿وإذا سَمِعـوا ما أُنْـزِلَ إلى الـرسـولِ تَـرَى أعْيُنَهُمْ تَفيضُ مِنَ الدّمْعِ مِمّا عَرَفوا مِنَ الحَقِّ يَقولونَ رَبّنا آمَنّا فاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدينَ * وَمَا لَنا لا نؤمنُ باللّهِ وَما جاءَنا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ القومِ الصالحينَ * فأثابَهُمُ اللّهُ بِما قالـوا جناتٍ تَجري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالِدينَ فِيها وذلكَ جَزاءُ المحسنينَ﴾[3] .

فهـو سبحانـه لم يعد بـالثواب في الآخـرة إلا لهؤلاء الذين آمنـوا بمحمد ﷺ الـذين قال فيهم : ﴿وإذا سمعوا ما أنـزل الى الرسـول ترى أعينهم تفيض من الـدمع مما عرفـوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ .

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وهم الشهداء الذين قال فيهم ﴿وكذلكَ جَعَلْناكُمْ أُمّةً وَسَطاً لِتكونوا شُهَداءَ على الناسِ وَيَكونَ الرسولُ عليكُمْ شَهِيداً﴾[4] ، ولهذا قال ابن عباس وغيره . ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ ، قال : محمد ﷺ وأمته .

وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين ، كما قال الحواريون : ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ .

وقال تعالى : ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا ارْكَعوا وَاسْجُدوا وَاعْبُـدوا رَبّكُمْ وَافْعَلوا الخيرَ لعلكم تُفلِحونَ * وَجَاهِدوا في اللّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَما جَعَلَ عليكُمْ في الدينِ مِنْ حَرَجٍ مِلّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ هُوَ سَمّاكُمْ المسلمينَ مِنْ قبلُ وفي هذا لِيكونَ الـرسولُ شَهيـداً عليكُمْ وَتكونـوا شُهَداءَ على الناسِ﴾[5] .

---

(١) المائدة : ٨٢ .

(٢) الحديث هنا عن النصارى من قسيسين ورهبان ، فهم القائلون بأن أفعالنا حسنة بخلاف اليهود والذين أشركوا .

(٣) سورة المائدة الآيات (٨٣ ـ ٨٥) .

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

(٥) سورة الحج الآيات (٧٧ ـ ٧٨) .

وأما قوله في أول الآية : ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ ، فهو كما أخبر سبحانه وتعالى ، فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى . والنصارى أقرب مودة لهم ، وهذا معروف من أخلاق اليهود ، فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس في النصارى .

وفي النصارى من الرحمة والمودة ما ليس في اليهود ، والعداوة أصلها البغض . فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم ، فكيف ببغضهم للمؤمنين ؟

وأما النصارى فليس في الدين الذي يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فساداً ، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم المؤمنين بجميع الكتب والرسل ؟

وليس في هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب ، وإنما فيه أنهم أقرب مودة ، وقوله تعالى : ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾ أي بسبب هؤلاء ، وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيراً من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين .

ثم قال تعالى : ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة ، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين فالمراد به جنس المتقدمين لا كل واحد منهم ، كقوله تعالى : ﴿الـذينَ قالَ لَهُمُ النـاسُ إن الناسَ قَدْ جَمَعوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وَقالوا حَسْبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيلُ﴾[٢] .

وكان جنس الناس ، قالوا لهم : إن جنس الناس ، قد جمعوا ويمتنع العموم فإن القائل من الناس ، والمقول له من الناس ، والمقول عنه من الناس ، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجيمع الناس : إنه قد جمع لكم جميع الناس .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾[١] . أي جنس اليهود قال هذا ، لم يقل هذا كل يهودي . ومن هذا أن في النصارى من رقة القلوب التي توجب لهم الإيمان ما ليس في اليهود ، وهذا حق ، وأما قولهم : ونفى عنا اسم الشرك ، فلا ريب أن الله فرق بين المشركين ، وأهل الكتاب في عدة مواضع ، ووصف من أشرك منهم في بعض المواضع بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين في عدة مواضع ، وكلا الأمرين حق ، فالأول كقوله

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .

تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الذين كَفَروا مِنْ أهلِ الكتابِ والمشركينَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿إنّ الذينَ آمنوا وَالذينَ هَادُوا والصّابئينَ وَالنّصارَى والمجوسَ والذين أشْرَكوا﴾[1] . وقال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أشَدَّ الناسِ عَداوةً للذينَ آمَنوا اليهودَ والذين أشْرَكوا﴾ .

وأما وصفهم بالشرك ففي قوله : ﴿اتّخَذوا أحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أرْباباً مِنْ دونِ اللَّهِ والمسيحَ بنَ مريمَ وَما أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هَو سُبْحانَهُ عَمّا يُشرِكونَ﴾ فنزه نفسه عن شركهم ، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك ، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد ، والنهي عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿واسْأَلْ مَنْ أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دونِ الرّحمنِ آلهةً يُعبَدونَ ؟﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كِلِّ أُمّةٍ رَسولاً أَنِ أعْبُدوا اللّهَ واجْتَنِبوا الطاغوتَ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسولٍ إلا نُوحِي إليهِ أنّهُ لا إلهَ إلا أنا فَاعْبُدونِ﴾[4] .

فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه ومن قبله من الرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي التوراة من ذلك ما يعظم وصفه ؛ لم يأمر أحد من الأنبياء بأن يعبد ملك ولا نبي ولا كواكب ولا وثن ، ولا أن تسأل الشفاعة إلى الله من ميت ولا غائب ، ولا نبي ولا ملك فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة ، ويقول : اشفعوا لنا إلى الله ، ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين ، ويقول : اشفعوا لنا إلى الله ، ولا تصور تماثيلهم لا مجسدة ذات ظل ، ولا مصورة في الحيطان ، ولا يجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قربة وطاعة سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل ، أو تعظيمهم والاستشفاع بهم ، وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالى ،وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها ، وقصدوا دعاء التماثيل ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها ، كما فعله جهال المشركين ، وإن كان في هذا جميعه إنما يعبدون الشيطان ، وإن كانوا لا يقصدون عبادته ، فإنه يتصور لهم في صورة ما يظنون أنها صورة الذي يعظمونه ، ويقول : أنا الخضر ، أنا المسيح ، أنا جرجس ، أنا الشيخ فلان .

كما قد وقع هذا لغير واحد من المنتسبين إلى المسلمين والنصارى . وقد يدخل الشيطان في

---

(١) سورة الحج الآية ١٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٥ .

(٣) سورة النحل اللآية ٣٦ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

بعض التماثيل فيخاطبهم ، وقد يقضي بعض حاجاتهم ، فبهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديماً وحديثاً ؛ وفعل النصارى وأشباههم ما فعلوه من الشرك .

وأما الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه فنهوا عن هذا كله ، ولم يشرع أحد منهم شيئاً من ذلك ، فالنصارى لا يأمرون بتعظيم الأوثان المجسدة ، ولكن بتعظيم التماثيل المصورة . فليسوا على التوحيد المحض ، وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان ويكذبون الرسل ، فلهذا جعلهم الله نوعا غير المشركين تارة ، وذمهم على ما أحدثوه من الشرك تارة .

وإذا أطلق لفظ الشرك فطائفة من المسلمين تدخل فيه جميع الكفار من أهل الكتاب ، وغيرهم كقوله تعالى: ﴿ولا تُنْكِحُوا المشركينَ حتى يُؤْمِنوا﴾[1]،﴿ولا تَنْكِحُوا المشركاتِ حتى يُؤْمِنَّ﴾ فمن الناس من يجعل اللفظ عاما لجميع الكفار لا سيما النصارى ثم من هؤلاء من ينهي عن نكاح هؤلاء ، كما كان عبد الله بن عمر ينهي عن نكاح هؤلاء ، ويقول لا أعظم شركا من أن يقول : عيسى ربنا .

وهذا قول طائفة من الشيعة وغيرهم .

وأما جمهور السلف والخلف . فيجوزون نكاح الكتابيات ، ويبيحون ذبائحهم ، لكن إذا قالوا : لفظ المشركين عام ، قالوا : هذه الآية مخصوصة أو منسوخة بآية المائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الذينَ أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ والمُحْصَناتُ مِنَ المؤمناتِ والمُحْصَناتُ مِنَ الذينَ أُوتوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إذا آتَيْتُموهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنينَ غَيْرَ مُسافِحينَ ولا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ ﴾[2] .

وطائفة أخرى تجعل لفظ المشركين إذا أطلق لا يدخل فيه أهل الكتاب ، وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله ، فهذا متفق عليه بين المسلمين ، كما نطق به القرآن كما أن المسلمين متفقون على أن قوله : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناسِ عداوةً للذينَ آمَنوا اليهودَ والذينَ أشْرَكوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدّةً للذينَ آمَنوا الذينَ قالوا إنا نَصارى ﴾ لأن النصارى لم يدخلوا في لفظ الذين أشركوا ، كما لم يدخلوا في لفظ اليهود .

وكذلك قوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ والمشركينَ ﴾ . ونحو ذلك ، وهذا لأن لفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥ .

يدخل فيه عند الاقتران ، كلفظ المعروف والمنكر في قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بالمعروفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ المنكرِ ﴾[1] ، فإنه يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف ، وجميع مانهى عنه فإنه منكر .

وفي قوله : ﴿ لا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نجواهُمْ إلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ معروفٍ أَوْ إصلاحٍ بَيْنَ الناسِ ﴾[2] . فهنا قرن الصدقة بالمعروف والإصلاح بين الناس .

وكذلك المنكر في قوله : ﴿ إن الصّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ ﴾[3] . قرن الفحشاء بالمنكر ، وقوله : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرونَ ﴾ قرن الفحشاء بالمنكر والبغي .

وكذلك لفظ البرّ والإيمان ، وإذا أفرده دخل فيه الأعمال والتقوى ، كقوله : ﴿ ولكّن البِرَّ مِنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ ﴾[4] .

وقال : ﴿ إنّ الأبرارَ لَفي نعيمٍ ﴾[5] . وقوله : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ ، ﴿ لِيُدْخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تَجري ﴾[6] ، وقال : ﴿ إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً وعلى رَبِّهم يَتَوَكّلونَ ﴾[7] ، وقد يقرنه بغيره كقوله : ﴿ وَتَعاوَنوا على البِرِّ وَالتّقوى ﴾[8] ، وقوله : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ ﴾ ، وكذلك لفظ الفقير ، والمسكين إذا أفرد أحدهما دخل فيه لفظ الآخر .

وقد يجمع بينهما في قوله : ﴿ إنّما الصدقاتُ للفُقَراءِ والمساكينِ ﴾[9] ، فيكونان هنا صنفين ، وفي تلك المواضع صنف واحد ، فكذلك لفظ الشرك في مثل قوله : ﴿ إنّما المشركونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هَذا ﴾[10]، يدخل فيه جميع الكفار

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .
(٢) سورة النساء الآية ١١٤ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ١١٤ .
(٤) سورة البقرة الآية ١١٧ .
(٥) سورة الانفطار الآية ١٣ .
(٦) سورة الفتح الآية ٥ .
(٧) سورة الأنفال الآية ٢ .
(٨) سورة المائدة الآية ٢ .
(٩) سورة التوبة الآية ٦٠ .
(١٠) سورة التوبة الآية ٢٨ .

أهل الكتاب ، وغيرهم عند عامة العلماء ، لأنه أفرده وجرده ، وإن كانوا إذا قرن بأهل الكتاب كانا صنفين .

وفي صحيح مسلم عن بريدة أن النبي ﷺ : « كان إذا أرسل أميراً على سرية ، أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، وأوصاه بمن معه من المسلمين خيراً ، وقال لهم : اغزوا بسم الله في سبيل الله ، في دعة قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث - فإنهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم - إلى الإسلام فان أجابوك إلى ذلك ، فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين وليس لهم في الغنيمة والفيء نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم » .

وهذا الحديث كان بعد نزول آية الجزية ، وهي إنما نزلت عام تبوك لما قاتل النبي ﷺ النصارى بالشام ، واليهود باليمن .

وهذا الحكم ثابت في أهل الكتاب باتفاق المسلمين ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، ولكن تنازعوا في الجزية : هل تؤخذ من غير أهل الكتاب ؟ وهذا مبسوط في موضعه .

فصـــل
في ادعاء النصارى أن القرآن سوّى بين جميع الأديان

قالوا في سورة المائدة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وَالذين هَادُوا وَالصَّابئونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليوم ِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ ﴾[1] .

فساوى بهذا القول بين سائر الناس : اليهـود والمسلمين وغيرهم .

والجواب أن يقال أولا : لا حجة لكم في هذه الآية على مطلوبكم ، فإنه يسوى بينكم وبين اليهود والصابئين ، وأنتم مع المسلمين متفقون على أن اليهود كفار من بعث المسيح إليهم فكذبوه .

وكذا الصابئون من حيث بعث إليهم رسول فكذبوه ، فهم كفار فإن كان في الآية مدح

(١) سورة المائدة الآية ٦٩ .

لدينكم الذي أنتم عليه بعد مبعث محمد ﷺ ففيها مدح دين اليهود أيضاً ، وهذا باطل عندكم وعند المسلمين .

وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل .

وكذلك يقال لليهودي ، إن احتج بها على صحة دينه .

وأيضا فإن النصارى يكفرون اليهود ، فإن كان دينهم حقا لزم كفر اليهود ، وإن كان باطلا لزم بطلان دينهم فلا بد من بطلان أحد الدينين فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما ، وقد سوت بينهما .

فعلم أنها لم تمدح واحدا منهما بعد النسخ والتبديل ، وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد ﷺ ، والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام ، وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل . والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام ، وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل .

والصائبون ، وهم الصائبون الحنفاء ، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ .

فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة ، وهو عمرو بن لحي ، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك ، وتحريم ما لم يحرمه الله . ولهذا قال النبي ﷺ : « رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه ـ أي أمعاءه ـ في النار » وهو أول من بحر البحيرة وسيب السوائب وغير دين إبراهيم .

وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين ، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ، ونحوهم الذين مدحهم الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر وعمل صالحاً ، كما قال تعالى : ﴿ قاتِلوا الذينَ لا يُؤمِنونَ بالله ولا بِاليومِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ الله

ورسولُهُ ولا يَدينونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتوا الكِتابَ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ ﴾(١) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصــــل(*)

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ؛ وَلا تَعْتَدُوا إنّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ حلالاً طَيِّباً ﴾ الآية(١) .

ومن المشهور في التفسير : أنها نزلت بسبب جماعة من الصحابة كانوا قد عزموا على الترهب ، وفي الصحيحين عن أنس : « أن رجالاً سألوا أزواج النبي ﷺ ، عن عبادته في السر ، فتقالّوا ذلك » وذكر الحديث .

وفي الصحيحين عن سعد قال : « ردّ النبي ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا » . وعن عكرمة أن عليّ بن أبي طالب وابن مسعود وعثمان بن مظعون والمقداد ، وسالما مولى أبي حذيفة في أصحاب لهم تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا الطيبات من الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهمّوا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار(٢) ، فنزلت هذه الآية . وكذلك ذكر سائر المفسرين ما يشبه هذا المعنى .

وقد ذم الله الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وذم الذين يتبعون الشهوات ، والذين يريدون أن يميلوا ميلا عظيما ، ويريدون ميل المؤمنين ميلا عظيما . وذم الذين اتبعوا ما أترفوا فيه ، والذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وأكثر الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات شربة الخمر ، كما قال تعالى : ﴿ إنما يُريدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوةَ وَالبَغْضاءَ في الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٩ .

(*) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/٤٥٦ - ٤٧٨ . ط السعودية .

(٢) سورة المائدة الآية ٨٧ . وسبب نزول الآية قد سبقت الإشارة إليه فليراجع - وانظر أسباب النزول للواحدي ص ١١٧ .

(٣) ورد في الحديث محققاً مع بيان سبب نزول الآية وذكر من نزلت في حقهم .

الصلاة ﴾[1] فجمعوا بين الشهوة المحرمة وترك ذكر الله وإضاعة الصلاة ، وكذلك غيرهم من أهل الشهوات .

ثم نهى سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات ، وعن الاعتداء في تناولها ، وهو مجاوزة الحد ، وقد فسر الاعتداء في الزهد والعبارة بأن يحرموا الحلال ويفعلوا من العبادة ما يضرهم ، فيكونوا قد تجاوزوا الحد وأسرفوا . وقيل : لا يحملنكم أكل الطيبات على الإسراف وتناول الحرام من أموال الناس فإن آكل الطيبات والشهوات المعتدى فيها لا بد أن يقع في الحرام لأجل الإسراف في ذلك .

والمقصود بالزهد ترك ما يضر العبد في الآخرة ، وبالعبادة فعل ما ينفع في الآخرة ، فإذا ترك الإنسان ما ينفعه في دينه وينفعه في آخرته وفعل من العبادة ما يضر فقد اعتدى وأسرف ، وإن ظن ذلك زهداً نافعاً وعبادة نافعة .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والنخعي : (ولا تعتدوا) أي لا تجبوا أنفسكم ، وقال عكرمة لا تسيروا بغير سيرة المسلمين : من ترك النساء ، ودوام الصيام والقيام . وقال مقاتل : لا تحرموا الحلال ، وعن الحسن لا تأتوا ما نهى الله عنه ، وهذا ما أريد به لا تحرموا الحلال ولا تفعلوا الحرام ؛ فيكون قد نهى عن النوعين ؛ لكن سبب نزول الآية وسياقها يدل على قول الجمهور ، وقد يقال هذا مثل قوله : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا﴾ وقوله في تمام الآية : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حلالاً طَيِّباً ﴾ الآية .

وكذلك الأحاديث الصحيحة كقول أحدهم : لا أتزوج النساء ، وقول الآخر لا آكل اللحم . كما في حديث أنس المتقدم ، وهذا مما يدل على أن صوم الدهر مكروه ، وكذلك مداومة قيام الليل .

فصل

وهذا الذي جاءت به شريعة الإسلام هو الصراط المستقيم ، وهو الذي يصلح به دين الإنسان ، كما قال النبي ﷺ : « أعدل الصيام صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوماً »[2] وفي رواية صحيحة : « أفضل » والأفضل هو الأعدل الأقوم . وهذا القرآن يهدي للتي هي

---

(١) سورة المائدة الآية ٩١ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب فضائل القرآن ، والصوم ، الأنبياء) ولفظه أفضل الصوم .. الخ الحديث ، وفي مسلم (كتاب الصيام) والنسائي (كتاب الصيام) ، ابن حنبل ١٨٦/٣ .

أقـوم ، وهي وسط بين هـذين الصنفين : أصحـاب البدع وأصحـاب الفجور أهـل الإسـراف والتقشف الزائد .

ولهـذا كان السلف يحـذرون من هـذين الصنفـين . قـال الحسن : هـو المبتـدع في دينـه والفاجر في دنياه ، وكانوا يقولون : احذروا صاحب الدنيا أغوتـه دنياه ، وصـاحب هوى متبـع لهواه ، وكانوا يأمرون بمجانبة أهل البدع والفجور .

فـ « القسم الأول » : أهل الفجور ، وهم المترفون المنعمون ، أوقعهم في الفجور مـا هم فيه .

و « القسم الثـاني » : المتـرهبـون ، أوقعهم في البـدع غلوهم وتشـديـدهم . هؤلاء (استمتعوا بخلاقهم) وهؤلاء خاضوا كما خاض الـذين من قبلهم ، وذلك أن الـذين يتبعون الشهوات المنهي عنها أو يسرفون في المباحات ويتركون الصلوات والعبادات المأمـور بها يستحـوذ عليهم الشيـطان والهوى فينسيهم الله والـدار الآخرة ، ويفسـد حالهم ، كما هو مشـاهد كثيـراً منهم .

والذين يحرمون ما أحل الله من الطيبات ـ وإن كانـوا يقولـون : إن الله لم يحرم هـذا ؛ بل يلتزمون أن لا يفعلوه ، إما بالنذر وإما باليمين ، كما حرم كثير من العباد والـزهاد أشيـاء ـ يقول أحدهم ، لله علي أن لا آكل طعاما بالنهار أبداً ، ويعاهد أحدهم أن لا يأكل الشهوة الملائمة ، ويلتزم ذلك بقصده وعزمه ، وإن لم يحلف ولم ينذر. فهذا يلتزم أن لا يشرب الماء ، وهذا يلتزم أن لا يأكل الخبز ، وهذا يلتزم أن لا يشرب الفقاع ، وهذا يلتزم أن لا يتكلم قط ، وهذا يجب نفسه ، وهذا يلتزم أن لا ينكح ولا يذبح ، وأنواع هذه الأشياء من الرهبانية التي ابتدعوها على سبيل مجاهدة النفس ، وقهر الهوى والشهوة .

ولا ريب أن مجـاهدة النفس مـأمور بهـا ، وكذلـك قهر الهـوى والشهوى ، كـما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله ، والكيس من دان نفسه وعمـل لما بعـد الموت ، والعـاجز من أتبـع نفسه هـواها وتمنى عـلى الله »[1] لكن المسلم المتبـع لشـريعـة الإسلام هو المحرم ما حرمه الله ورسوله ، فلا يحرم الحلال ولا يسرف في تناوله ؛ بل يتناول مـا يحتاج إليه من طعـام أو لباس أو نكـاح ، ويقتصد في ذلـك ، ويقتصد في العبـادة ؛ فلا يحمـل نفسه ما لا تطيق .

فهذا تجده يحصل له من مجـاهدات النفس وقهـر الهوى مـا هو أنفـع له من تلك الـطريق المبتدعة الوعرة القليلة المنفعـة ، التي غالب من سلكهـا ارتدّ عـلى حافـره ، ونقض عهده ، ولم

(١) ورد الحديث في : الترمذي (كتاب القيامة) ، ابن ماجه (كتاب الزهد) ، ابن حنبل ١٢٤/٤ .

يرعها حق رعايتها . وهذا يثاب على ذلك ما لا يثاب على سلوك تلك الطريق ، وتزكو به نفسه ، وتسير به إلى ربه ، ويجد بذلك من المزيد في إيمانه ما لا يجده أصحاب تلك الطريق ، فإنهم لا بد أن تدعوهم أنفسهم إلى الشهواتَ المحرمة ؛ فإنه ما من بني آدم إلا من أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا وقد قال تعالى : ﴿وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفاً﴾[1] .

قال طاووس في أمر النساء وقلة صبره عنهن كما تقدم ، فميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم ، وقد يبتلى كثير منهم بالميل الى الذكران ، كما هو المذكور عنهم ؛ فيبتلى بالميل إلى المردان ، وإن لم يفعل الفاحشة الكبرى ابتلى بما هو دون ذلك من المباشرة والمشاهدة ، ولا يكاد أن يسلم أحدهم من الفاحشة إما في سره وإما بينه وبين الأمرد ، ويحصل للنفس من ذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فإذا ابتلي المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه في الله ، وهو مأمور بهذا الجهاد ليس أمراً أوجبه وحرمه هو على نفسه ، فيكون في طاعة نفسه وهواه ؛ بل هو أمر حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه ؛ فيصير بالمجاهدة في طاعة الله ورسوله .

وفي حديث رواه أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا : (من عشق فعفّ وكتم وصبر ثم مات فهو شهيد) وأبو يحيي في حديثه نظر ؛ لكن المعنى الذي ذكره دلّ عليه الكتاب والسنة ؛ فإن الله أمر بالتقوى والصبر ، فمن التقوى أن يعفّ عن كل ما حرمه الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد ورجل ، ومن الصبر أن يصبر عن شكوى ما به إلى غير الله عز وجل . فإن هذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيئان :

« أحدهما » : أن يكتم بثّه وألمه ، فلا يشكو إلى غير الله ، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانين ، لكن هذا لا يقدر عليه كل أحد ؛ بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين : فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب الأديان ، ومضرات النفوس ومنافعها ؛ ليعالج نفسه بعلاج الإيمان ؛ فهذا بمنزلة المستفتي ، وهذا حسن .

وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة ، كما يشكو المصاب مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الاستعانة على مصيبته ، فهذا ينقص صبره ؛ ولكن لا يأثم مطلقا إلا إذا اقترن به ما يحرم ، كالمصاب الذي يتسخط .

---

(١) سورة النساء الآية ٢٨ .

و« الثاني » : أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس ؛ لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة ، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت ، وتشهت وتمنت وتيمت ، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعياً له إلى الفعل والتشبه به ، والنساء متى رأين البهائم تنزو الذكور منها على الإناث ملن إلى الباءة والمجامعة ، والرجل إذا سمع من يفعل مع المردان والنساء ورأى ذلك أو تخيله في نفسه دعاه ذلك إلى الفعل ، وإذا ذكر للإنسان طعام اشتهاه ومال إليه ، وإن وصف له ما يشتهيه من لباس أو امرأة أو مسكن أو غيره مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حن إليه ، وكل ما في نفس الإنسان محبته إذا تصوره تحركت المحبة والطلب إلى ذلك المحبوب المطلوب ؛ إما إلى وصفه وإما إلى مشاهدته ، وكلاهما يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخيل بالسماع أو الرؤية أو الفكر في بعض الأمور المتعلقة به ، فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى ما تخيلته فتحركت داعية المحبة ، سواء كانت محبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس إلى الحج إذا ذكر الحجاز ، أو كان أوان الحج ، أو رأى من يذهب إلى الحج من أهله وأقاربه ، أو أصحابه أو غيرهم ، ولو لم يسمع ذلك ويراه لما تحرك ولا حدث منه داعية قوّته إلى ذلك ، فتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلي ونحو ذلك ؛ لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهباً إلى محبوبه ، فصار ذكرها يذكره بالمحبوب .

وكذلك أصحاب المتاجر والأموال ، إذا سمع أحدهم بالمكاسب تحركت داعيته إلى ذلك ، وكذلك أهل الفرج والتنزه إذا رأوا من يقصد ذلك تحركوا إليه ، وهذه الدواعي كلها مركوزة في نفوس بني آدم ، والإنسان ظلوم جهول .

وكذلك ذكر آثار رسول الله ﷺ تذكر به وتحرك محبته ، فالمبتلى بالفاحشة والعشق إذا ذكر ما به لغيره تحركت نفس ذلك الغير إلى جنس ذلك ؛ لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة ، فإذا تصورت جنساً تحرك إليها المحبوب .

ولهذا نهى الله تعالى عن إشاعة الفاحشة . وكذلك أمر بستر الفواحش ، كما قال النبي ﷺ : « من ابتلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله »[1] وقال : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين[2] ، وإن المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله فيصبح يتحدث به » فما دام الذنب مستوراً فعقوبته على

---

(١) أورده الامام مالك في الموطأ (كتاب الحدود) .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الآداب) ، وفي مسلم (كتاب الزهد) ، وفي الموطأ (كتاب الكلام) .

صاحبه خاصة ، وإذا ظهر ولم ينكر كان ضرره عاما ، فكيف إذا كان في ظهوره تحريك لغيره إليه .

ولهذا كره الإمام أحمد وغيره إنشاد الأشعار : الغزل الرقيق ؛ لأنه يحرك النفوس إلى الفواحش ؛ فلهذا أمر من يبتلي بالعشق أن يعف ويكتم ويصبر ، فيكون حينئذ ممن قال الله فيه : ﴿إنه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يضيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾[1] .

والمقصود أنه يثاب على هذه المجاهدة ، والمجاهد من جاهد نفسه في الله . وأما المبتدعون في الزهد والعبادة السالكون طريق الرهبان فإنهم يزهدون في النكاح ، وفضول الطعام ، والمال ونحو ذلك . وهذا محمود ؛ لكن عامة هؤلاء لا بد أن يقعوا في ذنوب من هذا الجنس ، كما نجد كثيراً منهم يبتلى بصحبة الأحداث ، وإرفاق النساء ؛ فيبتلون بالميل إلى الصور المحرمة من النساء والصبيان ما لا يبتلي به أهل السنة المتبعون للشريعة المحمدية .

وحكاياتهم في هذا أكثر من أن يحكى بسطها في كتاب ، وعندهم من الفواحش الباطنة والظاهرة ما لا يوجد عند غيرهم ، وخيار من فيهم يميل إلى الأحداث والغناء والسماع ؛ لما يجدون في ذلك من راحة النفوس ولو اتبعوا السنة لاستراحوا من ذلك .

قال أبو سعيد الخراز لما قال له الشيطان في المنام : لي فيكم لطيفتان السماع وصحبة الأحداث ، قال أبو سعيد : قل من ينجو منها من أصحابنا حتى لقوة محبة نفوسهم صار ذلك ممتزجا بطريقهم إلى الله ، فإن أحدهم يجد في نفسه عند مشاهدة الشاهد من الرغبة فيما اعتاده من العبادة والزهادة ما لا يجدها بدون ذلك ، وعنده في نفسه عند سماع القصائد من الشوق والرغبة والنشاط ما لا يجده عند سماع القرآن ، فصاروا في شبهة وشهوة لم يكتف الشيطان منهم بوقوعهم في الأمور المحرمة ، التي تفتنهم حتى جعلهم يعتبرون ذلك عبادة ، كالذين قال الله فيهم : ﴿وإذا فَعَلوا فاحِشَةً قالوا : وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا ، وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها﴾ الآية[2] . وهؤلاء هم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

واذا وقعوا في السماع وقعوا فيه بشوق ورغبة قوية ، ومحبة تامة ، وبذلوا فيه أنفسهم وأموالهم . فقد يبذلون فيه نساءهم وأبناءهم ، ويدخلون في الدياثة لأغراضهم ، فيأتي أحدهم بولده فيهبه للشيخ يفعل ما أراد هو ومن يلوذ به ، ويسمونه حواراً ، وإن كان حسن الصورة استأثر به الشيخ دونهم ، ويعد أهله ذلك بركة حصلت له من الشيخ ، ويرتفع الحياء بين أم

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

الصبي وأبيه وبين الفقراء .

وإذا صلوا صلوا صلاة المنافقين ، يقومون إليها وهم كسالى يراؤ ون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . فقد أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، ومع هذا فهم قد يزهدون في بعض الطيبات التي أحلها الله لهم ، ويجتهدون في عبادات وأذكار ، لكن مع بدعة وأفعال لا تجوز مما تقدم ذكره ، فتلك البدعة هي التي أوقعتهم في اتباع الشهوات ، وإضاعة الصلوات ؛ لأن الشريعة مثالها مثال سفينة نوح ؛ من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق . وهؤلاء تخلفوا عنها فغرقوا بحبهم ، ويتوب الله على من تاب .

والسالكون للشريعة المحمدية إذا ابتلوا بالذنوب لم تكن التوبة عليهم من الآصار والأغلال ؛ بل من الحنيفية السمحة ، وأما أهل البدع فقد تكون التوبة عليهم آصاراً وأغلالا ، كما كانت على من قبلنا من الرهبان فإنهم إذا وقع أحدهم في الذنب لم يخلص من شره إلا ببلاء شديد ، من أجل خروجه عن السنة .

وهؤلاء قد يظن أحدهم أنه لا يمكنه السلوك إلى الله تعالى إلا ببدعة .

وكذلك أهل الفجور المترفين قد يظن أحدهم أنه لا يمكنه فعل الواجبات إلا بما يفعله من الذنوب ، ولا يمكنه ترك المحرمات إلا بذلك ، وهذا يقع لبشر كثير من الناس .

منهم من يقول : إنه لا يمكن أداء الصلوات واجتناب الكلام المحرم ـ من الغيبة وغيرها ـ إلا بأكل الحشيشة .

ويقول الآخر : إن أكلها يعينه على استنباط العلوم وتصفية الذهن حتى يسميها بعضهم معدن الفكر والذكر ، ومحركة العزم الساكن ، وكل هذا من خدع النفس ومكر الشيطان بهؤلاء وغيرهم ، وإنها لعمى الذهن ، ويصير آكلها أبكم مجنونا لا يعي ما يقول .

وكذلك في هؤلاء من يقول : إن محبته لله ورغبته في العبادة ، وحركته ووجده وشوقه وغير ذلك لا يتم إلا بسماع القصائد ، ومعاشرة الشاهد من الصبيان وغيرهم ، وسماع الأصوات والنغمات ، ويزعمون أنهم بسماع هذه الأصوات ورؤ ية الصور المحركات تتحرك عندهم من دواعي الزهد والعبادة ما لا تتحرك بدون ذلك ، وإنهم بدون ذلك قد يتركون الصلوات ، ويفعلون المحرمات الكبار ، كقطع الطريق ، وقتل النفوس ، ويظنون انهم بهذا ترتاض نفوسهم ، وتلتذ بذلك لذة تصدها عن ارتكاب المحارم ، والكبائر ، وتحملها على الصلاة والصوم والحج .

وهذا مستند كثير من الشيوخ الذين يدعون الناس إلى طريقهم بالسماع المبتدع على اختلاف ألوانه وأنواعه . منهم من يدعو إليه بالدف والرقص ، ومنهم من يضيف إلى ذلك

الشبابات ، ومنهم من يعمله بالنساء والصبيان ، ومنهم من يعمله بالدف والكف ، ومنهم من يعمله بأذكار واجتماع ، وتسبيحات وقيام ، وإنشاد أشعار وغير ذلك من سائر أنواعه وألوانه .

وربما ضموا إليه من معاشرة النساء والمردان ونحو ذلك . ويقولون هؤلاء الذين توبناهم وقد كانوا لا يصلون ، ولا يحجون ، ولا يصومون بل كانوا يقطعون الطريق ، ويقتلون النفس ، ويزنون ؛ فتوبناهم عن ذلك بهذا السماع . وما أمكن أحدهم استتابتهم بغير هذا .

وقد يعترفون أن ما فعلوه بدعة منهي عنها أو محرمة ؛ ولكن يقولون ما أمكننا إلا هذا ، وإن لم نفعل هذا القليل من المحرم حصل الوقوع فيما هو أشد منه تحريما ، وفي ترك الواجبات ما زيد إثمه على إثم هذا المحرم القليل في جنب ما كانوا فيه من المحرم الكثير .

ويقولون : إن الإنسان يجد في نفسه نشاطا وقوة في كثير من الطاعات إذا حصل له ما يحبه ، وإن كان مكروها حراما . واما بدون ذلك فلا يجد شيئا ، ولا يفعله . وهو أيضا يمتنع عن المحرمات ، إذا عوض بما يحبه وإن كان مكروها ، وإلا لم يمتنع ، وهذه الشبهة واقعة لكثير من الناس ، وجوابها مبني على ثلاث مقامات :

« أحدها » : أن المحرمات قسمان :

« أحدهما » : ما يقطع بأن الشرع لم يبح منه شيئا لا لضرورة ولا لغير ضرورة : كالشرك ، والفواحش ، والقول على الله بغير علم . والظلم المحض ، وهي الأربعة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنّما حَرَّمَ رَبِّي الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ ، والإثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ ، وأن تُشْرِكوا بالله ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلطاناً ، وأنْ تَقولوا على اللهِ ما لا تَعْلَمونَ ﴾[1] .

فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع ، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ، ولم يبح منها شيئاً قط ، ولا في حال من الأحوال ، ولهذا أنزلت في هذه السورة المكية ، ونفي التحريم عما سواها ؛ فإنما حرمه بعدها كالدم والميتة ولحم الخنزير حرمه في حال دون حال ، وليس تحريمه مطلقا .

وكذلك « الخمر » يباح لدفع الغصة بالاتفاق ، ويباح لدفع العطش في أحد قولي العلماء ، ومن لم يبحها قال : إنها لا تدفع العطش ، وهذا مأخذ أحمد . فحينئذ فالأمر موقوف على دفع العطش بها ، فإن علم أنها تدفعه أبيحت بلا ريب ، كما يباح لحم الخنزير لدفع المجاعة ، وضرورة العطش الذي يرى أنه يهلكه أعظم من ضرورة الجوع ؛ ولهذا يباح شرب النجاسات عند العطش بلا نزاع ، فإن اندفع العطش وإلا فلا إباحة في شيء من ذلك .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

وكذلك « الميسر » فإن الشارع أباح السبق فيه بمعنى الميسر للحاجة في مصلحة الجهاد . وقد قيل إنه ليس منه ، وهو قول من لم يبح العوض من الجانبين مطلقا إلا المحلل ، ولا ريب أن الميسر أخف من أمر الخمر ، وإذا أبيحت الخمر للحاجة فالميسر أولى . والميسر لم يحرم لذاته إلا لأنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويوقع العداوة والبغضاء . فإذا كان فيه تعاون على الرمي الذي هو من جنس الصلاة ، وعلى الجهاد الذي فيه تعاون ، وتتألف به القلوب على الجهاد زالت هذه المفسدة .

وكذلك بيع الغرر هو من جنس الميسر ، ويباح منه أنواع عند الحاجة ورجحان المصلحة .

وكذلك « الربا » حرم لما فيه من الظلم ، وأوجب أن لا يباع الشيء إلا بمثله ، ثم أبيح بيعه بجنسه خرصا عند الحاجة ، بخلاف غيرها من المحرمات، فإنها تحرم في حال دون حال . ولهذا ـ والله أعلم ـ نفى التحريم عما سواها ، وهو التحريم المطلق العام ، فإن المنفى من جنس المثبت ، فلما أثبت فيها التحريم العام المطلق نفاه عما سواها .

و « المقام الثاني » أن يفرق بين ما يفعل في الإنسان ، ويأمر به ويبيحه ، وبين ما يسكت عن نهي غيره عنه وتحريمه عليه ، فإذا كان من المحرمات ما لو نهي عنه حصل ما هو أشد تحريما منه لم ينه عنه ، ولم يبحه أيضا .

ولهذا لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه ؛ ولهذا حرم الخروج على ولاة الأمر بالسيف ؛ لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرمات ، وترك واجب أعظم مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب ، وإذا كان قوم على بدعة أو فجور ، ولو نهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه من ذلك ، ولم يمكن منعهم منه ، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة لم ينهوا عنه .

بخلاف ما أمر الله به الأنبياء وأتباعهم من دعوة الخلق ؛ فإن دعوتهم يحصل بها مصلحة راجحة على مفسدتها ، كدعوة موسى لفرعون ونوح لقومه ، فإنه حصل لموسى من الجهاد وطاعة الله ، وحصل لقومه من الصبر والاستعانة بالله ما كانت عاقبتهم به حميدة ، وحصل أيضا من تفريق فرعون وقومه ما كانت مصلحته عظيمة .

وكذلك نوح حصل له ما أوجب أن يكون ذريته هم الباقين ، وأهلك الله قومه أجمعين ، فكان هلاكهم مصلحة .

فالمنهي عنه إذا زاد شره بالنهي ، وكان النهي مصلحة راجحة كان حسنا وأما إذا زاد شره وعظم وليس في مقابلته خير يفوقه لم يشرع ، إلا أن يكون في مقابلته مصلحة زائدة ، فإن أدى

ذلك إلى شر أعظم منه لم يشرع مثل أن يكون الآمر لا صبر له ، فيؤذي فيجزع جزعا شديدا يصير به مذنباً ، وينتقص به إيمانه ودينه .

فهذا لم يحصل به خير لا له ولا لأولئك ؛ بخلاف ما إذا صبر واتقى الله وجاهد ، ولم يتعد حدود الله بل استعمل التقوى والصبر ؛ فإن هذا تكون عاقبته حميدة .

وأولئك قد يتوبون فيتوب الله عليهم ببركته ، وقد يهلكهم ببغيهم ويكون ذلك مصلحة ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا والحَمْدُ لله رَبِّ العالمين ﴾ .

وأما الإنسان في نفسه فلا يحل له أن يفعل ، الذي يعلم أنه محرم لظنه أنه يعينه على طاعة الله ، فإن هذا لا يكون إلا مفسدة ، أو مفسدته راجحة على مصلحته ، وقد تنقلب تلك الطاعة مفسدة ؛ فإن الشارع حكيم ، فلو علم أن في ذلك مصلحة لم يحرمه ، لكن قد يفعل الإنسان ثم يتوب ، وتكون مصلحته أنه يتوب منه ، ويحصل له بالتوبة خشوع ورقة ، وإنابة إلى الله تعالى ؛ فإن الذنوب قد يكون فيها مصلحة مع التوبة منها ، فإن الإنسان قد يحصل له (بعدم) الذنوب كبر وعجب وقسوة ، فإذا وقع في ذنب أذله ذلك وكسر قلبه ، ولين قلبه بما يحصل له من التوبة .

ولهذا قال سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، ويفعل السيئة فيدخل بها الجنة ، وهذا هو الحكمة في ابتلاء من ابتلي بالذنوب من الأنبياء والصالحين ، وأما بدون التوبة فلا يكون المحرم إلا مفسدته راجحة ، فليس للإنسان أن يعتقد حل ما يعلم أن الله حرمه قطعا ، وليس له أن يفعله قطعا ، فإن غلبته نفسه وشيطانه فوقع فيه تاب منه ، فإن تاب فصار بالتوبة خيرا مما كان قبله ، فهذا من رحمة الله به حين تاب عليه ، وإلا فلو لم يتب لفسد حاله بالذنب ، وليس له أن يقول أنا أفعل ثم أتوب ، ولا يبيح الشارع له ذلك ، لأنه بمنزلة من يقول أنا أطعم نفسي ما يمرضني ثم أتداوى ، أو آكل السم ثم أشرب الترياق .

والشارع حكيم ، فإنه لا يدري هل يتمكن من التوبة أم لا ؟ وهل يحصل الدواء بالترياق وغيره أم لا ؟ وهل يتمكن من الشرب أم لا ؟ لكن لو وقع هذا وكانت آخرته إلى التوبة النصوح كان الله قد أحسن إليه بالتوبة ، وبالعفو عما سلف من ذنوبه ، وقد يكون مثل هذا ليس صلاحه إلا في أن يذنب ويتوب ، ولو لم يفعل ذلك كان شراً منه لو لم يذنب ويتوب ، لكن هذا أمر يتعلق بخلق الله وقدره وحكمته ، لا يمكن أحد أن يأمر به الإنسان ؛ لأنه لا يدري أن ذلك خير له ، وليس ما يفعله خلقا ـ لعلمه وحكمته ـ يجوز للرسل وللعباد أن يفعلوه ، ويأمروا به .

وقصة الخضر مع موسى لم تكن مخالفة لشرع الله وأمره ، ولا فعل الخضر ما فعله لكونه مقدراً كما يظنه بعض الناس ؛ بل ما فعله الخضر هو مأمور به في الشرع بشرط أن يعلم من

مصلحته ما علمه الخضر ؛ فإنه لم يفعل محرما مطلقا ؛ ولكن خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار ، فإن إتلاف بعض المال لصلاح أكثر هو أمر مشروع دائما . وكذلك قتل الإنسان الصائل لحفظ دين غيره أمر مشروع ، وصبر الإنسان على الجوع مع إحسانه إلى غيره أمر مشروع .

فهذه القضية تدل على أنه يكون من الأمور ما ظاهره فساد ، فيحرمه من لم يعرف الحكمة التي لأجلها فعل ، وهو مباح في الشرع باطنا وظاهرا لمن علم ما فيه من الحكمة التي توجب حسنه وإباحته .

وهذا لا يجيء في الأنواع الأربعة ، فإن الشرك والقول على الله بلا علم ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والظلم : لا يكون فيها شيء من المصلحة، وقتل النفس ، أبيح في حال دون حال ؛ فليس من الأربعة . وكذلك إتلاف المال يباح في حال دون حال ، وكذلك الصبر على المجاعة ؛ ولذلك قال : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ ، وأَقِيموا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[1] .

فإخلاص الدين له والعدل واجب مطلقا في كل حال ، وفي كل شرع ؛ فعلى العبد أن يعبد الله مخلصا له الدين ، ويدعوه مخلصا له ، لا يسقط هذا عنه بحال ، ولا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد ، وهم أهل « لا إله إلا الله » .

فهذا حق الله على كل عبد من عباده ، كما في الصحيحين من حديث معاذ أن النبي ﷺ قال له : « يا معاذ ! أتدري ما حق الله على عباده » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً » الحديث[2] .

فلا ينجون من عذاب الله إلا من أخلص لله دينه وعبادته ، ودعاه مخلصا له الدين ، ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته وعبادة غيره : كفرعون وأمثاله ، فهو أسوأ حالا من المشرك ؛ فلا بد من عبادة الله وحده ، وهذا واجب على كل أحد ، فلا يسقط عن أحد البتة ، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره .

ولكن لا يعذب الله أحدا حتى يبعث إليه رسولا ، وكما أنه لا يعذبه فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة ، ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه ، فمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا امتحن في الآخرة ، ولا يدخل النار إلا من اتبع الشيطان ، فمن لا ذنب له لايدخل

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٩ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب اللباس ، كتاب الجهاد) ، وفي مسلم (كتاب الإيمان) ، والنسائي (كتاب الإيمان) ، وابن ماجه (كتاب الزهد وفي ابن حنبل ٣٠٦/٣ .

النار ، ولا يعذب الله بالنار أحداً إلا بعد أن يبعث إليه رسولا ، فمن لم تبلغه دعوة رسول إليه كالصغير والمجنون ، والميت في الفترة المحضة ، فهذا يمتحن في الآخرة كما جاءت بذلك الآثار .

فيجب الفرق في الواجبات والمحرمات ـ والتمييز بينهما هو اللازم لكل أحد على كل حال ، وهو العدل في حق الله وحق عباده بأن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، ولا يظلم الناس شيئا ، وما هو محرم على كل احد في كل حال لا يباح منه شيء ، وهو الفواحش والظلم والشرك ، والقول على الله بلا علم ـ وبين بما سوى ذلك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أنْ لا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً ﴾ هذا محرم مطلقا لا يجوز منه شيء ، ﴿ وبالوالدَيْنِ إحساناً ﴾ ، فهذا فيه تقييد . فإن الوالد إذا دعا الولد إلى الشرك ليس له أن يطيعه بل له أن يأمره وينهاه ، وهذا الأمر والنهي للوالد هو من الإحسان إليه . وإذا كان مشركا جاز للولد قتله ، وفي كراهته نزاع بين العلماء .

قوله : ﴿ وَلا تَقْتُلوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إمْلاقٍ ﴾ فهذا تحريم خاص ، ﴿ وَلا تَقْرَبوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ ﴾ هذا مطلق ، ﴿ وَلا تَقْرَبوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ، حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ هذا مقيد ، فإن يتامى المشركين أهل الحرب يجوز غنيمة أموالهم ؛ لكن قد يقال : هذا أخذ وقربان بالتي هي أحسن ، إذا فسر الأحسن بأمر الله ورسوله ، ﴿ وَأَوْفوا الكَيْلَ وَالميزانَ بالقِسْطِ ﴾ هذا مقيد بمن يستحق ذلك ﴿ وإذا قُلْتُمْ فَاعْدِلوا ﴾ هذا مطلق .

﴿ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ﴾ فالوفاء واجب ، لكن يميز بين عهد الله وغيره ، ويفرق بين ما يسكت عنه الإنسان وبين ما يلفظ به ، ويفعله ويأمر به ، ويفرق بين ما يسكت عنه الإنسان وبين ما يلفظ به ، ويفعله ويأمر به ، ويفرق بين ما قدره الله ، فحصل بسببه خير ، وبين ما يؤمر به العبد ، فيحصل بسببه خير .

فصل
في كفّارة اليمين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

كفارة اليمين هي المذكورة في سورة المائدة ، قال تعالى : ﴿فَكَفارَتُهُ إطعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تَطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحريرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أيامٍ ﴾ فمتى كان واحداً فعليه أن يُكَفِّر بإحدى الثلاث ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، وإذا اختار أن يطعم

عشرة مساكين فله ذلك . ومقدار ما يطعم مبني على أصل ، وهو أن إطعامهم هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف ؟ فيه قولان للعلماء . منهم من قال هو مقدر بالشرع وهؤلاء على أقوال .

منهم من قال يطعم كل مسكين صاعا من تمر أو صاعا من شعير أو نصف صاع من بر ، كقول أبي حنيفة وطائفة .

ومنهم من قال يطعم كل واحد نصف صاع من تمر أو شعير أو ربع صاع من بر ، وهو مد كقول أحمد وطائفة .

ومنهم من قال بل يجزىء في الجميع مد من الجميع كقول الشافعي وطائفة .

والقول الثاني أن ذلك مقدر بالعرف لا بالشرع ، فيطعم أهل كل بلد من أوسط ما يطعمون أهليهم قدرا ونوعا . وهذا معنى قول مالك . قال إسماعيل بن إسحاق كان مالك يرى في كفارة اليمين أن المد يجزىء بالمدينة ، قال مالك وأما البلدان فإن لهم عيشا غير عيشنا فأرى أن يُكَفِّروا بالوسط من عيشهم لقول الله تعالى : ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾[1] . وهو مذهب داود وأصحابه مطلقا .

والمنقول عن اكثر الصحابة والتابعين هذا القول ، ولهذا كانوا يقولون الأوسط خبز ولبن ، خبز وسمن ، خبز وتمر . والأعلى خبز ولحم ، وقد بسطنا الآثار عنهم في غير هذا الموضع ، وبينا أن هذا القول هو الصواب الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار ، وهو قياس مذهب أحمد وأصوله ، فإن أصله أنّ ما لم يقدره الشارع فإنه يرجع فيه إلى العرف ، وهذا لم يقدره الشارع فيرجع فيه إلى العرف لا سيما مع قوله تعالى : ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ فإن أحمد لا يقدر طعام المرأة والولد ولا المملوك ولا يقدر أجرة الأجير المستأجر بطعامه وكسوته في ظاهر مذهبه ، ولا يقدر الضيافة الواجبة عنده قولا واحدا ، ولا يقدر الضيافة المشروطة على أهل الذمة للمسلمين في ظاهر مذهبه . هذا مع أن هذه واجبة بالشرط ، فكيف يقدر طعاما واجبا بالشرع ، بل ولا يقدر الجزية في أظهر الروايتين عنه ، ولا الخراج ، ولا يقدر أيضا الأطعمة الواجبة مطلقا سواء وجبت بشرع أو شرط ، ولا غير الأطعمة مما وجبت مطلقا ، فطعام الكفارة أولى أن لا يقدر .

والأقسام ثلاثة ، فما له حد في الشرع أو اللغة رجع في ذلك إليهما ، وما ليس له حد فيهما رجع فيه إلى العرف . ولهذا لا يقدر للعقود ألفاظاً بل أصله في هذه الأمور من جنس أصل مالك ، كما أن قياس مذهبه أن يكون الواجب في صدقة الفطر نصف صاع من بر ، وقد

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٩ . وانظر الفتاوى الكبرى ٢/١٠١ ـ ١٠٦ .

دل على كلامه أيضاً كما قد بين في موضع آخر وإن كان المشهور عنه تقدير ذلك وبالصاع كالتمر والشعير .

وقد تنازع العلماء في الأدم هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين ، والصحيح أنه إن كان يطعم أهله بأدم أطعم المساكين بأدم ، وإن كان إنما يطعمهم بلا أدم لم يكن عليه أن يفضل المساكين على أهله ، بل يطعم المساكين من أوسط ما يطعم أهله .

وعلى هذا فمن البلاد من يكون أوسط طعام أهله مدا من حنطة كما يقال عن أهل المدينة وإذا صنع خبزا جاء نحو رطلين بالعراقي وهو بالدمشقي خمسة أواق وخمسة أسباع أوقية ، فإن جعل بعضه أدما كما جاء عن السلف كان الخبز نحوا من أربعة أواق ، وهذا لا يكفي أكثر أهل الأمصار ، فلهذا قال جمهور العلماء يطعم في غير المدينة أكثر من هذا : إما مدّان أو مد ونصف على قدر طعامهم فيطعم من الخبز إما نصف رطل بالدمشقي وإما ثلثا رطل وإما رطل وإما أكثر ، وإما مع الأدم وإما بدون الأدم على قدر عادتهم في الأكل في وقت .

فإن عادة الناس تختلف بالرخص والغلاء واليسار والإعسار ، وتختلف بالشتاء والصيف ، وغير ذلك .

وإذا حسب ما يوجبه أبو حنيفة خبزا كان رطلا وثلثا بالدمشقي ، فإنه يوجب نصف صاع عنده ثمانية أرطال . وأما ما يوجبه من التمر والشعير فيوجب صاعا ثمانية أرطال ، وذلك بقدر ما يوجبه الشافعي ست مرات وهو بقدر ما يوجبه أحمد بن حنبل ثلاث مرات .

والمختار أن يرجع في ذلك إلى عرف الناس وعادتهم فقد يجزىء في بلد ما أوجبه أبو حنيفة ، وفي بلد ما أوجبه أحمد ، وفي بلد آخر ما بين هذا وهذا على حسب عادته عملا بقوله تعالى : ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ .

وإذا جمع عشرة مساكين وعشاهم خبزا أو أدما من أوسط ما يطعم أهله أجزأه ذلك عند أكثر السلف ، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين وغيرهم ، وهو أظهر القولين في الدليل ، فإن الله تعالى أمر بالإطعام لم يوجب التمليك ، وهذا إطعام حقيقة . ومن أوجب التمليك احتج بحجتين :

(إحداهما) : أن الطعام الواجب مقدر بالشرع ، ولا يعلم إذا أكلوا أن كل واحد يأكل قدر حقه .

وجواب الأولى أنا لا نسلم أنه مقدر بالشرع ، وإن قدر أنه مقدر به . فالكلام إنما هو إذا أشبع كل واحد منهم غداء وعشاء ، وحينئذ فيكون قد أخذ كل واحد قدر حقه وأكثر . وأما التصرف بما شاء . فالله تعالى لم يوجب ذلك إنما أوجب الإطعام ، ولو أراد ذلك لأوجب مالا

من النقد ونحوه ، وهو لم يوجب ذلك .

والزكاة إنما أوجب فيها التمليك لأنه ذكرها باللام بقوله تعالى: ﴿إنّما الصّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والمَسَاكِينَ﴾ ولهذا حيث ذكر الله التصرف كقوله : ﴿وفي الرِّقَابِ وفي سَبيلِ اللَّهِ﴾ فالصحيح أنه لا يجب التمليك بل يجوز أن يعتق من الزكاة وإن لم يكن تمليكا للمعتق ، ويجوز أن يشتري منها سلاحا يعين به في سبيل الله وغير ذلك ، ولهذا قال من قال من العلماء : الإطعام أولى من التمليك لأن المملك قد يبيع ما أعطيته ولا يأكله ، بل قد يكنزه ، فإذا أطعم الطعام حصل مقصود الشارع قطعا .

وغاية ما يقال أن التمليك قد يسمى إطعاما كما يقال أطعم رسول الله ﷺ الجدة السدس ، وفي الحديث « ما أطعم الله نبياً طعمة إلا كانت لمن يلي الأمر من بعده »[١] .

لكن يقال لا ريب أن اللفظ يتناول الإطعام المعروف بطريق الأولى ، ولأن ذلك إنما يقال إذا ذكر المطعم فيقال أطعمه كذا ، فأما إذا أطلق وقيل أطعم هؤلاء المساكين ، فإنه لا يفهم منه إلا نفس الإطعام ، لكن لما كانوا يأكلون ما يأخذونه سمى التمليك للطعام إطعاما ، لأن المقصود هو الإطعام ، أما إذا كان المقصود مصرفا غير الأكل فهذا لا يسمى إطعاما عند الإطلاق .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل(*)

قوله تعالى علواً كبيراً : ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٢] لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا نهيا ولا إذنا ، كما في الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ ، فقال : « أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[٣] .

وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعا في تأويلها « إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة نفسك » وهذا يفسره حديث أبي سعيد

---

(١) ورد الحديث في ابن حنبل ١/٤ ، وفي أبي داود (كتاب الإمارة) .

(*) وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/٤٧٩ ـ ٤٤٨ ط السعودية .

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

في مسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] فإذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء الى البر ؛ بل يؤذون الناهي لغلبة الشح والهوى والعجب سقط التغيير باللسان في هذه الحال ، وبقي بالقلب ، و« الشح » هو شدة الحرص التي توجب البخل والظلم ، وهو منع الخير وكراهته ، و « الهوى المتبع » في إرادة الشر ومحبته ، و « الإعجاب بالرأي » في العقل والعلم ، فذكر فساد القوى الثلاث التي هي العلم والحب والبغض . كما في الحديث الآخر : « ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه »[2] وبإزائها الثلاث المنجيات : « خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا » وهي التي سألها في الحديث الآخر : « اللهم إني أسألك خشيتك في السر والعلانية ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ،وأسألك القصد في الفقر والغنى » .

فخشية الله بإزاء اتباع الهوى ، فإن الخشية تمنع ذلك ، كما قال : ﴿وأمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ والقصد في الفقر والغنى بإزاء الشح المطاع ، وكلمة الحق في الغضب والرضا بإزاء إعجاب المرء بنفسه ، وما ذكره الصديق ظاهر ؛ فإن الله قال : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي الزموها وأقبلوا عليها ، ومن مصالح النفس فعل ما أمرت به من الأمر والنهي . وقال : ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وأدى الواجب من الأمر والنهي وغيرهما ؛ ولكن في الآية فوائد عظيمة .

« أحدها » : أن لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين فإنهم لن يضروه إذا كان مهتديا .

« الثاني » : أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم ، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى ، والحزن على ما لا يضر عبث ، وهذان المعنيان مذكوران في قوله : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ باللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ في ضِيقٍ مِمّا يَمْكُرونَ﴾[3] .

« الثالث » : أن لا يركن إليهم ، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات ، كقوله : ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[4] فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية ، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية ، فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم إما راغبا وإما راهبا .

---

(١) سبق تخريج الحديث في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) ورد الحديث بألفاظ مختلفة في : أبو داود (كتاب الملاحم) ، الترمذي (كتاب التفسير - تفسير سورة المائدة) ، والنسائي في (كتاب الوصايا) ، وابن ماجه في (كتاب الفتن) .

(٣) سورة النحل الآية ١٢٧ .

(٤) سورة الحجر الآية ٨٨ .

« الرابع » : أن لا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم ، أو نهيهم أو هجرهم ، أو عقوبتهم ؛ بل يقال لمن اعتدى عليهم عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت ، كما قال : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾[1] الآية . وقال : ﴿وَقاتِلوا في سَبيلِ الله الذِينَ يُقاتِلونَكُمْ وَلا تَعْتَدوا إنّ اللّهَ لا يُحِبُّ المعتدينَ﴾[2] وقال : ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فلا عُدْوَانَ إلا على الظالمينَ﴾[3] فإن كثيراً من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم ، وهذا باب يجب التثبت فيه ، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين .

« الخامس » : أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع ، من العلم والرفق ، والصبر ، وحسن القصد ، وسلوك السبيل القصد فإن ذلك داخل في قوله : ﴿عليكم أنفسكم﴾ وفي قوله : ﴿إذا اهتديتم﴾ .

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيها المعنى الآخر . وهو إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً ، وإعراضه عما لا يعنيه ، كما قال صاحب الشرعية : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه ، لا سيما إن كان التكلم لحسد أو رئاسة .

وكذلك العمل ؛ فصاحبه إما معتد ظالم ، وإما سفيه عابث ، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، ويكون من باب الظلم والعدوان .

فتأمل الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء ، وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل ، كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات والقرآن ؛ محنة أحمد وغيره ، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة ، وكما بغت الناصبة على عليّ وأهل بيته ، وكما قد تبغي المشبهة على المنزهة ، وكما قد يبغي بعض المستنة إما على بعضهم وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به ، وهو الإسراف المذكور في قولهم : ﴿رَبّنا اغْفِر لَنا ذُنُوبَنا وإِسْرَافَنَا في أمْرِنا﴾ .

وبإزاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق ، أو فيما أمروا به من الأمر

(١) سورة المائدة الآية ٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩ .

بالمعروف ، والنهي عن المنكر في هـذه الأمور كلهـا ، فما أحسن مـا قال بعض السلف : مـا أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين ـ لا يبالي بأيهما ظفر ـ غلو أو تقصير .

فالمعين على الاثم والعدوان بإزائه تارك الإعانة على البر والتقوى ، وفاعل المأمـور به وزيادة منهي عنها بإزائه تارك المنهي عنه وبعض المأمور به ، والله يهدينا الصراط المستقيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل

الذي يدل عليه القرآن في سورة المائدة في آية الشهادة في قوله : ﴿ فَيُقْسِمانِ بـاللهِ إنِ ارْتَبْتُم لا نَشْتَري بهِ ثَمَناً ﴾[1] أي بقولنا ، ولو كان ذا قربى ، حذف ضمير كـان لظهـوره ، أي ولو كان المشهود له ، كمـا في قولـه : ﴿ وإذا قُلْتُمْ فاعْـدِلوا ، وَلَـوْ كانَ ذا قُـرْبَى ﴾ وكما في قـوله : ﴿ كـونوا قَـوّامِينَ بـالقِسْطِ شُهَـداءَ للهِ ﴾ إلى قـولـه : ﴿ إنْ يَكُنْ غَنِيّـاً أو فَقِيـراً ﴾ أي المشهود عليه ونحـو ذلك ؛ لأن العـادة أن الشهادة المـزورة يعتاض عليهـا ، وإلا فليس أحد يشهد شهادة مـزورة بلا عـوض ـ ولو مـدحا ـ أو اتخـاذ يد . وآفـة الشهادة : إمـا اللي ، وإما الإعـراض : الكذب والكتمـان ، فيحلفان لا نشتـري بقولنـا ثمنـا : أي لا نكـذب ولا نكتم شهادة الله ، أو لا نشتري بعهد الله ثمنا ؛ لأنهما كانـا مؤتمنين ، فعليهما عهـد بتسليم المال إلى مستحقه ؛ فإن الوصية عهد من العهود .

وقوله بعد ذلك ﴿ فَإنْ عُثِرَ عـلى أَنَّهُما اسْتَحَقّا إثْـماً ﴾[2] أعم من أن يكون في الشهـادة أو الأمانة . وسبب نزول الآية يقتضي أنه كان في الأمـانة فـإنهما استشهدا وائتمنـا ، لكن ائتمانهما ليس خارجا عن القياس ؛ بل حكمه ظاهر ، فلم يحتج فيه إلى تنزيل ، بخلاف استشهـادهما ، والمعثور على استحقاق الإثم ظهور بعض الوصية عند من اشتراها منهما بعـد أن وجد ذكـرها في الوصية ، وسئلا عنها فأنكراها .

وقوله : ﴿ مِنَ الـذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ ﴾ يحتمل أن يكـون مضمنـا معنى بغى عليهم ، وعدى ﴿ عليهم) كما يقال في الغصب : غصبت على مالي ؛ ولهذا قيل : ﴿ لَشَهادَتُنـا أَحَقُّ مِنْ

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٧ .

شَهَادَتِها ، وَمَا اعْتَدَيْنا ﴾ أي كما اعتدوا . ثم قوله : ﴿ ذلكَ أدْنى أنْ يَأتوا بالشّهادةِ على وَجْهِهَا . أوْ يخافوا أَنْ تُرَدَّ أيمانٌ بَعْدَ أيْمانِهِمْ ﴾ .

وحديث ابن عباس في البخاري صريح في أن النبي ﷺ حكم بمعنى ما في القرآن ، فرد اليمين على المدعيين بعد أن استحلف المدعى عليهم لما عثر على أنهما استحقا إثما ، وهو إخبار المشترين أنهم اشتروا « الجام » منهما بعد قولهما ما رأيناه ، فحلّف النبي ﷺ من المدعيين الأوليين ، وأخذ « الجام » من المشتري ، وسلم إلى المدعي ، وبطل البيع ، وهذا لا يكون مع إقرارهما بأنهما باعا الجام ؛ فإنه لم يكن يحتاج إلى يمين المدعيين لو اعترفا بأنه جام الموصي ، وأنهما غصباه وباعاه ، بل بقوا على إنكار قبضه مع بيعه ، أو ادعوا مع ذلك أنه أوصى لهما به وهذا بعيد .

فظاهر الآية أن المدعى عليه المتهم بخيانة ونحوها - كما اتهم هؤلاء - إذا ظهر كذبه وخيانته كان ذلك لوثا يوجب رجحان جانب المدعي ؛ فيحلف ويأخذ ، كما قلنا في الدماء سواء ، والحكمة فيهما واحدة ، وذلك أنه لما كانت العادة أن القتل لا يفعل علانية بل سراً ، فيتعذر إقامة البينة ، ولا يمكن أن يؤخذ بقول المدعي مطلقا أخذا بقول من يترجح جانبه ، فمع عدم اللوث جانب المنكر راجح ، أما إذا كان قتل ولوث قوى جانب المدعي فيحلف .

وكذلك الخيانة والسرقة يتعذر إقامة البينة عليهما في العادة ، ومن يستحل أن يسرق فقد لا يتورع عن الكذب ، فإذا لم يكن لوث فالأصل براءة الذمة ، أما إذا ظهر لوث بأن يوجد بعض المسروق عنده فيحلف المدعي ويأخذ ، وكذلك لو حلف المدعى عليه ابتداء ثم ظهر بعض المسروق عند من اشتراه أو انتهبه أو أخذه منه ، فإن هذا اللوث في تغليب الظن أقوى ؛ لكن في الدم قد يتيقن القتل ويشك في عين القاتل فالدعوى إنما هي بالتعيين .

وأما في الأموال : فتارة يتيقن ذهاب المال وقدره ، مثل أن يكون معلوما في مكان معروف . وتارة يتيقن ذهاب مال لا قدره ، بأن يعلم أنه كان هناك مال وذهب . وتارة يتيقن هتك الحرز ولا يدرى أذهب بشيء أم لا ؟ هذا في دعوى السرقة ، وأما في دعوى الخيانة فلا تعلم الخيانة ، فإذا ظهر بعض المال المتهم به عند المدعى عليه أو من قبضه منه ظهر اللوث بترجيح جانب المدعي ، فإن تحليف المدعى عليه حينئذ بعيد .

وقول النبي ﷺ : « لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى قوم دماء قوم وأموالهم . ولكن اليمين على المدعى عليه »(١) جمع فيه الدماء والأموال ، فكما أن الدماء إذا كان مع المدعي لوث

---

(١) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب الملاحم) ، الترمذي (كتاب التفسير - تفسير سورة المائدة) ، والنسائي (كتاب الوصايا) وابن ماجه (كتاب الفتن) .

حلف فكذلك الأموال ، كما حلفناه مع شاهده ، فكل ما يغلب على الظن صدقه فهو بمنزلة شاهده ، كما جعلنا في الدماء الشهادة المزورة لنقص نصابها أو صفاتها لوثا ، وكذلك في الأموال جعل الشاهد مع اليمين ، فالشاهد المزور مع لوث وهو لكن ينبغي أن تعتبر في هذا حال المدعي والمدعى عليه في الصدق والكذب ، فإن باب السرقة والخيانة لا يفعله إلا فاسق فإن كان من أهل ذلك لم يكن إذا لم يكن إلا عدلا . وكذلك المدعي قد يكذب ، فاعتبار العدالة والفسق في هذا يدل عليه قول الأنصاري : كيف نرضى بأيمان قوم كفار ؟ فعلم أن المتهم إذا كان فاجرا فللمدعي أن لا يرضى بيمينه ، لأنه من يستحل أن يسرق يستحل أن يحلف .

فصل[*]

(في معنى روح القدس)

قال تعالى : ﴿ يا عيسى ابنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾[1] .

فيقال : هذا مما لا ريب فيه ، ولا حجة لكم فيه ، بل هو حجة عليكم ، فإن الله أيّد المسيح عليه السلام بروح القدس ، كما ذكر ذلك في هذه الآية ، وقال تعالى في البقرة : ﴿ وَآتَيْنا عيسى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسى بنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾[3] .

وهذا ليس مختصا بالمسيح ، بل قد أيد غيره بذلك ، وقد ذكروا هم أنه قال لداود « روحك القدس لا تنزع مني » ، وقد قال نبينا ﷺ لحسان بن ثابت « اللهم أيده بروح القدس » .

وفي لفظ « روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » .

وكلا اللفظين في الصحيح .

(*) انظر الجواب الصحيح ٢ / ١٣٨ .

(١) سورة المائدة الآية ١١٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ٨٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

وعند النصارى أن الحـواريين حلت فيهم روح القـدس ، وكذلـك عندهم روح القـدس حلت في جميع الأنبيـاء .

وقد قال تعالى : ﴿ فإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الـرَّجِيمِ إنَهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ على الذينَ آمَنوا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ * إنما سُلطانُهُ على الذينَ يَتوَلّـوْنَهُ ، وَالـذينَ هُمْ بِـهِ مُشرِكـونَ * وإذا بَدَّلْنـا آيَةً مَكـانَ آيَةٍ واللهُ أعْلَمُ بمـا يُنَزِّلُ قـالوا : إنّمـا أنتَ مُفْتَرٍ بَـلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعلمونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنوا وَهُـدىً وَبُشْرى لِلمُسلِمينَ ﴾[1] .

وقد قال تعالى في موضع آخر : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ على قَلْبِكَ ﴾[2] .

وقال : ﴿ قُلْ مَنْ كانَ عَدُواً لِجبريلَ فإنّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ اللهِ ﴾[3] .

فقـد تبين أن روح القدس هنـا جبريـل ، وقال تعـالى : ﴿ لا تَجِدُ قَـوْماً يُؤ مِنـونَ بـاللهِ واليومِ الآخِرِ يُوادّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُمْ أو أبناءَهُمْ أو إخْوانَهُمْ أو عَشِيـرَتَهُمْ أولئكَ كتبَ في قلوبِهمُ الإيمانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾[4] .

وقـال تعالى : ﴿ وَكـذلكَ أَوْحَيْنـا إليكَ رُوحـاً مِنْ أَمْرِنـا ما كُنْتَ تَـدْري ما الكتـابُ وَلا الإيمانُ ولكنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهدِي بهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُوحِ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْـذِروا أنّهُ لا إلهَ إلا أنا فَاتّقونِ ﴾[6] .

وقال : ﴿ يُلْقِي الرُوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَومَ التَّلاقِ ﴾[7] .

فهذه الروح التي أوحاها ، والتي تنـزل بها المـلائكة عـلى من يشاء من عبـاده غير الـروح الأمين التي تنزل بـالكتاب ، وكـلاهما يتسمى روحـا ، وهما متـلازمان ، فـالروح التي ينـزل بها

---

(١) سورة النحل الآيات (٩٨ ـ ١٠٢) .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٩٧ .

(٤) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٥) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٦) سورة النحل الآية ٢ .

(٧) سورة غافر الآية ١٥ .

الملك مع الروح الأمين التي ينزل بها روح القدس ، يراد بها هذا وهذا .

وبكلا القولين فسر المفسرون قوله في المسيح : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[٤] .

ولم يقل أحد أن المراد بذلك حياة الله ، ولا اللفظ يدل على ذلك ، ولا استعمل فيه ، وهم إما أن يسلموا أن روح القدس في حق غيره ليس المراد بها حياة الله ، فإذا ثبت أن لها معنى غير الحياة ، فلو استعمل في حياة الله أيضا لم يتعين أن يراد بها ذلك في حق المسيح ، فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح ، وإما أن يدّعوا أن المراد بها حياة الله في حق الأنبياء والحواريين فإن قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللاهوت حالا في جميع الأنبياء والحواريين ، وحينئذ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح .

ويلزمهم أيضا أن يكون في المسيح لاهوتان : لاهوت الكلمة ، ولاهوت الروح ، فيكون قد اتحد به أقنومان ، ثم في قوله تعالى : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ يمتنع أن يراد بها حياة الله فإن حياة الله صفة قائمة بذاته لا تقوم بغيره ، ولا تختص ببعض الموجودات غيره . وأما عندهم فالمسيح ، هو الله الخالق ، فكيف يؤيد بغيره وأيضا فالمتحد بالمسيح هو الكلمة دون الحياة ، فلا يصح تأييده بها .

فتبين أنهم يريدون أن يحرفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب المتقدمة ، وأن كلامهم في تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنس واحد .

فصـــل
عيسى عبد الله ورسـوله

قال تعالى : ﴿ وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتّخِذوني وأمّي إلهينِ مِنْ دُونِ اللهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لي أَنْ أقولَ ما ليسَ لي بحقٍّ إنْ كنتُ قُلْتُهُ فَقدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنكَ أنتَ عَلاّمُ الغُيُوبِ * ما قُلتُ لَهُمْ إلا ما أَمَرْتَني بِهِ أَنِ اعْبُدوا اللهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ وكنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهم فَلَمّا تَوَفَّيْتَني كنتَ أنتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأنتَ على كُلِّ شيءٍ شَهِيدٌ ﴾[١] .

فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به بقوله أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكان عليهم شهيداً ما دام فيهم ، وبعد وفاته كان الله الرقيب عليهم ، فإذا كان بعضهم قد

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٧ .

(٢) سورة المائدة الآيات (١١٦ ـ ١١٧) .

غلط في النقل عنه أو في تفسير كلامه ، أو تعمد تغيير دينه لم يكن على المسيح عليه السلام من ذلك درك ، وإنما هو رسول عليه البلاغ المبين .

وقد أخبر الله سبحانه أن أول ما تكلم به المسيح أن قال : ﴿إني عبدُ اللَّهِ آتانيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبِيّاً * وَجَعَلَني مُبارَكاً أَيْنَما كنتُ وَأَوْصاني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوالِدَتي وَلَمْ يَجْعَلْني جَبّاراً شَقِيّاً﴾[1] .

ثم طلب لنفسه السلام فقال : ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[2] .

والنصارى يقولون : علينا منه السلام ، كما يقوم الغالية فيمن يدعون فيه الإلهية كالنصيرية في عَليّ ، والحاكمية في الحاكم .

الوجه الثاني : أن يقال إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قتل ، وإنما قال : ﴿يا عيسى إني مُتَوَفِّيكَ ، وَرَافِعُكَ إليّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذينَ كَفَروا﴾ . وقال المسيح : ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآياتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍ وَقَوْلِهِمْ قلوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فلا يُؤمِنونَ إلا قليلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهتاناً عَظيماً * وَقَوْلِهِمْ إنا قَتَلْنا المسيحَ عيسى بنَ مَرْيَمَ رسولَ اللَّهِ وَما قَتَلُوه وَما صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وإنّ الذينَ اخْتَلَفوا فيهِ لَفي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّباعَ الظَنِّ وَما قَتَلُوهُ يَقيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إليهِ وَكانَ اللَّهُ عِزيزاً حَكيماً * وإنّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ إلا لَيُؤمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيومَ القِيامَةِ يَكونُ عَلَيْهِمْ شَهيداً * فَبِظُلْمٍ مِنَ الذينَ هَادُوا حَرّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ كَثيراً * وأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أموالَ الناسِ بالباطلِ﴾[3] .

فذم الله اليهود بأشياء منها : ﴿قولهم على مريم بهتانا عظيما﴾ حيث زعموا أنها بغي ، ومنها قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ .

قال تعالى : ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ ، وأضاف هذا القول إليهم ،

---

(١) سورة مريم الآيات (٣٠ ـ ٣٢) .

(٢) سورة مريم الآية ٣٣ .

(٣) سورة النساء الآيات (١٥٥ ـ ١٦١) .

وذمهم عليه ، ولم يذكر النصارى لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود ، ولم يكن أحد من النصارى شاهدا معهم ، بل كان الحواريون خائفين غائبين فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح ، والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوه عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقاً كثيراً يمتنع تواطؤهم على الكذب .

قال تعالى : ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ فنفى عنه القتل ، ثم قال : ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ .

وهذا عند أكثر العلماء معناه قبل موت المسيح . وقد قيل قبل موت اليهود وهو ضعيف ، كما قيل إنه قبل موت محمد ﷺ وهو أضعف ، فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به ، فإن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

وإن قيل : المراد به الإيمان الذي يكون بعد الغرغرة لم يكن في هذا فائدة فإن كل أحد بعد موته يؤمن بالغيب الذي كان يجحده ، فلا اختصاص للمسيح به ، ولأنه قال : قبل موته ، ولم يقل بعد موته ، ولأنه لا فرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمد صلوات الله عليه وسلامه ، واليهودي الذي يموت على اليهودية فيموت كافرا بمحمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام ، ولأنه قال : ﴿وإن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته﴾ ، وقوله : ﴿ليؤمنن به﴾ فعل مقسم عليه ، وهذا إنما يكون في المستقبل ، فدل ذلك على أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا ، ولو أريد قبل موت الكتابي لقال : وإن من أهل الكتاب إلا من يؤمن به ، لم يقل « ليؤمنن به » .

وأيضا فإنه قال : إن من أهل الكتاب وهذا يعم اليهود والنصارى ، فدل ذلك على أن جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح ، وذلك إذا نزل آمنت اليهود والنصارى بأنه رسول الله ليس كاذباً كما يقول اليهود ، ولا هو الله كما تقوله النصارى .

والمحافظة على هذا العموم أولى من أن يدعى أن كل كتابي ليؤمنن به قبل أن يموت الكتابي ، فإن هذا يستلزم إيمان كل يهودي ونصراني ، وهذا خلاف الواقع وهو لما قال : ﴿وإن منهم إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ ودل على أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو علم أنه أريد بالعموم عموم من كان موجودا حين نزوله أي لا يتخلف منهم أحد عن الإيمان به ، لا إيمان من كل منهم ميتا .

وهذا كما يقال : إنه لا يبقى بلد إلا دخله الدجال إلا مكة والمدينة أي في المدائن الموجودة حينئذ ، وسبب إيمان أهل الكتاب به حينئذ ظاهر ، فإنه يظهر لكل أحد أنه رسول مؤيد ليس بكذاب ولا هو رب العالمين .

فالله تعالى ذكر إيمانهم به إذا نزل إلى الأرض فإنه تعالى لما ذكر رفعه إلى الله بقوله : ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ ، وهو ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويموت حينئذ أخبر ﴿إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إسرائيلَ * وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُم مَلائكةً في الأرضِ يَخْلُفُونَ * وإنه لَعِلْمٌ لِلسّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها واتَّبِعون هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ * ولا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيطانُ إنّهُ لكمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَلَمّا جَاءَ عِيسى بِالبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بالحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفونَ فيهِ فاتّقوا اللّهَ وَأَطِيعونِ * إنّ اللّهَ هَوَ رَبي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدوهُ هَذا صِراطٌ مُسْتقيمٌ * فاخْتَلَفَ الأحزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ للّذين ظَلَموا مِنْ عذاب يَوْمٍ أليمٍ﴾[1] .

في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، وإماما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ بيان أن الله رفعه حيّاً وسلّمه من القتل ، وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت .

وكذلك قوله : ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ ، ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره .

(معنى التوفي)

ولفظ التوفي في لغة العرب معناه : الاستيفاء والقبض ، وذلك ثلاثة أنواع : أحدها : توفي النوم ، والثاني : توفي الموت ، والثالث : توفي الروح والبدن جميعا ، فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس ، ويخرج منهم الغائط والبول ، والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو في السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشرب واللباس والنوم ، والغائط والبول ، ونحو ذلك .

الوجه الثالث : قولهم إنه عنى بموته عن موت الناسوت كان ينبغي لهم أن يقولوا على أصلهم : عنى بتوفيته عن توفي الناسوت . وسواء قيل موته أو توفيته فليس هو شيئا غير الناسوت ، فليس هناك شيء غيره لم يتوفّ الله تعالى قال :

---

(١) الآية الزخرف الآيات (٩ ـ ٦٥) .

(٢) ورد الحديث بلفظ مختلف في البخاري (كتاب الأنبياء) ، مسلم (كتاب الإيمان) ، أبو داود (كتاب الملاحم) ، الترمذي (كتاب الفتن) ، ابن ماجه (كتاب الفتن) ، ابن حنبل ٢ / ٢٤٠ .

﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ فالمتوفى هو المرفوع إلى الله وقولهم : إن المرفوع هو اللاهوت مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى ، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى .

وكذلك قوله في الآية الأخرى : ﴿وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه﴾ هو تكذيب لليهود في قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ ، واليهود لم يدعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا لله لاهوتاً في المسيح ، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ، بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه ، فقال تعالى : ﴿وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه﴾ فأثبت رفع الذي قالوا إنهم قتلوه ، وإنما هو الناسوت ، فعلم أنه هو الذي نفي عنه القتل ، وهو الذي رفع ، والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام في القبر إما يوما وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى : ﴿وما قتلوه يقينا﴾ معناه أن نفي قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم في شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل إذ لا حجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون : إنه لم يصلب فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود ، وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره ، كما دل عليه القرآن ، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس : أنا أعرفه فعرفوه ، وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علما بل ظنا قول ضعيف .

الوجه الرابع : إنه قال تعالى : ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا﴾ ، فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته : ﴿إني رافعك إليّ﴾ وكذلك قوله : ﴿بل رفعه الله إليه﴾ فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه ، وإذا قالوا : هو الكلمة فهم مع ذلك أنه الإله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ، ونحوهما مما هو كلام الله الذي قال فيه : ﴿إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين ، ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس : قوله : ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ ، دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح ، فإن قوله كنت أنت يدل على الحصر ، كقوله إن كان هذا هو الحق ونحو ذلك ، فعلم أن المسيح بعد

توفيته ليس رقيباً على اتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم المحصي أعمالهم المجازي عليها ، والمسيح ليس برقيب فلا يطلع على أعمالهم ، ولا يحصيها ولا يجازيهم بها .

فصل

فساد قول النصارى في أن المسيح خالق

قالوا : وقد سماه الله أيضا في هذا الكتاب خالقاً حيث قال : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بإذني فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكونُ طَيْراً بإذني﴾ ، سورة المائدة١١٠ .

فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذة من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبي :

(بكلمة الله خلقت السموات والأرض ، ليس خالق الا الله وكلمته وروحه) .

وهذا مما يوافق رأينا ، واعتقادنا في السيد المسيح لذكره ، لأنه حيث قال : (وتخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) أي بإذن اللاهوت الكلمة المتحدة في الناسوت .

والجواب : إن جميع ما يحتجون به من هذه الآيات وغيرها ، فهو حجة عليهم لا لهم ، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشيء من كتب الله وكلام أنبيائه ، كان في نفس ما احتجوا به ما يدل على فساد قولهم ، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما نطق به أنبياؤه ، فإنه جعل ذلك هدى وبيانا للخلق وشفاء لما في الصدور ، فلا بد أن يكون في كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، لكن الناس يؤتون من قبل أنفسهم ، لا من قبل أنبياء الله تعالى :

إما من كونهم لم يتدبروا القول الذي قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه .

وإما من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض ، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزل الله دون بعض ، فيضلون من جهة ما لم يؤمنوا به ، كما قال تعالى عن النصارى : ﴿ وَمِنَ الذينَ قالوا إنا نَصَارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمّا ذُكِّروا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ العداوةَ والبغضاءَ إلى يَوْمِ القيامةِ ﴾[1] .

وإما من جهة نسبتهم إلى الأنبياء ما لم يقولوه من أقوال كذبت عليهم ، ومن جهة ترجمة

---

(١) سورة المائدة الآية ١٤ .

أقوالهم بغير ما تستحقه من الترجمة ، وتفسيرها بغير ما تستحقه من التفسير الذي دل عليه كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض ، ويؤخذ كلامه ها هنا وها هنا ، وتعرف ما عادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به وتعرف المعاني التي عرف أنه أرادها في موضع آخر ، فإذا عرف عرفه وعادته في معانيه وألفاظه كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده .

وأما إذا استعمل لفظه في معنى لم تجر عادته باستعماله فيه ، وترك استعماله في المعنى الذي جرت عادته باستعماله فيه ، وحمل كلامه على خلاف المعنى الذي قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ يجعل كلامه متناقضا ، ويترك كلامه على ما يناسب سائر كلامه كان ذلك تحريفا لكلامه عن موضعه ، وتبديلا لمقاصده وكذبا عليه .

فهذا أصل من ضل في تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم ، فإذا عرف هذا ، فيقول :

(الرد عليهم)

الجواب عما ذكروه هنا من وجوه :

أحدها : أن الله لم يذكر عن المسيح خلقا مطلقا ، ولا خلقا عاما ، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى ، فأول ما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكرمُ الذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هوَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادةِ هُوَ الرحمنُ الرَّحيمُ ؛ هوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هوَ الملكُ القدّوسُ السَّلامُ المؤمنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجَبّارُ المتكبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يُشرِكونَ ؛ هوَ اللهُ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ لَهُ الأسماءُ الحُسْنى ﴾[2] .

فذكر نفسه بأنه الخالق البارىء المصور ، ولم يصف قط شيئا من المخلوقات بهذا لا ملكا ولا نبيا ، وكذلك قال تعالى : ﴿ اللهُ خالقُ كُلِّ شيءٍ وَهُوَ وكيلٌ ، لَهُ مَقاليدُ السمواتِ والأرضِ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعلوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقوا لَهُ بَنينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ

---

(١) سورة العلق الآيات (١ ـ ٥) .

(٢) سورة الحشر الآيات (٢٢ ـ ٢٤) .

(٣) سورة الزمر الآية ٦٣ .

سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يَصِفونَ ، بَدِيعُ السمواتِ والأرضِ أنّى يكونُ لهُ ولدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وَهُوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾[1] .

ووصف نفسه بأنه رب العالمين ، وبأنه مالك يوم الدين ، وأنه له الملك وله الحمد ، وأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولم يصف شيئا من مخلوقاته لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلاً بشيء من الخصائص التي يختص بها ، التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالى .

وأما المسيح عليه السلام فقال فيه : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ﴾ .

وقال المسيح عن نفسه : ﴿ وَأَخْلُقُ لكمْ مِنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطّيْرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فيكونُ طَيْراً بإذنِ اللهِ وأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأبرصَ وأُحْيي الموتى بإذنِ اللهِ ﴾ فلم يذكر إلا خلق شيء معين خاص بإذن الله ، فكيف يكون هذا الخلق هو ذاك ؟

الوجه الثاني : أنه خلق من الطين كهيئة الطير ، والمراد به تصويره بصورة الطير ، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس ، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير ، وغير الطير من الحيوانات ، ولكن التصوير محرم ، بخلاف تصوير المسيح ، فإن الله أذن له فيه .

والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيراً بإذن الله عز وجل ، ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين ، فإن هذا مشترك ، ولقد لعن النبي ﷺ المصورين ، وقال : « إن أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المصورون »[1] .

الوجه الثالث : أن الله أخبر أن المسيح إنما فعل التصوير وهو محرم ، والنفخ بإذنه تعالى ، وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله وأخبر الله أن هذا من نعمته التي أنعم بها على المسيح عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ إنْ هُوَ إلاّ عبدٌ أنْعَمْنا عليهِ وَجَعَلْناهُ مثلاً لِبني إسرائيلَ ﴾ .

وقال تعالى له : ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص وإذ تخرج

---

(١) سورة الأنعام الآيات (١٠٠ ـ ١٠١) .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب اللباس) ، مسلم (كتاب اللباس) ، والنسائي (كتاب الزينة) ، ابن حنبل ١/ ٢٧٥ .

الموتى بإذني ، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ﴾ .

وهذا كله صريح في أنه ليس هو الله ، وإنما هو عبد الله فعل ذلك بإذن الله ، كما فعل مثل ذلك غيره من الأنبياء ، وصريح بأن الإذن غير المأذون له والمعلِّم ليس هو المعلَّم ، والمنعِم عليه وعلى والدته ليس هو إياه ، كما ليس هو والدته .

والوجه الرابع : أنهم قالوا : أشاروا بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت ، ثم قالوا في قوله ﴿ بإذن الله ﴾ أي بإذن الكلمة المتحدة في الناسوت ، وهذا يبين تناقضهم وافتراءهم على القرآن لأن الله أخبر في القرآن أن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، ففرق بين المسيح وبين الله وبين أن الله هو الآذن للمسيح وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق ، وهو الآذن ، فجعلوا الخالق هو الآذن ، وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن .

الوجه الخامس : أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتج إلى أن يأذن لنفسه ، فإنهم يقولون : هو إله واحد وهو الخالق ، فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه وينعم على نفسه ؟

الوجه السادس : أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام ، أو الكلام الذي هو صفة للذات ، فإن كان هو الكلام ، فالكلام صفة لا تكون ذاتا قائمة بنفسها خالقة ، ولو لم تتحد بالناسوت واتحادها بالناسوت دون الموصوف ممتنع لو كان الاتحاد ممكنا ، فكيف وهو ممتنع ؟

فقد تبين امتناع كونه الكلمة تكون خالقة من وجوه ، وإن كان الخالق هو الذات المتصفة بالكلام، فذاك هو الله الخالق لكل شيء رب العالمين ، وعندهم هو الأب ، والمسيح عندهم ليس هو الأب فلا يكون هو الخالق لكل شيء ، والقرآن يبين أن الله هو الذي أذن للمسيح حتى خلق من الطين كهيئة الطير ، فتبين أن الذي خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله ولا صفة من صفاته ، فليس المسيح هو ابن قديم أزلي لله ، ولكن عبده فعل بإذنه .

الوجه السابع : قولهم فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذة من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبي : (بكلمة الله خلقت السموات والأرض) .

فيقال لهم : هذا النص عن داود حجة عليكم ، كما أن التوراة والقرآن ، وسائر ما ثبت عن الأنبياء حجة عليكم ، فإن داود عليه السلام قال : (بكلمة الله خلقت السموات والأرض) ولم يقل : إن كلمة الله هي الخالقة ، كما قلتم أنتم أنه أشار بالخالق إلى كلمة الله .

والفرق بين الخالق للسموات والأرض وبين الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض أمر ظاهر معروف ، كالفرق بين القادر والقدرة ، فإن القادر هو الخالق وقد خلق الأشياء

بقدرته ، وليست القدرة هي الخالقة ، وكذلك الفرق بين المريد والإرادة ، فإن خلق الأشياء بمشيئته، وليست مشيئته هي الخالقة ، وكذلك الدعاء والعبادة هو للإله الخالق لا لشيء من صفاته ، فالناس كلهم يقولون : يا الله يا ربنا يا خالقنا ارحمنا واغفر لنا ، ولا يقول أحد : يا كلام الله اغفر لنا وارحمنا ، ولا ياقدرة الله ،ويا مشيئة الله ، ويا علم الله اغفر لنا وارحمنا والله تعالى يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه ، وليست صفاته هي الخالقة .

الوجه الثامن : أن قول داود عليه السلام : (بكلمة الله خلقت السموات والأرض) يوافق ما جاء في القرآن والتوراة ، وغير ذلك من كتب الأنبياء أن الله يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا في القرآن في غير موضع ، وفي التوراة قال الله : (ليكن كذا ليكن كذا) .

الوجه التاسع : قولهم لأنه ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه ، إن أرادوا بكلمته كلامه ، وبروحه حياته فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته ، فلم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله ، فمن حمل كلام أحد من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله فقد كذب عليه ، ثم يقال : هذا كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته ، وحينئذ فالخالق هو الله وحده وصفاته داخلة في مسمى اسمه ، لا يحتاج أن تجعل معطوفه على اسمه بواو التشريك التي تؤذن بأن الله له شريك في خلقه ، فإن الله لا شريك له .

ولهذا لما قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، دخل كل ما سواه في مخلوقاته ، ولم تدخل صفاته كعلمه وقدرته ومشيئته وكلامه ، لأن هذه داخلة في مسمى اسمه ليست أسماؤه مباينة له ، بل أسماؤه الحسنى متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه الصفات لا يجوز أن يراد بأسمائه ذات مجردة عن صفات الكمال ، فإن تلك حقيقة لها ، ويمتنع وجود ذات مجردة عن صفة فضلا عن وجود ذاته تعالى ، مجردة عن صفات كماله ، التي هي لازمة لذاته يمتنع تحقق ذاته دونها .

ولهذا لا يقال : الله وعلمه خلق ، والله وقدرته خلق ، وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح ، أو شيئا اتحد بناسوت المسيح ، فالمسيح عليه السلام كله مخلوق كسائر الرسل والله وحده هو الخالق ، وإن شئت قلت : إن أريد بالروح والكلمة ما هو صفة لله فتلك داخلة في مسمى اسمه ، وإن أريد ما ليس بصفة فذلك مخلوق له كالناسوت .

الوجه العاشر : أن داود عليه السلام لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح لأن المسيح عند جميع الناس هو اسم للناسوت ، وهو عندهم اسم اللاهوت والناسوت لما اتحد ، والاتحاد فعل حادث عندهم ، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوت ولا ما يسمى مسيحيا ، فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح ، ولكن غايتهم أن يقولوا : أراد الكلمة التي اتحدت فيها بعد المسيح ، لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح ، كما نطق به القرآن بقوله : ﴿ يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح

عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ .

فالكلمة التي ذكرها وأنها هي التي بها خلقت السموات والأرض ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، فاحتجاجهم بهـذا على هـذا احتجاج بـاطل ، بـل تلك الكلمـة التي بها خلقت السمـوات والأرض لم يكن معها نـاسوت حـين خلقت باتفـاق الأمم ، والمسيح لا بد أن يدخل فيه الناسوت فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام(*)

سئل شيخ الإسلام رضي الله عنه :

عن قوله تعالى : ﴿ثمّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّى عِنْدَهُ ثُمّ أَنْتُمْ تَمْتَرونَ﴾ . . إلى قوله : ﴿وَما يُعَمّرُ مِنْ مُعَمّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاّ في كِتابٍ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿يَمْحُو اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾ هل المحو والإثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح « إن الله تعالى كتب كتابا فهو عنده على عرشه » الحديث . وقد جاء جف القلم فما معنى ذلك في المحو والإثبات ؟

وهل شرع في الدعاء أن يقول : اللهم إن كنت كتبتني كذا فامحني واكتبني كذا فإنك قلت « يمحو الله ما يشاء ويثبت » وهل صح أن عمر كان يدعو بمثل هذا ؟ وهل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصلة الرحم ، كما جاء في الحديث ؟

افتونا مأجورين .

فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين .

أما قوله سبحانه :﴿ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده﴾[2] فالأجل الأول هو أجل كل عبد ؛ الذي ينقضي به عمره ، والأجل المسمى عنده هو : أجل القيامة العامة .

(*) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/٤٨٩ ـ ٤٩٤ ط السعودية .

(١) سورة الأنعام الآية ٢ .

(٢) سورة فاطر الآية ١١ .

ولهذا قال : (مسمى عنده) فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، كما قال : ﴿يَسألونَكَ عَنِ الساعةِ أيّانَ مُرْساها ؟ قلْ إنما عِلْمُها عندَ رَبِّي ، لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إلا هُوَ﴾[1] . بخلاف ما إذا قال : (مسمى) كقوله : ﴿إذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجلٍ مُسَمّى﴾[2] إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده ، فقد يعرفه العباد .

وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد ، وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد . كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال : « حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : أكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ثم ينفخ في الروح »[3] فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده .

وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو .

وأما قوله :﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾فقد قيل إن المراد الجنس ، أي ما يعمر من عمر إنسان ، ولا ينقص من عمر أنسان ، ثم التعمير والتقصير يراد به شيئان :

« أحدهما » : أن هذا يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره ، كما أن المعمر يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره ، كما أن التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر .

وقد يراد بالنقص النقص من العمر المكتوب ، كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « من سره أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره فليصل رحمه »[4] وقد قال بعض الناس : إن المراد به البركة في العمر ، بأن يعمل في الزمن القصير ما لايعمله غيره إلا في الكثير ، قالوا : لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان .

فيقال لهؤلاء تلك البركة . وهي الزيادة في العمل ، والنفع . هي أيضا مقدرة مكتوبة ، وتتناول لجميع الأشياء .

والجواب المحقق : أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة ، فإذا وصل رحمه زاد في

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٣ .

(٣) ورد هذا الحديث في : البخاري (كتاب بدء الخلق ـ كتاب القدر) ، مسلم (كتاب القدر) ، أبو داود (كتاب السنة) ، الترمذي (كتاب القدر) ، ابن ماجه (المقدمة) .

(٤) ورد الحديث في : البخاري (كتاب البيوع) مسلم (كتاب البر) ، أبو داود (كتاب الزكاة) ، ابن حنبل ١٥٦/٣ .

ذلك المكتوب . وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب .

ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ : « إن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم ، فرأى فيهم رجلاً له بصيص ، فقال : من هذا يا رب ؟ فقال : ابنك داود . قال : فكم عمره ؟ قال أربعون سنة . قال : وكم عمري ؟ قال : ألف سنة . قال : فقد وهبت له من عمري ستين سنة . فكتب عليه كتابا ، وشهدت عليه الملائكة ، فلما حضرته الوفاة قال : قد بقي من عمري ستون سنة . قالوا : وهبتها لابنك داود . فأنكر ذلك ، فأخرجوا الكتاب . قال النبي ﷺ : فنسي آدم فنسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته » وروي أنه كمل لآدم عمره ، ولداود عمره[1] .

فهذا داود كان عمره المكتوب اربعين سنة ، ثم جعله ستين ، وهذا معنى ما روى عن عمر أنه قال : اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت .

والله سبحانه عالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك ، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله ، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها ؛ فلهذا قال العلماء : إن المحو والإثبات في صحف الملائكة ، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به ، فلا محو فيه ولا إثبات .

وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟ .

فصل

وقال أيضاً :

ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة مناظرة إبراهيم ، وفي قصة احتيال يوسف ، ولهذا قال السلف : بالعلم ؛ فإن سياق الآيات يدل عليه ، فقصة إبراهيم في العلم بالحجة ، والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين[2] ، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصل منفعة المطلوب[3] ، فالأول علم بما يدفع المضار في الدين ، والثاني علم بما يجلب المنافع ، أو يقال : الأول هو العلم الذي يدفع المضرة عن الدين ويجلب منفعته ، والثاني علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها ،أو يقال قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها وقصة يوسف في علم الأفعال النافعة عند الحاجة إليها ، فالحاجة (إلى)[4] جلب المنفعة

---

(١) ورد الحديث في : الترمذي (كتاب التفسير- تفسير سورة الاعراف) ، وفي ابن حنبل ١/٢٥١

(٢) وردت مناظرة ابراهيم بالتفصيل في سورة الأنعام في الآيات من ٧٤ ـ ٨٤ .

(٣) انظر في ذلك الآيات رقم ٣٦ ـ ٤٩ والآيات رقم ٦٩ ـ ٧٦ . من سورة يوسف .

(٤) إلى : ليست بالأصل .

ودفع المضرة قد تكون إلى القول ، وقد تكون (إلى الفعل)[1].

ولهذا كان المقصرون عن علم الحجج والدلالات ، وعلم السياسة والامارات مقهورين مع هذين الصنفين ، تارة بالاحتياج إليهم إذا هجم عدو يفسد الدين الجدل أو الدنيا بالظلم ، وتارة بالاحتياج إليهم إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك ، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين والدنيا ، وتارة يعيشون في ظلهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ، ولا وال يظلمهم وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدامغة لأهل البدع والسياسة الدافعة للظلم .

ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء ، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما ، فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما : أهل الرياسة العلمية ، وأهل الرياسة القدرية ، ولهذا قال طائفة من السلف كالثوري وابن عيينة وغيرهما ما معناه : أن من نجا من فتنة البدع وفتنة السلطان فقد نجا من الشر كله ، وقد بسطت القول في هذا في الصراط المستقيم عند قوله : ﴿فَاسْتَمْتَعوا بِخلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كالذي خاضُوا﴾[2]

فصل[*]

قال تعالى : ﴿وَكذلكَ فَتَنّا بَعْضُهُم بِبَعْضٍ لِيقولوا أهؤلاءِ مَنّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا . أليس اللّهُ بأعلَمَ بالشاكرينَ﴾ (سورة الأنعام : ٥٣) .

فتخصيص هذا بالإيمان كتخصيص هذا بمزيد علم وقوة وصحة وجمال ومال . قال تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نحنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ في الحياةِ الدنيا وَرَفَعْنا بعضَهم فَوْقَ بعضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بعضُهُمْ بعضاً سُخْرِيّاً﴾ (سورة الزخرف : ٣٢) . وإذا خص أحد الشخصين بقوة وطبيعة تقتضي غذاء صالحا ، خصه بما يناسب ذلك من الصحة والعافية ، وإن لم يعط الآخر (ذلك) ، نقص عنه وحصل له ضعف ومرض .

والظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو لا يضع العقوبة إلا في المحل الذي يستحقها ، لا يضعها على محسن أبدا . وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يمين الله ملأى لا يغيضها

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس بالأصل ، ويوجد في مكانه خرم واكملناه حسب حاجة السياق ليستقيم المعنى .

(*) سورة التوبة الآية ٦٩ .

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٢/٩٢ بتحقيق دكتور محمد رشاد سالم .

نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه ، والقسط بيده الأخرى يقبض ويبسط »[1] . فبين أنه سبحانه وتعالى يحسن ويعدل ولا يخرج فعله عن العدل والإحسان . ولهذا قيل : كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

ولهذا يخبر أنه تعالى يعاقب الناس بذنوبهم . وأن إنعامه عليهم إحسان منه : كما في الحديث الصحيح الإلهي : « يقول الله تعالى : يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تَظالموا . . إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وقد قال تعالى : ﴿ما أصابَكَ من حسنةٍ فَمِنَ اللّهِ وما أصابَكَ مِنْ سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (سورة النساء : ٧٩) ، أي ما أصابك من نعم تحبها كالنصر والرزق فالله أنعم بذلك عليك ، وما أصابك من نقم تكرهها فبذنوبك وخطاياك . فالحسنات والسيئات(هنا) أراد بها النعم والمصائب ـ كما قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾(سورة الأعراف : ٦٨) ، وكما قال تعالى : ﴿إن تُصِبْكَ حَسَنةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكَ مُصيبةٌ يقولوا قد أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ﴾ (سورة التوبة : ٥٠) ، وقوله تعالى : ﴿إن تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكُمْ سيئةٌ يَفرحوا بِها﴾ (سورة آل عمران : ١٢٠) . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿وإذا أَذَقْنا الناسَ رحمةً فَرِحوا بها وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ بما قدّمَتْ أيديهم إذا هُمْ يَقنطون﴾ (سورة الروم : ٣٦) ، فأخبر أن ما يصيب به الناس من الخير فهو رحمة منه أحسن بها إلى عباده ، وما أصابهم به من العقوبات فبذنوبهم ، وتمام الكلام على هذا مبسوط في مواضع آخر[2] .

وكذلك الحكمة أجمع المسلمون على أن الله تعالى موصوف بالحكمة ، لكن تنازعوا في تفسير ذلك .

فقالت طائفة : الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده ،

---

(١) في اللسان : سح الدمع والمطر والماء يسح سحا وسحوحا اي سال من فوق واشتد انصبابه . وفي الحديث : يمين الله سحاء . . اي دائمة الصب والهطل بالعطاء .

والحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد (١٢٣/٩) عن أبي هريرة ، وفيه . . . فإنه لم يغض ما في يده ، وقال : عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع . وروى ابن خزيمة الحديث في كتاب « التوحيد » ص ٤٧ ، القاهرة ، ١٣٥٣ .

(٢) انظر مثلا رسالته في تفسير قوله تعالى : ﴿ما اصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ ، نشرها الشيخ حامد الفقي تحت عنوان : الحسنة والسيئة وموقف العبد عندهما ، ضمن مجموعة شذرات البلاتين ، ص ١٦٥ ـ ٢٩٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦/١٣٧٥ .

وانظر كذلك الجزء الثاني من دقائق التفسير . تفسير سورة النساء .

ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة .

وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم : بل هو حكيم في خلقه وأمره ، والحكمة ليست مطلق المشيئة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيما ، ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة ، بل الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة . والقول بإثبات هذه الحكمة ليس هو قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فقط ، بل هو قول جماهير طوائف المسلمين ، من أهل التفسير والفقه والحديث ، والتصوف والكلام ، وغيرهم . فأئمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في الأحكام الشرعية ، وإنما ينازع في ذلك طائفة من نفاة القياس وغير نفاته ، وكذلك ما في خلقه من المنافع والحكم والمصالح لعباده معلوم .

وأصحاب القول الأول كجهم بن صفوان ، وموافقيه : كالأشعري ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، يقولون : ليس في القرآن لام التعليل في أفعال الله ، بل ليس فيه إلا لام العاقبة .

وأما الجمهور فيقولون : (بل) لام التعليل داخلة في أفعال الله وأحكامه .

والقاضي أبو يعلى[1] وأبو الحسن بن الزاغوني[2] ونحوهما من أصحاب أحمد ، وإن كانوا قد يقولون بالأول ، فهم يقولون بالثاني أيضا في غير موضع ، وكذلك أمثالهم من الفقهاء أصحاب مالك والشافعي وغيرهما .

وأما ابن عقيل[3] في بعض المواضع ، وأبو خازم بن القاضي أبي يعلى[4] ، وأبو الخطاب (الصغير)[5] فيصرحون بالتعليل والحكمة في أفعال الله موافقة لمن قال ذلك من أهل النظر .

والحنفية هم من أهل السنة وقائلين بالقدر وجمهورهم يقولون بالتعليل والمصالح .

---

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء المتوفى سنة ٤٥٨ . ترجمته في « طبقات الحنابلة » لابنه القاضي ابي الحسين محمد بن ابي يعلى ٢/١٩٣ - ٢٣٠ .

(٢) ب : أبو الحسن بن الزعفراني ، وهو خطأ . وأبو الحسن بن الزاغوني هو علي بن عبيد الله بن نصر السري (وقد اختلف في اسمه) المتوفى سنة ٥٢٧ . أنظر ترجمته في « الذيل على طبقات الحنابلة » لابن رجب ١/١٨٠ - ١٨٤ .

(٣) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن أحمد المتوفى سنة ٥١٣ . انظر الذيل لابن رجب ١/١٤٢ - ١٦٣ .

(٤) وهو محمد بن محمد بن الحسين بن الفراء المتوفى سنة ٥٢٧ . انظر الذيل لابن رجب ١/١٨٤ - ١٨٥ .

(٥) لم أجد له ذكراً . ولعل المقصود هو أبو جعفر محمد بن محفوظ ابن الإمام أبي الخطاب الكلوذاني ، وقد توفي أبو جعفر سنة ٥٣٣ . أنظر ابن رجب ١/١٩١ - ١٩٢ . أو لعل المقصود هو ابو الخطاب الصوفي احمد بن علي بن عبد الله المقرىء المتوفى سنة ٤٧٦ . انظر ابن رجب ١/٤٥ - ٤٩ .

والكرامية[1] وأمثالهم (هم) أيضا من القائلين بالقدر المثبتين لخلافة الخلفاء المفضلين لأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وهم أيضا يقولون بالتعليل والحكمة وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد يقولون بالتعليل والحكمة وبالتحسين والتقبيح العقليين ، كأبي بكر القفال[2] وأبي علي بن أبي هريرة[3] وغيرهم من أصحاب الشافعي ، وأبي الحسن التميمي[4] وأبي الخطاب[5] من أصحاب أحمد .

وفي الجملة النزاع في تعليل أفعال الله وأحكامه مسألة لا تتعلق بالإمامة أصلا ، وأكثر أهل السنة على إثبات الحكمة والتعليل .

ولكن الذين أنكروا ذلك (من أهل السنة) احتجوا بحجتين :

إحداهما : أن ذلك يستلزم التسلسل ، فإنه إذا فعل لعلة ، فتلك العلة أيضا حادثة ، فتفتقر إلى علة ؛ إن وجب أن يكون لكل حادث علة . وإن عقل الإحداث بلا علة ، لم يحتج إلى إثبات علة ، فهم يقولون : إن أمكن الإحداث بغير علة ، لم يحتج إلى علة ، ولم يكن ذلك عبثا . وإن لم يكن وجود الإحداث إلا لعلة ، فالقول في حدوث العلة كالقول في حدوث المعلول ، وذلك يستلزم التسلسل .

الحجة الثانية : أنهم قالوا : من فعل لعلة كان مستكملا بها ، لأنه لو لم يكن حصول العلة أولى من عدمها ، لم تكن علة . والمستكمل بغيره ناقص بنفسه ، وذلك ممتنع على الله .

وأوردوا على المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة حجة تقطعهم على أصولهم . فقالوا : العلة التي فعل لأجلها إن كان وجودها وعدمها (بالنسبة) إليه سواء امتنع أن تكون علة . وإن كان وجودها أولى ، فإن كانت منفصلة عنه لزم أن يستكمل بغيره ، وإن كانت قائمة به لزم أن يكون محلا للحوادث .

---

(1) الكرامية هم أتباع محمد بن كرام أبو عبدالله السجستاني المتوفى في القدس سنة ٢٥٥ (انظر شذرات الذهب ١٢١/٢) . والكرامية يوافقون السلف في اثبات الصفات ولكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم ، وهم يوافقون السلف أيضا في إثبات القدر والقول بالحكمة ، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله تعالى بالعقل وفي أن العقل يحسن ويقبح قبل الشرع . كما يعدهم الأشعري وابن حزم من المرجئة لقولهم إن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب . انظر المقالات ٢٠٥/١ ، الفصل لابن حزم ٢٠٤/٤ ، الملل والنحل ٩٩/١ ـ ١٠٤ ، الفرق بين الفرق ١٣٠ ـ ١٣٧ ، التبصير في الدين ٦٥ ـ ٧٠ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٦٧ .

(2) هو أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥ . انظر ابن خلكان ٣٣٨/٣ ـ ٣٣٩ ، تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٨٢ ، ١٨٣ .

(3) هو أبو علي الحسن بن الحسين بن أبي هريرة المتوفى سنة ٣٤٥هـ . انظر ابن خلكان ٣٥٨/١ .

(4) هو عبد العزيز بن الحارث بن أسد ، أبو الحسن التميمي المتوفى سنة ٣٧١ . انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١٣٩/٢ .

(5) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني ، أبو الخطاب المتوفى سنة ٥١٠ . انظر الذيل لابن رجب ١١٦/١ ـ ١٢٧ .

وأما المجوزون للتعليل فهم متنازعون . فالمعتزلة وأتباعهم من الشيعة تثبت من التعليل ما لا يعقل ، وهو أنه فعل لعلة منفصلة عن الفاعل مع كون وجودها وعدمها (بالنسبة) إليه سواء .

وأما أهل السنة القائلون بالتعليل فإنهم يقولون : إن الله يحب ويرضى كما دل على ذلك الكتاب والسنة . ويقولون : إن المحبة والرضا أخص من الإرادة ـ وأما المعتزلة وأكثر أصحاب الأشعري فيقولون : (إن) المحبة والرضا والإرادة سواء ـ فجمهور أهل السنة يقولون : إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه ، وإن كان داخلاً في مراده كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة ، وهو وإن كان شرا بالنسبة إلى الفاعل ، فليس كل ما كان شرا بالنسبة إلى شخص يكون عديم الحكمة ، بل لله في المخلوقات حكم قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها .

فصـــل (*)

قال تعالى : ﴿ وإذا جاءَكَ الذينَ يُؤمِنونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كتبَ رَبُّكُمْ على نفسِهِ الرحمةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكمْ سُوءاً بِجَهالةٍ ثمّ تابَ مِنْ بعدِهِ وأصلحَ فإنَّهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (سورة الأنعام : ٥٤) ، لم يمنع (هذا) أن يكون كل منهم متصفا بهذه الصفة ، ولا يجوز أن يقال : إنهم لو عملوا سوءا بجهالة ثم تابوا من بعده وأصلحوا لم يغفر إلا لبعضهم .

ولهذا تدخل « من » هذه في النفي لتحقيق نفي الجنس ، كما في قوله تعالى : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ (سورة الطور : ٢١) ، وقوله تعالى : ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ (سورة آل عمران : ٦٢) ، (وقوله) : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (سورة الحاقة : ٤٧) . ولهذا إذا دخلت في النفي تحقيقا أو تقديرا أفادت نفي الجنس قطعا ، فالتحقيق ما ذكر ، والتقدير كقوله تعالى : ﴿ لا إله إلا الله) (سورة آل عمران : ٦٢) ، وقوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ (سورة البقرة : ٢) ونحو ذلك ، بخلاف ما إذا لم تكن « من » موجودة ، كقولك: ما رأيت رجلا ، فإنها ظاهرة لنفي الجنس ، ولكن قد يجوز أن ينفي بها الواحد من الجنس ، كما قال سيبويه : يجوز أن يقال : ما رأيت رجلا بل رجلين ، فتبين أنه يجوز إرادة الواحد وأن كان الظاهر نفي الجنس ، بخلاف ما إذا دخلت « من » فإنه ينفي الجنس قطعا .

ولهذا لو قال لعبيده : من أعطاني منكم ألفا فهو حر ، فأعطاه كل واحد ألفا ، ؛ عتقوا

(*) انظر منهاج السنة ٢ /٢٧ .

كلهم . وكذلك لو قال لنسائه : من أبرأتني منكن من صداقها فهي طالق ، فأبرأنه كلهن طلقن كلهن . فإن المقصود بقوله : « منكم » بيان جنس المعطي والمبرىء ، لا إثبات هذا الحكم لبعض العبيد والأزواج .

فإن قيل : فهذا كما لا يمنع أن يكون كل المذكور متصفا بهذه الصفة فلا يوجب ذلك أيضا ، فليس في قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ ما يقتضى أن يكونوا كلهم كذلك .

قيل : نعم ، ونحن لا ندعي أن مجرد هذا اللفظ دل على أن جميعهم موصوفون بالإيمان والعمل الصالح ، ولكن مقصودنا أن « من » لا ينافي شمول هذا الوصف لهم ، فلا يقول قائل : إن الخطاب دل على أن المدح شملهم وعمهم بقوله : ﴿ محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معهُ أشِدّاءُ على الكفارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إلى آخر الكلام . ولا ريب أن هذا مدح لهم بما ذكر من الصفات : وهو الشدة على الكفار والرحمة بينهم ، والركوع والسجود يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، والسيما في جوههم من أثر السجود ، وأنهم يبتدؤ ون من ضعف إلى كمال القوة والاعتدال كالزرع . والوعد بالمغفرة والأجر العظيم ليس على مجرد هذه الصفات ، بل على الإيمان والعمل الصالح ، فذكر ما به يستحقون الوعد ، وإن كانوا كلهم بهذه الصفة ، ولولا ذكر ذلك لكان يظن أنهم بمجرد ما ذكر يستحقون المغفرة والأجر العظيم ، ولم يكن فيه بيان سبب الجزاء ، بخلاف ما إذا ذكر الإيمان والعمل الصالح ، فإن الحكم إذا علق باسم مشتق مناسب كان ما منه الاشتقاق سبب الحكم .

فصل [*]

في قول إبراهيم

(لا أحب الآفلين)

ظن هؤلاء أن قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ هذا ربي ﴾ (سورة الأنعام : ٧٧) أراد به : هذا خالق السماوات والأرض ، القديم الأزلي ، وأنه استدل على حدوثه بالحركة .

وهذا خطأ من وجوه[1] :

(*) درء تعارض العقل والنقل ١/٣١١ ط دار الكتب المصرية .

(١) انظر ما ذكره ابن تيمية في الرد على هذا الاستدلال بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في كتاب « منهاج السنة » ١/١٤١ - ١٤٣ ، ٢/١٤٢ - ١٤٥ (ط . دار العروبة) . وانظر أيضا : شرح حديث النزول ، ص ١٩٤ - ١٩٧ (ط . الإمام) ، القاهرة ، ١٣٦٦/١٩٤٧ ، السبعينية ، ص ٦٩ - ٧٧ . ويرد ابن تيمية هنا على رأي الجهمية والمعتزلة والأشاعرة خاصة الرازي في كتاب نهاية العقول .

أحدها : أن قول الخليل : ﴿ هذا ربي ﴾ ـ سواء قاله على سبيل التقدير لتقريع قومه ، أو على سبيل الاستدلال والترقي : أو غير ذلك ـ ليس المراد به : هذا رب العالمين القديم الأزلي الواجب الوجود بنفسه ، ولا كان قومه يقولون : إن الكواكب أو القمر أو الشمس رب العالمين الأزلي الواجب الوجود بنفسه ، ولا قال هذا أحد من أهل المقالات المعروفة التي ذكرها الناس : لا من مقالات أهل التعطيل والشرك الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب ، ولا من مقالات غيرهم ؛ بل قوم إبراهيم ﷺ كانوا يتخذونها أربابا يدعونها ويتقربون إليها بالبناء عليها والدعوة لها والسجود والقرابين وغير ذلك ، وهو دين المشركين الذين صنف الرازي كتابه على طريقتهم وسماه « السر المكتوم ، في دعوة الكواكب والنجوم والسحر والطلاسم[1] والعزائم » .

وهذا دين المشركين من الصابئين كالكشدانيين[2] والكنعانيين واليونانيين وأرسطو وأمثاله من أهل هذا الدين ، وكلامه معروف في السحر الطبيعي الروحاني ، والكتب المعروفة بذخيرة الإسكندر بن فيلبس الذي يؤرخون به ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة .

وكانت اليونان مشركين يعبدون الأوثان ، كما كان قوم إبراهيم مشركين يعبدون الأوثان ، ولهذا قال الخليل : ﴿ إنني براءٌ ممّا تَعبدونَ * إلا الذي فَطَرني فإنّهُ سَيَهدينِ ﴾ (سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧) ، وقال : ﴿ أفَرأيتمْ ما كنتمْ تَعبدونَ * أنتم وآباؤُكُمُ الأقدَمونَ * فإنهم عَدُوٌّ لي إلا ربَّ العالمينَ ﴾ (سورة الشعراء ٧٥ ـ ٧٧) ، وأمثال ذلك مما يبين تبرؤه مما يعبدوه غير الله .

وهؤلاء القوم عامتهم من نفاة صفات الله وأفعاله القائمة به ، كما هو مذهب الفلاسفة المشائين ، فإنهم يقولون : إنه ليس له صفة ثبوتية ، بل صفاته إما سلبية وإما إضافية ، وهو مذهب القرامطة الباطنية القائلين بدعوة الكواكب والشمس والقمر والسجود لها ، كما كان على ذلك من كان عليه من بني عبيد ملوك القاهرة وأمثالهم .

فالشرك الذي نهى عنه الخليل وعادى أهله عليه كان أصحابه هم أئمة هؤلاء النفاة للصفات والأفعال ، وأول من أظهر هذا النفي في الإسلام : الجعد بن درهم ، معلم مروان ابن محمد .

---

(١) ذكره ابن خلكان وابن حجر ، ومنه نسخ خطية في مكتبات برلين وليدن وباريس والمتحف البريطاني وغيرها . أنظر : وفيات الأعيان ٣٨١/٣ ، لسان الميزان ٤٢٦/٤ ، الأعلام ٢٠٣/٧ .

(٢) م (فقط) : كالكلدانيين .

وفي « تاج العروس » للزبيدي مادة « كشد » : « الكشدانيون بالضم طائفة من عبدة الكواكب » .

قال الإمام أحمد : وكان يقال إنه من أهل حران ، وعنه أخذ الجهم بن صفوان مذهب نفاة الصفات ، وكان بحران أئمة هؤلاء الصابئة الفلاسفة ، بقايا أهل هذا الدين أهل الشرك ونفي الصفات والأفعال ، ولهم مصنفات في دعوة الكواكب ، كما صنفه ثابت بن قرة وأمثاله من الصابئة الفلاسفة أهل حران ، وكما صنفه أبو معشر البلخي وأمثاله ، وكان لهم بها هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل الفعال ، وهيكل النفس الكلية ، وهيكل زحل ، وهيكل المشتري ، وهيكل المريخ ، وهيكل الشمس ، وهيكل الزهرة ، وهيكل عطارد ، وهيكل القمر ، وقد بسط هذا في هذا الموضع .

الوجه الثاني : أنه لو كان المراد بقوله : ﴿ هذا ربي ﴾ أنه رب العالمين ، لكانت قصة الخليل حجة على نقيض مطلوبهم ؛ لأن الكوكب والقمر والشمس ما زال متحركا من حين بزوغه إلى عند أفوله وغروبه ، وهو جسم متحرك متحيز (صغير) ، فلو كان مراده هذا للزم أن يقال : إن ابراهيم لم يجعل الحركة والانتقال مانعة من كون المتحرك المنتقل رب العالمين ، بل ولا كونه صغيراً بقدر الكوكب والشمس والقمر . وهذا ـ مع كونه لا يظنه عاقل ممن هو دون إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ـ فإن جوزوه عليه كان حجة عليهم ، لا لهم .

الوجه الثالث : أن « الأفول » هو المغيب والاحتجاب ، ليس هو مجرد الحركة والانتقال ، ولا يقول أحد ـ لا من أهل اللغة ولا من أهل التفسير ـ إن الشمس والقمر في حال مسيرهما في السماء : إنهما آفلان ، ولا يقول للكواكب المرئية في السماء ، في حال ظهورها وجريانها : إنها آفلة ، ولا يقول عاقل لكل من مشى وسافر وسار وطار : إنه آفل .

الوجه الرابع : أن هذا القول الذي قالوه لم يقله أحد من علماء السلف أهل التفسير ، ولا من أهل اللغة ، بل هو من التفسيرات المبتدعة في الإسلام ، كما ذكر ذلك عثمان بن سعيد الدارمي[1] وغيره من علماء السنة ، وبينوا أن هذا من التفسير المبتدع .

وبسبب هذا الابتداع أخذ ابن سينا وأمثاله لفظ « الأفول » بمعنى الإمكان ، كما قال في « إشاراته »[2] :

« قال قوم : إن هذا الشيء المحسوس موجود لذاته واجب لنفسه ، لكن إذا تذكرت ما

---

(١) يقول الدارمي في كتابه « رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد » ص ٥٥ ، (ط . السنة المحمدية ، ١٣٥٨) « واحتججت أيها المريسي في نفي التحرك على الله والزوال بحجج الصبيان فزعمت أن إبراهيم حين رأى كوكبا وشمسا وقمرا قال : ﴿ هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ ثم قلت : فنفى إبراهيم المحبة عن كل إله زائل ، يعني أن الله إذا نزل من سماء إلى سماء ، أو نزل يوم القيامة لمحاسبة العباد ، فقد أفل وزال . . فلو قاس هذا القياسَ تركي طمطماني أو ذو أعجمية ما زاد على ما قست إلا قبحا وسماجة . . الخ » .

(٢) الإشارات والتنبيهات ٣/٥٣١ ـ ٥٣٢ ، ط . المعارف ، ١٩٥٨ .

قيل في شرط واجب الوجود لم تجد هذا المحسوس واجبا ، وتلوث قوله تعالى : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ (سورة الأنعام : ٧٦) فإن الهوى في حظيرة الإمكان أفول ما » فهذا قوله .

ومن المعلوم بالضرورة من لغة العرب : أنهم لا يسمون كل مخلوق موجود آفلا ، ولا كل موجود بغيره آفلا ، ولا كل موجود يجب وجوده بغيره لا بنفسه آفلا ، ولا ما كان من هذه المعاني التي يعنيها هؤلاء بلفظ الإمكان ، بل هذا أعظم افتراء على القرآن واللغة من تسمية كل متحرك آفلا ، ولو كان الخليل أراد بقوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ (سورة الأنعام : ٧٦) هذا المعنى ، لم ينتظر مغيب الكوكب والشمس والقمر ؛ ففساد قول هؤلاء المتفلسفة في الاستدلال بالآية أظهر من فساد قول أولئك .

وأعجب من هذا قول من قال في تفسيره : « إن هذا قول المحققين »[1] .

واستعارته لفظ : « الهوى ، والحظيرة » لا يوجب تبديل اللغة المعروفة في معنى الأفول ، فإن وضع هو لنفسه وضعا آخر ، فليس له أن يتلو عليه كتاب الله تعالى فيبدله أو يحرفه .

وقد ابتدعت القرامطة الباطنيةَ تفسيرا آخر ، كما ذكره أبو حامد في بعض مصنفاته ، كمشكاة الأنوار وغيرها : أن الكواكب والشمس والقمر : هي النفس ، والعقل الفعال ، والعقل الأول ، ونحو ذلك[2] .

وشبهتهم في ذلك : أن إبراهيم ﷺ أجل من أن يقول لمثل هذه الكواكب : إنه رب العالمين ، بخلاف ما ادعوه من النفس ، ومن العقل الفعال الذي يزعمون أنه رب كل ما تحت فلك القمر ، والعقل الأول الذي يزعمون أنه مبدع العالم كله .

وقول هؤلاء ـ وإن كان معلوم الفساد بالضرورة من دين الإسلام ـ فابتداع أولئك طرق مثل هؤلاء على هذا الإلحاد[3] .

ومن المعلوم بالاضطرار من لغة العرب : أن هذه المعاني ليست هي المفهوم من لفظ الكوكب والقمر والشمس .

وأيضا فلو قدر أن ذلك يسمى كوكبا وقمرا وشمسا بنوع من التجوز : فهذا غايته أن يسوغ للإنسان أن يستعمل اللفظ في ذلك ، لكنه لا يمكنه أن يدعي أن أهل اللغة التي نزل بها القرآن كانوا يريدون أن يدعي أن أهل اللغة التي نزل بها القرآن كانوا يريدون هذا بهذا ،

---

(١) يقول الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب » ٥٢/١٣ : « وأيضا قال بعض المحققين : الهوى ، في حظيرة الإمكان أفول . . » .

(٢) انظر : مشكاة الأنوار ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ، تحقيق الدكتور أبي العلا عفيفي ، الدار القومية ، ١٩٦٤/١٣٨٣ . وانظر مفاتيح الغيب ٥٥/١٣ . وسيورد ابن تيمية نص كلام الغزالي فيما بعد في كتابنا .

(٣) كذا في جميع النسخ ولعل الصواب : فابتداع اولئك طرق مثل هؤلاء فيه موافقة لهم على هذا الإلحاد .

والقرآن نزل بلغة الذين خاطبهم الرسول ﷺ ، فليس لأحد أن يستعمل ألفاظه في معان بنوع من التشبيه والاستعارة ، ثم يحمل كلام من تقدمه على هذا الوضع الذي أحدثه هو .

وأيضا فإنه قال تعالى : ﴿ فلمّا جَنَّ عَلَيْهِ الليلُ رأى كوكباً ﴾ (الأنعام : ٧٦) فذكره منكرا : لأن الكواكب كثيرة ، ثم قال : ﴿ فلما رأى القمرَ ﴾ (الأنعام : ٧٧) ، ﴿ فلما رأى الشمسَ ﴾ (سورة الأنعام : ٧٨) بصيغة التعريف لكي يبين أن المراد القمر المعروف والشمس المعروفة ، وهذا صريح بأن الكواكب متعددة ، وأن المراد واحد منها ، وأن الشمس والقمر هما هذان المعروفان .

وأيضا فإنه قال : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ والأفول : هو المغيب والاحتجاب ، فإن أريد بذلك المغيب عن الأبصار الظاهرة فما يدعونه من العقل والنفس لا يزال محتجبا عن الأبصار لا يرى بحال ، بل وكذلك واجب الوجوب عندهم لا يرى بالأبصار بحال ، بل تمتنع رؤيته بالأبصار عندهم .

وإن أراد المغيب عن بصائر القلوب : فهذا أمر نسبي إضافي ، فيمكن أن تكون تارة حاضرة في القلب وتارة غائبة عنه ، كما يمكن مثل ذلك في واجب الوجود ، فالأفول أمر يعود إلى حال العارف بها ، لا يكسبها صفة نقص ولا كمال ، ولا فرق في ذلك بينها وبين غيرها .

وأيضا فالعقول عندهم عشرة والنفوس تسعة بعدد الأفلاك .

فلو ذكر القمر والشمس فقط لكانت شبهتهم أقوى ، حيث يقولون : نور القمر مستفاد من نور الشمس ، كما أن النفس متولدة عن العقل ، مع ما في ذلك ـ لو ذكروه ـ من الفساد ، أما مع ذكر كوكب فقولهم هذا من أظهر الأقوال للقرامطة الباطنية فسادا ، لما في ذلك من عدم الشبه والمناسبة التي تسوغ في اللغة إرادة مثل هذا .

فصل
(الأنبياء أفضل الخلق)

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرونَ وكذلكَ نَجزي المحسنينَ * وزكريّا وَيَحيَى وعيسى وإلياسَ كُلٌّ مِنَ الصّالحينَ * وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وإخْوانِهِمْ واجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ (سورة الأنعام : ٨٤ ـ ٨٧) ، فأخبر أنه اجتباهم وهداهم .

والأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين ، وبعدهم الصديقون والشهداء

والصالحون ، فلولا وجوب كونهم من المقربين ، الذين هم فوق أصحاب اليمين لكان الصديقون أفضل منهم أو من بعضهم .

والله تعالى قد جعل خلقه ثلاثة أصناف ، فقال تعالى في تقسيمهم في الآخرة : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثةً * فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ * وأصحابُ المشأمةِ ما أصحابُ المشامةِ * والسابقونَ السابقونَ * أولئكَ المقرّبونَ * في جناتِ النعيمِ ﴾ (سورة الواقعة : ٧ - ١٢) ، وقال في تقسيمهم عند الموت : ﴿ فأمّا إن كانَ مِنَ المقرّبينَ * فَرُوحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنّةُ نعيمٍ * وأما إن كانَ مِنْ أصحابِ اليمينِ * فَسَلام لكَ مِنْ أصحابِ اليمينِ * وأما إن كانَ مِنَ المكذِّبينَ الضّالينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حميمٍ * وَتَصليةُ جحيمٍ ﴾ (سورة الواقعة : ٨٨ - ٩٤) ، وكذلك ذكر في سورة الإنسان والمطففين هذه الأصناف الثلاثة .

والأنبياء أفضل الخلق ، وهم (أصحاب)[1] الدرجات العلى في الآخرة ، فيمتنع أن يكون النبي من الفجار ، بل ولا يكون من عموم أصحاب اليمين ، بل من أفضل السابقين المقربين ، فإنهم أفضل من عموم الصديقين والشهداء والصالحين ، وإن كان النبي أيضاً يوسف بأنه صديق وصالح وقد يكون شهيدا ، لكن ذلك أمر يختص بهم لا يشركهم فيه من ليس بنبي ، كما قال عن الخليل : ﴿ وآتَيْناه أجرَهُ في الدنيا وإنّهُ في الآخرة لَمِنَ الصّالحينَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٢٧) ، وقال يوسف : ﴿ تَوَفّني مُسْلِماً وألْحِقْني بالصّالحينَ ﴾ (سورة يوسف : ١٠١) .

فهذا مما يوجب تنزيه الأنبياء أن يكونوا من الفجار والفساق ، وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها .

وأما من جوز أن يكون غير النبي أفضل منه فهو من أقوال بعض ملاحدة المتأخرين من غلاة الشيعة والصوفية والمتفلسفة ونحوهم .

وما يحكى عن الفضلية من الخوارج[2] أنهم جوزوا الكفر على النبي ، فهذا بطريق

---

(١) أصحاب : ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) الفضلية فرقة من الخوارج ذكرهم ابن حزم في الفصل ٤/١٩٠ - وسماهم الفضيلية - فقال : « وقالت الفضيلية من الصفرية من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله بلسانه ولم يعتقد ذلك بقلبه بل اعتقد الكفر او الدهرية أو اليهودية أو النصرانية فهو مسلم عند الله مؤمن ولا يضره إذا قال الحق بلسانه وما اعتقد بقلبه » . وذكرهم الأشعري في المقالات ١/١٨٣ وسماهم « الفضلية » وذكر عنهم قولا قريبا من قول ابن حزم . وذكر الشهرستاني (الملل والنحل ١/١٢٤) من رجال الخوارج : الفضل بن عيسى الرقاشي .

اللازم لهم لأن كل معصية عندهم كفر ، وقد جوزوا المعاصي على النبي ، وهذا يقتضى فساد قولهم بأن قولهم بأن كل معصية كفر وقولهم بجواز المعاصي عليهم ، وإلا فلم يلتزموا أن يكون النبي كافرا ، ولازم المذهب لا يجب أن يكون مذهبا .

وطوائف أهل الكلام الذين يجوزون بعثة كل مكلف ، من الجهمية والأشعرية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم ، متفقون أيضا على أن الأنبياء أفضل الخلق ، وأن النبي لا يكون فاجرا . لكن يقولون : هذا لم يعلم بالعقل بل علم بالسمع ، بناء على ما تقدم من أصلهم من أن الله يجوز أن يفعل كل ممكن .

وأما الجمهور الذين يثبتون الحكمة والأسباب فيقولون : نحن نعلم بما علمناه من حكمة الله أنه لا يبعث نبيا فاجرا وأن ما ينزل على البر الصادق لا يكون إلا ملائكة ، لا تكون شياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وإنه لَتنزيلُ رَبِّ العالمين * نَزَلَ بهِ الرُّوح الأمينُ * على قلبِكَ لتكونَ مِنَ المنذَرينَ ﴾ - إلى قوله - ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشياطينُ * تَنَزَّلُ على كلِّ أفّاكٍ أثيمٍ * يُلقون السّمعَ وأكثرُهُمْ كاذبونَ * والشّعراءُ يَتْبَعُهُمُ الغاوونَ * ألمْ تَرَ أنهم في كلِّ وادٍ يَهيمونَ * وأَنّهم يقولونَ ما لا يَفعلونَ ﴾ (سورة الشعراء : ١٩٢ - ٢٢٦) .

فهذا مما بين الله به الفرق بين الكاهن والنبي وبين الشاعر والنبي ، لما زعم المفترون أن محمدا ﷺ شاعر وكاهن . وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ لما أتاه الوحي في أول الأمر وخاف على نفسه ، قبل أن يستيقن أنه ملك ، قال لخديجة : لقد خشيت على نفسي . قالت : كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق[١] . فاستدلت رضي الله عنها بحسن عقلها على أن من يكون الله قد خلقه بهذه الأخلاق الكريمة ، التي هي من أعظم صفات الأبرار الممدوحين ، أنه لا يخزيه فيفسد الشيطان عقله ودينه ، ولم يكن معها قبل ذلك وحى تعلم به انتفاء ذلك ، بل علمته بمجرد عقلها الراجح .

وكذلك لما ادّعى النبوة من ادّعاها من الكذابين ، مثل مسيلمة الكذاب والعنسي وغيرهما ، مع ما كان يشتبه من أمرهم ، لما كان ينزل عليهم من الشيطان ويوحون إليهم ،

---

(١) هذا جزء من حديث بدء الوحي وهو مروي في : البخاري ١/٣ - ٤ (كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي) ، ٦/١٧٣ - ١٧٤ (كتاب التفسير ، سورة اقرأ) ، مسلم ١/ ٩٧ - ٩٨ (كتاب الايمان ، باب بدء الوحي) .

حتى يظن الجاهل أن هذا من جنس ما ينزل على الأنبياء ويوحى اليهم ، فكان ما يبلغ العقلاء وما يرونه[1] من سيرتهم والكذب الفاحش والظلم ونحو ذلك يبين لهم أنه ليس بنبي ، إذ قد علموا أن النبي لا يكون كاذبا ولا فاجرا .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ لما قال له ذو الخويصرة : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ، فقال له النبي ﷺ : لقد خبت وخسرت إن لم أعدل ،ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟![2] . والرواية الصحيحة بالفتح أي أنت خاسر خائب ان لم أعدل إن ظننت أني ظالم مع اعتقادك أني نبي ، فإنك تجوز أن يكون الرسول الذي آمنت به ظالما ، وهذا خيبة وخسران ، فإن ذلك ينافي النبوة ويقدح فيها .

وقد قال تعالى : ﴿وما كانَ لِنبيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يأْتِ بما غَلَّ يَومَ القيامةِ﴾ (سورة آل عمران : ١٦١) ،و وفيه قراءتان : يغل ويغل ، أي ينسب إلى الغلول ، بين سبحانه أنه ما لأحد أن ينسبه إلى الغلول ، كما أنه ليس له أن يغل ، فدلّ على أن النبي لا يكون غالاّ .

ودلائل هذا الأصل عظيمة ، لكن مع وقوع الذنب الذي هو بالنسبة إليه ذنب ـ وقد لا يكون ذنبا من غيره مع تعقبه بالتوبة والاستغفار ـ لا يقدح في كون الرجل من المقربين السابقين ولا الأبرار ، ولا يلحقه بذلك وعيد في الآخرة ، فضلا عن أن يجعله من الفجار .

وقد قال تعالى في عموم وصف المؤمنين : ﴿ولِلَّهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ لِيَجزيَ الذينَ أساؤوا بما عَمِلوا وَيَجزيَ الذينَ أحْسَنوا بالحُسْنى * الذينَ يَجتنبونَ كبائرَ الاثمِ والفواحشَ إلا اللمَمَ إنّ رَبَّكَ واسعُ المغفرةِ﴾ (سورة النجم : ٣١ ـ ٣٢) . وقال : ﴿وَسارِعوا إلى مغفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ أُعِدّتْ لِلمتّقينَ * الذينَ يُنفقونَ في السرّاءِ والضرّاءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عَنِ الناسِ واللَّهُ يُحِبُّ المحسنينَ * والذينَ إذا فَعَلوا فاحشةً أو ظَلَموا أنفسَهُمْ ذكَروا اللَّهَ فاسْتَغفروا لِذنوبِهِمْ وَمَنْ يَغفرُ الذنوبَ إلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرّوا على ما فَعَلوا وَهُمْ يَعلمونَ * أولئكَ جزاؤُهُمْ مغفرةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وجناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ونِعمَ أجرُ العاملينَ﴾ (سورة آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٦) . وقال تعالى : ﴿والذي جاءَ بالصِّدقِ وَصَدّقَ بهِ أولئك هُمُ المتقونَ * لَهُمْ ما يَشاؤونَ عندَ رَبِّهِمْ ذلكَ جزاءُ المحسنينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عنهم أَسْوَأَ الذي عَمِلوا وَيَجْزِيَهُمْ أجرَهُمْ بأحْسَنِ الذي

(١) في الاصل : وما يروه .

(٢) الحديث من رواية أبي سعيد الخدري في : البخاري ٤/٢٠٠ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة) ، مسلم ٣/١١٢ (كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) .

كانوا يَعملونَ﴾ (سورة الزمـر : ٣٣ ـ ٣٥) . وقال : ﴿حتى إذا بلغَ أشُـدَّهُ وبلغَ أربعينَ سنةً قالَ رَبِّ أوْزِعْني أنْ أشكرَ نعمتَـكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والدَيَّ وأنْ أعمـلَ صالحـاً ترضـاهُ وأصلِحْ لي في ذريّتي إني تبتُ إليكَ وإني مِنَ المسلمينَ * أولئكَ الـذينَ نتقبّلُ عنهُمْ أحسنَ ما عَمِلوا ونَتجاوَزُ عن سَيِّئاتِهِمْ في أصحابِ الجنةِ وَعْدَ الصِّدقِ الذي كانوا يُوعَدونَ﴾ (سـورة الأحقاف : ١٥ ، ١٦) .

وقد قال في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿فآمَنَ لهُ لُوطٌ وقالَ إني مُهاجِرٌ إلى رَبّي إنه هوَ العزيزُ الحكيمُ﴾ (سورة العنكبوت : ٢٦) ، وقال في قصة شعيب عليه السلام : ﴿قالَ الملأُ الذينَ اسْتَكبَروا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنّكَ يا شُعَيْبُ والذينَ آمَنوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أوْ لَتَعُـودُنَّ في مِلَّتِنا قالَ أوَ لَوْ كنّا كارِهينَ * قَدِ افْتَرَيْنا على اللّهِ كَذِبـاً إنْ عُدْنـا في مِلّتِكُمْ بعدَ إذْ نَجّـانا اللّهُ مِنْهـا وَمَا يكونُ لنا أنْ نعودَ فيها إلا أنْ يَشاءَ اللّهُ رَبُّنا * وَسِعَ رَبُّنـا كُلَّ شيءٍ عِلْمـاً على اللّهِ تَوَكَّلْنـا رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بالحَقِّ وأنتَ خَيْرُ الفاتِحينَ﴾ (سورة الأعراف : ٨٨ ، ٨٩) وقال في سورة إبراهيم : ﴿وقالَ الذينَ كَفَروا لِرُسُلِهِمْ لَنُخرِجَنّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أوْ لَتَعُودُنَّ في مِلّتِنا فـأَوْحى إلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمينَ﴾ (سورة إبراهيم : ١٣) .

وقد ذم الله تعالى وتبارك فرعون بكونه رفع نبـوة موسى بمـا تقدم من قتله نفسـا بغير حق فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَليداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُـرِكَ سِنينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وأنتَ مِنَ الكافِرينَ * قالَ فَعَلْتُها إذاً وأنا مِنَ الضّالينَ * فَفَـرَرْتُ مِنكم لمّا خِفْتُكُمْ فَـوَهَبَ لي ربي حُكماً وَجَعَلَني مِنَ المرسلينَ﴾ (سورة الشعراء : ١٨ ـ ٢١) ، وكان موسى ﷺ قد تاب من ذلك كما أخبر الله تعالى عنه وغفر له بقولـه : ﴿فَوَكَـزَهُ موسى فَقَضى عليـهِ قالَ هـذا مِنْ عَمَلِ الشيطانِ إنهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مبينٌ * قالَ رَبِّ إني ظَلَمْتُ نفسي فاغْفِـرْ لي فَغَفَرَ لَـهُ إنهُ هـوَ الغفورُ الرّحيمُ﴾ (سورة القصص : ١٥ ، ١٦) .

فإن قيل : فإذا كان قـد غفر لـه فلماذا يمتنعـون من الشفاعـة يوم القيـامة لأجـل ما بـدا منهم[1] ؟ فيقول آدم إذا طلبت منه الشفاعة : إني نهيت عن أكل الشجرة وأكلت منهـا ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا[2] فيقـول : إني دعوت عـلى أهل الأرض دعـوة لم أومر

---

(١) في الأصل : لأجل لما بدا منهم ، والصواب ما أثبته .

(٢) في الأصل بعد كلمة « نوح » توجد إشارة الى الهامش حيث توجد كلمتان لم يظهر منهما في المصورة إلا : نوحا ، واثبت ما في حديث الشفاعة .

بها ، والخليل يذكر تعريضاته الثلاث التي سماها كذبا وكانت تعريضا ، وموسى يذكر قتل النفس[1] .

قيل : هذا من كمال فضلهم وخوفهم وعبوديتهم وتواضعهم ، فإن من فوائد ما يتاب[2] منه أن يكمل عبودية العبد ويزيده خوفا وخضوعا فيرفع الله بذلك درجته ، وهذا الامتناع مما يرفع الله به درجاتهم ، وحكمة الله تعالى في ذلك أن تصير الشفاعة لمن غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

ولهذا كان ممن امتنع ولم يذكر ذنبا المسيح ، وإبراهيم أفضل منه وقد ذكر ذنبا ، ولكن قال المسيح : لست هناكم اذهبوا الى عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وتأخر المسيح عن المقام المحمود الذي خص به محمد ﷺ هو من فضائل المسيح ومما يقربه إلى الله ، صلوات الله عليهم أجمعين .

فعلم أن تأخرهم عن الشفاعة لم يكن لنقص درجاتهم عما كانوا عليه ، بل لما علموه من عظمة المقام المحمود الذي يستدعي من كمال مغفرة الله للعبد ، وكمال عبودية العبد لله ما اختص به من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولهذا قال المسيح : اذهبوا إلى محمد عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فإنه إذا غفر له ما تأخر لم يخف أن يلام إذا ذهب إلى ربه ليشفع ، وإن كان لم يشفع إلا بعد الإذن ، بل إذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه لم يكن يحسنها قبل ذلك ، فيقال له : أي محمد : ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ،

---

(١) روى ابن تيمية الحديث بمعناه ، وهو جزء من حديث الشفاعة الذي أشرت إليه من قبل على أن أقرب الروايات إلى المذكورة هنا هي رواية البخاري ٦/٨٤ ـ ٨٥ (كتاب التفسير ، سورة بني إسرائيل ، باب ذرية من حملنا مع نوح) ، مسلم ١/١٢٧ ـ ١٢٩ (كتاب الإيمان، باب ادنى اهل الجنة منزلة) عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيها (البخاري ٦/٨٤) : «فيقول آدم : إن رب قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح إنك أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فيقول : إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم انت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات ـ فذكرهن أبو حيان في الحديث ـ نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى انت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيا ، اشفع لنا ؛ الا ترى إلى ما نحن فيه ، فيقول عيسى : إن ربي قد غب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ـ ولم يذكر ذنبا ـ نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ ، فيأتون محمداً ﷺ ، فيقولون : يا محمد ، انت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، الا ترى إلى ما نحن فيه ، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ من محامدة وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، سَلْ تعطه ، واشفع تشفعْ ، فأرفع رأسي فأقول : امتي يا رب . . أمتي يارب . . الحديث . . . » .

(٢) في الأصل : ما يثاب .

واشفع تشفع ؛ وهذا كله في الصحيحين وغيرهما .

وأما من (قيل له)[١] تقدم ولم يعرف أنه غفر له ما تأخر فيخاف أن يكون ذهابه إلى الشفاعة ـ قبل أن يؤذن له في الشفاعة ـ ذنبا ، فتأخر لكمال خوفه من الله تعالى ، ويقول : أنا قد أذنبت وما غفر لي فأخاف أن أذنب (ذنبا)[٢] آخر ؛ فإن النبي ﷺ قال : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين[٣] .

ومن معاني ذلك أنه لا يؤتى من وجه واحد مرتين ، فإذا ذاق ما في الذنب من الألم وزال عنه خاف أن يذنب، ذنبا آخر فيحصل له مثل ذلك الألم ، وهذا كمن مرض من أكلة ثم عوفي ، فإذا دعي إلى أكل شيء خاف أن يكون مثل ذلك الأول لم يأكله ، يقول : قد أصابني بتلك الأكلة ما أصابني فأخاف ان تكون هذه مثل تلك ، ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

فصل(*)

قال تعالى : ﴿وَجعلوا للّهِ شُرَكاءَ الجِنَّ وَخلَقَهُمْ وَخرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمّا يَصِفُون ، بَدِيعُ السمواتِ والأرضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحبةٌ ، وَخَلَقَ كلَّ شيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ﴾[٤] فإن قوله : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مبدعها ، كما ذكر مثل ذلك في البقرة ؛ وليس المراد أنهما بديعة سماواته وأرضه ، كما تحتمله العربية لولا السياق . لأن المقصود نفي ما زعموه من خرق البنين والبنات له ، ومن كونه اتخذ ولدا .

وهذا ينتفي بضده كونه أبدع السموات ، ثم قال : ﴿أَنَّى يَكونُ لَهُ ولدٌ ؟﴾ وذكر ثلاثة أدلة على نفي ذلك .

أحدها : كونه ليس له صاحبة ، فهذا نفي الولادة المعهودة : وقوله : ﴿وخلق كل شيء﴾ نفي للولادة العقلية ، وهي التولد ؛ لأن خلق كل شيء ينافي تولدها عنه . وقوله :

---

(١) في الأصل توجد إشارةإلى الهامش قبل كلمة « تقدم »ولم يظهر الكلام الساقط في المصورة ، وما أثبته يصلح به الكلام .

(٢) ذنبا : غير موجودة في الأصل والسياق يقتضيها .

(٣) قال السيوطي في « الجامع الصغير » عن هذا الحديث أنه صحيح رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة .

وهو في : لبخاري ٣١/٨ (كتاب الأدب ، باب لا يلدغ المؤمن .. الخ) ، مسلم ٢٢٧/٨ (كتاب الزهد والرقائق ، باب لا يلدغ المؤمن .. الخ) .

(*) وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٤٤/٢ .

(٤) سورة الأنعام الآيات (١٠٠ ـ ١٠١) .

﴿وهو بكل شيء عليم﴾ يشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون لما ادّعت النصارى أن المتحد به هو الكلمة التي يفسرونها بالعلم ، والصابئة القائلون بالتولد والعلة ، لا يجعلونه عالما بكل شيء ـ ذكر أنه بكل شيء عليم ، لإثبات هذه الصفة له ، ردّا على الصابئة ، ونفيها عن غيره ردّا على النصارى .

وإذا كان كذلك فقول من قال بتولد العقول والنفوس ـ التي يزعمون أنها الملائكة ـ أظهر في كونهم يقولون أنه ولد الملائكة ، وأنهم بنوه وبناته فالعقول بنوه ، والنفوس بناته : من قول النصارى .

ودخل في هذا من تفلسف من المنتسبة إلى الإسلام ، حتى إني أعرف كبيراً لهم سئل عن العقل والنفس : فقال بمنزلة الذكر والأنثى . فقد جعلهم كالابن والبنت ، وهم يجعلونهم متولدين عنه تولد المعلول عن العلة ؛ فلا يمكنه أن يفك ذاته عن معلوله ولا معلوله عنه ، كما لا يمكنه أن يفصل نفسه عن نفسه ، بمنزلة شعاع الشمس مع الشمس وأبلغ .

وهؤلاء يقولون : إن هذه الأرواح التي ولدها متصلة بالأفلاك : الشمس والقمر والكواكب ، كاتصال اللاهوت بجسد المسيح ، فيعبدونها كما عبدت النصارى المسيح ، إلا أنهم أكفر من وجوه كثيرة ؛ وهم أحق بالشرك من النصارى ؛ فإنهم يعبدون ما يعلمون أنه منفصل عن الله ، وليس هو إياه ، ولا صفة من صفاته ، والنصارى يزعمون أنهم مايعبدون إلا ما اتحد بالله ، لا لما ولده من المعلولات .

ثم من عبد الملائكة والكواكب وأرواح البشر وأجسادهم : اتخذ الأصنام على صورهم وطبائعهم ؛ فكان ذلك أعظم أسباب عبادة الأصنام .

ولهذا كان الخليل إمام الحنفاء : مخاطبا لهؤلاء الذين عبدوا الكواكب والشمس والقمر ، والذين عبدوا الأصنام مع إشراكهم واعترافهم بأصل الجميع .

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير موضع ، وأولئك هم الصابئون المشركون الذين ملكهم نمروذ . وعلماؤهم الفلاسفة من اليونانيين وغيرهم ، الذين كانوا بأرض الشام والجزيرة والعراق وغيرها ، وجزائر البحر قبل النصارى ، وكانوا بهذه البلاد في أيام بني أسرائيل ، وهم الذين كانوا يقاتلون بني إسرائيل ، فيغلبون تارة ويغلبون تارة ، وسنحاريب وبخت نصر ونحوهما : هم ملوك الصابئة بعد الخليل . والنمروذ الذي كان في زمانه .

فتبين بذلك ما في القرآن من الرد لمقالات المتقدمين قبل هذه الأمة والكفار والمنافقين فيها : من إثبات الولادة لله ، وإن كان كثير من الناس لا يفهم دلالة القرآن على هذه المقالات ؛ لأن ذلك يحتاج إلى شيئين : إلى تصور مقالتهم بالمعنى لا بمجرد اللفظ ، وإلى تصور

معنى القرآن ، والجمع بينهما . فتجد المعنى الذي عنوه قد دل القرآن على ذكره وإبطاله .

وأما اتحاد الولد فيفسر بعين الولادة . وهو من باب الأفعال ، لا من باب الصفات ، كما يقوله طائفة من النصارى في المسيح .

فصـــل

فهذا نفي كونه ـ سبحانه ـ والداً لشيء ، أو متخذاً لشيء ولداً ، بأي وجه من وجوه الولادة ، أو اتخاذ الولد أيا كان .

وأما نفي كونه مولوداً : فيتضمن نفي كونه متولداً بأي نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره : فهو رد على من قال المسيح هو الله . ورد على الدجال الذي يقول : إنه الله ، ورد على من قال في بشر : إنه الله ، من غالية هذه الأمة في عليّ وبعض أهل البيتِ ، أو بعض المشايخ ، كما قال قوم ذلك في علي وطائفة من أهل البيت ، وقالوه في الأنبياء أيضا ، وقاله قوم في الحلاج ، وقوم في الحاكم بمصر ، وقوم في الشيخ عدي وقوم في يونس العنيني ، وقوم يعمونه في المشايخ ، ويصوبون هذا كله .

فقوله سبحانه : ﴿ لم يولد ﴾ نفي لهذا كله ؛ فإن هؤلاء كلهم مولودون ؛ والله لم يولد . ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال : ﴿ ابن مريم ﴾ بخلاف سائر الأنبياء ، كقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ﴾[1] وقوله : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾[2] وقوله : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ﴾[3] وقوله : ﴿ يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ ؟[4] وقوله : ﴿ وجعلنا ابنَ مريمَ وأمّهُ آيةً ﴾ وقوله : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابنَ مريمَ رسولَ اللهِ ﴾[5] .

وفي ذلك فائدتان :

إحداهما : بيان أنه مولود ، والله لم يولد .

والثانية : نسبته إلى مريم ؛ بأنه ابنها ليس هو ابن الله .

---

(١) سورة المائدة الآية ١٧ .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٠٠ .

(٤) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٥) سورة النساء الآية ١٥٧ .

وأما قوله : ﴿ لن يستنكف المسيح ﴾[1] الآية وقوله : ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾[2] : فإنه حكى قولهم الذي قالوه ، وهم قد نسبوه إلى الله أنه ابنه ، فلم يضمنوا ذلك قولهم المسيح ابن مريم .

وقوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ نفي للشركاء والأنداد ، يدخل فيه كل من جعل شيئا كفواً لله في شيء من خواص الربوبية ، مثل خلق الخلق ، والإلهية ؛ كالعبادة له ، ودعائه ونحو ذلك .

فهذه نكت تبين اشتمال كتاب الله على إبطال قول من يعتقد في أحد من البشر الإلهية ؛ باتحاد أو حلول أو غير ذلك .

فصـــــل (*)

قوله تعالى : ﴿ لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وهوَ يُدرِكَ الأبصارَ ﴾ (سورة الأنعام : ١٠٣) .

أولا : النزاع في هذه المسألة بين طوائف الإمامية كما النزاع فيها بين غيرهم ، فالجهمية والمعتزلة والخوارج وطائفة من غير الإمامية تنكرها . والإمامية لهم فيها قولان : فجمهور قدمائهم يثبت الرؤية ، وجمهور متأخريهم ينفونها . وقد تقدم أن أكثر قدمائهم يقولون بالتجسيم .

قال الأشعري : « وكل المجسمة إلا نفراً قليلاً يقول بإثبات الرؤية ، وقد يثبت الرؤية من لا يقول بالتجسيم » .

قلت : وأما الصحابة والتابعون وأئمة الاسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، كمالك والثوري والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي حنيفة وأبي يوسف وأمثال هؤلاء ، وسائر أهل السنة والحديث والطوائف المنتسبين إلى السنة والجماعة كالكلابية والكرامية والأشعرية والسالمية وغيرهم ، فهؤلاء كلهم متفقون على إثبات الرؤية لله تعالى ، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ عند أهل العلم بحديثه .

(وكذلك الآثار بها متواترة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وقد ذكر الإمام أحمد وغيره من الأئمة العالمين أقوال السلف أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان متفقون على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار ، ومتفقون على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا في ذلك

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٢ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .

(*) أنظر منهاج السنة ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٦ .

إلا في نبينا ﷺ خاصة : منهم من نفى رؤيته بالعين في الدنيا ومنهم من أثبتها . وقد بسطت هذه الأقوال والأدلة من الجانبين في غير هذا الموضع . والمقصود هنا نقل إجماع السلف على إثبات الرؤية بالعين في الآخرة ونفيها في الدنيا ، إلا الخلاف في النبي ﷺ خاصة) .

وأما (احتجاجه) واحتجاج النفاة (أيضاً) بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ (سورة الأنعام : ١٠٣) فالآية حجة عليهم لا لهم ، لأن الإدراك : إما أن يراد به مطلق الرؤية ، أو الرؤية المقيدة بالإحاطة ، والأول باطل ، لأنه ليس كل من رأى شيئا يقال أنه أدركه ، كما لا يقال أحاط به ، كما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك فقال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى . قال : أكلها ترى ؟ قال : لا .

ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال أنه أدركها ، وأنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية ، ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك ، وإنما ذكرنا هذا بيانا لسند المنع ، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية ، وأن كل من رأى شيئا يقال في لغتهم أنه أدركه وهذا لا سبيل إليه ، كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك عموم وخصوص (أو اشتراك لفظي) . فقد تقع رؤية بلا إدراك ، وقد يقع إدراك بلا رؤية ، فإن الإدراك يستعمل في ادراك العلم وإدراك القدرة ، فقد يدرك الشيء بالقدرة وإن لم يشاهد ، كالأعمى الذي طلب رجلا هاربا (منه) فأدركه ولم يره ، وقد قال تعالى : ﴿ فلمّا تراءى الجَمْعانِ قالَ أصحابُ مُوسى إنا لمدرَكونَ * قال كلا إن معي ربي سَيَهدِينِ ﴾ (سورة الشعراء : ٦١ ، ٦٢) فنفى موسى الإدراك مع إثبات الترائي ، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك . والإدراك هنا هو إدراك القدرة ، أي ملحقون محاط بنا ، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد تنتفي إحاطة البصر أيضا .

ومما يبين ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه سبحانه وتعالى ، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح ، لأن النفي المحض لا يكون مدحا إن لم يتضمن أمرا ثبوتيا ، ولأن المعدوم أيضا لا يرى ، والمعدوم لا يمدح ، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه .

(وهذا أصل مستمر ، وهو أن العدم المحض الذي لا يتضمن ثبوتا لا مدح فيه ولا كمال ، فلا يمدح الرب نفسه به ، بل ولا يصف نفسه به ، وإنما يصفها بالنفي المتضمن معنى ثبوت ، كقوله : ﴿ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ﴾ وقوله : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بإذنِهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا يُحيطونَ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا يَؤوده حفظُهُما وهو العَليُّ العظيمُ ﴾ (سورة البقرة : ٢٢٥) ، وقوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عنهُ مثقالُ ذرةٍ في

السموات ولا في الأرض ﴾ (سورة سبأ : ٣) ، وقوله : ﴿ وما مَسّنا من لَغوبٍ ﴾ (سورة ق : ٣٨) ، ونحو ذلك من القضايا السلبية التي يصف الرب تعالى بها نفسه ، وأنها تتضمن اتصافه بصفات الكمال الثبوتية مثل كمال حياته وقيوميته وملكه وقدرته وعلمه وهدايته وانفراده بالربوبية والإلهية ونحو ذلك . وكل ما يوصف به العدم المحض فلا يكون إلا عدما محضا ، ومعلوم أن العدم المحض يقال فيه : أنه لا يرى ، فعلم أن نفي الرؤية عدم محض ، ولا يقال في العدم المحض : لا يدرك ، وإنما يقال هذا فيما لا يدرك لعظمته لا لعدمه) .

وإذا كان المنفي هو الإدراك ، فهو سبحانه (وتعالى) لا يحاط به رؤية ، كما لا يحاط به علما ، ولا يلزم من نفى إحاطة العلم والرؤية نفي (العلم) والرؤية ، بل يكون ذلك دليلا على أنه يرى ولا يحاط به (كما يعلم ولا يحاط به) ، فإن تخصيص الإحاطة (بالنفي) يقتضى أن مدرك الرؤية ليس بمنفي ، وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم ، وقد روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره . (وقد روي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ)[1] . ولا تحتاج الآية إلى تخصيص ولا خروج عن ظاهر الآية ، فلا نحتاج أن نقول : لا نراه في الدنيا ، أو نقول : لا تدركه الأبصار بل المبصرون ، أو لا تدركه كلها بل بعضها ، ونحو ذلك من الأقوال التي فيها تكلف .

(ثم نحن في هذا المقام يكفينا أن نقول : الآية تحتمل ذلك فلا يكون فيها دلالة على نفي الرؤية ، فبطل استدلال من استدل بها على الرؤية ، وإذا أردنا أن نثبت دلالة الآية على الرؤية مع نفيها للإدراك الذي هو الإحاطة أقمنا الدلالة على أن الإدراك في اللغة ليس هو مرادفا للرؤية ، بل هو أخص منها ، وأثبتنا ذلك باللغة ليس هو مرادفا للرؤية ، بل هو أخص منها ، وأثبتنا ذلك باللغة وأقوال المفسرين من السلف وبأدلة أخرى سمعية وعقلية) .

---

(١) وجاء في الدر المنثور للسيوطي ٣/٣٧ (ط . إيران ، ١٣٧٧) . « قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ الآية . اخرج ابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : لو أن الإنس والجن والشياطين والملائكة ـ منذ خلقوا إلى ان فنوا ـ صفوا صفا واحدا ما احاطوا بالله أبدا . قال الذهبي : هذا حديث منكر .

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه واللالكائي في « السنة » عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه ، قال عكرمة : فقلت له : أليس الله يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ؟ قال : لا أمّ لك ، ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء ، وفي لفظ : إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر .

واخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ لا تدركه الأبصار) قال : « لا يحيط بصر أحد بالله » .

ثم أورد السيوطي الأثر الذي أورده ابن تيمية آنفا عن ابن عباس وجاء فيه : ألست ترى السماء . . . الخ .

فلعل هذا الحديث المرفوع وتلك الآثار عن ابن عباس هي التي عنى ابن تيمية الإشارة إليها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ .

منها قوله : ﴿ وما يُشْعِرُكُمْ أنّها إذا جاءَتْ لا يُؤمِنونَ ﴾[1] . والآية بعدها . أشكلت قراءة الفتح على كثير بسبب أنهم ظنوا أن الآية بعدها جملة مبتدأة ، وليس كذلك؛ لكنها داخلة في خبر أن . والمعنى : إذا كنتم لا تشعرون أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنا أفعل بهم هذا : لم يكن قسمهم صدقا ؛ بل قد يكون كذبا ، وهو ظاهر الكلام المعروف أنها « أن » المصدرية ، ولو كان . (ونقلب) الخ كلاما مبتدأ لزم أن كل من جاءته آية قلب فؤاده ، وليس كذلك بل قد يؤمن كثير منهم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

قال تعالى : ﴿وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لكلماتِهِ وهوَ السميعُ العليمُ﴾ ذكر هذا بعد قوله : ﴿وكذلكَ جَعَلْنا لكلِّ نبيٍّ عَدُوّاً شياطينَ الإنسِ والجنِ ، يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً ، ولو شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلوهُ ، فَذَرْهُمْ وما يَفترونَ ؛ وَلِتُصغي إليهِ أفئدةُ الذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخرةِ ، وَلِيَرْضَوْهُ ، وَلِيَقْتَرِفوا ما هُمْ مُقْتَرِفونَ أفغيرَ اللّهِ أبتغي حُكماً وهوَ الذي أنزلَ إليكم الكتابَ مُفَصّلاً ؟ والذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَعلمونَ أنهُ مُنَزّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ؟ فلا تكونَنَّ مِنَ المترينَ﴾ ثم قال : ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾[2] وقال تعالى : ﴿واتلُ ما أوحيَ أليكَ مِنْ كتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكلماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دونِهِ مُلْتَحداً﴾[3] .

فأخبر في هاتين الآيتين أنه لا مبدل لكلمات الله ، وأخبر في الأولى أنها تمت صدقا وعدلا . وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه كان يستعيذ ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات ، وفي

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٩ .

وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/٤٩٥ ط السعودية .

(٢) سورة الأنعام الآيات (١١ ـ ١١٥) .

(٣) سورة الكهف الآية ٢٧ .

بعض الأحاديث « التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر »[1] .

وقال تعالى : ﴿ ألا إنّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحزنونَ . الذينَ آمنَوا وكانوا يَتّقونَ . لَهُمُ البُشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ لا تَبديلَ لِكلماتِ اللهِ ، ذلكَ هوَ الفوزُ العظيمُ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبروا على ما كُذّبوا ، وأُوذوا حتى أَتاهُمْ نَصْرُنا . ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ اللهِ ، وَلقدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ المرسَلينَ ﴾[3] فأخبر في هذه الآية أيضا أنه لا مبدل لكلمات الله ؛ عقب قوله : ﴿ فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ وذلك بيان أن وعد الله الذي وعده رسله من كلماته التي لا مبدل لها ، لما قال في أوليائه : ﴿ لهمُ البُشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ لا تبديلَ لكلماتِ اللهِ ﴾ فإنه ذكر أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . فوعدهم بنفي المخافة والحزن ، وبالبشرى في الدارين .

وقال بعد ذلك : ﴿ لا مبدل لكلمات الله ﴾ فكان في هذا تحقيق كلام الله الذي هو وعده ، كما قال : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ مخلفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾[4] . وقال : ﴿ وَعْدَ اللهِ لا يُخلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ ﴾[5] . وقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِكَ ، ولا تُخْزِنا يومَ القيامةِ ، انّكَ لا تُخلِفُ الميعاد﴾[6]. فإخلاف ميعاده تبديل لكلماته ، وهو سبحانه لا مبدل لكلماته .

يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ لا تَخْتَصِموا لديّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إليكمْ بالوَعيدِ . ما يُبَدَّلُ القولُ لديّ وما أنا بِظَلّامٍ للعبيدِ ﴾[7] فأخبر سبحانه أنه قدّم إليهم بالوعيد ، وقال : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ وهذا يقتضى أنه صادق في وعيده أيضا ، وأن وعيده لا يبدل .

وهذا مما احتج به القائلون بأن فساق الملة لا يخرجون من النار . وقد تكلمنا عليهم في غير هذا الموضع ؛ لكن هذه الآية تضعف جواب من يقول : إن إخلاف الوعيد جائز ، فإن

(١) ورد الحديث في الموطأ ٢/١٩٠ (كتاب الشعر ، باب ما يؤمر عند التعوذ) ، كما ورد في البخاري بصيغ مختلفة ، وفي الأذكار للنووى ص ١٢١ .

(٢) سورة يونس الآية ٦٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٤ .

(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٧ .

(٥) سورة الروم الآية ٦ .

(٦) آل عمران الآية ١٩٤ .

(٧) ق : الآيات (٢٨ ـ ٢٩) .

قوله : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ بعد قوله : ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ دليل على أن وعيده لا يبدل ، كما لا يبدل وعده .

لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعيد ، وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها ، كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل شيء منها . وقد قال تعالى : ﴿ سَيَقولُ المخلّفونَ إذا انْطَلَقْتُمْ إلى مَغانِمَ لتأخُذُوها ذَرُونا نَتّبِعْكُمْ ، يُريدونَ أنْ يُبَدِّلوا كلامَ اللهِ ﴾[٢] والله أعلم .

فصـــل[*]

في ذبائح أهل الكتاب

قال شيخ الإسلام :

قال الله عز وجل : ﴿ وَلا تَأْكلوا ممّا لَمْ يُذكرِ اسْمُ اللهِ عليه ﴾[١] وقال : ﴿ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ﴾[٢] فكل ما ذبح لغير الله فلا يؤكل لحمه .

وروى ابن حنبل عن عطاء في ذبيحة النصراني يقول : اسم المسيح ؟ قال : كل .

قال ابن حنبل : سمعت أبا عبد الله يسأل عن ذلك ؟ قال : لا تأكل . قال الله : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ فلا أرى هذا ذكاته ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ .

فاحتجاج أبي عبد الله بالآية دليل على أن الكراهة عنده كراهة تحريم . وهذا قول عامة قدماء الأصحاب .

قال الخلال في باب التوقي لأكل ما ذبحت النصارى وأهل الكتاب لأعيادهم وذبائح أهل الكتاب لكنائسهم : كل من روى عن أبي عبد الله روى الكراهة فيه وهي متفرقة في هذه الأبواب .

وما قال ابن حنبل في هاتين المسألتين ذكر عن أبي عبد الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ فإنما الجواب من أبي عبد الله فيما أهل لغير الله به . وأما التسمية وتركها : فقد روى عنه جميع أصحابه : أنه لا بأس بأكل ما لم يسموا عليه ، إلا في

---

(١) سورة الفتح الآية ١٥ .

(*) انظر اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اصحاب الجحيم ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨ .

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٣ .

وقت ما يذبحون لأعيادهم وكنائسهم . فإنه في معنى قوله تعالى : ﴿ وما أهلّ لغير الله به ﴾ .

وعند أبي عبد الله : أن تفسير ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ إنما عنى به الميتة : وقد أخرجته في موضعه .

ومقصود الخلال : أن نهي أحمد : لم يكن لأجل ترك التسمية فقط . فإن ذلك عنده لا يحرم . وإنما كان لأنهم ذبحوه لغير الله ؛ سواء كانوا يسمون غير الله أو لا يسمون الله ولا غيره ، ولكن قصدهم الذبح لغير الله .

لكن قال ابن أبي موسى : ويجتنب أكل كل ما ذبحه اليهود والنصارى لكنائسهم وأعيادهم ، ولا يؤكل ما ذبح للزهرة .

والرواية الثانية : أن ذلك مكروه غير محرم . وهذا الذي ذكره القاضي وغيره ، وأخذوا ذلك ـ فيما أظنه ـ مما نقله عبد الله بن أحمد . سألت أبي عمن ذبح للزهرة ؟ قال : لا يعجبني . قلت : أحرام أكله ؟ قال : لا أقول حراما . ولكن لا يعجبني ، وذلك أنه أثبت الكراهة دون التحريم .

ويمكن أن يقال : إنما توقف عن تسميته محرما . لان ما اختلف في تحريمه وتعارضت فيه كالجمع بين الأختين ونحوه : هل يسمى حراما ؟ على روايتين كالروايتين عنده في أن ما اختلف في وجوبه : هل يسمى فرضا ؟ على روايتين .

ومن أصحابنا من أطلق الكراهة ولم يفسر : هل أراد التحريم أو التنزيه ؟

قال أبو الحسن الآمدي : ما ذبح لغير الله مثل الكنائس والزهرة والشمس والقمر . فقال أحمد : هو مما أهل به لغير الله أكرهه . كل ما ذبح لغير الله والكنائس وما ذبحوا في أعيادهم أكرهه ، فأما ما ذبح أهل الكتاب على معنى الذكاة فلا بأس به .

وكذلك مذهب مالك يكره ما ذبحه النصارى لكنائسهم ، أو ذبحوا على اسم المسيح أو الصليب ، أو أسماء من مضى من أحبارهم ورهبانهم .

وفي المدونة : وكره مالك أكل ما ذبحه أهل الكتاب لكنائسهم ، أو لأعيادهم من غير تحريم . وتأول قول الله : ﴿ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بِهِ ﴾ .

قال ابن القاسم : وكذلك ما ذبحوا وسموا عليه اسم المسيح . وهو بمنزلة ما ذبحوا لكنائسهم ، ولا أرى أن يؤكل .

ونقلت الرخصة في ذبائح الأعياد ونحوها عن طائفة من الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا فيما لم يسموا عليه غير الله . فإن سموا غير الله في عيدهم أو غير عيدهم حرم في أشهر

الروايتين ، وهو مذهب الجمهور . وهو مذهب الفقهاء الثلاثة فيما نقله غير واحد . وهو قول عليّ بن أبي طالب وغيره من الصحابة . منهم : أبو الدرداء وأبو أمامة ، والعرباض بن سارية ، وعبادة بن الصامت . وهو قول أكثر فقهاء الشام وغيرهم .

والثانية : لا يحرم وإن سموا غير الله . وهو قول عطاء ، ومجاهد ، ومكحول ، والأوزاعي ، والليث .

نقل ابن منصور : أنه قيل لأبي عبد الله : سئل سفيان عن رجل ذبح ، ولم يذكر اسم الله متعمدا ؟ قال : أرى أن لا يؤكل . قيل له : أرأيت إن كان يرى أنه يجزي عنه فلم يذكر ؟ قال : أرى أنه لا يؤكل . قال أحمد : المسلم فيه اسم الله ، يؤكل . ولكن قد أساء في ترك التسمية ـ النصارى : أليس يذكرون غير اسم الله ؟ .

ووجه الاختلاف : أن هذا قد دخل في قوله عز وجل ﴿ وطعامُ الذينَ أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لكمْ ﴾[1] وفي عموم قوله تعالى : ﴿ وما أُهلّ لغيرِ اللهِ بهِ ﴾[2] لأن هذه الآية تعم كل ما نطق به لغير الله . يقال : أهللت بكذا ، إذا تكلمت به ، وإن كان أصله الكلام الرفيع ، فإن الحكم لا يختلف برفع الصوت وخفضه وإنما لما كانت عادتهم رفع الصوت في الأصل خرج الكلام على ذلك . فيكون المعنى : وما تكلم به لغير الله . وما نطق به لغير الله .

ومعلوم أن ما حرم أن تجعل غير الله مسمى . فكذلك منويا . إذ هذا مثل النيات في العبادات ، فإن اللفظ بها وإن كان أبلغ ، لكن الأصل القصد .

ألا ترى أن المتقرب بالهدايا والضحايا ، سواء قال : أذبحه لله أو سكت . فإن العبرة بالنية . وتسميته « الله » على الذبيحة غير ذبحها لله . فإنه يسمي على ما يقصد به اللحم . وأما القربان فيذبح لله سبحانه . ولهذا قال النبي ﷺ في قربانه « اللهم منك ولك »[3] بعد قوله : « بسم الله والله أكبر » لقوله تعالى : ﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾[4] والكافرون يصنعون بآلهتهم كذلك . فتارة يسمون آلهتهم على الذبائح ، وتارة يذبحونها قربانا إليهم ، وتارة يجمعون بينهما . وكل ذلك ـ والله أعلم ـ يدخل فيما أهل لغير الله به . فإن من سمى غير الله فقد أهل به لغير الله ، فقوله : « باسم كذا » استعانة به . وقوله « لكذا » عبادة له . ولهذا جمع الله بينهما في قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

---

(١) سورة المائدة الآية ٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١١٥ .

(٣) ورد الحديث في : أبو داود ١٢٦/٣ برواية جابر رضي الله عنه . وفيه : اللهم منك ولك عن محمد وأمته : وأنظر أيضا جامع الأصول ١٤٨/٤ ـ ١٤٩ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٦٢ .

وأيضا : فإنه سبحانه حرم ما ذبح على النصب ، وهي كل ما ينصب ليعبد من دون الله .

وأما احتجاج أحمد على هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ فحيث اشترطت التسمية في ذبيحة المسلم . هل تشترط في ذبيحة الكتابي ؟ على روايتين . وإن كان الخلال هنا قد ذكر عدم الاشتراط ، فاحتجاجه بهذه الآية يخرج على إحدى الروايتين .

فلما تعارض العموم الحاظر ، وهو قوله تعالى : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ والعموم المبيح . وهو قوله : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ اختلف العلماء في ذلك .

والأشبه بالكتاب والسنة : ما دل عليه أكثر كلام أحمد من الحظر . وإن كان من متأخري أصحابنا من لا يذكر هذه الرواية بحال ، وذلك لأن عموم قوله تعالى : ﴿ وما أهل لغير الله به وما ذبح على النصب ﴾ عموم محفوظ لم تخص منه صورة ، بخلاف طعام الذين أوتوا الكتاب . فإنه يشترط له الذكاة المبيحة . فلو ذكى الكتابي في غير المحل المشروع لم تبح ذكاته . ولأن غاية الكتابي : أن تكون ذكاته كالمسلم . والمسلم لو ذبح لغير الله ، أو ذبح باسم غير الله : لم يبح . وإن كان يكفر بذلك . فكذلك الذمي . لأن قوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ﴾ سواء . وهم وإن كانوا يستحلون هذا ، ونحن لا نستحله : فليس كل ما استحلوه يحل لنا .

ولأنه قد تعارض دليلان حاظر ومبيح . فالحاظر : أولى أن يقدم .

ولأن الذبح لغير الله أو باسم غيره قد علمنا يقينا . أنه ليس من دين الأنبياء عليهم السلام . فهو من الشرك الذي أحدثوه . فالمعنى الذي لأجله حلت ذبائحهم : منتف في هذا . والله تعالى أعلم .

فإن قيل : أما إذا سموا عليه ، غير الله بأن يقولوا : باسم المسيح ونحوه . فتحريمه ظاهر . أما إذا لم يسموا أحدا . ولكن قصدوا الذبح للمسيح ، أو للكوكب ونحوهما . فما وجه تحريمه ؟ .

قيل : قد تقدمت الإشارة إلى ذلك . وهو أن الله سبحانه قد حرم ما ذبح على النصب . وذلك يقتضي تحريمه . وإن كان ذابحه كتابيا . لأنه لو كان التحريم لكونه وثنيا : لم يكن فرق بين ذبحه على النصب وغيرها . ولأنه لما أباح لنا طعام أهل الكتاب دل على أن طعام المشركين حرام . فتخصيص ما ذبح على الوثن يقتضي فائدة جديدة .

وأيضا : فإنه ذكر تحريم ما ذبح على النصب ، وما أهل به لغير الله وقد دخل فيما أهل به

لغير الله : ما أهل به أهل الكتاب لغير الله . فكذلك كل ما ذبح على النصب . فإذا ذبح الكتابي على ما قد نصبوه من التماثيل في الكنائس : فهو مذبوح على النصب .

ومعلوم أن حكم ذلك لا يختلف بحضور الوثن وغيبته . فإنما حرم لأنه قصد بذبحه عبادة الوثن وتعظيمه . وهذه الأنصاب قد قيل : هي من الأصنام . وقيل : هي غير الأصنام .

قالوا : كان حول البيت ثلاثمائة وستون حجرا . كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ، ويشرحون اللحم عليها . وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها ، ويذبحون عليها . وكانوا إذا شاؤ وا أبدلوا هذه الحجارة بحجارة هي أعجب إليهم منها . ويدل على ذلك قول أبي ذر في حديث إسلامه « حتى صرت كالنصب الأحمر » يريد : أنه كان يصير أحمر من تلوثه بالدم .

وفي قوله : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قولان :

أحدهما : أن نفس الذبح كان يكون عليها ، كما ذكرناه . فيكون ذبحهم غير الأصنام . فيكون الذبح عليها لأجل أن المذبوح عليها مذبوح للأصنام ، أو مذبوح لها . وذلك يقتضي تحريم كل ما ذبح لغير الله . ولأن الذبح في البقعة لأ تأثير له إلا من جهة الذبح لغير الله ، كما كرهه النبي ﷺ من الذبح في مواضع أصنام المشركين ، ومواضع أعيادهم . وإنما يكره المذبوح في البقعة المعينة : لكونها محل شرك . فإذا وقع الذبح حقيقة لغير الله كانت حقيقة التحريم قد وجدت فيه .

والقول الثاني : أن الذبح على النصب ، أي لأجل النصب . كما قيل : «أولم رسول الله ﷺ على زينب بخبز ولحم » وأطعم فلان على ولده . وذبح فلان على ولده . ونحو ذلك . ومنه قوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّروا اللهَ علىٰ ما هَـداكُمْ ﴾[1] وهذا ظاهر على قول من يجعل النصب نفس الأصنام . ولا منافاة بين كون الذبح لها ، وبين كونها كانت تلوث بالدم .

وعلى هذا القول : فالدلالة ظاهرة .

واختلاف هذين القولين في قوله تعالى : ﴿ على النصب ﴾ نظير الاختلاف في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أمّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُروا اسْمَ اللهِ على ما رَزَقَهُمْ مِنْ بهيمةِ الأنعام ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ ولِيَشْهدوا منافعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُروا اسْمَ اللهِ في أيامٍ معلوماتٍ على ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهيمةِ الأنعامِ ﴾[3] .

---

(١) سورة الحج الآية ٣٧ .

(٢) سورة الحج الآية ٣٤ .

(٣) سورة الحج الآية ٢٨ .

فإنه قد قيل : المراد بذكر « اسم الله » عليها : إذا كانت حاضرة .

وقيل : بل يعم ذكره لأجلها في مغيبها وشهودها . بمنزلة قوله تعالى : ﴿ لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ .

وفي الحقيقة مآل القولين إلى شيء واحد في قوله تعالى : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ كما قد أومأنا إليه .

وفيها قول ثالث ضعيف : أن المعنى على « اسم النصب » وهذا ضعيف . لأن هذا المعنى حاصل من قوله تعالى : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ فيكون تكريرا . لكن اللفظ يحتمله ، كما روى البخاري في صحيحه عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ : « أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح[1] ـ وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي ـ فقدمت إلى رسول الله ﷺ سفرة فيها لحم . فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم . ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه » .

فصل[*]

قال شيخ الإسلام :

(الجن مأمورون ومنهيون) كالإنس وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الانس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى : ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ منكمْ يَقُصّونَ عليكمْ آياتي وَيُنْذِرونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالوا شَهِدْنا على أنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدّنيا وَشَهِدوا على أَنْفُسِهِمْ أَنّهُمْ كانوا كافِرينَ ﴾[2] وهذا بعد قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يا معشرَ الجنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإنسِ وقالَ أَوْلياؤُهُمْ مِنَ الإنسِ رَبّنا اسْتَمتعَ بعضُنا ببعضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الذي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النارُ مَثْواكُمْ خالدينَ فيها إلّا ما شاءَ اللهُ ﴾[3] قال غير واحد من السلف أي كثير من أغويتم من الإنس وأضللتموهم قال البغوي : قال بعضهم استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم

---

(١) البلدح بفتح الباء والدال بينهما لام ساكنة : واد في طريق التنعيم قريبا من مكة .

(*) انظر الرسائل الكبرى (الفرقان بين الحق والباطل) ١ / ٦٠ ط صبيح بالقاهرة .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٨ .

لهم الأمور التي يهيؤونها ويسهل سبيلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينن لهم من الضلالة والمعاصي ، قال محمد بن كعب : هو طاعة بعضهم لبعض وموافقة بعضهم بعضا ، وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس . وعنَ محمد بن كعب قال : هو الصحابة في الدنيا، وقال ابن السائب : استمتاعُ الإنس بالجن استعاذتهم بهم ، واستمتاع الجن بالإنس أن قالوا قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفا في أنفسهم وعظما في نفوسهم وهذا كقوله : ﴿ وأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإنسِ يَعوذونَ برجالٍ مِنَ الجِنِّ فَزادوهُمْ رَهَقاً ﴾[1] .

قلت الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به ، ينال به ما يطلبه ويريده ويهواه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم لبعض كما قال : ﴿ فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ فآتوهُنّ أُجورَهُنّ فريضةً ﴾[2] ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث .

ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة ، كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم ، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ومنه قوله : ﴿ وَمَتِّعُوهُنّ على المُوسِعِ قَدَرُهُ وعلى المُقْتِرِ قَدْرُهُ ﴾[3] وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة . ولهذا قال الفقهاء أعلى المتعة خادم وأدناها كسوة يجزيء فيها الصلاة .

وفي الجملة استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس ، يشبه استمتاع الإنس بالإنس قال تعالى : ﴿ الأخِلّاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ إلا المتقينَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأسبابُ ﴾[5] قال مجاهد هي المودّات التي كانت لغير الله ، قال الخليل : ﴿ إنما اتّخَذْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدّةً بينكمْ في الحياةِ الدنيا ثم يومَ القيامةِ يَكْفُرُ بعضُكم ببعضٍ وَيَلْعَنُ بعضُكم بعضاً ﴾[6] قال تعالى : ﴿ أفرأيتَ مَنِ اتّخَذَ إلهَهُ هواهُ ﴾[7] فالمشرك يعبد ما يهواه ، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه ، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله .

---

(١) سورة الجن الآية ٨ .
(٢) سورة النساء الآية ٢٤ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٦ .
(٤) سورة الزخرف الآية ٦٧ .
(٥) سورة البقرة الآية ١٦٦ .
(٦) سورة العنكبوت الآية ١٢٥ .
(٧) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم،وهؤلاء لهؤلاء في أغراضهم،فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والإنس تطيع الجن فتارة يسجد له وتارة لما يأمره بالسجود له ، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال ، وهذا كثير في رجال الجن ونسائهم ، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي وقد يفعل ذلك بالذكران .

(وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة) .

تارة يكون الجني يحب المصروع فيصرعه ليتمتع به ، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل .

وتارة يكون الإنسي آذاهم إذا بال عليهم ، أو صبّ عليهم ماء حارا ، أو يكون قتل بعضهم ، أو غير ذلك من أنواع الأذى ، هذا أشد الصرع ، وكثيراً ما يقتلون المصروع .

وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبث سفهاء الإنس بأبناء السبيل .

ومن استمتاع الإنس والجن استخدامهم في الإخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان ، فإن في الإنس من له غرض في هذا لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك ، فإن كان القوم كفارا كما كانت العرب ، لم تبال بأن يقال أنه كاهن كما كان العرب كهانا ، وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريده ، إما في شرك ، وإما في فاحشة ، وإما في أكل حرام ، وإما في قتل بغير حق ، فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك . وإن لم يكن فيه منفعة لهم ، وهم يقومون بأمر السارق أن يسرق ويذهب إلى أهل المال ، فيقولون فلان سرق متاعكم ، ولهذا يقال القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية ، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح . والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذي ، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة ، لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه ويحب ذلك ، كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المحسود

لكن يبغض ذلك وقد يكون بغضه لفوات غرضه وقد لا يكون .

ومن استمتاع الإنس بالجن : استخدامهم في احضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة ، فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلونه على كنز وغيره ، واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية .

ومن استمتاع الإنس بالجن : استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجني في صورة الإنسي ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه ، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به : يا سيدي فلان فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه ثم إن الشيخ يقول : نعم . ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه وهو الذي فعل ذلك ، حتى إن تابع الشيخ قد تكون يده في اناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر والشيخ (في)[1] موضعه ويده لم تطل ، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريد حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجني وخيله ، وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله ، أو علة في النساء أو غير ذلك فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المال معظما وأراد أن يدله على سرقته مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال ، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ، ولا يكون عليه لأن الذي سرق المال معه أيضا حتى يخدمه ، والجن يخاف بعضهم من بعض ، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضا ، فإذا دل الجني عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه ، وأحيانا لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه ، كما يصيب معرف اللصوص من الإنس ، تارة يعرف السارق ولا يعرف به إما لرغبة ينالها منه ، وإما لرهبة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه . فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

(والجن مكلفون كتكليف الإنس) ومحمد ﷺ مرسل إلى الثقلين الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين ﴿ وأما مؤمنهم ﴾ ففيهم قولان ، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضا ويدخلون الجنة ، وقد روي أنهم يكونون في ربضها يراهم الإنس من

---

(١) في : ليست بالأصل .

حيث لا يرون الإنس ، عكس الحال في الدنيا وهو حديث رواه الطبراني في معجمه الصغير يحتاج النظر في اسناده . وقد احتج ابن أبي ليلى وأبو يوسف[1] على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلوا ﴾[2] وقد ذكر الجن والإنس الأبرار والفجار في الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعي وغيره بقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ ﴾[3] وقد قال تعالى في الأحقاف[4] : ﴿ أولئكَ الذينَ حَقَّ عليهمُ القَوْلُ في أُممٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ والإنسِ أنَّهُمْ كانوا خاسِرينَ وَلِكلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلوا ﴾ وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة وقوله : ﴿ أولئكَ الذينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أحسنَ ما عَمِلوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ في أصحاب الجَنّةِ ﴾[5] ثم قال : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾[6] قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علوا ، ودرجات أهل النار تذهب سفلا ، وقد قال تعالى عن قول الجن : ﴿ مِنّا الصالحونَ ومِنّا دونَ ذلكَ كنّا طَرائِقَ قِدَدا ﴾[7] وقالوا : ﴿ وإنّا مِنّا المسلمونَ وَمِنّا القاسِطونَ فَمَنْ أسلمَ فأولئكَ تَحَرَّوْا رَشَداً وأمّا القاسِطونَ فكانوا لِجهنّمَ حَطَبا ﴾[8] ففيهم الكفار والفساق والعصاة ، وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما في الإنس ، وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ، والفساق مع الفساق وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع .

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء . منهم من يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم ، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين وإنما هو من أفعال الشياطين .

ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة . إما أحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك .

---

(١) هو عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندر المشهور بأبي يوسف ، القزويني ، شيخ المعتزلة في عصره ، كان زيديا . ولد سنة ٣٩٣ هـ وتوفي سنة ٤٤٨هـ وله تفسير بلغ ثلاثمائة مجلد . انظر ترجمته في : النجوم الزاهرة ١٦٥/٥ ، دول الاسلام للذهبي ١٢/٢ لسان الميزان ١١/٤ ـ ١٢ ، طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٩ ، الاعلام ١٣١/٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٢ .

(٣) سورة الرحمن الآية ٥٦ .

(٤) في الأصل : الأعراف . وهو خطأ لعله من الناسخ .

(٥) سورة الأحقاف الآية ١٦ .

(٦) سورة الأحقاف الآية ١٩ .

(٧) سورة الجن الآية ١١ .

(٨) سورة الجن الآية ١٥ .

والنوع الثالث : أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله كما يستعمل الإنس في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله ، كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذه حال نبينا ﷺ ، وحال من اتبعه واقتدى به من أمته ، وهم أفضل الخلق فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم بالله به ورسوله ، وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله إذ كان نبينا محمد ﷺ مبعوثا بذلك إلى الثقلين الإنس والجن ، وقد قال الله له : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبيلي أَدْعُو إلى اللهِ على بَصِيرةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني وَسُبْحانَ اللهِ وَمَا أنا مِنَ المُشْرِكينَ ﴾[1] وقال : ﴿ قلْ إن كنتمْ تُحِبّونَ اللهَ فاتّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ وَاللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾[2] (وعمر رضي الله عنه لما نادى يا سارية الجبل . قال : إن لله جنودا يبلغون صوتي) وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحي الجن ، فجنود الله بلّغوا صوت عمر إلى سارية وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر وإلا نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه فيقول : يا فلان فيعان على ذلك . فيقول الواسطة بينهما : يا فلان وقد يقول لمن هو بعيد عنه : يا فلان احبس الماء تعال إلينا وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك : يا فلان احبس الماء أرسل الماء إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه ، وهذا حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشا فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر . فقال عمر : من أين لكم هذا . قالوا : شخص صفته كيت وكيت فأخبرنا . فقال عمر : ذاك أبو الهيثم . بريد الجن وسيجيء بريد الإنسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى الناس يتحدثون به ، فإن الجن تسمعه وتخبر به الناس والذين يستخدمون الجن في المباحات يشبه استخدام سليمان ، لكن أعطي ملكا لا ينبغي لأحد بعده وسخرت له الإنس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره ، والنبي ﷺ لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال : « فأخذته فذعته حتى سال لعابه على يدي ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ثم ذكرت دعوة أخي سليمان فأرسلته » (فلم يستخدم النبي) الجن أصلا ، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن وبلغهم الرسالة ، وبايعهم كما فعل بالإنس . والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبدا رسولا على أن يكون نبيا ملكا ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

(٢) سورة آل عمران اية ٣١ .

عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين ، وكثير ممن يرى هـذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء ، وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة ، وما لأولياء الشيطان من ذلـك من السحرة والكهـان والكفار من المشركين ، وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الـداخلين في الإسلام ، جعلوا الخوارق جنسا واحدا وقالوا كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعـوى النبوة والاستـدلال بها والتحدي بمثلها .

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة ، فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك وأن يقيض له من يعـارضه ، ولـو عارض واحـد من هؤلاء النبي لأعجزه الله ، فخـاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يـأتون بمثـل ما أتى بـه النبي كان معتـادا للناس . قالوا : إن عجز الناس عن المعـارضة خـرق عادة فهـذه هي المعجزات عنـدهم ، وهم ضاهـوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هي خـرق العادة لكن أنكـروا كرامـات الصالحـين ، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة من جنس الشعبذة وحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعـين على ذلك ، وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا عـلى أن هذه لا تكـون إلا لرجـل صالح أو نبي . قالوا : فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحا بهـذا الإجماع وهؤلاء أنفسهم قـد ذكروا أنها تكون للسحرة ما هو مثلها وتناقضوا في ذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان ، وما يفعله الشياطين من العجائب وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ، فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة فيقوى قلبه بأن طريقته هي طـريقة الأوليـاء ، وكذلـك غيرهم يـظن فيه ذلـك ثم يقولـون : الولي إذا تـولى لا يعترض عليه ، فمنهم من يـراه مخالفـا لما علم بـالاضطرار من دين الـرسول مثـل ترك الصـلاة المفـروضة وأكـل الخبائث كـالخمر والحشيشـة والميتـة وغـير ذلـك ، وفعـل الفـواحش والفحش والتفحش في المنطق ، وظلم الناس ، وقتـل النفس بغير حق ، والشـرك بالله ، وهـو مع ذلـك يظن فيه أنـه ولي من أولياء الله قـد وهبه هـذه الكرامـات بلا عمـل فضلا من الله تعـالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين يضل به الناس ويغويهم .

(ودخلت) الشياطين في أنواع من ذلك :

فتـارة يأتـون الشخص في النوم يقـول أحدهم : أنـا أبو بكـر الصديق وأنـا أتوبـك لي ، وأصير شيخك وأنت تتـوب الناس لي ويلبسـه ، فيصبح وعـلى رأسه مـا ألبسـه فـلا يشـك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدد من المشايـخ بالعـراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعـره في النـوم فيصبح فيجـد شعره مقصـوصا ، وتـارة يقول أنا الشيخ فلان فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره .

وكثيرا ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت ، فيأتونه في صورة ذلك الشيخ وقد يخلصونه مما يكره ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه أو أن ملكا تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين ، والملائكة لا تجيب مشركا .

وتارة يأتون إلى من هو خال في البرية ، وقد يكون ملكا أو أميرا كبيرا ويكون كافرا ، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت فيأتيه في صورة إنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويطعمه ويدله على الطريق ويقول من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ويكون في موضع .

(كما جرى مثل هذا لي) كنت في مصر في قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردين ، وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولا وكنت في الحبس فاستعظموا ذلك ، وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنيا يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاؤوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الإسلام ، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أني أنا الذي فعلت ذلك .

(قال لي طائفة من الناس فلم لا يجوز أن يكون ملكا قلت لا) ان الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك .

(وكثير من الناس) رأى من قال إني أنا الخضر ، وإنما كان جنيا ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكارا لموت الخضر ، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر ، وكل من الطائفتين مخطىء ، فإن الذين رأوا من قال إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون ، والحكايات متواترات لكن أخطؤوا في ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنيا ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيرا ما يأتيهم في كنائسهم من يقول أنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من يقول أنه الخضر ، وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبين صدق من رأى شخصا وظن أنه الخضر وأنه غلط في ظنه أنه الخضر ، وإنما كان جنيا وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان ، فكل هذا قد وقع والنبي ﷺ قال : « من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي » قال ابن عباس في صورته التي كان عليه في حياته وهذه رؤيا في المنام ، وأما في اليقظة فمن ظن أن أحدا من الموتى يجيء بنفسه للناس عيانا قبل يوم القيامة فمن جهله أتى .

(ومن هنا) ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما يظنون أنه أتى

إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكور في أناجيلهم وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذي جاء كان شيطانا قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه ، ويجوز أن يشتبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه ، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء .

(وأصحاب الحلاج) لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج ، فيرونه في صورته عيانا ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن ، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي وكان يقول انتقل ثم مات وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن ، وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو ، وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء عليّ أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحيانا ويكون المرئي جنيا ، فهذا باب واسع واقع كثيرا ، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر ففي المشركين أكثر مما في النصارى وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام ، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس ، يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه ، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام ، فيسلمون ويصيرون خيرا مما كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسدا ، وقد قال النبي ﷺ : «ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » وهذا كان كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي : فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل ، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق ، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها والخير والشر درجات فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه ، وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفارا ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثما بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفارا فصاروا مسلمين ، وذاك كان شرا بالنسبة إلى القائم بالواجب . وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير . وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذبا ، وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذلك الكفر الذي كان عليه وانتهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافرا ، فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم

إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه ، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتعليلها ، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان ، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ وأكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلما مبتدعا ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة ، وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون عليّا ، ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر ، ولكن حكي عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل إحدى الطائفتين ولا أعلم عينها . وقالوا أنه قال : لو شهد عليّ والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان . وهذا القول شاذ فيهم والذي عليه عامتهم تعظيم عليّ .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبي موسى وعمرو بن العاص لأجل عليّ ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة فإنهم يقولون أن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ويعظمون الذنوب ، فهو يتحرون الصدق كالخوارج لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضا اتخاذ دار غير دار الإسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس فجعلوا من التوحيد نفي الصفات وإنكار الرؤية والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا في ذلك الجهمية وجعلوا من العدل أنه لا يشاء ما يكون ويكون ما لا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد فنفوا قدرته ومشيئته وخلقه لإثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة ، وكذلك هم الخوارج قالوا بإنفاذ الوعيد ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسيف قصدوا به طاعة الله ورسوله كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا في ذلك ، وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات ، قصدوا به إثبات النبوة ونصرها ، وغلطوا فيما سلكوه فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق ، وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء . والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم ، وبينوا ما بينوه من تناقضهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة فحصل بما قالوه من بيان تناقض

أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير .

فإن الأشعري كان من المعتزلة وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبي علي الجبائي ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيرا بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم ، وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية ، وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعري في شيء منها بل ناقضهم في جميع أصولهم ، ومال في مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه ، وكثير من الطوائف كالنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمر ، ويخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف ، والخوارق والصوفية يذمونها ويعيبونها ، وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود وهم إلى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ، فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافا بين المفسرين ، وروى بإسناد عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه يقول : فألهمنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم . يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافا بين المفسرين ، وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله فيعظمون العلم وطريقه ، وهو الدليل والسلوك في طريقه وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد ، وطريق أهل الإرادة فهؤلاء يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر ، وهذه هي القوة العلمية ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعي ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به ، وبين النظر البدعي الباطل المنهي عنه .

وكذلك الصوفية ، عظموا جنس الإرادة إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا في الباب ، ولم يميز كثير منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الإرادة البدعية بل أقبلوا على طريق الإرادة طريقة النظر .

وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ، ولهذا صار هؤلاء يميل إليهم النصارى ويميلون إليهم ، وأولئك يميل إليهم اليهود ويميلون إليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض ، وكذلك بين أهل الكلام والرأي وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض . هذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ونسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

فصـــل

حجة إبليس في قوله : ﴿أنا خَيْـرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طين﴾ [1] هي بـاطلة لأنه عارض النص بـالقياس . ولهـذا قال بعض السلف : أول من قـاس إبليس ، وما عبـدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . ويظهر فسادها بالعقل من وجوه خمسة .

« أحدها » : أنه ادعى أن النار خير من الطين ، وهذا قد يمنع ، فإن الطين فيه السكينـة والـوقار ، والاستقـرار ، والثبات والإمسـاك ونحو ذلـك ، وفي النار الخفـة والحـدة والـطيش ، والطين فيه الماء والتراب .

« الثاني » : أنه وإن كانت النار خيراً من الطين فـلا يجب أن يكون المخلـوق من الأفضل أفضـل ، فإن الفـرع قد يختص بمـا لا يكـون في أصله ، وهـذا التـراب يخلق منـه من الحيـوان والمعادن والنبات ما هو خير منه ، والاحتجـاج على فضـل الإنسان عـلى غيره بفضـل أصله على أصله حجـة فاسـدة احتـج بهـا إبليس ، وهي حجـة الـذين يفخـرون بـأنسـابهم ، وقـد قـال النبي ﷺ : « من قصر به عمله لم يبلغ به نسبه »[1] .

« الثالث » : أنه وإن كان مخلوقا من طين فقد حصل له بنفخ الروح المقدسة فيهما شـرف به ، فلهذا قال :﴿فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدينَ﴾[2] فعلق السجود بأن

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢ .

وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/٥ ط السعودية .

(١) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب العلم) ولفظه : من ابطأ به عمله .. الـخ وجاء كـذلك في : الترمذي (كتـاب ـ القرآن) ، ابن ماجه (المقدمة) ، الدارمي (المقدمة) ، ابن حنبل ٣٥٢/٣ .

(٢) سورة الحجر الآية ٢٩ .

ينفخ فيه من روحه ، فالموجب للتفضيل هذا المعنى الشريف الذي ليس لإبليس مثله .

« الرابع » : أنه مخلوق بيدي الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] وهو كالأثر المروي عن النبي ﷺ مرسلا ، وعن عبد الله بن عمرو في تفضيله على الملائكة حيث قالت الملائكة : « يا رب ! قد خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون وينكحون ؛ فاجعل لنا الآخرة كما جعلت لهم الدنيا فقال : لا أفعل . ثم أعادوا . فقال : « لا أفعل ثم أعادوا فقال : وعزتي لا أجعل صالح من خلقت بيدي كمن قلت له : كن فكان » .

« الخامس » : أنه لو فرض أنه أفضل فقد يقال : إكرام الأفضل للمفضول ليس بمستنكر .

فصل(*)

قال تعالى : ﴿يا بَني آدمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُواري سَوْآتِكُمْ ورِيشاً ولباسُ التَّقوى ذَلكَ خَيْرٌ﴾[2] الآية . وفيها قراءاتان ؛ إحداهما بالنصب فيكون لباس التقوى أيضا منزلا ، وأما قراءة الرفع فلا ، وكلتاهما حق ، وقد قيل : خلقناه ، وقيل أنزلنا أسبابه ، وقيل ألهمناهم كيفية صنعته ، وهذه الأقوال ضعيفة ، فإن النبات الذي ذكروا لم يجيء فيه لفظ أنزلنا ، ولم يستعمل في كل ما يصنع أنزلنا ، فلم يقل أنزلنا الدور وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك ، وهو لم يقل إنا أنزلنا كل لباس ورياش .

وقد قيل إن الريش والرياش المراد به اللباس الفاخر ، كلاهما بمعنى واحد مثل اللبس واللباس .

وقد قيل هما المال والخصب والمعاش ، وارتاش فلان حسنت حالته .

والصحيح أن الرياض هو الأثاث والمتاع ، قال أبو عمرو : والعرب تقول أعطاني فلان ريشه أي كسوته وجهازه .

وقال غيره : الرياض في كلام العرب الأثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفرش ونحوها .

وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص .

---

(١) سورة ص الآية ٧٥ .

(*) رسالة نزول القرآن .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٦ . وتكملة الآية ليست بالنص .

قال أبو زيد : جمالا . وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر ، وهو ما يروش به ويـدفع عنـه الحر والبرد . وجمال الطائرريشه ، وكذلك ما يبيت فيه الإنسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك . والقرآن مقصوده جنس اللباس الذي يلبس على البدن وفي البيوت .

والله أعلم .

فصـــل(*)

سئل الشيخ رحمه الله :

عن : قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ الآية الكريمة . هل ذلك عام لا يراهم أحد أم يراهم بعض الناس دون بعض ؟ وهل الجن والشياطين جنس واحـد ولد إبليس أم جنسان : ولد إبليس وغير ولده ؟؟ .

فأجاب شيخ الإسلام : أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله ورضي عنه آمين . فقال :

الحمـد لله : الذي في القرآن أنهم يرون الإنس من حيث لا يـراهم الإنس ، وهذا حق يقتضي أنهم يـرون الإنس في حال لا يـراهم الإنس فيها ، وليس فيـه أنهم لا يراهم أحـد من الإنـس بحال ؛ بل قد يراهم الصالحون وغير الصالحين أيضا ؛ لكن لا يـرونهم في كل حـال ، والشياطين هم مردة الإنس والجن ، وجميع الجن ولد إبليس . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

قوله : ﴿ وإذا فَعَلوا فاحِشةً قالوا وَجَدْنا عَلَيْهـا آباءَنـا واللهُ أَمَرَنـا بِها قُـلْ إنّ الله لا يَأمُـرُ بـالفحشاءِ ، أَتَقـولونَ على اللهِ مـا لا تَعلمونَ ﴾ ؟(١) والفـاحشة أريـد بها كشف السـوءات ، فيستدل به على أن الأفعال السيئة من الصفات ما يمنع أمر الشرع بها ، فإنـه أخبر عن نفسـه في سياق الإنكار عليهم أنه لا يأمر بالفحشاء ، فدل ذلك على أنه منزه عنه ، فلو كان جـائزا عليـه لم يتنزه عنه . فعلم أنـه لا يجوز عليـه الأمر بـالفحشاء ؛ وذلـك لا يكون إلا إذا كـان الفعل في نفسه سيئا ، فعلم أن كل ما كان في نفسه فاحشة فإن الله لا يجوز عليـه الأمر بـه ، وهذا قـول من يثبت للأفعال في نفسهـا صفات الحسن والسـوء ، كما يقـوله أكـثر العلماء كالتميميـين وأبي الخطاب ؛ خلاف قول من يقول : إن ذلك لا يثبت قط إلا بخطاب .

وكذلك قوله : ﴿ وَلا تَقْرَبوا الزِّنا إنَّهُ كانَ فاحِشةً وَسَـاءَ سَبيلاً ﴾(٢) علل النهي عنـه بما

(*) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/١٥

(١) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٣٢ .

اشتمل عليه من أنه فاحشة وأنه ساء سبيلا ، فلو كان إنما صار فاحشة وساء سبيلا بالنهي لما صح ذلك ؛ لأن العلة تسبق المعلول لا تتبعه ، ومثل ذلك كثير في القرآن .

وأما في الأمر فقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تكرهوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تُحِبّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، واللهُ يَعلمُ وأنتم لا تَعلمونَ ﴾[1] دليل على أنه أمر به ؛ لأنه خير لنا ؛ ولأن الله علم فيه ما لم نعلمه . ومثله قوله في آية الطهور ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشكرونَ ﴾[2] دليل على أنه أمر بالطهور ؛ لما فيه من الصلاح لنا ، وهذا أيضا في القرآن كثير .

فصل[*]

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبّي بالقِسْطِ وَأَقِيموا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ﴿ سورة الأعراف : ٢٩) ، لم يقل : عند كل مشهد . وقال : ﴿ ما كانَ للمشركينَ أَنْ يَعْمُروا مساجدَ اللهِ شاهدينَ على أنفسِهِمْ بالكفرِ أولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ وفي النارِ هُمْ خالدونَ * إنما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَن باللهِ واليومِ الآخرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلا اللهَ فَعَسى أولئكَ أَنْ يكونوا مِنَ المهتدينَ ﴾ ﴿ سورة التوبة : ١٧ ، ١٨) ، ولم يقل : ﴿ إنما يعمر ﴾مشاهد الله ، بل عمار المشاهد يخشون بها غير الله ويرجون غير الله . وقال تعالى : ﴿ وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تَدْعُوا معَ اللهِ أحداً ﴾ ﴿ سورة الجن : ١٨) ، ولم يقل : وأن المشاهد لله . وقال : ﴿ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كثيراً ﴾ (سورة الحج : ٤٠) ، ولم يقل : ومشاهد . وقال : ﴿ في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهيهِمْ تجارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ﴾ ﴿ سورة النور : ٣٦ ، ٣٧) .

وأيضا فقد علم بالنقل المتواتر ، (بل علم) بالاضطرار من دين الإسلام ، أن الرسول ﷺ شرع لأمته عمارة المساجد بالصلوات ، والاجتماع للصلوات الخمس ولصلاة الجمعة والعيدين وغير ذلك ، وأنه لم يشرع لأمته أن يبنوا على قبر نبي ولا رجل صالح لا من أهل البيت ولا غيرهم ، (لا) مسجدا ولا مشهدا . ولم يكن على عهده ﷺ في الإسلام

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦ .

(*) انظر منهاج السنة النبوية ١/٣٣٤ بتحقيق د . محمد رشاد سالم . وانظر شفاء العليل لابن القيم

(مشهد مبين على قبر ، وكذلك على عهد خلفائه الراشدين وأصحابه الثلاثة وعليّ بن أبي طالب ومعاوية ، لم يكن على عهدهم) مشهد مبني لا على قبر نبي ولا غيره ، لا على قبر إبراهيم الخليل ولا (على) غيره .

بل لما قدم المسلمون إلى الشام غير مرة ، ومعهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب وغيرهم ، (ثم) لما قدم عمر لفتح بيت المقدس ، ثم لما قدم لوضع الجزية على أهل الذمة ومشارطتهم ، ثم لما قدم إلى سرغ[1] ، ففي جميع هذه المرات لم يكن أحدهم يقصد السفر إلى قبر الخليل، ولا كان هناك مشهد ، بل كان هناك البناء المبني على المغارة ، وكان مسدودا بلا باب له ، مثل حجرة النبي ﷺ .

ثم لم يزل الأمر هكذا في خلافة بني أمية وبني العباس ، إلى أن ملك النصارى تلك البلاد في آواخر المائة الخامسة ، فبنوا ذلك البناء واتخذوه كنيسة ونقبوا باب البناء ، فلهذا تجد الباب منقوبا لا مبنيا ، ثم لما استنقذ المسلمون منهم تلك الأرض اتخذها من اتخذها مسجدا .

بل كان الصحابة إذا رأوا أحدا بنى مسجدا على قبر نهوه عن ذلك ، ولما ظهر قبر دانيال بتستر[2] كتب فيه أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) إلى عمر رضي الله عنه ، فكتب إليه عمر أن تحفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا ، وتدفنه بالليل في واحد منها لئلا يفتتن الناس به[3] .

وكان عمر بن الخطاب إذا رآهم ينتابون مكانا يصلون فيه لكونه موضع نبي ينهاهم عن ذلك ، ويقول : إنما هلك من كان قبلكم باتخاذ آثار أنبيائهم مساجد ، من أدركته الصلاة فيه فليصل ، وإلا فليذهب .

فهذا وأمثاله كانوا يحققون به التوحيد الذي أرسل الله به الرسول إليهم ، ويتبعون في ذلك سنته صلىٰ الله عليه وسلم .

والإسلام مبني على أصلين : أن لا نعبد إلا الله ، وأن نعبده بما شرع ، لا نعبده بالبدع .

فالنصارى خرجوا عن الأصلين ، وكذلك المبتدعون من هذه الأمة من الرافضة وغيرهم .

وأيضا ، فإن النصارى يزعمون أن الحواريين الذين اتبعوا المسيح أفضل من إبراهيم

---

(١) في معجم البلدان : هو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام .

(٢) في معجم البلدان : تستر : أعظم مدينة بخوزستان .

(٣) هذه الواقعة ذكرها الطبري في كلامه عن فتح السوس في حوادث السنة السابعة عشرة ، كما ذكرها البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) في الكلام عن فتح السوس ، ص ٣٨٦ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٠١/١٣١٩ .

وموسى وغيرهما من الأنبياء والمرسلين ، ويزعمون أن الحواريين رسل شافههم الله بالخطاب ، لأنهم يقولون : إن الله هو المسيح ، ويقولون أيضا : إن المسيح ابن الله .

والرافضة تجعل الأئمة الاثنى عشر أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وغالبيتهم يقولون إنهم أفضل من الأنبياء لأنهم يعتقدون فيهم الإلهية كما اعتقدته النصارى في المسيح .

والنصارى يقولون : إن الدين مسلم للأحبار والرهبان ، فالحلال ما حللوه والحرام ما حرموه ، والدين ما شرعوه .

والرافضة تزعم أن الدين مسلم إلى الأئمة ، فالحلال ما حللوه ، والدين ما شرعوه .

وأما من دخل في غلو الشيعة كالإسماعيلية الذين يقولون بإلهية الحاكم ونحوه من أئمتهم ، ويقولون : إن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله ، وغير ذلك من مقالات الغالية من الرافضة ، فهؤلاء شر من أكثر الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ، وهم ينتسبون إلى الشيعة يتظاهرون بمذاهبهم .

فإن قيل : ما وصفت به الرافضة من الغلو والشرك والبدع موجود كثير منه في كثير من المنتسبين إلى السنة ، فإن في كثير منهم غلوا في مشايخهم وإشراكا بهم وابتداعا لعبادات غير مشروعة ، وكثير منهم يقصد قبر من يحسن الظن به : إما ليسأله حاجاته ، وإما ليسأل الله تعالى به (حاجة) ، وإما لظنه أن الدعاء عند قبره أجوب منه في المساجد . وفيهم من يفضل زيارة قبور شيوخهم على الحج ، ومنهم من يجد عند قبر من يعظمه من الرقة والخشوع ما لا يجده في المساجد والبيوت ، وغير ذلك مما يوجد في الشيعة .

ويروون أحاديث مكذوبة من جنس أكاذيب الرافضة ، مثل قوله : لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه الله به . وقولهم : إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور : وقولهم : قبر فلان هو الترياق المجرب .

ويروون عن بعض شيوخهم أنه قال لصاحبه : إذا كان لك حاجة فتعال إلى قبري واستغث بي ونحو ذلك ، فإن في المشايخ من يفعل بعد مماته كما كان يفعل في حياته . وقد يستغيث الشخص بواحد منهم ، فيتمثل له الشيطان في صورته : إما حيا وإما ميتا ، وربما قضى حاجته أو قضى بعض حاجته كما يجري نحو ذلك للنصارى مع شيوخهم ، ولعباد الأصنام من العرب والهند والترك وغيرهم .

قيل : هذا كله مما نهى الله عنه ورسوله ، وكل ما نهى الله عنه ورسوله فهو مذموم منهي عنه ، سواء كان فاعله منتسبا إلى السنة أو إلى التشيع ، ولكن الأمور المذمومة المخالفة للكتاب

والسنة في هذا وغيره هي في الرافضة أكثر منها في أهل السنة ، فما يوجد في أهل السنة من الشر ففي الرافضة أكثر منه ، وما يوجد في الرافضة من الخير ففي أهل السنة أكثر منه .

وهذا حال أهل الكتاب مع المسلمين : فما يوجد في المسلمين شر إلا وفي أهل الكتاب أكثر منه ، ولا يوجد في أهل الكتاب خير إلا وفي المسلمين أعظم منه .

ولهذا يذكر سبحانه وتعالى مناظرة الكفار من المشركين وأهل الكتاب بالعدل ، فإذا ذكروا عيبا في المسلمين لم يبرئهم منه ، لكن يبين أن عيوب الكفار أعظم .

كما قال تعالى : ﴿ يَسألونَك عَنِ الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيهِ قُلْ قتالٌ فيهِ كبيرٌ ﴾ ثم قال : ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سبيلِ اللهِ وكُفْرٌ بهِ والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلِهِ مِنْهُ أكبرُ عِنْدَ اللهِ والفتنةُ أكبرُ مِنَ القتلِ ﴾ (سورة البقرة : ٢١٧) . وهذه الآية نزلت لأن سرية من المسلمين ذكر أنهم قتلوا ابن الحضرمي في آخر يوم من رجب ، فعابهم المشركون بذلك ، فأنزل الله هذه الآية[١] .

فصـــل

وقال الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية

على قول الله عز وجل : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفيةً ، إنَّهُ لا يُحِبُّ المعتدينَ ، ولا تُفْسِدوا في الأرضِ بعدَ إصلاحِها ، وادْعوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ؛ إنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ مِنَ المحسنينَ ﴾[٢] : هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ؛ فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما ؛ وهما متلازمان . فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي ، وطلب كشف ما يضره ودفعه . وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود ، لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر .

ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا . وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿ ولا تَدْعُ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ ﴾[٣] وقال : ﴿ وَيَعبدونَ مِنْ

---

(١) انظر تفسير الآية ، وخبر مقتل عمرو بن الحضرمي في تفسير الطبري (طبعة المعارف بتحقيق الأستاذ محمود شاكر) ٤/٢٩٩ - ٣١٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٥ .

وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/٩ - ٣١ .

(٣) سورة يونس الآية ١٠٦ .

دونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ﴾[1] فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي ، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم .

وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع ، والضر فهو يدعو النفع والضر دعاء المسألة ، ويدعو خوفا ورجاء دعاء العبادة ، فعلم أن النوعين متلازمان ، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وعلى هذا فقوله : ﴿ وإذا سَأَلَكَ عِبادي عني فإني قريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إذا دَعانِ ﴾[2] يتناول نوعي الدعاء ، وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألني . وقيل : أثيبه إذا عبدني . والقولان متلازمان . وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ؛ بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعا ، فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع ، وقلّ ما يفطن له . وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا ، فهي من هذا القبيل .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلوكِ الشّمسِ إلى غَسَقِ الليلِ ﴾[3] فسر « الدلوك » بالزوال ، وفسر بالغروب، وليس بقولين ؛ بل اللفظ يتناولهم معا ؛ فإن الدلوك هو الميل . ودلوك الشمس ميلها .

ولهذا الميل مبتدأ ومنتهى ، فمبتدأه الزوال ، ومنتهاه الغروب ، واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار .

ومثاله أيضا تفسير « الغاسق » بالليل ، وتفسيره بالقمر ، فإن ذلك ليس باختلاف ؛ بل يتناولهما لتلازمهما . فإن القمر آية الليل . ونظائره كثيرة.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ ما يَعْبَأُ بكمْ رَبّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾[4] أي دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته ، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول ، ومحل الأول مضافا إلى الفاعل ، وهو الأرجح من القولين .

وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء ، وهو في دعاء العبادة أظهر ، أي ما يعبأ بكم لولا أنكم ترجونه ، وعبادته تسلتزم مسألته . فالنوعان داخلان فيه .

---

(١) سورة يونس الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٧٨ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٧ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم﴾[٢] فالدعاء يتضمن النوعين ، وهو في دعاء العبادة أظهر ؛ ولهذا أعقبه : ﴿إنّ الذين يَستكبِرونَ عَنْ عِبادتي﴾ الآية . ويفسر الدعاء في الآية بهذا وهذا .

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - على المنبر - : « إن الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم﴾ الآية » قال الترمذي حديث حسن صحيح .

وأما قوله تعالى : ﴿إنّ الذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ اللّهِ لَـنْ يَخلُقوا ذباباً وَلَو اجْتَمَعوا لهُ﴾[٢] الآية . وقوله : ﴿إنْ يَدعونَ مِنْ دونِهِ إلاّ إناثاً﴾[٣] الآية . وقوله : ﴿وَضَلّ عنهم ما كانوا يَدْعونَ مِنْ قبلُ﴾[٤] الآية . وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة ، فهو في دعاء العبادة أظهر ؛ لوجوه ثلاثة :

« أحدها » : أنهم قالوا : ﴿ما نَعبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى اللّهِ زُلْفَى﴾[٥] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم .

« الثاني » : أن الله تعالى : فسر هذا الدعاء في موضع آخر كقوله تعالى : ﴿وقِيلَ لَهُمْ ، أينَ مَا كنتمْ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللّهِ هَلْ يَنْصُرونَكُمْ أو يَنْتَصِرونَ ؟﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿إنكم وما تَعبدونَ مِنْ دونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنّمَ أنتم لَها وَارِدونَ﴾[٧] . وقوله تعالى : ﴿لا أعبدُ ما تَعبدونَ﴾[٨] فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم .

« الثالث » : أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء ، فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى : ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾[٩] ، هو دعاء العبادة ، والمعنى اعبدوه

---

(١) سورة غافر الآية ١٠ .
(٢) سورة الحج الآية ٧٢ .
(٣) سورة النساء الآية ١١٧ .
(٤) سورة فصلت الآية ٤٨ .
(٥) سورة الزمر الآية ٢ .
(٦) سورة الشعراء الآية ٩٢ .
(٧) سورة الانبياء الآية ٩٨ .
(٨) سورة الكافرون الآية ٢ .
(٩) سورة غافر الآية ١٤ .

وحده وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره .

وأما قول إبراهيم عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾[1] فالمراد بالسمع ها هنا السمع الخاص ، وهو سمع الإجابة والقبول ، لا السمع العام : لأنه سميع لكل مسموع . وإذا كان كذلك فالدعاء : دعاء العبادة ودعاء الطلب ، وسمع الرب تعالى له إثابته على الثناء ، وإجابته للطلب ، فهو سميع هذا وهذا .

وأما قول زكريا عليه السلام : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شقيّاً ﴾[2] فقد قيل : إنه دعاء المسألة ، والمعنى : إنك عودتني إجابتك ، ولم تشقني بالرد والحرمان ؛ فهو توسل إليه سبحانه وتعالى بما سلف من إجابته وإحسانه ، وهذا ظاهر ها هنا .

وأما قوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعوا اللَّهَ أَوِ ادْعوا الرحمنَ﴾[3]الآية : فهذا الدعاء : المشهور أنه دعاء المسألة ، وهو سبب النزول . قالوا : كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة : « يا الله » ومرة « يا رحمن » فظن المشركون انه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية .

وأما قوله : ﴿إنا كُنّا مِنْ قَبْلُ نَدْعوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرّحيمُ﴾[4] فهذا دعاء العبادة المتضمن للسلوك رغبة ورهبة ، والمعنى : انا كنا نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم الله عذاب السموم ، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره ؛ فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض : ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهاً﴾[5] : أي : لن نعبد غيره . وكذا قوله : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ الآية .

وأما قوله : ﴿وَقِيلَ ادْعوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُم﴾[6] فهذا دعاء المسألة ، يكبتهم الله ويخزيهم يوم القيامة بآرائهم ، إن شركاءهم لا يستجيبون لهم دعوتهم ، وليس المراد اعبدوهم . وهو نظير قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نادوا شُرَكائي الذينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ ، فَلَمْ يَسْتَجيبوا لَهُمْ﴾[7] .

إذا عرف هذا : فقوله تعالى : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ يتناول نوعي الدعاء ؛

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٩ .
(٢) سورة مريم الآية ٤ .
(٣) سورة الإسراء الآية ١١ .
(٤) سورة الطور الآية ٢٨ .
(٥) سورة الكهف الآية ١٤ .
(٦) سورة القصص الآية ٦٤ .
(٧) سورة للكهف الآية ٥٢ .

لكنه ظاهر في دعاء المسألة ، متضمن دعاء العبادة ولهذا أمر بإخفائه وإسراره . قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، أي ما كانت إلا همسا بينهم وبين ربهم عز وجل ؛ وذلك أن الله عز وجل يقول : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ وأنه ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله ، فقال : ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[1] .

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة :

« أحدها » : أنه أعظم إيمانا : لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي .

و« ثانيها » : أنه أعظم في الأدب والتعظيم ، لأن الملوك لا ترفع الأصوات (عندهم) ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

و« ثالثها » : أنه أبلغ في التضرع والخشوع ، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده ، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل ، قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته ؛ حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه ، فلا يطاوعه بالنطق . وقلبه يسأل طالبا مبتهلا ، ولسانه لشدة ذلته ساكت ، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلا .

و« رابعها » : أنه أبلغ في الإخلاص .

و« خامسها » : أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء فإن رفع الصوت يفرقه ، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه .

و« سادسها » : ـ وهو من النكت البديعة جدا ـ أنه دال على قرب صاحبه للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ؛ ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل : ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل ، وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه .

وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح : لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال : « ارْبَعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . وقد قال تعالى : ﴿وإذا سَأَلَكَ عِبادي عني فإني قريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ﴾ وهذا القرب من الداعي

---

(١) سورة مريم الآية ٢ .

هو قرب خاص ، ليس قربا عاما من كل أحد ، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

وقوله تعالى : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب .

و« سابعها » : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل ، والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته ، فإنه قد يمل اللسان وتضعف قواه . وهذا نظير من يقرأ ويكرر ، فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له ؛ بخلاف من خفض صوته .

و« ثامنها » : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات ؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد ، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره ، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بد ، ومانعته وعارضته ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته ؛ فيضعف أثر الدعاء ، ومن له تجربة يعرف هذا ، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة .

و« تاسعها » : أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد ، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد . وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام : ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إخْوَتِكَ فَيَكيدوا لكَ كَيْداً﴾(١) الآية . وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله تعالى قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى ، ولا يطلع عليه أحد ، والقوم أعظم شيئا كتمانا لأحوالهم مع الله عز وجل ، وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب ، ولا سيما فعله للمهتدي السالك فإذا تمكن أحدهم وقوي ، وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه - بحيث لا يخشى عليه من العواصف ، فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليقتدي به ويؤتم به - لم يبال . وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهله .

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء ، والمحبة والإقبال على الله تعالى ، فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين ، وهذه فائدة شريفة نافعة .

و« عاشرها » : أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى ، متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب ، كما قال النبي ﷺ : « أفضل الدعاء الحمد لله » فسمى الحمد لله دعاء وهو ثناء محض ؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب ؛ فالحامد طالب للمحبوب ، فهو أحق أن

---

(١) سورة يوسف الآية ٥ .

يسمى داعياً من السائل الطالب ؛ فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب ، فهو دعاء حقيقة ، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه .

و«المقصود» : أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه ، وقد قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾ فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه ، قال مجاهد وابن جريج : أمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح ، وتأمل كيف قال في آية الذكر : ﴿واذكر ربك﴾ الآية . وفي آية الدعاء : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ فذكر التضرع فيهما معا وهو التذلل ، والتمسكن ، والانكسار وهو روح الذكر والدعاء .

وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها ، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف ، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ؛ ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته ، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره ؛ لأنها توجب التواني والانبساط ، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات ، وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ، ومحبته له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل .

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة . فقال له الشيخ أليس الفقهاء يقولون : إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط ؟ فقال له : بلى . فقال له : فقلب المريد أعز عليه من عشرة دراهم ـ أو كما قال وهو إذا خرج ضاع قلبه ، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه . فقال له : هذا غرور بك ، الواجب الخروج إلى أمر الله عز وجل . فتأمل هذا الغرور العظيم كيف أدى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة ، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام ، كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة .

وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ؛ ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن .

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما كلها شيء كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته ؛ لئلا تخرج عن الطريق . والرجاء حاد يحدوها يطلب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذي يشوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وضلت عنها .

فما حفظت حدود الله ومحارمه ، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه ، فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر ، والخفية بالدعاء ، مع دلالته على اقتران الخفية بالدعاء والخيفة بالذكر أيضا ، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء ؛ لأن الدعاء مبني عليه ، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ؛ إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع ، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه ، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع ، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور .

وقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ قيل المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء ، كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك . وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن معقل أنه سمع ابنه يقول : « اللهم إني اسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها » فقال : يا بني ! سل الله الجنة وتعوذ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء » .

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من المعونة على المحرمات . وتارة يسأل ما لا يفعله الله ، مثل أن يسأل تخليده إلى يوم القيامة ، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية : من الحاجة إلى الطعام والشراب . ويسأله بأن يطلعه على غيبه ، أو أن يجعله من المعصومين ، أو يهب له ولدا من غير زوجة ، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء لا يحبه الله ، ولا يحب سائله .

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا في الدعاء .

وبعد : فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء بالدعاء مرادا بها فهو من جملة المراد ﴿ والله لا يحب المعتدين ﴾ في كل شيء : دعاء كان أو غيره ؛ كما قال تعالى : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

وعلى هذا : فيكون أمر بدعائه وعبادته ، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان ، وهم يدعون معه غيره ، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا ؛ فإن أعظم العدوان الشرك ، وهو وضع العبادة في غير موضعها ، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلا في قوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع ؛ بل دعاء هذا كالمستغني المدلي على ربه ، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل . فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد .

ومن الاعتداء أن يعبده بما لم يشرع ، ويثني عليه بما لم يثن به على نفسه ، ولا أذن فيه ، فإن هذا اعتداء في دعائه : الثناء والعبادة ، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب .

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين :

« أحدهما » محبوب للرب سبحانه وهو الدعاء تضرعا وخفية .

« الثاني » مكروه له مسخوط وهو الاعتداء ، فأمر بما يحبه وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير ، وهو لا يحب فاعله ، ومن لا يحبه الله فأي خير يناله ؟

وقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ عقيب قوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعا وخفية ، فهو من المعتدين الذين لا يحبهم ؛ فقسمت الآية الناس إلى قسمين : داع الله تضرعا وخفية ، ومعتد بترك ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد أصلاحها ﴾[1] قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي ، والداعي إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله (مفسد) فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم الفساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله ، ومخالفة أمره . قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ في البَرِّ والبَحْرِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ ﴾[2] قال عطية في الآية : ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ، ويهلك الحرث بمعاصيكم . وقال غير واحد من السلف : إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم ، فتقول : اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض ، وقحط المطر .

و « بالجملة » فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ، أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ ، هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة : فإن الله أصلح الأرض برسوله ﷺ ودينه ، وبالأمر بالتوحيد ، ونهى عن فسادها بالشرك به ، ومخالفة رسوله ﷺ .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته ، وطاعة رسوله ﷺ . وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك ؛ فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله . ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه ، وفي غيره عموما وخصوصا ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ إنما ذكر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٦ .

(٢) سورة الروم الآية ٤١ .

والطمع ، فأمر أولا بدعائه تضرعا وخفية ، ثم أمر أيضا أن يكون الدعاء خوفا وطمعا .

وفصل الجملتين بجملتين :

« إحداهما » خبرية ومتضمنة للنهي ، وهي قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ .

و « الثانية » طلبية . وهي قوله تعالى : ﴿ ولا تُفسدوا في الأرضِ بعدَ إصْلاحِها ﴾ والجملتان مقررتان للجملة الأولى ، مؤكدتان لمضمونها .

ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضاده أمر بدعائه خوفا وطمعا ؛ لتعلق قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين) بقوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ .

ولما كان قوله : ﴿ وادعوه خوفا وطمعا ﴾ مشتملا على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهي الحب والخوف والرجاء : عقبها بقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أي : إنما تنال من دعاه خوفا وطمعا ، فهو المحسن والرحمة قريب منه ؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة .

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابل الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ . وانتصاب قوله : ﴿ تضرعاً وخفيةً ﴾ ﴿ وخوفاً وطمعاً ﴾ على الحال ، أي ادعوه متضرعين إليه ، مختفين خائفين مطيعين .

وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم ، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته ، ورحمته قريب من المحسنين ، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعا وخفية ، وخوفا وطمعا . فقرر مطلوبكم منه ، وهو الرحمة بسبب أدائكم لمطلوبه ، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم .

وقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ له دلالة بمنطوقه ، ودلالة بإيمائه وتعليله بمفهومه .

فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان .

ودلالته بإيمائه وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان ، وهو السبب في قرب الرحمة منهم .

ودلالته بمفهومه على بعده من غير المحسنين .

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة ؛ وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة ، لأنها إحسان من الله عز وجل أرحم الراحمين ، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان ؛ لأن الجزاء من جنس العمل وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته ، وأما من لم يكن من

أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة ، بعد ببعد ، وقرب بقرب ، فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته .

والله سبحانه يحب المحسنين ، ويبغض من ليس من المحسنين ، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه ، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه ، والإحسان ههنا هو فعل المأمور به ، سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه ، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى . والإقبال إليه والتوكل عليه ، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابة ، وحياء ومحبة وخشية .

فهذا هو مقام « الإحسان » كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه »[1] فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريب من صاحبه ؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ! يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه . قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة ؟ .

وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان ﴾ ثم قال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » . آخر الكلام على الآيتين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم .

فصل
وقال شيخ الإسلام رحمه الله

قوله سبحانه : ﴿ قالَ الملأُ الذينَ اسْتَكبَروا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ والذينَ آمَنوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا ، أَوْ لَتعودُنَّ في مِلّتِنا ، قالَ : أَوَ لَوْ كنّا كارِهِينَ ؟ ! قَدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِباً إنْ عُدْنا في مِلّتِكُمْ بَعْدَ إذْ نَجّانا اللهُ مِنْها ، وَمَا يَكونُ لَنا أَن نَعودَ فيها إلا أنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا ﴾[2] ظاهرة دليل على أن شعيبا والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم ؛ لقولهم : ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ ولقول شعيب : ﴿ أن نعود فيها ﴾ ﴿ ولو كنا كارهين ﴾ ولقوله : ﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم ﴾ فدل على أنهم كانوا فيها . ولقوله : ﴿ بعد إذ نجانا الله منها ﴾ .

---

(١) جزء من حديث صحيح ذكره مسلم في (كتاب الإيمان) ، البخاري (كتاب الإيمان) ، النسائي (كتاب الإيمان) .

(٢) سورة الأعراف الآيات (٨٨ ـ ٨٩) .

فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها ؛ ولقوله : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ ولا يجوز أن يكون الضمير عائدا على قومه ؛ لأنه صرح فيه بقوله : ﴿ لنخرجنك يا شعيب ﴾ ولأنه هو المحاور له بقوله : ﴿ أو لو كنا ﴾ إلى آخرها ، وهذا يجب أن يدخل في المتكلم ، ومثل هذا في سورة إبراهيم ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ الآية [1] .

فصـــل

وقال شيخ الإسلام

هـذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ . (فيها) ومنها قوله : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ الآية وما في معناها .

التحقيق : أن الله سبحانه إنما يصطفى لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب ، كما في حديث هرقل[2] . ومن نشأ بين قوم مشركين جهال ، لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم ، إذا كان معروفا بالصدق والأمانة ، وفعل ما يعرفون وجوبه ، وترك ما يعرفون قبحه .

قال تعالى : ﴿ وما كنّا مُعَذِّبينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[3] فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب ، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم ؛ ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحا .

وقد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرائع ، وإن من لم يقر بذلك بعد الرسالة . فهو كافر ، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلا عن أن تقربه . قال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾[4] الآية . وقال : ﴿ يُلقي الرُوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ؛ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التّلاقِ ﴾[5] فجعل إنذارهم بالتوحيد كالإنذار بيوم التلاق ، وكلاهما عرفوه بالوحي .

وما ذكر أنه ﷺ بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي ، فإنه سيد ولد آدم ،

(١) سورة إبراهيم الآية ١٣ .

(٢) حديث هرقل ذكره البخاري ٤٣١٦ ـ ٤٥ (كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة آل عمران ، مسلم برواية مطولة عن ابن عباس (كتاب الجهاد . باب كتاب النبي إلى هرقل) ٥/١٦٣ ـ ١٦٥ .

(٣) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٤) سورة النحل اية ٢ .

(٥) سورة غافر الآية ١٥ .

والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره ، من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى ، وبالنصر والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم .

ولهذا يضيف الله الأمر إليهما في مثل قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نوحاً وإبراهيمَ ﴾[1] الآية . ﴿ إنّ الله اصْطَفى آدَم ونوحاً ، وآلَ إبراهيمَ ﴾[2] الآية . وذلك أن نوحا أول رسول بعث إلى المشركين ، وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين . وقوم إبراهيم مبدؤهم من عبادة الكواكب ، ذلك الشرك الأرضي ، وهذا السماوي ؛ ولهذا سدّ ﷺ ذريعة هذا وهذا .

فصــــل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

قد أخبر الله بأنه بارك في أرض الشام في آيات : منها قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنا القَوْمَ الذينَ كانوا يُسْتَضْعَفونَ مشارقَ الأرضِ وَمَغارِبَها التي بارَكْنا فيها[3] .

ومنها قوله : ﴿ وَنَجَّيْناهُ وَلوطاً إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمين ﴾[4] .

ومنها قوله : ﴿ تَجْري بأمْرِهِ إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها ، وكنّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمينَ ﴾[5] .

ومنها قوله : ﴿ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرى التي بارَكْنا فيها قُرىً ظاهرةً ﴾[6] وهي قرى الشام ، وتلك قرى اليمن ، والتي بينهما قرى الحجاز ونحوها وبادت .

ومنها قوله : ﴿ إلى المسجدِ الأقصى الذي بارَكْنا حَوْلَهُ ﴾[7] .

---

(١) سورة الحديد الآية ٢١ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٣٣ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .
(٤) سورة الأنبياء الآية ٧١ .
(٥) سورة الأنبياء الآية ٨١ .
(٦) سورة سبأ الآية ١٨ .
(٧) سورة الإسراء الآية ١ .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾[١] فأمر بذكر الله في نفسه ، فقد يقال : هو ذكره في قلبه بلا لسانه ؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ وقد يقال وهو أصح : بل ذكر الله في نفسه باللسان مع القلب ، وقوله : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ كقوله : ﴿ ولا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وابْتَغِ بَيْنَ ذلكَ سَبيلاً ﴾[٢] .

وفي الصحيح عن عائشة قالت نزلت في الدعاء ، وفي الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يجهر بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ، ومن أنزل عليه ، فقال الله : لا تجهر بالقرآن فيسمعه المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت به عن أصحابك فلا يسمعوه[٣] ، فنهاه عن الجهر والمخافتة . فالمخافتة هي ذكره في نفسه ، والجهر المنهي عنه هو الجهر المذكور في قوله : ﴿ ودون الجهر ﴾ فإن الجهر هو الإظهار الشديد ، يقال : رجل جهورى الصوت ورجل جهير .

وكذلك قول عائشة في الدعاء ، فإن الدعاء كما قال تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وقال : ﴿ إِذْ نادَى رَبَّهُ نِداءً خَفِيّاً ﴾ فالإخفاء قد يكون بصوت يسمعه القريب وهو المناجاة ، والجهر مثل المناداة المطلقة ، وهذا كقوله ﷺ لما رفع أصحابه أصواتهم بالتكبير ، فقال : « أيها الناس ، ارْبَعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[٤] .

ونظير قوله : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ قوله ﷺ فيما روى عن ربه « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه »[٥] وهذا يدخل فيه ذكره باللسان

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٥ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية ورسول الله مختف في مكة ، وكان المشركون اذا سمعوا القرآن سبوا القرآن ومن انزله ومن جاء به فقال الله عز وجل لنبيه . . . الآية .

وعن عائشة انها نزلت في الدعاء . انظر أسباب النزول للواحدى ص ١٧١ .

(٤) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الجهاد) أبو داود (كتاب الوتر) ، وابن حنبل ٤٠/٢٦٤ .

(٥) ورد الحديث في : البخاري (كتاب التوحيد) ، مسلم (كتاب الذكر) ، الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن ماجه (كتاب الأدب) ، ابن حنبل ٣/٥١ .

في نفسه ، فإنه جعله قسيم الذكر في الملأ ، وهو نظير قوله : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ والدليل على ذلك أنه قال : ﴿ بالغدو والآصال ﴾ ومعلوم أن ذكر الله المشروع بالغدو والآصال في الصلاة ، وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب ، مثل صلاتي الفجر والعصر ؛ والذكر المشروع عقب الصلاتين ، وما أمر به النبي ﷺ وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال .

وقد يدخل في ذلك أيضا ذكر الله بالقلب فقط ؛ لكن يكون الذكر في النفس كاملا وغير كامل ؛ فالكامل باللسان مع القلب ، وغير الكامل بالقلب فقط .

ويشبه ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقولونَ في أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنا اللهُ بِما نَقولُ ﴾[١] فإن القائلين بأن الكلام المطلق كلام النفس استدلوا بهذه الآية ، وأجاب عنها أصحابنا وغيرهم بجوابين :

« أحدهما » : أنهم قالوا بألسنتهم قولا خفيا .

و « الثاني » : أنه قيده بالنفس ، وإذا قيد القول بالنفس فإن دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق . وهذا كقوله ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »[٢] فقوله : حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به دليل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق ، وأنه ليس باللسان .

وقد احتج بعض هؤلاء بقوله : ﴿ وَأَسِرّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَروا بِهِ إِنّه عليمٌ بذاتِ الصّدورِ ﴾[٣] وجعلوا القول المسر في القلب دون اللسان ؛ لقوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ وهذه حجة ضعيفة جدا ؛ لأن قوله : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ يبين أن القول يسر به تارة ويجهر به أخرى ، وهذا إنما هو فيما يكون في القول الذي هو بحروف مسموعة .

وقوله بعد ذلك : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى فإنه إذا كان عليما بذات الصدور فعلمه بالقول المسر والمجهور به أولى .

ونظيره قوله : ﴿ سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ باللّيلِ وَسارِبٌ بالنّهارِ ﴾[٤] .

---

(١) سورة المجادلة الآية ٨ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري ١٩/٣ (كتاب العتق ، باب الخطأ والنسيان) ، النسائي (كتاب الطلاق) ، ابن ماجه (كتاب الطلاق) ، ابن حنبل ٣٥٥/٣ .

(٣) سورة الملك الآية ١٣ .

(٤) سورة الرعد الآية ١٠ .

فصـــــل (*)

في قوله تعالى : ﴿ وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .

وقد روى مالك في موطّئه عن زيد بن أسلم عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أنه أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم. قالوا بلى شهدنا ﴾[1] الآية . فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال رسول الله ﷺ : إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية . فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يا رسول الله : ففيم العمل ؟ . فقال رسول الله ﷺ : إن الله تبارك وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار .

وهذا الحديث إنما رواه أهل السنن والمساند ، كأبي داود والترمذي والنسائي ، وقال (الترمذي) حديث حسن ، وقد قيل إن اسناده منقطع ، وأن راويه مجهول ومع هذا فقد رواه مالك في الموطأ مع أنه أبلغ من غيره لقوله ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، ومن العجب أن الآجري يروي في كتاب الشريعة له من طريق مالك والثوري والليث وغيرهم ، فلو تأمل أبو المعالي وذووه الكتاب الذي أنكروه لوجدوا فيه ما يخصمهم ، ولكن أبو المعالي[2] مع فرط ذكائه وحرصه على العلم وعلو قدره في فنه كان قليل المعرفة بالآثار النبوية ، ولعله لم يطالع الموطأ بحال حتى يعلم ما فيه ، فإنه لم يكن له بالصحيحين البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي والترمذي أمثال هذه السنن علم أصلا فكيف بالموطأ ونحوه ، وكان مع حرصه على الاحتجاج في مسائل الخلاف في الفقه إنما عمدته سنن أبي الحسن الدارقطني ، وأبو الحسن مع تمام إمامته في الحديث فإنه إنما صنف هذه السنن كي يذكر فيها الأحاديث المستغربة في الفقه ويجمع طرقها ، فإنها هي التي يحتاج فيها إلى مثله ، فأما الأحاديث المشهورة في الصحيحين وغيرهما فكان يستغني عنها في ذلك ، فلهذا كان مجرد

(*) انظر الفتاوى الكبرى ٥/٢٥٠ ط القاهرة .

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (إمام الحرمين) من كبار الأشاعرة تلمذ له الغزالي ومن أهم كتبه . الشامل في أصول الدين ، الإرشاد ، العقيد النظامية ، اللمع . وانظر : تبيين كذب المفتري ٢٧٨ ـ ٢٨٢ ، شذرات الذهب ٣/٣٥٨ وفيات الأعيان ٢/٣٤١ ـ ٣٤٣ ، الأعلام ٤/٢٠٦ .

الاكتفاء بكتابه في هذا الباب يورث جهلا عظيما بأصول الاسلام ، واعتبر ذلك بأن كتاب أبي المعالي الذي هو نخبة عمره (نهاية المطلب) في دراية المذهب ليس فيه حديث واحد معزّو إلى صحيح البخاري إلا حديث واحد في البسملة ، وليس ذلك الحديث في البخاري كما ذكره ، ولقلة علمه وعلم أمثاله بأصول الإسلام اتفق أصحاب الشافعي على أنه ليس لهم وجه في مذهب الشافعي ، فإذا لم يسوغ أصحابه أن يعتد بخلافهم في مسألة من فروع الفقه كيف يكون حالهم في غير هذا ، وإذا اتفق أصحابه على أن لا يجوز أن يتخذ إماما في مسألة واحدة من مسائل الفروع فكيف يتخذ إماما في أصول الدين مع العلم بأنه إنما نبل قدره عند الخاصة والعامة بتبحره في مذهب الشافعي رضي الله عنه ، لأن مذهب الشافعي مؤسس على الكتاب والسنة وهذا الذي ارتفع به عند المسلمين غايته فيه أنه يوجد منه نقل جمعه أو بحث تفطن له ، فلا يجعل إماما فيه كالأئمة الذين لهم وجوه ، فكيف بالكلام الذي نص الشافعي وسائر الأئمة على انه ليس بعد الشرك بالله ذنب أعظم منه ، وقد بينا أن ما جعله أصل دينه في الإرشاد والشامل وغيرهما هو بعينه من الكلام الذي نصت عليه الأئمة ، ولهذا روى عنه ابن طاهر أنه قال وقت الموت « لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن إن لم يدركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها أنا أموت على عقيدة أمي أو عقائد عجائز نيسابور » (وقال) أبو عبد الله بن العباس الرستمي حكى لنا الإمام أبو الفتح محمد بن علي الطبري الفقيه قال دخلنا على الإمام أبي المعالي الجويني نعوده في مرضه الذي مات فيه بنيسابور فأقعد فقال لنا : اشهدوا على أني رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح عليهم السلام ، وإني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور وعامة المتأخرين من أهل الكلام سلكوا خلفه من تلامذته وتلامذة تلامذته وتلامذة تلامذة تلامذته ومن بعدهم ولقلة علمه بالكتاب والسنة وكلام سلف الأمة يظن أن أكثر الحوادث ليست في الكتاب والسنة والإجماع ما يدل عليها ، وإنما يعلم حكمها بالقياس كما يذكر ذلك في كتبه ، ومن كان له علم بالنصوص ودلالتها على الأحكام علم أن قول أبي محمد بن حزم وأمثاله أن النصوص تستوعب جميع الحوادث أقرب إلى الصواب من هذا القول ، وإن كان في طريقة هؤلاء من الإعراض عن بعض الأدلة الشرعية ما قد يسمى قياسا جليا وقد يجعل من دلالة اللفظ مثل فحوى الخطاب ، والقياس في معنى الأصل ، وغير ذلك ومثل الجمود على الاستصحاب الضعيف ، ومثل الإعراض عن متابعة أئمة من الصحابة ومن بعدهم ما هو معيب عليهم ، وكذلك القدح في أعراض الأئمة لكن الغرض أن قول هؤلاء في استيعاب النصوص للحوادث وإن الله ورسوله قد بين للناس دينهم هو أقرب إلى العلم والإيمان الذي هو الحق ممن يقول إن الله لم يبين الناس حكم أكثر ما يحدث لهم من الأعمال ، بل وكلهم فيها إلى الظنون المتقابلة والآراء المتعارضة ، ولا ريب أن سبب هذا كله ضعف العلم بالآثار النبوية والآثار السلفية ،

وإلا فلو كان لأبي المعالي وأمثاله بذلك علم راسخ وكانوا قد عضوا عليه بضرس قاطع لكانوا ملحقين بأئمة المسلمين لما كان فيهم من الاستعداد لأسباب الاجتهاد ، ولكن اتبع أهل الكلام المحدث والرأي الضعيف للظن وما تهوى الانفس الذي ينقص صاحبه إلى حيث جعله الله مستحقا لذلك وإن كان له من الاجتهاد في تلك الطريقة ما ليس لغيره ، فليس الفضل بكثرة الاجتهاد ولكن بالهدى والسداد ، كما جاء في الأثر ما ازداد مبتدع اجتهادا إلا ازداد من الله بعداً ، وقد قال النبي ﷺ في الخوارج (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)[1] ويوجد لأهل البدع من أهل القبلة لكثير من الرافضة والقدرية والجهمية وغيرهم من الاجتهاد ما لا يوجد لأهل السنة في العلم والعمل ، وكذلك لكثير من أهل الكتاب والمشركين ، لكن إنما يراد الحسن من ذلك كما قال الفضيل بن عباض في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أحسنُ عَمَلاً ﴾[2] قال أخلصه وأصوبه ، فقيل له يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

وأما الشافعي رضي الله عنه فقد روى الأحاديث التي تتعلق بغرض كتابه مثل حديث النزول وحديث معاوية بن الحكم السلمي الذي فيه قول رسول الله ﷺ للجارية : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : أعتقها فإنها مؤمنة ، وقد رواه مسلم في صحيحه ، بل روى في كتابه الكبير الذي اختصر منه مسنده من الحديث ما هو من أبلغ أحاديث الصفات ورواه بإسناده فيه ضعف ، فقال أخبرنا إبراهيم بن محمد قال حدثني موسى بن عبيدة حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبيد الله ابن عمير أنه سمع أنس بن مالك ، يقول : (أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : ما هذه ؟ قال هذه الجمعة ، فضلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له) وهو عندنا يوم المزيد ، قال النبي ﷺ يا جبريل وما يوم المزيد ؟ قال إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفيح فيه كثب مسك . فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله عز وجل ما شاء من ملائكته وحوله منابر من نور عليها مقاعد للنبيين ، وحفت تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة

---

(١) جزء من حديث ورد في البخاري ٤/٢٠٠ (كتاب المناقب . باب علامات النبوة) ، وجاء الحديث عن الخوارج في البخاري في مواضع أخرى ، كما أفرد له مسلم أبوابا كاملة في صحيحه انظر ٣/١٠٩ - ١١٧ (كتاب الزكاة . باب ذكر الخوارج وصفاتهم) وانظر أيضا أبو داود ، الترمذي ، النسائي وابن ماجه والدارمي وجامع الأصول ١٠/٤٣٢ - ٤٤٢ .

(٢) سورة الملك الآية ٢ .

بالياقوت والزبرجد ، عليها الشهداء والصديقون ويجلس من ورائهم على تلك الكثب فيقول الله عز وجل لهم أنا ربكم قد صدقتكم وعدي فاسألوني أعطكم ، فيقولون ربنا نسألك رضوانك فيقول قد رضيت عنكم ، ولكم على ما تمنيتم ولدي مزيد فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من خير وهو اليوم الذي استوى ربكم على العرش فيه وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة .

وأما ما رواه الثوري والليث بن سعد وابن جريج والأوزاعي وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة ونحوهم من هذه الأحاديث فلا يحصيه إلا الله ، بل هؤلاء عليهم مدار هذه الأحاديث من جهتهم أخذت وحماد بن سلمة الذي قال إن مالكا احتذى موطأه على كتابه هو قد جمع أحاديث الصفات لما أظهرت الجهمية إنكارها ، حتى إن حديث خلق آدم على صورته أو صورة الرحمن قد رواه هؤلاء الأئمة ، رواه الليث بن سعد عن ابن عجلان ورواه سفيان بن عيينة عن أبي الزناد ، ومن طريقه رواه مسلم في صحيحه ، ورواه الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن النبي ﷺ مرسلا ، ولفظه (خلق آدم على صورة الرحمن) مع أن الأعمش رواه مسندا ، فإذا كان الأئمة يروون مثل هذا الحديث وأمثاله مرسلا فكيف يقال أنهم كانوا يمتنعون عن روايتها ؟

والحديث هو في الصحيحين من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة وفي صحيح مسلم من حديث قتادة عن أبي أيوب عن أبي هريرة ، وقد روي عن ابن القاسم قال سألت مالكا عن من يحدث الحديث (إن الله خلق آدم على صورته) ، والحديث (إن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة ، وإنه يدخل في النار يده حتى يخرج من أراد) ، فأنكر ذلك إنكارا شديدا ونهى أن يتحدث به أحد .

(قلت) هذان الحديثان كان الليث بن سعد يحدث بهما ، فالأول حديث الصورة حدث به عن ابن عجلان والثاني هو في حديث أبي سعيد الخدري الطويل وهذا الحديث قد أخرجاه في الصحيحين من حديث الليث ، والأول قد أخرجاه في الصحيحين من حديث غيره ، وابن القاسم إنما سأل مالكا لأجل تحديث الليث بذلك ، فيقال إما أن يكون ما قاله مالك مخالفا لما فعله الليث ونحوه أو ليس بمخالف ، بل يكره أن يتحدث بذلك لمن يفتنه ذلك ولا يحمله عقله كما قال ابن مسعود : ما من رجل يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم ، وقد كان مالك يترك رواية أحاديث كثيرة لكونه لا يأخذ بها ولم يتركها غيره ، فله في ذلك مذهب . فغاية ما يعتذر لمالك أن يقال كره أن يتحدث بذلك حديثا يفتن المستمع الذي لا يحمل عقله ذلك .

وأما إن قيل أنه كره التحدث بذلك مطلقا فهذا مردود على من قاله ، فقد حدث بهذه الأحاديث من هم أجل من مالك عند نفسه وعند المسلمين كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وابن

عباس وعطاء بن أبي رباح وقد حدث بها نظراؤه كسفيان الثوري والليث بن سعد وابن عيينة ، والثوري أعلم من مالك بالحديث وأحفظه له ، وهو أقل غلطا فيه من مالك ، وإن كان مالك ينقي من يحدث عنه . وأما الليث فقد قال فيه الشافعي كان أفقه من مالك ؛ إلا أنه ضيعه أصحابه ، ففي الجملة هذا كلام في حديث مخصوص ، أما أن يقال أن الأئمة أعرضوا عن هذه الأحاديث مطلقاً فهذا بهتان عظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفـــال

وقال شيخ الإسلام

فصـــل[*]

قال سبحانه في قصة بـدر : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَـاسْتَجابَ لَكُمْ إني مُمِـدُّكُمْ بأَلْفٍ مِنَ الملائكةِ مُرْدِفِينَ ، وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إلا بُشرى ؛ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قلوبُكُمْ﴾[1] فوعدهم بالإمداد بألف وعدا مطلقا ، وأخبر أنه جعل إمداد الألف بشرى ولم يقيده ، وقال في قصـة أحد : ﴿إِذْ تَقـولُ للمؤمنينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أنْ يُمِـدَّكُمْ رَبُّكُمْ بثلاثـةِ آلافٍ مِنَ الملائكـةِ مُنْزَلِينَ ، بلى إن تَصْبِـروا وَتَتَّقوا وَيَأتوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هـذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخمسـةِ آلافٍ مِنَ الملائكـةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2] فـإن هذا أظن فيه قولين :

« أحدهما » : أنـه متعلق بأحـد ؛ لقولـه بعد ذلـك : ﴿لِيَقْطَعَ طَـرَفاً مِنَ الـذينَ كَفروا﴾ الآية . ولأنه وعد مقيد ، وقوله فيه : ﴿وما جَعَلَهُ اللَّهُ ألا بُشرى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنّ قلوبُكُم بِـهِ﴾ يقتضي خصوص البشرى بهم .

وأما قصة بدر فإن البشرى بها عامة ، فيكون هذا الدليل عـلى ما روي من أن ألف بـدر باقية في الأمة ، فإنه أطلق الأمداد والبشرى وقدم (به) على (لكم) عناية بـالألف ، وفي أحد كانت العناية بهم لو صبروا فلم يوجد الشرط .

(*) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٧ .

(١) سورة الأنفال الآية ٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٤ .

وقال رحمه الله

فصـــل

في قوله : ﴿فلم تقتلوهم الآية﴾[1] ثلاثة أقوال :

« أحدها » : أنه مبني على أن الفعل المتولد ليس من فعل الآدمي ؛ بل من فعل الله والقتل هو الإزهاق ، وذلك متولد ، وهذا قد يقوله من ينفي التولد وهو ضعيف ؛ لأنه نفى الرمي أيضا ، وهو فعل مباشر ، ولأنه قال : ﴿اقْتلوا المشركينَ حيثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾ وقال : ﴿وَمَنْ يِقتلْ مؤمناً مُتَعَمِّداً﴾ فأثبت القتل . ولأن القتل هو الفعل الصالح للإزهاق ، ليس هو الزهوق ؛ بخلاف الإماتة .

« الثاني » : أنه مبني على خلق الأفعال ، وهذا قد يقوله كثير من الصوفية ، وأظنه مأثورا عن الجنيد[2] سلب العبد الفعل ، نظرا إلى الحقيقة ؛ لأن الله هو خالق كل صانع وصنعته ، وهذا ضعيف لوجهين :

« أحدهما » : أنا وإن قلنا بخلق الفعل فالعبد لا يسلبه ، بل يضاف الفعل إليه أيضا ، فلا يقال ما آمنت ولا صليت ، ولا صمت ، ولا صدقت ، ولا علمت ، فإن هذا مكابرة : إذ أقل أحواله الاتصاف وهو ثابت .

وأيضاً فإن هذا لم يأت في شيء من الأفعال المأمور بها إلا في القتل والرمي ببدر ، ولو كان هذا لعموم خلق الله أفعال العبادة لم يختص ببدر .

« الثالث » : أن الله سبحانه خرق العادة في ذلك ، فصارت رؤوس المشركين تطير قبل وصول السلاح إليها بالإشارة ، وصارت الجريدة تصير سيفا يقتل به .

وكذلك رمية رسول الله ﷺ أصابت من لم يكن في قدرته أن يصيبه ، فكان ما وجد من القتل وإصابة الرمية خارجا عن قدرتهم المعهودة ، فسلبوه لانتفاء قدرتهم عليه ، وهذا أصح ، وبه يصح الجمع بين النفي والإثبات ﴿وما رَمَيْتَ﴾ أي ما أصبت ﴿إذْ رَمَيْتَ﴾ إذ طرحت ﴿ولكنّ الله رمى﴾ أصاب .

وهكذا كل ما فعله الله من الأفعال الخارجة عن القدرة المعتادة ، بسبب ضعيف ، كإنباع

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٧ .

(٢) هو ابو القاسم الجنيد بن محمد المزار ، يقال له أحيانا القواريري من شيوخ الصوفية . توفي سنة ٢٩٧ وهو من المعتدلين في مذهبهم في التصوف ، يحتج به ابن تيمية في كثير من المواقف. انظر عنه : طبقات الصوفية للسلمي ص ١٥٥ - ١٦٣ ، الطبقات الكبرى للشعراني ٧٢/١ - ٧٤ ، تاريخ بغداد ٢٤١/٧ - ٢٤٩ ، الأعلام ١٣٧/٢ - ١٣٨ .

الماء وغيره من خوارق العادات ، أو الأمور الخارجة عن قدرة الفاعل ، وهذا ظاهر ، فلا حجة فيه لا على الجبر ولا على نفي التولد .

وقال رحمه الله

فصـــل

في قولـه تعـالى : ﴿وَمـا كـانَ اللَّهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وأنتَ فيهِمْ ، وَمـا كـانَ اللَّهُ مُعَـذِّبَهُمْ وَهُمْ يَستَغْفِرونَ﴾[1] والكلام عليها من وجهين :

« أحدهما » : في الاستغفار الدافع للعذاب .

و« الثاني » في العذاب المدفوع بالاستغفار .

أما « الأول » : فإن العذاب إنما يكون على الذنوب ، والاستغفار يوجب مغفـرة الذنـوب التي هي سبب العـذاب فيندفـع العذاب ، كـما قال تعـالى : ﴿آلر ، كتـابٌ أُحْكِمَتْ آياتُـهُ ثمّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُن حَكيمٍ خبيرٍ ، ألاّ تَعْبُـدوا إلا اللَّهَ إنني لكمْ منهُ نـذيرٌ وبشيـرٌ ، وأنِ اسْتغفروا رَبَّكُمْ ثمّ تُوبوا إليهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إلى أجلٍ مسمّى ، ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فَضْلَهُ﴾[2] . فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ثم إن كان لهم فضل أوتوا الفضل .

وقـال تعالى : (عن) نـوح : ﴿يا قَـوْمِ إني لَكُمْ نـذيـرٌ مبينٌ ، أنِ اعْبُـدوا اللَّهَ واتّقـوهُ وَأَطِيعـونِ يَغْفِرْ لكمْ مِنْ ذنـوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرْكُمْ إلى أجـلٍ مُسَمّى﴾ إلـى قـولـه : ﴿اسْتغفـروا رَبّكم إنه كانَ غفاراً ، يُرْسِـلِ السماءَ عليكمْ مِـدْراراً﴾[3] الآية وقـال تعالى : ﴿وأن استغفروا ربّكم ثمْ توبوا إليه يُرْسِلِ السّماءَ عليكم مِدراراً وَيَزِدْكُمْ قوةً إلى قُوّتِكُمْ﴾[4] وذلك أنه قد قال تعالى : ﴿وما أصابَكم مِنْ مُصيبةٍ فَبِما كَسَبَتْ أيديكُمْ وَيَعفو عَنْ كثيرٍ﴾[5] وقـال تعالى : ﴿إن الـذينَ تَوَلَّـوْا مِنكمْ يومَ التقى الجَمْعـانِ إنما اسْتَزَلّهُمُ الشيطانُ ببعضِ مـا كَسَبـوا﴾[6] وقـال

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٣ .

(٢) أول سورة هود .

(٣) سورة نوح الآيات (٢ ـ ١١) .

(٤) سورة هود الآية ٥٢ .

(٥) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٥٥ .

تعالى : ﴿أوَ لَمّا أصابَتْكُمْ مُصيبةٌ قدْ أصَبْتُمْ مِثْلَيْها قلتمْ : أنّى هَذا ؟ قلْ : ﴿هُوَ مِنْ عندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ بِما قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ما أصابكَ مِنْ حسنةٍ فمنَ اللّهِ ، وما أصابَكَ مِنْ سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[3] .

وأما العذاب المدفوع فهو يعم العذاب السماوي ، ويعم ما يكون من العباد ، وذلك أن الجميع قد سماه الله عذابا ، كما قال تعالى في النوع الثاني : ﴿ وإذ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسومونَكُمْ سوءَ العذابِ ، يُذَبِّحونَ أبناءَكُمْ وَيَسْتَحْيونَ نساءَكُمْ﴾[4] وقال تعالى : ﴿قاتِلوهُمْ يَعَذِّبْهُمُ اللّهُ بأيدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[5] وكذلك : ﴿قلْ هَلْ تَرَبَّصونَ بنا إلا إحدى الحُسْنَيَيْنِ ، ونحنُ نَتَرَبَّصُ بِكم أنْ يُصِيبَكُمُ اللّهُ بعذابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بأَيْدِينا﴾[6] إذ التقدير بعذاب من عنده أو بعذاب بأيدينا ، كما قال تعالى : ﴿قاتِلوهُمْ يعذبْهُمُ اللّهُ بأيدِيكُمْ﴾ .

وعلى هذا فيكون العذاب بفعل العباد ، وقد يقال : التقدير : ﴿ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ أو يصيبكم بأيدينا ؛ لكن الأول هو الأوجه : لأن الإصابة بأيدي المؤمنين لا تدل على أنها إصابة بسوء ؛ إذ قد يقال : أصابه بخير ، وأصابه بشر . قال تعالى : ﴿وإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فلا رادّ لفضلِهِ ، يُصيبُ بهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ فَترى الوَدْقَ يَخرجُ مِنْ خِلالِهِ ، فإذا أصابَ بهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ اذا هُمْ يَستبشرون ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿ وكذلكَ مَكّنّا لِيوسفَ في الأرضِ يَتَبَوّأُ منها حيثُ يَشاءُ ، نُصيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ ﴾[9] ولأنه لو كان لفظ الإصابة يدل على الإصابة بالشر لا كتفى بذلك في قوله : ﴿ أنْ يُصيبَكم اللهُ ﴾ .

وقد قال تعالى أيضا : ﴿ وإن تُصِبْهُمْ حَسنةٌ يَقولوا هذهِ مِنْ عندِ اللهِ ، وإنْ تُصِبْهُمْ سيئةٌ

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٦ .

(٣) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٤) سورة البقرة الآية ٤٩ .

(٥) سورة التوبة الآية ١٤ .

(٦) سورة التوبة الآية ٥٢ .

(٧) سورة يونس الآية ١٠٧ .

(٨) سورة الروم الآية ٤٨ .

(٩) سورة يوسف الآية ٥٦ .

يقولوا هذه مِنْ عِنْدِكَ ، قلْ كُلٌّ مِنْ عندِ اللهِ ، فَما لهؤلاءِ القومِ لا يَكادونَ يَفقهونَ حديثاً ؟ ! ما أصابَكَ مِنْ حسنةٍ فَمِنَ اللهِ وما أصابَكَ مِنْ سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الزّانيةُ والزّاني فَاجْلِدوا كُلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عذابَهُما طائفةٌ مِنَ المؤمنينَ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ فإن أَتَيْنَ بفاحشةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصفُ ما على المُحْصَناتِ مِنَ العذابِ ﴾[3] .

ومن ذلك أنه يقال في بلال ونحوه : كانوا من المعذَبين في الله ، ويقال أن أبا بكر اشترى سبعة من المعذبين في الله . وقال ﷺ : « السفر قطعة من العذاب » .

وإذا كان كذلك فقوله تعالى : ﴿ قلْ هوَ القادرُ على أنْ يَبعث عليكُمْ عذاباً من فَوْقِكُمْ ، أو مِنْ تحتِ أَرْجُلِكُمْ ، أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذيقَ بعضَكُمْ بأسَ بعضٍ ﴾[4] مع ما قد ثبت في الصحيحين عن جابر عن النبي ﷺ : « أنه لما نزل قوله : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : هاتان أهون »[5] يقتضى أن لبسنا شيعا وإذاقة بعضنا بأس بعض هو من العذاب الذي يندفع بالاستغفار ، كما قال : ﴿ وَاتّقوا فتنةً لا تُصيبَنَّ الذينَ ظَلَمُوا منكم خاصةً ﴾[6] وإنما تنفي الفتنة بالاستغفار من الذنوب والعمل الصالح .

وقوله تعالى : ﴿ إنْ لا تَنْفِروا يُعَذِّبْكُمْ عذاباً أليماً ، وَيَسْتَبْدِلْ قوماً غَيْرَكُمْ ﴾[7] قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيدي العباد ، فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع ؛ فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألّف بينهم ، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم ، وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض .

---

(١) سورة النساء الآيات (٧٨ ـ ٧٩) .

(٢) سورة النور الآية ٢ .

(٣) سورة النساء الآية ٢٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٦٥ .

(٥) جاء الحديث في : البخاري ٦/٧١ (كتاب التفسير تفسير سورة الأنعام) من رواية جابر ، الترمذي (كتاب التفسير . تفسير سورة الأنعام) ، ابن حنبل ٣/٢٠٩ . وانظر ١/٣١٢ من دقائق التفسير .

(٦) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

(٧) سورة التوبة الآية ٢٩ .

وكذلك قوله : ﴿ وَلَنُذيقَنَّهُمْ مِنَ العذابِ الأدنى دونَ العذابِ الأكبرِ لعلّهم يَرْجِعونَ ﴾[1] يدخل في العذاب الأدنى ما يكون بأيدي العباد . كما قد فسر بواقعة بدر بعض ما وعد الله به المشركين من العذاب .

(١) سورة السجدة الآية ٢١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التوبة

فصل(*)

سئل شيخ الإسلام

رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وانْ أَحَدٌ منَ المشركينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ﴾[1] فسماه هنا كلام الله ، وقال في مكان آخر : ﴿ إنه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ ﴾ فما معنى ذلك ؟ فإن طائفة ممن يقول بالعبارة يدعون أن هذا حجة لهم ، ثم يقولون : أنتم تعتقدون أن موسى - صلوات الله عليه - سمع كلام الله عز وجل حقيقة من الله من غير واسطة ، وتقولون : إن الذي تسمعونه كلام الله حقيقة ، وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة ، فما الفرق بين هذا وهذا ؟ وتقولون : إن القرآن صفة لله تعالى ، فما الفرق بين هذا وهذا ؟ وتقولون : إن القرآن صفة لله تعالى ، وإن صفات الله تعالى قديمة ؛ فإن قلتم أن هذا نفس كلام الله تعالى فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وأن قلتم : غير ذلك قلتم بمقالتنا ، ونحن نطلب منكم في ذلك جوابا نعتمد عليه إن شاء الله تعالى .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . هذه الآية حق كما ذكر الله ، وليست إحدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه ، ولا في واحدة منهما حجة لقول باطل ، وإن كان كل من الآيتين قد يحتج بها بعض الناس على قول باطل ، وذلك أن قوله : ﴿ وإن أحد من المشركينَ استجاركَ فأجرهُ حتى يسمع كلام الله ﴾ فيه دلالة على أن يسمع كلام الله من التالي المبلغ ، وأن ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله ، كما في حديث جابر في السنن : « أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول : ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي » وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه لما خرج

(*) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/٢٥٨ .

(١) سورة التوبة الآية ٦ .

على المشركين فقرأ عليهم : ﴿ الم غُلِبَتِ الرّومُ في أَدْنى الأرضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبونَ ﴾[١] قالوا له هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ؛ ولكنه كلام الله .

وقد قال تعالى : ﴿ ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً ، وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدوداً ، وبنينَ شُهوداً ، وَمَهّدْتُ لَهُ تمهيداً ، ثمّ يَطْمَعُ أنْ أزيدَ ، كَلّا إنّهُ كانَ لآياتِنا عَنيداً ، سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ، إنهُ فَكّرَ وقَدّرَ ، فَقُتِلَ كيفَ قَدّرَ ، ثمّ قُتِلَ كيفَ قَدّرَ ، ثمّ نظرَ ، ثُمّ عَبَسَ وبَسَرَ ، ثم أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ ، فقالَ : إنْ هذا إلا سِحْرٌ يُؤْثَرْ ، إنْ هَذا إلا قَوْلُ البَشَرْ ﴾[٢] فمن قال : إن هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهيا لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر . ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى »[٣] إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا : هذا حديث رسول الله ﷺ ، وهذا كلام رسول الله ﷺ . ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئا منشئا ؛ لا لمن أداه راويا مبلغا . فإذا كان مثل هذا معلوما في تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل في تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى أن لا يجعل كلاما لغير الخالق جل وعلا ؟ ! .

وقد أخبر تعالى بأنه منزل منه فقال : ﴿ والذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَعلمونَ أنّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ ﴾[٤] وقال : ﴿ حم تنزيلٌ مِنَ الرّحمن الرحيمِ ﴾[٥] ﴿ حم تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيمِ ﴾[٦] . فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به إلى رسول الله ﷺ من البشر ، والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكلاهما مبلغ له ، كما قال : ﴿ يا أَيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾[٧] وقال : ﴿ إلا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسولٍ فإنهُ يَسلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ، لِيَعلمَ أنْ قَدْ أَبْلَغوا رسالاتِ رَبِّهِمْ ﴾[٨] وهو مع هذا كلام الله

---

(١) أول سورة الروم .

(٢) سورة المدثر الآيات (١١ ـ ٢٥) .

(٣) حديث صحيح عن النبي ﷺ من رواية عمر بن الخطاب ورد في : البخاري (كتاب بدء الخلق) ، و (كتاب مناقب الأنصار) (كتاب الطلاق) ، مسلم (كتاب الإمارة) ، أبو داود (كتاب الطلاق) ، النسائي (كتاب الطهارة) ، ابن ماجه (كتاب الزهد) .

(٤) سورة الأنعام الآية ١١٤ .

(٥) أول سورة فصلت .

(٦) أول سورة الاحقاف . وكذلك أول الجاثية .

(٧) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٨) سورة الجن الآية ٢٨ .

ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء ، كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتالين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئا من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأتَ القرآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشّيطانِ الرجيمِ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ وإذا بَدّلْنا آيةً مكانَ آيةٍ ـ والله أعلمُ بما يُنَزِّلُ ـ قالوا : إنما أنتَ مفترٍ ؛ بَلْ أكثرُهُمْ لا يَعلمونَ ، قلْ نَزّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنوا وَهُدىً وَبُشرى للمُسْلِمينَ ، ولقدْ نَعلمُ أنهم يَقولونَ إنما يُعَلِّمُهُ بشرٌ ، لِسانُ الذي يُلْحِدونَ إليه أعجميٌ ، وَهَذا لسانٌ عربيٌّ مُبينٌ ﴾[1] .

كان بعض المشركين يزعم أن النبي ﷺ تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة إما عبد بن الحضرمي وإما غيره ، كما ذكر ذلك المفسرين فقال تعالى : ﴿ لسانَ الذي يلحدون إليه ـ أي يضيفون إليه التعليم لسان ـ أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ فكيف يتصور أن يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي ؟ وقد أخبر أنه نزله روح القدس من ربك بالحق ، فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه ؛ إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه ، وبيان أن هذا الذي تعلمه من غير نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على أن القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه .

ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي ﷺ أو غيره من الناس ، أوَ أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال :

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

أو قوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... اذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

(١) سورة النحل الآيات (٩٨ ـ ١٠٣) .

وهذا الشعر قاله منشئه لفظه ومعناه ، وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه ، ثم اذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم أن شعر ذلك المنشىء وكلامه ونظمه وقوله ، مع أن هذا التالي أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه ، وقام بقلبه من المعنى نظير من قام بقلب الأول ، وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشىء ، والشعر شعر المنشىء لا شعر المنشد ـ والمحدث عن النبي ﷺ إذا روى قوله : « إنما الأعمال بالنيات » بلغه بحركته وصوته ، مع أن النبي ﷺ تكلم به بحركته وصوته ، وليس صوت المبلغ صوت النبي ﷺ ، ولا حركته كحركته ، والكلام كلام رسول الله ﷺ ، لا كلام المبلغ له عنه .

فإذا كان هذا معلوما معقولا فكيف لا يعقل أن يكون ما يقرأ القارىء إذا قرأ ﴿ الحمد لله رب العالمين،الرحمن الرحيم،مالك يوم الدين ﴾ أن يقال هذا الكلام كلام البارىء وإن كان الصوت صوت القارىء . فمن ظن أن الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتر مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول ، قائل قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين ؛ بل قد أنكر الإمام أحمد وغيره على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه ، كما جهموا من قال : لفظي بالقرآن مخلوق . وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف ، فكيف من قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم ؟ فابتداع هذا وضلاله أوضح . فمن قال إن لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعله أو شيئاً من ذلك فهو ضال مبتدع .

وهؤلاء قد يحتجون بقوله : ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويقولون هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فهذا غير مخلوق ، ونحن لا نسمع إلا صوت القارىء ، وهذا جهل منهم ، فإن سماع كلام الله ، بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة ، ويكون بواسطة الرسول المبلغ له قال تعالى : ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهَ اللَّهُ إلا وَحْياً أوْ مِنْ وراءِ حِجابٍ ، أوْ يُرْسِلَ رَسولاً فيوحيَ بإذنِهِ ما يشاءُ﴾[1] .

ومن قال : إن الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران ، أو إنا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلا وضلالا .

ولو قال قائل : إنا نسمع كلام النبي ﷺ كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحا ، فكيف من يقول أنا أسمع كلام الله منه كما سمعه موسى ؟ ! وإن كان الله كلم موسى تكليما بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتا للخالق . وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والأرض صوته كجر السلسلة على الصفا ، وأمثال ذلك مما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها أن

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١ .

صفة المخلوق هي صفة الخالق ؛ بل ولا مثلها ، بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق فليس كلامه مثل كلامه ، ولا معناه مثل معناه ، ولا حرفه مثل حرفه ، ولا صوته مثل صوته ، كما أنه ليس علمه مثل علمه ، ولا قدرته مثل قدرته ، ولا سمعه مثل سمعه ، ولا بصره مثل بصره ، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ولما استقر في فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه أوضح من أن يحتاج إلى الإطناب .

وقد بين أئمة السنة والعلم ـ كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتابه في خلق الأفعال[1] وغيرهما من أئمة السنة ـ من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره ما لا يخالفهم فيه أحد من العلماء أهل العقل والدين .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿إنهُ لَقولُ رسولٍ كريمٍ﴾ فهذا قد ذكره في موضعين . فقال في الحاقة : ﴿إنه لَقولُ رَسولٍ كريمٍ ، وما هُوَ بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تُؤْمنونَ ، ولا بِقولِ كاهِنٍ قليلاً ما تَذكّرونَ﴾ فالرسول هنا محمد ﷺ ، وقال في التكوير : ﴿إنهُ لَقولُ رسولٍ كريمٍ ، ذي قوةٍ ، عندَ ذي العرشِ مكينٍ ، مُطاعٍ ثَمّ أمينٍ ، وما صاحبُكُمْ بمجنونٍ ، ولقد رآهُ بالأفقِ المبينِ﴾ فالرسول هنا جبريل فأضافه إلى الرسول من البشر تارة ، وإلى الرسول من الملائكة تارة ، باسم الرسول ، ولم يقل : إنه لقول ملك ولا نبي ، لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ عن غيره لا منشيء له من عنده ﴿وما على الرسولِ إلا البلاغُ المبينُ﴾ فكان قوله : ﴿انه لقول رسول كريم﴾ بمنزلة قوله لتبليغ رسول ، أو مبلغ من رسول كريم ، أو جاء به رسول كريم ، أو مسموع عن رسول كريم ؛ وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئا منه أو أحدثه رسول كريم إذ لو كان منشئا لم يكن رسولا فيما أنشأه وابتداه وإنما يكون رسولا فيما بلغه وأداه ، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقا .

و(أيضا) فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشيء المؤلف لها ، فبطل أن تكون إضافته الى الرسول لأجل أحداث لفظه ونظمه . ولو جاز

---

(١) كتاب خلق الأفعال للبخاري طبع اخيرا ضمن مجموعة (عقائد السلف) بتحقيق الأستاذ الدكتور علي سامي النشار ط منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧٥ .

أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه لجاز أن نقول إنه قول البشر ، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر .

فإن قال قائل : فالوحيد جعل الجميع قول البشر ، ونحن نقول إن الكلام العربي قول البشر ، وأما معناه فهو كلام الله .

فيقال لهم : هذا نصف قول الوحيد ، ثم هذا باطل من وجوه أخرى .

وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة ، وأنتم تجعلون ذلك المعنى واحدا هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين ؛ فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة .

و(أيضاً) فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين ، وإنما يشتركان في مسمى الكلام ، ومسمى كلام الله ، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع ، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام كله يشترك في أنه كلام الله اشتراك الأشخاص في أنواعها ، كما أن (هذا) الإنسان وهذا الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان وليس في الخارج خص بعينه هو هذا وهذا وهذا ، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والإنجيل والقرآن وهو معنى آية الدين وآية الكرسي .

ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال : إن أصوات العباد وأفعالهم قديمة أزلية . فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلهما ، والزم الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وبسبب هاتين البدعتين الحمقاوين ثارت الفتن وعظمت الإحن ، وإن كان كل من أصحاب القولين قد يفسرونها بما قد يلتبس على كثير من الناس كما فسر من قال : إن الصوت المسموع من العبد أو بعضه قديم : (و) أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه .

وأما « أفعال العباد » فرأيت بعض المتأخرين يزعم أنها قديمة خيرها وشرها ، وفسر ذلك بأن الشرع قديم والقدر قديم ، وهي مشروعة مقدرة ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور به والمنهي عنه ، ولم يفرق بين القدر الذي هو علم الله وكلامه وبين المقدور الذي هو مخلوقاته . والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطرار أن الأمر والخبر نوعان للكلام لفظه ومعناه ، ليس الأمر والخبر صفات لموصوف واحد ـ فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواعا له فقد خالف ضرورة العقل ؛ وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم أن الوجود

واحد ؛ إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين ؛ فإن انقسام « الموجود » إلى القديم ، والمحدث ، والواجب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والقائم بنفسه والقائم بغيره ، كانقسام « الكلام » إلى الأمر والخبر ، أو الى الإنشاء والأخبار ، أو إلى الأمر والنهي والخبر - فمن قال الكلام معنى واحد هو الأمر والخبر فهو كمن قال الوجود واحد هو الخالق والمخلوق ، أو الواجب والممكن . وكما أن حقيقة هذا تؤول إلى تعطيل الخالق ، فحقيقة هذا تؤول الى تعطيل كلامه وتكليمه .

وهذا حقيقة قول فرعون الذي أنكر الخالق وتكليمه لموسى ؛ ولهذا آل الأمر بمحقق هؤلاء[1] إلى تعظيم فرعون وتوليه وتصديقه في قوله : ﴿أنا رَبُّكُمُ الأعلى﴾ بل إلى تعظيمه على موسى وإلى الاستحقار بتكليم الله لموسى كما قد بسط في غير هذا الموضع .

(وأيضا) فيقال : ما تقول في كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره - كما قد ينقل كلام النبي ﷺ والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة أو المبلغين - أن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ أو كلام المبلغ عنه ؟

فإن قال : كلام المبلغ لزم أن يكون القرآن كلاماً لكل من سمع منه فيكون القرآن المسموع كلام ألف ألف قارىء لا كلام الله تعالى ، وأن يكون قوله : « إنما الأعمال بالنيات » ونظائره كلام كل من رواه لا كلام الرسول وحينئذ فلا فضيلة للقرآن في ﴿إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ﴾ فإنه على قول هؤلاء قول كل منافق قرأه ، والقرآن يقرأه المؤمن والمنافق كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها »[2] وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد بل قول ألف ألف بشر وأكثر من ذلك . وفساد هذا في العقل والدين واضح .

وإن قال : كلام المبلغ عنه علم أن الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله ؛ ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال إنه شيطان بين الله أنه تبليغ ملك كريم ؛ لا تبليغ شيطان رجيم ؛ ولهذا قال : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة ، عند ذي العرش مكين ﴾ إلى قوله : ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ . وبين في هذه الآية أن الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون ، وما هو على الغيب بمتهم . وذكره باسم « الصاحب » لما في ذلك

---

(١) يشير بذلك الامام ابن تيمية الى قول ابن عربي بإيمان فرعون في كتابه فصوص الحكم ، وانظر موقف ابن تيمية بالتفصيل في مجموعة الرسائل والمسائل (رسالة في حقيقة قول الاتحادية ، ورسالة في الرد على ابن عربي في قوله بإيمان فرعون) .

(٢) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب فضائل القرآن) ابن حنبل ٤٠٨/٤ .

من النعمة به علينا إذ كنا لا نطيق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا ، كما قال تعالى : ﴿لقد جاءَكُم رسولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ﴾ وقال : ﴿وَلَوْ جَعَلْناه مَلَكاً لَجعَلْناهُ رَجُلاً ، وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿والنجم إذا هَوَى ما ضَلّ صاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ وبين أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي أنهما مبلغان فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله .

فلما كان الرسول البشري يقال : إنه مجنون أو مفتر نزهه عن هذا وهذا ، وكذلك في السورة الأخرى قال : ﴿إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين﴾ وهذا مما يبين أنه إضافة إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه ، فإنه قال : ﴿وإنه لتنزيلُ رَبِّ العالمينَ نَزَلَ بِهِ الرُوحُ الأمينُ﴾ فجمع بين قوله : ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وبين قوله : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ والضميران عائدان إلى واحد ، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلا من رب العالمين ؛ بل كان يكون تنزيلاً من الرسول . ومن جعل الضمير في هذا عائدا الى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع أنه ليس في الكلام ما يقتضي اختلاف الضميرين ، ومن قال أن هذا عبارة عن كلام الله ـ فقل له : هذا الذي تقرأه أهو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك ؟ أم هو نفس تلك العبارة ؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله ، وحينئذ فيبقى النزاع لفظيا ؛ فإنه متى قال إن محمدا سمعه من جبريل جميعه ، وجبريل سمعه من الله جميعه ، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه ، فقد قال الحق ـ وبعد هذا فقوله عبارة لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه كما سنبينه .

وإن قلت : ليس هذا عبارة عن تلك العبارة ، بل هو نفس تلك العبارة فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل فحينئذ هذا يبطل أصل قولك .

واعلم أن أصل القول بالعبارة « أن أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب »(١) هو أول من قال في الإسلام : إن معنى القرآن كلام الله . وحروفه ليست كلام الله ، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل النسة والجماعة ، وكان قد ذهب إلى إثبات الصفات لله تعالى ،

---

(١) هو ابو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) توفي بعد سنة ٢٤٠ بقليل ، وأشار ابن تيمية في مواضع إلى أنه شيخ للأشاعرة ، كما أشار إلى ذلك ابن حزم : انظر عنه : لسان الميزان ٣/٢٩٠ ـ ٢٩١ ، طبقات الشافعية ٢/٥١ ، مقالات الإسلاميين ١/٣٢٥ ، الخطط للمقريزي ٢/٣٥٨ ، نهاية الأقدام ١٨١ الملل والنحل ١/٥٨٥ ، البدء والتاريخ ٥/١٥٠ .

وخالف المعتزلة في ذلك ، وأثبت العلو لله على العرش ومباينه المخلوقات ، وقرر ذلك تقريرا هو أكمل من تقرير أتباعه بعده . وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره هل يقال لـه حكاية عنه أم لا ؟ وأكثر المعتزلة قالوا : هو حكاية عنه ، فقال ابن كلاب : القرآن العربي حكاية عن كلام الله ؛ ليس بكلام الله .

فجاء بعهد « أبو الحسن الأشعري » فسلك مسلكه في إثبات أكثر الصفات ، وفي مسألة القرآن أيضا ، واستدرك عليه قوله أن هذا حكاية ، وقال : الحكاية إنما تكون مثل المحكي فهذا يناسب قول المعتزلة ، وإنما يناسب قولنا أن نقول هو عبارة عن كلام الله ؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة ، فأنكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور .

(أحدها) قولهم : إن المعنى كلام الله وإن القرآن العربي ليس كلام الله ، وكانت المعتزلة تقول : هو كلام الله وهو مخلوق ، فقال : هؤلاء هو مخلوق وليس بكلام الله ؛ لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك « الحركة » . وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية في قولهم : إن كلام الله مخلوق خلقه في بعض الأجسام ـ قالوا لهم لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه فكانت الشجرة هي القائلة : ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾[1] فقال أئمة الكلابية إذا كان القرآن العربي مخلوقا لم يكن كلام الله ، فقال طائفة من متأخريهم : بل نقول : الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة ، فقال لهم المحققون : فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة ؛ فإنكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره أمكن المعتزلة أن يقولوا ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره .

(الثاني) قولهم : إن ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر ، وهو معنى التوراة ، والإنجيل والقرآن ، وقال أكثر العقلاء : هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل .

(الثالث) أن ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله .

و « مسألة القرآن » لها طرفان (أحدهما) تكلم الله به وهو أعظم الطرفين (والثاني) تنزيله إلى خلقه ؛ والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول . وقد بسطنا الكلام في ذلك في عدة مواضع ، وبينا مقالات أهل الأرض كلهم في هذه المسائل ، وما دخل في ذلك من الاشتباه ، ومأخذ كل طائفة ، ومعنى قول السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنهم قصدوا به إبطال

---

(١) سورة القصص الآية ٣٠ .

قول من يقول : إن الله لم يقم بذاته كلام ؛ ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس ببائن عنه ، وذكرنا اختلاف المنتسبين إلى السنة هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وقول من قال من أئمة السنة لم يزل الله متكلما إذا شاء ، وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا به أنه فارق ذاته وحل في غيره : فإن كلام المخلوق ، بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته ؟ ! بل قالوا : منه بدأ . أي : هو المتكلم به ردا على المعتزلة والجهمية وغيرهم الذين قالوا بدأ من المخلوق الذي خلق فيه . وقولهم : إليه يعود . أي : يسري عليه فلا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في الصدور منه آية .

والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل .

فصـــــل

وأما قول القائل : أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة ، وتقولون أن الذي تسمعونه كلام الله حقيقة وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك ؟

فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق . فإن كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبي ﷺ منه بغير واسطة ـ كسماع الصحابة منه ـ وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس ، وكل من السامعين سمع كلام النبي ﷺ حقيقة ، وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا ، وهو في الموضعين شعر حسان لا شعر غيره ، والإنسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم أن ذلك الشاعر أنشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة وإن كان المبلغ يرويه بحركة نفسه وأصوات نفسه .

فإذا كان هذا الفرق معقولا في كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه فكيف لا يعقل ذلك في سماع كلام الله وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب فهو إلى تأديب المجانين أقرب منه إلى خطاب العقلاء ، وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو أن المداد قديم فهذا لا يقوله ذو حس سليم ؛ بل ما بين لوحي المصحف كلام الله ، وكلام الله ثابت في مصاحف المسلمين لا كلام غيره ، فمن قال : إن الذي في المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره فهو ملحد مارق .

ومن زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره كما كتب في المصاحف أو أن المداد قديم أزلي فهو أيضا ملحد مارق ؛ بل كلام المخلوقين يكتب في الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم ،

فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله تعالى ؟ !

و « الشبهة » تنشأ في مثل هذا من جهة أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد . مثال ذلك أن الانسان يقول رأيت الشمس والقمر والهلال إذ رآه بغير واسطة « وهذه الرؤ ية المطلقة » وقد يراه في ماء أو مرآة فهذه « رؤ ية مقيدة » فإذا أطلق قوله رأيته أو ما رأيته حمل على مفهوم اللفظ المطلق ، وإذا قال : لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد ، واللفظ يختلف معناه بالإطلاق والتقييد ، فإذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله : ﴿ ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس .

ومن قال : إن هذا مجاز فقد غلط ؛ فإن هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هي من تمام الكلام ؛ ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفي مفهومها بخلاف استعمال لفظ الأسد في الرجل الشجاع مع أن قول القائل : هذا اللفظ حقيقة ، وهذا مجاز نزاع لفظي ، وهو مستند من أنكر المجاز في اللغة أو في القرآن ، ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة ، ولم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الأئمة إلا في كلام الإمام أحمد فإنه قال فيما كتبه من « الرد على الزنادقة والجهمية » هذا من مجاز القرآن . وأول من قال ذلك مطلقا أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه الذي صنفه في « مجاز القرآن » ثم إن هذا كان معناه عند الأولين مما يجوز في اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجائز ، وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ، ثم إنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة .

والمقصود أن القائل إذا قال : رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك في الماء والمرآة فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤ ية وبين رؤ ية ذلك بلا واسطة ، وإذا قال قائل : ما رأى ذلك ؛ بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا مانعا لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه في الماء أو المرآة ، وهذه الرؤ ية في الماء أو المرآة حقيقة مقيدة ، وكذلك قول النبي ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي »[1] هو كما قال ﷺ رآه في المنام حقا ، فمن قال : ما رآه في المنام حقا فقد اخطأ ، ومن قال : إن رؤ يته في اليقظة بلا واسطة كالرؤ ية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ ؛ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب العلم) ، وفي مسلم : (تعبير الرؤ يا) ، وأبو داود (كتاب الأدب) ، الترمذي (كتاب الرؤ يا) ، ابن ماجه (كتاب الرؤ يا) ، ابن حنبل ٣/٣٣٢ .

وكذلك ما سمعه منه من الكلام في المنام هو سماع منه في المنام وليس هذا كالسماع منه في اليقظة وقد يرى الرائي في المنام أشخاصا ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك وإنما رأى مثالهم ، ولكن يقال رآهم في المنام حقيقة ، فيحترز بذلك عن الرؤ يا التي هي حديث النفس .

فإن « الرؤ يا ثلاثة أقسام » رؤ يا بشرى من الله ، ورؤ يا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام . وقد ثبت هذا التقسيم في الصحيح عن النبي ﷺ ؛ ولكن الرؤ يا يظهر لكل أحد من الفرق بينها وبين اليقظة ما لا يظهر في غيرها ، فكما ان الرؤ ية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك ، حتى إن المرئي يختلف باختلاف المرآة ، فإذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك وإن كانت صغيرة أو مستطيلة رأى كذلك ، فكذلك في « السماع » يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ، ففي الموضعين المقصود سماع كلامه ، كما أن هناك في الموضعين يقصد رؤ ية نفس النبي ؛ لكن إذا كان بواسطة اختلف باختلاف الواسطة فيختلف باختلاف أصوات المبلغين كما يختلف المرئي باختلاف المرايا ـ قال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾(1) .

فجعل « التكليم ثلاثة أنواع » الوحي المجرد ، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ، والتكليم بواسطة إرسال الرسول كما كلم الرسل بإرسال الملائكة ، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بإرسال محمد ﷺ .

والمسلمون متفقون على أن الله أمرهم بما أمرهم به في القرآن ونهاهم عما نهاهم عنه في القرآن ، وأخبرهم بما أخبرهم به في القرآن فأمره ونهيه وإخباره بواسطة الرسول ، فهذا تكليم مقيد بالإرسال ، وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لا منه ، وهذا القرآن كلام الله مبلغا عنه مؤدا عنه ، وموسى سمع كلامه مسموعا منه لا مبلغا عنه ولا مؤدا عنه ، وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة .

والنبي ﷺ يروي عن ربه ، ويخبر عن ربه ، ويحكي عن ربه ، فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله راويا حاكيا عنه . فلو قال من قال : إن القرآن « حكاية » : إن محمدا حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله لكان قد قصد معنى صحيحا ؛ لكن يقصدون ـ ما يقصده القائل بقوله : فلان يحكى فلانا أي يفعل مثل فعله وهو ـ أنهُ يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ على أنْ يَأْتوا بمثلِ

---

(1) سورة الشورى الآية ١٥ .

هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثِلِهِ وَلَوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً ﴾[1] .

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها . فلما كان مقصود الرائي أن يرى الوجه مثلا فرآه في المرآة حصل مقصوده وقال رأيت الوجه ، وإن كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرآة ـ وكذلك من كان مقصوده أن يسمع القول الذي قاله غيره الذي ألف ألفاظه وقصد معانيه ، فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود ، وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يتخلف باختلاف الصائتين . والقلوب إنما تشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود ، كما في « الاسم والمسمى » فإن القائل إذا قال جاء زيد وذهب عمرو ولم يكن مقصوده إلا الإخبار بالمجيء عن « المسمى » ولكن بذكر الاسم أظهر ذلك .

فمن ظن أن الموصوف بالمجيء والإتيان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلا ، فكذلك إذا قال القائل : هذا كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو ، وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالي وصوته ، فمن ظن أن المشار إليه هو صوت القارىء وحركته كان مبطلا ؛ ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الإمام أحمد رضى الله عنه : ﴿ قل هو الله احد ﴾ وسأله هل هذا كلام الله ، وهل هو مخلوق ؟ فأجابه بأنه كلام الله وأنه غير مخلوق ، فنقل عنه أبو طالب ـ خطأ منه ـ أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فاستدعاه وغضب عليه وقال أنا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ قال : لا ، ولكن قرأت عليك : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وقلت لك : هذا غير مخلوق ، فقلت : نعم ، قال فلم تحكى عني ما لم أقل ؟ لا تقل هذا ؛ فإن هذا لم يقله عالم ـ وقصته مشهورة حكاها عبد الله وصالح وحنبل والمروذي وفوزان وبسطها الخلال في « كتاب السنة » وصنف المروذي في « مسألة اللفظ » مصنفا ذكر فيه أقوال الأئمة .

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه ؛ فإن الإشارة إذا أطلقت انصرفت إلى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به ؛ لا إلى ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم . فإذا قيل : لفظي جعل نفس الوسائط غير مخلوقة وهذا باطل ، كما أن من رأى وجها ، في مرآة فقال أكرم الله هذا الوجه وحياه ، أو قبحه ، كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا على الشعاع المنعكس فيها ، وكذلك إذا رأى القمر في الماء فقال : قد أبدر أو لم يبدر فإنما مقصوده القمر الذي في السماء لا خياله ، وكذلك من سمعه يذكر رجلا فقال هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم أن المشار إليه هو الشخص المسمى بالاسم ؛ لا نفس

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

الصوت المسموع من الناطق ـ فلو قال : هـذا الصوت أو صـوتي بفلان صـالح أو فـاسق فسد المعنى .

وكان بعضهم يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فرأى في منـامه وضـارب يضربـه وعليه فـروة فأوجعه بالضرب ، فقال له : لا تضـربني ، فقال : أنـا ما أضـربك ، وإنمـا اضرب الفـروة ، فقال : إنما يقع الضرب علي ، فقال هكذا إذا قلت : لفظي بالقرآن مخلوق ، فـالخلق إنما يقـع على القرآن . يقول : كما أن المقصود بالضرب بدنك واللباس واسـطة فهكذا المقصـود بالتـلاوة كلام الله وصوتك واسطة ، فإذا قلت : مخلوق وقع ذلـك على المقصـود ، كما إذا سمعت قـائلا يذكر رجلا فقلت : أنا أحب هذا وأنا أبغض هذا انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا إلى صوت الذاكـر ؛ ولهذا قـال الأئمة : القـرآن كلام الله غـير مخلوق كيفما تصـرف ؛ بخلاف أفعال العباد وأصواتهم ؛ فإنه من نفى عنها الخلق كان مبتدعا ضالا .

فصـــل

وأما قول القائل : تقولون إن القرآن صفة الله وإن صفات الله غير مخلوقة ، فإن قلتم أن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفـرون الحلولية والاتحـادية ، وإن قلتم غـير ذلك قلتم بمقالتنا .

فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله ، فإن منشأ الشبهة أن قول القائل : هذا كلام الله يجعل أحكامه واحدة ، سـواء كان كـلامه مسمـوعا منـه أو كلامـه مبلغا عنه .

ومن هنا تختلف طوائف من الناس .

« طائفة » قالت هذا كلام الله وهذا حروف وأصوات مخلوقة فكلام الله مخلوق .

و« طائفة » قالت هذا مخلوق وكلام الله ليس بمخلوق فهذا ليس كلام الله .

و « طائفة » قالت هذا كلام الله وكلام الله ليس بمخلوق وهذا ألفاظنا وتلاوتنا ؛ فألفـاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة .

ومنشأ ضلال الجميـع من عدم الفـرق في المشار إليـه في هذا . فـأنت تقول هـذا الكلام الذي تسمعه من قائله صدق وحق وصواب ، وهو كلام حكيم ، وكذلك إذا سمعته من نـاقله تقول هذا الكلام صدق وحق وصـواب وهو كـلام حكيم ، فالمشـار اليه في المـوضعين واحـد ، وتقول أيضا : إن هـذا صوت حسن ، وهـذا كلام من وسط القلب ثم إذا سمعتـه من الناقـل تقـول : هذا صـوت حسن ، أو كلام من وسط القلب فـالمشار اليـه هنا ليس هـو المشـار إليـه

هناك ، بل أشار إلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإذا كتب الكلام في صفحتين كالمصحفين تقول في كل منهما هذا قرآن كريم ، وهذا كتاب مجيد ، وهذا كلام الله فالمشار إليه واحد ، ثم تقول هذا خط حسن وهذا قلم النسخ أو الثلث ، وهذا الخط أحمر أو أصفر والمشار إليه هنا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر .

فإذا ميز الإنسان في المشار إليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق ، وعلم أن من قال هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق أن المشار إليه الكلام من حيث هو مع قطع النظر عما به وصل إلينا من حركات العباد وأصواتهم ، ومن قال : هذا مخلوق وأشار به إلى مجرد صوت العبد وحركته لم يكن له في هذا حجة على أن القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارىء من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق،من اعتقد ذلك فقد أخطأ وضل .

ويقال لهذا : هذا الكلام الذي أشرت إليه كان موجودا قبل أن يخلق هذا القارىء ، فهب أن القارىء لم تخلق نفسه ولا وجدت لا أفعاله ولا أصواته فمن أين يلزم أن يكون الكلام نفسه الذي كان موجودا قبله يعدم بعدمه ويحدث بحدوثه ؟ فإشارته بالخلق إن كانت إلى ما يختص به هذا القارىء من أفعاله وأصواته فالقرآن غني عن هذا القارىء وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا عدمه ، وإن كانت إلى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل إلى محمد ، وبلغه محمد لأمته ، وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يمتنع أن يكون مخلوقا ، فإنه لو كان مخلوقاً لكان كلاما لمحله الذي خلق فيه ولم يكن كلاما لله ، ولأنه لو كان سبحانه إذا خلق كلاما كان كلامه ، كان ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود ، بل كان كلام في الوجود وهذا قول الحلولية يقولون :

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه[1]

ومن قال : القرآن مخلوق فهو بين أمرين - إما أن يجعل كل كلام في الوجود كلامه ، وبين أن يجعله غير متكلم بشيء أصلا ، فيجعل العباد المتكلمين أكمل منه ، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات : كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، فيكون قد فر من إثبات صفات الكمال له حذرا في زعمه من التشبيه فوصفه بالنقص وشبهه بالجامد والموات .

وكذلك قول القائل : هذا نفس كلام الله ، وعين كلام الله ، وهذا الذي في المصحف هو عين كلام الله ، ونفس كلام الله ، وأمثال هذه العبارات . هذه مفهومها عند الإطلاق في فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره ، وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فإن من ينقل كلام غيره

---

(١) هذا البيت لمحيي الدين بن عربي ، قاله في الفتوحات المكية ٢/١ ط بولاق .

ويكتبه في كتاب قد يزيد فيه وينقص كما جرت عادة الناس في كثير من مكاتبات الملوك وغيرها ـ فإذا جاء كتاب السلطان فقيل : هذا الذي فيه كلامِ السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص : يعني لم يزد فيه الكاتب ولا نقص . وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة في مسألة من تصنيفه قيل : هذا الكلام كلام فلان بعينه : يعنى لم يزد فيه ولم ينقص كما قال النبي ﷺ : « نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه »[1] .

فقوله فبلغه كما سمعه لم يرد به أنه يبلغه بحركاته وأصواته التي سمعه بها ، ولكن أراد أنه يأتي بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص ، فيكون قد بلغه كما سمعه . فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله ﷺ ، ويكون قد سمع كلام رسول الله ﷺ كما قاله . وذلك معنى قولهم هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه ، لا يريدون أن هذا هو صوته وحركاته ، وهذا لا يقوله عاقل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء ، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجىء أصحابه إلى « القرمطة » في السمعيات ، و« السفسطة » في العقليات .

ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة فإذا رأى الناس كلاما صحيحا ، فإن من تكلم بكلام وسمع منه ونقل عنه أو كتبه في كتاب لا يقول عاقل أن نفس ما قام المتكلم من المعاني التي في قلبه والألفاظ القائمة بلسانه فارقته وانتقلت عنه إلى المستمع والمبلغ عنه ، ولا فارقته وحلت في الورق ؛ بل ولا يقول أن نفس ما قام به من المعاني والألفاظ هو نفس المداد الذي في الورق ، بل ولا يقول أن نفس ألفاظه التي هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه ، فهذه الأمور كلها ظاهرة لا يقولها عاقل في كلام المخلوق إذا سمع وبلغ أو كتب في كتاب ، فكيف يقال ذلك في كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه أو كتبه سبحانه كما كتب التوراة لموسى ، وكما كتب القرآن في اللوح المحفوظ ، وكما كتبه المسلمون في مصاحفهم .

وإذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعناه ؛ بل شعر مخلوق كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة ولبيد وأمثالهم من الشعراء ، ويقول الناس : هذا شعر حسان بعينه ، وهذا هو نفس شعر حسان ، وهذا شعر لبيد بعينه كقوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومع هذا فيعلم كل عاقل أن رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حتى حلت بهم بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين ، فكيف يتوهم متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل في مخلوقاته ، وأن ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات الباري حلت

---

(١) ذكره ابن ماجه في المقدمة وفي كتاب المناسك .

فيه ؟! وهم لا يقولون مثل ذلك في المخلوق بل يمثلون العلم بنور السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم ، كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوءاً كما يقال : أن الهوى ينقلب نارا بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير أن تتغير تلك النار التي في المصباح ، والمقرىء والمعلم يقرىء القرآن ويعلم العلم ولم ينقص مما عنده شيء ؛ بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده .

ولهذا يقال : فلان ينقل علم فلان ، وينقل كلامه ، ويقال : العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان وأمثال ذلك ، كما يقال : نقلت ما في الكتاب ونسخت ما في الكتاب ، أو نقلت الكتاب أو نسخته ، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التي في الكتاب الأول عدمت منه وحلت في الثاني ؛ بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام ، وذلك يحصل بان يجعل في الثاني مثل ما في الأول ، فيبقى المقصود بالأول منقولا منسوخاً وإن كان لم يتغير الأول ، بخلاف نقل الأجسام وتوابعها ، فإن ذلك إذا نقل من موضع إلى موضع زال عن الأول .

وذلك لأن الاشياء لها وجود في أنفسها وهو وجودها العيني ، ولها ثبوتها في العلم ، ثم في اللفظ المطابق للعمل ، ثم في الخط . وهذا الذي يقال : وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ووجود في البنان : وجود عيني ، ووجود علمي ، ولفظي ، ورسمي ؛ ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فذكر الخلق عموما وخصوصا ، ثم ذكر التعليم عموما وخصوصا ، فالخط يطابق اللفظ ، واللفظ يطابق العلم ، والعلم هو المطابق للمعلوم .

ومن هنا غلط من غلط فظن أن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق ، فظن أن قوله : ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾ كقوله : ﴿الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ فجعل إثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كإثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط : إثبات القرآن كإثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام ، وأما اثبات اسم الرسول فهذا كإثبات الأعمال ، أو كإثبات القرآن في زبر الأولين ، قال تعالى : ﴿وكلُّ شيءٍ فَعَلوهُ في الزُّبُرِ﴾[1] وقال تعالى : ﴿وإنه لَفي زُبُرِ الأوّلينَ﴾[2] فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ؛ ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ « الزبر » و « الكتب » زبر . يقال زبرت الكتاب إذا كتبته والزبور بمعنى

(١) سورة القمر الآية ٥٢ .
(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٦ .

المزبور أي المكتوب ، فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل ولكن ذكره كما أن محمدا نفسه ليس عندهم ولكن ذكره ، فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم ؛ بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف ؛ فإن نفس القرآن أثبت فيها ، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا ، وهذا مبسوط في موضعه .

و(المقصود هنا) أن نفس الموجودات وصفاتها إذا انتقلت من محل الى محل حلت في ذلك المحل الثاني ، وأما العلم بها والخبر عنها فيأخذه الثاني عن الأول مع بقائه في الأول ، وإن كان الذي عند الثاني هو نظير ذلك ومثله ؛ لكن لما كان المقصود بالعلمين واحدا في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه ، ولم يكن للناس غرض في تعدد التابع ، كما في الاسم مع المسمى ؛ فإن اسم الشخص وإن ذكره أناس متعددون ودعا به أناس متعددون فالناس يقولون إنه اسم واحد لمسمى واحد ، فإذا قال المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، وقال ذلك هذا المؤذن وهذا المؤذن ، وقاله غير المؤذن فالناس يقولون : إن هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله كما أن المسمى هو الله ورسوله .

وإذا قال : ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وقال : ﴿اركبوا فيها بسم الله﴾ وقال : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وقال : ﴿بسم الله﴾ ففي الجميع المذكور هو اسم الله وإن تعدد الذكر والذاكر ، فالخبر الواحد من المخبر الواحد من مخبره ، والأمر الواحد بالمأمور به من الآمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسماه ، هذا في المركب نظير هذا في المفرد ، وهذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وإن تعدد من يذكر ذلك الاسم والخبر ، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم .

وأما قول القائل : إن قلتم : إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد . مثاله مثال رجل ادّعى أن النبي ﷺ يحل بذاته في بدن الذي يقرأ حديثه ، فأنكر الناس ذلك عليه ، وقالوا إن النبي ﷺ لا يحل في بدن غيره ، فقال : أنتم تقولون : إن المحدث يقرأ كلامه ، وإن ما يقرأه هو كلام النبي ﷺ ، فإذا قلتم ذلك فقد قلتم بالحلول ، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد .

والناس متفقون على إطلاق القول بأن كلام زيد في هذا الكتاب وهذا الذي سمعناه كلام زيد ، ولا يستجيز العاقل إطلاق القول بأنه هو نفسه في هذا المتكلم ، أو في هذا الورق . وقد نطقت النصوص بأن القرآن في الصدور كقول النبي ﷺ : « استذكروا القرآن ، فلهو أشد تفلتا من صدور الرجال من النعم في عقلها »[1] وقوله : « الجوف الذي ليس فيه شيء من

---

(١) ورد الحديث في : مسلم (كتاب المسافرين) ، الدارمي (فضائل القرآن) ، ابن حنبل ٤/١٤٦ .

القرآن كالبيت الخرب »[1] وأمثال ذلك ، وليس هذا عند عاقل ، مثل أن يقال الله في صدورنا وأجوافنا ، ولهذا لما ابتدع شخص يقال له الصوري بأن من قال القرآن في صدورنا فقد قال بقول النصارى ، فقيل لاحمد قد جاءت جهمية رابعة أي : جهمية الخلقية ، واللفظية ، والواقفية وهذه الرابعة ـ اشتد نكيره لذلك ، وقال ، هذا أعظم من الجهمية . وهو كما قال.

فإن « الجهمية »[2] ليس فيهم من ينكر أن يقال القرآن في الصدور ، ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلول إلا من هو في غاية الضلالة والجهالة ؛ فإن النصارى يقولون ؛ الأب والابن وروح القدس إله واحد ، وإن الكلمة التي هي اللاهوت تدرعت الناسوت ، وهو عندهم إله يخلق ويرزق ؛ ولهذا كانوا يقولون : إن الله هو المسيح ابن مريم ، ويقولون : المسيح ابن الله ؛ ولهذا كانوا متناقضين ، فإن الذي تدرع المسيح إن كان هو الإله الجامع للأقانيم فهو الأب نفسه ، وإن كان هو صفة من صفاته فالصفة لا تخلق ولا ترزق وليست إلها ، والمسيح عندهم إله ، ولو قال النصارى : إن كلام الله في صدر المسيح كما هو في صدور سائر الأنبياء والمؤمنين لم يكن في قولهم ما ينكر .

فالحلولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر ، كما قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة أتباع المشايخ ، أو يقولون بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية انه بذاته في كل مكان ، وهو سبحانه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وكذلك من قال باتحاده بالمسيح أو غيره ، أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها ، أو قال : وجوده وجود المخلوقات أو غير ذلك .

فأما قول القائل : إن كلام الله في قلوب أنبيائه وعباده المؤمنين وإن الرسل بلغت كلام الله ، والذي بلغته هو كلام الله ، وإن الكلام في الصحيفة ونحو ذلك فهذا لا يسمى حلولا ، ومن سماه حلولا لم يكن بتسميته لذلك مبطلا للحقائق . وقد تقدم أن ذلك لا يقتضي مفارقة صفة المخلوق له وانتقالها إلى غيره ، فكيف صفة الخالق تبارك وتعالى ؟! ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس في إثبات لفظ الحلول ونفيه عنه هل يقال : إن كلام الله حال في المصحف أو حال في الصدور ؟ وهل يقال : كلام الناس المكتوب حال في المصحف أو حال في قلوب

---

(١) ورد الحديث في : الترمذي (كتاب ثواب القرآن) ، الدارمي (كتاب فضائل القرآن) ، ابن حنبل ١/٢٢٢ .

(٢) الجهمية ينتسبون إلى الجهم بن صفوان المولود سنة ٨٠ هـ كان معاصر الواصل بن عطاء شيخ المعتزلة . أخذ عن الجعد بن درهم كثيرا من الآراء وخاصة القول بخلق القرآن ونفي الصفات ، وابن تيمية أحيانا يستعمل لفظ الجهمية ويريد به المعتزلة حين يقولون بخلق القرآن ونفي الصفات ، وأحيانا يريد به الأشاعرة حين يقولون بالجبر ونفي الإرادة الإنسانية . انظر عن الجهم والجهمية : مقالات الأشعري ١/١٣٢ ، ٢٧٩ ، الملل والنحل ١/١٣٥ ـ ١٣٧ ، الفرق بين الفرق ١٢٨ ـ ١٣٩ ، الخطط للمقريزي ٢/٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، لسان الميزان ٢٠/١٤٢ ـ ١٤٣ ، وانظر أيضا تاريخ الجهمية للقاسمي .

حافظيه ونحو ذلك ؟ فمنهم طائفة نفت الحلول كالقاضي أبي يعلى[1] وأمثاله وقالوا : ظهر كلام الله في ذلك ولا نقول : حل ؛ لأن حلول صفة الخالق في المخلوق ، أو حلول القديم في المحدث ممتنع .

وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال في المصحف كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي الملقب بشيخ الإسلام ـ[2] وغيره وقالوا : ليس هذا هو الحلول المحذور الذي نفيناه ؛ بل نطلق القول بأن الكلام في الصحيفة ولا يقال بأن الله في الصحيفة أو في صدر الإنسان ، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال في ذلك دون حلول ذاته .

وطائفة ثالثة كأبي عليّ بن أبي موسى وغيره قالوا : لا نطلق الحلول نفيا ولا إثباتاً لأن إثبات ذلك يوهم انتقال صفة الرب إلى المخلوقات ونفي ذلك يوهم نفي نزول القرآن إلى الخلق فنطلق ما أطلقته النصوص ونمسك عما في إطلاقه محذور لما في ذلك من الإجمال .

وأما قول القائل إن قلتم (إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول ، وإن قلتم غير ذلك) قلتم بمقالتنا فجواب ذلك أن المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فإذا زالت لم يبق منكرا .

(أحدها) : من يقول إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد والله خلقه في غيره .

(الثاني) : قول من يقول إن كلام الله ليس إلا معنى واحدا هو الأمر والنهي والخبر وإن الكتب الإلهية تختلف باختلاف العبارات لا باختلاف المعاني ، فيجعل معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحدا ، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي ، كمن يقول إن معاني أسماء الله الحسنى بمعنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته .

(الثالث) : قول من يقول إن ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله وإن القرآن كلامَ التالين لا كلام رب العالمين . فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها .

وأما قول من قال : إن القرآن العربي كلام الله بلغه عنه رسول الله ﷺ ، وأنه تارة

---

(1) هو أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء عالم عصره في أصول الحنابلة . ولد سنة ٣٨٠ هـ وتوفي سنة ٤٥٨ هـ انظر عنه : طبقات الحنابلة ٢/١٩٣ ـ ٢٣٠ ، تاريخ بغداد ٢/٢٥٦ ، شذرات الذهب ٤/٢٠٣ ـ ٢٠٧ ، الأعلام ٦/٣٣١ .

(2) هو أبو إسماعيل الأنصاري الهروي (عبد الله بن محمد) كان يدعى شيخ الإسلام في عصره ، توفي سنة ٤٨١ هـ . انظر ترجمته في طبقات الحنابلة ٢/٢٤٧ ، الذيل لابن رجب ١/٥٠ ـ ٦٨ ، الأعلام ٤/٢٦٧ .

يسمع من الله ، وتارة من رسله مبلغين عنه ، وهو كلام الله حيث تصرف ، وكلام الله تكلم به لم يخلقه في غيره ، ولا يكون كلام الله مخلوقا ، ولو قرأه الناس وكتبوه وسمعوه . وقال مع ذلك : إن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه .

وإذا نفى الحلول وأراد به أن صفة الموصوف لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فقد أصاب في هذا المعنى ؛ لكن عليه مع ذلك أن يؤمن ان القرآن العربي كلام الله تعالى ، وليس هو ولا شيء منه كلاما لغيره ، ولكن بلغته عنه رسله ، وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه ، ومع العلم بأن شيئاً من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا من كلام الخالق أولى وأظهر والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام(*)

قد يستدل بقوله : ـ ﴿ لا تَتَّخِذوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبّوا الكُفْرَ على الإيمانِ﴾[1] على أن الولد يكون مؤمنا بإيمان والده ؛ لأنه لم يذكر الولد في استحبابه الكفر على الإيمان ، مع أنه أولى بالذكر ، وما ذاك إلا لأن حكمه مخالف لحكم الأب والأخ . وهو الفرق بين المحجور عليه لصغره وجنونه ، وبين المستقل ، كما استدل سفيان بن عيينة وغيره بقوله : ﴿ولا على أنفسِكُمْ أنْ تَأكلوا مِنْ بيوتِكُمْ أو بُيوتِ آبائِكُمْ﴾ أن بيت الولد مندرج في بيوتكم ؛ لأنه وماله لأبيه .

ويستدل بقوله : ﴿مالكم لا تُقاتِلونَ في سبيلِ اللَّهِ ، والمستضعفينَ مِنَ الرجالِ والنساءِ والولدان الذينَ يَقولونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذهِ القريةِ الظالمِ أهلُها ؟﴾[2] على أن إسلام الوليد صحيح ؛ لأنه جعله من جملة القائلين قول من يطلب الهجرة ، وطلب الهجرة لا يصح إلا بعد الإيمان ، وإذا كان له قول في ذلك معتبر كان أصلا في ذلك ، ولم يكن تابعا ؛ بخلاف الطفل الذي لا تمييز له ؛ فإنه تابع لاقول له .

فصـــل

مسألة في قوله تعالى : ﴿وقالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾[3] كلهم قالوا ذلك أم بعضهم . ؟

(*) مجموع الفتاوى ١٥/٤٦ .

(١) سورة التوبة الآية ٢٣ .

(٢) سورة النساء الآية ٧٥ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٠ .

وقول النبي ﷺ يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ الحديث . فيقولون : العزير الحديث . هل الخطاب عام أم لا ؟

الجواب : الحمد لله . المراد باليهود جنس اليهود كقوله تعالى﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾[1] لم يقل جميع الناس ولا قالوا إن جميع الناس قد جمعوا لكم بل المراد به الجنس . وهذا كما يقال الطائفة الفلانية تفعل كذا وأهل فلان يفعلون كذا ، وإذا قال بعضهم فسكت الباقون لم ينكروا ذلك فيشتركون في إثم القول . والله أعلم .

فصـــــل(*)

قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهم رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ ورسولُهُ وقالوا حَسْبُنا اللَّهُ سَيُؤْتِينا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ورسولُهُ إنا إلى اللَّهِ راغبونَ﴾(سورة التوبة : ٥٩) ، فجعل الإيتاء لله والرسول لأن المراد به الإيتاء الشرعي وهو ما أباحه الله على لسان رسوله ، بخلاف من آتاه الملك خلقا وقدرا ولم يطع الله ورسوله فيه ، فإن ذلك مذموم مستحق للعقاب وإن كان قد آتاه الله ذلك خلقا وقدرا ، وأما من رضي بما آتاه الله ورسوله فهو ممن رضي بما أحله الله ورسوله ، ولم يطلب ما حرم عليه ، كالذين قال الله فيهم :﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدقاتِ فإن أُعْطوا منها رَضُوا وإنْ لَمْ يُعْطَوْا منها إذا هُمْ يَسخطونَ﴾ ، ثم قال : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله﴾ (سورة التوبة : ٥٨ ، ٥٩) ، ولم يقل : ورسوله ، لأن الله وحده كاف عبده ، كما قال الله تعالى : ﴿أليسَ اللَّهُ بكافٍ عبدَهُ﴾ (سورة الزمر : ٣٦) ، وقال : ﴿الذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قدْ جَمَعوا لكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وقالوا حسبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ﴾ (سورة آل عمران : ١٧٣) ، ثم دعاهم إلى أن يقولوا : ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ ، فذكر أن الرسول (يؤتيهم)[2] ، وأن ذلك من فضل الله وحده ، لم يقل : من فضله وفضل رسوله ، ثم ذكر قولهم : ﴿إنا إلى الله راغبون﴾[3] ، ولم يقل : ورسوله ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿فإذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وإلى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (سورة الشرح : ٧ ، ٨) .

وأما ما في القرآن من ذكر عبادته وحده ، ودعائه وحده ، والاستعانة به وحده ، والخوف

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(*) منهاج السنة ٢/٣٥٣ .

(٢) ما بين القوسين زيادة يستقيم بها الكلام .

٣ . علق مستجي زاده على هذا الجزء من كلام ابن تيمية بقوله : « وهذا المحل من المصنف فيه نظر أيضا ، إذ هذا الحصر إضافي بالنسبة إلى المال وسائر عرض الدنيا ومتاعها ، والمعنى : إنا إلى الله راغبون لا إلى عرض الدنيا ومتاعها ، فرغبتهم إلى الله لا تتنافى [مع] رغبتهم إلى رسول الله كما توهم ابن تيمية مؤلف هذا الشرح ، إذ لا يشك أحد أن الرغبة إلى رسول الله لا تنافي الرغبة إلى الله ، بل الرغبة إلى رسول الله هي الرغبة إلى الله ، ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] » .

منه وحده ، فكثير : كقوله : ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أحداً إلا اللَّهَ﴾ (سورة الأحزاب : ٣٩) ، وقوله : ﴿فـإيايَ فـارْهَبونِ﴾ (سـورة النحل : ٥١) ، و﴿إيـايَ فـاتّقـونِ﴾ (سـورة البقـرة : ٤١) ، وقوله : ﴿فـلا تَخافـوهُمْ وَخافَـونِ إنْ كنتمْ مؤمنينَ﴾ (سورة آل عمـران : ١٧٥) ؛ وكذلـك قـوله : ﴿فـلا تَدْعُ مَـعَ اللَّهِ إلهـاً آخرَ فتكـونَ مِنَ المعـذَبينَ﴾ (سـورة الشعـراء : ٢١٣) ، ﴿وَاعْبُدوا اللَّهَ ولا تشْرِكوا بِهِ شيئاً﴾ (سورة النساء : ٣٦) .

وأما المحبة فهي لله ورسوله ، والإرضـاء لله والرسـول ، كقولـه تعالى : ﴿أحبَّ إليكم مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ﴾ (سورة التوبة : ٢٤) ، وقوله : ﴿وَاللَّهُ ورسولُـه أحقُّ أنْ يُرْضُـوهُ إن كانـوا مؤمنينَ﴾ (سورة التوبة : ٦٢) ، فالرسول علينا أن نحبه وعلينا أن نرضيه . بل قد ثبت عنـه في الصحيـح أنـه قـال : (لا يؤمن أحـدكم حتى أكـون أحب إليـه من ولـده والنـاس أجمعين)[1] ؛ وكذلك الطاعة لله والرسول ، قال تعالى : ﴿مَنْ يُطِعَ الرسولَ فقدْ أطاعَ اللَّهَ﴾ (سورة النساء : ٨٠) .

والعبادات بأسرها : الصلاة والسجود والطواف والدعـاء والصدقـة والنسك والـذبح لا يصلح إلا لله ولم يخص الله بقعة تفعل الصلاة فيها إلا المساجد : لا مقبرة ولا مشهدا ولا مغارة ولا مقام نبي ولا غير ذلك ، ولا خص بقعة غير المساجد بالذكر والدعاء إلا مشاعر الحج : لا قبـر نبي ولا صالـح ولا مغارة ولا غـير ذلك ، ولا يقبـل على وجـه الأرض شيء عبادة لله إلا الحجر الأسود ، ولا يتمسح إلا به وبـالركن اليمـاني ، ولا يستلم الركنـان الشاميـان ، وهما من البيت ، فكيف غيرهما ؟ وقـد طـاف ابن عبـاس ومعـاويـة ، فجعـل معـاويـة يستلم الأركـان الأربعة ، فقال ابن عباس رضي الله عنه : إن رسـول الله ﷺ لم يستلم إلا الركنين اليمانيـين ، فقال معاوية : ليس من البيت شيء مهجور ، فقال ابن عباس رضي الله عنه : لقد كـان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، فقال معاوية : صدقت[1] ، ورجع إلى قوله .

فالعبادات مبناها عـلى أصلين : أحدهمـا : أن لا يعبد إلا الله وحـده ـ لا نعبد من دونـه شيئا : لا ملكا ولا نبيا ولا صالحاً ولا شيئاً من المخلوقـات ؛ ، والثاني : أن نعبـده بما أمـرنا بـه على لسان رسوله ـ لا نعبده ببدع لم يشرعها الله ورسوله .

والعبـادات تتضمن كمال الحب وكمـال الخضوع ، فمن أحب شيئـا من المخلوقـات كـما يحب الخـالق فهو مشرك ؛ قـال الله تعـالى : ﴿ وَمِنَ النـاسِ مَنْ يَتّخِـذُ مِنْ دونِ اللَّهِ أنـداداً

---

(١) ورد هذا الأثر بمعناه في مواضع كثيرة في المسند أقربها إلى ما ذكره ابن تيمية في ٢٦٦/٣ (رقم ١٩٨٧٧) . وانظر الأرقام : ٢٢١٠ ، ٣٠٧٤ ، ٣٥٣٣ .

يُحِبّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والذينَ آمَنوا أشَدُّ حبّاً للَّهِ﴾ (سورة البقرة : ١٦٥) . وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندّا وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : ثم أن تزاني بحليلة جارك . فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخرَ وَلا يَقتلونَ النفسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالحقِّ وَلا يَزْنونَ﴾(سورة الفرقان : ٦٨)[١] .

والنبي ﷺ قد أمر بالعبادة في المساجد وذكر فضل الصلاة في الجماعة ورغب في ذلك ، ولم يأمر قط بقصد مكان لأجل نبي ولا صالح ، بل نهى عن اتخاذها مساجد ، فلا يجوز أن تقصد للصلاة فيها والدعاء ، وهذا كله لتحقيق التوحيد وإخلاص الدين لله ، فقد قال بعض الناس : يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أو بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ (سورة البقرة : ١٨٦)[٢] .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[٣] ؛ وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ حتى يطلع الفجر[٤] .

فالرسل صلوات الله عليهم وسلامه أمروا الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وسؤاله ودعائه ، ونهوا أن يدعى أحد من دون الله تعالى . وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : أحب البقاع إلى الله تعالى المساجد وأبغضها إلى الله تعالى الأسواق[٥] ، يعنى البقاع التي كانت

---

(١) الحديث مروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في : البخاري ١٨/٦ (تفسير سورة البقرة ، باب : فلا تجعلوا الله أندادا) ، مسلم ٦٣/١ ، ٦٤ (كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب) ، المسند (ط . المعارف) ٢١٧/٥ (رقم ٣٦١٢) ، وكذلك الأرقام : ٤١٠٢ ، ٤١٣١ ، ٤١٣٤ـ ، ٤٤١١ ، ٤٤٢٣ .

(٢) أورد ابن جرير الطبري في تفسيره هذا الحديث بروايتين ، نعت الشيخ أحمد شاكر رحمه الله إحداهما بالانهيار والأخرى بالضعف . انظر تفسير الطبري (ط . المعارف) ٤٨٠/٣ـ ٤٨١ (وانظر التعليقات) .

(٣) الحديث مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه في : مسلم ٤٩/٢ ـ ٥٠ (كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود) ، سنن أبي داود ٣٢٠/١ ـ ٣٢١ (كتاب الصلاة ، باب في الدعاء في الركوع والسجود) .

(٤) سبق الكلام على حدوث النزول

(٥)الحديث مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه : مسلم ١٣٢/٢ ـ ١٣٣ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد) وفي المسند (ط . الحلبي) ٧١/٤ قطعة من الحديث بمعناه برواية جبير بن مطعم رضي الله عنه .

تكون في مدينته ونحوها ، ولم يكن بالمدينة لا حانة ولا كنيسة ولا موضع شرك ، وهذه المواضع شر من الأسواق .

وقد قال النبي ﷺ : شرار الناس الذين تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد ؛ هذا إذا بني المسجد المسمى مشهدا على قبر صحيح ، فكيف وكثير من هذه المشاهد المبنية على (قبور)[1] الأنبياء والصالحين من الصحابة والقرابة وغيرهم كذب ؟ وكثير منها مختلف فيه لا يتوثق فيه بنقل ينقل في ذلك مما يوجد بالشام والعراق وخراسان وغير ذلك . والسبب في خفائها وكثرة الخلاف فيها أن الله حفظ الدين الذي بعث به رسوله بقوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (سورة الحجر : ٩) ، واتخاذ هذه معابد ليس من الدين ، فلهذا لم يحفظ هذه المقامات والمشاهد ، بل مبنى أمرهم على الجهل والضلال ، وإنما يستند أهلها إلى منامات تكون من الشياطين أو إلى (أخبار وإما) مكذوبة ، وإما منقولة عمن ليس قوله حجة .

والشياطين تضل أهلها كما تضل عباد الأصنام ، فتارة تكلمهم ، وتارة تتراءى لهم ، وتارة تقضى بعض حوائجهم ، وتارة تصيح وتحرك السلاسل التي فيها القناديل وتطفىء القناديل ، وتارة تفعل أمورا اخر كما تفعل عبادة الأوثان التي كانت للعرب ، وهي اليوم تفعل مثل ذلك في أوثان الترك والصين والسودان وغيرهم فيظنون أن ذلك هو الميت أو ملك صور على صورته ، وإنما هو شيطان أضلهم بالشرك ، كما يجري ذلك لعباد الأصنام المصورة على صورة الآدميين ، هذا باب واسع ليس هذا موضع استقصائه .

فصـــل (*)

وقال :

في الكلام على قوله : ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كنتمْ تَستهزئونَ ﴾[2] تدل على أن الاستهزاء بالله كفر ، وبالرسول كفر من جهة الاستهزاء بالله وحده كفر بالضرورة ، فلم يكن ذكر الآيات والرسول شرطا ؛ فعلم أن الاستهزاء بالرسول كفر ، وإلا لم يكن لذكره فائدة ، وكذلك الآيات .

و « أيضا » فالاستهزاء بهذه الأمور متلازم ، والضالون مستخفون بتوحيد الله تعالى

---

(١) قبور : ليست في الأصل ، وإثباتها يقتضيه سياق الكلام .

(*) مجموع الفتاوى ١٥/ ٤٨ .

(٢) سورة التوبة الآية ٦٥ .

يعظمون دعاء غيره من الأموات ، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا رَأَوْكَ إنْ يَتَّخِذونَكَ إلا هُزُواً ﴾[1] الآية . فاستهزؤوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك ، وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد ؛ لما في أنفسهم من عظيم الشرك .

وهكذا تجد من فيه شبه منهم إذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك ؛ لما عنده من الشرك ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ﴾[2] فمن أحب مخلوقا مثل ما يحب الله فهو مشرك ، ويجب الفرق بين الحب في الله والحب مع الله .

فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثانا تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله وعبادته ، ويعظمون ما اتخذوا من دون الله شفعاء ، ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذبا ، ولا يجترىء أن يحلف بشيخه كاذبا .

وكثير من طوائف متعددة ترى أحدهم يرى أن استغاثته بالشيخ إما عند قبره أو غير قبره أنفع له من أن يدعو الله في المسجد عند السحر ، ويستهزىء بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد ، وكثير منهم يخربون المساجد ويعمرون المشاهد ، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله وبآياته ورسوله ؟ ! وتعظيمهم للشرك .

وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم ؛ مضاهاة لمشركي العرب، الذين ذكرهم الله في قوله : ﴿وَجَعلوا لِله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ والأنعامِ نَصِيباً﴾[3] الآية . فيفضلون ما يجعل لغير الله على ما يجعل الله ، ويقولون : الله غني وآلهتنا فقيرة .

وهؤلاء إذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه يبكي عنده ويخشع ويتضرع ما لا يحصل له مثله في الجمعة ، والصلوات الخمس ، وقيام الليل ، فهل هذا إلا من حال المشركين لا الموحدين ، ومثل هذه أنه إذا سمع أحدهم سماع الأبيات حصل له من الخشوع والحضور ما لا يحصل له عند الآيات ؛ بل يستثقلونها ويستهزؤون بها ، وبمن يقرأها مما يحصل لهم به أعظم نصيب من قوله : ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وآياتِهِ ورسولِهِ كنتم تَستهزئونَ ﴾ .

والذين يجعلون دعاء الموتى أفضل من دعاء الله : منهم من يحكي أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يغثه ، واستغاث بشيخه فأغاثه ، وأن بعض المأسورين دعا الله فلم يخرجه ، فدعا بعض الموتى ؛ فجاءه فأخرجه إلى بلاد الإسلام . وآخر قال : قبر فلان الترياق المجرب .

---

(1) سورة الفرقان الآية ٤١ .

(2) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

(3) سورة الأنعام الآية ١٣٦ .

ومنهم من إذا نزل به شدة لا يدعو إلا شيخه قد لهج به كما يلهج الصبي بذكر أمه . وقد قال تعالى للموحدين : ﴿ فإذا قَضَيْتُمْ مناسِكَكُمْ فاذْكُروا الله كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكراً ﴾[1] وقد قال شعيب : ﴿ يا قومِ ! أَرَهْطي أَعَزُّ عليكم مِنَ اللهِ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ لأَنتمْ أَشَدُّ رهبةً في صُدورِهِمْ مِنَ اللهِ ﴾[3] .

فصل[*]

﴿ والسّابقونَ الأوَّلونَ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ ﴾ (سورة التوبة : ١٠٠) هم هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم ، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين هم من صلى إلى القبلتين ، وهذا ضعيف ، فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة ، ولأن النسخ ليس من فعلهم الذي يفضلون به ، ولأن التفضيل بالصلاة إلى القبلتين لم يدل عليه دليل شرعي ، كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة تحت الشجرة ، ولكن فيه سبق الذين أدركوا ذلك على من لم يدركه[4] ، كما أن الذين أسلموا قبل أن تفرض الصلوات الخمس هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم ، والذين أسلموا قبل أن تجعل صلاة الحضر أربع ركعات هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم ، والذين أسلموا قبل أن يؤذن في الجهاد أو قبل أن يفرض صيام شهر رمضان هم سابقون على من أسلم بعدهم ، والذين أسلموا قبل أن يفرض الحج هم سابقون على من تأخر عنهم ، والذين أسلموا قبل تحريم الخمر هم سابقون على من أسلم بعدهم ، والذين أسلموا قبل تحريم الربا كذلك ، فشرائع الإسلام من الإيجاب والتحريم كانت تنزل شيئا فشيئا ، وكل من أسلم قبل أن تشرع شريعة فهو سابق على من تأخر عنه وله بذلك فضيلة ، ففضيلة من أسلم قبل نسخ القبلة على من أسلم بعده هي من هذا الباب . وليس مثل هذا مما يتميز به السابقون الأولون عن التابعين ، إذ ليس بعض هذه الشرائع بأولى بجعله خيرا من بعض ، ولأن القرآن والسنة قد دلا على تقديم أهل الحديبية ، فوجب أن تفسر هذه الآية بما يوافق سائر النصوص .

وقد علم بالاضطرار أنه كان في هؤلاء السابقين الأولين أبو بكر وعمر وعليّ وطلحة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .

(٢) سورة هود الآية ٩٢ .

(٣) سورة الحشر الآية ١٣ .

(*) منهاج السنة ١٧/٢ .

(٤) انظر وجوه تأويل الآية في تفسير الطبري ٤٣٤/١٤ - ٤٣٩ (ط . المعارف) .

والزبير ، وبايع النبي ﷺ بيده عن عثمان لأنه كان غائباً قد أرسله إلى أهل مكة ليبلغهم رسالته ، وبسببه بايع النبي ﷺ الناس لما بلغه أنهم قتلوه .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه (أن النبي ﷺ) قال : لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة[1] .

وقال تعالى : ﴿ لقدْ تابَ اللهُ على النبيِّ والمهاجرينَ والأنصارِ الذينَ اتّبَعُوهُ في ساعةِ العُسْرةِ مِنْ بعدِ ما كادَ يَزيغُ قُلوبُ فريقٍ منهم ثمّ تابَ عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ (سورة التوبة : ١١٧) ، فجمع بينهم وبين الرسول في التوبة .

وقال تعالى : ﴿ إنّ الذينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ في سبيلِ اللهِ والذينَ آوَوْا ونصروا أولئكَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ والذينَ آمَنوا ولَمْ يُهاجِروا ﴾ (سورة الأنفال : ٧٢) إلى قوله : ﴿ والذينَ آمَنوا مِنْ بعدُ وهاجَروا وجاهَدوا معكُمْ فأولئكَ منكُمْ ﴾ (سورة الأنفال : ٧٥) ، فأثبت الموالاة بينهم .

وقال للمؤمنين : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا اليهودَ والنّصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منكُمْ فإنهُ منهُمْ إنّ اللهَ لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾ (سورة المائدة : ٥١) إلى قوله : ﴿ إنما وَلِيُّكُمُ اللهُ ورسولُهُ والذينَ آمَنوا الذينَ يُقيمونَ الصّلاةَ وَيُؤتونَ الزكاةَ وَهُمْ راكعونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ ورسولَهُ والذينَ آمَنوا فإنّ حزبَ اللهِ هُمُ الغالبونَ ﴾ (المائدة : ٥٥ ـ ٥٦) . وقال تعالى : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴾ (سورة التوبة : ٧١) ، فأثبت الموالاة بينهم وأمر بموالاتهم ، والرافضة تتبرأ منهم ولا تتولاهم وأصل الموالاة المحبة ، وأصل المعاداة البغض وهم يبغضونهم ولا يحبونهم .

وقد وضع بعض الكذابين حديثا مفترى أن هذه الآية نزلت في عليّ لما تصدق بخاتمه في الصلاة[2] ، وهذا كذب بإجماع أهل العلم بالنقل ، وكذبه بين من وجوه كثيرة :

---

(١) الحديث بهذه الألفاظ في المسند ٣/٣٥٠ إلا أن فيه : أحد ممن بايع . أما حديث مسلم (٧/١٦٩) ففيه عن جابر : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة : لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها . قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة : (وإن منكم إلا واردها) ، فقال النبي ﷺ : قد قال الله عز وجل : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) . وذكر أحمد رواية مسلم هذه في المسند ٦/٤٢٠ ، وذكر روايتين اخريين بالفاظ مقاربة (وفيهما : لا يدخل النار أحد ـ وفي رواية : رجل شهد بدرا والحديبية) : المسند ٣/٣٩٦ ، ٦/٢٨٥ ، ٣٦٢ .

(٢) الآية المقصودة هنا في قوله تعالى : ﴿ انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ [سورة المائدة : ٥٥]، والحديث الموضوع المشار إليه ذكره ابن المطهر بتمامه في « منهاج الكرامة » ونقله ابن تيمية في « منهاج السنة » وردّ عليه تفصيلا . انظر : منهاج الكرامة ص ١٤٧ (م) ـ ١٤٨ (م) ، منهاج السنة (بولاق) ٤/٢ ـ ٩ .

منها : أن قوله (الذين) صيغة جمع ، وعليّ واحد .

ومنها : أن (الواو)[1] ليست واو الحال ، إذ لو كان كذلك لكان لا يسوغ أن يتولى إلا من أعطى الزكاة في حال الركوع ، فلا يتولى سائر الصحابة والقرابة .

ومنها : أن المدح إنما يكون بعمل واجب أو مستحب ، وإيتاء الزكاة في نفس الصلاة ليس واجبا ولا مستحبا باتفاق علماء الملة فإن في الصلاة شغلا .

ومنها : أنه لو كان إيتاؤها في الصلاة حسنا لم يكن فرق بين حال الركوع وغير حال الركوع ، بل إيتاؤها في القيام والقعود أمكن .

ومنها : أن عليّا لم يكن عليه زكاة على عهد النبي ﷺ .

ومنها : أنه لم يكن له أيضا خاتم ، ولا كانوا يلبسون الخواتم ، حتى كتب النبي ﷺ كتابا إلى كسرى ، فقيل له : إنهم لا يقبلون كتابا إلا مختوماً ، فاتخذ خاتما من ورق ونقش فيها : (محمد رسول الله) .

ومنها : أن إيتاء غير الخاتم في الزكاة خير من إيتاء الخاتم ، فإن أكثر الفقهاء يقولون ، لا يجزىء إخراج الخاتم في الزكاة .

ومنها : أن هذا الحديث فيه أنه أعطاه السائل ، والمدح في الزكاة أن يخرجها ابتداء ويخرجها على الفور ، لاينتظر أن يسأله سائل .

ومنها : أن الكلام في سياق النهي عن موالاة الكفار والأمر بموالاة المؤمنين ، كما يدل عليه سياق الكلام .

وسيجيء إن شاء الله تعالى تمام الكلام على هذه الآية ، فإن الرافضة لا يكادون يحتجون بحجة إلا كانت حجة عليهم لا لهم ، كاحتجاجهم بهذه الآية على الولاية التي هي الإمارة ، وإنما هي في الولاية التي هي ضد العداوة ، والرافضة مخالفون لها .

والإسماعيلية والنصيرية ونحوهم يوالون الكفار من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين ، ويعادون المؤمنين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين ، وهذا أمر مشهور (فيهم) ، يعادون خيار عباد الله المؤمنين ، ويوالون اليهود والنصارى والمشركين من الترك وغيرهم .

وقال تعالى : ﴿يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمنينَ﴾ (سورة الأنفال : ٦٤) ، أي الله كافيك و(كافي) من اتبعك من المؤمنين . والصحابة أفضل من اتبعه من

---

(١) وهي الواو في قوله تعالى : ﴿وهم راكعون﴾ .

المؤمنين وأولهم .

وقال تعالى : ﴿إذا جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتحُ * ورأيتَ الناسَ يَدخلونَ في دينَ اللَّهِ أفواجاً * فَسَبِّحْ بحمدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنهُ كانَ توّاباً﴾ ، والذين رآهم النبي ﷺ يدخلون في دين الله أفواجا هم الذين كانوا على عصره .

وقال تعالى : ﴿هوَ الذي أَيَّدكَ بنصرِهِ وبالمؤمنينَ * وألَّفَ بينَ قلوبِهِمْ﴾ (سورة الأنفال : ٦٢ ـ ٦٣) ، وإنماأيده في حياته بالصحابة .

وقال تعالى : ﴿والذي جاءَ بالصّدقِ وَصَدَّقَ بِهِ أولئكَ هُمُ المّتقونَ * لهم ما يشاؤ ون عند رَبِّهِمْ ذَلكَ جزاءُ المحسنينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عنهم أسْوَأَ الذي عَمِلوا وَيَجْزيَهُمْ أجْرَهُمْ بأحسنِ الذي كانوا يَعملونَ﴾ (سورة الزمر : ٣٣ ـ ٣٥) . وهذا الصنف الذي يقول الصدق ويصدق به ، خلاف الصنف الذي يفتري الكذب أو يكذب بالحق لما جاءه ، كما سنبسط القول فيهما إن شاء الله تعالى .

والصحابة (الذين كانوا) يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن القرآن حق ، هم أفضل من جاء بالصدق وصدق به بعد الأنبياء .

وليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أعظم افتراء للكذب على الله وتكذيبا بالحق من المنتسب إلى التشيع ، ولهذا لا يوجد الغلو في طائفة أكثر مما يوجد فيهم . ومنهم من ادعى إلهية البشر ، وادعى النبوة في غير النبي ﷺ ، وادعى العصمة في الأئمة ، ونحو ذلك مما هو أعظم مما يوجد في سائر الطوائف ، واتفق أهل العلم على أن الكذب ليس في طائفة من (الطوائف) المنتسبين إلى القبلة أكثر منه فيهم .

فصل(*)

سئل شيخ الإسلام

عن معنى قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ﴾[1] الآية . والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد ، والنبي ﷺ معصوم من الكبائر والصغائر .

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية : الحمد لله . الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب ، كبارها وصغارها ، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة

(*) مجموع الفتاوى ١٥/ ٥١ .

(١) سورة التوبة الآية ١٧٧ .

يرفع درجاتهم ، ويعظمِ حسناتهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وليست التوبة نقصا ؛ بل هي من أفضل الكمالات ، وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى : ﴿وَحَمَلَها الإنسانُ إنه كانَ ظَلوماً جَهولاً ؛ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ المنافقينَ والمنافقاتِ ، والمشركينَ والمشركاتِ ، وَيَتوبَ اللَّهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ﴾[1] ، فغاية كل مؤمن هي التوبة ، ثم التوبة تتنوع كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار : عن آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى وغيرهم . فقال آدم : ﴿ رَبَّنا ظَلَمْنا أنفسنَا وإنْ لَمْ تغفرْ لنا وترحمْنا لَنكونَنَّ من الخاسِرينَ ﴾[2] .

وقال نوح : ﴿رَبِّ إني أعوذُ بكَ أنْ أسألَكَ ما ليسَ لي بِهِ علمٌ ، وإلا تغفر لي وترحمْني أكُنْ مِنَ الخاسرينَ﴾[3] .

وقال الخليل : ﴿رَبَّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنينَ يومَ يقومُ الحسابُ﴾[4] .

وقال هو وإسماعيل : ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمةً لكَ ، وأرِنا مناسِكَنا وَتُبْ علينا إنكَ أنتَ التوابُ الرحيمُ﴾[5] .

وقال موسى : ﴿أنتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لنا وَارْحَمْنا وأنتَ خيرُ الغافرينَ ، واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ ، إنا هُدْنا اليكَ﴾[6] وقال تعالى : ﴿فلمّا أفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إليكَ وأنا أوّلُ المؤمنينَ﴾[7] .

وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء ، والله تعالى : ﴿يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ وفي أواخر ما أنزل الله على نبيه : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾[8] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٣ .

(٣) سورة هود الآية ٤٧ .

(٤) سورة ابراهيم الآية ٤١ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٢٨ .

(٦) سورة الأعراف الآية (١٥٥ ـ ١٥٦) .

(٧) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

(٨) سورة النصر .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول في افتتاح الصلاة : « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد »(١) وفي الصحيح أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح : « اللهم أنت الملك لا إله الا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وفي الصحيح أيضا عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله ، علانيته وسره ، أوله وآخره » وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت »(٢) . ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة .

وقد قال الله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذنبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ﴾(٣) فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم ، وأكبر طاعاتهم ، وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب ، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب .

فإذا قال القائل : أي حاجة بالأنبياء إلى العبادات والطاعات ؟ كان جاهلا ؛ لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم ، فكيف يقال : إنهم لا يحتاجون إليها ، فهي أفضل عبادتهم وطاعتهم .

وإذا قال القائل : فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب ، والاستغفار كذلك ، قيل له : الذنب الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة ، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة ، كما قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة أحسن منه حالا قبل الخطيئة ، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر ؛ فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء ، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب ، ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصا ولا عيبا ؛ بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانا ، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم ؛ فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الأذان) ، (كتاب الدعوات) ، وفي مسلم (كتاب المساجد) .

(٢) جزء من دعاء الاستفتاح ورد في : مسلم عن عليّ بن أبي طالب ٢/١٨٥ (كتاب صلاة المسافرين) ، وانظر كذلك ابن حنبل (المسند) ط دار المعارف ٢/١٣٤ حديث رقم ٨٠٢ ـ ٨٠٥ .

(٣) سورة محمد الآية ١٩ .

ولهذا قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الاسلام مع من لم يعرف الجاهلية . وقد قال الله تعالى : ﴿والذينَ لا يَدْعونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخرَ ، ولا يَقتلونَ النفسَ التي حرّمَ اللَّهُ إلا بالحقِّ ولا يَزنونَ ، وَمَنْ يفعلْ ذلكَ يَلْقَ أثاماً ، يُضاعَفْ لَهُ العذابُ يومَ القيامةِ وَيَخْلُدْ فيهِ مُهاناً ، إلا مَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عملاً صالحاً فأولئكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سيئاتِهِمْ حَسَناتٍ وكانَ اللَّهُ غفوراً رحيماً﴾[1] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ« أن الله يحاسب عبده يوم القيامة ، فيعرض عليه صغار الذنوب ويخبأ عنه كبارها فيقول : فعلت يوم كذا كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يا رب ! وهو مشفق من كبارها أن تظهر ، فيقول إني قد غفرتها لك ، وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة[2] ، فهنالك يقول رب إن لي سيئات ما أراها بعد » .

فالعبد المؤمن إذا تاب وبدل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها ، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له ؛ بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له ، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية ، فمن نسي القرآن ثم حفظه خيرا من حفظه الأول لم يضره النسيان ، ومن مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض .

والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه ؛ ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع ، والخشوع لله والإنابة إليه ، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة كمن ذاق الجوع والعطش ، والمرض والفقر والخوف ، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن ، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته ، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه ، والحذر أن يقع فيما حصل أو لا ما لم يحصل بدون ذلك . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

وينبغي أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن ، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله ، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها .

ومحمد ﷺ أكمل الخلق وأكرمهم على الله ، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات ؛ فهو أفضل المحبين لله وأفضل المتوكلين على الله ، وأفضل العابدين له ، وأفضل العارفين به وأفضل التائبين إليه ، وتوبته أكمل من توبة غيره ؛ ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

---

(١) سورة الفرقان الآيات (٦٨ ـ ٧٠) .

(٢) ورد الحديث في : مسلم (كتاب الإيمان) ، ابن حنبل ١٥٧/٥ .

وبهذه المغفرة نال الشفاعة يوم القيامة ، كما ثبت في الصحيح : « إن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم ، فيقول : إني نهيت عن الأكل من الشجرة . فأكلت منها ، نفسي ، نفسي ، نفسي . ويطلبونها من نوح فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة لم أومر بها ، نفسي . نفسي . ويطلبونها من الخليل . ثم من موسى ، ثم من المسيح فيقول : اذهبوا الى محمد عبدغفرالله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال : فيأتوني ، فأنطلق ، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً ، فأحمد ربي بمحامد يفتحها عليّ لا أحسنها الآن ، فيقول : أي محمد : ارفع رأسك ، وقل تسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : أي رب أمتي : فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة »[1] .

فالمسيح ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ دلهم على محمد ﷺ ، وأخبر بكمال عبوديته لله ، وكمال مغفرة الله له ، إذ ليس بين المخلوقين والخالق نسب إلا محض العبودية والافتقار من العبد ، ومحض الجود والإحسان من الرب عز وجل .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »[2] .

وثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فو الذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » وثبت عنه في الصحيح أنه قال : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »[3] فهو ﷺ لكمال عبوديته لله . وكمال محبته له ، وافتقاره إليه ، وكمال توبته واستغفاره : صار أفضل الخلق عند الله ، فإن الخير كله من الله ، وليس للمخلوق من نفسه شيء ، بل هو فقير من كل وجه ، والله غني عنه من كل وجه ، محسن إليه من كل وجه ، فكلما ازداد العبد تواضعا وعبودية ازداد إلى الله قربا ورفعة ؛ ومن ذلك توبته واستغفاره .

---

(١) حديث الشفاعة : ورد مطولاً في مسلم ١/١٠٠ ـ ١٠١ (كتاب الإيمان . باب أدنى أهل الجنة منزلة) ، البخاري ٦/١٠٦ (كتاب التفسير . سورة الإسراء) ، الترغيب والترهيب للمنذري ٥/٣٩٨ ، تيسير الوصول ٤/١٠٣ ـ ١٠٥ .

(٢) ورد الحديث بألفاظ مختلفة ومن روايات عدة انظر عنه : البخاري ٨/٩٨ ـ ٩٩ (كتاب الرقاق . باب القصد والمداومة على العمل) ، ومسلم ٨/١٤١ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم . باب لن يدخل احد الجنة بعمله) ، سنن ابن ماجه ٢/١٤٠٥ (كتاب الزهد) ، المسند (ط دار المعارف) رقم ٧٢٠٢ ، ٤٧٧٣ ، الدارمي ٢/٣٠٥ ـ ٣٠٦ (كتاب الرقائق) .

(١) ورد الحديث في مسلم ٨/٧٢ (كتاب الذكر والدعاء) ، سنن أبي داود ٢/١١٣ (كتاب الوتر) ، المسند ط الحلبي ٤/٤١١ .

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »[1] رواه ابن ماجه والترمذي .

فصل

قال تعالى : ﴿ هوَ الذي جَعَلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وَقَدَّرَهُ منازلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السنينَ والحسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلا بالحقِّ ﴾[2] فقوله : لتعلموا متعلق والله أعلم بقوله وقدره ، لا بجعل ، لأن كون هذا ضياء وهذا نورا لا تأثير له في معرفة عدد السنين والحساب ، وإنما يؤثر في ذلك انتقالها من برج إلى برج ، ولأن الشمس لم يعلق لنا بها حساب شهر ولا سنة ، وإنما علق ذلك بالهلال كما دلت عليه تلك ولانه قد قال : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشهورِ عندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً في كتابِ اللهِ يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ منهما أربعةٌ حُرُمٌ ﴾[3] فأخبر أن الشهور معدودة اثنا عشر ، والشهر هلالي بالاضطرار ، فعلم أن كل واحد منها معروف بالهلال ، وقد بلغني أن الشرائع قبلنا أيضا إنما علقت الأحكام بالأهلة ، وإنما يدل من أتباعهم كما يفعله اليهود في اجتماع القرصين وفي جعل بعض أعيادها بحساب السنة الشمسية ، وكما تفعله النصارى في صومها ، حيث يراعى الاجتماع القريب من أول السنة الشمسية ، وتجعل سائر أعيادها دائرة على السنة الشمسية بحسب الحوادث التي كانت للمسيح ، وكما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين في اصطلاحات لهم .

فإن منهم من يعتبر بالسنة الشمسية فقط ، ولهم اصطلاحات في عدد شهورها ، لأنها وإن كانت طبيعية فشهورها عددي وضعي ، ومنهم من يعتبر القمرية لكن يعتبر اجتماع القرصين وما جاءت به الشريعة هو أكمل الأمور وأحسنها وأبينها وأصحها وأبعدها من الاضطراب ، وذلك أن الهلال أمر مشهود مرئي بالأبصار ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار ، ولهذا سموه هلال لأن هذه المادة تدل على الظهور والبيان ، إما سمعا وإما بصرا كما يقال : أهلّ بالعمرة ، وأهلّ بالذبيحة لغير الله إذا رفع صوته . ويقال : تهلل وجهه إذا استنار وأضاء . وقيل : إن أصله رفع الصوت ، ثم لما كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤ يته سموه هلال ومنه قوله :

---

(١) ورد الحديث في الترمذي ٣٠٨/٩ (أبواب صفة القيامة . باب المؤمن يستثقل ذنوبه والتوبة) ، سنن ابن ماجه ١٤٢٠/٢ ، الدارمي ٣٠٢/٢ ، المستدرك للحاكم ٢٤٤/٤ وقال عنه الحاكم : حديث صحيح الإسناد جامع الأصول ٧٠/٣ ، الترغيب والترهيب ٥٢/٥ .

(٢) سورة يونس الآية ٥ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٦ .

يهلّ بالفرقد ركبانها كما يهلّ الراكب المعتمر

وتهلل الوجه : مأخوذ من استناره الهلال .

فالمقصود أن المواقيت حددت بأمر ظاهر بين ، يشترك فيه الناس ولا يشرك الهلال في ذلك شيء ، فإن اجتماع الشمس والقمر الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الإهلال ، أمر خفي لا يعرف إلا بحساب ينفرد به بعض الناس مع تعب وتضييع زمان كثير ، واشتغال عما يعني الناس وما لا بد له منه ، وربما وقع فيه الغلط والاختلاف .

وكذلك كون الشمس حاذت البرج الفلاني أو الفلاني ، هذا أمر لا يدرك بالأبصار ، وإنما يدرك بالحساب الخفي الخاص المشكل الذي قد يغلط ، وإنما يعلم ذلك بالإحساس تقريبا ، فإنه إذا انصرم الشتاء ودخل الفصل الذي تسميه العرب الصيف وتسميه الناس الربيع ، كان وقت حصول الشمس في نقطة الاعتدال الذي هو أول الحمل ، وكذلك مثله في الخريف ، فالذي يدرك بالإحساس الشتاء والصيف وما بينهما من الاعتدالين تقريبا ، فأما حصولها في برج بعد برج فلا يحسب إلا بحساب فيه كلفة وشغل عن غيره مع قلة جدواه .

فظهر أنه ليس للمواقيت حد ظاهر عام المعرفة إلا الهلال .

وقد انقسمت عادات الأمم في شهرهم وسنتهم القسمة العقلية ، وذلك أن كل واحد من الشهر والسنة إما أن يكونا عدديين أو طبيعيين ، أو الشهر طبيعيا والسنة عددية أو بالعكس .

فالذين يعدونهما مثل من يجعل الشهر ثلاثين يوما والسنة اثني عشر شهرا .

والذين يجعلونهما طبيعيين مثل من يجعل الشهر قمريا والسنة شمسية ، ويلحق في آخر الشهور الأيام المتفاوتة بين السنتين ، فإن السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وبعض يوم خمس وسدس ، وإنما يقال فيها ثلاثمائة وستون يوما جبرا للكسر في العادة ، عادة العرب في تكميل ما ينقص من التاريخ في اليوم والشهر والحول ، وأما الشمسية فثلاثمائة وخمسة وستون يوما وبعض يوم ربع يوم ، ولهذا كان التفاوت بينهما أحد عشر يوما إلا قليلا تكون سنة في كل ثلاثة وثلاثين سنة وثلث سنة ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾[1] قيل معناه ثلاثمائة سنة شمسية وازدادوا تسعا بحساب السنة القمرية ، ومراعاة هذين عادة كثير من الأمم من أهل الكتابين بسبب تحريفهم ، وأظنه كان عادة المجوس أيضا .

وأما من يجعل السنة طبيعية والشهر عدديا ، فهذا حساب الروم والسريانيين والقبط

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٥ .

ونحوهم ، من الصابئين والمشركين ممن يعد شهر كانون ونحوه عددا ويعتبر السنة بسير الشمس .

فأما القسم الرابع فبأن يكون الشهر طبيعيا والسنة عددية ، فهو سنة المسلمين ومن وافقهم ، ثم الذين يجعلون السنة طبيعية لا يعتمدون على أمر ظاهر كما تقدم بل لا بد من الحساب والعدد ، وكذلك الذين يجعلون الشهر طبيعيا ويعتمدون على الاجتماع لا بد من العدد والحساب ، ثم ما يحسبونه أمر خفي ينفرد به القليل من الناس ، مع كلفة ومشقة وتعرض للخطأ .

فالذين جاءت به شريعتنا أكمل كل الأمور ، لأنه وقت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالأبصار . فلا يضل أحد عن دينه ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه ولا يدخل بسببه فيما لا يعنيه ، ولا يكون لأحد طريق إلى التلبيس في دين الله ، كما يفعل بعض علماء أهل الملل بمللهم .

وأما الحول فلم يكن له حد ظاهر في السماء ، فكان لا بد فيه من الحساب والعدد ، فكان عدد الشهور الهلالية أظهر وأعم من أن يحسب سير الشمس وتكون السنة مطابقة للشهر ، ولأن السنين إذا اجتمعت فلا بد من عددها في عادة جميع الأمم ؛ إذ ليس للسنين إذا تعددت حدّ سماوي يعرف به عددها فكان عدد الشهور موافقا لعدد الشهور ، ثم جعلت السنة اثني عشر شهرا بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها شمسية ، فإذا دار القمر فيها كمل دورته السنوية ، وبهذا كله يتبين معنى قوله : ﴿ وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فإن عدد شهور السنة وعدد السنة بعد السنة ، إنما أصله تقدير القمر منازل ، وكذلك معرفة الحساب ، فإن حساب بعض الشهر لما يقع فيه من الآجال ونحوها ، إنما يكون بالهلال وكذلك قوله تعالى : ﴿ قل هي مواقيت للناس والحج ﴾[1] .

ظهر بما ذكرنا أنه بالهلال يكون توقيت الشهر والسنة ، وأنه ليس شيء يقوم مقام الهلال البتة ، لظهوره وظهور العدد المبني عليه وتيسر ذلك وعمومه ، وغير ذلك من المصالح الخالية عن المفاسد .

ومن عرف ما دخل على أهل الكتابيين والصابئين والمجوس وغيرهم ، في أعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك من أمورهم من الاضطراب والحرج وغير ذلك من المفاسد ، ازداد شكره على نعمة الإسلام مع اتفاقهم أن الأنبياء لم يشرعوا شيئا من ذلك ، وإنما دخل عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصابئة الذين دخلوا في ملتهم وشرعوا لهم من الدين ما لم

---

(١) البقرة : ١٨٩ .

يأذن به الله ، فلهذا ذكرنا ما ذكرنا حفظا لهذا الدين عن إدخال المفسدين ، فإن هـذا مما يخاف تغييره ، فإنه قد كانت العرب في جاهليتها قـد غيرت ملة إبـراهيم بالنسيء الـذي ابتدعتـه ، فزادت به في السنة شهرا جعلتها كبيسا لأغراض لهم ، وغيروا به ميقات الحج والأشهر الحرم ، حتى كانوا يحجون تارة في المحرم وتارة في صفر حتى يعود الحـج إلى ذي الحجة ، حتى بعث الله المقيم لملة إبراهيم ، فوافى حجه ﷺ حجة الـوداع ، وقد استـدار الزمـان كما كـان ، ووقعت حجتـه في ذي الحجـة ، فقـال في خـطبتـه المشهـورة في الصحيحـين وغيـرهمـا : « إن الـزمـان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنـا عشر شهـرا ؛ منها أربعـة حرم ، ثـلاث متـواليـات : ذو العقـدة ، وذو الحجـة ، والمحـرم ، رجب مضـر الـذي بين جمـادى وشعبان »(١) وكان قبل ذلك الحج لا يقع في ذي الحجة حتى حجة أبي بكـر سنة تسـع كانت في ذي القعدة ، وهذا من أسباب تأخير النبي ﷺ الحج وأنزل الله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنـا عشر شهـرا في كتاب الله يـوم خلق السموات والأرض منهـا أربعـة حـرم ذلـك الـدين القيم ﴾(٢) فأخبر الله أن هـذا هو الـدين القيم ، ليبين أن مـا سواه من أمـر النسيء وغيره من عـادات الأمم ليس قيما ، لمـا يدخله من الانحـراف واضطراب ، ونـظير الشهـر والسنـة اليـوم والأسبوع ، فإن اليوم طبعي من طلوع الشمس وغروبهـا ، وأما الأسبـوع فهو عـددي من أجل الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، ثم استـوى على العـرش ، فوقـع التعديـل بـين الشمس والقمر ، بـاليـوم والأسبـوع بسبب الشمس ، (وبـين)(٣) الشهـر والسنـة بسبب القمر ، وبهما يتم الحساب ، وبهذا قـد توجـه قولـه لتعلموا إلى جعـل ، فيكون جعـل الشمس والقمر لهذا كله فأما قوله تعالى : ﴿ وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ﴾(٤) فقد قيـل هو من الحساب ، وقيـل بحسبان كحسبـان الرحـا وهو دوران الفلك ، فـإن هذا مما لا خلاف فيـه ، فقد دل الكتـاب والسنة ، وأجمـع علماء الأمة عـلى مثل مـا عليه أهـل المعرفـة من أهـل الحساب ، من أن الأفلاك مستديرة لا مسطحة .

(فصـل) لما ظهـر بما ذكـرناه عـود المواقيت إلى الأهلة ، وجب أن تكـون المواقيت كلهـا معلقة بها ، فلا خلاف بـين المسلمين أنـه إذا كان مبـدأ الحكم في الهلال حسبت الشهـور كلها هلالية ، مثل أن يصوم للكفارة في هلال المحرم ، أو يتوفى زوج المرأة في هلال المحرم ، أو يولي من امرأته في هلال المحرم ، أو يبيعه في الهلال إلى شهرين أو ثلاثة ، فإن جميـع الشهور تحسب

---

(١) خطبة الوداع وردت كذلك في الترمذي (كتاب الفتن) ، والنسائي ، وابن ماجه (كتاب الفتن) ، وابن حنبل ١/٢٣١ ، والبخاري (كتاب العلم) ، مسلم (كتاب القسامة) .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٦ .

(٣) لفظ [وبين] ليس بالأصل وزيد لحاجة السياق إليه .

(٤) سورة الأنعام الآية ٩٦ .

بالأهلة ، وإن كان بعضها أو جميعها ناقصا ، فأما إن وقع مبدأ الحكم في أثناء الشهر فقد قيل الشهور كلها بالعدد ، بحيث لو باعه إلى سنة في أثناء المحرم عدد ثلاثمائة وستين يوما ، وإن كان إلى ستة أشهر عدد مائة وثمانين يوما ، فإذا كان المبدأ منتصف المحرم كان المنتهى العشرين من المحرم، وقيل بل يكمل الشهر بالعدد والباقي بالأهلة ، وهذان القولان روايتان عن أحمد وغيره ، وبعض الفقهاء يفرق في بعض الأحكام ، ثم لهذا القول تفسيران أحدهما : أنه يجعل الشهر الأول ثلاثين يوما وباقي الشهور هلالية ، فإذا كان الإيلاء في منتصف المحرم حسب باقيه ، فإن كان الشهر ناقصا أخذ منه أربعة عشر يوما وكمله بستة عشر يوما من جمادى الأولى ، وهذا يقوله طائفة من أصحابنا وغيرهم .

والتفسير الثاني : وهو الصواب الذي عليه عمل المسلمين قديما وحديثا ، أن الشهر الأول إن كان كاملا كمل ثلاثين يوما ، وإن كان ناقصا جعل تسعة وعشرين يوما ، فمتى كان الإيلاء في منتصف المحرم ، كملت الأشهر الأربعة في منتصف جمادى الأولى وهكذا سائر الحساب ، وعلى هذا القول فالجميع بالهلال ولا حاجة إلى أن يقول بالعدد ، بل ينظر اليوم الذي هو المبدأ من الشهر الأول فيكون النهاية مثله من الشهر الآخر ، فإن كان في أول ليلة من الشهر الأول كانت النهاية في مثل تلك الساعة بعد كمال الشهور ، وهو أول ليلة بعد انسلاخ الشهور ، وإن كان في اليوم العاشر من المحرم أو غيره على قدر الشهور المحسوبة ، وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ودل عليه قوله ، ﴿قل هي مواقيت للناس﴾ فجعلها مواقيت لجميع الناس مع علمه سبحانه أن الذي يقع في أثناء الشهور أضعاف أضعاف ما يقع في أوائلها ، فلو لم يكن ميقاتا إلا لما يقع في أولها لما كانت ميقاتا إلا لأقل من ثلث عشر أمور الناس ، ولأن الشهر إذا كان ما بين الهلالين فما بين الهلالين مثل ما بين هذا وبين هذا سواء ، والتسوية معلومة بالاضطرار والفرق تحكم محض .

وأيضا فمن الذي جعل الشهر العددي ثلاثين ، والنبي ﷺ قال الشهر هكذا وهكذا وهكذا وخنس إبهامه في الثالثة ، ونحن نعلم أن نصف شهور السنة يكون ثلاثين ، ونصفها تسعة وعشرين ، وأيضا فعامة المسلمين في عبادتهم ومعاملاتهم إذا أجل الحق إلى سنة، فإن كان مبدؤه هلال المحرم كان منتهاه عاشر المحرم أيضا لا يعرف المسلمون غير ذلك ولا يبنون إلا عليه ، ومن أخذ ليزيد يوما لنقصان الشهر الأول كان قد غير عليهم ما فطروا عليه من المعروف وأتاهم بمنكر لا يعرفونه ، فعلم أن هذا غلط ممن توهمه من الفقهاء ، ونبهنا عليه ليحذر الوقوع فيه وليعلم به حقيقة قوله : ﴿قل هي مواقيت للناس﴾ وأن هذا العموم محفوظ عظيم القدر لا يستثنى عنه شيء وكذلك قوله : ﴿هوَ الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقدَّرَهُ منازلَ

لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ﴾ وكذلك قوله : ﴿وَجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيَتَيْنِ والحسابَ﴾[1] يبين بذلك أن جميع عدد السنين والحساب تابع لتقديره منازل . والله أعلم وأحكم .

فصـــل(*)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿هوَ الذي جَعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نُوراً وقدّرَهُ منازلَ لِتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ﴾ .

وقوله : ﴿وجعلَ الليلَ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حسباناً﴾ وقوله : ﴿الشمسُ والقمرُ بِحُسبانٍ﴾ قوله : ﴿والقمرَ قدّرناهُ منازلَ حتى عادَ كالعُرْجونِ القديمِ﴾ وقوله : ﴿يَسألونَكَ عَنِ الأهِلّةِ قلْ هيَ مَواقيتُ للناسِ والحجِّ﴾ دليل على توقيت ما فيها من التوقيت للسنين والحساب . فقوله : ﴿لتعلمواعدد السنين والحساب﴾ إن علق بقوله : ﴿وقدره منازل﴾ كان الحكم مختصا بالقمر ، وإن أعيد إلى أول الكلام تعلق بهما . ويشهد للأول قوله من الأهلة ، فإنه موافق لذلك ، ولأن كون الشمس ضياء والقمر نورا لا يوجب علم عدد السنين والحساب ، بخلاف تقدير القمر منازل فإنه هو الذي يقتضي علم عدد السنين والحساب ، ولم يذكر انتقال الشمس في البروج .

ويؤيد ذلك قوله : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله﴾ الآية فإنه نص على أن السنة هلالية وقوله : ﴿الحَجُّ أشهرٌ معلوماتٌ﴾ يؤيد ذلك ، لكن يدل على الآخر قوله : ﴿وَجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ وَجَعَلْنا آيةَ النهارِ مبصرةً ، لِتبتغوا فضلاً من رَبِّكُمْ ، ولِتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ﴾ .

وهذا والله أعلم لمعنى تظهر به حكمة ما في الكتاب ، وما جاءت به الشريعة من اعتبار الشهر والعام الهلالي دون الشمسي ، إن كل واحد من الشهر والعام ينقسم في إصطلاح الأمم إلى عددي وطبيعي ، فأما الشهر الهلالي فهو طبيعي ، وسنته عددية .

وأما الشهر الشمسي : فعددي ، وسنته طبيعية ، فأما جعل شهرنا هلالياً فحكمته ظاهرة ، لأنه طبيعي وإنما علق بالهلال دون الاجتماع ، لأنه امر مضبوط بالحس لا يدخله

---

(1) سورة الإسراء الآية ١٢ .
(*) مجموع الفتاوى ١٥/٥٨ .

خلل ، ولا يفتقر إلى حساب ، بخلاف الاجتماع ، فإنه أمر خفي يفتقر إلى حساب ، وبخلاف الشهر الشمسي لو ضبط .

وأما السنة الشمسية فإنها وإن كانت طبيعية ، فهي من جنس الاجتماع ليس أمرا ظاهرا للحس ، بل يفتقر إلى حساب سير الشمس في المنازل ، وإنما الذي يدركه الحس تقريب ذلك ، فإن انقضاء الشتاء ودخول الفصل الذي تسميه العرب الصيف ويسميه غيرها الربيع أمر ظاهر ، بخلاف محاذاة الشمس لجزء من أجزاء الفلك يسمى برج كذا ، أو محاذاتها لإحدى نقطتي الرأس ، أو الذنب ، فإنه يفتقر إلى حساب .

ولما كانت البروج اثني عشر فمتى تكرر الهلالي اثني عشر فقد انتقل فيها كلها ، فصار ذلك سنة كاملة تعلقت به أحكام ديننا من المؤقتات شرعا ، أو شرطا ، إما بأصل الشرع كالصيام والحج . وإما بسبب من العبد كالعدة ومدة الإيلاء ، وصوم الكفارة والنذر . وإما بالشرط كالأجل في الدين والخيار ، والأيمان وغير ذلك .

فصل(*)

﴿ألا إن أولياءَ اللَّهِ لا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحزنونَ﴾(١) .

و﴿أولياء الله﴾ هم ﴿الذينَ آمنوا وكانوا يَتّقونَ﴾ كما ذكر الله تعالى في كتابه . وهم « قسمان » : المقتصدون أصحاب اليمين ، والمقربون السابقون .

فولي الله ضد عدو الله ، قال الله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون : الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ وقال تعالى : ﴿إنما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورسولُهُ والذينَ آمَنوا ـ إلى قوله ـ وَمَنْ يَتَولّ اللَّهَ ورسولَهُ والذينَ آمَنوا فإنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغالبونَ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿لا تَتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أولياءَ﴾(٣) وقال : ﴿ويومَ يُحْشَرُ أعداءُ اللَّهِ إلى النّارِ فَهُمْ يُوزَعونَ﴾(٤) وقال : ﴿أَفَتَتَّخِذونَهُ وَذُرِّيّتَهُ أولياءَ مِنْ دوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾(٥) وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : « من عادى لي

(*) مجموع الفتاوى ٦١/١١ .

(١) سورة يونس الآية ٦٢ .

(٢) سورة المائدة الآيات (٥٥ ـ ٥٦) .

(٣) سورة الممتحنة الآية ١ .

(٤) سورة فصلت الآية ١٩ .

(٥) سورة الكهف الآية ٥٠ .

وليّا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه »[١] .

و« الولي » مشتق من الولاء وهو القرب كما أن العدو من العدو وهو البعد . فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته ، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته . وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح الصنفين المقتصدين من أصحاب اليمين ، وهم المتقربون إلى الله بالواجبات ، والسابقين المقربين وهم المتقربون إليه بالنوافل بعد الواجبات .

وذكر الله « الصنفين » في « سورة فاطر » و« الواقعة » و« الإنسان » و« المطففين » وأخبر أن الشراب الذي يروى به المقربون بشربهم إياه صرفا يمزج لأصحاب اليمين .

و« الولي المطلق » هو من مات على ذلك . فأما إن قام به الإيمان والتقوى وكان في علم الله أنه يرتد عن ذلك ، فهل يكون في حال إيمانه وتقواه ولياً لله أو يقال لم يكن وليا لله قط لعلم الله بعاقبته ؟ هذا فيه قولان للعلماء . وكذلك عندهم الإيمان الذي يعقبه الكفر هل هو إيمان صحيح ثم يبطل بمنزلة ما يحبط من الأعمال بعد كماله ، أو هو إيمان باطل بمنزلة من أفطر قبل غروب الشمس في صيامه ومن أحدث قبل السلام في صلاته . فيه أيضا قولان : للفقهاء والمتكلمين والصوفية .

والنزاع في ذلك بين أهل السنة والحديث من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم وكذلك يوجد النزاع فيه بين أصحاب مالك والشافعي وغيرهم . لكن أكثر أصحاب أبي حنيفة لا يشترطون سلامة العاقبة ، وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد يشترط سلامة العاقبة ، وهو قول كثير من متكلمي أهل الحديث : كالأشعري ، ومن متكلمي الشيعة ويبنون على هذا النزاع : أن ولي الله هل يصير عدوا لله وبالعكس ؟ ومن أحبه الله ورضى عنه . هل أبغضه وسخط عليه في وقت ما وبالعكس ؟ ومن أبغضه الله وسخط عليه هل أحبه الله ورضي عنه في وقت ما على القولين ؟ .

و« التحقيق » هو الجمع بين القولين . فإن علم الله القديم الأزلي وما يتبعه من محبته ورضاه ، وبغضه وسخطه ، وولايته وعداوته لا يتغير . فمن علم الله منه أنه يوافي حين موته بالإيمان والتقوى فقد تعلق به محبة الله وولايته ورضاه عنه أزلا وأبدا ، وكذلك من علم الله منه

---

(١) ورد الحديث في : ابن ماجه (كتاب الفتن) ، البخاري (كتاب الرقاق) .

أنه يوافي حين موته بالكفر فقد تعلق بـه بغض الله وعداوتـه ، وسخطه أزلا وأبـدا ، لكن مع ذلك فإن الله تعالى يبغض ما قام بالأول من كفـر وفسوق قبـل موتـه . وقد يقـال : أنه يبغضـه ويمقته على ذلك، كما ينهاه عن ذلك وهو سبحانه وتعالى يأمر بما فعله الثاني من الإيمان والتقوى ، ويحب ما يأمر به ويرضاه ، وقد يقال أنه يواليه حينئذ على ذلك .

والدليل على ذلك : اتفاق الأئمة على أن من كان مؤمنا ثم ارتد فإنه لا يحكم بـأن إيمانـه الأول كان فاسدا ، بمنزلة من أفسد الصلاة والصيام والحج قبل الإكمـال ؛ وإنما يقـال كما قـال الله تعـالى : ﴿وَمَنْ يكفـرْ بـالإيمـانِ فقـدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾[1] وقـال : ﴿لَئِنْ أشْـرَكْتَ لَيَحْبَـطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2] وقال : ﴿وَلَوْ أشْرَكوا لَحَبِطَ عنهم مـا كانـوا يَعملونَ﴾[3] ولو كـان فاسـدا في نفسه لوجب الحكم بفساد أنكحته المتقدمة ، وتحريم ذبائحه ، وبطلان إرثه المتقدم ، وبطلان عباداته جميعها ، حتى لو كان قد حـج عن غيره كـان حجه بـاطلا ، ولـو صلى مـدة بقوم ثم ارتـد كان عليهم أن يعيـدوا صلاتهم خلفـه ، ولول شهـد أو حكم ثم ارتد (لـوجب) أن تفسد شهـادته وحكمه ونحو ذلك . وكذلك أيضا الكافر إذا تاب من كفره ، لو كان محبوبا لله وليا له في حـال كفره ، لوجب أن يقضى بعدم أحكام ذلك الكفر ، وهذا كله خلاف مـا ثبت بالكتـاب والسنة والإجماع .

والكلام في هذه « المسألة » نظير الكلام في الأرزاق والآجال وهي أيضا مبنية على « قاعدة الصفات الفعلية » وهي قاعدة كبيرة .

وعـلى هذا يخرج جواب السـائل ، فمن قـال : إن ولي الله لا يكون إلا من وافـاه حـين الموت بالإيمان والتقوى ، فالعلم بذلك أصعب عليه وعلى غيره . ومن قـال : قد يكـون وليا لله من كان مؤمنا تقيا وإن لم تعلم عاقبته فالعلم به أسهل .

ومع هذا يمكن العلم بذلك للولي نفسـه ولغيره ، ولكنـه قليل ولا يجوز لهم القطع على ذلـك ، فمن ثبتت ولايته بـالنص . وأنه من أهـل الجنة كـالعشرة وغيـرهم فعامـة أهل السنة يشهدون له بما شهد له به النص . وأما من شاع لـه لسان صـدق في الأمة بحيث اتفقت الأمـة على الثناء عليه فهل يشهـد له بـذلك ؟ هـذا فيه نـزاع بين أهـل السنة ، ولأشبـه أن يشهد لـه بذلك . هذا في الأمر العام .

وأما « خواص الناس » فقد يعلمون عواقب أقوام بما كشف الله لهم ، لكن هذا ليس ممن

(١) سورة المائدة الآية ٥ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٨ .

يجب التصديق العام به ، فإن كثيرا ممن يظن به أنه حصل له هـذا الكشف يكون ظـانا في ذلك ظنا لا يغني من الحق شيئا ، وأهل المكاشفـات والمخاطبات يصيبون تـارة ؛ ويخطئـون أخرى ؛ كأهل النظر والاستدلال في مـوارد الاجتهاد ؛ ولهـذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتـاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن يزِنـوا مواجيـدهم ومشاهـدتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتـاب الله وسنة رسوله ؛ ولا يكتفوا بمجرد ذلك ؛ فإن سيد المحدثين والمخاطبين الملهمين من هذه الأمة هو عمر ابن الخطاب ؛ وقد كانت تقع له وقائع فيردها عليه رسول الله ﷺ ؛ أو صديقه التابع له الآخذ عنه الذي هو أكمل من المحدث الذي يحدثه قلبه عن ربه .

ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول ﷺ وطاعته في جميع أموره الباطنة والـظاهرة ، ولـو كان أحـد يأتيـه من الله ما لا يحتـاج إلى عرضـه عـلى الكتـاب والسنـة لكـان مستغنيـا عن الرسول ﷺ في بعض دينه . وهذا من أقوال المارقين الذين يظنون أن من الناس من يكون مـع الرسول كالخضر مع موسى ، ومن قال هذا فهو كافر .

وقد قال الله تعـالى : ﴿ وما أَرْسَلْنـا مِنْ رسولٍ ولا نَبِيٍّ إلا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشيـطانُ في أُمْنِيَّتِـهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ مـا يُلقي الشيطانُ ثمّ يُحْكِمُ اللهُ آيـاتِـهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾[1] فقـد ضمن الله للرسـول وللنبي أن ينسخ مـا يلقي الشيـطان في أمنيتـه ، ولم يضمن ذلـك للمحـدث ؛ ولهذا كان في الحرف الآخر الذي كان يقرأ به ابن عباس وغيره : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) .

ويحتمل والله أعلم أن (لا)[2] يكون هـذا الحرف متلوا ، حيث لم يضمن نسـخ ما ألقى الشيطان في (في أمنية المحدث)[2] ؛ فإن نسخ ما ألقى الشيطان ليس إلا للأنبيـاء والمرسلين ، إذ هم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى أن يستقر فيه شيء من إلقاء الشيطان ، وغيـرهم لا تجب عصمته من ذلك ، وإن كان من أولياء الله المتقـين ، فليس من شرط أوليـاء الله المتقين أن لا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفورا لهم ؛ بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقا ، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ والذي جـاءَ بالصِّـدقِ وصَدَّقَ بِـهِ أولئكَ هُمُ المتقـونَ ، لهم ما يَشاؤ ونَ عندَ رَبِّهِمْ ذلكَ جزاءُ المحسنينَ لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم أَسْوَأَ الـذي عَمِلوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بأحسنِ الذي كانوا يَعلمونَ ﴾[3] فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون . و « المتقـون » هم أولياء

---

(١) سورة الحج الآية ٥٢ .

(٢ ـ ٢) ليست بالأصل وزيدت لحاجة السياق اليها .

(٣) سورة الزمر الآية (٣٣ ـ ٣٤) .

الله ، ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان .

وإنما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من الغالية في بعض المشائخ ، ومن يعتقدون أنه من الأولياء . فالرافضة تزعم أن « الأثني عشر » معصومون من الخطأ والذنب . ويرون هذا من أصول دينهم ، والغالية في المشائخ قد يقولون : إن الولي محفوظ والنبي معصوم . وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه ؛ وقد بلغ الغلو بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي وأفضل منه ، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعا من الإلهية ، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية للضلالات النصرانية . فإن في النصارى من الغلو في المسيح والأحبار والرهبان ما ذمهم الله عليه في القرآن ؛ وجعل ذلك عبرة لنا ؛ لئلا نسلك سبيلهم ، ولهذا قال سيد ولد آدم : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ؛ ورسوله »[1] .

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ (فيها) .

منها قوله تعالى : ﴿ وما يَتَّبِعُ الذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ شركاءَ ﴾[2] ظن طائفة أن ما نافية وهو خطأ ، بل هي استفهام ، فإنهم يدعون معه شركاء كما أخبر عنهم في غير موضع ، فالشركاء يوصفون في القرآن بأنهم يدعون ، لأنهم يتبعون وإنما يتبع الأئمة ، ولهذا قال : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ ولو أراد النفي لقال : إن يتبعون إلا من ليسوا شركاء ، بل بين أن الشرك لا علم معه ، إن هو إلا الظن والخرص كقوله : ﴿ قتل الخراصون ﴾ .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الأنبياء) ، الدارمي (كتاب الرقاق) ابن حنبل ٣٢/١ .

(٢) سورة يونس الآية ٦٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود

فصل(*)

عرض لما تضمنته السورة

قد افتتح السورة فقال : ﴿ كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثمّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ ، ألاّ تَعْبُدوا إلا الله إنني لكم منهُ نذيرٌ وبشيرٌ ﴾(١) فذكر أنه نذير وبشير ؛ نذير ينذر بالعذاب لأهل النار وبشير يبشر بالسعادة لأهل الحق .

ثم ذكر حال الفريقين في السراء والضراء ، فقال : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنا الإنسانَ منّا رحمةً ثمّ نَزَعْناها منهُ إنّهُ لَيَؤوسٌ كفورٌ ، وَلَئِن أَذَقْناهُ نعماءَ بعدَ ضَرّاءَ مَسّتْهُ لَيَقولَنَّ ذهبَ السّيئاتُ عني ؛ إنه لَفَرِحٌ فخورٌ ، إلا الذينَ صَبَروا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ ﴾(٢) .

ثم ذكر بعد هذا قصص الأنبياء وحال من اتبعهم ومن كذبهم ، كيف سعد هؤلاء في الدنيا والآخرة ، وشقي هؤلاء في الدنيا والأخرة فذكر ما جرى لهم ، إلى قوله : ﴿ ذلكَ مِنْ أنباءِ القُرى نَقُصّهُ عليكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَذلكَ يومٌ مَشْهودٌ ﴾(٣) .

ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا . ثم قال : ﴿ إنّ في ذلكَ لآيةً لِمَنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ﴾(٤) فإنه قد يقال : غاية ما أصاب هؤلاء أنهم ماتوا والناس كلهم يموتون ،

(*) مجموع الفتاوى ١٠٣/١٥ .

(١) أول سورة هود .

(٢) سورة هود الآيات (٩ ـ ١٠) .

(٣) سورة هود الآية (١٠٠ ـ ١٠٣) .

(٤) سورة هود الآية ١٠٥ .

وأما كونهم أهلكوا كلهم وصارت بيوتهم خاوية ، وصاروا عبرة يذكرون بالشر ويلعنون ، إنما يخاف ذلك من آمن بالآخرة ، فإن لعنة المؤمنين (لهم) بالآخرة وبغضهم لهم كما جرى لآل فرعون هو مما يزيدهم عذابا ، كما أن لسان الصدق وثناء الناس ودعاءهم للأنبياء ، واتباعهم لهم هو مما يزيدهم ثوابا .

فمن استدل بما أصاب هؤلاء على صدق الأنبياء فآمن بالآخرة خاف عذاب الآخرة ، وكان ذلك له آية ، وأما من لم يؤمن بالآخرة ويظن أن من مات لم يبعث فقد لا يبالي بمثل هذا ، وإن كان يخاف هذا من لا يخاف الآخرة ؛ لكن كل من خاف الآخرة كان هذا حاله وذلك له آية .

وقد ختم السورة بقوله : ﴿ وَقُلْ للذينَ لا يُؤمنونَ اعْمَلوا على مكانَتِكُمْ إنّا عامِلونَ ﴾[1] إلى آخرها ، كما افتتحها بقوله : ﴿ أنْ لا تَعْبُدوا إلا الله ﴾ فذكر التوحيد والإيمان بالرسل ، فهذا دين الله في الأولين والآخرين ، قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون ، ماذا كنتم تعبدون ، وماذا أجبتم المرسلين .

ولهذا قال : ﴿ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فيقولُ ماذا أَجَبْتُمُ المرسَلِينَ ﴾[2] ؟ و ﴿ أينَ شُرَكائي الذينَ كنتم تَزْعُمونَ ﴾[3] ؟ هو الشرك في العبادة ، وهذان هما الإيمان والإسلام ، وكان النبي ﷺ يقرأ تارة في ركعتي الفجر سورتي الإخلاص ، وتارة بآيتي الإيمان والإسلام ، فيقرأ قوله : ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ الآية فأولها الإيمان ، وآخرها الإسلام ، ويقرأ في الثانية : ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم ألّا نَعْبُدَ إلا الله ﴾[4] فأولها إخلاص العبادة لله وآخرها الإسلام له .

وقال : ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتي هيَ أَحْسَنُ ، إلّا الذينَ ظَلَموا منهم ، وقولوا آمَنّا بالذي أُنزِلَ إلينا وأُنْزِلَ إليكم ، وإلهُنا وإلهُكم واحدٌ ، ونحنُ لَهُ مُسلِمونَ ﴾[5] ففيها الإيمان والإسلام في آخرها ، وقال : ﴿ الذينَ آمَنوا بآياتِنا وكانوا مُسلِمينَ ، ادْخلوا الجنةَ أنتم وأزواجُكُمْ تَحْبُرونَ ﴾[6] .

---

(١) سورة هود الآية ١٢١ .
(٢) سورة القصص الآية ٦٥ .
(٣) سورة القصص الآية ٦٢ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٦٤ .
(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .
(٦) سورة الزخرف الآيات (٦٩ ـ ٧٠) .

فصـــل

وقوله تعالى : ﴿ كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثمّ فُصِّلَتْ ﴾[1] فقد فصله بعد إحكامه ؛ بخلاف من تكلم لم يحكمه ، وقد يكون في الكلام المحكم ما لم يبينه لغيره ؛ فهو سبحانه أحكم كتابه ثم فصله وبينه لعباده ، كما قال : ﴿ وكذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سبيلُ المجرمينَ ﴾[2] وقال : ﴿ ولقد جِئْناهُم بكتابٍ فَصّلناهُ على عِلْمٍ هدىً ورحمةً لقومٍ يُؤمنونَ ﴾[3] فهو سبحانه بينه وأنزله على عباده بعلم ليس كمن يتكلم بلا علم .

وقد ذكر براهين التوحيد والنبوة قبل ذكر الفرق بين أهل الحق والباطل ، فقال : ﴿ أمْ يَقولونَ افْتَراهُ قلْ : فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفْتَرَياتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فهل أنتم مُسلمونَ ﴾[4] فلما تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات هم وجميع من يستطيعون من دونه : كان في مضمون تحديه أن هذا لا يقدر أحد على الإتيان بمثله من دون الله ، كما قال : ﴿ قلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ﴾[5] .

وحينئذ : فعلم أن (ذلك) من خصائص من أرسله الله ، وما كان مختصا بنوع فهو دليل عليه ؛ فإنه مستلزم له ، وكل ملزوم دليل على لازمه كآيات الأنبياء كلها ، فإنها مختصة بجنسهم .

وهذا القرآن مختص بجنسهم ومن بين الجنس خاتمهم لا يمكن أن يأتي به غيره ، وكان ذلك برهانا بينا على أن الله أنزله ، وأنه نزل بعلم الله هو الذي أخبره بخبره ، وأمر بما أمر به ، كما قال : ﴿ لكنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أُنْزِلَ إليكَ أَنْزَلَهُ بعلمِهِ ﴾[6] الآية . وثبوت الرسالة ملزوم لثبوت التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله ، من جهة أن الرسول أخبر بذلك ، ومن جهة أنه لا يقدر أحد على الإتيان بهذا القرآن إلا الله ، فإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ، إلى غير ذلك من وجوه البيان فيه ، كما قد بسط ونبه عليه في غير هذا الموضع ؛ ولا سيما هذه السورة ، فإن فيها

---

(١) سورة هود الآية ٢ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٢ .

(٤) سورة هود الآيات (١٣ ـ ١٤) .

(٥) سورة الاسراء الآية ٨٨ .

(٦) سورة الأنعام الآية ٦٦ .

من البيان والتعجيز ما لا يعلمه إلا الله ، وفيها من المواعظ والحكم والترغيب والترهيب ما لا يقدر قدره إلا الله .

و « المقصود هنا » هو الكلام على قوله : ﴿ أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلوهُ شَاهِدٌ منهُ ﴾ حيث سأل السائل عن تفسيرها ، وذكر ما في التفاسير من كثرة الاختلاف فيها ، وأن ذلك الاختلاف يزيد الطالب عمى عن معرفة المراد الذي يحصل به الهدى والرشاد ، فإن الله تعالى إنما نزل القرآن ليهتدى به لا ليختلف فيه ، والهدى إنما يكون إذا عرفت معانيه ، فإذا حصل الاختلاف المضاد لتلك المعاني التي لا يمكن الجمع بينه وبينها ولم يعرف الحق ، ولم تفهم الآية ومعناها، ولم يحصل به الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا .

وقال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما ذا نزلت ، وماذا عنى بها . وقد قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ وتدبر الكلام إنما ينتفع به إذا فهم . وقال : ﴿ إنا جَعَلْناهُ قرآناً عربياً لعلّكم تَعقِلونَ ﴾ .

فالرسل تبين للناس ما أنزل إليه من ربهم ، وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين ؛ والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل ، والعقل يتضمن العلم والعمل فمن عرف الخير والشر ، فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلا ؛ ولهذا لا يعد عاقلا إلا من فعل ما ينفعه ، واجتنب ما يضره ، فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقي نفسه في المهالك ، وقد يفر مما ينفعه .

فصل(*)

قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ وكانَ عَرْشُهُ على المآءِ ﴾ (سورة هود : ٧)، وأخبر أنه : ﴿ اسْتَوى إلى السَّماءِ وهيَ دُخانٌ فقالَ لَها ولِلأرضِ ائْتِيا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ ﴾ (سورة فصلت : ١١) .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، و (كان)

(*) منهاج السنة النبوية ٢٥٥/١ بتحقيق محمد رشاد سالم .

عرشه على الماء »[1] . وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « كان الله ولم يكن شي قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض »[2] ، وفي رواية : ثم خلق السموات والأرض . والآثار متواترة عن الصحابة والتابعين بما يوافق القرآن والسنة ، من أن الله تعالى خلق السموات من بخار الماء الذي سماه الله دخانا .

وقد تكلم علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في أول هذه المخلوقات على قولين حكاهما الحافظ أبو العلاء الهمداني[3] وغيره . أحدهما : أنه هو العرش ، والثاني : أنه هو القلم . ورجحوا القول الأول لما دل عليه الكتاب والسنة أن الله تعالى لما قدر مقادير الخلائق بالقلم الذي أمره أن يكتب في اللوح كان عرشه على الماء ، فكان العرش مخلوقا قبل القلم . قالوا : الآثار المروية أن : « أول ما خلق الله القلم »[4] ، معناها من هذا العالم . وقد أخبر الله تعالى أنه خلقه في ستة أيام ، فكان حين خلقه زمن يقدر به خلقه ينفصل إلى أيام .

فعلم أن الزمان كان موجودا قبل أن يخلق الله الشمس والقمر ، ويخلق في هذا العالم الليل والنهار .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته عام حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، ومنها أربعة حرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان »[5] . وفي الصحيح عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خطبنا رسول ﷺ خطبة فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم[6] .

هذا وفي التوراة ما يوفق خبر الله تعالى في القرآن ، وأن الأرض كانت مغمورة بالماء ، والهواء يهب فوق الماء ، وأن في أول الأمر خلق الله السموات والأرض ، وأنه خلق ذلك في

---

(١) الحديث في مسلم ٥١/٨ .

(٢) الحديث في البخاري ١٠٥/٤ - ١٠٦ .

(٣) هو شيخ الإسلام محمد بن سهل العطار شيخ همدان . له تصانيف منها « زاد المسافر » في خمسين مجلدا ، توفى سنة ٥٦٩ هـ . ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي (حيدر أباد ، سنة ١٣٣٤) ١١٤/٤ - ١١٧ .

(٤) في سنن أبي داود ٣١١/٤ (بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٣٧٠/١٩٥١) : عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم . فقال له : اكتب . قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة .

(٥) الحديث في البخاري ١٠٧/٤ .

(٦) الحديث في البخاري ١٠٦/٤ .

أيام . ولهذا قال من قال من علماء أهل الكتاب : ما ذكره الله تعالى في التوراة يدل على أنه خلق هذا العالم من مادة أخرى ، وأنه خلق ذلك في أزمان قبل أن يخلق الشمس والقمر .

وليس فيما أخبر الله تعالى به في القرآن وغيره أنه خلق السموات والأرض من غير مادة ، ولا أنه خلق الإنس أو الجن أو الملائكة من غير مادة ، بل يخبر أنه خلق ذلك من مادة ، وإن كانت المادة مخلوقة من مادة أخرى ، كما خلق الإنس من آدم وخلق آدم من طين . وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من (مارج من) نار ، وخلق آدم مما وصف لكم[1] .

والمقصود هنا أن المنقول عن أساطين الفلاسفة القدماء لا يخالف ما أخبرت به الأنبياء من خلق هذا العالم من مادة ، بل المنقول عنهم أن هذا العالم محدث كائن بعد أن لم يكن .

وأما قولهم في تلك المادة : هل هي قديمة الأعيان ، أو محدثة بعد أن لم تكن ، أو محدثة من مادة أخرى بعد مادة ؟ قد تضطرب النقول عنهم في هذا الباب ، والله أعلم بحقيقة ما يقوله كل من هؤلاء ، فإنها أمة عربت كتبهم ، ونقلت من لسان إلى لسان ، وفي مثل ذلك قد يدخل من الغلط والكذب ما لا يعلم حقيقته . ولكن ما تواطأت به النقول عنهم يبقى مثل المتواتر ، وليس لنا غرض (معين) في معرفة قول كل واحد منهم ، بل ﴿ تلكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ ولكم ما كَسَبْتُمْ ولا تُسألونَ عمّا كانوا يَعملونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٣٤ ، ١٤١) .

لكن الذي لا ريب فيه أن هؤلاء أصحاب التعاليم ـ كأرسطو وأتباعه ـ كانوا مشركين يعبدون المخلوقات ولا يعرفون النبوات ولا المعاد البدني ، وأن اليهود والنصارى خير منهم في الإلهيات والنبوات والمعاد .

وإذا عرف أن نفس فلسفتهم توجب عليهم أن لا يقولوا بقدم شيء من العالم ، علم أنهم مخالفون لصريح المعقول ، كما أنهم مخالفون لصحيح المنقول ، وأنهم في تبديل القواعد الصحيحة المعقولة ، من جنس اليهود والنصارى في تبديل ما جاءت به الرسل ، وهذا هو المقصود في هذا الباب .

ثم إنه (إذا قدر أنه) ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين ، فيكفى في ذلك إخبار الرسل باتفاقهم على خلق السماوات والأرض وحدوث هذا العالم ، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبرت به ، وتبين

---

(١) الحديث في مسلم ٨/٢٢٦ .

أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها ، وأنهم أعلم بالأمور الإلهية والمعاد وما يسعد النفس ويشقيها منهم ، وتدلهم على أن من اتبع الرسل كان سعيدا في الآخرة ، ومن كذبهم كان شقيا في الآخرة ، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقيا ، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدا في الآخرة وإن لم يعلم شيئا من ذلك .

ولكن سلفهم أكثروا الكلام في ذلك ، لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة ، وكان الشرك مستحوذا عليهم بسبب السحر والأحوال الشيطانية . وكانوا ينفقون أعمارهم في رصد الكواكب ليستعينوا بذلك على السحر والشرك ، وكذلك الأمور الطبيعية . وكان منتهى عقلهم أمورا عقلية كلية ، كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علة ومعلول وجوهر وعرض ، وتقسيم الجواهر ، ثم تقسيم الأعراض . وهذا هو عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى ، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان .

فصل(*)

وقال رحمه الله

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ منهُ ﴾ وهذا يعم جميع من هو على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه . فالبينة العلم النافع ، والشاهد الذي يتلوه العمل الصالح ، وذلك يتناول الرسول ومن اتبعه إلى يوم القيامة ، فإن الرسول على بينة من ربه ، ومتبعيه على بينة من ربه .

وقال في حق الرسول : ﴿ قلْ إنّي على بَيِّنَةٍ من رَبِّي ﴾(١) وقال في حق المؤمنين : ﴿ أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كمَنْ زُيِّنَ لهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أهْواءَهُمْ ﴾(٢) فذكر هذا بعد أن ذكر الصنفين في أول السورة ، فقال : ﴿ الذينَ كَفَروا وَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ أضلَّ أعمالَهُمْ ، والذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالحاتِ وآمَنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ ـ وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ـ كَفّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ ، ذلكَ بأنَّ الذين كَفَروا اتَّبَعُوا الباطلَ وأن الذينَ آمَنوا اتَّبَعُوا

(*) مجموع الفتاوى ١٥/٦٢ .

(١) سورة الأنعام الآية ٥٧ .

(٢) سورة محمد الآية ١٤ .

الحقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الآيات . إلى قوله : ﴿ أفمَنْ كانَ على بينةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾[1] .

وقال أبو الدرداء : لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبياؤهم من البينات والهدى ، وقال تعالى : ﴿ قلْ هـذِه سَبيلي أَدْعُوا إلى اللهِ على بصيرةٍ ، أنا وَمَنِ اتَّبَعَني ﴾[2] فمن اتبعه يدعو إلى الله على بصيرة ، والبصيرة هي البينة . وقال : ﴿ أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لهُ نوراً يمشي بِهِ في الناسِ ﴾[3] الآية . فالنور الذي يمشى به في الناس هو البينة والبصيرة ، وقال : ﴿ اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾ الآية[4] .

قال أبي بن كعب وغيره : هو مثل نور المؤمن وهو نوره الذي في قلب عبده المؤمن الناشىء عن العلم النافع ، والعمل الصالح . وذلك بينة من ربه . قال : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلامِ فَهُوَ على نورٍ منْ رَبِّهِ ﴾[5] فهذا النور الذي هو عليه وشرح الصدر للإسلام هو البينة من ربه ، وهو الهدى المذكور في قوله : ﴿ أولئكَ على هدىً مِنْ رَبِّهِمْ ﴾[6] واستعمل في هذا حرف الاستعلاء لأن القلب لا يستقر ولا يثبت إلا إذا كان عالما موقنا بالحق ، فيكون العلم والإيمان صبغة له ينصبغ بها ، كما قال : ﴿ صبغةَ اللهِ ومَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ صبغةً ﴾[7] ؟ ! ويصير مكانة له ، كما قال : ﴿ قلْ: يا قومِ اعْمَلوا على مكانَتِكُمْ إني عاملٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[8] والمكان والمكانة قد يراد به ما يستقر الشيء عليه وإن لم يكن محيطا به كالسقف مثلا ، وقد يراد به ما يحيط به .

فالمهتدون لما كانوا على هدى من ربهم ونور وبينة وبصيرة صار مكانة لهم استقروا عليها ، وقد تحيط بهم ، بخلاف الذي قال فيهم : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بهِ ، وإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ على وَجْهِهِ ﴾[9] فإن هذا ليس ثابتا مستقرا مطمئنا ، بل هو كالواقف على حرف الوادي وهو جانبه ، فقد يطمئن إذا أصابه

---

(١) سورة محمد الآيات (١ ـ ١٤) .
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٨ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .
(٤) سورة النور الآية ٣٥ .
(٥) سورة الزمر الآية ٢٢ .
(٦) سورة البقرة الآية ٥ .
(٧) سورة البقرة الآية ١٣٨ .
(٨) سورة الأنعام الآية ١٣٥ .
(٩) سورة الحج الآية ١١ .

خير وقد ينقلب على وجهه ساقطا في الوادي .

وكذلك فرق بين من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان وبين (من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم) وكذلك الذين كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها ، وشواهد هذا كثيرة .

فقد تبين أن الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة ، وهدى ونور ، وهو الإيمان الذي في قلوبهم ، والعلم والعمل الصالح ، ثم قال : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ والضمير في (منه) عائد الى الله تعالى ، أي : ويتلو هذا الذي هو على بينة من ربه شاهد من الله ، والشاهد من الله كما أن البينة التي هو عليها المذكورة من الله أيضا .

وأما قول من قال : « الشاهد » من نفس المذكور وفسره بلسانه ، أو بعليّ بن أبي طالب ، فهذا ضعيف ، لأن كون شاهد الإنسان منه لا يقتضي أن يكون الشاهد صادقا ، فإنه مثل شهادة الإنسان لنفسه ، بخلاف ما إذا كان الشاهد من الله ، فإن الله يكون هو الشاهد ، وهذا كما قيل في قوله : ﴿ قلْ كَفَى باللهِ شهيداً بيني وبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾[1] إنه عليّ فهذا ضعيف ، لأن شهادة قريب له قد اتبعه على دينه ولم يهتد إلا به لا تكون برهانا للصدق ، ولا حجة على الكفر ، بخلاف شهادة من عنده علم الكتاب الأول فإن هؤلاء شهادتهم برهان ورحمة ، كما قال في هذه السورة : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كتابُ موسى إماماً ورحمةً ﴾[2] وقال : ﴿ وَشَهِدَ شاهدٌ منْ بني إسرائيلَ على مِثْلِهِ ﴾[3] وقال : ﴿ وإنْ كنتَ في شَكٍّ ممّا أنزلنا إليكَ فاسْأَلِ الذينَ يَقرؤونَ الكتابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[4] الآية . وقال : ﴿ والذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَعلمونَ أنه مُنَزّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ ﴾[5] وهذا الشاهد من الله هو القرآن .

ومن قال : إنه جبريل فجبريل لم يقل شيئا من تلقاء نفسه ، بل هو الذي بلغ القرآن عن الله ، وجبريل يشهد أن القرآن منزل من الله ، وأنه حق ، كما قال : ﴿ لكنِ اللهُ يشهدُ بما أُنْزِلَ اليكَ أنزلَهُ بعلمِهِ والملائكةُ يَشهدونَ ، وكفى باللهِ شَهيداً ﴾[6] والذي قال هو جبريل . قال : يتلوه ، أي يقرأه ، كما قال : (فإذا قَرَأْناهُ فاتَّبِعْ قرآنَهُ ﴾ أي إذا قرأه جبريل

---

(١) سورة الرعد الآية ١٣ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٢ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ١٠ .

(٤) سورة يونس الآية ٩٤ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١١٤ .

(٦) سورة النساء الآية ١٦٦ .

فاتبع ما قرأه . وقال : ﴿ علّمَهُ شديدُ القُوَى ﴾ .

ومن قال : الشاهد لسانه وجعل الضمير المذكور عائدا على القرآن ولم يذكر ، لأن جعل البينة هي القرآن ، ولو كانت البينة هي القرآن لما احتاج إلى ذلك وقد قال : على بينة من ربه ، فقد ذكر أن القرآن من الله ، وقد علم أنه نزل به جبريل على محمد ، وكلا (هما) بلغه وقرأه ، فقوله : (ويتلوه) جبريل أو محمد تكرير لا فائدة فيه ، ولهذا لم يذكر مثل ذلك في القرآن .

وأيضا : فكونه على القرآن لم نجد لذلك نظيراً في القرآن ، فإن القرآن كلام الله واحد لا يكون عليه ، وإذا (كان) المراد على الإيمان بالقرآن والعمل به ، فهذا الذي ذكرناه : إن البينة هي الإيمان بما جاء به الرسول ، وهو إخباره أنه رسول الله ، وأن الله أنزل القرآن عليه . ولما أنزلت هذه السورة وهي مكية ، لم يكن قد نزل من القرآن قبلها إلا بعضه ، وكان المأمور به حينئذ هو الإيمان بما نزل منه ، فمن آمن حينئذ بذلك ومات على ذلك كان من أهل الجنة .

وأيضا فتسمية جبريل شاهداً لا نظير له في القرآن ، وكذلك تسمية لسان الرسول شاهدا ، وتسمية عليّ شاهدا لا يوجد مثال ذلك في الكتاب والسنة ، بخلاف شهادة الله ، فإن الله أخبر بشهادته لرسوله في غير موضع ، وسمى ما أنزله شهادة منه في قوله : ﴿ وَمَنْ أظلمُ ممّنْ كتمَ شهادةً عندَهُ مِنَ اللهِ ﴾[1] فدلّ على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه .

وهو سبحانه يحكم ويشهد ، ويفتي ويقص ، ويبشر ويهدي بكلامه ، ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتي ، ويقص ويهدي ، ويبشر وينذر ، كما قال : ﴿ قُلِ اللهُ يُفتيكُمْ فِيهِنَّ ﴾[2] (قُلِ اللهُ يُفتيكم في الكَلالَةِ ﴾[3] وقال : ﴿ إنّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بني إسرائيلَ أكثرَ الذي هُمْ فيهِ يَختلفونَ ﴾[4] وقال : ﴿ نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصَصِ ﴾[5] وقال : ﴿ قلْ إني على بينةٍ مِنْ ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلونَ بهِ إنِ الحكمُ إلا للهِ يَقُصُّ الحقَّ وهوَ خيرُ الفاصِلينَ ﴾[6] وقال : ﴿ إنّ هذا القرآن يهدي للتي هيَ أقومُ ﴾[7] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٧ .

(٣) سورة النساء الآية ١٧٦ .

(٤) سورة النمل الآية ٧٦ .

(٥) سورة يوسف الآية ٢ .

(٦) سورة الأنعام الآية ٥٦ .

(٧) سورة الإسراء الآية ٦ .

وكذلك سمى الرسول هاديا فقال : ﴿ وإنكَ لَتهدي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾[1] كما سماه بشيراً ونذيراً ، وسمى القرآن بشيراً ونذيراً ، فكذلك لما كان هو يشهد للرسول والمؤمنين بكلامه الذي أنزله ، وكان كلامه شهادة منه : كان كلامه شاهداً منه ، كما كان يحكم ويفتي ، ويقص ويبشر وينذر .

ولما قيل لعليّ بن أبي طالب حكمت مخلوقا قال : ما حكمت مخلوقا وإنما حكمت القرآن . فإن الذي يحكم به القرآن هو حكم الله ، والذي يشهد به القرآن هو شهادة الله عز وجل . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ وقد كان إماما ، وأخذ التفسير عن أبيه زيد ، وكان زيد إماما فيه ، ومالك وغيره أخذوا عنه التفسير ، وأخذه عنه عبد الله بن وهب صاحب مالك ، واصبغ بن الفرج الفقيه . قال ـ في قوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ قال : رسول الله : « كان على بينة من ربه » والقرآن يتلوه شاهد أيضا ؛ لأنه من الله .

وقد ذكر الزجاج فيما ذكره من الأقوال : ويتلو رسول الله القرآن ، وهو شاهد من الله . وقال أبو العالية : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ وهو محمد ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ القرآن ، قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية ، ومجاهد ، وأبي صالح ، وإبراهيم ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وخصيف ، وابن عيينة نحو ذلك . وهذا الذي قالوه صحيح ؛ ولكن لا يقتضي ذلك أن المتبعين له ليسوا على بينة من ربهم ؛ بل هم على بينة من ربهم .

وقد قال الحسن البصري : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : المؤمن على بينة من ربه ، ورواه ابن أبي حاتم ، وروي عن الحسين بن علي ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ يعني محمدا شاهد من الله ؛ وهي تقتضى أن يكون الذي على البينة من شهد له .

وقول القائل : من قال هو محمد كقول من قال هو جبريل ؛ فإن كلاهما بلغ القرآن ، والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ، فاصطفى جبريل من الملائكة ، واصطفى محمدا من الناس . وقال في جبريل : ﴿ إنهُ لَقَوْلُ رَسولٍ كريمٍ ﴾[2] وقال في محمد : ﴿ إنه لَقولُ رَسولٍ كريمٍ ﴾[3] وكلاهما رسول من الله ؛ كما قال : ﴿ حتى تأتِيَهُمُ البينةُ ، رسولٌ مِنَ اللهِ يَتلو صُحُفاً مُطَهّرَةً ، فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[4] فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به ، وهو يشهد

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٢) سورة التكوير الآية ١٩ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٤٠ .

(٤) سورة البينة الآيات (١ ـ ٣) .

أن ما جاء به هو كلام الله ، وأما شهادتهم بما شهد به القرآن فهذا قدر مشترك بين كل من آمن بالقرآن ، فإنه يشهد بكل ما شهد به القرآن ؛ لكونه آمن به ، سواء كان قد بلغه أو لم يبلغه .

ولهذا كان إيمان الرسول بما جاء به غير تبلغيه له ، وهو مأمور بهذا وبهذا وله أجر على هذا وهذا ، كما قال : ﴿ آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ والمؤمنونَ ﴾[1] ؛ ولهذا كان يقول أشهد أني عبد الله ورسوله ، فشهادة جبريل ومحمد بما شهد به القرآن من جهة إيمانهما به ، لا من جهة كونهما مرسلين به ، فإن الإرسال به يتضمن شهادتهما أن الله قاله ، وقد يرسل غير رسول بشيء فيشهد الرسول أن هذا كلام المرسل وإن لم يكن المرسل صادقا ولا حكيما ؛ ولكن علم أن جبريل ومحمداً يعلمان (أن) الله صادق حكيم ، فهما يشهدان بما شهد الله به .

وكذلك الملائكة والمؤمنون يشهدون بأن ما قاله الله فهو حق ، وأن الله صادق حكيم ، لا يخبر إلا بصدق ، ولا يأمر إلا بعدل ﴿ وَتَمَّتْ كلمةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾[2] .

فقد تبين أن شهادة جبريل ومحمد هي شهادة القرآن ، وشهادة القرآن هي شهادة الله تعالى ، والقرآن شاهد من الله ، وهذا الشاهد يوافق ويتبع ذلك الذي على بينة من ربه ؛ فإن البينة والبصيرة والنور والهدى الذي عليه النبي ﷺ والمؤمنون قد شهد القرآن المنزل من الله بأن ذلك حق .

﴿ ويتلوه ﴾ معناه يتبعه ، كما قال : ﴿ الذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَتْلونَهُ حقَّ تِلاوتِهِ ﴾[3] أي يتبعونه حق اتباعه ، وقال : ﴿والقمرِ إذا تلاها﴾ [4] أي تبعها ، وهذا قفاه إذا تبعه . وقد قال : ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ﴾ [5] فهذا الشاهد يتبع الذي على بينة من ربه ، فيصدقه ويزكيه ، ويؤيده ويثبته ، كما قال : ﴿قلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ ؛ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنوا﴾ [6] وقال : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عليكَ مِنْ أنباءِ الرسلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فؤادَكَ﴾ [7] وقال : ﴿أولئكَ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٢١ .

(٤) سورة الشمس الآية ٢ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

(٦) سورة النحل الآية ١٠٢ .

(٧) سورة هود الآية ١٢٠ .

كتبَ في قلوبِهِمُ الإيمانَ وَأيّدَهُمْ بِرُوحٍ منهُ﴾ [١] .

وقد سمى الله القرآن سلطانا في غير موضع ، فإذا كان السلطان المنزل من الله يتبع هذا المؤمن كان ذلك مما يوجب قوته وتسلطه علما وعملا ، وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هَوَ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ ﴾[٢] ﴿ وإذا ما أُنزلَتْ سورةٌ فمنهم مَنْ يَقولُ أيُّكُمْ زادَتْهُ هذِه إيماناً ﴾[٣] الآية .

وقال جندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر : تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا ، فهم كانوا يتعلمون الإيمان ، ثم يتعلمون القرآن . وقال بعضهم في قوله : ﴿ نور على نور ﴾ قال : نور القرآن على نور الإيمان ، كما قال : ﴿ولكنْ جَعَلْناهُ نوراً نهدي بهِ مَنْ نشاءُ مِنْ عبادِنا ﴾[٤] وقال السدي في قوله : ﴿ نور على نور ﴾ نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه .

فتبين أن قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ يعني هدى الإيمان ، ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ أي من الله يعني القرآن شاهد من الله يوافق الإيمان ويتبعه ، وقال : ﴿ يتلوه ﴾ لأن الإيمان هو المقصود ؛ لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته .

ولهذا كان الإيمان بدون قراءَة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة ، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة ؛ بل صاحبه منافق ؛ كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها »[٥] .

ولهذا جعل الإيمان « بينة » ، وجعل القرآن شاهدا ؛ لأن البينة من البيان ، و« البينة » هي السبيل البينة ، وهي الطريق البينة الواضحة ، وهي أيضا ما يبين بها الحق ، فهي بينة في نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد ؛ فتكون كالهدى ، كما يقال : فلان على هدى وعلى علم ؛ فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل . ومنه قوله : ﴿ أوَ لَمْ تَأْتِهِمْ

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٢ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٤ .

(٤) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٥) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب فضائل القرآن) ، ابن حنبل ٤/٤٠٨ .

بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ الأولى ﴾[1] أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها ، أو الأمر البين فيها ، وقد سمى الرسول بينة كما قال : ﴿ حتى تأتِيَهُمُ البينةُ ، رسولٌ مِنَ اللهِ ﴾[2] فإنه يبين الحق ، والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه ، والشاهد المقصود به شهادته للمشهود له ، فهو يشهد للمؤمن بما هو عليه ، وجعل الإيمان من الله كما جعل الشاهد من الله ، لأن الله أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال ، كما في الصحيحين عن حذيفة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة »[3] .

وأيضاً : فالإيمان ما قد أمر الله به .

وأيضا فالإيمان إنما هو ما أخبر به الرسول ، وهذا أخبر به الرسول لكن الرسول له وحيان ، وحي تكلم الله به يتلى ، ووحي لا يتلى فقال : ﴿ وكذلكَ أوْحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ﴾[4] الآية . وهو يتناول القرآن والإيمان . وقيل الضمير في قوله : ﴿ جَعَلْناهُ نوراً نهدي بهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عبادِنا ﴾ يعود إلى الإيمان ، ذكر ذلك عن ابن عباس . وقيل : إلى القرآن . وهو قول السدي ، وهو يتناولهما ، وهو في اللفظ يعود إلى الروح الذي أوحاه ، وهو الوحي الذي جاء بالإيمان والقرآن .

فقد تبين أن كلاهما من الله نور وهدى منه ، هذا يعقل بالقلب ؛ لما قد يشارك من دلائل الإيمان ، مثل دلائل الربوبية والنبوة ، وهذا يسمع بالآذان ، والإيمان الذي جعل للمؤمن هو مثل ما وعد الله به في قوله : ﴿ سَنُريهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهِمْ ، حتى يتبينَ لَهُمْ أنهُ الحقُّ ﴾[5] أي أن القرآن حق ، فهذه الآيات متأخرة عن نزول القرآن ، وهو مثل ما فعل من نصر رسوله والمؤمنين يوم بدر ، وغير يوم بدر ، فإنه آيات مشاهدة ، صدّقت ما أخبر به القرآن ، ولكن المؤمنون كانوا قد آمنوا قبل هذا .

وقيل : نزول أكثر القرآن الذي ثبت الله به لنبيه وللمؤمنين ؛ ولهذا قال : ﴿ أوَ لَمْ يكفِ بربِّكَ أنَّهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ ﴾[6] فهو يشهد لرسوله بأنه صادق بالآيات الدالة على

---

(١) سورة طه الآية ١٣٣ .

(٢) سورة البينة الآيات (٢ ـ ٣) .

(٣) حديث صحيح سبق تخريجه في الجزء الأول

(٤) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٥) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٦) سورة فصلت الآية ٥٣ .

نبوته ، وتلك آمن بها المؤمنون ثم أنزل من القرآن شاهداً له ، ثم أظهر آيات معاينة تبين لهم أن القرآن حق .

فالقرآن وافق الإيمان ، والآيات المستقبلة وافقت القرآن والإيمان ؛ ولهذا قال : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ﴾[1] فقوله : ﴿ ومن قبله ﴾ يعود الضمير إلى الشاهد الذي هو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ قلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عندِ اللهِ وكَفَرْتُمْ بهِ ، وشَهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيلَ على مِثْلِهِ ﴾[2] الآية ، ثم قال : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ﴾ الآية . فقوله ﴿ ومن قبله ﴾ الضمير يعود إلى القرآن ، أي : من قبل القرآن ، كما قاله ابن زيد . وقيل : ويعود إلى الرسول ، كما قاله مجاهد ، وهما متلازمان .

وقوله : ﴿ ومن قبله كتاب موسىٰ ﴾ فيه وجهان : قيل : هو عطف مفرد ، وقيل : عطف جملة . قيل المعنى ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ ، ويتلوه أيضا من قبله كتاب موسى ، فإنه شاهد بمثل ما شهد به القرآن ، وهو شاهد من الله ، وقيل : ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ جملة ؛ ولكن مضمون الجملة فيها تصديق القرآن ، كما قال في الأحقاف .

وقوله تعالى : ﴿أولئكَ يؤمنونَ بهِ ﴾ يدل على أن قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ تتناول المؤمنين ، فإنهم آمنوا بالكتاب الأول والآخر ، كما تتناول النبي ﷺ ، وأولئك يعود إليهم الضمير ، فإنهم مؤمنون به بالشاهد من الله ، فالإيمان به إيمان بالرسول والكتاب الذي قبله .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يكفرْ بهِ مِنَ الأحزابِ فالنارُ مَوْعِدُهُ ﴾[3] وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وغيرهما عن أيوب عن سعيد بن جبير قال : ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجه إلا وجدت تصديقه في كتاب الله ؛ حتى بلغني أنه قال : « لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أرسلت به إلا دخل النار » قال سعيد : فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ قال الأحزاب هي الملل كلها .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أي كل من كان على بينة من ربه ، فإنه يؤمن بالشاهد من الله ، والإيمان به إيمان بما جاء به موسى ، قال : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ وهم المتبعون لمحمد ﷺ من أصحابه وغيرهم إلى قيام الساعة ، ثم قال : ﴿ومن يكفر به من

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٢ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٠ .

(٣) سورة هود الآية ١٧ .

الأحزاب فالنار موعده﴾ والأحزاب هم أصناف الأمم ، الذين تحابوا وصاروا أحزابا ، كما قال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قبلَهم قومُ نوحٍ والأحزابُ مِنْ بعدِهِمْ وَهَمَّتْ كلُّ أمّةٍ برسولِهِمْ لِيَأخذوهُ﴾ (١) .

وقد ذكر الله طوائف الأحزاب في مثل هذه السورة وغيرها ، وقد قال تعالى عن مكذبي محمد ﷺ : ﴿ جُنْدٌ ما هنالكَ مهزومٌ مِنَ الأحزابِ ﴾(٢) وهم الذين قال فيهم : ﴿ فأَقِمْ وَجْهَكَ للدينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لِخلقِ الله ، ذلكَ الدينُ القيّمُ ؛ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ ، مُنيبينَ إليهِ ، واتّقوهُ ، وأَقِيموا الصّلاةَ ولا تكونوا مِنَ المشركينَ ، مِنَ الذينَ فَرّقوا دِينَهُمْ وكانوا شِيَعاً كلُّ حزبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحونَ ﴾(٣) ، وقال عن أحزاب النصارى : ﴿ فَاخْتلفَ الأحزابُ من بينِهِمْ فويلٌ للذينَ كَفَروا مِنْ مشهدِ يومٍ عظيمٍ ﴾ الآيات(٤) .

وأما من قال : الضمير في قوله : ﴿ أولئكَ يُؤمنونَ بهِ ﴾ يعود على أهل الحق قال : إنه موسى وعيسى ومحمد . فإنه إن أراد بهم من كان مؤمنا بالكتابين قبل نزول القرآن فلم يتقدم لهم ذكر ، والضمير في قوله : (به) مفرد ، ولو آمن مؤمن بكتاب موسى دون الإنجيل بعد نزوله وقيام الحجة عليه به لم يكن مؤمنا .

وهذان القولان حكاهما أبو الفرج ولم يسم قائلهما ، والبغوي وغيره لم يذكروا نزاعا في أنهم من آمن بمحمد ، ولكن ذكروا قولا أنهم من آمن به من أهل الكتاب ، وهذا قريب ، ولعل الذي حكى قولهم أبو الفرج أرادوا هذا ، وإلا فلا وجه لقولهم .

ومن العجب أن ابا الفرج ذكر بعد هذا في الأحزاب أربعة أقوال :

« أحدها » أنهم جميع الملل ، قاله سعيد بن جبير .

و « الثاني » اليهود والنصارى ، قاله قتادة .

و « الثالث » قريش ، قاله السدي .

و « الرابع » بنو أمية وبنو المغيرة . قال (أي) أبو طلحة بن عبد العزى قاله مقاتل .

---

(١) سورة غافر الآية ٥ .

(٢) سورة ص الآية ١١ .

(٣) سورة الروم الآيات (٢٩ - ٣٢) .

(٤) سورة مريم الآية ٣٧ .

وهذه الآية تقتضى أن الضمير يعود إلى القرآن في قوله : ﴿ ومن يكفر به ﴾ ، وكذلك : ﴿ أولئك يؤمنون.به ﴾ إنه القرآن ، ودليله قوله تعالى : ﴿ فلا تكُ في مِريةٍ منهُ إنه الحقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهذا هو القرآن بلا ريب ، وقد قيل هو الخبر المذكور ، وهو أنه من يكفر به من الأحزاب ، وهذا أيضا هو القرآن ، فعلم أن المراد هو الإيمان بالقرآن ، والكفر به باتفاقهم ، وأنه من قال في أولئك أنهم غير من آمن بمحمد لم يتصور ما قال .

وقد تقدم في قوله : ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ وجهان . هل هو عطف جملة أو مفرد ؛ لكن الأكثرون على أنه مفرد . وقال الزجاج المعنى : وكان من قبل هذا كتاب موسى . دليل على أمر محمد ، فيتلون كتاب موسى عطفا على قوله : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ أي ويتلو كتاب موسى ؛ لأن موسى وعيسى بشّرا بمحمد في التوراة والإنجيل ، ونصب إماما على الحال .

قلت : قد تقدم أن الشاهد يتلو على من كان على بينة من ربه ، أي يتبعه شاهدا له بما هو عليه من البينة . وقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ ؟ كمن لم يكن ، قال الزجاج : وترك المعادلة ؛ لأن فيها بعده دليلا عليه ، وهو قوله : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ قال ابن قتيبة : لما ذكر قبل هذه الآية قوما ركنوا إلى الدنيا وأرادوها جاء بهذه الآية ، وتقدير الكلام : أفمن كانت (هذه) حاله كمن يريد الدنيا ؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم إذ كان دليلا عليه ، وقال ابن الأنباري : إنما حذف لانكشاف المعنى ، وهذا كثير في القرآن .

قلت : نظير هذه الآية من المحذوف : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَناً ﴾[1] كمن ليس كذلك ، وقد قال بعد هذا : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ وهذا هو القسم الآخر المعادل لهذا الذي هو على بينة من ربه ، وعلى هذا يكون معناها ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ ، ويكون أيضا معناها : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي بصيرة في دينه ، كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها . وهذا كقوله : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾[2] الآية . وكقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ﴾ وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ أمَّنْ لا يَهِدِّي ﴾ ؟ الآية[3] .

والمحذوف في مثل هذا النظم قد يكون غير ذلك ، كقوله : ﴿ أومن ينشأ في الحلية ﴾ ؟ أي تجعلون له من ينشأ في الحلية ، ولا بد من دليل على المحذوف ، وقد يكون المحذوف ، مثل أن يقال : أفمن هذه حاله يذم أو يطعن عليه أو يعرض عن متابعته ، أو يفتن أو يعذب ، كما

---

(١) سورة فاطر الآية ٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

(٣) سورة يونس الآية ٣٥ .

قال : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .

وقد قيل في هذه الآية أن المحذوف : ﴿ أفمن زين له سوء عمله ﴾ فرأى الباطل حقا ؟ والقبيح حسنا كما هداه الله فرأى الحق حقا والباطل باطلا والقبيح قبيحا والحسن حسنا ؟ وقيل : جوابة تحت قوله : ﴿ فلا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهم حَسَراتٍ ﴾ ؛ لكن يرد عليه أن يقال : الاستفهام ما معناه إلا أن تقدر . أي هذا تقدر أن تهديه ، أو ربك ؟ أو تقدر أن تجزيه كما قال : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾[1] ولهذا قال : فإن الله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ﴾ وكما قال : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضلّه الله على علم ﴾[2] الآية . وعلى هذا يكون معناها كمعنى قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ﴾ .

وعلى هذا فالمعنى هنا : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى ﴾ يذم ويخالف ويكذب ونحو ذلك ، كقوله : ﴿ قال يا قومِ أرأيتم إن كنتُ على بينةٍ من ربي ﴾[3] وكذبتم به ؟ وحذف جواب الشرط ، وكقوله : ﴿ أرأيتَ إنْ كانَ على الهدى ، أو أمرَ بالتقوى ؟ أرأيتَ إنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾[4] ؟ .

فقد تبين أن معنى الآية من أشرف المعاني وهذا هو الذي ينتفع به كل أحد ، وأن الآية ذكرت من كان على بينة من ربه ، من الإيمان الذي شهد له القرآن ، فصار على نور من ربه وبرهان من ربه على ما دلت عليه البراهين العقلية والسمعية ، كما قال :﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ﴾[5] فالنور المبين المنزل يتناول القرآن . قال قتادة : بينة من ربكم ، وقال الثوري : هو النبي ﷺ ، وقال البغوي : هذا قول المفسرين ولم أجده منقولا عن غير الثاني ، ولا ذكره ابن الجوزي عن غيره .

وذكر في البرهان ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الحجة . والثاني : أنه الرسول ، وذكر أنه القرآن عن قتادة . والذي رواه ابن أبي حاتم عن قتادة بالإسناد الثابت أنه بينة من الله ، والبينة والحجة تتناول آيات الأنبياء التي بعثوا بها ، فكل ما دلّ على نبوة محمد ﷺ فهو برهان . قال تعالى : ﴿ فذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾[6] وقال لمن قال : لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٣ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٣) هود : ٢٨ . وفي الأصل : قل أرأيتم . . الخ وهو خطأ واضح .

(٤) سورة العلق الآيات (١١ - ١٣) .

(٥) سورة النساء الآية ١٧٤ .

(٦) سورة القصص الآية ٣٢ .

نصارى ، قل : هاتوا برهانكم .

ومحمد هو الصادق ، قد أقام الله على صدقه براهين كثيرة وصار محمد نفسه برهانا ، فأقام من البراهين على صدقه؛ فدليل الدليل دليل، وبرهان البرهان برهان، وكل آية له برهان، والبرهان اسم جنس لا يراد به واحد ، كما في قوله : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كنتم صادقِينَ ﴾[1] ولو جاؤ وا بعده ببراهين كانوا ممتثلين .

و « المقصود » أن ذلك البرهان يعلم بالعقل أنه دالّ على صدقه ، وهو بينة من الله كما قال قتادة ، وحجة من الله ، كما قال مجاهد والسدي : المؤمن على تلك البينة ، ويتلوه شاهد من الله وهو النور الذي أنزله من البرهان . والله أعلم .

فصـــــل

وأما من قال : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أنه محمد ﷺ ، كما قاله طائفة من السلف ، فقد يريدون بذلك التمثيل لا التخصيص ، فإن المفسرين كثيرا ما يريدون ذلك ، ومحمد هو أول من كان على بينة من ربه ، وتلاه شاهد منه ، وكذلك الأنبياء ، وهو أفضلهم وإمامهم ، والمؤمنون تبع له ، وبه صاروا على بينة من ربهم .

والخطاب قد يكون لفظه له ومعناه عام ، كقوله : ﴿ فإنْ كنتَ في شَكٍّ ممّا أَنْزَلْنا إليكَ ﴾[2] ﴿ لئن أشركتَ لَيَحبطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[3] ﴿ فإذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾[4] ﴿ قل إن ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نفسي ﴾[5] ونحو ذلك ، وذلك أن الأصل فيما خوطب به النبي ﷺ في كل ما أمر به ونهي عنه وأبيح له سار في حق أمته ، كمشاركة أمته له في الأحكام وغيرها ، حتى يقوم دليل التخصيص ، فما ثبت في حقه من الأحكام ثبت في حق الأمة إذا لم يخصص ، هذا مذهب السلف والفقهاء ، ودلائل ذلك كثيرة كقوله : ﴿ فلمّا قَضَى زَيْدٌ مِنها وَطَراً زَوَّجْناكَها ﴾[6] الآية ، ولما أباح له الموهوبة قال: ﴿خالصةًلكَ مَنْ دونِ المؤمنينَ﴾[7] الآية .

---

(١) سورة البقرة الآية ١١١ .

(٢) سورة يونس الآية ٦٤ .

(٣) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٤) سورة الانشراح الآية ٦ .

(٥) سورة سبأ الآية ٥٠ .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٢٧ .

(٧) سورة الأحزاب الآية ٥٠ .

فإذا كان هذا مع كون الصيغة خاصة فكيف تجعل الصيغة العامة له وللمؤمنين مختصة به ؟ ولفظ « من » أبلغ صيغ العموم ؛ لا سيما إذا كانت شرطاً أو استفهاماً ، كقوله : ﴿ مَنْ يَعملْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعملْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شرّاً يَرَهُ ﴾[1] وقوله : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لهُ سُوءُ عَمَلِهِ فرآه حَسَناً ﴾ وقوله : ﴿ أَوَ مَنْ كان مَيْتاً فأَحْيَيْناهُ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كانَ على بينةٍ مِنْ ربِّهِ كمن زُيِّنَ لهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ ؟ .

و « أيضا » : فقد ذكر بعد ذلك قوله : ﴿ أولئكَ يُؤمنونَ بهِ ، وَمَنْ يكفرْ بهِ مِنَ الأحزابِ فالنارُ مَوْعِدُه ﴾ وذكر بعد هذا : ﴿ مثل الفريقين ﴾ وقد تقدم قبل هذا ذكر الفريقين ، وقوله : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ إشارة إلى جماعة ، ولم يقدم قبل هذا ما يصلح أن يكون مشاراً إليه إلا (من) ، والضمير يعود تارة إلى لفظ (من) وتارة إلى معناها كقوله : ﴿ ومنهم من يستمعُ إليكَ ﴾[2] ، ﴿ ومنهم من يَستمعونَ اليكَ ﴾[3] ، ﴿ وَمَنْ يعملْ مِنَ الصالحاتِ من ذكرٍ أَوْ أنثى ﴾[4] ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أنثى وهوَ مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ﴾ الآية[5] .

وأما الإشارة إلى معناها فهو أظهر من الضمير . فقوله : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ دليل على أن الذي على بينة من ربه كثيرون لا واحد ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا عامر بن صالح عن أبيه عن الحسن البصري : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ . قال : المؤمن على بينة من ربه ، وهذا الذي قاله الحسن البصري هو الصواب ، والرسول هو أول المؤمنين ، كما قال : ﴿ وأمِرْتُ أنْ أكونَ أوّلَ المؤمنينَ ﴾ .

ومن قال : إن الشاهد من الله هو محمد كما رواه ابن أبي حاتم ، حدثنا الأشج ، حدثنا أبو أسامة عن عوف عن سليمان الفلاني ، عن الحسين بن علي : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ يعني محمداً شاهداً من الله ، فهنا معنى كونه شاهداً من الله هو معنى كونه رسول الله ، وهو يشهد للمؤمنين بأنهم على حق ، وإن كان يشهد لنفسه بأنه رسول الله فشهادته لنفسه معلومة قد علم أنه صادق فيها بالبراهين الدالة على نبوته ، وأما شهادته للمؤمنين فهو إنها إنما تعلم من جهته بما بلغه من القرآن ، ويخبر به عن ربه ، فهو إذا شهد كان شاهداً من الله .

---

(١) سورة الزلزله الآيات (٧ ـ ٨) .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

(٣) سورة يونس الآية ٤٢ .

(٤) سورة النساء الآية ١٢٤ .

(٥) سورة النحل الآية ٩٧ .

وأما شهادته عليهم بالإيمان والتصديق وغير ذلك ، فكما في قوله : ﴿ فكيفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمّةٍ بشهيدٍ وَجِئْنا بِكَ على هؤلاءِ شهيداً ﴾[١] ﴿ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾[٢] لكن من قال هذا فقد يريد بالبينة القرآن ، فإن المؤمن متبع للقرآن ومحمد شاهد من الله يتلوه كما تلاه جبريل .

ومن قال : إن الشاهد لسان محمد فهو إنما أراد بهذا القول التلاوة أي : إن لسان محمد يقرأ القرآن وهو شاهد منه أي من نفسه ، فإن لسانه جزء منه ، وهذا القول ونحوه ضعيف . والله أعلم .

هذا إن ثبت ذلك عمن نقل عنه ، فإن هذا وضده ينقلان عن عليّ بن أبي طالب . وذلك أن طائفة من جهال الشيعة ظنوا أن عليا هو الشاهد منه ، أي من النبي ﷺ ، كما قال له : « أنت مني وأنا منك » .

وهذا قاله لغيره أيضا فقد ثبت في الصحيحين أنه قال : « الأشعريون هم مني وأنا منهم » . قال عن جليبيب : « هذا مني وأنا منه » وكل مؤمن هو من النبي ﷺ ، كما قال الخليل : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ وقال : ﴿ ومن لم يَطْعَمْه فإنه مني ﴾ ورووا هذا القول عن عليّ نفسه ، وروي عنه بإسناد أجود منه أنه قال : كذب من قال هذا ، قال ابن أبي حاتم : ذكر عن حسين بن زيد الطحان ، ثنا إسحاق بن منصور ، ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن عباد بن عبد الله قال : قال عليّ : ما من قريش أحد إلا نزلت فيه آية ، قيل فما أنزل فيك ؟ قال : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ وهذا كذب عليّ قطعا . وإن ثبت النقل عن عباد هذا فإن له منكرات عنه كقوله : أنا الصديق الأكبر أسلمت قبل الناس بسبع سنين .

وقد رووا عن عليّ ما يعارض ذلك ، قال ابن أبي حاتم ؛ ثنا أبي ، ثنا عمرو بن علي الباهلي ، ثنا محمد بن شواص ، ثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن عروة ، عن محمد بن عليّ - يعني ابن الحنفية - قال : قلت لأبي : يا أبت ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ : إن الناس يقولون أنك أنت هو ، قال : وددت لو أني أنا هو . ولكنه لسانه . قال ابن أبي حاتم : وروي عن الحسن وقتادة نحو ذلك .

قلت : وقد تقدم عن الحسين ابنه أن « الشاهد منه » هو محمد ﷺ ، وإنما تكلم علماء أهل البيت في أنه محمد ردّاً على من قاله من الجهلة : إنه على ؛ فإن هذه السورة نزلت بمكة ،

---

(١) سورة النساء الآية ٤١ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٨ .

وعلي كان إذ ذاك صغيراً لم يبلغ . وكان ممن اتبع الرسول ، ولو كان ابن رسول الله ليس ابن عمه لم تكن شهادته تنفع . لا عند المسلمين ولا عند الكفار ؛ بل مثل هذه الشهادة فيها تهمة القرابة .

ولهذا كان أكثر العلماء على أن شهادة الوالد وشهادة الولد لوالده لا تقبل ، فكيف يجعل مثل هذا حجة لنبوة محمد ﷺ مؤكدا لها ؟ ولذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكتابِ ﴾ إنه علي ، وهم مع كذبهم هم أجهل الناس ، فإنهم نسبوا الله والرسول إلى الاحتجاج بما لا يحتج به إلا جاهل ، فأرادوا تعظيم عليّ فنسبوا الله والرسول إلى الجهل ، وعليّ إنما فضيلته باتباعه للرسول ، فإذا قدح في الأصل بطل الفرع .

وأما قول من قال المفسرين : إن « الشاهد » جبريل عليه السلام ، فقد روى ذلك عكرمة عن ابن عباس ، ذكره ابن أبي حاتم عنه ، وعن أبي العالية ، وأبي صالح ، ومجاهد في إحدى الروايات عنه وإبراهيم ، وعكرمة ، والضحاك ، وعطاء الخراساني نحو ذلك . وهؤلاء جعلوا ﴿ يتلوه ﴾ بمعنى يقرأه ، أي : ويتلو القرآن الذي هو البينة : شاهد من الله هو .

وقيل : بل معنى قولهم : إن القرآن يتلوه جبريل هو شاهد محمد ﷺ ، أي الذي يتلوه جاء من عند الله .

وقد تقدم بيان ضعف هذا القول ، فإن كل من فسر يتلوه بمعنى يقرأه جعل الضمير عائداً إلى القرآن ، وجعل الشاهد غير القرآن .

والقرآن لم يتقدم له ذكر إنما قال : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ والبينة لا يجوز أن يكون تفسيرها بحفظ القرآن ، فإن المؤمنين كلهم على بينة من ربهم وإن لم يحفظوا القرآن ؛ بخلاف البصيرة في الدين ، فإنه من لم يكن على بصيرة من ربه لم يكن مؤمنا حقا ، بل من القائلين لمنكر ونكير ـ آه آه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته[1] .

والقرآن إنما مدح من كان على بينة من ربه ، فهو على هدى ونور وبصيرة ، سواء حفظ القرآن أو لم يحفظه ، وإن أريد اتباع القرآن فهو الإيمان ، وأكثر القرآن لم يكن نزل حين نزول هذه الآية ، وقد تقدم أن يختص به جبريل ومحمد فهو تبليغ الرسالة عن الله وصدقهما في ذلك .

وأما كون رسالة الله حقا فهذا هو المشهود به (من) كل رسول ، وهما لا يختصان بذلك بل يؤمنان به كما يؤمن بذلك كل ملك وكل مؤمن ، وشهادتها بأن النبي والمؤمنين على حق

---

(١) يشير بذلك الإمام ابن تيمية إلى حديث سؤال القبر .

من هذا الوجه الثاني المشترك ، ولو قال : ويبلغه وينزل به رسول من الله لكان ما قالوه متوجها ، كما قال : ﴿ قل نزّله روح القدس ﴾ ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ ﴿ فإنه نزّله على قلبك بإذن الله ﴾ . أما كونه شاهداً يقرأه فهذا لا نظير له في القرآن .

و « أيضا » فالشاهد الذي هو من الله هو الكلام ، فإن الكلام نزل منه كما يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، ويقال في الرسول أنه منه ، كما قال رسول من الله ، ويقال في الشخص الشاهد فيقول فيه هو من شهداء الله ، وأما كونه يقال فيه شاهد من الله أنها برهان من الله ، وآيات من الله في الآيات التي يخلقها الله تصديقا لرسوله : فهذا يحتاج استعماله إلى شاهد .

والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة في القرآن فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت لا يعدل عن لغته المعروفة مع وجودها وإنما يحتاج إلى غير لغته في لفظ لم يوجد له نظير في القرآن ، كقوله : ﴿ وَيْ كَأَنّ اَلله ﴾ ﴿ ولاتَ حينَ مَناص ﴾ ﴿ وكأساً دِهاقاً ﴾ ﴿ وفاكهةً وأبّاً ﴾ و ﴿ قسمةً ضِيزى ﴾ ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة في القرآن والذين قالوا هذه الأقوال : إنما أتوا من جهة قوله : ﴿ ويتلوه ﴾ فظنوا أن تلاوته هي قراءته ، ولم يتقدم للقرآن ذكر . ثم جعل هذا يقول جبريل تلاه ، وهذا يقول محمد ، وهذا يقول لسانه . والتلاوة قد وجدت في القرآن واللغة المشهورة بمعنى الاتباع . وكثير من المفسرين لا يذكر في هذه الآية القول الصحيح ، فيبقى الناظر الفطن حائراً ، ولم يذكر في الذي على بينة من ربه إلا أنه الرسول ، ويذكر في الشاهد عدة أقوال .

ثم من العجب أنه يقول : ﴿ أولئك يؤمنون ﴾ أولئك أصحاب محمد .

وقيل : المراد الذي أسلموا من أهل الكتاب ، وهو على ما فسره لم يتقدم لهم ذكر ، فكيف يشار إليهم بقوله : ﴿ يؤمنون به ﴾ ؟ وأبو الفرج ذكر قولا أنهم المسلمون ، ولم يذكر أن الآية تعم النبي والمؤمنين ، ولما ذكر قول من قال : وهذا يخرج على قول الضحاك في البينة أنها رسول الله .

وقد ذكر في « البينة » أربعة أقوال : أنها الدين ذكره أبو صالح عن ابن عباس ، وأنها رسول قاله الضحاك ، وأنها القرآن ، قاله ابن زيد ، وأنها البيان ، قاله مقاتل .

ثم قال : فإن قلنا : المراد من كان على بينة من ربه المسلمون فالمعنى أنهم يتبعون الرسول وهو البينة ، ويتبع هذا النبي شاهد منه يصدقه ، والمسلمون إذا كانوا على بينة فهي الإيمان بالرسول ، ليست البينة ذات الرسول ، والرسول ليس هو مذكورا في كلامه ، فقوله : ﴿ يتلوه ﴾ لا بد أن يعود إلى (من)[1] لكن إعادته إلى البينة أولى . وفسر البينة بالرسول ،

---

(١) بياض بالأصل .

وجعل الشاهد يشهد له بصدقه . ثم الشاهد جبريل أو غيره ، فلو قال : الشاهد هو القرآن يشهد للمؤمنين ، فإنه يتبعهم كما يتبعونه كان قد ذكر الصواب .

وهو قد ذكر أقوالا كثيرة لم يذكرها غيره ، وذكر في يتلوه قولين « أحدهما » يتبعه . و « الثاني » يقرأه ، وهما قولان مشهوران .

وذكر في « ه » يتلوه قولين : أنها ترجع إلى النبي . و « الثاني » أنها ترجع إلى القرآن .

والتحقيق : أنها ترجع إلى « من » أو ترجع إلى البينة ، والبينة يراد بها القرآن ، فيكون المعنى أن الشاهد منْ القرآن ، وإذا رجع الضمير إلى « من » فإن جعل مختصا بالنبي ﷺ - وهو القول الذي تقدم بيان فساده - عاد الضمير إلى البينة ، وإن كان « من » تتناول كل من كان على بينة من ربه من المؤمنين ، ورسول الله أول المؤمنين تناول الجميع .

ومما يوضح ذلك : أن رسول الله جاء بالرسالة من الله ، وهذا يختص به ، وتصديق هذه الرسالة والإيمان بها واجب على الثقلين ، والرسول هو أول من يجب عليه الإيمان بهذه الرسالة التي أرسله الله بها ، ولهذا قال في سورة يونس : ﴿ قلْ يا أيُّها الناسُ إن كنتمْ في شَكٍّ مِنْ دِيني فَلا أعبدُ الذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ، ولكنْ أَعْبُدُ اللهَ الذي يَتَوَفّاكُمْ وأُمِرْتُ أنْ أكونَ مِنَ المؤمنينَ ﴾[1] . وقال : ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أنْ أكونَ أوّلَ مَنْ أسلمَ ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات .

فهو صلى الله عليه وسلم يتعلق به أمران عظيمان :

« أحدهما » إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله ، وهذا مختص به .

و « الثاني » تصديقه فيما جاء به ، وأن ما جاء به من عند الله يجب اتباعه ، وهذا يجب عليه وعلى كل أحد ، فإنه قد يوجد فيمن يرسله المخلوق من يصدق في رسالته ؛ لكنه لا يتبعها ؛ إما لطعنه في المرسل ، وإما لكونه يعصيه ، وإن كان قد أرسل بحق ، فالملوك كثيرا ما يرسلون رسولا بكتب وغيرها يبلغ الرسل رسالتهم ، فيصدقون بها . ثم قد يكون الرسول أكثر مخالفة لمرسله من غيره من المرسل إليهم ، ولهذا ظن طائفة منهم القاضي أبو بكر أن مجرد كونه رسولا لله لا يستلزم المدح . ثم قال : إن هذا قد يقال فيمن قبل الرسالة وبلغها ، وفيمن لم يقبل ، لكن هذا غلط ، فإن الله لا يرسل رسولا إلا وقد اصطفاه ، فيبلغ رسالات ربه . ورسل الله هم أطوع الخلق لله وأعظم إيمانا بما بعثوا به ، بخلاف المخلوق فإنه يرسل من

---

(١) سورة يونس الآية ١٠٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤ .

يكذب عليه ، ومن يعصيه ، ومن لا يعتقد وجوب طاعته ، والخالق منزه عن ذلك .

لكن هؤلاء الذين قالواهذايجوزون على الرب أن يرسل كل احد بكل شيء ، ليس في العقل عندهم ما يمنع ذلك ، وإنما ينزهون الرسل عما أجمع المسلمون على تنزيههم عنه عندهم ، (مما) ثبت بالسمع لا من جهة كونه رسولا ، كما قد بسط في غير هذا الموضع وبينّ أن هذا الأصل خطأ .

ولما كان هو ﷺ يتعلق به الأمران . في « الأول » يقال : آمنت له كما قال تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِموسى إلاّ ذريةٌ مِنْ قومِهِ ﴾[1] وقوله : ﴿ يُؤْمِنُ باللهِ وَيُؤْمِنُ لِلمؤمنينَ ﴾[2] ﴿ وَمَا أنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا ﴾[3] .

وفي « الثاني » يقال : آمنت بالله فعلينا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء به ، والله تعالى ذكر هذين . فذكر « أولا » ما يثبت نبوته وصدقه بقوله : ﴿ أمْ يقولونَ افْتَراهُ ، قلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفْتَرَياتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كنتم صادقينَ ، فإنْ لَمْ يَستجيبوا لكم فَاعْلَموا أنما أُنْزِلَ بعلمِ اللهِ ، وأنْ لا إلهَ إلا هوَ ﴾[4] كما تقدم التنبيه على ذلك .

ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول شيئان : إما الجهل وإما فساد القصد ، ذكر ما يزيل الجهل ، وهو الآيات الدالة على صدقه ثم ذكر أهل فساد القصد بقوله : ﴿ مَنْ كانَ يُريدُ الحياةَ الدنيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إليهم أعمالَهُمْ فيها وهم فيها لا يُبْخسونَ ، أولئكَ الذينَ ليسَ لهم في الآخرةِ إلا النارُ ، وَحَبطَ ما صَنَعوا فيها وباطِلٌ ما كانوا يَعملونَ ﴾[5] فهؤلاء أهل الفساد القصد .

فهذان الأمران هما المانعان للخلق من اتباع هذا (الرسول) كما أنه في البقرة ذكر ما يوجب العلم وحسن القصد ، فقال : ﴿ وإنْ كنتم في ريبٍ ممّا نَزّلنا على عبدِنا فأْتوا بسورةٍ مِنْ مثلِهِ ، وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كنتم صادقينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ فإنْ لَمْ تَفعلوا وَلَنْ تَفعلوا فَاتّقوا النارَ التي وَقودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرينَ ﴾[6] .

---

(١) سورة يونس الآية ٨٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٦١ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٧ .

(٤) سورة هود الآيات (١٣ ـ ١٤) .

(٥) سورة هود الآيات (١٥ ـ ١٦) .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٤ .

فلما أثبت هذين الأصلين : أخذ بعد هذا في بيان الإيمان به ، وحال من آمن ومن كفر ، فقال : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ ؟ الآية . ثم قال : ﴿ وَمَنْ أظلمُ مِمّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً ، أولئكَ يُعرَضونَ على رَبِّهِمْ ، وَيَقولُ الأشهادُ : هؤلاءِ الذينَ كَذَبوا على رَبِّهِمْ ﴾[1] وهذا يتناول كل كافر ممن كذب على الله بادعاء الرسالة كاذبا ، ويتناول كل من كذب رسولاً صادقاً ، فقال : إن الله لم يرسل هذا ، ولم يأمر بهذا ، فكذب على الله ، وهذا إنما يقع ممن فسد قصده بحب الدنيا وإرادتها ، وممن أحب الرئاسة وأراد العلو في الأرض من أهل الجهل .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله يُدني المؤمن منه يوم القيامة حتى يلقي عليه كنفه ، ويقول فعلت يوم كذا كذا وكذا ، ويوم كذا كذا وكذا ، فيقول : نعم . فيقول : إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيميه »[2] .

وأما الكفار والمنافقون : فـ ﴿ يقول الأشهاد هؤلاء : الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ ثم ذكر تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم ذكر مثل الفريقين ، فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها ، وعرف مقصود القرآن : تبين له المراد ، وعرف الهدى والرسالة ، وعرف السداد من الانحراف ، والاعوجاج .

وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين ؛ لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية . فإن هؤلاء أكثر غلطا من المفسرين المشهورين ؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه ، كما يقصد ذلك المفسرون .

وأعظم غلط من هؤلاء وهؤلاء من لا يكون قصده معرفة مراد الله ؛ بل قصده تأويل الآية بما يدفع خصمه عن الاحتجاج بها ، وهؤلاء يقعون في أنواع من التحريف ولهذا جوز من جوز منهم أن تتأول الآية بخلاف تأويل السلف وقالوا : إذا اختلف الناس في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث : بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين ، وهذا خطأ ؛ فإنهم إذا أجمعوا على أن المراد بالآية إما هذا وإمّا هذا كان القول بأن المراد غير هذين القولين خلافا لإجماعهم ؛ ولكن هذه طريق من يقصد الدفع (و) لا يقصد معرفة المراد ، وإلا فكيف يجوز أن تضل الأمة عن فهم القرآن ، ويفهمون منه كلهم غير المراد (ويأتي)[3] متأخرون يفهمون المراد ، فهذا هذا والله أعلم .

---

(١) سورة هود الآية ١٨ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب التوحيد) ، ابن حنبل ١٠٥/٣ .

(٣) ويأتي : ليس بالأصل ومكانها بياض .

فصـــــل

وقوله: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ كما تقدم هو كقوله : ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ وقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ ؟(١) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهوَ على نورٍ من رَبِّهِ ﴾(٢) وقولـه : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾(٣) .

فإن هذا النوع يبين أن المؤمن على أمر من الله ، فاجتمع في هذا اللفظ حرف الاستعلاء وحرف (من) لابتداء الغاية ، وما يستعمل فيـه حرف ابتـداء الغايـة فيقال : هـو من الله على نوعين ، فإنه إما أن يكون من الصفات التي لا تقوم بنفسهـا ، ولا بمخلوق ، فهذا يكـون صفة له ، وما كان عينا قائمة بنفسها ، أو بمخلوق فهي مخلوقة .

« فـالأول » كقولـه : ﴿ ولكنْ حَقَّ القولُ مِنِّي ﴾(٤) وقـوله : ﴿ يَعلمـونَ أنـهُ مُنَـزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾(٥) كما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود .

« والنـوع الثاني » كقـولـه : ﴿ وسَخَّـرَ لكمْ مـا في السمـواتِ ومـا في الأرضِ جميعـاً منـهُ ﴾(٦) وقـولـه : ﴿ ومـا بكم مِنْ نعمـةٍ فمنَ اللهِ ﴾(٧) ، و﴿ مـا أصـابـكَ مِنْ حسنـةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾(٨) وكمـا يقال : إلهـام الخير وإيحـاؤه من الله ، والهام الشـر وإيحاؤه من الشيـطان ، والوسوسة من الشيطان . فهذا نوعان .

تارة يضاف بـاعتبار السبب ، وتـارة باعتبـار العاقبـة والغايـة . فالحسنـات هي النعم ، والسيئات هي المصائب كلهـا من عند الله ، لكن تلك الحسنـات أنعم الله بها على العبـد ، فهي منه إحساناً وتفضّلاً ، وهذه عقوبة ذنب من نفس العبد ، فهي من نفسه باعتبـار أن عمله السيىء كان سببها ، وهي عقوبة له ؛ لأن النفس أرادت تلك الذنوب ووسوست بها .

---

(١) سورة محمد الآية ١٤ .

(٢) سورة الزمر الآية ٢٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٥ .

(٤) سورة السجدة الآية ١٣ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١١٤ .

(٦) سورة الجاثية الآية ١٣ .

(٧) سورة النحل الآية ٥٣ .

(٨) سورة النساء الآية ٧٩ .

وتارة يقال باعتبار حسنات العمل وسيئاته ، وما يلقى في القلب من التصورات والإرادات ، فيقال للحق : هو من الله ألهمه العبد ، ويقال للباطل : إنه من الشيطان وسوس به ، ومن النفس أيضا لأنها أرادته كما قال عمر وابن عمر وابن مسعود فيما قالوه باجتهادهم : إن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنا ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه .

وهذا لفظ ابن مسعود في حديث بنت واشق ، قال : إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، لأنه حكم بحكم فإن كان موافقا لحكم الله فهو من الله ، لأنه موافق لعلمه وحكمه ، فهو منه باعتبار أنه سبحانه ألهمه عبده لم يحصل بتوسط الشيطان والنفس ، وإن كان خطأ فالشيطان وسوس به ، والنفس أرادته ووسوست به ، وإن كان ذلك مخلوقا فيه ، والله خلقه فيه ؛ لكن الله لم يحكم به ، وإن لم يكن ما وقع لي من إلهام الملك كما قال ابن مسعود : « إن للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة ؛ فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق » فالتصديق من باب الخير ، والإيعاد بالخير ، والشر من باب الطلب والإرادة . قال تعالى : ﴿ الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفقرَ ، ويأمُرُكُمْ بالفحشاءِ ، واللهُ يَعِدُكُمْ مغفرةً منهُ ، وفضلاً واللهُ واسعٌ عليمٌ ﴾[1] .

فهذه حسنات العمل من الله عز وجل بهذين الاعتبارين .

« أحدهما » أنه يأمر بها ويحبها ، وإذا كانت خيرا فهو يصدقها ويخبر بها ، فهي من علمه وحكمه ، وهي أيضا من إلهامه لعبده وإنعامه عليه ، لم تكن بواسطة النفس والشيطان ؛ فاختصت بإضافتها إلى الله من جهة أنها من علمه وحكمه ، وأن النازل بها إلى العبد ملك ، كما اختص القرآن بأنه منه كلام ، وقرآن مسيلمة بأنه من الشيطان ، فإن ما يلقيه الله في قلوب المؤمنين من الإلهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله ، وكذلك ما يريهم إياه في المنام ، قال عبادة بن الصامت : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه ، وقال عمر : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم يتجلى لهم أمور صادقة ، وقد قال تعالى : ﴿ وإذْ أَوْحَيْتُ إلى الحواريينَ أنْ آمنوا بي وبرسولي ﴾[2] ﴿ وأَوْحَيْنا إلى أُمِّ موسى ﴾[3] ﴿ وأَوْحَيْنا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهِمْ هذا ﴾[4] وقال : ﴿ فَأَلْهَمَها فجورَها وتَقْوَاها ﴾[5] على قول الأكثرين ، وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها ، والتقية تقواها ، فالإلهام عنده هو البيان

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

(٢) سورة المائدة الآية ١١١ .

(٣) سورة القصص الآية ٧ .

(٤) سورة يوسف الآية ١٥ .

(٥) سورة الشمس الآية ٨ .

بالأدلة السمعية والعقلية .

وأهل السنة يقولون : كلا النوعين من الله ، هذا الهدى المشترك وذاك الهدى المختص ، وإن كان قد سماه إلهاما كما سماه هدى ، كما في قوله : ﴿ وأما ثمودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العمى على الهدى ﴾[١] ، وكذلك قد قيل في قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[٢] أي بينا له طريق الخير والشر ، وهو هدى البيان العام المشترك . وقيل : هدينا المؤمن لطريق الخير ، والكافر لطريق الشر ؛ فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى ،كما جعل أولئك البيان إلهاما .

وكذلك قوله : ﴿ إنّا هَدَيْناهُ السبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً ﴾[٣] قيل هو الهدى المشترك ، وهو أنه بين له الطريق التي يجب سلوكه ، والطريق التي لا يجب سلوكها وقيل بل هدى كلاً من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل ﴿ اما شاكرا واما كفورا ﴾ .

لكن تسمية هذا هدى قد يعتذر عنه بأنه هدى مقيد لا مطلق ، كما قال : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليمٍ ﴾ وكما قال : ﴿ يُؤْمِنونَ بالجِبْتِ والطاغوتِ ﴾ وإنه ﴿ يقولُ الحقَّ ﴾ و﴿ يأمرُ بالعدلِ ﴾ فهو موافق لقوله وأمره لعلمه وحكمه ، كما أن القرآن وسائر كلامه كذلك ، وباعتبار أنه أنعم على العبد بواسطة جنده بالملائكة .

ويقال لضد هذا ـ وهو الخطأ ـ هذا من الشيطان والنفس ؛ لأن الله لا يقوله ولا يأمر به ؛ ولأنه إنما ينكته في قلب الإنسان الشيطان ، ونفسه تقبله من الشيطان ؛ فإنه يزين لها الشيء فتطيعه فيه ، وليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ؛ ولكن يفوته به نوع من الحسنات كالنسيان ، فإنه من الشيطان ، والاحتلام من الشيطان ، والنعاس عند الذكر والصلاة من الشيطان ، والصعق عند الذكر من الشيطان ، ولا إثم على العبد فيما غلب عليه إذا لم يكن ذلك بقصد منه أو بذنب .

فقوله : ﴿ إني على بينة من ربي ﴾ وشبهها مما تقدم ذكره : من هذا الباب ، وكذلك قوله : ﴿ ذلكَ بأنَّ الذينَ كَفروا اتّبَعُوا الباطلَ ، وأن الذينَ آمَنوا اتّبَعُوا الحقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ فإن المؤمنين على تصديق ما أخبر الله به ، وفعل ما أمر الله ابتداء وتبليغا كالقرآن ، وقد قال :

---

(١) سورة فصلت الآية ١٧ .
(٢) سورة البلد الآية ١٠ .
(٣) سورة الانسان الآية ٣ .

« إن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال »[1] فهي تنزل في قلوب المؤمنين من نوره وهداه ، وهذه حسنات دينية وعلوم دينية حق نافعة في الدنيا والآخرة ، وهو الإيمان الذي هو إفضال المنعم ، وهو أفضل النعم .

وأما قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ فقد دخل في ذلك نعم الدنيا كلها ، كالعافية والرزق ، والنصر ، وتلك حسنات يبتلي الله العبد بها . كما يبتليه بالمصائب ، هل شكر أم لا ؟ وهل يصبر أم لا ؟ كما قال تعالى : ﴿ وبَلَوْناهُمْ بالحسناتِ والسيئاتِ ﴾[2] وقال : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بالشرِّ والخيرِ فِتنةً ﴾[3] ﴿ فأما الإنسانُ إذا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ ﴾[4] الآيات .

وقد يقال في الشيء أنه من الله وإن كان مخلوقا إذا كان مختصا بالله ، كآيات الأنبياء ، كما قال لموسى : ﴿ فذانِكَ بُرْهَانانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾[5] ، وقلب العصا حية ، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء مخلوق لله ، لكنه منه لأنه دل به وأرشد إلى صدق نبيه موسى ، وهو تصديق منه وشهادة منه له بالرسالة والصدق ، فصار ذلك من الله بمنزلة البينة من الله ، والشهادة من الله ، وليست هذه الآيات مما تفعله الشياطين والكهان ، كما يقال : هذه علامة من فلان ، وهذا دليل من فلان ، وإن (لم) يكن ذلك كلاما منه .

وقد سمى موسى ذلك بينة من الله فقال : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[6] ، فقوله : ببينة من ربكم ، كقوله : ﴿ فذانك برهانان من ربك ﴾ .

وهذه البينة هنا حجة وآية ودلالة مخلوقة تجري مجرى شهادة الله وإخباره بكلامه ، كالعلامة التي يرسل بها الرجل إلى أهله وكيله ، قال سعيد بن جبير في الآية : هي كالخاتم تبعث به ، فيكون هذا بمنزلة قوله صدقوه فيما قال : أو أعطوه ما طلب .

فالقرآن والهدى منه ، وهو من كلامه وعلمه وحكمه الذي هو قائم به غير مخلوق ، وهذه الآيات دليل على ذلك كما يكتب كلامه في المصاحف ؛ فيكون المراد المكتوب به الكلام يعرف به الكلام ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كانَ البحرُ مِداداً لكلماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحرُ قَبْلَ أنْ تنفدَ كلماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بمثلهِ مدداً ﴾[7] .

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٨ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٣٥ .

(٤) سورة الفجر الآية ١٥ .

(٥) سورة القصص الآية ٣٢ .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٠٥ .

(٧) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

ولهذا يكون لهذه الآيات المعجزات حرمة : كالناقة وكالماء النابع بين أصابع النبي ﷺ ونحو ذلك . والله سبحانه أعلم .

فصـــــل

في قوله تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ .

وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية ـ الذين ألحدوا في أسماء الله وآياته ـ أن فرعون كان مؤمنا ، وأنه لا يدخل النار ، وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه ، بل فيه ما ينفيه ، كقوله : ﴿ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذابِ ﴾ قالوا : فإنما أدخل آله دونه . وقوله : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ قالوا إنما أوردهم ولم يدخلها ، قالوا : ولأنه قد آمن أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه .

وهذا القول كفر معلوم فساده باضطرار من دين الإسلام ، لم يسبق ابن عربي إليه ـ فيما أعلم ـ أحد من أهل القبلة ؛ بل ولا من اليهود ، ولا من النصارى ؛ بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون .

فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يستدل عليه بدليل ، فإنه لم يكفر أحد بالله ، ويدعي لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون .

ولهذا ثنى الله قصته في القرآن في مواضع فإن القصص إنما هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان ، وليس في الكفار أعظم من كفره ، والقرآن قد دل على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع :

(أحدها) قوله تعالى في القصص : ﴿ فذانِكَ برهانانِ مِنْ رَبِّكَ إلى فرعونَ وَمَلَئِهِ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ إلى قوله : ﴿ وأَتْبَعْناهُمْ في هذِه الدنيا لعنةً ويومَ القيامَةِ هُمْ من المقبوحينَ ﴾ .

فأخبر سبحانه أنه أرسله إلى فرعون وقومه ، وأخبر أنهم كانوا قوما فاسقين ، وأخبر أنهم : ﴿ قالوا : ما هذا إلا سِحْرٌ مُفْتَرَى ﴾ وأخبر أن فرعون : ﴿ قال : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْري ﴾ وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إله موسى ، وأنه يظنه كاذبا ، وأخبر أنه استكبر فرعون وجنوده ، وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله ، وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم في اليم ؛ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأنه أتبعهم في الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فهذا نص في أن فرعون من الفاسقين ، المكذبين لموسى ، الظالمين ، الداعين إلى النار ، الملعونين في الدنيا بعد غرقهم المقبوحين في الدار الآخرة .

وهذا نص في أن فرعون بعد غرقه ملعون ، وهو في الآخرة مقبوح غير منصور ، وهذا إخبار عن غاية العذاب ، وهو موافق للموضع الثاني في سورة المؤمن وهو قوله : ﴿ وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذابِ * النارُ يُعرَضونَ عليها غُدُوّاً وعَشِيّاً ويومَ تقومُ الساعةُ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذابِ ﴾ وهذا إخبار عن فرعون وقومه ؛ أنه حاق بهم سوء العذاب في البرزخ ، وأنهم في القيامة يدخلون أشد العذاب ، وهذه الآية أحد ما استدلّ به العلماء على عذاب البرزخ .

وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء الجهال : لما سمعوا آل فرعون ، فظنوا أن فرعون خارج منهم ؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه ، بل فرعون داخل في آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم بالقرآن ، واللغة ، يتبين ذلك بوجوه : ـ

(أحدها) أن لفظ آل فلان في الكتاب والسنة يدخل فيها ذلك الشخص ، مثل قومه في الملائكة الذي ضافوا إبراهيم : ﴿ إنا أُرْسِلْنا إلى قومٍ مجرمينَ * إلا آلَ لُوطٍ إنا لَمُنَجّوهُمْ أجمعين * إلا امْرَأَتَهُ ﴾[1] ثم قال : ﴿ فلمّا جاءَ آلَ لوطٍ المرسلونَ قالَ ﴾ يعني لوطا : ﴿ إنكم قومٌ منكرونَ ﴾ وكذلك قوله : ﴿ إنا أَرْسَلْنا عليهم حاصِباً إلا آلَ لوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ ﴾[2] ثم قال بعد ذلك : ﴿ ولقدْ جاءَ آلَ فرعونَ النُّذُرُ * كذَّبوا بآياتِنا كلِّها فأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ .

ومعلوم أن لوطا في هذه المواضع ، وكذلك فرعون : داخل في آل فرعون والمكذبين المأخوذين، ومنه قول النبي ﷺ : « قولوا اللهم صلِّ على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم » وكذلك قوله : « كما باركت على آل إبراهيم » فإبراهيم داخل في ذلك ، وكذلك قوله للحسن : « إن الصدقة لا تحلّ لآل محمد » .

وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان القوم إذا أتوا رسول الله ﷺ بصدقة يصلي عليهم ، فأتى أبي بصدقة فقال : « اللهم صلِّ على آلِ أبي أوفى » وأبو أوفى هو صاحب الصدقة .

---

(١) سورة الحجر الآيات (٥٨ ـ ٦٣) .
(٢) سورة القمر الآية ٣٤ .

ونظير هذا الاسم أهل البيت ، فإن الرجل يدخل في أهل بيته ، كقول الملائكة : ﴿ رحمةُ اللهِ وبركاتُهُ عليكم أهلَ البيتِ ﴾[1] وقول النبي ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » وقوله تعالى : ﴿ إنما يريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ﴾[2] وذلك لأن آل الرجل ممن يؤول إليه ، ونفسه ممن يؤول إليه ، وأهل بيته هم من يأهله ، وهو ممن يأهل أهل بيته .

فقد تبين أن الآية التي ظنوا أنها حجة لهم : هي حجة عليهم ، في تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون في البرزخ ، وفي يوم القيامة ، ويبين ذلك : أن الخطاب في القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه . قال تعالى : ﴿ ولقدْ أرْسَلْنا موسى بآياتِنا وسلطانٍ مبينٍ * إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ فقالوا ساحرٌ كذّابٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ قالَ فرعونُ : ما أُرِيكُمْ إلا ما أرَى وما أهْدِيكُمْ إلا سبيلَ الرشادِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وقالَ فرعونُ يا هامانُ ابنِ لي صَرْحاً لعلّي أَبْلُغَ الأسبابَ * أسبابَ السمواتِ فأطَّلِعَ ألى إله موسى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَحَاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذابِ * النارُ يُعرَضونَ عليها غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ إلى قوله : ﴿ قالَ الذينَ اسْتَكْبَروا إنا كُلٌّ فيها إن الله قَدْ حكمَ بينَ العبادِ ﴾[3] .

فأخبر عقب قوله : ﴿ أَدْخِلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذابِ ﴾ عن محاجتهم في النار ، وقول الضعفاء للذين استكبروا ، وقول المستكبرين للضعفاء : ﴿ إنا كل فيها ﴾ ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين ، وهو الذي استخف قومه فأطاعوه ، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون ، فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه .

(الموضع الثاني) ـ وهو حجة عليهم لا لهم ـ قوله تعالى : ﴿ فَاتّبَعوا أمرَ فرعونَ وما أمْرُ فرعونَ بِرَشيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يومَ القيامةِ فَأَوْرَدَهُمُ النارَ وبئسَ الوِرْدُ المورودُ ﴾ إلى قوله : ﴿ بئسَ الرِّفْدُ المرفودُ ﴾ فأخبر أن يقدم قومه ولم يقل يسوقهم ، وأنه أوردهم النار . ومعلوم أن المتقدم إذا أورد المتأخرين النار : كان هو أول من يردها ، وإلا لم يكن قادما ؛ بل كان سائقاً ؛ يوضح ذلك أنه قال : ﴿ وَأُتْبِعوا في هذِه لعنةً ويومَ القيامةِ ﴾ فعلم أنه وهم يردون النار ، وأنهم جميعا ملعونون في الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة هود الآية ٧٣ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري ١٩٢/٢ (كتاب الزكاة . باب صلاة الإمام ودعاؤه لصاحب الصدقة) ، مسلم ١٢١/٣ (كتاب الزكاة . باب الدعاء عن ابي بالصدقة) وأنظر الإصابة لابن حجر ٤٩٥/٢ . والحديث متفق عليه عن عبد الله بن أبي أوفى .

(٣) سورة غافر : الآيات من ٢٣ ـ ٤٨ .

وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة ، فإن المرء مع من أحب ﴿ والذينَ كَفروا بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴾(١) وأيضا فقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلا كانت قريةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إيمانُها إلا قومَ يُونُسَ لما آمَنوا ﴾(٢) يقول : هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فَيَنْظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ ؟ كانوا أكثرَ منهم ، وأشدَّ قوةً وآثاراً في الأرضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عبادِهِ وَخَسِرَ هنالِكَ الكافرونَ ﴾(٣) فأخبر عن الأمم المكذبين للرسل ، أنهم آمنوا عند رؤية البأس ، وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ ، وأن هذه سنة الله الخالية في عباده .

وهذا مطابق لما ذكره الله في قوله لفرعون : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ، وكنتَ مِنَ المفسدينَ ﴾(٤) ؟ فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار أي الآن تؤمن وقد عصيت قبل ؟ فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعا أو مقبولا فمن قال : إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن ، وخالف سنة الله التي قد خلت في عباده .

يبين ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذ مقبولا : لدفع عنه العذاب كما دفع عن قوم يونس ، فإنهم لما قبل إيمانهم متعوا إلى حين ، فإن الإغراق هو عذاب على كفره فإذا لم يكن كافراً لم يستحق عذابا .

وقوله بعد هذا : ﴿ فاليومَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لتكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً ﴾(٥) يوجب أن يعتبر من خلفه ، ولو كان إنما مات مؤمنا لم يكن المؤمن مما يعتبر بإهلاكه وإغراقه . وأيضا فإن النبي ﷺ لما أخبره ابن مسعود بقتل أبي جهل قال : « هذا فرعون هذه الأمة » فضرب النبي ﷺ المثل في رأس الكفار المكذبين له برأس الكفار المكذبين لموسى .

فهذا يبين أنه هو الغاية في الكفر ، فكيف يكون قد مات مؤمنا ؟ ومعلوم أن من مات مؤمنا : لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يوصف ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وفي مسند أحمد وإسحاق وصحيح أبي حاتم ، عن عوف ابن مالك ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ في تارك الصلاة : « يأتي مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وابي بن خلف » .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٣ .

(٢) سورة يونس الآية ٩٨ .

(٣) سورة غافر الأيات (٨٢ ـ ٨٥) .

(٤) سورة يونس الآية ٩١ .

(٥) سورة يونس الآية ٩٣ .

وسئل رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وأمّا الذينَ سَعِدوا ففي الجنةِ خالدينَ فِيها ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ يومَ نَطْوي السماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكتبِ ﴾ .

فأجاب : الحمد لله ، قال طوائف من العلماء أن قوله : ﴿ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ ﴾ أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، وسقفه عرش الرحمن »[2] وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ ولقدْ كَتَبْنا في الزبورِ مِنْ بَعْدِ الذْكرِ أنّ الأرضَ يَرِثْها عِبادِيَ الصّالحونَ ﴾[3] هي أرض الجنة .

وعلى هذا فلا منافاة بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التي هي سقف الجنة ؛ إذ كل ما علا فإنه يسمى في اللغة سماء ، كما يسمى السحاب سماء ، والسقف سماء .

و « أيضا » فإن السموات وإن طويت وكانت كالمهل ، واستحالت عن صورتها ، فإن ذلك لا يوجب عدمها وفسادها ، بل أصلها باق ؛ بتحويلها من حال إلى حال ،كماقال تعالى : ﴿ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ ، والسمواتُ ﴾[4] وإذا بدلت فإنه لا يزال سماء دائمة ، وأرض دائمة والله أعلم .

---

(١) سورة هود الآية ١٠٨ .
(٢) ورد الحديث في : الترمذي (كتاب الجنة) ، ابن ماجه (كتاب الزهد) .
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــل

قول يوسف ﷺ لما قالت له امرأة العزيز : ﴿ هِيتَ لكَ : قالَ : معاذَ اللهِ ، إنه رَبِّي أحسنَ مثوايَ ، إنه لا يُفلحُ الظالمونَ ﴾[1] المراد بربه في أصح القولين هنا سيده ، وهو زوجها الذي اشتراه من مصر ، الذي قال لأمرأته : ﴿ أكرِمي مثواهُ ، عسى أنْ يَنْفَعَنا أو نَتّخِذَه وَلَداً ﴾[2] قال الله تعالى : ﴿ وكذلكَ مكّنّا لِيوسفَ في الأرضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ، واللهُ غالبٌ على أَمْرِهِ ، ولكنّ اكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ ﴾[2] .

فلما وصى به امرأته فقال لها : ﴿ أكرمي مثواهُ ﴾ قال يوسف : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ ولهذا : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ والضمير في : ﴿ إنه ﴾ معلوم بينهما ، وهو سيدها .

وأما قوله تعالى : ﴿ لولا أنْ رأى بُرْهانَ رَبِّهِ ﴾[3] فهذا خبر من الله تعالى أنه رأى برهان ربه ، وربه هو الله كما قال لصاحبي السجن : ﴿ ذَلِكُما مِمّا عَلّمَني رَبِّي ، إني تركتُ مِلّةَ قومٍ لا يُؤمنونَ بالله ﴾[4] وقوله : ﴿ ربي ﴾ مثل قوله لصاحب الرؤيا : ﴿ اذكرني عندَ رَبكَ﴾ قال تعالى : ﴿ فأنْساهُ الشيطانُ ذكرَ رَبِّهِ ﴾[5] قبل أنسى يوسف ذكر ربه لما قال :

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٣ .

(٢) سورة يوسف الآيات ٢١ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢٤ .

(٤) سورة يوسف الآية ٣٧ .

(٥) سورة يوسف الآية ٤٢ .

﴿ اذكرني عند ربك ﴾ .

وقيل : بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه ، وهذا هو الصواب ، فإنه مطابق لقوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ قال تعالى : فأنساهُ الشيطانُ ذكرَ رَبِّهِ ﴾ والضمير يعود إلى القريب ، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ؛ ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه ؛ بل كان ذاكرا لربه .

وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه ، وقال لهما : ﴿ يا صاحبَيْ السجن! أأرْبابٌ متفرقونَ خيرٌ أَمِ اللهُ الواحدُ القهارُ ؟ ما تعبدونَ من دونِهِ إلا أسماءً سَمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطانٍ ، إنِ الحكمُ إلا للهِ أَمَرَ أَنْ لا تَعْبُدوا إلا إيّاهُ ، ذلكَ الدينُ القيِّمُ ، ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ ﴾[1] .

وقال لهما قبل ذلك : ﴿ لا يأْتيكما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ ﴾[2] أي في الرؤيا ﴿ إلا نبأتُكُما بتأْويلِهِ قَبْلَ أنْ يأْتيكُما ﴾ يعني التأويل ﴿ ذلِكُما ممّا عَلّمَني رَبِّي ، إني تَركْتُ مِلّةَ قومٍ لا يُؤمنونَ باللهِ ، وَهُمْ بالآخرةِ هُمْ كافرونَ ، واتّبَعْتُ مِلّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ، ما كانَ لنا أن نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شيءٍ ، ذلكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ؛ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَشكرونَ ﴾[3] فبذا يذكر ربه عز وجل ، فإن هذا مما علمه ربه ؛ لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله ، وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين ـ الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره ـ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه .

ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال : ﴿ يا صاحِبَيْ السجنِ . أمّا أحدُكما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ﴾[4] الآية ، ثم لما قضى تأويل الرؤيا : ﴿ قالَ للذي نَجا مِنهما اذْكُرْني عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه ؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه ، أي الذكر المضاف إلى ربه والمنسوب إليه ، وهو أن يذكر عنده يوسف . والذين قالوا ذلك القول ، قالوا : كان الأولى أن يتوكل على الله ، ولا يقول اذكرني عند ربك . فلما نسي أن

---

(١) سورة يوسف الآيات (٣٩ ـ ٤٠) .

(٢) سورة يوسف الآية ٣٧ .

(٣) سورة يوسف الآية ٣٨ .

(٤) سورة يوسف الآية ٤١ .

يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين .

فيقال : ليس في قوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ما يناقض التوكل ؛ بل قد قال يوسف : ﴿ إنِ الحكمُ إلا للهِ ﴾[1] كما أن قول أبيه : ﴿ لا تَدْخُلوا من بابٍ واحدٍ وادْخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ ﴾[2] لم يناقض توكله ؛ بل قال : ﴿ وما أُغْني عنكم مِنَ اللهِ من شيءٍ ، إنِ الحكمُ إلا لله ، عليهِ تَوَكّلْتُ وعليهِ فَلْيَتَوَكّلِ المتوكلونَ ﴾[3] .

و « أيضاً » فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين ، والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله ، فإن ذلك شرك ، ويوسف لم يكن مشركاً لا في عبادته ولا توكله ، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله : ﴿ وإلا تَصْرِفْ عني كَيْدَهُنّ أَصْبُ إليهنَّ وأكُنْ مِنَ الجاهِلينَ ﴾[4] فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده .

وقوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ مثل قوله لربه : ﴿ اجْعَلْني على خزائنِ الأرضِ إني حفيظٌ عليمٌ ﴾[5] فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضا للتوكل ، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه ، فكيف يكون قوله للفتى : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ مناقضا للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ؛ ليعلم حاله ليتبين الحق ، ويوسف كان من أثبت الناس .

ولهذا بعد أن طلب ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ قال : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم ﴾[6] فيوسف يذكر ربه في هذه الحال ، كما ذكره في تلك . ويقول : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ﴾ فلم يكن في قوله له : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ترك الواجب ، ولا فعل لمحرم ، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين ، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلما له ، مع علمهم ببراءته من الذنب .

قال الله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾[7] ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ؛ ليتم بذلك صبره وتقواه ، فإنه بالصبر والتقوى نال ما

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٠ .
(٢) سورة يوسف الآية ٦٧ .
(٣) سورة يوسف الآية ٦٧ .
(٤) سورة يوسف الآية ٣٤ .
(٥) سورة يوسف الآية ٥٥ .
(٦) سورة يوسف الآية ٥٠ .
(٧) سورة يوسف الآية ٣٥ .

نال ؛ ولهذا قال : ﴿ أنا يوسف ، وهذا أخي ، قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[١] ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى ، وفاته الأفضل باتفاق الناس .

لكن تنازع العلماء هل يمكن الإكراه على الفاحشة على قولين :

قيل لا يمكن ، كقول أحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهما ، قالوا : لأن الإكراه يمنع الانتشار .

والثاني : يمكن ، وهو قول مالك والشافعي ، وابن عقيل ، وغيره من أصحاب أحمد ؛ لأن الإكراه لا ينافي الانتشار ، فإن الإكراه لا ينافي كون الفعل اختيارا ، بل المكره يختار دفع أعظم الشرين بالتزام أدناهما ، وأيضا : فالانتشار بلا فعل منه ؛ بل قد يقيد ويضجع فتباشره المرأة فتنتشر (شهوته) فتستدخل ذكره .

فعلى قول الأولين لم يكن يحل له ما طلبت منه بحال ، وعلى القول الثاني فقد يقال الحبس ليس بإكراه يبيح الزنا ؛ بخلاف ما لو غلب على ظنه أنهم يقتلونه أو يتلفون بعض أعضائه ، فالنزاع إنما هو في هذا ، وهم لم يبلغوا به إلى هذا الحد ، وإن قيل كان يجوز له ذلك لأجل الإكراه لكن يفوته الأفضل .

وأيضا : فالإكراه إنما يحصل أول مرة ثم يباشر ، وتبقى له شهوة وإرادة في الفاحشة .

ومن قال : الزنا لا يتصور فيه الإكراه يقول : فرق بين ما لا فعل له ـ كالمقيد ـ وبين من له فعل ، كما أن المرأة إذا أضجعت وقيدت حتى فعل بها الفاحشة لم تأثم بالاتفاق ، وإن أكرهت حتى زنت ففيه قولان هما روايتان عن أحمد ؛ لكن الجمهور يقولون لا تأثم وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فإنّ اللهَ مِنْ بعدِ إكراهِهِنّ غفورٌ رحيمٌ ﴾[٢] وهؤلاء يقولون : فعل المرأة لا يحتاج إلى انتشار ، فإنما هو كالإكراه على شرب الخمر ؛ بخلاف فعل الرجل ، وبسط هذا له موضع آخر .

و « المقصود » أن يوسف لم يفعل ذنبا ذكره الله عنه ، وهو سبحانه لا يذكر من الأنبياء ذنبا إلا ذكر استغفاره منه ، ولم يذكر عن يوسف استغفارا من هذه الكلمة ، كما لم يذكر عنه استغفار من مقدمات الفاحشة ؛ فعلم أنه لم يفعل ذنبا في هذا ولا هذا ؛ بل همّ همّاً تركه لله ؛ فأثيب عليه حسنة ، كما قد بسط هذا في موضعه .

وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة ، كما في

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٠ .

(٢) سورة النور الآية ٣٣ .

قوله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا غم ولا أذى ، إلا كفر الله به خطاياه »[1] ولما أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ قال أبو بكر : يا رسول الله ! جاءت قاصمة الظهر ، وأينا لم يعمل سوءا ؟ فقال : « ألست تحزن ؟ ألست تنصب ؟ ألست تصيبك اللأوى ؟ فذلك مما تجزون به » .

فتبين أن قوله : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي نسي الفتى ذكر ربه أن يذكر هذا لربه ، ونسي ذكر يوسف ربه ، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول ، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه ، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه ؛ هذا الذكر الخاص ؛ فإنه وإن كان يسقي ربه خمرا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه ، وأنساه الشيطان تذكير ربه ، وإذكار ربه لما قال : ﴿ اذكرني ﴾ أمره بإذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه ، فإذكار ربه أن يجعله ذاكرا فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرا ليوسف ، والذكر هو مصدر ، وهو اسم فقد يضف من جهة كونه اسما ؛ فيعم هذا كله ؛ أي أنساه الذكر المتعلق بربه ، والمضاف إليه .

ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك : ﴿ وقالَ الذي نَجَا مِنْهُما ـ وَادَّكَرَ بعدَ أُمّةٍ ـ أنا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلونِ ﴾[2] وقوله : ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ دليل على أنه كان نسي فادّكر .

فإن قيل : لا ريب أن يوسف سمى السيد ربّا في قوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ و ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ ونحو ذلك . وهذا كان جائزا في شرعه ، كما جاز في شرعه أن يسجد له أبواه وإخوته ، وكما جاز في شرعه أن يؤخذ السارق عبداً ، وإن كان هذا منسوخا في شرع محمد ﷺ .

وقوله : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ إن أراد به السيد فلا جناح عليه ؛ لكن معلوم أن ترك الفاحشة خوفا لله واجب ولو رضي سيدها ، ويوسف عليه السلام تركها خوفا من الله . ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ وقال يوسف أيضا : ﴿ رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ فدل على أنه كان معه من خوف الله ما يزعه عن الفاحشة ، ولو رضي بها الناس ، وقد دعا ربه عز وجل أن يصرف عنه كيدهن .

---

(١) سبق تخريج الحديث في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) سورة يوسف الآية ٤٥ .

وقوله : ﴿ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ بصيغة جمع التذكير وقوله : ﴿ كيدهن ﴾ بصيغة جمع التأنيث ، ولم يقل مما يدعينني إليه ، دليلَ على الفرق بين هذا وهذا ، وأنه كان من الذكور من يدعوه مع النساء إلى الفاحشة بالمرأة ، وليس هناك إلا زوجها ، وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة ، أو عديمها ، وكان يحب امرأته ويطيعها ؛ ولهذا لما اطلع على مراودتها قال : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾[1] فلم يعاقبها ، ولم يفرق بينها وبين يوسف ، حتى لا تتمكن من مراودته ، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد محبة منه لامرأته ، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة .

ومع هذا فشاعت القصة واطلع عليها الناس من غير جهة يوسف حتى تحدثت بها النسوة في المدينة ، وذكروا أنها تراود فتاها عن نفسه ، وهذا : ﴿ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِنّ وأَعْتَدَتْ لَهُنّ مُتَّكَأً ، وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ مِنْهُ سِكِّيناً ﴾ وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ؛ ليقمن عذرها على مراودته ، وهي تقول لهن : ﴿ فَذَلِكُنّ الذي لُمْتُنّني فيه ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ؛ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكونَنَّ مِنَ الصّاغِرينَ ﴾[2] .

وهذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مراودته ، والخلوة به مع علم الزوج بما جرى ، وهذا من أعظم الدياثة ، ثم إنه حبس فإنما حبس بأمرها ، والمرأة لا تتمكن من حبسه إلا بأمر الزوج ، فالزوج هو الذي حبسه . وقد روي أنها قالت : هذا القبطي هتك عرضي فحبسه ؛ وحبسه لأجل المرأة معاونة لها على مطلبها لدياثته ، وقلة غيرته ، فدخل هو في من دعا يوسف إلى الفاحشة .

فعلم أن يوسف لم يترك الفاحشة لأجله ، ولا لخوفه منه بل قد علم يقينا أنه لم يكن يخاف منه ، وأن يوسف لو أعطاها ما طلبت لم يكن الزوج يدري ، ولو درى فلعله لم يكن ينكر ؛ فإنه قد درى بالمراودة والخلوة التي هي مقتضية لذلك في الغالب فلم ينكر ، ولو قدر أنه هم بعقوبة يوسف فكانت هي الحاكمة على الزوج القاهرة له . وقد قال النبي ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهبَ للبّ الرجل الحازم من إحداكنّ » ولما راجعنه في إمامة الصديق قال : « إنّكنّ لأنتنّ صواحب يوسف »[3] ولما أنشده الأعشى .

وهن شر غالب لمن غلب

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٩ .

(٢) انظر الآيات (٣١ - ٣٣) .

(٣) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الأنبياء) ، الترمذي (المناقب) ، الموطأ (سفر) ، الدارمي (المقدمة) ، النسائي (الإمامة) ، ابن حنبل ٦/٩٦ .

استعاذ ذلك منه وقال : وهن شر غالب لمن غلب . فكيف لا تغلب مثل هذا الزوج وتمنعه من عقوبة يوسف ؟ وقد عهد الناس خلقا من الناس تغلبهم نساؤهم ؛ من نساء التتر وغيرهم ، يكون لامرأته غرض فاسد في فتاه أو فتاها ، وتفعل معه ما تريد ، وإن أراد الزوج أن يكشف أو يعاقب منعته ودفعته ؛ بل وأهانته وفتحت عليه أبوابا من الشر بنفسها ، وأهلها وحشمها ، والمطالبة بصداقها وغير ذلك ؛ حتى يتمنى الرجل الخلاص منها رأسا برأس ، مع كون الرجل فيه غيرة فكيف مع ضعف الغيرة ؟ !

فهذا كله يبين أن الداعي ليوسف إلى ترك الفاحشة كان خوف الله لا خوفا من السيد ، فلهذا قال : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾[1] قيل هذا مما يبين محاسن يوسف ، ورعايته لحق الله وحق المخلوقين ، ودفعه الشر بالتي هي أحسن ، فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان ، كل منهما مستقل بالتحريم .

فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضي الزوج ، وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه ، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط ، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك ، ولهذا جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها ويلاعنها ، ويسعى في عقوبتها بالرجم ، بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن ، بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء ، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها ، وهو عنده أعظم من أخذ ماله .

ولهذا يجوز له قتله دفعا عنها باتفاق العلماء إذا لم يندفع إلا بالقتل بالاتفاق ، ويجوز في أظهر القولين قتله وإن اندفع بدونه ، كما في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما أتاه رجل بيده سيف فيه دم ، وذكر أنه وجد رجلا تفخذ امرأته فضربه بالسيف فأقره عمر على ذلك وشكره ، وقبل قوله أنه قتله لذلك ، إذ ظهرت دلائل ذلك .

وهذا كما لو اطلع رجل في بيته فإنه يجوز له أن يفقأ عينه ابتداء ، وليس عليه أن ينذره ، هذا أصح القولين ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : لو اطلع رجل في بيتك ففقأت عينه ما كان عليك شيء »[2] وكذلك قال في الذي عض يد غيره فنزع يده فانقلعت أسنان العاضّ .

وهذا مذهب فقهاء الحديث . وأكثر السلف ، وفي المسألتين نزاع ليس هذا موضعه ؛ إذ المقصود أن الزاني بامرأة غيره ظالم للزوج وللزوج حق عنده ، ولهذا ذكر النبي ﷺ أن من زنى

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٣ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الديات) ، النسائي (القسامة) ، ابن حنبل ٤٢/٣ .

بامرأة المجاهد فإنه يمكن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أنْ تَجْعَلَ للهِ نِداً وهوَ خَلَقَكَ » قلت ثم أي ؟ قال : « أنْ تقتلَ ولدَكَ خشيةَ أنْ يَطعمَ معكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أنْ تزانيَ بحليلةِ جارِكَ »[1] فذكر الزنا بحليلة الجار ، فعلم أن للزوج حقا في ذلك ، وكان ظلم الجار أعظم ؛ للحاجة إلى المجاورة .

وإن قيل : هذا قد لا يمكن زوج المرأة أن يحترز منه ، والجار عليه حق زائد على حق الأجنبي ، فكيف إذا ظلم في أهله والجيران يأمن بعضهم بعضا ، ففي هذا من الظلم أكثر مما في غيره ، وجاره يجب عليه أن يحفظ امرأته من غيره ، فكيف يفسدها هو .

فلما كان الزنا بالمرأة المزوجه له علتان كل منهما تستقل بالتحريم ، مثل لحم الخنزير الميت : علل يوسف ذلك بحق الزوج ، وإن كان كل من الأمرين مانعا له ، وكان في تعليله بحق الزوج فوائد .

« منها » أن هذا مانع تعرفه المرأة وتعذره به ، بخلاف حق الله تعالى فإنها لا تعرف عقوبة الله في ذلك .

و « منها » أن المرأة قد ترتدع بذلك ، فترعى حق زوجها ، إما خوفا وإما رعاية لحقه ، فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده فالمرأة أولى بذلك ، لأنها خائنة في نفس المقصود منها ، بخلاف المملوك فإن المطلوب منه الخدمة ، وفاحشته بمنزلة سرقة المرأة من ماله .

و « منها » أن هذا مانع مؤيس لها فلا تطمع فيه لا بنكاح ولا بسفاح ، بخلاف الخلية من الزوج ، فإنها تطمع فيه بنكاح حلال .

و « منها » أنه لو علل بالزنا فقد تسعى هي في فراق الزوج ، والتزوج به ، فإن هذا إنما يحرم لحق الزوج خاصة ، ولهذا إذا طلقت امرأته باختياره جاز لغيره أن يتزوجها . ولو طلقها ليتزوج بها - كما قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف إن لي امرأتين فاختر أيتهما شئت حتى أطلقها وتتزوجها - لكنه بدون رضاه لا يحل ، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس منا من خبب امرأة على زوجها ولا عبدا على مواليه » وقد حرم النبي ﷺ أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، ويستام على سوم أخيه ، فإذا كان بعد الخطبة وقبل العقد لا يحل له أن يطلب التزوج بامرأته فكيف بعد العقد ، والدخول والصحبة ؟ !

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (التفسير.. تفسير سورة آل عمران) ، ومسلم (كتاب الإيمان) ، أبو داود (كتاب الطلاق) ، الترمذي (التفسير) ، ابن حنبل ٣٥/١ .

فلو علل بأن هذا زنا محرم ربما طمعت في أن تفارق الزوج وتتزوجه ، فإن كيدهن عظيم ؛ وقد جرى مثل هذا . فلما علل بحق سيده وقال : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ يئست من ذلك ، وعلمت أنه يراعي حق الزوج ، فلا يزاحمه في امرأته البتة ، ثم لو قدر مع هذا أن الزوج رضي بالفاحشة وأباح امرأته لم يكن هذا مما يبيحها لحق الله ولحقه أيضا ، فإنه ليس كل حق للإنسان له أن يسقطه ، ولا يسقط بإسقاطه ، وإنما ذلك فيما يباح له بذله ، وهو ما لا ضرر عليه في بذله ، مثل ما يعطيه من فضل مال ونفع .

وأما ما ليس له بذله فلا يباح بإباحته ، كما لو قال له : علمني السحر والكفر والكهانة ! وأنت في حل من إضلالي ، أو قال له : بعني رقيقا وخذ ثمني ، وأنت في حل من ذلك .

وكذلك إذا قال : افعل بي أو بابني أو بامرأتي أو بإمائي الفاحشة لم يكن هذا مما يسقط حقه فيه بإباحته ، فإنه ليس له بذل ذلك ، ومعلوم أن الله يعاقبها على الفاحشة وإن تراضيا بها ؛ لكن المقصود أن في ذلك أيضا ظلما لهذا الشخص لا يرتفع بإباحته ، كظلمه إذا جعله كافرا أو رقيقا ، فإن كونه يفعل به الفاحشة أو بأهله فيه ضرر عليه لا يملك إباحته كالضرر عليه في كونه كافرا ، وهو كما لو قال له : أزِلْ عقلي وأنت في حل من ذلك ؛ فإن الانسان لا يملك بذل ذلك ، بل هو ممنوع من ذلك ، كما يمنع السفيه من التصرف في ماله ، أو إسقاط حقوقه وكذلك المجنون والصغير ؛ فإن هؤلاء محجور عليهم لحقهم .

ولهذا لو أذن له الصبي أو السفيه في أخذ ماله لم يكن له ذلك ، ومن أذن لغيره في تكفيره أو تجنينه أو تخنيثه والإفحاش به وبأهله فهو من أسفه السفهاء ، وهذا مثل الربا ، فإنه وإن رضي به المرابي وهو بالغ رشيد لم يبح ذلك ؛ لما فيه من ظلمه ؛ ولهذا له أن يطالبه بما قبض منه من الزيادة ، ولا يعطيه إلا رأس ماله ، وإن كان قد بذله باختياره ، ولو كان التحريم لمجرد حق الله تعالى لسقط برضاه ، ولو كان حقه إذا أسقطه سقط لما كان له الرجوع في الزيادة ، والإنسان يحرم عليه قتل نفسه أعظم مما يحرم عليه قتل غيره . فلو قال لغيره : اقتلني لم يملك منه أعظم مما يملك هو من نفسه .

ولهذا يوم القيامة يتظلم من الأكابر ، وهم لم يكرهوهم على الكفر ، بل باختيارهم كفروا . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النارِ ، يَقولونَ : يَا لَيْتَنا أَطَعْنا اللهَ وأَطَعْنا الرَّسُولا ، وَقالوا : رَبَّنا أَطَعْنا سَادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلّونا السَّبيلا ، رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذابِ والْعَنْهُمْ لَعناً كبيراً ﴾[1] وقال : ﴿ حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالَتْ أُخْراهُمْ

---

(١) سورة الأحزاب الآيات (٦٦ ـ ٦٨) .

لِأُولاهُمْ : رَبَّنا هؤلاءِ أَضَلّونا فآتِهِمْ عذاباً ضِعْفاً مِنَ النارِ ، قالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ ، وَلَكِنْ لا تَعلمونَ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ كَفَروا رَبَّنَا أَرِنا اللَّذَيْنِ أَضَلّانا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أقدامِنا لِيَكونا مِنَ الأَسْفَلينَ ﴾(٢) .

وكذلك الناس يلعنون الشيطان ، وإن كان لم يكرههم على الذنوب ؛ بل هم باختيارهم أذنبوا .

فإن قيل : هؤلاء يقولون لشياطين الإنس والجن : نحن لم نكن نعلم أن في هذا علينا ضررا ، ولكن أنتم زينتم لنا هذا وحسنتموه حتى فعلناه ، ونحن كنا جاهلين بالأمر . قيل : كما نعلم أن الجاهل بما عليه في الفعل من الضرر لا عبرة برضاه وإذنه ، وإنما يصح الرضاء والإذن ممن يعلم ما يأذن فيه ويرضى به ، وما كان على الإنسان فيه ضرر راجح لا يرضى به إلا لعدم علمه ، وإلا فالنفس تمتنع بذاتها من الضرر الراجح .

ولهذا كان من اشترى المعيب والمدلس والمجهول السعر ولم يعلم بحاله غير راض به ؛ بل له الفسخ بعد ذلك ؛ كذلك الكفر والجنون والفاحشة بالأهل لا يرضى بها إلا من لم يعلم بما فيها من الضرر عليه ، فإذا أذن فيها لم يسقط حقه ؛ بل يكون مظلوما ، ولو قال : أنا أعلم ما فيها من العقاب وأرضى به كان كذبا ؛ بل هو من أجهل الناس بما يقوله .

ولهذا لو تكلم بكلام لا يفهم معناه ، وقال نويت موجبه عند الله لم يصح ذلك في أظهر القولين ، مثل أن يقول : « بهشم » ولا يعرف معناها ، أو يقول : أنت طالق إن دخلت الدار وينوي موجبها من العربية ، وهو لا يعرف ذلك ؛ فإن النية والقصد والرضا مشروط بالعلم ، فما لم يعلمه لا يرضى به ، إلا إذا كان راضيا به مع العلم ، ومن كان يرضى بأن يكفر ويجن وتفعل الفاحشة به وبأهله . فهو لا يعلم ما عليه في ذلك من الضرر ؛ بل هو سفيه ، فلا عبرة برضاه وإذنه ؛ بل له حق عند من ظلمه وفعل به ذلك غير ما لله من الحق . وإن كان حق هذا دون حق المنكر المانع .

ولهذا قال يوسف عليه السلام : ﴿ إنه ربي مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ يقول : متى أفسدت امرأته كنت ظالما بكل حال ، وليس هذا جزاء إحسانه إلي .

والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضا ، وإن كانوا فعلوه بتراضيهم ، قال طاووس : ما اجتمع رجلان على غير ذات الله إلا تفرقا عن تقال ، وقال

(١) سورة الأعراف الآية ٣٨ .

(٢) سورة فصلت الآية ٣٩ .

الخليل عليه السلام : ﴿ إنّما اتّخَذْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدّةً بينكم في الحياةِ الدّنيا ، ثمّ يومَ القيامةِ يَكْفُرُ بعضُكُمْ ببعضٍ ، وَيَلْعَنُ بعضُكُمْ بَعْضاً ، وَمَأواكُمُ النارُ ، وَمالكُمْ مِنْ ناصرينَ ﴾[1] ، وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا لمجرد كونه عصى الله ؛ بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر ، وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت كالصريم : ﴿ فأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يَتَلاوَمونَ ﴾[2] أي يلوم بعضهم بعضا . وقال : ﴿ الأَخِلّاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلّا المتقينَ ﴾[3] .

فالمخالة إذا كانت على غير مصلحة الاثنين كانت عاقبتها عداوة ، وإنما تكون على مصلحتهما إذا كانت في ذات الله فكل منهما وإن بذل للآخر إعانة على ما يطلبه واستعان به بإذنه فيما يطلبه ، فهذا التراضي لا اعتبار به ؛ بل يعود تباغضا وتعاديا وتلاعنا ، وكل منهما يقول للآخر : لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا : فهلاكي كان مني ومنك .

والرب لا يمنعهما من التباغض والتعادي والتلاعن ، فلو كان أحدهما ظالما للآخر فيه لنهى عن ذلك ، ويقول كل منهما للآخر : أنت لأجل غرضك أوقعتني في هذا ؛ كالزانيين كل منهما يقول للآخر لأجل غرضك فعلت معي هذا . ولو امتنعت لم أفعل أنا هذا ؛ لكن كل منهما له على الآخر مثل ما للآخر عليه ؛ فتعادلا .

ولهذا إذا كان الطلب والمراودة من أحدهما أكثر كان الآخر يتظلمه ويلعنه أكثر ، وإن تساويا في الطلب تقاوما ؛ فإذا رضي الزوج بالدياثة فإنما هو لإرضاء الرجل أو المرأة لغرض له آخر ؛ مثل أن يكون محبا لها ؛ ولا تقيم معه إلا على هذا الوجه فهو يقول للزاني بها : أنت لغرضك أفسدت على امرأتي ، وأنا إنما رضيت لأجل غرضها ، فأنت لما أفسدت علي امرأتي وظلمتني فعلت معي ما فعلت .

ومن ذلك أنه لو قال : إني أخاف الله أن يعاقبني ونحو ذلك لقالت : أنت إنما تترك غرضي لغرضك في النجاة ، وأنا سيدتك ، فينبغي أن تقدم غرضي على غرضك ، فلما قال : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ علل بحق سيده الذي يجب عليه وعليها رعاية حقه .

فصل

وفي قول يوسف : ﴿ رَبِّ السجنُ أحبُّ إليّ ممّا يَدْعُونَني إليهِ ، وإلا تَصْرِفْ عني

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٥ .

(٢) سورة القلم الآية ٣٠ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٦٧ .

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهنّ وأَكُنْ مِنَ الجاهلينَ ﴾[1] عبرتان :

« إحداهما » اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي .

و « الثانية » طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ، ويصرفه إلى طاعته ، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الأمرين بالذنوب ، وصار من الجاهلين .

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة ، وفيه صبر على المحنة والبلاء ، والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة .

وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه : ﴿ اسْتَعينوا بالله وَاصْبِروا ، إن الأرضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ ، والعاقبةُ للمتّقينَ ﴾ لما قال فرعون : ﴿ سَنُقَتِّلُ أبناءَهُمْ ، وَنَسْتَحِيْي نساءَهُمْ ، وإنا فَوْقَهُمْ قاهِرونَ . قالَ موسى لقومِهِ : اسْتَعينوا باللهِ واصْبِروا ، إن الأرضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ ، والعاقبةُ للمتّقينَ ﴾[2] .

وكذلك قوله : ﴿ والذينَ هاجَروا في الله مِنْ بعدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدنيا حسنةً ، ولأَجْرُ الآخرةِ أكبرُ لوْ كانوا يَعلمونَ ، الذينَ صَبَروا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلونَ ﴾[3] .

ومنه قول يوسف عليه السلام : ﴿ فإنّ الله لا يُضيع أجْرَ المحسنينَ ﴾ وهو نظير قوله : ﴿ وإنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئاً ﴾[4] وقوله : ﴿ وإنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُوا فإنّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ ﴾[5] وقوله : ﴿ بَلى إنْ تَصْبِروا وَتَتَّقوا وَيأْتوكم مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بخمسةِ آلافٍ مِنَ الملائكةِ مُسَوِّمينَ ﴾[6] .

فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف عليه السلام : اتقى الله بالعفة عن الفاحشة ، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس ، واستعان الله ودعاه ، حتى يثبته على العفة فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن ، وصبر على الحبس .

وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يَقولُ آمَنّا باللهِ ، فإذا أوذيَ في اللهِ جَعَلَ فتنةَ

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٢٨ .

(٣) سورة النحل الآيات (٤١ ـ ٤٢) .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٢٥ .

الناسِ كعذابِ اللهِ ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ وَمن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير ﴾[2] فإنه لا بد من أذى لكل من كان في الدنيا ، فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله ، بل اختار المعصية ، كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير . ﴿ ومنهم مَنْ يقولُ ائْذَنْ لي ولا تَفْتِنّي ، ألا في الفتنةِ سَقَطوا ﴾[3] .

ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين ، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً ، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً .

فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب ، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله ، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية ، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة ، وأكرمته المرأة بالمال والرياسة ، وزوجها في طاعتها ، فاختار يوسف الذل والحبس ، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة ، مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية .

بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق ، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه ؛ فزعمت أنه راودها ثم حسبته بعد ذلك .

وقد قيل : إنها قالت لزوجها إنه هتك عرضي لم يمكنها أن تقول له راودني ، فإن زوجها قد عرف القصة ؛ بل كذبت عليه كذبة تروج على زوجها . وهو أنه قد هتك عرضها بإشاعة فعلها ، وكانت كاذبة على يوسف لم يذكر عنها شيئا ؛ بل كذبت أولا وآخرا ؛ كذبت عليه بأنه طلب الفاحشة ، وكذبت عليه بأنه أشاعها ، وهي التي طالبت وأشاعت ، فإنها قالت للنسوة : فذلكن الذي لمتنني فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . فهذا غاية الإشاعة لفاحشتها لم تستر نفسها .

والنساء أعظم الناس إخبارا بمثل ذلك ، وهن قبل أن يسمعن قولها قد قلن في المدينة :﴿ امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَاها عَنْ نفسِهِ ﴾فكيف إذا اعترفت بذلك وطلبت رفع الملام عنها ؟

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٠ .

(٢) سورة الحج الآيات (١٠ - ١٣) .

(٣) سورة التوبة الآية ٤٩ .

وقد قيل : إنهن أعنها في المراودة ، وعذلنه على الامتناع . ويدل على ذلك قوله : ﴿ وإلا تصرفْ عني كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهنّ ﴾ وقوله : ﴿ ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ ما بالُ النسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيهِنّ ، إن ربي بكيدِهِنّ عليمٌ ﴾ فدلّ على أن هناك كيدا منهم ، وقد قال لهن الملك : ﴿ ما خَطْبُكُنّ إذ راوَدْتُنَّ يوسفَ عن نفسِهِ ، قُلْنَ حاشَ للهِ ما عَلِمْنا عليهِ مِنْ سوءٍ ، قالتِ امْرأَةُ العزيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أنا راوَدْتُهُ عن نفسِهِ وإنه لَمِنَ الصادقينَ ﴾[1] فهن لم يراودنه لأنفسهن ؛ إذ كان ذلك غير ممكن ، وهو عند المرأة في بيتها وتحت حجرها ؛ لكن قد يكن أعنّ المرأة على مطلوبها .

وإذا كان هذا في فعل الفاحشة فغيرها من الذنوب أعظم ، مثل الظلم العظيم للخلق ، كقتل النفس المعصومة ، ومثل الإشراك بالله ، ومثل القول على الله بلا علم . قال تعالى : ﴿ قل إنما حَرَّمَ رَبِّي الفواحشَ ، ما ظهرَ منها وما بَطَنَ ، والإثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ ، وأنْ تُشْرِكوا باللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بهِ سُلطاناً ، وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تَعلمونَ ﴾[2] فهذه أجناس المحرمات التي لا تباح بحال ، ولا في شريعة ، وما سواها ـ وإن حرم في حال ـ فقد يباح في الحال .

فصل[*]

وأما قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بها لَوْلا أنْ رَأَى برهانَ رَبِّهِ ﴾ فالهمّ اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد الهمّ همّان همّ خطرات وهمّ إصرار . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إن العبد إذا همَّ بسيئة لم تكتب عليه . وإذا تركها لله كتبت له حسنة ، وإن عملها كتبت له سيئة واحدة ، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة ، ويوسف ﷺ همّ همّا تركه لله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه ، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهمّ وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله ، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها وقال تعالى : ﴿ إنّ الذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ مِنَ الشيطانِ تذكّروا فإذا هُمْ مُبْصِرونَ ﴾ وأما ما ينقل من أنه حلّ سراويله ، وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وأنه رأى صورة يعقوب عاضا

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(*) الفتاوى الكبرى ب / ٣٣٩ ط القاهرة .

على يده ، وأمثال ذلك فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ، وما لم يكن كذلك ، فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء ، وقدْحا فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله ، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً .

وقوله : ﴿ وما أُبَرِّىءُ نفسي إنّ النفسَ لأَمّارَةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ رَبِّي ﴾ فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال تعالى : ﴿ وقالَ الملكُ ائتوني بهِ فلمّا جاءَهُ الرسولُ قالَ ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ ما بالُ النسوةِ اللاتي قَطّعنَ أيديَهنّ إن ربي بكيدهِنّ عليمٌ قالَ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ، ولا سمع كلامه ولا رآه. ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته . فحينئذ ﴿ قالَ الملكُ ائتوني بهِ أَسْتَخْلِصْهُ لنفسي فلمّا كلّمَهُ قالَ إنّكَ اليومَ لَدَيْنا مكينٌ أمينٌ ﴾ وقد قال كثير من المفسرين : إن هذا من كلام يوسف ، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول وهو قول في غاية الفساد ، ولا دليل عليه بل الأدلة تدل على نقيضه وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع .

فصـــل

واختيار النبي ﷺ له ولأهله الاحتباس في شعب بني هاشم بضع سنين ، لا يبايعون ولا يشارون ؛ وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، قد هجرهم وقلاهم قومهم ، وغير قومهم . هذا أكمل من حال يوسف عليه السلام .

فإن هؤلاء كانوا يدعون الرسول إلى الشرك ، وأن يقول على الله غير الحق . يقول : ما أرسلني ولا نهى عن الشرك . وقد قال تعالى : ﴿ وإن كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذي أَوْحَيْنا إليكَ ، لِتَفْتَرِي عَلَيْنا غيرَهُ ، وإذاً لاتَّخذوكَ خليلاً ، ولولا أنْ ثَبّتْناكَ لقدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً ، إذاً لأَذَقْناكَ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ ، ثمّ لا تَجِدُ لكَ علينا نَصيراً ، وإن كادوا لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأرضِ ؛ لِيُخرِجوكَ منها ؛ وإذاً لا يَلبثونَ خِلافَكَ إلا قليلاً ، سُنّةَ مَنْ أَرْسَلْنا قبلَكَ مِنْ رُسُلِنا ، ولا تَجِدُ لِسُنّتِنا تَحْويلاً ﴾[1] .

(١) سورة الإسراء الآيات (٧٣ - ٧٧) .

وكان كذب هؤلاء على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف ؛ فإنهم قالوا : إنه ساحر ، وإنه كاهن ، وإنه مجنون ، وإنه مفتر . وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف ؛ لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد . فإن يوسف كذب عليه في أنه زنى . وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة ؛ فكان الكذب على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف .

وكذلك الكذب على أولي العزم ، مثل نوح وموسى ، حيث يقال عن الواحد منهم : إنه مجنون ، وإنه كذاب ، يكذب على الله ، وما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس ، فإن يوسف حبس وسكت عنه ، والنبي ﷺ وأصحابه كانوا يؤذون بالأقوال والأفعال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة .

وهذا معنى الحبس ، فإنه ليس المقصود بالحبس سكناه في السجن بل المراد منعه من التصرف المعتاد . والنبي ﷺ لم يكن له حبس ، ولا لأبي بكر ؛ بل أول من اتخذ السجن عمر ، وكان النبي ﷺ يسلم الغريم إلى غريمه ، ويقول : « ما فعل أسيرك » فيجعله أسيرا معه ، حتى يقضيه حقه ، وهذا هو المطلوب من الحبس .

والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ منعوهم من التصرف بمكة أذى لهم ، حتى خرج كثير منهم إلى أرض الحبشة ، فاختاروا السكنى بين أولئك النصارى عند ملك عادل على السكنى بين قومهم ، والباقون أخرجوا من ديارهم وأموالهم أيضا مع ما آذوهم به ، حتى قتلوا بعضهم ، وكانوا يضربون بعضهم ويمنعون بعضهم ما يحتاج إليه ، ويضعون الصخرة على بطن أحدهم في رمضاء مكة ، إلى غير ذلك من أنواع الأذى .

وكذلك المؤمن من أمة محمد ﷺ يختار الأذى في طاعة الله على الإكرام مع معصيته ، كأحمد بن حنبل اختار القيد والحبس والضرب على موافقة السلطان ، وجنده ، على أن يقول على الله غير الحق في كلامه ، وعلى أن يقول ما لا يعلم أيضا ، فإنهم كانوا يأتون بكلام يعرف أنه مخالف للكتاب والسنة ؛ فهو باطل ، وبكلام مجمل يحتاج إلى تفسير ؛ فيقول لهم الإمام أحمد : ما أدرى ما هذا ؟ فلم يوافقهم على أن يقول على الله غير الحق . ولا على أن يقول على الله ما لا يعلم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

ثم إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان شاباً عزباً أسيراً في بلاد العدو ، حيث لم يكن هناك أقارب أو أصدقاء فيستحي منهم إذا فعل فاحشة ، فإن كثيرا من الناس يمنعه من مواقعة

القبائح حياؤه ممن يعرفه ، فإذا تغرب فعل ما يشتهيه . وكان أيضا خاليا لا يخاف مخلوقا ، فحكم النفس الأمارة ـ لو كانت نفسه كذلك ـ أن يكون هو المتعرض لها ؛ بل يكون هو المتحيل عليها ، كما جرت به عادة كثير ممن له غرض في نساء الأكابر إن لم يتمكن من الدعوة ابتداء . فأما إذا دعي ولو كانت الداعية خدامة لكان أسرع مجيب ، فكيف إذا كانت الداعية سيدته الحاكمة عليه ، التي يخاف الضرر بمخالفتها ؟ !

ثم إن زوجها الذي عادته أن يزجر المرأة لم يعاقبها ؛ بل أمر يوسف بالإعراض ، كما ينعر الديوث ثم إنها استعانت بالنساء وحبسته ، وهو يقول : ﴿ رب السجن أحب اليّ مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ .

فليتدبر اللبيب هذه الدواعي التي دعت يوسف إلى ما دعته ، وأنه مع توفرها وقوتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك ، ولا من ينجيه من المخلوقين ؛ ليتبين له أن الذي ابتلي به يوسف كان من أعظم الأمور ، وإن تقواه وصبره عن المعصية ـ حتى لا يفعلها (مع) ظلم الظالمين له ، حتى لا يجيبهم ـ كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات وإن نفس يوسف عليه الصلاة والسلام كانت من أزكى الأنفس ، فكيف أن يقول : ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ والله يعلم أن نفسه بريئة ليست أمارة بالسوء ؛ بل نفس زكية من أعظم النفوس زكاء ، والهمّ الذي وقع كان زيادة في زكاء نفسه وتقواها ، وبحصوله مع تركه لله لتثبت له به حسنة من أعظم الحسنات التي تزكي نفسه .

« الوجه السادس » أن قوله : ﴿ ذلكَ لِيَعْلَمَ أَني لَمْ أَخُنْهُ بالغيبِ ﴾ إذا كان معناه على ما زعموه أن يوسف أراد أن يعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته على قول أكثرهم ؛ أو ليعلم الملك أو ليعلم الله لم يكن هنا ما يشار إليه ؛ ، فإنه لم يتقدم من يوسف كلام يشير به إليه ، ولا تقدم أيضا ذكر عفافه واعتصامه ؛ فإن الذي ذكره النسوة قولهن : ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ وقوله امرأة العزيز : ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ وهذا فيه بيان كذبها فيما قالته أولا ، ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو .

فقول القائل : إن قوله : (ذلك) من قول يوسف ، مع أنه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل لا يصلح بحال .

« الوجه السابع » أن المعنى على هذا التقدير ـ لو كان هنا ما يشار إليه من قول يوسف أو عمله ـ إن عفتي عن الفاحشة كان ليعلم العزيز أني لم أخنه ، ويوسف عليه الصلاة والسلام إنما تركها خوفا من الله ، ورجاء لثوابه ؛ ولعلمه بأن الله يراه ؛ لا لأجل مجرد علم مخلوق . قال الله تعالى : ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها ، لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين ﴾ فأخبر أنه رأى برهان ربه وأنه من عباده المخلصين .

ومن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك لم يكن هذا لأجل برهان من ربه ، ولم يكن بذلك مخلصا فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله آحاد الناس لم يكن له ثواب من الله ؛ بل يكون ثوابه على من عمل لأجله .

فإن قيل : فقد قال يوسف أولا : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

قيل : إن كان مراده بذلك سيده : فالمعنى : إنه أحسن الي ، وأكرمني ، فلا يحل لي أن أخونه في أهله ، فإني ظالما ولا يفلح الظالم ؛ فترك خيانته في أهله خوفا من الله لا ليعلم هو بذلك .

فإن قيل : مراده تأتي إظهار براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ، فالمعلل إظهار براءته لانفس عفافه .

قيل : لم يكن مراده بإظهار براءته مجرد علم واحد ؛ بل مراده علم الملك وغيره . ولهذا قال للرسول : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ولو كان هذا من قول يوسف لقال : ذلك ليعلموا أني بريء وأني مظلوم .

ثم هذا لا يليق أن يذكر عن يوسف ؛ لأنه قد ظهرت براءته ، وحصل مطلوبه ، فلا يحتاج أن يقول ذلك لتحصيل ذلك . وهم قد علموا أنه إنما تأخر لتظهر براءته ، فلا يحتاج مثل هذا أن ينطق به .

« الوجه الثامن » أن الناس عادتهم في مثل هذا يعرفون بما عملوه من لذلك عنده قدر ، وهذا يناسب لو كان العزيز غيورا ، وللعفة عنده جزاء كثير ، والعزيز قد ظهر عنه من قلة الغيرة وتمكين امرأته من حبسه مع الظالمين مع ظهور براءته ما يقتضى أن مثل هذا ينبغي في عادة الطباع أن يقابل على ذلك بمواقعة أهله . فإن النفس الأمارة تقول في مثل هذا : هذا لم يعرف قدر إحساني إليه ، وصوني لأهله ، وكفّ نفسي عن ذلك ؛ بل سلطها ومكنها .

فكثير من النفوس لو لم يكن في نفسها الفاحشة إذا رأت من حاله هذا تفعل الفاحشة ، إما نكاية فيه ومجازاة له على ظلمه ، وإما إهمالا له لعدم غيرته وظهور دياثته ، ولا يصبر في مثل هذا المقام عن الفاحشة إلا من يعمل لله خائفا منه ، وراجيا لثوابه ، لا من يريد تعريف الخلق بعمله .

« الوجه التاسع » أن الخيانة ضد الأمانة ، وهما من جنس الصدق والكذب . ولهذا يقال : الصادق الأمين ، ويقال الكاذب الخائن . وهذا حال امرأة العزيز ؛ فإنها لو كذبت على يوسف في مغيبه وقالت راودني لكانت كاذبة وخائنة ، فلما اعترفت فأنها هي المراودة كانت

صادقة في هذا الخبر أمينة فيه ؛ ولهذا قالت : ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ فأخبرت بأنه صادق في تبرئته نفسه دونها .

فأما فعل الفاحشة فليس من باب الخيانة والأمانة ؛ ولكن هو باب الظلم والسوء والفحشاء ، كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى عن يوسف : ﴿ معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ولم يقل هنا الخائنين . ثم قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ولم يقل لنصرف عنه الخيانة ؛ فليتدبر اللبيب هذه الدقائق في كتاب الله تعالى .

« الوجه العاشر » أن في الكلام المحكي الذي أقره الله تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ وهذا يدلّ على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء ، بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء .

وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال : تكون أمارة بالسوء ، ثم تكون لوامة ، أي تفعل الذنب ثم تلوم عليه ، أو تتلوم فتتردد بين الذنب والتوبة . ثم تصير مطمئنة .

و « المقصود هنا » أن ما رحم ربي من النفوس ليست بأمارة ، وإذا كانت النفوس منقسمة إلى مرحومة وأمارة فقد علمنا قطعا أن نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء ؛ لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة ، وراودت وافترت ، واستعانت بالنسوة وسجنت ، وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء .

وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فإن لم تكن نفسه من النفوس المرحومة عن أن تكون أمارة فما في الأنفس مرحوم ؛ فإن منَ تدبر قصة يوسف علم أن الذي رحم به وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون ؛ ولولا ذلك لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة ، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي أبعد عن أن تكون مرحومة من نفس يوسف . وعلى هذا التقدير : فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة : فما في النفوس مرحومة ، فإذا كل النفوس أمارة بالسوء ، وهو خلاف ما في القرآن .

ولا يلتفت إلى الحكاية المذكورة عن مسلم بن يسار ؛ أن أعرابية دعته إلى نفسها ، وهما في البادية ؛ فامتنع وبكى ، وجاء أخوه وهو يبكي فبكى وبكت المرأة ، وذهبت فنام فرأى يوسف في منامه ، وقال : أنا يوسف الذي هممت ، وأنت مسلم الذي لم تهم ، فقد يظن من يسمع هذه الحكاية أن حال مسلم كان أكمل . وهذا جهل لوجهين :

« أحدهما » أن مسلما لم يكن تحت حكم المرأة المراودة ولا لها عليه حكم ، ولا لها عليه قدرة أن تكذب عليه ، وتستعين بالنسوة وتحبسه ، وزوجها لا يعينه ولا أحد غير زوجها يعينه على العصمة ؛ بل مسلم لما بكى ذهبت تلك المرأة ، ولو استعصمت لكان صراخه منها أو خوفها من الناس يصرفها عنه . وأين هذا مما ابتلي به يوسف عليه الصلاة والسلام ؟ !

« الثاني » أن الهمّ من يوسف لما تركه لله كان له به حسنة ، ولا نقص عليه . وثبت في الصحيحين من حديث السبعة الذين « يظلهم الله في ظله لا ظلّ إلا ظلّه : رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله رب العالمين »[1] وهذا لمجرد الدعوة ، فكيف بالمراودة والاستعانة والحبس ؟

ومعلوم أنها كانت ذات منصب ، وقد ذكر أنها كانت ذات جمال وهذا هو الظاهر ، فإن امرأة عزيز مصر يشبه أن تكون جميلة . وأما البدوية الداعية لمسلم فلا ريب أنها دون ذلك ، ورؤياه في المنام وقوله : أنا يوسف الذي هممت وأنت مسلم الذي لم تهم غايته أن بمنزلة أن يقول ذلك له يوسف في اليقظة ، وإذا قال هذا : كان هذا خيراً له ومدحاً وثناءً ، وتواضعاً من يوسف ، وإذا تواضع الكبير مع من دونه لم تسقط منزلته .

• « الوجه الحادي عشر » أن هذا الكلام فيه ـ مع الاعتراف بالذنب ـ الاعتذار بذكر سببه ، فإن قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ فيه اعتراف بالذنب ، وقولها : ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ إشارة تطابق لقولها : ﴿أنا راودته﴾ أي أنا مقرة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي . ثم بينت السبب فقالت : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ . فنفسي من هذا الباب ، فلا ينكر صدور هذا مني . ثم ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة ، فقالت : إن ربي غفور رحيم .

فإن قيل : فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب ، وأن الله قد يغفر لصاحبه .

قلت : نعم . والقرآن قد دلّ على ذلك ، حيث قال زوجها : ﴿ يوسفُ أعْرِضْ عن هذا ، واستغفري لذنبكِ ﴾ فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل أنهم كانوا يرون ذلك ذنبا ويستغفرون منه ، وإن كانوا مع ذلك مشركين ، فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش ، ويستغفرون الله منها ، حتى إن النبي ﷺ لما بايع هند بنت عتبة بن ربيعة بيعة النساء على أن لا تشرك بالله شيئا ، ولا تسرق ولا تزني . قالت : أو تزني الحرة ؟ وكان الزنا معروفا عندهم في الإماء .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الزكاة) ، مسلم (كتاب الزكاة) ، الترمذي (كتاب الزهد) ، النسائي (كتاب القضاة) ، الموطأ (كتاب الشعر) .

ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحرية في مقابلة الرق، وأصل اللفظ هو العفة ؛ ولكن العفة عادت من ليست أمة ؛ بل قد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي ، أنه رأى في الجاهلية قردا يزني بقردة ، فاجتمعت القرود عليه حتى رجمته .

وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقين ، أنه رأى في جامع نوعا من الطير قد باض ، فأخذ الناس بيضه ، وجاء ببيض جنس آخر من الطير ، فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير الجنس . فجعل الذكر يطلب جنسه ، حتى اجتمع منهن عدد فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها ومثل هذا معروف في عادة البهائم .

والفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها وكراهتها ، وأولئك القوم كانوا يقرون بالصانع مع شركهم ؛ ولهذا قال لهم يوسف : ﴿ يا صاحبَيِ السجنِ أأربابٌ متفرقونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحدُ القهارُ ؟ ما تَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ إلا أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ إنِ الحكمُ إلا للهِ ، أَمَرَ ألا تَعْبُدوا إلا إياهُ ، ذلكَ الدينُ القَيِّمُ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ ﴾[1] .

« الوجه الثاني عشر » أن يقال : أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر توبته منه ؛ ولهذا كان الناس في عصمة الأنبياء على قولين : إما أن يقولوا بالعصمة من فعلها ، وإما أن يقولوا بالعصمة من الإقرار عليها ؛ لا سيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة ، فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقرّ فيه على خطأ ، فإن ذلك يناقض مقصود الرسالة ، ومدلول المعجزة .

وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك ، ولكن المقصود هنا أن الله لم يذكر في كتابه عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه ، كما ذكر في قصة آدم وموسى ، وداود وغيرهم من الأنبياء .

وبهذا يجيب من ينصر قول الجمهور الذين يقولون بالعصمة من الإقرار على من ينفي الذنوب مطلقا ، فإن هؤلاء من أعظم حججهم ما اعتمده القاضي عياض وغيره ، حيث قالوا : نحن مأمورون بالتأسي بهم في الأفعال ، وتجويز ذلك يقدح في التأسي ؛ فأجيبوا بأن التأسي إنما هو فيما أقروا عليه ، كما أن النسخ جائز فيما يبلغونه من الأمر والنهي ، وليس تجويز ذلك مانعا من وجوب الطاعة ، لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ ، فعدم النسخ يقرر الحكم ، وعدم الإنكار يقرر الفعل ، والأصل عدم كل منهما .

ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يذكر الله تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب

---

(١) سورة يوسف الآيات (٣٩ ـ ٤٠) .

منه ، أو يستغفر منه أصلا . وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة ، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها ، مثل ما يذكرون أنه حل السراويل ، وقعد منها مقعد الخاتن ونحو هذا ، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ ، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضهم منهم ، كما قالوا في سليمان ما قالوا ، وفي داود ما قالوا ، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه .

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره ، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مُصِرّاً وإمّا تائباً ، والإصرار ممتنع ، فتعين أن يكون تائباً . والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفاراً كما ذكر عن غيره من الأنبياء ؛ فدلّ ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة ، والمساعي المشكورة ، كما أخبر الله عنه قوله تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وإذا كان الأمر في يوسف كذلك ؛ كان ما ذكر من قوله : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ﴾ إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف ، فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول ، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه ، وفيه الاغتياب لنبي كريم ، وقول الباطل فيه بلا دليل ، ونسبته إلى ما نزهه الله منه ، وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البهت ، الذين كانوا يرمون موسى بما برأه الله منه ، فكيف بغيره من الأنبياء ؟ وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن ، وجعل تفسير القرآن تابعا لهذا الأعتقاد .

واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض ، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه :

قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب ، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ، ومغفرة الله لهم ، ورفع درجاتهم بذلك .

وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه ، وأضافوا إليهم ذنوبا وعيوبا نزههم الله عنها . وهؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن ، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط ، مهتديا إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .

قال النبي ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » قالوا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ وفي الحديث

الآخر الذي في الصحيح : « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع » قالوا يا رسول الله ! فارس والروم ؟ قال : « وَمَنِ الناسُ إلا هؤلاء »[1] ؟ .

ولا ريب أنه صار عند كثير من الناس من علم أهل الكتاب ومن فارس والروم ما أدخلوه في علم المسلمين ودينهم وهم لا يشعرون ، كما دخل كثير من أقوال المشركين من أهل الهند واليونان وغيرهم ، والمجوس والفرس والصابئين من اليونان وغيرهم في كثير من المتأخرين لا سيما في جنس المتفلسفة والمتكلمة .

ودخل كثير من أقوال أهل الكتاب اليهود والنصارى في طائفة هم أمثال من هؤلاء ، إذ أهل الكتاب كانوا خيراً من غيرهم .

ولما فتح المسلمون البلاد كانت الشام ومصر ونحوهما مملوءة من أهل الكتاب ، النصارى واليهود ، فكانوا يحدثونهم عن أهل الكتاب بما بعضه حق وبعضه باطل ؛ فكان من أكثرهم حديثا عن أهل الكتاب كعب الأحبار . وقد قال معاوية - رضي الله عنه - ما رأينا في هؤلاء الذين يحدثوننا عن أهل الكتاب أصدق من كعب ، وإن كنا لنبلو عليه الكذب أحياناً .

ومعلوم أن عامة ما عند كعب أن ينقل ما وجده في كتبهم ، ولو نقل ناقل ما وجده في الكتب عن نبينا ﷺ لكان فيه كذب كثير ، فكيف بما في كتب أهل الكتاب مع طول المدة ، وتبديل الدين ، وتفرق أهله ، وكثرة أهل الباطل فيه .

وهذا باب ينبغي للمسلم أن يعتني به ، وينظر ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين هم أعلم الناس بما جاء به ، وأعلم الناس بما يخالف ذلك من دين أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين . فإن هذا أصل عظيم .

ولهذا قال الأئمة - كأحمد بن حنبل وغيره - أصول السنة هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ .

ومن تأمل هذا الباب وجد كثيرا من البدع أحدثت بآثار أصلها عنهم ، مثل ما يروي في فضائل بقاع في الشام ، من الجبال والغيران ، ومقامات الأنبياء ونحو ذلك . مثل ما يذكر في جبل قاسيون ، ومقامات الأنبياء التي فيه ، وما في إتيان ذلك من الفضيلة حتى إن بعض المفترين من الشيوخ جعل زيارة مغارة فيه ثلاث مرات تعدل حجة ، ويسمونها مقامات الأنبياء .

والآثار التي تروي في ذلك لا تصل إلى الصحابة ، وإنما هي عمن دونهم ممن أخذها عن

---

(١) سبق تخريج الحديث في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

أهل الكتاب ، وإلا فلو كان لهذا أصل لكان هذا عند أكابر الصحابة الذي قدموا الشام ، مثل بلال بن رباح ، ومعاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ؛ بل ومثل أبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة وأمثالهم . فقد دخل الشام من أكابر الصحابة أفضل ممن دخل بقية الأمصار غير الحجاز ، فلم ينقل عن أحد منهم اتباع شيء من آثار الأنبياء ، لا مقابرهم ولا مقاماتهم ، فلم يتخذوها مساجد ، ولا كانوا يتحرون الصلاة فيها ، والدعاء عندها ؛ بل قد ثبت عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كان في سفر ، فرأى قوما يتنابون مكانا يصلون فيه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ ، فقال : ومكان صلى فيه رسول الله ﷺ ؟ ! أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . من أدركته الصلاة فيه فليصل ، وإلا فليمض .

ولما دخل البيت المقدس وأراد أن يبني مصلى المسلمين : قال لكعب ؟ أين أبنيه ؟ قال ابنه خلف الصخرة . قال : خالطتك يهودية يا ابن اليهودية ؛ بل أبنيه أمامها ، ولهذا كان عبد الله بن عمر إذا دخل بيت المقدس صلى في قبليه ، ولم يذهب إلى الصخرة .

وكانوا يكذبون ما ينقله كعب : أن الله قال لها : أنت عرشي الأدنى ، ويقولون : من وسع كرسيه السموات والأرض كيف تكون الصخرة عرشه الأدنى ؟ ! ولم تكن الصحابة يعظمونها ، وقالوا : إنما بنى القبة عليها عبد الملك بن مروان لما كان محاربا لإبن الزبير ، وكان الناس يذهبون إلى الحج فيجتمعون به عظم الصخرة ؛ ليشتغلوا بزيارتها عن جهة ابن الزبير ، وإلا فلا موجب في شريعتنا لتعظيم الصخرة ، وبناء القبة عليها وسترها بالانطاع والجوخ . ولو كان هذا من شريعتنا : لكان عمر وعثمان ومعاوية رضي الله عنهم أحق بذلك ممن بعدهم ؛ فإن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ ، وأعلم بسنته ، وأتبع لها ممن بعدهم .

وكذلك الصحابة لم يكونوايتنابونقبر الخليل ﷺ ؛ بل ولا فتحوه ؛ بل ولا بنوا على قبر أحد من الأنبياء مسجداً ؛ فإنهم كانوا يعلمون أن النبي ﷺ قال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » .

ولما ظهر قبر دانيال بتستر كتب فيه أبو موسى إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فكتب إليه عمر ، إذا كان بالنهار فاحفر ثلاثة عشر قبراً ثم ادفنه بالليل في واحد منها ، وعفر قبره لئلا يفتتن به الناس ، وقد تأملت الآثار التي تروى في قصد هذه المقامات ، والدعاء عندها أو الصلاة ، فلم أجد لها عن الصحابة أصلا ، بل أصلها عمن أخذ عن أهل الكتاب .

فمن أصول الإسلام أن تميز ما بعث الله به محمدا ﷺ من الكتاب والحكمة ، ولا تخلطه بغيره ، ولا تلبس الحق بالباطل ، كفعل أهل الكتاب . فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام دينا .

وقد قال النبي ﷺ : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك »[1] وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « خط لنا رسول الله ﷺ خطا ، وخط خطوطا عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبِعوهُ ولا تَتّبعوا السُّبُلَ فَتفرَّقَ بكم عَنْ سبيلِهِ ﴾ »[2] .

وجماع ذلك بحفظ أصلين :

« أحدهما » تحقيق ما جاء به الرسول ﷺ ، فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة ، والتفسيرات الباطلة ، بل يعطي حقه من معرفة نقله ، ودلالته .

و « الثاني » أن لا يعارض ذلك بالشبهات لا رأيا ولا رواية ، قال الله تعالى فيما يأمر به بني إسرائيل ، وهو عبرة لنا : ﴿ آمِنوا بما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ ، وَلا تكونوا أَوَّلَ كافرٍ بهِ ، ولا تَشْتَروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّايَ فاتّقون ، ولا تَلبِسوا الحقَّ بالباطلِ ، وَتكتموا الحقَّ وأنتم تَعلمونَ ﴾[3] فلا يكتم الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ، ولا يلبس بغيره من الباطل ، ولا يعارض بغيره .

قال الله تعالى : ﴿ اتّبِعوا ما أُنزِلَ إليكم مِنْ رَبِّكُمْ ، ولا تَتَّبِعوا مِنْ دونِهِ أولياءَ قليلاً مَا تَذَكّرونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً ، أو قالَ أوحِيَ إليَّ وَلَمْ يُوحَ إليهِ شيءٌ ، وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مثلَ ما أنزلَ اللهُ ﴾[5] .

وهؤلاء الأقسام الثلاثة هم أعداء الرسل . فإن أحدهم إذا أتى بما يخالفه ، إما أن يقول : إن الله أنزله علي فيكون قد افترى على الله ، أو يقول : أوحي إليه ولم يُسَمِّ من أوحاه ، أو يقول : أنا أنشأته ، وأنا أنزل مثل ما أنزل الله ، فإما أن يضيفه إلى الله ، أو إلى نفسه أو لا يضيفه إلى أحد .

وهذه الأقسام الثلاثة هم من شياطين الإنس والجن ، الذين يوحي بعضهم إلى بعض

---

(١) اورده ابن ماجه في المقدمة .

(٢) ورد الحديث بروايات مختلفة وبألفاظ متقاربة في : البخاري ٨/١٢٣ - ١٢٤ (كتاب القدر - باب كيفية خلق الآدمي) ، أبو داود ٤/٢٠٧ - ٢٠٨ (كتاب السنة باب القدر) ، ابن حنبل (ط دار المعارف) رقم ٦٢١ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ .

(٣) سورة البقرة الآيات (٤١ - ٤٢) .

(٤) سورة الأعراف الآية ٣ .

(٥) سورة الأنعام الآية ٩٣ .

زخرف القول غرورا . قال الله تعالى : ﴿ وقالَ الرسولُ يـا رَبِّ إنَّ قومي اتَّخَـذُوا هذا القـرآنَ مَهْجـوراً ، وكذلـكَ جَعَلْنا لكـلِّ نبيٍّ عَدُوّاً مِنَ المجـرمينَ ، وكَفَى بِرَبِّـكَ هادِيـاً وَنَصيراً ﴾ والله أعلم ، والحمد لله .

سئل رضى الله عنه

عن قوله تعالى : ﴿ قلْ : هذِهِ سَبيلي أَدْعو إلى اللهِ على بصيـرةٍ أنا وَمَنِ اتّبَعَني ﴾[1] ؟ وهل الدعوة عامة تتعين في حـق كل مسلم ومسلمة أم لا وهل الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر داخل في هذه الدعـوة أم لا ؟ وإذا كانـا داخلين أو لم يكونـا فهل همـا من الواجبـات على كل فرد من أفـراد المسلمين كما تقـدم أم لا ؟ وإذا كانـا واجبين فهل يجبـان مطلقـا مع وجود المشقة بسببهما أم لا ؟ وهل للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يقتص من الجاني عليه إذا آذاه في ذلك لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق أم لا ؟ وإذا كان له ذلك فهل تركه أولى مطلقا أم لا ؟؟ .

فأجاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ الحمد لله رب العالمين .

الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمـان به ، وبمـا جاءت بـه رسله ، بتصديقهم فيمـا أخبروا به ، وطـاعتهم فيما أمـروا ، وذلك يتضمن الـدعوة إلى الشهـادتين ، وإقام الصـلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيتَ ، والدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيرة وشره ، والدعـوة إلى أن يعبد العبـد ربه كأنه يراه .

فإن هذه الدرجات الثلاث التي هي « الإسلام » و « الإيمان » و « الإحسان » داخلة في الدين ، كما قال في الحديث الصحيـح : « هذا جبـريل جـاءكم يعلمكم دينكم »[2] بعد أن أجابه عن هذه الثلاث . فبين أنها كلها من ديننا .

و « الدين » مصدر ، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول ، يقال دان فلان فلانـا إذا عبده وأطاعه، كما يقال دانه إذا أذله . فالعبد يدين الله أي يعبده ويطيعه ، فإذا أضيف الـدين

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

(٢) يشير ابن تيمية إلى حديث الإسلام ، الإيمان ، الإحسان ، والحديث صحيح متفق عليه ، قال عنـه ابن الاثير في جـامع الأصـول رواه مسلم والنسائي والترمذي وأبو داود بروايات مختلفة .

إلى العبد فلأنه العابد المطيع ، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقاتِلوهُمْ حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّهُ للهِ ﴾[1] .

فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه ، وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له ، كما بعث الله بذلك رسله ، وأنزل به كتبه . قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لكمْ مِنَ الدينِ ما وَصّى بهِ نُوحاً ، والذي أَوْحَيْنا إليكَ ، وما وَصَّيْنا به إبراهيمَ وموسى وعيسى ، أنْ أقيموا الدينَ ولا تَتَفَرّقوا فيهِ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ، أَجعَلْنا مِنْ دونِ الرحمنِ آلهةً يُعْبَدونَ ﴾[3] ؟ وقال تعالى : ﴿ ولقدْ بَعَثْنا في كلِّ أمّةٍ رسولاً أنِ اعْبُدوا اللهَ واجْتَنِبوا الطاغوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ، ومنهم مَنْ حَقَّتْ عليهِ الضلالةُ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلا نوحي إليهِ أَنَّهُ لا إلهَ إلا أنا فاعْبُدونِ ﴾[5] .

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد ؛ الأنبياء أخوة لعلات ، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ، إنه ليس بيني وبينه نبي »[6] فالدين واحد وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم ، كما قال تعالى : ﴿ لكلٍّ جَعَلْنا منكم شِرْعَةً ومِنهاجاً ﴾[7] .

فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية، فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر ، والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الأنعام والأعراف ، وسورة بني إسرائيل ، كقوله تعالى : ﴿ قلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾[8] إلى آخر الآيات الثلاث . وقوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أن لا تَعْبُدوا إلا إياهُ ﴾[9] إلى آخر الوصايا . وقوله : ﴿ قلْ أمرَ رَبِّي بالقِسْطِ وأَقِيموا وُجُوهَكُم عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعوهُ مُخلصينَ لَهُ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٩ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٣ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٤٥ .

(٤) سورة النحل الآية ٢٦ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٦) ورد الحديث بلفظ مختلف في : البخاري ١٦٧/٤ (كتاب الانبياء باب واذكر في الكتاب مريم) ، مسلم ٩٦/٧ (كتاب الفضائل . باب فضائل عيسى ابن مريم) ، وابو داود ٣٠٢/٤ (كتاب السنة باب في التخيير بين الانبياء) .

(٧) سورة المائدة الآية ٤٨ .

(٨) سورة الأنعام الآيات (١٥١ ـ ١٥٥) .

(٩) سورة الإسراء الآيات (٢٣ ـ ٣٧) .

الدِّينَ ﴾[1] وقوله : ﴿ قلْ إنما حَرَّم رَبِّي الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ، والاثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ ، وأنْ تُشْرِكوا باللهِ ما لَمْ يُنزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ، وأن تقولوا على اللهِ ما لا تَعلمونَ ﴾[2] .

فهذه الأمور هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع ، كعامة ما في السور المكية ، فإن السور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله ؛ إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة ، وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة ، كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسله ؛ ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل الله بها الدين : كالقبلة ، والحج ، والصيام ، والاعتكاف ، والجهاد ، وأحكام المناكح ونحوها ؛ وأحكام الأموال بالعدل كالبيع ، والإحسان كالصدقة ، والظلم كالربا ، وغير ذلك مما هو من تمام الدين .

ولهذا كان الخطاب في السور المكية : ﴿ يا أيُّها الناسُ ﴾ لعموم الدعوة إلى الأصول ؛ إذ لا يدعى إلى الفرع من لا يقرّ بالأصل ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعزّ بها أهل الإيمان ، وكان بها أهل الكتاب ، خوطب هؤلاء وهؤلاء ؛ فهؤلاء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وهؤلاء ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ أو ﴿ يا بني اسرائيل ﴾ ولم ينزل بمكة شيء من هذا ؛ ولكن في السور المدينة خطاب : ﴿ يا أيها الناس ﴾ كما في سورة النساء وسورة الحج وهما مدنيتان ، وكذا في البقرة .

وهذا يعم[3] على قول الحبر ابن عباس ؛ لأن الحكم المذكور يشمل جنس الناس ، والدعوة بالاسم الخاص لا تنافي الدعوة بالاسم العام ، فالمؤمنون داخلون في الخطاب بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ ، وفي الخطاب بـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، فالدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به ، والنهي عن كل ما نهى الله عنه ، وهذا هو الأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر .

والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة ، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه ؛ أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر . قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ، فَسَأَكْتُبُها للذينَ يَتّقونَ وَيُؤتونَ الزكاةَ ، والذينَ هُمْ بآياتِنا يُؤْمِنونَ . الذينَ يَتّبعونَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يَجِدونَهُ مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيلِ ، يأمُرُهم بالمعروفِ ،

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٩ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(١) في الأصل : يعكر .

وَيَنْهاهُمْ عَنِ المنكرِ ، وَيُحِلُّ لهمُ الطيباتِ ، وَيُحَرِّمُ عليهمُ الخَبائِثَ ﴾[1] .

ودعوته إلى الله هي بإذنه لم يشرع دينا لم يأذن به الله ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أَرْسَلْناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً ، وداعياً إلى اللهِ بإذنِهِ وسِراجاً منيراً ﴾[2] خلاف الذين ذمهم في قوله : ﴿ أمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ﴾[3] وقد قال تعالى : ﴿ قلْ أَرَأَيْتُم ما أَنْزَلَ اللهُ لكم مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وحَلالاً ، قلْ : آللهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ أَمْ على اللهِ تَفترونَ ﴾[4] ؟ .

ومما يبين ما ذكرناه : أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة ، وتارة بالدعوة إلى سبيله ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ﴾[5] وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين :

« أحدهما » المقصود المراد .

و « الثاني » الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود ؛ فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله ؛ فإنه سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة .

والعبادة : اسم يجمع غاية الحب له ، وغاية الذلّ له ، فمن ذلّ لغيره مع بغضه لم يكن عابداً ، ومن أحبه من غير ذلّ له لم يكن عابدا ، والله سبحانه يستحق أن يحب غاية المحبة ؛ بل يكون هو المحبوب المطلق ، الذي لا يحب شيء إلا له ، وأن يعظم ويذل له غاية الذل ؛ بل لا يذل لشيء إلا من أجله ، ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم ، فإن الشرك يوجب نقص المحبة .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، والذينَ آمَنوا أشدُّ حُبّاً للهِ ﴾[6] أي أشد حبا لله من هؤلاء لأندادهم ، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلاً فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرجلٍ ، هلْ يَسْتَوِيانِ مثلاً ﴾[7] ؟ ، وكذلك الاستكبار يمنع حقيقة الذل لله ؛ بل يمنع حقيقة المحبة لله ، فإن الحب التام يوجب الذل

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٦ .

(٣) سورة الشورى الآية ٢١ .

(٤) سورة يونس الآية ٥٩ .

(٥) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

(٧) سورة الزمر الآية ٢٩ .

والطاعة فإن المحب لمن يحب مطيع .

ولهذا كان الحب درجات أعلاها « التتيم » ، وهو التعبد وتيم الله أي عبد الله ؛ فالقلب المتيم هو المعبد لمحبوبه ، وهذا لا يستحقه إلا الله وحده .

والإسلام أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، كما ينبيء عنه قول : « لا إله إلا الله » ، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، وكلاهما ضد الإسلام . والشرك غالب على النصارى ومن ضاهاهم من الضلال والمنتسبين إلى الأمة .

وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذا الموضع في مواضع متعددة .

وذلك يتعلق بتحقيق الألوهية لله وتوحيده ، وامتناع الشرك ، وفساد السموات والأرض بتقدير إله غيره ، والفرق بين الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ، وبيان أن العباد فطروا على الإقرار به ومحبته وتعظيمه ، وأن القلوب لا تصلح إلا بأن تعبد الله وحده ، ولا كمال لها ولا صلاح ولا لذة ولا سرور ولا فرح ولا سعادة بدون ذلك ، وتحقيق الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضع الذي في تحقيقه تحقيق مقصود الدعوة النبوية ، والرسالة الإلهية ، وهو لب القرآن وزبدته ، وبيان التوحيد العلمي القولي ، المذكور في قوله : ﴿ قلْ هوَ اللهُ أحدٌ اللهُ الصمدُ ﴾ والتوحيد القصدي العملي المذكور في قوله تعالى : ﴿ قلْ يا أيُّها الكافرونَ ﴾ وما يتصل بذلك ، فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها .

لكن المقصود في الجواب ذكر ذلك على طريق الإجمال ؛ إذ لا يتسع الجواب لتفصيل ذلك ، وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب ، من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به ، وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر ؛ فمن الدعوة إلى الله النهي عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ، ويترك ما أبغضه الله ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة ، كالتصديق بما أخبر به الرسول ﷺ من أسماء الله وصفاته ، والمعاد وتفصيل ذلك ، وما أخبر به عن سائر المخلوقات ، كالعرش ، والكرسي ، والملائكة ، والأنبياء ، وأممهم ، وأعدائهم ؛ وكإخلاص الدين لله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، وكالتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، وخشية عذابه ، والصبر لحكمه ، وأمثال ذلك ، وكصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، وكالجهاد في سبيله بالقلب واليد واللسان .

إذا تبين ذلك : فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه ، وهم أمته يدعون إلى الله ، كما دعا إلى الله .

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به ، ونهيهم عما ينهي عنه ، وإخبارهم بما أخبر به ؛ إذ الدعوة تتضمن الأمر ، وذلك يتناول الأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر .

وقد وصف أمته بذلك في غير موضع ، كما وصفه بذلك فقال تعالى : ﴿ كنتم خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ ، تَأمرونَ بالمعروفِ ، وَتَنْهَوْنَ عنِ المنكرِ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ، يَأمرونَ بالمعروفِ ، وَيَنْهَوْنَ عنِ المنكرِ ﴾[2] الآية وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة ، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ؛ ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين . قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ منكم أمّةٌ يَدْعُونَ إلى الخيرِ ، وَيَأمرونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ . وأولئكَ همُ المفلحونَ ﴾[3] .

فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله ؛ ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة ، فأمته لا تجتمع على ضلالة ، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله ، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به سقط عنه ، وما عجز لم يطالب به . وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ؛ ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا ، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى ؛ فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب ، وهذا إلى عمل ظاهر واجب ، وهذا إلى عمل باطن واجب ؛ فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة ، وفي الوقوع أخرى .

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ؛ لكنها فرض على الكفاية ، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، وهذا شأن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول ، والجهاد في سبيل الله ، وتعليم الإيمان والقرآن .

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعا إليه ، وذلك هو الأمر به ؛ إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به ، واستدعاء له ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله والدعاء إلى سبيله ، فهو أمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبره ، وطاعته فيما أمر .

وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين ، وجوب فرض الكفاية ، لا وجوب فرض الأعيان ، كالصلوات الخمس ؛ بل كوجوب الجهاد .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٢) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

والقيام بالواجبات : من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها ، كما جاء في الحديث : « ينبغي لمن أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، أن يكون فقيها فيما يأمر به ، فقيها فيما ينهى عنه ، رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهى عنه ، حليما فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر ، والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود ، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي ، فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بالمعروفِ وَانْهَ عَنِ المنكرِ، وَاصْبِرْ على ما أصابَكَ ﴾[١] وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة ، كما قال تعالى في أول المدثر : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ، والرُّجزَ فَاهْجُرْ، وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنكَ بِأَعْيُنِنا ﴾[٣] وقال : ﴿ فَاصْبِرْ على ما يَقولونَ ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ فَصَبَروا على ما كُذِّبوا ، وأُوذوا حتى أَتاهُمْ نَصْرُنا ﴾[٥] وقال : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ولا تكنْ كصاحبِ الحوتِ ﴾[٦] .

وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أموالِكُمْ وأنفسِكُمْ ، ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذينَ أُوتوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الذينَ أَشْرَكوا أذىً كثيراً ، وإن تَصْبِروا وَتَتَّقوا فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ ﴾[٧] . والمؤمنون كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر به من المعروف ، وينهون عما نهى الله عنه من المنكر ، فيؤذيهم المشركون وأهل الكتاب . وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه ، وقال له : ﴿ وإنْ تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[٧] . والمؤمنون عليهم السلام : ﴿ أنا يوسفُ وهذاأخي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا ، إنه مَنْ يَتّقِ وَيَصْبِرْ فإنّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المحسنينَ ﴾[٨] .

فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر يتناول

---

(١) سورة لقمان الآية ١٧ .

(٢) سورة المدثر الآيات (٢ ـ ٨) .

(٣) سورة الطور الآية ٤٨ .

(٤) سورة ص الآية ٣٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية ٣٤ .

(٦) سورة القلم الآية ٤٨ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

(٨) سورة يوسف الآية ٩٠ .

الصبر على المصائب التي منها أذى المأمور المنهي للآمر الناهي .

لكن للآمر الناهي أن يدفع عن نفسه ما يضره ، كما يدفع الإنسان عن نفسه الصائل ، فإذا أراد المأمور المنهي ضربه أو أخذ ماله ونحو ذلك وهو قادر على دفعه فله دفعه عنه ؛ بخلاف ما إذا وقع الأذى وتاب منه : فإن هذا مقام الصبر والحلم ، والكمال في هذا الباب حال نبينا ﷺ ، كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت : « ما ضرب رسول الله بيده خادما له ، ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء لنفسه إذا نيل منه ، وإذاانتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله ، ومعلوم أن أذى الرسول من أعظم المحرمات ، فإن من آذاه فقد آذى الله وقتل سابّه واجب باتفاق الأمة ، سواء قيل إنه قتل لكونه ردة ، أو لكونه ردة مغلظة أوجبت أن صار قتل الساب حدّاً من الحدود .

والمنقول عن النبي ﷺ في احتماله وعفوه عمن كان يؤذيه كثير كما قال تعالى : ﴿ وَدَّ كثيرٌ مِنْ أهلِ الكتابِ لَوْ يَرُدّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مِنْ عندِ أنفسِهِمْ مِنْ بعدِ ما تَبَيَّنَ لهمُ الحقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ، حتى يأتي اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾[2] فالآمر الناهي إذا أوذي وكان أذاه تعديا لحدود الله وفيه حق لله يجب على كل أحد النهي عنه ، وصاحبه مستحق للعقوبة ؛ لكن لما دخل فيه حق الآدمي كان له العفو عنه ، كما له أن يعفو عن القاذف والقاتل وغير ذلك ، وعفوه عنه لا يسقط عن ذلك العقوبة التي وجبت عليه لحق الله ؛ لكن يكمل لهذا الآمر الناهي مقام الصبر والعفو الذي شرع الله لمثله ، حتى يدخل في قوله تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ وفي قوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ .

ثم هنا فرق لطيف : أما الصبر فإنه مأمور به مطلقا ، فلا ينسخ . وأما العفو والصفح فإنه جعل إلى غاية ، وهو : ﴿ أن يأتي الله بأمره ﴾ لما أتى بأمره : بتمكين الرسول ونصره - صار قادر على الجهاد لأولئك ، وإلزامهم بالمعروف ، ومنعهم عن المنكر - صار يجب عليه العمل باليد في ذلك ما كان عاجزا عنه ، وهو مأمور بالصبر في ذلك ، كما كان مأمورا بالصبر أولا .

والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ؛ فمقصوده إقامة دين الله لا استيفاء الرجل حظه ؛ ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله ؛ فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، حتى إن الكفار إذا

---

(١) ورد الحديث في : الدارمي (كتاب النكاح) أبو داود (كتاب الأدب) ابن ماجه (كتاب النكاح) ، ابن حنبل ٣٢/٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٩ .

أسلموا أو عاهدوا لم يضمنوا ما أتلفوه للمسلمين من الدماء والأموال ؛ بل لو أسلموا وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين كان ملكا لهم عند جمهور العلماء : كمالك وأبي حنيفة وأحمد ، وهو الذي مضت به سنة رسول الله ﷺ ، وسنة خلفائه الراشدين .

فالآمر الناهي إذا نيل منه وأوذى ، ثم إن ذلك المأمور المنهي تاب وقبل الحق منه : فلا ينبغي له أن يقتص منه ويعاقبه على أذاه ، فإنه قد سقط عنه بالتوبة حق الله كما يسقط عن الكافر إذا أسلم حقوق الله تعالى ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « الإسلام يهدم ما كان قبله ، والتوبة تهدم ما كان قبلها[1] » والكافر إذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله : دخل في ذلك ما اعتدى به على المسلمين في نفوسهم وأموالهم ؛ لأنه ما كان يعتقد ذلك حراما ؛ بل كان يستحله ، فلما تاب من ذلك غفر له هذا الاستحلال ، وغفرت له توابعه .

فالمأمور المنهي إن كان مستحلا لأذى الآمر الناهي كأهل البدع والأهواء ، الذين يعتقدون أنهم على حق ، وأن الآمر الناهي لهم معتد عليهم ، فإذا تابوا لم يعاقبوا بما اعتدوا به على الآمر الناهي من أهل السنة ، كالرافضي الذي يعتقد كفر الصحابة أو فسقهم وسبهم على ذلك ، فإن تاب من هذا الاعتقاد وصار يحبهم ويتولاهم لم يبق لهم عليه حق ، بل دخل حقهم في حق الله ثبوتا وسقوطا ؛ لأنه تابع لاعتقاده .

ولهذا كان جمهور العلماء ـ كأبي حنيفة ومالك وأحمد في أصح الروايتين ، والشافعي في أحد القولين على ـ أن أهل البغي المتأولين لا يضمنون ما أتلفوه على أهل العدل بالتأويل ، كما لا يضمن أهل العدل ما أتلفوه على أهل البغي بالتأويل باتفاق العلماء .

وكذلك ؟أصح قولي العلماء في المرتدين ، فإن المرتد والباغي المتأول والمبتدع كل هؤلاء يعتقد أحدهم أنه على حق ، فيفعل ما يفعله متأولا ، فإذا تاب من ذلك كتوبة الكافر من كفره ؛ فيغفر له ما سلف مما فعله متأولا ، وهذا بخلاف من يعتقد أن ما يفعله بغي وعدوان كالمسلم إذا ظلم المسلم ، والذمي إذا ظلم المسلم ، والمرتد الذي أتلف مال غيره ، وليس بمحارب بل هو في الظاهر مسلم أو معاهد ، فإن هؤلاء يضمنون ما أتلفوه بالاتفاق .

فالمأمور المنهي إن كان يعتقد أن أذى الآمر الناهي جائز له فهو من المتأولين وحق الآمر الناهي داخل في حق الله تعالى ، فإذا تاب سقط الحقان ، وإن لم يتب كان مطلوبا بحق الله المتضمن حق الآدمي ، فإما أن يكون كافرا ، وإما أن يكون فاسقا ، وإما أن يكون عاصيا . فهؤلاء كل يستحق العقوبة الشرعية بحسبه ، وإن كان مجتهدا مخطئا فهذا قد عفى الله عنه خطأه ، فإذا كان قد حصل بسبب اجتهاده الخطأ أذى للآمر الناهي بغير حق فهو كالحاكم إذا

(١) ورد الحديث في : ابن حنبل ٤/٣٠٤.

اجتهد فأخطأ ، وكان في ذلك ما هو أذى للمسلم ، أو كالشاهد ، أو كالمفتي .

فإذا كان الخطأ لم يتبين لذلك المجتهد كان هـذا مما ابتـلى الله هذا الآمـر الناهي . قـال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا بعضَكم لبعضٍ فتنةً ، أَتَصْبرونَ ؟ وكـانَ رَبُّكَ بَصيـراً ﴾[1] فهذا ممـا يرتفـع عنه الإثم في نفس الأمر ، وكذلك الجزاء على وجه العقوبة ؛ ولكن قد يقال : قد يسقط الجزاء على وجهالقصاص الذي يجب في العمـد ، ويثبت الضمان الـذي يجب في الخـطأ ، كـما تجب الدية في الخطأ ، وكما يجب ضمـان الأموال التي يتلفهـا الصبي والمجنون في مـاله ، وإن وجبت الدية على عاقلة القاتل خطأ ؛ معاونة له فـلا بد من استيفـاء حق المظلوم خـطأ ؛ فكذلـك هذا الذي ظلم خطأ ؛ لكن يقال : يفرق بين ما كـان الحق فيه لله وحق الآدمي تبـع له ، ومـا كان حقا لآدمي محضا أو غالبا ، والأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر والجهـاد من هذا البـاب موافق لقول الجمهور الذين لا يوجبون على أهل البغي ضمان ما أتلفوه لأهل العدل وبـالتأويـل ، وإن كان ذلك خطأ منهم ليس كفرا ولا فسقا .

وإذا قـدر عليهم أهل العـدل لم يتبعوا مـدبرهم ، ولم يجهـزوا على جـريحهم ، ولم يسبـوا حريمهم ، ولم يغنموا أموالهم ، فلا يقاتلونهم على ما أتلفوه من النفـوس والأموال إذا أتلفـوا مثل ذلك ، أو تملكوا عليهم .

فتبـين أن القصاص سـاقط في هذا المـوضع ؛ لأن هـذا من باب الجهـاد الذي يجب فيـه الأجر على الله ، وهذا مما يتعلق بحق العبد الآمر الناهي .

وأما قول السائل : هـل يقتص منه لئـلا يؤدي إلى طمع منـه في جانب الحق ؟ فيقـال : متىٰ كان فيما فعله إفسـاد لجانب الحق كـان الحق في ذلك لله ورسَـوله ، فيفعـل فيه مـا يفعل في نظيره ، وإن لم يكن فيه أذى للآمر الناهي .

والمصلحة في ذلك تتنوع ؛ فتارة تكون المصلحة الشـرعية القتـال ، وتارة تكـون المصلحة المهـادنة ، وتـارة تكون المصلحـة الإمساك والاستعـداد بلا مهـادنة ، وهـذا يشبه ذلـك ؛ لكن الإنسـان تزين لـه نفسه أن عفـوه عن ظالمـه يجريـه عليـه ، وليس كـذلـك ؛ بـل قـد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيـح أنه قـال : « ثلاث إن كنت لحـالفا عليهن ، مـا زاد الله عبدا بعفـو إلا عزا ، وما نقصت صدقة من مال ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[1] .

فالذي ينبغي في هذا الباب أن يعفـو الإنسان عن حقـه ، ويستوفي حقـوق الله بحسب الإمكان . قال تعـالى : ﴿ والذينَ إذا أصـابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرونَ ﴾ قـال إبراهيم النخعي :

---

(١) ورد الحديث في : ابن حنبل ١٤٥/٦ ولفظه (ثلاث أحلف عليهن) .

كانوا يكرهون أن يستذلوا ، فإذا قدروا عفوا . قال تعالى : ﴿ هم ينتصرون ﴾ يمدحهم ، بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ؛ ليسوا بمنزلة الذي يعفون عجز وذلا ؛ بل هذا مما يذم به الرجل ، والممدوح العفو مع القدرة والقيام لما يجب من نصر الحق ، لا مع إهمال حق الله وحق العباد . والله تعالى أعلم .

فصـــل

وسئل الشيخ الإمام ، العالم العامل

الحبر الكامل ، شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين « ابن تيمية » أيده الله وزاده من فضله العظيم . عن ﴿ الصبرالجميل﴾ في قوله تعالى : ﴿ فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ على ما تصفونَ ﴾[١] و ﴿ الصفح ﴾ و ﴿ الهجر الجميل ﴾ وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس ؟ .

فأجاب رحمه الله :

الحمد لله . أما بعد : الله أمر نبيه بالهجر الجميل ، والصفح الجميل والصبر الجميل « فالهجر الجميل » هجر بلا أذى ، و « الصفح الجميل » صفح بلا عتاب ، و « الصبر الجميل » صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ مع قوله : ﴿ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل ، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث وعليك التكلان » ومن دعاء النبي ﷺ : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، اللهم إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي سخطك ، أو يحلّ عليّ غضبك ، لك العتبى حتى ترضى »[٢] . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف .

بخلاف الشكوى إلى المخلوق . قرىء على الإمام أحمد في مرض موته أن طاووسا كره أنين المريض . وقال : إنه شكوى . فما أنّ حتى مات . وذلك أن المشتكي طالب بلسان

---

(١) سورة يوسف الآية ١٨ .

(٢) دعاء الرسول ﷺ حين أخرجه المشركون من مكة الى الطائف فلجأ الى ظل شجرة جلس تحتها وأخذ يدعو الله وبالدعاء المذكور .

الحال ، إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وإلى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ وقال ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »(١) .

ولا بد للإنسان من شيئين : طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور . فالأول هو التقوى ، والثاني هو الصبر . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تَتّخِذوا بِطانةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وإن تَصبروا وتَتّقوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئاً إنّ الله بما يَعملونَ محيطٌ ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ بلى إن تَصبروا وتَتّقوا وَيَأتوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخمسةِ آلافٍ مِنَ الملائكةِ مُسَوِّمينَ ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أموالِكُمْ وأنفسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنّ مِنَ الذينَ أُوتوا الكتابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذينَ أَشْرَكوا أذىً كثيراً ، وإن تَصبروا وتَتّقوا فإن ذلكَ مِنْ عزمِ الأمورِ ﴾(٤) وقد قال يوسف : ﴿ أنا يوسفُ وهذا أخي قَدْ مَنَّ الله علينا ، إنه مَنْ يَتّقِ وَيَصْبِرْ فإنّ الله لا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنينَ ﴾(٥) .

ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين : المسارعة إلى فعل المأمور ، والتقاعد عن فعل المحظور ، والصبر والرضا بالأمر المقدور . وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة ؛ بل ومن السالكين ، فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد (الحقيقة الكونية) دون (الدينية) فيرى أن الله خالق كل شيء وربه . ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه ، وبين ما يسخطه ويبغضه ، وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الالوهية ، وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات ـ سعيدها وشقيها . مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي الصادق والمتنبىء الكاذب ، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله واعداؤه ، والملائكة المقربون والمردة الشياطين .

فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه « الحقيقة الكونية » وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره . ولا يشهد الفرق الذي فرق الله (به) بين أوليائه

---

(١) ورد الحديث في : الترمذي (كتاب القيامة) .

(٢) سورة آل عمران الآيات (١١٨ ـ ١٢٠) .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٢٥ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

(٥) سورة يوسف الآية ٩٠ .

واعـدائه ، وبـين المؤمنين والكـافرين ، والأبـرار والفجار ، وأهـل الجنـة والنـار وهـو تـوحيـد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته رسوله ، وفعل مـا يحبه ويـرضاه ، وهـو ما أمـر به ورسـوله أمـر إيجاب ، أو أمـر استحباب ، وتـرك ما نهى الله عنـه ورسـولـه ، ومـوالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقـين بالقلب واليد واللسان . فمن لم يشهد هذه « الحقيقة الدينية » الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويكـون مع أهل « الحقيقة الدينية » وإلا فهو من جنس المشركين ، وهو شر من اليهود والنصارى .

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية . إذ هم يقرون بأن الله رب كـل شيء كمـا قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خلقَ السمواتِ والأرضِ وسَخّرَ الشمسَ والقمـرَ لَيَقولُنّ اُلله ﴾[1] وقـال تعالى : ﴿ قـلْ لِمَنِ الأرضُ وَمَنْ فِيها إن كنتم تَعلمـونَ ؟ سَيقولـونَ : لله ، قلْ : افـلا تـذَكّرونَ ؟ قـلْ مَنْ رَبُّ السمواتِ السبـعِ وربُّ العرشِ العـظيمِ ؟ سَيقولـونَ لله قـلْ : أفـلا تَتّقونَ ؟ قلْ : مَنْ بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهوَ يُجيرُ ولا يُجارُ عليهِ إنْ كنتم تَعلمونَ ؟ سيقولونَ لله قـلْ فـأنّى تُسْحَـرونَ ﴾[2] ؟ ولهـذا قـال سبحـانـه : ﴿ وَمَـا يُؤمنُ أكثـرُهُمْ بـاللهِ إلا وَهُمْ مُشرِكونَ ﴾[3] قال بعض السلف : تسألهم من خلق السمـوات والأرض فيقولـون الله وهم مع هذا يعبدون غيره .

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمـر والنهي الشرعيين فهـو أكفر من اليهـود والنصارى ، فإن أولئك يقرون بالملائكة والـرسل الـذين جاؤ وا بـالأمر والنهي الشـرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض . كما قال تعالى : ﴿ إن الذينَ يَكفرونَ باللهِ ورسلِهِ وَيُريدونَ أنْ يُفرِّقوا بينَ اللهِ وَرُسُلِهِ ويَقولونَ : نُؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ، وَيُريدونَ أنْ يَتّخِذوا بينَ ذلكَ سبيلاً . أولئكَ همُ الكافرونَ حقاً ﴾[4] .

وأما الذي يشهد « الحقيقة الكونية » وتـوحيد الـربوبيـة الشامـل للخليقة ويقـر أن العباد كلهم تحت القضـاء والقدر ، ويسلك هـذه الحقيقة ، فـلا يفرق بـين المؤمنـين والمتقـين الـذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله ، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار ، فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى . لكن من الناس من قد لمحوا الفـرق في بعض الأمور دون بعض ، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ، ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار ، وبين

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦١ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات (٨٥ ـ ٨٧) .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

(٤) سورة النساء الآيات (١٥٠ ـ ١٥١) .

بعض الفجار ، ولا يفرق بين آخرين اتباعا لظنه وما يهواه . فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق بين أوليائه وأعدائه .

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة ، فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس .

ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضا ، فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه .

فهذا التقسيم في القول والاعتقاد .

وكذلك هم في « الأحوال والأفعال » . فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على ما يصيبه من المقدور ، فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك . كما قال تعالى : ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ .

وإذا أذنب استغفر وتاب : لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات ، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به كما في الحديث الصحيح الذي فيه : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[1] فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات ، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى ، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها ، كما قال بعضهم : أطعتك بفضلك ، والمنة لك وعصيتك بعلمك ، والحجة لك ، فأسألك بوجوب حجتك عليّ وانقطاع حجتي ، إلا غفرت لي . وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[2] .

وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط : فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة ؛ لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر . وآخرون

---

(١) دعاء سيد الاستغفار ورد في : البخاري ٧١/٨ (كتاب الدعوات) باب (ما يقول إذا أصبح) ورواه النووي في الأذكار ص ٧١ .

(٢) ورد الحديث في : مسلم ١٦/٨ ـ ١٨ (كتاب البر والصلة) ، سنن ابن ماجه ١٤٢٢/٢ كتاب الزهد ـ باب (ذكر التوبة) .

يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك ؛ لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته ، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه ؛ والمؤمن يعبده ويستعينه .

و « القسم الرابع » شر الأقسام ، وهو من لا يعبده ولا يستعينه[1] فلا هو مع الشريعة الأمرية ؛ ولا من القدر الكوني . وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك ؛ وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك . فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام .

(احدها) أهل التقوى والصبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

(والثاني) الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر ، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ؛ لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرض ، أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه .

و (الثالث) قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى ، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم ، كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام ؛ والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها . وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس ، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام . وهؤلاء هم الذين يريدون علوا في الأرض أو فسادا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان ، والاستمتاع بالصور المحرمة نظرا أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور ، وفعلوه من المحظور ، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب : كالمرض والفقر وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

(وأما القسم الرابع) فهو شر الأقسام : لا يتقون إذا قدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ؛ بل هم كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً ، إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزوعاً ، وإذا مَسَّهُ الخيرُ

---

(١) انظر كلام ابن تيمية عن هذه الأقسام الأربعة بالتفصيل في كتاب التوحيد لابن تيمية بتحقيقنا ط التقدم .

مَنوعاً ﴾[1] فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم اذا قهروا . إن قهرتهم ذلّوا لك ونافقوك ، وحابوك واسترحموك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلبا، وأقلهم رحمة وإحسانا وعفوا ، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد : مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم : وإن كان متظاهرا بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم ، فالاعتبار بالحقائق : « فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيها لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية ، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية ، من التتار .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »[2] وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب ، وهو به أحق . ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف ، كان عن الكمال أبعد ، وبالباطل أحق . والكامل هو من كان لله أطوع ، وعلى ما يصيبه أصبر ، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه ، وصبرا على ما قدره وقضاه ، كان أكمل وأفضل . وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى : « الصبر والتقوى » جميعا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين ، ولصاحبه تكون العاقبة . قال الله تعالى : ﴿ بلى إن تَصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تَتّخِذوا بِطانَةً مِن دونِكُمْ لا يَألونَكُمْ خبالاً ، وَدّوا ما عَنِتُّم ، قَدْ بَدَتِ البغضاءُ من أفواهِهِمْ وما تُخفي صدورُهُمْ أكبرُ ، قد بَيَّنّا لكم الآياتِ إن كنتم تَعقلونَ . ها أنتم أولاءِ تُحِبّونَهُمْ ولا يُحِبّونَكُمْ

---

(١) سورة المعارج الآية ١٩ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الآداب ، كتاب الاعتصام) .

وَتُؤْمِنونَ بالكتابِ كلِّهِ . وإذا لَقُوكُمْ قالوا : آمَنّا وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكمُ الأناملَ مِنَ الغيظِ ، قُلْ مُوتوا بِغَيْظِكُمْ ، إنّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصّدورِ ، إنْ تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكُمْ سيئةٌ يَفرحوا بِها وإن تَصْبِروا وتَتّقوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئاً إنّ اللهَ بما يَعلمونَ محيطٌ ﴾ وقال إخوة يوسف له : ﴿ أَإنَّكَ لأَنتَ يوسفُ ؟ قالَ : أنا يُوسفُ وهذا أخي قدْ مَنّ اللهُ علينا ، إنه مَنْ يَتّقِ وَيَصْبِرْ فإنّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المحسنينَ ﴾ .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصا فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إليكَ وَاصْبِرْ حَتّى يَحْكُمَ اللهُ وهوَ خيرُ الحاكِمينَ ﴾[1] .

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصّلاةَ طَرَفَيِ النهارِ وَزُلَفاً مِنَ الليلِ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ ، ذلكَ ذكرى للذاكرينَ . وَاصْبِرْ فإنّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المحسنينَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعَشِيِّ والإبكارِ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ فاصْبر على ما يَقولونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قبلَ طُلوعِ الشّمسِ وَقبلَ غُروبِها وَمِنْ آناءِ الليلِ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنّها لَكبيرةٌ إلّا على الخاشعينَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعينوا بالصبرِ والصّلاةِ إن اللهَ معَ الصابرينَ ﴾[6] فهذه مواضع قرن فيه الصلاة والصبر .

وقرن بين « الرحمة والصبر » في مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَواصَوْا بالصبرِ وَتَواصَوْا بالمرحمةِ ﴾[7] . وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها ؛ فإن القسمة أيضا رباعية ، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين : مثل كثير من النساء ، ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع . والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء في المتولي : ينبغي أن يكون قويا من غير عنف ، لينا من غير ضعف فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ؛ فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى . كما قال النبي ﷺ : « إنما يرحم الله

---

(١) سورة يونس الآية ١٠٩ .
(٢) سورة هود الآية ١١٥ .
(٣) غافر : ٥٥ .
(٤) سورة طه الآية ١٣٠ .
(٥) سورة البقرة الآية ٤٥ .
(٦) سورة البقرة الآية ١٥٣ .
(٧) سورة البلد الآية ١٧ .

من عباده الرحماء »[1] وقال : « من لا يرحم لا يرحم »[2] وقال : لا تنزع الرحمة إلا من شقي »[3] وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن ،ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[4] . والله أعلم انتهى .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصـــــل

في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا اسْتَيْأَسَ الرُسُل وَظَنّوا أنهم قد كُذِّبوا جاءَهُمْ نَصْرُنا ﴾[5] الآية : قراءتان في هذه الآية ؛ بالتخفيف والتثقيل . وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالتثقيل وتنكر التخفيف ، كما في الصحيح عن الزهري قال : أخبرني عروة عن عائشة ، قالت له ـ وهو يسألها عن قوله : ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ مخففة قالت ـ معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ـ قلت : فما هذا النصر ـ ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ بمن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك ، لعمري لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن .

وفي الصحيح أيضا عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكةيقول قال ابن عباس:﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ خفيفة ذهب بها هنالك ، وتلا ﴿ حتى يقولَ الرسولُ والذينَ آمَنوا مَعَهُ متى نصرُ اللهِ ؟ ألا إنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ ﴾ فلقيت عروة فذكرت ذلك له ، فقال : قالت عائشة : معاذ الله ، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يكون ؛ ولكن لم يزل البلاء بالرسل ، حتى ظنوا خافوا أن يكون من معهم يكذبهم ؛ فكانت تقرأها : ﴿ وظنوا أنهم قد كذِّبوا ﴾ مثقلة .

فعائشة جعلت استيئاس الرسل من الكفار للمكذبين ، وظنهم التكذيب من المؤمنين بهم ، ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها ، وقد تأولها ابن عباس ، وظاهر الكلام معه ، والآية التي تليها إنما فيها استبطاء النصر ، وهو قولهم : ﴿ متى نصر الله ﴾ ؟ فإن هذه كلمة تبطىء لطلب التعجيل .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الجنائز) ، مسلم (كتاب الجنائز) ، أبو داود (كتاب الجنائز) ، وانظر كتاب الجنائز في كل من النسائي ، ابن ماجه ، وابن حنبل ٥/٣٠٤ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الأدب) ، مسلم (كتاب الفضائل) ، أبو داود (كتاب الأدب) ، الترمذي (كتاب البر) ، ابن حنبل ٣/٣٣٨ .

(٣) ورد الحديث في : الترمذي (كتاب البر) ، ابن حنبل ٣/٣٠١ .

(٤) ورد الحديث في الترمذي (كتاب البر) .

(٥) سورة يوسف الآية ٢١ .

وقوله : ﴿ ظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قد يكون مثل قوله : ﴿ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾[1] والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح ، كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم ، ويسمون الاعتقاد المرجوح وهماً ، بل قد قال النبي ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث »[2] وقد قال تعالى : ﴿ إن الظنَّ لا يُغني مِنَ الحقِّ شَيْئاً ﴾[3] .

فالاعتقاد المرجوح هو ظن ، وهو وهم ، وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المعفو عنه ، كما قال النبي ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل »[4] وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريح الإيمان » وفي حديث آخر : « إن أحدنا ليجد ما يتعاظم يا رسول الله : « إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحرق حتى يصير حممة ، أو يخر من السماء إلى الأرض : أحب إليه من أن يتكلم به . قال : أو قد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال ذلك صريح الإيمان » وفي حديث آخر : « إن أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به . قال : الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة »[5] .

فهذه الأمور التي هي تعرض ثلاثة أقسام :

منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان ، وإن كان لا يزيله .

واليقين في القلب له مراتب .

ومنه ما هو عفو يعفى عن صاحبه .

ومنه ما يكون يقترن به صريح الإيمان .

ونظير هذا : ما في الصحيح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله لوطاً : لقد كان يأوي إلى ركن شديد ؛ ولو لبثت في السجن بما لبث يوسف لاجبت الداعي . ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال له ربه : ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ﴾ »[6] وقد ترك البخاري ذكر قوله : « بالشك » لما خاف فيها من توهم بعض الناس .

---

(١) سورة الحج الآية ٥٢ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الوصايا) ، مسلم (كتاب البر) ، الترمذي (كتاب البر) ، ابن حنبل ٣٤٥/٣ .

(٣) سورة النجم الآية ٢٨ .

(٤) ورد الحديث في البخاري ١٩/٣ (كتاب العتق ـ باب الخطأ والنسيان) ولفظه : إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست به نفسها . . . الخ ، وانظر سنن النسائي (كتاب الطلاق) ، ابن ماجه (كتاب الطلاق) ، ابن حنبل ٣٥٥/٣ .

(٥) سبق تخريج الحديث في الجزء الأول

(٦) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الأنبياء) ، ابن ماجه (كتاب الفتن) ، ابن حنبل ٢٢٦/٣ .

ومعلوم أن ابراهيم كان مؤمنا كما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ﴾ ولكن طلب طمأنينة قلبه ، كما قال : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ فالتفاوت بين الإيمان والاطمئنان سماه النبي ﷺ شكا لذلك بإحياء الموتى ، كذلك الوعد بالنصر في الدنيا : يكون الشخص مؤمنا بذلك ؛ ولكن قد يضطرب قلبه فلا يطمئن ، فيكون فوات الاطمئنان ظناً أنه قد كذب ، فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد وهذه الأمور لا تقدح في الإيمان الواجب ، وإن كان فيها ما هو ذنب فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك ، كما في أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث .

وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم ، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك ، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك ، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم ، وكانت العاقبة إلى خير ، فليتيقن المرتاب ، ويتوب المذنب ويقوى إيمان المؤمنين فبها يصح الاتساء بالأنبياء كما في قوله : ﴿ لقد كانَ لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ لمن كانَ يَرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ ﴾[1] .

وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت ، ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهُمْ نَصْرُنا ﴾[2] ولنا لأنه أسوة في ذلك ما هو كثير في القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ لقد كانَ في قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأولي الألباب ﴾[3] وقال : ﴿ ما يُقالُ لكَ إلا ما قَدْ قِيلَ للرسلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[4] وقال : ﴿ فَاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، ولا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾[5] ﴿ وكلّاً نقصُّ عليكَ من أنباءِ الرسلِ ما نُثَبِّتُ بهِ فؤادَكَ ﴾[6] .

وإذا كان الاتساء بهم مشروعا في هذا وفي هذا فمن المشروع التوبة من الذنب ، والثقة بوعد الله ، وإن وقع في القلب ظن من الظنون وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب ، كما هو المناسب للاتساء والاقتداء دون ما كان المتبوع معصوما مطلقا . فيقول التابع : أنا لست من جنسه ، فإنه لا يذكر بذنب ، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداء ؛ لما أتى به من الذنب

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

(٢) الأنعام : ٣٤ . ويوجد في الأصل بعد هذه الآية فراغ جاءت بعده العبارة مضطربة كما ترى . فليتأمل .

(٣) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٤) سورة فصلت الآية ٤٣ .

(٥) سورة الأحقاف الآية ٣٥ .

(٦) سورة هود الآية ١٢٠ . وفي الأصل : كذلك نقضي عليك . . . الخ .

الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة ، بخلاف ما إذا قيل : إن ذلك مجبور بالتوبة ، فإنه تصح معه المتابعة ، كما قيل : أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر ، ومن أشبه أباه ما ظلم .

والله تعالى قصّ علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب ، وأما ما ذكره سبحانه أن الأقتداء بهم في الأفعال التي أقروا عليها فلم ينهوا عنها ، ولم يتوبوا منها ، فهذا هو المشروع . فأما ما نهوا عنه وتابوا منه فليس بدون المنسوخ من أفعالهم ، وإن كان ما أمروا به أبيح لهم ، ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة ؛ فما لم يؤمروا به أحرى وأولى .

وأيضا فقوله : ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قد يكونون ظنوا في الموعود به ما ليس هو فيه بطريق الاجتهاد منهم ؛ فتبين الأمر بخلافه ، فهذا جائز عليهم كما سنبينه ، فإذا ظن بالموعود به ما ليس هو فيه ، ثم تبين الأمر بخلافه ظن أن ذلك كذب ، وكان كذبا من جهة ظن في الخبر ما لا يجب أن يكون فيه .

فأما الشك فيما يعلم أنه أخبر به فهذا لا يكون ، وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى .

وما ينبغي أن يعلم أنه سبحانه ذكر هنا شيئين : « أحدهما » استيئاس الرسل . و « الثاني » ظن أنهم كذبوا . وقد ذكرنا لفظ « الظن » ، فأما لفظ ﴿ استيأسوا ﴾ فإنه قال سبحانه : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ ولم يقل يئس الرسل ، ولا ذكر ما استيأسوا منه ، وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة ﴿ فلمّا اسْتَيْأَسُوا منهُ خَلَصوا نَجِيّاً ، قالَ كبيرُهم ألمْ تَعلموا أنّ أباكُمْ قدْ أخذَ عليكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ ، وَمِنْ قَبْلُ ما فَرّطْتُمْ في يوسفَ ؟ فلن أبرحَ الأرضَ حتى يأذنَ لي أبي ، أو يَحْكُمْ اللهُ لي وهوَ خيرُ الحاكمينَ ﴾[1] .

وقد يقال : الاستيئاس ليس هو الإياس ؛ لوجوه :

« أحدها » أن إخوة يوسف لم ييأسوا منه بالكلية ، فإن قول كبيرهم : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له ، وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا ليوسف منهم ، وإلا فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك .

وأيضا : فـ « اليأس » يكون في الشيء الذي لا يكون ، ولم يجيء ما يقتضي ذلك ، فإنهم قالوا : ﴿ يا أيّها العزيزُ إنّ لهُ أباً شيخاً كبيراً ، فَخُذْ أحَدَنا مكانَهُ ، إنا نَراكَ مِنَ

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٠ .

المحسنينَ ، قالَ معاذَ الله ! أنْ نأخذَ إلا مَنْ وَجَدْنا متاعَنا عِنْدَهُ ، إنا إذاً لظالمونَ ﴾[1] فامتنع من تسليمه إليهم . ومن المعلوم أن هذا لا يوجب القطع بأنه لا يسلم إليهم ، فإنه يتغير عزمه ونيته ، وما أكثر تقليب القلوب ، وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير الحكم إلى غيره ، وقد يتخلص بغير اختياره ، والعادات قد جرت بهذا على مثل من عنده من قال لا يعطيه . فقد يعطيه ، وقد يخرج من يده بغير اختياره ، وقد يموت عنه فيخرج ، والعالم مملوء من هذا .

« الوجه الثاني » قال لهم يعقوب : ﴿ يا بَنيَّ اذْهَبوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخيهِ ، ولا تَيْأَسُوا من رَوْح اللهِ ، إنهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْح اللهِ إلا القومُ الكافرونَ ﴾[2] . فنهاهم عن اليأس من روح الله ، ولم ينههم عن الاستيئاس ، وهو الذي كان منهم . وأخبر أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين فهذا هو « الوجه الثالث » أيضا .

وهو أنه أخبر أنه : ﴿ لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله ، وأن يقعوا في الاستيئاس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله ، وهذه السورة تضمنت ذكر المستيئسين ، وأن الفرح جاءهم بعد ذلك ، لئلا ييأس المؤمن ؛ ولهذا فيها : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ فذكر استيئاس الإخوة من أخي يوسف وذكر استيئاس الرسل يصلح أن يدخل فيه ما ذكره ابن عباس ، وما ذكرته عائشة جميعا .

« الوجه الرابع » أن الاستيئاس استفعال من اليأس ، والاستفعال يقع على وجوه : يكون لطلب الفعل من الغير ، فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية ، يقال : استخرجت المال من غيري ، وكذلك استفهمت ، ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيئاس ، فإن أحدا لا يطلب اليأس ويستدعيه ، ولأن استيأس فعل لازم متعد .

ويكون للاستفعال لصيرورة المستفعل على صفة غيره ، وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم : استحجر الطين ، أي صار كالحجر . واستنوق الفحل ، أي صار كالناقة . وأما النظر فيما استيأسوا منه ، فإن الله تعالى ذكر ذلك في قصة إخوة يوسف حيث قال : ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ .

وأما الرسل فلم يذكر ما استيأسوا منه ، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس ، فليس لأحد أن

---

(١) سورة يوسف الآيات (٧٨ ـ ٧٩) .

(٢) سورة يوسف الآية ٨٧ .

يقيده بأنهم استيأسوا مما وعدوا به ، وأخبروا بكونه ، ولا ذكر ابن عباس ذلك .

وثبت أن قوله : ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ لا يدل على ظاهره ، فضلا عن باطنه : أنه حصل في قلوبهم مثل تساوي الطرفين فيما أخبروا به ، فإن لفظ الظن في اللغة لا يقتضي ذلك ؛ بل يسمى ظنا ما هو من أكذب الحديث عن الظان ؛ لكونه أمرا مرجوحا في نفسه . واسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه ، وعدم تصديقه وسكينته وعدم سكينته ، ليست هذه الأمور بمجرد العلم فقط؟ ، كما يحسب ذلك بعض الناس ، كما نبهنا (عليه) في غير هذا الموضع .

إذ المقصود هنا الكلام على قوله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ . فإذا كان الخبر عن استيئاسهم مطلقا فمن المعلوم إن الله إذا وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق ـ كما هو غالب إخباراته ـ لم يقيد زمانه ولا مكانه ، ولا سنته ، ولا صفته ، فكثيراً ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحق ، بل اعتقدوها بأسباب أخرى ، كما اعتقد طائفة من الصحابة أخبار النبي ﷺ لهم أنهم يدخلون المسجد الحرام ، ويطوفون به ، أن ذلك يكون عام الحديبية ؛ لأن النبي ﷺ خرج معتمرا ، ورجا أن يدخل مكة ذلك العام ، ويطوف ويسعى . فلما استيأسوا من دخوله مكة ذلك العام ـ لما صدهم المشركون ، حتى قاضاهم النبي ﷺ على الصلح المشهور ـ بقي في قلب بعضهم شيء ، حتى قال عمر للنبي ﷺ : ألم تخبرنا أنا ندخل البيت ونطوف ؟ قال : « بلى . فأخبرتك أنك تدخله هذا العام ؟ » قال : لا . قال : فإنك داخله ومطوف » وكذلك قال له أبو بكر .

وكان أبو بكر رضي الله عنه أكثر علما وإيمانا من عمر ، حتى تاب عمر مما صدر منه ، وإن كان عمر ـ رضي الله عنه ـ محدثا كما جاء في الحديث الصحيح ، أنه قال ﷺ : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر »[1] فهو ـ رضي الله عنه ـ المحدث الملهم ، الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ؛ ولكن مزية التصديق الذي هو أكمل متابعة للرسول ، وعلما وإيمانا بما جاء به ، درجته فوق درجته ؛ فلهذا كان الصديق أفضل الأمة ، صاحب المتابعة للآثار النبوية ، فهو معلم لعمر ، ومؤدب للمحدث منهم الذي يكون له من ربه إلهام وخطاب كما كان أبو بكر معلما لعمر ومؤدبا له حيث قال له : فأخبرك أنك تدخله هذا العام ؟ قال : لا قال إنك آتية ومطوف .

فبين له الصديق أن وعد النبي ﷺ مطلق غير مقيد بوقت ، وكونه سعى في ذلك العام وقصده لا يوجب أن يعني ما أخبر به ؛ فإنه قد يقصد الشيء ولا يكون ؛ بل يكون غيره ؛ إذ

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (فضائل الصحابة) ، مسلم (فضائل الصحابة) ، الترمذي (كتاب المناقب) ، ابن حنبل ٦/٥٥ .

ليس من شرط النبي ﷺ أن يكون كما قصده ؛ بل من تمام نعمة ربه عليه أن يقيده عما يقصده إلى أمر آخر هو أنفع مما قصده ، كما كان صلح الحديبية أنفع للمؤمنين من دخولهم ذلك العام ، بخلاف خبر النبي ﷺ ، فإنه صادق لا بد أن يقع ما أخبر به ويتحقق .

وكذلك ظن النبي كما قال في تأبير النخل : « إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله فإني لن أكذب على الله » فاستيأس عمر وغيره من دخوله ذلك هو استيئاس مما ظنوه موعودا به ، ولم يكن موعودا به .

ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئا فيكون الأمر بخلاف ما (ظنوه) فقد يظنون فيما وعدوه تعيينا وصفات ولا يكون كما ظنوه ، فييأسون مما ظنوه في الوعد ، لا من تعيين الوعد ، كما قال النبي ﷺ : « رأيت أن أبا جهل قد أسلم ؛ فلما أسلم خالد ظنوه هو ، فلما أسلم عكرمة علم أنه هو ».

وروى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون : « فقال لو لم تفعلوا هذا لصلح » قال : فخرج سبتا فمر بهم فقال : « ما لفحلكم ؟ » قالوا : قلت : كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[(١)] وروي أيضا عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة بن عبيد الله ، قال : مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل ، فقال : « ما يصنع هؤلاء » فقال : يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظن يغني ذلك شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه . فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله » .

فإذا كان النبي ﷺ يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن الله أن نأخذ به فإنه لن يكذب على الله ، فهو أتقانا لله ، وأعلمنا بما يتقى ، وهو أحق أن يكون آخذا بما يحدثنا عن الله ، فاذا أخبره الله بوعد كان علينا أن نصدق به ، وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا ، ولم يكن لنا أن نشك فيه ، وهو - بأبي - أولى وأحرى أن لا يشك فيه ؛ لكن قد يظن ظناً ، كقوله : « إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن » وإن كان أخبره به مطلقا فمستنده ظنون ، كقوله في حديث ذي اليدين : « ما قصرت الصلاة ولا نسيت » .

وقد يظن الشيء ثم يبين الله الأمر على جليته ، كما وقع مثل ذلك في أمور كقوله تعالى : ﴿ إن جاءَكُمْ فاسقٌ بنبأٍ فَتَبَيَّنوا ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة لما استعمله النبي ﷺ (وهم أن) يغزوهم لما ظن صدقه ، حتى أنزل الله هذه الآية .

---

(١) ورد الحديث في : ابن ماجه (كتاب الرهون) ، ابن حنبل ١٢٢/٦ .

وكذلك في قصة بني أبيرق التي أنزل الله فيها : ﴿ إنا أنزَلْنـا إليكَ الكتـابَ بالحقِّ لِتحكمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللهُ ، ولا تكنْ للخائنينَ خَصيماً ﴾[1] وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذي كان يسرق ، وأخرجوا البريء ؛ فظن النبي ﷺ صدقهم ، حتى تبين الأمر بعد ذلك . وقال في حديث قصر الصلاة : « لم أنس ولم تقصر » فقالوا : بلى قد نسيت . وكان قد نسي ، فأخبر عن موجب ظنه واعتقاده ، حتى تبين الأمر بعد ذلك . وروي عنه أنه قال : « إني لأنسى لاسن » وأيضا فقوله في القرآن : ﴿ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنـا إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا ﴾ شامل للنبي ﷺ وأمته ، حيث قال في صدر الآيات : ﴿ آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليـهِ مِنْ رَبِّهِ والمؤمنـونَ ، كلٌّ آمنَ باللهِ ، ومَلائِكَته ، وكُتُبِهِ ، ورُسُلِهِ ﴾[2] الآيات .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عيسى الأنصاري ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « بينا جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته »[3] .

وفي صحيح مسلم عن آدم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ وإنْ تُبْدوا ما في أنفسِكُمْ أوْ تُخْفوهُ يُحاسِبْكُمْ بهِ اللهُ ﴾ دخل في قلوبهم منها شيء لم يدخل مثله ، فقال النبي ﷺ : « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها ، لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ وأخطأنا ﴾ قال قد فعلت ، إلى آخر السورة قال : قد فعلت » .

وفي صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم بركوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ! كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٥ .

(٢) دعاء آخر سورة البقرة .

(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الدعاء وفضل الآيات من آخر سورة البقرة . انظر الجزء الاول .

هذه الآية ولا نطيقها . قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم : أنزل الله عز وجل في أثرها : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ إلى قوله : ﴿ وإليك المصير ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها سبحانه ، فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ إلى قوله : ﴿ قبلنا ﴾ قال : نعم : ﴿ ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ ﴾ قال : نعم . إلى آخر السورة ، قال : نعم .

والذي عليه جمهور أهل الحديث والفقه أنه يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد ؛ لكن لا يقرون عليه ، وإذا كان في الأمر والنهي فكيف في الخبر ؟ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو ما أسمع ، فأحسب أنه صادق ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار »[١] فنفس ما يعد الله به الأنبياء والمؤمنين حقا لا يمترون فيه ، كما قال تعالى في قصة نوح : ﴿ ونادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ إلى آخر الآية . ومثل هذا الظن قد يكون من إلقاء الشيطان المذكور في قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلى قوله : ﴿ صراطٍ مستقيمٍ ﴾ وقد تكلمنا على هذه الآية في غير هذا الموضع .

وللناس فيها قولان مشهوران ؛ بعد اتفاقهم على أن التمني هو التلاوة والقرآن كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله : ﴿ ومنهم أُمِّيُّونَ لا يَعلمونَ الكِتابَ إلا أمانيَّ ، وإنْ هُمْ إلا يَظنّونَ ﴾[٢] وأما من أوَّل النهي على تمني القلب فذاك فيه كلام آخر ؛ وإن قيل : إن الآية تعم النوعين ؛ لكن الأول هو المعروف في التفسير ، وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعا ، لقوله بعد ذلك : ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ؛ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾ . وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي ؛ لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه النخل ونحوها ، وهو يوافق ما ذكرناه .

وإذا كان التمني لا بد أن يدخل فيه القول ففيه قولان :

« الأول » أن الإلقاء هو في سمع المستمعين ولم يتكلم به الرسول ، وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه .

و « الثاني » ـ وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم ـ أن الإلقاء في نفس التلاوة ، كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه ، كما وردت به الآثار المتعددة ، ولا محذور في ذلك إلا إذا

---

(١) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب الأدب) .

(٢) سورة البقرة الآية ٧٨ .

أقرّ عليه فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته فلا محذور في ذلك ، وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة ، إلا إذا أقرّ عليه .

ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقرّ على خطأ ، كما قال : « فإذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله » ولولا ذلك لما قامت الحجة به ، فإن كونه رسول الله يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن الله ، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه . فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله وأقرّ عليه لم يكن كل ما يخبر به عن الله .

والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا ، وقصدوا خيرا ، وأحسنوا في ذلك ؛ لكن يقال لهم : ألقى ثم أحكم ، فلا محذور في ذلك . فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه فإنه إذا موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به ليس أعظم من إخباره برفعه .

ولهذا قال في النسخ : ﴿ وإنْ كانَتْ لكبيرةً إلّا على الذينَ هَدَى اللهُ ﴾ فظنهم أنهم قد كذبوا هو يتبع ما يظنونه من معنى الوعد ، وهذا جائز لا محذور فيه . إذا لم يقروا عليه ، وهذا وجه حسن ، وهو موافق لظاهر الآية ولسائر الأصول من الآيات والأحاديث ، والذي يحقق (ذلك) أن باب الوعد والوعيد ليس بأعظم من باب الأمر والنهي .

فإذا كان من الجائز في باب الأمر والنهي أن يظنوا شيئا ، ثم يتبين الأمر لهم بخلافه ؛ فلأن يجوز ذلك في باب الوعد والوعيد بطريق الأولى والأحرى ، حتى إن باب الأمر والنهي إذا تمسكوا فيه بالاستصحاب لم يقع في ذلك ظن خلاف ما هو عليه الأمر في نفسه ؛ فإن الوجوب والتحريم الذي لا يثبت إلا بخطاب إذا نفوه قبل الخطاب كان ذلك اعتقاداً مطابقاً للأمر في نفسه ، وباب الوعد إذا لم يخبروا به قد يظنون انتفاءه ، كما ظن الخليل جواز المغفرة لأبيه حتى استغفر له ، ونهينا عن الاقتداء . كما قال النبي ﷺ لأبي طالب : « لأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » وحتى استأذن ربه في الاستغفار لأمه فلم يؤذن له في ذلك ، وحتى صلى على المنافقين قبل أن ينهى عن ذلك وكان يرجو لهم المغفرة، حتى أنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان للنبي والذيَ آمَنوا أَنْ يَستغفروا للمشركينَ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ لأوّاهٌ حليمٌ ﴾ وقال عن المنافقين : ﴿ ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ﴾[2] الآية . وقال : ﴿ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أمْ لمْ تَستغفرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[3] فإذا كان صلى على المنافقين

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٨٢ .

(٣) سورة المنافقون الآية ٦ .

واستغفر لهم راجيا أن يغفر لهم قبل أن يعلم ذلك .

ولهذا سوغ العلماء أن يروى في باب الوعد والوعيد من الأحاديث ما لم يعلم أنه كذب ، وإن كان ضعيف الإسناد . بخلاف باب الأمر والنهي فإنه لا يؤخذ فيه إلا بما يثبت أنه صدق ؛ لأن باب الوعد والوعيد إذا أمكن أن يكون الخبر صدقا وأمكن أن يوجد الخبر كذبا لم يجز نفيه ؛ لا سيما بلا علم ، كما لم يجز الجزم بثبوته بلا علم ؛ إذ لا محذور فيه . منابت الناس اللفظ تعيين الوعد والوعيد فلا يجوز منع ذلك بمنع الحديث إذا أمكن أن يكون صدقا ؛ لأن في ذلك إبطالا لما هو حق ، وذلك لا يجوز .

ولهذا قال النبي ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » وهذا الباب وهو « باب الوعد والوعيد » هو في الكتاب بأسماء مطلقة للمؤمنين ، والصابرين ، والمجاهدين ، والمحسنين ، فما أكثر من يظن من الناس أنه من أهل الوعد ، ويكون اللفظ في ظنه أنه متصف بما يدخل في الوعد لا في اعتقاد صدق الوعد في نفسه .

وهذا كقوله : ﴿ إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا ، والذينَ آمَنوا في الحياةِ الدنيا، ويومَ يَقومُ الأشهادُ ﴾[1] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لعبادِنا المرسَلينَ ﴾[2] الآيتين ، فقد يظن الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحق للنصر ، وأن جند الله الغالبون ، ويكون الأمر بخلاف ذلك .

وقد يقع من النصر الموعود به ما لا يظن أنه من الموعود به ، فالظن المخطىء فهم ذلك كثير جداً أكثر من باب الأمر والنهي مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك ، وهذا مما لا يحصر الغلط فيه إلا الله تعالى ، وهذا عام لجميع الآدميين ؛ لكن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يقرون ؛ بل يتبين لهم ، وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا .

ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه ﷺ بتصديق الوعد والإيمان ، وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت ، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتصافه بصفة الوعد . كما قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذينَ لا يُوقِنونَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إنّ وعدَ اللهِ حقٌّ ، فإمّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهُمْ ، أوَ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾[4] الآية . والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة . والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة غافر الآية ٥١ .

(٢) سورة الصافات الآية ٧١ .

(٣) سورة الروم الآية ٦٠ .

(٤) سورة غافر الآية ٧٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سور الرعد

فصل(*)

قال تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السّماءِ ماءً فَسَالَتْ أودية بِقَدَرِها فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً ومِمّا يُوقِدونَ عَلَيْهِ في النارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كذلكَ يَضْرِبُ الله الحقَّ والباطلَ فأمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأمّا يَنفعُ الناسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ كذلكَ يَضْرِبُ الله الأمثالَ ﴾[1] .

شبه ما ينزل من السماء على القلوب من الإيمان والقرآن فيختلط بالشبهات والأهواء المغوية بالمطر الذي يحتمل سيله الزبد ، وبالذهب والفضة ، والحديد ونحوه إذا أذيب بالنار ، فاحتمل الزبد فقذفه بعيدا عن القلب ، وجعل ذلك الزبد هو مثل ذلك الباطل الذي لا منفعة فيه وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فهو مثل الحق النافع فيستقر ويبقى في القلب .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

فصل(*)

في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلوا للهِ شُرَكاءَ ، قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾[2] قيل المراد سموهم بأسماء حقيقية لها معان تستحق بها الشرك له والعبادة ، فإن لم تقدروا بطل ما تدعونه .

(*) رسالة النبات في نزول القرآن .

(1) سورة الرعد الآية ١٧ .

(*) مجموع الفتاوى ١٥/١٩٦ .

(2) سورة الرعد الآية ٣٣ .

وقيل : إذا سميتموها آلهة فسموها باسم الإله ، كالخالق والرازق ، فإذا كانت هذه كاذبة عليها فكذلك اسم الآلهة ، وقد حام حول معناها كثير من المفسرين ، فما شفوا عليلا ولا أرووا غليلاً ، وإن كان ما قالوه صحيحا .

فتأمل ما قبل الآية وما بعدها يطلعك على حقيقة المعنى ، فإنه سبحانه يقول : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ﴾ [1] ؟ وهذا استفهام تقرير يتضمن إقامة الحجة عليهم . ونفي كل معبود مع الله ، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت بعلمه ، وقدرته ، وجزائه في الدنيا والآخرة . فهو رقيب عليها ، حافظ لأعمالها ، مجازٍ لها بما كسبت من خير وشر .

فإذا جعلتم أولئك شركاء فسموهم إذ بالأسماء التي يسمى بها القائم على كل نفس بما كسبت ، فإنه سبحانه يسمى بالحي المحيي المميت ، السميع البصير ، الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، ووجوه كل شيء به . فهل تستحق آلهتكم اسما من تلك الأسماء ؟ فإن كانت آلهة حقا فسموها باسم من هذه الأسماء ؛ وذلك بهت بين ؛ فإذا انتفى عنها ذلك علم بطلانها كما علم بطلان مسماها .

وأما إن سموها بأسمائها الصادقة عليها كالحجارة ، وغيرها من مسمى الجمادات ، وأسماء الحيوان التي عبدوها من دون الله ، كالبقر وغيرها ، وبأسماء الشياطين الذين أشركوهم مع الله جل وعلا ، وبأسماء الكواكب المسخرات تحت أوامر الرب ، والأسماء الشاملة لجميعها أسماء المخلوقات : المحتاجات ، المدبرات ، المقهورات .

وكذلك بنو آدم عبادة بعضهم بعضا ، فهذه أسماؤها الحق ، وهي تبطل إلهيتها ؛ لأن الأسماء التي من لوازم الإلهية مستحيلة عليها ؛ فظهر أن تسميتها آلهة من أكبر الأدلة على بطلان إلهيتها ، وامتناع كونها شركاء لله عز وجل .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر

وقال شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ـ قدس الله روحه، ونور ضريحه، ورحمه :

فصل

في آيات ثلاث متناسبة متشابهة اللفظ والمعنى يخفى معناها على أكثر الناس .

قوله تعالى : ﴿ قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مستقيمٌ . إنّ عبادِي ليسَ لكَ عليهِمْ سلطانٌ إلا مَنِ اتّبَعكَ مِنَ الغاوينَ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ ومنها جائرٌ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ إن عَلَيْنا لَلْهُدى . وإنّ لنا للآخرةَ والأولى ﴾[3] .

فلفظ هذه الآيات فيه أن السبيل الهادي هو على الله .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي[4] في الآية الأولى ثلاثة أقوال بخلاف الآيتين الأخريين ، فإنه لم يذكر فيهما إلا قولاً واحداً . فقال في تلك الآية : اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال .

---

(١) سورة الحجر الآيات (٤١ ـ ٤٢) .

(٢) سورة النحل الآية ٩ .

(٣) سورة الليل الآيات (١٢ ـ ١٣) .

(٤) هو عبد الرحمن بن عليّ الجوزي (أبو الفرج) توفى سنة ٥٩٧ هـ . من كبار فقهاء الحنابلة . له مؤلفات كثيرة . أهمها زاد المسير في علم التفسير ، تلبيس إبليس ، تيسير البيان في علم القرآن : انظر عنه : وفيات الأعيان ٣٢١/٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٨٨/٢ ، الذيل لابن رجب ٣٩٩/١ ، ابن الأثير ٢٢٨/١٠ الأعلام ٨٩ ـ ٩٠ .

(أحدها) : أنه يعني بقوله هذا : الإخلاص . فالمعنى أن الإخلاص طريق إلى مستقيم ، و « على » بمعنى « إلى » .

و (الثاني) : هذا طريق على جوازه ، لأني بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم . وهو خارج مخرج الوعيد ، كما تقول للرجل تخاصمه « طريقك علي » فهو كقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

و (الثالث) هذا صراط على استقامته ، أي أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان . قال : وقرأ قتادة ، ويعقوب ﴿ هذا صراط عَلِيّ ﴾ ، أي رفيع .

قلت : هذه الأقوال الثلاثة قد ذكرها من قبله ، كالثعلبي ، والواحدي ، والبغوي[1] ، وذكروا قولا رابعا . فقالوا ـ واللفظ للبغوي ، وهو مختصر الثعلبي .

قال الحسن : معناه صراط إلي مستقيم . وقال مجاهد : الحق يرجع إلى وعليه طريقه لا يعرج على شيء .

وقال الأخفش : يعني على الدلالة على الصراط المستقيم .

وقال الكسائي : هذا على التهديد والوعيد ، كما يقول الرجل لمن يخاصمه « طريقك علي » ، أي لا تفلت مني ، كما قال تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

قيل : معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية .

فذكروا الأقوال الثلاثة ، وذكروا قول الأخفش : « على الدلالة على الصراط المستقيم » . وهو يشبه القول الأخير ، لكن بينهما فرق . فإن ذاك يقول : على استقامته بإقامة الأدلة . فمن سلكه كان على صراط مستقيم . والآخر يقول : على أن أدل الخلق عليه بإقامة الحجج . ففي كلا القولين أنه بين الصراط المستقيم بنصب الأدلة ، لكن هذا جعل الدلالة عليه ، وهذا جعل عليه استقامته ـ أي بيان استقامته ـ وهما متلازمان . ولهذا ـ والله أعلم ـ لم يجعله أبو الفرج قولا رابعا .

وذكروا القراءة الأخرى عن يعقوب وغيره : أي رفيع . قال البغوي : وعبر بعضهم عنه « رفيع أن ينال ، مستقيم أن يمال » .

(قلت) : القول الصواب هو قول أئمة السلف ـ قول مجاهد ونحوه ـ فإنهم أعلم بمعاني

---

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود المعروف بالبغوي الفراء الفقيه الشافعي المحدث صاحب التفسير المعروف . توفي سنة ٥١٠ هـ .
انظر عنه : الوفيات ٤٠٢/١ طبقات الشافعية ٢١٤/٤ ـ ٢١٧ ، تذكرة الحفاظ ١٢٥٧/٤ ، الأعلام ٢٨٤/٢ .

القرآن . لا سيما مجاهد . فإنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها » . وقال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . والأئمة كالشافعي ، وأحمد ، والبخاري ، ونحوهم ، يعتمدون على تفسيره . والبخاري في صحيحه أكثر ما ينقله من التفسير ينقله عنه . والحسن البصري أعلم التابعين بالبصرة . وما ذكروه عن مجاهد ثابت عنه ، رواه الناس كابن أبي حاتم وغيره ، من تفسير ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله : ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء . وذكر عن قتادة أنه فسرها على قراءته ـ وهو يقرأ « عَلِيّ » ـ فقال : أي رفيع مستقيم .

وكذلك ذكر ابن أبي حاتم عن السلف أنهم فسروا آية النحل . فروى من طريق ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله : ﴿ قصد السبيل ﴾ ، قال : طريق الحق على الله . قال : وروي عن السدي أنه قال : الإسلام . وعطاء قال : هي طريق الجنة .

فهذه الأقوال ـ قول مجاهد ، والسدي ، وعطاء ـ في هذه الآية هي مثل قول مجاهد ، والحسن ، في تلك الآية .

وذكر ابن أبي حاتم من تفسير العوفي ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ، يقول : على الله البيان ـ أن يبين الهدى والضلالة .

وذكر ابن أبي حاتم في هذه الآية قولين ، ولم يذكر في آية الحجر إلا قول مجاهد فقط .

وابن الجوزي لم يذكر في آية النحل إلا هذا القول الثاني ، وذكره عن الزجاج ، فقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ القصد : استقامة الطريق ـ يقال : طريق قصد ، وقاصد ، إذا قصد بك إلى ما تريد .

قال الزجاج : المعنى ، وعلى الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين .

وكذلك الثعلبي ، والبغوي ، ونحوهما ، لم يذكروا إلا هذا القول لكن ذكروه باللفظين .

قال البغوي : يعني بيان طريق الهدى من الضلالة . وقيل : بيان الحق بالآيات والبراهين .

قال : والقصد : الصراط المستقيم ، ﴿ ومنها جائر ﴾ : يعني ومن السبيل ما هو جائر عن الاستقامة معوج . فالقصد من السبيل : دين الإسلام ، والجائر منها : اليهودية ، والنصرانية ، وسائر ملل الكفر . قال جابر به عبد الله : قصد السبيل : بيان الشرائع

والفرائض . وقال عبد الله بن المبارك[1] ، وسهل بن عبد الله : قصد السبيل : السنة ، ﴿ ومنها جائر ﴾ : الأهواء والبدع . دليله قوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فَاتَّبِعوهُ ، ولا تَتَّبِعوا السبلَ فَتَفَرَّقَ بكم عَنْ سبيلِهِ ﴾ .

ولكن البغوي ذكر فيها القول الآخر ، ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ ـ عن الفراء ، كما سيأتي . فقد ذكر القولين في الآيات الثلاث تبعا لمن قبله ، كالثعلبي وغيره .

والمهدوي ذكر في الآية الأولى قولين من الثلاثة ، وذكر في الثانية ما رواه العوفي ، وقولا آخر . فقال :

قوله : ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ ، أي على أمري وإرادتي . وقيل : هو على التهديد ، كما يقال : « عليَّ طريقك وإليَّ مصيرك » .

وقال في قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ : قال ابن عباس : أي بيان الهدى من الضلال . وقيل : السبيل : الإسلام ، ﴿ ومنها جائر ﴾ ، أي ومن السبيل جائر أي عادل عن الحق . وقيل المعنى « وعنها جائر » أي عن السبيل ، فـ « من » بمعنى « عن » .

وقيل : معنى قصد السبيل : سيركم ورجوعكم ، والسبيل واحدة بمعنى الجمع .

قلت : هذا قول بعض المتأخرين ـ جعل « القصد » بمعنى « الإرادة » ، أي عليه قصدكم للسبيل في ذهابكم ورجوعكم . وهو كلام من لم يفهم الآية . فإن « السبيل القصد » هي السبيل العادلة ، أي عليه السبيل القصد . و« السبيل » اسم جنس ، ولهذا قال : ﴿ ومنها جائر ﴾ . أي عليه القصد من السبيل ، ومن السبيل جائر . فأضافه إلى اسم الجنس إضافة النوع إلى الجنس ، أي « القصد من السبيل » . كما تقول : « ثوب خز » . ولهذا قال : ﴿ومنها جائر ﴾ .

وأما من ظن أن التقدير « قصدكم السبيل » فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجوه متعددة .

وابن عطية لم يذكر في آية الحجر إلا قول الكسائي ، وهو أضعف الأقوال ، وذكر المعنى الصحيح تفسيراً للقراءة الأخرى . فذكر أن جماعة من السلف قرأوا ﴿ عَلِيّ مستقيم ﴾ من العلو والرفعة . قال : والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص ـ لما استثنى إبليس من

---

(1) هو عبد الله أبو عبد الرحمن بن المبارك بن واضح المروزي ، من كبار رجال السلف المأخوذ برأيهم في الأصول والفروع ولد سنة ١١١ هـ وتوفي سنة ١٨١ هـ له مؤلفات كثيرة في الزهد وآداب السلوك . انظر عنه : تذكرة الحفاظ ٥٢٣/١ ، تاريخ بغداد ١٥٢/١٠ ، طبقات ابن سعد ٣٧٢/٧ وفيات الأعيان ٣٧/٢ ، حلية الأولياء ١٦٢/٨ ، شذرات الذهب ٢٩٥/١ .

أخلص قال الله له : هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله .

قال : وقرأ جمهور الناس ﴿ عَلَيّ مستقيم ﴾ . والاشارة بهذا على هذه القراءة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص . لما قسم إبليس هذين القسمين قال الله : ﴿ هذا طريق عَلَيّ ﴾، أي هذا أمر إليّ مصيره . والعرب تقول : « طريقك في هذا الأمر على فلان » . أي إليه يصير النظر في أمرك . وهذا نحو قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ . قال : والآية على هذه القراءة خبر يتضمن وعيدا .

(قلت) : هذا لم ينقل عن أحد من علماء التفسير ـ لا في هذه الآية ولا في نظيرها . وإنما قاله الكسائي لما أشكل عليه معنى الآية الذي فهمه السلف ، ودل عليه السياق والنظائر .

وكلام العرب لا يدل على هذا القول . فإن الرجل وإن كان يقول لمن يتهدده ويتوعده « عَلَيّ طريقك » فإنه لا يقول : إن طريقك مستقيم .

وأيضا فالوعيد إنما يكون للمسيء ، لا يكون للمخلصين . فكيف يكون قوله هذا : « إشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص » وطريق هؤلاء غير طريق هؤلاء ؟ هؤلاء سلكوا الطريق المستقيم التي تدل على الله ؛ وهؤلاء سلكوا السبيل الجائرة .

وأيضا فإنما يقول لغيره في التهديد « طريقك عَلَيَّ » من لا يقدر عليه في الحال لكن ذاك يمر بنفسه عليه وهو متمكن منه ، كما كان أهل المدينة يتوعدون أهل مكة بأن « طريقكم علينا » لما تهددوهم بأنكم آويتم محمد وأصحابه . كما قال أبو جهل لسعد بن معاذ لما ذهب سعد إلى مكة : « لا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم الصبأة وزعمتم أنكم تنصرونهم » ! فقال « لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه ـ طريقك على المدينة » ، أو نحو هذا .

فذكر أن طريقهم في متجرهم إلى الشام عليهم ، فيتمكنون حينئذ من جزائهم .

ومثل هذا المعنى لا يقال في حق الله تعالى . فإن الله قادر على العباد حيث كانوا ، كما قالت الجن : ﴿ وأنا ظننّا أنْ لَنْ نُعْجِزَ الله في الأرضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً ﴾[1] ، وقال : ﴿ وما أنتم بِمُعجزينَ في الأرضِ ﴾[2] .

وإذا كانت العرب تقول ما ذكره : يقولون « طريقك في هذا الأمر على فلان » ، أي إليه يصير أمرك ، فهذا يطابق تفسير مجاهد وغيره من السلف ، كما قال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء . فطريق الحق على الله ، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله

---

(١) سورة الجن الآية ١٢ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٢ .

فيه : ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ كما فسرت به القراءة الأخرى .

فالصراط في القراءتين هذا الصراط المستقيم الذي أمر الله المؤمنين أن يسألوه إياه في صلاتهم ، فيقولوا : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . وهو الذي وصى به في قوله : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[1] .

وقوله هذا إشارة إلى ما تقدم ذكره ، وهو قوله : ﴿ إلا عبادَكَ منهُمُ المخلَصين ﴾ فتعبد العباد له بإخلاص الدين له : طريق يدل عليه ، وهو طريق مستقيم . ولهذا قال بعده : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

وابن عطية ذكر أن هذا معنى الآية في تفسير الآية الأخرى مستشهدا به ، مع أنه لم يذكره في تفسيرها . فهو بفطرته عرف أن هذا معنى الآية ، ولكنه لما فسرها ذكر ذلك القول ، كأنه هو الذي اتفق أن رأى غيره قد قاله هناك . فقال ـ رحمه الله :

وقوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ﴾ . وهذه أيضا من أجل نعم الله تعالى . أي على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه ـ وذلك بنصب الأدلة وبعث الرسل . وإلى هذا ذهب المتأولون .

قال : ويحتمل أن يكون المعنى أن من سلك القاصد فعلى الله طريقه ، وإلى ذلك مصيره . فيكون هذا مثل قوله : ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ ، وضد قول النبي ﷺ : « والشر ليس إليك » أي لا يفضي إلىٰ رحمتك . وطريق قاصد معناه : بين مستقيم قريب ، ومنه قول الراجز :

بعيد عن نهج الطريق القاصد

قال : والألف واللام في « السبيل » للعهد ، وهي سبيل الشرع وليست للجنس ، ولو كانت للجنس لم يكن منها جائر . وقوله : ﴿ ومنها جائر ﴾ يريد طريق اليهود ، والنصارى ، وغيرهم كعباد الأصنام . والضمير في « منها » يعود على « سبيل » التي يتضمنها معنى الآية ، كأنه قال : « ومن السبيل جائر » ، فأعاد عليها وإن كان لم يجر لها ذكر لتضمن لفظة « السبيل » بالمعنى لها .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

قال : ويحتمل أن يكون الضمير في « منها » على « سبيل الشرع » المذكورة ، ويكون « من » للتبعيض ، ويكون المراد فرق الضلالة من أمة محمد ـ كأنه قال : ومن بنيات الطرق من هذه السبيل ومن شعبها جائر .

(قلت) : سبيل أهل البدع جائرة خارجة عن الصراط المستقيم فيما ابتدعوا فيه . ولا يقال أن ذلك من السبيل المشروعة .

وأما قوله : « إن قوله : ﴿ قصد السبيل ﴾ هي سبيل الشرع ، وهي سبيل الهدى ، والصراط المستقيم . وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر ، فهذا أحد الوجهين في دلالة الآية ، وهو مرجوح . والصحيح الوجه الآخر أن « السبيل » اسم جنس ، ولكن الذي على الله هو القصد منها ، وهي سبيل واحد ولما كان جنسا قال : ﴿ ومنها جائر ﴾ ، والضمير يعود على ما ذكر بلا تكلف .

وقوله : « لو كان للجنس لم يكن منها جائر » ليس كذلك . فإنها ليست كلها عليه ، بل إنما عليه القصد منها ، وهي سبيل الهدى ، والجائر ليس من القصد . وكأنه ظن أنه إذا كانت للجنس يكون عليه قصد كل سبيل ، وليس كذلك . بل إنما عليه سبيل واحدة ، وهي الصراط المستقيم ـ هي التي تدل عليه . وسائرها سبل الشيطان ، كما قال : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[1] .

وقد أحسن ـ رحمه الله ـ في هذا الأحتمال ، وفي تمثيله ذلك بقوله : ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ .

وأما آية الليل ـ قوله : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ ـ فابن عطية مثلها بهذه الآية ، لكنه فسرها بالوجه الأول فقال :

ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعا ، أي تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك ، كما قال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ، ثم كل أحد يتكسب ما قدر له . وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان ، ولو كان كذلك لم يوجد كافر .

(قلت) : وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي ـ وذكره عن الزجاج . قال الزجاج : إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

وهذا التفسير ثابت عن قتادة ، رواه عبد بن حميد . قال : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن قتادة : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ ، علينا بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . وكذلك

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

رواه ابن أبي حاتم في تفسير سعيد ، عن قتادة في قوله : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ ، يقول : على الله البيان ـ بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

لكن قتادة ذكر أنه البيان الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، فتبين به حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

وأما الثعلبي ، والواحدي ، والبغوي ، وغيرهم ، فذكروا القولين وزادوا أقوالا أخر . فقالوا ـ واللفظ للبغوي :

﴿ إن علينا للهدى ﴾ ، يعني البيان . قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة . وهو قول قتادة ، قال : على الله بيان حلاله وحرامه .

وقال الفراء : يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ، يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد .

قال : وقيل معناه إن علينا للهدى والإضلال ، كقوله : « بيدك الخير » .

(قلت) : هذا القول هو من الأقوال المحدثة التي لم تعرف عن السلف ، وكذلك ما أشبهه . فإنهم قالوا : معناه بيدك الخير والشر ، والنبي ﷺ في الحديث الصحيح يقول : « والخير بيدك ، والشر ليس إليك » .

والله تعالى خالق كل شيء ـ لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ـ والقدر حق . لكن فهم القرآن ، ووضع كل شيء موضعه ، وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالقدر ، هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

وقد ذكر المهدوي الأقوال الثلاثة ، فقال : إن علينا للهدى والضلال . فحذف قتادة . المعنى : إن علينا بيان الحلال والحرام .

وقيل : المعنى إن علينا أن نهدي من سلك سبيل الهدى .

قلت : هذا هو قول الفراء ، لكن عبارة الفراء أبين في معرفة هذا القول .

فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل إلا على الله . ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم . والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين .

وأما الثاني ، فقد يقول طائفة : ليس على الله شيء ـ لا بيان هذا ، ولا هذا . فإنهم

متنازعون هل أوجب على نفسه ، كما قال : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[1] وقوله : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾[2] وقوله : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾[3] .

وإذا كان عليه بيان الهدى من الضلال بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول : إن عليه إرسال الرسل ، وإن ذلك واجب عليه ، فإن البيان لا يحصل إلا بهذا .

وهذا يتعلق بأصل آخر ، وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبته مشيئته وحكمته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . فما شاءه وجب وجوده وما لم يشأه امتنع وجوده . وبسط هذا له موضع آخر .

ودلالة الآيات على هذا فيها نظر .

وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعا ، وأنه أرشد بها إلى (الطريق) المستقيم ، وهي الطريق القصد ، وهي الهدى إنما تدل عليه ـ وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه .

لكن نشأت الشبهة من كونه قال : « علينا » بحرف الاستعلاء ، ولم يقل « إلينا » والمعروف أن يقال لمن يشار إليه يقال « هذا الطريق إلى فلان » ، ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول : « طريقنا على فلان » .

وذكر هذا المعنى بحرف الاستعلاء . وهو من محاسن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء .

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾[4] وقال : ﴿ وإلى الله المصير ﴾[5] ، ﴿ إن إلينا ايابهم ﴾[6] أي إلينا مرجعهم ، وقال : ﴿ وهوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليلِ ويَعلمُ ما جَرَحْتُمْ بالنهارِ ثمّ يَبْعَثُكُمْ فيهِ لِيُقْضَى أجَلٌ مُسَمّى . ثمّ إليهِ مَرْجِعُكُمْ ثمّ يُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تَعلمونَ .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٤ .

(٢) سورة الروم الآية ٤٧ .

(٣) سورة هود الآية ٦ .

(٤) سورة الانشقاق الآية ٦ .

(٥) سورة فاطر الآية ٤٨ .

(٦) سورة الغاشية الآية ٢٥ .

وهوَ القاهرُ فوقَ عبادِهِ وَيُرْسِلُ عليكُمْ حفظةً حتى إذا جاءَ أحدَكم الموتَ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطونَ . ثمّ رُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاهُمْ الحقِّ ﴾[1] وقال : ﴿ أمْ لمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ موسى . وإبراهيمَ الذي وَفّى . ألاّ تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى . وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى . وأنّ سَعْيَهُ سوفَ يُرى . ثم يُجزاهُ الجزاءَ الأوفى . وأنّ إلى رَبِّكَ المنتهى ﴾[2] ، وقال : ﴿ وإمّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهُمْ أوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فإلينا مَرْجِعُهُمْ ثمّ اللهُ شهيدٌ على ما يَفعلونَ ﴾[3] .

فأي سبيل سلكها العبد فإلى الله مرجعه ومنتهاه ، ولا بد له من لقاء الله ﴿ لِيَجْزِيَ الذينَ أساؤ وا بما عَمِلوا وَيَجْزِيَ الذين أحْسَنوا بالحُسْنى ﴾[4] .

وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي يسعد أصحابه ، وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته فيكون الله وليهم دون الشيطان . وهذه سبيل من عبد الله وحده وأطاع رسله . فلهذا قال : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ ، ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ﴿ قال هذا صراط علي مستقيم ﴾ . فالهدى ، وقصد السبيل والصراط المستقيم ، إنما يدل على عبادته وطاعته ـ لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان .

فالكلام تضمن معنى « الدلالة » إذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة ، فإن الجزاء يعم الخلق كلهم . بل المقصود بيان ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله ـ ما الذي يدل على ذلك ؟ فكأنه قيل : الصراط المستقيم يدل على الله ـ على عبادته وطاعته .

وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون : « هذه الطريق على فلان » إذا كانت تدل عليه ، وكان هو الغاية المقصود بها ، وهذا غير كونها « عليه » بمعنى أن صاحبها يمر عليه . وقد قيل :

فهن المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها

وهو كما قال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله .

فالمقصود بالسبيل هو : الذي يدل ويوقع عليه ، كما يقال : إن سلكت هذه

---

(1) سورة الأنعام الآيات (٦٠ ـ ٦١) .

(2) سورة النجم الآيات (٣٦ ـ ٤٢) .

(3) سورة يونس الآية ٤٦ .

(4) سورة النجم الآية ٣١ .

السبيل وقعت على المقصود ، ونحو ذلك ، وكما يقال : « على الخبير سقطت » . فإن الغاية المطلوبة إذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها ، ويرمى نفسه عليها .

وأيضا ، فسالك طريق الله متوكل عليه . فلا بد له من عبادته ومن التوكل عليه .

فإذا قيل : « عليه الطريق المستقيم » تضمن أن سالكه عليه يتوكل ، وعليه تدله الطريق ، وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط ، لا يعدل عن ذلك ، إلى نحو ذلك من المعاني التي يدل عليها حرف الاستعلاء دون حرف الغاية .

وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم . فعليه الصراط المستقيم ، وهو على صراط مستقيم ـ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، والله أعلم .

فصل(*)

﴿ إنّما قَوْلُنا لِشيءٍ إذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾(1) .

قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله :

الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة مبنية على أصلين :

أحدهما : الفرق بين خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطب ، بل هو الذي يكون المخاطب به ، ويخلقه بدون فعل من المخاطب ، أو قدرة ، أو إرادة ، أو وجود له ، وبين خطاب التكليف الذي يطلب به من المأمور فعلا أو تركا يفعله بقدرة وإرادة ، وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته ، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشرط وجوده أم لا يصح أن يخاطب به إلا بعد وجوده ، لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد وجوده ، وكذلك تنازعوا في الأول ، هل هو خطاب حقيقي ، أو هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة ، والأول هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة .

والأصل الثاني : أن المعدوم في حال عدمه ، هل هو شيء أم لا ، فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة ، إلى أنه شيء في الخارج ، وذات وعين ، وزعموا أن الماهيات غير مجعولة ولا مخلوقة ، وأن وجودها زائد على حقيقتها ، وكذلك ذهب إلى هذا طوائف من

(*) الرسائل الكبرى ٢/٧٢ رسالة مراتب الارادة .

(1) سورة النحل الآية ٤٠ .

المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة ، والذي عليه جماهير الناس ، وهو قول متكلمة أهل الإثبات والمنتسبين إلى السنة والجماعة أنه في الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشيء أصلا ولا ذات ولا عين ، وأنه ليس في الخارج شيئان أحدهما حقيقة ، والآخر وجوده الزائد على حقيقته ، فإن الله أبدع الذوات التي هي الماهيات ، فكل ما سواه سبحانه فهو مخلوق ومجعول ، ومبدع ومبدو له سبحانه وتعالى ، لكن في هؤلاء من يقول : المعدوم ليس بشيء أصلا ، وإنما سمي شيئا باعتبار ثبوته في العلم كان مجازا ، ومنهم من يقول لا ريب أن له ثبوتا في العلم ووجودا فيه ، فهو باعتبار هذا الثبوت والوجود هو شيء ، وذات ، وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت ، كما فرق من قال : المعدوم شيء ولا يفرقون في كون المعدوم ليس بشيء بين الممكن والممتنع ، كما فرق أولئك ، إذ قد اتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء ، وإنما النزاع في الممكن وعمدة من جعله شيئا ، إنما هو لأنه ثابت في العلم ، وباعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهي عنه وغير ذلك قالوا : وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم والمحض ، فإن خص الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العيني ، وبين الوجود الذي هو الثبوت العلمي ، زالت الشبهة في هذا الباب .

وقوله تعالى : ﴿ انما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ وذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقبل توجيه هذا الخطاب إليه ، وبذلك كان مقدرا مقضيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب من ما يعلمه ما شاء كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر : « أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : « كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض » وفي سنن أبي داود وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب . فقال : ما أكتب ؟ قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة » إلى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوما مخبرا عنه مكتوبا ، فهي شيء باعتبار وجوده العلمي الكلامي الكتابي ، وإن كانت حقيقته التي هي وجوده العيني ليس ثابتا في الخارج ، بل هو عدم محض ، ونفي صرف ، وهذا المراتب الأربعة المشهورة موجودات ، وقد ذكرها الله سبحانه في أول سورة أنزلها على نبيه في قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وقد بسطنا الكلام في ذلك في غير هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان الخطاب موجها إلى من توجهت إليه الإرادة ، وتعلقت به القدرة ، وخلق وكون كما قال : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له

له كن فيكون ﴾ فالذي يقال له : كن هو الذي يراد . وهو حين يراد قبل أن يخلق له ثبوت وتميز في العلم والتقدير ، ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره وبهذا يحصل الجواب عن

التقسيم . فإن قول السائل إن كان المخاطب موجودا فتحصيل الحاصل محال . يقال له : هذا إذا كان موجود في الخارج وجوده الذي هو وجوده ، ولا ريب أن المعدوم ليس موجودا ولا هو في نفسه ثابت ، وأما ما علم وأريد وكان شيئا في العلم والإرادة والتقدير ، فليس وجوده في الخارج محالا ، بل جميع المخلوقات لا توجد إلا بعد وجودها في العلم والإرادة ، وهو قول السائل إن كان معدوما ، فكيف يتصور خطاب المعدوم ، ويقال له أما إذا قصد أن يخاطب المعدوم في الخطاب بخطاب يفهمه ويمتثله فهذا محال ، إلا من شرط المخاطب أن يتمكن من الفهم والفعل ، والمعدوم لا يتصور أن يفهم ويفعل فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه يطلب منه حين عدمه أن يفهم ويفعل ، وكذلك أيضا يمتنع أن يخاطب المعدوم في الخارج خطاب تكوين ، بمعنى أن يعتقد أنه شيء ثابت في الخارج ، وأنه يخاطب بأن يكون ، وأما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه ، مثل توجيه الإرادة إليه ، فليس ذلك محالا ، بل هو أمر ممكن ، بل مثل ذلك يجده الإنسان في نفسه ، فيقدر أمرا في نفسه يريد أن يفعله ويوجه إرادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب الذي قدره في نفسه ، ويكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته ، فإن كان قادرا على حصوله حصل مع الإرادة والطلب الجازم ، وإن كان عاجزا لم يحصل ، وقد يقول الإنسان ليكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب ، فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فإن أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النحل

فصل

قالت تعالى: ﴿ والله جَعَلَ لكم مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً الآية ﴾[1] فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث ، وهذا والله أعلم معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش ، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهي لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان ، والله تعالى ذكر في سورة النحل إنعامه على عباده ، فذكر في أول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم إلا بها ، وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها ، فذكر في أولها الرزق الذي لا بد لهم منه ، وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله : ﴿ والأنعامَ خلقَها لكم فيها دِفْءٌ ومنافعُ ومنها تَأكلونَ ﴾[2] ثم في أثناء السورة ذكر لهم المساكن ومنافع التي يسكنونها ، مساكن الحاضرة والبادية ، ومساكن المسافرين فقال تعالى : ﴿ والله جعلَ لكم مِنْ بيوتِكُمْ سَكَناً الآية ﴾ ، ثم ذكر إنعامه بالظلال التي تقيهم الحر والبأس فقال : ﴿ والله جعلَ لكُمْ ممّا خلقَ ظِلالاً وجعلَ لكُمْ مِنَ الجبالِ أَكْناناً ـ إلى قوله ـ كذلك يُتِمُّ نعمتَهُ عليكُمْ لعلّكم تُسلِمونَ ﴾[3] . ولم يذكر هنا ما يقى من البرد لأن قد ذكره في أول السورة . وذلك في أصول النعم ، لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد أن يعيش في البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر ، فإنه أذى لكنه لا يقتل كما يقتل البرد ، فإن الحر قد يتقى

---

(١) سورة النحل الآية ٨٠ .

(٢) سورة النحل الآية ٥٠ .

(*) وانظر الرسائل الكبرى ٢٢٢/٢ رسالة البيان في نزول القرآن .

(٣) سورة النحل الآية ٨١ .

بالظلال واللباس وغيرهما ، وأهله أيضا لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد ، بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفي النهار ، ولا يتأذون به تأذيا كثيرا بل لا يحتاجون إليه أحيانا حاجة قوية فجمع بينهما في قوله : ﴿ سَرَابيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ . وَسَرَابِيل تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ ولا حذف في اللفظ ولا قصور في المعنى كما يظنه من لم يحسن فهم القرآن ، بل لفظه أتم لفظ ومعناه أكمل المعاني ، فإذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم ، فهو منزل من الجهتين فإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بنو آدم حتى ينزل .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل(*)

اللباس له منفعتان :

إحداهما : الزينة بستر السوءة .

والثانية : الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو .

فذكر اللباس في (سورة الأعراف) لفائدة الزينة ، وهي المعتبرة في الصلاة والطواف ، كما دل عليه قوله : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[1] وقال : ﴿ يا بني آدمَ قدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُواري سَوْءاتِكُمْ ﴾[2] وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[3] ردا على ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب التي قدم بها غير الحمس ، ومن أكل ما سلوه من الأدهان .

وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قوله : ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾[4] ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم ، ولما كانت تلك فائدة كمالية قرنها بالأمر

(*) مجموع الفتاوى ١٥/ ٣١٧ .

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٦ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٣٢ .

(٤) سورة النحل الآية ٨٢ .

الشرعي ، وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزين ، وهذه من باب دفع المضرة ، فالناس إلى هذه أحوج .

فأما قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ ولم يذكر « البرد » فقد قيل لأن التنزيل كان بالأرض الحارة فهم يتخوفونه ، وقيل : حذف الآخر للعلم به ، ويقال هذا من باب التنبيه ؛ فإنه إذا امتن عليهم بما يقي الحر بالامتنان بما يقي البرد أعظم ، لأن الحر أذى ، والبرد بؤس ، والبرد الشديد يقتل ، والحر قل أن يقع فيه هكذا ، فإن باب التنبيه والقياس كما يكون في خطاب الأحكام يكون في خطاب الآلاء وخطاب الوعد والوعيد كما قلته في قوله : ﴿ لا تَنْفِروا في الحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حراً ﴾[1] مثله من يقول لا تنفروا في البرد فإن جهنم أشد زمهريرا ، « ومن اغبرت قدما في سبيل الله حرمها الله على النار » فالوحل والثلج أعظم ونحو ذلك .

وفي الآية شرع لباس جنن الحرب ؛ ولهذا قرن من قرن باب اللباس والتحلي بالصلاة ، لأن للحرب لباساً مختصا مع اللباس المشترك ، وطابق قولهم اللباس والتحلي قوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ولِباسُهُمْ فيها حَرِيرٌ ﴾[2] . وأحسن من هذا أنه قد تقدم ذكر وقاية البرد في أول السورة بقوله : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾[3] فيقال لم فرق هذا ؟ فيقال والله أعلم : المذكور في أول السورة النعم الضرورية التي لا يقومون بدونها : من الأكل ، وشرب الماء القراح ، ودفع البرد ، والركوب الذي لا بد منه في النقلة ، وفي آخرها ذكر كمال النعم : من الأشربة الطيبة ، والسكون في البيوت وبيوت الأدم ، والاستظلال بالظلال ، ودفع الحر والبأس بالسرابيل ، فإن هذا يستغنى عنه في الجملة . ففي الأول الأصول ، وفي الآخر الكمال ؛ ولهذا قال : كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون .

و (أيضا) : فالمساكن لها منفعتان : إحداهما السكون فيها لأجل الاستتار ، فهي كلباس الزينة من هذا الوجه . والثاني : وقاية الأذى من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك ، فجمع الله الامتنان بهذين فقال : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ﴾ هذه بيوت المدر ﴿ وجعلَ لكم مِنْ جُلودِ الأنعامِ بيوتاً تَسْتَخِفّونَها يومَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقامَتِكُمْ ﴾ هذه بيوت العمود ﴿ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أثاثاً ومتاعاً إلى حينٍ ﴾ يدخل فيه أهبة البيت من البسط والأوعية والأغطية ونحوها ، وقال : ﴿ من بيوتكم سكناً ﴾ ولم يقل من المدر بيوتا كما قال : ﴿ من جلود

---

(١) سورة التوبة الآية ٨١ .

(٢) سورة الحج الآية ٢٣ .

(٣) سورة النحل الآية ٥ .

الأنعام بيوتا ﴾ لأن السكن بيان منفعة البيت فيه تظهر النعمة ، واتخاذ البيوت من المدر معتاد فالنعمة بظهور أثرها ؛ بخلاف الأنعام ، فإن الهداية إلى اتخاذ البيوت من جلودها أظهر من الهداية إلى نفس اتخاذ البيوت .

وأما فائدة الوقاية فقال : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾[1] فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصطنعه الآدميون ، وقوله : ﴿ ومن الجبال أكنانا ﴾ لأن الجبل يكن الإنسان من فوقه ويمينه ويساره وأسفل منه ، ليس مقصوده الاستظلال ؛ بخلاف الظلال فإن مقصودها الاستظلال ؛ ولهذا قرن بهذه ما في السرابيل من منفعة الوقاية ، فجمع في هذه الآية بين وقاية اللباس المنتقل مع البدن ووقاية الظلال الثابتة على الأرض ؛ ولهذا كانوا في الجاهلية يسوون بينهما في حق المحرم ، فكما نهى تغطية الرأس نهوه عن الدخول تحت سقف حتى أنزل الله ﴿ وليسَ البِرَّ بأَنْ تَأْتُوا البيوتَ مِنْ ظُهورِها ﴾[2] . وجاز للمحرم أن يستظل بالثابت من الخيام والشجر ، وأما الشيء المنتقل معه المتصل كالمحمل ففيه ما فيه لتردده بين السرابيل وبين المستقر من الظلال والأكنة .

كما أنه قبل هذه الآيات ذكر أصناف الأشربة من اللبن والخمر والعسل ، وذكر في أول السورة المراكب والأطعمة ، وهذه مجامع المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمراكب .

وقال شيخ الإسلام

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ ﴾[3] الآيتين . لفظ « الإنزال » في القرآن يرد « مقيدا » بأنه منه كالقرآن ، وبالإنزال من السماء ، ويراد به العلو كالمطر ، و « مطلقا » فلا يختص بنوع ؛ بل يتناول إنزال الحديد من الجبال ، والإنزال من ظهور الحيوان ، وغير ذلك فقوله : ﴿ نزله روح القدس من ربك ﴾ بيان لنزول جبريل به من الله كقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ أي أنه مؤتمن لا يزيد ولا ينقص ؛ فإن الخائن قد يغير الرسالة .

وفيها دلالة على أمور :

منها : بطلان قول من زعم خلقه في جسم كالجهمية من المعتزلة وغيرهم ؛ فإن السلف يسمون من قال بخلقه ونفى الصفات والرؤية جهمياً ؛ فإن أول من ظهرت عنه بدعة نفي

---

(١) سورة النحل الآية ٨١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٩ .

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢ .

الأسماء والصفات وبالغ في ذلك ، فله مزية المبالغة والابتداء بكثرة إظهاره ، وإن كان أحد سبقه إلى بعض ذلك ، لكن المعتزلة وإن وافقوه في البعض فهم يخالفونه في مثل مسائل الإيمان والقدر وبعض الصفات ، وجهم يقول : إن الله لا يتكلم أو يتكلم مجازا ، وهم يقولون يتكلم حقيقة ، ولكن قولهم في المعنى قوله ، وهو ينفي الأسماء كالباطنية والفلاسفة .

ومنها : بطلان قول من زعم أنه فاض من العقل الفعال أو غيره ، وهذا أعظم كفرا وضلال من الذي قبله .

ومنها إبطال قول الأشعرية أن كلام الله معنى وهذا (الكلام) العربي خلق ليدل عليه ، سواء قالوا : خلق في بعض الأجسام ، أو ألهمه جبريل ، أو أخذه من اللوح ، فإن هذا لا بد له من متكلم تكلم به أولا ، وهذا يوافق قول من قال إنه مخلوق : لكن يفارقه من وجهين .

أحدهما : أن أولئك يقولون المخلوق كلام الله وهؤلاء يقولون إنه كلام مجازا ، وهذا أشر من قول المعتزلة ؛ بل هو قول الجهمية المحضة ؛ لكن المعتزلة يوافقونهم في المعنى .

الثاني : أنهم يقولون لله كلام قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته ؛ فإنه الكلابية خير منهم في الظاهر ؛ لكن في الحقيقة لم يثبتوا كلاما له غير المخلوق .

والمقصود أن الآية تبطل هذا و « القرآن » اسم للعربي ، لقوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ . وأيضا فقوله : ﴿ نزله ﴾ عائد إلى قوله : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ فالذي نزله الله هو الذي نزله روح القدس ، وأيضا قال : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون ﴾[1] الآية ، وهم يقولون : إنما يعلّم هذا القرآن العربيَ بشرٌ لقوله : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه ﴾ - الخ ، فعلم أن محمدا لم يؤلف نظما بل سمعه من روح القدس ، وروح القدس الذي نزل به من الله فعلم أنه سمعه منه ، لم يؤلفه هو .

ونظيرها قوله : ﴿ وهوَ الذي أنزلَ إليكمُ الكتابَ مفصّلاً ﴾[2] و « الكتاب » اسم للقرآن بالضرورة والاتفاق ؛ فإنهم أو بعضهم يفرقون بين كتاب الله وكلامه ، ولفظ « الكتاب » يراد به المكتوب فيه ، فيكون هو الكلام ، ويراد به ما يكتب فيه ، كقوله : ﴿ في كتابٍ مكنونٍ ﴾[3] وقوله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يومَ القيامةِ كتاباً يَلقاهُ منشوراً ﴾[4] وقوله : ﴿ يَعلمونَ أنّهُ مُنَزّلٌ مِنْ رَبِّكَ

(١) سورة النحل الآية ١٠٣ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٤ .
(٣) سورة الواقعة الآية ٧٨ .
(٤) سورة الإسراء الآية ١٣ .

الحقِّ ﴾[1] أخبار مستشهد بهم فمن لم يقر به منا فهم خير منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره : أنه أنزل في ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح قبل نزوله ، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل ، أو بعده . فإذا أنزل جملة إلى بيت العزة فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، والله يعلم ما كان وما يكون ، وما لا يكون لو كان كيف يكون وهو قد كتب المقادير وأعمال العباد قبل أن يعملوها ، ثم يأمر بكتابتها بعد أن يعملوها ، فيقابل بين الكتابة المتقدمة والمتأخرة فلا يكون بينهما تفاوت ، هكذا قال ابن عباس وغيره . فإذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف لا يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم ؟ .

ومن قال : إن جبرائيل أخذه عن الكتاب لم يسمعه من الله فهو باطل من وجوه .

منها : أنه سبحانه كتب التوراة لموسى بيده ، فبنو إسرائيل أخذوا كلامه من الكتاب الذي كتبه ومحمد عن جبريل عن الكتاب فهم أعلى بدرجة ومن قال : إنه ألقى إلى جبريل معاني وعبر بالعربي فمعناه أنه ألهمه إلهاما ، وهذا يكون لآحاد المؤمنين ، كقوله : ﴿ وإذ أَوْحَيْتُ إلى الحواريينَ أنْ آمِنوا بي وبرسولي ﴾[2] ﴿ وأَوْحَيْنا إلى أُمِّ موسى ﴾[3] فيكون هذا أعلى من أخذ محمد ﷺ .

وأيضا : فإنه سبحانه قال : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده - إلى قوله - وكلم الله موسى تكليما ﴾[4] وهذا يدل على أمور : على أنه يكلم العبد تكليما زائدا على الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص .

فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص فالتكليم العام هو المقسوم في قوله : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ﴾ الآية . فالتكليم المطلق قسيم الوحي الخاص ، لا قسما منه ، وكذلك الوحي يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص ، كقوله : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ . ويكون قسيما له كما في الشورى ، وهذا يبطل قول من قال : إنه معنى واحد قائم بالذات ، فإنه لا فرق بين العام وما لموسى . وفرق سبحانه في « الشورى » بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال رسول فيوحي بإذنه ما يشاء .

---

(١) سورة الانعام الآية ١١٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ١١١ .

(٣) سورة القصص الآية ٧ .

(٤) سورة النساء الآيات (١٦٣ - ١٦٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإسراء(*)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُم مِنْ دونِهِ ﴾[1] الآيتين ، لما ذكر أن من السلف من ذكر أنهم من الملائكة ، ومنهم من ذكر أنهم من الإنس ، ومنهم من ذكر أنهم من الجن .

لفظ السلف يذكرون جنس المراد من الآية على التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله عن الخبز فيريه رغيفا ، والآية هنا قصد بها التعميم لكل ما يدعى من دون الله ، فكل من دعا ميتا أو غائبا من الأنبياء والصالحين . سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن ، ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم ، ومع هذا فقد نهى عن دعائهم ، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، لا يرفعونه بالكلية ، ولا يحولونه من موضع إلى موضع ، أو من حال إلى حال ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال : ﴿ ولا تحويلا ﴾ فذكر نكرة تعمل أنواع التحويل .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كانَ رجالٌ مِنَ الإنْسِ يَعوذونَ برجالٍ مِنَ الجِنِّ فَزادوهُمْ رَهَقاً ﴾[2] كان أحدهم إذا نزل بواد يقول : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، فقالت الجن : الإنس تستعيذ بنا ، فزادوهم رهقا ، وقد نص الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق ، لما ثبت

(*) مجموع الفتاوى ١٥/٣٣٦ .

(١) سورة الإسراء الآيات (٥١ ـ ٥٢) .

(٢) سورة الجن الآية ٦ .

عنه ﷺ : أنه استعاذ بكلمات الله ، وأمر بذلك ، فإذا كان لا يجوز ذلك ، فلأن لا يجوز أن يقول : أنت خير مستعاذ يستعاذ به أولى . فالاستعاذة ، والاستجارة ، والاستغاثة : كلها من نوع الدعاء ، أو الطلب ، وهي ألفاظ متقاربة .

ولما كانت الكعبة بيت الله الذي يدعى ويذكر عنده ، فإنه سبحانه يستجار به هناك ، وقد يستمسك بأستار الكعبة كما يتعلق بأذيال من يستجير به ، كما قال عمرو بن سعيد : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة . وفي الصحيح : « يعوذ عائذ بهذا البيت » .

والمقصود : أن كثيرا من الضالين يستغيثون بمن يحسنون به الظن ، ولا يتصور أن يقضي لهم أكثر مطالبهم ، كما أن ما تخبر به الشياطين من الأمور الغائبة (يكذبون) في أكثره ، في أكثره ؛ بل يصدقون في واحدة ويكذبون في أضعافها ، ويقضون لهم حاجة واحدة ويمنعونهم أضعافها ، يكذبون فيما أخبروا به وأعانوا عليه ، لإفساد حال الرجال في الدين والدنيا ويكون فيه شبهة للمشركين ، كما يخبر الكاهن ونحوه .

والله سبحانه جعل الرسول مبلغا لأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وهؤلاء يجعلون الرسل والمشائخ يدبرون العالم بقضاء الحاجات وكشف الكربات ، وليس هذا من دين المسلمين ، بل النصارى تقول هذا في المسيح وحده بشبهة الاتحاد والحلول ، ولهذا لم يقولوه في إبراهيم وموسى وغيرهم ، مع أنهم في غاية الجهل في ذلك ، فإن الأيات التي بعث بها موسى أعظم ، ولو كان هذا ممكنا لم يكن للمسيح خاصية به : بل موسى أحق .

ولهذا كنت أتنزل مع علماء النصارى إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقا ، بل أبين لهم أن ما جاء به موسى من الآيات أعظم ، فإن كان حجة في دعوى الإلهية فموسى أحق ، وأما ولادته من غير أب فهو يدل على قدرة الخالق ، لا على أن المخلوق أفضل من غيره .

انتهى الجزء الثالث بعون الله

ويليه الجزء الرابع وأوله سورة الكهف

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف (*)

فصـــل

حديث عليّ رضي الله عنه المخرج في الصحيحين لما طرقه رسول الله ﷺ وفاطمة وهما نائمان ، فقال : « ألا تصليان ؟ » فقال عليّ : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يمسكها وإن شاء أن يرسلها . فولى النبي ﷺ وهو يضرب بيده على فخذه . ويعيد القول ، ويقول :﴿وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً ﴾(١) .

هذا الحديث نص في ذم من عارض الأمر بالقدر ؛ فإن قوله : « إنما أنفسنا بيد الله » إلى آخره . استناد إلى القدر في ترك امتثال الأمر ، وهي في نفسها كلمة حق ؛ لكن لا تصلح لمعارضة الأمر بل معارضة الأمر بها من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه : ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ . وهؤلاء أحد أقسام القدرية ، وقد صنفتهم في غير هذا الموضع(٢) . فالمجادلة الباطلة(٢) .

(*) مجموع الفتاوى ١٤/٢٣٩ .

(١) ورد في البخاري (كتاب التفسير . تفسير سورة البقرة) ، النسائي (الجنائز) ، ابن حنبل ٢/٣١٧ .

(٢) انظر رسالة القضاء والقدر ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــل

(عرض عام لما تضمنته السورة)

« سورة مريم » مضمونها : تحقيق عبادة الله وحده ، وأن خواص الخلق هم عباده ، فكل كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة ، وتضمنت الرد على الغالين الذين زادوا في النسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى بطريق الولادة ، والرد على المفرطين في تحقيق العبادة وما فيها من الكرامة ، وجحدوا نعم الله التي أنعم بها على عباده المصطفين .

افتتحها بقوله : ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[1] ، وندائه ربه نداء خفياً ، وموهبته له يحيى ، ثم قصة مريم وابنها[2] ، وقوله : ﴿إني عبدُ اللَّهِ﴾ . . الخ بين فيها الرد على الغلاة في المسيح ، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه ، ثم أمر نبيه بذكر إبراهيم وما دعا إليه من عبادة الله وحده ، ونهيه إياه عن عبادة الشيطان ، وموهبته له إسحاق ويعقوب ، وأنه جعل له لسان صدق عليّاً ، وهو الثناء الحسن ، وأخبر عن يحيى وعيسى وإبراهيم ببر الوالدين مع التوحيد ، وذكر موسى ومن هبته له أخاه هارون نبياً ، كما وهب يحيى لزكريا وعيسى لمريم وإسحاق لإبراهيم .

فهذه السورة « سورة المواهب » وهي ما وهبه الله لأنبيائه من الذرية الطيبة ، والعمل الصالح ،والعلم النافع ،ثم ذكر ذرية آدم لأجل إدريس ، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنا معَ نوحٍ﴾ : وهو إبراهيم ومن ذرية إبراهيم إلى آخر القصة[3] .

---

(١) سورة مريم الآية ٢ .

(٢) انظر الآيات من : ١٦ ـ ٣٦ .

(٣) انظر الآيات رقم : ٤١ ـ ٥٨ .

ثم قال : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشهواتِ﴾ الآية[1] . فهذه حال المفرطين في عبادة الله ، ثم استثنى التائبين وبين أن الجنة لمن تاب ، وأن جنات عدن وعدها الرحمن عباده بالغيب وهم أهل تحقيق العبادة ، ثم قال : ﴿تِلْكَ الجَنَّةُ التي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيّاً﴾[2] ثم قال : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ﴾[3] .

ثم ذكر حال منكري المعاد وحال من جعل له الأولاد ، وقرن بينهما فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة : « كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك » ، الحديث[4] ؟ ﴿وَيَقولُ الإنسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾ ثم ذكر إقسامه على حشدهم والشياطين ، وإحضارهم حول جهنم جثيّاً[5] ، وفيها دلالة على أن المخبر عن خبر يحصل في المستقبل لا يكون إلا بطريقين : إما اطلاعه على الغيب ، وهو العلم بما سيكون ؛ وإما أن يكون قد اتخذ عند الرحمن عهداً ، والله موفٍ بعهده، فالأول علم بالخبر والثاني علم بالأمر . الأول علم بالكمات الكونية ، والثاني علم بالكلمات الدينية ، وهذا الذي أقسم أنه يأتي يوم المعاد ما ذكر كاذب في قسمه ، فإنه ليس له اطلاع على الغيب ، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً .

وهذا كما قيل في إجابة الدعاء : إنه تارة يكون لصحة الاعتقاد ، وهو مطابقة الخبر ، وتارة لكمال الطاعة وهو موافقة الأمر ، كقوله : ﴿فَلْيَسْتَجيبوا لي وَلْيُؤْمِنوا بي﴾ . فذكر حال من تمنى على الله الباطل بلا علم بالواقع ، ولا اتخاذ عهد بالمشروع .

ثم ذكر حال الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، فنفى الولادة عن نفسه ، وردّ على من أثبتها ، وأثبت المودة ردّاً على من أنكرها ، فقال : ﴿سَيَجْعَلُ لهمُ الرحمنُ وُدّاً﴾ أي يحبهم ، ويحببهم إلى عباده ، وقد وافق ذلك ما في الصحيحين : «إذا أحبَّ اللَّهُ العبدَ نادى جبريلَ إني أحبّ فلاناً فأحبَّهُ ،ثم ينادي في السماء : إنَّ اللَّهَ يحبُّ فلاناً فأحِبّوهُ ، فيحبُّهُ أهلُ السماءِ ، وَيُوضع لهُ القبولُ في الأرضِ » وقال في البغض عكس ذلك[7] .

---

(١) سورة مريم الآية ٥٩ .

(٢) سورة مريم الآية ٦٣ .

(٣) سورة مريم الآية ٦٥ .

(٤) ورد في البخاري (الأدب) ، مسلم (كتاب البر) .

(٥) سورة مريم الآية ٦٩ .

(٦) ورد الحديث في : مسلم .

(٧) انظر في هذا الحديث : البخاري (كتاب الأدب) ، مسلم (كتاب البر) ، الترمذي (كتاب التفسير) الموطأ (كتاب الشعر) ابن حنبل ٣/٣٦٧ .

وفي قول إبراهيم : ﴿إنهُ كانَ بي حَفِيّاً﴾[1] ، وقوله في موسى : ﴿وَنادَيْناهُ مِنْ جانبِ الطّورِ الأيْمَنِ وَقَرّبْناهُ نَجِيّاً﴾[2] ، وما ذكره للمؤمنين من المودة : إثبات لما ينكره الجاحدون من محبة الله وتكليمه ، كما (أن) في الأول نفي لما يثبته المفترون من اتخاذ الولد .

(فصل)

سئل رضي الله عنه

عن قوله عز وجل : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصّلاةَ وَاتّبَعُوا الشّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[3] هل ذلك فيمن أضاع وقتها فصلاها في غير وقتها ، أم فيمن أضاعها فلم يصلها ؟ وقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[4] هل هو عن فعل الصلاة أو السهو فيها كما جرت العادة من صلاة الغفلة الذين لا يعقلون من صلاتهم شيئاً ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين . بل المراد بهاتين الآيتين من أضاع الواجب في الصلاة لا مجرد تركها ، هكذا فسرها الصحابة والتابعون وهو ظاهر الكلام ، فإنه قال : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها ، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها .

وقد قال طائفة من السلف : بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة ، وكلا المعنيين حق ، والآية تتناول هذا وهذا ، كما في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا »[5] .

فبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن صلاة المنافق تشتمل على التأخير عن الوقت الذي يؤمر بفعلها فيه ، وعلى النقر الذي لا يذكر الله فيه إلا قليلا ، وهكذا فسروا قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ بأن اضاعتها تأخيرها عن وقتها وإضاعة

---

(١) سورة مريم الآية ٤٧ .

(٢) سورة مريم الآية ٥٢ .

(٣) سورة مريم الآية ٥٩ .

(٤) سورة الماعون الآية ٤ .

ورد الحديث في البخاري (كتاب المساجد) ، الترمذي (كتاب الصلاة) ، النسائي (كتاب المواقيت) .

حقوقها ، وجاء في الحديث.: « إن العبد إذا قام إلى الصلاة بطهورها وقراءتها وسجودها ـ أو كما قال ـ صعدت ولها برهان كبرهان الشمس تقول له : حفظك الله كما حفظتني . وإذا لم يتمّ طهورها وقراءتها وسجودها ـ أو كما قال ـ فإنها تلفّ كما يلفّ الثوب وتقول له : ضيّعك الله كما ضيعتني » . قال سلمان الفارسي : الصلاة مكيال من وفى وفي له ، ومن طفف فقد علمتم ما قال في المطففين . وفي سنن أبي داوود عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال : « إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا نصفها ، إلا ثلثها ، إلا ربعها ، إلا خمسها إلا سدسها ، إلا سبعها ، إلا ثمنها ، إلا تسعها ، إلا عشرها »[1] .

وقد تنازع العلماء فيمن غلب عليه الوسواس في صلاته هل عليه الإعادة على قولين .

لكن الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا إعادة عليه ، واحتجوا بما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل ، فإذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه ، فيقول : اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضلّ الرجل لن يدري كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل أن يسلم »[2] . فقد عمّ بهذا الكلام ولم يأمر أحداً بالإعادة .

و« الثاني » عليه الإعادة ، وهو قول طائفة من العلماء : من الفقهاء والصوفية من أصحاب أحمد وغيره كأبي عبد الله بن حامد وغيره لما تقدم من قوله ولم يكتب له منها إلا عشرها .

والتحقيق أنه لا أجر له إلا بقدر الحضور ؛ لكن ارتفعت عنه العقوبة التي يستحقها تارك الصلاة ، وهذا معنى قولهم : تبرأ ذمته بها ، أي : لا يعاقب على الترك ؛ لكن الثواب على قدر الحضور ، كما قال ابن عباس : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها ، فلهذا شرعت السنن الرواتب جبراً لما يحصل من النقص في الفرائض . والله أعلم .

---

(١) وكذلك ورد في : ابن حنبل ٣١٩/٤ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (الأذان) ، مسلم (الصلاة) ، أبو داود (الصلاة) ، النسائي (الأذان) ، الدارمي (صلاة) ، الموطأ (الشراء) ، ابن حنبل ٣٦٢/٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه(*)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصــل
(عرض عام للسورة)

« سـورة طه » مضمـونها تخفيف أمر القـرآن وما أنـزل الله تعالى من كتبـه ، فهي « سورة كتبـه » ـ كما أن مـريم « سورة عبـاده ورسله » ـ افتتحها بقـوله : ﴿مـا أَنْـزَلْنـا عَلَيْـكَ القُـرْآنَ لِتَشْقَى﴾[1] . . إلى قوله : ﴿تنـزيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأرضَ والسّمـواتِ العُلا﴾[2] . ثم ذكـر قصة موسى ، ونداء الله له ، ومناجاته إياه ، وتكليمه له ، وقصته من أبلغ أمر الرسل ، فلهذا ثنيت في القرآن ؛ لأنه حصل له الخطاب والكتاب ، وأرسـل إلى فرعـون الجاحـد المرتـاب ، المكذب للربوبية والرسالة ، وهذا أعظم الكافـرين عناداً ، واستـوفى القصة في هـذه السورة إلى قـوله : ﴿رَبِّ زِدْني عِلْماً﴾[3] ثم ذكر قصة آدم ؛ لأنها أول النبوات[4] .

وتضمنت السورة ذكر موسى وآدم لما بينهما من المناسبة مما يقتضي ذكـرهما ، ولـما بينهما من المناظرة ، فإن موسى نظير آدم في الأمر الذي (صار) لكـل منهما ، كـما أن المسيح نـظير آدم في الخلق ، وقـوله : ﴿فـإمّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدَىً﴾[5] الآيـات ، وهذا يشـابه مـا في القرآن في غـير موضع من ذكر نبوة آدم ثم نبوة موسى بعـده ، وأمر بني إسـرائيل ثم أمـر نبيه بـالصلاة التي في

(*) مجموع الفتاوى ١٤/٢٢٧ .

(١) سورة طه الآية ٢ .

(٢) سورة طه الآية ٤ .

(٣) انظر الآيات : ﴿وهل آتاك حديث موسى﴾ رقم ٩ إلى قوله : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لـدنا ذكـرا﴾ آية رقم ٩٩ من السورة ، ومن هذه الآية إلى الآية ﴿وقل رب زدني علما﴾ رقم ١١٤ لا تتعلق بقصة موسى بطريق مباشر .

(٤) سورة طه الآية ١١٥ .

(٥) سورة طه الآية ١٢٣ .

القرآن ، كما جمع بين الأمرين بالقراءة والسجود في أول سورة أنزلت ، وختمها بالرسول المبلغ لكل ما أمر به ، كما افتتحها بذكر التنزيل عليه .

وقال :

فصـــل

« في طريقتي العلم والعمل »

قال الله تعالى لموسى وهارون : ﴿فَقُولا لهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1] وقال في السورة بعينها ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ أَتَيْناكَ مِنْ لَدُنّا ذِكْراً﴾[2] إلى قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾[3] .

فذكر في كل واحدة من الرسالتين العظيمتين ـ رسالة موسى ورسالة محمد ـ أن ذلك لأجل التذكر أو الخشية ، ولم يقل : ليتذكر ويخشى ، ولا قال : ليتقون ويحدث لهم ذكراً ؛ بل جعل المطلوب أحد الأمرين ، وهذا مطابق لقوله : ﴿ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾[4] ونحو ذلك .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه ، وذلك يرجع إلى تحقيق قوله : ﴿صِراطَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ غَيْرِ المغضوبِ عليهِمْ وَلا الضّالّينَ﴾[5] ، وقوله : ﴿وَتَواصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ﴾[6] ، وقوله : ﴿أُولي الأَيدي والأَبْصارِ﴾[7] وقوله : ﴿أولئكَ على هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وأولئك هُمُ المُفلحونَ﴾[8] وقوله : ﴿إِنَّ المجرمينَ في ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾[9] وقوله : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشقى ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لهُ معيشةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمَى﴾[10] الآية ونحو ذلك .

---

(١) سورة طه الآية ٤٤ .

(٢) سورة طه الآية ٩٩ .

(٣) سورة طه الآية ١١٣ .

(٤) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٥) سورة الفاتحة الآية ٧ .

(٦) سورة العصر الاية ٣ .

(٦) سورة ص الآية ٤٥ .

(٨) سورة البقرة الآية ٥ .

(٩) سورة القمر الآية ٤٧ .

(١٠) سورة طه الآية ١٢٣ .

وسبب ذلك أن الخير إما بمعرفة الحق واتباعه في العلم والعمل جميعاً صلاح القول والعلم : العلم والإرادة . والعلم أصل العمل (و) أصل الإرادة والمحبة وغير ذلك ، وهو مستلزم له ما لم يحصل معارض مانع . فالعلم بالحق يوجب اتباعه إلا لمعارض راجح : مثل اتباع الهوى بالاستكبار ونحوه ، كحال الذين قال الله فيهم : ﴿سَأَصْرِفُ عنْ آياتي الذينَ يَتكَبَّرُونَ في الأرضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمنوا بِها ، وإنْ يَرَوْا سبيلَ الرُّشْدِ لا يَتّخِذوهُ سَبيلاً ، وإنْ يَروْا سبيلَ الغَيِّ يَتّخِذوهُ سبيلاً﴾(١) وقال : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾(٢) وقال : ﴿فإنّهُمْ لا يُكَذِّبونَكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٣) ولهذا قال : ﴿يا داودُ إنّا جعَلْناكَ خليفةً في الأرضِ فَاحْكُمْ بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عنْ سبيلِ اللَّهِ﴾(٤) ونحو ذلك .

فإن أصل الفطرة التي فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد رأت الحق (و) اتبعته وأحبته . إذ الحق نوعان :

حق موجود ، فالواجب معرفته والصدق في الإخبار عنه ، وضد ذلك الجهل والكذب .

وحق مقصود ، وهو النافع للإنسان . فالواجب إرادته والعمل به وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه .

ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهل ومحبة الصدق دون الكذب ، ومحبة النافع دون الضار ، وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك ، كما أنه في صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار ، فإذا اشتهى ما يضره أو كره ما ينفعه فلمرض في الجسد ، وكذلك أيضا إذا اندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك : أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح ، كما أن الجسد إذا اندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب ، فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع : سبب للآخر ، وذلك سبب لصلاح حال الإنسان ، وضدهما سبب لضد ذلك ، فإذا ضعف العلم غلب الهوى الإنسان ، وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب .

وإذا كان كذلك فصلاح بني آدم الإيمان والعمل الصالح، ولايخرجهم عن ذلك إلا شيئان :

أحدهما : الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالا .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٦ .

(٢) سورة النحل الآية ١٤ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٣ .

(٤) سورة ص الآية ٢٦ .

والثاني اتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس ، فيكونون غواة مغضوباً عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿والنَّجْمِ إذا هَوَى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[1] وقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ » فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي ، وبالهدى الذي هو خلاف الضلال ، وبهما يصلح العلم والعمل جميعا ، ويصير الإنسان عالماً عادلاً ، لا جاهلاً ولا ظالماً .

وهم في الصلاح على ضربين :

تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به ، فهذا هو الذي يدعى بالحكمة وهو الذي يتذكر ، وهو الذي يحدث له القرآن ذكراً .

والثاني أن يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى ؛ فهذا يدعى بالموعظة الحسنة وهذا هو القسم الثاني المذكور في قوله : ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ وفي قوله ﴿لعلّهم يَتَّقُونَ﴾ وقد قال في السورة في قصة فرعون ﴿اذهَبْ إلى فرعونَ إنهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى ؟﴾[2] فجمع بين التزكي والهدى والخشية ، كما جمع بين العلم والخشية في قوله : ﴿إنّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عبادِهِ العُلَماءُ﴾[3] وفي قوله : ﴿وفي نُسْخَتِها هُدَىً وَرَحْمَةٌ للذين هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[4] وفي قوله : ﴿وَلَوْ أَنّهم فَعَلُوا ما يُوعَظونَ بِهِ لكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثبيتاً ، وإذاً لآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنّا أَجْراً عَظِيماً ، وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُستقيماً﴾[5] .

وذلك لما ذكرناه من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر ، والذكر الذي يحدثه القرآن ، ومن الخشية المانعة من اتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان ، وهو مستلزم للآخر إذا قوي على ضده ، فإذا قوي العلم والتذكر دفع الهوى ، وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم . وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية ، كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى ، وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا ؛ ولهذا كان فساده بانتفاء كل منهما . فإذا انتفى العلم الحق كان ضالاً غير مهتد ، وإذا انتفى اتباعه كان غاوياً مغضوباً عليه .

---

(١) أول سورة النجم .

(٢) سورة طه الآية ٤٤ .

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٥٤ .

(٥) سورة النساء الآيات (٦٧ - ٦٨) .

ولهذا قال : ﴿صراطَ الذينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غيرِ المغضوبِ عليهِمْ وَلا الضّالّينَ﴾[1] وقال : ﴿والنجمِ إذا هَوَى،ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، إنْ هُوَ إلا وَحيٌ يُوْحَى﴾[2] وقال في ضد ذلك : ﴿إن يَتّبعونَ إلا الظنَّ وَمَا تَهْوَى الأنْفسُ﴾[3] وقال : ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[4] وقال : ﴿وإنّ كثيراً لَيُضِلّونَ بأهوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[5] وقال : ﴿فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ وقال في ضده : ﴿وَمَنْ أعرضَ عن ذِكري فإنّ لهُ معيشةً ضَنْكاً وَنَحشُرُهُ يومَ القيامةِ أَعْمَى﴾[6] وقال : ﴿أولئكَ على هدىً من رَبِّهِمْ وَأولئكَ هُمُ المفلحونَ﴾[7] وقال في ضده : ﴿إنّ المجرمينَ في ضَلال وَسُعُرٍ﴾[8] قال ابن عباس : « تكفل الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة » .

فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة وبين الضلال والشقاوة بين حسنة الدنيا والآخرة وسيئة الدنيا والآخرة ، ويقرن بين العلم النافع والعمل الصالح ، بين العلم الطيب والعمل الصالح ، كما يقرن بين ضديهما وهو « الضلال » ، و« الغي » : اتباع الظن وما تهوى الأنفس . والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض ، وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح .

فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي والاستعاذة ، كان الذم والنهي لكل منهما : من الضلال والغي : من الجهل والظلم ؛ من الضلال والغضب ، ولأن كلا منهما صار مكروهاً مطلوب العدم ، لا سيما وهو مستلزم للآخر ، وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما وقد يطلب كل منهما ، وقد يحمد أحدهما وقد يحمد كل منهما لأن كلا منهما خير مطلوب محمود ، وهو سبب لحصول الآخر ؛ لكن كمال الصلاح يكون بوجودهما جميعا ، وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما ولم يعارضه معارض .

والداعي للخلق الآمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين ، فيطلب أحدهما لأنه

---

(١) آخر سورة الفاتحة .

(٢) سورة النجم الآيات (١ ـ ٤) .

(٣) سورة النجم الآية ٢٣ .

(٤) سورة القصص الآية ٥٠ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١١٩ .

(٦) سورة طه الآية ١٢٤ .

(٧) سورة البقرة الآية ٥ .

(٨) سورة القمر الآية ٤٧ .

مطلوب في نفسه ، وهو سبب للآخر ، فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعا ، فقد يثقل ذلك عليه والأمر بناء والنهي هدم . والأمر هو يحصل العافية بتناول الأدوية . والنهي من باب الحمية والبناء والعافية تأتي شيئاً بعد شيء ، وأما الهدم فهو أعجل ، والحمية أعم ، وإن كان قد يحصل فيهما ترتيب أيضا ، فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سبباً وطريقاً إلى حصول المقصود مع حصول الآخر .

فقوله سبحانه : ﴿لعلّهُ يَتَذَكّرُ أو يَخْشَى﴾ وقوله : ﴿لعلّهم يَتَّقُونَ أو يُحْدِثُ لهُمْ ذِكْراً﴾ طلب وجود أحد الأمرين بتبليغ الرسالة ، وجاء بصيغة : (لعل) تسهيلاً للأمر ورفقاً وبياناً ، لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول المقصود ، فلا يطلبان جميعا في الابتداء ، ولهذا جاء في الأثر : « إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها » لا سيما أصول الحسنات التي تستلزم سائرها ، مثل الصدق فإنه أصل ا لخير ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البرّ وإن البرّ يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[١] .

ولهذا قال سبحانه : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطينُ تَنَزَّلُ على كِلِّ أَفّاكٍ أثيمٍ﴾[٢] وقال : ﴿وَيْلٌ لكلِّ أفّاكٍ أثيمٍ ، يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلَى عليهِ ثمّ يُصِرُّ مُستكبراً كأَنْ لَمْ يَسْمَعْها !﴾[٣] ولهذا يذكر أن بعض المشائخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال : يا بني : أنا آمرك بخصلة واحدة فاحفظها لي ولا آمرك الساعة بغيرها التزم الصدق وإياك والكذب ، وتوعده على الكذب بوعيد شديد ، فلما التزم ذلك الصدق دعاه إلى بقية الخير ونهاه عما كان عليه ، فإن الفاجر لا حد له في الكذب .

---

(١) ورد الحديث في : مسلم ٢/٤٣٨ ـ ٤٣٩ (كتاب البر . باب قبح الكذب) وفي أبي داود (الأدب) ، الترمذي (البر) وانظر الجزء الثاني من دقائق التفسير .

(٢) سورة الشعراء الآيات (٢٢١ ـ ٢٢٢) .

(٣) سورة الجاثية الآية ٨ .

قال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

رحمه الله تعالى

فصـــل

في قوله تعالى : ﴿إنْ هَذَانِ لَسَاحِرانِ﴾[1] . فإن هذا مما أشكل على كثير من الناس ، فإن الذي في مصاحف المسلمين (إن هذان) بالألف ، وبهذا قرأ جماهير القراء ، وأكثرهم يقرأ (إن) مشددة ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم (إن) مخففة ، لكن ابن كثير يشدد نون (هذان) دون حفص ، والاشكال من جهة العربية على القراءة المشهورة ، وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ، وأبي بكر عن عاصم ، وجمهور القراء عليها ، وهي أصح القراءات لفظا ومعنى .

(سبب الإشكال في الآية)

وهذا يتبين بالكلام على ما قيل فيها .

فإن نشأ الإشكال : أن الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء ، وفي حال الرفع بالألف ، وهذا متواتر من لغة العرب : لغة القرآن وغيرها في الأسماء المبنية ، كقوله : ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ منهُما السُّدُسُ مِمّا تَرَكَ﴾[2] ثم قال ﴿فإنْ لَمْ يَكُنْ لهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أبواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾[2] وقال : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ على العرشِ﴾[3] وقال : ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ﴾[4] ولم يقل : الكعبان ، وقال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أصحابَ القريةِ إذْ جاءَها المرسَلونَ ، إذ أَرْسَلْنا إليهِم اثْنَيْنِ فكذّبوهُما ، فَعَزَّزْنا بثالثٍ﴾[5] ولم يقل : اثنان ، وقال : ﴿قُلنا احْمِلْ فيها مِنْ كلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[6] . وقال : ﴿ثمانيةَ أزواجٍ مِنَ الضّأنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أمِ الأنْثَيَيْنِ ، أمْ ما اشتمَلَتْ عليهِ أرْحامُ

---

(١) سورة طه الآية ٦٣ .

(٢) سورة النساء الآية ١١ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٠ .

(٤) سورة المائدة الآية ٦ .

(٥) سورة يس الآيات (١٢ - ١٣) .

(٦) سورة هود الآية ٤٠ .

الأنثَيَيْنِ﴾[1] ، ولم يقل : اثنان ، وإلا الذكران ولا الأنثيـان ، وقال : ﴿وَمِنْ كـلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ﴾[2] ولم يقل : زوجان وقال : ﴿فإنْ كنّ نساءً فوقَ اثْنَتَيْنِ﴾[3] ولم يقل : اثنتان .

ومثل هذا كثير مشهور في القرآن وغيره .

فظن النحاة أن الأسماء المبهمة المبنية مثل هـذين واللذين تجري هـذا المجرى ، وأن المبني في حال الرفع يكون بالألف ، ومن هنا نشأ الإشكال .

وكان أبو عمرو إماماً في العربية فقرأ بمـا يعرف من العـربية : (إنْ هـذينِ لساحـرانِ) . وقد ذكر أن له سلفا في هذه القراءة ، وهو الظن بـه : أنه لا يقـرأ إلا بما يـرويه ، لا بمجـرد ما يراه، وقد روى عنه أنه قال : انى لأستحيي من الله أن أقرأ : (إنْ هذانِ) وذلك لأنه لم ير لهـا وجهـاً من جهة العـربية ، ومن النـاس من خطأ أبـا عمرو في هـذه القراءة ، ومنهم الـزجاج ، قال : لا أجيز قراءة أبي عمرو ، خلاف المصحف .

وأما القراءة المشهورة الموافقة لرسم المصحف فاحتج لها كثير من النحـاة بأن هـذه لغة بني الحارث بن كعب ، وقد حكى ذلك غير واحد من أئمة العـربية . قـال المهدوي : بنـو الحارث ابن كعب يقولون : ضربت الزيدان ، ومررت بالزيـدان ، كما تقـول : جاءني الـزيدان . قـال المهدوي : حكى ذلك أبو زيد والأخفش والكسـائي والفراء ، وحكى أبـو الخطاب أنها لغـة بني كنانة ، وحكى غيره أنها لغة لخثعم ، ومثله قول الشاعر :

تـزود منـا بـين أذنـاه ضـربـة ... دعتـه إلى هـاوي التـراب عـقيـم

وقال ابن الأنباري : هي لغة لبني الحارث بن كعب وقريش ، قال الزجاج : وحكى أبـو عبيدة عن أبي الخطاب ـ وهو رأس من رؤوس الرواة ـ أنها لغـة لكنانـة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، وأنشدوا :

فـاطـرق إطـراق الشجـاع ولـو يجـد ... مسـاغـا لنـابـاه الشجـاع لصمـما

وقال : ويقول هؤلاء : ضربته بين أذناه .

(تحقيق المسألة)

قلت : بنو الحارث بن كعب هم أهل نجران ، ولا ريب أن القرآن لم ينزل بهـذه اللغة ،

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٣ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٣) سورة النساء الآية ١١ .

بل المثنى من الأسماء المبنية في جميع القرآن هو بالياء في النصب والجر كما تقدمت شواهده . وقد ثبت في الصحيح عن عثمان أنه قال : إن القرآن نزل بلغة قريش ، وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف هم وزيد : إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش ؛ فإن القرآن نزل بلغتهم ، ولم يختلفوا إلا في حرف ، وهو (التابوت) فرفعوه إلى عثمان ، فأمر أن يكتب بلغة قريش رواه البخاري في صحيحه .

وعن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إن اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى (إذا) نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ، فأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وهذه الصحيفة التي أخذها من عند حفصة هي التي أمر أبو بكر وعمر بجمع القرآن فيها لزيد بن ثابت ، وحديثه معروف في الصحيحين وغيرهما ، وكانت بخطه ؛ فلهذا أمر عثمان أن يكون هو أحد من ينسخ المصاحف من تلك الصحف ، ولكن جعل معه ثلاثة من قريش ليكتب بلسانهم ، فلم يختلف لسان قريش والأنصار إلا في لفظ (التابوه) و(التابوت) فكتبوه (التابوت) بلغة قريش .

وهذا يبين أن المصاحف التي نسخت كانت مصاحف متعددة ، وهذا معروف مشهور ، وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ : إنه غلط من الكاتب ، أو نقل ذلك عن عثمان ؛ فان هذا ممتنع لوجوه .

ومنها : تعدد المصاحف ، واجتماع جماعة على كل مصحف ، ثم وصول كل مصحف الى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون القرآن ويعتبرون ذلك بحفظهم ، والإنسان إذا نسخ مصحفا (و) غلط في بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظه القرآن وسائر المصاحف ، فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفاً ثم نسخ سائر الناس منه من غير اعتبار للأول والثاني أمكن وقوع الغلط في هذا ، وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم ، ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا

يكتبون إلا بلسان قريش ، ولم يكن لحناً ، فامتنعوا أن يكتبوه إلا بلسان قريش ، فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا : (إن هذان) وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم ، أو : (المقيمين الصلاةَ) وهم يعلمون أن ذلك لحن ، كما زعم بعضهم .

قال الزجاج في قوله : ﴿والمقيمين الصلاةَ﴾[1] : قول من قال : إنه خطأ ـ بعيد جداً ؛ لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة ، فكيف يتركون شيئا يصلحه غيرهم ، فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم ، وقال ابن الأنباري : حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئا ليصلحه من بعده .

قلت : ومما يبين كذب ذلك : أن عثمان لو قدر ذلك فيه ، فإنما رأى ذلك في نسخة واحدة ، فإما أن تكون جميع المصاحف اتفقت على الغلط ، وعثمان قد رآه في جميعها وسكت : فهذا ممتنع عادة وشرعا : من الذين كتبوا ، ومن عثمان ، ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف ورأوا ما فيها ، وهم يحفظون القرآن ، ويعلمون أن فيه لحنا لا يجوز في اللغة ، فضلاً عن التلاوة ، وكلهم يقر هذا المنكر لا يغيره أحد ، فهذا مما يعلم بطلانه عادة ، ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة ؛ بل يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر أن يدعوا في كتاب الله منكراً لا يغيره أحد منهم ، مع أنهم لا غرض لأحد منهم في ذلك ، ولو قيل لعثمان : مر الكاتب أن يغيره لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه .

فهذا ونحوه مما يوجب القطع بخطأ من زعم أن في المصحف لحناً أو غلطاً ، وإن نقل ذلك عن بعض الناس ممن ليس قوله حجة ، فالخطأ جائز عليه فيما قاله ؛ بخلاف الذين نقلوا ما في المصحف وكتبوه وقرؤ وه فإن الغلط ممتنع عليهم في ذلك ، وكما قال عثمان : إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش ، وكذلك قال عمر لابن مسعود أقرىء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل ؛ فإن القرآن لم ينزل بلغة هذيل .

وقوله تعالى في القرآن : ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِهِ﴾[2] يدل على ذلك ، فإن قومه هم قريش ، كما قال : ﴿وَكَذَّبَ بهِ قَوْمُكَ وَهُو الحقُّ﴾[3] وأما كنانة فهم جيران قريش ، والناقل عنهم ثقة ، ولكن الذي ينقل ينقل ما سمع ، وقد يكون سمع ذلك في الأسماء المبهمة المبنية فظن أنهم يقولون (ذلك) في سائر الأسماء ؛ بخلاف من سمع « بين أذناه » و« لناباه » فإن هذا صريح في الأسماء التي ليست مبهمة .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٦٦ .

وحينئذ فالذي يجب أن يقال : إنه لم يثبت أنه لغة قريش ؛ بل ولا لغة سائر العرب : أنهم ينطقون في الأسماء المبهمة إذا ثنيت بالياء ، وإنما قال ذلك من قاله من النحاة قياساً،جعلوا باب التثنية في الأسماء المبهمة كما هو في سائر الأسماء ، وإلا فليس في القرآن شاهد يدل على ما قالوه ، وليس في القرآن اسم مبهم مبني في موضع نصب او خفض إلا هذا ، ولفظه (هذان) فهذا نقل ثابت متواتر لفظاً ورسماً .

ومن زعم أن الكاتب غلط فهو الغالط غلطاً منكراً ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، فإن المصحف منقول بالتواتر ، وقد كتبت عدة مصاحف ، وكلها مكتوبة بالألف ، فكيف يتصور في هذا غلط .

وأيضا فإن القراء إنما قرؤ وا بما سمعوه من غيرهم ، والمسلمون كانوا يقرؤ ون (سورة طه) على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وهي من أول ما نزل من القرآن ، قال ابن مسعود بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول ، وهن من تلادي . رواه البخاري عنه . وهي مكية باتفاق الناس ، قال أبو الفرج وغيره : هي مكية بإجماعهم ؛ بل هي من أول ما نزل ، وقد روي : أنها كانت مكتوبة عند أخت عمر ، وأن سبب إسلام عمر كان لما بلغه إسلام أخته ، وكانت السورة تقرأ عندها .

فالصحابة لا بد أنهم قد قرؤ وا هذا الحرف ، ومن الممتنع أن يكونوا كلهم قرؤ وه بالياء كأبي عمرو ، فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلا بالياء ، ولم تكتب إلا بالياء ، فعلم أنهم أو غالبهم كانوا يقرؤ ونها بالألف كما قرأها الجمهور ، وكان الصحابة بمكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة يقرؤ ون هذه السورة في الصلاة وخارج الصلاة ، ومنهم سمعها التابعون ، ومن التابعين سمعها تابعوهم ، فيمتنع أن يكون الصحابة كلهم قرؤ وها بالياء مع أن جمهور القراء لم يقرؤ وها إلا بالألف ، وهم أخذوا قراءتهم عن الصحابة ، أو عن التابعين عن الصحابة ، فهذا مما يعلم به قطعا أن عامة الصحابة إنما قرؤ وها بالألف كما قرأ الجمهور ، وكما هو مكتوب .

وحينئذ فقد علم أن الصحابة إنما قرؤ وا كما علمهم الرسول ، وكما هو لغة للعرب ، ثم لغة قريش ، فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الأسماء المبهمة تقول : إن هذان ، ومررت بهذان : تقولها في الرفع والنصب والخفض بالألف ، ومن قال إن لغتهم أنها تكون في الرفع بالألف طولب بالشاهد على ذلك والنقل عن لغتهم المسموعة منهم نثراً ونظماً ، وليس في القرآن ما يشهد له ، ولكن عمدته القياس .

وحينئذ فنقول :

قياس هذا بغيرها من الأسماء غلط ، فإن الفرق بينهما ثابت عقلاً وسماعاً : أما النقل

والسماع فكما ذكرناه ، وأما العقل والقياس فقد تفطن للفرق غير واحد من حذاق النحاة فحكى ابن الأنباري وغيره عن الفراء قال : ألف التثنية في « هذان » هي الف هذا ، والنون فرقت بين الواحد والاثنين ، كما فرقت بين الواحد والجمع نون الذين وحكاه المهدوي وغيره عن الفراء ، ولفظه قال : إنه ذكر أن الألف ليست علامة التثنية بل هي ألف هذا ، فزدت عليها نونا ، ولم أغيرها ، كما زدت على الياء من الذي فقلت الذين في كل حال ، قال وقال بعض الكوفيين : الألف في هذا مشبهة يفعلان فلم تغير كما (لم) تغير .

قال : وقال الجرجاني : لما كان اسما على حرفين أحدهما حرف مد ولين، وهو كالحركة ، ووجب حذف إحدى الألفين في التثنية لم يحسن حذف الأولى ؛ لئلا يبقى الاسم على حرف واحد ، فحذف علم التثنية ، وكان النون يدل على التثنية ، ولم يكن لتغيير النون الأصلية الألف وجه ، فثبت في كل حال كما يثبت في الواحد . قال المهدوي : وسأل إسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال : لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع جرت التثنية على ذلك مجرى الواحد ، إذ التثنية يجب أن لا تغير ، فقال اسماعيل : ما أحسن ما قلت لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به ! فقال له ابن كيسان : فليقل القاضي حتى يؤنس به ، فتبسم !! .

قلت : بل تقدمه الفراء وغيره ، والفراء في الكوفيين مثل سيبويه في البصريين ؛ لكن إسماعيل كان اعتماده على نحو البصريين ، والمبرد كان خصيصاً به .

وبيان هذا القول : أن المفرد « ذا » فلو جعلوه كسائر الأسماء لقالوا في التثنية : « ذوان » ، ولم يقولوا : « ذان » كما قالوا عصوان ورجوان ونحوهما من الأسماء الثلاثية ، « وها » حرف تنبيه ، وقد قالوا فيما حذفوا لامه : أبوان ، فردته التثنية إلى أصله ، وقالوا في غير هذا ويدان وأما « ذا » فلم يقولوا « ذوان » بل قالوا كما فعلوا في « ذو » و« ذات » التي بمعنى صاحب فقالوا : هو ذو علم ، وهما ذوا علم ، كما قال : (ذواتا أفنان) وفي اسم الإشارة قالوا : « ذان » و« تان » كما قال : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإن « ذا » بمعنى صاحب هو اسم معرب ، فتغير إعرابه في الرفع والنصب والجر ، فقيل : ذو ، وذا ، وذي .

وأما المستعمل في الإشارة والأسماء الموصولة والمضمرات هي مبنية ؛ لكن أسماء الإشارة لم تفرق لا في واحده ولا في جمعه بين حال الرفع والنصب والخفض ، فكذلك في تثنيته ؛ بل قالوا : قام هذا وأكرمت هذا ، ومررت بهذا ، وكذلك هؤلاء في الجمع ، فكذلك المثنى ، قال : هذان ، وأكرمت هذان ، ومررت بهذان ، فهذا هو القياس فيه أن يلحق مثناه بمفرده وبمجموعه ، لا يلحق بمثنى غيره الذي هو أيضا معتبر بمفرده ومجموعه .

فالأسماء المعربة ألحق مثناها بمفردها ومجموعها تقول : رجل ، ورجلان ، ورجال ، فهو

معرب في الأحوال الثلاثة يظهر الإعراب في مثناه ، كما ظهر في مفرده ومجموعه .

فتبين أن الذين قالوا : إن مقتضى العربية أن يقال : (إن هذين) ليس معهم بذلك نقل عن اللغة المعروفة في القرآن التي نزل بها القرآن ؛ (بل) هي أن يكون المثنى من أسماء الإشارة مبنياً في الأحوال الثلاثة على لفظ واحد ، كمفرد أسماء الإشارة ومجموعها .

وحينئذ فإن قيل : إن الألف هي ألف المفرد زيد عليها النون ، أو قيل : هي علم للتثنية وتلك حذفت ، أو قيل ، بل هذه الألف تجمع هذا ، وهذا معنى جواب ابن كيسان ، وقول الفراء مثله في المعنى وكذلك قول الجرجاني ، وكذلك قول من قال : إن الألف فيه تشبه ألف يفعلان .

ثم يقال : قد يكون الموصول كذلك كقوله : ﴿واللّذانِ يَأْتِيانِها منكُمْ﴾[1] فإن ثبت أن لغة قريش أنهم يقولون رأيت الذين فعلا ، ومررت باللذين فعلا ، وإلا فقد يقال : هو بالألف في الأحوال الثلاثة ؛ لأنه اسم مبني ، والألف فيه بدل الياء في الذين ، وما ذكره الفراء وابن كيسان وغيرهما يدل على هذا ؛ فإن الفراء شبه هذا بالذين ، وتشبيه اللذان به أولى ، وابن كيسان علل بأن المبهم مبني لا يظهر فيه الإعراب ، فجعل مثناه كمفرده ومجموعه ، وهذا العلم يأتي في الموصول .

يؤيد ذلك : أن المضمرات من هذا الجنس ، والمرفوع والمنصوب لهما ضمير متصل ومنفصل ؛ بخلاف المجرور فإنه ليس له إلا متصل ؛ لأن المجرور لا يكون إلا بحرف ، أو مضاف لا يقدم على عامله ، فلا ينفصل عنه ، فالضمير المتصل في الواحد الكاف من أكرمتك ومررت بك ، وفي الجمع أكرمتكم ومررت بكم ، وفي التثنية زيدت الألف في النصب والجر فيقال : أكرمتكما ومررت بكما ، كما نقول في الرفع ، ففي الواحد والجمع فعلت وفعلتم ، وفي التثنية فعلتما بالألف وحدها زيدت علما على التثنية في حال الرفع والنصب والجر ، كما زيدت في المنفصل في قوله « إياكما » و« أنتما » .

فهذا كله مما يبين أن لفظ المثنى في الأسماء المبنية في الأحوال الثلاثة نوع واحد : لم يفرقوا بين مرفوعه وبين منصوبه ومجروره . كما فعلوا ذلك في الأسماء المعربة ، وأن ذلك في المثنى أبلغ منه في لفظ الواحد والجمع ، إذ كانوا في الضمائر يفرقون بين ضمير المنصوب والمجرور وبين ضمير المرفوع في الواحد والمثنى ، ولا يفرقون في المثنى وفي لفظ الإشارة والموصول ، ولا يفرقون بين الواحد والجمع وبين المرفوع وغيره ، ففي المثنى بطريق الأولى ، والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦ .

(مسألة اعتراضية)

فصـــل

وقد يعترض على ما كتبناه أولاً بأنه جاء أيضاً في غير الرفع بالياء كسائر الأسماء قال تعالى : ﴿وقالَ الذينَ كَفَروا : رَبَّنا أَرِنا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ﴾[1] ولم يقل ﴿اللذانِ أَضَلَّانا﴾ كما قيل في الذين أنه بالياء في الأحوال الثلاثة ، وقال تعالى في قصة موسىٰ : ﴿إنّي أريدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحدى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ﴾[2] ولم يقل « هاتان » و« هاتان » تبع لابنتي ، وقد يسمى عطف بيان وهو يشبه الصفة كقوله : ﴿وإلى ثمودَ أخاهُمْ صالِحاً﴾[3] لكن الصفة تكون مشتقة أو في معنى المشتق ، وعطف البيان يكون بغير ذلك كأسماء الأعلام وأسماء الإشارة ، وهذه الآية نظير قوله : ﴿ان هذان لساحران﴾ .

وأما قوله : ﴿أرنا اللذين أضلانا﴾ فقد يفرق بين اسم الإشارة والموصول بأنّ اسم الإشارة على حرفين ؛ بخلاف الموصول ؛ فإن الاسم هو « اللذا » عدة حروف ، وبعده يزاد علم الجمع ، فتكسر الذال وتفتح النون وعلم التثنية ، فتفتح الذال وتكسر النون والألف فقلت في النصب والجر ؛ لأن الاسم الصحيح إذا جمع جمع الصحيح كسر آخره في النصف وفي الجر وفتحت نونه ، وإذا ثني فتح آخره وكسرت نونه في الأحوال الثلاثة .

وهذا يبين أن الأصل في التثنية هي الألف ، وعلى هذا فيكون في إعرابه لغتان جاء بهما القرآن : تارة يجعل كاللذان ، وتارة يجعل كاللذين ؛ ولكن في قوله : ﴿إحدى ابنتي هاتين﴾ كان هذا أحسن من قوله « هاتان » لما فيه من اتباع لفظ المثنى بالياء فيهما ، ولو قيل هاتان لأشبه كما لو قيل : « ان ابنتي هاتان » فاذا جعل بالياء علم تابع مبين عطف بيان لتمام معنى الاسم ؛ لا خبر تتم به الجملة .

وأما قوله : ﴿إن هذان لساحران﴾ فجاء اسما مبتدأ : اسم (إن) وكان مجيئه بالألف أحسن في اللفظ من قولنا : « إن هذين لساحران » لأن الألف أخف من الياء ؛ ولان الخبر بالألف ، فإذا كان كل من الاسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة ، وهذا معنى صحيح ، وليس في القرآن ما يشبه هذا من كل وجه وهو بالياء .

فتبين أن هذا المسموع والمتواتر ليس في القياس الصحيح ما يناقضه ، لكن بينهما فروق

---

(١) سورة فصلت الآية ٢٩ .

(٢) سورة القصص الآية ٢٧

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٣ ، هود الآية ٦١ .

دقيقة ، والذين استشكلوا هـذا إنما استشكلوه من جهـة القياس ؛ لا من جهـة السماع ، ومـع ظهور الفرق يعرف ضعف القياس .

وقد يجيب من بعتبر كون الألف في هذا هو المعروف في اللغة بأن يفـرق بين قـوله : ﴿إن هذان﴾ وقوله : ﴿إحدى ابنتي هاتين﴾ أن هذا تثنية مؤنث ، وذلك تثنية مذكر ، والمذكر المفرد منه « ذا » بالألف فزيدت فوق نون للتثنيـة ، وأما المؤنث فمفـرده « ذي » أو « ذه « أو « ته » . وقوله : ﴿إحدى ابنتي هاتين﴾ تثنية « تي » بـالياء ، فكـان جعلها بـالياء في النصب والجـر أشبه بالمفرد ؛ بخلاف تثنية المذكر ، وهو « ذا » فإنه بالألف ، فإقراره بالألف أنسب ، وهذا فرق بين تثينة المؤنث وتثنية المذكر ، والفرق بينه وبين اللذين قد تقدم .

وحينئذ فهذه القراءة هي الموافقة للسماع والقياس ، ولم يشتهر ما يعارضها من اللغة التي نزل بها القرآن . والله أعلم .

وقوله : ﴿إحدى ابنتي هاتـين﴾ هو كقـول النبي ﷺ : « من أكل من هـاتين الشجـرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون » ومثله في الموصـول قول ابن عباس لعمر : أخبرني عن المرأتين اللتين قـال الله فيهما : ﴿وإن تـظاهرا عليـه فإن الله هـو مولاه﴾ الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبيـاء

وقال رحمه الله

(عرض عام للسورة)

فصـــل

« سورة الأنبياء » سورة الذكر ، سورة الأنبياء الذين عليهم نـزل الذكـر افتتحها بقـوله : ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾[1] الآية ، وقولـه : ﴿فَاسْـأَلوا أَهْـلَ الذِكْـرِ إنْ كنتم لا تَعلمونَ﴾[2] وقوله : ﴿لقد أَنْزَلْنَا إليكم كِتاباً فيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[3] وقوله : ﴿هَذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وذكرُ مَنْ قَبلي﴾[4] وقوله : ﴿وَذِكْرَى للمُتّقِينَ﴾[5] وقوله : ﴿وَهَذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ﴾[6] وقـوله : ﴿وَلَقَـدْ كَتَبْنا في الزّبورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾[7] وقـوله : ﴿قـالَ رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ﴾[8] يعني - والله أعلم - انصـر أهل الحق ، أو انصـر الحق ، وقيل : افصـل الحق بيننـا وبـين قـومنـا ، وكـان الأنبيـاء يقـولون : ﴿رَبَّنـا افْتَحْ بَيْنَنـا وَبَيْنَ قَـوْمِنـا بـالحَقِّ﴾[9] وأمـر محمـداً أن يقـول : ﴿رَبِّ احْكُمْ بـالحَقِّ﴾ وروى مالـك عن زيد بن أسلم قـال : « كـان رسـول الله ﷺ إذا شهد قتـالاً قـال : « رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ » .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٧ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٤ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٤٨ .

(٦) سورة الأنبياء الآية ٥٠ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .

(٨) سورة الأنبياء الآية ١١٢ .

(٩) سورة الأعراف الآية ٨٩ .

فصـــل
في قوله تعالى(*)

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾

سئل شيخ الإســلام

ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن قول النبي ﷺ : « دعوة أخي ذي النون » : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ . ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » ما معنى هذه الدعوة ؟ ولم كانت كاشفة للكرب ؟ وهل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها ؟ وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها . حتى يوجب كشف ضره ؟ وما مناسبة ذكره : ﴿إني كنت من الظالمين﴾ مع أن التوحيد . يوجب كشف الضر ؟ وهل يكفيه اعترافه . أم لا بد من التوبة والعزم في المستقبل ؟ وما هو السر في أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟ وما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه إليه بالكلية ، وما السبب المعين على ذلك ؟؟ .

(فأجاب) الحمد لله رب العالمين .

لفظ « الدعاء والدعوة » في القرآن يتناول معنيين .

دعاء العبادة .

ودعاء المسألة .

قال الله تعالى : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فتكونَ مِنَ المُعَذَّبينَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلا هُوَ﴾ وقال : ﴿وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ وقال ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِناثاً وإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطاناً مَرِيداً﴾ وقال تعالى : ﴿لَهُ دعوةُ الحَقِّ ، والذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَستجيبونَ لهم بشيءٍ إلا كباسطٍ كَفَّيْهِ إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ ، وما هُوَ بِبالغِهِ﴾ وقال تعالى : ﴿والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ . ولاَ يَقتلونَ النفسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالحَقِّ وَلا يَزنونَ﴾ وقال في آخر السورة : ﴿قُلْ ما يَعْبأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾ .

(*) مجموع الفتاوى : ١٠/٢٣٧ ـ ٢٥٤ .

قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل لولا دعاؤه إياكم . فإن المصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى المفعول تارة ، ولكن إضافته إلى الفاعل أقوى ؛ لأنه لا بد له من فاعل ، فلهذا كان هذا أقوى القولين ؟ أي ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه : ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يكونُ لِزاماً﴾ أي عذاب لازم للمكذبين .

ولفظ « الصلاة في اللغة » أصله الدعاء ، وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء ، وهو العبادة والمسألة .

وقد فسر قوله تعالى : ﴿ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بالوجهين ، قيل : اعبدوني وامتثلوا أمري أستجبْ لكم . كما قال تعالى : ﴿وَيَستجيبُ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ﴾ : أي يستجيب لهم ، وهو معروف في اللغة ، يقال : استجابه واستجاب له كما قال الشاعر :

وداع دعايا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقيل : سلوني أعطكم .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » فذكر أولا لفظ الدعاء ، ثم ذكر السؤال والاستغفار . والمستغفر سائل كما أن السائل داع ؛ لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير ، وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي تناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام .

وقال تعالى : ﴿وإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنّي فإنّي قريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ .

وكل سائل راغب راهب ، فهو عابد للمسؤول ، وكل عابد له فهو أيضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عابد سائل وكل سائل عابد . فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ، ولكن إذا جمع بينهما : فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب . ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكن في ذلك صيغ سؤال .

والعابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه هو أيضا راج خائف راغب راهب : يرغب في حصول مراده ، ويرهب من فواته . قال تعالى : ﴿إنّهم كانوا يُسارِعُونَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾ وقال تعالى : ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَعَماً﴾ ولا يتصور أن يخلو داع لله ـ دعاء عبادة أو دعاء مسألة ـ من الرغب والرهب من الخوف والطمع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة ، فهذا قد يفسر

مراده بأن المقربين يريدون وجه الله فيقصدون التلذذ بالنظر إليه ، وإن لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به ، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه ، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم بحسب مطلوبهم .

ومن قال من هؤلاء : لم أعبدك شوقاً إلى جنتك ولا خوفا من نارك ، فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات ، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة ، بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة والنظر إليه هو من الجنة ، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته « قال : إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال : حولها فدندن » .

وقد أنكر على من قال هذا الكلام يعني أسألك لذة النظر إلى وجهك فريق من أهل الكلام ، ظنوا أن الله لا يتلذذ بالنظر إليه ، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق . فغلط هؤلاء في معنى الجنة كما غلط أولئك ، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يطلب ، وهؤلاء أنكروا ذلك .

وأما التألم بالنار فهو أمر ضروري ، ومن قال : لو أدخلني النار لكنت راضياً ، فهو عزم منه على الرضا . والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق ، ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل سمنون الذي قال :

وليس لي في سواك حظ فكيف ما شئت فامتحني

فابتلي بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب . قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وأنتم تَنظرونَ﴾ .

وبعض من تكلم في علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر ، وأن من شهد القدر[1] فشهد توحيد الأفعال حتى فني من لم يكن وبقي من لم يزل ، يخرج عن هذه الأمور ، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعاً .

أما الحقيقة فإن الحي لا يتصور أن لا يكون حساساً محباً لما يلائمه مبغضاً لما ينافره ، ومن قال إن الحي يستوى عنده جميع المقدورات فهو أحد رجلين : إما أنه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل ، وإما أنه مكابر معاند ولو قدر أن الإنسان حصل له حال أزال عقله ـ سواء سمى اصطلاماً أو محواً أو فناءً أو غشياً أو ضعفاً ـ فهذا لم يسقط إحساس نفسه بالكلية ، بل له إحساس بما يلائمه وما ينافره ، وإن سقط إحساسه ببعض الأشياء فإنه لم يسقط بجميعها .

---

(١) كذا في نسختين . وفي نسخة : واما من نظر إلى القدر . الخ .

فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقا فإنه غالط ، بل لا بد من الفرق فإنه أمر ضروري .

لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي في الفرق الطبعي ، فيبقى متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه .

ولهذا لما وقعت « هذه المسألة بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم « الفرق الثاني » وهو : أن يفرق بين المأمور والمحظور ، وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده للقدر الجامع ، فيشهد الفرق في القدر الجامع . ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الإسلام .

وهؤلاء الذين يتكلمون في الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعي بالكلية وإن خرجوا عنه كانوا كفاراً من شر الكفار ، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم ، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود ، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد، بل يفرقون من وجه دون وجه فيطيعون الله ورسوله تارة ، كالعصاة من أهل القبلة . وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن لفظ « الدعوة والدعاء » يتناول هذا وهذا ، قال الله تعالى : ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالمينَ﴾ وفي الحديث : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » رواه ابن ماجة وابن أبي الدنيا . وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره : « دعوة أخي ذي النون (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » سماها « دعوة » لأنها تتضمن نوعي الدعاء . فقوله : لا إله إلا أنت اعتراف بتوحيد الإلهية . وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء ، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهو الله لا إله إلا هو .

وقوله : ﴿إني كنت من الظالمين﴾ . اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب وتارة يسأل بصيغة الخبر ، إما بوصف حاله ، وإما بوصف حال المسؤول ، وإما بوصف الحالين . كقول نوح عليه السلام : ﴿رَبِّ إني أعوذُ بِكَ أنْ اَسْأَلَكَ ما ليسَ لي بهِ عِلْمٌ وإلاَّ تَغفرْ لي وَتَرْحَمْني أكنْ مِنَ الخاسِرينَ﴾[1] فهذا ليس صيغة طلب ، وإنما هو اخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر .

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة ، وكذلك قول آدم عليه السلام ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنَا لَنكونَنَّ مِنَ الخاسرينَ﴾[2] هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول

---

(١) سورة هود الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٢ .

موسى عليه السلام : ﴿رَبِّ إني لما أَنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فقيرٌ﴾[1] فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير ، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه .

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » رواه الترمذي وقال حديث ، حسن ورواه مالك بن الحويرث وقال : « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » وأظن البيهقي رواه مرفوعاً بهذا اللفظ .

وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله : « أفضل الدعاء يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية ابن أبي الصلت يمدح ابن جدعان .

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

قال : فهذا مخلوق يخاطب مخلوقاً فكيف بالخالق تعالى .

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان » فهذا خبر يتضمن السؤال .

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام : ﴿أنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ﴾[2] فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره وهي صيغة خبر تضمنت السؤال . وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء ، فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه : أنا جائع ، أنا مريض ، حسن أدب في السؤال . وإن كان في قوله أطعمني وداوني ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب طلب جازم من المسؤول ، فذاك فيه إظهار حاله وإخباره على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال ، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب .

وهذه الصيغة « صيغة الطلب والاستدعاء » إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فإنها تقال على وجه الأمر : إما لما في ذلك من حاجة الطالب ، وإما لما فيه من نفع المطلوب ، فأما إذا كانت من الفقير من كل وجه للغني من كل وجه فإنها سؤال محض بتذلل وافتقار وإظهار الحال .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٣ .

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال ، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة ، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني ؛ لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول ، وتصريح به باللفظ ، وإن لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤول ، فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين ، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والإجابة ؛ ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال ، فيتضمن السؤال والمقتضى له والإجابة كقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه « لما قال له : علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، فقال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجاه في الصحيحين .

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته الى المغفرة ، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه ، وفيه بيان المقتضى للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب .

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك . كقول موسى عليه السلام: ﴿أنتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وأنتَ خَيْرُ الغافِرينَ﴾ فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضي الإجابة . وقوله : ﴿رَبِّ إني ظَلَمْتُ نفسي فَاغْفِرْ لي﴾ فيه وصف حال النفس والطلب . وقوله : ﴿إنّي لِما أنْزَلْتَ إليّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال ، فهذه أنواع لكل نوع منها خاصة .

يبقى أن يقال فصاحب الحوت ومن أشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ؟ .

فيقال : لأن المقام مقام اعتراف بأن ما أصابني من الشر كان بذنبي ، فأصل الشر هو الذنب ، والمقصود دفع الضر والاستغفار جاء بالقصد الثاني ، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره أنه مسيء ظالم ، وهو الذي أدخل الضر على نفسه ، فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه ، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني ، بخلاف كشف الكرب فإنه مقصود له في حال وجوده بالقصد الأول ، إذ النفس بطبعها تطلب ما هي محتاجة إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر في المستقبل بالقصد الثاني ، والمقصود الأول في هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر ، فهذا مقدم في قصده وإرادته ، وأبلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده .

وهذا يتبين بالكلام على قوله : ﴿سبحانك﴾ فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه ، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب ، يقول : أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب ؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي . قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِنْ كانوا أنفسَهُمْ يَظلِمونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْناهُمْ ولكن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وقال : ﴿وَمَا ظَلَمْناهُمْ ولكن كانوا هُمُ الظالِمِينَ﴾ وقال آدم عليه السلام : ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا﴾ .

وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي في مسلم في دعاء الاستفتاح « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وفي صحيح البخاري « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » .

فالعبد عليه أن يعترف بعدل الله وإحسانه فإنه لا يظلم الناس شيئاً فلا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، وهو يحسن إليهم فكل نقمة منه عدل وكل نعمة منه فضل .

فقوله : (لا إله إلا أنت) فيه إثبات انفراده بالإلهية ، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد فإن « الإله » هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزمك أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ؛ والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل .

وقوله : ﴿سبحانك﴾ يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص ؛ فإن التسبيح وإن كان يقال : يتضمن نفي النقائص ، وقد روي في حديث مرسل من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي ﷺ في قول العبد : سبحان الله : « إنها براءة الله من السوء » فالنفي لا يكون مدحاً إلا إذا تضمن ثبوتاً وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه ، ونفي السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله ، ولله الأسماء الحسنى .

وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله . كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ لا إلهَ إلاّ هوَ الحَيُّ القيومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ فنفي أخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته وقوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا من لَغُوبٍ﴾ يتضمن كمال قدرته ، ونحو ذلك . فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء ، ونفي النقض عنه يتضمن تعظيمه . ففي قوله :

﴿سبحانك﴾ تبرئته من الظلم ، وإثبات العظمة الموجبة لـه براءتـه من الظلم ، فـإن الظالم إنمـا يـظلم لحاجتـه إلى الـظلم أو لجهله ، والله غني عن كـل شيء ، عليم بكـل شيء ، وهـو غني بنفسه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وهذا كمال العظمة .

وأيضا ففي هذا الدعاء التهليـل والتسبيح فقـوله : ﴿لا إلـه إلا أنت﴾ تهليل . وقـوله : ﴿سبحـانك﴾ تسبيـح . وقد ثبت في الصحيـح عن النبي ﷺ أنه قـال : « أفضل الكـلام بعد القرآن أربع ، وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » .

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له ، والتكبير مقرون بالتهليل وتابـع له ، وفي الصحيـح عن النبي ﷺ أنـه سئل أي الكـلام أفضل ؟ قـال : « مـا اصـطفى الله لمـلائكتـه سبحـان الله وبحمده » وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وفي القرآن ﴿فسبح بحمد ربك﴾ وقالت الملائكة : ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ .

وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونـة بالتحميـد ، والأخرى بـالتعظيم ، فـإنا قـد ذكرنـا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبـات المحاسن والكمـال ، والحمد إنمـا يكون عـلى المحاسن . وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام ، إذ ليس كل معظم محبـوباً محمـوداً ، ولا كل محبـوب محموداً معـظماً ، وقد تقـدم أن العبادة تتضمن كمـال الحب المتضمن معنى الحمـد ، وتتضمن كمال الـذل المتضمن معنى التعـظيم ، ففي العبـادة حبـه وحمـده عـلى المحاسن ، وفيها الذل له الناشيء عن عظمته وكبريائه . ففيها إجلاله وإكرامـه . وهو سبحـانه المستحق للجلال والإكرام ، فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام .

ومن الناس من يحسب أن « الجلال » هو الصفات السلبية و« الإكرام » الصفات الثبوتيـة ، كما ذكر ذلك الرازي ونحـوه والتحقيق أن كليهما صفـات ثبوتيـة ، وإثبات الكمـال يستلزم نفي النقـائص ، لكن ذكر نـوعي الثبوت وهـو ما يستحق أن يعـظم : كقولـه : ﴿إِنَّ اللَّهَ هوَ الغنيُّ الحميـدُ﴾ وكذلـك قولـه : ﴿لهُ الملكُ ولـهَ الحمدُ﴾ فـإن كثيراً ممن يكـون له الملك والغنى لا يكون محموداً بل مذموماً ، إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة ، فيتضمن إخبارا بمحاسن المحبوب محبة له .

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجـز وضعف وذل ينافي العـظمة والغنى والملك . فالأول يهاب ويخاف ولا يحب . وهذا يحب ويحمـد ، ولا يهاب ولا يخـاف . والكمال اجتمـاع الوصفـين . كما ورد في الأثـر « إن المؤمن رزق حـلاوة ومهـابـة » وفي نعت النبي ﷺ « كان من رآه بديهة هابة ، ومن خالطه معرفة أحبه » .

فقرن التسبيح بالتحميد ، وقرن التهليل بالتكبير ؛ كما في كلمات الأذان . ثم إن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا أفرد : فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم : ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوباً ؛ بل تتضمن أنه لا يستحق كمال الحب إلا هو . والحمد هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق أن يحب فالإلهية تتضمن كمال الحمد ؛ ولهذا كان « الحمد لله » مفتاح الخطاب ؛ وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجدم « وسبحان الله » فيها إثبات عظمته كما قدمناه ؛ ولهذا قال : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العظيمِ﴾ وقد قال النبي ﷺ : « اجعلوها في ركوعكم » رواه أهل السنن وقال ، « أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم » رواه مسلم . فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم .

ففي قوله « سبحان الله وبحمده » إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده . وأما قوله : « لا إله إلا الله والله أكبر » ففي لا إله إلا الله (إثبات) محامده فإنها كلها داخلة في إثبات إلهيته وفي قوله : « الله اكبر » إثبات عظمته فإن الكبرياء تتضمن العظمة ولكن الكبرياء أكمل .

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول : « الله أكبر » فإن ذلك أكمل من قول الله أعظم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما عذبته » فجعل العظمة كالإزار ، والكبرياء كالرداء ، ومعلوم أن الرداء أشرف ، فلما كان التكبير أبلغ من التعظيم صرح بلفظه ، وتضمن ذلك التعظيم ، وفي قوله : سبحان الله ، صرح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم ، فصار كل من الكلمتين متضمناً معنى الكلمتين الأخريين إذا أفردتا ، وعند الاقتران تعطي كل كلمة خاصيتها .

وهذا كما أن كل اسم من أسماء الله فإنه يستلزم معنى الآخر ؛ لكن هذا باللزوم . وأما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة ، ودلالتها على أحدهما بالتضمن .

فقول الداعي : (لا إله إلا أنت سبحانك) يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتي هن أفضل الكلام بعد القرآن . وهذه الكلمات تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح .

وقوله : ﴿إني كنت من الظالمين﴾ فيه اعتراف بحقيقة حاله ، وليس لأحد من العباد أن يبرىء نفسه عن هذا الوصف ، لا سيما في مقام مناجاته لربه . وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » . وقال : « من قال : أنا خير من يونس بن متى فقد كذب ، فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس

عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذب ، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام ، بل يقولون : كما قال أبوهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ .

فصل

في بطلان الاحتجاج بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنَى أولئكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾(١) .

سئل شيخ الإسلام ، حسنة الأيام ، أحد المجتهدين ، قامع المبتدعين ، تقي الدين أحمد ابن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي رضي الله عنه : عن قوم يحتجون بالقدر ، ويقولون قد قضي الأمر من الذر ، فالسعيد سعيد ، والشقي شقي من الذر ، ويحتجون بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الذينَ سَبَقَتْ لهُمْ مِنّا الحُسْنَى أولئكَ عنها مُبْعَدُونَ﴾ ويقولون : ما لنا في جميع الأفعال قدرة وإنما القدرة لله تعالى ، قدر الخير والشر وكتبه علينا . والمراد بيان خطأ هؤلاء بالأدلة القاطعة ويقولون : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة . ويحتجون بالحديث الذي فيه قوله ﷺ : « وإن زنا وإن سرق » وبغير ذلك ، فما الجواب عن هذا جميعه أفتونا مأجورين .

فأجاب نفعنا الله بعلومه : الحمد لله رب العالمين . هؤلاء القوم إذا صبروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى ، فإن النصارى واليهود يؤمنون : بالأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، والثواب ، والعقاب ، لكن حرفوا وبدلوا ، وآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الذينَ يَكفرونَ باللَّه وَرُسُلِهِ ، وَيُريدونَ أَنْ يُفَرِّقوا بينَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقولونَ نُؤْمِنُ ببعضٍ وَنَكْفُرُ ببعضٍ وَيُريدونَ أن يتخذوا بينَ ذلكَ سَبيلاً ، أولئكَ هُمُ الكافرونَ حقّاً وأَعْتَدْنا للكافرينَ عَذاباً مُهيناً ، والذينَ آمَنوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أولئكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللَّهُ غفوراً رَحيماً﴾(٢) فإذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقا ، فكيف بمن كفر بالجميع ، ومن لم يقر بأمر الله ، ونهيه ، ووعده ووعيده ، بل ترك ذلك محتجاً بالقدر ، فهو أكفر ممن آمن ببعض ، وكفر ببعض ، وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه .

أحدها : أن الواحد من هؤلاء إما أن يرى القدر حجة للعبد ، وإما أن لا يراه حجة للعبد ، فإن كان القدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس ، فإنهم كلهم مشتركون في القدر ،

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠١ .

(٢) سورة النساء الآيات (١٥٠ ـ ١٥٢) .

وحينئذ يلزمه أن لا ينكر على من يظلمه ، ويشتمه ، ويأخذ ماله ، ويفسد حريمه ، ويضرب عنقه ، ويهلك الحرث والنسل ، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون ، فإن أحدهم لا يزال يذم هذا ، ويبغض هذا ، ويخالف هذا ، حتى إن الذي ينكر عليهم ، يبغضونه ، ويعادونه ، وينكرون عليه ، فإذا كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات ، لزمهم أن لا يذموا أحداً ، ولا يبغضوا أحداً ، ولا يقولون عن أحد أنه ظالم ، ولو فعل ما فعل ، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحداً فعله ، ولو فعل الناس هذا ، لهلك العالم ، فتبين أن قولهم فاسد في العقل ، كما أنه كفر في الشرع ، وأنهم كذابون مفترون في قولهم : إن القدر حجة للعبد .

الوجه الثاني : أن هذا يلزم منه أن يكون إبليس ، وفرعون ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وكل من أهلكه الله بذنوبه معذورين وهذا من الكفر الذي اتفق عليه ارباب الملل .

الوجه الثالث : أن هذا يلزم منه ، أن لا يفرق بين أولياء الله وأعداء الله ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا أهل الجنة وأهل النار ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ ولا الظلماتُ ولا النورُ ولا الظِلُّ ولا الحَرورُ وما يَسْتَوي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصّالحاتِ كالمفسدينَ في الأرضِ أَمْ نَجْعَلُ المتّقينَ كالفُجّارِ﴾[(٢)] وقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالحاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ ما يَحْكُمونَ﴾[(٣)] وذلك أن هؤلاء جميعهم ، سبقت لهم من الله تعالى السوابق ، وكتب الله تعالى مقاديرهم قبل أن يخلقهم ، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح ، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان ، فعلم بذلك أن القضاء والقدر ، ليس بحجة لأحد على معاصي الله تعالى .

الوجه الرابع : أن القدر نؤمن به ولا نحتج به ، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول ، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولاً : لقبل من إبليس وغيره من العصاة ، ولو كان القدر حجةللعباد : لم يعذب الله أحدا من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولو كان القدر حجة : لم يقطع سارق ، ولا قتل قاتل ، ولا أقيم حد على ذي جريمة ، ولا جوهد في سبيل الله ، ولا أمر بمعروف ، ولا نهي عن منكر .

الوجه الخامس : أن النبي ﷺ سئل عن هذا فإنه قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » فقيل : يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على

---

(١) سورة فاطر الآيات (١٩ ـ ٢٢) .

(٢) سورة ص الآية ٢٨ .

(٣) سورة الجاثية الآية ٢١ .

الكتاب . فقال : « لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه البخاري ومسلم ، وفي حديث آخر في الصحيح أنه قيل له يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون أفيما جفت به الأقلام ، وطويت به الصحف فقيل ففيم العمل فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

الوجه السادس : أن يقال أن الله تعالى علم الأمور وكتبها على ما هي عليه ، فهو سبحانه قد كتب : أن فلانا يؤمن ويعمل صالحاً فيدخل الجنة ، وفلانا يفسق ويعصي فيدخل النار ، كما علم وكتب أن فلانا يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد ، وأن فلانا يأكل ويشرب فيشبع ويروى ، وأن فلانا يبذر البذر فينبت الزرع ، فمن قال إن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح ، كان قوله قولاً باطلاً متناقضاً لما علمه الله وقدره ، ومثال من يقول أنا لا أطأ امرأة فإن كان الله قضى لي بولد فهو يولد فهذا جاهل ، فإن الله تعالى إذا قضى بالولد قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل وتلد ، فأما الولد بلا حبل ولا وطء : فإن الله لم يقدره ولم يكتبه ، كذلك الجنة : إنما أعدها الله تعالى للمؤمنين ، فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا إيمان ، كان ظنه باطلاً ، وإذا اعتقد أن الأعمال التي أمر الله بها لا يحتاج إليها، ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها ، كان كافراً والله قد حرم الجنة إلا على أصحابها .

(فصل) وأما قوله تعالى : ﴿إن الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنَى﴾ الآية فمن سبقت له من الله الحسنى فلا بد أن يصير مؤمناً تقياً ، فمن لم يكن من المؤمنين لم تسبق له من الله الحسنى ، لكن الله إذا سبقت للعبد منه سابقة استعمله بالعمل الذي يصل به إلى تلك السابقة ، كمن سبق له من الله تعالى أن يولد له ولد ، فلا بد أن يطأ امرأة يحبلها ، فإن الله سبحانه وتعالى قدر الأسباب والمسببات فسبق منه هذا وهذا ، فمن ظن أن أحداً سبق له من الله الحسنى بلا سبب فقد ضل ، بل هو سبحانه ميسر الأسباب والمسببات ، وهو قد قدر فيما مضى هذا وهذا .

(فصل) ومن قال أن آدم عليه الصلاة والسلام ما عصى ، فهو مكذبَ للقرآن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَعَصَى آدمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[1] والمعصية هي مخالفة الأمر الشرعي فمن خالف أمر الله الذي أرسل فيه رسله وأنزل به كتبه ، فقد عصاه ، وإن كان داخلا فيما قدره الله وقضاه ، وهؤلاء ظنوا أن المعصية هي الخروج عن قدر الله ، فإن لم تكن المعصية إلا هذا فلا يكون إبليس ، وفرعون ، وقوم نوح ، وقوم عاد ، وثمود ، وجميع الكفار عصاة أيضا لأنهم داخلون في قدر الله تعالى ، ثم قائل هذا يضرب ويهان ، فإذا تظلم ممن فعل ذلك به قيل له هذا الذي فعل هذا ليس هو بعاص لله

---

(١) سورة طه الآيات (١٢١ ـ ١٢٢) .

تعالى ، فإنه داخل في قدر الله عز وجل كسائر الخلق ، وقائل هذا القول متناقض لا يثبت على حال .

(فصل) وأما قول القائل : ما لنا في جميع أفعالنا قدرة ، فقد كذب فإن الله تعالى فرق بين المستطيع القادر ، وغير المستطيع وقال : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ما اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿ولِلَّهِ على الناسِ حِجُّ البيتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً﴾ وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الذي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ثمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضعْفٍ قُوَّةً ثمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ والله تعالى قد أثبت للعبد مشيئةً وفعلاً كما قال تعالى : ﴿لِمَنْ شَاءَ منكم أنْ يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشاؤ ونَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللَّهُ ربُّ العالمين﴾ وقال تعالى : ﴿جزاءً بما كنتم تَعملونَ﴾ لكن الله سبحانه خالقه وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة وعمل ، فإنه لا رب غيره ولا إله سواه ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه .

(فصل) وأما قول القائل : الزنا من المعاصي مكتوب،فهو كلام صحيح ، لكن هذا لا ينفعه الاحتجاج به ، فإن الله تعالى كتب أفعال العباد خيرها وشرها ، وكتب ما يصيرون إليه من السعادة والشقاوة ، وجعل الأعمال سبباً للثواب والعقاب ، وكتب ذلك كما كتب الأمراض وجعلها سبباً للثواب والعقاب ، وكتب ذلك كما كتب الأمراض وجعلها سببا للمرض والموت ، فمن أكل السم فإنه يمرض أو يموت ، والله تعالى قدر وكتب هذا وهذا ، كذلك من فعل ما نهي عنه من الكفر والفسوق والعصيان ، فإنه فعل ما كتب عليه وهو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن عمل ذلك ، وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي ، من جنس حجة المشركين الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿وقالَ الذينَ أَشْرَكوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤ نا ولا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كذلكَ فَعَلَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[1] وقال تعالى : ﴿سَيقولُ الذينَ أَشْركوا ما اشْرَكْنا وَلا آباؤ نا ولا حَرَّمنا مِنْ شَيْءٍ كذلكَ كَذَّبَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حتى ذَاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إن تَتَّبِعُونَ إلا الظَنَّ وإنْ أَنتم إلا تَخْرُصونَ . قُلْ فَلِلّهِ الحُجَّةُ البالغةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أجمعينَ﴾[2] .

---

(١) سورة النحل الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأنعام الآيات (١٤٨ ـ ١٤٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج(*)

وقال الشيخ رحمه الله
(عرض مجمل للسورة)
فصــــل

سورة الحج فيها مكي ومدني ، وليلي ونهاري ، وسفري وحضري وشتائي وصيفي ؛ وتضمنت منازل المسير إلى الله ، بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها . ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة : الأعمى والمريض والقاسي والمخبت الحي المطمئن إلى الله .

وفيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بين لمن تدبره ، وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها ، توحيداً وصلاةً وزكاةً وحجاً وصياماً ، قد تضمن ذلك كله قوله تعالى : ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لعلّكم تُفْلِحونَ﴾[1] فيدخل في قوله : ﴿وَافْعَلُوا الخَيْرَ﴾ كل واجب ومستحب ؛ فخصص في هذه الآية وعمم ، ثم قال : ﴿وَجَاهِدوا في اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[2] فهذه الآية وما بعدها : لم تترك خيراً إلا جمعته ولا شرّاً إلا نفته .

فصــــل
قال شيخ الإسلام

قوله : ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَريدٍ . كُتِبَ عليهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾[3] في أثناء آيات المعاد وعقبها بآية المعاد ثم اتبعه بقوله : ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ

(*) مجموع الفتاوى ١٤/٣٦٦ .

(١) سورة الحج الآية ٧٧ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٨ .

(٣) سورة الحج الآية ٣ .

يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدَىً ولا كتابٍ مُنِيرٍ ، ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَمِنَ الناسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ على حَرْفٍ﴾[1] فيه بيان حال المتكلمين ، وحال المتعبدين المجادلين بلا علم ، والعابدين بلا علم ، بل مع الشك لأن هذه السورة سورة الملة الإبراهيمية الذي جادل بعلم وعبد الله بعلم ، ولهذا ضمنت ذكر الحج ، وذكر الملل الست .

فقوله يجادل في الله بلا علم ذم لكل من جادل في الله بغير علم ، وهو دليل على أنه جائز بالعلم كما فعل إبراهيم بقومه ، وفي الأولى ذم المجادل بغير علم ، وفي الثانية بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وهذا والله أعلم من باب عطف الخاص على العام أو الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ليبين أن الذي يجادل بالكتاب أعلاهم ، ثم بالهدى ، فالعلم اسم جامع ، ثم منه ما يعلم بالدليل القياسي فهو أدنى أقسامه فيخص باسم العلم ، ويفرد ما عداه باسمه الخاص ؛ فإما معلوم بالدليل القياسي ، وهو علم النظر ، وإما ما علم بالهداية الكشفية ، كما للمحدثين وللمتفرسين ، ولسائر المؤمنين ، وهو الهدى ، وإما ما نزل من عند الله من الكتب وهو أعلاها ، فأعلاها العلم المأثور عن الكتب ، ثم كشوف الأولياء ، ثم قياس المتكلمين ، وغيرهم من العلماء .

وقال

في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ على حَرْفٍ فَإنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وإنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ على وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ ذلكَ هوَ الخُسْرانُ المبينُ ، يَدْعُو مِنْ دونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذلكَ هُوَ الضّلالُ البعيدُ ، يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئسَ المَوْلى وَلَبِئسَ العَشِيرُ﴾[2] ـ فإن آخر هذه الآية قد أشكل على كثير من الناس كما قال طائفة من المفسرين كالثعلبي والبغوي ، واللفظ للبغوي ، قال : هذه الآية من مشكلات القرآن ، وفيها أسئلة أولها : قالوا : قد قال الله تعالى في الآية الأولى :﴿يدعو من دون الله ما لا يضره﴾ أي لا يضره ترك عبادته . وقوله : ﴿لمن ضره﴾ أي ضر عبادته ؛ ـ قلت : هذا جواب .

وذكر صاحب الكشاف جواباً غير هذا : فقال : فإن قلت : الضر والنفع منتفيان عن الأصنام مثبتان لهما في الآيتين ، وهذا تناقض ! قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم : وذلك أن الله سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وهو يعتقد فيه لجهله وضلاله

---

(١) سورة الحج الآيات (٨ ـ ١١) .

(٢) سورة الحج الآيات (١٠ ـ ١٣) .

أنه يستشفع به حين يستشفع به ؛ ثم قام يوم القيامة هذا الكافر بدعاء وصراخ رأى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها : ﴿لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أو كرر يدعو ، كأنه قال : ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ ثم قال : ﴿لمن ضره﴾ بكونه معبوداً ﴿أقرب من نفعه﴾ بكونه شفيعاً ﴿لبئس المولى﴾ .

قلت : فقد جعل ضره بكونه معبوداً ، وذكر تضرره بذلك : في الآخرة .

وقد قال السدي ما يتضمن الجوابين في تفسيره المعروف ، قال : ﴿ما لا يضره﴾ قال : لا يضره إن عصاه ، ﴿وما لا ينفعه﴾ قال لا ينفعه الصنم إن أطاعة ﴿يدعو لمن ضره﴾ قال : ضره في الآخرة من أجل عبادته إياه في الدنيا .

قلت : وهذا الذي ذكر من الجواب : كلام صحيح ، لكن لم يبين فيه وجه نفي التناقض .

فنقول : قوله : ﴿ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ هو نفي لكون المدعو المعبود من دون الله يملك نفعاً أو ضراً وهذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة والبشر والجن والكواكب والأوثان كلها ، سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً ، كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح :﴿لقد كفرَ الذين قالوا إن اللَّهَ هُوَ المسيحُ بنُ مريمَ وقالَ المسيحُ : يا بَني اسرائيلَ! اعْبُدوا اللَّهَ ربي وَربَّكُمْ إنَهُ يُشْرِكْ من باللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عليهِ الجنةَ، ومأواهُ النارُ، وما للظالمينَ مِنْ أنصارٍ ، لقد كفرَ الذينَ قالوا إنّ اللَّهَ ثالثُ ثلاثةٍ ، وَمَا مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ ، وإنْ لم يَنْتَهُوا عَمّا يَقولونَ لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفَروا منهم عذابٌ أليمٌ ، أفَلا يَتُوبونَ إلى اللَّه وَيَسْتَغْفِرونَهُ واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ ؟! ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلا رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كيفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ثمّ انْظُرْ أنّى يُؤفَكونَ ، قُلْ أَتَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللَّهِ ما لا يَمِلِكُ لكم ضَراً ولا نَفْعاً ، واللَّهُ هوَ السميعُ العليمُ﴾[1] وقد قال لخاتم الرسل : ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لنفسي نَفْعَاً ولا ضَرّاً إلا ما شاءَ اللَّهُ﴾[2] وقال : ﴿قل إني لا أَمْلِكُ لكم ضَرّاً ولا رَشَداً﴾[3] وقال على العموم : ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للناسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ

---

(١) سورة المائدة الآيات (٧٢ - ٧٣) .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

(٣) سورة الجن الآية ٢١ .

لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1] ، وقال : ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ لهُ إلا هُوَ ، وإن يُـرِدْكَ بخَيْرٍ فلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[2] ، وقال : ﴿قُلْ أَرَأيتم مـا تَدعـونَ مِنْ دونِ اللَّهِ إنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفاتُ ضُـرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِي برحمـةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكـاتُ رَحْمَتِهِ ، قُـلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عليهِ يَتَـوَكَّلُ المتـوكلونَ﴾[3] ، وقال صـاحب يس : ﴿وَمالي لا أَعْبُدُ الـذي فَطَرَني وإليهِ تُرْجَعونَ ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دونِهِ آلِهةً إنْ يُرِدْنِ الرّحمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عنّي شَفـاعَتُهُمْ شَيْئاً ولا يُنْقِذونِ ؟! إني إذاً لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ، إني آمنتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعُونِ﴾[4] .

وقوله : ﴿يَدْعُو مِنْ دونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ﴾[5] نفي عام كما في قـوله : ﴿ولا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولا نفعاً﴾[6] . فهو لا يقدر أن يضـر أحداً سـواء عبده أو لم يعبـده ، ولا ينفع أحداً سواء عبده أو لم يعبده ؛ وقول من قال : لا ينفع إن عبد ولا يضر إن لم يعبد بيان لانتفاء الرغبة والرهبة من جهته ؛ بخلاف الرب الذي يكرم عابـديه ، ويـرحمهم ، ويهين من لم يعبـده ويعاقبه .

والتحقيق أنه لا ينفع ولا يضـر مطلقـاً ، فإن الله سبحـانه وسعت رحمتـه كل شيء وهـو ينعم عـلى كثير من خلقـه وإن لم يعبدوه ، فنفعـه للعباد لا يختص بعـابديـه ، وإن كان في هـذا تفصيل ليس هذا موضعه ، وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده ؛ وهو سبحانه الضار النافع : قادر على أن يضر من يشاء ، وإن كان ما ينزله من الضـر بعابديه هو رحمـة في حقهم ، كما قال أيـوب : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أَرْحمُ الـراحمين﴾[7] وقال تعـالى : ﴿وَإنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فلا كاشفَ لهُ إلا هُوَ﴾[8] وقال أيضا لرسوله محمد ﷺ : ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً ولا ضَرّاً إلا ما شاءَ اللَّهُ﴾[9] وقال تعالى : ﴿والصابـرينَ في البَأْسـاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البـأسِ﴾[10] وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من الضر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفـال والمجانـين والبهائم ؛ لما في ذلك من الحكمة والنعمة والرحمة ، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ .
(٢) سورة يونس الآية ١٠٧ .
(٣) سورة الزمر الآية ٣٨ .
(٤) سورة يس الآيات (٤٤ ـ ٤٧) .
(٥) سورة الحج الآية ١٢ .
(٦) سورة طه الآية ٨٩ .
(٧) سورة الأنبياء الآية ٨٣ .
(٨) سورة الأنعام الآية ١٧ .
(٩) سورة يونس الآية ٤٩ .
(١٠) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

فإن المقصود هنا أن نفي الضر والنفع عمن سواه عام لا يجب أن يخص هذا بمن عبده ، وهذا بمن لم يعبده ؛ وإن كان هذا التخصيص حقاً باعتبار صحيح ؛ وجواب من أجاب بأن معناه لا يضر ترك عبادته وضره بعباده أقرب من نفعه مبني على هذا التخصيص .

وإذا كان كذلك فنقول : المنفي قدرة من سواه على الضر والنفع . وأما قوله : (ضره أقرب من نفعه) فنقول أولا : المنفي هو فعلهم بقوله : (ما لا يضره وما لا ينفعه) والمثبت اسم مضاف إليه فإنه لم يقل : يضر أعظم مما ينفع ؛ بل قال : (لمن ضره أقرب من نفعه) والشيء يضاف إلى الشيء بأدنى ملابسة ، فلا يجب أن يكون الضر والنفع المضافان من باب إضافة المصدر إلى الفاعل ، بل قد يضاف المصدر من جهة كونه اسما كما تضاف سائر الأسماء ، وقد يضاف إلى محله وزمانه ومكانه وسبب حدوثه ، وإن لم يكن فاعلا كقوله : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾[1] ولا ريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلق يقتضي الإضافة ، كأنه قيل : لمن شره أقرب من خيره ، وخسارته أقرب من ربحه ؛ فتدبر هذا !

ولو جعل هو فاعل الضر بهذا ، لأنه سبب فيه لا لأنه هو الذي فعل الضرر ، وهذا كقول الخليل عن الأصنام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً مِنَ النَّاسِ ﴾[2] فنسب الإضلال إليهن ، والإضلال هو ضرر لمن أضللنه ، وكذلك قوله : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[3] وهذا كما يقال : أهلك الناس الدرهم والدينار ، وأهلك النساء الأحمران الذهب والحرير ؛ وكما يقال للمحبوب المعشوق الذي تضر محبته وعشقه : إنه عذب هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعثره ؛ وإن كان ذاك المحبوب قد لا يكون شاعراً بحال هذا البتة ، وكذلك يقال في المحسود ؛ إنه يعذب حاسديه وإن كان لا شعور له بهم .

وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ أنه قال : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها ، فتهلككم كما أهلكتهم »[4] فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم : وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها ، وإن كانت مفعولاً بها لا اختيار لها ، فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه : إما لكونه جماداً ، وإما لكونه عبداً مطيعا لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن ، فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر ، لكن هو السبب في دعاء الداعي له ، وعبادته إياه. وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره ، فهذا

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٣ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .

(٣) سورة هود الآية ١٠١ .

(٤) ورد الحديث في : البخاري (كتابة الجزية) وكذلك في كتاب (المغازي والرقاق) ، وانظر مسلم (كتاب الزهد) ، الترمذي (القيامة) ابن ماجه (الفتن) ، ابن حنبل ٤/١٣٧ .

الضر المضاف إليه غير الضر المنفي عنه ، فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدنيا والآخرة .

وإن كان عذاب الآخرة أشد ، فالمشركون الذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدنيا ما جعله الله عبرة لأولي الأبصار قال الله تعالى : ﴿ ذلكَ مِنْ أنباءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنها قائمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ، ولكنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلهتُهُمْ التي يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ مِنْ شيءٍ لمّا جاءَ أمرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غيرَ تَتْبِيبٍ ﴾[1] فبين أنهم لم تنفعهم بل ما زادتهم إلا شرا .

وقد قيل في هذا ، كما قيل في الضر . قيل: ما زادتهم عبادتها ، وقيل : إنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شراً ، وهذا كقوله : ﴿ وَاتَّخذُوا مِنْ دونِ اللهِ آلهةً لِيَكونوا لَهُمْ عِزّاً . كلّا سَيَكفرونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكونونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾[2] والتتبيب : عبر عنه الأكثرون: بأنه التخسير كقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[3] وقيل : التثبير والإهلاك وقيل : ما زادوهم إلا شرا ؛ وقوله : ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلهتُهُمْ التي يَدعُونَ من دونِ اللَّهِ مِنْ شيءٍ لمَّا جَاءَ أمرُ رَبِّكَ وَمَا زادوهُمْ غيرَ تَتْبِيبٍ﴾ [4] فعل ماض يدل على أن هذا كان في الدنيا ؛ وقد يقال بل عذبوا على كفرهم بالله ولو لم يعبدوهم ، فلما عبدوهم مع ذلك ازدادوا بذلك كفراً وعذاباً ، فما زادوهم إلا خسارة وشراً ؛ ما زادوهم ربحاً وخيراً .

---

(١) سورة هود الآيات (١٠٠ ـ ١٠١) .

(٢) سورة مريم الآيات (٨١ ـ ٨٢) .

(٣) سورة المسد الآية ١ .

(٤) سورة هود الآية ١٠١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون(*)

(فصل)

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

في قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾[1] طال الفصل بين أن واسمها وخبرها ، فأعاد (أن) لتقع على الخبر لتأكيده بها ؛ ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعلموا أنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ الله ورسولَهُ فإنَّ لَه نارَ جَهَنَّمَ ﴾[2] لما طال الكلام أعاد (أن) هذا قول الزجاج وطائفة ، وأحسن من هذا أن يقال : كل واحدة من هاتين الجملتين جملة شرطية مركبة من جملتين جزائيتين فأكدت الجملة الشرطية « بأن » على حد تأكيدها في قول الشاعر :

إن من يدخل الكنيسة يوماً يلق فيها جآذراً وظباءً

ثم أكدت الجملة الجزائية بـ « أن » إذ هي المقصودة ، على حد تأكيدها في قوله تعالى : ﴿ والذينَ يُمَسِّكونَ بالكتابِ وأقاموا الصّلاةَ إنّا لا نُضِيعُ أجرَ المصلحينَ ﴾[3] .

ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء ، وتأكيد جملة الجزاء قوله تعالى : ﴿ إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإنَّ الله لا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنينَ ﴾[4] فلايقال في هذا « إن »

(*) مجموع الفتاوى ١٤/٢٧٦ .

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٥ .

(٢) سورة التوبة الآية ٦٣ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٠ .

(٤) سورة يوسف الآية ٩٠ .

أعيدت لطول الكلام ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إنه مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فإنَّ لـهُ جَهَنَّمَ لا يَموتُ فيها ولا يَحْيى ﴾[1] .

ونـظيره : ﴿ أنَّـهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُـوءاً بِجَهالَـةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْـدِهِ وَأَصْلَحَ فَـأنّـهُ غَفـورٌ رَحيمٌ ﴾[2] فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين ، ألا تـرى تأكيـد قولـه : (غفور رحيم) بـ « إن » غير تأكيد ﴿من عمل سوءاً بجهالة فانه غفور رحيم﴾له بـ « أن » ؟ ! وهذا ظاهر لاخفاء به ، وهو كثير في القرآن وكلام العرب .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا كانَ قَوْلَهُمْ إلاّ أَنْ قالوا رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنُـوبَنا ﴾[3] فهـذا ليس من التكـرار في شيء ؛ فإن (قـولهم) خبر (كـان) قدم عـلى اسمها ، و﴿ أنْ قـالوا ﴾ : في تـأويل المصدر ، وهو الاسم فهـما اسم كان وخبـرها ، والمعنى : ومـا كان لهم قـول إلا قول : ﴿ ربنـا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ : ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاّ أنْ قـالوا ﴾[4] والجـواب قول ؛ وتقول : ما لفلان قول إلا قول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » فلا تكرار أصلا .

وأما قوله تعالى : ﴿ وإنْ كـانوا مِنْ قَبْـلِ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسينَ﴾[5] فهي من أشكل ما أورد ، ومما أعضل على الناس فهمها ، فقال كثـير من أهل الإعـراب والتفسير : إنـه على التكرير المحض والتأكيد ، قال الـزمخشري : (من قبله) من بـاب التوكيـد كقولـه تعالى : ﴿ فكانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا في النّارِ خَالِدينَ فِيها ﴾[6] ومعنى التوكيد فيه : الدلالة على أن عهدهم بـالمطر قـد تطاول وبعـد فاستحكم يـأسهم وتمادى إبـلاسهم فكان الاستبشـار بذلـك على قـدر اهتمامهم بذلك . هذا كلامه . وقد اشتمل على دعويين باطلتين :

إحداهما : قوله : إنه من باب التكرير .

والثانية تمثيله ذلك بقوله تعالى : ﴿ فكان عاقبتهمـا أنهما في النـار خالـدين فيها ﴾ فـإن « في » الأولى على حد قولك زيد في الدار : أي حاصل أو كائن ، وأما الثانية فمعمـولة للخلود وهـو معنى آخر غـير معنى مجرد الكـون ، فلما اختلف العامـلان ذكر الحـرفين ، فلو اقتصـر على أحدهما كان من باب الحذف لدلالة الآخر عليه ، ومثل هذا لا يقال لـه تكرار ، ونـظير هذا أن تقول زيد في الدار نائم فيها ، أو ساكن فيها ، ونحوه مما هو جملتان مقيدتان بمعنيين .

---

(١) سورة طه الآية ٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٢ .

(٥) سورة الروم الآية ٤٩ .

(٦) سورة الحشر الآية ١٧ .

وأما قوله : ﴿ من قبل أن ينزل عليهم من قبله ﴾ فليس من التكرار بل تحته معنى دقيق ! والمعنى فيه : وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل هذا النزول لمبلسين ، فهنا قبليتان : قبلية لنزوله مطلقاً ، وقبلية لذلك النزول المعين أن لا يكون متقدماً على ذلك الوقت ، فيئسوا قبل نزوله يأسين : يأساً لعدمه مرئياً ، ويأساً لتأخره عن وقته ؛ فقبل الأولى ظرف اليأس ، وقبل الثانية ظرف المجيء والإنزال .

ففي الآية ظرفان معمولان وفعلان مختلفان عاملان فيهما ، وهما الإنزال والإبلاس ، فأحد الظرفين متعلق بالإبلاس ، والثاني متعلق بالنزول ؛ وتمثيل هذا : أن تقول - إذا كنت معتاداً للعطاء من شخص فتأخر عن ذلك الوقت ثم أتاك به - قد كنت آيساً .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور(*)

قال الشيخ الرباني والصديق الثاني ، إمام الأئمة ومفتي الأمة ، وبحر العلوم وبدر النجوم ، وسند الحفاظ وفارس المعاني والألفاظ ، وفريد العصر وأوحد الدهر ، وشيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام ، وعلامة الزمان وترجمان القرآن، وعلم الزهاد وأوحد العباد ، وقامع المبتدعين وآخر المجتهدين ، البحر الزاخر والصارم الباتر ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر علي بن عبد الله بن تيمية الحراني قدس الله روحه ونور ضريحه ورضي عنه وأرضاه .

فصل

في معان مستنبطة من سورة النور

قال تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لعلّكم تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ففرضها بالبينات والتقدير لحدود الله ، التي من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه ، ومن قرب من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود . وبين فيها فرض العقوبة للزانين : مائة

(*) طبعت سورة النور مفردة عدة طبعات سابقة محققة وغير محققة كما طبعت ضمن مجموع الفتاوى بالسعودية .

واعتمدنا في هذه الطبعة على جميع الطبعات التي ظهرت لهذه السورة واعتبرنا طبعة محمود زايد ، د . عبد المعطي قلعجي أصلاً وقابلنا عليها غيرها ط السعودية وطبعة دار الشعب وأحيانا كنا نرجح ما رآه وخاصة أن طبعة محمود زايد جاء بها فصل كامل ليس من تفسير سورة النور ولا محل لها في السورة ولم يشر إلى المصدر ولا إلى الأصل الذي اعتمد عليه .

جلدة ، وبين فيها فريضة الشهادة على الزنا وأنها : أربع شهادات ، وكذلك فريضة شهادة المتلاعنين . كل منهما يشهد أربع شهادات بالله .

ونهى فيها عن تعدي حدوده في الفروج والأعراض والعورات ، وطاعة ذي السلطان سواء كان في منزله أو في ولايته . ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه . إذ الحقوق نوعان : نوع لله فلا يتعدى حدوده ، ونوع للعباد فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك .

وليس لأحد أن يفعل شيئا في حق غيره إلا بإذن الله وإن لم يأذن المالك ، فإذن الله هو الأصل ، ويأذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه . ولهذا ضمنها الاستئذان في المساكن والمطاعم ، والاستئذان في الأمور الجامعة كالصلاة والجهاد ونحوهما ووسطها بذكر النور الذي هو مادة كل خير وصلاح كل شيء ، وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وعن الصبر على ذلك . فإنه ضياء ؛ فإن حفظ الحدود بتقوى الله ، يجعل الله لصاحبه نوراً كما قال تعالى : ﴿اتَّقُوا الله وآمِنوا برسولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمشونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[١] .

فضد النور الظلمة ، ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال. فقال : ﴿والذينَ كَفَروا أعمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ﴾ إلى قوله : ﴿ ظلماتٌ بعضُها فَوْقَ بعضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لهُ نُوراً فَما لهُ مِنْ نُورٍ﴾[٢] .

وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة ، وظلم العبد نفسه من الظلم . فإن للسيئة ظلمة في القلب ، وسواداً في الوجه ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق . كما روي ذلك عن ابن عباس .

يوضح ذلك أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ، ومثل أعمال الكفار بالظلمة . والإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ! والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان . وبعض فروع الكفر من المعاصي . كما لا يكون مؤمناً إذا كان معه أصل الكفر وبعض فروع الإيمان . ولغض البصر اختصاص بالنور . كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء ؛ فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فذلك الران

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٨ .

(٢) سورة النور الآية ٤ .

الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ على قُلوبِهِمْ مَا كانوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] رواه الترمذي وصححه[2] . وفي الصحيح أنه قال : « إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »[3] والغين حجاب رقيق أرق من الغيم ، فأخبر أنه يستغفر الله استغفاراً يزيل الغين عن القلب ، فلا يصير نكتة سوداء ، كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير ريناً .

وقال حذيفة : إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء . فكلما ازداد العبد إيمانا ازداد قلبه بياضاً فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقاً ، وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد قلبه سواداً فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربداً .

وقال ﷺ : « إن النور إذا دخل القلب انشرح وانفسح قيل : فهل لذلك من علامة يا رسول الله ؟ قال :نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

وفي خطبة الإمام أحمد التي كتبها في كتابه في الرد على الجهمية والزنادقة قال : الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل ، بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه. وكم من ضال تائه حيران قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ؛ فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم نعوذ بالله من شبه المضلين »[4] .

قلت : وقد قرن الله سبحانه في كتابه في غير موضع بين أهل الهدى والضلال ، وبين

---

(١) سورة المطففين الآية ١٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ونص رواية الترمذي كما يلي : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي . . الخ » . وانظر المنذري في الترغيب والترهيب ١٢٩/٣ ، ٥٣/٥ وقال رواه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم ، وانظر ابن ماجه ١٤١٨/٢٢ (كتاب الزهد) .

(٣) أخرجه مسلم في ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار وحديث رقم ٤١ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، وانظر أيضا : مسند أبي داود ١١٣/٢ (كتاب الوتر . باب الاستغفار) ، المسند طبعة الحلبي ٢١١/٤ .

(٤) انظر : عقائد السلف بتحقيق دكتور علي سامي النشار رسالة الرد على الجهمية وشذرات البلاتين من كلمات سلفنا الصالحين تحقيق محمد حامد الفقي ص ٤ .

أهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا كقوله تعالى : ﴿وما يَستوي الأعمى والبصيرُ ولا الظلماتُ ولا النورُ ولا الظلُّ ولا الحَرورُ وما يَستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾ [1] . وقال : ﴿مَثَلُ الفَريقَيْنِ كالأعمى والأصمِّ والبَصِيرِ والسَّمِيعِ﴾ [2] الآية . وقال في المنافقين : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً﴾ [3] الآيات . وقال : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنوا﴾ [4] الآية . وقال : ﴿كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ﴾ [5] والآيات في ذلك كثيرة .

وهذا النور يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده ، يظهر في الآخرة كما قال تعالى : ﴿نورُهُمْ يَسعى بينَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ [6] الآية . فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة كما ذكره في سورة النور عقيب أمره بغض البصر وأمره بالتوبة في قوله : ﴿وَتُوبُوا إلى اللَّهِ جميعاً أيُّها المؤمنونَ لعلّكم تُفْلِحونَ﴾ وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج وما يتعلق بالنساء ، وقال في سورة الحديد : ﴿يومَ تَرَى المؤمنينَ والمؤمناتِ يَسْعَى نورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ الآيات إلى قوله في المنافقين : ﴿مَأواكُمُ النّارُ هيَ مَولاكُمْ وَبِئْسَ المصيرُ﴾ [7] . فأخبر سبحانه : أن المنافقين يفقدون النور الذي كان المؤمنون يمشون به ، ويطلبون الاقتباس من نورهم فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم وبين المؤمنين . كما أن المنافقين لما فقدوا النور في الدنيا كان ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً فلمّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ﴾ [8] .

فقوله تعالى : ﴿الزّانيةُ والزّاني فَاجْلِدوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ﴾ فأمر بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين . وذلك بشهادته على نفسه أو بشهادة المؤمنين عليه . لأن المعصية إذا كانت ظاهرة كانت عقوبتها ظاهرة ، كما جاء في الأثر : « من أذنب سراً فليتب سراً . ومن أذنب علانيةً فليتب علانيةً » [9] وليس من الستر الذي يحبه الله تعالى كما في

(١) سورة فاطر الآية ٢٠ .

(٢) سورة هود الآية ٢٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

(٥) سورة إبراهيم الآية ١ .

(٦) سورة التحريم الآية ٨ .

(٧) سورة الحديد الآيات (١٢ ـ ١٥) .

(٨) سورة البقرة الآية ١٧ .

(٩) قيل هذا من كلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال فيه : فإن من أبدى لنا عورته نقم عليه حد الله تعالى : انتهى من هامش الأصل .

الحديث : « من ستر مسلماً ستره الله »[1] . بل ذلك إذا ستر كان ذلك إقراراً لمنكر ظاهر .

وفي الحديث : « إن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة » فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن . ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة . كما روى ذلك عن الحسن البصري وغيره لأنه لما أعلن ذلك استحق عقوبة المسلمين له . وأدنى ذلك أن يذم عليه لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته . ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية ، أو البدعة لاغتر به الناس وربما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه ، ويزداد أيضا هو جرأة وفجوراً ومعاصي ، فإذا ذكر بما فيه انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته ومخالطته .

قال الحسن البصري أترغبون[2] عن ذكر الفاجر ! اذكروه بما فيه كي يحذره الناس . وقد روي مرفوعاً .

والفجور اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله . ولهذا كان مستحقا للهجر أذا أعلن بدعاً أو معصيةً ، أو فجوراً أو تهتكاً أو مخالطةً لمن هذا حاله بحيث لا يبالي بطعن الناس عليه ، فإن هجره نوع تعزير له . فإذا أعلن السيئات أعلن هجره وإذا أسرّ أسرّ هجره ؛ إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات وهجرة السيئات وهجرة ما نهى الله عنه كما قال تعالى : ﴿والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً﴾[4] . وقال : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الكتابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فلا تَقْعُدوا مَعَهُمْ حَتّى يَخُوضُوا في حديثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ﴾[5] .

وقد روي عن عمر بن الخطاب : أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر ، وذهب به أخوه إلى أمير مصر عمرو بن العاص ليجلده الحدّ . جلده الحدّ سرّاً ، وكان الناس يجلدون علانية ، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو ينكر عليه ذلك ، ولم يعتد عمر بذلك الجلد حتى أرسل إلى ابنه فأقدمه المدينة فجلده الحد علانية ، ولم ير الوجوب سقط بالحد الأول وعاش ابنه بعد ذلك مدة ثم مرض ومات ولم يمت من ذلك الجلد ، ولا ضربه بعد الموت كما يزعمه الكذابون .

---

(١) ورد الحديث في ابن ماجه في باب الستر على المؤمن من كتاب الحدود حديث رقم ٢٥٤٦ وفي اسناده محمد بن عثمان الجمحي وقد ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان .

(٢) في طبعة (ح) : أترعوون .

(٣) سورة المدثر الآية ٥ .

(٤) سورة المزمل الآية ١٠ .

(٥) سورة النساء الآية ١٤٠ .

(فصل)

قوله تعالى : ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ في دِينِ اللَّهِ﴾ الآية نهى تعالى عما يأمر الشيطان في العقوبات عموماً . وفي أمر الفواحش خصوصاً ، فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة ، والرأفة التي يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش ، والرأفة بهم حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الآفة في الدياثة ، وقلة الغيرة ، إذا رأى من يهوى بعض المتصلين به أو يعاشره عشرة منكرة ، أو رأى له محبةً وميلاً وصبابةً وعشقاً ، ولو كان ولده رق به وظن أن هذا من رحمة الخلق ولين الجانب بهم ومكارم الأخلاق . وإنما ذلك دياثة ومهانة ، وعدم دين وضعف إيمان ، وإعانة على ذلك دياثة ومهانة ، وعدم دين وضعف إيمان ، وإعانة على الإثم والعدوان ، وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر . وتدخل النفس به في القيادة التي هي أعظم من الدياثة ، كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران ، والمعاونة لهم على ذلك وكانت في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط ، وفي الباطن منافقة على دين قومها لا تقلي عملهم كما قلاه لوط فإنه أنكره ونهاهم عنه وأبغضه . وكما فعل النسوة اللواتي بمصر مع يوسف فإنهن أَعَنَّ امرأة العزيز على ما دعته إليه من فعل الفاحشة معها ولهذا قال : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إليهِ﴾[1] وذلك بعد قولهن : ﴿إنَّا لَنَرَاهَا في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ .

ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب . فإن الشهوة توجب السكر كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿إنهم لَفي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2] وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : « العَيْنانِ تَزْنِيانِ وَزِناهُما النَّظَرُ »[3] الحديث إلى آخره .

فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث كالنظر والاستمتاع والمخاطبة . ومنهم من يرتقي إلى اللمس والمباشرة . ومنهم من يقبل وينظر . وكل ذلك حرام وقد نهانا الله عز وجل أن تأخذنا بالزناة رأفة ، بل نقيم عليهم الحد ، فكيف بما هو دون ذلك من هجر ؟ وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك ؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقلاهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره .

وذلك أن المحب العاشق وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة ذلك المحبوب

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٣ .

(٢) سورة الحجر الآية ٧٢ .

(٣) ورد الحديث في البخاري عن أبي هريرة في ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٢ ـ باب زنى الجوارح دون الفرج . حديث ٢٣٧٢ ، وفي مسلم (كتاب القدر) . وفي طبعة محمد فؤاد عبد الباقي لصحيح مسلم حديث رقم ٢٠ .

وكلامه ، فليس دواؤه في أن يعطي نفسه محبوبها وشهوتها من ذلك ، لأنه مريض والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه ، فأخذتنا رأفة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعناه على ما يضره أو يهلكه . وعلى ترك ما ينفعه ، فيزداد سقمه فيهلك ، وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض ، فليس الرأفة والرحمة أن يمكن مما يهواه من المحرمات ، ولا يعان على ذلك ولا أن يمكن من ترك ما ينفعه من الطاعات التي تزيل مرضه قال تعالى : ﴿إِنَّ الصلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمنكرِ﴾[1] أي فيها الشفاء ، وأكبر من ذلك . بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً ، مثل الصلاة وما فيها من الاذكار والدعوات وأن يحمى[2] عما يقوي داءه ويزيد علّته . وإن اشتهاه .

ولا يظن الظان أنه إذا حصل له استمتاع بمحرم يسكن بلاؤه . بل ذلك يوجب له انزعاجاً عظيماً ، وزيادةً في البلاء والمرض في المآل فإنه وإن سكن بلاؤه وهدأ ما به عقيب استمتاعه أعقبه ذلك مرضاً عظيماً عسيراً لا يتخلص منه . بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء الذي ترامى به إلى الهلاك والعطب . ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقي .

وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة . يصلح الله بها مرض القلب ، وهي من رحمة الله بعباده ، ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً للعالمينَ﴾[3] . فمن ترك هذه الرحمة النافعة ، لرأفة يجدها بالمريض ؛ فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه وإن كان لا يريد إلا الخير . إذ هو في ذلك جاهل أحمق ، كما يفعله بعض الناس والرجال الجهال بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير ، رأفة بهم فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم .

ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وذوقه ما ذاقوه من قوة الشهوة وبرودة القلب والدياثة . فيترك ما أمر الله به من العقوبة وهو في ذلك من أظلم الناس وأديثهم في حق نفسه ونظرائه . وهو بمنزلة جماعة من المرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم ، فوجد كبيرهم مرارته فترك شربه . ونهى عن سقيه للباقين ، ومنهم من تأخذه الرأفة لكون أحد الزانيين محبوباً له . إما أن يكون محبّاً لصورته وجماله بعشق أو غيره أو لقرابة بينهما أو لمودة ، أو لإحسانه إليه ، أو لما يرجو منه من الدنيا ، أو غير ذلك ، أو لما في العذاب من الألم الذي

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٢) من الحمية التي هي أصل كل دواء .

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

يوجب رقة القلب ، ويتأول « إنّما يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عبادِهِ الرحماءَ » . ويقول الأحمق : الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وغير ذلك ، وليس كما قال بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه . بل قد ورد في الحديث : « لا يدخل الجنة ديوث »[1] فمن لم يكن مبغضاً للفواحش كارهاً لها ولأهلها ولا يغضب عند رؤيتها ، وسماعها لم يكن مريداً للعقوبة عليها فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه .

قال تعالى : ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ في دِينِ اللَّهِ﴾ الآية . فإن دين الله هو طاعته وطاعة رسوله المبني على محبته ومحبة رسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ما لم تكن مضيعة لدين الله .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[2] وقال : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس »[3] وقال « من لا يرحم لا يرحم »[4] . وفي السنن : « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[5] .

فهذه الرحمة حسنة مأمور بها أمر إيجاب أو استحباب ، بخلاف الرأفة في دين الله فإنها منهي عنها والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة ، زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار لما يغار الله منه ، وإن رآه مائلاً إلى الشدة ، زين له الشدة في غير ذات الله ، حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ويتعدى في الشدة فيزيده في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله . فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان ، وهو مذموم مذنب في ذلك ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود ، وهو من إسرافه في أمره ؛ فالأول مذنب والثاني مسرف ﴿واللَّهُ لا يُحِبُّ المسرفينَ﴾[6] فليقولا جميعاً : ﴿رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وإسْرَافَنَا في أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنا وَانْصُرْنَا على القومِ الكافرينَ﴾[7] .

---

(١) ورد الحديث في النسائي في : (كتاب) الزكاة ـ باب المنان بماأعطى عن ابن عمر ، ونصه : ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث . . الخ .

(٢) جزء من حديث طويل عن أسامة بن زيد ، وانظر الحديث رقم ١٥٨٨ سنن ابن ماجه ، وفي البخاري (الجنائز) ، وفي أبي داود (الجنائز) ، ابن ماجة (الجنائز) النسائي (جنائز) ابن حنبل ٥/٢٠٤ .

(٣) ورد الحديث في البخاري (التوحيد) ، مسلم (الفضائل) ، الترمذي (البر) .

(٤) ورد الحديث في : البخاري (الآداب) ، مسلم (الفضائل) ، أبو داود (كتاب الأدب) ، الترمذي (البر) ، وفي ابن حنبل ٢/٢٢٨ .

(٥) ورد الحديث في : أبي داود (كتاب الأدب) ، الترمذي (كتاب البر) .

(٦) سورة الأنعام الآية ١٤١ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٤٧ .

وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنونَ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ﴾ .

فالمؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ما يحبه الله ورسوله وينهى عما يبغضه الله ورسوله ، ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه ، فتارة تغلب عليه الرأفة هوى ، وتارة تغلب عليه الشده هوى ؛ فيتبع ما يهواه في الجانبين بغير هدى من الله ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله فإن الزنا من الكبائر .

وأما النظر والمباشرة فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر ، فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه ، ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل : أن لا يأتي كبيرة ولا يصرّ على صغيرة ، وفي الحديث المرفوع : « لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار »[1] . بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[2] ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان ، والله تعالى إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة ، وعن قوم لوط المشركين والعاشق المتيم يصير عبداً لمعشوقه منقاداً له أسير القلب له .

وقد جمع النبي ﷺ ذكر الحدود إن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فيما رواه أبو داود عن ابن عمر : قال : قال رسول الله ﷺ : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره[3] ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع . ومن قال في مسلم ما ليس فيه حبس في ردغة الخبال[4] حتى يخرج مما قال »[5] فالشافع في تعطيل الحدود مضاد لله في أمره ، لأن الله أمر بالعقوبة على تعدي الحدود فلا يجوز أن تأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصي والظلمة .

وجماع ذلك كله فيما وصف الله به المؤمنين حيث قال : ﴿أَذِلَّةٍ على المؤمنينَ أَعِزَّةٍ على الكافرينَ﴾[6] وقال : ﴿أَشِدّاءُ على الكفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾[7] فإن هذه الكبائر كلها من شعب

---

(١) ورد الحديث في : ابو داود (كتاب الوتر ، الدعوات) ولفظه : ما أصر من استغفر .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

(٣) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب الأقضية) ، ابن حنبل ٢ / ٧٠ .

(٤) قوله ردغة الخبال هي بالغين المعجمة عصارة أهل النار كما جاء مفسراً في الحديث .

(٥) ورد الحديث في أبي داود في (كتاب الاقضية) ، (باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها) .

(٦) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٧) سورة الفتح الآية ٢٩ .

الكفر ، ولم يكن المسلم كافراً بمجرد ارتكاب كبيرة ولكنه يزول عنه اسم الإيمان الواجب كما في الصحاح عنه ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[1] . الحديث إلى آخره ففيهم من نقض الإيمان ما يوجب زوال الرأفة والرحمة بهم . واستحقوا بتلك الشعبة من الشدة بقدر ما فيها .

ولا منافاة بين أن يكون الشخص الواحد يرحم ويحب من وجه ويعذب ويبغض من وجه ، ويثاب من وجه ويعاقب من وجه ، فإن مذهب أهل السنة والجماعة : أن الشخص الواحد يجتمع فيه الأمران خلافاً لما يزعمه الخوارج ونحوهم من المعتزلة ؛ فإن عندهم أن من استحق العذاب من أهل القبلة لا يخرج من النار ، فأوجبوا خلود أهل التوحيد . وقال من استحق العذاب لا يستحق الثواب ، ولهذا جاء في السنة أن من أقيم عليه الحد والعقوبات ولم يأخذ المؤمنين به رأفة أن يرحم من وجه آخر فيحسن إليه ، ويدعى له ، وهذا الجانب أغلب في الشريعة كما أنه الغالب في صفة الرب سبحانه كما في الصحيحين : « إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي »[2] وفي رواية « سبقت غضبي » وقال : ﴿نَبِّىءْ عِبادِي أَنِّي أنا الغفورُ الرحيمُ وأنَّ عذابي هو العذابُ الأليمُ﴾[3] وقال : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شديدُ العقابِ وأنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[4] . فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنى ، وأما العذاب والعقاب فجعلها من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه .

(فصل)

ومن هذا الباب ما أمر الله به من الغلظة على الكفار والمنافقين . فقال تعالى : ﴿يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكفارَ والمنافقينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[5] ، وقال : ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أولياءَ تُلْقُونَ إليهم بالمَوَدَّةِ﴾[6] . الآيات إلى قوله في قصة إبراهيم . ﴿حَتّى تُؤْمِنُوا باللَّهِ وَحْدَهُ﴾[7] . وكذلك آخر المجادلة[8] .

---

(١) ورد الحديث في البخاري : (كتاب المظالم والغضب حديث رقم ٤٦) - (باب النهي بغير إذن صاحبه) حديث الهم ١٢٢٠ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ورد الحديث في البخاري : (كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ حديث ١٥٠٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سورة الحجرة الآية ٤٩ .

(٤) سورة المائدة الآية ٩٨ .

(٥) سورة التوبة الآية ٧٣ .

(٦) الممتحنة الآية ١ .

(٧) سورة الممتحنة الآية ٤ .

(٨) يقصد قوله تعالى : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو . . ﴾ إلى آخر الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن الحسن عن حطان بن عبد الله عن عبادة بن الصامت : « أن النبي ﷺ قال : « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[1] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد أنه ﷺ : « اختصم إليه رجلان فقال أحدهما : يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله ، وائذن لي في أن أتكلم قال : تكلم ، قال : إن ابني عسيفاً[2] على هذا وإنه زنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة ووليدة وإني سألت أهل العلم فقالوا على ابنك جلد مائة وتغريب عام فقال النبي ﷺ : لأقضين بينكما بكتاب الله أما المائة شاة والوليدة فردٌّ عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغدُ (يا أنيس) على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها »[3] .

فهذه المرأة أحد من رجمها النبي ﷺ ، ورجم أيضا اليهوديين على باب مسجده ، ورجم ماعز بن مالك ، ورجم الغامدية ، ورجم غير هؤلاء .

وهذا الحديث يوافق ما في الآية من بيان السبيل الذي جعله الله لهن : وهو جلد مائة وتغريب عام في البكر ، وفي الثيب الرجم ، لكن الذي في هذا الحديث هو الجلد والنفي للبكر من الرجال .

وأما الآية ففيها ذكر الإمساك في البيوت للنساء خاصة ، ومن فقهاء العراق من لا يوجب من الحد تغريباً ، ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة . كما أن أكثرهم لا يوجبون مع رجم جلد مائة ومنهم من يوجبهما جميعاً كما فعل علي بسراحة الهمدانية حيث جلدها ثم رجمها وقال : « جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة نبيه »[4] .

وعن أحمد في ذلك روايتان وهو سبحانه ذكر في سورة النساء ما يختص بالنساء من العقوبة بالإمساك في البيوت إلى الممات أو إلى جعل السبيل . ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال : ﴿ واللذانِ يَأْتِيَانِهَا منكم فَآذُوهُما ﴾[5] ، فإن الأذى يتناول الصنفين ، وأما الإمساك فيختص بالنساء فالنساء يؤذين ويحبسن بخلاف الرجال فإنه لم يأمر فيهم بالحبس . لأن المرأة يجب أن

---

(١) ورد الحديث : في مسلم (كتاب الحدود) ، وفي أبي داود (كتاب الحدود) ، والترمذي (الحدود) ، ابن ماجه (حدود) ابن حنبل ٤٧٦/٢ .

(٢) عسيفا : أجيرا .

(٣) وأخرجه أيضا الإمام مالك في الموطأ مع اختلاف يسير جدا (باب الإقرار بالزنا) الحديث رقم ٦٩٥ صفحة ٢٤٢ من طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . وفي البخاري (كتاب الحدود ، الوكالة) ، والترمذي (الحدود) ، وفي مسلم : (الحدود) ، أبو داود (الحدود) ، النسائي (القضاء) ، ابن ماجه (الحدود) .

(٤) ورد هذا الحديث في البخاري : في (كتاب الحدود ـ باب رجم المحصن) حديث رقم ٢٥١٣ ، عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : وهو في المسند رقم ٨٣٩ طبعة دار المعارف . برواية مختلفة .

(٥) سورة النساء الآية ١٦ .

تصان وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل ، ولهذا حصلت بالاحتجاب وترك إبداء الزينة وترك التبرج ؛ فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت ما لا يجب في حق الرجل ، لأن ظهور النساء سبب الفتنة ، والرجال قوامون عليهن .

وقوله : ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أربعةً مِنْكُمْ ﴾[1] دل على شيئين :

على أن نصاب الشهادة على الفاحشة أربعة .

وعلى أن الشهداء بها على نسائنا يجب أن يكونوا منا . فلا تقبل شهادة الكفار على المسلمين وهذا لا نزاع فيه ، وإنما النزاع في قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض ، وفيه قولان عند أحمد ، أشهرهما عنده وعند أصحابه أنها لا تقبل كمذهب مالك والشافعي ، والثانية أنها تقبل اختارها أبو الخطاب من أصحاب أحمد ، وهو قول أبي حنيفة ، وهو أشبه بالكتاب والسنة .

وقد قال النبي ﷺ : « لا تجوز شهادة أهل ملة على أهل ملة إلا أمتي فإن شهادتهم تجوز على من سواهم »[2] فإنه لم ينف شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض ولكن فيه بيان أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم لقوله تعالى : ﴿ وكذلكَ جَعَلْناكُمْ أمةً وَسَطاً لِتكونوا شُهَداءَ على الناسِ ﴾[3] . وفي آخر الحج مثلها[4] :

وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال هل بلغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيقال لنوح : من يشهد لك فيقول : محمد وأمته ، فيؤتى بكم فتشهدون أنه بلغ »[5] . وكذلك في الصحيحين من حديث أنس في شهادتهم عن تلك الجنازتين ، وأنهم أثنوا على إحداهما خيراً وعلى الأخرى شرّاً فقال : « أنتم شهداء الله في أرضه »[6] الحديث .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥ .

(٢) لم أقف على هذا الحديث .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

(٤) يشير بذلك إلى قوله تعالى من سورة الحج : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس . . ﴾ إلى آخر الآية رقم ٧٧ .

(٥) أخرجه البخاري في : (كتاب الأنبياء) ـ باب قول الله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، حديث رقم ١٥٧٨ ، وفي ابن حنبل ٢/ ٢١٠ .

(٦) أخرجه البخاري في : (كتاب الجنائز ـ باب ثناء الناس على الميت) ، حديث رقم ٧٢٣ . وكذلك ورد الحديث في مسلم (كتاب الجنائز) وحديث رقم ٦٠ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي وانظر في الجزء الثاني من دقائق التفسير .

ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة ، بخلاف أهل البدع والأهواء كالخوارج والروافض ، فإن بينهم من العدواة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التي جعلها الله لأهل السنة . قال النبي ﷺ فيهم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » .

وقد استدل من جوز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية في المائدة وهي قوله : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا شَهَادةُ بَيْنِكُمْ إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ حينَ الوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ منكم أو آخرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾[1] الآية . ثم قال من أخذ بظاهر هذه الآية من أهل الكوفة : دلت هذه الآية على قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين ، فيكون في ذلك تنبيه ودلالة على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولى ، ثم نسخ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى . والتنبيه على الأقوى .

وهذه الآية الدالة على نصوص الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف في العمل بهذه الآية وما يوافقها من الحديث أوجه وأقوى[2] فإن مذهبه قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر ، لأنه موضع ضرورة فإذا جازت شهادتهم لغيرهم فعلى بعضهم أجوز وأجوز .

ولهذا يجوز في الشهادة للضرورة ما لا يجوز في غيرها . كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجل ، حتى نص أحمد على قبول شهادتهن في الحدود التي تكون في مجامعهن الخاصة ، مثل : الحمامات والعرسان ونحو ذلك ، فالكفار الذي لا يختلط بهم المسلمون أولى أن تقبل شهادة بعضهم على بعض إذا حكمنا بينهم ، والله أمرنا أن نحكم بينهم ، والنبي ﷺ رجم الزانيين من اليهود من غير سماع إقرار منها ولا شهادة مسلم عليهما ، ولولا قبول شهادة مضت سنة النبي ﷺ بذلك وسنة خلفائه .

ثم إن في تولي مال بعضهم بعضاً نزاعاً فهل يتولى الكافر العدل في دينه مال ولده الكافر ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره ، والصواب المقطوع به : أن بعضهم أولى ببعض ، وقد نصت سنة النبي ﷺ بذلك وسنة خلفائه .

وقوله تعالى : ﴿ فآذوهما ﴾ أمر بالأذى مطلقاً ولم يذكر كيفيه صفته ولا قدره بل ذكر أن يجب إيذاؤهما ، ولفظ الأذى يستعمل في الأقوال كثيراً كقوله : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلا

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٦ .

(٢) في الأصل : وأقوال .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في ٨٦ ـ كتاب الحدود ٢٤ ـ باب الرجم في البلاط ـ حديث رقم ٧٠٤ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

أذىً ﴾[1] ، وقوله : ﴿ إنّ الذينَ يُؤْذُونَ الله ورسولَهُ ﴾[2] . ﴿ إن الذين يُؤذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بغيرِ ما اكْتَسَبُوا ﴾[3] . ﴿ ومنهمُ الذينَ يُؤذونَ النبيَّ ﴾[4] .

وقول النبي ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله »[5] ونظائر ذلك كثيرة ذكرناها في كتاب الصارم المسلول : وهكذا كما قال ﷺ في شارب الخمر « عاقبوه وآذوه » ، وقال : « فَإنْ تابا وأَصْلَحا فأَعْرِضُوا عنهما »[6] والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء ، فالمذنب لا يزال يؤذى وينهى ويوعظ ويوبخ ويغلظ له في الكلام إلى أن يتوب ويطيع الله ، وأدنى ذلك هجره فلا يكلم بالكلام الطيب كما هجر النبي ﷺ المؤمنين الثلاثة الذين خلفوا حتى ظهرت توبتهم وصلاحهم[7] .

وهذه آية محكمة لا نسخ فيها فمن أتى الفاحشة من الرجال والنساء فإنه يجب إيذاؤه بالكلام الزاجر له عن المعصية إلى أن يتوب ، وليس ذلك محدوداً بقدر ولا صفة . إلا ما يكون زاجراً له ، داعياً إلى حصول المقصود وهو توبته وصلاحه .

وقد علقه تعالى على هذين الأمرين التوبة والإصلاح ؛ فإذا لم يوجد فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجوداً . فيؤذى ، والآية دلت على وجوب الإيذاء للذين يأتيان الفاحشة منا ، ودلت على وجوب الإعراض عن الأذى في حق من تاب وأصلح ، فأما من تاب بترك فعل الفاحشة ولم يصلح فقد تنازع الفقهاء ، هل يشترط في قبول التوبة صلاح العمل ، على قولين في مذهب أحمد وغيره وهذه تشبه قوله تعالى : ﴿ فإذا انْسَلَخَ الأشهرُ الحُرُمُ فَاقْتُلوا المشركينَ حيثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾[8] إلى قوله : ﴿ فإن تابُوا وأقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ . فأمر بقتالهم ثم علق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح . وهو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكف عنهم . ثم إن صلّوا وزكّوا ، وإلا عوقبوا بعد ذلك على ترك الفعل لأن الشارع في التوبة شرع الكف عن أذاه . ويكون الأمر فيه موقوفاً على التمام . وكذلك التائب من الفاحشة يشرع الكف عن أذاه إلى أن يصلح فإن أصلح وجب الإعراض عن أذاه وإن لم يصلح لم يجب الكف عن أذاه بل يجوز أو يجب أذاه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١١ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ٦١ .

(٥) ورد الحديث في البخاري : (كتاب الأدب ، التوحيد) ، وفي مسلم (كتاب المنافقين) ، ابن حنبل ٤/٩٥ .

(٦) سورة النساء الآية ٦ .

(٧) ذكر القرآن قصتهم في سورة براءة .

(٨) سورة التوبة الآية ٥ .

وهذه الآية مما يستدل بها على التعزير بالأذى ، والأذى وإن كان يستعمل كثيراً في الكلام في مرتكب الفاحشة فليس هو مختصاً به كما قال النبي ﷺ لمن بصق القبلة : « إنك قد آذيت الله ورسوله »[1] ، وكذلك قال في حق فاطمة ابنته : « يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها »[2] . وكذلك قال لمن أكل الثوم والبصل : « إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم »[3] ، وقال لصاحب السهام : « خذ بنصالها لئلا تؤذي أحداً من المسلمين »[4] . وقد قال تعالى : ﴿ فإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحديثٍ إنّ ذلكم كانَ يُؤذِي النبيَّ ﴾[5] .

فصل

وقوله تعالى : ﴿ فَإنْ تابا وأَصْلَحا ﴾[6] هل يكون من توبته اعترافه بالذنب ؟ فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحد إقراره أو ثبت بشهادة شهود . هل يعد بذلك تائبا ، فيه نزاع . فذكر الإمام أحمد ، أنه لا توبة لمن جحد . وإنما التوبة لمن أقر وتاب ، واستدل بقصة علي بن أبي طالب : أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة ، فاعترف منهم ناس فتابوا . فقبل توبتهم . وجحد منهم جماعة فقتلهم . وقد قال النبي ﷺ لعائشة : « إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه »[7] .

فمن أذنب سرّاً فليتب سرّاً ، وليس عليه أن يظهر ذنبه كما في الحديث « من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله »[8] . وفي الصحيح : كل أمتي معافى إلا المجاهدين وإن من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله عليه فيكشف ستر الله عنه »[9] . فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة . ومع

---

(١) ورد الحديث في : أبو داود : (كتاب الصلاة ـ باب في كراهية البزاق في المسجد) حديث رقم ٤٨١ عن أبي سهلة الشائب بن خلاد ، وفي البخاري (كتاب الرهن) والجهاد والمغازي ، وفي مسلم (الجهاد) .

(٢) ورد الحديث في البخاري في (كتاب النكاح ـ باب ذب الرجل على ابنته في الغيرة والإنصاف) حديث رقم ٥٣٨ عن المسعد بن مخرمة ، وفي مسلم (فضائل الصحابة) ، أبو داود (كتاب النكاح) ، الترمذي (المناقب) ، ابن ماجه (النكاح) ، ابن حنبل ٤/٥٥ .

(٣) ورد في مسلم في (كتاب المساجد) ، حديث رقم ٧٤ طبعة محمد عبد الباقي ، والحديث عن جابر بن عبد الله .

(٤) ورد الحديث في : مسلم (البر) ، أبو داود (الجهاد) ، النسائي (المساجد) ، ابن ماجه (المقدمة) ، ابن حنبل ٣/٢٠٨ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٦) سورة النساء الآية ١٦ .

(٧) أخرجه البخاري في (كتاب المغازى ـ باب حديث الإفك) حديث رقم ١٢٦٦ عن عائشة ، وفي أبو داود (الصلاة) ، مسلم (التوبة) ، ابن حنبل ٦/١٩٤ .

(٨) ورد الحديث في الموطأ في (كتاب الحدود) رقم ١٢ طبعة محمد عبد الباقي وبرقم ٦٩٨ صفحة ٢٤٤ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عن يزيد بن أسلم . والحديث مرسل عند جميع رواة الموطأ ، كما قال ابن عبد البر .

(٩) أخرجه البخاري في (كتاب الأدب ـ باب ستر المؤمن على نفسه) حديث رقم ٢٣٢٥ عن أبي هريرة ، وفي مسلم (كتاب الزهد) .

الجحود لا تظهر التوبة . فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب ، ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو فجوراً . فإن هذا أظهر حال الضالين ، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم ، ومن أذاه منعه مع القدرة من الإمامة والحكم والفتيا والرواية والشهادة . وأما بدون القدرة ، فليفعل المقدور عليه .

(فصل)

وقوله : ﴿ واللذانِ يَأْتِيانِها منكم فَآذُوهُما ﴾ فأمر بإيذائهما ، ويعلق ذلك على استشهاد أربعة ، كما علق ذلك في حق النساء وإمساكهن في البيوت ولم يأمر به هنا كما أمر به هناك ، وليس هذا من باب حمل المطلق على المقيد . لأن ذلك لا بد أن يكون فيه الحكم واحداً ، مثل الإعتاق ؛ فإذا كان الحكم متفقاً في الجنس دون النوع كإطلاق الأيدي في التيمم ، وتقييدها في الوضوء إلى المرافق ، وإطلاق ستين مسكيناً في الإطعام ، وتقييد الإعتاق بالإيمان مع أن كليهما عبادة مالية يراد بها نفع الخلق ، وفي ذلك نزاع بين العلماء ولم يحمل المسلمون من الصحابة والتابعين المطلق على المقيد في قوله : ﴿ وَأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَرَبائِبُكُمْ اللاتي في حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمْ اللاتي دَخَلْتُمْ بهنَّ ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤكُمْ مِنَ النساءِ إلا ما قَدْ سَلَفَ ﴾ [2] . قال الصحابة والتابعون وسائر أئمة الدين : الشرط في الربائب خاصة ، وقالوا : أبهموا ما أبهم الله . والمبهم هو المطلق . والمشروط فيه هو المؤقت المقيد ؛ فأمهات النساء وحلائل الآباء والأبناء يحرمن بالعقد ، والربائب لا يحرمن إلا إذا دخل بأمهاتهن ، لكن تنازعوا : هل الموت كالدخول ؟ على قولين في مذهب أحمد ، وذلك أن الحكم مختلف ، والقيد ليس متساوياً في الأعيان . فإن تحريم جنس ليس مثل تحريم جنس آخر يخالفه ؛ كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير ، أن يكون مسفوحاً ، وهنا القيد كون الربيبة مدخولاً بأمها والدخول بالأم لا يوجد مثله في الحليلتين وأم المرأة ، إذ الدخول في الحليلة بها نفسها وفي أم المرأة ببنتها .

كذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد في نصب الشهادة . بل لما ذكر الله في آية الدين : ﴿ رَجُلَيْنِ أَوْ رَجُلاً وَامْرأَتَيْنِ ﴾ [3] ، وفي الرجعة ﴿ رَجُلَيْنِ ﴾ [4] أقروا كلا منهما على حاله . لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع . واختلاف السبب يؤثر في نصاب

---

(١) سورة النساء الآية ٢٣ .

(٢) سورة النساء الاية ٢٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٤ .

(٤) سورة الطلاق الآية ٢ .

الشهادة ، وكما في إقامة الحد في القذف بها اعتبر فيه أربعة شهداء ، فلا يقاس بذلك عقود الأيمان والأبضاع .

وذكر في حد القذف ثلاثة أحكام : جلد ثمانين ، وترك قبول شهادتهم أبداً ، وأنهم فاسقون ، ﴿ إلا الذينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلكَ وأَصْلَحُوا فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ ﴾ [1] ، وإن التوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف ، وترفع الفسق بلا تردد . وهل ترفع المنع من قبول الشهادة ؟ فأكثر العلماء قالوا : ترفعه .

وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة بين الناس لم يرجم ، لما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه لما ذكر حديث الملاعنة وقول النبي ﷺ : « إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها . وإن جاءت به يشبه الرجل الذي رماها به فقد صدق عليها » [2] فجاءت به على النعت المكروه ، فقال النبي ﷺ : « لولا الأيمان لكان لي شأن » فقيل لابن عباس أهذه التي قال فيها رسول الله ﷺ : « لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها » [3] فقال : لا ، تلك امرأة كانت تعلن السوء في الإسلام . فقد أخبر انه لا يرجم أحداً إلا ببينة ولو ظهر عن الشخص السوء .

ودل هذا الحديث على أن الشبه له تأثير في ذلك ، وإن لم تكن بينة ، وكذلك ثبت عنه أنه لما مر عليه بتلك الجنازة فأثنوا عليه خيراً إلى آخره قال : أنتم شهداء الله في أرضه [4] . وفي المسند عنه أنه قال : « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار . قيل : يا رسول الله وبم ذلك ، قال : بالثناء الحسن والثناء السيء » [5] فقد جعل الاستفاضة حجة وبينة في هذه الأحكام ولم يجعل حجة في الرجم .

وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر . عند أحمد ، وكذلك شهادة الصبيان في الجراح إذا أدوها قبل التفرق ، في إحدى الروايتين ، وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة والصبي في لحاف ، أو في بيت مرحاض ، أو رآهما مجردين أو محلولي السراويل ، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك ، من وجود اللحاف قد خرج عن العادة

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٩ .

(٢) ورد في البخاري في (كتاب التفسير ـ سورة النور ـ باب ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين) حديث رقم ١٢٩٦ ، عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٣) ورد الحديث في البخاري (كتاب التمني والطلاق ، الحدود) ، وفي مسلم (كتاب اللعان) ، والنسائي (الطلاق) ، وابن ماجة (الحدود) ، وفي ابن حنبل ٢٢٦/١ .

(٤) ورد في البخاري (كتاب الجنائز ـ باب ثناء الناس على الميت) ، حديث رقم ٧٢٣ ، وانظر مسلم في (كتاب الجنائز ـ حديث ٦٠) طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، وفي ابن ماجة (كتاب الزهد) ، وفي ابن حنبل ٤١٦/٢ .

(٥) ورد الحديث في ابن حنبل ٤١٦/٣ .

إلى مكانها أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره فرآه فأطفأه فإن إطفاءه دليل على استخفائه بما يفعل ، فإذا لم يكن ما يستخفي به إلا ما شهد به الشاهد . كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به .

فهذا الباب باب عظيم النفع في الدين . وهو مما جاءت به الشريعة التي أهملها كثير من القضاة والمتفقهة ، زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا ، أو إقرار مسموع . وهذا خلاف ما تواترت به السنة وسنة الخلفاء الراشدين . وخلاف ما فطرت عليه القلوب التي تعرف المعروف وتنكر المنكر ، ويعلم العقلاء أن مثل هذا لا تأباه سياسة عادلة فضلاً عن الشريعة الكاملة ، ويدل عليه . قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ [(١)] . ففي الآية دلالات : إحداها قوله : ﴿ إنْ جَاءَكُم فاسق بنبأ فتَبَيَّنُوا ﴾ فأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ . بل من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين ، ومنها ما يباح فيه ترك التبين ، ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس ، لأنه علل الأمر بأنه إذا جاءنا فاسق بنبأ خشية أن نصيب قوماً بجهالة . فلو كان كل ما أصيب بنبأ كذلك ، لم يحصل الفرق بين العدل والفاسق . بل هذه الأدلة واضحة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهي عنها مطلقاً . وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات ، فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك . فإنها نزلت في إخبار واحد بأن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقض العهد .

وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت . فتجوز إصابة القوم وعقوبتهم بخبر الفاسق مع قرينة إذا تبين بها الأمور . فكيف خبر الواحد العدل مع دلالة أخرى ؟ ولهذا كان أصح القولين أن مثل هذا لوث في باب القسامة فإذا انضاف إيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه ، وقوله : ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ فجعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور . وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال : ﴿ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وَهُمْ يَعلمُونَ ﴾ [(٢)] وقال : ﴿ وَلَا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [(٣)] ، وأيضاً فإنه علل ذلك بخوف الندم . والندم إنما يحصل على عقوبة البريء من الذنب كما في سنن أبي داود « ادرؤوا الحدود بالشبهات فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة » [(٤)] فإذا دار الأمر بين أن يخطىء

---

(١) سورة الحجرات الآية ٦ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٦ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

(٤) أخرجه الترمذي في (كتاب الحدود ـ باب ما جاء في درء الحدود) عن عائشة ونصه : (ارؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم . .) الخ .

فيعاقب بريئاً ، أو يخطىء فيعفو عن مذنب ، كان هذا الخطأ خير الخطأين أما إذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنباً فإنه لا يندم ولا يكون فيه خطأ والله أعلم .

(فصـــل)

وقد ذكر الشافعي وأحمد أن التغريب جاء في السنة في موضعين : أحدهما أن النبي ﷺ قال في الزاني إذا لم يحصن : « جلد مائة وتغريب عام » [1] ، والثاني نفي المخنثين فيما روته أم سلمة : « أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها : إن فتح الله لك الطائف غداً ، أدلك على ابنة غيلان . فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . قال النبي ﷺ : « أخرجوهم من بيوتكم » [2] » (رواه الجماعة إلا الترمذي) [3] ، وفي رواية في الصحيح « لا يدخلن هؤلاء عليكم » وفي رواية « أرى هذا يعرف مثل هذا لا يدخلن عليكم بعد اليوم » [4] .

قال ابن جريج : المخنث هو هيت . وهكذا ذكره غيره . وقد قيل إنه هنب . وزعم بعضهم إنه ماتع وقيل : هوان .

وروى الجماعة إلا مسلماً « أن النبي ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، وقال : أخرجوهم من بيوتكم ، وأخرجوا فلاناً وفلاناً يعني المخنثين » [5] وقد ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة : بهم وهيت وماتع على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى إنما كان تخنيثهم ليناً في القول ، وخضاباً في الأيدي والأرجل كخضاب النساء . ولعباً كلعبهن .

(هل يقتل المخنث أم يغرب)

وفي سنن أبي داود عن أبي يسار القرشي عن أبي هاشم عن أبي هريرة : « أن النبي ﷺ أتى بمخنث وقد خضب رجليه ويديه بالحناء فقال ما بال هذا فقيل يا رسول الله يتشبه بالنساء

---

(١) ورد في موطأ مالك رقم ٦٩٩ من طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . ورد الحديث في البخاري (كتاب الشهادات، الصلح)، وفي مسلم (الحدود) ، الترمذي (الحدود) ، النسائي (القضاء) ، ابن ماجة (الحدود) ، الدارمي (الحدود) ، ابن حنبل ٤٧٦/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب اللباس ـ باب اخراج المتشبهين بالنساء من البيوت) حديث رقم ١٩٢٧ .

(٣) ما بين القوسين ليس بالأصل ، وزيد من نسخة (س) .

(٤) ورد الحديث في البخاري (النكاح) وبمعناه في مسلم (السلام) ، وفي الموطأ (كتاب النداء ، والوصية) .

(٥) ورد الحديث في البخاري (كتاب اللباس ، الحدود) ، الترمذي (كتاب الأدب) ، الدارمي (كتاب الاستئذان) ، ابن حنبل ٢٩٥/١ .

فأمر به فنفي إلى النقيع فقيل يا رسول الله ألا نقتله ، فقال : إني نهيت عن قتل المصلين »[٢] . قال أبو أسامة (هو) حماد بن أسامة . والنقيع ناحية عن المدينة وليس بالبقيع .

وقيل إنه الذي حماه النبي ﷺ لإبل الصدقة ، ثم حماه عمر وهو على عشرين فرسخاً من المدينة ، وقيل عشرين ميلاً : ونقيع الخضمات : موضع آخر قرب المدينة .

وقيل هو الذي حماه عمر ، والنقيع موضع يستنقع فيه الماء كما في الحديث « أول جمعة جمعت بالمدينة في نقيع الخضبات » .

فإذا كان النبي ﷺ قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه والاستمتاع به وبما يشاهدونه من محاسنه وفعل الفاحشة الكبرى به شر من هؤلاء ، وهو أحق بالنفي من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم ، فإن المخنث فيه إفساد للرجال والنساء ، لأنه إذا تشبه بالنساء فقد تعاشره النساء ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدهن ، ولأن الرجال إذا مالوا إليه فقد يعرضون عن النساء ، ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هي وتتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين ، وقد تختار هي مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال .

وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به كما يفعل بالنساء بمشاهدته ومباشرته وعشقه ، فإذا أخرج من بين الناس وسافر إلى بلد آخر ساكن فيه الناس ووجد هناك من يفعل به الفاحشة ، فهنا يكون نفيه بحبسه في مكان واحد ليس فيه غيره ، وإن خيف خروجه فإنه يقيد إذ هذا هو معنى نفيه وإخراجه من بين الناس .

ولهذا تنازع العلماء في نفي المحارب من الأرض : هل هو طرده بحيث لا يأوي في بلد ، أو حبسه أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا ، ففي مذهب أحمد ثلاث روايات الثالثة أعدل وأحسن ، فإن نفيه بحيث لا يأوي في بلد لا يمكن لتفرق الرعية واختلاف هممهم بل قد يكون بطرده يقطع الطريق ، وحبسه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤنة طعام وشراب وحارس ولا ريب أن النفي أسهل إن أمكن . وقد روي « أن هيتا لما اشتكى الجوع أمره النبي ﷺ أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقيته إلى الجمعة الأخرى » .

ومعلوم أن قوله ﴿ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾ لا يتضمن نفيه من جميع الأرض وإنما هو نفيه من بين الناس ، وهذا حاصل بطرده وحبسه ، وهذا الذي جاءت به الشريعة من النفي هو

---

(١) ورد الحديث في مسند أبي داود (كتاب الأدب) .

(٢) سورة المائدة الآية ٣٣ .

نوع من الهجرة أي هجره وليس هذا كنفي الثلاثة الذين خلفوا [1] ولا هجره كهجرهم فإنه منع الناس من مخالطتهم ومخاطبتهم حتى أزواجهم ولم يمنعهم من مشاهدة الناس وحضور مجامعهم في الصلاة وغيرها .

وهذا من النفي المشروع فإن النفي المشروع مجموع من الأمرين ، وذلك أن الله خلق الآدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضاً على مصلحة دينهم ودنياهم ، فمن كان بمخالطته للناس لا يحصل منه عون على الدين ، بل يفسدهم ويضرهم في دينهم ودنياهم استحق الإخراج من بينهم ، وذلك أنه مضرة بلا مصلحة ، فإن مخالطته لهم فيها فسادهم وفساد أولادهم ، فإن الصبي إذا رأى صبياً مثله يفعل شيئاً تشبه به وسار بسيرته مع الفساق ، فإن الاجتماع بالزناة واللوطيين فيه أعظم الفساد والضرر على النساء والصبيان والرجال فيجب أن يعاقب اللوطي والزاني بما فيه تفريقه وإبعاده .

(فصل)

وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها وكذلك هجران الدعاة إلى البدع وهجران الفساق ، وهجران من يخالط هؤلاء كلهم أو يعاونهم وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه فإنه يعاقب بهجرهم له لما لم يعاونهم على البر والتقوى ، فالزناة واللوطية وتاركو الجهاد وأهل البدع وشربة الخمر هؤلاء كلهم ومخالطتهم مضرة على دين الإسلام وليس فيهم معاونة لا على بر ولا تقوى ، فمن لم يهجرهم كان تاركاً للمأمور فاعلاً للمحظور ، فهذا ترك المأمور من الاجتماع وذلك فعل المحظور منه . فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه ، فإن العقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور ، كما قال الفقهاء ، إنما يشرع التعزير في معصية ليس فيها حد ، فإن كان فيها كفارة فعلى قولين في مذهب أحمد وغيره .

قال : وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير ذلك فإنه يفعل منه بحسب الاستطاعة ، فإذا لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين فإنه يجاهد من يقدر على جهاده ، وكذلك إذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين فإنه يعاقب من يقدر على عقوبته ، فإذا لم يمكن النفي والحبس عن جميع الناس كان النفي والحبس على حسب القدرة ، مثل أن يحبس بدار لا يباشر إلا أهلها لا يخرج منها أو أن لا يباشر إلا شخصاً أو شخصين ، فهذا هو الممكن فيكون هو المأمور به ، وإن أمكن أن يجعل في مكان قد قل فيه القبيح ولا يعدم

(١) يشير ابن تيمية بذلك إلى حديث كعب بن مالك الذي رواه البخاري في (كتاب التفسير ـ سورة التوبة ١٨ ـ باب : وعلى الثلاثة الذين خلفوا) حديث ١٣٢ .

بالكلية كان ذلك هو المأمور به ، فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فالقليل من الخير خير من تركه ودفع بعض الشر خير من تركه كله ، وكذلك المرأة المتشبهة بالرجال تحبس شبيهاً بحالها إذا زنت سواء كانت بكراً أو ثيباً فإن جنس الحبس مما شرع في جنس الفاحشة .

ومما يدخل في هذا أن عمر بن الخطاب نفى نصر بن حجاج من المدينة ومن وطنه إلى البصرة لما سمع تشبيب النساء به وتشبهه بهن ، وكان أولاً قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الذي كان يفتن به النساء ، فلما رآه بعد ذلك من أحسن الناس وجنتين غمه ذلك فنفاه إلى البصرة ، فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها ، لكن كان في النساء من يفتتن به ، فأمر بإزالة جماله الفاتن فإن انتقاله عن وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب ، وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه وليس من باب المعاقبة وقد كان عمر ينفي في الخمر إلى خيبر زيادة في عقوبة شاربها .

(فصل)

ومن أقوى ما يهيج الفاحشة إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالأصوات المطربة ، فإن المغني إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش ، فعندما يهيج مرضه ، ويقوى بلاؤه ، وإن كان في عافية مع ذلك جعل فيه مرضاً ، كما قال بعض السلف : الغناء رقية الزنا ، ورقية الحية هي ما تستخرج بها الحية من جحرها ، ورقية العين والحمة هي ما تستخرج به العافية ، ورقية الزنا هو ما يدعو إلى الزنا ويخرج من الرجل هذا الأمر القبيح والفعل الخبيث كما أن الخمر أم الخبائث ، قال ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » وقال تعالى لإبليس ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَشَارِكْهُمْ في الأَمْوَالِ والأولَادِ ﴾ [1] واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء ، كما قال من السلف وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك ، فإن هذه الأصوات كلها توجب انزعاج القلب والنفس الخبيثة إلى ذلك وتوجب حركتها السريعة ، واضطرابها حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة ، والنفس متحركة فإن سكنت فبإذن الله وإلا فهي لا تزال متحركة ، وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس لا تزال تتحرك عليه ، وفي الحديث المرفوع : « القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً » . وفي الحديث الآخر « مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض تحركها الريح » [2] وفي

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٤ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٠٨/٤ ، وانظر تحقيق الحديث في الجزء الثاني .

صحيح البخاري عن سالم عن ابن عمر : قال : « كانت يمين رسول الله ﷺ لا ومقلب القلوب » [(١)] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي ﷺ يقول : « اللهم مصرف القلوب أصرف قلوبنا إلى طاعتك » [(٢)] وفي الترمذي عن أبي سفيان قال « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قال ، فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ، قال : نعم القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء » [(٣)] .

(فصل)

وقوله تعالى : ﴿ الزّاني لا يَنْكِحُ إلا زَانِيةً أَوْ مُشْرِكةً والزّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلكَ على المؤمِنِينَ ﴾ لما أمر الله تعالى بعقوبة الزانيين ، حرم مناكحتهما على المؤمنين هجراً لهما ولما معهما من الذنوب والسيئات ، كما قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [(٤)] وجعل مجالس ذلك المنكر مثله بقوله تعالى : ﴿ إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ ﴾ [(٥)] وهو زوج له قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الذينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [(٦)] أي عشراءهم وقرناءهم وأشباههم ونظراءهم ، ولهذا يقال : المستمع شريك المغتاب .

ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر وكان فيهم جليس لهم صائم فقال ابدؤوا به في الجلد ، ألم تسمع الله يقول : ﴿ فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ [(٧)] فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم المنكر ، يكون مجالسهم مثلاً لهم ، فكيف بالعشرة الدائمة ، والزوج يقال له العشير كما في الحديث ، من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ : « قال : رأيت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن قيل يكفرن بالله قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان » [(٨)] . فأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك .

---

(١) أخرجه البخاري في (كتاب الأيمان والنذور ـ باب كيف كانت يمين النبي ﷺ) حديث رقم ٢٤٨٧ .

(٢) أخرجه مسلم في (كتاب القدر) ، انظر حديث ١٧ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي عن عبد الله ، عمرو بن العاص ، وفي ابن حنبل ١٦٨/٢ .

(٣) أخرجه الترمذي في (كتاب القدر ـ باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن) عن أنس ، وفي ابن ماجه (كتاب الدعاء) : وفي ابن حنبل ١٨٢/٤ .

(٤) سورة المدثر الآية ٥ .

(٥) سورة النساء الآية ١٤٠ .

(٦) سورة الصافات الآية ٢٢ .

(٧) سورة النساء الآية ١٤٠ .

(٨) ورد الحديث بلفظ أريت : في البخاري (كتاب الإيمان) ، (كتاب الحيض ـ باب ترك الحائض الصوم) حديث ٢١٥ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفي (كتاب النكاح ـ بلفظ : فإذا عامة أهلها . . .) .

أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها .

وأما الزاني ففجوره يدعوه إلى ذلك ، وإن لم يكن مشركاً ، وفي الآية دليل على أن الزانيْ ليس بمؤمن مطلق الإيمان . وإن لم يكن كافراً مشركاً كما في الصحيح : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح إلا زانية أو مشركة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذلكَ على المؤمِنِينَ ﴾ نعلم أن الإيمان يمنع من ذلك ويزجر . وأن فاعله إما مشرك وإما زان ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك ، وذلك أن الزانية فيها إفساد فراش الرجل ، وفي مناكحتها معاشرة الفاجرة دائماً ومصاحبتها . والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه ، وهذا المعنى موجود في الزاني ، فإن الزاني إن لم يفسد فراش امرأته كان قرين سوء لها كما قال الشعبي : من زوّج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها ، وهذا مما يدخل به على المرأة ضرر في دينها ودنياها ، فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش ، ونكاح الزاني أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم على المرأة فتبقى المرأة الحرة العفيفة في أسر الفاجر الزاني الذي يقصر في حقوقها ويتعدى عليها .

ولهذا اتفق الفقهاء على اعتبار الكفاءة في الدين وعلى ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة ، واختلفوا في صحة النكاح بدون ذلك ، وهما قولان مشهوران في مذهب أحمد وغيره ، فإن من نكح زانية مع أنها تزني فقد رضي بأن يشترك هو وغيره فيها ورضي لنفسه بالقيادة والدياثة ! ومن نكحت زانياً وهو يزني بغيرها فهو لا يصون ماءه حتى يضعه فيها بل يرميه فيها وفي غيرها من البغايا . فهي بمنزلة الزانية المتخذة خدناً ، فإن مقصود النكاح حفظ الماء في المرأة وهذا الرجل لا يحفظ ماءه ، والله سبحانه شرط في الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين فقال : ﴿ وأُحِلَّ لَكُمْ ما وَرَاءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَموالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ [1] وهذا مما لا ينبغي إغفاله فإن القرآن قد نصه وبينه بياناً مفروضاً قال تعالى : ﴿ سُورةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ .

فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم . وفيه آثار عن السلف . وإن كان الفقهاء قد تنازعوا فيه وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه .

(فصل)

وقد ادعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ والمحصَناتُ مِنَ النِّسَاءِ إلاّ ما

---

(١) سورة النساء الآية ٢٤ .

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (٢) البغي من المحصنات وتلك الآيات حجة عليهم فإن أقل ما في الإحصان العفة إذا اشترط فيه الحرية فذاك تكميل للعفة والإحصان ، ومن حرم نكاح الأمة لئلا يرق ولده ؟ ، كيف يبيح البغي التي تلحق به من ليس بولده وأين فساد فراش مع رق ولده ؟ وكذلك من عزم أن النكاح هنا هو الوطء : والمعنى أن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا يطؤها إلا زان . وكذلك من وطئها زان فإن ذم الزاني بفعله الذي هو الزنا حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كان العقوبة للزاني دون قرينه وهذه المسألة مبسوطة في كتب الفقه .

والمقصود قوله : ﴿الزّاني لا يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فإن هذا يدل على أن الزاني لا يتزوج إلا زانية أو مشركة : وأن ذلك حرام على المؤمنين ، وليس هذا لمجرد كونه فاجراً ، بل لخصوص كونه زانياً ، وكذلك في المرأة ليس لمجرد فجورها ، بل لخصوص زناها بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً ، كما جعل الزوج زانياً إذا تزوج زانية ، هذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنا . وإذا كانا مشركين ، فينبغي أن يعلم ذلك . ومضمونه أن الرجل الزاني لا يجوز إنكاحه حتى يتوب . وذلك بأن يوافق اشتراطه الإحصان والمرأة إذا كانت زانية لا تحصن فرجها عن غير زوجها بل يأتيها هو وغيره كان الزوج زانياً هو وغيره يشتركون في وطئها كما تشترك الزناة في المرأة الواحدة ، ولهذا يجب عليه نفي الولد الذي ليس منه . فمن نكح زانية فهو زان ، أي تزوجها . ومن نكحت زانياً فهي زانية ، أي تزوجته . فإن كثيراً من الزناة قصروا أنفسهم على الزواني ، فتكون المرأة خدناً وخليلاً له لا يأتي غيرها ، فالرجل إذا كان زانياً لا يعف امرأته وإذا لم يعفها تشوقت هي إلى غيره فزنت به كما هو الغالب على نساء الزواني أو من يلوط بالصبيان فإن نساءه يزنين ليقضين أربهن ووطرهن ويراغمن أزواجهن بذلك، حيث لم يعفوا أنفسهم عن غير أزواجهم ، فهن أيضاً (لم) (٢) يعففن أنفسهن من غير أزواجهن ، ولهذا يقال : « عفوا تعف نساؤكم وأبناؤكم وبروا آباءكم » فإن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان .

ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها . فإن الرجل إذا رضي أن ينكح زانية ، رضي أن تزني امرأته ، والله تعالى قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة ، فأحدهما يحب لنفسه ما يحب للآخر ، فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانياً فقد رضيت عمله . وكذلك إن رضي الرجل أن ينكح زانية فقد رضي عملها . ومن رضي الزنا كان بمنزلة الزاني ، فإن أصل الفعل هو الإرادة ولهذا جاء في الأثر « من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها أو فعلها » (٣) : وفي الحديث :

---

(١) سورة النساء الآية ٢٤ .

(٢) لم : ليست في الأصل وزيدت من نسخة (س) .

(٣) أخرجه أبو داود في (كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي) حديث ٤٣٤٥ عن العرس بن عميرة الكندي .

« المرء على دين خليله »[1] وأعظم الخلة خلة الزوجين ، وأيضاً فإن الله قد جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته أعظم من غيرته على نفسه أن يزني ، فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغياً وهو ديوث كيف يكره أن يكون هو زانياً ، ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعف عن الزنا ، فإن الزاني له شهوة في نفسه والديوث ليس له شهوة في زنا غيره ، فإذا لم يكن معه إيمان يكره به زنا غيره بزوجته ، كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنا .

فمن استحل أن يترك امرأته تزني استحل أعظم الزنا ، ومن أعان على ذلك فهو كالزاني ، ومن أقر على ذلك مع إمكان تغييره فقد رضيه ، ومن تزوج غير تائبة فقد رضي أن تزني ، إذ لا يمكنه منعها من ذلك فإن كيد النساء عظيم ، ولهذا جاز للرجل إذا اتت امرأته بفاحشة مبينة ان يعضلها[2] لتفتدي نفسها منه وهو نص أحمد وغيره لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه ، فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب ، ولا يسقط المهر بمجرد زناها كما دل عليه قول ﷺ للملاعن لما قال : مالي قال : « لا مال لك عندها إن كنت صادقاً عليها فهو بما اسحللت من فرجها ، وإن كنت كاذباً عليها فهو أبعد لك »[3] لأنها إذا زنت قد تتوب لكن زناها يبيح له إعضالها حتى تفتدي منه نفسها إن اختارت فراقه أو تتوب .

(فصل)

وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته إلا اذا أعجبه ذلك الغير ، فلا يزال يزني بما يعجبه فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة التي لا هي أيم ولا ذات زوج ، فيدعوها ذلك إلى الزنا ، ويكون الباعث لها على ذلك مقابلة زوجها على وجه القصاص مكايدة له ومغايظة ، فإنه ما لم يحفظ غيبها لم تحفظ غيبه ، ولها في بضعه حق كما له في بضعها حق ، فإذا كان من العادين لخروجه عما أباح الله له لم يكن قد أحصن نفسه ، وأيضاً فإن داعية الزاني تشتغل بما يختاره من البغايا فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة ولا غيرته كافية في إحصانه المرأة فتكون عنده كالزانية المتخذة خدناً وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها .

وعلى هذا فالمرأة المساحقة زانية ، كما جاء في الحديث « سحاق النساء زنا بينهن »[4]

---

(١) أخرجه الترمذي في (كتاب الزهد) .

(٢) يعضلها : يحبسها ، وأصل العضل من قولهم : عضلت الناقة اذا احتبس ولدها فلم يسهل خروجه ، وأمر معضل أي صعب .

(٣) أخرجه البخاري في (كتاب الطلاق ـ باب المتعة التي لم يفرض لها) عن ابن عمر ، حديث ٢١٦٣ ، وفي مسلم (كتاب اللعان) ، وأبو داود (كتاب النكاح) ، الترمذي (النكاح) ، النسائي (اللعان) ، الدارمي (نكاح) ، الموطأ (اللعان) ، ابن حنبل ٥١١/٢ .

(٤) لم أقف عليه .

والرجل الذي يعمل قوم لوط بمملوك أو غيره هو زان ، والمرأة الناكحة له زانية فلا تنكحه إلا زانية أو مشركة ولهذا يكثر في نساء اللوطية من تزني بغير زوجها وربما زنت بمن يتولط هو به مراغمة له وقضاء لوطرها ، وكذلك المرأة المزوجة بمخنث ينكح كما تنكح هي ، متزوجة بزان بل هو أسوأ الشخصين حالاً ، فإنه مع الزنا صار مخنثاً ملعوناً على نفسه للتخنيث ، غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط ، وثبت عنه في الصحيح أنه لعن المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء وقال : « أخرجوهم من بيوتكم »[1] وكيف يجوز للمرأة أن تتزوج بمخنث قد انتقلت شهوته إلى دبره فهو يؤتي كما تؤتي المرأة ، وتضعف داعيته من أمامه ، كما تضعف داعية الزاني بغير امرأته وغيرها ، ولهذا يوجد من كان مخنثاً ليس له كبير غيرة على ولده ومملوكه ومن يكفله .

والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطي كانت على دينه ، فتكون زانية وأبلغ ، فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه ، فإذا رضيت من زوجها رضيته من نفسها .

ولفظ هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿الزَّاني لا يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً﴾ الآية يتناول هذا كله إما بطريق عموم اللفظ ، أو بطريق التنبيه ، وفحوى الخطاب الذي هو أقوى من مدلول اللفظ ، وأدنى ذلك أن يكون بطريق القياس ، كما قد بيناه في حد اللوطي ونحوه والله أعلم .

(فصل)

وقوله تعالى : ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ .

فأخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين ، فلا تكون خبيثة لطيب ، فإن ذلك خلاف الحصر . فلا تنكح الزانية الخبيثة إلا زانياً خبيثاً ، وأخبر أن الطيبين للطيبات ، فلا يكون الطيب لأمرأة خبيثة ، فإن ذلك خلاف الحصر إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين ، فلا تبقى خبيثة لطيب ولا طيب لخبيثة .

وأخيراً إن جميع الطيبات للطيبين ، فلا تبقى طيبة لخبيث فجاء الحصر من الجانبين موافقاً لقوله : ﴿الزّاني لا يَنْكِحُ إلاّ زانيةً أو مشركةً والزانيةُ لا يَنْكِحُها إلاّ زانٍ أو مشركٌ وَحُرِّمَ ذلكَ على المؤمنينَ﴾ .

ولهذا قال من قال من السلف : ما بغت امرأة نبي قط فإن هذه السورة نزل صدرها بسبب أهل الإفك وما قالوه في عائشة ، ولهذا لما قيل فيها ما قيل وصارت شبهة ، واستشار النبي ﷺ من استشاره في طلاقها قبل أن تنزل براءتها إذ لا يصلح له أن تكون امرأته غير

(١) اخرجه البخاري في (كتاب الحدود ـ باب نفي أهل المعاصي والمختثين) حديث ٢٢٨٩ ، عن ابن عباس رضي الله عنه .

طيبة ، وقد روي « أنه لا يدخل الجنة ديوث »[1] والديوث الذي يقر السوء في أهله .

ولهذا كانت الغيرة على الزنا مما يحبها الله ، وأمر بها ، حتى قال النبي ﷺ : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه والله أغير مني »[2] من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولهذا أذن الله للقاذف إذا كان زوجها أن يلاعن فيشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين ، وجعل ذلك يدفع عنه حد القذف كما لو أقام على ذلك أربع شهود لأنه محتاج إلى قذفها لأجل ما أمر الله به من الغيرة ، ولأنها ظلمته بإفساد فراشه ، وإن كانت قد حبلت من الزنا فعليه اللعان ، لينفي عنه النسب الباطل ، لئلا يلحق به ما ليس منه .

(فصــل)

وقد مضت سنة النبي ﷺ بالتفريق بين المتلاعنين سواء حصلت الفرقة بتلاعنهما ، أو احتاجت إلى تفريق الحاكم ، أو حصلت عند انقضاء لعان الزوج ، لأن أحدهما ملعون أو خبيث ، فاقترانهما بعد ذلك يقتضي مقارنة الخبيث الملعون للطيب ، وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين : « حديث المرأة التي لعنت ناقة لها فأمر النبي ﷺ فأخذ ما عليها وأرسلت وقال لا تصحبنا ناقة ملعونة »[3] وفي الصحيحين عنه أنه لما اجتاز بديار ثمود قال « لا تدخلوا على المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لئلا يصيبكم ما أصابهم »[4] فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب .

وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي ، لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ، ولا يخالطهم ، إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ماقتاً شانئاً ما هم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[5] وقال تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً للذينَ آمَنوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾[6] الآية ، وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار ، وذلك أن مقارنة الفجار إنما

---

(١) ورد الحديث في النسائي (كتاب الزكاة ـ باب المنان إذا أعطى) .

(٢) ورد في في البخاري في (كتاب النكاح ـ باب الغيرة) ، وفي (كتاب الحدود) ، مسلم (كتاب اللعان) ، الدارمي (كتاب النكاح) ، ابن حنبل ٣٤٨/٤ .

(٣) ذكره مسلم في (كتاب البر والصلة والآداب) حديث رقم ٨٠ من طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، وفي ابن حنبل ٤٢٠/٤ .

(٤) ذكره البخاري في (كتاب الصلاة ـ باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب) ، وفي مسلم (كتاب الزهد) ، وفي ابن حنبل ٩/٣ .

(٥) ورد في مسلم ٣٩/١ (كتاب الإيمان) ، وفي أبي داود (الملاحم) ، وفي سنن الترمذي (الرؤيا) ، النسائي (الإيمان) ، ابن حنبل ٥٤/٣ .

(٦) سورة التحريم الآية ١١ .

يفعلها المؤمن في موضعين : أحدهما أن يكون مكرها عليها ، والثاني أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة ، أو أن يكون في تركهـا مفسدة راجحـة في دينه فيـدفع أعـظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصل المصلحة الراجحية باحتمال المفسدة المرجوة .

وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدنـاهما وهـو الأمر الـذي أكره عليـه قال تعـالى : ﴿إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بـالإيمانِ﴾[1] . وقـال تعالى : ﴿وَلا تُكْـرِهُوا فَتياتِكُمْ على البِغَاءِ﴾ ثم قال : ﴿وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فإنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنَّ غفورٌ رَحِيمٌ﴾[2] .

وقـال تعالى : ﴿إنّ الـذينَ تَوَفَّـاهُمُ الملائكـةُ ظالِمي أَنْفُسِهِمْ قَـالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَـالُوا كُنّـا مُسْتَضْعَفِينَ في الأرضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أرضُ اللَّهِ واسع فَتُهاجِـرُوا فِيها فـأولئكَ مَـأواهُمْ جَهَنّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً إلاّ المستضعفينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْـدانِ لا يَستطيعـونَ حِيلةً ولا يَهتدون سَبيـلًا فأولئـكَ عَسَى اللَّهُ أنْ يَعْفُـوَ عَنْهُمْ وكـانَ اللَّهُ عَفُـوّاً غَفُـوراً﴾[3] . وقـال : ﴿مَـالَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللَّهِ والمستضعفينَ من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ﴾[4] .

فقد دلت هذه الآية على النهي عن مناكحة الـزاني ، والمناكحـة نوع خـاص من المعاشـرة والمزاوجة والمقارنة والمصاحبة ، ولهذا سمي كل منهـما زوجاً وصـاحباً وقـريناً وعشيـراً للآخـر ، والمناكحة في أصل اللغة المجامعة والمضامة فقلوبهما تجتمع إذا عقد العقد بينهما ، ويصير بينهما من التعاطف والتراحم ما لم يكن قبل ذلك حتى تثبت بذلك حرمـة المصاهـرة في غير الـربيبة لمجرد ذلك في التوارث وعدة الوفاة وغير ذلك ، وأوسط ذلك اجتماعهما خـاليين في مكـان واحد وهـو المعاشرة المقررة للصداق ، كما قضى به الخلفاء ، وآخر ذلك اجتماع المباضعة وهذا وإن اجتمع بـدون عقد نكـاح فهو اجتمـاع ضعيف بل اجتمـاع القلوب أعظم من مجرد اجتماع البـدنـين بالسفاح .

ودل قـوله : ﴿الـطّيِّباتُ للطَّيِّبِينَ﴾ عـلى ذلك من جهـة اللفظ ودل أيضا عـلى النهي عن مقارنة الفجار ومزاوجتهم كما دل على هذا غير ذلك من النصوص مثل قوله : ﴿احْشُرُوا الـذينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُمْ﴾[5] أي وأشباههم ونظراءهم ، والزوج أعم من النكاح المعروف قال تعالى :

(١) سورة النحل الآية ١٠٦ .

(٢) سورة النور الآية ٣٣ .

(٣) سورة النساء الآيات (٩٧ ـ ٩٨) .

(٤) سورة النساء الآية ٧٥ .

(٥) سورة الصافات الآية ٢٢ .

﴿يهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثاً وَيَهبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وإناثاً﴾[1] وقال : ﴿وَإذا النفوسُ زُوِّجَتْ﴾[2] وقال : ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ﴾[3] وقال : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ﴾[4] وقال : ﴿جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[5] وقال : ﴿وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً﴾[6] . ﴿قُلْنا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[7] وقال : ﴿إنّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ﴾[8] وإن كان في الآية نصاً في الزوجة التي هي الصاحبة وفي الولد منها فمعنى ذلك في كل مشابه ومقارن ومشارك وفي كل فرع وتابع ﴿الحمدُ للّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾[9] : و ﴿تَبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقانَ على عَبْدِهِ لِيَكُونَ للعالمينَ نَذِيراً الذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلكِ وخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[10] .

فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله : ويدل على ذلك الحديث الذي في السنن « لا تصاحبْ إلا مؤمناً ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقي »[11] وفيها « المرء على دين خليله فلينظرْ أحدكم من يخالل »[12] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ثم إن زنت فليجلدها الحد ثم إن زنت فليبعها ولو بضفير »[13]، وشك الراوي هل أمر ببيعها في الثالثة أو الرابعة وهذا أمر من النبي ﷺ ببيع الأمة بعد إقامة الحد عليها مرتين أو ثلاثا ولو بأدنى مال ، قال الإمام أحمد إن لم يبعها كان تاركاً لأمر النبي ﷺ .

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٠ .

(٢) سورة التكوير الآية ٧ .

(٣) سورة الحج الآية ٢٥ . بهيج أي كريم حسين ، وأبهجني : اذا أعجبني .

(٤) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٥) سورة الرعد الآية ٣ .

(٦) سورة النبأ الآية ٨ .

(٧) سورة هود الآية ٤٠ .

(٨) سورة التغابن الآية ١٤ .

(٩) سورة الإسراء الآية ١١١

(١٠) سورة الفرقان الآية ٢ .

(١١) أخرجه الترمذي في (كتاب الزهد ـ باب ما جاء في صحبة المؤمن) عن أبي سعيد الخدري ، وفي أبي داود (كتاب الأدب) ، الدارمي (أطعمه) ، ابن حنبل ٣/٣٨ .

(١٢) أخرجه الترمذي في (كتاب الزهد ـ باب حدثنا محمد بن بشار عن ابن هريرة) ، ولفظه (الرجل على دين خليله) .

(١٣) ورد الحديث في البخاري (كتاب العتق ـ باب كراهية التطاول على الرقيق) حديث رقم ١٠٨٨ و١٠٨٩ عن أبي هريرة وزيد بن خالد ، وأخرجه مسلم في (كتاب الحدود) حديث رقم ٣٢ و٣٣ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي .

والإماء اللاتي يفعلن هذا تكون عامتهن للخدمة لا للتمتع فكيف بأمة التمتع وإذا وجب إخراج الأمة الزانية عن ملكه فكيف بالزوجة الزانية ، والعبد والمملوك نظير الأمة ، ويدل على ذلك كله ما رواه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ : « أنه لعن من أحدث حدثا أو آوى محدثا » (١) فهذا يوجب لعنة كل من آوى محدثا سواء كان إحداثه بالزنا أو السرقة أو غير ذلك وسواء كان الإيواء بملك يمين أو نكاح أو غير ذلك لأن أقل ما في ذلك تركه إنكار المنكر .

(فصـــل)

والمؤمن محتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه بنكاح وغيره قال تعالى : ﴿ إذا جَاءَكُمُ المؤمناتُ مهاجراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بإيمانِهِنَّ ﴾ الآية(٢) ، وكذلك المرأة التي زنى بها الرجل فإنه لا يتزوج بها إلا بعد التوبة في أصح القولين كما دل عليه الكتاب والسنة والآثار ، لكن إذا أراد أن يمتحنها هل هي صحيحة التوبة أم لا فقال عبد الله بن عمر وهو المنصوص عن أحمد أنه يراودها عن نفسها فإن أجابته لم تصح توبتها وإن لم تجبه فقد تابت ، وقالت طائفة هذا الامتحان فيه طلب الفاحشة منها وقد تنقض التوبة وقد تأمره نفسه بتحقيق فعل الفاحشة ويزين لهما الشيطان ذلك ولا سيما إن كان يحبها وتحبه وقد تقدم له معها فعل الفاحشة مرات وذاقته وذاقها ، فقد تنقض التوبة ولا تخالفه فيما أراده منها ومن قال بالأول قال : الأمر الذي يقصد به امتحانها لا يقصد به نفس الفعل فلا يكون أمراً بما نهى الله عنه ، ويمكنه أن لا يطالب الفاحشة بل يعرض بها وينوى شيئا آخر والتعريض للحاجة جائز بل واجب في مواضع كثيرة . وأما نقضها توبتها فإذا جاز أن تنقض التوبة معه جاز أن تنقضها مع غيره ، والمقصود أن تكون ممتنعة من غيره ممن يراودها ، فإذا لم تكن ممتنعة منه لم تكن ممتنعة من غيره وأما تزيين الشيطان له الفعل ، فهذا داخل في كل أمر يفعله الإنسان من الخير يجد فيه محنته فإذا أراد الإنسان أن يصاحب أحداً وقد ذكر عنه الفجور وقيل إنه تاب منه ، أو كان ذلك مقولاً عنه سواء كان ذلك القول صدقا أو كذبا فإنه يمتحنه ، بما يظهر به بره أو فجوره وصدقه أو كذبه .

وكذلك إذا أراد أن يولي أحداً ولاية امتحنه كما أمر عمر بن عبد العزيز غلامه أن يمتحن ابن أبي موسى لما أعجبته سمته فقال له : قد علمت مكاني عند أمير المؤمنين فكم تعطيني إذا

---

(١) ورد الحديث أيضا في البخاري (كتاب فضائل المدينة ـ باب حرم المدينة) حديث رقم ٩٥ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) سورة الممتحنة الآية ١٠ .

أشرت عليه بولايتك ؟ فبذل له مالاً عظيماً ، فعلم عمر أنه ليس ممن يصلح للولاية .

وكذلك في المعاملات وكذلك الصبيان والمماليك الذين عرفوا أو قيل عنهم الفجور وأراد الرجل أن يشتريه بأنه يمتحنه ، فإن المخنث كالبغي وتوبته كتوبتها ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس ، وتارة تكون بالجرح والتعديل ، وتارة تكون بالاختبار والامتحان .

(فصـــل)

وكما عظم الله الفاحشة عظم ذكرها بالباطل وهو القذف فقال بعد ذلك ﴿ وَالِذينَ يَرْمُونَ المحصَناتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بأربعةِ شُهَدَاء فَاجْلِدوهُمْ ثمانِينَ جلدةً ﴾ .

ثم ذكر رمي الرجل امرأته وما أمر فيه من التلاعن ثم ذكر قصة أهل الإفك وبين ما في ذلك من الخير للمقذوف المكذوب عليه ، وما فيه من الإثم للقاذف ، وما يجب على المؤمنين إذا سمعوا ذلك أن يظنوا بإخوانهم المؤمنين الخير ، ويقولون : هذا إفك مبين لأن دليله كذب ظاهر ، ثم أخبر أنه قول بلا حجة ، فقال : ﴿ لَوْلا جَاؤُوا عليهِ بأربعةِ شُهَدَاءِ فإذا لَمْ يَأْتُوا بالشهداءِ فأولئكَ عندَ اللهِ هُمُ الكاذبونَ ﴾ .

ثم أخبر أنه لولا فضله عليهم ورحمته لعذبهم بما تكلموا به .

وقوله : ﴿ إذ تُلْقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

فهذا بيان لسبب العذاب وهو تلقي الباطل بالألسنة والقول بالأفواه وهما نوعان محرمان القول بالباطل ، والقول بلا علم .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قَلْتُمْ ما يكونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بهذا سُبْحَانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ ﴾ فالأول تحضيض على الظن الحسن ، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف ، ففي الأول قوله ﴿ اجْتَنِبُوا كثيراً مِن الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[1] ويقول النبي ﷺ « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »[2] وقوله : ﴿ ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتِ بأنفسِهِمْ خَيْراً ﴾ دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به « وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لعائشة : « ما أظن فلاناً وفلاناً يدريان من أمرنا هذا شيئاً »[3] ، فهذا يقتضي جواز بعض الظن كما احتج البخاري بذلك ، لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر ، وفي الآية نهي عن تلقي مثل هذا باللسان ، ونهي

---

(١) سورة الحجرات الآيات ١١ .

(٢) ورد الحديث في البخاري (كتاب الوصايا ـ باب قول الله تعالى : من بعد وصية توصون بها أو دين) .

(٣) ورد في البخاري في (كتاب الأدب ـ باب ما يكون من الظن) حديث رقم ٢٣٣٤ عن عائشة .

عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[1] والله تعالى جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ما لم يجعله في شيء من المعاصي ، لأنه جعل فيها الرجم ، وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط ، وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة ، والرمي بغيرها فيه الاجتهاد ، ويجوز عند العلماء أن يبلغ الثمانين عند كثير منهم ، كما قال علي : « لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري » . وكما قال عبد الرحمن بن عوف : إذا شرب هذى وإذا هذى افترى وحد الشرب ثمانون وحد المفتري ثمانون .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يُحِبُّون أنْ تَشِيعَ الفاحِشةُ في الذينَ آمَنوا لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرةِ ﴾ الآية ، وهذا ذم لمن يحب ذلك وذلك يكون بالقلب فقط ويكون مع ذلك باللسان والجوارح ، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبة لوقوعها في المؤمنين إما حسداً أو بغضاً ، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها فكل من أحب فعلها ذكرها .

وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يرغب فيها ، وكذلك ذكرها غيبة محرمة سواء كان بنظم أو نثر ،وكذلك التشبه بمن يفعلها منهي عنه مثل الأمر بها فإن الفعل يطلب بالأمر تارة وبالإخبار تارة ، فهذان الأمران للفجرة الزناة اللوطية . مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين ، أولئك يعتبرون من الغيرة بهم ، وهؤلاء يعتبرون من الاغترار ، فإن أهل الكفر والفسق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به بهم فيهم قدوة وأسوة ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الحَديثِ لِيُضِلَّ عِنْ سَبيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً ﴾[2] قيل أراد الغناء[3] وقيل أراد قصص الملوك من الفرس .

(فصـــل)

وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها عن معصيته من خير أو أمر فهو من طاعته وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن طاعته فهو من معصيته ، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة مثل النهي عنها وعنهم والذم لها ولهمْ وذكر ما يبغضها وينفر عنها وذكر أهلها مطلقا حيث يسوغ ذلك وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم ، فهذا كله حسن يجب تارة ويستحب أخرى ، وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها من العشق

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

(٢) سورة لقمان الآية ٦ .

(٣) سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » فقال : الغناء والذي لا إله الا هو يرددها ثلاث مرات حالفا بالله .

على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه ، والبغض لما يبغضه ، وهذا كما أن الله قص علينا في القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين ، وقصص الفجار والكفار لنعتبر بالأمرين فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم ، وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر الفاحشة وعلائلها على وجه الذم ما فيه عبرة : قال تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالمينَ ﴾[1] . إلى آخر القصة في مواضع من كتابه فهذا لوط خاطب أهل الفاحشة وهو رسول الله بتقريعهم بها بقوله ﴿ أتاتون الفاحشة ﴾ وهذا استفهام إنكار ، ونهي إنكار ذم ونهي كالرجل يقول للرجل أتفعل كذا وكذا أما تتقي الله ثم قال : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهوةً مِنْ دُونِ النِّساءِ ﴾ وهذا استفهام ثان فيه من الذم والتوبيخ ما فيه وليس هذا من باب القذف واللمزة .

وكذلك قوله ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسَلِينَ ﴾[2] إلى آخر القصة فقد واجههم بذمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة ، ثم إن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه ، وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى ، حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنث ، فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا ، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب : وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف ﴿ وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[3] وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله ﴿ ما بَالُ النِّسوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[4] . وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهار النفوس عن معصية الله والتمسك بالتقوى وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عَبْرَةٌ لأُولي الألبابِ ﴾[5]

ومع هذا ، فمن الناس والنساء من يحب سماع هذه السورة لما فيها من ذكر العشق ، وما يتعلق به لمحبته لذلك ورغبته في الفاحشة ، حتى إن من الناس من يقصد إسماعها للنساء وغيرهن لمحبتهم للسوء ، ويعطفون على ذلك ولا يختارون أن يسمعوا ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك ، حتى قال السلف : كلما حصلته في سورة يوسف أنفقته في سورة

(١) سورة النمل الآية ٥٤ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٦٠ .

(١) سورة يوسف الآيات (٢٣ ـ ٣٤) .

(٤) سورة يوسف الآية ٥٠ .

(٥) سورة يوسف الآية ١١١ .

النور . وقد قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ للمؤمنينَ ﴾[1] ثم قال : ﴿ وَلا يَزِيدُ الظالمينَ إلاّ خَساراً ﴾ وقال : ﴿ وَإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إيماناً فأمّا الذينَ آمَنوا فَزادَتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وأَمّا الذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كَافِرونَ ﴾[2] فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة ، ويبغض سماع ذلك إعراضا عن دفع هذه المحبة وإزالتها فهو مذموم .

ومن هذا الباب ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب في معصية الله وصدّ عن سبيل الله .

ومن هذا الباب سماع كلام أهل البدع والنظر في كتبهم لمن يضره ذلك ويدعوه إلى سبيلهم وإلى معصية الله ، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات ، والله تعالى ذم هؤلاء في مثل قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً ﴾[3] وفي قوله : ﴿ وَالشُّعَراءُ يَتْبَعُهُمُ الغاوُونَ ﴾[4] ومثل قوله : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ ﴾[5] الآية وما بعدها : ومثل قوله ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾[6] وقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرونَ ﴾[7] ومثل قوله : ﴿ وَإنْ يَرَوْا سبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبيلاً وَإنْ يَرَوْا سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبيلاً ﴾[8] ومثل قوله : ﴿ وَإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ﴾[9] الآية .

ومثل هذا كثير في القرآن ، فأهل المعاصي كثيرون في العالم بل هم أكثر كما قال تعالى : ﴿ وَإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ﴾[10] الآية : وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولاً وعملاً ما لا يعلمه إلا الله ، وأهلها يدعون الناس إليها ويقهرون من يعصيهم ويزينونها لمن يطيعهم ، فهم أعداء الرسل وأندادهم فرسل الله يدعون

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٢ .
(٢) سورة التوبة الآية ١٢٤ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١١٢ .
(٤) سورة الشعراء الآية ٢٢٤ .
(٥) سورة الشعراء الآية ٢٢١ .
(٦) سورة لقمان الآية ٦ .
(٧) سورة المؤمنون الآية ٦٧ .
(٨) سورة الأعراف الآية ١٤٦ .
(٩) سورة الأنعام الآية ١١٦ .
(١٠) سورة الأنعام الآية ١١٦ .

الناس إلى طاعة الله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة . ويجاهدون عليها . وينهونهم عن معاصي الله ويحذرونهم منها بالرغبة والرهبة . ويجاهدون من يفعلها ، وهؤلاء يدعون الناس إلى معصية الله ويأمرونهم بالرغبة والرهبة قولاً وفعلاً . ويجاهدون على ذلك . قال تعالى : ﴿ المنافقونَ والمنافقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمنكرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إنّ المنافقينَ هُمُ الفاسقونَ﴾[1] . ثم قال : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ وَيُقِيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزّكاةَ وَيُطِيعونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ الذينَ آمَنوا يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ والذينَ كَفَروا يُقاتِلونَ في سَبيلِ الطّاغُوتِ ﴾[3] .

ومثل هذا في القرآن كثير والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته ، فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه النهي عنه ، وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر ، فإن حب الشيء وفعله وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما ، حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر ، فإن ذلك مسبوق بعلمه ، فمن لا يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض . ولا فعل ولا ترك ، لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلم علماً مفصلاً يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلاً .

ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات ، مثل : صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بثبوتها ، فكما أنا لا نكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة ، فلا نكون مطيعين إذا لم نعلم وجودها ، بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها . وكون كل منهما معصية . فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية ، بعضها بجنسه فإن لم نعلم المماثلة كان كما لو علمنا المفاضلة .

وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكتفي بمعرفته في بعض المواضع مجملاً ، فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره ، وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها . من الحجج ، وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم ، وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك . وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى : ﴿ وَالعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ إلّا الذينَ

---

(١) سورة التوبة الآية ٦٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٣) سورة النساء الآية ٧٦ .

آمنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوْا بالحقِّ وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ ﴾ [1] .

وأول ذلك أن نذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهي عنها وبيان ما فيها من الفساد ، فإن الإنكار بالقلب واللسان، قبل الإنكار باليد . وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والفساق والعصاة من أقوالهم وأفعالهم ، يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها ، وبيان فسادها وضدها والتحذير منها كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح والحب وبيان صلاحه ومنفعته والترغيب فيه ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وقَالوا : اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [1] ﴿ وقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكادُ السَمواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرضُ وَتَخِرُّ الجِبالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا للرَّحْمٰنِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي للرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ، إِنْ كُلُّ مَنْ في السَّمواتِ والأرضِ إلا آتي الرَّحْمٰنِ عَبْداً لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً وكُلُّهُمْ آتِيهِ يومَ القِيامَةِ فَرْداً﴾ [3] . ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّه﴾ [4] الآيات .

وهذا كثير جداً . فالذي يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم . إما كافر وإما فاجر . بحسب قوله وفعله وليس منهم من هو بعكسه . وليس عليه عذاب في تركه . ولكنه لا يثاب على مجرد عدم ذلك وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته ، وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله . وهذا العلم والقصد والبغض هو من الإيمان الذي يثاب عليه ، وهو أدنى الإيمان ، كما قال النبي ﷺ : « ومن رأى منكم منكراً فليغيره بيده » [4] إلى آخره وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته . وذلك لا يكون إلا بعد العلم به وبقبحه ، ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد . والنبي ﷺ قال : « وذلك أضعف الإيمان » فيمن رأى المنكر . فأما إذا رآه فلم يعلم أنه منكراً ، ولم يكرهه ، لم يكن هذا الإيمان موجوداً في القلب في حال وجوده ورؤيته ، بحيث يجب بغضه وكراهته . والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا ، وإذا لم يكن المنكر موجوداً لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده ، ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره .

وكذلك ما يدخل في ذلك من الأقوال والأفعال والمنكرات ، قد يعرض عنها كثير من

---

(١) سورة العصر الآيات (١ ـ ٣) .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٦ .

(٣) سورة مريم الآيات (٨٨ ـ ٨٩) .

(٤) سورة التوبة الآية ٣٠ .

(٥) الحديث برواية أبي سعيد الخدري في : مسلم ٦٩/١ (كتاب الإيمان) المسند (ط الحلبي) ٣٠/٣ .

الناس ؛ إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين ، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات ، فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

فتدبر هذا فإنه كثيراً ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران : بغض الكفر وأهله ، وبغض الفجور وأهله، وبغض نهيهم وجهادهم ، كما يحب المعروف وأهله ، ولا يحب أن يأمر به ، ولا يجاهد عليه بالنفس والمال ؛ وقد قال تعالى : ﴿ إنّما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا بالله وَرَسُولِهِ ثمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم في سَبِيلِ الله أولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كانَ آباؤكُمْ وَأبناؤكُمْ وإخْوانُكُمْ وَأزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أحبَّ إلَيْكُمْ مِنَ الله ورسولِهِ وجِهادٍ في سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حتى يأتيَ الله بأمرِهِ والله لا يَهْدِي القومَ الفاسقينَ ﴾ [2] وقوله : ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ يُوادّونَ مَنْ حَادَّ الله ورسولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُمْ أو أبناءَهُمْ أو إخوانَهُمْ أو عَشِيرَتَهُمْ أولئكَ كتبَ في قلوبِهِمُ الإيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [3] الآية .

وكثير من الناس ، بل أكثرهم ، كراهتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراهتهم للمنكرات ؛ لا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات . فربما مالوا إليها تارة ، وعنها أخرى . فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة ، ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى في هجر السيئات ، وصارت نفسه مطمئنة ، تاركة للمنكرات والمكروهات ، لا تحب الجهاد ومصابرة العدو على ذلك ، واحتمال ما يؤديه من الأقوال والأفعال . فإن هذا شيء آخر داخل في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ قِيلَ لَهُمْ ... عَلَيْهِمُ القتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ وكانَ الله على كلِّ شيءٍ مُقِيتاً ﴾ [4] .

(فصل)

والشفاعة : الإعانة إذ المعين قد صار شفيعاً للمُعان فكل من أعان على بر أو تقوى كان له نصيب منه ، ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كفل منه وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان . ومن

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٥ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٤) سورة النساء الآية ٧٧ .

ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين . كما قال تعالى قبل ذلك : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أو انْفِرُوا جميعاً ﴾ إلى قوله ﴿ إنَّ كَيْدَ الشيطانَ كانَ ضعيفاً ﴾ [١] .

ومن هنا يظهر الفرق في السمع والبصر عن الإيمان وآثاره والكفر وآثاره . والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر الفاجر ، فإن المؤمنين يسمعون أخبار أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم ، كرؤية الصحابة النبي ﷺ وسمعهم لما بلغه عن الله ، والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل كما قال تعالى : ﴿ وَإنْ يَكادُ الذينَ كَفَروا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمْا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ [٢] .

وقال : ﴿ فَإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيها القتالُ رَأَيْتَ الذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إليهِ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ﴾ [٣] .

وقال : ﴿ وَمَا كانوا يَسْتَطِيعونَ السَّمْعَ وَمَا كانوا يُبْصَرُونَ ﴾ [٤] .

وقال : ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ الله عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كثيرٌ مِنْهُمْ ﴾ [٥] .

وقال تعالى في حق المؤمنين : ﴿ والذينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وَعُمْياناً ﴾ [٦] .

وقال في حق الكفار : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [٧] .

والآيات في هذا كثيرة جداً وكذلك النظر إلى زينة الحياة الدنيا فتنة فقال تعالى : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأَبقى ﴾ [٨] . وفي آخر الحج : ﴿ فلا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ [٩] الآية . وقال :

---

(١) سورة النساء الآيات (٧١ ـ ٧٦) .

(٢) سورة القلم الآية ٥١ .

(٣) سورة محمد الآية ٢٠ .

(٤) سورة هود الآية ٢٠ .

(٥) سورة المائدة الآية ٧١ .

(٦) سورة الفرقان الآية ٧٣ .

(٧) سورة المدثر الآية ٩ .

(٨) سورة طه الآية ١٣١ .

(٩) سورة التوبة الآية ٥٥ .

﴿ قُلْ للمؤمنينَ مِنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [1] الآية . وقال : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [2] . وقال : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [3] الآيات . وقال : ﴿ قُلِ انْظُروا ماذَا فِي السمواتِ والأرضِ ﴾ [4] . وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأرضِ ﴾ [5] الآية . وكذلك قال الشيطان : ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ [6] . وقال : ﴿ فَلَمّا تَرَاءى الجَمْعَانِ ﴾ [7] الآيات . وقال : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ الله في مَنَامِكَ قَليلاً ﴾ [8] الآية .

فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها ، منهي عنه والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر مأمور به . مندوب إليه . وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدفع شر أولئك وإزالته فمأمور به ، وكذلك رؤية الاعتبار شرعاً في الجملة ، فالعين الواحدة ينظر إليها نظراً مأموراً به إما للاعتبار وإما لبغض ذلك ، والنظر إليه لبغض الجهاد منهي عنه . وكذلك الموالاة والمعاداة . وقد تحصل للعبد فتنة بنظر منهي عنه وهو يظن أنه نظرة عبرة . وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة ، كالذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لي وَلا تَفْتِنِّي ﴾ [9] الآية فإنها نزلت في الجد ابن قيس لما أمره النبي ﷺ أن يتجهز لغزو الروم فقال : إني مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم فائذن لي في القعود ، قال تعالى : ﴿ أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمحيطَةٌ بِالكافِرينَ ﴾ [10] .

فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول . وأما ما يكون من الفعل بالجوارح ، فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، داخل في هذا . بل يكون عذابه أشد . فإن الله قد توعد بالعذاب على مجرد محبة أن تشيع الفاحشة بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة . وهذه المحبة قد لا يقترن بها قول ولا فعل . فكيف إذا اقترن بها[11] قول أو فعل ؟ بل على

---

(١) سورة النور الآية ٣٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٣) سورة الغاشية الآية ١٧ .

(٤) سورة يونس الآية ١٠١ .

(٥) سورة سبأ الآية ٩ .

(٦) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٧) سورة الشعراء الآية ٦١ .

(٨) سورة الأنفال الآية ٤٣ .

(٩) و (١٠) سورة التوبة الآية ٤٩ .

(١١) بها : ليست بالأصل .

الإنسان أن يبغض ما أبغضه الله من فعل الفاحشة والقذف بها وإشاعتها في الـذين آمنوا . ومن رضي عمل قوم حشر معهم كما حشرت امرأة لوط معهم . ولم تكن تعمل فاحشة اللواط . فإن ذلك لا يقع من المرأة . ولكنها لما رضيت فعلهم عمّها العذاب معهم .

فمن هذا الباب قيل : من أعان عَلى الفاحشة وإشاعتها مثل القواد الذي يقود النساء والصبيان إلى الفاحشة لأجل ما يحصل عليه من رياسة أو سحت يأكله . وكذلك أهل الصناعات التي تنفق بذلك مثل المغنين وشربة الخمر وضمان الجهات السلطانية وغيرها ، فإنهم يحبون أن يشيع الفاحشة ليتمكنوا من دفع من ينكرها من المؤمنين بخلاف ما إذا كانت قليلة خفيفة خفية ، ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته منهي عنه محرم . بخلاف عكسه فإنه واجب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾ (١) أي إن ما فيها من طاعة الله وذكره وامتثال أمره أكبر من ذلك . وقال في الخمر والميسر : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ (٢) أي يوقعهم ذلك في معصيته التي هي العداوة والبغضاء ، وهذا من أعظم المنكرات التي تنهى عن الصلاة ، والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر ، كما هو الواقع . فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالاً كان أو حراماً ، فالله تعالى لم يذكر الجماع ، لأن الخمر لا تدعو إلى الحرام بعينه من الجماع فيأتي شارب الخمر ما يمكنه من الجماع سواء كان حلالاً أو حراماً .

والسكر يزيل العقل الذي كان يميز السكران به بين الحلال والحرام . والعقل الصحيح ينهى عن مواقعة الحرام . ولهذا يكثر شارب الخمر من مواقعة الفواحش ، ما لا يكثر من غيرها . حتى ربما يقع على ابنته وابنه ومحارمه . وقد يستغني بالحلال إذا أمكنه ، ويدعو شرب الخمر إلى أكل أموال الناس بالباطل من سرقة ومحاربة وغير ذلك لأنه يحتاج إلى الخمر وما يستتبعه من مأكول وغيره من فواحش وغناء ، وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال ، حتى يتكلم شاربه بما في باطنه وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار ، يسقونهم الخمر وربما يشربون معهم ما لا يسكرون به ، وأيضا فالخمر تصد الإنسان عن علمه وتدبيره ، ومصلحته في معاشه ومعاده وجميع أموره التي يدبرها برأيه وعقله . فجميع الأمور التي تصدر عنها الخمر من المصالح وتوقعها من المفاسد داخلة في قوله تعالى : ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ﴾(٣) .

وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هو منتهى قصد الشيطان ، ولهذا قال النبي ﷺ : « ألا

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٢) سورة المائدة الآية ٩١ .

(٣) سورة المائدة الآية ٩١ .

أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين »[1] وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب توقع العداوة والبغضاء . وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من معصية الله ، والشيطان يأمر بالمعصية ليوقع فيما هو أعظم منها ولا يرضى بغاية ما قدر على ذلك ، وأيضا فالعداوة والبغضاء . شر محض لا يحبها عاقل بخلاف المعاصي فإن فيها لذة كالخمر والفواحش فإن النفوس تريد ذلك ، والشيطان يدعو إليها النفوس حتى يوقعها في شر لا تهواه ولا تريده ، والله تعالى قد بين ما يريد الشيطان بالخمر والميسر ولم يذكر ما يريده الإنسان .

ثم قال في سورة النور : ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإنَّهُ يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ﴾[2] وقال في سورة البقرة : ﴿لا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ إنّما يَأْمُرُكُمْ بالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولوا على اللَّهِ ما لا تَعلمونَ﴾[3] فنهى عن اتباع خطواته وهو اتباع أمره بالاقتداء والاتباع وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم : وقال فيها : ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بالفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[4] فالشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والله يعد المغفرة والفضل ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . وقال عن نبيه : ﴿يَأْمُرُهُم بالمعروفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ المنكرِ وَيحِلُّ لَهُمُ الطيباتِ وَيُحَرِّمُ عليهِمُ الخبائثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[5] . وقال عن أمته ﴿يَأْمُرُونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ﴾[6] .

وذكر مثل ذلك في مواضع كثيرة فتارة يخص اسم المنكر بالنهي ، وتارة يقرنه بالفحشاء ، وتارة يقرن معهما البغي ، وكذلك المعروف تارة يخصه بالأمر ، وتارة يقرن به غيره كما في قوله تعالى : ﴿لا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصْلاحٍ بَيْنَ

---

(١) ذكره الترمذي في (كتاب القيامة ـ باب حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البنداري عن أبي الدرداء) ، وجاء في : أبي داود (كتاب الأدب) ، النسائي (كتاب القيامة) ، الموطأ (حسن الخلق) ، ابن حنبل ١٦٥/١ .

(٢) سورة النور الآية ٢١ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٦٨ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

النَّاسِ﴾[1] وذلك لأن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الإفراد والتركيب كلفظ الفقير والمسكين فإن أحدهما إذا أفرد كان عاماً لما يدلان عليه عند الاقتران بخلاف اقترانهما فإنه يكون معنى كل منهما ليس هو معنى الآخر ، بل أخص من معناه عند الإفراد ، وأيضا فقد يعطف على الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التخصيص ، ثم قد قيل إن ذلك المخصص يكون مذكوراً بالمعنى العام والخاص . فإذا عرف هذا فاسم المنكر يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه وهو المبغض ، واسم المعروف يعم كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به ، فحيث أفردا بالذكر فإنهما يعمان كل محبوب في الدين ومكروه وإذا قورن المنكر بالفحشاء فإن الفحشاء مبناها على المحبة والشهوة . والمنكر هو الذي تنكره القلوب فقد يظن أن ما في الفحشاء من المحبة يخرجها عن الدخول (في)[2] المنكر وإن كانت مما تنكرها القلوب فإنها تشتهيها النفوس . والمنكر قد يقال إنه يعم معنى الفحشاء وقد يقال خصت لقوة المقتضى لما فيها من الشهوة .

وقد يقال قصد بالمنكر ما ينكر مطلقاً والفحشاء لكونها تشتهى وتحب. وكذلك البغي قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء ومنشؤه من قوة الغضب كما أن الفحشاء منشؤها عن قوة الشهوة ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها ، فالفواحش والبغي مقرونان بالمنكر . وأما الإشراك والقول على الله بلا علم فإنه منكر محض ليس في النفوس ميل إليها بل إنما يكونان عن عناد وظلم فهما منكر وظلم محض بالفطرة

فهذه الخصال فساد في القوة العلمية والعملية ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان أو إلى من يتبع خطوات الشيطان فإن من أتى الفحشاء والمنكر فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه مطيعه عابد له ، وإن كان الآتي هو الآمر فالأمر بالفعل أبلغ من فعله فمن أمر بها غيره رضيها لنفسه .

ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد مزامير الشيطان ، والمغني هو مؤذنه الذي يدعو إلى طاعته . فإن الغناء رقية الزنا . وكذلك من اتباع خطوات الشيطان القول على الله بلا علم : ﴿قُلْ إنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ أَتَقُولونَ على اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[3] وهذه حال أهل البدع والفجور وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء . والمردان وإحضارهم في سماع الغناء ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك ، مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين . ثم إنه سبحانه نهى

---

(١) سورة النساء الآية ١١٤ .

(٢) في : ليست بالأصل .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

المظلوم بالقذف أن يمنع ما ينبغي له فعله من الإحسان إلى ذوي قرابته والمساكين وأهل التوبة وأمره بالعفو والصفح فإنهم كما يحبون أن يغفر الله لهم فليعفوا وليصفحوا وليغفروا . ولا ريب أن صلة الأرحام واجبة ، وإيتاء المساكين واجب وإعانة المهاجرين واجب ، فلا يجوز ترك ما يجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه . وإساءته في عرضه كما لا يمنع الرجل ميراثه وحقه من الصدقات والفيء ، بمجرد ذنب من الذنوب وقد يمنع من ذلك لبعض الذنوب .

وفي الآية دلالة على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوي الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب . فإنه قد ثبت في الصحيح عن عائشة في قصة الإفك أن أبا بكر الصديق حلف أن لا ينفق على مسطح بن أثاثة وكان أحد الخائضين في الإفك في شأن عائشة ، وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر وقد جعله الله من ذوي القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم والنهي يقتضي التحريم فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل كان الفعل واجباً لأن الحلف على ترك الجائز جائز .

(فصـــل)

قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ وقال فيها : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ الآية . وقال فيها : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فذكر عدد الشهداء وأطلق صفتهم ولم يقيدهم بكونهم (منا) ولا (ممن نرضى) ولا (من ذوى العدل) كما قيد صفة الشهداء في غير هذا الموضع . ولهذا تنازع العلماء : هل شهادة الأربعة التي يجب بها الحد على الزاني مثل شهادة أهل الفسوق والعصيان وغيرهم ؟ هل يدرأ الحد عن القاذف ؟

على قولين في مذهب أحمد : (أحدهما) أنها تدرأ الحد عن القاذف وإن لم توجب حد الزنا على المقذوف كشهادة الزوج على امرأته أربع شهادات بالله . فإن ذلك يدرأ حد القذف ولا يجب الحد على امرأته لمجرد ذلك لأنها تدفع العذاب عنها بشهادتها أربع شهادات ، ولو لم تشهد فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلاعن أو يخلى سبيلها ، في نزاع مشهور بين العلماء فلا يلزم من درء الحد عن القاذف وجوب حد الزنا على المقذوف ، فإن كليهما حد والحدود تدرأ بالشبهات ، والأربع شهادات للقاذف شبهة قوية ، ولو اعترف المقذوف مرة أو مرتين أو ثلاثا دريء الحد عن القاذف ولم يجب الحد عنها عند أكثر العلماء ولو كان المقذوف غير محصن ، مثل أن يكون مشهورا بالفاحشة ، لم يحد قاذفه حد القذف . ولم يحد هو حد الزنا لمجرد الاستفاضة . وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد . وقد اعتبر نصاب حد الزنا بأربعة شهداء وكذلك تعتبر صفاتهم ؛ فلا يقام حد الزنا على مسلم إلا بشهادة مسلمين . لكن يقال لم

يقيدهم بأن يكونوا عدولاً مرضيين كما قيدهم في آية الدَّيْن بقوله : ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[1] وقال في آية الوصيّة : ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[2] وقال في آية الرجعة : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للَّهِ﴾[3] فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضاء وهؤلاء هم الممتثلون ما أمرهم الله به بقوله : ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنوا كُونوا قَوّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ للَّهِ وَلَوْ على أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أو فَقِيراً فاللَّهُ أَوْلَى بِهِما فَلا تَتَّبِعوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلوا﴾[4] لآية . وفي قوله : ﴿وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبَى﴾[5] . وقوله : ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾[6] . وقوله : ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إذا مَا دُعُوا﴾[7]. وقوله : ﴿وَالذينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قائِمونَ﴾[8] . فهم يقومون بالشهادة بالقسط لله فيحصل مقصود الذي استشهدوه .

(الوجه الثاني) : كون شهاداتهم مقبولة مسموعة لأنهم أهل العدل والرضا . فدل على وجوب ذلك في القبول والأداء وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله : ﴿إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[9] الآية لكن هذا نص في أن الفاسق الواحد يجب التبين في خبره ، وأما الفاسقان فصاعداً ؛ فالدلالة عليه تحتاج إلى مقدمة أخرى ، وما ذكروه من عدالة الشهود لا يعتبر في الحكم باتفاق العلماء في مواضع وعند جمهورهم قد يحكم بلا شهود في مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك ويحكم بشاهد ويمين كما مضت سنة رسول الله ﷺ قضى بشاهد ويمين ، ورواه غيرهما . ويدل على مثل هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هذا القيد لا في آية الزنا ولا في آية القذف بل قال : ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ . وقال : ﴿والذينَ يَرْمُونَ المحصناتِ ثمَّ لَمْ يَأْتُوا بأربعةِ شُهَدَاءَ﴾ وإنما أمر بالتثبيت عند خبر الفاسق الواحد ولم يأمر به عند خبر الفاسقين . فإن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد ما لا يوجبه خبر الواحد ولهذا قال العلماء إذا استراب الحاكم في الشهود فرقهم وسألهم عن مكان الشهادة وزمانها وصفتها وتحملها وغير ذلك مما يتبين به اتفاقهم واختلافهم .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٦ .

(٣) سورة الطلاق الآية ٢ .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

(٦) و (٧) سورة البقرة الآية ٢٨٣ .

(٨) سورة المعارج الآية ٣٣ .

(٩) سورة الحجرات الآية ٦ .

(فصـــــــل)

وقـوله تعـالى : ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ فهـذا نص في أن هؤلاء القذفـة لا تقبل شهادتهم أبداً . واحداً كانوا أو عدداً . بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل الجمع والبدل ، لأن الآية نزلت في أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقه والتفسير . وكان الذين قـذفوا عائشة عدداً ، ولم يكونوا واحداً ، لما رأوها قد قدمت صحبة صفوان بن المعطل السلمي ، بعد قفول العسكر، وكـانت قد ذهبت تـطلب قلادة لهـا فقدت ، فـرفع أصحـاب الهودج هـودجها معتقدين أنها فيه لخفتها ، ولم تكن فيه . فلما رجعت لم تجـد أحدا من الجيش فمكثت مكـانها . وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش . فلما رآها أعرض بوجهه عنها وأناخ راحلته حتى ركبتهـا . ثم ذهب بها إلى العسكر . فكانت خلوته بهـا للضرورة . كما يجوز للمـرأة أن تسافـر بلا محـرم للضرورة . كسفر الهجرة ، مثل مـا قدمت أم كلثـوم بنت عقبة بن أبي معيط مهـاجرة ، وقصـة عائشة .

ودلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا متفرقـين ودلت أيضا عـلى أن شهاداتهم بعد التوبة مقبـولة كما هو مـذهب الجمهور فـإنه كـان من جملتهم مسطح بن أثـاثة ، وحسان بن ثابت ، كما في الصحيح عن عائشة . وكان منهم حمنة بنت جحش وغيرها ، ومعلوم أنـه لم يردّ النبي ﷺ ولا المسلمـون بعده شهـادة أحد منهم لأنهم كلهم تـابـوا لما نـزل القـرآن ببراءتها . ومن لم يتب حينئذ ، فإنه كافر مكذب بالقرآن . وهؤلاء ما زالوا مسلمين . وقد نهى الله عن قطع صلتهم . ولو رُدّت شهـادتهم بعد التـوبة لاستفـاض ذلك كما استفاض ردّ عمـر شهادة أبي بكرة .

وقصة عائشة كانت أعظم من قصة المغيرة . ولكن من ردّ شهادة القاذف بعد التوبة قد يقول أردّ شهادة من حـدّ في القذف . وهؤلاء لم يحدّوا . والأولون يجيبون بأجوبة .

(أحدها) أنه قد روي في السنن أن النبي ﷺ حدّ أولئك .

(والثاني) أن هذا الشرط غير معتبر في ظاهر القرآن ، وهم لا يقولون به كما هو مقرر في موضعه .

(والثالث) أن الذين اعتبروا الحدّ اعتبـروه وقالـوا قد يكـون القاذف صـادقاً وقـد يكون كاذباً فإعراض المقذوف عن طلب حدّ القـذف قد يكـون لصدق القـاذف . فإذا طلب الحـدّ ولم يأت القاذف بأربعة شهداء ظهر كذبه ، ومعلوم أن الذين قذفـوا عائشـة ظهر كـذبهم أعظم من ظهور كذب كل أحد . فـإن الله هو الـذي برأهـا بكلامـه الذي أنـزله من فـوق سبع سمـوات

يتلى ، فإذا كانت شهادتهم بعد توبتهم مقبولة ، فشهادة غيرهم ممن شهد على غيرها أولى بالقبول .

وقصة عمر بن الخطاب التي حكم فيها بين المهاجرين والأنصار ، في شأن المغيرة لما شهد عليه ثلاثة بالزنا وتوقف الرابع عن الشهادة فجلد أولئك الثلاثة ورد شهادتهم ؛ دليل على الفصلين جميعاً كما دلت قصة عائشة على قبول شهادتهم بعد التوبة والجلد ؛ لأن اثنين من الثلاثة تابا فقبل عمر والمسلمون شهادتهما . والثالث وهو أبو بكرة مع كونه من أفضلهم لم يتب . فلما لم يتب لم يقبل المسلمون شهادته وكان من صالحي المسلمين وقد قال عمر : تبْ أقبلْ شهادتك. لكن إذا كان القرآن قد بين أن القذفة إن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم أبدا ثم قال بعد ذلك ﴿ أولئكَ هُمُ الفاسقونَ إلاّ الذينَ تابُوا ﴾ فمعلوم أن قوله ﴿ وَأولئكَ هُمُ الفاسقونَ ﴾ وصف ذم لهم زائد على ما ذكره من ردِّ شهادتهم .

(فصل)
في عدالة الشهود

وأما تفسير العدالة المشروطة في هؤلاء الشهداء فإنها الصلاح في الدين ، والمروءة ، والصلاح في أداء الواجبات ، وترك الكبيرة ، والإصرار على الصغيرة ، والصلاح في المروءة استعمال ما يجمله ويزينه واجتناب ما يدنسه ويشينه ، فإذا وجد هذا في شخص كان عدلاً في شهادته وكان من الصالحين الأبرار . وأما أنه لا يستشهد أحد في وصية أو رجعة في جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة ، فليس في كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك ، بل هذا صفة المؤمن الذي أكمل إيمانه بأداء الواجبات وإن كان المستحبات لم يكملها ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين .

ثم إن القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها ، بل قد يجب على الإنسان من حقوق الله وحقوق عباده مالا يحصيه إلا الله تعالى ، مما يكون تركه أعظم إثماً من شرب الخمر والزنا ومع ذلك لم يجعلوه قادحاً في عدالته ، إما لعدم استشعار كثرة الواجبات وإما لالتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات وليس الأمر كذلك في الشريعة . وبالجملة ، هذا معتبر في باب الثواب والعقاب والمدح والذم والموالاة والمعاداة وهذا أمر عظيم .

وأما قول من يقول الأصل في المسلمين العدالة ، فهو باطل بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَها الإنسانُ إنّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[1] ، ومجرد التكلم

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .

بالشهادتين لا يوجب انتقال الإنسان عن الظلم والجهل إلى العدل . وباب الشهادة مداره على أن يكون الشهيد مرضياً أو يكون ذا عدل يتحرى القسط والعدل في أقواله وأفعاله والصدق في شهادته وخبره وكثيراً ما يوجد هذا مع الإخلال بكثير من تلك الصفات . كما أن الصفات التي اعتبروها كثيراً ما توجد بدون هذا كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيراً لكن يقال إن ذلك مظنة الصدق والعدل والمقصود من الشهادة ودليل عليها وعلامة لها ، فإن النبي ﷺ قال في الحديث المتفق على صحته « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة »(١) الحديث إلى آخره : فالصدق مستلزم للبر ، كما أن الكذب مستلزم للفجور ، فإذا وجد الملزوم وهو تحري الصدق ، وجد اللازم وهو البر . وإذا انتفى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق ، وإذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم . واذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب ، فلهذا استدل بعدم بر الرجل على كذبه وبعدم فجوره على صدقه .

فالعدل الذي ذكره الفقهاء ؛ من انتفى فجوره وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة وإذا انتفى ذلك فيه انتفى كذبه الذي يدعوه إلى الفجور والفاسق هو من عدم بره ، وإذا عدم بره عدم صدقه . ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعي إلى البر يستلزم البر والداعي إلى الفجور يستلزم الفجور . فالخطأ كالنسيان والعمد كالكذب والله أعلم .

(فصل)

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَدْخُلوا بيوتاً غَيْرَ بُيوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أَهْلِها ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ قُلْ للمؤمنينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ ﴾(٢) وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما جعل الاستئذان من أجل النظر » والنظر المنهي عنه هو نظر العورات ، ونظر الشهوات وإن كانت من العورات والله سبحانه ذكر الاستئذان على نوعين ، ذكر في هذه الآية أحدهما وفي الآيتين في آخر السورة ، النوع الثاني وهو استئذان الصغار والمماليك كما قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الذينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ والذينَ لَمْ يَبْلُغوا الحُلُمَ منكُمْ ثلاثَ مَرّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهيرةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشاءِ ثلاثُ عَوْراتٍ لكم ليسَ عليكُمْ ولا عليهم جُناحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ فأمر باستئذان

---

(١) أخرجه البخاري في (كتاب الأدب ـ باب قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ حديث ٢٣٤٠ عن عبد الله بن مسعود ، وأخرجه مسلم في (كتاب البر والصلة والآداب) حديث رقم ١٠٥ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، وفي أبي داود (كتاب الأدب) ، الترمذي (كتاب البر) ، ابن ماجه (المقدمة) ، ابن حنبل ٢/١ ، وانظر الجزء الثاني من دقائق التفسير .

(٢) سورة النور الآيات (٢٧ ـ ٣٠)

الصغار والمماليك حين الاستيقاظ من النوم ، وحين إرادة النوم وحين القائلة فإن في هذه الأوقات تبدو العورات كما قال تعالى ﴿ ثلاثُ عَوْراتٍ لكم ﴾ .

وفي ذلك ما يدل على أن المملوك المميز : والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما : وأما دخول هؤلاء في غير هذه الأوقات بغير استئذان فهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عليكُمْ ولا عليهم جُناح بَعْدَهُنَّ طَوّافُونَ عليكم بعضُكم على بعضٍ ﴾ وفي ذلك دلالة على أن الطوافين يرخص فيهم ما لا يرخص في غير الطوافين عليكم ، والطوافات من يدخل بغير إذن كما تدخل الهرة وكما يدخل الصبي والمملوك . وإذا كان هذا في الصبي المميز فغير المميز أولى ، ويرخص في طهارته كما قال ذلك طائفة من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم في الصبيان والهرة وغيرهم أنهم إن أصابتهم نجاسة أنها تطهر بمرور الريق عليها ، ولا تحتاج إلى غسل لأنهم من الطوافين كما أخبر به الرسول في الهرة[1] مع علمه أنها تأكل الفأرة ولم تكن بالمدينة مياه تردها السنانير ليقال طهر فمها بورودها الماء ، فعلم أن طهارة هذه الأفواه لا تحتاج إلى غسل : فالاستئذان في أول السورة قبل دخول البيت مطلقاً ، والتفريق في آخرها لأجل الحاجة ، لأن المملوك والصغير طواف يحتاج إلى دخول البيت في كل ساعة فشق استئذانه بخلاف المحتلم .

(فصـــل)
فـــي
غـض البصـر وحفظ الفــرج

وقال تعالى : ﴿ قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلكَ أزكَى لَهُمْ ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ وَتُوبوا إلى اللهِ جميعاً أيها المؤمنونَ لعلّكم تُفلِحونَ ﴾ فأمر الله سبحانه الرجال والنساء بالغض من البصر ، وحفظ الفرج . كما أمره جميعاً بالتوبة وأمر النساء خصوصاً بالاستتار وأن لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ومن استثناه الله تعالى في الآية ، فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة فهذا لا جناح عليها في إبدائها ، إذا لم يكن في ذلك محذور آخر ، فإن هذه لا بد من إبدائها . وهذا قول ابن مسعود وغيره وهو المشهور عن أحمد .

---

(١) ورد الخبر في ذلك عن كبشة بنت كعب بنت مالك ـ وكانت تحت ابن أبي قتادة : أن أبا قتادة دخل عليها فسكبت له وضوءاً ، فجاءت هرة تشرب منه ، فأصغى لها الإناء حتى شربت منه ، قالت كبشة : فرآني أنظر ، فقال : أتعجبين يا ابنة أخي ؟ قلت: نعم ، قال : إن رسول الله ﷺ قال : إنها ليست بنجس ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات » رواه الخمسة وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، انظر المنتقى بشرح نيل الأوطار ١/٤٨ ، وأنظر تحقيق سورة النور لمحمود إبراهيم زايد ودكتور عبد المعطي قلعجي .

وقال ابن عباس الوجه واليدان من الزينة الظاهرة وهي الرواية الثانية عن أحمد ، وهو قول طائفة من العلماء كالشافعي وغيره . وأمر سبحانه النساء بإرخاء الجلابيب لئلا يعرفن ولا يؤذين : وهذا دليل على القول الأول . وقد ذكر عبيدة السلماني وغيره أن نساء المؤمنين كن يدنين عليهن الجلابيب من فوق رؤوسهن حتى لا يظهر إلا عيونهن لأجل رؤية الطريق . وثبت في الصحيح أن المرأة المحرمة تنهى عن الانتقاب والقفازين ، وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن ، وذلك يقتضي ستر وجوههن وأيديهن وقد نهى الله تعالى عما يوجب العلم بالزينة الخفية بالسمع أو غيره فقال : ﴿ ولا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زَينَتِهِنَّ﴾ وقال : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ﴾ فلما نزل ذلك عمد نساء المؤمنين إلى خمرهن فشققنهن وأرخينها على أعناقهن . والجيب هو شق في طول القميص فإذا ضربت المرأة بالخمار على الجيب سترت عنقها وأمرت بعد ذلك أن ترخي من جلبابها . والإرخاء إنما يكون إذا خرجت من البيت ، فأما إذا كانت في البيت فلا تؤمر بذلك .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما دخل بصفية قال أصحابه إن أرخى عليها الحجاب فهي من أمهات المؤمنين وإن لم يضرب عليها الحجاب فهي مما ملكت يمينه فضرب عليها الحجاب[1] ، إنما ضرب الحجاب على النساء لئلا ترى وجوههن وأيديهن . والحجاب مختص بالحرائر دون الإماء كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ وخلفائه أن الحرة تحتجب والأمة تبرز . وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة مختمرة ضربها[2] وقال : أتتشبهين بالحرائر يا لكاع ، فيظهر من الأمة رأسها ويداها ووجهها .

وقال تعالى : ﴿ والقَوَاعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاتي لَا يَرْجُونَ نِكاحاً فليسَ عليهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ . فرخص للعجوز التي لا تطمع في النكاح أن تضع ثيابها فلا تلقي عليها جلبابها ، ولا تحتجب وإن كانت مستثناة من الحرائر لزوال المفسدة الموجودة في غيرها . كما استثنى التابعين غير أولى الإربة من الرجال في إظهار الزينة لهم لعدم الشهوة التي تتولد منها الفتنة . وكذلك الأمة إذا كان يخاف بها الفتنة كان عليها أن ترخي من جلبابها وتحتجب ووجب غض البصر عنها ومنها .

---

(١) لفظ الحديث في البخاري (كتاب النكاح) ، ومسلم (كتاب النكاح ـ فيما وقفت عليه) : « إن حجبها . . . وإن لم يحجبها . . الخ » ، مسلم بشرح النووي ٣/٥٩٣ ، البخاري بشرح الفتح ٩/١٢٦ ، ورد أيضاً في النسائي : (كتاب النكاح) ، ابن حنبل ٣/٢٤٦ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٤/٦٦ .

(فصـــل)

وليس في الكتاب والسنة إباحة النظر إلى عامة الإماء ولا ترك احتجابهن وإبداء زينتهن ، ولكن القرآن لم يأمرهن بها أمر الحرائر ، والسنة فرقت بالفعل بينهن وبين الحرائر ولم يفرق بينهن وبين الحرائر بلفظ عام ، بل كانت عادة المؤمنين أن تحتجب منهم الحرائر دون الإماء ، واستثنى القرآن من النساء الحرائر القواعد ، فلم يجعل عليهن احتجاب ، واستثنى بعض الرجال وهم غير أولي الإربة فلم يمنع من إبداء الزينة الخفية لهم لعدم الشهوة في هؤلاء وهؤلاء فأن يستثني بعض الإماء أولى وأحرى ، وهن من كانت الشهوة والفتنة حاصلة بترك احتجابها وإبداء زينتها ، وكما أن المحارم أبناء أزواجهن ونحوه ممن فيه شهوة وشغف لم يجز إبداء الزينة الخفية له ، فالخطاب خرج عاماً على العادة فما خرج عن العادة خرج به عن نظائره ، فإذا كان في ظهور الأمة والنظر إليها فتنة وجب المنع من ذلك كما لو كانت في غير ذلك .

وهكذا الرجل مع الرجال أو المرأة مع النساء لو كان في المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال لكان الأمر بالغض للناظر من بصره متوجهاً كما يتوجه إليه الأمر بحفظ فرجه ، فالإماء والصبيان إذا كن حساناً تختشى الفتنة بالنظر إليهم كان حكمهم كذلك ، كما ذكر ذلك العلماء :

قال المروزي قلت لأبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل : الرجل ينظر إلى المملوك ؟ قال إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلاء .

وقال المروزي قلت لأبي عبد الله : رجل تاب وقال لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية إلا أنه لا يدع النظر ؟ فقال أي توبة هذه ؟

قال جرير : سألت رسول الله عن نظرة الفجأة فقال : اصرف بصرك[1] .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبي وسويد قالا : حدثني إبراهيم بن هراسة عن عثمان بن صالح عن الحسن بن ذكوان قال : لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صوراً كصور النساء وهم أشد فتنة من العذارى .

وهذا الاستدلال والقياس والتنبيه بالأدنى على الأعلى ، وكان يقال : لا يبيت الرجل في بيت مع الغلام الأمرد .

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده ، وفي الدارمي (كتاب الاستئذان) ، ومسلم وأبي داود (كتاب النكاح) ، والترمذي والنسائي ورمز له السيوطي بالصحة ، أنظر الجامع الصغير بشرح الفيض ١/٥٣٠ .

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن أبي سهل الصعلوكي قال : سيكون في هذه الأمة قوم يقال لهم اللوطيون على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل .

وقال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون مجالسة الأغنياء وأبناء الملوك ، وقال : مجالستهم فتنة إنما هم بمنزلة النساء .

ووقفت جارية لم ير أحسن وجهاً منها على بشر الحافي فسألته عن « باب حرب » فدلها ، ثم وقف عليه غلام حسن الوجه فسأله عن « باب حرب » فأطرق رأسه ، فردد عليه الغلام السؤال ، فغمض عينيه ، فقيل له : يا أبا نصر : جاءتك جارية فسألتك فأجبتها وجاءك هذا الغلام فسألك فلم تكلمه ؟ فقال : نعم يروى عن سفيان الثوري أنه قال : مع الجارية شيطان ، ومع الغلام شيطانان : فخشيت على نفسي شيطانيه .

وروى أبو الشيخ القزويني بإسناده عن بشر أنه قال : احذروا هؤلاء الأحداث .

وقال فتح الموصلي : صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال كلهم أوصاني عند مفارقتي له : اتق صحبة الأحداث اتق معاشرة الأحداث .

وكان سفيان الثوري لا يدع أمرد يجالسه .

وكان مالك بن أنس يمنع دخول المرد مجلسه للسماع فاحتال هشام فدخل في غمار الناس مستتراً بهم وهو أمرد فسمع منه ستة عشر حديثاً ؛ فأخبر بذلك مالك فضربه ستة عشر سوطاً ، فقال هشام : ليتني سمعت مائة حديث وضربني مائة سوط . وكان يقول : هذا علم إنما أخذناه عن ذوي اللحى والشيوخ فلا يحمله عنا إلا أمثالهم .

وقال يحيى بن معين : ما طمع أمرد أن يصحبني ولا أحمد ابن حنبل في طريق .

وقال أبو علي الروزبادي قال لي أبو العباس أحمد ابن المؤدب : يا أبا علي من أين أخذ صوفية عصرنا هذا الأنس بالأحداث وقد تصحبهم السلامة في كثير من الأمور ؟ فقال : هيهات قد رأينا من هو أقوى منهم إيمانا إذا رأى الحدث قد أقبل فر منه كفراره من الأسد ، وإنما ذلك على حسب الأوقات التي تغلب الأحوال على أهلها ، فيأخذها تصرف الطباع ما أكثر الخطأ ما أكثر الغلط .

قال الجنيد بن محمد : جاء رجل إلى أحمد بن حنبل معه غلام أمرد حسن الوجه ، فقال له : من هذا الفتى ؟ فقال : الرجل : ابني . فقال : لا تجيء به معك مرة أخرى ، فلامه بعض أصحابه في ذلك فقال أحمد : على هذا رأينا أشياخنا وبه أخبرونا عن اسلافهم .

وجاء حسن ابن الرزاي إلى أحمد ومعه غلام حسن الوجه ، فتحدث معه ساعة فلما أراد أن ينصرف قال له أحمد : يا أبا علي لا تمش مع هذا الغلام في الطريق ، فقال : يا أبا عبد الله انه ابن اختي ، قال : وإن كان ، لا يأثم الناس فيك .

وروى ابن الجوزي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : إذا رأيتم الرجل يلح بالنظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه . وقد روي في ذلك أحاديث مسندة ضعيفة ، وحديث مرسل أجود منها وهو ما رواه أبو محمد الخلال ثنا عمر بن شاهين ثنا محمد بن أبي سعيد المقري ثنا أحمد بن حماد المصيصي حدثنا عباس بن محوز ثنا أبو أسامة عن مجالد عن سعيد عن الشعبي قال : « قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة ، فأجلسه النبي ﷺ وراء ظهره ، وقال : كانت خطيئة داود في النظر »[1] . هذا حديث منكر .

وأما المسندة فمنها ما رواه ابن الجوزي بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من نظر إلى غلام أمرد بريبة حبسه الله في النار أربعين عاماً »[2] . وروى الخطيب البغدادي بإسناده عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تجالسوا أبناء الملوك فإن الأنفس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق » إلى غير ذلك من الأحاديث الضعيفة .

وكذلك المرأة مع المرأة ، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه ، وابن أخيها ، وابن أختها ، ومملوكها عند من يجعله محرماً متى كان يخاف عليه الفتنة ، أو عليها توجب الاحتجاب بل وجب ، وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ ، فقد تحصل الزكاة والطهارة بدون ذلك لكن هذا أزكى وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة لما يوجد في ذلك من شهوة القلب واللذة بالنظر كان ترك النظر والاحتجاب أولى بالوجوب ، ولا زكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار ، ودون ذلك وعن المباشرة ومس الغير له وكشفه للغير ، ونظر الغير إليه فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه .

ولهذا قال ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال له : « يا رسول الله

---

(١) قال الشوكاني تعليقاً على الخبر : لا أصل له في إسناده مجاهيل ، انظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٢٠٦ ، وانظر تفسير سورة النور تحقيق محمود زايد ، د . إبراهيم القلعجي .

(٢) علق الشوكاني على الخبر فقال : في إسناده كذاب . وانظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٢٠٦ .

عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ فقال : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك . قال : فإذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها . قال : فإذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : فالله أحق أن يُستحيا منه من الناس » [١] .

وقد نهى النبي ﷺ « أن تباشر المرأة المرأة في شعار واحد وأن يباشر الرجل الرجل في شعار واحد » [٢] « ونهى عن أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل وأن تنظر المرأة إلى عورة المرأة » [٣] وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر » وفي رواية « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من إناث أمتي فلا تدخل الحمام إلا بمئزر » [٤] .

وقال العلماء : يرخص للنساء في الحمام عند الحاجة ، كما يرخص للرجال مع غض البصر وحفظ الفرج وذلك مثل أن تكون مريضة ، أو نفساء أو عليها غسل لا يمكنها إلا في الحمام ، وأما إذا اعتادت الحمام ، وشق عليها تركه ، فهل يباح لها على قولين في مذهب أحمد وغيره : أحدهما لا يباح ، والثاني يباح ، وهو مذهب أبي حنيفة واختاره ابن الجوزي .

(فصل)

وكما يتناول غض البصر عن عورة الغير وما أشبهها من النظر إلى المحرمات فإنه يتناول الغض عن بيوت الناس ، فبيت الرجل يستر بدنه كما تستره ثيابه ، وقد ذكر سبحانه غض البصر وحفظ الفرج بعد آية الاستئذان ، وذلك أن البيوت سترة كالثياب التي على البدن كما جمع بين اللباسين في قوله تعالى : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجبالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ [٥] فكل منها وقاية من الأذى الذي يكون سموماً مؤذية ، كالحر والشمس والبرد ، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين

---

(١) الحديث رواه الخمسة وعلقه البخاري وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وأخرجه ابن أبي شيبة بالزيادة التي أوردها المصنف هنا وهي قوله : « من الناس » في آخره ، انظر المنتقى بشرح نيل الأوطار ٢/٦٨ .

(٢) في صحيح البخاري عن ابن مسعود بلفظ « لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » وزاد النسائي في روايته للحديث : « في الثوب الواحد » ووقع في رواية النسائي : « لا تباشر المرأة المرأة ولا الرجل الرجل » والخبر أخرجه أيضاً أحمد والترمذي وأبو داود ، انظر الصحيح بشرح الفتح ٩/٣٣٨ ، انظر الجامع الصغير بشرح الفيض ٦/٣٨٥ .

(٣) الخبر أخرجه النسائي من حديث ابن عباس وأخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث أبي سعيد بلفظ : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة . ولا يفضي الرجل الى الرجل في الثوب الواحد . ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد » فتح الباري على الصحيح ٩/٢٣٨ .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في الاستئذان والحاكم في الأدب عن جابر ، وقال الترمذي : حسن غريب ، وقال الحاكم : على شرط مسلم وأقره الذهبي . وفيه مقال يطول . الجامع الصغير بشرح الفيض ٦/٢١١ ، وفي النسائي (كتاب الغسل) ، ابن ماجه (الأدب) ، ابن حنبل ٣/٢٢١ .

(٥) سورة النحل الآية ٨١ .

واليد وغيرذلك ، وقد ذكر في أول سورة النحل أصول النعم ، وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات ، وذكر في أثنائها تمام النعم وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات ، فإنه قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ .

وفي الصحيحين [(١)] عن أبي هريرة « أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إذا اطلع في بيتك أحد ولم تأذن له فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » ، وهذا الخاص يفسر العام الذي في الصحيح عن عبد الله بن مغفل [(٢)] « أنه رأى رجلاً يخذف . قال : لا تخذف فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف » : « وقال إنه لا يصاد به صيد لا ينكأ به عدو ولكنها تكسر السن وتفقأ العين » وفي الصحيحين عن سهل بن سعد [(٣)] « أن رجلاً اطلع من حجر في باب النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مدرى يحك بها رأسه فقال : لو أعلم أنك تنظر إليّ لطعنت به في عينك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » .

وقد ظن طائفة من العلماء أن هذا من باب دفع الصائل لأن الناظر معتد بنظره فيدفع كما يدفع سائر البغاة ، ولو كان الأمر كما قالوا لدفع بالأسهل فالأسهل ، ولم يجز قلع عينه ابتداء إذا لم يذهب إلا بذلك والنصوص تخالف ذلك فإنه أباح أن تحذفه حتى تفقأ عينه قبل أمره بالانصراف ، وكذلك قوله « لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك » فجعل نفس النظر مبيحاً للطعن في العين ، ولم يذكر الأمر له بالانصراف وهذا يدل على أنه من باب المعاقبة له

---

(١) لفظ البخاري : « ولو أن امرءاً . . الخ » ، ولفظ مسلم : « لو أن رجلاً . . الخ » . قال ابن حجر : والمراد بالجناح هنا الحرج وقد أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن ابن عيينة بلفظ : « ما كان عليك من حرج » ومن طريق ابن عجلان عن أبيه عن الزهري عن أبي هريرة : « ما كان عليك من ذلك من شيء » ووقع عند مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة بلفظ : « من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه » أخرجه من رواية أبي صالح عنه وفيه رد على من حمل الجناح هنا على الإثم ورتب على ذلك وجوب الدية إذ لا يلزم من رفع الإثم رفعها لأن وجوب الدية من خطاب الوضع ووجه الدلالة أن إثبات الحل يمنع ثبوت القصاص والدية . وورد من وجه آخر عن أبي هريرة أصرح من هذا عند أحمد وابن أبي عاصم والنسائي وصححه ابن حبان والبيهقي . كلهم من رواية بشير بن نهيك عنه بلفظ : (من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينيه فلا دية ولا قصاص) وفي رواية من هذا الوجه : (فهو هدر) .

الصحيح بشرح الفتح ١٢/٢٤٣ ، مسلم بشرح النووي ٤/٨٦٦ ، الجامع الصغير بشرح الفيض ٥/٣٠٧ . كما رواه أبو داود في (كتاب الأدب) والنسائي (القسامة) وبمعناه في ابن حنبل ٢/٥٢٧ .

(٢) الحديث متفق عليه وقد أخرج أحمد الحديث مقتصراً على المتن دون القصة . الصحيح بشرح الفتح ٩/٦٠٧ ، المنتقى بشرح نيل الأوطار ٨/١٤٢ ، وجاء في البخاري (كتاب الذبائح) ، وفي مسلم (الصيد) ، أبو داود (الأدب) ابن ماجه (الصيد) ، الدارمي (المقدمة) .

(٣) وقع في بعض الروايات : (من جحر في حجر) الأول بضم الجيم وسكون المهملة ، وهو كل ثقب مستدير في أرض أو حائط وأصلها مكان الوحش والثاني بضم أوله وفتح ثانيه جمع حجرة وهي ناحية البيت ووقع في رواية الكشميهني : (حجرة) بالإفراد . ورواية الصحيحين : (لو أعلم أنك تنظرني) ورد الحديث في البخاري (كتاب الاستئذان) ، مسلم (الأدب) ، النسائي (القسامة) ، ابن حنبل ٥/٢٢٠ .

على ذلك حيث جنى هذه الجناية على حرمة صاحب البيت ، فله أن يفقأ عينه بالحصا والمدرى .

(فصل)

والنظر إلى العورات حرام داخل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنّما حَرَّم ربي الفَواحِشَ ﴾ [١] وفي قوله ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ ﴾ [٢] فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المعاشرة بالفرج ، أو الدبر ، وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك ، وكما في قصة لوط ﴿ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالَمِينَ ﴾ [٣] ﴿ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرونَ ﴾ [٤] وقوله ﴿ ولَا تَقْرَبُوا الزِّنا إنَّهُ كانَ فَاحِشَةً ﴾[٥] ، والفاحشة أيضاً تتناول كشف العورة وإن لم تكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى : ﴿ وإذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آباءَنا ﴾ [٦] وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عراة وكانوا يقولون [٧] لا نطوف بثياب عصينا الله فيها إلا الحمس فإنهم كانوا يطوفون بثيابهم وغيرهم إن حصل له ثياب من الحمس طاف فيها وإلا طاف عرياناً وإن طاف بثيابه حرمت عليه فألقاها فكانت تسمى لقاء . وكذلك المرأة إذا لم يحصل لها ثياب جعلت يدها على فرجها ويدها الأخرى على دبرها وطافت وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

وقد سمى الله ذلك فاحشة وقوله في سياق ذلك ﴿ قُلْ إنّما حَرَّمَ رَبّي الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ ﴾ [٨] يتناول كشف العورة أيضاً وإبداءها ، ويؤكد ذلك أن إبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشاً ، فكشف الأعضاء والفعل للبصر ككشف ذلك للسمع ، وكل واحد من الكشفين يسمى وصفاً ، كما قال عليه السلام « لا تنعت المرأة المرأة لزوجها » [٩] حتى كأنه ينظر إليها . ويقال فلان يصف فلاناً وثوب يصف البشرة ، ثم إن كان

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٨٠ .

(٤) سورة النمل الآية ٥٤ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٣٢ .

(٦) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

(٧) في الأصل : وكان .

(٨) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(٩) ورد في البخاري (كتاب النكاح) بلفظ : « لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » ، وفي أبي داود (كتاب النكاح) ، ابن حنبل ١/٣٨٧ .

واحد من إظهار ذلك للسمع والبصر يباح للحاجة بل يستحب إذا لم يحصل المستحب أو الواجب إلا بذلك كقول النبي ﷺ لماعز : « أنكتها » (١) وكقوله « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » (٢) .

والمقصود أن الفاحشة تتناول الفعل القبيح وتتناول إظهار الفعل وأعضاءه وهذا كما أن ذلك يتناول ما فحش وإن كان بعقد نكاح كقوله تعالى : ﴿ وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ من النساء إلّا ما قَدْ سَلَفَ إنَّهُ كانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سبيلاً ﴾ (٣) فأخبر أن هذا النكاح فاحشة وقد قيل إن هذا من الفواحش الباطنة فظهر أن الفاحشة تتناول العقود الفاحشة ، كما تتناول المباشرة بالفاحشة فإن قوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ يتناول العقد والوطء وفي قوله ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ (٤) عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال وأمر تعالى بحفظ الفرج مطلقاً بقوله : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ وبقوله : ﴿ والذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظونَ إلّا على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ (٥) الآيات . وقال : ﴿ والحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ والحَافِظَاتِ ﴾ (٦) فحفظ الفرج مثل قوله : ﴿ والحَافِظُونَ لِحُدودِ الله ﴾ (٧) وحفظها هو صرفها عما لا يحل .

وأما الأبصار فلا بد من فتحها ، والنظر بها ، وقد يفجأ الإنسان ما ينظر إليه بغير قصد فلا يمكن غضها مطلقاً ، ولهذا أمر تعالى عباده بالغض منها كما أمر لقمان ابنه بالغض من صوته ، وأما قوله تعالى : ﴿ إن الذينَ يَغُضّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ الله ﴾ (٨) الآية فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسوله مطلقاً ، فهم مأمورون بذلك ينهونٍ عن رفع الصوت

---

(١) جزء من حديث ابن عباس في قصة ماعز عندما حضر إلى النبي ﷺ وأقر على نفسه بالزنا أربع مرات ، ومما جاء في حديث ابن عباس قول النبي ﷺ له : (ولعلك قبلت أو غمزت ـ بمعجمة وزاي أو نظرت ؟ قال : لا) وفيه أيضاً : (فقال : أنكتها ؟ قال : نعم) .
وفي حديث أبي هريرة أيضاً من هذه القصة (أنكتها ؟ قال : نعم . قال : حتى دخل ذلك منك في ذلك منها ؟ قال : نعم . قال : كما يغيب المرود في المكحلة والرشا في البئر ؟ قال : نعم (إلى آخر الحديث . يراجع البخاري بشرح الفتح ١٢/١٢٣ ، المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧/١٠٠ ، وفي أبي داود (كتاب الحدود) .

(٢) التعزي : الانتهاء والانتساب إلى القوم . يقال : عزيت الشيء وعزوته أعزيه وأعزوه إذا أسندته إلى أحد . والعزاء والعزوة اسم لدعوى المستغيث وهو أن يقول : يا لفلان . والحديث رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبيّ ابن كعب . أو (يا للأنصار ويا للمهاجرين) . النهاية لابن الأثير . كشف الخفا والإلباس ٢/٣٣٢ .

(٣) سورة النساء الآية ٢٢ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٥) سورة المؤمنون الآيات (٥ ـ٦ ـ٧) .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

(٧) سورة التوبة الآية ١١٢ .

(٨) سورة الحجرات الآية ٣ .

عنده ﷺ ، فهو غض خاص ممدوح ، ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقا في كل حال ، ولم يؤمر العبد به بل يؤمر برفع الصوت في مواضع إما أمر إيجاب أو استحباب فلهذا قال : ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ (١) فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ، ويخرج منه ، فبالسمع يدخل القلب ، وبالصوت يخرج منه كما جمع العضوين في قوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ (٢) فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور ، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور : هذا رائد القلب ، وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلكَ أزكى لهم ﴾(٣) وقال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بها ﴾(٤) وقال : ﴿ إنّما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(٥) وقال في آية الاستئذان ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعوا هُوَ أزكَى لَكُمْ ﴾(٦) وقال : ﴿ فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ ذلكم أَطْهَرُ لِقلوبِكُمْ وَقُلوبِهِنَّ ﴾(٧) وقال : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خيرٌ لكُمْ وأَطْهَرُ ﴾(٨)وقال النبي ﷺ«اللهم طهِّر قلبي من خطاياي بالماء والثلج والبرد »(٩) وقال في دعاء الجنازة « واغسله بماء وثلج وبرد ونقه من خطاياه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس »(١٠).

فالطهارة والله أعلم هي من الذنوب التي هي رجس والزكاة تتضمن معنى الطهارة التي هي عدم الذنوب ومعنى النماء بالأعمال الصالحة مثل المغفرة والرحمة . ومثل النجاة من العذاب والفوز بالثواب : ومثل عدم الشر وحصول الخير فإن الطهارة تكون من الأرجاس والأنجاس

---

(١) سورة لقمان الآية ١٩ .

(٢) سورة البلد الآيات (٨ ـ ٩) .

(٣) سورة النور الآية ٣٠ .

(٤) سورة التوبة الآية ١٠١ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٦) سورة النور الآية ٢٨ .

(٧) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٨) سورة المجادلة الآية ١٢ .

(٩) هذا حديث عائشة المتفق عليه والذي أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه كما خرجه الحاكم بزيادة ولفظ البخاري منه : (ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس) . الصحيح بشرح الفتح ١١/١٧٦ . مسلم بشرح النووي ٥/٥٥٧ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/١٢٧ .

(١٠) حديث عوف بن مالك عند مسلم والنسائي وقد أخرجه الترمذي مختصراً . المنتقى بشرح نيل الأوطار ٤/٧٣ . وفي ابن ماجه (الجنائز) وابن حنبل ٦/٢٣ .

وقد قال تعالى : ﴿ إنّما المشرِكونَ نَجَسٌ ﴾[1] وقال : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾[2] وقال : ﴿ إنّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ﴾[3] وقال عن المنافقين : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾[4] وقال عن قوم لوط ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ القَرِيةِ التي كانَتْ تَعْمَلُ الخَبَائِثَ ﴾ وقال اللوطية عن لوط وأهله ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إنَّهُمْ أناسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[5] قال مجاهد : عن أدبار الرجال : ويقال في دخول الغائط : أعوذ بك من الخبث والخبائث ومن الرجس والنجس الخبيث المخبث . وهذه النجاسة تكون من الشرك والنفاق والفواحش والظلم ونحوها ، وهي لا تزول إلا بالتوبة عن ترك الفحشاء وغيرها ، فمن تاب منها فقد تطهر وإلا فهو متنجس وإن اغتسل بالماء من الجنابة فذاك الغسل يرفع حدث الجنابة ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه ، فإن تلك الجناسة لا يرفعها الاغتسال بالماء ، وإنما يرفعها الاغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات .

وهذا معنى ما رواه ابن أبي الدنيا وغيره : ثنا سويد بن سعيد ثنا مسلم بن خالد عن إسماعيل بن كثير عن مجاهد قال : لو أن الذي يعمل يعني عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً . ورواه ابن الجوزي ، وروى القاسم بن خلف في كتاب ذم اللواط بإسناده عن الفضيل بن عياض أنه قال : لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة نزلت من السماء للقي الله غير طاهر . وقد روى أبو محمد الخلال عن العباس الهاشمي ذلك مرفوعاً[6] ، وحديث إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود[7] « اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا » ورفع مثل هذا الكلام منكر وإنما هو معروف من كلام السلف .

وكذلك روي عن أبي هريرة وابن عباس قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته :

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٨ .

(٢) سورة الحج الآية ٣٠ .

(٣) سورة المائدة الآية ٩ .

(٤) سورة التوبة الآية ٩٥ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٨٢ .

(٦) الخبر أورده ابن الجوزي في الموضوعات وأسنده الديلمي عن أنس مرفوعاً بلفظ : (لو اغتسل اللوطي بماء البحر لم يجيء يوم القيامة إلا جنباً) وأسنده أيضا عن أبي هريرة بلفظ مختلف مع اتفاق في المعنى . قال في المقاصد : وكل ما في معناه باطل . ونقل ابن الجوزي ـ تعليقاً على حديث أنس ـ قول الخطيب : الرجال المذكورون في إسناد هذا الحديث كلهم ثقاة غير أبي سهل ، وهو الذي ضعفه .

كشف الخفاء والألباس للعجلوني ٢/٢١٩ . الموضوعات لابن الجوزي ٣/١١٢ .

(٧) الخبر رواه روح بن مسافر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود وأورده ابن حبان في ترجمة روح بن مسافر . وقال : كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات لا تحل الرواية عنه كما أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال : هذا موضوع ثم نقل رأي ابن حبان كما سبق . المجروحون لابن حبان ١٢٩٩ . الموضوعات لابن الجوزي ٣/١١٢ .

« من نكح امرأةً في دبرها أو غلاماً أو رجلاً حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ويحبط الله عمله ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ويجعل في تابوت من نار ويسمر عليه بمسامير من حديد فتشك تلك المسامير في وجهه وجسده » قال أبو هريرة هذا لمن لم يتب . وذلك أن تارك اللواط متطهر ، كما دل عليه القرآن . ففاعله غير متطهر من ذلك فيكون متنجساً ، فإن ضد الطهارة النجاسة .

(فصـــــل)

لكن النجاسة أنواع مختلفة تختلف أحكامها ومن ههنا غلط بعض الناس من الفقهاء فإنهم لما رأوا ما دل عليه القرآن من طلب طهارة الجنب بقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ﴾[1] قالوا فيكون الجنب نجساً ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة « أن النبي ﷺ قال إن المؤمن لا ينجس »[2] لما انخنس منه وهو جنب وكره أن يجالسه ، فهذه النجاسة التي نفاها النبي ﷺ هي نجاسة الطهارة بالماء التي ظنها أبو هريرة .

والجنابة تمنع الملائكة أن تدخل بيتاً فيه جنب . وقال أحمد : إذا وضع الجنب يده في ماء قليل أنجس الماء ، فظن بعض أصحابه أنه أراد النجاسة الحسية وإنما أراد الحكمية ، فإن الفرع لا يكون أقوى من الأصل ، ولا يكون الماء أعظم من البدن بل غايته أن يقوم به المانع الذي قام بالبدن والجنب طاهر ممنوع من الصلاة فيكون الماء كذلك طاهراً لا يتوضأ به للصلاة .

وأما الزكاة فهي متضمنة النماء والزيادة كالزرع وإن كانت الطهارة قد تدخل في معناها فإن الشيء إذا تنظف مما يفسده زكا ونما وصلح وزاد في نفسه ينقى من الدغل[3] قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَد أَبداً وَلكنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ ﴾[4] قال ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾[5] وقال : ﴿ قَدْ أفلحَ مَنْ زَكّاهَا ﴾[6] وقال : ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾[7] فإن الرجوع عمل صالح يزيد المؤمن زكاةً وطهارةً .

---

(١) سورة المائدة الآية ٦ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في (كتاب الغسل) ، ومسلم (الحيض) ، أبو داود (الطهارة) ، والترمذي والنسائي وابن ماجه عن حذيفة بن اليمان ، وأخرجه النسائي أيضا عن ابن مسعود والطبراني عن أبي موسى . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٣٨٦ .

(٣) الدغل :سورة بفتحتين الفساد كالدخل .

(٤) سورة النور الآية ٢١ .

(٥) سورة الكهف الآية ٧٤ .

(٦) سورة الشمس الآية ٩ .

(٧) سورة النور الآية ٢٨ .

وقال : ﴿ ذلكُمْ أَطْهَرُ لِقُلوبِكُمْ وقلوبِهِنَّ ﴾ فإن ذلك مجانبة لأسباب الريبة وذلك من نوع مجانبة الذنوب والبعد عنها ، ومباعدتها ، فأخبر أن ذلك أطهر لقلوب الطائفتين .

وأما الآية التي نحن فيها وهي قوله : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ﴾[1] فالغض من البصر وحفظ الفرج يتضمن البعد عن نجاسة الذنوب ، ويتضمن الأعمال الصالحة التي يزكو بها الإنسان وهو أزكى : والزكاة تتضمن الطهارة فإن فيها معنى ترك السيئات ومعنى فعل الحسنات ، ولهذا تفسر تارة بالطهارة وتارة بالزيادة والنماء ، ومعناها يتضمن الأمرين وإن كان قرن الطهارة معها في الذكر مثل قوله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾[2] فالصدقة توجب الطهارة من الذنوب وتوجب الزكاة التي هي العمل الصالح . كما أن الغض من البصر وحفظ الفرج هو أزكى لهم وهما يكونان باجتناب الذنوب ، وحفظ الجوارح ويكونان بالتوبة والصدقة التي هي الإحسان ﴿ إنَّ اللهَ مَعَ الذينَ اتَّقَوْا والذينَ هُمْ مُحْسِنونَ ﴾[3] .

وقد روى الترمذي وصححه[4] « أن النبي ﷺ سئل ما أكثر ما يدخل الناس النار فقال الأجوفان الفم والفرج . وسئل عن أكثر ما يدخل الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق » ، فيدخل في تقوى الله حفظ الفرج ، وغض البصر ويدخل في حسن الخلق الإحسان إلى الخلق والامتناع من إيذائهم ، وذلك يحتاج إلى الصبر .

والإحسان إلى الخلق يكون عن الرحمة والله تعالى يقول : ﴿ وَتواصَوْا بالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بالمَرْحَمَةِ ﴾[5] وهو سبحانه ذكر الزكاة هنا كما قدمها في قوله : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحدٍ أَبَداً ﴾[6] فإن اجتناب الذنوب يوجب الزكاة التي هي زوال الشر وحصول الخير .

والمفلحون هم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات كما وصفهم في أول سورة البقرة فقال : ﴿ الٓمٓ ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً للمتّقينَ ﴾ الآيات قال : ﴿ قد أفلح من

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) سورة النحل الآية ١٢٨ .

(٤) ورد الحديث في سنن ابن ماجه ١٤٨٨/٢ ، وفي البخاري (كتاب الرقاق) عن سهل بن سعد « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » وذكر المنذري في الترغيب والترهيب عدة روايات للحديث ٦١/٤ - ٦٤ وفي المسند (ط الحلبي) ٣٣٣/٥ . وذكر النبهاني في الفتح الكبير ٢٤٦/٣ أن الحديث رواه ابن حبان والحاكم .

(٥) سورة البلد الآية ١٧ .

(٦) سورة النور الآية ٢١ .

زكاها ﴾[1] فإذا كان قد أخبر أن هؤلاء المفلحون وأخبر أن المفلحين هم المتقون ﴿ الذينَ يُؤمِنونَ بالغيبِ وَيُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقونَ ﴾ وأخبر أن من زكى نفسه فهو مفلح دل ذلك على أن الزكاة تنتظم الأمور المذكورة في أول سورة البقرة .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾[2] وقوله : ﴿ فَلا تُزَكّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى ﴾[3] فالتزكية من العباد لأنفسهم هي إخبارهم عن أنفسهم بكونها زاكية واعتقاد ذلك لأنفس جعلها زكية ، وقال تعالى عن إبراهيم : ﴿ رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[4] وقال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ ﴾ الآية ، وقال : ﴿ هوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾[5] الآية . فامتنّ سبحانه على العباد بإرساله في عدة مواضع فهذه أربعة أمور أرسله بها : تلاوة آياته عليهم ، وتزكيتهم ، وتعليمهم الكتاب والحكمة .

وقد ورد تعليمه الكتاب والحكمة بالذكر مثل قوله : ﴿ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكتابِ والحكمةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ وَاذْكُرْنَ ما يُتلَى في بُيوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحكمةِ ﴾[7] وذلك أن التلاوة عليهم وتزكيتهم أمر عام لجميع المؤمنين . فإن التلاوة هي التبليغ إليهم كلامه تعالى وهذا لا بد منه لكل مؤمن ، وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشيء عن الآيات التي سمعوها وتليت عليهم ، فالأول سمعهم ، والثاني طاعتهم والمؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا : الأول علمهم والثاني عملهم .

(فصـــــل)

والإيمان قول وعمل فإذا سمعوا آيات الله وعوها بقلوبهم وأحبوها وعملوا بها ولم يكونوا كمن قال فيهم : ﴿ وَمَثَلُ الذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلا دُعاءً وَنِداءً

---

(١) سورة الشمس الآية ٩ .
(٢) سورة النساء الآية ٤٩ .
(٣) سورة النجم الآية ٣٢ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٢٩ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٦ .
(٦) سورة الجمعة الآية ٢ .
(٧) سورة البقرة ٢٣١ .
(٨) سورة الأحزاب الآية ٤٣ .

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ ﴾[1] وإذا عملوا بهـا زكـوا بـذلـك ، وكـانـوا من المفلحين المؤمنين ، والله قال : ﴿ يَرْفَعُ اللهُ الذينَ آمَنـوا مِنْكُمْ والذينَ أُوتـوا العِلْمَ دَرَجاتٍ ﴾[2] وقـال في ضـدهم : ﴿ الأَعْرابُ أَشَـدُّ كُفْراً وَنِفـاقـاً وأَجْدَرُ أنْ لا يَعْلَمُـوا حـدودَ مـا أنـزلَ اللهُ على رسولِهِ ﴾[3] فأخبر أنهم أعظم كفراً ونفاقاً وجهلاً وذلك ضد الإيمان والعلم : فـاستماع آيـات الله والتزكي بها أمر واجب على كل أحد ، فـإنه لا بـد لكل عبـد من سماع رسـالة سيـده التي أرسل بها رسوله إليه وهذا هـو السماع الـواجب الذي هـو أصل الإيمـان ، ولا بد من التـزكي بفعل المأمور وترك المحظور فهذان لا بد منهما .

وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالماً بالكتاب لفظه ومعناه عالماً بالحكمة جميعها ، بل المؤمنون كلهم مخاطبون بذلـك وهو واجب عليهم كما هم مخاطبون بالجهاد بل وجـوب ذلك أسبق وأوكـد من وجوب الجهـاد ، فإنـه أصل الجهاد ، ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون ، ولهذا كان قيـام الرسـل والمؤمنين بـذلك قبـل قيامهم بالجهاد فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه .

ومقصـور الرسـالة فعـل الواجبـات والمستحبـات جميعـا ولا ريـب أن استمـاع كتـاب الله والإيمان به وتحريم حرامه وتحليل حلاله والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه واجب على كل أحد ، وهذا هو التلاوة المذكـورة في قولـه ﴿الذينَ آتَيْنـاهُمُ الكتابَ يَتْلونَـهُ حَقَّ تِلاوَتِـهِ أولئك يُؤ مِنـونَ بِهِ﴾[4] فأخبر عن الذين يتلونه حق تلاوتـه أنهم يؤمنون بـه وبه قـال سلف الأمة من الصحـابة والتابعين وغيرهم وقوله : ﴿حق تلاوته﴾ كقوله : ﴿وَجَاهِدوا في اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾[5] ﴿واتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾[6] .

وأما حفظ جميع القرآن وفهم جميع معانيه ومعرفة جميع السنة ، فلا يجب على كـل أحد ، لكن يجب على العبد أن يحفظ من القرآن ، ويعلم معانيه ويعرف من السنة ما يحتاج إليه وهـل يجب عليه أن يسمع جميع القرآن ؟ فيـه خلاف ولكن هـذه المعرفـة الحكيمة التي يجب عـلى كل عبد ليس هو علم الكتاب والحكمة التي علمها النبي ﷺ أصحابـه وأمته ، بـل ذلك لا يكـون إلا بمعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من الألفاظ والمعاني والأفعال والمقاصـد ، ولا يجب هذا على كل أحد .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧١ .

(٢) سورة المجادلة الآية ١١ .

(٣) سورة التوبة الآية ٩٧ .

(٤)سورة البقرة الآية ١٢١ .

(٥) سورة الحج الآية ١٠٢ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

وقوله تعالى : ﴿فلا تُزَكّوا أنفسَكُمْ هَوَ أعلمُ بِمَنِ اتّقى﴾[1] دليل على أن الزكاة هي التقوى ، والتقوى تنتظم الأمرين جميعاً ، بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات إذ الإنسان حارث همام ، ولا يدع إرادة السيئات وفعلها إلا بإرادة الحسنات وفعلها ، إذ النفس لا تخلو عن الإرادتين جميعاً ، بل الإنسان بالطبع مريد فعال ، وهذا دليل على أن هذا يكون سببه الزكاة ، والتقوى التي بها يستحق الإنسان الجنة ، كما في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال « من تكفل لي بحفظ ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة »[2] ومن تزكى فقد أفلح فيدخل الجنة .

والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر ، فإذا حصل الخير وزال الشر من العلم والعمل حصل نور وهدى ومعرفة وغير ذلك ، والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية وغير ذلك ، هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتى بالمأمورات ويحصل له ذلك أيضاً قدرةً وسلطاناً ، وهذه صفات الكمال والعلم والعمل والقدرة وحسن الإرادة ، وقد جاءت الآثار بذلك ، وأنه يحصل لمن غض بصره نور في قلبه ومحبة ، كما جرب ذلك العالملون العاملون .

وفي مسند أحمد حدثنا عتاب عن عبد الله وهو ابن المبارك ، عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ[3] « قال : ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » .

ورواه أبو بكر بن الأنباري في أماليه من حديث ابن أبي مريم عن يحيى بن أيوب به ولفظه « من نظر إلى امرأة فغض بصره عند أول دفعة رزقه الله عبادة يجد حلاوتها »[4] .

وقد رواه أبو نعيم في الحلية حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا محمد بن يعقوب قال : حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو مهدي سعيد بن سنان عن أبي الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر « قال : قال رسول الله ﷺ : النظرة الأولى خطأ والثانية عمد والثالثة تدمر ، نظر المؤمن إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس من تركه خشية الله ورجاء ما عنده أثابه الله تعالى بذلك عبادة تبلغه لذتها »[5] .

---

(١) سورة النجم الآية ٣٢ .

(٢) الحديث اخرجه البخاري بلفظ : « من يضمن لي » في كتاب الرقاق ومرة أخرى بلفظ : (من توكل لي) في كتاب الحدود . وأخرجه الترمذي بلفظ : (من تكفل) وهو ما أورده المصنف هنا ، كما أخرجه الإسماعيلي بلفظ : (من حفظ) ومثله عند أحمد وأبي يعلى ، وعند الطبراني بلفظ : (فقميه) بدل (لحييهُ) وهو بمعناه . الصحيح بشرح الفتح ٣٠٨/ ١١ ، ١٢/١١٣ .

(٣) الحديث أخرجه الطبراني أيضا بلفظ مقارب وكلاهما من حديث أبي امامة المنذري ولم يبين سبب التضعيف وبين الهيثمي ذلك فقال : فيه علي بن زيد الألهاني وهو متروك . الجامع الصغير بشرح الفيض ٥/٤٩٦ .

(٤) يراجع ابن كثير فيما علق به على الحديث السابق ٣/٢٨٢ .

(٥) المصدر السابق .

رواه أبو جعفر الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب ثنا علي بن حرب ثنا إسحاق بن عبد الواحد ثنا هشيم ثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب بن دثار عن جبلة بن حذيفة بن اليمان « قال : قال رسول الله ﷺ : النظر إلى المرأة سهم مسموم من سهام إبليس من تركه خوفاً من الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه »[1] .

وقد رواه أبو محمد الخلال من حديث عن عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي وفيه ذكر السهم : ورواه أبو نعيم ثنا عبد الله بن محمد هو أبو الشيخ ثنا ابن عفير قال ثنا شعيب بن سلمة ثنا عصمة بن محمد عن موسى يعنى ابن عقبة عن القاسم بن محمد عن عائشة « قالت : قال رسول الله ﷺ : ما من عبد يكف بصره عن محاسن امرأة ولو شاء أن ينظر إليها لنظر إلا أدخل الله قلبه عبادة يجد حلاوتها »[2] .

وروى ابن أبي الفوارس من طريق ابن الجوزي عن محمد بن المسيب ثنا عبد الله قال : حدثني الحسن عن مجاهد قال : « غض البصر عن محارم الله يورث حب الله » ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلي « قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري »[3] .

ورواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس به ، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضاً ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وفي رواية قال : « أطرق بصرك » أي انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فإنه قد يكون إلى الأرض أو إلى جهة أخرى .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري حدثنا شريك عن ربيعة الإيادي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ لعلي : يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الأخرى »[4] ورواه الترمذي في حديث شريك وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديثه .

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : « قال رسول الله ﷺ : إياكم والجلوس على

---

(١) يراجع كشف الخفا والالباس للعجلوني ٢/٤٥٥ . تفسير ابن كثير ٣٠/٢٧٣ .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي . قال الخطابي في تعليقه على الحديث بعد أن أورد الرواية الأخرى : (أطرق بصرك) فقال : الإطراق أن يقبل ببصره إلى صدره والصرف أن يقبل به إلى الشق الآخر أو الناحية الأخرى . مسلم بشرح النووي ٤/٨٦٧ . مختصر السنن للمنذري ٣/٧٠ .

(٤) نقل المنذري قول الترمذي : فقال : حديث حسن غريب . . الخ . وفي أبي داود (كتاب النكاح) والدارمي (كتاب الرقاق) وابن حنبل ٣٥١/٥ .

الطرقات . قالوا : يا رسول الله ما لنا بـد من مجالسنـا نقعد فيهـا . فقال رسـول الله ﷺ : إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق يـا رسول الله ؟ قـال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر »[1] .

وروى أبـو القاسم البغـوي عن أبي أمامـة[2] « قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : اكفلوا لي ستا أكفل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا اؤتمن فلا يخن وإذا وعد فـلا يخلف ، غضوا أبصاركم وكفـوا أيديكم واحفظوا فروجكم » . فالنظر داعية إلى فساد القلب . قـال بعض السلف النظر سهم سم إلى القلب . فلهـذا أمر الله بحفظ الفـروج كـما أمـر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك ، وفي الطبراني من طريق عبيـد الله بن يزيـد عن القاسم عن أبي أمـامـة مـرفـوعـاً « لَتغضنَّ ابصـاركم ولَتحفـظنَّ فـروجكم ولتقيمن وجــوهكن أو لتكسفن وجوهكم »[3] .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن زهير التستري قال : قرأنا على محمـد بن حفص بن عمر الضرير حدثنا المقري يحيى ابن أبي كثير حدثنا هزيم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال : « قـال رسول الله ﷺ : إن النـظر سهم من سهام إبليس مسموم فمن تركه من مخافة الله أبدله الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه »[4] .

وفي حـديث أبي هريـرة الصحيح عن النبي ﷺ « زنـا العينين النـظر »[5] وذكر الحـديث

---

(١) الحديث أخرجه البخاري من طريق أبي عامر العقدي وكذا أخرجـه الإسماعيـلي ولكن من طريق غـير طريق البخـاري وأخرجـه أحمد وعبد بن حميد جميعاً عن أبي عامـر وأخرجـه أيضا مسلم وأبـو داود كلهم من حديث أبي سعيـد الخدري . انـظر البخاري (كتـاب المظالم) وأبي داود (كتاب الأدب) وابن حنبل ٦/٣ . الصحيح بشرح الفتح ١١/٨ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٣/١٢١ .

(٢) ورد الحـديث بلفظ من كفل لي ستـا في : أبي داود (الزكـاة) والترمـذي (الزهـد) ، وهكذا الحـديث له طـريق آخـر عن عبـادة بن الصـامت بلفظ : (اضمنوا لي ستـا من أنفسكم أضمن لكم الجنة ، اصـدقوا إذا حـدثتم ، وأوفـوا إذا وعـدتم ، وأدوا إذاائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفـوا أيديكم) أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان ، وقد رمز السيوطي للحديث بالصحة لكن تكلم الأئمة في أن الراوي عن عبادة بن الصـامت هو المطلب لم يسمع من عبادة . الجامع الصغير الفيض ١/٥٣٥ .

(٣) الحديث أورده ابن كثير عن الطبراني أيضا فقال : من طريق عبد الله بن يزيد عن علي بن يزيد عن القاسم . . الخ . تفسير ابن كثير ٣/٢٨٢ .

(٤) للحديث شواهد عند البيهقي وغيره . قال المنذري : ورواتهم لا أعلم فيهم مجروحـاً عن ابن مسعود . وقـد أورد الخبر العجلوني عن الطبراني عن ابن مسعود : «قال: قال رسول الله ﷺ عن ربـه عز وجـل : النظرة سهم مسمـوم » الخ . تفسـير ابن كثير ٣/٢٨١ ، كشف الخفا والالباس ٢/٤٥٥ .

(٥) العبارة من حديث أبي هريرة وقد أخرج البخاري الحديث موقوفاً ثم عطف عـلى هذه الـرواية روايـة أخرى أورد بهـا مرفـوعاً عن ابن عباس قال : (ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ : إن الله كتب عـلى ابن آدم حظه من الـزنا أدرك ذلـك لا محالة : فزنا العين النظر ، وزنا اللسان المنطق ، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كلية ويكذبه) وفيما أورده البخاري بلفظ (العين) مفرداً وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وقال ابن حجر : رواه أحمد والطبراني أيضا .

وقد أورد السيوطي في الجامع الصغير عن ابن سعد في الطبقات والطبراني من حديث علقمة بن الحويرث بلفظ : (زنا العين النـظر) وأخرجه ايضا أبو نعيم والديلمي . الصحيح بشرح الفتح ٢٦ ، ١١/٥٠٢ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٢٥٦ ، ٤/٦٥ .

رواه البخاري تعليقاً ومسلم مسنداً وقد كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى المردان وكانوا يتهمون من فعل ذلك في دينه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب من الرجال بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً .

(فصــل)

قال شيخ الإسلام : وأما النور والعلم والحكمة فقد دل عليه قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ولمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وكذلكَ نَجْزِي المحسنينَ﴾[1] فهي لكل محسن ، وفي هذه السورة ذكر آية للنور بعد غض البصر ، وحفظ الفرج ، وأمره بالتوبة مما لا بد منه أن يدرك ابن آدم من ذلك ، وقال أبو عبد الرحمن السلمي : سمعت أبا الحسين الوراق يقول : « من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدي بها ويهدي بها إلى طريق مرضاته » وهذا لأن الجزاء من جنس العمل فإذا كان النظر إلى محبوب فتركه لله عوضه الله ما هو أحب إليه منه ، وإذا كان النظر بنور العين مكروهاً أو إلى مكروه ، فتركه لله أعطاه الله نوراً في قلبه وبصراً يبصر به الحق .

قال شاه الكرماني : من غض بصره عن المحارم وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة ، وعود نفسه أكل الحلال ، وكف نفسه عن الشهوات لم تخطىء له فراسة ، وإذا صلح علم الرجل فعرف الحق وعمله واتبع الحق صار زكياً تقياً مستوجباً للجنة .

ويؤيد ذلك حديث أبي أمامة المشهور من رواية البغوي حدثنا طالوت بن عباد حدثنا فضالة بن جبير سمعت أبا أمامة يقول[2] « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اكفلوا لي بست أكفل لكم الجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا ائتمن فلا يخن وإذا وعد فلا يخلف : غضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم » ، فقد كفل بالجنة لمن أتى بهذه الست خصال فالثلاثة الأولى تبرئة من النفاق ، والثلاثة الأخرى تبرئة من الفسوق والمخاطبون مسلمون ، فإذا لم يكن منافقاً كان مؤمناً ، وإذا لم يكن فاسقاً كان تقياً فيستحق الجنة .

ويوافق ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا حدثنا أبو سعيد المدني حدثني عمر بن سهل المازني قال : حدثني عمر بن محمد بن صهبان حدثني صفوان بن سليم عن أبي هريرة[3] قال : « قال رسول الله ﷺ : كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله وعيناً سهرت في سبيل

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٢ .

(٢) سبق تحقيق الحديث من قبل .

(٣) لم أقف على هذه الرواية في كتب الحديث ولكن أخرجه أبو نعيم في الحلية ورمز له السيوطي بالحسن . الجامع الصغير بشرح الفيض ٥/٢٧ .

الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » وقوله سبحانه : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[1] يتناول النظر إلى الأموال واللباس والصور ، وغير ذلك من متاع الدنيا أما اللباس والصور فهما اللذان لا ينظر الله إليهما كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[2] وقد قال تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أثاثاً وَرِئْياً﴾[3] وذلك أن الله يمتع بالصور كي يمتع بالأموال كلاهما من زهرة الحياة الدنيا ، وكلاهما يفتن أهله وأصحابه ، وربما أفضى به إلى الهلاك دنيا وأخرى .

والهلكى رجلان : فمستطيع ، وعاجز ، فالعاجز مفتون بالنظر ومد العين إليه ، والمستطيع مفتون فيما أوتي منه غارق قد أحاط به ما لا يستطيع إنقاذ نفسه منه ، وهذا المنظور قد يعجب المؤمن ، وإن كان المنظور منافقاً أو فاسقاً كما يعجبه المسموع منهم قال تعالى: ﴿ وَإذا رَأَيْتَهُمْ تَعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾[4] فذا تحذير من الله تعالى من النظر إليهم واستماع قولهم ، فلا ينظر إليهم ولا يسمع قولهم فإن الله سبحانه قد أخبر أن رؤ ياهم تعجب الناظرين إليهم ، وأن قولهم يعجب السامعين ، ثم أخبر عن فساد قلوبهم وأعمالهم بقوله ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ فهذا مثل قلوبهم وأعمالهم ، وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ﴾[5] الآية .

وقد قال تعالى في قصة قوم لوط ﴿ إِنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسِّمِينَ﴾[6] والتوسم من السمة وهي العلامة ، فأخبر سبحانه أنه جعل عقوبات المعتدين آيات للمتوسمين ، وفي الترمذي عن النبي ﷺ[7] قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ﴿ إن في ذلك

---

(١) سورة طه الآية ١٣١ .

(٢) جاء الحديث في البخاري (كتاب بدء الوحي ، وأبو داود (الطلاق) والنسائي (الطهارة) ، ابن ماجة (الزهد) . الحديث أخرجه أيضا ابن ماجه في الزهد ، ورواه مسلم أيضا عن أبي هريرة في (كتاب الإمارة) بلفظ : (إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٧٧ . سنن ابن ماجه ٣/١٣٨٨ .

(٣) سورة مريم الآية ٧٤ .

(٤) سورة المنافقون الآية ٤ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٠٤ وتمامها :﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ .

(٦) سورة الحجر الآية ٧٥ .

(٧) الحديث أخرجه أيضا البخاري في التاريخ كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري كما أخرجه سمريه والطبراني وابن عدي عن أبي أمامة الباهلي وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عمر أما الطريق الأول فاستغربه الترمذي وفيه مصعب بن سلام أورده الذهبي في الضعفاء وحديث أبي أمامة فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ليس بشيء ورواية ابن جرير فيه متروك وضعيف وقد حكم ابن الجوزي على الخبر بالوضع وقال السخاوي بعد ما ساق هذه الطرق : وكلها ضعيفة وفي بعضها ما هو متماسك لا يليق =

لآياتٍ للمتوسمين ﴾ فدل ذلك على أن من اعتبر بما عاقب الله به غيره من أهل الفواحش كان من المتوسمين .

وأخبر تعالى عن اللوطية أنه طمس أبصارهم ، فكانت عقوبة أهل الفواحش طمس الابصاركما قد عرف ذلك فيهم وشوهد منهم ، وكان ثواب المعتبرين بهم التاركين لأفعالهم إعطاء الأنوار ، وهذا مناسب لذكر آية النور عقيب غض الأبصار .

وأما القوة والقدرة التي يعطيها الله لمن اتقاه ، وخالف هواه فذلك حاصل معروف كما جاء « إن الذي يترك هواه يفرق الشيطان من ظله » . وفي الصحيح أن النبي ﷺ[1] قال : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وفي رواية « أنه مر بقوم يحذفون حجراً فقال : ليس الشدة في هذا وإنما الشدة في أن يمتلىء أحدكم غيظاً ثم يكظمه لله » أو كما قال .

وهذا ذكره في الغضب لأنه معتاد لبني آدم كثيراً ويظهر للناس ، وسلطان الشهوة يكون في الغالب مستوراً عن أعين الناس ، وشيطانها خاف ، ويمكن في كثير من الأوقات الاعتياض بالحلال عن الحرام ، وإلا فالشهوة إذا اشتعلت واستولت قد تكون أقوى من الغضب ، وقد قال تعالى : ﴿وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفاً ﴾[2] أي ضعيفا في النساء لا يصبر عنهن وفي قوله ﴿ ربَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لَنا بِهِ ﴾[3] ذكروا منه العشق يفضي بأهله إلى الأمراض والإهلاك ، وإن الغضب قد يبلغ ذلك أيضا .

وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة ، كقوله في سورة هود : ﴿ وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إليهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ وقوله[4] ﴿ ولله العِزَّةُ وَلِرسولِهِ وللمؤمنين ﴾[5] ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وأنتمُ الأعْلَوْنَ إنْ كنتم مؤمنينَ ﴾[6] .

= مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع . وعلق على ذلك المناوي فقال : حكم السخاوي على الكل بالضعف غير صواب فقد قال الهيثمي : إسناد الطبراني حسن. تفسير ابن كثير ٢/٢٥٥ . الجامع الصغر بشرح فيض ١/١٤٢ .

(١) الحديث أخرجه أحمد والبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ورمز له السيوطي بالصحة ، قال المناوي : وفي الباب غيره ، وفي ابن حنبل ٢٨٢/١ . الصحيح بشرح الفتح ١٠/٥١٨ . مسلم بشرح النووي ٥/٤٧٨ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٥/٣٥٨ .

(٢) سورة النساء الآية ٢٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٤) سورة هود الآية ٥٢ .

(٥) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٣٩ .

وإذا كان الذي يهجر السيئات يغض بصره ، ويحفظ فرجه ، وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله ، فما ظنك بالذي لم يحم حول السيئات ، ولم يعرها طرفه قط ، ولم تحدثه نفسه بها ، بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات ، فهل هذا وذاك سواء بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك ، وحاله أعظم وأعلى ، ونوره أتم وأقوى ، فإن السيئات تهواها النفوس ، ويزينها الشيطان فتجتمع فيها الشبهات والشهوات ، فإذا كان المؤمن قد حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله ، وما يتبع ذلك ، وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى ، وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به ، حيث دفع بالعلم الجهل ، وبإرادة الحسنات إرادة السيئات ، وبالقوة على الخير ، القوة على الشر في نفسه قط ، والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضاً ، حتى يدفع جهله بالظلم ، وإرادته السيئات بإرادة الحسنات ونحو ذلك .

والجهاد تمام الإيمان وسنام العمل ، كما قال تعالى : ﴿إنّما المؤمنونَ الذينَ آمَنوا باللهِ ورسولِهِ ثمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ في سَبيلِ اللهِ أولئكَ هُمُ الصّادقونَ﴾[1] وقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ ﴾[2] الآية وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحاجِّ ﴾[3] الآية : فكذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين كما قال تعالى : ﴿ والذينَ جَاهَدوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[4] فهذا في العلم والنور ، وقال ﴿ وَلَوْ أَنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ صِراطاً مُسْتَقِيماً ﴾[5] فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضاً ، وهو من الجهاد ، والخروج من ديارهم هو الهجرة ، ثم أخبر أنهم إذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ، ففي الآية أربعة أمور : الخير المطلق ، والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة ، والأجر العظيم ، وهداية الصراط المستقيم .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا إنْ تَنْصُروا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾[6] وقال

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٥ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٩ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٥) سورة النساء الآيات (٦٦ - ٦٧ - ٦٨) .

(٦) سورة محمد الآية ٧ .

تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ إلى قوله ﴿ عاقبةُ الأمورِ ﴾[١] وقال : ﴿ يُجَاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لومةَ لائمٍ ﴾[٢] .

وأما أهل الفواحش الذين لا يغضون أبصارهم ، ولا يحفظون فروجهم فقد وصفهم الله بضد ذلك من السكرة والعمه والجهالة وعدم العقل وعدم الرشد والبغض وطمس الأبصار ، هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق والعدوان والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام ، فقال عن قوم لوط : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٣] فوصفهم بالجهل وقال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤] وقال : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾[٥] وقال : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[٦] وقال :﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفونَ ﴾[٧] وقال : ﴿ فَانْظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المجرمينَ ﴾[٨] وقال : ﴿ إنّهم كانوا قومَ سوءٍ فاسقينَ ﴾[٩] وقال : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السبيلَ وَتَأْتُونَ في نَادِيكُمُ المنكرَ ﴾ إلى قوله ﴿ انْصُرْني على القومِ المفسدينَ﴾ إلى قوله ﴿ بِما كانوا يَفْسُقُونَ﴾[١٠] وقوله : ﴿ مُسَوَّمَةً عندَ رَبِّك للمُسْرِفينَ﴾[١١] .

(فصـــل)

وفي قوله في آخر الآية ﴿ وَتُوبُوا إلى اللهِ جَميعاً أيّها المؤمنونَ لعلكم تفلحونَ ﴾ فوائد جليلة : منها أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر وحفظ الفرج ، وترك إبداء الزينة ، وما يتبع ذلك ، فمستقل ، ومستكثر كما في الحديث « ما من أحد من بني آدم إلا أخطأ أو هم بخطيئة

---

(١) سورة الحج الآيات (٤٠ ـ ٤١) ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ . ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٥٥ .

(٤) سورة الحجر الآية ٧٢ .

(٥) سورة هود الآية ٧٨ .

(٦) سورة القمر الآية ٣٧ .

(٧) سورة الأعراف الآية ٨١ .

(٨) سورة الأعراف الآية ٨٤ .

(٩) سورة الأنبياء الآية ٧٤ .

(١٠) سورة العنكبوت الآيات (٢٩ ـ (٣٤) .

(١١) سورة الذاريات الآية ٢٤ .

إلا يحيى بن زكريا »(١) وذلك لا يكون إلا عن نظر ، وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »(٢) وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي ﷺ « يقول الله تعالى : يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم »(٣) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : « ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة : إن النبي ﷺ قال : إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق »(٤) الحديث إلى آخره وفيه « والنفس تتمنى ذلك وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » أخرجه البخاري تعليقاً من حديث طاووس عن أبي هريرة ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا يدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان وزناه الكلام واليدان زناهما البطش والرجلان زناهما الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه »(٥) وقد روى الترمذي حديثا ـ واستغربه ـ عن ابن عباس في قوله (إلا اللمم) قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما »(٦)

ومنها أن أهل الفواحش الذين لم يغضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة ،

---

(١) ورد الحديث في ابن حنبل ٢٥٤/١ كما أورد ابن كثير هذا الحديث من ثلاث طرق : أحدها مرسلاً رواه عبد الرزاق عن معمر بن قتادة وثانيها عن محمد بن إسحق وقد عنعن هذا الحديث والمعروف عن محمد بن إسحق أنه مدلس . وثالثها وهو أقربها لفظاً إلى ما أوردالمصنف هنا عن الإمام أحمد عن عفان عن حماد عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس . قال ابن كثير تعليقاً عليه : وهذا أيضا ضعيف لأن علي بن جدعان له منكرات كثيرة . والله أعلم . تفسير ابن كثير ١١٤/٣ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس وقال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة . وقال الحاكم : صحيح . وقال الذهبي : بل فيه لين . وقال في موضع آخر : لكن انتصر ابن القطان لتصحيح الحاكم ، وأورده الدارمي في (الرقاق) ، انظر الجامع الصغير بشرح الفيض ١٦/٥ .

(٣) جزء من حديث قدسي ورد في تحريم الظلم جاء في : مسلم ١٦/٨ ـ ١٨ (كتاب البر والصلة) ، سنن ابن ماجه ١٤٢٢/٢ (كتاب الزهد) ، ولشيخ الإسلام رسالة في شرح معنى الحديث نشرت في مجموعة الرسائل المنيرة ص ٢٠٥ ـ ٢٤٦ ط المنيرية ١٣٤٦ هـ .

(٤) ورد الحديث في البخاري (كتاب الاستئذان) ، مسلم (القدر) ، أبو داود (النكاح) ، ابن حنبل ٢٧٦/٢ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٥١٢ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٤٤٩/٤ .

(٦) الحديث رواه الترمذي عن أحمد بن أبي عثمان أبي عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحق . وكذا قال البزار : لا نعلمه يروى متصلاً إلا من هذا الوجه ، وساقه ابن أبي حاتم والبغوي من حديث أبي عاصم النبيل . قال ابن كثير تعليقاً على ذلك : إنما ذكره البغوي في تفسير سورة تنزيل ، وفي صحته مرفوعاً نظر . ورواية أبي عاصم أوردها ابن جرير أيضاً من حديث ابن عباس مرفوعاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال : قال رسول الله ﷺ : «إن تغفر اللهم»... الخ . تفسير ابن كثير ٢٥٦/٤ .

وإنما أمروا بها لتقبل منهم ، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2] وسواء كانت الفواحش مغلظة لشدتها وكثرتها كإتيان ذوات المحارم وعمل قوم لوط ، أو غير ذلك ، وسواء تاب الفاعل أو المفعول به ، فمن تاب تاب الله عليه بخلاف ما عليه ذلك طائفة من الناس ، فإنهم إذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئاً أيسوه من رحمة الله ، حتى يقول أحدهم من عمل من ذلك شيئاً لا يفلح أبداً ، ولا يرجون له قبول توبة ، ويروى عن علي أنه قال « منا كذا ومنا كذا والمعفوج ليس منا » ويقولون إن هذا لا يعود صالحاً ولو تاب مع كونه مسلماً مقراً بتحريم ما فعل .

ويدخلون في ذلك من استكره على فعل شيء من هذه الفواحش ، يقولون لو كان لهذا عند الله خير ما سلط عليه من فعل به مثل هذا ، واستكرهه كما يفعل بكثير من المماليك طوعاً وكرهاً ، وكما يفعل بأجراء أهل الصناعات طوعاً وكرهاً ، وكذلك من في معناهم من صبيان الكتاتيب وغيرهم ونسوا قوله تعالى : ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ على البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا وَمَنْ يُكْرِههُنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[3] وهؤلاء قد لا يعلمون صورة التوبة ، وقد يكون هذا حالاً وعملاً لأحدهم ، وقد يكون اعتقاداً ، فهذا من أعظم الضلال والغي ، فإن القنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى ، وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش ، فإن هذا أمن مكر الله بأهلها ، وذاك قنط أهلها من رحمة الله .

(فصــــل)

والفقيه كل الفقيه هو الذي يؤيس الناس من رحمة الله ، ولا يجرئهم على معاصي الله ، وهذا في أصل الذنوب الإرادية نظير ما عليه أهل الأهواء والبدع ، فإن أحدهم يعتقد تلك السيئات حسنات فيأمن مكر الله ، وكثير من الناس يعتقد أن توبة المبتدع لا تقبل ، وقد قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً إِنَّهُ هُوَ الغفورُ الرحيمُ ﴾[4] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال « كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأنا أحمد

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٤ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٥ .

(٣) سورة النور الآية ٣٣ .

(٤) سورة الزمر الآية ٥٣ .

والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة »[1] وفي حديث آخر « أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة »[2] وذلك أنه بعث بالملحمة وهي المقتلة لمن عصاه ، وبالتوبة لمن أطاعه ، وبالرحمة لمن صدقه واتبعه ، وهو رحمة للعالمين ، وكان من قبله من الأنبياء لا يؤمر بقتال ، وكان الواحد من أممهم إذا أصاب بعض الذنوب يحتاج من التوبة إلى عقوبات شديدة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فتابَ عَلَيْكُمْ ﴾[3] وقد روي عن أبي العالية وغيره أن أحدهم كان إذا أصاب ذنباً أصبحت الخطيئة والكفارة مكتوبة على بابه ، فأنزل الله في حق هذه الأمة﴿ والذين إذا فَعَلُوا فاحشةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفِروا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ ﴾[4] فخص الفاحشة بالذكر مع قوله ﴿ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، والظلم يتناول الفاحشة وغيرها تحقيقا لما ذكره من قبول التوبة من الفواحش مطلقاً من اللذين يأتيانها من الرجال والنساء جميعاً .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ « قال : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[5] وفي الصحيح عنه أنه قال : « من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه »[6] وفي السنن عنه أيضاً أنه قال : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »[7] وعنه ﷺ قال : « قال الشيطان : وعزتك يا رب لا أبرح أغري بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ١٦٨/٢ ومسلم كما أخرجه البخاري في (كتاب المناقب) وفي تفسيره لسورة محمد ، وذكره في التاريخ ورمز له السيوطي بالصحة . مسلم بشرح النووي ٢٠٢/٥ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٤٥/٣ فتح الباري ٥٥٥/٦ .

(٢) « نبي الملحمة » أوردها السيوطي من زيادة للطبراني على الحديث السابق وعقب المناوي عليه فقال : قد خرجه أحمد من حديث حذيفة بلفظ : « ونبي الملاحم » . الجامع الصغير بشرح الفيض ٤٥/٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٥٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٥ .

(٥) الحديث أخرجه أحمد ومسلم عن أبي موسى الأشعري ورواه أيضاً النسائي في التفسير ولم يخرجه البخاري ورمز له السيوطي بالصحة ، وفي الترغيب والترهيب للمنذري قال : رواه النسائي أيضاً . مسلم بشرح النووي ٦٠٣/٥ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢٨١/٢ .

(٦) الحديث أخرجه مسلم في الدعوات عن ابي هريرة ولم يخرجه البخاري ورمز له السيوطي بالصحة ط المعارف ٢٢٩/١٤ . مسلم بشرح النووي ٥٥٤/٥ الجامع الصغير بشرح الفيض ٩٧/٦ .

(٧) ورد الحديث في سنن أبي داود (كتاب الجهاد) ، الدارمي (كتاب السير) ، ابن حنبل ٩٩/٤ . كما أورد ابن كثير في هذا المقام عن معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن الهجرة خصلتان : إحداهما تهجر السيئات والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ولا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل » ثم قال ابن كثير : هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب والسنة والله أعلم . تفسير ابن كثير ١٩٥/٢ .

فقال الرب تعالى : وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني »[1] وعن أبي ذر قال : « قال رسول الله ﷺ : يقول الله يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطيئة ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[2] .

والذي يمنع توبة أحد هؤلاء إما بحاله وإما بقاله ، ولا يخلو من أحد أمرين أن يقول إذا تاب أحدهم لم تقبل توبته وإما أن يقول أحدهم لا يتوب الله علي أبدا ، وأما الأول فباطل بكتاب الله وسنة نبيه وإجماع المسلمين وإن كان قد تكلم بعض العلماء في توبة القاتل وتوبة الداعي إلى البدع ، وفي ذلك نزاع في مذهب أحمد وفي مذهب مالك أيضاً نزاع ذكره صاحب التمثيل والبيان في الجامع وغيره ، وتكلموا أيضا في توبة الزنديق ونحو ذلك .

فهم قد يتنازعون في كون التوبة في الظاهر تدفع العقوبة ، إما لعدم العلم بصحتها ، وإما لكونها لا تمنع ما وجب من الحد ، ولم يقل أحد من الفقهاء إن الزنديق ونحوه إذا تاب فيما بينه وبين الله توبة صحيحة لم يتقبلها الله منه ، وأما القاتل والمضل فذاك لأجل تعلق حق الغير به ، والتوبة من حقوق العباد لها حال آخر ، وليس هذا موضع الكلام فيها ، وفي تفصيلها ، وإنما الغرض أن الله يقبل التوبة من كل ذنب كما دل عليه الكتاب والسنة .

والفواحش خصوصاً ما علمت أحداً نازع في التوبة منها ، والزاني والمزني به مشتركان في ذلك إن تابا تاب الله عليهما ، وبين التوبة خصوصاً من عمل قوم لوط من الجانبين ما ذكره الله في قصة قوم لوط ، فإنهم كانوا يفعلون الفاحشة بعضهم ببعض ، ومع هذا فقد دعاهم جميعهم إلى تقوى الله والتوبة منها ، فلو كانت توبة المفعول به أو غيره لا تقبل لم يأمرهم بما لا يقبل قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسَلينَ إذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطٌ ألا تَتَّقونِ إني لَكُمْ رَسولٌ أمينٌ فَاتَّقُوا الله وأطيعونِ﴾ فأمرهم بتقوى الله المتضمنة لتوبتهم من هذه الفاحشة ، والخطاب وإن كان للفاعل فإنه إنما خص به لأنه صاحب الشهوة والطلب في العادة ، بخلاف المفعول به فإنه لم تخلق فيه شهوة لذلك في الأصل ، وإن كانت قد تعرض له لمرض طارىء ، أو أجر يأخذه من الفاعل ، أو لغرض آخر . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(فصـــل(*))

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه ونور ضريحه في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَرْمُونَ

---

(١) و(٢) فتح الباري على الصحيح ١١/٩٩ .

(*) هذا الفصل بأكمله سقط من نسخة : س .

المحصناتِ الغافلاتُ المؤمناتِ لُعِنوا في الدنيا والآخرةِ ولَهُمْ عَذابٌ عظيمٌ ﴾ في طرده الكلام على ما يتعلق بهذه الآية وغيرها فقال : وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه :

(أحدها) أن هذه الآية في أزواج النبي ﷺ خاصة في قول كثير من أهل العلم فروى هشيم عن العوام بن حوشب ثنا شيخ من بني كاهل قال[1] : فسر ابن عباس سورة النور فلما أتى على هذه الآية ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ إلى آخر الآية قال هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ، وهي مبهمة ليس فيها توبة ، ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ ﴿ وَالذينَ يَرْمُونَ المحصناتِ ثمَّ لَمْ يَأتُوا بأربعةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلى قوله ﴿ إلا الذينَ تابوا مِنْ بعد ذِلكَ وأَصْلَحُوا ﴾ فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة قال: فهم رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسر .

وقال أبو سعيد الأشج : حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس[2] ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات ﴾ نزلت في عائشة خاصة ، واللعنة في المنافقين عامة ، فقد بين ابن عباس أن هذه الآية أنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمهات المؤمنين لما في قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعيبه ، فإن قذف المرأة أذى لزوجها كما هو أذى لابنها لأنه نسبة له إلى الدياثة وإظهار لفساد فراشه ، فإن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيماً ، ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إذا زنت ودرأ الحد عنه باللعان ، ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال .

ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقذوف . ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوصتين عنه إلى أن من قذف امرأة غير محصنة كالأمة والذمية ، ولها زوج أو ولد محصن حد لقذفها لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين ، والرواية الأخرى عنه وهي قول الأكثرين انه لا حد عليه لأنه أذى لهما لا قذف لهما ، والحد التام إنما يجب بالقذف ، وفي جانب النبي ﷺ بعيب أزواجه فهو منافق ، وهذا معنى قول ابن عباس اللعنة في المنافقين عامة .

وقد وافق ابن عباس جماعة فروى الإمام أحمد[3] والأشج عن خصيف قال : سألت سعيد بن جبير فقلت الزنا أشد أو قذف المحصنة ؟ قال : لا بل الزنا ، قال قلت : فإن الله تعالى يقول : ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾

---

(١) الخبر أورده ابن جرير وهو فيما نقله ابن كثير عنه في تفسير الآية . تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق ، تفسير القرطبي .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦ ، تفسير القرطبي .

فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة ، وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية[1] ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة ، وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء[2] في هذه الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ قال : هذه الآية لأمهات المؤمنين خاصة ، وروى الأشج بإسناده عن الضحاك[3] في هذه الآية قال : هن نساء النبي ﷺ ، وقال معمر[4] عن الكلبي : إنما عنى بهذه الآية أزواج النبي ﷺ ، فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق كما قال الله تعالى : ﴿أو يتوب﴾ .

ووجه هذا أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف فتكون اللام في قوله : ﴿المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ لتعريف المعهود ، والمعهود هنا أزواج النبي ﷺ لأن الكلام في قصة الإفك روقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة ، أو يقصر اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك ، ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعد على قذف محصنات غافلات مؤمنات ، وقال في أول السورة ﴿وَالذينَ يَرْمُونَ المحصناتِ ثمَّ لَمْ يَأْتُوا بأربعةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثمانينَ جَلْدَةً﴾ الآية ، فرتب الحدود والشهادة ، والفسق على مجرد قذف المحصنات ، فلا بد أن يكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات ، وذلك والله أعلم لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة ، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهر الإيمان ، ولأن الله سبحانه قال (في)[5] قصة عائشة : « وَالذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » فتخصيصه متولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم ، وقال : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ في الدنيا والآخرةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتمْ فيهِ عَذَابٌ عظيمٌ﴾ فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف ، وإنما يمس متولي كبره فقط ، وقال هنا ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ فعلم أن الذي رمى أمهات المؤمنين يعيب بذلك رسوله ﷺ ، وتولى كبر الإفك ، وهذه صفة المنافق ابن أبي والله أعلم على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضاً موافقةً لتلك الآية ، لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ لعن صاحبه في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال ابن عباس : ليس فيها توبة لأن مؤذي النبي ﷺ لا تقبل توبته أو يريد إذا تاب من القذف حتى يسلم إسلاماً جديداً ، وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به أذى النبي ﷺ ، أو بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة فإنه ما بغت امرأة نبي قط[6]

(١ ـ ٤) المصدران السابقان .

(٥) في : ليست بالأصل .

(٦) من كلام ابن عباس . مسلم بشرح النووي ٥/٦٤٣ .

وما يدل على أن قذفهن أذى للنبي ﷺ ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت « فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول ، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه عن أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي » ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتلنه ولا تقدر على قتله . فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد ابن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت » .

وفي رواية أخرى صحيحة[1] أن هذه الآية في أزواج رسول الله ﷺ خاصة ، ويقول آخرون : يعني أزواج المؤمنين عامة ، وقال أبو سلمة : قذف المحصنات من الموجبات ثم قرأ ﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ الآية ، وعن عمر بن قيس[2] قال : قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة رواها الأشنج ، وهذا قول كثير من الناس ، ووجهه ظاهر الخطاب ، فإنه عام فيجب إجراؤه على عمومه إذ لا موجب لخصوصه ، وليس هو مختصاً بنفس السبب بالاتفاق ، لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي ﷺ داخل في العموم ، وليس هو من السبب ، ولأنه لفظ جمع والسبب في واحدة هنا ، ولأن قصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل ، فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك ، وقد علم أن شيئاً منها لم يقصر على سببه ، والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد ورد الشهادة والتفسيق ، وهنا ذكر العقوبة الواقعة من الله سبحانه وهي اللعنة في الدارين والعذاب العظيم ، وقد روى عن النبي ﷺ من غير وجه عن أصحابه « أن قذف المحصنات من الكبائر » وفي لفظ في الصحيح « قذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[3] .

ثم اختلف هؤلاء فقال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة إذ كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦ .

(٢) الخبر أخرجه البزار في مسنده كما أخرجه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة بن اليمان . قال الهيثمي : فيه ليث بن سليم وهو ضعيف وقد يحسن حديثه وبقية رجاله رجال الصحيح . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٤٧٤ . تفسير ابن كثير ٣/٢٧٧ .

(٣) ارجع الى حديث أبي هريرة عند البخاري : «اجتنبوا السبع الموبقات » منها «قذف المحصنات المؤمنات الغافلات » . الصحيح بشرح الفتح ١٢/١٨١ .

مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة ، وقالوا إنها خرجت تفجر ، فعلى هذا يكون فيمن قذف المؤمنات قذفاً يصدهن به عن الإيمان ، ويقصد بذلك ذم المؤمنين لينفر الناس عن الإسلام كما فعل كعب بن الأشرف ، وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر ، وهو بمنزلة من سب النبي ﷺ .

وقوله إنها نزلت زمن العهد يعني والله أعلم أنه عنى بها مثل أولئك المشركين المعاهدين ، وإلا فهذه الآية نزلت ليالي الإفك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق ، والهدنة كانت بعد ذلك بسنتين .

ومنهم من أجراها على ظاهرها وعمومها لأن سبب نزولها قذف عائشة ، وكان فيمن قذفها مؤمن ومنافق ، وسبب النزول لا بد أن يندرج في العموم ، ولأنه لا موجب لتخصيصها والجواب على هذا التقدير أنه سبحانه قال هنا ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ على بناء الفعل للمفعول ، ولم يسم اللاعن ، وقال في الآية الأخرى ﴿إِنَّ الذينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ ورسولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ في الدنيا والآخرةِ﴾ وإذا لم يسم الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة والناس ، وجاز أن يلعنهم الله في وقت ويلعنهم بعض خلقه في وقت ، وجاز أن الله يتولى لعنة بعضهم ، وهو من كان قذفه طعناً في الدين ، ويتولى خلقه لعنة الآخرين ، وإذا كان اللاعن مخلوقاً فلعنه قد يكون بمعنى الدعاء عليهم ، وقد يكون بمعنى أنهم يبعدونهم عن رحمة الله .

ويؤيد هذا أن الرجل إذا قذف امرأته تلاعنا ، وقال الزوج في الخامسة لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فهو يدعو على نفسه إن كان كاذباً في القذف أن يلعنه الله ، كما أمر الله ورسوله أن يباهل من حاجة في المسيح بعد ما جاءه من العلم بأن يبتهلوا فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين ، فهذا مما يعلن به القاذف ، ومما يلعن به أن يجلد وأن ترد شهادته ويفسق ، فإنه عقوبة له ، وإقصاء له عن مواطن الأمن والقبول وهي من رحمة الله ، وهذا بخلاف من أخبر الله أنه لعنه في الدنيا والآخرة فإن لعنة الله توجب زوال النصر عنه من كل وجه ، وبعده عن أسباب الرحمة في الدارين .

ومما يؤيد الفرق أنه قال : ﴿إِنَّ الذينَ يُؤذونَ اللَّهَ ورسولَهُ لَعَنَهُمْ اللَّهُ في الدُّنيا والآخرةِ وأَعَدَّ لَهُمْ عذاباً مُهيناً﴾[١] ولم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله : ﴿الذينَ يَبخلونَ وَيأمرونَ النَّاسَ بالبخلِ وَيكتمونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنا للكافرينَ عَذاباً مُهيناً﴾[٢] وقوله : ﴿وَخُذوا حِذْرَكُمْ إنَّ اللَّهَ أعدَّ للكافرينَ عذاباً مُهيناً﴾[٣]

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٧ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٧ .

(٣) سورة النساء الآية ١٠٢ .

وقوله : ﴿فَبَاؤوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرينَ عذابٌ مُهينٌ﴾[1] ﴿إنما نُملي لهم لِيزدادوا إثماً وَلَهُمْ عذابٌ مُهينٌ﴾[2] ﴿والذينَ كفروا وَكَذَّبوا بآياتِنا فأولئكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهينٌ﴾[3] ﴿وَإذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شيئاً اتَّخذَها هُزُواً أولئكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهينٌ﴾[4] ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وللكافرينَ عَذابٌ مُهينٌ﴾[5] ﴿اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سبيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عذابٌ مُهينٌ﴾[6] .

وأما قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ ورسولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها وَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ﴾[7] فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض ، واستخف بها ، على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له ، وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيداً للمؤمنين في قوله : ﴿لَوْلا كتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيما أَخَذْتُم عَذابٌ عظيمٌ﴾[8] وقوله : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ في الدنيا والآخرةِ لَمَسَّكُمْ فيما أَفَضْتُمْ فيهِ عذابٌ عَظيمٌ﴾[9] وفي المحارب ﴿ذلكَ لَهُمْ خِزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عَظيمٌ﴾[10] وفي القاتل ﴿وغضبَ اللَّهُ عليهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لهُ عذاباً عظيماً﴾[11] وقوله : ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبوتِها وَتَذُوقوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سبيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظيمٌ﴾[12] وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾[13] وذلك لأن الإهانة إذلال وتحقير وخزي ، وذلك قدر زائد على ألم العذاب ، فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان ، فلما قال في هذه الآية : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهيناً﴾ علم أنه من جنس العذاب الذي توعد به الكفار والمنافقين ، ولما قال هناك : ﴿وَلَهُمْ

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

(٣) سورة الحج الآية ٥٧ .

(٤) سورة الجاثية الآية ٩ .

(٥) سورة المجادلة الآية ٥ .

(٦) سورة المجادلة الآية ١٦ .

(٧) سورة النساء الآية ١٤٠ ، وما ذهب إليه المصنف هنا هو ما ذهب إليه ابن كثير في تفسير الآية وساق في ترجيح هذا المعنى عدداً من الأحاديث يرجع إليها . تفسير ابن كثير ١/٤٦١ .

(٨) سورة الأنفال الآية ٦٨ .

(٩) سورة النور الآية ١٤ .

(١٠) سورة المائدة الآية ٣٤ .

(١١) سورة النساء ٩٣ .

(١٢) سورة النحل الآية ٩٤ .

(١٣) سورة الحج الآية ١٨ .

عـذابٌ عَظيمٌ﴾ جـاز أن يكون من جني العـذاب في قولـه : ﴿لمسكم فيـما أفضتم فيـه عـذاب عظيم﴾ .

ومما يبين به الفرق أيضا سبحانه قال هنـاك : ﴿ وأعد لهم عـذاباً مهينـاً ﴾ والعذاب إنما أعد للكافرين ، فإن جهنم لهم خلقت لأنهم لا بد أن يدخلوها ، وما هم منها بمخرجين .

وأهـل الكبائـر من المؤمنين يجوز أن يـدخلوهـا إذا غفـر الله لهم ، وإذا دخلوهـا فـإنهم يخرجون منها ولو بعـد حين ، قـال سبحانـه : ﴿ وَاتَّقوا النـار التي أُعِدَّتْ للكـافرينَ ﴾[1] فـأمر سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الـربا ، وأن يتقـوا الله ، وأن يتقوا النـار التي أعدت للكـافرين ، فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعلوا المعاصي مـع أنها معدة للكـافرين لا لهم ، ولذلك جاء في الحديث[2] أما أهل النار هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما أقوام لهم ذنوب فيصيبهم سفع من نار ثم يخرجهم الله منها .

وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينفقـون في السراء والضـراء ، وإن كان يـدخلها الأبناء بعمل آبائهم ، ويدخلها قوم بالشفاعة وقوم بـالرحمـة ، وينشىء الله لما فضـل منها خلقـاً آخر في الدار الآخرة ، فيدخلهم إيـاها ، وذلـك لأن الشيء إنما يعـد لمن يستوجبـه ويستحقه ، ولمن أولى الناس به ، ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبع أو لسبب آخر والله أعلم .

(فصـــــل)

سئل شيخ الإسلام ، وعلم الأعلام ومفتي الأنام قامع المبتدعين والزائغين وأحد أركـان الـدين ، أحمد بن عبـد الحليم بن عبد السـلام بن تيمية عن قـوله تعـالى : ﴿ قُـلْ للمؤمنينَ يَغُضّـوا مِنْ أَبْصَـارِهِمْ وَيَحْفَـظُوا فُـرُوجَهُمْ ذلـكَ أَزْكَى لَهُمْ إنَّ الله خبيـرٌ بِمـا يَصنعـونَ وَقُـلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَـظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ ما ظَهَـرَ مِنْهـا ﴾[3] الآية ، والحديث عن النبي ﷺ في ذكر زنا الأعضاء كلها وماذا على الرجل إذا مس يد الصبي الأمرد وهل هو من جنس النساء في نقض الوضوء أم لا ، وماذا على الـرجل إذا جـاء إلى عبيده المردان ومد يده إلى هذا وهذا ، وتلذذ بذلـك وما جـاء في التحريم من النـظر إلى وجود الأمـرد والحسن وهل هذا الحديث المروي[4] « إن النظر إلى الوجه المليح عبادة أم لا ؟ وإذا قال أحد :

---

(١) و (٢) سورة آل عمران الآية ١٣١ .

(٣) سورة النور الآيات (٣٠ - ٣١) .

(٤) نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية أنه سئل عن هذا الحديث فأجاب بأنه كذب باطل عن رسول الله ﷺ لم يروه أحـد بإسنـاد صحيح بل هو من الموضوعات . كشف الخفا والالباس للعجلوني ٢/٤٣٩ .

أنا ما أنظر إلى المليح الأمرد لأجل شيء ، ولكني إذا رأيته قلت سبحان الله تبارك الله أحسن الخالقين ، فهل هذا القول صواب أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب قدس الله روحه ونور ضريحه ورحمه ورضي عنه ونفع بعلومه وحشرنا في زمرته ، الحمد لله إذا مس الأمرد لشهوة ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره .

أحدهما أنه كمس النساء لشهوة ينقض الوضوء وهو المشهور في مذهب مالك وذكره القاضي أبو يعلى في شرح المذهب ، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي .

والثاني أنه لا ينقض ، وهو المشهور من مذهب الشافعي ، والقول الأول أظهر فإن الوطء في الدبر يفسد العبادات التي تفسد بالوطء في القبل ، كالصيام والإحرام والاعتكاف ، ويوجب الغسل كما يوجبه هذا، فتكون مقدمات هذا في باب العبادات كمقدمات هذا ، فلو مس الأمرد لشهوة وهو محرم فعليه دم كما عليه لو مس أجنبية لشهوة ، وكذلك إذا مس الأمرد لشهوة وجب أن يكون كما لو مس المرأة لشهوة في نقض الوضوء .

والذي لا ينقض الوضوء بمسه يقول إنه لم يخلق محلاً لذلك ، فيقال لا ريب أنه لم يخلق لذلك ، وأن الفاحشة للوطية من أعظم المحرمات لكن هذا القدر لم يعتبر في باب الوطء ، فلو وطىء بالدبر تعلق به ما ذكر من الأحكام ، وإن كان الدبر لم يخلق محلاً للوطء ، مع أن نفرة الطباع في الوطء بالدبر أعظم من نفرتها عن الملامسة ، ونقض الوضوء باللمس يراعى فيه حقيقة الحكمة ، وهو أن يكون المس لشهوة عند الاكثرين كمالك وأحمد وغيرهما يراعى كما يراعى مثل ذلك في الإحرام والاعتكاف وغير ذلك ، وعلى هذا القول فحيث وجد اللمس لشهوة تعلق به الحكم ، حتى لو مس بنته وأخته وأمه لشهوة انتقض وضوؤه فكذلك مس الأمرد .

وأما الشافعي وأحمد في رواية فيعتبر المظنة ، وهو أن النساء مظنة الشهوة ، فينقض الوضوء سواء كان بشهوة أو بغير شهوة ، ولهذا لا ينقض مس المحارم ، لكن لو مس ذوات محارمه لشهوة ، فقد وجدت حقيقة الحكمة وكذلك إذا مس الأمرد لشهوة ، والتلذذ بمس الأمرد كمصافحته ونحو ذلك حرام بإجماع المسلمين ، كما يحرم التلذذ بمس ذوات المحارم والمرأة الأجنبية ، كما أن الجمهور على أن عقوبة اللوطي أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية ، فيجب قتل الفاعل والمفعول به سواء كان أحدهما محصناً أو لم يكن ، وسواء كان أحدهما مملوكاً للآخر أو لم يكن ، جاء ذلك في السنن[١] عن النبي ﷺ ، وعمل به أصحابه من غير نزاع يعرف بينهم ،

---

(١) الخبر في ذلك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فآقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه الخمسة إلا النسائي كما أخرجه الحاكم والبيهقي وقال الحافظ : رجاله موثقون إلا أن فيه اختلاف الترمذي : انما يعرف هذا الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ من هذا الوجه .

وقتله بالرجم كما قتل الله قوم لوط ، وبذلك جاءت الشريعة في قتل الزاني أنه بالرجم ، فرجم النبي ﷺ ماعز بن مالك والغامدية واليهوديين والمرأة التي أرسل إليها أنيساً ، وقال : « اذهب إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فرجمها »[1] .

والنظر إلى وجه الأمرد بشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم ، والمرأة الأجنبية بالشهوة ، سواء كانت الشهوة شهوة الوطء أو كانت شهوة التلذذ بالنظر كما يتلذذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية ، وإذ كان معلوما لكل أحد أن هذا حرام فكذلك النظر إلى وجه الأمرد باتفاق الأئمة .

وقول القائل : إن النظر إلى وجه الأمرد عبادة كقوله إن النظر إلى وجوه النساء والنظر إلى محارم الرجل كبنت الرجل وأمه وأخته عبادة ، ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرم عبادة ، فهو بمنزلة من جعل الفواحش عبادة قال الله تعالى : ﴿ وإذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا واللهُ أَمَرَنَا بِها قُلْ إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ أَتَقُولونَ على اللهِ مَا لا تَعلمونَ ﴾[2] ومعلوم أنه قد يكون في صور النساء الأجنبيات وذوات المحارم من الاعتبار والدلالة على الخالق من جنس ما في صور المردان ، فهل يقول مسلم إن للإنسان أن ينظر بهذا الوجه إلى صور النساء نساء العالمين وصور محارمه ؛ ويقول إن ذلك عبادة ، بل من جعل مثل هذا النظر عبادة فإنه كافر مرتد يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، وهو بمنزلة من جعل إعانة طالب الفاحشة عبادة ، أو جعل تناول يسير الخمر عبادة ، أو جعل السكر من الحشيشة عبادة .

فمن جعل المعاونة بقيادة أو غيرها عبادة أو جعل شيئاً من المحرمات التي يعلم تحريمها في دين الإسلام عبادة فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهو مضاهاة للمشركين ﴿ وإذا فعلوا الفاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[2] وفاحشة أولئك إنما كانت طوافهم بالبيت عراة ، وكانوا يقولون لا نطوف في الثياب التي عصينا الله فيها ، فهؤلاء إنما كانوا يطوفون عراة على وجه اجتناب ثياب المعصية ، وقد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن جعل جنس الفاحشة المتعلقة بالشهوة عبادة .

(فصـــــل)

والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر ، وهو نوعان غض البصر عن العورة ،

= وفي الباب عن أبي هريرة عند ابن ماجه والحاكم أن النبي ﷺ قال : « اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أو لم يحصنا » وإسناده ضعيف . المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧/١٢٢ .

(١) المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧/٩١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

وغضها محل الشهوة فالأول كغض الرجل بصره عن عورة غيره ، كما قال النبي ﷺ : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة »[1] ويجب على الانسان أن يستر عورته ، كما قال لمعاوية بن حيدة[2] « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك قلت : فإذا كان أحدنا مع قومه ؟ قال : إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها قلت : فإذا كان أحدنا خالياً قال : فالله أحق أن يستحى منه من الناس » ويجوز كشفها بقدر الحاجة كما تنكشف عند التخلي . ولذلك إذا اغتسل الرجل وحده بحيث يجد ما يستره فله أن يغتسل عرياناً ، كما اغتسل موسى[3] عرياناً وأيوب[4] ، وكما في اغتسال النبي ﷺ يوم[5] الفتح ، واغتساله في حديث ميمونة[6] .

وأما النوع الثاني من النظر إلى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية فهذا أشد من الأول ، كما أن الخمر أشد من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وعلى صاحبها الحد ، وتلك المحرمات إذا نظر لها مستحل لها كان عليه التعزير ، لأن هذه المحرمات لا تشتهيها النفوس كما تشتهى الخمر ، وكذلك النظر إلى عورة الرجل لا يشتهى كما يشتهى النظر إلى النساء ونحوهن ، وكذلك النظر إلى الأمرد بشهوة هو من هذا الباب ، وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك ، كما اتفقوا على تحريم النظر إلى الأجنبية وذوات المحارم بشهوة ، والخالق سبحانه يسبح عند رؤ ية مخلوقاته كلها ، وليس خلق الأمرد بأعجب في قدرته من خلق ذي اللحية ، ولا خلق النساء بأعجب في قدرته من خلق الرجال ، فتخصيص الإنسان بالتسبيح نظره إلى الأمرد دون غيره كتخصيصه بالتسبيح

---

(١) يراجع التعليق في مطلع هذا الجزء .

(٢) الحديث رواه بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة القشيري الصحابي المشهور قال : قلت يا رسول الله : عوراتنا ما نأتي منها وما نذر فذكر الحديث . وبهز وأبوه ليسا من شرط البخاري ولذلك فقد رواه معلقاً . وقد سبق الكلام على الحديث . المنقى بشرح نيل الأوطار ٢/٦٨ . الجامع الصغير شرح الفيض ١٠٥/ ، وورد الحديث في : أبي داود (الأحكام) ، الترمذي (الأدب) ، ابن ماجه (النكاح) ، ابن حنبل ٩٢/٥ .

(٣) حديث اغتسال موسى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر » إلى آخر الحديث المتفق عليه . صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١/٣٨٥ . المنتقى بشرح نيل الأوطار ١/٣٩٧ .

(٤) وحديث اغتسال أيوب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بينا أيوب يغتسل عرياناً فخر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحتثي في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ولكن لا غنى لي عن بركتك » . صحيح البخاري بشرح الفتح ١/٣٨٧ .

(٥) من ذلك حديث أم هانىء بنت أبي طالب : « ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة تستره ، فقال : من هذه ؟ فقلت : أم هانىء » . صحيح البخاري بشرح الفتح ١/٣٨٧ .

(٦) حديث ميمونة بنت الحارث ورواه ابن عباس ، قالت : « وضعت لرسول الله ﷺ غسلاً وسترته فصب على يده فغسلها مرة أو مرتين ـ قال سليمان (الأعمش أحد رواة الحديث) لا أدرى أذكر الثالثة أم لا ـ ثم أفرغ بيمينه على شماله فغسل فرجه ، ثم دلك يده بالأرض أو بالحائط ، ثم تمضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه وغسل رأسه ثم صب على جسده ثم تنحى فغسل قدمه ، فناولته خرقة فقال بيده هكذا ولم يردها » والحديث رواه الجماعة . الصحيح بشرح الفتح ١/٣٧٥ . المنتقى بشرح نيل الأوطار ١/٢٧٨ .

بنظره إلى المرأة دون الرجل ، وذاك لأنه أدل على عظمة الخالق عنده ، ولكن لأن الجمال يغير قلبه وعقله وقد يذهله ما رآه فيكون تسبيحه لما حصل في نفسه من الهوى ، كما أن النسوة لما رأين يوسف ﴿ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ ما هَذا بَشَراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1]

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال[2] : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » فإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال ، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال ، فكيف يفضل الشخص بما لا يفضله الله به .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[3] وقال في المنافقين : ﴿ وإذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإنْ يَقولوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾[4] . فإذا كان هؤلاء المنافقون الذين تعجب الناظر أجسامهم ؛ لما فيهم من البهاء والرواء والزينة الظاهرة ، وليسوا ممن ينظر إليه لشهوة قد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن ينظر إليه لشهوة ، وذلك أن الإنسان قد ينظر إليه لما فيه من الإيمان والتقوى ، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته ، وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور ، فهذا حسن ، وقد ينظر إليه من جهة استحسان خلقه كما ينظر إلى الخيل والبهائم وكا ينظر إلى الأشجار والأنهار والازهار ، فهذا أيضا إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم . بقوله : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وأما إن كان على وجه لا ينقص الدين ، وإنما فيه راحة النفس فقط كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي لا يستعان به على الحق .

وكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حراماً بلا ريب سواء كانت شهوة تمتع النظر بالشهوة ، أو كان نظراً بشهوة الوطء ، وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى النسوان والمردان ، فلهذا الفرقان افترق الحكم الشرعي ، فصار النظر إلى المردان ثلاثة أقسام أحدها ما تقترن به الشهوة ، فهو محرم بالاتفاق ، والثاني ما يجزم أنه لا شهوة معه كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن وابنته الحسنة وأمه الحسنة ، فهذا لا تقترن به شهوة ، إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس ، ومتى اقترن به الشهوة حرم .

---

(١) سورة يوسف الآية ٣١ .

(٢) الحديث رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة ورمز له السيوطي بالصحة . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٢٧٧

(٣) سورة طه الآية ١٣١ .

(٤) سورة المنافقون الآية ٤ .

وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان ، كما كان الصحابة وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره وصبي أجنبي ، لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة ، لأنه لم يعتد ذلك ، وهو سليم القلب من قبل ذلك ، وقد كانت الإماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات متكشفات الرؤوس ، ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب ، فلو أراد الرجل أن يترك الإماء التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات كما كان أولئك الاماء يمشين كان هذا من باب الفساد ، وكذلك المرد الحسان لا يصلح أن يخرجوا في الأمكنة والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم إلا بقدر الحاجة ، فلا يمكن الأمرد الحسن من التبرج ، ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب ، ولا من رقصه بين الرجال ، ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس ، وهو النظر إليه كذلك .

وإنما وقع النزاع بين العلماء في القسم الثالث من النظر ، وهو النظر إليه بغير شهوة لكن مع خوف ثورانها ، ففيه وجهان في مذهب أحمد أصحهما وهو المحكي عن نص الشافعي ، وغيره أنه لا يجوز ، والثاني يجوز لأن الأصل عدم ثورانها ، فلا يحرم بالشك بل قد يكره ، والأول هو الراجح كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز ، وإن كانت الشهوة منتفية ، لكن لأنه يخاف ثورانها ، ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية لأنها مظنة الفتنة والأصل أن كل ما كان سبباً للفتنة فإنه لا يجوز ، فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة ، ولهذا كان هذا النظر الذي قد يفضي الى الفتنة محرماً إلا إذا كان لحاجة راجحة ، مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما ، فإنه يباح النظر للحاجة لكن مع عدم الشهوة ، وأما النظر لغير حاجة محل الفتنة فلا يجوز .

ومن كرر النظر إلى الأمرد ونحوه وأدامه ، وقال إني لا أنظر لشهوة كذب في ذلك ، فإنه إذا لم يكن له داع يحتاج معه إلى النظر لم يكن النظر إلا لما يحصل في القلب من اللذة بذلك .

وأما نظر الفجأة فهو عفو إذا صرف بصره ، كما ثبت في الصحاح عن جرير قال سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك » (١) ، وفي السنن أنه قال لعلي رضي الله عنه : « يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية » (٢) : وفي الحديث الذي في المسند وغيره « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » (٣) : وفيه « من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره أورث الله قلبه حلاوة عبادة يجدها إلى يوم القيامة » (٤) أو كما قال .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث جرير ابن عبد الله البجلي وقد سبق التعليق على الحديث .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك .

(٣) سبق تخريج الحديث .

(٤) سبق تخريج الحديث .

وهذا يقال : إن غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر :

إحداها حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والنفس تحب النظر إلى هذه الصور لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفا ، فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصورة تخطف أحدهم وتصرعه كما يصرعه السبع .

ولهذا قال بعض التابعين : ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه من حدث جميل يجلس إليه ، وقال بعضهم : اتقوا النظر إلى أولاد الملوك فإن فتنتهم كفتنة العذارى ، وما زال أئمة العلم والدين كأئمة الهدى وشيوخ وطريق يوصون بترك صحبة الأحداث حتى يروى عن فتح الموصلي أنه قال : صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الأحداث ، وقال بعضهم : ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأنتان .

ثم النظر يولد المحبة فتكون علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم صبابة لانصباب القلب إليه ، ثم غراماً للزومه للقلب كالغريم الملازم لغريمه ، ثم عشقاً إلى أن يصير تتيماً ، والمتيم المعبد وتيم الله عبد الله ، فيبقى القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً ولا خادماً ، وهذا إنما يبتلى به أهل الأعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك ، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله في حق يوسف عليه السلام ﴿ كذلكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾ (١) فامرأة العزيز كانت مشركة ، فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء ويوسف عليه السلام مع عزوبيته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة وعقوبتها له بالحبس على العفة عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقاً لقوله ﴿ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾ (٢) قال تعالى : ﴿ إنَّ عِبادِي ليسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطان إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ ﴾ (٣) والغي هو اتباع الهوى .

(فصل)

وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى ، ومن أمر بعشق الصور من المتفلسفة كابن

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٤ .
(٢) سورة الحجر الآيات (٣٩ ـ ٤٠) .
(٣) سورة الحجر الآية ٤٢ .

سينا وذويه ، أو من الفرس كما يذكر عن بعضهم من جهال المتصوفة ، فإنهم أهل ضلال ، فهم مع مشاركة اليهود في الغي والنصارى في الضلال زادوا على الأمتين في ذلك ، فإن هذا وإن ظن أن فيه منفعة للعاشق كتلطيف نفسه وتهذيب أخلاقه ، أو للمعشوق من السعي في مصالحه وتعليمه وتأديبه ، وغير ذلك فمضرة ذلك أضعاف منفعته ، وأين إثم ذلك من نفعه .

وإنما هذا كما يقال إن في الزنا منفعة لكل منهما بما يحصل له من اللذة والسرور ، ويحصل لها من الجعل وغير ذلك ، وكما يقال إن في شرب الخمر منافع بدنية ونفسية : وقال تعالى في الخمر والميسر : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ للناسِ وَإِثْمُهُما أكبرُ مِنْ نَفْعِهِما ﴾ (١) وهذا قبل التحريم دع ما قاله عند التحريم ، وبعده ، فإن التعبد بهذه الصور هو من جنس الفواحش ، وباطنه من باطن الفواحش وهو من باطن الإثم قال الله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلوا فَاحِشَةً قالوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا والله أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ الله لا يَأْمُرُ بالفحشاءِ أَتَقُولونَ على الله ما لا تَعلَمُونَ ﴾ (٤) .

وليس بين أئمة الدين نزاع في أن هذا ليس بمستحبْ ، كما أنه ليس بواجب ، فمن جعله ممدوحاً وأثنى عليه فقد خرج عن إجماع المسلمين واليهود والنصارى ، بل وعما عليه عقلاء بني آدم من جميع الأمم وهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىً مِنَ الله إِنَّ الله لا يَهدي القومَ الظالمينَ ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ وأمّا مَنْ خافَ مقامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فإنَّ الجَنَّةَ هيَ المأوى ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنَّ الذينَ يَضِلّونَ عَنْ سَبيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يومَ الحسابِ ﴾ (٧) .

وأما من نظر إلى المردان ظاناً أنه ينظر إلى مظاهر الجمال الإلهي وجعل هذا طريقاً إلى الله ، كما يفعله طوائف من المدعين للمعرفة ، فقوله هذا أعظم كفراً من قول عباد الأصنام ، ومن كفر قوم لوط ، فهؤلاء من شر الزنادقة المرتدين الذين يجب قتلهم بإجماع كل أمة ، فإن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

(٥) سورة القصص الآية ٥٠ .

(٦) سورة النازعات الآية ٤٠ .

(٧) سورة ص الآية ٢٦ .

عباد الأصنام قالوا إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، وهؤلاء يجعلون الله سبحانه موجوداً في نفس الأصنام وحالاً فيها ، فإنهم لا يريدون بظهوره وتجليه في المخلوقات أنها أدلة عليه ، وآيات له بل يريدون أنه سبحانه ظهر فيه وتجلى فيها ، ويشبهون ذلك بظهور الماء في الصوفة (١) والزبد في اللبن والزيت في الزيتون والدهن في السمسم ، ونحو ذلك مما يقضي حلول نفس ذاته في مخلوقاته أو اتحاده فيها ، فيقولون في جميع المخلوقات نظير ما قاله النصارى في المسيح خاصة ، ثم يجلون المردان مظاهر الجمال ، فيقرون هذا الشرك الأعظم طريقاً إلى استحلال الفواحش بل استحلال كل محرم ، كما قيل لأفضل مشايخهم التلمساني إذا كان قولكم بأن الوجود واحد هو الحق ، فما الفرق بين أمي وأختي وبنتي ، حتى يكون هذا حلالاً وهذا حراماً ، قال : الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

ومن هؤلاء الحلولية والاتحادية من يخص الحلول والاتحاد ببعض الأشخاص ، إما ببعض الأنبياء كالمسيح أو بعض الصحابة ، كقول الغالية في عليّ أو ببعض الشيوخ كالحلاجية ونحوهم ، أو ببعض الملوك أو ببعض الصور كصور المردان ، ويقول أحدهم إنما أنظر إلى صفات خالقي وأشهدها في هذه الصورة ، والكفر في هذا القول أبين من أن يخفى على من يؤمن بالله ورسوله ، ولو قال مثل هذا الكلام في نبي كريم لكان كافراً ، فكيف إذا قاله في صبي أمرد ، فقبح الله طائفة يكون معبودها من جنس موطوئها .

وقد قال تعالى ﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائكَةَ والنبيينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُم بالكفرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) فإذا كان من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً مع اعترافهم بأنهم مخلوقون لله كفاراً فكيف بمن اتخذ بعض المخلوقات أرباباً مع قوله إن الله فيها أو متحد بها ، فوجوده وجودها ، ونحو ذلك من المقالات .

أما الفائدة الثانية في غض البصر ، فهو يورث نور القلب والفراسة قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣) فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعمى البصيرة وسكر القلب بل جنونه كما قيل :

سُكران سُكرُ هوىً وَسُكرُ مُدامةٍ ... وَمَتى إفاقةُ مَنْ بِهِ سُكرانِ

وقيل أيضاً :

قالوا جُننتَ بمن تَهوى فقلتُ لهم ... العشقُ أعظمُ مما بالمجانينِ

---

(١) هكذا في نسخة وفي نسخة أخرى في الزجاجة بدل الصوفية والأولى أظهر .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٠ .

(٣) سورة الحجر الآية ٧٢ .

العِشقُ لا يَستفيقُ الدهرَ صاحبُهُ وإنما يُصرعُ المجنونُ في الحينِ

وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آياب غض البصر فقال : ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾ وكان شاه بن شجاع الكرماني [1] لا تخطىء له فراسة وكان يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات [2] وذكر خصلة خامسة أظنها هي أكل الحلال ـ لم تخطىء له فراسة ، والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، فيطلق نور بصيرته ، ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف ، ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب .

(الفائدة الثالثة) قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة ، فإن في الأثر : الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله ، ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه وإن الله جعل العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه قال تعالى : ﴿ يَقولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلَّ ولله العِزَّةُ وَلِرسولِهِ وَلِلمؤمنينَ ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ ولا تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وأنتمُ الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتم مُؤمِنينَ ﴾ [4] .

ولهذا كان في كلام الشيوخ : الناس يطلبون العزّ بأبواب الملوك ، ولا يجدونه إلا في طاعة الله : وكان الحسن البصري يقول : إن هملجت بهم البراذين ، وطقطقت بهم البغال ، فإن ذل المعصية في رقابهم ، أبى الله إلا أن يذلّ من عصاه ، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه ، وفي دعاء القنوت [5] « إنه لا يذل من واليت ولا يعزّ من عاديت » .

والصوفية المشهورون عند الأمة الذين لهم لسان صدق في الأمة لم يكونوا يستحسنون مثل هذا ، بل ينهون عنه ، ولهم في الكلام في ذم صحبة الأحداث وفي الرد على أهل الحلول ، وبيان مباينة الخالق ما لا يتسع هذا الموضع لذكره ، وإنما استحسنه من يتشبه به مما هو عاص أو

---

(١) كان رحمه الله ورضي عنه من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البيسري وأولئك الطبقة وكان أحد الفتيان كبير الشأن مات قبل الثلاثمائة .

(٢) الذي في الرسالة القشيرية : وعود نفسه أكل الحلال .

(٣) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٩ .

(٥) جزء من حديث الحسن بن عليّ رضي الله عنهما في القنوت في الوتر . أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من طريق بريد عن أبي الحدراء السعدي عن الحسن . وقال الترمذي : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحدراء ، ولا نعرف عن النبي ﷺ في القنوت شيئاً أحسن من هذا . مختصر السنن للمنذري ١/٧٢٥ . المنتقى بشرح نيل الأوطار ٣/٤٩ .

فاسق أو كافر ، فيظاهر بدعوى الولايـة لله وتحقيق الإيمان والعـرفان وهـو من شر أهـل العداوة لله ، وأهل النفاق والبهتان والله تعالى يجمـع لأوليائـه المتقين خير الـدنيا والآخـرة ، ويجعل لأعدائه الصفقة الخاسرة ، والله سبحانه أعلم .

(فصـل)

(اعتراض وجوابه)

قـال المعترض في أسـماء الحسنى النور الهـادي يجب تأويله قـطعـاً إذ النـور كيفيـة قـائمـة بالجسمية ، وهو ضد الظلمة وجل الحق سبحانه أن يكون له ضد ، ولو كان نوراً لم تجز إضافته إلى نفسه في قوله ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ فتكون إضافته الشيء إلى نفسه وهو غير جائـز وقولـه : ﴿ الله نُورُ السَّمواتِ والأرضِ ﴾ قـال المفسرون يعني هـادي أهل السمـوات والأرض هو ضعيف لأن ذكر الهادي بعده يكون تكراراً ، وقيل منور السموات بالكواكب وقيـل بالأدلـة والحجج البـاهرة والنور جسم لطيف شفاف فلا يجوز على الله : والتأويل مـروي عن ابن عباس [1] وأنس وسـالم وهذا يبطل دعواه أن التأويل يبطل الظاهر ولم ينقل عن السلف ولو كـان نوراً حقيقـة كما يقـوله المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام .

وقوله : ﴿ إِنّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إلى الله بـإِذنِهِ وَسِـراجاً مُنِيـراً ﴾ [2] ومعلوم أنه ﷺ لم يكن السراج المعروف وإنما سمي سراجاً بالهدى الذي جاء بـه ووضوح أدلتـه بمنزلة السراج المنير .

وروي عن ابن عبـاس [3] في رواية أخـرى وأبي العاليـة والحسن : يعني منور السمـوات والأرض شمسها وقمرها ونجومها ، ومن كلام العـارفين النـور هو الـذي نوّر قلوب الصـادقين بتوحيده ونوّر أسرار المحبين بتأييده ، وقيل هو الذي أحيا قلوب العارفـين بنور معـرفته ونفـوس العابدين بنور عبادته .

(والجواب) أن هذا الكلام وأمثاله ليس باعتراض علينا ، وإنما هو ابتـداء نقص حرمتـه منهم لما يظن أنه يلزمنا أو يظن أنا نقوله على الوجه الذي حكاه وقد قال تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كثيراً

---

(١) يراجع ابن كثير ٣/٢٨٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٢٨٩ ، تفسير القرطبي

مِنَ الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثْمٌ ﴾(١) وقال النبي ﷺ (إيَاكُم والظن فإن الظن أكذب الحديث)(٢) وإذا كان في الكلام إخبار عن الغير بأنه يقول أقوالاً باطلة في العقل والشرع ، وفيه رد تلك الأقوال كان هذا كذباً وظلماً ، فنعوذ بالله من ذلك ثم مع كونه ظلماً لنا ، يا ليته كان كلاماً صحيحاً مستقيماً ، فكنا نحلله من حقنا ، ويستفاد ما فيه من العلم ، ولكن فيه من تحريف كتاب الله والإلحاد في آياته وأسمائه والكذب والظلم والعدوان الذي يتعلق بحقوق الله مما فيه ، لكن عفونا عن حقنا فحق الله إليه لا إلى غيره .

ونحن نذكر من القيام بحق الله ونصر كتابه ودينه ما يليق بهذا الموضع ، فإن هذا الكلام الذي ذكره فيه من التناقض والفساد ما لا أظن تمكنه من ضبطه من وجوه .

أحدها أنه قال في أوله النور كيفية قائمة بالجسمية ، ثم قال في آخره جسم لطيف شفاف فذكر في أول الكلام أنه عرض وصفة وفي آخره جسم ، وهو جوهر قائم بنفسه .

الثاني أنه ذكر عن المفسرين أنهم تأولوا ذلك بالهادي ، وضعف ذلك ، ثم ذكر في آخره أن من كلام العارفين أن النور هو الذي نوّر قلوب الصادقين بتوحيده وأسرار المحبين بتأييده وأحيا قلوب العارفين بنور معرفته ، وهذا هو معنى الهادي الذي ضعفه أولاً فيضعفه أولاً ويجعله من كلام العارفين ، وهي كلمة لها صولة في القلوب وإنما هو من كلام بعض المشايخ الذين يتكلمون بنوع من الوعظ الذي ليس فيه تحقيق ، فإن الشيخ أبا عبد الرحمن ذكر في تحقيق التفسير من الإشارات التي بعضها كلام حسن مستفاد ، وبعضها مكذوب على قائله مفترى كالمنقول عن جعفر وغيره ، وبعضها من المنقول الباطل المردود فإن إشارات المشايخ وهي إشارتهم بالقلوب ، وذلك هو الذي امتازوا به ، وليس هذا موضعه ، وينقسم إلى الإشارات المتعلقة بالأقوال مثل ما يأخذونها من القرآن ونحوه ، فتلك الإشارات هي من باب الاعتبار ، والقياس وإلحاق ما ليس بمنصوص بالمنصوص ، مثل الاعتبار والقياس الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام ، لكن هذا يستعمل في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال ، ودرجات الرجال ، ونحو ذلك ، فإن كانت الإشارة اعتبارية من جنس القياس الصحيح كانت حسنة مقبولة ، وإن كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمه ، وإن كان تحريفاً للكلام على غير تأويله كانت من جنس كلام القرامطة والباطنية والجهمية ، فتدبر هذا فإني قد أوضحت هذا في قاعدة الإشارات .

الوجه الثالث في تناقضه فإن قال التأويل منقول عن ابن عباس وأنس وسالم ، ولم يذكر

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢ .

(٢) العبارة صدر الحديث المروي عن أبي هريرة رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي . الجامع الصغير بشرح الفيض ٣/١١٢ .

إلا ثلاثة أقوال أحدها أنه هادي أهل السموات والأرض ، وقد ضعف ذلك فإن كان المنقول هو هذا الضعيف فيا خيبة المسعى إذ لم ينقل عن السلف في جميع كلامه إلى هنا شيئاً عن السلف إلا هذا الذي ضعفه وأوهاه ، وإن كان المنقول عن هؤلاء الثلاثة أنه منوّر السموات بالكواكب كان متناقضاً من وجه آخر ، وهو أنه قد ذكر فيما بعد أن هذا روي عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية والحسن أنه منوّرها بالشمس والقمر والنجوم ، وهذا يوجب أن يكون المنقول عن ابن عباس والاثنين أولاً غير المنقول عنه في رواية أخرى ، وعمن ليس معه في الأولى ، وإن كان نوره بالحجج الباهرة والأدلة كان متناقضاً ، فإن هذا هو معنى الهادي إذا نصبه للأدلة والحجج هي من هدايته ، وهو قد ضعف هذا القول ، فما أدري من أيهما العجب ؟ أمن حكايته القولين اللذين أحدهما داخل في معنى الآخر ؟ أم من تضعيفه لقول السائل الذي يوجب تضعيف الاثنين وهو لا يدري أنه قد ضعفهما جميعاً ؟ .

فيجب على الإنسان أن يعرف معنى الأقوال المنقولة ، ويعرف أن الذي يضعفه ليس هو الذي عظمه .

الوجه الرابع أنه قد تبين أنه لم ينقل عن ابن عباس وأنس وسالم إلا القول الذي ضعفه ، أو ما يدخل فيه فإنه إن كان قولهم الهادي فقد صرح بضعفه ، وإن كان مقيم الأدلة ، فهو من معنى الهادي ، وإن كان المنوّر بالكواكب ، فقد جعله قولاً آخر ، وإن كان ما ذكره عن بعض العارفين فهو أيضاً داخل في الهادي ، وإذا كان قد اعترف بضعف ما حكاه عن ابن عباس وأنس وسالم لم يكن فيه حجة علينا .

فتبين أن ما ذكره عن السلف إما أن يكون مبطلاً في نقله ، أو مفترياً بتضعيفه ، وعلى التقديرين لا حجة علينا بذلك .

الوجه الخامس أنه أساء الأدب على السلف إذ يذكر عنهم ما يضعفه وأظهر للناس أن السلف كانوا يتأولون ليحتج بذلك على التأويل في الجملة ، وهو قد اعترف بضعف هذا التأويل ، ومن احتج بحجة وقد ضعفها وهو لا يعلم أنه ضعفها فقد رمى نفسه بسهمه ، ومن رمى بسهم البغي صرع به ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

الوجه السادس قوله هذا يبطل دعواه ان التأويل دفع الظاهر ولم ينقل عن السلف فإن هذا القول لم أقله وإن كنت قلته فهو لم ينقل إلا ما عرف أنه ضعيف ، والضعيف لا يبطل شيئاً ، فهذه الوجوه في بيان تناقضه وحكايته عنا ما لم نقله .

وأما بيان فساد الكلام ، فنقول أما قوله يجب تأويله قطعاً ، فلا نسلم أنه يجب تأويله ، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم وهذا مذهب

السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم وهو قول أبي سعيد بن كلاب ذكره في الصفات ، ورد على الجهمية تأويل اسم النور ، وهو شيخ المتكلمين الصفاتية الأشعرية الشيخ الأول وحكاه عنه أبو بكر ابن فورك في كتاب مقالات ابن كلاب ، والأشعري ، ولم يذكرا تأويله إلا عن الجهمية المذمومين باتفاق ، وهو أيضاً قول أبي الحسن الأشعري ذكره في الموجز .

وأما قوله إن هذا ورد في الأسماء الحسنى ، فالحديث الذي ذكر فيه ذلك هو حديث الترمذي [1] روى الأسماء الحسنى في جامعه من حديث الوليد بن مسلم عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة [2] ورواها ابن ماجة في سننه من طريق مخلد بن زياد القطواني عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه ، ولهذا اختلف أعيانها عنه فروى عنه في إحدى الروايات من الأسماء بدل ما ذكر في الرواية الأخرى لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة ، واعتقدوا هم وغيرهم أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ليست شيئاً معيناً ، بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة ، أو أنها وإن كانت معينة فالاسمان اللذان يتفقان معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه « كالأحد والواحد » فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه رواها عثمان بن سعيد « الأحد » بل « الواحد » « والمعطي » بدل « المغني » وهما متقاربان ، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن [3] خليد بن دعلج عن قتادة عن ابن سيرين عن أبي

---

(١) الحديث الذي أشار إليه المصنف : « إن لله عز وجل تسعة وتسعين إسماً » الخ .

أخرجه الترمذي في الدعوات وابن حبان والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان كلهم من حديث أبي هريرة ، قال التتائي : غريب لا نعلم ذكر الأسماء إلا في هذا الخبر . وذكر آدم بن أبي إياس بسند آخر ولا يصح . وقال النووي في الأذكار : هذا حديث حسن .

وفي الزوائد تعليقاً على الخبر قال : لم يخرج أحد من أئمة السنة عدد أسماء الله الحسنى في هذا الوجه ولا من غيره غير ابن ماجة والترمذي مع تقديم وتأخير . وطريق الترمذي أصح شيء في الباب .

وقال الترمذي : هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث .

وفي تعليق على الخبر يقول ابن كثير : والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي انهم جمعوها من القرآن كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي والله أعلم . انظر الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٤٨٣ ، الجامع الكبير ١/٢٣٦٨ ، سنن ابن ماجه ٢/١٢٦٩ ، تفسير ابن كثير ٢/٢٦٨ .

(٢) في الزوائد تعليقاً على الخبر : وإسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد . سنن ابن ماجه ٢/١٢٦٩ .

(٣) خليد بن دعلج : قال ابن حبان : كان كثير الخطأ فيما يروى عن قتادة وغيره . وضعفه أحمد ويحيى . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال أبو حاتم : صالح ليس بالمتين . وقال ابن عدي : عامة حديثه تابعه عليه غيره . المجروحين لابن حبان ١/٢٨٥ ، الميزان ١/٦٦٣ .

هريرة ، ثم قال هشام : وحدثنا الوليد حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك ، وقال كلها في القرآن ﴿هُوَ الله الذي لا إلهَ إلاّ هُوَ﴾ مثل ما ساقها الترمذي ، لكن الترمذي رواها عن طريق صفوان بن صالح عن الوليد عن شعيب ، وقد رواها ابن أبي عاصم ، وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع .

وهذا كله مما يبين لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي ﷺ في بعض الطرق ، وليست من كلامه ، ولهذا جمعها قوم آخرون على غير هذا الجمع ، واستخرجوها من القرآن ، منهم سفيان بن عيينة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ، كما ذكرت ذلك فيما تكلمت به قديماً على هذا ، وهذا كله يقتضي أنها عندهم مما يقبل البدل فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين ، قالوا ومنهم الخطابي قوله [1] « إن لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها » التقييد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هي هذه الأسماء فهذه الجملة وهي قوله « من أحصاها دخل الجنة » صفة للتسعة والتسعين ليست جملة مبتدأة ، ولكن موضعها النصب ويجوز أن تكون مبتدأة ، والمعنى لا يختلف ، والتقدير أن لله أسماء بقدر هذا العدد من أحصاها دخل الجنة ، كما يقول القائل أن مائة غلام أعددتهم للعتق . وألف درهم أعددتها للحج ، فالتقييد بالعدد هو في الموصوف بهذه الصفة لا في أصل استحقاقه لذلك العدد ، فإنه لم يقل إن أسماء الله تسعة وتسعون .

قال ويدل على ذلك قوله في الحديث الذي رواه أحمد في المسند[2] « اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك » فهذا يدل على أن لله أسماء فوق تسعة وتسعين يحصيها بعض المؤمنين .

وأيضاً فقوله « إن لله تسعة وتسعين » تقييد بهذا العدد بمنزلة قوله تعالى[3] : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ فلما استقلوهم قال[4] : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلا هُوَ ﴾ فأن لا يعلم أسماءه إلا

---

(١) العبارة ضد الحديث الذي أخرجه الترمذي .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أصاب أحد قط هم ولا حزن قال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً» فقيل يا رسول الله : أفلا نتعلمها ؟ قال : « بل ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه بمثله . تفسير ابن كثير ٢/٢٦٩ .

(٣) سورة المدثر الآية ٣٠ .

(٤) سورة المدثر الآية ٣١ .

هو أولى ، وذلك أن هذا لو كان قد قيل منفرداً لم يفد النفي إلا بمفهوم العدد الذي هو دون مفهوم الصفة والنزاع فيه مشهور ، وإن كان المختار عندنا أن التخصيص بالذكر بعد قيام المقتضى للعموم يفيد الاختصاص بالحكم ، فإن العدول عن وجوب التعميم إلى التخصيص إن لم يكن للاختصاص بالحكم ، وإلا كان تركاً للمقتضى بلا معارض ، وذلك ممتنع فقوله « إن لله تسعة وتسعين » قد يكون للتحصيل بهذا العدد فوائد غير الحصر ، ومنها ذكر أن إحصاءها يورث الجنة ، فإنه لو ذكر هذه الجملة منفردة وأتبعها بهذه منفردة لكان حسناً ، فكيف والأصل في الكلام الاتصال وعدم الانفصال ، فتكون الجملة الشرطية صفة لا ابتدائية ، فهذا هو الراجح في العربية مع ما ذكر من الدليل ، ولهذا قال[1] « إنه وتر يحب الوتر » ، ومحبته لذلك تدل على أنه متعلق بالإحصاء أي يجب أن يحصي من أسمائه هذا العدد ، وإذا كانت أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين أمكن أن يكون إحصاء تسعة وتسعين اسماً يورث الجنة مطلقاً على سبيل البدل فهذا يوجه قول هؤلاء وإن كان كثيراً .

وكثير من الناس من يجعلها أسماء معينة ، ثم من هؤلاء من يقول ليس إلا تسعة وتسعين اسماً فقط وهو قول ابن حزم وطائفة ، والأكثرون منهم يقولون : وإن كانت أسماء الله أكثر لكن الموعود بالجنة لمن أحصاها هي معينة ، وبكل حال فتعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة حديثه ، ولكن روي في ذلك عن السلف أنواع .

من ذلك ما ذكره الترمذي ومنها غير ذلك فإذا عرف هذا فقوله في أسمائه الحسنى « النور الهادي » لو نازعه منازع في ثبوت ذلك عن النبي ﷺ لم تكن له حجة ، ولكن جاء ذلك في أحاديث صحاح ، مثل قوله في الحديث الذي في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يقول « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن »[2] الحديث . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال « سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك فقال : « نور أنّى أراه »[3] أو قال « رأيت نوراً » فالذي في القرآن والحديث الصحيح إضافة النور بقوله ﴿ نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾ أو ﴿ نورُ السمواتِ والأرضِ وَمَنْ فيهِنّ ﴾ .

وأما قوله أن النور كيفية قائمة ، فنقول النور المخلوق محسوس لا يحتاج إلى بيان كيفية لكنه نوعان أعيان وأعراض ، فالأعيان هو نفس جرم النار حيث كانت نور السراج ، والمصباح

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة السابق عند ابن ماجه وهي أيضا من حديثه في الصحيحين ولم نذكر الأسماء فيهما . تفسير ابن كثير ٢/٢٦٨ .

(٢) لفظ الحديث في البخاري : (كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض) . . الخ . ويرجع إلى تمام الحديث في كتاب التهجد وغيره . الصحيح بشرح الفتح ٣/٣ ، مسلم بشرح النووي ٢/٤٢٤ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١/٤٢٢ .

الذي في الزجاجة وغيره ، وهي النور الذي ضرب الله به المثل ، ومثل القمر ، فإن الله سماه نوراً فقال : ﴿ جَعَلَ الشمسَ ضِياءً والقمرَ نوراً ﴾[١] ، ولا ريب أن النار جسم لطيف شفاف ، وأعراض مثل ما يقع من شعاع الشمس ، والقمر والنار على الأجسام الصقيلة وغيرها ، فإن المصباح إذا كان في البيت أضاء جوانب البيت فذلك النور والشعاع الواقع على الجدر والسقف والأرض هو عرض ، وهو كيفية قائمة بالجسم .

وقد يقال ليس الصفة القائمة بالنار والقمر ونحوهما نوراً فيكون الاسم على الجوهر تارة ، وعلى صفة أخرى ، ولهذا يقال لضوء النهار نور كما قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ ﴾[٢] ومن هذا تسمية الليل ظلمةً والنهار نوراً ، فإنهما عرضان ، وقد قيل هما جوهران ، وليس هذا موضع بسط ذلك ، فتبين أن اسم النور يتناول هذين ، والمعترض ذكر أولاً حد العرض وذكر ثانياً حد الجسم فتناقض ، وكأنه أخذ ذلك من كلامي ولم يهتدوا لوجه الجمع ، وكذلك اسم الحق يقع على ذات الله تعالى وعلى صفاته القدسية القديمة كقول النبي ﷺ « أنت الحق وقولك الحق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق »[٣] .

وأما قول المعترض النور ضد الظلمة ، وجل الحق أن يكون له ضد ، فيقال له لم تفهم معنى الضد المنفي عن الله ، فإن الضد يراد به ما يمنع ثبوت الآخر كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض، ويقول الناس الضدان لا يجتمعان ويمتنع اجتماع الضدين ، وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في الأعراض ، وأما الأعيان فلا تضاد فيها ، فيمتنع عند هذا أن يقال لله ضد أو ليس له ضد ، ومنهم من يقول يتصور التضاد فيها ، والله تعالى ليس له ضد يمنع ثبوته ، ووجوده بلا ريب بل هو القاهر الغالب الذي لا يغلب .

وقد يراد بالضد المعارض لأمره وحكمه ، وإن لم يكن مانعاً من وجود ذاته كما قال النبي ﷺ « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره »[٤] رواه أبو داود ، وتسمية المخالف لأمره وحكمه ضداً كتسميته عدواً ، وبهذا الاعتبار فالمعادون المضادون لله كثيرون ، فأما على التفسير الأول فلا ريب أنه ليس في نفس الأمر مضاداً لله لكن المضاد يقع

---

(١) سورة يونس الآية ٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١ .

(٣) العبارة جزء من حديث ابن عباس الذي أورده البخاري في باب التهجد وأربعة مواضع أخرى من الصحيح وفيه : (ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق) . إلى آخر الحديث .

(٤) الحديث رواه أيضا أحمد والحاكم وصححه كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنه . وأخرجه ابن أبي شيبة من وجه صحيح عن ابن عمر ايضاً موقوفاً عليه وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً . المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧/١١٣ .

في نفس الكافر ، فإن الباطل ضد الحق ، والكذب ضد الصدق فمن اعتند في الله ما هو منزه عنه كان هذا ضداً للإيمان الصحيح به .

وأما قوله النور ضد الظلمة وجل الحق أن يكون له ضد فيقال له : والحي ضد الميت ، والعليم ضد الجاهل ، والسميع والبصير ، والذي يتكلم ضد الأصم الأعمى الأبكم ، وهكذا سائر ما سمى الله به من الأسماء لها أضداد ، وهو منزه عن أن يسمى بأضدادها فجل الله أن يكون ميتا أو عاجزاً أو فقيرا ونحو ذلك .

وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته مثل وجود الميت والجاهل والفقير والظالم فهذا كثير بل غالب أسمائه لها أضداد موجودة في الموجودين ، ولا يقال لأولئك إنهم أضداد الله ، ولكن يقال إنهم موصوفون بضد صفات الله ، فإن التضاد بين إنما يكن في المحل الواحد لا في محلين ، فمن كان موصوفاً بالموت ضادته الحياة ، ومن كان موصوفاً بالحياة ضاده الموت ، والله سبحانه يمتنع أن يكون ظلمةً أو موصوفاً بالظلمة ، كما يمتنع أن يكون ميتاً أو موصوفاً بالموت ، فهذا المعترض أخذ لفظ الضد بالاشتراك ، ولم يميز بين الضد الذي يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله ، وبين أن يكون في مخلوقاته ما هو موصوف بضد صفاته ، وبين ما يضاده في أمره ونهيه ، فالضد الأول هو الممتنع ، وأما الآخران فوجودهما كثير ، لكن لا يقال إنه ضد الله ، فإن المتصف بضد صفاته لم يضاده ، والذين قالوا النور ضد الظلمة قالوا يمتنع اجتماعهما في عين واحدة ولم يقولون أنه يمتنع أن يكون شيء موصوف بأنه نور ، وشيء آخر موصوف بأنه ظلمة ، فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط .

وأما قوله لو كان نوراً لم يجز إضافته إلى نفسه في قوله (مَثَلُ نورِهِ) فالكلام عليه من طريقين : أحدهما أن نقول النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمى الله نور السموات والأرض ، وقد أخبر النص أن الله نور ، وأخبر أيضاً أنه يحتجب بالنور فهذه ثلاثة أنوار في النص وقد تقدم ذكر الأول .

وأما الثاني قوله[1] ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرضُ بنورِ رَبِّها ﴾ وفي قوله ﴿ مَثَلُ نورِهِ ﴾ وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ »[2] ومنه قوله

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٩ .

(٢) في الجامع الصغير وشرحه أن الحديث أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين كما أخرجه ابن حبان وصححه . وقال الهيثمي : رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما ثقات . وقال ابن حجر في فتاويه : إسناده لا بأس به . وفي الجامع الكبير : حسنه الترمذي وأخرجه ابن جرير والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن .
ولم يشر أحد ممن علق على الحديث أنه رواه مسلم وقد بحثت عنه في مظانه في صحيح مسلم فلم أهتد إليه . والله أعلم . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٢٣٠ ، الجامع الكبير ١/١٥٣٠ .

ﷺ في دعاء الطائف « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك »[1] رواه الطبراني وغيره ، ومنه قول ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه ، ومنه قوله ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال[2] « قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » فهذا الحديث فيه ذكر حجابه فإن تردد الراوي في لفظ النار والنور لا يمنع ذلك ، فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها نار ونور كما سمى الله نار المصباح نوراً بخلاف النار المظلمة كنار جهنم ، فتلك لا تسمى نوراً .

فالأقسام ثلاثة : إشراق بلا إحراق ، وهو النور المحض كالقمر ، وإحراق بلا إشراق وهي النار المظلمة ، وما هو نار ونور كالشمس ، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين وإذا كان كذلك صح أن يكون نور السموات والأرض وأن يضاف إليه النور ، وليس المضاف هو عين المضاف إليه .

والطريق الثاني أن يقال هذا يرد عليكم لا يختص بمن يسميه بما سمى به نفسه ، وبينه فأنت إذا قلت هاد أو منور أو غير ذلك فالمسمى نوراً هو الرب نفسه ليس هو النور المضاف إليه ، فإذا قلت هو الهادي فنوره الهدى جعلت أحد النورين عيناً قائمة ، والآخر صفة ، فهكذا يقول من يسميه نوراً ، وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين كان تخصيص أخدهما بأنه مخالف ظلماً ولدداً في المحاجة أو جهلاً وضلالاً عن الحق .

وأما ما ذكره من الأقوال فلا ريب أن للناس فيها من الأقوال أكثر مما ذكره ، والموجود بأيدي الأمة من الروايات الصادقة والكاذبة والآراء المصيبة والمخطئة لا يحصيه إلا الله والكلام في تفسير أسماء الله وصفاته وكلامه فيه من الغث والسمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين ، وإنما الشأن في الحق والعلم والدين .

وقد كتبت قديماً في بعض كتبي لبعض الأكابر أن العلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، فالشأن في أن نقول علما وهو النقل والصدق والبحث المحقق ، فإن ما سوى ذلك وإن زخرف مثله بعض الناس خزف مزوق ، وإلا فباطل مطلق مثلما ذكره في هذه الآية ، وغيرها .

---

(١) الحديث أخرجه أيضا محمد بن إسحاق في السيرة . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/١١٩ ، تفسير ابن كثير ٣/٢٩٠ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجة أيضاً من طريقين في صحيحه ورمز له السيوطي بالصحة . مسلم بشرح النووي ١/٤٢٣ ، سنن ابن ماجه ٩/٧٠ . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢/٢٧٦ .

وهذه الكتب التي يسميهاكثير من الناس كتب التفسير فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم ، وقول على الله ورسوله بالرأي المجرد ، بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية ، فالمفسرون الذين ينقل عنهم لم يسمهم ، ومع هذا فقد ضعف قولهم بالباطل فإن القوم فسروا النور في الآية بأنه الهادي ولم يفسروا النور في الأسماء الحسنى ، والحديث عن النبي ﷺ ، فلا يصح تضعيف قولهم بما ضعفه ، ونحن ما ذكرنا ذلك لبيان تناقضه ، وأنه لا يحتج علينا بشيء يروج على ذي لب ، فإن التناقض أول مقامات الفساد وهذا التفسير قد قاله طائفة من المفسرين .

وأما كونه ثابتاً عن ابن عباس أو غيره ، فهذا مما لم يثبته ، ومعلوم أن في كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب شيء كثير من رواية الكلبي عن أبي صالح وغيره ، فلا بد من تصحيح النقل لتقوم الحجة ، فليراجع كتب التفسير التي يحرر فيها النقل مثل تفسير محمد ابن جرير الطبري . الذي ينقل فيه كلام السلف بالإسناد ، وليعرض عن تفسير مقاتل بقي بن مخلد الأندلسي وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الشامي ، وعبد بن حميد الكشي ، وغيرهم إن لم يصعد إلى تفسير الإمام إسحق ابن راهويه وتفسير الإمام أحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة الذين هم أعلم أهل الأرض بالتفاسير الصحيحة عن النبي ﷺ وآثار الصحابة والتابعين ، كما هم أعلم الناس بحديث النبي ﷺ وآثار الصحابة والتابعين في الأصول والفروع ، وغير ذلك من العلوم ، فأما أن يثبت أصلاً يجعله قاعدة بمجرد رأي ، فهذا إنما ينفق على الجهال بالدلائل الأغشام في المسائل ومثل هذه المنقولات التي لا يميز صدقها من كذبها والمعقولات التي لا يميز صدقها من خطئها ضل من ضل من أهل المشرق في الأصول والفروع والفقه والتصوف .

وما أحسن ما جاء هذا في آية النور التي قال الله تعالى فيها : ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نوراً فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ﴾ نسأل الله يجعل لنا نوراً .

ثم نقول هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السمواتِ والأرضِ﴾ أي هادي أهل السموات لا يضرنا ، ولا يخالف ما قلناه ، فإنهم قالوه في تفسير الآية التي ذكر النور فيها مضافاً لم يذكروه في تفسير نور مطلق كما أدعيت أنت من ورود الحديث به ، فأين هذا من من هذا .

ثم قول من قال من السلف « هادي أهل السموات والأرض » لا يمنع أن يكون في نفسه نوراً ، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر من الأسماء أو بعض أنواعه ، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات المسمى بل قد يكونان متلازمين ، ولا دخول لبقية

الأنواع فيه ، وهذا قد قررناه غير مره في القواعد المتقدمة ، ومن تدبره علم أن أكثر أقوال السلف في التفسير متفقة غير مختلفة .

مثال ذلك قول بعضهم في الصراط المستقيم إنه الإسلام ، وقول آخر إنه القرآن ، وقول آخر إنه السنة والجماعة ، وقول آخر إنه طريق العبودية ، فهذه كلها صفات له متلازمة لا مباينة ، وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن ، والرسول بأسمائه بل بمنزلة أسماء الله الحسنى .

ومثال الثاني قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[1] فذكر منهم صنفا من الأصناف والعبد يعم الجميع ، فالظالم لنفسه المخل ببعض الواجب ، والمقتصد القائم به ، والسابق المتقرب بالنوافل بعد الفرائض ، وكل من الناس يدخل في هذا بحسب طريقه ، والتفسير والترجمة ببيان النوع والجنس ليقرب الفهم على المخاطب ، كما قال الأعجمي : ما الخبز فقيل له : هذا ، وأشير إلى الرغيف ، فالغرض الجنس لا هذا الشخص . فهكذا تفسير كثير من السلف وهو من جنس التعليم ، فقول من قال نور السموات والأرض هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح ، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هادياً لهم ، أما أنهم نفوا ما سوى ذلك ، فهذا غير معلوم ، وأما أنهم أرادوا ذلك فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال[2] « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه » وقد تقدم عن النبي ﷺ من ذكر وجهه وفي رواية النور ما فيه كفاية ، فهذا بيان معنى غير الهداية ، وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نوراً ، ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء كقوله : ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾[3] ونحو ذلك الوجوه .

أحدها أن النور لم يضف قط إلى الله إذا كان صفة لأعيان قائمة فلا يقال في المصابيح إنها نور الله ، ولا في الشمس والقمر وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه » ، وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ[4] «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » .

الثاني أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في الدنيا ، وليس من نور إلا هو خلق من خلق الله ، وكذلك من قال منور السموات والأرض لا ينافي أنه نور ، وكل

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢٩٠ .

(٢) سورة الشمس الآية ١٣ .

(٤) سبق التعليق على الحديث .

منور نور ، فهما متلازمان ، ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح ، وهو في نفسه نور ، وهو منور لغيره ، فإذا كان نوره في القلوب هو نور وهو منور ، فهو في نفسه أحق بذلك ، وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور .

وأما قول من قال معناه منور السموات بالكواكب ، فهذا إن أراد به قائله أن ذلك من معنى كونه نور السموات والأرض وليس له معنى إلا هذا ، فهو مبطل لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض ، والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض ، وأيضا فإنه قال : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين . نور الإيمان ، والعلم المراد من الآية لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب ، وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية والحسن بعد المطالبة بصحة النقل ، والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور ، أما أن يقولوا قوله : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ ليس معناه إلا التنوير بالشمس والقمر والنجوم فهذا باطل قطعاً .

وقد قال ﷺ[1] « أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » ، ومعلوم أن العميان لاحظ لهم في ذلك ، ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لاحظ له في ذلك ، والموتى لا نصيب لهم من ذلك ، وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك ، فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، كيف وقد روي أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا، فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر .

وأما قوله قد قيل بالأدلة والحجج فهذا بعض معنى الهادي ، وقد تقدم الكلام على قوله هذا يبطل قوله أن التأويل دفع للظاهر ، ولم ينقل عن السلف ، فإن هذا الكلام مكذوب علي ، وقد ثبت تناقض صاحبه ، وأنه لم يذكر عن السلف إلا ما اعترف بضعفه .

وأما الذي أقوله الآن وأكتبه ، وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتي ، وإنما أقوله في كثير من المجالس : إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها ، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة ، وما رووه من الحديث ، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار اكثر من مائة تفسير ، فلم أجد إلى ساعتي ، هذه عن أحد من الصحابة أنه أوّل شيئاً من آيات الصفات ، أو أحاديث الصفات ، بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف ، بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته ، وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله ، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيء

---

(١) سبق التعليق على الحديث .

كثير، وتمام هذا أني لم أجدهم تنازعوا إلا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾[1] فروي عن ابن عباس[2] وطائفة أن المراد به الشدة أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين[3]: ولا ريب أن ظاهر القرآن يدل على أن هذه من الصفات فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف، ولكن كثيراً من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له، ثم يريدون صرفه عنه ويجعلون هذا تأويلاً، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة.

وأما قوله لو كان نوراً حقيقةً كما تقوله المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام، فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول، فإن المشبهة يقولون إنه نور كالشمس، والله تعالى ليس كمثله شيء، فإنه ليس كشيء من الأنوار كما أن ذاته ليست كشيء من الذوات لكن ما ذكره له حجة عليهم، فإنه يمكن أن يكون نوراً يحجبه عن خلقه كما قال في الحديث[4] « حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ».

لكن هنا غلط في النقل، وهو إضافة هذا القول إلى المشبهة، فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضاً كالمريسي، فإنه كان يقول إنه نور وهو كبير الجهمية، وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نور حقيقة، فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة، وهذه لغة الجهمية المحضة يسمون كل من أثبت الصفات مشبهاً، فقد قدمنا أن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ذكرا أن نفي كونه نوراً في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة، وأنهما أثبتا أنه نور، وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما، فكيف بأهل الحديث، وأئمة السنة، وأول هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه

---

(١) سورة القلم الآية ٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧. فتح الباري على الصحيح ٨/٦٦٤.

(٣) حديث أبي سعيد الذي يشير إليه المصنف، رواه البخاري بلفظ: (يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً). الصحيح بشرح الفتح ٨/٦٦٣.

(٤) الحديث سبق التعليق عليه، ومما نختتم به هذه التعليقات ما اختتم به العلامة المناوي كلامه عن هذا الحديث قال: (قال في الحكم: الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه اذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو قاهر ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾. كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء. كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء. كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء. كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء في ظهور ذلك الشيء. كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء. كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو ظهر من كل شيء. فيض القدير على الجامع الصغير ٢/٨٧.

والحمد لله أولاً وأخيراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وصفاته ورسول الله ﷺ ، وقد أجاب النبي ﷺ على هـذا السؤال الذي عـارض به المعتـرض فقال ﷺ « حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقـه » ، فأخبـر أنـه حجب عن المخـلوقات بحجابـه النور أن تـدركها سبحـات وجهه ، وأنـه لـو كشف ذلـك الحجاب لأحرقت سبحـات وجهـه مـا أدركـه بصـره من خلقـه ، فهـذا الحجـاب عن إحـراق السبحات يبين ما يراد في هذا المقام .

وأما ما ذكره عن ابن عباس في روايته الأخرى فمعنـاه بعض الأنوار الحسيـة ، وما ذكـره من كلام العارفـين فهو بعض معـاني هدايتـه لعباده ، وإنمـا ذلك تنـويع بعض الأنـواع بحسب حـاجة المخـاطبين كـما ذكرنـاه من عادة السلف ان يفسرها بـذكر بعض الأنـواع يقع عـلى سبيل التمثيل لحاجـة المخاطبـين لا على سبيـل الحصر ، والتحـديد ، فقـد تبين أن جميـع ما ذكـر من الأقوال يرجع إلى معنيين من معاني كونه نور السموات والأرض ، وليس في ذلك دلالة على أنـه في نفسه ليس بنور .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان(*)

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

فصـــل

أكبر الكبائر ثلاث : الكفر ، ثم قتل النفس بغير الحق ، ثم الزنا ، كما رتبها الله في قوله : ﴿وَالذينَ لا يَدْعونَ مَعَ اللَّه إلهاً آخَرَ ، ولا يقتلون النفسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلاّ بالحَقِّ ، وَلَا يَزنونَ﴾(١) وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود : « قلت يا رسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أي : قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك »(٢) .

ولهذا الترتيب وجه معقول ، وهو أن قوى الإنسان ثلاث : قوة العقل وقوة الغضب ، وقوة الشهوة . فأعلاها القوة العقلية ـ التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب ، وتشركه فيها الملائكة ، كما قال أبو بكر عبد العزيز من أصحابنا وغيره : خلق للملائكة عقول بلا شهوة وخلق للبهائم شهوة بلا عقل ، وخلق للإنسان عقل وشهوة ، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه . ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة ، ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة .

ومن الطبائعيين من يقول : القوة الغضبية هي الحيوانية ، لاختصاص الحيوان بها دون النبات . والقوة الشهوية هي النباتية لاشتراك الحيوان والنبات فيها . واختصاص النبات بها دون الجماد .

(*) مجموع الفتاوى ١٤/٤٢٨ .

(١) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب التفسير) ، مسلم (الإيمان) ، أبو داود (كتاب الطلاق) ، الترمذي (التفسير) ، النسائي (الإيمان) ، ابن حنبل ١/ ٨٠ .

لكن يقال : إن أراد أن نفس الشهوة مشتركة بين النبات والحيوان فليس كذلك ، فأن النبات ليس فيه حنين ولا حركة إرادية ، ولا شهوة ولا غضب . وإن أراد نفس النمو والاغتذاء فهذا تابع للشهوة وموجبها .

وله نظير في الغضب . وهو أن موجب الغضب وتابعه هو الدفع والمنع ، وهذا معنى موجود في سائر الأجسام الصلبة القوية ، فذات الشهوة والغضب مختص بالحي . وأما موجبهما من الاعتداء والدفع فمشترك بينهما وبين النبات القوي ، فقوة الدفع والمنع موجود في النبات الصلب القوي ، دون اللين الرطب ، فتكون قوة الدفع مختصة ببعض النبات ، لكنه موجود في سائر الأجسام الصلبة ، فبين الشهوة والغضب عموم وخصوص .

وسبب ذلك : أن قوى الأفعال في النفس إما جذب وإما دفع ، فالقوة الجاذبة الجالبة للملائم هي الشهوة وجنسها : من المحبة والإرادة ونحو ذلك ، والقوة الدافعة للمنافي هي الغضب وجنسها : من البغض والكراهة ، وهذه القوة باعتبار القدر المشترك بين الإنسان والبهائم هي مطلق الشهوة والغضب ، وباعتبار ما يختص به الإنسان العقل والإيمان والقوى الروحانية المعترضة .

فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة الإيمانية ، ولهذا لا يوصف به من لا تمييز له ، والقتل ناشىء عن القوة الغضبية ، وعدوان فيها . والزنا عن القوة الشهوانية . فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية ، وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية ، والزنا اعتداء وفساد في القوة الشهوانية .

ومن وجه آخر ظاهر : أن الخلق خلقهم الله لعبادته ، وقوام الشخص بجسده ، وقوام النوع بالنكاح والنسل ، فالكفر فساد المقصود الذي له خلقوا ، وقتل النفس فساد النفوس الموجودة، والزنا فساد في المنتظر من النوع . فذاك إفساد الموجود وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد مالاً موجوداً ، أو منع المنعقد أو يوجد ، وإعدام الموجود أعظم فساداً ، فلهذا كان الترتيب كذلك .

ومن وجه ثالث أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد ، والقتل إفساد للجسد الحامل له ، وإتلاف الموجود . وأما الزنا فساد في صفة الوجود لا في أصله ، لكن هذا يختص بالزنا ، ومن هنا يتبين أن اللواط أعظم فساداً من الزنا .

فصــــــل

وباعتبار القوى الثلاث انقسمت الأمم التي هي أفضل الجنس الإنساني ، وهم العرب

والـروم ، والفرس . فـإن هذه الأمم هي التي ظهـرت فيها الفضـائل الإنسـانية ، وهم سكـان وسط الارض طولاً وعرضاً ، فأما من سواهم كالسودان والترك ونحوهما فتبع .

فغلب على العرب القوة العقلية النطقية ، واشتق اسمها من وصفها فقيـل لهم : عرب : من الأعراب ، وهو البيان والإظهار ، وذلك خاصة القوة المنطقية .

وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعـام والنكاح ونحـوهما ، واشتق اسمهـا من ذلك فقيل لهم الروم ، فإنه يقال : رمت هذا أرومه إذا طلبته واشتهيته .

وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والاستعلاء والـرياسـة ، واشتق اسمها من ذلك ، فقيل فرس ، كما يقال فرسه يفرسه إذا قهره وغلبه .

ولها توجد هذه الصفات الثلاث غالبة على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها ، ولهذا كانت العرب أفضل الأمم ، وتليها الفرس لأن القوة الدفعية أرفع ، وتليها الروم .

فصـــــل

وباعتبار هذه القوى كانت الفضائل ثلاثاً : فضيلة العقل ، والعلم ، والإيمان : التي هي كمال القوة المنطقية ، وفضيلة الشجاعة التي هي كمـال القوة الغضبيـة ، وكمـال الشجـاعة هـو الحلم ، كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرعـة ، وإنما الشـديد الـذي يملك نفسه عنـد الغضب »[١] والحلم والكرم ملزوزان في قرن ، كما أن كمال القـوة الشهويـة العفة ، فـإذا كان الكريم عفيفاً والسخي حليماً اعتدل الأمر .

وفضيلة السخـاء والجود التي هي كمـال القوة الـطلبية الحبيـة ، فإن السخـاء يصـدر عن اللين والسهولة ورطوبة الخلق ، كما تصدر الشجاعة من القوة والصعوبـة ويبس الخلق ، فالقـوة الغضبية هي قوة النصر ، والقوة الشهوية قـوة الرزق ، وهمـا المذكـوران في قولـه : ﴿ الذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ والرزق والنصر مقتـرنان في الكتـاب والسنة ، وكـلام الناس كثيراً .

وأما الفضيلة الرابعة التي يقال لها العدالة فهي صفة منتظمة للثلاث وهو الاعتدال فيها ، وهذه الثلاث الأخيرات هي الأخلاق العملية ، كما جاء من حديث سعد لما قـال فيه العبسي : إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، ولا يخرج في السرية .

---

(١) ورد الحديث بلفظ مختلف في : البخاري (كتاب الأدب) ، مسلم (كتاب البر) ، الموطأ (حسن الخلق) ، ابن حنبل ١/ ٢٨٢ .

فصل

وباعتبار القوى الثلاث كانت الأمم الثلاث : المسلمون واليهود والنصارى ، فإن المسلمين فيهم العقل والعلم والاعتدال في الأمور ، فإن معجزة نبيهم هي علم الله وكلامه ، وهم الأمة الوسط .

وأما اليهود فأضعفت القوة الشهوية فيهم ، حتى حرم عليهم من المطاعم والملابس ما لم يحرم على غيرهم ، وأمروا من الشدة والقوة بما أمروا به ، ومعاصيهم غالبها من باب القسوة والشدة لا من باب الشهوة ، والنصارى أضعفت فيهم القوة الغضبية فنهوا عن الانتقام والانتصار ، ولم تضعف فيهم القوة الشهوية ، فلم يحرم عليهم من المطاعم ما حرم على من قبلهم ، بل أحل لهم بعض الذي حرم عليهم من المطاعم ما حرم على من قبلهم ، بل أحل لهم بعض الذي حرم عليهم ، وظهر فيهم من الأكل والشرب والشهوات ما لم يظهر في اليهود ، وفيهم من الرقة والرأفة والرحمة ما ليس في اليهود ، فغالب معاصيهم من باب الشهوات لا من الغضب ، وغالب طاعاتهم من باب النصر لا من باب الرزق . ولما كان في الصوفية والفقهاء عيسوية مشروعة أو منحرفة : كان فيهم من الشهوات ووقع فيهم من الميل إلى النساء والصبيان والأصوات المطربة ما يذمون به ، ولما كان في الفقهاء موسوية مشروعة أو منحرفة كان فيهم من الغضب ووقع فيهم من القسوة والكبر ونحو ذلك ما يذمون به .

فصل

جنس القوة الشهوية الحب . وجنس القوة الغضبية البغض ، والغضب والبغض متفقان في الاشتقاق الأكبر ، ولهذا قال النبي ﷺ : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله »(١) فإن هاتين القوتين هما الأصل ، وقال : « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » فالحب والبغض هما الأصل ، والعطاء عن الحب وهو السخاء ، والمنع عن البغض ، وهو الشجاعة . فأما الغضب فقد يقال : هو خصوص في البغض ، وهو الشدة التي تقوم في النفس التي يقترن بها غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا هو الغضب الخاص ، ولهذا تعدل طائفة من المتكلمين عن مقابلة الشهوة بالغضب إلى مقابلتها بالنفرة ، ومن قابل الشهوة بالغضب فيجب أن لا يريد الغضب الخاص ، فإن نسبة هذا إلى النفرة نسبة الطمع إلى الشهوة ، فأما الغضب العام فهو القوة الدافعة البغضية المقابلة للقوة الجاذبة الحبية .

---

(١) رواه أبو داود في (كتاب السنة) .

فصـــــل

فعل المأمور به صادر عن القوة الإرادية الحبية الشهوية ، وترك المنهي عنه صادر عن القوة الكرهية البغيضة الغضبية النفرية ، والأمر بالعروف صادر عن المحبة والإرادة ، والنهي عن المنكر والحض على هذا والزجر عن هذا ، ولهذا لا تكف النفوس عن الظلم إلا بالقوة الغضبية الدفعية ، وبذلك يقوم العدل والقسط في الحكم والقسم وغير ذلك ، كما أن الاحسان يقوم بالقوة الجذبية الشهوية ، فإن اندفاع المكروه بدون حصول المحبوب عدم ، إذ لا محجوب ولا مكروه ، وحصول المحبوب والمكروه وجود فاسد ، إذ قد حصلا معا وهما متقابلان في الترجيح ، فربما يختار بعض النفوس هذا ويختار بعضها هذا وهذا عند التكافؤ ، وأما المكروه اليسير مع المحبوب الكثير فيترجح فيه الوجود ، كما أن المكروه الكثير مع المحبوب اليسير يترجح فيه العدم .

لكن لما كان المقتضى لكل واحد من المحبوب والمكروه الذي هو الخير والشر موجوداً ، وبتقدير وجودهما يحصل النصر كالرزق مع الخوف ، صار يعظم في الشرع والطبع دفع المكروه . أما في الشرع فبالتقوى ، فإن اسمها في الكتاب والسنة والإجماع عظيم ، والعاقبة لأهلها والثواب لهم . وأما في الطبع فتعظيم النفوس لمن نصرهم بدفع الضرر عنهم من عدو أو غيره ، فإن أهل الرزق معظمون لأهل النصر أكثر من تعظيم أهل النصر لأهل الرزق ، وذاك ـ والله أعلم ـ لأن النصر بلا رزق ينفع ، فإن الأسباب الجالبة للرزق موجودة تعمل عملها ، وأما الرزق بلا نصر فلا ينفع ، فإن الأسباب الناصرة تابعة ، وفي هذا نظر يقال : هما متقابلان فإن أهل النصر يحبون أهل الرزق أكثر مما يحب أهل الرزق لأهل النصر ، فإن الرزق محبوب والنصر معظم .

وقد يقال : بل النصر أعظم كما تقدم ، فإن اندفاع المكروه محبوب أيضا ، وهو لا يحصل إلا بقوة الدفع التي هي أقوى من قوة الجذب ، فاختص الناصر بالتعظيم لدفعه المعارض ، وأما الرازق فلا معارض له ، بل له موافق ، فالناصر محبوب معظم . وقد يقابل هذا بأن يقال : وفوات المحبوب مكروه أيضاً ، والمحبوب لا يحصل إلا بقوة الجذب ، ولا نسلم أن قوة الدفع أقوى ، بل قد يكون الجذب أقوى ، بل الجذب في الأصل أقوى ، لأنه المقصود بالقصد الأول ، والدفع خادم تابع له ، وكما أن الدافع دفع المعارض فالجاذب حصل المقتضى ، وترجيح المانع على المقتضى غير حق ، بل المقتضى أقوى بالقول المطلق ، فإنه لا بد منه في الوجود .

وأما المانع فإنما يحتاج إليه عند ثبوت المعارض ، وقد لا يكون معارض ، فالمقتضى

والمحبة هو الأصل والعمدة في الحق الموجود والحق المقصود ، وأما المانع والبغضة فهو الفرع والتابع .

ولهذا كتب الله في الكتاب الموضوع عنده فوق العرش : « إن رحمتي تغلب غضبي » . ولهذا كان الخير في أسماء الله وصفاته ، وأما الشر ففي الأفعال ، كقوله : ﴿ نَبِّئْ عِبادِي أَني أنا الغفورُ الرَّحيمُ ، وأنَّ عَذَابي هُوَ العذابُ الأليمُ ﴾[1] وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شديدُ العقابِ وأَنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾[2] .

يبقى أن يقال : فلم عظمت التقوى ؟ فيقال : إنها هي تحفظ الفطرة وتمنع فسادها ، واحتاج العبد إلى رعايتها لأن المحبة الفطرية لا تحتاج إلى محرك ، ولهذا كان أعظم ما دعت إليه الرسل الإخلاص والنهي عن الإشراك ،لأن الإقرار الفطري حاصل لوجود مقتضيه ، وإنما يحتاج إلى إخلاصه ودفع الشرك عنه ، ولهذا كانت حاجة الناس إلى السياسة الدافعة لظلم بعضهم عن بعض والجالبة لمنفعة بعضهم بعضاً ، كما أوجب الله الزكاة النافعة وحرم الربا الضار ، وأصل الدين هو عبادة الله : الذي أصله الحب والإنابة والإعراض عما سواه ، وهو الفطرة التي فطر عليها الناس .

وهذه المحبة التي هي أصل الدين : انحرف فيها فريق من منحرفة الموسوية من الفقهاء والمتكلمين حتى أنكروها ، وزعموا أن محبة الله ليست إلا إرادة عبادته ، ثم كثير منهم تاركون للعمل بما أمروا به ، فيأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وهذا فاش فيهم ، وهو عدم المحبة والعمل ، وفريق من منحرفة العيسوية من الصوفية والمتعبدين ، خلطوها بمحبة ما يكرهه ، وأنكروا البغض والكراهية ، فلم ينكروا شيئا ولم يكرهوه أو قصروا في الكراهة والإنكار ، وأدخلوا فيها الصور والأصوات ومحبة الأنداد .

ولهذا كان لغواة الأولين وصف الغضب واللعنة الناشىء عن البغض ، لأن فيهم البغض دون الحب ، وكان لضلال الآخرين وصف الضلال والغلو ، لأن فيهم محبة لغير معبود صحيح ، ففيهم طلب وإرادة ومحبة ، ولكن لا إلى مطلوب صحيح ، ولا مراد صحيح ، ولا محبوب صحيح ، بل قد خلطوا وغلوا وأشركوه ، ففيهم محبة الحق والباطل ، وهو وجود المحبوب والمكروه ، كما في الآخرين بغض الحق والباطل ، وهو دفع المحبوب والمكروه والله سبحانه يهدينا صراطه المستقيم . فيحمد من هؤلاء محبة الحق والاعتراف به ، ومن هؤلاء بغض الباطل وإنكاره .

---

(١) سورة الحجر الآيات (٥٠ ـ ٥١) .

(٢) سورة المائدة الآية ٩٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل

قال شيخ الإسلام

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ (فيها) .

منها قوله تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ﴾ الآية[1] . المشهور عن السلف أن الحسنة : لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك وعن السدي قال : ذلك عند الحساب ألغى بدل كل حسنة عشر سيئات ، فإن بقيت سيئة واحدة فجزاؤه النار إلا أن يغفر الله له .

قلت : تضعيف الحسنة إلى عشر وإلى سبعمائة ثابت في الصحاح ، وأن السيئة مثلها ، وأن الهمّ بالحسنة حسنة ، والهمّ بالسيئة لا يكتب .

فأهل القول الأول قالوه لأن أعمال البر داخلة في التوحيد ، فإن عبادة الله بما أمر به كمال قال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[2] الآية . وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ الآية [3] .

فالكلمة الطيبة التوحيد ، وهي كالشجرة ، والأعمال ثمارها في كل وقت ، وكذلك السيئة ، هي العمل لغير الله ، وهذا هو الشرك ، فإن الإنسان حارث همام لا بد له من عمل ولا بد له من مقصود يعمل لأجله . وإن عمل لله ولغيره فهو شرك .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١١٢ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٤ .

والذنوب من الشرك فإنها طاعة للشيطان . قال : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾[1] الآية وقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾[2] الآية . وفي الحديث : « وشر الشيطان وشركه » لكن إذا كان موحداً وفعل بعض الذنوب نقص توحيده ، كما قال : « لا يزني الزاني » الخ . ومن ليس بمؤمن بمخلص ، وفي الحديث « تعس عبد الدينار »[3] الخ . وحديث أبي بكر « قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم » الخ . لكن إذا لم يعدل بالله غيره فيحبه مثل حب الله ، بل الله أحب إليه وأخوف عنده وأرجى من كل مخلوق ، فقد خلص من الشرك الأكبر .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٢) سورة يس الآية ٦٠ .

(٣) ورد الحديث في ابن ماجه ٢/١٣٨٦ (كتاب الترغيب)، وفي البخاري (كتاب الجهاد) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحزاب (*)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بالمؤمنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ في كِتَابِ اللهِ مِنَ المؤمنينَ والمهاجِرِينَ إلاّ أَنْ تَفْعَلوا إلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً ، كَانَ ذَلكَ في الكتابِ مَسْطوراً ﴾[1] دليل على مثل معنى الحديث الصحيح : : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فمن ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك كَلًّا أو ضياعاً فعليّ » حيث جعله الله أولى بهم من أنفسهم[2] .

ثم جعل الأقارب بعضهم أولى ببعض ، لأن كونه أولى بهم من أنفسهم يقتضي أن يكون أولى بهم من أولي أرحامهم ، وذلك لا يقتضي ملك مالهم أحياء فكذلك أمواتاً ، وإنما يقتضي حمل الكل والضياع من ماله ، وهو الخمس ، أو خمسه ، أو مال الفيء كله ، على الخلاف المعروف ، وفيه دليل على أن الأولوية المقتضية للميراث المذكورة في قوله ﷺ « فلأولي رجل ذكر » مشروطة بالإيمان . وهذه الأية المقيدة تقضي على تلك المطلقة في الأنفال ، لثلاثة أوجه .

« أحدها » أن هذه في سورة الأحزاب بعد الخندق وتلك في الأنفال عقب بدر .

« الثاني » أن هذا مطلق ومقيد في حكم واحد وسبب واحد والحكم هنا متضمن للإباحة ، والاستحقاق ، والتحريم على الغير ، وإيجاب الإعطاء .

(*) الفتاوى : ١٤/٤٤٢ .

(١) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الكفالة) ، مسلم (كتاب الجمعة) أبو داود (كتاب البيوع) ، الترمذي (الجنائز) ، النسائي (العيدين) ، ابن ماجه (المقدمة) ، ابن حنبل ٢/٢١٨ .

« الثالث» أن آية الأنفال ذكر فيها الأولوية بعد أن قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين أيضاً ، فهي دليل ثان ، وهاتان الآيتان تفسر المطلق في آية المواريث ، ويكون هذا تفسير القرآن بالقرآن ، وإن كان قوله : « لا يرث الكافر المسلم » موافقاً له ، فأما ميراث المسلم من الكافر ففيه الخلاف الشاذ من الآيتين أيضا مع الحديث . ويدخل في الآيتين سائر الولايات ، من المناكح ، والأموال ، والعقل ، والموت ، وفي قوله : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ﴾ دليل على الوصية كآيات النساء .

فصـــل

قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ، لِكَيْلا يَكُونَ على المؤمنينَ حَرَجٌ في أزواجِ أَدْعِيائِهِمْ ﴾[(1)] الآية دليل على أن ما أبيح له كان مباحاً لأمته ، لأنه أخبر أن التزويج كان لمنع الحرج عن الأمة ، في مثل ذلك التزويج ، فلولا أن فعله المباح له يقتضي الإباحة لأمته لم يحسن التعليل وهذا ظاهر .

وأيضاً فإنه إذا كان ذلك في تزويجه امرأة الدعي كان يعتقد أن تزوجها حرام ، ففي ما لا شبهة فيه أولى .

وأيضاً إذا كان هذا في النكاح الذي خص فيه من المباحات بما لم تشركه أمته ، كالنكاح بلا عدد وتزوج الموهوبة بلا مهر ، وقد بين أن إباحة عقدة النكاح دليل على إباحة ذلك لأمته ، ففيما لم يظهر خصوصية فيه كالنكاح أولى . وهذا يدل على أن سائر ما أبيح له مباح لأمته ، إلا ما خصه الدليل من المعاملات والأطعمة واللباس ، ونحو ذلك .

وأيضاً فيدل على هذا الأصل قوله : في سياق ما أحله له : ﴿ وَامْرَأَةً مؤمنةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها للنبيِّ ، إنْ أَرادَ النبيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالصةً لَك مِنْ دونِ المؤمنينَ ، قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ في أَزْواجِهِمْ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ؛ لِكيلا يكونَ عليكَ حَرَجٌ ﴾[(2)] من وجهين .

« أحدهما » أنه لما أحل له الواهبة قال : ﴿ خالصةً لكَ مِنْ دونِ المؤمنينَ ﴾ ليبين اختصاصه بذلك . فعلم أنه حيث سكت عن الاختصاص كان الاشتراك ثابتاً ، وإلا فلا معنى لتخصيص هذا الموضع ببيان الاختصاص .

« الثاني » أنه ما أحله من الأزواج ومن المملوكات ومن الأقارب أطلق ، وفي الموهبة قيدها

---

(1) سورة الاحزاب الآية ٢٧ .

(2) سورة الأحزاب الآية ٥٠ .

بالخلوص له ؛ فعلم أن سكوته عن التقييد في أولئك دليل الاشتراك .

فإن قيل : السكوت لا يدل على واحد منهما ، والتقييد بالخلوص ينفي الاشتراك ، فتكون فائدته أن لا يظن الاشتراك بدليل منفصل ، فإن التحليل له لا يدل على الاختصاص قطعا ، لكن هل يدل على الاشتراك أم لا يدل على واحد منهما ؟ هذا موضع التردد . فإذا قيد بالخلوص دل على الاختصاص . وقيل : لو لم يدل على الاشتراك لم يثبت الحكم في حق الأمة لانتفاء دليله ، كما أن ما سكت عنه من المحرمات لم يثبت الحكم لانتفاء دليله .

وهنا إما أن يقال : كانوا يستحلونه على الأصل ، وليس كذلك ؛ لأن الفروج محظورة إلا بالتحليل الشرعي ، فكان يكون محظوراً عليهم فلا يحتاج إلى إخلاصه له لو لم يكن الخطاب المطلق يقتضي الاشتراك والعموم ، وأنه من باب الخاص في اللفظ العام في الحكم .

وأصل هذا أن اللفظ في اللغة قد يصير بحسب العرف الشرعي أو غيره أخص أو أعلم ؛ فالخطاب له وإن كان خاصاً في اللفظ لغة فهو عام عرفاً ، وهو مما نقل بالعرف الشرعي من الخصوص إلى العموم ، كما ينقل مثل ذلك في مخاطبات الملوك ونحو ذلك ، وهو كثير . كما أن العام قد يصير بالعرف خاصاً .

وأيضاً فإنه يبنى ذلك على أصل دليل الخطاب ، وأن التخصيص بالذكر مع العام المقتضي للتعميم يدل على التخصيص بالحكم ، فلما خص خطاب الموهبة بذكر الخلوص دل على انتفاء الخلوص عن الباقي . وإنما انتفاء الخلوص عن الباقي بعدم ذكر الخلوص مع إثبات التحليل للرسول ﷺ ، فعلم أن إثبات التحليل له مع عدم تخصيصه به يقتضي العموم .

وعلى هذا فالخطاب الذي مخرجه في اللغة خاص ثلاثة أقسام :

إما أن يدل على العموم كما في العام عرفاً ، مثل خطاب الرسول والواحد من الأمة ، ومثل تنبيه الخطاب كقوله : لا أشرب لك الماء من عطش ، ومثقال حبة وقنطار ودينار .

وإما أن يدل على اختصاص المذكور بالحكم ونفيه عما سواه ، كما في مفهوم المخالفة إذا كان المقتضي للتعميم قائماً وخص أحد الأقسام بالذكر .

وإما أن لا يدل على واحد منهما لفظاً ثم يوجد العموم من جهة المعنى ، إما من جهة قياس الأولى ، وإما من جهة سائر أنواع القياس ، ويجب الفرق بين تنبيه الخطاب وبين قياس الأولى ، فإن الحكم في ذلك مستفاد من اللفظ عمهما عرفا (و) خطا (باً) ، وهنا مستفاد من الحكم بحيث لو دل على الحكم فعل أو إقرار أو خطاب يقطع معه بأن المتكلم لم يرد إلا الصورة ، لكان ثبوت الحكم لنوع يقتضي ثبوته لما هو أحق به منه ؛ فالعموم هنا معنوي

محض ، وهناك لفظي ومعنوي ، فتدبر هذا فإنه فصل بين المتنازعين من أصحابنا وغيرهم في التنبيه هل هو مستفاد من اللفظ أو هو قياس جلي ؟ لتعلم أنه قسمان .

والفرق أن المستفاد من اللفظ يريد المتكلم به العموم . ويمثل بواحد تنبياً كقول النحوى : ضرب زيد عمراً ؛ بخلاف المستفاد من المعنى .

والآية المتقدمة وهي قوله : ﴿ زَوَّجْنَاكَها لِكَيْلا ﴾ تدل على أن أفعاله ﷺ تقتضي الإباحة لأمته ، مع القطع بأن الفعل في نفسه لا يعم لفظاً ووضعاً ، وإنما يعم بما ثبت من أن الأصل الاشتراك والايتساء . ويدل على ذلك أيضاً قوله في السورة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الآية . فإن فيها التأسي فيما أصابه . ومتى ثبت الحكم في الايتساء به في حكمه عندما أصابه : كان كذلك فيما فعله ؛ إذ المصاب عليه في واجبات ومحرمات ؛ فدلت هذه الآية على أن الأصل مشاركته في الإيجاب والحظر ، كما دلت تلك على أن الأصل مشاركته في الإحلال .

فصــــل

قوله : ﴿ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَناتِكَ وَنِسَاءِ المؤمنينَ : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ﴾[1] الآية : دليل على أن الحجاب إنما أمر به الحرائر دون الإماء ؛ لأنه خص أزواجه وبناته ، ولم يقل وما ملكت يمينك وإمائك وإماء أزواجك وبناتك . ثم قال ﴿ ونِساءِ المؤمنينَ ﴾ والإماء لم يدخلن في نساء المؤمنين ، كما لم يدخله في قوله : ﴿ نسائهن ﴾ ما ملكت أيمانهن حتى عطف عليه في آيتي النور والأحزاب : وهذا قد يقال إنما ينبني على قول من يخص ما ملكت اليمين بالإناث ، وإلا فمن قال : هي فيهما أو في الذكور ففيه نظر .

وأيضاً فقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ وقوله ﴿ الذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ إنما أريد به الممهورات دون المملوكات ، فكذلك هذا فآية الجلابيب في الأردية عند البروز من المساكن ، وآية الحجاب عند المخاطبة في المساكن ؛ فهذا مع ما في الصحيح من أنه لما اصطفى صفية بنت حيي وقالوا: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين وإلا فهي مما ملكت يمينه ، دل على أن الحجاب كان مختصاً بالحرائر .

وفي الحديث دليل على أن أموة المؤمنين لأزواجه دون سراريه ، والقرآن ما يدل على ذلك ؛ لأنه قال : ﴿ وأزواجُهُ أمّهاتُهُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَلا أن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ﴾

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٨ .

وهذا أيضاً دليل ثالث من الآية ؛ لأن الضمير في قوله : ﴿ وإذا سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ عائد إلى أزواجه فليس للمملوكات ذكر في الخطاب ؛ لكن إباحة سراريه من بعده فيه نظر .

(فصل)

ومن قال من أن السراح والفراق صريح في الطلاق ؛ لأن القرآن ورد بذلك ، وجعل الصريح ما استعمله القرآن فيه ، كما يقوله : الشافعي والقاضي وغيرهما من الأصحاب : فقوله ضعيف لوجهين .

« أحدهما » أن هذا الأصل لا دليل عليه ، بل هو فاسد ، فإن الواقع أن الناس ينطقون بلغاتهم التي توافق لغة العرب أو تخالفها من عربية أخرى عرباً مقررةً أو مغيرةً لفظاً أو معنى ، أو من عربية مولدة ، أو عربية معربة ، تلقيت عن العجم ، أو عن عجمية ؛ فإن الطلاق ونحوه يثبت بجميع هذه الأنواع من اللغات : إذ المدار على المعنى ولم يحرم ذلك عليهم ، أو حرم عليهم فلم يلتزموه ؛ فإن ذلك لا يوجب وقوع ما لم يوقعوه . وأيضاً فاستعمال القرآن لفظاً في معنى لا يقتضي أن ذلك اللفظ لا يحتمل غير ذلك المعنى .

« الوجه الثاني » وهو القاصم أن هذه الألفاظ أكثر ما جاءت في القرآن في غير الطلاق ؛ مثل : ﴿ إذا نَكَحْتُمُ المؤمناتِ ثمَّ طَلَّقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾ فهذا بعد التطليق البائن الذي لا عدة فيه أمر بتسريحهن مع التمتيع ، ولم يرد به إيقاع طلاق ثان ؛ فإنه لا يقع ولا يؤمر به وفاقاً ، وإنما أراد التخلية بالفعل ، وهو رفع الحبس عنها ، حيث كان النكاح فيه الجمع ملكاً وحكماً ، والجمع حساً وفعلاً بالحبس ، وكلاهما موجبه ، وهما متلازمان ؛ فإذا زال الملك أمر بإزالة اليد : كما يقال في الأموال الملك والحيازة ، فالقبض في الموضعين تابع للعقد ، فإذا رفع العقد إما بإزالة اليد التي هي القبض .

وقوله : ﴿ فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ لا يستدل به على أن التسريح هو التطليق ؛ فإنه قد يريد به التخلية الفعلية ، حيث قرنه بالمتاع ؛ لكن التخلية الفعلية مستلزمة للتطليق ، أو يريد به الأمرين ، ولم يرد به الطلاق وحده ، لأن ذلك لا يفيدهن بل يضرهن ، وكذلك قوله : ﴿ فَإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وقوله : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْروفٍ ﴾ وكذلك . فإن الرجعية إذا قاربت انقضاء العدة لا يؤمر فيها بتطليق ثان : إذ لم يرتجعها ، إنما يؤمر بتخلية سبيلها وهو التسريح والفراق بالأبدان ؛ بحيث لا يحبسهن ولا يستولي عليهن ، كرفع اليد عن الأموال .

قوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فإخوانُكُمْ في الدينِ وَمَوالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُمْ ﴾ [١] نص في أنه لا حرج فيما أخطأ به من دعاء الرجل إلى غير أبيه ، أو إلى غير مولاه .

ثم قد يستدل به على رفع الجناح في جميع ما أخطأ به الإنسان من قوله أو عمل : إما بالعموم لفظاً ، ويقال : ورود اللفظ العام على سبب مقارن له في الخطاب لا يوجب قصره عليه ، وإما بالعموم المعنوي بالجامع المشترك من أن الأخطاء لا تأثير له في القلب ؛ فيكون عمل جارحة بلا عمد قلب ، والقلب هو الأصل كما قال : « إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد » [٢] وإذا كان الأصل لم يعمل شيئاً لم يضر عمل الفروع دونه ، لأنه صالح لا فساد فيه فيكون الجسد كله صالحاً فلا يكون فاسداً : فلا يكون في ذلك إثم إذ الإثم لا يكون إلا عن فساد في الجسد ، وتكون هذه الآية ردفاً لقوله : ﴿ لا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا ﴾ قال قد فعلت .

ويؤيده قوله في الإيمان : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ الله باللَّغْوِ في أَيْمانِكُمْ ، وَلكنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلوبُكُمْ ﴾ [٣] ﴿ ولكنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الأَيْمانَ ﴾ [٤] فإنه إذا كان اليمين بالله ـ وفيها ما فيها ـ لا يؤاخذ فيها إلا بما كسب القلب ، فغيرها من الأقوال كذلك وأولى ، وإذا كان ما حلف عليه من اليمين يظنه كما حلف عليه ، فتبين بخلافه هو من الخطأ الذي هو اللغو ؛ لأن قلبه لم يكسب مخالفة ، كما لو أنه أخبر بذلك من غير يمين لم يكن عليه إثم الكاذب ، كما لو دعا الرجل لغير أبيه ومولاه خطأ ، وإذا لم يكن بلا يمين عليه إثم الكاذب لم يكن مع اليمين عليه حكم الحالف المخالف ؛ إذ اليمين على الماضي حين يؤكد بالقسم ، فكذلك ما حلف عليه من المستقبل ، وفعل المحلوف عليه ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً جاهلاً بأنه المحلوف عليه لم يكسب قلبه مخالفةً ولا حنثاً ، كما أنه لو وعد بذلك من غير يمين لم يكن مخالفاً ، ولو أمر به فتركه كذلك لم يكن عاصياً .

وهذا دليل يتناول الطلاق وغيره ، أما من جهة العموم المعنوي أو المعنوي ، واللفظي ،

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥ .

(٢) جزء حديث صحيح ورد في البخاري (كتاب الأيمان) مسلم (المساقاه) ، ابن ماجه (كتاب الفتن) ، الدارمي (البيوع) .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٨٩ .

وأي فرق بين أن يقارن اللغو عقد اليمين ، أو يقارن الحنث فيها ، وقوله : ﴿ ولكن يؤاخـذُكُمُ بما عَقَّدْتُمُ الأَيْمَـانَ ﴾ أي هذا سبب المؤاخـذة ؛ لا أنه مـوجب لها بـالاتفاق فيـوجد الخـطأ في سببها وشرطها ، ومن قال : لا لغو في الطلاق فـلا حجة معـه ؛ بل عليـه لأنه لـو سبق لسانـه بذكر الطلاق من غير عمد القلب لم يقع به وفاقاً وأما إذا قصـد اللفظ به هـازلاً فقد عمـد قلبه ذكره ، كما لو عمد ذكر اليمين به .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزمر (*)

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه

فصـــل

قد قال تعالى : ﴿ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (١) والمراد بالقول القرآن ، كما فسره بذلك سلف الأمة وأئمتها ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آباءَهُمْ الأَوَّلِينَ ﴾ (٢) واللام لتعريف القول المعهود ؛ فإن السورة كلها إنما تضمنت مدح القرآن واستماعه ، وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع ، وبيّنا فساد قول من استدل بهذه على سماع الغناء وغيره ، وجعلها عامة ، وبيّنا أن تعميمها في كل قول باطل بإجماع المسلمين .

وهنا سؤال مشهور وهو أنه قال : ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ فقد قسم القول إلى حسن وأحسن ، والقرآن كله متبع ، وهذا حجتهم .

فيقال : الجواب من ثلاثة أوجه : إلزام وحل .

« الأول » أن هذا مثل قوله : ﴿ واتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٣) ومثل قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ في الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شيءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها ﴾ (٤) فقد أمر المؤمنين باتباع أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسن التوراة ، وهذا أبلغ من تلك الآية ؛ فإن تلك إنما فيها

(*) مجموع الفتاوى ١٥/٥ .

(١) سورة الزمر الآية ١٨ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٨ .

(٣) سورة الزمر الآية ٥٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٤٥ .

مدح باتباع الأحسن ، ولا ريب أن القرآن فيه الخبر والأمر بالحسن والأحسن ، واتباع القول إنما هو العمل بمقتضاه ، ومقتضاه فيه حسن وأحسن ، ليس كله أحسن وإن كان القرآن في نفسه أحسن الحديث ؛ ففرق بين حسن الكلام بالنسبة إلى غيره من الكلام ، وبين حسنه بالنسبة إلى مقتضاه المأمور والمخبر عنه .

« والوجه الثاني » أن يقال : إنه قال : ﴿فَبَشِّرْ عِبادِي الذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أولئكَ الذينَ هَدَاهُمْ الله ، وَأولئِكَ هُمْ أُولو الألبابِ ﴾ (١) والقرآن تضمن خبراً وأمراً ، فالخبر عن الأبرار والمقربين ، وعن الكفار والفجار ؛ فلا ريب أن اتباع الصنفين حسن ، واتباع المقربين أحسن ، والأمر يتضمن الأمر بالواجبات والمستحبات . ولا ريب أن الاقتصار على فعل الواجبات حسن وفعل المستحبات معها أحسن ، ومن اتبع الأحسن فاقتدى بالمقربين وتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض كان أحق بالبشرى .

وعلى هذا قوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٢) ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها ﴾ (٣) هو أيضاً أمر بذلك ؛ لكن الأمر يعم أمر الإيجاب ، والاستحباب . فهم مأمورون بما في ذلك من واجب أمر إيجاب ، وبما فيه من مستحب أمر استحباب ، كما هم مأمورون مثل ذلك في قوله : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسَانِ ، وإيتاءِ ذِي القُرْبَى ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بالمعروفِ) والمعروف يتناول القسمين ، وقوله : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهو يعم القسمين ، وقوله : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ وأمثال ذلك .

وقال رحمه الله

فصل

في السماع

اصل السماع الذي امر الله به ، هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ : سماع فقه وقبول ؛ ولهذا انقسم الناس فيه أربعة أصناف : صنف معرض ممتنع عن سماعه ، وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنى ، وصنف فقهه ولكنه لم يقبله ، والرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول .

---

(١) سورة الزمر الآية ١٨ .

(٢) سورة الزمر الآية ٥٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٤٥ .

(٤) سورة النحل الآية ٩٠ .

فـ « الأول » كالذين قال فيهم : ﴿ وَقالَ الذينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذا القرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1] .

و« النصف الثاني » من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنى . قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ إلا دُعاءً وَنِداءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ وَجَعَلْنا على قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفي آذانِهِمْ وَقْراً ، وَإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤمِنوا بِها ، حتى إذا جاؤُوكَ يُجادِلونَكَ ، يَقولُ الذينَ كَفَروا إنْ هذا إلاّ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانوا لا يَعقِلونَ ؟! وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدي العُمْيَ ولَوْ كانوا لا يُبْصِرونَ ؟ ! إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شيئاً ولكنَّ الناسَ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ حِجاباً مَسْتُوراً ، وَجَعَلْنا على قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفي آذانِهِمْ وَقْراً ، وَإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا على أَدْبارِهِمْ نُفُوراً ، نحنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إذْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وإذْ هُمْ نَجْوَى ؛ إذ يَقولُ الظالمون إنْ تَتَّبِعُونَ إلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ ، إنّا جَعَلْنا على قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفي آذانِهِمْ وَقْراً ، وَإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أَبداً ﴾[5] .

وقوله : ﴿ أن يفقهوه ﴾ يتناول من لم يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية ، ومن فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد في الخارج ، وهو « الأعيان » و« الأفعال » و« الصفات » المقصودة بالأمر والخبر ؛ بحيث يراها ولا يعلم أنها مدلول الخطاب : مثل من يعلم وصفاً مذموماً ويكون هو متصفاً به ، أو بعضاً من جنسه ولا يعلم أنه داخل فيه . وقال تعالى : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الذينَ لا يَعْقِلونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[6] قال ذلك بعد قوله : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا أَطِيعوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ وأنتمْ تَسْمَعُونَ ، وَلا تَكونوا كالذينَ قالوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾[7] فقوله : ﴿ وَلَوْ

---

(١) سورة فصلت الآية ٢٦ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

(٣) سورة يونس الآيات (٤٢ ـ ٤٤) .

(٤) سورة الإسراء الآيات (٤٥ ـ ٤٧) .

(٥) سورة الكهف الآية ٧٥ .

(٦) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

(٧) سورة الأنفال الآية ٢١ .

عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ﴾ لم يرد به مجرد إسماع الصوت لوجهين .

« أحدهما » أن هذا السماع لا بد منه ولا تقوم الحجة على المدعوين إلا به . كما قال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المشْرِكينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتي يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ وقال : ﴿ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا كُنّا معذِّبينَ حَتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ .

و« الثاني » أنه وحده لا ينفع ؛ فإنه قد حصل لجميع الكفار الذين استمعوا القرآن وكفروا به كما تقدم ، بخلاف إسماع الفقه فإن ذلك هو الذي يعطيه الله لمن فيه خير ، وهذا نظير ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[3] وهذه الآية والحديث يدلان على أن من لم يحصل له السماع الذي يفقه معه القول فإن الله لم يعلم فيه خيراً ولم يرد به خيراً ، وأن من علم الحديث فيه خيرا أو أراد به خيراً فلا بد أن يسمعه ويفقهه ؛ إذ الحديث قد بين أن كل من يرد الله به خيراً يفقه : فالأول مستلزم للثاني ، والصيغة عامة ، فمن لم يفقهه لم يكن داخلاً في العموم فلا يكون الله أراد به خيراً ، وقد انتفى في حقه اللازم فينتفي الملزوم .

وكذلك قوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ﴾ بين أن الأول شرط للثاني : شرطاً نحوياً ، وهو ملزوم وسبب ، فيقتضي أن كل من علم الله فيه خيراً أسمعه هذا الإسماع ، فمن لم يسمعه إياه لم يكن قد علم فيه خيراً ، فتدبر كيف وجب هذا السماع ، وهذا الفقه ، وهذا حال المؤمنين ، بخلاف الذين يقولون بسماع لا فقه معه ، أو فقه لا سماع معه أعني هذا السماع .

وأما قوله : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فقد يشكل على كثير من الناس . لظنهم هذا السماع المشروط هو السماع المنفي في الجملة الأولى ، الذي كان يكون لو علم فيهم خيراً ، وليس في الآية ما يقتضي ذلك ، بل ظاهرها وباطنها ينافي ذلك ؛ فإن الضمير في قوله : ﴿ولو أسمعهم﴾ عائد إلى الضميرين في قوله : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ وهؤلاء قد دل الكلام على أن الله لم يعلم فيهم خيراً ، فلم يسمعهم إذ ﴿لو﴾ يدل على عدم الشرط دائماً : وإذا كان الله ما علم فيهم خيراً فلو أسمعهم لتولوا وهم معرضون . بمنزلة اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا ، وهم « الصنف الثالث » .

ودلت الآية على أنه ليس لكل من سمع وفقه يكون فيه خير ؛ بل قد يفقه ولا يعمل

---

(١) ورد الحديث في البخاري (كتاب العلم) ، مسلم (كتاب الامارة) ، الترمذي (كتاب العلم) ، ابن ماجه (المقدمة) ، الدارمي (المقدمة) ، الموطأ (القدر) ، ابن حنبل ٣٠٦/١ .

بعلمه فلا ينتفع به ، فلا يكون فيه خير ، ودلت أيضاً على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن فيه خير ، فإنه هو الذي ينتفع به ، فأما من ليس ينتفع به فلا يطلب تفهيمه .

و« الصنف الثالث » من سمع الكلام وفقهه ؛ لكنه لم يقبله ولم يطع أمره : كاليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ مِنَ الذينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنا ، واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَراعِنا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَطَعْناً في الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قالوا سَمِعْنا وَأَطعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ ؛ ولكنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنونَ إلاّ قَلِيلاً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعلمونَ ﴾[2] إلى قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعلمونَ الكِتابَ إلاّ أَمَانِيَّ ﴾ أي تلاوة .

فهؤلاء من «الصنف الأول» الذين يسمعون ويقرؤون ولا يفقهون ، ويعقلون ـ إلى قوله : ﴿ وَإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ بَني إسرائيلَ ، لا تَعْبُدونَ إلا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ ، وآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلونَ ، وَقالوا قُلوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَليلاً مَا يُؤمنونَ ﴾ كما قال في تلك الآية : ﴿ وَلكنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفرِهِمْ فَلا يُؤمنونَ إلا قليلاً ﴾ وقال في النساء : ﴿ فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ قُلوبُنا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنونَ إلاّ قَليلاً ، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً ﴾ إلى آخر القصة ، فأخبر بذنوبهم التي استحقوا بها ما استحقوه . ومنها قولهم ﴿قلوُبنا غُلْفٌ ﴾ .

فعلم أنهم كاذبون في هذا القول قاصدون به الامتناع من الواجب ؛ ولهذا قال : ﴿بل لعنهم الله﴾ و﴿طبع عليها بكفرهم ﴾ فهي وإن سمعت الخطاب وفقهته لا تقبله ولا تؤمن به ، لا تصديقاً له ولا طاعةً ، وإن عرفوه كما قال : ﴿ الذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبناءَهُمْ ﴾[3] فـ ﴿ غلف ﴾ جمع أغلف . وأما ﴿ غلف ﴾ بالتحريك فجمع غلاف . والقلب الأغلف بمنزلة الأقلف . فهم ادعوا ذلك وهم كاذبون في ذلك ، واللعنة الإبعاد عن

---

(١) سورة النساء الآية ٤٦ .

(٢) سورة البقرة الآيات (٧٥ ـ ٧٧) .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

الرحمة ، فلو عملوا به لرحموا ؛ ولكن لم يعملوا به ، فكانوا مغضوباً عليهم ملعونين ، وهذا جزاء من عرف الحق ولم يتبعه ، وفقه كلام الرسل ولم يكن موافقاً له بالإقرار تصديقاً وعملاً .

و« الصنف الرابع » الذين سمعوا سماع فقه وقبول ، فهذا هو السماع المأمور به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرسولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إليَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ، فقالوا: إنّا سَمِعْنا قُرآناً عَجَباً يَهدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً ﴾[2] وقال تعالى : وَإِذْ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القرآنَ ، فَلَمّا حَضَرُوهُ قالوا أَنْصِتُوا ، فَلَمّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قالوا يا قَوْمَنَا إنّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدي إلى الْحَقِّ وإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنوا بِهِ ﴾[3] الآيات . وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ أُوتوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجَّداً ، وَيَقولونَ : سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمفعولاً ﴾[4] الآية . وقال تعالى : ﴿ إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذهِ إيماناً ، فأمّا الذينَ آمَنوا فَزادَتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وأما الذين في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَماتوا وَهُمْ كافِرونَ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ للمؤمنينَ ، ولا يَزيدُ الظالمينَ إلا خَساراً ﴾[7] وكذلك قوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلّذِينَ آمَنوا هُدىً وشفاءٌ ، والذينَ لا يُؤمِنونَ في آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ﴾[8] ومثله قوله : ﴿ هَذا بَيانٌ للناسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ للمتّقينَ ﴾[9] فالبيان يعم كل من فقهه والهدى والموعظة للمتقين ، وقوله : ﴿ هذا بَصائِرُ للناسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لقومٍ يُوقِنونَ ﴾[10] وقوله : ﴿ الٓمٓ ، ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً للمتقينَ ﴾[11].

---

(1) سورة المائدة الآية ٨٣ .

(2) أول سورة الجن .

(3) سورة الأحقاف الآيات (٢٩ ـ ٣١) .

(4) سورة الاسراء الآية ١٠٧ .

(5) سورة الأنفال الآية ٢ .

(6) سورة التوبة الآية ١٢٥ .

(7) سورة الاسراء الآية ٨٢ .

(8) سورة فصلت الآية ٤٤ .

(9) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .

(10) سورة الجاثية الآية ٢٠ .

(11) أول سورة البقرة .

وهنا لطيفة تزيل إشكالا يفهم هنا ، وهو أنه ليس من شرط هـذا المتقي المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن فـإن هذا أولاً ممتنـع ؛ إذ لا يكون مؤمنـاً متقياً من لم يسمع شيئاً من القرآن. وثانياً أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمـه تقدمـاً زمانياً ، كاستقبال القبلة في الصلاة . وثالثاً أن المقصود أن يبين شيئان :

« أحدهما » أن الانتفاع به بالاهتداء والاتعاظ والرحمة هو وإن كان موجباً له ؛ لكن لا بد مع الفاعـل من القابـل ، إذ الكلام لا يؤثـر فيمن لا يكون قـابلاً لـه ، وإن كان من شـأنه أن يهدي ويعظ ويرحم وهذا حال كل كلام .

« الثاني » أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون ، ويستدل بعدم الاهتداء به عـلى عدم الإيمان والتقوى ، كما يقال المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء ، وإن لم يكونوا أطباء قبـل تعمله ، بل بتعلمه ، وكما يقال : كتـاب سيبويـه كتاب عـظيم المنفعة للنحـاة ، وإن كانـوا إنما صاروا نحاة بتعلمه ، وكما يقال : هذا مكان موافق للرماة والركاب .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَـهُ يَنَابِيـعَ في الأرضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلوَ نُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً ؛ إنَّ في ذلكَ لَذِكرَى لِأولي الألبابِ ﴾[١] .

فأخبر سبحانه أن يسلك الماء النازل من السماء ينابيـع ، والينابيـع جمع ينبـوع وهو منبـع الماء ، كالعين والبئر ، فـدلّ القرآن عـلى أن ماء السـماء تنبع من الأرض ، والأعتبـار يدلّ عـلى ذلك ، فإنه إذا كثر ماء السموات كثرت الينابيع ، وإذا قلّ قلت .

وماء السماء ينزل من السحاب ، والله ينشئه من الهواء الذي في الجو ، ومـا يتصاعـد من الأبخرة .

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء ، ولا هذا أيضا معلوماً بالاعتبار . فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال ، ويكون فيها أبخـرة يخلق منها المـاء ، والأبخرة وغيـرها من الأهوية قد يستحيل ، كما إذا أخذنا إناء فوضع فيه ثلج ، فإنه يبقى ما أحاط به مـاء وهو هـواء

(١) سورة الزمر الآية ٢١ .

استحال ماء ، وليس ذلك من ماء السماء ، فعلم أنه ممكن أن يكون في الأرض ماء ليس من السماء ، فلا يجزم بأن جميع المياه من ماء السماء ، وإن كان غالبها من ماء السماء . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام

تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني قدس الله روحه .

فصـــل

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً ، إنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحِيمُ . وأَنِيبُوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾[1] . وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآية في حق التائبين ، وأما آيتا النساء قوله : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] فلا يجوز أن تكون في حق التائبين ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة ، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين . وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد ، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق ، هذه خصّ فيها الشرك بأنه لا يغفره ، وما عداه لم يجزم بمغفرته ، بل علقه بالمشيئة فقال : ﴿ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ، فهي ترد أيضا على المرجئة الواقفية ، الذين يقولون : يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ، ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال : ﴿ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء ، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك﴾ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هي لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك ؛ لكنها لبعض الناس .

وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ، ومن لم يغفر له عذب ، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة ، وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضهم يغفر له ؛ لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أو لا اعتبار بالموازنة ؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

وغيرهم ، بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل . وأيضا فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن قوله : ﴿ يا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً ﴾ فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى ، وإن عظمت الذنوب وكثرت فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه ، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله . قال بعض السلف إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ، ولا يجرئهم على معاصي الله .

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له . إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه ، وإما بأن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة ؛ بل هو مغلوب معها ، والشيطان قد استحوذ عليه ، فهو ييأس من توبة نفسه ، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له ، وهذا يعتري كثيراً من الناس .

والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة : فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به مائة ، ثم دلَّ على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته . والحديث في الصحيحين . والثاني كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة ، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب .

وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها . والصواب الذي عليه أهل السنة والجمهور أن التوبة ممكنة من كل ذنب ، وممكن أن الله يغفره ، وقد فرضوا في ذلك من توسط أرضاً مغصوبة ، ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم . فقيل هذا لا طريق له إلى التوبة . والصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته .

أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان وتسليمه إلى مستحقه ليس منهياً عنه ولا محرماً ؛ بل الفقهاء متفقون على أن من غصب داراً وترك فيها قماشه وماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها فإنه يؤمر بالخروج منها، وبإخراج أهله وماله منها ، وأن كان ذلك نوع تصرفٍ فيها ، لكنه لأجل إخلائها .

والمشرك إذا دخل الحرم أمر بالخروج منه وإن كان فيه مرور فيه ، ومثل هذا حديث الأعرابي المتفق على صحته لما بال في المسجد فقام الناس إليه ، فقال النبي ﷺ : « لا تزرموه » أي لا تقطعوا عليه بوله ، وأمرهم أن يصبوا على بوله دلوا من ماء . فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه خيراً من أن يقطعوه ، فيلوث ثيابه وبدنه ، ولو زنا رجل بامرأة ثم تاب لنزع ، ولم يكن مذنباً بالنزع ، وهل هو وطء ؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد . فلو حلف أن لا يطأ امرأته

بالطلاق الثلاث ، فالذين يقولون : إنه يقع به الطلاق الثلاث إذا وطئها تنازعوا هل يجوز له وطؤها ؟ على قولين : هما روايتان عن أحمد : « أحدهما » يجوز كقول الشافعي . و« الثاني » لا يجوز كقول مالك فإنه يقول : إذا أجزت الوطء لزم أن يباشرها في حال النزع وهي محرمة ، وهذا إنما يجوز للضرورة لا يجوزه ابتداء ، وذلك يقول النزع ليس بمحرم .

وكذلك الذين يقولون إذا طلع عليه الفجر وهو مولج فقد جامع ، لهم في النزع قولان : في مذهب أحمد وغيره ، وأما على ما نصرناه فلا يحتاج إلى شيء من هذه المسائل ، فإن الحالف إذا حنث يكفر يمينه ولا يلزمه الطلاق الثلاث ، وما فعله الناسي حال التبين من أكل وجماع فلا بأس به ، لقوله : (حتى) .

والمقصود أنه لا يجوز أن يَقنط أحد ، ولا يُقنط أحداً من رحمه الله فإن نهى عن ذلك ، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً .

فإن قيل قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً ﴾ معه عموم على وجه الإخبار ، فدلّ أن الله يغفر كل ذنب ؛ ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له ، ولا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة والتواتر والقرآن والإجماع ، إذ كان الله أهلك أمماً كثيراً بذنوبها ، ومن هذه الأمة من عذب بذنوبه إما قدراً وإما شرعاً في الدنيا قبل الآخرة .

وقد قال تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾[1] وقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهْ ﴾[2] فهذا يقتضي أن هذه الآية ليست على ظاهرها ؛ بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعاً . أي ذلك مما قد يفعله أو أنه يغفره لكل تائب ، لكن يقال : فلم أتى بصيغة الجزم والإطلاق في موضع التردد والتقييد ؟ قيل بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب ، ولم يذكر أنه يغفر لكل مذنب ؛ بل لقد ذكر في غير موضع أنه لايغفر لمن مات كافراً ، فقال : ﴿ إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[3] .

وقال في حق المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[4] لكن هذا اللفظ العام في الذنوب هو مطلق في المذنبين . فالمذنب لم يتعرض له

(١) سورة النساء الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة الآيات (٧ ـ ٨) .

(٣) سورة محمد الآية ٣٤ .

(٤) سورة المنافقون الآية ٦ .

بنفي ولا إثبات ؛ لكن يجوز أن يكون مغفوراً لـه . ويجوز أن لا يكـون مغفوراً لـه . إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له ، وان أصر على ما يناقضها لم يغفر له .

وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة : الكفر والشرك وغيـرهما : يغفـرها لمن تـاب منهـا ، ليس في الوجـود ذنب لا يغفره الـرب تعالى ؛ بـل ما من ذنب إلا والله تعـالى يغفـره في الجملة .

وهذه آية عظيمة جـامعة من أعـظم الآيات نفعـاً ، وفيها ردّ عـلى طوائف ، ردّ عـلى من يقول إن الداعي إلى البـدعة لا تقبـل توبتـه ، ويحتجون بحـديث إسرائيـلي ، فيه : « أنـه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت » ؟ وهذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحـديث وليسوا من العلماء بـذلك ، كـأبي عـلى الأهـوازي وأمثـالـه ممن لا يميـزون بـين الأحـاديث الصحيحـة والموضوعة ، وما يحتج به وما لا يحتج به ؛ بل يرون كل ما ورد في الباب محتجين به .

وقد حكى هذا طائفة قولاً في مذهب أحمد أو رواية عنه ، وظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمـة المسلمين أنـه تقبل تـوبته كـما تقبل تـوبة الـداعي إلى الكفر ، وتـوبة من فتن النـاس عن دينهم .

وقد تاب قادة الأحزاب : مثـل أبي سفيان بن حـرب ، والحارث بن هشـام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وغيرهم بعد أن قتـل على الكفـر بدعـائهم من قتل ، وكانوا من أحسن الناس إسلاماً وغفر الله لهم . قال تعالى : ﴿ قُلْ للذِينَ كَفَـروا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم ما قَدْ سَلَفَ ﴾[1] . وعمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمـين ، وقـد قـال لـه النبي ﷺ : « يـا عمـرو أمـا علمت أن الإسـلام يجبُّ مـا كـان قبله » ؟ ! .

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أولئكَ الذينَ يَدْعُـونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهم أَقْرَبُ ﴾[2] قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن ، فأسلم أولئك الجن والإنس يعبدونهم . ففي هذا أنه لم يضر الـذين أسلموا عبـادة غيرهم بعـد الإسلام لهم ، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً .

وأيضا فالداعي إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيـره فذلـك الغير يعـاقب على ذنبـه ؛ لكـونه قبـل من هذا واتبعـه ، وهذا عليـه وزره ووزر من اتبعه إلى يـوم القيامـة مع بقـاء أوزار أولئك عليهم ، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ولا ما حمله هـو لأجل إضـلالهم ، وأما هم

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٨ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٥٧ .

فسـواء تاب أو لم يتب حـالهم واحد ؛ ولكن تـوبته قبـل هذا تحتـاج إلى ضد مـا كان عليـه من الدعاء إلى الهدى ، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع ، وصاروا دعاة إلى الإسلام والسنـة . وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

ومن ذلك توبة قاتـل النفس . والجمهور عـلى أنها مقبولـة ؛ وقال ابن عبـاس لا تقبل ؛. وعن أحمد روايتان . وحـديث قاتـل التسعة والتسعـين في الصحيحين دليـل على قبـول توبتـه . وهذه الآية تدل على ذلك ، وآية النساء إنما فيها وعيد في القـرآن كقولـه : ﴿ إِنَّ الذِينَ يَـأْكلونَ أمـوالَ اليَتَامَى ظُلْمـاً إنّمَا يَـأكلونَ في بُطونِهِمْ نـاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ ومـع هـذا فهـذا إذا لم يتب . وكل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة بـاتفاق النـاس ، فبأي وجـه يكون وعيـد القاتل لاحقاً به وإن تاب ؟ هذا في غاية الضعف ؛ ولكن قـد يقال لا تقبـل توبتـه بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ؛ بل التوبة تسقط حق الله والمقتول مطالبـه بحقه ، وهـذا صحيح في جميع حقوق الآدميين حتى الدَّيْن ، فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « الشهيـد يغفر له كل شيء إلا الدَّيْن » لكن حق الآدمي يعطاه من حسنات القاتل .

فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتـول ، ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتـول ، فـلا بد أن يبقى لـه سيئات يعـذب بها ، وهـذا الذي قـاله قـد يقع من بعض النـاس ، فيبقى الكـلام فيمن تاب وأخلص ، وعجـز عن حسنات تعـادل حق المظلوم ، هـل يجعـل عليـه من سيئات المقتول مـا يعذب بـه ؟ وهذا كله لا ينـافي موجب الآيـة ، وهو أن الله تعـالى يغفر كـل ذنب ، الشرك والقتل والزنا ، وغـير ذلك من حيث الجملة ، فهي عـامة في الأفعـال مطلقـة في الأشخاص .

ومثل هذا قوله : ﴿ اقْتُلُوا المُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُـوهُمْ ﴾[1] عام في الأشخـاص مطلق في احوال [2] الأرجل ؛ إذ قد تكون مستورة بالخف واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله:﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ في أَوْلادِكُمْ ﴾[3] عام في الأولاد عام في الأحوال ؛ إذ قـد يكون الولد موافقاً في الدِّين ومخالفاً وحرّاً وعبداً . واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله : ﴿ يَغْفِرُ الذنوبَ ﴾ عام في الذنـوب مطلق في أحـوالها ، فـإن الذنب قـد يكون صاحبه تائباً منه ، وقـد يكون مصـرّاً ، واللفظ لم يتعرض لـذلك ، بـل الكلام يبـين أن

---

(١) سورة التوبة الآية ٥ .

(٢) هنا سقط .

(٣) سورة النساء الآية ١١ .

الذنب يغفر في حال دون حال ، فإن الله أمر بفعل ما تغفر له الذنوب ، ونهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة ، فقال : ﴿ وَأَنِيبُوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إليكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ، أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المحسنينَ ؛ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آياتي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[1] فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها ، كالتي كذبت بآياته واستكبرت وكانت من الكافرين ، ومثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها .

فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأولئكَ هُمُ الضَّالّونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنوا ، ثمَّ كَفَروا ، ثُمَّ آمَنوا ، ثمَّ كَفَروا ، ثمَّ ازْدَادُوا كُفْراً : لَمْ يكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾[3] .

قيل : إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتدّ ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قوماً كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرسولَ حَقٌّ ، وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ؟ واللهُ لا يَهدِي القومَ الظَّالمينَ ؛ أولئكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكةِ والنّاسِ أجمعينَ ، خالدينَ فيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ولا هُمْ يُنْظَرُونَ ، إلا الذينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلكَ وَأَصْلَحُوا فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾[4] وقوله : ﴿ كيف يهدي الله ؟ ﴾ أي أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين ، ولهذا قال : ﴿ وَاللهُ لا يَهدِيَ القَومَ الظالمينَ ﴾[5] فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً ، لا يحصل له الهدى إلى أي دين ارتد . « والمقصود » أنَّ هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا .

وكذلك قال في قوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾[6] ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتدّ ، قال : ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثمّ

---

(١) سورة الزمر الآيات (٥٤ ـ ٥٩) .

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٠ .

(٣) سورة النساء الآية ١٣٧ .

(٤) سورة آل عمران الآيات (٨٦ ـ ٨٩) .

(٥) سورة آل عمران الآية ٨٦ .

(٦) سورة النحل الآية ١٠٦ .

جاهَدُوا وَصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغفورٌ رَحِيمٌ ﴾[1] .

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ، ثم ذكر من لا تقبل توبته ومن مات كافراً ؛ فقال : ﴿ إنَّ الذينَ كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ ثمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأولئكَ هُمُ الضَّالّونَ ، إنَّ الذينَ كَفَروا وَماتوا وَهُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأرضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ، أولئكَ لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ وما لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[2] . وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً : قيل لنفاقهم ، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه ، وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت ، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي : لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت ، فيكون هذا كقوله : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للذِينَ يَعملونَ السَّيِّئاتِ حتى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قالَ إني تُبْتُ الآنَ ، ولا الذِينَ يَموتونَ وَهُمْ كُفّارٌ ﴾ .

وكذلك قوله : ﴿ إنَّ الذين آمَنوا ثمّ كَفَروا ، ثم آمَنوا ثمّ كَفَروا ثمّ ازْدَادُوا كُفْراً ، لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبيلاً ﴾[3] قال مجاهد وغيره من المفسرين : ازدادوا كفراً ثبتوا عليه حتى ماتوا .

قلت : وذلك لأن التائب راجع عن الكفر ، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر ، فقوله : ﴿ثم ازدادوا﴾ بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر واستمروا على الكفر وداموا على الكفر ، فهم كفروا بعد إسلامهم ، ثم زاد كفرهم ما نقص ، فهؤلاء لا تقبل توبتهم وهي التوبة عند حضور الموت ؛ لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره ، فلم يزدد بل نقص ؛ بخلاف المصر إلى حين المعاينة ، فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلاً عن هدمه .

وفي الآية الأخرى قال : ﴿ لَمْ يَكُنْ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا ، قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره ، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافراً حبط إيمانه ، فعوقب بالكفر الأول والثاني ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قيل : يارسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ فقال : « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر[4] » فلو قال : إن

---

(١) سورة النحل الآية ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآيات (٩٠ ـ ٩١) .

(٣) سورة النساء الآية ١٣٧ .

(٤) ورد الحديث في : البخاري (كتاب ـ الاستقامة) ، مسلم (كتاب الإيمان) ، ابن ماجه (الزهد) ، الدارمي (المقدمة) ابن حنبل ٤٠٩/١ .

الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال : ﴿ إنَّ الذينَ كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ ثمّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك ، وهو المرتد التائب ، فهذا إذا كفر وازداد كفراً لم يغفر له كفره السابق أيضاً ، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفراً فلا يدخلون في الآية .

والفقهاء إذا تنازعوا في قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق ، فذاك إنما هو في الحكم الظاهر ؛ لأنه لا يوثق بتوبته ، أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله في الباطن فإنه يدخل في قوله : ﴿ يا عِبادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً إنّهُ هُوَ الغفورَ الرَّحِيمُ﴾[1] .

فصـــل

ونحن حقيقة قولنا أن التائب لا يعذب لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لا شرعاً ولا قدراً ، والعقوبات التي تقام من حد أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأنه زنا أو سرق أو شرب ، فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها ، ولو درىء الحد بإظهار هذا لم يقم حد ،فإنه كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت ، وإن كان تائباً في الباطن كان الحد مكفراً وكان مأجوراً على صبره ، وأما إذا جاء هو بنفسه فاعترف وجاء تائباً ، فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد في ظاهر مذهب أحمد ، نص عليه في غير موضع ، وهي من مسائل التعليق ، واحتج عليها القاضي بعدة أحاديث ، وحديث الذي قال : « أصبت حداً فأقمه عليّ فأقيمت الصلاة[2] » يدخل في هذا لأنه جاء تائباً ، وإن شهد على نفسه كما شهد به ماعز والغامدية واختار إقامة الحد أقيم عليه وإلا فلا ، كما في حديث ماعز : « فهلا تركتموه ؟» والغامدية ردها مرة بعد مرة .

فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا ؛ ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذي يذنب سراً ، وليس على أحد أن يقيم عليه حداً ؛ لكن إذا اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائباً ، وهذا كقتل الذي ينغمس في العدو هو مما يرفع الله به درجته كما قال النبي ﷺ : « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ؟ !»[3] .

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٣ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (الحدود) ، مسلم (التوبة) ، أبي داود (الحدود) ، الدارمي (الحدود) ، ابن حنبل ٤٩١/٣ .

(٣) ورد الحديث في البخاري (كتاب الأحكام) ، النسائي (الحدود)، الموطأ (الحدود) .

وقد قيل في ماعز أنه رجع عن الإقرار ، وهذا هو أحد القولين فيه في مذهب أحمد وغيره ؛ وهو ضعيف والأول أجود . وهؤلاء يقولون : سقط الحد لكنه رجع عن الإقرار ، ويقولون رجوعه عن الإقرار مقبول ، وهو ضعيف ؛ بل فرق بين ما أقر تائباً ومن أقر غير تائب ، فإسقاط العقوبة بالتوبة ـ كما دلت عليه النصوص ـ أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار ؛ والإقرار شهادة منه على نفسه ؛ ولو قبل الرجوع لما قام حد بإقرار ، فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقاً فالرجوع الذي هو فيه كاذب أولى .

آخره ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

فصـــــل

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ ، فَصَعِقَ مَنْ في السَّمَواتِ وَمَنْ في الأرضِ إلّا مَنْ شَاءَ الله ﴾[1] .

قال المفسرون : مات من الفزع وشدة الصوت ﴿ مَنْ في السمواتِ وَمَنْ في الأرضِ إلّا مَنْ شَاءَ ﴾ . أخبرنا أبو الفتح محمد بن علي الكوفي الصوفي ، أنا أبو الحسن علي بن الحسن التميمي ، ثنا محمد بن إسحق الرملي ، ثنا هشام بن عمار ، ثنا إسماعيل بن عياش عن عمر ابن محمد ، عن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، أنه سأل جبريل عن هذه الآية : ﴿وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ في السمواتِ وَمَنْ في الأرضِ إلا مَنْ شَاءَ الله ﴾ من الذي لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء متقلدين سيوفهم حول العرش ، وهذا قول سعيد بن جبير ، وعطاء (و) ابن عباس . وقال مقاتل والسدي والكلبي : هو جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وملك الموت . ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرَى فإذا هُمْ قِيَامٌ﴾ يعني الخلق كلهم قيام على أرجلهم (ينظرون) ما يقال لهم ، وما يؤمرون به . هذا كلام الواحدي في « كتاب الوسيط »[2] . بينوا لنا حقيقة الصعوق ، هل يطلق على الموت في حق المذكورين ؟ . وحقيقة الاستثناء ؟

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .

(٢) هذا من الكتب المفقودة التي لم أعثر عليها وانظر هذه الأقوال في تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي .

الجـــواب

فأجاب : الحمد لله . الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة ، وحتى عزرائيل ملك الموت . وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ . والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك ، وقدرة الله عليه ، وإنما يخالف في ذلك طوائف من المتفلسفة أتباع أرسطو وأمثالهم ، ممن زعم أن الملائكة هي العقول والنفوس ، وأنه لا يمكن موتها بحال ؛ بل هي عندهم آلهة وأرباب هذا العالم .

والقرآن وسائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون ، كما قال سبحانه : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للَّهِ ، وَلا الملائكةُ المُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيستَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ جَميعاً﴾[1] . وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمَنُ وَلَداً ـ سُبْحَانَهُ ـ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ، لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وَهمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[2] وقال تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ في السمواتِ لا تُغْني شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضَى﴾[3] .

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يميتهم ثم يحييهم ، كما هو قادر على إماتة البشر والجن ، ثم إحيائهم ، وقد قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[4] وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه وعن غير واحد من أصحابه انه قال : « إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة غشي » وفي رواية : « إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا » وفي رواية « سمعت الملائكة كجر السلسلة على صفوان ، فيصعقون ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال : ربكم ؟ قالوا : الحق » فينادون : الحق ، الحق » .

فقد أخبر في هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعوق الغشي فإذا جاز عليهم صعوق الغشي جاز عليهم صعوق الموت ، وهؤلاء المتفلسفة لا يجوزون لا هذا ولا هذا ، وصعوق الغشي هو مثل صعوق موسى عليه السلام . قال تعالى : ﴿فَلَمّا تَجلَّى رَبُّهُ لِلْجَبلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾[5] .

والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات :

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٢ .

(٢) سورة الأنبياء الآيات (٢٦ ـ ٢٨) .

(٣) سورة النجم الآية ٢٦ .

(٤) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

نفخة الفزع ،ذكرها في سورة النمل في قوله: ﴿وَيومَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السمواتِ وَمَنْ في الأرضِ إلا مَنْ شاءَ اللَّهُ﴾[1] ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله : ﴿وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ في السَّمـواتِ وَمَنْ في الأرضِ إلاّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِـخَ فِيهِ أُخْـرَى فإذا هُمْ قِيَـامٌ يَنْظُرُونَ﴾ .

وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم ، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله ، فإن الله أطلق في كتابه .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى آخذاً بساق العرش ، فلا أدري هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله ؟ »[2] وهذه الصعقة قد قيل إنها رابعة ، وقيل إنها من المذكورات في القرآن ؛ وبكل حال النبي ﷺ قد توقف في موسى هل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يجزم بكل من استثناه الله لم يمكنا أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة ، وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يضر به ، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر ، والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٧ .

(٢) ورد الحديث في البخاري (كتاب الخصومات) ، مسلم (كتاب الفضائل) ، أبو داود (كتاب السنة) ، ابن حنبل ٢/٢٦٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة غافر(*)

فصــل

قوله تعالى : ﴿ادْعُوني أسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

(سئل شيخ الاسلام فقيل له)

قوله إذا جف القلم بما هو كائن فما معنى قوله : ﴿ادْعُوني أسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ؟ وإن كان الدعاء أيضاً مما هو كائن فما فائدة الأمر به ولا بد من وقوعه ؟؟

فيقال : الدعاء في اقتضائه الإجابة كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الإثابة ، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسببات ، ومن قال : إن الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسؤول ليس بسبب ، أو هو عبادة محضة لا أثر له في حصول المطلوب وجوداً ولا عدماً ؛ بل ما يحصل بالدعاء يحصل بدونه فهما قولان ضعيفان فإن الله علق الإجابة به تعليق المسبب بالسبب كقوله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ : ادْعُوني أسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ « أنه قال ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها ، قالوا : يا رسول الله ! إذاً نكثر قال الله اكثر »[1] فعلق العطايا بالدعاء تعليق الوعد والجزاء بالعمل المأمور به ، وقال عمر بن الخطاب : إني لا أحمل همّ الإجابة وإنما أحمل همّ الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه ، وأمثال ذلك كثير .

وأيضا فالواقع المشهود يدل على ذلك ويبينه كما يدل على ذلك مثله في سائر أسباب ، وقد أخبر سبحانه من ذلك ما أخبر به في مثل قوله : ﴿وَلَقَدْ نَادَانا نُوحُ فَلَنِعْمَ المجِيبونَ﴾[2] وقوله تعالى :

(*) الرسائل الكبرى ١٩٢/١ ط صبيح بالقاهرة .

(١) الحديث في سنن الترمذي (كتاب ـ الدعوات) ، ابن حنبل ٣ ، ١٨ ، ١٢٥/٦ ، وانظر الحديث محققاً في الجزء الأول .

(٢) سورة الصادقات الآية ٧٥ .

﴿وَذَا النُّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادَى في الظلمات أنْ لا إلهَ إلا أنتَ سُبْحَانَكَ إني كنتُ مِنَ الظالمينَ فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وكذلكَ نُنْجي المؤمنينَ﴾[1] وقوله : ﴿أمَّنْ يُجِيبُ المضطرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأرضِ﴾[2] وقوله تعالى عن زكريا : ﴿رَبِّ لا تَذَرْني فَرْداً وَأنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾[3] وقال تعالى : ﴿فإذا رَكِبُوا في الفلكِ دَعُوا اللَّهَ مخلصينَ لهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إلى البَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[4] وقال تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ في الْبَحْرِ كالاعلامِ إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كثيرٍ وَيَعْلَمَ الذينَ يُجَادِلُونَ في آياتنا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[5] .

فأخبر أنه إن شاء أوبقهن ؛ فاجتمع أخذهم بذنوبهم وعفوه عن كثير منها مع علم المجادلين في آياته أنه ما لهم من محيص ؛ لأنه في مثل هذا الحال يعلم المورد للشبهات في الدلائل الدالة على ربوبية الرب وقدرته ومشيئته ورحمته أنه لا مخلص له مما وقع فيه . كقوله في الآية الأخرى : ﴿وَهُمْ يُجادِلُونَ في اللَّهِ وَهُوَ شديدُ المِحالِ﴾ .

فإن المعارف التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرارية أثبت وأرسخ من المعارف التي ينتجها مجرد النظر القياسي ـ الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال ـ هل الرب موجب بذاته ، فلا يكون هو المحدث للحوادث ابتداء ولا يمكنه أن يحدث شيئاً ولا يغير العالم حتى يدعى ويسأل ؟ وهل هو عالم بالتفصيل والإجمال ، وقادر على تصريف الأحوال ، حتى يسأل التحويل من حال إلى حال ؟ أو ليس كذلك كما يزعمه من المتفلسفة وغيرهم من الضلال ، فيجتمع مع العقوبة والعفو من ذي الجلال ، علم أهل المراء والجدال ، أنه لا محيص لهم عما أوقع بمن جادلوا في آياته وهو شديد المحال . وقد تكلّمنا على هذا وأشباهه وما يتعلق به من المقالات والديانات في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن يعلم أن الدعاء والسؤال هو سبب لنيل المطلوب المسؤول ليس وجوده كعدمه في ذلك ، ولا هو علامة محضة ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، وإن كان قد نازع في ذلك طوائف من أهل القبلة وغيرهم ، مع أن ذلك يقربه جماهير بني آدم من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ، لكن طوائف من المشركين والصابئين من المتفلسفة المشائين أتباع

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٨ .

(٢) سورة النمل الآية ٦٢ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٠ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٩٥ .

(٥) سورة الشورى الآيات (٣٢ ـ ٣٥) .

أرسطو ومن تبعه من متفلسفة أهل الملل كالفارابي وابن سينا ومن سلك سبيلهما - ممن خلط ذلك بالكلام والتصوف والفقه ، ونحو هؤلاء - يزعمون أن تأثير الدعاء في نيل المطلوب كما يزعمونه في تأثير سائر الممكنات المخلوقات من القوى الفلكية والطبيعية والقوى النفسانية والعقلية ، فيجعلون ما يترتب على الدعاء هو من تأثير النفوس البشرية من غير أن يثبتوا للخالق سبحانه بذلك علماً مفصلاً أو قدرة على تغيير العالم ، أو أن يثبتوا أنه لو شاء أن يفعل غير ما فعل لأمكنه ذلك ، فليس هو عندهم قادراً على ان يجمع عظام الإنسان ويسوي بنانه ، وهو سبحانه هو الخالق لها ولقواها فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أما قوله : وإن كان الدعاء مما هو كائن ، فما فائدة الأمر به ولا بد من وقوعه ؟

فيقال : الدعاء المأمور به لا يجب كوناً ، بل إذا أمر الله العباد بالدعاء فمنهم من يطيعه فيستجاب له دعاؤه ، وينال طلبته ويدل ذلك على أن المعلوم المقدور هو الدعاء والإجابة ، ومنهم من يعصيه فلا يدعو فلا يحصل ما علق بالدعاء ، فيدل ذلك على أنه ليس في المعلوم المقدور الدعاء ولا الإجابة ، فالدعاء الكائن هو الذي تقدم العلم بأنه كائن (والدعاء الذي لا يكون هو الذي تقدم العلم بأنه) لا يكون .

فإن قيل : فما فائدة الأمر فيما علم أنه يكون من الدعاء قيل الأمر هو سبب أيضا في امتثال المأمور به ، كسائر الأسباب ، فالدعاء سبب يدفع البلاء ، فإذا كان أقوى منه دفعه ، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه ، لكن يخففه ويضعفه ،ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة والعتق والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى(*)

وقال الشيخ رحمه الله

قد كتبت بعض ما يتعلق بقوله تعالى : ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١) إلى قوله : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمورِ﴾(٢) فمدحهم على الانتصار تارة وعلى الصبر أخرى .

و« المقصود هنا » أن الله لما حمدهم على هذه الصفات من الإيمان والتوكل ، ومجانبة الكبائر والاستجابة لربهم ، وإقام الصلاة ، والاشتوار في أمرهم ، وانتصارهم إذا أصابهم البغي ، والعفو والصبر ونحو ذلك : كان هذا دليلاً على أن ضد هذه الصفات ليس محموداً بل مذموماً ، فإن هذه الصفات مستلزمة لعدم ضدها ؛ فلو كان ضدها محموداً لكان عدم المحمود محموداً ، وعدم المحمود لا يكون محموداً إلا أن يخلفه ما هو محمود ؛ ولأن حمدها والثناء عليها طلب لها وأمر بها ، ولو أنه أمر استحباب ، والأمر بالشيء نهي عن ضده قصداً أو لزوماً ، وضد الانتصار العجز ، وضد الصبر الجزع ؛ فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجده في حال كثير من الناس ، حتى بعض المتدينين إذا ظلموا أو أرادوا منكراً فلا هم ينتصرون ولا يصبرون ؛ بل يعجزون ويجزعون .

وفي سنن أبي داود من رواية عوف بن مالك ، أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ ، فقال المقضي عليه : حسبيَ الله ونعم الوكيل . فقال النبي ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن

(*) مجموع الفتاوى : ٣١/١٥ .

(١) سورة الشورى الآية ٣٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٣ .

عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل »[1] . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن غلبك أمر فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » . لا تعجز عن مأمور ولا تجزع من مقدور[2] .

ومن الناس من يجمع كلا الشرين : فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضي الوجوب ، وإلا فالاستحباب . ونهى عن العجز ، وقال : « إن الله يلوم على العجز » والعاجز ضد الذين هم ينتصرون والأمر بالصبر والنهي عن الجزع معلوم في مواضع كثيرة .

وذلك لأن الإنسان بين أمرين : أمر أمر بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه ، ويستعين الله ولا يعجز ، وأمر أصيب به من غير فعله فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ، ولهذا قال بعض العقلاء ـ ابن المقفع أو غيره ـ الأمر أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه . وهذا في جميع الأمور ؛ لكن عند المؤمن الذي فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه له ؛ فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وقد أمره بكل خير فيه له حيلة ، وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله .

واسم الحسنات والسيئات يتناول القسمين ، فالأفعال مثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا ﴾[3] ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[4] ومثل قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ﴾[5] ومثل قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾[6] والمصائب المقدرة خيرها رشرها مثل قوله : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بالْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[7] . إلى آيات كثيرة من هذا الجنس . والله أعلم .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب النكاح) ، أبو داود (كتاب الأقضية) ، ابن حنبل ٢٩٨/٢ .

(٢) ورد الحديث في : مسلم (كتاب القدر) ، ابن ماجه (المقدمة) ، ابن حنبل ٢٦٦/٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٠ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٧ .

(٥) سورة الشورى الآية ٤٠ .

(٦) سورة البقرة الآية ٨١ .

(٧) سورة الأعراف الآية ١٦٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزخرف(*)

وقال :

فصـــل

قوله : ﴿ وَإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ للرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1] يشبه قوله : ﴿ وَلَمّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ، وَقالوا ءآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[2] فيشبه والله أعلم أن يكون ضرب المثل أنهم جعلوا المسيح ابنه . والملائكة بناته ، والولد يشبه أباه ، فجعلوه لله شبيهاً ونظيراً . أو يكون المعنى في المسيح أنه مثل لآلهتهم ؛ لأنه عبد من دون الله .

فعلى الأول يكون ضاربه كضارب المثل للرحمن وهم النصارى والمشركون ، وعلى الثاني يكون ضاربه هو الذي عارض به قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فلما قال ابن الزبعرى : لأخصمن محمداً . فعارضه بالمسيح وناقضه به كان قد ضربه مثلاً قاس الآلهة عليه ، ويترجح هذا قوله : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ فعلم أنهم هم الذين ضربوه لا النصارى .

(*) مجموع الفتاوى : ١٥/٤٠ .

(١) سورة الزخرف الآية ١٧ .

(٢) سورة الزخرف الآيات ٥٧ ـ ٥٨ .

فـان « المثل » يقـال على الأصـل وعلى الفـرع ، « والمثل » يقـال على المفـرد ويقـال عـلى الجملة التي هي القيـاس ، كما قـد ذكرت فيـما تقدم أن ضـرب المثل هـو القياس ، أمـا قيـاس التمثيل فيكون المثل هو المفرد ، وأما قياس الشمول فيكون تسميته ضرب مثل كتسميته قياساً ، كما بينته في غير هذا الموضع ، من جهة مطابقة المعاني الذهنية للأعيان الخارجية ومماثلتها لهـا ، ومن جهة مطابقة ذلك المفرد المعين للمعنى العام الشامل للأفراد ، فإن الذهن يرتسم فيـه معنى عام يماثل الفرد المعين ، وكل فرد يماثل الآخر ، فصار هذا المعنى يماثل هذا ، وكل منهـما يماثـل المعنى العام الشامل لهما .

وبهـذا والله أعلم سمي ضرب مثـل وسمي قياسـا ، فإن الضـرب الجمـع ، والجمـع في القلب واللسان وهو العمـوم والشمول ، فـالجمع والضـرب والعموم والشمـول في النفس معنىً ولفظاً ، فإذا ضرب مثلاً فقد صيغ عموماً مطابقا ، أو صيـغ مفرداً مشـابهاً ؛ فتـدبر هـذا فإنـه حسن إن شاء الله .

ولك أن تقول إخبار يمثل صورة المخبر في النفس فهو ضرب مثل ؛ لأن المتكلم جمع مثـلا في نفسه ونفس المستمع بالخبر المطابق للمخبر ، فيكـون المثل هـو الخبر وهـو الوصف كقـوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ المتقونَ ﴾ وقوله : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ .

وبسط هذا اللفظ واشتماله على محاسن الأحكام والأدلة قد ذكرته في غير هذا الموضع .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف(*)

سأل رجل آخر :

عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسَى إماماً وَرَحْمَةً ﴾(١) فقال : ما سمعنا بنص القرآن والحديث أن ما قبل كتابنا إلا الإنجيل ، فقال الآخر : عيسى إنما كان تبعاً لموسى ، والإنجيل إنما فيه توسع في الأحكام تيسير مما في التوراة ، فأنكر عليه رجل وقال : كان لعيسى شرع غير شرع موسى ، واحتج بقوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ﴾(٢) قال : فما الحكم في قوله : ﴿ وَإِذْ قالَ عِيسى ابنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إسرائيلَ إني رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ ﴾(٣) ؟ فقال : ليست هذه حجة .

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله :

قد أخبر الله في القرآن أن عيسى قال لهم : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾(٤) فعلم أنه أحل البعض دون الجميع وأخبر عن المسيح أنه علمه التوراة والإنجيل بقوله : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكتابَ والحكمةَ والتَّوْرَاةَ والإنجيلَ ﴾(٥) .

(*) مجموع الفتاوى ١٥/٤٣ .
(١) سورة الاحقاف الآية ١٢ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٨ .
(٣) سورة الصف الآية ٦ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٥٠ .
(٥) سورة آل عمران الآية ٤٨ .

ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له منة ، ألا ترى أنا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل وإن كان كثير من شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن ، فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة ، وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في التوراة ؛ وبهذا يحصل التغاير بين الشرعتين .

ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها ، كما يحفظون الإنجيل ؛ ولهذا لما سمع النجاشي القرآن ، قال : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، وكذلك ورقة بن نوفل ، قال للنبي ﷺ - لما ذكر له النبي ﷺ ما يأتيه قال - هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى[1] .

وكذلك قالت الجن : ﴿ إنّا سَمِعْنَا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ فَلَمّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : لَوْلا أوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى ، أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قالوا : ساحِرانِ تَظَاهرا ﴾[3] أي موسى ومحمد ، وفي القراءة الأخرى : ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرا ﴾ أي التوراة والقرآن .

وكذلك قال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إذْ قَالوا : مَا أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الكتابَ الذي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدَىً للناس ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهَذَا كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[4] فهذا وما أشبهه ما فيه اقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكروه من أن التوراة هي الأصل ، والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام ، وإن كان مغايراً لبعضها .

فلهذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التوراةَ والإنجيلَ مِنْ قَبْلُ هُدَىً للناس ، وأَنْزَلَ الفُرْقان ﴾[5] وقال : ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ﴾[6] فيذكر الثلاثة تارة ، ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة ، لسر : (وهو) أن الأنجيل من وجه أصل ، ومن وجه تبع ؛ بخلاف القرآن مع التوراة ، فإنه أصل من كل وجه ، بل هو مهيمن على ما بين يديه من الكتاب ، وإن كان موافقاً للتوراة في أصول الدين ، وكتبه من الشرائع ، والله أعلم .

---

(١) انظر في ذلك : البخاري (كتاب بدء الوحي) ، مسلم (كتاب الإيمان) .
(٢) سورة الأحقاف الآية ٣٠ .
(٣) سورة القصص الآية ٤٨ . وقراءة حفص (سحران) .
(٤) سورة الأنعام الآيات (٩١ - ٩٢) .
(٥) سورة آل عمران الآية ٣ .
(٦) سورة التوبة الآية ١١١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق(*)

فصل

سئل رحمه الله

عن قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ ، وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[1] ما المزيد ؟

فأجاب :

قد قيل إنها تقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ أي ليس في محتمل للزيادة . والصحيح أنها تقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ على سبيل الطلب أي هل من زيادة تزاد فيّ ، والمزيد ما يزيده الله فيها من الجن والإنس ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه » ويروى « عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط »[2] .

فإذا قالت حسبي حسبي كانت قد اكتفت بما ألقي فيها ، ولم تقل بعد ذلك هل من مزيد ، بل تمتلىء بما فيها لانزواء بعضها إلى بعض ؛ فإن الله يضيقها على من فيها لسعتها ، فإنه قد وعدها ليملأنها من الجنة والناس أجمعين ، وهي واسعة فلا تمتلىء حتى يضيقها على من فيها ، قال : وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً فيدخلهم الجنة[3] فبين أن الجنة لا يضيقها سبحانه بل ينشىء لها خلقاً فيدخلهم الجنة لأن الله يدخل الجنة من لم يعمل خيراً لأن ذلك من باب الإحسان وأما العذاب بالنار فلا يكون إلا لمن عصى فلا يعذب أحداً بغير ذنب والله أعلم .

(*) مجموع الفتاوى ١٥/٤٦ .

(١) سورة ق الآية ٣٠ .

(٢) ورد الحديث في : البخاري (كتاب التفسير . تفسير سورة ق) ، الترمذي (كتاب التفسير) وفي ابن حنبل بلفظ (قد قد) ٣/٧٨ .

(٣) هذا جزء من حديث صحيح ورد في : البخاري (كتاب التفسير) . مسلم (كتاب الجنة) ، ابن حنبل ٢/٢٧٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الذاريات

فصل[*]

سئل شيخ الإسلام عن قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . فقال رحمه الله :

قال السائل : قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ إن كانت هذه اللام للصيرورة في عاقبة الأمر فما صار ذلك ؟ وإن كانت اللام للغرض لزم أن لا يتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته ؟ وليس الأمر كذلك فما التخلص من هذا المضيق ؟ !

فيقال : هذه اللام ليست هي اللام التي يسميها النحاة لام العاقبة والصيرورة ولم يقل ذلك أحد هنا ، كما ذكره السائل من أن ذلك لم يصر إلى على قول من يفسر (يعبدون) بمعنى يعرفون ، يعني المعرفة التي أمر بها المؤمن والكافر ؛ لكن هذا قول ضعيف ، وإنما زعم بعض الناس ذلك في قوله : (ولذلك خلقهم) التي في آخر سورة هود . فإن بعض القدرية زعم أن تلك اللام لام العاقبة والصيرورة : أي صارت عاقبتهم إلى الرحمة ، وإلى الاختلاف ، وإن لم يقصد ذلك الخالق ، وجعلوا ذلك كقوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب

وهذا أيضاًضعيف هنا لأنلام العاقبة إنما تجيء في حق من لا يكون عالماً بعواقب الأمور

(*) انظر الرسائل الكبرى ١/١٨٦ .

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

ومصايرها فيفعل الفعل الذي له عاقبة لا يعلمها كآل فرعون ، فأما من يكون عالماً بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه أن يفعل فعلا له عاقبة لايعلم عاقبته ، وإذا علم أن فعله له عاقبة فلا يقصد بفعله ما يعلم أنه لا يكون فإن ذلك تمنٍّ وليس بإرادة .

وأما اللام فهي اللام المعروفة ، وهي لام كي ولام التعليل ، التي إذا حذفت انتصب المصدر المجرور بها على المفعول له ، وتسمى العلة الغائية ، وهي متقدمة في العلم والإرادة ، متأخرة في الوجود والحصول ، وهذه العلة هي المراد المطلوب المقصود من الفعل .

لكن ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين :

(أحدهما) : الإرادة الكونية ، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد ، التي يقال فيها : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذه الإرادة في مثل قوله : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾[1] وقوله ﴿ وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا وَلكنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلاّ باللهِ ﴾[4] وأمثال ذلك . وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله : ﴿ وَلا يَزالونَ مُخْتَلِفِينَ إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلكَ خَلَقَهُمْ ﴾[5] .

قال السلف خلق فريقا للاختلاف ، وفريقا للرحمة ، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة ، وهناك كونية وقع المراد بها ، فقوم اختلفوا ، وقوم رحموا .

وأم (النوع الثاني) : فهو الإرادة الدينية الشرعية ، وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى ، كما قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾[7] وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ واللهُ

---

(١) سورة النساء الآيات (٢٦ ـ ٢٨) .

(٢) سورة هود الآية ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(٥) سورة هود الآية ١١٩ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٧) سورة المائدة الآية ٦ .

عليمَ حكيمٌ . واللهُ يُريدُ أنْ يَتوبَ عَلَيْكُمْ وَيُريدُ الذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عظيماً . يُريدُ اللهُ أنْ يُخَفِّف عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعيفاً ﴾[1] فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة :

(أحدها) : ما تعلقت به الإرادتان ، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة ، فإن الله أراده إرادة دين وشرع ، فأمر به وأحبه ورضيه . وأراده إرادة كون فوقع ؛ ولولا ذلك لما كان .

و(الثاني) : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط . وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار ، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع .

و(لثالث) : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها : كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها ، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت ، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

و(الرابع) : ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه ، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي ، وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه الإرادة الدينية الشرعية ، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع ، فهو العمل الذي خلق العباد له : أي هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين ، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادماً لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته ، وعادماً لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه ، وقول من قال : العبادة هي العزيمة (أو) الفطرية : فقولان ضعيفان فاسدان يظهر فسادهما من وجوه متعددة .

(والله أعلم) .

تم الجزء الرابع وبه تم الكتاب والحمد لله رب العالمين
واللهم اجعله لنا لا علينا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم . آمين

---

(1) النساء الآيات (٢٦ - ٢٨) .

سلسلة

التراث السلفي

- ١ -

دقائق التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية

جمع وتقديم وتحقيق

دكتور

محمد السيد الجليند

أستاذ الثقافة الإسلامية

جامعة الملك عبد العزيز - كلية الآداب

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الخامس

مؤسسة علوم القرآن

دمشق - ص.ب ٤٦٢٠

بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة

وقال شيخ الاسلام رحمه الله

فصــــل

قوله تعالى : ﴿ يرفَـعِ الله الذينَ آمنـوا منكم ، والذينَ أُوتُـوا العلمَ درجاتٍ ﴾[1] خص سبحانه رفعه بالاقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والايمان . وهم الذين استشهد بهم في قـوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنهُ لا الهَ الاّ هُوَ ، والملائكةُ ، وأُولُوا العلمِ ، قَائماً بالقِسطِ ﴾[2] .

واخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل الى الرسول هـو الحق بقولـه تعالى : ﴿ ويـرى الَّذينَ أُوتُوا العلمَ الَّذي أُنزِلَ اليكَ مِنْ ربِّكَ هُوَ الحقَّ ﴾[3] فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفـع درجات من يرفعها ، كما قال تعالى : ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاءُ ﴾[4] .

قال زيد بن أسلم : بالعلم . فرفع الدرجـات والأقدار عـلى قدر معـاملة القلوب بالعلم والايمـان فكم ممن يختم القرآن في اليـوم مرة أو مـرتين ، وآخـر لا يفطر ، وغيـرهم أقـل عبـادة منهم ، وأرفـع قدراً في قلوب الامـة ، فهذا كـرز بن وبرة ، وكهمس ، وابن طـارق ، يختمون القـرآن في الشهر تسعـين مـرة ، وحـال ابن المسيب وابن سيـرين والحسن وغيـرهم في القلوب أرفع .

* انظر مجموع الفتاوى ١٦/٤٨ وبعدها .

(١) سورة المجادلة الآية ١١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .

(٣) سورة سبإ الآية ٦ .

(٤) سورة يوسف الآية ٧٦ .

وكذلك ترى كثيرا ممن لبس الصوف ، ويهجر الشهوات[1] ، ويتقشف ، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والايمان وأعظم في القلوب ، وأحلى عند النفوس ، وما ذاك الا لقوة ـ المعاملة الباطنة وصفائها ، وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية ، وطهارتها من (أمراض) القلوب التي تكدر معاملة أولئك ، وانما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم ، ووده ومحبته ، وأن يكون الدين كله لله ، فان أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ ، وابتهاجها وسرورها ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتابَ يفرحونَ بما أُنزِلَ اليكَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ قل بفضلِ اللهِ وبرحمتهِ فبذلكَ فليفرحُوا ﴾[3] الآية ففضل الله ورحمته القرآن والايمان ، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به ، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه .

فاذا استقر في القلب ، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده ، وبره به ، واحسانه اليه على الدوام ، وأوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كلّ محب بكل محبوب سواه ، فلا يزال ـ مترقيا في درجات العلو والارتفاع بحسب رقية في هذه المعارف .

هذا في باب معرفة الاسماء والصفات ، وأما في (باب فهم القرآن) فهو دائم التفكير في معانيه ، والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس ، واذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن ، فان شهد له بالتزكية قبله وإلاَّ رده ، وان لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه ، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه .

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن ، اما بالوسوسة في خروج حروفه ، وترقيقها ، وتفخيمها ، وامالتها ، والنطق بالمد الطويل ، والقصير ، والمتوسط ، وغير ذلك فان هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم) ، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو ، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك . وكذلك مراعاة النغم ، وتحسين الصوت .

وكذلك تتبع وجوه الاعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالالغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان .

وكذلك صرف الذهن الى حكاية أقوال الناس ، ونتائج أفكارهم .

---

(١) لبست بالأصل ويحتاج السياق اليها .

(٢) سورة الرعد الآية ٣٦ .

(٣) سورة يونس الآية ٥٨ .

وكذلك تأويل القـرآن على قـول من قلد دينه أو مـذهبه ، فهـو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعا لمذهبه وتقوية لقول امـامه ، وكـل (هؤلاء)[1] محجوبـون بما لـديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره .

وكذلك يظن من لم يقدر القـرآن حق قدره أنـه غير كـاف في معرفـة التوحيـد ، والاسماء والصفات وما يجب لله ويذره عنه ، بـل الكافي في ذلـك عقول الحيـارى والمتهوكـين الذين كـل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة[2] وهؤلاء أغلظ الناس حجـابا عن فهم كتـاب الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) ليست بالأصل .

(٢) يشير ابن تيمية بذلك الى رأى ابن سينا ومذهبه في التوحيد .

انظر : الرسالة الاضحوية لابن سينا ، وانظر كتابنا : الأمـام ابن تيمية ومـوقفه من قضية التأويـل (الفصل الخـاص بمذهب ابن سينا) .

سورة الطــلاق

فصـــــل

وقال : شيخ الاسلام :

وأما قوله : ﴿ وَمَنْ يتقّ الله يجعل لـهُ مخرجـاً ويرزقـهُ من حيثُ لا يحتسب ﴾[1] فقد بـين فيها ان المتقى يدفع الله عنه المضرة بما يجعله له من المخرج ، ويجلب له من المنفعة بما ييسره لـه من الرزق،والرزق اسم لكل ما يغتذى به الانسان،وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة وقد قال بعضهم : مـا افتقر تقيٍ قط ، قـالوا : ولم ؟ قـال : لأن الله يقول : ﴿ وَمَنْ يتقّ الله يجعـل لـهُ مخرجاً ، ويرزقهُ من حيثُ لا يحتسب﴾ ؟ .

وقول القائل : قد نرى من يتقى وهو محروم . ومن هو بخلاف ذلك ، وهو مرزوق .

فجوابه : أن الآيـة اقتضت أن المتقى يرزق من حيث لا يحتسب ، ولم تـدل على أن غـير المتقى لا يرزق ، بل لا بد لكل مخلوق من الرزق ، قال الله تعالى : ﴿ وما من دابّةٍ في الارضِ إلّا علىٰ اللهِ رزقها ﴾[2] حتى ان ما يتناوله العبد من الحرام هو داخل في هذا الـرزق ، فالكفـار قد يرزقون بأسباب محرمة ، ويرزقون رزقا حسنا ، وقد لا يـرزقون الا بتكلف ، وأهـل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون ، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة ، ولا يكون خبيثاً ، والتقى لا يحرم ما يحتاج اليه من الرزق ، وانما يحمى من فضول الدنيا رحمة به واحسانا اليه ، فان توسيع الرزق قد يكون مضرة على صاحبه ، وتقديره يكون رحمة لصاحبه .

قال تعالى : ﴿ فأمّا الانسان اذا ما ابتلاهُ ربّهُ فأكرمهُ ونعّمهُ فيقـولُ ربّي أكرمن ، وأمّـا إذا

(*) مجموع الفتاوى ١٦/٥٢ .

(١) سورة الطلاق الآيات ٢ ـ ٣ .

(٢) سورة هود الآية ٦ .

ما ابتلاهُ فَقَدَر عليهِ رزقهُ فيقولُ ربي أهانن كلاّ ﴾[1] أي : ليس الأمـر كذلـك ، فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرما ، ولا (كل) من قدر عليه رزقه يكون مهانا ، بل قد يوسـع عليه رزقه إملاء واستدراجا ، وقد يقدر عليه رزقه حماية وصيانة له ، وضيق الرزق على عبد من أهلِ الدين قد يكـون لما لـه من ذنوب وخـطايا ، كـما قال بعض السلف : ان العبـد ليحرم الـرزق بالذنب يصيبه ، وفي الحديث عن النبي ﷺ ، « من أكـثر الاستغفار جعـل الله له من كـل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وقد أخبر الله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات ، والاستغفـار سبب للرزق والنعمة وان المعاصى سبب للمصائب والشدة ، فقال تعـالى : ﴿ الر ، كتـاب أُحكمت آياتـهُ ثم فُصِّلت من لدن حكيمٍ خبيرٍ ﴾[2] الى قوله : ﴿ ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضله ﴾ وقال تعالى : ﴿ استغفـروا ربكم ، إنّـهُ كانَ غفَّـاراً ﴾ الى قولـه : ﴿ ويجعـل لكم جنـاتٍ ويجعـل لكم أنهاراً ﴾[3] وقـال تعالى : ﴿ وأَن لو استقامُوا علىٰ الطريقةِ لأسقيناهُمْ ماءً غدقاً لنفتنهم فيهِ[4] وقال تعالى : ﴿ ولـو أن أهلَ القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنَا عليهم بركاتٍ منَ السماءِ والأرضِ ، ولكنْ كذَّبُوا فأخذنـاهُم بما كانوا يكسِبُونَ ﴾[5] وقـال تعالى : ﴿ ولـو أنَّهم أقامُـوا التوراةَ والانجيـلَ وما أُنـزِلَ اليهم من ربّهم لاكلوا من فوقِهم ، ومن تحتِ أرجلهم ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وما أصابَكُمْ من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكُمْ ويعفو عن كثيرٍ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ ولئِنْ أذقنا الانسـانَ منَّا رحمـةً ثمَّ نزعنـاهَا منهُ ، انَّهُ ليؤوسٌ كفورٌ ﴾ قال تعـالى : ﴿ وما أصـابكَ من حسنـةٍ فمنَ الله ، وما أصـابكَ مِنْ سيئةٍ فمِنْ نفسكَ ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ فأخذناهُمْ بالبأساءِ والضَّراءِ لعلَّهم يتضرَّعُونَ ، فلولا إذا جاءَهُمْ بأسُنا تضرَّعُوا ولكن قَسَت قلوبُهُم وزيَّنَ لهم الشيطانُ ما كانُوا يعملونَ ﴾[9] .

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه يبتلى عباده بالحسنات والسيئـات ، فالحسنـات هي النعم والسيئـات هي المصائب ، ليكـون العبد صبـارا شكورا وفي الصحيح عن النبي ﷺ انـه قـال : «والـذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمـنين قضاء الا كـان خيرا لـه ، وليس ذلك لأحـد الا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان اصابته ضراء صبر فكانَ خيراً له » .

---

(١) سورة الفجر الآيات ١٥ ، ١٦ .

(٢) أول سورة هود .

(٣) سورة نوح الآيات ١٠ ـ ١٢ .

(٤) سورة الجن الآية ١٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٩١ .

(٦) سورة المائدة الآية ٦٦ .

(٧) شورة الشورى الآية ٣٠ .

(٨) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٩) سورة الانعام الآية ٤٣ .

فصـــل

وقال ايضا

قـال الله تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعـل له مخـرجاً ، ويـرزقـه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ قد روى عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتّهم »[1] وقوله (مخرجـاً) عن بعض السلف : أي من كل ما ضاق على الناس ، وهذه الآية مطابقة لقولـه ﴿إياك نعبـد وإياك نستعين﴾ الجامعة لعلم الكتب الآلهية كلها ، وذلك ان التقوى هي العبادة المأمور بها فان تقـوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربة ومتكافئة متلازمـة ، والتوكـل عليه هـو الاستعانـة به ، فمن يتقي الله مثال : ﴿اياك نعبد﴾ : ومن يتوكل على الله مثال ﴿اياك نستعين﴾ كما قال : ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقال : ﴿عليك توكلنا وإليك أنبنا﴾ وقال : و ﴿عليه توكلت وإليه انيب﴾ .

ثم جعـل للتقوى فـائدتـين : أن يجعل لـه مخرجـا ، وأن يـرزقـه من حيث لا يحتسب . والمخرج هو موضع الخروج ، وهو الخروج وانما يـطلب الخروج من الضيق والشـدة ، وهذا هـو الفرج والنصر والرزق فبين أن فيها النصر والرزق ، كما قال : ﴿أطعمهُمْ من جوعٍ وآمنهُمْ من خـوفٍ﴾[2] . ولهذا قـال النبي ﷺ : « وهل تنصـرون وترزقـون الا بضعفائكم ؟ بـدعـائهم ، وصلاتهم واستغفارهم »[3] هذا لجلب المنفعة ، وهذا لدفع المضرة .

وأما التوكل فبين أن الله حسبـه أي كافيـه ، وفي هذا بيـان التوكـل على الله من حيث أن الله يكفي المتوكل عليه ، كما قـال : ﴿أليسَ اللَّهُ بكافٍ عبـدهُ﴾[4] ؟ خلافـا لمن قال : ليس في التوكل الا التفويض والرضا . ثم إن الله بالغ أمره ، ليس هو كالعاجز ﴿قـد جعـل الله لكـل شيء قدراً﴾ وقد فسروا الآية بالمخرج من ضيق الشبهات بالشاهد الصحيح ، والعلم الصريـح والذوق . كما قالوا يعلمه من غير تعليم بشر ، ويفطنه من غير تجربة ، ذكره أبو طالب المكي ، كما قالوا في قوله : ﴿إن تتقوا اللَّهَ يجعل لكم فُرقانا﴾ أنه نور يفرق به بـين الحق والباطـل ، كما قالوا : بصرا والآية تعم المخرج من الضيق الظاهر والضيق الباطن قال تعالى : ﴿فمن يُـرِد اللَّهُ أن يهديهِ يشرحْ صدرهُ للاسلامِ ، ومن يُرد أن يُضِلّهُ يجعل صدرهُ ضيِّقاً حـرجاً كـأنَّما يصَّعَّد في السماءِ﴾[5] وتعم ذوق الاجساد وذوق القلوب ، ومن العلم والايمـان ، كما قيـل مثل ذلـك في قوله : ﴿ومما رزقناهُمْ ينفقونَ﴾ وكما قال : ﴿أَنزَلَ منِ السماءِ ماءً﴾ وهو القرآن والايمان .

---

(١) ورد الحديث في : النسائي بلفظ (آية لو أخذ الناس بها لكفتهم)

(٢) سورية قريش الآية ٥ .

(٣) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الجهاد) . أبو داود (كتاب الجهاد) : الترمذي (الجهاد) : النسائي (كتاب الجهاد) .

(٤) سورة الزمر الآية ٣٦ .　　(٥) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

سورة التحريم(*)

وسئل رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿يا أَيُّها الذين آمنوا توبوا الى الله توبةً نصوحاً﴾[1] هل هـذا اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أم لا ؟ وايش معنى قوله ﴿نصوحا﴾ ؟

فأجاب : الحمدلله ، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه وغيره من الصحابة والتـابعين رضى الله عنهم ـ : التوبة النصـوح : أن يتوب من الـذنب ثم لا يعود اليـه ، و﴿نصوح﴾ هي صفة للتوبة ، وهي مشتقة من النصح والنصيحة .

وأصل ذلك هو الخلوص . يقال : فلان ينصح لفلان اذا كان يريد له الخير ارادة خالصة لا غش فيها، وفلان يغشه اذا كان باطنه يريد السوء ، وهو يظهر ارادة الخير كالدرهم المغشوش ومنه قوله تعالى : ﴿ليسَ عـلى الضعفاءِ ولا عـلىٰ المرضىٰ ولا عـلىٰ الذّينَ لا يجدونَ ما يُنفِقـونَ حرجٌ ، اذا نصحُوا للّهِ ورسولِهِ﴾[2] أي أخلصوا لله ورسوله قصدهم وحبهم . ومنـه قولـه ﷺ في الحديث الصحيح (الدين النصيحة) ، ثلاثا قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : (لله ولكتابـه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم)[3] .

فان أصل الدين هو حسن النية ، واخلاص القصد ، ولهذا قـال ﷺ : (ثلاث لا يغـل عليهن قلب مسلم ، اخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمـين فان

(*) مجموع الفتاوى ١٦/٥٧ .

(١) سورة التحريم الآية ٨ .

(٢) سورة التوبة الآيات ٩١ ، ٩٢ .

(٣) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الايمان) ، مسلم (كتـاب الايمان) أبـو داود (الادب) ، الترمـذي (البر) النسـاء (البيـع) الدارمي (الزكاة) ،

دعوتهم تحيط من ورائهم)[1] أي هذه الخصال الثلاث لا يحقد عليها قلب مسلم بل يحبها ويرضاها .

فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش ، وإذا كانت كذلك كائنة فان العبد انما يعود الى الذنب لبقايا في نفسه فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد الى الذنب ، فهذه التوبة النصوح ، وهي واجبة بما أمر الله تعالى ، ولو تاب العبد ثم عاد الى الذنب قبل الله توبته ـ الأولى ، ثم اذا عاد استحق العقوبة ، فان تاب تاب الله عليه أيضا . ولا يجوز للمسلم اذا تاب ثم عاد أن يصر ، بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة ، فقد روى الامام أحمد في مسنده عن عليّ عن النبي ﷺ أنه قال : (ان الله يحب العبد الفتن التواب) وفي حديث آخر : لا صغيرة مع اصرار ، ولا كبيرة مع استغفار) وفي حديث آخر : (ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة)[2] .

ومن قال من الجهال : ان ﴿نصوح﴾ اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أمر الناس أن يتوبوا كتوبته : فهذا رجل مفتر كذاب ؛ جاهل بالحديث والتفسير ، جاهل باللغة ومعاني القرآن ، فان هذا أمرؤ لم يخلقه الله تعالى ، ولا كان في المتقدمين احد اسمه نصوح ولا ذكر هذه القصة أحد من أهل العلم ، ولو كان كما زعم الجاهل لقيل توبوا الى الله توبة نصوح ، وانما قال : ﴿توبة نصوحا﴾ والنصوح هو التائب . ومن قال : المراد بهذه الآية رجل أو أمرأة اسمه نصوح ، وان كان على عهد عيسى أو غيره فانه كاذب ، يجب أن يتوب من هذه فان لم يتب وجبت عقوبته باجماع المسلمين . والله أعلم .

---

(١) ورد الحديث في : ابن حنبل ٤/ ٨٠ .

(٢) سبق تخريج هذه الاحاديث .

سورة الملك(*)

وقال رحمه الله تعالى

قوله تعالى : ﴿ألاَ يعلم من خلقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ ؟﴾ دلت على علمه بالأشياء من وجوه تضمنت البراهين المذكورة لأهل النظر العقلي :

(أحدها) أنه خالق لها ، والخلق هو الابداع بتقدير فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها .

(الثاني) أنه مستلزم للارداة والمشيئة : فيلزم تصور المراد ، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام .

(الثالث) أنها صادرة عنه ، وهو سببها التام ، والعلم بالأصل يوجب العلم بالفرع فعلمه بنفسه يستلزم العلم بكل[٢] ما يصدر عنه .

(الرابع) أنه لطيف يدرك الدقيق ، خبير يدرك الخفى ، وهذا هو المقتضى للعلم بالأشياء ، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام .

(*) مجموع الفتاوى ٥٦/١٦ .

(١) سورة الملك الآية ١٤ .

(٢) في الأصل : يستلزم علم كل .

سورة القلم(*)

وقال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــل

سورة ﴿ن﴾ هي سورة ﴿الخلق﴾ الذي هو جماع الدين الـذي بعث الله به محمداً ﷺ ، قال تعالى فيها : ﴿وانَّكَ لعلىٰ خُلقٍ عظيمٍ﴾(1) قال ابن عباس : عـلى دين عظيم . وقـاله ابن عيينه ، وأخذه أحمد عن ابن عيينة . فان الدين والعبادة والخلق ألفاظ متقـاربة المعنى في الـذات وان تنوعت في الصفات ، كما قيل في لفظ الدين :

فهذا دينه أبدا وديني .

وجمع بعض الزنادقة بينهما في قوله .

مـا الأمـر الا نـسـق واحـد ما فـيـه مـن مـدح ولا ذم
وانمـا الـعـادة قـد خـصـصـت والـطـبـع والـشـارع بـالحـكـم

﴿ن﴾ أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون : فان القلم به يكون الكتاب الساطر للكلام : المتضمن للامر والنهي والارادة والعلم المحيط بكل شيء ، فالاقسام وقع بقلم التقدير ومسطورة فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه .

(أحدهما) الإحاطة بالحوادث قبل كونها ، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه ، فاخباره عنه أحكم وأصدق .

(الثاني) أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصولـه في الكلام والقـول والعلم من

(*) مجموع الفتاوى ٦١/١٦ .

(1) سورة القلم الآية ٤ .

غير عكس ، فاقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن اولها من غير عكس ، وذلك : غاية المعرفة واستقرار العلم اذا صار مكتوبا . فليس كل معلوم مقولاً ، ولا كل مقول مكتوباً وهذا يبين لك حكمة الاخبار عن القدر السابق بالكاتب دون الكلام فقط ، أو دون العلم فقط .

والمقسم عليه ثلاث جمل : ﴿ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون﴾[1] ﴿وإن لكَ لأجراً غيرَ ممنونٍ﴾ ﴿وإنَّك لعلىٰ خُلقٍ عظيمٍ﴾ سلب عنه النقص الذي يقدح فيه ، وأثبت له الكمال المطلوب في الدنيا والآخرة ، وذلك أن الذي أتى به اما أن يكون حقاً أو باطلاً ، وإذا كان باطلاً فاما أن يكون مع العقل أو عدمه ، فهذه الاقسام الممكنة في نظائر هذا .

(الاول) أن يكون باطلا ولا عقل له ، فهذا مجنون لا ذم عليه ولا يتبع .
(الثاني) أن يكون باطلاً وله عقل ، فهذا يستحق الذم والعقاب .
(الثالث) أن يكون حقا مع العقل ، فنفى عنه الجنون أولاً ثم أثبت له الاجر الدائم الذي هو ضد العقاب ، ثم بين أنه على خلق عظيم ، وذلك يبين عظم الحق الذي هو عليه بعد أن نفى عنه البطلان .

وأيضا : فالناس نوعان : إما معذب ، وإما سليم منه . والسليم ثلاثة أقسام : إما غير مكلف واما مكلف قد عمل صالحاً : مقتصداً واما سابق بالخيرات . فجعل القسم مرتبا على الأحوال ليبين أنه أفضل قسم السعداء ، وهذا غاية كمال السابقين بالخيرات ، وهذا تركيب بديع في غاية الاحكام .

ثم قال ﴿فلا تُطِع المكذبين﴾[2] الآيات ، فتضمن أصلين :

(أحدهما) أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين ، فكان فيه فوائد : (منها) أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى فلا يطاع المكذب والحلاف ، ولا يعمل بمثل عملهما ، كقوله : ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ وامثاله فان النهي عن قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به [لوجوه] .

(منها) أن ذلك أبلغ في الاكرام . والاحترام ، فان قوله : لا تكذب ، ولا تحلف ، ولا تشتم ولا تهمز : ليس هو مثل قوله لا تطع من يكون متلبسا بهذه الاخلاق ، لما فيه من تشريفه وبراءته .

(ومنها) أن الاخلاق مكتسبة بالمعاشرة : ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم ، فليأخذ حذره ، فانه محتاج الى مخالطتهم لأجل دعوتهم الى الله تعالى .

---

(١) سورة القلم الآيات ٢ ـ ٤ .
(٢) سورة القلم الآية ٨ .

ومنها : أنهم يبدون مصالح فيما يأمرون به . فلا تطع من كان هكذا ولو أبداها فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم وإذا كان الأصل المقتضى للأمر فاسدا لم يقبل من الأمر ، فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وارادتها ، فإذا كان جاهلا لم يعلم المصلحة وإذا كان الخلق فاسدا لم يردها . وهذا معنى بليغ .

الأصل الثاني : أنه ذكر قسمين ؛ المكذبين ، وذوى الأخلاق الفاسدة . وذلك لوجوه .

أحدها : أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح . فضده التكذيب والعمل الفاسد .

والثاني : ان المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر . فكما أنا مأمورون بقبول هذا الوصية والإيصاء بها فقد نهينا عن قبول ضدها . وهو التكذيب بالحق والترك للصبر ، فان هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر ، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها . ولهذا ختم السورة به ، وقال : ﴿ وما يُلقَّاها إلا الذين صَبَرُوا ﴾[1] فكان أجمل في سورة العصر ما بين هنا ، فنهاه عن طاعة الذي في خسر ضد الذي للمؤمنين الآمرين بالحق والصبر ، والذي في خسر هو الكذاب المهين فهو تارك للحق والصبر .

الأصل الثالث : ان صلاح الانسان في العلم النافع والعمل الصالح . وهو الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله ، والعمل الصالح جماع العدل وجماع ما نهى الله عنه الناس هو الظلم كما قرر في غير هذا قال تعالى : ﴿ وحملها الانسانُ إنه كان ظلوماً جهولا ﴾[2] .

والتكذيب بالحق صادر إما عن جهل ،واما عن ظلم وهو الجاحد المعاند وصاحب الأخلاق الفاسدة إنما يوقعه فيها أحد أمرين :

إما الجهل بما فيها وما في ضدها ؛ فهذا جاهل ، وإما الميل والعدوان وهو الظلم . فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها أو محتاج اليها متلذذ بها وهو الظالم . فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين .

وقوله ﴿ ودُّوا لو تُدهن ﴾ الآية أخبر أنهم يحبون إدهانه ليدهنوا فهم لا يأمرونه نصحا بل يريدون منه الإدهان ويتوسلون بإدهانه إلى إدهانهم ويستعملونه لأغراضهم في صورة الناصح ، وذلك لما نشأ من تكذيبهم بالحق ، فإنه لم يبق في قلوبهم غاية ينتهون إليها من الحق ، لا في الحق المقصود ولا الحق الموجود ، لا خبرا عنه ولا أمرا به ولا اعتقادا ولا اقتصادا .

ثم قال : ﴿ ولا تُطع كل حلَّافٍ مهين ﴾ الخ . ذكر أربع آيات ، كل آيتين جمعت نوعا

---

(١) سورة حم فصلت الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .

من الأخلاق الفاسدة المذمومة ، وجمع من كل آية بين النوع المتشابه خبرا وطلبا ، فالحلاَّف مقرون بالمهين ، لأن الحلاف هو كثير الحلف ، وانما يكون على الخبر أو الطلب فهو اما تصديق أو تكذيب ، أوحض أو منع ، وإنما يكثر الرجل ذلك في خبره إذا احتاج أن يصدق ويوثق بخبره ، ومن كان كثير الحلف كان كثير الكذب في العهد محتاجا إلى الناس . فهو من أذل الناس (حلاَّفٍ مهين) حلاَّف في أقواله مهين في أفعاله .

وأما الهماز المشاءبنميم. فالهمز أقوى من اللمز وأشد ، سواء كان همز الصوت أو همز حركة ، ومنه الهمزة ، وهي نبرة من الحلق مثل التهوع ، ومنه الهمز بالعقب كما من حديث زمزم « إنه همز جبريل بعقبه » والفعَّال مبالغة من الفاعل ، فالهماز المبالغ في العيب نوعا وقدرا ، القدرة من صورة اللفظ وهو الفعال والنوع من مادة اللفظ وهو الهمزة ، والمشَّاء بنميم هو من العيب ولكنه عيب في القفا ، فهو عيب الضعيف العاجز ، فذكر العياب بالقوة والعياب بالضعف ، والعياب في مشهد والعياب في مغيب .

واما ﴿ منَّاعٍ للخير معتد أَثيم ﴾ فإن الظلم نوعان ؛ ترك الواجب وهو منع الخير ، وتعدٍ على الغير وهو المعتدى ، واما الأثيم مع المعتدى فلقوله : ﴿ ولا تَعاونُوا علىٰ الإِثمِ والعدوان﴾ .

واما العتل الزنيم ، فهو الجبار الفظ الغليظ الذي قد صار من شدة تجبره وغلظه معروفا بالشر مشهورا به لأن زنمه كزنم الشاة ويشبه - والله اعلم - ان يكون الحلاَّف المهين الهمَّاز المشَّاء بنميم من جنس واحد ، وهو في الأقوال وما يتبعها من الأفعال والمناع المعتدى الأثيم العتل الزنيم من جنس واحد وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال ، فالأول الغالب على جانب الأعراض ، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك .

ووصفه بالظلم والبخل والكبر كما في قوله : ﴿ إنَّ الله لا يُحِبُّ من كانَ مُختالاً فخوراً . الَّذين يبخلون ﴾ الآية .

وقوله سنسمه على الخرطوم فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضا ، فان الله جعل للصالحين سيما ، وجعل للفاجرين سيما ، قال تعالى : ﴿ سيماهم في وجوهِم من اثرِ السجود ﴾ وقال يظهر المنافقين ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ الآية . فجعل الإرادة والتعريف بالسيما الذي يدرك بالبصر معلقا على المشيئة ، واقسم على التعريف في لحن القول وهو الصوت الذي يدرك بالسمع ، فدل على أن المنافقين لا بد أن يعرفوا في اصواتهم وكلامهم الذي يظهر فيه لحن قولهم ، وهذا ظاهر بين لمن تأمله في الناس من أهل الفراسة في الأقوال وغيرها مما يظهر فيه من النواقص والفحش وغير ذلك .

وأما ظهور ما في قلوبهم على وجوههم فقد يكون وقد لا يكون . ودل على أن ظهور ما في

باطن الإنسان على فلتات لسانه أقوى من ظهوره على صفحات وجهه ، لان اللسان ترجمان القلب ، فإظهاره لما أكنَّه أوكد ، ولأن دلالة اللسان مقالية[1] ودلالة الوجه حالية ، والقول أجمع وأوسع للمعاني التي في القلب من الحال. ولهذا فضل من فضل - كابن قتيبة - السمع على البصر .

والتحقيق : أن السمع أوسع ، والبصر أخص وأرفع ، وإن كان إدراك السمع أكثر فادراك البصر أكمل ؛ ولهذا أقسم أنه لا بد أن يدركهم بسمعه ، وأما إدراكه إياهم بالبصر بسيماهم فقد يكون وقد لا يكون . فأخبر سبحانه أنه لا بد أن يسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطومه ، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز ، الذي يسبق البصر إليه عند مشاهدته ؛ لتكون السيما ظاهرة من أول ما يرى ، وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة ، الذين ودعهم الناس اتقاء شرهم وفحشهم فان لهم سيما من شر يعرفون بها . وكذلك الفسقة وأهل الريب .

وقوله : ﴿ إنَّا بلوناهُمْ ﴾ الخ . فيه بيان حال البخلاء ، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال ، إما اغراقا وإما احراقا ، وإنا نهباً وإما مصادرة ، وإما في شهوات الغي وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء ، الذين يمنعون الحق . وليس اقدام في صنايع المعروف ، وهو قوله : ﴿ منَّاعٍ للخيرِ ﴾ وهو أحد نوعي الظلم ، كما أخبروا به عن نفوسهم في قولهم : ﴿ يا ويلنا إنَّا كنَّا طاغينَ ﴾ وكما قال ﷺ : « مطل الغنى ظلم » .

وتضمن عقوبة الظالم المانع للحق ، أو متعدي الحق ، كما يعاقب الله مانع الزكاة وهو مناع الخير ، وآكل الربا والميسر : الذي هو أكل المال بالباطل ، وكل منهما أخبر الله في كتابه أنه يعاقبه بنقيض قصده ، فهنا أخبر بعقوبة تارك الحقوق ، وفي البقرة بعقوبة المرابى ، وهذه العقوبة تتناول من يترك هذا الواجب ، وفعل هذا المحرم من المحتالين ، كما أخبر في هذه السورة ، وكما هو المشاهد في أهل منع الحقوق المالية ، والحيل الربوية ، من العقوبات والمثلات .

فانه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالانفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر ، يذهب فيه أضعاف ما بخل به ، وعقوبته في الآخرة مدخرة ، ثم اتبع ذلك بعقوبة المتكبر الذي هو من نوع العتل الزنيم ، الذي يدعى الى السجود والطاعة فيأبى ؛ ففيها عقوبة تارك الصلاة ، وتارك الزكاة . فتارك الصلاة هو المعتدي الأثيم ، العتل الزنيم . وتارك الزكاة الظالم البخيل .

وختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله : ﴿ فاصبر لحكمِ ربِّكَ ﴾[2]

---

(١) في الأصل : قالية .

(٢) سورة القلم الآية ٤٨ .

وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية . والصبر على الأول أشد ، وصاحب الحوت ذهب مغاضبا لربه لأجل الأمر السماوي ولهذا قال : ﴿ وإنْ يكادُ الَّذينَ كفروا ليزلقُونَكَ بأبصارِهم ﴾[1] الخ فآخرها منعطف على أول ما في قوله : ﴿ ما أَنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمجنون ﴾[2] وقوله : ﴿ ويقولونَ إنَّهُ لمجنون ﴾ والازلاق بالبصر هو الغاية في البغض ، والغضب ، والأذى . فالصبر على ذلك نوع من الحلم ، وهو احتمال أذى الخلق ، وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم .

وما ذكره في قصة أهل الجنة من أمر السخاء والجود ، وما ذكره هنا من الحلم والصبر : هو جماع الخلق الحسن ، كما جمع بينهما في قوله : ﴿ الذين يُنفقونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ﴾[3] الآية ، كما قيل :

بحلم وبذل ساد في قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

فالاحسان الى الناس بالمال والمنفعة واحتمال أذاهم ، كالسخاء المحمود ، كما جمع بينهما في قوله : ﴿ خذِ العفو ، وأمر بالعرفِ ، وأَعرِض عن الجاهلينَ ﴾[4] ففي اخذه العفو من اخلاقهم احتمال أذاهم ، وهو نوعان : تركُ مالك من الحق عليهم ، فأخذ العفو أن لا تطلب ما تركوه من حقك ، وأن لا تنهاهم فيما تعدوا فيه الحد فيك ، وإذا لم تأمرهم ولم تنههم فيما يتعلق[5] .

وقال رضي الله عنه :

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ [فيها] .

منها قوله : ﴿ بأيِّكُمْ المفتون ﴾[6] حار فيها كثير ، والصواب المأثور عن السلف . قال مجاهد : الشيطان . وقال الحسن : هم أولى بالشيطان من نبي الله . فبين المراد ، فانه يتكلم على اللفظ كعادة السلف في الاختصار مع البلاغة وفهم المعنى . وقال الضحاك : المجنون . فان من كان به الشيطان ففيه الجنون . وعن الحسن : الضال . وذلك أنهم لم يريدوا بالمجنون

---

(١) سورة القلم الآية ٥١ .

(٢) سورة القلم الآية ٢ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

(٥) آخر ما وجد منها .

(٦) سورة القلم الآية ٦ .

الذي يخرق ثيابه ويهذى ؛ بل لأن النبي ﷺ خالف أهل العقل في نظرهم ، كما يقال ما لفلان عقل .

ومثل هذا رموا به أتباع الأنبياء كقوله : ﴿ وإذ رأوهم قالوا : إنْ هؤلاءِ لضَّالونَ ﴾ [1] ومثله في هذه الأمة كثير يسخرون من المؤمنين ، ويرمونهم بالجنون والعظائم التي هم أولى بها منهم . قال الحسن لقد رأيت رجالا لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا هؤلاء شياطين ، ولو رأوا خياركم لقالوا هؤلاء لاخلاق لهم ، ولو رأوا شراركم لقالوا هؤلاء قوم لا يؤمنون بيوم الحساب . وهذا كثير في كلام السلف : يصفون أهل زمانهم وما هم عليه من مخالفة من تقدم ، فما الظن بأهل زماننا .

والذين لم يفهموا هذا . قالوا الباء زائدة ، قاله ابن قتيبة وغيره ، وهذا كثير كقوله : ﴿ سيعلمونَ غداً من الكذَّاب الأَشر ﴾[2] ﴿ هل أُنبئُكُمْ على من تنزل الشياطين ﴾[3] الآيات . ﴿ إن تسخروا منَّا فإنَّا نسخرُ منكم كما تسخرونَ ، فسوفَ تعلمونَ من يأتيهِ عذابٌ ﴾[4] الآية .

---

(١) سورة المطففين الآية ٣٢ .

(٢) سورة القمر الآية ٢٦ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٣١ .

(٤) سورة هود الآية ٣٨ .

سورة الانسان(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

(فصـــل)

عرض مجمل للسورة

اعلم أن سـورة ﴿هل أتى عـلى الانسـان﴾ سـورة عجيبـة الشـأن من سـور القرآن عـلى اختصـارها ، فـان الله سبحانـه ابتدأهـا بذكـر كيفية خلق الانسـان من النطفـة ذات الأمشـاج والاخلاط التي لم يزل بقدرته ولطفه وحكمته يصرفه عليها اطواراً ، وينقله من حـال الى حال ، الى أن تمت خلقته وكملت صورته ، فأخرجه انساناً سـوياً ، سميعـاً بصيرا[1] ، ثم لما تكامل تمييزه وادراكه هداه طريقي الخير والشر، والهدى والضلال ، وأنه بعد هذه الهداية اما أن يشكر ربه واما أن يكفره[2] . ثم ذكر مآل أهل الشكر والكفر ، ومـا أعد لهؤلاء وهؤلاء ، وبـدأ أولا بذكر عاقبة أهل الكفر ، ثم عاقبة أهل الشكر[3] ، وفي آخـر السورة ذكـر أولاً أهل الـرحمة ثم أهل العذاب[4] ، فبدأ السورة بـأول أحوال الانسـان ـ وهي النطفـة ـ وختمها بـآخر أحـواله ـ وهي كونه من أهل الرحمة أو العذاب ـ ووسطها بأعمال الفريقين ، فذكر أعمـال أهل العـذاب مجملة في قوله : ﴿إِنَّا أَعتدنَا للكافرينَ﴾ (سورة الانسـان : ٤) ، وأعمال أهـل الرحمـة مفصلة وجزاءهم مفصلا .

فتضمنت السـورة خلق الانسان وهـدايته ، ومبـدأه وتـوسـطه ونهايتـه ، وتضمنت المبـدأ

(*) من مجموع رسائل ابن تيمية ط دار العروبة بتحقيق د . محمد رشاد سالم وهو ساقط من جميع النسخ .

(١) وهذا متضمن في الآية الاولى والثانية وهو قوله تعالى : ﴿هـل أتى على الانسـان حين من الـدهر لم يكن شيئاً مذكـورا ﴾ ﴿انا خلقنـا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا﴾ .

(٢) في الآية الثالثة : ﴿انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً﴾ .

(٣) في قوله تعالى : ﴿انا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا * ان الابرار يشربون من كأس من مـزاجها كـافورا * عينـا يشرب بهـا عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ (الآيات ٤ ـ ٦) .

(٤) في قوله تعالى : ﴿يُدخِلُ مَنْ يشاءُ في رحمتِهِ والظَّالمينَ أَعَدَّ لهم عذاباً أليماً﴾ (الآية : ٣١) .

والمعـاد ، والخلق والأمر : وهمـا القدرة والشـرع ، وتضمنت إثبات السبب وكـون العبد فـاعلاً مريداً حقيقة ، وأن فاعليته ومشيئته إنما هي بمشيئة الله ، ففيهـا الرد عـلى الطائفتـين : القدريـة والجبرية ، وفيها ذكر أقسام بني آدم كلهم ، فأنهم اما أهل شمال ـ وهم الكفار ـ أو أهل يمين : وهم[1] نـوعان : أبـرار ومقربـون ، وذكر سبحـانه أن شـراب الابرار يمـزج من شـراب عبـاده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم ، ويشربه المقربون صرفـا خالصـا كما أخلصـوا أعمالهم ، وجعـل سبحانه شراب المقرْبين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب بـرد اليقين وقـوته لمـا حصل لقلوبهم ووصل اليها في الدنيا ، مع ما في ذلك من مقابلته للسعير .

وأخبر سبحانه أن لهم شرابا آخر ممزوجاً من الزنجبيل[2] لمـا فيه من طيب الـرائحة ولـذة الطعم ، والحرارة التي توجب تغير برد الكافور واذابة الفضلات وتطهير الاجواف ، ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهورا ـ أي مطهراً لبطونهم[3] .

فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن ، كما قال : ﴿ولقَّاهُمْ نضرةً وسروراً﴾ ـ (الآية ١١) ، فـالنضرة جمـال وجوههم، والسرور/ جمـال قلوبهم ، كما قـال : ﴿تعـرف في وجـوههم نضرة النعيم﴾ (سورة المطففين : ٢٤) .

وقريب من هذا قول امرأة العزيز في يـوسف : ﴿فذلكنَّ الـذي لمتنني فيهِ ولقـد راودته عن نفسهِ فاسْتَعْصَمَ﴾ (سورة يوسف : ٣٢) ، فأخبرت بجمال ظاهره حين أشارت اليه بـالخروج عليهن ثم ضمت الى ذلـك اخبارهم بـأن باطنـه أجمل من ظـاهره : بـأنى راودته فـأبى الا العفة والحياء والاستعصام .

ثم ذكر سبحانه من أعمال الأبرار ما ينتبه سامعه على جمعهم لأعمـال البر كلهـا ، فذكـر سبحانه وفاءهم بالنذر ، وخوفهم من ربهم ، واطعامهم الطعـام على محبتهم لـه ، واخلاصهم لربهم في طاعتهم[4] .

وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فان العبد هو الذي اوجبه على نفسـه التزامه ، فهو دون ما أوجبـه الله سبحانـه عليه ، فـاذا (وفى)[5] لله بأضعف الـواجبين الـذي التزمه هو ، فهو بأن يوفى بالواجب الاعظم الذي اوجبه الله عليه اولى وأحرى .

---

(١) في الاصل : وهما

(٢) في قوله تعالى : ﴿ويسقون فيها كأساً كان مِزاجُها زنجبيلاً﴾ (الآية : ١٧) .

(٣) في الآية ٢١ : ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ .

(٤) في قوله تعالى : ﴿يوفون بالنّذر ويخافون يوماً كان شَره مستطيراً * ويطعمونَ الطعامَ على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنَّما نطعمكم لوجهِ اللّهِ لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ (الآيات : ٧ ـ ٩) .

(٥) وفي : ساقطة من الأصل .

ومن ههنـا قال من المفسرين : المقـربون يـوفـون بـطاعـة الله ويقـومـون بحقـه عليهم [(١)] ، وذلك أن العبد اذا نذر لله طاعة فوفى بها فانما يفعل ذلـك لكونها صـارت حقا لله يجب الوفاء بها ، وهذا موجود في حقوقه كلها ، فهي في ذلك سواء .

ثم أخبر عنهم بأنهم يخافون اليوم العسير القمطرير [(٢)] ، وهـو يوم القيـامة . ففي ضمن هذا الخوف ايمانهم باليـوم الآخر ، وكفهم عن المعـاصي التي تضرهم في ذلـك اليوم ، وقيـامهـم بالطاعات التي ينفعهم فعلها ويضرهم تركها في ذلك اليوم .

ثم أخبر عنهم باطعام الطعام على محبتهم له ، وذلك يـدل على نفـاسته عنـدهم وحاجتهم اليه ، وما كان كذلك فالنفوس به أشح ، والقلوب به أعلق ، واليد له أمسـك ، فاذا بـذلوه في هذه الحال ، فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل .

فذكر من حقوق العباد بذل قوت النفس على نفاسته وشدة الحـاجة منبهـا على الـوفاء بما دونه ، كما ذكر من حقوقه الوفاء بالنذر منبهاً على الوفاء بما هو فوقه وأوجب منه ، ونبه بقولـه : ﴿على حبه﴾ (الآية : ٨) أنه لـولا أن الله سبحانـه أحب اليهم منه لمـا آثروه عـلى ما يحبـونه ، فآثروا المحبوب الاعلى على الأدنى .

ثم ذكر ان مصرف طعامهم الى المسكين واليتيم والاسير الذين لا قوة لهم ينصرونهم بها ، ولا مال لهم يكافئونهم به ، ولا أهل ولا عشيرة يتـوقعون [(٣)] منهم مكـافأتهم كـما يقصده أهـل لدنيا والمعاوضون بانفاقهم واطعامهم .

ثم أخبر عنهم أنهم انما فعلوا ذلك لوجـه الله ، وأنهم لا يريـدون من أطعموه عـوضا من أمـوالهم ولا ثناء عليهم بـألسنتهم ، كما يـريـده من لا اخـلاص لـه بـاحسـانـه الى النـاس من معاوضتهم أو الشكور منهم ، فتضمن ذلك المحبة والاخلاص والاحسان .

ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا : ﴿إنَّا نخـافُ من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ (الآية : ١٠) فصدقهم قبـل قولهم ، اذ يقول تعـالى : ﴿يوفُـونَ بالنـذر ويخافونَ يوماً كانَ شرهُ مُستطيراً﴾ (الآية : ٧) ، ثم أخبر سبحانه بأنه وقـاهم شر مـا يخافـونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه .

وذكر سبحانه أصناف النعيم الذي حباهم به[(٤)] من المساكن والملابس والمجالس والثمار

---

(١) في الدر المنثور للسيوطي ٢٩٨/٦ . « وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حـاتم عن قتادة : يـوفون بـالنذر ، قال : كانوا يوفون بطاعة الله من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم فسماهم الله الأبرار لذلك .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿انا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ (الآية : ١٠) .

(٣) في الأصل : يتوقعوا .

(٤) حباهم به : كذا بالأصل ولها وجه ، وأخشى ان تكون : حباهم به .

والشراب والخدم والنعيم والملك الكبير [١] .

ولما كان في الصبر من حبس النفس والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة ، والحرير الذي فيه اللين والنعومة ، والاتكاء الذي يتضمن الراحة ، والظلال المنافية للحر .

ثم ذكر سبحانه لون ملابس (الابرار) [٢] وانها ثياب سندس خضر واستبرق ، وحليتهم وأنها أساور من فضة ، فهذه زينه ظواهرهم ، ثم ذكر زينه بواطنهم ، وهو الشراب الطهور ، وهو بمعنى التطهير [٣] .

فان قيل : فلم اقتصر من آنيتهم وحليتهم على الفضة دون الذهب ؟ ومعلوم ان الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما .

قيل : سياق هذه الآيات انما هو في وصف الابرار ونعيمهم مفصلا دون تفصيل جزاء المقربين ، فانه سبحانه انما أشار اليه أشارة تنبه على ما سكت عنه ، وهو أن شراب الابرار يمزج من شرابهم .

فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل . وذلك ـ والله أعلم ـ لأنهم أعم من المقربين وأكثر منهم ، ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الاولين وثلة من الآخرين [٤] ، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين [٥] .

وأيضا فان في ذكر جزاء الابرار تنبيهاً على أن جزاء المقربين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأيضا ، فانه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر . وأهل الشكر نوعان : أبرار أهل يمين ، ومقربون سابقون ، وكل مقرب سابق فهو من الابرار ، ولا ينعكس . فاسم الابرار والمقربين كاسم الاسلام والايمان أحدهما أعم من الآخر .

وأيضاً ، فأنه سبحانه أخبر ان هذا جزاء سعيهم المشكور [٦] ، وكل من الابرار والمقربين سعيهم مشكور ، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط .

---

(١) في الآيات : ١٢ ـ ٢٠ .

(٢) الأبرار : زدتها ليستقيم الكلام .

(٣) في قوله تعالى : ﴿عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ (الآية : ٢١) .

(٤) هذه اشارات الى الآيات ١١ ـ ١٤ من سورة الواقعة .

(٥) وهي اشارات الى الآيات : ٣٨ ـ ٤٠ من سورة الواقعة .

(٦) وذلك في قوله تعالى : ﴿ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾ (الآية : ٢٢) .

ثم ذكر سبحانه نبيه ﷺ بما أنعم/ عليه من تنزيل القرآن عليه ، وأمره بأن يصبر لحكمه (١) ، وهو (٢) يعم الحكم الديني الذي أمره به في نفسه وأمره بتبليغه ، والحكم الكوني الذي يجري عليه من ربه ، فانه سبحانه امتحن عباده وابتلاهم بأمره ونهيه ، وهو حكمه الديني ، وابتلاهم بقضائه وقدره ، وهو حكمه الكوني وفرض عليهم الصبر على كل واحد من الحكمين ، وان كان الحكم الديني في هذه الآية أظهر ارادة وانه أمر بالصبر على تبليغه والقيام بحقوقه .

ولما كان صبره عليه لا يتم الا بمخالفته لمن دعاه الى خلافه من كل آثم او كفور ، نهاه عن طاعة هذا وهذا ، وأتى بحرف « أو » دون « الواو » ليدل على أنه منهى عن طاعة أيهما كان : اما هذا واما هذا (٣) ، فكأنه قيل له : لا تطع احدهما ، وهو أعم في النهي من كونه منهياً (٤) عن طاعتهما ، فانه لو قيل له : لا تطعهما ، أو لا تطع آثما وكفورا لم يكن صريحا في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده .

ولما كان لا سبيل الى الصبر الا بتعويض القلب بشيء هو أحب اليه من فوات ما يصبر عليه فوته أمره بأن يذكر ربه سبحانه بكرة وأصيلا ـ فان ذكره أعظم العون على تحمل مشاق الصبر ـ وأن يصبر لربه بالليل فيكون قيامه بالليل عونا على ما هو بصدده بالنهار(٥) ، ومادة لقوته ظاهرا وباطنا ، ولنعيمه عاجلاً وآجلاً .

ثم أخبر سبحانه عما يمنع العبد من إيثار ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة ، وهو حب العاجلة وإيثارها على الآخرة تقديماً لداعي الحس على داعي العقل(٦) .

ثم ذكر سبحانه خلقهم واحكامه واتقانه بما شد من أسرهم (٧) ، وهو ائتلاف الاعضاء والمفاصل والاوصال وما بينها (٨) من الرباطات وشد بعضها ببعض ، وحقيقته (٩) القوة ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) وذلك في الآيتين ٢٣ ، ٢٤ : ﴿أنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك﴾ .
(٢) في الأصل : وهم .
(٣) وذلك في بقية آية ٢٤ : ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ .
(٤) في الأصل : منهى .
(٥) في قوله تعالى : ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا﴾ (الآيتان : ٢٥ ، ٢٦) .
(٦) قال تعالى : ﴿ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلاً﴾ (الآية : ٢٧) .
(٧) وذلك في أول آية ٢٨ : ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾ .
(٨) في الأصل : وما بينهما .
(٩) في الاصل : وحقيقية ـ بتشديد الياء الثانية ـ والوجه ما أثبت لان الضمير في قوله « حقيقته » عائد على الاسر .

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا [1]

ولا يكون ذلك الا فيما له شد ورباط ، ومنه الاسار ، وهو الحبل الذي يشد به الأسير .

ثم أخبر سبحانه أنه قادر على أن يبدل امثالهم بعد موتهم ، وأنه اذا شاء ذلك فعله [2] . و« اذا » للمحقق ، فهذا التبديل واقع لا محالة ، فهو الاعادة التي هي مثل البداءة .

هذا هو معنى الآية ، ومن قال غير ذلك لم يصب معناها ، ولا توحشك لفظة « المثل » فان المعاد مثل للمبدوء وان كان هو بعينه ، فهو معاد ، أو هو مثله من جهة المغايرة بين كونه مبدءاً ومعاداً . وهذا كالدار اذا تهدمت وأعيدت بعينها فهي الاولى ، وكذلك الصلاة المعادة هي الاولى وهي مثلها .

وقد نطق القرآن بأنه سبحانه/ يعيدهم ويعيد امثالهم إذا شاء ، وكلاهما واحد فقال : ﴿كما بدأكم تعودون﴾ (سورة الاعراف : ٢٩) ، وقال تعالى : ﴿والينا تُرجعون﴾ (سورة الانبياء : ٣٥) ، وقال : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ (سورة الروم : ٢٧) ، وقال : ﴿أوليسَ الذي خلقَ السمواتِ والارضَ بقادرٍ على ان يخلقَ مثلهم بلىٰ وهو الخلاّقُ العليم﴾ (سورة يس : ٨١) ، وقال انا لقادرون : ﴿على ان نُبدِّل امثالكم وننشئكم في ما لا تعلمونَ * ولقد علمتم النشأةَ الأولىٰ فلولا تذّكرون﴾ (سورة الواقعة : ٦١ ، ٦٣) .

فهذا كله معاد الأبدان ، وقد صرح سبحانه بأنه خلق جديد في موضعين من كتابه [3] . وهذا الخلق الجديد هو « المثل » .

ثم ختم سبحانه السورة بالشرع والقدر كما افتتحها بالخلق والهداية ، فقال : ﴿فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً﴾ (الآية : ٢٩) ، فهذا شرعه ومحل أمره ونهيه ، ثم قال : ﴿وما تشاؤونَ إلاّ أن يشاءَ اللّهُ﴾ (الآية : ٣٠) ، فهذا قضاؤه وقدره ، ثم ذكر الاسمين الموجبين

---

(١) البيت للاخطل في ديوانه ، ص ٤٦ (ط . بيروت ، ١٨٩١) ، وتفسير الطبري ٢٩/ ١٣٩ . وهو من قصيدته التي مطلعها :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

وقبل بيت الشاهد :

أبني كليب أن عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الاغلالا
وأخوهما السفاح ظمأ خيله حتى وردن جبى الكلاب نهالا
يخرجن من ثغر الكلاب عليهم خبب السباع تبادر الاوشالا
من كل مجتنب ....

قال شارح الديوان : « مجتنب : مفتعل من الجنيبة ، وكانوا يركبون الابل ويجنبون الخيل ، فاذا صاروا الى الحرب ركبوا الخيل وأسرو : خلقه : ومنه قوله جل وعز : ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾ ومختال : كان فيه اختيالاً من فرحه ونشاطه .

(٢) وذلك في باقي آية ٢٨ : ﴿واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا﴾ .

(٣) لعله يقصد الآية : ١٩ من سورة ابراهيم والآية : ١٦ من سروة فاطر ونص كل منهما : ﴿ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ .

للتخصيص وهما اسم : العليم الحكيم[1] .

وقوله : ﴿وما تشاؤون الا ان يشاء الله﴾ ، فأخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيته ومع هذا فلا يوجب ذلك حصول الفعل منهم ، اذ أكثر ما فيه أنه جعلهم شائين ، ولا يقع الفعل الا حين يشاؤه منهم ، كما قال تعالى ﴿فمن شاءَ ذكرهُ * وما يذكرونَ إلَّا أن يشاءَ اللَّهُ﴾ (سورة المدثر : ٥٥ ، ٥٦) ، وقال : ﴿لمن شاءَ منكم أنْ يستقيمَ * وما تشاؤون الا أن يشاء الله﴾ (سورة التكوير : ٢٨ ، ٢٩) ، ومع هذا فلا يقع الفعل منهم حتى يريد من نفسه اعانتهم وتوفيقهم .

فهنا أربع ارادات : ارادة البيان ، وارادة المشيئة ، وارادة الفعل ، وارادة الاعانة ، والله أعلم .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما .

فصل[*]

وقوله تعالى : ﴿ وما تشاؤ ون الا ان يشاء الله ﴾ لا يدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختياري ، ولا أنه ليس بقادر عليه ، ولا انه ليس بمريد : بل يدل على انه لا يشاؤه الا ان يشاء الله ، وهذه الآية رد على الطائفتين : المجبرة والجهمية ، والمعتزلة القدرية ، فانه تعالى قال : ﴿ لمن شاء منكم ان يستقيم ﴾ فاثبت للعبد مشيئة وفعلا ، ثم قال : ﴿ وما تشاؤ ون الا ان يشاء الله رب العالمين ﴾ فبين ان مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله . والاولى رد « على الجبرية ، وهذه رد «على القدرية» الذين يقولون : قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله كما يقولون : ان الله يشاء ما لا يشاؤ ون .

واذا قالوا : المراد بالمشيئة هنا الامر على أصلهم ، والمعنى وما يشاؤ ون فعل ما أمر الله به ان لم يأمر الله به . قيل : سياق الآية يبين انه ليس المراد هذا : بل المراد وما تشاؤ ون بعد ان امرتم بالفعل ان تفعلوه الا ان يشاء الله ، فانه تعالى ذكر الامر والنهي والوعد والوعيد ثم قال بعد ذلك : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا . وما تشاؤ ون الا أن يشاء الله ﴾ . وقوله : ﴿ وما تشاؤ ون ﴾ نفى لمشيئتهم في المستقبل . وكذلك قوله : الا ان يشاء الله تعليق لها بمشيئة الرب في المستقبل . فان حرف (أن) تخلص الفعل المضارع للاستقبال ، فالمعنى : الا ان يشاء بعد ذلك والامر متقدم على ذلك ، وهذا كقول الانسان : لا افعل هذا الا ان يشاء الله .

---

(١) وهو في باقي الآية : ٣٠ : ﴿ان الله كان عليماً حكيماً﴾ .

(*) انظر مجموع الفتاوى ٤٨٨/٨ .

وقد اتفق السلف والفقهاء على أن من حلف فقال : لأصلين غدا ان شاء الله ، او لأقضين دبني غدا إن شاء الله ، ومضى الغد ولم يقضه أنه لا يحنث ، ولو كانت المشيئة هي الأمر لحنث، لأن الله أمره بذلك ، وهذا مما احتج به على القدرية ، وليس لهم عنه جواب ، ولهذا خرق بعضهم الاجماع القديم وقال انه يحنث .

و (ايضا) فقوله : ﴿ وما تشاؤونَ إلا أن يشاءَ اللهُ ﴾ سيق لبيان مدح الرب والثناء عليه ببيان قدرته ، وبيان حاجة العباد اليه ، ولو كان المراد لا يفعلون الا أن يأمركم لكان كل امر بهذه المثابة ، فلم يكن ذلك من خصائص الرب التي يمدح بها ، وان اريد انهم لا يفعلون الا بأمره كان هذا مدحا لهم : لاله .

(ســورة عبــس)

فصـــــــل

وقال شيخ الاسلام : ولجماعة من الفضلاء كـلام في قولـه تعالى : ﴿ يـوم يفر المـرء من أخيه وأمه وأبيه ﴾ لم ابتدأ بالأخ ومن عادة العرب أن يبدأ بـالأهم ؟ فلما سئلت عن هذا قلت : ان الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبـه ، فتارة يقتضى الابتـداء بالاعـلى وتارة بـالادنى ، وهنا المناسبة تقتضى الابتداء بالادنى لان المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلا شيئـا بعد شيء ، فلو ذكـر الأقرب أولا لم يكن في ذكـر الأبعـد فـائـدة طـائلة ، فـإنـه يعلم أنـه اذا فـر من الأقـرب فر من الابعد ، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة ، فابتدأ بنفى الأبعد منتقلا منه الى الأقرب ، فقيل أولا : ﴿ يفِرّ المرءُ من أخيهِ ﴾ فعلم ان ثم شدة توجب ذلك . وقد يجوز أن يفر من غيـره ، ويجوز ان لا يفـر . فقيل﴿ وأمـه وأبيـه ﴾فعلم ان الشـدة اكبـر من ذلـك ، بحيث توجب الفرار من الأبوين .

ثم قيل ﴿ وصاحبتهِ وبنيه ﴾ فعلم أنها طامـة بحيث توجب الفـرار مما لا يفـر منهم الا في غاية الشدة وهي الزوجة والبنون ، ولفظ صاحبته أحسن من زوجته .

قلت : فهـذا في الخبر ونـظيـره في الأمـر ، قـولـه : ﴿ ففـديـة من صيـام أو صـدقـة او نسـك ﴾[1] وقولـه : ﴿ فكفارتُـهُ إطعـامُ عشـرةِ مَسـاكـينَ من أَوسطِ مـا تُـطعمـونَ أهليكُمْ أو كِسوتُهُمْ ﴾[2] فان الواجبات نوعان عـلى الترتيب . فيقـدم فيه الاعـلى فالاعـلى ، كما في كفـارة

(*) سورة عبس الآيات ٣٤ ـ ٣٥ .

(*) مجموع الفتاوى ١٦/ ٧٤ .

(١) سورة البقرة الآية ١٩٦ .

(٢)سورة البقرة الآية ١٩٦ .

الظهار والقتل واليمين ، وعلى التخيير فابتدأ فيها بأخفها ليبين أنه كان مجزيا لا نقص فيه ، وان ذكر الأعلى بعده للترغيب فيه لا للايجاب ، فانتقال القلب من العمل الأدنى الى الاعلى أولى من أن يؤمر بالاعلى ثم يذكر له الادنى فيزدريه القلب .

ولهذا لما ذكر في جزاء الصيد الاعلى ابتداء كان لنا في ترتيبه روايتان ، واذا نصرنا المشهور قلنا قدم فيه الاعلى ، لان الادنى بقدرته في قوله : ﴿ او كفارة طعام مساكين او عدل ذلك صياما ﴾ .

ولهذا لما ابتدأ بالاثقل في حدود المحاربين لم يكن عندنا على التخيير ، ولا على الترتيب ، بل بحسب الجرائم ، وليس في لفظ الآية ما يقتضى التخيير كما يتوهمه طائفة من الناس ، فانه لم يقل الواجب او الجزاء هذا أو هذا ، كما قال : فكفارته هذا أو هذا أو هذا ، وكما قال : ﴿ ففدية من صيام او صدقة أو نسك ﴾ وانما قال : انما جزاؤهم هذا أو هذا أو هذا ، فالكلام فيه نفى واثبات : تقديره : ما جزاؤهم الا أحد الثلاثة ، كما قال في آية الصدقات : ﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ أي ما هي الا لهؤلاء .

وقد تقرر ان مثل هذا الخطاب يثبت للمذكور ما نفاه عن غيره ، فلما نفى الجواز لغير الاصناف اثبت الجواز لا الوجوب ولا الاستحقاق، كما فهمه من اعتقد وجوب الاستيعاب من ظاهر الخطاب ، وهنا نفى ان يكون ما سوى أحد هذه جزاء ، فأثبت ان يكون جزاء المحارب احد هذه العقوبات ، والمحاربون جملة ليسوا واحدا ، فظهر الفرق بين هذه الآية وبين الآيتين من وجوه :

« أحدها » أن المحاربين ذكروا باسم الجمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي توزيع الافراد على الافراد ، فلو قيل : جزاء المعتدين اما القتل واما القطع ، واما الجلد ، واما الصلب ، واما الحبس : لم يقتض هذا التخيير في كل معتد بين هذه العقوبات ، بل توزيع العقوبات على أنواعهم ، كذلك اذا قيل : جزاء المحاربين كذا ، أو كذا ، أو كذا ، أو كذا . بخلاف قوله : ﴿ فكفارته ﴾ وقوله : ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة ﴾ .

« الثاني » أن المقصود نفى جواز ما سوى ذلك ، واثبات ضده ، وهي جواز المذكور في الجملة ، وذلك أعم من أن يكون مخيرا أو معينا ، بخلاف ما اذا لم يكن المقصود الا مجرد الاثبات ، فان اثباته بصيغة التخيير يدل عليه . وهذا معروف في مواد الاثبات المحض ، أو مواد الحصر ، كما قال ﷺ للخصم المدعى : « شاهداك أو يمينه »[1] وفي لفظ : « ليس لك منه الا ذلك » فحصر طريق الحق ، وليس الغرض التخيير .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب الرهن ، كتاب الشهادات) ، مسلم (كتاب الايمان)، امين حنبل ٥/٢١١ .

وكذلك يقال : الواجب في القتل القصاص أو الدية ، ولا تصح الصلاة الا بوضوء أو تيمم ، ولا بد يوم الجمعة من الظهر أو الجمعة ، ولا يترك في دار الاسلام الا مسلم او معاهد ، وسبب ذلك أنه اذا كان بعض المقصود الذي دل عليه اللفظ نفس ما سوى الامور المذكورة ، كان مدلوله اثباتا يتقضى النفى ، وهو الوجود المشترك من هذه الامور ، والقدر المشترك بينها أعم من أن يكون معينا أو مخيرا ، وأما اذا اثبتت ابتداء فلو لم تكن مخيرة بل معينة ، ولم يدل اللفظ عليه كان تلبيسا .

« الوجه الثالث » وهو لطيف ان يقال : مفهوم (أو) اثبات التقسيم المطلق ، كما قلنا : ان الواو مفهومها التشريك المطلق بين المعطوف والمعطوف عليه ، فاما الترتيب : فلا ينفيه ولا يثبته ، إذ الدال على مجرد المشترك لا يدل على المميز ، فكذلك (أو) هي للتقسيم المطلق ، وهو ثبوت أحد الامرين مطلقا ، وذلك أعم من أن يثبت على سبيل التخيير بينه وبين الآخر ، أو على سبيل الترتيب ، أو على سبيل التوزيع ، وهو ثبوت هذا في حال ، وهذا في حال ، كما أنهم قالوا : هي في الطلب يراد بها الاباحة تارة ، كقولهم : تعلم النحو أو الفقه ، والتخيير أخرى ، كقولهم : كل السمك أو اللبن ، وأرادوا بالاباحة جواز الجمع ، وهي في نفسها تثبت القدر المشترك ، وهو أحد الاثنين . اما مع اباحة الآخر أو حظره ، فلا تدل عليه بنفسها ، بل من جهة المادة الخاصة ، ولهذا جمعنا بين القتل والصلب ، وبينه وبين القطع على رواية فان (أو) لا تنفى ذلك ، فاذا كان حرف أو يدل على مجرد اثبات أحد المذكورات ، فهنا مسلكان :

« أحدهما » أن يقال : اذا كانت في مادة الايجاب أفادت التخيير ، واذا كانت في مادة الجواز أفادت القدر المشترك ، كما هو مشهور عن النحاة المتكلمين في معاني الحروف أنهم يقولون : يراد بها تارة الاذن في احد الشيئين مع حظر الآخر . وتارة في أحدهما وان ضم اليه الآخر ، كما ذكروه من الامثلة .

وحينئذ فهذه الآية في مادة الجواز ، لان المنفى هو الجواز . فيكون المثبت هو الجواز كما ذكرناه في آية الصدقات ، بخلاف آية الكفارة ، فانها في مادة الوجوب .

« المسلك الثاني » أن يقال : لافرق بين المادتين ، الجواز والوجوب : بل وفي الوجوب قد يباح الجمع ، كما لو كفر بالجميع مع الغنى ، لكن يقال : دلالتها في الجميع على التفريق المطلق ضد دلالة (الواو) .

ثم ان لم يدل دليل على ترتيب ولا تعيين : جاز فعل كل واحد من الخصال ، لعدم ما يدل على التعيين والترتيب ، لا للدليل المناف لذلك ، كما في قوله : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ فان الرقبة المعينة يجزى عتقها ، كثبوت القدر المشترك فيها ، وعدم ما يوجب المعين ، لا لدليل على

دل على نفس المعين ، وان دل دليل على التعيين ، والترتيب قلنا به ، كما نقول بتقييد المطلق ، وليس تقييد المطلق رفعا لظاهر اللفظ ، بل ضم حكم آخر اليه ، وهذا مسلك حسن في هذا الموضع ونظائره : فانه يجب الفرق بين ما يثبته ، اللفظ وبين ما ينفيه ، فاذا قلنا في المحاربين بالتعيين لدليل خبري ان قياسي كان كالقول بالترتيب في الوضوء ، والايمان في الرقبة ونحوهما .

سورة التكوير(*)

فصـــــل

وقال شيخ الاسلام :

قوله : ﴿ واذا الموءودةُ سُئِلَتْ ، بـأَي ذنبٍ قُتلت ﴾[1] دليل عـلى أنه لا يجـوز قتل النفس الا بذنب منها ، فـلا يجوز قتـل الصبي والمجنون ، لان القلم مـرفوع عنهـما ، فلا ذنب لهـما ، وهذه العلة لا ينبغي أن يشك فيها في النهي عن قتل صبيان أهل الحـرب ، واما العلة المشتـركة بينهم وبـين النساء فكـونهم ليسوا من أهـل القتال عـلى الصحيح الـذي هو قـول الجمهور ، أو كونهم يصيرون للمسلمين .

فأما التعليـل بهذا وحـده في الصبي فلا ، والآيـة تقتضي ذم قتل كـل من لا ذنب له من صغير وكبير ، وسؤالها توبيخ قاتلها ، وقولـه في السورة : ﴿ إنـه لقولُ رسـولٍ كريمٍ ﴾[2] الى قوله : ﴿ وما هو بقـول شيطان رجيم ﴾[3] هـو جبريـل ، وهو نـظير ما في سـورة الشعراء أنـه تنزلت به الملائكة لا الشياطين ، بخلاف الإفك ونحوه فانـه تنزل بـه الشياطـين ، فوقـع الفرق بين النبي ﷺ والافاك والشاعر والكاهن وبين الملك والشيطان ، والعلماء ورثة الانبيـاء .

وقال شيخ الإسلام :

في قـوله تعـالى : ﴿ وما تشـاؤ ونَ إلاَّ أنَ يشاءَ اللهُ ربُّ العـالمـينَ ﴾[4] أخبـر أن مشيئتهم

(*) مجموع الفتاوى ١٦/٢٠ .

(١) سورة التكوير الآية ٨ .

(٢) سورة التكوير الآية ١٩ .

(٣) سورة التكوير الآية ٢٥ .

(٤) سورة التكوير الآية ٢٩ .

موقوفة على مشيئته ، ومع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم ، اذ أكثر ما فيه أنه جعلهم شائين ، ولا يقع الفعل منهم حتى يشاؤه منهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فمنْ شاءَ ذكرهُ ، وما يذكرونَ إلاَّ أن يشاءَ الله ﴾ ومع هذا فلا بد من ارادة الفعل منهم حتى يريد من نفسه اعانتهم وتوفيقهم .

فهنا أربع إرادات : ارادة البيان ، وارادة المشيئة ، وارادة الفعل ، وارادة الاعانة ، والله أعلم .

تفسير سورة الاعلى

فصـــــــل(*)

(كلام ابن فورك في الرؤية)

وقال ابن فورك[1] في كتابه الذي كتبه الى أبي أسحاق الاسفراييني يحكى ما جرى لـه . قـال : وجرى في كـلام السلطان[2] أليس تقول : « أنـه يُرى لا في جهـة » ؟ فقلت : « نعم » يرى لا في جهة ، كما انه لم يزل يرى نفسه لا في جهة ، ولا من جهة ، ويراه غيره على ما يرى ورأى نفسه ، والجهة ليست بشرط في الرؤية ، وقلت أيضا : المرئيات المعقولة فيما بيننا هكـذا نراها في جهة محل كذلك لم نر الا متلونا ذا قدر وحجم يحتمل المسـاحة ، والثقـل ، (والتركيب والحركة)[3] ولا يخلو من حـرارة ورطوبـة او يبوسـة اذا لم يكن عرضـا لا يقبل التثنيـة والتأليف وغير ذلك ، ومع هذا فلا عبرة بشيء من هذا » .

وقـال : ثم بلغني أن السلطان ذلك اليـوم والليلة وثاني يـوم يكرر عـلى نفسـه في مجلسـه « كيف يعقـل شيء لا في جهة » ؟ . ومـا شغـل القلب في أول الامـر وتـربى عليـه فـان قلعـة

(*) قد طبعت هذه السورة ضمن مجموعة تفسير ابن تيمية التي نشرهـا عبد الصمـد الكتبي بالهند سنة ١٩٥٤ وضمن مجمـوع فتاوى ابن تيمية ط . الريـاض جـ١٦ والاصل مخطوط بدار الكتب المصرية ضمن مجمـوعة الكـواكب الدراري رقم ٦٤٥ تفسير وقابلنـا بين الاصل المخطوط وطبعه الهند والسعودية واعتمدنا التعليقات الموجودة بطبعة الهند لأهميتها وأضفنا اليها ما يقتضيه الحال .

(١) هو محمد بن الحسن بن فورك ـ بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء بعدها كاف ـ الاستاذ ابـو بكر الانصـاري الاصفهاني الشـافعي ، الاديب المتكلم الاصـولي الواعظ النحـوي . أقام أولاً بـالعراق الى أن درس بهـا على مـذهب الاشعري . وكـان قد دعي الى غـزنـة بحضور السلطان محمود بن سبكتكين ـ وهو المراد بقوله « السلطان » هنا ـ وجرت له بها مناظرات وكان شديد الرد على اصحـاب أبي عبد الله محمد بن كرام . ولما عاد منها سم في الطريق فتوفي سنة ٤٠٦ هـ . بلغت تصانيفه في أصول الدين ، وأصول الفقه ، ومعاني القرآن ، قريباً من المائة ، منها « مشكل الحديث وبيانه » أي على طريق المتكلمين ، طبع بحيدر آباد الدكن ، سنة ١٣٦٢ هـ . وأبـو اسحاق الاسفراييني من معاصري ابن فورك من الاشاعرة ، توفي سنة ٤١٨ هـ .

(٢) يعني السلطان محمود بن سبكتكين .

(٣) بياض في الاصل اكملناه بما يناسب غرض المؤلف .

صعب ، والله المعين . غير أنه فرحت الكرامية بما كان منه في ذلك . فلما رجعت الى البيت فاذا أنا برقعة فيها مكتوب : « الاستاذ ! ـ أدام الله سلامته ـ على مذهبه ان الباري ليس في جهة ، فكيف يرى لا في جهة » ؟ .

فكتبت: « خبر الرؤية صحيح ، وهي واجبة كما بشرهم النبي ﷺ . وفيه دلالة على أن الله يُرى لا في جهة ، لانه صلى الله عليه وسلم قال : « لا تضامون في رؤيته » ، ومعناه : لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته ، فانه لا في جهة ، وكلاما طويلا من كل وجه ملأت ظهر الرقعة وبطنها منه .

فلما ردت اليه أنفذها الى حاكم البلد ، وهو أبو محمد الناصحي ، واستفتاه فيما قلته . فجمع قوما من الحنفية ، والكرامية ، فكتب هو ـ أعزك الله ـ بأن من قال بأن الله لا يُرى في جهة مبتدع ضال . وكتب أبو حامد المعتزلي مثله ، وكتب انسان بسطامي مؤدب[1] في دار صاحب الجيش مثله ، فردوا عليه . فأنفذ الى ما في ذلك المحضر الذي فيه خطوطهم ، وكتب الى رقعة وقال فيها : « انهم كتبوا هكذا ، فما تقول في هذه الفتاوى » ؟ .

فقلت : « ان هؤلاء القوم يجب أن يسألوا عن مسائل الفقه التي يقال فيها بتقليد العامي للعالم . فأما معرفة الاصول والفتاوى فيها فليس من شأنهم ، وهم يقولون انا لا نحسن ذلك » .

الرد عليه :

قلت قول هؤلاء[2] « ان الله يرى من غير معاينة ومواجهة » قول انفردوا به دون سائر طوائف الامة وجمهور العقلاء ، على أن فساد هذا معلوم بالضرورة .

والاخبار المتواترة عن النبي ﷺ ترد عليهم ، كقوله في الاحاديث الصحيحة : « انكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر لا تضارون في رؤيته » : وقوله لما سأله الناس : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل ترون الشمس صحوا ليس دونها سحاب » ؟ قالوا : نعم . « وهل ترون القمر صحوا ليس دونه سحاب » ؟ قالوا : نعم . قال : « فانكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » .

فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي ، فان الكاف ـ حرف التشبيه ـ دخل على الرؤية . وفي لفظ البخاري « يرونه عيانا » . ومعلوم انا نرى الشمس والقمر عيانا مواجهة ، فيجب أن نراه كذلك . وأما رؤية ما لا نعاين ولا نواجهه فهذه غير متصورة في العقل ، فضلا عن ان تكون كرؤية الشمس والقمر .

---

(١) ويحتمل أن يكون « مؤذن » .

(٢) يعني الاشاعرة .

ولهذا صار حذاقهم الى انكار الرؤ ية ، وقالوا : قولنا هو قول المعتزلة في الباطن ، فانهم فسروا الرؤ ية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا تنازع فيه المعتزلة .

وأما قوله : ان الخبر يدل على أنهم يرونه لا في جهة ، وقوله : « لا تضامون » معناه لا تضمكم جهة واحدة في رؤ يته فانه لا في جهة ، فهذا تفسير للحديث بما لا يدل عليه ، ولا قاله أحد من أئمة العلم ، بل هو تفسير منكر عقلاً وشرعاً ولغة .

فان قوله « لا تضامون » يروى بالتخفيف ، أي : لا يلحقكم ضيم في رؤ يته كما يلحق الناس عند رؤ ية الشيء الحسن كالهلال ، فانه قد يلحقهم ضيم في طلب رؤ يته حين يرى ، وهو سبحانه يتجلى تجلياً ظاهراً فيرونه كما ترى الشمس والقمر بلا ضيم يلحقكم في رؤ يته . وهذه الرواية المشهورة .

وقيل« لا تضامون » بالتشديد ، أي : لا ينضم بعضكم الى بعض كما يتضام الناس عند رؤ ية الشيء الخفي كالهلال ، وكذلك « تضارون » و« تضارون » .

فأما أن يروى بالتشديد ويقال : لا تضامون ، أي لا تضمكم جهة واحدة ، فهذا باطل ، لان التضام انضمام بعضهم الى بعض . فهو « تفاعل » ، كالتماس ، والتراد ، ونحو ذلك . وقد يروى « لا تضامون » بالضم والتشديد ، أي لا يضام بعضكم بعضا .

وبكل حال فهو من « التضام » الذي هو مضامة بعضهم بعضا ، ليس هو أن شيئاً آخر لا يضمكم ، فان هذا المعنى لا يقال فيه « لا تضامون » ، فانه لم يقل « لا يضمكم شيء » .

ثم يقال : الراءون كلهم في جهة واحدة على الارض . وان قدر أن المرئى ليس في جهة فكيف يجوز أن يقال « لا تضمكم جهة واحدة » وهم كلهم على الارض ـ أرض القيامة ـ أو في الجنة ، وكل ذلك جهة ، ووجودهم نفسهم لا في جهة ومكان ممتنع حساً وعقلاً .

وأما قوله : « هو يرى لا في جهة فكذلك يراه غيره » ، فهذا تمثيل باطل . فان الانسان (لا يمكن ان يرى)[1] بدنه ، ولا يمكن ان يرى غيره الا أن يكون بجهة منه ، وهو أن يكون أمامه سواء كان عالياً او سافلا .

وقد تخرق له العادة فيرى من خلفه ، كما قال النبي ﷺ : « اني لأراكم من بعدي » وفي رواية « من بعد ظهري » ، وفي لفظ للبخاري « اني لأراكم من ورائي » ، وفي لفظ في الصحيحين « اني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي » . لكن هم بجهة منه ، وهم خلفه . فكيف تقاس رؤ ية الرائي لغيره على رؤ يته لنفسه ؟

---

(١) بياض في الأصل : أكملناه بمقتضى السياق .

ثم تشبيه رؤيته هو برؤيتنا نحن تشبيه باطل . فان بصره يحيط بما رآه بخلاف أبصارنا .

وهؤلاء القوم أثبتوا ما لا يمكن رؤيته وأحبوا نصر مذهب أهل السنة والجماعة والحديث ، فجمعوا بين أمرين متناقضين[1] . فان ما لا يكون داخل العالم ولا خارجه ولا يشار اليه[2] يمتنع ان يرى بالعين لو كان وجوده في الخارج ممكنا ، فكيف وهو ممتنع ، وانما يقدر في الاذهان من غير أن يكون له وجود في الاعيان ، فهو من باب الوهم والخيال والباطل .

ولهذا فسروا (الادراك)بالرؤية في قوله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ -(الأنعام : ١٠٣) ، كما فسرتها المعتزلة . لكن عند المعتزلة هذا خرج مخرج المدح فلا يرى بحال ، وهؤلاء قالوا : لا يرى في الدنيا دون الآخرة .

والآية تنفى الادراك مطلقاً (دون الرؤية كما قال)[3] ابن كلاب ، وهذا أصح . وحينئذ فتكون الآية دالة على اثبات الرؤية ، وهو أنه يرى ولا يُدرك ، فيرى من غير احاطة ولا حصر . وبهذا يحصل المدح ، فإنه وصف لعظمته ـ أنه لا تدركه أبصار العباد وان رأته ، وهو يدرك أبصارهم . قال ابن عباس ، أو عكرمة بحضرته ، لمن عارض بهذه الآية : « ألست ترى السماء » ؟ . قال : « بلى » . قال : « أفكلها ترى » ؟ .

ولذلك قال ﴿ولا يحيطونَ بشيءٍ من علمهِ إلاَّ بما شاءَ﴾ (البقرة : ٢٥٥) . وهؤلاء يقولون : علمه شيء واحد لا يمكن أن يحاط بشيء منه دون شيء ، فقالوا : ولا يحيطون بشيء من معلومه . وليس الامر كذلك ، بل نفس العلم جنس يحيطون منه بما شاء ، وسائره لا يحيطون به .

وقال ﴿يعلمُ ما بينَ أيديهِمْ وَمَا خلفهُمْ ولا يحيطونَ بهِ علماً﴾ ـ (طه : ٢٠ : ١١٠) والراجح من القولين أن الضمير عائد الى ﴿ ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾. واذا لم يحيطوا بهذا علماً وهو بعض مخلوقات الرب فأن لا يحيطوا علماً بالخالق أولى وأحرى . قال تعالى : ﴿وَمَا يعلمُ جنودَ ربِّك إلاَّ هُوَ﴾ ـ (المدثر ٧٤ : ٣١) ، وقال ﴿ألم يأتِكُم نبأُ الذينَ من قبلكُمْ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والَّذينَ من بعدِهِم ، لا يعلمُهُم إلاَّ اللَّهَ ، جآءتهُمْ رسلُهُمْ بالبيِّناتِ فَرَدُّوا أيديهم في أفواهِهِم﴾ ـ الآية ـ (أبراهيم الآية : ٩) .

فاذا قيل ﴿لا تدركهْ الأبصار ﴾، أي لا تحيط به ، دل على أنه يوصف بنفي الاحاطة به

---

(١) اقرأ بيانه في الفصل الخامس من تفسير العلق تحت عنوان « جمع الاشعري بين أصول الجهمية وقول أهل السنة » .

(٢) كما يقول بعض الجهمية ، وسيأتي حكايته .

(٣) بياض في الأصل ، أكملناه بمقتضى السياق ، وتتفق طبعة الهند والسعودية في صيغة التكملة . مما يدل على ان مصدر الطبعتين واحد .

مع اثبات الرؤية . وهذا ممتنع على قول هؤلاء ، فان هذا انما يكون بزعمهم فيما ينقسم ، فيرى بعضه من بعض . فتكون هناك رؤية بلا ادراك واحاطة ، وعندهم لا يتصور أن يرى الا رؤية واحدة متماثلة ، كما يقولونه في كلامه : انه شيء واحد لا يتبعض ولا يتعدد ، وفي الايمان به : انه شيء واحد لا يقبل الزيادة والنقصان .

وأما الادراك والاحاطة الزائد على مطلق الرؤية فليس انتفاؤه لعظمة الرب عندهم ، بل لان ذاته لا تقبل ذاك كما قالت المعتزلة : انها لا تقبل الرؤية .

وأيضا فهم والمعتزلة لا يريدون أن يجعلوا للابصار ادراكا غير الرؤية ، سواء اثبتت الرؤية أو نفيت . فأن هذا يبطل قول المعتزلة بنفي الرؤية ، ويبطل قول هؤلاء بأثبات رؤية بلا معاينة ومواجهة .

فصل
(كلام ابن فورك في العلو والاستواء)

هذا مع أن ابن فورك هو ممن يثبت الصفات الخبرية كالوجه واليدين ، وكذلك المجيء والاتيان ، موافقة لابي الحسن(1) ، فان هذا قوله وقول متقدمي أصحابه .

فقال ابن فورك فيما صنف في أصول الدين : فان سألت الجهمية عن الدلالة على ان القديم سميع بصير ، قيل لهم : قد اتفقنا على أنه حي تستحيل عليه الآفات والحي اذا لم يكن مأووفا بآفات تمنعه من ادراك المسموعات والمبصرات كان سمعياً بصيراً .

وان سألت فقلت « أين هو » ؟ فجوابنا « انه في السماء » كما أخبر في التنزيل عن نفسه بذلك ، فقال ـ عز من قائل ـ ﴿أأمنتم من في السماء﴾ ـ (الملك : ٦٧ : ١٦) .

واشارة المسلمين بأيديهم عند الدعاء في رفعها اليه . وانك لو سألت صغيرهم وكبيرهم فقلت « أين الله » ؟ لقالوا « انه في السماء » ولم ينكروا لفظ السؤال بـ « أين » . لان النبي ﷺ سأل الجارية التي عرضت للعتق فقال « اين الله ؟ « فقالت : « في السماء » مشيرة بها(2) . فقال النبي ﷺ : « أعتقها ، فانها مؤمنة » . ولو كان ذلك قولاً منكراً لم يحكم بايمانها ، ولأنكره عليها . ومعنى ذلك انه فوق السماء ، لأن « في » بمعنى فوق . قال الله تعالى : ﴿ فسيحُوا في الأرضِ ﴾ ، أي فوقها .

---

(1) أي الاشعري ، امام الاشاعرة .

(2) هكذا أورده مبهماً ، والمراد بقوله « بها » أي بأصبعها ، كما جاء صراحة في رواية أبي هريرة التي أخرجها أبو داود في الايمان والنذور ، قال « فأشارت الى السماء بأصبعها » . وقصة الجارية من حديث معاوية بن الحكم السلمي الطويل أخرجه مسلم ، وأبو داود والنسائي ، في الصلاة : وأخرجه أبو داود في الايمان والنذور أيضا ، باب في الرقبة المؤمنة ، بقصة الجارية فقط .

قال : وان سألت« كيف هو » ؟ قلنا له : « كيف » سؤال عن صفته ، وهو ذو الصفات العلى - هو العالم الذي له العلم ، والقادر الذي له القدرة ، والحي الذي له الحياة ، الذي لم يزل منفرداً بهذه الصفات لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء .

الرد عليه :

(قلت) : فهذا الكلام هو موافق لما ذكره الاشعري في كتاب « الابانة » ، ولما ذكره ابن كلاب كما حكاه عنه ابن فورك . لكن ابن كلاب يقول : ان العلو والمباينة[1] من الصفات العقلية . وأما هؤلاء فيقولون : كونه في السماء صفة خبرية كالمجيء والاتيان ، ويطلقون القول بأنه بذاته فوق العرش ، وذلك صفة ذاتية عندهم[2] .

والاشعري يبطل تأويل من تأول الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر بأنه لم يزل مستولياً على العرض وعلى كل شيء ، والاستواء مختص بالعرش . فلو كان بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال : « هو مستو على كل شيء وعلى الارض وغيرها » كا يقال « انه مستول عليها »[3] ولما اتفق المسلمون على ان الاستواء مختص بالعرش . فهذا الاستواء الخاص ليس بمعنى الاستيلاء العام . واين للسلطان(؟) جعل الاستواء بمعنى القهر والغلبة ، وهو الاستيلاء ؟

فيشبه - والله أعلم - أن يكون اجتهاده مختلفاً في هذه المسائل كما اختلف اجتهاد غيره . فأبو المعالي كان يقول بالتأويل ، ثم حرمه وحكى اجماع السلف على تحريمه . وابن عقيل له أقوال مختلفة ، وكذلك لأبي حامد ، والرازي ، وغيرهم[4] .

ومما يبين اختلاف كلام ابن فورك أنه في مصنف آخر قال : فان قال قائل « أين هو ؟ » قيل : ليس بذي كيفية فنخبر عنها الا أن يقول « كيف صنعه ؟ » ، فمن صنعه أنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وهو الصانع للاشياء كلها .

فهنا أبطل السؤال عن الكيفية ، وهناك جوزه وقال : الكيفية هي الصفة ، وهو ذو الصفات » ، وكذلك السؤال عن الماهية ، قال في ذلك المصنف : وان سألت الجهمية

---

(١) « المباينة » هي عدم مماثلته سبحانه وتعالى لخلقه وتنزهه عنهم ، وانفصالهم وتباعدهم عنه سبحانه وتعالى . وتعنى عدم حلوله من شيء من مخلوقاته أو اتحاده بهم .

(٢) وقد بين المصنف هذا في « شرح حديث النزول » بوضوح زائد ، فقال : فأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته . ولهذا قال فيه (ثم استوى) . ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر . وأما علوه على المخلوقات فهو عند أئمة أهل الآثار من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع . وهذا اختيار أبي محمد بن كلاب وغيره - اهـ . هذا وقد استوعب المصنف الكلام على الصفات الخبرية في الفصل الخامس عشر من تفسيره سورة العلق فلينظر في موضعه .

(٣) انظر رأى الاشعري في ذلك في كتابه الابانة في اصول الديانة ، ورسالة اهل الثغر .

(٤) ذكر المصنف اختلافهم في كتابة درء تعارض العقل والنقل وطبع الجزء الأول بتحقيق دكتور محمد رشاد سالم ، وكذا في الفصل الخامس عشر من تفسير العلق .

فقالت « ما هو ؟» يقال لهم : « ما ؟» يكون استفهاماً عن جنس أو صفة في ذات المستفهم فان أردت بذلك سؤالاً عن صفته فهو العلم ، والقدرة ، والكلام ، والعزة ، والعظمة .

وقال في الآخر : فان (قال) قائل « حدثونا عن الواحد الذي تعبدونه ما هو » ؟ قيل : ان أردت بقولك « ما جنسه ؟ » فليس بذي جنس . وان أردت بقولك « ما هو » ؟ أي ، أشيروا اليه حتى أدركه بحواسي ، فليس بحاضر للحواس . وان أردت بقولك « ما هو » ؟ أي ، دلوني عليه بعجائب صنعته وآثار حكمته ، فالدلالة عليه قائمة . وان أردت بقولك « ما اسمه ؟ » فنقول : هو الله ، الرحمن ، الرحيم ، القادر ، السميع ، البصير[1] .

(وهو)[2] في هذا المصنف أثبت انه على العرش بخلاف ما كان عليه قبل العرش . . فقال : فان قال « فحدثونا عنه أين كان قبل أن يخلق ؟ « قيل » « أين » ؟ تقتضي مكانا ، والامكنة مخلوقات ، وهو سبحانه لم يزل قبل الخلق والاماكن لا في مكان ولا يجري عليه وقت ولا زمان .

فان قال « فعلى ما هو اليوم » ؟ قيل له : مستو على العرش كما قال سبحانه ﴿الرَّحمنُ علىٰ العرشِ استوَى﴾ - (طه ٢٠ : ٥) .

وقال : فان قال قائل « لم يزل الباري قادراً عالماً حياً سميعاً بصيراً » ؟ قيل : نعم . فان قال « فلم أنكرتم أن يكون لم يزل خالقاً » ؟ قيل له : ان اردت بقولك « لم يزل خالقاً » ، أي لم يزل الخلق معه في قدمه ، فهذا خطأ ، لان معنى الخلق أنه لم يكن ثم كان . فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً ؟ وان اردت بقولك أن الخالق لم يزل وكان قادراً على ان يخلق الخلق ، فكذلك نقول ، لان الخالق لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق . فهذا الجواب .

فان قيل « الاستواء منه فعل ، ويستحيل أن يكون الفعل لم يزل » .

قال قيل : والخلق منه فعل ، ويستحيل أن يكون الخلق لم يزل .

فهذا الكلام (ليس)[3] الا بيان الذين يقولون : انه استوى على العرش بعد أن لم يكن ، ويقولون بقدم صفة التكوين والخلق ، وأنه يزل خالقاً . فألزمهم : « انا نقول في الخلق ما نقوله نحن وأنتم في الاستواء » . وهذا جواب ضعيف من وجوه :

أحدها : أنه في الحقيقة ليس عنده أنه استوى بعد أن لم يكن ، كما قد بحثه مع السلطان[4] ، بل هو الان كما كان . فلا يصح القياس عليه .

---

(١) ههنا بياض في الأصل قدر سطر وشيء .

(٢) بياض في الأصل ، ولعله « وهو » .

(٣) بياض في الأصل ، والسياق يقتضي أنه « ليس » .

(٣) يعني السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي .

الثاني : أنه قد سلم أنه لم يزل قادراً على ان يخلق الخلق ، وهذا يقتضي امكان وجود المقدور في الازل . فانه اذا كان المقدور ممتنعاً لم تكن هناك قدرة ، فكيف يجعله لم يزل قادراً مع امتناع أن يكون المقدور لم يزل ممكنا ؟ بل المقدور عنده كان ممتنعاً ثم صار ممكنا بلا سبب حادث اقتضى ذلك .

الثالث : أن قوله « لان معنى الخلق انه لم يكن ثم كان ، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً » ؟ ، فيقال : بل كل مخلوق فهو محدث مسبوق بعدم نفسه ، وما ثم قديم أزلي الا الله وحده . واذا قيل « لم يزل خالقاً ، فانما يقتضي قدم نوع الخلق ، و « دوام خالقيته » لا يقتضي قدم شيء من المخلوقات . فيجب الفرق بين أعيان المخلوقات الحادثة بعد أن لم تكن ، فان هذه لا يقول عاقل أن منها شيئاً أزلياً ، ومن قال بقدم شيء من العالم ـ كالفلك أو مادته ـ فانه يجعله مخلوقاً بمعنى أنه كان بعد أن لم يكن ، ولكن إذا أوجده القديم .

ولكن لم يزل فعالاً خالقاً ، (ودوام خالقيته)[1] من لوازم وجوده . فهذا ليس قولاً بقدم شيء من المخلوقات ، بل هذا متضمن لحدوث كل ما سواه[2] .وهذا مقتضى سؤال السائل له .

الوجه الرابع أن يقال : العرش حادث كائن بعد أن لم يكن ، (و)[3] لم يزل مستوياً عليه بعد[4] وجوده . وأما الخلق فالكلام في نوعه ، ودليله على امتناع حوادث لا أول لها قد عرف ضعفه[5] ، والله أعلم .

وكان ابن فورك في مخاطبة السلطان قصد اظهار مخالفة الكرامية ، كما قصد بنيسابور القيام على المعتزلة في استتابتهم ، وكما كفرهم عند السلطان . ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد ، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره ، فانه هو ظلم نفسه .

---

(١) بياض في الاصل ، وهذا ما يقتضيه السياق .

(٢) قد أشبع المصنف الكلام على مسألة دوام خالقيته تعالى في الفصل الرابع عشر من تفسير العلق أيضاً تحت عنوان « كون الخلق حادثاً » وكون وجود المخلوق عقب الخلق ، ووجوب التسلسل في الآثار المخلوقات » وما بعده . وهو بحث دقيق يجب مطالعته بامعان كي يُفهم. ثم . أتبعه ببيان مأخذ القول بالتسلسل في الآثار . وهي مسألة طالما طعنوا على المصنف لقوله بها . فتجدها موضحة مفصلة مدللة هنالك بما ليس عليه مزيد .

(٣) سقط « و » فن الاصل .

(٤) في الاصل « قبل » ، وهو تحريف صريح ، والله أعلم .

(٥) هكذا قال هنا مختصراً ، وقد جاء بسطه في الفصل الثامن من تفسير العلق تحت عنوان « كون العلم بامتناع حوادث دائمة متصلة ليس بديهياً » حيث قال . وأما اذا قدر حوادث دائمة شيئاً بعد شيء ، فهذا اما أن يقال هو ممكن ، وأما ان يقال هو ممتنع . لكن العلم بامتناعه يحتاج الى دليل ، ولم تعلم طائفة معروفة من العقلاء قالوا : ان العلم بامتناع هذا بديهي ضروري ، لا يفتقر الى دليل ـ الى آخر كلامه .

وأهل السنة والعلم والايمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق ـ يتبعون الرسول فلا يبتدعون . ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول عذروه . وأهل البدع ـ مثل الخوارج ـ يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم ويستحلون دمه . وهؤلاء كل منهم يرد بدعة الآخرين ، ولكن هو أيضاً مبتدع ، فيرد بدعة ببدعة وباطلاً بباطل .

وكذلك ما حكاه من مناظراتهم له عند الوزير مجلساً بعد مجلس هو من هذا الباب . فان المعتزلة والكرامية يقولون حقاً وباطلاً وسنة وبدعة . (كما أنه هو)[1] ـ وأيضاً كذلك يقول حقاً وباطلاً (موافقة)[1] لابي الحسن . وأبو الحسن سلك في مسألة الاسماء ، والاحكام ، والقدر مسلك الجهم بن صفوان ـ مسلك المجبرة ومسلك غلاة المرجئة . فهؤلاء قدرية مجبرة والمعتزلة قدرية نافية . فوقع بينهم غاية التضاد في مسائل التعديل والتجويز ونحوها .

والله يحب الكلام بعلم وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي ﷺ : « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة ـ رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة »[2] .

وقد حرم سبحانه الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ، فقال تعالى : ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ ، إنَّ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسئولاً﴾ ـ (الاسراء : ١٧ : ٣٦) ، وقال تعالى : ﴿قل إنَّما حرَّمَ ربي الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ والاثمَ والبغيَ بغيرِ الحقّ ، وأن تُشرِكُوا باللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّل بهِ سُلطاناً ، وأن تقولُوا على اللَّهِ مَا لا تعلمونَ﴾ ـ (الاعراف : ٧ : ٢٣) .

وأمر بالعدل على أعداء المسلمين ، فقال ﴿كونُوا قوَّامين للَّهِ شهداءَ بالقسطِ ، ولا يجرِمَنَّكُمْ شنَآنُ قومٍ على ألَّا تَعدِلُوا ، اعدِلُوا هُوَ أقربُ للتقوىٰ﴾ ـ (المائدة : ٥ : ٨) .

فصل[3]
(ثبوت العلو ينفي اتصافه بضده)

وهو سبحانه وصف نفسه بالعلو. وهو من صفات المدح له بذلك والتعظيم ، لانه من صفات الكمال ، كما مدح نفسه بأنه العظيم ، والعليم ، والقدير ، والعزيز ، والحليم ،

---

(١) بياض في الأصل ، وقد أكملناه بما يقتضيه السياق .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، من حديث بريدة بن الحصيب الاسلمي .

ونحو ذلك . وأنه الحي القيوم ، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنى . فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه .

فلا يجوز أن يوصف بضد الحياة والقيومية والعلم والقدرة ، مثل الموت والنوم والجهل والعجز واللغوب[1] ولا بضد العزة وهو الذل ، ولا بضد الحكمة وهو السفه .

فكذلك لا يوصف بضد العلو وهو السفول ، ولا بضد العظيم وهو الحقير ، بل هو سبحانه منزه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له . فثبوت صفات الكمال له ينفي اتصافه بأضدادها ، وهي النقائص .

وهو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفات الكمال .

فهو منزة عن النقص المضاد لكماله ، ومنزه عن أن يكون له مثل في شيء من صفاته . ومعاني التنزيه ترجع الى هذين الاصلين . وقد دل عليهما سورة الاخلاص التي تعدل ثلث القرآن بقوله : ﴿ قل هوَ اللَّهُ أحد * اللَّهُ الصمد﴾ . فاسمه ﴿الصمد﴾ يجمع معاني صفات الكمال ، كما قد بسط ذلك في تفسير هذه السورة وغير موضع ، وهو كما في تفسير ابن أبي طلحة[2] عن ابن عباس ، أنه المستوجب لصفات السؤدد و(الشرف)[3] ـ العليم الذي قد كمل في علمه ، الحكيم الذي قد كمل في حكمته ، الى غير ذلك مما قد بين[4] .

وقد ذكرنا في غير موضع أن ما وصف الله تعالى به نفسه من الصفات السلبية فلا بد أن يتضمن معنى ثبوتياً . فالكمال هو في الوجود والثبوت ، والنفي مقصوده نفي ما يناقض ذلك .

---

(١) اللغوب : التعب والاعياء .

(٢) هو علي بن ابي طلحة ـ واسمه سالم بن المخارق ـ الوالبي الهاشمي ، اصله من الجزيرة وانتقل الى حمص . أرسل عن ابن عباس ولم يره ، صدوق قد يخطىء . مات سنة ١٤٣ هـ ـ عن التهذيب والتقريب . قال الذهبي : أخذ تفسيره عن ابن عباس عن مجاهد ، فلم يذكر مجاهد ، بل أرسله عن ابن عباس . وقال : روى معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس تفسيراً كبيراً ممتعاً . وقال الحافظ ابن حجر : ونقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح ، عنه ، عن ابن عباس ، شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها ، ولكنه لا يسميه ـ يقول « قال ابن عباس » . او « يذكر ابن عباس » ـ ا هـ .

وقد ذكر المصنف في موضع فيمن اسناده في التفسير عن ابن عباس منقطع ولو انه في نفسه ثقة ، وعد تفسيره في موضع آخر في جملة التفاسير المضافة الى ابن عباس فقال : وتفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال أحمد: علي بن أبي طلحة ضعيف ، ولم يسمع عن ابن عباس شيئاً ـ ا هـ . قال في الرد على البكرى .

(٣) بياض في الاصل ،واكملناه من عبارة « تفسير سورة الاخلاص » .

(٤) ذكرها تماما في « تفسير سورة الاخلاص » هكذا : قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبي ، ثنا بو صالح ، ثنا معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله « الصمد » . قال : السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته . وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد. هو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغي لأحد الا له ، فليس له كفؤ ، وليس كمثله شيء . سبحان الله الواحد القهار . . (من طبعة الهند) .

فاذا نفى النقيض الذي هو العدم والسلب لزم ثبوت النقيض الاخر الذي هو الوجود والثبوت .

وبيّنا هذا في آية الكرسي وغيرها مما في القرآن ، كقوله : ﴿لا تأخذهُ سِنَةٌ ولا نوم﴾ ، فانه يتضمن كمال الحيوة والقيومية . وقوله ﴿من ذا الذي يشفعُ عندهُ إلاَّ بإذنهِ﴾ يتضمن كمال الملك . وقوله ﴿ولا يُحِيطُونَ بشيءٍ من علمهِ﴾ يقتضي اختصاصه بالتعليم دون ما سواه .

والوحدانية تقتضي الكمال ، والشركة تقتضي النقص . وكذلك قوله :﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ ، ﴿وما مسنا من لغوب﴾ ، ﴿ولا تدركه الابصار﴾ ،﴿ ولا يعزب عنه مثقال ذرة﴾ ، وأمثال ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن علوه من صفات المدح اللازمة له . فلا يجوز اتصافه بضد العلو ألبتة . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » ، ولم يقل (« تحتك »)[1] . وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير هذا الموضع .

واذا كان كذلك فالمخالفون للكتاب والسنة وما كان عليه السلف لا يجعلونه متصفاً بالعلو دون السفول . بل اما أن يصفوه بالعلو والسفول أو بما يستلزم ذلك ، واما أن ينفوا عنه العلو والسفول . وهم نوعان . . .

فالجهمية القائلون بأنه بذاته في كل مكان ، أو بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، لا يصفونه بالعلو دون السفول . فانه اذا كان في مكان فالامكنة منها عال وسافل . فهو في العالي عال ، وفي السافل سافل . بل اذا قالوا انه في كل مكان فجعلوا الامكنة كلها محل له ـ ظروفا وأوعية جعلوها في الحقيقة أعلى منه . فان المحل يحوي الحال ، والظرف والوفاء يحوي المظروف الذي فيه ، والحاوي فوق المحوى .

والسلف والائمة وسائر علماء السنة اذا قالوا « أنه فوق العرش » ، وانه في السماء فوق كل شيء » لا يقولون ان هناك شيئاً يحويه أو يحصره ، أو يكون محلاً له أو ظرفاً ووعاء ـ سبحانه وتعالى عن ذلك . بل هو فوق كل شيء ، وهو مستغن عن كل شيء وكل شيء مفتقر اليه . وهو عال على كل شيء ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته . وكل مخلوق مفتقر اليه ، وهو غنى عن العرش وعن كل مخلوق .

---

(١) في الاصل بياض ، ولعله « تحتك » كما يقتضيه السياق وكما في نسخة (د) والحديث قطعة من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم في الدعوات ، أوله عن سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا اذا أراد أحدنا أن ينام ان يضطجع على شقه الايمن ثم يقول « اللهم رب السموات ورب الارض ورب العرش العظيم . . . الحديث » .

وما في الكتاب والسنة من قوله ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن « السماء » هي نفس المخلوق العالي ـ العرش فما دونه . فيقولون : قوله « في السماء » بمعنى (على السماء) ، كما قال : ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي « على جذوع النخل » ، وكما قال ﴿فسيرُوا في الارض ِ﴾ أي « على الارض »[1] ولا حاجة الى هذا ، بل « السماء » اسم جنس للعالي ـ لا يخص شيئاً . فقوله (في السماء) أي « في العلو دون السفل » . وهو العلي الاعلى . فله أعلى العلو، وهو ما فوق العرش وليس هناك غيره ـ العلي الأعلى سبحانه وتعالى .

والقائلون بأنه في كل مكان هو عندهم في المخلوقات السفلية القذرة الخبيثة ، كما هو في المخلوقات العالية . وغلاة هؤلاء الاتحادية الذين يقولون « الوجود واحد » كابن عربي الطائي صاحب « فصوص الحكم » ، و« الفتوحات المكية » ، يقولون « الموجود الواجب القديم هو الموجود المحدث الممكن » .

ولهذا قال ابن عربي في « فصوص الحكم » :

« ومن أسمائه الحسنى « العلي » . على من ، وما ثم الا هو ؟ وعن ماذا ، وما هو الا هو ؟ فعلوه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات ، فالمسمى « محدثات » هي العلية لذاتها وليست الا هو »[2] .

الى أن قال :

« فالعلى لنفسه هو الذي يكون له جميع الاوصاف الوجودية والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفا وعقلاً وشرعاً ، أو مذمومة عرفا وعقلاً وشرعا . وليس ذلك الا لمسمى « الله » .

فهو عنده الموصوف بكل ذم ، كما هو الموصوف بكل مدح .

وهؤلاء يفضلون عليه بعض المخلوقات ، فان في المخلوقات ما يوصف بالعلو دون السفول كالسموات . وما كان موصوفا بالعلو دون السفول كان أفضل مما لا يوصف بالعلو ، أو يوصف بالعلو والسفول .

وقد قال فرعون ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ . قال ابن عربي :

« ولما كان فرعون في منصب التحكم والخليفة بالسيف جاز في العرف الناموسي أن قال[3] ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ . أي ، وان كان أن الكل أربابا بنسبة ما فأنا الاعلى منهم بما أعطيته

---

(١) كما قال ابن فورك في كلامه المتقدم ، انظر ما تقدم .

(٢) سبق الحديث عن ابن عربي وترجمته مفصلاً في الجزء الأول والثاني فليرجع اليه .

(٣) هذه العبارة في الأصل هكذا « وان جاز في العرف الناموسي قال » ، والظاهر أن فيه تصحيفا .

من الحكم فيكم . ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه ، بل أقروا له بذلك وقالوا له : ﴿ اقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحيوة الدنيا ﴾ ، فالدولة لك . فصح قول فرعون ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[1] . . . فبهذا وأمثاله يصححون قول فرعون ﴿ أنا ربكم الاعلى ﴾ ، وينكرون أن يكون الله عاليا ، فضلا عن أن يكون هو الأعلى ، او عما ذا يكون أعلى » ؟ .

وهكذا سائر الجهمية يصفون بالعلو على وجه المدح ما هو عال من المخلوقات ، كالسماء ، والجنة ، والكواكب ، ونحو ذلك ، ويعلمون أن العالي أفضل من السافل ، وهم لا يصفون ربهم بأنه الاعلى ، ولا العلى ، بل يجعلونه في السافلات كما هو في العاليات .

والجهمية الذين يقولون «ليس هو داخل العالم ولا خارجه ، ولا يشار اليه ألبتة » هم أقرب الى التعطيل والعدم ، كما أن أولئك أقرب الى الحلول والاتحاد بالمخلوقات . فهؤلاء يثبتون موجودا لكنه في الحقيقة المخلوق لا الخالق ، وأولئك ينفون فلا يثبتون وجودا ألبتة ، لكنهم يثبتون وجود المخلوقات ويقولون انهم يثبتون وجود الخالق .

واذا قالوا : نحن نقول « هو عال بالقدرة أو بالقدر » ، قيل : هذا فرع ثبوت ذاته وأنتم لم تثبتوا موجودا يعرف وجوده فضلا عن أن يكون قادرا أو عظيم القدر .

واذا قالوا : كان الله قبل خلق الأمكنة والمخلوقات موجودا[2] ، وهو الآن على ما عليه كان لم يتغير ، ولم يكن هناك فوق شيء ولا عاليا على شيء فكذلك هو الآن ، قيل : هذا غلط ، ويظهر فساده بالمعارضة ثم بالحل .

(المعارضة) . . . .

أما الأول ، فيلزمهم أن لا يكون الآن عالياً بالقدرة ولا بالقدر كما كان في الأزل ، فانه اذا قدر وجوده وحده فليس هناك موجود يكون قادراً عليه ولا قاهراً له ولا مستولياً عليه ، ولا موجود يكون هو أعظم قدرا منه .

فان كان مع وجود المخلوقات لم يتجدد له علو عليها كما زعموا ، فيجب أن يكون بعدها ليس قاهراً لشيء ، ولا مستولياً عليه ، ولا قاهراً لعباده ، ولا قدره أعظم من قدرها . واذا كانوا يقولون هم وجميع العقلاء انه مع وجود المخلوق يوصف بأمور اضافية لا يوصف بها اذا قدر موجودا وحده علم أن التسوية بين الحالين خطأ منهم .

وقد اتفق العقلاء على جواز تجدد النسب والاضافات مثل المعية ، وانما النزاع في تجدد ما يقوم بذاته من الامور الاختيارية . وقد بين في غير هذا الموضع أن النسب والاضافات

---

(١) انظر فصوص الحكم لابن عربي ، ورساله ايمان فرعون له ايضا .

(٢) كما تقدم من كلام ابن فورك .

مسلتـزمة لامور ثبوتية ، وأن وجـودها بدون الامور الثبوتية ممتنع .

والانسان اذا كان جالسا فتحول المتحول عن يمينـه بعد أن كـان عن شمالـه قيل : « أنـه عن شماله » . فقـد تجدد من هـذا فعل بـه تغيرت النسبـة والاضافـة . وكذلـك من كان تحت السطح فصار فوقه فان النسبة بالتحتية والفوقية تجدد كما تجدد فعل هذا .

واذا قيل : « نفس السقف لم يتغير » ، قيل قد يمنع هذا ويقـال : ليس حكمه اذا لم يكن فوقه شيء كحكمه اذا كان فوقه شيء . واذا قيل عن الجالس « انه لم يتغير » ، قيل : قد يمنـع هذا ويقال : ليس حكمه اذا كان الشخص عن يساره كحكمه اذا كان عن يمينه ، فـانه يحجب هذا الجانب ويوجب من التفات الشخص وغير ذلك ما لم يكن قبل ذلك .

وكذلك من تجدد له أخ أو ابن أخ بايلاد أبيه أو أخيه قـد وجد هنـا أموراً ثبـوتية . وهـذا الشخص يصير فيه العطف والحنو على هذا الـولد المتجـدد ما لم يكن قبـل ذلك ، وهي الـرحم والقرابة .

(الحل) . . . .

وبهذا يظهر الجواب الثاني ، وهو أن يقال :

العلو والسفـول ونحو ذلـك من الصفـات المستلزمـة لـلاضـافـة ، وكـذلـك الاستـواء ، والربوبية ، والخالقية ، ونحو ذلك . فاذا كان غيره موجودا فاما أن يكون عاليا عليه وأمـا ان لا يكون ، كما يقولون هم : اما أن يكون عاليا عليه بالقهر أو بالقدر أو لا يكون . خـلاف ما اذا قدر وحده ، فانهم لا يقولون انه حينئذ قاهر ، (أو قادر)[١] ، أو مستول عليه ، فلا يقال انـه عال عليه . وان قالوا : « انه قادر وقاهر » كان ذلك مشروطا[٢] بالغير ، وكـذلك علو القـدر ، قيل : وكذلك علو ذاته ـ ما زال عالياً بذاته لكن ظهور ذلك مشروط بوجود الغير . والالزامات مفحمة لهم .

وحقيقة قولهم انه لم يكن قادرا في الأزل ثم صار قادرا . يقولون لم يـزل قادراً مـع امتناع المقدور ، وانه لم يكن الفعل ممكنا فصار ممكنا . فيجمعون بين النقيضين .

فصـــــل (٤)

(صفه العلو ومسألة النزول)

وأما الذين يصفونه بالعلو والسفول فالذين[٣] يقولون : هو فوق العرش وهو أيضا في كل

---

(١) بياض في الاصل من العبارة التي تقدمت وهي : فانه اذا قدر وجوده وحده فليس هناك موجود يكون قادر عليه ولا قاهر له مستوليا عليه .

(٢) في الأصل « مشروط » .

(٣) قوله : « فالذين الخ » خبر « أما الذين الخ » .

مكان ، والذين يقولون : اذا نزل كل ليلة فانه يخلو منه العرش ، أو : غيره من المخلوقات أكبر منه ، ويقولون : لا يمتنع ان يكون الخالق أصغر من المخلوق ، كما يقول شيوخهم : انه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق فهؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء ، بل ولا هو ـ على قولهم ـ الكبير المتعال ، ولا هو العلي العظيم .

وقد بسط الرد على هؤلاء في « مسألة النزول »[1] لما ذكر قوله أئمة السنة مثل حماد ابن زيد ، واسحق بن راهويه ، وغيرهما : « أنه ينزل ولا يخلو منه العرش » ذكر قول من أنكر ذلك من المتأخرين المنتسبين الى الحديث والسنة[2] ، وبين فساد قولهم شرعاً وعقلاً . وهؤلاء في مقابلة ينفون النزول . .

واذا قيل : حديث النزول ونحو ظاهره ليس (مرادا)[3] ، فهذا صحيح اذا أريد بالظاهر ما يظهر لهؤلاء ونحوهم (من أنه ينزل الى أسفل) فيصير تحت العرش كما ينزل الانسان من سطح داره الى أسفل . وعلى قول هؤلاء لا يبقى حينئذ العلي ولا الاعلى بل يكون تارة أعلى وتارة أسفل ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام ، ومن نزوله الى الارض لما خلقها ، ومن نزوله لتكليم موسى ، وغير ذلك ، كله من باب واحد ، كقوله تعالى : ﴿ هل ينظرونَ إلاَّ أنْ يأتيهم اللهُ في ظُللٍ من الغمامِ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢١٠) ، وقوله : ﴿ وجاءَ ربُّكَ والملكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر ٢٢/٨٩) ، وقوله : ﴿ هل ينظرونَ إلاَّ أنْ يأتيهم الملائِكَةُ أو يأتي ربُّك أو يأتي بعضُ آياتِ ربِّك ﴾ ـ (الانعام ٦ : ١٥٨) .

النفاة المعطلة ينفون المجيء والاتيان بالكلية ويقولون : ما ثم الا ما يحدث في المخلوقات ، والحلولية يقولون : انه يأتي ويجيء بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر ، فيخلو منه

---

(١) هو كتاب « شرح حديث النزول » للمصنف أجاب فيه السائل عن حديث « ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر » . وبين فيه حقيقة صفة نزوله تعالى وما أشبهها من صفاته وأفعاله الخبرية كالاتيان والمجيء ، والاستواء ، والعلو ، وكل ما يتعلق بهذه المسائل ، كما ورد في كلام الله تعالى وكلام رسوله ، مع تنزيهه تعالى عن تمثيله بصفات المخلوقين ، وبيان ما يترتب من التقديرات والاحتمالات الفاسدة على تأويل من أولها على قياس المخلوقين ، وأشبع الكلام فيه من سائر الوجود والنواحي مع التوفيق التام بين العقل والنقل بحيث يصبح القارىء على بصيرة كاملة من جهة العقيدة الصحيحة في الصفات الالهية . طبع على الحجر بأمر تسر (الهند) سنة ١٣١٥ هـ ، ص ١١٦ ، ذكره بروكلمان وأعيد طبعه بمطبعة الامام بمصر ، سنة ١٣٦٦ هـ ، صفحاته ٢٢٧ .

(٢) ان القائل بخلو العرش هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن اسحاق بن منده العبدي الامام الحافظ ابن الحافظ الكبير أبي عبد الله بن منده ، صاحب التصانيف المتوفى سنة ٤٧٠ هـ . ذكر المصنف قوله بخلو العرش منه بطوله والجواب عنه في « شرح حديث النزول » ، ص ٥٤ ـ ٦٨ الطبعة المصرية .

(٣) بياض في الأصل ولعله كما أثبتناه . وفي طبعة الهند : ليس (يحتمل التأويل) وكذا في طبعة السعودية .

ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه . فاذا أتى وجاء لم يصر على قولهم العلى الاعلى ، ولا كان هو العلى العظيم ، لا سيما اذا قالوا : أنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه ـ سبحانه وتعالى عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوا عظيما .

وكذلك قوله : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ ان كان قد[1] قال أحد « أنه في جوف السماء » فهو شر قولا من هؤلاء ، ولكن هذا ما علمت به قائلا معيناً منسوباً الى علم حتى أحكيه قولا .

ومن قال : « أنه في السماء » فمراده أنه في العلو ، ليس مراده أنه في جوف الافلاك ، الا (أن بعض)[2] الجهال يتوهم ذلك . وقد ظن طائفة أن هذا ظاهر اللفظ ولا ريب أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق . لكن هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه ، أو هو مدلول اللفظ في اللغة ، هو مما لا يسلم لهم كما قد يبسط في مواضع .

وقد قال تعالى : ﴿ قل لا يعلمُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلَّا اللهَ ﴾ ـ (النمل ٢٧ : ٦٥) . فاستثنى نفسه ، واللفظ العام[3] « من في السموات والأرض » .

ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع ، لان المستثنى مرفوع ، ولو كان منقطعا لكان منصوبا . والمرفوع على البدل ، والعامل فيه هو العامل في المبدل منه وهو بمنزلة المفرغ ، كأنه قال : « لا يعلم الغيب إلا الله » . فيلزم أنه داخل في « من في السموات والأرض » .

وقد قدمنا أن لفظ « السماء » يتناول كل ما سما ، ويدخل فيه السموات ، والكرسي ، والعرش ، وما فوق ذلك . لان هذا في جانب النفي ، وهو لم يقل هنا « السموات السبع » بل عم بلفظ « السموات » . واذا كان لفظ « السماء » قد يراد به السحاب ، ويراد به الفلك ، ويراد به ما فوق العالم ، ويراد به العلو مطلقا ، في « السموات » جمع « سماء » . وكل من في ما يسمى « سماء » وكل من في ما يسمى « ارضا » لا يعلم الغيب الا الله .

وهو سبحانه قال : ﴿ قل لا يعلم من ﴾ولم يقل ﴿ ما ﴾ ، فانه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه بـ﴿ من ﴾ لتكون أبلغ ، فانهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم منهم الغيب إلا الله .

وهذا هو الغيب المطلق الذي قال فيه : ﴿ فلا يُظهِرُ علىٰ غيبِهِ أحداً ﴾ ـ

---

(١) في الأصل « قدره » ، ولعل الصواب « قد » .

(٢) بياض في الأصل قدر سطر تقريبا .

(٣) في الأصل « العالم » ، وهو تصحيف .

(الجن ٧٢ : ٢٦) . (وما علمه)[1] بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الانس وشهدوه ، فانما هو غيب غاب عنه ، ليس هو غيبا عمن شهده . والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا ، فيكون غيبا مقيدا - اي غيبا عمن غاب عنه من المخلوقين ، لا عمن شهده . ليس غيبا مطلقا غاب عن المخلوقين قاطبة .

وقوله : ﴿ عالِمُ الغيبِ والشهادة ﴾ أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً ومعيناً وما شهدوه ، فهو سبحانه يعلم ذلك كله .

والنفاة للعلو ونحوه من الصفات معترفون بأنه ليس مستندهم خبر الانبياء - لا الكتاب ، ولا السنة ، ولا أقوال السلف - ولا مستندهم فطرة العقل وضرورته ، ولكن يقولون : معنا النظر العقلي .

وأما أهل السنة المثبتون للعلو فيقولون : ان ذلك ثابت بالكتاب والسنة والاجماع ، مع فطرة الله التي فطر العباد عليها وضرورة العقل ، ومع نظر العقل واستدلاله .

لكل الذين يقولون بأنه ينزل ولا يبقى فوق العرش ، وانه يكون في جوف المخلوقات ، ونحو هؤلاء ، قد يقولون ان مستندهم في ذلك السمع وهو ما فهموه من القرآن ، او من الأحاديث الصحيحة أو غير الصحيحة ، أو من أقوال السلف وهم أخطأوا من حيث نظروا - اقتصروا على فهمه من نص واحد ، كفهمهم من حديث النزول - ولم يتدبروا ما في الكتاب والسنة مما يصفه بالعلو والعظمة ونحو ذلك مما ينافي ان يكون شيء اعلى منه أو أكبر منه .

ويتدبروا أيضاً دلالة النص ، مثل نزوله الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر بأن الليل يختلف ، فيكون ليل أهل المشرق ونصفه وثلثه الآخر قبل ذلك في المغرب بقريب من يوم[2] . فيلزم على قولهم أنه لا يزال تحت العرش ، وهو قد أخبر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض[3] . وما ذكروه ينافي استواءه على العرش ، وانه ليس فوق العرش ، كما قد بسط في مواضع .

---

(١) بياض بالأصل : اكملته طبعتا الهند والسعودية بقولهم : (والغيب المقيد ما علمه) وهذا لا يناسب جواب الشرط المذكور في العبارة مما يدل على ان المحذوف شرط . بدليل وجود جوابه .

(٢) قد بسط المصنف هذا كل البسط في « شرح حديث النزول » ص ١١٩ - ١٢٩ الطبعة المصرية .

(٣) انظر بسطه الشافي في « حديث النزول » ص ١١٦ - ١٧١ الطبعة المصرية .

(٥) فصـــل
(في قوله : الأعلى)

« الاعـلى » على وزن أفعـل التفضيل « مثـل الاكرم ، والاكبـر » والاجمـل . ولهـذا قـال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان « أعل هبل ! أعل هبل ! « فقـال النبي ﷺ : « ألا تجيبونـه » ؟ قالوا : وما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل » ! .(١) وهو مذكور بأداة التعريف « الاعلى » مثل ﴿ وربك الاكرم ﴾(٢) ،بخلاف ما اذا قيل « الله أكبر » فانه منكر .

ولهذا معنى يخصه يتميز به ، كما بين العلو ، والكبرياء ، والعظمة ، فان هذه الصفات وان كانت متقاربة ، بل متلازمة ، فبينهـا فروق لـطيفة . ولهـذا قال النبي ﷺ فيـما يروي عن ربـه تعالى : « العظمة ازاري والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحد منهما عذبته » (٣) . فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء ، وهو أعلى من الازار .

ولهذا كان شعائر الصلوة ، والاذان ، والاعياد ، والاماكن العـالية ، هـو التكبير . وهـو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن ـ سبحـان الله ، والحمد لله ولا الـه الا الله ، والله أكبر ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ .

ولم يجيء في شيء من الاثـر بدل قـول « الله اكبر » « الله أعـظم » . ولهـذا كـان جمهـور الفقهاء على أن الصلوة لا تنعقـد الا بلفظ التكبير . فلو قـال « الله أعظم » لم تنعقـد به الصلوة لقول النبي ﷺ : « مفتاح الصلوة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم(٤) . وهذا قول مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأبي يوسف ، وداود ، وغيرهم . ولو أتى ذلك من الأذكـار ـ مثل سبحان الله ، والحمد لله ـ لم تنعقد به الصلوة .

ولان التكبير مختص بالذكر في حـال الارتفاع ، كـما أن التسبيح مختص بحـال الانخفاض كما في السنن عن جابـر بن عبد الله قـال : كنا مـع رسول الله ﷺ اذا علونـا كبرنـا واذا هبطنـا

---

(١) كان ذلك يوم أحد بعد انتهاء القتال ، كما أخرجه البخاري في الجهاد ، والمغازي ، والتفسير ، من حديث البراء بن عازب ، وأخرجه أيضا أبو داود ، والنسائي .

(٢) سيأتي تفسيره بالبسط في الفصل الخامس من تفسير العلق « الوصف بالكرم يقتضي الحكمة والرحمة » .

(٣) أخرجه أحمد ، وهناد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والدارقطني في الافراد ، عن أبي هريرة ، وعن ابن عباس ، بتقديم الكبـرياء ، وفيـه « قذفته في النار » ـ عن « الاتحافات السنية » .

(٤) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث علي بن أبي طالب ، وعليه شرح مبسوط للحافظ ابن القيم شرح في نحو عشر صفحات أفاد وأجاد في « تهذيب سنن أبي داود » المطبوع مع مختصر المنذري ومعالم السنن ، مصـر سنة ١٣٦٧ هـ ، ج١ ، ص ٤٥ ـ ٥٦ .

سبحنا ، فوضعت الصلوة على ذلك[1] .

ولما نزل قوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾قال : « اجعلوها في ركوعكم » ، ولما نزل ﴿ سبح اسم ربك الاعلى ﴾قال : « اجعلوها في سجودكم » . وثبت عنه أنه كان يقول في ركوعه « سبحان ربي العظيم » وفي سجوده « سبحان ربي الأعلى » . ولم يكن يكبر في الركوع والسجود .

ولكن قد كان يقرن التسبيح التحميد والتهليل ، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » يتأول القرآن - أي يتأول قوله ﴿ فسبّح بحمدِ ربِّكَ واستغفرهُ إنَّهُ كانَ توَّاباً ﴾ فكان يجمع بين التسبيح والتحميد .

وكذلك قد كان يقرن بالتسبيح في الركوع والسجود التهليل ، كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت : افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة ، فظننت أنه ذهب الى بعض نسائه ، فتحسست ثم رجعت ، فاذا هو راكع أو ساجد يقول « سبحانك وبحمدك ، لا اله الا أنت » . فقلت : بأبي أنت وأمي ! اني لفي شأن وانك لفي شأن .

ففي هذه الاحاديث كلها أنه كان يسبح في الركوع والسجود ، لكن قد يقرن التسبيح التحميد والتهليل ، وقد يقرن به الدعاء . ولم ينقل أنه كبر في الركوع والسجود .

وأما قراءة القرآن فيهما فقد ثبت عنه أنه قال : اني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً » - رواه مسلم من حديث علي ، ومن حديث ابن عباس . وذلك أن القرآن كلام الله فلا يتلى الا في حال الارتفاع ، والتكبير أيضاً محله حال الارتفاع .

وجمهور العلماء على أن يشرع التسبيح في الركوع والسجود ، وروي عن مالك أنه كره

---

(١) حديث جابر أخرجه البخاري في الجهاد ، في باب التسبيح اذا هبط واديا ، وفي باب التكبير اذا علا شرفا . ولفظه : « قال : كنا اذا صعدنا كبرنا واذا نزلنا سبحنا » . وليس فيه « فوضعت الصلوة على ذلك » . وانما وقعت هذه الزيادة في حديث عبد الله بن عمر عند ابي داود وحده أخرجه في الجهاد ، باب ما يقول الرجل اذا استوى على بعيره خارجاً الى سفر كبر ثلاثاً ثم قال. سبحان الذي سخر لنا هذا . . . الحديث » . ثم قال في آخره : وكان النبي ﷺ وجيوشه اذا علوا الثنايا كبروا ، واذا هبطوا سبحوا ، فوضعت الصلوة على ذلك - انتهى . وحديث ابن عمر هذا أخرجه أيضاً مسلم في الحج ، والترمذي في الدعوات ، ولكن بدون هذه الزيادة التي انفرد بها أبو داود .

وقد اخرجه البخاري أيضا عن ابن عمر من طريق أخرى في الجهاد ، باب التكبير اذا علا شرفا ، متصلا عقب حديث جابر المذكور . ولهذا - والله اعلم - التبس على المصنف الحديثان - اسنادهما ومتنها . وسيأتي هذا الحديث بعينه أثناء الفصل السابع من تفسير العلق ، حيث صرح المصنف بقوله « رواه ابو داود » .

المداومة على ذلك لئلا يظن وجوبه . ثم اختلفوا في وجوبه . فالمشهور عن أحمد ، واسحق وداود ، وغيرهم وجوبه . وعن أبي حنيفة ، والشافعي ، استحبابه .

والقائلون بالوجوب ، منهم من يقول : تعين « سبحان ربي العظيم » و« سبحان ربي الاعلى » للامر بهما ، وهو قول كثير من أصحاب أحمد ، ومنهم من يقول : بل يذكر بعض الاذكار المأثورة .

والأقوى أنه يتعين التسبيح ، اما بلفظ « سبحان »[1] ، واما بلفظ « سبحانك » ، ونحو ذلك . وذلك أن القرآن سماها « تسبيحاً »[2] فدل على وجوب التسبيح فيها ، وقد بينت السنة أن محل ذلك الركوع والسجود ، كما سماها الله « قرآناً »[3] وقد بينت السنة أن محل ذلك القيام . وسماها « قياما » و« سجوداً » و« ركوعاً » وبينت السنة علة ذلك ومحله .

وكذلك التسبيح ـ يسبح في الركوع والسجود . وقد نقل عن النبي ﷺ أنه كان يقول « سبحان ربي العظيم » و«سبحان ربي الأعلى » ، وانه كان يقول « سبحانك اللهم وبحمدك » اللهم اغفر لي » ، و« سبحانك وبحمدك لا اله الا أنت » . وفي بعض روايات أبي داود « سبحان ربي العظيم وبحمده » ، وفي استحباب هذه الزيادة عن أحمد روايتان . وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده « سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح » . وفي السنن أنه كان يقول « سبحان ذي الجبروت والملكوت ، والكبرياء ، والعظمة » . فهذه كلها تسبيحات[4] .

والمنقول عن مالك أنه (كان يكره المداومة على ذلك فان) [5] كان كراهة المداومة على « سبحان ربي الأعلى والعظيم » فله وجه ، وان كان كراهة المداومة على جنس التسبيح فلا وجه له ، وأظنه الأول . وكذلك المنقول عنه انما هو كراهة المداومة على « سبحان ربي العظيم » لئلا يظن انها فرض ، وهذا يقتضي أن مالكاً أنكر أن تكون فرضاً واجباً .

وهذا قوي ظاهر ، بخلاف جنس التسبيح ، فان أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جداً . وقد علم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوعة .

---

(١) كان في الأصل هنا « سبح اسم ربك الأعلى » ، ثم ضرب على « ربك الأعلى » ، فبقى « سبح اسم » . ولعل صوابه « سبحان » كما في أول أكثر صيغ التسبيحات .

(٢) تسمية القرآن الصلوة « تسبيحا » من مثل قوله تعالى ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ ـ (ق . ٥ : ٣٩) .

(٣) تسميتها « قرآناً » من قولن تعالى : ﴿وقرآن الفجر ، ان قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ ـ (الاسراء : ١٧ : ٢٨) .

(٤) هذه العبارة سقطت من الناسخ في الأصل . فأضفناها ليستقيم المعنى .

(٥) انظر في هذه الاحاديث ، الأذكار للنووى ٢ / ٤٦ ـ ٤٨ ، وانظر دقائق التفسير١ / ٩٩ .

وقوله «اجعلوها في ركوعكم وفي سجودكم» يقتضي ان هذا محل لامتثال هذا الامر، لا يقتضي أنه لا يقال الا هي ما قد ثبت أنه كان يقول غيرها.

والجمع بين صيغتي تسبيح بعيد، بخلاف الجمع بين التسبيح، والتحميد، والتهليل والدعاء. فان هذه أنواع، والتسبيح نوع واحد فلا يجمع فيه بين صيغتين.

وأيضاً قد ثبت في الصحيح أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن - سبحان الله، والحمد لله، ولا اله الا الله، والله أكبر». فهذا يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها. فان جعل التسبيح نوعاً واحداً فـ «سبحان الله» و«سبحان ربي الأعلى» سواء. وان جعل متفاضلاً فـ «سبحان الله» افضل بهذا الحديث.

وأيضاً فقوله ﴿سبح اسمَ ربّكَ الاعلىٰ﴾ و﴿فسبح باسمِ ربّكَ العظيم﴾ أمر بتسبيح ربه، ليس أمرا بصيغة معينة. فاذا قال «سبحان الله وبحمده» «سبحانك اللهم وبحمدك» فقد سبح ربه الاعلى والعظيم. فان اللّه هو الاعلى، وهو العظيم، واسمه «اللّه» يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن، وان كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه. ففي اسمه «اللّه» التصريح بالالهية، واسمه «اللّه» أعظم من اسمه «الرب». وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ فقال: ما اصطفى اللّه لملائكته أو لعباده - «سبحان الله وبحمده».

فالقيام، فيه التحميد (و) في الاعتدال من الركوع، وفي الركوع والسجود التسبيح، وفي الانتقال التكبير، وفي القعود التشهد وفيه التوحيد. فصارت الأنواع الأربعة في الصلوة.

والفاتحة أيضاً فيها التحميد والتوحيد. فالتحميد والتوحيد ركن يجب في القراءة، والتكبير ركن في الافتتاح، والتشهد الآخر ركن في (القعود كما هو)[1] المشهور عن أحمد، وهو مذهب الشافعي، وفيه التشهد المتضمن للتوحيد.

يبقى التسبيح، وأحمد يوجبه في الركوع والسجود، وروى عنه أنه ركن، وهو قوي لثبوت الأمر به في القرآن والسنة. فكيف يوجب الصلوة على النبي ﷺ ولم يجيء أمر بها في الصلوة خصوصاً ولا يوجب التسبيح مع الأمر به في الصلوة، ومع كون الصلوة تسمى «تسبيحاً»؟ وكل ما سميت به الصلوة من أبعاضها فهو ركن فيها، كما سميت «قياماً»، و«ركوعاً»، «وسجوداً»، «وقراءة»، وسميت أيضاً «تسبيحاً».

---

(١) سقطت هذه العبارة من الأصل، وهي لازمة للسياق.

. ولم يأت عن النبي ﷺ ما ينفي وجوبه في حال السهو كما ورد في التشهد الاول انه لما تركه سجد للسهو ، لكن قد يقال : لما لم يأمر به المسيء في صلوته دل على أنه واجب ليس بركن . وبسط هذه المسائل له موضع آخر .

والمقصود هنا أن التسبيح قد خص به حال الانخفاض ، كما خص حال الارتفاع بالتكبير . فذكر العبد في حال انخفاضه وذله ما يتصف به الرب (مقابل)[1] ذلك . فيقول في السجود « سبحان ربي الأعلى » وفي الركوع « سبحان ربي العظيم » .

و« الأعلى » يجمع معاني العلو جميعها ، وأنه الاعلى بجميع معاني العلو . وقد اتفق الناس على أنه على كل شيء بمعنى أنه قاهر له ، قادر عليه ، متصرف فيه ، كما قال﴿اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ - (المؤمنون : ٢٣ : ٩١) .

وعلى أنه عال عن كل عيب ونقص ، فهو عال عن ذلك ، منزه عنه ، كما قال تعالى : ﴿ولا تَجعلْ معَ اللَّهِ الهاً آخرَ فَتُلقىٰ في جهنَّم ملوماً مدحوراً * أفأصفكُمْ ربكُمْ بالبنين واتَّخذَ من الملائكةِ اناثاً ، إنَّكم لتقولونَ قولاً عظيماً * ولقد صرَّفنا في هذا القرآن ليذَّكَروا ، وما يزيدهم الا نُفورا * قُلْ لو كانَ معهُ آلهةٌ كما يقولونَ إذاً لابتغوا إلىٰ ذي العرشِ سبيلاً * سبحانَهُ وتعالىٰ عَمّا يقولونَ علّواً كبيراً﴾ - (الاسراء ١٧ : ٣٩ - ٤٣) . فقرن تعاليه عن ذلك بالتسبيح .

وقال تعالى : ﴿ما اتخذَ اللَّهُ مِنْ ولدٍ وما كانَ معهُ مِنْ إلهٍ إذاً لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خَلَقَ وَلَعَلَابعضهُمْ علىٰ بعضٍ ، سُبحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفونَ * عالُم الغيبِ والشهادةِ فتعالىٰ عَمَّا يُشركونَ﴾ - (المؤمنون ٢٣ : ٩١ و ٩٢) . وقالت الجن ﴿وأنَّهُ تعالىٰ جدُّ ربنا ما اتَّخذَ صاحبةً ولا ولداً﴾ - (الجن ٧٢ : ٣) .

وفي دعاء الاستفتاح : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك » . وفي الصحيحين انه كان يقول في آخر استفتاحه : « تباركت وتعاليت واستغفرك وأتوب اليك »[2] .

---

(١) بياض في الأصل ، ولعله « مقابل » .

(٢) هو قطعة من حديث علي بن أبي طالب في دعاء الاستفتاح الطويل ، أوله « وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض . . الخ » ، وقد تفرد باخراجه مسلم (عن البخاري ، فأخرجه في الصلوة ، باب الدعاء في صلوة الليل وقيامه ٢/١٨٥ وأخرجه ايضاً أبو داود ، والترمذي وابن ماجه ، ورواه احمد في مسنده ط المعارف ٢/١٣٤ . . وانظر مشكاة المصابيح للتبريزي ١/٢٥٥ - ٢٥٧ ط دمشق الاذكار للنووي ص ٤٣ . وانظر الحديث محققاً في جامع الرسائل بتحقيق محمد رشاد سالم ص - ١٢٦ .

فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون وعما يشركون . فهو متعال عن الشركاء والاولاد ، كما أنه مسبح عن ذلك .

وتعاليه سبحانه عن الشريك هو تعاليه عن السمي ، والند ، والمثل ، فلا يكون شيء مثله .

وقد ذكروا من معاني العلو الفضيلة ، كما يقال : الذهب أعلى من الفضة . ونفى المثل عنه يقتضي انه اعلى من كل شيء ، فلا شيء مثله . وهو يتضمن انه افضل وخير من كل شيء . كما انه اكبر من كل شيء . وفي القرآن ﴿قل الحمدُ للهِ وسلامٌ علىٰ عِبادهِ الَّذينَ اصطفىٰ ، آللَّهُ خيرٌ أم ما يشركونَ﴾ - (النمل : ٢٧ - ٥٩) . ويقول ﴿أَفمنْ يخلقُ كَمَنْ لا يخلقُ أفلا تذكرونَ﴾ - (النحل : ١٦ - ١٧) . ويقول ﴿أَفَمَنْ يَهدي إلىٰ الحقِّ أحقُّ أن يُتبعَ أمَّنْ لا يَهدي إلا أنْ يُهدَىٰ﴾ - (يونس : ١٠ - ٣٥) وقالت السحرة ﴿والله خير وأبقى﴾ - (طه : ٢٠ - ٧٣) .

وهو سبحانه يبين أن المعبودين دونه ليسوا مثله في مواضع ، كقوله : ﴿قُلْ مَنْ يرزقكُمْ مِنَ السماءِ والارض أمَّن يملكُ السمعَ والابصارَ ومن يُخرجُ الحيَّ مِنَ الميتَ ويُخرجُ الميت مِنَ الحي وَمَنْ يدَّبرُ الامرَ ، فسيقولونَ الله ، فقل أفلا تتقونَ * فذلكم الله ربكُمْ الحقّ ، فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضلال فَأنَّىٰ تُصرَفُونَ * كذلكَ حقَّت كلمتُ ربّكَ علىٰ الَّذينَ فَسَقُوا أنَّهم لا يؤمنونَ * قل هل من شركائِكُمْ من يهدي الىٰ الحقِّ ، قل اللَّهُ يهدي للحقِّ ، أفمن يهدي الىٰ الحقِّ أحقُّ أنْ يُتبع أمَّنْ لا يهدي إلَّا أنْ يُهدَىٰ ، فما لكُم ، كيفَ تحكمونَ * وما يتبعُ أكثرهُم إلَّا ظَنّاً ، ان الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئاً ، إنَّ اللَّهَ عليمٌ بما يفعلونَ﴾ - (يونس : ١٠ : ٣١ - ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿أفمن يخلقُ كَمَنْ لا يخلُق ، أفَلَا تذكرونَ * وإنْ تعدُّوا نعمةَ اللَّهِ لا تحصُوهَا ، إنَّ اللَّهَ لغفورٌ رحيمٌ * واللَّهُ يعلمُ ما تُسِرُّونَ وما تُعلنونَ * والَّذينَ يدعونَ مِنْ دونِ اللَّهِ لا يَخلِقُونَ شيئاً وهُمْ يُخلقونَ * أموات غير أحياء ، وما يشعرونَ أيَّانَ يُبعثونَ﴾ - (النحل : ١٦ : ١٧ - ٢١) . وكذلك قوله في أثناء السورة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدِرُ علىٰ شيءٍ ومن رزقناهُ منَّا رزقاً حسناً فهُو يُنفِقُ منه سِراً وجهراً ، هل يستَوُون ، الحمدُ للَّهِ ، بل أكثرهُمْ لا يعلمونَ * وضَرَبَ اللَّهُ مثلاً رجلينِ أحدُهُمَا أبكمُ لا يقدرُ علىٰ شيءٍ وهُوَ كَلٌّ علىٰ مولِيهُ أينمَا يوجههُ لا يأتِ بخيرٍ ، هل يستوي هُوَ ومن يأمر بالعدلِ وهُوَ علىٰ صراطٍ

مستقيم﴾ - (النحل : ١٦ : ٥٧ - ٧٦) . فهو سبحانه يبين أنه المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه وأنه لا مثل له . ويبين ما اختص به من صفات الكمال وانتفائها عما يعبد من دونه . ويبين أنه يتعالى عما يشركون وعما يقولون من اثباتَ الأولاد والشركاء له .

وقال ﴿قل لـو كانَ معهُ آلهةً كما يقولـونَ إذاً لابتغُوا إلىٰ ذي العـرشِ سبيلاً﴾ . . . . - (الاسراء١٧ : ٤٢) ، وهم كانو يقولون انهم يشفعون لهم ويتقربون بهم . لكن كانوا - يثبتون الشفاعة بدون اذنه ، فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة ، وهـذا نوع من الشـرك . فلهذا قـال تعـالى : ﴿ولا يملكُ الَّذينَ يـدعونَ مِنْ دونـهِ الشفاعـةَ﴾ - (الـزخـرف : ٤٣ : ٨٦) ، . . . فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله .

كما روى ابن ابي حاتم عن السـدي في قولـه : ﴿إذاً لابتغُوا الىٰ ذي العـرشِ سبيلاً﴾ . يقول : لابتغت الحوائج من الله . وعن معمر ، عن قتادة : ﴿لابتغُوا الىٰ ذي العـرشِ سبيلاً﴾ لابتغوا التقرب اليه مع أنه ليس كما يقولون . وعن سعيد ، عن قتادة : (لو كان معـه آلهة كـما يقولون) لو كان معه آلهة اذا لعرفوا له فضله ومزيته عليهم ولابتغوا اليه ما يقربهم اليه . وروى عن سفيان الثوري : لتعاظموا[1] سلطانه .

وعن أبي بكر الهذلي ، عن سعيد بن جبير سبيلاً الى أن يزلوا ملكه ، والهذلي ضعيف[2] فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والاولاد ، فليس كمثله شيء . وهـذا يقتضي ثبوت صفـات الكمال لـه دون الشـركـاء والأولاد ، فليس كمثله شيء وهذا يقتضي ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه .

وأنـه لا يماثله غيـره في شيء من صفات الكمـال ، بل هـو متعال عن أن يمـاثله شيء . وتضمن أنه عال على الجميع كل ما سواه قاهر له قادر عليه نـافذة مشيئتـه فيه ، وأنـه عال عـلى الجميع فوق عرشه . فهذه ثلاثة أمور في اسمه (العلي) .

واثبات علوه على ما سـواه ، وقدرته عليه وقهره - يقتضيي ربوبيته له ، وخلقه له ، وذلك يستلزم ثبوت الكمال . وعلوه عن الأمثال يقتضى أنه لا مثل له فيّ صفات الكمال .

وهذا يقتضي جميع ما يوصف به في الاثبـات والنفي ففي الاثبات يـوصف بصفـات الكمال ، وفي النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال ، وينزه عن أن يكون له مثل في صفـات الكمال . كما قد دلت على هذا وهذا سورة الاخلاص : ﴿ قُلْ هو اللهُ أحدٌ اللهُ الصمد ﴾ .

---

(١) في الأصل (لتعاطوا)والظاهر أنه مصحف . وقوله (لتعاظموا سلطانه) ، أي لعظم عليهم سلطانه .

(٢) هذان قولان للمفسرين في هذه الآية ، أي طلب السبيل بالتقريب اليه ، أو بالمغـاليه ، والقهـر . وسيأتي قـريباً بيـان ترجيح الصنف للقول الأول .

وتعاليه عن الشركاء يقتضى اختصاصه بالالهية ، وأنه لا يستحق العبادة الا هـو وحده ، كما قـال : ﴿ قل لو كانَ معهُ آلهةٌ كما يقولونَ إذاً لا بتغُوا الىٰ ذي العـرشِ سبيلاً ﴾ . . . . - (الاسراء ١٧ : ٤٢) ، أي وان كانوا - كما يقولون - يشفعون عنده بغير اذنه ويقربونكم اليـه بغير اذنه فهو الرب والاله دونهم ، وكانوا يبتغون اليه سبيلا بالعبادة له والتقرب اليه هذا أصـح القولين. كما قال: ﴿ ان هذِهِ تذكرة، فَمَنْ شآءَ اتَّخذَ الى ربهِ سبيلاً وما تشاؤونَ إلاَّ ان يشاءَ اللهُ ﴾ - (الـدهـر ٧٦ : ٢٩ و ٣٠) وقـال : ﴿ إنَّـهُ تـذكـرةٌ فـمـن شـآءَ ذكـرهُ ﴾ - (المدثر ٧٤ : ٥٤ و ٥٥) ، وقال : ﴿ أولئك الذين يدعـون يبتغون الى ربهم الـوسيلة أيهم أقرب ﴾ - (الاسراء ١٧ ، ٥٧) .

ثم قـال : ﴿ سبحانـهُ وتعالىٰ عمـا يقولـونَ علوّاً كبيـراً ﴾ - (الاسـراء ١٧ : ٤٣) . فتعـالى عن أن يكون معـه اله غيـره ، أو أحد يشفـع عنده الا بـاذنه ، أو يتقـرب اليه أحـد الا باذنه . فهذا هو الذي كانوا يقولون .

ولم يكونوا يقولون ان آلهتهم تقدر أن تمانعه أو تغالبه . بل هذا يلزم من فرض اله اخر يخلق ، وان كانوا هـم لم يقولوا ذلك ، كما قال : ﴿ ما اتَّخـذَ اللهُ من ولدٍ ومـا كانَ معـهُ مِنْ إلهٍ إذاً لذهبَ كلُّ الهٍ بما خلقَ ولعلا بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ﴾ .

فقد تبين أن اسمه (الأعلى) يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال ، وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص ، وعن أن يكون له مثل ، وانه لا اله الا هو ، ولا رب سواه .

(٦) فصـــــل

(في ان التسبيح يقتضى التنزيه والتعظيم)

والأمر بتسبيحه يقتضى أيضا تنزيهه عن كل عيب وسوء واثبات صفات الكمال لـه . فان (التسبيح)[١] يقتضى التنزيه والتعظيم ، والتعـظيم يستلزم اثبات المحامد التي يحمـد عليها . فيقتضى ذلك تنزيه وتحميده ، وتكبيره ، وتوحيده .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، ثنا ابن نفيل الحراني ، ثنا النضر بن عربي ، قال : سأل رجل ميمون بن مهران عن (سبحانه الله) . فقال : (اسم يعظم الله) .

وقال : حدثنـا : أبو سعيـد الأشج ؛ ثنـا حفص بن غياث ، عن حجـاج ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قال سبحان ، قـال : تنزيـه الله نفسه من السـوء . وعن الضحاك عن

(١) بياض بالأصل ، ولعله (التسبيح) .

ابن عباس في قوله : ﴿ سبحان الَّذي أسرىٰ بعبدهِ ليلاً ﴾ قال : عجب . وعن أبي الاشهب ، عن الحسن . . قال : ﴿ سبحان ﴾ اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه .

وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس انه (تنزيه نفسه من السوء) ، وروى في ذلك حديث مرسل . وهو يقتضى تنزيه نفسه من فعل السيئآت ، كما يقتضى تنزيهه عن الصفات المذمومة .

ونفى النقائص يقتضى ثبوت صفات الكمال ، وفيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران (اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء) . وروى عبد بن حميد : حدثنا أبو النعيم ، ثنا سفيان عن عثمان بن عبد الله به موهب ، عن موسى بن طلحة قال : سئل النبي ﷺ عن التسبيح ، فقال : (انزاهه عن السوء) . . وقال حدثنا الضحاك بن مخلد ، عن شبيب عن عكرمة ، عن ابن عباس : (سبحانه الله) ، قال : تنزيهه .

حدثنا كثير بن هشام ، ثنا جعفر بن برقان ، ثنا يزيد بن الأصم قال : جاء رجل الى ابن عباس فقال : (لا اله)[1] الا الله نعرفها أنه لا الله غيره ، و (الحمد الله) نعرفها أن النعم كلها منه وهو المحمود عليها ، و (الله أكبر) نعرفها أنه لا شيء أكبر منه ، فما (سبحان الله) ؟ فقال ابن عباس : وما ينكر منها ؟ هي كلمة رضيها الله لنفسه ، وأمر بها ملائكته وفزع اليها الأخيار من خلقه .

(٧) فصل

قوله : ﴿ الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى ﴾ . العطف يقتضى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر وأن بينهما مغايرة ـ أما في الذات واما في الصفات .

وهو في الذات كثير ، كقوله : ﴿ ان الَّذينَ آمنوا والَّذينَ هادُوا والصائبينَ والنصارىٰ والمجوسَ والذين أَشركُوا ﴾ ـ (الحج ٢٢ : ١٧) .

وأما في الصفات فمثل هذه الآية . فان الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى ، لكن هذا الاسم والصفة ليس هو ذاك الاسم والصفة . ومثله قوله : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن) ـ (الحديد ٥٧ : ٣) . ومثله قوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ـ الى قوله ـ والذي يؤمنونَ بما أُنزل اليكَ وما أُنزل من قبلك ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٣ و ٤) . وقوله : ﴿ لكن

---

(١) بياض بالأصل ، وأثبتناه بقرينة السياق .

الرَّاسخونَ في العلمِ منهم والمؤمنونَ يؤمنونَ بما أُنزل اليك وما أُنزل من قبلكَ والمقيمين الصلوةَ والمؤتون الزكوة والمؤمنون باللهِ واليومِ الآخر ﴾ ـ (النساء ٤ : ١٦٢) ، وقوله : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنونَ الَّذين هُمْ في صلاتهم خاشعونَ والذينَ هُمْ عن اللغوِ مُعرضونَ ـ الآيات ﴾ ـ (المؤمنون ٢٣ : ١ ـ ٩) . وقوله : ﴿ الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم ـ الآيات ﴾ ـ (المعارج ٧٠ : ٢٢ ـ ٣٤) .

وقوله : ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ـ الآيات ﴾ ـ (الأحزاب ٣٣ : ٣٥) . فانه ﴿ من صدق و ﴾[1] صبر ولم يسلم ولم يؤمن لم يكن ممن ﴿ أعد الله لهم مغفرة ﴾[1] وأجراً عظيماً[2] .

وكثير ما تأتي الصفات بلا عطف ، كقوله : ﴿ هو اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هُوَ الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمن ﴾ ـ (الحشر : ٥٩ : ٢٣) ، وقوله : ﴿ قل أعوذُ بربِّ النَّاسِ ملكِ الناس إلهِ الناس ﴾ .

وقد تجيء خبرا بعد خبر ، كقوله : ﴿ وهو الغفورُ الودودُ ذو العرشِ المجيدِ فعَّالٌ لما يريد ﴾ (البروج ٥٨ : ١٤ ـ ١٦) . ولو كان (فعال) صفة لكان معرفا ، بل هو خبر بعد خبر . وقوله : ﴿ هو الأول والآخر ﴾ خبر بعد خبر ، لكن بالعطف بكل من الصفات .

وأخبار المبتدأ قد تجيء بعطف وبغير عطف . واذا ذكر بالعطف كان كل اسم مستقلا بالذكر ، وبلا عطف يكون الثاني من اتمام الاول بمعنى . ومع العطف لا تكون الصفات الا للمدح والثناء أو للمدح والثناء أو للمدح ؛ وأما بلا عطف فهو في النكرات للتميز وفي المعارف قد يكون للتوضيح .

و ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ ، و ﴿ الذي قدر فهدى ﴾ ، و ﴿ الذي أخرج المرعى ﴾ ، وصف بكل صفة من هذه الصفات ، ومدح بها ، وأثنى عليه بها . وكانت كل صفة من هذه الصفات ـ مستوجبة لذلك .

---

(١) بياض بالأصل ، والتكميل من سياق الكلام .

(٢) والآية بتمامها هكذا ﴿ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

(٨) فصـــــل

(في قوله تعالى : الذي خلق فسوى)

قال تعالى : ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ . فأطلق الخلق والتسوية ولم يخص بذلك الانسان ، كما أطلق قوله بعد : ﴿ والذي قَدَّر فهدى ﴾ ، لم يقيده . فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات . وقد بين موسى عليه السلام شموله في قـوله : ﴿ ربنـا الذي اعـطى كل شيءٍ خلقهُ ثم هدى ﴾ ـ (طه ٢٠ : ٥٠) .

وقد ذكر المقيد بالانسان في قوله : ﴿ يا آيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقـك فسواك فعدلك ﴾ ـ (الانفطار ٨٢ : ٦ و ٦) .

وذكر المطلق والمقيد في أول ما نـزل من القرآن ، وهـو قولـه : ﴿ اقرأ بـاسم ربّكَ الـذي خلق خلقَ الانسانَ من علق اقرأ وربّك الأكرم الذي علَّمَ بالقلم علَّمَ الانسـانَ ما لم يعلم ﴾ . (العلق ٩٦ : ١ ـ ٥) .

وفي جميع هذه الآيات ـ مطلقها ومقيدها والجامـع بين المـطلق والمقيد ـ قـد ذكـر خلقـه ، وذكر هدايته وتعليمه بعد الخلق ، كما قال في هذه السـورة : ﴿ الذي خلق فسـوى والذي قـدر فهدى ﴾ لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها ، فلا بـد أن تهدى الى تلك الغـاية التي خلقت لها . فلا تتم مصلحتها وما أريدت له الا بهدايتها لغايتها .

وهذا مما يبين الله خلق الأشياء لحكمة وغاية تصل اليهـا ، كما قـال ذلك السلف وجمهـور المسلمين وجمهور العقلاء .

وقالت طائفـة ـ كجهم وأتباعـه ـ انه لم يخلق شيئـا لشيء ، ووافقه أبـو الحسن الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء ـ أتبـاع الأئمة . وهم يثبتـون أنه مـريد ، وينكـرون أن تكون لـه حكمة يريدها .

وطائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته وحكمته ، وينكرون ارادتـه . وكلاهمـا مناقض . وقـد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء في غير هذا الموضع ، وأن منتهاهم جحد الحقائق .

فان هذا يقول : (لو كان له حكمـة يفعل لآجلهـا لكان يحب[1] لحكمـة وينتفع بهـا ، وهو منزه عن ذلك) .

---

(١) في الأصل : يجب وبعدها فراغ مقدار كلمة والصحيح انه ليس هناك سقط وكلمة يجب صـوابها (يحب) . وقـد قدر محقق ط. الهند ان هناك لاسقاط ونقل عنه ناشر ط. السعودية والصواب ما أثبتناه لان الفلاسفة ينفون عنه صفة المحبة .

وذاك يقول : ﴿ لو كان له ارادة لكان يفعل لجر منفعة ، فان الارادة لا تعقل الا كذلك﴾ . وأتباعه يقولون : (لو فعل شيئا لكان الفعل لغرض ، وهو منزه عن ذلك) .

فيقال لهؤلاء : هذه الحوادث المشهودة ألها محدث أم لا ؟ فان قالوا (لا) فهو غاية المكابرة . واذا جوزوا حدوث بلا محدث فتجويزها بمحدث لا ارادة له أولى .

وان قالوا (لها محدث) ثبت الفاعل . واذا ثبت الخالق المحدث فاما أن يفعل بارادته أو بغير ارادة . فان قالوا (يفعل بغير ارادة) كان ذلك أيضا مكابرة . فان كل حركة في العالم انما صدرت عن ارادة .

فان الحركات اما طبعية ، واما ارادية . لأن مبدأ الحركة اما أن يكون من المتحرك ، أو من سبب خارج . وما كان منها فاما أن يكون مع الشعور ، أو بدون الشعور ، وما كان سببه منها بلا شعور فهو الطبعي ، وما كان من الشعور فهو ارادي . فالقسري تابع للقاسر ، والذي يتحرك بطبعه ، كالماء والهواء والأرض ، هو ساكن في مركزه لكن اذا خرج عن مركزه قسرا طلب العود الى مركزه ، فأصل حركته القسر . ولم تبق حركة أصلية إلا الارادية . فكل حركة في العالم فهي عن ارادة .

فيكف تكون جميع الحوادث والحركات بلا ارداة ؟ .

وأيضا ، فاذا جوزوا أن تحدث الحركة العظيمة عن فاعل غير مريد فجواز ذلك عن فاعل مريد أولى .

واذا ثبت أنه مريد قيل : اما أن يكون أرادها لحكمة ، اما أن يكون أرادها لغير حكمة . فان قالوا : (لغير حكمة كان)[1] مكابرة . فان الارادة لا تعقل الا اذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل .

وأيضا ، فاذا جوزوا أن يكون فاعلا مريدا بلا حكمة فكونه فاعلا مريدا لحكمة أولى بالجواز (ليس معنى كونه يخلق الحكمة ينتفع بها أو يحتاج اليها) .

وأما قولهم : (هذا لا يعقل الا في حق من ينتفع ، وذلك يوجب الحاجة ، والله منزه عن ذلك) . فان أرادوا أنه يوجب احتياجه الى غيره أو شيء من مخلوقاته فهو ممنوع وباطل فان كل ما سواه محتاج اليه من كل وجه وهو الصمد الغني عن كل ما سواه وكل ما سواه محتاج اليه ، وهو القيوم القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه . فكيف يكون محتاجا الى غيره ؟

وان أرادوا أنه تحصل له بالخلق حكمة هي أيضا حاصلة بمشيئته فهذا لا محذور فيه ، بل هو الحق .

---

(١) سقطت هذه العبارة من الأصل فأضفناها ليستقيم المعنى .

واذا قالوا (الحكمة هي اللذة) ، قيل : لفظ (اللذة) لم يرد به الشرع ، وهو موهم ومجمل لكن جاء الشرع بأنه (يحب ويرضى) و (يفرح بتوبة التائبين) ونحو ذلك . فاذا أريد ـ ما دل عليه الشرع والعقل فهو حق .

وان قالوا (الحكمة اما أن تراد لنفسها أو لحكمة) ، قيل : المرادات نوعان ـ ما يراد لنفسه ما يراد لغيره . وقد يكون الشيء غاية وحكمة بالنسبة الى مخلوق وهو مخلوق لحكمة أخرى . فلا بد أن ينتهي الأمر الى حكمة يريدها الفاعل لذاتها .

والمعتزلة ومن مواقفهم ، كابن عقيل وغيره ، تثبت حكمة لا تعود الى ذاته . وأما السلف فانهم يثبتون حكمة تعود اليه ، كما قد بين في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا ذكر قوله تعالى : ﴿ الَّذي خلقَ فسوىٰ والَّذي قدَّرَ فهدى﴾ . والتسوية : جعل الشيئين سواء كما قال : ﴿ وما يستوي الأعمىٰ والبصير﴾- (فاطر ٣٥ : ١٩) ، وقوله تعالى : ﴿ تعالوا الىٰ كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ﴾ - (آل عمران ٣ : ٦٤) . وسواء : وسط ، لأنه معتدل بين الجوانب .

وذلك أنه لا بد في الخلق والأمر من العدل . فلا بد من التسوية بين المتماثلين[١] ، فاذا فضل أحدهما فسد المصنوع ، كما في مصنوعات العباد . اذا بنوا بنياناً فلا بد من التسوية بين الحيطان ، اذا لو رفع حائط رفعا كثيرا فسد . ولا بد من التسوية بين جذوع السقف ، فلو كان بعض الجذوع قصيرا عن الغاية وبعضها فوق الغاية فسد . وكذلك اذا بنى صف فوق صف لا بد من التسوية بين الصفوف . وكذلك الدرج المبنية . وكذلك اذا صنع لسقى الماء جداول . ومساكب فلا بد من العدل والتسويةفيها . وكذلك اذا صنعت ملابس للآدميين فلا بد من أن تكون مقدرة على أبدانهم ـ لا تزيد ولا تنقص . وكذلك ما يصنع من الطعام لا بد أن تكون أخلاطه على وجه الاعتدال ، والنار التي تطبخه كذلك . وكذلك السفن المصنوعة .

ولهذا قال الله لداود ﴿ وقدِّرَ في السَّردِ ﴾ ـ (سبا ٣٤ : ١١) ، أي لا تدق المسمار فيقلق ، ولا تغلظه فيفصم ، واجعله بقدر[٢] . فاذا كان هذا في مصنوعات العباد ـ وهي جزء من مصنوعات الرب ـ فكيف بمخلوقاته العظيمة التي لا صنع فيها للعباد ، كخلق الانسان وسائر البهائم ، وخلق النبات ، وخلق السموات والأرض ، والملئكة ؟

كالفلك الذي خلقه وجعله مستديراً ماله من فروج ، كما قال تعالى : ﴿الذي خلقَ سبعَ

---

(١) في الأصل (المائلين) ، وهو خطأ .

(٢) قال مجاهد : قوله : ﴿ وقدر فيّ السرد ﴾ ، قال : قدر المسامير والحلق (أي حلق الدروع) لا تصغر المسمار وتعظم الحلقة فتسلس ولا تعظم المسمار وتصغر الحلقة فيفصم المسمار .

سموات طِباقاً ، ما ترى في خلقِ الرَّحمنِ من تفاوتٍ ، فارجعِ البصرَ هل ترىٰ من فطورٍ ثمَّ ارجعِ البصرَ كرَّتينِ ينقلبْ اليكَ البصرُ خاسِئاً وهُوَ حسيرٌ﴾ - (الملك ٦٧ : ٣ و٤) ، وقال تعالى : ﴿والسماءِ ذاتِ الحُبُكِ﴾ (الذاريات ٥١ : ٧) ، وقال ﴿أفلم ينظروا الىٰ السماءِ فوقهُمْ كيفَ بنيناهَا وزيناهَا ومالها من فروجٍ﴾ (ق ٥٠ : ٦) .

فهو سبحانه سواها كما سوى الشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات ، فصل بين أجزائها . ولو كان أحد جانبي السماء داخلاً أو خارجاً لكان فيها فروج ، وهي الفتوق والشقوق ، ولم يكن سواه ، كمن بنى قبة ولم يسوها . وكذلك لو جعل أحد جانبيها أطول أو أنقص ، ونحو ذلك .

فالعدل والتسوية لازم لجميع المخلوقات والمصنوعات . فمتى لم تصنع بالعدل والتسوية بين المتماثلين[1] وقع فيها الفساد .

وهو سبحانه ﴿الذي خلَقَ فسوَّىٰ﴾ . قال أبو العالية في قوله : ﴿خَلَقَ فسوَّى﴾ قال : سوى خلقهن . وهذا كما قال تعالى : ﴿فسَّواهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومينِ﴾[2] - (البقرة ٢ : ٢٩) .

(٩) فصـــل
(اثبات قدر الله السابق لخلقه في علمه بالأشياء قبل كونها)

ثم اذا خلق المخلوق فسوى ، فان لم يهده الى تمام الحكمة التي خلق لها فسد . فلا بد أن يُهدي بعد ذلك الى ما خُلق له .

وتلك الغاية لا بد أن تكون معلومة للخالق . فان العلة الغائبئية هي أول في العلم والارادة وهي آخر في الوجود والحصول .

ولهذا كان الخالق لا بد أن يعلم ما خلق . فإنه قد أراده ، وأراد الغاية التي خلقه لها والارادة مستلزمة للعلم . فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به والصانع اذا أراد أن يصنع شيئاً فقد علمه وأراده ، وقدر في نفسه ما يصنعه ، والغاية التي ينتهي اليها ، وما الذي يوصله الى تلك الغاية[3] .

والله سبحانه قدر وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم ، كما ثبت في صحيح مسلم عن

---

(١) في الأصل (المتماثلين وهو خطأ) .
(٢) كذا في الأصل بزيادة (في يومين) وليست في القرآءة ، وفي حم السجدة (فقضاهن سبع سموات في يومين) .
(٣) أنظر بسط ذلك في الفصل العاشر من تفسير العلق (بيان الاستدلال بالخلق والتعليم على اثبات صفات الكمال) .

عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : (قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء)[1] .

وفي البخاري عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال : (كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض) ـ وفي رواية (ثم خلق السموات والأرض)[2] .

فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء الى يوم القيامة ، كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : (أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب . فقال : ما أكتب ؟ فقال : اكتب ما يكون الى يوم القيامة[3] .

وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جدا . وروى ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه سئل عن قوله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ـ (القمر ٥٤ : ٤٩) ، فقال ، قال ابن عباس : ان الله قدر المقادير بقدرته ودبر الأمور بحكمته ، وعلم ماالعباد صائرون وما هو خالق وكائن من خلقه . فخلق الله لذلك جنة وناراً ، فجعل الجنة لأوليائه وعرفهم وأحبهم وتولاهم ووفقهم وعصمهم ، وترك أهل النار استحوذ عليهم ابليس وأضلهم وأزلهم .

فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه ـ ما يصلحه من رزقه في بر أو في بحر . فجعل للبعير خلقاً لا يصح شيء[4] من خلقه على غيره من الدواب . وكذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها في خلقها ، فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف .

قال ابن أبي حاتم : ثنا أبي ، ثنا يحيى بن زكريا بن مهران القزاز، ثنا حبان بن عبيد الله قال : سألت الضحاك عن هذه الآية ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ . قال الضحاك ، قال ابن عباس ، فذكره . وقال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا طلحة بن سنان ، عن عاصم ، عن الحسن قال: من كذب بالقدر فقد كذب بالحق . خلق الله خلقاً ، وأجل أجلا ، وقدر رزقا ، وقدر مصيبة ، وقدر بلاء ، وقدر عافية . فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن .

وقال : حدثنا الحسن بن عرفه ، ثنا مروان بن شجاع الجزري ، عن عبد الملك ابن جريج ، عن عطاء بن أبي رباح قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه ، فقلت له : قد تكلم في القدر .

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ، في باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، وأخرجه الترمذي أيضاً في كتاب القدر وابن حنبل ١٦٩ .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، وفي المغازي وفي التوحيد الترمذي (كتاب التفسير) ابن حنبل٣/٢١٢

(٣) هو من حديث الوليد بن عباده بن الصامت ، عن أبيه عباده بن الصامت ، وفيه قصة . أخرجه أبو داود في السنة والترمذي في القدر ، وفي التفسير ، وأحمد في المسند .

(٤) في الأصل شيئاً بالنصب وهو لا وجه له وط السعودية ، الهند .

فقال : أوفعلوها ؟ قلت : نعم . قال : فوالله ما نزلت هذه الآية الا فيهم : ﴿ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ - (القمر ٥٤ : ٤٨ و ٤٩) . أولئك شرار هذه الأمة فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم . ان رأيت احداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين .

وقال ايضاً : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد[1] ، حدثنا سهل الخياط ، ثنا أبو صالح الحمداني[2] ، ثنا حبان بن عبيد الله قال : سألت الضحاك عن قوله : ﴿ما أصابَ من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتابٍ من قبل أن نبرأها﴾ - (الحديد ٥٧ : ٢٢) . قال ، قال ابن عباس : ان الله خلق العرش فاستوى عليه ، ثم خلق القلم فأمره ليجري باذنه وعظم القلم كقدر ما بين السماء والأرض - فقال القلم : بما ، يا رب أجرى ؟ فقال . (بما أنا خالق وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر - يعني به العمل - أو رزق أو أجل) . فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة . فأثبته الله في الكتابّ المكنون عنده تحت العرش .

(١٠) فصل
(في قوله : قدر فهدى)

فقوله سبحانه : ﴿والذي قدّرَ فهدىٰ﴾ يتضمن أنه قدر ماسيكون للمخلوقات ، وهداها اليه ، علم ما يحتاج اليه الناس والدواب من الرزق ، فخلق ذلك الرزق وسواه ، وخلق الحيوان وسواه وهداه الى ذلك الرزق . وهدى غيره من الأحياء أن يسوق اليه ذلك الرزق .

وخلق الأرض ، وقدر حاجتها الى المطر ، وقدر السحاب وما يحمله من المطر . وخلق ملائكة هداهم ليسوقوا ذلك السحاب الى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره . وقدر ما نبت بها من الرزق ، وقدر حاجة العباد الى ذلك الرزق وهداهم الى ذلك الرزق وهدى من يسوق ذلك الرزق اليهم .

وقد ذكر المفسرون أنواعاً من تقديره وهدايته : فروى ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وغيرهما ، بالاسناد الثابت عن مجاهد في قوله ﴿قدَّرَ فهدى﴾ ، قال : الانسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الانعام لمراتعها . وكذلك رواه عبد بن حميد في تفسيره ، قال : هدى الانسان للسعادة والشقاوة ، وهدى الانعام لمراتعها .

وقال : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن قتادة : (الذي قدّر فهدى) ، قال : (لا والله ما أكره الله عبداً على معصية قط ولا على ضلالة ، ولا رضيها له ولا أمره ولكن رضي لكم الطاعة فأمركم بها ونهاكم عن معصيته) .

(١ و ٢) في الأصل (الحسد) و(الحداني) ولم نجد ما نقابلهما عليه .

(قلت) : قتادة ذكر هذا عند هذه الآية ليبين أن الله قدر ما قدره من السعادة والشقاوة كما قال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما من أئمة المسلمين ، فانهم لم يكونوا متنازعين . فما سبق من سبق تقدير الله ، وانما كان نزاع بعضهم في الارادة وخلق الأفعال .

وأنما نازع في التقدير السابق والكتاب أولئك الذين تبرأ منهم الصحابة[1] كابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهما .

وذكر قتادة أن الله لم يكره أحداً على معصية . وهذا صحيح ، فان أهل السنة المثبتين للقدر متفقون على أن الله لا يكره أحد على معصية كما يكره الوالي والقاضي وغيرهما لمخلوق على خلاف مراده ـ يكرهونه بالعقوبة والوعيد . بل هو سبحانه يخلق ارادة العبد للعمل وقدرته وعمله ، وهو خالق كل شيء .

وهذا الذي قاله قتادة قد يظن فيه أنه من قول القدرية ، وأنه لسبب مثل هذا اتهم قتادة بالقدر حتى قيل ان مالكاً كره من معمر أن يروى عنه التفسير لكونه اتهم بالقدر .

وهذا القول[2] حق ، ولم يعرف أحد من السلف قال (ان الله أكره أحداً على معصية) .

بل أبلغ من ذلك أن لفظ (الجبر) منعوا اطلاقه ، كالأوزاعي ، والثوري ، والزبيدي ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم . نهوا عن أن يقال (ان الله جبر العباد) ، وقالوا : ان هذا بدعة في الشرع ، وهو مفهم للمعنى الفاسد .

قال الأوزاعي وغيره : ان السنة جاءت بـ (جبل) ولم تأت بـ (جبر) ، فان النبي ﷺ قال لأشج (عبد) القيس :[3] (ان فيك لخلقين يحبهما الله ـ الحلم والأناة) . فقال : أخلقين (تخلقت)[4] بهما أم خلقين جبلت عليهما ؟

فقال : (بل خلقين جبلت عليهما) . (قال)[5] : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله[6] .

---

(١) في الأصل ما صورته (الضحاك) وهو تصحيف . واراد بهم القدرية النفاة .

(٢) في مقابلة هذا العبادة بالأصل : اي الذي قاله قتادة .

(٣) بياض بالأصل . وأشج عبد القيس ـ واسمه المنذر بن عائذ العصري ـ كبير وفد عبد القيس الذين قدموا قديما من البحرين على النبي ﷺ كما في الصحيحين من حديث ابن عباس ، زاد مسلم في آخره هذه القطعة الى قوله (والاناة) . وبقية محاورة الأشج أخرجه أبو يعلى في مسنده كما أفاده النووي رحمه الله وقد ذكره المزي في الاطراف من حديث الاشج نفسه باخراج النسائي في البعوث والمناقب ، وهما كتابان من السنن الكبرى للنسائي دون الصغرى وهي التي لا يوجد لها اثر في مكاتب العالم اليوم ، والله اعلم . وقد شرح العلامة ابن القيم رح مقام الجبر والجبل هذا في آخر فصل قدوم وفد عبد القيس من (زاد المعاد) .

(٤) سقطت من الأصل . (٥) ساقطة بالأصل .

(٦) كذا بزيادة لفظ الجلالة ، وهو زائد ، ولم يذكره النووي في حكايته لهذه القطعة من مسند أبي يعلى . والحديث مع اختلاف في الالفاظ =

وقال الزبيدي وغيره : انما يجبر العاجز - يعني الجبر الذي هو بمعنى الاكراه - كما تجبر المرأة على النكاح ، والله أجل وأعظم من أن يجبر أحداً - يعني انه يخلق ارادة العبد فلا يحتاج الى اجباره . فالزبيدي وطائفة نفوا (الجبر) وكان مفهومه عندهم هذا .

وأما الأوزاعي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما ، فكرهوا أن يقال (جبر) أن يقال (لم يجبر) ، لأن (الجبر) قد يراد به الاكراه ، والله لا يكره أحداً .

وقد يراد به أنه خالق الارادة ، كما قال محمد بن كعب : (الجبار هو الذي جبر العباد على ما أراد) . و(الجبر) بهذا المعنى صحيح .

وقول مجاهد في قوله : (قدر فهدى) : (هدى الانسان للسعادة والشقاوة يبين أن هذا عنده مما دخل في قوله (قدر فهدى) ، أي هدى السعداء الى السعادة التي قدرها ، - وهدى الأشقياء الى الشقاء الذي قدره .

وهكذا قال مجاهد في قوله : ﴿إنّا هديناهُ السبيل﴾ - (الدهر ٧٦ : ٣) ، قال : السعادة والشقاوة . وقال عكرمة : سبيل الهدى . رواهما عبد بن حميد .

وكذلك روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قول : ﴿وهديناهُ النجدين﴾ - (البلد ٩٠ : ١٠) قال : الشقاوة والسعادة .

وقد قال هو وجماهير السلف ﴿وهديناهُ النجدين﴾ : أي الخير والشر . ورواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود . ثم قال : وروى عن علي بن أبي طالب ، وابن عباس في احدى (الرواتين عنه)[٢] ، وشقيق بن سلمة وأبي صالح ، ومجاهد ، والحسن ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وشرحبيل بن سعيد ، وابن سنان الرازي ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وعمر ابن قيس الملائي ، نحو ذلك .

وروى عن محمد بن كعب القرظي قال : الحق والباطل .

وهذا الكلام مجمل فيه ما هو متفق عليه ، وهو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل ، ونصبه من الدلائل والآيات ، وأعطاهم من العقول - طريق الخير والشر - كما في قوله : ﴿وأما ثمودَ - فهديناهم﴾ - (فصلت ٤١ : ١٧) .

وأما ادخال[٣] الهدى الذي هو الالهام في ذلك ، بمعنى أنه هدى المؤمن الى أن يؤمن

= جاء في : مسلم ٤٨/١ - ٤٩ (كتاب لايمان باب لامر بالايمان بالمدة تعالى) ابن ماجه ١٤٠١/٢ (كتاب الذهد) المسند (٧ الحلبي) ٣ (٣٣ ، ٤ ، ٢٠٦ وانظر ٦٨/١ درع تعارض العقل والنقل بتحقيق محمد رشاد سالم ط دار الكتب المصرية هامش ٥ .

(١) بياض بالأصل ، والتكميل من السياق .

(٢) بيان بالأصل ، والتكميل من السياق .

(٣) في الأصل (ارسال وهو تصحيف) .

ويعمل صالحاً الى أن يسعد بذلك ، وهدى الكافر الى ما يعمله الى أن يشقى بذلك فهذا منهم من يدخله في الآية ، كمجاهد وغيره ويدخله في قوله ﴿إِنَّا هديناهُ السبيل﴾ . وعكرمة وغيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية وان كانوا مقرين بالقدر .

ومن قال : (هدى) بمعنى بين فقط ، فقد هدى كل عبد الى نجد الخير والشر جميعاً ، أي بين له طريق الخير والشر . ومن أدخل في ذلك السعادة والشقاوة يقول : في هذا تقسيم ، أي هذه الهداية عامة مشتركة وخص المؤمن بهداية الى نجد الخير ، ـ وخص الكافر بهداية الى نجد الشر .

ومن لم يدخل ذلك في الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال : ذكرنا لنا (أن)[١] رسول الله ﷺ كان يقول : (يا أيها الناس انما هما نجدان نجد الخير ، ونجد الشر . فما يجعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير) ؟ .

ويحتجون بأن الهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى ، بل سماه ضلالا ، والله أمتن بأنه هدى .

وقد يجيب الآخر بأن يقول : هو لا يدخل في الهدى المطلق ، لكن يدخل في الهدى المقيد ، كقوله ﴿فاهدوهم الى صراط الجحيم﴾ ـ (الصافات ٣٧ : ٢٣) ، وكما في لفظ البشارة ، قال ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ ـ (آل عمران ٣ : ٢١ وغيرها) ، ولفظ الايمان فقال ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ ـ (النساء ٤ : ٥١) .

وهذان القولان في قوله : ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس ٩١ : ٨)[٢] .

قيل : هو البيان العام ، وقيل : بل ألهم الفاجر الفجور والتقى التقوى .

وهذا في تلك الآية أظهر ، لأن الالهام استعماله مشهور في الهام القلوب ، لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة . وقد علم النبي ﷺ حصينا الخزاعي[٣] لما أسلم أن يقول : (اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)[٤] ولو كان الالهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلاً للمسلم والكافر .

---

(١) أضفناه تفسير ابن كثير .
(٢) سيأتي تفسير هذه الآية في سورة الشمس .

(٣) هو حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي والد عمران بن حصين .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات عن عمران بن حصين قال ، قال النبي ﷺ لأبي : (يا حصين كم تعبد اليوم الها) ؟ قال أبي : سبعة ـ ستة في الأرض وواحد في السماء . قال : (فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك) ؟ قال : الذي في السماء . قال : (ياحصين أما انك لو أسلمت علمتك كلمتين) . قال : فلما أسلم حصين قال : يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني . فقال : (قل اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي) . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وقد روى هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه .

وقال ابن عطية : و(سوَّى) معناه عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية ، دالة على قدرته ووحدانيته وقرأ جمهور القراء (قدر بتشديد الدال ، فيحتمل أن يكون من القدر والقضاء ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء .

(قلت) : هما متلازمان ، لأن التقدير الأول يسمى تقديراً لأن ما يجري بعد ذلك يجري على قدره ، فهو موازن له ومعادل له . قال : (وقرأ الكسائي وحده بتخفيف الدال فيحتمل أن يكون بمعنى القدر[1] ، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة) .

(قلت : وهذا قول الأكثرين أنهما بمعنى واحد) .

قال ابن عطية : وقوله : ﴿ فهدى ﴾ علم لوجوه الهدايات في الانسان والحيوان . وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات فقال الفراء : معناه هدى وأضل ـ واكتفى لدلالتها على الأخرى .

قال ، وقال مقاتل ، والكلبي : هدى الى وطىء الذكور للاناث .

وقيل : هدى المولود عند وضعه الى مص الثدي .

وقال مجاهد : هدى الناس للخير والشر ، والبهائم للمراتع .

قال ابن عطية : (وهذه الأقوال مثالات ، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية) . وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي هذه الأقوال وغيرها ، فذكر سبعة أقوال : قدر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة ، قاله مجاهد .

وقيل : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها اليه ، قاله عطاء .
وقيل : قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج ، قاله السدي .
وقيل : قدرهم ذكرانا واناثا وهدى الذكور لاتيان الاناث ، قاله مقاتل .

وقيل : قدر فهدى وأضل ، فحذف (وأضل) لا أن في الكلام ما يدل عليه ، حكاه الزجاج . وقيل قدر الارزاق وهدى الى طلبها ، وقيل ، قدر الذنوب فهدى الى التوبة حكاهما الثعلبي . (قلت) : القول الذي حكاه الزجاج هو قول الفراء ، وهو من جنس قوله : ﴿ ان نفعت وان لم تنفع ﴾ ، ومن جنس قوله : ﴿ سرابيلَ تقيكم الحرَّ والبرد ﴾ . وقد تقدم ضعف مثل هذا ، ولهذا لم يقله أحد المفسرين . والاقوال الصحيحة هي من باب المثالات ، كما قال ابن عطية .

وهكذا كثير من تفسير السلف ـ يذكرون من النوع مثالا لينبهوا به على غيره أو لحاجة

---

(١) كذا بالأصل ، ولعل الصواب (القدر) .

المستمع الى معرفته ، أو لكونه هو الذي يعرفه ، كما يذكرون مثل ذلك في مواضع كثيرة . كقوله : ﴿ ستُدْعَون الى قوم ٍ أولي بأس ٍ شديدٍ ﴾ - (الفتح ١٦/٤٨) ، وقوله : ﴿ وآخرينَ منهم ﴾ (الجمعة ٦٢ : ٣) ، وقوله : ﴿ فسوفَ يأتي الله بقوم ٍ يحبهم ويحبونهُ ﴾ (المائدة ٥ : ٥٤) وقوله فمنهم ظالمٌ لنفسهِ ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ ﴾ - فاطر ٣٥ : ٣٢) .

وكذلك تفسير ﴿ الشفع والوتر ﴾ ، و ﴿ شاهد ومشهود ﴾ ، وغير ذلك ، وقوله : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ - (الذاريات ٥١ : ٢١) . وأمثال ذلك كثير من تفسيرهم هو من باب المثال .

ومن ذلك قولهم : (ان هذه الآية نزلت في فلان وفلان) . فبهذا يمثل بمن نزلت فيه - نزلت فيه أولا وكان سبب نزولها - لا يريدون به أنها[1] آية .

مختصة به ، وآية القذف ، وآية المحاربة ، ونحو ذلك . لا يقول مسلم أنها مختصة بمن كان نزولها بسببه واللفظ العام وان قال طائفة انه يقصر على سببه فمرادهم على النوع الذي هو سببه - لم يريدوا بذلك أنه يقتصر على شخص واحد من ذلك النوع .

فلا يقول مسلم ان آية الظهار لم يدخل فيها الا أوس بن الصامت ، وآية اللعان لم يدخل فيها الا عاصم بن عدي[2] ، أو هلال بن أمية ، وأن ذم الكفار لم يدخل فيها الا كفار قريش ، ونحو ذلك ، مما لا يقوله مسلم ولا عاقل .

فان محمد ﷺ قد عرف بالاضطرار من دينه أنه مبعوث الى جميع الانس والجن ، والله تعالى خاطب بالقرآن جميع الثقلين ، كما قال : ﴿ لأنذركم بهِ ومن بلَّغ ﴾ - (الأنعام ٦ : ١٩) . فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني فقد أنذره الرسول به . والانذار هو الاعلام بالمخوف ، والمخوف - وهو العذاب - ينزل بمن عصى أمره ونهيه .

فقد أعلم كل من وصل اليه القرآن أنه ان لم يطعه والا عذبه الله تعالى ، وأنه ان أطاعه أكرمه الله تعالى .

وهو قد مات ، فان طاعته باتباع ما في القرآن مما أوجبه الله وحرمه ، وكذلك ما أوجبه الرسول وحرمه بسننه . فان القرآن قد بين وجوب طاعته وبينَّ أن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة ،

---

(١) في الأصل ما صورته (الا انه محصه به) ، ولعل الصواب كما أثبتنا ، كما جاء في الجملة التي بعدها .

(٢) في الأصل (عاصم بن عيسى) وهو تصحيف من (عاصم بن عدي) وعاصم هذا هو الذي استفتى ، او الذي نزلت فيه الآية هو عويمر العجلاني ، كما في صحيح مسلم .

(٣) بياض بالأصل ، والتكميل من دلالة السياق .

وقال لأزواج نبيه : ﴿ واذكرن ما يُتلىٰ في بيوتكنَّ من آياتِ اللهِ والحكمة ﴾ - (الأحزاب ٣٣ : ٣٤) .

ثم قال : ﴿ والذي أخرجَ المرعىٰ فجعلهُ غثاءً أحوىٰ ﴾ - (أية ٤و٥) .

هو سبحانه لما ذكر قوله : ﴿ قدّر فهدى ﴾ دخل في ذلك ما قدره من أرزاق العباد ، (والبهائم) وهداهم اليها ، فهدى من يأتي بها اليهم . وذلك من تمام انعامه على عباده ، كما جاء في الأثر : ان الله يقول : ﴿ اني والجن والانس لفي نبأ عظيم - أخلق ويعبدون غيري ، وأرزق ويشكرون سواي ﴾[1] .

وهذا المعنى قد روى في قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ - (الواقعة ٥٦ : ٨٢) أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بانعام الله واضافه الى غيره كالأنواء ، كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : (أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر - قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق بنؤ كذا وكذا)[2] قال : فنزلت هذه الآية ﴿ فلا أُقسِمُ بمواقعِ النجومِ - حتى بلغ - وتجعلون رزقكم أنَّكُمْ تكذبون ﴾ - (٥٦ : ٧٥ - ٨٢) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ﴿ ما أنزل الله من السماء من بركة الا أصبح فريق من الناس بها كافرين - ينزل الله الغيث فيقولون : الكوكب كذا وكذا - وفي رواية (بكوكب كذا وكذا) .

وروى ابن المنذر في تفسيره : ثنا محمد بن علي - يعني الصائغ ، ثنا سعيد هو ابن منصور ، ثنا هشيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ﴾ - يعني الأنواء . وما مطر قوم الا أصبح بعضهم كافرا ، وكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وفأنزل الله ﴿ وتجعلون رزقكم أنَّكم تكذبون ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم ، عن عطاء الخراساني ، عن عكرمة ، في قول الله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : تجعلون رزقكم من عند الله تكذيبا ، وشكرا ﴿ لغيره ﴾[3] .

لكن قوله : ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ خص به اخراج المرعى ، وهو ما ترعاه الدواب ،

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي والحاكم في تاريخه ، والبيهقي في شعب الايمان ، والديلي في مسند الفردوس ، وابن عساكر ، عن أبي الدرداء - عن (الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية) .

(٢) في صحيح مسلم ، في الايمان ، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء وكذلك الحديث بعده والأشهر منها في الباب حديث زيد بن خالد الجهني الذي رواه البخاري في الإستسقاء وغيره والذي رواه ايضا مسلم ، وأبو داود ، والنسائي .

(٣) زيادة من تفسير ابن جرير .

(٤) بياض بالأصل ، ولعله كما قيدنا .

وذكر أنه جعله غثاء أحوى . وهذا فيه ذكر أقوات البهائم ، لكن أقوات الآدميين أجل من ذلك وقد دخلت هي وأقوات البهائم في قوله : ﴿ قدَّر فهدى ﴾ .

وأيضا ، فالذي يصير غثاء أحوى لم تقتت به البهائم ، وانما تقتات به قبل ذلك . فهو ـ والله أعلم ـ خص هذا بالذكر لأنه مثل الحيوة الدنيا . اذا كانت هذه السورة تضمنت ـ أصول الأيمان ـ الايمان بالله واليوم الآخر ، والايمان بالرسل والكتب التي جاؤوا بها ، وذلك يتضمن الايمان بالملائكة . وفيها العمل الصالح الذي[1] ينفع في الآخرة ، والفاسد الذي يضر فيها .

فذكر سبحانه المرعى عقب ما ذكره من الخلق والهدى ليبين مآل بعض المخلوقات ، وأن الدنيا هذا مثلها[2] .

وقد ذكر الله ذلك في الكهف ، ويونس والحديد . قال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مُقتدراً ﴾ ـ (الكهف ١٨ : ٤٥) .

وقال تعالى : ﴿ انما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ ـ (يونس ـ ١٠ : ٢٤ و ٢٥) .

وقال تعالى : ﴿ اعلموا أنَّما الحيوةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينَةٌ وتفاخُرٌ بينكم وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكُفَّارَ نباتهُ ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفَرّاً ثمَّ يكونُ حُطاماً ، وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ ، وما الحيوةُ الدنيا إلَّا متاعُ الغرورِ ﴾ ـ (الحديد ٥٧ : ٢٠) . وقد جعل أهلاك المهلكين حصادا لهم ، فقال : ﴿ ذلكَ من أنباءِ القرى نقصُّهُ عليكَ منها قائمٌ وحصيد ﴾ ـ (هود ١١ : ١٠٠) .

وقال : ﴿ لقد خلقنا الانسانَ في أحسنِ تقويمٍ ثمَّ رددناهُ أسفلَ سافلينَ إلا الذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ فلهم أجرٌ غير ممنون ﴾ ـ (التين ٩٥ : ٤ ـ ٦)[3] .

فقوله : ﴿ والذي أخرجَ المرعىٰ فجعلهُ غثاءً أحوى ﴾ هو مثل للحيوة الدنيا ، وعاقبة

---

(١) في الأصل (التي) .

(٢) في الأصل (مثله) .

(٣) أنظر تفسير سورة التين للمصنف في ضمن الفصل الرابع من تفسير العلق ، وفيه بدائع وعجائب .

الكفار ، ومن اغتر بالدنيا . فانهم يكونون في نعيم وزينة وسعادة ، ثم يصيرون الى شقاء في الدنيا والآخرة ، كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى .

(١٢) فصـــــل

قوله تعالى ﴿ فذكر ان نفعت الذكرى ﴾

قوله : ﴿ فَذَكِّر إنَّ نفعت ٱلذكرىٰ سيذَّكَّرُ من يخشىٰ ويتجنبها الأشقىٰ الذي يَصلىٰ النَّار الكبرى ﴾ ـ (الاعلى ٨٧ : ٩ ـ ١٢) .

فقوله : ﴿ ان نفعت الذكرى ﴾ كقوله : ﴿ ان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ - (الذاريات ٥١ : ٥٥)[١] .

قوله : ﴿ ان نفعت الذكرى ﴾ . و (ان) هي الشرطية .

وحكى الماوردي أنها بمعنى (ما) . وهذه تكون (ما) المصدرية ، وهي بمعنى - الظرف ، أي : ذكر ما نفعت ، ما دامت تنفع . ومعناها قريب من معنى الشرطية .

وأما ان ظن ظان أنها نافية فهذا غلط بين . فان الله لا ينفى نفع الذكرى مطلقا وهو القائل : ﴿ فتولَّ عنهم ، فما أنتَ بملومٍ وذكّر فإنَّ الذكرى تنفعُ ﴾ ، ثم قال - (الذاريات ٥١ ٥٤ و٥٥) . . .)[٢] (وعن . . . .)[٣] ﴿ فذكر إنْ نفعت الذكرىٰ) : أن قبلت الذكرى . وعن مقاتل : فذكر وقد نفعت الذكرى .

وقيل : ذكر ان نفعت الذكرى وان لم تنفع ـ قاله طائفة ، أولهم الفراء ، واتبعه جماعة ، منهم النحاس ، والزهراوي ، والواحدي ، والبغوي ولم يذكر غيره . قالوا : وانما لم يذكر الحال الثانية كقوله : ﴿ سرابيلَ تقيكم الحر ﴾ ـ (النحل ١٦ : ٨١) ، وأراد الحر والبرد .

وانما قالوا هذا لانهم قد علموا أنه يجب عليه تبليغ جميع الخلق وتذكيرهم سواء آمنوا أو كفروا . فلم يكن وجوب التذكير مختصا بمن تنفعه الذكرى ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ فذكر

---

(١) سيبين المصنف الفرق اللطيف بين النفع المذكور في هاتين الآيتين في آخر الفصل ، تجده تحت عنوان (الفرق بين النفع بالتذكير المذكور في آية الذاريات والمذكور في هذه الآية) .

(٢) والقائل هذا هو الماوردي الذي يحكى شيخ الاسلام قوله . وقد ظن البعض ان القائل هو الله فأكمل من الاية السابقة (المؤمنين) كما في طبعة الهند والسعودية . وهذا غير صحيح لان الحديث ما زال للماوردي .

(٣) هنا بقية البياض السابق ، ولعله (وعن فلان) ولم نهتد الى المراد بهذا الفلان .

أنما أنتَ مذكر لستَ عليهم بمسيطر﴾ ـ (الغاشية ٨٨ : ٢١ و ٢٢) ، وقال : ﴿ وانه لذكرٌ لكَ ولقومِكَ ، وسوف تُسئلون ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٤٤) وقال : ﴿ وليكون للعالمين نذيرا ﴾ ـ (الفرقان ٢٥ : ١) .

وهذا الذي قالوه معنى صحيح ، وهو قول الفراء وأمثاله، لم يقله أحد من مفسري السلف . ولهذا كان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء وأمثاله ما ينكره ، ويقول : كنت أحسب الفراء رجلا صالحا حتى رأيت كتابه في معاني القرآن .

وهذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر . وهو معلوم بالاضطرار من أمر الرسول فان الله بعثه مبلغا ومذكرا لجميع الثقلين ـ الانس والجن . لكن ليس هو المعنى في هذه الآية .

بل معنى هذه يشبه قوله : ﴿ فذكّر بالقرآن من يخافُ وعيد ﴾ ـ (ق ، ٥ : ٤٥) ، وقوله : ﴿ انما أنت منذر من يخشاها ﴾ ـ (النازعات ٧٩ : ٤٥) ، وقوله : ﴿ انَّما تنذرُ من اتبعَ الذكرَ وخشيَ الرحمنَ بالغيب ﴾ ـ (يس ٣٦ : ١١) ، وقوله : ﴿ ان هُوَ الا ذكرٌ للعالمينَ لمن شاءَ منكم أن يستقيم ﴾ ـ (التكوير ٨١ : ٢٧ و ٢٨) .

فالقرآن جاء بالعام والخاص . وهذا كقوله : ﴿ هُدىً للمتقينَ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١) ونحو ذلك .

وسبب ذلك أن التعليم والتذكير والانذار والهدى ونحو ذلك له فاعل ، وله قابل . فالمعلم المذكر يعلم غيره ، ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر ، وقد لا يتعلم ولا يتذكر . فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير . وان لم يتعلم ويتذكر فقد وجد أحد طرفيه ، وهو الفاعل ، دون المحل القابل . فيقال في مثل هذا : علمته فما تعلم ، وذكرته فما تذكر ، وأمرته فما أطاع .

وقد يقال : (ما علمته وما ذكرته) لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده ، فينفي لانتفاء كماله وتمامه . وانتفاء فائدته بالنسبة الى المخاطب السامع وان كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب[1] . فحيث خص بالتذكير والانذار ونحوه المؤمنين فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به . وحيث عمم فالجميع مشتركون في الانذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا .

وهذا هو الهدى المذكور في قوله : ﴿ وأما ثمودَ فهديناهُمْ فاستحَبُّوا العمىٰ علىٰ الهُدَىٰ ﴾ ـ (فصلت ٤١ : ١٧) . فالهدى هنا هو البيان والدلالة والارشاد العام المشترك . وهو كالانذار

---

(١) أنظر للمزيد في هذا البحث الفصل الرابع من تفسير سورة الكافرون .

العام والتذكير العام . وهنا قد هدى للمتقين وغيرهم ، كما قال : ﴿ ولكلِّ قومٍ هاد ﴾ (الرعد ١٣ : ٧) .

وأما قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الاهتداء ، كقوله : ﴿ هُدىً للمتقينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فريقاً هَدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالةَ ﴾ (الاعراف ٧ : ٣٠) ، وقوله : ﴿ فإنَّ الله لا يَهدي من يضلّ ﴾ ـ (النحل ١٦ : ٣٧) ، وقوله : ﴿ يهدي بهِ الله من اتبعَ رضوانهُ سبلَ السلامِ ﴾ ـ (المائدة ٥ : ١٦) . وهذا كثير في القرآن .

وكذلك الانذار ، قد قال : ﴿ فانَّما يسرناهُ بلسانكَ لتُبشِرَ بهِ المتقينَ وتُنذِرَ بهِ قوماً لُدّاً ﴾ ـ (مريم ١٩ : ٩٧) ، وقال تعالى : ﴿ أكان للناسِ عجباً أنْ أوحينا الىٰ رجلٍ منهم أنْ أنذِر النَّاسَ وبشر الذينَ آمنوا ﴾ ـ (يونس ١٠ ـ ٢) .

وقال في الخاص ﴿ إنَّما أنتَ منذرُ من يخشاها ﴾ ـ (النازعات ٧٩ : ٤٩) ، ﴿ إنَّما تنذِرُ من اتبعَ الذكرَ وخشيَ الرحمنَ بالغيبِ ﴾ ـ (يس ٣٦ : ١١) . فهذا الانذار الخاص وهو التام النافع الذي انتفع به المنذر . والانذار هو الاعلام بالمخوف ، فعلم المخوف فخاف ، فآمن وأطاع .

وكذلك التذكير عام وخاص . فالعام هو تبليغ الرسالة الى كل أحد ، وهذا يحصل بابلاغهم ما أرسل به من الرسالة . قال تعالى : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين . . ان هو الا ذكرٌ للعالمينَ﴾ ـ (ص ٣٨ : ٨٦ و ٨٧) . وقال تعالى : ﴿وما هي الا ذكرىٰ للبشر﴾ ـ (المدثر ٧٤ : ٣١) . وقال تعالى : ﴿إنْ هو الا ذكرٌ للعالمينَ﴾ ، ثم قال : ـ ﴿لمن شاءَ منكم أنْ يستقيم﴾ ـ (التكوير ٨١ : ٢٧ و ٢٨) ، فذكر العام والخاص .

والتذكر هو الذكر[١] التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به . وغير هؤلاء قال تعالى : فيهم ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾ ـ (الأنبياء ٢١ : ٢ و٣) ، وقال تعالى : ﴿وما يأتيهم من ذكرٍ من الرحمنِ محدثٍ الا كانوا عنه مُعرضين﴾ (الشعراء ٢٦ : ٥) . فقد أتاهم وقامت به الحجة ، ولكن لم يصغوا اليه بقلوبهم فلم يفهموه ، أو فهموه فلم يعملوا[٢] به ، كما قال : ﴿ولو علمَ اللَّهُ فيهم خيراً لأسمَعُهم ولو أسمَعهُمْ لتولوا وُهُم مُعرِضُونَ﴾ ـ (الأنفال ٨ : ٣) .

والخاص هو التام النافع ، وهو الذي حصل معه تذكر لمذكر ، فان هذا ذكرى كما قال

---

(١) في الاصل (والتذكير هو المذكر) وهو تصحيف .

(٢) في الأصل (يعلموا) ، وهو تصحيف .

﴿فذكّر ان نفعتِ الذكرى سيذكُرُ من يخشىٰ ويتجنبها الأشقىٰ﴾ ، أي يجنب الذكرى ، وهو انما جنب الذكرى الخاصة .

وأما المشترك الذي تقوم به الحجة فقد ذكّر هو وغيره بذلك وقامت الحجة عليهم . وقد قال تعالى : ﴿وما كنَّا معذبينَ حتىٰ نبعثَ رسولاً﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ١٥) ، وقال : ﴿لئلا يكونَ للناسِ على اللَّهِ حجةٌ بعدَ الرّسلِ﴾ ـ (النساء ٤ : ١٦٥) ، وقال عن أهل النار ﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ ـ (الملك ٦٧ : ٨ و ٩) ، وقال تعالى : ﴿يا معشرَ الجنِّ والانسِ ألمْ يأتِكُمْ رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكُمْ لقاءَ يومِكُمْ هذا ، قالوا شهدنَا[1] على أنفسنا﴾ (الأنعام ٦ : ١٣) .

وأما تمثيلهم ذلك بقوله : ﴿سرابيلَ تقيكم الحرّ﴾ ـ (النحل ١٦ : ٨١) ، أي وتقيكم البرد[2] فعنه جوابان .

أحدهما : أنه ليس هناك حرف شرط علق به الحكم بخلاف هذا الموضع . فانه اذا علق الأمر بشرط وكان مأموراً به في حال وجود الشرط كما هو مأمور به في حال عدمه كان ذكر الشرط تطويلا للكلام تقليلا للفائدة واضلالا للسامع . وجمهور الناس على أن مفهوم الشرط حجة ، ومن نازع فيه يقول : سكت عن غير المعلق ، لا يقول : ان اللفظ دل على المسكوت كما دل على المنطوق . فهذا لا يقوله أحد .

الثاني : أن قوله ﴿ تقيكم الحر﴾ على بابه ، وليس في الآية ذكر البرد . وانما يقول(ان المعطوف محذوف) هو الفراء وأمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم وفهمهم لنوع من علم العربية عندهم ، وكثيراً لا يكون ما فسروا به مطابقاً .

وليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد ولكن الله ذكر في هذه السورة[3] انعامه على عباده ، وتسمى (سورة النعم) . فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحيوة الا بها ، وذكر في أثنائها تمام النعم .

وكان ما يقي البرد من أصول النعم ، ذكر في أول السورة في قوله : ﴿والانعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ﴾ ـ (النحل ١٦ : ٥) . فالدفء ما يدفىء ويدفع البرد .

والبرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر ، فان

---

(١) في الأصل : قالوا بلي ، وهو خطأ . وكذلك في الأصل : يا معشر الانس والجن ، وهو خطأ .

(٢) في الأصل (بأسكم) . وهو سبق الناسخ بدل (البرد) .

(٣) المراد سورة النحل ، وتسميتها (سورة النعم) من قوله ﴿وكذلك يتم نعمته عليكم﴾ منقولة عن قتادة كما ذكره ابن كثير .

الموت منه غير معتاد . ولهذا روى بعض العرب : البرد بؤس ، والحر أذى .

فلما ذكر في أثنائها تمام النعم ذكر الظلال وما يقي الحر ، وذكر الأسلحة وما يقي القتل فقال : ﴿واللَّهُ جعلَ لكم مما خلقَ ظلالاً ، وجعلَ لكم من الجبال أكناناً ، وجعلَ لكم سرابيل تقيكم الحرَّ ، وسرابيلَ تقيكم بأسكُمْ ، كذلكَ يَتمّ نعمتهُ عليكم لعلكَمْ تُسلمونَ﴾ - (النحل ١٦ : ٨١) . فذكر أنه من تمام نعمته كما بين ذلك في هذه الآيات ، فقال﴿ كذلك يتم نعمتهُ عليكم لعلكم تُسلمونَ ﴾ .

وفرق بين الظلال والأكنان ، فان الظلال تكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكن ، بخلاف ما في الجبال من الغيران ، فانه يظل ويكن . فهذا في الأمكنة ، ثم قال في اللباس ﴿وجعلَ لكم سرابيلَ تقيكم الحرّ ، وسرابيلَ تقيكم بأسكم﴾ ، فهذا عن اللباس . واللباس والمساكن[1] كلاهما تقي الناس ما يؤذيهم من حر وبرد وعدو ، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين .

(كونه تعالى ذكر امتنانه بجعل البيوت الثقيلة والخفيفة سكنا يسكنون فيها) .

وفي البيوت خاصة يسكنون ، كما قال : ﴿والله جعلَ لكم من بيوتكم سكناً وجعلَ لكم من جلودِ الأنعامِ بيوتاً تستخفونها يومَ ظعنكم ويومَ اقامتكم﴾ - (النحل ١٦ : ٨٠) . فلما ذكر البيوت المسكونة امتن بكونه جعلها سكنا يسكنون فيها من تعب الحركات . وذكر أنه جعل لهم بيوتاً اخرى يحملونها معهم ويستخفونها يوم ظعنهم ويوم اقامتهم فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة التي تحمل فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم .

فقوله ﴿ان نفعت الذكرى﴾ - كما قال مفسرو السلف والجمهور - على بابها ، قال - الحسن البصرى : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ان نفعت الذكرى﴾ لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه .

أحدهما : أنه لم يخص قوما دون قوم ، لكن قال﴿فذكر﴾ ، وهذا مطلق بتذكير كل أحد وقوله ﴿ان نفعت الذكرى﴾ لم يقل ﴿ان نفعت كل أحد﴾ . بل أطلق النفع . فقد أمر بالتذكير ان كان ينفع .

والتذكير المطلق العام ينفع . فان من الناس من يتذكر فينتفع به ، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك ، فيكون عبرة لغيره ، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً . ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة ، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره ، فتحصل بالذكرى منفعة .

---

(١) في الأصل (المساكين) ، ولعله تصحيف من (المساكن) جمع (المسكن) .

فكل تذكير ذكر به النبي ﷺ للمشركين حصل به نفع في الجملة وان كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة .

فان قيل : فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع ، فأي فائدة في التقييد ؟ قيل : بل منه ما لم ينفع أصلا ، وهو ما لم يؤمن به . وذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن ، كأبي لهب ، فانه بعد أن أنزل الله قوله : ﴿سيصلىٰ ناراً ذاتَ لهبٍ﴾ فانَّهُ لا يخص بتذكير بل يعرض عنه .

وكذلك كل من لم يصغ اليه ولم يستمع لقوله فانه يعرض عنه ، كما قال ﴿فتولَّ عنهم ، فما أنتَ بملوم﴾ ، ثم قال : ﴿وذكّر فإنَّ الذكرىٰ تنفعُ المؤمنين﴾ - (الذاريات ٥١ : ٥٤ و ٥٥) فهو اذا بلغ قوما الرسالة فقامت الحجة عليهم ، ثم امتنعوا من سماع كلامه أعرض عنهم . فان الذكرى حينئذ لا تنفع أحداً .

وكذلك من أظهر أن الحجة قامت عليه وأنه لا يهتدي فانه لا يكرر التبليغ عليه الوجه الثاني : أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع ، كما هو أمر بالتذكير المشترك .

وهذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين . فهم اذا آمنوا ذكرهم بما أنزل ، وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به ، ويذكرهم بمعانيه ، ويذكرهم (بما) انزل قبل ذلك .

بخلاف الذين قال فيهم ﴿فما لهم عن التذكرة مُعرضينَ كأنَّهم حُمُرٌ مستنفرةٌ فرَّتْ من قسورةٍ﴾ (المدثر ٧٤ : ٤٩ - ٥١) . فان هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين اذا كانت الحجة قد قامت عليهم وهم معرضون عن التذكرة لا يسمعون .

ولهذا قال : ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى﴾ (عبس ٨٠ : ١ - ١٠) . فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر . وقال : ﴿سيذكّر من يخشى - الى قوله - قد أفلحَ من تزكّىٰ﴾ - (الأعلى ٨٧ : ١٠ - ١٤) ، فذكر التذكر والتزكي ، كما ذكرهما هناك . وأمره أن يقبل على من اقبل عليه دون من أعرض عنه ، فان - هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك .

فيكون مأمورا أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيراً يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة كما قال : ﴿فتولَّ عنهم ،فما أنتَ بملومٍ وذكّر فإنَّ الذكرىٰ تنفعُ المؤمنينَ﴾ - (الذاريات ٥١ : ٥٤ و ٥٥) .

وقال : ﴿ولا تجهرْ بصلاتكَ ولا تخافِتْ بها وابتغِ بين ذلك سبيلاً﴾ - (الاسراء ١٧ : ١١) . وفي الصحيحين عن ابن عباس : قال (كان رسول الله ﷺ اذا قرأ القرآن - سمعه

المشركون فسبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن جاء به ، فقال الله له : ولا تجهر به فيسمعه المشركون ، ولا تخافت به عن أصحابك)[1] . فنهى عن أن يسمعهم اسماعا يكون ضرره أعظم من نفعه .

وهكذا كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته . والمصلحة هي المنفعة ، والمفسدة هي المضرة . فهو انما يؤمر بالتذكير اذا كانت المصلحة راجحة وهو ان تحصل به منفعة راجحة على المضرة . وهذا يدل على الوجه الأول والثاني . فحيث كان الضرر راجحاً فهو منهي عما[2] يجلب ضرراً راجحاً .

والنفع أعم في تذكير جميعهم . فقبول بعضهم نفع ، وقيام الحجة على من لم يقبل نفع ، وظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع ، وبقاؤه عند من سمعه حتى بلغه الى من لم يسمعه نفع . فهو ﷺ ما ذكر قط الا ذكرى نافعة ، لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحاً .

وهذا مذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف أن ما أمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة . وأما ما كانت مضرته راجحة فان الله لا يأمر به .

وأما جهم ومن وافقه من الجبرية فيقولون : ان الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة ألبتة بل يكون ضرراً محضاً اذا فعله المأمور به . وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك المتكلمين ـ أبي الحسن الأشعري وغيره (في)[3] مسائل القدر ، فنصر مذهب جهم والجبرية .

الوجه الثالث : أن قوله (الذكرى) يتناول التذكر والتذكير . فانه قال ﴿ فذكر ان نفعت الذكرى﴾ . فلا بد أن يتناول ذلك تذكيره .

ثم قال : ﴿سيذكَّرُ مَنْ يخشى ويتجنبها الأشقىٰ﴾ . والذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى ، وهو التذكر . فضمير الذكرى هنا يتناول التذكر ، والا فمجرد التذكير الذي قامت به ـ الحجة لم يتجنبه أحد .

لكن قد يراد بتجنبها أنه لم يستمع اليها ولم يصغ ، كما قال : ﴿لا تسمعُوا لهذا القرآنِ والغُوا فيهِ﴾ ـ (فصلت ٤١ : ٢٦) . والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر لا بنفس الاستماع . ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره ، كما يتجنب كثير من المسلمين سماع أقوال أهل الكتاب وغيرهم . وانما ينتفعون اذا ذكروا فتذكروا ، كما قال ﴿ سيذكر من يخشى﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الاسراء .

(٢) في الأصل ، (عها) ، وهو تصحيف .

(٣) بياض في الأصل ، والتكميل من دلالة السياق .

فلما قال ﴿فذكران نفعت الذكرى﴾ فقد يراد بالذكرى نفس تذكيره ـ تذكر أو لم يتذكر . وتذكيره نافع لا محالة كما تقدم ، وهذا يناسب الوجه الأول .

وقد ذكر بعضهم أن هذا يراد به توبيخ من لم يتذكر من قريش . قال ابن عطية . اختلف الناس في معنى قوله ﴿فذكران نفعت الذكرى﴾ ، فقال الفراء ، والنحاس والزهراوي : معناه (وان لم تنفع) ، فاقتصر على الاسم الواحد لدلالته على الثاني .

قال ، وقال بعض الحذاق . قوله ﴿ان نفعت الذكرى﴾[1] اعتراض بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش . أي ، ان نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة . وهذا كنحو قول الشاعر :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياه لمن تنادي

وهذا كله كما تقول لرجل : (قل لفلان واعذله ان سمعك) ، انما هو توبيخ للمشار اليه .

(قلت) : هذا القائل هو الزمخشري[2] ، وهذا القول فيه بعض الحق . لكنه أضعف من ذاك القول[3] من وجه آخر . فان مضمون هذا القول أنه مأمور بتذكير من لا يقبل ولا ينتفع بالذكرى دون من يقبل ، كما قال : (ان نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة) ، وكما أنشده في البيت .

ثم البيت الذي أنشده خبر عن شخص خاطب آخر . فيقول : لقد أسمعت لو كان من تناديه حيا . وهذا كقوله ﴿ان الَّذينَ كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهُمْ أَمْ لم تنذرهُمْ لا يؤمنونَ﴾ (البقرة٢ : ٦) ، وقوله ﴿انك لا تُسمِعُ الموتىٰ ولا تُسمِعُ الصُمَّ الدعاءَ اذا ولُّوا مُدبرينَ﴾ (النمل ٢٧ : ٨٠) ، وقوله ﴿قل إنَّما انذركم بالوحي ولا يسمعُ الصُمَّ الدعاءَ اذا ما ينذرونَ﴾ (الأنبياء ٢١ : ٤٥) . فهذا يناسب معنى البيت ، وهو خبر خاص .

وأما الأمر بالانذار فهو مطل عام . وان كان مخصوصاً فالمؤمنون أحق بالتخصيص ، كما قال ﴿فذكر بالقرآن من يخافُ وعيد﴾ ـ (ق٥٠ : ٤٥) ، وقال ﴿وذكِّر فإنَّ الذكرىٰ تنفعُ

---

(١) بياض بالأصل ، وهذا مقتضى السياق .

(٢) هو العلامة أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي المتوفي سنة ٥٣٨ هـ صاحب (تفسير الكشاف) . وهذا لفظه : فان قلت : كان رسول الله ﷺ مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع فما معنى اشتراط النفع ؟ قلت : هو على وجهين ـ وذكر الوجه الأول ، ثم قال : والثاني أن يكون ظاهره شرطا ومعناه ذما للمذكرين واخبارا عن حالهم واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم ، كما تقول للواعظ (عظ المكاسين ان سمعوا منك) قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون ـ ا هـ .

(٣) أي قول الفراء (ان نفعت الذكرى وان لم تنفع) .

المؤمنينَ﴾ ـ (الذاريات ٥١ : ٥٥) . ليس الأمر مختصاً بمن لا يسمع .

كيف وقد قال بعد ذلك ﴿سيذكّرُ من يخشىٰ * ويتجنَّبُهَا الاشقىٰ﴾ ؟ فهذا الذي يخشى هو ممن أمره بتذكيره ، وهو ينتفع بالذكرى . فكيف لا يكون لهذا الشرط فائدة الا ذم من لم يسمع ؟

وأما قول القائل (قل لفلان واعذله ان سمعك) ، فهذا وأمثاله يقوله الناس لمن يظنون أنه لا يقبل ولكن يرجون قبوله . فهم يقصدون توبيخه على تقدير الرد ، لا على تقدير القبول فيقولن : (قل له ان كان يسمع منك) ، و(قل له ان كان يقبل) ، و(انصحه ان كان يقبل النصيحة) ، وهو كله من هذا الباب . فهو أمر بالنصيحة التامة المقبولة ان كان يقبلها ، وأمر بأصل النصح وان رده ، وذم له على هذا التقدير .

وكذلك قوله ﴿فذكِّر إنْ نفعتِ الذكرىٰ﴾ أمر بتذكير كل أحد ، فان انتفع كان تذكرة تامة نافعا ، والا حصل أصل التذكير الذي قامت به الحجة ، ودل ذلك على ذمه واستحقاقه التوبيخ .

مع أنه سبحانه انما قال : ﴿إنْ نفعتِ الذكرىٰ﴾ ، لم يقل (ذكر من تنفعهُ الذكرى فقط) ، كما في قوله : ﴿فذكّر بالقرآن من يخافُ وعيد﴾ ، فهناك الأمر بالتذكير خاص .

وقد جاء عاما وخاصا كخطاب القرآن بـ ﴿يا أيها الناس﴾ وهو عام ، وبـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خاص لمن آمن بالقرآن .

فهناك قال : ﴿فان الذكرىٰ تنفعُ المؤمنينَ﴾ ـ (الذاريات ٥١ : ٥٥) ، وهنا قال و﴿سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى﴾ ، ولم يقل ﴿ سينتفع من يخشى﴾. فان النفع الحاصل بالتذكير[١] أعم من تذكر من يخشى .

فانه اذا ذكر قامت الحجة على الجميع . والاشقى الذي تجنبها حصل بتذكيره قيام الحجة عليه واستحقاقه لعذاب الدنيا والآخرة .

وفي ذلك لله حكم ومنافع هي نعم على عباده . فكل ما يقضيه الله تعالى هو من نعمته على عباده . ولهذا يقول عقب تعديد ما يذكره ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ـ (الرحمن ٥٥) .

ولما ذكر ما ذكره في سورة النجم وذكر اهلاك مكذبي الرسل قال : ﴿فبأي آلاء ربّك تتَمارىٰ﴾(النجم ٥٣ : ٥٥) . فاهلاكهم من آلاء ربنا . وآلاؤه نعمه التي تدل على رحمته ، وعلى حكمته ، وعلى مشيئته ، وقدرته ، وربوبيته ـ سبحانه وتعالى .

---

(١) في الأصل (التذكر) ، وهو تصحيف من التذكير كما يدل عليه بقية السياق .

ومن نفع تذكير الذي يتجنبها أنه لما قامت عليه الحجة واستحق العذاب خف بذلك شر عن المؤمنين ، فان الله يهلكهم بعذاب من عنده أو بأيديهم . وبهلاكه ينتصر الايمان وينتشر ويعتبر به غيره ، وذلك نفع عظيم .

وهو أيضاً يتعجل موته فيكون أقل لكفره . فان الله أرسل محمداً رحمة للعالمين فيه تصل الرحمة الى كل أحد بحسب الامكان .

وأيضاً فان الذي يتجنبها بتجنبه استحق هذا الوعيد المذكور ، فصار ذلك تحذيراً لغيره من أن يفعل مثل فعله . قال تعالى : ﴿فجعلناهَا نَكَالاً لِمَا بينَ يديها وما خلفها﴾ ـ (البقرة ٢ : ٦٦) ، وقال تعالى عن فرعون : ﴿فجعلناهُمْ سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٥٦) وقال تعالى : ﴿لقد كان في قصصهم عبرةً لأُولي الألباب﴾ ـ (يوسف ١٢ : ١١١) .

(١٣) فصــــل

قوله تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾

وقوله : ﴿ سيذكَّرُ من يخشىٰ) يقتضى أن كل من يخشى يتذكر . والخشية قد تحصل عقب الذكر ، وقد تحصل قبل الذكر ، وقوله : ﴿ من يخشى ﴾ مطلق . ومن الناس من يظن أن ذلك يقتضى أنه لا بد أن يكون قد خشى أولا حتى يذكر ، وليس كذلك . بل هذا كقوله : ﴿ هُدىً للمتقينَ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٣) وقوله : ﴿ انما أنت منذر من يخشاها ﴾ ـ (النازعات ٧٩ : ٤٩) ، وقوله : ﴿ وذكّر بالقرآنِ من يخافُ وعيد ﴾ ـ (ق :٥٠: ٤٥) ، وقوله : ﴿ إنّما تنذرُ من اتَّبعَ الذكرَ وخَشِيَ الرَّحمن بالغيبِ ﴾ ـ (يَس ٣٦ : ١١) .

وهو أنما خاف الوعيد بعد أن سمعه ، لم يكن وعيداً قبل سماع القرآن وكذلك قوله : ﴿ إنَّما تنذرُ من اتَّبعَ الذكر وخشيَ الرحمن بالغيبِ ﴾ ، وهو انما اتبع الذكر وخشى الرحمن بعد أن أنذره الرسول .

وقد لايكونونخافوها قبل الانذار ، ولا كانوا متقين قبل سماع القرآن ، بل به صاروا متقين . وهذا كما يقول القائل : ما يسمع هذا الاسعيد، والا مفلح، والا من رضى الله عنه . وما يدخل في الاسلام الا من هداه الله ، ونحو ذلك . وان هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الاسلام وسماع القرآن .

ومثل هذا قوله : ﴿ هذا بصائِرُ للناسِ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يوقنونَ ﴾ ـ (الجاثية ٤٥ : ٢٠) . وقد قال في نظيره : ﴿ ويتجنَّبُهَا الأشقىٰ ﴾ وانما يشقى بتجنبها .

وهذا كما يقال[1] انما يحذر من يقبل ، وانما ينتفع بالعلم من عمل به .

فمن استمع القرآن فآمن به وعمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم . ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين ، ولم يكن ممن اهتدى به .

بل هو كما قال الله تعالى: ﴿ قل هو للذينَ آمنوا هُدَىً وشفاءً ، والذينَ لا يؤمنونَ في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً ﴾ - (فصلت ٤١ : ٤٤) . ولم يرد انهم كانوا مؤمنين ، فلما سمعوه صار هدى وشفاء . بل اذا سمعه الكافر فآمن به صار في حقه . هدى وشفاء ، وكان من المؤمنين به بعد سماعه . وهذا كقوله في النوع المذموم : ﴿ يضلُّ بهِ كثيراً ويهدي به كثيراً ، وما يُضلُ بهِ إلاَّ الفاسقينَ * الذينَ ينقضونَ عهدَ اللهِ من بعدِ ميثاقهِ ويقطعونَ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يوصلَ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٦ و ٢٧) . ولا يجب أن يكونوا فاسقين قبل ضلالهم ، بل من سمعه فكذب به صار فاسقا وضل .

وسعد بن أبي وقاص وغيره أدخلوا في هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج وكان سعد يقول هم من : (الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾[2] ولم يكن علي ، وسعد ، وغيرهما من الصحابة يكفرونهم .

وسعد أدخلهم في هذه الآية لقوله : ﴿ وما يضل به الا الفاسقين ﴾ وهم ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه وتأويله على غير ما أراد الله . فتمسكوا بمتشابهه ، وأعرضوا عن محكمه وعن السنة الثابتة التي تبين مراد الله بكتابه . فخالفوا السنة واجماع الصحابة مع ما خالفوه من محكم كتاب الله تعالى. ولهذا أدخلهم كثير من السلف في الذين ﴿يتبعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلهِ ﴾ - (آل عمران ٣ : ٧) ، ﴿ الذين فرَّقوا دينهم وكانُوا شِيَعَاً ﴾ - (الروم ٣٠ : ٣٢) . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود الآية ، وقد دلت على أن كل من يخشى فلا بد أن يتذكر . فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية ، وقد يخشى فتدعوه الخشية الى التذكر .

وهذا المعنى ذكره قتادة : فقال : والله ما خشى الله عبد قط الا ذكره . ﴿ ويتجنبها الأشقى ﴾ ، قال قتادة : فلا والله لا يتنكب عبد هذا الذكر زهدا فيه وبغضا له ولأهله الا شقيا بين الشقاء .

---

(١) في الأصل (قال) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف عن مصعب بن سعد قال : سألت أبي : (يعني سعد بن أبي وقاص) - (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) هم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى . . . الحديث ، ثم قال : والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وكان سعد يسميهم الفاسقين - اهـ .

والخشية في القرآن مطلقة تتناول خشية الله وخشية عذابه في الدنيا والآخرة .
قال الله تعالى : ﴿ يسئلونك عن الساعةِ آيَّانَ مُرسها * فيمَ أنتَ مِنْ ذِكراهَا * الى ربِّك مُنتهاهَا * إنَّما أنتَ منذرُ من يخشَاهَا ﴾ - (النازعات ٧٩ : ٤٢ - ٤٦) .

وقال تعالى : ﴿ فذكّر بالقرآنِ من يخافُ وعيد ﴾ - (ق ٥٠ : ٤٥) .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي أنزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزانَ ، وما يدريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ * يستعجلُ بها الَّذينَ لا يؤمنونَ بها ، والَّذينَ آمنوا مشفقونَ منها ويعلمونَ أنَّها الحقّ ﴾ - (الشورى ٤٢ : ١٧ و ١٨) .

وقال : ﴿ قالوا إنَّا كنَّا قبلَ في أهلِنَا مشفقينَ * فمنَّ اللهُ علينَا ووقانَا عذابَ السمومِ ﴾ - (الطور ٥٢ : ٢٦ و ٢٧) .

(١٤) فصـــــل

قوله : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾

(سبق) الكلام على قوله : ﴿ مَنْ خشيَ الرحمنَ بالغيبِ وَجَاءَ بقلب منيب ﴾ - وفي هذه الآية قال : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ . وقال في قصة فرعون : ﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ - (طه ٢٠ : ٤٤) ، فعطف الخشية على التذكر .

وقال : ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ - (الفرقان ٢٥ : ٦٢) . وفي قصة الرجل الصالح المؤمن الأعمى قال : ﴿ وما يدريكَ لعلّه يَزَّكَّىٰ * أو يذكَّر فتنفعهُ الذكرىٰ ﴾ - (عبس ٨٠ : ٢ و ٣) .

وقال في حم المؤمن ﴿ ذلكم بأنَّه اذا دُعَي اللهُ وحدهُ كفرتم وإنْ يُشرَكَ بهِ تؤمنوا ، فالحكمُ للهِ العلي الكبير * هو الَّذي يريكم آياتهِ وينَزِّلَ لكُمْ مِنَ السَّماءِ رزقاً ، وما يتذكَّرِ إلاّ مَنْ يُنيب ﴾ - (المؤمن ٤٠ : ١٢ و ١٣) ، فقال : ﴿ وما يتذكر الا من ينيب ﴾ .

والانابة جعلها مع الخشية في قوله : ﴿ هَذَا مَا تُوعدونَ لكلِّ أوابٍ حفيظٍ * من خشيَ الرحمنَ بالغيبِ وجَاءَ بقلبٍ منيبٍ * أدخلُوهَا بسلامٍ ذلكَ يومَ الخلودَ ﴾ - (ق ٥٠ : ٣٢ - ٣٤) .
وذلك لأن الذي يخشى الله لا بد أن يرجوه ويطمع في رحمته فينيب اليه ويحبه ، ويحب

عبادته وطاعته . فان ذلك هو الذي ينجيه مما يخشاه ، ويحصّل به ما يحبه .

والخشية لا تكون ممن قطع بأنه معذب . فان هذا قطع بالعذاب ـ يكون معه القنوط ، واليأس ، والابلاس . ليس هذا خشية وخوفا .

وانما يكون الخشية والخوف مع رجاء السلامة . ولهذا قال : ﴿ ترى الظالمينَ مُشفقِينَ مما كَسَبُوا وهو واقعٌ بهم ﴾ ـ (الشورى ٤٢ : ٢٢) .

فصاحب الخشية لله ينيب الى الله ، كما قال : ﴿ وأُزلِفَتْ الجنَّةُ للمتقينَ غيرَ بعيدٍ * هذا ما تُوعدونَ لكِلّ أوابٍ حفيظٍ * من خشيَ الرحمنَ بالغيبِ وجَاءَ بقلبٍ منيبٍ * ادخلوها بسلامٍ ذلكَ يومَ الخلودِ ﴾ ـ (ق ٥٠ : ٣١ ـ ٣٤) . وهذا يكون مع تمام الخشية والخوف .

فأما في مباديها فقد يحصل للانسان خوف من العذاب والذنب الذي يقتضيه ، فيشتغل بطلب النجاة[١] والسلام ، ويعرض عن طلب الرحمة والجنة .

وقد يفعل مع سيآته حسنات توازيها وتقابلها ، فينجو بذلك من النار ولا يستحق الجنة بل يكون من أصحاب الأعراف[٢] وان كان مآلهم الى الجنة فليسوا ممن أزلفت لهم الجنة أي قربت لهم ـ اذا كانوا لم يأتوا بخشية الله والانابة اليه . واستجمل بعد ذلك .

(١٥) فصـــــل

﴿ في التذكر والخشية ﴾

وأما قوله في قصة فرعون : ﴿ لعلَّه يتـذكَّر أو يخشىٰ ﴾ ـ (طه ٢٠ : ٤٤) ، وقوله : ﴿ وما يدريكَ لعلَّهُ يزكَّى * أو يذَّكَّر فتنفعهُ الذكرى ﴾ ـ (عبس ٨٠ : ٢ و٣) ، فلا يناقض هذه الآية لأنه لم يقل في هذه الآية : ﴿ سيخشى من يذكر ﴾ .

بل ذكر أن كل من خشى فانه يتذكر ـ اما أن يتذكر فيخشى ، وان كان غيره يتذكر فلا يخشى ، واما أن تدعوه الخشية الى التذكر . فالخشية مستلزمة للتذكر فكل خاش متذكر[٣] .

---

(١) في الأصل (الحارة) ، ولعله (النجاة) .

(٢) قال قتادة : كان ابن عباس يقول : الأعراف بين الجنة والنار حبس عليه أقوام بأعمالهم وكان يقول : قوم استولت حسناتهم وسيآتهم ولا سيآتهم على حسناتهم ـ انتهى . وعن حذيفة ، وابن مسعود ، ونحوه .

(٣) اشار الى ذلك المصنف في (كتاب الايمان) تحت قوله : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ : فأخبر أن من يخشاه يتذكر ، والتذكر هنا مستلزم لعبادته ، ولهذا قالوا في تفسيره : سيتعظ بالقرآن من يخشى الله . وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره . فان تذكر محبوبا طلبه ، وان تذكر مرهوبا هرب منه ـ انتهى ملخصا .

كما قال تعالى : ﴿ إنَّما يخشىٰ اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ - (فاطر ٣٥ : ٢٨) . فلا يخشاه الا عالم ، فكل خاش لله فهو عالم[١] هذا منطوق الآية .

وقال السلف وأكثر العلماء انها تدل على ان كل عالم فانه يخشى الله ، كما دل غيرها على أن كل من عصى الله فهو جاهل .

كما قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن قوله : ﴿ انَّما التوبةُ علىٰ اللهِ للَّذينَ يعلمونَ السُّوءَ بجهالةٍ ﴾ - (النساء ٤ : ١٧) ، فقالوا لي : (كل من عصى الله فهو جاهل) . وكذلك قال مجاهد ، والحسن البصري ، وغيرهم من العلماء التابعين ومن بعدهم .

وذلك أن الحصر في معنى الاستثناء ، والاستثناء من النفى اثبات عند جمهور العلماء . ففي الخشية عمن ليس من العلماء . وهم العلماء به الذين يؤمنون بما جاءت به الرسل ، يخافونه .

قال تعالى : ﴿ أَمَّن هُوَ قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذر الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّهِ ، قلْ هل يستوي الَّذينَ يعلمونَ والَّذينَ لا يعلمونَ ﴾ - (الزمر ٣٩ : ٩) . وأثبتها للعلماء فكل عالم يخشاه. فمن لم يخش الله فليس من العلماء ، بل من الجهال قال عبد الله بن مسعود : (كفىٰ بخشيةِ اللهِ علماً ، وكفىٰ بالاغترارِ باللهِ جهلاً) . وقال رجل للشعبي (أيها العالم) : فقال : ﴿ انما العالم من يخشى الله ﴾[٢] .

فكذلك قوله : ﴿ سيذكَّر مَنْ يخشىٰ ﴾ يقتضى أن كل من يخشاه فلا بد أن يكون ممن تذكر . وقد ذكر أن الأشقى يتجنب الذكرى ، فصار الذي يخشى ضد الأشقى . فلذلك يقال : (كل من تذكر خشى) .

والتحقيق أن التذكر سبب الخشية ، فان كان تاما أوجب الخشية ، كما أن العلم سبب الخشية ، فان كان تاما أوجب الخشية .

---

(١) وقال في هذه الآية: فقد أخبر الله أن كل من خشى الله فهو عالم . فأهل الخشية لله هم أهل العلم الذين مدحهم الله . وذلك لا يكون الا مع فعل الواجبات . وذلك أن تصور المخوف يوجب الهرب منه وتصور المحبوب ويوجب طلبه فاذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصورا تاما . ومن كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام . فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة . ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه انه جاهل - انتهى ملخصا . وللمصنف كلام نفيس على هذه الآية وما يتعلق بمعناها ، ذكره مبسوطا تحت تفسير وجل للقلب وما يقتضيه من فعل الوجبات في (كتاب الايمان): الطبعة المصرية سنة ١٣٢٥ هـ ، ص ٨ - ١٠ ، فمن شاء فليرجع اليه ، انظر طبعة الهند هـ ١ ص ٩٣ .

(٢) أخرجه الدارمي في باب العمل بالعلم وحسن النية فيه .

وعلى هذا فقوله في قصة فرعون : (لعلَّه يتذكَّر أو يخشىٰ) جعل ذلك نوعين لما في ذلك من الفوائد أحدها : أنه اذا تذكر أنه مخلوق وأن الله خالقه ، وليس هو الها وربا كما ذكر ، وذكر احسان الله اليه ، فهذا التذكر يدعوه الى اعترافه بربوبية الله وتوحيده وانعامه عليه . فيقتضي الايمان والشكر وان قدر أن الله لا يعذبه فان مجرد كون الشيء حقاً ونافعاً يقتضي طلبه وان لم يخف ضرراً بعدمه . كما يسارع المؤمنون الى فعل التطوعات والنوافل لما فيها من النفع وان كان لاعقوبة في تركها كما يحب الانسان علوما نافعة وان لم يتضرر بتركها . وكما قد يحب محاسن الأخلاق ومعالي الأمور لما فيها من المنفعة واللذة في الدنيا والآخرة وان لم يخف ضررا بتركها .

فهو اذا تذكر آلاء الله وتذكر احسانه اليه فهذا قد يوجب اعترافه بحق الله وتوحيده واحسانه اليه . ويقتضي شكره لله وتسليم قوم موسى اليه ، وان لم يخف عذابا . فهذا قد حصل بمجرد التذكر .

وقال : ﴿ أو يخشى ﴾ . ونفس الخشية اذا ذكر له موسى ما توعده الله به من عذاب الدنيا والآخرة فان هذا الخوف قد يحمله على الطاعة والانقياد ولو لم يتذكر .

وقد يحصل تذكر بلا خشية ، وقد يحصل خشية بلا تذكر ، وقد يحصلان جميعاً ، وهو الأغلب قال تعالى : ﴿لعلَّه يتذكَّرُ أو يخشىٰ﴾ .

وأيضا فذكر الانسان يحصل بما عرفه من العلوم قبل هذا فيحصل بمجرد عقله ، وخشيته تكون بما سمعه من الوعيد . فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به ، و(بـ) الثاني يكون ممن له أذن يسمع بها .

وقد يحصل الذكرى الموجبة للخير بهذا وبهذا ، كما قال تعالى : ﴿وكم أهلكنَا قبلهمْ من قرنٍ هم أشدُّ منهم بطشاً فنقبوا في البلادِ هل من محيصٍ * إنَّ في ذلكَ لذكرىٰ لمنْ كانَ لهُ قلبٌ أو ألقىٰ السَّمعَ وهُوَ شهيدٌ﴾ ـ (ق ٥٠ : ٣٦ و ٣٧) . كما قال تعالى : ﴿ان في ذلك لذكر لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد﴾[1] .

الفائدة الثانية : أن التذكر سبب الخشية ، والخشية حاصلة عن التذكر فذكر التذكر الذي هو السبب ، وذكر الخشية التي هي النتيجة ـ وان كان أحدهما مستلزما للآخر كما قال : ﴿من

---

(١) كذا بالاصل : وقد وهم محقق طبعة الهند ان ذلك خطأ فتصرف في الأصل تصرفا كبيرا ليس به غرض المصنف بغرض المحقق حيث ترك ما اثبته الأصل . وذكر آيات أخرى لم يذكرها المؤلف . ونقل عنه ناشر طبعه السعودية بنفس التصرف) .

خشيَ الرحمنَ بالغيبِ وجاءَ بقلبٍ منيبٍ﴾[1] وكما قال أهل النار ﴿لو كنّا نَسمعُ أو نعقلُ ما كنّا في أصحـاب السعيرِ﴾ ـ (الملك ٦٧ : ١٠) . وقـال ﴿أفلَمْ يسيروا في الأرضِ فتكـونَ لهمُ قلوبٌ يعقلونَ بهـا أو آذانٌ يسمعوَن بهـا فانَّهـا لا تعمىٰ الأبصـارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدورِ﴾ ـ (الحج ٢٢ : ٤٦) . فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر .

فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعاً يعقل به ما قالوه ينجو . والا فالسمـع بلا عقـل لا ينفعه ، كما قـال﴿ومنهم مَنْ يستمعُ اليـكَ ، حتىٰ اذا خَرجُـوا من عندكَ قـالُوا للذينَ أوتُـوا العلمَ ماذَا قال آنفـاً ، أولئكَ الّـذينَ طبعَ اللَّهُ علىٰ قلوبهمْ﴾ ـ (القتـال ٤٧ : ١٦) ، وقال : ﴿ومنهمْ مَنْ يستمعـونَ اليكَ ، أفـانَت تسمـعُ الصُمَّ ولـو كـانـوا لا يعقلونَ﴾ ـ (يـونس ١٠ : ٤٢) ، وقال﴿انا أنزلناهُ قرآناً عـربياً لعلَّكمُ تعقلونَ﴾ ـ (يـوسف ١٢ : ٢) . وكذلـك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع . وقد اعترف أهل النار بمجيء الـرسل فقـالوا ﴿بلى قـد جاءَنَا نذيرٌ فكَّذبنَا وقلنا ما نَزَّل اللَّهُ من شيءٍ﴾ ـ (الملك ٦٧ : ٩) .

وكذلك المعتبرين بأثـار المعذبين الذين قـال فيهم ﴿أفلم يسيرُوا في الارضي فتكـونَ لهم قلوبٌ يعقلونَ بها أو آذانٌ يسمعونَ بها﴾ ـ (الحج ٢٢ : ٤٦) . انمـا ينتفعون اذا سمعـوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل والناجين الذين صدقوهم ، فسمعوا قول الرسل وصدقوهم .

الفائدة الثـالثة : أن الخشيـة أيضاً سبب للتـذكر كـما تقدم . فكـل منهما قـد يكون سببـا للآخر . فقد يخاف الانسان فيتذكر ، وقد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها ، ويتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله .

فان قيل : مجرد ظن المخوف قد يوجب الخـوف ، فكيف قال ﴿إنَّمـا يخشىٰ اللَّهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ)[2] .

قيل : النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن ، وانما يصرفه العلم بأن العـذاب واقع لا محالة . وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يتـرك هواه . ولهـذا قال ﴿وأمَّا مَنْ خافَ مقامَ ربهِ وَنهى النَّفسَ عن الهوىٰ﴾ ـ (النازعات ٧٩ : ٤٠) .

---

(١) كذا بالأصل المخطوط وفي طبعة الهند والسعودية ذكر مكان الآية قوله تعالى : ﴿ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وعلق المحقق على ذلك بان ما ذكره ابن تيمية لا يناسب المقام واثبتنا ما في الأصل لأنه ادل على مراد ابن تيمية﴾ .

(٢) قد أوضح المصنف الجواب عن هذا في (كتاب الايمان) بقوله : ان تصور المخوف يوجب الهرب منه وتصور المحبـوب يوجب طلبـه . فاذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصورا تامـا . ومن كان كذلك لم يكن حصل لـه العلم التام . فـان ذلك يستلزم العلم بموجبه لا محالة ـ انتهى .

وقال تعالى في ذم الكفار﴿واذا قيلَ إنَ وعَد اللّهَ حقٌ والساعةَ لا ريبَ فيها قلتُمْ ما ندري ما الساعةُ إنْ نظنُّ إلا ظناً وما نحنُ بمستيقنينَ﴾ . (الجاثية ٤٥ : ٣٢) . ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يؤقنون . ولهذا أقسم الرب على قوع العذاب والساعة .

وأمر نبيّه أن يقسم على وقوع الساعة وعلى أن القرآن حق ، فقال : ﴿زعم الّذينَ كفرُوا أن لن يبعثُوا ، قل بلىٰ وربي لتبعثن﴾ ـ (التغابن ٦٤ : ٧) ، وقال : ﴿وقال الّذينَ كفروا لا تأتينا السَّاعةُ ، قُلْ بلىٰ وربي لتأتينكُمْ﴾ ـ (سبا ٣٤ : ٣) وقال ﴿ويستنبؤنكَ أحقٌ هُوَ ، قُلْ اي وربي إنَّهُ الحقُّ﴾ ـ(يونس ١٠ : ٥٣) .

(١٦) فصل

في الكلام على قوله ﴿وما يتذكر الا من ينيب﴾

وأما قوله تعالى : ﴿وما يتذكّر إلَّا من ينيبُ﴾ ـ (المؤمن ٤٠ : ١٣) فهو حق كما قال . فان المتذكر اما أن يتذكر ما يدعو الى الرحمة والنعمة والثواب كما يتذكر الانسان ما يدعوه الى السؤال ـ فينيب ، واما أن يتذكر ما يقتضى الخوف والخشية فلا بد له من الانابة حينئذ لينجو مما يخاف .

ولهذا قيل في فرعون ﴿لعلَّهُ يتذكَّر﴾ فينيب ، ﴿أو يخشى﴾ . وكذلك قال له موسى ﴿هل لكَ الىٰ أَنْ تزكّى * وأهديكَ الىٰ ربّكَ فتخشىٰ﴾ ـ(النازعات ٧٩ : ١٨ و ١٩) ، فجمع موسى بين الامرين لتلازمهما .

وقال نوعان : حصول النعمة ، واندفاع النقمة . ونفس النقمة نفع وان لم يحصل معه نفع آخر ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع وكلاهما نفع . فالنفع تدخل فيه الثلاثة ، والثلاثة تحصل بالذكرى ، كما قال تعالى : ﴿وذكِّرْ فإنَّ الذكرىٰ تنفعُ المؤمنينَ﴾ ، وقال : ﴿وَمَا يُدريكَ لعلَّهُ يزكّىٰ * أو يذكَّر فتنفعهُ الذكرىٰ﴾ . وأما ذكر التزكي مع التذكر فهو كما في قصة فرعون الخشية مع التذكر .

وذلك أن التزكي هو الايمان والعمل الصالح الذي تصير به نفس الانسان زكية ، كما قال في هذه السورة﴿قد أفلحَ من تزكّىٰ * وَذَكَرَ اسمَ رَبّهِ فصلى﴾ وقال : ﴿قد أفلحَ مَنْ زكَّاهَا * وقد خَابَ من دَسَّاهَا﴾ ـ (الشمس٩١ : ٩و١٠) ، وقال : ﴿هو الذي بعثَ في الأميينَ رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتهِ ويزكّيهم﴾ ـ(الجمعة ٦٢ : ٢) ، وقال : ﴿وويلٌ للمشركينَ * الّذينَ لا يؤتونَ الزَّكَاةَ﴾ (فصلت ٤١ : ٦ و ٧) ، وقال موسى لفرعون ﴿هل لكَ الى أنْ تزكّى * وأهديكَ الى ربّكَ فتخشىٰ﴾(النازعات ٧٩ : ١٨ و ١٩) . وعطف عليه ﴿أو يذكَّر فتنفعهُ الذِكرىٰ﴾ لوجوه :

أحدها : أن التزكي يحصل بامتثال أمر الرسول وان كان صاحبه لا يتذكر علوما عنه ، كما قال (يَتلوُا عليهم آياتهِ ويزكّيهم﴾ ، وثم قال ﴿ويعلمهُمْ الكتابَ والحكمةَ﴾ . فالتلاوة عليهم والتزكية عام لجميع المؤمنين ، وتعليم الكتاب والحكمة خاص ببعضهم . وكذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول وأما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها ، فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه .

الثالث : أن التذكر سبب التزكي . فانه اذا تذكر خاف ورجا ، فتزكى . فذكر الحكم وذكر سببه ذكر العمل وذكر العلم ، وكل منهما مستلزم للآخر .

فانه لا يتزكى حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول ، كما قال (سيذكّر من يخشىٰ) . فلا بد لكل مؤمن من خشية وتذكر . وهو اذا تذكر فانه ينتفع . وقد تتم المنفعة ، فيتزكى .

وقوله : ﴿لمن أرادَ أنْ يذكّر أو أراد شُكوُراً﴾ - (الفرقان ٢٥ : ٦٢) ، فيه أيضا نحو هذه الوجوه . فان الشاكر قد يشكر الله على نعمه وان لم يخف ، والتذكر قد يقتضي الخشية . وأيضا فان التذكر يقتضي الخوف من العقاب وطلب الثواب فيعمل للمستقبل ، والشكر على النعم الماضية . وأيضاً فالتذكر تذكر علوم سابقة ، ومنها تذكر نعم الله عليه ، فهو سبب للشكر . وتذكر السبب والمسبب .

وأيضا فان الشكر يقتضي المزيد من النعم ، والتذكر قد يكون لهذا ، وقد يكون خوفاً من العذاب .

وقد يكون الأمر بالعكس ، فالشاكر قد يشكر الشكر الواجب لئلا يكون كفورا فيعاقب على ترك الشكر بسلب النعمة وعقوبات أخر ، والمتذكر قد يتذكر ما أعده الله لمن أطاعه فيطيعه طلبا لرحمته .

وأيضاً فالتذكر قد يكون لفعل الواجبات التي يدفع بها العقاب ، والشكر يكون للمزيد من فضله ، كما في الصحيحين أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه . فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : (أفلا أكونُ عبداً شكوراً) ؟[1] .

وقال ﷺ : (لا يتمنين أحدكم الموت : اما محسن فيزداد احسانا ، واما مسيئاً فلعله أن يستعتب)[2] فالمؤمن دائما في نعمة من ربه تقتضي شكرا . وفي ذنب يحتاج الى استغفار .

---

(١) ورد الحديث في : البخاري (كتاب التهجد) ، مسلم (كتاب المنافقين) الترمذي (الصلاة) ، النسائي (قيام الليل) ، ابن ماجه (الاقامة) ، ابن حنبل ٢٥١/٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الطب ، والتمني المرض والدعوات من حديث أبن هريرة . وفيه اما محسنا فلعله يزداد) وبنصب (محسنا) قال السيوطي ، قال ابن مالك النحوي : محسنا ومسيئاً خبر (يكون) مضمرة . وأخرجه أيضاً أحمد ، والنسائي في الجنائز . وفي مسلم

وهو في سيد الاستغفار يقول(وأبوء لك بنعمتك على ، وأبؤ بذنبي ، فاغفر لي ، فانه لا يغفر الذنوب الا أنت) .

وقد علم تحقيق قوله : ﴿مآ أصابكَ من حسنةٍ فمن اللّهِ ، ومآ أصابكَ من سيئةٍ فمن نفسكَ﴾ ـ (النساء ٤ : ٧٩) . فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكرا ، وما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضي تذكرا لذنوبه يوجب توبه واستغفار [١] .

وقد جعل الله ﴿ الليلَ والنهارَ خلفه لمنْ أرادَ أنْ يذكّر ﴾ فيتوب ويستغفر من ذنوبه ﴿ أو أرادَ شُكورا﴾ لربهِ على نعمه . وكل ما يفعله الله بالعبد من نعمة ، وكل ما يخلفه الله ، فهو نعمة الله عليه . فكلما نظر الى ما فعله ربه شكر ، واذا نظر الى نفسه استغفر .

والتذكر قد يكون تذكر ذنوبه وعقاب ربه . وقد يدخل فيه تذكرا آلائه ونعمه ، فان ذلك يدعو الى الشكر . قال تعالى : ﴿اذكروا نعمةَ اللّهِ عليكُمْ﴾ في غير موضع فقد أمر بذكر نعمه فالمتذكر يتذكر نعم ربه ، ويتذكر ذنوبه .

وأيضا فهو ذكر الشكر لأنه مقصود لنفسه ، فان الشكر ثابت في الدنيا والآخرة . وذكر التذكر لأنه أصل للاستغفار والشكر ، وغير ذلك . فذكر المبدأ وذكر النهاية . وهذا المعنى يجمع ما قيل والله سبحانه أعلم .

(١٧) فصل

﴿ في التذكير والتذكر ﴾

والتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره ، كما قال : ﴿ أولم نعمركُمْ ما يتذكّرُ فيهِ مَنْ تذكّرَ وجاءكُمْ النّذيرُ ﴾ ـ (فاطر ٣٥ : ٣٧) ، أي قامت الحجة عليكم بالنذير الذي جاءكم ، وبتعميركم عمرا ـ يتسع للتذكر .

وقد أمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع ، كقوله : ﴿ واذكروا نعمةَ اللهِ عليكُمْ وما أنزَلَ عليكُمْ من الكتابِ والحكمةِ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٣١) .

والمطلوب بذكرها شكرها ، كما قال : ﴿ ومن حيثُ خرجتَ فولِّ وجهكَ شطرَ

(كتاب الذكر) ، وابو داود (الجنائز) وابن ماجه (الزهد) ، الدارمي (الرقاق) . ومعنى الاستعتاب طلب الاعتاب ، والهمزة للازالة ، أي يطلب ازالة العتاب بالاقلاع والاستغفار .

(١) انظر تفسير الآية من الجزء الثاني من هذا الكتاب فقد أفاض المؤلف فيها القول .

المسجدِ الحرامِ ، وحيثُ ما كنتُمْ فولُّوا وجوهكُمْ شطرهُ لِئَلا يكونَ للنَّاسِ عليكُمْ حجةٌ إلاَّ الَّذينَ ظلمُوا منهم ، فلا تخشوهُمْ واخشوني ولأتمَ نعمتي عليكُمْ ولعلّكُمْ تهتدونَ * كما أرسلنَا فيكُمْ رسولاً منكُمْ يتلوا عليكُمْ آياتِنَا ويزكيكُمْ ويعلمكُمْ الكتابَ والحِكْمَةَ ويعلمكُمْ ما لَمْ تكونُوا تعلمونَ * فاذكروني أذكركُمْ واشكُرُوا لي ولا تكفرونِ ﴾ - (البقرة ٢ : ١٥٠ - ١٥٢) .

وقوله : ﴿ كَمَا أرسَلْنَا فيكُمْ رسولاً منكُمْ ﴾ يتناول كل من خوطب بالقرآن . وكذلك قوله : ﴿ لقد جاءَكُمْ رسولٌ من أنفسِكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عنتّمْ حريصٌ عليكُمْ بالمؤمنينَ رءوفٌ رحيمٌ ﴾ - (التوبة ٩ : ١٢٨) . فالرسول من أنفس من خوطب بهذا الكلام ، اذ هي كاف الخطاب .

ولما خوطب به أولا قريش ، ثم العرب ، ثم سائر الأمم ، صار يخص ويعمم بحس ذلك ..... وفيه يخص قريشا كقوله : ﴿ لإِيلافِ قريشٍ * ايلافهمْ رحلةَ الشتاءِ والصيفِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وإنَّهُ لذكرٌ لكَ ولقومكَ ﴾ - (الزخرف ٤٣ : ٤٤) .

وفيه ما يعم العرب ويخصهم ، كقوله : ﴿ هو الَّذي بعثَ في الأميّينَ رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتهِ ﴾ (الجمعة ٦٢ : ٢) ، والأميون يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب .

ثم قال : ﴿ وآخرينَ منهُمْ لمَّا يلحقُوا بهم ﴾ - (الجمعة ٦٢ : ٣) . فهذا يتناول كل من دخل في الاسلام بعد دخول العرب فيه الى يوم القيامة ، كما قال ذلك مقاتل بن حيان[1] ، وعبد الرحمن بن زيد ، وغيرهما .

فان قوله : ﴿ وآخرينَ منهم ﴾ ، أي في الدين دون النسب ، اذ لو كانوا منهم في النسب لكانوا من الاميين . وهذا كقوله تعالى : ﴿ والَّذينَ آمنوا مِنْ بعدِ وهَاجَرُوا معكُمْ فأولئكَ مِنكُمْ ﴾ - (الأنفال ٨ : ٥٧)[1] .

وقد ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت سئل النبي ﷺ عنهم فقال : (لو كان

---

(١) هو مقاتل بن حيان النبطي ابو بسطام البلخي الخراز ، صدوق فاضل ، مات قبيل الخمسين بعد المائة بارض الهند ، وهو غير مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي ، كذبوه وحجروه ورمى بالتجسيم ، مات سنة خمسين ومائة - التقريب . قال المصنف : وأما الكلبي والسدي الصغير فمتروكان ، وكذلك مقاتل بن سليمان ، بخلاف مقاتل بن حيان فانه ثقة .

الايمان معلقا بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس[1] فهذا يدل على دخول هؤلاء - لا يمنع دخول غيرهم من الأمم .

واذا كانوا هم ﴿ منهم ﴾ فقد دخلوا في قوله : ﴿ لقد منَّ اللهُ علىٰ المؤمنينَ إذْ بعثَ فيهم رسولاً منهم ﴾ - (آل عمران ٣ : ١٦٤) . فالمِنَّة على جميع المؤمنين عربهم وعجمهم . سابقهم ولاحقهم .

والرسول ﴿ منهم ﴾ لأنه انسى مؤمن .

وهو من العرب أخص لكونه عربيا جاء بلسانهم ، وهو من قريش أخص ، والخصوص يوجب قيام الحجة ، لا يوجب الفضل الا بالايمان والتقوى لقوله : ﴿ إنَّ أكرمكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكُمْ ﴾ - (الحجرات ٤٩ : ١٣) .

ولهذا كان الأنصار افضل من الطلقاء من قريش ، وهم ليسوا من ربيعة مضر[2] ، بل من قحطان .

واكثر الناس على أنهم من ولد هود ، ليسوا من ولد ابراهيم[3] .

وقيل انهم من ولد اسماعيل لحديث أسلم لما قال : « أرموا » فان أباكم كان راميا وأسلم من خزاعة[4] ، وخزاعة من ولد ابراهيم[5] .

---

(١) الحديث في البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن أبي هريرة قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فانزلت عليه سورة الجمعة : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال قلت : من هم يا رسول الله ، فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسي وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: . . . الحديث .

(٢) ربيعة ومضر أبنا نزار بن معد بن عدنان ، وعدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام بلا خلاف . وقبائل قريش كلهم من مضر ، فانه بنو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، أما الانصاري فهم بنو الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن أمرى القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كيلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، يريد المصنف رحمه الله أن الانصار لم يكونوا من ربيعة ولا مضر فضلا عن أن يكونوا من قريش . حتى انهم ليسوا من عدنان ، بل من قحطان .

(٣) قال الحافظ ابن عبد البر في « الانباء على قبائل الرواه » ما خلاصته : اختلفت النسابون جميعا في نسبة قحطان على ثلاث مقالات تفرق أهل كل مقالة منها على ثلاث مقالات . فمنهم من قال : هو قحطان بن هود بن عبد الله - زاد بعضهم : بن رياح - بن الجلود بن عاد بن عوض بن ارم بن حام بن نوح ، قال ووجدت أكثر أهل اليمن يقولون قحطان بن عابو - وهو هود - ابن شالخ بن أوفخشذ بن سام بن نوح ، ويقولون : نحن العرب العاربة ، نحن اقدم من ابراهيم - انتهى . وقال المصنف في الرد على المنطقين « ص ٤٥٦ : والصحيح أنهم كانوا موجودين قبل ابراهيم بأرض اليمن ، ومنهم جرهم الذين سكنوا مكة ، ومنهم تعلم اسماعيل العربية .

(٤) قوله : (وأسلم من خزاعة) : هو كما قال البخاري في المناقب : باب نسبة اليمن الى اسماعيل ، منهم اسلم بن اقصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن خزاعة ، ثم ساق هذا الحديث عن سلمة بن الاكوع قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم من اسلم يتناضلون بالسوق ، فقال : « ارموا ، بني إسماعيل ، فان أباكم كان راميا . . . الحديث » . وذكر ابن عبد البر أن خزاعة افترقت على اربعة شعوب: ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر، وأسلم بن أقصى «وملكان، ومالك بن أقصى بن حارثة بن عمرو بن عامر.

(٥) قوله : « خزاعة من ولد ابراهيم » : وبعد أبواب قال البخاري : باب قصة خزاعة وأورد فيه حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ =

وفي هذا كلام ليس هذا موضعه ، اذ المقصود أن الأنصار أبعد نسبا من كل ربيعة ومضر مع كثرة هذه القبائل ، و(مع هذا هم أفضل)[1] من جمهور قريش ، الا من السابقين الأولين من المهاجرين - وفيهم قرشي وغير قرشي .

ومجموع السابقين ألف وأربعمائة[2] غير مهاجري الحبشة .

فقوله : ﴿ لقد جاءكم ﴾ يخص قريشا والعرب ، ثم يعم سائر البشر لأن القرآن خطاب لهم . والرسول ﴿من أنفسهم﴾ ، والمعنى ليس بملك لا يطيقون الأخذ منه ، ولا جنى .

ثم يعم الجن لأن الرسول ارسل الى الانس والجن ، والقرآن خطاب للثقلين ، والرسول منهم جميعا ، كما قال : ﴿ يا معشرَ الجنِّ والانسِ أَلَمْ يأتكُمْ رسلٌ منكُمْ ﴾ - (الأنعام ٦ : ١٣٠) . فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الانس .

فان الانس والجن مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين . فانهم يأكلون ويشربون ، وينكحون وينسلون ، ويغتذون وينمون بالأكل والشرب ، وهذه الأمور مشتركة بينهم . وهم يتميزون بها عن الملائكة ، فان الملائكة لا تأكل ولا تشرب، ولا تنكح ولا تنسل .

فصار الرسول من أنفس الثقلين باعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميزوا به عن الملائكة، حتى كان الرسول مبعوثا الى الثقلين دون الملائكة .

وكذلك قوله : ﴿ لقَدْ مَنَّ اللهُ علىٰ المؤمنينَ إذْ بعثَ فيهم رسولاً مِنْ أنفسهمْ ﴾ - (آل عمران) هو كقوله : ﴿ واذكُروا نعمةَ اللهِ عليكُمْ وَمَا أنزَلَ عليكُمْ مِنَ الكتابِ والحكمةِ ﴾ -

---

= قال : « عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف ابو خزاعة » . اعلم أن « خزاعة » سموا كذلك لأنها تخزعت عن عظم الازد ، والانخزاع التقاعس والتخلف . وقمعة بن خذف هو قمعة بن الياس بن مضر ، يقال لولده : « خندف » لأن امرأته كان يقال لها « خندف » ، فنسب ولده اليها وهي أمهم .

واختلفوا في خزاعة بعد اجماعهم على أنهم ولد عمرو بن لحى ، فقال بعضهم : هم ولد عمرو بن لحى بن قمعة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فنسبوهم الى مضر والى ابراهيم . وقال آخرون : هم ولد عمرو بن لحيى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد من ولد قحطان ، فنسبوهم الى اليمن . وهذا الخلاف يرجع الى خلافهم في عمرو بن لحى هل هو مضري أو يمني .

قال الحافظ في « الفتح » : وجمع بعضهم بين القولين أعني نسبة خزاعة الى اليمن والى مضر ، فزعم أن حارثة بن عمرو لما مات قمعة بن خندف - وهو قمعة بن الياس - كانت امرأته حاملا بلحى ، فولدته وهي عند حارثة ، فتبناه فنسب اليه . فعلى هذا فهو من مضر بالولادة ، ومن اليمن بالتبني . والظاهر أن هذا ما أراد المصنف بقوله الآتي : « وفي هذا كلام ليس هذا موضعه » ، وانظر طبعة الهند ص ١٠٦ هامش ٤ .

(١) ليس بالأصل الناسخ واضفناها ليستقيم المعنى » .

(٢) هذا على قول من قال ان المراد بالسابقين الأولين من المهاجرين والانصار الذين بايعوا بيعة الرضوان بالحديبية عام ست ، فان هذا عددهم . وفيهم قول آخر بأن المراد بهم هم الذين صلوا القبلتين جميعا (أنظر تفسير الطبري) .

(البقـرة) ، وقولـه : ﴿ كما أرسلنـا فيكُمْ رسولاً منكم يتلوا عليكُمْ آيـاتنا ويـزكيكُمْ ويعلمكُمْ الكتابَ والحكمةَ ويعلمكُمْ ما لَمْ تكونُوا تعلمونَ ﴾ ـ (البقرة) .

(عود الى معنى التذكير والتذكر)

ثم قال : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . والمقصـود أنه أمـر بذكـر النعم وشكرها .

وقال : ﴿ يا بني اسرائيلَ اذكرُوا نعمتيَ الّتي أنعمتُ عليكُمْ ﴾ في غير مـوضع ، وقـال للمؤمنين : ﴿ واذكـرُوا إذ كنتُمْ قليلاً فكثـركُمْ ﴾ ـ (الأعـراف ٧ : ٨٦) ، فـذكـر النعم من الذكر الذي أمروا به .

ومما أمروا بـه تذكـرة قصص الأنبياء المتقـدمين ، كمـا قـال : ﴿ واذكـرْ في الكتـابِ ابراهيمَ ﴾ ـ (مريم ١٩ : ٤١) ، ﴿ واذكرْ في الكتابِ مـوسىٰ ﴾ ـ (١٩ : ٥١) ، ﴿ واذكرْ في الكتابِ اسماعيـلَ ﴾ ـ (١٩ : ٥٤) ، ﴿ واذكرْ في الكتـابِ ادريسَ ﴾ ـ (١٩ : ٥٦) ، وقال : ﴿ واذكرْ عبدِنَا داودَ ذَا الأيدِ ﴾ ـ ﴿ ص ٣٨ : ١٧) ، ﴿ واذكُرْ عبادَنَا ابراهيمَ واسحاقَ ويعقوبَ ﴾ ـ (٣٨ : ٤٥) ، واذكرْ اسماعيلَ واليسعَ ﴾ ـ (٣٨ : ٤٨) .

ومما أمروا به تذكرة ما وعدوا به من الثواب والعقاب . قـال تعالى : ﴿ إنَّـا أخلصناهُمْ بخالصةِ ذكرى الدارِ ﴾ ـ (ص ٣٨ : ٤٦) .

ومما أمروا بتـذكره إيـات الله التي يستدلـون بها على قـدرته وعلى المعـاد ، كقولـه : ﴿ ويقولُ الانسانُ أأذَا ما متُ لسوفَ أخرجُ حياً ﴾ ألا يـذكّر الانسـانُ أنَّا خلقناهُ من قبلُ ولَمْ يكُ شيئاً ﴾ ـ (مريم ١٩ : ٦٦ ، ٦٧) .

وقد قال لموسى : ﴿ وذكّرهم بـأيامِ اللهِ ﴾ ـ (ابـراهيم ١٤ : ٥) ، وهي تتناول أيـام نعمه وأيام نقمه ليشكروا ويعتبروا .

ولهذا قال : ﴿ إنَّ في ذلـكَ لآياتٍ لكـلِّ صبارٍ شكـورٍ ﴾ ـ (١٤ : ٥) فان ذكـر النعم يـدعو الى الشكـر ، وذكر النقم يقتضى الصبـر على فعل المـأمور وان كـرهتـه النفس ، وعن المحظور وان أحبته النفس ، لئلا يصيبه ما أصاب غيره من النقمة .

(١٨) فصـــل

(قوله تعالى : ويتجنبها الاشقى)

وقوله : ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذي يصلي النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ - (الأعلى ٨٧ : ١١ - ١٣) ، وقد ذكر في سورة الليل قوله : ﴿ فأنذرتكُمْ ناراً تلظَّىٰ * لا يصلاّهـا إلَّا لأشقَىٰ * الَّذي كذَّبَ وتولَّىٰ ﴾ - (الليل ٩٢ : ١٤ - ١٦) .

وهذا الصَلْى قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الـذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فـانهم لا يموتـون فيها ولا يحيـون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال : بخطاياهم - فأماتتهـم اماتة ، حتى اذا كانوا فحما أذن بالشفاعـة ، فجيء بهم ضبائـر ضبائـر ، فبثوا عـلى أنها الجنة ، ثم قيـل : يا أهـل الجنة ! أفيضـوا عليهم . فينبتـون نبـات الحبة في حميـل السيـل » ، فقـال رجـل من القـوم : كـأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية .

وفي رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال : ذكر عن عبد الصمد بن عبـد الوارث ، ثنـا أبي ، ثنـا سليمان التيمي ، عن أبي نضـرة ، عن أبي سعيد ، أن رسـول الله ﷺ خطب ، فـأتى عـلى هذه : ﴿ لا يموتُ فيها ولا يحيى ﴾ ، فقال النبي ﷺ : « أما أهلها الذين هم أهلها فـلا يموتـون فيها ولا يحيونَ . وأما الذين ليسوا من أهل النار فان النار تميتهم ، ثم يقول الشفعـاء فيشفعون فيهم فيشفعـون ، فيؤتى بهم (الى)[٢] نهر يقال لـه الحيـوة ، أو الحيـوان ، فينبتـون كـما ينبت الغثاء[٣] في حميل السيل » .

فقد بين النبي ﷺ (أن)[٤] هذا الصلى لأهل النار الـذين هم أهلها ، وأن الـذين ليسوا

---

(١) أخرجه مسلم في الايمان ، باب اثبات الشفاعة واخراج الموحدين من النار . وأخرجه ابن ماجة في الزهد ، باب ذكر الشفاعة .

(٢) سقط من الاصل ويوجد في قوله المصنف بعد قليل « ويؤتى بهم الى نهر » .

(٣) وفي رواية لمسلم (كما تنبت الغثـاء في جانب السيل » ، قـال في « النهايـة » : يريـد ما احتمله السيـل من البزورات . وقـال في « الغثاء » : في حديث القيامة « كمـا تنبت الحبة في غثـاء السيل » . الغثـاء - بالضم والمـد ما يجيء فوق السيل ممـا يحمله من الزبد والوسخ وغيره - ا هـ .

(٤) ليس في الاصل والسياق يقتضيه .

من أهلها فانها تصيبهم بذنوبهم ، وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحماً[١] ، ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم الى نهر الحيوة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل .

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ - بل متواتر - في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وغيرهما .

وفيها الرد على طائفتين ، على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون : « ان أهل التوحيد يخلدون فيها » ، وهذه الآية حجة عليهم ، وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة « أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد » .

فان اخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك[٢] .

وفيه رد على من يقول : « يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحداً النار » كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة ، ومرجئة أهل الكلام المنتسبين الى السنة - وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن وغيرهم ، كالقاضي أبي بكر وغيره ، فان النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم .

والقول بـ « أن أحدا لا يدخلها من أهل التوحيد » ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه ، لكن حكي عن مقاتل بن سليمان[٣] ، وقال : احتج من قال ذلك بهذه الآية . وقد أجيبوا بجوابين .

أحدهما : جواب طائفة ، منهم الزجاج ، قالوا : هذه نار مخصوصة . لكن قوله بعدها ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ - (الليل ٩٢ : ١٧) ، لا يبقى فيه كبير وعد ، فانه اذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها .

وجواب آخرين قالوا : لا يصلونها صلى خلود ، وهذا أقرب

---

(١) قال السندي في حاشية ابن ماجه : قوله : ﴿ فأماتتهم اماتة ﴾ قد صح هذا في صحيح مسلم أيضاً ، وعلى هذا فمن يدخل النار من المؤمنين لا يعذب الا لحظة ، فلله الحمد على ذلك .

(٢) قال المصنف في « الوصية الكبرى » : ان أهل السنة والجماعة في باب الوعد والوعيد وسط بين « الوعيدية » الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ، ويخرجونهم من الايمان بالكلية ، ويكذبون بشفاعة النبي ﷺ : وبين « المرجئة » الذين يقولون : ايمان الفساق مثل ايمان الانبياء ، الاعمال الصالحة ليست من الدين والايمان ، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية . فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الايمان وأصله ، وليس معهم جميع الايمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة ، وأنهم لا يخلدون في النار ، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من ايمان أو مثقال خردلة من ايمان ، وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته انظر العقيدة الواسطية ، هامش ص ١١١ ط الهند .

(٣) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي صاحب التفسير توفي سنة ١٥٠ هـ . قال في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة مقاتل بن حيان : فأما مقاتل بن سليمان المفسر فكان في هذا الوقت ؛ « وهو متروك الحديث وقد لطخ بالتجسيم ، مع أنه كان من أوعية العلم بحرا في التفسير .

وتحقيقه أن الصلى هنا هو الصلى المطلق ، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب اليهم دائما .

فأما من دخل وخرج فانه نوع من الصلى « ليس هو الصلى المطلق ، لاسيما اذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله ، فانه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود[1] ، والله أعلم .

(١٩) فصـــل

(قوله : ان هذا لفي الصحف الأولى)

جمع الله سبحانه بين ابراهيم وموسى ـ صلى الله عليهما وعلى ساير المرسلين ـ في أمور ، مثل قوله : ﴿ إنَّ هـذا لفي الصحفِ الأولىٰ * صحفِ ابراهيمَ وموسىٰ ﴾ ـ (٨٧ : ١٨ ، ١٩) .

وفي حديث أبي ذر الطويل قلت : يا رسول الله ! كم كتابا أنزل الله ؟ قال : « مائة كتاب وأربعة كتب : ثلاثين صحيفة على شيث ، وخمسين على ادريس وعشر على ابراهيم ، وعشر على موسى قبل التوراة ، وأنزل التوراة ، والانجيل ، والزبور والفرقان » . وقال في الحديث : فهل عندنا شيء مما في صحف ابراهيم ؟ فقال : « نعم » وقرأ قوله : ﴿ قد أفلحَ من تزكّىٰ * وذكَرَ اسمَ ربهِ فصلّىٰ * بل تُوثِرُونَ الحيوةَ الدُّنيا * والآخرةُ خيرٌ وأبقىٰ * إنَّ هذا لفي الصحفِ الأولىٰ * صحفِ ابراهيمَ وموسىٰ ﴾[2] .

فان[3] التزكى هو التطهر والتبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس ، كما قال ﴿ قد أفلحَ من زكّاهَا ﴾ ـ (الشمس ٩١ : ٩) ، ولهذا تفسر الزكوة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة ، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين ـ إزالة الشر ، وزيادة الخير . وهذا هو العمل الصالح ، وهو الاحسان .

---

(١) وهذا لفظ مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو قوله : (يعرفونهم بأثر السجود ـ تأكل النار من ابن آدم الا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود) .

(٢) هذا جزء من حديث أبي ذر الطويل ، رواه بتمامه الحافظ ابو نعيم في « الحلية » باسناده من طريق ابراهيم ابن هشام الغساني ، عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال : دخلت المسجد واذا رسول الله ﷺ جالس وحده ، فجلست اليه فقال : « يا أبا ذر: ان للمسجد تحية ، وان تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما » . . الحديث بطوله ، وذكر عدة طرقة ـ حلية الأولياء ج ١ : ص ١٦٦ ـ ١٦٩ . وفيه « أنزل على شبث خمسون صحيفة » وأنزل على خنوخ (وهو ادريس) « ثلاثون صحيفة » والباقي مثله . وفيه في رواية عبيد بن عمير « قلت : يا رسول الله ! هل في الدنيا شيء مما أنزل الله عليك مما كان في صحف ابراهيم وموسى ؟ الخ ، وقد ذكر الحافظ المنذر قطعة كبيرة من آخره في باب الترهيب من الظلم « وفي باب الترغيب في الصمت . من الترغيب والترهيب » وقال في آخره : رواه أحمد ، والطبراني وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٣) عود الى قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ .

وذلك لا ينفع الا بالاخلاص لله ، وعبادته وحده لا شريك له ، الذي هو أصل الايمان وهو قول : ﴿ وذكرَ اسمَ ربّهِ فصلّى ﴾ .

فهذه الثلاث ـ قد يقال ـ تشبه الثلاث التي يجمع الله بينها في القرآن في مواضع ، مثل قوله في أول البقرة : ﴿ هدىً للمتقينَ * الَّذينَ يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلوةَ ومما رزقناهُمْ ينفقون ﴾ ، ومثل قوله : ﴿ فإنْ تَابُوا وأقامُوا الصلوةَ وآتوا الزكوةَ فخلّوا سبيلهم ﴾ ـ (التوبة ٩ : ٥) ، ﴿ فان تابوا وأقاموا الصلوةَ وآتوا الزكوةَ فاخوانكم في الَّدين ﴾ ـ (٩ : ١١) .

وقد يقال : تشبه الثنتين المذكورتين في قوله : ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ـ الآية ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٦٢ ، والمائدة ٥ : ٦٩) ، وقوله : ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ ـ (النساء ٤ : ١٢٥) .

لكن هنا التزكى في الآية أعم من الانفاق ، فانه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك .

فأول التزكى التزكى من الشرك ، كما قال : ﴿ وويلٌ للمشركينَ * الَّذينَ لا يؤتونَ الزكوةَ ﴾ ـ (فصلت ٤١ : ٦ ، ٧) ، وقال : ﴿ يتلوا عليهم آياتِه ويزكيهم ﴾ ـ (الجمعة ٦٢ : ٢) .

والتزكى من الكبائر ، الذي هو تمام التقوى ، كما قال : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى ﴾ ـ (النجم ٥٣ : ٣٢) ، وقال : ﴿ ألم ترَ الىٰ الَّذينَ يزكّونَ أنفسهم ، بل الله يزكّي من يشاءُ ولا يظلمونَ فتيلاً ﴾ ـ (النساء ٤ : ٤٩) . فعلم أن التزكية هو الاخبار بالتقوى .

ومنه التزكى بالطهارة ، وبالصدقة والاحسان ، كما قال : ﴿ خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ ـ (التوبة ٩ : ١٠٣) .

﴿ ومن ذكر اسم ربه ﴾ قد يعني به الايمان بالله ، والصلوة : العمل ، فقد يذكر اسم ربه من لا يصلى .

ومن الفقهاء من يقول : هو ذكر اسمه في أول الصلوة[1] ولهذا ـ والله أعلم ـ قدم التزكى

---

(١) قال الامام ابو حنيفة رحمه الله : تنعقد الصلوة بكل اسم الله تعالى على وجه التعظيم كقوله : « الله عظيم ، أو كبير ، أو جليل » ، و« سبحانه الله » ، و« الحمد الله » و« لا إله الا الله » ، ونحوه ، لقول الله تعالى : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ،

في هذه الآية .

وكان طائفة من السلف اذا أدوا صدقة الفطر قبل صلوة العيد يتأولون بهذه الآية[1] وكان بعض السلف ـ أظنه يزيد بن أبي حبيب[2] ـ يستحب أن يتصدق أمام كل صلوة لهذا المعنى[3] .

ولما قدم الله الصلوة على النحر في قوله : ﴿ فصلّ لربكِ وانحر ﴾ ـ (الكوثر ١٠٨ : ٢) ، وقدم التزكى على الصلوة في قوله : ﴿ قد أفلحَ من تزكّىٰ * وذكَرَ اسم ربّهِ فصلّىٰ ﴾ كانت السنة أن الصدقة قبل الصلوة في عيد الفطر ، وأن الذبح بعد الصلوة في عيد النحر .

ويشبه ـ والله أعلم أن يكون الصوم من التزكى المذكور في الآية . فان الله يقول : ﴿ كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ علىٰ الَّذينَ من قبلكُمْ لعلّكُمْ تتقونَ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٨٣) ، فمقصود الصوم التقوى ، وهو من معنى التزكى .

وفي حديث ابن عباس : فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين[4] فالصدقة من تمام طهرة الصوم ، وكلاهما تزك متقدم على صلوة العيد .

وذكر اسمه اعم من أن يكون باسم الله ، أبو باسم الرحمن ، أو غير ذلك مما يدل على التعظيم ، وهذا خلاف لما ذهب اليه الجمهور من أن تحريم الصلوة التكبير ، ولا تنعقد الا بقول الله أكبر ، عند الاكثر . قال الحافظ ابن القيم في « اعلام الموقعين » : المثال الخامس عشر : رد المحكم الصريح من تعيين التكبير للدخول في الصلوة بقوله : ﴿ اذا أقيمت الصلوة فكبر ﴾ ، وقوله : « وتحريمها التكبير » وقوله : « لا يقبل الله الصلوة من أحدكم حتى يضع الوضوء موضعه ، ثم يستقبل القبلة ويقول : الله اكبر » وهي نصوص في غاية الصحة فردت بالمتشابه من قوله : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

(١) منهمُ أبو العالية ، وسعيد بن المسيب ، وعمر بن عبد العزيز . قال ابن كثير : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس باخراج صدقة الفطر ويتلو هذه الآية أهـ . وتأويلها عندهم بأن يكون المراد بالتزكى زكوة الفطر ، وبالذكر التكبير ، وبالصلوة صلوة العيد .

(٢) هو يزيد بن أبي حبيب المصري أبو رجاء ، ثقة فقيه ، وكان يرسل ، من الخامسة : مات سنة ثمان وعشرين بعد المائة وقد قارب الثمانين ـ التقريب . قال ابن سعد : ثقة كثير الحديث ، وقال الليث : هو سيدنا وعالمنا .

(٣) قال ابن كثير ، قال ابو الاحوص : اذا أتى احدكم سائل وهو يريد الصلوة فليقدم بين يدي صلوته وزكوته ، فان الله تعالى : ﴿ قد افلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله في « مفتاح دار السعادة » عند ذكر الحكمة الآلهية في ابقاء بعض الأثر من كل ما نسخ من الاحكام الشرعية أو وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ كما جاء في آية المجادلة لم يطل حكمة بالكلية ، بل نسخ وجوبه وبقى استحبابه . قال : وفيه اشارة الى أنه اذا استحبت الصدقة بين يدي مناجاة المخلوق فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوة والدعاء أولى . فكان بعض السلف يتصدق بين يدي الصلوة والدعاء اذا أمكنه ، ورأيت شيخ الاسلام ابن تيمية يفعله ويتحراه ما أمكنه . وفاوضته فيه فذكر الى هذا التنبيه والاشارة .

(٤) أخرجه أبو داود في الزكاة ، باب زكاة الفطر . وفيه « زكاة الفطر » يدل « صدقة الفطر وفي نسخة » طهرة للصيام ، وأخرجه أيضا ابن ماجه . والمراد بقوله : « وكلاهما » الصوم وصدقة الفطر .

فجمعت هاتان الكلمتان الترغيب فيما أمر الله به من الايمان والعمل الصالح ، وفي قوله : ﴿ بل تُؤثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا * والآخرةُ خيرٌ وأبقىٰ ﴾ الايمان باليوم الآخر .

وهذه الأصول المذكورة في قوله : ﴿ انَّ الَّذينَ آمنُوا والَّذينَ هادُوا والنصارىٰ والصَّابئينَ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعمِلَ صالحاً فلهُمْ أجرهُمْ عِنْدَ ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنونَ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٦٢) .

وقال : ﴿ إنَّ هذا لَفي الصحفِ الأولىٰ * صُحفِ ابراهيمَ وموسىٰ ﴾ . وقال أيضاً : ﴿ أفرأيتَ الَّذي تولّىٰ * وأعطىٰ قليلاً وأكدىٰ * أعَنَدَهُ علمُ الغيبِ فهوَ يرىٰ * أمْ لم ينبأ بِمَا في صحفِ موسىٰ * وابراهيمَ الَّذي وفَّىٰ * ألا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ * وأن ليسَ للانسانِ إلَّا ما سعىٰ * وأن سعيهُ سوفَ يُرىٰ * ثُمَّ يجزاهُ الجزاءَ الأوفىٰ ﴾ ـ (النجم ٥٣ : ٣٣ ـ ٤١) .

وأيضاً ، فان ابراهيم صاحب الملة وامام الأمة ، قال الله تعالى : ﴿ ثم أوحينَا اليكَ أن اتبع ملةَ ابراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركينَ ﴾ ـ (النحل ١٦ : ١٢٣) ، وقال : ﴿ وَمَنْ يرغب عن ملّةِ ابراهيمَ إلّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٣٠) ، وقال : ﴿ وَمَنْ أحسنُ ديناً ممن أسلمَ وجههُ للهِ وهُوَ محسنٌ ، واتبع مِلَّةَ ابراهيم حنيفاً ﴾ ـ (النساء ٥ : ١٣٥) ، وقال : ﴿ إنَّ ابراهيمَ كانَ أمَّةً قانتاً للهِ حنيفاً ﴾ ـ (النحل ١٦ : ١٢٠) ، وقال : ﴿ اني جاعِلُكَ للناسِ اماماً) ـ (البقرة ٢ : ١٢٤) .

وموسى صاحب الكتاب والكلام والشريعة ، الذي لم يتنزل من السماء كتاب أهدى منه ومن القرآن .

ولهذا قرن بينهما في مواضع ، كقوله : ﴿ قل من أنزلَ الكتابَ الَّذي جاءَ بهِ موسىٰ نوراً ﴾ ـ الى قوله : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناهُ مبارك ﴾ ـ (الأنعام ٦ : ٩١ ، ٩٢) ، وقوله : ﴿ قالوا سِحْرَان ﴾ الى قوله : ﴿ قل فأتُوا بكتابٍ من عندِ اللهِ هو أهدىٰ منهما أتبعه ﴾ ـ (القصص ٢٨ : ٤٨ ، ٤٩) ، وقول الجن : ﴿ إنَّا سمعنَا كتاباً أُنْزِلَ مِنْ بعدِ موسىٰ مصدِّقاً لِمَا بين يديهِ ﴾ ـ (الاحقاف ٤٦ :٣٠) ،وقوله :﴿قل أرأيتم إنْ كانَ مِنْ عندِاللهِ وكفرتم بهِ وشَهِدَ شاهدٌ من بني اسرائيلَ على مثلهِ ﴾ ـ (الاحقاف ٤٦ ; ١٠) ، وقول النجاشي « ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكوة واحدة »[1] .

---

(١) قال ذلك حين قرىء عليه صدر من سورة مريم ، فبكى ثم قال هذا القول ، أخرجه ابن اسحاق من حديث أم سلمة الطويل في =

وقيل في موسى ﴿ وكلَّمَ اللهُ موسىٰ تكليماً ﴾ - (النساء ٤ : ١٦٤) ، وفي ابراهيم ﴿ واتَّخَذَ اللهُ ابراهيمَ خليلاً ﴾ - (النساء : ١٢٥) ، وأصل الخلة[١] عبادة الله وحده ، والعبادة غاية الحب والذل . وموسى صاحب الكتاب والكلام .

ولهذا كان الكفار بالرسل ينكرون حقيقة خلة ابراهيم وتكليم موسى .

ولما نبعت البدع الشركية في هذه الأمة انكر ذلك الجعد بن درهم[٢] ، فقتله المسلمون لما ضحى به امير العراق خالد بن عبد الله[٣] وقال : « ضحوا تقبل الله ضحاياكم ! فاني مضح بالجعد بن درهم - انه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ، ثم نزل فذبحه »[٤] .

= ارسال قريش رسوليهم الى النجاشي لاسترداد المهاجرين . و « المشكوة » الكوة في الحائط غير النافذة ، وهي أجمع للضوء ، والمصباح فيها أكثر انارة في غيرها ، قال ابن الأثير : اراد أن القرآن والانجيل (كذا قال والأصح : والتوراة) كلام الله تعالى ، وانهما من شيء واحد .

(١) في الأصل « الملة » ، والظاهر أنه تصحيف م« الخلة» . قال ابن القيم رحمه الله : والخلة«تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى في قلب سعة لغير محبوبه ، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه . ولما سأل ابراهيم عليه السلام الولد فأعطيه ، فتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه - أ هـ . وقال بعضهم .

قد تخللت ملك الروح مني * وبذا سمى الخليل « خليلا » .

(٢) قال الذهبي : الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد(بن مروان بن الحكم) الحمار (آخر خلفاء بني أمية) - ولهذا يقال له « مروان الجعدي » كان الجعد أول من تفوه بأن الالاه لايتكلم ، وقد هرب من الشام ، ويقال ان الجهم بن صفوان أخذ عنه مقالة خلق القرآن . وأصله من حران ، فبلغنا عن عقيل بن معقل ابن منبه قال : وقف الجعد على وهب بن منبه فجعل يسأله عن الصفة ، فقال ، يا جعد ، ويلك ! انقص من المسألة ، اني لأظنك من الهالكين ! لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدا ما قلنا ذلك، وأن له عينا ما قلنا ذلك « ثم لم يلبث الجعد أن صلب . قال أبو الحسن المدائني : كان الجعد زنديقا - أ هـ . وقال ابن العماد : الجعد من أول من نفى الصفات ، وعنه انتشرت مقالة الجهمية ، اذ ممن حذا حذوه في ذلك الجهم ابن صفوان - أ هـ . وقال ابن كثير : كان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له ايان بن سمعان ، وأخذه ابان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم ، عن خالد لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ : (انظر ترجمة الجعد في الجزء الأول) .

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر البجلي ثم القسري - بفتح القاف وسكون المهملة - اليماني الاصل الدمشقي الموطن ، ولي مكة الوليد ثم لسليمان ابني عبد الملك (٨٩ - ٩٩ هـ) . وولي العراقين لهشام بن عبد الملك الأموي خمس عشرة سنة (١٠٥ - ١٢٠) ثم عزله سنة ١٢٠ وأمه كانت نصرانية . ولجده يزيد بن أسد صحبة ، كان جوادا ممدحا خطيبا مفوها . قتله بالحيرة (قرب الكوفة) يوسف بن عمر - ابن عم الحجاج - الثقفي ، والي العراق ، بعد تعذيب شديد سنة ١٢٦ هـ قال ابن خلكان : كان خالد متهما في دينه ، وبنى لامه كنيسة تتعبد فيها - أ هـ ، قال الذهبي في « الميزان » : خالد بن عبد الله القسري الدمشقي البجلي الأمير عن ابيه ، عن جده - صدوق لكنه ناصبي ، بغيض ، ظلوم ، قال ابن معين / رجل سوء يقع في علي رضى الله عنه - أ هـ وذكر ابن كثير بعض هذه الاقوال ثم قال : والذي يظهر ان هذا لا يصح عنه « فانه كان قائما في اطفاء الضلال والبدع كما قدمنا من قتله للجعد بن درهم وغيره من أهل الالحاد . وقد نسب اليه صاحب (العقد الفريد) ، أشياء لا تصح، لأن صاحب « العقد » كان فيه تشيع شنيع ومغالاة في أهل البيت ، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد اعتبر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره - انتهى كلام ابن كثير .

(٤) قصة قتل خالد للجعد بن درهم مشهورة رواها قتيبة بن سعيد ، والحسن بن الصباح « وعثمان بن سعيد الدارمي ، عن أبي سفيان

ولما بعث الله نبيه ﷺ بعثه الى أهل الأرض ، وهم في الاصل صنفان ـ أميون وكتابيون . والأميون كانوا ينتسبون الى ابراهيم ، فانهم ذريته ، وخزان بيته ، وعلى بقايا من شعائره . والكتابيون أصلهم كتاب موسى وكلا الطائفتين قد بدلت وغيرت .

فأقام ملة ابراهيم بعد أعوجاجها ، وجاء بالكتاب المهيمن المصدق لما بين يديه ، المبين لما اختلف فيه وما حرف وكتم من الكتاب الأول .

(٢٠) فصــــل
(التوحيد نزل به جميع الانبياء)

وابراهيم وموسى قاما بأصل الدين ـ الذي هو الاقرار بالله ، وعبادته وحده لا شريك له ، ومخاصمة من كفر بالله .

فأما ابراهيم فقال الله فيه : ﴿ ألم ترَ الىٰ الّذي حاجَّ ابراهيمَ في رّبهِ أنْ آتاهُ الله الملكَ ، إذْ ابراهيمُ ربّيَ الَّذي يحيي ويميتُ قالَ أنا أحيي وأميتُ ، قالَ ابراهيمُ فإنَّ الله يأتي بالشمسِ منَ المشرقِ فأتِ بها من المغربِ فَبُهِتَ الَّذي كفرَ واللهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٥٨)[١] .

المعمري . وكان ذلك يوم الأضحى بواسط في غضون سنة ١١١ ـ ١٢٠ هـ . ذكرها الحافظ الذهبي في ترجمة الجعد في الطبقة الثانية عشرة من « تاريخ الاسلام » الكبير . وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه : رواها البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد » ، وابن أبي حاتم في « كتاب السنة » ، وغير واحد ممن صنف في كتاب السنة . وذكرها ابن العماد في « شذرات الذهب » من وجه آخر يزيدها وضوحا ، فقال : خطب (خالد) بواسط يوم اضحى ـ وكان ممن حضره الجعد بن درهم ـ فقال خالد في خطبته : « الحمد لله الذي اتخذ ابراهيم خليلا ، وموسى كليما » . فقال الجعد وهو بجانب المنبر « لم يتخذ الله ابراهيم خليلا ، ولا موسى كليما ، ولكن من وراورا » فلما أكمل خالد خطبته قال : « يا أيها الناس ! ضحوا ـ قبل الله ضحياكم ! . . . الخ » في كلام طويل . ثم نزل فذبحه في اسفل المنبر ـ أ هـ . انظر ترجمته بالتفصيل في الجزء الأول .

(١) قال السعدي : لما خرج ابراهيم من النار أدخلوه على الملك ، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه ، فجرت بينهما هذه المناظرة ـ أ هـ . قال ابن القيم رحمه الله : فهذا جعل نذا الله يحيى ويميت بزعمه كما يحيى الله ويميت . فلما ادعى الكافر أنه يفعل كما يفعل الله ، فيكون الهامع الله ، طالبه ابراهيم بموجب دعواه مطالبة تتضمن بطلانها فقال : ان كنت أنت ربا كما تزعم ، فتحيى وتميت كما يحيى ربي ويميت ، فان الله يأتي بالشمس من المشرق فتنصاع لقدرته وتسخيره ومشيئته ، فان كنت أنت ربا فأت بها من المغرب .

قال : وليس هذا انتقالا مع المشرك من حجة الى حجة كما ظن جماعة من أهل الجدل ، بل هذه مطالبة له بموجب دعواه الالهية . والدليل الذي استدل به ابرهيم قد وثبت موجبه . والدليل الثاني مكمل لمعنى الدليل الأول ومبين له ومقرره ، لتضمن الدليلين أفعال الرب الدالة عليه ، وعلى وحدانيته ، وانفراده بالربوبية والالهية ، كما لا تقدر أنت ولا أحد غير الله على مثلها .

وقد تكلم على هذه المناظرة وبين محاسنها وما تضمنته من العلوم والحكم في مفتاح دار السعادة ، ج ٢ : ص ٢١٤ ـ ٢١٧ .

وذكر الله عنه أنه طلب منه اراءة احياء الموتى ، فأمره الله بأخذ أربعة من الطير[1] .

فقرر أمر الخلق والبعث ـ المبدأ والمعاد ـ الايمان بالله واليوم الآخر .

وهما اللذان يكفر بهما ـ أو بأحدهما ـ كفار الصابئة والمشركين من الفلاسفة ونحوهم الذين بعث الخليل الى نوعهم .

فان منهم من ينكر وجود الصانع : وفيهم من ينكر صفاته ، وفيهم من ينكر خلقه ويقول : انه علة : وأكثرهم ينكرون احياء الموتى . وهم مشركون يعبدون الكواكب العلوية والأصنام السفلية .

والخليل صلوات الله عليه رد هذا جميعه . فقرر ربوبية ربه كما في هذه الآية[2] وقرر الاخلاص له ونفى الشرك كما في سورة الأنعام[3] وغيرها وقرر البعث بعد الموت .

واستقر في ملته محبته لله له ، باتخاذ الله له خليلا .

ثم انه ناظر المشركين بعبادة من لا يوصف بصفات الكمال ، فقال لأبيه : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴾ ـ (مريم ١٩ : ٤٢) ، وقال لأبيه وقومه : ﴿ ما تعبدونَ * قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفينَ * قال هلْ يسمعونكُمْ إذْ تدعونَ * أو ينفعونكُمْ أو يضرُّونَ ـ الى قوله ـ فانَّهم عدوٌّ لي إلّا رب العالمينَ * الَّذي خلقني فهو يهدينِ * والَّذي هُوَ يُطعمني ويَسقينِ * وإذا مرضتُ فهوَ يَشفينِ * والَّذي يُميتني ثمَّ يُحيينِ ﴾ ـ (الشعراء ٢٦ : ٧٠ ـ ٨١) الى آخر الكلام .

وقال : ﴿ انّي وَجَّهتُ وجهي للذي فطرَ السَّمواتِ والأرض حنيفاً وما أنا منَ المشركينَ ﴾ ـ (الأنعام ٦ : ٧٩) ، وقال : ﴿ انني براءٌ مما تعبدونَ الَّا الذي فطرني فانَّهُ سيهدينِ * وجعَلَها كلمةً باقيةً في عَقِبِهِ لعلَّهمْ يرجعونَ ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٢٦ ـ ٢٨) .

---

(١) وهو قول تعالى : ﴿ واذا قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ـ الآية ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٦٠) ، قال ابن كثير في تاريخه : كان ابراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على احياء الموتى علما يقينيا لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عينانا فيترقى ـ كما قال النبي ﷺ : « ليس المخبر كالمعاين » . فأجابه الله سؤاله ، فأمره أن يعمد الى اربعة من الطيور ، فيمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض ثم يقسمه قسما فيجعل على كل جبل منهن جزءا . ففعل ما أمر به أمر أن يدعوهن باذن ربهن . فلما دعاهن جعل كل عضو يطير الى صاحبه ، وكل ريشه تأتي الى أختها ، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر الى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون » فاتين اليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن ياتين طيرانا .

(٢) أي آية مناظرته للنمرود من سورة البقرة .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ ـ الى قوله : ﴿ ان ربك حكيم عليم ﴾ ـ (الانعام : ٧٥ ـ ٨٣) .

فابراهيم دعا الى الفطرة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له . وهو الاسلام العام[1] ، والاقرار بصفات الكمال لله ، والرد على من عبد من سلبها .

فلما عابهم بعبادة من لا علم له ولا يسمع ولا يبصر قال : ﴿ ربنا إنَّك تعلمُ ما نُخفي وما نُعلنُ ، وما يخفىٰ علىٰ اللهِ مِنْ شيءٍ في الأرضِ ولا في السماءِ * الحمدُ للهِ الَّذي وهبَ لي علىٰ الكِبَرِ إسماعيلَ واسحقَ ، إنَّ ربي لسميعُ الدعاء ﴾ ـ (ابراهيم ١٤ : ٢٨ ، ٢٩) .

ولما عابهم بعبادة من لا يغنى شيئا فلا ينفع ولا يضر قال : ﴿ الذي خلقني فهوَ يهدينِ * والَّذي هُوَ يطعمني ويسقينِ * واذا مرضتُ فهوَ يشفينِ * والَّذي يميتني ثُمَّ يحيينِ * والَّذي أطمعُ أَنْ يغفرَ لي خطيئتي يومَ الدينِ ﴾ ـ (الشعراء : ٢٦ : ٧٨ ـ ٨٢) .

فان الانسان يحتاج الى جلب المنفعة لقلبه وجسمه ، ودفع المضرة عن ذلك . وهو أمر الدين والدنيا .

فمنفعة الدين الهدى ، ومضرته الذنوب ، ودفع المضرة المغفرة ، ولهذا جمع بين التوحيد والاستغفار في مواضع متعددة[2] .

ومنفعة الجسد الطعام والشراب ، ومضرته المرض ، ودفع المضرة الشفاء .

وأخبر أن ربه يحيى ويميت ، وأنه فطر السموات والأرض ، واحياؤه فوق كما له بأنه حى . وأنه فطر السموات والارض يقتضى امساكها وقيامها الذي هو فوق كماله بأنه قائم بنفسه ، حيث قال عن النجوم ﴿ لا أُحِبُّ الآفلينَ ﴾ ـ (الانعام ٦ : ٧٦) .

فان الأفل هو الذي يغيب[3] تارة ويظهر تارة ، فليس هو قائما على عبده في كل وقت . والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ويتخذونها أوثانا يكون في وقت البزوغ طالبين

---

(١) قد بين المصنف رحمه الله في « الرسالة التدمرية » أن الدين هو دين الاسلام الذي لا يقبل الله دينا غيره لا من الاولى ولا من الآخرين ، وأن جميع الانبياء على دين الاسلام فأما الاسلام الخاص الذي بعث الله به محمدا ﷺ المتضمن لشريعة القرآن فليس عليه الا أمة محمد ﷺ والاسلام اليوم عند الاطلاق يتناول هذا . وأما الاسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فانه يتناول اسلام كل أمة تبعة لنبي من الانبياء . وراس الاسلام مطلقا شهادة أن لا إله الا الله وبها بعث جميع الرسل .

وأما كون محمد ﷺ مبعوثاً الى سائر الأمم الى يوم القيامة فمن بلغته رسالة محمد ﷺ فلم يقر بما جاء به لم يكن مسلما ولا مؤمنا ، بل يكون كافرا وان زعم أنه مسلم أومؤمن. أ هـ هامش ص ١٢٤ ط الهند .

(٢) قال المصنف تحت الكلام على الآية الكريمة ما ملخصه : ان العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه الا الى الله . ولهذا قال للكروب و (لا اله الا أنت) تحقيقا لتوحيد الالهية . والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل سببه . فقول المكروب (اني كنت من الظالمين) اعتراف بالذنب ، وهو استغفار . فمن حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر . فلهذا قال ذو النون (لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) . ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع .

(٣) في الاصل ما صورته « لعب » ولعله تصحيف من « يغيب » .

سائلين ، وفي وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم ، فلا يجتلبون[1] منفعة ولا يدفعون مضرة ، ولا ينتفعون اذ ذاك بعبادة .

فبين ما في الآلهة التي تعبد من دون الله من النقص ، وبين مالربه فاطر السموات والارض من الكمال بأنه الخالق ، الفاطر ، العليم ، السميع ، البصير ، الهادي ، الرازق ، المحيى ، المميت .

وسمى ربه بالاسماء الحسنى الدالة على نعوت كماله ، فقال : ﴿ يتلوا عليهم آياتكَ ويعلمهُم الكتابَ والحكمةَ ويزكيهم ، إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ - (البقرة ٢ : ١٢٩) . وقال : ﴿ فمن تبعني فإنَّهُ مني وَمَنْ عصاني فانَّكَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ - (ابراهيم ١٤ : ٣٦) . وقال : ﴿ سأستغفرُ لكَ ربي ، انَّهُ كانَ بي حَفِيًّا ﴾ - (مريم ١٩ : ٤٧) . فوصف ربه بالحكمة والرحمة المناسب لمعنى الخلة ، كما قال : ﴿ إنَّهُ كانَ بي حَفِيًّا ﴾ .

وموسى عليه السلام خاصم فرعون الذي جحد الربوبية والرسالة وقال : ﴿ أنا ربكُم الأعلىٰ ﴾ و﴿ما علمتُ لكم مِنْ إلهٍ غيري ﴾ . وقصته في القرآن مثناه مبسوطة لا يحتاج هذا الموضع الى بسطها .

وقرر أيضا أمر الربوبية وصفات الكمال لله ونفى الشرك .

ولما اتخذ قومه العجل بين الله لهم صفات النقص التي تنافى الألوهية ، فقال : ﴿ واتَّخذَ قومُ موسىٰ مِنْ بعدهِ من حلّيهم عجلاً جسداً لَهُ خُوارٌ ، ألمْ يروا أنَّهُ لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتّخذوهُ وكانُوا ظالمينَ ﴾ - (الاعراف ٧ : ١٤٨) ، وقال : ﴿ فقالوا هذا الهكم والهُ موسىٰ فنسي * أفلا يَرُون ألا يرجعُ قولاً ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً ولقد قالَ لهم هارونَ من قبلُ يا قومِ إنَّما فُتنتم بهِ وإنَّ ربكم الرحمنَ ﴾ - (طه ٢٠ : ٨٨ - ٩٠) .

فوصفه بأنه وان كان قد صوت صوتا هو خوار فانه لا يكلمهم ، ولا يرجع اليهم قولا ، وأنه لا يهديهم سبيلا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

وكذلك ذكر الله سبحانه على لسان محمد في الشرك عموما وخصوصا ، فقال : ﴿ أيُشركونَ ما لا يخلقُ شيئاً وهم يُخلقونَ * ولا يستطيعونَ لهم نصراً ولا أنفسهُمْ يَنْصُرُونَ * وإنْ تدعُوهُمْ إلىٰ الهدىٰ لا يتبعوكُمْ ، سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامِتُونَ * إنَّ الَّذينَ تدعونَ مِنْ دونِ اللهِ عبادٌ أمثالكُمْ فادعوهُمْ فليستجيبُوا لكم إنْ كنتم صَادقينَ * ألهم

---

[1] في الاصل هكذا « يخلقون » ولعله تصحيف من « يجتلبون » .

أَرجلٌ يمشونَ بها ، أَمْ لهم أَيدٍ يبطِشُونَ بها ، أَمْ لهم أعينٌ يُبْصِرونَ بها أَمْ لهم آذانٌ يسمعُونَ بها ، قُلِ ادعوا شركاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ ﴾ ـ (الاعراف ٧ : ١٩١ ـ ١٩٥) .

واستفهم استفهام انكار وجحود لطرق الادارك التام وهو السمع والبصر ، والعمل التام وهو اليد والرجل ، كما أنه سبحانه لما أخبر فيما روى عنه رسوله عن أحبابه المتقربين اليه بالنوافل فقال : « ولا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها »[1] .

(٢١) فصـــل
(اثبات أهل السنة الاسماء والصفات)

وأهل السنة والجماعة المتبعون لابراهيم وموسى ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ يثبتون ما أثبتوه من تكليم الله ، ومحبته ، ورحمته ، وسائر ما له من الاسماء الحسنى والمثل الأعلى .

وينزهونه عن مشابهة الاجساد التي لا حيوة فيها . فان الله قال : ﴿ وألقينا علىٰ كرسيهِ جسداً ثُمَّ أَنابَ ﴾ ـ (ص ٣٨ : ٣٤) ، وقال : ﴿ وما جعلناهُمْ جسداً إلَّا يأكلونَ الطعامَ ﴾ ـ (الأنبياء ٢١ : ٨) ، وقال : ﴿ عجلاً جَسَداً لهُ خُوار ﴾ ـ الأعراف ٧ : ١٤٨) ، فوصف الجسد بعدم الحيوة ، فان الموتان لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا ينطق ، ولا يغنى شيئاً .

وأما أهل البدع والضلالة من الجهمية ونحوهم ، فانهم سلكوا سبيل أعداء ابراهيم وموسى ومحمد ، الذين أنكروا أن يكون الله كلم موسى تكليما واتخذ ابراهيم خليلا ، وقد كلم الله محمدا ، واتخذه خليلا كما ﴿ اتَّخَذَ ابراهيمَ خليلاً ، ورفعهُ فوقَ ذلكَ درجاتٍ ﴾ :

وتابعوا فرعون الذي قال : ﴿ يا هامانَ ابنِ لي صرحاً لعلّي ابلغَ الاسبابَ * أسبابَ السمواتِ فاطَّلع إلى إله موسىٰ وإنّي لأظنه كاذباً ﴾ ـ (المؤمنون ٤٠ : ٣٦ ، ٣٧) . وتابعوا المشركين الذين ﴿ اذا قيلَ لهم اسجدُوا للرحمنِ قالُوا وما الرحمنُ ، أَنسجدُ لِمَا تأمرنا ﴾[2] ـ

---

(١) هو قطعة من الحديث القدسي المشهور عن أبي هريرة الذي تفرد باخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب السنة ، وله « ان الله قال : (من عادي لي وليا فقد أذنته بالحرب . الحديث) ، في الرقاق ، باب التواضع .

(٢) المقصود به انكار الصانع أو تعطيله كما انكره فرعون .

(٣) والمقصود به تعطيل الصفات كما انكر المشركون كونه سبحانه هو الرحمن أي ذو رحمة .

(الفرقان ٢٥ : ٦٠) . واتبعوا[٣] الذين ألحدوا في اسماء الله .

فهم يجحدون حقيقة كونه الرحمن ، أو أنه يرحم ، أو يكلم ، أو يود عباده أو يودونه ، أو أنه فوق السموات ، ويزعمون أن من أثبت له هذه الصفات فقد شبه بالاحسام الحسية ، وهي الحيوان كالانسان ، وأن هذا تشبيه لله بخلقه .

فهم قد شبهوه بالاجساد الميتة فيما هو نقص وعيب ، وتشبيها دلت الكتاب الالهية والفطرة العقلية أنه عيب ونقص ، بل يقتضى عدمه .

وأما أهل الاثبات فلو فرض أن فيما قالوه تشبيها ما فليس هو تشبيها بمنقوص معيب ، ولا هو في صفة نقص أو عيب ، بل في غاية ما يعلم أنه الكمال ، وأن لصاحبه الجلال والاكرام[٢] .

فصار أهل السنة يصفونه بالوجود وكمال الوجود ، وأولئك يصفونه بعدم كمال الوجود ، أو بعدم الوجود بالكلية . (فهم)[٣] ممثلة معطلة ـ ممثلة في العقل والشرع ، معطلة في العقل والشرع[٤] .

أما في العقل فلأنهم مثلوه بالعدم[٥] والاجساد الموتان .

وأما في الشرع فانهم مثلوا ما جاءت به الرسل من صفاته بنفس صفات المخلوقات ، وان كان هذا التمثيل الذي ادعوا أنه معنى النصوص أقل تمثيلا من تمثيلهم الذي ادعوه[٦] .

---

(١) قوله : ﴿ واتبعوا ﴾ أيضا عطف آخر على قوله : ﴿ سلكوا سبيل اعداء ابراهيم الخ ﴾ . يشير الى المعنيين بقوله تعالى : ﴿ وزروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ (الاعراف ٧ : ١٨٠) . قال ابن القيم رحمه الله : ونفى معاني اسمائه الحسنى من أعظم الالحاد فيها وحقيقة الالحاد فيها العدول بها عن الصواب فيها ، وادخال ما ليس من معانيها فيها ، واخراج حقايق معانيها عنها ، هذا حقيقة الالحاد ، ومن فعل ذلك فقد كذب على الله . وفسر ابن عباس الالحاد بالحاد بالكذب ، اذ هو غاية الملحد في اسمائه .

(٢) قال ابن القيم رحمه الله : ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة واثبات الرب وعلوه على خلقه وكلامه وتكليمه « توحيدا » ، لأن نفى ذلك وانكاره « والكفر فيه انكار للصانع وجحد له . وانما توحيده اثبات صفات كماله ، وتنزيهه عن الشبه والنقائص فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدا ، وجعلوا اثباتها لله تشبيها وتجسيما وتركيبا . فسموا الباطل باسم الحق ترغيبا فيه وزخرفا ينفقونه به ، وسموا الحق باسم الباطل تنفيرا عنه .

(٣) ليس في الاصل ، ويقتضيه السياق .

(٤) قال المصنف في « العقيدة الحموية الكبرى » : وكل واحد من فريق التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل . أما المعطلون فانهم لم يفهموا من اسماء الله وصفاته الا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات . فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ـ مثلوا أولا وعطلوا آخرا . وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من اسمائه وصفاته بالمفهوم من اسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الاسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى ، ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه . ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله .

فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون في أسماء الله وآياته .

(٥) في الأصل « بالمعدم » والظاهر أنه « بالعدم » .

(٦) المراد بتمثيلهم الذي ادعوه هو تمثيلهم الله عز وجل بالعدم لنفيهم الصفات عنه تعالى كما نفاها الجهم وأتباعه .

وأما تعطيلهم في العقل فانه تعطيل للصفات ـ تعطيل مستلزم لعدم الذات ، ولهذا الجىء كثير منهم الى نفى الذات بالكلية ، وصاروا على طريقة فرعون ـ لا يقرون الا بوجود المخلوقات ، وان كانوا قد ينافقون فيقرون بألفاظ لا معنى لها ، أو بعبادات لا معبود لها .

وأما تعطيلهم للشرع فانهم جحدوا ما في كتب الله من المعاني وحرفوا الكلم عن مواضعه ، أو قالوا : نحن كالأميين لا نعلم الكتاب الا أماني أو : قلوبنا غلف .

وقالوا لما جاء به الرسول من الكتاب والسنة نظير ما قالته الكفار ﴿ قُلوبنَا في أكنةٍ مما تدعونا اليهِ وفي آذانِنَا وقرٌ ومن بيننا وبينكَ حجابٌ ﴾ ـ (فصلت ٤١ : ٥) ، و﴿ قَالُوا يا شعيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مّمَّا تقُولُ ﴾ ـ (هود ١١ : ٩١) .

وهكذا قال هؤلاء : لانفقه كثيرا مما يقول الرسول ، وقالوا كما قال الذين يستمعون للرسول ، فاذا خرجوا من عنده ﴿ قالُواْ للَّذينَ أوتُوا العلمَ ما ذا قالَ آنفاً ﴾ ـ (قتال ٤٧ : ١٦) .

وصاروا كالذين قيل فيهم ﴿ واذا قرأتَ القرآنَ جعلنَا بينكَ وبينَ الَّذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ حِجَاباً مستوراً * وجعلنَا على قلوبهم آكنَّةً أَنْ يفقهوهُ وفي آذانِهم وقراً ، وإذَا ذكرتَ ربَّكَ في القرآنِ وحدهُ ولو علىٰ أدبارِهم نفوراً ﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ٤٥ ، ٤٦) .

فتدبر ما ذكره الله عن أعلم الرسل من نفى فقههم وتكذيبهم تجد بعض ذلك في من أعرض عن ذكر الله وعن تدبر كتابه ، واتبع ما تتلوه الشياطين وما توحيه الى أوليائها ، والله يهدينا صراطا مستقيما[1] .

ولهذا كانت هذه الجهمية المعطلة المشابهون للكفار والمشركين من الصابئة وغيرهم ، الجاحدة لوجود الصانع أو صفاته ، ترمي العلم والايمان والكتاب والسنة تارة يشبهون اليهود لما في التوراة وكتب الأنبياء من الصفات ، ولما ابتدعه بعض اليهود من التشبيه المنفى عن الله : وتارة بانهم يشبهون النصارى لما أثبتته النصارى من صفة الحيوة والعلم ، ولما ابتدعته من أن الاقانيم جواهر ، وأن أقنوم الكلمة اتحد بالناسوت .

وهذا الرمى موجود في كلامهم قبل الامام أحمد بن حنبل وفي زمنه ، وهو موجود في كلامه وكلام اصحابه ـ حكاية ذلك . ذكره في كتاب (الرد على الجهمية والزنادقة ، وأنهم

---

(١) في الأصل « صراط مستقيم » مع أنه في محل النصب .

قالوا : « اذا أتيتم الصفات فقد قلتم بقول النصارى » ، ورد ذلك[1] . وفي « مسائلة » : ان طائفة قالوا له . من قال « القرآن غير مخلوق ، أو هو في الصدور » فقد قال بقول النصارى .

وهكذا الجهمية ترمي الصفاتية بأنهم يهود هذه الأمة . وهذا موجود في كلام متقدمي الجهمية ومتأخريهم ، مثل ما ذكره أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الجهمي الجبري ، وان كان قد يخرج الى حقيقة الشرك وعبادة الكواكب والأوثان في بعض الأوقات . وصنف في ذلك كتابه المعروف في السحر وعبادة الكواكب والأوثان[2] مع أنه كثيرا ما يحرم ذلك وينهى عنه متبعا للمسلمين وأهل الكتب والرسالة . وينصر الاسلام وأهله في مواضع كثيرة ، كما يشكك أهله ويشكك غير أهله في أكثر المواضع . وقد ينصر غير أهله في بعض المواضع . فان الغالب عليه التشكيك والحيرة ، أكثر من الجزم والبيان .

وهؤلاء لهم أجوبة .

أحدها : أن[3] مشابهة اليهود والنصارى ليست محذورا الا فيما خالف دين الاسلام ، ونصوص الكتاب والسنة ، والاجماع . والا فمعلوم أن دين المرسلين واحد ، وأن التوراة والقرآن خرجا من مشكاة واحدة .

وقد استشهد الله بأهل الكتاب في غير موضع ، حتى قال : ﴿ قل أرأيتم إنْ كانَ من عندِ اللهِ وكفرتُمْ بهِ وشَهِدَ شاهدٌ من بني اسرائيلَ علىٰ مثلهِ فآمنَ واستكبرتُمْ ﴾ - (الاحقاف ٤٦ : ١٠) .

فاذا أشهد أهل الكتاب على مثل قول المسلمين كان هذا حجة ودليلا ، وهو من حكمة اقرارهم بالجزية . فيفرح بموافقة المقالة المأخوذة من الكتاب والسنة لما يأثره أهل الكتاب عن المرسلين قبلهم . ويكون هذا من أعلام النبوة ، ومن حجج الرسالة ومن الدليل على اتفاق الرسل .

الثاني : أن المشابهة التي يدعونها ليست صحيحة . فان أهل السنة لا يوافقون اليهود والنصارى فيما ابتدعوه من الدين والاعتقاد . ولهذا قلت في بيان فساد قول ابن الخطيب[4] انه

---

(١) وهذا لفظ الامام أحمد : فقال الجهمي لنا لما وصفنا الله عن الله هذه الصفات : ان زعمتم أن الله ونوره ، والله وقدرته ، والله وعظمته ، فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ، ولم يزل وقدرته قلنا، لا نقول: ان الله لم يزل وقدرته،ولم يزل ونوره،ولكن نقول: لم يزل بقدرته ونوره،لا متى قدر ولا كيف قدر. . . ألخ - انظر « الرد على الزنادقة والجهمية » . نشرة الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالسعودية ص ٤٩ بتعليق اسماعيل الانصاري .

(٢) هو كتاب « السر المكتوم في مخاطبة النجوم » أشار اليه الذهبي في الميزان وابن كثير في تفسيره ، وابن خلكان في ترجمة الرازي .

(٣) في الاصل « أنه » ولعله تحريف .

(٤) وضع ابن تيمية مؤلفة الكبير درء تعارض العقل والنقل في الرد على الرازي والمتكلمين في هذه المسائل وغيرها . فليراجع من أراء .

لم يفهم مقالة أهل الحديث والسنة من الحنبلية وغيرهم ، ولم يفهم مقالة النصارى . وأوضحت ذلك في موضعه[1] ، كما بين الامام أحمد الفرق بين مقالة أهل السنة وبين مقالة النصارى المبتدعة ، وكما يبين الفرق بين مقالة أهل السنة ومقالة اليهود المبتدعة .

الثالث : أنه اذا فرض مشابهة أهل الاثبات لليهود أو النصارى فأهل النفى والتعطيل مشابهون لكفار والمشركين من النصارى وغيرهم ، ومعلوم قطعا أن مشابهة أهل الكتابين خير من مشابهة من ليس من أهل الكتاب ـ من الكفار وبالربوبية والنبوات ونحوهم. ولهذا قيل : المشبه أعشى ، والمعطل أعمى .

ولهذا فرح المؤمنون على عهد النبي ﷺ بانتصار النصارى على المجوس ، كما فرح المشركون بانتصار المجوس على النصارى[2] فتدبر هذا ، فانه نافع في مواضع ، والله أعلم .

ولهذا كان المعتزلة ونحوهم من القدرية مجوس هذه الأمة .

وهم يجعلون الصفاتية نصارى الأمة ويميلون الى اليهود لموافقتهم لهم في أمور كثيرة أكثر من النصارى ، كما يميل طائفة من المتصوفة والمتفقرة الى النصارى أكثر من اليهود .

فاذا كان الصفاتية الى النصارى أقرب وضدهم الى المجوس والمشركين أقرب تبين أن الصفاتية أتباع النبي ﷺ وأصحابه الذين فرحوا بانتصار الروم ـ النصارى ـ على فارس المجوس ، وأن المعطلة هم الى المشركين أقرب ـ الذين فرحوا بانتصار المجوس على النصارى .

---

(١) في الأصل « أنه » ولعله تحريف .

(٢) وضع ابن تيمية مؤلفه الكبير دره تعارض العقل والنقل في الرد على الرازي والمتكلمين في هذه المسائل وغيرها . فليراجع من أراد .

(١) أخرج الترمذي وغيره من حديث نيار بن مكرم الاصلي قال : لما نزلت ﴿ ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين ﴾ ـ (الروم ٣٠ : ١ ـ ٤) فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ، لأنهم واياهم أهل كتاب ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ يومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ﴾ ـ (الروم ٣٠ : ٤ ، ٥) ، وكانت قريش تحب ظهور فارس ، لأنهم واياهم ليسوا بأهل كتاب ولا ايمان يبعث . . . الحديث الخ .

قال المصنف في « الجواب الصحيح » : كانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولا ، وكان هذا في أوائل مبعث النبي ﷺ وهو بمكة وأتباعه قليل ، قال : وذهبت طائفة من العلماء الى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر وذهب آخرون أنه يوم الحديبية ، وهذا هو الصحيح ، وهرقل كان قد مشى شكرا لله من حمص الى بيت المقدس لما نصره الله على الفرس ، فوافاه كتاب النبي ﷺ بدعوة الى الاسلام عقب نصر الله للروم على فارس . ففرح النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين أ هـ .

(٢٢) فصـــل

في قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح
« بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء »[١] !

لا يقتضي هذا أنه اذا صار غريباً يجوز تركه ـ والعياذ بالله ! بل الأمر كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يبتغِ غيرَ الاسلامِ ديناً فلنْ يُقبلَ منهُ وهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ٨٥) ، وقال تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الاسلام ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ١٩) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ حقَّ تقاتِهِ ولا تموتنَّ إلَّا وأنتُم مسلمونَ ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ١٠٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يرغب عن ملّةِ ابراهيمَ إلا مَنْ سَفِهَ نفسهُ، ولقدِ اصطفيناهُ في الدّنيا ، وانَّهُ في الآخرةِ لمنَ الصَّالحينَ * إذْ قالَ لهُ ربّهُ أسلمْ قالَ أسلمتُ لربِّ العالمينَ * ووصَّى بها ابراهيمَ بنيهِ ويعقوب، يا بنيَّ إنَّ اللهَ اصطفىٰ لكم الدِّينَ فلا تموتنَّ إلَّا وأنتُمْ مُسلمونَ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٣٠ ـ ١٣٢) .

وقد بسطنا الكلام على هذا في موضع آخر ، وبينا أن الانبياء كلهم كان دينهم الاسلام من نوح الى المسيح[٢] .

ولهذا لما بدأ الاسلام غريبا لم يكن غيره من الدين مقبولا ، بل قد ثبت في الحديث الصحيح ـ حديث عياض بن حماد ـ عن النبي ﷺ أنه قال : « ان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم ـ عربهم وعجمهم ـ الا بقايا من أهل الكتاب . . . الحديث »[٣] .

ولا يقتضي هذا أنه اذا صار غريبا أن المتمسك به يكون في شر ، بل هو أسعد الناس كما قال في تمام الحديث « فطوبى للغرباء » و « طوبى »[٤] من الطيب ، قال تعالى : ﴿ طوبى لهم

---

(١) أخرجه مسلم في الايمان ، وابن ماجه في الفتن ، عن أبي هريرة ، وروى أيضا عن عبد الله بن عمر ، وأنس ابن مالك . وعليه شرح لطيف للحافظ ابن رجب الحنبلي يسمى « كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة » .

(٢) قد بسط المصنف الكلام على ذلك في مواضع من تصانيفه، « منها » منها الرسالة التدمرية ، ص ٩٦ ـ ١٠٢ ، الطبعة الثانية ، مصر ١٣٦٨ هـ . بين فيه أن رأس الاسلام مطلقا شهادة أن لا اله الا الله ، وبها بعث جميع الرسل ، وأن الاسلام الخاص الذي بعث به محمدا ﷺ بتضمن شريعة القرآن ، والاسلام العام يتناول كل شريعة بعث الله بها نبيا .

(٣) هو قطعة من حديث عياض بن حماد المجاشعي الطويل أوله « ان الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم . . الخ » أخرجه مسلم في صفة الجنة والنار .

(٤) قال في « النهاية » : طوبى اسم الجنة قيل هي شجرة فيها ، وأصلها ، فعلى « من الطيب » انقلبت ياؤها واوا ـ أ هـ . وقال الراغب وقيل بل اشارة الى كل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء ، وعز بلا زوال وغنى بلا فقر .

وحسن مآب ﴾ ـ (الرعد ١٣ : ٢٩) . فانه يكون من جنفى السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريباً . وهم أسعد الناس . أما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الانبياء عليهم السلام .

وأما في الدنيا فقد قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها النبي حسبكَ الله ومن اتبعكَ من المؤمنينَ ﴾ ـ (الانفال ٨ : ٦٤) ، أي ان الله حسبك وحسب متبعك ، وقال تعالى : ﴿ ان وليي الله الَّذي نَزَّلَ الكتابَ وهو يتولّىٰ الصالحينَ ﴾ ـ (الأعراف ٧ : ١٩٦) . وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ـ (الزمر ٣٩ : ٣٦) وقال : ﴿ ومن يتقِ الله يجعلْ لهُ مخرجاً * ويرزقهُ مِنْ حيثُ لا يحتسب ، ومن يتوكَّل على اللهِ فهُوَ حسبهُ ﴾ ـ (الطلاق ٦٥ : ٢ ، ٣) ، فالمسلم المتبع للرسول ، الله تعالى حسبه وكافيه ، وهو وليه حيث كان ومتى كان[١] .

ولهذا يوجد المسلمون المتمسكون بالاسلام في بلاد الكفر لهم السعادة كلما كانوا أتم تمسكا بالاسلام ، فان دخل عليهم شرٌ كان بذنوبهم . حتى ان المشركين وأهل الكتاب اذا رأوا المسلم القائم بالاسلام عظموه وأكرموه وأعفوه من الأعمال التي يستعملون بها المنتسبين الى ظاهر الاسلام من غير عمل بحقيقته[٢] لم يكرم .

وكذلك كان المسلمون في أول الاسلام وفي كل وقت .

فانه لا بد أن يحصل للناس في الدنيا شر ولله على عباده نعم ، لكن الشر الذي يصيب المسلم أقل والنعم التي تصل اليه أكثر . فكان المسلمون في أول الاسلام وان ابتلوا بأذى الكفار والخروج من الديار فالذي حصل للكفار الهلاك كان أعظم بكثير ، والذي كان يحصل للكفار من عز أو مال كان يحصل للمسلمين أكثر منه حتى من الاجانب .

فرسول الله ﷺ ـ مع ما كان المشركون[٣] يسعون في أذاه بكل طرق ـ كان الله يدفع عنه ويعزه ويمنعه وينصره ، من حيث كان أعز قريش ما منهم الا من كان يحصل له من يؤذيه ، ويهينه من لا يمكنه دفعه ، اذ لكل كبير كبير يناظره ويناويه ويعاديه . وهذه حال من

---

(١) قد شرح الشيخ ابن القيم رحمه الله هذا المقام العظيم شرحا وافياً بين فيه روح الايمان وسره وخطأ الناس في فهم ذلك ، مع بيان قواعد الايمان وأصوله المحببة القيمة مما يسر القارىء ويبعث فيه الهمة والارادة لإحياء دينه ودين بني جنسه . وهو من أحاسن كلامه الذي لا يسع كل ناصح لنفسه غض البصر عن مطالعته بدقة وامعان ، ثم المضي وراء نيل تلك المطالب العليا والمقاصد العظمى وهي الفصول الأربعة الاخيرة من كلامه على فتنة عشق الصور من كتابه العظيم « اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » ص ١٧٦ ـ ٢٠٠ ج ٢ الطبعة الثانية سنة ١٣٥٧ هـ .

(٢) في الأصل هكذا « مخصصة لم يلزم ، والصواب ما اثبتناه .

(٣) في الأصل « المشركين » .

لم يتبع الاسلام ـ يخاف[1] بعضهم بعضا ، ويرجو بعضهم بعضا[2] .

وأتباعه ، فالذين هاجروا الى الحبشة أكرمهم ملك الحبشة وأعزهم غاية الاكرام والعز ، والذين هاجروا الى المدينة فكانوا أكرم وأعز .

والذين كان يحصل لهم من أذى الدنيا كانوا يعوضون عنه عاجلا من الايمان وحلاوته ولذته ما يحملون به ذلك الأذى . وكان أعداؤهم يحصل لهم من الأذى والشر أضعاف ذلك من غير عوض لا آجلا ولا عاجلا ، اذ كانوا معاقبين بذنوبهم .

وكان المؤمنون ممتحنين ليخلص ايمانهم وتكفر سيآتهم . وذلك أن المؤمن يعمل لله ، فان أوذى احتسب اذاه على الله ، وان بذل سعيا أو مالا يذله لله فاحتسب أجره على الله .

والايمان له حلاوة في القلب ولذة لا بعد لها شيء البتة ، وقد قال النبي ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان ـ من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، ومن (كان) يحب المرء لا يحبه الا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار ـ أخرجاه في الصحيحين[3] وفي صحيح مسلم : « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد نبيا »[4] .

وكما أن الله نهى نبيه أن يصيبه حزن أو ضيق ممن لم يدخل في الاسلام في أول الأمر فكذلك في آخره[5] فالمؤمن منهى أن يحزن عليهم أو يكون في ضيق من مكرهم .

وكثير من الناس اذا رأى المنكر أو تغير كثير من احوال الاسلام جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب ، وهو منهى عن هذا ، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين

---

(١) في الاصل « خاف » .

(٢) قال المصنف تحت الكلام على الآية الكريمة ما خلاصته : ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق وجاءه الا بالله فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك . وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه الاتعاب ظنه فيه ، وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب ، والخالص من الشرك يحصل له الأمن . فالعبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه الا الى الله . أنظر كتاب التوحيد ط التقدم بمصر. تحقيق محمد الجلنير ، فضل اياك نعبد وإياك نستعين .

(٣) أخرجاه من حديث أنس بن مالك من طرق مع اختلاف الألفاظ .

(٤) أخرجه مسلم في الايمان عن العباس بن عبد المطلب .

(٥) وذلك قوله تعالى : ﴿ واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون * ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ـ (النحل ١٦ : ١٢٧ ، ١٢٨) .

الاسلام ، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأن العاقبة للتقوى . وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر ، ان وعد الله حق ، وليستغفر لذنبه ، وليسبح بحمد ربه بالعشى والابكار[١] .

وقوله ﷺ : « ثم يعود غريبا كما بدأ » يحتمل شيئين : احدهما أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريباً بينهم ثم يظهر ، كما كان في أول الأمر غريبا ثم ظهر . ولهذا قال : « سيعود غريبا كما بدأ » . وهو لما بدأ كان غريبا لا يعرف ثم ظهر وعرف فكذلك يعود حتى لا يعرف ثم يظهر ويعرف . فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولا .

ويحتمل أنه في اخر الدنيا لا يبقى مسلما الا قليل . وهذا انما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة . وحينئذ يبعث الله ريحا تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ثم تقوم القيامة[٢] .

وأما قبل ذلك فقد قال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم ، حتى تقوم الساعة » . وهذا الحديث في الصحيحين[٣] ومثله من عدة أوجه .

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق أعزاء لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل . فأما بقاء الاسلام غريبا ذليلا في الارض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا .

وقوله ﷺ « كما بدأ » ، أعظم ما تكون غربته اذا ارتد الداخلون فيه عنه ، وقد قال تعالى : ﴿ مَنْ يرتَدْ منكم عَنْ دينهِ فسوفَ يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونـهُ أَذلةً عَلىٰ المؤمنينَ

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك العشي والابكار ﴾ - (المؤمن ٤٠ : ٥٥) . قال المصنف : وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فانه من تمام الرضاء بالله ربا ، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب . واذا أذنب فعليه أن يستغفر الله ويتوب من صنوف المعائب ويصبر على الصائب قال تعالى : ﴿ فاصبر فان وعد الله حق - الآية ﴾ .

(٢) كما في آخر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي أخرجه مسلم في الجهاد باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي الخ . ولفظة « ثم بعث ار ريحا كريح المسك مسهامس الحرير ، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الايمان الا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة » . وأخرجه أيضا من حديث ابي هريرة في الايمان ، باب في الريح التي تكون قرب القيامة تقبض من في قلبه شيء من الايمان .

(٣) أخرجاه من حديث المغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن أبي سفيان . وأخرجه مسلم وغيره من حديث ثوبان ، وجابر بن سمرة ، وجابر بن عبد الله .

أعـزةً علىٰ الكـافـرينَ ، يجـاهـدونَ في سبيـلِ اللهِ ولا يخـافـونَ لـومـةَ لائـمٍ ﴾ ـ (المائدة ٥ : ٥٤) ، فهؤلاء يقيمونه اذا ارتد عنه أولئك .

وكذلك بدأ غريبا ولم يزل يقوى حتى انتشر . فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمه الله عز وجل ، كما كـان عمر بن عبـد العزيـز[٢] لما ولي قـد تغرب كثير من الاسلام على كثير من الناس حتى كـان منهم من لا يعرف تحريم الخمـر ، فـأظهـر الله بـه في الاسلام ما كان غريبا .

وفي السنن : ان الله يبعث لهـذه الأمة في رأس كـل مـائـة سنـة من يجـدد لهـا دينهـا »[١] والتجديد انما يكون بعد الدروس ، وذاك هو غربة الاسلام .

وهـذا الحديث[٢] يفيـد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعـرف حقيقة الاسـلام ، ولا يضيق صدره بذلـك ، ولا يكونُ في شـك من دين الاسلام ، كـما كان الأمـر حين بـدأ قال تعـالى : ﴿ فـإنْ كُنتَ في شَكٍّ ممّـا أنزلنَـا إليـكَ فسئـل الّـذينَ يقـرءُونَ الكتـابَ من قبلكَ ﴾ ـ (يونس ١٠ : ٩٤) ، الى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الاسلام .

وكـذلك اذا تغـرب يحتاج صـاحبه من الأدلـة والبراهـين الى نظير مـا احتاج اليـه في أول الأمر ، وقد قال له : ﴿ أفغيرَ اللهِ أبتغي حكماً وهُوَ الّذي أنزلَ اليكُمْ الكتابَ مفَصَّـلاً ، والّذينَ آتيناهُمْ الكتابَ يعلمُونَ أنّهُ مُنَزّلٌ من ربّكَ بالحقّ فلا تكونَنّ مِنَ الممترينَ * وتمّت كلماتُ ربّكَ صِدقاً وعدلاً ، لا مبدّلَ لكلماتهِ وهُوَ السميعُ العليمُ * وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يضلوكَ عَنْ سبيلِ اللهِ ، إنْ يتبعونَ إلاّ الظنَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصونَ ﴾ ـ (الانعام ٦ : ١١٤ ـ ١١٦) ، وقال تعالى : ﴿ أمْ تحسبُ أنَّ أكثرهُمْ يسمعونَ أو يعقِلُونَ ، إنْ هُمْ إلاّ كـالأنعامِ بَـلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً ﴾ ـ (الفرقان ٢٥ : ٤٤)[٣] .

---

(١) هـو عمر بن عبـد العزيـز بن مروان بن الحكم بن ابي العـاص بن أمية بن عبـد شمس بن عبد منـاف أبو حفص القرشي ، الخليفـة الصالح والملك العادل من ملوك الدولة الأموية بالشام . ويسمى « خامس الخلفاء الراشـدين » ، كان تـابعا جليـلا ولد بـالمدينـة سنة ٦١ هـ ونشأ فيها . ولي الخلافة سنة ٩٩ هـ ، ومدة خـلافته سنتـان ونصف ، وأخباره في عـدله وحسن سياسته كثيـرة ، توفي سنـة ١٠١ هـ عن أربعين سنة . قال ابن كثير : قال كثير من الأئمة في حديث « ان الله يبعث لهذه الأئمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » انه عمر بن عبد العزيز . فانه كان عـلى رأس المائـة الأولى . وان كان هـو أول من دخل في ذلـك وأحق ، لأمامتـه وعموم ولايته ، وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب ، وكان كثيرا ما تشبه به ـ ا هـ .

(٢) أخرجه أبـو داود في أول الملاحم عن أبي هـريرة . وقـال الحافظ ابن حجـر في « توالي التـأسيس بمعالي ابن ادريس » : أخـرجه أيضـا الحسن بن سفيان في المسند ، والحاكم في المستدرك ، وابن عدي في مقدمة « الكامل » ـ عن « عون المعبـود » وفي الأصل ، وفي رأس كل مائة سنة « ورواية أبي داود » على أي حديث « بدأ الاسلام غريباً » .

(٣) قال ابن مسعود رضي الله عنه : « لا يكونن أحدكم امعة » قيل : وما الامعة ؟ قال : « الذي يقول أنـا مع النـاس . ليؤطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس » ـ ا هـ قال ابن الاثير : وفي الحـديث « أغد عـالما أو متعلما ، ولا تكن امعـة » . الامعة ـ بكسـر الهمزة وتشديد الميم ـ الذي لا رأي له . فهو يتابع كل أحد على رأيه : وقيل : هو الذي يقول لكل أحد « أنا معك » .

وقد تكون الغربة في بعض شرائعه ، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة ، ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير (به) غريبا بينهم لا يعرفه منهم الا الواحد بعد الواحد .

ومع هذا فطوبى لمن تمسك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسوله . فان اظهاره والأمر به والانكار على من خالفه هو بحسب القوة والاعوان . وقد قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكرا ، فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل »[1] .

واذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به رسوله وأتباعه فهذا من ذنوبه ونقص اسلامه ، كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد .

والا فقد قال تعالى : ﴿ انا لننصرُ رسلنَا والَّذينَ أمنُوا في الحيوةِ الدنيا ويومَ يقومُ الاشهادُ ﴾ - (المؤمن ٤٠ : ٥١) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتُنَا لعبادِنَا المرسلينَ * إنَّهم لهُمُ المنصورونَ * وإنَّ جندَنَا لهُمُ الغَالبونَ ﴾ - (الصافات ٣٧ : ١٧٠ ، ١٧٣) ، وفيما قصه الله تعالى من قصص الأنبياء وأتباعهم ونصرهم ونجاتهم وهلاك أعدائهم عبرة ، والله أعلم .

فان قيل : قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَنْ يرتَدْ منكُمْ عَنْ دينهِ فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبهُمْ ويحبونهُ ﴾ - (المائدة ٥ : ٥٤) هو خطاب لذلك القرن ، كقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ - (النور ٢٤ : ٥٥) ، ولهذا بين النبي ﷺ أنهم أهل اليمن[2] الذين دخلوا في الاسلام لما ارتد من ارتد من العرب . ويدل على ذلك أنه في آخر الأمر لا يبق مؤمن .

قيل قوله تبارك وتعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا ﴾ خطاب لكل من بلغه القرآن من المؤمنين كسائر أنواع هذا الخطاب ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا إذَا قمتم إلىٰ الصلوةِ ﴾ - (المائدة ٥ : ٦) وأمثالها . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ أمنُوا منكُمْ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم والأربعة من حديث أبي سعيد الخدري ، وكذلك أخرجه أحمد وفي مسلم بعد « فبقلبه » : وذلك أضعف الايمان .

(٢) كما في حديث عياض الأشعري عن أبي موسى الأشعري قال : لما نزلت ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ قال : أوما رسول الله ﷺ الى أبي موسى بشيء كان معه فقال : « هم قوم هذا » - رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم . وأبو موسى هو من أهل اليمن .

وكلاهما وقع ويقع كما أخبر الله عز وجل . فانه ما ارتد عن الاسلام طائفة الا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه ، وهم الطائفة المنصورة الى قيام الساعة .

بين ذلك أنه ذكر هذا في سياق النهي عن موالاة الكفار ، فقال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تتخذُوا اليهودَ والنصارىٰ أولياءَ ، بعضهُمْ أولياءُ بعضٍ ، وَمَنْ يتولّهُمْ منكُمْ فإنَّهُ منهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظَّالمينَ * فترىٰ الَّذينَ في قلوبِهُمْ مرضٌ يُسَارِعُونَ فيهم يقولونَ نخشىٰ أَنْ تُصيبنَا دائرةٌ ،فعسىٰ الله أَنْ يأتي بالفتحِ أو أمرٍ مِنْ عندهِ فيصبحُوا علىٰ ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمينَ ﴾ الى قوله : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا مِنْ يرتَدْ منكُمْ عَنْ دينهِ فسوفَ يأتيَ اللهُ بقومٍ يحبهم ويحبونهُ ﴾ ـ (المائدة ٥ : ٥١ ـ ٥٤) ، فالمخاطبون بالنهى عن موالاة اليهود والنصارى وهم المُخاطبون بآية الردة . ومعلوم أن هذا يتناول جميع قرون الأمة .

وهو لما نهى عن موالاة الكفار وبين أن من تولاهم من المخاطبين فانه منهم بين أن من تولاهم وارتد عن دين الاسلام لا يضر الاسلام شيئا .

بل سيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، فيتولون المؤمنين دون الكفار ، ويجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم ، كما قال في أول الأمر ﴿ فإنْ يكفرْ بها هؤلاء فقدْ وكّلنَا بها قوماً ليسوا بها بكافِرينَ ﴾ ـ (الانعام ٦ : ٨٩) . فهؤلاء الذين لم يدخلوا في الاسلام ، وأولئك الذين خرجوا منه بعد الدخول فيه ـ لا يضرون الاسلام شيئا ، بل يقيم الله من يؤمن بما جاء به رسوله وينصر دينه الى قيام الساعة .

وأهل اليمن هم ممن جاء الله بهم لما ارتد من ارتد اذ ذاك . وليس الآية مختصة بهم ، ولا في الحديث ما يوجب تخصيصهم ، بل قد أخبر الله أنه يأتي بغير أهل اليمن كأبناء فارس ، لا يختص الوعد بهم .

بل قد قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمنوا ما لكُمْ إذَا قيلَ لكُمْ انفروا في سبيل اللهِ إثَّا قلتُمْ الىٰ الأرضِ ، أرضيتُمْ بالحيوةِ الدّنيا مِنَ الآخرةِ ، فما متاعُ الحيوةِ الدّنيَا في الاخرةِ إلَّا قليلٌ * إلَّا تنفِرُوا يعذبكُمْ عَذَاباً أَليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً واللهُ علىٰ كلّ شيءٍ قدير ﴾ ـ (التوبة ٩ : ٣٨ ، ٣٩) ، وهذا أيضاً خطاب لكل قرن ، وقد أخبر فيه أنه من نكل عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد ، وهذا هو الواقع .

وكذلك قوله في الآية الأخرى ﴿ ها أَنْتُمْ هؤلاءِ تدعونَ لتنفقُوا في سبيلِ اللهِ ، فمنكُمْ

من يبخل ، ومن يبخل فإنَّما يبخلُ عَنْ نفسهِ ، واللهُ الغني وأنتُمْ الفقراءَ ، وإنْ تتولُوا يستبدل قوماً غيركُمْ ثُمَّ لا يكونُوا أمثالكُمْ ﴾ ـ (القتال ٤٧ : ٣٨) ، فقد أخبر تعالى أنه من يتولى عن الجهاد بنفسه أو عن الانفاق في سبيل الله استبدل به .

فهذه، حال الجبان البخيل ـ يستبدل الله به من ينصر الاسلام وينفق فيه. فكيف تكون حال أصل الاسلام من ارتد عنه ؟ ـ أتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

وهذا موجود في أهل العلم ، والعبادة ، والقتال ، والمال : مع الطوائف الأربعة مؤمنون مجاهدون منصورون الى قيام الساعة ، كما أن منهم من يرتد أو من يثكل عن الجهاد والانفاق .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمنوا منكُمْ وعمِلُوا الصَّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ ﴾ . فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف ، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد . وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب ايمانهم وعملهم الصالح ، فمن كان أكمل ايمانا وعمل صالحا بعدهم به قوم بحسب ايمانهم وعملهم الصالح ، فمن كان أكمل كان استخلافه المذكور أتم . فان كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص . وذلك ان هذا جزاء هذا العمل ، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء .

لكن ما بقي قرن مثل القرن الأول ، فلا جرم ما يبقى قرن يتمكن تمكن القرن الأول . قال ﷺ : « خير القرون الذين بعثت فيهم ثم يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[1] .

ولكن قد يكون هذا لبعض أهل القرن، كما يحصل هذا لبعض المسلمين في بعض الجهات ، كما هو معروف في كل زمان .

وأما قوله ﷺ : « ان الله يبعث ريحاً تقبض روح كل مؤمن »[2] فذاك ليس فيه ردة ، بل فيه موت المؤمنين ، وهو لم يقل « اذا مات كل مؤمن » ان يستبدل الله موضعه آخر ، وانما وعد بهذا اذا ارتد بعضهم عن دينه .

وهو ما يستدل به على أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ولا ترتد جميعها ، بل لا بد أن يبقى الله من المؤمنين من هو ظاهر الى قيام الساعة . فاذا مات كل مؤمن فقد جاءت الساعة .

وهذا كما في حديث العلم « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فاذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ،

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل من حديث أبي هريرة . وأخرجه السنة الا أبا داود من حديث عبد الله بن مسعود . وأخرجه البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، من حديث عمران بن حصين .

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث في التعليق الأول ، ص ١٤١ .

فضلوا وأضلوا » ، والحـديث مشهـور في الصحـاح من حـديث عبـد الله بن عمـرو عن النبي ﷺ[1] .

فـان قيل : ففي حـديث ابن مسعود وغيـره أنه قـال : « يسري على القـرآن فلا يبقى في المصاحف منه آية ولا في الصدور منه آية »[2] وهذا يناقض هذا .

قيل ليس كذلك ، فان قبض العلم ليس قبض القرآن بدليل الحديث الآخـر » هذا أوان يقبض العلم » . فقال بعض الانصار : وكيف يقبض وقد قرأنا القرآن وأقرأناه نساءنا وأبناءنا ؟ فقال : ثكلتك أمك ، ان كنت لاحسبك لمن أفقه أهل المدينة ! أوليست التوراة والانجيل عنـد اليهود والنصارى ؟ فماذا يغنى عنهم »[3] ؟ .

فتبين أن مجرد بقاء حفظ الكتاب لا يوجب هذا العلم ، لا سيما فان القـرآن يقرأه المنافق والمؤمن ، ويقـرأه الأمي الذي لا يعلم الكتـاب الا أماني ، وقـد قال الحسن البصـري : العلم علمان : علم في القلب ، وعلم على اللسـان . فعلم القلب هو العلم النـافع ، وعلم اللسـان حجة الله على عباده »[4] فاذا قبض الله العلماء بقي من يقرأ القرآن بلا علم ، فيسرى عليـه من المصاحف والصدور .

فان قيل : ففي حديث حذيفة الذي في الصحيحـين أنه حدَّثهـم عن قبضة الأمـانة وأن الرجل ينام النومـة فتقبض الأمانـة من قلبه فيـظل أثرهـا مثل الـوكت ، ثم ينام النـومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل من أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فتراه منتبـرا وليس فيه شيء .

قيل وقبض الأمانة والايمان ليس هـو قبض العلم فان الانسـان قد يؤتى ايمـانا مـع نقص علمه فمثل هذا الايمان قد يرفع من صدره كايمان بني اسرائيل لما رأوا العجل .

وأما من أوتى العلم مع الايمان فهذا لا يرفع من صدره . ومثل هذا لا يرتد عن الاسلام قط . بخلاف مجرد القرآن أو مجرد الايمان فان هذا قد يـرتفع . لكن أكـثر ما نجـد الردة فيمن عنده قرآن بلا علم وايمان . أو من عنده ايمان بـلا علم وقرآن . فـاما من أوتى القـرآن والايمان فحصل فيه العلم فهذا لا يرفع من صدره . والله أعلم .

آخر تفسير سورة سبح لله الحمد والمنة ولا حول ولا قوة الا به وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، في العلم ، وابن ماجه في السنة ، والنسائي في الكبرى في العلم .

(٢) هو قطعة من حديث ابن مسعود موقوفا أخرجه الطبراني ، ذكره في « مجمع الـزوائد ، وأخـرجه ابن مـاجه عن حـذيفة ، والـديلي عن معاذ ، ويسرى » من السراية من باب المزيد ، أي يسرى ليلا .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم عن أبي الدرداء ، وبعض الانصار هو زياد بن لبيد الانصاري .

(٤) رواه الدارمي .

سورة الغاشية(*)

وقال شيخ اسلام

فصل

قوله : ﴿ هل أتاكَ حديثُ الغاشيةِ ؟وُجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ ، عاملةٌ ناصبةٌ ، تَصلىٰ ناراً حاميةً ، تُسقَىٰ مِنْ عينٍ آنيةٍ ﴾(1) فيها قولان :

أحدهما أن المعنى وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى يوم القيامة نارا حامية ، ويعني بها عباد الكفار كالرهبان ، وعباد البدو ،وربما تؤ ولت في أهل البدع كالخوارج .

و « القول الثاني » أن المعنى أنها يوم القيامة تخشع أي تذل وتعمل وتنصب ، قلت هذا هو الحق لوجوه :

« أحدها » أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه ، أي : وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية . وعلى الأول لا يتعلق الا بقوله (تصلى) ويكون قوله (خاشعة) صفة للوجوه قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى متأخرة ، والتقدير : وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارا حامية . والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل اقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه .

ثم انما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينه أما مع اللبس فلا يجوز ، لأنه يلتبس على المخاطب ، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير ، بل القرينة تدل على خلاف ذلك فارادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان . وأمر المخاطب يفهمه تكليف لما لا يطاق .

(*) مجموع القتادي ٢١٧/١٦ .

(1) أول سورة الغاشية

« الوجه الثاني » أن الله ذكر وجوه الاشقياء ووجوه السعداء في السورة فقال بعد ذلك : ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ ، لسعيها راضيةٌ ، في جنةٍ عاليةٍ ﴾ ومعلوم أنه انما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا ، ان هذا ليس بمدح ، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين لا اختلافهما ، وحينئذ فيكون الاشقياء وصفت وجوههم بحالها في الآخرة .

« الثالث » أن نظير هذا التقسيم قوله : ﴿ وجُوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ الىٰ ربّها ناظرةٌ ووجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ تظنُ أَنْ يُفْعَل بها فاقرةٌ ﴾ وقوله : ﴿ وجُوهٌ يومئذٍ مسفرةٌ ضاحكةٌ مستبشرةٌ ، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرةٌ ترهَقُهَا قَترَةٌ ، أولئكَ هُمُ الكفرةُ الفجرةُ ﴾ وهذا كله وصف للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا .

« الرابع » أن وصف الوجوه بالاعمال ليس في القرآن وانما في القرآن ذكر العلامة ، كقوله : ﴿ سيماهُم في وجوهِهم ﴾ وقوله : ﴿ ولو نشاءُ لأريناكهُمْ ، فلعرفتهُمْ بسيماهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ وذلك لأن العمل والنصب ليس قائما بالوجوه فقط : بخلاف السيا والعلامة .

« الخامس » أن قوله : ﴿ خاشعةٌ عاملةٌ ناصبةٌ ﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم . فان هذا الى المدح أقرب ، وغايته وأنه وصف مشترك بين عباد المؤمنين وعباد الكفار ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ، ولو أريد المختص لقيل خاشعة للاوثان مثلاً ، عاملة لغير الله ، ناصبة في طاعة الشيطان ، وليس في الكلام ما يقتضى كون هذا الوصف مختصا بالكفار ، ولا بكونه مذموماً . وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقا ، ولا وعيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن .

« السادس » أن هذا الوصف مختص ببعض الكفار ولا موجب للتخصيص ، فان الذين لا يتعبدون من الكفار أكثر ، وعقوبة فساقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة ، فان من كف منهم من المحرمات المتفق عليها وأدى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله الها آخر ، ويقتلون النفس التي حرم الله (الا) بالحق ويزنون . فاذا كان الكفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر كان هذا التخصيص عكس الواجب .

« السابع » أن هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والنسك ابتداء . ثم اذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة وليس في الخطاب تقييد كان هذا سعيا في اصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه .

سورة البلد(*)

قال شيخ الاسلام رحمة الله عليه

قوله تعالى : ﴿ ألم نجعلْ لهُ عينين ولساناً وشفتينِ وهديناهُ النَّجدينِ ﴾[1] ؟ الهداية محلها القلب ، وهذه الأعضاء الثلاثة هي التي دائمة الحركة والكسب . اما للانسان واما عليه ، بخلاف مايتحرك من داخل فانه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب ، وبخلاف بقية الأعضاء الظاهرة ، فان السكون عليها أغلب ، وحركتها قليلة بالنسبة الى هذه ، وهذه الثلاثة التي يروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال : من كان صمته فكرا ، ونطقة ذكرا ، ونظره عبرة ، وفي حديث عند بن أبي حاتم في صفة النبي ﷺ أنه كان كثير الصمت ، دائم الفكر ، متواصل الاحزان فالصمت والفكر للسان والقلب ، وأما الحزن فليس المراد به الحزن الذي هو الألم على فوت مطلوب أو حصول مكروه فان ذلك منهى عنه ، ولم يكن من حاله ، وانما أراد به الاهتمام والتيقظ لما يستقبل من الأمور ، وهذا مشترك بين القلب والعين .

وفيه أيضا في الصحيحين حديث ابن عباس أنه كان اذا قام من الليل يصلي ينظر الى السماء ، ويقرأ الآيات العشر من آواخر سورة آل عمران ، فيجمع بين الذكر والنظر والفكر ، فالنظر أي نظر القلب ونظر العين ، والذكر أيضا لا بد مع ذكر اللسان من ذكر القلب .

ولما كان النظر مبدأ والذكر منتهى ، لأن النظر يتقدم الادراك ، والعلم والذكر يتأخر عن الادراك والعلم ، ولهذا كان المتكلمة في النظر المقتضى للعلم ، وكان المتصوفة في الذكر المقرر للعلم قدم آلة النظر على آلة الذكر ، وختم بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر .

(*) مجموع الفتاوي ١٦/٢٢١ .

(١) ٨ ، ٩ .

وذكر سبحانه اللسان والشفتين ، لأنهم العضوان الناطقان ، فأما الهواء والحلق والنطع واللهوات والأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك ، فأما اللسان والشفتان فمتصلة ، ثم الشفتان لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع : الباء ، والفاء ، والميم والواو .

فأما الباء والفاء فهما الحرفان السببيان ، فان الباء أبدا تفيد الالصاق والسبب وكذلك الفاء تفيد التعقيب والسبب ، وبالاسباب تجتمع الأمور بعضها ببعض .

وأما الميم والواو فلهما الجمع والاحاطة ، ألا ترى أن الميم ضمير لجمع المخاطبين في الأنواع الخمسة : ضميري الرفع والنصب المتصلين والمفصلين ، وضمير الخفض في مثل قوله : (أشم) و(علمتم) و(اياكم) و(علمكم) و(بكم) وضمير لجميع الغائبين في الأنواع الخمسة أيضاً والمضمر ايا كان ، اما متكلم أو مخاطب أو غائب ، واحد أو اثنان أو جمع ، مرفوع أو منصوب أو مجرور ، فقد أحاطت بالجميع مطلقا ، أما الجمع المطلق فبنفسها ، وأما الجمع المقدر باثنين فبزيادة علم التثنية ، وهو الألف في مثل أنتما وعلمتها ، وكذلك الباقي[1] .

ولهذا زيدت الواو في الجمع المطلق فقيل عليهموا وانتموا ، كما زيدت الألف في التثنية ، ومن حذفها حذفها تخفيفاً ، ولأن ترك العلامة علامة ، فصارت الميم مشتركة ، ثم الفارق الألف أو عدمها مع الواو .

وأما الواو فلها جموع الضمائر الغائبة في مثل قالوا او نحوها . وأما المتصلة مثل اياكم وهم فعلى الغتين ، فلما صارت الواو تمام المضمر المرفوع المنفصل ، والياء تمام المؤنث : صارت للمؤنث مطلقا في جميع احواله : لأنه تلو المذكر ، والمفرد مذكره ومؤنثه قبل المثنى والمجموع ، فان المفرد قبل المركب ، ثم الألف صارت علم التثنية مطلقا في المظهر من المثنى والمجموع ، لأن المظهر قبل المضمر وأقوى منه ، فكانت أحق أن تكون فيه من الألف ، فحين ما كان أقوى كانت الواو وحين ما كان أوسط كانت الياء .

وأما المجموع الظاهر قالوا وهي علم الجمع المذكر الصحيح ، كما أن الألف علم التثنية ، ولهذا ينطق بها حيث لا اعراب ، لكن في حال النصب والخفض قلبتا يائين لأجل الفرق ، وذلك لأن الاسماء الظاهرة لها الغيبة دون الخطاب في جميع العربية ، وذلك لأن الواو أقوى حروف العلة ، والضمة بعضها ، وهي أقوى الحركات . لما فيها من الجمع ، وكونها أخرا ، فجعلت للجمع والألف أخف حروف العلة ، فجعلت للاثنين لأن الياء كانت قد

---

(١) شرح ابن القيم خاصية الميم في افادتها الجمع والضم في تفسيره ص٢٠٨ ـ ٢٠٩ بتحقيق محمد حامد الفقي ط دار الكتب العلمية سنة ١٩٧٨ . ولقد استفاد كثيرا مما قاله شيخه ابن تيمية في هذا المقام .

صارت للمؤنث في المفرد المرفوع الذي هو الأصل في قولك[1] : وجاءت الميم في مثل اللهم إشعاراً بجميع الاسماء : وذلك لأن حرف الشقة لما كان جامعا للقوة من مبدا مخارج الحروف الى منتهاها بمنزلة الخاتم الآخر ، الذي حوى ما في المتقدم وزيادة كان جامعا لقوى الحروف ، فجعل جامعا للاسماء مظهرها ومضمرها وجامعا بين المفردات والجمل ، فالواو والفاء عاطفان ، والفاء رابطة جملة بجملة .

ولما كانت النون قريبة من الفيهة فهي أنفية جعلت لجمع المؤنث ، لأنه دون جمع المذكر ، وثنى العينين والشفتين لأن العينين هما ربية القلب ، وليس من الأعضاء أشد ارتباطا بالقلب من العينين ، ولهذا جمع بينهما في قوله : ﴿ ونقلّبُ أفئدتهم وأبصارَهُمْ ﴾[2] ﴿ تتقلبُ فيهِ القلوبُ والأبصار ﴾[3] ﴿ واذا زاغت الابصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ﴾[4] ﴿ قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ أبصارُهَا خاشعة ﴾[5] ولأن كليهما له النظر فنظر القلب الظاهر بالعينين والباطن به وحده ، وكذلك اللسان هو الذكر والشفتان أنثاه .

---

(١) سورة الانعام الآية ١١٠ .

(٢) سورة النور الآية ٣٧ .

(٣) سورة الاحزاب الآية ١٠ .

(٤) سورة النازعات الآية ٩ .

تفسير سورة الشمس(*)

قال الامام أبو العباس شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية :

(١) فصـــــل

في قوله تعالى

﴿ والشَّمسِ وضُحَاهَا * والقمرِ اذا تلاهَا * والنَّهارِ إذا جَلَّاهَا * والليلِ إذَا يَغْشَاهَا ﴾

وضمير التأنيث في « جلاها » و « يغشاها » لم يتقدم ما يعود عليه الا الشمس فيقتضي أن النهار يجلي الشمس ، وأن الليل يغشاها ، والتجلية : الكشف والاظهار والغشيان : التغطية واللبس .

ومعلوم أن الليل والنهار ظرفا[1] الزمان ، والفعل اذا أضيف الى الزمان فقيل : هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد ، أو يبرد ، أو ينبت الأرض ، ونحو ذلك ، فالمقصود أن ذلك يكون فيه ، كما يوصف الزمان بأنه عصيب ، وشديد ، ونحس ، وبارد ، وحار ، وطيب ، ومكروه - والمراد وصف ما فيه . فكون الشيء فاعلاً وموصوفاً هو بحسب ما يليق به - كل شيء بحسبه .

فالنهار يجلي الشمس ، والليل يغشاها ، وان كان ظهور الشمس هو سبب النهار ، ومغيبها سبب الليل ، وقد ذكر بقوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ، فأضاف الضحى اليها ، الضحى يعم النهار كله ، كما قال : ﴿ أم السماء ، بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ - (والنازعات ٧٩ : ٢٧ - ٢٩) ، وقال : ﴿ والضحى * والليل اذا سجى ﴾ - (الضحى ٩٣ : ١ ، ٢) .

وقوله : ﴿ والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

فقد قيل ان « ما » مصدرية ، والتقدير : والسماء وبناء الله اياها ، والارض وطحو الله

(*) عن الاصل المخطوط بدار الكتب المصرية مع مقابلتها على طبعة السعودية وطبعة الهند .

(١) ويحتمل أن يقرأ : ظرف ، وطرف ، وطرفا ، وطرق ، فاخترنا الأنسب معنى .

ونفس وتسوية الله اياها ، لا بد من ذكر الفاعل في (الجملة)[1] . لا يصلح أن يقدر المصدر هنا مضافا الى الفعل فقط ، فيقال « وبنائها » ، لأن الفاعل مذكور في الجملة في قوله : ﴿ وما بنها ﴾ ﴿ وما طحها ﴾ ، فان الفعل لا بد له من فاعل في الجملة ، ومفعول ايضا فلا بد أن يكون في التقدير الفاعل والمفعول . لكن اذا كانت مصدرية كانت « ما » حرفا ليس فيها ضمير ، فيكون ضمير الفاعل في « بناها » عائدا على غير مذكور بل الى معلوم ، والتقدير : والسماء وما بناها الله ، وهذا خلاف الأصل وخلاف الظاهر .

والقول الثاني انها موصولة ، والتقدير : الذي بناها ، والذي طحاها ، و« ما » فيها عموم واجمال ـ يصلح لما لا يعلم ، ولصفاء من يعلم ، كقوله تعالى : ﴿ لا أَعبُدُ ما تعبُدُونَ * ولا أنتُمْ عابِدُونَ ما أَعبُدُ ﴾ ـ (الكافرون ١٠٩ : ٢ ، ٣) ، وقوله : ﴿ فانكِحُوا ما طابَ لكم مِنَ النساءِ ﴾ ـ (النساء : ٤ ، ٣) .

وهذا المعنى يجيء في قوله : ﴿ وما خلق الذكر والانثى ﴾ ـ (الليل ٩٢ : ٣)[2] .

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً ، فان القسم بالفاعل يتضمن الأقسام بفعله ، بخلاف الاقسام بمجرد الفعل .

وأيضاً فالاقسام التي في القرآن عامتها بالذوات الفاعلة وغير الفاعلة . بقسم بنفس الفعل ، كقوله : ﴿ والصَّافَّاتِ صفًّاً * فالزاجراتِ زجراً * فالتالياتِ ذكراً ﴾ ـ (الصافات ٣٧ : ١ ـ ٣) ، وكقوله : ﴿ والنازعات ﴾ . ﴿ والمرسلات ﴾ ، ونحو ذلك .

وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات : وتارة بربها وخالقها ، كقوله : ﴿ فوربِّ ألسماءِ والأرض ﴾ ـ (الذاريات ٥١ : ٢٣) ، وكقوله : ﴿ وَمَا خلقَ الذكرَ والأنثىٰ ﴾ ـ (الليل ٩٢ : ٣) ، وتارة يقسم بها وبربها .

وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله ، وأقسم بمخلوق دون فعله ، فأقسم بفاعله .

فانه قال : ﴿ والشمسِ وضُحَاهَا * والقمرِ اذا تلاهَا * والنَّهارِ إذَا جَلَّاهَا * والليل إذَا يَغْشَاهَا ﴾ . فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار ، وآثارها وافعالها ، كما فرق بينهما[3] في

---

(١) في الأصل « في لا يصلح » الخ ، أي بحذف لفظ « الجملة » ولا يستقيم المعنى بدونها أو كلمة يوازيها ، فأضفناها .

(٢) أنظر مزيد البسط على هذه الـ « ما » في قوله : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ تحت عنوان « حسن استعمال (فما دون فمن) » في الفصل الرابع ، تفسير سورة العلق .

(٣) أي بين هذه المخلوقات آثارها .

قوله : ﴿ ومن آياتِه اللَّيلُ والنهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ ﴾ - (فصلت ٣٧)[1] ، وقال : ﴿ كـلٌ في فلكٍ يسبحونَ ﴾ - (الأنبياء ٢١ : ٢٣) ، فانه بأفعال هـذه الأمور وآثـارها تقـوم مصالـح بني آدم وسائر الحيوان .

وقال : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ولم يقل « ونهارها » ولا « ضيائها » ، لأن الضحى ، يدل على النور والحرارة جميعا ، وبالانوار والحرارة تقوم مصالح العباد .

ثم أقسم بالسماء ، والارض ، وبالنفس ، ولم يذكر معها فعلا ، فذكـر فاعلهـا ، فقال : ﴿ وما بنها ﴾ ، ﴿ وما طحها ﴾ ، ﴿ ونفس وما سواها ﴾ .

فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس ، لأنها تفعل البر والفجور ، وهو سبحانه لا يقسم الا بما هو معظم من مخلوقاته ، لكنِ ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله : ﴿ وما سواها * فألهمها فجـورها وتقـواها ﴾ . فـاذا كان قـد بين أنـه خالق فعـل العبد الـذي (هو)[2] أظهـر الاشياء فعلا واختيـارا وقدرة فـلأن يكون خـالق فعل الشمس ، والقمـر ، والليل ، والنهـار ، بطريق الأولى والآخرى .

وأما السماء والأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم به[3] الا ما يـظهر من الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار .

والسماء والارض أعظم من الشمس والقمـر والليـل والنهـار ، والنفس أشـرف الحيـوان المخلوق . فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسبا ، وكان اقسامه بصـانعها تنبيهـا على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار .

فتضمن الكلام الاقسام بصانع هذه المخلوقات ، وبأعيانها ، وما فيها من الاثـار والمنافـع لبني آدم .

وختم القسم بـالنفس التي هي آخـر المخلوقـات ، فـان الله خلق آدم يـوم الجمعـة آخـر المخلوقات . وبين أنه خالق جميع افعالها ، ودل على أنه خالق جميع افعال ما سواها .

وهو سبحانه مع ما ذكر من عموم خلقه لجميع الموجودات على مـراتبها حتى أفعـال العبد المنقسمة الى التقوى والفجور بين أنقسام الافعال الى الخير والشر ، وانقسـام الفاعلين الى مفلح وخائب - سعيد وشقى . وهذا يتضمن الأمر والنهي . والوعد والوعيد . فكان في ذلك ردا على

---

(١) كذا وفي الاصل من سورة الانبياء ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ .

(٢) في الأصل بحذف « هو » ولا يستقيم الا به .

(٣) في الأصل « بها » بضمير التأنيث ، ومرجعه « فعل » وهو مذكر .

القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه والهامه ، وعلى القدرية المشركية الذين يبطلون أمره ونهيه ووعده ووعيده احتجاجا بقضائه وقدره .

وقد قيل في قوله : ﴿ قد أفلحَ من زكَّاهَا * وقد خابَ من دَسَّاهَا ﴾ .

ان الضمير عائد الى « الله » ، أي قد أفلح من زكاها الله ، وقد خاب من دساها الله » ، وهذا مخالف للظاهر ، بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن : اذ كان الأحسن ، « قد أفلحت من زكاها الله ، وقد خابت من دساها ، وهذا ضعيف .

وأيضاً فقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ بيان للقدر ، فلا حاجة الى ذكره مرة ثانية عقب ذلك في مثل هذه السورة القصيرة[1] .

ولهذا لم يذكر عن النبي ﷺ في اثبات القدر الا هذه الآية دون الثانية ، كما في صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال ، قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم . قال ، فقال : (أ) فلا يكون ذلك ظلما ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعا شديدا وقلت : (كل شيء) خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فقال لي : يرحمك الله ! إني لم أرد بما سألتك الا لأحزر عقلك . فان رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله ! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم (من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : « لا ، بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم) ، وتصديق ذلك في كتاب الله (عز وجل) ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾[2] فبين النبي ﷺ أن تصديق ما أخبر به من القضاء قوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

والذي في الحديث هو القدر السابق من علم الله وكتابه وكلامه ، وهذا انما تنكره غالبية القدرية . وأما (الذي)[3] في القرآن فهو خلق الله أفعال العباد وهذا أبلغ ، فان القدرية المجوسية تنكره .

---

(١) هذا جواب عن قول من قال معنى الآية ، قد افلحت نفس زكاها الله « الخ » حيث قالوا ان التزكية والتدسية بقدر الله السابق كما يدل عليه أيضاً قوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، حكى العلامة ابن القيم في « أقسام القرآن » مع القول الثاني ان المعنى قد افلح الذي زكى نفسه « الخ » وقد قرر هذا البحث بغاية البسط مع بيان أدلة ارباب القولين ترجيح القول الثاني من ثلاثة وجوه ، (انظر من ٢٠ ـ ٢٥ ، الطبعة المصرية ، ١٣٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم في القدر ، وفيه سقطات أكملناها بين الحواضر من صحيح مسلم .

(٣) بياض بالاصل « وتكميله بـ « الذي » بدلالة السياق .

فالذي في القرآن يدل على ما في الحديث وزيادة ، ولهذا جعله النبي ﷺ مصدقا له . وذلك من وجوه .

أحدها : أنه اذا علم أن الله هو الملهم للفجور والتقوى - ولم يكن في ذلك ظلم كما تقوله القدرية الابليسية ، ولا مخالفة للأمر والنهي والوعد والوعيد كما تقوله القدرية المشركية[1] - (فـ)[2] الاقرار بأن الله كتب ذلك وقدره قبل وجوده مما لانزاع فيه عند الانسان من جهة القدر . ولهذا قد أقر بالقدر السابق جمهور القدرية الذين ينكرون خلق الأفعال . ولم يثبت أحد من القدرية أن الله خالق أفعال العباد ، وينكره[3] من جهة القدر أن الله خالق ذلك .

الوجه الثاني : أنه اذا ثبت أن الله خالق فعل العبد ، وأنه الملهم الفجور والتقوى ، كان ذلك من جملة مصنوعاته . والشبهة التي عرضت للقدرية - التي سأل المزنيان للنبي ﷺ - انما هي في أعمال العباد التي عليها الثواب والعقاب خاصة ، ولم ينكروا من جهة القدر أن الله قدر ما يخلقه هو قبل وجوده ، وانما أنكر من أنكر منهم اذا اشتبه أمر افعال العباد .

وهؤلاء يقولون ان الله يقدر الأمور قبل وجودها الا أفعال العباد ، والسعادة والشقاوة ، فان ذلك لا ينبغي أن يعلمه حتى يكون،لأن أمر الأمير بما يعلم أن المكلف لا يطيعه فيه ، بل يكون ضرر عليه ، مستقبح عندهم ، وقد جلى طوائف من المصنفين في أصول الفقه وغيرهم الخلاف في ذلك عن المعتزلة ، وقالوا : يجوز أن الله يأمر العبد بما يعلم أنه لا يفعله ، خلافا للمعتزلة ، لأن في جنس المعتزلة من يخالف في ذلك ، وأكثرهم لا يخالف في ذلك ، وانما يخالف فيه طائفة منهم .

فاذا كان القرآن قد أثبت أنه الملهم للنس فجورها وتقواها كان ذلك من جملة مفعولاته ، فلا تبقى شبهة القدرية أنه قدر ذلك قبل وجوده ، كما لا يشبه عندهم في تقديره لما يخلقه من الاعيان والصفات .

وأما من أنكر تقديره العلم من منكرة الصفات أو بعضها فأولئك لهم مأخذ أخذ ، ليس مأخذهم أمر الصفات .

الوجه الثالث : أنه قد كان الهم الفجور والتقوى ، وهو خالق فعل العبد ، فلا بد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه ، كما قال : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ - (الملك ٦٧ : ١٤) ، لأن

---

(١) سيأتي شرحاً قويا .

(٢) هذه الفاء جواب « اذا » وليست في الاصل ، فاضفناها لتستقيم الجملة .

(٣)أي « ولم ينكر » ، وهو عطف على « ولم يثبت » .

الفاعل المختار يريد ما يفعله ، والارادة مستلزمة لتصور المراد ، وذلك هو العلم بالمراد المفعول[1] .

واذا كان خلقه للشيء مستلزما لعلمه[2] به فذلك أصل القدر السابق وما علمه الله سبحانه بقوله وبكتبه فلا نزاع فيه . وهذا بين في جميع الاشياء ـ في هذا وغيره .

فانه سبحانه اذا ألهم الفجور والتقوى فالملهم ان (لم)[3] يميز بين الفجور والتقوى ويعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجور ، والذي يريد أن يفعله هذا تقوى ، لم يصح منه الهام الفجور والتقوى .

فظهر بهذا حسن ما ذكره النبي ﷺ من تصديق الآية لما أخبره به النبي ﷺ من القدر السابق .

وقوله سبحانه : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ كما يدل على القدر فيدل على الشرع فانه لو قال : « فألهمها افعالها » ، كما يقول الناس « خالق أفعال العباد » ، لم يكن في ذلك تمييز بين الخير والشر ، والمحبوب والمكروه ، والمأمور به والمنهى عنه ، بل كان فيه حجة للمشركين ـ من المباحية والجبرية ـ الذين يدفعون الأمر والنهي ، والحسن والقبح : فانه خلق أفعال العباد . فلما قال : ﴿ فألهَمَهَا فُجُورَها وتقواهَا ﴾ كان الكلام تفريقا[4] بين الحسن المأمور به والقبيح المنهى عنه ، وأن الأفعال منقسمة الى حسن وسيء ، ومع كونه تعالى خالق الصنفين .

وهذه طريقة القرآن في غير موضع ـ يذكر المؤمن والكافر ، وأفعالهما الحسنة والسيئة ، ﴿ و ﴾[5] وعده ووعيده ، ويذكر أنه خالق الصنفين ، كقوله : ﴿ يُضِلُّ من يشاءُ ويهدي مَنْ يشاءُ ﴾ ـ (النحل ١٦ : ٩٣ ، وفاطر ٣٥ : ٨) ، ونحو ذلك .

وهذا الاصل ضلت فيه الجَبْرية والقدرية :

فان القدرية المجوسية قالوا : ان الأفعال تنقسم الى حسن وقبيح لصفات قائمة بها والعبد هو المحدث لها بدون قدرة الله وبدون خلقه .

فقالت الجبرية : بل العبد مجبور على فعله ، والجبر حق يوجب وجود أفعاله عند وجود الاسباب التي يخلقها الله ، وامتناع وجودها عند عدم شيء من الأسباب ، واذا كان مجبورا يمتنع أن يكون الفعل حسنا أو قبيحا لمعنى يقوم به .

---

(١) أنظر طريق الاستدلال بخلقه تعالى على علمه السابق في الفصل العاشر من تفسير أول ما نزل من سورة العلق .

(٢) في الأصل « بعلمه » وهو تصحيف .

(٣) لا يوجد في الاصل « لم » وانما اضفناه ليستقيم المعنى .

(٤) في الاصل « تفريق » بالرفع ، مع أنه خبر « كان » .

(٥) سقط من الاصل .

وهذه طريقة أبي عبد الله الرازي ونحوه من الجبرية النافين لانقسام الفعل في نفسه الى حسن وقبيح . والأولى طريقة أبي الحسين البصري[1] ونحوه من القدرية القائلين بأن فعل العبد لم يحدثه الا هو ، والعلم بذلك ضروري أو نظري : وأن الفعل ينقسم في نفسه الى حسن وقبيح ، والعلم بذلك ضروري .

وأبو الحسين هو امام المتأخرين من المعتزلة ، وله من العقل والفضل ما ليس لأكثر نظرائه ، لكن هو قليل المعرفة بالسنن ، ومعاني القرآن ، وطريقة السلف .

وهو وأبو عبد الله الرازي في هذا الباب في طرفي تقيض ، ومع كل منهما من الحق ما ليس مع الآخر ، فأبو الحسين يدعى أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري ، والرازي يدعى (أن العلم)[2] بأن افتقار الفعل المحدث الممكن الى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه ضروري كذلك . بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري .

ثم يعتقد كل فريق أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة ، وليس الأمر كذلك . بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ومصيب في ذلك ، وانما وقع غلطه في انكاره ما مع الآخر من الحق ، فانه لا منافاة بين كون العبد محدثا لفعله وكون هذا الاحداث واجب الوجود بمشيئة الله تعالى .

ولهذا كان مذهب أهل السنة المحضة أن العبد فاعل لفعله حقيقة ، كما ادعاه أبو الحسين من الضرورة ، لا يقولون : ليس بفاعل حقيقة ، أو ليس بفاعل ، كما يقوله المائلون الى الجبر مثل طائفة أبي عبد الله الرازي . يقولون مع ذلك : ان الله هو الخالق لهذا الفاعل ولفعله ، وهو الذي جعله فاعلا حقيقة ، وهو خالق أفعال العباد ، كما يقوله أهل الاثبات من الاشعرية - طائفة الرازي وغيرهم : لا كما يقوله القدرية - مثل أبي الحسين وطائفته : ان الله لم يخلق أفعال العباد .

ولهذا نص الأئمة - كالامام أحمد ، ومن قبله من الأئمة كالاوزاعي وغيره - على انكار اطلاق القول بالجبر نفيا واثباتا ، فلا يقال (« ان الله جبر العباد » ، ولا يقال « لم يجبرهم » .

---

(١) هو ابو الحسين محمد بن علي الطيب البصري المتكلم على مذهب المعتزلة كان امام وقته ، وله التصانيف القائمة في اصول الفقه ، منها « المعتمد » ، وهو كتاب كبير ، ومنه اخذ فخر الدين الرازي كتاب « المحصول » . سكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٣٦ هـ - عن ابن خلكان .

(٢) ليست بالأصل .

فان لفظ « الجبر » ، فيه اشتراك واجمال ، فاذا قيل « جبرهم » (أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم ، واذا قيل « لم يجبرهم »)[1] أشعر بأنهم يفعلون ما يشاؤ ون بغير اختياره ، وكلاهما خطأ . وقد بسطنا القول في هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن هذين الفريقين أعتقدوا تنافى القدر والشرع ، كما اعتقد ذلك المجوس والمشركون ، فقالوا : اذا كان خالقا للفعل امتنع أن يكون الفعل في نفسه حسنا له ثواب ، أو قبيحا عليه عقاب ، ثم قالت القدرية ، لكن الفعل منقسم ، فليس خالقا للفعل . وقالت الجبرية : لكنه خالق ، فليس الفعل منقسما .

ولكن الجبرية المقرون بالرسل يقرون بالانقسام من جهة أمر الشارع ونهيه فقط ، ويقولون : له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه ونهى عما يشاء (لا)[2] لأجل معنى فيه ، ويقولون في خلقه وفي أمره جميعا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأما من غلب عليه رأي أو هوى فانه ينحل عن ربقة الشارع اذا عاين الجبر ، ويقولون ما يقوله المشركون ﴿ ولو شاءَ اللهُ ما اشركْنا ولا أباؤنا ولا حرَّمْنا من شيءٍ ﴾ - (الانعام ٦ : ١٤٨) .

ومن أقر بالشرع ، والامر والنهي ، والحسن والقبح ، دون القدر وخلق الأفعال - كما عليه المعتزلة . فهو من القدرية المجوسية الذين شابهوا المجوس وللمعتزلة من مشابهة المجوس واليهود نصيب وافر .

ومن أقر بالقضاء والقدر وخلق الافعال وعموم الربوبية ، وأنكر المعروف والمنكر والهدى والضلال ، والحسنات والسيئات ، ففيه من المشركين والصابئة .

وكان الجهم بن صفوان ومن اتبعه كذلك لما ناظر أهل الهند ، كما كان المعتزلة كذلك لما ناظروا المجوس - الفرس ، والمجوس ارجح من المشركين .

فان من أنكر الأمر والنهي ، أو لم يقر بذلك ، فهو مشرك ضريح كافر - أكفر من اليهود والنصارى والمجوس - كما يوجد ذلك في كثير من المتكلمة والمتصوفة أهل الاباحة ونحوهم[3] .

ولهذا لم يظهر هؤلاء ونحوهم في عصر الصحابة والتابعين لقرب عهدهم بالنبوة وانما ظهر أولئك القدرية المجوسية لأن مذهبهم فيه تعظيم للأمر والنهى والثواب والعقاب ، فهم أقرب

---

(١) سقطت هذه العبارة أو نحوها من هنا في الاصل ، والسياق يقتضيها لتكميل المعنى فلذلك أضفناها .

(٢) سقط من الاصل ، وهو مطلب .

(٣) قد تكلم المصنف على هؤلاء ، بالبسط عند كلامه على الفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية في رسالة العبودية - انظر ص ٦ - ١٣ ، الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ هـ .

الى الكتاب والسنة والرسول والدين من هؤلاء المعطلة للأمر والنهى ، فان هؤلاء من شر الخلق[1] .

وأما القدرية الابليسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ، ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه ، لكن يقولون : هذا فيه جهل وظلم . فانه بتناقضه يكون جهلا وسفها ، وبما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلما .

وهذا حال ابليس . فانه قال : ﴿ بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينَّهُمْ أجمعين ﴾ - (الحجر ١٥ : ٢٩) ، فأقر بأن الله أغواه ، ثم جعل ذلك عنده دينا[2] يقتضى أن يغني هو ذرية آدم .

يغوي

وابليس هو أول من عادى الله ، وطغى في خلقه وأمره ، وعارض النص بالقياس . ولهذا يقول بعض السلف : أول من قاس ابليس[3] . فان الله أمره بالسجود لآدم ، فاعترض على هذا الأمر بأني خير منهُ ، وامتنع من السجود ، فهو أول من عادى الله ، وهو الجاهل الظالم - الجاهل بما في أمر الله من الحكمة ، الظالم باستكباره الذي جمع فيه بين بطر الحق وغمط الناس .

ثم قوله لربه « فبما أغويتني لأفعلن »[4] جعل فعل الله - الذي هو اغواؤه له - حجة له ، وداعيا الى أن يغوى أدم . وهذا طعن منه في فعل الله وأمره ، وزعم منه أنه قبيح ، فأنا أفعل القبيح أيضا ، فقاس نفسه على ربه ، ومثل نفسه بربه .

ولهذا كان مضاهيا للربوبية ، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ : ان ابليس ينصب عرشه على البحر ، ثم يبعث سراياه ، فأعظمهم فتنة أقربهم اليه منزلة ، فيجيء الرجل فيقول : ما زلت به حتى فعل كذا ، ثم يجيء الآخر فيقول : ما زلت به حتى فرقت بينه وبين زوجته ، فيلتزمه ويدنيه منه ، ويقول : أنت أنت »[5] .

---

(١) اشار ابن تيمية إلى ذلك المعنى في « الرسالة التدمرية » حيث قال : والاقرار بالأمر والنهي والوعد والوعيد مع انكار القدر خير من الاقرار بالقدر مع انكار الأمر والنهي والوعد والوعيد . ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين من ينفي الامر والنهي والوعد والوعيد . فكان قد نبغ فيهم القدرية ، كما نبغ فيهم الخوارج والحرورية . وانما يظهر من البدع أو لا ما كان أخفى ، وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة . فهؤلاء المتصوفون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع اعراضهم عن الأمر والنهي شر من القدرية المعتزلة ونحوهم . أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين الذين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ ، والمشركون شر من المجوس - ص ١١٢ المطبعة المصرية سنة ١٣٦٨ هـ .

(٢) هكذا بالاصل : وفي شحنتي السعودية ، الهند : داعيا .

(٣) قاله الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، ورحمهما الله ، رواه الدارمي عنهما في باب تغير الزمان وما يحدث فيه .

(٤) لفظ الآية ﴿ فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ - (الاعراف ٧ : ١٦) الى آخر قول ابليس ، أو قوله كما في سورة الحج . لخصه بقوله « لأفعلن » .

(٥) أخرجه مسلم في التوبة (المنافقين) في باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه الخ ، من طريق الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر بن

والقدرية قصدوا تنزيه الله عن السفه ، وأحسنوا في هذا القصد . فانه سبحانه مقدس عما يقول الظالمون ـ من ابليس وجنوده ـ علوا كبيرا ، حكم ، عدل ، لكن ضاق ذرعهم وحصل عندهم نوع جهل اعتقدوا معه أن هذا التنزيه لا يتم الا بأن يسلبوه قدرته على افعال العباد ، وخلقه لها ، وشمول ارادته لكل شيء . فناظروا ابليس وحزبه في شيء ، واستخوذ عليهم ابليس من ناحية أخرى .

وهذا من أعظم آفات الجدال في الدين بغير علم أو بغير الحق . وهو الكلام الذي ذمه السلف ، فان صاحبه يرد باطلا بباطل وبدعة ببدعة .

فجاء طوائف عن ناظرهم من أهل الاثبات ليقرروا أن الله خالق كل شيء . ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير . فضاق ذرعهم وعلمهم ، واعتقدوا أن هذا لا يتم ان لم تنكر محبة الله ، ورضاه ، وما خص به بعض الافعال دون بعض من الصفات الحسنة والسيئة : وننكر حكمته ، ورحمته ـ فيجوز عليه كل فعل لا ينزه عن ظلم ولا غيره من الافعال .

وزاد قوم في ذلك حتى عطلوا الأمر والنهي والوعد والوعيد رأسا . ومال هؤلاء الى الارجاء ، كما مال الأولون الى الوعيد . فقالت الوعيدية ، كل فاسق خالد في النار ـ لا يخرج منها أبدا : وقالت الخوراج أبدا : وقالت الخوارج : هو كافر ، وغالبة المرجئة أنكرت عقاب أحد من أهل القبلة ، ومن صرح بالكفر أنكر الوعيد في الآخرة رأساً ، كما يفعله طوائف من الاتحادية والمتفلسفة ، والقرامطة والباطنية ، وكان هؤلاء الجبرية المرجئة أكف بالأمر والنهي والوعد والوعيد من المعتزلة الوعيدية القدرية .

وأما مقتصدة المرجئة الجبرية الذين يقرون بالامر والنهي والوعد والوعيد ، وأن من أهل القبلة من يدخل النار ، فهؤلاء أقرب الناس الى أهل السنة .

وقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : « لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيا آتا آخرهم »[1] .

عبد الله،ولفظ المصنف يختلف عن لفظ مسلم في مواضع لفظ الحديث وهو « ان ابليس يضع عرشه على الماء » ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً قال :ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته . قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت » قال الأعمش : اراه قال : فيلتزمه ـ ا هـ .

(١) هذا الحديث لم اجده في الترمذي ، نعم ، أخرجه الترمذي حديثا في لعن القدرية عن عائشة في كتاب القدر . ولفظة « سنة لعنتهم لعنهم الله ولعن كل نبي كان ، الزائد في كتاب الله والكتاب بقدر الله . . . الحديث » وهو في الطبعة المصرية بشرح ابن العربي « سنة ١٣٥٢ ، وليس في متن « تحفه الاحوذي » ولم يذكره المزي في الاطراف بهذا الاسناد . وأما هذا الحديث فقد أخرج معناه بألفاظ مختلفة ابن عساكر عن معاذ والديلي عن حذيفة ، والحاكم في تاريخه عن أبي امامة، والطبراني عن معاذ وابن عدي عن ابن مسعود ،

لكن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية والمرجئة ونحوهم في الشريعة علمها وعملها ، كلامهم في اصول الفقه وفي اتباع الأمر والنهي خير من كلام المرجئة من الاشعرية وغيرهم ، فان كلام هؤلاء في أصول الفقه قاصرٌ جدا ، وكذلك هم مقصرون في تعظيم الطاعات والمعاصي . ولكن هم في اصول الدين أصلح من أولئك فانهم يؤمنون من صفات الله وقدرته وخلقه بما لا يؤمنون به أولئك . وهذا الصنف أعلى .

فلهذا كانت المرجئة في الجملة خيرا من القدرية ، حتى أن الارجاء دخل فيه الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم ، بخلاف الاعتزال ، فانه ليس فيه أحد من فقهاء السلف وأئمتهم .

(٢) فصـــل

(في الرد على القدرية والجبرية والمظلمة)

فاذا كان الضلال في القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر والخلق[١] وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد ، وتارة بتظليم الرب ، كان في هذه السورة ردا على هذه الطوائف كلها .

فقوله تعالى : ﴿ فألهَمَهَا فجُورَها وتَقْوَاهَا ﴾ اثبات للقدر بقوله : ﴿ ألهمها ﴾ : واثبات لفعل العبد باضافة الفجور والتقوى الى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية ، واثبات للتفريق بين الحسن والقبيح ، والأمر والنهي ، بقوله : ﴿ فجورها وتقواها ﴾ .

وقوله بعد ذلك ﴿ قد أفلح من زكها * وقد خابَ مَن دسها ﴾ اثبات لفعل العبد ، والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه وخيبة من دساها ، وهذا صريح في الرد على القدرية المجوسية ، وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد ـ وهم المكذبون بالحق .

وأما المظلمون للخالق فانه قد دل على عدله بقوله : ﴿ ونفس وما سواهَا ﴾ . والتسوية ، التعديل ، فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمها فجورها وتقواها .

وذكر بعد ذلك عقوبة من كذب رسله وطغى ، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله ، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا فان الله ينتقم منه ولا يخاف عاقبة انتقامه ، كما انتقم من ابليس وجنوده ، وأن تظلمه من ربه وتسفيهه له انما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئا .

« فانَ العباد لن يبلغوا ضر الله فيضروه ، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه ، ولو أن أولهم

وابن الجوزي في الواهيات عن أبي هريرة ، وهذا لفظ ابن الجوزي « ما بعث الله نبيا قبلي فاستمع له أمر أمنه الا كان فيهم المرجئة والقدرية يشوشون عليه أمر أمنه . ألا ان الله تعالى قد لعن المرجئة والقدرية على لسان سبعين نبيا أنا آخرهم » عن كنز العمال .

(١) قوله : ﴿ والخلق ﴾ في الأصل ﴿ والغلو ﴾ وهو تصحيف ، والمراد بـ ﴿ الخلق ﴾ خلق افعال العباد ، والله أعلم .

وآخرهم وانسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك في ملكه شيئا ، ولو أن أولهم وآخرهم وانسهم وجنهم كانوا على افجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئا[1] .

ولهذا لما سأل عمران بن حصين أبا الاسود الدؤلي عن ذلك ليحزر عقله « هل يكون ذلك ظلما » ؟ فذكر أن ذلك ليس منه ظلما ، وخاف من قوله : ﴿ سبحانهُ وتعالىٰ عَمّا يقول ﴿ الظالمون ﴾ علواً كبيراً ﴾[2] ـ (الاسراء ١٧: ٤٣) ، وذكر حديث النبي ﷺ ، واستشهاده بهذه الآية .

وقد تبين أن القدرية الخائضين بالباطل اما أن يكونوا مكذبين لما أخبره الرب من خلقه أوامره ، واما أن يكونوا متظلمين له في حكمه ، وهو سبحانه الصادق العدل ، كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمتُ ربّك صدقاً وعدلاً ، لا مبدِّلَ لكلماتِه ، وهو السَّميعُ العليمُ ﴾ ـ (الأنعام ٦ : ١١٥) ، فان الكلام اما انشاء واما اخبار . فالاخبار صدق ، لا كذب : والانشاء ـ أمر التكوين وأمر التشريع ـ عدل ، لا ظلم . والقدرية المجوسية كذبوا بما أخبر به عن خلقه وشرعه من أمر الدين ، والابليسية جعلوه ظالما في مجموعها ، أو في كل منها .

وقد ظهر بذلك أن المفترقين المختلقين من الأمة انما لك بتركهم بعض الحق الذي بعث الله به نبيه وأخذهم باطلا يخالفه ، واشتراكهم في باطل يخالف ما جاء به الرسول ، وهو من جنس مخالفة الكفار للمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ـ الى قوله ـ ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٥٣) .

فاذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتبعين للرسل نسوا حظاً مما ذكروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء[3] واختلفوا فيما بينهم في حق آخر جاء به الرسول فآمن هؤلاء ببعضه

---

(١) هذا معنى الحديث الالهي الذي اخرجه مسلم ، وأحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث أبي ذر الغفاري ، اوله فيما يروي النبي ﷺ عن ربه : « يا عبادي » اني حرمت الظلم على نفسي وكجعلته بنكم محرما فلا تظالموا « الحديث » غير أن لفظ الحديث بصيغة الخطاب لا يضيغه الغيبة كما هنا ، فقال : « يا عبادي » انكم لن تبلغوا ضري فتضروني « ألخ » أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم وللمصنف شرح هام لهذا الحديث العظيم القدر في نحو اربعين صفحة . طبع في آخر الجزء الثالث من « مجموعة الرسائل المنيرية » بمصر سنة ١٣٤٦ هـ ومن قبل في فتاوى ابن تيمية .

(٢) هكذا بالأصل « والآية بدون لفظ الظالمون » أي (عما يقولون علوا كبيرا) هذا اذا اعتبرنا الضمير في قوله « قوله » راجعا الى الله سبحانه وتعالى بفحوى الكلام ويحتمل أن يكون الضمير راجعا الى عمران بن حصين . والمراد أن أبا الاسود خاف من قول عمران وهو « هل يكون ذلك ظلما » وحينئذ يكون الوقف التام على قوله « ويكون ما بعده جملة مستأنفة من كلام المصنف وهو قوله « سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، ويكون فاعل « ذكر » في قوله « وذكر حديث النبي ﷺ » هو عمران بن حصين .

(٣) ومطلوب المصنف من هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ .

(٤) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فنسوا خطا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ﴾ ـ (المائدة ٥ : ١٤) .

وكفروا ببعضه ، والآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء ويؤمنون بما يكفر به هؤلاء[1] .

وهنا كلا الطائفتين المختلفتين المفترقتين مذمومة ، وهذا شأن عامة الافتراق والاختلاف في هذه الأمة وغيرها ، وهذا من ذلك . فانهم اشتركوا في أن كون الرب خالقا لفعل العبد ينافي كون فعله منقسما الى حسن وقبيح . وهذه المقدمة اشتركوا فيها جدلا من غير أن تكون حقا في نفسها أو عليها حجة مستقيمة .

وهي أحدى المقدمتين التي يعتمدها الرازي في مسألة التحسين والتقبيح . فانه أعتقد في « محصوله »[2] وغيره على أن العبد مجبور على فعله ، والمجبور لا يكون فعلة قبيحا ، فلا يكون شيء من أفعال العباد قبيحا .

وهذه الحجة بنفي ذلك أصلها حجة المشركين المكذبين للمرسل ـ الذين قالوا : ﴿ لو شاءَ الله ما اشركْنَا ولا أباؤنا ولا حرَّمْنَا من شيءٍ ﴾ ـ (الأنعام ٩ : ١٤٨) . فانهم نفوا قبح الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات باثبات القدر .

لكن هؤلاء الذين يحتجون بالجبر على نفي الاحكام اذا اقروا بالشرع لم يكونوا مثل المشركين من كل وجه ، ولهذا لم يكن المتكلمون المقرون بالشريعة كالمشركين ، وان كان فيهم جزء من باطل المشركين .

لكن يوجد في المتكلمين والمتصوفة طوائف يغلب عليهم الجبر حتى يكفروا حينئذ بالأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب ـ اما قولا ، واما حالا وعملا . وأكثر ما يقع ذلك في الأفعال التي توافق أهواءهم ـ يطلبون بذلك اسقاط اللوم والعقاب عنهم . ولا يزيدهم ذلك الا ذما وعقابا . كالمستجير من الرمضاء بالنار .

فان هذا القول لا يطرد العمل به لأحد ، اذ لا غنى لبني آدم ـ بعضهم من بعض ـ من ارادة شيء والأمر به ، وبغض شيء والنهي عنه . فمن طلب أن يسوى بين المحبوب والمكروه والمرضى والمسخوط ، والعدل والظلم ، والعلم والجهل ، والضلال والهدى ، والرشد والغي ، فانه لا يستمر على ذلك أبدا ، بل اذا حصل له ما يكرهه ويؤذيه فر الى دفع ذلك ، وعقوبة فاعله بما قدر عليه حتى يعتدى في ذلك .

---

(١) قوله : ﴿ ويؤمنون بما يكفر به هؤلاء ﴾ كذا بالاصل ، ولعل الصحيح « ويكفرون بما آمن به هؤلاء » فليحرر .

(٢) « المحصول في اصول الفقه » مبسوط لفخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . قال الاسنوي : استمد « المحصول » من كتابين لا يكاد يخرج عنها غالباً ، وهما المستقضى « للغزالي ، والمعتمد » لابي الحسين البصري (المعتزلي) ، حتى رأيته ينقل منها الصفحة أو قريبا منها بلفظها ـ أهـ عن كشف الظنون .

فهم[1] من أظلم الخلق في تفريقهم بين القبيح من الظلم والفواحش منهم ومن غيرهم ، وممن يهوونه ومن لا يهوونه ، واحتجاجهم بالقدر لأنفسهم دون خصومهم .

وتجد أحدهم عند فعل ما يحمد عليه يغلب على قلبه حال أهل القدر ، فيجعل نفسه هو المحدث لذلك دون الله ، وينسى نعمة الله عليه في الهامه اياه تقواه . وهذا من أظلم الخلق ، كما قال أبو الفرج بن الجوزي : أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري - أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل العدل ضد ذلك . اذا فعلوا حسنة شكروا الله عليها لعلمهم بأن الله هو الذي حبب اليهم الايمان وزينه في قلوبهم ، وأنه هو الذي كره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ﴿ واذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمونَ ﴾ - (آل عمران ٢ : ١٣٥) .

فاتبعوا أباهم حيث أذنب : ﴿ فتلقىٰ آدمُ من ربهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ ، إنَّهُ هوَ التوابُ الرحيم ﴾ - (البقرة ٢ : ٣٧) ، وقال : ﴿ رَبَّنَا ظلمنَا أنفسنَا ، وإنْ لم تغفرْ لنَا وترحمنَا لنكوننّ مِنَ الخَاسرينَ ﴾ - (الأعراف : ٧ : ٣٣) .

ويقول أحدهم « ابوء بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي » ، كما قال النبي ﷺ : سيد الاستغفار أن يقول العبد « اللهم أنت ربي ، لا اله الا أنت . خلقتني وأنا عبدك . وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فانه لا يغفر الذنوب (الا أنت)[2] » ، وكما في الحديث الصحيح أيضاً « ان اللّه تعالى يقول : (يا عبادي انما هي أعمالكم ترد عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد شرا فلا يلومن الا نفسه)[3] ، ويقولون بموجب قوله تعالى : ﴿ ما أصابكَ مِنْ حسنةٍ فمنَ اللهِ ، وما أصابكَ مِنْ سيئةٍ فَمِنْ نفسكَ ﴾ - (النساء ٤ : ٧٩) .

---

(١) في الاصل « فهو » ، والصحيح « فهم » .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ، والنسائي والترمذي ، من حديث شداد بن أوس .

(٣) هو القطعة الاخيرة من الحديث الالهي الطويل عن أبي ذر أخرجه مسلم في البر والصلة ، أوله « يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي . . الحديث » كما تقدم .

آخر ما وجد من هذه السورة بالاصل المخطوط بدار الكتب المصرية وقد أضاف محقق طبعة الهند تعليقات لابن القيم أخذها منه ناشر طبعة السعودية وهي ليست بالأصول كما أنها ليست لابن تيمية .

فصـــل

سورة الليـل(*)

(معنى آيـة ﴿ ان علينا للهـدىٰ ﴾ ونظيـريها من سـورتي الحجر والنحـل وبيـان اغـلاط المفسرين فيها)

قـال شيخ الاسـلام ابـو العبـاس أحمـد بن عبـد الحليم بن عبـد السـلام بن تيميـة الحـراني - قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، ورحمه :

فصـــل

فـــي
آيات ثلاث متناسبة متشابهة اللفظ والمعنى يخفى معناها على أكثر الناس

قوله تعالى : ﴿ قـالَ هـذا صـراطُ عليَّ مستقيمٌ * إنَّ عبادي لَكَ عليهم سلطانٌ إلّا من اتبعكَ مِنَ الغاوين ﴾ (الحجر ١٥ : ٤١ ، ٤٢) .

وقـوله تعـالى : ﴿ وعلىٰ اللهِ قصدُ السبيـلِ ومنها جـائرٌ ﴾ - (النحـل ١٦ : ٦) . وقوله تعالى : ﴿ إنّ علينا للهدىٰ * وإنَّ لنا لـلآخرةَ والأولىٰ » - (الليل ٩٢ : ١٢ ، ١٣) . فلفظ هذه الآيات فيه أن السبيل الهادى هو على الله .

وقـد ذكر أبـو الفرج بن الجـوزي في الآية الأولى ثـلاثة أقـوال بخـلاف الآيتـين الآخـريـين ، فانه لم يـذكر فيهـا الا قولـه واحدا . فقـال في تلك الآية : اختلفـوا في معنى هذا الكـلام على ثـلاثة أقوال .

(*) هذه السورة بأكملها ساقطة من طبعة السعودية . بلى موجودة

أحدها : انه يعني بقوله هذا : الاخلاص ، فالمعنى أن الاخلاص طريق إليَّ مستقيم ، و « على » بمعنى « الى » .

والثاني : هذا طريق عليَّ جوازه ، لأني بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم ، وهو خارج مخرج الوعيد ، كما تقول للرجل تخاصمه « طريقك علي » ، فهو كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ - (الفجر ٨٩ : ١٤) .

والثالث : هذا صراط على استقامته ، أي أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان قال : وقرأ قتادة ، ويعقوب (هذا صراط عَليٌّ) ، أي رفيع .

(قلت) : هذه الأقوال الثلاثة قد ذكرها من قبله ، كالثعلبي ، والواحدي ، والبغوي ، وذكروا قولاً رابعاً ، فقالوا - واللفظ للبغوي ، وهو مختصر الثعلبي :

قال الحسن : معناه صراط الى مستقيم ، وقال مجاهد : الحق يرجع الي وعليه طريقه لا يعرج على شيء[1] .

وقال الاخفش : يعني على الدلالة على الصراط المستقيم .

وقال الكسائي : هذا على التهديد والوعيد ، كما يقول الرجل لمن يخاصمه « طريقك علي » ، أي لا تفلت مني ، كما قال تعالى : ﴿ ان ربك لبالمرصاد ﴾ .

وقيل : معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية .

فذكروا الاقوال الثلاثة ، وذكروا قول الاخفش « على الدلالة على الصراط المستقيم وهو يشبه القول الأخير ، لكن بينهما فرق . فان ذاك يقول : على استقامته باقامة الأدلة ، فمن سلكه كان على صراط مستقيم . والآخر يقول : على أن أدل الخلق عليه باقامة الحجج . ففي كلا القولين أنه بين الصراط المستقيم بنصف الأدلة ، لكن هذا جعل عليه الدلالة عليه ، وهذا جعل عليه استقامته - أي بيان استقامته . وهما متلازمان . ولهذا - والله أعلم - لم يجعله أبو الفرج قولاً رابعاً .

وذكروا القراءة الأخرى عن يعقوب وغيره : أي رفيع . قال البغوي : وعبر بعضهم عنه « رفيع أن ينال » مستقيم أن يمال[2] .

---

(١) كذا في الاصل ، وفي البغوي (طبعة المنار) : الحق يرجع الى الله تعالى وعليه طريقه ولا يعوج عليه شيء وفي الطبري : الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء ، وهو الاصح كما سيأتي .

(٢) نص عبارة البغوي هكذا : وقرأ ابن سيرين ، وقتادة ، ويعقوب ، « على » من العلو ، أي رفيع ، وعبر بعضهم عنه « رفيع ان ينال مستقيم أن يمال » - اهـ . وقال الطبري : وقرأ ذلك قيس بن عباد وابن سيرين ، وقتادة فيما ذكر عنهم (هذا صراط على مستقيم) يرفع « على » على أنه نعت الصراط ، بمعنى رفيع .

(قلت) : القول الصواب هو قول ائمة السلف ـ قول مجاهد ونحوه ـ فانهم أعلم بمعاني القرآن . لا سيما مجاهد[1] فانه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها[2] . وقال الثوري : اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . والأئمة كالشافعي ، وأحمد ، والبخاري ، ونحوهم ، يعتمدون على تفسيره ، والبخاري في صحيحه أكثر ما ينقله من التفسير ينقله عنه .

والحسن البصري أعلى التابعين بالبصرة .

وما ذكروه عن مجاهد ثابت عنه ، رواه الناس كابن أبي حاتم وغيره ، من تفسير ورقاء عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله (هذا صراط على مستقيم) : الحق يرجع الى الله وعليه طريقة لا يعرج[3] على شيء .

وذكر عن قتادة أنه فسرها على قراءته ـ وهو يقرأ « على » ـ فقال : أي رفيع مستقيم .

وكذلك ذكر ابن أبي حاتم عن السلف أنهم فسروا آية النحل . فروى من طريق ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله : ﴿ قصد السبيل ﴾ ، قال : طريق الحق على الله . قال : وروى السدى أنه قال : الاسلام ، وعطاء قال : هي طريق الجنة .

فهذه الأقوال ـ قول مجاهد والسدي ، وعطاء ـ في هذه الآية هي مثل قول مجاهد ، والحسن ، في تلك الآية .

وذكر ابن ابي حاتم من تفسير العوفي ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ، يقول : على الله البيان ـ أن يبين الهدى والضلالة .

وذكر ابن ابي حاتم في هذه الآية قولين ، ولم يذكر في آية الحجر الا قول مجاهد فقط .

وابن الجوزي لم يذكر في آية النحل[4] الا هذا القول الثاني « وذكره عن الزجاج فقال :

---

(١) هو الامام ابو الحجاج مجاهد بن جبر مولى السائب بن أبي النائب المخزومي المكي ، المقرىء المفسر أحد الاعلام ، ولد في خلافة عمر ، وسمع سعد بن أبي وقاص ، وعائشة وأم هانىء وابا هريرة ، وأسيد بن ظهير ، وابن عمر ، وخلقا سواهم ، قال سلمة بن كهيل : ما رأيت أحدا يريد بهذا العلم وجه الله الا هؤلاء الثلاثة ـ عطاء ومجاهد ، وطاوس . بقية ، عن خبيب بن صالح ، سمعت مجاهد يقول : استفرغ على القرآن الأجلح ، عن مجاهد قال : طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نية ، ثم رزق الله اليه بعد ، توفي بمكة ـ وهو ساجد ـ سنة ١٠٣ هـ وله ثلاث وثمانون سنة عن « تاريخ الاسلام » للذهبي ملخصا .

(٢) لفظ الذهبي مع اسناده : محمد بن اسحق ، عن ابان بن صالح ، عن مجاهد قال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف ـ وفي رواية : أقفه ـ عند كل آية اسأله فيم نزلت وكيف كانت .

(٣) التعريج على الشيء : الاقامة عليه ، وعرج فلان على المنزل ، وفي الحديث « فلم أعرج عليه » أي لم أقم ولم احتبس ـ تاج العروس .

(٤) في الاصل « آية الخبر » بدل « النحل » وهو سهو الناسخ .

﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ القصد : استقامة الطريق - يقال : طريق قصد ، وقاصد ، اذا قصد بك الى ما تريد ، قال الزجاج : المعنى ، وعلى الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء اليه بالحجج والبراهين .

وكذلك الثعلبي ، والبغوي ، ونحوهما ، لم يذكروا الا هذا القول - لكن ذكروه باللفظين .

قال البغوي : يعني بيان طريق الهدى من الضلالة . وقيل : بيان الحق بالآيات والبراهين .

قال : والقصد : الصراط المستقيم ، و ﴿ ومنها جائر ﴾ : يعني ومن السبيل ما هو جائر عن الاستقامة معوج ، فالقصد من السبيل : دين الاسلام ، والجائر منها : اليهودية ، والنصرانية ، وسائر ملل الكفر ، قال جابر بن عبد الله : قصد السبيل : بيان الشرائع والفرائض . وقال عبد الله بن المبارك ، وسهل بن عبد الله : قصد السبيل : السنة ، (ومنها جائر) : الأهواء والبدع . ودليله : قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوهُ ، ولا تتبعوا السُّبلَ فتفرقَ بكم عن سبيلهِ ﴾ - (الأنعام ٦ : ١٥٣) .

ولكن البغوي ذكر فيها القول الآخر ، ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ إنَّ علينَا للهدىٰ ﴾ - (الليل) عن الفراء ، كما سيأتي . فقد ذكر القولين في الآيات الثلاث تبعا لمن قبله ، كالثعلبي وغيره .

والمهدوي[1] ذكر في الآية الأولى قولين من الثلاثة ، وذكر في الثانية ما رواه العوفي ، وقولاً آخر . فقال :

قوله : ﴿ هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ ﴾ ، أي على أمري وارادتي . وقيل : هو على التهديد ، كما يقال « على طريقك والى مصيرك » .

وقال في قوله : ﴿ وعلىٰ اللهِ قصدُ السبيلِ ﴾ : قال ابن عباس : أي بيان الهدى من الضلال . وقيل : السبيل : الاسلام ، (ومنها جائر) ، أي ومن السبل جائر ، أي عادل عن الحق . وقيل : المعنى « وعنها جائر » ، أي عن السبيل « فـ » من بمعنى « عن » .

وقيل : معنى قصد السبيل : سيركم ووجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع .

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي التميمي المتوفي بعد سنة ٤٣٠ هـ ، وتفسيره يسمى « التفصيل الجامع لعلوم التنزيل » . وهو تفسير كبير بالقول - فسر الآيات أولا ، ثم ذكر القرآت ، ثم الاعراب ، وكتب في آخره قواعد القرآات » . ثم اختصره وسماه التحصيل لفوائد كُتاب التفصيل ، منه بعض الاجزاء المخطوطة بدار الكتب المصرية . أما الاصل فذكر بروكلمان أنه موجود بمكتبة باريز ، ومكتبة فيض الله باستانبول ، ومكتبة جامع القرويين بفاس - عن « كشف الظنون » و « فهرس » دار الكتب المصرية .

(قلت) : هذا قول بعض المتأخرين - جعل القصد « بمعنى » الارادة ، أي عليه قصدكم للسبيل في ذهابكم ورجوعكم ، وهو كلام من لم يفهم الآية . فان « السبيل القصد » هي السبيل العادلة ، أي عليه السبيل القصد ، و « السبيل » اسم جنس ، ولهذا قال (ومنها جائر) . أي عليه القصد من السبيل » ومن السبيل جائر . فاضافة الى اسم الجنس اضافة النوع الى الجنس ، أي « القصد من السبيل » كما تقول « ثوب خز » ولهذا قال (ومنها جائر) .

وأما من ظن أن التقدير ، « قصدكم السبيل » فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجود متعددة .

وابن عطية لم يذكر في آية الحجر الا قول الكسائي[1] ، وهو أضعف الأقوال ، وذكر المعنى الصحيح تفسيرا للقراءة الأخرى . فذكر أن جماعة من السلف قرأوا (علي مستقيم) من العلو والرفعة . قال : والاشارة بهذا على هذه القراءة الى الاخلاص لما استثنى ابليس من أخلص قال الله له : هذا الاخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت باغوائك أهله .

قال : وقرأ جمهور الناس (على مستقيم) . والاشارة بهذا على هذه القراءة الى انقسام الناس الى غاوٍ ومخلص . لما قسم ابليس هذين القسمين قال الله « هذا طريق علي » أي هذا أمر الى مصيره ، والعرب تقول « طريقك في هذا الأمر على فلان » ، أي اليه يصير النظر في أمرك . وهذا نحو قوله : ﴿ إنَّ ربكَ لبالمرصادِ ﴾ . قال : والآية على هذه القراءة خبر يتضمن وعيدا .

(قلت) : هذا قول لم ينقل عن أحد من علماء التفسير - لا في هذه الآية ولا في نظيرها . وانما قاله الكسائي لما أشكل عليه معنى الآية الذي فهمه السلف ، ودل عليه السياق والنظائر .

وكلام العرب لا يدل على هذا القول : « فان الرجل وان كان يقول لمن يتهدده ويتوعده ، على طريقك » فانه لا يقول : ان طريقك مستقيم .

وأيضا فالوعيد انما يكون للمسيء : لا يكون للمخلصين ، فكيف يكون قوله هذا اشارة الى انقسام الناس الى غاو ومخلص » وطريق هؤلاء غير طريق هؤلاء ؟ هؤلاء سلكوا الطريق المستقيم التى تدل على الله ، وهؤلاء سلكوا السبيل الجائرة .

وأيضا فانما يقول لغيره في التهديد « طريقك علي » من لا يقدر عليه في الحال لكن ذاك يمر

---

(١) تقدمت حكاية البغوي لذلك القول ، وهو : « هذا على التهديد والوعيد ، كما يقول الرجل آن يخاصمه ، طريقك علي » ، أي لا تفلت مني ، كما قال تعالى : ﴿ ان ربك لبالمرصاد ﴾ .

بنفسه عليه وهو متمكن منه ، كما كان أهل المدينة يتوعدون أهل مكة بأن « طريقكم علينا » لما تهددوهم بأنكم آويتم محمدا وأصحابه ، كما قال أبو جهل لسعد بن معاذ لما ذهب سعد الى مكة ، الا أراك تطوف بالبيت أمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم ، فقال « لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة » . أو نحو هذا[1] .

فذكر أن طريقهم في متجرهم الى الشام عليهم ، فيتمكنون حينئذ من جزائهم .

ومثل هذا المعنى لا يقال في حق الله تعالى ، فان الله قادر على العباد حيث كانوا ، كما قالت الجن ﴿ وأنا ظننا أنْ لَنْ نعجزَ اللهَ في الأرضِ ولنْ نعجزهُ هرباً ﴾ - (الجن ٧٢ : ١٣) ، وقال : ﴿ وما أنتم بمعجزينَ في الأرضِ ﴾ - (العنكبوت ٢٩ : ٢٢) .

فلان ، أي اليه يصير أمرك ، فهذا يطابق تفسير مجاهد وغيره من السلف ، كما قال مجاهد : الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء . فطريق الحق على الله ، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله فيه : ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ كما فسرت به القراءة الأخرى .

فالصراط في القراءتين هذا الصراط المستقيم الذي أمر الله المؤمنين أن يسألوه اياه في صلاتهم ، فيقولوا ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . وهو الذي وصى به في قوله : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلك وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ - (الأنعام ٦ : ١٥٣) .

وقوله هذا[2] اشارة الى ما تقدم ذكره ، وهو قوله : ﴿ الا عبادَك منهم المخلَصِينَ ﴾ - (الحجر ١٥ : ٤٠) فتعبد العباد له باخلاص الدين له : طريق يدل عليه وهو طريق مستقيم ، ولهذا قال بعده ﴿ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾[3] - (الحجر ١٥ : ٤٢) .

---

(١) هو من حديث عبد الله بن مسعود عن سعد بن معاذ في اخبار سعد الأمية بن خلف انه سيقتل ، أخرجه البخاري في موضعين من صحيحه - في علاقات النبوة ، وفي أول المقارىء ، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر . وسياقه : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد بن معاذ - وهو أحد النقباء ممن شهد بيعة العقبة - معتمرا ، فنزل على امية بن خلف ابي صفوان بمكة ، فقال لأمية : انظر ، ساعة خلة لعلي أن اطوف بالبيت . فخرج به قريبا من نصف النهار . فلقيهما أبو جهل ، فقال / يا ابا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل « لا أراك تطوف . . . » الى آخر القصة .

(٢) أي قول الله تعالى : ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ .

(٣) فسياق الكلام في القرآن هكذا ﴿ الا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علي مستقيم * ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ - ومعنى قوله ، ولهذا قال بعده : ﴿ ان عبادي ليس عليهم سلطان ﴾ ، أي لكونهم على صراط مستقيم كما ذكر العلامة ابن القيم . قال : هو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلا لعباده اليه وهو افراده بالعبودية وافراده رسوله بالطاعة فلا يشرك به أحدا في عبوديته ولا يشرك برسوله أحد في طاعته ، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول ، وهذا مضمون شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله - انتهى ملخصا عن « بدائع الفوائد » .

وابن عطية ذكر أن هذا معنى الآية في تفسير الآية الأخرى مستشهدا به ، مع أنه لم يذكره في تفسيرها . فهو بفطرته عرف أن هذا معنى الآية ، ولكنه لما فسرها ذكر ذلك القول ، كأنه هو الذي اتفق أن رأى غيره قد قاله هناك . فقال ـ رحمه الله :

فصــــل

(في معنى السبيل)

وقوله : ﴿ وعلىٰ اللهِ قصدُ السبيلِ ومنها جائرٌ ﴾ . وهذه أيضا من أجل نعم الله تعالى . أي على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه ـ وذلك نصب الأدلة وبعث الرسل ، والى هذا ذهب المتأولون .

قال : ويحتمل أن يكون المعنى أن من سلك السبيل القاصد فعلى الله طريقه ، والى ذلك مصيره . فيكون هذا مثل قوله : ﴿ هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ ﴾ ، وضد قول النبي ﷺ : « والشر ليس اليك » ، أي لا يفضى الى رحمتك . وطريق قاصد معناه : بين مستقيم قريب ، ومنه قول الراجز :

* قصد عن نهج الطريق القاصد *

قال : والألف واللام في « السبيل » للعهد ، وهي سبيل الشرع ، وليست للجنس ، ولو كانت للجنس لم يكن منها جائر . وقوله : ﴿ ومنها جائر ﴾ ، يريد طريق اليهود ، والنصارى ، وغيرهم كعباد الاصنام ، والضمير في « منها » يعود على « السبيل التي يتضمنها معنى الآية » كأنه قال : « ومن السبيل جائر » فأعاد عليها وان كان لم يجر لها ذكر لتضمن لفظة « السبيل » بالمعنى لها .

قال : ويحتمل أن يكون الضمير في « منها » على « سبيل الشرع » المذكورة ويكون « من » للتبعيض ، ويكون المراد فرق الضلالة من أمة محمد ـ كأنه قال : ومن بنيات الطرق من هذه السبيل ومن شعبها جائر .

(قلت) : سبيل أهل البدع جائرة خارجة عن الصراط المستقيم فيما ابتدعوا فيه . ولا يقال ان ذلك من السبيل المشروعة .

وأما قوله « ان قوله : ﴿ قصد السبيل ﴾ هي سبيل الشرع ، وهي سبيل الهدى ، والصراط المستقيم ، وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر ، فهذا أحد الوجهين في دلالة الآية ، وهو مرجوح ، والصحيح الوجه الآخر أن « السبيل » اسم جنس ، ولكن الذي على

الله هـو القصد منهـا ، وهي سبيل واحـد ، ولما كـان جنسـا قـال : ﴿ ومنهـا جـائـر ﴾ ، والضمـير يعود على ما ذكر بلا تكلف .

وقوله : ﴿ لو كان للجنس لم يكن منهـا جائـر ﴾ ليس كذلـك ، فانها ليست كلهـا عليه ، بـل انمـا عليه القصـد منها ، وهي سبيـل الهدى ، والجـائر ليس من القصـد ، وكأنـه ظن أنـه اذا كـانت للجنس يكـون عليـه قصـد كـل سبيـل ، وليس كـذلـك ، بـل انمـا عليـه سبيـل واحـدة ، وهي الصـراط المستقيم ـ وهي التي تـدل عليـه . وسـائـرهـا سبيـل الشيـطان ، كـما قـال : ﴿ وأن هـذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

وقـد أحسن ـ رحمه الله ـ في هـذا الاحتمال[١] وفي تمثيله ذلـك بقولـه : (هـذا صـراط علي مستقيم) .

وأما آية الليل ـ قوله : ﴿ إنَّ علينا للهدىٰ ﴾ ـ فـابن عطيـة مثلها بهـذه الآية[٢] لكنـه فسرهـا بالوجه الأول فقال :

ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً ، أي تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك ، كـما قال : ﴿ وعـلىٰ اللهِ قصدُ السبيـلِ ﴾ ، ثم كل أحـد يتكسب ما قـدر له ، وليست هـذه الهدايـة بالارشاد الى الايمان ، ولو كان كذلك لم يوجد كافرٌ .

(قلت) : وهـذا هو الـذي ذكره ابن الجـوزي ـ وذكره عن الـزجـاج . قـال الـزجـاج : ان علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

وهـذا التفسير ثـابت عن قتادة ، رواه عبـد بن حميد . قـال : حدثنـا يـونس ، عن شيبـان ، عن قتـادة : ﴿ إنَّ علينَا للهـدىٰ ﴾ ، علينا بيـان حلالـه وحرامـه ، وطاعتـه ومعصيتـه ، وكـذلـك رواه ابن أبي حـاتم في تفسير سعيـد ، عن قتادة في قـولـه : ﴿ إنَّ علينَـا للهـدىٰ ﴾ ، يقـول : عـلى الله البيان ـ بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

لكن قتـادة ذكـر أنـه البيـان الـذي أرسـل الله بـه رسله وأنـزل بـه كتبـه ، فتبـين بـه حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

وأمـا الثعلبي ، والواحـدي ، والبغوي ، وغيـرهـم ، فذكـروا القولـين وزادوا أقوالا آخـر . فقالوا ـ واللفظ للبغوي : ـ

---

(١) أي الـذي تقدم ، وهـو قولـه : ويحتمل أن يكـون المعنى أن من سلك السبيل القـاصد فعلى الله طـريقـه ، والى ذلـك مصيره ، فيكـون هذا مثل قوله : ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ الخ .

(٢) أي بآية النحل .

﴿ إنَّ علينَـا للهـدىٰ ﴾ ، يعني البيـان ، قـال الـزجـاج : علينـا أن نبـين طـريق الهـدى من طريق الضلالة . وهو قول قتادة ، قال : على الله بيان حلاله وحرامه .

وقـال القراء : يعني من سلك الهـدى فعلى الله سبيله ، كقـولـه تعـالى : ﴿ وعلىٰ اللهِ قصدُ السبيلِ ﴾ ، يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد .

قال : « وقيل معناه ان علينا للهدى والاضلال ، كقوله ، بيدك الخير » .

(قلت) : هـذا القول هـو من الأقـوال المحـدثـة التي لم تعـرف عن السلف ، وكـذلـك مـا اشبهـه . فانهم قـالوا : « معنـاه بيـدك الخير والشـر ، والنبي ﷺ في الحـديث الصحيـح يقـول : والخير بيديك ، والشر ليس اليك »[1] .

والله تعـالى خـالق كـل شيء ـ لايكـون في ملكـه الا مـا يشـاء ـ والقـدر حق ، لكن فهم القرآن ، ووضع كـل شيء موضعـه ، وبيان حكمـة الرب وعـدله مـع الايمان بـالقدر ، هـو طريق الصحابة والتابعين لهم باحسان .

(ذكر المهدوي ثلاثة أقوال) .

---

(١) هـو من جملة ما كـان النبي ﷺ يدعـو به في الاستفتـاح من صلوة الليل ، كمـا أخرجـه مسلم في باب الـدعاء في صلوة الليـل وقيـامـة ، وأصحـاب السنن ، من حـديث علي بن أبي طـالب ، أولـه « وجهت وجهي للذي » الـخ » ولفظ مسلم « والخيـر كله في يـديـك ، والشر ليس اليك » .

وقد شرح الشيخ ابن القيم هذا الموضوع حيث قال :

فـان الشر لا يـدخل في شيء من صفـاته ولا في افعـاله كمـا لا يلحق ذاته تبـارك وتعـالى . ومـا يفعله من العـدل بعبـاده وعقـوبـة من يستحق العقـوبـة منهم هـو خير محض ، وانما يكـون شـرا بـالنسبـة اليهم . فإن الشـر وقـع في تعلقـه بهم وقيـامـه بهم ، لا في فعله القـائم به تعـالى ، وان ما هـو شر أو متضمن للشـر فانـه لا يكون الا مفعـولا منفصلا ، لا يكـون وصفـا لـه ولا فعلا من أفعـالـه . وكـونـه شـرا هـو أمـر نسبي اضـافي . فهـو خيـر من جهـة تعلق فعـل الـرب وتكـوينـه بـه ، وشـر من جهـة نسبتـه الى من هـو شـر في حقـه ، كـالحكم بقطع يـد السارق ، فقطعها شـر بالنسبـة اليه ، وخيـر محض بـالنسبـة الى عمـوم النـاس ، وكـالحكم بقتـل من يصـول على النـاس في دمائهم وحـرماتهم . فقتله خيـر محض واحسان الى العبيـد وشر بـالنسبـة الى الصـائـل البـاغي . فـالشـر وأمـا مـا نسب الى الـرب منها من المشيئـة والارادة والفعل فهـو عين الخير والحكمـة ، فهو محمـود على حكمة مـا قام بـه من تلك العقوبـة ، بذلـك وأمره بـه .

وكـذلك لله سبحـانه في قضـائه وقـدره لما يبغضـه ويسخطه لـذاته من الشـر ـ كظهـور المعاصي والـذنـوب وكخلق ابليس الـذي هـو مصـدر كل شـر في العالم ـ من الآيـات والحكم ما يشهـده أولو البصـائر . فـان هذه المكروهـات وسيلة الى محاب كثيـرة للرب تعـالى تـرتيت على خلقها ،وجودها أحب اليه من عـدمها ، ولكن تضيق عقـول أكثر الناس عن معرفـة مبادىء حكمـة الله البالغة في خلق الشر ومشيئتـه فضـلا عن حقيقتهـا . فيكفيهم الايمـان المجمـل بـأن الله سبحـانـه هـو الغني الحميـد ، وفـاعـل الشـر لا يفعله الا لحـاجتـه المنـافية لفنـاه ، أو لنقصه وعيـه المنافي لحمـده . فيستحيل صـدور الشر من الغني الحميـد فعلا وان كـان هو الخـالق للخير والشـر . وكما أنه سبحانه البـر الرحيم فهـو الحكيم العدل . فـلا تناقض حكمتـه رحمته ، بـل يضع رحمتـه وبره مـوضعه ويضـع عقوبتـه وعدلـه موضعه . وكلاهما مقتضى عـزته وحكمتـه ، وهو العـزيز الحكيم . واذا عـرف هذا معنى قـولـه ﷺ « والخيـر كله بيديـك ، والشر ليس اليك » فانه يتضمن تنزيهـه سبحـانـه في ذاته تبـارك وتعالى عن نسبـة الشر اليـه بوجـه ما ـ انتهى ملخصـا عن « بدائـع الفوائـد » ومدارج السالكين .

وقد ذكر المهدوي الأقوال الثلاثة ، فقال : ان علينا للهدى والضلال ، فحذف[1] قتادة المعنى : ان علينا بيان الحلال والحرام .

وقيل : المعنى ان علينا أن نهدي من سلك سبيل الهدى .

(قلت) : هذا هو قول الفراء ، لكن عبارة الفراء أبين في معرفة هذا القول .

فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل الا على الله . ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم . والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين .

وأما الثاني ، فقد يقول طائفة : ليس على الله شيء - لا بيان هذا ، ولا هذا ، فانهم متنازعون هل أوجب على نفسه ، كما قال : ﴿ كتبَ ربكُم علىٰ نفسهِ الرحمةَ ﴾ - (الأنعام ٦ : ٥٤) ، وقوله : ﴿ وكانَ حَقّاً علينا نصرُ المؤمنينَ ﴾ - (الروم ٢٠ : ٤٧) ، وقوله : ﴿ وما من دابّةٍ في الأرض الا علىٰ اللهِ رزقُها ﴾ - (هود ١١ : ٦) ؟ .

واذا كان عليه بيان الهدى من الضلال وبيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول : ان عليه ارسال الرسل ، وان ذلك واجب عليه ، فان البيان لا يحصل الا بهذا .

وهذا يتعلق بأصل آخر . وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبته مشيئته وحكمته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شاءه رجب وجوده وما لم يشأه امتنع وجوده . وبسط هذا له موضع آخر .

ودلالة الآيات على هذا فيها نظر .

وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعا ، وأنه أرشد بها الى (الطريق)[2] المستقيم ، وهي الطريق القصد ، وهي الهدى ، انما تدل عليه - وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه .

لكن نشأت الشبهة من كونه قال « علينا » بحرف الاستعلاء ، ولم يقل « الينا » والمعروف أن يقال لمن يشار اليه أن يقال « هذه الطريق الى فلان » . ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول « طريقنا على فلان » .

---

(١) الشيء تحذيفاً : أي أحسن صنعة ، كأنه حذف ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب ، فمعنى قول المهدوي أن قتادة حذف نسبة الله تعالى الى الاضلال كما في القول الاول .

(٢) محذوف بالأصل .

وذكر هذا المعنى بحرف الاستعلاء . وهو من محاسن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء .

فان الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم الى الله على أي طريق سلكوا ، كما قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الانسانُ انَّكَ كادحٌ إلىٰ ربّكَ كدحاً فملاقيهِ ﴾ ـ (الانشقاق ٨٤ ، ٦) وقال : ﴿ وإلىٰ اللهِ المصير ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ٢٨ النور ٢٤ : ٤٢ فاطر ٣٥ : ١٨) ، ﴿ ان الينا ايابهم ﴾ ـ (الغاشية ٨٨ : ٢٥) أي الينا مرجعهم ، وقال : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليلِ ويعلمُ ما جرَّحتُمْ بالنهارِ ثُمَّ يبعثكُمْ فيهِ ليقضي أجلٌ مسمىً ، ثُمَّ اليهِ مرجعكُمْ ثُمَّ ينبئكُمْ بما كنتُمْ تعملونَ * وهُوَ القاهرُ فوقَ عبادهِ ويرسِلُ عليكُمْ حفظةً ، حتىٰ اذا جاءَ أحدكُمْ الموتَ توفتهُ رسلنَا وهم لا يفرطونَ * ثم رُدُّوا الى اللهِ مولاهُم الحقّ ﴾ ـ (الانعام ٦ : ٦٠ ـ ٦٢) ، وقال : ﴿ أم لم ينبأ بِمَا في صحفِ موسىٰ * وابراهيمَ الذي وفَّى * ألا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ * وأن ليسَ للانسانِ إلَّا ما سعىٰ * وأن سعيهُ سوفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يجزيهِ الجزاءَ الأوفىٰ * وأنَّ إلىٰ ربّكَ المنتهىٰ ﴾ ـ (النجم ٥٣ : ٣٦ ـ ٤٢) ، وقال : ﴿ واما نرينكَ بعضَ الذي نعدهُمْ أو نتوفينكَ فالينَا مرجعهُمْ ثُمَّ الله شهيدٌ علىٰ ما يفعلونَ ﴾ ـ (يونس ١٠ : ٤٦) .

فأي سبيل سلكها العبد فالى الله مرجعه ومنتهاه ، لا بد له من لقاء الله ﴿ ليجزي الذينَ أساؤوا بما عمِلُوا ويجزِي الَّذينَ أحسنُوا بالحُسنىٰ ﴾ ـ (النجم ٥٣ : ٣١) .

وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي يسعد اصحابه ، وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته ، فيكون الله وليهم دون الشيطان وهذه سبيل من عبد الله وحده وأطاع رسله . فلهذا قال : ﴿ إنَّ علينَا للهدىٰ ﴾ . ﴿ وعلىٰ اللهِ قصدُ السبيلِ ﴾ ، ﴿ قالَ هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ ﴾ . فالهدى ، وقصد السبيل ، والصراط المستقيم ، انما يدل على عبادته وطاعته ـ يدل على معصيته وطاعة الشيطان .

فالكلام تضمن معنى « الدلالة » ، اذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة ، فان الجزاء يعم الخلق كلهم . بل المقصود بيان ما امر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله ـ ما الذي يدل على ذلك ؟ فكأنه قيل : الصراط المستقيم يدل على الله ـ على عبادته وطاعته .

وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون « هذه الطريق على فلان » اذا كانت تدل

عليه ، وكان هو الغاية المقصود بها : وهذا غير كونها « عليه » بمعنى أن صاحبها يمر عليه .

وقد قيل :

هن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو على طريقها

وهو كما قال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله .

فالمقصود بالسبيل هو : الذي يدل ويوقع عليه ، كما يقال : ان سلكت هذه السبيل وقعت على المقصود، ونحو ذلك ، وكما يقال : « على الخبير سقطت » . فان الغاية المطلوبة اذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها ، ويرمى نفسه عليها .

وأيضاً ، فسالك طريق الله متوكل عليه ، فلا بد له من عبادته ومن التوكل عليه .

فاذا قيل « عليه الطريق المستقيم » تضمن أن سالكه عليه يتوكل . وعليه تدله الطريق ، وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط ، لا يعدل عن ذلك ، الى نحو ذلك من المعاني التي يدل عليها حرف الاستعلاء دون حرف الغاية .

وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم . فعليه الصراط المستقيم ، وهو على صراط مستقيم ـ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، والله أعلم .

آخر كلام شيخ الاسلام ابن تيمية

(فيما يتعلق بهذه السورة)

سورة التين (*)

فصل

(قوله : في أسفل سافلين)

وفي قوله : ﴿ أسفل سافلين ﴾ قولان . قيل : الهرم . وقيل : العذاب بعد الموت ، وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعاً . فانه جعله في أسفل سافلين الا المؤمنين . والناس نوعان فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين ، والمؤمن في عليين .

وأما القول الأول ففيه نظر . فانه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد الى أسفل سافلين . بل كثير من الكفار يموتون قبل الهرم ، وكثير من المؤمنين يهرم ، وان كان حال المؤمن في الهرم أحسن حالا من الكافر ، فكذلك في الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر . فجعل الرد الى أسفل سافلين في آخر العمر وتخصيصه بالكفار ضعيف .

ولهذا قال بعضهم ان الاستثناء منقطع على هذا القول ، وهو أيضاً ضعيف . فان المنقطع لا يكون في الموجب ، ولو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعى في أي استثناء شاء أنه منقطع . وأيضاً فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول ، والمؤمنون بعض نوع الانسان .

وقد فسر ذلك بعضهم - على القول الأول - بأن المؤمن يكتب له ما كان يعمله اذا عجز . قال ابراهيم النخعي : اذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب الله له ما كان يعمل ، وهو قوله : ﴿ فلهم أجرٌ غيرُ ممنون ﴾[1] . وقال ابن قتيبة : المعنى « الا الذين

(*) وجدت هذه السورة متداخلة من تفسير سورة العلق في ط الهند ، السعودية ، والأصل المخطوط . وافردتها مستقلة لعدم تعلقها بهذه السورة .

(1) أخرجه ابن جرير من تفسير الآية ، واختاره مع اختيار القول الأول أن معناه : ثم رددناه الى ارذل العمر . وقد رجح الشيخ ابن القيم القول الثاني في « أقسام القرآن » من عشرة أوجه ، وقد أحسن فيه وأجاد .

آمنوا » في وقت القوة والقدرة فانهم في حال الكبر غير منقوصين وان عجزوا عن الطاعات . فان الله يعلم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير ، فهو يجري لهم أجر ذلك[1] .

فيقال : وهذا أيضاً ثابت في حال الشباب اذا عجز الشاب لمرض أو سفر ، كما في الصحيحين عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : « اذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »[2] .

وفسره بعضهم بما روى عن ابن عباس أنه قال : من قرأ القرآن فانه لا يرد الى ارذل العمر[3] . فيقال : هذا مخصوص بقارىء القرآن ، والآية استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء قرأوا القرآن أو لم يقرأوه ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها »[4] .

وأيضا فيقال : هرم الحيوان ليس مخصوصا بالانسان ، بل غيره من الحيوان اذا كبر هرم .

وأيضاً ، فالشيخ وان ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب . ولو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا ردا الى أسفل سافلين . فانه سبحانه انما يصف الهرم بالضعف كقوله : ﴿ ثم جعلَ من بعدِ قوةٍ ضعفاً وشيبةً ﴾ - (الروم ٣٠ : ٥٤) ، وقوله : ﴿ ومن نعمرهُ ننكسهُ في الخلقِ ﴾ - (يس ٣٦ : ٦٨) . فهو يعيده الى حال الضعف . ومعلوم أن الطفل ليس هو في أسفل سافلين ، فالشيخ كذلك أولى .

وانما في أسفل سافلين من يكون في سجين ، لا في عليين ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ المنافقينَ في الدركِ الأسفلِ مِنَ النَّارِ ﴾ - (النساء ٤ : ١٤٥) .

ومما يبين ذلك قوله : ﴿ فما يكذبكَ بعدُ بالدِّينِ ﴾ - (التين ٩٥ : ٧) . فانه يقتضي ارتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء . ولو كان المذكور انما هو رده الى الهرم دون ما بعد

---

(١) ذكره ابن قتيبة في « القولين » لابن مطرف الكناني ، طبعة الخانجي سنة ١٣٥٥ هـ ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ، باب يكتب للمسافر ما كان يعمل في الأقامة ، ولفظه « كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا » . ولم يخرجه مسلم ، بل أخرجه أبو داود في الجنائز ، ولفظه « اذا كان العبد يعمل عملا صالحا فشغله عنه مرض أو سفر كتب له كصالح ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » .

(٣) روى ذلك ابن جرير عن عكرمة في تفسير قوله : ﴿ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

(٤) أخرجه الجماعة من حديث أنس بن مالك ، عن أبي موسى الأشعري . والمقصود من الحديث بيان أن من المؤمنين من يقرأ القرآن ، ومنهم من لا يقرأ .

الموت لم يكن هناك تعرض الدين والجزاء ، بخلاف ما اذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد الى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح . فان هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت فيكرم المؤمنين ويهين الكافرين .

وأيضا ، فانه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة - بالتين والزيتون ، وطور سنين ، وهذا البلد الأمين . وهي المواضع التي جاء منها محمد ، والمسيح ، وموسى ، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين[1] .

وهذا الاقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد ، بل على الأمور الغائبة التي تؤكد بالأقسام . فان اقسام الله هو على أنباء الغيب .

وفي نفس المقسم به - وهو ارسال هؤلاء الرسل - تحقيق للمقسم عليه - وهو الثواب والعقاب بعد الموت - لأن الرسل أخبروا به[1] .

وهو يتضمن أيضاً الجزاء في الدنيا ، كاهلاك من أهلكهم من الكفار . فانه ردهم الى أسفل سافلين بهلاكهم في الدنيا . وهو تنبيه على زوال النعم اذا حصلت المعاصي ، كمن رد في الدنيا الى أسفل جزاء على ذنوبه .

وقوله : ﴿ فما يكّذبك بعدُ الدِّينِ ﴾ - أي بالجزاء - يتناول جزاءه على الأعمال في الدنيا والبرزخ ، والآخرة . اذا كان قد أقسم بأماكن هؤلاء المرسلين الذين أرسلوا بالآيات البينات الدالة على أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده - مبشرين لأهل الايمان ، منذرين لأهل الكفر . وقد أقسم بذلك على أن الانسان بعد أن جعل في أحسن تقويم ان آمن وعمل صالحا كان له أجر غير ممنون ، والا كان في أسفل سافلين .

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله : فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين والمعروفتين ومنبتهما ، وهو أرض بيت المقدس . وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم . كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى « فانه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه ، وأرسله الى فرعون وقومه . ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة - مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم . وترقى في هذا القسم من الفاضل الى الأفضل ، فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم ، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه - اهـ .

(٢) قال ابن القيم في « أقسام القرآن » : وأقسم بها على بداية الانسان ونهايته ، فقال ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ ، أي في أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الخلقه ، كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه . والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل . وذلك صنعته - تبارك وتعالى - في قبضة من تراب ، وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء . وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته ، وحكمته، وعلمه وصفات كماله . ولهذا يكررها كثيرا في القرآن لمكان العبرة بها ، والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد . وتضمن اقسامه بتلك الامكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه - يعرفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم الى كرامته وثوابه - ١ هـ .

فتضمن السورة بيان ما بعث به هؤلاء الرسل الذين أقسم بأماكنهم . والاقسام بمواضع محنهم تعظيم لهم . فان موضع الانسان اذا عظم لأجله كان هو أحق التعظيم . ولهذا يقال في الكاتبات « الى المجلس ، والمقر ـ ونحو ذلك ـ السامي ، والعالي » ويذكر بخضوع له وتعظيم والمراد صاحبه .

فلما قال : ﴿ فما يكذبكَ بعدُ بالدِّينِ ﴾ دل على أن ما تقدم قد بين فيه ما يمنع التكذيب بالدين .

وفي قوله : ﴿ يكذبك ﴾ قولان . قيل : هو خطاب للانسان ، كما قال مجاهد وعكرمة ، ومقاتل ، ولم يذكر البغوي غيره . قال عكرمة ، يقول : فما يكذبك بعد بهذه الأشياء التي فعلت بك . وعن مقاتل : فما الذي يجعلك مكذبا بالجزاء ، وزعم أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة .

والثاني أنه خطاب للرسول ، وهذا أظهر . فان الانسان انما ذكر مخبراً عنه ـ لم يخاطب . والرسول هو الذي أنزل عليه القرآن ، والخطاب في هذه السور له ، كقوله : ﴿ ما ودَّعكَ ربّكَ وما قلىٰ ﴾ ، وقوله : ﴿ ألم نشرح لكَ صدركَ ﴾ ، وقوله : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ .

والانسان اذا خوطب قيل له : ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ، ﴿ يا أيها الانسانُ انَّكَ كادحٌ الىٰ ربّكَ كدحاً ﴾ .

وأيضاً فبتقدير أن يكون خطابا للانسان يجب أن يكون خطابا للجنس ، كقوله : ﴿ يا أيها الانسان أنك كادح ﴾ . وعلى قول هؤلاء انما هو خطاب للكافر خاصة ـ المكذب بالدين .

وأيضاً . فان قوله : ﴿ يكذبك بالدين ﴾ ، أي يجعلك كاذبا ، هذا هو المعروف من لغة العرب . فان استعمال « كذب غيره ، أي نسبه الى الكذب وجعله كاذبا » مشهور ، والقرآن مملوء من هذا . وحيث ذكر الله تكذيب المكذبين للرسل ، أو التكذيب بالحق ونحو ذلك ، فهذا مراده .

لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال : ﴿ يكذبك بالدين ﴾ . فذكر المكذب بالدين ـ فذكر المكذب والمكذب به جميعا[1] . وهذا قليل ـ جاء نظيره في قوله : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ ـ (الفرقان ٢٥ : ١٩) . فأما أكثر المواضع فانما يذكر أحدهما ـ اما المكذب ، كقوله : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ ، واما المكذب به ، كقوله : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ . وأما الجمع بين ذكر المكذب والمكذب به فقليل .

---

(١) وسيأتي البيان في آخر تفسير هذه السورة أنها جمعت أيضا بين الرسول المكذب والدين المكذب به جميعا .

ومن هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للانسان ، وفسر معنى قوله : ﴿ فما يكذبك ﴾ : فما يجعلك مكذبا[1] .

وعبارة آخرين : فما يجعلك كذابا . قال ابن عطية : وقال جمهور من المفسرين : المخاطب الانسان الكافر ، أي ما[2] الذي يجعلك كذابا بالدين - تجعل لله أندادا ، وتزعم أنه لا بعث - بعد هذه الدلائل ؟

(قلت) : وكلا القولين غير معروف في لغة العرب ، أن يقول : « كذبك ، أي جعلك مكذبا » ، بل « كذبك : جعلك كذابا » .

وما قيل : « جعلك كاذبا » ، أي كاذبا فيما يخبر به كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم . وهذا يقول : جعلك كاذبا بالدين ، فجعل كذبه أنه أشرك وأنه أنكر المعاد ، وهذا ضد الذي ينكر .

ذاك جعله مكذبا بالدين ، وهذا جعله كاذبا بالدين . والأول فاسد من جهة العربية ، والثاني فاسد من جهة المعنى . فان الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر . والكافر كذب به ، لم يكذب هو به .

وأيضاً ، فلا يعرف في الخبر أن يقال : « كذبت به » ، بل يقال : « كذبته » .

وأيضاً ، فالمعروف في « كذبه » ، أي نسبه الى الكذب ، لا أنه جعل الكذب فيه . فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة ، بل المعروف خلافه . وهو لم يقل « فما يكذبك » ، ولا قال « فما كذبك » .

ولهذا كان علماء العربية على القول الثاني[3] . قال ابن عطية : واختلف في المخاطب بقوله : ﴿ فما يكذبك ﴾ ، فقال قتادة ، والفراء ، والأخفش : هو محمد ﷺ قال الله له : « فما

---

(١) لله در المصنف ، فانه قد وضع اصبعه على موضع الشبهه بعينها ! ومن الغريب أنه وقع فيها الشيخ ابن القيم رحمه الله . فقال في « أقسام القرآن » أولا : وقوله : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين » ، أصح القولين أن هذا خطاب للانسان . وقال ثانياً : فمن جعل « ما » بمعنى « أي شيء » تعين على قوله أن يكون خطاب للانسان ، أي فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبا بالدين . وثالثاً أورد أشكالاً على من جعل الخطاب للرسول قائلا : ان الجار والمجرور يستدعي متعلقا ، وهو « يكذبك » . أي فمن يكذبك بالدين ؟ فلا يخلو اما أن يكون المعنى : فمن يجعلك كاذبا بالدين ، أو مكذبا به ؟ ولا يصح واحد منهما انتهى ملخصا . ومن هنا يتبين الفرق بين الشيخ وتلميذه ، وفي قوله هذا دليل على أنه لم يطلع على هذا التفسير . وكذلك الحافظ ابن كثير جعل الخطاب للانسان فقال : « فما يكذبك » أي يا ابن آدم (بعد بالدين) .

(٢) في الأصل (أما) ، والظاهر أنه تحريف .

(٣) في الأصل : الأول وهو خطأ ، والصواب ينبغي أن يكون « على القول الثاني » ، أي القول بأنه خطاب للرسول ، كما سماه القول الثاني أولا ، وهو الذي عناه ههنا . وهو سهو من الناسخ .

الـذي يكذبـك فيما تخبـر به من الجـزاء والبعث ـ وهو الـدين ـ بعـد هـذه العبـرة التي يـوجب النـظر فيها صحة ما قلت » ؟ .

قال : ويحتمل أن يكون على هذا التأويل جميع شرعه ودينه .

(قلت) : وعـلى أن المخـاطب محمـد ﷺ في المعنى قـولان . أحـدهمـا قـول قتـادة ، قـال : ﴿ فـما يكذبـك بعـد بالدين ﴾ ، أي استيقن ، فقـد جـاءك البيـان من الله . وهكـذا رواه عنـه ابن أبي حاتم باسناد ثابت .

وكذلك ذكـره المهدوي : ﴿ فـما يكذبـك بعد بـالدين ﴾ ، أي استيقن مـع ما جـاءك من الله أنـه أحكم الحاكمـين . فالخـطاب للنبي ﷺ ، وقال : معناه عن قتادة . قـال وقيـل المعنى : فـما يكـذبك أيهـا الشـاك ـ يعني الكفـار ـ في قدرة الله أي شيء يحملك عـلى ذلك بعـد مـا تبـين لـك من قدرته ؟ قال : وقال الفراء : فمن يكذبك بالثواب والعقاب ؟ وهو اختيار الطبري .

(قلت) : هـذا القـول المنقـول عن قتـادة هــو الـذي أوجب نفـور مجـاهــد عن أن يكـون الخـطاب للنبي ﷺ ، كما روى النـاس ـ ومنهم ابن أبي حاتم ، عن الثـوري : عن منصـور قـال : قلت لمجـاهـد : ﴿ فـما يكـذبـك بعـد بـالـدين ﴾ عني بـه النبي ﷺ ؟ قـال : معــاذ الله عنى بـه الانسان .

وقـد أحسن مجاهـد في تنزيـه النبي ﷺ أن يقـال لـه ﴿ فـما يكـذبـك ﴾ ، أي استيقن ، ولا تكـذب . فانـه لو قيـل له « لا تكـذب » لكان هـذا من جنس أمره بـالايمـان والتقـوى ، ونهيـه عـما نهى الله عنه . وأما اذا قيـل : ﴿ فما يكـذبك بعـد بالـدين ﴾ فهو لم يكـذب بالـدين ، بل هـو الذي أخبـر بالـدين وصدق بـه ، لهو ﴿ الـذي جَاءَ بـالصدقِ وصـدَّقَ بـهِ ﴾ ـ (الـزمـر ٣٩ : ٣٣) . فكيف يقال له : ﴿ ما يكّذبكَ بعدُ بالدِّينِ ﴾ ؟ فهذا القول فاسد لفظا ومعنى .

واللفظ الـذي رأيته مقـولا بالاسنـاد عن قتادة ليس صـريحا فيـه ، بـل يحتمـل أن يكـون أراد بـه خطاب الانسـان . فانـه قال : ﴿ فـما يكذبـك بعد بـالـدين ﴾ ، قـال : « استيقن فقـد جـاءك البيان » . وكل انسان مخاطب بهذا . فان كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح .

لكن هم حكـوا عنه أن هـذا خـطاب للرسـول ﷺ ، وعـلى هـذا فهـذا المعنى بـاطـل . فـلا يقـال للرسول « فـأي شيء يجعلك مكـذبـا بـالـدين » ؟ وان ارتـأت[1] بـه النفس ، لأن هـذا فيـه دلائل تدل على فساده . ولهذا استعاذ منه مجاهد .

والصـواب ما قـاله الفـراء ، والأخفش ، وغيرهمـا . وهو الـذي اختاره أبـو جعفر محمـدابن جرير الطبري ، وغيره من العلماء كما تقدم .

---

(١) في الأصل ما صورته هكذا باهمال أكثر النقط « وان ارتاب به النفس لين » .

وكذلك ذكره أبو الفرج بن الجوزي عن الفراء ، فقال : انه خطاب للنبي ﷺ ، والمعنى : فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له أنا خلقنا الانسان على ما وصفنا ، قاله الفراء .

قال[1] : وأما الدين فهو الجزاء . (قلت) : وكذلك قل غير واحد ، كما روى ابن أبي حاتم عن النضر بن عربي : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ ، أي بالحساب .

ومن تفسير العوفي عن ابن عباس : أي بحكم الله . قلت : قال « بحكم الله » لقوله ﴿ أليسَ الله بأحكمِ الحاكمينَ ﴾ ، وهو سبحانه يحكم بين المصدق بالدين والمكذب به .

وعلى هذا ، قوله ﴿ فما ﴾ وصف للأشخاص . ولم يقل « فمن » ، لأن « ما » يراد به الصفات دون الأعيان ، وهو المقصود ، كقوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ، وقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، وقوله : ﴿ ونفس وما سواها ﴾ . كأنه قيل : فما المكذب بالدين بعد هذا ؟ أي من هذه صفته ونعته هو جاهل ظالم لنفسه ، والله يحكم بين عباده فيما يختلفون فيه من هذا النبأ العظيم .

وقوله : ﴿ بعد ﴾ قد قيل انه (بعد ما ذكر من دلائل الدين) .

وقد يقال : لم يذكر الا الاخبار به ، وأن الناس نوعان في أسفل سافلين ، ونوع لهم أجر غير ممنون ؟ فقد ذكر البشارة والنذارة ، والرسل بعثوا مبشرين ومنذرين .

فمن كذبك بعد هذا فحكمة الى الله أحكم الحاكمين وأنت قد بلغت ما وجب عليك تبليغه .

وقوله : ﴿ فما يكذبك ﴾ ليس نفيا للتكذيب ، فقد وقع . بل قد يقال انه تعجب منه ، كما قال : ﴿ وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولهم إذا كنَّا ترابا إنَّا لفي خلقٍ جديدٍ ﴾ - (الرعد ١٣ : ٥) .

وقد يقال ان هذا تحقير لشأنه وتصغير لقدره لجهله وظلمه ، كما يقال « من فلان » ؟ ، و « من يقول هذا الا جاهل » ؟ . لكنه ذكر بصيغة « ما » ، فانها تدل على صفته ، وهي المقصودة ، اذ لا غرض في عينه . كأنه قيل « فأي صنف وأي جاهل يكذبك بعد بالدين ؟ فانه من الذين يردون الى أسفل سافلين » .

وقوله : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ يدل على أنه الحاكم بين المكذب بالدين والمؤمن به . والأمر في ذلك له سبحانه وتعالى .

---

(١) أي قال أبو الفرج بن الجوزي .

والقرآن لا تنقضي عجائبه . والله سبحانه بين مراده بيانا أحكمه ، لكن الاشتباه يقع على من لم يرسخ في علم الدلائل الدالة . فان هذه السورة وغيرها فيها عجائب لا تنقضى .

منها أن قوله : ﴿ فما يكَذبكَ بعدُ بالدِّينِ ﴾ ذُكِر فيه الرسول المكذب والدين المكذب به جميعاً[1] . فان السورة تضمنت الأمرين . تضمنت الاقسام بأماكن الرسل المبينة لعظمتهم ، وما أتوا به من الآيات الدالة على دقهم الموجبة للايمان . وهم قد أخبروا بالمعاد المذكور في هذه السورة .

وقد أقسم الله عليه كما يقسم عليه في غير موضع ، وكما أمر نبيه أن يقسم عليه في مثل قوله : ﴿ زَعَمَ الَّذينَ كفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بلَى وربِّي لَتُبعثُنَّ ﴾ - (التغابن ٦٤ : ٧) ، وقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بلى وربي[2] لتأتينكم ﴾ - (سبأ ٣٤ : ٣) .

فلما تضمنت هذا وهذا ذكر نوعي التكذيب ، فقال : ﴿ فما يكَذبكَ بعدُ بالدِّينِ ﴾ ، والله سبحانه أعلم .

وأيضا ، فانه لا ذنب له في ذلك[3] ، والقرآن مراده أن يبين أن هذا الرد جزاء على ذنوبه . ولهذا قال : ﴿ إلَّا الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ ﴾ ، كما قال : ﴿ ان الانسانَ لفي خسرٍ . إلَّا الَّذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ وتواصُوا بالحقِّ وتواصُوا بالصبرِ ﴾ - (العصر ١٠٣ : ٢ و٣) .

لكن هنا ذكر الخسر فقط ، فوصف المستثنين بأنه تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر مع الايمان والصلاح . وهناك ذكر أسفل سافلين ، وهو العذاب ، والمؤمن المصلح لا يعذب ، وان كان قد ضيع أمورا خسرها - لو حفظها لكان رابحا غير خاسر . وبسط له موضع آخر[4] .

---

(١) وقد تقدم التنبيه على أن الآية قد جمعت بين المكذب والمكذب به .

(٢) كتب الناسخ هذه العبارة مرة ثانية على الهامش ، وهي قوله : (لتبعثن ، وقوله وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي) .

(٣) قوله « فانه لا ذنب له في ذلك » ، يعني بذلك أن نفس التكذيب بالدين ليس فيه ارتكاب للذنب ، ولكنه سبب لارتكاب الذنوب ولعمل السيآت ، وذلك ضد عمل الصالحات . فنبه بقوله : ﴿ عملوا الصالحات ﴾ على كون المكذبين بالدين يهملون السيآت ، وهي الذنوب ، فيردون الى أسفل السافلين جزاء على ذنوبهم ، والله أعلم .

(٤) قد بسط الشيخ ابن القيم في تفسير سورة العصر من « أقسام القرآن » ، فقال : وتأمل حكمة القرآن لما قال : ﴿ ان الانسان لفي خسر ﴾ فانه ضيق الاستثناء وخصصه ، فقال : ﴿ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ . ولما قال : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ وسع الاستثناء وعممه ، فقال : ﴿ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ولم يقل ﴿ وتوصوا ﴾ . فان التواصي هو أمر الغير بالايمان والعمل الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله . فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح .

والمقصود هنا أنه سبحانه يذكر خلق الانسان مجملا ومفصلا .

وتارة يذكر احياءه ، كقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرونَ بالله وكنتُم أمواتاً فأحياكُمْ ، ثُمَّ يميتكُمْ ثم يحييكُمْ ثُمَّ اليهِ تُرجعونَ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٨) . وهو كقول الخليل عليه السلام : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٥٨) .

فان خلق الحيوة ولوازمها وملزوماتها أعظم وأدل على القدرة ، والنعمة ، والحكمة .

(آخر كلام الشيخ على سورة : والتين)

فصار في خسر ، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين . فهؤلاء اذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به ، وان كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم . فمطلق الخسار شيء ، والخسار المطلق شيء - انتهى ملخصا .

تفسير سورة العلق(*)

(١) فصـــــل

فــــي

بيان أن الرسول ﷺ أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين ـ
وهي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع وتوحيده ، وصدق
رسوله ﷺ ، وعلى المعاد امكاناً ووقوعاً .

وقد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غير مرة ، وأن الرسول ﷺ بين الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس الى دينهم ، وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وان الذين ابتدعوا أصولاً تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم ، لا أصول دينه . وهي باطلة عقلاً وسمعاً ، كما قد بسط في غير موضع ، وبين أن كثيراً من المنتسبين الى العلم والدين قاصرون أو مقتصرون في معرفة ما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية[1] .

فطائفة قد ابتدعت أصولا تخالف ما جاء به من هذا وهذا[2] .

وطائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه ، وصاروا ينتسبون الى السنة لسلامتهم من بدعه أولئك . ولكن هم مع ذلك لم يتبعوا السنة على وجهها . ولا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية . بل الذي يخبر به من السمعيات مما يخبر به عن ربه وعن اليوم الآخر غايتهم أن يؤمنوا بلفظه من غير تصور لما أخبر به . بل قد يقولون مع هذا : أنه نفسه لم يكن يعلم

(*) هذه السورة طبعت بالهند والسعودية واعتمدنا الأصل المخطوط مع تعليقات طبعة الهند .

(١) من أهم ما قام به المصنف رحمه الله طول حياته المملوءة جهادا مستمرا بيان هذا الأصل العظيم ، حتى أن تجرد له بتصنيف ضخم مستقل سماه « درء تعارض العقل والنقل » المعروف بـ « بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » المطبوع على هامش « منهاج السنة » في ٤ أجزاء ، طبع مصر سنة ١٣٢٢هـ. وطبع أخيراً بتحقيق علمي ممتاز قام به دكتور محمد رشاد سالم .

(٢) قوله : « من هذا وهذا » . أي من الدلائل العقلية ، ومن الدلائل السمعية .

معنى ما أخبر به ، لأن ذلك عندهم هو تأويل المتشابه الذي لا يعلمها الا الله .

وأما الادلة العقلية فقد لا يتصورون أنه أتى بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به ، كالأدلة الدالة على التوحيد والصفات . ومنهم من يقر بأنه جاء بهذا ـ مجملا ، ولا يعرف أدلته . بل قد يظن أن ما يستدل به ـ كالاستدلال بخلق الانسان على حدوث جواهره [1] ـ هو دليل الرسول .

وكثير من هؤلاء يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل ، كالمعاد ، وحسن التوحيد والعدل والصدق ، وقبح الشرك والظلم والكذب . والقرآن يبين الأدلة العقلية الدالة على ذلك ، وينكر على من لم يستدل بها . ويبين أنه بالعقل يعرف المعاد ، وحسن عبادته وحده ، وحسن شكره ، وقبح الشرك ، وكفر نعمه ، كما قد بسطت الكلام على ذلك في مواضع .

وكثير من الناس يكون هذا في فطرته وهو ينكر تحسين العقل وتقبيحه اذا صنف في أصول الدين على طريقة النفاة الجبرية ـ اتباع جهم . وهذا موجود في عامة ما يقوله المبطلون يقولون بفطرتهم ما يناقض ما يقولونه في اعتقادهم البدعي .

وقد ذكر أبو عبد الله[2] ـ ابن الجد الأعلى ـ أنه سمع أبا الفرج بن الجوزي ينشد في مجلس وعظه البيتين المعروفين :

هب ، البعث لم تأتنا رسله ... وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق ... حياء العباد من المنعم

فقد صرح في هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم . وهذا تصريح بأن شكره واجب مستحق ولو لم يكن وعيد ، ولا رسالة أخبرت بجزاء ـ وهو يبين

---

(١) هو موضوع الفصل الثاني من تفسير سورة العلق وقد بسط المصنف الكلام عليه هنالك .

(٢) سيأتي بسط الكلام عليه في الفصل الثامن من تفسير العلق : « بيان كون معرفة الرب فطرية » .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله المعروف بابن تيمية ، فخر الدين ، الخطيب الواعظ الفقيه الحنبلي ، ولد سنة ٥٤٢ هـ بحران . شرع في الاشتغال بالعلم من صغره ، ثم ارتحل الى بغداد وسمع من علمائها . ولازم ابن الجوزي وقرأ عليه تفسيره المسمى « زاد المسير في التفسير » قراءة بحث وفهم . ثم أخذ في التدريس والوعظ والتصنيف والقاء التفسير بكره كل يوم بجامع حران ، واظب على ذلك حتى فسر القرآن العظيم خمس مرات . وله تصانيف كثيرة ، منها التفسير الكبير في أكثر من ثلاثين مجلدا ، وله ديوان خطب مشهور سلك فيها مسلك ابن نباتة . توفي بحران سنة ٦٢٢ هـ تاريخ ابن خلكان ، وشذرات الذهب .

وأبوه ـ أبو القاسم الخضر بن محمد ـ يجتمع فيه الرابع من آباء المصنف (فانه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر ، ولذلك سماه « ابن الجد الأعلى » وسيأتي ذكره في موضعين من الفصل الخامس عشر من تفسير العلق أيضاً .

ثبوت الوجوب والاستحقاق وان قدر أنه لا عذاب[١] .

وهذا فيه نزاع قد ذكرناه في غير هذا الموضع،وبينا أن هذا هو الصحيح. ونتيجة فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي كان فيها وان كان لا يعاقب بالضرر .

ويبين أن الوجوب والاستحقاق يعلم بالبديهة . فتارك الواجب وفاعل القبيح وان لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم وأسبابه مايكون جزاءه . وهذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها ـ أن يسلبها . فالشكر قيد النعم ، وهو موجب للمزيد . والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب ، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد .

مع أنه لا بد من ارسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب ، فانه ما ثم دار الا الجنة أو النار . قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الانسانَ في أحسنِ تقويمٍ . ثُمَّ رددناهُ أسفلَ سافِلينَ . إلَّا الَّذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ فلهُمْ أجرٌ غيرُ ممنونٍ ﴾ ـ (التين ٩٥ : ٤ ـ ٦) . وهذا مبسوط في مواضع[٢] .

والمقصود هنا أن بيان هذه الأصول وقع في أول ما أنزل من القرآن . فان أول ما أنزل من القرآن « اقرأ باسم ربك » عند جماهير العلماء . وقيل قيل ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ، روى ذلك عن جابر والأول أصح . فان (ما)[٣] في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ـ نزلت عليه وهو غار حراء ، وأن « المدثر » نزلت بعد .

وهذا هو الذي ينبغي . فان قوله : ﴿ اقرأ ﴾ أمر بالقراءة ، لا بتبليغ الرسالة ، وبذلك صار نبياً . وقوله : ﴿ قم فأنذر ﴾ أمر بالانذار ، وبذلك صار رسولاً منذرا .

ففي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة ، عن عائشة قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤ يا الصادقة في النوم . فكان لا يرى رؤ يا الا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب اليه الخلاء فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى اهله ويتزود لذلك . ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء .

---

(١) كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صهيب بن سنان الرومي رضي الله : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . وقد أورد العلامة ابن القيم رحمه الله البيتين وبسط هذا الموضوع ـ وهو استحقاق الله المحبة والعبادة ولو لا ثواب ولا عقاب ـ بسطا يبهج القلوب ، ويشرح الصدور ، ويطرب الأرواح والنفوس ، في الوجه الثامن والأربعين من وجوه اثبات الحسن والقبح العقلين من كتاب « مفتاح دار السعادة » ج ٢ ص ٩٢ ـ ٩٦ ، الطبعة الاولى .

(٢) سيأتي بسط المصنف لذلك في الكلام على تفسير سورة التين اثناء الفصل الرابع من تفسير العلق .

(٣) لفظ ما ليس بالأصل .

فجاءه الملك فقال : « اقرأ » .

قال : « ما أنا بقارىء » .

قال : فأخذني فغطني حتى بلغ منى الجهد ، ثم ارسلني فقال : « اقرأ » .

فقلت : « ما أنا بقارىء » .

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : « اقرأ » .

فقلت : « ما أنا بقارىء » .

فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم ﴾ ـ (العلق ٩٦ : ١ ـ ٥) .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني ، زملوني » . (فزملوه) حتى ذهب عنه الروع

فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ « لقد خشيت على نفسي »[1] .

فقالت له خديجة : « كلا ! والله ، لا يخزيك الله أبدا ـ انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ـ ابن عم خديجة . وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبري ، فيكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى .

فقالت له خديجة : « يا ابن عم اسمع من ابن أخيك » .

فقال له ورقة : « يا ابن أخي ! ماذا ترى » ؟ .

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى . يا ليتني فيها جذعاً[2] ـ ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك » ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « أو مخرجي هم » ؟ .

قال : « نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به الا عودي . وان يدركني يومك أنصرك نصر مؤ زرا » .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ، وفي التفسير ، وغيرهما ، ومسلم في الايمان .

(٢) أخرج الحديثين البخاري في بدء الوحي ، وفي التفسير ، وغيرهما ، ومسلم في الايمان ، والترمذي في التفسير .

ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحي .

قال ابن شهاب الزهري . سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن ، قال أخبرني جابر ابن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي : « فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت بصري قبل السماء ، فاذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجئث حتى هويت الى الأرض . فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني ، فزملوني . فأنزل الله تعالى ﴿ يا أَيُّها المدثرِ . قُمْ فأَنذِرْ - الى قوله - والرِجزَ فاهجُرْ ﴾ - (المدثر ٧٤ : ١ - ٥) .

فهذا يبين أن « المدثر » نزلت بعد تلك الفترة ، وأن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولاً . فكان قد رأى الملك مرتين .

وهذا يفسر حديث جابر الذي روى من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير ، قال : سألت أبا سلمى بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن . قال : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ . قلت : يقولون ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ . فقال أبو سلمى : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك (و) قلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لا أحدثك الا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً . فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت ، دثروني وصبوا علي ماء باردا ، فدثروني وصبوا علي ماء بارداً » . قال : « فنزلت أيّها المدثّر . قم فأنذِرْ . وربَّكَ فكبّرْ ﴾ » .

فهذا الحديث يوافق المتقدم ، وأن « المدثر » نزلت بعد أن هبط من الجبل وهو يمشي ، وبعد أن ناداه الملك حينئذ . وقد بين في الرواية الأخرى أن هذا الملك هو الذي جاءه بحراء ، وقد بينت عائشة أن ﴿ اقرأ ﴾ نزلت حينئذ في غار حراء . لكن كأنه لم يكن علم أن ﴿ اقرأ ﴾ نزلت حينئذ ، بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك ، وقد يراه ولا يسمع منه . لكن في حديث عائشة زيادة علم ، وهو أمره بقراءة ﴿ اقرأ ﴾ .

وفي حديث الزهري أنه سمى هذا « فترة الوحي » ، وكذلك في حديث عائشة « فترة الوحي » . فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى ، وسمى ما بين الرؤ يتين « فترة الوحي » كما بينته عائشة ، والا فان كان جابر سماه « فترة الوحي » فكيف يقول ان الوحي لم يكن نزل ؟

وبكل حال فالزهري عنده حديث عروة ، عن عائشة ، وحديث أبي سلمى ، عن جابر وهو أوسع علما وأحفظ من يحيى بن أبي كثير لو اختلفا . لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمى عن الأولى فأخبر جابر بعلمه ولم يكن علم ما نزل قبل ذلك ، وعائشة أثبتت وبينت .

والآيات - آيات ﴿ اقرأ ﴾ و ﴿ المدثر ﴾ - تبين ذلك[1] ، والحديثان متصادقان مع القرآن ومع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو المناسب .

واذا كان أول ما أنزل ﴿ اقرأ باسمِ ربّك الّذي خلقْ . خلقَ الانسانَ مِنْ علقٍ . اقرأ وربّكَ الأكرمْ . الذي علَّمَ بالقلمِ . علَّمَ الانسانَ ما لمْ يعلمْ ﴾ ففي الآية الأولى اثبات الخالق تعالى وكذلك في الثانية[2] .

أما الأولى فانه قال : ﴿ اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلق ﴾ ، ثم قال : ﴿ خلقَ الانسانَ من علق ﴾ . فذكر الخلق مطلقا ، ثم خص خلق الانسان أنه خلقه من علق . وهذا أمر معلوم لجميع الناس كلهم يعلمون ان الانسان يحدث في بطن امه ، وأنه يكون من علق .

وهؤلاء بنو آدم . وقوله : ﴿ الانسان ﴾ هو اسم جنس يتناول جميع الناس ، ولم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين . فان المقصود بهذه الآية بيان الدليل على الخالق تعالى ، والاستدلال انما يكون بمقدمات يعلمها المستدل . والمقصود بيان دلالة الناس وهدايتهم ، وهم كلهم يعلمون أن الناس يخلقون من العلق .

فأما خلق آدم من طين فذلك انما علم بخبر الأنبياء ، أو بدلائل آخر . ولهذا ينكره طائفة من الكفار - الدهرية وغيرهم - الذين لا يقرون بالنبوات[3] .

وهذا بخلاف ذكر خلقه في غير هذه السورة . فان ذاك ذكره لما تثبت النبوة ، وهذه السورة أول ما نزل ، وبها تثبت[4] النبوة . فلم يذكر فيها ما علم بالخبر ، بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل والمشاهدة ، والأخبار المتواترة لمن لم ير العلق .

وذكر سبحانه خلق الانسان من العلق . وهو جمع « علقة » وهي القطعة الصغيرة من الدم لأن ما قبل ذلك كان نطفة . والنطفة قد تسقط في غير الرحم كما يحتلم الانسان ، وقد تسقط في الرحم ثم يرميها الرحم قبل أن تصير علقة . فقد صار مبدأ لخلق الانسان ، وعلم أنها صارت علقة ليخلق منها الانسان .

وقد قال في سورة القيامة : ﴿ أَلَمْ يَكُ نطفةً مِنْ منيٍّ يُمْنىٰ . ثُمَّ كانَ علقةً فخلقَ

---

(١) كما تقدم بيان ذلك ، وهو قوله : فان قوله ﴿ اقرأ ﴾ امر بالقراءة ، لا بتبليغ الرسالة ، وبذلك صار نبياً . وقوله : ﴿ قم فأنذر ﴾ أمر بالانذار ، وبذلك صار رسولا منذرا .

(٢) الظاهر أن المراد بـ « الآية الأولى » قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق ﴾ ، و « بالثانية » قوله : ﴿ اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم ﴾ .

(٣) سيأتي تفصيله قريبا تحت عنوان « الاستدلال بتعليم الانسان ما لم يعلم على امكان النبوة » .

(٤) « تثبت » على البناء المجهول ويحتمل أن يكون « تثبت » بصيغة الماضي من الثلاثي على البناء للفاعل .

فسوّىٰ . فجعلَ منهُ الزوجينِ الذَّكَرَ والانثىٰ . أَليسَ ذلكَ بِقَادرٍ علىٰ أن يحيي الموتَىٰ ﴾ - (القيامة ٧٥ : ٣٧ ـ ٤٠) . فهنا ذكر هذا على امكان النشأة الثانية التي تكون من التراب . ولهذا قال في موضع آخر : ﴿ يا أَيُّها الناس إنْ كنتُمْ في ريبٍ من البعثِ فإنَّا خلقناكُمْ من ترابٍ ثُمَّ من نطفةٍ ﴾ - (الحج ٢٢ ـ ٥) . ففي القيامة استدل بخلقه من نطفة ، فانه معلوم لجميع الخلق ، وفي الحج ذكر خلقه من تراب ، فانه قد علم بالأدلة القطعية . وذكر أول الخلق أدل على امكان الاعادة .

وأما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى ابتداء ، فذكر أنه خلق الانسان من علق ، وهو من العلقة ـ الدم ، يصير مضغة ، وهو قطعة لحم كاللحم الذي يمضغ بالفم ، ثم تخلق فتصور ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مِنْ مضغة مخلَّقةٍ وغير مخلقةٍ لنبَّينَ لكُمْ ﴾ - (الحج ٢٢ : ٥) . فان الرحم قد يقذفها غير مخلقه . فبين للناس مبدأ خلقهم ، ويرون ذلك بأعينهم .

وهذا الدليل ـ وهو خلق الانسان من علق ـ يشترك فيه جميع الناس . فان الناس هم المستدلون ، وهم أنفسهم الدليل والبرهان في الآية . فالانسان هو الدليل وهو المستدلون ، كما قال تعالى : ﴿ وفي أنفسِكُمْ ، أفلا تُبصِرُونَ ﴾ - (الذاريات ٥١ : ٢١) ، وقال : ﴿ سنريهم أياتنا في الآفاقِ وفي أنفسهم حتىٰ يتبّينَ لهم أَنَّهُ الحقّ ﴾ - (فصلت ٤١ : ٥٣) . وهذا كما قال في آية أخرى : ﴿ أم خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ أَمْ هُمْ الخالقون ﴾ -(الطور ٥٢ : ٣٥) .

وهو دليل يعلمه الانسان من نفسه ، ويذكره كلما تذكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه . فيستدل به على المبدأ والمعاد ، كما قال تعالى : ﴿ ويقولُ الانسانُ إذَا ما مت لسوفَ أخرجُ حيَّاً . أو لا يذكر الانسانُ أَنَّا خلقناهُ من قبلُ ولم يكُ شيئاً ﴾ - (مريم ١٩ : ٢٦ و ٢٧) ، وقال تعالى : ﴿وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقهُ، قالَ مَنْ يحيي العظامَ وهي رميم . قل يحييها الَّذي أنشأَها أولَ مرةٍ ، وهوَ بكلِّ خلقٍ عليم ﴾ - (يس ٣٦ : ٧٨ و ٧٩) .

وكذلك قال زكريا لما تعجب من حصول ولد على الكبر فقال : ﴿ أنىٰ يكونُ لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغتُ من الكبرِ عتيَّاً. قالَ كذلكَ، قالَ ربكَ هُوَ عليَّ هيّنٌ وقد خلقتكَ

مِنْ قبلُ ولَمْ تَكُ شيئاً ﴾ ـ (مريم ١٩ : ٨ و٩) . ولم يقل : « أنه أهون عليه » كما قال في المبدأ والمعاد : ﴿ وهُوَ الَّذي يبدأ الخلقَ ثم يعيدهُ وهُوَ أهونُ عليهِ ﴾ ـ (الروم ٣٠ : ٢٧)

وقال سبحانه : ﴿ خلق الانسان من علق ﴾ بعد أن قال : ﴿ الذي خلق ﴾ . فأطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق ، ثم عين خلق الانسان . فكان كل ما يعلم حدوثه داخلا في قوله : ﴿ الذي خلق ﴾ .

وذكر بعد الخلق التعليم ـ الذي هو التعليم بالقلم ، وتعليم الانسان ما لم يعلم . فخص هذا التعليم الذي يستدل به على امكان النبوة .

ولم يقل هنا « هدى » ، فيذكر الهدى العام المتناول للانسان وسائر الحيوان ، كما قال في موضع آخر ﴿ سبح اسم ربك (الأعلى) . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى ﴾ (الأعلى ٨٧ : ١ ـ ٣) ، كما قال موسى : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ ـ (طه ٢٠ : ٥٠) ، لأن هذا التعليم الخاص يستلزم الهدى العام ، ولا ينعكس . وهذا أقرب الى اثبات النبوة ، فان النبوة نوع من التعليم .

وليس جعل الانسان نبيا بأعظم من جعله العلقة انساناً ، حياً ، عالماً ، ناطقاً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، قد علم أنواع المعارف ، كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من اعادته . والقادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد ؟ والقادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذاك التعليم ، وهو بكل شيء عليم ، ولا يحيط أحد من علمه الا بما شاء ؟

وقال سبحانه أولاً : ﴿ علم بالقلم ﴾ ، فأطلق التعليم والمعلم ، فلم يخص نوعاً من المعلمين . فيتناول تعليم الملائكة وغيرهم من الانس والجن ، كما تناول الخلق لهم كلهم .

وذكر التعليم بالقلم لأنه يقتضي تعليم الخط ، والخط يطابق اللفظ ـ وهو البيان والكلام . ثم اللفظ يدل على المعاني المعقولة التي في القلب . فيدخل فيه كل علم في القلوب .

وكل شيء له حقيقة في نفسه ثابتة في الخارج عن الذهن ، ثم يتصوره الذهن والقلب ، ثم يعبر عنه اللسان ، ثم يخطه القلم . فله وجود عيني ، وذهني ، ولفظي ، ورسمي ، وجود في الأعيان ، والأذهان ، واللسان ، والبنان . لكن الأول هو هو ، وأما الثلاث فانها مثل مطابق له . فالأول هو المخلوق ، والثلاثة معلمة ـ فذكر الخلق والتعليم ليتناول المراتب الأربع ، فقال : ﴿ اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلق ـ خلقَ الانسانَ من علقٍ . اقرأ وربّكَ الأكرم . الذي علّمَ بالقلمِ . علّمَ الانسانَ ما لم يعلم ﴾[1] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب « مفتاح دار السعادة » للشيخ ابن القيم ، ج ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩١ ، الطبعة الأولى .

وقد تنازع الناس في الماهيات هل هي مجعولة أم لا ؟ وهل ماهية كل شيء زائدة على وجوده ؟ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين الصواب في ذلك ، وأنه ليس الا ما يتصور في الذهن ، ويوجد في الخارج .

فان أريد بالماهية ما يتصور في الذهن ، وبالوجود ما في الخارج ، أو بالعكس ، فالماهية غير الوجود اذا كان ما في الأعيان مغاير لما في الأذهان .

وان أريد بالماهية ما في الذهن ، أو الخارج ، أو كلاهما ، وكذلك بالوجود ، فالذي في الخارج من الوجود هو الماهية الموجودة في الخارج . وكذلك ما في الذهن من هذا هو هذا ، ليس في الخارج شيئان[١] .

وهو سبحانه علم ما في الأذهان وخلق ما في الأعيان ، وكلاهما مجعول له . لكن الذي في الخارج جعله جعلاً خلقياً ، والذي في الذهن جعله جعلاً تعليمياً . فهو الذي ﴿ خلق . خلقَ الانسانَ من علقٍ ﴾ ، وهو ﴿ الأكرم . الَّذي علَّمَ بالقلمِ . علَّمَ الانسانَ ما لَمْ يعلم ﴾ .

وقوله : ﴿ علم بالقلم ﴾ يدخل فيه تعليم الملائكة الكاتبين ، ويدخل فيه تعليم كَتبْ الكتب المنزلة . فعلم بالقلم أن يكتب كلامه الذي أنزله كالتوراة والقرآن ،بل هُوَ كتب التوراة لموسى .

وكون محمد كان نبيا أمياً هو من تمام كون ما أتى به معجزاً خارقاً للعادة ، ومن تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون ﴾ - (العنكبوت ٢٩ : ٤٨) . فغيره يعلم ما كتبه غيره ، وهو علم الناس ما يكتبونه ، وعلمه الله ذلك بما أوحاه اليه .

وهذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية وبرهان على نبوته ، فانه لا يقدر عليه الانس والجن[٢] : ﴿ قل لَئِنِ اجتمعتِ الانسُ والجنُّ علىٰ أَنْ يأتُوا بمثلِ هذَا القرآنِ لا يأتونَ بِمثلهِ ولو كانَ بعضهُمْ لبعضٍ ظهيراً ﴾ - (الاسراء ١٧ : ٨٨) ، ﴿ أَمْ يقُولونَ افتراهُ ، قُلْ فأتوا بسورةٍ مِثلِهِ وادعُوا مَنْ استطعتُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنتُمْ صَادِقينَ ﴾ - (يونس ١٠ : ٣٨) ، وفي الآية الأخرى ﴿ فَأتُوا بعشرِ سورٍ مِثلهِ مفترياتٍ وادعُوا من استطعتُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كنتُمْ

---

(١) قد تكلم المصنف على تفريق أهل المنطق بين ماهية الشيء ووجوده بالبسط في كتاب « الرد على المنطقيين » ص ٦٤ - ٦٩ ، طبع بمباي سنة ١٣٦٨ هـ .

(٢) قال النبي ﷺ « مامن الأنبياء نبي الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه البخاري في أول فضائل القرآن .

صَادِقِينَ . فإلَّمْ يَستجيبُوا لكُمْ فاعلَمُوا أنَّما أُنزِلَ بعلمِ اللهِ وأنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ ، فَهَلْ أنتُمْ مسلمونَ ﴾ ـ (هود ١١ : ١٣ و ١٤) .

(٢) فصـــل

وقد بسطنا في غير هذا الموضع طرق الناس في اثبات الصانع والنبوة وأن كل طريق تتضمن ما يخالف السنة فانها باطلة في العقل كما هي مخالفة للشرع .

والطريق المشهورة عند المتكلمين هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام(١) .

وقد بينا الكلام على هذه في غير موضع ، وأنها مخالفة للشرع والعقل . وكثير من الناس يعلم أنها بدعة في الشرع ، لكن لا يعلم فسادها في العقل . وبعضهم يظن أنها صحيحة في العقل والشرع ، وأنها طريقة ابراهيم الخليل عليه السلام . وقد بين فساد هذا في غير موضع(٢) .

والمقصود هنا أن طائفة من النظار ـ مثبتة الصفات ـ أرادوا سلوك سبيل السنة ولم يكن عندهم الا هذه الطريق .

فاستدلوا بخلق الانسان ، لكن لم يجعلوا خلقه دليلاً كما في الآية ، بل جعلوه مستدلا عليه . وظنوا أنه يعرف بالبديهة واخس حدوث أعراض النطفة . وأما جواهرها فاعتقدوا أن الأجسام كلها مركبة من الجواهر المنفردة ، وأن خلق الانسان وغيره انما هو احداث أعراض في تلك الجواهر بجمعها وتفريقها ، ليس هو احداث عين .

فصاروا يريدون أن يستدلوا على أن الانسان مخلوق . ثم اذا ثبت أنه مخلوق قالوا : ان له خالقاً .

---

(١) قال المصنف : فالقائلون من أهل الكلام بأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة يقولون : ان الله لا يحدث شيئا قائما بنفسه . وانما يحدث الأعراض التي هي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وغير ذلك من الأعراض . ثم من قال منهم بأن الجواهر محدثة قال : ان الله احدثها ابتداء ، وثم جميع ما يحدثه انما هو احداث أعراض فيها لا يحدث الله بعد ذلك جواهر . وهذا قول أثر المعتزلة ، والجهمية ، والأشعرية ، ونحوهم . ومن أكابر هؤلاء من يظن أن هذا دين المسلمين، ويذكر اجتماع المسلمين عليه . وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمه ولا جمهور الأمه ـ اهـ . انظر درء تعارض العقل والنقل تحقيق محمد رشاد سالم . وانظر الامام ابن تيمية وقضية التأويل . د . محمد الجليند كتاب الثالث .

(٢) بينه مبسوطاً في كتاب « درء تعارض العقل والنقل » وانظر أيضاً تفسير سورة الأخلاص » فيما يأتي . وانظر (ابن تيمية وقضية التأويل) الفصل الخاص بنقد مشايخ المتكلمين .

واستدلوا على أنه مخلوق بدليل الأعراض ، وأن النطفة والعلقة والمضغة لا تنفك من أعراض حادثة . اذا كان عندهم جواهر تجمع تارة وتفرق أخرى ، فلا تخلو عن اجتماع وافتراق ، وهما حادثان . فلم يخل الانسان عن الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها .

وهذه هي الطريقة سلكها الأشعري في « اللمع في الرد على أهل البدع »[١] ، وشرحه أصحابه شروحا كثيرة . وكذلك في « رسالته الى أهل الثغر »[٢] . وذكر قوله تعالى : ﴿ أفرأيتمُ ما تمنونَ . أأنتُمْ تخلقونهُ أمْ نحنُ الخالقونَ ﴾ - (الواقعة ٥٦ : ٥٩) . فاستدل على أن الانسان مخلوق بأنه مركب من الجواهر التي لا تخلو من اجتماع وافتراق ، فلمِ تخل من الحوادث ، فهي حادثة .

وهذه الطريقة هي مقتضية من كون الأجسام كلها كذلك[٣] .

وتلك هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهمية ، والمعتزلة ، ومن اتبعهم من المتأخرين المنتسبين الى المذاهب الأربعة وغيرهم من أصحاب أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، كما ذكرها القاضي[٤] ، وابن عقيل ، وغيرهما . وذكرها أبو المعالي الجويني ، وصاحب « التتمة »[٥] ، وغيرهما وذكرها أبو الوليد الباجي ، وأبو بكر بن العربي . وغيرهما . وذكرها أبو منصور الماتريدي ، والصابوني[٦] ، وغيرهما .

لكن هؤلاء الذين استدلوا بخلق الانسان فرضوا ذلك في الانسان ظنا أن هذه طريقة القرآن . وطولوا في ذلك ودققوا حتى استدلوا على كون عين الانسان وجواهره مخلوقة ، لظنهم أن المعلوم بالحس وبديهة العقل انما هو حدوث أعراض ، لا حدوث جواهر . وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب ، والمطر ، والزرع ، والثمر ، والانسان ، والحيوان ، فانما يحدث فيه

---

(١) قال الأشعري : وألفنا كتابا لطيفا سميناه كتاب « اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع » . ثم قال : وألفنا كتابا سميناه « اللمع الكبير » جعلناه مدخلا الى « ايضاح البرهان » وألفنا « اللمع الصغير » جعلناه مدخلا الى « اللمع الكبير » - عن « تبيين كذب المفتري » لابن عساكر . وطبع عدة طبعات بتحقيق د . حمودة غرابة .

(٢) ذكرها ابن عساكر فيما وقع اليه من أشياء لم يذكرها الأشعري في تسمية تواليفه : و « جواب مسائل كتب بها الى أهل الثغر (زاد بروكلمان : بيان الأبواب) » في تبيين ما سألوه عنه من مذهب أهل الحق - اهـ . وهي مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ١٠٥ توحيد .

(٣) قال المصنف : وهؤلاء القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة المشهور عنهم بأن الجواهر متماثلة . بل ويقولون - أو أكثرهم - ان الأجسام متماثلة لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة . . . الخ - عن « تفسير الاخلاص » ، ص ٢٢ .

(٤) هو القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء ، شيخ الحنابلة في عصره ، المتوفى ٤٥٨ هـ .

(٥) هو أبو سعيد عبد الرحمن بن مأمون المعروف بالمتولي النيسابوري ، شيخ الشافعية ، صاحب « التتمة » - تمم بها « الابانة » في فقة الشافعي تأليف شيخه أبي القاسم الفوراني ولم يكن أكملها . توفي سنة ٤٧٨ هـ .

(٦) هو نور الدين أبو المحامد أحمد بن بكر الصابوني البخاري الحنفي المتوفي سنة ٥٨٠هـ ، صاحب كتاب « الكفاية في الهداية » في علم الكلام . وهو والماتريدي حنفيان ، كما أن الباجي وابن العربي مالكيان ، وأبا المعالي والمتولي شافعيان ، وأبا يعلى وابن عقيل حنبليان .

أعراضا ، وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفريقها .

وزعموا أن أحدا لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة ، ولا بضرورة العقل ، وانما يعلم ذلك اذا استدل كما استدلوا . فقالوا : هذه أعراض حادثة في جواهر ، وتلك الجواهر لم تخل من الأعراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض .

ثم قالوا : وما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وهذا بنوه على أن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة ، وقالوا : أن الأجسام لا يستحيل بعضها الى بعض .

بطلان هذه الطريقة

وجمهور العقلاء من السلف ، وأنواع العلماء ، وأكثر النظار ، يخالفون هؤلاء فيما يثبتون من الجوهر الفرد ، ويثبتون استحالة الأجسام بعضها الى بعض ، ويقولون بأن الرب لا يزال يحدث الأعيان ، كما دل على ذلك القرآن .

ولهذا كانت هذه الطريق باطلة عقلاً وشرعاً ، وهي مكابرة للعقل ، فان كون الانسان مخلوقاً محدثاً كائناً بعد أن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس . وكل أحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد أن لم يكن ، وأن عينه حدثت كما قال تعالى : ﴿ وقد خلقتكَ مِنْ قبلُ ولم تكُ شيئاً ﴾ - (مريم ١٩ : ٦٧) . ليس هذا مما يستدل عليه ، فانه أبين وأوضح مما يستدل به عليه لو كان صحيحا . فكيف اذا كان باطلا ؟

وقولهم : ان الحادث أعراض فقط ، وأنه مركب من الجواهر الفردة ، قولان باطلان لا يعلم صحتهما ، بل يعلم بطلانهما .

ويعلم حدوث جوهر الانسان وغيره من المادة التي خلق منها ، وهي العلق كما قال : ﴿ خلق الانسان من علق ﴾ .

وكونه مركباً من جواهر فردة ليس صحيحا . ولو كان صحيحا لم يكن معلوماً الا بأدلة دقيقة لا تكون هي أصل الدين هو مقدمات أولية . فان تلك المقدمات يجب أن تكون بينة ، أولية ، معلومة بالبديهة .

فطريقهم تضمن جحد المعلوم ، وهو حدوث الأعيان الحادثة ، وهذا معلوم للخلق ، واثبات ما ليس بمعلوم ، بل هو باطل ، وأن الاحداث لها انما (هو)[1] جمع وتفريق للجواهر ، وأنه احداث أعراض فقط .

---

(١) لا يوجد في الأصل .

ولهذا كان استدلالهم بطريقة الجواهر والأعراض على هذا الوجه مما أنكره عليه أئمة الدين ، وبينوا أنهم مبتدعون في ذلك ، بل بينوا ضلالهم شرعاً وعقلاً ، كما بسط كلام السلف والأئمة عليهم في غير هذا الموضع ، اذ هو كثير[1] .

فالقرآن استدل بما هو معلوم للخلق من أنه ﴿ خلق الانسان من علق ﴾ . وهؤلاء جاءوا الى هذا المعلوم فزعموا أنه غير معلوم ، بل هو مشكوك فيه . ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلوما . فذكروا دليلاً باطلاً لا يدل على حدوثه ، بل يظن أنه دليل وهو شبهه ، ولها لوازم فاسدة .

فانكروا المعلوم بالعقل ، ثم الشرع ، وادعوا طريقاً معلومة بالعقل ، وهي باطلة في العقل ، والشرع . فضاهوا الذين قال الله فيهم : ﴿ لو كنَّا نسمَعُ أو نَعْقِلُ ما كنَّا في أصحابِ السَّعيرِ ﴾ ـ (الملك ٦٧ : ١٠) .

وكذلك في أثبات النبوات وامكانها ، وفي اثبات المعاد وامكانه ، عدلوا عن الطريق الهادية التي توجب العلم اليقيني التي هدى الله بها عباده الى طريق تورث الشك والشبهة والحيرة . ولهذا قيل : غاية المتكلمين المبتدعين الشك ، وغاية الصوفية المبتدعين الشطح .

ثم لها لوازم باطلة مخالفة للعقل والشرع ، فألزموا لوازمها التي أوجبت لهم السفسطة في العقليات ، والقرمطة في السمعيات ، وتكلموا في دلائل الربوبية ، بأمور ، وزعموا أنها أدلة وهي عند التحقيق ليست بأدلة ولهذا يطعن بعضهم في أدلة بعض .

واذا استدلوا بدليل صحيح فهو مطابق لما جاء به الرسول وان تنوعت العبارات .

ولهذا قد يستدل بعضهم بدليل ـ اما صحيح واما غير صحيح ـ فيطعن فيه آخر ، ويزعم أنه يذكر ما هو خير منه ، ويكون الذي يذكره دون ما ذكره ذاك . وهذا يصيبهم كثيرا في الحدود ـ يطعن هؤلاء في حد هؤلاء ، ويذكرون حدا مثله أو دونه .

وتكون الحدود كلها من جنس واحد ، وهي صحيحة اذا أريد بها التمييز بين المحدود وغيره . وأما من قال : ان الحدود تفيد تصوير ماهية المحدود ، كما يقوله أهل المنطق ، فهؤلاء غالطون ضالون ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع[2] .

اذ المقصود هنا التنبيه على الفرق بين الطريق المفيد للعلم واليقين كالتي بينها القرآن وبين ما ليس كذلك من طرق أهل البدع الباطلة شرعاً وعقلاً .

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٥٠ وبعدها .

(٢) قد بسط المصنف الكلام على الحدود في تصنيفه المشهور بـ « الرد على المنطقيين » صفحات من ١٤ الى ٨٧ من الكتاب ط الهند سنة ١٣٦٨ هـ ، فليرجع اليه .

(٣) فصــــل

في أصول المتكلمين والفلاسفة

هؤلاء الذين بنوا أصل دينهم على طريقة الأعراض والاستدلال بها على حدوث الأجسام اضطربوا كثيرا ، كما قد بسط في مواضع . ولا بد لكل منهم مع مخالفته للشرع المنزل من السماء الى أن يخالف أيضاً صريح العقل ويكابر ، فيكون ممن لا يسمع ولا يعقل .

كالذين أثبتوا الجواهر المنفردة وقالوا ان الحركات في نفسها لا تنقسم الى سريع وبطيء ، اذ كانت الحركة عندهم منقسمة كانقسام المتحرك ، وكذلك الزمان وأجزاء الزمان . والحركة والمتحرك عندهم واحد لا ينقسم . فاذا كان المتحركان سواء وحركة أحدهما أسرع قالوا : انما ذاك لتخلل السكنات . وادعوا أن الرحا والدولاب وكل مستدير اذا تحرك فان زمان حركة المحيط والطوق الصغير واحد مع كثرة أجزاء المحيط ، فيجب أن تكون حركتها أكثر ، فيكون زمانها أكثر ، وليس هو بأكثر[١] ، فادعوا أنها تنفك ثم تتصل . وهذه مكابرة من جنس « طفرة النظام »[٢] .

وكذلك الذين قالوا بأن العرض لا يبقى زمانين خالفوا الحس وما يعلمه العقلاء بضرورة عقولهم . فان كل أحد يعلم أن لون جسده الذي كان لحظة هو هذا اللون . وكذلك لون السماء ، والجبال ، والخشب ، والورق ، وغير ذلك .

ومما ألجأهم الى هذا ظنهم أنها[٣] لو كانا باقيين لم يمكن اعدامهما . فانهم حاروا في افناء الله الأشياء اذا أراد أن يفنيها ، كما حاروا في إحداثها . وحيرتهم في الإفناء أظهر . هذا يقول : يخلق فناء لا في محل ، فيكون ضدا لها ، فتفنى بضدها . وهذا يقول : يقطع عنها الأعراض مطلقا ، أو البقاء الذي لا تبقى الا به ، فيكون فناؤها لفوات شرطها .

---

(١) الغلط في ذلك ينشأ من كونهم لاحظوا مقدار الزمان الذي يستغرقه دوران كل من المحيط والطوق فقط ـ وهو واحد ـ دون أن يلاحظوا سرعة حركتها وبطئها . فاذا فصل كل من المحيط والطوق في صورة حلقتين مستقلتين احداهما أكبر من الأخرى بكثير ، ثم حركت كل منهما على حدة بحركة متساوية يتبين الفرق في الزمان الذي يستغرقه كل من الحلقتين لتكميل دورانها . ويتضح حينئذ أنه ان اتحد الزمان اختلفت الحركة ، وان اتحدت الحركة اختلف الزمان .

(٢) الطفرة : الوثب في ارتفاع . والنظام هو ابراهيم بن سيار بن هانىء أبي اسحاق النظام البصري من أئمة علماء الكلام على مذهب المعتزلة . طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، وانفرد عن أصحابه بمسائل تابعة فيها طائفة سميت « النظامية » قيل توفي سنة ٢٢١ هـ .

قال الأشعري في « مقالات الاسلاميين » ، واختلف الناس في الطفرة ، فزعم النظام أنه قد يجوز أن يكون (الجسم الواحد في مكان ثم يصير الى المكان الثالث ولم يمر بالثاني على جهة الطفرة ، واعتل في ذلك بأشياء منها الدوامة ، الخ ، اهـ . وقد عبر المصنف عن زعمه هذا بـ « طفرة النظام » .

(٣) في الأصل (أنها) ، والصحيح أن يكون « أنهما » والضمير يرجع الى « العرضين » أو « اللونين » الذين ذكراوهما العرضان .

ومن أسباب ذلك ظنهم ، أو ظن من ظن منهم ، أن الحوادث لا تحتاج الى الله الا حال احداثها ، لا حال بقائها ، وقد قالوا انه قادر على افنائها . فتكلفوا هذه الأقوال الباطلة .

وهؤلاء لا يحتجون على بقاء الرب بافتقار العالم اليه ، بل بأنه قديم ، وما وجب قدمه امتنع عدمه . والا فالباقي حال بقائه لا يحتاج الى الرب عندهم .

وهؤلاء شر من الذين سألوا موسى : هل ينام ربك فضرب الله المثل بالقارورتين لما أرق موسى ليالي ، ثم أمره بامساك القارورتين . فلما أمسكهما غلبه النوم فتكسرتا . فبين الله له لو أخذته سنه أو نوم لتدكدك العالم[1] .

وعلى رأى هؤلاء لو أخذته سنة أو نوم لم يعدم الباقي . لكن منهم من يقول : هو محتاج الى احداث الأعراض متوالية ، لأن العرض عنده لا يبقى زمانين . فمن هذا الوجه يقول : اذ لو أخذته سنة أو نوم لم تحدث الأعراض التي تبقى بها الأجسام ، لا لأن الأجسام في نفسها مفتقرة اليه في حال بقائها عنده .

وكذلك يقولون : ان الارادة لا تتعلق بالقديم ، ولا بالباقي . وكذلك القدرة عندهم لا تتعلق بالباقي ، ولا العجز يصح أن يكون عجزا عن الباقي والقديم عندهم . لأن العجز عندهم انما يكون عجزا عما تصح القدرة عليه .

وهؤلاء يقولون : علة الافتقار الى الخالق مجرد الحدوث . وآخرون من المتفلسفة يقولون : هو مجرد الامكان ، ويدعون أن القديم الأزلي الذي لم يزل ولا يزال هو مفتقر الى الصانع . فهذا يدعى أن الباقي المحدث لا يفتقر ، وهذا يدعي أن الباقي القديم يفتقر . وكلا القولين فاسد ، كما قد بسط في مواضع .

والحق أن كل ما سوى الله حادث ، وهو مفتقر اليه دائما . وهو يبقيه ويعدمه ، كما ينشئه ويحدثه ، كما يحدث الحوادث من التراب وغيره ، ثم يفنيها ويحيلها الى التراب وغيره .

وهؤلاء ادعى كثير منهم أن كل ما سوى الله يعدم ثم يعاد[2] . وبعضهم قال : هذا

---

(١) في الأصل (انها) ، والصحيح ان يكون « انهما » والضمير يرجع الى « العرضين » او « اللونين » الذين ذكراوهما العرضان .

(١) أخرج هذه القصة ابن أبي حاتم عن ابن عباس تفسير قوله تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ من آية الكرسي ، كما ذكره ابن كثير في تفسيره . وقوله : ﴿ تدكدك ﴾ أي تهدم .

(٢) قد أورد المصنف رحمه الله قولهم هذا في « تفسير سورة الاخلاص » ، وما أورد عليهم . ثم رد قولهم رداً بليغاً مبسوطاً ، وفي أثنائه بيان ما جاء في بدء الخلق واعادته ، وبيان النشأتين وفيهما تماثلان وفيهما تخالفان ، من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، بيانا شافيا يبصر القارىء في أمر المعاد وأحكامه ، ويزيل عنه كثيراً من شبهات الفلاسفة والمتكلمين . انظر في ص ٢٣ الى ص ٣٣ من الطبعة المنيرية ، سنة ١٣٥٢ هـ .

وقد بين الشيخ ابن القيم رحمة الله الفرق بين المعاد الذي أثبته الكتاب والسنة والمعاد الذي اثبتوه باعدام أجزاء العالم ثم اعادتها

ممكن ، لكنه موقوف على الخبر ، والخبر لم يتعرض لذلك بنفي ولا اثبات . وهذا هو المعاد عندهم .

وهذا لم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا دل عليه عقل . بل الكتاب والسنة يبين أن الله يحيل العالم من حال الى حال ، كما يشق السماء ، ويجعل الجبال كالعهن ، ويكور الشمس ، الى غير ذلك مما أخبر الله في كتابه ـ لم يخبر أن جميع الأشياء تعدم ثم تعاد[1] .

ثم منهم من يقول : انها تعدم بعد ذلك لامتناع وجود حوادث لا آخر لها ، كما تقوله الجهمية[2] . وهذا مما أنكره عليهم السلف والأئمة ، كما قد ذكر في غير الموضع .

وهؤلاء انما قالوا هذا طردا لقولهم بامتناع دوام جنس الحوادث ، وقالوا : ما وجب أن يكون له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء ، كما قد بسط هذا وبين فساد هذا الأصل .

(٤) فصـــل

وهو سبحانه تارة يذكر خلق الانسان مجملا ، وتارة يذكره مفصلا ، كقوله : ﴿ ولقد خَلقنَا الإنسانَ مِنْ سُلالةٍ مِنْ طين . ثُمَّ جَعلناهُ نُطفةً في قرارٍ مَكينٍ . ثُمَّ خَلقنَا النُّطفَةَ علقةً فخلقنَا العَلقَةَ مُضْغَةً فَخَلقنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فكسونَا العِظَامَ لحماً ، ثُمَّ أنشأناهُ خَلقاً آخر ، فَتَبَاركَ اللهُ أحسنُ الخَالِقينَ ﴾ ـ (المؤمنون ٢٣ : ١٢ ـ ١٤) . ثم ذكر المعادين الأصغر والأكبر ، فقال : ﴿ ثُمَّ انَّكُمْ بعدَ ذلكَ لميتونَ . ثُمَّ انكم يومَ القيامةِ تُبعثونَ ﴾ ـ (المؤمنون ٢٣ : ١٥ و ١٦) .

ومن الناس من يقول : لم دخلت لام التوكيد في الموت وهو مشاهد ، ولم تدخل في البعث وهو غيب فيحتاج الى التوكيد ؟ وذلك ـ والله أعلم ـ أن المقصود بذكر الموت والبعث هو الاخبار بالجزاء والمعاد ، وأول ذلك هو الموت . فنبه على الايمان بالمعاد ، والاستعداد لما بعد الموت .

بعد ذلك كما عليه طائفة من المتكلمين ، وانكار الفلاسفة ذلك عليهم واعتراضهم عليه ، في فصل بديع من كتاب « مفتاح دار السعادة » ، ج ٢ ، ص ٣٧ و ٣٨ ، الطبعة الأولى .

(١) وعلى هذا ينبني قول الجهمية بفناء الجنة والنار الذي أنكره عليهم جمهور المسلمين . قال الأشعري في « مقالات الاسلاميين » : قال جهم بن صفوان : « لمقدورات الله تعالى ومعلوماته غاية ونهاية ، ولأفعاله آخر ، وان الجنة والنار تفنيان ويفنى أهلهما حتى يكون الله تعالى آخرا لا شيء معه ، كما كان اولاً لا شيء معه » . وقال أهل الاسلام جميعاً : ليس للجنة والنار آخر ، وانهما لا تزالان باقيتين ، وكذلك أهل الجنة لا يزالون في الجنة يتنعمون ، وأهل النار لا يزالون في النار يعذبون ، وليس لذلك آخر ، ولا لمعلوماته ومقدوراته غاية ولا نهاية ـ اهـ كلام الأشعري .

وهو انما قال « تبعثون » فقط ، ولم يقل « تجازون » ، لكن قد علم أن البعث للجزاء . وأيضاً ، ففيه تنبيه على قهر الانسان واذلاله . يقول : بعد هذا كله انك تموت ، فترد الى أسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كما قال : ﴿ لقد خلقنا الانسانَ في أحسنِ تقويمٍ . ثُمَّ رددناهُ أسفلَ سافلينَ . إلاَّ الَّذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ فلهم أجرٌ غير ممنونٍ ﴾ - (التين ٩٥ : ٤ - ٦) .

وهذا الرد هو بالموت . فانه يصير في أسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كما قال : ﴿ كلاَّ إنَّ كتابَ الفجَّارِ لفي سجّين ﴾ - (المطففين ٨٣ : ٧) ، وقال : ﴿ أن كتابَ الأبرارِ لفي عليّين ﴾ - (المطففين ٨٣ : ١٨) .

(٥) فصـــل

قوله : ﴿ اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم ﴾ . سمى ووصف نفسه بالكرم ، وبأنه الأكرم ، بعد اخباره أنه خلق لتبيين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم الى الغايات المحمودة ، كما قال في موضع آخر : ﴿ الَّذي خلقَ فَسَوَّىٰ . والَّذي قدَّرَ فهدَىٰ ﴾ - (الأعلى ٨٧ : ٢ و٣) ، وكما قال عليه السلام : ﴿ ربَّنَا الَّذي أعطىٰ كلَّ شيءٍ خلقَه ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ - (طه ٢٠ : ٥٠) ، وكما قال الخليل عليه السلام : ﴿ الَّذي خلقني فهُوَ يهدينِ ﴾ - (الشعراء ٢٦ : ٧٨) .

فالخلق يتضمن الابتداء ، والكرم تضمن الانتهاء ، كما قال في أم القرآن : ﴿ رب العالمين ﴾ ، ثم قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ .

ولفظ الكرم جامع للمحاسن والمحامد . لا يراد به مجرد الاعطاء ، بل الاعطاء من تمام معناه ، فان الاحسان الى الغير تمام المحاسن . والكرم كثرة الخير ويسرته[1] .

ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تسموا العنب الكرم ، فانما الكرم قلب المؤمن »[2] .

وهم سموا العنب « الكرم » لأنه أنفع الفواكه - يؤكل رطبا ، ويابسا ، ويعصر فيتخذ منه أنواع .

---

(١) كذا في الأصل ، ولعله « يسره » بغير هاء ، فان المصدر من يسر - ييسر بمعنى سهل (يسر) بضم الياء وسكون السين ، أو « يسر » بفتح الياء والسين ، ولم يجيء على « يسرة » .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب ، عن أبي هريرة ، عن طرق وعدة وجوه . قال في القاموس : وقوله : « فانما الكرم » ، أي فانما المستحق للاسم المشتق من الكرم المسلم .

وهو أعم وجودا من النخل - يوجد في عامة البلاد ، والنخل لا يكون الا في البلاد الحارة . ولهذا قال في رزق الانسان : ﴿ فلينظرِ الانسانُ الىٰ طعامِهِ . أنَّا صببنَا الماءَ صبًّا . ثُمَّ شققنَا الأرضَ شقًّا . فأنبتنَا فيها حبًّا . وعنباً وقضباً . وزيتوناً وَنَخْلاً . وحدائِقَ غُلْباً . وفاكهةً وأبّاً . متاعاً لكُمْ ولأنعامِكُمْ ﴾ - ﴿ عيسى ٨٠ : ٢٤ - ٣٢) ، فقدم العنب . وقال في صفة الجنة ﴿ إنَّ للمتقينَ مفازاً . حدائقَ وأعناباً ﴾ - (النبأ ٧٨ : ٣١ و ٣٢)[١] .

ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم وقال : « الكرم قلب المؤمن » . فانه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيراً من قلب المؤمن[٢] .

والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم . قال تعالى : ﴿ أولم يروا إلىٰ الأرضِ كَمْ أنبتْنَا فيها مِنْ كلِّ زوجٍ كريمٍ ﴾ - (الشعراء ٢٦ : ٧) . قال ابن قتيبة : من كل جنس حسن . وقال الزجاج : الزوج النوع ، والكريم المحمود . وقال غيرهما : ﴿ من كل زوج ﴾ صنف وضرب ، ﴿ كريم ﴾ حسن ، من النبات مما يأكل الناس والأنعام . يقال : « نخلة كريمة » اذا طاب حملها و « ناقة كريمة » اذا كثر لبنها .

وعن الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه ، وفيهم من يهينه . قال تعالى : ﴿ إنَّ أكرمكُمْ عندِ اللهِ أتقاكُمْ ﴾ - (الحجرات ٤٩ : ١٣) ، وقال تعالى : ﴿ ومن يُهِنِ اللهُ فَمَا لهُ من مُكرِمٍ ، إنَّ اللهَ يفعلُ ما يشاءُ ﴾ - (الحج ٢٢ : ١٨) .

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « واياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فانه

---

(١) ليس تقديم ذكر العنب على ذكر النخل بدليل على كونه أعم أو أفضل من النخل ، بل قدم ذكر النخل على ذكر العنب في سبعة مواضع من القرآن بينما قدم ذكر العنب في ثلاثة فقط ، وانفرد النخل بالذكر في عشرة مواضع والعنب في موضع واحد .

وكما أنه ﷺ شبه المؤمن بالكرم فكذلك شبهه بالنخلة أيضاً في حديث ابن عمر الذي رواه البخاري . وقد ذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أوجه في تشبيه النخلة بالمؤمن في « مفتاح دار السعادة » . وقال قوله : « الكرم قلب المؤمن » مطابق لقوله في النخلة : « مثلها مثل المسلم » ، وذكر عموم منفعة ثمر النخل والعنب ، وذكر اختلاف الناس في أيها أنفع وأفضل ، وفصل النزاع بأن النخل في معدنه أفضل وأعم نفعا من العنب ، والعنب في معدنه أفضى وأعم نفعاً من النخل . وقد قيل ان الشجرة الطيبة التي هي مثل الكلمة الطيبة في القرآن هي النخلة .

(٢) قال ابن القيم رحمه الله : هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة « الكرم » لكثرة منافعه وخيره . فأخبرهم النبي ﷺ أن قلب المؤمن أحق بأن يسمى كرما من شجر العنب لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة . ولم يرد ابطال ما في شجر العنب من المنافع والفوائد ، وأن تسميته « كرما » كذب .

ليس بينها وبين الله حجاب »[1] . وكرائم الأموال : التي تكرم على أصحابها لحاجتهم اليها وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها .

وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف بها . فدل على أنه الأكرم وحده ، بخلاف ما لو قال : (وربك أكرم » . فانه لا يدل على الحصر وقوله ﴿ الأكرم ﴾ يدل على الحصر .

ولم يقل « الأكرم من كذا » ، بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد . فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه .

قال ابن عطية : ثم قال له تعالى : ﴿ إقرأ وربّكَ الأكرم ﴾ على جهة التأنيس ، كأنه يقول: امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب ، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص ، فهو ينصرك ويظهرك .

« قلت » وقد قال بعض السلف[2] : « لا يهدين أحدكم لله ما يستحيي أن يهديه لكريمه ، فان الله أكرم الكرماء » . أي هو أحق من كل شيء بالاكرام ، اذ كان أكرم من كل شيء .

وهو سبحانه ذو الجلال والأكرام . فهو المستحق لأن يجل ، ولأن يكرم . والاجلال يتضمن الحمد والمحبة .

وهذا كما قيل في صفة المؤمن : انه رزق حلاوة ومهابة[3] .

وفي حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ : « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه »[4] .

---

(١) هي من حديث ابن عباس : ان النبي ﷺ بعث معاذا الى اليمن فقال « انك تأتي قوما أهل الكتاب .. الحديث » ، أخرجه الجماعة في الزكوة وغيرها .

(٢) بهامش الأصل : هو عروة بن الزبير .

(٣) قائله هو الحسن البصري رحمه الله . ذكره ابن القيم ، (جلاء الأفهام) ، ص ١٢٠ .

(٤) هذه آخر قطعة من حديث علي بن أبي طالب الطويل في صفة خلق - بفتح أوله - النبي ﷺ ولم ، أخرجه الترمذي في الشمائل ، وهو الحديث السابع من الباب الأول منه . وأخرجه أيضاً في جامعة ، في المناقب ، باب ما في صفة النبي ﷺ . ذكره المزي في الاطراف في المناقب فقط ، دون الشمائل . وقد شرح الشيخ ابن القيم رحمه الله هذه القطعة بغاية البسط مع ما ذكره المصنف ههنا من الكلام على « ذي الجلال والاكرام » في كتابة « البديع » « جلاء الأفهام في الصلوة والسلام على خير الأنام » الطبعة المنيرية المصرية ، ص ١١٩ - ١٢١ ، وهو جدير بالمراجعة .

وهذا لأنه سبحانه له الملك وله الحمد .

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن أهل السنة يصفونه بالقدرة الالهية ، والحكمة ، والرحمة . وهم الذين يعبدونه ويحمدونه ، وأنه يجب أن يكون هو المستحق لأ (ن)[1] يعبد دون ما سواه . والعبادة تتضمن غاية الذل وغاية الحب .

وان المنكرين لكونه يحب من الجهمية ومن وافقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد ، كما أن قولهم انه يفعل بلا حكمة ولا رحمة يقتضى أنه لا يحمد .

فهم انما يصفونه بالقدرة والقهر . وهذا انما يتقضى الاجلال فقط لا يقتضى الاكرام ، والمحبة ، والحمدَ . وهو سبحانه الأكرم . قال تعالى : ﴿ ان بطشَ ربّكَ لشديدٌ . انَّهُ هو يُبدِىءُ ويُعيدُ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وهو الغفورُ الودودُ . ذو العرشِ المجيدِ . فعَّالٌ لما يرُيد ﴾ - (البروج ٨٥ : ١٢ - ١٦) . وقال شعيب : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، ان ربي رحيم ودود ﴾ - (هود ١١ : ٩٠) .

وفي أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق ، وبأنه الأكرم . والجهمية ليس عندهم الا كونه خالقا - مع تقصيرهم في اثبات كونه خالقا - لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ، ولا الحكمة .

وان أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها ، بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن ، ثم يلحدون في أسمائه ويحرفون الكلم عن موضعه . فتارة يقولون : الحكمة هي القدرة ، وتارة يقولون : هي المشيئة ، وتارة يقولون : هي العلم .

وان الحكمة ، وان تضمنت ذلك واستلزمته ، فهي أمر زائد على ذلك . فليس كل من كان قادراً أو مريداً كان حكيماً ، ولا كل من كان له علم يكون حكيماً ، حتى يكون عاملاً بعلمه .

قال ابن قتيبة وغيره : الحكمة هي العلم والعمل به ، وهي أيضاً : القول الصواب . فتتناول القول السديد ، والعمل المستقيم الصالح .

والرب تعالى أحكم الحاكمين ، وأحكم الحكماء .

والاحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه . وهم مع سائر الطوائف يستدلون بالاحكام على العلم ، وانما يدل اذا كان الفاعل حكيما يفعل لحكمة .

وأما حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ فهو الحديث الثامن ، اي الذي بعد حديث على المذكور ، في شمائل الترمذي ، وليس فيه هذه القطعة أصلاً .

(١) في الأصل « لا يعبد » باسقاط النون ، والظاهر أنه من سهو الناسخ .

وهم يقولون : انه لا يفعل لحكمة ، وانما يفعل بمشيئة تخص احد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص . وهذا مناقض للحكمة ، بل هذا سفه .

وهو قد نزه نفسه عنه في قوله : ﴿ لو اردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ﴾ - (الانبياء ٢١ : ١٧ و١٨) .

وقد أخبر أنه انما خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ، وأنه لم يخلقهما باطلا ، وأن ذلك ظن الذين كفروا . وقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكُمْ عَبَثاً ﴾ - (المؤمنون ٢٣ : ١١٥) ، وقال : ﴿ أيحسبُ الانسانُ أن يُتركَ سُدىً ﴾ - (القيامة ٧٥ : ٣٦) ، أي مهملا - لا يؤمر ولا ينهى . وهذا استفهام انكار على من جوز ذلك على الرب[١] .

والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه ، ولا تنزهه عن فعل وان كان من منكرات الأفعال . ولا تنعته بلوازم كرمه ، ورحمته ، وحكمته ، وعدله - فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك ، ولا يفعل ما يضاد ذلك .

بل تجوز كل مقدور أن يكون وأن لا يكون ، وانما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعي ، أو عادة مطردة ، مع تناقضهم في الاستدلال بالخبر - أخبار الرسل وعادات الرب . كما بسط هذا في مواضع ، مثل الكلام على معجزات الأنبياء ، وعلى ارسال الرسل ، والأمر والنهي ، وعلى المعاد ، ونحو ذلك ، ما يتعلق بأفعاله وأحكامه الصادرة عن مشيئته . فانها صادرة عن حكمته وعن رحمته ، ومشيئته مستلزمة لهذا وهذا - لا يشاء الا مشيئة متضمنة للحكمة ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها »[٢] .

فهم في الحقيقة لا يقرون بأنه الأكرم .

---

(١) ما خلق الله تعالى السموات والأرض وما بينهما الا لحكمة عظيمة وغاية حكيمة ، وهي توحيده وعبادته وحده في هذه الدنيا وثوابه وعقابه في الآخرة . ولابن القيم رحمه الله بحث قيم مبسوط مفصل في ذلك في « بدائع الفوائد » ، ج ٤ ، ص ١٦٢ - ١٦٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في التوبة ، من حديث عمر بن الخطاب،في قصة قدوم سبي على النبي ﷺ وفيهم امرأة التزمت صبيها وأرضعته .

فصــــل

(في الارادة وموقف المتكلمين منها)

والارادة التي يثبتونها لم يدل عليها سمع ولا عقل . فانه لا تعرف ارادة ترجح مراد على مراد بلا سبب يقتضي الترجيح . ومن قال من الجهمية والمعتزلة « ان القادر يرجح أحد مقدورية على الآخر بلا مرجح » فهو مكابر .

وتمثيلهم ذلك بالجائع اذا أخذ أحد الرغيفين ، والهارب اذا سلك أحد الطريقين ، حجة عليها . فان ذلك لا يقع الا مع رجحان أحدهما ، اما لكونه أيسر في القدرة ، واما لأنه الذي خطر بباله وتصوره ، أو ظن أنه أنفع . فلا بد من رجحان أحدهما بنوع ما ـ اما من جهة القدرة ، واما من جهة التصور[١] والشعور . وحينئذ يرجح ارادته ، والآخر لم يرده . فكيف يقال ان ارادته رجحت أحدهما بلا مرجح ؟ أو أنه رجح ارادة هذا على ارادة ذاك بلا مرجح ؟ وهذا ممتنع يعرف امتناعه من تصوره حق التصور .

ولكن لما تكلموا في مبدأ الخلق بكلام ابتدعوه ـ خالفوا به الشرع والعقل ـ احتاجوا الى هذه المكابرة ، وكما قد بسط في غير هذا الموضع . وبذلك تسلط عليهم الفلاسفة من جهة أخرى . فلا للاسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا .

ومعلوم بصريح العقل أن القادر اذا لم يكن مريدا للفعل ولا فاعلا ، ثم صار مريدا فاعلا فلا بد من حدوث أمر[٢] اقتضى ذلك .

(الرد عليهم) .

والكلام هنا في مقامين . أحدهما في جنس الفعل والقول ـ هل صار فاعلا متكلما بمشيئته بعد أن لم يكن ، أو ما زال فاعلاً متكلماً بمشيئته . وهذا مبسوط في مسائل الكلام والأفعال ـ في مسألة القرآن ، وحدوث العالم[٣] .

والثاني ارادة الشيء المعين وفعله ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّما أمرهُ إِذَا أَرادَ شيئاً أَنْ يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ ﴾ ـ (يس ٣٦ : ٨٢)[٤] ، وقوله : ﴿ فأَرادَ ربّكَ أَنْ يبلُغَا أَشُدَّهُما ويستخرجَا

---

(١) بهامش الأصل : « الصورة » نسخة .

(٢) في الأصل « أمرا » على النصب . بينه المصنف في موضع آخر بقوله : ويمتنع أن لا يكون مريدا فاعلات لا يكون مريدا فاعلا يمتنع أن يجعل نفسه مريدة فاعلة . فاذا فرض أنه يمتنع أن لا يكون مريدا فاعلا في الأزل امتنع أن يجعل نفسه مريدة فاعلة بوجه من الوجوه ـ اهـ .

(٣) سيأتي بسطه في الفصل الثاني عشر « بيان كونه تعالى لم يزل متصفا بجميع صفات الكمال » .

(٤) في الأصل « انما أمرنا اذا أردنا شيئا أن نقول له كن فيكون » وهو خطأ واضح .

كنزهُمَا ﴾ ـ (الكهف ١٨ : ٨٢) ، وقوله : ﴿ واذا أَرَدْنَا أن نُهلِكَ قريةً أمرنَا مترفيهَا ففسقُوا فيهَا فحقَّ عليهَا القولُ فدمَّرنَاهَا تدميراً ﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ١٦) ، وقوله : ﴿ واذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له ﴾ ـ (الرعد ١٣ : ١١) ،وقوله:﴿ وإنْ يمسَسْكَ اللهُ بضرٍ فلا كاشفَ لهُ إلّا هوَ ، وان يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلهِ ﴾ ـ (هود ١٠ : ١٠٧) ، وقوله : ﴿ قل أفرأيتُم ما تدعُونَ مِنْ دونِ اللهِ إنْ ارادنيَ اللهُ بضرٍ هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّهِ ،أو أرادَني برحمةٍ هَلْ هُنَّ ممسكاتُ رحمتهِ ﴾ ـ (الزمر ٣٩ : ٣٨) : وهو سبحانه اذا أراد شيئاً من ذلك فللناس فيها أقوال .

قيل : الارادة قديمة أزلية واحدة ، وانما يتجدد تعلقها بالمراد ، ونسبتها الى الجميع واحدة ، ولكن من خواص الارادة أنها تخصص بلا مخصص . فهذا قول ابن كلاب ، والأشعري ومن تابعهما .

وكثير من العقلاء يقول : ان هذا فساده معلوم بالاضطرار ، حتى قال أبو البركات : ليس في العقلاء من قال بهذا .

وما علم أنه قول طائفة كبيرة من أهل النظر والكلام . وبطلانه من جهات : من جهة جعل ارادة هذا غير ارادة ذاك ، ومن جهة أنه جعل الارادة تخصص لذاتها . ومن جهة أنه لم يجعل عند وجود الحوادث شيئاً حدث حتى تخصص أو لا تخصص . بل تجددت نسبة عدمية ليست وجودا ، وهذا ليس بشيء ، فلم يتجدد شيء . فصارت الحوادث تحدث وتتخصص بلا سبب حادث ، ولا مخصص .

والقول الثاني : قول من يقول بارادة واحدة قديمة مثل هؤلاء ، لكن يقول : تحدث عند تجدد الأفعال ارادات في ذاته بتلك المشيئة القديمة ، كما تقوله الكرامية وغيرهم .

وهؤلاء أقرب من حيث أثبتوا ارادات الأفعال . ولكن يلزمهم ما لزم أولئك من حيث أثبتوا حوادث بلا سبب حادث ، وتخصيصات بلا مخصص . وجعلوا تلك الارادة واحدة تتعلق بجميع الارادات الحادثة ، وجعلوها أيضاً تخصص لذاتها ، ولم يجعلوا عند وجود الارادات الحادثة شيئاً حدث حتى تخصص تلك الارادات الحدوث .

والقول الثالث قول الجهمية والمعتزلة الذي ينفون قيام الارادة به . ثم اما أن يقولوا بنفي الارادة ، أو يفسرونها[1] بنفس الأمر والفعل ، أو يقولوا بحدوث ارادة لا في محل كقول البصريين .

وكل هذه الأقوال قد علم أيضاً فسادها .

---

(١) في الأصل « يفسرونها » ثم صححها بالهامش « يفسروها » .

والقول الرابع : انه لم يزل مريدا بارادات متعاقبة . فنوع الارادة قديم ، وأما ارادة الشيء المعين فانما يريده في وقته .

وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها ، ثم بعد ذلك يخلقها . فهو اذا قدرها علم ما سيفعله ، وأراد فعله في الوقت المستقبل ، لكن لم يرد فعله في تلك الحال ، فاذا جاء وقته أراد فعله . فالأول عزم ، والثاني قصد .

وهل يجوز وصفه بالعزم فيه قولان . أحدهما المنع ، كقول القاضي أبي بكر ، والقاضي أبي يعلى ، والثاني الجواز ، وهو أصح . فقد قرأ جماعة من السلف ﴿ فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله ﴾ - (آل عمران ٣ : ٥٩) بالضم[١] . وفي الحديث الصحيح من حديث أم سلمة : ثم عزم الله لي[٢] . وكذلك في خطبة مسلم : فعزم لي[٣] .

وسواء سمى « عزما » أو لم يسم فهو سبحانه اذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها ، واراد أن يفعلها في وقتها . فاذا جاء الوقت فلا بد من ارادة الفعل المعين ، ونفس الفعل ، ولا بد من علمه بما يفعله .

ثم الكلام في علمه بما يفعله هل هو العلم المتقدم بما سيفعله ، وعلمه بأن قد فعله هل هو الأول ، فيه قولان معروفان . والعقل والقرآن يدل على أنه قدر زائد[٤] ، كما قال : ﴿لنعلم﴾ - (البقرة ٢ : ١٤٣ وغيرها)في بضعة عشر موضعاً،وقال ابن عباس: الا لنرى[٥] .

---

(١) وكأن معنى « عزمت » بالضم ، أي عزم الله لك ، كما قال ابن الأثير : في الحديث « خير الأمور عوازمها » قال : أي فرائضها التي عزم الله عليك بفعلها - اهـ . ولم نعثر على الذين قرأوها بالضم .

(٢) هذا من قول أم سلمة رضي الله عنها ، كما أخرجه مسلم من حديثها في الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة ، في الاسترجاع ، قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت : من خير من أبي سلمة صاحب رسول ﷺ ؟ ثم عزم الله لي نقلتها . . . الحديث . قال في « النهاية » فعزم الله لي ، أي خلق لي قوة وصبرا .

(٣) هكذا في الأصل ، والذي في خطبة صحيح مسلم : أن لو عزم لي عليه وقضى لي تمامة كان أول من يصيبه نفع ذلك اياي والخ . قلت : ومنه قوله في الحديث «الزكوة وعزمة من عزمات الله تعالى » أي حق من حقوقه وواجب من واجباته ، وقوله : « ان الله يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتي عزائمه » أي فرائضه التي أوجبها ، واحداتها عزيمة .

(٤) قد أوضحه المصنف بالبسط في « الرد على المنطقيين » ، ص ٤٦٢ - ٤٦٧ . قال : فقالوا : العلم بالمتغيرات يستلزم أن يكون علمه بأن الشيء سيكون غير علمه بأن قد كان ، فيلزم أن يكون محلا للحوادث . وقال في أثناء جوابه : ان القرآن قد أخبر بأنه يعلم ما سيكون في غير موضع ، وأخبر ما أخبر به من ذلك قبل أن يكون ، وقد أخبر بعلمه المتقدم على وجوده . ثم لما خلقه علمه كائنا مع علمه الذي تقدم أنه سيكون . فهذا هو الكمال . وقد ذكر الله علمه بما سيكون بعد أن يكون في بضعة عشر موضعاً في القرآن ، كقوله : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ - (البقرة ٢ : ١٤٣) ، مع اخباره في مواضع أكثر من ذلك أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون - انظر الرد ص ٤٦٢ .

(٥) قال في « الرد على المنطقيين » : روى عن ابن عباس في قوله : ﴿ الا لنعلم ﴾ ، أي لنرى ، وروى لنميز . وهكذا قال عامة المفسرين « الا لنرى ونميز » . وكذلك قال جماعة من أهل العلم ، قالوا : لنعلمه موجوداً واقعاً بعد أن كان قد علم أنه سيكون . ولفظ بعضهم ، قال : العلم على المنزلتين - علم بالشيء قبل وجوده ، وعلم به بعد وجوده . والحكم للعلم به بعد وجوده لأنه يوجب الثواب والعقاب ولا ريب أنه كان عالما سبحانه بأنه سيكون ، لكن لم يكن المعلوم قد وجد - انتهى كلامه .

وحينئذ ، فارادة المعين تترجح لعلمه بما في المعين من المعنى المرجح لارادته . فالارادة تتبع العلم .

وكون ذلك المعين متصفا بتلك الصِّفات المرجحة انما هو في العلم والتصور ، ليس في الخارج شيء .

ومن هنا غلط من قال « المعدوم شيء » ، حيث أثبتوا ذلك المراد في الخارج . ومن لم يثبته شيئا في العلم ، أو كان ليس عنده الا ارادة واحدة وعلم واحد ، ليس للمعلومات والمرادات صورة علمية عند هؤلاء . فهؤلاء نفوا كونه شيئاً في العلم والارادة ، وأولئك أثبتوا كونه شيئاً في الخارج .

وتلك الصورة العلمية الارادية حدثت بعد أن لم تكن . وهي حادثة بمشيئته وقدرته ، كما يحدث (الحوادث)[1] المنفصلة بمشيئته وقدرته . فيقدر ما يفعله . ثم يفعله .

فتخصيصها بصفة دون صفة وقدر دون قدر هو للأمور المقتضية لذلك في نفسه . فلا يريد الا ما تقتضي نفسه إرادته بمعنى يقتضي ذلك ، ولا يرجح مرادا على مراد الا لذلك .

ولا يجوز أن يرجح شيئاً لمجرد كونه[2] قادرا . فانه كان قادرا قبل ارادته ، وهو قادر على غيره . فتخصيص هذا بالارادة لا يكون بالقدرة المشتركة بينه وبين غيره .

ولا يجوز أيضاً أن تكون الارادة تخصص مثلاً على مثل بلا مخصص . بل انما يريد المريد أحد الشيئين دون الآخر لمعنى في المريد والمراد - لا بد أن يكون المريد الى ذلك أميل ، وأن يكون في المراد ما أوجب رجحان ذلك الميل .

والقرآن والسنة تثبت القدر ، وتقدير الأمور قبل أن يخلقها ، وأن ذلك في كتاب . وهذا أصل عظيم يثبت العلم والارادة لكل ما سيكون ، ويزيل اشكالات كثيرة ضل بسببها طوائف في هذا المكان - في مسائل العلم والارادة .

فالايمان بالقدر من أصول الايمان ، كما ذكره النبي ﷺ في حديث جبريل - قال : « الايمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » . وقد تبرأ ابن عمر وغيره من الصحابة من المكذبين بالقدر[3] .

---

(١) في الأصل « كما يحدث المنفصلة » بحذف لفظ « الحوادث » ، وقد أثبتناه بمقتضى السياق .

(٢) في الأصل « كعونة » ، والظاهر أنه تصحيف .

(٣) قصة تبرى ابن عمر من هؤلاء مذكور في أول حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بل رواه عنه ابن عمر أخرجه مسلم في أول كتاب الايمان من أول صحيحه . ولفظ ابن عمر ليحيى بن يعمر : فاذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآه مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر - اهـ . وقد =

ومع هذا فطائفة من أهل الكلام وغيرهم لا تثبت القدر الا علما ازليا وارادة أزلية فقط . واذا أثبتوا الكتابة قالوا انها كتابة لبعض ذاك .

وأما من يقول انه قدرها حينئذ ، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء »[1] ، فقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

وهو كقوله : ﴿ وإذْ تأَذَّنَ رَبُّكَ ليبعثنَّ عليهم الىٰ يوم القيامةِ من يسومهُمْ سوءَ العذابِ ﴾ - (الأعراف ٧ : ١٦٧) ، وقوله : ﴿ لأملئنَّ جَهَنَمَ منكَ وممَّنْ تبعكَ منهُمْ أجمعينَ ﴾ - (ص ٣٨ : ٨٥) ، وقوله : ﴿ ولولا كلمةٌ سبقتْ مِنْ ربّكَ لكانَ لزاماً وأجلٌ مسمًّى ﴾ - (طه ٢٠ : ١٢٩) ، وقوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادِنا المرسلينَ . انهم لهُمُ المنصورونَ . وإنَّ جندنَا لهمُ الغالبُونَ ﴾ - (الصافات ٣٧ : ١٧١ - ١٧٣) ، وقوله : ﴿ لولا كتابٌ مِنَ اللهِ سبقَ لمسَّكُمْ فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيمٌ ﴾ - (الأنفال ٨ : ٦٧) .

والكتاب في نفسه لا يكون أزليا . وفي حديث رواه حماد بن سلمة عن الأشعث (أشعث) بن عبد الرحمن الجرمي ، (عن أبي قلابة) ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن شداد بن أوس[2] ، أن رسول الله ﷺ (قال) : « ان الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي سنة (عام) أنزل منه آيتين ختم بهما سورة « البقرة » رواه الترمذي ، وقال غريب[3] .

= تقدم ايراد المصنف الرواية عن ابن عباس رضي الله عنه في تغليظ الكلام على المكذبين بالقدر من رواية ابن أب حاتم في الفصل التاسع من تفسير الأعلى .

(١) أخرجه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، وكذلك أخرجه الترمذي . وقد تكلم المصنف رحمه الله على هذا الموضوع ببعض البسط في الفصل التاسع من تفسير الأعلى ، « اثبات قدر الله السابق لخلقه » ، ص ٥٤ - ٥٧ .

(٢) هكذا في الأصل « عن شداد بن اوس » ، وهو وهم ، وانما هو من حديث النعمان بن بشير . وسبب هذا الوهم - والله أعلم - حديث آخر أخرجه الترمذي في الديات ، باب ما جاء في النهى عن المثلة ، من طريق خالد الحذاء . على أبي قلابة ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن شداد بن أوس ، أن النبي ﷺ قال : « ان الله كتب الاحسان على كل شيء ، فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة . . . الحديث » . ففيه وجه الاشتباه بهذا الحديث اسنادا ومتنا . وسقط من اسناد الأصل اسم أبي قلابة فأضفناه من الترمذي .

وسبب آخر أن الترمذي نفسه قد وهم في « أبي الأشعث الصنعاني » هذا (وأسمه شراجيل بن آدة) في اسناد حديث النعمان بن بشير ، فقال « عن أبي الأشعث الجرمي » كما في نسخ الترمذي ، والصواب « الصنعاني » كما أفاده الحافظ المزي وغيره . وقد ذكره الترمذي على وجه الصواب في اسناد حديث شداد بن أوس . فلعل المصنف عند سرده اسناد حديث النعمان هذا - وهو يرد تصحيح غلط الترمذي - انتقل ذهنه الى اسناد حديث شداد الذي في الديات ، فحصل الوهم من هذه الجهة ، والله أعلم . وليعلم أن وهم المصنف هذا من أندر ما يقع له ، فانه أوتي من الحفظ والاتقان ما يبهر العقول ، وجل مصنفاته من حفظه من غير نقل كما هو معروف من سيرته ، مع أنه من الكتاب المفكرين الناقدين ، لا من مجرد الحفاظ الناقلين . فانه قلما يجتمع لمصنف هذان الوصفان وان كان يوجد لكل من النقد والنقل غرابة اذن في وقوع مثل هذا الوهم الشاذ ، بل الغرابة في عدم وقوعه أكثر والحالة هذه .

(٣) أخرجه الترمذي عن النعمان بن بشير في فضائل القرآن ، باب ما جاء في آخر سورة البقرة . وتمامة « ولا يقرآن في دار ثلاث ليال =

وهو سبحانه أنزل القرآن ليلة القدر من اللوح المحفوظ الى بيت العزة في السماء الدنيا[1] .

وكثير من الكتب المصنفة في أصول الدين والكلام يوجد فيها الأقوال المبتدعة دون القول الذي جاء به الكتاب والسنة .

فالشهرستاني[2] مع تصنيفه في الملل والنحل يذكر في مسألة الكلام والارادة وغيرهما أقوالا ليس فيها القول الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وان كان بعضها أقرب .

وقبله أبو الحسن [3] كتابه في اختلاف المصلين من أجمع الكتب ، وقد استقصى فيه أقاويل أهل البدع . ولما ذكر قول أهل السنة والحديث ذكره مجملا ، غير مفصل . وتصرف في بعضه ، فذكره بما اعتقده هو أنه قولهم من غير أن يكون ذلك منقولا عن أحد منهم .

وأقرب الأقوال اليه[4] قول ابن كلاب .

فأما ابن كلاب فقوله مشوب بقول الجهمية ، وهو مركب من قول أهل السنة وقول الجهمية ، وكذلك مذهب الأشعري في الصفات . وأما في القدر والايمان فقوله قول جهم .

وأما ما حكاه عن أهل السنة والحديث[5] وقال : « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب » فهو[6] أقرب ما ذكره .

وبعضه ذكره عنهم على وجهه ، وبعضه تصرف فيه وخلطه بما هو من أقوال جهم في الصفات والقدر ، اذ كان هو نفسه يعتقد صحة تلك الأصول .

= فيقربها شيطان » . قال المنذري في « الترغيب » : رواه الترمذي وقال : « حديث حسن غريب » ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم .

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة البقرة والقدر : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة . ثم نزل بعده مفرقا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ . هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس من رواية ابن أبي حاتم ، وابن مردوية ، وابن جرير ، وغيرهم ـ اهـ . يريد المصنف بيان أن انزال القرآن قد حصل أولا في ليلة القدر ولم يحصل قبله .

(٣) هو أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أحمد الشهر ستاني المتكلم على مذهب الأشعري ، صاحب التصانيف ، المتوفي سنة ٥٤٨ هـ . له كتاب « الملل والنحل » طبع مراراً .

(١) هو الامام أبو الحسن علي بن اسمعيل الأشعري ، رئيس المتكلمين وصاحب التصانيف ، المتوفي سنة ٣٢٤ هـ . وكتابه هو « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » طبع استانبول سنة ١٩٣٠ م ، جزان ، بتصحيح ريتر المستشرق .

(٢) قوله «إليه» أي الى قول أهل السنة الحديث .

(٣ ، العبارة من رقم ٣ الى رقم ٥ كتبها الناسخ مكرراً في الأصل .

(٤) أي : فقول ابن كلاب أقرب ما ذكره الى قول أهل السنة . وحكايته قول أهل السنة والحديث المشار اليه ههنا في نحو ثمان صفحات (ص ٢٧٧ ـ ٢٨٤) من الجزء الأول من مقالات الاسلاميين منه تحت عنوان « هذه حكاية قول جلة أصحاب الحديث وأهل السنة » ـ

وهو يحب الانتصار لأهل السنة والحديث[1] وموافقتهم فأراد أن يجمع بين ما رآه من رأي أولئك وبين ما نقله عن هؤلاء . ولهذا يقول فيه طائفة انه خرج من التصريح الى التمويه . كما يقوله طائفة : انهم الجهمية الاناث ، وأولئك الجهمية الذكور .

وأتباعه الذين عرفوا رأيه في تلك الأصول ووافقوه أظهروا من مخالفة أهل السنة والحديث ما هو لازم لقولهم ، ولم يهابوا أهل السنة والحديث ويظنوا ويعتقدوا صحة مذاهبهم كما كان هو يرى ذلك .

والطائفتان ـ أهل السنة والجهمية ـ يقولون أنه تناقض ، لكن السني يحمد موافقته لأهل الحديث ويذم موافقته للجهمية ، والجهمي يذم موافقته لأهل الحديث ويحمد موافقته للجهمية .

ولهذا كان متأخروا[2] أصحابه ، كأبي المعالي ونحوه ، أظهر تجهما وتعطيلا[3] من متقدميهم . وهي مواضع دقيقة يغفر الله لمن أخطأ فيها بعد اجتهاده .

لكن الصواب ما أخبر به الرسول ، فلا يكون الحق في خلاف ذلك قط ، والله أعلم .

ومن أعظم الأصول التي دل عليها القرآن في مواضع كثيرة جداً ، وكذلك الأحاديث ، وسائر كتب الله ، وكلام السلف ، وعليها تدل المعقولات الصريحة ، هو اثبات الصفات الاختيارية ، مثل أنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاما يقوم بذاته ، وكذلك يقوم بذاته فعله الذي يفعله بمشيئته[4] .

فاثبات هذا الأصل يمنع ضلال الطوائف الذين كذبوا به ، والقرآن والحديث مملوء ، وكلام السلف والأئمة مملوء من اثباتها .

فالحق المحض ما أخبر به الرسول ﷺ ، فلا يكون الحق في خلاف ذلك . لكن الهدى التام يحصل بمعرفة ذلك وتصوره . فان الاختلاف تارة ينشأ من سوء الفهم ونقص العلم ، وتارة من سوء القصد .

والناس يختلفون في العلم والارادة ـ في تعدد ذلك وايجاده .

---

(١) العبارة من رقم ٣ الى رقم ٥ كتبها الناسخ مكرراً في الأصل .

(٢) في الأصل « متاخري » .

(٣) قوله : « أظهر تجهما وتعطيلا » ، أي أشد وأغلظ في اظهار التجهم والتعطيل ، و « أظهر » أفعل التفضيل « الظاهر » .

(٤) قد أفرد المصنف في اثبات هذا الأصل العظيم فصلاً مستقلاً كما سيأتي ، وهو الفصل الرابع عشر تحت عنوان « بيان اثبات الصفات الاختيارية كالخلق والتكليم » .

ومعلوم أن ما يقوم بالنفس من ارادة الأمور ، لا يمكن أن يقال فيه : العلم بهذا هو العلم بهذا ولا ارادة هذا هو ارادة هذا . فان هذا مكابرة وعناد .

وليس تمييز العلم عن العلم ، والارادة عن الارادة ، تمييزا مع انفصال أحدهما عن الآخر بل نفس الصفات المتنوعة ـ كالعلم ، والقدرة ، والارادة ـ اذا قامت بمحل واحد لم ينفصل بعضها عن بعض ، بل محل هذا هو محل هذا ، كالطعم واللون والرائحة القائمة بالأترجة الواحدة وأمثالها من الفاكهة وغيرها .

فاذا قيل « وهي علوم وارادات » لم ينفصل هذا عن هذا بفصل حسي ، بل هو نوع واحد قائم بالنفس . واذا علم هذا بعد علمه بذلك فقد زاد هذا النوع وكثر ـ وان شئت قلت : عظم . فلا يزيد فيه زيادة الكمية عن زيادة الكيفية .

بل يقال « علم كثير ، وعلم عظيم » بأن تكون العظمة ترجع الى قوته وشرف معلومه ، ونحو ذلك ، كما قال النبي ﷺ لأبي بن كعب : « أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم » ؟ قال : ﴿ اللهُ لا اله إلاَّ هُوَ الحيُّ القَيُّومُ ﴾ فقال : ﴿ ليهبنك العلم ، أبا المنذر »[1] ! .

وكتب سلمان الى أبي الدرداء : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك[2] .

وانضمام العلم الى العلم ، والارادة الى الارادة ، والقدرة الى القدرة ، هو[3] شبيه بانضمام الأجسام المتصلة ، كالماء اذا زيد فيه ماء فانه يكثر قدره . لكن هو كم متصل لا منفصل ، بخلاف الدراهم .

فاذا قيل « تعددت العلوم والارادات » فهو اخبار عن كثرة قدرها ، وانها أكثر وأعظم مما كانت ، لا أرى هناك معدودات منفصلة كما قد يفهم بعض الناس .

ولهذا كان العلم اسم جنس . فلا يكاد يجمع في القرآن ، بل يقال : ﴿ فمن حاجَّك فيهِ مِنْ بعدِ ما جاءَكَ مِنَ العلمِ ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ٦١) ، فيذكر الجنس . وكذلك الماء ، ليس في القرآن ذكر مياه ، بل انما يذكر جنس الماء : ﴿ وأنزلنا مِنَ السَّماءِ ماءً طهوراً ﴾ ـ (الفرقان ٢٥ : ٤٨) ، ونحو ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلوة ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ، وكذلك أبو داؤد .

(٢) أخرجه أبو نعيم باسناده عن أبي الدراء نفسه أنه قال : « ليس الخير ، الخ » ، وزاد في اخره « وأن تبارى الناس في عبادة الله عز وجل ، فان أحسنت حمدت الله ، وأن أسأت استغفرت الله عز وجل » ـ حلية الأولياء ، ج ١ ، ص ٢١٢ .

(٣) في الأصل « وهو » بزيادة واوا ، والصحيح حذفها ، فان الضمير ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر .

والعلم يشبه بالماء ، كقوله ﷺ : « ان مثل ما بعثني به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا . . . الحديث »[1] . وقد قال : ﴿ أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسَالَت أودِيةٌ بقدرِهَا ـ الى قوله ـ كذلكَ يضرِبُ الأمثالَ ﴾ ـ (الرعد ١٣ : ١٧) .

وما خلقه الرب تعالى فانه يراه ، ويسمع أصوات عباده . والمعدوم لا يرى باتفاق العقلاء .

والسالمية[2] كأبي طالب المكي[3] وغيره لم يقولوا : انه يرى قائما بنفسه ، وانما قالوا : يراه الرب في نفسه وان كان هو معدوما في ذات الشيء المعدوم . فهم يجعلون الرؤية لما يقوم بنفس العالم من صورته العلمية ما هو عدم محض . وهم وان كان غلطوا في بعض ما قالوه فلم يقولوا : ان العدم المحض الذي ليس بشيء يرى ، فان هذا لا يقوله عاقل . وفي الحقيقة اذا رئي شيء فانما رئي مثاله العلمي ، ولا عينه .

وأبو الشيخ الأصبهاني[4] لما ذكرت هذا المسألة أمر بالامساك عنها .

فقبل أن يوجد لم يكن يرى ، وبعد أن يعدم لا يرى ، وانما يرى حال وجوده . وهذا هو الكمال في الرؤية .

وكذلك سمع أصوات العباد هو عند وجودها ، لا بعد فنائها ، ولا قبل حدوثها . قال تعالى : ﴿ وقل أعملُوا فسيرىٰ اللهُ عملكُمْ ورسولُهُ والمؤمنونَ ﴾ ـ (التوبة ٩ : ١٠٥) ، وقال : ﴿ ثم جعلناكُمْ خلائفَ في الأرضِ مِنْ بعدِهم لننظرَ كيفَ تعملُونَ ﴾ ـ (يونس ١٠ : ١٤) .

---

(١) هو طرف من حديث أبي موسى الأشعري في العم أخرجه الشيخان .

(٢) هم أتباع أبي الحسن أحمد بن محمد بن سالم الزاهد البصري شيخ السالمية ، وعنه أخذ الأستاذ أبو طالب المكي ، وهو آخر أصحاب سهل التستري وفاة ، وقد خالف أصول السنة في مواضع وبالغ في الاثبات في مواضع ،عمر داهراً ، توفي في عشر الستين وثلاثمائة ، ٣٦٠ هـ عن « شذرات الذهب عن العبر » .

(٣) هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي العجمي ثم المكي صاحب كتاب « قوت القلوب » نشأ بمكة ، وتزهد ، وسلك ، ولقي الصوفية ، وصنف في التوحيد ، ووعظ ، وكان صاحب رياضة ومجاهدة ، وكان علي نحلة أبي الحسن بن سالم البصري شيخ السالمية توفي ببغداد سنة ٣٨٦ هـ . قال ابن خلكان نقلا عن محمد بن طاهر المقدسي في كتاب الأنساب أن أبا طالب المكي لما دخل بغداد واجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ في كلامه . . . فبدعه الناس وهجروه . وامتنع من الكلام بعد ذلك ـ اهـ .

(قلت) : فقد نقل المصنف في « كتاب الايمان » قطعة كبيرة من كلام أبي طالب المكي في الفرق بين الاسلام والايمان من كتابه « قوت القلوب » ثم انتقده بعد مدحه بقوله : وهذا الذي قاله أجود ما قاله كثير من الناس ، لكن ينازع في شيئين . . . الى آخر كلامه ، انظر « كتاب الايمان » طبع مصر . ص ١٣٣ ـ ١٣٨ .

(٤) هو الحافظ أبو الشيخ وأبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر المعروف بابن حيان الاصبهاني صاحب التصانيف منها « عظمة الله ومخلوقاته » ، و « طبقات المحدثين باصفهان » ، كان حافظاً ثبتاً متقناً ، توفي سنة ٣٦٩ هـ .

فقبل ان يوجد لم يكن يرى ، وبعد ان يعدم لا يرى ، وانما يرى حا وجوده . وهذا هو الكمال في الرؤية .

(٦) فصـــــل

وظيفة الرسول الهداية والرحمة

الرسول ﷺ بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين . فانه كما أرسله بالعلم والهدى ، والبراهين العقلية والسمعية ، فانه ارسله بالاحسان الى الناس ، والرحمة بلا عوض ،وبالصبر على أذاهم واحتماله . فبعثه بالعلم ، والكرم ، والحلم ـ عليم هاد ، كريم حسن ، حليم صفوح .

قال تعالى : ﴿ وإنَّك لتهدي إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ * صراطَ اللهِ الَّذي لهُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ ، ألا إلىٰ اللهِ تصيرُ الامور ﴾ ـ (الشورى ٤٢ : ٥٢ ، ٥٣) . وقال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ﴾ ـ (ابراهيم ١٤ : ١) . وقال تعالى : ﴿ وكذلكَ أوحينَا اليكَ رُوحاً مِنْ أمرِنَا ، ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناهُ نوراً نهدي بهِ من نشاءُ مِنْ عبادِنا ﴾ ـ (الشورى ٤٢ : ٥٢) . ونظائره كثيرة .

وقال : ﴿ قل ما أسألكُمْ عليهِ من أجرٍ ﴾ ـ (الفرقان ٢٥ : ٥٧ وص ٣٨ : ٨٦) . وقال : ﴿ قلْ لا أسألكُمْ عليهِ أجراً ﴾ ـ (الأنعام ٦ : ٩٠ ، والشورى ٤٢ : ٢٣) . فهو يعلم ويهدي ويصلح القلوب ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض .

وهذا نعت الرسل كلهم ـ كل يقول : ﴿ وما أسألكمْ عليهِ مِنْ أجرٍ ﴾ ـ (الشعراء ٢٦ : ١٠٩ وأربع آيات آخر) . ولهذا قال صاحب يٓس : ﴿ يا قومِ اتبعُوا المرسلينَ * اتبعُوا من لا يسألكُمْ اجراً وهُمْ مهتدونَ ﴾ ـ (يٓس ٣٦ : ٢٠ ، ٢١) .

وهذا سبيل من أتبعه ، كما قال : ﴿ قُلْ هذهِ سبيلي أدعُوا الىٰ اللهِ علىٰ بصيرةٍ أَنَا وَمَنْ اتبعني ﴾ ـ (يوسف ١٢ : ١٠٨) .

وأما المخالفون لهم فقد قال عن المنتسبين اليهم مع بدعة ﴿ إنَّ كثيراً مِنَ الأَحبارِ والرهبانِ ليأكلونَ أموالَ النَّاسِ بالباطل ويصدُّونَ عن سبيلِ اللهِ ﴾ ـ (التوبة ٩ : ٣٤) . فهؤلاء أخذوا أموالهم ومنعوهم سبيل الله ، ضد الرسل . فكيف بمن هو شر من هؤلاء من

علماء المشركين ، والسحرة والكهان ، فهم أوكل[1] لاموالهم بالباطل وأصد عن سبيل (الله) من الاحبار والرهبان .

وهو سبحانه قال : ﴿ ان كثيراً من الاحبار والرهبان ﴾ ، فليس كلهم كذلك ، بل قال في موضع آخر : ﴿ ولتجدنَّ أقربهُمْ مودةً للذينَ آمنُوا الَّذينَ قالُوا إنَّا نصارىٰ ، ذلكَ بأَنَّ منهم قسيسينَ ورهباناً وأَنَّهم لا يستكبرونَ ﴾ - (المائدة ٥ : ٨٢) .

وقد قال في وصف الرسول : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَىٰ الغيبِ بضنينٍ ﴾ - (التكوير ٨١ : ٢٤) ، وفيها قراءتان . فمن قرأ ﴿ بظنين ﴾ ، اي ما هو بمتهم على الغيب ، بل ما هو صادق أمين فيما يخبر به . ومن قرأ ﴿ بضنين ﴾ ، أي ما هو ببخيل ، ولا يبذله الا بعوض ، كالذين يطلبون العوض على ما يعلمونه .

فوصفه بأنه يقول الحق فلا يكذب ، ولا يكتم ، وقد وصف أهل الكتاب بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ، وأنهم يشترون به ثمناً قليلاً .

ومع هذا وهذا قد أمده بالصبر على آذاهم . وجعله كذلك يعطيهم ماهم محتاجون اليه غاية الحاجة بلا عوض ، وهم يكرهونه ويؤذونه عليه .

وهذا اعظم من الذي يبذل الدواء النافع للمرضى ، ويسقيهم اياه بلا عوض ، وهم يؤذونه . كما يصنع الاب الشفيق . وهو أب المؤمنين .

وكذلك نعت أمته[2] بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيرَ أُمةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ ﴾ - (آل عمران ٣ : ١١٠) ، قال أبو هريرة : كنتم خير الناس للناس - تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة[3] . فيجاهدون - يبذلون أنفسهم وأموالهم - لمنفعة الخلق وصلاحهم ، وهم يكرهون ذلك لجهلهم ، كما قال أحمد في خطبته :

« الحمد الله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من

---

(١) كذا بالاصل ، وهو أفعل التفضيل من أكل - يأكل ، والقياس أن يقال : أكل او آكل .

(٢) في الأصل « أمة » .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير عن أبي هريرة موقوفا. ولفظه: عن أبي هريرة﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾، قال: خير الناس للناس - تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الاسلام . وأخرجه مرفوعا في الجهاد ، باب الاسارى في السلاسل ، بلفظ « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » ، ولفظ أبي داؤد « عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة في السلاسل » . قال الحافظ في الفتح : ونحوه ما أخرجه من طريق ابي الطفيل رفعه : « رأيت ناسا من أمتي يساقون الى الجنة في السلاسل كرها » . قلت : يا رسول الله من هم ؟ قال : « قوم من العجم يسبيهم المهاجرون ، فيدخلونهم في الاسلام مكرهين » .

ضل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الاذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى . فكم من قتيل لابليس قد احيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم » ـ الى آخر كلامه[1] .

فهذا ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه . وهو سبحانه يجزي الناس بأعمالهم ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . فهو ينعم على الرسول بانعامه جزاء على احسانهم ، والجميع منه ، فهو الرحمن الرحيم الجواد الكريم الحنان المنان ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وله الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

وهو سبحانه يحب معالي الاخلاق ويكره سفسافها[2] . وهو يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات[3] . وقد قيل أيضاً : وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات ، ويحب السماحة ولو بكف من تمرات .

والقرآن أخبر انه يحب المحسنين ، ويحب الصابرين . وهذا هو الكرم والشجاعة .

(٧) فصـــل

(في قوله : الاكرم)

وقوله : ﴿ الاكرم ﴾ يقتضي اتصافه بالكرم في نفسه ، وأنه الاكرم وانه محسن الى عباده . فهو مستحق للحمد لمحاسنه واحسانه .

وقوله : ﴿ ذُو الجلالِ والاكرامِ ﴾ ـ (الرحمن ٥٥ : ٢٧) . فيه ثلاث أقوال ، قيل : أهل أن يجل وان يكرم ، كما يقال أنه ﴿ أهل التقوى ﴾ ـ (المدثر ٧٤ : ٥٦) ، أي المستحق لان يتقى . وقيل : أهل أن يجل في نفسه (و) أن يكرم أهل ولايته وطاعته . وقيل : أهل ان يجل في نفسه وأهل أن يكرم .

ذكر الخطابي الاحتمالات الثلاثة ، ونقل ابن الجوزي كلامه فقال : قال أبو سليمان الخطابي : الجلال مصدر الجليل ، قال : جليل بين الجلالة والجلال . والاكرم مصدر أكرم ـ يكرم ـ اكراما . والمعنى : انه يكرم اهل ولايته وطاعته ، وان الله يستحق ان يجل ويكرم ـ ولا

---

(١) هذه الخطبة للامام أحمد بن حنبل فيما صنفه في الرد على الزنادقة والجهمية ، وقد طبع بمصر غير مرة آخرى سنة ١٣٦٩ هـ صفحاته ٤٦ ، وكثيراً ما يوردها المصنف في أوائل كتاب « العقل والنقل » ، ج ١ ، ص ٨ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ، عن الحسين بن علي ، حديث حسن ـ الجامع الصغير . قال في النهاية : « السفساف » : الامر الحقير والرديء من كل شيء وهو ضد المعالي والمكارم . وأصله ما يطير من غبار الدقيق اذا نخل ، والتراب اذا أثير .

(٣) ذكره ابن القيم رح في « اعلام الموقعين » ، « اغاثة اللهفان » ، وقال انه حديث مرسل .

يجحد ولا يكفر به . قال : ويحتمل ان يكون المعنى : يكرم أهل ولايته ويرفع درجاتهم .

(قلت) : وهذا الذي ذكره البغوي فقال : ﴿ ذو الجلال ﴾ العظمة والكبرياء ﴿ والاكرام ﴾ يكرم أنبياءه وأولياءه للطفه مع جلاله وعظمته .

قال الخطابي : وقد يحتمل أن يكون أحد الامرين ـ وهو الجلال ـ مضافا الى الله بمعني الصفة له ، والآخر مضافا الى العبد بمعنى الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أهلُ التقوىٰ وأَهلُ المغفرةِ ﴾ ـ (المدثر ٧٤ : ٥٦) ـ فانصرف أحد الامرين الى الله وهو المغفرة ، والآخر الى العباد وهو التقوى .

(قلت) : القول الاول هو أقربها الى المراد ، مع أن الجلال هنا ليس مصدر جل ـ جلال ، بل هو اسم مصدر أجل ـ اجلالاً ، كقول النبي ﷺ : « ان من اجلال الله اكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه ، و﴿ اكرام ﴾ ذي السلطان المقسط ﴾[1] . فجعل اكرام هؤلاء من جلال الله ، أي من اجلال الله ، كما قال : ﴿ والله انبتكم من الأرض نباتا ﴾ ـ (نوح ٧١ : ١٧) . وكما يقال : كلمه كلاما ، وأعطاه عطاء ، والكلام والعطاء اسم مصدر التكليم والاعطاء .

والجلال قرن بالاكرام ، وهو مصدر المتعدي ، فكذلك الاكرام .

ومن كلام السلف : « أجلوا الله ان تقولوا كذا » . وفي حديث موسى : يا رب ، اني أكون على الحال التي أجلك أن اذكرك عليها . قال : « اذكرني على كل حال »[2] .

واذا كان مستحقا للاجلال والاكرام لزم أن يكون متصفا في نفسه بما يوجب ذلك ، كما اذا قال : الاله هو المستحق لان يؤله ، أي يعبد ، كان هو في نفسه مستحق لما يوجب ذلك . واذا قيل ﴿ هو أهل التقوى ﴾ كان هو في نفسه متصفاً بما يوجب أن يكون هو المتقي .

ومنه قول النبي ﷺ اذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول : « ربنا ولك الحمد » : « ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا

---

(١) اخرجه أبو داؤد في الادب ، باب في تنزيل الناس منازلهم ، من حديث أبي موسى الاشعري . ومعنى الغالي في القرآن هو المتجاوز الحد في العمل به ، وتتبع ما خفى منه واشتبه عليه من معانيه ، وفي حدود قراءته ومخارجه . والجافي عنه هو المتباعد عنه ، المعرض عن تلاوته ، واحكام قراءته ، واتقان معانيه والعمل بما فيه .

(٢) ذكره الشيخ ابن القيم في « الوابل الصيب » أتم منه فقال : وقال كعب : قال موسى عليه السلام : يا رب ، أقريب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ فقال تعالى : ﴿ يا موسى ، أنا جليس من ذكرني ﴾ . قال : اني اكون على حالة أجلك عنها . قال : ما هي ، يا موسى » ؟ قال : عند الغائط والجنابة . قال : « اذكرني على كل حال » ـ الطبعة المنيرية ، ص ٩٨ .

ينفع ذا الجسد منك الجد »[1] . أي هو مستحق لأن يثني عليه وتمجد نفسه .

والعباد لا يحصون ثناء عليه ، وهو كما أثنى على نفسه . كذلك هو أهل أن يجل وأن يكرم . وهو سبحانه يجل نفسه ويكرم نفسه ، والعباد لا يحصون اجلاله واكرامه .

والاجلال من جنس التعظيم ، والاكرام من جنس الحب والحمد . وهذا كقوله : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ . فله الاجلال والملك ، وله الاكرام والحمد .

والصلوة مبناها على التسبيح في الركوع والسجود ، والتحميد والتوحيد في القيام والقعود ، والتكبير في الانتقالات ، كما قال جابر«كنا مع رسول الله ﷺ ، فكنا اذا علونا كبرنا واذا هبطنا سبحنا ، فوضعت الصلوة على ذلك » ـ رواه أبو داؤ د .

وفي الركوع يقول : « سبحان ربي العظيم » . وقال النبي ﷺ : « اني نهيت ان اقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء ، فقمين ان يستجاب لكم »[3] .

واذا رفع رأسه حمد فقال : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » فيحمده في هذا القيام ، كما يحمده في القيام الاول اذا قرأ أم القرآن .

فالتحميد والتوحيد مقدم على مجرد التعظيم . ولهذا اشتملت الفاتحة على هذا ـ اولها تحميد ، وأوسطها تمجيد . ثم في الركوع تعظيم الرب . وفي القيام يحمده ، ويثني عليه ويمجده .

فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محمودا وكونه معبودا . فانه يحب أن يحمده ويعبد ، ولا بد من ذلك من التعظيم ، فان التعظيم لازم لذلك .

وأما التعظيم فقد يتجرد عن الحمد والعبادة على أصل الجهمية . فليس ذلك بأمور به ، ولا يصير العبد به لا مؤمناً ، ولا عابداً ، ولا مطيعاً .

وأبو عبد الله بن الخطيب الرازي يجعل الجلال للصفات السلبية ، والاكرام للصفات

---

(١) اخرجه مسلم ، وأبو داؤ د ، والنسائي ، من حديث أبي سعيد الخدري ، وليس فيه «ملء ما بينهما » ، بل هو في حديث ابن عباس ويحذف « ملء » . والمطلوب من هذا الدعاء ههنا قوله : « أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد » .

(٢) هذا معنى قطعة من حديث آبن عمر أخرجه أبو داؤ د في الجهاد ، باب وما يقول الرجل اذا سافر ، ولفظه « وكان النبي ﷺ وجيوشه اذا علو الثنايا كبروا ، واذا هبطوا سبحوا « فوضعت الصلوة على ذلك » ، وأوله : أن رسول الله ﷺ كان اذا استوى على بعيره . . الحديث . وأخرجه أيضاً مسلم ، والترمذي ، ولكن بدون هذه الزيادة في آخره ، وهي قوله : « فوضعت الصلوة على ذلك » . أما حديث جابر فأخرجه البخاري في موضعين من الجهاد ، باب التسبيح اذا هبط واديا ، وباب التكبير اذا علا شرفا ، ولكن ليس فيه « فوضعت الصلوة على ذلك » . وتقدم حديث أبي داؤ د مع تعليقنا عليه على صفحة ٣٥ .

(٣) أخرجه مسلم ، وابو داؤ د ، والنسائي ، في الصلوة ، عن ابن عباس ، وفي اوله قصة ، وقطعة في الرؤ يا .

الثبوتية ، فيسمى هذه « صفات الجلال » وهذه « صفات الاكرام » وهـذا اصطلاح لـه ، وليس المراد هٰذا في قوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ ـ (الرحمن ٥٥ : ٢٧) ، وقوله : ﴿ تباركَ اسمُ ربّكَ ذي الجلالِ الاكرامِ ﴾ ـ (٥٥ : ٧٨)[١] .

وهو في مصحف أهل الشام ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ﴾ ، وهي قراءة ابن عامر ، فالاسم نفسه يذوي بالجلال والاكرام . وفي سائر المصاحف ـ وفي قراءة الجمهور ـ ﴿ ذي الجلال ﴾ ، فيكون المسمى نفسه .

وفي الاولى ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ . فالمذوي وجهه سبحانه ، وذلك يستلزم أنه هو ذو الجلال والاكرام . فانه اذا كان وجهه ذا الجلال والاكرام كان هذا تنبيها ، كما أن اسمه اذا كان ذا الجلال والاكرام كان تنبيها على المسمى .

وهذا يبين ان المراد انه يستحق ان يجل ويكرم .

فان الاسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى . ونفسه لا يفعل شيئا ـ لا اكراما ولا غيره . ولهذا ليس في القرآن اضافة شيء من الافعال والنعم الى الاسم .

ولكن يقال : ﴿ سبّح اسمَ ربّكَ الاعلىٰ ﴾ ، ﴿ تباركَ اسم ربك ﴾ ، ونحو ذلك . فان اسم الله مبارك تنال معه البركة . والعبد يسبح اسم ربه الاعلى فيقول : « سبحان ربي الاعلى » . ولما نزل قوله : ﴿ سبح اسم ربك الاعلى ﴾ قال : « اجعلوها في سجودكم » ، فقالوا : « سبحان ربي الاعلى » .

فكذلك كان النبي ﷺ لا يقول : « سبحان اسم ربي الاعلى » . لكن قوله : « سبحان ربي الاعلى » هو تسبيح لاسمه يراد به تسبيح المسمى ، ولا يراد به تسبيح مجرد الاسم ، كقوله : ﴿ قل ادعُوا الله أو ادعُوا الرحمٰنَ ، أيّاماً تدعُوا فلهُ الاسماءُ الحُسنىٰ ﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ١١٠) . فالداعي يقول « يا الله » « يا رحمن » ومراده المسمى . وقوله ﴿ أياما ﴾ ، أي الاسمين تدعوا ، ودعاء الاسم هو دعاء مسماه .

وهذا هو الذي اراده من قال من أهل السنة : ان الاسم هو المسمى أرادوا به أن الاسم اذا دعي وذكر يراد به المسمى . فاذا قال المصلي « الله اكبر » فقد ذكر اسم ربه ، ومراده المسمى .

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج . فان فساد هذا لا يخفى على من تصوره، ولو كان كذلك كان من قال: «نارا» احترق لسانه. وبسط هذا له موضع آخر.

---

(١) في الأصل (ذي الجلال) في الأولى ، (ذو الجلال) في الثانية ، ولعله من تصرف الناسخ لان المصنف نفسه سيذكر اختلاف القراءتين في الثانية ، ولا تعرض له في الأولى . ولهذا أثبتناهما على قراءة الجمهور كما في المصاحف .

والمقصود ان الجلال والاكرام مثل الملك والحمد ، كالمحبة والتعظيم . وهذه تكون في الصفات الثبوتية والسلبية . فان كل سلب فهو متضمن للثبوت . وأما السلب المحض فلا مدح فيه .

وهذا مما يظهر به فساد قول من جعل أحدهما للسلب والآخر للاثبات ، لاسيما اذا كان من الجهمية الذين ينكرون محبته ولا يثبتون له صفات توجب المحبة والحمد . بل انما يثبتون ما يوجب القهر ، كالقدرة . فهؤلاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وألحدوا في أسمائه وآياته بقدر ما كذبوا به من الحق ، كما بسط هذا في غير هذا الموضع .

(٨) فصـــل

(في ان المخلوق يدل على الخالق)

قوله تعالى في أول ما أنزل : ﴿ اقرأ باسمِ ربّكَ الّذي خلقَ ﴾ ، وقوله : ﴿ إقرأ وربّكَ الاكرمْ ﴾ .

ذكر في الموضعين بالاضافة التي توجب التعريف ، وأنه معروف عند المخاطبين ، اذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق . وان المخلوق مع انه دليل وانه يدل على الخالق ، لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ، ومعرفته فطرية ، مغروزة في الفطرة ، ضرورية ، بديهية ، أولية[1] .

وقوله : ﴿ اقرأ ﴾ ،وان ،كان خطابا للنبي ﷺ أولاً[2] فهو خطاب لكل أحد ، سواء كان قوله : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ هو خطاب للانسان مطلقاً والنبي ﷺ أول من سمع هذا الخطاب ، اومن النوع[3] ، اوهو خطاب للنبي ﷺ خصوصاً ، كما قد قيل في نظائر ذلك .

مثل قوله : ﴿ ما أصابكَ مِنْ حسنةٍ فمنْ اللهِ ، وما أصابكَ من سيئةٍ فمِنْ نفسكَ ﴾ -

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في « مدارج السالكين » : بل دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال على الفعل ، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزاكية المشرقة العلوية والفطر الصحيحة أظهر من العكس . وهو الذي أشارت اليه الرسل بقولهم لامهم ﴿ أفي الله شك ﴾ ؟ ، أي أيشك في الله حتى يطلب اقامة الدليل على وجوده ، وأي دليل اصح واظهر من هذا المدلول ؟ وسمعت شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ وكان كثيراً يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الاذهان شيء *** اذا احتاج النهار الى دليل

ومعلوم ان وجود الرب تعالى اظهر للعقول والفطر من وجود النهار ـ انتهى ملخصا .

(٢) في الأصل « والا » والظاهر أنه تصحيف .

(٣) قوله : « اومن النوع » عطف على قوله : « أول من سمع هذا الخطاب » ، أي أو النبي ﷺ من النوع ، أي من نوع الانسان .

(النساء ٤ : ٧٩) ، قيل خطاب له ، وقيل خطاب للجنس ، وأمثال ذلك . فانه وان قيل انه خطاب له فقد تقرر ان ما خوطب به من أمر ونهي فالأمة مخاطبة به ما لم يقم دليل التخصيص .

وبهذا يبين ان قوله تعالى : ﴿ فإنْ كنتَ في شكٍ ممّا أنزلنَا اليكَ فسئل الَّذينَ يقرءُون الكتابَ من قبلكَ ﴾ - (يونس ١٠ : ٩٤) يتناول غيره ، حتى قال كثير من المفسرين : الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره . أي هم الذين أريد منهم أن يسألوا لما عندهم من الشك ، وهو لم يرد منه السؤال اذا لم يكن عنده شك .

ولا شك ان هذا لا يمتنع أن يكون هو مخاطبا ومرادا بالخطاب ، بل هذا صريح اللفظ ، فلا يجوز أن يقال ان الخطاب لم يتناوله . ولان ليس في الخطاب انه أمر بالسؤال مطلقاً ، بل أمر به ان كان عنده شك ، وهذا لا يوجب ان يكون عنده شك . ولا أنه امر به مطلقاً ، بل أمر به أن كان هذا موجوداً ، والحكم المعلق بشرطٍ عُدِمَ عند عدمه .

وكذلك كثير من المفسرين يقول في قوله : ﴿ الحقُّ من ربّكَ فلا تكونَنَّ مِنَ الممترينَ ﴾ - (البقرة ٢ : ١٤٧) ، وفي قوله : ﴿ ولا تُطعِ الكافرينَ والمنافقينَ ﴾ - (الاحزاب ٣٣ : ١ ، ٤٨) ، ونحو ذلك : ان الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره . أي غيره قد يكون ممتريا ومطيعا لأولئك فنهي ، وهو لا يكون ممتريا ولا مطيعا لهم .

ولكن بتقدير أن يكون الامر كذلك فهو أيضاً مخاطب بهذا ، وهو منهي عن هذا . فالله سبحانه قد نهاه عما حرمه من الشرك ، والقول عليه بلا علم ، والظلم ، والفواحش . وينهي الله له عن ذلك وطاعته لله في هذا استحق عظيم الثواب ، ولو لا النهي والطاعة لما استحق ذلك .

ولا يجب ان يكون المأمور المنهي ممن يشك طاعته، ويجوز عليه ان يعصي الرب، أو يعصيه مطلقاً ولا يطيعه ، بل الله أمر الملائكة مع علمه انهم يطيعونه ، امرهم به مع علمه انهم يطيعونه . . وكذلك المؤمنون كل ما أطاعوه فيه قد امرهم به .

ولا يقال : لا يحتاج الى الامر ، بل بالأمر صار مطيعاً مستحقاً لعظيم الثواب .

ولكن النهي يقتضي قدرته على[1] المنهى عنه ، وانه لو شاء لفعله ، ليثاب على ذلك اذا تركه . وقد يقتضي قيام السبب الداعي الى فعله فينهي عنه ، فانه بالنهي واعانة الله له على الامتثال يمتنع عما نهي عنه اذا قام السبب الداعي له اليه .

---

(١) بالأصل كن والصواب ، « على » .

وكذلك قد قيل في قوله : ﴿ سلْ بني اسرائيلَ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢١٠) انه امر للرسول ، والمراد به هو والمؤمنون ، وقيل هو امر لكل مكلف .

فقوله في هذه السورة ﴿ اقرأ ﴾ كقوله في آخرها : ﴿ واسجد واقترب ﴾ ، وقوله : ﴿ فَأَمّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ * وأما السائِلَ فلا تَنْهَرْ * وأمّا بنعمةِ ربّكَ فحدِّث ﴾ - (الضحى ٩٣ : ٩ - ١١) . هذا متناول لجميع الامة . وقوله : ﴿ يا أَيّها المزَّمِل * قم اللَّيلَ إلاّ قليلاً ﴾ - (المزمل ٧٣ : ١ ، ٢) ، فانه كان خطاباً للمؤمنين كلهم .

وكذلك قوله : ﴿ يا أيّها المدَّثِر * قم فأَنذِر ﴾ - (المدثر ٧٤ : ١ ، ٢) ، لما أمر بتبليغ ما أنزل اليه من الانذار . وهذا فرض على الكفاية . فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل اليه وينذروا كما أنذر . قال تعالى :﴿فلولا نَفَرَ مِنْ كلِّ فرقةٍ منهم طائفة ليتفقهُوا في الدِّينِ ولينذِرُوا قومهُمْ اذا رجعُوا اليهم لعلّهُمْ يحذَرُونَ ﴾ - (التوبة ٩ : ١٢٢) . والجن لما سمعوا القرآن (ولَّوا الىٰ قومهم منذرينَ ﴾ - (الأحقاف ٤٦ : ٢٩) .

واذا كان كذلك فكل انسان في قلبه معرفة بربه . فاذا قيل له : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ عرف ربه الذي هو مأمور[1] أن يقرأ باسمه ، كما يعرف أنه مخلوق ، والمخلوق يستلزم الخالق ويدل عليه .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن الاقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس ، وان كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج الى نظر تحصل له بعد المعرفة . وهذا قول جمهور الناس وعليه حذاق النظار ، ان المعرفة تارة تحصل بالضرورة ، وتارة بالنظر ، كما اعترف بذلك غير واحد من أئمة المتكلمين [2] .

وهذه الآية أيضاً تدل على انه ليس النظر أول واجب ، بل اول ما أوجب الله على

---

(١) في الاصل « مأمورا » بالنصب ، ولا وجه له .

(٢) قوله المصنف « وبين أن الاقرار والاعتراف بالخالق فطري . . الى قوله . . كما اعترف بذلك غير واحد من ائمة المتكلمين » (قدر ستة اسطر) ، نقله الشيخ محمد بن محمد بن محمد المنبجي في رسالته في « الكلام على الفطرة ومعرفة الله » المطبوعة ضمن « مجموعة الرسائل الكبرى » لابن تيمية ، مصر سنة ١٣٢٣ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ قال فيها : « قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الكلام على سورة القلم ، وذكر أن القول ما أوجب الله على نبيه وأمره به ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ، ثم قال بعد كلام كثير . . . » ، فذكره فيه دليل على اطلاع هذا الشيخ على تفسير العلق هذا للمصنف . قال في « شذرات الذهب » : و (توفي) فيها (٧٧٤) هـ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن محمد الصالحي عرف بالمنبجي الحنبلي الشيخ الامام العالم ، له مصنف في الطاعون واحكامه ، جمعه في الطاعون الواقع سنة ٧٦٤ هـ ، وفيه فوائد غريبة - اهـ . قلت : هو كتاب : « تسلية أهل المصائب في موت الاولاد ، الاقارب » ، طبع بمصر سنة ١٣٤٨ هـ . وانظر حديث ابن تيمية عن الفطرة روج دلالتها على وجود الله من سبعة أوجه ذكرها من العقل والتعقل الجزء الرابع لخطوط رقم ٨٤ عقائد تيمور دار الكتب المصرية .

نبيه ﷺ ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ، لم يقل : « انظر واستدل حتى تعرف الخالق » .

وكذلك هو أول ما بلغ هذه السورة . فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء ولم يؤمروا فيها بالنظر والاستدلال .

وقد ذهب كثير من أهل الكلام الى أن اعتراف النفس بالخالق واثباتها له لا يحصل الا بالنظر .

ثم كثير منهم جعلوا ذلك نظرا مخصوصا ، وهو النظر في الاعراض ، وانها لازمة للاجسام ، فيمتنع وجود الاجسام بدونها(١) .

قالوا : وما لا يخلو عن الحوادث ، أو ما لا يسبق الحوادث ، فهو حادث .

ثم منهم من اعتقد ان هذه المقدمة بينة بنفسها ، بل ضرورية ، ولم يميز بين الحادث المعين والمحدود وبين الجنس المتصل شيئاً بعد شيء اما لظنه أن هذا ممتنع ، او لعدم ظهوره بقلبه . لكن وان قيل هو ممتنع فليس العلم بذلك بديهياً(٢) .

وانما العلم البديهي ان الحادث الذي له مبدأ محدود كالحوادث . والحوادث المقدرة من حين محدود فتلك ما لا يسبقها ـ فهو حادث . وما لا يخلو منها لم يسبقها ـ فهو حادث . فانه اذا لم يسبقها كان معها ، أو متأخرا عنها . وعلى التقديرين فهو حادث .

واما اذا قدر حوادث دائمة شيئاً بعد شيء ، فهذا اما أن يقال هو ممكن . واما أن يقال هو ممتنع . لكن العلم بامتناعه يحتاج الى دليل ، ولم تعلم طائفة معروفة من العقلاء قالوا : ان العلم بامتناع هذا بديهي ضروري ، ولا يفتقر الى دليل .

بل كثير من الناس لا يتصور هذا تصوراً تاماً . بل متى تصور الحادث قدر ذهنه مبدأ ، ثم يتقدم في ذهنه شيء قبل ذلك ، ثم شيء قبل ذلك ، لكن الى غايات محدودة بحسب تقدير ذهنه ، كما يقدر الذهن عدداً بعد عدد ، ولكن كل ما يقدره الذهن فهو منته .

ومن الناس من اذا قيل له « الازل » ، او « كان هذا موجوداً في الازل » ، تصور ذلك . وهذا غلط ، بل « الازل » ما ليس له اول ، كما أن « الابد » ليس له آخر ، وكل ما يومىء اليه الذهن من غاية فـ « الازل » وراءها وهذا لبسطه موضع آخر (٣) .

---

(١) قد تقدم تفصيل ذلك في الفصل الثاني .

(٢) اي العلم بامتناع تقدير حوادث دائمة شيئاً بعد شيء ليس امراً بديهياً ، بل يحتاج الى دليل .

(٣) قد انتهى الاستطراد الى هنا .

فصـــــل

((أقوال النظار في المعرفة))

والمقصود هنا أن هؤلاء الذين قالوا : معرفة الرب لا تحصل الا بالنظر ، ثم قالوا : لا تحصل الا بهذا النظر ، هم من أهل الكلام ـ الجهمية القدرية ومن تبعهم . وقد اتفق سلف الامة وأئمتها ، وجمهور العلماء من المتكلمين وغيرهم ، على خطأ هؤلاء في ايجابهم هذا النظر المعين ، وفي دعواهم أن المعرفة موقوفة عليه . اذ قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا على الأمة ، ولا أمرهم به ، بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة .

ثم هذا النظر ـ هذا الدليل ـ للناس فيه ثلاثة أقوال . . .

قيل : انه واجب ، وان المعرفة موقوفة عليه ، كما يقوله هؤلاء .

وقيل : بل يمكن حصول المعرفة بدونه ، لكنه طريق آخر الى المعرفة ، وهذا يقول كثير من هؤلاء ممن يقول بصحة هذه الطريقة لكان لا يوجبها ، كالخطابي ، والقاضي أبي يعلى ، وأبي جعفر السمناني[1] قاضي الموصل شيخ أبي الوليد الباجي وكان يقول : ايجاب النظر بقية بقيت على الشيخ أبي الحسن الاشعري من الاعتزال . وهؤلاء الذين لا يوجبون هذا النظر .

ومنهم من لا يوجب النظر مطلقاً ، كالسمناني ، وابن حزم ، وغيرهما .

ومنهم من يوجبه في الجملة ، كالخطابي ، وأبي الفرج المقدسي .

والقاضي أبو يعلى يقول بهذا تارة ، وبهذا تارة ، بل ويقول تارة بايجاب النظر المعين ، كما يقوله أبو المعالي ، وغيره .

ثم من الموجهين للنظر من يقول : هو أول الواجبات ، ومنهم من يقول : بل المعرفة الواجبة به ، وهو نزاع لفظي . كما أن بعضهم قال : اول الواجبات للقصد الى النظر ، كعبارة أبي المعالي . ومن هؤلاء من قال : بل الشك المتقدم ، كما قاله أبو هاشم .

وقد بسط الكلام على هذه الاقوال وغيرها في موضع آخر ، وبين آنها كلها غلط مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والأئمة ، بل وباطلة في العقل أيضاً .

---

(١) في معجم البلدان : « وسمنان أيضاً بالعراق ، ينسب اليها القاضي أبو جعفر محمد بن احمد بن محمود السمناني ، سكن بغداد وكان فقيها على مذهب الأشعري . سمع نصر بن احمد بن الخليل ، وأبا الحسن الدارقطني ، وغيرهما ، وكان ثقة عالماً فاضلاً سخياً حسن الكلام . سمع منه الحافظ أبو بكر الخطيب ، وولي قضاء الموصل ، ومات بها سنة ٤٤٤ هـ ، ومولده سنة ٣٦١ هـ .

وهذه الآية مما يستدل به على ذلك . فانه أول ما أوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين هو ما أمر به في قوله : ﴿ اقرأ باسمِ ربِّكَ الّذي خَلقَ ﴾ .

والذين قالوا : المعرفة لا تحصل الا بالنظر ، قالوا : لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها ، كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر ، وغيره .

فيقال لهم : وليس فيما قص الله علينا من اخبار الرسل أن منهم أحدا اوجبها بل هي حاصلة عند الامم جميعهم . ولكن أكثر الرسل افتتحوا دعوتهم بالامر بعبادة الله وحده دون ما سواه ، كما أخبر الله عن نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب . وقومهم كانوا مقرين بالخالق ، لكن كانوا مشركين يعبدون غيره ، كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ .

ومن الكفار من أظهر جحود الخالق ، كفرعون حيث قال : ﴿ يا أيها الملاء ما علمت لكم من اله غيري ، فأوقد لي يا هامان ، على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى واني لأظنه من الكاذبين ﴾ - (القصص ٢٨ : ٣٨) ، وقال : ﴿ أنا ربكم الاعلى ﴾ - (النازعات ٧٩ : ٢٩) ، وقال لموسى : ﴿ لئنِ اتخذتَ إلهاً غيري لاجعلنَّكَ من المسجونينَ ﴾ - (الشعراء ٢٦ : ٢٩) ، وقال : ﴿ يا هامان إبنِ لي صرحاً لعلّي أبلغ الاسبابَ * أسبابَ السمواتِ فأطلّعَ إلىٰ الهَ موسىٰ وإني لاظنهُ كَاذِباً ﴾ - (المؤمن ٤٠ : ٣٦ ، ٣٦) .

ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن - قال : ﴿ وإذْ نادىٰ ربُّكَ موسىٰ أن ائتِ القومَ الظَّالمينَ * قومَ فرعونَ ، ألا يتقونَ * قال ربِّ إنّي اخافُ أن يكذّبونِ * ويضيقُ صدري ولا ينطلقُ لِسَاني فأَرسلْ الىٰ هَارُونَ * ولهم عَليَّ ذنبٌ فأخافُ أنْ يقتلُونِ * قالَ كلَّا ، فأذهَبَا بآياتِنَا إنَّا معكُمْ مستمعونَ * فأتيا فِرعونَ فقولا إنَّا رسُولُ ربّ العالمينَ * أنْ أَرسلْ معنَا بني إسرائيلَ * قالَ ألَمْ نُربِّكَ فينَا وليداً ولبثتَ فينَا من عُمُرِكَ سِنينَ * وفعلتَ فِعلتَكَ الَّتي فعلتَ وأنتَ من الكافرينَ * قال فعلتُهَا إذاً وأنا من الضَّالينَ * فَفَرتُ منكم لمَّا خفتكُمْ فوهَبَ لي ربّي حُكماً وجعلني مِنَ المُرسَلينَ ﴾ - (الشعراء ٢٦ : ١٠ - ٢١) .

قال فرعون انكاراً وجحداً ﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ هو سؤال عن ما هية الرب ، كالذي يسأل عن حدود الاشياء فيقول « ما الانسان ؟ ما الملك ؟ ما الجني » ؟ ، ونحو ذلك . قالوا : ولما لم يكن للمسؤل عنه ما هية عدل موسى عن الجواب الى بيان ما يعرف به ، وهو قوله : ﴿ رب السموات والارض ﴾ . وهذا قول قاله بعض المتأخرين ، وهو باطل .

فان فرعون انما استفهم انكاراً وجحداً ، لم يسأل عن ما هية رب أقر بثبوته ، بل كان منكراً له جاحداً . ولهذا قال في تمام الكلام : ﴿ لئن اتخذتَ إلهاً غيري لاجعلنكَ مِنَ المسجونينَ ﴾ ، وقال : ﴿ وانيَ لاظنهُ كاذباً ﴾ . فاستفهامه كان انكاراً وجحداً ، يقول : ليس للعالمين رب يرسلك ، فمن هو هذا ؟ ـ انكاراً له .

فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين ، وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده . وانكم انما تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم ، كما قال موسى في موضع آخر لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمتَ ما أنزلَ هؤلاءِ إلّا ربُّ السَّمواتِ والارضِ بصائِرَ ﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ١٠٢) . وقال الله تعالى : ﴿ وجحدُوا بِهَا واستيقنتْهَا أنفسهُمْ ظلماً وعلُواً ، فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدينَ ﴾ ـ (النمل ٢٧ : ١٤) .

ولم يقل فرعون « ومن رب العالمين » ؟ ، فان « من » ؟ سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسؤول عنه انه من أهل العلم وقد شك في عينه ، كما يقال لرسول عرف انه جاء من عند انسان « من أرسلك » ؟ .

وأما « ما » ؟ فهي سؤال عن الوصف . يقول : أي شيء هو هذا ؟ وما هو هذا الذي سميته « رب العالمين » ؟ قال ذلك منكرا له جاحداً .

فلما سأل جحداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر ، وأظهر من أن يشك فيه ويرتاب ، فقال : ﴿ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهُمَا إنْ كنتُمْ مُوقنينَ ﴾ .

ولم يقل « موقنين بكذا وكذا » بل أطلق . فأي يقين كان لكم بشيء من الاشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب ، كما قالت الرسل لقومهم ﴿ أَفي الله شكٌّ » ؟ ـ (ابراهيم ١٤ : ١٠) .

وان قلتم : لا يقين لنا بشيء من الاشياء ، بل سلبنا كل علم ، فهذه دعوى السفسطة العامة ، ومدعيها كاذب ظاهر الكذب . فان العلوم من لوازم كل انسان ، فكل انسان عاقل لا بد له من علم . ولهذا قيل في حد « العقل » : انه علوم ضرورية ، وهي التي لا يخلو منها عاقل .

فلما قال فرعون : ﴿ إنَّ رسولكُمْ الَّذي أُرسلَ اليكُمْ لمجنُون ﴾ ، وهذا من افتراء المكذبين على الرسول[1] ـ لما فرحوا عن حادتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم الى الجنون .

---

(١) كذا بالافراد ، والجمع أولى كما قال بعده « نسبوهم » بالجمع .

ولما كانوا مظهرين للجحد بالخالق ، او للاسترابة والشك فيه ـ هذه حال عامتهم ودينهم ، وهذا عندهم دين حسن ، وانما الههم الذي يطيعونه فرعون ـ قال : ﴿ ان رسولكُمْ الَّذي أُرسِلَ اليكُمْ لمجنُون ﴾ .

فبين له موسى أنكم الذين سلبتم العقل النافع ، وأنتم أحق بهذا الوصف فقال : ﴿ رب المشرقِ والمغربِ وَمَا بينهُما إنْ كنتُمْ تعقلونَ ﴾ .

فان العقل مستلزم العلوم ضرورية يقينة ، وأعظمها في الفطرة الاقرار بالخالق . فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن به ، واليقين بشيء هو من لوازم العقل ، بين ثانياً ان الاقرار به لوازم العقل(1) .

ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه . فان لم يعمل به صاحبه قيل : انه ليس له عقل . ويقال ايضاً لمن لم يتبع ما أيقن به : انه ليس له يقين . فان اليقين ايضاً يراد به العلم المستقر في القلب ، ويراد به العمل بهذا العلم . فلا يطلق « الموقن » الا على من استقر في قلبه العلم والعمل .

وقوم فرعون لم يكن عندهم اتباع لما عرفوه ، فلم يكن لهم عقل ولا يقين . وكلام موسى يقتضي الامرين : ان كان لك يقين فقد عرفته ، وان كان لك عقل فقد عرفته . وان ادعيت انه لا يقين لك ولا عقل لك ، فكذلك لقومك ، فهذا اقرار منكم بسلبكم خاصية الانسان .

ومن يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الالهية . مع ان هذا باطل منكم ، فانكم موقنون به ، كما قال تعالى : ﴿ وجحدُوا بِهَا واستيقنَتْهَا انفسهُمْ ظلماً وعلُوّاً ﴾ ـ (النمل ٢٧ ـ ١٤) .

ولكم عقل تعرفونه به ، ولكن هواكم يصدكم عن اتباع موجب العقل ، وهو ارادة العلو في الأرض والفساد . فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار ، كما قال اصحاب النار : ﴿ لو كنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا في اصحابِ السَّعير﴾ـ(الملك ٦٧ : ١٠) وقال تعالى عن الكفار : ﴿ أَمْ تحسبُ أَنْ اكثرهُمْ يسمعونَ أو يعقِلُونَ إنْ هُمْ إلاَّ كالانعامِ بلْ هُمْ اضلُّ سبيلاً ﴾ ـ (الفرقان ٢٥ : ٤٤) .

---

(1) كتبت في الاصل هذه الجملة « بين ثانياً أن الاقرار به من لوازم العقل » ثلاث مرات متوالية ، والظاهر ان ذلك من تفريط الناسخ ، وليس ذلك من لوازم العقل ، عفا الله عنا وعنه .

قال تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ فاستخفَّ قومهُ فأطاعوهُ ، إنَّهم كانُوا قوماً فاسقينَ ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٥٤) . والخفيف هو السفيه الذي لا يعمل بعلمه ، بل يتبع هواه . وبسط هذا له موضعُ آخر .

والمقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه : انكم مأمورون بطلب معرفة الخالق ، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه . فلم يكلفوا أولاً بنفس المعرفة . ولا بالادلة الموصلة الى المعرفة ، اذ كانت قلوبهم تعرفه وتقربه ، وكل مولود يولد على الفطرة ، لكن عرض للفطرة ما غيرها ، والانسان اذا ذكر ذكر ما في فطرته .

ولهذا قال الله في خطابه لموسى : ﴿ فقولا لهُ قولاً ليّناً لعلّهُ يتذكّرُ ﴾ ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه ، ويعرف انعامه عليه ، واحسانه اليه ، وافتقاره اليه ـ فذلك يدعوه الى الايمان ﴿ أو يخشى ﴾ ـ (طه ٢٠ : ٤٤) ما ينذره به من العذاب ـ فذلك أيضاً بدعوة الى الايمان .

كما قال تعالى : ﴿ ادعُ الىٰ سبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنةِ ﴾ ـ (النحل ٦٦ : ١٢٥) . فالحكمة تعريف الحق ، فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة . ومن نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب .

فالعلم بالحق يدعو صاحبه الى اتباعه . فان الحق محبوب في الفطرة ، وهو أحب اليها ، وأجل فيها ، وألذ عندها ، من الباطل الذي لا حقيقة له ، فان الفطرة لا تحب ذاك .

فان لم يدعه الحق والعلم به خوف عاقبة الجحود والعصيان ، وما في ذلك من العذاب . فالنفس تخاف العذاب بالضرورة . فكل حي يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع .

فمن الناس من يتبع هواه ، فيتبع الادنى دون الاعلى . كما أن منهم من يكذب ما خوف به ، او يتغافل عنه ، حتى يفعل ما يهواه . فانه اذا صدق به واستحضره لم يبعث نفسه الى هواها ، بل لا بد من نوع من الغفلة والجهل حتى يتبعه . ولهذا كان كل عاص لله جاهلاً ، كما قد بسط هذا في مواضع .

اذ المقصود هنا التنبيه على ان قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فيه تنبيه على ان الرب معروف عند المخاطبين ، وأن الفطرة مقرة به .

وعلى ذلك دل قوله : ﴿ وإذْ أَخذَ ربّكَ مِنْ بني آدمَ من ظهورهِمْ ذريتهُمْ وأشهدَهُمْ علىٰ أنفسهِمْ ـ الآية ﴾ ـ (الاعراف ٧ : ١٧٢) ، كما قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع .

وكذلك قول الرسل ﴿ أفي اللهِ شكٌ ﴾ - (ابراهيم ١٤ : ١٠) هو نفي ، أي ليس في الله شك . وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الامم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك . فهذا استفهام تقرير .

فان حرف الاستفهام اذا دخل على حرف النفي كان تقريراً ، كقوله :﴿ ألم نشرح لَكَ صَدْرَكَ ﴾، ﴿ ألَمْ نجعلْ لـهُ عينين ﴾ ، ﴿ ألَمْ يأتِهم نبأ الَّذين مِنْ قبلهِمْ ﴾ ، ومثله كثير . بخلاف استفهام فرعون . فإنه استفهام انكار ، لا تقرير ، اذ ليس هناك الا اداة الاستفهام فقط ، ودل سياق الكلام على انه انكار .

فصـــل

(مناقشة موقف النظار من المعرفة الفطرية)

فان قيل : اذا كانت معرفته والاقرار به ثابتاً في كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار - نظار المسلمين وغيرهم - وهم يدعون انهم الذين يقيمون الادلة العقلية على المطالب الالهية ؟ .

فيقال أولا : أول من عرف في الاسلام بانكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذي[1] اتفق السلف على ذمه - من الجهمية والقدرية . وهم عند سلف الامة من أضل الطوائف واجهلهم . ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية . فصار بعض الناس يظن ان هذا قول صدر في الأصل من علماء المسلمين ، وليس كذلك ، وانما صدر أولاً عن ذمه أئمة الدين وعلماء المسلمين .

الثاني : أن الانسان قد يقوم بنفسه من العلوم والارادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم انه قائم بنفسه ، فان قيام الصفة بالنفس من غير شعور صاحبها بأنها قامت به .

وهذا كصفات بدنه ، فان منها ما لا يراه كوجهه وقفاه . ومنها ما يراه اذا تعمد النظر اليه كبطنه وفخذه وعضديه . وقد يكون بها آثار من خيلان وغير خيلان ، وغير ذلك من الأحوال ، وهو لم يره ولم يعرفه ، لكن لو تعمد رؤيته لرآه . ومن الناس من لا يستطيع رؤية ذلك لعارض عرض لبصره من العشى أو العمى ، أو غير ذلك .

كذلك صفات نفسه قد يعرف بعضها ، وبعضها لا يعرفه . لكن لو تعمد تأمل حال نفسه لعرفه . ومنها ما لا يعرفه ولو تأمل لفساد بصيرته وما عرض لها .

---

(١) بالأصل الذين ، والصحيح « الذي » .

والذي يبين ذلك ان الافعال الاختيارية لا تتصور الا بارادة تقوم بنفس الانسان . وكل من فعل فعلا اختياريا وهو يعرفه فلا بد ان يريده ، كالذي يأكل ويشرب ويلبس وهو يعرف انه يفعل ذلك ، فلا بد ان يريده . فالفعل الاختياري يمتنع أن يكون بغير ارادة . واذا تصور الفعل الذي يفعله وقد فعله لزم أن يكون مريدا له وقد تصوره . واذا كان مريدا له وقد تصوره امتنع ان لا يريد ما تصوره وفعله .

فالانسان اذا قام الى صلوة يعلم انها الظهر فمن الممتنع ان يصلي الظهر وهو يعلم هذا لم ينسه ولا يريد صلوة الظهر .

وكذلك الصيام اذا تصور أن غداً من رمضان وهو مريد لصوم رمضان امتنع أن لا ينوى صومه .

وكذلك اذا أهل بالحج[1] وهو يعلم انه مهل به امتنع أن لا يكون مريدا للحج .

وكذلك الوضوء اذا علم انه يتوضأ للصلوة امتنع ان لا يكون مريدا للوضوء . ومثل هذا كثير - نجد خلقاً كثيراً من العلماء ، دع العامية ، يستدعون النية بألفاظ يقولونها ويتكلفون ألفاظا ، ويشكون في وجودها مرة بعد مرة ، ويخرجون الى ضرب من الوسوسة التي يشبه اصحابها المجانين .

والنية هي الارادة ، وهي القصد ، وهي موجودة في نفوسهم لوجودها في نفس كل من يصلي في ذلك المسجد والجامع ، ومن توضأ في تلك المطهرة ، أولئك يعلمون هذا في نفوسهم ولم يحصل لهم وسواس ، وهؤلاء ظنوا أن النية لم تكن في قلوبهم - يطلبون حصولها من قلوبهم .

وهم يعلمون ان التلفظ بها ليس بواجب ، وانما الفرض وجود الارادة في القلب . وهي موجودة ، ومع هذا يعتقدون انها ليست موجودة . واذا قيل لاحدهم « النية حاصلة في قلبك » لم يقبل لما قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته .

وكذلك حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن ، لا يمكنه دفع ذلك من قلبه اذا كان مؤمنا . وتظهر علامات حبه لله ولرسوله اذا أخذ أحد يسب الرسول ويطعن عليه . او يسب الله ويذكره بما لا يليق به . فالمؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سُب ابوه وامه .

ومع هذا فكثير من اهل الكلام والرأي أنكروا محبة الله ، وقالوا : يمتنع ان يكون محباً أو محبوباً ، وجعلوا هذا من أصول الدين ، وقالوا : خلافا للحلولية كأنه لم يقل بأن الله يُحب الا

---

(١) بالاصل الحج ، والصحيح « بالحج » .

الحلولية . ومعلوم أن هذا دين الانبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، وأهل الايمان اجمعين . وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، كما قد بسطناه في مواضع .

فهذه المحبة لله ورسوله موجودة في قلوب أكثر المنكرين لها ، بل في قلب كل مؤمن وان انكرها لشبهة عرضت له .

وهكذا المعرفة موجودة في قلوب هؤلاء . فان هؤلاء هم الذين أنكروا محبته هم الذين قالوا : معرفته لا تحصل الا بالنظر ـ فأنكروا ما في فطرهم وقلوبهم من معرفته ، ومحبته .

ثم قد يكون ذلك الانكار سبباً الى امتناع معرفة ذلك في نفوسهم ، وقد يزول عن قلب أحدهم ما كان فيه من المعرفة والمحبة ـ فان الفطرة قد تفسد ـ فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى ، ﴿ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ـ (الحج ٢٢ : ٤٦) .

وقد قال تعالى : ﴿ فأَقِمْ وجهكَ للدّينِ حنيفاً ، فِطرتَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عليْها ، لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ، ذلكَ الدّينُ القيّم ولكن اكثرَ النّاسِ لا يعلمون * منيبينَ اليهِ واتقوهُ واقيمُوا الصلوةَ وَلَا تكونُوا من المُشرِكينَ ﴾ ـ (الروم ٣٠ : ٣٠ ، ٣١) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال : ﴿ كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » . ثم يقول ابو هريرة : اقروءا ان شئتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾[1] .

والفطرة تستلزم معرفة الله ، ومحبته ، وتخصيصه بأنه أحب الاشياء الى العبد ـ وهو التوحيد . وهذا معنى قول « لا اله الا الله » ، كما جاء مفسراً : « كل مولود يولد على هذه الملة »[2] ، وروى « على ملة الاسلام » .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد ، أن النبي ﷺ قال : يقول الله تعالى : ﴿ اني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عيهم ما أحللت لهم ، وامرتهم ان يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ﴾[3] .

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن عدة طرق ، وهذا لفظ البخاري من طريق ابن أبي ذئب ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، في الجنائز ، وفي أكثر الطرق « ما من مولود الا يولد على الفطرة » الخ .

(٢) رواه مسلم في القدر من طريق ابي بكر بن ابي شيبة ، عن ابي معاوية ، عن الاعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، ولفظه « ما من مولود يولد الا على هذه الملة حتى يبين عنه لسانه » .

(٣) هو طرف من حديثه في صفة الجنة ، باب رقم ١٦ ، ولفظه «كل مال نهلته عبدا حلال» واني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .

فأخبر انه خلقهم حنفاء ، وذلك يتضمن معرفة الرب ، ومحبته ، وتوحيده ، فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية ، وهي معنى قول : « لا اله الا الله » .

فان في هذه الكلمة الطيبة التي هي ﴿ كشجرةٍ طيبةٍ أصلُهَا ثابتٌ وفرعُهَا في السَّماءِ ﴾ ، فيها اثبات معرفته والاقرار به . وفيها اثبات محبته ، فان الاله هو المألوه الذي يستحق ان يكون مألوها ، وهذا اعظم ما يكون من المحبة . وفيها انه لا اله الا هو . ففيها المعرفة ، والمحبة ، والتوحيد .

وكل مولود يولد على الفطرة ، وهي الحنيفية التي خلقهم عليها . ولكن أبواه يفسدان ذلك ـ فيهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، ويشركانه .

وكذلك يجهمانه ـ فيجعلانه منكرا لما في قلبه من معرفة الرب ومحبته وتوحيده . ثم المعرفة يطلبها بالدليل ، والمحبة ينكرها بالكلية . والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره من لا يعرفه ، وانما يثبت[1] توحيد الخلق ، والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد وهذا الشرك .

فهما يشركانه ، (و) يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه . وقد بسط الكلام على هذا الحديث وأقوال الناس فيه في غير هذا الموضع[2] .

وأيضاً مما يبين ان الانسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها أن كثيراً من الناس يكون في نفسه حب الرياسة كامن لا يشعر به ، بل انه مخلص في عبادته وقد خفيت عليه عيوبه . وكلام الناس في هذا كثير مشهور . ولهذا سميت هذه « الشهوة الخفية » .

قال شداد بن أوس : يا بقايا العرب[1] ان أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية . قيل لابي داؤد السجستاني : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرياسة . فهي خفية تخفى على الناس ، وكثيرا ما تخفى على صاحبها .

بل كذلك حب المال والصورة ، فان الانسان قد يحب ذلك ولا يدري . بل نفسه ساكنة ما دام ذلك موجودا ، فاذا فقده ظهر من جزع نفسه وتلفها ما دل على المحبة المتقدمة . والحب مستلزم للشعور ، فهذا شعور من النفس بأمور وجب لها . والانسان قد يخفى ذلك عليه من نفسه ، لا سيما والشيطان يغطي على الانسان اموراً .

وذنوبه أيضاً تبقى رينا على قلبه قال تعالى : ﴿ كلا بل ، ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ـ (المطففين ٨٣ : ١٤ ، ١٥) .

---

(١) بالاصل ثبتت والصواب « يثبت » .

(٢) انظر ابن تيمية وقضية التأويل ، د . محمد الجلنيد ط بجمع البحوث بالأزهر (الباب الثالث) .

وفي الترمذي وغيره عن القعقاع بن حكيم ، عن ابي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ انه قال : « اذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وان زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه . فذلك الران الذي قال الله : ﴿ كلا بل ، ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ . قال الترمذي : حديث حسن صحيح[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وقالُوا قلوبُنَا غلفٌ ، بَلْ لعنهُمْ اللهُ بكفرهِمْ فقليلاً ما يُؤمِنُونَ ﴾ - (البقرة ٢ : ٨٨)[2] .

وقال : ﴿ ان الَّذينَ اتقُوا إذا مسَّهم طَائفٌ مِنَ الشيطانِ تذكَّرُوا فإذَا هُمْ مُبصِرُونَ ﴾ - (الاعراف ٧ : ٢٠٠) . فالمتقون اذا اصابهم هذا الطيف الذي يطيف بقلوبهم يتذكرون ما علموه قبل ذلك ، فيزول الطيف ويبصرون الحق الذي كان معلوما ، ولكن الطيف يمنعهم عن رؤيته .

قال تعالى : ﴿ واخوانهم يمدونَهُمْ في الغيّ ثُمَّ لا يقصرونَ ﴾ - (٧ : ٢٠١) . فاخوان الشياطين تمدهم الشياطين في غيهم ، ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ لا تقصر الشياطين عن المدد والامداد ، ولا الانس عن الغي ، فلا يبصرون مع ذلك الغي ما هو معلوم لهم ، مستقر في فطرهم ، لكنهم ينسونه .

ولهذا كانت الرسل انما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها ، وتقويته ، وامداده ، ونفي المغير للفطرة . فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها ، لا بتغيير الفطرة وتحويلها . والكمال يحصل بالفطرة المكلمة بالشرعة المنزلة .

فصل

(في : نسوا الله فأنساهم أنفسهم)

وهذا النسيان - نسيان الانسان لنفسه ولما في نفسه - حصل بنسيانه لربه ولما أنزله . قال تعالى : ﴿ ولا تكونُوا كالَّذينَ نَسُوا اللهَ فأنساهُمْ انفسهُمْ ، أولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ ﴾ - (الحشر٥٩ : ١٩). وقال تعالى في حق المنافقين ﴿نَسُوا الله فنسيهم﴾ - (التوبة : ٩ : ٦٧). وقال: ﴿كذلكَ أتتكَ آياتنَا فنسيتَهَا، وكذلك اليومَ تُنْسَى﴾ - (طه٢٠ : ١٢٦).

---

(١) اخرجه الترمذي ، احمد ، والنسائي ، وابن ماجة ، وابن حبّان ، والحاكم ، وصححه . ولفظ الترمذي « ان العبد اذا اخطأ خطيئة نكتت » الخ وفيه « سقل قلبه » بالسين ، وفيه « وان عاد زيد فيها » .

(٢) في الأصل : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ، بل طبع عليها بكفرهم فقليلا مايؤمنون ﴾ ، ولم يرد هكذا ، ولعل المراد آية النساء ٤ : ١٥٥ ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا تكونُوا كالَّذينَ نَسُوا اللهَ فأنساهُمْ أنفُسَهُمْ ﴾ يقتضي أن نسيان الله كان سبباً لنسيانهم أنفسهم ، وأنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن انساهم انفسهم .

ونسيانهم أنفسهم يتضمن اعراضهم وغفلتهم وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم ، كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم . فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكرا ينفعها ويصلحها ، وأنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم .

وهذا عكس ما يقال : « من عرف نفسه عرف ربه » . وبعض الناس يروي هذا عن النبي ﷺ ، وليس هذا من كلام النبي ﷺ ، ولا هو في شيء من كتب الحديث ، ولا يعرف له اسناد .

ولكن يروى في بعض الكتب المتقدمة ـ ان صح ـ « يا أنسان ! اعرف نفسك تعرف ربك » . وهذا الكلام سواء كان معناه صحيحاً أو فاسداً لا يمكن الاحتجاج بلفظه ، فانه لم يثبت عن قائل معصوم . لكن ان فسر بمعنى صحيح عرف صحة ذلك المعنى ، سواء دل عليه هذا اللفظ او لم يدل[1] .

وانما القول الثابت ما في القرآن ، وهو قوله : ﴿ ولا تكونُوا كالَّذينَ نَسُوا اللهَ فأنساهُمْ أنفسَهُمْ ﴾ . فهو يدل على ان نسيان الرب موجب لنسيان النفس .

وحينئذ ، فمن ذكر الله ولم ينسه يكون ذاكرا لنفسه ، فانه لو كان ناسيا لها ـ سواء ذكر الله أو نسيه ـ لم يكن نسيانها مسببا عن نسيان الرب . فلما دلت الآية على أن نسيان الانسان نفسه مسبب عن نسيانه لربه دل على أن الذاكر لربه لا يحصل له هذا النسيان لنفسه .

والذكر يتضمن ذكر ما قد علمه . فمن ذكر ما يعلمه من ربه ذكر ما يعلمه من نفسه . وهو قد ولد على الفطرة التي تقتضي أنه يعرف ربه ويحبه ويوحده . فاذا لم ينس ربه الذي عرفه ، بل ذكره على الوجه الذي يقتضي محبته ومعرفته وتوحيده ، ذكر نفسه ، فأبصر ما كان فيها قبل من معرفة الله ومحبته وتوحيده .

وأهل البدع ـ الجهمية ونحوهم ـ لما أعرضوا عن ذكر الله ـ الذكر المشروع الذي كان في الفطرة وجاءت به الشرعة ، الذي يتضمن معرفته ومحبته وتوحيده ـ نسوا الله من هذا الوجه . فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه ، فنسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري ، والمحبة الفطرية ، والتوحيد الفطري .

---

(١) ذكر العلامة ابن القيم شرح لهذا الكلام ثلاث تأويلات في « مدارج السالكين » ج ١ ، ص ٢٤١ ـ احدها انه كلما ازدادت معرفة العبد بنقصه ازدادت معرفته بكمال ربه ، والثاني أن من نظر الى الصفات الممدوحة في نفسه عرف ان من أعطاه ذلك اولى به ، والثالث انك لا تعرف كيفية نفسك وحقيقتها فكيف تعرف كيفية ربك وصفاته ؟ .

وقد قال طائفة من المفسرين : ﴿ نسوا الله ﴾ أي تركوا أمر الله ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ أي حظوظ أنفسهم حيث لم يقدموا لها خيراً ، هذا لفظ طائفة منهم البغوي . ولفظ آخرين منهم ابن الجوزي : حين لم يعملوا بطاعته . وكلاهما قال : ﴿ نسوا الله ﴾ أي تركوا أمر الله .

ومثل هذا التفسير يقع كثيراً في كلام من يأتي بمجمل من القول يبين معنى دلت عليه الآية ولا يفسرها بما يستحقه من التفسير . فان قولهم « تركوا أمر الله » . هو تركهم للعمل بطاعته ، فصار الأول هو الثاني . والله سبحانه قال : ﴿ ولا تكونُوا كالَّذينَ نَسُوا الله فأنساهُمْ أنفسَهُمْ ﴾ . فهمنا شيئان : نسيانهم الله ، ثم نسيانهم لانفسهم الذي عوقبوا به .

فان قيل : هذا الثاني هو الاول لكنه تفصيل مجمل ، كقوله : ﴿ وكَمْ مِنْ قريةٍ أهلكناهَا فجاءَهَا بأَسُنَا بَياتاً أو هُمْ قائِلُونَ ﴾ - (الأعراف ٧ : ٤) ، وهذا هو هذا : بل قال : ﴿ نسواالله فأنساهم انفسهم ﴾ ، فثم انساء منه لهم أنفسهم . ولو كان هذا هو الاول لكان قد ذكر ما يعذرهم به ، لا ما يعاقبهم به .

فلو كان الثاني هو الاول لكان : ﴿ نسوا الله ﴾ اي تركوا العمل بطاعته ، فهو الذي أنساهم ذلك . ومعلوم فساد هذا الكلام لفظاً ومعنى .

ولو قيل : ﴿ نسوا الله ﴾ أي نسوا أمره ﴿ فأنساهم ﴾العمل بطاعته ، اي تذكرها ، لكان أقرب ، ويكون النسيان الاول على بابه . فان من نسي نفس أمر الله لم يطعه .

ولكن هم فسروا نسيان الله بترك امره . وأمره الذي هو الذي هو كلامه ليس مقدوراً لهم حتى يتركوه ، إنما يتركون العمل به ، فالامر بمعنى المأمور به .

الا أن يقال : مرادهم بترك امره هو ترك الايمان به . فلما تركوا الايمان أعقبهم بترك العمل . وهذا أيضاً ضعيف ، فان الايمان الذي تركوه ان كان هو ترك التصديق فقط فكفى بهذا كفرا وذنبا . فلا تجعل العقوبة ترك العمل به ، بل هذا أشد . وان كان المراد بترك الايمان ترك الايمان تصديقاً وعملاً فهذا هو الطاعة كما تقدم .

وهؤلاء أتوا من حيث أرادوا أن يفسروا نسيان العبد بما قيل في نسيان الرب ، وذاك قد فسر بالترك . ففسروا هذا بالترك . وهذا ليس بجيد ، فان النسيان المناقض للذكر جائز على العبد بلا ريب . والانسان يعرض عما أمر به حتى ينساه ، فلا يذكره . فلا يحتاج ان يجعل نسيانه تركا مع استحضار وعلم .

وأما الرب تعالى فلا يجوز عليه ما يناقض صفات كماله سبحانه وتعالى . وفي تفسير نسيانه الكفار بمجرد الترك نظر .

ثم هذا قيل في قوله تعالى : ﴿ كذلكَ أَتتكَ آياتنا فنسيتَهَا ﴾ ، أي تركت العمل بها .
وهنا قال : ﴿ نسوا الله ﴾ ، ولا يقال في حق الله « تركوه » .

(١٠) فصل

(قوله : خلق الانسان من علق)

قوله : ﴿ الَّذي خلقَ * خَلَقَ الانسانَ مِنْ علق ﴾ بيان لتعريفه بما قد عرف من الخلق عموماً ، وخلق الانسان خصوصاً ، وأن هذا مما تعرف به الفطرة كما تقدم .

ثم اذا عرف انه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون الا قادرا . بل كان فعل يفعله فاعل لا يكون الا بقوة وقدرة . حتى أفعال الجمادات، كهبوط الحجر والماء وحركة النار هو بقوة فيها ، وكذلك حركة النبات هي بقوة فيه . وكذلك فعل كل حي من الدواب وغيرها هو بقوة فيها . وكذلك الانسان وغيره .

والخلق أعظم الافعال ، فانه لا يقدر عليه الا الله . فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة ، وليس لها نظير من قدر المخلوقين .

وأيضاً فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة . فكل من الخلق والتعليم يستلزم القدرة .

وكذلك كل منهما يستلزم العلم . فان المعلم لغيره يجب ان يكون هو عالماً بما علمه اياه، والا فمن الممتنع أن يعلم غيره ما لا يعلمه هو . فمن علم كل شيء ـ الانسان وغيره ـ ما لم يعلم أولى أن يكون عالما بما علمه . والخلق أيضاً يستلزم العلم ، كما قال تعالى : ﴿ ألا يعلمُ مَنْ خلقَ ، وهُوَ اللطيفُ الخبيرُ ﴾ ـ (الملك ٦٧ : ١٤) . وذلك من جهة ان الخلق يستلزم الارادة . فان فعل الشيء على صفة مخصوصة ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون الا بارادة تخصص هذا عن ذاك . والارادة تستلزم العلم . فلا يريد المريد الا ما شعر به وتصور في نفسه ، والارادة بدون الشعور ممتنعة .

وأيضاً فنفس الخلق ـ خلق الانسان ـ هو فعل لذات الانسان الذي هو من عجائب المخلوقات . وفيه من الاحكام والاتقان ما قدر بهر العقول . والفعل المحكم المتقن لا يكون الا من عالم بما فعل ، وهذا معلوم بالضرورة .

فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه ، ومن هذا الوجه .

وقد قال في سورة الملك : ﴿ وهُوَ اللَّطيفُ الخبيرُ ﴾ . وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن ايصال الامور الى غاياتها بألطف الوجوه ، كما قال يوسف عليه

السلام : ﴿ إنّ ربي لطيفٌ لِمَا يشاءُ ﴾ - (يوسف ١٢ : ١٠٠) . وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة ، والعلم بالطريق الموصل . وكذلك الخبرة .

وبسط هذا يطول ، اذ المقصود هنا التنبيه على ما في الآيات التي هي أول ما أنزل .

ثم اذا ثبت انه قادر عالم فذلك يستلزم كونه حيا . وكذلك الارادة تستلزم الحياة .

والحي اذا لم يكن سمعياً بصيراً متكلماً كان متصفاً بضد ذلك من العمى والصمم والخرس ، وهذا ممتنع في حق الرب تعالى . فيجب ان يتصف بكونه سميعاً بصيراً متكلماً .

والارادة اما أن تكون لغاية حكيمة ، أو لا . فان لم تكن لغاية حكيمة كانت سفها وهو منزه عن ذلك ، فيجب ان يكون حكيما .

وهو اما أن يقصد نفع الخلق والاحسان اليهم ، أو يقصد مجرد ضررهم وتعذيبهم ، أو لا يقصد واحدا منهما ، بل يريد ما يريد سواء كان كذا وكذا . والثاني شرير ظالم يتنزه الرب عنه ، والثالث سفيه عابث ، فتعين انه تعالى رحيم ، كما انه حكيم ، كما قد بسط في مواضع .

(١١) فصـــل

(في طريق اثبات صفات الكمـال)

اثبات صفات الكمال له طرق .

أحدها ما نبهنا عليه من أن الفعل مستلزم للقدرة ولغيرها . فمن النظار من يثبت أولاً القدرة ، ومنهم من يثبت أولاً العلم ، ومنهم من يثبت أولاً الارادة . وهذه طرق كثيرة من أهل الكلام .

وهذه يستدل عليها بجنس الفعل ، وهي طريقة من لا يميز بين مفعول ومفعول ، كجهم بن صفوان ومن اتبعه .

وهؤلاء لا يثبتون حكمة ، ولا رحمة ، اذ كان جنس الفعل لا يستلزم ذلك ، لكن هم أثبتوا بالفعل المحكم المتقن العلم . وكذلك تثبت بالفعل النافع الرحمة ، وبالغايات المحمودة الحكمة .

ولكن هم متناقضون في الاستدلال بالاحكام والاتقان علم العلم ، اذ كان ذلك انما يدل اذا كان فاعلاً لغاية يقصدها . وهم يقولون انه يفعل لا لحكمة ، ثم يستدلون بالاحكام على العلم ، وهو تناقض .

كما تناقضوا في المعجزات حيث جعلوها دالة على صدق النبي ، اما العلم الضروري

بذلك ، واما لكونه لو لم تدل لزم العجز . وهي انما تدل اذا كان الفاعل يقصد اظهارها ليدل بها على صدق الانبياء . فاذا قالوا انه لا يفعل شيئاً لشيء تناقضوا .

الثانية : اما الطريق الاخرى في اثبات الصفات (و) هي الاستدلال بالأثر على المؤثر وان من فعل الكامل فهو أحق بالكمال .

والثالثة : طريقة قياس الاولى ، وهي الترجيح والتفضيل ، وهو ان الكمال اذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو الواجب القديم الخالق أولى .

والقرآن يستدل بهذه ، وهذه ، وهذه .

فالاستدلال بالأثر على المؤثر اكمل ، كقوله تعالى : ﴿ وقالُوا مَنْ اشدُّ منَّا قُوَّةً ؟﴾ قال الله تعالى : ﴿ أولَمْ يرَوا أَنَّ اللهَ الَّذي خلقهُمْ هُوَ أشدُّ منهُمْ قُوةً ﴾ - (فصلت ٤١ : ١٥) .

وهكذا ، كل ما في المخلوقات من قوة وشدة تدل على أن الله أقوى واشد ، وما فيها من علم يدل على أن الله اعلم ، وما فيها من علم وحيوة يدل على ان الله أولى بالعلم والحيوة .

وهذه طريقة يقر بها عامة العقلاء ، حتى الفلاسفة يقولون : كل كمال في المعلول فهو من العلة .

وأما الاستدلال بطريق الاولى فكقوله : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ - (النحل ١٦ : ٦٠) ، ومثل قوله : ﴿ ضَرَبَ لكُمْ مثلاً مِنْ أنفسِكُمْ ، هَلْ لكُمْ مِنْ مَا ملكَتْ ايمانكُمْ مِنْ شركاءَ في مَا رزقناكُمْ فأَنْتُمْ فيهِ سواء تخافونَهُمْ كخيفكُمْ أنفسكُمْ ﴾ - (الروم ٣٠ : ٢٨) . وأمثال ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدَث والمخلوق الممكن فهو للقديم الواجب الخالق اولى من جهة انه أحق بالكمال لانه أفضل .

وذاك من جهة انه هو جعله كاملا وأعطاه تلك الصفات .

واسمه « العلي » يفسر بهذين المعنيين - يفسر بأنه اعلى من غيره قدراً ، فهو أحق بصفات الكمال ، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة ، فيعود الى انه القادر عليهم وهم المقدورون . وهذا يتضمن كونه خالقاً لهم وربا لهم .

وكلاهما يتضمن انه نفسه فوق كل شيء ، فلا شيء فوقه ، كما قال النبي ﷺ : « أنت الاول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ،

وأنت الباطن فليس دونك شيء »[1] .

فلا يكون شيء قبله ، ولا بعده ، ولا فوقه ، ولا دونه ، كما اخبر النبي ﷺ وأثنى به على ربه . والا فلو قدر انه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصاً ، وكان ذلك اعلى منه .

وان قيل : انه لا داخل العالم ولا خارجه ، كان ذلك تعطيلاً له ، فهو منزه عن هذا .

وهذا هو العلى الاعلى ، مع أن لفظ « العلى » و « العلو » لم يستعمل في القرآن عند الاطلاق الا في هذا ـ وهو مستلزم لذينك ـ لم يستعمل في مجرد القدرة ، ولا في مجرد الفضيلة .

ولفظ « العلو » يتضمن الاستعلاء ، وغير ذلك من الافعال اذا عدى بحرف الاستعلاء دل على العلو ، كقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوىٰ علىٰ العرشِ ﴾ ، فهو يدل على علوه على العرش .

والسلف فسروا « الاستواء » بما يتضمن الارتفاع فوق العرش ، كما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية في قوله : ﴿ ثم استوى ﴾ قال : ارتفع . وكذلك رواه ابن ابي حاتم وغيره بأسانيدهم ـ رواه من حديث آدم بن أبي اياس ، عن أبي جعفر ، عن أبي الربيع ، عن أبي العالية : ﴿ ثم استوى ﴾ قال : ارتفع .

وقال البخاري : وقال مجاهد في قوله : ﴿ ثُمَّ استوى علىٰ العَرش ﴾ : علا على العرش . ولكن يقال : « علا على كذا » ، و « علا على كذا » . وهذا الثاني جاء في القرآن في مواضع ، لكن بلفظ « تعالى » ، كقوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ٤٣) ، ﴿ عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ ـ (المؤمنون ٢٣ : ٩٢) . وبسط هذا له موضع آخر[2] .

والمقصود هنا أن كل واحد من ذكر أنه خلق ، وأنه الاكرم الذي علم بالقلم ، يدل على هاتين الطريقتين من اثبات الصفات ، كما دلنا على الطريقة الاولى ـ طريقة الاستدلال بالفعل .

فإن قوله : ﴿ الاكرم ﴾ يقتضي انه افضل من غيره في الكرم ، والكرم اسم جامع لجميع المحاسن . فيقتضي انه أحق بجمع المحامد ، والمحامد هي صفات الكمال فيقتضي انه احق بالاحسان الى الخلق والرحمة ، وأحق بالحكمة ، وأحق بالقدرة ، والعلم ، والحيوة ، وغير ذلك .

وكذلك قوله : ﴿ خلق ﴾ . فان الخالق قديم ازلي ، مستغن بنفسه ، واجب الوجود

---

(١) هو قطعة من حديث في القول عند النوم ، أخرجه مسلم في الدعوات عن أبي هريرة ، أوله : «اللهم رب السموات ورب الارض ورب العرش العظيم الخ » وقد تقدم في ص ١٧ .

(٢) قد أشبع المصنف الكلام على مسألة العلو من جميع الوجوه في الفصول الخمسة من أول تفسير سورة الاعلى ، فلتراجع .

بنفسه ، قيوم . ومعلوم أنه احق بصفات الكمال من المخلوق المحدث الممكن .

فهذا من جهة قياس الاولى . ومن جهة الأثر فان الخالق لغيره الذي جعله حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً هو أولى بأن يكون حياً عالماً قديراً سميعاً بصيراً .

و ﴿ الاكرم * الَّذي علَّمَ بالقلمِ * علَّمَ الانسانَ ما لَمْ يعلم ﴾ . فجعله عليماً . والعليم لا يكون الا حياً . وكرمه أيضاً أن يكون قديراً سميعاً بصيراً . والاكرم الذي جعل غيره عليماً هو أولى أن يكون عليماً . وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد .

فهذا استدلال بالمخلوق الخاص ، والاول استدلال بجنس الخلق . ولهذا دل هذا على ثبوت الصفات بالضرورة من غير تكلف . وكذلك طريقة التفضيل والاولى . وآن يكون الرب أولى بالكمال من المخلوق .

وهذه‌الطرق لظهورها يسلكها غير المسلمين من أهل الملل وغيرهم ، كالنصارى فانهم أثبتوا أن الله قائم بنفسه حتى يتكلم بهذه الطريق . لكن سموه « جوهراً » ، وضلوا في جعل الصفات ثلاثة ، وهي الاقاليم .

فقالوا : وجدنا الاشياء تنقسم الى جوهر وغير جوهر ، والجوهر أعلى النوعين : فقلنا : هو جوهر . ثم وجدنا الجوهر ينقسم الى حي وغير حي ، ووجدنا الحي اكمل ، فقلنا هو حي . ووجدنا الحي ينقسم الى ناطق وغير ناطق ، فقلنا هو ناطق .

وكذلك يقال لهم في سائر صفات الكمال : ان الاشياء تنقسم الى قادر وغير قادر ، والقادر أكمل . وقد بسط ما في كلامهم من صواب وخطأ في الكتاب الذي سميناه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »[1] .

والمقصود هنا التنبيه على دلالة هذه الآية ـ وهذه الآيات التي هي أول ما نزل ـ على أصول الدين .

وقوله : ﴿ علم الانسان ما لم يعلم ﴾ يدل على قدرته على تعليم الانسان ما قد علمه ، مع كون جنس الانسان فيه أنواع من النقص . فاذا كان قادراً على ذلك التعليم فقدرته على تعليم الانبياء ما علمهم أولى واحرى . وذلك يدخل في قوله : ﴿ علم الانسان ما لم يعلم ﴾ ، فان الانبياء من الناس .

فقد دلت هذه الآيات على جميع الاصول العقلية ، فان امكان النبوات هو آخر ما يعلم بالعقل .

---

(١) يدل ذلك على أن تأليف كتاب الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح سابق على تفسير ابن تيمية لهذه السورة .

وأما وجود الانبياء وآياتهم فيعلم بالسمع المتواتر ، مع ان قوله : ﴿ علَّمَ الانسان ﴾ يدخل فيه اثبات تعليمه للانبياء ما علمهم ، فهي تدل على الامكان والوقوع .

وقد ذكرنا في مواضع ان تنزيهه يرجع الى اصلين .

تنزيهه عن النقص المناقض لكماله . فما دل على ثبوت الكمال له فهو يدل على تنزهه عن النقص المناقض لكماله .

وهذا مما يبين أن تنزهه عن النقص معلوم بالعقل ، بخلاف ما قاله طائفة من المتكلمين ان ذلك لا يعلم الا بالسمع .

وقد بينا في غير هذا الموضع أن الطرق العقلية التي سلكوها من الاستدلال بالأعراض على حدوث الاجسام لا تدل على اثباته ، ولا على اثبات شيء من صفات الكمال ، ولا على تنزهه عن شيء من النقائص . فليس عند القوم ما يحيلوه به عليه شيئاً من النقائص .

وهم معترفون بأن الافعال يجوز عليه منها كل شيء بخلاف الصفات . لكن طريقتهم في الصفات فاسد مناقض ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

الثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال .

والقرآن مملوء باثبات هذين الاصلين ـ باثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ، وتنزيهه عن التمثيل ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(١٢) فصـــل

قوله : ﴿ علَّمَ الانسانَ ما لَمْ يعلَمْ ﴾

وقوله : ﴿ باسمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ ﴾ وقوله : ﴿ علَّمَ بالقلمِ ❊ علَّمَ الانسانَ ما لَمْ يعلَمْ ﴾ يدل على اثبات افعاله وأقواله .

فالخلق فعله ، والتعليم يتناول تعليم ما أنزله ، كما قال : ﴿ الرَّحمنُ علَّمَ القرآنَ ❊ خَلَقَ الانسانَ ❊ علَّمَهُ البيانَ ﴾ ـ (الرحمن ٥٥ : ١ ـ ٤) . وقوله : ﴿ بالقلم ﴾ يتناول تعليم كلامه الذي يكتب بالقلم . ونزوله في أول السورة التي أنزل فيها كلامه وعلم نبيه كلامه الذي يكتب بالقلم دليل على شمول الآية لذلك ، فان سبب اللفظ المطلق والعام لا بد ان يكون مندرجاً فيه . وأبدل على انه خلق وتكلم .

وقد قال : ﴿ خلق الانسان ﴾ . ومعلوم بالعقل وبالخطاب أن الانسان المخلوق غير خلق الرب له ، وكذلك خلقه لغيره .

والـذين نازعـوا في ذلك انما نازعـوا لشبهة عـرضت لهم ، كـما قـد ذكـر بعـد هـذا وفي مواضع . والا فهم لا يتنازعون من أن « خلق » فعل له مصدر ـ يقال : خلق ـ يخلق ـ خلقاً ، والانسان مفعول المصدر ـ « المخلوق » ، ليس هو المصدر .

ولكن قد يطلق لفظ المصـدر على المفعـول ، كما يقـال : « درهم ضرب الامـير » . ومنه قـوله : ﴿ هـذا خلقُ اللهِ ﴾ ، والمراد هنـاك : هذا مخلوق الله . وليس الكـلام في لفظ « خلق » المـراد به « المخلوق » ، بـل في لفظ « الخلق » المراد بـه « الفعل » الـذي يسمى المصدر ، كمـا يقـال : خلق ـ يخلق ـ خلقـاً ، وكقـولـه :﴿ ما خلقكُمْ ولا بَعثِكُم إلاَّ كنفسٍ واحـدةٍ ﴾ ـ (لقمن ٣١ : ٢٨) ، وقـولـه : ﴿ يخلقكُمْ في بـطونِ أمهـاتِكُمْ خلقـاً مِنْ بعـدِ خلقٍ ﴾ ـ (الزمر ٣٩ : ٦) ، وقوله : ﴿ مـا أشهدتُهُمْ خلقَ السمـواتِ والارضِ ولاَ خَلقَ أنفسهِمْ ﴾ ـ (الكهف ١٨ : ٥١) .

واذا كان الخلق فعله فهو بمشيئته ، اذ يمتنع أن يكون فعله بغير مشيئة . وما كان بالمشيئـة امتنع قدم عينه ، بل يجوز قدم نوعه .

واذا كان الخلق للحادث لا بد له من مؤثر تام اوجب حـدوثه لـزم انه لم يـزل متصفاً بمـا يقوم به من الأمور الاختياريـة ، لكن ان يثبت انه كـان قبل هـذا المخلوق مخلوق آخر ثبت انـه متصف بخلق بعد خلق .

وكـذلـك الكـلام ، هـو متكلم بمشيئتـه . ويمتنـع أن لا يكـون متكلماً ثم يصـير متكلماً لوجهين . . .

أحدهما : أنه سلب لكماله ، والكلام صفة كمال .

والثاني : انه يمتنع حدوث ذلك . فان من لا يكـون متكلما يمتنع ان يجعـل نفسه متكلما ، ومن لا يكون عالماً يمتنع ان يجعل نفسه عـالما . ومن لا يكـون حيا يمتنـع ان يجعل نفسـه حيا . فهذه الصفات من لوازم ذاته .

وكذلك من لا يكون خالقاً يمتنع أن يجعـل نفسه خـالقاً . فـانه اذا لم يكن قـادراً على أن يخلق فامتناع كون نفسه خالقة أعظم ، فيكون هذا ممتنعاً بطريق الأولى ، فان جعل نفسه خـالقة يستلزم وجود المخلوق .

ولهذا لما كان قادراً على جعل الانسان فاعلاً كان هو الخالق لما يفعله الانسان . فلو جعـل نفسه خالقة كان هو الخالق لما جعلها تخلقه .

فـاذا فرض انـه يمتنع أن يكـون خالقـاً في الاول امتنع ان يجعـل نفسه خـالقة بـوجه من

الوجوه . ويلزم من القول بامتناع الفعل عليه في الاول امتناعه دائماً . وقد دلت الآية على انه خلق . فعلم أنه ما زال قادراً على الخلق ، ما زال يمكنه ان يخلق ، وما زال الخلق ممكناً مقدوراً . وهذا يبطل اصل الجهمية .

بل واذا كان قادراً عليه فالموجب له ليس شيئاً بائناً من خارج ، بل هو من نفسه ، فيمتنع ان يجعل نفسه مريدة بعد أن لم تكن ، فيلزم انه ما زال مريداً قادراً . واذا حصلت القدرة والارادة وجب وجود المقدور .

وأهل الكلام الذين ينازعون في هذا يقولون : لم يزل قادراً على ما سيكون .

فيقال لهم : القدرة لا تكون الا مع امكان المقدور . اذا كانت القدرة دائمة ، فهل كان يمكنه ان يفعل المقدور دائماً ؟ وهم يقولون : لا ، بل الامكان ـ امكان الفعل ـ حادث . وهذا يناقض اثبات القدرة . وان قالوا : بل الامكان حاصل ، تبين أنه لم يزل الفعل ممكناً . فثبت امكان وجود ما لا يتناهى من مقدور الرب .

وحينئذ ، فاذا كان لم يزل قادراً ، والفعل ممكناً ، وهذا الممكن ـ قد وجد ـ فيما لا يزال فالموجب لوجود جنس المقدور ، كالارادة مثلا ، اما أن يكون وجودها في الازل ممتنعاً ، فيلزم امتناع الفعل ، وقد بينا انه ممكن .

وأيضاً اذا كان وجودها ممتنعاً ، لأنه لا شيء هناك يجعلها ممكنة فضلاً عن أن تكون موجودة . ومعلوم أن وجودها بعد أن لم تكن لا بد له من موجب . واذا كان وجودها في الازل ممكناً فوجود هذا الممكن لا يتوقف على غير ذاته ، وذاته كافية في حصوله . فيلزم انه لم يزل مريداً .

وهكذا في جميع صفات الكمال متى ثبت امكانها في الازل لزم وجودها في الازل . فانها لو لم توجد لكانت ممتنعة ، اذ ليس في الازل شيء سوى نفسه يوجب وجودها . فاذا كانت ممكنة والمقتضى التام لها نفسه لزم وجودها في الازل .

وهذا مما على يدل أنه لم يزل حياً ، عليماً ، قديراً ، مريداً ، متكلماً ، فاعلاً ، اذ لا مقتضى لهذه الاشياء الا ذاته وذاته وحدها كافية في ذلك . فيلزم قدم النوع ، وانه لم يزل متكلماً اذا شاء ، لكن أفراد النوع تحصل شيئاً بعد شيء بحسب الامكان والحكمة .

ولهذا قد بين في مواضع أنه ليس في نفس الامر ممكن يستوي طرفاً وجوده وعدمه ، بل

---

(١) في الاصل « مقدار » ، وهو خطأ ظاهر .

(٢) في الأصل « وجوبها » ، والصحيح « وجودها » بالدال .

اما أن يحصل المقتضى لوجوده فيجب ، أو لا يحصل فيمتنع . (فما)[1] اتصف به الرب فاتصافه به واجب ، وما لم يتصف به فاتصافه به ممتنع . وما شاء كان ووجب وجوده ، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده . فالممكن مع مرجحه التام واجب وبدونه ممتنع .

ففي قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الَّذي خلقَ * خَلَقَ الانسانَ مِنْ علقٍ ﴾ وفي قوله : ﴿ أقرأ وربّكَ الاكرَمْ * الَّذي علَّمَ بالقلمِ ﴾ دلالة على ثبوت صفات الكمال له ، وانه لم يزل متصفاً بها .

وأقوال السلف في ذلك كثيرة . وبهذا فسروا قوله : ﴿ كانَ اللهُ عزيزاً حكيماً ﴾ ونحوه ، كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس - ورواه ابن ابي حاتم من عدة طرق - لما قيل له : قوله : ﴿ وكان الله . . . ﴾ وكأنه كان شيئاً ثم مضى ؟ فقال ابن عباس : هو سمى نفسه بذلك ، ولم يزل كذلك[2] .

هذا لفظ ابن ابي حاتم من طريق أبي معوية ، عن الاعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . فقال ابن عباس : كذلك كان ولم يزل .

ومن رواية عمر بن أبي قيس ، عن مطرف ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . قال : أتاه رجل فقال : سمعت الله يقول : ﴿ وكان الله . . . ﴾ كأنه شيء كان ؟ فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ كان ﴾ فانه لم يزل ولا يزال ، ﴿ وهو الاول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ﴾ .

ومن رواية عبد الرحمن بن مغرا ، عن مجمع بن يحيى ، عن عمه ، عن ابن عباس . قال ، قال يهودي : انكم تزعمون ان الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ فقال ابن عباس : انه كان في نفسه عزيز حكيماً .

وهذه أقوال ابن عباس تبين انه لم يزل متصفاً بخبر « كان » ، ولا يزال كذلك ، وأن ذلك حصل له من نفسه . فلم يزل متصفاً في نفسه اذا كان من لوازم نفسه ، ولهذا لا يزال لانه من نفسه .

وقال احمد بن حنبل : لم يزل الله عالماً ، متكلماً ، غفوراً . وقال أيضاً : لم يزل الله متكلماً اذا شاء .

---

(١) سقط من الاصل ، والسياق يقتضيه .

(٢) اخرجه البخاري في أول تفسير سورة حم السجدة في حديث طويل عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس : اني أجد في القرآن اشياء تختلف علي ، ثم سأل عن الاشكال في أربعة مواضع ، ورابعها ما ذكر المصنف من الاتيان بالفعل (كان) على الصفات وجوابه . والرجل السائل هو نافع بن الازرق الذي صار بعد ذلك رأس الازارقة من الخوارج . راجع شرح القصة في « فتح الباري » ج ٨ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(١٣) فصـــــل

وكما انه أول آية نزلت من القرآن تدل على ذلك فأعظم آيـة في القرآن تـدل على ذلـك ، لكن مبسوطاً دلالة أتم من هذا .

وهي آية الكرسي ، كـما ثبت في الصحيـح أن النبي ﷺ قـال لابي بن كعب : يـا أبـا المنـذر ! أتـدري أي آيـة في كتـاب الله معك اعـظم » ؟ فقــال : ﴿ اللهُ لا إلـهَ إلاَّ هُــوَ الحيُّ القيّومُ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٥٥) . فقال : « ليهنك العلم ، أبا المنذر ! »[1] .

وهنا افتتحها بقوله ﴿ الله ﴾ ، وهو أعظم من قوله : ﴿ وربك . . . ﴾ . ولهذا افتتـح به أعظم سورة في القرآن فقال : ﴿ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ﴾ .

وقال : ﴿ اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُـوَ الحيّ القيوم ﴾ اذا كـان المشركـون قد اتخـذوا الهاً غيـره وان قالوا بأنه الخالق . ففي قوله : ﴿ خلق ﴾ لم يذكـر نفي خالق آخـر اذا كان ذلـك معلوماً . فلم يثبت أحد من الناس خالقاً آخر مطلقاً خلق كل شيء وخلق الانسان وغيره ، بخلاف الالهية .

قــال تـعــالى : ﴿ قــالُــوا حِـرِّقُــوهُ وانـصــرُوا آلهـتِكُـم إنْ كُـنْـتُـمْ فَــاعِـلِـينَ ﴾ ـ (الانبيـاء ٢١ : ٦٨) ، وقـال تعـالى : ﴿ وانـطلقَ المــلاءُ منهُمْ أَنْ امشُـوا واصبِـرُوا علىٰ آلهتكُمْ ، إنْ هَذَا لَشَيْءٌ يراد ﴾ ـ (ص ٣٨ : ٦) ، وقال تعالى : ﴿ أئنكُمْ لتشهـدونَ انَّ مَعَ اللهِ آلهـةً اخرىٰ ، قـلْ لا أشهدْ ، قُـلْ إنَّمَا هُـوَ إلـهٌ واحـدٌ ﴾ ـ (الانعـام ٦ : ١٩) ، وقـال تعـالى : ﴿ قُـلْ لَـوْ كَـانَ معـهُ آلهـةٌ كَمـا يقُـولُـونَ إذاً لابـتغُـوا إلىٰ ذِي العـرشِ سبيـلاً ﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ٤٢) .

فابتغوا معه آلهة أخرى ، ولم يثبتوا معه خالقاً آخر .

فقال في أعظم الآيات : ﴿ اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحيّ القيوم ﴾ . ذكره في ثلاثـة مواضـع من القرآن ، كل موضع فيه أحد أصول الدين الثلاثة ـ وهي التوحيد ، والرسل ، والآخرة .

هذه التي بعث بها جميع المرسلين ، وأخبر عن المشركين انهم يكفرون بهـا في مثل قـوله : ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والـذين لا يؤمنون بـالآخرة ، وهم بـربهم يعدلـون ﴾ ـ (الانعام ٦ : ١٥٠) .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ، وكذلك أخرجه أبو داؤد .

فقال هنا ﴿ الله لا اله الا هو الحي قيوم ﴾ ـ قرنها بأنه لا الله الا هو .

وزاد في آل عمران ﴿ نزل عليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل * من قبلُ هدىً للنَّاسِ وأَنْزَلَ الفرقانَ ﴾ ـ (آل عمران٣ : ٣ , ٤)، وهذا ايمان بالكتب والرسل .

وقال في طه : ﴿ يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعة إلاَّ مَنَ أَذِنَ لهُ الرحمنُ ورضيَ لهُ قولاً * يعلمُ ما بينَ أيديهِمْ وَمَا خلفهُمْ ولا يُحيطونَ بهِ عِلماً * وعنتِ الوجوهُ للحيِّ القيّوم ، وقدْ خابَ مِنْ حَمَلَ ظُلماً ﴾ ـ (طه ٢٠ : ١٠٩ ـ ١١١) .

(١٤) فصـــل

(في صفات الافعال)

ومن أعظم الاصول معرفة الانسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية ، كقوله في هذه السورة : ﴿ الذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسانَ مِنْ علق ﴾ و (الخلق) مذكور في مواضع كثيرة ، وكذلك غيره من الافعال . وهو نوعان .

فعل يحتاج الى مفعول به ، مثل « خلق » ، فانه يقتضي مخلوقاً ، وكذلك « رزق » ، كقوله : ﴿ الله الّذي خلقكُمْ ثُمَّ رزقكُمْ ثُمَّ يميتكُمْ ثُمَّ يُحييكُمْ، هَلْ من شركائِكُمْ مَنْ يفعل من ذلكُمْ مِنْ شيءٍ ﴾ ـ (الروم ٣٠ : ٤٠) . وكذلك الهدى ، والاضلال ، والتعليم ، والبعث ، والارسال والتكليم .

وكذلك ما أخبر به من قوله : ﴿ فقضاهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومينِ ﴾ ـ (فصلت ٤١ : ١٢) ، ﴿ فسواهنَّ سبعَ سمواتٍ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٩)[١] ، وقوله : ﴿ والسماءِ بنيناهَا بأيدٍ ﴾ ـ (الذاريات ٥١ : ٤٧) ، وقوله : ﴿ الَّذي جَعَلَ لكُمْ الارضَ فراشاً والسَّماءَ بناءً وأَنزلَ من السَّماءِ ماءً فأخرجَ بهِ مِنَ الثَّمراتِ رزقاً لكُمْ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٢) ، وقوله في الآية الأخرى : ﴿ الذي جعلَ لكُمْ الأَرضَ قَراراً والسماءَ بناءً وصوَّركُمْ فأحْسَنَ صوركُمْ ورزقكُمْ مِنَ الطيباتِ ﴾ ـ (المؤمن ٤٠ : ٦٤) وهذا في القرآن ﴿ كثير ﴾[٢] جداً .

---

(١) هكذا هاتان الايتان في المصحف، وفي الاصل كان هكذا ﴿ فقضاهنَّ سبع سموات ﴾ ، ﴿ فسويهن سبع سموات في يومين ﴾ .
(٢) سقط من الاصل .

والافعال اللازمة ، كقوله : ﴿ ثُمَّ استوىٰ إلىٰ السماءِ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٩) ، ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ - (الاعراف ٧ : ٥٤ ، يونس ١٠ : ٣ ، الرعد ١٣ : ٢ ، طه ٢٠ : ٥ ، الفرقان ٢٥ : ٥٩ ، الم السجدة ٣٢ : ٤ ، الحديد ٥٧ : ٤) ، ﴿ هَلْ ينظُرُونَ إلَّا أَنْ يأتيهمُ اللهُ في ظلَلٍ مِنَ الغَمَامِ ﴾ - البقرة ٢ : ٢١٠) ، ﴿ هَلْ ينظُرونَ إلَّا أَنْ تأتيهم الملائكة أويأتي ربّكَ أويأتي بَعضُ آيات ربِّكَ ﴾ - (الانعام ٦ : ١٥٨) ، وقوله : ﴿ وجاءَ ربّكَ والمَلَكَ صَفّاً صَفّاً ﴾ - (الفجر ٨٩ : ٢٢)[١] .

فأما النوع الاول فالمسلون متفقون على اضافته الى الله ، وانه هو الذي يخلق ويرزق ، ليس ذلك صفة لشيء من مخلوقاته .

لكن هل قام به فعل هو الخلق ، أو الفعل هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ؟ وهذا فيه قولان عند من يثبت اتصافه بالصفات . فأما من ينفي الصفات من الجهمية والمعتزلة فهم ينفون قيام الفعل به بطريق الاولى .

لكن منهم من يجعل الخلق غير المخلوق ، ويجعل الخلق اما معنى قام بالمخلوق ، أو المعاني المتسلسلة ، كما يقوله معمر بن عباد ، أو يجعل الخلق قائماً لا في محل ، كقول بعضهم : انه قول « كن » لا في محل ، وقول البصريين : انه ارادة لا في محل . وهذا فرار منهم عن قيام الحوادث به ، مع ان منهم يلتزم ذلك ، كما التزمه ابو الحسين وغيره .

والجمهور المثبتون للصفات هم في الافعال على قولين .

منهم من يقول : لا يقوم به فعل ، وانما الفعل هو المفعول . وهذا قول طائفة منهم الاشعري ومن وافقه من اصحابه وغير اصحابه ، كابن عقيل وغيره ، وهو أول قول القاضي أبي يعلى .

وهؤلاء يقسمون الصفات الى ذاتية ، ومعنوية ، وفعلية . وهذا تقسيم لا حقيقة له . فان الافعال عندهم لا تقوم به فلا يتصف بها ، لكن يخبر عنها بها .

وهذا التقسيم يناسب قول من قال : الصفات هي الاخبار التي يخبر بها عنه ، لا معاني تقوم به ، كما تقول ذلك الجهمية والمعتزلة . فهؤلاء اذا قالوا : الصفات تنقسم الى ذاتية وفعلية ، أرادوا بذلك ما يخبر به عنه من الكلام تارة يكون خبرا عن ذاته ، وتارة عن المخلوقات ، ليس عندهم صفات تقوم به . فمن فسروا الصفات بهذا أمكنه ان يجعلها ثلاثة أقسام - ذاتية ، ومعنوية ، وفعلية .

---

(١) سيأتي بسط الكلام على النوع الثاني من الصفات الفعلية في الفصل التالي : « بيان اثبات الافعال اللازمة كالاستواء والمجيء » .

وأما من كان مراده بالصفات ما يقوم به بهذا التقسيم لا يصح على أصلهم ، ولكن أخذوا التقسيم عن أولئك وهم مخالفون لهم في المراد بالصفات .

وهذا التقسيم موجود في كلام أبي الحسن ومن وافقه ، كالقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي ، والباجي ، وغيرهم .

والقول الثاني : انه تقوم به الافعال . وهذا قول السلف وجمهور مثبتة الصفات .

ذكر البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد » ان هذا اجماع العلماء ، خالق ، وخلق ، ومخلوق . وذكره البغوي قول أهل السنة . وذكره أبو نصر محمد بن اسحاق الكلاباذي في كتاب « التعرف لمذاهب التصوف » انه قول الصوفية . وهو قول الحنفية مشهور عندهم يسمونه « التكوين » . وهو قول الكراوية ، والهشامية ، ونحوهما وهو قول القدماء من اصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد . وهو آخر قول القاضي أبي (يعلى) .

ثم اذا قيل : الخلق غير المخلوق ، وانه قائم بالرب ، فهل هو خلق قديم لازم لذات الرب مع حدوث المخلوقات ، كما يقوله أبي حنيفة وغيرهم ، أو هو خلق حادث بذاته ـ حدث لما حدث جنس المخلوقات ، أم خلق بعد خلق ؟ على ثلاثة اقوال .

وهذا أو هذا[1] هو الذي عليه أئمة السنة والحديث وجمهورهم . وهو قول طوائف من أهل الكلام ـ من الكرامية ، والهشامية ، وغيرهم .

فمن قال « انه يتكلم بمشيئة واختياره كلاماً يقوم بذاته » يمكنه أن يقول « انه يفعل باختياره ومشيئه فعلاً يقوم بذاته » .

والذين يقولون بقيام الامور الاختيارية بذاته منهم من يصحح دليل الاعراض والاستدلال على حدوث الاجسام ، كالكرامية ، ومتأخري الحنفية ، والمالكية ، والحنبلية ، والشافعية . ومنهم من لا يصححه ، كأئمة السلف ، وأئمة السنة[2] والحديث ، وأحمد ابن حنبل ، والبخاري ، وغيرهم .

وهذه المسألة يعبر عنها بـ « مسألة التأثير » هل هو أمر وجودي أم لا ، وهل التأثير زائد على المؤثر والأثر أم (لا)[3] ؟ وكلام الرازي في ذلك مختلف ، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

---

(١) قوله : « وهذا أو هذا » أي القول بكونه خلقاً بعد خلق ، أو كونه خلقاً حادثاً بذاته .

(٢) في الأصل « وأئمة السلف والحديث » ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٣) سقط « لا » من الأصل .

وعمدة الذين قالوا : ان الخلق هو المخلوق ، والتأثير هو وجود الاثر ، لم يثبتوا زايد أن قالوا : لو كان الخلق والتأثير زائد على ذات المخلوق والأثر لكان اما أن يقوم بمحل او لا ، والثاني باطل ، فان المعاني لا تقوم بأنفسها ، وهذا رد على طائفة من المعتزلة قالوا : يقوم بنفسه .

قالوا : واذا قام بمحل فاما أن يقوم بالخالق او بغيره ، والثاني باطل ، لانه لو قام بغيره لكان ذلك الغير هو الخالق ، لا هو . وهذا رد على طائفة ثانية يقولون : انه يقوم بالمخلوق .

وإذا قام بالخالق فاما أن يكون قديماً أو محدثاً ، ولو كان قديماً للزم قدم المخلوق ، فان الخلق والمخلوق متلازمان . فوجود خلق بلا مخلوق ممتنع ، وكذلك وجود تأثير بلا أثر .

وان كان محدثا فهو باطل لوجهين . أحدهما انه يلزم قيام الحوادث به . والثاني ان ذلك الخلق الحادث يفتقر الى خلق آخر ويلزم التسلسل . ومعمر بن عباد التزم التسلسل ، وجعل للخلق خلقاً ، وللخلق خلقاً ، لكن لا في ذات الله ، وجعل ذلك في وقت واحد .

فهذه عمدة هؤلاء . وكل طائفة تخالفهم منعت مقدمة من مقدمات دليلهم .

فمن جوز أن يقوم بنفسه ، أو بالمخلوق ، منع تينك المقدمتين . واما الجمهور فكل أجاب بحسب قوله .

منهم من قال : بل الخلق والتكوين قديم ، كما أن الارادة عندكم قديمة . ومع القول بقدمها لم يلزم تقدم المراد ، كذلك الخلق والتكوين قديم ولا يلزم تقدم المخلوق . وهذا لازم للكلابية من الاشعرية وغيرهم ، لا جواب لهم عنه .

لكن لا يلزم من نفي قدم ارادة معينة ، بل نفي قدم الارادة ، كما يقوله الجهمية والمعتزلة . او يقوم بقدم نوع الارادة ، كما يقوله ائمة أهل الحديث ومن وافقهم من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم .

لكن صاحب هذا القول يقال له : التكوين القديم اما ان يكون بمشيئته واما لا يكون بمشيئته . فان كان بغير مشيئته لزم ان يكون قد خلق الخلق بلا مشيئته . وان كان بمشيئته لزم ان يكون القديم مرادا ، وهذا باطل . ولو صح لامكن كون العالم قديماً ـ مع كونه مخلوقاً ـ بخلق قديم بارادة قديمة . ومعلوم ان هذا باطل . ولهذا كان كل من قال : « القرآن قديم » يقولون : تكلم بغير مشيئته وقدرته[1] .

---

(١) ليس هذا هو رأي ابن تيمية . ولكنه هنا يوضح آراء النظار وما يرد على راى كل واحد منهم من الاعتراضات اللازمة لقوله . وانظر رأيه مفصلاً في تفسير سورة (براءة) الجزء الثالث من هذا الكتاب .

فالمفعول المراد لا يكون الا حادثاً ، وكذلك الفعل المراد لا يكون الا حادثا .

وأيضاً فهؤلاء المنازعون لهم يقولون : الارادة مستلزمة للمراد ، والخلق مستلزم للمخلوق . وما ذكر حجة على هؤلاء وهؤلاء . فان الارادة والخلق من الامور الاضافية ، وثبوت ارادة بلا مراد وخلق بلا مخلوق ممتنع . لكن المنازع يقول : توجد الارادة والخلق ويتأخر المراد المخلوق !

فيقال لهؤلاء ـ تقولون : توجد الارادة ، او الخلق مع الارادة ، ولا يوجد لا المراد ولا المخلوق . ثم بعد ذلك بما لا يتناهى من تقدير الاوقات يوجد المراد المخلوق من غير سبب . وهذا معلوم البطلان في بداية العقول . فان الارادة أو الخلق كان موجوداً مع القدرة . فان كان هذا مؤثراً تاماً استلزم وجود الأثر ، ولزم وجود الأثر عند وجود المؤثر التام .

فان الاثر « ممكن » ، والممكن يجب وجوده عند وجود المرجح التام ، اذ لو لم يكن كذلك كان جائزاً بعد وجود المرجح يقبل الوجود والعدم ، وحينئذ فيفتقر الى مرجح . وهذا يستلزم التسلسل ، ولا ينقطع التسلسل إلا اذا وجد المرجح التام الموجب .

وهنا تنازع الناس ، فقالت طائفة ـ مثل محمد بن الهيصم الكرامي ، ومحمود الخوارزمي ـ يكون الممكن اولى بالوقوع لكن لا ينتهي الى حد الوجوب .

وقال أكثر المعتزلة والاشعرية : بل لا يصير اولى ولكن القادر ، او القادر المريد ، يرجح احد المتماثلين بلا مرجح .

وآخرون عرفوا أن هذا لازم فاعترفوا بأنه عند وجود المرجح التام يجب وجود الاثر ، وعند الداعي التام مع القدرة يجب وجود الفعل ، كما اعترف بذلك أبو الحسين البصري ، والرازي ، والطوسي ، وغيرهم . وكثير من قدماء المتكلمين يقولون بالارادة الموجبة ، وان الارادة تستلزم وجود المراد .

والمتفلسفة أوردوا هذا على المتكلمين ، ؛ لكن ان الاثر يقارن وجود التأثير فيكون معه بالزمن .

وكثير من الناس لا يعرف الا هذا القول ، وذاك القول[1] كالرازي وغيره ، فيبقون حيارى في هذا الاصل العظيم الذي هو من اعظم اصول العلم والدين والكلام .

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير موضع ، وبينا أن قولاً ثالثاً ـ وهو الصواب ـ الذي عليه أئمة العلم . وهو أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عقبة لامعة في الزمان ، ولا تراخيا عنه .

---

(١) هذا القول ، اي القول باقتران الاثر مع المؤثر ، وذاك القول ، اي القول بتأخير الأثر عن المؤثر .

فمن قال بالتراخي من أهل الكلام فقد غلط ، ومن قال بالاقتران ـ كالمتفلسفة ـ فهو اعظم غلطا ـ ويلزم قولهم من المحالات ما قد بيناه في مواضع .

واما هذا القول فعليه يدل السمع والعقل . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يقولَ لَهُ كُنْ فيكُون ﴾ ـ (يّس ٣٦ : ٨٢) . والعقلاء يقولون : « قطعته فانقطع وكسرته فانكسر » . طلق المرأة فطلقت ، واعتق العبد فعتق » . فالعتق والطلاق يقعان عقب الاعتاق والتطليق ـ لا يتراخى الاثر ، ولا يقارن . وكذلك الانكسار والانقطاع مع القطع والكسر .

وهذا ما يبين انه اذا وجد الخلق لزم وجود المخلوق وعقبه ، كما يقول : كوَّن الله الشيء فتكوَّن . فتكونه عقب تكوين الله ـ لا مع التكوين ، ولا متراخياً . وكذلك الارادة التامة مع القدرة تستلزم وجود المراد المقدور .

فهو يريد أن يخلق ، فيوجد الخلق بارادته وقدرته . ثم الخلق يستلزم وجود المخلوق وان كان ذلك الخلق حادثاً بسبب آخر يكون هذا عقبه[1] . فانما في ذلك وجود الاثر عقب المؤثر التام ، والتسلسل في الأثار . وكلاهما حق ، والله أعلم .

واما المخلوق فلا يكون الا بائنا عنه ـ لا يقوم به مخلوق .

بل نفس الارادة مع القدرة تقتضي وجود المخلوق ، كما تقتضي وجود الكلام .

ولا يفتقر الخلق الى خلق آخر ، بل يفتقر الى ما به يحصل ـ وهو الارادة المتقدمة . واذا خلق شيئاً اراد خلق شيء آخر . وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ومن قال : ان الخلق حادث ـ كالهاشمية والكرامية ـ قال : نحن نقول بقيام الحوادث به .

ولا دليل على بطلان ذلك . بل العقل والنقل ، والكتاب والسنة ، واجماع السلف ، يدل على تحقيق ذلك ، كما قد بسط في موضعه . ولا يمكن القول بأن الله يدبر هذا العالم الا بذلك ، كما اعترف بذلك اقرب الفلاسفة الى الحق ، كأبي البركات صاحب « المعتبر » ، وغيره .

وأما قولهم : يلزم ان للخلق خلقاً[2] آخر ، فقد أجابهم من يلتزم بذلك ـ كالكرامية وغيرهم[3] ـ بأنكم تقولون : ان المخلوقات المنفصلة تحدث بلا حدوث سبب أصلاً، وحينئذ

---

(١) قوله « يكون هذا عقبه » ، اي يكون هذا المخلوق عقب ذلك الخلق الحادث .

(٢) في الأصل « خلق » على الرفع ، و « أن » تقتضي النصب .

(٣) في الأصل « وغيره » .

فالقول بحدوث الخلق الذي تحصل به المخلوقات بلا حدوث سبب أقرب الى العقل والنقل .

وهذا جواب لازم على هذا التقدير ـ تقدير قيام الامور الاختيارية .

والكرامية يسمون ما قام به « حادثاً » ، ولا يسمونه « محدثاً » ، كالكلام الذي يتكلم به ـ القرآن ، أو غيره يقولون : وهو حادث ، ويمنعون أن يقال : هو محدث ، لابن « الحادث » يحدث بقدرته ومشيئته كـ « الفعل » . وأما « المحدث » فيفتقر الى احداث ، فيلزم أن يقوم بذاته إحداث غير المحدث ، وذلك الاحداث يفتقر الى احداث ، فيلزم التسلسل .

وأما غير الكرامية من ائمة الحديث والسنة والكلام فيسمون ذلك « محدثاً » ، كما قال : ﴿ ما يأتيهم مِنْ ذكرٍ مِنْ ربّهم مُحدثٍ ﴾ ـ (الانبياء ٢١ ـ ٢) . وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « ان الله يحدث من أمره ما يشاء ، وان مما أحدث أن لا تكلموا في الصلوة »[1] . والذي احدثه هو النهي عن تكلمهم في الصلوة .

وقولهم : « ان المحدث يفتقر الى احداث ، وهلم جرا » ، هذا يستلزم التسلل في الآثار ، مثل كونه متكلماً بكلام بعد كلام ، وكلمات الله لا نهاية لها ، وان الله لم يزل متكلماً اذا شاء . وهذا قول ائمة السنة ، وهو الحق الذي يدل عليه النقل والعقل .

وكذلك افعاله ، فان الفعل والكلام صفة كمال . فان من يتكلم اكمل ممن لا يتكلم ، ومن يخلق اكمل ممن لا يخلق . قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخلقُ كَمَنْ لا يَخلق ، أَفَلا تَذَّكَّرُونَ ﴾ ـ (النحل ١٦ ـ ١٧) .

وحينئذ فهو ما زال متصفا بصفات الكمال ، منعوتا بنعوت الاكرام والجلال .

وبهذا تزول انواع الاشكال ، ويعلم ان ما أخبرت به الرسل عن الله من اصدق الاقوال ، وان دلائل العقول لا تدل الى على ما يوافق اخبار الرسول .

ولكن نشأ الغلط من جهل كثير من الناس بما أخبر به الرسول ، وسلوكهم ادلة برأيهم

---

(١) رواه البخاري هكذا تعليقاً عن ابن مسعود في كتاب التوحيد ، في ترجمة باب قول الله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ و﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ الخ . ولم يخرجه موصولا ، لا هو ولا مسلم . بل هو طرف من حديث اخرجه أبو داؤد في الصلوة ، باب رد السلام في الصلوة ، من طريق عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال كنا نسلم في الصلوة ونأمر بحاجتنا ، فقدمت على رسول الله ﷺ الصلوة قال : « ان الله عز وجل يحدث من امره ما يشاء ، وان الله تعالى قد احدث من أمره أن لا تكلموا في الصلوة » . فرد على السلام ـ اهـ . واخرجه أيضاً احمد ، والنسائي ، وصححه ابن حبان . واصل هذه القصة في الصحيحين من رواية علقمة ، عن ابن مسعود ، لكن ليس فيها هذه القطعة . فلفظ البخاري ، باب ما ينهي من الكلام في الصلوة ، عن ابن مسعود قال : كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلوة ، فيرد علينا فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا ، وقال : « ان في الصلوة شغلا » ، وفي رواية احمد « لشغلا » بزيادة لام التأكيد .

ظنوها عقلية وهي جهلية . فغلطوا في الدلائل السمعية والعقلية ، فاختلفوا : ﴿ وإنَّ الذين اختلفُوا في الكتابِ لفي شقاقٍ بعيدٍ ﴾ ـ و (البقرة ٢ : ١٧٦) .

وقد بسط الكلام على هذا في مواضع ـ في مسألة الكلام والافعال ـ وذكر ما تيسر من كلام السلف والائمة في هذا الاصل . والمقصود هذا التنبيه على مآخذ الاقوال .

وهذا الموضع مما بينه ائمة السنة كالامام احمد وغيره . تكلم في « الرد على الجهمية »[1] على قوله : ﴿ إنَّا جعلناهُ قرآناً عربياً ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٣) . وبين « الجمل » من الله قد يكون « خلقا » كقوله : ﴿ وجعلَ الظلماتِ والنور ﴾ ـ (الانعام ٦ : ١) ، وقد يكون « فعلا ليس بخلق » ، وقوله : ﴿ إنَّا جعلناهُ قرآناً عربياً ﴾ من هذا الباب .

وذلك ان الخلق ، ونحوه من الافعال التي ليست خلقاً ، مثل تكلمه بالقرآن وغيره . وتكلمه لموسى وغيره ، ومثل النزول ، والاتيان ، والمجيء ، ونحو ذلك ، فهذه انما تكون بقدرته ومشيئته ، وبأفعال أخر تقوم بذاته ليست خلقاً .

وبهذا يجيب البخاري وغيره من أئمة السنة للكرامية[2] اذا قالوا : « المحدث لا بد له من احداث » ؟ ، فيقول : « نعم » وذلك الاحداث فعل ليس بخلق »[3] . و « التسلسل » يلتزمه .

فان التسلسل الممتنع هو وجود المتسلسلات في آن واحد كوجود خالق للخالق وخالق للخالق ، او للخلق خلق وللخلق خلق ، في آن واحد . وهذا ممتنع من وجوه .

منها وجود ما لا يتناهي في آن واحد ، وهذا ممتنع مطلقاً .

ومنها أن كل ما ذكر يكون « محدثاً » لا « ممكنا » ، وليس فيها موجود بنفسه ينقطع به التسلسل ، اذا كان أولى بالامتناع .

بخلاف ما اذا قيل « كان قبل هذا الكلام كلام ، وقبل هذا الفعل فعل » جائز عند اكثر العقلاء ـ أئمة السنة ، وائمة الفلاسفة ، وغيرهم .

---

(١) هو كتاب « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله . طبع مطبعة الامام ، مصر بدون تاريخ ولعله سنة ١٣٦٩ هـ ، صفحاته ٤٦ بالقطع الصغير . وقد ورد البحث المذكور هنا في ص ١٨ ـ ٢١ منها .

(٢) في الأصل : لكرامية .

(٣) وقد دفع البخاري شبهة تشبيه لفظ « الحدث » و « الاحداث » في حق الله بحدث المخلوقين بقوله في كتاب التوحيد : وانه حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ﴾ .

فاذا قيل « هذا الكلام المحدث أحدثه في نفسه » كان هذا معقولا . وهو مثل قولنا « تكلم به » . وهو معنى قوله : ﴿ إِنَّا جعلناهُ قرآناً عربياً ﴾ ، اي تكلمنا به عربياً ، وانزلناه عربياً .

وكذلك فسره السلف كاسحاق بن راهويه ، وذكره عن مجاهد قال : ﴿ جعلناهُ قرآناً عربياً ﴾ : قلناه عربياً . ذكره ابن ابي حاتم في تفسيره ، عن اسحاق بن راهويه قال : ذكر لنا عن مجاهد وغيره من التابعين : ﴿ إِنَّا جعلناهُ قرآناً عربياً ﴾ : انا قلناه ووصفناه . وذكره عن احمد بن حنبل ، عن الاشجعي ، عن سفيان الثوري في قوله : ﴿ جعلناهُ قرآناً عربياً ﴾ : بيناه قرآناً عربياً .

والانسان يفرق بين تكلمه وتحركه في نفسه وبين تحريكه لغيره . وقد احتج سفيان بن عيينة وغيره من السلف على انه غير مخلوق بأن الله خلق الاشياء بـ « كن » . فلو كانت « كن » مخلوقة لزم ان يكون خلق مخلوقاً بمخلوق ، فيلزم التسلسل الباطل .

وذلك انه اذا لم يخلق الا بـ « كن » فلو كانت « كن » مخلوقة لزم ان لا يخلق شيئاً . وهو الدور الممتنع . فانه لا يخلق شيئاً حتى يقول « كن » حتى يخلقها ، فلا يخلق شيئا . وهذا تسلسل في أصل التأثير والفعل ، مثل أن يقال : لا يفعل حتى يفعل ، فيلزم أن لا يفعل ، ولا يخلق حتى يخلق فيلزم ان لا يخلق .

واما اذا قيل : قال « كن » ، وقبل « كن » كن وقبل « كن » كن فهذا ليس بممتنع . فان هذا تسلسل في آحاد التأثير ، لا في جنسه . كما انه في المستقبل يقول « كن » بعد « كن » ، ويخلق شيئاً بعد شيء الى غير نهاية .

فالمخلوقات التامة يخلقها بخلقه ، وخلقه فعله القائم به ، وذلك انما يكون بقدرته ومشيئته .

واذا قيل : هذا الفعل القائم به يفتقر الى فعل آخر يكون هو المؤثر في وجوده غير القدرة والارادة ، فانه لو كان مجرد ذلك كافياً كفى في وجود المخلوق فلما كان لا بد له من خلق ، فهذا الخلق أمر حادث بعد أن لم يكن ، وهو فعل قائم به . فالمؤثر التام فيه يكون مستلزماً له مستعقباً له ، كالمؤثر التام في وجود الكلام الحادث بذاته .

والمتكلم من الناس اذا تكلم فوجود الكلام ـ لفظه ومعناه ـ مسبوق بفعل آخر . فلا بد من حركة تستعقب وجود الحروف التي هي الكلام . فتلك الحركة التي تجعل الكلام عربياً أو أعجمياً ، وهو فعل يقوم بالفاعل . وذلك الجعل الحادث حدث بمؤثر تام قبله أيضاً .

وذات الرب هي المقتضية لذلك كله . فهي تقتضي الثاني بشرط انقضاء الأول ، لا

معه . واقتضاؤ ها للثاني فعل يقوم بها بعد الاول . وهي مقتضية لهذا التأثير وهذا التأثير .

ثم هذا التأثير ـ وكل تأثير ـ هو مسبب عما قبله وشرط لما بعده . وليس في ذلك شيء مخلوق وان كانت « حادثة » .

وان قال قائل : انا أسمى هذا « خلقاً » ، كان نزاعه لفظياً ، وقيل له : الذين قالوا « القرآن مخلوق » لم يكن مرادهم هذا ، ولا رد السلف والأئمة هذا . انما ردوا قول من جعله مخلوقاً بائناً عن الله ، كما قال الامام أحمد : كلام الله من الله ليس بائن عنه .

وقالوا : القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ .

قال : أحمد : منه بدأ هو المتكلم به لم يبدأ من مخلوق ، كما قال من قال : انه مخلوق . قال تعالى : ﴿ والَّذين آتيناهُمْ الكتابَ يعلمونَ أَنَّهُ منزلٌ مِنْ ربّكَ بالحقِّ ﴾ ـ (الانعام ٦ : ١١٤) .

ولهذا لا يقول أحد أنه خلق نزوله ، واستواءه ، ومجيئه ، وكذلك تكليمه لموسى ، ونداءه له ـ ناداه بمشيئته وقدرته . والتكليم فعل قام بذاته ، وليس هو الخلق ، كما أن الانسان اذا تكلم فقد فعل كلاما ، واحدث كلّاما ، ولكن في نفسه ، لا مبائناً له .

ولهذا كان الكلام صفة فعل ، وهو صفة ذات أيضاً ، على مذهب السلف والأئمة .

ومن قال انه مخلوق يقول : انه صفة فعل ، ويجعل الفعل بائناً عنه ، والكلام بائناً عنه . ومن قال صفة ذات يقول : انه يتكلم بلا مشيئته وقدرته .

ومذهب السلف انه يتكلم[1] بمشيئته وقدرته ، وكلامه قائم به . فهو صفة ذات وصفة فعل . ولكن الفعل هنا ليس هو الخلق، بل كما قال الامام احمد : الجعل جعلان ـ جعل هو خلق ، وجعل ليس بخلق .

وهذا كله يستلزم قيام الافعال بذاته ، وانها تنقسم الى قسمين ـ أفعال متعدية كالخلق ، وافعال لازمة كالتكلم والنزول . والسلف يثبتون النوعين ـ هذا وغيره .

واما جعل القرآن عربياً وان كان متعدياً في صناعة العربية بمعنى انه نصب مفعولاً ، ففي « الكلام » الفعل الذي هو « التكلم » متصلاً بالمفعول الذي هو « الكلام » ـ كلاهما قائم بالمتكلم .

ولهذا يراد بالمفعول المصدر . اذا قلت « قال قولا حسنا » فقد يراد بـ « القول » المصدر

---

(١) في الأصل : تكلم .

فقط ، وقد يراد به « الكلام » فقط فيكون المفعول ، وقد يراد به المجموع فيكون مفعولا به ومصدرا .

وكذلك « القرآن » هو في الاصل « قرأ قرآناً » ، وهو الفعل والحركة ، ثم سمى الكلام المقروء « قرآناً» . قال تعالى في الأول : ﴿ إنَّ علينَا جَمْعَهُ وقرآنَهُ * فإذا قرأناهُ فاتَّبع قرآنَهُ ﴾ - (القيامة ٧٥ : ١٧ و١٨) ، وقال في الثاني ﴿ ان هذا القرآن ﴾ - (الاسراء ١٧ : ٩) .

وقد بسط هذا في غير الموضع وبين ﴿ ان ﴾[١] التلاوة والقراءة في الأصل مصدر « تلا تلاوة » وقرأ قراءة ، كالقرآن ، لكن يسمى به الكلام كما يسمى بالقرآن . وحينئذ فتكون القراءة هي المقروء ، والتلاوة هي[٢] المتلو .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة والمصدر الذي هو الفعل ، فلا تكون القراءة والتلاوة هي المقروء المتلو ، بل تكون مستلزمة له .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة مجموع الامرين ، فلا تكون هي المتلو لان فيها الفعل ، ولا تكون مباينة مغايرة للمتلو لان المتلو جزؤ ها .

هذا اذا أريد بالقراءة والمقروء شيء واحد معين ، مثل قراءة الرب ومقروئه ، او قراءة العبد ومقروئه . واما اذا أريد بالقراءة قراءة العبد ، وهي حركته ، وبالمقروء واما اذا أريد بالقراءة قراءة العبد ، وهي حركته ، وبالمقروء صفة الرب ، فلا ريب ان حركة العبد ليست صفة الرب .

ولكن هذا تكلف ، بل قراءة العبد مقروءه كمقروئه . وقراءته للقرآن اذا عنى بها نفس القرآن فهي مقروؤ ه . وان عني بها حركته فليست[٣] مقروءه . وان عني بها الامران فلا يطلق احدهما .

ولهذا كان من المنتسبين الى السنة من يقول : القراءة هي المقروء ، ومنهم من يقول : القراءة غير المقروء ، ومنهم من لا يطلق واحد منهما[٤] . ولكل قول وجه من الصواب عند التصور التام والانصاف . وليس فيها قول يحيط بالصواب ، بل كل قول فيه صواب من وجه وقد يكون خطأ من وجه آخر .

والبخاري انما يثبت خلق افعال العباد - حركاتهم واصواتهم - وهذه القراءة هي فعل

---

(١) كلمة « ان » غير موجودة في الأصل .

(٢) في الأصل هو .

(٣) في الاصل : وليست .

(٤) في الاصل : منها .

العبد يؤمر به وينهى عنه . واما الكلام نفسه فهو كلام الله . ولم يقل[١] البخاري ان لفظ العبد مخلوق ولا غير مخلوق ، كما نهى أحمد عن هذا وهذا .

والذي قال البخاري انه مخلوق من افعال العباد وصفاتهم لم يقل أحمد ولا غيره من السلف انه غير مخلوق ، وان سكتوا عنه لظهور امره ، ولكنهم كانوا يقصدون الرد على الجهمية .

والذي قال احمد انه غير مخلوق ـ وهو كلام الله لا صفة العباد ـ لم يقل البخاري انه مخلوق .

ولكن احمد كان مقصوده الرد على من يجعل كلام الله مخلوقا اذا بلغ عن الله ، والبخاري كان مقصوده الرد على من يقول : افعال العباد واصواتهم غير مخلوقة .

وكلام القصدين صحيح لا منافاة بينهما . وقد بين ذلك ابن قتيبة [٢] في مسألة اللفظ ، ولكنَّ ، المنحرفين الى احد الطرفين ينكرون على الآخر ، والله سبحانه اعلم .

(١٥) فصل

(في الصفات الخبرية كالاستواء والمجيء)

وأما الأفعال اللازمة ـ كالاستواء والمجيء ـ فالناس متنازعون في نفس اثباتها . لان هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق . وانما عرفت بالخبر . فالأصل فيها الخبر ، لا العقل .

ولهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها ـ ممن يقول : « الخلق غير المخلوق » . وممن يقول « الخلق هو المخلوق »[٣] يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها .

والذين اثبتوا الصفات الخبرية لهم في هذه قولان :

---

(١) في الاصل : « لم يقله » ، ولا وجه له .

(٢) هو الامام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري المتوفي سنة ٢٧٦هـ . وكتابه المسمى « الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة » قد طبع بمصر سنة ١٣٤٩هـ . وهذا البحث منه يقع في ص ٥٠ ـ ٥٣ ، وهذه عبارته ملخصاً نوردها لبلاغة معناها : فاذا فكر أحدهم في القراءة وجدها قد تكون قرآنا ، لان السامع يسمع القراءة ، وسامع القرآن ووجدوا العرب تسمى القراءة « قرانا » ، فيعتقد من هذه الجهات ان القراءة هي القرآن غير المخلوق . ويفكر آخر في القراءة فيجدها عملا لان الثواب يقع على عمل لاعلى ان قرآنا في الأرض ، فيعتقد من هذه الجهة ان القراءة عمل وانها غير القرآن . وان من قال : « القراءة غير مخلوقة » فقد قال ان اعمال العباد غير مخلوقة . فلما وقعت هذه البلية فزع الناس الى علمائهم ، فقال فريق منهم : القراءة فعل محض ، وهي مخلوقة كسائر افعال العباد ، والقرآن وغيرها . فاتبعهم على ذلك فريق . وقالت فرقة : هي القرآن بعينه . ومن قال : « ان القراءة مخلوقة » فقد قال بخلق القرآن ، واتبعهم قوم اهـ .

(٣) في الاصل على الصواب « ومن » .

منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدي لجعلها أموراً[1] حادثة ففي غيرها . وهذا قول الأشعري ، وأئمة الصحابة ومن وافقهم ، كالقاضي أبي يعلى ، وابن الزاغوني وابن عقيل ، في كثير من أقواله .

فالأشعري يقول : الاستواء فعل فعله في العرش ، فصار به مستوياً على العرش . وكذلك يقول في الاتيان ، والنزول . ويقول : هذه الافعال ليست من خصائص الاجسام ، بل توصف بها الاجسام والاعراض ، فيقال : « جاءت الحمى ، وجاء البرد ، وجاء الحر » ، ونحو ذلك .

وهذا أيضاً قول القاضي أبي بكر ، والقاضي أبي يعلى ، وغيرهما .

وحملوا ما روى عن السلف ، كالاوزاعي وغيره ، ﴿ من ﴾[1] أنهم قالوا في النزول : يفعل الله فوق العرش بذاته ، كما حكاه القاضي عبد الوهاب[2] عن القاضي أبي بكر ، وكما حكوه عن الأشعري وغيره ، كما ذكره في غير موضع من كتبه .

ولكن عندهم هذا من الصفات الخبرية ، وهذا قول البيهقي وطائفة . وهو أول قولي القاضي أبي يعلى .

وكل من قال ان الرب لا تقم به الصفات الاختيارية ، فانه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سواء كان لازما أو متعديا . لكن من أثبت من هؤلاء فعلاً قديماً كمن يقول بالتكوين وبهذا فانه يقول : ذلك القديم قام به بغير مشيئته ، كما يقولون في ارادته القديمة .

والقول الثاني انها كما دلت عليه افعال تقوم بذاته بمشيئته واختياره ، كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية . وهذا قول ائمة السنة ، والحديث ، والفقه ، والتصوف ، وكثير من اصناف اهل الكلام ، كما تقدم .

وعلى هذا ينبني نزاعهم في تفسير قوله : ﴿ ثم استوىٰ إلىٰ السَّماءِ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٩) ، و (قوله) : ﴿ هَلْ ينظرونَ إلاَّ أَنْ يأتيهم اللهُ في ظُللٍ مِنَ الغمامِ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢١) ، وقوله : ﴿ ثم استوىٰ علىٰ العرشِ ﴾ - (الاعراف ٧ : ٥٤ ، يونس ١٠ : ٣ ، الرعد ١٣ : ٢ ، طه ٢٠ : ٥ ، الفرقان ٢٥ : ٥٩ ، الم السجدة ٣٢ : ٤ ، الحديد ٥٧ : ٤) ، ونحو ذلك .

---

(١) ليس في الاصل .

(٢) هو القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي الفقيه المالكي انتهت اليه الرياسة في المذهب . كان فقيهاً ، اديباً ، شاعراً ، صاحب التصانيف ، له كتاب « التلقين » في فروع فقه المالكية مختصر مفيد ، و « غرر المحاضرة ورؤ وس مسائل المناظرة »، وغير ذلك ولد ببغداد سنة ٣٦٢ هـ ، وولى القضاء بمدينة أسعرد وبردرايا في العراق ، وخرج في آخر عمره الى مصر ، فمات بها سنة ٤٢٢ هـ . والقاضي أبو بكر هو محمد بن الطيب بن محمد القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي البصري ، امام متكلمي الاشاعرة ، سكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣ هـ .

فمن نفى هذه الافعال يتأول اتيانه باتيان أمره أو بأسه ، والاستواء على العرش يجعله القدرة والاستيلاء ، او بجعله علو القدر .

فان الاستواء للناس فيه قولان ـ هل هو من صفات الفعل او الذات على قولين .

والقائلون بأنه صفة ذات يتأولونه بأنه قدر على العرش . وهو ما زال قادراً ، وما زاله عالي القدر ، فلهذا ظهر ضعف هذا القول من وجوه .

منها قوله : ﴿ ثُمَّ استوىٰ علىٰ العرشِ ﴾ ، فأخبر انه استوى بحرف « ثم » .

ومنها انه عطف فعلاً على فعل ، فقال : خلق[1] ثم استوى .

ومنها أن ما ذكروه لا فرق فيه بين العرش وغيره . واذا قيل ان العرش أعظم المخلوقات ، فهذا لا ينفي ثبوت ذلك لغيره ، كما في قوله : ﴿ رب العرش العظيم ﴾ . لما ذكر ربوبيته للعرش لعظمته ، والربوبية عامة ، جاز أن يقال : « رب السموات والارض وما بينهما ، ورب العرش العظيم » ، ويقال : ﴿ ربّ العالمينَ * ربّ موسىٰ وهارون ﴾ ـ (الشعراء ٢٦ : ٤٧ ، ٤٨) .

والاستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع انه مستول مقتدر على كل شيء من السماء والارض وما بينها . فلو كان استواؤه على ﴿ العرش ﴾[2] هو قدرته عليه جاز ان يقال : على السماء والأرض وما بينها . وهذا مما احتج به طوائف منهم الاشعري . قال : في اجماع المسلمين على ان الاستواء مختص بالعرش دليل على فساد هذا القول[3] .

أيضاً فانه ما زال مقتدراً عليه من حين خلقه .

ومنها كون لفظ « الاستواء » في لغة العرب يقال على القدرة أو علو القدر ممنوع عندهم . والاستعمال الموجود في الكتاب والسنة وكلام العرب يمنع هذا ، كما قد بسط موضعه .

وتكلم على البيت الذي يحتجون به :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وانه لو كان صحيحاً لم يكن فيه حجه . فانهم لم يقولوا : استوى عمر على العراق لما فتحها ، ولا استوى عثمان على خراسان ، ولا استوى رسول الله ﷺ على اليمن .

وانما قيل هذا البيت ـ ان صح ـ في بشر بن مروان[4] لما دخل العراق واستوى على كرسي

---

(١) في الأصل « خلق الانسان » ، ولم يذكر في القرآن خلق الانسان مع الاستواء ، الا أن يكون « خلق السموات والأرض » .

(٢) سقط في الأصل .

(٣) تقدم قول الأشعري في ذلك مبسوطاً في تفسير سورة الاعلى ، الفصل الثاني ، تحت عنوان « ابطال الاشعري تأويل الاستواء بالاستيلاء » .

(٤) هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي ، ولى امرة العراقين لاخيه عبد الملك بن مروان سنة ٧١ ـ ٧٥ هـ . مات

ملكها . فقيل هذا كما يقال : جلس على سرير الملك ، او تحت الملك ، ويقال قعد الملك ، والمراد هذا .

وأيضاً فالآيات الكثيرة والاحاديث الكثيرة واجماع السلف يدل على ان الله فوق العرش ، كما قد بسط في مواضع .

وأما الذين قالوا : الاستواء صفة فعل ، فهولاء لهم قولان هنا على ما تقدم - هل هو فعل بائن عنه لان الفعل بمعنى المفعول ، او فعل قائم به يحصل بمشيئته وقدرته .

الاول قول ابن كلاب ، ومن اتبعه كالاشعري وغيره . وهو قول القاضي ، وابن عقيل ، وابن الزاغوني ، وغيرهم .

والثاني قول أئمة أهل الحديث والسنة ، وكثير من طوائف الكلام ، كما تقدم .

ولهذا صار للناس فيما ذكر الله في القرآن من الاستواء والمجيء ونحو ذلك ستة أقوال .

١ - طائفة يقولون : تجري على ظاهرها ، ويجعلون اتيانه من جنس اتيان المخلوق ، ونزوله من جنس نزولهم . وهؤلاء المشبهة الممثلة ، من هؤلاء من يقول : اذا نزل خلا منه العرش ، فلم يبق فوق العرش .

٢ - وطائفة يقولون : بل النصوص على ظاهرها اللائق به ، كما في سائر ما وصف به[١] نفسه ، وهو ﴿ ليسَ كَمثلهِ شيء ﴾ لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في افعاله . ويقولون : نزل نزولاً يليق بجلاله ، وكذلك يأتي اتيانا يليق بجلاله . وهو عندهم ينزل ويأتي ولم يزل عالياً ، وهو فوق العرش ، كما قال حماد بن زيد : هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء . وقال اسحاق بن راهويه : ينزل ولا يخلو منه العرش ، ونقل ذلك عن احمد ابن حنبل في رسالته مسدد .

وتفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث ، وهو الذي حكاه ابو عمر بن عبد البر عنهم ، وهو قول عامة القدماء من اصحاب احمد ، وقد صرح به ابن حامد وغيره .

والاول - نفي قيام الامور الاختيارية - هو قول التميمي موافقة منه لابن كلاب ، وهو قول القاضي أبي يعلى واتباعه .

بالبصرة سنة ٧٥ هـ . وهو اول أمير مات بها . كان سمحاً جواداً ، وكان يجيز على الشعر بألوف ، وقد امتدحه الفرزدق ، والأخطل . وهذا البيت من كلام الأخطل الشاعر النصراني - عن البداية والنهاية لابن كثير .

(١) في الاصل « في نفسه » ، ولعل الصحيح بدون « في » و « نفسه » مفعول « وصف » .

٣ ، ٤ ـ وطائفتان يقولان : بل لا ينزل ولا يأتي ، كما تقدم . ثم منهم من يتأول ذلك ، ومنهم من يفوض معناه[1] .

٥ ، ٦ ـ وطائفتان واقفتان ، منهم من يقول : ما ندري ما أراد الله بهذا ، ومنهم من لا يزيد على تلاوة القرآن .

وعامة المنتسبين الى السنة واتباع السلف يبطلون تأويل من يتأول ذلك بما ينفي ان يكون هو المستوى الآتي ، لكن كثير منهم يرد التأويل الباطل ، ويقول : ما أعرف مراد الله بهذا .

ومنهم من يقول : هذا مما نهى تفسيره ، او يكتم تفسيره .

ومنهم من يقرره كما جاءت به الأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين .

قال ابو محمد البغوي الحسين بن مسعود الفراء الملقب بـ « محيى السنة » في تفسيره : ﴿ ثم استوىٰ الىٰ السَّماءِ ﴾ ، قال ابن عباس واكثر مفسري السلف : أي ارتفع الى السماء . وقال الفراء ، وابن كيسان ، وجماعة من النحويين : اي اقبل على خلق السماء . وقيل : قصد .

وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي في تفسيره . قال : ﴿ ثم استوىٰ الىٰ السَّماء ﴾ اي عمد الى خلقها .

وكذلك هو يرجح قول من يفسر الاتيان باتيان أمره ، وقول من تأويل الاستواء ، وقد ذكر ذلك في كتب اخرى ، ووافق بعض أقوال ابن عقيل . قال : ابن عقيل ، له في هذا الباب اقوال مختلفة وتصانيف يختلف بها رأيه واجتهاده .

وقال البغوي في تفسير قوله : ﴿ ثم استوىٰ على العرش ﴾ : قال الكلبي ، ومقاتل : استقر . وقال أبو عبيدة : صعد . وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء .

وأما أهل السنة فيقولون : الاستواء على العرش صفة لله بل كيف يجب على الرجل الايمان به وبكل العلم فيه الى الله . وسأل رجل مالك بن انس عن قوله : ﴿ الرَّحمٰنُ علىٰ العرشِ استوىٰ ﴾ كيف استوى ؟ فأطرق مالك رأسه ملياً ، وعلاه الرحضاء[2] ، ثم قال :

---

(١) تقدم قوله في هاتين الطائفتين : وكل من قال ان الرب لا تقوم به الصفات الاختيارية فانه ينفي ان يقوم به فعل شاءه سواء كان لازما أو متعديا . لكن من أثبت من هؤلاء فعلاً قديماً كمن يقول التكوين وبهذا فانه يقول : ذلك القديم قام به بغير مشيئته كما يقولون في ارادته القديمة .

(٢) قال في القاموس : الرحضاء : العرق اثر الحمى ، او عرق يغسل الجلد كثرة .

الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، السؤال عنه بدعة ، وما أراك الا ضالا . ثم أمر به فاخرج .

قال : روى عن سفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينه ، وعبد الله بن المبارك . وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة : أمورها كما جاءت بلا كيف .

وقال في قوله : ﴿ هَلْ ينظرونَ إلاَّ أَنْ يأتيهم اللهُ في ظُللٍ مِنَ الغَمَامِ ﴾ : الاولى في هذه الآية وفيما شاكلها ان يؤمن الانسان بظاهرها ، ويكل علمها الى الله ، ويعتقد ان الله منزه عن سمات الحدث ، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة .

قال الكلبي : هذا من المكتوم الذي لا يفسر .

(قلت) : وقد حكى عنه انه قال في تفسير قوله : ﴿ ثم استوى ﴾ : استقر ففسر ذاك ، وجعل هذا من المكتوم الذي لا يفسر . لان ذاك فيه وصفه بأنه فوق العرش ، وهذا فيه اتيانه في ظلل من الغمام .

قال البغوي : وكان مكحول ، والزهري ، والاوزاعي ، ومالك ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، واحمد ، واسحاق ، يقولون فيه وفي امثاله : امورها كما جاءت بلا كيف . قال سفيان بن عيينة : كلما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره[1] قراءته والسكوت عنه[2] ، ليس لاحد ان يفسره الا الله ورسوله .

وهذه الآية[3] اغمض من آية الاستواء . ولهذا كان أبو الفرج يميل الى تأويل هذا وينكر قول من تأول الاستواء بالاستيلاء .

قال في تفسيره ، قال الخليل بن أحمد : « العرش » السرير ، وكل سرير الملك يسمى « عرشاً » ، وقلما يجمع العرش الا في الاضطرار .

(قلت) : وقد روى ابن ابي حاتم عن ابن روى ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : يسمى « عرشاً » لارتفاعه . (قلت) : والاشتقاق يشهد لهذا ، كقوله : ﴿ وَمَا كانُوا يَعْرُشُونَ ﴾ - (الأعراف ٧ : ١٣٧) ، وقوله : ﴿ معروشاتٍ وغير معروشات ﴾ - (الأنعام ٦ : ١٤١) ، وقول سعد : وهذا كافر بالعرش . ومقعد الملكَ يكون أعلى من غيره . فهذا بالنسبة الى غيره عال اليه ، وبالنسبة الى ما فوقه هو دونه . وفي الصحيحين عن

---

(١) في الاصل « بتفسيره » ، والتصحيح من تفسير البغوي .

(٢) في البغوي (عليه) .

(٣) أي آية الاتيان .

النبي ﷺ انه قال : « اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه اعلى الجنة ، ووسط الجنة ، وسقفه عرش الرحمن » . فدل على ان العرش اعلى المخلوقات ، كما بسط في مواضع أخر .

قال أبو الفرج : واعلم ان ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والاسلام . قال امية بن أبي الصلت :

مجدوا الله ، فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء الاعلى الذي سبق النا س ، وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لا يناله بصر العيـ ـن ، ترى دونه الملائك صورا

(قلت) : يريد أن ذكره من العرب من لم يكن مسلما ـ أخذه من أهل الكتاب . فلن أمية ونحوه انما أخذ هذا عن أهل الكتاب ، والا فالمشركون لم يكونوا يعرفون هذا .

قال أبو الفرج بن الجوزي ، وقال كعب : ان السموات في العرش كقنديل معلق بين السماء والارض .

قال : واجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية . وقد شذ قوم فقالوا : العرش بمعنى الملك ، وهو عدول عن الحقيقة الى التجوز مع مخالفة الاثر . ألم يسمعوا قوله : ﴿ وكانَ عرشهُ علىٰ الماءِ ﴾ ـ (هود ١١ : ٧) ؟ أفتراه كان الملك على الماء ؟

قال ، وبعضهم يقول : استوى بمعنى استوى ، ويستدل بقول الشاعر :

حتى استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراقْ

وقال الشاعر أيضاً :

قد قلما استويا بفضلهما جميـ ـعا على عرش الملوك بغير زور

قال : هو منكر عند اللغويين . قال ابن الاعرابي : ان العرب لا تعلم استوى بمعنى استولى ، ومن قال ذلك فقد أعظم .

قال : وانما يقال : « استولى فلان على كذا » اذا كان بعيداً عنه غير متمكن ثم تمكن منه ، والله سبحانه وتعالى لم يزل مستولياً على الأشياء .

والبيتان لا يعرف قائلهما ، كذا قال ابن فارس اللغوي . ولو صحا لم (يكن) حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا ـ نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة !

(قلت) : فقد تأول قوله : ﴿ ثم استوى إلىٰ السَّماءِ ﴾ . وانكر تأويل ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ .

وهو في لفظ « الاتيان » قد ذكر القولين . فقال : قوله : ﴿ أو يأتيهم الله في ظلل ﴾ ، كان جماعة من السلف يمسكون عن مثل هذا . وقد ذكر القاضي أبو يعلى عن احمد أنه قال : المراد به قدرته وأمره . قال : وقد بينه في قوله : ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ .

(قلت) : هذا الذي ذكره القاضي وغيره ان حنبلا نقله عن أحمد في كتاب « المحنة » انه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله : « تجيء البقرة وآل عمران » ، قالوا : والمجيء لا يكون الا لمخلوق . فعارضهم احمد بقوله : ﴿ وجاءَ رَبّك ﴾ - (الفجر ٨٩/ ٢٢) ، ﴿ أو يأتي رَبْك ﴾ - (الانعام ٦ : ١٥٨) ، وقال : المراد بقوله : « تجيء البقرة وآل عمران » : ثوابهما ، كما في قوله : ﴿ وجاء ربك ﴾ أمره وقدرته .

وقد اختلف أصحاب احمد فيما نقله حنبل . فانه لا ريب انه خلاف النصوص المتوارة عن احمد في منعه من تأويل هذا ، وتأويل النزول ، والاستواء ، ونحو ذلك من الافعال .

ولهم ثلاثة أقوال . قيل : ان هذا غلط من حنبل - انفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة ، مثل صالح ، وعبد الله ، والمروزي ، وغيرهم . فانهم لم يذكروا هذا ، وحنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة ، كالخلال وصاحبه . قال أبو اسحاق بن شاقلا : هو غلط من حنبل لا شك فيه .

وكذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول « ينزل الى السماء الدنيا » انه ينزل امره . لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهو كذاب باتفاقهم . وقد رويت وجه آخر لكن الاسناد مجهول .

والقول الثاني : قال طائفة من اصحاب أحمد : هذا قاله الزاما للخصم على مذهبه لأنهم في يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله : « تأتي البقرة وآل عمران » اجابهم بأن معناه : يأتي ثواب البقرة وآل عمران ، كقوله : ﴿ أنْ يأتيهم الله ﴾ اي امره وقدرته ، على تأويلهم لا انه يقول بذلك . فان مذهبه ترك التأويل .

والقول الثالث : انهم جعلوا هذا رواية عن أحمد ، وقد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه . لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل . وقد ذكر الروايتين ابن الزاغوني وغيره . وذكر ان ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعمول عليها عند عامة المشايخ من اصحابنا .

ورواية التأويل فسر ذلك بالعمد والقصد ، لم يفسره بالامر والقدرة ، كما فسروا ﴿ ثم استوىٰ الىٰ السَّماءِ ﴾ .

فعلى هذا في تأويل ذلك - اذا قيل به - وجهان . . .

وابن الزاغوني ، والقاضي ابو يعلى ، ونحوهما ، وان كانوا يقولون بامرار المجيء والاتيان على ظاهره ، فقولهم في ذلك من جنس قول ابن كلاب ، والأشعري . فانه أيضاً يمنع تأويل

النزول والاتيان والمجيء ، ويجعله من الصفات الخبرية ، ويقول : ان هـذه الافعال لا تستلزم الاجسام ، بل يوصف بها غير الاجسام . وكلام ابن الزاغوني في هذا النـوع وفي استواء الـرب على العرش هو موافق لقول ابن الحسن نفسه .

هذا قولهم في الصفات الخبرية الواردة في هذه الافعال .

وأما علو الرب نفسه فوق العالم فعند ابن كلاب أنه معلوم بالعقل ، كقول اكثر المثبتة ، كما ذكر ذلك الخطاب [١] ، وابن عبـد العبر ، وغيـرهما . وهـو قول ابن الـزاغوني ، وهـو آخر قولى القاضي أبي يعلى ، وكان القاضي أولا يقول بقول الأشعري : انه من الصفات الخبـرية . وهذا قول القاضي ابي بكر ، والبيهقي ، ونحوهما .

واما ابو المعالى الجويني واتبـاعه فهؤلاء خـالفوا الاشعـري وقدمـاء اصحابـه في الصفات الخبرية ، فلم يثبتوها . لكن منهم من نفـاها فتـأول الاستواء بـالاستيلاء ، وهـذا أول قولي أبي المعالى : ومنهم من توقف في اثباتها ونفيها ، كالرازي ، والأمدي . وآخـر قولي أبي المعـالي المنع من تأويل الصفات الخبرية ، وذكر ان هذا اجماع السلف ، وان التأويل لو كان مسوغاً أو محتوماً لكان اهتمامهم به أعظم من اهتمامهم بغيره .

فاستدل[٢] باجماعهم على أنه لا يجوز التأويـل ، وجعل الـوقف التام عـلى قولـه : ﴿ وما يعلمُ تـأويلهُ إلاّ اللهُ ﴾ - (آل عمـران ٣ : ٧) . ذكـر ذلـك في « النـظاميـة في الاركـان الاسلامية » .

وهذه طريقة عامة المنتسبين الى السنة - يرون التأويل مخـالفاً لـطريقة السلف . وقـد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع[٣] ، وذكر لفظ « التأويل » ومـا فيه من الاجمـال ، والكلام على قوله : ﴿ وما يعلمُ تأويلهُ إلاّ اللهُ ﴾ ، وأن كلا القولين حق .

فمن قـال : لا يعلم تأويله الا الله ، فـأراد به مـا يؤ ل اليه الكـلام من الحقـائق التي لا يعلمها الا الله . ومن قال : ان الراسخين في العلم يعلمون التأويـل ، فالمـراد به تفسـير القرآن الذي بينه الرسول والصحابة .

وانما الخلاف في لفظ « التـأويل » عـلى المعنى المرجوح ، وانه حمـل اللفظ على الاحتمـال

---

(١) لعله « الخطابي » .

(٢) في الأصل « فاسد » ، ولعله تحريف من « فاستدل » .

(٣) هو من تصانيف امام الحرمين ابي المعالي عبد الملك الجويني المتوفي سنة ٤٧٨ هـ ، ويحتوي على العقيدة والاركان الاسلامية المبني عليها الاسلام . فجرد تلميذه القاضي ابو بكر بن العربي قسم العقيدة عن باقي الاقسام وسمـاه « العقيدة النـظامية » وقـد طبع بمصـر سنة ١٣٦٧ هـ بتصحيح الاستاذ محمد زاهد الكوثري . والعبارة التي ذكر المصنف خلاصتها ههنا تقع في صفحة ٢٣ ـ ٢٤ منه .

(٤) كان بسطه في تصنيف مستقل سماه « الاكليل في المتشابه والتأويل » طبع ثانياً بمصر سنة ١٣٦٦ هـ .

المرجوح دون الراجح لدليل يقترن به . فهذا اصطلاح متأخر ، وهو التأويل الذي انكره السلف والأئمة ـ تأويلات أهل البدع .

وكذلك يقول أحمد في « رده على الجهمية » : الذين تأولوا القرآن على غير تأويله . وقد تكلم احمد على متشابه القرآن وفسره كله .

ومنه تفسير متفق عليه عند السلف ، ومنه تفسير مختلف فيه .

وقد ذكر الجد أبو عبد الله[1] في تفسيره من جنس ما ذكره البغوي ، لا من جنس ما ذكره ابن الجوزي ، فقال :

أما الأتيان المنوب الى الله فلا يختلف قول ائمة السلف ، كمكحول ، والزهري ، والاوزاعي ، وابن المبارك ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد ، وأتباعهم ، انه يمر كما جاء . وكذلك ما شاكل ذلك مما جاء في القرآن ، او وردت به السنة ، كأحاديث النزول ، ونحوها . وهي طريقة السلامة ومنهج أهل السنة والجماعة ـ يؤمنون بظاهرها ويكلون علمها الى الله ويعتقدون ان الله منزه عن سمات الحدث . على ذلك مضت الأئمة خلفا بعد سلف ، كما قال تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ .

وقال ابن السائب في قوله : ﴿ أنْ يأتيهم اللهُ في ظُللٍ مِنَ الغَمامِ ﴾ : هذا من المكتوم الذي لا يفسر .

وذكر[2] ما يشبه كلام الخطابي في هذا : فان قيل « كيف يصح الايمان بما لا يحيط من يدعى الايمان به علما بحقيقته » ؟ ، فالجواب : كما يصح الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والنار والجنة . ومعلوم انا لا نحيط علما بكل شيء من ذلك على جهة التفصيل ، وانما كلفنا الايمان بذلك في الجملة . ألا ترى أنا لا نعرف عدة من الانبياء وكثير (أ) من الملائكة ، ولا نحيط بصفاتهم ، ثم لا يقدح ذلك في ايماننا بهم ؟ وقد قال النبي ﷺ في صفة الجنة : يقول الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴾ .

(قلت) : لا ريب انه يجب الايمان بكل ما أخبر به الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، وان كان الشخص لم يفقه بالعربية ما قال ولا فهم من الكلام شيئاً ، فضلاً عن العرب ، فلا يشترط في الايمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به . هذا لا ريب فيه .

---

(١) هو ابن أبي القاسم الخضر بن تيمية الجد الرابع من اجداد المصنف سماه « الجد » ههنا . وقد تقدم ذكر بـ « ابن الجد » في أوائل الفصل الاول من تفسير العلق .

(٢) اي ذكر ابو عبد الله بن تيمية .

فكل من اشتبه عليه آية من القرآن ولم يعرف معناها وجب عليه الايمان بها ، وان يكل علمها الى الله فيقول « الله أعلم » . وهذا متفق عليه بين السلف والخلف . فما زال كثر من الصحابة يمر بآية ولفظ لا يفهمه فيؤمن به وان لم يفهم معناه[1] .

لكن هل يكون في القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس ، بل ولا الرسول ، عند من يجعل التأويل هو « معنى الآية » ويقول : انه لا يعلمه الا الله ؟ فيلزم ان يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول ، ولا أحد من الأمة ، بل ولا جبريل . هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معاني هذه الآيات لا يفهمه احد من الناس . . . ؟

وليس هذا بمنزلة ما ذكر في الملائكة ، والنبيين ، والجنة . فانا قد فهمنا الكلام الذي خوطبنا به ، وانه يدل على ان هناك نعيما لا نعلمه . وهذا خطاب مفهوم ، وفيه اخبارنا ان من المخلوقات ما لا نعلمه . وهذا حق ، كقوله : ﴿ وما يعلمُ جنودَ ربِّكَ إلاَّ هوَ ﴾ ـ (المدثر ٧٤ : ٣١) ، وقوله لما سألوه عن الروح ﴿ وما أوتيتُمْ مِنَ العلمِ إلاَّ قليلاً ﴾ ـ (الاسراء ١٧ : ٨٥) . فهذا فيه اخبارنا بأن لله مخلوقات لا نعلمها ، او نعلم جنسهم ولا نعلم قدرهم ، او نعلم بعض صفاتهم بدون بعض .

وكل هذا حق ، لكن ليس فيه ان الخطاب المنزل الذي امرنا بتدبره لا يفقهه ولا يفهم معناه لا الرسول ولا المؤمنون . فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء . فان الله قال : ﴿ إنَّا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلّكم تعقلونَ ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٣) ، وقال : ﴿ أفَلاَ يتدبَّرُونَ القرآنَ أمْ علىٰ قلوبٍ اقفالُها ﴾ ـ (القتال ٤٧ : ٢٣) ، وقال : ﴿ أفَلَمْ يدَّبَّرُوا القولَ ﴾ ـ (المؤمنون ٢٣ : ٦٨) ، وقال : ﴿ حتىٰ إذَا خرجُوا مِنْ عندِكَ قالُوا للَّذينَ اوتُوا العِلْمَ ماذَا قالَ آنفاً ، اولئكَ الَّذينَ طَبَعَ اللهُ علىٰ قلوبهم ﴾ ـ (القتال ٤٧ : ١٦) .

وفرق بين ما لم يخبر به أو اخبرنا ببعض صفاته دون بعض ـ فما لم يخبر به لا يضرنا أن لا نعلمه ـ وبين ما أخبرنا به . وهو الكلام العربي الذي جعل هدى وشفاء للناس . وقال الحسن : ما أنزل الله آية الا وهو يحب ان يعلم فيما أنزلت وما عني بها . فكيف يكون في مثل هذا الكلام ما لا يفهمه احد قط ؟ .

وفرق بين ان يقال « الرب الذي هو يأتي اتيانا يليق بجلاله » أو يقال « ما ندري هل هو الذي يأتي أو أمره »[2] . فكثير من هؤلاء لا يجزم بأحدهما بل يقول : اسكت ، فالسكوت اسلم .

---

(١) في الأصل « نفهم ـ هم » ، وهو تصحيف .

(٢) في الأصل هكذا : « يقال ما تدري هل هو الذي يأتي اتيانا يليق بجلاله او يقال ما تدري هل هو الذي يأتي اوامره » ، والظاهر ان فيه تكراراً وتخليطاً ، ولعل الصواب كما أثبتناه .

ولا ريب انه من لم يعلم فالسكوت له اسلم ، كما قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً او ليصمت » . لكن هو يقول : ان الرسول وجميع الامة كانوا كذلك - لا يدرون هل المراد به هذا او هذا ، ولا الرسول كان يعرف ذلك . (فـ) قائل هذا مبطل متكلم بما لا علم له به . وكان يسعه ان يسكت عن هذا - لا يجزم بأن الرسول والأئمة كلهم جهال يجب عليهم السكوت كما يجب عليه .

ثم ان هذا خلاف الواقع . فأحاديث النبي ﷺ وكلام السلف في معنى هذه الآية ونظائرها كثير مشهور . لكن قال علي رضي الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون . أتحبون ان يكذب الله ورسوله » ؟ . وقال ابن مسعود : « ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة لبعضهم » .

واذا قال : بل كان (من) السلف من يجزم بأن المراد هو اتيانه نفسه ، فهذا جزم بأنهم عرفوا معناها وبطلان القول الآخر - لم يكونوا لساكتين حيارى. ولا ريب أن مقدوره ومأموره مما يأتي أيضاً ، ولكن هو يأتي كما أخبر عن نفسه اتيانا يليق بجلاله .

فاذا قيل : لا نعلم كيفية الاستواء ، كان هذا صحيحاً . واذا كان الخطاب والكلام مما لا يفهم احد معناه - لا الرسول ، ولا جبريل ، والا المؤمنون - لم يكن مما يتدبر ويعقل . بل مثل هذا عبث ، والله منزه عن العبث .

ثم هذا يلزمهم في الاحاديث ، مثل قوله : « ينزل ربنا كل ليلة الى السماء » . أفكان الرسول يقول هذا الحديث ونحوه وهو لا يفقه ما يقول ولا يفهم له معنى ؟ سبحانه الله ! هذا بهتان عظيم ، وقدح في الرسول ، وتسليط للملحدين . اذا قيل ان نفس الكلام الذي جاء به قد كان لا يفهم معناه قالوا : فغيره من العلوم العقلية أولى أن لا يفهم معناه .

والكلام انما هو في صفات الرب . فاذا قيل ان ما أنزل عليه من صفات الرب لم يكن هو ولا غيره يفهمه ، وهو كلام أمي عربي ينزل عليه ، قيل : فالمعاني المعقولة في الأمور الالهية أولى أن لا يكون يفهمها . وحينئذ فهذا الباب لم يكن موجوداً في رسالته ، ولا يؤخذ من جهته - لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، قالت الملاحدة : فيؤخذ من طريق غيره .

فاذا قال لهم هؤلاء : هذا غير ممكن لأحد ، منعوا ذلك وقالوا : انما في القرآن ان ذلك الخطاب لا يعلم معناه الا الله . لكن من أين لكم ان الامور الالهية لا تعلم بالادلة العقلية التي يقصر عنها البيان بمجرد الخطاب والخبر ؟

والملاحدة يقولون : ان الرسل خاطبت بالتخييل ، وأهل الكلام يقولون : بالتأويل :

وهؤلاء الظاهرية يقولون : بالتجهيل . وقد بسط الكلام على خطأ الطوائف الثلاث[1] ، وبين أن الرسول قد أتى بغاية العلم والبيان الذي لا يمكن احداً من البشر أن يأتي بأكمل مما جاء به ـ صلى الله عليه وسلم تسليما . فأكمل ما[2] جاء به القرآن ، والناس متفاوتون في فهم القرآن تفاوتاً عظيماً .

وقول ابن السائب : ان هذا من المكتوم الذي لا يفسر ، يقتضي ان له تفسيراً يعلمه العلماء ويكتمونه .

وهذا على وجهين . ان يريد انه يكتم شيء مما بينه الرسول ﷺ عن جميع الناس فهذا من الكتمان المجرد الذي ذم الله عليه . وهذه حال أهل الكتاب . وعاب الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في كتاب . وقال : ﴿ وَمَنْ اظلمُ ممَّنْ كَتَمَ شهادةً عندهُ مِنَ اللهِ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٤٠) .

وهذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم ، ويجعلها بعضهم تشبيهاً . وهي دلائل على نبوة محمد ﷺ ، وغير ذلك . فان الفاظ التوراة والانجيل وسائر كتب الانبياء ـ هي بضع وعشرون وكتاباً عند أهل الكتاب ـ لا يمكنهم جحد الفاظها ، لكن يحرفونها بالتأويل الباطل ، ويكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومنهم أميّونَ لا يعلمونَ الكِتَابَ إلَّا أمانيَّ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٧٨) .

فمن جعل أهل القرآن كذلك ، وأمرهم ان يكونوا فيه أميين لا يعلمون الكتاب الا تلاوة فقد امرهم بنظير ما ذم الله عليه أهل الكتاب .

وصبيغ بن عسل التميمي[3] انما ضربه عمر لانه قصد باتباع المتشابه[4] أبتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وهؤلاء الذين عابهم الله في كتابه لانهم جمعوا شيئين سوء القصد ، والجهل فهم لا يفهمون معناه ويريدون ان يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ليوقعوا بذلك الشبهة والشك . وفي الصحيح عن عائشة ان النبي ﷺ قال : « اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فأحذروهم[5] » .

---

(١) في الأصل « الثلاثة » . انظر كتاب العقل والنقل ١/٨ ـ ٢٠ تحقيق د . رشاد .

(٢) في الأصل « مما » . سالم .

(٣) قال في القاموس : صبيغ بن عسل كان يعنت الناس بالغوامض والسؤالات ، فنفاه عمر الى البصرة . وقال : قصر عسل بالبصرة قرب خطة بني ضبة نسب الى عسل أبي صبيغ ـ اهـ وقال المصنف في « الاكليل » : وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من اشهر القضايا فانه بلغه انه يسأل من متشابه القرآن . وسأل عمر عن « الذاريات » فضربه الضرب الشديد . وهذا لانهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة ، لا الاسترشاد والاستفهام ـ اهـ ملخصاً .

(٤) في الأصل : بابتغاء المتشابهة .

(٥) اخرجه مسلم عن عائشة في أول العلم ، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه ، اوله : تلا رسول الله ﷺ ﴿ هو الذي انزل عليك الكتاب ـ الآية ﴾ . . الحديث .

فهذا فعل من يعارض النصوص بعضها ببعض ليوقع الفتنة ـ وهي الشك والريب ـ في القلوب ، كما روى انه خرج على القوم وهي يتجادلون في القدر ، وهؤلاء يقولون : الم يقل الله كذا ؟ ، وهؤلاء يقولون : ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقي في وجهه حب الرمان ، ثم قال : « أبهذا امرتمَ ان تضربوا كتاب الله بعضِه ببعض ؟ انظروا ما أمرتم به فافعلوه »[1] .

فكل من اتبع المتشابه[2] على هذا الوجه فهو مذموم . وهو حال من يريد أن يشكك الناس فيما علموه لكونه واياهم لم يفهموا ما توهموا أنه يعارضه . هذا أصل الفتنة ـ ان يترك المعلوم لغير المعلوم ، كالسفسطة التي[3] تورد شبها يقدح بها فيما علم وتيقن . فهذا حال من يفسد قلوب الناس وعقولهم بافساد ما فيها من العلم والعمل ـ أصل الهدى فإذ اشككهم فيما عملوه بقوا حيارى .

والرسول ﷺ قد أتى بالآيات البينات الدالة على صدقه ، والقرآن فيه الآيات المحكمات اللاتي هي أم الكتاب قد علم معناها وعلم أنها حق ، وبذلك يهتدى الخلق وينتفعون .

فمن اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ والاول قصدهم فيه فاسد ، والثاني ليسوا من أهله ، بل يتكلمون في تأويله بما يفسد معناه ، اذ كانوا ليسوا[4] من الراسخين في العلم .

وانما الراسخ في العلم الذي رسخ في العلم بمعنى المحكم ، وصار ثابتاً فيه لا يشك ولا يرتاب فيه بما يعارضه من المتشابه ، بل هو مؤمن به ، قد يعلمون تأويل المتشابه .

واما من لم يرسخ في ذلك بل اذا عارضه المتشابه شك فيه فهذا يجوز ان يراد بالمتشابه ما يناقض المحكم ، فلا يعلم معنى المتشابه ، اذ لم يرسخ في العلم بالمحكم . وهو يبتغي الفتنة في هذا وهذا . فهذا يعاقب عقوبة تردعه ، كما فعل عمر بصبيغ .

واما من قصده الهدى والحق فليس[5] من هؤلاء . وقد كان عمر يسأل ويسأل عن معاني الآيات الدقيقة ، وقد سأل اصحاب عن قوله : ﴿ اذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتح ﴾ ، فذكروا ظاهر لفظها . ولما فسرها ابن عباس بأنها اعلام النبي ﷺ بقرب وفاته قال : ما اعلم منها الا ما تعلم .

---

(١) اخرجه ابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده في باب القدر من كتاب السنة ، واخرج للترمذي المتن من رواية ابي هريرة .

(٢) في الأصل : المتشابهة .

(٣) في الأصل : الذين .

(٤) في الأصل : ابتغى المتشابهة .

(٥) ف الأصل : ليس .

(٦) في الأصل : « وليس » ولا يستقيم .

وهذا باطن الآية الموافق لظاهرها . فانه لما امر بالاستغفار عند ظهور الدين ، والاستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال ، وبظهور الدين حصل مقصود الرسالة ، علموا انه اعلام بقرب الاجل مع أمور آخر ، وفوق كل ذي علم عليم .

والاستدلال على الشيء بملزوماته . والشيء قد يكون له لازم ، وللازمه لازم ، وهلم جرا ، فمن الناس من يكون افطن بمعرفة اللوازم من غيره يستدل بالملزوم على اللازم .

بل يقول : يجوز ان يلزم ، ويجوز ان لا يلزم ، ويحتمل ، ويحتمل . وتردد الاحتمال هو من عدم العلم ، والا فالواقع هو أحد الامرين . فحيث كان احتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع وخفاء دليله ، وغيره قد يعلم ذلك ويعلم دليله .

ومن ظن أن ما لا يعلمه هو يعلمه غيره كان من جهله . فلا ينفي عن الناس الا ما علم انتفاؤه عنهم ، وفوق كل ذي علم عليم اعلم منه ، حتى ينتهي الامر الى الله تعالى . وهذا قد بسط في مواضع .

ثم انهم يقولون : المأثور عن السلف هو السكوت عن الخوض في تأويل ذلك ، والمصير الى الايمان بظاهره ، والوقوف عن تفسيره ، لانا قد نهينا ان نقول في كتاب الله برأينا ، ولم ينبهنا الله ورسوله على حقيقة معنى ذلك .

فيقال : اما كون الرجل يسكت عما لا يعلم فهذا مما يؤمر كل أحد . لكن هذا الكلام يقتضي انهم لم يعلموا معنى الآية وتفسيرها وتأويلها . واذا كان لم يتبين لهم فمضمونه عدم علمهم بذلك ، وهو كلام شاك لا يعلم ما أريد بالآية .

ثم اذا ذكر لهم بعض التأويلات كتأويل من يفسره باتيان أمره وقدرته أبطلوا ذلك بأن هذا يسقط فائدة التخصيص . وهذا نفي التأويل وابطال له .

فاذا قالوا مع ذلك : ﴿ ولا يعلمُ تأويلهُ إلاَّ الله ﴾ أثبتوا تأويلا لا يعلمه الا الله وهم ينفون جنس التأويل .

ويقولون[1] ما الحامل على هذا التأويل البعيد ؟ وقد امكن بدونه أن نثبت اثيانا ومجيئا لا نعقل كما يليق به ، كما أثبتنا ذاتاً لها حقيقة لا نعقل ، وصفات من سمع وبصر وغير ذلك لا نعقل . ولانه اذا جاز تأويل هذا وان نقدر[2] مضمراً محذوفاً من قدرة أو عذاب ونحو ذلك ، فما منعكم من تأويل قوله : ﴿ ترون ربكم ﴾ كذلك ؟

---

(١) بالأصل ويقول ، والاولى « يقولون » .

(٢) في الأصل : نصدر .

وهـذا كـلام في ابـطال التـأويـل وحمـل للفظ عـلى مـا دل عليـه ظـاهـره عـلى مــا يليق بجلال الله .

فاذا قيل مع ـ هـذا[1] ان له تأويـلاً لا يعلمه الا الله واريـد بالتـأويل هـذا الجنس كان تناقضاً . كيف ينفي جنس التأويل ويثبت له تأويل لا يعلمه الا الله ؟

فعلم ان التأويل الذي لا يعلمه الا الله لا يناقض حمله على مـا دل عليه اللفظ ، بـل هو أمر آخر يحقق هذا ويوافقه لا يناقضه ويخالفه كما قال مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول .

واذا كان كذلك أمكن ان من العلماء من يعلم من معنى الآية ما يوافق القرآن لم يعلمه غيره ، ويكون ذلك من تفسيرها . وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم ، كمن يعلم ان المراد بالآية مجيء الله قطعاً لا شك في ذلك لكثـرة ما دل عنده على ذلك. ويعلم مع ذلك انه العلى الاعلى (لا)[2] يأتي اتيانا يكون المخلوقات محيطة به وهو تحتها . فان هذا مناقض لكونه العلى الاعلى .

والجد الاعلى ابو عبد الله رحمه الله قد جرى في تفسيره عـلى ما ذكـر من الطريقـة وهذه عادته وعادات غيره . وذكر كلام ابن الزاغوني فقال . قال الشيخ علي بن عبيد الله الزاغـوني : وقد اختلف كلام امامنا أحمد في هذا المجيء هل يحمل على ظاهره ، وهل يدخل التأويل ؟ على روايتين .

احداهما انه يحمل على ظاهره من مجيء ذاته . فعل هذا يقول : لا يدخـل التأويـل ، الا انه لا يجب ان يحمل مجيئه بذاته الاعلى ما يليق به . وقد ثبت انه لا يحمل اثبات مجيء هو زوال وانتقال يوجب فراغ مكان وشغل آخر من جهة أن هذا يعرف بالجنس في حق المحدث[3] الذي يقصر عن استيعاب المواضع والمواطن ، لانها اكبر منه واعظم يفتقر مجيئه اليهـا الى الانتقال عـما قرب الى ما بعد .

وذلـك ممتنع في حق البـاري تعالى ، لانـه لا شيء اعظم منـه ، ولا يحتـاج في مجيئـه الى انتقال وزوال ، لان داعي ذلك وموجبه لا يـوجد في حقـه . فاثبتنـا المجيء صفة لـه ومنعنا مـا يتوهم في حقه مما يلزم في حق المخلوقين لاختلافهما في الحاجة الى ذلك . ومثله قـولـه : ﴿ وجـاءَ ربّكَ والمَلَكَ صَفًّاً صَفًّاً ﴾ .

---

(١) في الأصل : مع ان هذا ، ؛ بزيادة « أن » .

(٢) سقط في الاصل .

(٣) في الأصل « النزول » ، والظاهر انه « الزوال » لان البحث فيه .

(٤) ليس في الأصل ويقتضيه السياق .

ومثله الحديث المشهور الذي رواه عامة الصحابة ان النبي ﷺ قال : « ينزل الله الى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » . فنحن نثبت وصفه بالنزول الى سماء الدنيا بالحديث ولا نتأوله على ما ذكروه ولا نلحقه بنزول الادميين الذي هو زوال وانتقال من علو الى أسفل . بل نسلم للنقل كما ورد وندفع التشبيه لعدم موجبه ، ونمنع من التأويل لارتفاع نسبته .

قال : وهذه الرواية هي المشهورة والمعمول عليها عند عامة المشايخ من اصحابنا .

(قلت) : اما كون اتيانه ومجيئه ونزوله ليس مثل اتيان المخلوق ومجيئه ونزوله ، فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة ومن له عقل . فان الصفات والافعال تتبع الذات المتصفة الفاعلة . فاذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة ان تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها ، ونسبة صفاته الى ذاته كنسبة صفة كل موصوف الى ذاته . ولا ريب انه العلى الاعلى العظيم ، فهو اعلى من كل شيء ، واعظم من كل شيء فلا يكون نزوله واتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به او تكون اعظم منه واكبر . هذا ممتنع .

وأما لفظ « الزوال »[1] و « الانتقال » فهذا اللفظ مجمل ، ولهذا كان أهل الحديث والسنة فيه على أقوال .

فعثمان بن سعيد الدارمي وغيره أنكروا على الجهمية قولهم : انه لا يتحرك ، وذكروا أثرا أنه لا يزول ، وفسروا الزوال بالحركة . فبين عثمان بن سعيد ان ذلك الاثر (أن)[2] كان صحيحاً لم يكن حجة لهم ، لانه في تفسير قوله : ﴿ الحي القيوم ﴾ ذكروا عن ثابت دائم باقي لا يزول عما يستحقه ، كما قال ابن اسحاق : لا يزول عن مكانته .

(قلت) : والكلبي بنفسه الذي روى هذا الحديث هو يقول : ﴿ استوىٰ علىٰ العَرشِ ﴾ استقر ، ويقول : ﴿ ثم استوىٰ الىٰ السَّماءِ ﴾ : صعد الى السماء .

وأما « الانتقال » فابن حامد وطائفة يقولون : ينزل بحركة وانتقال . وآخرون من أهل السنة ، التميمي من أصحاب احمد ، أنكروا هذا وقالوا : بل ينزل بلا حركة وانتقال . وطائفة ثالثة ، كابن بطة وغيره يقفون على هذا .

والاحسن في هذا الباب مراعاة[3] ألفاظ النصوص ، فيثبت ما أثبت الله ورسوله باللفظ

---

(١) واو العطف ليس في الأصل ويقتضيه السياق .

(٢) قوله « بمجمله » كذا الاحتمال الغالب في قراءته ، ولم نعثر على اسم كتاب القاضي ابي يعلى هذا بتمامه حتى نصححه .

(٣) في الأصل هكذا « ممن اعاه » .

الذي أثبته ، وينفي ما نفاه الله ورسوله كما نفاه . وهو ان يثبت النزول ، والاتيان ، والمجيء ، وينفي المثل ، والسمى ، والكفوء ، والند .

وبهذا يحتج البخاري وغيره على نفي المثل . يقال : ينزل نزولاً ليس كمثله شيء ، نزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين ـ نزولاً يختص به ، كما انه في ذلك (و)[1] في سائر ما وصف به نفسه ليس كمثله شيء في ذلك [2] . وهو منزه ان يكون نزوله كنزول المخلوقين وحركتهم وانتقالهم ، وزوالهم ، مطلقاً ـ لا نزول الادميين ولا غيرهم .

فالمخلوق[3] اذا نزل من عال الى أسفل زال وصفه بالعلو وتبدل الى وصفه بالسفول ، وصار غيره اعلى منه .

والرب تعالى لا يكون شيء اعلى منه قط ، بل هو العلي الاعلى ، ولا يزال هو العلي الاعلى مع انه يقرب الى عبادة ويدنو منهم ، وينزل الى حيث شاء ، ويأتي كما شاء . وهو في ذلك العلي الاعلى ، الكبير المتعالي على دنوه[4] ، قريب في علوه .

فهذا وان لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق ان يجمع بين هذا وهذا ، كما يعجز ان يكون هو الاول والآخر والظاهر والباطن .

ولهذا قيل لابي سعيد الخراز بم عرفت الله ؟ قال : « بالجمع بين النقيضين » . وأراد انه يجتمع له ما يناقض في حق الخلق ، كما اجتمع له انه خالق كل شيء من افعال العباد وغيرها من الاعيان والافعال ، مع ما فيها من الخبث ، وانه عدل ، حكيم ، رحيم . وانه يمكن من مكنه من عباده من المعاصي مع قدرته على منعهم ، وهو في ذلك حكيم عادل . فانه اعلم الاعلمين . واحكم الحاكمين ، وخير الفاتحين ، يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم .

فأن لا يحيطوا علماً بما هو أعظم في ذلك أولى واحرى . وقد سألوا عن الروح (فـ) ـ قيل لهم : ﴿ الرُّوح من امرِ ربي ، وما أوتيتُمْ مِنَ العلمِ إلاَّ قَليلاً ﴾ . وفي الصحيحين ان الخضر قال لموسى لما نقر عصفوَر في البحر : أما نقص علمي وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

---

(١) سقط من الأصل .

(٢) لفظ البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ . . وان حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

(٣) سقط من الاصل .

(٤) أي لكونه يقابل قوله « انت الظاهر فليس فوقك شيء » ، والفوقية ضدها السفول . ولكن تقابل ظهوره بطونه وفسرهما بفوقيته وقربه ، ولم يفسرهما بفوقيته وتحتيته حتى يقتضي السفول ، و (الظاهر) اسم لعلوه و « الباطن » اسم لقربه ، فهو سبحانه يدنو ويقرب ممن يريد الدنو والقرب منه مع كونه فوق عرشه ، فظهوره ولا يناقض بطونه ، والتفسير الذي فسر رسول الله ﷺ به هذين الاسمين هو تفسير الحق المطابق لكونه بكل شيء محيط وكونه فوق كل شيء

فالذي ينفي عنه وينزه عنه اما أن يكون مناقضاً لما علم من صفاته الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه ، كما قال : ﴿ الله لا اله الا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ وقال : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ . فجنس السنة والنوم ، والموت ، ممتنع عليه لا يجوز ان يقال في شيء من هذا « انه يجوز عليه كما يليق بشأنه » ، لان هذا الجنس يوجب نقصاً (في)[1] كماله .

وكذلك لا يجوز ان يقال : هو يكون في السفل ، لا في العلو ، وهو سفول يليق بجلاله . فانه سبحانه العلي الاعلى لا يكون قط الا عالياً ، والسفول نقص هو منزه عنه .

وقوله : « وأنت الباطن فليس دونك شيء » لا يقتضي السفول[2] الا عند جاهل لا يعلم حقيقة العلو والسفول ، فيظن ان السموات وما فيها قد يكون تحت الارض ، اما بالليل واما بالنهار ، وهذا غلط ، كمن يظن ان ما في السماء من المشرق يكون تحت ما فيها مما في المغرب . فهذا ايضاً غلط . بل السماء لا تكون قط الا عالية على الأرض وان كان الفلك مستديراً محيطاً بالأرض فهو العالي على الارض علواً حقيقاً من كل جهة . وهذا مبسوط في مواضع[3] .

والنوع الثاني : أنه منزه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته فالالفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة في الاثبات تثبت ، والتي جاءت بالنفي تنفي . والالفاظ المجملة كلفظ الحركة و« النزول » و« الانتقال » يجب أن يقال فيها : أنه منزه عن مماثلة المخلوقين من كل وجه ، لا يماثل المخلوق ـ لا في نزول ولا في حركة ، ولا انتقال ، ولا زوال ، ولا غير ذلك .

---

(١) في الأصل « المخلوقات » .

(٢) في الأصل « ذنوبه » وهو تحريف .

(٣) قد بسطه في مسألة الاحاطة في « رسالة عرش الرحمن » ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ، طبع المنار . قال : من توهم ان نصف الفلك يكون تحت الارض وتحت ما على وجه الارض من الادميين والبهائم فهذا غلط عظيم وقلب للحقائق ، اذا الفلك هو فوق الارض مطلقاً . وكل من جعل الافلاك مستديرة يعلم ان الجهة العليا هي جهة المحيط وان الجهة السفلى هي المركز وليس للافلاك الا جهتان ـ العلو والسفل فقط . فالمحيط هو العالي على المركز في كل جانب . ومن توهم ان من يكون في الفلك من ناحيته يكون تحته من في الفلك من الناحية الاخرى في نفس الامر فهو متوهم عندهم . فكما ان جوانب الارض المحيطة بها وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته فكذلك من يكون على الارض من الحيوان والنبات لا يقال انه تحت اولئك وانما هذا خيال يتخيله الانسان ، وهو تحت اضافي . وانظر الرسالة العمرشية ط المنيرية بالقاهرة .

وسمات الحدث التي تستلزم الحدوث مثل افتقاره الى الغير . فكل ما افتقر الى غيره فانه محدث ، كائن بعد أن لم يكن . والرب منزع عن الحاجة الى ما سواه بكل وجه . ومن ظن انه محتاج الى العرش ، او حملة العرش ، فهو جاهل ضال . بل هو الغني بنفسه ، وكل ما سواه فقير اليه من كل وجه . وهو الصمد الغني عن كل شيء ، وكل ما سواه يصمد اليه محتاجا اليه ـ ﴿ يسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن ﴾ .

واما إثبات هذا الجنس ، كلفظ « النزول » ، أو نفيه مطلقاً كلفظ « النوم » ، « الموت » فقد يسلك كلاهما طائفة تنتسب الى السنة .

والمثبتة يقولون : نثبت حركة ، او حركة وانتقالاً ، أو حركة وزوالاً ، تليق به ، كالنزول والاتيان اللائق به .

والنفاة يقولون : بل هذا الجنس يجب نفيه .

ثم منهم من يفني جنس ذلك في حقه بكل اعتبار ، ولا يجوز عليه أن يقوم به شيء من الأحوال المتجددة . وهذه طريقة الكلابية ومن اتبعهم ممن ينتسب الى السنة والحديث .

ومنهم من لا ينفي في ذلك ما دل عليه النص ، ولا ينفي هذا الجنس مطلقاً بما ذكروه من أنه لا تقوم به الحوادث لما قد علم بالآيات والسنة والعقل أن يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه يحب عبده المؤمن اذا اتبع رسوله ، الى غير ذلك من المعاني التي دل عليها الكتاب والسنة . بل ينفي ما ناقض صفات كماله ، وينفي مماثلة مخلوق له . فهذان هما اللذان يجب نفيهما ، والله اعلم .

وكذلك اذا قال القائل : الله يجب تنزيهه عن سمات الحدث او علامات الحدث او كل ما أوجب نقصاً وحدوثاً فالرب منزه عنه ، فهذا كلمة حق معلوم متفق عليه .

لكن الشأن فيما تقول النافية . انه من سمات الحدث ، وآخرون ينازعونهم . لا سيما والكتاب والسنة يناقض قولهم ، قالت الجهمية : ان قيام الصفات به ، او قيام الصفات الاختيارية ، هو من سمات الحدث . وهذا باطل عند السلف وأئمة السنة ، بل وجمهور العقلاء . بل ما ذكروه يقتضي حدوث كل شيء . فانه ما من موجود الا وله صفات تقوم به ، وتقوم به أحوال تحصل بالمشيئة والقدرة . فان كان هذا مستلزماً للحدوث لزم حدوث كل شيء ، وأن لا يكون في العالم شيء قديم . وهذا قد بسط في مواضع أيضاً .

ومن سمات الحدث النقائص ، كالجهل ، والعمى ، والصم ، والبكم . فان كل ما كان كذلك لم يكن الا محدثاً ، لان القديم الازلي منزه عن ذلك ، لان القديم الازلي متصف بنقيض هذه الصفات ، وصفات الكمال لازمة له . واللازم يمتنع زواله الا بزوال الملزوم . والذات قديمة ازلية ، واجبة بنفسها ، غنية عما سواها ، يستحيل عليها العدم والفناء ، بوجه من الوجوه . فيستحيل عدم لوازمها ، فيستحيل اتصافها بنقيض تلك اللوازم . فلا يوصف بنقيضها الا المحدث ، فهي من سمات الحدث المستلزمة لحدوث ما اتصف بها .

وهذا يدخل في قول القائل « كل ما استلزم حدوثاً او نقصاً فالرب منزه عنه » . والنقص المناقض لصفات كماله مستلزم لحدوث المتصف به ، والحدوث مستلزم « للنقص اللازم

للمخلوق . فان كل مخلوق فهو يفتقر الى غيره ، كائن بعد أن لم يكن ، لا يعلم الا ما علم ولا يقدر الا ما اقدر ، وهو محاط به مقدور عليه .

فهذه النقائض اللازمة لكل مخلوق هي ملزومة للحدوث ، حيث كان حدوث كانت . والحدوث ايضاً ملزوم لها ، فحيث كان محدث كانت هذه النقائض .

فقولنا « ما استلزم نقصاً أو حدوثاً فالرب منزه عنه » حق . والحدوث والنقص اللازم للمخلوق متلازمان . والرب منزه عن كل منهما من جهتين ـ من جهة امتناعه في نفسه ، ومن جهة انه مستلزم للآخر ، وهو ممتنع في نفسه . فكل منهما دليل ومدلول عليه باعتبارين ـ على ان الرب منزه عنه ، وعن مدلوله الذي هو لازمه .

والحاجة الى الغير والفقر اليه مما يستلزم الحدوث والنقص اللازم للمخلوق . وقولي « اللازم » ليعم جميع المخلوقين والا فمن النقائص ما يتصف بها بعض المخلوقين دون بعض فتلك ليست لازمة لكل مخلوق .

والرب منزه عنها ايضاً ، لكن اذا نزه عن النقص اللازم لكل مخلوق فعن ما يختص به بعض المخلوقين اولى واحرى . فانه اذا كان مخلوق ينزه عن نقص فالخالق اولى تنزيهه عنه . وهذه طريقة « الاولى » كما دل عليها القرآن في غير موضع .

وقد ذكرنا في جواب « المسائل التدمرية » الملقب بـ « تحقيق الاثبات للاسماء والصفات وبيان حقيقة الجمع بين القدر والشرع »[(١)] انه لا يجوز الاكتفاء فيما ينزه الرب عنه على عدم ورود السمع والخبر به ، فيقال : كل ما ورد به الخبر اثبتناه ، وما لم يرد لم نثبته بل ننفيه ، وتكون عمدتنا في النفي على علم الخبر .

بل هذا غلط لوجهين . احدهما : ان عدم الخبر هو عدم دليل معين ، والدليل لا ينعكس[(٢)] ، فلا يلزم اذا لم يخبر هو بالشيء ان يكون منتفيا في نفس الامر[(٣)] .

---

(١) هي المعروف بـ « الرسالة التدمرية » طبعت بمصر قديماً سنة ١٣٢٥ هـ ضمن مجموعة ثلاث رسائل ، ثم أعيد طبعها بتصحيح وتقدمة الأستاذ الجليل الشيخ محمد زهري النجار الازهري سنة ١٣٦٨ هـ ، صفحاتها ١٣٩ بالقطع الصغير . قال المصنف عنها : هي جملة مختصرة جامعة من فهمها علم قدر نفعها ، وانفتح له باب الهدى وامكان اغلاق باب الضلال ، نفى التشبيه ، ص ٨٨ ـ ٩٥ .

(٢) اوضحه في محل آخر بقوله : أما جنس الدليل فيجب فيه الطرد ، لا العكس . فيلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه ، ولا يلزم من عدمه عدم المدلول عليه .

(٣) اوضحه في موضع آخر بما خلاصته : فما لم يرد به السمع يجوز ان يكون ثابتاً في نفس الامر ، وان لم يرد به السمع اذا لم يكن نفاه . ومعلوم ان السمع لم ينف عنه أشياء هو منزه عنها كاتصافه بالبكاء والحزن ، والجوع والعطش ، والاكل والشرب والنكاح ، او ان يقال : له اعضاء كثيرة كالطحال ، والمعدة ، والامعاء ، والذكر ، وغير ذلك مما يتعالى الله عز وجل عنه . فلا بد اذا من ذكر ما ينفي هذه الأمور بأسمائها الخاصة من السمع ، والا فلا يجوز حينئذ نفيها كما لا يجوز اثباتها .

ولله أسماء سمى بها نفسه واستأثر بها في علم الغيب عنده . فكما لا يجوز الاثبات الا بدليل لا يجوز النفي الا بدليل . ولكن اذا لم يرد به الخبر ولم يعلم ثبوته يسكت عنه فلا يتكلم في الله بلا علم .

الثاني : ان أشياء لم يرد به الخبر بتنزيهه عنها ولا (بأنه)[1] منزه عنها ، لكن دل الخبر على اتصافه بنقائضها فعلم انتفاؤها . فالأصل انه منزه عن كل ما يناقض صفات كماله[2] . وهذا مما دل عليه السمع والعقل .

وما لم يرد به الخبر ان علم انتفاؤه نفيناه ، والا سكتنا عنه . فلا نثبت الا بعلم ولا تنفي الا بعلم .

ونفي الشيء من الصفات وغيرها كنفي دليله طريقة طائفة من اهل النظر والخبر . وهي غلط الا اذا كان الدليل لازما له . فاذا عدم اللازم عدم الملزوم .

واما جنس الدليل فيجب فيه الطرف ، لا العكس . فيلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه ، ولا ينعكس .

فالاقسام ثلاثة . ما علم ثبوته ثبت ، وما علم انتفاؤه نفي ، وما لم يعلم نفيه ولا اثباته سكت عنه . هذا هو الواجب . والسكوت عن الشيء غير الجزم بنفيه أو ثبوته .

ومن لم يثبت ما أثبته الا بالفاظ الشرعية التي أثبتها ، واذا تكلم بغيرها استفسر واستفصل ، فان وافق المعنى الذي أثبته الشرع أثبته باللفظ الشرعي ، فقد اعتصم بالشرع لفظاً ومعنى . وهذه سبيل من اعتصم بالعروة الوثقى .

لكي ينبغي ان يعرف الادلة الشرعية اسناداً ومتنا . فالقرآن معلوم ثبوت الفاظه ، فينبغي ان يعرف وجوه دلالته . والسنة ينبغي معرفة ما ثبت منها وما علم أنه كذب .

قال طائفة ممن انتسب الى السنة ، وعظم السنة والشرع ، وظنوا انهم اعتصموا في هذا الباب بالكتاب والسنة ، جمعوا احاديث وردت في الصفات ، منها ما هو كذب معلوم انه كذب ، ومنها ما هو الى الكذب اقرب ، ومنها ما هو الى الصحة اقرب ، ومنها متردد . وجعلوا تلك الاحاديث عقائد ، وصنفوا مصنفات . ومنهم من يكفر من يخالف ما دلت عليه تلك الاحاديث .

---

(١) في الأصل « هو » ، ولعله « بأنه » .

(٢) وذلك مثل انه قد علم انه الصمد ، والصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب ، فهو منزه عن الاكل والشرب وعن آلات ذلك كالكبد والطحال والمعدة . وكذلك هو منزه عن الصاحبة والولد وعن آلات ذلك واسبابه . وكذلك البكاء والحزن هو مستلزم للضعف والعجز الذي ينزه عنه سبحانه .

وبازاء هؤلاء المكذبون[1] بجنس الحديث ومن يقول عن اخبار الصحيحين وغيرها : هذه أخبار آحاد لا تفيد العلم .

وابلغ من هؤلاء من يقول : دلالة القرآن لفظية سمعية ، والدلالة السمعية اللفظية لا تفيد اليقين . ويجعلون العمدة على ما يدعونه من العقليات ، وهي باطلة فاسدة ، منها ما يعلم بطلانه وكذبه[2] .

وهؤلاء أيضاً قد يكفرون من خالف ذلك ، كما فعل اولئك . وكلا الطريقين باطل ولو لم يكفر مخالفه . فاذا كفر مخالفة صار من أصل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها ، كما فعلت الخوارج وغيرهم .

وقد بسط في غير هذا الموضع أن الادلة التي توجب العلم لا تناقض قط . ولا يناقض الدليل العقلي الذي يفيد العلم الدليل[3] السمعي الذي يفيد العلم قط ، كما قد بينا ذلك في كتاب « درء تعارض العقل والنقل » .

وهذه الاحاديث قد ذكر بعضها القاضي ابو يعلى في كتاب « ابطال التأويل » مثل ما ذكر في حديث المعراج حديثاً طويلاً عن أبي عبيدة ان محمد رأى ربه .

وطائفة ممن يقول بأنه رأى ربه بعينه يكفرون من خالفهم لما ظنوا انه قد جاء في ذلك احاديث صحيحة ، كما فعل ابو الحسن علي بن شكر[4] ، فانه سريع الى تكفير من يخالفه لما يدعيه من السنة ، وقد يكون مخطئاً فيه ، اما لاحتجاجه بأحاديث ضعيفة ، أو بأحاديث صحيحة لكن لا تدل على مقصوده . وما أصاب فيه من السنة لا يجوز تكفير كل من خالف فيه . فليس كل مخطىء كافراً لاسيما في المسائل الدقيقة التي كثر فيها نزاع الامة ، كما قد بسط في المواضع .

وكذلك ابو علي الاهوازي[5] له مصنف في الصفات قد جمع فيه الغث والسمين .

---

(١) في الاصل « المكذبين » ، وهو خطأ لان الذين ذكروا هم ضد المكذبين بالسنة .

(٢) يشير بذلك الى موقف الرازي من الأدلة السمعية التي ادعى فيها انها لا تفيد اليقين ، وقد ابطل ابن تيمية هذه الدعوى وبين نهافتها من وجوه عديدة . انظر : العقل والنقل ١/١ ـ ٨ . ط دار الكتب المصرية .

(٣) كذا في الاصل ، والاصح « الدليل » بالنصب على مفعولية .

(٤) كذا بالاصل ، ولم نعثر على ترجمة صاحب هذا الاسم .

(٥) هو الحسن بن علي بن ابراهيم بن يزداد بن الاستاذ ابو علي الاهوازي المقرىء صاحب التصانيف ومقرىء الشام . قرأ على جماعة لا يعرفون الا من جهته ، وروى الكثير وصنف كتاباً في الصفات لو لم يجمعه لكان خيراً له ، فانه اتى فيه بموضوعات وفضائح توفي سنة ٤٤٦ هـ ـ عن « ميزان الاعتدال » . قال المصنف : كان من السالمية .

وكذلك ما يجمعه عبد الرحمن بن منـدة[1] مع انـه من اكثر النـاس حديثـاً ، لكن يروي شيئـاً كثيراً من الاحـاديث الضعيفة ، ولا يميـز بين الصحيـح والضعيف . وربما جمـع بابـا وكل احاديثه ضعيفة ، كأحاديث اكل الطين وغيرها . وهو يروي عن أبي علي الاهوازي .

وقد وقع مـا رواه من الغرائب المـوضوعـة الى حسن بن عدي [2] فبنى عـلى ذلك عقـائد باطلة ، وادعى ان الله يرى في الـدنيا عيـانا . ثم الـذين يقولـون بهذا من اتبـاعه يكفـرون من خالفهم . وهذا كما تقدم من فعل أهل البدع ، كما فعلت الخوارج .

ومن ذلك حديث عبد الله بن خليفة المشهور الذي يروي عن عمر عن النبي ﷺ ، وقـد رواه ابو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في « مختاره » .

وطائفة من أهل الحديث ترده لاضطرابه ، كما فعل ذلك أبو بكر الاسمـاعيلي [3] ، وابن الجوزي ، وغيرهم . لكن اكثر اهل السنة قبلوه .

وفيـه قال : « ان عـرشه او كـرسيه وسـع السموات والأرض ، وانـه يجلس [4] عليه فـما يفضل منه قدر أربعة أصابع ـ او فما يفضل منه الا قدر أربع اصابع ـ وانه ليئط به أطيط الرحل الجديد براكبه »[5] .

---

(١) هو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق بن مندة العبـدي الامام الحـافظ بـن الحافظ الكبيـر ابي عبد الله بن منـدة ، صاحب التصـانيف ، المتوفي سنة ٤٧٠ هـ وقد ذكر المصنف قوله بخلو العرش بطوله والجواب عنه في « شرح حديث النزول » وتقدمت الاشارة اليه .

(٢) هـو شمس الدين الحسن بن عـدي بن ابي البركـات بن صخر بن مسـافر حفيـد أبي البركـات أخي الشيخ عـدي ، شيـخ العـدويـة الاكراد ، له تصانيف في التصوف وشعر كثير واتباع يتغالون فيه الى الغاية ، قتل خنقا سنة ٦٤٤ هـ .

(٣) هو الحافظ ضياء الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن احمد بن عبد الـرحمن السعدي المقـدسي ثم الدمشقي الحنبلي المتوفي سنـة ٦٤٣ هـ . ومختاره هو كتاب الاحاديث الجياد المختارة مما ليس في الصحيحين أو احـدهما « مـرتب على المسـانيد عـلى حرف المعجم لا عـلى الابواب في ست وثمـانين جزءاً ولم يكمل » ، التـزم فيه الصحـة وذكر فيـه احاديث لم يسبق الى تصحيحهـا . ذكر المصنف ان تصحيحه اعلى مزية من تصحيح الحاكم ـ عن « الرسالة المستطرفة » .

(٤) هو الحافظ أبو بكر أحمد بن ابراهيم بن اسمعيل الاسماعيلي الجرجاني الشافعي المتوفي سنة ٣٧١ هـ ، وقد قال الذهبي فيه : ابتهـرت بحفظه وجزمت بأن المتأخرين على أياس من أن يلحقوا المتقـدمين في الحفظ والمعـرفة اهـ . ولـه تصانيف منهـا « المعجم » و« المسند الكبير » .

(٥) قال المصنف في اثبات لفظ «الجلوس»،«القعود»: يظن المتوهم انه اذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والانعام ، فيتخيل له انه اذا كان مستوياً على العرش كان محتاجاً اليه كحـاجـة المستـوى على الفلك والانعـام . فقياس هذا انه لو عدم العرش لسقط الرب ـ سبحانه وتعالى . ثم يريد بزعمه ان ينفي هذا فيقـول « ليس استواؤه بقعـود ولا استقرار » ولا يعلم ان مسمى « القعود » و« الاستقرار » يقال فيه ما يقال في مسمى « الاستواء » . فان كانت الحاجة داخلة في ذلك فـلا فرق بـين الاستواء ، والقعود ، والاستقرار ، وليس بهذا المعنى مستوياً ، ولا مستقراً ، ولا قاعداً ، وان لم يدخل في مسمى ذلك الا ما يدخـل في مسمى الاستواء فاثبات احدهما ونفى الأخر تحكم ، الخ ـ انتهى ملخصاً ـ « الرسالة التدمريـة » ، ص ٥٢ ـ ٥٢ .

(٦) رواه الطبري بتمامه من طريق ابي اسحاق السبيعي ، عن عبـد الله بن خليفة مـرسلاً ، وعنـه عن عمر مـرفوعـاً ، قال : أتت امـرأة النبي ﷺ فقالت : ادع الله ان يدخلني الجنة . فعظم الرب تعالى ذكره ، ثم قال : « ان كرسيه وسع السموات ، وانه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع » ـ ثم قال بأصابعة فجمعها ـ « وان له أطيطا كأطيط الرحل الجديد اذا ركب من ثقله » . ورواه الحافظ =

ولفظ « الاطيط » قد جاء في حديث جبير بن مطعم[1] الذي رواه أبو داؤد في السنن . وابن عساكر عمل فيه جزء، وجعل عمدة الطعن في ابن اسحاق، والحديث قد رواه علماء السنة كأحمد ، وأبي داؤد ، وغيرهما ، وليس فيه الا ما له شاهد من رواية أخرى . ولفظ « الاطيط » قد جاء في غيره[2] .

وحديث ابن خليفة رواه الامام أحمد وغيره مختصراً ، وذكر انه حدث به وكيع[3] .

لكن كثير ممن رواه رووه بقوله « انه ما يفضل منه الا أربع أصابع[4] » ، فجعل العرش يفضل منه أربع أصابع . واعتقد القاضي ، وابن الزاغوني ، ونحوهما ، صحة هذا اللفظ . فأمروه وتكلموا على معناه بأن ذلك القدر لا يصح عليه الاستواء . وذكر عن ابن العايذ[5] انه قال : هو موضوع جلوس محمد ﷺ .

والحديث قد رواه ابن جرير الطبري في تفسيره وغيره ، ولفظه : « وانه ليجلس عليه ، فما يفضل منه قدر أربع أصابع » بالنفي .

= ابن كثير في تفسيره من رواية مسند ابي يعلى باسناده عن عمر مرفوعاً مختصراً ، ثم قال : وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور ، وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما ، والطبراني وابن ابي عاصم في كتابي السنة لهما ، والحافظ الضياء في كتابه المختار من حديث ابي اسحاق السبيعي ، عن عبد الله بن خليفة وليس بذاك المشهور ، وفي سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفاً ، ومنهم من يرويه عن عمر مرسلاً ، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة ، ومنهم من يحذفها . ث قال : وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في تفسير الكرسي ، وعندي في صحته نظر ، والله اعلم ـ انتهى كلام ابن كثير .

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة ، باب في الجهمية ، من حديث محمد بن اسحاق صاحب المغازي ، عن يعقوب بن عتبة ، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن ابيه عن جده . قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله ! جهدت الانفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الاموال ، وهلكت الانعام ، فاستسق الله لنا ، فانا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك . قال رسول الله ﷺ : « ويحك ! أتدري ما تقول » ؟ ، وسبح رسول الله ﷺ ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجه اصحابه . ثم قال : ويحك ! انه لايستشفع بالله على احد من خلقه ، شأن الله اعظم من ذلك . ويحك ! انه لا يستشفع ابا الله على احد من خلقه ، شأن الله اعظم من ذلك . ويحك ! أتدري ما الله ؟ ان عرشه على سمواته لهكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبة عليه ـ وانه ليط به أطيط الرجل بالراكب » .

وعلله الحافظ المنذري من اجل عنعنة محمد بن اسحاق وكونه مدلساً واختلاف الحفاظ في الاحتجاج بحديثه ، ولانفراد كل من ابن اسحاق ، ويعقوب بن عتبة وجبير بن محمد ، بروايته عمن فوقه ، ولاضطراب بن اسحاق في روايته على وجهين ولاختلاف لفظه فقال بعضهم « ليئط به » وبعضهم لم يذكروا لفظة « به » . وقد انتصر الحافظ ابن القيم لهذا الحديث واجاب عن كل ما طعنوا به فيه بالبسط والتفصيل وأطال الكلام عليه في « تهذيب سنن أبي داود » ، فليرجع الجزء السابع منه طبع مصر مع « مختصر المنذري » سنة ١٣٦٩ هـ ، ص ٩٤ ـ ١١٧ .

(٢) كما في حديث ابن مسعود لما سئل رسول الله ﷺ عن المقام المحمود قال : « ذاك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه يئط كما يئط الرحل الجديد من تضايقه وهو كسعة ما بين السماء والأرض . . الحديث » ـ اخرجه الدارمي في الرقاق بات في شأن الساعة نزول الرب .

(٣) اخرجه عبد الله بن الامام احمد في « كتاب السنة » له ، طبع مكة ، سنة ١٣٤٩ هـ ، ص ٧٠ .

(٤) كما رواه عبد الله بن الامام أحمد في « كتاب السنة » له ، ص ٧١ ، ولفظه : « فما يفضل منه الا قيد أربع اصابع » .

(٥) في الأصل « العايذ » وعلى الهامش قبله « لعله ابن » . والظاهر انه الحافظ ابو عبد الله محمد محمد بن عايذ القرشي الدمشقي الكاتب ، صاحب المغازي والفتوح وغير ذلك من المصنفات المفيدة ـ « شذرات الذهب » . وزاد في التقريب : صدوق رمى بالقدر . توفي سنة ٢٣٣ هـ ـ وله ثلاث وثمانون .

فلو لم يكن في الحديث الا اختلاف الـروايتين ـ هـذه تنفي ما أثبتت هـذه[1] . ولا يمكن مع ذلك الجزم بأن رسول الله ﷺ أراد الاثبات ، وانه يفضل من العرش أربع أصابع لا يستوى عليها الرب . بل هو يقتضي ان يكون العرش أعظم من الرب واكبـر . وهذا بـاطل ، مخـالف للكتاب والسنة ، والعقل .

ويقتضي ايضاً انه انما عرف عظمة الرب بتعظيم العرش المخلوق وقد جعل العرش أعظم منه : فما عظم الرب الا بالمقايسة بمخلوق ، وهو اعظم من الرب . وهذا معنى فاسد ، مخالف لما علم من الكتاب والسنة والعقل .

فان طريقة القرآن في ذلك أن يبين عظمة الرب ، فانه أعظم من كـل ما يعلم عـظمته ، فيذكر عظمة المخلوقات ويبين ان الرب اعظم منها .

كما في الحديث الآخر الذي في سنن أبي داؤد ، الترمذي ، وغيرهما ـ حديث الاطيط ـ لما قال الاعرابي : انا نستشفع بالله عليك ، ونستشفـع بك عـلى الله تعالى ، فسبـح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه اصحابه ، ثم قال : ويحك ! أتدري ما تقول ؟ أتدري ما الله ؟ شـأن الله أعظم من ذلك . ان عـرشه عـلى سمواتـه هكذا » ـ وقـال بيده مثـل القبة ـ « وانـه ليئط به أطيط الرحل الجديد براكبه »[2] .

فبين عظمة العرش وأنه فوق السموات مثل القبـة . ثم بين تصـاغره لعـظمة الله ، وأنـه يئط به اطيط الرحل الجديد براكبه . فهذا فيه تعظيم العرش ، وفيه ان الرب اعظم من ذلك . كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منـه ، والله أغير مني » . وقال : « لا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهـر منها ومـا بطن » ومثل هذا كثير .

وهذا وغيره يدل على الصواب في روايته النفي ، وانه ذكر عظمة العرش ، وانه مـع هذه العظمة فالرب مستـو عليه كله لا يفضـل منه قـدر أربعة أصـابع . وهـذه غايـة ما يقـدر به في المساحة من اعضاء الانسان ، كما يقدر في الميزان قدره فيقال : ما في السماء قدر كف سحـابا .

---

(١) في الأصل « اثبت » .

(٢) هو من حديث جبير بن مطعم الذي أخرجه أبو داود ، وقد تقدمت الاشارة اليه آنفاً ، وأوردناه تمامه في تعليقنا مع كلام الناس عليه ، ولم يخرجه الترمذي كما ذكر المصنف ههنا . قال في القـاموس : أط الـرحل ونحـوه ـ يئط ـ أطيطا : صـوت ، والابل : أنت تعبـا أو حنينا أو رزمة ، والاطيط : صوت الرحل والابل من ثقلها . قال الحافظ أبو سليمان الخطابي : وقـوله : « انـه ليئط به » معـناه أنـه ليعجز عن جلاله وعظمته حتى يئط به ، اذ كان معلوما أن أطيط الـرحل بـالراكب انمـا يكون لقـوة ما فـوقه ولعجـزه عن احتمالـه . وقال : هذا الكلام اذا اجرى على ظاهره كان فيه نوع من الكيفية ، والكيفية عن الله وصفاته منفيه . فعقل ان ليس المراد منه تحقيق هذه الصفة ولا تحديده على هذه الهيئة وانما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله وجلاله سبحانه ـ انتهى كلام الخطابي ملخصا .

فان الناس يقدرون الممسوح بالباع والذراع ، وأصغر ما عندهم الكف . فاذا أرادوا نفي القليل والكثير قد روا به ، فقالوا : ما في السماء قدر كف سحابا ، كما يقولون في النفي العام ﴿ إنَّ الله لا يظلمُ مثقالَ ذرةٍ ﴾ ، و﴿لا يملكونَ مِنْ قِطمير﴾ ، ونحو ذلك .

فبين الرسول انه لا يفضل من العرش شيء ، ولا هذا القدر اليسير الذي هو أيسر ما يقدر به ، وهو أربع أصابع . وهذا المعنى الصحيح موافق للغة العرب ، وموافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، موافق لطريقة بيان الرسول ، له شواهد . فهو الذي يجزم بأنه في الحديث .

ومن قال « ما يفضل الا مقدار أربع أصابع » فما فهموا هذا المعنى ، فظنوا أنه أستثنى ، فاستثنوا ، فغلطوا . وانما هو توكيد للنفي وتحقيق للنفي العام . والا فأي حكمة في كون العرش يبقى منه قدر أربع اصابع خالية ، وتلك الاصابع من الناس ، والمفهوم منه هذا أصابع الانسان . فما بال هذا القدر اليسير لم يستو الرب عليه ؟

والعرش صغير في عظمة الله تعالى . وقد جاء حديث رواه ابن أبي حاتم في قوله : ﴿ لا تدركه الابصار ﴾ لمعناه شواهد تدل على هذا . فينبغي أن[1] نعتبر الحديث ، فنطابق بين الكتاب والسنة . فهذا هذا والله اعلم .

قال حدثنا أبو زرعة ، ثنا منجاب بن الحارث ، أنبا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ لا تدركهُ الابصارُ وهُوَ يُدرِكُ الابصارَ ﴾ - (الانعام ٦ : ١٠٣) ، قال : « لو أن الجن والانس والشياطين والملئكة منذ خلقوا الى ان فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله ابداً » .

وهذا له شواهد ، مثل ما في الصحاح في تفسير قوله تعالى : ﴿ والأرض جميعاً قبضتهِ يومَ القيامةِ والسَّمواتِ مطوياتٍ بيمينه ﴾ - (الزمر ٣٩ : ٦٧) ، قال ابن عباس : ما السموات السبع والارضون السبع ومن فيهن في يد الرحمن الاكخردلة في يد احدكم .

ومعلوم ان العرش لا يبلغ هذا ، فان له حملة ولا حول . قال تعالى : ﴿ الَّذينَ يحملونَ العرشَ ومَنْ حَولهُ ﴾ - (المؤمن ٤٠ : ٧) .

وهذا قد بسط في موضوع آخر في مسألة الاحاطة وغيرها والله اعلم .

---

(١) بالأصل أنا ، والصواب « أن » .

(١٦) فصـــل

(طرق النظار في اثبات الصانع وصفاته)

فالرسول ﷺ بين الاصول الموصلة الى الحق أحسن بيان ، وبين الآيات الدالة على الخالق سبحانه ، وأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ووحدانيته ، على أحسن وجـه ، كما قـد بسط في مواضع .

واما اهل البدع من أهل الكلام والفلسفة ونحوهم فهم لم يثبتوا الحق ، بل أصَّلوا أصولاً تناقض الحق . فلم يكفهم أنهم لم يهتدوا ولم يدلوا على الحق حتى اصلوا أصولاً تنـاقض الحق ، ورأوا أنها تناقض ما جاء به الرسول ﷺ ، فقدموها على ما جاء به الرسول .

ثم تارة يقولون : الرسول جاء بالتخييل ، وتارة يقولون : جاء بالتأويـل ، وتارة يقـولون جاء بالتجهيل .

فالفلاسفة ومن وافقهم احياناً يقولـون : خاطب الجمهـور بالتخييـل - لم يقصد اخبـارهم بالامر على ما هو عليه ، بل اخبرهم بخلاف ما الامر عليه ليتخيلوا ما ينفعهم . وهذا قول من يعرف بأنه كان يعرف الحق ، كابن سينا وأمثاله ، ويقولـون : الذي فعله من التخييـل غايـة ما يمكن .

ومنهم من يقول : لم يعرف الحق ، بل تخيل وخيل ، كما يقوله الفارابي وأمثاله . ويجعلون الفيلسوف أفضل من النبي ، ويجعلون النبوة من جنس المنامات .

واما اكثر المتكلمين فيقولـون : بل لم يقصـد ان يخبر الا بـالحق ، لكن بعبارات لا تـدل وحدهـا عليه ، بل تحتاج الى التأويل ليبعث الهمم على معرفته بالنظر والعقل ، ويبعثها على تأويل كلامه ليعظم اجرها .

والملاحدة يسلكون مسلك التأويل ويفتتحون باب القرمطة . وهؤلاء يجوزون التأويل مع الخاصة .

وأما أهل التخييل فيقولـون : الخاصـة قد عـرفوا أن مـراده التخييل للعـامة ، فـالتأويـل ممتنع .

والفريقان يسلكون مسلك الجام العوام عن التأويل ، لكن اولئك يقـولون : لهـا تأويـل يفهمه الخاصة .

وهي طريقة الغزالي في « الالجام » . استقبح ان يقال : كذبوا للمصلحة . وهو أيضـاً لا

يرى تأويل الاعمال كالقرامطة ، بل تأويل الخبر عن الملئكة وعن اليوم الآخر . وكذلك طائفة من الفلاسفة ترى التأويل في ذلك . وهذا مخالف لطريقة أهل التخييل .

وقد ذكر الغزالي هذا عنهم في « الاحياء » لما ذكر اسرافهم في التأويل ، وذكره في مواضع ، كما حكى كلامه في « السبعينية » وغيرها[1] .

والقسم الثالث الذين يقولون : هذا لا يعلم معناه الا الله ، أوله تأويل يخالف ظاهره لا يعمله الا الله . فهؤلاء يجعلون الرسول وغيره غير عالمين بما أنزل الله . فلا يسوغون التأويل ، لان العلم بالمراد عندهم ممتنع . ولا يستجيزون القول بطريقة التخييل لما فيها من التصريح بكذب الرسول . بل يقولون : خوطبوا بما لا يفهمونه ليثابوا على تلاوته والايمان بألفاظه وان لم يفهموا معناه . يجعلون ذلك تعبدا محضاً على رأي المجبرة الذي يجؤزون التعبد بما لا نفع فيه للعامل ، بل يؤجر عليه .

والكلام على هؤلاء وفساد قولهم مذكور في مواضع . والمقصود هنا أن الذي دعاهم الى ذلك ظنهم ان المعقول يناقض ما أخبر به الرسول ﷺ ، أو ظاهر ما أخبر به الرسول . وقد بسط الكلام على رد هذا في مواضع ، وبين ان العقل لا يناقض السمع ، وان ما ناقض هو فاسد . وبين بعد هذا ان العقل موافق لما جاء به الرسول شاهد له ، ومصدق له .

لا يقال انه غير معارض فقط ، بل هو موافق مصدق ، فأولئك كانوا يقولون : هو مكذب مناقض . بين اولاً انه لا يكذب ولا يناقض ، ثم بين ثانياً انه مصدق موافق .

وأما هؤلاء فيبين أن كلامهم الذين يعارضون به الرسول باطل لا تعارض فيه . ولا يكفي كونه باطلاً لا يعارض ، بل هو أيضاً مخالف لصريح العقل . فهم كانوا يدعون أن العقل يناقض النقل .

فتبين أربع مقامات : ان العقل لا يناقضه . ثم يبين ان العقل يوافقه . ويبين ان عقلياتهم التي عارضوا بها النقل باطلة . ويبين ايضاً ان العقل الصريح يخالفهم .

ثم لا يكفي ان العقل يبطل ما عارضوا به الرسول ، بل يبين أن ما جعلوه دليلاً على اثبات الصانع انما يدل على نفيه . فهم اقاموا حجة تستلزم نفي الصانع ، وان كانوا يظنون انهم يثبتون بها الصانع .

والمقصود هنا أن كلامهم الذي زعموا أنهم اثبتوا به الصانع انما يدل على نفي الصانع

---

(١) انظر رد ابن تيمية على الغزالي والفلاسفة من قولهم بالتخييل والتأويل من بغية المرتاد من الرد على القرامطة اهل الالحاد . طبعت من الجزء الخامس من الفتاوى الكبرى .

وتعطيله . فلا يكفي فيه انه باطل لم يدل على الحق ، بل دل على الباطل الذي يعلمون هم وسائر العقلاء انه باطل .

ولهذا كان يقال في أصولهم « ترتيب الاصول في تكذيب الرسول » ، ويقال أيضاً هي « ترتيب الاصول في مخالفة الرسول والمعقول » . جعلوها أصولاً للعلم بالخالق ، وهي أصول تناقض العلم به . فلا يتم العلم بالخالق الا مع اعتقاد نقيضها . وفرق بين الأصل والدليل المستلزم للعلم بالرب وبين المناقض المعارض للعلم بالرب .

فالمتفلسفة يقولون انهم أثبتوا واجب الوجود ، وهم لم يثبتوه ، بل كلامهم يقتضي انه ممتنع الوجود . والجهمية والمعتزلة ونحوهم يقولون انهم أثبتوا القديم والمحدث للحوادث ، وهم لم يثبتوه ، بل كلامهم يقتضي انه ما ثم قديم أصلاً . وكذلك الاشعرية والكرامية وغيرهم ممن يقول انه اثبت العلم بالخالق ، فهو لم يثبتوه ، لكن كلامهم يقتضي انه ما ثم خالق .

وهذه الاسماء الثلاثة هي التي يظهرها هؤلاء - واجب الوجود ، والقديم ، والصانع أو الخالق ونحو ذلك .

ثم انه من المعلوم بضرورة العقل انه لا بد في الوجود من موجود واجب بنفسه قديم ازلي محدث للحوادث . فاذا كان هذا معلوماً بالفطرة والضرورة والبراهين اليقينية ، وكانت أصولهم التي عارضوا بها الرسول تناقض هذا ، دل على فسادها جملة وتفصيلاً .

وقد ذكرنا في مواضع ان الاقرار بالصانع فطري ضروري مع كثرة دلائله وبراهينه .

ونقول هنا : لا ريب أنا نشهد الحوادث كحدوث السحاب ، والمطر ، والزرع ، والشجر ، والشمس ، وحدوث الانسان وغيره من الحيوان ، وحدوث الليل والنهار ، وغير ذلك . ومعلوم بضرورة العقل ان المحدث لا بد له من محدث . وانه يمتنع تسلسل المحدثات بأن يكون للمحدث محدث ، وللمحدث محدث ، الى غير غاية . وهذا يسمى تسلسل المؤثرات ، والعلل ، والفاعلية ، وهو ممتنع باتفاق العقلاء ، كما قد بسط في مواضع ، وذكر ما أورد عليه من الاشكالات . حتى ذكر كلام الامدي ، والابهري مع كلام الرازي ، وغيرهم .

مع ان هذا بديهي ضروري في العقول ، وتلك الخواطر من وسوسة الشيطان . ولهذا أمر النبي ﷺ العبد اذا خطر له ذلك أن يستعيذ بالله منه ، وينتهي عنه . فقال : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ فيقول : الله . فيقول : فمن خلق الله ؟ فاذا وجد ذلك أحدكم فليستعذ بالله ولينته »(1) .

ومعلوم ان المحدث الواحد لا يحدث الا بمحدث . فاذا كثرت الحوادث وتسلسلت كان

---

(1) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داوُد ، وأحمد ، من حديث أبي هريرة .

احتياجها الى المحدث أولى . وكلها محدثات ، فكلها محتاجة الى محدث . وذلك لا يزول الا بمحدث لا يحتاج الى غيره . بل هو قديم ازلي بنفسه سبحانه وتعالى .

واذا قيل : ان الموجود اما قديم واما محدث ، والمحدث لا بد له من قديم ، نيلزم وجود القديم على التقديرين ، كان برهاناً صحيحاً . وكذلك اذا قيل : اما ممكن واما واجب ، وبين الممكن بأنه المحدث ، كان من هذا الجنس .

واما اذا فسر الممكن بما يتناول القديم ، كما فعل ابن سينا واتباعه كالرازي ، كان هذا باطلا . فانه على هذا التقدير لا يمكن اثبات الممكن المفتقر الى الواجب ابتداء ، والدليل لا يتم الا باثبات هذا ابتداء . وانما يمكن ذلك في ان المحدَث لا بد له من محدِث . فان هذا تشهد أفراده ، وتعلم بالعقل كلياته .

واما اثبات قديم ازلي ممكن فهذا مما اتفق العقلاء على امتناعه . وابن سينا واتباعه وافقوا على امتناعه ، كما ذكروه في المنطق تبعاً لسلفهم ، لكن تناقضوا أولاً . فسلفهم وهم يقولون : الممكن العامي [1] والخاصي[1] الذي يمكن وجوده وعدمه لا يكون الا حادثاً . لا يكون ضرورياً ، وكل ما كان قديماً أزلياً فهو ضروري عندهم .

وكذلك اذا قيل : الموجود اما ان يكون مخلوقاً واما أن لا يكون مخلوقاً ، والمخلوق له لا بد له من موجود غير مخلوق ، فثبت وجود الموجود الذي ليس بمخلوق على التقديرين .

وكذلك اذا قيل : الموجود اما غني عن غيره واما فقير الى غيره ، والفقير المحتاج الى غيره لا تزول حاجته وفقره الا بغنى عن غيره ، فيلزم وجود الغني عن غيره على التقديرين .

وكذلك اذا قيل : الحي اما الحي بنفسه واما حي حيوته من غيره ، وما كانت حيوته من غيره فذلك الغير أولى بالحيوة ، فيكون حياً بنفسه؛ فثبت وجود الحي بنفسه على التقديرين .

وكذلك اذا قيل : العالم اما عالم بنفسه واما عالم علمه غيره ، ومن علم غيره فهو اولى ان يكون عالما ، واذا لم يتعلم من غيره كان عالماً بنفسه ، فثبت وجود العالم بنفسه على التقديرية والقسمين .

فاذا كان لا يمكن إلاّ أحدهما ، وعلى كل تقدير العالم بنفسه موجود ، والحي بنفسه موجود ، والغني بنفسه موجود ، والقديم الواجب بنفسه موجود ، لزم وجوده في نفس الامر وامتناع عدمه في نفس الامر . وهو المطلوب .

وكذلك اذا قيل : القادر اما قادر بنفسه واما قادر أقدره غيره ، ومن أقدر غيره فهو أولى

---

(١) كذا بالاصل .

ان يكون قادراً . واذا لم تكن قدرته من غيره كانت قدرته من لوازم نفسه ، فثبت وجود القادر بنفسه الذي قدرته من لوازم نفسه ، وعلمه من لوازم نفسه ، وحيوته من لوازم نفسه ، على كل تقدير .

وكذلك الحكيم اما أن يكون حكيماً بنفسه واما ان تكون حكمته من غيره . ومن جعل غيره حكيماً فهو اولى ان يكون حكيماً ، فيلزم وجود الحكيم بنفسه على التقديرين .

وكذلك اذا قيل : المتكلم السميع البصير اما أن يكون متكلماً سمعياً بصيراً بنفسه واما ان يكون غيره جعله سميعاً بصيراً متكلماً . ومن جعل غيره متكلماً سمعياً بصيراً فهو أولى أن يكون متكلماً سميعاً بصيراً ، والا كان المفعول أكمل من الفاعل ، فان هذه صفات كمال .

وكذلك يقال : العادل اما أن يكون عادلاً بنفسه ، والصادق اما أن يكون صادقاً بنفسه ، واما ان يكون غيره جعله صادقاً عادلاً . ومن جعل غيره صادقاً عادلاً فهو أولى أن يكون صادقاً عادلاً .

فهذه كلها طرق صحيحة بينة . . .

فان قيل : يعارض هذا بأن يقال : من جعل غيره ظالماً أو كاذباً فهو أيضاً ظالم كاذب ، واهل السنة يقولون انه جعل غيره كذلك ، وليس هو كذلك ـ سبحانه ، قيل : هذا باطل من وجهين .

احدهما : انه ليس كل من جعل غيره على صفة ـ اي صفة كانت ـ كان متصفاً بها . بل من جعل غيره على صفة من صفات الكمال فهو أولى باتصافه بصفة الكمال مفعوله .

واما صفات النقص فلا يلزم اذا جعل الجاعل غيره ناقصاً أن يكون هو ناقصاً . فالقادر يقدر أن يعجز غيره ولا يكون عاجزاً . والحي يمكنه ان يقتل غيره ويميته ولا يكون ميتاً . والعالم يمكنه ان يجعل غيره ولا يكون جاهلاً . والسميع والبصير والناطق يمكنه ان يعمى غيره[1] ويصمه ، ويخرسه ، ولا يكون هو كذلك .

فلا يلزم حينئذ أن من جعل غيره ظالماً وكاذباً وظالماً ، لان هذه صفة نقص .

فان قيل : الكاذب والظالم قد يلزم غيره بالصدق والعدل أحياناً ، قيل : هو لم يجعله صادقاً وعالماً وانما امره بذلك ، وهو فعله ذلك بنفسه . ولم نقل كل من امر غيره بشيء كان متصفاً بما امر به غيره .

الثاني : ان الظلم أمر نسبي اضافي ، فمن امر غيره ان يقتل شخصاً فقتله هذا القاتل

---

(١) في الاصل ما يشبه « عينه » ، وهو تصحيف .

من غير جرم يعلمه كان ظالماً ، وان كان ذلك الامر انما أمره به لكونه قد قتل أباه والمأمور لم يفعله لذلك . فلو فعله بطريق النيابة لم يكن ظالماً . فان[1] كان له معه غرض فقتله ظلماً ، ولكن الامر كان مستحقاً لقتله .

وكذلك من أمر غيره بما هو كذب من المأمور ، كأمر يوسف للمؤذن ان يقول : ﴿ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ - (يوسف ١٢ : ٧٠) يوسف عليه السلام قصد : انكم لسارقون يوسف من أبيه ، وهو صادق في هذا . والمأمور قصد : انكم لسارقون الصواع ، وهو يظن أنهم سرقوه ، فلم يكن معتمداً للكذب ، وان كان خبره كذباً .

والرب تعالى لا تقاس افعاله بأفعال عباده ، فهو يخلق جميع ما يخلقه لحكمة ومصلحة . وان بعض ما خلقه فيه قبح ، كما يخلق الاعيان الخبيثة - كالنجاسات وكالشياطين - لحكمة راجحة . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دلائل اثبات الرب كثيرة جداً . وهؤلاء الذين يزعمون ان المعقول يعارض خبر الرسول - الذين يقولون انهم أثبتوا واجب الوجود ، او القيّم ، او الصانع - هم لم يثبتوه ، بل حججهم تقتضي نفيه وتعطيله ، فهم نافون له ، لا مثبتون له . وحججهم باطلة في العقل ، لا صحيحة في العقل .

والمعرفة بالله ليست موقوفة على أصولهم . بل تمام المعرفة موقوف على العلم بفساد اصولهم ، وان سموها « اصول العلم والدين » . فهي « أصول الجهل وأصول دين الشيطان لا دين الرحمن » . وحقيقة كلامهم « ترتيب الاصول في مخالفة الرسول والمعقول » ، كما قال اصحاب النار : ﴿ لو كُنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ ﴾ - (الملك ٦٧ : ١٠) . فمن خالف الرسول فقد خالف السمع والعقل - خالف الادلة السمعية والعقلية .

أما القائلون بواجب الوجود فقد بينا في غير موضع أنهم لم يقيموا دليلاً على واجب الوجود .

وان الرازي لما اتبع ابن سينا لم يكن في كتبه اثبات واجب الوجود . فانهم جعلوا وجوده موقوفاً على اثبات « الممكن » الذي يدخل فيه القديم . فما بقي يمكن اثبات واجب الوجود على طريقهم الا باثبات ممكن قديم ، وهذا ممتنع في بديهة العقل واتفاق العقلاء . فكان طريقهم موقوفاً على مقدمة باطلة في صريح العقل . وقد اتفق العقلاء على بطلانها ، فبطل دليلهم . ولهذا كان كلامهم في « الممكن » مضطرباً غاية الاضطراب .

ولكن أمكنهم أن يستدلوا على أن المحدث لا بد له من قديم ، وهو واجب الوجود .

---

(١) كلمة « فان » في الاصل غير واضحة ، ويحتمل ان تقرأ « بل » .

ولكن قد أثبتوا قديماً ليس بواجب الوجود . فصار ما أثبتوه من القديم يناقض أن يكون هو رب العالمين ، اذ أثبتوا قديما ينقسم الى واجب والى غير واجب .

وأيضاً فالواجب الذي أثبتوه قالوا : انه يمتنع اتصافه بصفة ثبوتية . وهذا ممتنع الوجوب لاممكن الوجوب ، فضلاً عن أن يكون واجب الوجود ، كما قد بسط هذا في مواضع ، وبين أن الواجب الذي يدعونه يقولون انه لا يكون لا صفة ولا موصوفاً ألبته . وهذا انما يتخيل في الاذهان لا حقيقة له في الاعيان .

والواجب اذا فسر بمبدع الممكنات فهو حق ، وهو اسم للذات المتصفة بصفاتها . واذا فسر بالموجود بنفسه الذي لا فاعل له فالذات واجبه والصفات واجبة . واذا فسر بما لا فاعل له ولا محل (ث) فالذات واجبه والصفات ليست واجبة . واذا فسر بما ليس صفة ولا موصوفاً فهذا باطل لا حقيقة له . بل هو ممتنع الوجود ، لا ممكن الوجود ، ولا واجب الوجود . وكلما أمعنوا في تجريده عن الصفات كانوا أشد ايغالاً في التعطيل ، كما قد بسط في مواضع .

واما الذين قالوا أنهم أثبتوا القديم ، من الجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم من الاشعرية والكرامية الذين استدلوا بحدوث الاعراض ولزومها للاجسام ، وامتناع حوادث لا أول لها ، على حدوث الاجسام ، فهؤلاء لم يثبتوا الصانع لما عرف من فساد هذا الدليل حيث ادعوا امتناع كون الرب متكلماً بمشيئته او أفعالاً[1] لما يشاء . بل حقيقة قولهم امتناع كونه لم يزل قادراً . وادلتهم على هذا الامتناع قد ذكرت مستوفاة في غير هذا الموضع ، وذكر كلامهم هم في بيان بطلانها .

وأما كونهم عطلوا الخالق فلان حقيقة قولهم أن من لم يزل متكلماً بمشيئته فهو محدث ، فيلزم أن يكون الرب محدثاً ، لا قديماً . بل حقيقة اصلهم ان ما قامت به الصفات والافعال فهو محدث ، وكل موجود فلا بد له من ذلك ، فيلزم ان يكون كل موجود محدثاً . ولهذا صرح أئمة هذا الطريق - الجهمية والمعتزلة - بنفي صفات الرب ، وينفي قيام الافعال وسائر الامور الاختيارية بذاته ، اذا هذا موجب دليلهم . وهذه الصفات لازمة له ، ونفي اللازم يقتضي نفي الملزوم . فكان حقيقة قولهم نفي الرب وتعطيله .

وهم يسمون الصفات اعراضاً ، والافعال ونحوها حوادث . فقالوا الرب ينزه عن ان تقوم به الاعراض والحوادث . فان ذلك مسلتزم ان يكون جسماً . قالوا : وقد اقمنا الدليل على حدوث كل جسم . فان الجسم لا ينفك من الاعراض المحدثة ولا يسبقها ، وما لم ينفك عن الحوادث ولم يسبقها فهو حادث .

---

(١) في الاصل « أفعالاً » بزيادة ألف .

وقد قامت الادلة السمعية والعقلية على مذهب السلف ، وآن الرب لم يزل متكلماً اذا شاء ، فيلزم على قولهم انه لم يسبق الحوادث ولم ينفك عنها . ويجب على قولهم (كونه)[1] حادثاً .

والطريق التي قالوا بها يثبت الصانع مناقضة لاثبات الصانع . واذا قالوا : لا يمكن العلم بالصانع الا بها ، كان الحق أن يقال : بل لا يمكن تمام العلم بالصانع الا مع العلم بفسادها .

ولهذا كان كل من أقر بصحتها قد كذب بعض ما أخبر به الرسول مما هو من لوازم الرب ، ونفي اللازم يقتضي نفي الملزوم .

والذين زعموا أنهم يحتجون به على حدوث الاجسام من جنس ما زعم أولئك أنهم يحتجون به على امكان الاجسام . وكل منهما باطل . ومقتضاه حدوث كل موجود وامكان كل موجود ، وانه ليس في الوجود قديم لا واجب نفسه .

فأصولهم تناقض مطلوبهم . وهي طريقة مضلة ، لا هادية . لكن كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يعشُ عَنْ ذكرِ نقيّضْ لَهُ شَيطاناً فَهُوَ لَهُ قرينٌ * وانَّهم ليصدونهُمْ عِنِ السَّبيلِ ويحسبونَ أنَّهم مُهتدونَ ﴾ - (الزخرف ٤٣ : ٣٦ و ٣٧) .

وأما الذين يقولون : نثبت الصانع والخالق ، ويقولون : انا نسلك غير هذه الطريق ، كالاستدلال بحدوث الصفات على الرب . فان هذه تدل عليه من غير احتياج الى ما التزمه اولئك . والرازي قد ذكر هذه الطريق .

واما الاشعري نفسه فلم يستدل بها . بل في « اللمع » ، و « رسالته الى الثغر » استدل بالحوادث على حدوث ما قامت به ، كما ذكره في النطفة بناء على امتناع حوادث لا أول لها . ثم جعل حدوث تلك الجواهر التي ذكر انه دل على حدوثها هو الدليل على ثبوت الصانع . وهذه الطريق باطلة ، كما قد بين .

واما تلك فهي صحيحة ، لكن أفسد وهجاً من جهة كونهم جعلوا الحوادث المشهود لهم حدوثها هي الاعراض فقط ، كما قد بينا هذا في مواضع .

ثم يقال : هؤلاء يثبتون خالقاً لا خلق له . وهذا ممتنع في بداية[2] العقول ، فلم يثبتوا خالقاً .

---

(١) سقط في الاصل لفظ « كونه » . ولا تستقيم الجملة بدونه .

(٢) كذا بالأصل . وفي ط السعودية ، الهند : بداهة .

والكرامية ، وان كانوا يقولون ضد الخلق غير المخلوق ، فهم يقولون بحدوث الخلق بلا سبب يوجب حدوثه . وهذا أيضاً ممتنع . فما أثبتوا خالقاً .

وأيضاً فهؤلاء وهؤلاء يقولون : الواجب للتخصيص بحدوث ما حدث دون غيره هو ارادة قديمة أزلية . فالكرامية يقولون : هي المخصص لما قام به وما خلقه . وهؤلاء عندهم لم يقم به شيء يكون مراداً ، بل يقولون : هي المخصص لما حدث .

والطائفتان ومن وافقهم يقولون : تلك الارادة قديمة أزلية لم يزل على نعت واحد ، ثم وجدت الحوادث بلا سبب أصلاً . ويقولون : من شأنها ان تخصص مثلاً على مثل ، ومن شأنها أن تتقدم على المراد تقدماً لا أول له . فوصفوا الارادة بثلاث صفات باطلة يعلم بصريح العقل أن الارادة لا تكون هكذا . وهي المقتضية للخلق والحدوث ، فاذا أثبتت فلا خلق ولا حدوث .

وكذلك القدرة التي اثبتوها وصفوها بما يمتنع أن تكون قدرة . وهي شرط في الخلق . فاذا نفوا شرط الخلق انتفى الخلق ، فلم يبق خالقاً . فالذي وصفوا به الخالق يناقض كونه خالقاً ، ليس بلازم لكونه خالقاً . وهم جعلوه لازماً ، لا مناقضاً .

أما الارادة فذكروا لها ثلاثة لوازم ، والثلاثة تناقض الارادة .

قالوا : انها تكون ولا مراد لها ، بل لم يزل كذلك ثم حدث مرادها من غير تحول حالها . وهذا معلوم الفساد ببديهة العقل . فان الفاعل اذا اراد ان يفعل فالمتقدم كان عزماً على الفعل ، وقصداً له في الزمن المستقبل ، لم يكن ارادة للفعل في الحال . بل اذا فعل فلا بد من ارادة الفعل في الحال . ولهذا يقال : الماضي عزم ، والمقارن قصد . فوجود الفعل بمجرد عزم من غير ان يتجدد قصد من الفاعل ممتنع . فكان حصول المخلوقات بهذه الارادة ممتنعاً لو قدر امكان حدوث الحوادث بلا سبب ، فكيف وذاك أيضاً ممتنع في نفسه ؟ فصار الامتناع من جهة الارادة ، ومن جهة تعينت بما هو ممتنع في نفسه .

الثاني قولهم ان الارادة ترجح مثلاً على مثل : فهذا مكابرة ، بل لا تكون الارادة الا لما ترجح وجوده على عدمه عند الفاعل ، اما لعلمه بأنه افضل ، او لكون محبته له أقوى . وهو انما يترجح في العلم لكون عافبته أفضل . فلا يفعل أحد شيئاً بارادته الا لكونه يحب المراد ، او يحب ما يؤول اليه المراد بحيث يكون وجود ذلك المراد أحب[1] اليه من عدمه ، لا يكون وجوده وعدمه عنده سواء .

الثالث ان الارادة الجازمة يتخلف عنها مرادها مع القدرة : فهذا أيضاً باطل . بل متى

---

(١) في الاصل « وأحب » بزيادة الواو .

حصلت القدرة التامة والارادة الجازمة وجب وجود المقدور . وحيث لا يجب فانما هو لنقص القدرة او لعدم الارادة التامة . والرب تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وهو يخبر في غير موضع انه لو شاء لفعل أموراً لم يفعلها ، كما قال : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هدئها ﴾ - (السجدة ٣٢ : ١٣) ، ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ - (هود ١١ : ١١٨) ، ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٥٣) . فبين انه لو شاء ذلك لكان قادراً عليه ، لكنه لا يفعله لانه لم[1] يشأه اذا كان عدم مشيئته أرجح في الحكمة مع كونه قادراً عليه لو شاءه .

وقد بسط الكلام على ما يذكرونه في القدرة والارادة - هم وغيرهم - في غير هذا الموضع . وان من هؤلاء من يقول : انما يقدر على الامور المباينة له دون الافعال القائمة بنفسه ، كما يقول ذلك المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم . ومنهم من يقول : بل يقدر على ما يقوم به من الافعال . وعلى ما هو باين عنه ، كما يحكى عن الكرامية .

والصواب الذي دل عليه القرآن والعقل أنه يقدر على هذا وهذا . قال تعالى : ﴿ بلىٰ قَادرينَ علىٰ أنْ نسوّي بَنَانهُ ﴾ - (القيامة ٧٥ : ٤) ، وقال : ﴿ أَلَيسَ ذلكَ بقادرٍ علىٰ أنْ يحييَ الموتىٰ ﴾ - (القيامة ٧٥ : ٤٠) ، وقال : ﴿ أَليسَ ذَلكَ بقادرٍ علىٰ أنْ يخلقَ مِثلهُمْ ﴾ - (يٓس ٣٦ : ٨١)، وقال : ﴿ وإنَّا علىٰ ذهابٍ بهِ لقَادرونَ ﴾ - (المؤمنون ٢٣ : ١٨) . وهذا كثير في القرآن - أكثر من النوع الآخر .

فان ما قاله الكرامية والهاشمية أقرب الى العقل والنقل مما قالت الجهمية ومن وافقهم ، وان كان فيما حكوه عنهم خطأ من جهة نفيهم القدرة على الأمور المباينة .

والله تعالى قد أخبر أنه على كل شيء قدير . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال لأبي مسعود لما رآه يضرب غلامه : « الله أقدر عليك منك على هذا » . وفي القرآن : ﴿ فإمَّا نذهبنَّ بِكَ فإنَّا مِنهُمْ منتقمونَ * او نرينَّكَ الَّذي وعدناهُمْ فإنَّا عليهم مُقْتَدِرُونَ ﴾ - (الزخرف ٤٣ : ٤١ ، ٤٢) . وبسط هذا له مواضع آخر .

فجميع ما أخبر به الرسول ﷺ هو لازم في نفس الامر . وكل ما أثبته من صفات الرب فهو لازم . واذا قدر عدمه لزم عدم الملزوم . فنفي ما اخبر به الرسول مستلزم للتعطيل .

لكن من ذلك ما يظهر بالعقل مع تفاوت الناس في العقل ، ومنه ما يكفي فيه مجرد خبر

---

(١) بالهامش : نسخة « لما » .

الرسول . فان ما أخبرَ به الرسول فهو حق . وكل ما أثبت للرب فهو لازم الثبوت ، وما انتفى عنه فهو لازم الانتفاء . فاذا قدر عدم اللازم لزم عدم الملزوم .

لكن هذا كله لازم المذهب ، وهو يدل على بطلانه . ولازم المذهب لا يجب ان يكون مذهبا ، بل أكثر الناس يقولون أقوالاً ولا يلتزمون لوازمها . فلا يلزم اذا قال القائل ما يستلزم التعطيل أن يكون معتقداً للتعطيل . بل يكون معتقداً للاثبات ، ولكن لا يعرف ذلك اللزوم .

وأيضاً فاذا كانت اصولهم التي بنوا عليها اثبات الصانع باطلة لم يلزم ان يكونوا هم غير مقرين بالصانع ، وان كان هذا لازما من قولهم . اذا قولوا : انه لا يعرف الا بهذه الطريق ، وقد ظهر فساده ، لزم ان لا يعرف . لكن هذا اللزوم يدل على فساد هذا النفي ، ولا يلزم ان لا يكونوا هم مقرين بالصانع لما قد بيناه في غير موضع ان الاقرار بالصانع ، ومعرفته ، ومحبته ، وتوحيده قطري ، يكون ثابتاً في قلب الانسان ، وهو يظن انه ليس في قلبه .

لهذا كان عامة هؤلاء مقرين بالصانع ، معترفين به ، قبل أن يسلكوا هذه الطريق النظرية ، سواء كانت صَحيحة او باطلة . وهذا أمر يعرفونه من أنفسهم . فعلم أنه لا يلزم من عدم سلوك هذه الطريق عدم المعرفة . وقد اعترف كثير منهم بذلك ، كما قد بيناه في مواضع .

ومنهم من يقول : ان الطريق النظرية التي يسلكها[1] زادته بصيرة وعلماً ، كما يقوله ابن حزم وغيره . وهو سلك طريقة الاعراض .

وكثير من الناس يقول : ان هذه الطريق لم تفدهم الا شكاً وريباً . وفطرة هؤلاء أصح ، فانها طرق فاسدة .

ومنهم من يقول : ام يحصل لي بها شيء - لا علم ولا شك . وذلك انها لم تحصل له علماً ولا سلمها ، فلم يتبين له صحتها ولا فسادها .

ومن الناس من لا يفهم مرادهم بها . وأكثر اتباعهم لا يفهمونها ، بل يتبعونهم تقليداً واحساناً للظن بهم .

(١٧) فصل

(موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح)

ومما ينبغي ان يعرف أنا لا نقول ان الشيء لا يعرف الا باثبات جميع لوازمه . هذا لا

---

(١) في الاصل « يسلكها » وهو تصحيف .

يقوله عاقل ، بل قد تعرف عامة الاشياء وكثير من لوازمها لا تعرف وقد يعلم المسلمون ان الرب على كل شيء قدير ، وأنه يفعل ما يشاء ، وهم لا يعرفون كثير من لوازم القدرة والمشيئة . لكن أهل الاستقامة كما لا يعرفون اللوازم فلا ينفونها ، فان نفيها خطأ .

وأما عدم العلم بها كلها فهذا لازم لجميع الناس ـ فسبحان من أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عدداً . وما سواه ﴿ لا يُحيطونَ بشيءٍ مِنْ علمهِ إلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢٥٥) ، وهو سبحانه ﴿ يعلمُ ما بينَ أيديهم وما خلفَهُمْ ولا يُحيطُونَ بهِ علماً ﴾ ـ (طه ٢٠ : ١١٠) .

ولكن المقصود بيان ان المخالفين للرسول ﷺ ـ ولو في كلمة ـ لا بد ان يكون في قولهم من الخطأ بحسب ذلك . وأن الادلة العقلية والسمعية المنقولة عن سائر الانبياء توافق ما جاء به الرسول ﷺ ، وتناقض ما يقوله أهل البدع المخالفون للكتاب والسنة .

واذا قالوا : ان العقل يخالف النقل ، أخطأوا في خمسة أصول[1] .

أحدهما : ان العقل الصريح لا يناقضه (منقول صحيح) .

الثاني : انه يوافقه .

الثالث : ان ما يدعونه من العقل المعارض ليس بصحيح .

الرابع : أن ما ذكروه من المعقول المعارض هو المعارض للمعقول الصريح .

الخامس : أن ما أثبتوا به الاصول كمعرفة الباري وصفاته لا يثبتها ، بل يناقض اثباتها .

(١٨) فصـــــل

وذلك أن ما جاء به الرسول هو من علم الله . فما أخبر به عن الله فالله أخبر به ، وهو سبحانه يخبر بعلمه ـ يمتنع ان يخبر بنقيض علمه ، وما أمر به فهو من حكم الله ، والله عليم حكيم .

قال تعالى : ﴿ لكنِ اللهُ يشهدُ بمَا أَنْزَلَ أَنزلَهُ بعلمهِ ، والملائكة يَشهدونَ ، وكفىٰ باللهِ شَهيداً ﴾ ـ (النساء ٤ : ١٦٦) ، وقال تعالى : ﴿ أم يقولونَ افتراهُ ، قُلْ فأتُوا بعشرِ سورٍ مثلهُ مفترياتٍ وادعُوا مِنْ استطعتُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كنتُمْ صَادقينَ * فإنْ لَمْ يستجيبُوا لكُمْ فاعلمُوا أنَّمَا أُنْزِلَ بعلمِ اللهِ وأَنْ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ ، فَهَلْ انتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ـ (هود ١١ : ١٣ ، ١٤) .

---

(١) الف ابن تيمية كتابه العظيم درء تعارض العقل والنقل لمناقشة هذه القضية بالتفصيل .

وقوله : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ . قال الزجاج : أنزله وفيه علمه . وقال أبو سليمان الدمشقي : أنزله من علمه . وهكذا ذكر غيرهما .

وهذا المعنى مأثور عن السلف ، كما روى أبن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرحمن القرآن . وكان اذا أقرأ احدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله ، فليس أحد اليوم أفضل منك الا بعمل ، ثم يقرأ : ﴿ أنزله بعلمه ، والملئكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ﴾ [١] .

وكذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بعلمِ اللهِ ﴾ ، قالوا : أنزله وفيه علمه .

(قلت) : الباء قد تكون لمصاحبة ، كما تقول : جاء بأسياده وأولاده . فقد أنزله متضمناً لعلمه ، مستصحبا لعلمه . فما فيه من الخبر هو خبر بعلم الله ، وما فيه من الامر فهو أمر بعلم الله ، بخلاف الكلام المنزل من عند غير الله . فان ذلك قد يكون كذبا وظلما كقرآن مسيلمة ، وقد يكون صدقاً لكن انما فيه علم المخلوق الذي قاله فقط ، لم يدل على علم الله تعالى الا من جهة اللزوم . وهو أن الحق يعلمه الله .

وأما القرآن فهو متضمن لعلم الله ابتداء . فانما أنزل بعلمه لا بعلم غيره ، ولا هو كلام بلا علم .

واذا كان قد أنزل بعلمه فهو يقتضي أنه حق من الله ، ويقتضي ان الرسول رسول من الله ـ الذي بين فيه علمه . قال الزجاج : « الشاهد » المبين لما شهد به ، والله يبين ذلك ويعلم مع ذلك انه حق .

(قلت) : قوله : ﴿ لكن اللهُ يشهدُ ﴾ ، شهادته هو بيانه واظهاره ـ دلالته واخباره . فالآيات البينات التي بين بها صدق الرسول (تدل)[٢] عليه ـ ومنها القرآن ـ هو شهادة بالقول .

وهو في نفسه آية ومعجزة تدل على الصدق كما تدل سائر الآيات . والآيات كلها شهادة من الله ، كشهادة بالقول ، وقد تكون أبلغ .

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير تحت آية النساء . وأبو عبد الرحمن هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة بالتصغير أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي المقرىء مشهور بكنيته ، ولابيه صحبة ، تابعي ثقة ثبت . قرأ القرآن على عثمان بن عفان وابن مسعود وسمع من جماعة من الصحابة وغيرهم ، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة من خلافة عثمان الى امرة الحجاج ، قرأ عليه عاصم بن أبي النجود وخلق غيره ، توفي بالكوفة سنة ٧٤ هـ على الارجح .

(٢) تكلم العلامة ابن القيم رحمه الله على شهادة الله تعالى كلاماً مستفيضاً مشبعاً تحت آية ﴿ شهد الله انه لا اله الا هو والملئكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ ـ في مدارج السالكين ، ج ٣ : ص ٢٩٠ ـ ٣٠٧ .

ولهذا ذكر هذا في سورة هود لما تحداهم بالاتيان بالمثل فقال : ﴿ فأتور بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو ، فهل أنتم مسلمون ﴾ . فان عجز أولئك عن المعارضة دل على عجز غيرهم بطريق الاولى ، وتبين ان جميع الخلق عاجزون عن معارضه ، وأنه آية تدل على الرسالة وعلى التوحيد .

وكذلك قوله : ﴿ لكن اللهُ يشهدُ بِمَا أُنْزِلَ اليكَ ﴾ !

قوله : ﴿ إنَّا أوحينَا إليكَ ـ الى قوله ـ لئلا يكونَ للنَّاسِ علىٰ اللهِ حجةٌ بعدَ الرّسلِ ﴾ ـ (النساء ٤ : ١٦٣ ـ ١٦٥) . وقد ذكروا أن من الكفار من قال : لا نشهد لمحمد بالرسالة ، فقال تعالى : ﴿ لكنِ اللهُ يشهدُ بما أَنْزَلَ إليكَ ﴾ .

وأحسن من هذا أنه لما قال : ﴿ لئلا يكونَ للنَّاسِ علىٰ اللهِ حجةٌ بعدَ الرّسلِ ﴾ ـ نفي حجة الخلق على الخالق ـ فقال : لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة ، فانه يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه . فما للخلق على الله حجة ، بل له الحجة البالغة . وهو الذي هدى عباده بما أنزله .

وعلى ما تقدم فقوله : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ ، أي فيه علمه بما كان وسيكون وما أخبر به ، هو أيضاً مما يدل على أنه حق . فانه اذا أخبر بالغيب الذي لا يعلمه الا الله دل على أن الله أخبره به ، كقوله : ﴿ عالم الغيبِ فلا يُظهِر علىٰ غيبهِ أحداً * إلاَّ مَنْ ارتضىٰ من رسولٍ ـ الآية ﴾ ـ (الجن ٧٢ : ٢٦ ، ٢٧) .

وقد قيل : أنزله وهو عالم به وبك . قال ابن جرير الطبري في آية النساء : أنزله اليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه.

وذكر الزجاج في آية هود قولين . أحدهما : أنزله وهو عالم بانزاله ، وعالم أنه حق من عنده . والثاني : أنه أنزله بما أخبر فيه من الغيوب ، ودل على ما سيكون وما سلف .

(قلت) : هذا الوجه هو الذي تقدم .

وأما الاول فهو من جنس قول ابن جرير . فانه عالم به وبمن أنزل اليه . وعالم بأنه حق ، وآن الذي أنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له . ويكون هذا كقوله : ﴿ ولقد اخترناهُمْ علىٰ علمٍ علىٰ العالمينَ ﴾ ـ (الدخان ٤٤ : ٣٢) . وقول من قال : ﴿ انَّمَا أوتيتهُ علىٰ علمٍ ﴾ ـ (الزمر ٣٩ : ٤٩) ، أي علم علم من الله باستحقاقي .

(قلت) وهذا الوجه يدخل في معنى الاول[1] فانه اذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه ، وفيه الاخبار بحاله وحال الرسول . وهذا الوجه[2] هو الصواب ، وعليه الاكثرون ، ومنهم من لم يذكر غيره .

والاول[3] وان كان معناه صحيحاً فهو جزء من هذا الوجه .

وأما كون الثاني هو المراد بالآية فغلط ، لان كون الرب سبحانه يعلم الشيء لا يدل على أنه محمود ولا مذموم . وهو سبحانه بكل شيء عليم . فلا يقول أحد انه انزله وهو لا يعلمه .

لكن قد يظن أنه أنزل بغير علمه ، اي وليس فيه علمه ، وانه من تنزيل الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ هل انبئكُمْ علىٰ مَنْ تنَزلُ الشياطينُ * تنَزلُ على كلِ أفَّاكٍ أثيمٍ ﴾ - (الشعراء ٢٦ : ٢٢١ ، ٢٢٢) . والشياطين ، هو يرسلهم وينزلهم ، لكن الكلام الذي يأتون به ليس منزلا منه ، ولا هو منزل بعلم الله ، بل منزل بما تقوله الشياطين من كذب وغيره .

ولهذا هو سبحانه اذا ذكر نزول القرآن قيده بأن نزوله منه ، كقوله : ﴿ تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ ﴾ - (الزمر ٣٩ : ١) ، ﴿ والَّذينَ آتيناهُمْ الكتابَ يعلمونَ أنَّهُ مِنْ ربِّكَ بالحِقّ ﴾ - (الانعام ٦ : ١١٤) ، ﴿ قل نزَّلهُ روحُ القدسِ مِنْ ربِّكَ بالحقِّ ﴾ - (النحل ١٦ : ١٠٢) .

وهذا هو مما استدل به الامام أحمد وغيره من أئمة السنة على أن القرآن كلام الله - ليس بمخلوق خلقه في محل غيره ، فانه كان يكون منزلاً من ذلك المحل لا من الله . وقال انه نزل بعلم الله ، وانه من علم الله ، غير مخلوق .

وقال أحمد : كلام الله من الله ليس بائناً[4] منه . ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود . فقالوا : منه بدأ لم يبدأ من غيره ، كما تقول الجهمية . يقولون : بدأ من المحل الذي خلق فيه . وهذا مبسوط في مواضع .

ووالمقصود انه اذا كان فيه علمه فهو حق ، والكلام الذي يعارضه به خلاف علم الله

---

(١) اي قول الزجاج الاول بانه أنزله وهو عالم بانزاله وانه حق يدخل في معنى القول الاول في آية النساء بأنه أنزله وفيه علمه بالغيب .

(٢) أي كونه انزله وفيه علمه بالغيب .

(٣) اي الاول من قولي الزجاج .

(٤) في الاصل ما صورته سا . وفي طبعة الهند والسعودية شتان .

فهو باطل ، كالشرك الذي قاله الله تعالى فيه : ﴿ ويعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يضرُّهُمْ ولا ينفعهُمْ ويقولونَ هؤلاءِ شفعاؤُنا عندَ اللهِ ، قُلْ أتنبئُونَ اللهَ بِمَا لا يعلمُ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ ، سبحانَهُ وتعالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ - (يونس ١٠ : ١٨) .

(١٩) فصـــل

(الكتاب والسنة هما المرجع في أصول الدين وفروعه)

وهذا الذي ذكرته من أنه يجب الرجوع في أصول الدين الى الكتاب والسنة ، كما بينته من أن الكتاب بين الادلة العقلية التي بها تعرف المطالب الالهية ، وبين ما يدل على صدق الرسول في كل ما يقوله هو - يظهر الحق بأدلته السمعية والعقلية .

وبين أن لفظ « العقل والسمع » قد صار لفظاً مجملاً . فكل من وضع شيئاً برأيه سماه « عقليات » ، والآخر يبين خطأه فيما قالوه ويدعى العقل أيضاً ، ويذكر أشياء آخر أيضاً خطأ ، كما قد بسط في مواضع .

وهو نظير من يحتج في السمع بأحاديث ضعيفة او موضوعة ، أو نصوص ثابتة لكن لا تدل على مطلوبه .

وكثير من أهل الكلام يجعل دلالة القرآن والأحاديث من جهة الخبر المجرد . ومعلوم ان ذلك لا يوجب العلم الا بعد العلم بصدق المخبر . فلهذا يضطرون الى ان يجعلوا العلوم العقلية أصلاً ، كما يفعل أبو المعالي ، وأبو حامد ، والرازي ، وغيرهم .

وأئمة المتكلمين يعترفون بأن القرآن بين الادلة العقلية ، كما يذكر ذلك الاشعري وغيره، وعبد الجبار بن أحمد وغيره من المعتزلة .

ثم هؤلاء قد يذكرون أدلة يجعلونها أدلة القرآن ولا تكون هي اياها ، كما فعل الاشعري في « اللمع » وغيره ، حيث احتج بخلق الانسان ، وذكر قوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنونَ * أأنتم تخلقونَهُ أم نَحْنُ الخَالقونَ ﴾ - (الواقعة ٥٦ : ٥٨ - ٥٩) . لكن هو ظن ان النطفة فيها جواهر باقية ، وان نقلها في الاعراض يدل على حدوثها . فاستدل على حدوث جواهر النطفة .

وليست هذه طريقة القرآن ، ولا جمهور العقلاء . بل يعرفون ان النطفة حادثة بعد أن لم تكن ، مستحيلة عن دم الانسان ، وهي مستحيلة الى المضغة ، وان الله يخلق هذا

الجوهر الثاني من المادة الاولى بالاستحالة وبعدم المادة الاولى ـ لا تبقى جواهرها بأعيانها دائماً ، كما تقدم .

فالنظار في القرآن ثلاث درجات . منهم من يعرض دلائله العقلية ، ومنهم من يقر بها لكن يغلط في فهمها ، ومنهم من يعرفها على وجهها ، كما أنهم ثلاث طبقات في دلالته الخبرية . منهم من يقول : لم يدل على الصفات الخبرية ، ومنهم من يستدل به على غير ما دل عليه ، ومنهم من يستدل به على ما دل عليه .

والأشعري وأماثله برزخ بين السلف والجهمية . أخذوا من هؤلاء كلاماً صحيحاً ومن هؤلاء أصولاً عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة . فمن الناس من مال اليه من الجهة السلفية ، ومن الناس من مال اليه من الجهة البدعية الجهمية ، كأبي المعالي وأتباعه . ومنهم من سلك مسلكهم كأئمة اصحابهم ، كما قد بسط في مواضع .

واذا المقصود هنا أن جعل القرآن اماماً يؤتم به في أصول الدين وفروعه هو دين الاسلام ، وهو طريقة الصحابة ، والتابعين لهم باحسان ، وأئمة المسلمين . فلم يكن هؤلاء يقبلون من أحد قط ان يعارض القرآن بمعقول او رأى يقدمه على القرآن . ولكن اذا عرض للانسان اشكال سأل حتى يتبين له الصواب .

ولهذا صنف الامام أحمد كتاباً في « الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله » .

ولهذا كان الائمة الاربعة وغيرهم يرجعون في التوحيد والصفات الى القرآن والرسول ـ لا الى رأى أحد ، ولا معقولة ، ولا قياسه .

قال الاوزاعي : كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول : ان الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته .

وقال الامام أحمد بن حنبل : لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، لا نتجاوز القرآن والحديث .

وقال الشافعي في خطبة « الرسالة » : الحمد الذي هو كما وصف به نفسه فوق ما يصفه به خلقه .

وقال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكان يكره ما أحدث من الكلام . وروى عنه وعن أبي يوسف : من طلب الدين بالكلام تزندق .

وقال الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في الاسواق ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام . وقال : لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت اظنه ، ولان يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له (من)[1] ان يبتلى بالكلام .

وقد بسط تفسير كلامه وكلام غيره في مواضع ، وبين ان مرادهم بالكلام هو كلام الجهمية الذي نفوا به الصفات ، وزعموا أنهم يثبتون به حدوث العالم ، وهي طريقة الاعراض .

وقال أحمد أيضاً : علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى احد بالكلام فأفلح .

وكلام عبد العزيز به أبي سلمة الماجشون مبسوط في هذا .

وذكر أصحاب ابي حنيفة ، عن أبي يوسف ، عن أبي حنيفة قال : لا ينبغي لاحد أن ينطق في الله بشيء من رأيه ولكنه يصفه بما وصف به نفسه .

وقال أبو حنيفة : أتانا من خراسان ضيفان ضالان كلاهما[2] : الجهمية ، والمشبهة .

وعن أبي عصمة قال : سألت أبا حنيفة : من أهل الجماعة ؟ قال : من فضل أبا بكر وعمر ، وأحب عليا وعثمان ، ولم يحر نبيذ الجز ، ولم يكفر أحداً بذنب ، ورأى المسح على الخفين ، وآمن بالقدر خيره وشره من الله ، ولم ينطق في الله بشيء .

وروى خالد بن صبيح ، عن أبي حنيفة قال : الجماعة سبعة أشياء : أن يفضل أبا بكر وعمر ، وأن يحب عثمان وعلياً ، وان يصلي على من مات من أهل القبلة بذنب ، وأن لا ينطق في الله شيئاً .

(قلت) : قوله في هاتين الروايتين « لا ينطق في الله شيئاً » قد بينه في رواية أبي يوسف ، وهو « أن لا ينطق في الله بشيء من رأيه ولكنه يصفه بما وصفه به نفسه » .

فهذا ذم من الأئمة كل من تكلم في صفات الرب بغير ما أخبر به الرسول . فكيف بالذين يجعلون الكتاب والسنة لا يفيد علماً ، ويقدمون رأيهم على ذلك ، مع فساده من وجوه كثيرة ؟

وروى هشام ، عن محمد ، عن أبي حنيفة وأبي يوسف ، وهو قول محمد ، قالوا :

---

(١) سقط من الاصل .

(٢) في الاصل « كلاهما ضالان كلاهما » بتكرار كلاهما واحداهما زائدة . والمراد بها جهم بن صفوان ومقاتل بن سليمان . قال الذهبي « قال ابو حنيفة : افرط جهم في نفي التشبيه حتى قال : « انه تعالى ليس بشيء » ، وافرط مقاتل في معنى الاثبات حتى جعله مثل خلقه ـ اهـ .

السنة التي عليها أمر الناس أن لا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ويخرج من الاسلام ، ولا يشك في الدين ـ يقول الرجل : لا أدري أؤمن أنا او كافر ، ولا يقول بالقدر ، ولا يخرج على المسلمين بالسيف ، ويقدم من يقدم من أصحاب النبي ﷺ ويفضل من فضل .

وذكروا عن أبي يوسف انه قال : مذهب أهل الجماعة عندنا ، وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه ممن لم يأخذ من البدع والاهواء ، أن لا يشتم أحداً من اصحاب رسول الله ﷺ ، ولا يذكر فيهم عيباً ، ولا يذكر ما شجر بينهم فيحرف القلوب عنهم ، وان لا يشك بأنهم مؤمنون ، ولا يخرجه من الايمان بمعصية ان كانت فيه ، ولا يقول بقول اهل القدر ، ولا يخاصم في الدين ، فانها من اعظم البدع .

فهذا قول أهل السنة والجماعة . ولا ينبغي لأحد ان يقول في هذا : كيف ولم ؟ ولا ينبغي أن يخبر السائل عن هذا الا بالنهي له عن المسألة . وترك المجالسة والمشي معه ان عاد . ولا ينبغي لأحد من أهل السنة والجماعة ان يخالط احداً من أهل الاهواء حتى يصاحبه ويكون خاصته ، مخالفة ان يستزله او يستزل غيره بصحبة هذا .

قال : والخصومة في الدين بدعة ، وما ينقص أهل الاهواء بعضهم على بعض بدعة محدثة . ولو عليها أقوى ولها أبصر . وقال الله تعالى : ﴿ فان حاجُّوكَ فَقُلْ أسلمتُ وجهي للهِ وَمَنْ اتبَّعنِ ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ٢٠) ، ولم يأمره بالجدل . ولو شاء لانزل حججاً وقال له : قل كذا وكذا .

وقال أبو يوسف : دعوا قول أصحاب الخصومات وأهل البدع في الاهواء من المرجئة ، والرافضة ، والزيدية ، والمشبهة ، والشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمعتزلة ، والجهمية .

قالوا : وروى عن محمد قال : ابو بكر وعمر أفضل من علي .

(قلت) ما ذكر أبو يوسف في أمر الجدال هو يشبه كلام كثير من أئمة السنة . يشبه كلام الامام احمد وغيره . وفي بسط وتفصيل ليس هذا موضعه .

ولهذا كان بشير بن الوليد صاحب أبي يوسف يحب احمد ، ويميل اليه . فان أبا يوسف كان أميل الى الحديث من غيره ، والله أعلم وأحكم .

انتهى ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية من الكلام على تفسير
سورة العلق ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته
على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

انتهى الجزء الخامس بعون الله
ويليه الجزء السادس وأوله سورة البينة

الجزء السادس



(تفسير سورة البينة)

قال الامام أبو العباس شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم تقي الدين ابن تيمية الحراني - قدس الله روحه .

(١) فصـــــل
في قولـه
(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة)

فان هذه السورة سورة جليلة القدر ، وقد ورد فيها فضائل ، وقد ثبت في الصحيح ان الله أمر نبيه أن يقرأها على أبي بن كعب . ففي الصحيحين عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال لأبي : « ان الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن » قال : الله سماني لك ؟ قال : « الله سماك لي » قال : فجعل أبي يبكي . وفي رواية أخرى : « ان الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الَّذينَ كفرُوا ﴾ ، قال : سماني لك ؟ قال : « نعم » فبكى » وفي رواية للبخاري : وذكرت عند رب العالمين ؟ قال : « نعم » . فذرفت عيناه . قال قتادة : انبئت أنه قرأ عليه ﴿ لم يكن الَّذينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ ﴾ .

وتخصيص هذه السورة يقرأ بها على أبي يقتضي اختصاصها وامتيازها!!! بما اقتضى ذلك.

---

(١) طبعت بالهند ، السعودية وقابلناهما على الاصل ماخطوط بدار الكتب المصرية مع تعليقات طبعة الهند .

(٢) قال القرطبي : خص هذه السورة بالذكر لما اشتملت عليه من التوحيد ، والرسالة ، والاخلاص ، والصحف والكتب المنزلية على انبياء ، وذكر الصلوة ، والزكوة ، والمعاد وبيان أهل الجنة والنار ، مع وجازتها - أهـ . قال الحافظ في « الفتح » .

وقوله : « أن أقرأ عليك » ، أي قراءة تبليغ واسماع وتلقين ، ليس هي قراءة تلقين وتصحيح كما يقرأ المتعلم على المعلم . فان هذا قد ظنه بعضهم ، وجعلوا هذا من باب التواضع . وجعل ابو حامد هذا مما يستدل به على تواضع المتعلم ، وليس هذا بشيء . فان هذه القراءة كان يقرأها على جبريل يعرض عليه القرآن كل عام ، فانه هو الذي نزل عليه القرآن .

وأما الناس فمنه تعلموه ، فكيف يصحح قراءته على أحد منهم ، أو يقرأ كما يقرأ المتعلم ؟

ولكن قراءته ، على أبي بن كعب كما كان يقرأ القرآن على الأنس والجن . فقد قرأ على الجن القرآن . وكان اذا خرج الى الناس يدعوهم الى الاسلام . ويقرأ عليهم القرآن . ويقرأه على الناس في الصلوة وغير الصلوة .

قال تعالى : ﴿ فما لهم لا يؤمنونَ واذا قُرِئَ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ - (الانشقاق ٨٤ : ٢٠ ، ٢١) ، وقال تعالى : ﴿ واذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ - (مريم ١٩ : ٥٨) ، وقال تعالى : ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنينَ اذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتِهِ ﴾ - ﴿ آل عمران ٢٣ : ١٦٤) . وذكر مثل هذا في غير موضع . فهو يتلوا على المؤمنين آيات الله .

وأبي بن كعب أمر بتخصيصه بالتلاوة عليه لفيضلة أبي واختصاصه بعلم القرآن ، كما ثبت في الصحاح عن عمر انه قال : أبي اقرأنا ، وعلى أقضانا [1] .

وفي الصحيح أنه قال لابن مسعود : « اقرأ على القرآن » . قال : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « اني احب أن أسمعه من غيري » . فقراءة ابن مسعود عليه في هذا الموضع لاسماعه اياه ، لا لأجل التصحيح والتلقين .

وفي معنى قوله تعالى : لم يكن هؤلاء وهؤلاء ﴿ منفكين ﴾ ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد لم يكونوا منفكين عن الكفر :

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره ان قراءتها على أبي كانت قراءة ابلاغ وتثبيت وإنذار لما اصابه من الشك والكذيب لتصويبه ﷺ قراءة الرجلين لكونه انزل على سبعة أحرف ، كما رواه مسلم وغيره . وليس كذلك ، بل كانت نزعة من الشيطان غير مستقرة ثم زالت في الحال حين ضرب النبي ﷺ بيده في صدره ففاض عرقاً . وانما قرأه عليه لفضيلته واختصاصه بعلم القرآن كما قرر المصنف ، ولهذا أورده البخاري في مناقبة، وهذه غير تلك الواقعة ، ونقل الحافظ بن حجر قول ابي عبيد : المراد بالعرض على ابي ليتعلم أبي منه القراءة ويتثبت فيها ، وليكون عرض القرآن سنة ، وللتنبيه على فضيلة ابي بن كعب وتقدمه في حفظ القرآن وليس المراد ان يستذكر منه النبي ﷺ شيئاً بذلك العرض - أ هـ .

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث ، فلم يكونوا منفكين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث :

أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل اليهم رسول .

وممن ذكر هذا ابو الفرج بن الجوزي . قال : ﴿ لم يكن الَّذينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ ﴾ يعني اليهود والنصارى (والمشركين) وهم عبدة الأوثان (منفكين) أي منفصلين وزائلين . يقال : فككت الشيء فانفك ، أي انفصل . والمعنى : لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم حتى أتتهم البينة . لفظة لفظ المستقبل ومعناه الماضي . والبينة الرسول ، وهو محمد ﷺ بين [1] لهم ضلالهم وجهلهم . وهذا بيان عن نعمة الله على آمن من الفريقين اذ أنقذهم به .

ولفظ البغوي نحو هذا . قال : لم يكونوا منتهين عن كفرهم وشركهم . وقال أهل اللغة : « منفكين » منفصلين زائلين ، يقال : فككت الشيء فانفك ، أي انفصل . (حتى تأتيهم البينة) لفظة مستقبل ومعناه الماضي ، أي حتى أتتهم البينة ـ الحجة الواضحة ، يعني محمدا أتاهم بالقرآن . فبين لهم ضلالهم وجهالتهم . ودعاهم الى الايمان . فأنقذهم الله به من الجهل والضلالة .

ولم يذكر غير هذا .

قال ابو الفرج : وذهب بعض المفسرين الى أن معنى الآية : لم يختلفوا أن الله يبعث [2] اليهم نبيا حتى بعث ، فافترقوا .

وقال بعضهم : لم يكونوا منفكين عن حجج الله حتى اقيمت عليه البينة .
قال : والوجه هو الأول .

وذكر الثلاثة أبو محمد بن عطية ، لكن الثالث وجهه وقواه ، ولم يحكه عن غيره . فقال : قوله (منفكين) أي منفصلين متفرقين ، تقول : انفك الشيء عن اشيء اذا انفصل عنه .

قال : و « ما انفك » التي هي من أخوات « كان » لا مدخل لها في هذه الآية فبين في هذه أن تكون هذه الصفة منفكة .

قال : واختلف الناس عما اذا ؟ فقال مجاهد وغيره : لم يكونوا منفكين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة . وأوقع المستقبل موقع الماضي في (تأتيهم) ، لأن بأس الشريعة وعظمها لم يجيء بعد .

---

(١) في الأصل « بين الله لهم » فجعل المبين هو الله ، والسياق يقتضي أنه محمد كما في لفظ البغوي الآتي .
(٢) في الأصل « لم يبعث » ولا يستقيم المعنى على هذه القراءة .

وقال الفراء وغيره : لم يكونوا منفكين عن معرفة نبوة محمد ﷺ والتوكد لأمره ، حتى جاءتهم البينة فتفرقوا عند ذلك .

قال : وذهب بعض النحويين الى أن هذا المنفى المتقدم مع « منفكين » يجعلها تلك هي مع « كان » ، ويروي التقدير في خبرها « عارفين أمر محمد » . أو نحو هذا [١] .

قال : وفي معنى الآية قول ثالث بارع المعنى . وذلك أن يكون المراد : لم يكونوا هؤلاء منفكين من أمر الله وقدرته ونظره لهم حتى يبعث اليهم رسولا منذرا تقوم علهم به الحجة وتتم على من آمن النعمة . فكأنه قال : ما كانوا يتركوا سدى . قال : ولهذا المعنى نظائر في كتاب الله .

وقد ذكر الثعلبي ثلاثة أقوال ، لكن الثالث حكاه عمن جعل مقصوده اهلاكهم باقامة الحجة وجعل « منفكين » بمعنى هالكين .

فقال : لم يكونوا منفكين منتهين عن كفرهم وشركهم . وقال أهل اللغة : زائلين تقول العرب : ما انفك فلان يفعل كذا ، أي ما زال . وأصل الفك : الفتح ، ومنه فك الكتاب ، وفك الخلخال . (حتى تأتيهم البينة) الحجة الواضحة ، وهو محمد أتاهم بالقرآن ، فبين ضلالهم وجهالتهم ، ودعاهم الى الايمان .

قال ، وقال ابن كيسان : معناه لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد في كتابهم حتى بعث ، فلما بعث تفرقوا فيه .

وقال : قال العلماء في أول السورة الى قوله : ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ : حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . (وما تفرق) : حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم .

قال ، وقال بعض أئمة اللغة : قوله : ﴿ منفكين ﴾ أي هالكين ، من قولهم : انفك صلا المرأة عند الولادة ، وهو أن ينفصل ولا يلتئم فتهلك ، ومعنى الآية : لم يكونوا هالكين مكذبين الا بعد اقامة الحجة عليهم بارسال الرسول وانزال الكتاب .

وقد ذكر البغوي هذا والأول . قال : والأول أصح .

(قلت) : القول الثاني الذي حكاه عن ابن كيسان هو قول الفراء . وقد قدمه المهدوي على الأول فقال : (منفكين) من « انفك الشيء من الشيء » اذا فارقه ، والمعنى لم يكونوا منفرقين الا اذا جاءهم الرسول لمقارقتهم ما كان عندهم من خبره وصفته ، وكفرهم بعد

---

(١) يريد كأنه قال : ما انفكوا عارفين أمر محمد ، فجعلها من أخوات « كان » .

البينات . قال : ولا يحتاج (منفكين) على هذا التأويل الى خبر . ويدل على ذلك قوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ .

قال ، وقال مجاهد : المعنى لم يكونوا منتهين عما هم عليه . وعن مجاهد أيضاً : لم يكونوا ليؤمنوا حتى تأتيهم البينة .

قال ، وقال الفراء : لم يكونوا تاركين ذكر ما عندهم من ذكر النبي حتى ظهر . فلما ظهر تفرقوا واختلفوا .

(قلت) : هذا المعنى هو الذي قدمه . لكن الفراء وابن كيسان جعل الانفكاك مفارقتهم وتركهم لذكره وخبره والبشارة به . أي لم يكونوا مفارقين تاركين لما علموه من خبره حتى ظهر ، فانفكوا حينئذ . وذاك يقول : لم يكونوا منفكين ، أي متفرقين ، الا اذا جاء الرسول ، لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره . وهو معنى ما حكاه أبو الفرج : لم يختلفوا أن الله يبعث اليهم نبياً حتى بعث ، فافترقوا .

فالانفكاك انفكاك بعضهم عن بعض ، أو انفكاكهم عما كان عندهم من علمه وخبره . وهذا القول ضعيف ـ لم يرد بهذه الآية قطعاً . فان الله لم يذكر أهل الكتاب . بل ذكر الكفار من المشركين وأهل الكتاب . ومعلوم أن المشركين لم يكونوا يعرفونه ويذكرونه ويجدونه في كتبهم ، كما كان ذلك عند أهل الكتاب ، ولا كانوا قبل مبعثه [1] على دين واحد ، متفقين عليه ، فلما جاء تفرقوا .

فيمتنع أن يقال : لم يكن المشركون تاركين لمعرفة محمد وذكره والايمان به . ولم يكونوا مختلفين في ذلك ، ولا متفرقين فيه حتى بعث . فهذا معنى باطل في المشركين .

ولم يستقيم هذا أيضاً من أهل الكتاب . فان الله انما ذكر الكفار منهم ، فقال : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ . ومعلوم أن الذين كانوا يعرفون نبوته ويقرون به ويذكرونه قبل أن يبعث لم يكونوا كلهم كفارا ، بل كان الايمان أغلب عليهم .

يبين هذا أنه اذا ذكر تفرق الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءتهم البينة ، فانه يعمهم فيقول : ﴿ وما تَفَرَّقَ الَّذين أُوتوا الكتابَ إلَّا مِنْ بعدِ ما جاءتهم البيِّنة ﴾ . انه لا يقول : كان الكفار من أهل الكتاب متفقين على الحق حتى جاءتهم البينة .

وأيضاً فاستعمال لفظ « الانفكاك » في هذا غير معروف ، لا يعرف في اللغة له شاهد . فتسمية الافتراق والاختلاف « انفكاكا » غير معروف .

---

(١) في الأصل « مبعثهم » وهو خطأ .

وأيضاً فهو لم يذكر (لـ) [1] (منفكين) خبرا كما يقال : مانفكوا يذكرون محمدا ، وما زالوا يؤمنون به ، ونحو ذلك . وهذه التي هي من أخوات « كان » لا يقال فيها « ما كنت منفكا » ، بل يقال « ما انفككت أفعل كذا » ، فهو يلي حرف « ما » .

وأيضاً فليس في اللفظ ما يدل على أن الانفكاك عن أمر محمد خاصة . وأيضاً فهذا المعنى مذكور في قوله : ﴿ وما تفرَّقَ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ إلَّا من بعد ما جاءتهم البيّنة ﴾ . فلو أريد بهذه لكان تكريراً محضاً .

والقول الأول : أشهر عند المفسرين . ومنهم من لم يذكر غيره ، كالبغوي وغيره . فانه معروف عن مجاهد ، والربيع بن أنس ، كما في التفسير المعروف عن ابن نجيح ، عن مجاهد : (منفكين) قال : منافقين [2] لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق . وقال الربيع بن أنس : لم يزالوا مقيمين على الشك والريبة حتى جاءتهم البينة والرسل .

وهذا القول يتضمن مدحهم والثناء عليهم بعد مجيء البينة . ولهذا احتاج من قاله الى ان يقول : هذا فيمن امن من الفريقين في أنه بيان لنعمة الله عليهم . وجعلوا قوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ فيمن لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ .

وهذا أيضاً ضعيف . فان أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل ارسال محمد اليهم كما أخبر الله بذلك في غير موضع . فقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيلَ الكتابَ والحكمَ والنبوةَ ورزقناهم من الطّيباتِ وفضلناهم على العالمينَ * وآتيناهم بيناتٍ منَ الأمرِ ، فما اختلفُوا إلَّا من بعدِ ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم ، ان ربَّكَ يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانُوا فيه يختلفون ﴾ - (الجاثية ٤٥ : ١٦ ، ١٧) ، وقال : ﴿ ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمرِ فاتبعها ولا تتبع أهواءَ الَّذين لا يعلمون ﴾ - (الجاثية ٤٥ : ١٨) . وقال تعالى : ﴿ كَانَ الناسُ أمةً فيما اختلفُوا فيهِ ﴾ ، ثم قال : ﴿وما اختلفَ فيهِ إلَّا الَّذينَ أُوتُوه من بعدِ ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدىٰ اللهُ الَّذينَ آمنُوا لما اختلفوا فيهِ من الحقِّ باذنهِ ، واللهُ يهدي مَنْ يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ ﴾ - (البقرة : ٢ : ٢١٣) .

فأخبر أن الله هدى المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق باذنه . فكان الاختلاف قبل وجود أمة محمد ﷺ .

---

(١) سقط في الأصل .

(٢) كذا بالأصل . وفي تفسير ابن جرير « قال لم يكونوا لينتهوا حتى يتبين لهم الحق » بغير لفظ « منافقين » وليس له وجه » .

وقال تعالى : ﴿ إنَّما جعلَ السبتَ علىٰ الَّذينَ اختلفُوا فيهِ ، وانَّ ربَّكَ ليحكم بينهم يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيهِ يختلفون ﴾ ـ (النحل ١٦ : ١٢٤) . وقال تعالى : ﴿ ولقد بوأنا بني اسرائيلَ مُبوأ صدقٍ ورزقناهم من الطيباتِ فما اختلفُوا حتى جاءَهُم العلمُ ، ان ربّكَ يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيه يختلفون ﴾ ـ (يونس ١٠ : ٩٣) ، ثم قال تعالى : ﴿ فان كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا اليكَ فسئل الَّذينَ يقرأُونَ الكتابَ من قبلكَ ، لقد جاءَكَ الحقُّ من ربّكَ فلا تكوننَّ من الممترينَ ﴾ ـ (يونس ١٠ : ٩٤) .

وقال تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذابٌ أليم * وما أنزلنَا عليكَ الكتابَ إلَّا لتبيّنَ لهم الَّذي اختلفُوا فيهِ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ ﴾ ـ (النحل : ١٦ : ٦٣ ، ٦٤) . فقد أخبر تعالى أنه أرسل الى أمم من قبل محمد ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، وهو حين يبعث محمد وليهم ، وأنه أنزل اليهم الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ هذَا القرآنَ يقصّ علىٰ بني اسرائيلَ أكثر الَّذي هُم فيهِ يختلفونَ * وانه لهدىً ورحمةً للمؤمنينَ ﴾ ـ (النمل ٢٧ : ٧٦ ، ٧٧) . وقال لأمة محمد ﴿ ولا تكونُوا كالَّذينَ تفرَّقُوا واختلفُوا من بعدِ ما جاءهم البينات ، وأولئكَ لهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ ـ (آل عمران : ٣ : ١٠٥) . فهذا بين أنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد ، وقد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم .

وقد قال تعالى : ﴿ ومن الَّذينَ قالُوا إنَّا نصارىٰ أخذنَا ميثاقهم فنسُوا حظاً ممّا ذكّروا بهِ ، فأغوينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ الى يوم القيامةِ ﴾ ـ (المائدة ٥ : ١٤) . وقال عن اليهود (وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ الىٰ يومِ القيامةِ ﴾ ـ (المائدة ٥ : ٦٤) . وقال : ﴿ وقطعناهم في الأرضِ أمماً منهم الصَّالحونَ ومنهم دونَ ذلكَ ﴾ ـ (الأعراف ٧ : ١٦٨) .

وقد جاءت الاحاديث في السنن والمسند من وجوه عن النبي ﷺ أنه قال : تفرقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة » . وان كان بعض الناس ـ كابن حزم ـ يضعف هذه الاحاديث ، فأكثر أهل العلم قبلوها وصدقوها .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم

بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فـاذا نهيتـكم عن شيء فاجتنبـوه ، واذا أمرتكم بـأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وفي الصحيحين عنه أنه قال : « نحن الآخـرون السابقـون يوم القيـامة ، بيـد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم . فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، فهدانـا الله له . النـاس لنا فيه تبع ـ غدا لليهود ، وبعد غد للنصارى » .

وهذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب اختلفوا وتفرقوا قبل ارسـال محمد ﷺ . بـل اليهود افترقوا قبل مجيء المسيح ، ثم لما جاء المسيح اختلفوا فيه . ثم اختلف النصارى اختلافاً آخر .

فكيف يقال ان قوله : ﴿ وما تفرَّقَ الَّذينَ أُوتـوا الكتابَ إلَّا من بعـد ما جـاءتهم البينة ﴾ هو فيمن لم يؤمن بمحمد منهم ؟

وَأيضاً فالذين كفروا بمحمد كفار ، وهم المذكورون في قوله : ﴿ لم يكن الَّذينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشـركينَ منفكّـينَ حتى تأتيهم البيّنـة ﴾ . وهم تفرقـوا واختلفوا فيـما جاءت بـه الأنبياء قبل محمد . وكفر من كفر منهم قبل ارسال محمد .

وكان منهم من لم يكفر ، بل كان مؤمناً بالأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿ ومن قـومِ موسىٰ أمة يهدونَ بالحقِّ وبهِ يعـدِلُونَ ﴾ ـ (الاعـراف ٧ : ١٥٩) . ﴿ وقطَّعنـاهم في الأرضِ أمماً منهم الصَّـالحـونَ ومنهم دونَ ذلـكَ ﴾ ـ (الأعـراف ٧ : ١٦٨) . وقـال تعـالى : ﴿ ليســوا سواء ، من أهل الكتابِ أمة قائمة يتلونَ آيـاتِ الله آناء الليـلِ وهم يسجدون * يؤمنـون بالله واليوم الآخر ويأمرونَ بـالمعروفِ وينهـونَ عن المنكر ويسـارعونَ في الخيـراتِ ، وأولئكَ من الصـالحين ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ١١٣ ، ١١٤) . وقـال تعالى : ﴿ ولـو أنهم أقامـوا التـوراةَ والانجيلَ وما أُنزل اليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحتِ أرجلهم ، منهـم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساءَ ما يعملون ﴾ ـ (المائدة ٥ : ٦٦) .

وفي صحيح مسلم وغيره عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنـه قال : « ان الله نـظر الى أهل الأرض فمقتهم ـ عربهم وعجمهم ـ الا بقايا من أهـل الكتاب ، وان ربي قـال لي : قم في قريش فأنـذرهم ، فقلت : أي ربي ! اذا يثلغوا رأسي حتى يـدعوه خبـزة . قال : اني مبتليـك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاناً . فابعث جندا نبعث مثليهم ، وقاتل بمن اطاعكَ من عصاك » ، والحديث أطول من هذا[1] .

---

(١) هو قطعة من حديث الفرد باخراجه من الجماعة رواه مسلم ، فأخرجه في كتاب الجنة ، باب الصفـات التي يعرف بهـا في الدنيـا أهل الجنة وأهل النار ، أوله : عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « ألا ان ربي أمـرني أن أعلمكم ما جهلتم . . » الحديث بطوله .

والمقصود هنا الكلام على الآية ، فنقول : القول الثالث و [1] هو أصح الاقوال لفظاً ومعنى .

أما من جهة للفظ ودلالته وبيانه ، فان هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الانسان ـ يعني اختياره ـ ويقهر عليه اذا تخلص منه . يقال : انفك منه ، كالأسير والرقيق المقهور بالرق والأسر . يقال : فككت الأسير فانفك ، وفككت الرقبة . قال تعالى : ﴿ وَمَا أدراكَ مالعقبة * فَكُّ رقبة ﴾ ـ (البلد ٩٠ : ١٢ ، ١٣) .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري : عودوا المريض ، وأطعموا الجائع . وفكوا العاني » . وفي الصحيح أيضاً أن علياً لما سئل عما في الصحيفة فقال : فيها العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

ففكه : فصله عمن يقهره ويستولي عليه بغير اختياره ، والتفريق بينهما .

ويقال : فلان ما يفك فلانا حتى يوقعه في كذا وكذا ، والمتولي لا يفك هذا حتى يفعل كذا ـ يقال لمن لزم واستولى عليه اما بقدرة وقهر ، واما بتحسين وتزيين وأسباب ، حتى يصيريها مطيعاً له .

ويقال للمستولي عليه : هو ما ينفك من هذا ، كما لاينفك الأسير والرقي من المستولى عليه .

فقوله : ﴿ لم يكن الَّذينَ كَفَرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ منفكّينَ ﴾ ، أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم ـ يفعلون ما يهوونه ، لا حجر عليهم ، كما أن المنفك لا حجر عليه ، وهو لم يقل « مفكوكين » ، بل قال (منفكين) . وهذا أحسن ، فانه نفي لفعلهم ، ولو قال « مفكوكين » كان التقدير : لم يكونوا مسببين مخلين ، فهو نفي لفعل غيرهم ، والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين ـ لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا ترسل اليهم رسل ، بلى يفعلون ما شاؤا مما تهواه الأنفس .

والمعنى أن الله ما يخليهم ولا يتركهم . فهو لا يفكهم حتى يبعث اليهم رسولا . وهذا كقوله : ﴿ أيحسبُ الانسان أن يُترَكَ سُدَى ﴾ ـ (القيامة ٥٧ : ٢٦) ، لا يؤمر ولا ينهى . أي أيظن أن هذا يكون ؟ هذا ما لا يكون البتة ، بل لا بد أن يؤمر وينهي .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿ انا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلونَ * وانَّهُ في أمّ ِالكتابِ لدينا لعلي حكيم * أفنضرب عنكم الذِكرَ صفحاً ان كنتم قوماً مُسْرِفينَ ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٣ ـ ٥) . وهذا استفهام انكار ، اي لأجل اسرافكم نترك انزال الذكر ، ونعرض عن ارسال الرسل ، ومن كره ارسالهم ؟

---

(١) كذا في الأصل بزيادة الواو ، ولعلها من تصرف الناسخ ، فان أقرت فيقال : « فنقول بالقول الثالث وهو أصح الاقوال . الخ » .

فان الأول تكذيب بوجودهم ، والثاني يتضمن بغضهم وكراهة ما جاؤا به ، قال تعالى : ﴿ ذلكَ بأنَّهم كرهُوا ما أنزلَ اللهُ فأحبطَ أعمالَهُمْ ﴾ - (القتال ٤٧ : ٩) ، قال عن مؤمن آل فرعون ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيناتِ فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به ، حتى اذا هلكَ قلتم لن يبعثَ الله من بعدِه رسولاً ، كذلك يضل الله من هُوَ مسرفٌ مرتاب ﴾ [1] - (المؤمن ٤٠ : ٣٤) .

وأما من كذب بهم بعد الارسال فكفره ظاهر . ولكن من ظن أن الله لا يرسل اليه رسولا ، وأنه يترك سدى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، فهذا أيضاً مما ذمه الله ، اذ كان لا بد من ارسال الرسل وانزال الكتب ، كما أنه أيضاً لا بد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة .

ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون ، فقال تعالى : ﴿ ما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً ، ذلكَ ظن الَّذينَ كفرُوا ، فويلٌ للذينَ كفروا من النارِ * أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدينَ في الأرضِ ، أن نجعل المتقينَ كالفُجَّار ﴾ - (ص ٣٨ : ٢٧ ، ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثاً وأنكم الينَا لا ترجعون ﴾ - (المؤمنون ٢٣ : ١١٥) ، وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما بالحقّ ، وان الساعة لآتية فاصفح الصفحَ الجميلَ * ان ربَّك هو الخلاّقُ العليمُ ﴾ - الحجر ١٥ : ٨٥ ، ٨٦) ، وقال : ﴿ وخلقَ الله السموات والأرض بالحقِّ ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون ﴾ - (الجاثية ٤٥ : ٢٢) .

وقال عن أولى الألباب : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلقِ السمواتِ والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك فقِنَا عذابَ النَّار ﴾ - (آل عمران ٣ : ١٩١) ، ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي ، والثواب ، والعقاب ، والمعاد ، مما لا بد منه ، وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون . وهو يقتضي وجوب [2] وقوع ذلك ، وأنه يمتنع أنه لا يقع .

وهذا متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسل من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر ، فان الله أخبر بذلك ، وخبره صدق ، فلا بد من وقوع مخبرة ، وهو واجب

---

(١) في الأصل « ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ . وهو تمام الآية التالية ، » أي آية ٣٥ .

(٢) في الأصل « وجود » والظاهر أنه تصحيف من « وجوب » .

بحكم وعده وخبره . فانه اذا علم [1] أن ذلك سيكون ، وأخبر أنه سيكون ، فلا بد أن يكون . فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه ، وأخبر به ، وكتبه ، وقدره .

وأيضاً فانه قد شاء ذلك ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا بد أن يقع كل ما شاءه .

لكن هل يقال : ان المشيئة موجبة ، فيه نزاع . وكذلك يقال : ان ذلك وجب لايجابه له على نفسه ، أو لاقتضاء حكمته ذلك ، فيه أيضاً نزاع .

وما أقسم ليفعلنه فلا بد أن يقع والقسم متضمن معنى الخبر ، ومعنى الحض والطلب . لكن في ثبوت الثاني في حق الله نزاع بين الناس . كقوله : ﴿ لأملئنَّ جهنم منكَ وممن تبعكَ منهم أجمعين ﴾ - (ص ٣٨ : ٨٥) ، وقوله : ﴿ وإذْ تأذن ربك ليبعثنَّ عليهم الى يومِ القيامةِ من يسومهم سوءَ العذابِ ﴾ - (الاعراف ٧ : ١٦٧) .

والذين قالوا ان حكمته أو حكمه أو مشيئته توجب ذلك يقولون : ان ذلك قد يعرف بالعقل . فيقولون : انه قد يعرف بالعقل أنه لا بد من ارسال الرسل . وان ذلك واجب في حكمه وحكمته . وهذا قول كثير من الطوائف ، أو أكثرهم .

(و) [2] منهم من يقول : لا يعلم شيء من ذلك الا بالخبر ، وهذا قول الجهمية والأشعرية . وذاك قول المعتزلة ، والكرامية ، والحنفية ، أو أكثرهم .

وأما أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، فمنهم من يقول بهذا ، ولكن جمهور الفقهاء مع السلف يثبتون الحكمة والتعليل . وانما ينفي ذلك منهم من وافق الجهمية المجبرة ، كالأشعري ومن وافقه .

وكذلك جمهورهم يثبتون للأفعال [3] صفات بها كانت حسنة أو سيئة قبيحة . لا يجعلون حسنها وقبحها [4] ترجيحاً لأحد الأمرين بلا مرجح بل لمحض المشيئة كما تقوله الجهمية ومن وافقهم .

هذا قول الأئمة والجمهور ، كما أن الأئمة والجمهور على اثبات القدر والايمان به ، وأن

---

(١) في الأصل « اذا علم من ذلك » ثم صحيح الهامش « ان ذلك » .

(٢) ليس في الأصل .

في الأصل « الأفعال » وهو خطأ .

في الأصل « قبيحها » ، وهو خطأ .

الله خالق كل شيء ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا يقولون بقول من أنكر القدر من المعتزلة ونحوهم ، ولا يقول من أنكر حكمة الرب من الجهمية المجبرة ونحوهم .

فلا يقولون بقول القدرية النفاة للقدر ، ولا يقول القدرية المجبرة الذين يستلزم قولهم انكار الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والجزاء بالثواب والعقاب ، لا سيما من أفصح منهم بذلك ، أو قال : ان من شهد القدر سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد [١] .

فآمنوا[٢]، بما جاءت به الرسل في الجملة، واوجبوا ما أوجبه الله، وحرموا ما حرمه الله، وآمنوا بالجنة والنار ، واجتهدوا في متابعة الرسل . لكن اخطأوا حيث نفوا القدر ، وظنوا أن اثباته يناقض الأمر والنهي (والوعد) [٣] والوعيد ، وأنه لا يتم ايمانهم بأن الله عادل صادق حتى يكذبوا بالقدر ، وباخراج أهل الكبائر من النار ، ظناً منهم أن الله أخبر بأن كل من كان له ذنب يستحق به العذاب لا يخرجه من النار ، ولا يرحمه أبداً . فلم يجوزوا أن يعذب بذنبه ثم يرحم ، بل عندهم من كان له ذنب يستحق به العذاب لم يرحم أبداً .

وهم وان كانوا لم يتعمدوا تكذيب الرسل فقولهم هذا يتضمن مخالفة الأخبار المتواترة عند أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ في خروج أهل الذنوب من النار ، وشفاعة الشفعاء فيهم ، ويتضمن أنهم آيسوا الخلق من رحمة الله مع تكذيبهم بعموم خلق الله ، ومشيئته وقدرته ، حيث زعموا أن من الحوادث ما لا يقدر عليه ولا يشاءه ولا يخلقه .

وتشبهوا بالمجوس من هذا الوجه ، حتى قيل : القدرية مجوس هذه الأمة .

وقابلهم أولئك ، فتوقفوا في خبر الله مطلقاً ، حتى انكروا صنفى العموم ، فلم يعلموا بخبره ما أخبر به من الوعد والوعيد .

فلا يجزمون بالنجاة للصنف الذين يعلم الله أنهم آمنوا وعملوا الصالحات ، وكانوا من أعظم الناس طاعة لله ، اذا كان لأحدهم سيئة واحدة صغيرة . ولا بالعذاب للصنف الذين يعلم الله أنهم أفجر أهل القبلة وشرها . بل يجوزون مع علم الله بهذا وبهذا أن يعذب أهل

---

(١) قد أوضح المصنف الفرق بين القدرية النفاة المعتزلة والقدرية المجبرة في « رسالة العبودية » فقال : ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة ، فيزعمون أن الامر والنهي لازم ان شهد لنفسه فعلاً وأثبت له صنعاً . وأما من شهد أن أفعاله مخلوقة وأنه مجبور على ذلك وأن الله هو المتصرف فيه كما يحرك سائر المتحركات فانه يرتفع عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد . وهؤلاء يحملون الخبر واثبات القدر مانعا من التكليف على هذا الوجه . وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافه ، كما ضاق نطاق المعتزلة وغيرهم من القدرية غن ذلك ، ثم المعتزلة اثبتت الأمر والنهي الشرعيين وردت القضاء والقدر الذي هو إرادة الله العامة وخلقة الافعال العباد . وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنيه في هحق من شهد القدر اذ لم يمكنهم نفي ذلك مطلقاً . وقول هؤلاء من قول المعتزلة .

(٢) أي المعتزلة .

(٣) سقط من الأصل .

الحسنات الكبيرة على سيئة صغيرة عذاباً ما يعذبه أحداً من أهل القبله ، وأن يدخل فجار أهل القبلة الجنة مع السابقين الأولين .

وبسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء له مقام آخر .

والمقصود هنا أن هذه السورة دلت على ما تدل عليه مواضع آخر من القرآن ، من أن الله يرسل الرسل الى الناس تأمرهم وتنهاهم - يرسلهم مبشرين ومنذرين ، كما قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ﴾ ، ينذرون الذين أساؤا عقوبات أعمالهم ، ويبشرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم ، ﴿ أن لهم أجراً حسناً * ماكثينَ فيهِ أبداً ﴾ .

فقوله : ﴿ لم يكن الَّذين كفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ منفكّينَ حتى تأتيهم البيّنة ﴾ بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم على ما هم عليه من الكفر ، بل لا يفكهم حتى يرسل اليهم الرسول بشيراً ونذيراً ﴿ ليجزي الَّذينَ أساؤا بما عملُوا ويجزي الَّذين أحسنُوا بالحسنىٰ ﴾ - (النجم ٥٣ : ٣١) .

ومما يبين ذلك أن « حتى حرف غاية » وما بعد الغاية يخالف ما قبلها . كما في قوله : ﴿ حتى يتبَّينَ لكم الخيط الأبيض من الخيطِ الأسود من الفجرِ ﴾ - (البقرة ٢ : ١٨٧) ، وقوله : ﴿ حتى يطهرن ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٢٢) ، وقوله : ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٣٠) ، ونظائر ذلك .

فلو أريد أنهم لم يكونوا منتهين ويؤمنون حتى يتبين لهم الحق لزم أن يكونوا كلهم بعد مجيء البينة قد انتهوا وآمنوا ، فان اللفظ عام فيهم .

وكذلك لو كان المراد أنهم كانوا متفقين على تصديق الرسول حتى بعث لزم أن يكونوا كلهم كانوا يعرفونه قبل ارساله اليهم ، وأنهم كلهم بعد ارساله تفرقوا واختلفوا ، وكلاهما باطل . فكثير منهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني ، ولم يكونوا يعرفون ما في الكتب من بعثة ومن أمور أخر . ولما بعث فقد آمن به خلق كثير منهم ، ولم يتفرقوا كلهم عن الايمان به .

وحينئذ فالآية لم تتضمن مدحهم مطلقاً ، كما ظن من ظن أن معناها أنهم لم ينتهوا ولم يؤمنوا حتى يتبين لهم الحق . ولا تتضمن ذمهم مطلقاً ، كما ظن من ظن أنهم لما جاءهم الرسول تفرقوا واختلفوا بعد ما كانوا متفقين على التصديق . بل تضمنت [1] مدح من آمن منهم بالرسول . وذم من لم يؤمن ، والاخبار أنه لا بد من ارسال الرسول اليهم ، فيؤمن به بعضهم ويكفر بعض .

---

(١) في الأصل « تضمنوا » . وهو تصحيف .

قال تعالى : ﴿ تلكَ الرّسلُ فضّلنا بعضهم علىٰ بعضٍ ، منهم من كلّمَ الله ورفعَ بعضهم درجاتٍ ، وآتينا عيسىٰ ابن مريمَ البينات وأيدناهُ بروحِ القدسِ ، ولو شاء الله ما اقتتلَ الَّذينَ من بعدهم من بعدِ ما جاءتهم البينات ولكن اختلفُوا فمنهم من آمنَ ومنهم من كفَرَ ولو شاءَ الله ما اقتتلُوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ ـ ﴿ البقرة ٢ : ٢٥٣) .

ثم ان الذين آمنوا بالرسل لا بد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق والكاذب ، كما قال تعالى : ﴿ أحسِبَ النَّاسُ أن يُتركوا أن يقولُوا آمنا وهم لا يفتنون ❁ ولقد فتنا الَّذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الَّذين صدقُوا وليعلمنَّ الكاذبين ﴾ ـ (العنكبوت ٢ ، ٣) . ثم قال : ﴿ أم حسب الَّذين يعملونَ السيئاتِ أن يسبقونا ، ساءَ ما يحكمون ﴾ ـ (العنكبوت : ٢٩ : ٤) .

فالناس اذا أرسل اليهم أحد رجلين . اما رجل آمن بهم في الظاهر ، فلا بد أن يمتحن حتى يتبين الصادق من الكاذب . واما رجل عمل السيئات ولم يؤمن ، فلا يفوت الله ، بل هو أخذم ـ سبحانه وتعالى .

ولهذا انقسم الناس في الرسل الى ثلاثة أقسام ـ مؤمن باطناً وظاهراً ، وكافر مظهر للكفر ، ومنافق مظهر للايمان مبطن للكفر . ومن حين هاجر النبي ﷺ الى المدينة حصل هذا الانقسام ، وأنزل الله تعالى في أول البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين [١] .

وأما حين كان بمكة وكان المؤمنون [٢] مستضعفين ، فلم يكن أحد يحتاج الى النفاق ، بل كان من المؤمنين من يكتم ايمانه من كثير من الناس . ومنهم من يتكلم بالكفر مكرها مع طمأنينة قلبه بالايمان . وهذا مؤمن باطناً وظاهراً ، فانه وان أظهر الكفر لبعض الناس لما اكره عليه ، أو كتم عنه ايمانه . فهو يتكلم بالايمان في خلوته ومع من يأمنه . ويعمل بما يمكنه . وما عجز عنه فقد سقط عنه .

ولهذا قال العلماء منهم أحمد بن حنبل : لم يكن بمكة نفاق ، انما كان النفاق بالمدينة .

ولكن كان بمكة من في قلبه مرض ، كما قال في السورة المكية ﴿ ولا يرتاب الَّذينَ آوتُوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الَّذينَ في قلوبهم مرضٌ والكافرونَ ماذا أرادَ الله بهذا مثلاً ﴾ ـ (المدثر ٧٤ : ٣١) .

---

(١) انظر هذا التقسيم في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) من الأصل : المؤمنين .

وهو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للايمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيث من الطيب ويمتحنهم ، كما قال تعالى : ﴿ ما كانَ اللهُ ليذرَ المؤمنينَ علىٰ ما أنتم عليهِ حتى يميزَ الخبيثَ مِنَ الطيب ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ١٧٩) ، وقال : ﴿ أم حسبتم أن تُتركُوا ولما يعلم الله الَّذينَ جاهدوا منكم ولا يتخذوا من دونِ الله ولا رسولهِ ولا المؤمنينَ وليجةً ، واللهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾ ـ (التوبة ٩ : ١٦) . وقال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلُوا الجنة ولما يأتكم مثلُ الَّذينَ خلوا من قبلكم ، مستهم البأساءُ والضراءُ وزلزلُوا حتى يقول الرسول والَّذينَ آمنوا معهُ متى نصر الله ، ألا إنَّ نصر اللهِ قريب ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٢١٤) ، وأمثال ذلك .

فكذلك الذين كفروا لم يكن ليتركهم . حتى يبعث اليهم الرسول بالآيات البينات . فهذا معنى قوله : ﴿ لم يكن الَّذينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ منفكينَ حتىٰ تأتيهم البيّنة ﴾ . وهم اذا جاءتهم البينة منهم من يؤمن ، ومنهم من يكفر .

واذا قيل : ان الآية تتضمن بعد ذلك المعنى الآخر ، وهو أنهم لم يكونوا ليهتدوا او يعرفوا بالحق ويؤمنوا حتى تأتيهم البينة ، اذ لا طريق لهم الى معرفة الحق الا برسول يأتي من الله أيضاً : أو لم يكونوا منتهين متعظين وان عرفوا الحق حق تأتيهم من الله من يذكرهم : فهذا المعنى لا يناقض ذاك .

بخلاف قول من قال : لم يكن المشركون وأهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد ولذكره ، ولم يكونوا متفرقين فيه ، بل متفقين على الايمان به ، حتى جاءتهم البينة فتركوا الايمان به وتفرقوا ، فان هذا غير مراد قطعاً .

ومما بين ذلك قوله ﴿ حتى تأتيهم البيّنة ﴾ ، ولم يقل « حتى أتتهم » ، وأولئك لما لم يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضع موضع الماضي ، وأن المراد : ما انفكوا [1] عما كانوا عليه ـ اما من كفر ، واما من ايمان ـ حتى أتتهم البينة . فلما قيل ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أشكل عليهم . وقال بعضهم : لما تأتهم كلها .

وأما على المعنى الصحيح فالموضع موضع المضارع ، كقوله تعالى : ﴿ ما كانَ الله ليذَر المؤمنينَ على ما أنتم عليهِ حتى يميزَ الخبيثَ مِنَ الطيب ﴾ ، فان المراد : ما كانوا مفكوكين متروكين حتى تأتيهم البينة .

وهو سبحانه قال : ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ . و « لم » وان كانت تقلب المضارع

(١) في الأصل « ما انفكوا » .

ماضياً فذاك اذا تجرد ، فقيل « لم يأت » و « لم يذهب » ، فمعناه « ما أتى » وما « ما ذهب » .

وأما اذا قيل « لم يكن يفعل هذا » ، و ﴿ لم يكن الله ليغفَر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ - (النساء ٤ : ١٣٧) ، فالمقصود معنى الفعل الدائم مطلقاً ، واذا قيل « لم يكن فلان آتيا حتى يذهب اليه فلان » ، بخلاف ما اذا [١] قلت « لم يكن فلان قد أتى حتى [٢] ذهب اليه فلان » . ولو قيل « ما كان فلان فاعلاً لهذا حتى يكون كذا » كان نحو ذاك ، بخلاف ما اذا [٣] قيل « ما كان فلان قد فعل حتى أتى فلان » .

فنفى المضارع الذي خبره اسم فاعل ، وهو الدائم . والمراد : لم يكونوا في الحال والاستقبال متروكين حتى تأتيهم البينة ، ولو قيل هنا « حتى أتتهم البينة » لم يكن موضعه .

وكذلك لو أراد الانتهاء عن الكفر والايمان لقيل ﴿ حتى تأتيهم بالبيِّنة ﴾ ، أي لم يكونوا يعرفون الحق حتى يأتيهم نبي يعرفهم ، أو لم يكونوا متعظين عاملين حتى يأتي من يعظهم ويذكرهم . فليس هذا موضع الماضي ، بخلاف ما لو قيل : « ما زالوا كافرين حتى أتاهم » .

فالآية تتضمن الأخبار عن وجوب اثبات البينة ، وامتناع الانفكاك بدونها . لم يقصد بها مجرد الخبر عن عدم الافكاك ثم ثبوته في الماضي ، وهو كما لو قيل « لم يكونوا ينفكوا حتى تأتيهم البينة » ، لكن هنا ذكر اسم الفاعلين ، فقيل « منفكين » .

وهو سبحانه لما ذكر أنه لا بد من ارسال الرسل الى الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب لتقوم عليهم الحجة بذلك (ذكر) [٤] بعد هذا أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل ما تفرقوا الا من بعد ما جاءتهم البينة ، وقامت عليهم الحجة . فبينات الله وحجته قامت على هؤلاء وهؤلاء .

وهو لم يعذب واحداً من الحزبين الا بعد أن جاءتهم البينة ، وقامت عليهم الحجة ، كما في موسى ومن أرسل اليه ، فان الله لم يدع فرعون وقومه حتى أرسل اليهم موسى ، ولم يعذبهم الا بعد اقامة الحجة . ثم لما آمن بنو اسرائيل بالكتب والرسل لم يتفرقوا ويختلفوا الا من بعد ما جاءتهم البينة . فلم يكونوا معذورين في ذلك .

---

(١) في الأصل « ذا » .

(٢) في الأصل « قد » بدل « حتى » .

(٣) في الأصل « ذا » .

(٤) سقط لفظ « ذكر » من هنا من الأصل .

ولهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم ، فقيل ﴿ ولا تكونُوا كالَّـذينَ تفرَّقُوا واختلفُوا من بعدِ ما جاءتهم البينات ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ١٠٥) .

والناس الذين بعث اليهم محمد هم كذلك . فمن كان كافرا لم يكن منفكا حتى تأتيه البينة ، ومن آمن بمحمد من الأمم ثم تفرقوا واختلفوا فما اختلفوا الا من بعد ما جاءتهم البينة .

وما أمر الجميع ﴿الا ليعبُدوا اللهَ مخلصينَ لهُ الدينَ حُنفاءَ وَيقيمُوا الصَّلاةَ ويؤتوا الزَّكاةَ وذلكَ دينُ القيّمة ﴾ .

والآية تضمنت مدح الرب وذكر حكمته وعدله وحجته في أنه [1] لا يدعهم حتى يرسل اليهم رسولا ، كما قال لأهل الكتاب ﴿ قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ـ الآية ﴾ ـ (المائدة ٥ : ١٩) . لم تتضمن مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول . فان هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول ، لا أن يحمدوا عليه حتى يأتي الرسول . فان هذا لا يقوله عاقل ، ولم يقله أحد ، لا سيما وأهل الكتاب قد قامت عليهم الحجة بأنبياء قبله .

ونظير هذا في اللفظ قوله : ﴿ تحمل اثقالكم الى بلدٍ لم تكونُوا بالغيهِ إلَّا بشقّ الأنفسِ ﴾ ـ (النحل ١٦ : ٧) . ليس المراد : ما كنتم بالغيه في الماضي ، بل هذه حالهم دائماً .

فقوله : « لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم ، يقتضي أن هذه حالهم دائماً » .

وتضمنت السورة ذكر أصناف الخلق ، وما أمر الله به جميع العباد ، وأن ذلك أمر لا بد منه ـ لا بد من ارسال الرسل ، وانزال الكتب ـ وبيان السعداء أهل الجنة ، والأشقياء أهل النار .

فقوله : ﴿ لم يكن الَّذينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ حتى تأتيهم البيّنة * رسول مِنَ اللهِ يتلُوا صُحفاً مطهرةً ﴾ جملة . فيه بيان ارسال (الرسول) [2] الى الجميع . وقوله : ﴿ وما تفَرَّقَ الَّذينَ اوتُوا الكتابَ إلَّا مِنْ بعدِ ما جاءتهم البيّنة ﴾ في اقامة الحجة على أهل الشرائع ، وذم تفرقهم واختلافهم ، وأن ذلك بعد أن جاءتهم البينة .

وهاتان الجملتان نظيرهما قوله : ﴿ كانَ الناسُ أمةً واحدةً فبعثَ اللهُ النبيّين مبشرينَ

---

(١) في الأصل « أنهم » وهو خطأ .

(٢) ليس في الأصل لفظ « الرسول» .

ومنذرينَ ، وأنزلَ معهم الكتابَ بالحقِّ ليحكم بينَ الناسِ فيما اختلفُوا فيهِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وما اختلفَ فيهِ إلّا الَّذينَ أوتُوهُ مِنْ بعدِ ما جاءَتهم البيناتِ بغياً بينهم ، فهدىٰ اللهُ الَّذينَ آمنُوا لما اختلفوا فيهِ مِنَ الحقِّ باذنهِ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢١٣) .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ شرعَ لكم من الَّدينِ ما وصَّى بهِ نوحاً والَّذي أوحينَا اليكَ وما وصينا بهِ ابراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ أَنْ أقيمُوا الدين ولا تتفرقُوا فيهِ ، كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم اليهِ ، الله يجبَى اليهِ من يشاءُ ويهدي اليهِ من ينيب ﴾ ، ثم قال : ﴿ وما تفرقُوا إلَّا مِنْ بعدِ ما جاءَهم العلمُ بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربِّك إلىٰ أجلٍ مُسمىً لقضي بينهم ، وإنَّ الَّذينَ أورثُوا الكتابَ مِنْ بعدهم لفي شكٍ منهُ مريب ﴾ - (الشورى (عسق) ٤٢ : ١٣ ، ١٤) ، وقوله : ﴿ ولقد آتينا موسىٰ الكتابَ فاختُلِفَ فيهِ ، ولولا كلمة سبقت من ربِّك لقضي بينهم ، وانهم لفي شكٍ منه مُريب ﴾ - (هود ١١ : ١١٠) ، في سورة هود ، وسورة عسق .

ثُم ذكر ما أمر به الجميع بقوله : ﴿ وما أُمروا الا ليعبدُوا الله مخلصينَ لهُ الدينَ حنفاء ويقيموا الصلاةَ ويؤتُوا الزكاةَ وذلكَ دينُ القيّمة ﴾ .

ثم ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

(٢) فصــــل

(قوله : وما تفرق الذين أوتوا الكتاب)

وقوله : ﴿ وما تفرَّقَ الَّذينَ أوتُوا الكتابَ إلّا من بعدِ ما جاءتهم البيّنة ﴾ . قال طائفة من المفسرين : وهو تفرقهم في محمد بعد أن كانوا مجتمعين على الايمان به .

ثم من هؤلاء من جعل تفرقهم ايمان بعضهم وكفر بعضهم . قال البغوي : ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب ، فقال : ﴿ وما تفرّقَ الّذينَ أوتُوا الكتابَ إلّا من بعدِ ما جاءتهم البيّنة ﴾ ، أي البيان في كتبهم أنه نبي مرسل . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد حتى بعثه الله . فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا . فآمن به بعضهم وكفر به بعضهم .

وهكذا ذكر طائفة في قوله : ﴿ ولقد بوأنا بني اسرائيلَ مبوأَ صدقٍ ورزقناهم من الطيباتِ ، فما اختلفُوا حتى جاءَهم العلم ﴾ - (يونس ١٠ : ٩٣) . قال أبو الفرج ابن عباس : ما اختلفوا في أمر محمد ، لم يزالوا به مصدقين حتى جاءهم العلم يعني القرآن . وروى عنه : حتى جاءهم العلم ، يعني محمدا . فعلى هذا يكون العلم هنا عبارة عن المعلوم . وبيان هذا أنه لما جاءهم اختلفوا في تصديقه ، فكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه بغياً وحسداً .

ومنهم من جعل المتفرقين كلهم كفاراً . قال ابن عطية : ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني اسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد الا من بعد أن رأوا الآيات الواضحة ، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته ، فلما جاء من العرب حسدوه .

وكذلك قال الثعلبي : ما تفرق الذين أوتوا الكتاب في أمر محمد فكذبوه الا من بعد ما جاءتهم البينة - البيان في كتبهم أنه نبي مرسل . قال العلماء : من أول هذه السورة الى قوله : ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ، ﴿ وما تفرق ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليه .

وكذلك قال أبو الفرج . قال : ﴿ وما تفرق الَّذينَ أوتُوا الكتابَ ﴾ يعني من لم يؤمن . ﴿ الا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ . وفيها ثلاثة أقوال :

أحدها [1] أنه محمد ، والمعنى لم يزالوا مجتمعين على الايمان به حتى بعث قاله الأكثرون .

---

(١) في الأصل « أحدهما » .

والثاني : القرآن ، قاله أبو العالية :

والثالث : ما في كتبهم من بيان نبوته ، ذكره الماوردي .

(قلت) : هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين ، ولم يذكر الثعلبي ، والبغوي وغيرهما ، سواه .

وأبو العالية انما قال : الكتاب ، لم يقل : القرآن . هكذا رواه ابن أبي حاتم بالاسناد المعروف عن الربيع بن أنس : ﴿ إلَّا من بعدِ ما جاءتهم البيّنة ﴾ قال ، قال ابو العالية : الكتاب . ومراد أبي العالية جنس الكتاب . فيتناول الكتاب الأول ، كما قال : ﴿ ولقد آتينا موسىٰ الكتابَ فاختُلِفَ فيهِ ﴾ - (هود ١١ : ١١٠ ، وفصلت ٤١ : ٤٥) في موضعين من القرآن ، وقال تعالى : ﴿ فبعثَ الله النبيِّينَ مبشرينَ ومنذرينَ وأنزلَ معهم الكتابَ بالحقِّ ليحكمَ بينَ النَّاسِ فيما اختلفُوا فيهِ ﴾ ، ثم قال ﴿ وَمَا اختلفَ فيهِ إلَّا الَّذينَ أوتُوه من بعدِ ما جاءَتهم البيِّنات بغياً بينهم ، فهدىٰ الله الَّذينَ آمنوا لما اختلفُوا فيهِ من الحقِّ باذنهِ ﴾ - (البقرة ٢ : ٢١٣) .

وهذا التفسير معروف عن ابي العالية ، ورواه عن ابي بن كعب . ورواه ابن أبي حاتم وغيره من الربيع ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، أنه كان يقرءوها ﴿ كانَ النـاسُ أمةً واحدةً فاختلفُوا فبعثَ الله النبيِّينَ مبشرينَ ومنذرينَ ﴾ . وان الله انما أرسل الرسل وأنزل الكتاب عند الاختلاف ، ﴿ وأنزل معهم الكتابَ بالحقِّ ﴾ ، قال أنزل الكتاب عند الاختلاف . ﴿ وما اختلفَ فيه إلَّا الَّذينَ أوتُوه ﴾ يعني بني اسرائيل ، أوتوا الكتاب والعلم ﴿ من بعد ما جاءتهم البيِّنات بغياً بينهم ﴾ ، يقول : بغيا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس ، فبغى بعضهم على بعض ، وضرب بعضهم رقاب بعض ، ﴿ فهدىٰ الله الَّذين آمنوا لما اختلفُوا فيهِ من الحقِّ باذنهِ ﴾ ، يقول : فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف - أقاموا على الاخلاص لله وحده ، وعبادته لا شريك له ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف ، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة - كانوا شهداء على قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وآل فرعون ، أن رسلهم قد بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم .

(قلت) : الاختلاف في كتاب الله نوعان . احدهما يذم فيه المختلفين كلهم ، كقوله : ﴿ وان الذين اختلفوا في الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ - (البقرة ٢ : ١٧٦) ، وقوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ﴾ - (هود ١١ : ١١٨ ، ١١٩) .

والثاني يمدح المؤمنين ويذم الكافرين ، كقوله : ﴿ ولو شاءَ الله ما اقتتلَ الَّذينَ من بعدهم من بعدِ ما جاءتهم البيّنات ولكن اختلفُوا فمنهم من آمنَ ومنهم مَنْ كَفَرَ ، ولو شاءَ الله ما اقتتلُوا ، ولكن الله يفعلُ ما يريد ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٥٣) ، وقوله : ﴿ هـذان خصمانِ اختصمُوا في ربهم ، فالَّذينَ كفرُوا قطعت لهم ثيابٌ من نارٍ - الى قوله ان الله يُدخِلُ الَّذينَ آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ ﴾ - (الحج ٢٢ : ١٩ - ٢٣) ، وقوله : ﴿ إنَّ الَّذينَ أمنُوا والَّذينَ هادُوا والصابئينَ والنصارىٰ والمجوسَ والَّذينَ أشركُوا إنَّ الله يفصلُ بينهم يومَ القيامةِ ، إنَّ الله علىٰ كلِّ شيءٍ شهيد ﴾ - (الحج ٢٢ : ١٧) .

واذا كان كذلك فالذي ذمَّه من تفرق أهل الكتاب واختلافهم ذم فيه الجميع ونهى عن التشبه بهم ، فقال : ﴿ ولا تكونُوا كالَّذينَ تفرَّقُوا واختلفُوا من بعدِ ما جاءهم البيّنات ﴾ - (آل عمران ٣ : ١٠٥) ، (وقال) ﴿ وما اختلف فيه الا الَّذينَ أوتُوه من بعدِ ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم ﴾ [1] - (البقرة ٢ : ٢١٣) .

وذلك بأن تؤمن طائفة ببعض حق وتكفر بما عند الأخرى من الحق ، وتزيد في الحق باطلاً ، كما اختلف اليهود والنصارى في المسيح وغير ذلك .

وحينئذ نقول : من قال ان أهل الكتاب ما تفرقوا في محمد الا من بعد ما بعث ارادته ايمان بعضهم وكفر بعضهم ، كما قاله طائفة ، فالمذموم هنا من كفر ، لا من آمن ، فلا يذم كل المختلفين ، ولكن يذم من كان يعرف أنه رسول ، فلما جاء كفر به حسداً أو بغياً ، كما قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عندِ الله مصدقٌ لما معهم وكانُوا من قبلُ يستفتحونَ علىٰ الَّذينَ كفرُوا ، فلما جاءهم ما عرفُوا كفروا به فلعنة الله علىٰ الكافرين ﴾ [2] وان أريد بالتفرق به أنهم كفروا به وتفرقت اقوالهم فيه فليس الأمر كذلك وقد بيَّنَ القرآن في غير موضع انهم تفرقوا واختلفوا قبل ارسال محمد . فاختلاف هؤلاء وتفرقهم من محمد ، هو من جملة ما تفرقوا واختلفوا فيه . . والله اعلم .

آخر كلام شيخ الاسلام . . . قدس الله روحه .

---

(١) في أصل : ما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم وليس في المصحف .

(٢) البقرة : ٨٩ .

سورة التكاثر (*)

قال شيخ الاسلام رحمه الله :

فصـــــل

(عرض مجمل للسورة)

« سورة التكاثر » قيل فيها : ﴿ حتى زرتم المقابرَ ﴾ تنبيها على ان الزائر لا بد أن ينتقل عن مزاره ؛ فهو تنبيه على البعث .

ثم قال : ﴿ كلاَّ سوفَ تعلمونَ ، ثُمَّ كلاّ سوفَ تعلمونَ ﴾ فهذا خبر عن علمهم في المستقبل ، ولهذا روى عن على أنه في عذاب القبر ، ثم قال : ﴿ كلاَّ لو تعلمونَ علمَ اليقين ﴾ فهذا اشارة الى علمهم في الحال ، والخبر محذوف : أي لكان الامر فوق الوصف ، ولعلمتم أمراً عظيماً ، ولألهاكم عن إلهكم ، فان الالتهاء بالتكاثر انما وقع من الغفلة وعدم اليقين . كما قال : ﴿ كذبوا بآياتنا وكانُوا عنها غافلينَ ﴾ ومثل قول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » وحذف جواب لو كثير في القرآن تعظيماً له وتفخيماً ، فانه اعظم من ان يوصف أو يتصور بسماع لفظ ، اذ المخبر ليس كالمعاين ، ولهذا اتبع ذلك بالقسم على الرؤية التي هي عين اليقين ، التي هي فوق الخبر الذي هو علم اليقين ، فقال : ﴿ لترونَّ الجحيم ثم لترونّها عينَ اليقين ﴾ وهذا الكلام جواب قسم محذوف مستقبل ، مع كون جواب لو محذوفاً كما تقدم ، في أحد القولين . وفي الآخر هو متعلق بلو ، لكن يقال جواب لو انما يكون ماضيا ، فيقال : لرأيتم الجحيم . كقول النبي ﷺ : « لو تكونون على الحال التي تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم » ولو كان ماضياً فليس مما يؤكد بل يقال : لو يجيء لأجى . وجواب هذا أنه جواب قسم محذوف سد مسد جواب . لو . كقوله : ﴿ وان اطعتموهم انكم لمشركون ﴾ وله نظائر في القرآن وكلام العرب ، فان الكلام

(*) طبعة السعودية ١٦/٥١٧ .

اذا اشتمل على قسم وشرط وكل منهما يقتضي جوابا أجيب الاول منهما ، وهو هناك القسم وهو المقصود .

وعلى هذا القول يكون المعنى : والله لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم بقلوبكم ، والاول هو المشهور ، ومن المفسرين من لم يذكر سواه ، وهو الذي أثروه عن متقدميهم ، ويدل على صحته وانه الحق أن قوله : ﴿ ثم لترونّها ـ ثم لتسألنّ ﴾ معطوف على ما قبله ، فيكن داخلاً في حيزه ، فلو كان الاول معلقاً بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك ، وهو باطل ، لان رؤ يتها عين اليقين ، والمسألة عن النعيم ليس معلقاً بأن يعلموها في الدنيا علم اليقين .

وأيضاً فتفسير الرؤ ية المطلقة برؤ ية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب .

وأيضاً فيكون الشرط هو الجواب . فان المعنى حينئذ لو علمتم علم اليقين لرأيتم بقلوبكم ، وذلك هو العلم ، فالمعنى لو علمتم لعلمتم ، وهذا لا يفيد، ولو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم ، فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه ان يجعل مشاهدا له بقلبه .

وأيضاً فهذا المعنى لو كان مفيداً لم يكن مما يستحق القسم عليه ، فانه ليس بطائل .

وأيضاً فقوله : ﴿ لو تعلمونَ علم اليقين ﴾ لم يذكر المعلوم ، حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم ، فان أريد معلوم خاص ، فلا دليل في الشرط عليه ، حتى يصح الارتباط . وأن أريد المعلوم العام وهو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها ، وهذا فيه نظر . فقد يسأل ويقال قوله : ﴿ سوف تعلمونَ . ثم كلّا سوفَ تعلمُونَ﴾ لم يذكر فيه المعلوم بل أطلق ، ومعلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئاً لم يكن علمه ، وجوابه : أن سياق الكلام يقتضي الوعيد والتهديد ، حيث افتتحه بقوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ .

وأيضاً فمثل هذا الكلام قد صار في العرف يستعمل في الوعيد غالباً ، أو في الوعد . واذا كان العلم مقيداً بالسياق اللفظي ، وبالوضع العرفي . فقوله : ﴿ لو تعلمون ﴾ هو ذاك العلم ، أخبر بوقوعه مستقبلا ، ثم علق بوقوعه حاضراً ، وقيد المعلق به بعلم اليقين ، فانهم قد يعلمون ما بعد الموت ، لكن ليس علماً هو يقين .

سورة الهمزة (*)

قال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــل

(في الهمزة واللمزة)

قوله : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ هو الطعان العياب . كما قال : ﴿ همّاز مشّاء بنميم ﴾ وقال : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ (١) وقال : ﴿ الّذين يلمزُون المطوعين من المؤمنينَ ﴾ (٢) والهمز : أشد ، لان الهمز الدفع بشدة ، ومنه الهمزة من الحروف ، وهي نقرة في الحلق ، ومنه : ﴿ وقل ربِّ اعوذ بكَ من همزاتِ الشياطين ﴾ ومنه قول النبي ﷺ : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من همزه ، ونفخه، ونفثه » وقال : « همزة المونة » وهي الصرع ، فالهمز مثل الطعن لفظاً ومعنى .

واللمز الكذب ، والعيب ، وانما ذم من يكثر الهمز . واللمز ، فان الهمزة واللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيراً ، و (الهمزة) و (اللمزة) الذي يفعل ذلك به ، كما في نظائره مثل الضحكة والضحكة ، واللعبة واللعبة ، وقوله : ﴿ الذي جمع مالا وعدده ﴾ وصنفه بالطعن في الناس ، والعيب لهم ، وبجمع المال وتعديده ، وهذا نظير قوله : ﴿ إنَّ الله لا يحبُ كل مختالٍ فخور الذين يبخلونَ ﴾ في « النساء » و « الحديد » فان الهمزة اللمزة يشبه المختال الفخور ، والجمّاع المحصى نظير البخيل ، وكذلك نظيرهما قوله : ﴿ همّازٍ مَشّاءٍ بنميمٍ ، منّاعٍ للخير معتدٍ أثيم ، عُتُلٍ بعدَ ذلكَ زنيم ﴾ وصفه بالكبر والبخل ، وكذلك قوله : ﴿ وأمّا من بَخل واستغنى ﴾ فهذه خمس مواضع وذلك ناشيء عن حب الشرف والمال ، فان محبة الشرف تحمل على انتقاص غيره بالهمز واللمز والفخر والخيلاء ، ومحبة المال تحمل على البخل ، وضد ذلك

(*) طبعة السعودية ١٦/٥٢١ .

(١) التوبة : ٥٨ .

(٢) التوبة : ٧٤ .

من أعطى فلم يبخل ، واتقى فلم يهمز ، ولم يلمز ، وايضاً فان المعطى نفع الناس ، والمتقى لم يضرهم ، فنفع لم يضر ، وأما المختال الفخور البخيل ، فانه ببخله منعهم الخير ، وبفخره سامهم الضر ، فضرهم ولم ينفعهم ، وكذلك « الهمزة الذي جمع مالا » ونظيره قارون الذي جمع مالا ، وكان من قوم موسى فبغى عليهم .

ومن تدبر القرآن وجد بعضه يفسر بعضا ، فانه كما قال ابن عباس في رواية الوالبي : مشتمل على الاقسام ، والامثال ، وهو تفسير : (متشابها مثاني) .

ولهذا جاء كتاب الله جامعاً . كما قال ﷺ : « اعطيت جوامع الكلم » وقال تعالى : ﴿ كتاباً مُتشابهاً مثاني ﴾ فالتشابه يكون في الامثال ، والمثاني في الاقسام ، فان التثنية في مطلق التعديد . كما قد قيل في قوله : ﴿ ارجع البصر كرتين ﴾ وكما في قول حذيفة : كما نقول بين السجدتين : رب اغفر لي ، رب اغفر لي » وكما يقال : فعلت هذا مرة بعد مرة ، فتثنية اللفظ يراد به التعديد ، لان العدد ما زاد على الواحد ، وهو أول التثنية ، وكذلك ثنيت الثوب ، أعم من أن يكون مرتين فقط أو مطلق العدد ، فهو جميعه متشابه ، يصدق بعضه بعضاً ، ليس مختلفاً ، بل كل خبر وأمر منه يشابه الخبر ، لاتحاد مقصود الامرين ، ولاتحاد الحقيقة التي اليها مرجع الموجودات .

فلما كانت الحقائق المقصودة والموجودة ترجع الى أصل واحد ، وهو الله سبحانه . كان الكلام الحق فيها خبراً ، وأمرا متشابها ، ليس بمنزلة المختلف المتناقض . كما يوجد في كلام أكثر البشر ، والمصنفون ـ الكبار منهم ـ يقولون شيئاً ثم ينقضونه ، وهو جميعه مثاني ، لانه استوفيت فيه الاقسام المختلفة ، فان الله يقول : ﴿ ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين ﴾ فذكر الزوجين مثاني ، والاخبار عن الحقائق بما هي عليه بحيث يحكم على الشيء بحكم نظيره ، وهو حكم على المعنى الواحد المشترك خبراً او طلباً خطاب متشابه ، فهو متشابه مثاني .

وهذا في المعاني مثل الوجوه والنظائر في الألفاظ فان كل شيئين من الاعيان والاعراض وغير ذلك اما ان كون احدهما مثل الآخر ، أو لا يكون مثله فهي الامثال ، وجمعها هو التأليف ، واذا جاءت بلفظ واحد كانت نظائر . وان لم يكن مثله فهو خلافه سواء كان ضداً أو لم يكن ، وقد يقال : اما أن يجمعها جنس أولاً ، فان لم يجمعها جنس فأحدهما بعيد عن الآخر ، ولا مناسبة بينهما ، وان جمعهما جنس فهي الاقسام ، وجمعها هو التصنيف ، ودلالة اللفظ الواحد على المعاني المختلفة تسمى الوجوه . والكلام الجامع هو الذي يستوفي الاقسام المختلفة ، والنظائر المتماثلة جمعاً بين المتماثلين ، وفرقا بين المختلفين . بحيث يبقى محيطاً ، والا فذكر أحد القسمين أو المثلين لا يفيد التمام ، ولا يكون الكلم محيطاً ولا الكلم جوامع ، وهو فعل غالب الناس في كلامهم .

والحقائق في نفسها : منها المختلف ، ومنها المؤتلف ، والمختلفان بينهما اتفاق من وجه ، وافتراق من وجه ، فاذا أحاط الكلام بالاقسام المختلفة ، والامثال المؤتلفة كان جامعاً ، وباعتبار هذه المعاني كانت ضروب القياس العقلي المنطقي ثلاثة : الحمليات والشرطيات المتصلة ، والشرطيات المنفصلة .

فالاول للحقائق المتماثلة الداخلة في القضية الجامعة .

والثاني للمختلفات التي ليست متضادة ، بل تتلازم تارة ، ولا تتلازم اخرى .

والثالث للحقائق المتضادة المتنافية ، اما وجوداً أو عدماً ، وهي النقيضان ، واما وجوداً فقط ، وهو أعم من النقيضين ، واما عدماً فقط ، وهو أخص من النقيضين .

فالحمليات للمثلين ، والامثال ، والشرطيات المنفصلة للمتضادين ، والمتضادات ويسمى التقسم ، والسبر ، والترديد ، والبياني ، والمتصلة للخلافين غير المتضادين ، ويسمى التلازم .

سورة الكوثر (*)

(عرض عام للسورة)

وقال شيخ الاسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله :
« سورة الكوثر » ما أجلها من سورة ! وأغزر فوائدها على اختصارها ، وحقيقة معناها تعلم من آخرها ، فانه سبحانه وتعالى بتر شانيء رسوله من كل خير ، فيبتر ذكره واهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة ، ويبتر حياته فلا ينتفع بها ، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده ، ويبتر قلبه فلا يعي الخير ، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته ، والايمان برسله ، ويبتر اعماله فلا يستعمله في طاعة ، ويبتره من الانصار فلا يجد له ناصراً ، ولا عوناً ، ويبتره من جميع القرب والاعمال الصالحة فلا يذوق لها طعماً ، ولا يجد لها حلاوة ، وان باشرها بظاهره ، فقلبه شارد عنها . وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ ورده لأجل هواه ، أو متبوعه ، أو شيخه ، أو أميره ، أو كبيره . كمن شنأ آيات الصفات وأحاديث الصفات وتأولها على غير مراد الله ورسوله منها ، أو حملها على ما يوافق مذهبه ، ومذهب طائفته ، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت ، ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله ﷺ .

ومن أقوى علامات شناءته لها ، وكراهته لها أنه اذا سمعها حين يستدل بها أهل السنة على ما دلت عليه من الحق اشمأز من ذلك ، حتى ان بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه ، ويشتغل بقول فلان وفلان ، ولكن اعظم من شنأه ورده : من كفر به وجحده وجعله أساطير الاولين وسحراً يؤثر فهذا أعظم وأطم انبتاراً وكل من شنأه له نصيب من الانبتار ، على قدر شناءته له فهؤلاء لما شنؤه وعاوده جازاهم الله بأن جعل الخير كله معادياً لهم ، فبترهم منه ، وخص نبيه ﷺ بضد ذلك ، وهو أنه اعطاه الكوثر ، وهو من الخير الكثير الذي آتاه الله في

(*) طبعة السعودية ١٦/٥٣٦ .

الدنيا والآخرة ، فمما أعطاه في الدنيا الهدى والنصر والتأييد وقرة العين والنفس وشرح الصدر ، ونعم قلبه بذكره وحبه بحيث لا يشبه نعيمه نعيم في الدنيا ألبته ، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود ، وجعله أول من يفتح له ولأمته باب الجنة ، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد ، والحوض العظيم ، في موقف القيامة الى غير ذلك ، وجعل المؤمنين كلهم أولاده وهو أب لهم ، وهذا ضد حال الأبتر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به .

(فصل)

وقوله : ﴿ إنَّ شانئكَ ﴾ أي مبغضك ، والأبتر المقطوع النسل ، الذي لا يولد له خير ولا عمل صالح فلا يتولد عنه خير ، ولا عمل صالح ، قيل لأبي بكر بن عياش : ان بالمسجد قوماً يجلسون اليهم ، فقال : من جلس للناس ، جلس الناس اليه . ولكن أهل السنة يموتون ، ويحيى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم ، لان أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وأهل البدعة شنؤا ما جاء به الرسول ﷺ ، فكان لهم نصيب من قوله : ﴿ إنَّ شانئكَ هُوَ الابتر ﴾ .

فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ، أو ترده لأجل هواك ، أو انتصار مذهبك ، أو لشيخك ، أو لأجل اشتغالك بالشهوات ، أو بالدنيا ، فان الله لم يوجب على احد طاعة أحد الا طاعة رسوله ، والاخذ بما جاء به ، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق ، واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد فان من يطيع أو يطاع انما يطاع تبعاً للرسول ، والا لو امر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع ، فاعلم ذلك واسمع ، وأطع واتبع ، ولا تبتدع ، تكن أبتر مردوداً عليك عملك ، بل لا خير في عمل أبتر من الاتباع ولا خير في عامله والله أعلم .

(فصل)

وقوله تعالى : ﴿ إنَّا اعطيناكَ الكوثر ﴾ تدل على هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معط كبير غني واسع . وانه تعالى وملائكته وجنده معه : صدر الآية (بان) الدالة على التأكيد ، وتحقيق الخبر وجاء الفعل بلفظ الماضي الدال على التحقيق ، وانه أمر ثابت واقع ، ولا يدفعه ما فيه من الايذان ، بأن اعطاء الكوثر سابق في القدر الاول حين قدرت مقادير الخلائق ، قبل ان يخلقهم بخمسين الف سنة ، وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم ، لما فيه من عدم التعيين ، وأتى بالصفة أي أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ انا أعطيناك الكوثر ﴾ فوصفه بالكوثر ، والكوثر المعروف انما هو نهر في الجنة ، كما قد وردت به الاحاديث

الصحيحة الصريحة ، وقال ابن عباس الكوثر انما هو الخير الكثير الذي أعطاه الله اياه ، واذا كان أقل اهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات ، فما الظن بما لرسول الله ﷺ مما أعده الله له فيها ، فالكوثر علامة وامارة على تعدد ما أعده الله له من الخيرات ، واتصالها وزيادتها ، وسمو المنزلة وارتفاعها ، وان ذلك النهر وهو الكوثر أعظم انهار الجنة وأطيبها ماء ، وأعذبها واحلاها وأعلاها .

وذلك انه أتى فيه بلام التعريف الدالة على كمال المسمى وتمامه . كقوله : زيد العالم ، زيد الشجاع ، أي لا أعلم منه ولا أشجع منه ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناكَ الكوثر ﴾ . دل على انه اعطاه الخير كله كاملاً موفوراً ، وان نال منه بعض أمته شيئاً كان ذلك الذي ناله ببركة اتباعه . والاقتدار به ، مع انه له ﷺ مثل أجره من غير ان ينقص من اجر المتبع له شيء ففيه الاشارة الى ان الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر اجور امته كلهم من غير ان ينتقص من اجورهم ، فانه هو السبب في هدايتهم ، ونجاتهم ، فينبغي بل يجب على العبد اتباعه والاقتداء به ، وأن يمتثل ما أمره به ويكثر من العمل الصالح صوما وصلاة وصدقة وطهارة ، ليكون له مثل أجر ما فرط فيه من الخير ، فان فعل المحظور مع ترك المأمور قوى وزره ، وصعبت نجاته لارتكابه المحظور وتركه المأمور ، وان فعل المأمور وارتكب المحظور دخل فيمن يشفع فيه الرسول ﷺ لكونه نال مثل أجر ما فعله من المأمور ، والى الله اياب الخلق ، وعليه حسابهم ، وهو اعلم بحالهم : اي بأحوال عباده ، فان شفاعته لأهل الكبائر من أمته ، والمحسن انما أحسن بتوفيق الله له ، والمسيء لا حجة له ولا عذر .

والمقصود ان الكوثر نهر في الجنة ، وهو من الخير الكثير الذي أعطاه الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة ، وهذا غير ما يعطيه الله من الاجر الذي هو مثل اجور امته الى يوم القيامة ، فكل من قرأ أو علم او عمل صالحاً او علم غيره أو تصدق أو جاهد أو رابط أو تاب أو صبر أو توكل أو نال مقاماً من المقامات القلبية من خشية وخوف ومعرفة وغير ذلك ، فله مثل اجره من غير ان ينقص من اجر ذلك العامل ، والله اعلم .

(فصـــل)

وقوله : ﴿ فصلِّ لربكَ وانحر ﴾ أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين ، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب الى الله ، والى عدته وأمره ، وفضله ، وخلفه ، عكس حال أهل الكبر والنفرة وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة في صلاتهم الى ربهم يسألونه اياها والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ، وتركا لاعانة الفقراء واعطائهم ، وسوء الظن منهم بربهم ، ولهذا جمع الله

بينهما . في قوله تعالى : ﴿ قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربه العالمين ﴾ والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه .

والمقصود : ان الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به الى الله فانه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ، لان فعل ذلك هو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما اعطاه الله اياه من الكوثر ، والخير الكثير ، فشكر المنعم عليه وعبادته اعظمها هاتان العبادتان ، بل الصلاة نهاية العبادات ، وغاية الغايات . كأنه يقول : ﴿ انا اعطيناك الكوثر ﴾ الخير الكثير ، وانعمنا عليك بذلك لاجل قيامك لنا بهاتين العبادتين ، شكراً لانعامنا عليك ، وهما السبب لانعامنا عليك بذلك ، فقم لنا بهما ، فان الصلاة والنحر محفوفان بانعام قبلهما ، وانعام بعدهما واجل العبادات المالية النحر ، واجل العبادات البدنية الصلاة ، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات كما عرفه أرباب القلوب الحية ،وأصحاب الهمم العالية ، وما يجتمع له في نحره من ايثار الله ، وحسن الظن به وقوة اليقين ، والوثوق بما في يد الله أمر عجيب ، اذا قارن ذلك الايمان والاخلاص ، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر ، حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة ، وكان ينحر في الاعياد وغيرها .

وفي قوله : ﴿ إنَّا اعطيناكَ الكوثر ، فصلِّ لربِّكَ وانحر ﴾ اشارة الى انك لا تتأسف على شيء من الدنيا ، كما ذكر في آخر « طه » و « الحجر » وغيرهما ، وفيها الاشارة الى ترك الالتفات الى الناس ، وما ينالك منهم ، بل صل لربك وانحر ، وفيها التعريض بحال الابتر الشانيء ، الذي صلاته ونسكه لغير الله .

وفي قوله : ﴿ إنَّ شانئكَ هُوَ الابتر ﴾ أنواع من التأكيد : أحدها تصدير الجملة بان . الثاني : الاتيان بضمير الفصل الدال على قوة الاسناد والاختصاص . الثالث مجيء الخبر على أفعال التفضيل ، دون اسم المفعول . الرابع : تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه ، وأنه أحق به من غيره ، ونظير هذا في التأكيد قوله : ﴿ لا تخف إنَّكَ أنتَ الأعلىٰ ﴾ .

ومن فوائدها اللطيفة الالتفات في قوله : ﴿ فصلِّ لربِّكَ وانحر ﴾ الدالة على ان ربك مستحق لذلك ، وأنت جدير بأن تعبده ، وتنحر له ، والله أعلم .

تفسير سورة الكافرون (*)

قال الشيخ الامام العلامة مفتي الفرق علم الأعلام تقي الدين شيخ الاسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني : -

(١) فصـــــل

في سورة قل يا أيها الكافرون

للناس في وجه تكرير البراءة من الجانبين طرق حيث قال : ﴿ لا أعبد ما تعبدونَ ولا أنتم عابدونَ ما أعبد ﴾ ، ثم قال : ﴿ ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدونَ ما اعبد ﴾ .

منها قولان مشهوران ذكرهما كثير من المفسرين ، هل كرر الكلام للتوكيد ، أو لنفي الحال والاستقبال ؟

قال أبو الفرج : في تكرار الكلام قولان ، أحدهما أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم فيه ، قاله الفراء . وقد أنعمنا [1] هذا في سورة الرحمن ، قال ابن قتيبة : التكرير في سورة الرحمن للتوكيد : قال : وهذه مذاهب العرب أن التكرير للتوكيد والافهام ، كما أن مذاهبهم الاختصار للتخفيف والايجاز . لأن افتنان المتعلم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد . يقول القائل : والله لا أفعله ، ثم والله لا أفعله ! اذا أراد التوكيد وحسم

(*) طبعت هذه السورة بالهند والسعودية واعتمدنا الاصل المخطوط مع تعليقات طبعة الهند .

(١) كذا بالاصل ، ولعله سقط ، في ، بعد قوله : « أنعمنا » أو لعله « أنعمنا » بمعنى أشبعنا الكلام عليه من قولهم / : أنعم الاناء ، ملأه .

الاطمـاع من أن يفعله ، كما يقـول : والله أفعله ؟ باضمـار « لا » اذا أراد الاختصار ، ويقـول للمرسل المستعجل : اعجل ! والرامي : ارم ، ارم ! قال الشاعر :

كم نعمة كانت لكم ، وكم وكم ؟

وقال الآخر :

هـل سـألـت جمـوع كنـ ـدة يـوم ولُّـوا أيـن أيـنـا ؟

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من اعادتها ثانيـة ، لأنها كلمة واحـدة فغيروا منها حرفاً .

قـال ابن قتيبة : فلما عـدد الله في هذه السـورة [١] انعامـه وذكر عبـاده آلاءه ونبههم على قدرته جعل كل كلمة فاصلة بين نعمتين لتفهيمهم النعم وتقريرهم [٢] بهـا ، كقولـك للرجل : ألم أنزلك منزلاً وكنت طريداً ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أحج بك وكنت [٣] صروراً ؟ أفتنكر هذا ؟

(قلت) : قال ابن قتيبة : تكـرار الكلام في « قـل يا أيهـا الكافـرون » لتكرار الـوقت . وذلـك،أنهم قالـوا : ان سرك أن نـدخل في دينـك عاماً فادخـل في ديننا عـاماً ، فنـزلت هـذه السورة .

(قلت) : هذا الكلام الذي ذكره بـاعادة اللفظ وان (كـان) [٤] كلام العـرب وغيرهم العرب ، فان جميع الأمم يؤكدون اما في الطلب ، واما في الخبر ، بتكـرار الكلام ، ومنـه قول النبي ﷺ : والله ! لأغزون قريشاً ، ثم والله ! لأغزون قريشاً ، ثم والله ! لأغزون قريشاً ، ثم قال : ان شاء الله . ثم لم يغزهم .

وروي عنه أنه في غزوة تبوك كان يقود به حذيفة ، ويسوق به عمار ، فخرج بضعة عشر رجـلاً حتى صعدوا العقبـة ركبانـا متلثمين وكـانـوا قـد أرادوا الفتـك بـرسـول الله ﷺ ، فقـال لحذيفة : قد ، قد ، ولعمـار : سق ، سق .

فهذا أكثر ، لكن ليس في القـرآن من هذا شيء ، فـان القرآن لـه شأن اختص بـه ، لا يشبهه كلام البشر ـ لا كلام نبي ، ولا غيره ، وان كان نزل بلغة العرب . فلا يقـدر مخلوق أن يأتي بسورة ، ولا ببعض سورة ، مثله .

---

(١) أي في سورة الرحمن .

(٢) في الأصل « تقررهم » .

(٣) في الأصل « أنت » ولعله تصحيف من « كنت » اذ جاء خبره منصوباً و « الصرور » والصارور ، والصروري ، والصاروري ، الذي لم يتزوج ، أو لم يحج .

(٤) ليس في الأصل .

فليس في القرآن تكراراً للفظ بعينه عقب الأول قط ، وانما في سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية ، لم يذكر متوالياً . وهذا النمط أرفع من الأول .

وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكرارٌ ، كما ظنه بعضهم .

و « قل يا أيها الكافرون » ، ليس فيها لفظ تكرار الا قوله : ﴿ ولا أنتم عابدونَ ما أعبد ﴾ ـ وهو مع الفصل بينهما بجملة.

وقد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل أحسن اليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها : ألم تك فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تك عرياناً فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تك خاملاً فعرفتك ؟ ونحو ذلك . وهذا أقرب من التكرار المتوالي كما في اليمين المكررة .

وكذلك ما يقوله بعضهم انه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ ، كقوله * فألقى قولها كذباً وميناً * فليس في القرآن من هذا شيء . ولا يذكر فيه لفظاً زائداً الا لمعنى زائد وان كان في ضمن ذلك التوكيد . وما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله : ﴿ فبِمَا رحمة من اللهِ لِنْتَ لهم ﴾ ، وقوله : ﴿ عما قليل ليصبحنَّ نادمين ﴾ ، وقوله : ﴿ قليلاً ما يذكرون ﴾ فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه .

فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ، وقوة اللفظ لقوة المعنى . والضم أقوى من الكسر ، والكسر أقوى من الفتح ، ولهذا يقطع على الضم لما هو أقوى مثل « الكسره » و « الكره » . فالكره هو الشيء المكروه ، كقوله : ﴿ كُتِبَ عليكم القتال وهو كرهٌ لكم ﴾ ، والكره المصدر ، كقوله : ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ . والشيء الذي في نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره .

وكذلك « الذِبْح » و « الذَبْح » ، فالذِبح : المذبوح ، كقوله : ﴿ وفديناهُ بِذبحٍ عظيمٍ ﴾ ، والذَبْح : الفعل . والذِبح : مذبوح ، وهو جسد يذبح ، فهو أكمل من نفس الفعل .

قال أبو الفرج : والقول الثاني أن المعنى : لا أعبد ما تعبدون في حالي هذه ، ولا أنتم في حالكم هذه عابدون ما أعبد . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم في ما استقبل، وكذلك أنتم . فنفى عنهم في الحال والاستقبال . وهذا في قوم بأعيانهم أعلمه الله أنهم لا يؤمنون ، كما ذكرناه عن مقاتل . فلا يكون حينئذ تكرار . قال : وهذا قول ثعلب والزجاج .

(قلت) : قد ذكر القولين جماعة ، لكن منهم من جعل القول الأول قول أكثر أهل المعاني . فقالوا ـ واللفظ للبغوي : معنى الآية : لا أعبد ما تعبدون في الحال ، ولا أنا عابد ما عبدتم في الاستقبال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال . وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون .

قال : وقال أكثر أهل المعاني : نزل بلسان العرب على مجاري خطابهم . ومن مذاهبهم التكرار ارادة للتوكيد والافهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والايجاز .

(قلت) : ومن المفسرين من لم يذكر غير الثاني - منهم المهدوي ، وابن عطية قال ابن عطيّة : لما كان قوله : ﴿ لا أعبد ﴾ محتملاً أن يراد به الآن ، ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته ، جاء البيان بقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، أي أبداً ما حييت . ثم جاء قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً ، كالذين كشف الغيب عنهم ، كما قيل لنوح : ﴿ أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ﴾ - (هود ١١ : ٣٦) . أما ان هذا (فخطاب) [١] لمعينين ، وقوم نوح قد علموا بذلك .

قال [٢] : فهذا معنى الترديد الذي في السورة ، وهو بارع الفصاحة ، وليس هو بتكرار فقط ، بل فيه ما ذكرته ، مع الابلاغ والتوكيد ، وزيادة الأمر بياناً وتبرياً منهم .

(قلت) : هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على التكرير . ولكن فيه نقص من جهة اخرى . وهو جعلهم هذا خطابا لمعينين فنقصوا معنى السورة من هذا الوجه .

وهذا غلط ، فان قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ خطاب لكل كافر ، وكان يقرأ بها في المدينة بعد موت أولئك المعينين ، ويأمر بها ويقول هي براءة من الشرك . فلو كانت خطاباً لأولئك المعينين ، أو لمن علم منهم أنه يموت كافراً ، لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه .

وأيضاً فأولئك المعينون (إن) [٣] صح أنه انما خاطبهم فلم يكن اذ ذاك علم أنهم يموتون على الكفر .

والقول بأنه انما خاطب بها معينين قول لم يَقُلْهُ من يعتمد عليه . ولكن قد قال مقاتل ابن سليمان : انها نزلت في أبي جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد . ونقل مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه بأتفاق أهل الحديث ، كنقل الكلبي .

ولهذا كان المصنفون في التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن واحد منهما شيئاً ، كمحمد بن جرير ، وعبد الرحمن بن أبي حاتم ، وأبي بكر المنذر ، فضلاً عن مثل أحمد ابن حنبل ، واسحاق بن راهويه .

وقد ذكر غيره هذا عن قريش مطلقاً ، كما رواه عبد بن حميد ، عن وهب بن منبه قال :

---

(١) سقط في الأصل ، وفيه ما يشبه ، بمعينين ، بالباء بدل اللام .

(٢) في الأصل « قالوا » وهو خطأ اذا القائل هو ابن عطية فقط ، كما هو ظاهر في قوله الآتي « ذكرته » .

(٣) سقط إن من الأصل ، ويوجد هنا كلمة كأنها « ففية » .

قال كفار قريش للنبي ﷺ : ان سرك أن ندخل في دينك عاماً وتدخل في ديننا عـاماً ، فنـزلت ﴿ قـل يا أيهـا الكافـرون ﴾ حتى ختمها . وعن ابن عبـاس ، قـالت قـريش : يـا محمـد ! لـو استلمت آلهتنـا لعبدنـا الهك ، فنـزلت السورة . وعن قتـادة قال : أمـره الله أن ينـادي الكفـار فناداهم بقوله : ﴿ يا أيها ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه : قال كفار قريش ، فذكره ، وقال عكرمة : برأه الله بهذا السورة من عبدة جميع الأوثان ودين جميع الكفار .

وقال قتادة : أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم .

وروى قتـادة عن زرارة بن أوفى : كانت تسمى « المقشقشـة » . يقال : قشقش فـلان ، اذا برىء من مرضه ، فهي تبرىء صاحبها من الشرك .

وبهذا نعتها النبي ﷺ في الحـديث المعروف في المسنـد والترمـذي من حديث اسـرائيل ، عن أبي اسحـاق ، عن فروة بن نـوفل ، عن أبيـه ، عن النبي ﷺ قال لـه : « مجيء ما جـاء بك ؟ » قال : جئت ، يـا رسول الله ! لتعلمني شيئاً أقولـه عند منـامي . قال : « اذا أخـذت مضجعك فأقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، ثم نم على خاتمتها ، فانها براءة من الشرك » [1] .

رواه غير واحد عن أبي اسحاق ، وكان تـارة يسنده ، وتـارة يرسله . ورواه عنـه زهير ، واسرائيل ، مسنداً : ورواه عنه [2] شعبة ولم يذكر « عن أبيه » ، وقال ، عن أبي اسحاق . عن رجـل ، عن فروة بن نـوفل » ، ولم يقـل « عن أبيه » ، قـال الترمـذي : وحـديث زهـير أشبـه وأصبـح من حـديث شعبـة . قـال : وقـد روى هـذا الحـديث من غـير هـذا الـوجـه فـرواه عبـد الرحمن بن نـوفل ، عن أبيـه ، عن النبي ﷺ . وعبد الـرحمن بن نوفـل هو أخـو فروةابن نوفل .

(قلت) : وقد رواه عن أبي اسحاق ، اسمـاعيل بن أبي خـالد ، قـال : جاء رجـل من أشجع الى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! علمني كلاماً أقوله عند منامي . قال : « انك لنا ظئر [3] اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عند منامك ، فانها براءة من الشرك .

فقد أمر رسول الله ﷺ واحداً من المسلمـين أن يقرأهـا ، وأخبره أنها بـراءة من الشرك .

---

(١) أخرجه احمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم ، عن فروة بن نوفل عن أبيه .

(٢) في الأصل « عن » وهو خطأ .

(٣) في الأصل « ظئرا » والظئر : المرضعة غير ولدها ، ويطلق على زوجها أيضاً . وفي الحديث قصة بينتها رواية أحمد عن نوفل الاشجعي قال : دفع الى النبي ﷺ ابنة أم سلمة وقال : « انما أنت ظئري » . قال : فمكث ما شاء الله ، ثم أتيته فقال : « ما فعلت الجافرية أو الجريرة » ؟ قال : « قلت : عند أمهـا . قال : فمجيء مـا جئت ؟ قال . قلت : تعلمني مـا أقول عنـد منامي ؟ قـال : أقرأ . . الحديث » .

فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين أولئك فقط ، لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد . ومعلوم أن المقصود منها أنت تكون براءة من كل شرك ـ اعتقادي وعملي .

وقوله ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ خطاب لكل كافر وان أسلم فيما بعد . فدينه قَبْلَ الاسلام له كان والمؤمنون بريئون منه ، وان غفره الله له بالتوبة منه ، كما قال لنبيه ﴿ فان عصوكَ فقل انّي بريءٌ مما تعملون ﴾ ـ (الشعراء ٢٦ : ٢١٦) : فانه بريء من معاصي اصحابه وان تابوا منها . وهذا كقوله : ﴿ وان كذبوكَ فقل لي عملي ولكم عملكُم ، أنتم بريئونَ مما أعمل وأنا بريءٌ مما تعملون ﴾ ـ (يونس ١٠ ـ ٤١) .

وروى ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ثنا محمد بن موسى الحرشي ، ثنا أبو خلف[1] عبد الله بن عيسى ، ثنا داوٗد بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن قريشاً دعوا رسول الله ﷺ الى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل فيهم ، ويزوّجوه ما أراد من النساء ويطأوا[2] عقبه ـ أي يسودوه ـ فقالوا : هذا لك عندنا ، يا محمد ! وكف عن شتم آلهتنا ، فلا تذكرها بسوء . فان لم تفعل فانا نعرض عليك خصلة واحدة ، وهي لك ولنا فيها صلاح . قال : « ما هي » ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ـ اللات والعزى ـ ونعبد الهك سنة . قال : « حتى أنظر ما يأتيني من ربي » . فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ الى آخرها ، وأنزل الله عليه : ﴿ قل أفغيرَ الله تأمروني أعبد أيُّها الجاهلونَ * ولقد أوحىٰ اليكَ وإلىٰ الَّذينَ من قبلكَ لئن أشركتَ ليحبطنَّ عملك ولتكونَنَّ من الخاسرينَ * بل الله فاعبد وكن من الشاكرينَ ﴾ ـ (الزمر ٢٩ : ٦٤ ، ٦٦) .

وقوله : ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد أيُّها الجاهلون ﴾ خطاب لكل من عبد غير الله وان كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد . وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله .

وقوله في هذا الحديث « حتى أنظر ما يأتيني من ربي » قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتي هي أحسن ليجمل حجته أن الذي عليه طاعته قد منع من ذلك ، فيؤخر الجواب حتى يستأمره ، وان كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل اليه .

وقد تخطب الى الرجل ابنته فيقول : حتى أشاور أمها ، وهو يريد أن لا يزوجها بذلك ،

(١) في الأصل « أبو خالد » ، وهو تصحيف من « أبو خلف » لأن خالداً يكتب بحذف الألف هكذا « خلد » فاشتبه على الناسخ . وهو في رواية الطبري (ابو خلف) وذكره في تهذيب التهذيب أيضاً .

(٢) في الأصل « يطأون » بالنون مع أنه عطف على « ان يعطوه » ، وفي الطبري يحذف النون و « موطا العقب » : سلطان يتبع وتوطأ عقبه ، أي يتبعه الناس ويمشون وراءه ـ القاموس والنهاية .

ويعلم أن أمها لا تشير به ، وكذلك قد يقول النائب ، حتى أشاور السلطان .

فليس في مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح لـه ذلـك .

وقد كان جماعة من قريش من الذين يأمرونه وأصحابه أن يعبدوا غير الله ، ويقاتلونهم ، ويعادونهم عداوة عظيمة على ذلك ، ثم تابوا وأسلموا وقرأوا هذه السورة .

ومن النقلة من يعين ناساً غير الذين عينهم غيره ، منهم من يذكر أبا جبل وطائفة ، ومنهم من يذكر عتبة بن ربيعة وطائفة ، ومنهم من يذكر الوليد بن مغيرة وطائفة ، ومنهم من يقول : طلبوا أن يعبدوا الله معه عاماً ويعبد آلهتهم معهم عاماً . ومنهم من يقول : طلبوا أن يستلم آلهتهم .

ومنهم من يقول : طلبوا الاشتراك ، كما روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن اسحاق قال : حدثني سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال لقي الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف ، ورسول الله ﷺ ، فقالوا : هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فان كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركنا (ك) فيه وأخذنا بحظنا منه . وان كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد قد شركتنا في أمرنا [1] وأخذت بحظك منه ، فأنزل الله السورة .

وهذا منقول عن عيد بن عمير ، وفيه أن القائل له عتبة ، وأمية .

فهذه الروايات متطابقة على معنى واحد ، وهو أنهم طلبوا منه أن يدخل في شيء من دينهم ، ويدخلوا في شيء من دينه ، ثم أن كانت كلها صحيحة فقد طلب منه تارة هذا وتارة هذا ، وقوم هذا وقوم هذا .

وعلى كل تقدير فالخطاب للمشركين كلهم ـ من مضى ، ومن يأتي الى يوم القيامة .

وقد أمره الله بالبراءة من كل معبود سواه . وهذا ملة ابراهيم الخليل ، وهو مبعوث بملته . قال الله تعالى : ﴿ واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني برآء مما تعبدون * الا الذي فطرني فانه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٢٦ ـ ٢٨) .

وقال الخليل أيضاً : ﴿ يا قوم اني بريءٌ ممّا تشركونَ * إنّي وجهتُ وجهي للذي فطرَ السمواتِ والأرض حنيفاً وما أنا من المشركينَ ﴾ ـ (الانعام ٦ : ٧٨ ، ٧٩) . وقال : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه ، اذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من

---

(١) في الأصل « أمرك » ، والصحيح ، أمرنا » كما في رواية ابن جرير . ورواه ابن هشام في السيرة من وجه آخر .

دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ - (الممتحنة ٦٠ : ٤) .

وقال لنبيه : ﴿ وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكُم ، أنتُم بريئونَ ممّا أعمل وأنَا بريءٌ ممّا تعملون ﴾ - (يونس ١٠ : ٤١) . فقد أمره الله أن يتبرأ عن عمل كل من كذبه ، وتبريه هذا يتناول المشركون وأهل الكتاب .

وقد ذكر المهدوي هذا القول ، وذكر معه قولين آخرين ، فقال : الألف واللام ترجع الى معهود وان كان للجنس حيث كانت صفتة ، لأن لامها مخاطبة لمن سبق في علم الله أنه يموت كافراً ، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم .

وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير في المعنى ، ولا في اللفظ ، سوى موضع واحد منها ، فانه تكرير في اللفظ دون المعنى . بل معنى ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ في الحال ، ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الحال ، ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ في الاستقبال ، ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الاستقبال .

قال فقد اختلف اللفظ والمعنى في قوله : ﴿ لا أعبد ﴾ ، وما [1] بعده ﴿ ولا أنا ﴾ . وتكرر ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في اللفظ دون المعنى .

قال : وقيل ان معنى الأول : ولا أنتم عابدون ما عبدت ، ومعنى الثاني : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، فعدل عن لفظ « عبدت » للاشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل - قد يقع أحدهما موقع الآخر . وأكثر ما يأتي ذلك في اخبار الله تعالى .

ويجوز أن تكون « ما » والفعل مصدراً ، وقيل ان معنى الآيات وتقديرها : قل يا أيها الكافرون ! لا أعبد الاصنام الذي تعبدون ، ولا أنتم عابدون الذي أعبده ، لاشراككم به واتخاذكم معه الأصنام ، فان زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون ، لأنكم تعبدونه مشركين به ، فأنا لا أعبد ما عبدتم ، أي مثل عبادتكم ، فهو في الثاني مصدر . وكذلك ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ هو في الثاني مصدر أيضاً ، معناه : ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد .

(قلت) : القول الثالث هو في معنى الثاني ، لكن جعل قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ معنيين [2] : أحدهما بمعنى « ما عبدت » ، والآخر بمعنى « ما أعبد » ليطابق قوله لهم ﴿ ولا أعبد ما تعبدون ﴾ و ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ [3] .

---

(١) في الأصل « ولا » ، ولعل صوابه « وما » .

(٢) في الأصل « معنيان » على الرفع .

(٣) ليس في الأصل ذكر قوله الثاني مع أنه يناسب ذكره لبيان المطابقة تماماً .

فلما تبرأ من أن يعبد في الحال الاستقبال ما يعبدونه في الماضي والحال ، كذلك برأهم من عبادة ما يعبد في الحال والاستقبال . لكن العبارة عنهم وقعت بلفظ الماضي . قال هؤلاء : وانما لم يقل في حقه « ما عبدت » للاشعار بأن ما أعبده في الماضي هو الذي أعبده في المستقبل .

(قلت) : أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم .

لكن اذا أريد بقوله : ﴿ ما عبدتم ﴾ ﴿ ما أريد ﴾ [1] بقوله ﴿ ما أعبد ﴾ ـ في أحد الموضعين الماضيين ـ كان التقدير على ما ذكروه : لا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم في الماضي . فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبدوه في الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل .

وكذلك اذا قيل ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، أي في الماضي ، فسواء أريد بما يعبدون الحال [2] و [2] الاستقبال انما نفي عبادة ما عبده [3] في الماضي . وهذا أنقص لمعنى الآية [4] وكيف يتبرأ في المستقبل من عبادة ما عبدوه في الماضي فقط ؟ وكذلك هم ؟ .

وان قيل : في المستقبل قد يعبدون الله بالانتقال عن الكفر ، فهو في الحال والاستقبال لا يعبد ما عبدوه ، قيل : فعلى هذا لا يقال لهؤلاء : ولا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي ، بل قد يعبدون في المستقبل ـ اذا انتقلوا ـ ربه الذي عبده فيما مضى .

وان قيل : قول هؤلاء هو القول الثاني ـ لا أعبد في الحال ما تعبدون في الحال ، ولا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل ، قيل : ولفظ الآية ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، ليس لفظها ، ﴿ولا أنا عابد ما تعبدون ﴾ ، فقوله : ﴿ وما عبدتم ﴾ أن أريد به الماضي الذي أراده هؤلاء فسد المعنى ، وان اريد به المستقبل بطل ما ذكروه من أن المضارع بمعنى الماضي في قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، فان الماضي هنا بمعنى المضارع . فاذا كان المضارع مطابقاً له بقي مضارعاً ـ لم ينقل الى الماضي ـ فيكون عكس المقصود .

والقول الرابع الذي ذكره قول من جعل « ما » مصدرية في الجملة الثانية دون الأخرى . وهذا أيضاً ليس في الكلام ما يدل على الفرق بينهما . واذا جعلت في الجمل كلها مصدرية كان أقرب الى الصواب . مع أن هذا المعنى الذي يدل عليه « ما » المصدرية حاصل بقوله « ما » ، فانه لم يقل « ولا أنتم عابدون من أعبده ، بل قال ﴿ ما أعبد ﴾ .

---

(١) ليس بالأصل .

(٢) (٢) في الأصل « و » بدل « أو » .

(٣) في الأصل « عبدوه » ، وهو خطأ .

(٤) سيذكر المصنف معنى هذه الآيات في الفصل الآتي ببسط ليس عليه مزيد .

ولفظ « ما » يدل على الصفة بخلاف « من » . فانه يدل على العين ، كقوله : ﴿ فانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ ﴾ - (النساء ٤ : ٣) ، أي الطيب ، ﴿ والسماء وما بناها ﴾ - (الشمس) ، أي وبانيها ، ونظيره قوله : ﴿ اذ قال لبنيهِ ما تعبدونَ من بعدي ، فالوا نعبدُ الهك وآله آبائِكَ ﴾ - (البقرة ٢ : ١٢٣) ، ولم يقل « من تعبدون من بعدي » .

وهذا نظير (قوله) ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ سواء . فالمعنى : لا أعبد معبودكم ، ولا أنتم عابدون معبودي .

فقوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ يتناول شركهم ، فانه ليس بعبادة الله فان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً لوجهه . فاذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له وان دعوه وصلوا له .

وأيضاً فما عبدوا (ما) [1] يعبده ، وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص . بل هذا يتناول عبادته وحده ، ويتناول الرب الذي أخبر به بما له من الاسماء والصفات ، فمن كذب به في بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل وجه .

وأيضاً فالشرائع [2] قد تتنوع في العبادات ، فيكون المعبود واحداً وان لم تكن العبادة مثل العبادة ، وهؤلاء لا يتبرأ منهم ، فكل من عبد الله مخلصاً له الدين فهو مسلم في كل وقت ، ولكن عبادته لا تكون الا بماشرعه ، فلو قال : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عباداتي ، فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته . وانما البراءة من المعبود وعبادته .

---

(١) سقط لفظ « ما » من الأصل ، ولا يستقيم بدونه .

(٢) في الأصل « الشارع » والظاهر انه « الشرائع » .

(٢) فصـــل

وجوب البراءة من كل معبود سوى الله

اذا تبين هذا فنقول : القرآن تنزيل من حكيم حميد ، وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت .

ولو أن رجلاً من بني آدم له علم ، أو حكمة ، أو خطبة ، أو قصيدة ، أو مصنف ، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا النظير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة ، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى . فكيف بكلام رب العالمين ، وأحكم الحاكمين ، لا سيما وقد قال فيه ﴿ قل لئنِ اجتمعت الانسُ والجن على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ـ الاسراء ١٧ : ٨٨) ؟

فنقول : الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضي ، فيعم الحاضر والمستقبل ، كما قال سيبويه : وبنوه [١] لما مضى من الزمان ، ولما هو دائم لم ينقطع ، ولما لم يأت ـ بمعنى الماضي ، والمضارع ، وفعل الأمر . فجعل المضارع لما هو الزمان وانما لم ينقطع ، وقد يتناول الحاضر والمستقبل .

فقوله : ﴿ لا أعبد ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والزمان المستقبل ، وقوله : (ما تعبدون يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل ، كلاهما مضارع .

وقال في الجملة الثانية عن نفسه ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، فلم يقل « لا أعبد » بل قال ﴿ ولا أنا عابد ﴾ . ولم يقل « ما تعبدون » ، بل قال ﴿ ما عبدتم ﴾ . فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة ﴿ الأولى ﴾ [٢] .

والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى ، فانه قال : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ بصيغة الماضي ، فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي ، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى ، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر ، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى .

فقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ براءة من كل ما عبدوه في الأزمنة الماضية ، كما تبرأ

---

(١) أي الفعل .

(٢) ليس في الأصل .

أولا مما عبدوه في الحال والاستقبال ، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ـ ماضي ، وحاضر ، مستقبل . وقوله أولاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ لا يتناول هذا كله .

وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل ، ليس مضافاً ، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضاً ، لكنه جملة اسمية ، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى ، كما تقول : ما أفعل هذا ، وما أنا بفاعله .

وقولك : « ما هو بفاعل »[1] هذا أبداً ، أبلغ من قولك « ما يفعله أبداً » فانه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها ، بخلاف قولك « ما يفعل هذا » ، فانه لا ينفي امكانه وجوازه منه ، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له بخلاف، « ما هو فاعل، وماهو بفاعل » ، كما في قوله : ﴿ فما الَّذين فضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ﴾ ـ (النحل ١٦ : ٧١) ، وقوله : ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ﴾ ـ (ابراهيم ١٤ : ٢٢) ، وقوله : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ، ﴿ وما أنت بهادي العمى ﴾ ، ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ ، ﴿ وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ﴾ .

ولا يقال : الجملة الاسمية ترك الثبوت ، ونفي ذلك لا يقتضى نفي العارض ، فان هذه الجملة في معنى الفعلية نفي ، لكونها عملت عمل الفعل ، لكنها دلت على اتصاف الذات بهذا ، فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنزيها للذات ونفياً لقبولها لذلك . فالأول نفي الفعل في الماضي والمستقبل ، والثاني نفي قبوله في الماضي مع الحاضر والمستقبل .

فقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، أي نفسي لا تقبل ولا تصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط ، فأي معبود عبدتموه في وقت فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات .

ففي هذا من عموم عبادتهم في الماضي والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذا العبادة في جميع الا زمان ما ليس في الجملة الأولى . تلك تضمنت نفي الفعل في الزمان غير الماضي ، وهذه تضمنت نفي امكانه وقبوله لما كان معبوداً لهم ولو في بعض الزمان الماضي فقط ، والتقدير : ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبداً .

ولكن لم ينف الا ما يكون منه في الحاضر والمستقبل لأن المقصود براءته هو الحال والاستقبال ، وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وان كان قد أشرك بالله قبل قراءتها .

---

(١) في الأصل « يفعل » بدل « بفاعل » والظاهر أنه تصحيف .

فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون في أي زمان كان ، وينفي جواز عبادته لمعبودهم ، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ ، فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً [1] فان مثل هذا الكلام لا يقل الا فيما يستقبح من الأفعال ، كمن دعى الى ظلم أو فاحشة فقال « أنا أفعل هذا ؟ ما أنا بفاعل هذا أبداً » ، فهو أبلغ من قوله « لا أفعله أبداً » . وهذا كقوله : « وما أنت بتابعٍ قبلتهم ، وما بعضهم بتابعٍ قبلةَ بعضٍ » - (البقرة ٢ : ١٤٥) .

فهو يتضمن نفي الفعل بغضا فيه وكراهة له ، بخلاف قوله ، « لا أفعل » ، فقد يتركه الانسان وهو يحبه لغرض آخر . فاذا قال : « ما أنا عابد ما عبدتم ، دل على البغض والكراهة والمقت لمعبودهم ولعبادتهم اياه . وهذه هي البراءة .

ولهذا تستعمل في ضد الولاية فيقال : تول فلاناً [2] ، وتبرأ من فلان ، كما قال تعالى : ﴿ اذا قالُوا لقومهم إنّا برآء منكم ومما تعبدونَ من دونِ الله ـ الآية ﴾ ـ (الممتحنة ٦٠ : ٤) .

وأما قوله عن الكفار ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، فهو خطاب لجنس الكفار وان أسلموا فيما بعد ، فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً ، فاذا أسلموا لم يتناولهم ذلك ، فانهم حينئذاً مؤمنون ، لا كافرون . وان كانوا منافقين فهم كافرون في الباطن ، فيتناولهم الخطاب .

وهذا كما يقال : قل يا أيها المحاربون ، والمخاصمون ، والمقاتلون ، والمعادون ، فهو خطاب لهم ما داموا متصفين بهذه الصفة .

وما دام الكافر كافراً فانه لا يعبد الله ، وانما يعبد الشيطان ، سواء كان متظاهراً ، أو غير متظاهر به كاليهود .

فان اليهود لا يعبدون الله ، وانما يعبدون الشيطان ، لأن عبادة الله انما تكون بما شرع وأمر . وهم وان زعموا أنهم يعبدونه فتلك الأعمال المبدلة والمنهى عنها هو يكرهها ويبغضها وينهي عنها ، فليست عبادة .

فكل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافراً ، والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع ، فهو ما دام كافراً لا يعبد معبود محمد ﷺ ـ لا في الحاضر ولا في المستقبل .

---

(١) قد حكى الحافظ ابن كثير في تفسيره هذا القول عن المصنف ، ولكن الظاهر أنه لم يطلع على كلامه مفصلاً كما هنا . فقال : وثم قول رابع نصره أبو العباس ابن تيمية في بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ نفي الفعل . لانها جملة فعلية . ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية ، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد ، فكأنه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك . ومعناه نفي الوقوع ، ونفي الامكان الشرعي أيضاً ، وهو قول حسن أيضاً ـ ا هـ كلام ابن كثير .

(٢) في الأصل « فلان » .

ولم يقل عنهم « ولا تعبدون ما أعبد » ، بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أنـه نفس نفوسكم الخبيثـة الكافـرة بريئـة من عبادة الـه محمد ، لا يمكن أن تعبـده ما دامت كـافرة . اذ لا تكـون عابدته الا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمـد ، ومن كان كافراً بمحمد لا يكـون عمله عبادة لله قط .

وتبرئتهم من عبادة الله جـاءت بلفظ واحد بجملة اسميـة تقتضي براءة ذواتهم من عبـادة الله ، لم تقتصر على نفي الفعل .

ولم يحتج أن يقول فيهم « ولا أنتم عابدون ما عبدت » ، كما قال في نفسه ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ لوجهين .

أحدهما : أن كل مؤمن فهو مأمور بقراءة هذه السورة ، ومنهم من كان معبوده غير الله . فلو قال : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » لقالوا : بل نحن نعبد ما كنت تعبد لما كنت مشركاً ، بخلاف ما اذا قال « ولا أنتم عابدون ما أعبده في هذا الوقت » .

ولم يقل « ما أنا عابـد له » اذ نفسـه قد لا تكـون عابـدة له مـطلقاً . وقـد يجوز أن يعبـد الواحد من الناس غير الله في المستقبل ، فلا يكون من لم يعبد مـا يعبده في المستقبـل مذمـوماً ، بخلاف المؤمن الذي يخاطب بهذه السورة غيره ، فانه حين يقولهـا ما يعبـد الا الله . فهو يقـول للكفار ، ولا أنتم عابدون ما أعبده الآن .

وذكـر النفي عن الكفار في الجملتـين لتقـارب كـل جملة جملة ، فلما قـال ﴿ لا أعبـد مـا تعبدون ﴾ ، فنفى الفعل ، قال : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ .

ثم لما زاد النفي بنفي جواز ذلك وبراءة النفس منه ـ ذكر ما يدل على كراهته له وقبحه ، ونفى أن يعبد شيئاً مما عبدوه ولو في بعض الزمان ـ قال : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، بـل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده ، فليس لبراءتي ، وكمال براءتي وبعدي من معبودكم ، وكمـال قربي الى الله في عبادتي له وحده لا شريك لـه ، يكون لكم نصيب من هـذه العبادة ، بـل أنتم أيضاً في هذه الحال لا تعبدون ما أعبد ـ لا في الحال الأولى ، ولا في الثانية .

ولو اقتصر في تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها تبرئة لهم في هـذه الحال الثانية ، فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى الخاصة ، وحين البراءة الثانية العامة القاطعة .

وهم لم يختلف حـالهم في الحالـين ، بل هم فيهـما لا يعبدون مـا يعبـد . فلم [1] يكن في تغيير العبارة [2] فائدة ، وانما غيرت [3] العبارة في حقه وحق المؤمنين لتغيير المعنيين .

---

(١) في الأصل « فلو لم » . (٢) في الأصل « العبادة » .

(٣) في الأصل « غيرته » ولعل ثلاثتها مصحفة .

والانسان يقوى يقينه ، واخلاصه ، وتوحيده ، وبراءته من الشرك وأهله ، وبغضه لما يعبدون ولعبادتهم ، فرفع درجته في ذلك . وهو في ذلك يقول للكفار « لا تعبدون ما أعبد » في هذه الحال ـ سواء كانوا هم قد زاد كفرهم وبغضهم له أو لم يزد .

فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم ، ويخبرهم أنهم برآء منه .

وتبريه منهم انشاء ينشئه ، كما ينشىء المتكلم بالشهادتين ، وهذا يزيد وينقص ، ويقوى ويضعف .

وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه في هذه الحال ، لا ينشىء شيئاً لم يكن فيهم . فخطاب المؤمن عن حالهم خبر عن حالهم ، والخبر مطابق للمخبر (عنه) [1] ، فلم يتغير لفظ خبره عنهم ، اذا كانوا في كل وقت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد . فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الاوقات ـ زادوا أو نقصوا .

ولا يجوز للمؤمن أن ينشىء زيادة في كفرهم ، فان ذلك محرم . بل هو مأمور بدعائهم الى الايمان . وليس له أن ينقصهم في خبره عما هم متصفون [2] به . فلم يكن في الاخبار عن حالهم زيادة فيما هم عليه ولا نقص .

فلم يغير لفظ الخبر في الحالين بلفظ واحد .

وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشيء قوة الاخلاص لله وحده وعبادته وحده ، والبراءة من كل معبود سواه وعبادته ، وبراءته منه ومن عابديه .

وقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ وان كان لفظها خبراً ففيها معنى الانشاء كسائر ألفاظ الانشاآت ، كقوله : « أشهد أن لا اله الا الله » ، وقوله : ﴿ انني براءٌ مما تعبدونَ * إلَّا الذي فطرني ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٢٦ ، ٢٧) ، وقوله : ﴿إني بريءٌ مما يشركون ﴾ ـ (الأنعام ٦ : ٧٨) . فكل هذه الأقوال فيها معنى الانشاء لها ينشئه المؤمن في نفسه من زيادة البراءة من الشرك [3] .

وهي المقشقشة [4] التي تقشقش من الشرك ، كما يقشقش المريض من المرض . فان الشرك والكفر أعظم أمراض القلوب ، فأمر المؤمن بقول يوجب في قلبه من البراءة من الشرك

---

(١) سقط « عنه » ، من الأصل .

(٢) في الأصل « متصفين» .

(٣) قال النحاة : الكلام ان لم يحتمل الصدق والكذب يسمى « تنبيها » و « انشاء » لأنك نبهت به على مقصودك وانشائه ، أي ابكرته من غير أن يكون موجوداً في الخارج . وان احتملها من حيث هو فهو « الخبر » .

(٤) قال في القاموس : « أفش من الجدري » برأ منه كتقشقش . وقال في النهاية : يقال لسورتي قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد « المقشقشتان » أي المبرئتان من النفاق والشرك ، كما يبرأ المريض من علته ، يقال : قد تقشقش المريض اذا أفاق وبرأ .

ما لم يكن في قلبه قبل ذلك ، وكلما قاله ازداد براءة من الشرك ، وقلبه شفاء من المرض ، وان كان الكفرة المخاطبون لا يزدادون بالاخبار عنهم الا كفرا .

فالجمل الخبرية تطابق المخبر عنه ، والانشاء يوجب احداث ما لم يكن ، ﴿ قُل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، أي أنا ممتنع من هذا ، تارك له ، ثم قال ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي أنا بريء من هذا ، متنزه عنه ، مذك لنفسي منه ، فان الشرك أعظم ما تنجس به النفس ، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه . فما أنا عابد قط ما عبدتم في وقت من الأوقات .

وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد ، بل أنتم بريئون مما أعبد ، وأنا بريء مما تعبدون ، مأمور بالبراءة منه ، وطالب زيادة للبراءة منه ، ومجتهد في ذلك .

وأنا أخبر عنكم بأنكم بريئون مما أعبد ، اما لكونكم تأمرون بذلك : واما لكونكم تعبدونه ، فلا أخبر به ، فانه كذب ، وإما لكونكم تجتهدون في البراءة وتبالغون فيها ، فبها تختلف فيه أحوالكم .

وأنا لا يسوغ لي أن أذكر ما يزيد [1] براءتكم ، ولا أكذب عليكم ، فانكم تنقصون منها اذا تبرأت ، بل التبري منها داع وباعث لمن له عقل أن ينظر في سبب هذه البراءة ، لا سيما في حق الرسول الذي خوطب أولاً بقوله (قل) .

فلينظر العاقل في سبب براءتي من الشرك وما أنتم عليه ، واختياري به عداوتكم [2] والصبر على أذاكم ، واحتمالي هذه المكاره العظيمة ، بعد ما كنتم تعظموني غاية التعظيم ، وتصفوني بالأمانة ، وتسموني « الأمين » ، وتفضلوني على غيري ، ونسبي فيكم أفضل نسب ، وتعرفون ما جعل الله في من العقل والمعرفة ومكارم الأخلاق وحسن المقاصد وطلب العدل والاحسان ، وأني لا اختار لأحد منكم سوءا ، ولا أريد أن أصيب أحداً بشر . فاختياري للبراءة مما تعبدون ، واظهاري لسبهم وشتمهم . أهو سدى ليس له موجب أوجبه ؟ فانظروا في ذلك .

ففي السورة دعاء وبعث للكفار الى طلب الحق ومعرفته ، مع ما فيها من كمال البراءة منهم .

ومعانيها كثيرة شريفة يطول وصفها .

وقوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ يتناول كل كافر . فهو لا يعبد ما يعبده أحد من

---

(١) في الأصل « يزيل » .

(٢) في الأصل « بعداوتكم » .

الكفار ، ولا مشركيُ العرب ، ولا غيرهم من المشركين والكفار أهل الكتاب ـ لا اليهود ولا النصارى ، ولا غيرهم من أصناف الكفار .

وذلك أنه قال ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، فذكر لفظ « ما » ولم يقل « من تعبدون » . و « ما » تدل على الصفة كما تقدم .

وما ذكره المهدوي وغيره من أنه قال﴿ ما أعبد ﴾ولم يقل « من أعبد » ـ يقابل به ﴿ ولا أنا عابد﴾﴿ ما عبدتم ﴾ الذي يراد به الاصنام ، فضعيف جداً بغير اللغة ويخص عموم القرآن ـ وهو عموم مقصود ـ ويزيل المعنى الذي به تعلقت هذه البراءة .

فان « ما » في اللغة اما لما لا يعلم ، ولصفات ما يعلم ، كما في قوله : ﴿ فانكحوا ما طاب ﴾ ، ﴿ وما سواها ﴾ ، ﴿ وما خلقَ الذَّكَرَ والأنثىٰ ﴾ ، وفي التسبيح المأثور أنه يقال عند سماع الرعد : « سبحان ما [1] سبحت له » ، ومثله كثير ، فقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ جار على أصل اللغة .

وأيضاً فقوله ﴿ ولا أعبد ما تعبدون ﴾ خطاب للكفار مطلقاً . فهؤلاء يعبد الملائكة ولا غير ذلك مما عبد من دون الله وان كان ما عبد أهل العلم والعقل فعبر عن ذواتهم بـ « من » . فتخصيص البراءة من الشرك بشرك مشركي العرب غلط عظيم ، وانما هي براءة من كل شرك .

وكون الرب يتصف بما يتصف به الاصنام من عدم العلم ما لا يجوز عليه ، ولا تصح المقابلة في مثل ذلك ، بل المقصود ذكر الصفات والاخبار بمعبود الرسول والمؤمنين ليتبرأ من معبودهم ويبرئهم من معبوده .

واذا قال اليهود : نحن نقصد عبادة الله ، كانوا كاذبين ، سواء عرفوا أنهم كاذبون [2] أو لم يعرفوا ، كما يقول النصارى : انا نعبد الله وحده وما نحن بمشركين ، وهم كاذبون . لأنهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر به ، وهو الشرع ، لا بالمنسوخ المبدل .

وأيضاً فالرب الذي يزعمون أنهم يقصدون عبادته هو عند (هم) [3] رب لم ينزل الانجيل ولا القرآن ، ولا أرسل المسيح ولا محمداً ، بل هو عند بعضهم فقير ، وعند بعضهم بخيل ، وعند بعضهم عاجز ، وعند بعضهم لا يقدر أن يغير ما شرعه . وعند جميعهم أنه أيد الكاذبين المفترين عليه الذين يزعمون أنهم رسله وليسوا رسله ، بل هم كاذبون سحرة . قد

---

(١) روى ذلك ابن جرير عن علي ، وابن عباس ، والاسود بن يزيد ، وطاوس مرسلا ، تحت قوله ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ ، ولكن بلفظ « من » أو « الذي » لا بلفظ « ما » كما ذكر المصنف .

(٢) في الأصل كاذبين « على النصب » ولا وجه له .

(٣) ليس في الأصل .

أيدهم ونصرهم ، ونصر أتباعهم على أوليائه المؤمنين ، لأنهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس . فالرب الذي يعبدونه هو دائماً ينصر أعداءه .

فهم يعبدون هذا الرب ، والرسول والمؤمنون لا يعبدون هذا المعبود الذي تعبده اليهود . فهو منزه عما وصفت به اليهود معبودها من جهة كونه معبوداً لهم ـ منزه عن هذه الأضافة ، فليس هو معبودا لليهود ، وانما في جبلاتهم صفات ليست في صفاته زينها لهم الشيطان . فهم يقصدون عبادة المتصف بتلك الصفات وانما هو الشيطان .

فالرسول والمؤمنون لا يعبدون شيئاً تعبده اليهود ـ وان كانوا يعبدون من يعبدونه ، وهذا مما يظهر به فائدة ما ذكرنا .

وعلى هذا فقوله : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ خطاب لجميع الكفار ، كما دلت عليه الآية . وبهذا يظهر خطأ من قال انه خطاب للمشركين والنصارى دون اليهود ، كما في قول ابن زيد : (لكم دينكم ولي دين) ، قال للمشركين والنصارى ، واليهود لا يعبدون الا الله ، ولا يشركون ، الا أنهم يكفرون ببعض الانبياء بما جاءوا به من عند الله ، ويكفرون برسول الله ﷺ وبما جاء به وقتلوا طوائف الأنبياء ظلماً وعدواناً . قال : الا العصابة التي بغت حتى [1] خرج بختنصر ، وقيل : من سموا عزيراً « ابن الله » دعا الله ولم يعبدوه [2] . ولم يفعلوا كما فعلت النصارى ـ قالت : المسيح ابن الله وعبدته .

فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب والنصارى صحيح ، لكنهم مع هذا لا يعبدون الله . بل يستكبرون عن عبادته ، ويعبدون الشيطان ، لا يعبدون الله . ومن قال ان اليهود تعبد الله فقد غلط غلطاً قبيحاً . فكل من عبد الله كان سعيداً من أهل الجنة ، وكان من عباد الله الصالحين . قال تعالى : ﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدمَ أَنْ لا تعبدُوا الشيطانَ ، إنَّه لكم عدوٌ مبينٌ * وأنِ أعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ ـ ﴿ يس ٣٦ : ٦١ : ٦٢) .

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه الى اليمن : « انك تأتي قوماً هم أهل كتاب ، فأول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ـ وفي رواية ، « فادعهم الى عبادة » ـ فاذا عرفوا الله فأعلمهم . . . » .

---

(١) لعل في هذه الجملة خللاً ، والذي في تفسير ابن جرير هكذا : قال : الا العصابة التي بقوا حتى خرج بختنصر فقالوا : « عزير ابن الله » دعا الله ولم يعبدوه .

(٢) في الأصل التي تقول حيث . والتصويب من تفسير الطبري .

(٣) في الأصل : ابن الله ولم يعبدون . والتصويب من تفسير الطبري .

فلا يعبد الا الله بعد أن أرسل محمداً وعرفت رسالته وبلغت . ولهذا اتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة . ولو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم ، فان الله لا يظلم أحداً .

وقبل ارسال محمد انما كان يعبد الله من عبده بما أمر به . فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله ، انما يعبد الشيطان ، ويعبد الطاغوت ، وقد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت ، وأنه لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت .

وهو اسم جنس يدخل فيه الشيطان ، والوثن ، والكهان ، والدرهم والدينار ، وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿ ألم ترَ الى الَّذينَ أوتُوا نصيباً من الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ﴾ - (النساء ٤ : ٥١) ، وقال : ﴿ نبذَ فريقٌ مِنَ الَّذينَ أوتُوا الكتابَ كتابَ اللهِ وراءَ ظهورهم كأنهم لا يعلمونَ * واتبعُوا ما تتلُوا الشياطينُ على ملكِ سليمانَ وما كفرَ سليمانُ - الآية ﴾ - (البقرة ٢ : ١٠١ ، ١٠٢) .

وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى ، وكفرهم أغلظ ، وهم مغضوب عليهم . ولهذا قيل : انهم تحت النصارى في النار . واليهود ان لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه وعلى أمه بما هو أعظم من كفر النصارى . ولهذا جعل الله النصارى فوقهم الى يوم القيامة .

فالنصارى مشركون يعبدون الله ويشركون به . وأما اليهود فلا يعبدون الله ، بل هم معطلون لعبادته ، مستكبرون عنها - كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون . بل هم متبعون أهواءهم ، عابدون للشيطان .

فالنبي والمؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود . وهم ان وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزه عنه . وليس في قلوبهم عبادة له وحده . فان ذلك لا يكون الا لمن عبده بما أمره به .

والسورة لم يقل فيها « يا أيها المشركون » حتى يقال فيها انها انما تناولت من أشرك . بل قال ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ ، فتناولت كل كافر ، سواء كان ممن يظهر الشرك ، أو كان فيه تعطيل لما يستحقه الله واستكبار عن عبادته . والتعطيل شر من الشرك ، وكل معطل فلا بد أن يكون مشركاً .

والنصارى مع شركهم لهم عبادات كثيرة ، واليهود من أقل الأمم عبادة وأبعدهم عن العبادة لله وحده . ولكن قد يعرفون ما لا تعرفه النصارى ، لكن بلا عبادة وعمل بالعلم . فهم مغضوب عليهم ، وأولئك ضالون . وكلاهما قد برأ الله منهم رسوله والمؤمنين .

وفي هذه الأمة من يعرف ما لا تعرفه اليهود والنصارى بلا عمل بالعلم ففيهم شبه ، كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . بل قد قال أبو هريرة : ما أقرب الليلة من البارحة ، أنتم أشبه الناس ببني اسرائيل . بل في الحديث الصحيح : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : « ومن الناس الا أولئك » ؟ .

وقال : افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار الا واحدة .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين فيه حال الفرقة الناجية الذين هم على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه [1] .

ومما يوضح ما تقدم أن قوله ﴿ لا أعبد ما تعبدون ۞ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ معناه المعبود . ولكن هو لفظ المعبود . ولكن هو لفظ مطلق يتناول الواحد والكثير ، والمذكر والمؤنث فهو يتناول كل معبود لهم .

والمعبود هو الاله ، فكأنه قال : لا أعبد الهكم ، ولا تعبدون الهي ، كما ذكر الله في قصة يعقوب . قال تعالى : ﴿ أم كنتم شهداءَ اذ حَضَرَ يعقوبَ الموت اذ قال لبنيهِ ما تعبدونَ من بعدي ، قالوا نعبدُ الهـك واله آبائِكَ ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ الهاً واحداً ونحنُ لهُ مسلمون ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٢٣) . واسم الاله والمعبود يتضمن اضافة الى العابد ، وقال : ﴿ اله آبائك ﴾ [2] ابراهيم واسماعيل واسحاق ﴾ هو الذي يعبد هؤلاء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ويألهونه .

وانما يعبده من كان على ملتهم ، كما قال يوسف و ﴿ اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ۞ واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ـ الى قوله ـ ذلكَ الدين القيّم

---

(١) قد صنف المصنف في هذا الحديث رسالته الجامعة المسماه « الوصية الكبرى » ، بين فيها خصائص الفرقة الناجية وهم أهل السنة والجماعة حقاً ، وبين الصراط المستقيم والطريق الوسط بين الغالي فيه والجافي عنه فيما يتعلق بصفات الرب تبارك وتعالى . وحقوق الانبياء عليهم السلام ، والصحابة رضوان الله عليهم ومعرفة الحلال والحرام ، والخلق والأمر ، والوعد والوعيد ، والاقتصاد في السنة واتباعها كما جاءت ، مع بيان ما جاءت عنه الملل والفرق الحائدة عن الصراط المستقيم ، طبعت ضمن مجموعة الرسائل الكبرى » ج ١ ، ص ٢٦٢ ـ ٣١٧ ، مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢) ليس في الأصل « اله آبائك » وانما أضفناه ليستقيم المعنى .

ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ﴾ ـ (يوسف ١٢ : ٣٧ : ٤٠) . فتبين أن ملة آبائه هي عبادة الله ، وهي ملة ابراهيم ، وقد قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ـ الى قوله ـ فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٣٠ ـ ١٣٢) .

واذا كان كذلك فاليهود والنصارى ليسوا على ملة ابراهيم ، واذا لم يكونوا على ملته لم يكونوا يعبدون اله ابراهيم . فان من عبد اله ابراهيم كان على ملته . قال تعالى : ﴿ وقالُوا كونُوا هوداً أو نصارىٰ تهتدُوا ، قل بل ملّةَ ابراهيمَ حنيفاً ، وما كانَ من المشركين ـ الى قوله ـ وهو السميع العليم ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٣٥ ـ ١٣٧) . فقوله : ﴿ قل بل ملة ابراهيم ﴾ يبين أن ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة ابراهيم .

وهذا بعد مبعث محمد مما لا ريب فيه . فانه هو الذي بعث بملة ابراهيم والطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبديل . قال تعالى : ﴿ إنَّ أَولىٰ الناس بابراهيم للَّذينَ اتبعوهُ وهذا النبي والَّذينَ آمنُوا ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ٦٨) . وقال : ﴿ قل انني هداني ربي إلىٰ صراط مستقيم ديناً قيّماً ملة ابراهيم ـ الآية ﴾ ـ (الانعام ٦ : ١٦١) . وقال : ﴿ ثم أوحينا اليكَ أنِ اتبع ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ ـ (النحل ١٦ : ١٢٣) .

وقوله : ﴿ ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلَّا من سَفِهَ نَفسهُ ﴾ ـ (البقرة ٢ : ١٣٠) يبين أن كل من رغب عنها فقد سفه نفسه . فيه من جهة الاعراب والمعنى قولان .

أحدهما ، وهو قول الفراء وغيره من نحاة الكوفة واختيار ابن قتيبة وغيره ، وهو معنى قول أكثر السلف ، أن النفس هي التي سفهت . فان « سفه » فعل لازم لا يتعدى لكن المعنى ، الا من كان سفيها ، فجعل الفعل له ونصب النفس على التمييز لا النكرة ، كقوله : ﴿ واشتعلَ الرأسُ شيباً ﴾ .

وأما الكوفيون فعرفوا هذا وهذا . قال الفراء ، نصب النفس على التشبيه بالتفسير ، كما يقال : ضقت بالأمر ذرعاً ، معناه : ضاق ذرعي به . ومثله ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ . أي اشتعل الشيب في الرأس ، قال : ومنه قوله : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره ، وكان الأصل : سفهت نفس زيد ، ورشد أمره ، فلما حول الفعل الى زيد انتصب ما بعده على التمييز .

فهذه شواهد عرفها القراء من كلام العرب . ومثله قوله : غبن فلان رأيه ، وبطر عيشه . ومثل هذا قوله : ﴿ بطرت معيشتها ﴾ ـ (القصص ٢٨ : ٥٨) ، أي بطرت نفس المعيشة . وهذا معنى قول يمان بن رباب : حمق رأيه ونفسه ، وهو معنى قول ابن السائب : ضل من قبل نفسه . وقول ابي روق : عجز رأيه عن نفسه .

والبصريون لم يعرفوا ذلك . فمنهم من قال : جهل نفسه ، كما قاله ابن كيسان والزجاج ، قال : لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعلم خالقها .

وهذا الذي قالوه ضعيف . فانه ان قيل ان المعنى صحيح فهو انما قال (سفه) و « سفه » فعل لازم ، ليس بمتعد ، و « جهل » فعل متعد ، وليس في كلام العرب « سفهت كذا » ألبته بمعنى : جهلته . بل قالوا : سفه ـ بالضم ـ سفاهة ، أي صار سفيها ، وسفيه ـ بالكسر ـ أي حصل منه سفه ، كما قالوا في فقه وفقيه. ونقل بعضهم: سفهت الشرب إذا اكثرت منه. وهو يوافق ما حكاه الفراء، أي صار شربه سفيها، فسفه شربة لما جاوز الحد.

وقال الأخفش ، ويونس ، نصب باسقاط الخافض ، أي سفه في نفسه ، وقولهم : « باسقاط الخافض » ليس هو أصلاً فيعتبر به ، ولكن قد تنزع حروف الجر في مواضع مسموعة ، فيتعدى الفعل بنفسه . وان كان مقيساً في بعض الصور . فـ « سفه » ليس من هذا ، لا يقال : سفهت أمراً الله ، ولا دين الاسلام ، بمعنى : جهلته ، أي سفهت فيه .

وانما يوصف بالسفه وينصب على التمييز ما خص به ، مثل نفسه أو شربه ، ونحو ذلك .

والمقصود أن كل من رغب من ملة ابراهيم فهو سفه . قال أبو العالية : رغبت اليهود والنصارى عن ملة ابراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية ، وليست من الله ، وتركوا دين ابراهيم . وكذلك قال قتادة : بدلوا دين الأنبياء واتبعوا المنسوخ .

فأما موسى والمسيح ومن اتبعهما فهم على ملة ابراهيم متبعون له ، وهو امامهم وهذا معنى قوله : ﴿ إنَّ أولىٰ النَّاسِ بابراهيمَ للَّذينَ اتبعُوهُ وهذا النبي والَّذينَ آمنوا ﴾ ـ (آل عمران ٣ : ٦٨) : فهو يتناول الذين اتبعوه قبل مبعث محمد وبعد مبعثه . وقيل انه عام ، قال الحسن البصري ، كل مؤمن ولى ابراهيم ممن مضى وممن بقى . وقال الربيع بن أنس : هم المؤمنون الذين صدقوا نبي الله واتبعوه ، وكان محمد والذين معه من المؤمنين أولى الناس بابراهيم .

وهذا وغيره مما يبين أن اليهود والنصارى لا يعبدون الله وليسوا على ملة ابراهيم .

فان قيل : فالمشرك يعبد الله وغيره بدليل قول الخليل ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدُون * أنتم وآباؤكم الأقدمونَ * فإنَّهم عدوٌ لي إلَّا رب العالمين ﴾ ـ (الشعراء ٢٦ : ٧٥ ـ ٧٧) . فقد استثناه مما يعبدون ، فدل على أنهم كانوا يعبدون الله وكذلك قوله : ﴿ انني براَءٌ ممَّا تعبدونَ * إلَّا الَّذي فطرَني ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٢٦ ، ٢٧) واستثناه أيضاً ، وفي المسند وغيره حديث حصين الخزاعي لما قال له النبي ﷺ : « يا حصين ! كم تعبد اليوم ؟ » ، قال : سبعة آلهة ـ ستة في الأرض وواحد في السماء . قال : « فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك » ؟ قال : الذي في السماء .

قيل : هذا قول المشركين ، كما تقول اليهود والنصارى : نحن نعبد الله فهم يظنون أن عبادته مع الشرك به عبادة ، وهم كاذبون في هذا .

وأما قول الخليل ففيه قولان . قال طائفة : انه استثناء منقطع ، وقال عبد الرحمن ابن زيد : كانوا يعبدون الله مع آلهتهم .

وعلى هذا فهذا لفظ مقيد . فانه قال ﴿ ما تعبدون ﴾ . فسماه عبادة اذا عرف المراد ، لكن ليست هي العبادة التي هي عند الله عبادة . فانه كما قال تعالى : ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك ﴾ . من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهُمْ مُشركون ﴾ - ﴿ يوسف ١٢ : ١٠٦) . سماه ايمانا مع التقييد ، والا فالمشرك الذي جعل مع الله الهاً آخر لا يدخل في مسمى الايمان عند الاطلاق .

وقد قال : ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ - (النساء ٤ : ٥١) ، ﴿ فبشرهُم بعذابٍ أليمٍ ﴾ - (آل عمران ٢ : ٢١) ، فهذا مع التقييد ، ومع الاطلاق فالايمان هو الايمان بالله ، والبشارة بالخير .

وقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ نفى العبادة مطلقاً ، ليس هو نفي لما قد يسمى عبادة مع التقييد . والمشرك اذا كان يعبد الله ويعبد غيره فيقال : انه يعبد الله وغيره ، أو يعبد مشركاً به . لا يقال : انه يعبد مطلقاً . والمعطل الذي لا يعبد شيئاً شر [1] منه .

والعبادة المطلقة المعتدلة (هي) [2] المقبولة ، وعبادة المشرك ليست مقبولة .

ومما يوضح هذا قوله : ﴿ أم كنتم شهداءَ اذْ حَضَرَ يعقوبَ الموتَ الآية ﴾ - (البقرة ٢ : ١٣٣) . قالوا فيها ﴿ نعبد الهكَ والهَ آبائِكَ ﴾ ، ثم قالوا ﴿ الهاً واحداً ﴾ فهذا يدل من الأول في أظهر الوجهين . فان النكرة تبدل من المعرفة ، كما في قوله : ﴿ لنسفعاً بالناصيةً * ناصيةً كاذبةً خاطِئةً ﴾ - (العلق ٩٦ : ١٥ ، ١٦) ، فذكرت معرفة ، وموصوفة ، كذلك قالوا ﴿ نعبد الهك ﴾ فعرفوه ، ثم قالوا ﴿ الهاً واحداً ﴾ فوصفوه .

والبدل في حكم تكرير العامل احياناً ، كما في قوله : ﴿ قال الملاء الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ - (الاعراف ٧ : ٧٥) . فالتقدير : نعبد الهك ، نعبد الهاً واحداً ، ونحن له مسلمون . فجمعوا بين الخبرين بأمرين - بأنهم يعبدون الهه ، وأنهم انما

---

(١) في الأصل « شراً » على النصب .

(٢) ليس في الأصل .

يعبدون الهاً واحداً ، فمن عبد الهين لم يكن عابداً لالهه واله آبائه . وانما يعبد الهه من عبد الهاً واحداً .

ولو كان من عبد الله وعبد معه غيره عابداً له لكانت عبادته نوعين ـ عبادة اشراك ، وعبادة اخلاص . واذا كان كذلك لم يكن قوله : ﴿ الهاً واحداً ﴾ بدلاً لأن هذا كل من كل ، ليس هو بدل بعض من كل . فعلم أن الهه واله آبائه لا يكون الا الهاً واحداً .

والوجه الثاني : قوله : ﴿ الهاً واحداً ﴾ نصب على الحال ، لكنها حال لازمة . فانه لا يكون الا الهاً واحداً ، كقوله : ﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ وهو لا يكون الا مصدقاً . ومنه ﴿ ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ ، ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ . فمن عبد معه غيره فما عبده الهاً واحداً ، ومن أشرك به فما عبده . وهو لا يكون الا الهاً واحداً ، فاذا لم يعبده في الحال اللازمة له لم تكن له حال أخرى يعبده فيها ، فما عبده .

فان قيل : المشرك يجعل معه الهة أخرى ، فهو يعبد في حال ليس هو فيها الواحد ، قيل : هذا غلط منشأه أن لفظ « الاله » يراد به المستحق للالهية ، ويراد به ما اتخذه الناس الهاً وان لم يكن الهاً في نفس الأمر ، بل هي أسماء سموها هم وآباؤهم فتلك ليست في نفسها آلهة ، وانما هي آلة في أنفس العابدين . فالهيتها أمر قدره المشركون ، وجعلوه في أنفسهم من غير أن يكون مطابقاً للخارج ، كالذي يجعل من ليس بعالم عالماً ، ومن ليس بحي حياً ، ومن ليس بصادق ولا عدل صادقاً وعادلاً فيقال : هذا عندك صادق ، وعادل ، وعالم ، وتلك اعتقادات غير مطابقة ، وأقوال كاذبة غير لائقة .

ولهذا يجعل سبحانه ذلك من باب الافتراء والكذب ، كما قال أصحاب الكهف ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه الهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ ـ (الكهف ١٨ : ١٥) . وقال الخليل : ﴿ انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون افكا ﴾ ـ (العنكبوت ٢٩ : ١٧) . وقال : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ؟ ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ﴾ ـ (يونس ١٠ : ٦٦) ـ أي شيء يتبع الذين يشركون ؟ إنّما يتبعون الظن والخرص ، وهو الحرز . هذا صواب ، وان « ما » [1] استفهامية ، وقد قيل انها « نافية » وبعضهم لم يذكر غيره ، كأبي الفرج . وهو ضعيف كما قد بين ذلك في غير هذا الموضع .

وقال هود ﴿ اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ان أنتم الا مفترون ﴾ ـ (هود ١١ : ٥٠) .

---

(١) في الأصل هكذا : وانما استفهامية : ويحتمل أن يكون : وانما « ما » استفهامية فسقطت منه « ما » .

واذا كانت الهية ما سوى الله أمراً مختلفاً [1] يوجد في الذهن واللسان لا وجود له في الأعيان . وهو من باب الكذب والاعتقاد الباطل الذي ليس بمطابق . وما عند عابديها من الحب والخوف والرجاء لها تابع لذلك الاعتقاد الباطل ، كمن اعتقد في شخص أنه صادق فصدقه فيما يقول ، وبنى على أخباره اعمالاً كثيرة ، فلما تبين كذبه ظهر فساد تلك الأعمال ، كأتباع مسيلمة ، والأسود ، وغيرهما من أصحاب الزوايا والترهات ، وما يشرعونه لأتباعهم مما لم يأذن به (الله) [2] بخلاف الصادق والصدق .

ولهذا كانت كلمة التوحيد ﴿ كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ . وقال في كلمة الشرك ﴿ كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ - (ابراهيم ١٤ : ٢٦) . فليس (لها) [3] أساس ثابت ، ولا فرع ثابت ، اذ كانت باطلة كأقوال الكاذبين وأعمالهم . بل هي أعظم الكذب والافتراء مع الحب لها .

والشرك أعظم الظلم . قال ابن مسعود ، قلت : يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل الله ندا وهو خلقك » .

فنفس تألهم لها ، وعبادتهم اياها ، وتعظيمها ، وحبها ، ودعاؤها ، واعتقادها آلهة ، والخبر عنها بأنها آلهة ، موجود ، كما كان اعتقاد الكذابين موجوداً ، وأما نفس اتصافها بالآلهية فمفقود ، كاتصاف مسيلمة بالنبوة .

فهنا حالان - حال للعابد ، وحال للمعبود ، فأما العابدون فكلهم في قلوبهم عبادة وتأله لمن عبدوه . وأما المعبودون فالرحمن له الآلهية ، وما سواه لا الهية له . بل هو ميت لا يملك لعابديه ضراً ولا نفعاً . ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً ﴾ - (الاسراء ١٧ : ٤٢) . وهو في أصح القولين : سبيلاً بالتقرب بعبادته وذكره . ولهذا قال بعدها ﴿ تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ﴾ - (الاسراء ١٧ : ٤٤) . فأخبر عن الخلائق كلها أنها تسبح بحمده ، وقد بسط هذا في موضع آخر .

فقوله : ﴿ نعبد الهك واله ابائك . . . الهاً واحداً ﴾ [4] ﴾ اذا قيل انه منصوب على الحال ، فاما أن يكون حالاً من الفاعل العابد ، أو من المفعول المعبود . فالأول : نعبده [5] في حال كوننا مخلصين لا نعبد الا اياه . والثاني : نعبده [5] في الحال اللازمة له [6] ، وهو أنه اله

---

(١) في الأصل « أمر مختلق » .
(٢) ليس في الأصل .
(٣) ليس في الأصل .
(٤) ليس في الأصل .
(٥) (٥) في الأصل : « نعبدك » .
(٦) في الأصل : لك .

إلـه واحد ، فنعبده مخلصين معترفين له بأنه الاله وحده دون ما سواه .

فان كان التقدير هـذا الثاني امتنـع أن يكون المشـرك عابـداً له ، فـانه لا يعبـده في هذه الحال ، وهو سبحانه ليست له بحال أخرى نعبده فيها ، وان كان التقـدير الأول فقـد يمكن أن نعبده في حال أخرى نتخذ معه آلهة أخرى في أنفسنا .

لكن قوله : ﴿ الهاً واحداً ﴾ دليل على أنها حال من المعْبود ، بخلاف ما اذا قيل : نعبده مخلصين له الدين ، فإن هذه حال من الفاعل .

ولهـذا يأتي هـذا في القـرآن كثيـراً ، كقـولـه : ﴿ فـاعبـد الله مخلصـاً لـه الـدين ﴾ [١] ـ (الزمر ٣٩ : ٢) ، وقوله : ﴿ قل الله أعبد مخلصـاً له ديني ﴾ ـ (الـزمر ٣٩ : ١٤) . فهـذا حال من الفاعل ، فانه يكون تارة مخلصاً ، وتارة مشركاً . وأما الرب تعالى فانه لا يكون الا الهاً واحداً .

والحال وان كانت صفة للمفعول فهي أيضاً حال للفاعل . فـانهم قالـوا : نعبده في هـذه الحـال . فلزم أن عبادتهم لـه ليست في غير هـذا الحال . وبـين أن قولـه : ﴿ نعبد الهـك والـه آبائك . . . الهـاً واحداً ﴾ هي حـال متعلقة بـالفاعـل والمفعول جميعـاً ـ بالعـابد والمعبـود ، فان العامل فيها ـ المتعلق بها ـ العبادة ، وهي فعل العابد ، والذي يقال لـه المفعول في العـربية هـو المعبود .

كما قيل في الجملة ﴿ ونحن لـه مسلمون ﴾ . قيـل : هي واو العطف ، وقيـل واو الحال أي نعبده في هذه الحال . قالـوا : وهي حال من فـاعل « نعبـد أو مفعولـه لرجـوع الهاً اليـه في « لـه » . وهذا التـرديد غلط ، اذ هي حـال منهما جميعـاً ، فانهم اذا عبـدوه وهم مسلمون فهم مسلمون [٢] حال كونهم عابدين ، وحال كونه معبـوداً ، اذ كونهم عـابدين وكـونه معبـوداً ليس مختصاً بمقارنة احدهما دون الآخر [٢] .

فالظرف والحال هنا كلمـة وليست مفرداً ، ولهـذا اشتبه عليهم ، فـانه المفـرد لا يمكن أن يكون في اللفظ صفة لهذا وهذا ، فاذا قلت : ضربت زيداً قاعداً ، فالقعود حال للفاعل أو [٣] المفعول ، واذا قلت : ضربته والناس قعـود ، فليس هذه الحـال من أحدهمـا دون الآخر ، بـل هي مقـارنة للضـرب المتعلق بها ، كـأنه قـال : ضربتـه في زمان قعـود الناس . فهـو ظرف [٤]

---

(١) في الأصـل : فـاعبـدوا الله مخلصين لـه الـدين ، وليس في التنـزيـل . نعم جـاء بلفظ ﴿ فـادعـو الله مخلصين لـه الـدين ﴾ كـما في غافر ٤٠ : ١٤ .

(٢ ـ ٢) هذه الجملة في الأصل هكذا : ليس كونهم مختصاً بمقارنة أحدهما دون الآخر اذ كونهم عابدين وكـونه معبوداً .

(٣) في الأصل « و » ، وهو خطأ .

(٤) في الأصل : صرف ، والظاهر أنه « ظرف » .

للفعل المتعلق بالفاعل والمفعول ، بخلاف ما اذا قلت : ضربته في حال قعودي أو قعوده ، فهذا يختلف .

والآية فيها (الهاً واحداً ﴾ . فهذه حال من المعبود بلا ريب ، فلزم أنهم انما عبدوه في حال كونه الهاً واحداً ، وهذه لازمة له .

واذا قيل ، المراد : في حال كونه معبوداً واحداً لا نتخذ معه معبوداً آخر ، فهذه حال ليست لازمة ، لكنه صفة للعابدين ، لاله : قيل : هذا ليس فيه مدح له ، ولا وصف له بأنه يستحق الالهية ، لكن فيها وصفهم فقط .

وأيضاً فقوله : ﴿ الهاً واحداً ﴾ كقوله : ﴿ والهكم اله واحد ﴾ - (البقرة ٢ : ١٣٦) . فهو في نفسه اله واحد وان جعل معه المشركون آلهة بالافتراء والحب . فيجب أن يكون المراد ما دل عليه هذا الاسم .

ولو أرادوا ذلك المعنى لقالوا : نعبده مخلصين له الدين . وهذا المعنى قد ذكروه في الجملة الثانية ، وهي قولهم ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ ، لا سيما اذا جعلت حالاً ، أي نعبده الهاً واحداً في حال اسلامنا له . واسلامهم له يتضمن اخلاص الدين له ، وخضوعهم ، واستسلامهم لأحكامه ، بخلاف غير المسلمين .

ولهذا قال آمرا للمؤمنين أن يقولوا ﴿ أمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ﴾ - (البقرة ٢ : ١٣٦) .

ثم قال : ﴿ صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون * قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ﴾ - (البقرة ٢ : ١٣٨ ، ١٣٩) .

وفي هذه الآيات معان جليلة ليس هذا موضع استيفائها .

(٣) فصـــــل
(الخطاب في : قل يا أيها الكافرون)

وهذا النوع في قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ هل هو خطاب لجنس الكفار كما قاله الأكثرون ، أو لمن علم أنه يموت كافراً كما قاله بعضهم ، يتعلق بمسمى « الكافر » ومسمى « المؤمن » .

فطائفة تقول : هذا انما يتناول من وافى القيامة بالايمان ، فاسم المؤمن عندهم انما هو لمن مات مؤمناً ، فأما من آمن ثم ارتد فذاك ليس عندهم بايمان .

وهذا اختيار الاشعري ، وطائفة من أصحاب أحمد ، وغيرهم ، وهكذا يقال : الكافر (من) [١] مات كافراً .

وهؤلاء يقولون : ان حب الله وبغضه ، ورضاه وسخطه ، وولايته وعداوته ، انما يتعلق بالموافاة فقط . فالله يحب من علم أنه يموت مؤمناً ، ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالاة قديمة ، ويقولون : ان عمر حال كفره كان ولياً لله .

وهذا القول معروف عن ابن كلاب ومن تبعه ، كالأشعري وغيره .

وأكثر الطوائف يخالفونه [٢] في هذا ، فيقولون : بل قد يكون الرجل عدوا لله ثم يصير ولياً لله ، ويكون الله يبغضه ثم يحبه . وهذا مذهب الفقهاء والعامة . وهو قول المعتزلة ، والكرامية ، والحنفية قاطبة ، وقدماء المالكية ، والشافعية ، والحنبلية .

وعلى هذا يدل القرآن ، كقوله : ﴿ قال ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ - (آل عمران ٣ : ٣١) ، ﴿ وان تشكروا يرضه لكم ﴾ - (الزمر ٣٩ : ٧) ، وقوله : ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ﴾ - (النساء ٤ : ١٣٧) ، فوصفهم بكفر بعد ايمان ، وايمان بعد كفر . وأخبر عن الذين كفروا أنهم كفار ، وأنهم ان انتهوا يغفر [٣] لهم ما قد سلف . وقال : ﴿ فلما اسفونا انتقمنا منهم ﴾ - (الزخرف ٤٣ : ٥٥) ، وقال : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ - (محمد ٤٧ : ٢٨) .

---

(١) سقط « من » من الأصل .

(٢) في الأصل « يخالفوه » .

(٣) في الأصل « اغفر » والاشارة الى قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ - (الانفال ٨ : ٣٨) .

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : تقول الانبياء « ان ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله » .

وفي دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس وغيره : فان كنت رضيت عني فزدني رضا ، والا فمن الآن « فارض عني » [1] وبعضهم حذف « فارض عني » ، فظن بعض الفقهاء أنه « فمن الآن » أنه من « المن » . وهو تصحيف ، وانما هو من حروف الجر كما في تمام الكلام « الا فمن الآن فارض عني » .

فبين أنه يزداد رضاء ، وأنه يرضى في وقت محدود . وشواهد هذا كثيرة . وهو مبسوط في مواضع .

---

(١) أخرجه الشافعي في كتاب « الأم » ج ٢ ، ص ١٨٧ ، والبيهقي في « السنن الكبرى » ج ٥ ، ص ١٦٤ (بحذف « فارض عني) ، وقد ذكر المحب الطبري في القرى لقاصد أم القرى » ، والمصنف في « مناسك الحج » « له » طبعة مصر ضمن مجموعة ثلاث رسائل ، ص ٣٢ ، أوله « اللهم اني عبدك وابن عبدك . . . الخ » .

(٤) فصـــــل

[تفسير (ان الذين كفروا سواء عليهم ـ الآية)]

ونظير القول في ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ القولان في قوله ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ـ (البقرة ٢ : ٦) . فان للناس في هذه الآية قولين .

أحدهما : أنها خاصة بمن يموت كافراً . وهذا منقول عن مقاتل ، كما قال في قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ . وكذلك نقل عن الضحاك . قالا : نزلت في مشركي العرب . كأبي جهل ، وأبي طالب ، وأبي لهب ، ممن لم يسلم . وقال الضحاك : نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته .

وطائفة من المفسرين لم يذكروا غير هذا القول ، كالثعلبي والبغوي وابن الجوزي . قال البغوي : هذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله .

قال ابن الجوزي ، قال شيخنا علي بن عبيد الله : وهذه الآية وردت بلفظ العموم والمراد بها الخصوص ، لأنها أذنت بأن الكفار حين انذارهم لا يؤمنون ، وقد آمن كثير من الكفار عند انذارهم ، ولو كانت على ظاهرها في العموم لكان خبر عن الله بخلاف مخبره ، فلذلك وجب نقلها الى الخصوص .

والقول الثاني : ان الآية على مقتضاها ، والمراد بها أن الانذار وعدمه سواء بالنسبة الى الكافر ما دام كافراً ، لا ينفعه الانذار ولا يؤثر فيه ، كما قيل مثل ذلك في الآيات انها غير موجب للايمان . وقد جمع بينهما في قوله : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ ـ (يونس ١٠ : ١٠١) .

فالآيات أفقية ، وأرضية ، وقرآنية ، وهي أدلة العلم ، والانذار يقتضي الخوف ، فالآيات لمن اذا عرف الحق عمل به ، فهذا تنفعه الحكمة . والانذار لمن يعرف الحق وله هوى يصده فينذر بالعذاب الذي يدعوه الى مخالفة هواه ، وهو خوف العذاب . وهذا هو الذي يحتاج الى الموعظة الحسنة ، وآخر لا يقبل الحق فيحتاج الى الجدل ، فيجادل بالتي هي أحسن [1] .

وقد قال تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا اليهم الملئكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ﴾ ـ (الانعام ٦ : ١١١) ، وقال : ﴿ انما أنت منذر من

---

(١) يشير الى قوله تعالى : ﴿ وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ـ (النحل ١٦ : ١٣٥) ، فسره المصنف في كتابه ، الرد على المنطقيين ، ص ٤٦٨ .

يخشاها ﴾ - (النازعات ٧٩ : ٤٥) ، ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ - (يٓس ٣٦ : ١١) .

فالمراد أن الكافر ما دام كافراً لا يقبل الحق سواء أنذر أم لم ينذر ، ولا يؤمن ما دام كذلك ، لأن على قلبه وسمعه وبصره موانع تصده عن الفهم والقبول . وهكذا حال من غلبت عليه هواه .

وهو سبحانه لم يقل « انهم لا يؤمنون » ، وقيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة ، أو حقت عليه الكلمة ، كقوله : ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ - (يونس ١٠ : ٩٦ ، ٩٧) . فبين أن هؤلاء لا يؤمنون الا حين لا ينفعهم ايمانهم وقت رؤية العذاب الأليم ، كايمان فرعون المذكور قبلها . وموسى قد دعا عليه فقال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال أجيبت دعوتكما ﴾ - (يونس ١٠ : ١٠ ، ٨٩) .

وأما اذا أطلق سبحانه الكفار فهم مثل قوله : ﴿ ولو أننا نزلنا اليهم الملئكة - الآية ﴾ . فبين أنهم قد يؤمنون اذا شاء [١] .

وآية البقرة مطلقة عامة . فانه ذكر في أول السورة أربع آيات في صفة المؤمنين . وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في المنافقين . فبين حال الكافر المصر على كفره أن الانذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره . وليس قال : ان الله لا يهدى أحداً من هؤلاء ، فيسمع ويقبل . ولكن هو حين يكون كافراً لا تتناوله الآية . وهذا كما يقال في الكافر الحربي : لا يجوز أن تعقد له الذمة ، ولا يكون قط من أهل دار السلام ما دام حربياً .

فالكفار ما داموا كفاراً هم بهذه المثابة ، لهم موانع تمنعهم من الايمان ، كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك ، وان انذروا . وهذا كقوله : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء . صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ - (البقرة ٢ : ١٧١) . فهذا مثل كل كافر ما دام كافراً . وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون لذلك المعنى المشتق منه [٢] ، وهو الكفر . فما داموا هذه حالهم فهم كذلك . ولكن تغير الحال ممكن ، كما قال ﴿ الا أن يشاء الله ﴾ - (الأنعام ٦ : ١١١) ، وكما هو الواقع .

ومثل هذا يفيد أن الانسان لا يعتقد أنه بدعائه وانذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان

---

(١) في الأصل : يؤمنوا .

(٢) الهاء في « منه » عائدة الى « الغطاء » والكفر في اللغة ستر الشيء وتغطيته يقال : كفر عليه يكفر ، أي غطاه ، والشيء ، ستره .

أكمل الناس ، وأن الداعي وان كان صالحاً ناصحاً مخلصاً فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص في الدعاء ، لكن لفساد في المدعو .

وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل ، كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه - لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك . والنفخ [1] يؤثر اذا كان هناك قابل - لا يؤثر في الرماد .

والدعاء والتعليم ، والارشاد ، وكل ما كان من هذا الجنس ، له فاعل وهو المتكلم بالعلم والهدى والنذارة ، وله قابل وهو المستمع [2] فاذا كان المستمع قابلاً قيل : علمته فلم يتعلم ، وهديته فلم يهتد ، وخاطبته فلم يصغ ، ونحو ذلك .

فقوله في القرآن ﴿ هدى للمتقين ﴾ هو من هذا ، انما يهتدي من يقبل الاهتداء وهم المتقون ، لاكل أحد . وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم ، بل قد يكونوا كفاراً . لكن انما يهتدي به من كان متقياً ، فمن اتقى الله اهتدى بالقرآن والعلم والانذار انما يكون بما أمر به القرآن .

وهكذا قوله : ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ - (يٓس ٣٦ : ٧٠) ، والانذار التام فان الحي يقبله . ولهذا قال : ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ - (يٓس ٣٦ : ٧٠) ، فهم لم يقبلوا الانذار .

ومثله قوله : ﴿ انما أنت منذر من يخشاها ﴾ - ﴿ النازعات ٧٩ : ٤٥) .

وعكسه قوله : ﴿ وما يضل به الا الفاسقين ﴾ - (البقرة ٢ : ٢٦) ، أي كل من ضل به فهو فاسق . فهو ذم لمن يضل به ، فانه فاسق ، ليس أنه كان فاسقاً قبل ذلك .

ولهذا تأولها سعد بن أبي وقاص في الخوارج ، وسماهم « فاسقين » ، لأنهم ضلوا بالقرآن ، فمن ضل بالقرآن فهو فاسق .

فقوله : ﴿ ان الذين كفروا ﴾ من هذا الباب . والتقدير : من ختم على قلبه وجعل على سمعه وبصره غشاوة فسواء عليك أنذرته [3] أم لم تنذر هو لا يؤمن أي ما دام كذلك .

ولكن هذا قد يزول - وفي صفة النبي ﷺ : ﴿ انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزا للأميين . أنت عبدي ورسولي . سميتك « المتوكل » ، لست بفظ ، ولا غليظ ، ولا

---

(١) « النفخ » مصدر نفخ ينفخ » ونفخ بفمه : أخرج منه الريح ، يقال : نفخ في النار ز ونفخ النار .

(٢) في الأصل « السمع » ، ولعله تصحيف من المستمع كما جاء بعده .

(٣) في الأصل « أنذرتهم » .

سخاب في الاسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً (١) .

وقد قال : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر أباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ - (يّس ٣٦ : ٦ ، ٧) ، فدل على أن بعضهم يؤمنون ، ثم قال : ﴿ أنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً - الى قوله - انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ - (يّس ٣٦ : ٨ - ١١) ، فهذا هو الانذار التام ، وهو الانذار الذي يقبله المنذر وينتفع به .

وقوله : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ هو أصل الانذار ، كما يقال في البليد والمشغول الذهن بأمور الدنيا والشهوات : سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم ولا يقبل الهدى ، ويقال في الذكى الفارغ : انما يتعلم مثل هذا ، ثم المشغول قد يتفرغ ، وقد يصلح ذهنه بعد فساده ، ويفسد بعد صلاحه لفساد قلبه وصلاحه .

وعلى هذا القول أكثر تفسير السلف ، كما ذكره ابن اسحاق ، وقد رواه ابن أبي حاتم وغيره ، قال ابن اسحاق ، حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ ان الذين كفروا ﴾ أي بما أنزل اليك ، وان قالوا : انا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ، أي أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك ، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق . فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك . فكيف يسمعون منك انذاراً وتحذيراً ؟

فقد تبين أنهم لا يسمعون الانذار لكفرهم بما عندهم وما جاءهم (٢) من الحق ، ومعلوم أن منهم خلقاً تابوا بعد ذلك وآمنوا .

وروى عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية قال : آيتان في قادة الأحزاب ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ . قال : هم الذين ذكرهم الله في هذه الآية ﴿ ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ .

(قلت) : جعلهم قادة الأحزاب لكونهم أضلوا الأتباع فأحلوهم دار البوار . والأحزاب يوم الخندق قد أسلم عامة قادتها ، وحسن اسلامهم ، مثل عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وأبي سفيان . وهؤلاء أسلم منهم من أسلم عام الفتح ، وهم **الطلقاء**، ومنهم من أسلم قبل ذلك . والحزب الآخر غطفان ، وقد أسلموا أيضاً .

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومراد المصنف منه القطعة الاخيرة حيث ذكر فتح الأعين بعد عميها ، والآذان بعد صمها والقلوب بعد غلفها .

(٢) في الأصل « جاءه » .

والآية لا بد أن تتناول كفار أهل الكتاب ، كما قال ابن اسحاق ، فان السورة مدنية ، وان تناولت مع ذلك المشركين . فهي تعم كل كافر . ومقاتل ، والضحاك ، يخصها ببعض مشركي العرب . وابن السائب يقول : هي انما نزلت في اليهود ، منهم حيي ين أخطب ، وكذلك ما ذكره ابن اسحاق ، عن ابن عباس ، أنها في اليهود . وأبو العالية يقول : انها نزلت في قادة الاحزاب .

والآية نعم هؤلاء كلهم وغيرهم ، كما أن آيات المؤمنين والمنافقين كان سبب نزولها (المؤمنين والمنافقين الموجودين وقت النزول ، وهي تعمهم) [1] وغيرهم من المؤمنين والمنافقين الى قيام الساعة .

والمقصود أن قوله : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ كقوله : ﴿ فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم ﴾ - (النمل ٢٧ : ٨٠ ، ٨١) ، وقوله : ﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر اليك ، أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ - (يونس ١٠ : ٤٢ ، ٤٣) .

وكل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك وتبليغك وحرصك على هداهم ليس موجب ذلك ، وانما يحصل ذلك اذا شاء الله هداهم فشرح صدرهم للاسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل ﴾ - (النحل ١٦ : ٣٧) . ففيه تعزية لرسوله ﷺ وبينت الآية له أن تبليغك وان لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة غير ذلك .

وفيه بيان أن الهدى هدى الله ، فـ ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ - (الكهف ١٨ : ١٧) . وقد قال له : ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ - (القصص ٢٨ : ٥٦) . ففيه تقرير التوحيد ، وتقرير مقصود الرسالة .

وهو سبحانه أخبر عمن لا يؤمن فقال : ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية ﴾ - (يونس ١٠ : ٩٦ ، ٩٧) . وقال : ﴿ ولتنذر قوماً ما أنذر أباؤهم فهم غافلون ﴾ . ثم قال : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ - (يٓس ٣٦ : ٦ ، ٧) فخص هذه الآية ، وفي تلك ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمت ربك ﴾ . وهم الذين حق عليهم القول ، أي حق عليهم ما قاله الله سبحانه ، وكتبه ، وقدره . فجعل الموجب هو التقدير السابق ، وهو قوله .

---

(١) العبارة بين القوسين وليست في الأصل .

والقول وان كان قد يكون خبراً مجرداً بما سيكون ، قد [1] يكون قولاً يتضمن أشياء كاليمين المتضمنة للحض والمنع . فقد ذكر في مواضع تقدم اليمين ، كقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ - (السجدة ٣٢ : ١٣) ، ونحو ذلك .

فهو خبر عما قاله ، أو قاله وكتبه ، وهو التقدير الذي يتضمن أنه قدر ما يفعله ، وعلمه ، وكتبه كما تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . والقدر تضمن علمه بما سيكون ، ومشيئته لوجود ما قدره وعلم أن سيخلقه .

والقول قد يكون خبراً ، وقد يكون فيه معنى الطلب - الحض والمنع - بالقسم ، واما لكتابته على نفسه ، كقوله : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ - (الأنعام ٦ : ٥٤) . وقوله : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ - (الروم ٣٠ : ٤٧) . وقوله ، يا عبادي ! اني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محروماً فلا تظالموا » [2] .

وأما قوله : ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ - (الزمر ٣٩ : ٧١) ، فهذا مختص بالكفار . وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال ، كما قال تعالى لابليس ﴿ لأملئن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ - (ص ٣٨ : ٨٥) .

وقوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ - (طه ٢٠ : ١٢٩) ، أي ان عذابهم له أجل مسمى ، اما يوم القيامة ، واما في الدنيا كيوم بدر ، واما عقب الموت - وقد ذكر في الآية الاقوال الثلاثة . فلولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان العذاب لزاما ، أي لازما لهم . فان المقتضى له قائم تام ، وهو كفرهم .

وأما اذا أطلق [3] القول على الكفار من غير تقييد فانه لا يريد من (لا) [4] يؤمن منهم . فان اللفظ لا يدل على ذلك ألبتة .

وأيضاً فان هذا لا فائدة فيه ، اذ كان أولئك غير معروفين ، وانما هم طائفة قد حق عليهم القول ، وهم لا يتميزون من غيرهم . بل هو مأمور بانذار الجميع ، وفيهم من يؤمن ومن لا يؤمن . فذكر اللفظ العام : وارادة أولئك دون غيرهم - ليس فيه بيان للمراد الخاص .

---

(١) بالأصل : وقد .

(٢) ليس هذا بآية ، وانما هو ما حكاه الرسول عما قال ربه تعالى في حديث قدسي أو الهي .

(٣) في الأصل « اطلقا » .

(٤) ليس في الأصل « لا » وهو لازم .

وذكر المعنى الذي أوجب أنهم لا يؤمنون قط ، ولا فيه تعليق الحكم بالمنع [1] العام . وكلام الله تعالى يصان عن مثل ذلك .

وما ذكر من الموانع هي موجودة في كل من لم يقبل الانذار ، سواء كان كافراً أو منافقاً أو فاسقاً أو غير ذلك ، لسبب يوجب ذلك ، فيمتنع قبول الانذار بسبب الموانع ، ولكن هذه الموانع تزول ، فانها ليست لازمة لكل كافر .

واذا كان المانع ما سبق من القول الذي حق عليهم فقد لا يزول أبداً ، كما قال : ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ - (يونس ١٠ : ٩٦ ، ٩٧) .

وقد يذكر هذا وهذا .

وأما اذا اقتصر على ذكر الموانع التي فيهم ، ولم يذكر ما سبق من القول ، فهذه الموانع يرجى زوالها ويمكن ، ما لم يذكر معها ما يتقضى امتناع تغير حالهم وحصول المهدي .

---

(١) بالأصل المعنى ، والظاهر أنه « بالمنع العام » ، أي ليس في الآية أن جميع الكفار المنذرين يمتنعون من الأيمان دائماً أبداً .

(٥) فصـــــل

(بيان المعاني البديعة التي تضمنتها لفظة « ما »)

﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، جاء الخطاب فيها بـ « ما » ، ولم يجيء بـ « من » ، فقيل : لم يقل « لا أعبد من تعبدون » ، لأن « من » لمن يَعْلم ، والأصنام لا تعلم . فان معبود المشركين يدخل فيه من يعلم كالملائكة والانبياء والجن والانس ، ومن لم يعلم . وعند الاجتماع تغلب صيغة أولى العلم ، كما في قوله : ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ﴾ - (النور ٢٤ : ٤٥) .

فاذا أخبر عنهم بحال من يعلم عبر عنهم بعبادته ، كما في قوله : ﴿ ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها - الآية ﴾ - (الاعراف ٧ : ١٩٤ ، ١٩٥) . فعبر عنهم بضمير الجمع المذكر ، وهو لأولى العلم .

وأما ما لا يَعْلم فجمعه مؤنث كما تقول : الأموال جمعتها ، والحجارة قذفتها .

فـ « ما » هي لما لا يعلم ، ولصفات من يعلم ، ولهذا تكون للجنس العام ، لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته ، كما قال : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ - (النساء ٤ : ٣) ، أي الذي طاب والطيب من النساء . فلما قصد الاخبار عن الموصوف بالطيب ، وقصد هذه الصفة دون مجرد العين ، عبر بـ « ما » . .

ولو عبر بـ « من » كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف ، حتى لو فقدت لكانت العين مقصودة [1] ، كما اذا قلت : جاءني من يعرف ، ومن كان أمس في المسجد ، ومن فعل كذا ، ونحو ذلك . فالمقصود الاخبار عن عينه والصلة للتعريف وان كانت تلك الصفة قد ذهبت .

ومنه قوله : ﴿ والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها ﴾ - (الشمس ٩١ : ٥ - ٧) - على القول الصحيح انها اسم موصول ، والمعنى : وبانيها ، وطاحيها ، ومسويها ، (و) [1] لما قال : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ - (الشمس ٩١ : ٨ ، ٩) - أخبر بـ « من » ، لأن المقصود الاخبار عن فلاح عينه وان كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا .

---

(١) في طبعة الهند السعودية، غير مقصودة . وهو يعكس المعنى المراد .

(١) ليس في الأصل .

فالقسم هناك بالموصوف بحيث أنه انما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة . فانه لا توجد مبنية الا ببانيها ، ولا مطحية الا بطاحيها ، ولا مسواة الا بمسويها . وأما المرء المزكى نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا ، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليسا مستلزما لذلك العمل .

ونحو هذا قوله : ﴿ وما خلق الذكر والانثى ﴾ - (الليل ٩٢ : ٣) .

ولهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم في قوله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ - (الشعراء ٢٦ : ٢٣) ، كما يستفهم - على وجه - بها في قوله : ﴿ ما ذا تعبدون ﴾ - (الصافات ٣٧ : ٨٥) .

وأما قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ - (لقمان ٣١ : ٢٥) ، فالاستفهام عن عين [١] الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التي تعبد . فان المستفهمين بها [٢] كانوا مقرين بصفة الخالق ، وانما طلب بالاستفهام تعيينه وتمييزه ، ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة .

وأما فرعون فكان منكراً للموصوف المسمى ، فاستفهم بصيغة « ما » لأنه لم يكن مقراً به ، طالباً لتعيينه . ولهذا كان الجواب في هذا الاستفهام بقول موسى ﴿ رب السموات والأرض ﴾ . وبقوله ﴿ ربكم ورب ابائكم الأولين ﴾ - (الشعراء ٢٦ : ٢٤ ، ٢٦) فأجاب أيضاً بالصفة .

وهناك قال : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ ، فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى عن غيره . وكذلك قوله : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها - الى تمام الآيات ﴾ - (المؤمنون ٢٣ : ٨٤ - ٨٩) .

فقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ يقتضي تنزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم . لأن كل ما عبده الكافر وجبت البراءة منه ، لأن كل من كان كافراً لا يكون معبوده الاله الذي يعبده المؤمن . اذ لو كان هو معبوده لكان مؤمناً ، لا كافراً .

أحدها : أن ذلك يستلزم براءته من أعيان من يعبدونهم من دون الله .

الثاني : أنهم اذا عبدوا الله وغيره فمعبودهم المجموع ، وهو لا يعبد المجموع - لا يعبد الا الله وحده . فيعبده على وجه اخلاص الدين له ، لا على وجه الشرك بينه وبين غيره .

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين قول الخليل ﴿ انني براء مما تعبدون * الا الذي

---

(١) في الأصل « غير » .

(٢) في الأصل « بما » .

فطرني ﴾ ـ (الزخرف ٤٣ : ٢٦ ، ٢٧) ، وقوله : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فانهم عدو لي الا رب العالمين ﴾ ـ (الشعراء ٢٦ : ٧٥، ٧٧) ، بأن يقال : هنا نفي عبادة المجموع ، وذلك لا ينفي عبادة الواحد الذي هو الله والخليل تبرأ من المجموع ، وذلك يقتضي البراءة من كل واحد ، فاستثنى . أو يقال : الخليل تبرأ من جميع المعبودين ـ من الجميع ـ فوجب أن يستثنى رب العالمين . ولهذا لما وقع مستثنى في أول الكلام في قوله : ﴿ قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ ـ (الممتحنة ٦٠ : ٤) لم يحتج الى استثناء آخر .

وأما هذه السورة فان فيها التبري من عبادة ما يعبدون ، لا من نفس ما يعبدون . وهو بريء منهم ، ومن عبادتهم ، ومما يعبدون . فان ذلك كله باطل ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء . وهو كله للذي أشرك » .

فعبادة المشرك كلها باطلة ، لا يقال : نصيب الله منها حق ، والباقي باطل ، بخلاف معبودهم . فان الله اله حق ، وما سواه آلهة باطلة .

فلما تبرأ الخليل من المعبودين احتاج الى استثناء رب العالمين . ولما كان في هذه تبرؤه أن يعبد ما يعبدون ، فكان المنفي هو العبادة ، تبرأ من عبادة المجموع الذين يعبدهم الكافرون .

الثالث : ان كان النفي عن الموصوف بأنه معبودهم ، لا عن عينه ، فهو لا يعبد شيئاً من حيث هو معبودهم . لأنه من حيث هو معبودهم هم مشركون به ، فوجبت البراءة من عبادته على ذلك الوجه . ولو قال : « من تعبدون » لكان يقال : الا رب العالمين ، لأن النفي واقع على عين المعبود . وليس اذا لم يعبد ما يعبدون متبرئاً منه ومعادياً له حتى يحتاج الى الاستثناء . بل هو تارك لعبادة ما يعبدون .

وهذا يتبين بالوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ . نفى عنهم عبادة معبوده . فهم اذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده . وكذلك هو اذا عبده مخلصاً له الدين لم يكن عابداً معبودهم .

الوجه الخامس : أنهم لو عينوا الله بما ليس هو الله ، وقصدوا عبادة الله معتقدين أن هذا هو ، كالذين عبدوا العجل ، والذين عبدوا المسيح ، والذين يعبدون الدجال ، والذين يعبدون ما يعبدون من دنياهم وهواهم ، ومن عبد من هذه الأمة ، فهم عند نفوسهم انما يعبدون الله . لكن هذا المعبود الذي لهم ليس هو الله .

فاذا قال : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ كان متبرئاً من هؤلاء المعبودين وان كان مقصود العابدين هو الله .

الوجه السادس : أنهم اذا وصفوا الله بما هو بريء منه ، كالصاحبة ، والولد ، والشريك ، وأنه فقير أو بخيل ، أو غير ذلك ، وعبدوه كذلك ، فهو بريء من المعبود الذي لهؤلاء [1] . فان هذا ليس هو الله ، كما قال النبي ﷺ : « ألا ترون كيف يصرف الله عني سب قريش ؟ يسبون مذمماً وأنا محمداً » . فهم وإن قصدوا عينه لكن لما وصفوه بأنه مذمم كان سبهم واقعاً على من هو مذمم ، وهو محمد ﷺ . وذاك ليس هو الله . فالمؤمنون برآء مما يعبد هؤلاء .

الوجه السابع : أن كل من لم يؤمن بما وصف به الرسول ربه فهو في الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول من تلك الجهة .

وقس على هذا . فلتتأمل هذه المعاني . وتلخص ، وتهذب ، والله تعالى أعلم .

آخر تفسير سورة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ . ولله الحمد
والمنة ، نسأله أن يتوفانا على الاسلام والسنة
ويحيينا عليهما ، ويبعثنا عليهما ، ونعوذ به
أن نشرك به ونحن نعلم ، ونستغفره
مما لا نعلم وهو الغفور
الرحيم

---

(١) في الأصل « فهو بريء من هؤلاء المعبود الذي لهؤلاء » ، ولعل « هؤلاء الأولى » زيادة من الناسخ .

(سورة الاخلاص)

[قال شيخ الإسلام] :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله نستعينه ونستغفره * ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما .

فصـــــل

في تفسير ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

والاسم الصمد فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثاني : أنه السيد الذي يصمد اليه في الحوائج ، والأول هو قول اكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة . والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها في كتب التفسير المسندة وفي كتب السنة وغير ذلك ، وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئاً كثيراً باسناده فيما تقدم .

وتفسير الصمد بأنه الذي لا جوف له معروف عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ، وعن ابن عباس والحسن البصري ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة والضحاك والسدى وقتادة .

وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال هو الذي لا حشو له ، وكذلك قال ابن مسعود : هو الذي ليست له أحشاء وكذلك قال الشعبي : هو الذي لا يأكل ولا يشرب ، وعن محمد بن كعب القرظي وعكرمة هو الذي لا يخرج منه شيء وعن ميسرة قال هو المصمت ، قال ابن قتيبة كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء والصمت من هذا .

قلت لا ابدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر وسنبين ان شاء الله وجه هذا القول من جهة الاشتقاق واللغة .

والحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية رواه الامام أحمد في المسند وغيره من حديث أبي سعد الصغاني حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ الى آخر السورة ، قال الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد الا سيموت وليس شيء يموت الا سيورث وان الله لا يموت ولا يورث (١) .

وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد اليه في الحوائج فهذا أيضاً مروي عن ابن عباس

---

(١) أنظر سبب النزول في الباب المنقول للسيوطي ، وأسباب النزول للواحدي وأنظر تفسير الطبري لهذه السورة .

موقوفاً ومرفوعاً ، فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال : الصمد السيد الذي كمل في سؤدده ، وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق ابن سلمة قال : هو السيد الذي انتهى سؤدده ، وعن أبي اسحاق الكوفي عن عكرمة : الصمد الذي ليس فوقه أحد .

ويروى هذا عن علي وعن كعب الاحبار : الذي لا يكافئه من خلقه أحد .

وعن السدى أيضاً : هو المقصود اليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : هو المستغني عن كل أحد المحتاج اليه كل أحد .

وعن سعيد بن جبيرة الكامل في جميع صفاته وأفعاله .

وعن الربيع الذي لا تعتريه الآفات ، وعن مقاتل بن حيان : الذي لا عيب فيه .

وعن ابن كيسان : هو الذي لا يوصف بصفته أحد ، قال أبو بكر الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد اليه الناس في حوائجهم وأمورهم .

وقال الزجاج : هو الذي ينتهي اليه السؤدد فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده وتأويل صمود كل شيء له أن في كل شيء أثر صنعته .

قلت وقد أنشدوا في هذا بيتين مشهورين أحدهما :

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال الآخر :

علوته بحسامي ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد

[رأي علماء اللغة]

قال بعض أهل اللغة : الصمد هو السيد المقصود في الحوائج ، تقول العرب صمدت فلانا أصمِده ـ بكسر الميم ـ وأصمُده ـ بضم الميم ـ صمْدا ـ بسكون الميم ـ اذا قصدته ، والمصمود صمْد كالقبض بمعنى المقبوض والنقض بمعنى المنقوض ، ويقال بيت مصمود ومصمد اذا قصده الناس في حوائجهم قال طرفة :

وان يلتق الحي الجميع تلاقني الى ذروة البيت الرفيع المصمد

وقال الجوهري : صمده يصمده اذا قصده ، والصَمَد بالتحريك السيد لأنه يصمد اليه في الحوائج ، ويقال بيت مصمد بالتشديد أي مقصود .

وقال الخطابي أصح الوجوه أنه السيد الذي يصمد اليه في الحوائج لأن المعنى الاشتقاقي يشهد له ، فان أصل الصمد القصد ، يقال أصمد صمد فلان أي أقصده قصده ، فالصمد السيد الذي يصمد اليه في الأمور ويقصد في الحوائج .

وقال قتادة : الصمد الباقي بعد خلقه .

وقال مجاهد : ومعمر : هو الدائم وقد جعل الخطابي وأبو الفرج ابن الجوزي الأقوال فيه أربعة هذين واللذين تقدما ، وسنبين ان شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية ، وعن مرة الهمداني هو الذي لا يبلى ولا يفنى وعنه أيضاً قال هو الذي يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه .

وقال ابن عطاء : هو المتعالى عن الكون والفساد ، وعنه أيضاً قال : الصمد الذي لم يتبين عليه أثر فيها أظهر ، يريد قوله : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ .

وقال الحسين بن الفضل : هو الأزلي بلا ابتداء .

وقال محمد بن علي الحكيم الترمذي : هو الأول بلا عدد والباقي بلا أمد والقائم بلا عمد ، وقال أيضاً : الصمد الذي لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأفكار ولا تبلغه الأقطار وكل شيء عنده بمقدار ، وقيل هو الذي جل عن شبه المصورين ، وقيل هو بمعنى نفس التجزيء والتأليف عن ذاته ، وهذا قول كثير من أهل الكلام ، وقيل هو الذي أيست العقول من الاطلاع على كيفيته ، وكذلك قيل هو الذي لا تدرك حقيقة نعوته وصفاته فلا يتسع له اللسان ولا يشير اليه البنان ، وقيل الذي لم يعط خلقه من معرفته الا الاسم والصفة . وعن الجنيدي قال الذي لم يجعل لأعدائه سبيلاً الى معرفته .

[أقوال المفسرين]

ونحن نذكر ما حضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها ، فروى ابن أبي حاتم في تفسيره قال : حدثنا أبي حدثنا محمد بن موسى بن نفيع الجرشي حدثنا عبد الله بن عبيس يعني أبا خلف الخزاز حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن أبي عباس في قوله الصمد قال : الصمد الذي يصمد اليه الناس الاشياء اذا نزل بهم كربة أو بلاء .

حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسي حدثنا محمد بن سواء حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن أبي معشر عن ابراهيم قال : الصمد الذي يصمد العباد اليه في حوائجهم ، حدثنا أبي حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك حدثنا شريك بن عبد العزيز سفيان بن حسين عن الحسن قال : الصمد الحي القيوم الذي لازوال له . حدثنا أبي حدثنا نصر بن علي حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال : الصمد الباقي بعد خلقه وهو قول

قتادة . حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن نمير عن الأعمش عن شقيق في قوله الصمد قال السيد الذي قد انتهى سؤدده .

حدثنا أبي حدثنا أبو صالح معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله الصمد قال : السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، والله سبحانه هذه صفته لاتنبغي لأحد الا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار .

حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزيوني حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في قوله الصمد قال : الذي لم يلد ولم يولد .

حدثنا أبو سعيد الأشح حدثنا ابن علية عن أبي رجاء عن عكرمة في قوله الصمد قال : الذي لم يخرج منه شيء .

حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أحمد حدثنا مندل بن علي عن أبي روق عطية بن الحارث عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن مسعود قال : الصمد الذي ليس له أحشاء وروى عن سعيد بن المسيب مثله .

حدثنا أبي حدثنا محمد بن عمر بن عبد الله الرومي حدثنا عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش عن صالح بن حيان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال لا أعلمه الا قد قال : الصمد الذي لا جوف له .

وروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود في احدى الروايات والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير ومجاهد في احدى الروايات والضحاك مثل ذلك حدثنا أبي حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال : الصمد المصمت الذي لاجوف له .

حدثنا أبو عبد الله الطهراني حدثنا حفص بن عمر العدني حدثنا الحكم ابن ابان عن عكرمة في قوله الصمد قال : الصمد الذي لا يطعم .

حدثنا أبي حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق حدثنا هشيم عن اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي أنه قال : الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب الشراب .

حدثنا أبي وأبو زرعة قالا حدثنا أحمد بن منيع حدثنا محمد بن ميسر - يعني أبا سعد الصغاني - حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله الصمد قال : الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يلد الا يموت وليس شيء يموت الا

يـورث وان الله لا يموت ولا يـورث ولم يكن له كفـوا أحد قـال لم يكن له شبـه ولا عدل وليس كمثله شيء .

حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمود بن خداش أبو سعد الصغاني حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا انسب لنا ربك فأنزل الله هذه السورة .

حدثنا أبو زرعة حدثنا العباس بن الوليـد حدثنـا يزيـد بن زريع عن سعيـد عن قتادة ولم يكن له كفواً أحد قال ان الله لا يكافئه من خلقه أحد .

حدثنا علي بن الحصين حدثنا أبـو عبد الله الجرشي حدثنـا أبو خلف عبـد الله بن عيسى حـدثنا داود بن أبي هنـد عن عكرمـة عن ابن عباس قـال : ان اليهود جاءت الى النبي ﷺ منهم كعب بن الاشرف وحيي بن أخطب وجدي بن أخطب فقـالوا : يـا محمد صف لنـا ربك الـذي بعثك فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ﴾ فيخرج ابنه الولـد (ولم يولـد) فيخرج منه شيء .

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره : حدثنا أحمد بن منيع المـروزي ، ومحمود بن خـداش الطالقاني فذكر مثل اسناد ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب سؤال المشركـين للنبي ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين عن يزيد عن عكرمـة أن المشركـين قالوا لرسول الله ﷺ أخبرنا عن صفة ربك مـا هو ومن أي شيء هـو ؟ فأنـزل الله هذه السـورة ورواه أيضاً عن أبي العالية وعن جابر بن عبد الله حدثنا شريح اسماعيل بن مجاهد عن الشعبي عن جابر فذكره قال وقيل هو من سؤال اليهود .

حدثنا ابن حميـد حدثنـا سلمة حـدثنا ابن اسحـاق عن محمد بن سعيـد قال أتى رهط من اليهود الى النبي ﷺ فقالوا يا محمـد هذا الله خلق الخلق فمن خلقـه ؟ فغضب النبي ﷺ حتى امتقع لونه ثم ساورهم غضبا لربه فجاء جبريل فسكنـه وقال اخفض عليـك جناحـك يا محمـد وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قـال يقول الله ﴿ قـل هو الله أحـد ﴾ الى آخرهـا فلما تلاهـا عليهم النبي ﷺ قالوا لـه صف لنا ربـك كيف خلقه كيف عضـده كيف ساعـده وكيف ذراعه فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته الأولى وأتـاه بجواب ما سألوه فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

وروى الحكم بن معبـد في كتاب الـرد على الجهميـة قـال حـدثنـا عبـد الله بن محمـد بن النعمان حدثنا سلمة بن شبيب حدثني يحيى بن عبد الله حدثني ضرار عن أبـان عن أنس قال :

أتت يهود خيبر الى النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وابليس من لهب النار ، والسماء من دخان ، والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك قال فلم يجبهم النبي ﷺ ، فأتاه جبريل فقال يا محمد : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ليس له عروق شعب اليها ـ الصمد ـ ليس بأجوف لا يأكل ولا يشرب ليس شيء يعتدل مكانه يمسك السموات والأرض أن تزولا الحديث ، وقال ابن جرير حدثنا عبد الرحمن بن الأسود حدثنا محمد بن ربيعة عن سلمة بن سابور عن عطية عن ابن عباس قال ، الصمد الذي ليس بأجوف .

حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد الصمد المصمت الذي لا جوف له ، حدثنا ابو كريب حدثنا وكيع عن منصور سواء .

حدثنا الحارث حدثنا الحسن حدثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا الربيع بن مسلمة عن الحسن قال الصمد الذي لا جوف له وهذا الاسناد عن ابراهيم بن ميسرة قال ارسلني مجاهد الى سعيد بن جبير أسأله عن الصمد فقال الذي لا جوف له . حدثنا ابن بشارة حدثنا يحيى حدثنا اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال الصمد الذي لا يطعم الطعام ورواه يعقوب عن هشيم عن اسماعيل عنه قال لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

حدثنا بشار ، وزيد بن أخزم قالا حدثنا ابن داود عن المستقيم بن عبد الملك عن سعيد بن المسيب قال الصمد الذي لا حشو له . حدثنا الحسين حدثنا ابو معاذ حدثنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول الصمد الذي لا جوف له ، وروى عن ابن بريدة فيه حدثنا مرفوعاً لكنه ضعيف قال وقال اخرون هو الذي لا يخرج منه شيء . حدثنا يعقوب بن أبي علية عن أبي رجاء سمعت عكرمة قال في قوله الصمد لم يخرج منه شيء لم يلد ولم يولد . حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي رجاء محمد بن يوسف عن عكرمة قال الصمد الذي لا يخرج منه شيء .

وقال آخرون لم يلد ولم يولد وذكر حديث أبي بن كعب الذي رواه ابن أبي حاتم والذي فيه أنه سبحانه لا يموت ولا يورث ، قال وقال آخرون هو السيد الذي انتهى في سؤدده ، وقال وحدثنا أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق قال : الصمد هو السيد الذي انتهى في سؤدده ، حدثنا أبو كريب وابن بشار ، وابن عبد الأعلى قالوا حدثنا وكيع عن الأعمش عن ابي وائل قال الصمد السيد الذي انتهى في سؤدده .

حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن الأعمش عن ابي وائل مثله حدثنا أبو صالح

حدثنا معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله الصمد قال السيد الذي كمل في سؤدده وذكر مثل الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم كما تقدم .

[رأى ابن تيمية]

(قلت) الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً قول من قال أن الصمد الذي لا جوف له وقول من قال أنه السيد ، وهو على الأول أدل ، فان الأول اصل للثاني ولفظ الصمد يقال على ما لا جوف له في اللغة ، قال يحيى بن أبي كثير الملائكة صمد والآدميون جوف ، وفي حديث آدم أن ابليس قال عنه أنه أجوف ليس بصمد .

وقال الجوهري : المصمد لغة في المصمت وهو الذي لا جوف له . قال : والصماد عفاص القارورة . وقال : الصمد المكان المرتفع الغليظ قال ابو النجم :

بغادر الصمد كظهر الأجزل

وأصل هذه المادة الجمع والقوة ومنه يقال يصمد المال أي يجمعه .

وكذلك السيد اصله سيود اجتمعت ياء وواو وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت كما قيل ميت وأصله ميوت والمادة في السواد والسؤدد تدل على الجمع واللون والأسود هو الجامع للبصر وقد قال تعالى : ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ قال أكثر السلف سيداً حليماً ، وكذلك يروى عن الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وعطاء ، وأبي الشعثاء بن أنس ، ومقاتل ، وقال أبو روق عن الضحاك أنه الحسن الخلق .

وروى سالم عن سعيد بن جبير أنه التقى ولا يسود الرجل الناس حتى يكون في نفسه مجتمع الخلق ثابتاً ، وقال عبد الله بن عمر ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية فقيل له ولا أبو بكر ولا عمر قال كان أبو بكر وعمر خيرا منه وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية ، قال أحمد بن حنبل : يعني به الحلم أو قال الكرم ولهذا قيل :

اذا شئت يوماً ان تسود قبيلة فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بأنه سيد قومه في الدين ، وقال ابن زيد هو الشريف وقال الزجاج الذي يفوق قومه في الخير ، وقال ابن الأنباري السيد هنا الرئيس والامام في الخير ، وعن ابن عباس ومجاهد هو الكريم على ربه وعن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم وقد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة صماد قال الجوهري العفاص جلد يلبسه رأس القارورة ، وأما الذي يدخل في فمه فهو الصمام وقد عفصت القارورة شددت عليها العفاص .

(قلت) وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ في اللقطة ، ثم اعرف عفاصها ووكاءها ،

والمراد بالعفاص ما يكون فيه الدراهم كالخرقة التي تربط فيها الدراهم والوكاء مثل الخيط الذي يربط به وهذا من جلس عفاص القارورة ولفظ العفص والسد والصمد والجمع والسؤدد معانيها متشابهة فيها الجمع والقوة ويقال طعام عفص وفيه عفوصة أي تقبض ومنه العفص الذي يتخذ منه الحبر .

وقد قال الجوهري : هو مولد ليس من كلام أهل البادية وهذا لا يضر لأنه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم لكن التسمية به جارية على اصول كلام العرب وكذلك تسميتهم لما يدخل في فمها صماماً فان هذه المادة فيها معنى الجمع والسد .

قال الجوهري صمام القارورة سدادها والحجر الأصم الصلب المصمت ، والرجل الاصم هو الذي لا يسمع لانسداد سمعه والرجل الصمة الشجاع ، والصمة الذكر في الحيات وصمة الشيء خالصه حيث لم يدخل اليه ما يفوقه ويضعفه يقال صميم الحر وصميم البرد وفلان من صميم قومه ، والصمصام الصارم القاطع الذي لا يثني وصمم في السير وغيره ، أي مضى ورجل صمصم أي غليظ ومنه في الاشتقاق الأكبر الصوم فان الصوم هو الامساك .

قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم لأن الامساك فيه اجتماع والصائم لا يدخل جوفه شيء ، ويقال صام الفرس اذا قام في غير اعتلاف ، قال النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وكذلك السد والسداد والسؤدد والسواد ، وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع والجمع فيه القوة فان الشيء كلما اجتمع بعضه الى بعض ولم يكن فيه خلل كان أقوى مما اذا كان فيه خلو . ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع صمد لقوته وتماسكه واجتماع أجزائه والرجل الصمد هو السيد المصمود أي المقصود يقال قصدته وقصدت له وقصدت اليه وكذلك هو مصمود ومقصود له واليه والناس انما يقصدون في حوائجهم من يقوم بها وانما يقوم بها من يكون في نفسه مجتمعاً قوياً ثابتاً وهو السيد الكريم بخلاف من يكون هلوعاً جزوعاً يتفرق ويعلق ويتمزق من كثرة حوائجهم وثقلها فان هذا ليس بسيد صمد يصمدون اليه في حوائجهم فهم انما سموا السيد من الناس صمداً لما فيه من المعنى الذي لأجله يقصده الناس في حوائجهم فليس معنى السيد في لغتهم معنى اضافي فقط كلفظ القرب والبعد بل هو معنى قاتم بالسيد لأجله يقصده الناس والسيد من السؤدد والسواد ، وهذا من جنس السداد في الاشتقاق الأكبر فان العرب تعاقب بين حرف العلة والحرف المضاعف كما يقولون تقضي البازي وتقضض والساد هو الذي يسد غيره فلا يبقى فيه خلوا ومنه سداد القارورة وسداد الثغر بالكسر فيهما وهو ما يسد ذلك ومنه السداد بالفتح وهو الصواب ومنه القول السديد قال الله تعالى : ﴿ اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ قالوا قصداً حقاً ، وعن ابن عباس صواباً وعن قتادة ومقاتل عدلاً وعن السدى

مستقيماً وكل هذا الأقوال صحيح فان القول السديد هو المطابق الموافق فان كان خبراً كان صدقاً مطابقاً لمخبره لا يزيد ولا ينقص وان كان أمراً كان أمراً بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل .

قال الجوهري : التسديد التوفيق للسداد وهو الصواب والقصد في القول والعمل ورجل مسدد اذا كان يعمل بالسداد والقصد والمسدد المقوم وسدد رمحه وأمر سديد وأسد أي قاصد وقد استد الشيء استقام قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم　　فلما اشتد ساعده رماني

وقال الاصمعي اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء وتعبيرهم عن السداد بالقصد يدلك على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة والقصد العدل كما أنه السداد والصواب وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص وهذا هو الجامع المطابق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ أي السبيل القصد وهو السبيل العدل أي اليه تنتهي السبيل العادلة كما قال تعالى : ﴿ ان علينا للهدى ﴾ أي الهدى الينا هذا أصح الأقوال في الآيتين وكذلك قوله تعالى : ﴿ قال هذا صراط على مستقيم ﴾ .

ومنه في الاشتقاق الأوسط الصدق فان حروفه حروف القصد فمنه الصدق في الحديث لمطابقته مخبره كما قيل في السديد والصدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج والصندوق واحد الصناديق فانه يجمع ما يوضع فيه .

ومما ينبغي أن يعرف في باب الاشتقاق أنه اذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان : أحدهما أن بين القولين تناسبا في اللفظ والمعنى سواء كان أهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر فانه المقصود أنه مناسب له لفظاً ومعنى كما يقال هذا الماء من هذا الماء وهذا الكلام من هذا الكلام وعلى هذا فاذا قيل أن الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل كان كلا القولين صحيحاً وهذا هو الاشتقاق الذي يقوم عليه دليل التصريف .

وأما المعنى الثاني في الاشتقاق وهو أن يكون احدهما اصلاً للآخر فهذا اذا عني به أن أحدهما تكلم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل في الأكثر من المواضع وأن عني به أن أحدهما متقدم على الآخر في العقل لكون هذا مفرداً وهذا مركباً فالفعل مشتق من المصدر والاشتقاق الأصغر اتفاق القولين في الحروف وترتيبها والأوسط اتفاقهما في الحروف لا في الترتيب والاكبر اتفاقهما في أعيان بعض الحروف وفي الجنس في الباقي كاتفاقهما في كونهما من حروف الحلق اذا قيل حزر وعزر وازر فان الجميع فيه معنى القوة والشدة قد اشتركت الراء والزاي والحاء في أن الثلاثة حروف حلقية وعلى هذا فاذا قيل الصمد بمعنى المصمت وأنه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو

صحيح فان الدال أخت التاء في أن الصمت السكوت وهو امساك واطباق للفم عن الكلام .

قال أبو عبيدة : المصمت الذي لا جوف له وقد أصمته أنا وباب مصمت قد أبهم اغلاقه والمصمت من الخيل البهم أي لون كان لا يخالط لونه لون آخر ، ومنه قول ابن عباس انما حرم من الحرير المصمت فالمصدر والمصمت متفقان في الاشتقاق الأكبر وليست الدال منقلبة عن التاء بل الدال أقوى والمصمد أكمل في معناه من المصمت وكلما قوى الحرف كان معناه أقوى فان لغة العرب في غاية الاحكام والتناسب ولهذا كان الصمت امساك عن الكلام مع امكانه والانسان أجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فانه انما استعمل فيما لا تفرق فيه كالصمد والسيد والصمد من الأرض وصماد القارورة .

ونحو ذلك فليس في هذه الألفاظ المتناسبة أكمل من الفاظ الصمد فان فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يتناسبها من الحروف والمعاني المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل .

ومما يناسب هذه المعاني معنى الصبر فان الصبر فيه جمع وامساك ولهذا قيل : الصبر حبس النفس عن الجزع يقال صبر وصبرته أنا ومنه قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك ﴾ وكذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع ومنه الصبرة من الطعام فانها مجتمعة مكومة والصبارة الحجارة وصبر الشيء غلظه وضده الجزع وفيه معنى التقطع والتفرق يقال جزع له جزعة من المال أي قطع له قطعة والجزوعة القطعة من الغنم واجتزعت من الشجر عوداً أي اقتطعته واكتسرته وجزعت الوادي اذا قطعته عرضاً والجزع منعطف الوادي ومنه الجزع وهو الخرز اليماني الذي فيه بياض وسواد وكذلك جزع البسر تجزيعاً اذا ارطب نصفه ثلثاه وهو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما في ذلك من الاجتماع وفي هذا من التفرق . وقد قال تعالى : ﴿ ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً ﴾ .

قال الجوهري : الهلع افحش الجزع وقال غيره هو في اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع ومنه قول النبي ﷺ الشر ما في المرء شح هالع وجبن خالع ، وناقة هلواع اذا كانت سريعة السير خفيفة وذئب هلع بلع والهلع من الحرص والبلع من الابتلاع ولهذا كان كلام السلف في تفسيره يتضمن هذه المعاني فروي عن ابن عباس قال هو الذي اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً ، وروي عنه أنه قال هو الحريص على ما لا يحل له وعن سعيد بن جبير شحيحاً وعن عكرمة ضجوراً وعن جعفر حريصاً وعن الحسن والضحاك بخيلاً وعن مجاهد شرعاً وعن الضحاك أيضاً الهلوع الذي لا يشبع وعن مقاتل ضيق القلب وعن عضاء عجولاً ، وهذه المعاني كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والامساك والصبر ، وقد قال تعالى : ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم ﴾ وهذا وان كان قد قيل ان المراد به أنها

تتصدع فيموتون فانه كما قيل في مثل ذلك قد انصدع قلبه وقد تفرق قلبي وقد تشتت قلبي وقد تقسم قلبي ، ومنه يقال للخوف قد فرق قلبه ويقال بازاء ذلك هو ثابت القلب مجتمع القلب مجزوع القلب .

فصـــــل

قال الله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ فأدخل اللام في الصمد ولم يدخلها في أحد لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الاثبات مفرداً غير مضاف بخلاف النفي وما في معناه ، كالشرط والاستفهام فانه يقال هل عندك أحد وما جاءني أحد الا اكرمته ، وانما استعمل في العدد المطلق يقال أحد ، اثنان ، ويقال احدى عشرة وفي أول الأيام يقال يوم الاحد فان فيه على أصح القولين ابتدأ الله خلق السموات والأرض وما بينهما كما دل عليه القرآن والأحاديث الصحيحة فان القرآن أخبر في غير موضع أنه خلق السموات وما بينهما في ستة أيام ، وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته أن آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة واذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله خلق التربة يوم السبت فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره ، قال البخاري : الصحيح أنه موقوف على كعب وقد ذكر تعليله البيهقي أيضاً وبينوا أنه غلط ليس مما رواه ابو هريرة عن النبي ﷺ وهو مما أنكر الحذاق على مسلم اخراجه اياه كما أنكروا عليه اخراج أشياء يسيرة وقد بسط هذا في موضع آخر وقد ذكر ابو الفراج ابن الجوزي في قوله : ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ .

قال ابن عباس : خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين ، وبه قال عبد الله بن سلام والضحاك ومجاهد وابن جريج السدي والأكثرون ، وقال مقاتل في يوم الثلاثاء والأربعاء ، قال وقد أخرج مسلم حديث أبي هريرة خلق التربة يوم السبت قال وهذا الحديث مخالف لما تقدم وهو أصح فصحيح هذا لظنه صحة الحديث اذ رواه مسلم ولكن هذا له نظائر روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط مثل قول أبي سفيان لما أسلم أريد أن أزوجك أم حبيبة ولا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل اسلام أبي سفيان ولكن هذا قليل جداً .

ومثل ما روى في بعض طرق حديث صلاة الكسوف أنه صلاها بثلاث ركوعات وأربع ، والصواب أنه لم يصلها الا مرة واحدة بركوعين ، ولهذا لم يخرج البخاري الا هذا ، وكذلك الشافعي . وأحمد بن حنبل في احدى الروايتين عنه وغيرهما والبخاري سلم من مثل هذا فانه اذا وقع في بعض الروايات المحفوظة التي تبين غلط الغالط فانه كان أعرف بالحديث وعلله وأفقه في معانيه من مسلم ونحوه .

وذكر ابن الجوزي في مواضع أخرى أن هذا قول ابن اسحاق ، وقال ابن الأنباري وهذا اجماع أهل العلم وذكر قولاً ثالثاً في ابتداء الخلق أنه يوم الاثنين ، وقال قال ابن اسحاق وهذا تناقض ، وذكر أن هذا قول أهل الانجيل والابتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة وهذا النقل غلط على أهل الانجيل كما غلط من جعل الاول اجماع أهل العلم من المسلمين ، وكأن هؤلاء ظنوا أن كل أمة تجعل اجتماعها في اليوم السابع من الأيام السبعة التي خلق الله فيها العالم وهذا غلط فان المسلمين انما اجتماعهم في آخر يوم خلق الله فيه العالم وهو يوم الجمعة ، كما ثبت ذلك في الاحاديث الصحيحة ، والمقصود هنا أن لفظ الاحد لم يوصف به شيء من الأعيان الا الله وحده وانما يستعمل في غير الله في النفي ، قال أهل اللغة : يقول لا أحد في الدار ، ولا تقل فيها أحد ولهذا لم يجيء في القرآن الا في غير الموجب كقوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (١) وكقوله : ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وان أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ (٣) وفي الاضافة كقوله : ﴿ فابعثوا أحدكم ﴾ (٤) ﴿ وجعلنا لأحدهما جنتين ﴾ (٥) .

وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم فلم يقل الله صمد بل قال الله الصمد فبين أن المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فانه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وأن كان صمداً من بعض الوجوه فان حقيقة الصمدية منتفية عنه فانه يقبل التفرق والتجزئة وهو أيضاً محتاج الى غيره فان كل ما سوى الله محتاج اليه من كل وجه فليس أحد يصمد اليه كل شيء ، ولا يصمد هو الى شيء الا الله ، وليس في المخلوقات الا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه فهو أحد لا يماثله شيء من الاشياء بوجه من الوجوه ، كما قال في آخر السورة ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ استعملها هنا في النفي أي ليس شيء من الاشياء كفوًا له في شيء من الاشياء لأنه أحد .

وقال رجل للنبي ﷺ أنت سيدنا ، فقال : السيد الله . ودل قوله الاحد الصمد على أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فان الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء وفلا يدخل فيه شيء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال : ﴿ أفغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات

---

(١) سورة الحاقة الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٢ .

(٣) سورة التوبة الآية ٦ .

(٤) سورة الكهف الآية ١٩ .

(٥) سورة الكهف الآية ٣٢ .

والأرض وهو يطعم ولا يطعم ﴾ [١] وفي قراءة الأعمش وغيره ولا يطعم بالفتح وقال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أن الله هو الرازق ﴾ [٢] .

ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون فالخالق لهم جلَّ جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد المصمد الذي لا جوف له فلا يخرج منه عين من الأعيان فلا يلد ، ولذلك قال من قال من السلف هو الذي لا يخرج منه شيء ليس مرادهم أنه لا يتكلم ، وأن كان يقال في الكلام أنه خرج منه كما قال في الحديث ، ما تقرب العباد الى الله بشيء أفضل مما خرج منه ، يعني القرآن .

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة أن هذا لم يخرج من مُتكلِّم، فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه ويبلغ الى غيره ، ليس بمخلوق في غيره كما يقول الجهمية ليس بمعنى أن شيئاً من الاشياء القائمة به يفارقه وينتقل عنه الى غيره فان هذا ممتنع في صفات المخلوقين أن تفارق الصفة محلها وتنتقل الى غير محلها ، فكيف بصفات الخالق جل جلاله ، وقد قال تعالى في كلام المخلوقين ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً ﴾ [٣] وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم وسمعت منه ليس خروجها من فيه أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته والتنقل الى غيره فخروج كل شيء بحسبه ومن شأنه العلم والكلام اذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد للضوء وهو باق على حاله لم ينقص فقول من قال من السلف الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه .

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والمتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون من أصلين ، وما كان من المتولد عيناً قائمةً بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضاً قائماً بغيره فلا بد له من محل يقوم به فالأول نفاه بقوله أحد فان الأحد هو الذي لا كفوء له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة والتولد انما يكون بين شيئين قال تعالى : ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه فان انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم وبأنه خلق كل شيء وكل ما سواه مخلوق له ليس فيه شيء مولود له .

---

(١) سورة الانعام الآية ١٤ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٣) سورة الكهف الآية ٥ .

والثاني نفاه بكونه سبحانه الصمد وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الاصلين كتوالد الحيوان من أبيه وأمه بالمَنِي الذي ينفصل من أبيه وأمه فهذا التولد يفتقر الى أصل آخر الى أن يخرج منهما شيء وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى فانه أحد فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيراً وهو صمد لا يخرج منه شيء فكل واحد من كونه أحد ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والداً ويمنع أن يكون [١] مولوداً بطريق الأولى والآخرى [٢] .

وكما أن التوالد من الحيوان لا يكون الا من أصلين سواء كان الاصلان من جنس الولد وهو الحيوان المتولد أو من غير جنسه وهو المتولد فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين أو كانا حجراً وحديداً أو غير ذلك قال الله تعالى : ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ [٣] وقال تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون ﴾ [٥] .

قال غير واحد من المفسرين : هما شجرتان يقال لاحداهما المرخ والأخرى العفار فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتخرج منهما النار باذن الله تعالى وتقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار . وقال بعض الناس في كل شجرة نار الا العناب فاذا أنتم منه توقدون فذلك زنادهم .

وقد قال أهل اللغة الجوهري وغيره : الزند الذي يقدح به النار وهو أعلى والزندة السفلى فيها ثقب ، وهي الأنثى فاذا اجتمعا قيل زندان ، وقال أهل الخبرة بهذا أنهم يسحقون الثقب الذي في الانثى بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان في أثناه فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة ، وسحق الأنثى بالذكر وقدحها به يقتضي حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما أن ايلاج ذكر الحيوان في أنثاه يقدح وحك فرجها بفرجه فتقوى حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالاخرى ويتولد منهما الولد ، ويقال علقت النار في المحل الذي يقدح عليه هو الذي هو كالرحم للولد وهو الحراق والصوفان ونحو ذلك مما يكون أسرع

---

(١) في الأصل : وأن ويمنع يكون .

(٢) في الأصل : والآخرى .

(٣) سورة العاديات الآية ٢ .

(٤) سورة الواقعة الآية ٧١ .

(٥) سورة يس الآية ٧٨ .

قبولاً للنار من غيره ، كما علقت المرأة من الرجل وقد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة ، وقد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني والنار ليست من جنس الزنادين بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء والطين فان الحيوان نوعان متوالد كالانسان وبهيمة الأنعام وغير ذلك مما يخلق من ابوين ومتولد كالذي يتولد من الفاكهة والخل وكالقمل الذي يتولد من وسخ جلد الانسان وكالفار والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب .

[هل الجواهر ثابتة أم متغيرة]

وقد تنازع الناس فيما يخلق الله من الحيوان والنبات والمعدن والمطر والنار التي تورى بالزناد وغير ذلك هل تحدث أعيان هذه الأجسام فتقلب هذا الجنس الى جنس آخر كما يقلب المني علقة ثم مضغة أولا تحدث الا أعراض وأما الأعيان التي هي الجواهر فهي باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الأربعة الاجتماع ، والافتراق والحركة والسكون على قولين .

فالقائلون بأن الاجسام مركبة من الجواهر الفردة التي لا تقبل التجزىء كما يقوله كثير من أهل الكلام وإما من جواهر لا نهاية لها كما يحكى عن النظام فالقائلون بأن الاجسام مركبة من الجواهر يقولون ان الله لا يحدث شيئاً قائماً بنفسه وانما يحدث الاعراض التي هي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وغير ذلك من الاعراض .

ثم من قال منهم بأن الجواهر محدثة قال ان الله أحدثها ابتداء ثم جميع ما يحدثه انما هو احداث أعراض فيها لا يحدث الله بعد ذلك جواهر وهذا قول أكثر المعتزلة والجهمية والاشعرية ونحوهم ، ومن أكابر هؤلاء من يظن أن هذا دين المسلمين ويذكر اجماع المسلمين عليه وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ولا جمهور الأمة بل جمهور الأمة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد وتركب الاجسام من الجواهر ، وابن كلاب أمام اتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد .

وقد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك في مصنفه الذي صنفه في مقالات ابن كلاب وما بينه وبين الاشعري من الخلاف ، وهكذا نفي الجوهر الفرد قول الهشامية والضرارية وكثير من الكرامية والنجارية أيضاً ، وهؤلاء القائلون بأن الاجسام مركبة من الجواهر الفردة المشهورة عنهم بأن الجواهر متماثلة بل ويقولون أو أكثرهم أن الاجسام متماثلة لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة وانما اختلف [1] باختلاف الأعراض وتلك صفات عارضة لها ليست لازمة فلا تنفي

---

(١) في الأصل : اختلف .

التماثل فان حدَّ المثلين أن يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه وكذلك الاجسام المؤلفة من الجواهر .

ولهذا اذا أثبتوا حكماً لجسم قالوا هذا ثابت لجميع الاجسام بناء على التماثل ، وأكثر العقلاء ينكرون هذا وحذافهم قد أبطلوا الحجج التي احتجوا بها على التماثل كما ذكر ذلك الرازي والآمدي وغيرهما ، وقد بسط الكلام على هذا في مواضع ، والاشعري في كتاب الابانة جعل القول بتماثل الاجسام من اقوال المعتزلة التي أنكرها ، وهؤلاء يقولون أن الرب يخص أحد الجسمين المتماثلين بأعراض دون الآخر بمجرد المشيئة على أصل الجهمية أو لمعنى آخر مما يقوله القدرية ويقولون يمتنع انقلاب الاجناس فلا ينقلب الجسم عرضاً ولا جنساً من الأعراض الى جنس آخر فلو قالوا أن الاجسام مخلوقة وأن المخلوق ينقلب من جنس آخر لزم انقلاب الاجناس فهؤلاء يقولون أن التولد الحاصل في الرحم والثمر الحاصل في الشجر والنار الحاصلة في الزناد هي جواهر كانت في المادة التي خلق منها وهي بعينها باقية لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق والحركة والسكون [1] .

ولهذا لما ذكر أبو عبد الله الرازي أدلة اثبات الصانع ذكر أربعة طرق امكان الذوات وحدوثها وامكان الصفات وحدوثها ، والطرق الثلاثة الاول ضعيفة بل باطلة فان الذوات التي ادعوا حدوثها أو امكانها وامكان صفاتها ذكروها بألفاظ مجملة لا يتميز فيها الخالق عن المخلوق ولم يقيموا على ما ادعوه دليلاً صحيحاً ، وأما الطريق الرابع وهو الحدوث لما يعلم حدوثه فهو طريق صحيح وهو طريق القرآن لكن قصروا فيه غاية التقصير فانهم على أصلهم لم يشهدوا حدوث شيء من الذوات بل حدوث الصفات وطريقة القرآن تبين أن كل ما سوى الله مخلوق وأنه آية لله وقد بسط الكلام على ما في القرآن من البراهين والآيات التي لم يصل اليها هؤلاء المتكلمة والمتفلسفة وأن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن في غير موضع .

والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم في ابتداء الخلق وهو القول باثبات الجوهر الفرد كان أصلهم في المعاد مبنياً عليه ، فصاروا على قولين : منهم من يقول بعدم الجواهر ثم تعاد ، ومنهم من قال تتفرق الاجزاء ثم تجتمع فأورد عليهم الانسان الذي يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله انسان آخر فان أعيدت تلك الاجزاء من هذا لم تعد من هذا وأورد عليهم أن الانسان يتحلل دائماً فماذا الذي يعاد أهو الذي كان وقت الموت ؟ فان قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص ، وان كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض فادعى بعضهم أن في الانسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من

---

(١) وهو ما يعبر عنه بالوجود بالقوة . السابق على الوجود بالفعل كوجود النخلة في النواة ، والجنين في النطفة .

ذلك الحيوان الذي أكله الثاني والعقلاء يعلمون أن بدن الانسان نفسه كله يتحلل ، ليس فيه شيء باق فصار ما ذكروه في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في انكار معاد الأبدان وأوجب أن صار طائفة من النظار الى أن الله يخلق بدنا آخر تعود الروح اليه ، والمقصود تنعيم الروح وتعذيبها سواء كان في هذا البدن أو في غيره .

وهذا أيضاً مخالف للنصوص الصريحة باعادة هذا البدن وهذا المذكور في كتب الرازي فليس في كتبه وكتب أمثاله في مسائل اصول الدين الكبار القول الصحيح الذي يوافق المنقول والمعقول الذي بعث الله به الرسول وكان عليه سلف الأمة وأئمتها ، بل يذكر بحوث المتفلسفة الملاحدة وبحوث المتكلمين المبتدعة الذين بنوا على أصول الجهمية والقدرية في مسائل الخلق والبعث والمبدأ أو المعاد ، وكلا الطريقين فاسد اذ بنوه على مقدمات فاسدة .

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء من أن الاجسام تنقلب من حال الى حال انما يذكره عن الفلاسفة والاطباء وهذا القول وهو القول في خلق الله للاجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقلبها ويحيلها من جسم الى جسم هو الذي عليه السلف والفقهاء قاطبة والجمهور ولهذا يقول الفقهاء في النجاسة هل تطهر بالاستحالة أم لا كما تستحيل العذرة ومادا والخنزير وغيره ملحاً ونحو ذلك والمني الذي في الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذي نزل عليها وغير ذلك من المواد التي يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته وكذلك الحبة يقلبها وتنقلب المواد التي يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك [1] .

وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظماً ولحماً وغير ذلك من اجزاء البدن وكذلك المضغة يقلبها عظاماً وغير عظام قال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون ﴾ [2] وكذلك النار يخلقها بقلب بعض اجزاء الزناد ناراً كما قال : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً ﴾ فنفس تلك الاجزاء التي خرجت من الشجر الاخضر جعلها الله ناراً من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلاً كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلاً ولا كان في بطن المرأة جنين أصلاً بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة الى هذا وبما ضمه الى هذا من مواد آخر .

وكذلك الاعادة بعيدة بعد أن يبلى كله الا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن

---

(١) وهذا الرأس هو الذي ارتضاه ابن تيمية في الكثير من كتبه . ويؤيده العلم والتجربة .

(٢) سورة المؤمنون الآيات (١٢ - ١٦) .

النبي ﷺ أنه قال : « كل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب منه خلق ابن أدم ومنه يركب ، وهو اذا أعاد الانسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فان هذه كائنة فاسدة ، وتلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة وليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وانما هو رشح كرشح المسك »، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ﴿ يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ﴾ [1] فهم يعودون غلفا لا مختونين .

وقال الحسن البصري ومجاهد : كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً كذلك تعودون يوم القيامة أحياء ، وقال قتادة بدأهم من التراب والى التراب يعودون كما قال تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [2] وقال : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [3] .

وهو قد شبه سبحانه اعادة الناس في النشأة الثانية باحياء الأرض بعد موتها في غير موضع كقوله : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى اذ أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[4] وقال : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ [5] الى قوله : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنْ كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلاً يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾ [6] .

وقال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ [7] وهو سبحانه مع اخباره أنه يعيد الخلق وأنه يحيى العظام

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٢) سورة طه الآية ٥٥ .

(٣) سورة الاعراف الآية ٢٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٥٧ .

(٥) سورة الحجر الآيات (١٩ ـ ٢١) .

(٦) سورة الحج الآيات (٥ ـ ٦) .

(٧) سورة الروم الآية ٢٨ .

وهي رميم وأنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ويخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى : ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلاً ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ وقال تعالى : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى أنه على كل شيء قدير ﴾ [3] وقال : ﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ [4] .

والمراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على اعادتهم كما أخبر بذلك في قوله : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ [5] فان القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق في هذه الدار ثانياً أمثالهم فان هذا هو الواقع المشاهد بخلق قرناً بعد قرن يخلق الولد من الوالدين وهذه هي النشأة الأولى وقد علموها ، وبها احتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ [6] وقال ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [7] وقال : ﴿ يأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ﴾ [8] ولهذا قال : ﴿ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ [9] .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٩٨ .

(٢) سورة الاسراء الآيات (٤٩ ـ ٥١)

(٣) سورة الاحقاف الآية ٣٢ .

(٤) سورة الواقعة الآيات (٥٩ ـ ٦٠) .

(٥) سورة الاحقاف الآية ٣٢ .

(٦) سورة الواقعة الآية ٦٢ .

(٧) سورة يس الآية ٧٨ .

(٨) سورة الحج الآية ٥ .

(٩) سورة الواقعة الآية ٦١ .

قال الحسن بن الفضل البجلي : الذي عندي في هذه الآية وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى بخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات وليست الآخرة كذلك ومعلوم أن النشأة الأولى كان الانسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح وتلك النطفة من مني الرجل والمرأة وهو يغذيه بدم الطمث الذي يربيه الله في ظلمات ثلاث : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم . وظلمة البطن ، والنشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة ولا يغذون بدم ولا يكون أحدهم نطفة رجل وأمرأة ثم يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى وتكون المادة من التراب كما قال : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (1) .

وقال تعالى : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ (2) وقال : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجاً ﴾ (3) .

وفي الحديث ، ان الأرض تمطر مطراً كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات ، كما قال تعالى كذلك الخروج ، كذلك النشور ، وكذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ، فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجهه ، ويفترقان ويتنوعان من جهة آخر ، ولهذا جُعل المعاد هو المبدأ وجُعل مثله أيضاً فاعتبار اتفاق المبدأ أو المعاد فهو هو وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله .

وهكذا كل ما أعيد فلفظ الاعادة يقتضي المبدأ أو المعاد سواء في ذلك اعادة الاجسام والأعراض كاعادة الصلاة وغيرها فان النبي ﷺ مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة ويقال للرجل : أعد كلامك وفلان أعاد كلام فلان بعينه ، ويعيد الدرس ، فالكلام هو الكلام وان كان صوت الثاني غير صوت الأول وحركته ولا يطلق القول عليه انه مثله بل قد قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الجن والانس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ .

وكان رسول الله ﷺ اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً ، وان كان يسمى مثلاً مقيداً حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أي مثل هذا قال ويقال فعل هذا عودا على بدء اذا فعله مرة ثانية بعد أولى . ومنه البتر البدي والبتر العادي فالبدي التي ابتدأت والعادي التي أعيدت وليست بنسبة الى عاد كما قيل ، ويقال استعدته الشيء فأعاده اذا سألته أن يفعله مرة ثانية ومنه سميت العادة يقال عادة واعتاده وتعوده أي صار عادة له . وعود كلبه الصيد فتعوده وهو من

---

(1) سورة طه الآية ٥٥ .

(2) سورة الاعراف الآية ٢٥ .

(3) سورة نوح الآيات (١٧ ـ ١٨) .

المعاودة والمعاودة الرجوع الى الأمر الأول ويقال الشجاع معاود لأنه لا يمل المراس وعاودته الحمى وعاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة وتعاود القوم في الحرب وغيرها اذا عاد كل فريق الى صاحبه والعواد بالضم بما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى ، وعواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الاعادة باعتبار الحقيقة فان الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى وان تعدد الشخص .

ولهذا يقال هو مثل ويقال هذا هو هذا وكلاهما صحيح وأعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فان من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده وانما يقال حاكاه وشابهه بخلاف ما اذا فعل ثانياً مثل ما فعل أولاً فانه يقال أعاد فعله وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده ولا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاد ويقال قرىء على هذا وأعاد على هذا وهذا يقرأ أي يدرس وهذا يعيد ولو كان كلاً ما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعبد .

وكذلك من كسر خاتماً أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان ويقال لمن هدم داراً أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فان هذا لا يمسى معيداً والمعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه ويقال هذا مثل الأول من كل وجه ونحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه ، وبهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الاعادة لا تكون الا مع اعادة ذلك الزمان ونحو ذلك مما يمنع اعادته في صريح العقل وانما يعاد بالاتيان بمثله وان قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلاً بوجه من الوجوه والاعادة التي أخبر الله بها هي الاعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الاعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ وهي التي يدل عليها لفظ الاعادة والمعاد هو الأول بعينه وان كان بين لوازم الاعادة ولوازم البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول لأن الجسد الثاني مباين للأول من كل وجه كما زعم بعضهم ولأن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم .

وكما أنه سبحانه خلق الانسان ولم يكن شيئاً كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً ، وعلى هذا فالانسان الذي صار تراباً ونبت من ذلك التراب نبات أكله انسان آخر وهلم جرا والانسان الذي أكله انسان أو حيوان وأكل كذلك الحيوان انساناً آخر ففي هذا كله قد عدم هذا الانسان هذا الانسان فصار كل منهما تراباً كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب انما يبقى عجب الذنب منه خلق ومنه يركب .

وأما سائره فعدم فيعاد من المادة التي استحال اليها فاذا استحال في القبر الواحد ألف ميت وصاروا كلهم تراباً فانهم يعادون ويقومون من ذلك القبر وينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدماً محضاً كما أنشأهم أولاً بعد أن كانوا عدماً محضاً واذا صار ألف انسان تراباً في قبر انشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها

من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وجعل نشأتهم بما يستحيل الى أبدانهم من الطعام والشراب كما يستحيل الى بدن أحدهم ما يأكله من نبات وحيوان .

وكذلك لو أكل انسان انساناً أو أكل حيواناً قد أكل انساناً فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة الى علقة الى مضغة ومن غير أن يغذوها بدم الطمث ومن غير أن يغذوها بابن الأم وبسائر ما يأكله من الطعام والشراب فمن ظن أن الاعادة تحتاج الى اعادة الأغذية التي استحالت الى أبدانهم فقد غلط وحينئذ فاذا أكل انسان انساناً فانما صار غذاء له كسائر الأغذية وهو لا يحتاج الى اعادة الأغذية ومعلوم أن الغذاء ينزل الى المعدة طعاماً وشراباً ثم يصير كلوساً كالثردة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دماً فيقسمه الله تعالى في البدن كله ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم الى شبيه ذلك الجزء العظم عظماً واللحم لحماً والعرق عرقاً وهذا في الرزق كاستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة وكما أنه سبحانه لا يحتاج في الاعادة الى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها فاكهة ولحماً ثم يجعلها كلوساً وكيموسا ثم دما ثم عظماً ولحماً وعروقاً بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذا النشأة كما قال : ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ .

ولا يحتاج مع ذلك الى شيء من هذه الاستحالات التي كانت في النشأة الأولى وبهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائماً في التحلل فان تحلل البدن ليس بأعجب من انقلاب النطفة علقة والعلقة مضغة وحقيقة كل منها خلاف حقيقة الأخرى .

وأما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى وتماثلها واذا كان في الاعادة لا يحتاج الى انقلابه من حقيقة الى حقيقة فكيف بانقلابه بسبب التحلل ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو شاب ثم رآه وهو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الاستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل والاستحالة ثابت في سائر الحيوان والنبات كما هو في بدن الانسان .

ولا يحتاج عاقل في اعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى وأن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين ولا أن هذا الانسان وهو الذي رآه من عشرين سنة الى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل ولا يخطر هذا ببال أحد ولا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذاك على تلك الاجزاء التي لا تعرف ولا تتميز عن غيرها بل انما يشيرون الى جملة الشجرة والفرس والانسان مع أنه قد يكون كان صغيراً فكبر ولا يقال انما كان هو ذاك باعتبار أن النفس الناطقة واحدة كما زعمه من ادعى أن البدن الثاني ليس هو الأول ولكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففي

أي بدن كانت حصل المقصود فان هذا أيضاً باطل مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف مخالف للمعقول من الاعادة .

فانا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذاك وهذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه وتقوم بذاتها وكذلك يقولون مثل هذا في الحيوان وفي الانسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار اليه بهذا وذاك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك مع وجود الاستحالة وعلم بذلك أن ما ذكر من الاستحالة لا ينافي أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هذا هو البدن ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ حتى اذا ما جاؤ ها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ [2] .

ومعلوم أن الانسان لو قال أو فعل فعلاً أو رأى غيره بفعل أو سمعه يقول ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أو فعل وهو الاقرار الذي يؤاخذ بموجبه أو شهد على غيره من الأموال وأقربه من الحقوق لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة مع استحالة بدنه في هذه المدة الطويلة ولا يقول عاقل من العقلاء أن هذه الشهادة على مثله أو على غيره ولو قدر أن المعين حيوان أو نبات وشهد أن هذا الحيوان قبضه هذا من هذا وأن هذا الشجر سلمه هذا هذا كان كلاماً معقولاً مع الاستحالة واذا كانت الاستحالة غير مؤثرة .

فقول القائل يعيده على صفة ما كان وقت موته أو سمته أو هزاله وغير ذلك جهل منه فان صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذا النشأة حتى يقال أن الصفات هي المغيرة اذ ليس هناك استحالة ولا استفراغ ولا امتلاء ولا سمن ولا هزال لا سيما أهل الجنة اذا دخلوها فانهم يدخلونها على صورة أبينا آدم طول أحدهم ستون ذراعاً كما ثبت في الصحيحين وغيرهما وروى أن عرضه سبعة أذرع وهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وليست تلك النشأة من اخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضاً كما هي هذه النشأة ، ولا طعامهم مستحيلاً ولا شرابهم مستحيلاً من التراب والماء والهواء كما هي اطعمتهم في هذه النشأة ، ولهذا أبقى الله طعام الذي مر على قرية وشرابه مائة عام لم يتغير ودلنا سبحانه بهذا على قدرته فاذا كان في دار الكون والفساد يبقى الطعام الذي هو رطب وعنب أو نحو ذلك والشراب الذي هو ماء أو ما فيه ماء مائة عام لم يتغير فقدرته سبحانه وتعالى على أن يجعل

---

(١) سورة يٓس الآية ٦٥ .

(٢) سورة فصلت الآية ٢١ .

الطعام والشراب في النشأة الأخرى لا يتغير بطريق الأولى والأخرى ، وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

فصـــــل

والمقصود هنا أن التولد لا بد له من أصلين وان ظن ظان أن نفس الهواء الذي بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته من غير مادة تخرج منهما تنقلب ناراً فقد غلط وذلك لأنه لا تخرج ناران لم يخرج منهما مادة بالحك ولا تخرج النار بمجرد الحك .

وأيضاً فانهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه وانما ينزل الثقيل فلولا أن هناك جزأ ثقيلاً من الزناد الحديد والحجر لما نزلت النار ولو كان الهواء وحده انقلب ناراً لم ينزل لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة ناراً قد ينقلب الهواء القريب منها ناراً اما دخاناً واما لهيباً ، والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين كما خلق آدم من التراب والماء والا فالتراب المحض الذي لم يختلط به ماء لا يخلق منه شيء لا حيوان ولا نبات والنبات جميعه انما يتولد من اصلين أيضاً ، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل كما قال تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ (١) وقال : ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ (٢) وقال : ﴿ فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا قالت أني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أن رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ (٣) .

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب ذرعها والجيب هو الطوق الذي في العنق ليس هو ما يسميه بعض العامة جيباً وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها . وموسى لما أمره أن يدخل يده في جيبه هو ذلك الجيب المعروف في اللغة .

وذكر أبو الفرج وغيره قولين هل كانت النفخة في جيب الدرع أو في الفرج : فان من قال بالأول قال في فرج ذرعها وأن من قال هو مخرج الولد قال أنها كناية عن غير مذكور لأنه انما نفخ ذرعها لا في فرجها وهذا ليس بشيء بل هو عدول عن صريح القرآن وهذا النقل ان كان ثابتاً لم يناقض القرآن وان لم يكن ثابتاً لم يلتفت اليه فان من نقل أن جبريل نفخ في جيب الذرع فمراده أنه ﷺ لم ينكشف بدنها وكذلك جبريل كان اذا أتى النبي ﷺ وعائشة متجردة لم ينظر اليها متجردة فنفخ في جيب الذرع فوصلت النفخة الى فرجها .

---

(١) سورة التحريم الآية ١٢ .

(٢) سورة الانبياء الآية ٩١ .

(٣) سورة مريم الآية ١٩ .

والمقصود انما هو النفخ في الفرج كما أخبر الله به في ايتين والا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ الى الفرج مخالف للقرآن مع أنه لا تأثير له في حصول الولد ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف .

والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين من نفخ جبريل ومن أمه مريم وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي كون بعد مضى أربعة أشهر والجنين مضغة فان ذلك نفخ في بدن قد خلق وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد ولا كانت مريم حملت وانما حملت به بعد النفخ بدليل قوله : ﴿ قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا ﴾ .

فلما نفخ فيها جبريل حملت به ولهذا قيل في المسيح روح منه باعتبار هذا النفخ وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه وهو جبريل هو الزوج الذي خاطبها وقال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا فقوله ونفخنا فيها أو فيه من روحنا أي من هذا الروح الذي هو جبريل وعيسى روح من هذا الروح فهو روح من الله بهذا الاعتبار ومن الابتداء الغاية ، والمقصود هنا أنه قد يكون الشيء من اصلين بانقلاب المادة التي بينهما اذا التقيا مادة فتنقلب وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من نقص أجزائها وهذا مثل تولد النار بين الزنادين اذا قدح الحجر بالحديد أو الشجر بالشجر كالمرخ والعفار فانه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزائهما ويسخن الهواء الذي بينهما فيصير ناراً والزندان كلما قدح أحدهما بالآخر نقصت احداهما بقوة الحك فهذه النار استحالت عن الهواء وتلك الاجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر وكذلك النور الذي يحصل بسبب انعكاس الشعاع على ما يقابل المضيء كالشمس والنار ، فان لفظ النور والضوء يقال نارة على الجسم القائم بنفسه كالنار التي في رأس المصباح وهذه لا تحصل الا بمادة تنقلب ناراً كالحطب والدهن ويستحيل الهواء أيضاً ناراً ولا ينقلب الهواء ناراً الا بنقص المادة التي اشتعلت أو نقص الزندين ، وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع الشعاع الذي يكون على الأرض والحيطان من الشمس أو من النار فهذا عرض ليس بحسم قائم بنفسه لا بد له من محل يقوم به يكون قابلاً له فلا بد في الشعاع من جسم مضيء ولا بد من شيء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع وكذلك النار الحاصلة في زبالة المصباح فاذا وضعت في النار أو ضع فيها حطب فان النار تحل أولاً المادة التي هي الدهن أو الحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب ناراً وانما ينقلب بعد نقص المادة وكذلك الريح التي تحرك النار مثل ما تهب الريح فيشتعل في الحطب ومثل ما ينفخ في الكير وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما في محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه ناراً وما في حركة الريح القوية من تحريك النار الى المحل القابل له ، وقد ينقلب أيضاً الهواء القريب من النار فان اللهيب هو الهواء انقلب ناراً مثل ما في زبالة المصباح .

ولهذا اذا طفئت صار دخاناً وهو هواء مختلط بنار كالبخار وهو هواء مختلط بماء والغبار هواء مختلط بتراب ، وقد يسمى البخار دخاناً ومنه قوله تعالى : ﴿ ثم استوى الى السماء وهي دخان ﴾ .

قال المفسرون : بخار الماء كما جاءت الآثار أن الله خلق السموات من بخار الماء وهو الدخان فالدخان الهواء المختلط بشيء حار ثم قد يكون فيه ماء وهو الدخان الصرف وقد يكون فيه ماء فهو دخان وهو بخار كبخار القدر وقد يسمى الدخان بخاراً فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر وان كان لارطوبة هنا بل دخان الطيب سمى بخاراً .

قال الجوهري بخار الماء ما يرتفع منه كالدخان والبخور بالفتح ما يتبخر به لكن انما يصير الهواء ناراً بعد أن تذهب المادة التي انقلبت ناراً كالحطب والدهن فلم تتولد النار الا من مادة كما لم يتولد الحيوان الا من مادة .

فصــــل

والمقصود أن كل ما يستعمل فيـه لفظ التـولـد من الاعيان القـائمة فـلا بد أن يكـون من أصلين ومن انفصال جزء من الأصل واذا قيل في الشبع والري أنه متولد ، أو في زهوق الـروح ونحو ذلك من الأعراض أنه متولد فلا بد في جميع ما يستعمـل فيه هـذا اللفظ من أصلين لكن العرض يحتاج الى محل لا يحتاج الى مادة تنقلب عرضاً بخلاف الأجسام فانها انما تخلق من مواد تنقلب أجسـاماً كـما تنقلب الى نوع آخـر كانقـلاب الماء علقـة ثم مضغـة وغـير ذلـك من خلق الحيوان والنبات ، وأما ما كان من أصل واحـد كخلق حواء من ضلع القصـري وهو وان كـان مخلوقاً من مادة أخذت من آدم فلا يسمى هذا تولداً ولهذا لا يقال ان آدم ولد حواء ولا يقال أنه أبو حواء بل خلق الله حواء من آدم كما خلق آدم من الطين .

وأما المسيح فيقال أنه ولدته مـريم ويقال المسيـح ابن مريم فكـان المسيح جـزءاً من مريم وخلق بعد نفخ الروح في فرج مريم كما قال تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمـران التي أحصنت فرجهـا فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ وفي الأخرى ﴿ فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من أدم كما خلق آدم من المادة الأرضية وهي المـاء والتـراب والريـح الذي ايبسـه حتى صار صلصـالاً فلهذا لا يقـال آدم ولد حـواء ولا آدم ولـده التراب ، ويقال في المسيح ولدته مريم فانه كان من أصلين من مريم ومن النفخ الذي نفخ فيها جبريل .

قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت اني أعوذ بالـرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت أني يكون لي غـلام ولم يمسسني بشرو لـم أك بغيا قال كذلك قال ربك هـو على هـين ولنجعله آية للنـاس ورحمة منـا وكان أمـرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ﴾ (1) الى آخـر القصة فهي انمـا حملت بـه بعـد النفخ لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الآدميين ففـرق بين النفـخ للحمل وبـين النفخ لروح الحياة ، فتبين أن ما يقال أنه متولد من غيره من الأعيان القائمـة بنفسها فـلا يكون الا من مادة تخرج من ذلك الوالد ولا يكون الا من أصلين والرب تعالى صمد فيمتنع أن يخرج منه شيء وهو سبحانه لم يكن له صاحبة فيمتنع أن يكون له ولد .

---

(1) سورة مريم الايات (١٩ ـ ٢١) .

وأما ما يستعمل من تولد الأعراض كما يقال تولد الشعاع وتولد العلم عن الفكر وتولد الشبع عن الأكل وتولدت الحرارة عن الحركة ونحو ذلك فهذا ليس من تولد الاعيان مع أن هذا لا بد له من محل ولا بد له من أصلين ولهذا كان قول النصارى أن المسيح ابن الله مستلزماً لأن يقولوا أن مريم صاحبة الله فيجعلون له زوجة وصاحبة كما جعلوا له ولدابأي معنى فسروا كونه ابنه فانه يفسر الزوجة بذلك المعنى والأدلة بتنزيهه عن الصاحبة توجب تنزيهه عن الولد فاذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعد الازما لهم وقد بسط في الرد على النصارى [1] .

---

(١) انظر راي ابن تيمية في ذلك الجزء الثالث من هذا الكتاب عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ الآية .

فصـــــل

[في قول اليهود والنصارى في الرب جل وعز]

وهذا مما يبين أن ما نزه الله نفسه ونفاه عنه يقوله : ﴿ لم يلد ولم يـولد ﴾ وبقـوله : ﴿ الا انهم من افكهم ليقولون ولـد الله وأنهم لكاذبـون ﴾ [١] وقـولـه : ﴿ وجعلوا لله شـركـاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ [٢] يعم جميع الأنـواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم كما أن ما نفـاه من اتخاذ الـولد يعم أيضـاً جميع انـواع الاتخاذات لا اصطفاءه كما قال تعالى : ﴿ وقـالت اليهود والنصـارى نحن أبناء الله وأحبـاؤه قل فلم يعـذبكم بـذنـوبكم بـل أنتم بشـر ممن خلق يغفـر لمن يشـاء ويعـذب من يشـاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير ﴾ [٣] .

قال السدي : قالوا أن الله أوحى الى اسرائيل أن ولـدك بكري من الـولد فـادخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادي مناد آخـرجوا كـل مختون من بني اسرائيل وقد قال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ﴾ [٤] وقـال : ﴿ وقل الحمـد لله الذي لم يتخـذ ولـداً ولم يكن لـه شـريـك في الملك ولم يكن لـه ولي من الـذل ﴾ [٥] وقال : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان عـلى عبده ليكـون للعالـمين نذيـراً الذي لـه ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديـراً ﴾ [٦] وقالـوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقـول وهم بأمـره يعملون يعلم ما بـين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم اني الـه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الـظالمين ﴾ [٧] وقـال : ﴿ وقال الله لا تتخـذوا الهين اثنين انما هو اله واحـد فايـاي فارهبـون وله مـا في السموات والأرض ولـه الدين واصبـا ﴾ الى قوله : ﴿ ويجعلون لمـا لا يعلمون نصيبـا ﴾ الى قولـه : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحـانه ولهم مـا يشتهون ﴾ [٨] وقال : ﴿ ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى في جهنم ملومـاً مدحـوراً أفاصفـاكم

---

(١) سورة الصافات الآية ١٥٢ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٠ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٨ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٥) سورة الاسراء الآية ١١١ .

(٦) أول سورة الفرقان .

(٧) سورة الأنبياء الآيات (٢٦ ـ ٢٧) .

(٨) سورة النحل الآية ٥٧ .

ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً انكم لتقولون قولاً عظيماً وقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفـوراً قل لو كان معه الهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً ﴾ [(١)] .

وقال : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة اناثـاً وهم شاهـدون ألا أنهم من افكهم ليقـولون ولـد الله وانهم لكاذبـون اصـطفى البنـات عـلى البنـين مـا لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبـين فأتـوا بكتابكم أن كنتم صـادقين وجعلوا بينـه وبين الجنـة نسباً ولقـد علمت الجنة أنهم لمحضـرون سبحان الله عـما يصفون الا عبـاد الله المخلصين فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم ﴾ [(٢)] .

وقال : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى ألكم الـذكر ولـه الانثى تلك اذا قسمة ضِيْزَى ان هي الا أسماء سميتموهـا أنتم وآباؤكم مـا أنزل الله بهـا من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ الى قـوله : ﴿ ان الـذين لا يؤمنون بـالآخـرة ليسمـــون المـلائكـــة تسميـة الانثى ﴾ [(٣)] وقـــال تعـالى : ﴿ وجعلوا لـــه من عبـاده جزءاً ﴾ [(٤)] .

قـال بعض المفسـرين : جـزءاً أي نصيبـاً وبعضـاً ، وقـال بعضهم جعلوا لله نصيبـاً من الولد ، وعن قتادة ومقاتل عدلاً وكلا القولين صحيح فـانهم يجعلون له ولـداً والولـد يشبه أبـاه ولهذا قال : ﴿ واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهـه مسوداً ﴾ [(٥)] أي البنـات كما قال في الآية الأخرى : ﴿ واذا بشر أحدهم بالانثى ﴾ فقـد جعلوها للرحمن مثـلاً وجعلوا له من عباده جزءاً فان الولد جزء من الوالد كما تقدم .

قال ﷺ : « انما فاطمة بضعة مني » وقوله : ﴿ وجعلوا لله شركـاء الجن وخلقهم وخرقـوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ قـال الكلبي نزلت في الـزنادقـة قالـوا ان الله وابليس شريكـان فالله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الـظلمة والسبـاع والحيات والعقارب، وأما قوله : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ فقيل هو قولهم الملائكة بنات الله وسمى المـلائكة جنـا لاجتنانهم عن الابصار وهو قول مجاهد وقتادة ، وقيل الوا لحى من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم ابليس وهم بنات الله ، وقال الكلبي قالوا لعنهم الله ، بـل بذور تخـرج منهم الملائكـة وقولـه : ﴿ وخرقوا لـه بنين وبنـات بغير علم ﴾ قـال بعض المفسرين كـالثعلبي وهم كفار العـرب قالـوا الملائكة والأصنام بنات الله واليهود قالوا عزير ابن الله .

---

(١) سورة الاسراء الآيات (٢٩ ـ ٣٠) .

(٢) سورة الصافات الآيات (٤٨ ـ ٦١) .

(٣) سورة النجم الآيات (١٩ ـ ٢٧) .

(٤) سورة الزخرف الآية ١٥ .

(٥) سورة النحل الآية ٥٨ .

فصـــــل

[في عقائد العرب في الرب وتحقيق عقائد النصارى فيه جل وعز]

والذين كانوا يقولون من العرب أن الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة فقد نفاه بامتناع الصاحبة وبامتناع أن يكون جزء فانه صمد ، وقوله : ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ وهذا كما تقدم من أن الولادة لا تكون الا من اصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى وتولد الأعراض والصفات بل ولا يكون تولد الأعيان الا بانفصال جزء من الوالد فاذا امتنع أن تكون له صاحبة امتنع أن يكون تولد الأعيان الا بانفصال جزء من أن لا صاحبة له لامن الملائكة ولا من الجن ولا من الانس فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة فلهذا احتج بذلك عليهم ، وماحكى عن بعضهم كفار العرب أنه صاهر الجن فهذا فيه نظر وذلك ان كان قد قيل فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة وكذلك ما قالته النصارى من ان المسيح ابن الله وما قاله طائفة من اليهود أن العزير ابن الله فانه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا .

فان قيل : أما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم وأما الموجود في كلام علمائهم وكتبهم فانهم يقولون ان اقنوم الكلمة ويسمونها الابن تدرع المسيح اي اتخذه درعاً كما يتدرع الانسان قميصه فاللاهوت تدرع الناسوت ويقولون اسم الأب والابن وروح القدس اله واحد ، قيل قصدهم أن الرب موجود حي عليم فالموجود هو الأب والعلم هو الابن والحياة هو روح القدس هذا قول كثير منهم ، ومنهم من يقول بل موجود عالم قادر ويقول العلم هو الكلمة وهو المتدرع والقدرة هي روح القدس فهم مشتركون في أن المتدرع هو أقنوم الكلمة وهي الابن .

ثم اختلفوا في التدرع واختلفوا هل هما جوهر أو جوهران ، ؟ وهل هما نسبة أو نسبتان ولهم في الحلول والاتحاد كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه فان مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينهم ما يتعذر ضبطه فان قولهم ليس مأخوذا عن كتاب منزل ولا نبي مرسل ولا هو موافق لعقول العقلاء فقالت اليعقوبية صار جوهراً واحداً وطبيعة واحدة وأقنوماً واحداً كالماء في اللبن ، وقالت النسطورية بل هما جوهران وطبيعتان ومشيئتان لكن حل اللاهوت في الناسوت حلول الماء في الظرف ، وقالت الملكانية بل هما جوهر واحد له مشيئتان وطبيعتان أو فعلان كالنار في الحديد وقد ذهب بعض الناس الى أن قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا ان المسيح ابن مريم ﴾ [1] هم اليعقوبية ، وفي قوله : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ [2] هم

---

(١) سورة المائدة الآية ١٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .

الملكانية ، وقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ﴾ [١] هم النسطورية وليس بشيء بل الفرق الثلاث تقول المقالات التي حكاها الله عز وجل عن النصارى فكلهم يقولون انه الله ويقولون أنه ابن الله وكذلك في أمانتهم التي هم متفقون عليها يقولون اله حق من اله حق [٢] ، وأما قوله ثالث ثلاثة فانه قال تعالى : ﴿ واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكونُ لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ [٣] .

قال أبو الفرج ابن الجوزي في قوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ﴾ قال المفسرون معنى الآية أن النصارى قالوا الالهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم كل واحد منهم اله ، وذكر عن الزجاج الغلو مجاوزة القدر في الظلم وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم هو الله وقول بعضهم هو ابن الله وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من أن الكلمة هو الابن والفرق الثلاثة متفقة على ذلك وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه ، أحدها أنه ليس في شيء من كلام الأنبياء تسمية صفة الله ابنا لا كلامه ولا غيره فتسميتهم صفة الله ابنا تحريف الكلام الانبياء عن مواضعه ، وما نقلوه عن المسيح من قولهم عمدا الناس باسم الأب والابن وروح القدس لم يرد بالابن صفة لله التي هي كلمته ولا بروح القدس حياته فانه لا يوجد في كلام الانبياء ارادة هذا المعنى كما قد بسط هذا في الرد على النصارى ، الوجه الثاني أن هذه الكلمة التي هي الابن أهي صفة الله قائمة به أم هي جوهر قائم بنفسه ؟ فان كان صفته بطل مذهبهم من وجوه :

(الرد عليهم من وجوه)

أحدها : أن الصفة لا تكون الهاً يرزق ويخلق ويحيى ويميت والمسيح عندهم اله يخلق ويرزق ويحيى ويميت فاذا كان الذي تدرعه ليس باله فهو أولى أن لا يكون الهاً .

الثاني : أن الصفة لا تقوم بغير الموصوف فلا تفارقه وان قالوا نزل عليه كلام الله وقالوا انه الكلمة أو غير ذلك فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الأنبياء .

الثالث : أن الصفة لا تتحد وتتدرع شيئاً مع الموصوف فيكون الأب نفسه هو المسيح والنصارى متفقون على أنه ليس هو الأب فان قولهم متناقض ينقض بعضه بعضاً يجعلونه الهاً يخلق ويرزق ولا يجعلونه الأب الذي هو الأله ويقولون اله واحد قد شبهه بعض متكلميهم

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٢ .

(٢) أنظر نص هذه الأمانة في الجزء الثاني . من دقائق التفسير ـ تفسير سورة آل عمران .

(٣) سورة المائدة الآية ١١٦ .

كيحيى بن عدي بالرجل الموصوف بأنه طبيب وحاسب وكاتب وله بكل صفة حكم فيقال هذا حق لكن قولهم ليس نظير هذا فاذا قلتم ان الرب موجود حي عالم وله بكل صفة حكم فعلوم أن المتحد ان كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها تابعة لها فانه اذا تدرع زيد الطبيب الحاسب الكاتب درعاً كانت الصفات كلها قائمة به وان كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور ، وان قالوا المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين وهذا ممتنع فان الصفات القائمة بموصوف واحد وهي اللازمة له لا تفترق وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقي بخلاف صفات الرب تعالى .

الرابع : أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله ولا شيئاً من صفاته بل هو مخلوق بكلمة الله وسمى كلمة لأنه خلق بكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى : ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ﴾ (٢) ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة والانجيل وسائر كلام الله لم يكن الله ولا شيء من صفات خالقاً ولا رباً ولا الهاً فالنصارى اذا قالوا ان المسيح هو الخالق كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة ومن جهة جعله هو نفس الصفة وانما هو مخلوق بالكلمة ثم قولهم بالتثليث وأن الصفات ثلاث باطل وقولهم أيضاً بالحلول والاتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها .

فلو قالوا ان الرب له صفات قائمة به ولم يذكروا اتحاداً ولا حلولاً كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات وان قالوا ان الصفات أعيان قائمة بنفسها فهذا مكابرة فهم يجمعون بين المتناقضين وأيضاً فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل فان صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير والأقانيم عندهم التي جعلوها الصفات ليست الا ثلاثة ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم واضطرابهم كثير .

فان قولهم في نفسه باطل ولا يضبطه عقل عاقل ولهذا يقال لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً ، وأيضاً فكلمات الله كثيرة لانهاية لها قال سبحانه وتعالى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ (٣) وهذا قول جماهير الناس من المسلمين وغير المسلمين وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلماً بمشيئته ، وقول من قال انه لم يزل قادراً على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاماً قائماً بذاته حادثاً وقول من قال كلامه مخلوق في غيره .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

(٢) سورة مريم الآية ٣٤ .

(٣) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

وأما من قال كلامه معناه شيء واحد قديم العين فهؤلاء منهم من يقول أنه أمور لا نهاية لها مع ذلك ومنهم من يقول بل هو معنى واحد ولكن العبارات عنه متعددة وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائماً بغير الله انما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة ويمتنع أن يكون المسيح شيئاً من تلك العبارات فلا يمتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء وعلى قول الجمهور أشد امتناعاً لأن كلمات الله كثيرة والمسيح ليس هو جميعها بل ولا مخلوقاً بجميعها وانما خلق بكلمة منها وليس هو عين تلك الكلمة فان الكلمة صفة من الصفات والمسيح عين قائم بنفسه .

ثم يقال لهم تسميتكم العلم والكلمة ولداً وابناً تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء ولم ينقل ذلك عن أحد من الانبياء قالوا لأن الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام فلهذا سميت الكلمة ابنا ، قيل هذا باطل من وجوه : أحدها أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا .

وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته فيمتنع أن يوصف بالتولد الا أن يدعى المدعي أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه وهي ابن له ومعلوم أن هذا أبطل الأمور في العقول واللغات فان حياة الانسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له لا يقال انها متولدة عنها وأنها ابن له ، وأيضاً فيلزم أن تكون حياة الرب أيضاً ابنه ومتولده وكذلك قدرته والا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات .

وثانيهما : أن هذا ان كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصلين ولا بد أن يخرج من الأصل جزء .

وأما علمنا وقولنا فليس عيناً قائماً بنفسه وان كان صفة قائمة بموصوف وعرضاً قائماً في محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضاً لا يتولد الا عن أصلين ولا بد له من محل يتولد فيه والواحد منا لا يحدث له العلم والكلام الا بمقدمات تتقدم على ذلك وتكون اصلاً للفرع ويحصل العلم والكلا في محل لم يكن حاصلاً فيه قبل ذلك .

فان قلتم : ان علم الرب كذلك لزم أن يصير عالماً بالاشياء بعد أن لم يكن عالماً بها وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلماً وهذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين والنصارى وغيرهم فهو باطل في صريح العقل فان الذات التي لا تكون عالماً يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها والله تعالى يمتنع عليه أن يكون متعلماً من خلقه وكذلك الذات التي تكون عاجزة عن الكلام يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة والواحد منها لا يولد جميع علومه بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها فاذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى فلا

يقول أحد من بني آدم : ان الانسان يولد علومه كلها ولا يقول أحد أنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة بل الذي يقدر على النطق هو الذي أنطق كل شيء .

فان قالوا ان الرب يولد بعض علمه وكلامه دون بعض بطل تسمية العلم الذي هو الكلمة مطلقاً الابن وصار لفظ الابن انما يسمى به بعض علمه أو بعض كلامه وهم يدعون أن المسيح هو الكلمة وهو اقنوم العلم مطلقاً وذلك ليس متولداً عنه كله ولا يسمى كله ابنا باتفاق العقلاء .

وثالثها : أن يقال تسمية علم العالم وكلامه ولداله لا يعرف في شيء من اللغات المشهورة وهو باطل بالعقل فان علمه وكلامه كقدرته وعلمه فان جاز هذا جاز تسمية صفات الانسان كلها الحادثة متولدات عنه له وتسميتها ابناءه ، ومن قال من أهل الكلام القدرية ان العلم الحاصل بالنظر متولد عنه فهو كقوله ان الشبع والري متولد عن الأكل والشرب ثم لا يقول ان العلم ابنه وولده كما لا يقول ان الشبع والري ابنه ولا ولده لأن هذا من باب تولد الأعراض والمعاني القائمة بالانسان وتلك لا يقال انها أولاده وأبناؤه ومن استعار فقال بنيات فكرة فهو كما يقال بنيات الطريق ويقال ابن السبيل ويقال لطير الماء ابن ماء ، وهذه تسمية مقيدة قد عرف أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الأب والابن والوالد والولد ، وأيضاً فكلام الأنبياء ليس في شيء منه تسمية شيء من صفات الله ابنا فمن حمل شيئاً من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم وهذا مما يقر به علماء النصارى وما وجد عندهم من لفظ الأبن في حق المسيح واسرائيل وغيرهما هو اسم للمخلوق لا لشيء من صفات الخالق والمراد به أنه مكرم معظم .

ورابعها : أن يقال فاذا قدر أن الأمر كذلك فالذي حصل للمسيح أن كان هو ما علمه الله اياه من علمه وكلامه فهذا موجود لسائر النبيين فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله وان كان هو أن العلم والكلام اله اتحد به فيكون العلم والكلام جوهراً قائماً بنفسه فان كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب وان كان العلم والكلام جوهر آخر فيكون الهان قائمان بأنفسهما فنبين فساد ما قالوه بكل وجه .

وخامسها : أن يقال من المعلوم عند الخاصة والعامة أن المعنى الذي خص به المسيح انما هو أن خلق من غير أب فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه ، وبهذا ناظر نصارى نجران النبي ﷺ وقالوا ان لم يكن هو ابن الله فقل لنا فمن أبوه ؟ فعلم أن النصارى انما ادعوا فيه النبوة الحقيقية وأن ما ذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ليزيلوا به الشناعة التي لا يبلغها عاقل والا فليس في جعله ابن الله وجه يختص به معقول فعلم أن النصارى جعلوه ابن الله وأن الله أحبل مريم والله هو أبوه وذلك لا يكون الا بانزال جزء منه

فيها وهو سبحانه الصمد ويلزمهم أن تكون مريم صاحبة وزوجة له ولهذا يتولونها كما أخبر الله عنهم وأي معنى ذكروه في بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره ولا صار فيه معنى البنوة بل قالوا كما قال بعض مشركي العرب أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة واذا قالوا اتخذه ابناً على سبيل الاصطفاء فهذا هو المعنى الفعلي وسيأتي ان شاء الله تعالى ابطاله .

وقوله تعالى : ﴿ وروح منه ﴾ ليس فيه أن بعض الله صار في عيسى بل من لابتداء الغاية كما قال : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ وقال : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ وما أضيف الى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين ، ان كان عيناً قائماً بنفسها فهو مملوك له ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى : ﴿ فأرسلنا اليها روحنا ﴾ وقال في المسيح ﴿ وروح منه ﴾ وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله وكما قال : ﴿ نزله روح القدس من ربك الحق ﴾ وقال : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمراً والمقدور قدرة والمرحوم به رحمة والمخلوق بالكلمة كلمة ، فاذ قيل في المسيح أن كلمة الله فالمراد به أنه خلق بكلمته ثم بقوله كن ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر والا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلا ما صفة للمتكلم يقوم به وكذلك اذا قيل عن المخلوق أنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره كقوله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقوله : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ فالرب تعالى أحد صمد لا يجوز أن يتبعض ويتجزأ فيصير بعضه في غيره سواء سمى ذلك روحاً أو غيره فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابناً له وتبين أنه عبد من عباد الله وقد قيل منشأ ضلال القوم أنه كان في لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالأب وبالابن عن العبد المربي الذي يربه الله ويبربيه فقال المسيح عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح ويؤمنوا بروح القدس جبريل فكانت هذه الاسماء لله ولرسوله الملكي ورسوله البشري قال الله تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ وقد أخبر تعالى في غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس وهو جبريل عند جمهور المفسرين كقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ [١] .

فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل هذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم ودليل هذا قوله : ﴿ واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ [٢] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٧ .

(٢) سورة النحل الآية ١٠١ .

وروى الضحّاك عن ابن عباس أنه الاسم الذي كان يحيى به الموتى ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه الانجيل وقال تعالى : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [(١)] وقال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [(٢)] فما ينزله الله في قلوب أنبيائه ما نحيا به قلوبهم من الايمان الخالص يسميه روحاً وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين والمسيح من أولى العزم فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والانبياء ، وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ [(٣)] .

وقد ذكر الزجاج في تأييده ثلاثة أوجه : أحدها : أنه أيده به لاظهار أمره ودينه ، الثاني : لدفع بني اسرائيل عنه إذْ أرادوا قتله ، الثالث أنه أيد في جميع أحواله .

ومما يبين ذلك أن لفظ الابن في لغتهم ليس مختصاً بالمسيح بل عندهم أن الله تعالى قال في التوراة لاسرائيل : انت أبني بكري والمسيح كان يقول أبي وأبيكم فيجعله ابا للجميع ويسمى غيره ابنا له كما يسمى هو ابنا له فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك ولكن النصارى يقولون هو ابنه بالطبع وغيره ابنه بالوضع فيفرقون فرقاً لا دليل عليه ثم قولهم هو ابن بالطبع يلزم عليه من المخالات عقلاً وسمعاً ما يبين بطلانه .

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٢) سورة النحل الآية ٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(فصـــــل)

[ابطال نظرية العقول العشرة]

وأما ما يقوله الفلاسفة القائلون بأن العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته وأنه صدر عنه عقل ثم عقل ثم عقل الى تمام عشرة عقول تسعة أنفس وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر والنفس بمنزلة الأنثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركي العرب وأهل الكتاب عقلاً وشرعاً ، ودلالة القرآن على فساده أبلغ وذلك من وجوه :

أحدها : أن هؤلاء يقولون بقدم الافلاك وقدم هذه الروحانيات التي يثبتونها ويسمونها المجردات والمفارقات والجواهر العقلية وأن ذلك لم يزل قديماً أزلياً وما كان قديماً أزلياً امتنع أن يكون مفعولاً بوجه من الوجوه ولا يكون مفعولاً الا ما كان حادثاً وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة وسائر الأمم ولهذا كان جماهير الأمم يقولون كان ممكن أن يوجد وأن لا يوجد فلا يكون الا حادثاً وانما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين كابن سيناء ومن وافقه زعماء أن الفلك قديم معلول لعلة قديماً .

وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك وهم جمهورهم ومن كان قبل ارسطو فهؤلاء مرافقون لأهل الملل ومن قال يقدم الفلك كأرسطو وشيعته فانما يثبتون له علة غائبة يشتبه الفلك بها لا يثبتون له علة فاعلة وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك كل ذلك قديم واجب بنفسه وان كان له غائبة ، وهؤلاء اكفر من هؤلاء المتأخرين لكن الغرض أن يعرفوا أن قول هؤلاء ليس قول أولئك .

الثاني : أن هؤلاء يقولون الرب واحد والواحد لا يصدر عنه الا واحد ويعنون بكونه أحداً أنه ليس له صفة ثبوتية اصلاً ولا يعقل فيه معان متعددة لأن ذلك عندهم تركيب ولهذا يقولون لا يكون فاعلاً وقابلاً لأن جهة الفعل غير جهة القبول وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب ومع هذا يقولون أنه عاقل ومعقول وعقل وعاشق ومعشوق وعشق ولذيذ وملتذ ولذة الى غير ذلك من المعاني المتعددة ، ويقولون ان كل واحد من هذه الصفات هي الصفة الآخرى والصفة هي الموصوف والعلم هو القدرة وهو الارادة والعلم هو العالم وهو القادر ، ومن المتأخرين منهم من قال العلم هو المعلوم فاذا تصور العاقل أقوالهم حق التصور تبين له أن هذا الواحد الذي اثبتوه لا يتصور وجوده الا في الاذهان لافي الاعيان وقد بسط الكلام عليه وبين فساد ما يقولونه في التوحيد والصفات وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة

في مواضع غير هذا واذا كان كذلك فالاصل الذي بنوا عليه قولهم أن الواحد لا يصدر عنه الا واحد أصل فاسد .

الثالث أن يقال قولهم بصدور الاشياء مع ما فيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط في غاية الفساد .

الرابع : أنه لا يعلم في العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان فهذه الدعوة الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلاً .

الخامس : أنهم يقولون صدر عنه واحد وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك فيقال ان كان الصادر عنه واحداً من كل وجه فلا يصدر عن هذا الواحد الا واحداً أيضاً فيلزم أن يكون كل ما في العالم انما هو واحد عن واحد فهو مكابرة وان كان في الصادر الأول كثرة ما يوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس واحداً من كل وجه فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد ، ولهذا اضطرب متأخروهم فأبو البركات صاحب المعتبر أبطل هذا القول ورده غاية الرد ، وابن رشد الحفيد زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول ، والطوسي وزير الملاحدة يقرب من هذا فجعل الأول شرطاً في الثاني والثاني شرطاً في الثالث وهم مشتركون في الضلال وهو اثبات جواهر قائمة بنفسها ازلية مع الرب لم تزل ولا تزال معه لكن مسبوقة بعدم وجعل الفلك أيضاً قديماً ازلياً وهذا وحدة فيه من مخالفة صريح المعقول والكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية فكيف اذا ضم اليه غير ذلك من أقاويلهم المخالفة للعقل والنقل .

الوجه السادس : ان الصوادر المعلومة في العالم انما تصدر عن اثنين وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء كما تقدم التنبيه عليه في المتولدات من الأعيان والأعراض وكل ما يذكرونه من صدور الحرارة عن الحار والبرودة عن البارد والشعاع عن الشمس وغير ذلك فانما هو صدور اعراض ومع هذا فلا بد لها من أصلين ، وأما صدور الاعيان عن غيرها فهذا لا يعلم الا بالولادة المعروفة وتلك لا تكون الا بانفصال جزء من الاصل وهذا الصدور والتولد والمعلولية التي يدعونها في العقول والنفوس والأفلاك يقولون انها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط فهذا من ابطل قول قيل في الصدور والتولد لأن فيه صدور جوهر واحد وهذا لا يعقل وفيه صدوره من غير جزء منفصل من الأصل وهذا لا يعقل وهم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض كالشعاع عن الشمس وحركة الخاتم عن حركة اليد وهذا تمثيل باطل لأن تلك ليست علة فاعلة وانما هو شرط فقط والصادر هناك لم يكن عن اصل واحد بل عن اصلين والصادر عرض لاجوهر قائم بنفسه فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولدالعقلي الذي يدعونه من أبعد الأمور عن التولد والصدور وهو أبعد من قول النصاري ومشركي العرب وهم جعلوا مفعولاته صفة ازلية لازمة لذاته .

وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه أنه متولد عنه وحينئذ فهم في دعواهم الهية العقول والنفوس والكواكب اكفر من هؤلاء ومن جعل من المنتسبين الى الملل منهم هؤلاء هم الملكية فقوله في جعل الملائكة متولدين عن شيء من قول العرب وعوام النصارى فان أولئك اثبتوه ولادة حسية وكونه صمداً يبطلها لكن ما أثبتوه معقول وهؤلاء ادعوا تولداً عقلياً باطلاً من كل وجه أبطل مما ادعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات فكان نفي ما ادعوه أولى من نفي ما ادعاه أولئك لأن المحال الذي يعلم امتناعه في الخارج لا يمكن تصوره موجوداً في الخارج فانه يمتنع وجودة في الخارج وذلك انما يمكن اذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له في الوجود الخارجي ما يشبهه كما اذا قدر مع الله الهاً آخر وقدر أنه له ولداً فانه يشبه من له ولد من العباد ومن له شريك من العباد .

ثم يبين امتناع ذلك عليه فكل ما كان المحال ابعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة والولادة التي ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة ابعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التي ادعاها بعض مشركي العرب وعوام النصارى واليهود فكانت هذه الولادة العقلية اشد استحالة من تلك الولادة الحسية اذ الولادة الحسية في الأعيان القائمة بنفسها وأما الولادة العقلية فلا تعقل في الأعيان اصلاً ، وأيضاً فأولئك اثبتوا ولادة من اصلين وهذا هو الولادة المعقولة وهؤلاء اثبتوا ولادة من أصل واحد وأولئك اثبتوا ولادة بانفصال جزء وهذا معقول وهؤلاء اثبتوا ولادة بدون ذلك وهو لا يعقل وأولئك اثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الأعيان للأعيان وهؤلاء اثبتوا ولادة قاسوها على تولد الأعراض عن الاعيان فعلم أن قول اولئك أقرب الى المعقول وهو باطل كما بين الله فساده وأنكره ، فقول هؤلاء أولى بالبطلان وهذا كما أن الله اذا كفر من أثبت مخلوقاً يتخذ شفيعاً كان أولى بالكفر ومن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله فمن أنكره مع قوله بقدم هذا العالم فهو أعظم الكفر عند الله وهذا كما أن النبي ﷺ لما نهى أمته عن مشابهة فارس والروم النصارى .

فنهيه عن مشابهة اليونان المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم واذا كان ما دخل في بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموماً عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند والترك المشركين وغيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الاسلام من أهل الكتاب ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموماً عند الله تعالى ، وأن يكون ذمه أعظم من ذاك ، فهؤلاء الأمم الذين ابتلى بهم آواخر المسلمين شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين وذلك لأن الاسلام كان أهله أعظم علماً ودينا فاذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل عليهم ودينهم .

وأما هؤلاء المتأخرون المسلمون وان كانوا أنقص من سلفهم فانه يظهر رجحانهم على

هؤلاء لعظم بعدهم عن الاسلام ولكن لما كثرت البدع من متأخري المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء وليسوا عليهم دينهم وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان لأنهم انما ابتلوا بسيوف هؤلاء وألسنة هؤلاء وكان فيهم من نقص الايمان ، أأورث ضعفاً في العلم والجهاد كما كان كثير من العرب في زمن النبي ﷺ فهذا هذا .

(فصــــل)

[في اعتراف المشركين بمعنى الربوبية]

ومما يبين هذا أن مشركي العرب واليهود والنصارى يقولون ان الله خلق السموات والأرض بمشيئته وقدرته بل يقولون انه خلق ذلك في ستة أيام وهؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن فضلاً عن أن يكون ذلك في ستة أيام ثم يلبسون على المسلمين فيقولون العالم محدث يعنون بحدوثه أنه معلول علة قديمة فهو بمنزلة قولهم متولد عن الله لكن هو أمر لا حقيقة له ولا يعقل ، وأيضاً فمشركو العرب وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وان كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعاً واحد فمن خرج منهم عن طاعة الله اسقطه وصار شيطاناً وينكرون أن يكون ابليس كان ابا الجن وأن يكون الجن ينكحون ويولدون ويأكلون ويشربون فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هـ . أ مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فان هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم الا ما يثبتونه من العقول والنفوس أو من أعراض تقوم بالاجسام كالقوس الصالحة وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها فان العرب كانت تثبت الجن وكذلك اكثر أهل الكتاب وهؤلاء لا يثبتونها ويجعلون الشياطين القوى الفاسدة ، وأيضاً فمشركو العرب مع أهل الكتاب يدعون الله ويقولون أنه يسمع دعاءهم ويجيبهم .

وهؤلاء عندهم لا يعلم شيئاً من جزئيات العالم ولا يسمع دعاء أحد ولا يجيب أحداً ولا يحدث في العالم شيئاً ولا سبب للحدوث عندهم الا حركات الفلك والدعاء عندهم يؤثر لأنه تصرف النفس الناطقة في هيولى العالم .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل : « شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما شتمه اياي فقوله اني اتخذت ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد وأما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من اعادته [1] وهذا وان كان متناً ولا قطعاً لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ يقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ الى قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدًّا تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ [1] فذكر هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى فان هؤلاء ينكرون الاعادة والابتداء أيضاً فلا يقولون ان الله ابتدأ خلق السموات والأرض ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم .

وأما شتمهم اياه بقولهم اتخذ ولداً فهؤلاء هم عندهم الفلك كله لازم له معلول له أعظم من لزوم الولد والده والوالد لـه اختيار وقـدرة في حدوث الـولد منـه ، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة في لزوم الفلك له بل ولا يمكنه أن يدفع لزومه عنه فالتـولد الـذي يثبتونـه أبلغ من التولد الموجود في الخلق ولا يقولون أنه اتخذ ولداً بقدرته فانه لا يقدر عندهم على تغيير شيء من العالم بل ذلك لازم له لزوماً حقيقته أنه لم يفعل شيئاً بل ولا هو موجود وان سموه علـة ومعلولاً فعند التحقيق لا يرجعون الى شيء محصل فان في قولهم من التناقض والفساد أعظم مما في قـول النصارى .

وقد ذكر طائفة من أهل الكلام ان قولهم بالعلة والمعلول من جنس قـول غيرهم بـالوالـد والولد وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم في الـدم وهذا تقصـير عظيم بـل أولئك خـير من هؤلاء وهؤلاء اذا حققت ما يقوله من هو أقربهم الى الاسلام كابن رشد الحفيـد وجدت غـايته ان يكون الرب شرطاً في وجـود العالم لا فـاعلاً لـه ، وكذلـك من سلك مسلكهم من المدعـين للتحقيق من ملاحدة الصوفية كابن عربي وابن سبعين حقيقة قولهم ان هذا العالم موجـود واجب أزلي ليس له صانع غير نفسه وهم يقولون الوجود واحد وحقيقة قولهم أنه ليس في الوجود خالق موجوداً آخـر وكلامهم في المعـاد والنبوات شـر من كلام اليهـود والنصارى وعبـاد الاصنام فـان هؤلاء يجوزون كل صنم في العالم لا يخصون بعض الاصنام بالعبادة .

(فصــــل)

عودة الى مناقشة لفظ الصمد ، الأحد .

وقد احتج بسورة الاخلاص من أهل الكلام المحدث من يقول الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ، ومحمد بن كرام ، وغيرهما ومن ينفي ذلك يقول ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان وأبا الهذيل العلاف ونحوهما فأولئك قالوا : هو صمد والصمد لا جوف له وهذا انما يكون في الاجسام المصمتة فانها لا جوف لها كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة فكما قيل : ان الملائكة صمد ولهذا قيل انه لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء ولا يأكل ولا يشرب ونحو ذلك ونفي هذا لا يعقل الا عمن هو جسم وقالوا أصل الصمد الاجتماع ومنه تصميد المال وهذا انما يعقل في الجسم المجتمع وأما النفاة فقالوا الصمد الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام .

وقالوا أيضاً الأحد الذي لا يقبل التجزي والانقسام وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزيء والانقسام ، وقالوا اذا قلتم هو جسم كان مركباً مؤلفاً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً اليه وهو سبحانه صمد والصمد الغني عما سواه فالمركب لا يكون صمداً فيقال أما القول بأنه سبحانه مركب مؤلف من اجزاء وأنه يقبل التجزيء والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعاً وعقلاً فان هذا ينافي كونه صمداً كاتقدم وسواء أريد بذلك أنه كانت الاجزاء متفرقة ثم اجتمعت أو قيل أنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض كما في بدن الانسان وغيره من الاجسام فان الانسان وان كان لم يزل مجتمع الاعضاء لكن يمكن أن يفرق بين بعضه وبعض الله منزه عن ذلك .

ولهذا قدمنا أن كمال الصمدية له فان هذا انما يجوز على ما يجوز أن يفنى بعضه أو يعدم وما قبل العدم لم يكن واجب الوجود بذاته ولا قديماً أزلياً فان ما وجب قدمه امتنع عدمه وكذلك صفاته التي لم يزل موصوفاً بها وهي من لوازم ذاته فيمتنع أن يعدم اللازم الا مع عدم الملزوم ولهذا قال من قال من السلف الصمد هو الدائم وهو الباقي بعد فناء خلقه فان هذا من لوازم الصمدية اذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمداً ولا تنتفي عند الصمدية الا بجواز العدم عليه وذلك محال فلا يكون مستوجباً للصمدية الا اذا كانت لازمة له وذلك ينافي عدمه وهو مستوجب للصمدية لم يصر صمداً بعد أن لم يكن تعالى وتقدس فان ذلك يقتضي أنه كان متفرقاً فجمع وأنه مفعول محدث مصنوع وهذه صفة مخلوقاته وأما الخالق القديم الذي يمتنع عليه أن يكون معدوماً أو مفعولاً أو محتاجاً الى غيره بوجه من

الوجوه فلا يجوز عليه شيء من ذلك فعلم أنه لم يزل صمداً ولا يزال صمداً فلا يجوز أن يقال كان متفرقاً فاجتمع ولا أنه يجوز أن يتفرق بل ولا أن يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء .

وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين سنيهم وبدعيهم وان كان أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول أنه مولود ووالد وان كان هذا قد قاله بعض الكفار وقد قال المتفلسفة المنسوبون الى الاسلام من التولد والتعليل ما هو شر من قول أولئك وأما اثبات الصفات له وأنه يرى في الآخرة وأنه يتكلم بالقرآن وغيره وكلامه غير مخلوق فهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان وائمة المسلمين وأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف والخلاف في ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة وكثير من الفلاسفة والباطنية ، وهؤلاء يقولون ان اثبات الصفات يوجب أن يكون جسماً وليس بجسم فلا تثبت له الصفات قالوا لأن المعقول من الصفات أعراض قائمة بجسم لا نعقل صفته الا كذلك قالوا والرؤ ية لا تعقل الا مع المعاينة فالمعاينة لا تكون الا اذا كان المرئي بجهة ولا يكون بجهة الا ما كان جسماً قالوا : ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسماً فلا يكون الكلام المضاف اليه الا مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهذه المعاني مما ناظروا بها الامام أحمد في المحنة .

وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفي التجسيم ابو عيسى محمد بن عيسى برغوث تلميذ حسين النجار وهو من اكابر المتكلمين فان ابن أبي دؤ اد كان قد جمع للامام احمد من أمكنة من متكلمي البصرة وبغداد وغيرهم ممن يقول أن القرآن مخلوق وهذا القول لم يكن مختصاً بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس فان كثيراً من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة وبشر المريسي لم يكن من المعتزلة بل فيهم نجارية ومنهم برغوث .

وفيهم ضرارية . وحفص الفرد الذي ناظر الشافعي كان من الضرارية اتباع ضرار بن عمرو . وفيهم مرجئة ومنهم بشر المريسي ، ومنهم جهمية محضة ، ومنهم معتزلة ، وابن أبي دؤ اد لم يكن معتزلياً بل كان جهمياً ينفي الصفات والمعتزلة تنفي الصفات فنفاة الصفات الجهمية أهم من المعتزلة فلما احتج عليه برغوث أنه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسماً وهذا منفى عنه .

وأحمد وأمثاله من السلف كانوا يعلمون أن هذه الألفاظ التي ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها الى نفي ما أثبته الله تعالى رسوله ويثبتها قوم ليتوصلوا باثباتها الى اثبات ما نفاه الله ورسوله .

فالأول طريقة الجهمية من المعتزلة وغيرهم ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون ان قصدهم التنزيه ومقصودهم بذلك أن الله لا يرى في الآخرة وأنه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل

خلق كلاماً في غيره وأنه ليس له علم بقوم به ولا قدرة ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات .

قال الامام أحمد في خطبته في الرد على الجهمية والزنادقة : الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لابليس قد أحيوه وكم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في كتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن الضالين [١] .

والثانية طريقة هشام وأتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من اتصافه بالنقائص ومماثلته للمخلوقات ، فأجابهم الامام أحمد بطريقة الانبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بكتاب الله الذي قال فيه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [٢] وقال : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه دوماً اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ [٣] وقال تعالى : ﴿ المص كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ [٤] .

وقال تعالى : ﴿ فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمل قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [٥] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن

---

(١) طبع كتاب الرد على الجهمية ضمن مجموعة « شذرات البلاتين » بتحقيق الشيخ حامد الفقي ، كما طبع مرة أخرى ضمن مجموعة عقائد السلف بتحقيق دكتور علي سامي النشار .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

(٤) أول سورة الاعراف .

(٥) سورة طه الآيات (١٢٤ ـ ١٢٥) .

تأويلاً ﴾ (١) وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله أن أردنا الا احساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم جرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء أنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ (٥) وقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه واتقوا وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (٦) وقوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصي به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (٧) .

فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل وبيان ما اختلف فيه الناس وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل اليهم من ربهم ورد ما يتنازعون فيه الى الكتاب والسنة وان من لم يتبع ذلك كان منافقاً وان من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذلك حشر ضالاً شقياً معذباً ، وأن الذين فارقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم .

---

(١) سورة النساء الآية ١٩ .

(٢) أول سورة الحجرات .

(٣) سورة النساء الآيات (٩٢ - ٩٥) .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

(٥) سورة الانعام الآية ١٥٩ .

(٦) سورة الروم الآية ٣٢ .

(٧) سورة الشورى الآية ١٣ .

فاتبع الامام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة المتبعين ما أنزل اليهم من ربهم وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبته لنفسه في الكتاب والسنة بالاثبات أثبت ذلك اللفظ وكل لفظ وجد منفياً ففي ذلك اللفظ . وأما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين لا اثباتها ولا نفيها .

وقد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفي الا بعد الاستفسار عن معانيها فان وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه اثبتت وان وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وان وجدنا اللفظ اثبت به حق وباطل أو نفي به حق وباطل أو كان مجملاً يراد به حق أو باطل وصاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى فقل من تكلم بها نفياً أو اثباتاً الا وأدخل فيها باطلاً وان أراد بها حقاً والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل وكذب وقول على الله بلا علم .

وكذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ويقولون عليه بغير علم وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ولا يخالف الكتاب والسنة الا ما هو باطل لا يصح بعقل ولا سمع .

ولهذا لما سئل أبو العباس بن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجوهر والاعراض وانما بعث النبي ﷺ بانكار ذلك ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فانهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه وانما أنكر ما يعني بهما من المعاني الباطلة فان أول من أحدثها الجهمية والمعتزلة وقصدهم بذلك انكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به وأنكرت الجهمية أسماءه أيضاً .

وأول من عرف عنه انكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط ، وقال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم أنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه ، وكلام السلف والأئمة في ذم هذا الكلام وأهله مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا اذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقهم لاعلى اطلاق الاثبات ولا على اطلاق النفي وأهل البدع بالعكس ابتدعوا الفاظاً ومعاني اما في النفي واما في الاثبات وجعلوها هي الاصل المعقول المحكم الذي يجب اعتقاده والبناء عليه ثم نظروا في الكتاب

والسنة فما امكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه والا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً وما جاء به الرسول فرعاً له ومشكلاً اذا لم يوافقه ، وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية جميع كتبهم توجد على هذا الطريق ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من عظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله وبين السبيل المخالفة له وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية ومسائل اعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك .

كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ ومعاني محدثة وألفاظ ومعان مشتركة فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتب والحكمة اصلاً في جميع هذه الأمور ثم يرد ما تكلم فيه الناس الى ذلك ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتقبل وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فترد .

ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت واحتجت بما ابتدعته الاخرى كما يوجد في ألفاظ أهل الرأي والكلام والتصوف وأن يجوز أن يقال في بعض الآيات أنه مشكل ومتشابه اذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة فاذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر وجاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال في هذا أنه يرد به المتشابه الى المحكم اما اذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل ويجعل ما في القرآن والسنة مشكلاً متشابهاً فلا يقبل ما دل عليه نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة اليهم لعجز فهمهم عن معانيها ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل أو الحس الا وفي القرآن بيان معناه فان القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبياناً للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك .

[الجهل بالآثار النبوية وضرره]

لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الامكنة والازمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ اما أن لا يعرفوا اللفظ واما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة ، ومن ها هنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعاً كالفتن التي تحدث بالسيف فالفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال ابن مالك بن أنس : اذا قل العلم ظهر الجفاء واذا قلت الآثار ظهرت الاهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم .

ولهذا قال أحمد في خطبته : الحمد الله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم فالهدى الحاصل لأهل الأرض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى : ﴿ فاما يأتينكم مني هدى

فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ فأهل الهدى والفلاح هم المتبعون للأنبياء بنفي أهل الجاهلية الذين لم يصل اليهم ما جاءت به الأنبياء .

فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر لكن الله يقول : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [١] وقال : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [٢] وقال : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظلمون ﴾ [٣] فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل اليهم رسولا .

وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغة الرسالة في الدنيا فانه يبعث اليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة ، وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين فان الآخرة لا تكليف فيها وليس كما قال انما ينقطع التكليف اذا دخلوا دار الجزاء الجنة والنار والا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون يقال لاحدهم من ربك ؟ وما دينك ومن نبيك ؟ وكذلك في عرصات القيامةيقال ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ومن كان يعبد القمر القمر ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة ويقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، وفي رواية فيسألهم ويثبتهم وذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم في فتنة القبر فاذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون اياهم حينئذ في الصورة التي يعرفون فيكشف عن ساق فاذا رأوه خروا له سجدا الا من كان منافقاً فانه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد وقد أخرجها في الصحيحين ومن حديث جابر وقد رواه مسلم وفي حديث ابن مسعود وأبي موسى وهو معروف من رواية أحمد وغيره .

فدل ذلك على أن المحنة انما تنقطع اذا دخلوا دار الجزاء وما قبل دار الجزاء دار امتحان وابتلاء فاذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني الثالثة سألته أن لا يهلك امتي بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها والبأس مشتق من البؤس قال

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٥ .

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥ .

(٣) سورة القصص الآية ٥٩ .

تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت ارجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت ارجلكم ﴾ قال أعوذ بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال هاتان أهون فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال وهم فيها في جاهلية ولهذا قال الزهري وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية .

وقد روى مالك باسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية قوله تعالى : ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ فان المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب اصلاً بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية .

وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع اذا لم ترد الى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فان رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً ولا يتعدى عليه وان لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض اما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه واما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله .

وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم يظلمون الأمة ويعتدون عليهم اذا نازعوهم في بعض مسائل الدين وكذلك سائر أهل الأهواء فانهم يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها كما يفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته فالناس اذا خفى عليهم بعض ما بعث الله به الرسول اما عادلون واما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل اليه من أثار الانبياء ولا يظلم غيره والظالم الذي يعتدي على غيره هؤلاء يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ (١) والا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضاً كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩ .

فجعلوا أئمتهم نوايا عن الرسول وقالوا هذا غاية ما قدرنا عليه ، فالعـادل منهم لا يظلم الآخـر ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من يخالفه مع أنه معذور .

وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين فابتدعوا كلا ما متشابهاً نفوا به الحق فأجابهم أحمد لما ناظروه في المحنـة وذكروا الجسم ونحـو ذلك وأجـابهم بأني أقـول كما قـال الله تعالى : ﴿ الله أحد الله الصمد ﴾ وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ليس على أحد أن يتكلم به البتة والمعنى الذي يراد به مجمل ولم تبينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيـح فقال مـا أدري ما تقولون لكن أقول : ﴿ الله أحـد الله الصمد لم يلد ولم يـولد ولم يكن لـه كفوا أحـد ﴾ يقول ما أدري ما تعنون بلفظ الجسم فـأنا لا أوافقكم عـلى اثبات لفظ ونفيـه اذا لم يرد الكتـاب والسنة باثباته ولا نفيه ان لم يدر معناه الذي عناه المتكلم فان عنى في النفي أو الاثبـات ما يوافق الكتاب والسنة وافقناه وان عنى ما يخالف الكتاب والسنة في النفي والاثبات لم نوافقه .

(فصـــــل)

[استعمال لفظ الجسم بدعة]

ولفظ الجسم والجوهر ونحوهما لم يأت في كتاب ولا سنة ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين التكلم بهما في حق الله تعالى لا بنفي ولا اثبات ، ولهذا قال أحمد في رسالته الى المتوكل لا أحب الكلام في شيء من ذلك الا ما كان في كتاب الله أو في حديث عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة والتابعين أما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود، وذكر أيضاً فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون ليس فيه كذا ولا كذا وهو كما قال فان اللفظ الجسم في اللغة التي نزل بها القرآن معنى كما قال تعالى : ﴿ واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وزاده بَسْطَةً في العلم والجسم ﴾ .

قال ابن عباس : كما طالوت أعلم بني اسرائيل بالحرب وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه والبسطة السعة ، قال ابن قتيبة هو من قولك بسطت الشيء اذا كان مجموعاً ففتحته ووسعته قال بعضهم : والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة اذ العادة أن من كان أعظم جسماً كان أكثر قوة فهذا لفظ الجسم في لغة العرب التي نزل بها القرآن .

معنى الجسم

أ ـ في اللغة :

قال الجوهري قال أبو زيد الأنصاري : الجسم الجسد وكذلك الجسماني والجثمان وقال الاصمعي الجسم والجسمان والجسد والجثمان واحد وقال جماعة جسم الانسان يقال له الجسمان وقد جسم الشيء ، أي عظم فهو جسيم وجسام والجسام بالكسر جمع جسيم قال أبو عبيدة تجسمت فلانا من بين القوم أي اخترته كأنك قصدت جسمه كما تقول تأتيته أي قصدت أتيه وشخصه ، وأنشد أبو عبيدة :

تجسمته من بينهن بمرهف

وتجسمت الأرض اذا أخذت نحوها تريدها وتجسم من الجسم ، وقال ابن السكيت : تجسمت الأمر اي ركبت اجسمه وجسيمه أي معظمه قال وكذلك تجسمت الرمل والجبل أي ركبت اعظمه ، والأجسم الأضخم قال عامر بن الطفيل :

لقد علم الحي من عامر بأن لنا الذروة الاجسما

فهذا الجسم في لغة العرب ، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم ولا للنفس الخارج من

الانسان جسم ولا لروحه المنفوخة فيه جسم ، ومعلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئاً من ذلك لابدن الانسان ولا غيره فلا يوصف الله بشيء من خصائص المخلوقين ولا يطلق عليه ، من الاسماء ما يختص بصفات المخلوقين فلا يجوز أن يقال هو جسم ولا جسد .

(ب ـ عند المتكلمين والفلاسفة) :

وأما أهل الكلام فالجسم عندهم أعم من هذا وهم مختلفون في معناه اختلافاً كثيراً عقلياً واختلافاً لفظياً اصطلاحياً فهم يقولون كل ما يشار اليه اشارة حسية فهو جسم ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير من كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردية ثم منهم من قال : الجسم أقل ما يكون جوهراً بشرط أن ينضم اليه غيره وقيل بل الجوهران والجواهر فصاعداً ، وقيل بل أربعة فصاعداً وقيل بل ستة وقيل بل ثمانية وقيل بل ستة عشر وقيل بل اثنان وثلاثون وهذا قول من يقول ان الاجسام كلها مركبة من الجواهر التي لا تنقسم .

وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الاجسام مركبة من الهيولى وصورة لا من الجواهر الفردية .

قال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا ، وهذا قول الهشامية والكلابية والضرارية وغيرهم من الطوائف الكبار لا يقولون بالجوهر الفرد ولا بالمادة والصورة وآخرون يدعون اجماع المسلمين على اثبات الجوهر الفرد كما قال أبو المعالي وغيره : اتفق المسلمون على أن الاجسام تتناهى في تجزئتها وانقسامها حتى تصير أفراداً ومع هذا فقد شك هو فيه وكذلك شك فيه ابو الحسين البصري ، وأبو عبد الله الرازي ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين ، وأول من قال ذلك في الاسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة وهذا من الكلام الذي ذمه السلف وعابوه ولكن حاكى هذا الاجماع لما لم يعرف اصول بالدين الا ما في كتب الكلام ولم يجد الا من يقول بذلك اعتقد هذا اجماع المسلمين والقول بالجوهر الفرد باطل والقول بالهيولي والصورة باطل ، وقد بسط الكلام على هذه المقالات في موضع آخر .

وقال آخرون : الجسم هو القائم بنفسه وكل قائم بنفسه جسم وكل جسم فهو قائم بنفسه وهو مشار اليه واختلفوا في الاجسام هل هي متماثلة أم لا على قولين مشهورين ، واذا عرف ذلك فمن قال انه جسم واراد أنه مركب من الاجزاء فهذا قوله باطل وكذلك ان أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل ان الله ليس كمثله شيء في شيء من صفاته فمن أثبت لله مثلاً في شيء من صفاته فهو مبطل ومن قال انه جسم بهذا المعنى فهو مبطل ومن قال ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى في الآخرة ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ولا يقوم به

العلم والقدرة وغيرهما من الصفات ولا ترفع الايدي اليه الدعاء ولا عرج بالرسول اليه ولا يصعد اليه الكلم الطيب ولا تعرج اليه الملائكة والروح اليه فهذا قول باطل .

وكذلك كل من نفى ما أثبته الله ورسوله وقال ان هذا تجسيم فنفيه باطل وتسمية ذلك تجسيماً تلبيس منه فانه ان أراد هذا يقتضي أن يكون جسماً مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو أن هذا يقتضي أن يكون جسماً والاجسام متماثلة قيل له أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الاجسام المخلوقة وفي انها مركبة فلا يقولون ان الهواء مثل الماء ولا ابدان الحيوان مثل الحديد والجبال فكيف يوافقونك على أن الرب يكون مماثلاً لخلقه اذا اثبتوا له ما أثبت الكتاب والسنة والله قد نفي المماثلات في بعض المخلوقات وكلاهما جسم كقوله : ﴿ وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ مع أن كلاهما بشر فكيف يجوز أن يقال اذا كان لرب السموات علم وقدرة أنه يكون مماثلاً لخلقه والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

(سبب الاشتباه)

ونكتة الأمر أن الجسم في اعتقاد هذا النافي يستلزم مماثلة سائر الاجسام ويستلزم أن يكون مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة وأكثر العقلاء يخالفونه في التلازم وهذا التلازم منتف باتفاق الفريقين وهو المطلوب فاذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفي عن الله شرعاً وعقلاً بقي بحثهم في الجسم الاصطلاحي هل هو مستلزم لهذا المحذور ؟ وهو بحث عقلي كبحث الناس في الأرض هل تبقى أو لا تبقى وهذا البحث العقلي لم يرتبط به دين المسلمين بل لم ينطق كتاب ولا سنة ولا أثر من السلف بلفظ الجسم في حق الله لا نفياً ولا اثباتاً فليس لأحد أن يبتدع اسماً مجملاً يحتمل معاني مختلفة لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين ولو كان قد نطق باللغة العربية فكيف اذا أحدث للفظ معنى آخر .

والمعنى الذي يقصده اذا كان حقاً عبر عنه بالعبارة التي لالبس فيها فاذا كان معتقده أن الاجسام متماثلةوأن الله ليس كمثله شيء وهو سبحانه لاسمى له ولا كفؤ له ولا ند له فهذه عبارات القرآن تؤدي هذا المعنى بلا تلبيس ولا نزاع وان كان معتقده أن الاجسام غير متماثلة وأن كل ما يرى ويقوم به من الصفات فهو جسم فان عليه أن يثبت ما أثبته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته كقوله : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ﴾ وقوله : ﴿ ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ وقوله عليه السلام في حديث الاستخارة « اللهم اني استخيرك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، ويقول كما قال رسول الله ﷺ : « انكم ترون ربكم يوم القيامة عياناً كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤيته » فشبه الرؤية بالرؤية وان لم يكن المرئي كالمرئي .

فهذه عبارات الكتاب والسنة عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة وأقوال الصحابة ، ثم بعد هذا من كان تبين له معنى من جهة العقل أنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم الحق حق لكن ذلك المعنى لا بد أن يدل الشرع عليه فيثبته بالالفاظ الشرعية ان قدر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس اليه وان قدر أنه في نفسه حق .

ومسألة تماثل الاجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام وكثير منهم يقول بهذا تارة وبهذا تارة وأكثر ذلك لأجل الالفاظ المجملة والمعاني المتشابهة وقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

لكن المقصود هنا أنه لو قدر أن الانسان تبين له أن الاجسام ليست متماثلة ولا مركبة لا من هذا ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع في دين الاسلام قوله ان الله جسم ويناظر على المعنى الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة بل بكيفية اثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية ولو قد أنه تبين له أن الاجسام متماثلة وأن الجسم مركب لم يكن له أن يبتدع القول بهذا الاسم ويناظر على معناه الذي اعتقده بعقله بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن اظهاره بعبارة لا اجمال فيها ولا تلبيس والذين يقولون ان الجسم مركب من الجواهر يدعى كثير منهم أنه كذلك في لغة العرب لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا يريدون به أنه أكثر أجزاء منه ويقولون هذا جسيم أي كثير الاجزاء قال والتفضيل بصيغة أفعل انما يكون لما يدل عليه الاسم فاذا قيل هذا أعلم وأحلم كان أكثر دالاً على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم فلما قالوا أجسم لما كان أكثر اجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب فمن قال جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب .

قالوا : وهذه تخطئة في اللفظ وان كنا لا نكفره اذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف وقد نازعهم بعضهم في قولهم هذا أجسم من هذا وقالوا ليس هذا اللفظ من لغة العرب كما يحكى عن أبي زيد فيقال له لا ريب ان العرب تقول هذا جسيم أي عظيم الجثة وهذا أجسم من هذا أي أعظم جثة لكن كون العرب تعتقد أن ذلك لكثرة الاجزاء التي هي الجواهر الفردة انما يكون اذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة والجوهر الفرد هو شيء قد بلغ من الصغر والحقارة الى أنه لا يتميز يمينه من يساره .

ومعلوم أن أكثر العقلاء من بني آدم لا يتصور الجوهر الفرد والذين يتصورنه أكثرهم لا يثبتونه والذين اثبتوه انما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع في اللغة التي ينطق بها خواصها وعوامها أرادوا به هذا .

وقد علم بالاضطرار (١) أن أحداً من الصحابة والتابعين لهم باحسان لم ينطق باثبات الجوهر الفرد ولا بما يدل عى ثبوته عنده بل ولا العرب قبلهم ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة ولا اتباع الرسل فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم الا لما كان مركباً مؤلفاً ولو قلت لمن شئت من العرب الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزيء أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى الا بعد كلفة .

ثم اذا تصوره قد يكذبه بفطرته ويقول كيف يمكن أن يكون شيء لا يتميز منه جانب عن جانب وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد فالفقهاء قاطبة تنكره وكذلك أهل الحديث والتصوف ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الاجسام الى بعض كاستحالة العذرة رماداً والخنزير ملحاً ، ثم تكلموا في هذه الاستحالة هل تظهر أم لا تظهر ؟ .

والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذرات عندهم بل تلك الجواهر التي كانت في الأول هي بعينها في الثاني وانما اختلف التركيب ولهذا يتكلم بلفظ التركيب في الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين ويقول ان الماء يفارق غيره في التركيب فقط وكذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم انا لم نشاهد قط أحداث الله لشيء من الأعيان القائمةبنفسها وأن جميع ما يخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب وغير ذلك انما هو جمع الجواهر وتفريقها وتغيير صفاتها من حال الى حال لا أنه يبدع شيئاً من الجواهر والاجسام القائمة بأنفسها وهذا القول أكثر العقلاء ينكره ويقول : هو مخالف للحس والعقل والشرع فضلاً عن أن يكون الجسم في لغة العرب مستلزماً لهذا المعنى .

ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه وهو عرض قائم بغيره وقد يراد به الشيء الغليظ وهو القائم بنفسه فنقول هذا الثوب له جسم أي غلظ وقوله : ﴿ زاده بسطة في العلم والجسم ﴾ قد يحتج به على هذا فانه قرن الجسم بالعلم الذي هو مصدر فنقول المعنى زاده بسطة في قدره فجعل قدر بدنه أكبر من بدن غيره فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر .

وكذلك قوله : ﴿ تعجبك أجسامهم ﴾ أي صورهم القائمة بأبدانهم كما تقول أعجبني حسنه وجماله ولونه وبهاؤه فقد يراد صفة الأبدان وقد يراد نفس الابدان وهم اذا قالوا هذا أجسم من هذا أرادوا به أغلظ وأعظم منه أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الاجزاء بهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة الا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث في الاسلام بعد انقراض عصر الصحابة وأكثر التابعين فان

---

(١) في الأصل : بالاضرار .

هذا لم يعرف في الاسلام من تكلم به او بمعناه ، الا في آواخر الدولة الاموية لما ظهر جهم ابن صفوان والجعد بن درهم ثم ظهر في المعتزلة .

فقد تبين أن من قال الجسم هو المؤلف المركب وأعتقد أن الاجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقلياً ينازعه فيه أكثر العقلاء من بني آدم ولم ينقل عن أحد من السلف أنه وافقه عليه وجعل لفظ الجسم في اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ في اللغة فقد غير معنى اللفظ في اللغة وادعى معنى عقلياً فيه نزاع طويل وليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ ولا ما ادعاه من المعنى العقلي فاللغة لا تدل على ما قال والشرع لا يدل على ما قال والعقل لم يدل على مسميات الألفاظ وانما يدل على المعنى المجرد وذلك فيه نزاع طويل ونحن نعلم الاضطرار أن ذلك المعنى الذي وجب نفيه عن الله لايحتاج نفيه الى ما أحدثه هذا من دلالة اللفظ ولا ما ادعاه من المعنى العقلي بل الذي جعلوا هذا عمدتهم في تنزيه الرب على نفي مسمى الجسم لا يمكنهم أن ينزهوه عن شيء من النقائص البتة فانهم اذا قالوا : هذا من صفات الأجسام فكل ما يثبتونه هو أيضاً من صفات الأجسام مثل كونه حياً عليماً قديراً بل كونه موجوداً قائماً بنفسه فانهم لا يعرفون هذا في الشاهد الا جسماً .

فاذا قال المنازع أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم هل علمه بالاجماع فقط أو علمه بالعقل أيضاً فيه قولان فمن قال أن ذلك لم نعلمه بالعقل كأبي المعالي والرازي وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلي ينزهون به الرب عن كثير من النقائص هذا اذا لم ينف الا ما يجب نفيه عن الله مثل نفيه للنقائص فانه يجب تنزيه الرب عنها وينفى عنه مماثله المخلوقات فانه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له .

وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله وقل هو الله أحد دلت على النوعين فقوله أحد من قوله لم يكن له كفوا أحد ينفي المماثلة والمشاركة ، وقوله صمد يتضمن جميع صفات الكمال فالنقائص جنسها منفي عن الله تعالى وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها بخلاف ما يوصف به الرب ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك فان هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني فانه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات فضلاً عن أن يماثله فيه بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وان اتفق في الاسم وكلاهما مخلوق .

قال ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة الا الأسماء فقد أخبر الله أن في الجنة لبناً وخمراً وعسلاً وماء وحريراً وذهباً وفضة ، وتلك الحقائق ليست مثل هذه وكلاهما مخلوق فالخالق تعالى

أبعد من مماثلة المخلوقات من المخلوقات الى المخلوق وقد سمى الله نفسه عليماً حليماً رؤوفاً رحيماً سميعاً بصيراً عزيزاً ملكاً جباراً متكبراً مؤمناً عظيماً كريماً غنيّاً شكوراً كبيراً حفيظاً شهيداً حقاً وكيلاً ولياً .

وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذا الاسماء فسمَّى الانسان سميعاً بصيراً وسمى نبيه رؤفاً رحيماً وسمى بعض عباده ملكاً وبعضهم شكوراً وبعضهم عظيماً وبعضهم حليماً وعليماً وسائر ما ذكر من الاسماء مع العلم أنه ليس المسمى بهذا الاسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الاشياء وكذلك النزاع في لفظ التحيز والجهة ونحو ذلك فمن الناس من يقول هو متحيز وهو في جهة ، ومنهم من يقول ليس بمتحيز وليس في جهة ، ومنهم من يقول هو في جهة وليس بمتحيز ولفظ المتحيز يتناول الجسم والجوهر الفرد .

[هل الجواهر قائمة بأنفسها أم لا ؟]

ومن الفلاسفة من يدعي اثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة ، ومتأخروا أهل الكلام كالشهر ستاني والرازي والأمدي ونحوهم يقولون ليس في العقل ما يحيل ذلك ولهذا كان من سلك سبيل هؤلاء وهو انما يثبت حدوث العالم بحدوث الأجسام يقول بتقدير وجود جواهر عقلية فليس في هذا الدليل ما يدل على حدوثها ولهذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة الى قدم الجواهر العقلية وحدوث الأجسام وأن السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس وكان يقول بهذا بعض أعيان المصريين وكذلك الأرموي صاحب اللباب الذي أجاب عن شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة أنه لا بد للحدوث من سبب فأجاب بالجواب الباهر الذي أخذه من كلام الرازي في المطالب العالية فانه أجاب به وهو في المطالب العالية يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين وهو في مسألة الحدوث والقدم جائز .

وهذا الجواب من أفسد الاجوبة فانه يقال ما الموجب لحدوث تلك التصورات دائماً ثم ان النفس عندهم لا بد أن تكون متصلة بالجسم فيمتنع وجود نفس بدون جسم ، وأيضاً فالذي علم بالاضطرار من دين الرسل أن كل ما سوى الله مخلوق محدث كان بعد أن لم يكن وأيضاً فما تثبته الفلاسفة من الجواهر العقلية انما يوجد في الذهن لا في الخارج وأما أكثر المتكلمين فقالوا انتفاء هذه معلوم بضرورة العقل .

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع فبين أن ما تدعي الفلاسفة اثباته من الجواهر العقلية التي هي العقل والنفس والمادة والصورة فلا حقيقة لها في الخارج وانما هي أمور معقولة في الذهن يجردها العقل من الأمور المعينة كما يجرد العقل الكليات المشتركة بين الاصناف كالحيوانية الكلية والانسانية الكلية والكليات انما تكون كليات في الاذهان لا في الاعيان ومن

هؤلاء من يظن انها تكون في الخارج كليات وأن في الخارج ماهيات كلية مقارنة للأعيان غير الموجودات المعينة وكذلك منهم من يثبت كليات مجردة عن الاعيان يسمونها المثل الافلاطونية .

ومنهم من يثبت دهراً مجرداً عن المتحرك والحركة ويثبت خلاءاً مجرداً ليس هو متحيزاً ولا قائماً بمتحيز ويثبت هيولي مجردة عن جميع الصور ، والهيولي في لغتهم بمعنى المحل يقال الفضة هيولي الخاتم والدرهم والخشب هيولي الكرسي أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة وهذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض ويدعون أن الجسم هيولي محل الصورة الجسمية وغير نفس الجسم القائم بنفسه وهذا غلط وانما هذا يقدر في النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد وعدد مجرد عن كل معدود ومقدار مجرد عن كل مقدر ، وهذه كلها أمور مقدرة في الأذهان لا وجود لها في الاعيان وقد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

فالجواهر العقلية التي يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها في الخارج وأما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لا يعرفها هؤلاء الفلاسفة أتباع ارسطو ولا يذكرونها بنفي ولا اثبات كما لا يعرفون النبوات ولا يتكلمون عليها بنفي ولا اثبات ، انما تكلم في ذلك متأخروهم كابن سينا وأمثاله الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات وبين الفلسفة فلبسوا ودلسوا وكذلك العلة الأولى التي يثبتونها لهذا العالم انما اثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها وتحريكها للفلك من جنس تحريك الامام المقتدى به المؤتم المقتدى اذا كان يجب أن يتشبه بامامه ويقتدي بامامه ولفظ الاله في لغتهم يراد به المتبوع الامام الذي يتشبه به فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالاله ولهذا جعلوا الفلسفة العليا والحكمة الأولى انما هي التشبه بالاله على قدر الطاقة .

وكلام أرسطو في علم ما بعد الطبيعة في مقالة اللام التي هي منتهى فلسفته وفي غيرها كله يدور على هذا وتارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعاشق لكن التحريك هنا قد يكون لمحبة العاشق ذات المعشوق أو لغرض يناله منه وحركة الفلك عندهم ليست كذلك بل يتحرك ليتشبه بالعلة الأولى فهو يحبها أي يحب التشبه بها لا يحب أن يعيدها ولا يحب شيئاً يحصل منها ويشبه ذلك أرسطو بحركة النواميس لاتباعها أي اتباع الناموس قائمون بما في الناموس ويقتدون به والناموس عندهم هي السياسة الكلية للمدائن التي وضعها لهم ذوو الرأي والعقل لمصلحة دنياهم لئلا يتظالموا ولا تفسد دنياهم ومن عرف النبوات منهم يظن أن شرائع الأنبياء من جنس نواميسهم وأن المقصود بها مصلحة الدنيا بوضع قانون عدلي .

ولهذا أوجب ابن سينا وأمثاله النبوة وجعلوا النبوة لا بد منها لأجل وضع هذا الناموس ، ولما كانت الحكمة العملية عندهم هم هي الخلقية والمنزلية والمدنية جعلوا ما جاءت به الرسل

من العبادات والشرائع والأحكام هي جنس الحكمة الخلقية المنزلية والمدنية فان القوم لا يعرفون الله بل هم أبعد من معرفته من كفار اليهود والنصارى بكثير وأرسطو المعلم الأول من أجهل الناس بربّ العالمين الى الغاية لكن لهم معرفة جيدة بالامور الطبيعية وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم .

وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها مبخوس جداً وأما ملائكته وكتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا اثبات وانما يتكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركاً وسحراً يعبدون الكواكب والاصنام ولهذا عظمت عنايتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها وكانوا يبنون لها الهياكل وكان آخر ملوكهم بطليموس صاحب المجسطى لما دخلت الروم في النصرانية فجاء دين المسيح صلوات الله عليه وسلامه فابطل ما كانوا عليه من الشرك .

ولهذا بدل من يدل دين المسيح فوضع ديناً مركباً من دين الموحدين ودين المشركين فان أولئك كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب ويصلون لها ويسجدون فجاء قسطنطين ملك النصارى ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة الى الشرق وجعلوا السجود الى الشمس بدلاً عن السجود لها وكان أولئك يعبدون الأصنام المجسدة التي لها ظل فجاءت النصارى وصورت تماثيل القداديس في الكنائس وجعلوا الصور المرقومة في الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بانفسها التي لها ظل ، وأرسطو كان وزير الاسكندر بن فيلبس المقدوني نسبة الى مقدونية وهي جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الذين يسمون المشائين وهي اليوم خراب أو غمرها الماء وهو الذي يؤرخ له النصارى واليهود التاريخ الرومي وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة أنه كان وزير ذي القرنين المذكور في القرآن العظيم بذلك قدره .

وهذا جهل فان ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جداً وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج وهذا المقدوني ذهب الى بلاد فارس لم يصل الى بلاد الصين فضلاً عن السد والملائكة التي أخبر الله ورسوله بها لا يحصى عددهم الا ا لله ليسوا عشرة ولا تسعة وهم عباد الله أحياء ناطقون ينزلون الى الأرض ويصعدون الى السماء ولا يفعلون الا باذن ربهم كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ قالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وأمثال هذه النصوص .

وهؤلاء يدعون أن العقول قديمة أزلية وأن العقل الفعال هو رب كل ما تحت هذا الفلك والعقل الأول هو رب السموات والأرض وما بينهما ، والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بني

عبيد كأصحاب رسائل اخوان الصفا وغيرهم وكملاحدة المتصوفة مثل ابن عربي وابن سبعين وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع أول ما خلق الله العقل .

وفي كلام أبي حامد الغزالي في الكتب المضنون بها على غير أهلها وغير ذلك من معاني هؤلاء قطعة كبيرة ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ومراده بذلك الجسم والنفس والعقل فيأخذ هؤلاء تلك العبارات الاسلامية ويودعونها معاني هؤلاء وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فاذا سمعوها قبلوها ثم اذا عرفوا المعاني التي قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الاسلام وأن هذه معاني هؤلاء الملاحدة ليست هي المعاني التي عناها محمد رسول الله ﷺ واخوانه المرسلين مثل موسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين .

ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس وعدم المعرفةبحقيقةما جاء به الرسول وما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم والعبادة والتصوف ومن ليس له غرض في مخالفة محمد ﷺ بل يجب اتباعه مطلقاً ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله لكن لعدم كمال علمه بمعاني ما أخبر به الرسول ومقاصد هؤلاء يقبل هذا لا سيما اذ كان المتكلم به ممن له نصيب وافر في العلم والكلام والتصوف والزهد والفقه والعبادة .

ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين انما يعرفون الشرع الطاهر وفوق مرتبة المحدث الذي غايته النقل لألفاظ لا يعلم معانيها وكذلك المقرى والمفسر ، ورأي من يعظمه من أهل الكلام أما موافق لهم أو خائف منهم ، ورأى بحوث المتكلمين معهم في مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق تبيين فساد قولهم بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة وتارة يخالفونهم في أمر قالته الفلاسفة ويكون حقاً مثل ما يرى كثير من المتكلمين يخالفهم في أمور طبيعة ورياضية ظاناً أنه ينصر الشرع ويكون الشرع موافقاً لما علم بالعقل مثل استدارة الأفلاك فانه لم يعلم بين السلف خلاف في أنها مستديرة والآثار بذلك معروفة والكتاب والسنة قد دلا على ذلك وكذلك استحالة الاجسام بعضها الى بعض هو مما اتفق عليه الفقهاء كما قال هؤلاء الى أمور أخر لكن كثير من المتكلمين أو أكثرهم لاخبرة لهم بما دل عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم باحسان بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين بل اجماع المسلمين ولا يكون قد قالها أحد من السلف الثابت ، عن السلف مخالف لها .

فلما وقع بين المتكلمين تقصير وجهل كثير بتحقيق العلوم الشرعية وهم في العقليات تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم وتارة يخالفونهم في حقهم صارت المناظرات بينهم دولاً وان كان المتكلمون منطقاً مطلقاً في العقليات الالهية والكلية كما أنهم أقرب الى الشرعيات من الفلاسفة فان الفلاسفة كلامهم في الالهيات والكليات العقلية كلام قاصر جداً وفيه تخليط كثير وانما يتكلمون جيداً في الأمور الحسية الطبيعية وفي كلياتها فكلامهم فيها في الغالب جيد .

وأما الغيب الذي تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التي تعم الموجودات كلها وتقسيم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة فان هذا لا يكون الا ممن أحاط بأنواع الموجودات وهم لا يعرفون الا الحساب وبعض لوازمها وهذا معرفة بقليل الموجودات جداً فان ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير .

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة اذا سمعوا اخبار الانبياء والملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار وهم يظنون أن لا موجود الا ما علموه هم والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء ما عرفوه وان كان هذا لا دليل عليه وليس لهم بهذا النفي علم فان عدم العلم ليس علماً بالعدم لكن نفيهم هذا كنفي الطبيب للجن لأنه ليس في صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن والا فليس في علم الطب ما ينفي وجود الجن .

وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبين بجهله نافياً لما لا يعلمه وبنو أدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما اثبتوه وصدقوا به قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل فاذا اثبتوا شيئاً وصدقوا به كان حقاً ولهذا كان التواتر مقبولاً من جميع اجناس بني آدم لأنهم يخبرون عما شاهدوه وسمعوه ، وهذا أمر لا يشترك الخلق العظيم في الغلط فيه ولا في تعمد الكذب فيه ، فاذا علم أنهم لم يتواطؤا عليه ولم يأخذه بعضهم عن بعض كما يؤخذ المذهب والآراء التي يتلقاها المتأخر عن المتقدم وقد علم أن هذا مما لا يغلط فيه عادة علم قطعاً صدقهم فان المخبر اما أن يتعمد الكذب واما أن يغلط وكلاهما مأمون في المتواترات بخلاف ما نفوه وكذبوا به فان غالبهم أو كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه .

فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة اذا سمعوا ما أخبرت به الانبياء من العرش والكرسي قالوا : العرش هو الفلك التاسع والكرسي هو الثامن وقد تكلمنا على ذلك في مسألة الاحاطة وبيّنا جهل من قال هذا عقلاً وشرعاً ، واذا سمعهم يذكرون الملائكة ظن أنهم العقول والنفوس التي يثبتها المتفلسفة والقوى التي في الاجسام وكذلك الجن والشياطين يظن أنها أعراض قائمة بالنفوس حيث كان هذا مبلغه من العلم .

وكذلك يظن ما ذكره ابن سينا وأمثاله من أن الغرائب في هذا العالم سببها قوة فلكية أو طبيعية أو نفسانية ويجعل معجزات الأنبياء من باب القوى النفسانية وهي من جنس السحر لكن الساحر قصده الشر والنبي قصده الخير وهذا كله من الجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات وأنواعها ، ومن الجهل بما جاء به الرسول فلا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الالهية الا ما يعرفه الفلاسفة المتقدمون وزيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام أو عن أهل الملة .

فلهذا صار كلام المتأخرين كابن سيناء وأمثاله في الالهيات والكليات أجود من كلام سلفه ولهذا قربت فلسفة اليونان الى أهل الالحاد والمبتدعة من أهل الملل لما فيها من شوب الملة ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفس وعن المجوس النور والظلمة وسموهم السابق والتالي ، وكذلك الملاحدة المنتسبون الى التصوف والتأله كابن سبعين وأمثاله سلكوا مسلكاً جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة ، وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء في غير هذا الموضع .

وانما ذكروا هنا لأن أهل الكلام المحدث صاروا لعدم علمهم بما علمه السلف وأئمة السنة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة في الاسلام أموراً باطلة ويحصل بهم من الضلال والغي ما لا يتسع هذا الموضع لذكره .

ولما أحدثت الجهمية محنتهم ودعوا الناس اليهم وضرب أحمد بن حنبل في سنة عشرين ومائتين كان مبدأ حدوث القرامطة الملاحدة الباطنية من ذلك الزمان فصارت البدع باب الالحاد كما أن المعاصي بريد الكفر ولبسط هذا موضع آخر .

[معنى المتحيز عند الفلاسفة]

والمقصود هنا الكلام على لفظ التحيز والجهة وهؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع في الملائكة هل هي متحيزة أم لا ؟ فمن مال الى الفلسفة ورأى أن الملائكة هي العقول والنفوس التي يثبتها الفلاسفة وأن تلك ليست متحيزة قال ان الملائكة ليست متحيزة لا سيما وطائفة من الفلاسفة لم تجعل عددها عشرة عقول وتسعة نفوس كما هو المشهور عن المشائين بل لا دليل على نفي الزيادة ورأى النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية كما فعل ذلك أبو البركات صاحب المعتبر ، والرازي في المطالب الغالية وغيرهما .

وأما المتكلمون فانهم يقولون أن كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز وكثير منهم يقول كل موجود اما متحيز واما قائم بمتحيز ويقول لا يعقل موجود الا كذلك كما قال طوائف من أهل الكلام والنظر ثم الفلاسفة كابن سينا وأتباعه والشهرستاني والرازي وغيرهم لما أرادوا اثبات موجود ليس كذلك كان أكبر عمدتهم اثبات الكليات كالانسانية المشتركة والحيوانية المشتركة واذا كانت هذه لا تكون كليات الا في الذهن فلم ينازعهم الناس في ذلك وانما نازعوهم في اثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه لا يمكن الاحساس به بحال بل لا يكون الا معقولاً وقالوا لهم : المعقول ما كان في العقل وأما ما كان موجوداً قائماً بنفسه فلا بد أن يمكن الاحساس به وان لم نحس نحن به في الدنيا كما لانحس بالجن والملائكة وغير ذلك فلا بد أن يحس به غيرنا كالملائكة والجن وأن يحس به بعد الموت أو في الدار الآخرة أو يحس به بعض الناس دون بعض في الدنيا كالانبياء الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامهم .

(فصـــــل)

[هل الروح جوهر ام عرض ؟]

وهذه الطريقة ـ وهو أن كل قائم بنفسه يمكن رؤ يته ـ هي التي سلكها أئمة النظار كابن كلاب وغيره وسلكها ابن الزاغوني وغيره وأما من قال ان كل موجود يجوز رؤ يته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس كما يقوله الأشعري وموافقوه كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي وغيرهما فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء بل يقولون فسادها معلوم بالضرورة بعد التصور التام كما بسط في موضعه .

وكذلك نزاعهم في روح الانسان التي تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها ولا جزأ من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه فان كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن أو جزء من أجزاء البدن لكن هذا مخالف للكتاب والسنة واجماع والخلف ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم ومخالف للأدلة .

وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام قال القاضي ابو بكر أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض وبهذا نقول اذا لم يعن بالروح النفس فانه قال الروح الكائن في الجسد ضربان : أحدهما الحياة قائمة به ، والآخر النفس والنفس ريح ينبث به والمراد بالنفس ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام وهذا قول الاسفرائيني وغيره .

وقال ابن فورك هو ما يجري في تجاويف الأعضاء ، وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن مخالفتهم فقال ان الروح اجسام لطيفة مشابكة للاجسام المحسوسة أجرى الله العادة بحياة الاجساد ما استمرت مشابكتها لها فاذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة ومذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن وتنعم وتعذب ليست هي البدن ولا جزءاً من أجزاء كالنفس المذكورة .

ولما كان الامام احمد ممن نص على ذلك كما نص عليه غيره من الأئمة لم يختلف أصحابه في ذلك لكن طائفة منهم كالقاضي أبي يعلى زعموا أنها جسم وأنها الهواء المتردد في مخاريق البدن موافقة لأحد المعنيين الذين ذكرهما الباقلاني ، وهذه الأقوال لما كانت من أضعف الأقوال تسلط بها عليهم خلق كثير ، والمقصود هنا أن الذين قالوا أنها عين قائمة بنفسها غير البدن وأجزائه وأعراضه تنازعوا هل هي جسم متحيز على قولين كتنازعهم في الملائكة ؟ .

فالمتكلمون منهم يقولون جسم والمتفلسفة يقولون جوهر عقلي ليس بجسم وقد أشرنا فيما تقدم الى أن ما تسميه المتفلسفة جواهر عقلية لا توجد الا في الذهن ، وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات هو مأخوذ من نفس الانسان فانها لما كانت تفارق بدنه بالموت وتتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم أثبتوا ما اثبتوه من العقول والنفوس وسموها مفارقات ومجردات لمفارقتها المادة التي هي عندهم الجسم وهذه المفارقات عندهم ما لا يكون جسماً ولا قائماً بجسم لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير والعقل لا تعلق له بالاجسام أصلاً ، ولا ريب أن جماهير العقلاء على اثبات الفرق بين البدن والروح التي تفارق والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في باصطلاح المتكلمين بل الجسم هو الجسد كما تقدم وهو الجسم الغليظ أو غلظة والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً فمن جعل الملائكة والارواح ونحو ذلك جسماً بالمعنى اللغوي فقد أصاب في ذلك ورب العالمين أولى أن لا يكون جسماً فانه من المشهور في اللغة بين الأرواح والاجسام .

وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك وهو ما أمكنت الاشارة الحسية اليه وما قيل أنه هنا وهناك وما قبل الابعاد الثلاثة ونحو ذلك وكذلك المتحيز في اصطلاح هؤلاء هو الجسم ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته وقد تقدم معنى الجسم في اللغة ، وأما المتحيز فقد قال تعالى : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ﴾ .

(معنى المتحيز في اللغة)

وقال الجوهري الحوز الجمع وكل من ضم الى نفسه شيئاً فقد حازه حوزاً وحيازة واحتازه أيضاً والحوز والحيز السوق اللين وقد حاز الابل يحوزها ويحيزها وحوز الابل ساقها الى الماء ، وقال الأصمعي اذا كانت الابل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة توجهها الى الماء ليلة الحوز وتحوزت الحية وتحيزت تلوت يقال مالك تتحوز تحوز الحية وتتحيز تحيز الحية ، قال سيبويه : هو من نفعل من حزت الشيء ، قال القطامي .

تحيز مني خشية أن أضيفها   كما انحازت الأفعى مخافة ضارب

يقول تتنحى عني هذه العجوز وتتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفاً والحيز ما انضم الى الدار من مرافقها وكل ناحية حيز وأصله من الواو والحيز تخفيف الحيز مثل هين وهين ولين ولين والجمع احياز ، والحوزة الناحية وانحاز عنه انعدل وانحاز القوم تركوا مركزهم الى آخر يقال للأولياء انحازوا عن العدو وحاصوا والاعداء انهزموا وولوا مدبرين وتحاوز الفريقان في الحرب انحاز كل فريق عن الآخر .

فهذا المذكور عن أهل اللغة في هذا اللفظ ومادته تقضي أن التحيز والانحياز والتحوز ونحو ذلك تضمن عدولاً من محل الى محل وهذا أخص من كونه يحوزه أمر موجود فهم يراعون في معنى الحوز ذهابه من جهة الى جهة فالشيء المستقر في موضعه كالجبل والشمس والقمر لا يسمونه متحيزاً وأعم من هذا أن يراد بالمتحيز ما يحيط به حيز موجود فيسمى كل ما أحاط به غيره أنه متحيز .

وعلى هذا فما بين السماء والأرض تحيز بل ما في العالم متحيز الأسطح العالم الذي لا يحيط به شيء فان ذلك ليس بمتحيز وكذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهذا الاعتبار فانه ليس في عالم آخر أحاط به .

والمتكلمون يريدون بالمتحيز ما هو أعم من هذا والحيز عندهم أعم من المكان فالعالم كله في حيز وليس هو في مكان والمتحيز عندهم لا يعتبر فيه أنه يحوزه غيره ولا يكون له حيز وجودي بل كان كل ما أشير اليه وامتاز منه شيء عن شيء فهو متحيز عندهم .

ثم هم مختلفون بعد هذا في المتحيز هل هو مركب من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو هو غير مركب لا من هذا ولا من هذا كما تقدم نزاعهم في الجسم فالجسم عندهم متحيز ولا يخرج عنه الا الجوهر الفرد عند من أثبته وهؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب يقبل الانقسام الى جزء لا يتجزىء بل يظن بعضهم أن هذا اجماع المسلمين وأكثرهم يقولون المتحيزات متماثلة في الحد والحقيقة ومن كان معنى المتحيز عنده هذا فعليه أن ينزه الله تعالى أن يكون متحيزاً بهذا الاعتبار ، واذا قال الملائكة متحيزون بهذا الاعتبار أو الروح متحيزة بهذا الاعتبار نازعة في ذلك جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم بل لا يعرف احد من سلف الأمة وأئمتها يقول أن الملائكة متحيزة بهذا الاعتبار ولا قالوا لفظاً يدل على هذا المعنى ، كذلك روح بني أدم التي تفارقه بالموت لم يقل أحد من السلف أنها متحيزة بهذا الاعتبار ولا قال فيها لفظاً يدل على هذا المعنى فاذا كان اثبات هذا التحيز للملائكة والروح بدعة في الشرع وباطلاً في الشرع فلأن يكون ذلك بدعة وباطلاً في رب العالمين بطريق الأولى والأخرى .

ومن هنا يتبين أن عامة ما يقوله المتفلسفة وهؤلاء المتكلمة في نفوس بني آدم وفي الملائكة باطلة فيكف بما يقولونه في رب العالمين ، ولهذا توجد الكتب المصنفة التي يذكر فيها مقالات هؤلاء وهؤلاء في هذه المسائل الكبار في رب العالمين وفي ملائكته وفي أرواح بني آدم وفي المعاد وفي النبوات ليس فيها قول يطابق العقل والشرع ولا يعرفون ما قاله السلف والائمة في هذا الباب ولا ما دل عليه الكتاب والسنة .

فلهذا يغلب على فضلائهم الخبرة فانهم اذا انهوا النظر لم يصلوا الى علم لأن ما نظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبين ولهذا قال أبو عبد الله الراوي في آخر عمره :

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب ﴾ و ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ واقرأ في النفي ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وأما من اعتقد أن المتحيز هو ما باين غيره فانحاز عنه وليس من شرطه أن يكون مركباً من الاجزاء الفردة ولا أنه يقبل التفريق والتقسيم فاذا قال ان الرب متحيز بهذا المعنى أي أنه بائن عن مخلوقاته فقد أراد معنى صحيحاً لكن اطلاق هذه العبارة بدعة وفيها تلبيس فان هذا الذي أراده ليس معنى المتحيز في اللغة هو اصطلاح له ولطائفته .

وفي المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء فصار يحتمل معنى فاسداً يجب تنزيه الرب عنه وليس للانسان أن يطلق لفظاً يدل عند غيره على معنى فاسد ويفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفاسد من غير بيان مراده بل هؤلاء المتكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ما كان مؤلفاً من اجزاء لا تقبل القسمة وهو ما كان قابلاً للقسمة اذا قالوا ان كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو اما متحيز قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم في هذا التقسيم .

ولم يكن أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين ولا سائر أئمة المسلمين موافقاً لهم على هذا التقسيم اذا قال من قال منهم كل موجود فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز وأراد بالمتحيز ما أراده هؤلاء فان قوله حينئذ يكون أبعد من الشرع والعقل من قول أولئك ولهذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هذا الحصر وليس خطأ هؤلاء من جهة ما أثبته المتفلسفة من الجواهر العقلية فان تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضاً .

وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة من أنها لا يشار اليها ولا توصف بحركة ولا سكون ولا صعود ولا نزول وليس داخل العالم ولا خارجه وهو أيضاً كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء ولا سيما من يقول منهم كابن سينا وأمثاله أنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية وانما تعرف الأمور الكلية فان هذا مكابرة ظاهرة فانها تعرف بدنها او تعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه الى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها فكيف يقال أنها لا تعرف الأمور المعينة وانما تعرف اموراً كلية وكذلك قولهم أن تعلقها بالبدن ليس الا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام فان الملك يدبر أمر مملكته فيأمر وينهي ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ان لم يتحركوا هم بارادتهم وقدرتهم والملك لا يلتذ بلذة احدهم ولا يتألم بتألمه وليس كذلك الروح والبدن بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به .

ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الاجسام المشهودة فليس دخولها

فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية فان هذه انما تلاقي السطح الداخل في الأوعية لا بطونها ولا ظهورها وانما يلاقي الأوعية منها أطرافها دون أوساطها وليس كذلك الروح والبدن بل الروح متعلقة بجميع اجزاء البدن باطنه وظاهره وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الأكل فان ذلك له بحار معروفة وهو مستحيل الى غير ذلك من صفاته ولا جريانها في البدن كجريان الدم فان الدم يكون في بعض البدن دون بعض ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر بخلاف الروح والبدن ، لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه وتخرج منه وقت الموت وتسل منه شيئاً فشيئاً فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً لا تفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبرها والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً عسر عليهم التعبير عن حقيقتها وهذا تنبيه لهم على رب العالمين حيث لم يعرفوا حقيقته ولا تصوروا كيف هو سبحانه وتعالى وأن ما يضاف اليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله فان الروح التي هي بعض عبيده توصف بأنها تعرج اذا نام الانسان وتسجد تحت العرش وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية والانسان في نومه يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات فانها اذا صعدت الى مكان فارقت الأول بالكلية وحركتها الى العلو حركة انتقال من مكان الى مكان وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك .

فالرب سبحانه اذا وصفه رسوله بأنه ينزل الى سماء الدنيا كل ليلة وأنه يدنو عشية عرفة الى الحجاج وأنه كلم موسى في الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وأنه استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الافعال من جنس ما تشاهده من نزول هذه الأعيان المشهورة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر فان نزول الروح وصعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين .

وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس فلا يجوز نفي ما أثبته الله ورسوله من الاسماء والصفات ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات لا سيما ما لا نشاهده من المخلوقات فان ما ثبت لما لا نشاهده من المخلوقات من الاسماء والصفات ليس مماثلاً لما نشاهده منها فكيف برب العالمين الذي هو ابعد عن مماثلة كل مخلوقات من مماثلة مخلوق لمخلوق وكل مخلوق فهذا أشبه بالمخلوق الذي لا مماثله من الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهذا الذي نبهنا عليه مما يظهر به أن ما يذكره صاحب المحصل [1] وأمثاله من تقسيم الموجودات على رأى المتفلسفة والمتكلمة كله تقسيم غير حاضر وكل من الفريقين مقصر عن

---

(١) هو فخر الدين الرازي .

سلفه ، أما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلك الذي دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الأمة وكذلك هؤلاء المتفلسفة اتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين فان أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم وكانوا يقولون ان فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبي ﷺ الجنة وكانوا يثبتون معاد الابدان كما يوجد هذا في كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة .

وقد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم أرسطو هذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ المركب والمؤلف والمنقسم ونحو ذلك قد صار كل من أراد نفي شيء مما أثبته الله لنفسه من الاسماء والصفات عبر بها عن مقصوده فيتوهم من لا يعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذي ورد به القرآن وهو اثبات أحديته وصمديته ويكون قد أدخل في تلك الألفاظ ما رآه هو منفياً وعبر عنه بتلك العبارة وضعاً له واصطلاحاً اصطلح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب وليس ذلك من لغة العرب التي نزل القرآن ولا من لغة أحد من الأمم ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد والصمد والواحد ونحو ذلك من الاسماء الموجودة في الكتاب والسنة . ويجعل ما نفاه من المعاني التي أثبتها الله ورسوله من تمام التوحيد .

واسم التوحيد اسم معظم جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فاذا جعل تلك المعاني التي نفاها من التوحيد ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل ويسمى طائفته الموحدين كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفي شيء من الصفات ويسمون ذلك توحيداً ويسمون علمهم علم التوحيد كما تسمى المعتزلة ومن وافقهم على نفي القدر عدلاً ويسمون أنفسهم العدلية وأهل العدل .

(فصـــــــل)

[الفاظ القرآن ومعانيه اوثق من غيرها]

ومثـل هذا البـدع كثيرة جـداً يعبر بـالفاظ الكتـاب والسنة عن معـان مخالفـة لما أراد الله ورسـولـه بتلك الألفـاظ ولا يكـون أصحـاب تلك الأقـوال تلقـوهـا ابتـداء عن الله عـز وجـل ورسوله ﷺ بل عن شبهة حصلت لهم وأئمـة لهم وجعلوا التعبير عنها بألفـاظ الكتاب والسنـة حجة لهم وعمدة لهم ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول لا مخالفون له وكثير منهم لا يعرفون أن مـا ذكروه مخـالف للرسول بـل يظن أن هـذا المعنى الذي أراده هـو الـذي اراده الـرسـول ﷺ وأصحابه فلهذا يحتاج المسلمون الى شيئين : أحدهما معرفة ما أراد الله ورسولـه بألفـاظ الكتاب والسنة بأن يعرفوا لـغة القرآن التي بها نزل وما قالـه الصحابـة والتابعـون لهم بإحسـان وسـائـر علماء المسلمين في معاني تلك الالفاظ فان الرسول لما خاطبهم بـالكتاب والسنـة عرفهم مـا أراد بتلك الألفاظ .

وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه وقد بلغـوا تلك المعاني الى التابعين أعظم مما بلغـوا حروفـه فان المعـاني العامـة التي يحتاج اليهـا عموم المسلمـين مثل معنى التوحيد ومعنى الواحد الأحد والايمان والاسلام ونحو ذلك كان جميع الصحابة يعرفـون ما أحب الله ورسوله من معـرفتها ولا يحفظ القـرآن كله الا قليل منهم وان كـان شيء من القرآن يحفـظه منهم أهل التواتر والقرآن مملوء من ذكـر وصف الله بأنـه أحد وواحـد ومن ذكر أن الهكم واحـد ومن ذكر أنه لا اله الا الله ونحو ذلك .

فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك فان معرفته أصل الدين وهو أول ما دعى الرسول اليه الخلق وهو أول ما يقاتلهم عليه وهو أول ما أمر رسله أن تأمر الناس به وقـد تواتـر عنه أنـه أول ما دعى الخلق الى أن يقولوا لا اله الا الله ولما أمر بالجهاد بعـد الهجرة قـال أمرت أن أقـاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وأني رسول الله .

وفي الصحيحين أنه لما بعث معاذا الى اليمن قال له انك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا اله الا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوا لك بذلـك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقـرائهم فان هم أطـاعوا لـك بذلـك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب فقال لمعاذ ليكن أول ما تدعوهم اليه التوحيد ومع هـذا كانـوا من أهل الكتـاب كانـوا يهودا فـان اليهود كـانوا كثيـرين بأرض اليمن وهذا الذي أمر به معاذا موافق لقوله تعالى : ﴿ فـاذا انسلخ الأشهر الحـرم فاقتلوا

المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وفي الآية الآخرى : ﴿ فان تابوا و أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ﴾ .

وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان .

فالمقصود أن معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والايمان والسعادة والنجاة ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها والألفاظ نوعان نوع يوجد في كلام الله ورسوله ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله فيعرف معنى الأول ويجعل ذلك المعنى هو الاصل ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني ويرد الى الأول هذا طريق أهل الهدى والسنة .

[موقف الفلاسفة من الوحي]

وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم ويردونها بالتأويل والتحريف الى معانيهم ويقولون نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلام عن مواضعه ولهذا قال الامام أحمد أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس وقال يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار فهي طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة ، وأما حذاق الفلاسفة فيقولون ان المراد بخطاب الرسول انما هو أن يخيل الى الجمهور ما ينتفعون به من مصالح دنياهم وان لم يكن ذلك مطابقاً للحق قالوا وليس مقصود الرسول بيان الحق وتعريفه بل مقصوده أن يخيل اليهم ما يعتقدون ويجعلون خاصية النبوة قوة التخييل فهم يقولون أن الرسول لم يبين ولم يفهم بل ولم يقصد ذلك وهم متنازعون هل كان يعلم الأمور على ما هي عليه على قولين ؟ منهم من قال كان يعلمها لكن كان يمكنه بيانها وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف .

ومنهم من يقول بل ما كان يعرفها أو ما كان حاذقاً في معرفتها وانما كان يعرف الأمور العلمية وهؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي لأن الأمور العملية أكمل من العلمية .

فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول انما فيه التخييل وأولئك يقولون لم يقصد به التخييل ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل ، وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد فخاطب الجمهور بما خيل لهم كما يقولون أنه لو قال ان ربكم ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا يشار اليه ولا هو فوق العالم ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه ، وقالوا هذا لا يعرف قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم رب يعبدونه وان كان يعرف أن التجسيم باطل وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول من الاثبات كما يوجد في كلام غير واحد وتارة يقولون انما عدل الرسول عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير واحد وتارة يقولون انما عدل الرسول عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير تعريفه ويجتهدوا في تأويل الفاظه فتعظم أجورهم على ذلك وهو اجتهادهم في عقلياتهم وتأويلاتهم ولا يقولون أن قصد به افهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة .

[موقف المتكلمين من التأويل]

وهذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل وأمثاله ، وأبو حامد ، وابن رشد الحفيد وأمثالهم يوجد في كلامهم المعنى الأول وأبو حامد انما ذم التأويل في آخر عمره وصنف الجام العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم الا بابقاء الظواهر على ما هي عليه وان كان هو يرى ما ذكره في كتبه المضنون بها أن النفي هو الثابت في نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدى كما وصف الله كتابه ونبيه حيث قال : ﴿ هدى للمتقين ﴾ وقال : ﴿ هذا بيان للناس ﴾ وقال : ﴿ انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ وقال : ﴿ وما على الرسول الا البلاغ المبين ﴾ وقال : ﴿ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ﴾ وأمثال ذلك .

وقال النبي ﷺ : « وتركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك » ، وقال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ﴾ وقال : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم ﴾ وقال : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

وثم طائفة ثالثة كثرت في المتأخرين المنتسبين الى ألسنة يقولون ما يتضمن أن الرسول لم

يكن يعرف معاني ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات بل لازم قولهم أيضاً أنه كان يتكلم بأحاديث الصفات ولا يعرف معناها .

وهؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين أن الوقف التام عند قوله : ﴿ وما يعلم تأويله الا الله ﴾ وافقوا السلف وأحسنوا في هذه الموافقة لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو تأويل معنى اللفظ وتفسيره أو هو التأويل الاصطلاحي الذي يجري في كلام كثير من متأخري أهل الفقه والاصول وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء وهؤلاء فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه ، ولما سمعوا قول الله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله الا الله ﴾ ظنوا أن لفظ التأويل في القرآن معناه هو لفظ التأويل في كلام هؤلاء فلزم من ذلك أنه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص الا الله لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما بل كان من الرسولين على قولهم يتلو أشرف ما في القرآن من الاخبار عن الله بأسمائه وصفاته وهو لا يعرف معنى ذلك أصلاً .

ثم كثير منهم يذمون ويبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهما وهذا جيد لكن قد يقولون تجري على ظواهرها وما يعلم تأويلها الا الله ، فان عنوا بظواهرها ما يظهر منها من المعاني كان هذا مناقضاً لقولهم ان لها تأويلاً يخالف ظاهرها لا يعلمه الا الله وان عنوا بظواهرها مجرد الألفاظ كان معنى كلامهم أنه يتكلم بهذه الألفاظ ولها باطن يخالف ما ظهر منها وهو التأويل وذلك لا يعلمه الا الله .

وفيهم من يريد باجرائها على ظواهرها هذا او فيهم من يريد الأول وعامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث وقد يريدون به الثاني فانه احياناً قد يفسر النص بما يوافق ظاهره ويبين من هذا ليس من التأويل الثالث فيأتون ذلك ويكرهون من تدبر النصوص والنظر في معانيها أعني النصوص التي يقولون أنه لم يعلم تأويلها الا الله ثم هم في هذه النصوص بحسب عقائدهم فان كانوا من القدرية قالوا النصوص المثبتة لكون العبد فاعلاً محكمة والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريد الكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها الا الله اذا كانوا ممن لا يتأولها فان عامة الطوائف منهم من يتأول ما يخالف قوله ومنهم من لا يتأوله وان كانوا من الصفاتية المثبتين من الصفات التي زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخري الكلابية كأبي المعالي في آخر عمره وابن عقيل في كثير من كلامه قالوا عن النصوص المتضمنة للصفات التي لا تعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها الا الله وكثير منهم يكون له قولان وحالان تارة يتأول ويوجب التأويل أو يجوزه وتارة يحرمه كما يوجبه لأبي المعالي .

ولابن عقيل ولأمثالهما من اختلاف الاقوال ومن أثبت العلو بالعقل وجعله من الصفات

العقلية كأبي محمد بن كلاب ، وأبي الحسن بن الزاغوني ومن وافقه وكالقاضي أبي يعلى في آخر قوليه . وأبي محمد اثبتوا العلو وجعلوا الاستواء من الصفات الخبرية التي يقولون لا يعلم تأويلها الا الله وان كانوا ممن يرى الفوقية والعلو أيضاً ومن الصفات الخبرية كقول القاضي أبي بكر وأكثر الأشعرية . وقول القاضي أبي يعلى في أول قوليه وابن عقيل في كثير من كلامه وأبي بكر البيهقي وأبي المعالي وغيرهم وسلك مسلك أولئك وهذه الأمور مبسوطة في موضعها .

والمقصود هنا أن كل طائفة تعتقد من الآراء ما يتناقض ما دل عليه القرآن يجعلون تلك النصوص من المتشابهة ثم ان كانوا ممن يرى الوقف عند قوله : ﴿ الا الله ﴾ قالوا لا يعلم معناها الا الله فيلزم أن لا يكون محمد وجبريل ولا أحد علم معاني تلك الآيات والأخبار وان رأوا الوقف على قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ جعلوا الراسخين يعلمون ما يسمونه هم تأويلاً ويقولون ان الرسول انما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس في معرفة الحق من غير جهته وأذهانهم ويجتهدون في تخريج الفاظه على اللغات العربية فيجتهدون في معرفة غرائب اللغات التي يتمكنون بها من التأويل .

وهذا ان قالوا أنه قصد بالقرآن والحديث معنى حقاً في نفس الأمر وان قالوا بقول الفلاسفة والباطنية الذين لا يرون التأويل قالوا لم يقصد بهذه الألفاظ الا ما يفهمه العامة والجمهور وهو باطل في نفس الأمر لكن أراد ان يخيل لهم ما ينتفعون به ولم يمكنه أن يعرفهم الحق فانهم كانوا ينفرون عنه ولا يقبلونه وأما من قال من الباطنية الملاحدة وفلاسفتهم بالتأويل فانه يتأول كل شيء مما أخبرت به الرسل من أمر الايمان واليوم الآخر ثم يؤلون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية وأبي حامد في الاحياء ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة وقال انهم أسرفوا في التأويل وأسرفت الحنابلة في الجمود .

وذكر عن أحمد بن حنبل كلاماً لم يقله أحمد فانه لم يكن يعرف ما قاله أحمد ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ولا ما جاء به القرآن والحديث وقد سمع مضافاً الى الحنابلة ما يقوله طائفة منهم ومن غيرهم من المالكية والشافعية وغيرهم في الحرف والصوت وبعض الصفات مثل قولهم ان الأصوات المسموعة من القرآء قديمة أزلية وأن الحروف المتعاقبة قديمة أزلية وأنه ينزل الى سماء الدنيا ويخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه وبعضهم تحته الى غير ذلك من المنكرات فانه ما من طائفة الا وفي بعضهم من يقول أقوالاً ظاهرها الفساد وهي التي يحفظها من ينفر عنهم ويشنع بها عليهم وان كان اكثرهم ينكرها ويدفعها كما في هذه المسائل المنكرة التي يقولها بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعي فان جماهير هذه الطوائف ينكرها وأحمد وجمهور أصحابه منكرون لها .

وكلامهم في انكارها وردها كثير جداً لكن يوجد في أهل الحديث مطلقاً من الحنبلة

وغيرهم من الغلط في الاثبات أكثر مما يوجد في أهل الكلام ويوجد في أهل الكلام من الغلط في النفي أكثر مما يوجد في أهل الحديث لأن الحديث انما جاء باثبات الصفات ليس فيه شيء من النفي الذي انفرد به أهل الكلام .

والكلام المأخوذ عن الجهمية والمعتزلة مبني على النفي المناقض لصرائح القرآن والحديث بل والعقل الصريح أيضاً لكنهم يدعون أن العقل دل على النفي وقد ناقضهم طوائف من أهل الكلام وزادوا في الاثبات كالهشامية والكرامية وغيرهم لكن النفي في جنس الكلام المبتدع الذي ذمه السلف أكثر والمنتسبون الى السنة من الحنبليين وغيرهم الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسمين يتمسكون بها يحدثونه في كلام الأئمة في المتشابه مثل قول أحمد في رواية حنبل ولا كيف ولا معنى ظنوا أن مراده أنا لا نعرف معناها .

(كلام ابن حنبل في معنى التأويل)

وكلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع وقد بين أنه انما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله وصنف كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله ورسوله وهم اذا تأولوه يقولون معنى هذه الآية كذا والمكيفون يثبتون كيفية يقولون أنهم علموا كيفية ما أخبروا به من صفات الرب فنفى أحمد قول هؤلاء وهؤلاء قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية وقول المحرفة الذي يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون معناه كذا وكذا وقد كتب كلام أحمد بألفاظه كما ذكر الخلال في كتاب السنة وكما ذكره من نقل الكلام أحمد باسناده في الكتب المصنفة في ذلك في غير هذا الموضع وبين أن لفظ التأويل في الآية انما أريد به التأويل في لغة القرآن كقوله تعالى : ﴿ هل ينظرون الى تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ .

[كلام السلف من التأويل]

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ هل ينظرون الا تأويله ﴾ تصديق ما وعد في القرآن ، وعن قتادة تأويله ثوابه ، وعن مجاهد جزاءه وعن السدي عاقبته وعن ابن زيد حقيقته قال بعضهم تأويله ما يؤول اليه أمرهم من العذاب وورود النار ، وقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ .

قال بعضهم تصديق ما وعدوا به من الوعيد والتأويل ما يؤول اليه الأمر وعن الضحاك

يعني عاقبة ما وعد الله في القرآن أنه كان من الوعيد والتأويل ما يؤ ل اليه الأمر . وقال الثعلبي تفسيره وليس بشيء وقال الزجاج لم يكن معهم علم تأويله وقال يوسف الصديق عليه السلام ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤ ياي من قبل ﴾ فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤ ياه وقال قبل هذا ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله ﴾ أي قبل أن يأتيكما التأويل والمعنى لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام كما قال أحدهم أني أراني أعصر خمراً وقال الآخر اني اراني أحمل فوق رأسي خبزاً الا نبأتكما بتأويله في اليقظة قبل أن تأتيكما التأويل هذا قول أكثر المفسرين وهو الصواب .

وقال بعضهم لا يأتيكما طعام ترزقانه تطعمانه وتأكلانه الا نبأتكما بتأويله بتفسيره وألوانه أي طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم فقالوا هذا فعل العرافين والكهنة فقال ما أنا بكاهن وانما ذلك العلم مما يعلمني ربي وهذا القول ليس بشيء فانه قال الا نبأتكما بتأويله وقد قال أحدهما اني أراني أعصر خمراً وقال الآخر أني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً نبئنا بتأويله فطلبا منه تأويل ما رأياه وأخبرهما بتأويل ذلك ولم يكن تأويله طعام في اليقظة ولا في القرآن انه أخبرهما بما يرزقانه في اليقظة فكيف يقول قولاً عاماً لا يأتيكما طعام ترزقانه وهذا الاخبار العام لا يقدر عليه الا الله والانبياء يخبرون ببعض ذلك لا يخبرون بكل هذا وأيضاً فصفة الطعام وقدره ليس تأويلاً له وأيضاً فالله انما أخبر أنه علمه تأويل الرؤ يا .

قال يعقوب عليه السلام : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ﴾ وقال يوسف عليه السلام : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث ﴾ وقال : ﴿ هذا تأويل رؤ ياي من قبل ﴾ ولما رأى الملك قال له الذي اذكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون والملك قال يا أيها الملاء افتوني في رؤ ياي ان كنتم للرؤ يا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد وقال تعالى : ﴿ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ .

وقال مجاهد وقتادة جزاء وثوابا ، وقال السدي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج عاقبة ، وعن ابن زيد أيضاً تصديقاً كقوله : ﴿ هذا تأويل رؤ ياي من قبل ﴾ وكل هذه الأقوال صحيحة والمعنى واحد وهذا تفسير السلف أجمعين ومنه قوله : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ فلما ذكر له ما ذكر قال : ﴿ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

وهذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله والمراد به عاقبة هذا الأفعال بما يؤ ل اليه ما فعلته من مصلحة أهل السفينة ومصلحة أبوي الغلام ومصلحة أهل الجدار ، وأما قول بعضهم ردكم الى الله والرسول أحسن من تأويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم وهذا من جنس ما ذكر من تلك الآية في لفظ تأويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم وهذا من جنس ما ذكر من

تلك الآية في لفظ التأويل وهو تفسير له بالاصطلاح الحادث لا بلغة العرب فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء كما يقول ابن جرير القول في تأويل هذه الآية أي في تفسيرها ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد وهو امام التفسير جعل الوقف على قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ فان الراسخين في العلم يعلمون تفسيره وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة .

وكان ابن قتيبة يميل الى مذهب احمد واسحاق وقد بسط الكلام على ذلك في كتابه في المشكل وغيره .

وأما متأخروا المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير والتأويل قال فمعنى التفسير هو التنوير وكشف المغلق من المراد بلفظه والتأويل صرف الآية الى معنى تحتمله يوافق ما قبلها وما بعدها وتكلم في الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه الا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر ، وأبو الفرج ابن الجوزي يقول اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد أم يختلفان ؟ فذهب قوم يميلون الى العربية الى أنهما بمعنى وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين .

وذهب قوم يميلون الى الفقه الى اختلافهما فقالوا التفسير اخراج الشيء عن مقام الخفاء الى مقام التجلي والتأويل نقل الكلام عن وضعه الى ما يحتاج في اثباته الى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك آل الشيء الى كذا أي صار اليه ، فهؤلاء لا يذكرون للتأويل الا المعنى الأول والثاني وأما التأويل في لغة القرآن فلا يذكرونه .

(معنى التأويل في القرآن)

وقد عرف أن التأويل في القرآن هو الموجود الذي يؤول اليه الكلام وان كان ذلك موافقاً للمعنى الذي يظهر من اللفظ لا يعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفاً لما يدل عليه اللفظ خلاف اصطلاح المتأخرين ، والكلام نوعان انشاء واخبار فالانشاء الأمر والنهي والاجابة وتأويل الأمر والنهي نفس فعل المأمور ونفس ترك المحظور كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » بتأول القرآن فكأن هذا الكلام تأويل قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ .

قال ابن عيينة السنة تأويل الأمر والنهي وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة في نهيه عن اشتمال الصماء قال والفقهاء أعلم بالتأويل يقول هم أعلم بتأويل ما أمر الله به وما نهى عنه فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها وأعيان الأفعال المحظورة التي نهى عنها .

وتفسير كلامه ليس هو نفس ما وجد في الخارج بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه ،

فالتفسير من جنس الكلام يفسر الكلام بكلام يوضحه وأما التأويل فهو فعل المأمور وترك المنهي عنه ليس من جنس الكلام والنوع الثاني الخبر كاخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه وصفاته واخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد وهذا هو التأويل المذكور في قوله : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ .

وهذا كقولهم : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ ومثله : ﴿ انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون ﴾ وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ ونظائره متعددة في القرآن وكذلك قوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ فان ما وعدوا به في القرآن لما يأتهم بعد وسوف يأتيهم .

(بين التفسير والتأويل)

فالتفسير هو الاحاطة بعلمه والتأويل هو نفس ما وعدوا به اذا أتاهم فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله وقد يحيط الناس بعلمه ولما يأتهم تأويله فالرسول ﷺ يحيط بعلم ما أنزل الله عليه وان كان تأويله لم يأت بعد ، وفي الحديث عن النبي ﷺ لما نزل قوله : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ الآية قيل أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد قال تعالى: ﴿ وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر ﴾.

قال بعضهم موضع قرار وحقيقة ومنتهى ينتهي اليه فيبين حقه من باطله وصدقه من كذبه ، وقال مقاتل لكل خبر يخبر به الله وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير ، وقال ابن السائب لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه وما كان في الآخرة فسوف يبدونكم وسوف تعلمون ، وقال الحسن لكل عمل جزاء فمن عمل عملاً من الخير جوزي به في الجنة ومن عمل سوءاً جوزي به في النار وسوف تعلمون ، ومعنى قول الحسن أن الاعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد والوعد والوعيد عليها هو النبأ الذي له المستقر فبين المعنى ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ ، وعن السدى قال لكل نبأ مستقر أي ميعاد وعدتكموه فسيأتيكم حتى تعرفونه ، وعن عطاء لكل نبأ مستقر تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فاذا عمل ذنبه عاقبه أي لا يعاقب بالوعيد حتى يفعل الذنب الذي توعد عليه .

ومنه قول كثير من السلف في آيات هذه ذهب تأويلها وهذه لم يأت تأويلها مثل ما روى أبو الاشهب عن الحسن والربيع عن أبي العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ الآية فقال ابن مسعود ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم فاذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال ان القرآن نزل حيث نزل فمنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه أي وقع تأويلهن على عهد النبي ﷺ ومنه آي وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آي يقع تأويلهن في آخر الزمان ومنه آي يقع تأويلهن يوم القيامة ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيئاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا فاذا اختلفت القلوب والاهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض فأمرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

فابن مسعود رضي الله عنه قد ذكر هذا الكلام تأويل الأمر وتأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر وما ذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به وتأويل الأمر هو فعل المأمور به فالآيةالتي مضى تأويلها قبل نزولها من باب الخبر يقع الشيء فيذكره الله كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له وهي وان مضى تأويلها فهي عبرة ومعناها ثابت في نظيرها ، ومن هذا قول ابن مسعود خمس قد مضين . ومنه قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

واذا تبين ذلك فالمتشابه من الأمر لا بد من معرفة تأويله لأنه لا بد من فعل المأمور وترك المحظور وذلك لا يمكن الا بعد العلم لكن ليس في القرآن ما يقتضي أن في الأمر متشابهاً فان قوله : ﴿ وآخر متشابهات ﴾ قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به في الجنة من اللحم واللبن والماء والحرير والذهب كان بين هذا وبين ما في الدنيا تشابه في اللفظ والمعنى .

ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا وتلك الحقيقة لا تعلمها نحن في الدنيا وقد قال الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى ، أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهذا الذي وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه الا الله وكذلك وقت الساعة لا يعلمه الا الله وأشراطها وكذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب لا يعلم كيفيته الا الله فانه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به فهو من التأويل المتشابه الذي لا يعلمه الا الله وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره

وكلامه وغير ذلك فان كيفيات ذلك لا يعلمها الا الله كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس وسائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل الرحمن على العرش استوى كيف استوى فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة هذا لفظ مالك فأخبر أن الاستواء معلوم وهذا تفسير اللفظ وأخبر أن الكيف مجهول وهذا هو الكيفية التي استأثر الله بعلمها .

(المعنى معلوم والكيف مجهول)

وكذلك سائر السلف كابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما يبينون أن العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فالكيفية هي التأويل الذي لا يعلمه الا الله وأما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فانهم يفهمون معنى السمع ومعنى البصر وأن مفهوم هذا ليس مفهوم هذا ويعرفون الفرق بينهما وبين العليم والقدير وان كانوا لا يعرفون كيفية سمعه وبصره بل الروح التي يعرفونها من حيث الجملة ولا يعرفون كيفيتها .

كذلك يعلمون معنى الاستواء على العرش وأنه يتضمن علو الرب على عرشه وارتفاعه عليه كما فسره بذلك السلف قبلهم ، وهذا معنى معروف من اللفظ لا يحتمل في اللغة غيره كما قد بسط في موضعه ولهذا قال مالك الاستواء معلوم .

(معاني الاستواء)

ومن قال الاستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فانهم يقولون استوى فقط ولا يصلونه بحرف وهذا له معنى ، ويقولون استوى على كذا وله معنى ، واستوى الى كذ وله معنى ، واستوى مع كذا وله معنى فتتنوع معانيه بحسب صلاته وأما استوى على كذا فليس في القرآن ولغة العرب المعروفة الا بمعنى واحد قال تعالى : ﴿ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ وقال : ﴿ واستوت على الجودي ﴾ وقال : ﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ﴾ .

وقد أتى النبي ﷺ بدابة ليركبها فلما وضع رجله في المفرز قال : « بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله » وقال ابن عمر : أهل رسول الله ﷺ بالحج لما استوى على بعيره وهذا المعنى يتضمن شيئين علوه على ما استوى عليه واعتمد له ايضاً فلا يسمون المائل على شيء مستوياً عليه ، ومنه حديث الخليل بن أحمد لما قال استووا وقوله :

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

هو من هذا الباب فان المراد به بشر بن مروان واستواؤه عليها أي على كرسي ملكها لم يرد بذلك مجرد الاستيلاء بل استواء منه عليها اذ لو كان كذلك لكان عبد الملك الذي هو الخليفة قد استوى أيضاً على العراق وعلى سائر مملكة الاسلام ولكن عمر بن الخطاب قد استوى على العراق وخراسان والشام ومصر وسائر ما فتحه ولكان رسول الله ﷺ قد استوى على اليمن وغيرها مما فتحه .

ومعلوم أنه لم يوجد في كلامهم استعمال الاستواء في شيء من هذا وانما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد فانه مستو على سرير ملكه كما يقال جلس فلان على السرير وقعد على التخت ومنه قوله : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ﴾ وقوله : ﴿ اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾ .

وقول الزمخشري وغيره استوى على كذا بمعنى ملك دعوى مجردة فليس لها شاهد في كلام العرب ولو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلاً في استواء الله على العرش لأنه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد أخبر أن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستو عليه فكيف يكون الاستواء عليه مؤخراً عن خلق السموات والأرض ، وأيضاً فهو مالك لكل شيء مستو عليه لا يخص العرش بالاستواء وليس هذا كشخصيته بالربوبية في قوله رب العرش فانه قد يخص لعظمته ولكن يجوز ذلك في سائر المخلوقات فيقال رب العرش ورب كل شيء .

وأما الاستواء المختص بالعرش فلا يقال استوى على العرش وعلى كل شيء ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين في كل شيء ولا وجد في كتاب ولا سنة كما استعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة وفي كل شيء عامة وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الالفاظ التي تخص وتعم كقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق ﴾ فالاستواء من الالفاظ المختصة بالعرش لا تضاف الى غيره لا خصوصاً ولا عموماً وهذا مبسوط في موضع آخر .

وانما الغرض بيان صواب السلف في قولهم : الاستواء معلوم بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى كما ذكر ابن عربي المعافري يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية [١]

---

(١) المراد بالآية . هي آية آل عمران ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ انظر في سبب نزولها ؛ اسباب النزول للواحدى ، لباب النقول للسيوطي ، تفسير الطبري .

كان قدوم نصارى نجران ومناظرتها للنبي ﷺ في أمر المسيح كما ذكر ذلك أهل التفسير وأهل السيرة وهو من المشهور بل المتواتر أنه من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبي ﷺ ودعاهم الى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران فأقروا بالجزية ولم يباهلوه ، وصدر آل عمران نزل بسبب ما جرى ولهذا عامتهم في أمر المسيح وذكروا أنهم احتجوا بما في القرآن من لفظ أنا ونحن ونحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه وتركوا المحكم الذي في القرآن من أن الآله واحد ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فانهم قصدوا بذلك الفتنة وهي فتنة القلوب بالكفر وابتغاء تأويل لفظ أنا ونحن وما يعلم تأويل هذا الأسماء الا الله لأن هذه الاسماء انما تقال للواحد الذي له أعوان اما أن يكونوا شركاء له وأما أن يكونوا مماليك له ولهذا صارت متشابهة فان الذي معه شركاء يقول فعلنا نحن كذا وأنا نفعل نحن كذا وهذا ممتنع في حق الله تعالى والذي له مماليك ومطيعون يطيعونه كالملك يقول فعلنا كذا أي أنا فعلت بأهل ملكي وملكي وكل ما سوى الله مخلوق له مملوك له وهو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه وملائكته التي هي رسله في خلقه وأمره وهو سبحانه أحق من قال أنا ونحن بهذا الاعتبار فان ما سواه ليس له ملك تام ولا أمر مطاع طاعة تامة فهو المستحق أن يقول أنا ونحن والملوك لهم شبه بهذا فصار فيه أيضاً من المتشابه معنى آخر .

ولكن الذي ثبت لله من هذا الاختصاص لا يماثله فيه شيء ، وتأويل ذلك معرفة ملائكته وصفاتهم وأقدارهم وكيف يدبر بهم أمر السماء والأرض ، وقد قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك الا هو ﴾ فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه الا هو وان علمنا تفسيره ومعناه لكن لم نعلم تأويله الواقع في الخارج بخلاف قوله : ﴿ الله الذي خلق ﴾ فانها آية محكمة ليس فيها تشابه فان هذا الاسم مختص بالله ليس مثل انا ونحن التي تقال لمن له شركاء ولمن له أعوان يحتاج اليهم والله تعالى منزه عن هذا وهذا كما قال : ﴿ قل ادعوا الذي زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ .

وقال : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ فالمعنى الذي يراد به هذا في حق المخلوقين لا يجوز أن يكون نظيره ثابتاً لله فلهذا صار متشابهاً وكذلك قول : ﴿ ثم استوى على سوقه ﴾ وقال : ﴿ فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ وقال : ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ .

فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوي الى المستوى عليه وأنه لو عدم من تحته لخروا الله تعالى غني عن العرش وعن كل شيء بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش وحملة العرش ،

وقد روى أنهم انما اطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا لا حول ولا قوة الا بالله .

فصار لفظ الاستواء متشابهاً يلزمه في حق المخلوقين معاني ينزه الله عنها فنحن نعلم معناه وأنه العلو والاعتدال لكن لا نعلم الكيفية التي اختص بها الرب التي يكون بها مستوياً من غير افتقار منه الى العرش بل مع حاجة العرش وكل شيء محتاج من كل وجه وأنا لم تعهد في الموجودات ما يستوي مع غيره مع غناء عنه وحاجة ذلك المستوي عليه الى المستوى فصار متشابهاً من هذا الوجه فان بين اللفظين والمعنيين قدراً مشتركاً وبينهما قدراً فارقاً هو مراد في كل منهما ونحن لا نعرف الفارق الذي امتاز الرب به فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه وذلك هو تأويله والاول هو تفسيره .

وكذلك ما أخبر الله به في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس كاللبن والعسل والماء فانا لا نعرف لبناً إلّا مخلوقاً من ما شبه من بين فرث ودم واذا بقي أياماً يَتغير طعمه ، ولا نعرف عسلاً الا من نحل تصنعه في بيوت الشمع المسدسة فليس هو عسلاً مصفى ولا نعرف حريراً إلا من دود القز وهو يبلى وقد علمنا أن ما وعد الله به عباده ليس مماثلاً لهذه لا في المادة ولا في الصورة والحقيقة بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه وذلك هو من التأويل الذي لا نعلمه نحن .

قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة الا الاسماء لكن يقال فالملائكة قد تعلم هذا فيقال هي لا تعلم ما لم يخلق بعد ولا تعلم كل ما في الجنة ، وأيضاً فمن النعم ما لا تعرفه الملائكة والتأويل يتناول هذا كله واذا قدرنا أنها لا تعرف ما لا تعرفه فذاك لا يكون من المتشابه عندها ويكون من المتشابه عندنا فان المتشابه قد يراد به ما هو صفة لازمة للآية وقد يراد به ما هو من الامور النسبية فقد يكون متشابهاً عند هذا ما لا يكون متشابهاً عند هذا .

وكلام الامام أحمد وغيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فان أحمد ذكر في رده على الجهمية أنها احتجت بثلاث آيات من المتشابه ، قوله : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ وقوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله : ﴿ لا تدركه الابصار ﴾ .

وقد فسر أحمد قوله : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ فاذا كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهة عندنا وهي متشابهة عند من احتج بها وكان عليه أن يردها هو الى ما يعرفه من المحكم ، وكذلك قال أحمد في ترجمة كتابه الذي صنفه في الجنس وهو الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ثم فسر احمد تلك الآيات آية آية فبين أنها ليست متشابه عنه بل عرف معناها .

وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذي هو تفسيره وأما التأويـل الذي هو حقيقته الموجودة في الخارج فتلك لا يعلمها الا الله ولكن قد يقال هذا المتشابه الأضافي ليس هو المتشابه المذكور في القرآن فان ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله الا الله وانما هذا كما يشكل على كثير من آيات لا يفهمون معناها وغيرهم من النـاس يعرف معنـاها وعنـد هذا فقـد يجاب بجوابين :

أحدهما أن يكون في الآية قراءتان قـراءة من يقف على قـوله الا الله وقـراءة من يقف عند قوله والراسخون في العلم وكلتا القراءتين حق ويراد بالأول المتشابـه في نفسه الـذي استأثـر الله بعلم تأويله ويراد بالثانيـة المتشابه الاضافي الـذي يعرف الـراسخون تفسيـره وهو تـأويله ومثل هـذا يقع في القـرآن كقولـه : ﴿ وان كان مكـرهم لتزول منـه الجبال ﴾ ولتـزول فيـه قـراءتـان مشهورتان بالنفي والاثبات وكل قراءة لها معنى صحيح وكذلك القـراءة المشهورة ﴿ واتقـوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وقـرأ طائفـة من السلف ﴿ لتصيبن الذين ظلمـوا منكم خاصة ﴾ .

وكلا القراءتين حق فان الذي يتعدى حدود الله هو الظالم والتارك الانكار عليه وقد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه وقد يجعل ظالم باعتبار ما ترك من الانكار الـواجب وعلى هـذا قولـه : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهـون عن السوء وأخـذنا الـذين ظلموا بعـذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ فأنجى الله الناهين ، وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالـوا : ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين فأنكروا بحسب قدرتهم .

والجواب الثاني : القطع بأن المتشابه المذكور في القرآن هو تشـابهها في نفسهـا وذاك الذي لا يعلم تأويله الا الله ، وأما الإضافي الموجـود في كلام من أراد بـه المتشابـه الإضافي فمـرادهم أنهم تكلموا فيها اشتبـه معناه وأشكـل معناه عـلى بعض الناس وأن الجهميـة استدلـوا بما اشتبـه عليهم واشكـل وان لم يكن هو من المتشـابه الـذي لا يعلم تأويله الا الله وكثيـراً ما يشتبـه على الرجل ما لا يشتبه على غيره .

ويحتمل كلام الامام أحمد أنه لم يرد الا المتشابه في نفسه الذي يلزمـه التشابـه لم يرد بشيء منه التشابه الإضافي وقال تأولته على غير تأويله أي غير تأويله الذي هو تأويله في نفس الأمر وان كـان ذلك التـأويل لا يعلمـه الا الله وأهل العلم يعلمـون أن المراد بـه ذلـك التـأويـل فيـبقى مشكلاً عندهم محتملاً لغيره ولهذا كان المتشابه في الخبريات اما عن الله واما عن الآخرة وتأويـل هذا كله لا يعلمه الا الله بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل كما المتشابه تـأويل كـما قال :

﴿ينظرون الا تأويله﴾ ومع هذا فذلك التأويل لا يعلم وقته وكيفيته الا الله وقد يقال بل التأويل المتشابه لأنه في الوعد والوعيد وكله متشابه وأيضاً فلا يلزم في كل آية ظنها بعض الناس متشابهاً أن تكون من المتشابه .

فقول أحمد احتجوا بثلاث آيات من المتشابه وقوله ما شكت فيه من متشابه القرآن قد يقال أن هؤلاء أو أن أحداً جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه فان قول الله تعالى : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ﴾ لم يرد به هنا الاحكام العام والتشابه العام الذي يشترك فيه جميع آيات القرآن وهو المذكور في قوله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ وفي قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ .

فوصفه هنا كله بأنه متشابه أي متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضاً وهو عكس المتضاد المختلف المذكور في قوله : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وقوله : ﴿ انكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك ﴾ فان هذا التشابه يعم القرآن كما أن أحكام آياته تعمه كله وها قد قال : ﴿ منه آيات محكمات من أم الكتاب وآخر متشابهات ﴾ فعجل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً فصار التشابه له معنيان وله معنى ثالث وهو الإضافي يقال قد اشتبه علينا هذا كقول بني اسرائيل ﴿ ان البقر تشابه علينا ﴾ وان كان في نفسه متميزاً منفصلاً بعضه عن بعض وهذا من باب اشتباه الحق بالباطل كقوله ﷺ في الحديث ، الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس .

فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها فليست مشتبهة على جميع الناس بل على بعضهم بخلاف ما لا يعلم تأويله الا الله فان الناس كلهم مشتركون في عدم العلم بتأويله ومن هذا ما يروى عن المسيح عليه السلام أنه قال الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه الى عالمه . فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه ويبينوا الفرق بين المشتبهين وهذا هو الذي أراده من جعل الراسخين يعلمون التأويل فانه جعل المشتبهات في القرآن من هذا الباب الذي يشتبه على بعض الناس دون بعض ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه ما يعرفه بعض الناس وهذا المعنى صحيح في نفسه لا ينكر .

ولا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون ما اشتبه على غيرهم وقد يكون هذا قراءة في الآية كما تقدم من أن يكون فيها قراءتان لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير ووجه ذلك أنهم يعلمون تأويله من حيث الجملة كما يعلمون تأويله المحكم فيعرفون الحساب والميزان والثواب والعقاب وغير ذلك مما أخبر الله به رسوله معرفة مجملة فيكونون عالمين بالتأويل وهو ما

يقع في الخارج على هذا الوجه ولا يعلمونه مفصلاً اذ هم لا يعرفون كيفيته وحقيقته اذ ذلك ليس مثل الذي علموه في الدنيا وشاهدوه وعلى هذا يصح أن يقال علموا تأويله وهو معرفة تفسيره ويصح أن يقال لم يعلموا تأويله وكلا القراءتين حق .

وعلى قراءة النفي هل يقال أيضاً أن المحكم له تأويل لا يعلمون تفصيله فان قوله وما يعلم تأويل ما تشابه منه الا الله لا يدل عى أن غيره يعلم تأويل المحكم ، بل قد يقال أن من المحكم أيضاً ما لا يعلم تأويله الا الله وانما خص المتشابه بالذكر لأن اؤلئك طلبوا علم تأويله أو يقال بل المحكم يعلمون تأويله ولكن لا يعلمون وقت تأويله ومكانه وصفته ، وقد قال كثير من السلف أن المحكم ما يعمل به والمتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به كما يجيء في كثير من الآثار وتعمل بمحكمة ونؤمن بمتشابهه ، وكما جاء عن ابن مسعود وغيره في قوله : ﴿ الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ قال يحللون حلا له ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمة ويؤمنون بمتشابهه .

(التشابه أمر نسبي)

وكلام السلف في ذلك يدل على أن المتشابه أمر اضافي فقد يشتبه على هذا ما لا يشبه على هذا فعلى كل أحد أن يعمل بما استباق له وبكل ما اشتبه عليه الى الله كقول أبي بن كعب رضي الله عنه في الحديث الذي رواه الثوري عن مغيرة وليس بالضبي عن أبي العالية قال قيل لأبي بن كعب أوصني فقال اتخذ كتاب الله اماما أرض به قاضياً وحاكماً هو الذي استخلف فيكم رسوله شفيع مطاع وشاهد لا يتهم فيه خبر ما قبلكم وخبر ما بينكم وذكر ما قبلكم وذكر ما فيكم .

وقال سفيان عن رجل حدثناه عن ابن ابزي عن أبي قال : فما استبان لك فاعمل به وما شبه عليك فآمن به وكله الى عالمه فمنهم من قال المتشابه هو المنسوخ ومنهم من جعله الخبريات مطلقاً فعن قتادة والربيع والضحاك والسدى المحكم الناسخ الذي يعمل به والمتشابه المنسوخ يؤمن به ولا يعمل به وكذلك في تفسير العوفي عن ابن عباس فقال محكمات القرآن ناسخه وحلاله، وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعلى به والمتشابهات منسوخة ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به .

أما القول الأول فهو والله أعلم مأخوذ من قوله : ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ فقابل بين المنسوخ وبين المحكم وهو سبحانه انما اراد نسخ ما القاه الشيطان لم يرد نسخ ما أنزله لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابهاً لأنه يشبه غيره في التلاوة والنظم وأنه كلام الله وقرآن ومعجز وغير ذلك من المعاني مع أن معناه قد نسخ ومن جعل المتشابه كل ما لا

يعمل به من المنسوخ والاقسام والأمثال فلأن ذلك متشابه ولم يؤمر الناس بتفصيله بل يكفيهم الايمان المجمل به بخلاف المعمول به فانه لا بد فيه من العلم المفصل .

وهذا بيان لما يلزم كل الأمة فانهم يلزمهم معرفة ما يعمل به مفصلاً ليعلموا به وما أخبروا به فليس عليهم معرفته بل عليهم الايمان به وان كان العلم به حسناً أو فرضاً على الكفاية فليس فرضاً على الاعيان بخلاف ما يعمل به ففرض على كل انسان معرفة ما يلزمه من العمل مفصلاً وليس عليه معرفة العلميات مفصلاً وقد روى عن مجاهد وعكرمة المحكم ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه بصدق بعضه بعضاً .

فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور في قوله كتاباً متشابهاً مثاني والحلال مخالف للحرام وهذا على قول مجاهد ان العلماء يعلمون تأويله لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه واخص البعض به يستدل به على ضعف هذا القول وكذلك قوله يتبعون ما تشابه منه لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه بعضاً لكان اتباع ذلك غير محذور وليس في كونه يصدق بعضه بعضاً ما يمنع ابتغاء تأويله وقد يحتج لهذا القول بقوله متشابهات فجعلها أنفسها متشابهات وهذا يقتضي أن بعضها يشبه بعضاً ليست متشابهة لغيرها ويجاب عن هذا بأن اللفظ ذا ذكر في موضعين معينين صار من المتشابه كقوله انه ونحن المذكور في سبب نزول الآية .

وقد ذكر محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران ونزول الآية قال المحكم ما لا يحتمل من التأويل الا وجهاً واحداً والمتشابه ما احتمل في التأويل أوجها ومعنى هذا أن ذلك اللفظ المحكم لا يكون تأويله في الخارج الا شيئاً واحداً وأما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة لكن لم يرد الله الا واحداً منها .

وسياق الآية يدل على المراد وحينئذ قالوا سخون في العلم يعلمون المراد من هذا كما يعلمون المراد من المحكم لكن نفس التأويل الذي هو الحقيقة ورقت الحودث ونحو ذلك لا يعلمونه لا من هذا ولا من هذا .

وقد قيل أن نصارى نجران احتجوا بقوله كلمة الله وروح منه لفظ كلمة الله يراد به الكلام ويراد به المخلوق بالكلام وروح منه يراد به ابتداء الغاية ويراد به التبغيض فعلى هذا اذا قيل تأويله لا يعلمه الا الله المراد به الحقيقة أي لا يعلمون كيف خلق عيسى بالكلمة ولا كيف ارسل اليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً ونفخ فيها من روحه .

وفي الصحيح صحيح البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم » والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له ولا يجوز أن يكون الرسول وجميع الأمة لا يعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه

الراسخون أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما ولا يعلمون الآخر واذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن وبين ان يقال الراسخون في العلم يعلمون كان هذا الاثبات خيراً من ذلك النفي فان معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره .

وهذا مما يجب القطع به وليس معنا قاطع على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه فان السلف قد قال كثير منهم أنهم يعلمون تأويله منهم مجاهد مع جلالة قدره والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ونقلوا ذلك عن ابن عباس وأنه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقول أحمد فيما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله وقوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلم على معناها دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه وأن المذموم تأويله على غير تأويله فاما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم وهذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح المتشابه عنده وهو التفسير في لغة السلف .

ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف أن في القرآن آيات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها بل يتلون لفظاً معناه وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقي وغيرهما وابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد واسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة وله في ذلك مصنفات متعددة قال فيه صاحب كتاب التحديث بمناقب أهل الحديث وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء . والفضلاء أجردهم تصنيفاً وأحسنهم ترصيفاً له زهاء ثلاثمائة مصنف وكان يميل الى مذهب احمد واسحاق وكان معاصراً لابراهيم الحربي ومحمد بن نصر المروزي وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ويقولون كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه قلت ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فانه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

وقد نقل عن ابن عباس أيضاً القول الآخر ونقل ذلك عن غيره من الصحابة وطائفة من التابعين ولم يذكر هؤلاء على قولهم نصاً عن رسول الله ﷺ فصارت مسألة نزاع فترد الى الله والرسول وأولئك احتجوا بأنه قرن ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله وبأن النبي ﷺ ذم متبقى المتشابه وقال اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأحذروهم .

ولهذا ضرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه ولأنه قال والراسخون في العلم يقولون ، ولو كانت الواو واو عطف مفرد على مفرد لا واو استئناف التي تعطف جملة على جملة لقال ويقولون .

فأجاب الآخرون عن هذا بأن الله قال : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم

وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ ثم قال : ﴿ والـذين تبوّأوا الـدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون ﴾ ثم قال : ﴿ والذين جاؤ وا من بعدهم يقـولون ربنـا أغفر لنـا ولاخواننـا الذين سبقـونا بـالايمان ﴾ قـالوا فهـذا عطف مفـرد على مفـرد والفعل حـال من المعطوف فقط وهو نظير قوله : ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ قـالوا ولأنه لو كان المراد مجرد الوصف بالايمان لم يخص الراسخين بـل قال والمؤمنـون يقولـون آمنا بـه فان كل مؤمن يجب عليـه أن يؤمن به فلما خص الـراسخين في العلم بـالذكـر على أنهم امتازوا بعلم تأويله فعـلموه لأنهم عالمون وآمنـوا به لأنهم يؤمنـون وكان ايمـانهم به من العلم أكمـل في الوصف وقد قال عقب ذلك وما يذكر الا أولو الألباب .

وهذا يدل على أن هناك تذكراً يختص به أولو الألباب فان كان ما تم الايمان بالألفـاظ فلا يذكر لما يدلهم على ما أريد بالمتشابه . ونظير هذا قوله في الآيـة الاخرى : ﴿لكن الـراسخون في العلم منهم والمؤمنون ويؤمنون بما أنزل اليك وما أنـزل من قبلك﴾ . فلما وصفهم بالـرسوخ في العلم وأنهم يؤمنـون قرن بهم المؤمنـين فلو أريد هنـا مجرد الايمـان لقال والـراسخـون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا بـه كما قـال في تلك الآية لمـا كان مـراده مجرد الاخبـار بالايمـان جمع بـين الطائفتين .

قالوا : وأما الذم فانما وقع على من يتبع المتشابـه لابتغاء الفتنـة وابتغاء تـأويله وهو حـال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن فلا يطلبون الا المتشابه لافساد القلوب وهي فتنتها به ، ويطلبون تأويله وليس طلبهم لتأويله لآجل العلم . والاهتداء بل لأجل الفتنة .

وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر لأن قصده بالسؤال عن المتشابـه كان ابتغـاء الفتنة وهـذا كمن يورد أسئلة اشكـالات على كـلام الغير ويقـول ماذا أريـد بكذا وغـرضه التشكيـك والـطعن فيه ليس غـرضه معـرفة الحق ، وهؤلاء هم الـذين عناهم النبي ﷺ بقـوله اذا رأيتم الـذين يتبعون مـا تشابـه منه ولهـذا يتبعون أي يـطلبون المتشـابه ويقصـدونه دون المحكم مثـل المستتبـع للشيء الذي يتحـراه ويقصده وهـذا فعل من قصـده الفتنـة وأمـا من سـأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبهة هو عالم بالمحكم متبع له مؤمن بالتشابه لا يقصـد فتنة فهذا لم يذمه الله .

وهكذا كان الصحابة يقولون رضي الله عنهم مثـل الأثر المعـروف الذي رواه ابـراهيم بن يعقوب الجوزجاني حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية حدثنا عتبة بن أبي حكيم حدثني عمارة بن راشد الكتاني عن زيـاد عن معاذ بن جبل قال يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى ونيـة يقلبه فلى الرأس يلتمس أن يجـد فيه أمـراً يخرج بـه على النـاس أولئك شـرار أمتهم يعمى الله عليهم سبل الهدى ورجل يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية يقلبه فلى الرأس فـما تبين لـه منه عمـل به ومـا

اشتبه عليه وكله الى الله ليتفقهن أولئك فقهاً ما فقهه قوم قط حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين له الآية التي اشكلت عليه أو يفهمه اياها من قبل نفسه .

قال بقية استهدى ابن عيينة حديث عتبة هذا فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة وما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لا بد أن يفقهه المتشابه فقهاً ما فقهه قوم قط قالوا والدليل على ذلك أن الصحابة كانوا اذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك كما سأله عمر فقال ألم تكن تحدثنا أنا تأتي البيت ونطوف به وسأله أيضاً عمر ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا .

ولما نزل قوله : ﴿ ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ﴾ شق عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم ولما نزل قوله : ﴿ وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ شق عليهم حتى بين لهم الجحمة في ذلك . ولما قال النبي ﷺ من نوقش الحساب عذب قالت عائشة ألم يقل الله : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال انما ذلك العرض قالوا والدليل على ما قلناه اجماع السلف فانهم فسروا جميع القرآن .

(السلف فهموا معنى القرآن وبينوه)

وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عندها وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ كما قال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرؤ ننا القرآن عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن الا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه لا لأن أحداً من الناس لا يعلمه لكن لأنه هو لم يعلمه ، وأيضاً فان الله قد أمر بتدبير القرآن مطلقاً ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر ولا قال تدبروا المشابه والتدبر بدون الفهم يمتنع ولو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف ان الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره .

وهذا أيضاً مما يحتجون به ويقولون المتشابه أمر نسبي اضافي فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره قالوا لأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور ولم يستثن منه شيئاً عن هذا الوصف وهذا يمتنع بدون فهم المعنى قالوا ولأن من العظيم أن يقال ان الله أنزل على نبيه كلاماً لم يكن يفهم معناه لا هو ولا جبريل بل وعلى قول هؤلاء كان النبي ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم ولم يكن يعرف معنى ما يقوله وهذا لا يظن بأقل الناس .

وأيضاً فالكلام انما المقصود به الافهام فاذا لم يقصد به ذلك كان عبثاً وباطلاً والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث فكيف يقول الباطل والعبث يتكلم بكلام نزله على خلقه لا يريد به افهامهم وهذا من أقوى حجج الملحدين .

وأيضاً فما في القرآن آيةالا وقد تكلم الصحابةوالتابعون لهم في معناها وبينوا ذلك واذا قيل فقد يختلفون في بعض ذلك قبل كما قد يختلفون في آيات الأمر والنهي مما اتفق المسلمون على أن الراسخين في العلم يعلمون معناها وهذا أيضاً مما يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه فان المتشابه قد يكون في آيات الأمر والنهي كما يكون في آيات الخبر وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها فكذلك الأخرى فانه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه الا الله لا ملك ولا رسول ولا عالم وهذا خلاف اجماع المسلمين في متشابه الأمر والنهي .

وأيضاً فلفظ التأويل يكون للحكم كما يكون للمتشابه كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك وهم يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه وأي فضيلة في المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه والمحكم افضل منه وقد بين معناه لعباده فأي فصيلة في المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل خطاباً ولم يذكر في القرآن آية تدل على وقت الساعة ونحن نعلم أن الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها وانما النزاع في كلام أنزله وأخبر انه هدى وبيان وشفاء وأمر بتدبره .

ثم يقال إنَّ منه ما لا يعرف معناه الا الله ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه .

(سبب نزول آية آل عمران)

ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران وقد احتجوا بقوله انا ونحن وبقوله كلمة منه وروح منه وهذا قد اتفق المسلمون على معرفة معناه فكيف يقال أن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة ولا الأنبياء ولا أحد من السلف وهو من كلام الله الذي أنزله الينا وأمرنا أن نتدبره ونعقله وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء ونور وليس المراد من الكلام الا معاينة ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له وقد قال الحسن ما أنزل الله آية الا وهو يجب أن يعلم فيما ذا أنزلت وماذا عني بها ومن قال ان سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم في ألم بحساب الجمل فهذا نقل باطل أما أولاً فلأنه من رواية الكلبي .

وأما ثانياً : فهذا قد قيل أنهم قالوه في أول مقدم النبي ﷺ الى المدينة وسورة آل عمران انما نزل صدرها متأخراً لما قدم وفد نجران بالنقل المستفيض المتواتر وفيها فرض الحج وانا فرض سنة تسع أو عشر لم يفرض في أول الهجرة باتفاق المسلمين .

وأما ثالثاً : فلأن حروف المعجم ودلالة الحرف على بقاء هذه الأمة ليس هو من تأويل القرآن الذي استأثر الله بعلمه بل أما أن يقال أنه ليس مما أراده الله بكلامه فلا يقال أنه انفرد بعلمه قبل دعوى دلالة الحروف على ذلك باطل ، واما أن يقال بل يدل عليه وقد علم بعض الناس ما يدل عليه وحينئذ فقد علم الناس ذلك أما دعوى دلالة القرآن على ذلك وأن أحداً لا يعلمه فهذا هو الباطل ، وأيضاً فاذا كانت الأمور العلمية التي أخبر الله بها في القرآن لا يعرفها الرسول كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه وكان حجة لما يقولونه من أنه كان لا يعرف الأمور العلمية لو أنه كان يعرفها ولم يبينها بل هذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها فان ما لا يعلمه الا الله لا يعلمه النبي ولا غيره .

وبالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول ان في القرآن آيات لا يعلم معناه الرسول ولا غيره نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم وليس ذلك في آية معينة بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ وتارة لاشتباه المعنى بغيره وتارة لشبهة في نفس الانسان تمنعه من معرفة الحق وتارة لعدم التدبر التام وتارة لغير ذلك من الاسباب فيجب القطع بأن قوله : ﴿ وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون أمنا به ﴾ .

(الوقف في الآية)

ان الصواب قول من يجعله معطوفاً ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد أو يكون كلام القولين حقاً وهي قراءتان والتأويل المنفي غير التأويل المثبت وان كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيات التي لا يعلمها غيره وهذا فيه نظر وابن عباس جاء عنه أنه قال انا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وجاء عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويله .

وجاء عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لايعلمه الا الله ومن ادعى علمه فهو كاذب وهذا القول يجمع القولين ويبين أن العلماء يعلمون من تفسيره ما لا يعلمه غيرهم وأن فيه ما لا يعلمه الا الله فأما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قوله الا الله وجعل التأويل بمعنى التفسير فهذا خطأ قطعاً وأما التأويل بالمعنى الثالث وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عرف في عهد الصحابة بل ولا التابعين ولا الأئمة الأربعة ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفاً في القرون الثلاثة بل ولا علمت أحداً فيهم خص لفظ التأويل بهذا .

ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعاً في عرف كثير من المتأخرين فظنوا أن التأويل في الآية هذا معناه صاروا يعتقدون أن المتشابه القرآن معاني تخالف ما يفهم منه وفرقوا دينهم بعد ذلك وصاروا شيعاً والمتشابه المذكور الذي كان سبب نزول الآية لا يدل ظاهره على معنى فاسد وانما الخطأ في فهم السامع نعم قد يقال أن مجرد هذا الخطاب لا يبين كمال المطلوب ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب وبين دلالته على نقيض المطلوب فهذا الثاني هو المنفي بل وليس في القرآن ما يدل على الباطل البتة كما قد بسط في موضعه .

ولكن كثير من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى اما معنى يعتقده واما معنى باطلاً فيحتاج الى تأويله ويكون ما قاله باطلاً لا تدل الآية على معتقده ولا على المعنى الباطل وهذا كثير جداً وهؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيراً ما يحتاج الى التأويل المحدث وهو صرف اللفظ عن مدلوله الى خلاف مدلوله .

ومما يحتج به من قال الراسخون في العلم يعلمون التأويل ما ثبت في صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس أن النبي ﷺ دعا له وقال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . فقد فقه بعلم التأويل مطلقاً وابن عباس فسر القرآن كله ، قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من أوله الى آخره أقفه عن كل آية وأسأله عنها وكان يقول انا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله .

وأيضاً فالنقول متواترة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تكلم في جميع معاني القرآن من الأمر والخبر فله من الكلام في الاسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ومن الكلام في الأمر والنهي والاحكام ما يبين أنه كان يتكلم في جميع معاني القرآن ، وأيضاً قد قال ابن مسعود ما من آية في كتاب الله الا وأنا أعلم فيما ذا أنزلت ، وأيضاً فانهم متفقون على أن آيات الاحكام يعلم تأويلها وهي نحو خمسمائة آية وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته أو عن اليوم الآخر والجنة والنار أو عن القصص وعاقبة أهل الايمان وعاقبة أهل الكفر فان كان هذا هو المتشابه الذي لا يعلم معناه الا الله فجمهور القرآن لا يعرف أحد معناه لا الرسول ولا أحد من الأمة ومعلوم أن هذا مكابرة ظاهرة .

وأيضاً فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤ يا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذي يخبر به فان دلالة الرؤ يا على تأويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدي لها جمهور الناس بخلاف دلالة لفظ الكلام على معناه فاذا كان الله قد علم عبادة تأول الأحاديث التي يرونها في المنام فلأن يعلمهم تأويل الكلام العربي المبين الذي ينزله على انبيائه بطريق الأولى والأخرى قال يعقوب ليوسف : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ وقال يوسف : ﴿ رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ وقال : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ .

وأيضاً فقد ذم الله الكفار بقوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل فائتوا بسورة مثله وادعو من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله ﴾ وقال : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أما ذا كنتم تعلمون ﴾ وهذا ذم لمن كذب بما لم يحط بعلمه فما قاله الناس من الأقوال المختلفة في تفسير القرآن وتأويله ليس لأحد أن يصدق بقول دون قول بلا علم ولا يكذب بشيء منها الا أن يحيط بعلمه .

وهذا لا يمكن الا اذا عرف الحق الذي أريد بالآية فيعلم أن ما سواه باطل فيكذب بالباطل الذي أحاط بعلمه وأما اذا لم يعرف معناها ولم يحط بشيء منها علماً فلا يجوز له التكذيب بشيء منها مع أن الأقوال المتناقضة بعضها باطل قطعاً ويكون حينئذ المكذب بالقرآن كالمكذب بالأقوال المتناقضة والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم .

وأيضاً فانه ان بني على ما يعتقده من أنه لا يعلم معاني الآيات الخبرية الا الله لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية على شيء من أمور الايمان بالله واليوم الآخر ومن تكلم في تفسير ذلك وكذلك يلزم مثل ذلك في أحاديث الرسول ﷺ وان قال المتشابه هو بعض الخبريات لزمه أن يبين فصلاً يتبين به ما يجوز أن يعلم معناه من آيات القرآن وما لا يجوز أن يعلم معناه بحيث لا يجوز أن يعلم معناه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا أحد من الصحابة ولا غيرهم ومعلوم أنه لا يمكن أحداً ذكر حد فاصل بين ما يجوز أن يعلم معناه بعض الناس وبين ما لا يجوز أن يعلم معناه أحد ولو ذكر ما ذكر انتقض عليه فعلم أن المتشابه ليس هو الذي لا يمكن أحد معرفة معناه وهذا دليل مستقل في المسألة .

وأيضاً فقوله لم يحيطوا بعلمه وكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً ذم لهم على عدم الاحاطة مع التكذيب ولو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الاحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة ولكان الذم على مجرد التكذيب فان هذا بمنزلة أن يقال أكذبتم بما لم تحيطوا به علماً ولا يحيط به علماً الا الله ومن كذب بما لا يعلمه الا الله كان أقرب الى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فول لم يحط به علماً الراسخون كان ترك هذا الوصف أقرب في ذمهم من ذكره .

ويتبين هذا بوجه آخر هو دليل في المسألة وهو أن الله ذم الزائغين بالجهل وسوء القصد فانهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله ولا يعلم تأويله الا الراسخون في العلم وليسوا منهم وهم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم والحق وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فان المعنى بقوله أسمعهم أفهمهم القرآن يقول

لو علم الله فيهم حسن قصد وقبـول للحق لأفهمهم القرآن لكن لـو أفهمهم لتولـوا عن الايمان وقبول الحق لسوء قصدهم فهم جاهلون ظالمون كذلك الذين في قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصـد مع طلب علم مـا ليسوا من أهله وليس اذا عيب هؤلاء عـلى العلم ومنعـوه يعـاب من حسن قصده وجعله الله من الراسخين في العلم .

فان قيل : فأكثر السلف على أن الراسخين في العلم لا يعلمون التأويل كذلك أكثر أهل اللغة يروي هذا عن ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وعروة وقتادة وعمر بن عبـد العزيـز والفراء وأبي عبيد وثعلب وابن الأنباري قال ابن الانباري في قراءة عبد الله أن تأويله الا عند الله والراسخون في العلم وفي قـراءة أبي وابن عباس ويقـول الراسخـون في العلم قال وقـد أنزل في كتابه أشياء استأثر بعلمها كقوله تعـالى : ﴿ قل انمـا علمها عنـد الله ﴾ وقولـه : ﴿ وقرونـا بين ذلك كثيراً ﴾ فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ويكفر به الكفر فيشقى .

قال ابن الانباري : والذي يروي القـول الآخر عن مجـاهد هـو ابن أبي نجيح ولا تصـح روايته التفسير عن مجاهد فيقال قول القائل أن أكثر السلف على هذا قول بلا علم فانـه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشـابه بـل الثابت عن الصحابة أن المتشـابه بعلمـه الراسخـون وما ذكـر من قراءة ابن مسعـود وأبي بن كعب ليس لها اسناد يعرف حتى يحتج بها والمعروف عن ابن مسعود أنه كان يقول ما في كتـاب الله آية الا وأنـا أعلم فيها ذا أنزلت وقال أبو عبد الرحمن السلمي .

حدثنا الذين كانوا يقرأوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كـانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل وهذا أمر مشهور رواه الناس عامة أهل الحديث والتفسير وله اسناد معروف بخـلاف ما ذكـر من قراءتهـما وكذلك ابن عباس قد عرف أنه كان يقول من الراسخين الذين يعلمون تأويله .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه دعا له بعد لم تـأويل الكتـاب فكيف لا يعلم التأويـل مع أن قراءة عبد الله أن تأويله الا عند الله لا تناقض هذا القـول فان نفس التـأويل لا يـأتي به الا الله كما قال تعالى : ﴿ هو ينظرون الا تأويله ﴾ وقال : ﴿ بل كـذبوا بمـا لم يحيطوا بعلمـه ولما يـأتهم تأويله ﴾ .

وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه وتأويل ذلك هو مجيء المـوعود بـه وذلك عنـد الله لا يأتي بـه الا هو وليس في القـرآن أن علم تأويله الا عنـد الله كـما قـال في الساعة ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مـرساهـا قل انـا علمها عند ربي لا يجليها لـوقتها الا هـو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كـأنك حفي عنهـا قل انما علمها عنـد الله ولكن أكثر الناس لا يعلمـون قل لا أملك لنفسي نفعـاً ولا ضراً الا مـا شاء الله ولـو كنت

أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ وكذلك لما قال فرعون لموسى : ﴿ فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل رب ولا ينسى ﴾ .

فلو كانت قراءة ابن مسعود ففي العلم عن الراسخين لكانت أن علم تأويله الا عند الله لم يقرأ أن تأويله الا عند الله فان هذا حق بلا نزاع وأما القراءة الآخرى المروية عن أبي وابن عباس قد نقل عن ابن عباس ما يناقضه وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد ، وعلى تفسير مجاهد ، يعتمد أكثر الأئمة كالثوري والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري .

قال الثوري : اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به والشافعي في كتبه أكثر الذي ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وكذلك البخاري في صحيحه يعتمد على هذا التفسير وقول القائل لا تصح رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد جوابه أن تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب في التفسير أصح من تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد الا أن يكون نظيره في الصحة ثم معه ما يصدقه وهو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية وأسأله عنها .

وأيضاً فأبي بن كعب رضي الله عنه قد عرف أنه كان يفسر ما تشابه من القرآن كما فسر قوله : ﴿ فأرسلنا اليها روحنا ﴾ وفسر قوله : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ وقوله : ﴿ وإذ أخذ ربك ﴾ ونقل ذلك معروف عنه بالاسناد أثبت من نقل هذه القراءة التي لا يعرف لها اسناد وقد كان يسأل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر ، وسئل عن ليلة القدر .

وأما قوله ان الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن فيقال هذا حق لكن هل في الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف أن الانبياء والملائكة والصحابة لا يفهمون ذلك الكلام المجمل أم العلماء متفقون على أن المجمل في القرآن يفهم معناه ويعرف ما فيه من الاجمال كما مثل به من وقت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذي أخبر الله به عن الساعة وأنها آتية لا محالة وأن الله انفرد بعلم وقتها فلم يطلع عن ذلك أحداً ولهذا قال النبي ﷺ لما سأله السائل عن الساعةوهو في الظاهر أعرابي لا يعرف قال له متى الساعةقال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولم يقل أن الكلام الذي نزل في ذكرها لا يفهمه أحد بل هذا خلاف اجماع المعلمين بل والعقلاء فان اخبار الله عن الساعة وأشراطها كلام بين واضح يفهم معناه وكذلك قوله : ﴿ وقرونا بين ذلك كثيراً ﴾ .

قد علم المراد بهذا الخطاب وأن الله خلق قروناً كثيرة لا يعلم عددهم الا الله كما قال : ﴿ وما يعلم جنود ربك الا هو ﴾ فأي شيء من هذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الايمان بالله واليوم الآخر لا يفهم معناه أحد لا من الملائكة والانبياء ولا للصحابة ولا غيرهم وأما ما ذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقة أنه كان لا يفسر عامة أي القرآن الا آيات

قليلة رواها عن عائشة ومعلوم أنه اذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لا يعرفه غيره من الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وغيرهم .

وأما اللغويون الذين يقولون ان الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون في ذلك فان هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء في القرآن ويتوسعون في القول في ذلك حتى ما منهم أحد الا وقد قال في ذلك أقوالاً لم يسبق اليها وهي خطأ ، وابن الانباري الذي بالغ في نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة وهو قصده بذلك الانكار على ابن قتيبة وليس هو أعلم بمعاني القرآن والحديث واتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك وان كان ابن الانباري من أحفظ الناس للغة .

لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ الفاظ اللغة وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسير غريب الحديث وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم وهو وأمثاله يصيبون تارة ويخطئون أخرى فان كان المتشابه لا يعلم معناه الا الله فهم كلهم يجترءون على الله يتكلمون في شيء لا سبيل الى معرفته وان كان ما يثبتوه من معاني المتشابه قد اصابوا فيه ولو في كلمة واحدة ظهر خطأهم في قولهم ان المتشابه لا يعلم معناه الا الله ولا يعلمه أحد من المخلوقين فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا .

ومعلوم أنهم أصابوا في شيء كثير مما ينصرون به المتشابه وأخطأوا في بعض ذلك فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقيني فانهم أصابوا في كثير من تفسير المتشابه ، وكذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه فكتابه في التفسير من أشهر الكتب ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ورواية سعيد بن أبي عروبة عنه .

ولهذا كان المصنفون في التفسير عامتهم يذكرون قوله الصحة النقل ومع هذا يفسر القرآن كله محكمة ومتشابهة ، والذي اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله الا الله ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع والجهمية والقدرية من المعتزلة وغيرهم فصار أولئك يتكلمون في تأويل القرآن برأيهم الفاسد .

وهذا أصل معروف لأهل البدع أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلي وتأويلهم اللغوي فتفاسير المعتزلة مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراد الله ورسوله فانكار السلف والأئمة لهذه التأويلات الفاسدة كما قال الامام أحمد في ما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله فهذا الذي أنكره السلف والأئمة من التأويل فجاء بعدهم قوم انتسبوا الى السنة بغير خبرة تامة بها وبما يخالفها وظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه الا الله فظنوا أن معنى التأويل هو معناه في اصطلاح المتأخرين

وهو صرف اللفظ على الاحتمال الراجح الى المرجوح فصاروا في موضع يقولون وينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه الا الله ثم يتناقضون في ذلك من وجوه :

أحدها : أنهم يقولون النصوص تجري على ظواهرها ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر ويقررون المعنى الظاهر ، ويقولون مع هذا أن له تأويلاً لا يعلمه الا الله والتأويل عندهم ما يناقض الظاهر فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر وقد قرر معناه الظاهر وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ابن عقيل على شيخه القاضي ابي يعلى .

ومنها أنا وجدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم لا في مسألة اصلية ولا فرعية الا تأولوا ذلك بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية والقدرية التي تخالفهم ، فأين هذا من قولهم لا يعلم معاني النصوص المتشابهة الا الله واعتبر هذا مما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة على قولهم بالآيات التي تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقوله : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ ﴿ لا تدركه الابصار ﴾ ﴿ انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ﴿ واذا قال ربك للملائكة ﴾ ونحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد وان كان في بعضها حق فان كان ما تأولوه حقاً دل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه فظهر تناقضهم وان كان باطلاً فذلك أبعد لهم .

وهذا أحمد بن حنبل امام أهل السنة الصابر في المحنة الذي قد صار المسلمون معياراً يفرقون به بين أهل السنة والبدعة لما صنف كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله تكلم في معاني المتشابه الذي اتبعه الزائغون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله آية آية وبين معناها وفسرها ليبين فساد تأويل الزائغين واحتج على أن الله يرى وأن القرآن غير مخلوق وأن الله فوق العرش بالحجج العقلية والسمعية ورد ما احتج به النفاة من الحجج العقلية والسمعية وبين معاني الآيات التي سماها هو متشابهة وفسرها آية آية وكذلك لما ناظروه واحتجوا عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آية وحديثاً حديثاً ويبين فساد ما تأولها عليه الزائغون ويبين هو معناها .

ولم يقل أحد أن هذه الآيات والاحاديث لا يفهم معناها الا الله ولا قال أحد له ذلك بل الطوائف كلها مجتمعة على امكان معرفة معناها لكن يتنازعون في المراد كما يتنازعون في آيات الأمر والنهي وكذلك تفسير المتشابه به الآيات والاحاديث التي يحتج بها بالزائغون من الخوارج وغيرهم كقوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الشارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن وأمثال ذلك .

ويبطل قول المرجئة والجهمية وقول الخوارج والمعتزلة وكل هـذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها ولم يقل أحد لا من أهل السنـة ولا من هؤلاء لما يستـدل به هـو أو يستدل بـه عليه منازعة هذه آيـات وأحاديث لا يعلم معنـاها أحـد من البشر فـأمسكوا عن الاستـدلال بها وكـان الأمام أحمـد ينكر طـريقة أهـل البدع الـذين يفسرون القـرآن بـرأيهم وتـأويلهم من غـير استدلال بسنة رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين الذين بلغهم الصحابة معاني القـرآن كما بلغوهم الفاظه ونقلوا هذا كما نقلوا هذا .

لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ويدعون أن هذا هو التـأويل الـذي علمه الـراسخون وهم مبـطلون في ذلك لا سيـما تأويـلات القرامـطة والباطنيـة الملاحدة وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية والقدرية وغيرهم ولكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون التأويل وانما غايتهم أن يقولوا ظاهـر هذه الآيـة غير مـراد ولكن يحتمل أن يـراد كذا وأن يراد كذا ولو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهم لا يعلم أنه مراد الله ورسوله بـل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عنـدهم غير ذلـك كالتـأويلات التي يـذكرونها في نصـوص الكتاب كـما يـذكرونـه في قولـه : ﴿ وجاء ربـك والملك صفاً صفـاً ﴾ وينزل ربنـا ﴿ الـرحمن عـلى العـرش استوى ﴾ ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وغضب الله عليهم ﴿ وانما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وأمثال ذلك من النصوص فان غاية ما عندهم يحتمل أن يراد به كـذا ويجوز كـذا ونحو ذلك هذا علماً بالتأويل .

وكذلك كل من ذكر في نص أقوالاً واحتمالات ولم يعرف المراد فانه لم يعرف تفسير ذلـك وتأويله وانما يعرف ذلك من عرف المراد ومن زعم من الملاحدة أن الأدلة السمعية لا تفيد العلم فمضمون مدلولاته لا يعلم أحد تفسير المحكم ولا تفسير المتشابه ولا تأويل ذلك وهذا اقرار منه على نفسه بـأنه ليس من الـراسخين في العلم الـذين يعلمون تـأويل المتشـابه فضـلاً عن تأويـل المحكم فـاذا انضم الى ذلك أن يكـون كلامهم في العقليـات فيه من السفسـطة والتلبيس ما لا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لا معرفة بالسمعيات ولا بالعقليات وقد أخبـر الله عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ .

ومدح الذين اذا ذكروا بآياته لم يخروا عليها صماً وعميانـاً والذين يفقهـون ويعقلون وذم الذين لا يفقهون ولا يعقلون في غير موضع من كتابـه وأهل البـدع والمخالفـون للكتاب والسنـة يدعون العلم والعـرفان والتحقيق وهم من أجهـل الناس بـالسمعيات والعقليـات وهم يجعلون ألفـاظاً لهم بجملة متشـابهة تتضمن حقـاً وباطـلاً يجعلونها هي الأصـول المحكمـة ويجعلون مـا عارضها من نصوص الكتاب والسنة من المتشابه الذي لا يعلم معناه عندهم الا الله وما يتأولونه بالاحتمالات لا يفيد فيجعلون البراهين شبهات والشبهات براهين كما قد بسط ذلك في مـوضع آخر .

وقد نقل القاضي أبو يعلى عن الامام أحمد أنه يقال المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج الى بيان والمتشابه ما احتاج الى بيان ، وكذلك قال الامام أحمد في رواية عن الشافعي قال المحكم ما لا يحتمل من التأويل الا وجهاً واحداً والمتشابه ما احتمل من التأويل وجوها وكذلك قال الامام أحمد وكذلك قال ابن الأنباري المحكم ما لم يحتمل من التأويل الا وجهاً واحداً والمتشابه الذي تعتوره التأويلات فيقال حينئذ فجميع الأمة سلفها وخلفها يتكلمون في معاني القرآن التي تحتمل التأويلات وهؤلاء الذين ينصرون أن الراسخين في العلم لا يعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاماً فيه .

والأئمة كالشافعي وأحمد من قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معاني ويرجحون بعضها على بعض بالأدلة في جميع مسائل العلم الاصولية والفروعية لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص احتج به محتج في مسألة أن هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به ولو قال أحد ذلك لقيل له مثل ذلك واذا ادعى في مسائل النزاع المشهورة بين الأئمة أن نصه محكم يعلم معناه وأن النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه قوبل بمثل هذه الدعوى وهذا بخلاف قول القائل ان من النصوص ما معناه جلي واضح ظاهر لا يحتمل الا وجهاً واحداً لا يقع فيه اشتباه . ومنها ما فيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون في العلم فان هذا مستقيم صحيح .

(السلف علموا معنى المتشابه)

وحينئذ فالخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال أنه يعرف معناه يبين حجة على ذلك ، وأيضاً فما ذكره السلف والخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال : ان المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف وهذا القول مأثور عن ابن مسعود ، وابن عباس وقتادة ، والسدى وغيرهم .

وابن مسعود وابن عباس وقتادة هم الذين نقل عنهم أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله .

ومعلوم قطعاً باتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل ويدل على أنه كذب أن كان هذا صدقاً ولا تعارض النقلان عنهم والمتواتر عنهم أن الراسخين يعلمون معنى المتشابه .

والقول الثاني : مأثوراً عن جابر بن عبد الله أنه قال المحكم ما علم العلماء تأويله والمتشابه ما لم يكن للعلماء الى معرفته سبيل كقيام الساعة ، ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه الا الله فاذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لا يعلم وقت تأويله الا الله وهذا حق ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك وكذلك ان أريد

بالتأويل حقائق ما يوجد وقيل لا يعلم كيفية ذلك الا الله .

فهذا قد قدمناه وذكر أنه على قول هؤلاء من وقف عند قوله : ﴿ وما يعلم تأويله الا الله ﴾ هو الذي يجب أن يراد بالتأويل وأما أن يراد بالتأويل التفسير ومعرفة المعنى ويقف على قوله الا الله فهذا خطأ قطعاً مخالف للكتاب والسنة واجماع المسلمين .

ومن قال ذلك من المتأخرين فانه متناقض يقول ذلك ويقول ما يناقضه وهذا القول يناقض الايمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة ويوجب القدح في الرسالة ولا ريب أن الذي قالوه لم يتدبروا لوازمه وحقيقة ما أطلقوه وكان أكبر قصدهم دفع تأويلات أهل البدع المتشابهة وهذا الذي قصدوه حق وكل مسلم يوافقهم عليه لكن لا ندفع باطلاً بباطل آخر ولا نرد بدعة ببدعة ولا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بأن يقال للرسول والصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ما تشابه من القرآن ففي هذا من الظن في الرسول وسلف الأمة ما قد يكون أعظم من خطأ طائفة من تفسير بعض الآيات والعاقل لا يبني قصراً ويهدم مصراً .

والقول الثالث : أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروي هذا عن ابن عباس ، وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاماً تاماً من الجمل الأسمية والفعلية وانما هي اسماء موقوفة ولهذا لم تعرب فان الاعراب انما يكون بعد العقد والتركيب وانما نطق بها موقوفة كما يقال : أ ب ت ، ولهذا نكتب بصورة الحرف لا بصورة الاسم الذي ينطق به فانها في النطق أسماء .

ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا زا قال نطقتم بالاسم وانما النطق بالحرف زه فهي في اللفظ اسماء وفي الخط حروف مقطعة الم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي ﷺ من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما اني لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف ، والحرف في لغة الرسول وأصحابه يتناول الذي يسميه النحاة اسماً وفعلاً وحرفاً .

ولهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فانه لما كان معروفاً من اللغة أن الاسم حرف والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف انه جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وهذه حروف المعاني التي يتألف منها الكلام وأما حروف الهجاء فتلك انما تكتب في صورة الحرف المجرد وينطق بها غير معربة ولا يقال فيها معرب ولا مبنى لأن ذلك انما يقال في المؤلف ، فاذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فانه ليس المقصود الا معرفة كلام الله وكلام رسوله ، ثم يقال هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فان كان معناها معروفاً فقد عرف معنى المتشابه وان لم يكن معروفاً وهو المتشابه كان ما سواها ملوم المعنى وهذا المطلوب ، وأيضاً فان الله تعالى قال :

﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ﴾ وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء وانما بعدها آيات الكوفيون .

وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضاً متشابه ولكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء ، والرابع أن المتشابه ما اشتبهت معانيه قال مجاهد وهذا يوافق قول أكثر العلماء وكلهم يتكلم في تفسير هذا المتشابه ويبين معناه والخامس أن المتشابه ما تكررت الفاظه قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المحكم ما ذكر الله في كتابه من قصص الأنبياء ففصله وبينه والمتشابه هو ما اختلفت الفاظه في قصصهم عند التكرير كما قال في موضع في قصة نوح : ﴿ أحمل فيها ﴾ وفيها في موضع آخر ﴿ أسلك فيها ﴾ وقال في عصا موسى ﴿ فاذا هي حية تسعى ﴾ وفي موضع ﴿ فاذا هي ثعبان مبين ﴾ .

وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ وقد صنف بعضهم في هذا المتشابه لأن القصة الواحدة يتشابه معناها في الموضعين فاشتبه على القارىء أحد اللفظين بالآخر هذا التشابه لا ينفي معرفة المعاني بلا ريب ولا يقال في مثل هذا أن الراسخين يختصون بعلم بتأويله فهذا القول ان كان صحيحاً كان حجة لنا وان كان ضعيفاً لم يضرنا ، والسادس أنه ما احتاج الى بيان كما نقل عن أحمد ، والسابع أنه ما احتمل وجوها كما نقل عن الشافعي وأحمد .

وقد نقل عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال أنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً وقد صنف الناس كتب الوجوه والنظائر فالنظائر اللفظ الذي اتفق معناه في الموضعين وأكثر ، والوجوه الذي اختلف معناه كما يقال الاسماء المتواطئة والمشتركة وان كان بينهما فرق لبسطه موضع آخر وقد قيل : هي نظائر في اللفظ ومعانيها مختلفة فتكون كالمشتركة وليس كذلك بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول .

وقد تكلم المسلمون سلفهم وخلفهم في معاني الوجوه وفيما يحتاج الى بيان وما يحتمل وجوهاً فعلم يقيناً أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه وأعلم أن من قال أن من القرآن كلاماً لا يفهم أحد معناه ولا يعرف معناه الا الله فانه مخالف لاجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة ، والثامن أن المتشابه هو القصص والأمثال وهذا أيضاً يعرف معناه ، والتاسع أنه ما يؤمن به ولا يعمل به وهذا أيضاً مما يعرف معناه ، والعاشر قول بعض المتأخرين أن المتشابه آيات الصفات وأحاديث الصفات وهذا أيضاً مما يعلم معناه .

فان أكثر آيات الصفات اتفق المسلمون على أنه يعرف معناها والبعض الذي تنازع الناس في معناه انما ذم السلف منه تأويلات الجهمية ونفوا علم الناس بكيفيته كقول مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول وكذلك قال سائر أئمة السنة وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم

وبين الكيف المجهول فان سمى الكيف تأويلاً ساغ أن يقال : هذا التأويل لا يعلمه الا الله كما قدمناه أولاً ، وأما اذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلا كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلا .

وقيل أن النبي ﷺ وجبريل والصحابة والتابعين مما كانوا لا يعرفون معنى قوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ولا يعرفون معنى قوله : ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ ولا معنى قوله : ﴿ غضب الله عليهم ﴾ بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمي الذي لا يفهمه العربي وكذلك اذا قيل كان عندهم قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ وقوله : ﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار ﴾ وقوله : ﴿ وكان سميعاً بصيراً ﴾ وقوله : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقوله : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ وقوله : ﴿ وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾ وقوله : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ وقوله : ﴿ انا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ وقوله : ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ وقوله : ﴿ فلما أتاها نودي أن بورك من النار ومن حولها ﴾ وقوله : ﴿ هل ينظرون إلى أن يأتيهم الله في ظل من الغمام والملائكة ﴾ وقوله : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ـ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ـ انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ الى أمثال هذه الآيات .

فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله عليهما وعن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين والجماعة أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني هذه الآيات بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة وانما كانوا يقرؤون ألفاظاً لا يفهمون لها معنى كما يقرأ الانسان كلاماً لا يفهم منه شيئاً فقد كذب على القوم والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا وأنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن وان كان كنه الرب عز وجل لا يحيط به العباد ولا يحصون ثناء عليه فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه وصفاته ما علمهم سبحانه وتعالى كما أنهم اذا علموا أنه بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته واذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته .

وهذا مما يستدل به على أن الراسخين يعلمون التأويل فان الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ومعلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لا ينفي العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام وبيان معناه بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه ولا يعرفون كيفية الرب لا في هذا ولا في هذا فان قيل هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير وبين التأويل الذي في كتاب الله تعالى قيل لا يقدح في ذلك فان معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك في القلب

غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج المراد بذلك الكلام فان الشيء له وجود في الاعيان ووجود في الاذهان ووجود في اللسان ووجود في البيان .

فالكلام لفظ له معنى في القلب ويكتب ذلك اللفظ بالخط فاذا عرف الكلام وتصور معناه في القلب وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج وليس كل من عرف الأول عرف عين الثاني ذلك أن أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد ﷺ وخبره ونعته وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام وكذلك الانسان قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمساجد ومنى وعرفة ومزدلفة ويفهم معنى لك ولا يعرف الأمكنة حتى يشاهدها فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة في قوله : ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ .

وكذلك أرض عرفات هي المذكورة في قوله : ﴿ فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله ﴾ وكذلك المشعر الحرام هي المزدلفة التي بين مأوى عرفة ووادي محر يعرف أنها المذكورة في قوله : ﴿ فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ وكذلك الرؤ يا يراها الرجل ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره مثل أن يقول هذا يدل على أنه كان كذا ويكون وكذا وكذا ثم اذا كان ذلك فهو تأويل الرؤ يا ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه .

ولهذا قال يوسف الصديق ﴿ هذا تأويل رؤ ياي من قبل ﴾ وقال : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ فقد أنبأهما بالتأويل قل أن يأتي التأويل وان كان التأويل لم يقع بعد وان كان لا يعرف متى يقع فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله في القرآن من الوعد والوعيد وان كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ .

فنحن نعلم مستقر نبأ الله وهو الحقيقة التي أخبر الله بها ولا نعلم متى يكون وقد لا نعلم كيفيتها وقدرها وسواء في هذا تأويل المحكم والمتشابه كما قال الله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ .

قال النبي ﷺ : انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد فقد عرف تأويلها وهو وقوع الاختلاف والفتن وان لم يعرف متى يقع وقد لا يعرف صفته ولا حقيقته فاذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذي دلت عليه الآية وغيره قد لا يعرف ذلك أو ينساه بعد ما كان عرفه فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن فانه لما نزل قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها واذا نحن المعنيون بها ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ .

وأيضاً فان الله قد ذم في كتابه من يسمع القرآن ولا يفقه معناه وذم من لم يتدبره ومدح من يسمعه ويفقهه فقال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك ﴾ الآية فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم ماذا قال الرسول في هذا الوقت المتقدم فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معاني كلام رسول الله ﷺ ما لا يعرفه غيرهم وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يعلمون معاني القرآن محكمة ومتشابهة وهذا كقوله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ﴾ فدل على أن العالمين يعقلونها وان كان غيرهم لا يعقلها .

والامثال هي ما يمثل به من المتشابه وعقل معناها وهو معرفة تأويلها الذي يعرفه الراسخون في العلم دون غيرهم ويشبه هذا قوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد ﴾ فلولا أنهم عرفوا معنى ما أنزل كيف عرفوا أنه حق أو باطل وهل يحكم على كلام لم يتصور معناه أنه حق أو باطل ، وقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ .

وقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ وقال تعالى : ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وقال : ﴿ والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ وقال : ﴿ انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ وقال : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ وقال : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً ﴾ الى قوله : ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ .

نان كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم أحد معناه لم يكن المتدبر المعقول الا بعضه وهذا خلاف ما دل عليه القرآن لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه الآيات الخبرية والاخبار عن اليوم الآخر أو الجنة والنار وعن نفي الشركاء والأولاد عن الله وتسميته بالرحمن فكان عامة انكارهم لما يخبرهم به من صفات الله قفياً واثباتاً وما يخبرهم به عن اليوم الآخر وقد ذم الله من لا يعقل ذلك ولا يفقهه ولا يتدبره .

فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك وتدبره وقد قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ وقال : ﴿ ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه في آذانهم وقراً ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ الآية .

وقد استدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء الا كان منفرداً به كقوله : ﴿ قل

لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله ﴾ وقوله : ﴿ لا يجليها لوقتها الا هو ﴾ وقوله : ﴿ وما يعلم جنود ربك الا هو ﴾ فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفي فان كان مما استأثر الله به قبل فيه ذلك وان كان مما عليه بعض عباده ذكر ذلك كقوله : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ﴾ وقوله : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ الى قوله : ﴿ رصدا ﴾ .

وقوله : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ وقوله : ﴿ شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ وقوله : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه ﴾ الى قوله : ﴿ شهيداً ﴾ وقوله : ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل ﴾ وقال للملائكة : ﴿ أني أعلم ما لا تعلمون ﴾ وقالت الملائكة : ﴿ لا علم لنا الا ما علمتنا ﴾ .

وفي كثير من كلام الصحابة الله وروسوله أعلم وفي الحديث المشهور أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك وأنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد قال تعالى : ﴿ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ﴾ وأول النزاع النزاع في معاني القرآن فان لم يكن الرسول عالماً بمعانيه امتنع الرد اليه وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عن مجمله وأنها تفسير مجمل القرآن من الأمر والخبر ، وقال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ الى قوله : ﴿ فيما اختلفوا فيه ﴾ .

(فصـــــل)

[الكتاب هو الحكم عند الاختلاف]

ومن أعظم الاختلاف الاختلاف في المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالايمان بالله واليوم الآخر فلا بد أن يكون الكتاب حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيـه من ذلك ومتنـع أن يكون حـاكماً ان لم يكن معرفة معناه ممكناً وقـد نصب الله عليه دليـلاً والا فالحـاكم الذي لا يتبـين ما في نفسـه لا يحكم بشيء وكذلك اذا قيل هو الحاكم بالكتاب فان حكمه فصل يفصل به بـين الحق والباطـل وهذا انما يكون بالبيان وقد قال تعالى في القرآن : ﴿ انـه لقول فصـل ﴾ أي فاصـل يفصل بـين الحق والباطل فكيف يكون فصلاً اذا لم يكن الى معرفة معناه سبيل .

وأيضاً فان الله قال : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمـاني وان هم الا يظنـون ﴾ فـذم هؤلاء الذين لا يعلمـون الا أماني كـما ذم الذين يحرفون معنـاه ويكذبـون فقـال تعـالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنـوا لكم وقد كـان فريق منهم يسمعـون كلام الله ثم يحرفونـه من بعد مـا عقلوه وهم يعلمـون ﴾ الى قـولـه : ﴿ أفـلا تعقلون ﴾ فهـذا أحـد الصنفـين ثم قـال تعـالى : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يـظنـون ﴾ ثم ذم الـذين يفترون كذبـاً يقولـون هي من عند الله ومـا هي من عند الله فقـال : ﴿ فويـل للذين يكتبـون الكتاب بأيديهم ﴾ الى قوله : ﴿ يكسبون ﴾ .

وهذه الأصناف الثلاثة استوعبت أهل الضلال والبدع ، فان أهل البـدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان : ـ

أحدهما : عالم بالحق يتعمد خلافه .

والثاني جاهل متبع لغيره . فالأولون يبتدعون ما يخـالف كتاب الله ويقـولون هـو من عند الله اما أحاديث مفتريات واما تفسير وتـأويل للنصـوص باطـل ويعضدون ذلـك بما يـدعون من الرأي والعقل وقصدهم بذلك الرياسة والمأكل فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتـروا به ثمنـاً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك وهؤلاء اذا عورضوا بنصوص الكتب الالهية وقيل لهم هذه تخالفكم حرفوا الكلم عن مواضعـه بالتـأويلات الفاسدة قال الله تعالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ .

وأما النوع الثاني الجهال : فهؤلاء الأميون الذين لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يـظنون فعن ابن عبـاس وقتادة في قـوله : ﴿ ومنهم أميـون ﴾ أي غـير عـافـين بمعـاني الكتـاب يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه .

[معنى قوله إلا أماني]

وقـوله : ﴿ الا أمـاني ﴾ أي تلاوة فهم لا يعلمـون فقه الكتـاب انمـا يقتصـرون عـلى مـا يسمعونه يتلى عليهم قاله الكسائي والزجاج وكذلك قال ابن السائب لا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته الا أماني الا ما يحدثهم به علماؤ هم .

وقال أبو روق وأبو عبيدة أي تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ولا يقرؤ نهـا في الكتب . ففي هذا القول جعل الأماني التي هي التلاوة تـلاوة الأميين أنفسهم وفي ذلك جعله ما يسمعونـه من تلاوة علمائهم وكلا القوانين حق والآية تعمهما فانه سبحانه وتعالى قال :﴿ لا يعلمون الكتاب﴾ لم يقل لا يقرءون ولا يسمعـون ثم قال : ﴿ الا أمـاني ﴾ وهذا استثنـاء منقطع لكن يعلمـون أماني اما بقراءتهم لها وامـا بسماعهم قـراءة غيرهم وان جعـل الاستثناء متصـلاً كان التقـدير لا يعلمـون الكتاب الا علم أمـاني لا علم تلاوة فقط بـلا فهم ، والأماني جمـع امنية وهي التـلاوة ومنه قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ قال الشاعر :

تمـنى كـتـاب الله أول لـيـلة وآخـرهـا لا في حمـام المـقـادر

والأميون نسبة الى الأمة قال بعضهم الى الأمة وما عليه العامة فمعنى الأمي العامي الذي لا تمييز له ، وقد قال الزجاج هو على خلق الأمة التي لم تتعلم فهو عـلى جبلته ، وقـال غيره هـو نسبة الى الأمة لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء ولأنـه على مـا ولدتـه أمه والصـواب أنه نسبة الى أمة كما يقال عامي نسبة الى العامة التي لم تتميز عن عامة بما تمتـاز به الخـاصة وكـذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة ويقال الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتاباً ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرءونه وان كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين فانه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله قـال الله تعالى : ﴿ وقـل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلمـوا فقد اهتـدوا ﴾ وقال : ﴿ هـو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ .

وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب وكلهم أميون فلما نزل القـرآن عليهم لم يبقـوا أميين بـاعتبار أنهم لا يقـرءون كتابـاً من حفـظهم بـل هم يقـرءون القـرآن من حفـظهم وأنـاجيلهم في صدورهم لكن بقـوا أميين بـاعتبار أنهم لا يحتـاجون الى كتـابة دينهم بـل قرآنهم محفـوظ في قلوبهم كما في الصحيـح عن عيـاض بن حمـار المجـاشعي عن النبي ﷺ ، أنـه قـال خلقت عبادي حنفاء ـ وقال فيه ـ اني مبتليك ومبتل بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاناً ، فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفـظون كتبهم في قلوبهم بل لـو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة .

وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : أنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا ، فلم يقل لا نقرأ كتاباً ولا نحفظ بل قال لا نكتب ولا نحسب فديننا لا يحتاج ان يكتب ويحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم ولهذا يوجد أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه .

وقوله : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ﴾ هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ ، والأمي في اصطلاح الفقهاء خلاف القارىء ليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول يعنون به في الغالب من لا يحسن الفاتحة فقوله تعالى : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني ﴾ ﴿ أي لا يعلمون الكتاب الا تلاوة لا يفهمون معناها وهذا يتناول من لا يحسن الكتابة ولا القراءة من قبله وانما يسمع أماني ﴾ وهذا كما قال ابن السائب ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتاب كما قال أبو روق وأبو عبيدة .

وقد يقال ان قوله لا يعلمون الكتاب أي الخط أي لا يحسنون الخط وانما يحسنون التلاوة ، ويتناول أيضاً من يحسن الخط ولا يفهم ما يقرأه ويكتبه كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معاني الكتاب يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه ، والكتاب هذا المراد به الكتاب المنزل وهو التوراة ليس المراد به الخط فانه قال وان هم الا يظنون فهذا يدل على أنه نفي عنهم العلم بمعاني الكتاب والا فكون الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم أن يكون لا علم عنده بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب وكثير ممن لا يكتب يكون عالماً يعلم ما يكتبه غيره.

وأيضاً فان الله ذكر هذا في سياق الذم لهم وليس في كون الرجل لا يخط ذم اذا قام بالواجب وانما الذم على كونه لا يعقل الكتاب الذي أنزل اليه سواء كتبه وقرأه أو لم يكتبه ولم يقرأه كما قال النبي ﷺ : « هذا أو ان يرفع العلم فقال له زياد بن لبيد كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا فقال له ان كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة أو ليست التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم » ، وهو حديث معروف رواه الترمذي وغيره ، ولأنه قال تعالى قبل هذا : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ فأولئك عقلوه ثم حرفوه وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرأونه حفظاً وكتابة أو لم يكونوا كذلك فكان من المناسب أن يذكر الذين لا يعقلونه وهم الذين لا يعلمونه الا أماني فان القرآن أنزله الله كتاباً متشابهاً مثاني ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الاقسام فيكون مثاني ويذكر الأمثال فيكون متشابهاً وهؤلاء وان كانوا يكتبون ويقرأون فهم أميون من أهل الكتاب كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي

وساذج وعامي وان كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب اذا كان لا يعرف معناه .

وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب الا تلاوة دون فهم معانيه كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون دل على أن كلا النوعين مذموم ، الجاهل الذي لا يفهم معاني النصوص والكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه ويتكلم برأيه ويؤوله بما يضيفه الى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ويجعلون تلك المقالات التي ابتدعوها هي مقالة الحق وهي التي جاء بها الرسول والتي كان عليها السلف ونحو ذلك ثم يعرفون النصوص التي تعارضها فهؤلاء اذا تعمدوا ذلك وعلموا أن الذي يفعلونه مخالف للرسول فهم من جنس هؤلاء اليهود وهذا يوجد في كثير من الملاحدة ويوجد في بعض الأشياء في غيرهم .

وأما الذين قصدهم اتباع الرسول باطناً وظاهراً وغلطوا فيما كتبوه وتأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم لكن وقع بسبب غلطهم ما هو من جنس ذلك الباطل كما قيل اذا زل بزلته عالم وهذا حال المتأولين من هذه الأمة واما رجل مقلد أمي لا يعرف من الكتاب الا ما يسمعه منهم أو ما يتلوه هو ولا يعرف الا أماني وقد ذمه الله على ذلك فعلم أن ذم الله الذين لا يعرفون معاني القرآن ولا يتدبرونه ولا يعقلونه كما صرح القرآن بذمهم في غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال أن أكثر القرآن أو كثيراً منه لا يعلمه أحد من الخلق الا أماني لا جبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين فان هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به .

فان قيل : فلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية قيل نعم لكن معرفة معاني الجميع فرض على الكفاية وعلى كل مسلم معرفة ما لا بد منه وهؤلاء ذمهم الله لأنهم لا يعلمون معاني الكتاب الا تلاوة وليس عندهم الا ظن وهذا يشبه قوله : ﴿ وأنهم لفي شك منه مريب ﴾ فان قيل فقد قال بعض المفسرين الا أماني الا ما يقولونه بأفواههم كذباً وباطلاً وروى هذا عن بعض السلف واختاره القراء ، وقال الأماني الأكاذيب المفتعلة قال بعض العرب لابن ذأب - وهو يحدث - أهذا شيء رويته أم تمنيته أي افتعلته فأراد بالأماني الاشياء التي كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ثم اضافوها الى الله من تغيير صفة محمد ﷺ .

وقال بعضهم الأماني يتمنون على الله الباطل والكذب كقولهم : ﴿ لن تمسنا النار الا أياماً معدودة ﴾ وقولهم : ﴿ لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وقولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وهذا أيضاً يروى عن بعض السلف قيل كلا القولين ضعيف والصواب الأول لأنه سبحانه قال : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني ﴾ وهذا الاستثناء اما أن يكون متصلاً أو منقطعاً فان كان متصلاً لم يجز استثناء الكذب ولا أماني القلب من الكتاب وان كان منقطعاً فالاستثناء المنقطع انما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيهاً له من بعض الوجوه فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ ليس من جنس المذكور ولهذا يصلح المنقطع حيث يصلح

الاستثناء المفرغ وذلك كقوله : ﴿ لا يذوقون فيها الموت ﴾ ثم قال : ﴿ الا الموتة الاولى ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ لأنه يحسن أن يقال لا تأكلوا أموالكم بينكم الا أن تكون تجارة ، وقوله : ﴿ وما لهم به من علم الا اتباع الظن ﴾ يصلح أن يقال وما لهم الا اتباع الظن فهنا لما قال : ﴿ لا يعلمون الكتاب الا أماني ﴾ يحسن أن يقال لا يعلموه الا أماني فانهم يعلمونه تلاوة ويقرءونها ويسمعونها ولا يحسن أن يقال لا يعملون الا ما تتمناه قلوبهم أولا يعملون الا الكذب فانهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق أيضاً فليس كل ما علموه من علمائهم كان كذباً بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب فانه لا يعلم الا تلاوة .

وأيضاً فهذه للأماني الباطلة التي تمنوها بقلوبهم وقالوا بألسنتهم كقوله تعالى : ﴿ تلك أمانيهم قد اشتركوا فيها كلهم ﴾ لا يخص بالذم الأميون منهم وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه ولا لنفي العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل ، ولهذا لما ذم الله بها عمم ولم يخص فقال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم ﴾ الآية ، وأيضاً فانه قال : ﴿ وان هم الا يظنون ﴾ .

فدل على أنه ذمهم على نفي العلم وعلى أنه ليس منهم الا الظن وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب لاحال من يعلم أنه يكذب ، فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ولو أريد ذلك لقيل لا يقولون الا أماني لم يقل لا يعلمون الكتاب الا أماني بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً فهم يحرفون معاني الكتاب وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويكذبون في لفظهم وخطبهم .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن » وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « لتأخذن أمتي ما أخذ الأمم قبلها شبراً وذراعاً قالوا يا رسول الله فارس والروم ؟ قال ومن الناس الا أولئك » .

فهو دليل على أن ما ذم الله به أهل الكتاب في هذه الآية يكون في هذه الأمة من يشبههم فيه وهذا حق قد شوهد قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ فمن تدبر ما أخبر الله به ورسوله رأى أنه قد وقع من ذلك أمور كثيرة بل أكثر الأمور ودله ذلك على وقوع الباقي » .

(فصـــــل)

[الواجب طلب علم ما أنزل الله]

فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ومعرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم باحسان ومن سلك سبيلهم فكل ما يحتاج الناس اليه في دينهم فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً فكيف بأصول التوحيد والايمان ثم اذا عرف ما بينه الرسول نظر في أقوال الناس وما أرادوه بها فعرضت على الكتاب والسنة والعقل الصريح دائماً موافق للرسول لا يخالفه قط فان الميزان مع الكتاب والله أنزل الكتاب بالحق والميزان لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه .

فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحيرات العقول لا تخبر بمحالات العقول فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعة برأي رجال وتأويلاتهم ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لها ويحرف الفاظه ويتأول على وفق ما أصلوه وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول ولا يتلقون الهدى منه ولكن ما وافقهم منه قبلوه وجعلوه حجة لاعمدة وما خالفهم تأولوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أو فوضوه كالذين لا يعلمون الكتاب الا أماني ، وهؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول اما عجزاً واما تفريطاً فانه يحتاج الى مقدمتين أن الرسول قال كذا وأنه أراد به كذا .

أما الأولى فعامتهم لا يرتابون في أنه جاء بالقرآن وان كان من غلاة أهل البدع من يرتاب في بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها وهم يظنون أن هذه رواها أحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها والأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث فان هؤلاء يقطعون قطعاً يقيناً بعامة المتون الصحيحة التي في الصحيحين كما قد بسطناه في غير هذا الموضع .

وأما المقدمة الثانية فانهم قد لا يعرفون معاني القرآن والحديث ومنهم من يقول الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم وقد بسطنا على فساد ذلك في غير هذا الموضع ، وكثير منهم انما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم فالنصوص التي توافقهم يحتجون بها والتي تخالفهم يتأولونها ، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر اتباع نص أصلاً وهذا في البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية فان الذي وضع الرفض كان زنديقاً ابتداء بعمل الكذب الصريح الذي يعلم أنه كذب كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون .

ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ما افتروه أولئك وهم في شك منه كما قال تعالى : ﴿ وان الذين أوتوا العلم من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ وكذلك الجهمية ليس معهم على نفي الصفات وعلو الله على العرش ونحو ذلك نص اصلاً لا آية ولا حديث ولا أثر عن الصحابة بل الذي ابتدأ ذلك لم يكن قصده اتباع الانبياء بل وضع ذلك كما وضعت عبادة الأوثان وغير ذلك من أديان الكفار مع علمهم بأن ذلك مخالف للرسل كما ذكر عن مبدلة اليهود ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك وهذا بخلاف بدعة الخوارج فان أصلها ما فهموه من القرآن فغلطوا في فهمه ومقصودهم اتباع القرآن باطناً وظاهراً ليسوا زنادقة .

وكذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد والذي جاءت به الرسل ويتبعون من القرآن ما دل على ذلك فعمرو بن عبيد وأمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول كالذي ابتدع الرفض وكذلك الارجاء انما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين ليسوا كفاراً قابلوا الخوارج والمعتزلة فصاروا في طرف آخر وكذلك التشيع المتوسط الذي مضمونه تفضيل علي وتقديمه على غيره ونحو ذلك لم يكن هذا من أحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه والعصمة فان الذي ابتدع ذلك كان منافقاً زنديقاً ولهذا قال : عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وغيرهما أصول البدعة أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة ، قالوا : والجهمية ، ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة .

وكذلك ذكر أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد في ذلك قولين هذا أحدهما وهذا أرادوا به التجهم المحض الذي كان عليه جهم نفسه ومتبعوه عليه وهو نفي الأسماء مع نفي الصفات بحيث لا يسمى الله بشيء من أسمائه الحسنى ولا يسميه شيئاً ولا موجوداً ولا غير ذلك وانما نقل عنه انه كان يسميه قادراً لأن جميع الاسماء يسمى بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه بخلاف القادر فانه كان رأس الجبرية وعنده ليس للعبد قدرة ولا فعل ولا يسمى غير الله قادراً فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً وشر منه نفاة الأسماء والصفات وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة .

ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى وهؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة واذا أظهروا الاسلام فغايتهم أن يكونوا من المنافقين كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأولئك كانوا أقرب الى الاسلام من هؤلاء فانهم كانوا يلتزمون شرائع الاسلام الظاهرة وهؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة لكن قد يقال أن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء واما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الاسلام باطناً وظاهراً فهؤلاء من أمة محمد ﷺ بلا ريب .

وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية وكذلك الشيعة المفضلين لعلي ومن كان

منهم من يقول بالنص والعصمة مع اعتقاده نبوة محمد ﷺ باطناً وظاهراً وظنه أن ما هو عليه هو دين السلام فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد ﷺ بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وعامة هؤلاء ممن يتبع ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما أن من المنافقين والكفار من يفعل ذلك .

ولهذا قال طائفة من المفسرين كالربيع بن أنس هم النصارى كنصارى نجران وقالت طائفة كالكلبي هم اليهود وقالت طائفة كابن جريح هم المنافقون وقالت طائفة كالحسن هم الخوارج وقالت طائفة كقتادة هم الخوارج والشيعة وكان قتادة اذا قرأ هذه الآية ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ يقول ان لم يكونوا الحرورية والسبائية فلا أدري من هم ، والسبائية نسبة الى عبد الله بن سبأ رأس الرافضة .

(فصـــــل)

[قوله ولم يكن له كفواً أحد]

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك والند قد دل عليه قوله سبحانه أحد وقوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وقوله : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ وأمثال ذلك فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك وقوله القائل : الأحد أو الصمد ـ أو غير ذلك هو الذي ينقسم ولا يتفرق أو ليس بمركب ونحو ذلك هذه العبارات اذا عنى بها أنه لا يقبل التفرق والانفصال فهذا حق وأما أن عنى أنه لا يشار اليه بحال أو من جنس ما يعنون بالجوهر الفرد أنه لا يشار الى شيء منه دون شيء فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده وانما يقدر في الذهن تقديراً وقد علمنا أن العرب حيث اطلقت لفظ الواحد والأحد نفياً واثباتاً لم ترد هذا المعنى فقوله تعالى : ﴿ وان أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ لم يرد به هذا المعنى الذي فسروا به الواحد الأحد .

وكذلك قوله : ﴿ وان كانت واحدة فلها النصف ﴾ وكذلك قوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فان المعنى لم يكن له أحد من الأحاد كفواً له فان كان الواحد عبارة عما لا يتميز منه شيء عن شيء ولا يشار الى شيء منه دون شيء فليس في الموجودات ما هو أحد الا ما يدعونه من الجوهر الفرد ومن رب العالمين وحينئذ لا يكون قد نفي عن شيء من الموجودات أن يكون كفواً للرب لأنه لم يدخل في مسمى أحد .

وقد بسطنا الكلام على هذا بسطاً كثيراً في المباحث العقلية والسمعية التي يذكرها نفاة الصفات من الجهمية وأتباعهم في كتابنا المسمى (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية) [1] ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف كالامام أحمد وغيره على نفي الصفات باسم الواحد قال أحمد قالوا لا تكونوا موحدين أبداً حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء قلنا نحن نقول كان الله ولا شيء ، ولكن اذا قلنا ان الله لم يزل بصفاته كلها أليس انما نصف الهاً واحداً وضربنا لهم في ذلك مثلاً فقلنا أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار وأسمها شيء واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صفاته اله واحد لا نقول انه قد كان في وقت من الأوقات ولم يعلم حتى خلق له علماً ولكن نقول لم يزل عالماً قادراً مالكاً لأمتي ولا كيف ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذي ذكره المفسرون يدل على ذلك فانهم ذكروا أسباباً :

---

(١) كثيراً ما يشير ابن تيمية الى هذا الكتاب وهو رد على الرازي في كتابه « تأسيس التقديس » الذي طبع بعنوان « اساس التقديس » أبطل فيه ابن تيمية قاعدة الرازي في ان الفعل لا يفيد اليقين وصرح بضرورة تقديم العقل على النقل عند مظنة التعارض بينهما .

أحدها : ما تقدم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ أنعت لنا ربك فنزلت هذه السورة .

والثاني : أن عامر بن الطفيل قال للنبي ﷺ الام تدعوننا اليه يا محمد ؟ قال الى الله قال فصفه لي أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد فنزلت هذه السورة ، وروى ذلك عن ابن عباس من طريق أبي ظبيان وأبي صالح عنه .

والثالث : أن بعض اليهود قال ذلك قالوا من أي جنس هو وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فنزلت هذه السورة قاله قتادة والضحاك قال الضحاك وقتادة ومقاتل : جاء من أحبار اليهود الى النبي ﷺ فقالوا يا محمد صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فان الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا به من أي شيء هو ومن أي جنس هو أمن ذهب أم من نحاس هو أم من صفر أم من حديد أم من فضة وهل يأكل ويشرب وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فأنزل الله هذه السورة وهي نسبة الله خاصة .

والرابع : ما روى عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي ﷺ بسبعة أساقفة من بني الحرث بن كعب منهم السيد والعاقب فقالوا للنبي ﷺ : صف لنا ربك من أي شيء هو ؟ قال النبي ﷺ : ان ربي ليس من شيء وهو بائن من الأشياء فأنزل الله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات وهل هو من مادة فبين الله تعالى أنه أحد ليس من جنس شيء من المخلوقات وأنه صمد من مادة بل هو صمد لم يلد ولم يولد واذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى فان المولود من نظير مادته أكمل من مادة ما خلق من مادة أخرى كما خلق آدم من الطين فالمادة التي خلق منها اولاده أفضل من المادة التي خلق منها هو ولهذا كان خلقه أعجب ، فاذ انزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيها وهذا كما أنه اذا كان منزها عن أن يكون أحد كفواً له فلأن يكون منزهاً عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى .

وهذا مما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد على النفي والاثبات ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن فالصمدية تثبت الكمال المنافي للنقائص والأحدية تثبت الانفراد بذلك ، وكذلك إذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد فلأن ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بالطريق الأولى والاحرى واذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن ينزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأخرى والانسان يخرج منه مادة الولد ويخرج منه مادة غير الولد كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك .

وقد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك وأخبر الرسول ﷺ أنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون ، وأنه يخرج منهم مثل رشح المسك وأنهم يجامعون بذكر لا يخفى وشهوة لا تنقطع ولا مني واذا اشتهى أحدهم الولد كان حمله ووضعه في زمن يسير فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد يخرج منه شيء من الأشياء كما يخرج من غيره من المخلوقات وهذا أيضاً من تمام معنى الصمد كما سبق في تفسيره أنه الذي لا يخرج منه شيء وكذلك تنزيه نفسه عن أن يولد فلا يكون من مثله تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأول والأحرى وقد تقدم في حديث أبي بن كعب أنه ليس شيء يولد الا سيموت وليس شيء يموت الا يورث ، والله تعالى لا يموت ولا يورث وهذا رد لقول اليهود ممن ورث الدنيا ولمن يورثها .

وكذلك ما نقل من سؤال النصارى صف لنا ربك من أي شيء هو فقال النبي ﷺ : ان ربي ليس من شيء وهو بائن من الاشياء ، وكذلك سؤال المشركين واليهود أمن فضة هو أم من ذهب هو أم من حديد ؟ وذلك لأن هؤلاء عبدوا الآلهة التي يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها فعباد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة وحديد وغير ذلك وعباد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم أو أمروهم بعبادتهم كالذين يعبدون المسيح وعزيراً وكقوم فرعون الذين قال لهم أنا ربكم الأعلى وما علمت لكم من آله غيري وقال لموسى لئن اتخذت الهاً غيري لأجعلنك من المسجونين .

وكالذي آتاه الله نصيباً من الملك الذي حاج ابراهيم في ربه اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، وكالرجل الذي يدعى الهية وما من خلق آدم الى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال ، وكالذين قالوا : ﴿ لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ود ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ وقد قال غير واحد من السلف ان هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم وذلك أول ما عبدت الأصنام وأن هذه الأصنام صارت الى العرب .

وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد، أما رد فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت ، ونوح أقام في قومه الف سنة الا خمسين عاماً يدعوهم الى التوحيد وهو أول رسول بعثه الله الى أهل الارض كما ثبت ذلك في الصحيح ومحمد خاتم الرسل وكلا

المرسلين بعث الى مشركين يعبدون هذه الاصنام التي صورت على صورة الصالحين من البشر والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين .

وكذلك المشركين من أهل الكتاب ومن مبتدعة هذه الأمة وضلالها هذا غاية شركهم فان النصارى يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الأنس غير عيسى وأمه مثل ماري جرجس وغيره من القداديس ويعبدون تلك الصور ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذي يدعى ويعبد فيظن داعيه أنه قد أتى ويظن أن الله صور ملكاً على صورته فان النصراني مثلاً يدعو في الأسر وغيره ماري جرجس أو غيره فيراه قد أتاه في الهواء وكذلك غيره وقد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد في هذه الأماكن فقال هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه وانما تلك شياطين أضلت المشركين .

وهكذا يحسب كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين الى هذه الأمة فان احدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت أو يستغيث به عند قبره ويسأله وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره أو كلمه ببعض ما سأله عنه ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى ان كان حياً حتى اني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون الى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له هؤلاء يأتون الى هذا الشيخ وهؤلاء يأتون الى هذا الشيخ .

فتارة يكون الشيخ نفسه لم يعلم بتلك القضية فان كان يحب الرياسة سكت وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم وان كان فيه صدق مع جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على صورتي وجعل هذا من كرامات الصالحين وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ومتخذهم ارباباً وأنهم اذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم ولهذا عرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعباد لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه يقول اذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي ويستنجدني ويستوصي ويقول : أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله وتضل أتباعه فتحسن لهم الاشراك بالله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله وأنها قد تلقى في قلبه انا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك فيظن هذا من خطاب الهي ألقي اليه فيأمر أصحابه بذلك .

وأعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه في حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به واعانتهم وغير ذلك فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ ويشعرونه أنه

لم يمت ويرسلون الى أصحابه رسائل بخطاب وقد كان يجتمع بي بعض أتباع هذا الشيخ وكان فيه زهد وعبادة وكان يحبني ويحب هذا الشيخ ويظن أن هذا من الكرامات وأن الشيخ لم يمت وذكر الى الكلام الذي أرسله اليه بعد موته فقرأه فاذا هو كلام الشياطين بعينه .

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي فرأوني في الهواء قد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد مثل من أحاط بهم النصارى الأرمن ليأخذوه وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصمين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ونحو ذلك فذكرت لهم أني ما دريت بما جرى أصلاً وحلفت لهم حتى لا يظنوا أني كتمت ذلك كما تكتم الكرامات وأنا قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع بل هو شرك وبدعة ثم تبين لي فيما بعد وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به .

وحكى لي غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك واستفاض هذا حتى عرف أن هذا من الشياطين تغوي الانسان بحسب الامكان فان كان ممن لا يعرف دين الاسلام أوقعته في الشرك الظاهر والكفر المحض فأمرته أن لا يذكر الله وأن يسجد للشيطان ويذبح له وأمرته أن يأكل الميتة والدم وفعل الفواحش وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض وبلاد فيها كفر واسلام ضعيف ويجري في بعض مدائن الاسلام في المواضع التي يضعف ايمان اصحابها حتى قد جرى ذلك في مصر والشام على أنواع يطول وصفها وهو في أرض الشرق قبل ظهور الاسلام في التتار كثير جداً وكلما ظهر فيهم الاسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم وان كان مسلماً يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش وهذا كثير جداً أكثر من الذي قبله في البلاد التي في أهلها اسلام وجاهلية وبر وفجور وان كان الشيخ فيه اسلام وديانة ولكنه عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ .

قد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات وهو لا يعرف كمال الولاية وأنها الايمان والتقوى واتباع الرسول باطناً وظاهراً أو يعرف ذلك مجملاً ولا يعرف من حقائق الايمان الباطن وشرائع الاسلام الطاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية وبين النفسانية والشيطانية كما أن الرؤ يا ثلاثة أقسام رؤ يا من الله ورؤ يا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ورؤ يا من الشيطان فكذلك الأحوال فاذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد ﷺ أمرته الشياطين بأمر لا ينكره فتارة يحملون أحدهم في الهواء ويقفون به بعرفات ثم يعيدونه الى بلده وهو لابس ثيابه لم يحرم حين حاذى المواقيت ولا كشف رأسه ولا تجرد عما يتجرد عنه المحرم ولا يدعونه بعد الوقوف يطوف طواف الافاضة ويرمي الجمار ويكمل حجه بل يظن أن مجرد الوقوف كما فعل به عبادة وهذا من قلة علمه بدين الاسلام ولو علم دين الاسلام لعلم أن هذا الذي فعله ليس عبادة لله والا من استحل هذا فهو مرتد يجب قتله .

بل اتفق المسلمون على أنه يجب الاحرام عند الميقات ولا يجوز للانسان المحرم اللبس في الاحرام الا من عذر ، وأنه لا يكتفي بالوقوف بل لا بد من طواف الافاضة باتفاق المسلمين بل وعليه أن يفيض الى المشعر الحرام ويرمي جمرة العقبة وهذا مما تنوزع فيه هل هو ركن أو واجب يجبره دم ، وعليه أيضاً رمي الجمار أيام منى باتفاق المسلمين وقد تحمل أحدهم الجن فتزوره بيت المقدس وغيره وتطير به في الهواء وتمشي به في الماء وقد تريه أنه قد ذهب الى مدينة الأولياء وربما أرته أنه يأكل من ثمار الجنة ويشرب من أنهارها .

وهذا كله وأمثاله مما أعرفه قد وقع لمن أعرفه لكن هذا باب طويل ليس هذا موضع بسطه وانما المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عباده البشر الصالحين وعبدوا تماثيلهم وهم المقصودون ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب اما الشمس واما القمر واما غيرهما وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب ، وشرك قوم ابراهيم والله أعلم كان من هذا أو كان بعضه من هذا ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن وضعت الاصنام لأجلهم والا فنفس الاصنام الجمادية لم تعبد لذاتها بل لأسباب اقتضت ذلك وشرك العرب كان أعظمه الأول وكان فيه من الجميع فان عمرو بن لحي هو أول من غير دين ابراهيم عليه السلام وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع ويدفعون بها المضار فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش وكان هو سيد خزاعة .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار أي امعاءه » ، وهو أول من غير دين ابراهيم وسيب السوائب وبحر البحيرة وكذلك والله أعلم شرك قوم نوح وان كان مبدؤه من عبادة الصالحين فالشيطان يجر الناس من هذا الى غيره لكن هذا أقرب الى الناس لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه فيعكفون على قبره ويقصدون ذلك منه فتارة يسألونه وتارة يسألون الله به ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت .

ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبي ﷺ هذا الباب كما سد باب الشرك بالكواكب ، ففي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك » .

وفي الصحيحين عنه أنه ﷺ ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال : « ان أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة ، وفي الصحيحين عنه أنه قال ﷺ في مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا » ، قالت عائشة ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

وفي مسند أحمد وصحيح أبي حاتم عنه أنه قال ﷺ : « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » وفي سنن أبي داود وغيره عنه أنه قال ﷺ : « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا على حيث ما كنتم فان صلاتكم تبلغني » .

وفي موطأ مالك عنه أنه قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وفي صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً الا سويته ولا تمثالاً الا طمسته فأمره بمحو التمثالين الصورة الممثلة على صورة الميت والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره فان الشرك يحصل بهذا وبهذا .

وقد ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان في سفر فرأى قوماً ينتابون مكاناً للصلاة فقال ما هذا فقالوا هذا مكان صلى فيه رسول الله فقال انما هلك من كان قبلكم بهذا أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد من أدركته الصلاة فليصل ولا فليمض ، وبلغه أن قوماً يذهبون الى الشجرة التي بايع النبي ﷺ أصحابه تحتها فأمر بقطعها وأرسل اليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال وعنده مصحف فيه أخبار ما سيكون وأنهم اذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا فأرسل اليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ويدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتنوا به ، فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله وان لم يبن عليها مسجداً كان بناء المساجد عليها أعظم .

[يحرم بناء المساجد على القبور]

كذلك قال العلماء يحرم بناء المساجد على القبور ويجب هدم كل مسجد بني على قبر وان كان الميت قد قبر في مسجد وقد طال مكثه سوى القبر حتى لا تظهر صورته فان الشرك انما يحصل اذا ظهرت صورته ولهذا كان مسجد النبي ﷺ أولاً مقبرة للمشركين وفيها نخل وخرب فأمر فنبشت وبالنخل فقطع وبالخرب فسويت فخرج عن أن يكون مقبرة فصار مسجداً .

ولما كان اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها محرماً ولم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يكن يعرف قط مسجد على قبر وكان الخليل عليه السلام في المغارة التي دفن فيها وهي مسدودة لا أحد يدخل اليها ولا تشد الصحابة الرحال لا اليه ولا الى غيره من المقابر لأن في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدي هذا .

فكأن يأتي من يأتي منهم الى المسجد الاقصى يصلون فيه ثم يرجعون لا يأتون مغارة

الخليل ولا غيرها وكانت مغارة الخليل مسدودة حتى استولى النصارى على الشام في آواخر المائة الرابعة ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجداً وأهل العلم ينكرون ذلك والذي يرويه بعضهم في حديث الاسراء أنه قيل للنبي ﷺ هذه طيبة أنزل فصل فنزل فصلى هذا مكان أبيك أنزل فصلى كذب موضوع لم يصلي النبي ﷺ وتلك الليلة الا في المسجد الاقصى خاصة كما ثبت ذلك في الصحيح ولا نزل الا فيه .

ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصى عددهم الا الله وقدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية شرط عليهم الشروط المعروفة وقدمها مرة ثالثة حتى وصل الى سرغ ومعه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين والانصار فلم يذهب أحد منهم الى مغارة الخليل ولا غيرها من أثار الأنبياء التي بالشام لا بيت المقدس ولا بدمشق ولا غير ذلك مثل الآثار الثلاثة التي بجبل قاسيون في غربية الربوة المضافة الى عيسى عليه السلام وفي شرقية المقام المضاف الى الخليل عليه السلام وفي وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة الى هابيل لما قتله قابيل .

فهذا البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها ولا يزورونها ولا يرجون منها بركة فانها محل الشرك ولهذا توجد فيها الشياطين كثيراً وقد رآهم غير واحد على صورة الانس ويقولون لهم رجال الغيب أنهم رجال من الانس غائبين عن الابصار وانما هم جن والجن يسمون رجالاً كما قال الله تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الانس يعوذن برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ والانس سموا انساً لأنهم يؤنسون أي يرون كما قال : ﴿ اني آنست ناراً ﴾ أي رأيتها ، والجن سموا جناً لاجتنانهم يجتنون عن الابصار أي يستترون كما قال تعالى : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أي استولى عليه فغطاه وستره ، وليس أحد من الانس يستتر دائماً عن أبصار الانس وانما يقع هذا لبعض الانس في بعض الاحوال تارة على وجه الكرامة له وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين ، ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر .

والمقصود هنا أن الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يبنوا قط على قبر نبي ولا رجل صالح مسجداً ولا جعلوه مشهداً ومزاراً ولا على شيء من آثار الانبياء مثل مكان نزل فيه أو صلى فيه أو فعل شيئاً من ذلك لم يكونوا يقصدون بناء مسجد لأجل آثار الانبياء والصالحين ولم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة في مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه بل نزل فيه أو صلى فيه اتفاقاً بما كان أئمتهم كعمر بن الخطاب وغيره ينهى عن قصد الصلاة في مكان صلى فيه رسول الله ﷺ اتفاقاً لا قصداً .

وانما نقل عن ابن عمر خاصة أنه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول الله ﷺ وينزل حيث نزل ويصلي حيث صلى وان كان النبي ﷺ لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل بل حصل

اتفاقاً وكان ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً صالحاً شديد الاتباع فرأى هذا من الاتباع وأما ابوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلي وسائر العشرة وغيرهم مثل ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل ابن عمر وقال الجمهور أصح .

وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل فاذا قصد الصلاة والعبادة في مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة في ذلك المكان متابعة له وأما اذا لم يقصد تلك البقعة فان قصدها يكون مخالفة له مثال الأول لما قصد الوقوف والذكر والدعاء بعرفة ومزدلفة وبين الجمرتين كان قصد تلك البقاع متابعة له وكذلك لما طاف وصلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له وكذلك لما صعد على الصفا والمروة للذكر والدعاء كان قصد ذلك متابعة له .

وقد كان سلمة بن الأكوع يتحرى الصلاة عند الاسطوانة قال لأني رأيت رسول الله ﷺ يتحرى الصلاة عندها فلما رآه يقصد تلك البقعة لأجل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة كذلك لما أراد عتبان ومالك أن يبني مسجداً لما عمى فأرسل الى رسول الله ﷺ قال له أني أحب أن تأتيني تصلي في منزلي فاتخذه مصلى وفي رواية فقال تعالى فخط لي مسجداً فأتى النبي ﷺ ومن شاء من أصحابه وفي رواية فغدا على رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له فلم يجلس حتى دخل البيت فقال أين تحب أن اصلي من بيتك فأشرت له الى ناحية من البيت فقام رسول الله ﷺ فقمنا وراءه فصلى ركعتين ثم صلم الحديث .

فانه قصد أن يبني مسجداً وأحب أن يكون أول من يصلي فيه النبي ﷺ وأن يبنيه في الموضع الذي صلى فيه المقصود كان بناء المسجد وأراد أن يصلي النبي ﷺ في المكان الذي يبنيه فكانت الصلاة مقصودة لأجل المسجد لم يكن بناء المسجد مقصوداً لأجل كونه صلى فيه اتفاقاً ، وهذا المكان مكان قصد النبي ﷺ فيه ليكون مسجداً فصار قصد الصلاة في متابعة له بخلاف ما اتفق أنه صلى فيه بغير قصد وكذلك قصد يوم الاثنين والخميس بالصوم متابعة لأنه قصد صوم هذين اليومين .

وقال في الحديث الصحيح أنه تفتح أبواب الجنة في كل خميس واثنين فغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً الا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا ، وكذلك قصد اتيان مسجد قباء متابعة له فانه قد ثبت عنه في الصحيحين أنه كان يأتي قباء كل سبت راكباً وماشياً وذلك أن الله أنزل عليه : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ وكان مسجده هو الأحق بهذا الوصف ، وقد ثبت في الصحيح أنه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال هو مسجدي هذا يريد أنه أكمل في هذا الوصف من

مسجد قباء ومسجد قباء أيضاً أسس على التقوى وبسببه الآية ولهذا قال : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ .

وكان أهل قباء مع الوضوء والغسل يستنجون بالماء تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود ولم تكن العرب تفعل ذلك فأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يظن ظان أن ذاك هو الذي أسس على التقوى دون مسجده فذكر أن مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوى فقوله لمسجد أسس على التقوى يتناول مسجده ومسجد قباء ويتناول كل مسجد اسس على التقوى بخلاف مساجد الضرار .

ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه ذلك ويرون العتيق أفضل من الجديد لأن العتيق أبعد عن أن يكون بني ضراراً من الجديد الذي يخاف ذلك فيه وعتق المسجد مما يحمد به ولهذا قال : ﴿ ثم محلها الى البيت العتيق ﴾ وقال : ﴿ ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾ فان قدمه يقتضي كثرة العبادة فيه أيضاً وذلك يقتضي زيادة فضله ولهذا لم يستجب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد شيء من المساجد والمزارات ولهذا لم يستحب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد شيء من المساجد والمزارات التي بالمدينة وما حولها بعد مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الا مسجد قباء لأن النبي ﷺ لم يقصد مسجداً بعينه يذهب اليه هو .

وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الانصار مسجد لكن ليس في قصده دون أمثاله فضيلة بخلاف مسجدي قباء فانه أول مسجد بني بالمدينة على الاطلاق وقد قصده الرسول بالذهاب اليه وصح عنه ﷺ أنه قال ومن توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد الا الصلاة فيه كان كعمرة ، ومع هذا فلا يسافر اليه لكن اذا كان الانسان بالمدينة أتاه ولا يقصد انشاء السفر اليه بل يقصد انشاء السفر الى المساجد الثلاثة لقوله ﷺ : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدي هذا » .

ولهذا لو نذر السفر الى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الأئمة الأربعة وغيرهم بخلاف المسجد الحرام فانه يجب الوفاء بالنذر اليه باتفاقهم ، وكذلك مسجد المدينة وبيت المقدس في أصح قولهم وهو مذهب مالك وأحمد والشافعي في أحد قوليه وفي الآخر وهو قول أبي حنيفة ليس عليه ذلك لكنه جائز ومستحب لأن من أصله أنه لا يجب بالنذر الا ما كان واجباً بالشرع والأكثرون يقولون يجب بالنذر كل ما كان طاعة لله كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » .

ويستحب زيارة قبور البقيع وشهداء أحد للدعاء لهم والاستغفار لأن النبي ﷺ كان يقصد ذلك مع أن هذا مشروع لجميع موتى المسلمين كما يستحب السلام عليهم والدعاء لهم

والاستغفار وزيارة القبور بهذا القصد مستحبه وسواء في ذلك قبور الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وكان عبد الله بن عمر اذا دخل المسجد يقول السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبه ثم ينصرف .

وأما زيارة قبور الأنبياء والصالحين لأجل طلب الحاجات منهم أو دعائهم والاقسام بهم على الله أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه في المساجد والبيوت فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك ولا كانوا اذا سلموا على النبي ﷺ يقفون يدعون لأنفسهم ، ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء لأنها من البدع التي لم يفعلها السلف .

واتفق العلماء الأربعة وغيرهم من السلف على أنه اذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة ولا يستقبل قبر النبي ﷺ وأما اذا سلم عليه فأكثرهم قالوا يستقبل القبر مالك والشافعي وأحمد ، وقال ابو حنيفة : بل يستقبل القبلة أيضاً ويكون القبر عن يساره وقيل بل يستدبر القبلة .

ومما يبين هذا الأصل أن رسول الله ﷺ لما هاجر هو وأبو بكر ذهبا الى الغار الذي بجبل ثور ولم يكن على طريقهما بالمدينة فانه من ناحية اليمن والمدينة من ناحية الشام ولكن اختبأ فيه ثلاثاً لينقطع خبرهما عن المشركين فلا يعرفون أين ذهبا فان المشركين كانوا طالبين لهما وقد بذلوا في كل واحد منهما ديته لمن يأتي به وكانوا يقصدون منع النبي ﷺ أن يصل الى أصحابه بالمدينة وأن لا يخرج من مكة بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة فلو سلك الطريق ابتداء لادركوه فأقام بالغار ثلاثاً لأجل ذلك فلو أراد المسافر من مكة الى المدينة أن يذهب الى الغار ثم يرجع لم يكن ذلك مستحباً بل مكروهاً والنبي ﷺ في الهجرة سلك طريق الساحل وهي طويلة وفيها دورة وأما في عمره وحجته فكان يسلك الوسط وهو أقرب الى مكة فسلك في الهجرة طريق الساحل لأنها كانت أبعد عن قصد المشركين فان الطريق الوسطى كانت أقرب الى المدينة فيظنون أنه سلكها كما كان اذا أراد غزوة ورى بغيرها وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما قسم غنائم حنين بالجعرانة اعتمر منها ولما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية وكان قد أنشأ الاحرام بالعمرة من ميقات المدينة ذي الحليفة .

ولما اعتمر من العام القابل عمرة القضية اعتمر من ذي الحليفة ولم يدخل الكعبة في عمره ولا حجته وانما دخلها عام الفتح وكان بها صور مصورة فلم يدخلها حتى محيت تلك الصور وصلى بها ركعتين وصلى يوم الفتح ثمان ركعات وقت الضحى كما روت أم هانىء ولكن لم يقصد الصلاة وقت الضحى الا لسبب مثل أن يقدم من سفر فيدخل المسجد فيصلي فيه ركعتين ومثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلى بالنهار ثنتي عشرة ركعة وكان يصلي بالليل

أحدى عشرة ركعة فصلى ثنتي عشرة ركعة شفعاً لفوات وقت الوتر فانه ﷺ قال المغرب وتر صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل ، وقال اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا وقال صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة .

والمأثور عن السلف أنهم اذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر ولا يؤخرونه الى ما بعد الصلاة ، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما صلى رسول الله ﷺ سبحة الضحى قط واني لأسبحها وان كان ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه أوصى بركعتي الضحى لأبي هريرة ولأبي الدرداء وفيها أحاديث لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة الضحى .

وقال آخرون : لم يصلها الا يوم الفتح فعلم أنه صلاها لأجل الفتح وكانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلي الامام ثماني ركعات شكراً لله ويسمونها صلاة الفتح قالوا لأن الأتباع يعتبر فيه القصد والنبي ﷺ لم يقصد الصلاة لأجل الوقت ولو قصد ذلك لصلى كل يوم أو غالب الأيام كما كان يصلي ركعتي الفجر كل يوم .

وكذلك كان يصلي بعد الظهر ركعتين وقبلها ركعتين أو أربعاً ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاهما بعد العصر وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما قام هو وأصحابه عن صلاة الفجر في غزوة خيبر فصلوا بعد طلوع الشمس ركعتين لم يقل أحد أن هذه الصلاة في هذا الوقت منه دائماً لأنهم انما صلوها قضاء لكونهم ناموا عن الصلاة ولما فاتته العصر في بعض أيام الخندق فصلاها بعد ما غربت الشمس .

وروى أن الظهر فاتته أيضاً فصلى الظهر ثم العصر ثم المغرب لم يقل أحد أنه يستحب أن يصلي بين العشاءين أحد عشر ركعات لأن ذلك كان قضاء بل ولا نقل عنه أحد أنه خص ما بين العشاءين بصلاة ، وقوله تعالى : ﴿ ناشئة الليل ﴾ عند أكثر العلماء هو اذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل وهذا هو الصواب لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هكذا كان يصلي بالليل والأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشائين .

وكذلك أكله ما كان يجد من الطعام ولبيسه الذي يوجد بمدينته طيبة مخلوقاً فيها ومجلوباً اليها من اليمن وغيرها لأنه هو الذي يسره الله فأكله التمر وخبز الشعير وفاكهته الرطب والبطيخ الأخضر والقثاء ، ولبس ثياب اليمن لأن ذلك هو كان الميسر في بلده من الطعام والثياب لا لخصوص ذلك فمن كان ببلد آخر وقوتهم البر والذرة وفاكهتهم العنب والرمان ونحو ذلك وثيابهم مما ينسج بغير اليمن لم يكن اذا قصد أن يتكلف من القوت والفاكهة واللباس ما لبس في بلده بل يتعسر عليهم متبعاً للرسول ﷺ وان كان ذلك الذي يتكلفه تمراً أو رطباً أو خبز شعير

فعلم أنه لا بد في المتابعة للنبي ﷺ من اعتبار القصد والنية « فانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » .

فعلم أن الذي عليه جمهور الصحابة وأكابرهم هو الصحيح ومع هذا فابن عمر رضي الله عنهما لم يكن يقصد أن يصلي الا في مكان صلى فيه النبي ﷺ لم يكن يقصد الى الصلاة في موضع نزوله ومقامه ولا كان أحد من الصحابة يذهب الى الغار المذكور في القرآن للزيارة والصلاة فيه وان كان النبي ﷺ وصاحبه أقاماً به ثلاثاً يصلون فيه الصلوات الخمس ولا كانوا أيضاً يذهبون الى حراء وهو المكان الذي كان يتعبد فيه قبل النبوة وفيه نزل عليه الوحي أولاً وكان هذا مكان يتعبدون فيه قبل الاسلام فان حراء أعلى جبل كان هناك فلما جاء الاسلام ذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى مكة مرات بعد أن أقام بها قبل الهجرة بضع عشرة سنة ومع هذا فلم يكن هو ولا أصحابه يذهبون الى حراء .

ولما حج النبي ﷺ استلم الركنين اليمانيين ولم يستلم الشاميين لأنهم لم يبنيا على قواعد ابراهيم فان أكثر الحجر من البيت والحجر الأسود استلمه وقبله واليماني استلمه ولم يقبله وصلى بمقام ابراهيم ولم يستلمه ولم يقبله فدل ذلك على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة ودل على أن استلام مقام ابراهيم وتقبيله ليس بسنة واذا كان هذا نفس الكعبة ونفس مقام ابراهيم بها فمعلوم أن جميع المساجد حرمتها دون الكعبة وأن مقام ابراهيم بالشام وغيرها وسائر مقامات الانبياء دون المقام الذي قال الله فيه : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ .

فعلم أن سائر المقامات لا تقصد للصلاة فيها كما لا يحج الى سائر المشاهد ولا يتمسح بها ولا يقبل شيء من مقامات الأنبياء ولا المساجد ولا الصخرة ولا غيرها ولا يقبل وجه الأرض الا الحجر الأسود .

وأيضاً فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل بمسجد بمكة الا المسجد الحرام ولم يأت للعبادات الى المشاعر منى ومزدلفة وعرفة للهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجداً بمكة للصلاة غير بالمسجد الحرام ولا تقصد بقعة الزيارة غير المشاعر التي قصدها رسول الله صل الله عليه وآله وسلم واذا كان هذا في آثارهم فكيف بالمقابر التي لعن رسول الله ﷺ من اتخذ مساجد وأخبر أنهم شرار الخلق يوم القيامة ودين الاسلام أنه لا تقصد بقعة لصلاة الا أن تكون مسجداً فقط ولهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرام تقصد للنسك لا للصلاة فلا صلاة بعرفة وانما صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر يوم عرفة بعرفة خطب بها ثم صلى ثم بعد الصلاة ذهب الى عرفات فوقف بها .

وكذلك يذكر الله ويدعى بعرفات وبمزدلفة على قزح وبالصفا والمروة وبين الجمرات وعند

الرمي ولا تقصد هذه البقاع للصلاة وأما غير المساجد ومشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة ولا للذكر ولا للدعاء بل يصلي المسلم حيث أدركته الصلاة لا حيث نهى ويذكر الله ويدعوه حيث تيسر من غير تخصيص بقعة بذلك واذا اتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك كما انهى عن الصلاة في المقبرة الا ما يفعله الرجل عند السلام على الميت من الدعاء له وللمسلمين كما يفعل مثل ذلك في الصلاة على الجنازة فان زيارة قبر المؤمن من جنس الصلاة على جنازته يفعل في هذا من جنس ما يفعل في هذا ويقصد بالدعاء هنا ما يقصد بالدعاء هنا .

ومما يشبه هذا أن الأنصار بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة بالوادي الذي وراء جمرة العقبة لأنه مكان منخفض قريب من منى يستتر من فيه فان السبعين الأنصار نواقد حجوا مع قومهم المشركين وما زال الناس يحجون الى مكة قبل الاسلام وبعده فجاؤا مع قومهم الى منى لأجل الحج ثم ذهبوا بالليل الى ذلك المكان لقربه وستره لا لفضيلة فيه ولم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه .

ولهذا لما حج النبي ﷺ هو وأصحابه لم يذهبوا اليه ولا زاروه وقد بني هناك مسجد وهو محدث وكل مسجد بمكة وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث ومنى نفسها لم يكن بها على عهد النبي ﷺ مسجد مبنى ولكن قال منى مناخ لمن سبق فنزل بها المسلمون وكان يصلي بالمسلمين بمنى وغير منى وكذلك خلفاؤه من بعده واجتماع الحجاج بمنى أكثر من اجتماعهم بغيرها فانهم يقيمون بها أربعة وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر يصلون بالناس بمنى وغير منى وكانوا يقصرون الصلاة بمنى وعرفة ومزدلفة ويجمعون بين الظهر والعصرويين المغرب والعشاء بمزدلفة ويصلى بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة وغير أهل مكة كلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر وكلهم يجمعون بعرفة ومزدلفة .

وقد تنازع العلماء في أهل مكة ونحوهم هل يقصرون أو يجمعون فقيل لا يقصرون ولا يجمعون كما يقول ذلك من يقول من أصحاب الشافعي وأحمد وقيل يجمعون ولا يقصرون كما يقول ذلك أبو حنيفة وأحمد ومن وافقه من أصحابه وأصحاب الشافعي وقيل يجمعون ويقصرون كما قال ذلك مالك وابن عيينة واسحاق بن راهوية وبعض أصحاب أحمد وغيرهم .

وهذا هو الصواب بلا ريب فانه الذي فعله أهل مكة خلف النبي ﷺ بلا ريب يقول النبي ﷺ قط ولا أبو بكر ولا عمر بمنى ولا عرفة ولا مزدلفة يا أهل مكة أتموا صلاتكم فانا قوم سفر ولكن ثبت أن عمر قال ذلك في جوف مكة وكذلك في السنن عن النبي ﷺ أنه قال ذلك في جوف مكة في غزوة الفتح وهذا من أقوى الأدلة على أن القصر مشروع لكل مسافر ولو كان سفره بريدا فان عرفة من مكة بريد أربع فراسخ ولم يصلي النبي ﷺ ولا خلفاؤه بمكة صلاة عيد بل ولا صلى في اسفاره قط صلاة العيد ولا صلى بهم في اسفاره صلاة جمعة يخطب ثم يصلي

ركعتين بل كان يصلي يوم الجمعة في السفر ركعتين كما يصلي في سائر الأيام .

وكذلك لم صلى بهم الظهر والعصر بعرفة صلى ركعتين كصلاته في سائر الايام ولم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة في السفر لا بعرفة ولا بغيرها ولا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة في السفر علم أن الصواب ما عليه سلف الأمة وجماهيرها من الأئمة الأربعة وغيرهم من أن المسافر لا يصلي جمعة ولا غيرها وجمهورهم أيضاً على أنه لا يصلي عيداً وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في احدى الروايتين .

وهذا هو الصواب أيضاً فان النبي ﷺ وخلفاءه لم يكونوا يصلون العيد الا في المقام لا في السفر ولم يكن يصلي صلاة العيد الا في مكان واحد مع الامام يخرج بهم الى الصحراء فيصلي هناك فيصلي المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد كما يصلون الجمعة ولم يكن أحد من المسلمين يصلي صلاة عيد في مسجد قبيلة ولا بيته كما لم يكونوا يصلون جمعة في مساجد القبائل ولا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلي صلاة عيد على عهد النبي ﷺ وخلفائه بل عيدهم بمنى بعد اقاضتهم من المشعر الحرام ورمى جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لسائر أهل الأمصار يرمون ثم ينحرون والنبي ﷺ لما أفاض من منى نزل بالمحصب فاختلف أصحابه هل التحصيب سنة لاختلافهم في قصده هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان اسمح لخروجه .

وهذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم في المتابعة ولما اعتمر عمرة القضية وكانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد وكان المشركون قد قالوا يقدم عليكم قوم قد وهنتهم يثرب وقعد المشركون خلف قيقعان وهو جبل المروة ينظرون اليهم فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ليرى المشركين جلدهم وقوتهم وروى أنه دعا لمن فعل ذلك ولم يرملوا بين الركعتين لأن المشركين لم يكونوا يرونهم من ذلك الجانب فكان المقصود بالرمل اذ ذلك من جنس المقصود بالجهاد .

فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك لأنه فعل لقصد وزال لكن ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ وأصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الأسود الى الحجر الأسود فكملوا الرمل بين الركعتين وهذا قدر زائد على ما فعلوه في عمرة القضية وفعل ذلك في حجة الوداع مع الأمن العام فانه لم يحج معه الا مؤمن فدل ذلك على أن الرمل صار من السنة الحج فانه فعل أولاً لمقصود الجهاد ثم شرع نسكاكما روى في سعى هاجر وفي رمى الجمار وفي ذبح الكبش أنه فعل أولاً لمقصود ثم شرعه الله نسكاً وعبادة .

لكن هذا يكون اذا شرع ذلك وأمر به وليس لأحد أن يشرع ما لم يشرعه الله كما لو قال قائل أنا أستحب الطواف بالصخرة سبعاً وكما يطاف بالكعبة أو أستحب أن أتخذ من مقام موسى وعيسى مصلى كما أمر الله أن يتخذ من مقام ابراهيم مصلى ونحو ذلك لم يكن له ذلك

لأن الله تعالى يختص ما يختصه من الأعيان والأفعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه أما لمعنى يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم وأما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم كما خص الكعبة بأن يحج اليها ويطاف بها وكما خص عرفات بالوقوف بها وكما خص منى برمى الجمار بها وكما خص الأشهر الحرم بتحريمها وكما خص شهر رمضان بصيامه وقيامه الى أمثال ذلك .

وابراهيم ومحمد كل منهما خليل الله فانه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً وقد ثبت في الصحيح أن رجلاً قال للنبي ﷺ يا خير البرية قال ذاك ابراهيم فابراهيم أفضل الخلق بعد محمد ﷺ وقوله ذاك ابراهيم تواضع منه فانه قد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة ولا فخر » .

الى غير ذلك من النصوص المبينة أنه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه : ﴿ اني جاعلك للناس اماماً ﴾ وهو الأمة أي القدوة الذي قال الله فيه : ﴿ ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ﴾ وهو الذي بوأه الله مكان البيت وأمره أن يؤذن في الناس بالحج اليه وقد حرم الله الحرم على لسانه واسماعيل نبأه معه وهو الذبيح الذي بذل نفسه لله وصبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة في غير بهذا الموضع وأمه هاجرهي التي أطاعت الله ورسوله ابراهيم في مقامها مع ابنها في ذلك الوادي الذي لم يكن به أنيس كما قال الخليل : ﴿ ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ .

وكان لابراهيم ولآل ابراهيم من محبة الله وعبادته والايمان به وطاعته ما لم يكن لغيرهم فخصهم الله بأن جعل لبيته الذي ينوه له خصائص لا توجد لغيره وجعل ما جعله من أفعاله قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ولا ريب أن الله شرع لابراهيم السعي ورمي الجمار والوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر واسماعيل وقصة الذبح وغير ذلك ما كان كما شرع لمحمد الرمل في الطواف حيث أمره أن ينادي في الناس بحج البيت والحج مبناه على الذل والخضوع لله ولهذا خص باسم النسك والنسك في اللغة العبادة .

[معنى النسك]

قال الجوهري : النسك العبادة والناسك العابد وقد نسك وتنسك أي تعد ونسك بالضم أي صار ناسكاً ثم خصَّ الحج باسم النسك لأنه أدخل في العبادة والذل لله من غيره ولهذا كان فيه من الأفعال ما لا يقصد فيه الا مجرد الذل لله والعبادة له كالسعي ورمي الجمار قال النبي ﷺ : « انما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة الاقامة ذكر الله » رواه الترمذي

وخص بذلك الذبح الفداء أيضاً دون مطلق الذبح لأن اراقة الدم لله أبلغ في الخضوع والعبادة له ولهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتي نار من السماء فتأكله ولهذا قال تعالى : ﴿ الذين قالوا لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين ﴾ .

وكذلك كانوا اذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضاً لله لا للمغنم ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم وأمة محمد ﷺ وسع الله عليهم لكمال يقينهم واخلاصهم وأنهم يقاتلون لله ولو أكلوا المغنم ويذبحون لله ولو أكلوا القربان ولهذا كان عباد الشيطان والاصنام يذبحون لها الذبائح أيضاً فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ولا أن يسمى غير الله على الذبائح وحرم سبحانه ما ذبح على النصب وهو ما ذبح لغير الله وما سمى عليه غير اسم الله وان قصد به اللحم لا القربان .

ولعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذبح لغير الله ونهى عن ذبائح الجن وكانوا يذبحون للجن بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقاً كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع وقد قال تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي انحر لربك كما قال الخليل : ﴿ ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ .

وقد قال هو واسماعيل اذ يرفعان القواعد من البيت ﴿ ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ﴾ فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ وقال : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ﴾ وقال : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤ ها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ﴾ .

فالمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ما سواه بغاية العبودية له والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والاخلاص وهذه مسألة ابراهيم الخليل وهذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل كما قال النبي ﷺ : « ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

والنية والقصد هي عمل القلب فلا بد في المتابعة للرسول ﷺ من اعتبار النية والقصد ومن هذا الباب أن النبي ﷺ لما احتجم وأمر بالحجامة وقال في الحديث الصحيح « شفاء أمتي في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وما أحب أن اكتوى » كان معلوماً أن المقصود بالحجامة اخراج الدم الزائد الذي يضر البدن فهذا هو المقصود وخص الحجامة لأن البلاد الحارة يخرج الدم فيها الى سطح البدن فيخرج بالحجامة فلهذا كانت الحجامة في الحجاز ونحوه

من البلاد الحارة يحصل بها مقصود استفراغ الدم وأما البلاد الباردة فالدم يغور فيها الى العروق فيحتاجون الى قطع العروق بالفصاد .

وهذا أمر معروف بالحس والتجربة فانه في زمان البرد تسخن الاجواف وتبرد الظواهر لأن شبيه الشيء منجذب اليه فاذا برد الهواء برد ما يلاقيه من الابدان والأرض فيهرب الحر الذي فيها من البرد والمضاد له الى الاجواف فيسخن باطن الأرض وأجواف الحيوان ويأوي الحيوان في الأكنان الدافية ولقوة الحرارة في باطن الانسان يأكل في الشتاء وفي البلاد الباردة أكثر مما يأكل في الصيف وفي البلاد الحارة لأن الحرارة تطبخ الطعام وتصرفه ويكون الماء النابع في الشتاء سخناً لسخونة جوف الأرض والدم سخن فيكون في حوف العروق لافي سطح الجلد فلو احتجم لم ينفعه ذلك بل قد يضره وفي الصيف والبلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم في الشتاء ويكون الماء النابع بارداً لبرودة باطن الأرض وتظهر الحيوانات الى البر أي لسخونة الهواء فهؤلاء قد لا ينفعهم الفصاد بل قد يضرهم والحجامه أنفع لهم .

وقوله : « شفاء أمتي » اشارة الى من كان حينئذ من أمته وهم كانوا بالحجاز كما قال ما بين المشرق والمغرب قبلة لأن هذا كان قبلة أمتي حينئذ لأنهم كانوا بالمدينة وما حولها وهذا كما أنه في آخر الأمر بعد أن فرض الحج سنة تسع أو سنة عشرة وقت ثلاث مواقيت للمدينة ولنجد وللشام ولما فتح اليمن وقت لهم يلملم ثم وقت ذات عرق لأهل العراق وكذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعاً من ثمر أو صاعاً من شعير عن كل صغير وكبير ذكراً وأنثى من المسلمين وكان هذا هو الفرض على أهل المدينة لأن الشعير والتمر كان قوتهم .

ولهذا كان جماهير العلماء على أنه من اقتات الارز والذرة ونحو ذلك يخرج من قوته وهو احدى الروايتين عن أحمد وهل يجزيه ان يخرج التمر والشعير اذا لم يكن يقتاته فيه قولان للعلماء وكان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التي تشبه قوس الندف وفتح الله لهم بها البلاد وقد رويت آثار في كرامة الرمى بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار فأما بعد أن اعتادها المسلمون وكثرت فيهم وهي في أنفسها أنفع في الجهاد من تلك القوس فلا تكره في أظهر قول العلماء أو قول أكثرهم لأن الله تعالى قال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ .

والقوة في هذا أبلغ بلا ريب والصحابة لم تكن هذه عندهم فضلوا عنها الى تلك بل لم يكن لهم غيرها فينظر في قصدهم بالراي أكان لحاجة اليها اذ ليس لهم غيرها أم كان لمعنى فيها ومن كره الرمى بها كرهه لمعنى لازم كما يكره الكفر وما يستلزم الكفر أم كرهها الكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبيه بهم وهذا كما أن الكفار من اليهود والنصارى اذا لبسوا ثوب الغيار

من أصفر وأزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم وان كان لو خلا عن ذلك لم يكره وفي بلاد لا يلبس هذه الملابس عندهم الا الكفار فنهى عن لبسها والذين اعتادوا ذلك من المسلمين لا مفسدة عندهم في لبسها .

ولهذا كره أحمد وغيره لباس السواد لما كان في لباسه تشبه بمن يظلم أو يعين على الظلم وكره بيعه لمن يستعين بلبسه على الظلم فأما اذا لم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه وكره من كره من الصحابة والتابعين بيع الأرض الخراجية لأن المشتري لها اذا أدى الخراج عنها أشبه أهل الذمة في التزام الجزية فان الخراج جزية الأرض وان لم يؤدها ظلم الناس باسقاط حقهم من الأرض لم يكرهوا بيعها لكونها وقفاً فان الوقف انما منع من بيعه لأن ذلك يبطل الوقف ولهذا لا يباع ولا يوهب ولا يورث والأرض الخراجية تنتقل الى الوارث باتفاق العلماء ويجوز هبتها والمتهب والمشتري يقوم فيها مقام البائع فيؤدي ما كان عليه من الخراج وليس في بيعها مضرة لمستحقي الخراج كما في بيع الوقف .

وقد غلط كثير من الفقهاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكونها وقفاً واشتبه عليهم الأمر لأنهم رأوا الآثار مروية في كراهة بيعها وقد عرفوا أن عمر جعلها فيئاً لم يقسمها قط وذلك في معنى الوقف فظنوا أن بيعها مكروه لهذا المعنى ولم يتأملوا حتى التأمل فيرون أن هذا البيع ليس هو من جنس البيع المنهي عنه في الوقف فان هذه يصرف مغلها الى مستحقها قبل البيع وبعده وعلى حد واحد ليست كالدار التي اذا بيعت تعطل نفعها عن أهل الوقف وصارت للمشتري .

وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا مكة اما كره بيع رباعها لكونها فتحت عنوة ولم تقسم أيضاً وهم قد قالوا مع جميع الناس أن الأرض العنوة التي جعلت أرضاً فيئاً يجوز بيع مساكنها ، والخراج انما جعل على المزارع لاعلى المساكن فلو كانت مكة قد جعلت أرضها للمسلمين وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها كذلك فيكف ومكة أقرها النبي ﷺ بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعها ولم يقسمها ولم يضرب عليها خراجاً .

ولهذا قال من قال أنها فتحت صلحاً ولا ريب أنها فتحت عنوة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة لكن النبي ﷺ أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل الا من قاتله ولم يسب لهم ذرية ولا غنم لهم مالاً ، ولهذا سموا الطلقاء وأحمد وغيره من السلف انما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين كما قال تعالى : ﴿ والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ .

وهذه أي العلة التي اختصت بها مكة دون سائر الأمصار فان الله أوجب حجها على جميع الناس وشرع اعتمادها دائماً فجعلها مشتركة بين جميع عباده كما قال : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر من سبق الى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه

كالمساجد ومكة نفسها من سبق الى مكان فهو أحق به والانسان أحق بمساكنه ما دام محتاجاً اليها وما استغنى عنه من المنافع فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج وغيرهم ، ولهذا كانت الأقوال في اجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة قبل لا يجوز لا هذا ولا هذا وقيل يجوز الأمران ، والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ولا يجوز اجارتها .

وعلى هذا تدل الآثار المنقولة في ذلك عن النبي ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم فان الصحابة كانوا يتبايعون دورها والدور تورث وتوهب اذا كانت تورث وتوهب كجاز أن تباع بخلاف الوقف فانه لا يباع ولا يورث ولا يوهب . وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لا يجوز هبتها ولا أن تورث ، وأما اجازتها فقد كانت تدعى السوائب على عهد النبي ﷺ . وأبي بكر . وعمر من احتاج سكن ومن استغنى أسكن لأن المسلمين كلهم محتاجون الى المنافع فصارت كمنافع الأسواق والمساجد والطرقات التي يحتاج اليها المسلمون فمن سبق الى شيء منها فهو أحق به وما استغنى عنه أخذه غيره بلا عوض .

وكذلك المباحات التي يشترك فيها الناس ويكون المشتري لها استفاد بذلك أنه أحق من غيره ما دام محتاجاً واذا باعها الانسان قطع اختصاصه بها وتوريثه اياها وغير ذلك من تصرفاته ، وهذا له أن لا يبذله الا بعوض والنبي ﷺ من على أهل مكة فان الأسير يجوز المن عليه للمصلحة وأعطاهم مع ذلك ذراريهم وأموالهم كما من على هوازن لما جاؤا مسلمين باحدى الطائفتين السبي أو المال فأعطاهم السبي كان ذلك بعد القسمة ، فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم ، وقريش لم تحاربه كما حاربته هوازن وهو انما من على من لم يقاتله منهم كما قال : « من أغلق بابه فهو آمن ومن القى سلاحه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

فلما كف جمهورهم عن قتاله وعرف أنهم مسلمون أطلقهم ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم ولم يضرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم بل سماهم الطلقاء من قريش بخلاف ثقيف فانهم سموا العتقاء فانه أعتق أولادهم بعد الاسترقاق والقسمة وكان في هذا ما دل على أن الامام يفعل بالأموال والرجال والعقار والمنقول ما هو أصلح فان النبي ﷺ فتح خيبر فقسمها بين المسلمين وسبي بعض نسائها وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك فلم يسترقهم ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة .

[خلاف العلماء في الأرض تفتح عنوة]

وقد تنازع العلماء في الأرض اذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخيبر لأنها مغنم أو تصير فيئاً كما دلت عليه سورة الحشر وليست الأرض من المغنم أو يخبر الامام فيما بين هذا وهذا على

ثلاثة أقوال وأكثر العلماء على التخيير وهو الصحيح وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وغيرهما ، ولو فتح الامام بلداً وغلب على ظنه أن أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم كما فعل النبي ﷺ بأهل مكة فانهم أسلموا كلهم بلا خلاف بخلاف أهل خيبر فانه لم يسلم منهم أحد فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفاراً مصرين على الكفر ، وهؤلاء تركها لهم لأنهم كلهم صاروا مسلمين .

والمقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله وقد كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم ليتألفهم على الاسلام فكيف لا يتألفهم بابقاء ديارهم وأموالهم وهم لما حضروا معهم حنيناً أعطاهم من غنائم حنين ما تألفهم به حتى عتب بعض الأنصار كما في الصحيحين عن أنس بن مالك « أن ناساً من الانصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الابل فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم .

قال أنس : فحدث ذلك النبي ﷺ من قولهم فأرسل رسول الله ﷺ الى الانصار فجمعهم في قبة من أدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال ما حديث بلغني عنكم فقال له فقهاء الأنصار أما ذور رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله ﷺ : فاني أعطى رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون الى رحالكم برسول الله فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يا رسول الله قد رضينا قال فانكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فاني على الحوض قالوا سنصبر ، وفي رواية : لو سلك الناس وادياً أو شعباً وسلكت الانصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الانصار وشعبهم الناس دثار والانصار شعار ولولا الهجرة لكنت أمرءاً من الأنصار وحدثهم حتى بكوا رضي الله تعالى عنهم .

فهذا كله بذل وعطاء لأجل اسلام الناس وهو المقصود بالجهاد ومن قال أن الامام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقاً فقوله في غاية الضعف مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر وليس معه حجة واحدة توجب ذلك فان قسمة النبي ﷺ خيبر تدل على جواز ما فعل لا تدل على وجوبه اذ الفعل لا يدل بنفسه على الوجوب وهو لم يقسم مكة ولا شك أنها فتحت عنوة وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الأحاديث .

وكذلك المنقول من قال أنه يجب قسمة كله بالتسوية بين الغانمين في كل غزاة فقوله ضعيف بل يجوز فيه التفضيل للمصطلحة كما كان النبي ﷺ يفضل في كثير من المغازي والمؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان

أحدهما أنه من الخمس والثاني أنه من أصل الغنيمة وهذا أظهر فان الذي أعطاهم قولان
أحدهما أنه من الخمس والثاني أنه من أصل الغنيمة وهذا أظهر فان الذي أعطاهم اياه هو شيء كثير لا يحتمله الخمس ومن قال العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الأمر ولم يقل هذا أحد من المتقدمين وهذا مع قوله ليس لي مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم هذا لأن المؤلفة قلوبهم كانوا من العسكر ففضلهم في العطاء للمصلحة كما كان يفضلهم فيما يقسمه من الفيء للمصلحة .

وهذا دليل على أن الغنيمة للامام أن يقسمها باجتهاده كما يقسم الفيء باجتهاده اذا كان امام عدل قسمها بعلم وعدل ليس قسمتها بين الغانمين كقسمة الميراث بين الورثة وقسمة الصدقات في الأصنام الثمانية ولهذا قال في الصدقات أن الله لم يرض فيها بقسمة نبي ولا غيره ولكن جعلها ثمانية أصناف فان كنت من تلك الاصناف أعطيتك فعلم أن ما أفاء الله من الكفار بخلاف ذلك ، وقد قسم النبي ﷺ من خيبر لأهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ولم يقسم لأحد غاب منها غيرهم وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان وكان قد أقام بالمدينة وهؤلاء الذين كانوا يريدون القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها في جهاده .

وأيضاً أهل السفينة وطلحة والزبير وعصمان لم يكونوا كغيرهم وللقتال لم يكن لأجل الغنيمة فليست الغنيمة كمباح اشترك فيه ناس مثل الاحتشاش والاحتطاب والاصطياد فان ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال بخلاف الغنيمة بل من قاتل فيها لأجل المال لم يكن مجاهداً في سبيل الله ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلتها (وأبيحت لنا معونة على مصلحة الدين) .

فالغنائم أبيحت لمصلحة الدين وأهله فمن كان قد نفعل المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم جعل منهم وان لم يحضر ، ولهذا قال النبي ﷺ المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ويرد متسريهم على قاعدهم فان المستري انما تسري بقوة القاعد فالمعاونون للمجاهدين من المجاهدين .

ولبسط هذه الأمور موضع آخر ، والمقصود هنا ذكر متابعة النبي ﷺ وهو أنه يعتبر فيه متابعته في قصده مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة وأما اذا صلى فيه اتفاقاً من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سنة ولهذا لم يكن جمهور الصحابة يقصدون مشابهته في ذلك وابن عمر رضي الله عنهما مع أنه كان يحب مشابهته في ظاهر العمل لم يكن يقصد الصلاة الا في الموضع الذي صلى فيه لا في كل موضع نزل به .

ولهذا رخص أحمد بن حنبل في ذلك اذا كان شيئاً يسيراً كما فعله ابن عمر ونهى عنه رضي الله عنه اذا كثر لأنه يفضي الى المفسدة وهي اتخاذ آثار الانبياء مساجد وهي التي تسمى

المشاهد وما أحدث في الاسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهي من البدع المحدثة في الاسلام من فعل من لم يعرف شريعة الاسلام وما بعث الله به محمداً ﷺ من كمال التوحيد واخلاص الدين لله وسد أبواب الشرك التي يفتحها الشيطان لبني آدم .

ولهذا يوجد من كان أبعد عن التوحيد واخلاص الدين لله ومعرفة دين الاسلام هم أكثرهم تعظيماً لمواضع الشرك فالعارفون بسنة رسول الله ﷺ وحديثه أولى بالتوحيد واخلاص الدين لله وأهل الجهل بذلك أقرب الى الشرك والبدع ولهذا يوجد ذلك في الرافضة أكثر مما يوجد في غيرهم لأنهم أجهل من غيرهم وأكثر شركاً وبدعاً ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من غيرهم ويخربون المساجد أكثر من غيرهم فالمساجد لا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ولا يصلون فيها أن صلوا الا أفذاذاً وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد حتى يرون أن زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام ويسمونها الحج الأكبر .

وصنف ابن المفيد منهم كتاباً سماه مناسك حج المشاهد وذكر فيه من الأكاذيب والأقوال ما لا يوجد في سائر الطوائف وان كان في غيرهم أيضاً نوع من الشرك والكذب والبدع لكن هو فيهم أكثر وكلما كان الرجل اتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله واخلاصاً له في الدين واذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك فاذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه الى اتباع الرسول والله انما أمر في كتابه وسنة رسوله بالعبادة في المساجد والعبادة فيها أي عمارتها .

قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ ولم يقل مشاهد الله وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ ولم يقل عند كل مشهد فان أهل المشاهد ليس فيهم اخلاص الدين لله بل فيهم نوع من الشرك ، وقال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقاموا الصلاة ﴾ الآيات .

وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان ثم قرأ هذه الآية فان المراد بعمارتها عمارتها بالعبادة فيها كالصلاة والاعتكاف يقال مدينة عامرة اذا كانت مسكونة ومدينة خراب اذا لم يكن فيها ساكن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله ﴾ .

وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن يبنيها البر والفاجر والمسلم والكافر وذلك يسمى بناء كما قال النبي ﷺ : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » فبين الله تعالى أن المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر وبين انما يعمرها من آمن بالله

واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله وهذه صفة أهل التوحيد واخلاص الدين لله الذين لا يخشون الا الله ولا يرجون سواه ولا يستعينون الا به ولا يدعون الا اياه وعمار المشاهد يخافون غير الله ويرجون غيره ويدعون غيره وهو سبحانه لم يقل انما يعمر مشاهد الله فان المشاهد ليست بيوت الله انما هي بيوت النمرك .

[ذم زيارة المشاهد]

ولهذا ليس في القرآن آية فيها مدح المشاهد ولا عن النبي ﷺ في ذلك حديث وانما ذكره الله عمن كان قبلنا أنهم بنوا مسجداً على قبر أهل الكهف وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال ﷺ : في الحديث الصحيح أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انهاكم عن ذلك .

ففي هذا الحديث ذم أهل المشاهد وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة كما قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا وقال أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم أو أكثرها كذب فان الشرك مقرون بالكذب في كتاب الله كثيراً قال تعالى : ﴿ واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .

وقال النبي ﷺ : « عدلت شهادة الزور الاشراك بالله » قالها ثلاثاً وذلك كالمشهد الذي بني بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم ورأس الحسين لم يحمل الى هناك أصلاً وأصله في عسقلان ، وقد قيل أنه كان رأس راهب ورأس الحسين لم يكن بعسقلان وانما أحدث هذا في آواخر دولة الملاحدة بني عبيد وكذلك مشهد على رضي الله عنه انما حدث في دولة بني بويه .

وقال محمد بن عبد الله مطين الحافظ وغيره انما هو قبر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وعلي رضي الله عنه انما دفن في قصر الامارة وبالكوفة ودفن معاوية بقصر الامارة بدمشق ودفن عمرو بن العاص بقصر الامارة بمصر خوفاً عليهم اذا دفنوا في المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج المارقون فان الخوارج كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة فقتل ابن ملجم علياً وجرح صاحبه معاوية وعمرو كان استخلف رجلاً اسمه خارجة فقتله الخارجي وقال أردت عمراً وأراد الله خارجة فسارت مثلاً .

فالمقصود أن هذا المشهد انما أحدث في دولة الملاحدة دولة بني عبيد وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاضدة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثيرة ولهذا كان في زمنهم قد تضعضع الاسلام تضعضعاً كثيراً ودخلت النصارى الى الشام فان بني عبيد ملاحدة منافقون

ليس لهم غرض لا في الله ولا في رسوله ولا في الجهاد في سبيل الله بل في الكفر والشرك ومعاداة الاسلام بحسب الامكان واتباعهم كلهم أهل بدع وضلال فاستولت النصارى في دولتهم على أكثر الشام ثم قيض الله من ملوك السنة مثل نور الدين وصلاح الدين وأخوته وأتباعهم ففتحوا بلاد الاسلام وجاهدوا الكفار والمنافقين .

ونهى النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها وان كان المسلم المصلي لا يقصد السجود لها لكن سد الذريعة لئلا يتشبه بالمشركين في بعض الأمور التي يختصون بها فيفضي الى ما هو شرك ولهذا نهى عن تحري الصلاة في هذين الوقتين ،هذا لفظ ابن عمر الذي في الصحيحين فقصد الصلاة فيهما منهى عنه .

وأما اذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله مثل تحية المسجد وصلاة الكسوف وسجود التلاوة وركعتي الطواف واعادة صلاة مع امام الحي ونحو ذلك فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء والاظهر جواز ذلك واستحبابه فانه خير لا شر فيه وهو يفوت اذا ترك وانما نهى عن قصد الصلاة وتحريها في ذلك الوقت لما فيه من مشابهته الكفاء بقصد السجود ذلك الوقت فما لا سبب له قد قصد فعله في ذلك الوقت وان لم يقصد الوقت بخلاف ذي السبب فانه فعل لأجل السبب فلا تأثير فيه للوقت بحال .

ونهى النبي ﷺ عن الصلاة في المقبرة عموماً فقال الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام رواه أهل السنن وقد روى مسنداً ومرسلاً وقد صحح الحفاظ أنه مسند فان الحمام مأوى الشياطين والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور مساجد وان كان المصلي قد لا يقصد الصلاة لأجل فضيلة تلك البقعة بل اتفق ولكن فيه تشبه بمن يقصد ذلك فنهى عنه كما ينهى عن الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب وان لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما فيه من التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون فنهيه عن الصلاة في هذا الزمان كنهيه عن الصلاة في ذلك المكان فلما كان الشرك الذي أضل أكثر بني آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم فان المشركين قد اعتادوا آلهة يلدون ويولدون ويرثون ويورثون ويكونون من شيء من الاشياء فسألوا النبي ﷺ عن آلهه الذي يعبده من أي شيء هو أمن كذا أم من كذا وممن ورث الدنيا ولمن يورثها ؟ فقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وفي حديث أبي بن كعب لأنه ليس أحد يولد الا يموت ولا أحد يرث الا يورث يقول كل من عبد من دون الله وقد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ومثل الفراعنة المدعين الآلهية فهذا مولود يموت وهو وان كان ورث من غير ما هو فيه فاذا مات ورثه غيره والله سبحانه حي لا يموت ولا يورث سبحانه تعالى .

سورة الفلــق

وقـال شيخ الاسـلام

ناصر السنة قامع البدعة تقي الدين احمد بن تيمية نفعنـا المولى بعلومـه ـ وهو ممـا كتبه في القلعة ـ

فصـــــل

في ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ .

قـال تعالى : ﴿ فـالق الحب والنـوى ﴾ وقـال تعـالى : ﴿ فـالق الاصبـاح وجعـل الليـل سكنا ﴾ والفلق : فعل بمعنى مفعول ، كالقبض بمعنى المقبوض ما فلقـه الرب فهـو فلق ، وقال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء : كالصبح ، والحب، والنوى .

قـال الزجـاج : واذا تـأملت الخلق بـان لـك ان أكثـره عن انفـلاق كـالارض بـالنبـات والسحاب بالمطر .

وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح ، فانه يقال هذا أبين من فلق الصبح ، وفرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله ، واما من قال : انه واد في جهنم او شجرة في جهنم ، او انه اسم من أسماء جهنم ، فهـذا أمر لا تعـرف صحته ، لا بـدلالة الاسم عليـه ، ولا بنقل عن النبي ﷺ ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمه . بخلاف مـا اذا قال رب الخلق ، او رب كـل ما انفلق ، أو رب النـور الذي يـظهره عـلى العبـاد المستعـاذ بـه ، واذا قيـل : الفلق يعم ويخص . فبعمومه للخلق استعيذ من شر ما خلق ، وبخصوصه للنور النهـاري استعيذ من شـر غاسق اذا وقب .

فان الغاسق قد فسر بالليل ، كقوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ﴾ وهذا قول أكثر المفسرين ، وأهل اللغة . قالوا : ومعنى ﴿ وقب ﴾ دخل في كل شيء . قال الزجاج : ﴿ الغاسق ﴾ البارد ، وقيل الليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار ، وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة : « ان النبي ﷺ : نظر الى القمر فقال : يا عائشة تعوذي بالله من شره ، فانه الغاسق اذا وقب » وروى من حديث ابي هريرة مرفوعاً : « أن الغاسق النجم » وقال ابن زيد هو الثريا ، وكانت الاسقام والطواعين تكثير عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل ، فجعلوها قولاً آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه .

قال ابن قتيبة : ويقال الغاسق القمر اذا كسف واسود . ومعنى وقب دخل في الكسوف ، وهذا ضعيف ، فان ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول الا الحق ، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه ، بل مع ظهوره ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ فالقمر آية الليل . وكذلك النجوم انما تطلع فترى بالليل ، فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ، ودليله وعلامته ، والدليل مستلزم للمدلول ، فاذا كان شر القمر موجوداً فشر الليل موجود ، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره ، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى ، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى : « هو مسجدي هذا » مع ان الآية تتناول مسجد قباء قطعاً . وكذلك قوله عن أهل الكساء : « هؤلاء أهل بيتي » مع ان القرآن يتناول نساءه ، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف ، فالقمر احق ما يكون بالليل بالاستعاذة والليل مظلم ، تنتشر فيه شياطين الانس والجن ما لا تنتشر بالنهار ، ويجري فيه من انواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك ، فالشر دائماً مقرون بالظلمة ، ولهذا انما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم ، لكن شياطين الانس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار ، ويتوسلون بالقمر وبدعوته ، والقمر وعبادته ، وابو معشر البلخي له « مصحف القمر » يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه .

فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموما ، ثم خص الامر بالاستعاذة من شر الغاسق اذا وقب ، وهو الزمان الذي يعم شره ، ثم يخص بالذكر السحر ، والحسد .

فالسحر يكون من الانفس الخبيثة ، لكن بالاستعانة بالاشياء كالنفث في العقد ، والحسد يكون من الانفس الخبيثة أيضاً ، اما بالعين ، واما بالظلم لا باللسان واليد ، وخص من السحر النفاثات في العقد ، وهن النساء ، والحساد الرجال في العادة ، ويكون من الرجال ومن النساء .

والشر الذي يكون من الانفس الخبيثة من الرجال والنساء : هو شر منفصل عن الانسان ، ليس هو في قلبه كالوسواس الخناس .

وفي سورة الناس ذكر ﴿ الوسواس ، الخناس ﴾ فانه مبدأ الافعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان ، ففيها الاستعاذة من شر ما يدخل الانسان من الافعال التي تضره من الكفر والفسوق والعصيان ، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه .

وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً ، ولهذا قيل فيها برب الفلق ، وقيل في هذه برب الناس ، فان فالق الاصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فان فلق الحب والنوى اعظم من حل عقد النفاثات ، وكذلك الحسد هو من ضيق الانسان وشحه لا ينشرح صدره لانعام الله عليه ، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه ، وهو سبحانه لا يفلق شيئاً الا بخير ، فهو فالق الاصباح بالنور الهادي والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد ، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والاقوات التي هي رزق الناس ودوابهم ، والانسان محتاج الى جلب المنفعة من الهدى والرزق وهذا حاصل بالفلق ، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس ، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بانعامه عليه ، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة ، واخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، وهذا من نوع الفلق ، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع .

سورة النـاس

وقـال رحمـه اللـه :

فصـــــل

في ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ الى آخرها . قـوله : ﴿ من شـر الوسـواس الخناس الـذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ فيها أقوال ، ولم يذكر ابن الجوزي الا قولين، ولم يذكر الثالث وهو الصحيح ، وهو أن قوله من الجنـة والناس في صـدور الناس ، فـان الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القـول غروراً ، وايحاؤهم هو وسوستهم ، وليس من شرط الموسوس ان يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يشاهد ، قال تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيـطان ليبدي لهـما ما ووری عنهـما من سوآتهما وقال مانهاكمـاربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقـاسمهما اني لكـما لمن الناصحين ﴾ وهذا كلام من يعـرف قائله ، ليس شيئاً يلقى في القلب لا يدري ممن هـو ، وابليس قد أمر بالسجود لآدم فابى واستكبر ، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم ، وهو ونسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم ، وأما آدم فقد رآه .

وقـد يرى الشيـاطين والجن كثير من الانس ، لكن لهم من الاجتنان والاستتـار مـا ليس للانس . وقد قـال تعالى : ﴿ واذا زين لهم الشيـطان اعمالهم وقـال : لا غالب لكم اليـوم من النـاس واني جار لكم ، فلما تـراءت الفئتان نكص عـلى عقبيه ، وقـال اني بـريء منكم ﴾ وفي التفسـير والسيرة : ان الشيـطان جاءهم في صـورة بعض الناس ، وكـذلـك قـولـه : ﴿ كمثـل الشيطان اذ قال للانسان اكفر . فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين ﴾ .

وفي حديث أبـي ذر عـن الرسول ﷺ : « نعوذ بالله من شياطين الانس والجن ، قلت : أو للانس شياطين ؟ قال : نعم شر من شياطين الجن » .

وأيضاً فالنفس لها وسوسة كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ فهذا توسوس به نفسه لنفسه ، كما يقال حديث النفس ، قال النبي ﷺ : « ان الله تجاوز لامتي عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » اخرجاه في الصحيحين .

فالذي يوسوس في صدور الناس نفسه ، وشياطين الجن ، وشياطين الانس .

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة ، ووسوسة الانس ، والا أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط ، مع ان وسوسة نفسه وشياطين الانس هي مما تضره ، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن ؟

وأما قول الفراء : ان المراد من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس : الطائفتين من الجن والانس ، وانه سمى الجن ناساً ، كما سماهم رجالاً ، وسماهم نفراً فهذا ضعيف ، فان لفظ الناس أشهر وأظهر واعرف من ان يحتاج الى تنويعه الى الجن والانس ، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس في غير موضع .

وأيضاً فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس ، وانما يعرف هذا بخبر ، ولا خبر هنا ، ثم قد قال : ﴿ من الجنة والناس ﴾ فكيف يكون لفظ الناس عاماً للجنة والناس ، وكيف يكون قسم الشيء قسماً منه ، فهو يجعل الناس قسم الجن ، ويجعل الجن نوعاً من الناس ، وهذا كما يقول : أكرم العرب من العجم والعرب ، فهل يقول هذا أحد ؟ واذا سماهم الله تعالى رجالاً لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناساً ، وان قدر انه يقال جاء ناس من الجن فذاك مع التقييد ، كما يقال انسان من طين ، وماء دافق ، ولا يلزم من هذا ان يدخلوا في لفظ الناس ، وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقو ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ .

فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء من انه سبحانه يخاطب الجن والانس .

والرسول ﷺ مبعوث الى الجنسين ، لكن لفظ الناس لم يتناول الجن ، ولكن يقول يا معشر الجن والانس .

كذلك قول الزجاج : ان المعنى ﴿ من شر الوسواس ﴾ الذي هو الجنة ومن شر الناس فيه ضعف ، وان كان ارجح من الاول ، لان شر الجن اعظم من شر الانس ، فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس ولا يستعيذ الا من بعض الجن ؟

وأيضاً فالوسواس الخناس ان لم يكن الا من الجنة فلا حاجة الى قوله : ﴿ من الجنة ﴾ ومن ﴿ الناس ﴾ فلماذا يخص الاستعاذة من وسواس الجنة دون وسواس الناس .

وأيضاً فانه اذا تقدم المعطوف اسماً كان عطفه على القريب أولى ، كما ان عود الضمير الى

الأقرب أولى ، الا اذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد ، فعطف الناس هنا على الجنة المقرون به أولى من عطفه على الوسواس .

ويكفي ان المسلمين كلهم يقرأون هذه السورة من زمن نبيهم ولم ينقل هذان القولان الا عن بعض النحاة ، والاقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم باحسان ليس فيها شيء من هذا ، بل انما فيها القول الذي نصرناه ، كما في تفسير معمر عن قتادة ﴿ من الجنة والناس ﴾ قال : ان في الجن شياطينا ، وان في الانس شياطينا ، فنعوذ بالله من شياطين الانس والجن ، فبين قتادة ان المعنى الاستعاذة من شياطين الانس والجن .

وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال : الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والانس ، فبين ابن زيد ان الوسواس الخناس من الصنفين وكان يقال : شياطين الانس أشد على الناس من شياطين الجن : شيطان الجن يوسوس ولا تراه ، وهذا يعاينك معاينة .

وعن ابن جريج : ﴿ من الجنة والناس ﴾ قال : انهما وسواسان ، فوسواس من الجنة فهو ﴿ الخناس ﴾ ، ووسواس من نفس الانسان فهو قوله : ﴿ والناس ﴾ ، وهذا القول الثالث وان كان يشبه قول الزجاج ، فهذا أحسن منه فانه جعل من الناس الوسواس الذي من نفس الانسان ، فمعناه أحسن ، ذكر الثلاثة ابن أبي حاتم في تفسيره .

وأيضاً فانه ذكر في الآية ﴿ رب الناس ، مالك الناس ، اله الناس ﴾ فان كان المقصود ان يستعيذ الناس بربهم وملكهم والههم من شر ما يوسوس في صدورهم ، فانه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم ، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم ، والوسواس اصل كل شر يضرهم ، لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان ، وعقوبات الرب انما تكون على ذنوبهم ، واذا لم يكن لاحدهم ذنب فكل ما يصيبه نعمة في حقه ، واذا ابتلى بما يؤلمه فان الله يرفع درجته وبأجره ، اذ قدر عدم الذنوب مطلقاً ، لكن هذا ليس بواقع منهم ، فان كل بني آدم خطاء وخير الخاطئين التوابون ، وقد قال تعالى : ﴿ وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ .

فغاية المؤمنين الانبياء فمن دونهم هي التوبة . قال الله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ﴾ وقال نوح : ﴿ رب أني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ وقال ابراهيم واسماعيل : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ﴾ وقال موسى : ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ . ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف .

فكان الوسواس مبدأ كل شر ، فان كانوا قد استعاذوا بربهم وملكهم وآلههم من شره ، فقد دخل في ذلك وسواس الجن والانس ، وسائر شر الانس انما يقع بذنوبهم ، فهو جزاء على اعمالهم ، كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس ، وكما يحصل من العقوبات السماوية وهم لم يستعيذوا هنا من شر المخلوقات مطلقاً ، كما استعاذوا في سورة الفلق ، بل من الشر الذي يكون مبدؤه في نفوسهم ، وان كان ذكر رب الناس ملك الناس اله الناس يستعيذوا به ليعيذهم . وليعيذ منهم ، وهذا أعم المعنيين ، فذلك هو الذي يوسوس بظلم الناس بعضهم بعضاً ، وباغواء بعضهم بعضاً ، وباعانة بعضهم بعضاً على الاثم والعدوان .

فما حصل لانسى شر من انسى الا كان مبدؤه من الوسواس الخناس والا فما يحصل من اذى بعضهم لبعض اذا لم يكن من الوسواس ، بل كان من الوحي الذي بعث الله به ملائكته كان عدلاً ، كأقامة الحدود ، وجهاد الكفار ، والاقتصاص من الظالمين ، فهذه الأمور فيها ضرر وأذى للظالمين من الانس ، لكن هي بوحي الله لا من الوسواس ، وهي نعمة من الله في حق عباده ، حتى في حق المعاقب ، فانه اذا عوقب كان ذلك كفارة له ان كان مؤمناً ، والا كان تخفيفاً لعذابه في الآخرة بالنسبة الى عذاب من لم يعاقب في الدنيا .

ولهذا كان محمد ﷺ رحمة في حق العالمين باعتبار ما حصل من الخير العام به ، وما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا والآخرة ، وباعتبار انه في نفسه رحمة ، فمن قبلها ، والا كان هو الظالم لنفسه ، وباعتبار انه قمع الكفار والمنافقين فنقص شرهم ، وعجزوا عما كانوا يفعلونه بدونه ، وقتل من قتل منهم ، فكان تعجيل موته خيراً من طول عمره في الكفر له وللناس ، فكان محمد ﷺ رحمة للعالمين بكل اعتبار ، فلا يستعاذ منه ومن أمثاله من الانبياء واتباعهم المؤمنين ، وهم من الناس ، وان كانوا يفعلون باعدائهم ما هو أذى وعقوبة وألم لهم ، فلم تبق الاستعاذة من الناس الا مما يأتي به الوسواس اليهم ، فيستعاذ برب الناس ملك الناس اله الناس على هذا التقدير من شر الوسواس الذي يوسوس للمستعيذ ، ومن شر الوسواس الذي يوسوس لسائر الناس ، حتى لا يحصل منهم شر للمستعيذ ، فاذا لم يكن للناس شر الا من الوسواس كانت الاستعاذة من شر الذي يوسوس لهم تحصيلاً للمقصود ، وكان حسماً للمادة واقرب الى العدل ، وكان مخرجاً لانبياء الله واوليائه ان يستعاذ من شرهم ، وان يقرنوا بالوسواس الخناس ، ويكون ذلك تفضيلاً للجنة على الانس ، وهذا لا يقوله عاقل .

فان قيل : فان كان اصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة الى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فانه تابع لوسواس الجن .

قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الانس ، كما قال : ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ فالشر من الجهتين جميعاً ، والانس لهم

شياطين ، كما للجن شياطين ، والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ، يقال فلان يوشوش فلاناً ، وقد وشوشه اذا حدثه سراً في اذنه ، وكذلك الوسوسة ، ومنه وسوسة الحلى لكن هو بالسين المهملة أخص .

﴿ ورب الناس ﴾ : الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره ، وهو رب العالمين كلهم ، فهو الخالق للجميع ، ولأعمالهم .

و ﴿ ملك الناس ﴾ : الذي يأمرهم وينهاهم ، فان الملك يتصرف بالكلام والجماد لا ملك له ، فانه لا يعقل الخطاب ، لكن له مالك ، وانما يكون الملك لمن يفهم عنه ، والحيوان يفهم بعضه عن بعض ، كما قال : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ ﴿ وقالت نملة يا أيها النمل ﴾ فلهذا كان له ملك من جنسه ، كما كان سليمان ملكهم ، والألة : هو المعبود الذي هو المقصود بالارادات والاعمال كلها ، كما قد بسط الكلام على ذلك .

وقد قيل : انما خص الناس بالذكر ، لانهم مستعيذون ، أو لانهم المستعاذ من شرهم ، ذكرهما أبو الفرج ، وليس لهما وجه ، فان وسواس الجن اعظم ولم يذكره ، بل ذكر الناس لانهم المستعيذون ، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم ، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم ، وبالههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته ، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس الناس منهم ومن الجنة ، فانه أصل الشر الذي يصدر منهم والذي يرد عليهم .

فصـــــل

وبهذا يتبين بعض هذه الاستعاذة والتي قبلها كما جاءت بذلك الاحاديث عن النبي ﷺ أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلها فان الوسواس أصل كل كفر وفسوق وعصيان ، فهو أصل الشر كله ، فمتى وقي الانسان شره وقي عذاب جهنم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، فان جميع هذه انما تحصل بطريق الوسواس ، ووقي عذاب الله في الدنيا والآخرة ، فانه انما يعذب على الذنوب ، وأصلها من الوسواس ، ثم ان دخل في الآية وسواس غيره بحيث يكون قوله : ﴿ من شر الوسواس ﴾ استعاذة من الوسواس الذي يعرض له ، والذي يعرض للناس بسببه ، فقد وقي ظلمهم ، وان كان انما يريد وسواسه فهم انما يسلطون عليه بذنوبه وهي من وسواسه ، قال تعالى : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قال : هو من عند أنفسكم ﴾ وقال : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وقال : ﴿ وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .

والوسواس من جنس الحديث والكلام : ولهذا قال المفسرون في قوله : ﴿ وما توسوس به

نفسه ﴾ قالوا : ما تحدث به نفسه . وقد قال ﷺ : « ان الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » .

وهو نوعان : خبر ، وانشاء .

فالخبر : اما عن ماض ، واما عن مستقبل ، فالماضي يذكره به ، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله ، أو فعل غيره ، فهذه الأماني والمواعيد الكاذبة ، والانشاء أمر ونهي وأباحة .

والشيطان تارة يحدث وسواس الشر ، وتارة ينشيء الخير ، وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس ، قال تعالى في النسيان : ﴿ واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقال فتى موسى : ﴿ فاني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان ﴾ وقال تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ .

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال : « اذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فاذا قضى التأذين اقبل ، فاذا ثوب بالصلاة أدبر ، فاذا قضى التثويب اقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يذكر حتى يظل الرجل لم يدركم صلى » فالشيطان ذكره بأمور ماضية ، حدث بها نفسه ، مما كانت في نفسه من افعاله ، ومن غير افعاله ، فبتلك الأمور نسى المصلى كم صلى ، ولم يدركم صلى ، فان النسيان أزال ما في النفس من الذكر ، وشغلها بأمر آخر حتى نسى الاول .

واما اخباره بما يكون في المستقبل من المواعيد والأماني فقوله : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر : ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ وفي هذه الآية أمره ووعده وقال تعالى : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غروراً ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم ﴾ ففي هذه أيضاً أمره ووعده ، وقال موسى لما قتل القبطي : ﴿ هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ﴾ .

وقد قال غير واحد من الصحابة : كأبي بكر وابن مسعود فيما يقولونه باجتهادهم : ان كان صوابا فمن الله . وان كان خطأ فمني ومن الشيطان . فجعلوا ما يلقى في النفس من الاعتقادات التي ليست مطابقة من الشيطان ، وان لم يكن صاحبها آثماً لانه استفرغ وسعه ، كما لا يأثم بالوسواس الذي يكون في الصلاة من الشيطان ، ولا بما يحدث به نفسه ، وقد قال المؤمنون : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ﴾ وقد قال الله : قد فعلت .

والنسيان للحق من الشيطان ، والخطأ من الشيطان . قال تعالى : ﴿ واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقد قال ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها » ولما نام هو وأصحابه عن الصلاة في غزوة خيبر قال لاصحابه : « ارتحلوا فان هذا مكان حضرنا فيه شيطان » وقال : « ان الشيطان أتى بلالاً فجعل يهديه كما يهدي الصبي حتى نام » وكان النبي ﷺ وكل بلالاً أن يوقظهم عند الفجر ، والنوم الذي يشغل عما أمر به والنعاس من الشيطان ، وان كان معفواً عنه : ولهذا قيل : النعاس في مجلس الذكر من الشيطان ، وكذلك الاحتلام في المنام من الشيطان ، والنائم لا قلم عليه .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « الرؤ يا ثلاثة : رؤ يا من الله ، ورؤ يا من الشيطان ، ورؤ يا ما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في النوم » وقد قيل : ان هذا من كلام ابن سيرين ، لكن تقسيم الرؤ يا الى نوعين : نوع من الله ، ونوع من الشيطان صحيح عن النبي ﷺ بلا ريب . فهذان النوعان : من وسواس النفس ، من وسواس الشيطان ، وكلاهما معفو عنه ، فان النائم قد رفع القلم عنه ، ووسواس الشيطان يغشي القلب كطيف الخيال ، فينسيه ما كان معه من الايمان حتى يعمى عن الحق فيقع في الباطل ، فان كان من المتقين (كان) كما قال الله : ﴿ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ فان الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب تمنعه ابصار الحق . قال النبي ﷺ : « ان العبد اذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء . فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وان زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

لكن طيف الشيطان غير رين الذنوب ، هذا جزاء على الذنب ، والغين ألطف من ذلك ، كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ قال : « انه ليغان على قلبي ، واني لاستغفر الله في اليوم سبعين مرة » فالشيطان يلقي في النفس الشر ، والملك يلقي الخير ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « وما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الملائكة ، وقرينه من الجن ، قالوا : واياك يا رسول الله ! قال : واياي الا أن الله اعانني عليه فأسلم » وفي رواية « فلا يأمرني الا بخير » أي استسلم وانقاد .

وكان ابن عيينة يرويه فاسلم بالضم ، ويقول : ان الشيطان لا يسلم لكن قوله في الرواية الأخرى : فلا يأمرني الا بخير ، دل على انه لم يبقى يأمره بالشر ، وهذا اسلامه ، وان كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته لا عن ايمانه بالله ، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره ، وقد عرف العدو المقهور ان ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر ، فلا يقبله ، بل يعاقبه

على ذلك ، فيحتاج لانقهاره معه الى انه لا يشير عليه الا بخبر لذلته وعجزه لا لصلاحه ودينه ، ولهذا قال ﷺ : « الا ان الله أعانني عليه فلا يأمرني الا بخير » وقال ابن مسعود : ان للملك لمة ، وان للشيطان لمة ، فلمة الملك ايعاد بالخير ، وتصديق بالحق . ولمة الشيطان ايعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وقد قال تعالى : ﴿ انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ اي يخوفكم أولياؤه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة ، كشيطان الانس الذي يخوف من العدو فيرجف ويخذل .

وعكس هذا قوله تعالى : ﴿ اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ وقال تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقال تعالى : لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً ﴾ والتثبت جعل الانسان ثابتاً لامر تابا ، وذلك بالقاء ما يثبته من التصديق بالحق ، فمتى علم القلب ان ما أخبر به الرسول حق صدقه ، واذا علم ان الله قد وعده بالتصديق وثق بوعد الله فثبت ، فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الانسان الانسان في أمر قد اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه ، ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت ، وقد يكون التثبت بالفعل ، بأن يمسك القلب ، حتى يثبت كما يمسك الانسان الانسان حتى يثبت .

وفي الحديث عن النبي ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل اليه ، ومن لم يسأل القضاء ، ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده » فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقى في قلبه من التصديق بالحق ، والوعد بالخير . وقد قال تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور ﴾ فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات الى النور ، وقد ذكر اخراجه للمؤمنين من الظلمات الى النور في غير آية : كقوله :﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ﴾ وقال : ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور ﴾ وقال : ﴿ كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم ﴾ وفي الحديث « ان الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير » وذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات الى النور . والجزاء من جنس العمل ، ولهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ ان الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ .

والصلاة هي الدعاء ، اما بخير يتضمن الدعاء ، واما بصيغة الدعاء ، فالملائكة يدعون للمؤمنين ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، ما لم يحدث » فبين ان صلاتهم قولهم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه .

وفي الأثر « ان العرب يصلي فيقول : سبقت ـ أو غلبت ـ رحمتي غضبي » وهذا كلامه سبحانه هو خبر وانشاء ، يتضمن ان الرحمة تسبق الغضب وتغلبه ، وهو سبحانه لا يدعوه غيره ان يفعل كما يدعوه الملائكة وغيرهم من الخلق ، بل طلبه بأمره وقوله ، وقسمه ، كقوله : لا فعلن كذا ، وقوله : كن ، فيكون : وقوله : لافعلن كذا قسم منه كقوله : ﴿ لاملأن جهنم منك وممن تبعك ﴾ وقوله : ﴿ ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾ وقاله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾ وقوله : ﴿ كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز ﴾ وهذا وعد مؤكد بالقسم بخلاف قوله : ﴿ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ فان هذا وعد وخبر ليس فيه قسم ، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم ، وقوله : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها وقوله : ﴿ واذ يعدكم الله احدى الطائفتين ﴾ ونحو ذلك وعد مجرد .

وقد قال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء) فاخبر انه يوحي الى البشر تارة وحياً منه، وتارة يرسل رسولاً فيوحى الرسول بإذنه ما يشاء .

والملائكة رسل الله ، ولفظ الملك يتضمن معنى الرسالة ، فان أصل الكلمة ملأك على وزن مفعل ، لكن لكثرة الاستعمال خففت ، بان ألقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها وحذفت الهمزة ، وملاك مأخوذ من المألك والملأك ، بتقديم الهمزة على اللام واللام على الهمزة ، وهو الرسالة ، وكذلك الالوكة بتقديم الهمزة على اللام ، قال الشاعر :

أبلغ النعمان عني مألكا انه قد طال حبسي وانتظاري

وهذا بتقديم الهمزة ، لكن الملك هو بتقديم اللام على الهمزة ، وهذا أجود ، فان نظيره في الاشقاق الاكبر لاك يلوك ، إذا لاك الكلام ، واللجام ، والهمز أقوى من الواو ويليه في الاشتقاق الاوسط : أكل يأكل ، فان الآكل يلوك ما يدخله في جوفه من الغذاء ، آدب يحب أن تؤتى مأدبته ، وان مأدبة الله القرآن ، والآدب المضيف ، والمأدبة الضيافة ، وهو ما يجعل من الطعام للضيف ، فبين ان الله ضيف عباده بالكلام الذي انزله اليهم ، فهو غذاء قلوبهم وقوتها ، وهو أشد انتفاعاً به ، واحتياجاً اليه من الجسد بغذائه .

وقال علي رضي الله عنه : الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ، ويربونهم عليها ، وقد قال ﷺ : « أني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » وقد اخبر الله تعالى ان القرآن شفاء لما في الصدور ، والناس الى الغذاء أحوج منهم الى الشفاء في القلوب والابدان ، وفي الصحيحين عنه ﷺ قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب ارضاً

فكانت منها طائفة امسكت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة امسكت الماء فشرب الناس ، وسقوا وزرعوا ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأس ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » [1] .

فأخبر أن ما بعث به للقلوب كالماء للارض ، تارة تشربه فتنبت ، وتارة تحفظه ، وتارة لا هذا ولا هذا ، والأرض تشرب الماء وتغتذي به حتى يحصل الخير ، وقد أخبر الله تعالى انه روح تحيا به القلوب فقال : ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم ﴾ .

واذا كان ما يوحيه الى عباده تارة يكون بوساطة ملك ، وتارة بغير وساطة ، فهذا للمؤمنين كلهم مطلقاً لا يختص به الانبياء ، قال تعالى : ﴿ وأوحينا الى أم موسى ان أرضعيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ واذا كان قد قال : ﴿ وأوحى ربك الى النحل ﴾ الآية . فذكر انه يوحي اليهم فإلى الانسان أولى ، وقال تعالى : ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس ، والفجور يكون بوساطة الشيطان ، وهو الهام وسواس ، والتقوى بواسطة ملك ، وهو الهام وحي ، هذا أمر بالفجور ، وهذا أمر بالتقوى ، والامر لا بد أن يقترن به خبر .

وقد صار في العرف لفظ الالهام اذا اطلق لا يراد به الوسوسة . وهذه الآية مما تدل على انه يفرق بين الهام الوحي ، وبين الوسوسة ، فالمأمور به أن كان تقوى الله فهو من الهام الوحي ، وان كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان .

فيكون الفرق بين الالهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة ، فان كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على انه تقوى لله فهو من الالهام المحمود وان كان مما دل على انه فجور فهو من الوسواس المذموم ، وهذا الفرق مطرد لا ينتقض ، وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان فقال : ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان ، فاستعذ بالله منه ، وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه .

وقد تكلم النظار في العلم الحاصل في القلب عقب النظر والاستدلال فذكروا فيه ثلاثة أقوال ، كما ذكر ذلك أبو حامد ـ في مستصفاه ـ وغيره قول الجهمية ، وقول القدرية وقول الفلاسفة ، وكثير من أهل الكلام لا يذكر الا القولين : قول الجهمية ، وقول القدرية .

وذلك انهم يذكرون في كتبهم ما يعرفونه من أقوال من يعرفونه تكلم في هذا ، وهم لا

---

(١) ذكره البخاري ومسلم .

يعرفون الا هؤلاء ، والمسألة هي من فروع القدر ، فان الحاصل في نفس حادث فيها فالقول فيه كالاقوال في امثاله .

ومذهب جهم ومن وافقه كأبي الحسن الأشعري ، وكثير من المتأخرين المثبتة هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ان الله خالق كل شيء ، وان الله خالق افعال العباد ، لكنه لا يثبت سبباً ولا قدرة مؤثرة ، ولا حكمه لفعل الرب ، فانكر الطبائع والقوى التي في الاعيان وانكر الاسباب والحكم ، فلهذا لم يجعل لشيء سبباً ؛ بل يقول هذا حاصل بخلق الله وقدرته ، ولم يذكروا له سبباً ، وهم صادقون في اضافته الى قدره ، وانه خالقه ، خلافاً للقدرية ، لكن من تمام المعرفة اثبات الاسباب ومعرفتها .

وأما القدرية من المعتزلة وغيرهم : فبنوه على اصلهم ، وهو ان كل ما تولد على فعل العبد فهو فعله لا يضاف الى غيره ، كالشبع ، والري وزهوق الروح ، ونحو ذلك ، فقالوا : هذا العلم متولد عن نظر العبد أو تذكر النظر .

والمتفلسفة بنوه على أصلهم : في أن ما يحدث من الصور هو من فيض العقل الفعال عند استعداد المواد القابلة ، فقالوا : يحصل في نفوس البشر من فيض العقل الفعال عند استعداد النفس باستحضار المقدمتين ، وهذا القول خطأ ، والذي قبله أقرب منه ، والاول أقرب ، وليس في شيء منها تحقيق الامر في ذلك .

وحقيقته ان الله وكل بالانس ملائكة وشياطين ، يلقون في قلوبهم الخير والشر ، فالعلم الصادق من الخير ، والعقائد الباطلة من الشر ، كما قال ابن مسعود : لمة الملك تصديق بالحق ، ولمة الشيطان تكذيب بالحق ، وكما قال النبي ﷺ في القاضي : « أنزل الله عليه ملكاً يسدده » وكما أخبر الله أن الملائكة توحي الى البشر ما توحيه ، وان كان البشر لا يشعر بانه من الملك ، كما لا يشعر بالشيطان الموسوس لكن الله أخبر انه يكلم البشر وحيا ، ويكلمه بملك يوحي باذنه ما يشاء والثالث التكليم من وراء حجاب ، وقد قال بعض المفسرين : المراد بالوحي هنا الوحي في المنام التكليم من وراء حجاب ، وقد قال بعض المفسرين : المراد بالوحي هنا الوحي في المنام ولم يذكر أبو الفرج وغيره ، وليس الامر كذلك ، فان المنام تارة يكون من الله ، وتارة يكون من النفس ، وتارة يكون من الشيطان ، وهكذا ما يلقى في اليقظة ، والانبياء معصومون في اليقظة والمنام .

ولهذا كانت رؤيا الانبياء وحيا ، كما قال ذلك ابن عباس ، وعبيد بن عمير ، وقرأ قوله : ﴿ اني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ وليس كل من رأيى رؤيا كانت وحيا ، فكذلك ليس كل من ألقى في قلبه شيء يكون وحيا ، والانسان قد تكون نفسه في يقظته اكمل منها في نومه كالمصلي الذي يناجي ربه ، فاذا جاز أن يوحى اليه في حال النوم فلماذا لا يوحي اليه في حال

اليقظة ، كما أوحى الى أم موسى ، والحواريين ، والى النحل ؟ ! لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه انه وحي لا في يقظة ولا في المنام الا بدليل يدل على ذلك فان الوسواس غالب على الناس . . . والله اعلم .

وقال شيخ الاسلام قدس الله روحه

فصـــــــل

في (سورة الفلق والناس)

في (الفلق) أقوال ترجع الى تعميم وتخصيص ، فانه فسر بالخلق عموماً ، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى ، وهو غالب الخلق ، وفسر بالفجر ، واما تفسيره بالنار ، او بجب ، أو شجرة فيها ، فهذا مرجعه الى التوقيف .

(والغاسق) قد روى في الحديث المرفوع عن عائشة في الترمذي والنسائي « ان النبي ﷺ نظر الى القمر وقال لها : يا عائشة تعوذي ! بالله من هذا ، فهذا الغاسق اذا وقب » ، قال ابن قتيبة (الغاسق) : القمر اذا كسف ، فاسود ، ومعنى وقب دخل في الكسوف .

والمشهور عند أهل التفسير واللغة أن (الغاسق) الليل .

تم بحمد الله وتوفيقه الفراغ من تحقيق هذا السفر العظيم بتمامه ليلة الاربعاء ٣ ذو القعدة سنة ١٤٠١ هـ الموافق ١ سبتمبر ١٩٨١ م بجدة بالمملكة العربية السعودية بعد عمل استمر عشر سنوات كاملة . نفع الله به الاسلام والمسلمين وتقبله خالصاً لوجهه الكريم وغفر لنا ما وقع فيه من تقصير أو أخطاء أنه نعم المعين .

محمد السيد الجلنيد
غفر الله له ولوالديه وعفا عنه .
آمين